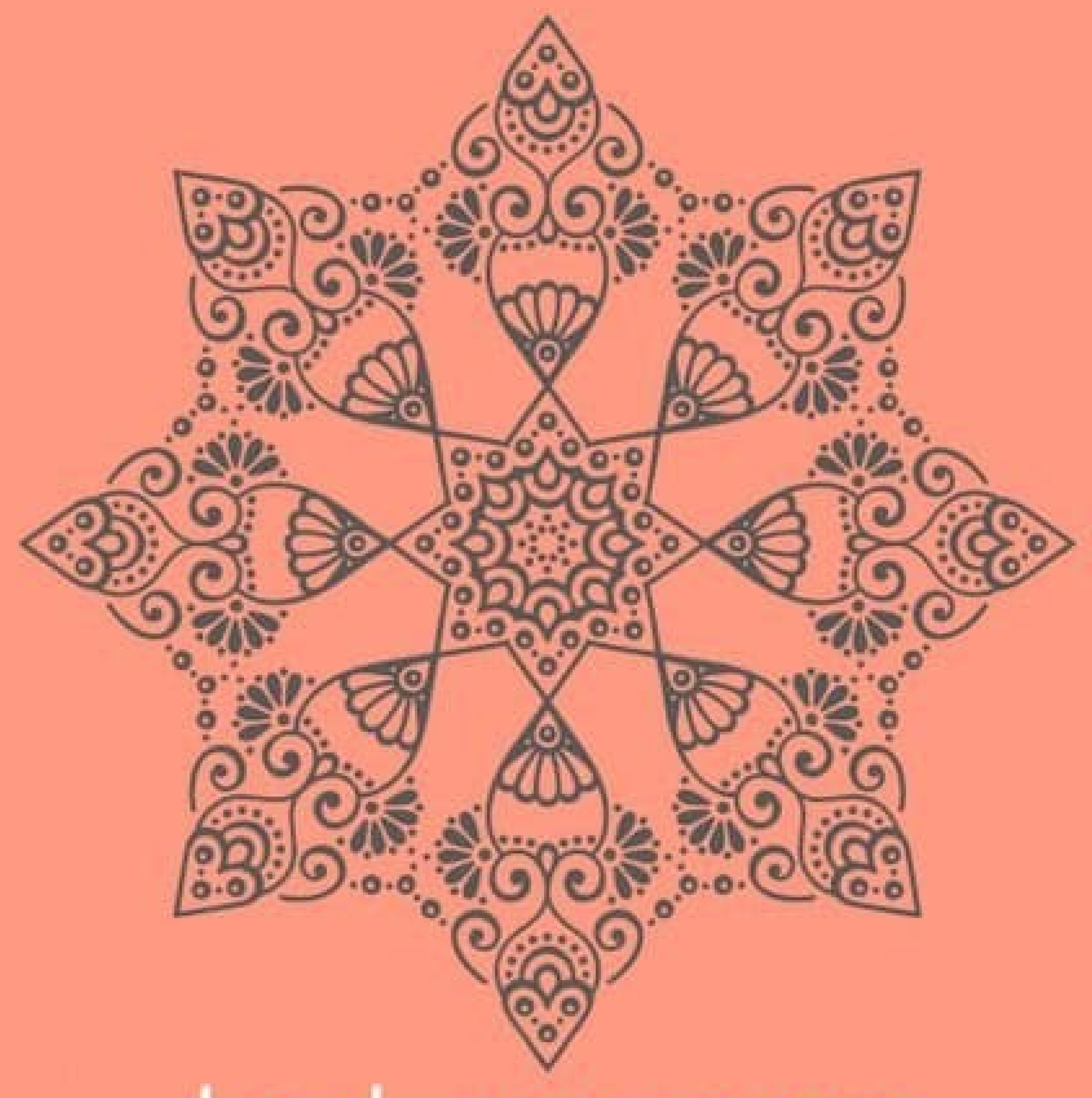
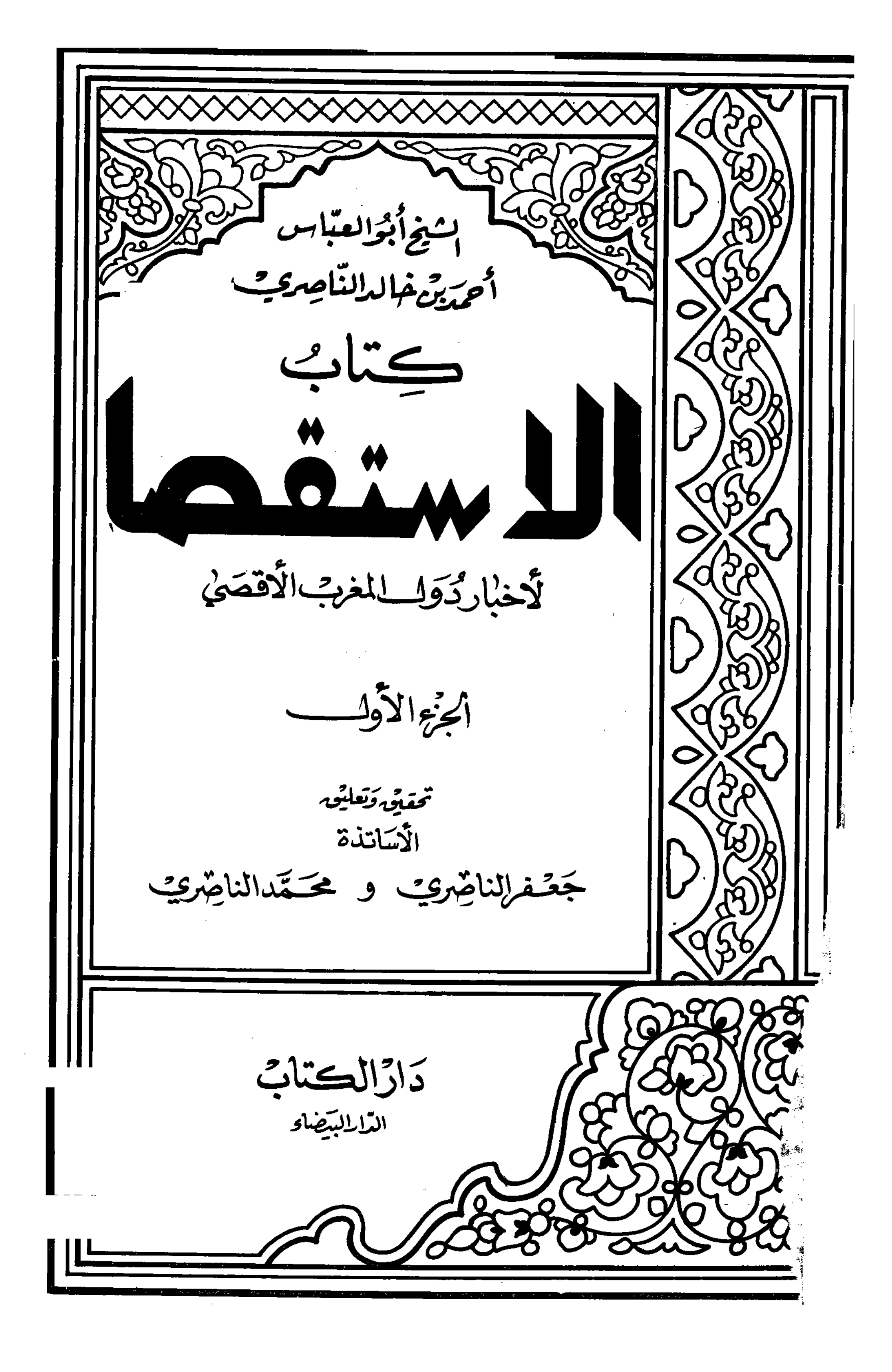
أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى





الشيخ أبو العباس
أحمد بن خالد الناصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الجزء الأول

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

مقدمة

لقد كان لظهور فن الطباعة العربية بالشرق في أوائل القرن السابع عشر الفضل الأكبر في ما للشرق العربي اليوم من ازدهار فكري وثقافي، إذ بفضل المطبعة العربية التي عرفتها لبنان فمصر ثم بقية الأمم العربية أمكن أن يزاح غبار النسيان والإهمال عما كاد يندثر من المخطوطات العربية، ووجد الكاتب العربي مجالاً أوسع مهد له سبيل نشر منتوجاته، وربط الصلة بينه وبين قرائه؛ وتقرب الشرق الإسلامي إلى حد بعيد من العالم الغربي بما أخذت تنشره مطابع الشرق من كتب تنقلها من مختلف اللغات، وتقدمها سهلة ميسورة إلى قراءِ العربية.

وعلى العكس من ذلك كان لفقد فن الطباعة بالمغرب أثره في تخلف المغرب عن ركب الحضارة الفكرية خلال القرنين الأخيرين. وما نعني أن المغرب كان يعدم خلال تلك الفترة رجال الفكر والقلم، وإنما كان هؤلاء ـ بحكم انعدام وسائل النشر ـ مجبورين على الرضى بقلة الإنتاج، وعلى أن يتركوا منتوجاتهم مستسلمة لنوم عميق في رفوف الخزائن الخاصة، يتوارثها الأبناء عن الآباء في ضمن ما يتوارثونه من أمتعة وأثاث، وكثيراً ما يجني الأبناء على تلك التركة فتندثر دون أن يدركوا فائدتها فضلاً عن أن يقدروا قيمتها.

وإذا استثنينا المطبعة الفاسية الحجرية التي قامت بمحاولة طيبة لتدارك هذا النقص الشائن بوسائل أقل ما يقال عنها أنها بدائية إلى حد بعيد في فن الطباعة الذي كان مزدهراً إذ ذاك في الشرق، إذا استثنينا ذلك لا نجد في هذا الميدان شيئاً مذكوراً مع الأسف الشديد.

وقد كان لثلة قليلة من أعلام الفكر بالمغرب فضل التفكير في التوجه إلى مطابع الشرق لنشر مؤلفاتهم، وكان من بين هؤلاء الأفذاذ مؤلف كتاب الاستقصا، في أخبار دول المغرب الأقصى. فقد طبع كتابه هذا بمصر سنة 1894م.

فأمكن بذلك أن يكشف الستار عن كتاب كاد ـ لولا همة مؤلفه ـ أن يضاف إلى زمرة المخطوطات المغربية القيمة التي تسطو عليها الأرضة في زوايا خزانتي الرباط وفاس، وفي المكاتب الخاصة التي لا يعرف إلا القليلون بعض محتوياتها.

وبالرغم من ذلك لم يتيسر لهذا الكتاب الرواج الكافي كما لو طبع في بلاد المغرب، فوجد القراء المغاربة منه ما يكفي من النسخ لشفاء غليلهم.

وهكذا ظل هذا الكتاب المغربي أصلاً وفصلاً يتسرب إلى المغرب على أنه منحة شرقية، فتتخطفه الأيدي وتحتفظ به الخزائن كتحفة عزيزة نادرة. ولم يمض على طبعه غير يسير حتى أصبح ـ كما يقول المثل العربي ـ أعز من بيض الأنوق.

وإذا كان للمغرب في عزلته التاريخية في العصور الأخيرة بعض العذر في عدم توفره على المطابع العصرية الحديثة، فليس له عذر اليوم في أن يظل عالة على الشرق العربي يتوجه إليه على بعد المسافة ملتمساً منه أن يعرف العالم بمنتوجاته عن طريق الطباعة.

لذلك كان من الأهداف الكبرى التي توختها مؤسسة دار الكتاب أن تعمل على نشر ما أقبرته السنون من الذخائر المغربية لتسمع صوت المغرب من المغرب، وتساهم بذلك في تغذية حركة النهضة الفكرية التي أخذت منذ أمد غير يسير تشق طريقها في هذه البلاد، وتمضي في تطور سريع.

ومنذ تأسست هذه الدار سنة 1948 أخذت تنشر في مطابع الشرق العربي بعض منتوجات المغاربة، ولكنها سعيدة اليوم بأن تقدم مطبعتها بالمغرب هذا الكتاب التاريخي القيم الحافل بتفاصيل الأحداث التاريخية التي عرفها المغرب منذ أقدم عصوره إلى أواخر حياة مؤلفه سنة 1893م.

ولقد كانت أمنية عزيزة داعبت خيالنا منذ تأسس مشروع دار الكتاب أن يكون هذا الكتاب في طليعة منشوراتنا، ذلك لأنه بحق الكتاب الجامع - في غير تطويل ولا اقتضاب - لتاريخ المغرب، والمصدر الهام الذي لا غنى عنه لمن يريد أن يكتب عن المغرب في عصر من العصور أو حقبة من الحقب.

وقد رأت دار الكتاب أن تقدم «كتاب الاستقصا» لقرائها دون أن تشفعه بتعليقات مسهبة تضيع معها الفائدة التي نظن أن مؤلف الكتاب توخاها، إذ قصد أن يكون كتابه مستوعباً لجميع عصور التاريخ المغربي، وبعيداً في الوقت نفسه عن أن يكون كتاب تحليل واستنتاج لعبر التاريخ وعظاته، أو كتاب تأريخ للرجال والأعلام، فإنما قصد المؤلف بكتابه - على ما نظن، وكما يدل عليه اسم الكتاب نفسه - أن يكون استقصاءً لتاريخ الدول المتعاقبة على المغرب.

ولكننا شفعنا هذه الطبعة بتعاليق مختصرة، وفي الوقت نفسه ذات أهمية، تفضل بإعدادها ولدا المؤلف الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري؛ كما ألحقنا به بعض الاستدراكات التي كتبها المؤلف بخطه على النسخة الأصلية التي طبعنا عنها.

وتفضل الأستاذان المذكوران بكتابة ترجمة حياة المؤلف، وهما ولا شك أحق من يتحدث عن المؤلف ويترجم له.

وما نشك في أن الباحث لن يعدم بين ثنايا هذا الكتاب - وقد أصبح

الآن سهلاً ميسوراً ـ ما يعينه على استكشاف ما لا يزال غامضاً من جوانب التاريخ المغربي الذي لا يزال في حاجة أكيدة إلى مزيد من البحث والتنقيب، وخصوصاً التاريخ الاجتماعي والفكري.

وقد حرصت دار الكتاب على أن تقسم الكتاب أجزاء بحسب العصور التاريخية، وهكذا تصدر الجزء الأول محتوياً على تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب وفترة ارتباط المغرب بالخلافة الإسلامية، ثم الدولة الإدريسية، ودولة زناتة.

والجزء الثاني خاصّاً بالدولة المرابطية، والموحدية.

والثالث عن الدولة المرينية إلى آخر دولة أبي عنان.

والرابع من دولة أبي عنان إلى نهاية الدولة المرينية.

والخامس من الدولة السعدية إلى وفاة المنصور السعدي.

والسادس من أخبار أولاد المنصور إلى نهاية الدولة السعدية.

ويبتدىء الجزء السابع منذ بداية الدولة العلوية لينتهي عند عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله.

والجزء الثامن منذ بداية عهد هذا السلطان إلى عهد المولى عبد الرحمٰن حيث نخصص له الجزء التاسع والأخير إلى نهاية الكتاب.

كما حرصت دار الكتاب على أن تضع للكتاب فهارس للأعلام والقبائل والأماكن، وألحقتها بكل جزء لتسهل على الباحث سبل البحث، وتضع بين يدي القارىء هذا الكتاب وقد اكتسى حلة زاهية جديدة لم يعرفها في طبعته الأولى.

وقد يلاحظ من لا يزالون يحتفظون بتلك الطبعة فرقاً في بعض النصوص والتعابير بين طبعة مصر وهذه. وذلك يرجع إلى أننا اعتمدنا على

النسخة المصرية التي صححها المؤلف بعد طبعها وكان يشطب على بعض العبارات فيها أو يتدارك فيها بعض السهو، أو يصحح بها ما عسى أن يكون اهتدى إليه بعد طبع الكتاب بمصر. فليس إذن من التطاول في شيء أن نقول إن طبعتنا هذه تستأثر بهذه المزية وتفضل بها سابقتها.

ومن واجبنا قبل أن نترك هذا الكتاب بين يدي القراء أن ننوه بحسن المعونة وجميل المساعدة التي وجدتها دار الكتاب من ولديّ المؤلف الأستاذ جعفر والأستاذ محمد، فلهما أكبر الفضل في تمكين قراء العربية من الظفر بهذه الذخيرة المغربية التي تهديها دار الكتاب لروادها في مطلع العام الميلادي الجديد.

الدار البيضاء

10 جمادى الأولى 1373

15 يناير 1954

دار الكتاب



ترجمة المؤلف

نسبه:

هو أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد بالضم المدعو حماداً بن محمد بالضم الكبير بن أحمد بن محمد بالفتح الصغير ابن الشيخ محمد بالفتح الشهير بابن ناصر الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بالمغرب، ينتهي نسبه إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب زوج زينب شقيقة الحسن والحسين أبناء فاطمة الزهراء زوج علي بن أبي طالب وبنت محمد ﷺ.

تاريخ أسرته[1]:

أصل أجداد صاحب الترجمة بدرعة من أرض المغرب الأقصى، وكانوا قد انتقلوا أولاً من جزيرة العرب إلى صعيد مصر أوائل المائة الرابعة للهجرة أثر منازعة على الرياسة كانت بينهم وبين بني الحسين في ذلك العهد.

فاستمر مقامهم هنالك إلى أن حدث نفور بين ملك مصر المستنصر بالله العبيدي وبين عامله على إفريقية المغربي باديس الصنهاجي، فاستنفر إليه المستنصر عرب بني هلال بن عامر وبني سليم بن منصور الذين كانوا مقيمين بصعيد مصر، وأمرهم بحربه في خبر طويل، ليس استيفاؤه من غرضنا، فانفلتت طائفة من بني جعفر الذين كانوا يومئذٍ بالصعيد فدخلت معهم واستقرت بجنوب المغرب مما يلي ملوية وتافيلالت وواحات درعة، وذلك في أواسط المائة الخامسة للهجرة فاستوطنوا تلك الناحية وطاب لهم المقام بها.

وكانوا مشهورين بالفضل والعلم والرياسة في تلك البقاع، لم ينقطع ذلك منهم إلى أن ظهر الشيخ ابن ناصر المذكور وطار صيته وامتدت شهرته وعظم

(1) قد بسط المؤلف القول في هذا الموضوع وفصله تفصيلاً في كتابه المسمى: «طلعة المشتري، في النسب الجعفري» المطبوع بفاس سنة 1320.

أمر الزاوية[1] بتامكروت وكثر نسل آل ناصر وامتدت فروعهم بذلك الصقع. وكان في أسرة صاحب الترجمة فضل ورياسة وشهرة في العلم ووجاهة وظهور، فاختصت بالزاوية المعروفة بزاوية البركة قرب تامكروت فكانت بأيديهم، وتوارثها أعقابهم من بعدهم إلى زمن والد صاحب الترجمة خالد بن محمد المدعو حماداً فحصل له ما يقتضي مفارقته لها من بعض أموره الشخصية.

فهاجر منها أولاً إلى مدينة سلا في حدود سنة 1220 للهجرة 1805م وقابله أهلها بما لا مزيد عليه من التعظيم والاحترام، والإجلال والإكرام، لما كان لهم من تمام المحبة والإخلاص لآل ناصر فاستوطنها مدة وانتشر صيته في القبائل المجاورة لها إلى العرائش ونواحي طنجة لما كان عليه من العلم والزهد والورع والتحري في التماس الرزق من أوجه الحلال. ثم استقر بطنجة وتزوج بها إحدى بنات عمه السيدة زينب بنت الفقيه علي بن محمد الناصري، وكانت غنية جداً، وأقام معها بضع سنوات إلى أن توفيت رحمها الله، فورث منها عدة أملاك وأراضي، واشتغل بالفلاحة والتجارة بقبيلة الغرب قرب العرائش وملك هناك عدة أراضي ومزارع فكان ذلك سبباً باعثاً على انتقاله إلى العرائش وتردده ما بينها وبين طنجة وما والاهما من القبائل.

واستمر ساكناً بالعرائش دهراً واتخذ من أهلها نسباً وصهراً، فتزوج بوالدة صاحب الترجمة فاطمة بنت محمد بن زروق العلمي من شرفاء جبل العلم وولد له سائر أولاده بهذه المدينة ما عدا صاحب الترجمة.

ثم بدا له أن يرجع إلى سلا لما كان يجده من الميل إلى المقام بها.

---

(1) تاريخ زاوية تامكروت وما تفرع عنها من الزوايا مبسوط في كتاب طلعة الدعة في تاريخ درعة، والدرر المرصعة في تراجم صلحاء درعة للشيخ محمد المكي الناصري، وطلعة المشتري في النسب الجعفري للمترجم له والأولان مخطوطان والثالث طبع بفاس 1320 هـ (1902) م وكلها موجودة بالخزانة الناصرية بسلا.

فارتحل إليها وصاحب الترجمة حمل في بطن أمه وذلك سنة 1250هـ 1834م وكان هو المزداد من أولاده بهذه المدينة فقط واستقرت به فيها حينذاك اهـ والقى عصا التسيار وما زال خلفه بها إلى الآن.

مولده[1]:

كانت ولادة المؤلف بمدينة سلا إثر رجوع والده إليها بقصد الاستيطان بها من العرائش وقت طلوع الفجر يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام متم سنة خمسين ومائتين وألف للهجرة الموافق للثاني والعشرين من شهر مارس سنة خمس وثلاثين وثمانمائة وألف للميلاد.

نشأته ودراسته[2]:

نشأ صاحب الترجمة بمسقط رأسه سلا كما تقدم في حجر والديه.

وكانت هذه المدينة إذ ذاك زاهرة بالعلوم الإسلامية والعربية، وفيها جماعة وافرة من العلماء والمدرسين والأساتذة القراء الذين يعتمد عليهم في تحقيق الفنون ودرس أصول العلوم والمتون. فأقبل صاحب الترجمة منذ نعومة أظفاره على رضاع ثدي علومهم والاقتباس من مشكاة أنوار أفكارهم.

فأخذ في قراءة القرآن منذ صباه على شيخه الأستاذ الحاج محمد العلو السلاوي إلى أن تولى هذا الشيخ خطة الحسبة بسلا فانتقل إلى الأخذ عن شيخه بعده الأستاذ محمد بن الجيلاني الحمادي فقرأ عليه مبادىء العلوم الراجعة لقراءة القرآن، ودرس عليه القرآن بحرفي ابن كثير ونافع إلى أن اصطفى السلطان المولى عبد الرحمٰن هذا الشيخ لنفسه وجعله إماماً للصلاة به.

---

(1) الاستقصا صحيفة 193 من الجزء الرابع طبع مصر.

(2) جل ما في هذا الفصل مأخوذ عما ترجم به المؤلف لنفسه في رسالة مخطوطة كتب بها لصديقه الأديب الفاطمي الصقلي الفاسي وهي محفوظة بالخزانة الناصرية بسلا.

فصار يقرأ بعد ذلك على شيخه الأستاذ محمد بن طلحة الصباحي ولازمه إلى أن توفي. وأتم القراءات السبع على شيخه الأستاذ عبد السلام بن طلحة ابن عم المذكور آنفاً، وعلى هذا الشيخ تلقى فن التجويد وحفظ المتون والأمهات كمنظومة الشاطبي وابن عبد البر وخلاصة ابن مالك وتلخيص المفتاح وابن السبكي ومختصر الشيخ خليل وغير ذلك. ولما حصل ذلك وأتقنه شرع في قراءة علوم العربية على شيخه العلامة محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي فدرس عليه عدة تآليف في النحو والبلاغة والمنطق والكلام والفقه وأصول الدين إلى أن ارتحل هذا الشيخ إلى الحجاز وتوفي هناك سنة 1279هـ 1863م وهذا الشيخ هو عمدته في علوم اللسان والبلاغة والأدب وقد رثاه بقصيدة بليغة مدونة بديوان شعره المخطوط، مطلعها:

ملازمة التذكار تذهب باللب   وتغري قديم الوجد بالهائم الصب

ولله قلب ما أشد تقلباً   على جمرات البين والحادث الصلب ـ الخ

فصرف وجهته حينئذٍ للأخذ عن شيخه وعمدته أيضاً العلامة قاضي سلا وخطيبها أبي بكر بن محمد عواد السلاوي فقرأ عليه فنوناً جمة وعلوماً مهمة كالأصول والمعاني والبيان والبديع والحديث والسيرة النبوية والتصوف وفلسفة الدين قراءة تحقيق، وإتقان وتدقيق، زيادة على الأبحاث والمطالعات والمذاكرات والمراجعات وحل المشكلات التي كانت تروج بينهما في بيته فذلك شيء كثير لا يدخل تحت الضبط والإحصاء. وكان هذا الشيخ معطفاً له مشغوفاً به لا تلذ له قراءة إلا إذا كان حاضراً في المجلس صرح له بذلك غير ما مرة.

وكان له عدة أشياخ غير من ذكر أخذ عنهم فنوناً مختلفة من العلم تركنا ذكرهم اختصاراً إذ تتبع ذلك يطول جداً.

وفي أثناء ذلك توفي والده[1] واشتغل إخوته بما كان يشتغل به والدهم

---

(1) كانت وفاة والده بقبيلة الغرب في مزرعته التي كانت هناك سنة 1277هـ 1861م راجع الاستقصا صحيفة 255 الجزء الرابع طبع مصر.

من الفلاحة وغيرها فلم يعقه ذلك عن طلب العلم بل تخلى عن كل شيء لإخوته وزهد فيه وأقبل على ما كان صارفاً وجهته إليه.

هذا، ولم يكن صاحب الترجمة مقتصراً في تعاطيه للعلوم على ما كان نافقاً منها في وقته شائعاً بين أبناء جنسه بل كانت همته تتوق إلى الاطلاع على سائر العلوم القديمة الإسلامية التي لم يبق للناس اعتناء بها.

فانكب على مطالعة التآليف الموجودة فيها فدرس علم التفسير وعلوم الحديث والرياضيات والطبيعيات والإلٰهيات، وحده بغاية الاجتهاد والدؤوب، وطالع كتب التاريخ القديمة وانتسخ لنفسه عدداً كبيراً من المؤلفات الغربية منها، وطالع كتب الجغرافية القديمة وبعض التآليف الحديثة المترجمة من اللغات الأجنبية في هذا الفن، ورسم خرائط ورسوماً عديدة متنوعة بيده في وقت لم يكن أحد يهتم بذلك ولا يتشوف إليه.

وكان متشوقاً دائماً إلى الاطلاع على المعارف الوقتية والوقوف على حقائق العلوم العصرية والمخترعات الأوروبية، معجباً بما يصدر منها ويظهر، ومعطيّاً لذلك حظه من النظر، معتنياً بمطالعات المجلات العلمية، مولعاً بالجرائد السيارة وترجمتها إن كانت بغير لغته العربية واقتباس ما فيها من الفوائد والشوارد وتقييدها والتمعن فيها وانتقادها. وكانت تأتيه من مصر والشام وأسبانيا وفرنسا وما زال الكثير منها محفوظاً بخزانته العلمية إلى الآن.

ولما أتم قراءته وحصل على ما أراده من العلوم العربية سواء في ذلك المألوف منها والمتروك ظهر بمظهر غريب في قومه وفكر بعيد المرمى بين أبناء جلدته، فصار بذلك متميزاً عنهم، مرموقاً بعين الإعجاب بينهم، وتفرغ حينئذٍ لنشر العلم والتأليف حسبما نذكره.

تصديه لنشر العلم:

ثم إن صاحب الترجمة انتصب لنشر العلم وبثه وصرف وجهته وكليته لنفع الخاص والعام وكان فصيح اللسان قوي الحافظة، حاضر الذهن حسن

الإيراد، فكان كلامه إذا برز فيه نفذ إلى القلوب ورسخ فيها رسوخاً بيناً.

وقد سلك في تدريس العلوم طريقة جديدة بالنسبة لعلماء عصره. وذلك أنه كان يراعي في تدريسه التفهيم ويطرق المسائل الاجتماعية والدينية ويتكلم عليها بالكلام البليغ الذي يؤثر في عقول الحاضرين فكانت دروسه من أجل ذلك أندية تزدحم عليها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مقاصدهم وأغراضهم فكانوا يبكرون إلى المجلس قبل الوقت بالساعة والساعتين ويتسابقون إلى محلات الجلوس ومع ذلك كان المجلس يعمر ويغص بأهله حتى يجلسوا بالطرق القريبة منه والرحاب المتصلة به.

فعكف على تدريس تآليف كثيرة في فنون مختلفة عقلية ونقلية: منها علم التفسير بشرح الخازن، وكان هذا الفن قد ترك بالمغرب منذ زمن طويل فأحياه وختم تفسير القرآن مرتين. ومنها مقدمات ابن رشد في الفقه، وتبصرة ابن فرحون في الأحكام الفقهية أيضاً، وابن بري في علم القراءات وفتح المنان كذلك، والمطول على السعد في البلاغة، ومغني اللبيب لابن هشام في النحو، ومختصر الشيخ خليل، والتحفة، والزقاقية، والمرشد المعين، وألفية ابن مالك، وغير ذلك مما يطول تعداده في العلوم الرياضية والطبيعية والشرعية.

سيرته ومذهبه:

كان مقتفياً أثر السنة في كل شيء، شديد الإنكار على أهل البدع متصدياً إليهم عاملاً على زجرهم وردهم إلى الكتاب والسنة، منددا بالطوائف[1] وأرباب الأهواء الذين أدخلوا في الديانة الإسلامية ما ليس منها حتى شوهوا وجهها وغيروا أصلها معتقداً أن أصل كل تأخر حل بالإسلام والمسلمين إنما أتى من هاته النزغات والبدع، مع الحرص الشديد على إيقاظ المسلمين من غفلتهم وردهم إلى الطريق الواضح المنهج السوي الذي يؤدي إلى الرقي

---

(1) قد ألف صاحب الترجمة تأليفاً خاصاً في هذا الموضوع سماه تعظيم المنة، بنصرة السنة. ما زال لم يطبع.

الحقيقي في الدين والدنيا، وتلك كانت غايته المقصودة وضالته المنشودة، كأنما أوقف عمره لأجل ذلك، ومن راجع تآليفه وخصوصاً «تاريخ الاستقصا» و«تعظيم المنة» وجدها طافحة بالتحذير من هذا الداء والإعراء بالمبادرة إلى العلاج بالوسائل الفعالة التي كانت يعتقدها ناجعة في حسم مادته، وهي: نشر العلم الصحيح الحقيقي بين سائر أفراد الأمة.

وكذلك من تتبع ما كتبه في مؤلفاته على اختلاف أنواعها علم قدر وطنيته وغيرته على بلاده ودينه وتأسفه العظيم على ما هي عليه من التأخر.

هذا، ولم يكن صاحب الترجمة متعصباً كما يتوهم بل كان واسع الفكر حر الضمير معطياً كل ذي حقٍّ حقه، متواضعاً لين الجانب طيب المعاشرة دمث الأخلاق، مع جد صارم في سائر أحواله يحب تعلم اللغات الأجنبية، ومخالطة رجال الدول الأوروبية للاقتباس من معارفهم، وكانت له مع بعض قناصل الدول والتجار الأجانب في عصره معاشرة ووداد ومذاكرات ومحاورات ومراسلات علمية في مسائل مختلفة. وطالما كان يهتم بإرسال بعض أنجاله إلى أوروبا بقصد أخذ العلم في مدارسها، مع أن هذه الفكرة لم تكن تخطر لأحد من المغاربة أهل عصره، وإنما كان يصده عن تنفيذ هذا العزم عدم سهولة المواصلة على ما ينبغي إذ ذاك وكونه طعن في السن واحتياجه إلى من يقوم بشؤونه ويتلقى عنه أفكاره وآراءه ودروسه.

ومن أراد الوقوف على رأيه في هذا الموضوع، وأفكاره في معاملة بلاده مع الخارج فلينظر ما كتبه في المسائل السياسية والاقتصادية التي طرقها في تاريخه الاستقصا في عدة مواضع كمسألة[1] تنظيم الجيش ومسألة[2] ربط العلائق السياسية ما بين المغرب ودول أوروبا وغير ذلك من الموضوعات التي دقق البحث فيها.

---

(1) راجع الاستقصا صحيفة 222 الجزء الرابع طبع مصر.

(2) راجع الاستقصا صحيفة 226 وما بعدها الجزء الرابع طبع مصر.

أما مذهبه في التعليم[1] فإنه كان يرى أن الطريقة المسلوكة في التعليم عند المغاربة في عصره قليلة الجدوى عديمة النتيجة بعيدة الوصول إلى الغاية المقصودة منها، وأن التآليف المتداولة بين أيديهم لا تفي بالغرض المطلوب لاختصارها وغموضها وانغلاق عباراتها واختلاطها وعدم ترتيبها ولاحتوائها على المسائل والأبحاث الفارغة التي لا طائل تحتها.

فكان من رأيه صرف الناس في التعليم إلى كتب السلف المؤلفة أيام ازدهار العلوم في عصر التمدن الإسلامي، والأخذ منها لوضوح عبارتها وسهولة فهمها وكثرة فائدتها.

وكان من رأيه أيضاً إحياء ما اندثر من العلوم المهمة التي كانت نافقة عند العرب إبان زهو حضارتهم كالطب والفلسفة والتاريخ والجغرافية والجبر وما أشبه ذلك؛ وطالما ندد بهذه الفكرة في دروسه وخطبه ومجتمعاته وكتبه. ولكن بكل أسف لم تكن عقول أهل عصره بلغت الدرجة التي تؤهلهم لفهم ما كان يحاوله على حقيقته وتقديره حق قدره، وتحمله على محمله وتعمل به. بل كانوا يتلقون ذلك منه بصفة الاستعجاب والاستغراب.

ومع ذلك فهو بحسن سياسته وهديه كان يتكلف الوسائل ويستعمل غاية مجهوده في تفهيمهم ذلك وتبيينه لهم. وقام في وجهه بعض الناس من أرباب الطوائف والطرق وصار يشنع[2] عليه فلم يهنه ذلك ولم يثن عزمه بل استمر مثابراً على طريقته وخاب سعي ذلك المنكر ولم يدرك منه مراده لحسن قصده وخلوص نيته إلى أن أتته منيته وهو على ذلك الحال.

---

(1) قد بسط صاحب الترجمة أفكاره في هذه المسألة في مقدمة حاشيته على التبصرة المسماة: «الفلك المشحون، بنفائس تبصرة ابن فرحون» ما زال لم يطبع وهو محفوظ بالخزانة الناصرية بسلا.

(2) قد شرح صاحب الترجمة ما لقيه من هؤلاء وما كان مآلهم في كتابه تعظيم المنة، بنصرة السنة في باب الكلام على التصوف. وهو مخطوط بالخزانة الناصرية بسلا.

تنقلاته وخدماته المخزنية(1)

لما ظهر صاحب الترجمة بمظهر النزاهة والإرشاد وعلو الهمة وسمو المدارك في العلم طار صيته في أقطار بلاده فندبه السلطان مولاي الحسن للانخراط في سلك موظفي دولته فامتنع أولاً لأنه كان يظن أن ذلك يصرفه عن وجهته العلمية، فألح عليه حتى امتثل، وتنقل في عدة وظائف سامية في أنحاء المملكة الشريفة، فتولى أولاً خطة الشهادة ببلده سلا مدة في حدود سنة 1280هـ 1863م، وكان ينوب بها إذ ذاك عن قاضيها الفقيه أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور.

ثم لما تولى شيخه العلامة أبو بكر بن محمد عواد خطة القضاء بسلا في سنة 1285هـ 1868م، أسندت إليه خطة العدالة والصائر على الأحباس الكبرى بسلا بأمر سلطاني، فأظهر فيها غاية الحزم والضبط: ونظمها تنظيماً يشهد ببراعته في الترتيب، ونقب عن ما ضاع منها وردها لأصولها، حتى أن الجوالة الموجودة الآن هو الذي استخرجها ووقع جل وثائقها وهي المعتمدة والمرجوع إليها اليوم في الأحباس السلاوية.

ومن جملة أعماله المأثورة في الأحباس أن المدرسة المرينية المشهورة بطالعة سلا قبلة المسجد الأعظم كانت عند توليه لهذا المنصب في حالة يرثى لها: قد تداعت إلى السقوط وشن الخراب الغارة عليها وكاد يأتي على رائع جمالها، فأراد بعض ذوي السلطة أن يجعلها مربطاً للدواب، فقام لذلك وقعد، وأظهر غاية الكراهة لهذا الأمر الشنيع، وكتب إلى المخزن يعرفه بأهمية هذا الأثر العظيم وما يرتب عن اندثاره، فصادف كلامه قبولاً وأجيب بإجراء المتعين في إصلاحها وترميمها وردها إلى الحالة التي كانت عليها، فقام في ذلك بنفسه أتم قيام حتى آلت لما هي عليه اليوم. ولولاه لما بقي إلا خبرها كأختها المدرسة العنانية الموجودة بباب حسين من هذه المدينة

---

(1) المخزن في الاصطلاح الإداري المغربي يعني الحكومة المغربية.

المعروفة اليوم بفندق آسكور. وقد أصلحت في العهد الأخير وصارت محكمة شرعية.

وفي هذه المدة كان شيخه القاضي المذكور آنفاً يسند إليه النيابة عنه في الأحكام القضائية ويستشيره في النوازل المهمة ويقدمه لفصلها ويعول عليه في حل ما أشكل منها كما كان يسند إليه النيابة عنه في الخطابة بالمسجد الأعظم بسلا يوم الجمعة.

وقد تنقل صاحب الترجمة خلال هذه المدة من سنة 1280هـ 1863م إلى سنة 1290هـ 1873م، عدة تنقلات اختيارية بقصد التجول والزيارة والاطلاع على الأحوال بأنحاء المغرب.

فسافر صحبة شيخه السالف الذكر أولاً إلى المغرب الشمالي ودخل مدينة فاس وتعرف بعلمائها وكبرائها وذاكر أدباءها، وكانت له معهم مطارحات ومحاورات في فنون شتى وأعجبت فاس به وحصل له من الإقبال والإجلال ما زاد في شهرته وتضافر الناس على تقديره، وعرج في جولته هذه على مدينة مكناسة الزيتون وزاوية زرهون ونواحيها وخالط ناسها ودرس أحوالها.

ثم سافر بعد ذلك لجبال الريف وغمارة ودخل مدينة تطوان ومنها إلى العرائش وأصيلا والقصر الكبير بعد ما زار ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بجبل العلم وخلف ذكراً جميلاً حيث ما مر، وثناءً عاطراً حيثما قر.

وكانت له جولة أخرى ببلاد الشاوية من المغرب وما جاورها درس فيها أحوال تلك الناحية وسبر غور أهل المغرب وعرف أخلاقهم وميز أفكارهم مما زاد في سعة اطلاعه على أحوال هذه البلاد من الجهة الجغرافية والإيتنوكرافية، كما زار أيضاً مدينة آزمور وضريح الشيخ أبي شعيب أيوب بن سعيد الملقب بالسارية ومدحه بقصيدة رائقة أثبتها في تاريخ الاستقصا[1]، كلها حكم وآداب.

---

(1) راجع الاستقصا صحيفة 185 الجزء الأول طبع مصر 1312.

ثم ورد عليه الأمر السلطاني بالتوجه للخدمة بمرسى الدار البيضاء سنة 1292هـ 1875م فامتثل بعد ما تنصل وتعلل بعلل كثيرة زهداً في ذلك ورغبة في اكتساب العلم ونشره، ولولا أن شيخه وصهره أبا بكر عواد ألزمه ذلك لما قبل. وأقام بهذه الخدمة إلى آخر سنة 1293هـ 1876م.

وفي سنة 1294هـ 1877م استدعاه المخزن للقيام بوظيفة الخدمة في المالية ببنيقة الصائر بمراكش فأقام بها مدة ثلاثة أعوام وهناك انتهز الفرصة لجمع مواد تاريخه الاستقصا كما سنذكره بعد، وأملى دروساً مفيدة بجامع ابن يوسف بمراكش كالسعد والتبصرة والمغني وكتب بخطه عدة كتب علمية غريبة عثر عليها هناك.

ثم رجع لبلده، وما كاد يستقر به المقام حتى ورد عليه الأمر الملكي بالقدوم لمراكش للالتحاق بالسلطان بالحضرة المراكشية سنة 1297هـ 1879م.

وكان القصد من قدومه هذا أن يختصه السلطان بالخدمة معه في الحكومة العليا ولكن ذلك لم يوافق طبعه لما كان مركوزاً فيه من حب الحرية في الأعمال، وعدم التقيد ببعض التقاليد المخزنية والانتقالات السلطانية، حرصاً على التفرغ للكتابة والدرس والتقييد، فاعتذر إلى السلطان وتخلص مما عرضه عليه، فوجهه للخدمة بمرسى الجديدة وهناك أتم جمع كتابه الاستقصا وترجم ما يتعلق به من اللغات الأسبانية والبرتغالية والإنجليزية حسبما سنذكره في فصل خاص بعد هذا.

وقام في هذه المدينة بجملة أعمال خيرية منها الوقوف في بناء المنار وإصلاح المسجد الموجود الآن وغير ذلك بمعاضدة صديقه باشاها[1] إذ ذاك السيد محمد الجراري.

واتخذه المخزن في هذه المدة مستشاراً سرياً فكان يكاتبه ويأخذ رأيه في الأمور المهمة والقضايا السياسية.

---

(1) الباشا في الاصطلاح الإداري المغربي يعني حاكم المدينة.

وطلب منه أن يبدي رأيه في إصلاح المالية المغربية ومداخلها على النهج الشرعي فحرر في ذلك قانوناً للخراج والمداخل المالية بالمغرب على مثال عجيب.

وكانت أشغاله المخزنية لا تعوقه عن نشر العلم وبثه، فدرس تفسير الخازن وختم البخاري هناك وانتفع الناس به نفعاً بيناً وانفصل عن الخدمة بهذه المرسى سنة 1299هـ 1881م. وبعد استراحته ببلدة سلا مدة يسيرة ورجوعه لتنفيذ خطته العلمية والدؤوب عليها عاد للخدمة بمرسى الدار البيضاء سنة 1301 هـ 1883م وطال مقامه بها ثلاثة أعوام، وتعرف بقناصل الدول ونوابهم هناك وحصل بينه وبينهم وداد وجرت له معهم مذاكرات ومحاورات في مسائل علمية واقتصادية وسياسية ترجع إلى ربط العلائق بين المغرب وأوروبا فأحبوه وعرفوا قدره وراسلوه وهادوه.

وأثناء ذلك استشاره السلطان المولى الحسن رحمه الله في المعاملة التجارية مع دول أوروبا فيما يرجع للوسق وتسريح ما كان محجوراً من المواد كالحبوب والأنعام وتعديل «صاكة» الأعشار فتصدى لهذه المسألة وحرر فيها جواباً شافياً أثبته في تاريخ الاستقصا[1].

وعاد لبلده فجلس بها أياماً قليلة ثم عينه السلطان سنة 1304هـ 1886م لفصل قضية أولاد الدكالي في معاملتهم التجارية مع تجار الطليان بطنجة فذهب إليها واجتمع بسفراء الدول بها إذ ذاك وخصوصاً السفارة الطليانية واستفاد من هذه الوجهة فوائد ومعلومات مهمة.

ولما رجع لبلده استقل بمطالعة دواوين الفقه ومراجعتها إلى أن ورد عليه الأمر السلطاني سنة 1305هـ 1887م بالتوجه لحضرة فاس بقصد الخدمة بالمالية بقسم الصائر وعند وصوله إليها اشتغل بتدريس مختصر الشيخ خليل بكلية القرويين بشرح الدردير لاختصاره وسهولة مأخذه بالنسبة لشرح الزرقاني

(1) راجع الاستقصا صحيفة 266 الجزء الرابع طبع مصر سنة 1312.

الذي كان العمل جارياً بتدريسه بالقرويين، فاستحسن الناس طريقته واقتفى العلماء في ذلك أثره إلى أن أصبح الآن شرح الدردير مقرراً في النظام الجديد لكليتي القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش، وازداد معرفة واختلاطاً بعلماء تلك الحضرة وأبدى فكره في إصلاح التعليم، وأكب على مطالعة كتب الأنساب وأصولها واستخرج من ذلك المواد لتأليفه: «طلعة المشتري في النسب الجعفري».

ثم آب المدينة سلا سنة 1308هـ 1890م ليستريح من الأشغال ومواصلة الأعمال فأقام بها مدة منكباً على الدرس والتأليف والكتابة والتقييد بغاية الاجتهاد.

ثم خطر بباله حينئذٍ أن يشد الرحلة لزيارة مقر أجداده ومهد عائلته بزاوية تامكروت من وادي درعة قاصداً بذلك اكتشاف تلك الأصقاع الجنوبية والاطلاع على أحوال سكان تلك الناحية والوقوف على منازل أسلافه وديارهم ومآثرهم، ومن أعظمها الخزانة العلمية الخطية[1] التي لا نظير لها بالمغرب الموجودة بالزاوية التامكروتية فشرع في تهييء الزاد والراحلة لطول السفر وبعد الشقة.

وبينما هو في ذلك ورد عليه الأمر الشريف سنة 1310هـ 1893م بالخدمة بمرسى الدار البيضاء أيضاً فامتثل وأخر تنفيذ هذه الفكرة لوقت آخر إن ساعده على ذلك الزمان. ولم يقصر ـ مدة خدمته هذه ـ في أعمال البر بهذه المدينة كالوقوف على إتمام بناء جامع الحمراء وصرف نصف دخل ضريح سيدي أبي الليوث إلى الفقراء والمساكين والتدريس وإلقاء الخطب وغير ذلك. وأثناء هذه المدة وقعت قضية السفير إبريشة المشهورة مع أسبانيا إثر حربها

---

(1) هذه الخزانة تشتمل على نحو عشرة آلاف مخطوط وكلها من غريب الكتب ونفيسها مما لا يقدر بثمن، ولكن بكل أسف ضاع الشيء الكثير منها الآن. وعثر على أشلائها تباع عند الوراقين والسماسرة بالأسواق! والأمر لله وحده.

مع زناتة الريف وكان قد أبدى رأياً في فصلها فلم يصادق عليه فحصل له تأسف عظيم على حل هذه المسألة على تلك الصورة التي فصلت عليها كما أشار لذلك في تاريخه[1] فانفصل عن الخدمة المخزنية ورجع لوطنه سنة 1311هـ 1894م وذلك عقب وفاة السلطان المقدس المولى الحسن وتولية ابنه المولى عبد العزيز بعده.

ولما تسلم عرش المملكة هذا السلطان اقتفى سنن والده في تعظيم المترجم له واحترامه ومعرفة قدره ومكانته في العلم والسياسة.

فندبه سنة 1312هـ 1895م لتفقد الأملاك المخزنية وإحصائها والبحث فيها بالدار البيضاء فتوجه إليها وقام بذلك أحسن قيام، وجرد في مأموريته هذه تقريراً رفعه للحكومة ولا زال هو المعتمد لدى إدارة الأملاك المخزنية حتى الآن.

وعند رجوعه من هذه الوجهة انقطع عن مخالطة الناس وانكب على المطالعة والتقييد وتخلى عن الخوض في الأعمال السياسية وأقبل على إتمام مؤلفاته وتحريرها وتخريجها كنصرة السنة وتخريج شرح قصيدة ابن الونان وحاشية التبصرة وغير ذلك مع تكرر عرض المناصب عليه وإعراضه عنها غير أنه مع ذلك كان يستشار في الأمور المهمة وبقي على هذا الحال إلى أن وافته منيته.

شعره:

لقد قال المترجم له شعراً كثيراً في عهد شبابه ولم يدون منه إلا نزراً يسيراً في ديوانه المخطوط بالمكتبة الناصرية، إذ لم يكن له اعتناء بحفظه وجمعه وكله من الشعر الجيد. وله في تعاطي الشعر رأي خاص قال رحمه الله في رسالته التي ترجم فيها لنفسه مخاطباً بها صديقه الأديب الفاطمي الصقلي الفاسي:

«وأما تعاطي الشعر فقد كنت أنتحله أيام الشبيبة ثم أعرضت عنه إذ

---

(1) راجع الاستقصا صحيفة 277 وما بعدها الجزء الرابع طبع مصر.

بضاعته مزجاة سيما في هذا الزمان الذي سوق الأدب فيه كاسدة وقبل اليوم قال المتنبي:

إلى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد

وإنما المطلوب أن يعرف الإنسان آلته ومادته وكيفية قرضه ونقده حتى تجود ملكته، ويتم ذوقه ويصير بصيراً باللسان العربي وأساليبه وفنونه ثم يتفرغ لما هو أهم من ذلك من علم الفقه وأصوله وعلم عيوب النفس وأمراض القلب وكيفية علاجه».

وقد أثبت بعضه في تاريخ الاستقصا فمن ذلك:

القصيدة النونية التي مدح بها الشيخ أبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الملقب بالسارية دفين مدينة آزمور وهي مذكورة في صفحة 185 من الاستقصا طبع مصر عام 1312هـ.

والقصيدة السينية التي مدح بها سلطان عصره مولاي الحسن بن محمد لما زار مدينة سلا في جمادى الأولى سنة 1293 وهي طويلة مليئة بالنصائح والإشارة إلى الأمثال العربية والوقائع التاريخية. وقد كان صديقه العلامة القاضي أبو محمد عبد الله بن خضراء خصها بشرح نفيس إلا أنه لم يبق منه بخزانة المترجم له إلا بضعة أوراق لا غير. وقد ذكرها في الاستقصا أيضاً صفحة 247 من الجزء الرابع طبع مصر في العام المذكور.

ومن ذلك القطعة الحائية التي أجاب بها صديقه الأديب المحاضر أبا عبد الله محمد بن عزوز الرباطي أصلاً المراكشي داراً عما كتب له به لما كان بمراكش وذلك في فاتح رجب عام 1294 وقد أثبتها في الاستقصا أيضاً صفحة 113 من الجزء الثاني طبع مصر.

ولما زار مدينة فاس الإدريسية مع شيخه العلامة القاضي المرحوم أبي بكر بن محمد عواد سنة 1280 كان ذات يوم وقد عزم السفر بقصد الرجوع إلى بلده عند الشرفاء أولاد مولاي الطيب الدرقاوي بمدرسة الصفارين فذاكره

مولاي عبد السلام بن مولاي الطيب في أمر السفر والعزم عليه كالمتوجع لفراقه فأنشده في الحال:

أرى القلب يا عبد السلام سليما ووشك النوى لي مقعداً ومقيما
إذا أنا سرت عنك أول غدوة تركت فؤادي في ذراك مقيما

ولما سافر من الغد خرج جماعة من الطلبة لوداعه فقال وأنشدهم عند الوداع خارج باب المحروق:

غدا الشمل بالتوديع وهو مشتت وسيف النوى بين الأحبة مصلت
أسكان قلبي لست أنفك بعدكم نجي الأسى يملي عليّ فأنصت
ولو أنني أعطيت حظي منكم لما خلتني عن جمعكم أتفلت
فها أنا سرت اليوم عنكم ومهجتي تذوب وكبدي بالفراق تفتت
وأيسر ما ألقى من الشوق أنني أسير وقلبي نحوكم يتلفت

ومما قاله في المديح:

أبناء أحمد لستم ذوي كرم وإنما اشتق من معناكم الكرم
وليس تنسب للعلا مآثركم لكنكم في عرانين العلا شمم
ولا أقول نسيم الروض ذكركم وإنما هو في روض الثنا ديم

ومما قاله في النصح، وكان بعض الطلبة يحضر مجلسه وربما تكاسل فنصحه ذات يوم فتخلف عن المجلس بالكلية وذلك سنة 1281هـ:

أيا مبدياً هجري لأجل نصيحة كلانا أتى في رأيه خطة الجهل
فعما قليل تعتريك ندامة على فرقتي فاستبق إن كنت ذا عقل

ومما خاطب به جماعة من الأدباء أصحابه من أهل سلا في سفرة عرضت له سنة 1277هـ:

لا ترم مني سلوة يا عذول فالذي رمت ما إليه سبيل
شرح حالي لديك: فقد، ووجد وسهاد، ورقة، ونحول
واصفرار، ولوعة، وولوع أترى ذا مع الملام يزول؟
كل يوم من أم أوفى عتاب ومن القلب حيرة وذهول

كيف أسلو ودونها فلوات ... وجبال، تضل فيها الوعول؟

أقطع البيد خلفها وحظوظي ... تقطع الحبل بي، ودهري يحول

حر شمس، وقر نحس، وعيس ... غالها تحتنا السرى والذميل

كلما داس خلفها ربع حي ... داسنا الشوق، فالحداء عويل

والجوى يغتلي الحشى، وجفون ... تسكب الدمع، والنوى يستطيل

ورسوم مواثل وديار ... سحبت للسحاب فيها ذيول

دع حديثاً من أم أوفى تقضي ... في زمان به الشبيبة غول

واذكر المجد والسماحة والحلـ ... ـم وبذل النهى وفخراً يطول

لكرام علت بهم مكرمات ... ما لهم في الورى يعد مثيل

لكرام غدوا مدى الدهر بلقى ... لسنا المجد في ذراهم مقيل

لكرام متى نزلت بدار ... لهم، فالمنا لديك نزول

في سلا أشرقت شموس علاهم ... ما لها الدهر في مداها أفول

رب ليل وصلته بصباح ... معهم، والزمان عني غفول

وصباح وصلته بمساءٍ ... في سرور، به الوقور يميل

فتية عودوني الود صرفاً ... فمديحي لهم بشكري كفيل

أترك القول فيهمْ وأوالي ... غيرهم، إنني إذاً لجهول؟

أجدر الناس بالمديح أناس ... نالك الرفد منهم والجميل

تخذوا الحلم والمروءة ديناً ... ليس في ناديهم يقال فضول

صغرت سنهم ـ وما صغر العقـ ... ـل ـ ولا غرو، إذ كذاك الأصول

حسب شامخ، ومجد أثيل، ... ولسان رطب، وخلق جميل

لو ترى وجدهم غداة مسيري ... عنهم ما امتريت فيما أقول

يا كراماً فقدت قرب حماهم ... إن خطبي لفقدكم لجليل

زلت عنكم كرهاً وقلبي مقيم ... عندكم، والأسى لدي بديل

كلما لاح لي سنا من حماكم، ... طفق الجفن بالدموع يسيل

أبتغي نحوكم نهوضاً وحظي ... يعكس القصد، والزمان بخيل

ليس سيىء يروي عيني سواكم، ... فالحشا بعدكم كئيب عليل

وإذا ما قضى الإله تجمعي بكم، فالذي لقيت قليل

وفي سنة 1282 ورد على سلا العلامة الأديب محمد الطاهر بوحدو المكناسي وأقام بها أياماً ثم عبر إلى رباط الفتح وأقام عند الشيخ العلامة الفاضل العربي ابن السائح الشرقاوي وكتب أبياتاً خاطب بها بعض علماء سلا وألم بذكر المترجم له فأجابه على بحره وقافيته ورويه:

يا أديباً غدا بحسن اتفاق ينفث السحر في المعاني الرقاق
قد أتتنا حدائق من ثناكم جددت أرسماً لعهد التلاقي
وعلمنا منها بأنك لا زلـ ـت بنا ذا صبابة واشتياق
لست أدري أهي قلائد در أم نجوم محت دياجي الفراق
توجت مفرق الزمان على فتـ ـرة شعر من الورى والمحاق
ولقد ساءني الذي قلت من جهـ ـل، وأنت الفتى الكريم الوفاق
أنت تحكي النسيم في الخلق، والصا رم في العزم، والطلا في المذاق
وبنا من فراقك الصعب ما لو كان بالبدر لاكتسى بالمحاق
فأزل ما بالقلب من وحشة البيـ ـن، وما بالجفون من إيراق
ما محياك حين تغدو علينا غير يسر أتى على إملاق
فعليك السلام من هائم لا زال من فرط وجدكم في احتراق
وعلى خدنك الإمام الذي حـ ـل من المجد، في أعز المراقي
سيدي الأعربي من أعربت عن فخره ألسن الورى، باتفاق
ما شدا في محافل الأنس شاد وحدا بالحسان حادي النياق

وكان العلامة أبو العباس أحمد يمل السوسي من أهل تارودانت قد كتب إلى صديقه العلامة القاضي أبي محمد عبد الله بن خضراء بأبيات يتشوق فيها إليه وألم فيها بذكر المترجم له والسلام عليه فأجابه على بحرها ورويها وذلك عام 1300هـ.

هواي مدان والحبيب منائي وشوقي يناجي من ورائي وراء
فليت الهوى كان الحبيب وليته يرق لدائي أو يبيح فدائي

وهيهات يسلو من بأرض سلا انتأى وهيهات من بالسوس يدنو لنا
ولكنني أنهي السلام مطيباً بطيب عبير، أو بطيب ثناء
إلى الماجد الأرضى الذي بولائه أدين: أبي العباس خير ولاء
وأسأل ربي أن يديم لنا به ومنه أخا صدق، وخدن وفاء
ويجزيه من خير ما قد جزى به أخاً مؤمناً، أبدى ضمير صفاء
ويملأ من نور المعارف صدره ويسعده بالفوز يوم لقاء
بجاه النبي الهاشمي وآله وأصحابه أسد الشرى الأمراء
عليه التحايا الغر ثم عليهم تباكرهم صبحاً، وكل مساء

واستعار من صديقه العلامة المرحوم أبي العباس أحمد بن الحاج محمد والعلو «شرح ابن بدرون على قصيدة ابن عبدون» فوعد وماطل، فكتب إليه رحمه الله وذلك سنة 1285هـ:

يا فقيهاً في حلبة المجد جلا وغدا العلم من تقاه محلا
هل تفي منكم الوعود بشرح لابن بدرون أم تقولون كلا؟
لست أرضى لمجدكم أن أرى ممـ ـنوعاً أو عن ندى يديكم محلاً

مؤلفاته

وخلف صاحب الترجمة مؤلفات شتى في فنون مختلفة ما بين مطول ومختصر نسردها على حسب تاريخ كتابتها حسب الإمكان:

1 ـ تعليق على ديوان أبي الطيب المتنبي:

وهو تعليق لطيف تكلم فيه على غريب اللغة وشرح الأبيات المحتاجة للشرح مع الإشارة للنكات البلاغية والتلميحات البديعية، فرغ من كتابته سنة 1279 (1862).

2 ـ تعليق على رقم الحلل في أخبار الدول لابن الخطيب السلماني:

هو تعليق مفيد جداً مليء بالفوائد التاريخية النفيسة، وزاد فيه ما تركه صاحبه ابن الخطيب المذكور من أخبار ملوك مصر والشام في القرون

الوسطى. فرغ من كتابته سنة 1285 (1869).

3 ـ تعليق على بداية القدماء وهداية الحكماء:

وهو تأليف في التاريخ والتمدن القديم ترجمه من الأصول الفرنسوية معاصره الشيخ رفاعة بك الطهطاوي المصري رئيس قلم الترجمة بإدارة العلوم والمعارف بالقاهرة زمن الخديوي محمد علي باشا. فرغ من كتابته سنة 1285 (1869).

4 ـ تعليق على شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون:

هذا الشرح للأديب عبد المالك بن بدرون الحضرمي الأندلسي على قصيدة أبي محمد عبد المجيد بن عبدون الشهيرة التي رثى بها بني سلمة المعروفين ببني الأفطس من ملوك الطوائف بالأندلس.

وهذا تعليق كله غرر وأدبيات رائقة فرغ من كتابته سنة 1285 (1869).

5 ـ الفوائد المحققة في إبطال دعوى أن التاء طاء مرققة:

وسبب تأليفه لهذا الكتاب أنه وقع خلاف بين بعض الطلبة المعاصرين له في الفرق بين هذين الحرفين واتسعت مادة الخلاف بينهم في ذلك، فزعم بعضهم أن التاء طاء مرققة وزعم البعض الآخر أن كلاًّ من الحرفين مستقل بمخرجه. فتصدى لهذه المسألة وحققها في هذا التأليف.

وفيه أبحاث نفيسة تتعلق بكيفية الأخذ في القراءة وتجويدها وحصر مخارج الحروف وصفاتها وغير ذلك من استدلالات أصولية. فرغ من جمعه سنة 1291 (1874).

6 ـ رسالة في تحقيق أمر سبعة رجال دفناء مراكش:

هذه الرسالة ألفها لمّا كان مستخدماً بهذه المدينة في حدود سنة 1294 (1877) جواباً عن الأسئلة التي قدمها إليه صديقه العلامة الأديب محمد الأمين بن عبد الله الحجاجي المعروف بالصحراوي الشنكيطي المراكشي،

وقد بنى عليها مؤلفه الكبير المسمى «المجد الطارف والتالد، من أسئلة أبي العباس أحمد بن خالد» في مجلدين وتوجد نسخة منه محفوظة بالخزانة الناصرية.

7 ـ كشف العرين عن ليوث بني مرين:

وهو تاريخ مختصر في أخبار الدولة المرينية بالمغرب فقط. كتبه سنة 1295 (1878).

8 ـ رسالة في الرد على الطبيعيين:

ألف هذه الرسالة إثر مذاكرة جرت له مع أحد الأوروبيين المتفلسفين لما كان مستخدماً بالجديدة، وبعد مذاكرة طويلة بينه وبين هذا الأوروبي أذعن لمقاله وسلم ما كان يقرره له. وهي رسالة احتوت على حجج عقلية في الرد على من ينكر وجود الصانع ويكذب بالشرائع، وفيها أبحاث نفيسة عالية. ألفها سنة 1297 (1880).

9 ـ تأليف في مسألة إعطاء الرسوم:

وسبب جمعه لهذا التأليف وقوع المذاكرة بينه وبين مفتي فاس الشهير المهدي الوزاني، وكان لا يقول بما يقوله صاحب الترجمة في هذا الموضوع، فألف هذا التأليف وذكر فيه ما تحصل لديه من نصوص الفقهاء في جواز إعطاء الرسوم وتعين ذلك في بعض الأحوال، واستدل على ذلك بنصوص من الكتاب والسنة وأقوال الفقهاء المجتهدين وسلك فيه مسلكاً عالياً فرغ منه بمدينة فاس سنة 1306 (1888).

10 ـ تقييد مختصر في حصر جمهرة آل ناصر:

كان جمع هذا التقييد أولاً قبل تصديه لتخريج تأليفه الكبير المسمى: «طلعة المشتري، في نسب الجعفري» وبين فيه تفرق آل ناصر بالمغرب وتتبع

فروعهم، وألحقها بأصولها. كتبه سنة 1308 (1890).

11 ـ طلعة المشتري، في النسب الجعفري:

حقق فيه نسب جده الشيخ ابن ناصر، واتصاله بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب واستعان في جمعه بعدة أصول حصل عليها بمدينة فاس لما كان مستخدماً بها، ومواد أخرى وردت إليه من تامكروت وما تلقفه بنفسه من أفواه الجم الغفير من ذرية الشيخ ابن ناصر الوافدين إذ ذاك على السلطان لغرض يتعلق بالزاوية الناصرية فرغ منه سنة 1309 (1891).

12 ـ شرح مساعدة الإخوان:

وهي قصيدة الشيخ محمد بن ناصر سماها «مساعدة الإخوان من الحشم والأعوان على ما يعين على البر والتقوى ويصرف عن الإثم والعدوان» في العبادات على نمط المرشد المعين على الضروري من علوم الدين للإمام ابن عاشر في هذا الموضوع. وهذا الشرح خلاصة ما ألقاه من الدروس في هذه القصيدة. فرغ منه سنة 1310 (1892).

13 ـ تعظيم المنة بنصرة السنة:

وهذا التأليف من أهم المؤلفات التي كتبها صاحب الترجمة وهو أوضح دليل على سعة فكره وبرهان على أنه كان فرداً غريباً بين أبناء جنسه ووقته.

والسبب[1] الحامل له على جمعه هو أنه كان يدرس تفسير القرآن بسلا ويتوخى في تدريسه التنبيه على البدع المحدثة في الدين وردها والتشديد فيها والتنديد بأهلها من أرباب الطوائف، فقرر ذات يوم كلاماً في هذا الموضوع

---

(1) يراجع المبحث الأول من الفصل الثامن من السماع والرقص عليه من هذا التأليف فقد خصصه المؤلف لشرح السبب الداعي لتأليف هذا الكتاب.

تناقله أرباب البدع والأهواء ومقدمو الطوائف بينهم فمشوا في بعضهم بعضاً وشنعوا عليه وأبدؤوا وأعادوا في ذلك وكتبوا إلى السلطان في شأنه ولكن لم يكن لما كتبوا به نتيجة أصلاً لمكانته وفضله ولم يثن عزمه عما كان مشتغلاً به شيء من ذلك.

وتصدى حينئذٍ لتأليف هذا الكتاب وبين فيه البدع المحدثة في الدين ومخالفتها لأصول الشرع الإسلامي وانتقد سائر ما ظهر منها في الأقطار الإسلامية على الجملة وفي المغرب بالخصوص وذكر أسباب حدوث الزوايا والطوائف بالمغرب وكيف كان أصلها وما آلت إليه فجاء تأليفاً عجيباً في بابه ودستوراً جامعاً في فنه لم ينسج على منواله. فرغ منه سنة 1311 (1893).

14 ـ زهر الأفنان، من حديث ابن الونان:

وهو شرح على الأرجوزة المشهورة بالشمقمقية استوفى فيه فنون اللسان العربي إلا قليلاً واستوعب شرح ما لمح له الناظم من الأمثال والحكم والأخبار والنوادر. فرغ منه سنة 1313هـ 1895م.

15 ـ وصية وعظية:

وهي وصيته التي أملاها على ولده الأكبر لما عزم على زيارة المولى عبد السلام بن مشيش وكان إذ ذاك مريضاً مرضه الذي مات فيه وكلها حكم والأخبار والنوادر، فرغ منه سنة 1313هـ 1895م.

16 ـ تاريخ الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى:

وهو هذا الكتاب الذي يمثل للطبع من جديد والذي هو تاريخ للمملكة المغربية من لدن الفتح الإسلامي إلى صدر دولة السلطان المولى عبد العزيز بن الحسن وسيأتي الكلام عليه بالتفصيل في الفصل التابع لهذا الفصل. هذا ما وقفنا عليه مؤرخاً من تآليفه.

وأما التآليف الغير المؤرخة فها بيانها:

17 ـ دفتر محررات وأصول تاريخية:

هذا الدفتر مملوء بالمحررات والأصول التاريخية والوقائع والمتفرقات المهمة والظهائر والمناشير الملكية التي عثر عليها وجمعها في رحلاته وتجولاته بالمغرب وما كان يترجمه من جرائد ومجلات أوروبا وأمريكا المكتوبة بغير لغته من أخبار العالم مع بعض الرسائل الأدبية التي كانت تجري بينه وبين بعض أدباء عصره واشتغل في جمعه مدة عمره وكان لا يترك شاذة ولا فاذة إلا أدرجها فيه وهو دفتر لا يقدر بثمن.

18 ـ تعليق على سفينة الراغب:

وهو تعليق على التأليف المسمى بهذا الاسم الفيلسوف الشيخ محمد راغب باشا أحد وزراء الدولة العثمانية وكله أبحاث فلسفية عقلية في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة.

19 ـ مجموع فتاويه الفقهية:

وهو مجموع ضخم في الفتاوى الشرعية والنوازل الفقهية التي كان يسأل عنها وتصدر منه أجوبتها.

20 ـ رسالة الحواريين:

وهي رسالة تكلم فيها على الديانة المسيحية وانتشارها على يد الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام وتحقيق أمرهم.

21 ـ رسالتان في فن الموسيقى:

إحداهما خاطب بها صديقه العلامة الفلكي إدريس بن محمد الجعيدي السلاوي، والأخرى قيدها في الموضوع نفسه وبحث فيهما في النغمات العربية والمقابلة بينها وبين الموسيقى العجمية.

22 ـ رسالة في تحديد السلطة للولاة:

وهي رسالة في الفرق بين خطة القائد والقاضي والمحتسب عند المغاربة وتحديد سلطتهم.

23 ـ قانون في الترتيب الإداري والجبايات المالية بالمغرب[1]:

ألفه لما كان بالجديدة واستشاره السلطان المولى الحسن في ذلك وهو محرر على أصول الشرع.

24 ـ تعليق على قصيدة عمرو بن مدرك الشيباني:

فسر فيه الألفاظ الدينية التي وردت فيها وتكلم على معانيها.

25 ـ تقييد في البربر:

هذا التقييد يحتوي على أخبار البربر على الجملة قبل الفتح الإسلامي وبعده إلى ولاية بني الأغلب بإفريقية وبني إدريس بالمغرب الأقصى.

26 ـ ديوان شعره:

ولم يكن صاحب الترجمة يعتني بتقييد شعره وجمعه فذهب معظمه إذ لم يكن يحفظه إلا في القطع الصغيرة من الورق فاغتالته يد الضياع ولم يبق إلا ما جمعه في آخر عمره وهو نزر يسير بالنسبة لما قاله في شبابه.

27 ـ الفلك المشحون، بنفائس تبصرة ابن فرحون:

وهو حاشية على تبصرة أبي إسحاق إبراهيم بن فرحون في أحكام القضاء، في غاية التحرير والتحقيق.

وتوجه بمقدمة عجيبة في تاريخ الفقه والحقوق الإسلامية وتدرجها في

---

(1) هذا القانون فقد أصله من خزانة المؤلف ولعله بالخزانة الملكية.

الأجيال والأعصار إلى الآن ممزوجاً ذلك بأفكاره الخصوصية الفلسفية، وانتقد في هذه المقدمة التعليم وبين فساده ونبه على وجوب إصلاحه، إلا أن هذا التأليف بقي فيه نحو الربع لم يكمل لأن المؤلف عاقه الموت عن إتمامه.

وقد كان صاحب الترجمة عازماً على كتابة تآليف أخرى غير ما سطر وشرع في تهيـيء أصولها وموادها وما زالت تلك الأصول محفوظة في خزانته إلى الآن، وكلها نفائس وذخائر فمن ذلك: مواد تاريخ عام من بدء الخليقة إلى زمنه.

ومن ذلك تأليف عام في أنساب العرب وتفرق قبائلهم في العالم وإلحاق كل فرع بأصله.

ومن ذلك تفسير القرآن على نسق تهتدي به الأمة إلى طريق الرشد وما كان عليه السلف الصالح.

وهذه المؤلفات العديدة الأنواع المختلفة الأوضاع لم يطبع منها الآن إلا ثلاثة فقط، أولها: «تاريخ الاستقصا» طبع بالقاهرة سنة 1312هـ 1895م.

وثانيها: «زهر الأفنان، من حديقة ابن الونان» طبع بفاس سنة 1314هـ 1896م.

وثالثها: «طلعة المشتري، في النسب الجعفري» طبع بفاس أيضاً سنة 1320هـ 1902م.

والباقي ما زال محفوظاً مكنوناً. هيأ الله الأسباب لطبعه ونشره، وتعميم فائدته ونفعه.

كيف جمع المؤلف كتاب الاستقصا

كان صاحب الترجمة في تعاطيه للعلوم سامي الهمة، إذا خاض في فن من الفنون أعطاه كليته وطالع جميع ما يتوصل إليه من كتبه الموضوعة فيه وحررها وانتقدها وقيد ما ناسب تقييده عليها من فوائد مهمة ونكت غريبة مفيدة، وتلك كانت عادته في سائر العلوم حتى أن كتب خزانته كلها تحمل تصحيحاته وتقريراته عليها.

ولما تشوفت نفسه للخوض في علم التاريخ ووقف على ما تيسر له العثور عليه من التواريخ الإسلامية وغيرها في وقته، صرف وجهته لتاريخ المغرب الأقصى الذي هو وطنه ومحل نشأته، فتصفح ما هو موجود فيه من التآليف فألفاها قليلة غير مستوعبة لأخبار من سلف من الدول الإسلامية العظمى التي كانت بالمغرب، ولا مستوفية لشرح أحوال فتوحاتها الكبرى ومآثرها المهمة التي قامت بها. وغالب من تكلم من كبار المؤرخين على المغرب الأقصى إنما يتعرض لأخباره في عموم الخبر عن الدولة الإسلامية في الأقطار المشرقية والمغربية الشامل لجميع دول الأندلس وإفريقية. ولم يخص أحد هذا المغرب الأقصى بتاريخ خاص ينظم عقد جميع دوله في سلك واحد، ويستوعب تفصيل أخباره وجمله لا سيما في الأزمان المتأخرة عن زمن المؤرخ الشهير العلامة ابن خلدون فقد حصل في ذلك اضطراب وغموض لعدم وجود التواريخ الموفية بالمقصود، وقديماً قيل: إن أهل المغرب لا اعتناء لهم بتاريخ بلادهم وتدوين أخبار ملوكهم وعلمائهم وأعيانهم وذلك يرجع في الحقيقة لأمرين:

أحدهما أن المعتنين بعلم التاريخ والمنقطعين إليه قليلون بالنسبة للمتوفرين على دراسة العلوم الأخرى كاللغة والفقه والأصول مثلاً، غير أن من تصدى منهم لهذا الفن يبرز فيه ويجيد كما هو مشاهد ـ وليس الخبر كالعيان ـ إذ المغاربة معروفون بالإجادة في التأليف والتحقيق في المسائل التي

يطرقونها ويكتبون فيها وإن كانوا أقل تأليفاً وكتابة من غيرهم من أمم أخرى.

وثاني الأمرين: أن ما ألف وكتب في التاريخ المغربي قد اندثر جله وانعدم فرعه وأصله، لعدم الاعتناء بالنسخ وحتى ما يؤخذ من التآليف الخطية فجلها لا ينتفع به لكثرة التحريف والسقط والبتر وذلك لعدم ظهور المطبعة في الأقطار المغربية وقصور الهمم عن النسخ بالقلم.

ألا ترى أن البلاد المشرقية لما ظهرت فيها المطابع كمصر والشام أحيت سائر التآليف القديمة والفنون العلمية في الجملة فبقي ذلك محفوظاً سهل التناول، بخلاف بلاد المغرب ـ وخصوصاً الأقصى منه ـ فإن المطابع كانت معدومة فيه بالكلية إلا المطبعة الفاسية وهي لم تحدث بفاس إلا زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن. فبسبب هذا كله كان المتعاطي لفن من الفنون ـ لا سيما الغريبة منها ـ يتجشم المشاق الكبرى في الظفر بالكتب المؤلفة في ذلك الفن بقصد الانتساخ والمطالعة والتقييد.

ومما زاد الحالة حرجاً وتعذراً عدم وجود المكاتب العامة بهذه المملكة كما هو الشأن في ممالك أخرى بالبلاد المشرقية والأقطار الأوروبية، إذ لا يخفى أن المكاتب العمومية تسهل مهمة المؤلفين والكتاب، وتفتح لهم للتحرير والتحقيق كل باب.

فلأجل ما سطرناه من الأسباب لم يقنع مؤلف الاستقصا بما تحصل لديه من الكتب المؤلفة في تاريخ المغرب ورأى أن القيام بجمع تاريخ خاص مستقص لأخبار دوله محيط بتدوين حوادثه وتبيين عللها متعين على ذوي الهمم العالية من العلماء المغاربة فسمت همته أولاً لوضع تأليف خاص في الدولة المرينية لعدم عثوره على من استكمل أخبارها واستوفى آثارها ولانخرام سلك ملوكها فجمع تأليفه المسمى: «بكشف العرين عن ليوث بني مرين» فجاء تأليفاً ممتعاً غاية الإمتاع تستحليه العيون وتستلذه الأسماع ثم ترقى بنظره إلى وضع التاريخ الكبير المسمى: «بالاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» فشمر عن ساعد الجد والاجتهاد وجمع ما أمكنه من

التواريخ الإسلامية العامة والخاصة وطالعها كلها مطالعة تحرير وتحقيق، وقيد منها ما هو خاص بموضوعه واستعان على هذا العمل العظيم بمطالعة ما في الخزائن المخزنية المراكشية من المكاتب والتقارير والكنانيش السلطانية التي كانت محفوظة هناك حيث كان مستخدماً بتلك الحضرة سنة 1294هـ 1877م وما بعدها وتتبع جميع الآثار هناك خصوصاً القصور الملكية وآثار الدولة السعدية كقصر البديع وغيره حسبما أخبر بذلك، وكان ينفق في الوقوف على ذلك المال الكثير زيادة على ما كان يمده به أصدقاؤه وأحباؤه وخاصته من الوزراء والكتاب والأعيان والرؤساء والأمناء من الإحصاءات والمكاتيب والظهائر الشريفة والتقاييد الرسمية وما كان يقيده عن الرجال الطاعنين في السن من أخبار الدولة العلوية الشريفة والحركات السلطانية والأحوال الداخلية والخارجية، فاستوعب جميع ذلك حفظاً وتقييداً ولم يزل جاداً في تحرير ما ألزم نفسه القيام به، مكاتباً لجميع الأعيان في المغرب ملتمساً ما عسى أن يكون لديهم من التآليف والتقاييد وسائر المعلومات الراجعة إلى مطلبه حتى توفر لديه من المواد ما اطمأنت له نفسه وحصلت له به الثقة في نيل الغاية المقصودة والضالة المنشودة.

ثم قدر الله أن انتقل إلى مأمورية سامية بثغر الجديدة فاجتمع بها مع صديقه الحميم الباشا محمد الجراري فأمده بجميع ما تحت يده من المكاتيب الرسمية والظهائر المولوية المجتمعة عنده من أسلافه الجراريين من جيش الودايا القائمين بأمر الدولة العلوية المتقلبين من مناصبها العالية.

قال رحمه الله فيما حكاه: إنه ظفر منه بأكياس مملوءة أوراقاً كلها أعانته على تحرير أخبار الدولة الشريفة من التوقيعات السلطانية والتقريرات الوزيرية في جل القضايا المهمة.

ثم تاقت نفسه للوقوف على ما لا بد منه من التواريخ الإفرنجية خصوصاً الدولتين اللتين كانتا محتلتين شواطىء المغرب الأقصى وهما: البرتغالية والأسبانية.

فطلب من أحد القناصل الأوروبيين الذين كانت له معهم معاملات رسمية وودادية جلب بعض التواريخ في هذا الموضوع فجلب له منها ما تيسر واتخذ لذلك ترجماناً خاصاً من التراجمة الموظفين بإحدى السفارات الأوروبية فصار يترجم له تلك التواريخ ويقيد منها ما دعت الحاجة إليه حتى استوعب ما أمكنه العثور عليه ثم اتخذ كاتباً خاصاً لتدوين التاريخ المذكور فرتبه ووضع تراجمه وصار يمليه على الكاتب إملاء من غير تقييد ـ كما أخبر بذلك ـ إلا بعض المسائل المهملة التي تعرض أثناء التأليف حتى أتم إملاءه في مدة[1] يسيرة وذلك بثغر الجديدة في أواخر سنة 1297هـ 1880م.

ولما أتم تأليفه واطلع عليه السلطان المولى الحسن استحسنه وكتب له ظهيراً شريفاً بالتنويه به واهتم بطبعه ولم يتيسر ذلك في الحين لما ذكرنا من تعذر المطابع.

ثم إن صاحب الترجمة لما عزم على طبعه على نفقته بمصر وصل الكلام فيه إلى آخر دولة مولاي الحسن وأول دولة مولاي عبد العزيز وذلك في متم ذي الحجة عام 1311هـ 1894م فتم طبعه في أواخر رمضان عام 1312هـ 1895م على نسخة صححها بنفسه حيث إن نسخته الأصلية التي كان أملاها حفظت بالمكتبة السلطانية الخاصة بمكناسة الزيتون.

فهذا سبب تأليف تاريخ الاستقصا وكيفيته حسبما قرره المؤلف قيد حياته لأكبر أنجاله.

ومن هذا يعلم أن المؤلف تجشم مشاق عظيمة في جمع هذا التأليف وتدوينه لأنه لم يتيسر له العثور على جميع التواريخ المؤلفة في المغرب فضلاً عن غيرة لا سيما التواريخ الأوروبية لعدم معرفته بالألسن الأجنبية وكون

(1) ذكر المؤلف في آخر النصف الأول منه أنه شرع في إملائه منتصف رجب عام 1297 هـ وفرغ منه في منتصف ذي الحجة من السنة المذكورة، وعليه فتكون المدة التي استغرقها في إملاء النصف الأول خمسة أشهر فقط اهـ صفحة 155 من الجزء الثاني طبع مصر عام 1312.

التآليف الخطية جلها محرف مصحف ولا توجد مكاتيب عمومية تعين على تحقيق ما يعرض من المسائل الدقيقة حسبما سبق بيان ذلك؛ فللمؤلف العذر فيما لم يمكنه تحريره من تاريخ البربر ودول المغرب قبل الإسلام وربما يظن بعض المؤلفين بعده ممن وقف على تأليفه هذا أنه قصر في سياق بعض الأخبار مع أنه نثر ما في كنانته وأتى بما في وسعه وطاقته وما لم يتعرض له أو ضرب عنه صفحاً إنما ذلك لمقصد سياسي خصوصاً فيما يرجع للأعصر المتأخرة، إذ لم يكن الوقت يساعد على ذكر كل شيء لا سيما والهيئة الاجتماعية التي ألف لها التأليف إذ ذاك ما زالت في حالة لا تقبل أكثر مما ذكر والإنسان ابن وقته وهو ملزم بمسايرة أبناء عصره.

ولو أتيح له الوقوف على بعض ما هو موجود الآن من التآليف والإحصاءات بغير لغته لكان بادر إلى ترجمته واستخراج فوائده ودرره لأنه كان معروفاً بسمو الهمة متعطشاً لكل ما يمس بتاريخ هذه الأمة ومن أتى بالمستطاع ففوق جهده لا يلام.

هذا وقد ترجم تاريخ الاستقصا إلى اللغة الفرنسية واشترك في ترجمته جماعة من المستشرقين، فقام بترجمة القسم الأول القنصل الفرنسي المسيو كرول[1]، والقسم الثاني المسيو كولان[2] المستشرق الفرنسي، والقسم الثالث الأستاذ إسماعيل حامد الجزائري، والقسم الرابع أحد أنجال المؤلف المحررين لهذه الترجمة وهو الأستاذ محمد، والقسم الخامس المسيو فيمي[3] الفرنسي، وطبع الجميع في مجموعة «أرشيف مارو كان»[4]. كما ترجمت منه قطع وتراجم أخرى مختلفة في موضوعات شتى ترجع للسياسة والاجتماع المغربي إلى الأسبانية والبرتغالية والإيطالية والإنجليزية الخ. وبالجملة فهو عمدة المؤرخين ومورد المستشرقين وقد طبقت شهرته الخافقين ولم يظهر إلى حد الآن تاريخ مغربي يوازيه أو يغني عنه ويسد مسده فهو العمدة والمؤرخون عيال عليه.

(1) Graulle. (2) G. S. Colin. (3) Fumey. (4) Archives Marocaines.

وفـاتـه:

لما انقطع صاحب الترجمة عن الأشغال المخزنية وتفرغ للكتابة والمطالعة والتأليف وتأديب أكبر أنجاله وتزويده بالعلوم العربية التي خاض فيها ولا تستفاد من غيره إليه. لزم بيته فكان لا يخرج منه إلا لإلقاء درس أو أداء فريضة دينية فتسبب عن قلة حركته وتعب فكره بالسهر والمراجعة وحل عويص المشكلات ضعف في قواه البشرية. فبدا له أن يخرج إلى مزرعته بالبادية قاصداً صلة الرحم مع أخيه الذي كان مقيماً هناك، وبعد ذلك يتوجه لزيارة ضريح الشيخ المولى عبد السلام بن مشيش بجبل العلم ويعرج على تطوان والعرائش ويتفقد أحبابه وأخواله المستوطنين هناك عسى أن يجد راحة مما ألم به من تعب الفكر وضعف القوى البشرية.

ولما أزمع على تنفيذ هذا العزم المهم فاجأه المرض فأظهر التجلد لمن كان يريد مرافقته في هذه الوجهة ثم أعرض عن ذلك ووجه معهم ولده الأكبر محمد العربي واستمر به المرض نحو نصف شهر، وكان يتزايد يوماً فيوماً ولم ينجع فيه علاج الأطباء الماهرين إلى أن توفاه الله في غيبة ولده المذكور طلوع فجر يوم الخميس السادس عشر من جمادى الأولى عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف هجرية الموافق للثاني عشر من أكتوبر سنة سبع وتسعين وثمانمائة وألف مسيحية.

واحتفل أهل العدوتين (الرباط وسلا) احتفالاً عظيماً بجنازته مع المحافظة على السنة طبق ما أوصى به ليلة وفاته ولم يتخلف أحد عن مشهدها من كبير أو صغير. ودفن ضحوة اليوم المذكور بالمقبرة المعروفة بمقبرة باب المعلقة من سلا خارج الباب المعروف بهذا الاسم وقبره معروف مشهور هناك يقصد للزيارة، يبعد عن شاطىء البحر المحيط بنحو المائة وخمسين متراً. وبعد الفراغ من دفنه جاء الغيم والسحاب من كل جانب، ثم أرسل الله الغيث فسقى قبره رحمة وأمناً، وتوالت الأمطار تنزل مكررة حتى تلطخت المباني وعصفت الرياح والزوابع وسقطت الحيطان وقلعت الأشجار

من أماكنها وعم ذلك المغرب كله وكان الحادث عظيماً أفزع الناس وأخبر الطاعنون في السن منهم أنهم لم يروا مثله فيما مضى واسترسل ذلك إلى الليل، وما زال الناس يؤرخون بيوم وفاته لما وقع فيه إلى الآن ويعتقدون اتصالاً بين وفاته وبين هذه الحوادث الجوية لما كان له من التعظيم والوقع في نفوسهم.

ورثاه جماعة من أهل عصره بالقصائد البديعة منهم تلميذاه الفقيه المؤرخ محمد بن علي الدكالي السلاوي، وأديب سلا الفقيه الحاج الطيب عواد وغيرهما نظماً ونثراً (رحمه الله). فأما قصيدة محمد بن علي الدكالي فمطلعها:

ما ذا يكف مدامعي وهيامي ... وقد انكوى قلبي بنار حمامي؟
من كان مغتراً بأحلام الدنا ... فكأنه فيها من النيام

إلى أن قال:

أو ما نرى في كل حين ناعياً ... يصمي النهى في الصحب والأعلام؟
لم يخل عصر دون خطب فادح ... ومصيبة في أنجم الإسلام
كمصيبتي في فقد أحمد ذي العلا ... أعني أبا العباس، خير إمام

إلى أن قال:

في كل قطر عنه ذكر شائع ... بالشكر والإجلال والإعظام
لكن هذا الدهر يطوي مثله ... ويجوز ما أسدى من الإنعام
بينا أبو العباس ينشر فضله ... ويحوطه ببنانه، ويحامي
إذ جاءه كأس الحمام كما أتى ... من قبله رفعاً إلى آدام
كل الحوادث للفناء مصيرها ... فإلى متى نصغي إلى الأحلام
لا بد من يوم ترد ودائع ... فيه، وينهى العمر للإعدام
مد الحمام يديه نحو علائه ... فغدا يلبي في سرور الأنام
ما راعه هول الحمام وبطشه ... بل صحت الأفكار بالأسقام
لم يخل من ذكر الإله وحبه ... والشوق للمولى وذي الإكرام

ما زال يوصي بالمهم ويخشى … من بدعة تبدو بذي الأيام
حتى قضى ذاك الهمام مهنئاً … بالعفو، والغفران، والإنعام
بكت العيون مع القلوب لفقده … حتى السماء بكت بدمع هامي
غيث أصاب القبر منه رحمة … وبشارة ببلوغ كل مرام
وجرى بيوم الفقد أمر ما جرى … في سالف الأعصار والأيام
عصفت رياح الجو حتى زلزلت … راسي البناء ومعظم الأجام
واغبر وجه الأفق وانصب الحيا … يحكي دماء الجرح والآلام
خطب أقام قيامة وكسا السما … ثوب الحداد لفقد بحر طامي
حجبت عن الأبصار شمس نهارنا … لما اختفى بالرمس بدر تمام
أسفي على تلك المعارف بعده … من ذا يقوم بحفظها ويحامي؟
أسفي على أخلاقه وصفائها … وسنائه الوقاد في الأظلام
أسفي عل فك العويص ومن له … بعد ابن ناصر ناصر الإسلام؟
أسفي على علم الحديث وسيرة … ومناقب الأنصار والأعلام
أسفي على التفسير بعد غيابه … من يحسن التحقيق في الإبهام؟
أسفي على آدابه وعلومه … فقدت بفقد جلاله المتسامي
أسفي على علم الأوائل سامه … فأطاعه العاصي بلا إلزام
كان المشارك في جميع أصوله … والمنتقي المعين كل مرام
وأعاد ميت العلم حياً خالداً … بالنشر والتأليف والأحكام
من ذا يحقق بعده من أمر ذا … ما أشكلت معناه للأفهام؟
لهفي على تلك المواقف من يقم … بقيامه فيها، وحسن كلام
لهفي على نصح العباد ووعظهم … ذهب الكفيل بكل ذا، والحامي
يا دهر بع ما شئت من رتب العلا … إن الجدير بها رهين حمام
عجباً لعصر صار يخفي مثله … وبه سما أكرم بخير إمام

إلى أن قال عند ختمها وهي طويلة:

أرخت عام وفاته فأتى بذا … شرف له يتلى على الأيام

15 1280
1315

وأما قصيدة الأديب الحاج الطيب عواد فقد توجها بنثر نصه:

ولكاتبه سامحه الله يرثي شيخه إمام المعقول والمنقول، وقبلة الأيمة الجهابذة الفحول، من بكت لفقده الخضراء، وزلزلت الغبراء، وانقضت الشماريخ، وذيل بيوم موته التاريخ، العالم العلامة النحرير، المخصوص بكمال التحقيق وأساليب التحرير، صدر الصدور والمدارس وزينة المحافل والمجالس، المرقى بهمته لنيل المزايا والسلم، المبهم بالبراهين الساطعة لمن بهرج بزخارف القول وتكلم، من ارتشف من ثدي الفصاحة والبلاغة ورضع، وسجد له يراع البراعة في زوايا الطروس وخضع، الروض الهتون، وصاحب الفلك المشحون، أبو الاستقصا، وراوية المغرب الأقصى، الحاوي من كل فن الطارف والتالد، أبو الغباس أحمد بن أبي البقاء خالد الناصري، وذلك بعد انتقاله لدار البقاء، بمدة مديدة، وسنين عديدة، مضت كالسنة، تناهز الست عشرة سنة، واجهنا الله وإياه بوجوه السرور، الباسمة الثغور.

أهالي الطول بعد الطول ترثي ... بما أكسبوه تعصيباً وارثا
لقد كانوا محل الروج منا ... كما كانوا لتلك الروح جنثا
ومذ أفلت شموسهم وغابت ... نجومهم، بقينا ـ حوث ـ يوثا
ولا كالجعفري الطول المكنى: ... أبا العباس، من قد كان ليثاً
مهيباً، بل هماماً، بل إماماً؛ ... يحث على خصال الخير حثا
ومن نشر العلوم بحسن قصد ... وعن تحصيلها القوم استحثا
له فيها اليد الطولى جميعاً ... ويعطي صعبها نظراً وبحثا
سمين نتاجه لا زال غضاً ... وما كل السمين يصير غثا
يجد السير في طلب المعالي ... ولا يرضى، إذا ما جد مكثا
إذا ما مثله في ذا تواني ... فمنه لا ترى عجزاً وريثا
أبو عزم، وجد، وانتقاد ... يبث العلم والأسرار بثا
ويرشد لاتباع الخير جهراً ... وينفث جوهراً من فيه نفثاً
على نفع العباد يرى حريصاً ... يود عمومه، ذكراً وأنثى

يجل المستفيد ويرتضيه | إذا استفتى وإياه استبثا
معاذ الله إن أعطاك عهداً | ترى يوماً له نقضاً ونكثا
إذا ما سل سيف النصر يوماً | محا من رام إفساداً وعيثا
ففي سد الذرائع كان فرداً | ومالك وقته أو كان ليثا
وإن تحرز مفاخرة تجده | حوى شطر الفخار، وزاد ثلثا
إذا ما أمحلت أرض المعاني | سقاها من سماء الفهم غيثا
فتصبح في اخضرار وابتهاج | تطاوع من يشا نسلاً وحرثا
وحقك ما رأيت له نظيراً | ولست ترى لقول الحق حنثا
على فقدانه تبكي البواكي | فقد أمسى رداء المجد رثا
وموئل من تراه إلى فناء | أبى المولى بدار الحزن لبثا
سقى مزن الرحيم له ضريحاً | يصاحب روحه حشراً وبعثا

إلى غير ذلك من القصائد والقطع الشعرية والنثرية، تغمده الله بغفرانه وعامله برضوانه، ومهد له في الفردوس الأعلى من جنانه، وجزاه عما قام به من خدمة الدين والوطن بنشر العلم الصحيح والإرشاد إلى طريق الحق والصدع به والذب عن السنة ورفع لوائها خير ما جزى به من آمن بالله ودعا إليه وعمل صلحاً وأولئك هم المفلحون.

تقديره:

لما كان المترجم له رحمه الله بالمنزلة التي بوأه الله إياها علماً وفضلاً وشهرة وذكاء ونبلاً فقد قصده الجم الغفير من علماء وطلبة وقته وترددوا إلى بيته، ولازموه للأخذ عنه فانتفعوا به، واعترفوا بفضله، وخصوه بالثناء العاطر، والمدح الفاخر نظماً ونثراً، فمن ذلك ما ترجم له به أحد أعيان تلامذته العلامة المؤرخ أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في تاريخه المعنون: «بأزهار البستان في أخبار العدوتين ومحاسن الأعيان»، ما نصه:

الشيخ العلامة المشارك الأستاذ الفاضل أبو العباس أحمد بن خالد الناصري الجعفري رحمه الله. من بيت جلالة ودين، وشرف نسب وحسب

راسخ العمد مكين، يتوارثون المجد طريفاً وتليداً، ويتوشحونه والداً ووليداً، وهذا السيد في محاسنه أعجوبة وحده، ولست أدري بما أصف كماله ومجده؛ كان آية الله ذكاء ونبلاً، وتحصيلاً وفضلاً، وهمة ناكبت السهى، وتحقيقاً في المعارف بذ فيه النهى، أتقن العلوم الآلية فكان فيها إماماً، وحرر المقاصد من سواها فملك منها زماماً، فهو إنسان كامل، لم يحلم الدهر بمثله ولا يعثر له على نظير فيقاس بشكله، وقدماً قيل: إن النفيس غريب حيثما كانا.

مشارك محصل، مضطلع منصف في علوم شتى، من ذوي المروءات والاحتفاظ بالرسوم الدينية والأخذ بالجد والنهج الواضح، لا تأخذه في الله لومة لائم، أخو وقار لا تهزه العواصف، ورقة تسبق في اللين العواطف، وله تحقيق بجزئيات العلوم وكليتها وأصنافها وأشتاتها، خالط المألوف منها والمتروك، واستصفى من قديمها لباباً ما خالطته الظنون والشكوك، ملأ ذكر آدابه المغارب والمشارق، وحلى لبات الدواوين بطنانات قصائده المسطورة في المهارق. وله تآليف شتى في أكثر العلوم ما بين مطول مفيد، ومختصر للمستفيد، ولسانه في المحاضرة والدرس كقلمه في التصنيف والإملاء، طويل الباع، رحب الذراع، طلق العنان، بالحجة والبيان، ملآن بالبرهان. عريض الفذلكة للوقوف على المقصود بإمعان فصيح التعبير ذلق اللسان بالحجة، عصامي النفس، صعب المقاد إلا في طريق الحق، فألين من كف عذراء محدرة، له اضطلاع تام بالأصلين وإحاطة كبرى بالعلوم اللسانية، وله في المنطق ملكة عجيبة، وفي الفقه لا يجارى. أما علوم الأدب فهو ابن بجدتها الهمام، عارف بأحوال الزمان وذويه مشاور في دولة السلطان المقدس مولاي الحسن أمير المؤمنين ألحفه الله رضوانه، وأيام الوزير الكبير أبي العباس أحمد بن موسى بن أحمد رحمهم الله.

وبالجملة فهو الجامع لأشتات المكرمات، والحائز قصب السبق في سائر المعلومات، دروسه محافل للتحقيق، وتآليفه رياض مونقة بالتحرير والتدقيق، وأشعاره السحر الحلال، أو الماء الزلال، وأخلاقه حسنة تأخذ بمجامع

القلوب رقة وظرفاً، ونزاهة ولطفاً، وفكاهة يستنزل بها الهم من صياصيها ويقود الشرود من نواصيها، مجالسه في المحاضرات نزه للأسماع والأرواح، ومسرات للقلوب والأشباح.

أحاديث لو صيغت لألهت بحسنها عن الدر، أو شمت لأغنت عن المسك

وله مع هذه الحالة دؤوب على المعارف وعكوف، أخبرني رحمه الله بمدينة فاس سنة ست وثلاثمائة وألف أنه أقام في مطالعة مقدمة تاريخ العبر لولي الدين ابن خلدون خمسة أعوام يفك معناها، ويتفهم مغزاها، حتى لاح له من محياها يوح، وامتزجت علومها الجمة بفكره فسرت في تاموره مسرى الروح. وكان يستظهر ديوان أبي الطيب المتنبي ويعجب بمحاسنه وخصوصاً بما فيه من الحماسة ويطرب لسماع إنشاده.

وكان علماء تلك الحضرة الفاسية يعرفون قدره ويجلونه غاية الإجلال ويتعجبون من وجود ذلك الفرد على تلك الخال حائزاً لصفات الكمال، ولا بدع فإنه انفرد بالمعارف في وقته، وعز أن يلحق في نعته. كان شيخ الحرمين الشريفين شيخ شيوخنا العلامة الصالح أحمد بن زين دحلان رحمه الله وجه للمغرب الأقصى على تاريخ جامع استوعب أخبار ملوك المغرب من لدن الفتح إلى عصرنا، فلم يلف على هذه الصفة إلا تأليف شيخنا صاحب الترجمة المعنون بالاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى فوجه للسيد دحلان منه نسخة فأكبر شأنها وطار بها سروراً وعجب من وجود مثل ذلك التاريخ العجيب في زمانه وأثنى عليه، ودعا لمؤلفه، حدثني بذلك الثقة عمن حدثه عن السيد دحلان المذكور.

وأعجب من ذلك ما حدثني به شيخنا صاحب الترجمة رحمه الله بمدينة فاس أيضاً أنه لم يتكلف في جمعه لذلك التاريخ العجيب مشقة ولا أطال فيه مدة، بل أملى جله إملاء بالجديدة صانها الله لما كان مستخدماً بها محرراً بدون تسويد ولا إعادة تخريج، ومثل ذلك غريب في صناعة التأليف عند من يعانيها ولكن مثل شيخنا المتسع العارضة الصحيح الأفكار السالم الذهن لا

يحتاج إلى تسويد أو إعادة تخريج، فتبارك الله أحسن الخالقين. وقد ألم ببعض محاسن هذا الإمام الفاضل خاتمة الشعراء المجيدين بسلا حاطها الله أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات رحمه الله حيث يقول في قصيدته البائية التي مدحه بها ومطلعها:

بـــأمـــي أنـــتـــم وأبـــي　　　بـــرغـــم مـــكـــابـــر وأبـــي[1]

وترجمة هذا الفاضل أوسع من أن يحاط بها وفي هذه الصبابة كفاية للعجلان، وبلغة تسد رمق اللهفان، وإلا فمزاياه ومحاسنه وماجرياته تخص بديوان، انتهى.

ومرض صاحب الترجمة مرة مرضاً شديداً حتى خيف عليه منه ثم تداركه الله بالراحة والعافية ففرح بذلك أهله وذووه ورفقاؤه وتلامذته، وهنأه بالعافية تلميذه أبو عبد الله محمد بن علي المذكور بالقطعة الآتية:

حق الهناء وجاءت السراء　　　وانزاح عنا الهم والأسواء
وتوالت الأفراح في تنسيقها　　　والأيك قد غنت بها ورقاء
والروض فاح عبيره، وتناثرت　　　من زهره الحمراء والصفراء
ونثار طل في اخضرار غصونه　　　كالدر، لكن أرضه خضراء
وبشير يمن مسفر عن غرة　　　ضاءت بنور جبينها الأنحاء
لما بدا وصف الشفا لإمامنا　　　حبر العلوم، سرت بذا الأنباء
علامة الدنيا، وفرد زمانه　　　من وصفه التأليف، والإفتاء
والدرس والنصح الذي عم الورى　　　والذكر والتقييد والإملاء
العالم العلامة الطود الذي　　　علمت جلالة قدره الزوراء
شيخي أبو العباس أحمد من صفت　　　أخلاقه، يحكي صفاها الماء
وتكاملت أوصافه وتعددت　　　آثاره المحمودة الغراء
دامت سعادته ودام شفاؤه　　　ما عطرت من ذكره الأرجاء

---

(1) سنأتي بهذه القصيدة بتمامها في هذا الفصل.

وقد ذكره أيضاً أبو عبد الله ابن علي المذكور في تأليفه المسمى «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» قال:

ومنهم الشيخ أبو العباس — أحمد صدر الجلة الأكياس
وهو ابن خالد بن ناصر، العلم — الأوحد الفرد النزيه المحترم
آخر أهل الفضل علماً ودهاً — وخبرة جلت. وجازت السهى
مشارك محصل محقق — فهامة دراكة مدقق
مؤرخ نسابة إخباري — محاضر مخالط الأكثار
محدث أخو أصول وفروع — عنده لكل عرفان نزوع
وشارك الأعلام في التعالم — وللذي بعد الطبيعة نمى
وكان في الرياضي والمسيقى — أخا دراية، وذا تدقيق
واضطلعت أفكاره لما بدا — من المعارف جديداً فغدا
مستشرفاً لهما وصار دريا — بجلها، ولخفاها حريا
فعظم الفيد وجل الخطر — وكثر الخير وطاب الخبر
فلم يكن في عصره مماثله — ولا مقارب له يشاكله
وفي الذي ألف أعظم دليل — على مقالنا، فراجع واستدل
ألف في التاريخ والأداب — والفقه والرسم وفي الأنساب
وغيرها من فائد الأوضاع — مما ينيل الفيد، كالإمتاع
حاور منكراً وجود الصانع — بما أفاده بوجه نافع
وعاد للحق بأوضح دليل — وأسهل الطرق ببرهان جليل
وهو مسير سفن البحار — بغير ربان، ولا مجاري
بل وحدها تسافر استقلالاً — فأظهر الدهري لذا اختلالا!
قال له الشيخ: كفاك فاعترف! — فإنما الكون كما قبل وصف!
سفينة ليست تسير وحدها! — ومن يدير جمعها وفردها؟
قال: يقال قوة لا تعرف! — وإنما بقدرة تتصف!
قال له الشيخ: بلى، رب الوجود! — هو مدبر الخفاء والشهود!
وما زعمتم قوة ليس كذاك — فإنما الجهل محيط بسناك!

فاعترف الدهري بأن الصانعا مدبر الكون ولا منازعا!
والتزم التقبيل للنعال لما بدا الحق بلا إشكال
وكان في الدرس فصيحاً ممتعا ينفع من خص ومن عم معا
وفي الخطابة تخال قسا وفي المحاضرة جل أنسا
وكان كشكولاً لكل فضل وعيبة ليس لها من مثل
وهو إمامي ومفيدي الأكبر وهو ملاذي بسلا المعتبر
لازمت درسه لدى التفسير في معظم القرآن بالتحبير
وفي سواه لم أزل مرددا لفيده وللمعالي مسندا
سحت عليه سحب الرضوان في كل حين بارتفاع شان
قضى بأرضة سلا حميدا بعام يه[1] عصرنا رشيدا
وفقدت بفقده المعارف ومن سحاب الغيث صب واكف
على ثراه عندما فرغنا من دفنه وربنا دعونا!
وأرسل الجو بريح عاصف! واتصل الغيث بما لم يوصف!

وممن مدحه أيضاً أديب سلا في وقته أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات السلاوى قال:

بأمي أنتم وأبي برغم مكابر وأبي
أخلائي وإن خنتم وضرب الخل كالضرب
محاسنكم وحاسدكم كخذلان ومكتئب
سبت عقلي - ولا عجب - فكم غيري بهن سبي
أحبكم وكم حب ترى خيراً من النسب
وسر الحب في قلبي قلوب الناس كالقلب
نصبت لرفعكم أملي لكي أنجو من النصب
صلوا عبداً لكم أضحى سدى متقطع السبب

(1) أي عام خمسة عشر.

يحن إلى الذهاب إلى رضاكم لا إلى الذهب
تقربه إليكم بالـ ـخضوع لكم من القرب
ومطلوبي لأن أحظى من الرضوان بالأرب
لعل الله يغفر لي بفضلكم ويلطف بي
وراجيكم وآملكم وايم الله لم يخب
ألا يا أحمد المجلي محياه دجى الكرب
جمعت من المعالي كـ ـل مجتمع، ومنشعب
زها بك كل ديوان من الأشعار والخطب
وقد عرفتك أنواع الـ ـعلوم بدون ما ريب
وقد نشبت بنهيتك الـ ـمعاني كل منتشب
وقد ألقت أزمتها إليك تقول: ها سلبي
سلا عما ذكرت سلا بتصديقي إذا تجب
به زانت محاسنها كزين اللحظ بالهدب
به تاهت على الأمصا ر تسحب حلة العجب
به افتخرت على الأحبا ر فخر الأفق بالشهب
لقد فاق الورى طراً بحسن الخلق والأدب
وناديه الباهي العاري من الأفحاش والصخب
تمهر في العلا طفلاً ونال الفخر وهو صبي
مقر العلم مقربه قرير الجفن بالكتب
رمى أغراض معناه بأسهم فهمه الصيب
فلم تعب الذي قد حيا زمن شيم ولم تعب
حييت بنصرة يانا صرى على ذوي الحرب
وخلد فضلكم يا خا لدي لرفع مكتتب
ظفرت بكل مختار لذي أمل ومنتخب
وحسبك يا أبا العبا س ما قد نلت من حسب
بنفسك أنت سدت فلم تقل للفخر: كان أبي

على أن العلا تنمي ... إلى آبائك النجب
نحارير مشاهير ... ذوو الأقدار والرتب
لقد سادوا وقد قادوا ... وقد جادوا بمطيب
لهم قصب السباق يرى ... فيما لله للنصب
لزوم المكرمات لهم ... لزوم الكف للشعب
مفاخرهم لها في كـ ... ـل عصر شهرة الشهب
ألا يا لائمي فيهم ... لقد أفسدت فارتئب
متى أضحيت في تعب ... بتعنيفي ولم تعب
فهم قومي الذين بهم ... أؤمل نجح مطلبي
أساتيذي وأشياخي ... حماة الصارخ الشجب
بهم وإليهم لا زا ... ل مفتخري ومنتسبي
ومن أعراضهم هربي ... وفي إقبالهم رغبي
إلى أحسابهم أبدا ... ياكم صاد وكم سغب
بهم ضاءت مغاربنا ... ضياء البدر في المغرب
وأشرق في المشارق نور ... بهجتهم، فسل تجب
أجل جلة قاموا ... بسنة خير كل نبي
محمدنا أجل الخلق من ... عجم ومن عرب
صلاة الله دائمة ... عليه لمنتهى الحقب
كذا أهلوه ما ضحكت ... بروق من بكا السحب
وأصحاب وأنصار ... مع الأزواج والعقب
أبا العباس ته فخراً ... على إرغام كل غبي
فأنت المرء في نبل ... وأنت الفرد في أرب
وأنت البحر ما تلفظ ... بالياقوت لا الحطب
عصامي عظامي ... حميد البعد والقرب
أحق فتى تحلى بالـ ... ـزكي النفس والحسب
وبالعلام والاستا ... ذ والنحرير والأرب

وبالعدل الرضي الـ ـمرضي ذي الإنصاف والهذب
ومشكلة جلوت عن غوامضها دجى الريب
بتحقيق وتدقيق وتوضيح وكشف خبي
توقفها عليك كما مسببة على السبب
وكم علم حدائقه بغير شذاك لم تطب
وأغراض لمعناه بدون حجاك لم تصب
فيا قاموس قد أربى على الأيام بالعجب
فلا تنفك زخاراً بلج العلم والأدب
لتبعث لي سميك من بويبى أخرى طلبي

وقد مدحه أيضاً الشيخ العلامة القاضي الأديب الحاج أحمد سكيرج بقصيدته التي قرض فيها تاريخ الاستقصا وهي :

إذا رمت تاريخاً لمغربنا الأقصى عليك بتأليف يسمى بالاستقصا
كتاب تجلت فيه صورة من مضى لدى كل ذي عينين يفحصها فحصا
تجلت مرائيها بمرآته التي صفت وانجلى فيه القريب مع الأقصى
كأنك إن تقرأه كنت معاصراً لمن صار عنهم، مخبراً بالذي أحصى
فراجع إذا ما شئت كل مؤرخ ترى ممن الاستقصا ما فيه قد خصا
يعبر فيه بالحقائق كاشفاً خفايا أمور قد مضت طبق ما نصا
وقد شاد في أوج الكمال قصوره بغير قصور وهو عنه نفى النقصا
وكم من حسود رام ينكر فضله ولكنه في الناس في ريقه غصا
فطالعه تشهد بالذي قد شهدته فكم شاهد يتلوه منه نفى الخرصا
مؤلفه الحبر المبرز أحمد محامده لم يحصها الناس باستقصا
وقد جد في تحريره في «جديدة» فجاء جديداً فيه سهل ما استعصى
وقد جاء تأليفاً بأسلوبه سبى نفوساً بتحقيق لها قرب الأقصى
فأكرم بهذا الناصري الجعفري الذي به كان في نشر المعارف مختصا
جنى زهر أفنان الفنون لطالب وطلعتها للمشتري تنتج الرقصا
فجازاه خيراً ربه في الذي به أفاد وأعطاه مكارم لا تحصى

وبـارك فـي أنـجـالـه وأنـالـهـم ... كمال الرضى فيما به عم أو خصا

وأثنى عليه أيضاً في القصيدة التي خاطب بها أنجاله بقوله:

وأبوهم محيي مآثر من مضى ... في عصره بمناقب لم تنكر
وهو المبجل أحمد ذو المنصب الـ ... أسمى السلاوي الناصري الحبر السري
المتقن التأليف حقاً للعلو ... م وللقلوب بخبرة وتبصر
فانظر للاستقصاء فهو به أتى ... في عالم التاريخ أصدق مخبر
ولديه في الآداب والأنساب ما ... هو زهر أفنان وطلعة مشتري

وممن ترجم له في فهرسة أشياخه وأثنى عليه الفقيه العلامة القاضي عبد القادر المراكشي داراً، الدكالي أصلاً رحمه الله قال:

ومنهم علامة زمانه، ونادرة قطره وأعجوبة أوانه، العالم العلامة الحبر الفهامة، رئيس العلوم وجبل التقوى، وشيخ من أسند وروى، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، إذا شملتك أندية دروسه ترى حبراً بحراً، وعالماً هو بجميع أوضاع العلوم أعلم وأدرى، يوضح من كلام الفحول كل ما أشكل، ويحل من مقفلات المسائل ما تعاصى عن الأفهام وأعضل.

فلله من حبر يفيد جليسه ... بما يملأ الأوطاب زبداً ومن عسل

قرأنا عليه بمراكش في حدود سنة 1295 مقدمة تلخيص القزويني كلها بمختصر السعد ومطالعة المطول والأطول، كان يجلس بعد صلاة العصر إلى أن يتدانى الغروب، ومجالس من الصحيح وشمائل الترمذي بقصد الأخذ ومذاكرات وتحقيقات وإفادات الخ.

هذا وقد أطبق أهل عصره ومن بعدهم على الثناء عليه، والشهادة له بطول الباع وسعة الاطلاع، والاستقلال التام في الفكر والرأي والمجاهرة بنصرة السنة والتحذير من البدع والصراحة في القول بالحق ولو كان مرّاً، مع الإخلاص في محبة وطنه المغرب الأقصى، والتفاني في سبل الدفاع عن كيانه الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والأدبي بقلمه ولسانه، ومحض النصح لذوي الأمر والرياسة في وقته وتحذيرهم مغبة التواني

والتفريط والأخذ بالحيطة وسلوك السياسة الناجعة في تدبير شؤون البلاد وتسيير دفة إداراتها في الخارج والداخل.

وقد ترجم له الجم الغفير من الكتاب والمؤلفين المسلمين والأوروبيين ونقلوا عنه واعتمدوه في أبحاثهم الاجتماعية والتاريخية والدينية بحيث لا تكاد تجد موسوعة أو فهرساً إلا وله فيه ذكر.

ولو تتبعنا من كتب فيه من المسلمين والفرنسيين والأسبانيين والبرتغاليين والإنجليز وغيرهم لطال بنا الكلام فيما أصبح معلوماً عند أرباب الصحف والأقلام.

خاتمة:

لقد تحصل من سرد سيرة وأخبار حياة هذا الرجل المنقولة عما كتبه عن نفسه وما هو مقرر معروف من أحواله في عائلته وقومه وما يستنتج من مطالعة مجموع مؤلفاته ونتف أفكاره أنه كان نسيج وحده، وفريد دهره، كأنما كان ينظر إلى المستقبل من وراء حجاب، ويكشف عن أحوال الدهر بنور أفكاره الصائبة النقاب، ولو نشأ في عصر غير الذي نشأ فيه، وأمة أرقى من التي أوجده الله فيها لظهر منه العجب العجاب.

وهذا مع كونه لم يفارق هذه الأقطار المغربية، ولم يطلع على لسان من الألسن الأجنبية، ومع ذلك فقد طرق مواضيع شتى في فنون مختلفة برهن فيها على كمال مقدرته وسعة مداركه في عصر لم يكن أحد من أبناء جلدته يهتم بشيء مما كان يرمي إليه أو يقدر قدر العلوم التي خاض فيها، أو تصدى إليها ويعرف أهمية المنازع الاجتماعية والأخلاقية التي كان يهتم بها فجزاه الله خيراً على ذلك. وقد بسطنا ترجمته في محل غير هذا وشرحنا جل هذه النقط التي ألمعنا بها في هذه العجالة. وفي هذا القدر كفاية ومقنع.

18 ربيع الأول 1340

19 دجنبر 1921

جعفر الناصري ـ محمد الناصري

كتاب

الاستقصا
لأخبار دول المغرب الأقصى

تأليف:

الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

الجزء الأول



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الملك المعبود[1]، الرؤوف الرحيم الودود، المخرج للخلق من ظلمة العدم إلى نور الوجود، الفاتح عليهم بمعرفته، والتحقق بوحدانيته، كل باب مسدود، الدال لهم على باهر حكمته، وعظيم قدرته، بالمعنى المعقول والحس المشهود، فلا يرتاب في أنه الواحد القدير، العليم الخبير، إلا الكفور الكنود، خلق العباد وقدر آجالهم، وأحصى أنفاسهم وأعمالهم، وأوقفهم من شرعه على نهج سوي وحد محدود، فمن وقف عنده وأطاع، فقد فاز من ثمرة الإيجاد بالمقصود، ومن حاد عنه واستكبر، فقد أورد نفسه الردى وبئس الورد المورود، نحمده تعالى على ما أسبغ من النعم البيض وكسا من البرود، وأزاح من العلل ووقى من النوب السود، (ونشهد) أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة نتبوأ بها من الجنان السدر المخضود،

(1) الحمد لله، يقول مؤلف هذا الكتاب أحمد الناصري عفا الله عنه. إني ألتمس ممن يقف عليه من ساداتنا العلماء ـ وفرهم الله ـ أن ينظر فيه بعين الإنصاف حسب الإمكان، بل وبعين الإغضاء عما لا يكاد يسلم منه إنسان، وأن يعاملنا فيه بمقتضى قول القائل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه: كل كلام منه مقبول ومردود، إلا كلام صاحب هذا القبر ﷺ. وإذا كان الشيخ خليل رضي الله عنه على علو قدره في العلم أو التحقيق، وطول باعه في التحرير والتدقيق يقول: وأسأل بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع أن ينظر بعين الرضا والصواب. . الخ فماذا عسى نقول نحن حثالة الحثالة في هذا الزمان الذي انمحى فيه من العلم حقيقته ورسمه، ولم يبق منه إلا اسمه. اللهم استر عوراتنا، وامن روعاتنا، واغفر زلاتنا، وارحمنا بفضلك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين آمين. وكتب في أواسط رجب الفرد الحرام عام 1306.

والطلح المنضود، والظل الممدود، (ونشهد) أن سيدنا ونبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله أكرم مبعوث وأشرف مولود، صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم في محافل السلم بدور وفي جحافل الحرب أسود، ولهم في اتباعه ونصرته اليد البيضاء والباع الممدود، والدعاء لأمير المؤمنين مولانا الحسن ابن أمير المؤمنين مولانا محمد ابن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمٰن كوكب السعود، ومنبع الكرم والجود، والمنير بطلعته الغراء، وإمامته البيضاء، الأغوار والنجود، لا زالت به ملة الإسلام بحول الله في صعود، تردي الكفر وتنفي البغي وتذود، وتصول على الضلال وتسود، آمين (وبعد) فيقول مؤلفه أحمد بن خالد الناصري السلاوي عفا الله عنه: هذا ـ بعون الله ـ كتاب الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى، كتاب جمعته لنفسي، ولمن شاء الله من أبناء جنسي، ذكرت فيه دول هذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلى وقتنا هذا الذي هو آخر القرن الثالث عشر، سالكاً فيما أنقله من ذلك سبيل الاختصار، آتياً منه بما تسمو إليه النفوس من حوادث الأعصار، ملمّاً بما لا بد منه من وفيات بعض الأئمة المقتدى بهم في الدين، متبركاً أولاً بذكر رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، متحرياً من القول أصحها، ومن العبارات أفصحها، والله تعالى المسؤول، في بلوغ المأمول، فمنه سبحانه المنّة والطول، وبيده تعالى القوة والحول.

مقدمة في فضل علم التاريخ(1)

اعلم أن علم التاريخ من أجلّ العلوم قدراً، وأرفعها منزلة وذكراً، وأنفعها عائدة وذخراً، وكفاه شرفاً أن الله تعالى شحن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية، بما أفحم به أكابر أهل الكتاب، وأتى من ذلك بما لم يكن لهم في ظن ولا حساب، ثم لم يكتف تعالى بذلك حتى امتن به على نبيه الكريم. وجعله من جملة ما أسداه إليه من الخير العميم، فقال جل وعلا: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: 101]. وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: 111]. وقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يُحدِّث أصحابه بأخبار الأمم الذين قبلهم، ويحكي من ذلك ما يشرح به صدورهم، ويقوي إيمانهم، ويؤكد فضلهم، وكتاب بدء الخلق من صحيح البخاري رحمه الله كفيل بهذا الشأن، وآت من القدر المهم منه ما يبرد غلة العطشان. (قال بعضهم): احتج الله تعالى في القرآن على أهل الكتابين بالتاريخ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65]. (وحكى بدر الدين القرافي (رحمه الله) إن الإمام الشافعي رضي الله عنه كان يقول ما معناه دأبت في قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة وما قرأته إلا لأستعين به على الفقه.

(1) قال مؤلفه عفا الله عنه الذي لابن حزم في صدر الجمهرة وكذا لابن عبد البر في صدر كتاب النسب: هو علم النسب لا علم التاريخ كما هنا، وأنكر ابن حزم أن يكون ذلك أعني أن علم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر مروياً عن رسول الله ﷺ، ورده ببرهانين فانظره ولكن علم النسب وعلم التاريخ متلازمان. والله أعلم.

قلت: معنى كلام الشافعي هذا أن علم التاريخ لما كان مطلعاً على أحوال الأمم والأجيال ومفصحاً عن عوائد الملوك والأقيال ومبيناً من أعراف الناس وأزيائهم ونحلهم وأديانهم ما فيه عبرة لمن اعتبر وحكمة بالغة لمن تدبر وافتكر، كان معيناً على الفقه ولا بد وذلك أن جل الأحكام الشرعية مبني على العرف وما كان مبنياً على العرف لا بد أن يطرد باطراده وينعكس بانعكاسه، ولهذا ترى فتاوى الفقهاء تختلف باختلاف الأعصار والأقطار بل والأشخاص والأحوال، وهذا السبب بعينه هو السر في اختلاف شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام وتباينها حتى جاء موسى بشرع وعيسى بآخر ومحمد بسوى ذلك صلى الله على جميعهم وسلم، ثم فائدة التاريخ ليست محصورة فيما ذكرناه بل له فوائد أخر جليلة لو قيل بعدم حصرها ما بعد، قال الجلال السيوطي رحمه الله: من فوائد التاريخ واقعة رئيس الرؤساء[1] المشهورة مع اليهود ببغداد وحاصلها أنهم أظهروا رسماً قديماً يتضمن أن رسول الله ﷺ أمر بإسقاط الجزية عن يهود خيبر وفيه شهادة جماعة من الصحابة منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرفع الرسم إلى رئيس الرؤساء وعظمت حيرة الناس في شأنه، ثم عرض على الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي[2] فتأمله وقال: هذا مزور. فقيل له: بم عرفته؟ قال: فيه شهادة معاوية وهو إنما أسلم عام الفتح سنة ثمان من الهجرة وخيبر فتحت سنة سبع. وفيه شهادة سعد بن معاذ وهو مات يوم بني قريظة وذلك قبل فتح خيبر. فسر الناس بذلك وزالت حيرتهم اهـ. قال العلامة القادري في الأزهار الندية: وفي حدود صدر هذه المائة ـ أعني المائة الحادية عشرة ـ ظهر نحو هذا الكتاب المزور بمعناه والرفع على خطوطه بتاريخ سبع وعشرين وسبعمائة

(1) وزير القائم بأمر الله العباسي علي بن الحسين المعروف بابن المسلمة.

(2) أحمد بن علي بن ثابت المتوفى سنة 463 انظر ترجمته بطبقات السبكي وغيرها صفحة 12 جزء 2.

بالموحدة ثم ظهر أيضاً بتاريخ ست وثمانمائة ثم تعدد ظهوره مراراً آخرها سنة اثنتين وأربعين وألف مسمى فيه جماعة ممن شهرتهم بالدين والعلم قاطعة بالتقول عليهم في ذلك ـ انظر بقية كلامه ـ.

قلت: وقد وقفت في بعض التقاييد المظنون بها الصحة على كلام للأديب أبي عبد الله اليفرني المعروف بالصغير في هذا المعنى، قال: جرى بمجلس شيخنا قاضي الجماعة فلان الفلاني(1) ذكر علم التاريخ فقال: إن علم التاريخ يضر جهله، وتنفع معرفته، لا كما قيل: إنه علم لا ينفع وجهالة لا تضر. قال: وانظر ما وقع في هذا الوقت في حدود عشر ومائة وألف: من أن نفراً من يهود فاس الجديد امتنعوا من أداء الجزية وأخرجوا ظهيراً قديماً مضمنه أن النبي ﷺ عقد لموسى بن حيي بن أخطب أخي صفية رضي الله عنها، ولأهل بيت صفية الأمان: لا يطأ أرضهم جيش، ولا عليهم نزل، ولهم ربط العمائم، فعلى من أحب الله ورسوله أن يؤمنهم. وكتب علي بن أبي طالب، وشهد عتيق بن أبي قحافة، وعبد الرحمٰن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. وتاريخ شهادتهم في ذي القعدة سنة تسع من الهجرة. قال شيخنا: فظهر لي ولعلماء العصر، أن ذلك زور وافتراء، لا شك فيه ولا امتراء، لأن التاريخ بالهجرة إنما حدث زمن عمر، سنة سبع عشرة لأسباب

---

(1) هو العلامة أحمد بن ناجي، قال أبو العباس الحافي في فهرسته في حقه: ومنهم شيخنا الفقيه العلامة سيدي أحمد بن محمد بن ناجي السجلماسي، تولى القضاء بسلا والرباط ونواحيهما، وبقي متولياً بهما نحو العشرين سنة ثم تولى القضاء بفاس ثم بمكناسة الزيتون، حضرنا عليه في تفسير القرآن العظيم، وفي رسالة ابن أبي زيد، وذلك كله بمحروسة سلا، وصحيح البخاري وصحيح مسلم بن الحجاج. وقرأت عليه شمائل الترمذي، وكان رحمه الله معظماً لجميع من ينتسب للطلب، وقوراً ذا تؤدة وهمة عالية، وكلمة نافذة عند السلطان وغيره. توفي رحمه الله بمحروسة مكناسة يوم الجمعة 24 من رجب عام 1122. ودفن داخل المدينة المذكورة بروضة السيدة عائشة العدوية اهـ.

اقتضت ذلك كما في ابن حجر، ولأن أهل التاريخ لم يذكروا لصفية أخاً اسمه موسى، وإنما المروي في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام قتل أبا صفية وزوجها، ولأن الظهير الذي استظهروا به نسخة من الأصل الذي فيه خطوط الصحابة، وقد أرخوا الاستنساخ من الأصل بسنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، فقد تأخر خط الصحابة بزعمهم إلى المائة الثامنة وكيف يتوصل في المائة الثامنة إلى أن ذلك خط الصحابة؟. هذا خلاصة ما كتبه أهل فاس في إبطال الظهير. ولما رفع ذلك إلى السلطان المولى إسماعيل رحمه الله عاقب اليهود عقاباً شديداً اهـ.

وبالجملة: ففضيلة علم التاريخ شهيرة، وفائدته جليلة خطيرة، ومادحه محمود غير ملوم، والحديث بفضله حديث بمعلوم، ولله در ابن الخطيب إذ يقول:

وبعد فالتاريخ والإخبار ... فيه لنفس العاقل اعتبار
وفيه للمستبصر استبصار ... كيف أتى القوم وكيف صاروا
يجري على الحاضر حكم الغائب ... فيثبت الحق بسهم صائب
وينظر الدنيا بعين النبل ... ويترك الجهل لأهل الجهل

وقال الآخر:

ليس بإنسان ولا عاقل ... من لا يعي التاريخ في صدره
ومن روى أخبار من قد مضى ... أضاف أعماراً إلى عمره

ذكر رسول الله ﷺ
وخلفائه الأربعة رضي الله عنهم

أما رسول الله ﷺ فهو: أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن اليسع بن الهيميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن تارح وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ابن لامك بن متوشلخ بن حنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيت بن آدم عليهما السلام. فأما ما بين رسول الله ﷺ وبين عدنان فمتفق عليه عند علماء الإسلام؛ وأما ما بين عدنان وإسماعيل، فمختلف فيه اختلافاً كثيراً، ما بين سبعة آباء إلى نحو الأربعين[1] والمختار ما ذكرناه تبعاً لأبي الفداء. وأما ما بين إسماعيل وآدم عليهما السلام فمتفق عليه عند أهل الكتاب وهي أسماء أعجمية يكثر تغييرها لصعوبة النطق بحروفها، والله أعلم.

قال ابن خلدون: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، لأربعين سنة من ملك كسرى أنو شروان، وقيل لثمان وأربعين ولثمانمائة واثنتين وثمانين سنة لذي القرنين[2]، ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به، وكفله جده عبد المطلب، واسترضع له امرأة من بني

---

(1) وقد عدها صاحب الأغاني أربعين أباً، وهو الأقرب إلى الصواب. إذ بين معد وإسماعيل نحو من ست عشرة مائة سنة على التحقيق، ويستحيل في العادة أن يكون في هذه المدة ثمانية آباء.

(2) ولإحدى وسبعين وخمسمائة سنة من ولادة المسيح عليه السلام.

سعد بن بكر، اسمها حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، فكان عندها نحو أربع سنين، وشق صدره ﷺ وهو عندها في السنة الرابعة من مولده فخافت عليه وردته إلى أمه، ثم ماتت أمه عقب ذلك، واستمر في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي أيضاً لمضي ثمان سنين من مولده ﷺ فأوصى به عبد المطلب إلى ابنه أبي طالب، فكفله أبو طالب أحسن كفالة، وقام بشأنه أتم قيام، ونشأ ﷺ نشأة طيبة، يحفظه ربه ويكلؤه لما يريد به من كرامته، ويهيء له من نبوته ورسالته. وتزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وشهد بناء الكعبة وهو ابن خمس وثلاثين سنة، ووضع الحجر الأسود بيده الشريفة في موضعه بعد أن تراضت قبائل قريش عليه، ثم آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة على رأس أربعين سنة من عمره ﷺ.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة. ولمسلم الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه، والتحنث التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الوحي وفي رواية حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقال: «**ما أنا بقارىء**» قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال أقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال اقرأ: فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال**: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: 1 ـ 5]»، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «**زملوني زملوني**»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: «**أي خديجة مالي**» وأخبرها الخبر، وقال «**لقد خشيت على نفسي**»، قالت له خديجة: كلا أبشر

فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**» قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك. ثم نزل عليه بعد فترة الوحي سورة المدثر. قال العلماء: كان رسول الله ﷺ بعد نزول الوحي عليه نبياً فقط ثلاث سنين لم يؤمر فيها بإنذار، ثم أتاه جبريل عليه السلام برسالة من ربه عز وجل، فكان فيما أنزل عليه في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

روى محمد بن إسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قال: «**يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال يا محمد إن لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك، فاصنع لنا طعاماً واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به**» ففعلت

ما أمرني به ثم دعوتهم له وكانوا يومئذٍ نحو أربعين رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعت فجئت به فتناول رسول الله ﷺ جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال: **«كلوا باسم الله»** فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة، وايم الله إن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم، ثم قال **«اسق القوم»** فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً، وايم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال: سحركم صاحبكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله ﷺ: **«فقال الغد يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم»** ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا، ثم تكلم رسول الله ﷺ فقال: **«يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عز وجل أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على أمري هذا ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم»** فأحجم القوم عنها جميعاً، ـ وأنا أحدثهم سناً ـ فقلت يا رسول الله: أنا أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: **«هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»**. فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع.

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: **«يا بني فهر، يا بني عدي»** لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؛ فجاء أبو لهب وقريش فقال: **«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟»** قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ

﴿١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 1 ـ 2]. ثم مضى رسول الله ﷺ على أمر ربه صابراً محتسباً فيما يناله من المحن وضروب الأذى معلناً بالتذكير والإنذار، داعياً إلى الله آناء الليل وأطراف النهار، وأسلم معه جماعة من السابقين إلى الإسلام كخديجة وعلي وأبي بكر وزيد بن حارثة وعثمان وسائر العشرة سوى عمر بن الخطاب فإن إسلامه كان قد تأخر قليلاً، ونصبت قريش العداوة لرسول الله ﷺ وافترقت كلمتهم عليه، وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، وتعاهدت قريش على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا ينفعوهم بشيء. ونال أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا معه من الأذى فوق ما يوصف؛ وهاجر جماعة منهم إلى النجاشي بالحبشة فراراً بدينهم من الفتنة؛ وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب وقام دونه وذب عنه سفهاء قريش ومنعه منهم ما استطاع؛ وكانت خديجة رضي الله عنها توازره على أمره وتسليه وتهون عليه ما يلقاه من قومه فكان ﷺ يرتاح لذلك ويخف عليه بعض ما يجد. ثم توفي أبو طالب في شوال سنة عشر من النبوة، وتوفيت خديجة بعد ذلك بيسير؛ وكانت وفاتهما قبل الهجرة بثلاث سنين، فعظمت على رسول الله ﷺ المصيبة وتتابعت عليه المحن حتى كان يسمي ذلك العام عام الحزن. ونالت قريش منه ما لم تكن تطمع في نيله قبل ذلك، فكان رسول الله ﷺ في تلك الثلاث سنين إذا حضر الموسم خرج إلى قبائل العرب بمنى. وطاف عليهم قبيلة قبيلة، يدعوهم إلى الله تعالى ويعرض عليهم نفسه ويسألهم النصرة له والقيام معه حتى يبلغ رسالة ربه، فإن قريشاً قد عتت على الله وكذبت رسوله وردت عليه كرامته، ويقول فيما يقول: **«يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدقوني»**.

ولقي ﷺ في هذه المدة من الشدائد ما رفع الله به في عليين درجته، وأجزل به كرامته، وشرف منزلته؛ وحاز به في جوار الله تعالى أكرم نزل؛

وصار إمام أولي العزم من الرسل صلى الله على جميعهم وسلم. ولما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج ﷺ في بعض المواسم يعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع، فبينما هو عند العقبة بمنى إذ لقي ستة نفر من الخزرج من أهل مدينة يثرب، وأهلها يومئذٍ قبيلتان: الأوس والخزرج، ويجمعهم أب واحد، وهم من عرب اليمن والنفر الستة هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء، ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «**أمن موالي يهود**»؟» - وكانوا يحالفون قريظة والنضير - قالوا: نعم، قال: «**أفلا تجلسون حتى أكلمكم**» قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال ومما كان صنع الله لهم في الإسلام، أن اليهود كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبينا الآن مبعوث قد أظل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك فإن يجمعهم الله عليك فلا أحد أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم. فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً منهم خمسة من الستة الذين ذكرناهم آنفاً - عدى جابر بن عبد الله فإنه لم يحضرها - وسبعة من غيرهم وهم: معاذ بن الحارث أخو عوف بن الحارث المذكور، وذكوان بن عبد القيس، ويزيد بن ثعلبة البلوي، وعبادة بن

الصامت، والعباس بن عبادة بن نضلة، وهؤلاء العشرة من الخوارج. ومن الأوس: أبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعدة، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة النساء: أن لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم إلى آخر الآية. فقال ﷺ: «**فإن وفيتم فلكم الجنة؛ وإن غشيتم شيئاً من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة لكم، وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم**». قال: وذلك قبل أن تفرض الحرب. فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، ومعه عمرو بن أم مكتوم الأعمى ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام، ويفقههم في الدين؛ فكان مصعب بالمدينة يسمى: المقرىء؛ وكان منزله على أسعد بن زرارة فأسلم على يده كثير من الأوس والخزرج، منهم: أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ ـ سيدا الأوس ـ وسعد هذا هو الذي يقول فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وما اهتز عرش الله من أجل هالك سمعنا به إلا لسعد: أبي عمرو

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل، وواقف بطون من الأوس وكانوا في عوالي المدينة، وكان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر سيداً مطاعاً فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة. ومضى بدر، وأحد، والخندق. فأسلموا كلهم، ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة من العام المقبل وذلك سنة ثلاث عشرة من المبعث، وخرج معه من الأنصار الذين أسلموا. ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان؛ بعضهم من الأوس وبعضهم من الخزرج مع حجاج قومهم من أهل الشرك، فلما وصلوا إلى مكة، واعدوا رسول الله ﷺ أن يجتمعوا به ليلاً في أوسط أيام التشريق بالعقبة من منى، وجاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحب أن يتوثق لابن أخيه فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً

منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو في عز ومنعة من قومه وبلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه. فقالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام، ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم**»، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيّاً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة، ورثناهما كابراً عن كابر، فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله ﷺ ـ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً يعني: عهوداً، وإنا قاطعوها فهل عسيت أن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»، وقال رسول الله ﷺ: «**أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، فأخرجوا له اثنى عشر نقيباً**». وتسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

قال عاصم بن عمر بن قتادة: إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة: يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون إنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأول من

ضرب على يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم، ثم قال رسول الله ﷺ: **«انفضوا إلى رحالكم»**. فقال: العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: **«إني لم أومر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»**، ثم انصرف القوم راجعين إلى المدينة، وأمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالاً. وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر الإذن من ربه في الهجرة، وبقي معه أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب إلى أن أذن الله لنبيه في الهجرة، فهاجر كما هو معلوم في كتب الحديث والسير. ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة أظهر الإسلام، وشرع الأحكام، وبين الحلال والحرام، ونزل عليه من القرآن السبع الطول سوى سورة الأنعام فإنها نزلت بمكة. ونزل عليه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: 39 ـ 40] فكانت هذه أول آية نزلت بالإذن في القتال، فجاهد رسول الله ﷺ في الله حق جهاده، ونال من نصرة الدين وإعلاء كلمة الله غاية مراده، وانثالت عليه وفود العرب من كل ناحية، ولبت دعوته من أماكنها الدانية والقاصية وضرب الإسلام بجرانه في جزيرة العرب كلها، وأجمع على التمسك بدينه أهل عقدها وحلها. قال القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفا: فتح على رسول الله ﷺ في حياته بلاد ـ الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب وما داني ذلك من الشام والعراق وجبى إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يجبى للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين ﷺ ولما حصل المقصود من بعثته ﷺ، وأظهر دينه على الدين كله، أنزل الله تعالى عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] قال المفسرون: نزلت هذه الآية يوم الجمعة بعد العصر يوم عرفة والنبي ﷺ واقف بعرفات على

ناقته العضباء، فكادت عضد الناقة تندق، وبركت لثقل الوحي، وذلك في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة. روي أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: **«ما يبكيك يا عمر؟»** فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. قال: صدقت، فكانت هذه الآية نعي رسول الله ﷺ، عاش بعدها إحدى وثمانين يوماً ومات ﷺ يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل: لاثنتي عشرة ليلة. قال الخازن في تفسيره وهو الأصح: سنة إحدى عشرة من الهجرة[1]. فمجموع عمره ﷺ: ثلاث وستون سنة على الصحيح.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. قال الشيخ محيي الدين النووي: ورد في عمره ﷺ ثلاث روايات **إحداها**: أنه ﷺ توفي وهو ابن ستين سنة، **الثانية**: خمس وستون سنة، **والثالثة**: ثلاث وستون سنة وهي أصحها وأشهرها اهـ. وفضل رسول الله ﷺ أشهر من أن يشرح ويبين، فهو حجة الله في الأرض، وشهيده على الخلق، ومصطفاه من البشر، والمخصوص بمزية النبوة وآدم بين الماء والطين، ولله در ابن الخطيب إذ يقول:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما أثنى على أخلاقك الخلاق؟

(1) الموافق لسنة 571 من الميلاد.

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

هو أبو بكر ـ واسمه عبد الله ـ وقيل: عتيق ـ بن أبي قحافة ـ واسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب التيمي المعروف بالصديق، يجتمع مع رسول الله ﷺ في مرة بن كعب، ولي الخلافة بعد رسول الله ﷺ بإجماع من الصحابة، ومن تأخر عنها أولاً رجع إليها ثانياً، إلا ما كان من سعد بن عبادة الأنصاري، فإنه توقف عن بيعته، وذلك أنه لما توفي رسول الله ﷺ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وهموا بمبايعة سعد بن عبادة سيد الخزرج، لأنهم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، لأنهم الذين آووا ونصروا، وتبوأوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين، ولما انتهى الخبر إلى أبي بكر وعمر أفزعهما ذلك، وبادرا إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة بن الجراح، فوجدوا الأنصار بها على ما بلغهم من العزم على بيعة سعد، فحاجهم أبو بكر رضي الله عنه وقال: نحن أولياء رسول الله ﷺ وعشيرته، وأحق الناس بالأمر بعده فنحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال الحباب بن المنذر: لا، والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير، وإن شئتم أعدناها جذعة، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، فقام بشير بن سعد الأنصاري فقال: ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وإن قومه أحق وأولى بالأمر بعده، ونحن وإن كنا أولي فضل في الجهاد وسابقة في الدين، فما أردنا بذلك إلا رضى الله وطاعة نبيه، فلا نبتغي به من الدنيا عوضاً ولا نستطيل به على الناس، ثم أشار أبو بكر بأن يبايعوا أحد الرجلين إما عمر بن الخطاب وإما أبا عبيدة بن الجراح فكرها ذلك وبايعا أبا بكر، وسبقهما إليه بشير بن سعد، ثم تناجى الأوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء ـ فكرهوا إمارة الخزرج عليهم، ومالوا إلى بيعة أبي بكر فبايعوه، وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤون سعد بن عبادة وهو مضطجع بينهم يوعك، فقال رجل من أصحابه: قتلتم سعد بن عبادة، فقال

عمر: قتله الله. فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر، الرفق هنا أبلغ. ثم لحق سعد بالشام فلم يزل هناك حتى توفي أيام عمر رحم الله جميعهم. وكانت بيعة أبي بكر يوم الثلاثاء الثاني من وفاة رسول الله ﷺ قبل دفنه، ولما توفي رسول الله ﷺ ارتدت عامة العرب، لأن كلمة الإسلام لم تكن رسخت في قلوبهم على ما ينبغي، ومنع آخرون منهم الزكاة وقالوا: نصلي ولا نؤدي الزكاة ظناً منهم أن ذلك كان واجباً عليهم في حياة النبي ﷺ فقط، واضطرب أمر المسلمين عند وفاته ﷺ لقلتهم وكثرة عدوهم. قالت عائشة رضي الله عنها: لما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب، ونجم النفاق، واشرأبت اليهودية والنصرانية ونزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسية لهاضها، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم. وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين[1] يقول: ما ولد بعد النبيين أفضل من أبي بكر الصديق، لقد قام مقام نبي من الأنبياء في قتال أهل الردة.

وفي الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**»؟ قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق.

وحكى ابن خلدون: أن أبا بكر رضي الله عنه لما عزم على قتال أهل الردة استخلف أسامة بن زيد بعد رجوعه من بعثه الذي كان بعثه رسول الله ﷺ فيه قبل وفاته، فبقي في المدينة حتى أنفذه أبو بكر بعد

(1) عثمان بن عاصم الكوفي توفي سنة 128.

وفاته ﷺ، فخرج أبو بكر في جماعة من المسلمين إلى ذي حسى وإلى ذي القصة ـ موضعين قرب المدينة ـ ثم سار حتى نزل على أهل الربذة بالإبريق وبها عبس وذبيان وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة وثعلبة بن سعد وغيرهم ـ فقاتلهم أبو بكر وهزمهم ورجع إلى المدينة، ثم خرج إلى ذي القصة ثانياً فعقد فيه أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً لقتال أهل الردة، وأمر كل واحد باستنفار من يليه من المسلمين من كل قبيلة، وعقد للأمراء على تلك الأجناد: منهم خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وغيرهم، وكتب لهم عهودهم بنص واحد: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله ـ سره وجهره ـ وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم، لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فإن أجاب إلى أمر الله تعالى وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل كان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب إلى داعية الله قوتل وقتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة، لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر به قبل منه وأعانه، ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه، ويمنع أصحابه العجلة والفساد. وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم. وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اهـ.

وكتب إلى كل من بعث إليه الجنود من المرتدين كتاباً واحداً أيضاً وجعله في نسخ متعددة بيد رسل تقدموا أمام الأمراء يأمرهم فيه بالتمسك بكلمة الإسلام وينهاهم عن الارتداد ويحذرهم عاقبته وسوء أثره ـ تركنا ذكره اختصاراً ـ وكان أول ما بدأ به خالد بن الوليد رحمه الله من القتال: قتال طليحة بن خويلد الأسدي: أسد خزيمة؛ وكان كاهناً وادعى النبوة في حياة رسول الله ﷺ وتبعه أفاريق من قومه بني أسد ومن غيرهم؛ فوجه إليه رسول الله ﷺ ضرار بن الأزور ليقاتله؛ فبينما ضرار يريد مناجزته إذ ورد عليه الخبر بوفاة رسول الله ﷺ ففت ذلك في عضد ضرار وانكفأ راجعاً بمن معه من المسلمين إلى المدينة، وعظم أمر طليحة حينئذٍ، واستطار شرره، وانضمت إليه غطفان وبعض طيىء وأخلاط من العرب على ماء من مياه بني أسد يقال له: بزاخة؛ فسار إليهم خالد رحمه الله فأوقع بهم وقعة شنعاء، فل بها جمعهم وقتل من قتل منهم ونجا طليحة إلى الشام برأس طمرة ولجام؛ وبقي هناك إلى أن أسلم وحسن إسلامه؛ وكانت له في قتال فارس والروم زمان الفتح اليد البيضاء؛ ثم تتبع خالد رحمه الله أهل الردة قبيلة قبيلة وجمعاً جمعاً؛ فقتل وحرق ورضخ بالحجارة ورمى من رؤوس الجبال وأبلغ في النكاية بكل وجه فخشعت نفوس المرتدين وخامر قلوبهم الرعب وقوم اعواججهم الطعن والضرب حتى راجعوا الإسلام كرهاً. وكان من أعظمهم شوكة وأشدهم قوة بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وكان موطنهم باليمامة وهي: بلاد واسعة ذات نخل وزرع على أربعة أيام من مكة. وكان مسيلمة هذا قد قدم على النبي ﷺ في وفد بني حنيفة فأسلم ثم ارتد وادعى النبوة استقلالاً ثم مشاركة مع النبي ﷺ. وشهد له بذلك الرجال بن عنفوة أحد أشراف بني حنيفة وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ وأقام عنده وقرأ القرآن وتفقه في الدين ـ فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي ﷺ معلماً لأهل اليمامة ومشغباً عن مسيلمة فكان من أعظم الفتن على بني حنيفة فإنه شهد لمسيلمة بالنبوة واتبعه على شأنه وصار مؤذناً له يشهد له بالرسالة بعد رسول الله ﷺ فعظم شأنه

فيهم. وكان مسيلمة ينتهي إليه رأيه وكان يأتي بأسجاع كثيرة يزعم أنها قرآن ينزل عليه ويأتي بمخارق من الشعبذة ويقول إنها معجزاته، فتقع على خلاف المقصود إهانة من الله له. فنهض خالد رحمه الله بعد الفراغ من طليحة وغيره من أهل الردة إلى بني حنيفة ـ وهم يومئذٍ كثير ـ يقال كانوا أربعين ألف مقاتل ولما سمعوا بدنو خالد منهم خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا معهم، وأقبل خالد وعلى مقدمته شرحبيل بن حسنة؛ ونازل بني حنيفة ـ وكان الرجال بن عنفوة على مقدمة مسيلمة فالتقوا واقتتلوا واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد ثم تراجع المسلمون وكروا على بني حنيفة وقاتل ثابت بن قيس بن شماس حتى قتل ثم زيد بن الخطاب أخو عمر كذلك ثم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ثم مولاه سالم ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى ينتفض ويقعد عليه الرحال حتى يبول ثم يثور كالأسد فقاتل ذلك اليوم وفعل الأفاعيل واستحر القتل في المسلمين خصوصاً قراء القرآن وأهل السابقة.

قال ابن خلدون: قتل يوم اليمامة من الأنصار ما ينيف على الثلاثمائة وستين ومن المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون وفشت الجراحات فيمن بقي ثم هزم الله العدو وألجأهم المسلمون إلى حديقة كانت هناك وفيها مسيلمة، فقال البراء بن مالك: ألقوني عليهم من أعلى الجدار فاقتحم وقاتلهم على باب الحديقة حتى دخل بعض المسلمين عليهم، واقتحم الباقون من أعلى الحيطان فقتل من بني حنيفة يومئذٍ سبعة عشر ألف مقاتل. فسميت الحديقة حديقة الموت. وأما مسيلمة فقتله وحشي بالحربة التي قتل بها حمزة بن عبد المطلب يوم أحد وشاركه في قتله رجل من الأنصار ثم صالح خالد بني حنيفة في خبر طويل. وهذه الوقعة من أعظم الوقعات التي كانت في زمن أبي بكر رضي الله عنه وهي كانت السبب الداعي إلى جمع القرآن في المصحف، واستمر كذلك إلى أن جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه الجمع الثاني في المصحف.

ففي الصحيح: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده؛ قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت ـ وعمر عنده جالس لا يتكلم ـ فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن؛ قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعهم حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكناف والعسف واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: 128]. حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر اهـ.

ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر في المحرم سنة اثنتي عشرة يأمره بالسير إلى العراق وذلك عندما أجمعت العرب على الإسلام واتفقوا على التمسك بكلمته وأخلصوا الطاعة لله ولخليفة رسول الله ﷺ فسمت لأبي بكر رضي الله عنه همة في قتال فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم يومئذٍ فتوجه خالد رحمه الله نحو فارس وكان عذاباً من عذاب الله أرسله على أهل الكفر والضلال وما مثله إلا قول المتنبي:

وما كان إلا النار في كل موضع ... يثير غباراً في مكان دخان

فتوجه خالد رحمه الله وفتح الحيرة وما وراءها من أعمال العراق وفتح الأنبار وعين التمر وأوقع الوقائع العظيمة بمسالح أهل فارس وجيوشهم. حتى أخافهم في بلادهم وهم بالاقتحام عليهم ومقاتلتهم في عقر دارهم وكتب إليهم بكتابين يتوعدهم ويتهددهم ثم صرفه أبو بكر رضي الله عنه إلى الشام فشهد اليرموك مع جيوش المسلمين الذين كانوا هناك. ففي الأكتفاء عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي ـ وكانت له صحبة ـ قال: لما أراد أبو بكر أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمٰن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه ـ وأنا فيهم ـ فقال: إن الله لا تحصى نعمه ولا تبلغ جزاءها الأعمال فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم ثم جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا أن تتخذوا إلٰهاً غيره فالعرب اليوم بنو أم وأب وقد رأيت أن أستنفرهم إلى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ثواب المجاهدين. هذا رأيي الذي رأيت فليشر عليّ امرؤ بمبلغ رأيه. فأجاب كل من الحاضرين باستصواب رأيه وتقوية عزمه. فجهز أبو بكر رضي الله عنه جيوشاً وأمر عليهم أمراء: كخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل والوليد بن عقبة ويزيد بن أبي سفيان وأمرّ أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حمص وأوصى كل واحد منهم بما تنبغي الوصية به فكان بسبب تلك الجموع وقعة اليرموك بين المسلمين والروم في رجب سنة ثلاث عشرة من الهجرة بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بنحو شهر، لأن وفاته رضي الله عنه كانت مساء ليلة الثلاثاء بين العشاءين لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال وعمره ثلاث وستون سنة رضي الله عنه ونفعنا به.

خلافة أمير المؤمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو أول من دعي أمير المؤمنين ـ وكان أبو بكر قبله يدعى: خليفة رسول الله ـ وهو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل مصغراً بن عبد العزى بن رياح بكسر الراء وفتح المثناة التحتية بن عبد الله بن قرط بضم القاف ابن رزاح بفتح الراء بن عدي بن كعب بن لؤي ـ يجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي ـ ولي الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه بعهد منه إليه. قال ابن خلدون: لما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما بالأمر من بعده بعد أن شاور عليه طلحة وعثمان وعبد الرحمٰن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه، فأثنوا على رأيه فأشرف على الناس وقال: «إني قد استخلفت عمر ولم آل لكم نصحاً فاسمعوا له وأطيعوا» ودعا عثمان فأمره فكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر وينيب فيها الفاجر. إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227]. فكان أول ما أنفذه من الأمور عزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيوش بالشام وتولية أبي عبيدة وجاء الخبر بذلك والمسلمون مواقفون عدوهم باليرموك، فكتم أبو عبيدة الأمر كله حتى انقضى أمر اليرموك. وكان فتح دمشق بعدها فحينئذٍ أظهر أبو عبيدة إمارته وعزل خالد. فسمع خالد وأطاع ـ وقيل في هذا الخبر غير هذا مما هو مبسوط في كتب الفتح ـ ثم إن عمر رضي الله عنه سدد عزمه وأرهف حده لغزو فارس والروم فتابع عليهم الجنود وعين لكل أمير عمله، وعقد لأبي عبيد بن مسعود الثقفي على جيش من المسلمين وبعثه نحو العراق فاستشهد أبو عبيد بموضع يقال له: قس الناطف على الفرات فولى مكانه المثنى بن حارثة

الشيباني وكان بطلاً من الأبطال نظير خالد بن الوليد في يمن النقيبة والجراءة على الأعداء، فأوقع بأهل فارس عدة وقعات منها وقعة البويب قتل فيها من الفرس مائة ألف أو يزيدون ثم إن عمر رضي الله عنه استأنف الجد لجهاد فارس وقال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وكتب إلى المثنى يأمره أن يخرج بالمسلمين من بين العجم ويتفرق بهم على المياه بحيالهم، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعاً وكرهاً.

ثم حج عمر سنة ثلاث عشرة ورجع إلى المدينة فوافته أمداد العرب بها. فعقد عليهم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وولاه حرب العراق وأوصاه وقال: «يا سعد بن أم سعد لا يغرنك من الله أن يقال: خال رسول الله ﷺ فإن الله لا يمحو السيىء بالسيىء ولكنه يمحو السيىء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس في دين الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه وعليك بالصبر» ثم سرحه في أربعة آلاف ممن اجتمع إليه فيهم وجوه العرب وأشرافها وانضاف إليه في طريقه جموع أخر فكانت له في هذا الوجه وقعة القادسية المشهورة دامت فيها الحرب بين المسلمين والفرس أربعة أيام بلياليها وقتل فيها رستم زعيم الفرس وصاحب حربها واستلحمت جنوده وكان الفتح الذي لم يكن له في الإسلام نظير وذلك في المحرم سنة أربع عشرة ـ وقيل خمس عشرة ـ ثم كان بعدها فتح المدائن[1] وجلولاء وسائر بلاد العراق وغيرها من بلاد فارس الجبل وأرمينية وأذربيجان وسجستان وكرمان ومكران وخراسان وغير ذلك مما يطول ذكره وكذا استولى جيوش المسلمين الذين بالشام على بلاد الشام والجزيرة وأنطاكية

(1) المدائن يعني بها اقطيزبيون وسيلانسيا على شاطىء نهر الدجلة جنوب بغداد ومجموعها الآن هو المعروف بالمدائن. ولفظ أقطيزبيون فارسي.

وغيرها من بلاد الروم ومصر والإسكندرية وبرقة وطرابلس الغرب وغير ذلك.

وفي سنة أربع عشرة: أمر عمر رضي الله عنه باختطاط البصرة والكوفة بعراق العرب لما بلغه من وخامة البلاد وأن العرب قد تغيرت ألوانهم بالعزاق فأذن لهم في اختطاط المصرين وأن لا يتجاوزوا في بنائهما السنة. ويقال إن اختطاط الكوفة كان في سنة سبع عشرة.

وفي سنة خمس عشرة: وضع عمر الديوان وفرض العطاء للمسلمين ولم يكن قبل ذلك. وروى الزهري عن ابن المسيب: أن ذلك كان في المحرم سنة عشرين.

قال ابن خلدون: يقال وضع عمر الديوان لسبب مال أتى به أبو هريرة من البحرين فاستكثروه وتعبوا في قسمه فسموا إلى إحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال: رأيت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر. وقيل: بل أشار غليه به الهرمزان لما رآه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له: ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فإن من تخلف أخل بمكانه وإنما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديواناً. فأمر عمر رضي الله عنه عقيل بن أبي طالب ومخزمة بن نوفل وجبير بن مطعم ـ وكانوا من كتاب قريش ـ فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية مرتباً على الأنساب مبتدأ فيه بقرابة رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب بعد أن قال علي وعبد الرحمٰن بن عوف لعمر: ابدأ بنفسك فقال: لا بل بعم رسول الله ﷺ فبدأ بالعباس ثم بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ وفرض لأهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف وفرض لمن بعدهم إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم لمن بعدهم ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم ألفين وخمسمائة؛ ثم لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً ولروادفهم خمسمائة خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين، وأعطى نساء النبي ﷺ لكل واحدة عشرة آلاف وفضل عائشة بألفين، وجعل النساء على مراتب: فلأهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين، والصبيان مائة مائة

والمساكين جريبين في الشهر. ولم يترك في بيت المال شيئاً. وسئل في ذلك فأبى وقال: هي فتنة لمن بعدي. ثم سأل رضي الله عنه الصحابة في قوته هو من بيت المال فأذنوا له، وسألوه في الزيادة على لسان ابنته حفصة ـ متكتمين عنه ـ فغضب وامتنع.

وفي سنة ست عشرة: قدم جبلة بن الأيهم ملك غسان على عمر رضي الله عنه في جماعة من أصحابه مسلمين، فتلقاه المسلمون ودخل في زي حسن وبين يديه جنائب مقادة وعلى أصحابه الديباج حتى تطاول النساء من خدورهن لرؤيته؛ وأكرم عمر وفادته وأحسن نزله وأجله بأرفع رتب المهاجرين، ثم خرج عمر للحج في هذه السنة فحج معه جبلة فبينما جبلة يطوف بالبيت إذا وطىء رجل من فزارة فضل إزاره فلطمه جبلة فهشم أنفه، فأقبل الفزاري إلى عمر وشكاه؛ فأحضره عمر وقال له: افتد نفسك وإلا أمرته بلطمك. فقال جبلة: كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال عمر: إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة في الحد. فقال جبلة: كنت أظن أني بالإسلام أعز مني في الجاهلية! فقال عمر: دع عنك هذا. فقال جبلة: إني أتنصر! فقال عمر: إن تنصرت ضربت عنقك! فقال له: أنظرني ليلتي هذه؛ فأنظره فلما جاء الليل سار جبلة بخيله ورجله إلى الشام ثم منها إلى القسطنطينية، وتبعه خمسمائة رجل من قومه فتنصروا عن آخرهم. وفرح هرقل به وأكرمه ثم ندم جبلة على فعلته تلك وقال:

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفني فيها لجاج ونخوة ... وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصر
أدين بما دانوا به من شريعة ... وقد يحبس العير الدجون على الدبر

وكان قد مضى رسول عمر إلى هرقل وشاهد ما هو فيه جبلة من النعمة

فأرسل جباة بخمسمائة دينار إلى حسان بن ثابت وأمضاها له عمر، فمدحه حسان بن ثابت بأبيات منها:

إن ابن جفنة من بقية معشر | لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربها | كلا، ولا متنصراً بالروم
يعطي الجزيل ولا يراه عنده | إلا كبعض عطية المذموم

وفي سنة سبع عشرة: جيء إلى عمر بالهرمزان ملك الأهواز أسيراً ومعه وفد فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، فلما وصلوا به إلى المدينة ألبسوه كسوته من الديباج المذهب ووضعوا على رأسه تاجه ـ وهو مكلل بالياقوت ـ ليراه عمر والمسلمون على هيئته التي يكون عليها في ملكه: فطلبوا عمر فلم يجدوه فسألوا عنه فقيل: هو في المسجد. فأتوه فإذا هو نائم فجلسوا دونه فقال الهرمزان: أين هو عمر؟ قالوا: هو ذا. قال: فأين حرسه وحجابه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب! فنظر الهرمزان إلى عمر وقال: عدلت فأمنت فنمت، واستيقظ عمر لجلبة الناس فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشباهه؛ وأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوباً ضيقاً. فقال عمر: كيف رأيت عاقبة أمر الله فيك؟ فقال الهرمزان: لما خلى الله بيننا وبينكم في الجاهلية غلبناكم ولما كان الله الآن معكم غلبتمونا.

وفي سنة ثمان عشرة: كانت مجاعة الرمادة وطاعون عمواس؛ وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيى الناس واستسقى عمر بالعباس عم النبي ﷺ فسقوا. وهلك بالطاعون أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة في آخرين أمثالهم، وتفانى الناس بالشام وبالبصرة أيضاً؛ ولما فحش أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الثغور ففعل ورجع وكانت له خرجة أخرى قبل هذا لفتح بيت المقدس.

وفي سنة عشرين: فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية وشهد الفتح

معه الزبير بن العوام وجماعة من كبار الصحابة.

وفي سنة اثنتين وعشرين: سار عمرو بن العاص إلى برقة فصالحه أهلها على الجزية. ثم سار إلى طرابلس الغرب فحاصرها وفتحها عنوة.

وفي سنة ثلاث وعشرين: كانت وفاة عمر رضي الله عنه على ما سيأتي. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. وعنه أيضاً قال: لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قوة ولما مات عمر كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا ضعفاً. وعند ابن أبي شيبة رضي الله عنه قال: كان إسلام عمر عزّاً وهجرته نصراً وإمارته رحمة. وفي الصحيح أيضاً عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم رأيتني على قليب وعليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر**. وفي رواية: **فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن**» قال النووي رحمه الله: قالوا: هذا المنام مثال لما جرى للخليفتين من ظهور آثارهما الصالحة وانتفاع الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبي ﷺ لأنه صاحب الأمر فقام به أكمل قيام وقرر قواعد الدين ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم. ثم خلفه عمر فطالت مدة خلافته عشر سنين وزيادة، واتسع الإسلام في زمانه فشبه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذي فيه حياتهم وصلاحهم وأميرهم بالمستقي لهم منها وسعته هي قيامه بمصالحهم اهـ.

قلت: من تأمل أمر عمر رضي الله عنه علم أنه كان عجباً من العجب فإنه عمد إلى ثلاث دول هي أعظم دول العالم في ذلك الوقت: دولة الفرس ودولة الروم ودولة القبط فحاربهم في نفس واحد وفرق جيوشه عليهم مع قلة المسلمين إذ ذاك وشظف عيشهم فغلبهم على ممالكهم وأزال عزهم، وكسر كراسيهم، وأمات نخوتهم! بحيث ضرب الجزية على رقابهم طول أحقابهم!

فلم يطالبوا بعدها بثأر ولا عادوا إلى جماح ونفار بل أعطوا القادة وأسلموا أنفسهم للصغار. ثم لم يكتف بذلك حتى أغزى خيل المسلمين أطراف المعمور من خراسان والترك وبلاد النوبة وبلاد البربر، ولعمري ما أمر الإسكندر الذي تضرب الأمم به المثل في الغلبة والتمكن في الأرض إلا دون أمر عمر بكثير. فإن الإسكندر كان غازياً بجميع جيشه متولياً ذلك بنفسه! جوالاً في الأرض غير مقيم ووجهته في حروبه وجهة واحدة كلما فرغ من مملكة انتقل إلى غيرها تاركاً للتي خلف وراءه غير ملتفت إليها، وكأنه كان لا عرض له إلا في إظهار القوة والبطش والغلبة على الأمم دون ما سوى ذلك من تصريف الممالك طوع الأمر والنهي. ولذا قال حمزة الأصبهاني في كتابه تواريخ الأمم: وما رواه القصاص من إن الإسكندر بنى بأرض إيران عدة مدن منها أصبهان، ومرو، وهراة، وسمرقند، فحديث لا أصل له. لأن الرجل كان مخرباً لا عامراً اهـ. فأما عمر رضي الله عنه فإنّه لما استولت جيوشه على أكثر المعمور، صرف ممالكها طوع أمره حتى جبي إليه خراجها، وثبتت استقامتها وزال اعوجاجها، أقوى ما كانوا شوكة وأشد قوة، وأكثر حامية، ولم يمت رحمه الله حتى انتهت خيله في جهة الشرق إلى نهر بلخ، وفي جهة الشمال إلى البيضاء على مائتي فرسخ من بلنجر، وفي جهة المغرب إلى تخوم الروم وبلاد برقة وطرابلس الغرب. كل ذلك في مدة يسيرة لم يجاوز معظمها الثلاث سنين، وهو مع ذلك في جوف بيته متردد فيما بين منزله ومسجده، لم يستعمل لذلك كثير أسباب، ولا أجلب بنفسه بخيل ولا ركاب، إنما هو الرأي الميمون، والنصر المضمون، والأمر الجاري بين الكاف والنون، والوعد المنجز بقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:33] فأما وفاة عمر رضي الله عنه فروى ابن سعد بإسناد صحيح: أن عمر كان لا يأذن لمن احتلم من أولاد العجم في دخول المدينة، حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة ـ وهو على الكوفة ـ فذكر له أن عنده غلاماً صنعاً، وهو يستأذنه أن يدخله المدينة، ويقول: إن له أعمالاً تنفع

الناس، إنه حداد، نقاش، نجار، فأذن له عمر، وضرب عليه مولاه كل شهر مائة فشكى إلى عمر شدة الخراج فقال له: ما خراجك بكثير في جنب ما تعمل، فانصرف ساخطاً، فلبث عمر ليالي فمر به العبد فقال عمر: ألم أحدث أنك تقول لو شئت لصنعت رحى تطحن بالريح؟ فالتفت إليه عابساً فقال: لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها فأقبل عمر على من معه فقال: توعدني العبد، فلبث ليالي ثم اشتمل على خنجر ذي رأسين نصابه في وسطه فكمن في زاوية من زوايا المسجد في الغلس، حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة ـ وكان عمر يفعل ذلك ـ فلما دنا عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة قد خرقت الصفاق وهي التي قتلته.

وفي صحيح البخاري عن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف قال كيف فعلتما؟ ـ في أرض السواد ـ أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ ـ يعني من الخراج ـ قالا: حملناها أمراً هي له مطيقة ما فيها كبير فضل قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: لا. فقال عمر: لئن سلمني الله تعالى لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً. قال: فما أتت عليه رابعة حتى أصيب. قال عمرو بن ميمون: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة واسمه فيروز فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين واسمه حطاب التميمي اليربوعي طرح عليه برنوساً فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه. وتناول عمر يد عبد الرحمٰن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا

يدرون، غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمٰن بن عوف صلاة خفيفة. فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة قال: الصنع؟ قال: نعم. قال قاتله الله لقد أمرت به معروفاً الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة - وكان العباس أكثرهم رقيقاً - قال: إن شئت فعلنا: أي إن شئت قتلنا. قال: كذبت! بعدما تكلموا بلسانكم: وصلوا إلى قبلتكم! وحجوا حجكم! فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذٍ. فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه فأتي بنبيذ فشربه فخرج من جرحه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك بصحبة رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت ثم شهادة. قال: وددت أن ذلك كفاف لا عليّ ولا لي. فلما أدبر الشاب إذا إزاره يمس الأرض، قال ردوا عليّ الغلام، قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك! وأتقى لربك! يا عبد الله بن عمر، انظر ماذا عليّ من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فاسأل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام - ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه به اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين. أذنت. قال: الحمد لله! ما كان من شيء

أهم عليّ من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فادخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة ـ والنساء تسير معها ـ فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا أوص يا أمير المؤمنين: استخلف، قال: ما أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى: علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة؛ وسعداً؛ وعبد الرحمٰن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهينة التعزية له فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم خقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم: أن يقبل من محسنهم، وأن يعفي عن مسيئهم؛ وأوصيه بالأنصار خيراً، فإنهم ردء الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو. وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشي أموالهم وترد على فقرائهم. وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله: أن يوفي لهم بعدهم؛ وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم. فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب قالت: أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه؛ فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط؛ فقال عبد الرحمٰن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان؛ وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمٰن بن عوف؛ فقال عبد الرحمٰن: أيكما يتبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه؛ والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فأسكت الشيخان! فقال عبد الرحمٰن: أفتجعلونه إليّ والله على أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم فأخذ بيد أحدهما فقال: لك

من قرابة رسول الله ﷺ والقدم ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه وبايع له عليّ وولج أهل الدار فبايعوه اهـ.

وكانت وفاة عمر رضي الله عنه يوم السبت منسلخ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ـ كذا لأبي الفداء ـ. وفي حديث عائشة مما أخرجه أبو عمر بن عبد البر، ناحت الجن على عمر رضي الله عنه ـ قبل أن يموت بثلاث ـ فقالت:

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت ... له الأرض تهتز العضاه بأسوق
جزى الله خيراً من إمام وباركت ... يد الله في ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناح نعامة ... ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق
قضيت أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائق من أكمامها لم تفتق

خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو أبو عمرو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف، ولي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه باختيار أهل الشورى له وقد تقدم خبر ذلك مستوفى. ولما بويع رقى المنبر وقام خطيباً فحمد الله وتشهد ثم ارتج عليه فقال: إن أول كل أمر صعب وإن أعش فستأتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله. ثم نزل. وأقر عمال عمر كلهم إلا ما كان من المغيرة بن شعبة أمير الكوفة فإنه عزله واستبدل به سعد بن أبي وقاص لوصية عمر بذلك، ثم بعد مدة نحو سنة عزل من عزل من عمال عمر واستبدل بهم آخرين كان فيهم من هو من قرابته، فعزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة، وكان أخا عثمان من أمه، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها

عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان أخاه من الرضاعة، ثم عزل بعد ذلك أبا موسى الأشعري عن البصرة، وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز، وهو ابن خاله، واستكتب مروان بن الحكم بن أبي العاص وهو ابن عمه، كل ذلك كان لمصلحة اقتضاها الحال، وضم حمص وقنسرين وفلسطين وغيرها من بلاد الشام إلى معاوية بن أبي سفيان: أمير دمشق ومضى رضي الله عنه على سنن عمر في الجهاد، وتجهيز الجيوش وتكتيب الكتائب، حتى اتسعت خطة الإسلام اتساعاً أعظم منه في خلافة عمر رضي الله عنه، وكان لأول خلافة عثمان قد انتقض بعض الثغور والجهات، مثل الإسكندرية وبعض بلاد العجم وفارس ونحو ذلك، فتلاقاها بالغزو والبعوث، حتى عادت إلى الطاعة، وأدت ما كانت تؤديه أيام عمر أو أكثر، وفتح عليه بلاد أرمينية، مثل تفليس، وقاليقلا؛ وخلاط، والسيرجان، وعدة حصون. وانتهى الفتح إلى مدينة الباب ـ وكان ذلك على يد سليمان بن ربيعة الباهلي سنة أربع وعشرين ـ وغزا معاوية صاحب الشام أيضاً بلاد الروم حتى بلغ عمورية، ووجد ما بين إنطاكية وطرطوس من حصون الروم خالياً، فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها وكذا استتم المسلمون في خلافة عثمان رضي الله عنه فتح مدن خراسان والجوزجان والطالقان وطخارستان وما وراء النهر إلى فرغانة في الشرق، وانتهى الفتح أيضاً إلى كابل وزابلستان وهي بلاد غزنة من ثغور الهند في الجنوب.

فتح إفريقيـة

وفتح في خلافة عثمان رضي الله عنه إفريقية ـ أيضاً ـ من بلاد المغرب، وكان من خبرها أنه لما كانت سنة ست وعشرين من الهجرة، عزل عثمان رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه عن خراج مصر، واستعمل مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه، فلما قدم ابن أبي سرح مصر كان على خراجها، وعمرو بن العاص على حربها، فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان يشكو عمراً فاستقدمه عثمان! واستقل ابن أبي سرح بالخراج والحرب معاً. ثم أمره عثمان بغزو إفريقية بعد أن كان عمرو بن العاص استشار عمر رضي الله عنه في غزوها فمنعه من ذلك، وقال له: تلك المفرقة وليست بإفريقية أو كلاماً هذا معناه. ولما[1] أمر عثمان بن أبي سرح بغزوها قال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم، ثم عقد عثمان لعبد الله بن نافع بن عبد القيس على جند، ولعبد الله بن نافع بن الحارث[2] على آخر وسرحهما، فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف، وصالحهم أهلها على مال يؤدونه، ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها. ثم إن ابن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة رضي الله عنهم فأشاروا به، فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين رضي الله عنهم. وساروا مع ابن أبي سرح سنة ست وعشرين، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة[3]، ثم ساروا إلى طرابلس، فنهبوا

(1) هذا كان في غزوة قبل هذه سنة خمس وعشرين. (مؤلف).

(2) وفي رواية: الحصين، بدل الحارث كما في الطبري والاكتفا وهو الأصح.

(3) وكانوا بها منذ فتحوا زويلة في ولاية عمرو بن العاص على مصر زمان عمر رضي الله عنه.

الروم عندها ثم ساروا إلى إفريقية، وبثوا السرايا في كل ناحية. وكان ملكهم جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل، ويحمل إليه الخراج. فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة: دار ملكهم، وأقاموا يقتتلون، ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر، ولحقهم عبد الله بن الزبير مدداً بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم، وسمع جرجير بوصول المدد ففت في عضده، وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح، فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول من قتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشد منه. ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح: الرأي أن تترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب وتقاتل الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فتركبهم بالآخرين على غرة لعل الله ينصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان الصحابة، ففعلوا ذلك وركبوا من الغد إلى الزوال وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا، وأركب عبد الله الفريقَ الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير، وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن أبي سرح ابن الزبير، ثم حاصر ابن أبي سرح سبيطلة حتى فتحها. وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفاً، وبث جيوشه في البلاد إلى قفصة، فسبوا وغنموا، وبعث عسكراً إلى حصن الأجم - وقد اجتمع به أهل البلاد - فحاصره وفتحه على الأمان، ثم صالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار. وأرسل عبد الله بن أبي سرح عبد الله بن الزبير بخبر الفتح وبالخمس إلى عثمان رضي الله عنه، فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار، ثم وضعها عنه عثمان وأعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى، ثم بعد تمام الصلح رجع عبد الله بن أبي سرح

إلى مصر بعد مقامه بإفريقية سنة وثلاثة أشهر. ويقال: إنه لما فتح إفريقية أمر عثمان رضي الله عنه عبد الله بن نافع[1] أن يسير إلى جهة الأندلس فغزا تلك الجهة وعاد إلى إفريقية فأقام بها والياً من قبل عثمان ورجع ابن أبي سرح إلى مصر والله أعلم.

وفي سنة ثمان وعشرين: استأذن معاوية عثمان في غزو البحر فأذن له، وقد كان معاوية وهو بحمص أيام عمر رضي الله عنه كتب إليه في شأن جزيرة قبرص يقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص وصياح ديوكهم، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يقول: صف لي البحر وراكبه! فكتب إليه عمرو يقول: هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء، إن ركد أقلق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، وراكبه دود على عود، إن مال غرق، وإن نجا فرق. فكتب عمر إلى معاوية: والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول جبل بالأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا البحر الكافر؟ وبالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي في ذلك فقد علمت ما لقي العلاء مني. ثم لما كانت خلافة عثمان ألح معاوية عليه في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم فاختار الغزو جماعة من الصحابة؛ فيهم أبو ذر، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان، واستعمل عليهم عبد الله بن قيس حليف بني فزارة. وساروا إلى قبرص وجاء عبد الله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار لكل سنة ويؤدون مثلها للروم ولا منعة لهم على المسلمين ممن أرادهم من سواهم، وعلى أن يكونوا عيناً للمسلمين على عدوهم، ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم. وكانت هذه

(1) هو ابن عبد القيس كما عند الطبري.

الغزاة سنة ثمان وعشرين كما قدمنا ـ وقيل غير ذلك ـ وفيها توفيت أم حرام بنت ملحان سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر وكان النبي ﷺ أخبرها بذلك وهو نائم عندها كما في الصحيح؛ وأقام عبد الله بن قيس على البحر فغزا خمسين غزوة لم ينكب فيها أحد إلى أن نزل في بعض الأيام في ساحل المرفأ من أرض الروم فثاروا إليه فقتلوه ونجا الملاح، وكان استخلف سفيان بن عوف الأزدي على السفن فجاء إلى أهل المرفأ وقاتلهم حتى قتل، وقتل معه جماعة من المسلمين.

وفي سنة ثلاثين: جمع عثمان القرآن الجمع الثاني في المصاحف وفيها هلك يزدجرد كسرى فاراً من جيوش المسلمين بمدينة مرو من خراسان وهو آخر الأكاسرة، وبموته انقرضت دولة آل ساسان. وكان من خبر جمع القرآن ما أخرجه البخاري عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا؛ حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أنه سمع أباه زيد بن ثابت قال فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا

عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾ [الأحزاب:23] فألحقناها في سورتها في المصحف.

وفي سنة ثلاث وثلاثين: تكلم جماعة من أهل الكوفة في عثمان بأنه ولى جماعة من أهل بيته لا يصلحون للولاية ونقموا عليه أموراً أخر لا حاجة بنا إلى ذكرها مع أنه كان فيها مجتهداً. وذلك أن عثمان رضي الله عنه كان فيه مزيد حياء ورأفة وبرور بأقاربه وكان عمر رضي الله عنه مرهوب الجانب عند الخاصة والعامة، له عين كالئة على الرعية بصيراً بما يأتون ويذرون. محدثاً في ذلك كما أخبر عنه ﷺ؛ وكان من الحزم والضبط على ما وصفته به عائشة رضي الله عنها إذ قالت: رحم الله عمر كان أحوذ به نسيج وحده قد أعد للأمور أقرانها فكان عثمان ألين جانباً من عمر فتوسع الناس في زمانه في أمور الدنيا أكثر مما كانوا عليه في زمان عمر، واستعملوا النفيس من الملبس والمسكن والمطعم، واقتنوا الضياع والآثاث.

قال المسعودي في مروج الذهب: وفي أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس، وألف أمة، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك، وكان على مربط عبد الرحمٰن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانون ألفاً، وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار، وبنى الزبير داره بالبصرة، وكذلك بنى بمصر والإسكندرية والكوفة، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج. وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات. وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. وخلف يعلى بن منية خمسين ألف دينار وغير

ذلك مما قيمته ثلاثمائة ألف درهم. اهـ كلام المسعودي فاستحالت الأحوال في زمان عثمان كما ترى، ولما رأى ذلك بعض الناس ممن لم يكن له رسوخ في الفقه والدين ولا هو من أهل السابقة من فضلاء الصحابة والمسلمين، صاروا ينقمون على عثمان بأنه أهمل أمر الرعية وخالف سيرة العمرين مع ما أنضاف إلى ذلك من تولية أقاربه، وحاشاه من ذلك رضي الله عنه فإن الرجل كان مجتهداً ـ وهو أهل للاجتهاد ـ وما تخيلوه من إهماله أمر الرعية حتى استحال أمرها إلى ما ذكر تخيل باطل، إذ ليس ذلك في طوقه ولا بسببه، وإنما طبيعة العمران البشري تقتضي ذلك بسبب ما فتح على المسلمين من الأقاليم والممالك والأقطار والنواحي والأمصار وترادف الجبايات الفائقة الحصر وانثيال كنوز كسرى وقيصر وغيرهم من ملوك الأرض عليهم، فأنى يبقى الأمر على حاله مع هذا الفتح العجيب والنصر الغريب، وقد قيل دوام الحال من المحال والناس ليسوا على قدم واحد في الزهد في الدنيا، فالحق الذي لاعوج فيه ولا أمت أن عثمان رضي الله عنه كان على الحق حتى لقي ربه، وما يعتدون به عليه من مخالفة الشيخين رضي الله عنهما ـ إن صح ـ فمحله الاجتهاد كما قلنا، ومعلوم أن أحكام الشرع تدور مع المصالح والمفاسد وتختلف باختلاف الأزمان والأحوال كما لا يخفى على من له أدنى مسيس بالفقه.

قال ابن خلدون: اختلاف الصحابة والتابعين إنما يقع في الأمور الدينية، وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة والمجتهدون إذا اختلفوا، فإن قلنا: إن الحق في المسائل الاجتهادية في واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطىء، فإن جهته لا تتعين بإجماع فيبقى الكل على احتمال الإصابة، والتأثيم مدفوع عن الكل إجماعاً؛ وإن قلنا إن الكل حق وإن كل مجتهد مصيب، فأحرى بنفي الخطأ والتأثيم. ثم استمر أولئك الناقمون على عثمان رضي الله عنه وتمادوا في طعنهم وتشغيبهم حتى تفاقم الأمر وشرى الداء، وأعوز الدواء، واختلط المرعي بالهمل.

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وآخر الأمر أنه لما كانت سنة خمس وثلاثين قدم من مصر جمع قبل ألف، وقيل سبعمائة، وقدم من الكوفة جمع آخر ومن البصرة كذلك وحاصروا عثمان رضي الله عنه في داره، وكانت خطوب، وقطعوا عنه الماء واستمر الحصار نحو أربعين يوماً، ثم تسور عليه جماعة من أهل مصر داره فقتلوه وسال دمه على المصحف. يقال إن الذي تولى قتله كنانة بن بشر التجيبي؛ وطعنه عمرو بن الحمق طعنات وجاء عمير بن ضابىء البرجمي ـ وكان أبوه قد مات في سجن عثمان ـ فوثب عليه حتى كسر ضلعاً من أضلاعه. وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وقيل: إنه قتل صبيحة عيد الأضحى من السنة المذكورة وهو الذي عند ابن الخطيب في رقم الحلل؛ وابن بدرون في شرح العبدونية؛ ويؤيده قول حسان بن ثابت يرثيه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

لتسمعن وشيكاً في ديارهم الله أكبر، يا ثارات عثمانا

وقول الفرزدق بعده:

عثمان إذ قتلوه وانتهكوا دمه صبيحة ليلة النحر

رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به.

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب ـ واسمه عبد مناف ـ بن عبد المطلب جد النبي ﷺ ـ واسمه شيبة ـ وفيه يجتمع مع النبي ﷺ، بويع بعد مقتل عثمان رضي الله عنه باتفاق من يعتبر أهل الحل والعقد بعد امتناعه من ذلك.

قال ابن خلدون: لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا علياً يبايعونه فأبى وقال: أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً، ومن اخترتم رضيته فألحوا عليه وقالوا: لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك فخرج إلى المسجد وبايعوه، وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما، ويقال: إنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وتخلف عن بيعة علي رضي الله عنه ناس من الصحابة وغيرهم فلم يبغضهم وقال: أولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل! ولما ولي الخلافة رضي الله عنه أحيى السنة وأمات البدعة وأوضح منار الحق وأخمد نار الباطل ولم تأخذه في الله لومة لائم.

ولما دخلت سنة ست وثلاثين فرق عماله على النواحي فبعث إلى الكوفة عمارة بن شهاب وكان من المهاجرين وولي على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري وعلى اليمن عبيد الله بن عباس ـ وكان من الأجواد ـ وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وكان من أهل الجود والشجاعة والرأي وعلى الشام سهل بن حنيف الأنصاري، فلما وصل سهل إلى تبوك لقيته خيل فقالوا من أنت؟ قال: أمير على الشام فقالوا: إن كان بعثك غير عثمان فارجع. فرجع إلى علي. ومضى قيس بن سعد إلى مصر فوليها واعتزلت عنه فرقة كانوا عثمانية وأبوا أن يدخلوا في طاعة عليّ حتى يقتل قتلة عثمان ومضى عثمان بن حنيف إلى البصرة فدخلها واتبعته فرقة وخالفته أخرى. ومضى عمارة بن شهاب إلى الكوفة فلقيه طلحة بن خويلد الأسدي الذي

كان ادعى النبوة زمان الردة فقال له: إن أهل الكوفة لا يستبدلون بأميرهم أحداً ـ وكان عليها أبو موسى الأشعري من قبل عثمان رحمه الله تعالى ـ فرجع عمارة إلى علي ومضى عبيد الله بن عباس إلى اليمن فوليها وكان العامل بها من قبل عثمان يعلى بن منية، فأخذ ما كان بها من المال ولحق بمكة ومعه ستمائة بعير وصار مع عائشة رضي الله عنها وذلك أن عائشة كانت خرجت إلى مكة زمان حصار عثمان فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقيها الخبر بمقتل عثمان فأعظمت ذلك ودعت إلى الطلب بدمه، ولحق بها طلحة والزبير وعبد الله بن عمر، وجماعة من بني أمية، واتفق رأيهم على المضي إلى البصرة للاستيلاء عليها. وكان عبد الله بن عمر قد قدم مكة من المدينة فدعوه إلى المسير معهم فأبى. وأعطى يعلى بن منية عائشة الجمل المسمى بعسكر وكان اشتراه بمائة دينار فركبته وساروا، فمروا في طريقهم بماء يقال له: الحوأب فنبحتهم كلابه فقالت عائشة: أي ماء هذا؟ فقيل ماء الحوأب فصرخت بأعلى صوتها وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب، ثم ضربت عضد الجمل فأناخته وقالت: ردوني، أنا والله صاحبة ماء الحوأب، وقامت بهم يوماً وليلة إلى أن قيل: النجاء فقد أدرككم عليّ بن أبي طالب، وغلبوها على رأيها فارتحلوا نحو البصرة فاستولوا عليها بعد قتال مع أميرها عثمان بن حنيف. ولما بلغ علياً رضي الله عنه مسير عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة سار نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة وثمانمائة من الأنصار. وكانت رايته مع ابنه محمد بن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن، وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيل عمار بن ياسر، وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر الصديق وعلى مقدمته عبد الله بن العباس. وكان مسيره في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

ولما وصل عليّ إلى ذي قار لقيه أمير البصرة عثمان بن حنيف، وأخبره الخبر. فقال علي: إن الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب والسنة ثم

وليهم ثالث فقالوا في حقه وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما عليّ، والله إنهما ليعلمان إني لست بدون رجل ممن تقدم. ثم سار عليّ يؤم البصرة فيمن معه من أهل المدينة وأهل الكوفة، وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير جمع آخر. والتقوا بمكان يقال له: الخريبة عند موضع قصر عبيد الله بن زياد يوم الخميس النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة. ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير، وجاءهم عليّ حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال عليّ: لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً. ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دمكما. فهل من حدث أحل لكما دمي؟ قال طلحة: ألبت على عثمان. قال علي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور:25]. فلعن الله قتلة عثمان. يا طلحة أما بايعتني؟ قال والسيف على عنقي. ثم قال الزبير: أتذكر يوم قال لك رسول الله ﷺ: «**لتقاتلنه وأنت له ظالم؟**» قال: اللهم نعم ولو ذكرت ذلك قبل مسيري ما سرت ووالله لا أقاتلنك أبداً. وافترقوا. وكان علي رضي الله عنه قد بعث إليهم قبل اللقاء القعقاع بن عمرو التميمي وأمره أن يشير بالصلح ما استطاع. فقدم القعقاع على عائشة أولاً وقال: أي أماه ما أشخصك؟ قالت: أريد الإصلاح بين الناس قال: فابعثي إلى طلحة والزبير فاسمعي مني ومنهما فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما القعقاع إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح فقال طلحة والزبير كذلك هو. قال القعقاع: فأخبراني ما هو؟ قالا: قتلة عثمان فإن تركهم ترك للقرآن. قال: فقد قتلتم منهم عدداً من أهل البصرة ـ يعني حين قتلوا أميرها عثمان بن حنيف ـ قال: وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف. فإن قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمع ربيعة ومضر على حربكم فأين الإصلاح؟ قالت عائشة: فماذا تقول أنت؟ قال: هذا الأمر دواؤه التسكين، فإذا سكن الأمر اختلجوا: أي أخذوا على غرة. فقالوا قد أصبت وأحسنت! فارجع إلى عليّ فإن كان على مثل رأيك

صلح الأمر فرجع القعقاع إلى عليّ فأعجبه وأشرف القوم على الصلح. وعلم بذلك جماعة ممن كان سعى في قتل عثمان أو رضي به. فقالوا: إن يصطلح هؤلاء فعلى دمائنا يصطلحون، ثم تعاقدوا على أنهم إذا التقوا بجيش عائشة وطلحة والزبير أنشبوا القتال حتى يشتغل الناس عما عزموا عليه من الصلح، فكان كذلك، فإنه لما كانت صبيحة الليلة التي اجتمع فيها عليّ بطلحة والزبير غلس أولئك المتعاهدون على إنشاب الحرب ـ وما يشعر بهم أحد ـ وصمدت منهم مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة واليمن إلى اليمن فوضعوا فيهم السلاح على حين غفلة فثار الناس وتسابقوا إلى خيولهم وزحف البعض إلى البعض واشتبكت الحرب، فكانت الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من الشهر المذكور أعني جمادى الأخيرة سنة ست وثلاثين، وقتل طلحة في المعركة، والزبير وهو راجع إلى المدينة، وعقر الجمل الذي كانت عليه عائشة. وأمر علي رضي الله عنه بنقل هودجها إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي، ونادى منادي عليّ يوم الجمل وكذا يوم صفين الآتي: أن لا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور. ثم صلى على القتلى من الجانبين، وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من الأثاث وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه ميسم السلطان. وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف ـ منهم من ضبة ألف رجل ـ وبلغ عليّاً أن بعض الغوغاء عرض لعائشة رضي الله عنها بالقول السيىء فأحضر البعض منهم وأوجعهم ضرباً، ثم جهزها إلى المدينة بما احتاجت إليه وبعث معها أخاها محمد بن أبي بكر في أربعين امرأة من نساء البصرة اختارهن لمرافقتها، وجاء يوم ارتحالها فودعها واستعتب لها واستعتبت له ومشى معها أميالاً وشيعها بنوه مسافة يوم. وذلك غرة رجب. فذهبت إلى مكة وأقامت بها حتى حجت تلك السنة ثم رجعت إلى المدينة. واستعمل علي رضي الله عنه على البصرة عبد الله بن عباس وسار إلى الكوفة فنزل بها وانتظم له الأمر بالعراق ومصر

واليمن والحرمين وفارس وخراسان ولم يبق خارجاً عن طاعته إلا أهل الشام وأميرهم معاوية بن أبي سفيان، فبعث إليه علي رضي الله عنه جرير بن عبد الله البجلي يأمره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، فلما قدم جرير على معاوية ماطله حتى قدم عليه عمرو بن العاص من فلسطين فاستشاره فأشار عليه بترك البيعة والطلب بدم عثمان وأن يقاتل معه على أنه إذا ظفر ولاه مصر: فأجابه معاوية إلى ذلك. ورجع جرير إلى علي رضي الله عنه بالخبر. فسار علي من الكوفة قاصداً معاوية ومن معه بالشام، وقدم عليه عبد الله بن عباس ومن معه من أهل البصرة فقال علي رضي الله عنه:

لأصبحن العاص وابن العاص سبعين ألفاً عاقدي النواصي
مجنبين الخيل بالقلاص مستحقبين حلق الدلاص

وسار معاوية ومعه عمرو بن العاص وأهل الشام من دمشق يريد علياً وتأنى معاوية في مسيره.

حرب صفين

وخرجت سنة ست وثلاثين ودخلت سنة سبع بعدها فاجتمع الجيشان بصفين وتراسوا وتداعوا إلى الصلح فلم يقض الله بذلك، وكانت حرب يسيرة بالنسبة لما بعدها ولما دخل صفر وقع بينهما القتال فكانت وقعات كثيرة بصفين يقال: إنها تسعون وقعة وكانت مدة مقامهم على الحرب مائة يوم وعشرة أيام، وعدد القتلى بصفين من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، منهم ستة وعشرون من أهل بدر. وكان علي رضي الله عنه قد تقدم إلى أصحابه أن لا يقاتلوهم حتى يبدؤوهم بالقتال، وأن لا يقتلوا مدبراً ولا يكشفوا عورة ولا يأخذوا من أموالهم شيئاً. وقاتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع علي قتالاً عظيماً وكان عمره قد نيف على تسعين سنة وكانت الحربة في يده ويده ترتعد فقال: هذه راية قاتلت بها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، ودعا بقدح من لبن فشرب منه ثم قال: صدق الله ورسوله اليوم ألقى الأحبة: محمداً وحزبه. قال لي رسول الله ﷺ: إن آخر رزقي من الدنيا ضيحة لبن. وروي أنه كان يرتجز[1].

نحن قتلناكم على تأويله   كما قتلناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله

ولم يزل عمار يقاتل ذلك اليوم حتى استشهد رضي الله عنه.

وفي الصحيح المتفق عليه: إن رسول الله ﷺ قال: **«ويح عمار تقتله الفئة الباغية»**، وبعد قتل عمار رضي الله عنه انتخب عليّ اثنى عشر ألفاً ـ بعد أن روى لهم حديث عمار ـ وحمل بهم على عسكر معاوية فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض ثم نادى يا معاوية على ما نقتل الناس بيننا؟ هلم

(1) يعني متمثلاً لأن البيتين رويا لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

أحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه استقام له الأمر! فقال له عمرو بن العاص: أنصفك. فقال معاوية: لكنك ما أنصفت، ثم تقاتلوا ليلة الهرير شبهت بليلة القادسية ـ وكانت ليلة الجمعة ـ واستمر القتال إلى الصباح، وكان عليّ يسير بين الصفوف ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره.

ورويّ أنه كبر تلك الليلة سبعمائة تكبيرة وكانت عادته: أنه كلما قتل قتيلاً كبر ودام القتال إلى ضحى يوم الجمعة، وقاتل الأشتر النخعي قتالاً عظيماً حتى انتهى إلى معسكرهم. وقتل صاحب رايتهم، وأمده عليّ بالرجال. فلما رأى عمرو شدة الأمر قال لمعاوية: مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون: كتاب الله بيننا وبينكم، فإن قبلوا ذلك ارتفع عنا القتال وإن أبى بعضهم وجدنا في افتراقهم راحة، ففعلوا ذلك. فقال الناس: نجيب إلى كتاب الله، فقال علي: «يا عباد الله امضوا على حقكم في قتال عدوكم فإن عمراً ومعاوية وابن أبي معيط وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم، ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ومكيدة» فقالوا: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فلا نقبل. فقال علي: «إنما قاتلناهم ليدينوا بكتاب الله فإنهم نبذوه» فقال جماعة من القراء الذين صاروا خوارج: يا علي أجب إلى كتاب الله وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان. فقال علي رضي الله عنه: «إن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فافعلوا ما بدا لكم» وآخر الأمر إنهم اتفقوا على أن يحكموا رجلين من الجانبين وما حكما به عليهم صاروا إليه. فاختار أهل الشام عمرو بن العاص داهية العرب واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري بعد مراجعات وقعت بين علي وبينهم واجتمع الحكمان عند علي لتكتب القضية بحضوره، فكتبوا: بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال عمرو بن العاص إنما هو أميركم وليس هو بأميرنا. فقال الأحنف: لا تمحوا اسم أمير المؤمنين. وقال

الأشعث: امحها. فقال علي: الله أكبر سنة بسنة! والله إني لكاتب القضية يوم الحديبية، فكتبت محمداً رسول الله ﷺ فقالت قريش: لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأمرني رسول الله ﷺ بمحوه فقلت: لا أستطيع قال: فأرنيه، فأريته إياه فمحاه بيده، فقال لي: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب! ثم كتب الكتاب: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم؛ وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم إنا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيى ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما: أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملاً به؛ وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق إنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يورداها في حرب ولا فرقة، وأجلا القضاء إلى رمضان من السنة، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه، وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام، ووضعوا خطوطهم في الصحيفة ودعي الأشتر النخعي ليشهد فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي إن وضع لي فيها اسم. وكتب الكتاب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين وعينوا موضع الحكم بدومة الجندل فوقع الاجتماع للأجل المذكور.

وحاصل ما كان من ذلك أن الحكمين اتفقا على خلع علي ومعاوية ويكون الأمر شورى بين الناس حتى يختاروا من يقدمونه للأمر. وقدم عمرو بن العاص أبا موسى على نفسه في الكلام فتكلم أبو موسى على رؤوس الناس بما اتفقا عليه من خلع علي ومعاوية حتى ينظر الناس لأنفسهم. فلما سكت أبو موسى قام عمرو فقال: «أيها الناس إن هذا قد خلع

صاحبه وقد خلعته كما خلعه، وأثبت معاوية فهو ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه». فكذبه أبو موسى وتنازعا وتشاتما ومرج أمر الناس ولم يحصلوا على طائل. وانسل أبو موسى الأشعري إلى مكة فأقام بها ولم يرجع إلى علي حياء منه. ومضى عمرو بن العاص في أهل الشام فسلموا على معاوية بالخلافة ولام عليّ أصحابه فيما كان منهم من عصيانه أولاً وانخداعهم لأهل الشام آخراً وقال فيما قال: «كأني وإياكم كما قال أخو جشم[1]:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوا فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد»

وقال: «إن هذين الحكمين اللذين اخترتموهما تركا حكم الله وحكما بهوى النفس واختلفا في حكمهما فلم يرشدهما الله، فتأهبوا للجهاد واستعدوا للسير». وأصبح علي رضي الله عنه غادياً يريد الشام في ثمانية وسبعين ألفاً.

وكانت الخوارج قد خرجوا عليه واعتزلوه وقالوا: حكمت الرجال في دين الله! ولا حكم إلا لله! وبلغه أن الخوراج قد اجتمعوا بالنهروان وتعاهدوا على حرب المسلمين ثم بلغه أن الخوارج البصرة لقوا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ قريباً من النهروان فعرفهم بنفسه فسألوه عن أبي بكر وعمر فأثنى خيراً، ثم عن عثمان في أول خلافته وآخرها، فقال: كان محقّاً في الأول والآخر، فسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده، فقال: هو أعلم بالله وأشد توقيّاً على دينه. فقالوا: إنك توالي الرجال على أسمائها ثم ذبحوه وبقروا بطن امرأته. وقتلوا معهما ثلاث نسوة من طيىء، ومن عجيب أمرهم أنهم لقوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم في النصراني، فسار إليهم علي رضي الله عنه وأرسل إليهم أن ادفعوا قتلة إخواننا منكم فنكف عنكم حتى نلقى أهل المغرب[2] فلعل الله يردكم إلى خير، فأرسلوا إليه كلنا قد قتلهم وكلنا يستحل دماءكم، فأتاهم علي رضي الله عنه

---

(1) هو دريد بن الصمة.

(2) يعني بذلك أهل الشام.

فقال: «أيتها العصبة التي أخرجها المراء من الحق إلى الباطل، وأصبحت في اللبس والخطب العظيم، إني نذير لكم أن تصبحوا تلقاكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا النهر بغير بينة منكم ولا برهان، ألم تعلموا أني قد نهيتكم عن الحكومة إليّ وأخبرتكم أن القوم إنما طلبوها خديعة فعصيتموني وحملتموني على أن حكمت، ولما حكمت شرطت وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات فانقلبا وحكما بغير حكم الكتاب، فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول، فما الذي أصابكم؟ ومن أين أتيتم؟». قالوا: «حكمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا، فإن تبت كما تبنا فنحن قومك، وإلا فاعتزلنا ونحن ننابذك على سواء إن الله لا يحب الخائنين» فقال علي رضي الله عنه: «صبحكم حاصب، ولا بقي منكم وافد، أبعد إيماني برسول الله ﷺ وجهادي في سبيل الله وهجرتي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر؟ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56]. وروي أنه لما كلمهم واحتج عليهم تنادوا: «لا تخاطبوهم ولا تكلموهم، وتهيؤوا للقاء الرب. الرواح الرواح إلى الجنة» فخرج علي رضي الله عنه فعبأ الناس ميمنة وميسرة ووقف هو القلب في مضر وجعل على الخيل أبا أيوب الأنصاري وعلى أهل المدينة - وكانوا سبعمائة - قيس بن سعد بن عبادة. وعبأت الخوراج على نحو هذه التعبية ورفع علي رضي الله عنه مع أبي أيوب الأنصاري راية الأمان. فنادى أبو أيوب من أتى هذه الراية ولم يقاتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن، ومن انصرف عن هذه الجماعة فهو آمن، فاعتزل فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة وقال: «أعتزل حتى يتضح لي الأمر في قتال علي» فنزل الدسكرة وخرج آخرون إلى الكوفة ورجع آخرون إلى علي رضي الله عنه وكانوا أربعة آلاف فبقي منهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم عليّ والناس وزحفوا هم إلى علي رضي الله عنه ينادون: الرواح الرواح إلى الجنة فاستقبلهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من المجنبتين، ونهض إليهم الرجال بالسلاح فهلكوا

كلهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا فماتوا. وكان جملة من قتل من أصحاب علي رضي الله عنه سبعة نفر؛ فطلب علي رضي الله عنه المخدج في القتلى فلم يوجد، فقام رضي الله عنه وعليه أثر الحزن لفقده فانتهى إلى قتلى بعضهم فوق بعض فقال: «أفرجوا» ففرجوا يميناً وشمالاً فاستخرجوه فقال: «الله أكبر والله ما كذبت على رسول الله ﷺ وإنه لناقص اليد ما فيها عظم طرفها مثل ثدي المرأة عليها خمس شعرات أو سبع رؤوسها معقفة» ثم قال: «ائتوني به» فنظر إلى منكبه فإذا اللحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة عليها شعرات سود إذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذي بطن يده الأخرى ثم تترك فتعود إلى منكبه فقال أصحاب علي رضي الله عنه: ـ«قد قطع الله دابرهم آخر الدهر» فقال علي: «والذي نفسي بيده إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة يقال لهم الشمط فيخرج إليهم رجل منا أهل البيت فيقتلهم فلا تخرج لهم بعدها خارجة إلى يوم القيامة».

وفي الصحيح عن سويد بن غفلة قال: قال علي رضي الله عنه: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فوالله لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم»**.

ثم إن علياً رضي الله عنه ندب أصحابه إلى غزو الشام فتثاقلوا عليه ولما وصلوا إلى الكوفة تسللوا إلى بيوتهم وتركوا المعسكر خالياً. ولما رأى علي ذلك دخل الكوفة ثم ندبهم ثانياً فلم ينفروا ثم ثالثاً فلم ينشط منهم إلا القليل، فخطبهم وأغلظ في عتابهم وأعلمهم بما له عليهم من الطاعة في الحق والنصح فتثاقلوا وسكتوا واستمر الحال إلى أن استأثر به ربه وأراحه من

شغبهم وقبضه إليه ونقله إلى كرامته وجنته، سابق مضمار الإيمان والهجرة والنصرة والنجدة والصهر والقربى والقناعة والجهاد والعلم والزهد رضي الله عنه.

وكان من خبر وفاته أن ثلاثة من الخوارج ممن نجا من وقعة النهروان وهم عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي وعمرو بن بكر التميمي السعدي والحجاج بن عبد الله التميمي الصريمي ـ ويلقب بالبرك ـ اجتمعوا بمكة فذكروا إخوانهم الذين قتلوا بالنهروان وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم الناس فقال ابن ملجم ـ وكان من مصر ـ «أنا أكفيكم علياً» وقال البرك: «أنا أكفيكم معاوية» وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص» وتعاهدوا أن لا يرجع أحد منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه وتواعدوا سبع عشرة ليلة تمضي من رمضان من هذه السنة ـ أعني سنة أربعين ـ وانطلقوا فلقي ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم إلا أنه جاء إلى شبيب بن شجرة الأشجعي ودعاه إلى الموافقة على شأنه فقال شبيب: ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله؟ فقال أكمن له في المسجد عند صلاة الغداة فإن قتلناه وإلا فهي الشهادة! قال ويحك لا أجدني أنشرح لقتله مع سابقته وفضله، قال ألم يقتل العباد الصالحين أصحاب النهروان؟ قال: بلى. قال: فنقتله بمن قتله منهم فأجابه ثم لقي امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال اسمها قطام قتل أبوها وأخوها يوم النهروان فخطبها ابن ملجم فشرطت عليه ثلاثة آلاف درهم وعبداً وقنية وأن يقتل علياً وقالت: «فإن قتلته شفيت النفوس وإلا فهي الشهادة» قال: «والله ما جئت إلا لذلك ولك ما سألت» وفي ذلك قيل:

ثلاثة آلاف وعبد وقنية ... وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ... ولا فتك إلا دون ابن ملجم

ثم قالت: سأبعث معك من يشد ظهرك ويساعدك، وبعثت معه رجلاً من قومها اسمه وردان.

فلما كانت الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه فيها ـ وكانت ليلة الجمعة ـ جاء إلى المسجد ومعه شبيب ووردان. وجلسوا قبالة السدة التي يخرج منها علي للصلاة، فلما خرج ونادى للصلاة علاه شبيب بالسيف فوقع في عضادة الباب، وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه وقال: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك، وهرب وردان إلى منزله، وهرب شبيب مغلساً، ونجا في غمار الناس، وقبض على ابن ملجم فجيء به مكتوفاً إلى علي ـ وقد حمل إلى بيته ـ فقال: أي عدو الله ما حملك على هذا؟ ثم قال إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. يا بني عبد المطلب لا تحرضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين: لا تقتلوا إلا قاتلي، يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه بسيفه، ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إياكم المثلة»**. وقال له جندب بن عبد الله: أنبايع الحسن إن فقدناك؟ فقال: ما آمركم به ولا أنهاكم عنه أنتم أبصر. ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض رضي الله عنه.

ولما قبض أخرج عبد الرحمٰن بن ملجم من السجن فقطع عبد الله بن جعفر يده ثم رجله ثم لسانه وكحلت عيناه بمسمار محمى وأحرق لعنه الله. وأما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربه بالسيف فوقع في إليته وأخذ البرك فقال لمعاوية: عندي بشرى أتنفعني إن أنا أخبرتك بها؟ قال: نعم. قال: إن أخاً لي قتل علياً هذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر عليه فقال بلى إن علياً ليس معه من يحرصه فقتله معاوية وقيل قطع يده ورجله وأقام إلى أيام زياد فقتله بالبصرة وأما عمرو بن بكر التميمي فإنه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم يخرج عمرو إلى الصلاة لمرض أصابه واستناب خارجة بن حذافة العدوي في الصلاة فشد عليه عمرو بن بكر وهو يظن أنه عمرو بن العاص فقتله فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال فمن قتلت إذاً؟ قالوا قتلت خارجة بن حذافة فقال: «أردت عمراً وأراد الله خارجة» فأرسلها

مثلاً وأمر به عمرو فقتل ويرحم الله ابن عبدون إذ يقول:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بما شاءت من البشر

وكانت وفاة علي رضي الله عنه صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين كما ذكرنا. وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر. واختلف في موضع قبره فقيل دفن مما يلي قبلة المسجد بالكوفة وقيل عند قصر الإمارة بها وقيل نقله ابنه الحسن إلى المدينة ودفنه بالبقيع عند زوجه فاطمة رضي الله عنها.

قال أبو الفداء والأصح وهو الذي ارتضاه ابن الأثير وغيره إن قبره هو المشهور بالنجف وهو الذي يزار اليوم.

وفضائل علي رضي الله عنه ومناقبه في العدل وحسن السيرة أجل من أن يحاط بها، من ذلك مشاهده المشهورة بين يدي رسول الله ﷺ ومؤاخاته له وسبق إسلامه وقول رسول الله ﷺ: **«من كنت مولاه فعليّ مولاه»** وقوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر: **«لأبعثن الراية غداً مع رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»** وقوله عليه الصلاة والسلام له: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»** وقال ﷺ: **«أقضاكم علي»** والقضاء يستدعي معرفة أبواب الفقه كلها بخلاف قوله عليه السلام: **«أفرضكم زيد وأقرأكم أُبي»**. ولم يضع رضي الله عنه لبنة على لبنة حتى لقي الله وكان يقسم ما في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً. ودخل مرة بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال: «يا صفراء اصفري ويا بيضاء ابيضي وغري غيري لا حاجة لي فيك».

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب بسنده إلى مجمع التميمي أن علياً رضي الله عنه قسم ما في بيت المال بين المسلمين ثم أمر به فكنس ثم صلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة.

وروى أيضاً بسنده عن عاصم بن كليب عن أبيه قال قدم على علي مال من أصبهان فقسمه سبعة أسباع ووجد فيه رغيفاً فقسمه سبع كسر وجعل على

كل جزء كسرة ثم أقرع بينهم أيهم يعطي أولاً. قال ابن عبد البر: وأخباره رضي الله عنه في مثل هذا من سيرته لا يحيط بها كتاب ويرحم الله من قال:

أحسن من عود ومن ضارب ومن فتاة ناهد كاعب
ومن مدام في قواريرها يسعى بها ساق إلى شارب
ومن جياد الخيل في مهمه وضارب يسطو على ضارب
أحسن من ذاك وهذا وذا حب علي بن أبي طالب
لو فتشوا قلبي لألفوا به سطرين قد خطا بلا كاتب
العلم والتوحيد في جانب وحب آل البيت في جانب
إن كنت فيما قلته كاذباً فلعنة الله على الكاذب

ولم توفي علي رضي الله عنه بايع الناس ابنه الحسن رضي الله عنه، وأول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة قال له: ابسط يدك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال الملحدين، فقال الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله ويأتيان على كل شرط. ثم بعد ذلك نزل لمعاوية عن الأمر في خبر طويل نذكر منه ما في الصحيح. فعن الحسن البصري رحمه الله قال: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية ـ وكان والله خير الرجلين ـ: أي عمرو إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، فمن لي بأمور الناس؟ من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمٰن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز فقال اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه، فأتياه فدخلا عليه فتكلما وقالا له وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي رضي الله عنهما: إنا بني عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا؟ قالا نحن لك به، فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به؛ فصالحه. قال الحسن البصري رحمه الله: «ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت

رسول الله ﷺ على المنبر ـ والحسن بن علي إلى جنبه ـ وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «**إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**».

وها هنا فائدتان الأولى: هذه الحروب التي وقعت بين الصحابة رضي الله عنهم محملها الاجتهاد كما قدمنا والذب عن الدين، وكان الناس من السذاجة في الدين والتمسك به على ما عهد منهم، فكانوا إذا رأوا ما يظنونه منكراً غيروه ولو بإتلاف مهجهم، إلا أنهم كان منهم المجتهد المصيب، وهو ذو الأجرين كما في الحديث، ومنهم المجتهد المخطىء وهو ذو الأجر الواحد كما في الحديث أيضاً. وكان علي رضي الله عنه مصيباً في جميع أمره من أوله إلى آخره. فعلى العاقل المحتاط لدينه أن يظن بصحابة رسول الله ﷺ الظن الجميل، ويعمل بوصيته فيهم إذ قال عليه الصلاة والسلام: «**الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم**» الحديث وإياي وإياه أن يجرح من زكاهم الله تعالى بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110]. وزكاهم رسول الله ﷺ بقوله: «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» اللهم احشرنا في زمرتهم وأمتنا على سنتهم وطريقتهم يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

الفائدة الثانية: أطبق السلف على أن ترتيب الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة. وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان وممن قال به سفيان الثوري لكن قيل إنه رجع عنه. وقالت الشيعة وكثير من المعتزلة الأفضل بعد النبي ﷺ علي بن أبي طالب والحق هو القول الأول. وهل التفضيل بين الخلفاء قطعي أو ظني فالذي مال إليه الأشعري هو الأول، والذي مال إليه القاضي أبو بكر الباقلاني واختاره

إمام الحرمين في الإرشاد هو الثاني، وعبارته: «لم يقم عندنا دليل قاطع على تفضيل بعض الأئمة على بعض، إذ العقل لا يدل على ذلك، والأخبار الورادة في فضائلهم متعارضة، ولكن الغالب على الظن أن أبا بكر أفضل الخلائق بعد الرسول ﷺ، ثم عمر أفضلهم بعده، وتتعارض الظنون في عثمان وعلي».

وها هنا انتهى بنا القول فيما قصدناه من التبرك بذكر رسول الله ﷺ وذكر خلفائه الأربعة رضي الله عنهم، ولنرجع إلى ما نحن بصدده من ذكر أخبار المغرب الأقصى مقدمين القول أولاً في نسب البربر وبيان حالهم قبل الإسلام وبعده على الجملة، لنتخلص بعده للمقصود، والله تعالى يعصمنا من الزلل بمنه وكرمه.

القول في نسب البربر وبيان أصلهم

اعلم أن الناس اختلفوا في تحقيق نسب البربر وإلى أي أصل من أصول الخليقة يرجعون، فذكر صاحب كتاب الجمان في أخبار الزمان ونقله عن أهل العلم بالسير أن بني حام تنازعوا مع بني سام فانهزم بنو حام أمامهم إلى المغرب وتناسلوا به، واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان، وكان بسواحل المغرب الأفارقة والإفرنج فكانت ذرية حام في المداشر والخيام، والأعاجم الأول في البلدان. وبقي أكثر أولاد حام في بلاد فلسطين من أرض الشام إلى زمن داود عليه الصلاة والسلام. وكان ملكهم يسمى جالوت فلما قتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء أمر بإجلائهم من بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب. فساروا نحو إفريقية والزاب وانتشروا هنالك حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال وصاروا يتبعون مواقع القطر بالإبل وبيوت الشعر، ولم تقدر الفرنج على ردهم ودفاعهم، فانحازت الأعاجم للمدن وبقي البربر فيما عدى المدن وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان الفاسدة، فمنهم من تمجس ومنهم من تهود ومنهم من تنصر، واستمروا على ذلك إلى زمان الإسلام. وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان، ولهم حروب وملاحم عظام مع من قارعهم من الأمم.

وقال الطبري وغيره: «إن البربر أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم. فلما قتل داود جالوت تفرقوا في البلاد».

وقال الكلبي: «اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحي قيل: يا داود أخرج البربر من الشام فإنهم جذام الأرض، وقيل: يوشع بن نون عليه السلام. وقيل: إفريقش الحميري واختلف في إفريقش هذا فقال المسعودي هو إفريقش بن أبرهة ذي المنار أحد التبابعة المشهورين».

وقال ابن حزم: «هو إفريقش بن قيس بن صيفي أخو الحارث الرائش منهم، وهو الذي ذهب بقبائل العرب إلى إفريقية وبه سميت، وساق البربر إليها من أرض كنعان مر بها عند ما غلبهم يوشع بن نون وقتلهم فاحتمل الفل منهم وساقهم إلى إفريقية فأنزلهم بها وقتل ملكها جرجير، ويقال إنه الذي سمى البربر بهذا الاسم لأنه لما فتح المغرب وسمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتهم! فسموا البربر. والبربرة في لغة العرب اختلاط أصوات غير مفهومة ومنه بربرة الأسد، وينسبون إليه في ذلك شعراً وهو قوله:

بربرت كنعان لما سقتها من بلاد الضنك للخصب العجيب

أي أرض سكنوها ولقد فازت البربر بالعيش الخصيب

ولما قفل إفريقش من غزو المغرب ترك هنالك حامية من قبائل حمير صنهاجة وكتامة فهما بها إلى الآن وليسوا من نسب البربر قاله الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين من العرب.

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد له: «اختلف الناس في نسب البربر اختلافاً كثيراً، وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام وأنه لما نزل مصر خرج بنوه يريدون المغرب فسكنوا من آخر عمالة مصر وذلك فيما وراء برقة إلى البحر الأخضر مع بحر الأندلس[1] إلى منقطع الرمل متصلين بالسودان. وقيل: إن البربر صنفان البرانس والبتر وأن البتر منهم من ولد بر بن قيس بن عيلان بن مضر، واختلفوا في توجيه ذلك فقال الطبري: خرج بر بن قيس بن عيلان ينشد ضالة له بأحياء البربر فرأى جارية منهم فخطبها من أبيها وتزوجها فولدت له».

وقال في كتاب الجمان: وأما تسميتهم بالبربر فإنه لما صار ملك مضر لقيس بن عيلان كان له ولد اسمه بر فخرج مغاضباً لأبيه وإخوته إلى جهة المغرب فقال الناس: بر بر أي توحش في البراري فسموا بربراً. ونقل ابن

---

(1) البحر الأخضر هو المحيط وبحر الأندلس هو البحر المتوسط.

أبي زرع وابن خلدون عن النسابين من البربر وحكاه أيضاً البكري وغيره: أنه كان لمضر بن نزار ولدان إلياس وعيلان أمهما الرباب بنت حيدة بن عمرو بن معد بن عدنان فولد عيلان بن مضر ولدين وهما قيس ودهمان ابنا عيلان، أما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال لهم بنو أمامة، وأما قيس بن عيلان فولد أربعة بنين وجارية وهم سعد وعمرو وخصفة أمهم مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار، ثم بر وأخته تماضر أمهما تمريغ بنت يجدول بن غمار بن مصمود البربري اليجدولي.

وكانت قبائل البربر إذ ذاك يسكنون الشام ويجاورون العرب في المساكن والأسواق والمساعي، ويشاركونهم في المياه والمسارح والمراعي، ويصاهر بعضهم بعضاً، وكانت البهاء بنت دهمان بن عيلان بن مضر من أجمل نساء زمانها وأكملهن ظرفاً وأدباً فكثر خطابها من سائر قبائل العرب فقال بنو عمها - وهم عمرو وسعد وخصفة وبر -: لا يتزوج ابنة عمنا إلا أحدنا ولا تخرج منا إلى غيرنا فخيروها فيمن شاءت منهم، فاختارت برّاً - وكان أصغرهم سناً وأكملهم شباباً - فتزوجها دون إخوته فحسدوه عليها وهموا بقتله من أجلها، وكانت أمه تمريغ من دهاة النساء فبعثت إلى أبيها دهمان وأعلمته الخبر وواطأته على الخروج بولدها إلى أرض قومها من البربر حيث تأمن عليه، ثم بعثت إلى قومها فأتوها سراً فارتحلت معهم هي وولدها بر وكنتها البهاء بنت دهمان فلحقوا ببلاد البربر - وهم يومئذٍ مستوطنون فلسطين وأكناف الشام - فنزل بر على أخواله واعتز بهم، وبنى بابنة عمه البهاء فولدت له هناك ولدين: علوان ومادغيس ابني بر بن قيس بن عيلان، فأما علوان فمات صغيراً ولم يعقب وأما مادغيس فكان يلقب الأبتر وهو أبو البتر من البربر وإليه يرفعون أنسابهم، ومن ولده جميع زناتة كما سيأتي، ويزعمون أن تماضر أخت بر بكته بعد فرقته بشعر تقول فيه:

لتبك كل باكية أخاها ... كما أبكي على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى ... ودون لقائه انضاء عنس

ومما ينسب إليها أيضاً قولها:

وشطت ببر داره عن بلادنا — وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية — وما كان بر في الحجاز بأعجما
كأنا وبرّاً لم نقف بجيادنا — بنجد، ولم نقسم نهاباً ومغنما

وأنشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي:

ألا أيها الساعي لفرقة بيننا — توقف هداك الله سبل الأطايب
فأقسم أنا والبرابر إخوة — تناولنا جد كريم المناسب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى — له حومة تشفي غليل المحارب
وبر بن قيس عصبة مضرية — وفي الفرع من أحسابها والذوائب
فنحن وهم ركن منيع وإخوة — على رغم أعداء لئام المناقب

في أبيات غير هذه. وينشد أيضاً ليزيد بن خالد يمدح البربر قوله:

أيها السائل عنا أصلنا — قيس عيلان، بنو الغر الأول
نحن ما نحن، بنو بر الندى — طارد الأزمة، نحار الإبل
قد بنى المجد فأورى زنده — وكفانا كل خطب ذي جلل
إن قيساً يعتزي بر له — ولبر يعتزي قيس الأجل
فلنا الفخر بقيس إنه — جدنا الأكبر فكاك الكبل
إن قيساً قيس عيلان هم — معدن الخير، على الخير دلل
حسبي البربر قومي إنهم — ملكوا الأرض بأطراف الأسل

في أبيات أخر.

واعلم أن الخلاف في نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصاراً، وأشبه هذه الأقوال بالصحة ما نقلناه أولاً[1] مما يدل على أن جيل البربر من ولد حام؛ وأنهم جيل قديم قد سكنوا المغرب عندما تناسلت ذرية نوح عليه

---

(1) يعني أن البرابر جيل قديم سكن أرض إفريقية منذ أحقاب طويلة، وأما كون أرض المغرب إذ ذاك كانت معمورة السواحل بالفرنج والروم فليس بمحرر.

السلام وانتشرت الخليقة على وجه الأرض، ثم تلاحقت بهم بقية بني كنعان من الشام عندما أجلاهم يوشع بن نون عليه السلام أولاً ثم داود عليه السلام ثانياً.

قال ابن خلدون بعد تزييف القول بأن البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب ما نصه: «والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وأن اسم أبيهم مازيغ اهـ».

ومما يستملح من النوادر المقولة في نسب البربر قول خلف بن فرج السميسير من شعراء الأندلس يهجو البربر:

رأيت آدم في نومي فقلت له: أبا البرية إن الناس قد حكموا

إن البرابر نسل منك، قال: إذاً حواء طالق إن كان الذي زعموا

وهذا من ملح الشعراء وشيطنتهم، وإلا فالبربر جيل معروف من أعظم الأجيال وأعزها، ولهم الفخر الذي لا يجهل، والذكر الذي لا يهمل، وقد تعددت فيهم الدول، وكثرت فيهم الملوك العظام، وكان لهم القدم الراسخ في الإسلام، واليد البيضاء في الجهاد. ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء والشعراء، وأهل المزايا والفضائل، وستقف على كثير من ذلك عن قريب إن شاء الله.

القول في تقسيم شعوب البربر على الجملة

اعلم أن أمة البربر أمة عظيمة قد ملأت ما بين برقة والبحر المحيط شرقاً وغرباً، وما بين بلاد السودان والبحر الرومي جنوباً وشمالاً؛ ومع عظمها فيجمعها شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربري عنهما.

قال ابن خلدون: علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما: برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه: البتر. ويقال لشعوب برنس: البرانس. وبين النسابين خلاف: هل هما لأب واحد أم لا؟ فعند ابن حزم أنهما لأب واحد والجميع من نسل كنعان بن

حام، وقال سابق بن سليمان المطماطي وغيره من نساب البربر: إن البرانس فقط من نسل كنعان، وأما البتر فهم بنو بر بن قيس بن عيلان بن مضر، وهذا القول قد تقدم ما فيه، فالحق أن الشعبين معاً عريقان في البربرية وأن الجميع من ولد مازيغ، ومازيغ هو من ولد كنعان بن حام كما مر.

فأما البرانس فتنقسم إلى سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكامة ومصمودة وعجيسة وأوريغة وأرداجة، ويقال: ورداجة بالواو بدل الهمزة، وزاد سابق المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخر وهم: لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشراً. فأما أوربة فكان منهم كسيلة بن أغز الأوربي قاتل عقبة بن نافع رضي الله عنه زمان الفتح، ومنهم إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي القائم بدعوة إدريس بن عبد الله رضي الله عنه. وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس أنهم مقدار الثلث منهم. وكان منهم بنو زيرى بن مناد ملوك إفريقية، والملثمون ملوك مراكش والأندلس. وأما كتامة فهم القائمون بدعوة العبيديين بإفريقية ومصر. وأما المصامدة فمنهم غمارة، وكان منهم يليان النصراني صاحب سبتة وطنجة أيام دخول عقبة بن نافع للمغرب الأقصى، وهم القائمون أيضاً بدعوة بني إدريس في دولتهم الثانية بعد بني أبي العافية، ومن المصامدة أيضاً برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها، ومنهم أهل جبل درن القائمون بدعوة محمد بن تومرت: مهدي الموحدين.

وأما باقي قبائل البرانس فلم يكن لهم ملك يذكر، وقد تقدم لنا أن النسابين من العرب يقولون إن صنهاجة وكتامة من حمير، وأن إفريقش الحميري تركهم حامية بإفريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية، لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطماطي وغيره ينكرون ذلك ويجزمون بأنهما قبيلتان عريقتان في البربر.

وأما البتر وهم بنو مادغيس الأبتر فينقسم شعبهم إلى أربع قبائل وهم: ضريسة ونفوسة وأداسة وبنو لوي وهم: لواتة. فأما ضريسة فمنهم مكناسة، ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة، وبنو أبي العافية ملوك فاس. ومن

ضريسة أيضاً زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة داهيا صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بحسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان. ومن زناتة أيضاً بنو خزر المغراويون ملوك تلمسان والمغرب الأوسط، ومنهم مغراوة ملوك فاس، وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا، ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان، وبنو مرين ملوك فاس أيضاً، فهؤلاء كلهم من زناتة. وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الأبتر.

وأما نفوسة وأداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر.

واعلم أن كل قبيلة من هذه القبائل الأربع عشرة تشتمل على عمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها وفيما ذكرناه كفاية وبالله التوفيق.

الخبر عن حال البربر قبل الإسلام وذكر بعض أمصار المغرب القديمة وما قيل في ذلك

قد تقدم لنا أن البربر أمة قديمة سكنوا أرض المغرب في قديم الزمان، وأنهم لما عمروا بلاده وملؤوا أكنافه انحازت الفرنج عنهم إلى السواحل والثغور، وبقي البربر فيما سوى ذلك من الضواحي والجبال والكهوف، وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الأديان الفاسدة إلى آخر ما مر فهذا كان حالهم على الجملة.

وقال ابن خلدون: لم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى الإسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها، وكان دينهم دين المجوسية ـ شأن الأعاجم كلها بالمشرق والمغرب ـ إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم، فإن الأمم أهل الدول العظيمة كانوا يتغلبون عليهم. فقد غزتهم ملوك اليمن من قراهم مراراً على ما ذكر مؤرخوهم فاستكانوا لغلبهم ودانوا بدينهم. ذكر ابن الكلبي: أن حميراً أبا القبائل اليمانية ملك المغرب مائة سنة

وأنه الذي ابتنى مدائنه مثل إفريقية وصقلية[1]، واتفق المؤرخون من العرب على غزو إفريقش الحميري من التبابعة أرض المغرب. اهـ وما نقله عن ابن الكلبي من غزو حمير أرض المغرب قد نقل أيضاً إنكاره عن الحافظين أبي عمر بن عبد البر وأبي محمد بن حزم وأنهما قالا: ما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن، ثم ذكر أن البعض من البربر كانوا قد دانوا بدين اليهودية وأخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم، كما كان جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة وكما كانت نفوسة من برابرة إفريقية وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازاز من برابرة المغرب الأقصى حتى محا إدريس الأكبر جميع ما كان في نواحيه من بقايا الأديان والملل.

وقال غير واحد من المؤرخين: كان أهل المغرب الأقصى يضرون بأهل الأندلس لاتصال الأرض بينهم ويلقون منهم الجهد الجهيد في كل وقت إلى أن اجتاز بهم الإسكندر فشكوا حالهم إليه، فأحضر المهندسين وأتى إلى الزقاق ـ يعني زقاق سبتة ـ فأمرهم بوزن سطح الماء من البحر المحيط والبحر الرومي، فوجدوا المحيط يعلو الرومي بشيء يسير فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الرومي ونقلها من الحضيض إلى الأعلى، ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناء محكماً، وجعل طوله اثنى عشر ميلاً وهي المسافة التي كانت بين البحرين. وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرضيفين سعة ستة أميال، فلما كمل الرصيفان حفر

---

(1) كلام ابن الكلبي هذا غير محرر ومخالف للحقيقة كما هو معلوم، لأن صقلية جزيرة بوسط البحر المتوسط بين قارتي أوروبا وإفريقيا وهي إلى أوروبا أقرب، وإنما ساق المؤلف هذا النقل هنا ليستقصي ما ذكره الناس في هذا الموضوع سيما وقد ساق اعتراض ذلك ونقل إنكاره عن الحافظين: ابن عبد البر وابن حزم.

من جهة البحر الأعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل في البحر الرومي ثم ارتفع الماء فأغرق مدناً كثيرة وأهلك أمماً عظيمة كانت على الشطين، وطما الماء على الرصيفين بإحدى عشرة قامة، فأما الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بيناً مستقيماً على خط واحد، وأهل الجزيرة يسمونه القنطرة، وأما الرصيف الذي يلي جهة العدوة فإن الماء حمله في صدره واحتفر ما خلفه من الأرض بنحو اثني عشر ميلاً، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر المجاز وسبتة وطنجة، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف بن مالك والجزيرة الخضراء؛ وما بين سبتة والخضراء هو عرض البحر المسمى بالزقاق وبالبوغاز أيضاً اهـ.

وما ذكروه من أن أرض المغرب كانت متصلة بأرض الأندلس نحوه في تواريخ الفرنج القديمة، غير أنهم يسمون الملك الذي فتح الباغاز هرقل الجبار، وعند ابن سعيد: أنه كان فيما بين قصر المجاز وطريف قنطرة عظيمة قد وصلت ما بين البرين يزعم الناس أن الإسكندر بناها ليعبر عليها من بر الأندلس إلى بر العدوة والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

وفي تواريخ الفرنج المقطوع بصحتها عندهم: أن ملوك الروم الأولى حاربوا القرطاجنيين من أهل إفريقية والمغرب وغلبوهم على البلاد وهدموا في بعض تلك الحروب مدينة قرطاجنة الشهيرة الذكر. قال الشيخ رفاعة في بداية القدماء ما نصه: «قرطاجنة مدينة بأرض إفريقية هي إحدى مدن الدنيا الشهيرة، وقد هدمها الروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وست وأربعين سنة ثم أسست ثانية وخربها العرب حتى إنه لا يرى الآن شيء من آثارها إلا بغاية الجهد وبقرب موضعها مدينة تونس اهـ.

وقال ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران حين تكلم على قيادة الأساطيل ما نصه: «وقد كانت الروم والإفرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي، وكان أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن، فكانوا مهرة

في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية، مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب، أجازوا إليها في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولاء ومرناق وشرشال وطنجة، وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حقاً فيه معروفة في القديم والحديث اهـ.

قلت: الفرنج اليوم جازمون بأن ملوك الروم الأولى كانوا مستولين على أرض المغرب بأسرها قد ملكوها مدة طويلة من الزمان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بكثير وأن الأمصار القديمة بالمغرب مثل سبتة وطنجة وسلا وشالة ووليلى ونحوها هي من بنائهم أو بناء القرطاجنيين قبلهم ولقد قال لي بعض أهل الخبرة منهم: إن مدينة سلا كانت موجودة في ذلك العصر وأنه رآها مذكورة بهذا الاسم في تواريخ الروم[1] القديمة المذكورة فيها أخبار المغرب وأمصاره، وحققت عليه ذلك فجزم به ولم يرجع وما يقال من أن سبتة وسلا من بناء بعض أولاد نوح عليه السلام فقول بعيد عن الصحة نعم قد ذكر في التوارة عند الكلام على ذرية نوح وتناسلهم بالأرض إنه كان منهم سبتة بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام ويبعد أن تكون المدينة من بناء هذا الرجل أو بناء بعض بنيه لبعد العهد وطول المدة وعدم نقل ذلك من وجه صحيح، وإن كانت أرض المغرب هي لأولاد حام من قديم الزمان والله أعلم.

ولما أخذ الروم بدين النصرانية في زمن قسطنطين الملك، وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الأمم، مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم، حملوهم على الأخذ به فدانوا به معهم وتلقوه عنهم وبثوه في

---

(1) يعني تواريخ اللاتينيين.

بلادهم ورعاياهم، وكان الفُرنج مجاورين للبربر في المغرب الأدنى، والقوط مجاورين لهم في الأقصى، ليس بينهم وبينهم إلا خليج البحر. فحملوا أهل السواحل منهم على الأخذ بذلك الدين فدانوا به أيضاً، ونظر القياصرة يومئذٍ منسحب عن الجميع وأمرهم نافذ في الكل، واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالإسلام وأظهره على الدين كله، فدانت به البربر على ما نذكره إن شاء الله فلهذا السبب كان كسيلة الأوربي ويليان الغماري وغيرهما من كبار البربر نصارى.

وقال ابن خلدون: «كان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لا يرامون بذل، ولا تنالهم الروم والفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة ولا إساءة» ثم قال: «وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك القسطنطينية ـ كما كان المقوقس صاحب مصر والإسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له ـ وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من القوط لما كان الروم قد غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع وعنهم أخذوا دين النصرانية، وكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر إفريقية ولم تكن للروم فيها ولاية وإنما كان كل من كان منهم بها جند للفرنج ومن حشودهم. وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقية فمن باب التغليب، لأن العرب يومئذٍ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام إلا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية، فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية ونقلت الأخبار عن العرب كما هي فجرجير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم، وكذا الأمة الذين كانوا بإفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها كانوا من الفرنجة» اهـ.

القول في تحديد المغرب وذكر حال البربر بعد الإسلام

اعلم أن لفظ المغرب يطلق في عرف أهله على ناحية من الأرض معروفة بعينها، حدها من جهة مغرب الشمس البحر المحيط المعروف بالكبير، ومن جهة مشرق الشمس بلاد برقة وما خلفها إلى الإسكندرية ومصر، فبرقة خارجة عن بلاد المغرب بهذا الاعتبار، وبلاد طرابلس وما دونها إلى جهة البحر المحيط داخلة فيه، وحدها من جهة الشمال البحر الرومي المفرع عن المحيط ويعرف هذا الرومي بالصغير، ومن جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر، وتعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق.

ثم هذا المغرب يشتمل على ثلاث ممالك: مملكة إفريقية وهي المغرب الأدنى ـ وقاعدتها في صدر الإسلام مدينة القيروان وفي هذا العصر مدينة تونس ـ وسمي أدنى لأنه أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز. ثم بعد إفريقية مملكة المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة وهذه المملكة اليوم في يد فرنج إفرانسة ملكوها في سنة ست وأربعين ومائتين وألف، وأهلها مسلمون. ثم بعد ذلك ممكلة المغرب الأقصى وسمي الأقصى لأنه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة في صدر الإسلام، وحد هذا الأقصى من جهة المغرب البحر المحيط، ومن جهة المشرق وادي ملوية مع جبال تازا، ومن جهة الشمال البحر الرومي، ومن جهة الجنوب جبل درن قاله ابن خلدون.

وفي تقسيم الفرنج أن المغرب الأقصى يشتمل على خمس عمالات: عمالة فاس وعمالة مراكش وعمالة السوس وعمالة درعة وعمالة تافيلالت. ودار الملك به تارة فاس وتارة مراكش[1]، وهو في الأغلب ديار المصامدة

(1) وفي عصرنا هذا صارت العاصمة السياسية الإدارية هي: الرباط.

من البربر ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضغرة وأوربة وغيرهم لكنهم قليل بالنسبة إلى المصامدة ويساكنهم فيه أيضاً عالم من العرب أهل الخيام، انتقلوا من جزيرة العرب إلى إفريقية ثم من إفريقية إليه أواخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدي وهم اليوم قبائل عديدة يرجعون في نسبهم إلى رياح وجشم، فأما رياح فهم من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وأما جشم فهم بنو جشم بن معاوية بن بكر وكلهم ينتهي نسبهم إلى مضر، ويضاف إليهم قبائل أخر نحقق الكلام فيهم بعد هذا إن شاء الله.

ثم قد علمت أن كلامنا بالقصد الأول في هذا الكتاب إنما هو على المغرب الأقصى، لكنا نتكلم أولاً على أخبار المغرب مطلقاً، ونذكر أمراءه الموجهين من قبل الخلفاء بالمشرق على التفصيل ما دام نظرهم منسحباً عليه وظلهم ممتداً إليه، إذ كان أمر الخلافة في صدر الإسلام متحداً وحكمها مجتمعاً وكلمتها نافذة في جميع ممالك الإسلام شرقاً وغرباً، بحيث لا يخرج قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار فيما بعد أو دنا عن الأرض عن نظر الخليفة الأعظم، وقد كان ذلك ديناً متبعاً وحكماً مجمعاً عليه، ولا تصح لأحد إمارة أو ولاية إلا بالاستناد إليه، حتى إذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ظلها من القاصية، تفرقت ممالك الإسلام البعيدة عن دارها وتوزعتها الثوار من بني هاشم وغيرهم واستبد الأمراء النازحون عنها كل بما غلب عليه وسار أمر الوحدة إلى الكثرة وحكم الاجتماع إلى الفرقة، فلهذا نتكلم الآن على أخبار المغرب مطلقاً، ونذكر ولاته الموجهين إليه من قبل الخلفاء واحداً بعد واحد إلى زمن إدريس بن عبد الله المستبد بملك المغرب الأقصى، والمقتطع له عما عداه من الممالك الإسلامية، فحينئذٍ نفرد الكلام عليه بخصوصه على ما شرطناه، فأما الآن فلا يمكننا الكلام عليه وحده لأنه ـ والحالة هذه ـ مندرج في غيره من ممالك المغرب، إذ الوالي الموجه من قبل الخليفة في صدر الإسلام كان يكون والياً على إفريقية وما بعدها من بلاد المغرب إلى البحر المحيط، وقد تضاف إلى نظره الأندلس بل كان الوالي

بمصر قد يكون نظره شاملاً لجميع بلاد المغرب حسبما نقف عليه، فاعرف هذه الجملة ولتكن منك على بال.

وأما حال البربر بعد الإسلام فيعرف من أخبار الولاة التي نسردها الآن وبالله التوفيق.

ولاية عمرو بن العاص رضي الله عنه وفتحه برقة وطرابلس

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية وفرغ منها سار في سنة إحدى وعشرين من الهجرة إلى برقة ـ وكانت تسمى في القديم إنطابلس ـ فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار بعدها إلى طرابلس فحاصرها شهراً، وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم في مرساها، فحسر الماء في بعض الأيام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين لها، فاقتحموا البلد فيما بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم، وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكره فدخل المدينة ولم يفلت الروم إلا بما خف في المراكب، ثم عطف عمرو رضي الله عنه على مدينة صبرة[1] وكانوا قد أمنوا بمنعة طرابلس واشتغال المسلمين بحصارها فصبحهم[2] في جيش المسلمين واقتحمها عليهم عنوة وكمل الفتح، ورجع عمرو إلى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية، وكان أكثر أهل برقة لواتة وهم بنو لوي الأكبر، وأكثر أهل طرابلس وصبرة نفوسة وكلتا القبيلتين من البتر.

ولما فرغ عمرو رضي الله عنه من أمر طرابلس وما معها استأذن عمر بن

---

(1) لم يسر عمرو بنفسه إلى صبرة إنما بعث سرية من الجيش (مؤلف).

(2) وفي الاكتفاء: لما ظفر غمرو بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة صبرة وهم غافلون. (مؤلف).

الخطاب رضي الله عنه في التقدم إلى إفريقية فمنعه وقال: تلك المفرقة وليست بإفريقية، أو كلاماً هذا معناه، فامتثل وعاد إلى مصر، فكان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل إلى إفريقية ولا كان من البرابر إسلام. غير أن صاحب كتاب الجمان نقل أنه لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستفتحت مدينة مصر ـ وكان عليها عمرو بن العاص ـ قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤوس واللحى فقال لهم عمرو: من أنتم وما الذي جاء بكم؟ قالوا: رغبنا في الإسلام فجئنا له لأن جدودنا قد أوصونا بذلك! فوجههم عمرو إلى عمر رضي الله عنه وكتب إليه بخبرهم، فلما قدموا عليه ـ وهم لا يعرفون لسان العرب ـ كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن بنو مازيغ، فقال عمر لجلسائه: هل سمعتم قط بهؤلاء؟ فقال شيخ من قريش: يا أمير المؤمنين هؤلاء البربر من ذرية بر بن قيس بن عيلان خرج مغاضباً لأبيه وإخوته فقالوا بر بر أي أخذ البرية، فقال لهم عمر رضي الله عنه: ما علامتكم في بلادكم؟ قالوا: نكرم الخيل ونهين النساء، فقال لهم عمر: ألكم مدائن؟ قالوا: لا، قال: ألكم أعلام تهتدون بها؟ قالوا: لا، قال عمر: والله لقد كنت مع رسول الله ﷺ في بعض مغازيه فنظرت إلى قلة الجيش وبكيت فقال لي رسول الله ﷺ: **«يا عمر لا تحزن فإن الله سيعز هذا الدين بقوم من المغرب ليس لهم مدائن ولا حصون ولا أسواق ولا علامات يهتدون بها في الطرق»**، ثم قال عمر: فالحمد لله الذي منّ عليّ برؤيتهم، ثم أكرمهم ووصلهم وقدمهم على من سواهم من الجيوش القادمة عليه، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يجعلهم على مقدمة المسلمين، وكانوا من أفخاذ شتى اهـ والله أعلم.

ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفتحه إفريقية

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ـ أخاه من الرضاعة ـ وأمره بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين من الهجرة وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم، ثم عقد عثمان لعبد الله بن نافع بن عبد قيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه، ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها. ثم إن عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به فجهز العساكر من المدينة ـ وفيهم جماعة من الصحابة منهم: ابن عباس وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير ـ وقيل لحقهم مدداً ـ وساروا مع عبد الله بن سعد سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم تجاوزوها إلى إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية وكان ملكهم جرجير الفرنجي يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة ـ دار ملكهم ـ وأقاموا يقتتلون، ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر. ولحقهم عبد الله بن الزبير مدداً بعثه عثمان رضي الله عنه لما أبطأت عليه أخبارهم، وسمع جرجير بوصول المدد ففت ذلك في عضده، وشهد ابن الزبير معهم القتال وقد غاب ابن أبي سرح فسأل عنه فقيل له: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي» فخاف وتأخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت: «بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على

بلاده!» فخاف جرجير أشد منه، ثم أشار ابن الزبير على ابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاتل الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فيركبهم بالآخرين على غرة، قال: لعل الله ينصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان الصحابة ففعلوا وركبوا من الغد إلى الزوال، وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وحيزت ابنته سبية فنفلها ابن أبي سرح ابن الزبير، ثم حاصر ابن أبي سرح سبيطلة ففتحها وخربها، وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفاً. وبث جيوشه في البلاد إلى قفصة فسبوا وغنموا، وبعث عسكراً إلى حصن الأجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الأمان ثم صالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار.

وأرسل ابن الزبير بخبر الفتح وبالخمس إلى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار وبعض الناس يقول أعطاه إياه عثمان رضي الله عنه ولا يصح، وإنما أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى. وانحاز الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة والفتح إلى حصون إفريقية. وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ووقع بينهم وبين أهل الضواحي من البربر زحوف وقتل وسبي حتى لقد أسروا يومئذٍ من ملوك البربر صولات بن وزمار الزناتي ثم المغراوي ـ جد بني خزر ملوك تلمسان ـ فرفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فأسلم على يده فمنّ عليه وأطلقه وعهد له على قومه، ويقال إنما وصله وافداً فأكرم وفادته والله أعلم.

ثم رغب الفرنج والبربر في السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبي سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ويخرج من بلادهم ففعل، ورجع المسلمون إلى المشرق بعد مقامهم بإفريقية سنة وثلاثة أشهر. ولما بلغ هرقل ملك الروم أن أهل إفريقية صالحوا المسلمين بذلك المال

الذي أعطوه غضب عليهم، وبعث بطريقاً[1] يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا: قد كان ينبغي له أن يسعدنا فيما نزل بنا، فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد الملك[2] الذي ولوه عليهم بعد جرجير، فلحق بالشام ـ وقد اجتمع الناس على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ـ فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكوني على ما نذكره.

ولاية معاوية بن حديج على المغرب

هو معاوية بن حديج بالحاء المهملة مصغراً الكندي ثم السكوني، له صحبة وممن شهد مع عمرو بن العاص فتح مصر وقدم بخبر الفتح على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولما قدم علج إفريقية على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وشكا إليه ما ناله من صاحب قيصر بعث معه معاوية بن حديج هذا في عسكر ضخم سنة خمس وأربعين، فلما وصل إلى الإسكندرية هلك العلج ومضى معاوية فقدم إفريقية في عشرة آلاف فنزل قمونية فسرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل كان قيصر قد وجهها من القسطنطينية في البحر لمدافعة العرب عن إفريقية فلم تغن شيئاً، وقاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن الأجم ثم بث السرايا ودوخ البلاد، فبعث عبد الله بن الزبير إلى سوسة فافتتحها، ثم بعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء فافتتحها كذلك. وقال ابن خلدون: «إن معاوية حاصر حصن جلولاء[3] فامتنع عليه حتى سقط ذات يوم سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه».

---

(1) اسمه في تواريخ الروم نيسيفور هكذا: (Nicéphore).

(2) اسمه جناها أو هباهيا. (Jenaha, Habahia).

(3) وهذه غير جلولاء العراق التي تقدم فتحها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثم وجه جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فأثخنوا فيها ثم فتح بنزرت وظهر الإسلام في البربر ثم عاد إلى مصر بعد أن خلد آثاراً حسية، وبنى بمحل القيروان آباراً ثم عزله معاوية بن أبي سفيان عن إفريقية وأقره على مصر فقط، ثم عزله عنها في خبر ليس ذكره من غرضنا.

ولاية عقبة بن نافع الفهري على المغرب وبناؤه مدينة القيروان

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري صحابي بالمولد. وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة، وكان عمرو بن العاص وهو أمير على مصر قد استعمل عقبة هذا وهو ابن خالته على إفريقية فانتهى إلى لواتة ومزاتة، فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى، ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غدامس من تخوم السودان، وفي السنة بعدها افتتح ودان وكوراً من كور السودان وأثخن في تلك النواحي وكان له فيها جهاد وفتوح فظهر غناؤه وعرفت نجدته وكفايته، فلما كانت سنة خمسين ولاه معاوية رضي الله عنه على إفريقية استقلالاً وبعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة إفريقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها، وانضاف إليه مسلمة البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهلها لأنهم كانوا إذا جاءت عساكر المسلمين أسلموا فإذا رجعوا عنها ارتدوا. ثم رأى عقبة رحمه الله أن يتخذ مدينة يعتصم بها جيش المسلمين من البربر وتقام بها الجمع والأعياد فاستشار من معه فقالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر فتسطو علينا الفرنج فانظر لنا ينظر الله.

قال صاحب الجمان: «وكانت بقعة القيروان غيضة لا يأوى إليها إلا الوحوش والسباع فصاح بها عقبة: أن اخرجي أيتها الوحوش والهوام بإذن الله عز وجل. فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لا يرى فيها شيء من الهوام

المؤذية ولا السباع العادية. ثم شرع في بنائها وقال هذه أوسع لإبلكم وآمن عليكم من روم القسطنطينية وإفرنج الجزيرة». وعن الليث بن سعد أن عقبة رحمه الله غزا إفريقية فأتى وادي القيروان[1] فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال: «يا أهلَ الوادي أظعنوا فإنا نازلون» قال ذلك ثلاثاً فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة ـ وهم قيام ينظرون إليها ـ من حين أصبحوا حتى أوهجتهم الشمس، وحتى لم يروا منها شيئاً فنزلوا الوادي عند ذلك. قال الليث: فحدثني زياد بن عجلان أن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت اهـ.

ـ **وفي الجمان**: لما شرع عقبة رحمه الله في بناء جامعها تنازعوا في القبلة فأتى عقبة آت في النوم فوضع له علامة على سمت القبلة فلم انتبه أعلم الناس بذلك فأتوا إلى الموضع فوجدوا العلامة كما قال فوقف عقبة ينظر إلى القبلة فسمع تكبيرة في الجو من ناحية القبلة فنظر فرأى الكعبة عياناً ورآها كل من كان حوله. وقال ابن خلدون: اختط عقبة رضي الله عنه القيروان وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكملت في خمس سنين. وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب، ودخل أكثر البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين اهـ.

وقال صاحب الخلاصة النقية: اختط عقبة بن نافع القيروان سنة خمسين وجعل دور سورها اثني عشر ميلاً وبنى بها الجامع الأعظم وقاتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية عنها والله أعلم.

---

(1) وفي تاريخ الفلاسفة في ترجمة «ارستيب» منهم أنه كان من مدينة القيروان من مدن برقة، وكان هذا الفيلسوف معاصراً لأفلاطون الحكيم قبل الإسكندر، فدل هذا على أن القيروان كانت مدينة قديمة بنواحي برقة فدثرت والله أعلم وقد ذكرت أيضاً في سفرات «بولس» واضع دين النصرانية اهـ. (مؤلف).

ولاية أبي المهاجر دينار وفتحه المغرب الأوسط

كان معاوية رضي الله عنه قد ولى على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد (بوزن محمد) الأنصاري فاستعمل مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر المذكور ويقال مولى بني مخزوم فقدمها سنة خمس وخمسين وأساء عزل عقبة واستخف به لشيء كان بينهما وكره نزول القيروان فبنى مدينة قربها وأخلى قيروان عقبة فدعا عقبة الله تعالى أن يمكنه منه ـ وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة ـ فاستجيب له فيه على ما نذكره. ثم إن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني ـ صنعاء الشام ـ إلى جزيرة شريك وهي المعروفة الآن بالجزيرة القبلية وإليها يسلك من باب الجزيرة أحد أبواب تونس فافتتحها.

وكان كسيلة[1] بن أغز البرنسي ثم الأوربي من أهل المغرب الأقصى من عظماء البربر وكان نصرانياً قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف إلى المسلمين، فزحف إليهم أبو المهاجر فهزمهم حول تلمسان وتمكن من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه. قال ابن خلدون: لم أقف لتلمسان على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق من أن أبا المهاجر لما قدم إفريقية توغل في ديار المغرب ووصل إلى تلمسان وبه سميت العيون القريبة منها عيون أبي المهاجر اهـ. فهو أول أمير المسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط.

ثم إن عقبة بن نافع لما قفل إلى المشرق شكا إلى معاوية رضي الله عنه

---

(1) وسماه ابن الأثير كسيلة بن لمرم بفتح اللام والراء المهملة وبينهما ميم ساكنة وآخره ميم، هكذا في أسد الغابة في ترجمة عقبة بن نافع صفحة 421 ج3. وذكر غيره واحد من المؤرخين إنه لمزم بالزاي المعجمة. وأما اغز فلم نر من ذكره في التواريخ التي وقفنا عليها ولعله تصحيف.

ما ناله من أبي المهاجر فاعتذر إليه ووعده برده إلى عمله ثم ولاه ابنه يزيد على المغرب سنة اثنتين وستين.

وذكر الواقدي: أن عقبة ولي المغرب سنة ست وأربعين فاختط القيروان ثم عزله يزيد سنة اثنتين وستين بأبي المهاجر فحينئذٍ قبض على عقبة وضيق عليه، فكتب إليه يزيد يأمره ببعثه فبعثه إليه ثم أعاده والياً على إفريقية والله أعلم.

ولاية عقبة بن نافع الثانية وفتحه المغرب الأقصى ومقتله

لما توفي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وولي بعده ابنه يزيد بعث عقبة بن نافع والياً على المغرب فقدمه في التاريخ المتقدم، واعتقل أبا المهاجر وخرب مدينته وعمر القيروان وعزم على الجهاد، فاستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان ـ ويقال ولاه على مقدمة جيشه ـ وخرج في جيش كثيف ففتح حصن لميس ومدينة باغانة المطل عليها جبل أوراس. وفتح بلاد الجريد فتحاً ثانياً، وصالح أهل فزان، وسار إلى الزاب وتاهرت فشتت جموع البربر ومن انضم إليهم من الفرنج؛ ثم تقدم إلى المغرب الأقصى فأثخن في أهله إلى إن وصل إلى البحر المحيط، فكان عقبة رحمه الله أول أمير المسلمين وطئت خيله المغرب الأقصى.

وقال ابن خلدون: قدم عقبة بن نافع المغرب في ولايته الثانية سنة اثنتين وستين، فاضطغن على كسيلة صحبته لأبي المهاجر ونكبه. وتقدم أبو المهاجر إلى عقبة في اصطناعه فلم يقبل، ثم زحف إلى المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوي، فدوخه ولقي ملوك البربر ومن انضم إليهم من الفرنجة بالزاب وتاهرت فهزمهم واستباحهم. وأذعن له يليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه، ودله على عورات البربر وراءه بمدينة وليلى وبلاد المصامدة والسوس.

وقال صاحب الجمان: افتتح عقبة المغرب ونزل على طنجة فحاصرها واستنزل ملكها يليان الغماري ـ وكان نصرانياً ـ فنزل على حكمه بعد أن أعطاه أموالاً جليلة. ثم أراد عقبة اللحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الأندلس، فقال له يليان: أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك وبين المدد؟ فقال عقبة: وأين كفار البربر؟ قال: ببلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس، قال عقبة: وما دينهم؟ قال: ليس لهم دين ولا يعرفون إن الله حق، وإنما هم كالبهائم ـ وكانوا على دين المجوسية يومئذٍ ـ فتوجه عقبة نحوهم فنزل على مدينة وليلى بإزاء جبل زرهون وهي يومئذٍ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين: سبو وورغة. ـ وهذه المدينة هي المسماة اليوم في لسان العامة بقصر فرعون ـ فافتتحها عقبة وغنم وسبى؛ ثم توجه إلى بلاد درعة والسوس فلقيته جموع البربر فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعاً وتبعوا آثارهم إلى صحراء لمتونة لا يلقاهم أحد إلا هزموه.

ثم عطف عقبة على ساحل البحر المحيط الغربي، فانتهى إلى بلاد آسفي؛ وأدخل قوائم فرسه في البحر ووقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، وقال: «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم إنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام». ثم انصرف راجعاً.

وقال ابن خلدون أيضاً: وصل عقبة إلى جبال درن وقاتل المصامدة بها فكانت بينه وبينهم حروب، وحاصروه بجبل درن فنهضت إليهم جموع زناتة ـ وكانوا خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة ـ فأفرجت المصامدة عن عقبة، وأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الإسلام، ودوخ بلادهم، ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة ـ أهل اللثام ـ وهم يومئذٍ على دين

المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية، فأثخن فيهم وانتهى إلى تارودانت وهزم جموع البربر، وقاتل مسوقة من وراء السوس ودوخهم وقفل راجعاً.

وكان كسيلة الأوربي في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته هذه، وكان يستهين به ويمتهنه؛ فأمره يوماً بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام إليها كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، والعرب يقولون: ما هذا يا بربري؟ فيقول: هو أجير! فيقول لهم شيخ منهم: إن البربري يتوعدكم. وبلغ ذاك أبا المهاجر ـ وهو معتقل عند عقبة ـ فبعث إليه ينهاه ويقول: «كان رسول الله ﷺ يستأنف جبابرة العرب، وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتستفسده» وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوفه غائلته. فتهاون عقبة بقوله، فلما قفل من غزاته هذه وانتهى إلى طبنة من أرض الزاب ـ وكسيلة أثناء هذا كله في صحبته ـ صرف العساكر إلى القيروان أفواجاً، ثقة بما دوخ من البلاد وأذل من البربر حتى بقي في قليل من الجند، فلما وصل إل تهودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر إليه الفرنجة وطمعوا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر فاتبعوا أثر عقبة وأصحابه حتى إذا غشوهم بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ونزل الصبر، واستلحم عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد، وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مسرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان عقبة قد استصحبه في اعتقاله ـ كما قلنا ـ فأبلى رضي الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن.

قال ابن خلدون: وأجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء ـ أعني عقبة وأصحابه ـ بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد، وقد جعل على قبورهم أسنمة، ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا

يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه.

وأسر من الصحابة يومئذٍ: محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي ونفر معهما، ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان.

ثم زحف كسيلة بعد الوقعة إلى جهة القيروان، إذ هي دار الإمارة بالمغرب يومئذٍ وبها جمهوز العرب ووجوده الإسلام، فبلغهم الخبر وعظم عليهم الأمر فقام زهر بن قيس البلوي فيهم خطيباً وقال: «يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم». فخالف حنش بن عبد الله الصنعاني لما علم أنه لا طاقة للمسلمين بما دهمهم من أمر البربر ورأى أن النجاة بمن معه من المسلمين أولى؛ ونادى في الناس بالرحيل إلى مشرقهم فاتبعوه إلا قليلاً منهم، وبقي زهير في أهل بيته فاضطر إلى الخروج وسار إلى برقة فأقام بها مطلاً على المغرب ومنتظراً للمدد من الخلفاء.

واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة وعظم أمره؛ وتقدم إلى القيروان فاستولى عليها في المحرم سنة أربع وستين وفر منها بقية العرب فلحقوا بزهير ولم يقم بها إلا أصحاب الذراري والأثقال فأمنهم كسيلة؛ وثبتت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بقي بها من العرب خمس سنين.

وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية، وفتنة الضحاك بن قيس مع مروان ابن الحكم بمرج راهط من أرض الشام وحروب آل الزبير؛ فاضطرب أمر الخلافة بالمشرق، واضطرم المغرب ناراً، وفشت الردة في زناتة والبرانس إلى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق فالتفت إلى المغرب وتلافى أمره على ما نذكره.

ذكر من دخل المغرب من الصحابة
مرتبة أسماؤهم على حروف المعجم

فمنهم بلال بن حارث بن عاصم المزني أبو عبد الرحمٰن من أهل المدينة أقطعه النبي ﷺ العقيق، وكان صاحب لواء مزينة يوم الفتح، ذكره صاحب الخلاصة النقية فيمن دخل المغرب.

ومنهم جرهد بن خويلد الأسدي أو الأسلمي، ذكر صاحب الإشراق أنه من جملة من دخل إفريقية من أرض المغرب.

ومنهم جبلة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة الأنصاري أخو أبي مسعود البدري قال في التجريد: شهد أحداً وشهد فتح مصر وصفين مع علي، وغزا إفريقية مع معاوية بن حديج سنة خمسين. وكان فاضلاً من فقهاء الصحابة روى ابن منده ومحمد بن الربيع من طريق مالك بن أبي عمران عن سليمان بن يسار أنه سئل عن النفل في الغزو فقال: لم أر أحداً يعطيه غير أن ابن حديج نفلنا من إفريقية الثلث بعد الخمس ومعنا من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناس كثير، فأبى جبلة بن عمرو الأنصاري أن يأخذ منه شيئاً.

ومنهم الحسنان رضي الله عنهما على ما ذكره ابن خلدون وهما سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا الرسول ﷺ، أشهر من أن يعرف بهما.

ومنهم الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري ذكره خليفة بن خياط فيمن نزل مصر من الصحابة قال: وقتل بإفريقية مع معبد بن العباس بن عبد المطلب.

ومنهم حمزة بن عمرو الأسلمي ذكره في الإشراق.

ومنهم حبان ـ بالكسر وموحدة ـ ابن أبي جبلة قال في الإصابة: له إدراك، قال ابن يونس: بعثه عمر بن الخطاب إلى أهل مصر يفقههم؛ وذكره

ابن حبان في ثقات التابعين وقال غيره مات بإفريقية.

ومنهم خالد بن ثابت العجلاني الفهمي، قال ابن يونس: شهد فتح مصر وولي بحر مصر سنة إحدى وخمسين، وأغزاه مسلمة بن مخلد إفريقية سنة أربع وخمسين. قال في الإصابة: «ذكرته اعتماداً على أنهم كانوا لا يؤمرون في الفتوح إلا الصحابة».

ومنهم ربيعة بن عباد الديلي، ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب، قال مالك: وأبوه بكسر المهملة وتخفيف الموحدة على الصواب ويقال بالفتح والتشديد؛ ذكر خليفة وابن سعد أنه مات في خلافة الوليد.

ومنهم رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري ثم النجاري ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا إفريقية، قال ابن يونس: توفي ببرقة ـ وهو أمير عليها ـ من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين.

ومنهم زهير بن قيس البلوي أبو شداد الآتي ذكره بعد، قال ابن يونس: يقال له صحبة.

ومنهم سفيان بن وهب الخولاني أبو أيمن له صحبة ورواية، شهد حجة الوداع وفتح مصر وإفريقية وسكن المغرب. مات سنة إحدى وتسعين.

ومنهم سلكان بن مالك، قال محمد بن الربيع ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب.

ومنهم سلمة بن الأكوع الأسلمي الصحابي المشهور، ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة لغزو المغرب، مات بالمدينة سنة سبع وسبعين وهو ابن ثمانين سنة وكان شجاعاً رامياً سابقاً، يسبق الفرس شداً على قدميه.

ومنهم العبادلة الأربعة رضي الله عنهم:

فمنهم عبد الله بن عباس ترجمان القرآن ـ أشهر من أن يعرف به ـ وهو الذي قسم غنائم إفريقية يوم الفتح.

ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما من أعلام الصحابة وعبادهم وزهادهم والمتمسكين بالسنة منهم رضي الله عنه.

ومنهم عبد الله بن الزبير بن العوام الشجاع المشهور والبطل المذكور، وهو أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة، وهو قاتل جرجير يوم الفتح كما مر.

ومنهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أحد أجواد الدنيا وأبطالها ذكر ابن خلدون إنه ممن دخل إفريقية غازياً؛ فهؤلاء العبادلة الأربعة.

ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الأمير المعروف، وقد تقدم ذكره.

ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي المشهور، أسلم قبل أبيه وهو أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ، والصواب أن يجعل أحد العبادلة بدل ابن جعفر والله أعلم. قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما كان أحد أكثر مني حديثاً عن رسول الله ﷺ إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب» عده ابن ناجي فيمن دخل المغرب مع ابن أبي سرح.

ومنهم عبد الرحمٰن بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ولد على عهد النبي ﷺ وقتل بإفريقية.

ومنهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ذكره في الخلاصة النقية، وكان صحابياً بالمولد قتل يوم صفين مع معاوية.

ومنهم أخوه عاصم بن عمر وصحبته بالمولد. ذكره صاحب الخلاصة أيضاً.

ومنهم عبد الله بن نافع بن الحصين[1] وجهه عثمان رضي الله عنه مع ابن أبي سرح لشدة بطشه وإصابة رأيه.

ومنهم عقبة بن نافع الفهري الأمير المشهور فاتح المغرب الأقصى وهو صاحب الترجمة.

---

(1) هذا هو الأصح لا كما تقدم في ولاية سعد بن أبي سرح من أنه ابن الحارث كما عند صاحب الاكتفاء والطبري.

ومنهم عثمان بن عوف المزني على خلاف فيه.

وأما عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد تقدم أنه انتهى إلى طرابلس ولم يصل إلى إفريقية.

ومنهم مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي، ولد بعد الهجرة بسنتين ولم تحصل له رواية لأنه خرج مع أبيه إلى الطائف فأقام به، ذكره صاحب الخلاصة فيمن دخل المغرب.

ومنهم مسعود بن الأسود البلوي وقيل العدوي، قال الذهبي: «بايع تحت الشجرة» يعد في المصريين، وغزا إفريقية.

ومنهم المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري له ولأبيه صحبة، قال محمد بن الربيع: دخل مصر لغزو المغرب، مات سنة أربع وستين.

ومنهم المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي - والد سعيد بن المسيب - له ولأبيه صحبة ورواية، ذكره الواقدي فيمن دخل مصر لغزو المغرب.

ومنهم المطلب بن أبي وداعة القرشي السهمي، له ولأبيه صحبة وهما من مسلمة الفتح. قال محمد بن الربيع: دخل مصر لغزو المغرب فيما ذكره الواقدي.

ومنهم معاوية بن حديج السكوني أحد الأمراء وقد تقدم ذكره.

ومنهم معبد بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ، قال الذهبي: ولد على عهد النبي ﷺ واستشهد بإفريقية شاباً في زمن عثمان رضي الله عنه. وحكى المؤرخون: أن معاوية بن أبي سفيان أغزى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان ومعه قثم بن العباس بن عبد المطلب فعبر سعيد النهر إلى سمرقند فاستشهد قثم بها. وكان أخوه الفضل بن عباس قد مات بأجنادين من أرض الشام، وعبد الله الترجمان مات بالطائف، وعبيد الله الأصغر مات باليمن، ومعبد بإفريقية؛ فقال الناس لم ير مثل بني أم واحدة أبعد قبوراً من بني العباس.

ومنهم المقداد بن الأسود الكندي، وليس الأسود أباه، وإنما تبناه الأسود بعد عبد يغوث وهو صغير فعرف به، وإنما اسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندي، كان المقداد أحد السابقين شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها ولم يثبت أن أحداً شهد بدراً فارساً سواه، غزا إفريقية مع ابن أبي سرح فلما رجعوا إلى مصر قال له ابن أبي سرح في دار بناها كيف ترى؟ فقال له المقداد: إن كان من مال الله فقد أفسدت، وإن كان من مالك فقد أسرفت، فقال ابن أبي سرح: لولا أن يقال أفسدت مرتين لهدمتها.

ومنهم المنيذر الأسلمي، قال ابن يونس له صحبة وكان بإفريقية، وقال عبد الملك بن حبيب لم يدخل الأندلس من الصحابة إلا المنيذر الإفريقي.

وأما المشتهرون بكنيتهم فمنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور واسمه خويلد بن خالد أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره وقدم المدينة يوم وفاته فشهد السقيفة وبيعة أبي بكر والصلاة على النبي ﷺ ودفنه. قال ابن كثير: توفي غازياً بإفريقية في خلافة عثمان رضي الله عنه.

قلت: وهلك له خمسة أولاد بمصر بالطاعون فقال قصيدته العينية يرثيهم وهي مشهورة.

ومنهم أبو رمثة البلوي قيل اسمه رفاعة بن يثربي، وقيل بالعكس له صحبة ورواية قال الذهبي: سكن بمصر ومات بإفريقية.

ومنهم أبو زمعة البلوي، قال الذهبي اسمه عبد ـ وقيل عبيد بن أرقم ـ بايع تحت الشجرة ونزل مصر وغزا إفريقية مع ابن حديج، روى حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً وسأل هل من توبة؟ مات بإفريقية ودفنت معه شعرات من شعر رسول الله ﷺ حسبما هو مشهور، وهو صاحب المقام خارج القيروان.

ومنهم أبو ضبيس البلوي، قال الذهبي له صحبة، وقال محمد بن الربيع الجيزي دخل مصر لغزو المغرب.

ومنهم أبو المبتذل خلف له صحبة ونزل إفريقية: وقيل أبو المنيذر كذا

في التجريد وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم.

أخرج ابن عبد الحكم: عن سليمان بن يسار قال: غزونا إفريقية مع ابن حديج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار اهـ. رضي الله عنهم ونفعنا بهم وحشرنا في زمرتهم آمين.

ذكر اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت[1] عنوة أو صلحاً أو غير ذلك

قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله في شرح الموطأ في كتاب الجهاد منه: اختلف الناس في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحاً أو مختلطة: أي البعض عنوة والبعض صلحاً على ثلاثة أقوال: الأول وهو الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها فتحت بالسيف عنوة لأنه جعل النظر في معادنها للإمام، ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شيء منها كأرض مصر لأنها فتحت بالسيف. **الثاني**: إنها فتحت صلحاً. صالح أهلها عليها، فإن كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض. **الثالث**: إنها مختلطة هرب بعضهم عن بعض وتركوها، فمن بقي بيده شيء كان له وهو الصحيح والله أعلم.

ويحكى أن أحد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم: أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة؟ فقالوا له: لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه ـ يعنون الشيخ أبا جيدة ـ فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال: ليست بصلح ولا عنوة، إنما أسلم أهلها عليها! فقال: خلصكم الرجل! وأبو جيدة هذا هو دفين باب بني مسافر أحد أبواب فاس المحروسة رحمه الله.

---

(1) انظر بسط الكلام على هذه المسألة صدر كتاب المغارسة لعبد الرحمٰن بن عبد القادر المجاجي فقد أجاد فيها.

ولاية زهير بن قيس البلوي على المغرب ومقتل كسيلة وما يتبع ذلك

لما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة كان زهير مقيماً ببرقة منذ مهلك عقبة بن نافع كما مر، فبعث إليه عبد الملك بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها، وحضه على الطلب بدم عقبة، فراجعه زهير يعلمه بكثرة الفرنج والبربر فأمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها. فزحف زهير إلى المغرب سنة تسع وستين في آلاف من المقاتلة. وجمع له كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس[1] من نواحي القيروان، واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر ومن لا يحصى من عامتهم، واتبعهم العرب إلى مرماجنة، ثم إلى وادي ملوية. وفي هذه الوقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم، وخضدت شوكتهم، واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد. وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً فلجؤوا إلى القلاع والحصون، وكسرت شوكة أوربة من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى، وملكوا مدينة وليلى وكانت فيما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر إلى أن قدم عليهم إدريس بن عبد الله رضي الله عنه فقاموا بدعوته على ما نذكره إن شاء الله.

وأما زهير فإنه لما رأى ما منحه الله من الظفر والنصر، وساق إليه من العز والملك خشي على نفسه الفتنة ـ وكان من العباد المخبتين ـ فترك القيروان آمن ما كانت وارتحل إلى المشرق، وقال: إنما جئت للجهاد في سبيل الله! وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا! فلما وصل إلى برقة وجد

---

(1) وضبطها ياقوت ممسى (بفتح الميم الأولى وسكون الثانية وفتح السين) ونقله التاج.

أسطول الروم على قتالها في جموع عظيمة من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين، فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه، فصمد إليهم فيمن معه، وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه، ونجا الباقون إلى دمشق فأخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع فآسفه ذلك.

ولاية حسان بن النعمان على المغرب وتخريبه قرطاجنة

لما رحل زهير بن قيس إلى المشرق واستشهد ببرقة كما قدمنا اضطربت بلاد المغرب بعده واضطرمت نار الفتن، وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم. وكان من أعظمهم شوكة يومئذٍ الكاهنة داهيا الزناتية ثم الجراوية صاحبة جبل أوراس وكبيرة قومها جراوة والبتر. فبعث عبد الملك بن مروان إلى عامله على مصر حسان بن النعمان الغساني ـ وكان يقال له الشيخ الأمين ـ يأمره أن يخرج إلى جهاد البربر، وبعث إليه بالمدد فزحف إليهم سنة تسع وستين في أربعين ألف مقاتل، ولما دخل القيروان سأل الأفارقة عن أعظم ملوكهم فقالوا: صاحب قرطاجنة وهي المدينة العظمى قريعة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا، وكان بها يومئذٍ من جموع الفرنج أمم لا تحصى، فصمد إليها حسان وافتتحها وقتل أكثر من بها ونجا فلهم في المراكب إلى صقلية والأندلس، ولما انصرف حسان عنها دخلها أقوام من أهل الضواحي والبادية وتحصنوا بها فرجع إليهم وقاتلهم أشد قتال، فافتتحها عنوة وأمر بتخريبها وإعفاء رسمها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر، ولم يبق بها الآن إلا آثار خفيفة تدل على ما كان بها من عجيب الصنعة وإحكام العمل. وبأنقاضها عمرت مدينة تونس كما في القاموس.

ثم بلغ حسان أن البربر والفرنج قد عسكروا في جموع عظيمة ببلاد صطفورة وبنزرت، فصمد إليهم وهزمهم وشرد بهم من خلفهم وانحاز فلهم إلى باجة وبونة. ورجع حسان إلى القيروان فأراح بها أياماً ثم سأل عن بقية الملوك المخالفة، فدلوه على الكاهنة داهيا وقومها جراوة وهم ولد جراو بن

الديديت بن زانا، وزانا هو أبو زناتة وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم ووقفوا عند إشارتها، قال هانىء بن بكور الضريسي: ملكت عليهم خمساً وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعاً وعشرين سنة وكان قتل عقبة بن نافع وأصحابه في البسيط قبلة جبل أوراس بإغرائها برابرة الزاب عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها، فلما قتل كسيلة وانفضت جموع البربر رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس، وقد انضم إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر؛ فسار إليها حسان حتى نزل وادي مليانة وزحفت هي إليه، فاقتتلوا بالبسيط أمام جبلها قتالاً شديداً ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القيسي في ثمانين رجلاً من وجوه العرب. ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قابس، ولحق حسان بعمل طرابلس فلقيه هناك كتاب عبد الملك يأمره بالمقام حيث يصله كتابه، فأقام ببرقة وبنى قصوره المعروفة لهذا العهد بقصور حسان. ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها من الجبل وأطلقت أسرى المسلمين سوى خالد فإنها اتخذت عنده عهداً بإرضاعه مع ولديها وصيرته أخاً لهما، وأقامت في سلطان إفريقية والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسان. ونفت العرب عن بلاد المغرب، وقالت لقومها: «إنما تطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من الذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي فالرأي أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها».

قال ابن خلدون: وكانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً في قرى متصلة فخربت الكاهنة ديار المغرب وعضدت أشجاره ومحت جماله، وجاست بالفساد خلاله، فشق ذلك على البربر واستأمنوا إلى حسان، وكان عبد الملك قد بعث إليه بالمدد فأمنهم ووجد السبيل إلى تفريق أمرها، ثم دس إلى خالد بن يزيد يستعلمه أمرها فأطلعه على كنه خبرها واستحثه،

فزحف إلى المغرب سنة أربع وسبعين، وبرزت إليه فأوقع بها وبجموعها وقتلها واحتز رأسها عند البئر المعروفة بها لهذا العهد من جبل أوراس، ثم اقتحم الجبل عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف من البربر، واستأمن إليه باقيهم على الإسلام والطاعة، وشرط عليهم حسان أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفاً لا يفارقونه في مواطن جهاده، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وعقد للأكبر من ولدي الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس، فقالوا قد لزمتنا له الطاعة وسبقنا إليها وبايعناه عليها، وكان ذلك بإشارة من الكاهنة لإثارة من علم كانت لديها بذلك من شياطينها.

وانصرف حسان إلى القيروان مؤيداً منصوراً وثبت ملكه واستقام أمره، فدون الدواوين وكتب الخراج على عجم إفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر. ثم أوعز إليه الخليفة عبد الملك باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول من بني الأغلب على يد أسد بن الفرات ـ شيخ الفتيا وصاحب الإمام ابن القاسم ـ بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام ولايته على المغرب فلم يفتح الله عليه، وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده ابن الفرات كما قلنا. واستمر حسان والياً على المغرب إلى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر وكان أمر المغرب إذ ذاك إليه، فاستخلف حسان على المغرب رجلاً من جنده اسمه صالح، وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال ورائع السبي ونفيس الذخيرة. فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر فلم يقنعه ذلك وانتزع كثيراً مما بيده، ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذٍ الوليد بن عبد الملك شكا إليه ما صنع به عمه عبد العزيز فغاظه ذلك وأنكره، ثم أهدى إليه حسان من غريب النفائس التي أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه ووعده برده إلى عمله، فحلف حسان أن لا يلي لبني أمية عملاً أبداً.

وذكر البكري أن حسان بن النعمان هذا هو فاتح تونس. وقال غيره بل

فاتحها زهير بن قيس البلوي. ولم تتوفر الدواعي على تحقيق ذلك لأنها لم تكن يومئذٍ قاعدة ملك وإنما عظم أمرها في دولة الحفصيين فمن بعدهم والله تعالى أعلم.

ولاية موسى بن نصير على المغرب وفتحه الأندلس

لما ارتحل حسان بن النعمان إلى المشرق اختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقية والمغرب، فكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد حتى قدم موسى بن نصير فتلافى أمرها ولم شعثها.

قال الحافظ أبو عبد الله الحميدي في جذوة المقتبس: ولي موسى بن نصير إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين. وقال غيره: سنة سبع وثمانين[1].

وقال ابن خلكان: كان موسى بن نصير من التابعين. وروي عن تميم الداري رضي الله عنه: وكان عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً متقياً لله تعالى لم يهزم له جيش قط. ولما قدم المغرب وجد أكثر مدنه خالية لاختلاف أيدي البربر عليها وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ففرق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال هذا مقام لا يدعى فيه غير الله عز وجل، فسقوا حتى رووا.

---

(1) وفي بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: سنة 83 ص 77 طبع الجزائر سنة 1321 ـ 1903.

(2) صوابه أخيه عبد الله بن عبد الملك لأنه هو الذي كان والياً على مصر زمن خلافة الوليد. وأما عبد العزيز بن مروان عم الوليد فقد كان والياً على مصر قبل عبد الله بن عبد الملك، وتوفي في أواخر خلافة أخيه عبد الملك كما يعلم ذلك من مراجعة أصول التاريخ خصوصاً تواريخ مصر، وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة والله أعلم.

وقال ابن خلدون: كتب الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى عمه[1] عبد الله بن مروان وهو على مصر ـ ويقال عبد العزيز ـ أن يبعث بموسى بن نصير إلى إفريقية وكان أبوه نصير من حرس معاوية فبعثه عبد الله فقدم القيروان وبها صالح خليفة حسان فعزله ورأى أن البربر قد طمعت في البلاد فوجه البعوث في النواحي وبعث ابنه عبد الله في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم وسبى وعاد. ثم بعثه إلى ناحية أخرى وبعث ابنه مروان كذلك وتوجه هو إلى ناحية فغنموا وسبوا وعادوا وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من السبي.

قال أبو شعيب الصدفي: لم يسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ونقل الكاتب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم القروي المعروف بابن الرفيق: أن موسى بن نصير لما فتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك: أنه صار لك من سبي سقوما مائة ألف رأس! فكتب إليه الوليد: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة.

ثم خرج موسى غازياً أيضاً، وتتبع البربر وقتل فيهم قتلاً ذريعاً وسبى سبياً عظيماً وتوغل في جهات المغرب حتى انتهى إلى السوس الأدنى، ثم تقدم إلى سبتة فصانعه صاحبها يليان الغماري بالهدايا وأذعن للجزية ـ وكان نصرانياً ـ فأقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه على الطاعة فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا لموسى وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم.

وقال ابن خلدون أيضاً: غزا موسى بن نصير طنجة وافتتح درعة وصحراء تافيلالت وأرسل ابنه إلى السوس فأذعن البربر لسلطانه وأخذ رهائن المصامدة فأنزلهم بطنجة وذلك سنة ثمان وثمانين وولى عليها طارق بن زياد الليثي. قال: وأنزل معه سبعة وعشرين ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه. قال: ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة أيام عبد العزيز رضي الله عنه اهـ.

ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب إلى طارق ـ وهو بطنجة ـ يأمره بغزو الأندلس فغزاها في اثني عشر ألفاً من البربر وخلقٍ يسير من العرب، وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء[1] وصعد الجبل المنسوب إليه ـ المعروف اليوم بجبل طارق ـ يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة. وذكر عن طارق أنه كان نائماً وقت العبور في المركب فرأى النبي ﷺ والخلفاء الأربعة يمشون على الماء حتى مروا به فبشره النبي ﷺ بالفتح، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد. ذكر ذلك ابن بشكوال.

وقال ابن خلدون في أخبار الأندلس: إن أمة القوط ملكوا جزيرة الأندلس نحو أربعمائة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق ـ وهو سمة ملوكهم كجرجير سمة ملوك صقلية ـ وكانت لهم خطوة وراء البحر في هذه العدوة الجنوبية خطوها من زقاق البحر إلى بلاد البربر واستعبدوهم. وكان ملك البربر بذلك القطر، الذي هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان وكان يدين بطاعتهم وبملتهم، وموسى بن نصير ـ أمير العرب إذ ذاك ـ عامل بإفريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان، وكان قد أغزا لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوخ أقطاره وأوغل في جبال طنجة حتى وصل إلى خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الإسلام، وخلف مولاه طارق بن زياد والياً بطنجة وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط بالأندلس فعلة فعلها ـ زعموا ـ بابنته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز إلى لذريق فأخذ ابنته منه.

(1) قال صاحب المعجب: فأول موضع نزله فيما يقال منها المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم نزلها قبل الفجر وصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه فبنى بعد ذلك هناك مسجداً وعرف بمسجد الرايات.

قلت: يعني أنه كان من عادة أكابر العجم بالأندلس أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون التنويه بهم إلى دار الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بآدابه وينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً وتحمل صدقاتهم، وتولى تجهيز إناثهم استئلافاً لآبائهم. فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة ـ وكان أهلها نصارى ـ فبعث بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه إلى دار لذريق فوقعت عينه عليها فأعجبته وأحبها، ولم يتمالك أن استكرهها فافتضها، فاحتالت حتى أعلمت أباها سراً فأحفظه ذلك وحمى أنفه وقال: «ودين المسيح لأزيلن ملكه، ولأحفرن ما تحت قدميه، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس مع سابق القدر. ثم إن يليان عبر البحر من سبتة في صنبر قلب الشتاء وأصعب الأوقات، فقدم طليطلة واجتمع بالملك فأنكر مجيئه في ذلك الوقت وسأله عن السبب، فذكر خيراً واعتل بأن زوجته قد اشتد شوقها إلى رؤية ابنتها، وإنه أحب إسعافها بطلبتها، وسأل الملك تمكينه منها وتعجيل سراحه إلى عمله، ففعل وأحسن جائزة الجارية، وتوثق منها بالكتمان، وأفضل على أبيها وانقلب راجعاً، وذكروا أنه لما ودعه قال له لذريق: إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانفات التي لم تزل تطرفنا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا ـ يعني بذلك طيوراً فارهة كانت تتخذ للاصطياد ـ فقال له: «أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قط» يعرض له بما أضمره من إدخال العرب عليه ثم لحق يليان بطارق بن زياد وهو بطنجة فكشف له عورة القوط، فانتهز طارق الفرصة لوقته وأجاز البحر سنة اثنتين وتسعين من الهجرة بإذن أميره موسى بن نصير في نحو ثلاثمائة من العرب، واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف، وصيرهم عسكرين: أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق به. والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به، وأداروا الأسوار على أنفسهم للتحصن. وبلغ الخبر لذريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين

ألفاً، فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم. وكتب طارق إلى موسى بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري. ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس، وتلقاه طارق فانقاد واتبع. ويقال إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر إليها من ناحية الجبل المنسوب إليه ـ المعروف اليوم بجبل موسى ـ وتنكب النزول على جبل طارق وتمم الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف وضم قادس في الغرب، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ودروبه ويخوض إليه ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية، مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق. ونمى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هم به موسى تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده، ففت ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد غدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة. واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر، يقال إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي. وولى على إفريقية ابنه عبد الله واندرجت ولاية الأندلس يومئذٍ في ولاية المغرب، فكان صاحب القيروان ناظراً في الجميع. وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك ـ وقد ولي الخلافة بعد الوليد ـ فسخطه ونكبه. وثارت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز

فقتلوه لسنتين من ولايته بإغراء الخليفة سليمان. وكان خيراً فاضلاً. وافتتح في ولايته مدائن كثيرة. وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري. وكان سبب غضب سليمان على موسى: أنه لما توجه إلى المشرق وانتهى إلى مصر وصل أشرافها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من أخيه سليمان يثبطه فأسرع موسى اللحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام، ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال، فغاظ ذلك سليمان وأساء مكافأته حين أفضى الأمر إليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع. وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني: ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحر إلى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد. فاستقروا هنالك فحينئذٍ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، وتناسوا الردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية بعد على ما نذكره.

ولاية محمد بن يزيد على المغرب

لما ارتحل موسى بن نصير إلى المشرق ونكبه الخليفة سليمان كما قلنا عزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش ويقال مولى الأنصار. فقدم القيروان سنة سبع وتسعين، وكان سليمان قد أمره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك. ثم لما قتل أهل الأندلس أميرهم عبد العزيز بن موسى ولوا عليهم أيوب بن حبيب اللخمي - وهو ابن أخت موسى - فوجه محمد بن يزيد الحر بن عبد الرحمٰن بن عثمان الثقفي والياً من قبله على الأندلس فقدمها واستقر أميراً بها سنتين وثمانية أشهر. قالوا: وكان محمد بن يزيد هذا عادلاً حسن السيرة، قاتل المخالفين بثغور المغرب وغنم وسبى ولم يزل والياً عليه حتى

مات سليمان. فكانت ولايته سنتين وأشهراً والله أعلم.

ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر على المغرب

لما توفي سليمان بن عبد الملك رحمه الله وولي الخلافة بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه استعمل على المغرب إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، فقدم القيروان سنة مائة وكان خير أمير وخير وال، ولم يزل حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى تم إسلامهم على يده وبث فيهم من فقههم في دينهم.

وذكر أبو العرب[1] محمد بن أحمد بن تميم في تاريخ إفريقية أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين منهم: حبان بن أبي جبلة[2].

ولما توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة وبويع يزيد بن عبد الملك، وجه يزيد بن أبي مسلم الثقفي والياً على المغرب على ما نذكره.

---

(1) هو أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي، ولد بالقيروان أواسط القرن الثالث. ومات سنة 333. له كتاب «طبقات علماء إفريقية». وقد ذيل هذا التأليف محمد بن الحارث بن أسد، ولأبي العرب أيضاً كتاب التاريخ في سبعة عشر جزءاً. اهـ. انظر ترجمته في معالم الإيمان جزء ثالث صفحة 42 وما بعدها. وفي المدارك لعياض أيضاً.

(2) القرشي مولاهم المصري، توفي سنة 132 للهجرة.

ولاية يزيد بن أبي مسلم على المغرب

هو يزيد بن أبي مسلم دينار ـ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي الظالم المشهور ـ وكان يزيد هذا كاتبه وصاحب شرطته. قال ابن خلكان: «كانت فيه كفاية ونهضة قدمه الحجاج بسببهما».

وكان من خبره أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلف يزيد هذا على خراج العراق، فأقره الوليد بن عبد الملك واغتبط به، وقال: «ما مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم بعده إلا كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً».

ولما مات الوليد وولي بعده أخوه سليمان عزل ابن أبي مسلم وأمر به فأحضر بين يديه في جامعة ـ وكان رجلا قصيراً دميماً قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين ـ فلما نظر إليه سليمان قال: «أنت يزيد بن أبي مسلم؟» قال: «نعم أصلح الله أمير المؤمنين» قال: «لعن الله من أشركك في أمانته؛ وحكمك في دينه!» قال: «لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنك رأيتني والأمر عني مدبر! ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل لاستعظمت ما استصغرت! ولاستجللت ما احتقرت!» فقال سليمان: «قاتله الله فما أربط جاشه! وأعضب لسانه» ودارت بينه وبين سليمان محاورات غير هذه، ثم كشف عنه فلم يجد عليه خيانة فهم باستكتابه فقال عمر بن عبد العزيز: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحيي ذكر الحجاج باستكتاب كاتبه» فقال: «إني كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة يا أبا حفص!» فقال عمر: «أنا أوجدك من هو أعف عن الدينار والدرهم منه» فقال سليمان: «من هو؟» قال: «إبليس ما مس ديناراً ولا درهماً قط وقد أهلك هذا الخلق!» فتركه سليمان.

وحدث جويرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة بلغه أن يزيد بن أبي مسلم خرج في جيش من جيوش المسلمين، فكتب إلى عامل الجيش برده وقال: «إني لأكره أن أستنصر بجيش هو فيهم» فلما توفي عمر رضي الله عنه وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك عزل

إسماعيل بن عبيد الله عن المغرب وولى مكانه يزيد بن أبي مسلم فأساء السيرة، قالوا: ووجه عنبسة بن سحيم الكلبي والياً من قبله على الأندلس فاستقام على يده أمرها. ثم ثار أهل المغرب بابن أبي مسلم فقتلوه سنة ثنتين ومائة لشهر من ولايته.

قال الطبري: وكان سبب ذلك أنه كان قد عزم أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج في أهل العراق، فإن الحجاج كان وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم إلى قراهم ورساتيقهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الإسلام، فلما عزم يزيد على ذلك تآمر البربر فيه وأجمعوا على قتله فقتلوه وولوا عليهم محمد بن يزيد الذي كان قبله فيما ذكره الطبري ـ وكان غازياً بصقلية ـ فلما قدم بمغانمه ولوه أمرهم.

وقال ابن عساكر: «ولوا بعده إسماعيل بن عبيد الله» والله أعلم.

ثم كتب أهل المغرب إلى الخليفة يزيد: «إنا لم نخلع يداً من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله ورسوله. فقتلناه وأعدنا عاملك». فكتب إليهم يزيد: «إني لم أرض ما صنع ابن أبي مسلم» وأقر محمد بن يزيد على المغرب وذلك في سنة اثنتين ومائة كما قلنا.

وحدث الوضاح بن أبي خيثمة ـ وكان حاجب عمر بن عبد العزيز ـ قال: «أمرني عمر بن عبد العزيز ـ يعني في مرض موته ـ بإخراج قوم من السجن وفيهم يزيد بن أبي مسلم فأخرجتهم وتركته فحقد عليّ. فلما مات عمر هربت إلى إفريقية خوفاً منه». قال: فبينا أنا بإفريقية إذ قيل قدم ابن أبي مسلم والياً. فاختفيت فأعلم بمكاني وأمر بي فحملت إليه، فلما رآني قال: «طالما سألت الله أن يمكنني منك» فقلت: «وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك» فقال: «ما أعاذك الله، والله لأقتلنك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته» ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما وأمر بالوضاح فأقيم عليه مكتوفاً وقام السياف وراءه، ثم أقيمت الصلاة فتقدم يزيد إليها فلما سجد أخذته السيوف، ودخل على الوضاح من قطع كتافه وأطلقه فسبحان اللطيف الخبير.

ولاية بشر بن صفوان على المغرب

لما كتب أهل المغرب إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك بما كان منهم إلى ابن أبي مسلم وما اعتذروا به في شأنه، أقر عليهم محمد بن يزيد أو إسماعيل بن عبيد الله على الخلاف المتقدم ما شاء الله. ثم ولى عليهم بشر بن صفوان الكلبي ـ وكان والياً على مصر ـ فقدم القيروان سنة ثلاث ومائة فمهد المغرب وسكن أرجاءه واستصفى بقايا آل موسى بن نصير. ثم وفد على يزيد بن عبد الملك فوجده قد مات، وبويع هشام بن عبد الملك فرده هشام إلى عمله من المغرب فاستقر بالقيروان واستدعى منه أهل الاندلس والياً يقوم بأمرهم ـ وذلك بعد مقتل عنبسة بن سحيم الكلبي شهيداً في بعض غزوات الفرنج ـ فولى عليهم يحيى بن سلمة الكلبي فقدم الأندلس آخر سنة سبع ومائة فأصلح شأنها. ثم غزا بشر بن صفوان صقلية بنفسه سنة تسع ومائة فأصاب سبياً كثيراً ورجع إلى القيروان منصوراً فكانت منيته عقب ذلك.

ولاية عبيدة بن عبد الرحمٰن على المغرب

لما توفي بشر بن صفوان وانتهى الخبر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ولى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمٰن السلمي وهو ابن أخي أبي الأعور السلمي وقيل ابن ابنه فقدم القيروان سنة عشر ومائة، ونظر في أمر المغرب والأندلس معاً، وولى من قبله على الأندلس ولاة أربعة واحداً بعد واحد وهم: عثمان بن أبي نسعة الخثعي وحذيفة بن الأحوص القيسي والهيثم بن عبيد الكلابي ومحمد بن عبد الله الأشجعي. وكان عبيدة بن عبد الرحمٰن قد أخذ عمال بشر بن صفوان قبله وعذبهم، فكتب بعضهم بذلك إلى الخليفة هشام فعزله لأربع سنين وستة أشهر من ولايته.

ولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب

عبيد الله هذا هو مولى بني سلول. وكان رئيساً نبيلاً وأميراً جليلاً وخطيباً مصقعاً، ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب بعد عزل عبيدة بن عبد الرحمٰن عنه، وأمره أن يمضي إليه[1] من مصر، فاستخلف عبيد الله على مصر ابنه أبا القاسم وسار إلى المغرب؛ فقدم القيروان في ربيع الآخر سنة أربع عشرة[2] ومائة، واستعمل عمر بن عبيد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، واستعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله معه على السوس وما وراءه، واستعمل على الأندلس عبد الرحمٰن بن عبد الله الغافقي فكانت له في الفرنجة وقائع، وأصيب جيشه في رمضان من السنة المذكورة في موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة[3].

---

(1) أصل ما ذكره المؤلف هنا من كون ابن الحبحاب كان والياً على مصر لابن خلدون في الجزء الرابع صحيفة 891 من الطبعة المصرية وكذلك لابن الأثير في سنة 131 والعجب أن مؤرخي مصر لم يعدوه في ولاة مصر.

(2) الذي عند ابن الأثير صاحب الخلاصة النقية سنة ست عشرة ومائة.

(3) هذه الغزوة هي المعروفة عند الإفرنج بمعركة (بواتيي Poitiers سنة 732 ميلادية الموافقة للتاريخ الهجري المذكور عند المؤلف وذلك أن العرب لما فتحوا إسبانيا تجاوزوا جبال البيريني ودخلوا فرنسا واحتلوا بوردو وتوغلوا فيها حتى وصلوا إلى ضفاف نهر لوار وامتلكوا عدة مدن مهمة كليون وديجون وبلفور. ولم يقدر أود دوق أو كيتانيا على مقاومتهم إذ ذاك فاستعان عليهم بشال مارتيل أحد ملوك العائلة الكرولانجية فحاربهم بالمحل المذكور أعلاه وقتل أمير جيشهم عبد الرحمٰن الغافقي المذكور كما عند المؤلف. وبعد المعركة انسحب العرب تحت جناح الظلام راجعين إلى الأندلس وتركوا محلتهم وأخبيتهم بيد الإفرنج فارغة، فلما أصبحوا استولوا عليها وكانت هذه الوقعة آخر عهد العرب بفرنسا وصرفوا وجهتهم عن زيادة التوغل في فتح أوروبا من هذه الناحية. وتفاصيل هذه المعركة مبسوطة في تواريخ الأوروبيين - وخصوصاً الفرنسيين =

ثم ولى عبيد الله على الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري ثم بعده عقبة بن الحجاج السلولي فكان محمود السيرة وتمكن سلطان عبيد الله بالمغرب وبنى جامع الزيتونة بتونس، لكن صحح صاحب المؤنس أن أول مختط للجامع المذكور حسان بن النعمان وتممه عبيد الله هذا. واتخذ بها دار صناعة لإنشاء المراكب البحرية. ثم بعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري غازياً أرض المغرب فانتهى إلى السوس الأقصى وقاتل مسوفة ثم تخطاهم إلى تخوم السودان وأصاب من مغانم الذهب والفضة والسبي شيئاً كثيراً. ودوخ بلاد البربر وقبائلها ورجع. ثم أغزاه ثانية جزيرة صقلية فركب البحر إليهم سنة اثنتين وعشرين ومائة ومعه ابنه عبد الرحمٰن بن حبيب فنازل سرقوسة أعظم مدن صقلية وضرب على أهلها الجزية وأثخن في سائر الجزيرة.

وكان عمر بن عبيد الله في هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة في برابرة المغرب الأقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم وزعم أنه الفيء، فنفرت قلوب البربر عنه وأحسوا بأنهم طعمة للعرب، وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية مثل الإدم العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالون في جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحاً لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر فأجمعوا الانتقاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فجرأهم ذلك على مرادهم، وثار ميسرة المضغري بأحواز طنجة على ما نذكره.

وكانت بدعة الخارجية يومئذٍ قد سرت في البربر وتلقنها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين إلى المغرب نزعوا بها إلى الأطراف داعين أغمار

= منهم ـ لأنها كانت في بلادهم فليرجع إليها من أراد زيادة استيعاب الكلام عليها.

الأمم إليها عسى أن تكون لهم دولة، فاستحكمت صبغتها في طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب في خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم في سلطانهم.

ولنذكر هنا أصل الخوارج وفرقهم على الجملة ثم نعود إلى موضوعنا الذي كنا فيه فنقول: قد تقدم لنا في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كان من أمر التحكيم وما نشأ عنه من خروج طائفة من القراء عليه وقالوا: «حكمت الرجال في دين الله! ولا حكم إلا لله!» وأن علياً رضي الله عنه استأصلهم بالنهروان فقال له بعض أصحابه: «قد قطع الله دابرهم آخر الدهر» فقال علي رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء! لا تخرج خارجة إلا خرجت بعدها مثلها!» فصدق الله قول علي ونبغت منهم طوائف بالعراق وغيره وتكرر خروجهم على الخلفاء وشرى داؤهم وأعيى دواؤهم وتعددت فرقهم ومذاهبهم.

قال ابن خلدون: «افترقت الخوارج على أربع فرق:

الأولى: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي، وكان رأيه البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض، يعني القتل من غير سؤال عن حال أحد، وقتل الأطفال واستحلال الأمانة لأنه يراهم كفاراً.

الثانية النجدية: ويقال لهم: النجدات أصحاب نجدة بن عامر الحنفي وهو بخلاف الأزارقة في ذلك كله.

الثالثة الإباضية: أصحاب عبد الله بن أباض التميمي ثم الصريمي، وهم يرون أن المسلمين كلهم يحكم لهم بحكم المنافقين فلا ينتهون إلى الرأي الأول، ولا يقفون عند الثاني، ولا يحرمون مناكحة المسلمين ولا موارثتهم، وهم عندهم كالمنافقين: ومن هؤلاء: البيهسية: أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر الضبعي.

الرابعة الصفرية: وهم موافقون للإباضية إلا في القعدة، يعني: الذين يقعدون عن القتال معهم فإن الإباضية أشد على القعدة منهم، وربما تشعبت هذه الآراء بعد ذلك.

واختلف في تسمية الصفرية فقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار الصريمي وقيل اصفروا بما نهكتهم العبادة. وفي القاموس الصفرية بالضم وبكسر قوم من الحرورية نسبوا إلى عبد الله بن صفار ككتان، أو إلى زياد بن الأصفر أو إلى صفرة ألوانهم أو لخلوهم من الدين. اهـ.

وقد كانت الخوارج من قبل هذا الافتراق على رأي واحد لا يختلفون إلا في الشاذ من الفروع. وفي أصل افتراقهم مكاتبات بين نافع بن الأزرق وأبي بيهس وعبد الله بن أباض ذكرها المبرد في الكامل فلتنظر هنالك.

وكانت خوارج المغرب إباضية وصفرية، فلما كانت ولاية عبيد الله بن الحبحاب ونال عماله من البربر ما نالوا من الجور والعسف انتقضوا عليه وثار ميسرة المضغري ـ المعروف بالخفير ـ بأحواز طنجة، ومضغرة بطن من بني فاتن بن تامضيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الأبتر، وكانوا على رأي الصفرية، وكان شيخهم ميسرة المذكور مقدماً في ذلك المذهب، فحمل البربر على الخروج عن الطاعة وزحف إلى عمر بن عبيد الله بطنجة فقتله سنة اثنتين وعشرين ومائة وولى عليها من قبله عبد الأعلى بن جريج الإفريقي ـ رومي الأصل ومولى للعرب ـ كان إمام الصفرية في انتحال مذهبهم، فقام بأمرهم مدة ثم تقدم إلى السوس فقتله عاملها إسماعيل بن عبيد الله[1]، وكان ميسرة لما استولى على طنجة والمغرب الأقصى قد بايعه البربر بالخلافة وخاطبوه بأمير المؤمنين، إذ الخوارج لا يشترطون في الإمام الأعظم القريشية محتجين بقوله ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن**

---

(1) الذي في ابن خلدون: فقتل عامله عليها إسماعيل (جزء أول طبع الجزائر صفحة 151).

رأسه زبيبة» ـ وهو مؤول ـ واضطرم المغرب ناراً وفشت نحلة الخارجية في جميع قبائله وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد.

ثم إن ابن الحبحاب بعث إلى ميسرة خالد بن حبيب الفهري فيمن كان قد بقي عنده من الجيش، واستقدم أباه حبيب بن أبي عبيدة من صقلية فقدم فيمن معه من عساكر المسلمين وبعثه في أثر خالد ونهض إليهم ميسرة في جموع البربر، فلقيهم بأحواز طنجة فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم تحاجزوا، ورجع ميسرة إلى طنجة فساءت سيرته في البربر ونقموا عليه ما جاء به فقتلوه، وولوا عليهم مكانه خالد بن حميد الزناتي.

قال ابن عبد الحكم: هو من هتورة إحدى بطون زناتة فقام بأمرهم واجتمع إليه البربر، فزحف إلى العرب وسرح إليه ابن الحبحاب عساكر الخليفة هشام بن عبد الملك وعلى مقدمتها خالد بن حبيب الفهري، فكان اللقاء على وادي شلف فانهزم المسلمون وقتل خالد بن حبيب ووجوه من معه من العرب، فسميت الوقعة: وقعة الأشراف؛ وانتقض المغرب على ابن الحبحاب من سائر جهاته وبلغ الخبر إلى أهل الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج السلولي، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن الفهري ومرج أمر الناس وانتهى الخبر بذلك كله إلى الخليفة هشام بدمشق فعزل ابن الحبحاب عن المغرب.

وقال صاحب الخلاصة: لما اختلت الأمور على ابن الحبحاب اجتمع الناس وعزلوه فبلغ ذلك هشاماً فغضب وكتب إلى ابن الحبحاب بالقدوم فخرج في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة. والله أعلم.

ولاية كلثوم بن عياض على المغرب ومقتله

لما انتهى إلى الخليفة هشام ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب والأندلس وخلعهم للطاعة، شق ذلك عليه واستضعف ابن الحبحاب فكتب إليه يستقدمه، وولى على المغرب كلثوم بن عياض القشيري، ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم كان فيه ـ مع ما انضاف إليه من جموع البلاد التي مر بها ـ سبعون ألفاً على ما قيل.

ولما انتهى كلثوم إلى القيروان أساء السيرة في أهلها فكتبوا إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو يومئذٍ بتلمسان مواقف للبربر يشكون منه إليه، وكان لآل عقبة بالمغرب وجاهة لم تكن لغيرهم، فكتب إليه حبيب ينهاه ويتوعده فاعتذر كلثوم وأغضى له عليها، ثم استخلف على القيروان عبد الرحمٰن بن عقبة وسار يؤم المغرب في جموعه، وعلى مقدمته ابن أخيه[1] بلج بن بشر القشيري فمر على طريق سبتة. وانتهى إلى تلمسان فلقي حبيب بن أبي عبيدة فاقتتلا ثم اصطلحا، وزحفا جميعاً إلى المغرب الأقصى فنهضت إليهم البربر وكان اللقاء على وادي سبو من أعمال طنجة.

وقال ابن خلدون في أخبار البربر: «إن الخليفة هشام ولى كلثوم بن عياض على المغرب سنة ثلاث وعشرين ومائة وسرحه في اثني عشر ألفاً من أهل الشام، وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه فزحف إلى إفريقية ثم إلى المغرب حتى بلغ وادي سبو فبرز إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر ـ وكانوا خلقاً لا يحصون ـ فلقوا كلثوم بن عياض بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير

(1) نقل ضوزي المؤرخ في تاريخه المسمى: «تاريخ المسلمين بأسبانيا» أن بلجا هذا كان ابن عم كلثوم لا ابن أخيه كما هنا. (نوطة عدد 2 من الصحيفة 244 من الجزء الأول).

من الجند وافترقت العساكر فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر ومضى أهل مصر وإفريقية إلى القيروان».

وما ذكره أن خالد بن حميد هو الذي هزم جيوش كلثوم في هذه الوقعة هو مقتضى ما سبق من أن ميسرة قتل في ولاية عبيد الله بن الحبحاب وجزم ابن حيان بأن الذي هزم جيوش كلثوم هو ميسرة الخفير واقتصر عليه ابن خلدون في أخبار بني فاتن قال: «انتهت مقدمة كلثوم بن عياض إلى سبو من أعمال طنجة فلقيه البربر هنالك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤوسهم وتنادوا بشعار الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه وكان كيدهم في لقائهم إياه أن ملؤوا الشنان بالحجارة وربطوها في أذناب الخيل ثم أرسلوها في جيش العرب فكانت الحجارة تقعقع في شنانها وخيل العرب تنفر حتى اختل مصافهم وتمت الهزيمة عليهم، فافترقوا وذهب بلج مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة ورجع أهل مصر وإفريقية إلى القيروان وظهرت الخوارج في كل جهة واقتطع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة وقام برياسة مضغرة من بعده يحيى بن حارث منهم». اهـ كلام ابن خلدون. فاضطرب النقل في هذه الواقعة كما ترى والله أعلم بالصواب.

قال ابن حيان: إن كلثوم بن عياض لما انهزمت جيوشه نجا جريحاً إلى سبتة في أهل الشام ومعه ابن أخيه بلج بن بشر بن عياض، وحاصرهم البربر بها، ولما اشتد حصارهم بسبتة وانقطعت عنهم الأقوات وبلغوا من الجهد الغاية، استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتثاقل عنهم صاحبها عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم، فلما شاع خبر ضررهم عند رجالات العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرة أمسكت من أرماقهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قطن ضربه سبعمائة سوط ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه، فسمل عينيه ثم ضرب عنقه وصلب عن يساره كلباً. واتفق في هذا الوقت أن برابرة الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابرة العدوة على العرب انتقضوا على عرب الأندلس

واقتدوا بما فعله إخوانهم بالمغرب، وتفطنوا لما كانوا غافلين عنه قبل ذلك من الخلاف على العرب ومزاحمتهم في سلطانهم، وأصل ذلك كله النزعة الخارجية، فاستفحل أمرهم بالأندلس وكثر إيقاعهم بجيوش ابن قطن، فخاف أن يلقى منهم ما لقيه العرب بالمغرب من إخوانهم، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده فلم ير أجدى له من الاستعداد بصعاليك عرب الشام: أصحاب بلج الموتورين بسبتة، فكتب إلى بلج وقد مات عمه كلثوم، فأسرعوا إلى إجابته وكانت تلك أمنيتهم، فأحسن إليهم وأسبغ النعمة عليهم، وشرط عليهم أن يقيموا عنده سنة واحدة، حتى إذا فرغوا له من البربر انصرفوا إلى مغربهم، وخرجوا له عن أندلسه، فرضوا بذلك وعاهدوه وأخذ منهم الرهائن عليه، ثم قدم عليهم ابنيه قطناً وأمية ـ والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها ـ فاقتتلوا قتالاً صعب فيه المقام إلى أن كانت الدبرة على البربر فقتلهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور، وخفوا عن العيون فكر الشاميون ـ وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدت شوكتهم وثابت همتهم، وبطروا ونسوا العهود وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس فتعللوا عليه، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم بسبتة، وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة، فخلعوه وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر، وتبعه جند بن قطن وأغروه بقتله فأبى، فثارت اليمانية وقالوا قد حميت لمضرك والله لا نطيعك فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فأخرج إليهم وهو شيخ كبير كفرخ نعامة قد شهد وقعة الحرة بالمدينة[1]، فجعلوا يسبونه ويقولون له أفلت من سيوفنا يوم الحرة ثم طالبتنا بتلك الترة فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود، وحبستنا بسبتة محبس الضنك؛ حتى أمتنا جوعاً فقتلوه وصلبوه في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة، وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً. واستولى بلج على الأندلس. وكانت خطوب يطول ذكرها والله ولي العون والتوفيق.

---

(1) وقد كانت زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين اهـ.

ولاية حنظلة بن صفوان على المغرب

لما سمع الخليفة هشام بما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته، فوجه حنظلة بن صفوان الكلبي ـ وهو أخو بشر بن صفوان المتقدم ـ والياً على المغرب، فقدم القيروان سنة أربع وعشرين ومائة فوجد هوارة ـ وهم ولد هوار بن أوريغ بن برنس ـ خوارج على الدولة ورئيساهم عكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهواري وكانا على مذهب الصفرية.

فلما استقر حنظلة بالقيروان لم يلبث إلا يسيراً حتى زحف إليه عكاشة وعبد الواحد في هوارة ومن تبعهم من البربر فخرج إليهم حنظلة والتقوا على القرن من ظاهر القيروان فهزمهم بعد قتال صعب واستلحمهم وقتل عبد الواحد وأخذ عكاشة أسيراً ولما جيء إليه بعكاشة في رمته وبرأس عبد الواحد سجد شكراً لله تعالى على ما منحه من الفتح وأمر بعكاشة فقتل وأحصيت القتلى في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين ألفاً وكتب حنظلة بذلك إلى الخليفة هشام، وسمعها الليث بن سعد فقال: «ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليّ من غزوة القرن والأصنام»[1].

ثم وجه حنظلة أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي والياً من قبله على الأندلس، فركب إليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين ومائة، فدان له أهل الأندلس، واستقام أمره بها حيناً من الدهر، ثم ثار عليه الصميل بن حاتم الكلبي وخلعه في خبر طويل.

---

(1) إقليم الأصنام بالأندلس من أعمال شدونة وفيه حصن يعرف بطبيل، قاله ياقوت. اهـ. وذكر الإدريسي في كتاب نزهة المشتاق في الجزء الثالث من الإقليم الثالث أن الأصنام موضع ببرقة قرب قصور حسان. اهـ. والأصنام موضع بعمالة وهران على ضفاف نهر شلف؛ وانظر هل هو المراد هنا أم السابق الكائن ببرقة فليحرر اهـ.

ولم يزل حنظلة على المغرب في أحسن حال إلى أن طرق الخلل الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث في بني أمية من فتنة الوليد الفاسق، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار آخر خلفائهم، وأفضى الأمر إلى الإدالة منهم ببني العباس فأجاز عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري من الأندلس إلى المغرب، وغلب حنظلة عليه سنة ست وعشرين ومائة على ما نذكره.

ذكر صالح بن طريف البرغواطي المتنبي ومخرقته

وفي هذا التاريخ كان ظهور صالح بن طريف البرغواطي الذي ادعى النبوة بتامسنا من بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا وآسفي، وبرغواطة بطن من المصامدة على ما حققه ابن خلدون. وكان أبوه طريف يكنى أبا صبيح وكان من قواد ميسرة الخفير القائم بدعوة الصفرية، ولما انقرض أمر ميسرة بقي طريف قائماً بأمر برغواطة بتامسنا ويقال إنه تنبأ أيضاً وشرع لهم الشرائع ثم هلك وولى مكانه ابنه صالح هذا، وقد كان شهد مع أبيه حروب ميسرة.

قال ابن خلدون: «وكان من أهل العلم والخير ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده وهي معروفة في كتب المؤرخين».

قال في القرطاس: كان الضلال الذي شرع لهم أنهم يقرون بنبوته، وأنهم يصومون شهر رجب ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمساً بالليل وخمساً بالنهار، وأن الأضحية واجبة على كل شخص في الحادي والعشرين من المحرم، وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين، وأمرهم أن لا يغتسلوا من جنابة إلا من حرام، وصلاتهم إيماء لا سجود فيها، لكنهم يسجدون في آخر ركعة خمس سجدات، ويقولون عند تناول الطعام والشراب: باسمك يا كساي، وزعم أن تفسيره بسم الله،

وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار، وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ولا يتزوج من بنات عمه ويطلقون ويراجعون ألف مرة في اليوم فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك، وأمرهم بقتل السارق حيث وجد وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف وأن الدية تكون من البقر وحرم عليهم رأس كل حيوان والدجاجة مكروه أكلها وقدوتهم في الأوقات الديكة وحرم عليهم ذبحها وأكلها ومن ذبح ديكاً أو أكله أعتق رقبة وأمرهم أن يلحسوا بصاق ولاتهم على سبيل التبرك فكان يبصق في أكفهم فيلحسونه ويحملونه إلى مرضاهم يستشفون به ووضع لهم قرآناً يقرؤونه في صلواتهم ويتلونه في مساجدهم، وزعم أنه نزل عليه وأنه وحي من الله تعالى إليه ومن شك في ذلك فهو كافر. والقرآن الذي شرع لهم ثمانون سورة سماها لهم بأسماء النبيئين وغيرهم منها: سورة آدم وسورة نوح وسورة فرعون وسورة موسى وسورة هارون وسورة بني إسرائيل وسورة الأسباط وسورة أيوب وسورة يونس وسورة الجمل وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة هاروت وماروت وسورة إبليس وسورة الحشر وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع وفصل وتسمى فيهم بصالح المؤمنين وقال: أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه الذي أنزله على محمد ﷺ كما حكاه البكري عن زمور[1] بن صالح الوافد منهم على الحكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم يومئذٍ أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة. وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسي قال: وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك سنة سبع وعشرين ومائة.

وقد قيل إن ظهوره كان لأول الهجرة وأنه انتحل ذلك عناداً ومحاكاة لما بلغه من شأن النبي ﷺ والأول أصح. ثم زعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج

(1) الذي في النسخة المطبوعة أبو صالح زمور بن موسى بن هشام.

في آخر الزمان وأن عيسى يكون صاحبه ويصلي خلفه وأن اسمه في اللسان العربي صالح وفي السرياني مالك وفي العجمي عالم وفي العبراني روبيل وفي البربري واربا ـ ومعناه الذي ليس بعده نبي ـ.

ثم خرج إلى المشرق بعد أن ملكهم سبعاً وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع إليهم في دواة السابع منهم وأوصى بنيه بالتمسك بدينه فتوارثوا ضلاله من بعده إلى أواسط المائة الخامسة، وكان للدول فيهم ملاحم إلى أن جاءت دولة المرابطين فمحوا أثر بدعتهم وسنعيد القول فيهم بأبسط من هذا عند الوصول إليها إن شاء الله.

الخبر عن تغلب آل عقبة بن نافع على المغرب وولاية عبد الرحمٰن بن حبيب منهم

كان عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه والياً على المغرب كما مر وهو الذي افتتح الأقصى منه، ولما استشهد بالزاب بقي بنوه به فكانت لهم وجاهة معروفة بين أهله لمكان أبيهم عقبة من جهاد العدو وما فتح الله على يده من الأقطار واختطاطه مدينة القيروان إلى هي كرسي الإمارة فكان ما منح الله أهل المغرب من الإسلام والدين كله في صحيفته، فنالوا بذلك شرفاً خاصاً زيادة على شرف القرشية وعز الفهرية؛ فكان يكون لهم الشفوف في بعض الأحيان حتى على الولاة فضلاً عن غيرهم.

وقد تقدم لنا في أخبار موسى بن نصير أنه استعمل ابنه عبد العزيز على الأندلس فثار عليه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع وقتله بإغراء سليمان بن عبد الملك وتقدم أيضاً ما كان منه إلى كلثوم بن عياض عند قدومه القيروان من التوعد حتى أدى ذلك إلى مقاتلتهما.

ولما قتل حبيب هذا في وقعة كلثوم المتقدمة كان ابنه عبد الرحمٰن بن حبيب صاحب الترجمة في جملة أصحاب بلج الناجين إلى سبتة ولما قتل أصحاب بلج عبد الملك بن قطن الفهري وصلبوه كما مر فارقهم

عبد الرحمٰن هذا لما صنعوا بابن عمه وعزم على الطلب بدمه فاجتمع إليه نحو مائة ألف من عرب الأندلس وبربرها وعمد إلى بلج فقتله في خبر طويل.

ثم حاول عبد الرحمٰن التغلب على الأندلس فلما قدم أبو الخطار والياً عليها من قبل حنظلة بن صفوان أيس منها وركب البحر إلى المغرب، فاحتل بتونس في جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة - وقد توفي هشام وولي الخلافة بعده الوليد بن يزيد الفاسق - فدعا عبد الرحمٰن أهل تونس إلى نفسه فأجابوه. وبلغ ذلك حنظلة صاحب القيروان فكره قتال المسلمين وسفك دمائهم، فبعث إليه جماعة من وجوه الجند يدعونه إلى الطاعة فلما وصلوا إليه انتهز الفرصة وأوثقهم في الحديد وأقبل بهم إلى القيروان فيمن اجتمع إليه. وأرسل إلى أوليائهم يحذرهم قتاله ويقول: «إن رميتم ولو بحجرة قتلت من في يدي» فأحجموا عنه ضناً بأشرافهم عن القتل وعلم بذلك حنظلة فارتحل إلى المشرق سنة سبع وعشرين ومائة. ودخل عبد الرحمٰن القيروان فتمكن منها واستولى على المغرب وهو أول متغلب عليه. قالوا: ولما ولي مروان بن محمد المعروف بالحمار الخلافة بعث إليه بعهده. وكان أمر البربر يومئذٍ قد تفاقم وداء الخارجية قد أعضل ورؤوسها قد نبغت في كل جهة فانتقضوا من أطراف البقاع وتواثبوا على الأمر بكل مكان داعين إلى بدعتهم. وتولى كبر ذلك منهم صنهاجة فإنهم اتفقوا على كبيرهم ثابت الصنهاجي وتغلبوا على باجة. وثارت هوارة بطرابلس ملتفين على رئيسهم عبد الجبار والحارث وغير هؤلاء - وكانوا على مذهب الإباضية - فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسي لما خرج يدعوهم إلى السلم وعظم الخطب فزحف إليهم عبد الرحمٰن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين ومائة فظفر بالصنهاجي والهواري وقتلهما وفل جموعهما ثم زحف إلى عروة بن الوليد الصفري - وكان قد ثار بتونس - فقتله واستأصل الثوار وانقطع أمر الخوارج من

إفريقية. ثم زحف سنة خمس وثلاثين ومائة إلى جموع من البربر ـ وكانوا قد تجمعوا بنواحي تلمسان ـ فظفر بهم وفل جمعهم ورجع، ثم أغزى جيشاً في البحر إلى صقلية وآخر إلى سردانية فأثخنوا في أمم الفرنج حتى أذعنوا للجزية ودوخ عبد الرحمٰن أرض المغرب وأذل المعاندين إلى أن كان ما نذكره.

وأما أهل الأندلس. فإنهم كانوا قد خلعوا أبا الخطار وولوا عليهم ثوبة بن سلامة الجذامي. قال ابن بشكوال: لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمٰن بن حبيب فكتب إليه بعهده، وذلك سلخ رجب سنة سبع وعشرين ومائة، فضبط البلاد واستمر والياً سنتين أو نحوهما ثم هلك، وولى أهل الأندلس عليهم يوسف بن عبد الرحمٰن بن حبيب وهو ابن صاحب الترجمة؛ ذكر الرازي[1]: أن مولده كان بالقيروان وأنه لما استولى أبوه على المغرب خرج يوسف هذا مغاضباً له لأمر اقتضى ذلك، فقدم الأندلس واستوطنها وساد بها، فأقامه أهلها والياً عليهم بعد أميرهم ثوابة، وقد مكثوا فوضى أربعة أشهر، وكان اجتماعهم عليه بإشارة الصميل بن حاتم الكلابي، فاستبد يوسف بالأندلس وضبطها إلى أن دخل عليه عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي المعروف بالداخل، فانتزعها منه وأورثها بنيه كما سيأتي.

دخول عبد الرحمٰن الأموي إلى إفريقية وجوازه إلى الأندلس وتأسيسه للدولة الأموية بها

ولما استقر قدم الدولة العباسية بالمشرق وانقرض أمر بني أمية سنة اثنتين وثلاثين ومائة وذهبوا في كل وجه، أفلت عبد الرحمٰن بن معاوية هذا وقصد

---

(1) الرازي هذا هو أحمد بن محمد بن موسى بن بشير الرازي الكناني من أهل قرطبة يكنى أبا بكر وكان كثير الرواية حافظاً للأخبار وله مؤلفات كثيرة في أخبار الأندلس، انظر ترجمته في معجم البلدان (لياقوت صحيفة 45).

المغرب فاجتاز بالقيروان ـ وبها عبد الرحمٰن بن حبيب صاحب الترجمة ـ فارتاب به وعزم على قتله فنجا الأموي إلى الأندلس، وكان من أمره ما كان.

ذكر ابن حيان: أن عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي سار حتى أتى إفريقية فنزلها ـ وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية ـ وكان عند صاحبها عبد الرحمٰن بن حبيب يهودي حدثاني قد صحب مسلمة بن عبد الملك فكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي وملكه الأندلس ويرثها عقبه من بعده، وأن اسمه عبد الرحمٰن وهو ذو ضفيرتين ومن بيت الملك، فاتخذ الفهري ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء إليه بعبد الرحمٰن الأموي ورأى ضفيرتيه، قال لليهودي: «هو هذا وأنا قاتله» فقال له اليهودي: «إن قتلته فما هو به وإن غلبت عليه فإنه لهو».

وثقل فل بني أمية على ابن حبيب فطرد كثيراً منهم خوفاً على ملكه، ثم تجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلهما، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها غصباً، وطلب عبد الرحمٰن الداخل فاختفى كذا لابن حيان.

وعند ابن خلدون: أن الأخت المذكورة زوجها عبد الرحمٰن من أخيه إلياس بن حبيب ولما قتل ابني عمها امتعضت لذلك وأغرت زوجها واستفسدته على أخيه حتى قتله كما نذكر، وذلك أنه لما انتظم أمر الدولة العباسية بالمشرق وبويع السفاح ثم المنصور بعده كتب إلى عبد الرحمٰن بن حبيب يدعوه إلى الطاعة والبيعة فأجابه ودعا له، وبعث إليه بهدية فيها بزاة وكلاب وذهب قليل، وذكر أن إفريقية اليوم إسلامية وقد انقطع السبي، فغضب المنصور وكتب إليه يتوعده. وبعث إليه مع ذلك بخلعة الإمارة. فنزع عبد الرحمٰن يده من الطاعة ومزق الخلعة على المنبر. فوجد أخوه إلياس بذلك السبيل إلى ما كان يحاوله عليه. وداخل وجوه الجند في الفتك به وإعادة الدعوة للخليفة المنصور. ومالأه على ذلك أخوه عبد الوارث بن حبيب. وأحس عبد الرحمٰن منهما بالشر فأمر إلياس بالمسير إلى تونس.

فأظهر الامتثال ثم جاء ليودعه ـ ومعه عبد الوارث. وكان عبد الرحمٰن مريضاً ـ فدخلا عليه وقتله على فراشه آخر سنة سبع وثلاثين ومائة لعشر سنين وسبعة أشهر من تغلبه على المغرب.

استيلاء إلياس بن حبيب على المغرب

لما فتك إلياس بأخيه عبد الرحمٰن معتداً عليه بخلعه طاعة الخليفة فر ابنه حبيب بن عبد الرحمٰن إلى تونس بعد أن طلبوه وضبطوا أبواب القصر ليأخذوه فلم يظفروا به وكان عمه عمران بن حبيب والياً بتونس من قبل أبيه فلحق به وتم الأمر لإلياس واستولى على القيروان. ثم زحف إليه عمران وحبيب فيمن اجتمع إليهما. وخرج إلياس للقائهم. فالتقوا واقتتلوا ملياً. ثم اصطلحوا على أن يكون لحبيب قفصة وقسطيلة وسائر بلاد الجريد، ولعمران تونس وسطفورة والجزيرة، ولإلياس القيروان وسائر إفريقية والمغرب. وتم هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة، وسار حبيب إلى عمله من بلاد الجريد. وارتحل إلياس مع أخيه عمران إلى تونس. ولما وصلا إليها غدر إلياس بعمران فقتله وقتل جماعة من الأشراف معه. وقيل غربه إلى الأندلس وعاد هو إلى القيروان. فبعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع قاضي إفريقية عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم[1] وصفا له أمر المغرب. وثقل عليه مكان حبيب فاحتال عليه حتى أركبه البحر إلى الأندلس. وأركب معه أخاه عبد الوارث فردهم قاصف من الريح إلى طبرقة وكتبوا بخبرهم إلى إلياس

(1) هو أول مولود ولد في الإسلام بإفريقية سنة أربع أو خمس وتسعين حين دخول الجند إليها وكان حافظاً راوياً للحديث جليل القدر توفي في شهر رمضان سنة إحدى وستين ومائة ودفن بباب نافع من مدينة القيروان رحمه الله. انظر ترجمته في معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان وغيره من كتب أسماء رجال الحديث.

فلجّ في طردهم.

وتسامعت موالي عبد الرحمٰن وشيعته بابن مولاهم فتسارعوا إليه وأنزلوه من السفين والتفوا عليه وزحفوا به إلى تونس فملكوها وخرج إلياس لقتالهم فخالفوه إلى القيروان وملكوها عليه وفتقوا السجون فرجع إلياس لقتالهم وقد فر أكثر من معه إلى حبيب ولما تراءى الجمعان حول القيروان برز حبيب فنادى: يا عم لم نقتل أولياءنا وضائعنا وهم جنتنا؟ فهلم للبراز فأينا غلب ملك! فصاح الجيشان بتصويب رأيه، فبرزا وتضاربا حتى عجب الناس من صبرهما ثم قتل حبيب إلياس ودخل القيروان فملكها آخر سنة ثمان وثلاثين ومائة فكانت ولاية إلياس نحو سنة ونصف.

وفي هذه السنة استولى عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي على جزيرة الأندلس: انتزعها من يد أميرها يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري وهو أخو حبيب المذكور آنفاً.

قال ابن حيان: «كان تغلب عبد الرحمٰن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطبة يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة واستقام أمره بالأندلس وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه. ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور العباسي ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالأندلس وأثل بها الملك العظيم لبني مروان وخرجت الأندلس من يومئذٍ عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق والله غالب على أمره.

استيلاء حبيب بن عبد الرحمٰن على المغرب وفتنة عاصم بن جميل المتنبيء ومقتله

لما قتل حبيب بن عبد الرحمٰن عمه إلياس وتمكن من القيروان طلب عمه عبد الوارث لمشاركته في دم أبيه كما مر ففر عبد الوارث إلى ورفجومة: إحدى بطون نفزاو بن لوي من البرابرة البتر فنزل على كبيرهم عاصم بن جميل ـ وكان كاهناً يدعي النبوة ـ فأجاره. ثم نهض إليهم حبيب فأوقعوا به وهزموه إلى قابس.

واستفحل أمر عاصم وشايعه على شأنه من رجالات نفزاوة عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي ويزيد بن سكوم الولهاصي ـ وكانا على رأي الإباضية ـ وانضمت إليهم سائر نفزاوة واشتدت شوكتهم وكان قيامهم أولاً بدعوة الخليفة المنصور.

ولما بقي أهل القيروان فوضى بسبب فرار أميرهم إلى قابس كتب من بها من العرب إلى عاصم هذا يدعونه للقدوم عليهم والقيام بأمرهم بشرط الدعاء للمنصور فأتى وقاتلهم فهزمهم ودخل القيروان عنوة واستباح أهلها وخرب مساجدها وأهانها ثم سار إلى حبيب بقابس ـ بعد أن استخلف على القيروان ومن بقي بها من نفزاوة عبد الملك ابن أبي الجعد ـ فقاتل حبيباً وهزمه فلحق حبيب بجبل أورابن[1] وأجاره أهله ثم زحف إليهم عاصم فهزموه وقتلوه واستلحموا جماعة من أصحابه. وقام بأمر ورفجومة والقيروان من بعده عبد الملك بن أبي الجعد. وأهل القيروان أثناء هذا كله في غاية المذلة والهوان مع البربر. ثم زحف حبيب إلى القيروان فبرز إليه عبد الملك وهزم حبيباً وقتله في المحرم سنة أربعين ومائة فكانت ولايته نحو ثلاث سنين وانقرض بمقتله أمر آل عقبة من المغرب والبقاء لله وحده.

---

(1) أوراس كما في النسخ الصحيحة لابن خلدون.

استيلاء عبد الملك بن أبي الجعد على المغرب

لما قتل عبد الملك بن أبي الجعد الورنجومي حبيب بن عبد الرحمٰن الفهري رجع في جموع البربر إلى القيروان فملكها. وأمر أمر ورفجومة واستطالوا على أهل القيروان وقتلوا من بها من قريش وسائر العرب حيث وجدوا وعاملوهم معاملة المكناسيين لآل إدريس واستحلوا من الحرمات ما لم يستحله عاصم بن جميل قبلهم حتى لقد ربطوا دوابهم بالمسجد الجامع. واشتد البلاء على أهل القيروان وافترقوا في النواحي فراراً بأنفسهم وشاع خبرهم في الآفاق. فحينئذٍ قام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح الغافري من رجالات العرب ـ وكان على رأي الإباضية ـ بأحواز طرابلس منكراً لفعل ورفجومة ومغيراً عليهم حسبما نذكر.

استيلاء عبد الأعلى بن السمح على المغرب وظهور الصفرية من آل مدرار المكناسيين وبناؤهم مدينة سجلماسة

كان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري من وجوه العرب وكان على رأي الإباضية كما قلنا ولما بلغه ما ارتكبته ورفجومة من أهل القيروان امتعض لذلك وقام محتسباً عليهم وشايعه على ذلك برابرة طرابلس.

وتولى كبر ذلك هوارة منهم ـ وهوارة إحدى بطون أوريغة من البرانس ـ فاجتمعوا إليه وتقدم بهم إلى طرابلس فملكها ثم زحف إلى القيروان سنة إحدى وأربعين ومائة فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد في جموعه فانخزل عنه أهل القيروان لما نالهم من عسفه وعسف قومه فانهزم وقتل.

واستولى أبو الخطاب على القيروان وأثخن في جموع عبد الملك من

ورفجومة وسائر نفزاوة. ثم ولى على القيروان عبد الرحمٰن بن رستم الفارسي - وهو من أبناء رستم أمير الفرس يوم القادسية - كان عبد الرحمٰن هذا من موالي العرب ومن رؤوس هذه البدعة فاستخلفه أبو الخطاب على القيروان ورجع هو إلى طرابلس للقاء العساكر القادمة من جهة الخليفة المنصور على ما نذكره.

ولما حصل هذا الاضطراب بالمغرب اجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب الأقصى فنقضوا طاعة العرب. وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج واختطوا مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة من الهجرة ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم واقتطعوا سجلماسة وأعمالها عن نظر الولاة بالقيروان.

ومن هذا الاجتماع نشأت دولة بني مدرار ملوك سجلماسة، فإن صفرية مكناسة لما بايعوا عيسى بن يزيد[1] أقام أميراً عليهم نحو خمس عشرة سنة ثم سخطوا إمرته، ونقموا عليه بعض أحواله فعمدوا إليه وأوثقوه كتافاً، ووضعوه على قنة حبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين ومائة واجتمعوا بعده على كبيرهم أبي القاسم بن سمكو بن واسول المكناسي الصفري كان أبوه سمكو من حملة العلم ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس (قاله عريب بن حميد القرطبي[2] في تاريخه) وكان عكرمة[3] بربري الأصل كما عند ابن خلكان، قال: (وقد تكلم الناس فيه لأنه

---

(1) سماه البكري عيسى بن مزيد الأسود.

(2) في معجم الأدباء لياقوت ترجمة عريب بن محمد مصرف بن عزيب القرطبي، انظرها في صحيفة 55 من الجزء الخامس. فلعل عريباً هذا هو الذي ينقل عنه المؤلف، وإنما تصحف اسم أبيه حميد بمحمد أو العكس والله أعلم.

(3) ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب بأنه كان من أعظم الداعين للبدعة الخارجية بإفريقية، وتوفي سنة 105 وقيل غير ذلك، راجع ترجمته في تهذيب التهذيب، وابن خلكان وغيره.

كان يرى رأي الخوارج) وكان أبو القاسم المذكور صاحب ماسية، وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد وحمل قومه على طاعته، فلما خلعوا عيسى بايعوا أبا القاسم من بعده، وقام بأمرهم إلى أن هلك[1] سنة سبع وستين ومائة.

وكان يخطب في عمله للمنصور ثم للمهدي من بني العباس، ولما هلك ولوا عليهم ابنه إلياس بن أبي القاسم - وكان يدعى بالوزير - ثم انتقضوا عليه سنة أربع وسبعين ومائة فخلعوه وولوا مكانه أخاه اليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو منصور - وكان صفرياً - وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة وهو الذي أدار سورها وأتم بناءها، واختط بها المصانع والقصور، وانتقل إليها آخر المائة الثانية، وهلك سنة ثمان ومائتين وولى بعده ابنه مدرار - ولقبه المنتصر - وطالت مدته، وكان له ولدان كل منهما اسمه ميمون، أحدهما - لأروى بنت عبد الرحمٰن بن رستم صاحب تاهرت، والآخر لبغي - وكان يعرف بالأمير - فتنازعا وتداولا الأمر بينهما استبداداً على أبيهما ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين، وهلك أبوهما مدرار سنة ثلاث وخمسين ومائتين في نوبة ميمون الأمير، واستمر ميمون هذا في استبداده إلى أن هلك سنة ثلاث وستين ومائتين وولي ابنه محمد بن ميمون - وكان أباضياً - وتوفي سنة سبعين ومائتين، فولي اليسع بن المنتصر.

وفي أيامه قدم عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين من الشيعة وابنه أبو القاسم من المشرق، فدخلا سجلماسة متنكرين، وكان الخليفة المعتضد بالله العباسي قد أوعز إلى اليسع هذا بالقبض عليهما فنقب عنهما وقبض عليهما وأودعهما السجن إلى أن افتكهما مقيم دولتهما أبو عبد الله الشيعي المعروف بالمحتسب، فإنه اقتحم سجلماسة في خبر معروف وأخرج عبيد الله وابنه من السجن وقتل اليسع سنة ست وسبعين ومائتين.

---

(1) قال البكري سنة ثمان وستين فجأة في آخر ركعة من صلاة العشاء.

ثم بايع أهل سجلماسة من بعده الفتح بن ميمون الأمير ـ وكان أباضياً ـ وهلك على رأس المائة الرابعة فولي أخوه أحمد بن ميمون الأمير واستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حبوس الكتامي ـ قائد الشيعة العبديين ـ في جموع كتامة إلى المغرب الأقصى سنة تسع وثلاثمائة، فدوخه وأخذ أهله بدعوة صاحبه عبيد الله المهدي، وافتتح سجلماسة وتقبض على صاحبها أحمد بن ميمون الأمير، ثم ولى عليها من قبله محمد بن بسادر بن مدرار فلم يلبث أن استبد على الشيعة، وتلقب بالمعتز وهلك سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. وولي ابنه المنتصر محمد بن المعتز فمكث عشراً وهلك، وولي ابنه المنتصر سمكو شهرين، وكانت جدته تدبر أمره لصغره.

ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون الأمير ورفض الخارجية ونادى بالدعوة العباسية، وأخذ بمذهب أهل السنة، وتلقب بالشاكر لله، واتخذ السكة باسمه، فكانت تسمى بالدراهم الشاكرية.

قال ابن حزم: وكان في غاية العدل وكانت سكته في غاية الطيب، واستمر إلى أن زحف جوهر الكاتب قائد المعز العبيدي ـ في جموع صنهاجة وكتامة ـ إلى المغرب الأقصى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فغلب على سجلماسة، وفر عنها محمد بن الفتح إلى حصن تسكرات[1] على أميال منها؛ ثم دخل سجلماسة متنكراً فعرفه رجل من مضغرة وأعلم به جوهراً فتقبض عليه وساقه أسيراً ـ مع أحمد بن أبي بكر الزناتي صاحب فاس ـ إلى المهدية كما نذكره.

ثم لما انتقض المغرب على الشيعة وأخذ زناتة بطاعة الحكم المستنصر صاحب الأندلس ثار بسجلماسة قائم من ولد الشاكر لله وتلقب بالمنتصر

---

(1) وسماها البكري بتاسجدالت قال: وهي حصن منيع على اثني عشر ميلاً من سجلماسة.

بالله. ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة فقتله وقام بالأمر مكانه وتلقب بالمعتز بالله، وأقام على ذلك مدة وأمر مكناسة يومئذٍ قد تداعى إلى الانحلال، وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب، إلى أن زحف خزرون بن فلول الزناتي ثم المغراوي إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة فبرز إليه أبو محمد المعتز فهزم خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته وبعث برأسه إلى قرطبة، وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر المستبد على بني أمية بالأندلس؛ وانقرض أمر بني مدرار والبقاء لله.

وقد لخصنا هذه الدولة المدرارية من كتاب العبر وسردناها هنا استطراداً ثم نعود إلى موضوعنا الذي كنا فيه. وبالله التوفيق.

ولاية محمد بن الأشعث على المغرب

لما ارتكبت ورفجومة من أهل القيروان ما ارتكبته وفد جماعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج، وشكوا إليه تسلقهم على كرسي الإمارة بالقيروان، فوجه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي والياً على مصر وأمره باستنقاذ إفريقية من البربر، فوجه محمد بن الأشعث أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي سنة اثنتين وأربعين ومائة، فخرج إليه أبو الخطاب المعافري وهزمه بسرت[1] قريباً من طرابلس واستولى على عسكره.

ورجع أبو الأحوص مفلولاً إلى مصر، فكتب المنصور إلى ابن الأشعث

(1) سرت مدينة على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب ضبطها ياقوت بضم السين وسكون الراء، وتعرف عند الإفرنج قديماً بسرت بكسر السين.

يأمره بالمسير إلى المغرب بنفسه، فسار إليه في أربعين ألفاً - ومعه الأغلب بن سالم التميمي - فلقيهم أبو الخطاب بسرت أيضاً فأوقع به ابن الأشعث وقتله واستلحم جموعه.

وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمٰن بن رستم بمكانه من القيروان فاحتمل أهله وولده ولحق بإباضية المغرب الأوسط، ونزل على لماية: بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضرى من البتر، لحلف كان بينه وبينهم، فالتفوا عليه وبايعوا له بالخلافة وتفاوضوا في بناء مدينة تكون كرسياً لإمارتهم - شأن الصفرية من بني مدرار - فشرعوا في بناء مدينة تاهرت[1] سنة أربع وأربعين ومائة، فعمرت واتسعت خطتها وتوارثها بنو رستم واقتطعوها عن نظر ولاة المغرب.

وكان يسلم عليهم بالخلافة - على ما هو المعروف من مذهب الخوراج - إلى أن انقرضت دولتهم على يد العبيديين أواخر المائة الثالثة.

وأما ابن الأشعث فإنه استقر بالقيروان غرة جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ومائة وشرع في بناء سورها في ذي القعدة من السنة وتم في رجب سنة ست وأربعين ومائة، وضبط المغرب أحسن ضبط وافتتح طرابلس واستعمل عليها المخارق بن غفار الطائي، وعلى طبنة والزاب الأغلب بن سالم، وخافه البربر.

ثم ثار عليه عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني أحد الجند في جماعة من قواد مضر ونفوه عن القيروان فقفل إلى المشرق ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة فكانت ولايته نحو أربع سنين.

(1) راجع ما ذكره ياقوت في معجم البلدان في حق هذه المدينة، فقد بسط الكلام عليها وأفاد، وكذلك ابن خلدون في صحيفة 154 وما يليها من الجزء الأول من تاريخ البربر طبع الجزائر.

ولاية الأغلب بن سالم التميمي على المغرب

لما قفل ابن الأشعث إلى المشرق ولى جند مضر عليهم عيسى بن موسى الخراساني واتصل بالمنصور ما فعله قواد مضر من ذلك، فبعث إلى الأغلب بن سالم التميمي ثم السعدي بعهده على المغرب ـ والأغلب هذا هو جد الأغالبة ملوك إفريقية من بعده. وكان من ذوي الشجاعة والرأي ومن أصحاب أبي مسلم بخراسان ـ فدخل المغرب مع ابن الأشعث واستعمله على طبنة كما مر. فلما وافاه عهد الخليفة أواخر جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائة انتقل إلى القيروان وأمنها واستقام أمره.

ثم خرج عليه أبو قرة ين دوناس اليفرني ويقال المغيلي من الصفرية والتفت عليه زناتة بجهة تلمسان، وبايعوا له بالخلافة، واستفحل أمره فزحف إليه الأغلب، فلما دنا منه فر أبو قرة إلى المغرب الأقصى فلم يقف إلا بطنجة وانتهى الأغلب إلى الزاب ثم عاد إلى القيروان فعاد أبو قرة إلى وطنه من تلمسان.

وفي سنة خمسين ومائة خرج الأغلب لقتال الصفرية فتثاقل عنه طائفة من الجند، ولما أوغل في طلب الصفرية ثار عليه الحسن بن حرب الكندي ـ وكان بتونس ـ ولحق به المتثاقلون من الجند، وكان تثاقلهم عن الأغلب بمكاتبة الحسن إياهم في ذلك، فأقبل بهم إلى القيروان واستولى عليها ولحق الأغلب بقابس وكاتب الحسن يرغبه في الطاعة فلم يقبل، ثم وافى كتاب المنصور يدعو الحسن إلى الطاعة فأبى، فصمد إليه الأغلب واقتتلا فانهزم الحسن وفر إلى تونس وجمع الجموع ورجع، فخرج إليه الأغلب فأصابه سهم فقتله؛ فقدم أصحابه عليهم المخارق بن غفار الطائي الذي كان على طرابلس، وحملوا على الحسن فانهزم أمامهم إلى تونس، ثم لحق بكتامة وخيل المخارق في اتباعه، ثم رجع إلى تونس بعد شهرين فقتله الجند.

وقيل إن أصحاب الأغلب قتلوه في الوقت الذي قتل فيه الأغلب وكان مقتل الأغلب في شعبان سنة خمسين ومائة.

وقام بأمر إفريقية المخارق بن غفار إلى أن كان ما نذكره.

ولاية عمر بن حفص هزارمرد على المغرب

لما بلغ الخليفة المنصور مقتل الأغلب بن سالم وجه مكانه عمر بن حفص ـ من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب بن أبي صفرة ـ فقدم القيروان في خمسمائة فارس سنة إحدى وخمسين ومائة، فاستقامت أموره ثلاث سنين ثم خرج إلى طبنة لإدارة السور عليها، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي، فثار البربر بإفريقية ـ لما علموا من بعد الحامية عنها ـ وغلبوا على من كان بها، وزحفوا إلى القيروان فخرج إليهم حبيب فهزموه وقتلوه، وثار البربر الإباضية بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي مولى كندة.

وتسامعت به خوارج المغرب فانتقضوا من كل ناحية ونبغت رؤوس الفتنة من كل وجه وعادت هيف إلى أديانها، وكانت هذه الفتنة هي زبدة الفتن التي مخضتها الخوارج بالمغرب من لدن ميسرة الخفير إلى الآن، فإنهم زحفوا إلى عمر بن حفص وهو بطبنة من أرض الزاب في اثني عشر عسكراً فكان منهم أبو قرة اليفرني من أربعين ألفاً من الصفرية، وعبد الرحمٰن بن رستم صاحب تاهرت في خمسة عشر ألفاً من الإباضية، والمسور بن هانىء الزناتي في عشرة آلاف من الاباضية أيضاً، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي في ألفين من صنهاجة الصفرية، وجرير بن مسعود المديوني فيمن تبعه من مديونة وانضم إليهم غير هؤلاء من خوارج هوارة وزناتة ممن لا يحصى كثرة.

ولما اشتد الحصار على عمر بن حفص أعمل الحيلة في إيقاع الخلاف

بينهم ودافعهم بالأموال وأرسل إلى أبي قرة على يد ابنه أبي نور أن يعطيه أربعين ألفاً ولابنه أربعة آلاف على أن يرتحل عنه فقبل وارتحل بقومه وانفض البربر عن طبنة.

ثم سار أبو حاتم يعقوب بن لبيب إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر حتى أكل أهلها الميتة، ولما اشتد الحصار على أهل القيروان خرج عمر بن حفص من طبنة يريد أبا حاتم الاباضية الذين معه، وبلغ أبا حاتم وأصحابه وهم محاصرون للقيروان مسير عمر بن حفص إليهم فساروا للقائه، فمال هو من الأربس(1) إلى تونس، ثم جاء إلى القيروان فدخلها واستعد للحصار وشحنها بالأقوات والرجال، وأتبعه أبو حاتم والبربر وأبو قرة معهم في قومه ـ وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفاً، الخيل منهم خمسة وثمانون ألفاً، والباقي رجالة وأحاطوا بالقيروان ـ وعمر بن حفص داخلها ـ وطال الحصار ثم بلغه الخبر أن المنصور وجه لاستنقاذه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبي فأنف من ذلك وقال: لا خير في الحياة بعد أن يقال: يزيد أخرجه من الحصار! إنما هي رقدة ثم أبعث إلى الحساب! وخرج عمر فقاتل حتى قتل أواسط حجة سنة أربع وخمسين ومائة.

وكان عمر هذا بطلاً سمحاً، يلقب هزارمرد، وهو لفظ فارسي معناه ألف رجل.

ثم ولى الناس عليهم أخاه لأمه حميد بن صخر، وانقضى الحصار وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها، وخرج أكثر الجند إلى طبنة، ودخل أبو حاتم القيروان فاستولى عليها، ويقال إن ابن صخر وادعه على ما أحب والله تعالى أعلم.

---

(1) الأربس ضبطه ياقوت في المعجم بالضم ثم السكون والباء الموحدة مضمومة وسين مهملة، وقال هي مدينة وكورة بإفريقية بينها وبين القيروان ثلاثة أيام نحو المغرب فراجعه فقد بسط الكلام عليها.

ولاية يزيد بن حاتم على المغرب

لما بلغ المنصور انتقاض إفريقية على عمر بن حفص وحصاره بطبنة أولاً ثم بالقيروان ثانياً بعث إليه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألفاً، وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة كما تقدم.

وبلغ أبا حاتم وهو بالقيروان مسير يزيد بن حاتم إليه فخرج للقائه، فلقيه يزيد بن حاتم بنواحي طرابلس؛ واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم البربر وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفاً من أصحابه، وتتبعهم يزيد بالقتل طلباً بدم عمر بن حفص.

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها يوم الاثنين لعشر مضت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائة فمهدها ورتب أسواقها وأفرد لكل صناعة مكاناً وجدد بناء جامعها وضبط الأمور أحسن ضبط.

وكان عبد الرحمٰن بن حبيب بن عبد الرحمٰن الفهري مع أبي حاتم، فلحق بكتامة، فبعث يزيد في طلبه المخارق بن غفار فحاصره ثمانية أشهر ثم غلب عليه فقتل جماعة ممن معه وهرب الباقون في كل ناحية، ونجا هو إلى الأندلس.

وبعث يزيد المخارق أيضاً على الزاب فنزل طبنة وأثخن في البربر وأوقع بهم وقائع عظيمة.

وكانت حروب الخوارج مع العرب منذ انتقضوا على عمر بن حفص إلى انقضائها ثلاثمائة وخمساً وسبعين حرباً قاله ابن خلدون.

ثم انتقضت ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلاً اسمه أبو زرجونة، فسرح إليهم يزيد بن حاتم من عشيرته يزيد بن مجزأة المهلبي فهزموه واستأذنه ابنه المهلب ـ وكان على الزاب وطبنة ـ في الزحف إلى

ورفجومة فأذن له وأمده بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبي من عشيرتهم أيضاً فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل.

وانتقضت نفزاوة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود بن يزيد فاستأصلهم قتلاً أيضاً فركدت ريح الخوارج من البربر حينئذٍ وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال.

قال ابن خلدون: لم يزل أمر الخوارج بالمغرب ـ يعني أيام يزيد هذا ـ في تناقض إلى أن اضمحلت ديانتهم وافترقت جماعتهم وبقيت آثار نحلتهم في أعقاب البربر الذين دانوا بها في صدر الإسلام: ففي بلاد زناتة بالصحراء منها أثر باق لهذا العهد، وكذلك في جبال طرابلس أثر باق من تلك النحلة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. واستمر يزيد بن حاتم ضابطاً لأمر إفريقية والمغرب إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة في خلافة هارون الرشيد العباسي فكانت ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وولى الناس عليهم ابنه داود إلى أن كان ما نذكره.

وكان يزيد رحمه الله من السمحاء الأمجاد والفضلاء الأنجاد وكل بني المهلب كذلك، وبهم ضرب المثل أبو محمد الحريري في المقامات إذ قال: (وصار الأدب أعلق بي من الهوى ببني عذرة، والشجاعة بآل أبي صفرة) وقال الشاعر الحماسي:

نزلت على آل المهلب شاتياً بعيداً عن الأوطان في الزمن المحل
فما زال بي معروفهم وافتقادهم وبرهم حتى حسبتهم أهلي

فأما يزيد هذا من بينهم فحاله في الشجاعة وجودة الرأي كما رأيت وأما الجود والسخاء فهو فيهما المثل السائر. كان ربيع بن ثابت الرقي الشاعر مدح يزيد بن أسيد بالتصغير السلمي ـ وهو وال على أرمينية ـ فقصر في حقه؛ ثم مدح يزيد بن حاتم فبالغ في الإحسان إليه فقال ربيعة من قصيدة:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى فتى الأزد للأموال غير مسالم

فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

ولاية روح بن حاتم على المغرب

ولما بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم ـ وكان أخوه روح والياً على فلسطين وكان أسن من يزيد ـ استقدمه وعزاه في أخيه وولاه على المغرب، فقدم القيروان منتصف سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان يزيد قبلة قد أذل الخوارج ومهد البلاد كما قلنا، فكانت أرض المغرب ساكنة أيام روح، ورغب في موادعته عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن بن رستم صاحب تاهرت فوادعه.

قال ابن خلدون: «وفي أيام روح انخضذت شوكة البربر واستكانوا للغلب وطاعوا للدين، فضرب الإسلام بجرانه وألقت الدولة المضرية على البربر بكلكلها» اهـ. كلام ابن خلدون.

وفي أيام روح أيضاً اجتاز الإمام إدريس بن عبد الله ببلاد مصر وإفريقية ناجياً من وقعة فخ التي كانت بمكة لآل العباس على آل علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ودخل مدينة وليلى من المغرب الأقصى سنة اثنتين وسبعين ومائة كما سيأتي إن شاء الله.

قال ابن خلكان: «كان روح بن حاتم من الكرماء الأجواد ولي لخمسة من الخلفاء السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد. ويقال إنه لم يتفق مثل هذا إلا لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه فإنه ولي لرسول الله ﷺ وللخلفاء الأربعة رضي الله عنهم» قال: «وكان روح والياً على السند ولاه عليها المهدي بن المنصور فلما مات أخوه يزيد بالقيروان ودفن بباب سلم قال أهل إفريقية: ما أبعد ما يكون بين قبري هذين الأخوين! فإن أخاه بالسند وهذا

---

(1) هذا مخالف لما تقدم عند المؤلف أول الترجمة من أنه كان والياً على فلسطين واستقدمه الرشيد منها وأسند له أمر إفريقية في التاريخ المذكور. والرواية =

هنا فاتفق أن الرشيد عزل روحاً عن السند[1] وسيره إلى موضع أخيه يزيد فدخل إفريقية أول رجب سنة إحدى وسبعين ومائة ولم يزل والياً بها إلى أن توفي بها لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ودفن مع أخيه يزيد في قبر واحد فعجب الناس من هذا الاتفاق بعد ذلك التباعد رحمهما الله».

ثم ولي المغرب من قبل الرشيد حبيب بن نصر المهلبي ثم عزله سنة سبع وسبعين ومائة.

وولى على المغرب الفضل بن روح بن حاتم وقتله عبد الله بن الجارود منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة وانقرضت بانقراضه دولة آل المهلب من المغرب.

ثم ولى الرشيد على المغرب هرثمة بن أعين فبنى القصر الكبير بالمنستير[2] وبنى السور على طرابلس من جهة البحر، ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار والخلاف استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته.

ثم ولى الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل العكي ـ وكان رضيعاً له ـ فاضطربت عليه إفريقية، وبلغ الرشيد ذلك.

وطلب أهل إفريقية من إبراهيم بن الأغلب ـ وكان من عمال محمد بن مقاتل أن يكتب إلى الرشيد في الولاية عليهم، فكتب إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر إلى إفريقية إعانة

= الأولى لابن خلدون وابن الأثير، والثانية لابن خلكان، ولعل الرواية الأولى هي الصحيحة. والمقالة التي قيلت في بعد قبريهما فقد قيلت يوم ولايتهما لإفريقية والسند زمن المنصور.

(1) المنستير بضم أوله وفتح ثانيه وسكون السين المهملة وكسر التاء بين المهدية وسوسة بإفريقية وهو موضع فيه خمسة قصور يحيط بها سور واحد ويسكن هذه القصور قوم من أهل العبادة والعلم قاله ياقوت.

للولاة بها، وعلى أن يحمل هو من إفريقية إلى الخليفة أربعين ألفاً؛ وبلغ الرشيد غناؤه وكفايته فاستشار فيه أصحابه، فأشار هرثمة بن أعين بولايته، فكتب له بالعهد على إفريقية منتصف أربع وثمانين ومائة، فقام إبراهيم بالأمر وضبط البلاد فسكنت واستراحت من الفتن وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان، وانتقل إليها بجملته وأورث بإفريقية ملكاً لبنيه من بعده.

وفي هذه المدة انقسم المغرب إلى ثلاث ممالك فكان بنو الأغلب بإفريقية والقيروان، وبنو خزر المغراويون بالمغرب الأوسط وتلمسان، وبنو إدريس بالمغرب الأقصى.

وقبل أن نفرد الكلام عليه نذكر فصلاً نشير فيه إلى مذاهب أهل المغرب ونحلهم على الجملة والله الموفق.

القول في مذاهب أهل المغرب أصولاً وفروعاً وما يتبع ذلك

قد تقدم لنا ما قاله الشيخ ابن أبي زيد رحمه الله من أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة، وأنه لم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد موسى بن نصير وبعد فتحه الأندلس، ثم كمل إسلامهم على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر؛ وتقدم أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في دينهم؛ فكان المغاربة في صدر الإسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الأمة واعتقادهم ـ وهو المذهب الحق ـ إلى أن حدثت فيهم بدعة الخارجية لأول المائة الثانية من الهجرة. نزع إليهم بها بعض أهل النفاق من خوارج العراق وبثوها فيهم فتلقوها منهم بالقبول وحسن موقعها لديهم بسبب ما كانوا يعانونه من ثقل وطأة الخلافة القريشية وجور بعض عمالها حسبما تقدمت الإشارة إليه فلقنهم أهل البدع أن الخلافة لا تشترط فيها القريشية بل ولا العربية وأن كل من كان أتقى لله كان أحق بها ولو عبداً حبشياً على ظاهر الحديث. ودسوا إليهم مع ذلك بعض

تشديدات الخوارج وتعمقاتهم وأروهم ما هم عليه من التصلب في دينهم فظهر للبربر ببادىء الرأي أن تعمقهم ذلك إنما هو أثر من آثار الخشية لله والخوف منه وأن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعاً: وغاب عنهم أن الدين يسر كما قال ﷺ وأن ملة الإسلام عرفت من بين الملل بالحنيفية السمحة لذلك والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: 78] ومن أمعن نظره في نصوص الشريعة من الكتاب والسنة علم يقيناً أن طريق النجاة إنما هي سلوك الوسط وإن كلاً من التعمق والانحلال ضلال وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: 153] الآية وقد قرر جمع من الأئمة المقتدى بهم ـ كالغزالي في الإحياء وغيره ـ أن المحمود في أمور الديانات كلها إنما هو سلوك الوسط بين الإفراط والتفريط وبه يتم مراد الله من خلقه وكلا طرفي قصد الأمور ذميم وهذا مبحث طويل نفيس وقد رمزنا إليه بهذه النبذة اليسيرة والتوفيق بيد الله.

وقد رسخت هذه البدعة الخارجية في البربر زماناً طويلاً إلى أن اضمحلت في أواخر المائة الثانية وما بعدها ومع ذلك فقد بقيت منها آثار في أعقابهم من أصحاب الأطراف كما ذكره ابن خلدون والناقد بصير.

ولما طهر الخلفاء من بني العباس المغرب من هذه النزعة الشيطانية أخذ أهله بعدها بمذاهب أهل العراق في الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذٍ هو مذهب الخلفاء بالمشرق والناس على قدم إمامهم.

قال عياض في المدارك: ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهوراً كبيراً إلى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها، ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب قديماً بمدينة فاس وبالأندلس وكذا ظهر بالأندلس أيضاً مذهب عبد الرحمٰن الأوزاعي من أهل الشام.

واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنيفة وغيره إلى مذهب الإمام مالك بن أنس ـ الذي هو مذهب السلف من

أهل الحجاز ـ فقال ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة الخامسة ما نصه: «كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية أظهر المذاهب فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه وحسم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن» اهـ.

قلت: كان المعز هذا وأسلافه من صنهاجة بإفريقية على مذهب الرافضة من الشيعة أخذوه عن خلفائهم العبيديين أيام استيلائهم على المغرب في صدر المائة الرابعة وحملوا الناس عليه وامتحنوهم وطارت بدعتهم في أقطار المغرب كله، فلما أفضى الأمر إلى المعز بن باديس المذكور قطع دعوة الشيعة من إفريقية. ودعا لبني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك عالم المدينة وإمام دار الهجرة.

هذا والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولاً بالأندلس ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة، وكذا ظهر بإفريقية ظهوراً بيناً قبل وجود المغرب بكثير بل قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب وذلك على يد أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون وغيرهما من أئمة المغاربة. ثم لما ظهرت دولة الشيعة بإفريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك. وكان فقهاء المالكية في ذلك العصر معهم في محنة عظيمة منهم ابن أبي زيد والقابسي وأبو عمران الفاسي وطبقتهم، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن نصره المعز المذكور جزاه الله خيراً. قالوا وكان ظهوره بالأندلس على يد الفقيه زياد بن عبد الرحمٰن المعروف بشبطون فهو أول من أدخله الأندلس، وكانوا قبل ذلك يتفقهون على مذهب الأوزاعي ـ إمام أهل الشام ـ لمكان الدولة الأموية منه، فلما ظهر مالك رضي الله عنه بالمدينة وعظم صيته وانتشرت فتاويه بأقطار الأرض رحل إليه جماعة من أهل الأندلس والمغرب كان من أمثلهم وأسبقهم شبطون المذكور وقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم أيام هشام بن

عبد الرحمٰن الداخل. فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به ذكره بالأندلس فانتشر يومئذٍ علمه ورأيه بها.

وكان رائد الجماعة في ذلك هو شبطون كما قلنا وهو أول من أدخل كتاب الموطأ المغرب، أتى به مكملاً متقناً فأخذه عنه يحيى بن يحيي الليثي ثم دخل بعد ذلك إلى مالك فقرأه عليه وعاد إلى الأندلس فتمم ما كان قد بقي من شهرة المذهب المالكي.

قال ابن حزم: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولى الرشيد أبا يوسف خطة القضاء كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم، على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم وداعيا إلى قبول رأيه لديهم» اهـ.

ورأيت في بعض التآليف[1] في سبب ظهور مذهب مالك بالأندلس والمغرب أن حاج المغرب والأندلس قدموا على مالك رضي الله عنه بالمدينة فسألهم عن سيرة عبد الرحمٰن بن معاوية المعروف بالداخل فقيل له إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله فقال مالك: ليت الله زين حرمنا بمثله. فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة وكان ذلك سبب توصلهم إلى ضربه في مسألة الإكراه كما هو مشهور، وبلغت مقالته صاحب الأندلس فسر بها وجمع الناس على مذهبه فانتشر في أقطار المغرب من يومئذٍ والله أعلم.

ومما يناسب هنا ما نقله المؤرخون أن أبا عبد الله محمد بن خيرون ـ الأندلسي الأصل القيرواني الدار رحل إلى المشرق في صدر المائة الرابعة

---

(1) المقصود بها الديباج المذهب لابن فرحون وشرح ابن نباتة لرسالة ابن زيدون.

فأخذ عن علمائه وقرائه وعاد إلى إفريقية بقراءة نافع بن أبي نعيم ـ وكان الغالب عليهم القراءة بحرف حمزة ـ فشاع حرف نافع من يومئذٍ في أقطار المغرب بعد أن كان لا يقرأ به إلا الخواص واستمر الحال على ذلك إلى اليوم. فهذا حال أهل المغرب في الفروع.

وأما حالهم في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر ـ وهو والله أحسن المذاهب[1] وأسلمها ولله در القائل:

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته	ولا ذاته شيء، عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها	وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا	وتأويلنا، فعل اللبيب المراقب
ونركب للتسليم سفناً، فإنها	لتسليم دين المرء خير المراكب

واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة، فرحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع، ويسلمه العقل والطبع. ثم عاد محمد بن تومرت إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة، وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه الموحدين، ـ تعريضاً بأن من خالف طريقته ليس بموحد، ـ وجعل ذلك ذريعة إلى الانتزاء على ملك المغرب حسبما تقف عليه مفصلاً بعد إن شاء

---

(1) قد انتصر المؤلف رحمه الله لهذا المذهب في تأليفه المسمى: «تعظيم المنة بنصرة السنة» بما لا مزيد عليه.

الله، لكنه ما أتى بطريقة الأشعري خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيعية حسبما يعلم ذلك بإمعان النظر في أقواله وأحواله وأحوال خلفائه من بعده، ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطي مذهب الأشعري وتقريره وتحريره درساً وتأليفاً إلى الآن، وإن كان قد ظهر بالمغرب قبل ابن تومرت فظهوراً ما. والله أعلم.

وقد كان عبد المؤمن بن علي وبنوه من بعده منعوا الناس من التقليد في الفروع وحملوا الأئمة على أخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة مباشرة على طريقة الاجتهاد المطلق، وحرقوا شيئاً كثيراً من كتب الفروع الحديثة التصنيف، ووقع ذلك من بعض علماء عصرهم موقع الاستحسان، منهم الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي فقد ذكر في كتاب القواصم والعواصم له ما يشعر بذلك، قال بعد ذكره ما وقع بالمغرب من الفتن ما نصه: «عطفنا عنان القول إلى مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى لما كثرت البدع وذهب العلماء، وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت أطماع الجهال به فنالوه بفساد الزمان، ونفوذ وعد الصادق ﷺ في قوله: «**اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا، بغير علم، فضلوا وأضلوا**» وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم إلا عند آحاد الناس، واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل وذلك بقدرة الله تعالى، وجعل الخلف منهم يتبع السلف حتى آلت الحال إلى أن لا ينظر في قول مالك وكبراء أصحابه. ويقال قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهل طليطلة وصار الصبي إذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله تعالى ثم نقلوه إلى الأدب ثم إلى الموطأ ثم إلى المدونة ثم إلى وثائق ابن العطار، ثم يختمون له بأحكام ابن سهل، ثم يقال: قال فلان الطليطي وفلان المجريطي وابن مغيث لا أغاث[1] الله ثراه فيرجع

(1) علق المؤلف رحمه الله في بعض أصوله التاريخية على هذه العبارة في حق ابن مغيث ما نصه: «انظر في الكلام على السماع من جامع المعيار ما أثنى به عياض على ابن مغيث رحمه الله الجميع».

القهقرى، ولا يزال يمشي إلى وراء ولولا أن الله تعالى منّ بطائفة تفرقت في ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضي أبي الوليد الباجي وأبي محمد الأصيلي فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا أنفاس الأمة الذفرة، لكان الدين قد ذهب ولكن تدارك الباري تعالى بقدرته ضرر هؤلاء بنفع هؤلاء وربما سكنت الحال قليلاً والحمد لله. اهـ والله تعالى ولي التوفيق.

تتمة مهمة(*)

قد ظهر ببلاد المغرب وغيرها منذ أعصار متطاولة ـ لا سيما في المائة العاشرة وما بعدها ـ بدعوة قبيحة وهي اجتماع طائفة من العامة على شيخ من الشيوخ الذين عاصروهم أو تقدموهم ممن يشار إليه بالولاية والخصوصية، ويخصونه بمزيد المحبة والتعظيم، ويتمسكون بخدمته والتقرب إليه قدراً زائداً على غيره من الشيوخ بحيث يرتسم في خيال جلهم أن كل المشايخ أو جلهم دونه في المنزلة عند الله تعالى ويقولون نحن أتباع سيدي فلان وخدام الدار

(*) قد تصدى المؤلف رحمه الله لهذه البدعة وغيرها من البدع المحدثات في الدين، وشرحها وبين مخالفتها لما جاء عن الله ورسوله بالحجج القاطعة والأدلة الواضحة الساطعة في تأليف كبير له خصصه لهذا القصد وسماه: «تعظيم المنة بنصرة السنة» ما زال لم يطبع، رتبه على أبواب الفقه من توحيد وطهارة وصلاة وزكاة وحج وتصوف وغير ذلك واستفرغ جهده في تفنيد سائر البدع والذب عن حوزة الشرع والدين بما لا مزيد عليه، وانتقد سائر ما ظهر من المنكرات والبدع في الأقطار الإسلامية على الجملة وفي المغرب بالخصوص في سائر الأعصار والأمصار وجاء تأليفاً عجيباً في بابه ودستوراً جامعاً في فنه، جزاه الله عن نصرة الإسلام والدين خيراً، وأما ما كتبه في هذه التتمة فإنما هو قل من جل ونقطة من بحر لا سيما فيما يرجع لحدوث الطوائف وأرباب الزوايا بالمغرب فقد تكفل باستقصاء ذلك وتفصيله.

الفلانية، لا يحولون عن ذلك ولا يزولون خلفاً عن سلف، وينادون باسمه ويستغيثون به ويفزعون في مهماتهم إليه، معتقدين أن التقرب إليه نافع والانحراف عنه قيد شبر ضار، مع أن النافع والضار هو الله وحده، وإذا ذكر لهم شيخ آخر أو دعوا إليه حاصوا حيصة حمر الوحش من غير تبصر في أحواله هل يستحق ذلك التعظيم أم لا، فصار الأمر عصيباً وصارت الأمة بذلك طرائق قدداً، ففي كل بلد أو قرية عدة طوائف وهذا لم يكن معروفاً في سلف الأمة الذين هم القدوة لمن بعدهم، وغرض الشارع إنما هو في الاجتماع وتمام الألفة واتحاد الوجهة، وقد قال تعالى لأهل الكتاب: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64] الآية وقد ذم قوماً فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وإنما الشأن في أهل الخصوصية والدين أن يكونوا عند العاقل المحتاط لدينه كأسنان المشط بحيث يحبهم لله وفي الله ويستشفع بهم إلى الله، ويسأله تعالى أن يكرمه بما أكرمهم به من الخير والهدى والدين، وليحبهم حب التشرع لا حب التشيع، وليتأدب معهم ولا يقدم على مفاضلتهم بالهوى والرجم بالغيب فإن ذلك متوقف على الاطلاع على منزلتهم عند الله، وذلك محجوب عنا، وإذا نزلت به حاجة فليفزع في قضائها إلى مولاه الذي خلقه ورزقه، مستشفعاً إليه بنبيه الذي هداه للإيمان على يده، ثم بخواص الأمة الذين هم آباؤنا في الدين، فإن المطلوب من العبد أن يصرف وجهته وقصده في جميع أموره، ويتعلق فيها بالله بحيث لا يطلبها إلا منه، ولا يتكل فيها إلا عليه قاطعاً للنظر عن كل ما سواه اللهم إلا على سبيل التوسل والاستشفاع كما قلنا، هذا هو التوحيد الذي بعث الله به محمداً ﷺ، وإليه دعا، وعليه قاتل، وسواه شرك ومنابذاً لما جاء به: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [آل عمران: 62] الآية.

ثم استرسل هؤلاء الطغام في ضلالهم حتى صارت كل طائفة تجتمع في أوقات معلومة من مكان مخصوص ـ أو غيره ـ على بدعتهم التي يسمونها الحضرة! فما شئت من طست وطار! وطبل ومزمار وغناء ورقص وخبط

وفحص! وربما أضافوا إلى ذلك ناراً أو غيرها يستعملونه على سبيل الكرامة بزعمهم! ويستغرقون في ذلك الزمن الطويل حتى يمضي الوقت والوقتان من أوقات الصلوات! وداعي الفلاح ينادي على رؤوسهم - وهم في حيرتهم يعمهون - لا يرفعون به رأساً! ولا يرون بما هم فيه من الضلال بأساً! بل يعتقدون أن ما هم فيه من أفضل القرب إلى الله! تعالى الله عن جهالتهم علواً كبيراً.

ولا تجد في هذه المجامع الشيطانية غالباً إلا من بلغ الغاية في الجفاء والجهل، ممن لا يحسن الفاتحة فضلاً عن غيرها، مع ترك الصلاة طول عمره أو من في معناه من معتوه ناقص العقل والدين، فما أحوج هؤلاء الفسقة إلى محتسب يغير عليهم ما هم فيه من المنكر العظيم واللبس المقيم، وأعظم من هذا كله أنهم يفعلون تلك الحضرة غالباً في المساجد، فإنهم يتخذون الزاوية باسم الشيخ ويجعلونها مسجداً للصلاة بالمحراب والمنار وغير ذلك، ثم يعمرونها بهذه البدعة الشنيعة، فكم رأينا من عود ورباب ومزمار على أفحش الهيأت في محاريب الصلوات!.

ومن بدعهم الشنيعة محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها وتحديد الحرم على مسافة معلومة بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم آمناً وسوق الذبائح إليها على هيئة الهدي! واتخاذ الموسم كل عام! وهذا وأمثاله لم يشرع إلا في حق الكعبة، ثم يقع في ذلك الموسم - ولا سيما مواسم البادية - من المناكر والمفاسد العظام واختلاط الرجال بالنساء باديات متبرجات - شأن أهل الإباحة وشأن قوم نوح في جاهليتهم - ما تصم عنه الآذان ولا منكر ولا مغير ولا ممتعض للدين! لا! بل للحسب! فأما الدين عند هؤلاء فلا دين! فإنا لله وإنا إليه راجعون على ضيعة الدين وغفلة أهله عنه، وبالله ويا للمسلمين لهؤلاء الهمج الرعاع! الذين سلبوا المروءة والحياء والغيرة والعقل والدين والإنسانية جملة! فليسوا في فطنة الشياطين! ولا في سلامة صدور البهائم! ولا في نخوة السباع فيغضبوا لديهم ومروءتهم!.

ومن جهالاتهم الفظيعة جمعهم بين اسم الله تعالى واسم الولي في مقامات التعظيم ـ كالقسم والاستعطاف وغيرهما ـ فإذا أقسموا قالوا: «وحق الله وحق سيدي فلان»! وإذا عزموا على أحد قالوا: «دخلت عليك بالله وسيدي فلان»! وإذا سألوا قالوا: «من يعطينا على الله وعلى سيدي فلان»! فيعطفون اسم العبد على اسم مولاه بالواو المقتضية للتشريك والتسوية التامة! في مقام قد حظر الشارع أن يتجاوز فيه اسم الله إلى غيره! وهذا هو صريح الشرك.

ومن مناكرهم الجديرة بالتغيير: اجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه! ويسمون ذلك حج المسكين! فانظر إلى هذه الطامة التي اخترعها هؤلاء العامة.

ومن اختراعاتهم: تسميتهم لبدعتهم بالحضرة ـ كما قلنا ـ أخذاً من اسم حضرة الله تعالى في إصلاح الأئمة العارفين من الصوفية! كأهل رسالة القشيري ومن في معناهم فأوهم هؤلاء الشياطين بهذه التسمية أنهم يكونون في حال اشتغالهم بتلك البدعة في حضرة الله تعالى؛ ثم يذهبون فيسمون جنونهم وتخبطهم على تلك الطبول والمزامير بالحال! أخذاً من الحال التي تعتري السالك إلى الله تعالى في حال ترقيه في درجات المعرفة والوصول، وهذا لعمر الله من أقبح الضلالات وأشنع الجهالات. إلى غير هذا مما أغني فيه العيان عن الخبر، وعرفه الخاص والعام في حالتي الورد والصدر.

ولسنا ننكر على أولياء الله وأهل الخصوصية منهم أو على من يسلك سبيلهم على الوجه المقرر في كتب الأئمة المقتدى بهم منهم، وإنما نشرح حال هؤلاء الجهلة الذين لم يأتوا الأمر من بابه، ولا أخذوه عن أربابه، وإنما حالهم ما رأيت وعلمت، وهذه نفثة مصدور، صاحبها عند المنصف معذور، فنسأل الله العظيم، المولى الكريم، أن يحرك همة من له القدرة والتصرف إلى حسم هذه الضلالات وقطعها، عسى أن يرحمنا ربنا ويجبر كسرنا ويكبت

عدونا إذا نحن راجعنا ديننا وسنة نبينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: 11].

وقد آن أن نفرد الكلام على المغرب الأقصى عند ما استولى عليه المولى إدريس بن عبد الله وبنوه من بعده، واقتطعوه عن نظر الخلفاء بالمشرق، وصيروه مملكة مستقلة، إذ كان ذلك من شرط كتابنا هذا، حسبما تقدمت الإشارة إليه، مقدمين لذلك ما يجب تقديمه من الإشارة إلى أمر الخلافة وتنازع أهل الصدر الأول في استحقاقها ومن هو أولى بها، ثم نتخلص منه إلى المقصود بالذات والله الموفق.

الدولة الإدريسية

الخبر عن دولة آل إدريس بالمغرب الأقصى وذكر السبب في أوليتها

اعلم أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين»** وفيه أيضاً أنه ﷺ قال: **«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»**.

قال الحافظ ابن حجر: «لو فقد قرشي فكناني ثم رجل من بني إسماعيل ثم عجمي على ما في التهذيب أو جرهمي على ما في التتمة ثم رجل من بني إسحاق. وأن يكون شجاعاً ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمي البيضة وأن يكون أهلاً للقضاء بأن يكون مسلماً مكلفاً حرّاً عدلاً ذكراً مجتهداً ذا رأي وسمع وبصر ونطق.

وتنعقد الإمامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس المتيسر اجتماعهم، وباستخلاف الإمام من يعينه في حياته ويشترط القبول في حياته ليكون خليفة بعد موته، وباستيلاء متغلب على الإمامة ولو غير أهل لها كصبي وامرأة إن قهر الناس بشوكته وجنده وذلك لينظم أمر المسلمين» اهـ.

ثم نقول قد تقدم لنا أمر الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم بعد النبي ﷺ وأن السلف أطبقوا على أن ترتيبهم في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة، وتقدم لنا أيضاً ما كان من علي ومعاوية رضي الله عنهما وأن ما صدر منهما كان اجتهاداً محضاً وطلباً للحق، وأن الصواب كان مع علي رضي الله عنه والكل مأجور.

ثم لما قتل علي رضي الله عنه بايع أهل العراق ابنه الحسن رضي الله عنه وزحف إليه معاوية في أهل الشام، ورأى الحسن ما في حقن دماء المسلمين وجمع كلمتهم من الثواب عند الله والكرامة لديه، فاختار الأخرى على الدنيا

وقدم الآجل على العاجل، وسلم الأمر إلى معاوية على شروط معروفة، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين كما قال جده ﷺ.

وحاز معاوية الخلافة وصفت له وتوارثها بنو أمية من بعده بعد مقاتلات ومنازعات كانت من بني هاشم وغيرهم لهم يطول جلبها.

وكان السواد الأعظم من المسلمين يرون أن بني هاشم أحق بالأمر من بني أمية لأن بني هاشم هم آل بيت النبي ﷺ وعشيرته الأقربون، وهم أهل العلم والدين والخصوصية الذين اجتباهم الله وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فهم أحق بمنصب رسول الله ﷺ من غيرهم؛ وهذا الرأي صواب، غير أن ذلك ليس بطريق الوجوب عند أهل السنة بل بطريق الأحقية والأولوية إذا توفرت الشروط فيهم وفي غيرهم من سائر بطون قريش، وإلا فمن انفردت به الشروط وجب المصير إليه.

وكان شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوجبون الخلافة لبنيه دون من عداهم ويزعمون أن ذلك كان بوصية من النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه، وهذه الوصية لم تثبت عند أهل السنة من طريق صحيح، ومذاهب هؤلاء الشيعة في كيفية سوق الخلافة في عقب علي رضي الله عنه متعددة لا حاجة لنا بذكرها.

وكان بنو علي رضي الله عنه في الصدر الأول كثيراً ما يثورون في النواحي شرقاً وغرباً طالبين حقهم في الخلافة، منازعين فيها لبني أمية أولاً ثم لبني العباس من بعدهم ثانياً وخبرهم في ذلك معروف، وجلبه يطول إلى أن كان منهم عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ـ وكان من سادة أهل البيت يومئذٍ ـ وكان له عدة أولاد، منهم محمد المعروف بالنفس الزكية وإبراهيم ويحيى وسليمان وإدريس وغيرهم.

ولما صار أمر بني أمية إلى الاختلال أيام مروان الحمار آخر خلفائهم اجتمع أهل البيت بالمدينة وتشاوروا فيمن يقدمونه للخلافة، فوقع اختيارهم

على محمد بن عبد الله النفس الزكية، فبايعوا له بالخلافة وسلموا له الأمر بأجمعهم، وحضر هذا العقد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو المنصور، وذلك قبل أن تنتقل الخلافة إلى بني العباس، فبايع للنفس الزكية فيمن بايع له من أهل البيت وأجمعوا على ذلك لتقدمه فيهم لما علموا له من الفضل عليهم.

قال ابن خلدون: «ولهذا كان مالك وأبو حنيفة رحمهما الله يحتجان له حين خرج بالحجاز، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور لانعقاد هذه البيعة أولاً، وكان أبو حنيفة يقول بفضله ويحتج لحقه، فتأدت إلى الإمامين المحنة بسبب ذلك أيام أبي جعفر المنصور، حتى ضرب مالك رضي الله عنه على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبو حنيفة رضي الله عنه على القضاء».

ولما انقرضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس وصار الأمر إلى أبي جعفر المنصور منهم سعى عنده بآل البيت، وأن محمد بن عبد الله يروم الخروج عليه، وأن دعاته قد ظهروا بخراسان فأمر المنصور عامله على المدينة رباح بن عثمان المري بحبس عبد الله بن حسن ومن إليه من آل الحسن بن علي بن أبي طالب، فحبسه جماعة من بنيه وإخوته وبني عمه، قال ابن خلدون: في خمسة وأربعين من أكابرهم، وقدم المنصور المدينة في حجة حجها فساقهم معه إلى العراق، وحبسهم بقصر ابن هبيرة من ظاهر الكوفة حتى هلكوا في حبسهم، وجد المنصور في طلب محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم لكونهما تغيبا فلم يحبسا في جملة من حبس من عشيرتهم.

ثم لما كانت سنة خمس وأربعين ومائة وأرهق محمد بن عبد الله الطلب، وأعيت عليه المذاهب ظهر بالمدينة المنورة، ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه.

واستفتى أهل المدينة الإمام مالكاً رضي الله عنه في الخروج مع محمد بن عبد الله وقالوا في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال إنما بايعتم

مكرهين، فتسارع الناس إلى محمد وأجابوا دعوته، ولزم الإمام ملك بيته وخطب محمد بن عبد الله على منبر رسول الله ﷺ وذكر المنصور بما نقمه عليه، ووعد الناس واستنصر بهم، وتسمى بالمهدي، ولم يتخلف عن بيعته من وجوه الناس إلا القليل.

وبلغ المنصور خبر محمد بن عبد الله وما كان منه بالمدينة، فأشفق من ذلك غاية الإشفاق، وكتب إلى محمد كتاب أمان ويعده الجميل إن هو راجع الطاعة، فأجابه محمد بعدم قبول ذلك منه، ودارت بينهما مكاتبات ومحاورات في الأفضلية واستحقاق الخلافة، وقد ذكر مكاتبتهما المبرد في كامله، وابن خلدون في تاريخه.

وآخر الأمر أن المنصور بعث لحرب محمد المهدي ابن عمه عيسى بن موسى العباسي. فاستعد المهدي للقتال وأدار على المدينة الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، وقدمت جيوش العباسيين ونزلوا على المدينة.

وخرج إليهم محمد بن عبد الله فيمن بايعه واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأبلى محمد المهدي في ذلك اليوم بلاءً عظيماً. وقتل بيده سبعين رجلاً.

ولما اشتد القتال وعاين مخايل الاختلال انصرف فاغتسل وتحنط وجمع بين الظهر والعصر ومضى فأحرق الديوان الذي كان فيه أسماء من بايعه وجاء إلى السجن فقتل رباح بن عثمان عامل المنصور على المدينة، وقتل معه جماعة كانوا مسجونين عنده ثم عاد إلى المعركة وقد تفرق عنه جل أصحابه ولم يبق معه إلا نحو ثلاثمائة فقال له بعضهم: نحن اليوم في عدة أهل بدر ثم تقدم فقاتل حتى قتل: ضرب فسقط لركبتيه وطعنه حميد بن قحطبة في صدره ثم احتز رأسه وأتى به عيسى بن موسى فبعث به إلى المنصور.

وكان مقتل محمد المهدي رحمه الله في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وقتل معه جماعة من أهل بيته وأصحابه ولحق ابنه علي بن

محمد بالسند إلى أن هلك هناك، واختفى ابنه الآخر عبد الله الأشتر إلى أن هلك أيضاً في خبر طويل.

ثم خرج إبراهيم بن عبد الله أخو المهدي المذكور بالبصرة عقب ذلك فبعث إليه المنصور عيسى بن موسى المذكور آنفاً فقاتله آخر ذي القعدة من السنة فانهزم إبراهيم وقتل رحمه الله بعد أن بايعه أكثر من مائة ألف.

ثم لما كانت سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، خرج بالمدينة الحسين بالتصغير بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان معه جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحيى وسليمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى ـ وهم إخوة محمد النفس الزكية ـ فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة ـ وهو عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ قتال، فانهزم عمر المذكور، وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد ـ وكانوا يكنون بذلك عن الإمام المستور إلى أن يقدر على إظهار أمره ـ وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أياماً ثم خرجوا إلى مكة يوم السبت لست بقين من ذي القعدة فانتهى الحسين إلى مكة، وانضم إليه جماعة من عبيدها.

وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بني العباس وشيعتهم، فمنهم سليمان بن أبي جعفر المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وانضم إليهم من حج من قوادهم ومواليهم واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية ـ الثامن من ذي الحجة ـ فانهزم الحسين وأصحابه وقتل فاحتزوا رأسه وأحضروه أمام بني العباس وهو مضروب على قفاه وجبهته، ثم جمعت رؤوس أصحابه فكانت مائة ونيفاً وكان فيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى في قول واختلط المنهزمون بالحاج فذهبوا في كل وجه.

وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة كما قلنا. وفي ذلك يقول بعض شعراء ذلك العصر:

فلأبكين على الحسيـ ـن بعولة، وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي واروه ليس له كفن
تركوا بفخ غدوة في غير منزلة الوطن

في أبيات.. والحسن الذي ذكره في هذه الأبيات هو الحسن بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وكان أسر في ذلك اليوم فضربت عنقه صبراً، وابن عاتكة الذي ذكره هو عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. ثم حمل رأس الحسين ومعه باقي الرؤوس إلى الهادي فأنكر عليهم حمل رأس الحسين ولم يعطهم جوائزهم غضباً عليهم.

دخول إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأقصى

قد تقدم لنا أن يحيى وإدريس ابني عبد الله حضرا وقعة فخ مع الحسين بن علي المذكور آنفاً. فأما يحيى فإنه فر من الوقعة المذكورة إلى بلاد الديلم في جهة الشرق ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه واشتدت شوكته. ثم إن الرشيد جهز إليه الفضل بن يحيى البرمكي في جيش كثيف فكاتبه الفضل وبذل له الأمان وما يختاره، فأجابه يحيى بن عبد الله إلى ذلك وطلب يمين الرشيد وأن يكون بخطه ويشهد فيه الأكابر. ففعل ذلك، وحضر يحيى بن عبد الله إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالاً كثيراً ثم حبسه حتى مات في السجن.

وأما إدريس فإنه فر من الوقعة المذكورة ولحق بمصر، وعلى بريدها يومئذٍ واضح مولى صالح بن المنصور ـ ويعرف بالمسكين ـ وكان واضح يتشيع لآل البيت، فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان مستخفياً

به، ولم ير شيئاً أخلص له من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد. فنزل بمدينة وليلى سنة ثنتين وسبعين ومائة، وبها يومئذٍ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من البربر البرانس فأجاره وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع في ذلك وانتهى الخبر إلى الرشيد بما فعله واضح في شأن إدريس فقتله وصلبه.

وقال ابن أبي زرع في كتاب القرطاس: إن إدريس بن عبد الله لما قتلت عشيرته بفخ فر بنفسه متستراً في البلاد يريد المغرب فسار من مكة حتى وصل إلى مصر ومعه مولى له اسمه راشد، فدخلها والعامل عليها يومئذٍ لبني العباس هو علي بن سليمان الهاشمي فبينما إدريس وراشد يمشيان في شوارع مصر إذ مرا بدار حسنة البناء فوقفا يتأملانها، وإذا بصاحب الدار قد خرج فسلم عليهما وقال: «ما الذي تنظرانه من هذه الدار» فقال راشد: «أعجبنا حسن بنائها» قال: «وأظنكما غريبين ليسا من هذه البلاد» فقال راشد: «جعلت فداك إن الأمر كما ذكرت» قال: «فمن أي الأقاليم أنتما» قالا: «من الحجاز» قال: «فمن أي بلاده» قالا: «من مكة» قال: «وأخالكما من شيعة الحسنيين الفارين من وقعة فخ» فهما بالإنكار ثم توسما فيه الخير فقال راشد: «يا سيدي أرى لك صورة حسنة وقد توسمت فيك الخير أرأيت إن أخبرناك من نحن أكنت تستر علينا؟» قال: «نعم ورب الكعبة وأبذل الجهد في صلاح حالكما» فقال راشد: «هذا إدريس بن عبد الله بن حسن وأنا مولاه راشد، فررت به خوفاً عليه من القتل ونحن قاصدون بلاد المغرب» فقال الرجل: «لتطمئن نفوسكما فإني من شيعة آل البيت وأول من كتم سرهم فأنتما من الآمنين» ثم أدخلهما منزله وبالغ في الإحسان إليهما فاتصل خبرهما بعلي بن سليمان صاحب مصر، فبعث إلى الرجل الذي هما عنده، فقال له: «إنه قد رفع إليّ خبر الرجلين الذين عندك، وإن أمير المؤمنين قد كتب إليّ في طلب الحسنيين والبحث عنهم، وقد بث عيونه على الطرقات وجعل الرصاد

على أطراف البلاد فلا يمر بهم أحد حتى يعرف نسبه وحاله، وإني أكره أن أتعرض لدماء آل البيت فلك ولهم الأمان فاذهب إليهما وأعلمهما بمقالي، وامرهما بالخروج من عملي، وقد أجلتهما ثلاثاً» فسار الرجل فاشترى راحلتين لإدريس ومولاه واشترى لنفسه أخرى ووضع زاداً يبلغهما إلى إفريقية وقال لراشد: «اخرج أنت مع الرفقة على الجادة وأخرج أنا وإدريس على طريق غامض لاتسلكه الرفاق، وموعدنا مدينة برقة» فخرج راشد مع الرفقة في زي التجار، وخرج إدريس مع المصري فسلكا البرية حتى وصلا إلى برقة وأقاما بها حتى لحق بهما راشد، ثم جدد المصري لهما زاداً وودعهما وانصرف.

وسار إدريس وراشد يجدان السير حتى وصلا إلى القيروان فأقاما بها مدة، ثم خرجا إلى المغرب الأقصى.

وكان راشد من أهل النجدة والحزم والدين والنصيحة لآل البيت، فعمد إلى إدريس حين خرجا من القيروان فألبسه مدرعة صوف خشينة وعمامة كذلك، وصيره كالخادم له يأمره وينهاه، كل ذلك خوفاً عليه وحياطة له، ثم وصلا إلى مدينة تلمسان فأراحا بها أياماً ثم ارتحلا نحو بلاد طنجة فسارا حتى عبرا وادي ملوية ودخلا بلاد السوس الأدنى وتقدما إلى مدينة طنجة ـ وهي يومئذٍ قاعدة بلاد المغرب الأقصى وأم مدنه ـ فأقاما بها أياماً، فلما لم يجد إدريس بها مراده خرج مع مولاه راشد حتى انتهيا إلى مدينة وليلى قاعدة جبل زرهون.

وكانت مدينة متوسطة حصينة كثيرة المياه والغروس والزيتون، وكان لها سور عظيم من بنيان الأوائل يقال إنها المسماة اليوم بقصر فرعون، فنزل بها إدريس على صاحبها ابن عبد الحميد الأوربي فأقبل عليه ابن عبد الحميد وبالغ في إكرامه وبره، فعرفه إدريس بنفسه وأفضى إليه بسره فوافقه على مراده وأنزله معه في داره وتولى خدمته والقيام بشؤونه.

وكان دخول إدريس المغرب ونزوله على ابن عبد الحميد بمدينة وليلى

غرة ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة.

بيعة الإمام إدريس بن عبد الله رضي الله عنه

لما استقر إدريس بن عبد الله بمدينة وليلى عند كبيرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي أقام عنده ستة أشهر فلما دخل شهر رمضان من السنة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة وعرفهم بنسب إدريس وقرابته من رسول الله ﷺ وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه، فقالوا الحمد لله الذي أكرمنا به وشرفنا بجواره وهو سيدنا ونحن العبيد، فما تريد منا؟ قال: «تبايعونه» قالوا: «ما منا من يتوقف عن بيعته» فبايعوه بمدينة وليلى يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة.

وكان أول من بايعه قبيلة أوربة على السمع والطاعة والقيام بأمره، والاقتداء به في صلواتهم وغزواتهم وسائر أحكامهم.

وكانت أوربة يومئذٍ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عدداً، وتلتها في نصرة إدريس والقيام بأمره مغيلة وصدينة، وهما معاً من ولد تامزيت بن ضرى.

ولما بويع إدريس رحمه الله خطب الناس فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه ﷺ: «أيها الناس لا تمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا».

ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة والبربر مثل زواغة وزواوة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب الأقصى. فبايعوه أيضاً، ودخلوا في طاعته فاستتب أمره وتمكن سلطانه وقويت شوكته.

ولحق به من إخوته سليمان بن عبد الله ونزل بأرض زناتة من تلمسان ونواحيها، كذا عند ابن خلدون في أخبار الأدارسة، والذي عنده في أخبار بني العباس وكذا عند أبي الفداء أن سليمان بن عبد الله بن حسن قتل بوقعة فخ وجمع رأسه مع رؤوس القتلى فالله أعلم.

غزو إدريس بن عبد الله بلاد المغرب الأقصى وفتحه إياها

ثم إن إدريس بن عبد الله رضي الله عنه اتخذ جيشاً كثيفاً من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم، وخرج غازياً بلاد تامسنا، ثم زحف إلى بلاد تادلا ففتح معاقلها وحصونها، وكان أكثر أهل هذه البلاد لا زالوا على دين اليهودية والنصرانية وإنما الإسلام بها قليل، فأسلم جميعهم على يده.

وقفل إلى مدينة وليلى مؤيداً منصوراً فدخلها أواخر ذي الحجة سنة اثنين وسبعين ومائة، فأقام بها شهر محرم فاتح سنة ثلاث وسبعين ريثما استراح الناس، ثم خرج برسم غزو من كان بقي من قبائل البربر بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية وكان قد بقي منهم بقية متحصنون في المعاقل والجبال والحصون المنيعة، فلم يزل إدريس رحمه الله يجاهدهم في حصونهم ويستنزلهم من معاقلهم حتى دخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً ومن أبى الإسلام منهم أباده قتلاً وسبياً.

وكانت البلاد التي غزاها في هذه المرة حصون فندلاوة وحصون مديونة وبهلولة وقلاع غياثة وبلاد فازاز ثم عاد إلى مدينة وليلى فدخلها في النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

غزو إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأوسـط وفتـح مدينـة تلمســـان

لما قفل إدريس رضي الله عنه من غزو بلاد المغرب الأقصى سنة ثلاث وسبعين ومائة أقام بوليلى بقية جمادى الآخرة ونصف رجب التالي لها ريثما استراح جيشه ثم خرج منتصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن فانتهى إليها ونزل خارجها فخرج إليه صاحبها محمد بن خزر من ولد صولات المغراوي مستأمناً ومبايعاً له فأمنه إدريس وقبل بيعته.

ودخل مدينة تلمسان فأمن أهلها ثم أمن سائر زناتة وبنى مسجد تلمسان وأتقنه وأمر بعمل منبر نصبه فيه وكتب عليه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة»، قال ابن خلدون: (واسم إدريس مخطوط في صفحة المنبر لهذا العهد) اهـ ثم رجع إدريس رحمه الله إلى مدينة وليلى فدخلها مؤيداً منصوراً.

وفاة إدريس بن عبد الله والسبب في ذلك

لما حصل لإدريس رحمه الله ما حصل من التمكن والظهور اتصل خبر ذلك بالخليفة ببغداد وهو هارون الرشيد العباسي، وبلغه أن إدريس قد استقام له أمر المغرب وأنه قد استفحل أمره وكثرت جنوده وقد فتح مدينة تلمسان وبنى مسجدها وأنه عازم على غزو إفريقية فخاف الرشيد عاقبة ذلك وأنه إن لم يتدارك أمره الآن ربما عجز عنه في المستقبل مع ما يعلم من فضل إدريس خصوصاً ومحبة الناس في آل البيت عموماً. فقلق الرشيد من ذلك واستشار وزيره يحيى بن خالد البرمكي وقال: «إن الرجل قد فتح تلمسان وهي باب

إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد هممت أن أبعث إليه جيشاً ثم فكرت في بعد الشقة وعظم المشقة فرجعت عن ذلك» فقال يحيى: «الرأي يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه برجل داهية يحتال عليه ويغتاله وتستريح منه» فأعجب الرشيد ذلك؛ فوقع اختيارهما على رجل من موالي المهدي والد الرشيد ـ واسم الرجل سليمان بن جرير ـ ويعرف بالشماخ ـ فأحضره يحيى وأعلمه بما يريد منه، ووعده على قتل إدريس الرفعة والمنزلة العالية عند الرشيد، وزوده مالاً وطرفاً يستعين بها على أمره وأصحبه الرشيد كتاباً منه إلى واليه على إفريقية إبراهيم بن الأغلب. كذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وفيه أن ابن الأغلب لم يكن والياً على إفريقية في هذا التاريخ وإنما وليها سنة أربع وثمانين ومائة حسبما سبق فوصل الشماخ إلى والي إفريقية بكتاب الرشيد فأجازه إلى المغرب.

وقدم الشماخ على إدريس بن عبد الله مظهراً النزوع إليه فيمن نزع إليه من وحدان العرب متبرئاً من الدعوة العباسية منتحلاً للدعوة الطالبية فاختصه إدريس رحمه الله وحلا بعينيه وعظمت منزلته لديه.

وكان الشماخ ممتلئاً من الأدب والظرف والبلاغة عارفاً بصناعة الجدل فكان إذا جلس الإمام إدريس إلى رؤساء البربر ووجوه القبائل تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الأمة ويقرر ذلك ويحتج لإمامة إدريس وأنه الإمام الحق دون غيره فكان ذلك يعجب إدريس ويقع منه الموقع فاستولى الشماخ عليه حتى صار من ملازميه ولا يأكل إلا معه.

وكان راشداً كالئاً لإدريس ملازماً له أيضاً، قلما ينفرد عنه لأنه كان يخاف عليه من مثل ما وقع فيه لكثرة أعداء آل البيت يومئذٍ وكان الشماخ يترصد الغرة من راشد ويترقب الفرصة في إدريس إلى أن غلب راشد ذات يوم في بعض حاجاته فدخل الشماخ على إدريس فجلس بين يديه على العادة وتحدثا ملياً.

ولما لم ير الشماخ راشداً بالحضرة انتهز الفرصة في إدريس فقيل إنه

كانت مع الشماخ قارورة من طيب مسموم فأخرجها وقال لإدريس: «هذا طيب كنت استصحبته معي وهو من جيد الطيب فرأيت أن الإمام أولى به مني وذلك من بعض ما يجب له عليّ» ثم وضع القارورة بين يديه. فشكره إدريس وتناول القارورة ففتحها واشتم ما فيها، فصعد السم إلى خياشيمه وانتهى إلى دماغه فغشي عليه، وقام الشماخ للحين كأنه يريد حاجة الإنسان. فخرج وأتى منزله فركب فرساً له عتيقاً كان قد أعده لذلك، وذهب لوجهه يريد المشرق وافتقد الناس الإمام إدريس فإذا هو مغشي عليه لا يتكلم ولا يعلم أحد ما به وقيل إن الشماخ سمه في سنون ـ والسنون بوزن صبور ما يستاك به ـ وكان إدريس يشتكي وجع الأسنان واللثة وقيل سمه في الحوت الشابل وقيل في عنب أهداه إليه في غير إبانه والله أعلم.

ولما اتصل خبر إدريس.بمولاه راشد أقبل مسرعاً فدخل عليه وهو يحرك شفتيه لا يبين كلاماً قد أشرف على الموت فجلس عند رأسه متحيراً لا يدري ما دهاه واستمر إدريس على حالته تلك إلى عشي النهار فتوفي في مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة وتفقد راشد الشماخ فلم يره فعلم أنه الذي اغتال إدريس.

ثم جاء الخبر بأن الشماخ قد لقي على أميال من البلد فركب راشد في جمع من البربر واتبعوه وتقطعت الخيل في النواحي وطلبوه ليلتهم إلى الصباح فلحقه راشد بوادي ملوية عابراً فشد عليه راشد بالسيف وضربه ضربات قطع في بعضها يمناه وشجه في رأسه شجاجاً ونجا الشماخ بجريعاء الذقن وأعيى فرس راشد عن اللحاق به فرجع عنه ويقال إن الشماخ رئي بعد ذلك ببغداد وهو مقطوع اليد.

ولما رجع راشد إلى منزله أخذ في تجهيز الإمام رضي الله عنه وصلى عليه ودفنه بصحن رابطة عند باب وليلى ليتبرك الناس بتربته رحمه الله ورضي عنه.

أمر البربر بعد وفاة إدريس بن عبد الله رحمه الله

قالوا إن الإمام إدريس لما توفي لم يترك ولداً إلا حملاً من أمة له بربرية اسمها كنزة، فلما فرغ راشد من جهازه ودفنه جمع رؤساء البربر ووجوه الناس فقال لهم: إن إدريس لم يترك ولداً إلا حملاً من أمته كنزة وهي الآن في الشهر السابع من حملها، فإن رأيتم أن تصبروا حتى تضع هذه الجارية حملها فإن كان ذكراً أحسنا تربيته حتى إذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تمسكاً بدعوة آل البيت وتبركاً بذرية رسول الله ﷺ، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم فقالوا له: أيها الشيخ المبارك ما لنا رأي إلا ما رأيت، فإنك عندنا عوض من إدريس تقوم بأمورنا كما كان إدريس يقوم بها وتصلي بنا وتقضي بيننا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونصبر حتى تضع الجارية حملها ويكون ما أشرت به، على أنها إن وضعت جارية كنت أحق الناس بهذا الأمر لفضلك ودينك وعلمك فشكرهم راشد على ذلك ودعا لهم وانصرفوا فقام راشد بأمر البربر تلك المدة.

ولما تمت للجارية أشهر حملها وضعت غلاماً أشبه الناس بأبيه إدريس فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر حتى نظروا إليه فقالوا: هذا إدريس بعينيه كأنه لم يمت فسماه راشد إدريس ونشأ الصبي نشأة حسنة إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن دولة إدريس بن إدريس رحمه الله

كانت ولادة إدريس بن إدريس بن عبد الله يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة فكفله راشد مولى أبيه، وقام بأمره أحسن قيام فأقرأه القرآن حتى حفظه وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه في الدين والعربية ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها، وأطلعه على سير الملوك وعرفه أيام الناس، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك من مكايد الحرب، فلم يمض له من العمر مقدار إحدى عشرة سنة إلا وقد اضطلع بما حمل وترشح للأمر، واستحق لأن يبايع، فبايعه البربر وآتوه صفقتهم عن طاعة منهم وإخلاص.

قال ابن خلدون: بايع البربر إدريس الأصغر حملاً ثم رضيعاً ثم فصيلاً إلى أن شب فبايعوه بجامع مدينة وليلى سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وكان إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية قد دس إلى بعض البربر الأموال واستمالهم حتى قتلوا راشداً مولاه سنة ست وثمانين ومائة، وحملوا إليه رأسه وقام بكفالة إدريس من بعده أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي، ولم يزل على ذلك إلى أن بايعوا لإدريس فقاموا بأمره وجددوا لأنفسهم رسوم الملك بتجديد طاعته، وفي القرطاس أن مقتل راشد كان في السنة التي بويع فيها إدريس بن إدريس، قال: «وكانت بيعة إدريس يوم الجمعة غرة ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائة بعد مقتل راشد بعشرين يوماً وإدريس يومئذٍ ابن إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر، قاله عبد الملك الوراق في تاريخه، وفيه بعض مخالفة لتاريخ الولادة المتقدم.

وفي قتل راشد يقول إبراهيم بن الأغلب في بعض ما كتب به إلى الرشيد يعرفه بنصحه وكمال خدمته.

ألم ترني بالكيد أرديت راشداً   وإني بأخرى لابن إدريس راصد

تناوله عزمي ـ على بعد داره ـ بمحتومة، يحظى بها من يكايد
فـفـاه أخـو عـك بـمـقـتـل راشـد وقد كنت فيه شاهداً وهو راقد

يريد بأخي عك محمد بن مقاتل العكي والي إفريقية فإنه لما حاول ابن الأغلب قتل راشد وتم له ذلك كتب العكي إلى الرشيد يعلمه أنه هو الذي فعل ذلك فكتب صاحب البريد إلى الرشيد بحقيقة الأمر، وأن ابن الأغلب هو الفاعل لذلك والمتولي له فثبت عند الرشيد كذب العكي وصدق ابن الأغلب فعزل الرشيد العكي عن إفريقيا وولى ابن الأغلب عليها وإنما كان قبل ذلك عاملاً للعكي على بعض كورها هكذا حكى صاحب القرطاس هذا الخبر وفيه أن عزل العكي عن إفريقية وتولية ابن الأغلب عليها كان في سنة أربع وثمانين قبل وفاة راشد بسنتين أو بأربع سنين على الخلاف المتقدم.

وقال البكري والبرنسي: إن راشداً لم يمت حتى أخذ البيعة لإدريس بالمغرب وإن إدريس لما تم له من العمر إحدى عشرة سنة ظهر من وفور عقله ونباهته وفصاحته ما أذهل عقول الخاصة والعامة فأخذ له راشد البيعة على البربر يوم الجمعة سابع ربيع الأول من السنة المذكورة فصعد إدريس المنبر وخطب الناس فقال: «الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأتوكل عليه وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، أيها الناس إنا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلى المسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا»، ثم دعا الناس إلى بيعته، وحضهم على التمسك بطاعته، فعجب الناس من فصاحته وقوة جأشه على صغر سنه، ثم نزل فتسارع الناس إلى بيعته وازدحموا عليه يقبلون يده فبايعه كافة قبائل المغرب من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر فتمت له البيعة وبعد بيعته بقليل توفي مولاه راشد والله أعلم.

وفود العرب على إدريس بن إدريس رحمه الله

لما استقام أمر المغرب لإدريس بن إدريس وتوطد ملكه وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه، وفدت عليه الوفود من البلدان، وقصد الناس حضرته من كل صقع ومكان، فاستمر بقية سنة ثمان وثمانين يصل الوفود ويبذل الأموال، ويستميل الرؤساء والأقيال.

ولما دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وفدت عليه وفود العرب من إفريقية والأندلس نازعين إليه وملتفين عليه، فاجتمع لديه منهم نحو خمسمائة فارس من قيس والأزد ومذحج ويحصب والصدف وغيرهم، فسر إدريس بوفادتهم وأجزل صلتهم وأدنى منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر، فاعتز بهم وأنس بقربهم، فإنه كان غريباً بين البربر فاستوزر منهم[1] عمير بن مصعب الأزدي المعروف بالملجوم، من ضربة ضربها في بعض حربهم وسمته على الخرطوم.

وكان عمير من فرسان العرب وسادتها ولأبيه مصعب مآثر بإفريقية والأندلس، ومواقف في غزو الفرنج. واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيشي، وكان من أهل الورع والفقه والدين، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري وروى عنهما كثيراً وكان قد خرج إلى الأندلس برسم الجهاد، ثم أجاز إلى العدوة فوفد بها على إدريس فيمن وفد عليه من العرب فاستقضاه، واستكتب منهم أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي.

ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر حتى كثر الناس لديه، وضاقت بهم مدينة وليلى.

---

(1) هو أول تنظيم عرف للمخزن (الحكومة المغربية) والمخزنية في التاريخ بالمغرب الأقصى.

وانتهى إلى ابن الأغلب ما عليه إدريس من الاستفحال، فأرهف عزمه للتضريب بين البربر واستفسادهم على إدريس، فكان منهم بهلول بن عبد الواحد المضغري من خاصة إدريس ومن أركان دولته، فكاتبه ابن الأغلب واستهواه بالمال حتى بايع الرشيد وانحرف عن إدريس، واعتزله في قومه فصالحه إدريس وكتب إليه يستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه، وكان فيما كتب به إدريس إلى بهلول المذكور قوله:

أبهلول قد حملت نفسك خطة ... تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك إبراهيم مع بعد داره ... فأصبحت منقاداً، بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب ... وقدماً رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خالياً ... ومناك إبراهيم شوك قتاد

ثم أحس إدريس من إسحاق بن محمد الأوربي بانحراف عنه، وموالاة لابن الأغلب فقتله سنة ثنتين وتسعين ومائة وصفا له المغرب، وتمكن سلطانه به. والله غالب على أمره.

بناء مدينة فاس

لما كثرت الوفود من العرب وغيرهم على إدريس رحمه الله وضاقت بهم مدينة وليلى أراد أن يبني لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته ووجوه دولته فركب يوماً في جماعة من حاشيته وخرج يتخير البقاع فوصل إلى جبل زالغ فأعجبه ارتفاعه وطيب هوائه وتربته، فاختط بسنده مدينة مما يلي الجوف وشرع في بنائها فبنى بعضاً من الدور ونحو الثلث من السور فأتى السيل من أعلى الجبل في بعض الليالي فهدم السور والدور، وحمل ما حول ذلك من الخيام والزروع وألقاها في نهر سبو فكف إدريس عن البناء، واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة؛ ثم خرج ثانية يتصيد ويرتاد لنفسه موضعاً يبني فيه ما قد عزم عليه، فانتهى إلى نهر سبو حيث هي اليوم حمة خولان فأعجبه الموضع

لقربه من الماء ولأجل الحمة التي هناك (والحمة كما في القاموس كل عين فيها ماء حار ينبع منها ويستشفى به) فعزم إدريس على أن يبني هناك مدينة وشرع في حفر الأساس وعمل الجيار وقطع الخشب وابتدأ بالبناء ثم فكر في نهر سبو وما يأتي به من الممدود والسيول زمان الشتاء وما يحصل بذلك من الضرر العظيم للناس فكف عن البناء ورجع إلى وليلى.

ثم بعث وزيره عمير بن مصعب الأزدي يرتاد له موضعاً يبني فيه المدينة التي عزم عليها، فسار عمير في جماعة يقص الجهات ويتخير البقاع والترب والمياه؛ حتى انتهى إلى فحص سايس، فأعجبه المحل فنزل هناك على عين ماء تطرد في مرج أخضر، فتوضأ وصلى الظهر هو وجماعة القوم الذين معه، ثم دعا الله تعالى أن ييسر عليه مطلبه، ثم ركب وحده وأمر الجماعة أن ينتظروه حتى يعود إليهم، فنسبت العين إليه من يومئذٍ ودعيت عين عمير إلى الآن ـ وعمير هذا هو جد بني الملجوم من بيوتات فاس وكبرائهم ـ فأوغل عمير في فحص سايس حتى انتهى إلى العيون التي ينبع منها وادي فاس، فرأى بها من عناصر الماء ما ينيف على الستين عنصراً، ورأى مياهها تطرد في فسيح من الأرض وحول العيون شعراء من شجر الطرفاء والطخش والعرعار والكلخ وغير ذلك، فشرب من الماء فاستطابه، ونظر إلى ما حوله من المزارع التي ليست على نهر سبو فأعجبته؛ فانحدر مع مسيل الوادي حتى انتهى إلى موضع مدينة فاس اليوم، فنظر فإذا ما بين الجبلين غيضة ملتفة الأشجار، مطردة العيون والأنهار، وفي جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببني الخير، وقوم من زناتة يعرفون ببني يرغش وكان بنو يرغش على دين المجوسية، وكان بيت نارهم بالموضع المعروف بشيبوبة، وكان البعض منهم على دين اليهودية، والبعض على دين النصرانية.

وكان بنو الخير ينزلون بعدوة القرويين وبنو يرغش ينزلون بعدوة الأندلس، وكانوا قلما يفترون عن القتال لاختلاف أهوائهم وتباين أديانهم.

فرجع عمير إلى إدريس وأعلمه بما رأى من الغيضة وساكنيها وما وقع عليه اختياره فيها فجاء إدريس لينظر إلى البقعة فألفى بني الخير وبني يرغش يقتتلون؛ فأصلح بينهم وأسلموا على يده.

واشترى منهم الغيضة بستة آلاف درهم فرضوا بذلك ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم بذلك على يد كاتبه أبي الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي.

ثم ضرب أبنيته بكرواوة وشرع في بناء المدينة فاختط عدوة الأندلس غرة ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة.

وفي سنة ثلاث بعدها اختط عدوة القرويين وبنى مساكنه بها وانتقل إليها. وقد كان أولاً أدار السور على عدوة الأندلس وبنى بها الجامع المعروف بجامع الأشياخ وأقام فيه الخطبة ثم انتقل ثانياً إلى عدوة القرويين كما قلنا ونزل بالموضع المعروف بالمقرمدة وضرب فيه قيطونه وأخذ في بناء جامع الشرفاء وأقام فيه الخطبة أيضاً ثم شرع في بناء داره المعروفة الآن بدار القيطون التي يسكنها الشرفاء الجوطيون من ولده، ثم بنى القيسارية إلى جانب المسجد الجامع، وأدار الأسواق حوله وأمر الناس بالبناء، وقال لهم: «من بنى موضعاً أو اغترسه قبل تمام السور فهو له». فبنى الناس من ذلك شيئاً كثيراً واغترسوا، ووفد عليه جماعة من الفرس من أرض العراق فأنزلهم بغيضة هناك كانت على العين المعروفة بعين علون.

وكان علون عبداً أسود يأوي إلى تلك الغيضة ويقطع الطريق بها على المارة فتحامى الناس غيضته وتناذروها فأعلم إدريس رحمه الله بشأنه فبعث في طلبه خيلاً قبضوا عليه، وجاؤوا به إليه فأمر بقتله وصلبه على شجرة كانت على العين فأضيفت إليه العين من يومئذٍ وقيل عين علون.

ثم أدار إدريس السور على عدوة القرويين وكانت من لدن باب السلسلة إلى غدير الجوزاء.

قال عبد الملك الوراق: كانت مدينة فاس في القديم بلدين لكل بلد منهما سور يحيط به، وأبواب تختص به، والنهر فاصل بينهما؛ وسميت

إحدى العدوتين عدوة القرويين لنزول العرب الوافدين من القيروان بها، وكانوا ثلاثمائة أهل بيت وسميت الأخرى عدوة الأندلس لنزول العرب الوافدين من الأندلس بها، وكانوا جماً غفيراً يقال أربعة آلاف أهل بيت.

وكان الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس صدرت منه لأول إمارته هنات أوجبت قيام جماعة من أهل الورع عليه وكان فيهم يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وراوي الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فخلعوا الحكم وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربي من قرطبة فقاتلهم الحكم وكثروه وكادوا يأتون عليه، ثم أظفره الله بهم ووضع فيهم السيف ثلاثة أيام وهدم دورهم ومساجدهم وفر الباقون منهم فلحقوا بفاس المغرب الأقصى وبالإسكندرية من أرض مصر، فأما اللاحقون بفاس فأنزلهم إدريس رحمه الله بعدوة الأندلس فأضيفت إليهم، وأما اللاحقون بالإسكندرية فثاروا بها بعد حين فزحف إليهم عبد الله بن طاهر الخزاعي صاحب مصر من قبل المأمون بن الرشيد فقاتلهم ونفاهم إلى جزيرة إقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الفرنج[1] من أيديهم بعد مدة.

وذكر ابن غالب في تاريخه أن الامام إدريس لما فرغ من بناء مدينة فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه في آخر الخطبة فقال: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا. اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الأرزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير».

---

(1) المقصود بالفرنج هنا فرنج القسطنطينية وهم البيزنطيون وكان امتلاكهم لها من يد المسلمين سنة 350هـ موافق 961 مسيحية على يد «نيسيفور فوكاص» إمبراطور القسطنطينية (انظر ابن خلدون صفحة 211 من الجزء الرابع).

فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات بالمدينة وظهرت بها البركات.

ومن محاسن فاس أن نهرها يشقها بنصفين وتتشعب جداوله في دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها وتطحن به أرحاؤها ثم يخرج منها، وقد حمل أقذارها وأزبالها، إلى غير ذلك من عيون الماء التي تنبع بداخلها وتتفجر من بيوتها تجاوز الحصر كثرة وقد مدحها الفقيه الزاهد أبو الفضل ابن النحوي بقوله:

يا فاس منك جميع الحسن مسترق ... وساكنوك ليهنهم بما رزقوا

هذا نسيمك، أم روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي، أم الورق؟

أرض تخللها الأنهار داخلها ... حتى المجالس والأسواق والطرق

وقال الفقيه الكاتب أبو عبد الله المغيلي يتشوق إلى فاس (وكان يلي خطة القضاء بمدينة آزمور):

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل

يا جنة الدنيا التي أربت على ... حمص بمنظرها البهي الأجمل

غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء ألذ من الرحيق السلسل

وبساتن من سندس قد زخرفت ... بجداول كالأيم أو كالمقصل[1]

وبجامع القروين شرف ذكره ... أنس بذكراه يهيج تململ

وبصحنه زمن المصيف محاسن ... فمع العشي الغرب منه استقبل

واجلس إزاء الخصة الحسنا به ... واكرع بها عني ـ فديتك ـ وانهل

---

(1) المقصل السيف الصقيل.

غزو إدريس بن إدريس المغربين واستيلاؤه عليهما

لما فرغ إدريس من بناء مدينة فاس وانتقل إليها بمحلته واستوطنها بحاشيته وأرباب دولته واتخذها دار ملكه، أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة فخرج غازياً بلاد المصامدة فانتهى إليها واستولى عليها، ودخل مدينة نفيس[1] ومدينة أغمات[2] وفتح سائر بلاد المصامدة. وعاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة تسع وتسعين ومائة، فخرج في المحرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط ومن بقي هناك على دين الخارجية من البربر، فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان. فنظر في أحوالها وأصلح سورها وجامعها وصنع فيها منبراً. قال أبو مروان عبد الملك الوراق: «دخلت مدينة تلمسان سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحاً من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك مكتوباً فيه: «هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، في شهر المحرم سنة تسع وتسعين ومائة» اهـ. وقد تقدم لنا ما يخالف هذا والله أعلم.

وأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها يدبر أمرها ويصلح أحوالها ثلاث سنين ثم رجع إلى مدينة فاس.

قال داود[3] بن القاسم الأوربي: شهدت مع إدريس بن إدريس بعض

---

(1) قال البكري: نفيس مدينة حصينة أولية افتتحها عقبة بن نافع وذكر أنها كانت عامرة في زمانه، أما اليوم فلا يعرف لها أثر.

(2) أغمات وصفها البكري بأنها كانت مدينة كبيرة، أما اليوم فهي قرية صغيرة خاملة بها بقية عمارة.

(3) هو داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجعفري يكنى أبا هاشم المتوفى سنة إحدى وستين ومائتين انظر ترجمته في صحيفة 65 من كتاب طلعة المشتري في النسب الجعفري للمؤلف فقد بسطها هناك. =

غزواته مع الخوارج الصفرية من البربر، فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا فلما تقارب الجمعان نزل إدريس فتوضأ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى ثم ركب فرسه وتقدم للقتال، قال: فقاتلناهم قتالاً شديداً، فكان إدريس يضرب في هذا الجانب مرة! ويكر في هذا الجانب الآخر مرة! ولم يزل كذلك حتى ارتفع النهار، ثم رجع إلى رايته فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه، فطفقت أتأمله وأديم النظر إليه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم. فأعجبني ما رأيت من ثباته وقوة جأشه! فالتفت نحوي وقال: «يا داود ما لي أراك تديم النظر إليّ؟» قلت: «أيها الإمام إنه قد أعجبني منك خصال لم أرها اليوم في غيرك». قال: «وما هي؟» قلت: أولاها ما أراه من ثبات قلبك وطلاقة وجهك عند لقاء العدو! قال: «ذاك ببركة جدنا صلى الله عليه وسلم ودعائه لنا وصلاته علينا، ووراثة من أبينا علي بن أبي طالب» قلت: وأراك تبصق بصاقاً مجتمعاً! وأنا أطلب قليل الريق في فمي فلا أجد، قال: «يا داود ذاك لقوة جأشي واجتماع لبي عند الحرب، وعدم ريقك لطيش عقلك وافتراق لبك» قلت: وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلبك في سرجك! وقلة قرارك عليه! قال: «ذاك مني زمع إلى القتال وصرامة فيه، فلا تظنه رعباً». وأنشأ يقول[1]:

ألـيـس أبـونـا هـاشـم شـد أزره	وأوصى بنيه بالطعان، وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا	ولا نشتكي مما يؤول من النصب

= وأما قوله الأوربي هنا فصوابه الجعفري وإنما تصحفت على صاحب تاريخ القرطاس الذي ساق المؤلف نقله هنا.

(1) يعني متمثلاً وأصل البيتين لأبي طالب (انظر كتاب الاكتفاء للكلاعي في خبر نقض صحيفة قريش).

وفاة إدريس بن إدريس رحمه الله

قال ابن خلدون: انتظمت لإدريس بن إدريس كلمة البربر وزناتة ومحى دعوة الخوارج منهم واقتطع المغربين عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف، ودافع إبراهيم بن الأغلب عن حماه بعد ما ضايقه بالمكايد واستفساد الأولياء حتى قتلوا راشد مولاه. وارتاب إدريس بالبربر فصالح ابن الأغلب وسكن من غربه وضرب السكة باسمه.

وعجز الأغالبة بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير الباطلة. وصفا ملك المغرب لإدريس واستمر بدار ملكه من فاس ساكناً وادعاً مقتعداً أريكته، مجتنياً ثمرته إلى أن توفاه الله ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وعمره نحو ست وثلاثين سنة، ودفن بمسجده بإزاء الحائط الشرقي منه. وقال البرنسي إنه توفي بمدينة وليلى[1] ودفن إلى جنب أبيه.

وكان سبب وفاته أنه أكل عنباً فشرق بحبة منه فمات لحينه، وخلف من الولد اثني عشر ذكراً أولهم محمد، وعبد الله، وعيسى، وإدريس وأحمد، وجعفر، ويحيى، والقاسم، وعمر، وعلي، وداود، وحمزة كذا في القرطاس. وزاد ابن حزم، الحسن، والحسين، وولي الأمر منهم بعده محمد وهو أكبرهم.

(1) كذا عند البكري في مسالكه من أنه توفي بوليلى واقتصر على هذا القول، وكذا عند الرشاطي والتنيسي ونقل هذا الخلاف عن البرنسي صاحب الأنيس والجذوة. والله أعلم بالحقيقة.

الخبر عن دولة محمد بن إدريس رحمه الله

لما توفي إدريس بن إدريس رحمه الله. قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه، ولما ولي قسم بلاد المغرب بين إخوته ـ وذلك بإشارة جدته كنزة ـ أم إدريس فاختص القاسم منها بطنجة وسبتة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتطوان وما انضم إلى ذلك من القبائل والبلاد. واختص عمر منها بتيكساس وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة. واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازا وما بين ذلك من قبائل مكناسة وغياثة. واختص يحيى بآصيلا والعرايش والبصرة[1] وبلاد ورغة وما والى ذلك. واختص عيسى بسلا وشالة وآزمور وتامسنا وما انضم إلى ذلك من القبائل. واختص حمزة بمدينة وليلى وأعمالها. واختص أحمد بمدينة مكناسة ومدينة تادلا وما بينهما من بلاد فازاز. واختص عبد الله بأغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى. وأبقى الآخرين في كفالته وكفالة جدتهم كنزة لصغرهم.

وبقيت تلمسان لولد عمه سليمان بن عبد الله، فإن إدريس بن إدريس لما غزا تلمسان وأقام بها ثلاث سنين كما سبق ودوخ بلاد زناتة واستوسقت له طاعتهم. عقد عليها لبني عمه سليمان بن عبد الله. فلما توفي إدريس واقتسم بنوه أعمال المغرب كانت تلمسان في سهم عيسى بن إدريس بن

---

(1) البصرة كانت مدينة كبيرة بالمغرب تأسست مع آصيلا أوائل القرن الثالث الهجري وعمرت وكان لها شأن ثم خربت قبل أواخر القرن الرابع. وموقعها بقبيلة الغرب بنواحي حد كورت في حدود المنطقة الأسبانية ولم يبق لها أثر اليوم. وحد كورت كانت أيضاً مدينة عظيمة في ذلك التاريخ ثم خربت واندثرت. وقد ذكر هذه المدن كلها ياقوت في معجمه، والبكري في مسالكه، وابن حوقل وابن عذارى وغيرهم.

محمد بن سليمان بن عبد الله، واستمرت بأيديهم إلى أن تلاشى أمرهم بدخول العبيدين عليهم قاله ابن خلدون.

وأقام محمد بن إدريس بدار ملكه من فاس مقتعداً على أريكته، وإخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وأمنوا سبلها وحسنت سيرتهم في ذلك إلى أن كان ما نذكره.

حدوث الفتنة بين بني إدريس

ثم خرج على محمد بن إدريس أخوه عيسى بن إدريس بمدينة آزمور ونبذ طاعته وطلب الأمر لنفسه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة يأمره بحرب عيسى فامتنع من ذلك، فكتب محمد إلى أخيه عمر صاحب تيكساس بمثل ما كتب به إلى القاسم فامتثل أمره وزحف إلى عيسى في قبائل البربر وأمده محمد بألف فارس من زناتة فأوقع عمر بعيسى وهزمه وطرده عن عمله، وكتب إلى الأمير محمد بالفتح، فشكره على ذلك وولاه على ما فتحه من عمل عيسى وأمره مع ذلك بالمسير إلى قتال القاسم الذي عصى أمره أولاً، فزحف عمر إلى القاسم ونزل عليه بظاهر طنجة فخرج إليه القاسم ودارت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم واستولى عمر على ما بيده من البلاد، فصار الريف البحري كله في عمل عمر من تيكيساس وبلاد غمارة إلى سبتة ثم إلى طنجة وهذا ساحل البحر الرومي، ثم ينعطف إلى آصيلا والعرايش ثم إلى سلا ثم آزمور وبلاد تامسنا وهذا ساحل البحر المحيط. وتزهد القاسم بعد هذه الحرب فبنى مسجداً بساحل البحر قرب آصيلا بموضع يعرف بتاهدارت على ضفة النهر هناك، وأعرض عن الدنيا وأقام يعبد الله إلى أن مات رحمه الله.

واتسعت ولاية عمر بن إدريس وخلصت طويته لأخيه محمد الأمير إلى أن توفي عمر بموضع يعرف بفج الفرس من بلاد صنهاجة في دولة أخيه محمد

سنة عشرين ومائتين، فحمل إلى فاس وصلى عليه الأمير محمد ودفن مع أبيه (وعمر هذا هو جد الأشراف الحموديين المالكين للأندلس بعد بني أمية).

وعقد الأمير محمد على عمله لولده علي بن عمر إلى أن كان من أمره ما نذكره. وأما عيسى فيقال إنه توفي بآيت عتاب وله بها ذرية والله أعلم.

وفاة محمد بن إدريس رحمه الله

وأقام الأمير محمد بن إدريس بعد وفاة أخيه عمر سبعة أشهر وتوفي بمدينة فاس في ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائتين ودفن بشرقي جامعها مع أبيه وأخيه بعد أن عهد بالأمر لابنه علي بن محمد المعروف بحيدرة على ما سيأتي.

الخبر عن دولة علي بن محمد بن إدريس

لما توفي محمد بن إدريس بايع الناس لابنه علي بن محمد بعهد منه إليه، ويلقب علي هذا بحيدرة على لقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو جد الأشراف العلميين ـ أهل جبل العلم ـ ومنهم المشيشيون أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، والوزانيون أولاد مولانا عبد الله الشريف، وينتهي نسب هؤلاء إلى المولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش.

وكان سن علي حيدرة يوم بويع تسع سنين وأربعة أشهر فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب والبربر، وأحسنوا كفالته وطاعته، وكانت أيامه خير أيام.

وقال ابن أبي زرع: ظهر لعلي هذا من الذكاء والفضل ما يقتضيه شرفه،

وسار بسيرة أبيه وجده في العدل، فكان الناس في أيامه في أمن ودعة، إلى أن توفي في شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين وعهد بالأمر لأخيه يحيى بن محمد على ما سيأتي.

الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن إدريس

قال ابن خلدون: «قام يحيى بن محمد بن إدريس بالأمر وامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية».

وقال ابن أبي زرع: «قصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب».

بناء مسجد القرويين بفاس

قال ابن أبي زرع: كان موضع مسجد القرويين أرضاً بيضاء لرجل من هوارة كان والده قد حازها أيام بناء فاس، ولما قدم وفد القيروان على إدريس الأصغر ـ حسبما تقدم ـ كان فيهم امرأة اسمها فاطمة بنت محمد الفهري ـ وتكنى أم البنين ـ فنزلت في أهل بيتها بالقرب من موضع المسجد المذكور، ثم مات زوجها وإخوتها فورثت منهم مالاً جسيماً وكان من حلال، فأرادت أن تنفقه في وجوه الخير وكانت لها نية صالحة فعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله. فاشترت البقعة من ربها وشرعت في حفر أساس المسجد وبناء جدرانه، وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين فبنته بالطابية والكدان.

وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه أنها التزمت أن تأخذ التراب وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها، فحفرت في أعماقها كهوفاً وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر الكدان وتبني به، وأنبطت بها بئراً يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك وكان ذلك كله تحرياً منها أن لا تدخل في بناء المسجد شبهة فعادت بركة نيتها وورعها على المسجد المذكور حتى كان منه ما ترى.

قالوا ولم تزل فاطمة المذكورة صائمة من يوم شرع في بنائه إلى أن تم وصلت فيه شكراً لله تعالى.

وكانت مساحة المسجد يوم بني أربع بلاطات وصحناً صغيراً، وجعلت محرابه في موضع الثريا الكبرى، وجعلت طوله من الغرب إلى الشرق مائة وخمسين[1] شبراً، وبنت به صومعة غير مرتفعة بموضع القبة التي على رأس العنزة اليوم.

واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت دولة الأدارسة، وجاءت دولة زناتة من بعدها وأداروا السور على العدوتين معاً: القرويين والأندلس وزادوا في مسجديهما زيادة كثيرة، فنقلوا الخطبة من مسجد الشرفاء إلى مسجد القرويين، ومن مسجد الأشياخ إلى مسجد الأندلس، وذلك صدر المائة الرابعة.

ثم لمّا استولى عبد الرحمٰن الناصر صاحب الأندلس على فاس وبلاد العدوة استعمل على فاس عاملاً له اسمه أحمد بن أبي بكر الزناتي ثم اليفرني فاستأذن الناصر في إصلاح مسجد القرويين والزيادة فيه فأذن له، وبعث إليه بمال من خمس الغنائم، فزاد فيه زيادة بينة، وأزال الصومعة القديمة عن موضعها وبنى الصومعة الموجودة الآن، وكتب على بابها في مربعة بالجص واللازورد: (هذا ما أمر به أحمد بن أبي بكر الزناتي هداه

(1) وذلك نحو خمسة وثلاثين متراً.

الله ووفقه، ابتغاء ثواب الله وجزيل إحسانه).

وابتدأ العمل في هذه الصومعة يوم الاثنين غرة رجب سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وفرغ من بنائها في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

وركب في أعلى المنارة سيف الإمام إدريس بن إدريس تبركاً به، وذلك أن بعض حفدة إدريس رحمه الله تنازعوا في السيف المذكور، وأراد كل أن يحوزه لنفسه، فقال لهم الأمير أحمد بن أبي بكر: «هل لكم في أن تبيعوني هذا السيف؟» قالوا: «وما تصنع به؟» قال: «أجعله في أعلى المنارة» فقالوا: «أما إذا أردت هذا فنحن نهبه لك مجاناً» فوهبوه له فركبه في أعلى المنارة.

وكانت مبنية من الحجر المنجور وفيها ثقب يعشش فيها الطير من الحمام والزرزور وغيرهما، ويتأذى المسجد والناس بها، واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سنة ثمان وثمانين وستمائة، أيام السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، فاستأذن القاضي أبو عبد الله بن أبي الصبر السلطان يوسف المذكور في تلبيس المنارة وتبييضها فأذن له فلبسها وبيضها ودلكها حتى صارت كالمرآة الصقيلة.

وقال ابن خلدون: «ثم أوسع في خطة المسجد المذكور المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس، وأعد له السقاية والسلسلة بباب الحفاة، ثم أوسع في خطته علي بن يوسف اللمتوني، ثم ملوك الموحدين وبني مرين، واستمرت العمارة به وانصرفت هممهم إلى تشييده والمنافسة في الاهتبال به، فبلغ الاحتفال فيه ما شاء حسبما هو مذكور في تواريخ المغرب» اهـ.

وفي أيام يحيى بن محمد صاحب الترجمة وذلك في سنة سبع وثلاثين ومائتين، قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعي النبوة، وتأول القرآن على غير وجهه، فاتبعه خلق كثير من الغوغاء.

وكان من بعض شرائعه أنه ينهى عن قص الشعر وتقليم الأظفار ونتف الإبطين والاستحداد وأخذ الزينة، ويقول: «لا تغيير لخلق الله» فأمر أمير

تلمسان بالقبض عليه فهرب وركب البحر من مرسى هنين[1] إلى الأندلس فشاع بها أيضاً خبره وتبعه من سفهاء الناس أمة عظيمة فبعث إليه ملك الأندلس فاستتابه فلم يتب فقتله وصلبه، وهو يقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله».

الخبر عن دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس

لما توفي يحيى بن محمد الذي بنى مسجد القرويين في أيامه ولي الأمر من بعده ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، فأساء السيرة وكثر عيثه في الحرم ودخل على جارية من بنات اليهود في الحمام ـ وكانت بارعة في الجمال ـ فراودها عن نفسها فاستغاثت وبادر الناس إليه بالإنكار وثابت العامة عليه، وتولى كبر ذلك عبد الرحمٰن بن أبي سهل الجذامي وكانت زوجة يحيى المذكور ـ وهي عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف والسواحل ـ أشارت عليه بالاختفاء بعدوة الأندلس ريثما تسكن الفتنة، فتوارى بها فمات من ليلته أسفاً على ما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار.

واستولى عبد الرحمٰن بن أبي سهل على فاس وقام بأمرها، فكتبت عاتكة بنت علي إلى أبيها تعلمه بالخبر، واستدعاه مع ذلك أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجمع حشمه وجيشه وجاء إلى فاس فاستولى عليها.

وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر بن إدريس صاحب الريف، وتارة يكون في عقب القاسم بن إدريس الزاهد على ما نذكره.

---

(1) هنين بضم أوله وفتح ثانيه حصن على مرسى جيد من مراسي البحر المتوسط وقربه بليدة يقال لها تاجورة منها كان عبد المؤمن بن علي ذكره ياقوت والبكري.

الخبر عن دولة علي بن عمر بن إدريس

لما دخل علي بن عمر مدينة فاس واستقر بها بايعه الناس ودخلت الكافة في طاعته وخطب له على جميع منابر المغرب، واستقام له الأمر إلى أن ثار عليه عبد الرزاق الفهري - وكان من الخوارج الصفرية وأصله من وشقة بلد بالأندلس - فقام بجبال مديونة من أعمال فاس على مسيرة يوم ونصف منها، فتبعه خلق كثير من البربر من مديونة وغياثة وغيرهم، فبنى قلعة منيعة ببعض جبال مديونة وسماها وشقة باسم بلده. قال ابن أبي زرع: «وهي باقية بتلك الناحية حتى الآن».

ثم زحف إلى قرية صفرون[1] فدخلها وبايعه كافة البربر الصفرونية ثم زحف بهم إلى فاس فخرج إليه علي بن عمر بن إدريس في عسكر ضخم فكانت بينهم حرب شديدة كان الظفر في آخرها لعبد الرزاق، فانهزم علي بن عمر وقتل خلق كثير من جنده وفر بنفسه إلى بلاد أوربة. فدخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الأندلس وخطب له بها، وامتنع منه أهل عدوة القرويين وبعثوا إلى يحيى بن القاسم الزاهد وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة يحيى بن القاسم بن إدريس

لما فر علي بن عمر عن فاس واستولى عبد الرزاق الصفري على عدوة الأندلس بعث أهل فاس إلى يحيى بن القاسم بن إدريس - ويعرف يحيى هذا بالعدام - فوصل إليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم. ويحيى العدام هذا هو جد الأشراف الجوطيين بفاس فإنهم أولاد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدام، وإنما قيل له الجوطي نسبة إلى جوطة بضم الجيم وبالطاء

(1) هي مدينة صفرو الموجودة اليوم، وبينها وبين فاس ثلاثين كيلومتراً.

المهملة قرية كانت على نهر سبو بالعدوة الجنوبية منه، نزلها يحيى بن محمد فنسب إليها وقبره معروف بها إلى الآن.

ولما استقل يحيى بن القاسم بالأمر قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الأندلس فدخلها وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس الربضيين ربض قرطبة. واستعمل يحيى بن القاسم عليهم ثعلبة بن محارب بن عبد الله الأزدي من ولد المهلب بن أبي صفرة وهو ربضي أيضاً، فلم يزل والياً على عدوة الأندلس إلى أن توفي، فاستعمل يحيى مكانه ولده عبد الله بن ثعلبة المعروف بعبود إلى أن توفي أيضاً فاستعمل الأمير يحيى مكانه ولده محارب بن عبود بن ثعلبة.

وخرج الأمير يحيى بن القاسم إلى قتال الصفرية فكانت له معهم حروب ووقائع كثيرة، ولم يزل أميراً على فاس وأعمالها إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين. وكانت في أيام هؤلاء الأمراء أحداث نذكرها:

ففي سنة ثلاث وخمسين ومائتين كان ببلاد العدوة والأندلس قحط شديد نضبت منه المياه واستمر إلى سنة ستين.

وفي سنة أربع وخمسين كسف القمر كله من أول الليل حتى أصبح ولم ينجل.

وفي سنة ستين ومائتين عم القحط والغلاء جميع بلاد الأندلس والمغرب وإفريقية ومصر والحجاز حتى رحل الناس عن مكة إلى الشام ولم يبق بها إلا نفر يسير مع سدنة الكعبة، ثم كان بالمغرب والأندلس وباء عظيم مع غلاء في الأسعار وعدمت الأقوات فهلك خلق كثير.

وفي سنة ست وستين ومائتين كانت بالسماء حمرة شديدة من أول الليل إلى آخره لم يعهد قبلها مثلها، وذلك ليلة السبت لتسع بقين من صفر من السنة المذكورة.

وفي سنة سبع وستين ومائتين في يوم الخميس الثاني والعشرين من

شوال منها كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثلها تهدمت منها القصور وانحطت منها الصخور من الجبال، وفر الناس من المدن إلى البرية من شدة اضطراب الأرض، وتساقطت السقوف والحيطان، وفرت الطيور عن أوكارها وماجت في السماء زماناً حتى سكنت الزلزلة، وعمت هذه الرجفة جميع بلاد الأندلس سهلها وجبالها وجميع بلاد العدوة من تلمسان إلى طنجة، ومن البحر الرومي إلى أقصى المغرب، إلا أنها لم يمت فيها أحد لطفاً من الله تعالى بخلقه.

وفي سنة ست وسبعين ومائتين طبقت الفتنة جميع آفاق الأندلس والمغرب وإفريقية.

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين كانت المجاعة الشديدة التي عمت جميع بلاد الأندلس وبلاد العدوة حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ثم عقب ذلك وباء ومرض وموت كبير هلك فيه من الخلق ما لا يحصى، فكان يدفن في القبر الواحد عدد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم، وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة والأمر لله وحده.

الخبر عن دولة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس

لما قتل يحيى العدام في التاريخ المتقدم ولي الأمر من بعده يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، فبايعه أهل عدوة فاس وخطب له بهما، وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب، وخطب له على سائر منابره.

وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الإدريسي: أعلاهم قدراً وأبعدهم ذكراً وأكثرهم عدلاً وأغزرهم فضلاً وأوسعهم ملكاً، وكان فقيهاً حافظاً للحديث ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعاً حازماً ذا صلاح ودين وورع.

قال ابن خلدون: «لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في الدولة والسلطان إلى أن طما على ملكه عباب العبيديين القائمين بإفريقية فأغرقه».

استيلاء العبيديين من الشيعة على المغرب الأقصى وقدوم قائدهم مصالة بن حبوس إلى فاس

قد قدمنا عند ذكر ولاة المغرب أن إبراهيم بن الأغلب كان آخرهم، وأنه أورث بإفريقية ملكاً لبنيه فاستمرت دولتهم بها إلى أواخر المائة الثالثة، وانقرضت على يد أبي عبد الله المحتسب داعية العبيديين من الشيعة، فإن المحتسب حج في بعض السنين واجتمع بمكة بحجاج كتامة من أهل المغرب فتعرف إليهم، ووعدهم بظهور المهدي من آل البيت على يدهم، ويكون لهم به الملك والسلطان، فتبعوه على رأيه وصحبهم إلى بلادهم ورأس فيهم رئاسة دينية وقرر لهم مذهب الشيعة فاتبعوه وتمسكوا به، ثم بايعوا مولاه عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين فاستولى على إفريقية في خبر طويل.

ثم سمت همته إلى تملك المغرب الأقصى فأغزاه قائده مصالة بن حبوس المكناسي صاحب تاهرت والمغرب الأوسط، فزحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة وانتهى إلى فاس فبرز إليه يحيى بن إدريس لمدافعته في جموع العرب والبربر والموالي، والتقوا بقرب مكناسة فانهزم يحيى وعاد مفلولاً إلى فاس، ثم تقدم مصالة إلى فاس وحاصرها إلى أن صالحه يحيى على مال يؤديه إليه، وعلى البيعة لعبيد الله المهدي فقبل يحيى الشرط وخرج عن الأمر وأنفذ بيعته إلى المهدي وأبقى عليه مصالة في سكنى فاس وعقد له على عملها خاصة، وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي على ما سوى ذلك من بلاد المغرب.

وكان موسى هذا صاحب تسول وبلاد تازا وكان كبير مكناسة بالمغرب الأقصى على الإطلاق، وكان قد خدم مصالة حين قدم المغرب وتعرف إليه وهاداه وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب، فحسنت منزلته لديه وولاه بلاد المغرب كلها عدى فاساً وأعمالها فإنه تركها للأمير يحيى كما قلنا.

وصار المغرب الأقصى في ملكة العبيديين واندرجت دولة الأدارسة في دولتهم. فكان موسى بن أبي العافية بعد ذهاب مصالة كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد به غمره يحيى بن إدريس بحسبه ونسبه وفضله ودينه، فقطع به كلما كان يريده فكان على قلب موسى منه حمل ثقيل. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية ـ وذلك سنة تسع وثلاثمائة ـ سعى موسى بن أبي العافية عنده بيحيى بن إدريس حتى أوغر صدره عليه! فلما قرب مصالة من فاس خرج إليه يحيى للقائه والسلام عليه في جماعة من وجوه دولته، فقبض مصالة عليهم وقيد يحيى بالحديد وتقدم إلى فاس فدخلها ويحيى بين يديه موثقاً على جمل، ثم عذبه بأنواع العذاب حتى استصفى أمواله وذخائره، ثم نفاه إلى نواحي آصيلا وقد ساءت حاله وانفض جمعه. فأقام عند بني عمه ببلاد الريف مدة فأعطوه مالاً ووصلوه بما يقيم به أوده ويستعين به على أمره، فلم يرض ذلك وارتحل عنهم يريد إفريقية فعرض له موسى بن أبي العافية في طريقه فقبض عليه وسجنه بمدينة آلكاي[1] قريباً من عشرين سنة ثم أطلقه بعد ذلك. قالوا: وكان أبوه إدريس بن عمر قد دعا عليه أن يميته الله جائعاً غريباً، فاستجيب له فيه. فخرج يحيى من سجن ابن أبي العافية إلى إفريقية وهو في فقر وذلة قد بلغ سوء الحال منه كل مبلغ، فوصل إلى المهدية على تلك الحال فوافق بها فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني وحصاره إياها فمات بها جائعاً غريباً سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة رحمه الله.

---

(1) الذي في البكري لكاي بدون همزة، فليحرر.

عود المغرب الأقصى إلى الأدارسة وظهور الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن إدريس

لما قبض مصالة على يحيى بن إدريس واستصفى أمواله - كما قلنا - استعمل على فاس ريحان الكتامي وعاد إلى القيروان، فأقام ريحان عاملاً على فاس وأحوازها نحو ثلاثة أشهر، وثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام، وعرف بذلك لأنه كان بينه وبين عمه أحمد بن القاسم بن إدريسن حرب فحمل الحسن على فارس من أصحاب عمه فطعنه في موضع المحاجم، ثم فعل ذلك بثان وثالث لا يطعنهم إلا في موضع المحاجم! فقال عمه أحمد: إن ابن أخي الحجام، فلزمه ذلك اللقب وفي ذلك يقول بعضهم:

وسميت حجاماً ولست بحاجم ولكن لطعن في مكان المحاجم

وكانت ثورة الحجام على ريحان سنة عشر وثلاثمائة أتى إلى فاس في جمع من شيعته وأنصاره وكان مقداماً شجاعاً، فدخلها على حين غفلة من أهلها فاستولى عليها وقتل ريحان وقيل نفاه عنها. واجتمع الناس على بيعته ودخل في طاعته أكثر قبائل البربر بالمغرب، وملك عدة مدن مثل مدينة لواتة وصفرون ومدين ومدائن مكناسة والبصرة. واستقام له الأمر بالمغرب إلى أن كان منه مع موسى بن أبي العافية ما نذكره.

خروج الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية

قال في القرطاس: وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة خرج الأمير الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية، فالتقى معه بفحص الزاد على مقربة من وادي المطاحن ما بين فاس وتازا، فأوقع الحجام بابن أبي العافية وقعة عظيمة لم يقع في دولة الأدارسة مثلها، قتل فيها من عسكر ابن أبي العافية نحو ألفين وثلاثمائة من جملتهم ابنه منهال بن موسى بن أبي العافية، وقتل من عسكر الحجام نحو السبعمائة. ثم كانت العاقبة لموسى على الحجام فانفض عسكر الحجام وعاد مفلولاً إلى فاس، فعجل الحجام ودخل فاساً وحده وترك عسكره خارج المدينة فغدر به عامله عليها حامد بن حمدان الهمداني، ويقال الأوربي من قرى إفريقية: دخل عليه ليلاً في داره فقيده وأخذه إليه وأغلق المدينة في وجه الجند، وطير إلى موسى بن أبي العافية يستدعيه إلى فاس وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة آل أبي العافية المكناسيين الناسخة لدولة آل إدريس بفاس وأعمالها

كان موسى بن أبي العافية متمسكاً في هذه المدة بدعوة العبيديين من الشيعة، فلما قبض حامد بن حمدان على الحسن الحجام واستدعى ابن أبي العافية بادر نحوه فدخل عدوة القرويين واستولى عليها، ثم قاتل أهل عدوة الأندلس حتى ملكها، فلما ملك المدينتين معاً طالب حامد بن حمدان بإحضار الحسن الحجام وقال أقتله بولدي منهال.

وكان حامد قد ندم على فعلته تلك، فدافع موسى وسوفه وكره المجاهرة بسفك دماء آل البيت، ولما جن الليل خالف حامد إلى الحسن ففك عنه قيده

وأرسله فتدلى الحسن من السور فسقط وانكسرت ساقه فتحامل حتى انتهى إلى عدوة الأندلس فاختفى بها إلى أن مات لمضي ثلاث من سقطته رحمه الله وذلك سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وأراد ابن أبي العافية قتل حامد بن حمدان لعدم تمكينه إياه من الحجام ففر إلى المهدية وكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو سنتين.

وانقرضت دولة آل إدريس من فاس وأعمالها وتداول المغرب الأقصى العبيديون أصحاب إفريقية والمروانيون أصحاب الأندلس، مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء، وتجددت للأدارسة دولة أخرى ببلاد الريف نذكرها عن قريب إن شاء الله.

وصفت فاس وأعمالها لابن أبي العافية وملك معها كثيراً من أعمال المغرب وبايعته القبائل والأشياخ، وهو في ذلك كله متمسك بدعوة الشيعة كما قلنا فكان كالنائب عنهم بالمغرب. والله غالب على أمره.

طرد موسى بن أبي العافية آل إدريس من أعمال المغرب وحصره إياهم بحجر النسر

لما استولى موسى بن أبي العافية على فاس والمغرب شمر لطرد الأدارسة عنه فأخرجهم من ديارهم وأجلاهم عن بلادهم من شالة وآصيلا وغيرهما من البلاد التي كانت في أيديهم. ولجؤوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التي أسسها سلفهم.

وكانت قلعة حجر النسر حصناً منيعاً بناه[1] محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس، شامخاً في عنان السحاب، فنزل عليهم

(1) كان بناء هذا الحصن سنة سبع عشرة وثلاثمائة. (البكري).

موسى بن أبي العافية وشدد عليهم الحصار وأراد استئصالهم وقطع دابرهم، فعذله على ذلك أكابر دولته، وقالوا له: أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم؟ هذا شيء لا نوافقك عليه! ولا نتركك له! فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم إلى فاس، وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس، يمنعهم من التصرف وكان ذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

استيلاء موسى بن أبي العافية على تلمسان وأعمالها

لما ارتحل موسى بن أبي العافية عن حجر النسر سار إلى فاس فأقام بها أياماً، وقتل عامله على عدوة الأندلس عبد الله بن ثعلبة بن محارب بن عبود الأزدي، وولى مكانه أخاه محمد بن ثعلبة ثم عزله، وولى مكانه طوال بن أبي يزيد فلم يزل عاملاً عليها إلى أن خرجت فاس عن يد ابن أبي العافية.

واستعمل موسى على المغرب الأقصى ولده مدين بن موسى بن أبي العافية، وأنزله بعدوة القرويين، ثم نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلاثمائة فملكها وأعمالها، وكانت بيد الحسن بن أبي العيش من أعقاب سليمان بن عبد الله أخي إدريس الأكبر وفر الحسن إلى مدينة مليلة من جزائر ملوية وبنى هناك حصناً وتحصن به، ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة نكور[1] فملكها أيضاً، وحاصر الحسن في حصنه مدة ثم عقد له سلماً على حصنه. وكان ذلك في شعبان سنة عشرين وثلاثمائة ثم عاد إلى فاس وقد دوخ البلاد والأقطار وانتظم المغربان الأقصى والأوسط في ملكه.

---

(1) نكور هذه كانت مدينة مهمة أسسها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميري كما عند البكري، وقال ابن خلدون: إن والده إدريس كان اختطها في عدوة الوادي ولم يكملها ثم كملها ابنه سعيد المذكور من بعده، وذلك في حدود سنة ثلاث وأربعين ومائة. وكانت تعرف في عهد ابن خلدون بالمزمة.

انحراف موسى بن أبي العافية عن الشيعة إلى بني مروان وما نشأ عن ذلك

كان عبد الرحمٰن الناصر الأموي صاحب الأندلس قد سما له أمل في التملك على المغرب الأقصى، لما بلغه من تراجع أمر بني إدريس به وإشراف دولتهم على الهرم، فملك سبتة من يد بني عصام القائمين بها بالدعوة الإدريسية.

ولما استولى موسى بن أبي العافية على المغرب خاطبه الناصر في القيام بدعوته ووعده الجميل على ذلك، وأتاه من بين يديه ومن خلفه حتى أجابه إلى مراده، ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله، فاتصل الخبر بعبيد الله المهدي صاحب إفريقية، فسرح إليه قائده حميد بن يصليتن المكناسي صاحب تاهرت في عشرة آلاف فارس - وهو ابن أخي مصالة بن حبوس المقدم الذكر - فالتقى حميد وموسى بفحص مسون فكانت بينهم حرب سجال، ثم إن حميداً بيت موسى ليلة فضرب في عسكره فانهزم موسى وأصحابه ومضى إلى عين إسحاق[1] من بلاد تسول فتحصن بها.

وتقدم حميد إلى فاس فلما شارفها فر عنها مدين بن موسى ولحق بأبيه؛ فدخلها حميد واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمداني. وكان في جملته ثم عاد إلى إفريقية وقد قضى إربه من المغرب وكان ذلك سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ولما اتصل ببني إدريس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى بن أبي العافية وفرار ابنه عن فاس وولاية حامد بن حمدان عليها قويت نفوسهم،

---

(1) عين إسحاق هي مدينة تسول قاعدة موسى بن أبي العافية وكانت كبيرة مهمة انظر ما قاله في حقها البكري.

وتظاهروا على أبي الفتح التسولي، فنزلوا إليه وقاتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجوا إلى الفضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنين.

ثورة أحمد بن بكر الجذامي بدعوة المروانيين بفاس وما نشأ عن ذلك

وأقام حامد بن حمدان والياً على فاس من قبل الشيعة إلى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمٰن بن سهل الجذامي، وذلك عقب وفاة عبيد الله المهدي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فقتل حامد بن حمدان وبعث برأسه وبولده إلى موسى بن أبي العافية، فبعث به موسى إلى عبد الرحمٰن الناصر بقرطبة، واستولى على المغرب وعادت الدعوة به إلى بني مروان.

ولما اتصل الخبر بصاحب إفريقية أبي القاسم بن عبيد الله المهدي - المتولي بعد أبيه - سرح قائده ميسوراً الخصي إلى المغرب، فقدمه ميسور سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وخام ابن أبي العافية عن لقائه واعتصم بحصن آلكاي.

وتقدم ميسور إلى فاس فحاصرها أياماً إلى أن خرج إليه أحمد بن بكر مبايعاً، وقدم بين يديه هدية نفيسة ومالاً جليلاً، فقبض ميسور الهدية والمال، ثم تقبض على أحمد بن بكر وقيده وبعث به إلى المهدية.

ولما نذر أهل فاس بغدره امتنعوا عليه وأغلقوا أبوابهم دونه، وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي، فحاصرهم ميسور سبعة أشهر ولما طال عليهم الحصار رغبوا في السلم فصالحهم على أن أعطوه ستة آلاف دينار وأنطاعاً ولبوداً وقرباً للماء وأثاثاً، وكتبوا بيعتهم إلى أبي القاسم الشيعي وكتبوا اسمه في سكتهم وخطبوا له على منابرهم، فقبل ميسور ذلك منهم، وأقر عليهم حسن بن قاسم اللواتي، وارتحل عنهم واستمر حسن عاملاً على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهدية مطلقاً مكرماً، فتخلى له عن ما

كان بيده وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فكانت ولاية حسن بن القاسم على فاس ثمان عشرة سنة قاله في القرطاس. وقال ابن خلدون: «إن أحمد بن بكر الجذامي قدم من إفريقية سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فسار إلى فاس وأقام بها متنكراً إلى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتي فتخلى له عن العمل». والله أعلم.

حرب ميسور مع موسى بن أبي العافية

لما صالح ميسور أهل فاس نهض إلى حرب ابن أبي العافية فدارت بينهم حروب كان الظهور في آخرها لميسور، وأسر البوري بن موسى بن أبي العافية وغربه إلى المهدية، وطرد موسى على أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء ثم قفل إلى القيروان.

وقال ابن أبي زرع في كتاب القرطاس: «إن بني إدريس تولوا معظم الحروب التي دارت بين ميسور وبين ابن أبي العافية، وإنهم قاتلوا ابن أبي العافية حتى فر أمامهم إلى الصحراء» قال: «وتملك الأدارسة أكثر ما كان بيد ابن أبي العافية قائمين بدعوة الشيعة، فلم يزل ابن أبي العافية شريداً في الصحراء وأطراف البلاد التي بقيت بيده، وذلك من مدينة آكرسيف إلى مدينة نكور إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، وقيل: إنه قتل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة قاله البرنسي» اهـ كلام ابن أبي زرع.

وقال ابن خلدون: «إن موسى ابن أبي العافية رجع من الصحراء إلى أعماله بالمغرب فملكها، وولى على عدوة الأندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي» قال: «وهو الذي مدّن عدوة الأندلس، وكانت حصوناً ثم زحف إلى تلمسان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فاستولى عليها» قال: «واستفحل أمر ابن أبي العافية بالمغرب الأقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خرز ملك

مغراوة وصاحب المغرب الأوسط، وبثوا دعوة الأموية في أعمالها» والله أعلم.

بقية أخبار آل أبي العافية بالمغرب

قال ابن أبي زرع: «لما هلك موسى بن أبي العافية ولي بعده ابنه إبراهيم إلى أن توفي سنة خمسين وثلاثمائة فولي بعده ابنه عبد الله ويقال عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية إلى أن توفي سنة ستين وثلاثمائة فولي عمله من بعده ابنه محمد وعليه انقرضت دولة آل أبي العافية سنة ثلاث وستين وثلاثمائة». وذكر بعض المؤرخين لأيامهم: «أنه لما توفي محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية ولي بعده ابنه القاسم بن محمد المحارب للمتونة، فكانت بينه وبينهم حروب إلى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين فقتله واستأصل شافة ذرية موسى بن أبي العافية بالمغرب وكانت دولتهم مائة وأربعين سنة من سنة خمس وثلاثين إلى سنة خمس وأربعين وأربعمائة» اهـ ولكن دولتهم بفاس انتهت إلى قدوم ميسور الخصي كما مر وبقيت رياستهم بالأطراف إلى دولة اللمتونيين والله أعلم. وكان في هذه المدة من الأحداث ما نذكره:

ففي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شوال سنة تسع وتسعين ومائتين كسفت الشمس كسوفاً كلياً، وكان ذلك بعد صلاة العصر فغاب القرص كله وظهرت النجوم وأذن أكثر الناس بالمساجد للمغرب ثم تجلت مضيئة بعد ذلك ومكثت مقدار ثلث ساعة ثم غربت.

وفي سنة ثلاث وثلاثمائة كان بإفريقية والمغرب والأندلس فتن كثيرة ومجاعة عظيمة أشبهت مجاعة سنة ستين ومائتين ثم وقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفن موتاهم.

وفي سنة خمس وثلاثمائة أحرقت النار أسواق مدينة فاس، وأسواق

تاهرت قاعدة زناتة وأحرقت أسواق قرطبة وأرباض مكناسة من بلاد جوف الأندلس، وكان ذلك كله في شوال من السنة المذكورة فسميت سنة النار.

وفي سنة سبع وثلاثمائة كان بإفريقية والمغرب والأندلس رخاء مفرط وطاعون ووباء كثير، وفيها كانت الريح السوداء الشديدة الهبوب التي قلعت الأشجار، وهدمت الدور بفاس فتاب الناس ولزموا المساجد وارتدعوا عن كثير من الفواحش.

وفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ظهر حاميم المتنبىء بجبال غمارة. قال ابن خلدون: «كانت غمارة غريقة في الجهالة والبعد عن الشرائع بسبب البداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتنبأ فيهم من قبيلة يقال لها محكسة حاميم بن منّ الله يكنى أبا محمد، ويكنى أبوه منّ الله أبا يخلف، وكان ظهوره بجبل حاميم المشتهر به قريباً من تطوان، واجتمع إليه كثير من غمارة وأقروا بنبوته وشرع لهم شرائع وعبادات وصنع لهم قرآناً كان يتلوه عليهم بلسانه. فمما شرع لهم صلاتان في كل يوم، واحدة عند طلوع الشمس والأخرى عند غروبها: ثلاث ركعات في كل صلاة. ويسجدون وبطون أيديهم تحت وجوههم. ومن قرآنهم الذي كانوا يقرؤونه بعد تهليل يهللون به بلسانهم: خلني من الذنوب يا من خلى النظر ينظر في الدنيا، أخرجني من الذنوب يا من أخرج يونس من بطن الحوت وموسى من البحر، ثم يقول في ركوعه آمنت بحاميم وبأبيه أبي يخلف منّ الله، وآمن رأسي وعقلي وما يكنه صدري وما أحاط به دمي ولحمي، وآمنت بتالية عمة حاميم أخت أبي يخلف منّ الله ثم يسجد ـ وكانت تالية هذه امرأة كاهنة ساحرة ـ وكان حاميم يلقب المفتري، وكانت أخته دبو كاهنة ساحرة أيضاً وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط، وفرض عليهم صوم الاثنين وصوم الخميس إلى الظهر وصوم الجمعة وصوم عشرة أيام من رمضان ويومين من شوال، ومن أفطر في يوم الخميس عمداً فكفارته أن يتصدق بثلاثة أثوار، ومن أفطر في يوم الاثنين فكفارته أن يتصدق بثورين وفرض عليهم في الزكاة العشر في كل

شيء، وأسقط عنهم الحج والوضوء والغسل من الجنابة، وأحل لهم أكل الأنثى من الخنزير، وقال: إنما حرم قرآن محمد الخنزير الذكر، وأمر أن لا يؤكل الحوت إلا بذكاة، وحرم عليهم أكل البيض وأكل الرأس من كل حيوان، فبعث إليه عبد الرحمٰن الناصر صاحب الأندلس عسكراً فالتقوا بقصر مصمودة من أحواز طنجة فقتلوه، وقتلوا أتباعه وصلبوا شلوه بالقصر المذكور، وبعثوا برأسه إلى الناصر بقرطبة، ورجع من بقي من أتباعه إلى الإسلام وذلك سنة خمس عشرة وثلاثمائة. قال ابن خلدون: «وكان لابنه عيسى بن حاميم من بعده قدر جليل في غمارة».

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ظهر ببلاد المغرب غمام كثيف دام خمسة أيام لم ير الناس فيها شمساً وكان الشخص لا يرى من الأرض فيه إلا موضع قدميه فتاب الناس وأخرجوا الصدقات فكشف الله عنهم ما بهم وسميت سنة الغمام.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة نزل برد عظيم الواحدة منه تزن رطلاً وأكثر، قتل الطير والوحش والبهائم وكثيراً من الناس وكسر الأشجار وأفسد الثمار كان ذلك بأثر قحط شديد وغلاء عام.

وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة نزل أيضاً برد كثير لم يعهد مثله كثرة قتل المواشي وأفسد الثمار، وجاءت السيول العظيمة بجميع بلاد المغرب وكان بها رعود قاصفة وبروق خاطفة، ودام ذلك أياماً واستسقى الناس واستصحوا في هذه السنة، وفيها أيضاً كانت ريح شديدة هدمت المباني.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس هلك فيه أكثر الخلق.

وفي هذه المدة كان الشيخ أبو سعيد المصري المعروف بأبي سلهامة موجوداً وهو من كبار صلحاء المغرب، وقبره شهير قرب مشرع الحضر على ساحل البحر وعليه قبة عجيبة الصنعة محكمة العمل بالنقش والأصباغ والزليج الملون. قال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة المحاسن: «كان على

رأس قبر الشيخ أبي سلهامة لوح مذهب مكتوب عليه: «هذه القبور الثلاثة التي أخفى الله تعالى فيها قبر الشيخ أبي سعيد المكنى أبي سلهامة وكانت وفاته سنة نيف وأربعين وثلاثمائة» قال أبو عبد الله المذكور: «ثم إن النصارى نزلوا مرة هناك فاقتلعوا اللوح وذهبوا به» قال: «وكان النيف الزائد على الأربعين مسمى في اللوح ولكني أنسيته ومع ذلك فهو لا يزيد على السبع» والله تعالى أعلم.

الخبر عن الدولة الثانية للأدارسة ببلاد الريف

هذه الدولة التي كانت للأدارسة ببلاد الريف لم تكن لهم على سبيل الاستقلال والاستبداد كما كانت لهم أولاً بفاس والمغرب، إنما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب إما من الشيعة أصحاب إفريقية، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس كما ستقف عليه.

واعلم أنا قد قدمنا أن بني إدريس كانوا قد اقتسموا أعمال المغرب بعد وفاة أبيهم إدريس رحمه الله وذلك بإشارة جدتهم كنزة، وأن بلاد الريف منها كانت في سهم عمر بن إدريس، وأنه قاتل أخويه عيسى والقاسم، وأضاف أعمالهما إلى عمله، فبقيت بلاد الريف بيد بني عمر بن إدريس يتوارثونها خلفاً عن سلف، فلما انقرضت دولة آل إدريس بفاس على يد موسى بن أبي العافية انحازوا إلى بني عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة حجر النسر كما سبق.

ولما قدم ميسور الخصي من إفريقية وأجلى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء، أقام بنو إدريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة، وتحت نظر المروانيين أخرى، إلى أن انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم من المغرب بالكلية. والله غالب على أمره.

الخبر عن رياسة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس

لما فر موسى بن أبي العافية أمام القائد ميسور إلى الصحراء صارت الرياسة في المغرب بعده لابني محمد بن القاسم بن إدريس. وهما: القاسم الملقب بكنون، وشقيقه إبراهيم، وهما معاً أخوان للحسن الحجام الذي تقدم ذكره، فاجتمع بنو إدريس وبايعوا القاسم المذكور، فملك أكثر بلاد المغرب إلا فاساً فإنه لم يملكها، وكان سكناه بقلعة حجر النسر، واستمر على إمارته مقيماً لدعوة الشيعة إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فولي بعده ابنه أبو العيش.

الخبر عن دولة أبي العيش أحمد بن القاسم كنون

كان أبو العيش هذا فقيهاً ورعاً حافظاً للسير عارفاً بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر شجاعاً جواداً، وكان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل وكان مائلاً إلى بني مروان.

ولما ولي بعد أبيه قطع دعوة العبيديين في جميع عمله، وبايع لعبد الرحمٰن الناصر صاحب الأندلس وخطب له على جميع منابر عمله، وبايع أبا العيش كافة أهل المغرب إلى سجلماسة. وكان السواد الأعظم من أهل المغرب الأقصى لهم محبة من جانب آل إدريس وإيثار لهم لا يبغون بهم بدلاً مهما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

تغلب عبد الرحمٰن الناصر على بلاد المغرب ومضايقته لأبي العيش بها

لما بايع أبو العيش لعبد الرحمٰن الناصر وخطب له اقترح عليه أن ينزل له عن طنجة ليضيفها إلى سبتة التي كان استولى عليها من قبل، فامتنع أبو العيش من ذلك فبعث إليه الناصر بالأسطول والمقاتلة، فحاصره وضيق عليه، ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه أجابه إلى ما سأل ونزل له عن طنجة.

وبقي أبو العيش مع إخوته وبني عمه من الأدارسة بمدينة البصرة وآصيلا تحت بيعة الناصر وفي كنفه متمسكين بدعوته، وكانت قواد الناصر وجيوشه تجيز من الأندلس إلى العدوة، يقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويستألفونهم، والناصر ممد لمن عجز منهم برجاله، مقو لمن ضعف بماله، حتى ملك أكثر بلاد المغرب وبايعته قبائله من زناتة والبربر، وخطب له على منابره من تاهرت إلى طنجة ـ ما عدا سجلماسة ـ فإنه قام بها في ذلك الوقت منادر البربري.

وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة فولى عليهم محمد بن الخير المغراوي، وكان من أبسط ملوك زناتة يداً وأعظمهم شأناً وأحسنهم إلى ملوك بني أمية انحياشاً وأخلصهم طوية.

وكان لبني يفرن ومغراوة من زناتة ولاية للأمويين وتشيع لهم، وذلك بولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه لجدهم صولات بن وزمار المغراوي الذي وفد عليه وأسلم على يده كما سبق في أخبار الفتح والله أعلم. فسرت تلك الولاية في عقب زناتة للأمويين عموماً كما كان لصنهاجة من البربر ولاية آل علي بن أبي طالب[1] رضي الله عنه، فأقام محمد بن الخير والياً على

(1) قال ابن خلدون: لا يعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها (جزء 1 صفحة 195 طبع الجزائر).

مدينتي فاس نحو سنة وارتحل عنها إلى الأندلس برسم الجهاد، واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتي وهو الذي بنى صومعة مسجد القرويين سنة أربع وأربعين وثلاثمائة كما سبق.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ولي الناصر على مدينة طنجة وأحوازها يعلى بن محمد اليفرني فنزلها في قبائل يفرن وأمضى أمره ونهيه فيها.

هجرة أبي العيش إلى الأندلس بقصد الجهاد

لما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة هانت عليه رياستها، فكتب إليه بقرطبة يستأذنه في الجهاد فأذن له، وأمر أن يبني له في كل منزل ينزله قصراً ـ وذلك من الجزيرة الخضراء إلى الثغر ـ وأن يجري له فيها ألف دينار في كل يوم ضيافة له، ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر، فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الثغر فكانت منازله من الجزيرة إلى الثغر ثلاثين منزلاً ومات أبو العيش رحمه الله شهيداً في جهاد الفرنج سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة الحسن بن كنون

لما خرج أبو العيش من الأندلس برسم الجهاد استخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون، وهو القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس، وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب ولم يزل موالياً للمروانيين متمسكاً بدعوتهم إلى أن كان ما نذكره.

قدوم القائد جوهر الشيعي من إفريقيا إلى المغرب واستيلاؤه عليه

لما اتصل بخليفة الشيعة ـ وهو المعز لدين الله معد بن إسماعيل العبيدي، غلبة الناصر على بلاد العدوة وأن جميع من بها من قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا في دعوة بني أمية، عظم الأمر عليه، وبعث قائده جوهر بن عبد الله الرومي ـ المعروف بالكاتب ـ في جيش كثيف يشتمل على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم، وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذللها ويستنزل من بها من الثوار ويشد وطأته عليهم.

فخرج جوهر من القيروان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة يؤم بلاد المغرب فاتصل خبره بيعلى بن محمد اليفرني صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد العدوة، فحشد قبائل زناتة ونهض إلى القائد جوهر فكان اللقاء على تاهرت، فالتحمت الحرب بين الفريقين فأخرج القائد جوهر الأموال وبذلها في قواد كتامة فضمنوا له قتل أمير زناتة يعلى بن محمد، فلما اشتد القتال صممت عصابة من قواد كتامة وأنجادها وقصدوا إلى يعلى بن محمد فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلى جوهر فبذل لهم مالاً جليلاً بشارة عليه وبعث بالرأس إلى مولاه المعز فطيف به بالقيروان.

وذكر ابن خلدون أن يعلى بن محمد بادر إلى لقاء جوهر عند قدومه وأذعن له وبايعه فأظهر جوهر القبول ثم دس إليه من اغتاله وتفرق بنو يفرن وزناتة بعد مقتل أميرهم، وبعد مدة التأم ملكهم على ولده يدو بن يعلى بن محمد اليفرني.

ثم تقدم جوهر إلى سجلماسة، وكان قد قام بها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالشاكر لله، وقد تقدم لنا أنه ادعى الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وضرب السكة باسمه وكتب عليها «تقدست عزة الله» وكانت سكته تعرف بالشاكرية وكانت في غاية الطيب، وكان سنياً مالكي

المذهب قد خالف سلفه في مذهب الصفرية، فنزل عليه جوهر وحاصره بسجلماسة ثم اقتحمها عنوة بالسيف، وأفلت الشاكر ثم عاد بعد يومين أو ثلاثة فدخل سجلماسة متنكراً فعرف وقبض عليه وأتي به إلى جوهر فأوثقه في الحديد وساقه أسيراً بين يديه حتى نزل على فاس بعد أن أفنى حماة الصفرية ورجالها بالسيف.

وكان نزوله على فاس سنة تسع وأربعين وثلاثمائة فحاصرها وأدار بها القتال من كل جهة قريباً من نصف شهر، ثم اقتحمها عنوة بالسيف على يد زيري بن مناد الصنهاجي، فإنه تسنم أسوارها ليلاً ودخلها فقتل بها خلقاً كثيراً، وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي[1] الذي ولاه الناصر عليها، ونهب المدينة وقتل حماتها وشيوخها وسبى أهلها، وهدم أسوارها وكان الحادث بها عظيماً، وكان دخول جوهر إياها ضحوة يوم الخميس الموفي عشرين من رمضان سنة تسع وأربعين وثلاثمائة.

ثم سار جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبي ويفتح البلاد والمعاقل، وخافته البربر وفرت أمامه قبائلها، فأنفذ الأمر في المغرب الأقصى ثلاثين شهراً وانتهى إلى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله في قلال الماء وأرسله إلى مولاه المعز، ثم انصرف راجعاً بعد أن دوخ البلاد وأثخن فيها وقتل حماتها وقطع دعوة المروانيين منها، وردها إلى العبيديين فخطب لهم على جميع منابر المغرب، وانتهى القائد جوهر إلى المهدية ـ دار المعز لدين الله، وقد حمل معه أحمد بن أبي بكر اليفرني أمير فاس، وخمسة عشر رجلاً من أشياخها، وحمل أيضاً محمد بن أبي الفتح أمير سجلماسة، ودخل بهم أسارى بين يديه في أقفاص من خشب على ظهور الجمال وجعل على رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة منبتة بالقرون، فطيف بهم في بلاد إفريقية وأسواق القيروان، ثم ردوا إلى المهدية وحبسوا بها حتى ماتوا في سجنها.

---

(1) وقيل أحمد بن بكر الجذامي وهو أصح اهـ. (مؤلف).

قدوم بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الشيعي من إفريقيا إلى المغرب

كان الأمير الحسن بن كنون قد بايع العبيديين فيمن بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب، فلما انصرف جوهر إلى إفريقية أواخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن كنون بيعة العبيديين وعاد إلى المروانيين فتمسك بدعوة الناصر ثم بدعوة ابنه الحكم المستنصر خوفاً منهم، لا محبة فيهم، لقرب بلاده من بلادهم. وأقام على ذلك إلى أن قدم الأمير بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي من إفريقية إلى المغرب لأخذ ثار[1] أبيه فقتل زناتة واستأصلهم وملك المغرب بأسره وقطع أيضاً منه دعوة الأمويين وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب للمعز معد بن إسماعيل كما فعل جوهر قبله، فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته وقتال أولياء المروانيين معه الحسن بن كنون صاحب مدينة البصرة، وكشف وجهه في ذلك وأعمل فيه جهده فاتصل خبره بالحكم المستنصر فحقد عليه لذلك.

فلما انصرف بلكين بن زيري إلى إفريقية بعث الحكم المستنصر صاحب الأندلس قائده محمد بن القاسم بن طملس في جيش كثيف إلى قتال الحسن ابن كنون، فأجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في عدد كثير وعدة كاملة، وذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فزحف الحسن إلى قتاله في قبائل البربر، فكان اللقاء بأحواز طنجة بموضع يعرف بحفص بني مصرخ، فكانت بينهما حرب شديدة قتل فيها محمد بن القاسم قائد الحكم المستنصر وقتل معه خلق كثير من أصحابه، وفر الباقون فدخلوا سبتة

(1) لأن زيري بن مناد والد بلكين هذا كانت زناتة قد قتلته سنة 361 وحمل رأسه إلى الخليفة الأموي بقرطبة وهو الحكم المستنصر بن الناصر.

وتحصنوا بها وكتبوا إلى الحكم يستغيثون به فبعث إليهم صاحب حروبه غالباً مولاه ـ البعيد الصيت المعروف بالشهامة والنجدة والدهاء ـ وأعطاه الحكم أموالاً جليلة وجيوشاً كثيرة، وعدداً وافرة وأمره بقتال آل إدريس واستنزالهم من معاقلهم، وقال له عند وداعه: يا غالب سر مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حيّاً منصوراً أو ميتاً معذوراً، ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس.

قدوم غالب الأموي إلى المغرب وتغريب آل إدريس إلى الأندلس

ثم خرج غالب من قرطبة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة واتخذها معقلاً يتحصن بها، وأجاز غالب البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة، فلقيه الحسن بن كنون هناك في جموع البربر، وقاتله أياماً وسرب غالب الأموال إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون ووعدهم ومناهم، فانفضوا عن الحسن حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله، فلما رأى ذلك سار إلى حجر النسر فتحصن به، واتبعه غالب فحاصره به ونزل عليه بجميع جيوشه وقطع عنه المواد، وأمده الحكم بعرب الدولة الذين بالأندلس ورجال الثغور، فوصل المدد إلى غالب غرة المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، فاشتد الحصار على الحسن بن كنون، فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله وينزل إليه فيسير معه إلى قرطبة فيكون بها، فأجابه غالب إلى ذلك وعاهده عليه، فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله وأسلم الحصن إلى غالب فملكه، واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم وأخرجهم عن أوطانهم ولم يترك بالعدوة رئيساً منهم.

وسار إلى مدينة فاس فملكها واستعمل عليها محمد بن أبي علي بن

قشوش بعدوة القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوة الأندلس، فلم تزل فاس بيد بني أمية إلى أن غلب عليها زيري بن عطية المغراوي.

وانصرف غالب إلى الأندلس وساق معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة، وقد وطأ جميع بلاد المغرب وفرق العمال في نواحيه وقطع دعوة بني عبيد من جميع آفاقه ورد الدعوة إلى الأموية، فخرج بهم غالب من فاس آخر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ووصل إلى سبتة فركب البحر منها واستقر بالخضراء.

وكتب إلى مولاه الحكم المستنصر بالله يعلمه بقدومه وبمن قدم معه من العلويين فلما وصل كتابه إلى الحكم أمر الناس بالخروج إلى لقائهم وركب هو في جمع عظيم من وجوه دولته، فتلقاهم فكان يوم دخولهم قرطبة يوماً مشهوداً وذلك أول يوم من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة وسلم الحسن بن كنون على الحكم فأقبل عليه وعفا عنه ووفى له بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة وخلع عليهم الخلع الرفيعة، وأثبت جميع أهله ورجاله في ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أنجاد يعدون بسبعة آلاف وأسكنه قرطبة. وأقام الحسن وعشيرته في كنف الحكم في أمن وغبطة إلى أن كان ما نذكره.

حدوث النفرة بين الحكم والحسن والسبب في ذلك

لما استقر الحسن بن كنون وعشيرته بقرطبة تحت كنف الحكم المستنصر بالله الأموي على ما وصفناه استمر الحال على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة.

وكان للحسن قطعة عنبر غريبة الشكل كبيرة الحجم ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها فسواها منشورة يتوسدها ويرتفق بها فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها فسأله حملها إليه وضمها إلى ذخائره. على أن له حكمه مسمطاً، فامتنع الحسن من ذلك وأبى أن يسلمها إليه، فنكبه

عليها وسلبه جميع أمواله وسلبه القطعة أيضاً، فبقيت في خزانة الأمويين إلى أن غلب ابن حمود الإدريسي على ملك الأندلس، ودخل قرطبة واستقر بالقصر منها فألفى تلك العنبر لا زالت قائمة العين قد عقبتها الأيام حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها.

ولما نكب الحكم الحسن أمر بإخراجه وإخراج عشيرته من قرطبة وإجلائهم إلى المشرق، فركبوا البحر من المرية إلى تونس سنة خمس وستين وثلاثمائة، وكان قصد الحكم بتغريبهم التخفف منهم والراحة من نفقاتهم مع ما كان قومه يعذلونه عليهم فسار الحسن بن كنون وعشيرته إلى مصر فنزلوا بها على خليفة الشيعة وهو العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي - وكان العبيديون قد ملكوا مصر يومئذٍ ونقلوا كرسي خلافتهم إليها - فأقبل العزيز نزار على الأدارسة وبالغ في إكرامهم ووعد الحسن النصر والأخذ بثأره ممن غلبه على ملك سلفه.

عود الحسن بن كنون إلى المغرب وما كان من أمره إلى مقتله وانقراض دولته

لما استقر الحسن بن كنون بمصر عند العزيز نزار أقام عنده مدة طويلة إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة في أيام هشام المؤيد بالله الأموي فكتب نزار للحسن بعهده على المغرب وأمر عامله على إفريقية بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي أن يقويه بالجيوش فسار الحسن إلى بلكين فأعطاه عسكراً يشتمل على ثلاثة آلاف فارس، فاقتحم بهم بلاد المغرب فسارعت إليه قبائل البربر بالطاعة فشرع في إظهار دعوته.

واتصل خبره بالمنصور بن أبي عامر - حاجب هشام المؤيد والقائم بملكه - فبعث إليه ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر - المعروف بعسكلاجة - في جيش كثيف وقلده أمر المغرب وسائر أعماله وأمره

بقتال الحسن بن كنون فنفذ لوجهه وركب البحر إلى سبتة وخرج إلى حرب الحسن فأحاط به وحاصره أياماً، ثم أجاز[1] المنصور بن أبي عامر ولده عبد الملك في أثر الوزير أبي الحكم في جيش كثيف ممداً له.

فلما رأى ذلك الحسن بن كنون سقط في يده، ولم يجد حيلة فطلب الأمان على نفسه على أن يسير إلى الأندلس كمثل حالته الأولى، فأعطاه الوزير أبو الحكم من ذلك ما وثق به، وكتب إلى ابن عمه المنصور يخبره بذلك فأمر بتعجيله إلى قرطبة موكلاً به فبعث به إليه.

ولما انتهى الخبر إلى المنصور بقدوم الحسن لم يمض أمان ابن عمه، وأنفذ إليه من قتله من طريقه وأتاه برأسه، ودفن شلوه بمكان مقتله، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. وركدت ريح العلوية بالمغرب، وتفرق جمعهم، وانقرضت دولتهم، وتفرقت الأدارسة في قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة.

واستمر الحال إلى أن أشرفت دولة بني أمية بالأندلس على الانقراض وكان بالأندلس رجلان من آل إدريس دخلوها في جملة البربر الذين كانوا هناك، وهم علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس فطار لهما ذكر في الشجاعة والإقدام، ثم ترقت بهم الأحوال إلى أن ورثوا خلافة الأندلس من يد الأمويين بها في خبر طويل.

ولما قتل الحسن بن كنون هبت ريح عاصف احتملت رداءه فلم يوجد بعد. قالوا: وكان الحسن هذا فظاً غليظاً قاسي القلب، كان إذا ظفر بعدو أو

---

(1) قد فند المؤرخ ضوزي هذا القول في تاريخ مسلمي إسبانيا (جزء ثالث صفحة 200) وقال: إن عبد الملك لم يكن له من العمر إذ ذاك إلا اثنتا عشرة سنة ولم يجز المنصور ابنه المذكور إلى المغرب إلا بعد أن حصل النفور بينه وبين زيري بن عطية سنة 387 ـ أي بعد هذا الحادث بنحو 14 سنة ـ اهـ.

سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته المسماة بحجر النسر فيهوي منها إلى الأرض مد البصر: يدفع الرجل بخشبة تمد إليه فلا يصل إلى الأرض إلا وقد تقطع.

قال ابن أبي زرع: كانت مدة ملك الأدارسة بالمغرب - من يوم بويع إدريس بن عبد الله وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة إلى أن قتل الحسن بن كنون وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة - مائتي سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً. وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران. وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة. وكانوا يكابدون دولتين عظيمتن: دولة العبيديين بإفريقية ودولة بني أمية بالأندلس. وكانوا يزاجمون الخلفاء إلى ذروة الخلافة ويقعد بهم عنها ضعف سلطانهم وقلة مالهم، فكان سلطانهم إذا امتد وقوي ينتهى إلى مدينة تلمسان، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وآصيلا وحجر النسر إلى أن انقضت أيامهم وانقرضت مدتهم والبقاء لله وحده.

وكان في هذه المدة من الأحداث أنه في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة كانت ريح شديدة قلعت الأشجار وهدمت الديار وقتلت الرجال.

وفي ليلة الثلاثاء الثامن عشر من رجب منها ظهر في البحر شهاب ثاقب ماثل كالعمود العظيم أضاء الليل لسطوع نوره، وأشبهت تلك الليلة ليلة القدر وقارب ضوءها ضوء النهار.

وفي هذا الشهر أيضاً كسف النيران فخسف القمر ليلة أربع عشرة منه وطلعت الشمس كاسفة في اليوم الثامن والعشرين منه.

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائة كان الجراد بالمغرب.

وفي سنة اثنتين وستين بعدها دخل مغراوة المغرب وملكوه وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوي. وفيها توفي الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو ميمونة دراس بن إسماعيل وهو أول من أدخل مدونة سحنون مدينة فاس

وذكر الرشاطي أن وفاته كانت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ولعله أصح. وفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة عم الجراد بلاد المغرب كلها.

وفي سنة ثمان وسبعين بعدها كان الفيض الذي فاضت منه جميع أودية المغرب.

وفي سنة تسع وسبعين بعدها كانت الريح الشرقية بالمغرب ودامت ستة أشهر فأعقبت وباء عظيماً وأمراضاً كثيرة.

وفي سنة ثمانين وثلاثمائة تدارك الله عباده وكان الرخاء المفرط بالمغرب فكان الزرع لا يوجد من يشتريه لكثرته وكان الفلاحون وأصحاب الحرث يتركونه قائماً في محاقلهم لا يحصدونه لرخصه.

الخبر عن دولة زناتة من مغراوة وبني يفرن بفاس والمغرب

ينبغي أن نقدم هنا كلاماً يكون كالتوطئة لأخبار هذه الدولة المغراوية فنقول: إن هذه الدولة لم يكن لها استقلال بالمغرب وفاس، وإنما كانت رياستها تحت نظر الأمويين بالأندلس، ثم إن مغراوة وبني يفرن قبيلتان من أعيان قبائل زناتة، وكان مغراو ويفرن أخوين شقيقين؛ وهما ابنا يصليتن بن مسري بن زاكيا بن ورسيك بن الدبديت بن زانا وهو أبو زناتة.

وقد تقدم لنا في أخبار الفتح أن الصحابة رضي الله عنهم أسروا صولات بن وزمارا كبير مغراوة لذلك العهد، وبعثوا به إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فأسلم على يده وولاه على قومه، وقيل إن صولات هاجر إلى عثمان رضي الله عنه طائعاً من غير أسر فأكرمه وولاه فكان بيت صولات بسبب هذه المزية نبيهاً في قومه مغراوة وسائر زناتة.

ولما مات صولات ورث رياسته من بعده ابنه حفص بن صولات ثم من بعده خزر بن حفص بن صولات ثم ابنه محمد بن خزر وهو الذي غزاه إدريس بن عبد الله بمدينة تلمسان وانقاد له وأجاب دعوته ودخل إدريس معه تلمسان وأصلح شأنها وبنى مسجدها حسبما تقدم الخبر عن ذلك مستوفى ثم

لم تزل ذرية محمد بن خزر هذا تتوارث رياسة سلفهم من بعدهم إلى أن كان منهم في صدر المائة الرابعة أربعة إخوة وهم: محمد بن خزر وعبد الله بن خزر ومعبد بن خزر وفلفل بن خزر، وكلهم رئيس شريف في قومه ولهم أخبار مع خلفاء الشيعة بإفريقية والمروانيين بالأندلس يطول ذكرها مع أنها ليست من موضوعنا.

ولما كانت سنة تسع وستين وثلاثمائة زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي صاحب إفريقية بعد العبيديين إلى المغرب الأقصى، وأناخ على مدينتي فاس وقتل عامليها محمد بن أبي علي بن قشوش صاحب عدوة القرويين وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الأندلس واستعمل عليها محمد بن عامر المكناسي، وأجفلت ملوك زناتة من بني خزر المغراويين وبني محمد بن صالح اليفرنيين أمامه وانحازوا جميعاً إلى سبتة.

وعبر محمد بن الخير من آل خزر البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريخاً فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة الخضراء ممداً لهم بنفسه، وعقد لجعفر بن علي بن حمدون على حرب بلكين الصنهاجي وأجازه البحر وأمده بمائة حمل من المال فاجتمعت إليك ملوك زناتة وضربوا مصافهم بساحة سبتة وجاء بلكين الصنهاجي حتى صعد جبال تطوان[1] وتنسم هضابها وأطل على عساكر زناتة وأهل الأندلس بساحة سبتة فرأى ما لا قبل له به ويقال إنه لما عاين ذلك قال: «هذه أفعى فغرت إلينا فاهاً» وكر راجعاً على عقبه فاجتاز على مدينة البصرة وكان بها حامية أهل الأندلس وبها يومئذٍ عمارة عظيمة فهدمها ثم صمد إلى برغواطة ببلاد تامسنا فجاهدهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الأنصار[2]، واستولى على المغرب

---

(1) تطوان يعني القديمة.

(2) راجع ما قاله ابن خلدون عند الكلام على غزو بلكين للمغرب فقد بسط القول أكثر مما هو عند المؤلف صفحة 200 من الجزء الأول من قسم تاريخ المغرب المطبوع بالجزائر.

أجمع ومحى دعوة بني أمية من نواحيه.

ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وقدم الحسن بن كنون الإدريسي من مصر إلى المغرب يطلب ملك سلفه انضم إليه يدو بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني في قومه وشايعه عل مراده وسرح المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس إليه ابن عمه أبا الحكم الملقب بعسكلاجة وانضم إليه آل خزر المغراويون وهم: محمد بن الخير الأصغر وخزرون بن فلفل بن خزر ومقاتل وزيري ابنا عطية بن عبد الله بن خزر، وانضم إليهم سائر مغراوة وظاهروا أبا الحكم عسكلاجة على شأنه في حصار الحسن بن كنون حتى طلب الأمان لنفسه حسبما استوفينا خبره آنفاً. ثم تقدم عسكلاجة إلى فاس فدخلها واستولى على عدوة الأندلس سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وخطب بها لبني أمية وبقي محمد بن عامر المكناسي عامل الشيعة بعدوة القرويين إلى سنة ست وسبعين وثلاثمائة فأتى أبو بياش فدخل عدوة القرويين بالسيف وقبض على محمد بن عامر المكناسي فقتله وخطب بها لبني أمية أيضاً. هكذا في القرطاس.

وقال ابن خلدون: إن المنصور بن أبي عامر عقد على المغرب بعد انصراف عسكلاجة عنه للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي وأطلق يده في الأموال والرجال، وأرسله إليه سنة ست وسبعين وثلاثمائة وأوصاه بالإحسان إلى مغراوة ولا سيما مقاتل وزيري ابنا عطية لحسن انحياشهم إلى المروانيين وصدق طاعتهم لهم. وأغراه بيدو بن يعلى اليفرني لتمريضه في الطاعة وقيامه مع الحسن بن كنون، فنفذ الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود لعمله ونزل بفاس وضبط المغرب أحسن ضبط واجتمعت عليه مغراوة.

ثم هلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين وورث رياسته على بادية قومه أخوه زيري بن عطية وحسنت صحبته للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود ومعاملته له.

ثم إن المنصور بن أبي عامر استدعى زيري بن عطية للوفادة عليه بقرطبة فوفد عليه وأحسن المنصور إليه ورفع منزلته ثم عاد إلى المغرب وأمره بقتال يدو بن يعلى اليفرني فاجتمع عليه هو والوزير ابن عبد الودود فقاتلوه فانتصر عليهم يدو بن يعلى وقتل الوزير ابن عبد الودود.

ثم عقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية من بعده على المغرب وفاس، وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. هذا ملخص ما عند ابن خلدون في هذا الخبر، ثم حكى بعده ما يخالفه مما نذكره مبسوطاً عن قريب وتوقف في أيهما الصواب والله أعلم.

الخبر عن دولة زيري بن عطية المغراوي بفاس والمغرب

هو زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوي وعبد الله المذكور هو أحد الإخوة الأربعة من بني خزر. قال في القرطاس: ملك على زناتة سنة ثمان وستين وثلاثمائة، فقام في المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة منه وبني أبي العافية المكناسيين فغلب زيري أولاً على جميع بوادي المغرب ثم ملك مدينتي فاس بعد عسكلاجة وأبي بياش: دخلها سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فاستوطنها وصيرها دار ملكه واستقام له أمر المغرب فعلا قدره وقوي سلطانه وارتفع شأنه وهو في ذلك متمسك بدعوة بني مروان أصحاب الأندلس. والله غالب على أمره.

حديث أبي البهار الصنهاجي مع المنصور ابن أبي عامر وما نشأ عن ذلك

كان أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خالف على ابن أخيه منصور بن بلكين ابن زيري بن مناد الصنهاجي أمير إفريقية وظهور الدولة العبيدية وخلع دعوة الشيعة ومال إلى دعوة المروانيين وغلب على المهدية وتونس وشلشال[1] وتلمسان ووهران وشلف وكثير من بلاد الزاب، وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر وبعث ببيعته إليهم وذلك في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فلما وصلت بيعته إلى المنصور بن أبي عامر بعث إليه بعهده على ما بيده من البلاد وبهدية وخلع وبأربعين ألف دينار، فلما قبض أبو البهار المال والهدية أقام على بيعتهم نحو الشهرين ثم خلعهم وعاد إلى العبيديين فبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب إلى زيري بن عطية بعهده على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله عليها، فسار إليه زيري بن عطية من فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه منصور بن بلكين وترك له البلاد فملك زيري بن عطية تلمسان وسائر أعمال أبي البهار فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الأقصى إلى الزاب، وكتب بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر وبعث له بهدية عظيمة فيها مائتا فرس من عتاق الخيل وخمسون جملاً مهرياً سابقة وألف درقة من جلود اللمط وأحمال كثيرة من قسي الزان، وقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره وألف حمل من التمر الجيد في جنسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة فسر بها المنصور وكافأه عليها، وكتب له بتجديد عهده على المغرب وذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. وأقام زيري بن عطية بفاس وأسكن قبيله بأنحائها وبالقرب منها في قياطينهم ودفع بني يفرن عن فاس وأحوازها إلى نواحي سلا فاستولوا عليها كما سيأتي.

---

(1) الذي في البكري أنها شرشال بالراء عوضاً عن اللام.

وفادة زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر بالأندلس

لما كانت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية أن يقدم عليه بقرطبة فاستخلف على المغرب ولده المعز بن زيري وأمره بسكنى تلمسان، واستخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمٰن بن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرويين منها علي بن محمد بن أبي علي بن قشوش، وولى قضاء المدينتين الفقيه الفاضل أبا محمد قاسم بن عامر الأزدي. وسار إلى الأندلس وقدم بين يديه هدية عظيمة، من جملتها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية، ودابة من دواب المسك، ومهاة وحشية تشبه الفرس، وحيوانات غريبة، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد، وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيارة عظماً، وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل، فاحتفل المنصور لقدومه احتفالاً عظيماً، وبرز الخاصة والعامة للقائه، وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسع له في الجرايات والإكرام ولقبه باسم الوزير وأفاض عليه أموالاً جسيمة وخلعاً نفيسة، وعجل بسراحه إلى عمله بعد أن جدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه منه. فعبر البحر واحتل بمدينة طنجة، فلما استقر بها وضع يده على رأسه وقال: «الآن علمت أنك لي» فاستقل ما وصله به المنصور واستقبح اسم الوزارة الذي سماه به. ولقد خاطبه به بعض رجاله فنهاه عن ذلك، وقال: «وزير من يالكع! لا والله إلا أمير ابن أمير! واعجباً لابن أبي عامر ومخرقته؛ لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه! والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله، وإن له منا ليوماً» وبلغت مقالته المنصور فصر عليها أذنه، وزاد في اصطناعه إلى أن كان ما نذكره.

استيلاء يدو بن يعلى اليفرني على فاس ومقتله

تقدم لنا أن بني يفرن من أعيان قبائل زناتة، وكان يدو بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني قد قام بأمر بني يفرن بعد مقتل أبيه يعلى بن محمد حين قتله جوهر الكاتب قائد الشيعة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة فملك يدو كثيراً من بوادي المغرب واتصلت رياسته إلى هذا التاريخ.

وتقدم لنا أن مغراوة دفعوا بني يفرن إلى سلا وأحوازها فاستولوا عليها وكان الأمير يدو بن يعلى مضاهياً لزيري بن عطية في الحسب والفضل والمال.

ولما استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية للوفادة المتقدمة أراد أن يفعل بيدو بن يعلى مثل ذلك، وكان قصده أن يمكر به لأنه كان لا يطمئن إليه اطمئنان زيري بن عطية، فأساء يدو بن يعلى إجابة المنصور، وقال: «متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد للبياطرة!» فأقصر عنه المنصور.

وكانت بين زيري ويدو بن يعلى منافسات ومنازعات على الرياسة بالمغرب، فكان يدو بن يعلى إذا غلب على زيري دخل مدينة فاس واستولى عليها. وإذا غلب عليه زيري أخرجه عنها وملكها وكانت الحرب بينهما سجالاً، وسئمت الرعية بفاس كثرة تعاقبهم عليها.

ثم لما سافر زيري بن عطية إلى الأندلس انتهز يدو بن يعلى الفرصة في غيبته فزحف إلى فاس ودخل منها عدوة الأندلس بالسيف في ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة وقتل بها خلقاً كثيراً من مغراوة، فلما نزل زيري بن عطية بطنجة اتصل به خبر يدو بن يعلى واستيلاؤه على فاس، فأسرع السير نحوه حتى نزل قريباً من فاس فكانت بينهما حرب شديدة هلك فيها خلق كثير من القبيلتين: مغراوة وبني يفرن إلى أن هزمه زيري واقتحم عليه فاساً عنوة فقتله ومثل به وبعث برأسه إلى المنصور بن أبي عامر بقرطبة وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة.

بناء مدينة وجدة

لما قتل زيري بن عطية يدو بن يعلى صفا له أمر المغرب ولم يبق له به منازع، وهابته الملوك وبقي الأمر مستقيماً بينه وبين المنصور في الظاهر فسمت همته إلى بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته، فبنى مدينة وجدة[1] وشيد أسوارها وأحكم قصبتها وركب أبوابها وسكنها بأهله وحشمه، ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وثغراً للعمالتين: المغرب الأقصى والأوسط. وكان اختطاطه إياها في شهر رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. ولم يزل زيري بن عطية في علو سلطان وارتفاع شأن إلى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ثم حدث ما نذكره.

حدوث النفرة بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر وما نشأ عن ذلك

ثم فسد ما بين المنصور وبين زيري بن عطية، واتصل بالمنصور أن زيري يتنقصه ويعرض في شأنه وحجره على المؤيد، ويتكلم فيه بالقبيح، فقطع المنصور عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة، ومحى اسمه من ديوانه، ونادى بالبراءة منه فعزم زيري على خلافة، فقطع ذكره من الخطبة، واقتصر على ذكر هشام المؤيد، وطرد عماله من المغرب وألجأهم إلى سبتة فأنفذ إليه المنصور بن أبي عامر مولاه واضحاً الفتى في جيش عظيم وأمده بالحماة من سائر الطبقات وأزاح عللهم وأفاض عليهم الأموال للنفقات

---

(1) في البكري أن وجدة مدينتان مسورتان أحدث إحداهما يعلى بن بلكين الورتغنيني بعد أربعين وأربعمائة (انظر بقية كلامه في صفحة 87 طبع الجزائر).

وأنواع السلاح والكسى، فعبر واضح البحر واستقر بمدينة طنجة فانضم إليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم. وبايعوه على قتال زيري بن عطية ومن معه من قبائل زناتة فأفاض عليهم الخلع والأموال.

ثم أمد المنصور بمن كان معه بالأندلس من ملوك البربر النازعين عن زيري بن عطية إليه فتكاملت جيوشه وخرج بهم واضح من طنجة يؤم فاساً، فاتصل خبره بزيري بن عطية فخرج إليه من فاس في عساكر زناتة فالتقى الجمعان بوادي زادات[1] فكانت بينهما حروب بعد العهد بمثلها مدة من ثلاثة أشهر إلى أن انهزم واضح وقتل أكثر جيشه وفر واضح إلى طنجة فدخلها منهزماً وكتب إلى المنصور يطلب منه المدد.

وقال ابن خلدون: إن واضحاً حين برز من طنجة وزحف إليه زيري بن عطية تواقفا ثلاثة أشهر ثم تناول واضح آصيلا ونكور فضبطهما، واتصلت الوقائع بينه وبين زيري ثم بيت واضح معسكر زيري بنواحي آصيلا وهم غارون فأوقع بهم.

وخرج المنصور من قرطبة فوصل إلى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الأندلس وقوادها حتى بقي المنصور وحده وأمره بحرب زيري بن عطية فركب المظفر البحر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة.

واتصل خبر المظفر بزيري بن عطية فخافه وأخذ في الاستعداد لملاقاته، وكتب إلى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من بلاد ملوية وتلمسان والزاب وسائر بوادي زناتة، فنهض بهم إلى قتال عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر وبرز عبد الملك من طنجة ومعه واضح الفتى في جيوش لا تحصى، والتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة فكانت بينهم

---

(1) في النسخة الصحيحة من ابن خلدون وادي ردات وكذلك في مسالك البكري.

حرب أعظم من الأولى ودام القتال بينهم يوماً إلى الليل.

وكان في عسكر زيري بن عطية غلام أسود اسمه سلام، كان زيري قد قتل أخاه فوجد الفرصة إليه فانتهزها وضربه بسكين في نحره ثلاث ضربات فأشواه - أي لم يصب مقتله - ومر الأسود يشتد نحو المظفر وبشره بقتل زيري فاستكذبه، ثم سقط إليه الخبر الصحيح بأن زيري قد أثبت، فشد عليهم عبد الملك - وهم في حال دهشة من جرح أميرهم - فهزمهم واستمرت الهزيمة على زيري وأصحابه وأثخن فيهم عبد الملك بالقتل وملك محلة زيري بأسرها واحتوى على جميع ما فيها من المال والسلاح والكراع والإبل والعدة فاستولى من ذلك على ما لا يأخذه الحصر.

ومضى زيري على وجهه حتى انتهى إلى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة فعسكر به، واجتمع إليه الفل من قومه وعزم على الرجوع لمناجزة المظفر فاتصل الخبر بالمظفر فانتخب من عسكره خمسة آلاف فارس وقدم عليهم واضحاً الفتى ونهضوا إلى زيري بن عطية فضربوا في محلته ليلاً بمضيق الحية وهم آمنون، فأوقعوا بهم وقعة عظيمة أسر فيها من أشراف مغراوة نحو ألفي رجل، وذلك في منتصف رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فامتن عليهم عبد الملك المظفر وأركبهم معه فكانوا من جنده، وفر زيري بن عطية في شرذمة من أصحابه وبني عمه فانتهى إلى فاس فأغلق أهلها الأبواب دونه فسألهم أن يخرجوا إليه عياله وأولاده فأخرجوهم إليه. وأعطوه مع ذلك الزاد والدواب فأخذهم وانصرف إلى الصحراء فنزل بلاد صنهاجة. وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قدوم عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر مدينة فاس وما كان من شأنه بها

لما انهزم زيري بن عطية من مضيق الحية إلى الصحراء نهض عبد الملك المظفر من معسكره يؤم فاساً، فدخلها يوم السبت منسلخ شوال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فاستقبله أهلها مستبشرين به فأحسن لقاءهم وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح فقرأ الكتاب على منبر جامع الزهراء من قرطبة وعلى منابر مساجد الأندلس كلها شرقاً وغرباً وأعتق المنصور ألفاً وخمسمائة مملوك وثلاثمائة مملوكة شكراً لله تعالى وفرق أموالاً كثيرة على الفقراء وذوي الحاجات، وكتب إلى ولده المظفر بعهده على المغرب وأوصاه بحسن السيرة والعدل، فقرأ كتابه على منبر مسجد القرويين وذلك يوم الجمعة آخر ذي القعدة من السنة المذكورة.

وانصرف واضح إلى الأندلس واستوطن عبد الملك مدينة فاس وعدل فيها عدلاً لم يعهدوه من أحد قبله وأقام بها ستة أشهر ثم صرفه والده عنها إلى الأندلس وبعث إليها عوضاً عنه عيسى بن سعيد صاحب الشرطة، فأقام والياً عليها إلى صفر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة فعزله المنصور عنها وعما كان ولاه من بلاد العدوة، وولى عليها واضحاً الفتى وانصرف عيسى بن سعيد إلى الأندلس من السنة المذكورة.

بقية أخبار زيري بن عطية

لمّا نزل زيري بن عطية ببلاد صنهاجة وجدهم قد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد صاحب إفريقية فأرسل زيري بن عطية في قبائل زناتة حاشرين، فأتى منهم خلق كثير من مغراوة

وغيرهم فاغتنم زيري تلك الفرصة من صنهاجة فزحف إليهم وأوغل في بلادهم وهزم جيوشهم ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب وملك مع ذلك تلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة للمؤيد، وحاصر مدينة آشير قاعدة بلاد صنهاجة وكتب إلى المنصور بن أبي عامر بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى ولايته. وبينما هو محاصر لآشير يباكرها ويرواحها بالقتال انقضت عليه جراحاته التي كان جرحه الأسود فمات منها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة المعز بن زيري بن عطية المغراوي

لمّا هلك زيري بن عطية اجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيري فبايعوه وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة، وصالح المنصور بن أبي عامر وقام بدعوته ورجع إلى طاعته، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي المنصور وولي ابنه بعده عبد الملك المظفر فبايعه المعز أيضاً ودعا له على منابره، فعزل المظفر واضحاً الفتى عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه إلى الأندلس وكتب إلى المعز بن زيري بعهده على فاس وسائر أعمال المغرب حواضره وبواديه وذلك سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وشرط له المعز أن يؤدي إليه في كل سنة مالاً معلوماً وخيلاً ودرقاً يوصل ذلك إلى قرطبة وأعطاه مع ذلك ولده معنصر بن المعز رهناً، وكانت نسخة كتاب العهد:

بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

من الحاجب المظفر سيف الدولة، دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة أهل مدينتي فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله. أما بعد: أصلح الله

شأنكم، وسلم أنفسكم وأديانكم، فالحمد لله علام الغيوب، وغفار الذنوب ومقلب القلوب، ذي البطش الشديد، المبدىء المعيد، الفعال لما يريد لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، بل له الملك والأمر، وبيده الخير والشر إياه نعبد وإياه نستعين، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن، فيكون، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله الطيبين، وجميع الأنبياء والمرسلين، والسلام عليكم أجمعين، وإن المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع رسله لدينا وكتبه، متنصلاً من هنات دفعته إليها ضرورات، ومستغفراً من سيئات حطتها من توبته حسنات، والتوبة ممحاة الذنب، والاستغفار منقذ من العتب، وإذا أذن الله بشيء يسره، وعسى أن تكرهوا شيئاً ولكم فيه خيره، وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة، ولزوم الجادة واعتقاد الاستقامة، وحسن المعونة وخفة المؤنة، فوليناه ما قبلكم، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم، وأن يرفع أعمال الجور عنكم، وأن يعمر سبلكم، وأن يقبل من محسنكم، ويتجاوز عن مسيئكم، إلا في حدود الله تبارك وتعالى، وأشهدنا الله عليه بذلك، وكفى بالله شهيداً، وقد وجهنا الوزير أبا علي[1] بن حذيم أكرمه الله وهو من ثقاتنا، ووجوه رجالنا، ليأخذ بشأنه، ويؤكد العهد فيه عليه بذلك وأمرناه بإشراككم فيه، ونحن بأمركم معتنون، ولأحوالكم مطلعون، وأن يقضي على الأعلى للأدنى، ولا يرضى فيكم بشيء من الأدنى[2]، فثقوا بذلك واسكنوا إليه، وليمض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدوداً ظهره بنا، معقوداً سلطانه بسلطاننا، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فذلك ظننا به إذ وليناه، وأملنا فيه إذا قلدناه، والله المستعان، وعليه التكلان، لا إله إلا هو، ولتبلغوا منا سلاماً طيباً جزيلاً. ورحمة الله وبركاته[3].

---

(1) الذي في ابن خلدون أنه أبو محمد علي بن جذلم.

(2) في ابن خلدون «الأذمى».

(3) زاد ابن خلدون: «كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة».

ولما وصل إلى المعز بن زيري العهد بولايته على المغرب، ما عدا كورة سجلماسة فإنها كانت لبني خزرون بن فلفل ضم نشره وثاب إليه نشاطه وبث عماله في جميع كور المغرب وجبا خراجها، لم تزل ولايته متسقة وطاعة رعاياه منتظمة إلى أن افترق أمر الجماعة بالأندلس واختل رسم الخلافة بها فاضطرب أمر المغرب على المعز، وأقام على ذلك إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعمائة كذا عند ابن خلدون.

وفي القرطاس: «لم تزل بلاد المغرب أيام المعز في غاية الهدنة والعافية والرخاء والأمن إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة» والله أعلم.

وأما ابنه معنصر فإنه أقام بقرطبة إلى أن قامت الفتنة بالأندلس وانقرضت الدولة العامرية فانصرف معنصر إلى أبيه وعشيرته بفاس.

وحكي في القرطاس: أنه لما كانت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وتوفي عبد الملك المظفر وولي بعده أخوه عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر بعث إليه المعز بن زيري بهدية نفيسة فيها خمسون فرساً، وكان ولده معنصر مرتهناً عنده بقرطبة كما قلنا، فأحضر الحاجب عبد الرحمٰن معنصر بن المعز حين وصلت إليه هدية أبيه فخلع عليه وعلى الرسل الذين قدموا عليه بالهدية وبعث به إلى أبيه مكرماً، فجمع المعز كل فرس كان عنده وبعث به إلى قرطبة، وكان مبلغ عدد الخيل تسعمائة فرس ولم تصل من المغرب إلى الأندلس هدية أعظم منها.

الخبر عن دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوي

لما توفي المعز بن زيري بن عطية ولي بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية، وليس بابن له كما زعم بعض المؤرخين وإنما هو ابن عمه، وقع الاتفاق في بعض الأسماء فنشأ الغلط، واستولى حمامة على عمل فاس والمغرب واستفحل ملكه وقصده الأمراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء.

وكانت الدولة بالأندلس قد تداعت إلى الاختلال، فكان ذلك من أسباب استفحال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلالها بالأمر، فكان لحمامة من الظهور ما ذكرناه إلى أن أصابته عين الكمال بمنازعة أبي الكمال على ما نذكره.

الخبر عن دولة أبي الكمال تميم بن زيري اليفرني واستيلائه على فاس وأعمالها

قد تقدم لنا أن بني يفرن كانوا قد تحيزوا إلى نواحي سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة ثم ملكوا تادلا وما والاها من البلاد.

ثم لما كانت سنة أربع وعشرين وأربعمائة كان الأمير على بني يفرن أبا الكمال تميم بن زيري بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، فزحف من سلا إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة، وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم، فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة، ومات من مغراوة أمم، واستولى تميم عل فاس وأعمال المغرب، ودخلها في جمادى الآخرة من السنة المذكورة، واستباح يهود فاس فقتل منهم أكثر من ستة آلاف يهودي، وسبى حرمهم واصطلم نعمتهم بالمرة، ولحق حمامة بوجدة فاستمد من كان هنالك من قبائل مغراوة وزناتة

وأنجاد قبائل ملوية وانتهى إلى تنس[1] فاستنفر من هنالك من زناتة، وبعث الحاشدين في قياطينهم إلى جميع بلاد المغرب الأوسط، وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم فاجتمع له من ذلك جم غفير، ثم زحف إلى فاس سنة تسع وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال، ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة، وأقام بها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكانت مدة استيلائه على فاس وأعمالها خمس سنين وقيل سبع سنين.

وكان أبو الكمال اليفرني يغلب عليه الجفاء والجهل ومع ذلك فقد كان صلباً في دينه مستقيماً فيه مولعاً بجهاد برغواطة، كان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي. ولما كانت سنة اثنتين وستين وأربعمائة وقتل ابنه في حرب لمتونة جاؤوا به ليدفنوه إلى جانب قبر أبيه أبي الكمال فسمعوا من قبره تكبيراً وتشهداً كثيراً، فنبشوا قبره فألفوه لم يتغير منه شيء، ثم رآه بعض قرابته في النوم، فقال له: «ما هذا التكبير والتشهد الذي سمعناه من قبرك؟» قال: «تلك الملائكة وكلهم الله بقبري يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون ثواب ذلك لي إلى يوم القيامة» قال: «وبم نلت ذلك؟» قال: «بجهادي برغواطة» حكي هذا الخبر في القرطاس. والله على كل شيء قدير. وأقام حمامة في سلطان فاس والمغرب إلى إن توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وقيل غير ذلك.

(1) تنس أسسها البحريون من أهل الأندلس سنة 262 وخربها الماء سنة نيف وعشرين وستمائة (ذكرها البكري وياقوت).

الخبر عن دولة دوناس بن حمامة ابن المعز بن عطية المغراوي

لما توفي حمامة بن المعز ولي بعده ابنه دوناس بن حمامة ويكنى أبا العطاف، واستولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب وأعماله، وخرج عليه لأول دولته ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن عطية، فجرت له معه حروب وخطوب وكثرت جموع حماد وغلب على ضواحي فاس وحاصرها حصاراً شديداً، وقطع عن عدوة القرويين جرية الوادي، واحتفر السياج[1] المعروف بسياج حماد، ويقال إن دوناس خندق به على نفسه واستمر حماد محاصراً لفاس إلى أن هلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، فاستقامت دولة دوناس وانفسحت أيامه. وصار الناس في هدنة ودعة ورخاء كثير.

وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي، فأدار دوناس السور على أرباضها، وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق واستبحر عمرانها، فصارت حاضرة المغرب من يومئذٍ، ولم يشتغل دوناس من يوم ولي إلى أن توفي إلا بالبناء والتشييد، وكانت وفاته في شوال سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

الخبر عن دولة فتوح بن دوناس المغراوي

لما توفي دوناس بن حمامة ولي بعده ابنه الفتوح بن دوناس ونزل بعدوة الأندلس، ونازعه الأمر أخوه الأصغر ـ واسمه عجيسة ـ وكان شهماً محرباً،

---

(1) هذا المحل هو المعروف اليوم بحومة السياج بفاس.

فاستولى على عدوة القرويين واستبد على أخيه، وافترق أمر فاس وأعمالها بافتراقهما، وقامت الحرب بينهما على ساق، وبنى الفتوح بعدوة الأندلس قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكدان وبنى عجيسة أيضاً قصبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين، وكثرت العداوة بينهما واستحكمت فكانا لا يفتران عن القتال ليلاً ونهاراً، وعظم الخوف بالمغرب وكثر الهرج وغلت الأسعار واشتدت المجاعة، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد فملكوها والأمر لازال والحال ما حال وليس لأهل فاس شغل إلا القتال، واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين إلى أن بيت الفتوح عجيسة فاقتحم عليه عدوة القرويين ليلاً فقتله، واستولى على العدوتين معاً.

والفتوح بن دوناس هذا هو الذي بنى باب الفتوح من مدينة فاس بسورها القبلي وبه عرف إلى الآن، وأخوه عجيسة هو الذي بنى باب عجيسة برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين من ناحية الجوف وبه عرف أيضاً إلى الآن، فلما ظفر الفتوح بعجيسة وقتله أمر بتغيير اسم الباب المنسوب إليه فأسقط الناس العين من عجيسة وعوضوا عنها الألف واللام فقالوا باب الجيسة قاله في القرطاس. وقال ابن خلدون: «خففوه لكثرة الاستعمال».

ولم يزل الفتوح مستولياً على فاس إلى أن دهم المغرب ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة، وخشي الفتوح مغبة ذلك فأفرج عن فاس وتخلى عنها وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي إلى المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة ودخل فاساً واحتمل من أكابرها وأشرافها عدداً رهناً على الطاعة وقفل إلى قلعته.

الخبر عن دولة معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية المغراوي

لما تخلى الفتوح بن دوناس عن ملك فاس وأعمالها قام بالأمر بعده

قريبه معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية فبايعته قبائل مغراوة الذين بفاس وأحوازها، وذلك في رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة. وكان معنصر ذا حزم ورأي وشجاعة وإقدام، وشغل بحرب لمتونة وكانت له عليهم الوقعة المشهورة.

ثم غلب يوسف بن تاشفين على فاس وخلف عليها عامله وارتحل إلى عمارة وفتح الكثير من بلادها حتى أشرف على طنجة، ثم رجع إلى حصار قلعة فازاز. فخالفه معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ومثل بهم بالحرق والصلب، واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فاستدعى مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس، فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل أيديهما، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه الحاجب سكوت البرغواطي صاحب سبتة.

واستصرخ أهل مكناسة بيوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنقها، وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها حتى اشتد بأهلها الحصار، ومسهم الجد، وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة، فلم يدر ما فعل الله به سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة تميم بن معنصر المغراوي

لما فقد معنصر بن حماد في الملحمة التي كانت بينه وبين اللمتونيين بايع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء.

وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى إذا كانت سنة ثنتين وستين وفرغ من فتح غمارة صعد إلى فاس فحاصرها أياماً، ثم اقتحمها عنوة، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم،

وهلك تميم بن معنصر في جملتهم حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى، فاتخذوا لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان. قاله ابن خلدون.

وقال في القرطاس: دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس الدخلة الثانية الكبرى فقتل بها من مغراوة وبنى يفرن في أزقتها وجوامعها ما يزيد على العشرين ألف رجل، وذلك سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وانقرضت دولة مغراوة من المغرب والبقاء لله وحده.

وكانت مدة دولتهم نحو مائة سنة. وفي دولتهم عظم شأن فاس وبنيت الأسوار على أرباضها وحصنت أبوابها، وزيد في مسجديها القرويين والأندلس زيادة كثيرة، واتسع الناس في أيام مغراوة في البناء، فعظمت فاس واستبحر عمرانها، وكثرت خيراتها، واتصل الأمن والرخاء جل أيامهم إلى أن ضعفت أحوالهم وجاروا على رعيتهم بأخذ أموالهم وسفك دمائهم والتعرض لحرمهم. فانقطعت عنهم المواد وكثر الخوف في البلاد، وغلت الأسعار، وبلى الله عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وذلك في دولة الفتوح بن دوناس ومن بعده، فكان رؤساء مغراوة وبني يفرن يلجون على الناس دورهم فيأخذون ما يجدون بها من الطعام، ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم، ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك.

وكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على قنة جبل العرض، فينظرون إلى الدور التي بالمدينة فإذا رأوا داراً بها دخان قصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره، ومن تعرض لهم في ذلك قتلوه، فلما ارتكبوا هذه العظائم سلبهم الله ملكه وغير ما بهم من نعمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] فسلط عليهم المرابطين فمحوا آثارهم من المغرب ونفوهم عنه بالكلية وطهروه من جورهم.

وفي أيامهم اتخذ أهل فاس المطامير في بيوتهم للطحن والطبخ لئلا

يسمع دوي الرحى فتقصدهم سفهاء مغراوة، وفيها أيضاً اتخذوا غرفاً لا مراقي لها حتى إذا كان عشى النهار صعد الرجل بأهله وعياله إليها بسلم، ثم يرفع السلم معه لئلا يدخل عليه فجأة. وكان من هذا شيء كثير.

وكان من الأحداث في هذه المدة أنه في ليلة الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ظهر نجم في السماء، كان في رأي العين مثل الصومعة العظيمة، طلع من جهة المشرق وتهافت جرياً فيما بين المغرب والجوف، وتطاير منه شرر عظيم فزع الناس منه واستغاثوا ربهم في صرف مكروهه عنهم.

وفي سنة اثنتين وثمانين بعدها كان الكسوف الكلي الذي أذهب جميع القرص.

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة كانت الريح الهائلة التي نظر الناس فيها إلى البهائم تمر بين السماء والأرض نعوذ بالله من سخطه.

وفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة طلع الكوكب الوقاد وهو نجم عظيم ضخم الجرم كثير الضياء.

وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة طلع نجم عظيم من ذوات الأذناب شديد الارتعاد.

وفي سنة سبع وأربعمائة انقرضت دولة بني أمية بالأندلس، وقامت بها دولة بني حمود فكانت مدتها نحو سبع سنين وانقرضت أيضاً، وافترق أمر الجماعة بالأندلس، وصار الملك بها طوائف إلى أن نسخ ذلك يوسف بن تاشفين.

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة اشتد القحط ببلاد المغرب كلها من تاهرت إلى سجلماسة وكثر الفناء في الناس نسأل الله العافية.

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة كانت الزلزلة العظيمة بالأندلس اضطربت لها الأرض وانهدت الجبال.

وفي سنة سبع عشرة وأربعمائة توفي الفقيه ابن العجوز بفاس.

وفي سنة ثلاثين وأربعمائة توفي الشيخ الفقيه أبو عمران الفاسي. قال في التشوف: «أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي، أصله من مدينة فاس، ونزل بالقيروان فأخذ عن أبي الحسن القابسي، ثم رحل إلى بغداد فحضر مجلس القاضي أبي بكر بن الطيب، ثم عاد إلى القيروان وبها مات لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ثلاثين وأربعمائة وكان مقدماً في الفضل والأمانة» اهـ.

انتهى الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني

ويبتدأ

بالخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

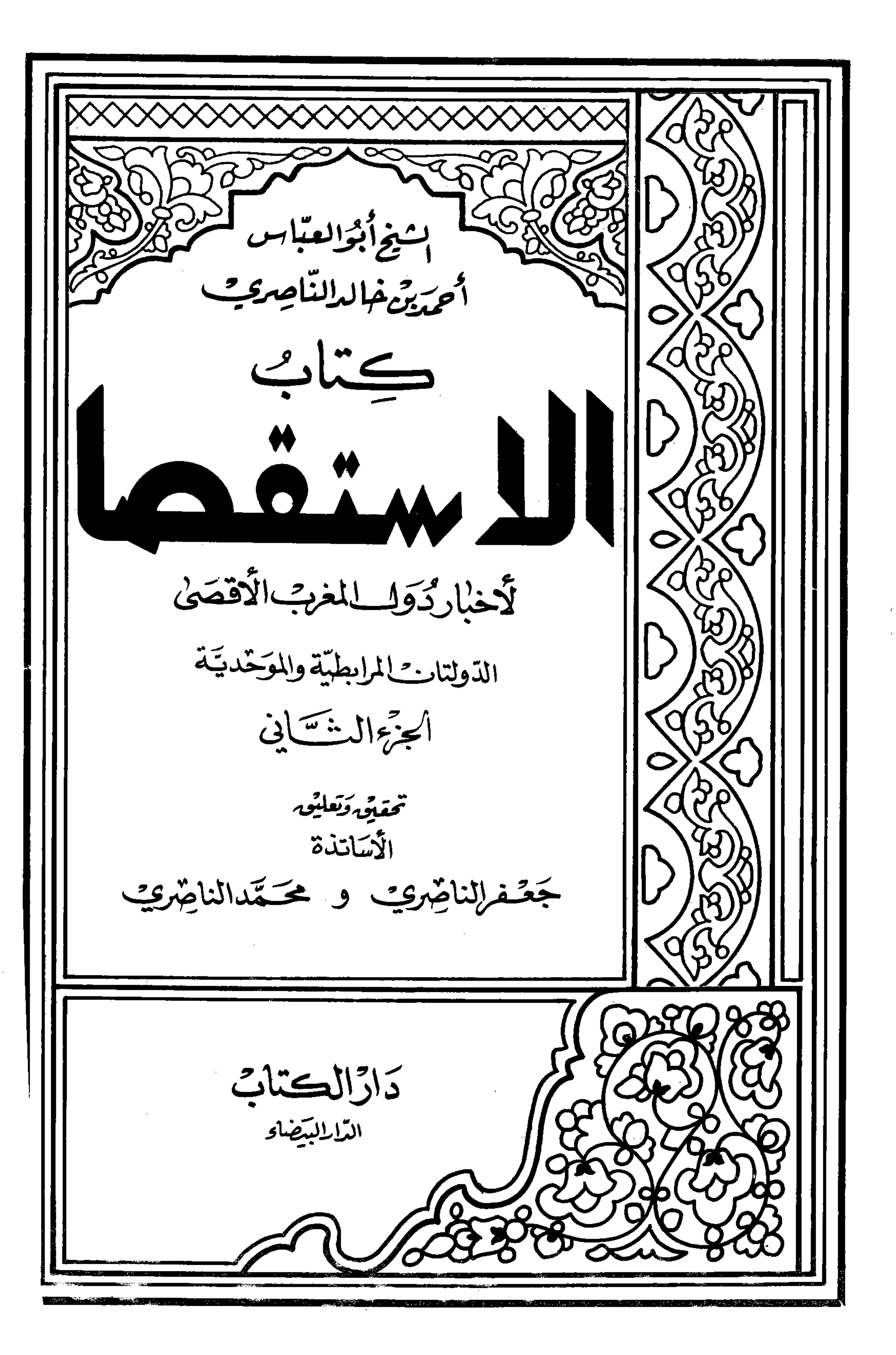
حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)



الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري
كتاب
الاستقصا
لأخبار دول المغرب الأقصى
الدولتان المرابطيّة والموحّديّة
الجزء الثّاني
تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري
دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء
1418هـ/ 1997م
رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدولة المرابطية

الخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتونية المرابطية وأوليتها

قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البربر وشعوبها أن صنهاجة إحدى قبائل البرانس من البربر، وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البربر.

وتقدم لنا أن النسابين من العرب زعموا أن صنهاجة وكتامة من حمير، خلفهم الملك إفريقيش بالمغرب، فاستحالت لغتهم إلى البربرية. والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر، وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين، منهم: لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراتة ومداسة وبنو وارث وبنو دحير وبنو زياد وبنو موسى وبنو فشتال وغير ذلك، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر.

وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما: دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين والأخرى: دولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس كما سيأتي.

وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان، ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضاً، وفيهم قوماً لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة، وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق، وإنما قيل لهم الملثمون لأنهم

يتلثمون، ولا يكشفون وجوههم أصلاً.

قال ابن خلكان: «اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، وسبب ذلك على ما قيل إن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم. وقيل كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت متلثمين في زي النساء. فإذا أتاهم العدو وظنوهم نساء خرجوا عليهم. ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركاً به بما حصل لهم من الظفر بالعدو».

وقال عز الدين ابن الأثير في كامله ما مثاله: وقيل إن سبب تلثمهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجل ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح ففعلن ذلك وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً فظنه رجالاً وقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم، فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال إلى الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو خلقاً كثيراً وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً.

وفي ذلك يقول أبو محمد بن حامد الكاتب:

قوم لهم شرف العلا من حمير ... وإذا انتموا صنهاجة، فهم هم
لما حووا أحراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم، فتلثموا

وقال ابن خلدون: «كان دين صنهاجة أهل اللثام المجوسية شأن برابرة

المغرب، ولم يزالوا مستقرين بتلك المفالات الصحراوية حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق[1] لهم ملك ضخم عند دخول عبد الرحمٰن بن معاوية إلى الأندلس، توارثه ملوك منهم من بني ورتنطيو[2] وطالت أعمارهم فيه إلى الثمانين ونحوها ودوخوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام فدان به كثير منهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم، ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعاً، واستمروا على ذلك مائة وعشرين سنة، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتاسرت[3] اللمتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وبايعوه، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد والحج فلبث فيهم ثلاث سنين ثم استشهد في بعض غزواته».

الخبر عن رياسة يحيى بن إبراهيم الكدالي وما كان من أمره مع الشيخ أبي عمران الفاسي رحمهما الله

لما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت قام بأمر صنهاجة من بعده يحيى بن إبراهيم الكدالي، ـ وكدالة ولمتونة أخوان يجتمعان في أب واحد؛ وكل منهما قبيل كبير يسكنون الصحراء التي تلي بلاد السودان ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط ـ فاستمر الأمير يحيى بن إبراهيم على رياسة صنهاجة

(1) راجع نص ابن خلدون في صحيفة 235 من الجزء الأول طبع الجزائر ففيه بعض تقديم وتأخير وزيادة بيان.

(2) الذي في نسخ ابن خلدون إنه ورتنطيق بالقاف.

(3) الذي في ابن خلدون صحيفة 236 طبع الجزائر جزء أول أنه تارشت ونسخة مطبعة مصر صحيفة 182 من الجزء السادس أنه ناشرت وفي القرطاس طبع فاس تارشتا أوتارشت.

وحربهم لأعدائهم إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة، فاستخلف على صنهاجة ابنه إبراهيم بن يحيى وارتحل إلى المشرق برسم الحج. فلما قضى حجه وزيارته قفل إلى بلاده، فمر في عوده بالقيروان فلقي بها الشيخ الفقيه أبا عمران الفاسي، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه، فرآه الشيخ أبو عمران محبّاً في الخير فأعجبه حاله، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق، فقال له الشيخ: «وما ينتحلون من المذاهب؟». قال: «إنهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم!» فاختبره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئاً! إلا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة! فقال له الشيخ: «وما يمنعك من تعلم العلم؟» فقال: «يا سيدي عدم وجود عالم بأرضي، وليس في بلادي من يقرأ القرآن فضلاً عن العلم! ومع ذلك فأهل أرضي يحبون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن، ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الإسلام، فلو رغبت في الثواب من الله تعال لبعثت معي بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويكون لك وله الأجر العظيم عند الله تعالى إذ كنت سبب هدايتهم» فندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها، فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن إبراهيم: «إني أعرف ببلد نفيس[1] من أرض المصامدة فقيهاً حاذقاً ورعاً أخذ عني علماً كثيراً ـ واسمه واجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى ـ أكتب إليه كتاباً لينظر في تلامذته من يبعثه معك فسر إليه لعلك تجد حاجتك عنده» فكتب إليه الشيخ أبو عمران كتاباً يقول فيه: «أما بعد إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو: يحيى بن إبراهيم

---

(1) بلد نفيس قرب أغمات كانت موجودة زمان الكبرى وقد ذكرها في مسالكه فراجع ما ذكره في حقها في صحيفة 160 طبع الجزائر وراج ما كتب عليها في الجزء الأول من هذه الطبعة صحيفة 153 تعليق عدد 2.

الكدالي فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن، ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

وأبو محمد واجاج هذا من رجال التشوف قال فيه: «ومنهم واجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى رحل إلى القيروان، وأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس، فبنى داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به» اهـ.

فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس، فسلم عليه ودفع إليه الكتاب، وكان ذلك في رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج في الكتاب، ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران، فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة، مشاركاً في العلوم، فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، وكان من أمره ما نقصه عليك.

الخبر عن دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها

لما انتهى يحيى بن إبراهيم إلى بلاده ـ ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ـ تلقاه قبائل كدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما، وتيمنوا بالفقيه وبالغوا في إكرامه وبره، فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بآداب الشرع، وألفاهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر، فقال لهم: «ليس هذا من السنة، وإنما سنة الإسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط، وله فيما شاء من ملك اليمين سعة».

وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدد في ذلك، فأطرحوه واستصعبوا علمه، وتركوا الأخذ عنه لما جشمهم من مشاق التكليف.

فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه واتباعهم لأهوائهم عزم على الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في دين الإسلام يومئذٍ، فلم يتركه يحيى بن إبراهيم لذلك، وقال له: إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وما عليّ فيمن ضل من قومي. وكان قومه ليس عندهم من الإسلام إلا الشهادة دون ما عداها من أركان الإسلام وشرائعه.

ثم قال يحيى بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين: «هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة؟» قال: «وما هو؟» قال: «إن هٰهنا جزيرة في البحر». قال ابن خلدون: «هو بحر النيل يحيط بها من جهاتها يكون ضحضاحاً في المصيف يخاض بالأقدام وغمراً في الشتاء يعبر بالزوارق» قال يحيى بن إبراهيم: وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر، ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالى حتى نموت». فقال عبد الله بن ياسين: «إن هذا الرأي حسن! فهلم بنا فلندخلها على اسم الله! فدخلها ودخل معهما سبعة نفر من كدالة، وابتنى عبد الله رابطة هناك، وأقام في أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر؛ فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار! فكثر الواردون عليهم، والتوابون لديهم، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الخير، ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتى تمكن حبه من قلوبهم، فلم تمر عليه إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل! وكان من أمرهم ما تسمعه عن قريب.

شروع عبد الله بن ياسين في الجهاد وإعلانه بالدعوة وما كان من أمره في ذلك

لما اجتمع إلى عبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم: المرابطين للزومهم رابطته.

ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيباً فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم جزائه، ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم: «معشر المرابطين، إنكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل! ولن يغلب ألف من قلة! وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده!» فقالوا له: «أيها الشيخ المبارك أمرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين! ولو أمرتنا بقتل آباءنا لفعلنا!» فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا فخلوا سبيلهم وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين». فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته. فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عما هم بسبيله، فلم يرفعوا بذلك رأساً.

فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله! ودعاهم إلى التوبة! ورغبهم في الجنة، وخوفهم من النار، وأقام ينذرهم سبعة أيام! وهم في ذلك كله لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فساداً! فلما يئس منهم قال لأصحابه: «قد أبلغنا في الحجة،

وأنذرنا وأعذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله» فبدأ أولاً بقبيلة كدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه، وقتل منهم خلقاً كثيراً. وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، وحسنت حالهم، وأدوا ما يلزمهم من كل ما فرض الله عليهم، وكان ذلك في صفر سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

ثم سار إلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم، وأذعنوا إلى الطاعة، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة.

ثم سار إلى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له، وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة.

فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا إلى التوبة والمبايعة، وأقروا له بالسمع والطاعة. فكان كل من أتاه تائباً منهم يطهره بأن يضربه مائة سوط ثم يعلمه القرآن وشرائع الإسلام، وكان يأمرهم بالصلاة والزكاة وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يرفع إليه من ذلك.

ثم أخذ في اشتراء السلاح وأركاب الجيوش من ذلك المال، وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها.

ثم جمع أسلاب القتلى في تلك المغازي وجعلها فيئاً للمرابطين وبعث بمال دثر مما اجتمع لديه من الزكوات والأعشار والأخماس إلى طلبة العلم ببلاد المصامدة، فاشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وما والاها، من بلاد السودان وبلاد القبلة وبلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب، وأنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله تعالى وإلى الصراط المستقيم ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهد في الدنيا، وطار له ذكر في العالم، وتمكن ناموسه من القلوب وأحبته الناس.

ثم توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي على أثر ذلك، وحكى ابن خلدون أن وفاة يحيى بن إبراهيم كانت قبل اعتزال عبد الله بن ياسين وأصحابه في الجزيرة. والله أعلم.

الخبر عن رياسة يحيى بن عمرو بن تكلاكين اللمتوني

لما توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي عزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين في حربهم وجهادهم لعدوهم.

وكانت قبيلة لمتونة من بين قبائل صنهاجة أكثر طاعة لله تعالى وديناً وصلاحاً، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويقدمهم على غيرهم، وذلك لما أراده الله تعالى من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق، فجمع عبد الله بن ياسين رؤوس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتوني - وعبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي ويمنع، وعن رأيه يصدرون - فكان يحيى بن عمر يتولى النظر في أمر الحرب وعبد الله بن ياسين ينظر في أمر الدين وأحكام الشرع ويأخذ الزكوات والأعشار.

وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، واقفاً عند أمره ونهيه فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً: «قد وجب عليك أدب» قال يحيى: «فيماذا يا سيدي؟» قال: «لا أعرفك به حتى آخذه منك! فكشف له يحيى عن بشرته فضربه عشرين سوطاً! ثم قال له: «إنما ضربتك لأنك باشرت القتال! واصطليت بنار الحرب بنفسك! وذلك خطأ منك! فإن الأمير لا يقاتل، وإنما يقف ويحرض الناس، ويقوي نفوسهم، فإن حياة الجند بحياة أميره، وهلاكه بهلاكه».

واستقام الأمر ليحيى بن عمر، وملك جميع بلاد الصحراء، وغزا بلاد السودان ففتح كثيراً منها، وكان من أهل الزهد والدين والصلاح.

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر سجلماسة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على بني مدرار المكناسيين أصحاب سجلماسة أن انقراض دولتهم كان على يد خزرون بن فلفل بن خزر المغراوي، وأنه زحف إلى سجلماسة سنة ست وستين وثلاثمائة، وبرز إليه صاحبها أبو محمد المعتز بالله - آخر ملوك بني مدرار الصفرية - فهزمه خزرون وقتله واستولى على بلده وذخيرته، وبعث برأسه إلى قرطبة - وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر - واستمر خزرون بن فلفل والياً على سجلماسة إلى أن هلك وولي بعده ابنه وانودين بن خزرون إلى أن هلك أيضاً وولي ابنه مسعود بن وانودين.

ولما انقرضت الدولة الأموية بالأندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف، استبد أمراء الأطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما في يده، وعدم الوازع وتصرفوا في الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاساً وأعمالها من جور بني عطية المغراويين ما حكينا بعضه قبل، ونال أهل سجلماسة ودرعة من بني خزرون بن فلفل المغراويين مثل ذلك أو أكثر.

فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمائة - وقد انتشر ذكر عبد الله بن ياسين وأصحابه المرابطين في العالم - اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون إليهم في الوصول إلى بلادهم، ليطهروها مما هي في من المنكرات وشدة العسف من الأمراء، وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوي.

فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم في الأمر. فقالوا: «أيها الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك! فسر بنا على بركة الله» فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد.

وخرج بهم في عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة في جيش كثيف من المرابطين - وقيل كان خروجه سنة خمس وأربعين وأربعمائة - فسار حتى وصل إلى بلاد درعة فوجد بها عامل مسعود بن وانودين فنفاه عنها، ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور - وكانت ترعى في حمى حماه لها هنالك - فاكتسحها عبد الله بن ياسين. واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه، فالتقى الجمعان فيما بين درعة وسجلماسة. فكانت بينهما حرب فظيعة منح الله فيها المرابطين النصر على مغراوة، فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفر الباقون.

واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الإبل التي كان اكتسحها في درعة، فأخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهما وقسم الأربعة أخماس على المرابطين.

وارتحل من فوره إلى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات وقطع المزامير وآلة اللهو وأحرق الدور التي كانت تباع بها الخمور وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه. واستعمل على سجلماسة عاملاً من لمتونة وانصرف إلى الصحراء.

ثم توفي الأمير أبو زكرياء يحيى بن عمر في بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

الخبر عن رياسة أبي بكر بن عمر اللمتوني وفتح بلاد السوس

لما توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر، وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وقلده أمر الحرب والجهاد، ثم ندب المرابطين إلى غزو بلاد السوس والمصامدة. فزحف إليها في جيش عظيم في ربيع الثاني من السنة المذكورة.

وكان أبو بكر بن عمر رجلاً صالحاً ورعاً فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني، ثم سار حتى انتهى إلى بلاد السوس. فغزا جزولة من قبائلها وفتح مدينة ماسة[1] وتارودانت ـ قاعدة بلاد السوس ـ وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية[2] نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي ـ كان سقط إلى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعي بإفريقية ـ فأشاع هنالك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جيلاً بعد جيل وعضوا عليه فكانوا لا يرون الحق إلا ما في يدهم. فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقاً كثيراً ورجع من بقي منهم إلى مذهب السنة والجماعة.

وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتلى منهم فجعلها فيئاً وأظهر الله المرابطين على من عداهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله، وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة وأخذ الزكوات والأعشار وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة.

فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة وفتح بلادهم وذكر نسبهم

ثم ارتحل عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة ففتح جبل درن، وبلاد رودة، ومدينة شفشاوة بالسيف. ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوه ووفدت عليه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه. ثم ارتحل إلى مدينة أغمات

(1) مدينة ماسة ذكرها البكري في مسالكه فقال: إنها قرب السوس ويضاف إليها الوادي المنصب في المحيط صحيفة 161 طبع الجزائر.

(2) انظر بسط الكلام على البجليين في مسالك البكري صفحة 162 طبع الجزائر وراجع القرطاس أيضاً.

- وبها يومئذٍ أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي - فنزل عليها وحاصرها حصاراً شديداً.

ولما رأى لقوط ما لا طاقة له به أسلمها وفر عنها ليلاً هو وجميع حشمه إلى تادلا فاستجار ببني يفرن ملوك سلا وتادلا.

ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فأقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند، ثم خرج إلى تادلا ففتحها وقتل من وجد بها من بني يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوي فقتله.

وكان للقوط هذا امرأة اسمها زينب بنت إسحاق النفزاوية. قال ابن خلدون: وكانت من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمٰن بن وطاس شيخ وريكة فلما قتل المرابطون لقوط بن يوسف المغراوي خلفه أبو بكر بن عمر على امرأته زينب بنت إسحاق المذكورة إلى أن كان من أمرها ما نذكره.

ثم تقدم عبد الله بن ياسين إلى بلاد تامسنا ففتحها واستولى عليها ثم أخبر بأن بساحل تامسنا قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم.

ولنذكر هنا كلاماً ملخصاً في برغواطة ودولتهم ثم نرجع إلى ما نحن بصدده فنقول: اختلف الناس في نسب برغواطة هؤلاء إلى أي شيء يرجع فبعضهم يلحقهم بزناتة وبعضهم يقول في متنبئهم صالح بن طريف البرغواطي: إنه يهودي الأصل من سبط شمعون بن يعقوب عليه السلام نشأ ببرباط - حصن من عمل شدونة من بلاد الأندلس - ثم رحل إلى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلي. واشتغل بالسحر وجمع منه فنوناً وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا. فوجد بها قبائل جهالاً من البربر فأظهر لهم الصلاح والزهد وموه عليهم وخلبهم بلسانه وسحرهم بنير نجاته فصدقوه واتبعوه فادعى النبوة وشرع لهم شرائع ووضع لهم قرآناً - حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى - فكان يقال لمن تبعه ودخل في دينه برباطي ثم عربته العرب فقالوا برغواطي فسموا برغواطة.

قال ابن خلدون: «وهذا من الأغاليط البينة!» وصحح أن القوم من المصامدة بشهادة الموطن والجوار وغير ذلك. والتحقيق أن برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة بتامسنا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين وشرع لأتباعه الديانة التي أخذوها عنه وكان صالح قد شهد مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغري كبير الصفرية لعهده وكان طريف يكنى أبا صبيح ومن كبار أصحاب ميسرة المذكور ويقال إنه ادعى النبوة أيضاً وشرع لقومه الشرائع! ثم هلك سنة سبع وعشرين ومائة، وقام بأمره ابنه صالح بن طريف المذكور فعفت مخارقه على مخارق أبيه! وكان أولاً من أهل العلم والدين ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وأتى من البهتان بما أوضحناه قبل في ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي على المغرب.

ثم خرج صالح بن طريف إلى المشرق سنة أربع وسبعين ومائة بعد أن ملك أمرهم سبعاً وأربعين سنة ووعدهم أنه يرجع إليهم في دولة السابع منهم وأوصى بشريعته إلى ابنه إلياس بن صالح. ولم يزل إلياس مظهراً للإسلام مصراً على ما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان متظاهراً بالعفاف والزهد إلى أن هلك سنة أربع وعشرين ومائتين لمضي خمسين سنة من ولايته. ثم ولي من بعده ابنه يونس بن إلياس فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم، وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامسنا وما والاها يقال إنه حرق منها ثلاثمائة وثمانين مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخالفتهم إياه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكالات (وهو حجر عال نابت وسط الطريق) سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين نفساً.

قال زمور بن صالح[1]: ثم رحل يونس بن إلياس إلى المشرق وحج،

---

(1) الذي في النسخة المطبوعة بمدينة الجزائر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام صفحة 164 مسالك البكري.

ولم يحج أحد من أهل بيته قبله ولا بعده. وهلك سنة ثمان وستين ومائتين لأربع وأربعين سنة من ملكه. وانتقل الأمر عن بنيه إلى غيرهم من قرابته، فولي أمرهم أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آبائه واشتدت شوكته وعظم أمره، وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إلى شيء منها سعيد بن هشام المصمودي في أبيات منها قوله:

وهذي أمة هلكوا وضلوا ... وعاروا، لا سقوا ماء معينا
يقولون النبي أبو غفير ... فأخزى الله أم الكاذبينا
سيعلم أهل تامسنا إذا ما ... أتوا يوم القيامة مفظعينا
هنالك يونس وبنو أبيه ... يقودون البرابر حائرينا

واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعاً وأربعين ـ لأنهم يبيحون في ديانتهم الخسيسة أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ـ وكان له من الولد مثل ذلك أو أكثر. وهلك أواخر المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه.

ثم ولي بعده ابنه أبو الأنصار عبد الله بن أبي غفير فاقتفى سننه، وكان كبير الدعوة مهيباً عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة، وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط من الثياب ولا يعتم أحد في بلاده إلا الغرباء، وكان حافظاً للجار وافياً للعهد، وتوفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة لأربع وأربعين سنة من ملكه ودفن بتاسلاخت وبها قبره.

وولي بعده ابنه أبو منصور عيسى بن أبي الأنصار ـ وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ـ فسار سيرة آبائه وادعى النبوة واشتد أمره وعلا سلطانه، ودانت له قبائل المغرب قال زمور بن صالح: «كان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم».

وقد كان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم آثار عظيمة من الأدارسة والأموية والشيعة وغيرهم.

ولما زحف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى المغرب زحفه

المشهور وأجفلت قبائل زناتة وملوكها بين يديه وانحازوا إلى سبتة وأطل عليهم من جبل تطوان وعاين جمعهم الكثيف رجع عنهم إلى جهاد برغواطة، فأوقع بهم وقتل أميرهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث بسبيهم إلى القيروان وذلك سنة تسع وستين وثلاثمائة.

ثم حاربتهم أيضاً جنود المنصور بن أبي عامر لما عقد ابنه عبد الملك المظفر لمولاه واضح على جهاد برغواطة، فعظم أثره فيهم بالقتل والسبي.

ثم حاربهم أيضاً بنو يفرن لما استقل بنو يعلى بن محمد بن صالح منهم بناحية سلا واقتطعوها عن عمل زيري بن عطية المغراوي صاحب فاس.

وكان لأبي الكمال تميم بن زيري اليفرني فيهم جهاد كبير حسبما تقدم التنبيه عليه وذلك أعوام العشرين وأربعمائة فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد أن أثخن فيهم سبياً وقتلاً.

ثم تراجعوا من بعده إلى أن جاءت دولة المرابطين ودخلوا أرض المغرب دخلتهم الثانية وفتحوا بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا، فأخبر عبد الله بن ياسين بأن بساحلها قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم وأنهم مجوس أهل ضلالة وكفر، وأخبر بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة. وقيل له إن برغواطة قبائل كثيرة وأخلاط شتى، اجتمعوا في أول أمرهم على صالح بن طريف المتنبىء الكذاب، واستمر حالهم على الضلالة والكفر إلى الآن. فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم فسار إليهم في جيوش المرابطين ـ والأمير يومئذٍ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام، مات فيها من الفريقين خلق كثير وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي ـ مهدي المرابطين ـ فكان فيها شهادته رحمه الله.

ولما حضرته الوفاة قال لهم: «يا معشر المرابطين إني ميت من يومي

هذا لا محالة! وإنكم في بلاد عدوكم فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا أعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله، وإياكم والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده» في كلام غير هذا.

وتوفي عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم، وهو يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، ودفن بموضع يعرف بكريفلة، وبني على قبره مسجد وهو مشهور بها إلى الآن.

وكان عبد الله بن ياسين رحمه الله شديد الورع في المطعم والمشرب إنما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها لم يأكل شيئاً من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته فيهم.

وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج في كل شهر عدداً من النساء ثم يطلقهن ولا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها. ومن حسن سياسته أنه أقام في صنهاجة السنة والجماعة حتى أنه ألزمهم أن من فاتته صلاة في جماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط.

ومن كراماته أن المرابطين خرجوا معه في بعض غزواته ببلاد السودان فنفد ما معهم من الماء حتى أشرفوا على الهلاك فقام عبد الله فتيمم وصلى ركعتين ودعا الله تعالى وأمن المرابطون على دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم: «احفروا تحت مصلاي هذا!» فحفروا فصادفوا الماء على نحو شبر من الأرض عذباً بادراً! فشربوا واستقوا وملؤوا أوعيتهم. ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائماً من يوم دخل بلاد صنهاجة إلى أن توفي رحمه الله.

واستمر الأمير أبو بكر بن عمر على رياسته وجددت له البيعة بعد وفاة عبد الله بن ياسين، فكان أول ما فعله بعد تجهيزه إياه ودفنه أن زحف إلى برغواطة مصمماً في حربهم، متوكلاً على الله في جهادهم، فأثخن فيهم قتلاً وسبياً حتى تفرقوا في المكامن والغياض، واستأصل شأفتهم وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، ومحا أبو بكر بن عمر أثر دعوتهم من المغرب وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد إلى مدينة أغمات.

غزوة أبي بكر بن عمر بلاد المغرب
سوى ما تقدم وفتحه إياها

لما استقر الأمير أبو بكر بن عمر بأغمات، أقام بها إلى صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وخرج غازياً بلاد المغرب في أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة. ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة وفتح مدائن مكناسة ثم نزل على مدينة لواتة فحاصرها حتى اقتحمها عنوة بالسيف وقتل بها خلقاً كثيراً من بني يفرن وخربها فلم تعمر بعد إلى الآن.

وكان تخريبه إياها في آخر يوم من ربيع الثاني من السنة المذكورة ثم رجع إلى مدينة أغمات.

عود أبي بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب في ذلك

كان الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني قد تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية وكانت بارعة الجمال والحسن كما قلنا وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور حتى كان يقال لها الساحرة، فأقام الأمير أبو بكر عندها بأغمات نحو ثلاثة أشهر، ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء، ووقوع الخلاف بين أهلها.

وكان الأمير أبو بكر رجلاً متورعاً فعظم عليه أن يقتل المسلمون بعضهم بعضاً، وهو قادر على كفهم، ولم ير أنه في سعة من ذلك وهو متولي أمرهم ومسؤول عنهم، فعزم على الخروج إلى بلاد الصحراء ليصلح أمرها، ويقيم رسم الجهاد بها.

ولما عزم على السفر طلق امرأته زينب وقال لها عند فراقه إياها: «يا

زينب إني ذاهب إلى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارتها! وإني مطلقك، فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب!» فطلقها، ثم سافر عن أغمات وجعل طريقه على بلاد تادلا، حتى أتى سجلماسة فدخلها وأقام بها أياماً حتى أصلح أحوالها ثم سافر إلى الصحراء.

ونقل ابن خلكان عن كتاب «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» في سبب رجوع الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء ما مثاله قال: «كان أبو بكر بن عمر رجلاً ساذجاً خير الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب غير ميال إلى الرفاهية. وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط. فلما حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر سمع أن عجوزاً في الصحراء ذهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت: ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب! فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين! ورجع إلى بلاده الجنوبية!» اهـ.

وكان سفر أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشاً كثيفاً وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على نحو تسعين مرحلة.

وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضاً بالمغرب، واستولى على أكثر بلاده. فلما سمع الأمير أبو بكر بن عمر بما آل إليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله. ويقال إنه كان مضمراً لعزله وتولية غيره. فأحس يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت إسحاق ـ وكان قد تزوجها بعد أبي بكر بن عمر ـ فقالت له: «إن ابن عمك متورع عن سفك الدماء. فإذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع معه! وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساو له، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الأموال والخلع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك،

فإنه بأرض صحراء كل ما جلب إليه من هنا فهو مستطرف لديه».

فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج إليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد، وسلم عليه وهو راكب سلاماً مختصراً. ولم ينزل له ولا تأدب معه الأدب المعتاد! فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوشه فقال له: «يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش؟» قال: «أستعين بها على من خالفني!» فارتاب أبو بكر به ثم نظر إلى ألف بعير قد أقبلت موقرة فقال: «ما هذه الإبل الموقرة؟» قال: «أيها الأمير إني قد جئتك بكل ما معي من مال وأثاث وطعام وإدام لتستعين به على بلاد الصحراء!» فازداد أبو بكر تعرفاً من حاله وعلم أنه لا يتخلى له عن الأمر فقال له يا بن عم: «انزل أوصيك» فنزلا معاً وجلسا فقال أبو بكر: «إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله تعالى في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنه. والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم» ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء فأقام بها مواظباً على الجهاد في كفار السودان إلى أن استشهد من سهم مسموم أصابه في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة إلى جبال الذهب من بلاد السودان والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين اللمتوني

لما عزم الأمير أبو بكر بن عمر على السفر إلى بلاد الصحراء دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني، فعقد له على بلاد المغرب وفوض إليه أمره وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة والبربر. واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ودينه

وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته. فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبي بكر بن عمر بالنصف الآخر وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ولما انتهى يوسف بن تاشفين إلى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفاً من المرابطين فاختار منهم أربعة من القواد وهم سير بن أبي بكر اللمتوني، ومحمد بن تميم الكدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني، وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال من بالمغرب من مغراوة وبنى يفرن وسائر قبائل البربر القائمين به. ثم سار هو في أثرهم يتقرى المغرب بلداً بلداً ويتتبع أهله قبيلة قبيلة، فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم، وقوم يفرون بين يديه، وقوم يلقون إليه السلم ويبذلون الطاعة حتى دوخ بلاد المغرب. ثم سار حتى دخل مدينة أغمات. ولما استقر بها تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية ـ التي كانت تحت أبي بكر بن عمر ـ فكانت عنوان سعده، والقائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب، ومن ذلك إشارتها عليه في أمر أبي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته حسبما ذكرناه آنفاً. وهكذا كان أمرها في كل ما تحاوله رحمها الله.

ومما يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الأثير في كامله وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال: «كان حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم في بلاده، ويصدر عن رأيهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، من ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته ـ وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده ـ فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر وقال للذي تمنى زوجته: «يا جاهل! ما حملك على هذا الذي لا

تصل إليه!؟» ثم أرسله إلى زوجته فتركته في خيمة ثلاثة أيام، ثم أمرت بأن يحمل إليه في كل يوم طعام واحد ثم أحضرته وقالت له: «ما أكلت في هذه الثلاثة الأيام؟» قال: «طعاماً واحداً» فقالت له: «كل النساء شيء واحد!» وأمرت له بمال وكسوة وسرحته إلى حال سبيله وكانت وفاتها سنة أربع وستين وأربعمائة.

بناء مدينة مراكش

لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جداً ورسخت قدمه في الملك وعظم صيته فسمت همته إلى بناء مدينة يأوي إليها بحشمه وجنده، وتكون حصناً له ولأرباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة. وقال صاحب المعرب: «كان ملكاً لعجوز منهم» ثم نزل الموضع المذكور بخيام الشعر وبنى مسجداً لصلاته وقصبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه ولم يبن على ذلك سوراً». وقال أبو الخطاب بن دحية في كتاب النبراس: «إن موضع مدينة مراكش كان مزرعة لأهل نفيس فاشتراه يوسف منهم بماله الذي خرج به من الصحراء». وفي كتاب المعرب: «إن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراكش بموضع كان يسمى بذلك الاسم ـ ومعناه بلغة المصامدة امش مسرعاً ـ وكان ذلك الموضع مكمناً للصوص فكان المارون فيه يقولون لرفقائهم تلك الكلمة فعرف الموضع بها وضبط هذه الكلمة بضم الميم وفتح الراء المشددة بعدها ألف وبعد الألف كاف مكسورة ثم شين معجمة[1] ويقال كان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر وبها قوم من البربر فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الأنيقة. وهي في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ

(1) كذا ضبطها صاحب كشف الظنون الإمام القسطنطيني رحمه الله.

منها، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها».

وقال ابن خلدون: «اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن، إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة ولا أكثر جمعاً» وفي القرطاس: «لما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مسجد مراكش كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه لله تعالى. قال: «والذي بناه يوسف من ذلك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفاً من جامع الكتبيين منها، ويعرف اليوم بالسجينة. ولم يكن بالموضع ماء فحفر الناس آباراً فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنو بها» قالوا: ولم تزل مدينة مراكش لا سور لها إلى أن توفي يوسف بن تاشفين رحمه الله وولي بعده ابنه علي بن يوسف ومضى معظم دولته، فأدار عليها السور سنة ست وعشرين وخمسمائة يقال كان ذلك بإشارة القاضي أبي الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور. فإنه كان قد قدم على السلطان بمراكش فأشار عليه بذلك عندما نبغ محمد بن تومرت مهدي الموحدين بجبال المصامدة.

وكانت مدة البناء ثمانية أشهر، وكان الانفاق على السور سبعين ألف دينار، وبنى علي بن يوسف أيضاً الجامع الأعظم المنسوب إليه اليوم والمنار الذي عليه وأنفق عليه ستين ألف دينار أخرى.

ورأيت في كتاب ابن عبد العظيم الأزموري الموضوع في مناقب بني أمغار رضي الله عنهم أن أمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني لما عزم على إدارة السور على مراكش شاور الفقهاء وأهل الخير في ذلك فمنهم من ثبطه، ومنهم من ندبه إليه، وكان من جملة من ندبه القاضي أبو الوليد بن رشد. ثم شاور أبا عبد الله محمد بن إسحاق المعروف بأمغار ـ صاحب عين

الفطر ـ فأشار ببنائه وبعث له من ماله الحلال وأمره أن يجعله في صندوق صائر البناء ويتولى الإنفاق في ذلك رجل فاضل فقبل السلطان إشارته وعمل برأيه فسهل الله أمر البناء.

ثم لما جاءت دولة الموحدين وكان منهم يعقوب المنصور الشهير الذكر اعتنى بمدينة مراكش واحتفل في تشييدها وبالغ في تنميق مساجدها وتنجيد مصانعها ومعاهدها على ما نذكر البعض منه في محله إن شاء الله.

ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائر أيامهم.

ثم لما جاءت دولة بني مرين من بعدهم اتخذوا كرسي مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء.

ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم فنقلوا الكرسي إلى مراكش وبنو بها قصر البديع المشهور.

ثم جاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى إسماعيل بن الشريف كرسي ملكه بمكناسة الزيتون، واحتفل في بنائها احتفالاً عظيماً على ما نذكره إن شاء الله.

ثم لما كانت دولة المولى محمد بن عبد الله رد كرسي الملك إلى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعه واستمرت كرسياً لمملكتهم إلى الآن.

وفضل مراكش أشهر من أن يذكر لا سيما ما اشتملت عليه من مزارات الأولياء ومدافن الصلحاء الكبار والأئمة الأخيار، حتى قال الوزير ابن الخطيب في مقامات البلدان عند ذكره مدينة مراكش: «هي تربة الولي وحضرة الملك الأولى» وعبر عنها أبو العباس المقري في نفح الطيب (ببغداد المغرب) حرسها الله وصانها من ريب الزمان، وطوارق الحدثان.

فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الأجناد، واستكثر القواد، وفتح كثيراً من البلاد، واتخذ الطبول والبنود؛ ورتب العمال وكتب العهود، وجعل في جيشه الأغزاز[1] والرماة كل ذلك إرهاباً لقبائل المغرب، فكمل له من الجيش في تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والأغزاز والرماة، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصداً مدينة فاس فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة وسدراتة ومغيلة وبهلوله ومديونة وغيرهم في خلق عظيم، فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه، وانحصروا بمدينة صدينة فدخلها عليهم بالسيف عنوة فهدم أسوارها، وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف.

ثم رحل إلى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها وذلك في آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة. وقال ابن خلدون: «إن يوسف بن تاشفين نازل أولاً قلعة فازاز وبها مهدي بن تولي اليحفشي ـ وبنو يحفش بطن من زناتة ـ وكان أبوه تولي صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مكناسة لأنه كان عدو المعنصر المغراوي صاحب فاس فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس وجمع إليه معنصر ففض جموعه» اهـ والله أعلم.

ثم أقام يوسف على فاس أياماً فظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله وارتحل عنها إلى مدينة صفرو. فدخلها من يومه عنوة، وقتل ملوكها أولاد

(1) الأغزاز جمع غز جنس من الترك كما في القاموس، وهم هنا قسم من جيش المرتزقة وقد عدهم صاحب صبح الأعشى من جملة طوائف الأجناد انظر صحيفة 482 منه في الجزء الثالث المطبوع بالمطبعة الأميرية بمصر سنة 1332 هـ.

مسعود بن وانودين المغراوي صاحب سجلماسة وكانوا قد استولوا عليها.

ثم رجع يوسف إلى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الأول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فأقام بها أياماً واستعمل عليها عاملاً من لمتونة وخرج إلى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة وبها يومئذٍ الحاجب سكوت البرغواطي من موالي بني حمود.

ثم رجع إلى منازلة قلعة فازاز فخالفه بنو معنصر بن حماد المغراوي إلى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذي كان بها.

وكان مهدي بن يوسف الكزنائي ـ صاحب بلاد مكناسة ـ قد بايع يوسف بن تاشفين ودخل في طاعة المرابطين فأقره يوسف على عمله وأمره أن يخرج بين يديه بجيشه لفتح بلاد المغرب، فجمع مهدي بن يوسف جيشه وخرج من مدينة عوسجة يريد الاجتماع بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فسمع بذلك تميم بن معنصر المغراوي صاحب فاس فعاجله في أنجاد مغراوة وقبائل زناتة وأدركه ببعض الطريق وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى الحاجب سكوت صاحب سبتة وطنجة.

ولما قتل مهدي بن يوسف بعث أهل مدائن مكناسة إلى ابن تاشفين بالخبر وبذلوا له الطاعة فملك بلادهم.

ثم توالت عساكر المرابطين على تميم بن معنصر بالغارات والنهب، واشتد عليه الحصار وعدمت الأقوات بفاس، فلما رأى ما نزل به من المرابطين جمع مغراوة وبنى يفرن وخرج إليهم لإحدى الراحتين فكانت عليه الهزيمة، فقتل تميم وجماعة من عشيرته، وتقدم مكانه بفاس القاسم بن محمد بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية المكناسي، فجمع قبائل زناتة وخرج بهم إلى المرابطين فالتقى معهم على وادي صيفير، فكانت بينهم حرب شديدة انهزم فيها المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم.

واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو على قلعة فازاز فارتحل عنها

وخلف جيشاً من المرابطين لحصارها فأقاموا عليها تسع سنين ثم دخلوها صلحاً سنة خمس وستين وأربعمائة.

ولما رحل يوسف عن قلعة فازاز وذلك سنة ست وخمسين سار إلى بني مراسن ـ وأميرهم يومئذٍ يعلى بن يوسف ـ فغزاهم وقتل منهم خلق وفتح بلادهم. ثم سار إلى بلاد فندلاوة فغزاها وفتح جميع تلك الجهات. ثم سار منها إلى بلاد ورغة ففتحها وذلك في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

وفي سنة ستين فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة.

وفي سنة اثنتين وستين أقبل إلى فاس فنزل عليها بجميع جيوشه بعد أن فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة، وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم خلقاً كثيراً حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الأندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف! وفر من بقي منهم إلى أحواز تلمسان. وهذا هو الفتح الثاني لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفي هذا الخبر بعض مخالفة لما قدمناه في أخبار مغراوة وذلك نقلناه عن ابن خلدون وهذا عن ابن أبي زرع ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:84].

فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين عدوة القرويين وعدوة الأندلس وصيرهما مصراً واحداً وحصنها وأمر ببنيان المساجد في شوارعها وأزقتها وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله وأمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحاء وأصلح بناءها ورتب أسواقها وأقام بها إلى صفر من سنة ثلاث وستين وأربعمائة ثم خرج إلى بلاد ملوية ففتح حصون وطاط.

وفي سنة أربع وستين بعدها استدعى يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه

وكساهم ووصلهم بالأموال ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر في سيرة ولاته وعماله فيها - وهم في صحبته - فصلح على يده الكثير من أمور الناس.

وفي سنة خمس وستين بعدها غزا يوسف مدينة الدمنة من بلاد طنجة فدخلها عنوة وفتح جبل علودان.

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة فتح يوسف جبال غياثة وبني مكود وبني رهينة وقتل منهم خلقاً كثيراً. وفيها فرق عماله على بلاد المغرب فولى سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلاثة وفازاز، وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها، وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة، وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراكش وأغمات وبلاد السوس والمصامدة وتادلا وتامسنا، وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة وكان من خبرهما ما نذكره.

فتح سبتة[1] وطنجة وما ترتب عليه من جهاد بالأندلس

كانت سبتة وطنجة لبني حمود الإدريسيين من لدن دولة الأمويين. ولما انقرضت دولتهم وخلفهم بنو حمود المذكورون بها استنابوا على سبتة وطنجة من وثقوا به من مواليهم الصقالبة ولم يزل أمر المدينتين إلى نظر هؤلاء النواب واحداً بعد واحد إلى أن استقل بهما الحاجب سكوت البرغواطي.

وكان عبداً لشيخ حداد من موالي الحموديين اشتراه من سبي برغواطة في بعض أيام جهادهم، ثم صار إلى علي بن حمود فأخذت النجابة بضبعيه إلى أن استقل بالأمر واقتعد كرسي عملهم بطنجة وسبتة، وأطاعته قبائل غمارة، واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين وتغلب يوسف بن

(1) لم يذكر المؤلف داخل هذه الترجمة فتح سبتة وساقه في الترجمة الموالية لها.

تاشفين على بلاد المغرب، ونازل بلاد غمارة فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم، فهم بالأجلاب معه ومظاهرته على عدوه ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي.

فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت.

وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية قد كتب إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للحوز برسم الجهاد ونصر البلاد فأجابه يوسف بقوله: «لا يمكنني ذلك إلا إذا ملكت طنجة وسبتة!» فراجعه ابن عباد يشير عليه بأن يسير هو إليها بعساكره في البر فينازلها ويبعث ابن عباد قطائعه في البحر فينازلوها أيضاً حتى يتملكها. فأخذ يوسف في محاولة ذلك وصرف عزمه إليه، ثم دخلت سنة سبعين وأربعمائة فجهز إليها قائده صالح بن عمران في اثني عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفاً من سائر قبائل المغرب فلما قربوا من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ـ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ـ وقال: «والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبداً!» فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة والتحم القتال فقتل سكوت وفضت جموعه وسار المرابطون إلى طنجة فدخلوها واستولوا عليها.

ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة فاعتصم بها وكتب القائد صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف.

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن تيلكان اللمتوني لغزو تلمسان والمغرب الأوسط فسار إليها في عشرين ألفاً من المرابطين. وكان بتلمسان يومئذٍ العباس بن بختي[1] من ولد

---

(1) الذي في النسخة الصحيحة من ابن خلدون المطبوعة بالجزائر سنة 1847 ميلادية في صحيفة 242 من الجزء الأول أنه يحيى بالياء والحاء المهملة.

يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر المغراوي فدخلوا المغرب الأوسط وتقروا بلاد زناتة وظفروا بيعلى ابن الأمير العباس بن بختى فقتلوه وانكفؤوا راجعين إلى يوسف بن تاشفين فألفوه بمراكش ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين فيها غيّر يوسف بن تاشفين السكة في جميع عمله وكتب عليها اسمه.

وفيها فتح مدينة آكرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف وفتح مدينة نكور وخربها فلم تعمر بعد.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة فيها زحف يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها وفتح بلاد بني يزناسن وما والاها. ثم سار إلى تلمسان ففتحها واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل أميرها العباس بن بختي المغراوي، وأنزل بها عامله محمد بن تينغمر المسوفي في عساكر المرابطين فصارت ثغراً لمملكته، واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته - وهو اسم المحلة بلسان البربر - ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الجزائر وانكفأ راجعاً إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الأندلس وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والإعانة فأجابه يوسف بقوله: «إذا فتح الله على سبتة اتصلت بكم وبذلت جهدي في جهاد العدو!» وكان الفنش قد تحرك في هذه السنة في جيوش لا تحصى من الإفرنج والبشكنس والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الأندلس شقاً يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبي ثم يرتحل إلى غيرها ونزل على إشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب وكذلك فعل في شدونة وأحوازها، وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة ثم صار حتى وصل جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال: «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته!» ثم رجع إلى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا

يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها، وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها فبذل إليه أميرها المستعين بن هود مالاً عظيماً فلم يقبله منه وقال: «المال والبلاد لي!» وبعث إلى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشاً لحصارها والتضييق عليها ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بن ذي النون سنة سبع وسبعين وأربعمائة، فكان ذلك من أقوى الأسباب المحركة لعزائم المسلمين بالأندلس والمغرب على الجهاد.

الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلاقة من أرض الأندلس

لما انقرضت دولة بني أمية بالأندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع بين أعياصها شديد، وقتال منهم عريض مديد، وخلفتها الدولة الحمودية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الأندلس مملكتها، وتوزعوا أعمالها وصارت الحال إلى ما قال ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتشر — وذهب العين جميعاً والأثر
قام بكل بقعة مليك! — وصاح فوق كل غصن ديك!

فوجد العدو السبيل إلى الاستيلاء على ثغور المسلمين، وانتهاز الفرصة فيها بالتضريب بين ملوكها وإغراء بعضهم ببعض، وكان منهم ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس؛ وابن ذي النون بطليطلة؛ وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية؛ وغير هؤلاء وكلهم يداري الطاغية ويتقيه بالجزية إلى أن كان من أمر الأذفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين، واستيلائه على طليطلة بعد حصاره إياها سبع سنين، ثم حصاره سرقسطة.

فلما رأى رؤساء الأندلس ما نزل بهم من مضايقة عدو الدين، واستطالته على ثغور المسلمين، أجمع رأيهم على إجازة يوسف بن تاشفين فكاتبه أهل الأندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه في تنفيس العدو عن مخنقهم، ويكونوا معه يداً واحدة عليه.

فلما تواترت رسلهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز فنازلها برّاً وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمائة وقبض على صاحبها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطي وجيء به إلى المعز أسيراً فقتله صبراً، وبعث بكتاب الفتح إلى أبيه وهو بفاس ينظر في أمر الجهاد ويستعد له، ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصداً نحوها ليعبر منها إلى الأندلس.

ولما سمع المعتمد ابن عباد بفتح سبتة ركب البحر إلى المغرب لاستنفار يوسف إلى الجهاد، فلقيه مقبلاً ببلاد طنجة بموضع يعرف ببليطة على ثلاث مراحل من سبتة، وقال ابن خلدون: «لقيه بفاس، فأخبره بحال الأندلس وما هي عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب، وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والأسر والحصار كل يوم». فقال له يوسف: «ارجع إلى بلادك وخذ في أمرك فإني على أثرك» فرجع ابن عباد إلى الأندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده، ودخل يوسف سبتة فنظر في أمرها وأصلح سفنها، وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة والزاب، فشرع في إجازتها إلى الأندلس.

ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو في أثرها في موكب عظيم من قواد المرابطين وأنجادهم وصلحائهم، فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه وقال: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا صلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره» فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت. وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال، منتصف ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك ولقيه المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية وابن الأفطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الأندلس.

واتصل الخبر بالأذفونش وهو محاصر لسرقسطة فارتحل عنها وقصد نحو أمير المسلمين، وبعث إلى ابن ردمير والبرهانس وغيرهما من كبار النصرانية، واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين له من أمم النصرانية، فاجتمع له منهم ما يفوت الحصر وصمد إلى ابن تاشفين والمسلمين. هكذا وقع مساق هذه الغزوة عند ابن خلدون وابن أبي زرع وغيرهما.

وساقها ابن الأثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميري مساقاً غير هذا. ولنذكر بعض ما نقلوه من ذلك فنقول: لما ملك يوسف بن تاشفين المغرب وبنى مراكش وتلمسان الجديدة، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، وتمهدت له الأقطار العريضة المديدة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس فهم بذلك وأخذ في إنشاء السفن والمراكب ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم، وأعدوا له العدة والعدد إلا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته، وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم، والملثمين عن جنوبهم. وكانت الفرنج قد اشتدت وطأتها عليهم فتغير وتنهب وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنج مع ذلك ترهب جانب ملك المغرب يوسف بن تاشفين إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم، لنفاذ أمره ونقله دولة زناتة وملك المغرب إليه في أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقد الفارس، والطعنات التي تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم.

وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظلم يوسف ويحذرونه خوفاً على ملكهم مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلما رأوا عزيمته متوفرة على العبور راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره، وكان فزعهم في ذلك إلى المعتمد ابن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبته ـ وقد تحققوا أنه يقصدهم ـ يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت

طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس يقول:

«أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك! فإنك بالمحل الذي لا يجوز أن نسبق فيه إلى مكرمة! وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت! والسلام..» فوصله الكتاب مع تحف وهدايا - وكان يوسف لا يعرف اللسان العربي لكنه كان ذكي الطبع يجيد فهم المقاصد - وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له: «أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون! وهم من ذوي البيوتات فلا تغير بهم وكف بهم من ورائهم من الأعداء الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب» فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه: «فما ترى أنت؟» فقال: «أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يرد بأنه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفى وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جزيلاً كان أعظم لقدره! فإذا عظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته! وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم! وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته! واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال: «من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد،!» فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف فهمه وعلم صحته، فقال للكاتب: «أجب القوم واكتب بما يجب في ذلك واقرأ عليّ كتابك» فكتب الكاتب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تحية من سالمكم وسلم إليكم وحكمه التأييد والنصر فيمن حكم عليكم، وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة! فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا آخاءنا بإصلاح آخائكم! والله ولي التوفيق لنا لكم

والسلام». فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط مما لا يكون إلا في بلاده، وأنفذ ذلك إليهم، فلما وصلهم ذلك وقرؤوا كتابه فرحوا به وعظموه واعتزوا بولايته، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين، ويكونوا من أعوانه عليه، فتأتى ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له وكفاه حربهم.

وقال ابن الأثير في الكامل: «كان المعتمد ابن عباد أعظم ملوك الأندلس وممتلكاً لأكبر بلادها مثل قرطبة وإشبيلية، وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش كل سنة فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته، فردها عليه ولم يقبلها منه، ثم أرسل إليه يتهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة وتملكها من يده إلا أن يسلم إليه جميع الحصون التي في الجبل ويبقي السهل للمسلمين. وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس، فأنزله المعتمد وفرق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر القواد أن يقتل كل منهم من عنده، وأحضر الرسول فصفعه حتى برزت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر، وكان متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها، فلما بلغه هذا الخبر رجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويستعد استعداداً غير الذي سبق. وعاد المعتمد إلى إشبيلية وأقام بها وترك قرطبة بدون مدافع يدافع عنها.

وقال ابن عبد المنعم الحميري في كتابه الروض المعطار ما ملخصه: «إن المعتمد ابن عباد أخر في سنة من السنين الضريبة التي كان يدفعها للأذفونش عن وقتها، ثم أرسلها إليه بعد، فغضب الأذفونش واشتط وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة وأمعن في التجني، حتى طلب أن تأتي زوجته إلى الجامع الأعظم بقرطبة فتلد فيه إذ كانت حاملاً، وكان بالجانب الغربي من المسجد المذكور موضع كنيسة قديمة بنى المسلمون عليها المسجد فأشار عليه الأطباء والقسيسون أن تكون زوجته ساكنة قرب ولادتها

بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمٰن الناصر لدين الله وأبدع في تشييدها وتنجيدها؛ وتتردد المرأة مع ذلك إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة وكان الرسول في ذلك يهودياً وكان وزيراً للأذفونش، فامتنع ابن عباد من ذلك فراجعه اليهودي وأغلظ له في القول ولسعه بكلمة آسفته! فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقه وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة!.

ولما سكن غضبه استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل إذ ليس له ذلك! وقال للفقهاء: «إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين خيراً».

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد، فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية وليحاصرنه في قصره، ثم زحف في عسكرين أحدهما عليه والآخر على بعض قواده حتى نزل على ضفة النهر الأعظم بإشبيلية قبالة قصر ابن عباد وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه: «كثر بطول مقامي في مجلسي هذا عليّ الذباب، واشتد الحر فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد بها الذباب عن وجهي!» فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من جلود اللمط تروح منك لا عليك إن شاء الله!» فلما وصلت رسالة ابن عباد الأذفونش وقرئت عليه وفهم مقتضاها أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال، وفشا في الأندلس توقيع ابن عباد، وما أظهر من العزيمة على إجازة يوسف بن تاشفين والاستظهار به على العدو، فاستبشر الناس وفرحوا بذلك، وانفتحت لهم أبواب الآمال.

وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك اهتموا منه، فمنهم من كاتبه ومنهم من شافهه، وحذروه عاقبة ذلك وقالوا له: «الملك عقيم! والسيفان لا يجتمعان في غمد!». فأجابهم ابن عباد بكلمته

التي صارت مثلاً: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير!» ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره وقال لمن لامه: «يا قوم إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين، أو إلى الأذفونش، ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك. وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله! وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله! فإذا كانت حالة الشك فيهما عارضة، فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه!؟» فحينئذٍ أقصر أصحابه عن لومه.

ولما عزم ابن عباد على رأيه أمر صاحب بطليوس المتوكل على الله عمر بن الأفطس وصاحب غرناطة عبد الله بن حبوس الصنهاجي، أن يبعث إليه كل منهما قاضي حضرته ففعلا، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة عبد الله بن محمد بن أدهم ـ وكان أعقل أهل زمانه ـ فلما اجتمع عند ابن عباد القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى الوزير ما لا بد منه من إبرام العقود السلطانية.

وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين بالله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم.

ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم، وجرت بينه وبينهم مراوضات، ثم انصرفوا إلى مرسلهم.

ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً حتى أتى الجزيرة الخضراء فخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيها،

فامتلأت المساجد والرحاب بالمطوعة وتواصوا بهم خيراً» هذا مساق صاحب الروض المعطار.

وقال ابن الأثير: «لما رجع المعتمد ابن عباد إلى إشبيلية وترك قرطبة بدون مدافع وسمع مشايخها بما جرى من قتل ابن عباد لليهودي، ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض اجتمعوا وقالوا: «هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت» وساروا إلى القاضي أبي بكر عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: «ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها! وقد رأينا رأياً نعرضه عليك» قال: «ما هو؟» قالوا: «نكتب إلى عرب إفريقية ونشترط لهم إذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله!» قال: «أخاف إذا وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية! ويتركوا الفرنج ويبدؤوا بنا! والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا!» قالوا له: «فكاتب يوسف بن تاشفين وارغب إليه في العبور إلينا أو يرسل بعض قواده».

وبينما هم يتفاوضون إذ قدم عليهم ابن عباد ـ وهم في ذلك ـ فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه. فقال له ابن عباد: «أنت رسولي إليه في ذلك!» فامتنع القاضي ـ وإنما أراد أن يبرىء نفسه من تهمة تلحقه ـ فألح عليه المعتمد، فعبر القاضي البحر إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ـ وكان أمير المسلمين يومئذٍ بمدينة سبتة ـ ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس، وأرسل إلى مراكش في طلب من بقي من عساكره، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار؛ فاجتمع بالمعتمد ابن عباد بإشبيلية.

وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً، وخرج من أهل قرطبة عسكر كبير، وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره وحشد جنوده، وسار من طليطلة وكتب إلى أمير

المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول ويصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك. فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه وكان كاتباً مفلقاً ـ فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: «هذا كتاب طويل» وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره (الذي يكون ستراه!) وأرسله إليه فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بلي برجل له دهاء وعزم».

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم رأتها قط، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ورغائها، وكان ليوسف في عبورها رأي مصيب، فكان يحدق بها عسكره ويحضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تجمح منها».

وقدم يوسف بن تاشفين بن يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة، ومن جملة ما في الكتاب: «بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الله في الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا، فقد عبرناه إليك: وقد جمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك! وما دعاء الكافرين إلا في ضلال!» فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه يوسف جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه، وأقسم أن لا يبرح من موضعه حتى يلقاه.

ولنرجع إلى كلام صاحب الروض المعطار قال رحمه الله: «فلما عبر يوسف وجميع جيوشه البحر إلى الخضراء نهض إلى إشبيلية على أحسن الهيئات جيشاً بعد جيش وأميراً بعد أمير وقبيلاً بعد قبيل. وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ورأى يوسف ما سره من ذلك ونشطه وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية.

وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس من وجوه أصحابه، فلما أتى محلة يوسف ركض نحوهم وركضوا نحوه ثم برز إليه

يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا إلى الله في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقرباً إليه. وافترقا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد إلى جهته، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين.

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ففعل، ورأى الناس من عزة سلطانهم ما سرهم ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر أو أعان، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا.

وكان الأذفونش لما رأى اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح! فاستنفر الفرنجة للخروج ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والإفرنج ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع وبعث الأذفونش إلى ابن عباد: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوض البحر وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً: أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم!» وقال لخاصته وأهل مشورته: «إني رأيت أني إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني فيها وبين جدرها ـ وربما كانت الدائرة عليّ ـ يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة! ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم فإن كانت عليّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري! وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أن يكون فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها!».

ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: «بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء!» فالمقلل يقول: «المختارون أربعون ألف دارع

ولكل واحد أتباع!» وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله.

واتفق الكل أن عدد المسلمين كان أقل من عدد الكفار! ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكب فيلاً وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه، فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها، فأحضر رجلاً مسلماً عالماً بتفسير الرؤيا فقصها عليه، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه. فقال: «تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: 1] إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: 8 - 10] وذلك يقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه!» فلما اجتمع جيشه ورأى كثرته أعجبه فأحضر ذلك المعبر وقال له: «بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم! فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين: «هذا الملك هالك وكل من معه!» وذكرالحديث: «ثلاث مهلكات وفيه وإعجاب المرء بنفسه!».

ثم خرج الأذفونش إلى بلاد الأندلس وتقدم السلطان يوسف نحوه أيضاً وتأخر ابن عباد لبعض مهماته، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس وجعل ابنه عبد الله على مقدمته، وسار وهو ينشد متفائلاً ببيت سائر، مجيزاً له بأبيات من شعره:

لا بد من فرج قريب ... يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك ... سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنه ... نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكو ... ن له أخا يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود. ثم جاءهم الخبر بشخوص الأذفونش إليهم».

وقال ابن أبي زرع: «ارتحل يوسف بن تاشفين من الخضراء قاصداً

نحو الأذفونش وقدم بين يديه قائده أبا سليمان داود بن عائشة ـ وكان بطلاً من الأبطال ـ في عشرة آلاف فارس من المرابطين، بعد أن قدم أمامه المعتمد ابن عباد مع أمراء الأندلس وجيوشهم منهم ابن صمادح صاحب المرية، وابن حبوس صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس وغيرهم، فأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الأندلس واحدة، ومحلة المرابطين أخرى، فتقدم بهم ابن عباد فكانوا إذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته، فلم يزالوا كذلك حتى نزلوا مدينة طرطوشة، فأقاموا بها ثلاثاً وكتب منها يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وكان جواب الأذفونش ما تقدم، ثم ارتحل يوسف وارتحل الأذفونش حتى نزلا معاً بالقرب من بطليوس، وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة[1] وتقدم المعتمد فنزل ناحية أخرى تحجز بينه وبين يوسف ربوة، وبين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجزاً يشرب منه هؤلاء وهؤلاء، فأقاموا ثلاثة أيام، والرسل تختلف بينهم إلى أن وقع اللقاء على ما نذكره.

ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد الأذفونش ـ إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ـ وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل إن الرجل من الصحراويين كان لا يخرج إلى طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات، ثم قامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت.

ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار.

وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ـ وهو يوم الأربعاء ـ فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكع الأذفونش ورجع إلى

---

(1) ويسميه المسيحيون ساكر الياس هكذا: «Sacralias».

أعمال المكر والخديعة. فعاد الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم. ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: «غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت!» فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار. ويقال إن الأذفونش واعدهم ليوم الاثنين وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد.

وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي، ـ وكان في محله ابن عباد ـ فرحاً مسروراً يقول: «إنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة» فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب. وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر العدو الكافر، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش، وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الأذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: «استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: «ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد. وإنما قادهم ابن عباد فاهجموا عليه واصبروا له، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده. ولا أراه يصبر لكم إن صدقتموه الحملة» فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ويستحث نصرته فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الأمر فقال له: «قل له: إني سائر إليك إن شاء الله» وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً مع ابن عباد.

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلا وقد غشيته جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله. ومال الأذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس. واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر صبراً لم يعهد مثله، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف البعض منهم ـ وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد ـ وأثخن هو جراحات في رأسه وبدنه وعقرت تحته في ذلك اليوم ثلاث أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً يكنى: أبا هاشم ـ وكان قد تركه بإشبيلية عليلاً ـ فقال:

أبا هاشم هشمتني الشفار فلله صبري لذلك الأوار

ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة ـ وكان بطلاً شهماً، فنفس بمجيئه على ابن عباد ثم أقبل يوسف بعد ذلك ـ وطبوله قد ملأت أصواتها الجو ـ فلما أبصره الأذفونش وجه حملته إليه وقصده بمعظم جنوده فبادر إليهم السلطان يوسف وصدمهم صدمة ردتهم إلى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر. ثم صدقوا جميعاً الحملة فزلزلت الأرض من حوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبراً عظيماً.

ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومر هارباً منهزماً وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره. قالوا: وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس يومئذٍ أنثى يمر بين ساقات المسلمين وصفوفهم يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر فقاتل الناس ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت.

وعلى سياق ابن خلكان: «إن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء. وكان الموعد بالمناجزة يوم السبت فغدر الأذفونش ومكر، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد ـ والروم في أثرها والناس على طمأنينة ـ فبادر ابن عباد للركوب وانبث الخبر في العساكر، فماجت بأهلها، ورجفت الأرض، وصارت الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ودهمتهم خيل العدو، فغمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها وتركت الأرض حصيداً خلفها. وصرع ابن عباد وأصابه جرح أشواه وفر رؤساء الأندلس وأسلموا محلاتهم وظنوا أنه وهي لا يرقع، ونازلة لا تدفع، وظن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين، ولم يعلم أن العاقبة للمتقين، فتقدم أمير المسلمين وأحدقت به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل، وقصدوا محلة الأذفونش فاقتحموها وقتلوا حاميتها، وضربت الطبول، وزعقت البوقات الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق، وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فقصدوه فأفرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها. ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان، فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند، ومزاريق الزان فخالطوا الخيل وطعنوها فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه فأهوى ليضربه بالسيف فلصق به الأسود وقبض على عنانه! وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به فأثبته في فخذه. فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه. وكان وقت الزوال يوم الجمعة منتصف رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وهبت ريح النصر فأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أقفاءهم ـ والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ـ إلى أن لحقوا بربوة لجؤوا إليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيل فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا من بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية، واستولى

المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضارب والأسلحة وغير ذلك، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين فاجتمع من ذلك تل عظيم».

وقال صاحب الروض المعطار: لجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس ما منهم إلا مكلوم. وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابه، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها والمخذول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وبأصحابه.

وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال له: «ها هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك!».

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية كتاباً مضمونه: «كتابي هذا إليك من المحلة المنصورة يوم الجمعة منتصف رجب، وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين وهزم الكفرة المشركين، وأذاقهم العذاب الأليم، والخطب الجسيم فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة في تشتيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم، بعد إتيان النهب على محلاته واستئصال القتل بجميع أبطاله وحماته، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فللّه الحمد على جميل صنعه ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت، لكنها قرحت بعد ذلك فللّه الحمد والمنة والسلام».

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما رحم الله الجميع.

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما فيه موضع قدم إلا على ميت أو دم. وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن في ذلك السلطان يوسف فعف عنها وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصوده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم. فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له صنعه وأمر أمير المسلمين بقطع رؤوس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثال الجبال، فبعث منها إلى إشبيلية عشرة آلاف رأس، وإلى قرطبة مثل ذلك، وإلى بلنسية مثلها، وإلى سرقسطة ومرسية مثلها وبعث إلى بلاد العدوة أربعين ألف رأس، فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم».

قال ابن أبي زرع: «وفي هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يكن يدعى به قبل ذلك، وأظهر الله تعالى الإسلام وأعز أهله وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدوة وإلى تميم بن المعز الصنهاجي صاحب إفريقية، فعمت المفرحات في جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس، واجتمعت كلمة الإسلام وأخرج الناس الصدقات، وأعتقوا الرقاب شكراً لله تعالى.

ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله ففقدهم ولم يسمع إلا نواح الثكالى عليهم اغتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك أسفاً وغماً، وراح إلى أمه الهاوية، ولم يخلف إلا بنتاً واحدة جعل الأمر إليها فتحصنت بطليطلة.

ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام يوسف بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام، وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبي بكر بن يوسف ـ وكان قد تركه مريضاً بسبتة ـ فاغتم لذلك وانصرف راجعاً إلى العدوة، وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة، فعزم عليه يوسف في الرجوع إلى منزله، وكانت جراحاته قد تورمت عليه، فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب.

وكان أمير المسلمين عند مجيئه إلى بلاد الأندلس وقصده ملاقاة الأذفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس. قاله ابن خلكان.

ولما فرغ من الوقعة رجع عوده على بدئه كل ذلك تورع منه وتكرم وتخفيف عن الرعايا رحمه الله ورضي عنه.

ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس وهنّىء بالفتح، وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه. قال عبد الجليل بن وهبون: «حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ قارىء: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: 40] فقلت: «بعداً لي ولشعري! والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به». اهـ.

ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين في حال أمير المسلمين في الجهاد، فقيل إنه لم يرجع إلى بلاد الأندلس بعد هذه المرة لكنه ترك قواده فيها ورسم لهم بالجهاد وشن الغارات على بلاد العدو. وقيل إنه عاد إليها ثانياً وثالثاً وعلى هذا القول فاختلفوا في زمان ذلك العود وتاريخه. والله تعالى أعلم.

بقية أخبار أمير المسلمين في الجهاد وما اتفق له مع ملوك الأندلس وكبيرهم ابن عباد

اعلم أن أقوال المؤرخين اختلفت في أمر يوسف بن تاشفين بعد غزوة الزلاقة فحكى ابن خلكان وغيره أن أمير المسلمين لما عزم على النهوض إلى بلاد المغرب ترك قائده سير بن أبي بكر اللمتوني بأرض الأندلس وخلف معه جيشاً برسم غزو الفرنج، فاستراح سير بن أبي بكر أياماً قلائل ثم دخل بلاد الأذفونش وشن الغارات فنهب وقتل وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة وتوغل في بلاد العدو وحصل على أموال جليلة وذخائر عظيمة، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما استولى عليه. وأرسل إلى السلطان يوسف

بجميع ما حصله وكتب إليه يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه وسأله مرسومه فكتب إليه «أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدوة فمن فعل فذاك ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه، ولتبدأ بمن والى الثغور منهم، ولا تتعرض لابن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد وكل بلد أخذته فول عليه أميراً من عسكرك» فامتثل سير بن أبي بكر أمره واستنزلهم واحداً بعد واحد حتى كان آخرهم ابن عباد فألحقه بهم ونظمه في سلكهم على ما نذكره.

وقال ابن أبي زرع: «لما كانت سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد. قال: وسبب جوازه أن الأذفونش لعنه الله لما هزم وجرح وقتلت جموعه عمد إلى حصن لبيط الموالي لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة، وأمرهم أن يكونوا ينزلون من الحصن المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس، إذ كان السبب في جواز أمير المسلمين إلى الأندلس فكانوا ينزلون من الحصن في الخيل والرجل فيغيرون ويقتلون ويأسرون قد جعلوا ذلك وظيفة عليهم في كل يوم. فساء ابن عباد ذلك وضاق به ذرعاً. ثم عبر البحر إلى العدوة مستنفراً لأمير المسلمين فلقيه بالمعمورة من حلق وادي سبو ـ وهذه المعمورة هي المسماة اليوم بالمهدية، من أحواز سلا ـ فشكا إليه حصن لبيط وما يلقاه المسلمون من أهله، فوعده الجواز إليه، فرجع المعتمد.

وسار يوسف في أثره، فركب البحر من قصر المجاز إلى الخضراء، فتلقاه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة، فلما نزل يوسف بالخضراء كتب منها إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، وقال لهم: «الموعد بيننا وبينكم حصن لبيط» ثم تحرك يوسف من الخضراء، وذلك في ربيع الأول من السنة المذكورة، فنزل على حصن لبيط ـ وفي القاموس لبطيط

كزنبيل بلد بالجزيرة الخضراء الأندلسية، ولعله هو هذا ـ فلما نزله أمير المسلمين لم يأته ممن كتب إليه من أمراء الأندلس غير ابن عبد العزيز صاحب مرسية، وابن عباد صاحب إشبيلية فنازلا معه الحصن وشرعوا في القتال والتضييق عليه.

وكان يوسف رحمه الله يشن الغارات على بلاد الفرنج كل يوم ودام الحصار على الحصن أربعة أشهر لم ينقطع القتال فيها يوماً واحداً إلى أن دخل فصل الشتاء ووقع بين ابن عبد العزيز وابن عباد نزاع وشنآن، فشكا المعتمد إلى أمير المسلمين ابن عبد العزيز فقبض عليه أمير المسلمين وأسلمه إلى ابن عباد فاختل أمر المحلة بسبب ذلك وفر جيش ابن عبد العزيز وقواده عنها وقطعوا الميرة عن المحلة ووقع بها الغلاء.

ولما علم الأذفونش بذلك حشد أمم النصرانية وقصد إلى حماية الحصن في أمم لا تحصى، فلما قرب من الحصن انحرف له يوسف عنه إلى ناحية لورقة، ثم إلى المرية ثم جاز إلى العدوة وقد تغير على أمراء الأندلس لكونه لم يأته منهم أحد عندما دعاهم إلى الجهاد ومنازلة الحصن.

ولما أفرج أمير المسلمين عن الحصن المذكور، أقبل الأذفونش حتى نزل عليه فأخلاه مما كان فيه من آلة الحصار ومادته، وأخرج من كان فيه من بقية النصارى المنفلتين من مخالب المنية، وعاد إلى طليطلة فاستولى ابن عباد عليه بعد خلائه وفناء جميع حماته بالقتل والجوع سوى تلك الصبابة المنفلتة.

وكان فيه عندما نازله أمير المسلمين اثنا عشر ألف مقاتل دون العيال والذرية، فأتى عليهم القتل والجوع حتى لم يبق فيه سوى نحو المائة وهم المنفلتون منه عند إخلائه.

ثم لما كانت سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثالث برسم الجهاد؛ فسار حتى نزل على طليطلة وحاصر بها الأذفونش وشن الغارات بأطرافها فاكتسحها وانتسف ثمارها وزروعها

وخرب عمرانها وقتل وسبى ولم يأته من ملوك الأندلس أحد، ولا عرج عليه منهم معرج فغاظه ذلك!.

ولما قفل من غزو طليطلة عمد إلى غرناطة فنازلها. وكان صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس قد صالح الأذفونش وظاهره على أمير المسلمين، وبعث إليه بمال واشتغل بتحصين بلده. وفي ذلك يقول بعض شعراء عصره:

يبني على نفسه سفاهاً كأنه دودة الحرير
دعوه يبني، فسوف يدري إذا أتت قدرة القدير

ولما انتهى أمير المسلمين إلى غرناطة تحصن منه صاحبها عبد الله بن بلكين وأغلق أبوابها دونه فحاصره أمير المسلمين نحو شهرين. ولما اشتد عليه الحصار أرسل يطلب الأمان فأمنه أمير المسلمين وتسلم منه البلاد فملكها، وبعث بعبد الله وأخيه تميم بن بلكين صاحب مالقة إلى مراكش مع حريمهما وأولادهما فأقاما بها وأجرى عليهما الإنفاق إلى أن ماتا بها.

ولما خلع أمير المسلمين بني باديس وملك غرناطة ومالقة وما أضيف إليهما خاف منه المعتمد ابن عباد وانقبض عنه. ويقال: إن ابن عباد طمع في غرناطة وأن أمير المسلمين يعطيه إياها فعرض له بذلك فأعرض عنه أمير المسلمين فخاف ابن عباد منه وعمل على الخروج عليه، ثم سعى بينهما الوشاة فتغير عليه أمير المسملين وعبر إلى العدوة في رمضان سنة ثلاث وثمانين المذكورة.

ولما انتهى إلى مراكش ولى على الأندلس قائده سير بن أبي بكر اللمتوني وفوض إليه جميع أمورها كلها ولم يأمره في ابن عباد بشيء فسار سير بن أبي بكر نحو إشبيلية، وهو يظن أن ابن عباد إذا سمع به يخرج إليه ويتلقاه على بعد ويحمل إليه الضيافات على العادة فلم يفعل، وتحصن منه ولم يلتفت إليه! فراسله سير بن أبي بكر أن يسلم إليه البلاد ويدخل في طاعة

أمير المسلمين، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير إلى حصاره وقتاله. وبعث بعض قواده إلى قرطبة ليحاصرها وبها يومئذٍ المأمون بن المعتمد ابن عباد، فنازلها في عساكر المرابطين حتى فتحها يوم الأربعاء ثالث صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وقتل صاحبها المأمون بن المعتمد ثم فتح بياسة وأبدة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة، ولم ينقض شهر صفر المذكور حتى لم يبق لابن عباد بلد إلا وقد ملكه المرابطون ما عدا قرمونة وإشبيلية. ثم ارتحل سير بن أبي بكر إلى قرمونة فنازلها حتى دخلها عنوة زوال يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة. فاشتد الأمر على ابن عباد وطال عليه الحصار فبعث إلى الأذفونش لعنه الله يستغيث به على لمتونة ويعده بإعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد إن هو كشف عنه ما هو فيه من الحصار! فبعث إليه الأذفونش قائده القومس في جيش من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل.

فلما علم سير بقدوم الفرنج إليه انتخب من جيشه عشرة آلاف فارس من أهل الشجاعة والنجدة، وقدم عليهم إبراهيم بن إسحاق اللمتوني وبعثه للقاء الفرنج. فالتقى الجمعان بالقرب من حصن المدور فكانت بينهم حروب شديدة مات فيها خلق كثير من المرابطين، ومنحهم الله النصر فهزموا الفرنج وقتلوهم حتى لم يفلت منهم إلا القليل.

ثم شد سير بن أبي بكر في الحصار والتضييق على إشبيلية حتى اقتحمها عنوة وقبض على المعتمد وجماعة من أهل بيته! فقيدهم وحملهم في السفين بنهر إشبيلية وبعث بهم إلى أمير المسلمين بمراكش. فأمر أمير المسلمين بإرسال المعتمد إلى مدينة أغمات فسجن بها واستمر في السجن إلى أن مات به لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

وكان دخول سير بن أبي بكر مدينة إشبيلية يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

ثم ملك المرابطون بعد ذلك ما بقي من بلاد الأندلس إلى أن خلصت لهم ولم يبق لملوك الطوائف بها ذكر. وهذه الأخبار نقلناها عن ابن أبي زرع ممزوجة باليسير من كلام غيره واعتمدنا كلامه لأنه موضوع بالقصد الأول لأخبار المغرب فيكون أعنى به من غيره.

وفي تاريخ ابن خلدون بعض مخالفة لما مر. قال: «أجاز يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس الجواز الثاني سنة ست وثمانين وأربعمائة وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم، فوجد عليهم. وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة» وقال أيضاً: «إن الفقهاء بالأندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال. حتى إذا رجع عن بلادهم رجعوا إلى حالهم. فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم! فتقبض على ابن رشيق البناء وأمكن ابن عباد منه للعداوة التي بينهما. وبعث جيشاً إلى المرية، ففر عنها صاحبها ابن صمادح ونزل بجاية من أرض إفريقية. وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته. فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وسارت إليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما.

فعمد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميماً عن مالقة، بعد أن كان منهما مداخلة للطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين، وبعث بهما إلى المغرب. فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه، وفشت السعايات بينهما. ونهض أمير المسلمين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر على الأندلس وأجازه. فانتهى إليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لأمير المسلمين والنزول عن الأمر، ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله. ثم صمد إلى إشبيلية فحاصره بها واستنجد الطاغية. فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن

عنه شيئاً. وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده. واقتحم المرابطون إشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة. وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه من أغمات سنة تسعين وأربعمائة.

ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين وأربعمائة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكه مدينة بطليوس.

ورثاهم الأديب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون بقصيدته المشهورة التي يقول في أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

وهي قصيدة غريبة في منوالها وموضوعها، عدد فيها أهل النكبات، ومن عثر به الزمان بما يبكي منه الجماد، وتستشرف لسماعه الأنجاد والوهاد.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث إلى الأندلس سنة تسعين وأربعمائة، وزحف إليه الطاغية. فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج اللمتوني، فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين، وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر، فافتتحوا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى. وأغزى الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلى بلاد برشلونة فأثخن فيها، وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع.

وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن. واستولى أمير المسلمين على العدوتين معاً واتصلت هزائم المرابطين على الفرنج مراراً والله غالب على أمره». فهذا كلام ابن خلدون في سياقه هذه الأخبار.

واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه إما في كونه كان بربرياً من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية، وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل، وذلك حيث عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم.

واعلم أن هذا الكلام جدير بالرد، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون في نعمتهم، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان، وإلا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت، ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت!.

وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق، قد نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الأموال في مظاهرته إياهم على أمير المسلمين، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأئمة الأعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هذا واعرفه. والله تعالى يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنّه وكرمه.

بقية أخبار أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم

قال ابن خلكان: «كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازماً، سائساً للأمور، ضابطاً لمصالح مملكته، مؤثراً لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم» قال: «وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي رحمه الله لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم، عزم إلى

التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، فجاء إليه الخبر بوفاته، فرجع عن ذلك العزم» قال: «وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هذا الوقت من أين وجدته».

وكان أمير المسلمين يوسف معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت.

وكان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين. ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة. وعاش سبعين سنة، ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله.

وقال ابن خلدون: «تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين، وخاطب الخليفة لعهده ببغداد وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي ـ وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس، فعقد له، وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول في أيدي الناس. وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم، وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين وأربعمائة» اهـ كلام ابن خلدون.

وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله ـ مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شوكته منه ـ لتكون ولايته مستندة إلى الشرع. وهذا من ورعه رحمه الله.

وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدباً مع الخليفة، حتى لا يشاركه في لقبه! لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة، والخليفة من قريش كما في الحديث فافهم.

ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضاً ما نقله غير واحد من الأئمة، أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعاونة بشيء من المال على ما هو بصدده من الجهاد، وأنه كاتب إلى قاضي المرية أبي عبد الله محمد بن يحيى ـ عرف بابن البراء ـ يأمره بفرض معونة المرية، ويرسل بها إليه، فامتنع محمد بن يحيى من فرضها، وكتب إليه يخبره بأنه لا يجوز له ذلك، فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندي والفقهاء قد أباحوا فرضها، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرضها في زمانه. فراجعه القاضي عن ذلك بكتاب يقول فيه: «الحمد لله الذي إليه مآبنا، وعليه حسابنا. وبعد، فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله ﷺ ووزيره وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بوزيره ولا بضجيعه في قبره، ولا ممن لا يشك في عدله. فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل فالله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك. وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم. فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم، وليحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذٍ تجب معونته، والله تعالى على ذلك كله والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته». فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله بقوله، ولم يعد عليه في ذلك قولاً، والأعمال بالنيات.

وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة

باسمه، ونقش على الدينار: «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله» وتحت ذلك: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» وكتب على الدائرة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] وكتب على الصفحة الأخرى: «عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي» وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته.

وكان ملكه قد انتهى إلى مدينة أفراغة من قاصية شرق الأندلس، وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من بحر الأندلس، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً طولاً. وفي العرض ما يقرب من ذلك.

وملك بعدوة المغرب من جزائر بني مزغنة إلى طنجة، إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان.

ولم ير في بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج، لا في حاضرة ولا في بادية إلا ما أمر الله به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار، وجزيات أهل الذمة، وأخماس الغنائم.

وقد جبى في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبيه أحد قبله. يقال إنه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعون ربعاً من مطبوع الذهب.

وكان رحمه الله زاهداً في زينة الدنيا وزهرتها، ورعاً متقشفاً، لباسه الصوف، لم يلبس قط غيره. ومأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصراً على ذلك، لم ينقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا. وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة، وأسقط ما دون الأحكام الشرعية. وكان يسير في أعماله بنفسه، فيتفقد أحوال الرعية في كل سنة. وكان محبّاً للفقهاء وأهل العلم والفضل. مكرماً لهم، صادراً عن رأيهم، يجري عليهم أرزاقهم من بيت المال. وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعاً، كثير الحياء جامعاً لخصال الخير. رحمه الله تعالى ورضي عنه.

الخبر عن دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني

لما توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم، بايع الناس ابنه علي بن يوسف المذكور بمراكش بعهد من أبيه إليه، وتسمى بأمير المسلمين.

وكان سنه يوم بويع ثلاثاً وعشرين سنة. وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه، لأنه صادف البلاد ساكنة، والأموال وافرة، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة، وسلك طريقة أبيه في جميع أموره واهتدى بهديه.

خروج يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين على عمه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين

لما توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سجاه ابنه علي بن يوسف بثوبه، وخرج إلى المرابطين ـ ويده في يد أخيه أبي الطاهر تميم بن يوسف فبايعه. ثم قال للمرابطين: «قوموا فبايعوا أمير المسلمين». فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة، وبايعه الفقهاء وأشياخ القبائل، فتمت له البيعة بمراكش.

ثم كتب إلى سائر بلاد المغرب والأندلس وبلاد القبلة يعلمهم بوفاة أبيه واستخلافه من بعده، ويأمرهم بالبيعة، فأتته البيعة من جميع البلاد، وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة إلا أهل مدينة فاس. فإن ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف كان أميراً عليها من قبل جده يوسف. فلما انتهى إليه الخبر بموت جده وولاية عمه عظم عليه ذلك وأنف من مبايعة عمه، فخرج عليه ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة، فزحف إليه علي بن يوسف من

مراكش، حتى إذا دنا من فاس خاف يحيى بن أبي بكر على نفسه، وعلم أنه لا طاقة له بحرب عمه. فأسلم فاساً لعمه. وخرج منها خائفاً يترقب. فدخلها علي بن يوسف يوم الأربعاء الثامن من ربيع الآخر سنة خمسمائة. واستقام له الأمر.

وقيل إن علي بن يوسف لما دنا من فاس نزل بمدينة مغيلة من أحوازها ثم كتب إلى ابن أخيه يعاتبه على ما ارتكبه من الخلاف، ويدعوه إلى الدخول في الطاعة كما دخل الناس. وكتب كتاباً آخر إلى أشياخ البلد يدعوهم فيه إلى بيعته، ويتهددهم ويتوعدهم، فلما وصل الكتاب إلى يحيى وقرأه، جمع أهل البلد واستشارهم في المقاتلة والحصار، فلم يوافقوه. فلما يئس منهم خرج فاراً إلى مزدلي بن تيلكان ـ وكان عاملاً على تلمسان ـ فلقيه مزدلي بوادي ملوية مقبلاً برسم البيعة لعلي بن يوسف. فأعلمه يحيى بما كان من شأنه، فضمن له مزدلي عن عمه العفو والصفح، فرجع معه حتى إذا وصلا إلى فاس، دخل مزدلي على أمير المسلمين علي بن يوسف، ونزل يحيى مستخفياً بحومة وادي شردوع.

ولما اجتمع مزدلي بأمير المسلمين وسلم عليه ورأى منه إكراماً وقبولاً أعلمه بخبر يحيى، وما ضمن له من العفو، فأجابه إلى ذلك وعفا عنه وأمنه! ثم جاء يحيى فبايعه، وخيره أمير المسلمين بين أن يسكن بجزيرة ميروقة بشرق الأندلس أو ينصرف إلى بلاد الصحراء. فاختار الصحراء فانصرف إليها، ثم سافر منها إلى الحجاز فحج البيت ورجع إلى عمه فاستأذنه أن يكون في جملته، ويكون سكناه معه بحضرة مراكش، فأذن له في ذلك فسكنها مدة، ثم اتهمه عمه بالتشغيب عليه فثقفه، وبعث به إلى الجزيرة الخضراء فاستمر بها إلى أن مات.

أخبار الولاة بالمغرب والأندلس

لما بويع أمير المسلمين علي بن يوسف عزل عن قرطبة الأمير أبا عبد الله محمد بن الحاج اللمتوني، وولى مكانه القائد أبا عبد الله محمد بن أبي زلفى، فغزا طليطلة، وأوقع بالنصارى فقتلهم قتلاً ذريعاً بباب القنطرة أخذهم على غرة.

وفي سنة إحدى وخمسمائة عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب، وولى مكانه أبا عبد الله بن الحاج، فأقام والياً على فاس وسائر أعمال المغرب نحو ستة أشهر، ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الأندلس.

ولما عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب ولاه غرناطة وأعمالها من بلاد الأندلس، فكانت له على النصارى وقعة أفليج، وذلك أنه خرج غازياً بلاد الفرنج سنة اثنتين وخمسمائة فنزل حصن أفليج - وبه جمع عظيم من الفرنج - فحاصرهم حتى اقتحم عليهم الحصن، فأرز النصارى إلى القصبة فتحصنوا بها، وانتهى خبرهم إلى الفنش فاستعد للخروج لإغاثتهم، فأشارت عليه زوجته أن يبعث ولده عوضاً منه، لأن تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين، وسانجة ابن ملك النصارى، فامتثل إشارتها، وبعث ولده سانجة في جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجادهم. فسار حتى إذا دنا من أفليج أخبر تميم بن يوسف بمقدمه، فعزم على الإفراج عن الحصن وأن لا يلقى الفرنج. فأشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد ابن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهم بالمقام. وشجعوه وهونوا عليه أمرهم. فقالوا: «إنما قدموا في ثلاثة آلاف فارس، وبيننا وبينهم مسافة». فرجع إلى رأيهم، فلم يكن إلا عشي ذلك اليوم حتى وافتهم جيوش الفرنج في ألوف

كثيرة، فهم تميم بالفرار فلم يجد له سبيلاً ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو، وصمدوا إليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها، فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين، وقتل ولد الفنش، وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفاً ونيف. ودخل المسلمون أفليج بالسيف عنوة، واستشهد في هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله. واتصل الخبر بالفنش فاغتم لقتل ولده وأخذ بلده وهلاك جنده، فمرض ومات أسفاً لعشرين يوماً من الوقعة. وكتب تميم بن يوسف إلى أمير المسلمين بالفتح.

واعلم أنه يقال في ملوك الجلالقة الذين نسميهم اليوم الإصبنيول الأذفونش، ويقال الفنش. فقال ابن خلكان: «الأذفونش بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو بعدها نون ثم شين معجمة هو اسم لأكبر ملوك الإفرنج وهو صاحب طليطلة». وقال ابن خلدون: «بنو أذفونش هم ولد أذفونش بن بطرة أول ملوك الجلالقة» اهـ. وأما قولهم الفنش فهو اسم علم لبعض ملوكهم، وليس لقباً لجميعهم.

وكان محمد بن الحاج رحمه الله مدة مقامه ببلنسية قد ضيق على النصارى تضييقاً فاحشاً بالغارات والنهب، فخرج في غزاة له ذات مرة فأخذ على طريق البرية فغنم وسبى، وكان معه جماعة من قواد لمتونة، فبعث بالمغنم على الطريق الكبير، وأخذ هو على برية تقرب من بلاد المسلمين. وكان أكثر الناس مع المغنم. وكان طريق البرية الذي أخذ عليه محمد بن الحاج لا يسلك إلا على سرب واحد لصعوبته وشدة وعورته. فلما توسطه محمد بن الحاج وأخذته الأوعار والمضايق من بين يديه ومن خلفه وجد النصارى قد كمنوا له في جهة من تلك الجهات. فقاتلهم قتال من أيقن بالموت واغتنم الشهادة، إذ لم يجد منفذاً يخلص منه. فاستشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المتطوعة، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة في نفر يسير بحيلة أعملها.

واتصل خبر الوقعة بأمير المسلمين فآسفه موت أبي عبد الله بن الحاج وولى مكانه أبا بكر بن إبراهيم بن تافلوت، وهو ممدوح بن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ ـ وكان عاملاً على مرسية ـ فوصل إليه العهد بالولاية على بلنسية وطرطوشة وما والاهما، وهو بمرسية. ثم خرج بجيش مرسية إلى بلنسية، فاجتمع إليه من كان بها من الجند. ثم زحف بهم إلى برشلونة فنازلها، وأقام عليها عشرين يوماً، فانتسف ما حولها وقطع ثمارها وخرب قراها، فأتاه ابن رذمير من قرابة الأذفونش في جيوش كثيرة من حشود بسيط برشلونة وبلاد أربونة فكانت بينهم حرب عظيمة مات فيها خلق كثير من الفرنج، واستشهد فيها من المسلمين نحو السبعمائة رحمهم الله تعالى.

أخبار أمير المسلمين علي بن يوسف في الجهاد وجوازه الأول إلى بلاد الأندلس

لما دخلت سنة ثلاث وخمسمائة جاز أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة في جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس، فانتهى إلى قرطبة فأقام بها شهراً، ثم خرج منها غازياً إلى مدينة طلايوت، ففتحها عنوة بالسيف. وفتح من أعمال طليطلة سبعة وعشرين حصناً، وفتح مجريط[1] ووادي الحجارة، وانتهى إلى طليطلة فحاصرها شهراً وانتسف ما حولها، وبالغ في النكاية، ثم قفل إلى قرطبة بعد أن دوخ البلاد.

وفي سنة أربع وخمسمائة فتح الأمير سير بن أبي بكر شنترين،

(1) هي المسماة اليوم مادريد دار ملك الإصبنيول. مؤلف.

وبطليوس، ويابورة، وبرتغال، وأشبونة؛ وغير ذلك من بلاد غرب الأندلس. وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين.

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الأمير سير بن أبي بكر بإشبيلية ودفن بها، وولي إشبيلية عوضاً منه أبو عبد الله محمد بن فاطمة، فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة عشر وخمسمائة.

وفي سنة سبع المذكورة غزا الأمير مزدلي طليطلة وأعمالها، فدوخها وفتح حصن أرجنة عنوة، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية. واتصل الخبر بالبرهانس - كبير الفرنج - فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم، فصمد القائد مزدلي للقائه، ففر أمامه ليلاً، وعاد مزدلي إلى قرطبة ظافراً غانماً.

ثم كانت له في الفرنج وقائع أخرى، إلى أن توفي رحمه الله غازياً ببلاد الفرنج سنة ثمان وخمسمائة. فولى أمير المسلمين مكانه على قرطبة ابنه محمد بن مزدلي، فأقام والياً عليها ثلاثة أشهر، ثم توفي شهيداً في بعض غزواته أيضاً.

استيلاء العدو على سرقسطة

كانت سرقسطة وأعمالها من شرق الأندلس بيد بني هود الجذاميين، تغلبوا عليها في صدر المائة الخامسة أيام الطوائف، وتوارثوها إلى أن كان منهم أحمد بن يوسف الملقب بالمستعين بالله، فزحف إليه ابن رذمير سنة ثلاث وخمسمائة، فخرج إليه المستعين فالتقوا بظاهر سرقسطة، فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعة منهم المستعين بن هود.

ثم لما كانت سنة اثنتي عشرة - وصاحب سرقسطة يومئذٍ عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة - زحف ابن رذمير

إليها وزحف الفنش أيضاً في أمم من النصرانية إلى لاردة من بلاد الجوف فنازلها. واتصل الخبر بأمير المسلمين، فكتب إلى أمراء غرب الأندلس يأمرهم بالمسير إلى أخيه تميم بن يوسف ـ وكان يومئذٍ والياً على شرق الأندلس ـ فيسيرون معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة، فقدم على تميم عبد الله بن مزدلي وأبو يحيى بن تاشفين ـ صاحب قرطبة ـ بعساكرهما، فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء الأندلس، فصمد نحو لاردة، وكان بينه وبين الفنش قتال عظيم أزعجه عن لاردة خاسئاً صاغراً، بعد أن بذل جهده في حصارها، وأفقد من جيوشه عليها ما يزيد على العشرة آلاف فارس، ورجع تميم إلى بلنسية.

ولما رأى ابن رذمير ذلك بعث إلى طوائف الإفرنج يستصرخهم على سرقسطة، فأتوا في أمم كالنمل حتى نازلها معه وشرعوا في القتال، وصنعوا أبراجاً من خشب تجري على بركات وقربوها منها، ونصبوا فيها الرعادات، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً، وقوي طمعهم فيها، فاشتد الحصار واستمر حتى فنيت الأقوات وهلك أكثر الناس جوعاً، فراسل المسلمون الذين بها ابن رذمير على أن يرفع عنهم القتال إلى أجل، فإن لم يأتيهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموه إليه، فعاهدهم على ذلك، فتم الأجل ولم يأتهم أحد، فدفعوا إليه المدينة وخرجوا إلى مرسية وبلنسية، وذلك سنة اثنتي عشرة وخمسمائة. وبعد استيلاء النصارى عليها وصل من بر العدوة جيش فيه عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين لاستنقاذها فوجدوها قد فرغ منه ونفذ حكم الله فيها.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، تغلب ابن رذمير على بلاد شرق الأندلس، وملك قلعة أيوب التي ليس في بلاد شرق الأندلس أمنع منها، وألح بالغارات على بلاد الجوف، فاتصلت هذه الأخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش، فجاز إلى الأندلس برسم الجهاد وضبط الثغور، وهو جوازه الثاني

فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر، فوصل بجيوشه إلى قرطبة، ونزل خارجها وأتته وفود الأندلس للسلام عليه، فسألهم عن أحوال بلادهم وثغورهم بلداً بلداً، فعرفوه بما كان.

وعزل القاضي أبا الوليد بن رشد عن قضاء قرطبة، وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين ويقال إنما عزل ابن رشد لأنه استعفاه، وكان قد اشتغل بتأليف البيان والتحصيل.

ثم سار أمير المسلمين حتى نزل على مدينة شنتمرية ففتحها عنوة، وسار في بلاد الفرنج يقتل ويسبي ويقطع الثمار، ويخرب القرى والديار حتى دوخ بلاد غرب الأندلس، وفر أمامه الفرنج وتحصنوا بالمعاقل المنيعة.

وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة عاد أمير المسلمين إلى بلاد العدوة، بعد أن ولى أخاه تميم بن يوسف على جميع بلاد الأندلس، فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة عشرين وخمسمائة.

ولاية الأمير تاشفين بن علي بن يوسف على بلاد الأندلس وأخباره في الجهاد

لما توفي الأمير تميم بن يوسف في التاريخ المتقدم ولى أمير المسلمين على بلاد الأندلس ابنه تاشفين بن علي بن يوسف، ما عدا الجزائر الشرقية فإنه قد عقد عليها لمحمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، فعبر الأمير تاشفين البحر إلى الأندلس في خمسة آلاف من الجند، وبعث إلى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازياً طليطلة، ففتح بعض حصونها بالسيف وانتسف ما حولها.

وفي السنة المذكورة، أعني سنة عشرين وخمسمائة هزم الأمير تاشفين

النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلاً ذريعاً، وفتح ثلاثين حصناً من حصون غرب الأندلس، وكتب بالفتح إلى أبيه.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة هزم الأمير تاشفين جموع الفرنج بفحص عطية، وأفنى منهم خلقاً كثيراً بالسيف.

وفي سنة إحدى وثلاثين بعدها دخل الأمير تاشفين مدينة كركى بالسيف، فلم يبق بها بشراً.

وفي سنة اثنتين وثلاثين بعدها جاز الأمير تاشفين من الأندلس إلى المغرب، بعد أن غزا مدينة أشكونية ففتحها عنوة، وحمل معه من سبيها إلى العدوة ستة آلاف سبية، فانتهى إلى مراكش، وخرج أمير المسلمين للقائه في زي عظيم وسرور كبير.

وفي سنة ثلاث وثلاثين بعدها أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين.

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة كانت وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله. وذلك لسبع خلون من رجب من السنة المذكورة. قال ابن خلكان: «كان أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين رجلاً حليماً، وقوراً، صالحاً، عادلاً؛ منقاداً إلى الحق والعلماء؛ تجبى إليه الأموال من البلاد، ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه».

قلت قد طاف به في آخر دولته أعظم مكروه. وذلك محمد بن تومرت النابغ تحت إبطه بجبال المصامدة كما يأتي خبره إن شاء الله.

الخبر عن دولة أبي المعز تاشفين بن علي بن يوسف ابن تاشفين اللمتوني

لما توفي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم ولي بعده ابنه أبو المعز تاشفين بن علي بعهد من أبيه إليه، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين معاً كما كانوا في عهد أبيه.

وكان أمر عبد المؤمن بن علي يومئذٍ قد استفحل بتينملل وسائر بلاد المصامدة أهل جبل درن. قال ابن الخطيب: «كان تاشفين بن علي قد استخلفه أبوه على بلاد الأندلس، ثم استقدمه لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين، فلم ينجح أمره، بخلاف ما عوده الله في بلاد الأندلس من النصر، لما قضاه الله من الإدبار على دولتهم».

ولما خرج عبد المؤمن بن علي من تينملل يريد فتح بلاد المغرب ـ وكان مسيره على طريق الجبال ـ سير أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين المذكور معارضاً له على طريق السهل، وأقاموا على ذلك مدة توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في أثنائها، وأفضى الأمر إلى ابنه تاشفين وهو في الحرب.

وقدم أهل مراكش إسحاق بن علي بن تاشفين نائباً عن أخيه تاشفين بمراكش وأعمالها، ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعاً لعبد المؤمن حتى انتهيا تلمسان، فنزل عبد المؤمن بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطرى المطل عليها، ونزل تاشفين بالبسيط مما يلي الصفصاف، ووصله هناك مدد صنهاجة، من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية، مع قائده طاهر بن كباب، لعصبية الصنهاجية. وفي يوم وصوله أشرف على عسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام وشجاعة. فقال لجيش لمتونة: «إنما جئتكم لأخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي!» فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به

وبعسكره. وكان الموحدون قد قتلوا قبل ذلك الروبرتير قائد تاشفين على الروم، وقتلوا عسكره في بعض الغارات، ثم فتكوا بعسكر ثالث من عساكر تاشفين، ونالوا منه أعظم النيل.

وفي القرطاس: «زحف المرابطون لقتال الموحدين فنهاهم تاشفين فلم ينتهوا، وتعلقوا في الجبل لقتالهم، فهبط عليهم الموحدون فهزموهم هزيمة شنعاء».

ولما توالت هذه الوقائع على تاشفين أجمع الرحلة إلى وهران. فبعث ابنه إبراهيم ولي عهده إلى مراكش في جماعة من لمتونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية، ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون، إلى أن وصل إليه من المرية بعشرة أساطيل، فأرسى قريباً من معسكره، وزحف عبد المؤمن من تلمسان، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى، فقدموا وهران، وفضوا جموع المرابطين الذين بها، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك، فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها، حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكباً على فرسه، فتردى من بعض حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة. ونجا فل العسكر إلى وهران، فانحصروا مع أهلها، حتى جهدهم العطش، ونزلوا جميعاً على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، فأتى عليهم القتل رحمهم الله!.

وقال في القرطاس: «إن تاشفين بن علي خرج ذات ليلة ـ وهو بوهران ـ ليضرب في محلة الموحدين، فتكاثرت عليه الخيل والرجل، ففر أمامهم، وكان بجبل عال مشرف على البحر، فظن أن الأرض متصلة به، فأهوى من شاهق بإزاء رابطة وهران، فمات رحمه الله. وكان ذلك في ليلة مظلمة ممطرة وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة آنفاً.

فوجد من الغد بإزاء البحر ميتاً، فاحتز رأسه وحمل إلى تينملل، فعلق على شجرة هناك. وذلك بعد ملازمة الحرب مع الموحدين في البيداء، لم يأو إلى ظل قط من يوم بويع إلى أن مات. وكانت مدة ولايته سنتين وشهراً ونصف شهر».

وقال ابن خلكان: «لما تيقن تاشفين بن علي أن دولتهم ستزول أتى مدينة وهران ـ وهي على البحر ـ وقصد أن يجعلها مقره، فإن غلب على الأمر ركب منها إلى الأندلس. وكان في ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه، وكان عبد المؤمن بجمعه في تاكرارت وهي وطنه. واتفق أنه أرسل منسراً من الخيل إلى وهران، فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من رمضان ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ـ صاحب المهدي ـ فكمنوا عشية، وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه فأيقن الذين فيه بالهلاك، فخرج راكباً فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو، فترامى الفرس نازياً لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في محل وعر، فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت وقتل الخواص الذين كانوا معه وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في ذلك الليل. وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فوصل إلى وهران. وسمي ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح. ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل. ثم توجه إلى تلمسان، وهي مدينتان قديمة وحادثة بينهما شوط فرس. ثم توجه إلى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسمائة. ثم قصد مراكش سنة إحدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهراً وفيها إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين

وجماعة من مشايخ دولتهم. فقدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف نائباً عن أخيه تاشفين، فاستولى عليها وقد بلغ القحط من أهلها كل مبلغ، وأخرج إليه إسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج ـ وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم ـ وكانا مكتوفين، وإسحاق دون بلوغ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه، فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما. ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة».

وقال ابن خلدون: «أقام الموحدون على مراكش تسعة أشهر، وأمير الملثمين يومئذٍ إسحاق بن علي بن يوسف، بايعوه صبياً صغيراً عند بلوغ خبر أخيه، ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم، وتولى كبر ذلك أبو حفص عمر بن واكاك منهم وانمحى أثر الملثمين، واستولى الموحدون على البلاد والله غالب على أمره».

قال ابن جنون: «كانت لمتونة أهل ديانة وصدق ونية خالصة وصحة مذهب، ملكوا بالأندلس من بلاد الإفرنج إلى البحر الغربي المحيط، ومن بلاد العدوة من مدينة بجاية إلى جبل الذهب من بلاد السودان، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر بالتثنية، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن، تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال، وبيعت الثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال. والقطاني لا تباع ولا تشترى، وكان ذلك مصحوباً بطول أيامهم، ولم يكن في عمل من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تسقيط، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر. وكثرت

الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قطاع طريق، ولا من يقوم عليهم، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة».

وأما الأحداث الواقعة في أيامهم ففي شهر ذي الحجة من سنة سبع وستين وأربعمائة ظهر النجم المعكف بالمغرب.

وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة كسفت الشمس الكسوف الكلي الذي لم يعهد قبله مثله، وكان ذلك يوم الاثنين عند الزوال في اليوم الثامن والعشرين من الشهر.

وفي سنة اثنين وسبعين بعدها كانت الزلزلة العظيمة التي لم ير الناس مثلها بالمغرب، انهرمت منها الأبنية، ووقعت الصوامع والمنارات، ومات فيها خلق كثير تحت الهدم، ولم تزل الزلزلة تتعاقب في كل يوم وليلة من أول يوم ربيع الأول إلى آخر يوم من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة ولد الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن الأصبغ المعروف بابن المناصف صاحب الأرجوزة.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة توفي الفقيه الحافظ أبو عبد الله محمد بن الطلاع.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة توفي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي بقلعة حماد، صحب أبا الحسن اللخمي وغيره من المشايخ، وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدي السلف الصالح وكان مجاب الدعوة. ولما أفتى فقهاء المغرب بإحراق كتب الشيخ أبي حامد الغزالي رضي الله عنه، وأمر أمير المسلمين علي بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لأبي حامد رحمه الله، وكتب إلى أمير المسلمين في ذلك. وحدث صاحب التشوف ـ وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المراكشي الدار عرف بابن الزيات ـ بسنده عن أبي الحسن علي بن حرزهم

قال: لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب الإحياء، وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن كتاب الإحياء ليس عندهم ذهبت إلى أبي الفضل أستفتيه في تلك الأيمان فأفتى بأنها لا تلزم! وكانت إلى جنبه أسفار، فقال لي: «هذه الأسفار من كتاب الإحياء، وددت أني لم أنظر في عمري سواها!» وكان أبو الفضل قد أنسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءاً فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءاً. ومناقبه كثيرة رحمه الله.

قلت: لم يقع في دولة المرابطين أشنع من هذه النازلة وهي إحراق كتاب الإحياء فإنه لما وصلت نسخه إلى بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهائه منهم القاضي أبو القاسم بن حمدين، فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبي حامد رضي الله عنه، وأعلموا السلطان بأمرها، وأفتوه بأنها يجب إحراقها، ولا تجوز قراءتها بحال.

وكان علي بن يوسف واقفاً ـ كأبيه ـ عند إشارة الفقهاء وأهل العلم قد رد جميع الأحكام إليهم، فلما أفتوه بإحراق كتاب الإحياء كتب إلى أهل مملكته في سائر الأمصار والأقطار بأن يبحث عن نسخ الإحياء بحثاً أكيداً، ويحرق ما عثر عليه منها، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الأندلس، ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار! وكذا فعل بما ألفى من نسخها بمراكش، وتوالى الإحراق عليها في سائر بلاد المغرب! ويقال إن ذلك كان في حياة الشيخ أبي حامد رحمه الله وأنه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم، فاستجيب له فيهم! فإن كان كذلك فتاريخ الإحراق يكون فيما بين الخمسمائة[1] والخمس بعدها، لأن بيعة علي بن يوسف كانت على رأس الخمسمائة، ووفاة الشيخ أبي حامد

(1) وهو كذلك كما في المعيار ذكر أنه في سنة اثنتين أو ثلاث. مؤلف.

الغزالي رضي الله عنه كانت يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة.

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف كان متناهياً في الفضل والدين والزهد في الدنيا، منقطعاً إلى الخير، يقصده الناس ويألفونه فيحمدون صحبته، وسعى به إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش، فوصلها وتوفي بها ليلة الجمعة الثالث والعشرين من صفر من السنة المذكورة، واحتفل الناس لجنازته، وندم أمير المسلمين على ما كان منه له في حياته، وظهرت له كرامات رحمه الله، ودفن بقرب الجامع القديم الذي بوسط مراكش في روضة القاضي موسى بن أحمد الصنهاجي.

قلت: وقبره الآن مشهور بسوق العطارين من مراكش عليه بناء حفيل.

وفي هذه السنة أيضاً أعني سنة ست وثلاثين وخمسمائة توفي أبو الحكم بن برجان، قال ابن خلكان: «هو أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الرحمٰن اللخمي عرف بابن برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وبعدها جيم وبعد الألف نون، وكان عبداً صالحاً وله تفسير القرآن الكريم. وأكثر كلامه فيه على طريق أرباب الأحوال والمقامات.» اهـ.

وقال في التشوف: «لما أشخص أبو الحكم بن برجان[1] من قرطبة إلى حضرة مراكش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبو الحكم: «والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي!» يعني أمير المسلمين علي بن يوسف، فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا

(1) انظر السبب في تغريب هذين الزاهدين من المرية إلى مراكش في كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب صفحة 285، وفي المعجب للمراكشي صفحة 136، وفي لسان الميزان لابن حجر صفحة 247 الحزء الأول.

يصلى عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء.

وكان أبو الحسن علي بن حرزهم يومئذٍ بمراكش، فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخبره بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم، فقال له أبو الحسن: «إن كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقوله لك» فقال له: «مرني بما شئت أفعله!» فقال له: «تنادي في طرق مراكش وأسواقها: يقول لكم ابن حرزهم احضروا جنازة الشيخ الفقيه الصالح الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله» ففعل ما أمره، فبلغ ذلك أمير المسلمين، فقال: «من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله!».

قال ابن عبد الملك في كتاب الذيل والتكملة: «أبو الحكم بن برجان مدفون بمراكش برحبة الحنطة منها» قال: «وهو الذي تقول له العامة سيدي أبو الرجال».

وكان الشيخ أبو ينور المشترائي موجوداً في هذه المدة، إلا أني لم أقف على تاريخ وفاته. قال في التشوف: «هو أبو ينور عبد الله بن واكريس الدكالي من مشتراية من أشياخ أبي شعيب أيوب السارية، كبير الشأن من أهل الزهد والورع. حدثوا عنه أنه مات أخوه فتزوج امرأته فقدمت إليه طعاماً يأكله فوقع في نفسه أن فيه نصيب الأيتام الذين هم أولاد أخيه فأمسك عنه وبات طاوياً. وجاءه رجل من أشياخ مشتراية فقال له: «إن عامل علي بن يوسف تهددني بالقتل والصلب وقد خرج من مراكش متوجهاً إلى دكالة» فقال له أبو ينور: «رده الله عنك» فسار إلى أن بقي بينه وبين قرية يليسكاون ـ وهي أمتى تسميها العامة بوسكاون ـ نصف يوم» فأصاب العامل وجع قضى عليه من حينه».

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ثار القاضي أبو القاسم بن حمدين بقرطبة مع العامة على المرابطين فقتلهم، والله وارث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

الدولة الموحدية

الخبر عن دولة الموحدين من المصامدة وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدي

قال ابن خلدون: «كان للمصامدة في صدر الإسلام بجبال درن عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم، وكان منهم قبل الإسلام ملوك وأمراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته. فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين، ومن صنهاجة بإفريقية، حسبما هو مشهور ويأتي ذكره إن شاء الله تعالى. قال: «وأصل المهدي من هرغة من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت، وكان يلقب في صغره أيضاً أمغار، وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت، فبعضهم ينسبه سليمان بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، والله أعلم بحقيقة الأمر».

وكان أهل بيته أهل نسك ورباط، وكانت ولادته على ما عند ابن خلكان يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وشب المهدي قارئاً محبّاً للعلم. ثم ارتحل في طلبه إلى المشرق على رأس المائة الخامسة، ومر بالأندلس ودخل قرطبة وهي يومئذٍ دار علم، ثم لحق بالإسكندرية وحج ودخل العراق ولقي به جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علماً واسعاً.

وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده. ولقي أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه.

قال ابن خلكان: «اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالي، والكيا الهراسي، والطرطوشي وغيرهم، وحج وأقام بمكة مدة مديدة، وحصل قدراً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين وكان ورعاً ناسكاً، متقشفاً مخشوشناً مخلولقاً، كثير الإطراق، بساماً في وجوه الناس، مقبلاً على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة. وكان شجاعاً فصيحاً في لسان العرب والبربر، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعاً على الإلذاذ بذلك، متحملاً للأذى من الناس بسببه. وناله بمكة - شرفها الله - شيء من المكروه من أجل ذلك، فخرج منها إلى مصر، وبالغ في الإنكار فزادوا في أذاه وطردته الولاة. وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه، فينسب إلى الجنون، فخرج من مصر إلى الإسكندرية وركب البحر متوجهاً إلى بلاده.

وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين، فلما ركب السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم إقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم، ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية من أرض إفريقية، وكان ملكها يومئذٍ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذلك في سنة خمس وخمسمائة. هكذا ذكره ابن أخيه أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم الصنهاجي في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان. وقيل إن ارتحال محمد بن تومرت عن بلاد المشرق كان سنة عشر وخمسمائة. واجتيازه بمصر كان سنة إحدى عشرة بعدها والله أعلم بالصواب.

ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة، فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاؤوا إليه

وقرؤوا عليه كتباً من أصول الدين، فبلغ خبره الأمير يحيى، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء. فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء، فقال له: «أصلحك الله لرعيتك». ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أياماً يسيرة، ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله في الإنكار فأخرج منها إلى بعض قراها واسمها ملالة فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي.

وقال ابن خلدون: «انطوى المهدي راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم، واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب في رأيهم إلى تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت. فبصر المهدي أهل المغرب في ذلك، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد.

وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي على رأي الإمامية من الشيعة، ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة سواها! واحتل بطرابلس الغرب معنياً بمذهبه ذلك مظهراً للنكير على علماء المغرب في عدولهم عنه. آخذاً نفسه بتدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع، حتى لقي بسبب ذلك إذايات في نفسه احتسبها من صالح عمله.

ولما دخل بجاية وبها يومئذٍ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين، فأغلظ له ولأتباعه بالنكير، وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق، فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به، فخرج منها خائفاً يترقب ولحق بملالة على فرسخ منها، وبها يومئذٍ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز

ومنعة فآووه وأجاروه، وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أياماً وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملالة، وهناك لقيه كبير أصحابه عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه، فأعجب بعلمه وصرف عزمه إليه فاختص به وشمر للأخذ عنه.

وفي كتاب المعرب عن سيرة ملوك المغرب: أن المهدي كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ـ يقال إنه عثر عليه عند الشيخ أبي حامد الغزالي رضي الله عنه ـ وإنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمى السوس، وهو من ذرية رسول الله ﷺ، يدعو إلى الله، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمى باسم هجاء حروفه ت ي ن م ل ل، ورأى فيه أيضاً: أن استقامة ذلك الأمر واستيلائه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن[1] ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة، فأوقع الله سبحانه في نفسه أنه القائم بهذا الأمر وأن أوانه قد أزف، فما كان محمد يمر بموضع إلا ويسأل عنه، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقده حليته.

وكانت حلية عبد المؤمن معه، فبينما هو في الطريق رأى شاباً قد بلغ أشده على الصفة التي معه فقال له محمد بن تومرت ـ وقد تجاوزه ـ: «ما اسمك يا شاب؟» فقال: «عبد المؤمن» فرجع إليه وقال له: «الله أكبر! أنت بغيتي»! ونظر في حليته فوافقت ما عنده، فقال له: «من أين أقبلت؟» قال: «من كومية» قال: «أين مقصدك؟» فقال: «المشرق» قال: «ما تبغي؟» قال:

(1) راجع في كتاب أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المطبوع بباريس على يد الأستاذ ليفي بروفانسال طبع كوتنير سنة 1928م. كيفية اتصال عبد المؤمن بالمهدي فقد بسط الكلام في ذلك، صفحة 55 من النص العربي وما بعدها.

«علماً وشرفاً» قال: «قد وجدت علماً وشرفاً وذكراً! اصحبني تنله!» فوافقه على ذلك، فألقى إليه محمد بأمره وأودعه سره.

قال ابن خلدون: «وارتحل المهدي إلى المغرب - وعبد المؤمن في جملته - ولحق بوانشريس فصحبه منها أبو محمد عبد الله الوانشريسي المعروف بالبشير».

وقال ابن خلكان: «وكان جميلاً فصيحاً في لغتي العرب والبربر، ففاوضه المهدي فيما عزم عليه من القيام، فوافقه على ذلك أتم موافقة. وكان البشير ممن تهذب وقرأ فقهاً، فتذاكرا يوماً في كيفية الوصول إلى المطلوب، فقال المهدي للبشير: «أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس، وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة سبيلاً إلى المطلوب! ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق فيما نقول» ففعل البشير ذلك.

ثم لحق المهدي بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها - وهو ابن صاحب الصلاة - ووبخه على منتحله ذلك وعلى خلافه لأهل قطره، وظن القاضي أن من العدل نزعه عن ذلك، فصم عن قوله واستمر على طريقه إلى فاس، فنزل بمسجد طريانة وأقام بها يدرس العلم إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة. ثم انتقل إلى مكناسة فنهى بها عن بعض المنكرات، فثار إليه الغوغاء وأوجعوه ضرباً. ثم لحق بمراكش وأقام بها آخذاً في شأنه، ولقي بها أمير المسلمين علي بن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له في القول. ولقي ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه، ففاوض أمير المسلمين الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من سيرته، وكانوا قد ملئوا منه حسداً وحفيظة لما كان ينتحل من مذهب

الأشعرية في تأويل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إقراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيماً، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الأشعرية في التكفير، فأغروا الأمير به فأحضره للمناظرة معهم، فكان له الفلج والظهور عليهم.

وقال ابن خلكان: «كان محمد المهدي قد استدنى أشخاصاً من أهل المغرب جلاداً في القوى الجسمانية أغماراً. وكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبي محمد البشير. ثم أنه رحل إلى أقصى المغرب، وتوجه في أصحابه إلى مراكش ـ وملكها يومئذٍ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ـ وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً، وكان بحضرته رجل يقال له مالك بن وهيب[1] الأندلسي وكان عالماً صالحاً ـ زاد ابن خلدون عارفاً بالنجوم ـ فشرع محمد المهدي في الإنكار على جري عادته حتى أنكر على ابنة الملك، فبلغ خبره الملك، وأنه يتحدث في تغيير الدولة، فتحدث مع مالك بن وهيب في أمره. فقال مالك بن وهيب: «نخاف من فتح باب يعسر علينا سده، والرأي أن تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلاد». فأجاب الملك إلى ذلك.

وكان المهدي وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد، فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: «سلوا هذا الرجل ما يبغي منا» فانتدب له قاضي المرية ـ واسمه محمد بن أسود ـ فقال: «ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه؟» فقال له المهدي: «أما ما نقل عني فقد

(1) راجع ما قاله المقري فيه في نفح الطيب ج2 ص 925. وما ذكره أبو بكر الصنهاجي البيدن في كتابه أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين المطبوع بباريس سنة 1928م صفحة 68 وما بعدها من النص العربي.

قلته ولي من ورائه أقوال! وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعريه عن هذه الصفة إنه مغرور بما تقولون له وتضرونه به مع علمكم أن الحجة متوجهة عليه. فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهاراً! وتمشي الخنازير بين المسلمين! وتؤخذ أموال اليتامى؟» وعدد من ذلك شيئاً كثيراً. فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه.

ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقوله لم يتكلم أحد منهم. فقال مالك بن وهيب ـ وكان كثير الاجتراء على الملك ـ: «أيها الملك عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها وإن تركتها لم تأمن غائلتها» فقال الملك: «ما هي؟» فقال: «إني أخاف عليك من هذا الرجل وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكفي شره! وإن لم تفعل فلتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك!» فوافقه الملك على رأيه، فقال له وزيره: «يقبح بك أن تبكي من موعظة رجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد! وإن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه!» فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء.

وقال ابن خلدون: «كان مالك بن وهيب حزاء ينظر في النجوم وكان الكهان يتحدثون بأن ملكاً كائناً بالمغرب في أمة من البربر، ويتغير فيه شكل السمكة لقران بين الكوكبين العلويين من السيارة يقتضي ذلك، فقال مالك بن وهيب: «احتفظوا بالدولة من الرجل فإنه صاحب القران والدرهم المربع». فطلبه علي بن يوسف ففقده، وسرح الخيالة في طلبه ففاتهم.

وحكى صاحب المعرب: «إن المهدي لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه فقيل له نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك! فقال: «أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أغيره ما استطعت» اهـ كلامه.

فلما خرج المهدي وأصحابه من عند الملك قال لهم: «لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فما نأمن أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحاً» واسم هذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم وهو من فقهاء المصامدة. فخرجوا إليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك. فقال عبد الحق: «هذا الموضع لا يحميكم، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تينملل وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم» فلما سمع المهدي بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذي رآه في كتاب الجفر فقصده مع أصحابه.

وقال ابن خلدون: «لما لحق المهدي بأغمات غير المنكرات على عادته فأغرى به أهل أغمات علي بن يوسف وطيروا إليه بخبره. فخرج منها هو وتلامذته الذين كانوا معه في صحبته، فلحق أولاً بمسفيوة ثم بهنتاتة، ولقيه بها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي - جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية -. ثم ارتحل المهدي عنهم إلى هرغة فنزل على قومه، وذلك سنة خمس عشر وخمسمائة وبنى رابطة للعباد، فاجتمع عليه الطلبة من القبائل، وأخذ يعلمهم المرشدة له في التوحيد باللسان البربري وشاع أمره.

ثم داخل عامل لمتونة على السوس أناساً من هرغة في قتله، ونذر بهم إخوانهم، فنقلوا المهدي إلى معقل من أشياعهم، وقتلوا من داخل في أمره، ودعوا المصامدة إلى مبايعته على التوحيد، وقتال المجسمة دونه، سنة خمس عشرة وخمسمائة. فتقدم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرهم وكان فيهم من هنتاتة أبو حفص عمر بن يحيى، وأبو يحيى بن يكيت، ويوسف بن وانودين، وابن يغمور، ومن تينملل أبو حفص عمر بن علي الصناكي،

ومحمد بن سليمان، وعمر بن تافراكين، وغيرهم. وأوعبت قبيلة هرغة فدخلوا في أمره كلهم، ثم دخل معهم كدميوة وكنفيسة.

ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان قبلها يلقب بالإمام، وكان يسمى أصحابه الطلبة، وأهل دعوته الموحدين تعريضاً بلمتونة في أخذهم بالعدول على التأويل وميلهم إلى التجسم.

ولما تم له من أصحابه خمسون سماهم آيت الخمسين. ثم زحف إليهم عامل لمتونة على السوس ـ وهم بمكانهم من هرغة ـ فاستجاشوا إخوانهم من هنتاتة وتينملل، فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة، فكانت تلك باكورة الفتح، وكان المهدي يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره، وتسابقت كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت إليهم عساكر لمتونه مرة بعد أخرى ففضوهم، وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم وحوالي منبع وادي نفيس، وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا له. هذا كلام ابن خلدون في سياقه هذا الخبر جئنا به مختصراً.

واقتضى كلام ابن خلكان أن ظهور المهدي ومبايعته لم تكن إلا بتينملل، فإنه قد عقب ما سبق له من أن الفقيه عبد الحق بن إبراهيم المصمودي أشار على المهدي بالمسير إلى تينملل، وأن المهدي لما سمع هذا الاسم تجدد له ذكر فيه فقصده مع أصحابه، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب علم، فقاموا إليهم وأكرموهم، وتلقوهم بالترحاب، وأنزلوهم في أكرم منازلهم. وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم من مجلسه، فقيل له: إنهم سافروا، فسره ذلك وقال: «تخلصنا من الإثم بحبسهم!». ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدي إليهم، وكان قد سار فيهم ذكره فجاؤوه من كل فج عميق، وتبركوا بزيارته. وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على السلطان، فإن

أجابه أضافه إلى خواصه، وإن خالفه أعرض عنه. وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة! وكان ذوو الحنكة والعقل والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه، ويخوفونهم سطوة السلطان، فكان لا يتم له مع ذلك أمر. وطالت المدة وخاف المهدي من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل، وخشي أن يطرق على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى استسلامه إليه والتخلي عنه، فشرع في إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليعصوا على الملك بسببه، فرأى بعض أولاد القوم شقراً زرقاً وألوان آبائهم السمرة والكحل! فسألهم عن سبب ذلك، فلم يجيبوه، فألزمهم الإجابة، فقالوا: «نحن من رعية هذا الملك وله علينا خراج، وفي كل سنة تصعد مماليكه إلينا وينزلون في بيوتنا ويخرجوننا عنها، ويختلون بمن فيها من النساء، فتأتي أولادنا على هذه الصفة! وما لنا قدرة على دفع ذلك عنا» فقال المهدي: «والله إن الموت خير من هذه الحياة، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف وأطعنهم بالرمح؟» فقالوا: «بالرغم لا بالرضى» فقال: «أرأيتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ما كنتم تصنعون؟» قالوا: «كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت» ثم قالوا: «من هو؟» قال: «هو ضيفكم!» يعني نفسه. فقالوا: «السمع والطاعة» وكانوا يغالون في تعظيمه، فأخذ عليهم العهود والمواثيق، واطمأن قلبه، ثم قال لهم: «استعدوا لحضور هؤلاء بالسلاح، فإذا جاؤوكم فأجروهم على عادتهم، وخلوا بينهم وبين النساء، وميلوا عليهم بالخمور، فإذا سكروا فآذنوني بهم!».

فلما حضر المماليك وفعل بهم أهل الجبل ما أشار به المهدي ـ وكان ذلك ليلاً ـ أعلموه بذلك، أمر بقتلهم كلهم، فلم يمض من الليل ساعة حتى أتوا على آخرهم. ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد ـ كان خارج المنازل لحاجة له ـ فسمع التكبير عليهم والإيقاع بهم، فهرب على غير الطريق حتى خلص من الجبل. ولحق بمراكش فأخبر الملك بما جرى فندم على فوات

محمد بن تومرت من يده، وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وهيب فيما أشار به، فجهز من وقته خيلاً بمقدار ما يسع وادي تينملل، فإنه ضيق المسلك.

وعلم المهدي أنه لا بد من عسكر يصل إليهم، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادي ومراصده، واستنجد لهم بعض المجاورين، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره، وحال بينهم الليل، فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم، فأعرض عنهم.

وتحقق المهدي ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل، فعند ذلك استدعى أبا محمد البشير وقال له: «هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة! لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل في الطاعة». ثم اتفقا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح ـ بعد استعمال العجمة واللكنة في تلك المدة ـ: «إني رأيت البارحة في منامي أنه نزل إليّ ملكان من السماء وشقا فؤادي وغسلاه وحشواه علماً وحكمة وقرآناً!». فلما أصبح فعل ذلك ـ وهو فصل يطول شرحه ـ فانقاد له كل صعب القياد، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم، فقال له محمد بن تومرت: «فعجل لنا بالبشرى في أنفسنا، وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء» فقال له: «أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك» ثم قال: «اعرض أصحابك عليّ حتى أميز أهل الجنة من أهل النار» وعمل في ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت، وأبقى من أطاعه. وشرح ذلك يطول.

وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالفاً لهم، فلما قتل من قتل علم محمد بن تومرت أن في الباقين من له أهل وعشيرة قتلوا وأنهم لا تطيب

نفوسهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال ملك مراكش إليهم واغتنام أموالهم، فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم. وبالجملة فإن تفصيل هذه الواقعة طويل ولسنا بصدد ذلك.

وخلاصة الأمر: أن محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشاً عدد رجاله عشرة آلاف بين فارس وراجل، وفيهم عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير وأصحابه كلهم وأقام هو بالجبل فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهراً، ثم كسروا كسرة شنيعة وهرب من سلم منهم من القتل.

وكان فيمن سلم عبد المؤمن، وقتل البشير وبلغ الخبر المهدي - وهو بالجبل - وقد حضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين: «إن النصر لهم، وإن العاقبة حميدة، فلا يضجروا وليعاودوا القتال، فإن الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم، وإن الحرب سجال، وإنكم ستقوون ويضعفون، ويقلون وتكثرون، وأنتم في مبدأ أمر وهم في آخره» وأشباه هذه الوصايا وهي وصية طويلة اهـ كلام ابن خلكان.

وقال ابن خلدون: «لما كان شأن أبي محمد البشير وميز الموحد من المنافق اعتزم المهدي على غزو لمتونة، فجمع كافة أهل دعوته من المصامدة إليهم فلقوه بكبكب، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات فلقيتهم هنالك زحوف لمتونة مع أبي بكر بن علي بن يوسف وإبراهيم بن تاعماشت، فهزمهم الموحدون وفل إبراهيم وجنده، واتبعوهم إلى مراكش فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم راجل إلا أربعمائة فارس. واحتفل علي بن يوسف في الاحتشاد وبرز إليهم لأربعين من نزولهم: خرج عليهم من باب آيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسبياً. وفقد البشير واستحر القتل في هيلانة، وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء. وقيل للمهدي: «إن الموحدين قد هلكوا» فقال لهم: «ما فعل عبد المؤمن؟» قالوا: «هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء» فقال: «ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد»!.

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: «كانت وقعة البحيرة بأحواز مراكش قد استأصلت معظم أصحاب المهدي وكادت تأتي عليهم، ومع ذلك فلم تضع منه ولا وهنت صبره. وكان يقول: «مثل هذا الأمر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب وبعده ينبلج الصبح ويستعلي الضوء، ويأمرهم باتخاذ مرابط الخيل التي ينالون من فيء عدوهم بعدها وإنه يعطي الرجل على قدر ما أعد من الرباط إلى غير ذلك.

فهذا خبر المهدي مختصراً من ابن خلدون ممزوجاً بما نقله ابن خلكان من ذلك. وقد ساق ابن أبي زرع في القرطاس خبر المهدي هذا وفيه بعض مخالفة لما تقدم. فلنأت به وإن أدى إلى بعض التكرار زيادة في الإمتاع، وتحلية للأسماع، فنقول:

قال ابن أبي زرع ما ملخصه: «إن المهدي رحل إلى المشرق في طلب العلم ولقي مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علماً كثيراً، وحفظ جملة من حديث رسول الله ﷺ، ونبغ في علم الأصول والاعتقادات.

وكان في جملة من لقي من العلماء الشيخ أحمد الغزالي رضي الله عنه، لازمه ثلاث سنين. وكان الشيخ أبو حامد كثيراً ما يشير إلى المهدي ويقول: «إنه لا بد أن يكون له شأن!» ونمى الخبر بذلك إلى المهدي فلم يزل يتقرب إلى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم في ذلك. فلما تحققت عنده الحال استخار الله وعزم على الترحال فخرج قاصداً بلاد المغرب غرة ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة، ولازم في طريقه درس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن اجتمع به عبد المؤمن بن علي فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والعسر واليسر. ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش ـ وكانت له فصاحة وعليه مهابة ـ فأخذ يطعن على المرابطين وينسبهم إلى الكفر والتجسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن إليه أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وجرى منه

بمراكش من تغيير المنكر ونحوه ما تقدم ذكره، فاتصل خبره بعلي بن يوسف اللمتوني فأحضره وقال له: «ما هذا الذي بلغنا عنك؟» فقال: «إنما أنا رجل فقير أطلب الآخرة وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. وأنت أيها الملك أولى من يفعل ذلك فإنك المسؤول عنه. وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد وجب الله عليك إحياء السنة وإماتة البدعة. وقد عاب الله تعالى أمة تركوا النهي عن المنكر، فقال: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]. فلما سمع أمير المسلمين كلامه تأثر له وأخذه وأطرق مفكراً. ثم أمر بإحضار الفقهاء فحضر منهم ما أغص المجلس، ثم قال أمير المسلمين: «اختبروا الرجل فإن كان عالماً اتبعناه وإلا أدبناه»، وكان المهدي فصيحاً لسناً ذا معرفة بالأصول والجدل، وكان الفقهاء الذين حضروا أصحاب حديث وفروع، فدارت بينهم محاورة ومذاكرة أسكتهم فيها وبان عجزهم عنه، فعدلوا عن المذاكرة إلى الممالأة، وأغروا به أمير المسلمين، وقالوا: «هذا رجل خارجي، وإن بقي بالمدينة أفسد عقائد أهلها!» فأمره أمير المسلمين بالخروج من البلد، فخرج إلى الجبانة وضرب بها خيمة جلس فيها، وصار الطلبة يترددون إليه لأخذ العلم عنه، فكثر جمعه وأحبته العامة وعظموه.

وانتهى خبره إلى أمير المسلمين ثانياً، ونقل إليه أنه يطعن على الدولة فأحضره مرة أخرى وقال له: «أيها الرجل اتق الله في نفسك، ألم أنهك عن عقد الجموع والمحازب وأمرتك بالخروج من البلد؟». فقال: «أيها الملك قد امتثلت أمرك وخرجت من المدينة إلى الجبانة واشتغلت بما يعنيني، فلا تسمع لأقوال المبطلين!» فتوعده أمير المسلمين وهم بالقبض عليه، ثم عصمه الله منه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولما انفصل المهدي عن المجلس أغرى الحاضرون أمير المسلمين به، وشرحوا له جلية أمره وما يدعو إليه. فاستدرك أمير المسلمين فيه رأيه،

وبعث إليه من يأتيه برأسه، فسمع بذلك بعض بطانته فمر مسرعاً، حتى إذا قرب من الخيمة قرأ قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:20] الآية. فسمعها المهدي وفطن لها فانسل من حينه وخرج حتى أتى تينملل فأقام بها، وذلك في شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة ثم لحق به أصحابه العشرة السابقون إلى دعوته والمصدقون بإمامته، وهم: «عبد المؤمن بن علي الكومي، وأبو محمد البشير الونشريسي، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، وأبو يحيى بن يكيت الهنتاتي: وأبو حفص عمر بن علي آصناك، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجي، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تمار، وسليمان بن خلوف، وعاشر، فأقاموا بتينملل إلى رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة فعظم صيته بجبل درن وكثرت أتباعه. فلما رأى ذلك أظهر دعوته ودعا الناس إلى بيعته، فبايعه العشرة البيعة الخاصة عقب صلاة الجمعة خامس عشر رمضان من السنة.

ولما كان الغد ـ وهو يوم السبت ـ خرج المهدي في أصحابه العشرة متقلدين السيوف، وتقدم إلى الجامع فصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم أنه المهدي المنتظر، ودعاهم إلى بيعته، فبايعوه البيعة العامة، ثم بث دعاته في بلاد المصامدة يدعون الناس إلى بيعته ويزرعون محبته في قلوبهم بالثناء عليه ووصفه بالزهد وتحري الحق وإظهار الكرامات، فانثال الناس عليه من كل جهة، وسمى أتباعه الموحدين، ولقنهم عقائد التوحيد باللسان البربري، وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور! وقال: «من لم يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد، لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته!» فاستولت محبته على قلوبهم، وعظموه ظاهراً وباطناً، حتى كانوا يستغيثون به في شدائدهم، وينوهون باسمه على منابرهم، ولم تزل الوفود تترادف عليه حتى اجتمع عليه جم غفير، فلما علم أن ناموسه قد رسخ وسلطانه قد تمكن قام فيهم خطيباً، وندبهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم وأموالهم، فانتدب الناس

لذلك وبايعوه على الموت، فانتخب منهم عشرة آلاف من أجناد الموحدين، وقدم عليهم أبا محمد البشير وعقد له راية بيضاء ودعا لهم وانصرفوا، فصمدوا إلى مدينة أغمات.

وانتهى الخبر إلى أمير المسلمين، فجهز لقتالهم جيشاً من الحشم والأجناد، فلما التقوا انتصر عليهم الموحدون وهزموهم واتبعوهم حتى أدخلوهم مراكش وحاصروها أياماً، ثم أفرجوا عنها حين تكاثرت عليهم جيوش لمتونة، وكان ذلك ثالث شعبان سنة ست عشرة وخمسمائة، وقسم المهدي الغنائم التي غنموها من عسكر المرابطين، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح:20] الآية. وانتشر ذكر المهدي بجميع أقطار المغرب والأندلس. وأركب جل جيشه من خيل المرابطين التي غنموها. ثم غزا مراكش بنفسه فعبأ جيشه وسار حتى نزل بجبل كيليز بقرب المدينة، فأقام محاصراً لها ثلاث سنين يباكرها بالقتال ويراوحها من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة.

ولما ضجر من مقامه هناك نهض إلى وادي نفيس، وانحدر مع مسيله يدعو الناس لطاعته ويقاتل من أبى منهم فانقاد له أهل السهل والجبل. وبايعته كدميوة، ثم غزا بلاد ركراكة، فأخذهم بالدعاء إلى توحيد الله وشرائع دينه، وسار في بلاد المصامدة يقاتل من أبى ويسالم من أجاب ففتح بلاداً كثيرة، ودخل في دعوته عالم كثير من المصامدة، ورجع إلى تينملل فأقام بها شهرين ريثما استراح الناس، ثم غزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة في ثلاثين ألفاً من الموحدين، فاجتمع على حربه أهل أغمات وهزرجة وخلق كثير من الحشم ولمتونة وغيرهم فانتصر عليهم الموحدون، فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وقسم المهدي أنفالهم بين الموحدين. ثم غزا أهل درن ففتح قلاعه وحصونه، وطاع له جميع من فيه من قبائل هرغة وهنتاتة وكنفيسة وغيرهم.

ثم عاد إلى تينملل فأقام بها ريثما استراح الناس. ثم ندبهم إلى غزو

مراكش وجهاد المرابطين، وقدم عليهم عبد المؤمن بن علي وأبا محمد البشير، وخص عبد المؤمن بإمامة الصلاة، فساروا حتى انتهوا إلى أغمات، فلقيهم بها أبو بكر بن علي بن يوسف في جيش كثيف من لمتونة وقبائل صنهاجة، فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموا أبا بكر وجيشه إلى مراكش وقتلوهم في كل طريق، وحصروا مراكش أياماً، ثم رجعوا إلى تينملل فخرج المهدي للقائهم فرحب بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد. ثم كانت وفاته عقب ذلك على ما نذكره إن شاء الله، فهذا سياق ابن أبي زرع لهذه الأخبار والله أعلم بالصواب.

بقية أخبار المهدي وبعض سيرته إلى وفاته

كان المهدي رجلاً ربعة، أسمر، عظيم الهمة، غائر العينين، حديد النظر، خفيف العارضين، له شامة سوداء على كتفه الأيمن، ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم. وكان مع ذلك عالماً فقيهاً، راوياً للحديث، عارفاً بالأصول والجدل، فصيح اللسان، مقداماً على الأمور العظام، غير متوقف في سفك الدماء، يهون عليه إتلاف عالم في بلوغ غرضه، وكان حصوراً لا يأتي النساء، وكان متيقظاً في أحواله ضابطاً لما ولي من سلطانه، أنشد صاحب كتاب المغرب في حقه:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

ثم قال:

«له قدم في الثرى وهمة في الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا، أغفل المرابطون عقله وربطه، حتى دب إليهم دبيب القلق في الغسق، وترك في الدنيا دوياً. أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لكان لعزمه فيها غير مسلم، وكان قوته من غزل أخت له في كل يوم رغيفاً بقليل سمن أو

زيت! ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا! ورأى أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بضم ذلك جميعه وإحراقه! وقال: «من كان يتبعني لأجل الدنيا فليس له عندي إلا ما رأى! ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله!» وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيباً منيع الحجاب إلا عند مظلمة، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه. وكان له شعر فمن ذلك قوله:

أخذت بأعضادهم إذ نؤوا ... وخلفك القوم إذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي ... وتُسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى ... تسن الحديد ولا تقطع

وكان كثيراً ما ينشد:

تجرد من الدنيا فإنك إنما ... خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد

وكان يتمثل أيضاً بقول أبي الطيب المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

وبقوله أيضاً:

ومن عرف الأيام معرفتي بها ... وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ... ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

وبقوله أيضاً:

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: «قالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام، وينكر كتب الرأي والتقليد، وله باع في علم الكلام، وغلبت عليه نزغة خارجية، وكان ينتحل القضايا الاستقبالية، ويشير إلى الكوائن الآتية، ورتب قومه ترتيباً غريباً. فمنهم أهل الدار، وأهل الجماعة، وأهل الساقة، وأهل خمسين. وأهل سبعين، والطلبة، والحفاظ،

وأهل القبائل. فأهل الدار للامتهان والخدمة. وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة، وأهل الساقة للمباهاة، وأهل سبعين وخمسين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدو. وكان يعلمهم أوجه العبادات في العادات».

قلت: من ذلك أن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم، فعدد كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلاً، فصفهم صفاً وقال لأولهم: «اسمك الحمد لله» وللثاني: «رب العالمين» وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة. ثم قال لهم: «لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسقها في كل ركعة!» فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن. ذكره صاحب المعرب.

قالوا: وهو أول من أحدث «أصبح ولله الحمد» في أذان الصبح.

ومن جراءته وإقدامه وتهالكه على تحصيل مرامه ما حكاه صاحب القرطاس قال: «كانت بين الموحدين والمرابطين حرب فقتل من الموحدين خلق كثير فعظم ذلك على عشائرهم، فاحتال المهدي بأن انتخب قوماً من أتباعه ودفنهم أحياء بموضع المعركة وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره»! وقال لهم: «إذا سئلتم عن حالكم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. وأن ما دعا إليه الإمام المهدي هو الحق! فجدوا في جهاد عدوكم» وقال لهم: «إذا فعلتم ذلك أخرجتكم وكانت لكم عندي المنزلة العالية» وقصد بذلك أن يثبتهم على التمسك بدعوته، ويهون عليهم ما لاقوا من القتل والجراحات بسببه. ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم: «أنتم يا معشر الموحدين حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق، فجدوا في قتال عدوكم فإنكم على بصيرة من أمركم، وإن كنتم ترتابون فيما أقوله لكم فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من إخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله!» ثم أتى بهم إلى موضع المعركة ونادى «يا معشر الشهداء ماذا لقيتم

من الله عز وجل؟» فقالوا: «قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!» فافتتن الناس وظنوا أن الموتى قد كلموهم! وحكوا ذلك لبقية إخوانهم، فازدادوا بصيرة في أمره وثباتاً على رأيه. والله أعلم بحقيقة الحال.

وفاة المهدي رحمه الله

كانت وفاة المهدي عقب وقعة البحيرة. قال ابن خلدون: «لأربعة أشهر بعدها» وقال ابن الخطيب وغيره: كانت وفاته يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة. وقيل غير ذلك.

وقال في القرطاس: «لما رجع الموحدون من غزو مراكش إلى تينملل خرج إليهم المهدي فسلم عليهم ورحب بهم، وأعلمهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد وبمدة ملكهم، وأعلمهم أنه يموت في تلك السنة. فبكوا وأسفوا ثم مرض مرضه الذي مات منه، وقدم عبد المؤمن للصلاة أيام مرضه، ثم توفي في التاريخ المتقدم».

وذكر بعض المؤرخين: «أن المهدي رأى في منامه قبل وفاته كأن آتياً أتاه فأنشده أبياتاً نعى له فيه نفسه، وأعلمه باليوم الذي يموت فيه فكان كذلك» انظر القرطاس.

وقد مر في هذه الأخبار ذكر «كتاب الجفر» وربما تتشوق النفس لمعرفة حقيقته، فقد قال ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعيد العجلي ـ وهو رأس الزيدية ـ كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق رضي الله عنه، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوباً عند جعفر الصادق في جلد ثور صغير، فرواه عنه

هارون العجلي، وكتبه وسماه «الجفر» باسم الجلد الذي كتب فيه (لأن الجفر في اللغة هو الصغير) فصار هذا الاسم علماً على هذا الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن الكريم وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق رضي الله عنه».

وذكره ابن قتيبة في أوائل كتاب اختلاف الحديث فقال بعد كلام طويل: «وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن الكريم، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذي ذكره العجلي» ثم قال ابن قتيبة:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم في جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا إمام ومنهم ... طوائف سمته النبي المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... برئت إلى الرحمٰن ممن تجفرا

في أبيات غير هذه، ثم قال ابن قتيبة: «وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب لهم فيه الإمام جعفر الصادق كل ما يحتاجون إليه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة» اهـ وهذا تزييف من ابن قتيبة لكتاب الجفر، وخالف هذا المذهب أبو العلاء المعري فقال:

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أتاهم علمهم في مسك جفر
ومرآة المنجم - وهي صغرى - ... أرته كل عامرة وقفر

والمسك بفتح الميم الجلد، والجفر بفتح الجيم ما بلغ أربعة أشهر من أولاد المعز وكانت عادتهم في ذلك الزمان أنهم يكتبون في الجلود وما شاكلها لقلة الأوراق يومئذٍ.

وقال ابن خلدون: كتاب الجفر لم تتصل روايته عن جعفر الصادق رضي الله عنه ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صح النسبة إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه. فهم أهل الكرامات رضي الله عنهم.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد المؤمن بن علي الكومي وأوليتها

اعلم أن بني عبد المؤمن ليسوا من المصامدة، وإنما هم من كومية، ثم من بني عابد منهم وكومية، ويعرفون قديماً بصطفورة بطن من بني فاتن بن تامصيت بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتر، فهم بنو عم زناتة يجتمعون في ضري بن زجيك. هذا هو الصحيح. وبعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن إلى قيس عيلان بن مضر، وهو ضعيف.

قال ابن خلدون: «كان عبد المؤمن من بني عابد أحد بيوتات كومية وأشرافهم» قال: «وموطنهم بتاكرارت وهو حصن في الجبل المطل على هنين من ناحية الشرق».

وقال ابن خلكان: «كان والد عبد المؤمن وسيطاً في قومه، وكان صانعاً في عمل الطين يعمل منه الآنية فيبيعها، وكان عاقلاً من الرجال وقوراً».

ويحكى أن عبد المؤمن في صباه كان نائماً تجاه أبيه وأبوه مشتغل بعمله في الطين، فسمع أبوه دوياً في السماء، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن، وهو نائم فغطته، ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها، فرأته أمه على تلك الحال، فصاحت خوفاً على ولدها فسكتها أبوه، فقالت: «أخاف عليه» فقال: «لا بأس عليه، بل إني متعجب مما يدل عليه ذلك» ثم إنه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل، فطار عنه بأجمعه، فاستيقظ الصبي، وما به من ألم! فتفقدت أمه جسده فلم تر به أثراً! ولم يشك ألماً!».

وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر، فمضى أبوه إليه فأخبره بما

رآه من النحل مع ولده، فقال الزاجر: «يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب» فكان من أمره ما اشتهر.

وقد تقدم لنا أن المهدي كان عنده كتاب الجفر، وكان فيه أن أمره لا يتم إلا على يد رجل اسمه كذا، وحليته كذا، وهو عبد المؤمن بن علي فأقام المهدي يتطلبه مدة إلى أن لقيه بملالة، وعبد المؤمن إذ ذاك شاب حدث طالب علم، فلازم المهدي واستمسك بغرره إلى أن كان من أمره ما كان.

وكان المهدي يتفرس فيه النجابة وينشد إذا أبصره:

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبط
السن ضاحكة، والكف مانحة، والنفس واسعة، والوجه منبسط

والبيتان لأبي الشيص الخزاعي. وكان يقول لأصحابه: صاحبكم غلاب الدول! وكان يقول: عبد المؤمن من صدِّيقي هذه الدائرة!.

وقال ابن خلدون: «آثر المهدي عبد المؤمن بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والوعي للتعليم، حتى كان خالصة المهدي وكنز صحابته، وكان مؤمله لخلافته لما أظهره عليه من الشواهد المؤذنة بذلك. وفي ذلك يقول ابن الخطيب:

وخلف الأمر لعبد المؤمن فانقادت الدنيا له في رسن
حباه بين القوم بالإمارة إذ وضحت له فيه الأمارة

ولما اجتاز المهدي في طريقه إلى المغرب بالثعالبة - عرب الجزائر - أهدوا إليه حماراً فارهاً يركبه لأنه كان ساعياً على رجليه، فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه: «أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة!» وزعم بنو عبد المؤمن أن المهدي كان استخلفه من بعده. وقال ابن خلكان: «لم يصح أنه استخلفه وإنما راعى أصحابه في تقديمه إشارته فتم له الأمر». والله أعلم.

بيعة عبد المؤمن بن علي والسبب فيها

لما توفي المهدي في التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه، ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل.

ولما فرغ الموحدون من أمره تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده، وكانوا من قبائل شتى، وأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها، وأن لا يتولى عليها من هو من غيرها، فتنافسوا في ذلك، فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا فيما بينهم وخافوا على أنفسهم النفاق، وأن تفسد نياتهم وتفترق جماعتهم، فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريباً بين أظهرهم، ليس من المصامدة لأن المصامدة من البرانس، وكومية قبيلة عبد المؤمن من البتر، فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وإيثاره على غيره فتم له الأمر.

وقال ابن خلدون: «لما مات المهدي خشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة لولاية عبد المؤمن. لكونه من غير جلدتهم، فأرجؤوا الأمر إلى أن تخالط بشاشة الدعوة قلوبهم، وكتموا موته ثلاث سنين يموهون فيها بمرضه، ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب، ويدخل أصحابه إلى بيته كأنه اختصهم بعيادته، فيجلسون حوالي قبره، ويتفاوضون في شؤونهم، ثم يخرجون لإنفاذ ما أبرموه، ويتولى ذلك عبد المؤمن. حتى إذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من كافتهم كشفوا القناع عن حالهم، وتمالأ من بقي من العشرة على تقديم عبد المؤمن، وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس. فأظهروا للناس موت المهدي وعهده لصاحبه، وانقاد بقية أصحابه لذلك، وروى لهم يحيى بن يغمور أنه كان يقول في دعائه أثر صلواته: «اللهم بارك في الصاحب الأفضل» فرضي الكافة وانقادوا له وأجمعوا على بيعته.

وزعموا[1] أن عبد المؤمن استعمل في ذلك حيلة تم له بها ما أراد وذلك أنه عمد إلى طائر وأسد فضراهما حتى أنسا به، وعلم الطائر أن يقول عند علامة نصبها له: «النصر والتمكين لعبد المؤمن أمير المؤمنين!» وعلم الأسد أن يبصبص له ويتمسح به كلما رآه! ثم جمع عبد المؤمن الموحدين وخطبهم وحضهم على الألفة واجتماع الكلمة، وحذرهم عاقبة البغي والخلاف، وبينما هو في ذلك إذ أرسل سائس الأسد أسده، وصفر صاحب الطائر لطائره، فبصبص هذا! وأعلن بالنصر هذا! فعجب الحاضرون من ذلك ورأوا أنها كرامة لعبد المؤمن فازدادوا بها بصيرة في أمره وثباتاً على بيعته، مع ما كان من تقديم المهدي له في الصلاة أيام مرضه، وفي ذلك يقول بعضهم:

أنس الشبل ابتهاجاً بالأسد ... ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم ... فقضى حقكم حين وفد

والله أعلم.

وكانت بيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يوماً من ربيع الأول سنة ست وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل. وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدي، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين ثم كافة الموحدين؛ لم يتخلف عن بيعته منهم أحد، فاستوسق له الأمر واستولى على المغرب بأسره وفتح بلاد إفريقية إلى برقة، وبلاد الأندلس بأسرها، وخطب له على منابر

(1) قد نقل العلامة المقري عن تاج الدين بن حمويه السرخسي في رحلته إلى المغرب الأقصى أن هذه القصة وقعت ليعقوب المنصور الموحدي وذلك أن قوماً من الغرباء قصدوه ومعهم حيوانات معلمة منها أسد وغراب فربض الأسد بين يدي المنصور ودعا الغراب له بالنصر فقال بعضهم الأبيات المذكورة وهذا هو الصحيح لأن السرخسي يحدث عن مشاهدة لوجوده من زمن المنصور انظر نفح الطيب ج2 ص 739.

هذه الأقاليم كلها على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ولما تمت بيعته غزا من حينه بلاد تادلا فقتل بها وسبى، ثم غزا بلاد درعة فاستولى عليها، ثم غزا بلاد غمارة فافتتح البعض منها وقتل واليها، ثم تسابق الناس إلى دعوته أفواجاً، وانتقضت البربر على المرابطين في سائر أقطار المغرب. وكان ما نذكره:

غزوة عبد المؤمن الطويلة التي استولى فيها على المغربين

ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب فغزا غزوته الطويلة التي مكث فيها سبع سنين، وأجلت عن فتح المغربين معاً الأقصى والأوسط. خرج لها من تينملل في صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة. فلم يزل يتقرى بلاد المغرب ويفتح معاقلها ويستنزل حماتها ويذلل صعابها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

وكان خروجه من تينملل على طريق الجبل، وخرج تاشفين بن علي في أتباعه من مراكش على طريق السهل إلى أن وصلا إلى تلمسان حسبما قدمناه في أخبار المرابطين.

قال ابن خلدون: خرج عبد المؤمن في هذه الغزوة من تينملل يعني على طريق الجبل كما قلنا، وخرج تاشفين بن علي - يعني في حياة والده بعساكره يحاذيه في البسيط - والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن، وهو يتنقل في الجبال في سعة من الفواكه للأكل والحطب للدفء، إلى أن وصل إلى جبال غمارة، واشتعلت نار الفتنة والغلاء بالمغرب، وأقشعت الرعايا عن البلاد، وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة الأندلسية، وهلك خلال ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وولي بعده ابنه تاشفين بن علي المذكور وهو في غزاته هذه.

وفي القرطاس: «ارتحل عبد المؤمن إلى جبال غمارة، وارتحل تاشفين بن علي في أثره، فنزل بإزاء عين القديم وذلك في فصل الشتاء فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم، وهدموا بيوتهم وخيامهم» انتهى.

ونشأت فتنة بين لمتونة ومسوفة فنزع جماعة من أمراء مسوفة - منهم عامل تلمسان يحيى بن إسحاق المعروف بآنكمار - ولحقوا بعبد المؤمن ودخلوا في دعوته، فنبذ إليهم المرابطون العهد وإلى سائر مسوفة. واستمر عبد المؤمن على حاله، فنازل سبتة فامتنعت عليه. وتولى كبر دفاعه عنها القاضي أبو الفضل عياض بن موسى الشهير الذكر، وكان رئيسها يومئذٍ بأبوته ومنصبه وعلمه ودينه.

قال ابن خلدون: «ولذلك سخطته الدولة - يعني دولة الموحدين - آخر الأيام حتى مات مغرباً عن سبتة مستعملاً في خطة القضاء بالبادية من تادلا رحمه الله. وتمادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غياثة وبطوية فافتتحها ثم نازل ملوية فافتتح حصونها ثم تخطى إلى بلاد زناتة فأطاعته قبائل مديونة، وكان قد بعث إليهم جيشاً من الموحدين إلى نظر يوسف بن وانودين، فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانوا عامل تلمسان من قبل المرابطين فيمن معه من جيوش لمتونة وزناتة، فهزمهم الموحدون، وقتل ابن فانوا وانفض جمع زناتة ورجعوا إلى بلادهم. وولى تاشفين بن علي على تلمسان أبا بكر بن مزدلي، وقدم على عبد المؤمن - وهو بمكانه من الريف - أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن بدر - من أمراء بني ومانوا من زناتة - فبعث معهم يحيى بن يغمور ويوسف بن وانودين في عسكر، فأثخنوا في بلاد بني عبد الواد وبني يلومي من زناتة سبياً وأسراً، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي، فأمدهم بعساكر لمتونة - ومعهم الروبرتير قائد الروم - ونزلوا منداس، وانضمت إليهم قبائل زناتة من بني يلومي، وبني عبد الواد مع شيخهم حمامة بن مطهر وإخوانهم بني توجين وغيرهم، فأوقعوا ببني ومانوا وقتلوا

أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه، واستنقذوا غنائمهم، وتحصن الموحدون وفل بني ومانوا بجبل سيرات.

ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخاً بعبد المؤمن ومستجيشاً به على لمتونة وزناتة. فارتحل معه عبد المؤمن إلى تلمسان ثم أجاز إلى سيرات.

وقصد محلة لمتونة وزناتة فأوقع بهم، ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل تيطرى، ونزل تاشفين بن علي بالسهل مما يلي الصفصاف، ثم وصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن العزيز صاحب بجاية لنظر قائده طاهر بن كباب، أمدوا به تاشفين بن علي وقومه لعصبية الصنهاجية، وفي يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين، وكان يدل بإقدام. فعرض بلمتونة وأميرهم تاشفين بن علي لقعودهم عن مناجزة الموحدين، وقال: «إنما جئتكم لأخلصكم من صاحبكم عبد المؤمن هذا وأرجع إلى قومي» فامتعض تاشفين بن علي من كلمته وأذن له في المناجزة، فحمل على القوم، فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به وانفض عسكره. وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم وهو الروبرتير في عسكر ضخم، فأغار على قوم من زناتة كانوا في بسيط لهم فاكتسحهم ورجع بالغنائم، فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوهم وقتلوا الروبرتير في جملتهم.

ثم بعث تاشفين بن علي بعثاً آخر إلى جهة أخرى، فلقيهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين. واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل.

وتوالت هذه الوقائع على تاشفين بن علي اللمتوني فأجمع الرحلة إلى وهران، وبعث ابنه ـ ولي عهده ـ إبراهيم بن تاشفين إلى مراكش في جماعة من لمتونة، وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية، ورحل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون

إلى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل، فأرسى قريباً من معسكره، وزحف عبد المؤمن من تلمسان، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، ومعه بنو ومانوا من زناتة فتقدموا إلى بلاد زناتة ونزلوا منداس وسط بلادهم، وجمع له بنو يادين كلهم وبنو يلومي وبنو مرين ومغراوة، فأثخن فيهم الموحدون حتى أذعنوا للطاعة ودخلوا في دعوتهم. ووفد على عبد المؤمن جماعة من رؤسائهم، وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس شيخ بني يلومي، وحمامة بن مطهر شيخ بني عبد الواد وغيرهم، فتلقاهم بالقبول وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران، فبيتوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكباً فرسه فتردى به من بعض حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وبعث برأسه إلى تينملل ونجا فل العسكر إلى وهران، فانحصروا بها مع أهلها حتى جهدهم العطش فنزلوا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة فاستأصلهم القتل رحمهم الله. وبلغ خبر مقتل تاشفين بن علي إلى تلمسان مع فل لمتونة الذين نجوا من وقعة وهران وفيهم سير بن الحاج في آخرين من أعيانهم، ففر معهم من كان بها من لمتونة.

ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرارت لما كان أكثرهم من الحشم بعد أن كان بعثوا ستين من وجوههم فلقيهم يصليتن من مشيخة بني عبد الواد فقتلهم أجمعين. وافتتح عبد المؤمن تلمسان وعفا عن أهلها ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين.

فتح مدينة فاس

نقل بعض المؤرخين أن عبد المؤمن لم يزل محاصراً لتلمسان والفتوح ترد عليه وهناك وصلته بيعة أهل سجلماسة، إلى أن اعتزم على الرحيل إلى المغرب. فترك إبراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان، وقصد مدينة فاس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقد تحصن بها يحيى بن أبي بكر الصحراوي من فل تاشفين بن علي من وهران، فنازلها عبد المؤمن وبعث عسكراً لحصار مكناسة، ثم نهض في أتباعه وترك عسكراً من الموحدين على فاس، وعليهم الشيخ أبو حفص، وأبو إبراهيم من صحابة المهدي العشرة فحاصروها سبعة أشهر، ثم داخلهم ابن الجياني فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلاً، وفر يحيى بن أبي بكر الصحراوي إلى طنجة، ثم أجاز منها إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية بالأندلس - وكان والياً على قرطبة من قبل المرابطين - فأقام عنده إلى أن كان من أمره ما نذكره. وانتهى خبر فتح فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها ودخلها.

وحكى صاحب القرطاس في فتح فاس خلاف هذا الوجه فقال: وفي سنة أربعين وخمسمائة فتح عبد المؤمن فاساً بعد حصار شديد: قطع عنها ماء النهر الداخل إليها وسده بالبناء والخشب حتى انحبس الماء فوق بسيط الأرض وانتهى إلى مراكزه منها ثم خرق السد فانحدر الماء على المدينة دفعة واحدة وهدم سورها ثم هدم من دورها ما يزيد عن ألفي دار بالتثنية وهلك بها خلق كثير وكان الماء يأتي على أكثرها، ثم دخلها عبد المؤمن وأمن أهلها إلا من كان بها من المرابطين فإنه أمر أن لا يمضي لهم أمان، وقتلهم قتل عاد. ثم أمر بسور المدينة فهدم منه ثلم كثيرة أوسعها جداً، وقال: «إنا لا نحتاج إلى سور وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا» فلم تزل فاس لا سور لها إلى أن تداركها حافده يعقوب المنصور فابتدأ بناءه، ومات فأتمه ابنه الناصر سنة ستمائة.

ولما فتح عبد المؤمن فاساً ولى عليها إبراهيم بن جامع الذي خلفه على تلمسان، فإنه لما فتحها ارتحل إلى عبد المؤمن فاتصل به وهو محاصر لفاس، ففتحها عبد المؤمن وولاه عليها، وكان قد اعترضه في طريقه المخضب بن عسكر شيخ بني مرين ونالوا منه ومن رفقته، وكانت معه أموال لمتونة وذخيرتهم التي استولى عليها عبد المؤمن بوهران، وكان ابن جامع ذاهباً بها إلى تينملل فاعترضه بنو مرين وانتزعوها منه، وانتهى الخبر بذلك إلى عبد المؤمن فكتب إلى عامله على تلمسان يوسف بن وانودين يأمره أن يجهز العساكر إلى بني مرين، فبعثها صحبة عبد الحق بن منغفاد شيخ بني عبد الواد، فأوقعوا ببني مرين وقتل المخضب شيخهم.

فتح مراكش واستئصال بقية اللمتونيين

ثم ارتحل عبد المؤمن من فاس عامداً إلى مراكش فوافته في طريقه بيعة أهل سبتة، فولى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة، ومر على مدينة سلا فافتتحها بعد مواقعة قليلة وثلم سورها كفاس، ونزل منها بدار ابن عشرة، وكانت هذه الدار قصراً بديعاً بمدينة سلا، بناه الفقيه أبو العباس بن القاسم من بني عشرة، فشيده وأتقنه، ولما فرغ منه وصفته الشعراء وهنته به ودعت له، وكان بالحضرة يومئذٍ الأديب ابن الحمارة ولم يكن أعد شيئاً ففكر قليلاً ثم قال:

يا أوحد الناس قد شيدت واحدة ... فحل فيها حلول الشمس في الحمل

فما كدارك في الدنيا لذي أمل ... ولا كدارك في الأخرى لذي عمل

وهذا القصر لم يبق له اليوم اسم ولا رسم. ثم تمادى عبد المؤمن إلى مراكش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة، فأثخن فيهم ورجع فلقيه في طريقه وانتهوا جميعاً إلى مراكش، وقد انضم إليها جموع لمطة، فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلاً، واكتسحوا أموالهم وظعائنهم، وأقاموا على

مراكش تسعة أشهر، وأميرهم يومئذٍ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكانوا قد بايعوا أولاً إبراهيم بن تاشفين بن علي فألفوه مضعفاً عاجزاً، فخلعوه وبايعوا عمه إسحاق بن علي المذكور، وهو صبي صغير؛ ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل، فاقتحموا عليهم المدينة في أخريات شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقتل عامة الملثمين، ونجا إسحاق في جملته وأعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين، وأحضر إسحاق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم، وتولى كبر ذلك أبو حفص بن واجاج منهم.

وانمحى أثر الملثمين، واستولى الموحدون على جميع البلاد. وقد قيل في ترتيب هذه الأخبار غير هذا الوجه.

قال ابن مطروح القيسي: لما بويع عبد المؤمن بتينملل ارتحل بجيوش الموحدين نحو مراكش فحاصرها أياماً وذلك في شوال سنة ست وعشرين وخمسمائة، ثم ارتحل عنها إلى تادلا، ثم إلى سلا، فتلقاه أهلها سامعين مطيعين. فدخلها يوم السبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة وخطب له بها.

وفي سنة سبع وعشرين بعدها فتح عبد المؤمن بلاد تازا.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين[1]. واعلم أن اللقب كان في صدر الإسلام خاصاً بالخليفة بالمشرق من بني أمية أو من بني العباس بعدهم. ولما قام عبيد الله المهدي أول ملوك العبيديين بإفريقية تسمى بأمير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من بني العباس

---

(1) وعبد المؤمن هذا هو أول من تسور على اللقب بأمير المؤمنين من غير جنس العرب، ولم يتجرأ أحد من العجم قبله على هذه الدعوى، وكانت سبب انتقاض المغرب عليه. انظر تحقيق القول في هذا المبحث في مقدمة تاريخنا المغربي.

المعاصرين له بالمشرق، فهو أول من زاحم الخليفة في هذا اللقب، ثم تبعه على ذلك عبد الرحمٰن الناصر الأموي صاحب الأندلس، ورأى أن له في الخلافة حقّاً اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق وكلاهما ـ أعني العبيدي والأموي ـ قرشي من عبد مناف، ثم لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالمشرق ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بأمير المؤمنين لأنه لقب الخليفة الأعظم القرشي كما علمت، إلى أن جاءت دولة المرابطين وكان منهم يوسف بن تاشفين واستولى على المغربين والأندلس، وعظم سلطانه واتسعت مملكته، وخاطب الخليفة العباسي بالمشرق فولاه على ما بيده، وتسمى بأمير المسلمين أدباً مع الخليفة حسبما أشرنا إليه سالفاً ولما جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك كله واتسم بالخليفة وتلقب بأمير المؤمنين وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها، وحتى سامها كل مفلس

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة أمر عبد المؤمن ببناء رباط مدينة تازا، فبنيت وحصن سورها، ثم كانت محاربته لتاشفين بن علي على نحو ما أسلفناه. والله تعالى أعلم.

ثورة محمد بن هود السلاوي المعروف بالماسي

كان محمد بن هود بن عبد الله السلاوي رجلاً من سوقة أهل سلا وكان أبوه سمساراً بها يبيع الكنابيش، وكان هو قصاراً بها مدة، ثم لحق بعبد المؤمن عندما ظهر وبايعه وشهد معه فتح مراكش، ثم فارقه وظهر برباط ماسة من ناحية السوس، ودعا لنفسه وتسمى بالهادي، وتمكن ناموسه من قلوب العامة وكثير من الخاصة، فأقبل إليه الشراد من كل جانب، وانصرفت إليه وجوه الأغمار من أهل الآفاق، وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة ورجراجة وقبائل تامسنا وهوارة، وفشت ضلالته في جميع المغرب.

قال في القرطاس: بايعه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش، فسرح إليه عبد المؤمن عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن إسحاق أنكمار النازع إليه من إيالة تاشفين بن علي حسبما تقدم، فالتقى بالماسي وقاتله فانتصر الماسي عليه وعاد مهزوماً إلى عبد المؤمن، فسرح إليه عبد المؤمن ثانياً الشيخ أبا حفص الهنتاتي في جيش عظيم من أشياخ الموحدين وغيرهم، واحتفل عبد المؤمن في الاستعداد. ونهض الشيخ أبو حفص من مراكش فاتح ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وشيعه عبد المؤمن إلى وادي تانسيفت، ثم دعا له وودعه وانصرف الشيخ أبو حفص في جيوش الموحدين حتى انتهوا إلى رابطة ماسة فبرز إليهم محمد بن هود في نحو ستين ألفاً من الرجالة وسبعمائة من الفرسان، فكانت بينهم حرب شديدة ثم انتصر عليهم الموحدون فهزموهم، وقتل محمد بن هود في المعركة مع كثير من أتباعه وفضت جموعه، وكان ذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة، وكان الذي باشر قتل ابن هود هو الشيخ أبو حفص رئيس الجيش، فلقبه الموحدون سيف الله تشبيهاً له بخالد بن الوليد رضي الله عنه.

وكتب الشيخ أبو حفص إلى عبد المؤمن برسالة الفتح من إنشاء الفقيه أبي جعفر بن عطية القضاعي الكاتب المشهور يقول فيها: «كتابنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم، ونصره تعالى المعهود القديم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، فتح بهر الأنوار إشراقاً؛ وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً، ونبه للأماني النائمة جفونا وأحداقاً، واستغرق غاية الشكر استغراقاً، فلا تطيق الألسن لكنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً، جمع أشتات الطلب والأرب، وتقلب في النعم أكرم منقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب.

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة، كان أولئك الضالون قد بطروا عدواناً وظلماً، واقتطعوا الكفر معنًى واسماً، وأملى الله تعالى لهم ليزدادوا إثماً، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب بمهولاته، ونصب له الشيطان من حبلاته؛ فأتته المخاطبات من بعد وكثب، وانسلت إليه الرسل من كل حدب، واعتقدته الخواطر أعجب عجب، وكان الذي قادهم إلى ذلك؛ وأوردهم تلك المهالك؛ وصول من كان بتلك السواحل، ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس، فيما سلف من الأعوام، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام؛ آناء الليالي والأيام، لبسوا الناموس أثواباً، وتدرعوا الرياء جلباباً، فلم يفتح الله تعالى لهم للتوفيق باباً».

ومنها في ذكر صاحبهم الماسي المدعي للهداية: «فصرع بحمد الله تعالى لحينه، وبادرت إليه بوادر منونه، وأتته وافدات الخطايا عن يساره ويمينه؛ وقد كان يدعى أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه: والنوائب لا تنوبه! ويقول في سواه قولاً كثيراً، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً! فلما رأوا هيئة اضطجاعه، وما خطته الأسنة في أعضائه وأضلاعه، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه؛ هزم من كان لهم من الأحزاب؛ وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب، وأعطوا على بكرة أبيهم صفحات الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب، فامتلأت تلك الجهات بأجسامهم، وآذنت الآجال بانقراض آمادهم، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم، فلم يعاين منهم إلا من خر صريعاً، وسقى الأرض نجيعاً؛ ولقي من أمر الهنديات فظيعاً، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينجيه؛ اختطفته الأسنة اختطافاً، وأذاقته موتاً ذعافاً، ومن لج في الترامي على لججه؛ ورام البقاء في ثبجه، قضى عليه شرقه، وألوى بذقنه غرقه؛ ودخل

الموحدون إلى البقية الكائنة فيه، يتناولون قتلهم طعناً وضرباً، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً، حتى انبسطت مراقات الدماء، على صفحات الماء، وحكت حمرتها على زرقته؛ حمرة الشفق على زرقة السماء، وجزت العبرة للمعتبر، في جري ذلك الدم جري الأبحر!».

وبالجملة فهي رسالة بليغة، وهي التي أورثت منشئها الرتبة العلية، والمنزلة السنية، فإن عبد المؤمن لما وقف عليها استحسنها ووقعت منه موقعاً كبيراً، فاستكتبه أولاً؛ ثم استوزره ثانياً، ثم نكبه وقتله ثالثاً كما سيأتي.

ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزوة ماسة أراح بمراكش أياماً ثم خرج غازياً بلاد القائمين بدعوة محمد بن هود بجبال درن فأوقع بأهل نفيس وهيلانة، وأثخن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا للطاعة ورجع.

ثم خرج إلى هسكورة فأوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم.

ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش.

ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مدة، ثم هزموه، واضطرمت نار الفتنة بالمغرب وكان ما نذكره.

انتقاض أهل سبتة على الموحدين وخبر القاضي عياض رحمه الله معهم

قد تقدم لنا أن عبد المؤمن كان غزا سبتة في غزوته الطويلة، وأن القاضي عياضاً رحمه الله دافعه عنها، وأنه لما قتل تاشفين بن علي وفتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المؤمن بايع أهل سبتة في جملة من بايع من أمصار المغرب.

قالوا: «وبادر القاضي عياض إلى لقاء عبد المؤمن فاجتمع به بمدينة سلا حين كان ذاهباً لفتح مراكش فأجزل صلته، وولى على سبتة يوسف بن

مخلوف التينمللي وساكن الموحدون أهل سبتة في ديارهم واطمأنوا إليهم.

فلما انتقض المغرب على عبد المؤمن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتن انتقض أهل سبتة أيضاً، وكان انتقاضهم كما في القرطاس - برأي القاضي عياض رحمه الله فقتلوا عامل الموحدين ومن كان معه من أصحابه وحاميته وحرقوهم بالنار.

وركب القاضي عياض البحر إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، وكان معتصماً بقرطبة متمسكاً بدعوة المرابطين، فلقيه وأدى إليه البيعة؛ وطلب منه والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان معتصماً بفاس أيام حصار عبد المؤمن لها، ففر ولحق بابن غانية كما قلنا، وبقي في جملته إلى أن بعثه مع القاضي عياض في هذه المرة فدخل يحيى سبتة وقام بأمرها.

ولما اتصلت بعبد المؤمن هذه الأخبار مع ما تقدم من هزيمة برغواطة للشيخ أبي حفص خرج من مراكش قاصداً بلاد برغواطة أولاً، ثم من بعدهم ثانياً، فتسامعت برغواطة بخروج عبد المؤمن إليهم، فكتبوا إلى يحيى بن أبي بكر بمكانه من سبتة يستنصرونه عليهم، فأتاهم وبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المؤمن فهزموه، ثم كانت له الكرة عليهم فهزمهم وحكم السيف فيهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة؛ وتبرؤوا من يحيى الصحراوي ولمتونة، وفر الصحراوي إلى منجاته، ثم طلب الأمان من عبد المؤمن وتشفع إليه بأشياخ القبائل فأمنه ووفد عليه فبايعه وحسنت طاعته لديه، وكان ذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة.

ولما رأى أهل سبتة ذلك كله سقط في أيديهم وندموا على صنيعهم وكتبوا ببيعتهم إلى عبد المؤمن وقدم بها أشياخ سبتة وطلبتها تائبين، فعفا عنهم وعن القاضي عياض، وأمره بسكنى مراكش، والصحيح أنه ولاه القضاء بتادلا ثم دخل مراكش، قيل دخلها مريضاً مرض موته، وقيل مات بالطريق

وحمل إليها؛ وأمر عبد المؤمن مع ذلك بهدم سور سبتة فهدم وكذلك فعل بفاس وسلا.

واعلم أن ما صدر من القاضي عياض رحمه الله في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لا حق لهم في الأمر والإمامة وإنما هم متغلبون وهذا أمر لا خفاء به كما هو واضح. ولما كانت شوكة عبد المؤمن لا زالت ضعيفة وتاشفين بن علي أمير الوقت لا زال قائم العين امتنع القاضي عياض رحمه الله من مبايعة عبد المؤمن، ودافعه عن سبتة إذ لا موجب لذلك لأن بيعة تاشفين في أعناقهم وهو لا زال حياً، فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب.

وأما ما غالط به المهدي رحمه الله من أن المرابطين مجسمة، وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار، فضلاً عن أن تكون طاعتهم واجبة، فسفسطة منه عفا الله عنا وعنه!.

ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعه القاضي عياض حينئذٍ وقبل صلته، لأن من قويت شوكته وجبت طاعته.

ثم لما ضعف أمره ثانياً بسبب قيام الماسي عليه وإجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضي بأهل سبتة عن بيعته إلى طاعة المرابطين الذين لهم الحق في الإمامة بطريق الأصالة، ولم يأخذ بدعوة الماسي لأنه ثائر أيضاً، هذا مع ما كان ينقل عن المهدي من أنه غلبت نزعة خارجية عليه، وأنه يقول بعصمة الإمام وذلك بدعة كما لا يخفى، فتكون إمامته وإمامة أتباعه مقدوحاً فيها من هذه الحيثية، لكن حيث حصل التغلب والاستيلاء وجبت الطاعة. فالحاصل أن ما فعله القاضي عياض أولاً وثانياً وثالثاً كله صواب موافق للحكم الشرعي، فهكذا ينبغي أن تفهم أحوال أئمة الدين، وأعلام المسلمين رضي الله عنهم ونفعنا بعلومهم.

وأما القتل والتحريق الذي صدر من أهل سبتة فالظن بالقاضي عياض رحمه الله أنه لا يوافق على ذلك ولا يرضاه، لكن العامة تتسرع إلى مجاوزة الحدود، لا سيما أيام الفتن، وذلك معروف من حالهم والله الموفق.

ولما دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة مكناسة القديمة بعد حصارهم إياها سبع سنين: اقتحموها عنوة يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى من السنة المذكورة فخربت وقتل أكثر رجالها وسبي حريمهم وخمست أموالهم، ثم بنيت مكناسة تاكرارت المدينة الموجودة الآن.

أخبار الأندلس وفتوحها

كان عبد المؤمن لما فتح تلمسان وفاساً بعث إلى الأندلس جيشاً من عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين.

وقال ابن خلدون: بعث عبد المؤمن بعد فتح مراكش جيشاً من الموحدين لنظر بدران بن محمد المسوفي النازع إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين بن علي، وعقد له على حرب الأندلس ومن بها من لمتونة والثوار، وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي.

ولما أجازوا إلى الأندلس نزلوا بأبي الغمر بن عزرون، صاحب شريش، فكان أول بلد فتحوا من الأندلس بلد شريش. خرج إليهم صاحبها أبو الغمر فيمن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن ودخل في طاعته، فكان الموحدون يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين. وحررت أملاكهم، فلم تزل محررة سائر أيامهم، فلم يكن في أملاكهم رباعة وجميع بلاد

الأندلس مربعة. وكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفود الأندلس كان أول من ينادي منهم أهل شريش، فكان يقال: أين السابقون؟ فيدخلون للسلام، فإذا سلموا وقضيت حاجاتهم انصرفوا فدخل غيرهم حينئذٍ، وكان فتح شريش فاتح ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

ثم زحف الموحدون إلى لبلة، وكان بها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجي، فبذل لهم الطاعة، ثم زحفوا إلى شلب ففتحوها، ثم نهضوا إلى باجة، وبطليوس، ففتحوهما أيضاً؛ ثم زحفوا إلى إشبيلية فحاصروها براً وبحراً إلى أن فتحوها في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة؛ وفر من كان بها من المرابطين إلى قرمونة، وقتل من أدركه القتل منهم، وقتل في جملتهم عبد الله ولد القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الحافظ المشهور: وأصيب في هيعة تلك الدخلة من غير قصد.

وكتب الموحدون بالفتح إلى عبد المؤمن، ثم قدم عليه وفدهم بمراكش مبايعين له سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، ورئيس الوفد يومئذٍ القاضي أبو بكر بن العربي المذكور، فألفوا عبد المؤمن مشغولاً بحرب محمد بن هود الماسي، فأقاموا بمراكش سنة ونصفاً، لم يلقوه فيها حتى كان يوم عيد الأضحى من سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فلقوه بالمصلى فسلموا عليه سلام الجماعة، ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا عليه السلام الخاص، وقبلت بيعتهم.

وسأل عبد المؤمن القاضي أبا بكر بن العربي عن المهدي هل كان لقيه عند الإمام أبي حامد الغزالي، فقال: «ما لقيته، ولكن سمعت به» فقال له: «فما كان أبو حامد يقول فيه؟» قال: «كان يقول: إن هذا البربري لا بد أن سيظهر!» ثم صرف عبد المؤمن أهل إشبيلية بعد أن أجازهم، وكتب لهم منشوراً بتحرير أملاكهم، فانصرفوا عنه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، فلما قربوا من مدينة فاس توفي الإمام أبو بكر بن العربي رحمه

الله، فحمل ودفن خارج باب المحروق منها، بتربة القائد مظفر، وقبره مزارة إلى الآن، وعليه قبة حسنة.

وفي هذه السنة ملك الموحدون قرطبة؛ وكان بها يحيى بن علي المسوفي ـ المعروف بابن غانية ـ مقيماً لدعوة المرابطين، فلما دخل الموحدون الأندلس واشتعلت نار الفتنة بحرب المرابطين انتهز الطاغية الفرصة في بلاد الإسلام، وضايق ابن غانية بقرطبة، وألح على جهاته؛ حتى نزل له عن بياسة وأبدة؛ وتغلب على أشبونة، وطرطوشة، والمرية؛ وماردة، وأفراغة، وشنترين، وشنتمرية؛ وغيرها من حصون الأندلس وطالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الإفراج عن قرطبة، فأرسل ابن غانية إلى بدران بن محمد أمير الموحدين، واجتمعا بأستجة، وضمن له بدران أمان الخليفة عبد المؤمن على أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل ثم لحق بغرناطة، وبها ميمون بن بدر اللمتوني في جماعة من المرابطين، وأراد أن يكلمه في الدخول في طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة، فتوفي بغرناطة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ودفن في القصبة بإزاء قبر باديس بن حبوس الصنهاجي، وانتهز الطاغية الفرصة في قرطبة فزحف إليها وحاصرها، فجهز إليه الموحدون الذين كانوا بإشبيلية أبا الغمر بن عزرون لحمايتها، ووصل إليه مدد يوسف البطروجي من لبلة، وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور، ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لأيام من مدخله، وبادر ثوار الأندلس إلى يحيى بن يغمور في طلب الأمان من عبد المؤمن، ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم، وصفح لهم عما سلف.

قدوم عبد المؤمن إلى سلا ووفادة أهل الأندلس عليه بها

لما كانت سنة خمس وأربعين وخمسمائة قدم عبد المؤمن من مراكش إلى سلا، فنظر في أمرها وأجرى إليها ماء عين غبولة، حتى وصل إلى رباطها؛ ولم تكن رباط الفتح يومئذٍ قد بنيت، لأن بانيها حافده يعقوب المنصور كما سيأتي إن شاء الله، وإنما كان يقال رباط سلا.

ثم أذن عبد المؤمن لأهل الأندلس في الوفادة عليه بسلا، فقدموا عليه في نحو خمسمائة فارس من الفقهاء والقضاة والخطباء والأشياخ والقواد، فتلقاهم الشيخ أبو حفص الهنتاتي، والوزير الكاتب أبو جعفر بن عطية؛ وأشياخ الموحدين على نحو ميلين من المدينة، فأمر عبد المؤمن بإنزالهم، وأفاض عليهم سجال الإكرام، وأنواع الضيافات والإنعام؛ وبقوا على ذلك ثلاثة أيام، ثم أذن لهم في الدخول فدخلوا عليه أول يوم من المحرم فاتح سنة ست وأربعين وخمسمائة؛ فسلموا عليه.

وأشار الوزير ابن عطية لأهل قرطبة بالتقدم، فتقدم قاضيهم أبو القاسم بن الحاج فأراد أن يتكلم فدهش، ثم وصف حال قرطبة؛ فقال: «يا أمير المؤمنين، إن الفنش لعنه الله قد أضعفها».

فتلافاه أبو بكر بن الجد بالخطبة البليغة، فجلى في ذلك المجلس، واستحسن عبد المؤمن خطبته، ووصل الجميع كلاًّ على قدره، وقضى مطالبهم؛ وأوصاهم بما اقتضاه الحال، وأمرهم بالانصراف إلى بلادهم، فانصرفوا فرحين مغتبطين.

وقال ابن خلدون: «استدعى عبد المؤمن أهل الأندلس ـ وهو بسلا ـ فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الأمر؛ مثل سدراتي ابن وزير صاحب باجة ويابرة، ويوسف البطروجي صاحب لبلة، وابن عزرون صاحب شريش ورندة، ومحمد بن الحجام

صاحب بطليوس، وعامل بن مهيب صاحب طلبيرة، وتخلف ابن القيسي وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سبباً لقتله من بعد، وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم، ورجع عبد المؤمن إلى مراكش واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته. والله تعالى أعلم.

غزو إفريقية وفتح مدينة بجاية

ثم بلغ عبد المؤمن اضطراب بلاد إفريقية بسبب تنازع ملوكها من بني زيري بن مناد الصنهاجيين واستطالة العرب عليهم بها، فأجمع الرحلة إلى غزوها، بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وأبا إبراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه، فخرج من مراكش أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة، واستخلف عليها الشيخ أبا حفص الهنتاتي؛ وسار حتى وصل إلى سلا فأقام بها شهرين، ثم نهض منها إلى سبتة مظهراً أنه يريد العبور إلى الأندلس بقصد الجهاد.

فلما وصل إلى سبتة استدعى فقهاء قرطبة وإشبيلية وأعيان الأندلس وقوادها فاستوضح منهم أحوال البلاد، وأوصاهم بما إليهم منها وودعهم.

ورحل عن سبتة مظهراً العود إلى مراكش، وصار حتى وصل إلى القصر الكبير؛ وهو قصر كتامة، فميز جيوشه وأزاح عللهم وفرق فيهم الأموال، وأمرهم بتجديد الأزواد، وخرج يعتسف البلاد على غير طريق فجعل مدينة فاس عن يمينه، وجد السير حتى خرج على وادي ملوية، ثم سار إلى تلمسان فأقام بها يوماً واحداً، ثم خرج منها وولى السير قاصداً بجاية؛ فطرق الجزائر على حين غفلة من أهلها، فدخلها وأمنهم، وفر صاحبها القائم بن يحيى بن العزيز إلى أبيه يحيى ببجاية.

وخرج إلى عبد المؤمن الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدية، وكان الفرنج قد أخرجوه منها، فقصد ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب

بجاية فعدل به إلى الجزائر وأنزله بها كالمسجون. فلما طرق عبد المؤمن الجزائر في هذه المرة خرج إليه الحسن بن علي المذكور، فصحبه ووصل يده بيده، حتى كان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

ثم اعترضت جيوش صنهاجة عبد المؤمن بأم العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها، وفر صاحبها يحيى بن العزيز الصنهاجي آخر ملوك بني حماد أصحاب القلعة. فركب البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيهما ذخيرته وأمواله، وعزم على المسير إلى مصر؛ ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث، فأنكر عليه سوء صنيعه وإفراجه عن البلد، فارتحل عنه إلى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الأمر.

وفي خلال ذلك دخل الموحدون قلعة حماد عنوة، وكان عبد المؤمن وجه جيشاً من الموحدين إليها وأمّر عليهم ابنه أبا محمد عبد الله فدخلوها وأضرموا النيران في مساكنها وخربوها وقتلوا بها نحو ثمانية عشر ألفاً؛ وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم والسبي، ثم جمع لهم العرب الذين هناك من الأثبج وزغبة ورياح وغيرهم بسطيف، فأوقعوا بهم واستلحموهم وسبوا نساءهم واكتسحوا أموالهم.

وأما يحيى بن العزيز فإنه بايع لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين وخمسمائة. ونزل له عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفى له عبد المؤمن ونقله إلى مراكش بأهله وخاصته فسكنها وأفاض عليه سجال الإحسان، وأنزله منزلة رفيعة، ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، فسكن بقصر ابن عشرة منها إلى أن مات من سنته رحمه الله.

ووفد على عبد المؤمن بمراكش كبراء العرب من أهل إفريقية طائعين، فوصلهم ورجعوا إلى قومهم، مغتبطين.

فتح المرية وبياسة وأبدة

كانت هذه البلاد قد استولى عليها الفرنج أيام الموحدين والمرابطين بالأندلس، فلما كانت سنة ست وأربعين وخمسمائة عبر الشيخ أبو حفص إلى الأندلس في جيش كثيف من الموحدين ومعه السيد أبو سعيد ابن أمير المؤمنين برسم الجهاد ـ وكان بنو عبد المؤمن يسمون أبناءهم بالسادة ـ فنزلوا المرية وضيقوا عليها بالحصار، وبنى السيد أبو سعيد على محلته سوراً، واستغاث نصارى المرية بالفنش فأغاثهم بمحمد بن مردنيش ـ وكان واصلاً يده بيده ـ ووجه معه السلطين أحد قواد الفرنج في جيش كثيف، فلم يتمكنوا من البلد ولا من محلة الموحدين لكونها محصنة بالسور. فرجع ابن مردنيش والسلطين بخفيّ حُنين وافترقا فلم يجتمعا بعد.

ثم عمد السلطين إلى بياسة وأبدة فأخلاهما من النصارى الذين كانوا بهما خوفاً عليهم؛ ورجع عوده على بدئه. وأما السيد أبو سعيد فإنه شدد الحصار على المرية حتى نزلوا على الأمان بواسطة الوزير ابن عطية.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وجه عبد المؤمن على يصليتن قريب المهدي فأتي به مكبولاً من سبتة، فأمر بقتله وصلبه بباب مراكش لأمر نقمه عليه.

ثم ارتحل عبد المؤمن بعد مقتل يصليتن إلى تينملل بقصد زيارة قبر المهدي، فزار وفرق في أهلها أموالاً عظيمة، وأمر ببناء مسجدها وتوسعتها.

قدوم عبد المؤمن مدينة سلا
وتولية أولاده على النواحي بها

لما قضى عبد المؤمن إربه من تينملل ارتحل منها إلى سلا، فأقام بها بقية سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين بعدها، فبايع لابنه السيد أبي عبد الله محمد بولاية العهد، وأمر أن يذكر في الخطبة بعده، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق.

ثم عقد لابنه السيد أبي الحسن علي على فاس وأعمالها، واستوزر له أبا الحجاج يوسف بن سليمان. وعقد لابنه السيد أبي حفص عمر على تلمسان وأعمالها واستوزر له أبا محمد عبد الحق بن وانودين، واستكتب له أبا الحسن عبد الملك بن عياش. وعقد لابنه السيد أبي سعيد عثمان على سبتة وطنجة، واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان، وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي، واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسي، وأبا بكر بن حبيش الباجي. وعقد لابنه السيد أبي محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن. وعقد للشيخ أبي زيد بن يكيث على قرطبة وأعمالها، ويقال إن قرطبة كانت في هذا التاريخ بيد يحيى بن يغمور والله أعلم.

واستقامت الأحوال لعبد المؤمن وبنيه، وصفا له المغربان والأندلس والله غالب على أمره.

إيقاع عبد المؤمن بعبد العزيز وعيسى أخوي المهدي والسبب في ذلك

كان عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي من مشيخة العسكر ووجوه الجيش بإشبيلية أيام فتحها ووفادة أهلها على عبد المؤمن بمراكش حسبما تقدم. ثم ساء أثرهما بها، واستطالت أيديهما على أهلها، واستباحا الدماء والأموال؛ ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة، فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم إلى المرابطين، ونشأ عن ذلك فساد كبير بالأندلس؛ ثم لحق أخوا المهدي بالعدوة في خبر طويل:

واستمر حالهما إلى أن بايع عبد المؤمن لابنه محمد بولاية العهد، وعقد لإخوته على العمالات والنواحي، ففسدت نية عبد العزيز وعيسى بذلك، مع ما كان صدر من عبد المؤمن من قتل ابن عمهما يصليتن، وكانا يومئذٍ بفاس وعبد المؤمن بسلا، فخرجا من فاس إلى مراكش على طريق المعدن مضمرين للغدر.

واتصل خبر خروجهما بعبد المؤمن، فخرج من سلا في أثرهما متلافياً أمر مراكش، وقدم أمامه وزيره أبا جعفر بن عطية، فسبقاه إليها وداخلا بعض الأوباش بها في شأنهما، فوثبوا بعاملها أبي حفص عمر بن تافراكين فقتلوه بمكانه من القصبة.

ووصل على أثرهما الوزير ابن عطية ثم عبد المؤمن على أثره، فأطفأ تلك النائرة، وتقبض عبد المؤمن على عبد العزيز وعيسى فقتلهما وصلبهما وتتبع المداخلين لهما فألحقهم بهما وانقطع الشغب وزال الفساد.

إيقاع يحيى بن يغمور بأهل لبلة وإسرافه في ذلك

لما كانت سنة تسع وأربعين وخمسمائة فتح الموحدون مدينة لبلة، وكان المتولي لفتحها يحيى بن يغمور والي قرطبة وإشبيلية، حاصرها مدة ثم اقتحمها عنوة، وقبض على أهلها فخرج بهم إلى ظاهر المدينة، وصفهم في صعيد واحد ثم عرضهم على السيف أجمعين حتى خلص القتل منهم إلى الفقيه المحدث أبي الحكام بن بطال، والفقيه الصالح أبي عامر بن الجد.

وكان عدد من قتل من أهل لبلة في ذلك الصعيد ثمانية آلاف وقتل بأحوازها نحو أربعة آلاف ثم بيعت نساؤهم وأبناؤهم وأمتعتهم وأسلابهم فعل ذلك افتياتاً على عبد المؤمن! وبلغه الخبر وهو بمراكش، فسخطه. وبعث إليه عبد الله بن سليمان فجاء به معتقلاً إلى الحضرة يوم عيد الفطر، فألزمه بيته وبقي على ذلك مدة ثم عفا عنه وسرحه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان. ولم يصرف إلى أهل لبلة شيئاً مما أخذ لهم واستقام أمر الأندلس ونزل ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها، وأجاز إليها السيد أبو سعيد صاحب سبتة، بعهد أبيه عبد المؤمن إليه بذلك ولحق الملثمون بمراكش.

أمر[1] عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه، وبتغيير المنكرات ما كانت. وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد الأندلس والعدوة فجزاه الله خيراً.

نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش وبناء جامع الكتبيين بها

كان بقرطبة ثم بجامعها الأعظم المشهور مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ذكر ذلك جماعة من المؤرخين منهم ابن بشكوال وغيره وكان ذلك المصحف الكريم متداولاً عند بني أمية وأهل الأندلس، واستمر بقرطبة إلى دولة الموحدين فنقله عبد المؤمن إلى مراكش.

قال ابن بشكوال: «أخرج المصحف العثماني من قرطبة وغرب منها، وكان بجامعها الأعظم ليلة السبت الحادي عشر من شوال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره، وهذا

---

(1) الذي في كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشي: أن يعقوب المنصور هو الآمر بذلك. فانظر هل فعل هذا اقتداء بجده أم من ذاته لأول الأمر، لكن الظاهر من كلام المراكشي أن إحراق كتب الفروع ورد الناس إلى الكتاب والسنة كان مقصداً وعزماً لعبد المؤمن وابنه يوسف، إلا أنهما لم يظهراه، وأظهره يعقوب بعدهما اهـ. وما ذكره المؤلف هنا منقولاً عن صاحب القرطاس. وكلام صاحب المعجب أولى بالاعتبار لقربه من الزمن المذكور ومشاهدته للواقع.

أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار: مكة؛ والبصرة، والكوفة؛ والشام. وما قيل من أن فيه دم عثمان بعيد وإن يكن أحدها فلعله الشامي».

قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبي السبتي: «أما الشامي فهو باق بمقصورة جامع بني أمية بدمشق، وعاينته هنالك سنة سبع وخمسين وستمائة كما عاينت المكي بقبة الشراب». قال: «فعله الكوفي أو البصري».

قال الخطيب ابن مرزوق في كتاب المسند الصحيح الحسن: «اختبرت الذي بالمدينة والذي نقل من الأندلس، فألفيت خطهما سواء؛ وما توهموه أنه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحداً منها؛ وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المتني، ونص ما على ظهره: هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص؛ وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله عنهم على كتب المصحف» اهـ.

وكان من خبر نقله إلى مراكش ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن أبي زكريا يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور، قال: «وصل إلى عبد المؤمن ابناه السيدان أبو سعيد، وأبو يعقوب من الأندلس؛ وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف، فتلقى وصوله بالإجلال والإعظام وبودر إليه بما يجب من التبجيل والإكرام.

وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الألباب. وذلك أن أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره، وتروى مع نفسه في كيفية جلبه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم، فتوقع أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه؛ ويستوحشوا لفقدان إضاءته وإشراقه، فوقف عن ذلك فأوصله الله إليه تحفة سبنية؛ وهدية

هنية، دون أن يكدرها من البشر اكتساب؛ أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب. بل أوقع الله تعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله، ما أطلع بالمشاهدة على صحة صدقه، وعضلت مخايل برقه، سواكب ودقه؛ وعد ذلك من كرامات أمير المؤمنين عبد المؤمن وسعادته.

ثم عزم عبد المؤمن على تعظيم المصحف الكريم وشرع في انتخاب كسوته واختيار حليته، فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والأندلس؛ فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين! ولم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق في صناعة، إلا أحضر للعمل فيه؛ والاشتغال بمعنى من معانيه!.

وبالجملة، فقد صنعت له أغشية بعضها من السندس؛ وبعضها من الذهب والفضة، ورصع ذلك بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع والشكل العديمة المثال. واتخذ للغشاء محمل بديع مما يناسب ذلك في غرابة الصنعة وبداعة الصبغة.

واتخذ للمحمل كرسي على شاكلته، ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال! ووصف ذلك يطول.

وفي خلال هذه المدة أمر عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله، فبدىء ببنائه وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وكمل في منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع، وأفسح المساحة؛ وأحكم البناء والنجارة، وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة ما لو عمل في السنين العديدة لاستغرب تمامه؛ فكيف في هذا الأمد اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه تقديره وتخطيطه فضلاً عن بنائه! وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور.

ونهض عبد المؤمن عقب ذلك لزيارة روضة المهدي بمدينة تينملل،

فأقام بها بقية شعبان ومعظم رمضان، وحمل في صحبته المصحف العثماني في التابوت المذكور، ومعه مصحف المهدي؛ وختم القرآن العزيز في مسجد المهدي وعند ضريحه ختمات كثيرة، وعاد إلى مراكش.

ولم يزل الموحدون يعتنون بهذا المصحف الكريم ويحملونه في أسفارهم متبركين به كتابوت بني إسرائيل إلى أن حمله منهم السعيد وهو علي بن إدريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله حين توجه إلى تلمسان، آخر سنة خمس وأربعين وستمائة، فقتل السعيد قريباً من تلمسان؛ ووقع النهب في الخزائن، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر؛ ونهب المصحف في جملة ما نهب منه، وعثر عليه ملوك بني عبد الواد أصحاب تلمسان؛ فلم يزل في خزانتهم بها إلى أن افتتحها السلطان الأعظم أبو الحسن المريني أواخر شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وحصل عنده فكان يتبرك به ويحمله في أسفاره على العادة إلى أن أصيب في وقعة طريف وحصل في بلاد البرتغال، وأعمل أبو الحسن الحيلة في استخلاصه حتى وصل إلى فاس سنة خمس وأربعين وسبعمائة على يد بعض تجار آزمور واستمر في خزانته إلى أن سافر أبو الحسن سفرته المعلومة إلى إفريقية فاستولى عليها.

ولما كانت سنة خمسين وسبعمائة ركب أبو الحسن البحر من تونس قافلاً إلى المغرب؛ وذلك في إبان هيجان البحر؛ فغرقت مراكبه وهلكت نفوس تجل عن الحصر؛ وضاعت نفائس يعز وجود مثلها؛ ومن جملتها المصحف العثماني فكان ذلك آخر العهد به.

ومما يناسب ذكره هنا المصحف العقباني؛ وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب؛ وكان متداولاً عند ملوكه ومتبركاً به وثاني المصحفين في المنزلة عند أهل المغرب.

قال أبو عبد الله اليفرني في كتاب النزهة: «إن السلطان أبا العباس أحمد المنصور بالله المعروف بالذهبي لما جدد ولاية العهد لولده المأمون

بعث إليه بالقدوم من مدينة فاس؛ فوافاه بتامسنا؛ وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه وحضر الأعيان وأهل العقد والحل؛ وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه» قال: «وهو من ذخائر الخلفاء. وأحضر الصحيحان للشيخين؛ وقرىء ظهير البيعة وذلك في شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة. ولم يزل المصحف العقباني متداولاً بين الملوك السعديين إلى أن انقرضت دولتهم وجاءت الدولة الشريفة العلوية السجلماسية فانتقل المصحف المذكور إليها. وتداولته ملوكها إلى أن جاء السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل بن الشريف رحمه الله؛ فبعث هدية سنية مع ركب الحاج للحرم النبوي؛ وبعث في جملتها المصحف المذكور».

قال صاحب البستان: «ولما سافر الركب النبوي يعني سنة خمس وخمسين ومائة وألف وجه معه السلطان المولى عبد الله ثلاثة وعشرين مصحفاً - بين كبير وصغير - كلها محلاة بالذهب؛ منبتة بالدر والياقوت؛ ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني؛ وهو مصحف عقبة بن نافع الفهري نسخه بالقيروان من المصحف العثماني؛ فوقع هذا المصحف بيد الأشراف الزيدانيين يتداولونه بينهم إلى أن بلغ إلى السلطان المولى عبد الله المذكور فغربه من المغرب إلى المشرق؛ ورجع الدر إلى صدفه والإبريز إلى معدنه.

قال الشيخ المسناوي: «وقد وقفت عليه حين أمر السلطان المولى عبد الله بتوجيهه إلى الحجرة النبوية؛ وظهر لي أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما».

ووجه معه السلطان المذكور ألفي حصاة بالتثنية وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلفة الألوان إلى الحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وهذه الأخبار وإن كانت متباعدة التاريخ فهي متناسبة المعنى؛ جمعناها هنا ليقف الناظر عليها في محل واحد وتحصل فائدتها متناسقة. والله الموفق.

نكبة الوزير ابن عطية والسبب فيها

كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوشة؛ ثم بعد من دانية.

وكان أبوه أبو أحمد بن عطية كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني. ثم لابنه تاشفين من بعده؛ وتحصل في قبضة الموحدين فعفا عنه عبد المؤمن.

ولما حاصر عبد المؤمن فاساً اعتزم أبو أحمد هذا الفرار فتقبض عليه في طريقه؛ وسيق إلى عبد المؤمن فاعتذر؛ فلم يقبل عبد المؤمن عذره. وسحب إلى مصرعه فقتل رحمه الله.

وكان ابنه أبو جعفر صاحب الترجمة كاتباً لإسحاق بن علي اللمتوني بمراكش فشمله عفو أمير المؤمنين فيمن شمله من ذلك الفل.

وخرج في جملة الشيخ أبي حفص الهنتاتي حين نهض لقتال محمد بن هود الماسي.

فلما كان الفتح وكتب رسالته المتقدمة وقف عليها عبد المؤمن فاستحسنها واستكتبه لذلك. ثم ارتفعت مكانته عنده فاستوزره؛ فظهر غناؤه وكفايته، وحمدت سيرته وإدارته؛ وقاد العساكر وجمع الأموال وبذلها؛ وبعد في الدولة صيته، ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولته؛ وتحبب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان؛ فعمت صنائعه وفشا معروفه. وكان محمود السيرة مبخت المحاولات؛ ناجح المساعي؛ سعيد المآخذ ميسر المآرب. وكانت وزارته زيناً للوقت؛ وكمالاً للدولة رحمه الله.

ثم لما كانت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وفد أشياخ إشبيلية على عبد المؤمن ورغبوا منه في ولاية بعض أبنائه عليهم، فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها؛ وبعث معه الوزير ابن عطية المذكور لمباشرة الأمور وإصلاح الأحوال، فأغنى في ذلك الغناء الجميل.

ولما غاب وجهه عن الحضرة وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه

والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة عليه؛ فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي؛ وانبرى لمطالبة ابن عطية وجد في التماس عوراته؛ وتشنيع سقطاته، وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها:

قل للإمام أطال الله مدته ... قولاً تبين لذي لب حقائقه
إن الزراجين قوم قد وترتهم ... وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل ... فذاك ما كثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم في إطفاء نارهم ... فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كهم ... فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أني ناصح لكم ... والحق أبلج لا تخفى طرائقه

قالوا فلما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزيره أبي جعفر وأضمر له في نفسه شرّاً، فكان ذلك من أقوى أسباب نكبته وقيل أفضى إليه بسر فأفشاه.

وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقلق وعجل الانصراف إلى مراكش، فحجب عنده قومه؛ ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسر العمامة واستحضر الناس على طبقاتهم؛ وقرروا على ما يعلمون من أمره وما صار إليه منهم؛ فأجاب كل بما اقتضاه هواه؛ وأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية؛ وتوجه في أثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدي؛ فاستصحبهما بحال ثقاف.

وصدر عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الآداب نظماً ونثراً في سبيل التوسل بتربة إمامهم المهدي عجائب؛ فلم تجد شيئاً مع نفود الله تعالى فيه.

ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلاً إلى مراكش؛ فلما حاذى تاكمارت أنفذ الأمر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك؛ فمضيا لسبيلهما وذلك في شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

ومما خاطب به الوزير المذكور عبد المؤمن مستعطفاً له من رسالة تغالى فيها فغالته المنية؛ ولم ينل الأمنية؛ وهذه سنة الله تعالى فيمن لا يحترم

جناب الألوهية، ولم يحرص لسانه من الوقوع فيما يخدش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم؛ قوله سامحه الله: «تالله لو أحاطت بي كل خطية، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطية؛ حتى سخرت بمن في الوجود؛ وأنفت لآدم من السجود؛ وقلت إن الله تعالى لم يوحي في الفلك إلى نوح وأبرمت لحطب نار الخليل حبلاً؛ وبريت لقدار ثمود نبلاً؛ وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين؛ وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها؛ وافتريت على العذراء البتول فقذفتها؛ وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة؛ وأبغضت كل قرشي؛ وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي؛ وقلت إن بيعة السقيفة، لا توجب إمامة الخليفة؛ وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة؛ وقلت تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر؛ وغادرت الوجه من الهامة خضيباً؛ وناولت من قرع سن الحسين قضيباً، ثم أتيت حضرة المعصوم لائذاً؛ وبقبر الإمام المهدي عائذاً، لأذن لمقالتي أن تسمع؛ وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أني مقترف؛ وبالذنب معترف.

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوب هدها الخفقان

والسلام على المقام الكريم، ورحمة الله تعالى وبركاته».

وكتب مع ابن له صغير آخرة:

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج ... ورحمة منكم أنجى من السفن
وصادفنا سهام كلنا غرض ... وعطفة منكم أوفى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة ... بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
فالثوب يطهر عند الغسل من درن ... والطرف يرهص بعد الركض في سنن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم ... من دون منّ عليهم لا ولا أثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم ... كلتا الحياتين من نفس ومن بدن

وصبية كفراخ الورق من صغر لـم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهـم أياد منـك سابقة والكل لولاك لم يوجد ولـم يكن

فوقع عبد المؤمن على هذه القصيدة: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين!

ومما كتب به من السجن:

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا؟ فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا في ليل من السخط حائر ولا اهتدي حتى أرى للرضا صبحا!

وامتحن عبد المؤمن الشعراء بهجو ابن عطية، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال: «ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه».

وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قتل معه كما قلنا؛ ولعطية هذا ابن أديب كاتب، وهو أبو طالب عقيل بن عطية؛ ومن نظمه في رجل تعشق قينة كانت ورثت مالاً من مولاها فكانت تنفق عليه منه؛ فلما فرغ المال ملها. فقال أبو طالب:

لا تـلـحـه إن مـل مـن حـبـهـا فـلـم يـكـن ذلـك عـن ود
لـمـا رآهـا قـد صـفـا مـا لـهـا قـال صـفـا الـوجـد مع الـوجـد!

ويروى أن الوزير ابن عطية رحمه الله مر مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش فأطلت جارية بارعة الجمال من شباك فقال عبد المؤمن:

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فقال الوزير مجيزاً له:

حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن:

كأنما لحظها في قلب عاشقها

فقال الوزير:

سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي

ولا خفاء أن هذه طبقة عالية، رحم الله الجميع بمنّه.

غزو إفريقية ثانياً وفتح المهدية وغيرها من الثغور

كانت بلاد إفريقية بيد بني زيري بن مناد الصنهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها. وفي هذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفت على الهرم، وكثر التنازع بينهم وزاحمتهم الثوار من العرب وغيرهم بتلك الأقطار، فانتهز الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرهما. ثم ملكوا بعد ذلك المهدية وهي يومئذٍ دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوك بني زيري بن مناد، ففر الحسن عنها إلى ابن عمه يحيى بن العزيز صاحب بجاية فأنزله بالجزائر.

ولما طرق عبد المؤمن ثغر الجزائر في غزوته الأولى إلى إفريقية خرج إليه الحسن بن علي هذا وصحبه وصار في جملته، فكان الحسن يغريه بغزو إفريقية واستنقاذها من يد العدو.

وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه إلا أنه كان ينتظر إبان الفرصة. فاتفق أن فرنج صقلية أوقعوا بأهل زويلة ـ وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان ـ وقعة شنيعة، حتى أنهم قتلوا النساء والأطفال! ففر جماعة منهم إلى عبد المؤمن بن علي وهو بمراكش يستغيثونه ويستنصرونه على العدو.

فلما وصلوا إليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين، وأنه ليس في ملوك الإسلام من يقصد سواه، ولا يكشف هذا الكرب غيره؛ فدمعت عيناه وأطرق، ثم رفع رأسه وقال: «أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين» وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار.

ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج إليه العسكر في السفر، وكتب إلى جميع نوابه في المغرب ـ وكان قد ملك العدوتين الأندلس والمغرب واتسعت خطة مملكته إلى قرب مدينة تونس ـ فكتب إلى من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يترك الزرع في سنبله

ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق؛ ففعلوا جميع ما أمرهم به؛ وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين؛ ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق؛ وطينوا عليها فصارت كأنها تلال.

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبد المؤمن من مراكش يؤم بلاد إفريقية.

وقال ابن خلدون: «كان عبد المؤمن في هذه السفرة قد عزم على العبور إلى الأندلس لما بلغه من اضطراب أحوالها واستطالة الطاغية بها، فنهض يريد الجهاد واحتل بسلا فبلغه انتقاض إفريقية، وأهمه شأن النصارى بالمهدية. فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص الهنتاتي على المغرب، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس، ونهض يغد السير إلى إفريقية؛ واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم، وكان هذا الجند يمتد أميالاً.

ويلغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة وإذا نزلوا صلوا بإمام واحد بتكبيرة واحدة، لا يتخلف منهم أحد كائناً من كان.

وقدم بين يديه الحسن بن علي الصنهاجي صاحب المهدية، وكان قد اتصل به كما قلنا، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، وبها صاحبها أحمد بن خراسان؛ وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينا وطريدة وشلندا.

فلما نازلها راسل أهلها يدعوهم إلى الطاعة فامتنعوا. فقاتلهم من الغد أشد قتال. ولما جن الليل نزل سبعة عشر رجلاً من أعيان أهلها إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم، فأجابهم عبد المؤمن بأن لهم الأمان في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة، وأما من عداهم من سائر أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهليهم، ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين! وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله. فاستقر الأمر على

ذلك وتسلم البلد، وبعث إليهم من يمنع العساكر من الدخول عليهم، وبعث أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأملاكهم؛ وأقام أهل تونس بها على أجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم! وعرض عبد المؤمن الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن أبى قتل.

وأقام عليها ثلاثة أيام ثم سار إلى المهدية وأسطوله يحاذيه في البحر، فوصل إليها ثامن عشر رجب من السنة المذكورة، وكان بالمهدية يومئذٍ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها، وقد أخلوا مدينة زويلة المجاورة للمهدية فدخلها عبد المؤمن، وامتلأت بالعساكر والسوقة؛ فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة؛ ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها. وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل إفريقية ما يخرج عن الإحصاء، وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق محال القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر، وزندها متصل بالبر؛ وكانت الفرنج تخرج شجعانها إلى أطراف العسكر، فتنال منه ويعودون سريعاً؛ فأمر عبد المؤمن ببناء سور غربي المدينة يمنعهم من الخروج، وأحاط الأسطول بها في البحر؛ وركب عبد المؤمن شينيا ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها، وتطوف بها في البحر؛ فهاله ما رأى من حصانتها وعلم أنها لا تفتح بقتال براً ولا بحراً، وليس لها إلا المطاولة وقال للحسن: «كيف نزلت عن مثل هذا الحصن!؟» فقال: «لقلة من يوثق به، وعدم القوت؛ وحكم القدر» فقال: «صدقت!».

وعاد عبد المؤمن من البحر وأمر بجمع الغلات والأقوات، وترك القتال؛ فلم يمض غير قليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقول: «متى حدثت هذه الجبال؟» فيقال: «هي حنطة وشعير!» فيتعجب من ذلك، وتمادى الحصار.

وفي مدة هذا الحصار استولى عبد المؤمن على طرابلس وصفاقص وسوسة وجبل نفوسة وقصور إفريقية وما والاها، وفتح مدينة قابس بالسيف؛ وسير ابنه السيد أبا محمد من مكان حصاره للمهدية في جيش ففتح بلاداً أخرى؛

ثم أطاعه أهل مدينة قفصة، وقدم عليه صاحبها فوصله بألف دينار. وبالجملة فإنه استخلص في هذه المدة جميع بلاد إفريقية من أيدي القائمين بها.

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان من السنة المذكورة جاء أسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيا غير الطرائد ممداً لأهل المهدية، وكان هذا الأسطول قد قدم من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس، وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه، فأرسل إليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمسير إلى المهدية ليمدوا إخوانهم الذين بها، فقدموا في التاريخ المذكور؛ فلما قاربوا المدينة حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب العسكر جميعه، ووقفوا على جانب البحر؛ فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر وداخل الرعب قلوبهم.

ونزل عبد المؤمن إلى الأرض فجعل يمرغ وجهه ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر، فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني، وكان أمراً عجيباً وفتحاً غريباً.

وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويئس أهل المهدية حينئذٍ من النجاة، ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى آخر ذي الحجة من السنة، فنزل حينئذٍ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها إلى بلادهم، وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل؛ فعرض عليهم عبد المؤمن الإسلام ودعاهم إليه، فقالوا: «ما جئنا لهذا وإنما جئنا نطلب فضلك» وترددوا إليه أياماً.

وكان من جملة ما استعطفوه به أن قالوا: «أيها الخليفة، ما عسى أن تكون المهدية ومن بها بالنسبة إلى ملكك العظيم وأمرك الكبير، وإن أنعمت علينا كنا أرقاء لك في أرضنا!» فعفا عنهم - وكان الفضل شيمته - وأعطاهم سفناً ركبوا فيها وساروا وكان الزمن شتاء فغرق أكثرهم، ولم يصل منهم إلى صقلية إلا النفر اليسير.

وكان صاحب صقلية قد قال: «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم». فأهلك الله الفرنج غرقاً.

وكانت مدة استيلائهم على المهدية اثنتي عشرة سنة. فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان يقال لهذه السنة سنة الأخماس.

وأقام عبد المؤمن بالمهدية عشرين يوماً حتى رتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل إليها الذخائر والأقوات والرجال والعدد.

واستخلف عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي وجعل معه الحسن بن علي الصنهاجي الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله؛ وأقطع الحسن بها إقطاعاً؛ وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده.

وصفت إفريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له بها منازع؛ ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤونها.

وثنى عنانه إلى المغرب أول صفر من السنة المذكورة، وانقطعت عادية الفرنج عن بلاد إفريقية مدة مديدة. والله تعالى أعلم.

توظيف عبد المؤمن الخراج على أرض المغرب

وفي هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين وخمسمائة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب، فكسر من برقة في جهة الشرق إلى بلاد نول من السوس الأقصى في جهة الغرب بالفراسخ والأميال، طولاً وعرضاً. ثم أسقط في التكسير الثلث في الجبال والغياض والأنهار والسماخ والخزون والطرق، وما بقي قسط عليه الخراج، وألزم كل قبيلة بقسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك في المغرب عفا الله عنه.

بناء عبد المؤمن جبل طارق

كان عبد المؤمن رحمه الله ـ وهو بإفريقية ـ قد أمر ببناء جبل الفتح وتحصينه، وهو جبل طارق، فبني وشيد حصنه. وكان ابتداء البناء به في تاسع ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وخمسمائة المذكورة، وكمل بناؤه في ذي القعدة منها.

بناء عبد المؤمن مدينة البطحاء

لما كان عبد المؤمن قافلاً من بلاد إفريقية بنى مدينة البطحاء، وسبب بنائه إياها أنه لما طالب بالموحدين الإقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن والفتك به في خبائه إذا نام فأتى شيخ من أشياخ الموحدين ممن اطلع على ذلك إلى عبد المؤمن فأخبره الخبر، وقال له: «دعني أبت الليلة في موضعك وأنم على فراشك، فإن فعلوا ما اتفقوا عليه كنت قد فديتك بنفسي في حق المسلمين وأجري في ذلك على الله! وإن حصلت السلامة فمن الله تعالى، ويكون أجري على قدر نيتي!» فبات على فراشه، فاستشهد في تلك الليلة. فلما أصبح عبد المؤمن وصلى الصبح افتقده فوجده قتيلاً على فراشه، فأخذه وحمله بين يديه على ناقة لا يقودها أحد، فسارت الناقة يميناً وشمالاً حتى بركت وحدها، فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عنها، وأخذ بزمام الناقة فأزيلت عن مبركها، وحفر قبره فيه ودفن، وبنيت عليه قبة، وبنى بإزاء القبة جامعاً.

ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد، وترك بها عشرة أهل بيت من كل قبيلة من قبائل المغرب، فقبر الشيخ هنالك مزارة عند أهل تلك البلاد إلى اليوم قاله في القرطاس.

ولما دخل عبد المؤمن إلى تلمسان في هذه الرجعة قبض على وزيره عبد السلام بن محمد الكومي فسجنه ثم سمه من جرعة لبن هلك بها من ليلته.

عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق والسبب في ذلك

كان عبد المؤمن ـ وهو بإفريقية ـ قد بلغه أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الأندلس قد خرج من مرسية ونازل جيان، وأطاعه واليها محمد بن علي الكومي، ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها، وغدر بقرمونة وملكها ثم رجع إلى قرطبة وخرج ابن يكيت لحربه فهزمه ابن مردنيش وقتله.

فكتب عبد المؤمن إلى عماله بالأندلس يخبرهم بفتح إفريقية عليه وأنه واصل إليهم. فلما نهض من تلمسان في رجعته هذه عدل إلى طنجة فدخلها في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأقام بها إلى أن دخلت سنة ست وخمسين بعدها، فعبر منها إلى الأندلس ونزل بجبل طارق فأقام به شهرين، واستشرف منه أحوال الأندلس، ووفد عليه قوادها وأشياخها فأمر بغزو غرب الأندلس، فنهض إليه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص الهنتاتي من قرطبة في جيش كثيف من الموحدين، ففتح حصن المرنكش من أحواز بطليوس وقتل جميع من كان به من النصارى، وخرج الفنش من طليطلة لإغاثته فوجده قد فتح. وصمد الموحدون لقتاله فهزمه الله، وقتل من عسكره ستة آلاف، وساق المسلمون السبي إلى قرطبة وإشبيلية.

وفي هذه السنة ملك الموحدون بطليوس، وباجة، ويابورة؛ وحصن القصر؛ فولى عليها عبد المؤمن محمد بن علي بن الحاج وعاد إلى مراكش.

قدوم كومية قبيلة عبد المؤمن عليه بمراكش والسبب في ذلك

تقدم لنا أن عبد المؤمن لم يكن من المصامدة، وإنما كان من كومية إحدى بطون بني فاتن من البرابرة البتر، وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط، إلى أن استدعاهم عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وخمسين وخمسمائة.

والسبب في ذلك أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذي فداه بنفسه وتحقق ذلك منهم ورأى أنه غريب بين أظهرهم ليس له قبيل يستند إليه، ولا عشير يثق به ويعتمد عليه، أرسل في خفية إلى أشياخ كومية الذين هم قبيلته وعشيرتهم، وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركبوا كل من بلغ الحلم منهم، ويأتوه في أحسن زي وأكمل عدة، وسرب إليهم الأموال والكسى؛ فاجتمع منهم أربعون ألف فارس، ثم أقبلوا إلى عبد المؤمن - وهو بمراكش - برسم خدمته، والقيام بين يديه.

ولما دخلوا أرض المغرب تشوش أهله من قدوم هذا الجيش الحفيل، من غير أن يتقدم لهم سبب ظاهر، وتقول الناس الأقاويل، فسار جيش كومية حتى نزلوا على وادي أم الربيع، وتسامع الموحدون بإقبالهم فارتابوا منهم، وعرفوا أمير المؤمنين عبد المؤمن بخبرهم، فأمر عبد المؤمن الشيخ أبا حفص الهنتاتي أن يخرج إليه في جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم، فسار حتى لقيهم على وادي أم الربيع فقال لهم: «ما أنتم أسلم لنا أم حرب؟» قالوا: «بل نحن سلم، نحن قبيل أمير المؤمنين، نحن كومية قصدنا زيارته والسلام عليه». فرجع أبو حفص وأصحابه وعرف عبد المؤمن الخبر، فأمر جميع الموحدين أن يخرجوا إلى لقائهم ففعلوا واحتفلوا لذلك.

وكان يوم دخولهم مراكش يوماً مشهوداً، فرتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية من أهل الديوان، وجعلهم بين قبيلة تينملل والقبيلة التابعة لهم،

وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه إذا خرج ويقومون على رأسه إذا جلس، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر دولتهم إلى انقراضها. والله غالب على أمره.

استعداد عبد المؤمن للجهاد

وإنشاؤه الأساطيل بسواحل المغرب ومايتبع ذلك من وفاته رحمه الله

لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربين وإفريقية والأندلس وطاعت له سائر الأقطار وخضعت له الرقاب في البوادي والأمصار تفرغ لشأنه، وتاقت نفسه للجهاد، فعزم على غزو بلاد الفرنج براً وبحراً، فأمر رحمه الله في هذه السنة التي هي سنة سبع وخمسين وخمسمائة بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكه، فأنشىء له منها أربعمائة قطعة، فمنها بحلق المعمورة وهي التي تسمى اليوم المهدية؛ مائة وعشرون قطعة، ومنها بطنجة وسبتة وباديس ومراسي الريف مائة قطعة؛ ومنها ببلاد إفريقية ووهران ومرسى هنين مائة قطعة، ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة.

ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد، وأمر بضرب السهام في جميع عمله، فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير جدية! فجمع له من ذلك ما لا يحصى كثرة، وفي خلال هذا وفدت عليه قبيلة كومية كما مر.

ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين عبد المؤمن من مراكش قاصداً الأندلس برسم الجهاد، وكان خروجه يوم الخميس خامس ربيع الأول من السنة المذكورة، فوصل إلى رباط سلا فكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وإفريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم إلى الجهاد، فأجابه خلق كثير، واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة ومن

قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس! ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس، ومائة ألف راجل! فضاقت بهم الأرض وانتشرت المحلات والعساكر في أرض سلا، من عين غبولة إلى عين خميس؛ إلى حلق المعمورة.

فلما استوفيت لديه الحشود، وتكاملت لديه الجنود والوفود؛ كان المعنى الذي أشار الله القائل:

إذ تم أمر بدا نقصه ترقب زوالاً إذا قيل تم

فابتدأ بعبد المؤمن مرضه الذي توفي منه، وتمادى به ألمه فخاف أن يفجأه الحمام فأمر بعزل ولده محمد عن ولاية العهد وإسقاط اسمه من الخطبة، لما ظهر له من العجز عن القيام بأمر الخلافة.

وكان ذلك يوم الجمعة الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكتب بذلك إلى جميع طاعته. وتمادى به مرضه واشتد ألمه فتوفي ليلة الجمعة الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وقيل غير ذلك، وحمل إلى تينملل فدفن بها إلى جنب قبر الإمام المهدي رحمه الله، فسبحان من لا يبيد ملكه ولا ينقضي عزه.

ونقل ابن خلكان في كيفية عزل ولي العهد وجهاً[1] آخر، قال ناقلاً من خط العماد بن جبريل: «أن عبد المؤمن كان في حياته عهد إلى أكبر أولاده، وهو محمد؛ وبايعه الناس بعد تحليف الجند له، وكتب ببيعته إلى البلاد؛ فلما مات عبد المؤمن لم يتم له الأمر، لأنه كان على أمور لا يصلح معها للمملكة؛ من إدمان شرب الخمر، واختلاف الرأي، وكثرة الطيش؛ وجبن النفس. ويقال إنه مع هذا كله كان به ضرب من الجذام. واضطرب أمره

(1) على هذا الوجه اقتصر صاحب المعجب طبع سلا صحيفة 142. والوجه الأول ذكره صاحب القرطاس وابن الأثير في تاريخه جزء 11 صحيفة 117.

واختلف الناس عليه فخلع. وكانت مدة ولايته خمسة وأربعين يوماً، وذلك في شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وكان الذي سعى في خلعه أخويه أبا يعقوب يوسف وأبا حفص عمر ابني عبد المؤمن، ولما تم خلعه دار الأمر بين الأخوين المذكورين، وهما من نجباء أولاد عبد المؤمن ومن ذوي الرأي فتأخر منهما أبو حفص عمر، وسلم الأمر إلى أخيه أبي يعقوب يوسف، فبايعوه الناس واتفقت عليه الكلمة. والله تعالى أعلم.

بقية أخبار عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان: «كان عبد المؤمن عند وفاته شيخاً نقي البياض، قال: «ونقلت من تاريخ فيه سيرته وحليته فقال مؤلفه رأيته شيخاً معتدل القامة عظيم الهامة، أشهل العينين، كث اللحية؛ شثن الكفين؛ طويل القعدة؛ واضح بياض الأسنان؛ بخده الأيمن خال».

وكان رحمه الله فصيحاً فقيهاً عالماً بالأصول والجدل والحديث مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، ذا حزم وسياسة وإقدام في الحرب ومهمات الأمور، سري الهمة؛ ميمون النقيبة، لم يقصد قط بلداً إلا فتحه، ولا جيشاً إلا هجمه. محبّاً لأهل العلم والأدب، مكرماً لوفادتهم؛ منفقاً لبضاعتهم. ذكر العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبي العباس التيفاشي لما أنشده:

ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار عليه أن يقتصر على هذا البيت؛ وأمر له بألف دينار.

وقد تقدم ما دار بينه وبين وزيره ابن عطية من الشعر الذي تجاذباه في أمر الجارية التي أطلت في الشباك، وذلك دليل على سراوة طبعه، وخفة روحه. رحمه الله.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون: «لما هلك عبد المؤمن أخذ السيد أبو حفص بن عبد المؤمن البيعة على الناس لأخيه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحدين كافة، ورضى من الشيخ أبي حفص الهنتاتي خاصة؛ واستقل في رتبة وزارته.

وذكر القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ دولتهم أن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بويع بيعة الجماعة يوم الجمعة ثامن ربيع الأول سنة ستين وخمسمائة، وذلك بعد وفاة والده عبد المؤمن بسنتين؛ لأنه لما بويع بعد وفاة والده توقف عن بيعته ناس من أشياخ الموحدين، وامتنع من بيعته أخواه: السيد أبو محمد صاحب بجاية، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة؛ فكف عنهم، ولم يطالبهم ببيعته، وتسمى بالأمير؛ ولم يتسم بأمير المؤمنين حتى اجتمع عليه الناس.

وذكر ابن مطروح في تاريخه أنه لما مات عبد المؤمن كان ولده يوسف بإشبيلية، فأخفى أصحابه موته، وأرسلوا إلى يوسف؛ فوصل من إشبيلية إلى سلا في أقرب وقت فبويع بها ولم يتخلف عن بيعته إلا ناس قليلون، فلم يلتفت إليهم.

وكان أول شيء فعله بعد البيعة أن سرح الجيوش المجتمعة للجهاد إلى بلادهم وقبائلهم؛ وكتب إلى البلاد بتسريح المساجين وتفريق الصدقات في جميع عمله، وتسمى بالأمير، ثم ارتحل إلى مراكش فدخلها وأقام بها؛ وكتب إلى جميع أهل طاعته من الموحدين يطلبهم بالبيعة، فأتته البيعة من جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس؛ ما خلا قرطبة وبجاية، فإن ولاتهما وهما أخواه توقفا عن ذلك؛ وانتشر خبر أمير المؤمنين يوسف في أقطار

البلاد، وأدان له من بالعدوتين من العباد؛ وفرق الأموال في القبائل والأجناد.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة قدم عليه أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية، والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة تائبين مبايعين؛ وقدم معهما أشياخ بلديهما، وفقهائهما؛ فوصلهم أمير المؤمنين يوسف بالأموال والخلع، وأحسن إليهم.

وفي هذه السنة ثار مرزدغ الصنهاجي من صنهاجة مفتاح. وضرب السكة باسمه. وكتب فيها «مرزدغ الغريب، نصره الله عن قريب». وكانت ثورته ببلاد غمارة، فبايعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة، فأفسد تلك الناحية ودخل مدينة تازا وقتل بها خلقاً كثيراً وسبى، فبعث إليه أمير المؤمنين يوسف جيشاً من الموحدين، فقتل وحمل رأسه إلى مراكش.

وفي سنة ستين وخمسمائة كانت وقعة الجلاب بالأندلس بين السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن وجيوش الفرنج مع ابن مردنيش، وكانت الفرنج ثلاثة عشر ألفاً، فهزم ابن مردنيش وقتل من معه من الفرنج بأجمعهم، وكتب السيد أبو سعيد بالفتح إلى أخيه أمير المؤمنين يوسف.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة عقد أمير المؤمنين يوسف على بجاية لأخيه السيد أبي زكرياء، وعلى إشبيلية للشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم، ثم أدال منه بأخيه السيد أبي إبراهيم، وأقر الشيخ أبي عبد الله على وزارته؛ وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحاق، وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة.

ثم نظر الموحدون في وضع العلامة المكتوبة بخط الخليفة فاختاروا: «الحمد لله وحده» لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم. والله أعلم.

ثورة سبع بن منغفاد بجبال غمارة

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة ثار سبع بن منغفاد، وسماه ابن أبي زرع يوسف بن منغفاد بجبل تيزيران من بلاد غمارة. وعظمت الفتنة في قبائلها، وجاذبهم فيها جيرانهم من صنهاجة، فبعث إليهم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن عساكر الموحدين، إلى نظر الشيخ أبي حفص الهنتاتي، ثم تعاظمت فتنة غمارة وصنهاجة. فخرج إليهم أمير المؤمين بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم، وقتل سبع بن مغفاد وحمل رأسه إلى مراكش وانحسم داؤهم؛ وعقد يوسف لأخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم.

وفي سنة ثلاث وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة ليوسف بن عبد المؤمن واللقب بأمير المؤمنين، وذلك في جمادى الآخرة منها، وخاطب العرب بإفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم. وكتب إليهم في ذلك بقصيدة ورسالة مشهورة بين الناس؛ فكان من احتفالهم ووفودهم عليه ما هو معروف.

وفي سنة أربع وستين بعدها وفد عليه أهل الأمصار من إفريقية والمغرب والأندلس: القضاة والفقهاء والخطباء والشعراء والأشياخ والأعيان برسم التهنئة والمطالعة بأحوال بلادهم، فوصلت الوفود إلى مراكش؛ فدخلوا عليه وهنؤوه بالخلافة؛ ووصل الجميع كل على قدره، وأوصاهم بما اقتضاه الحال. وكتب لهم الظهائر بمطالبهم وإصلاح شؤونهم، وانصرفوا شاكرين.

وفي هذه السنة أيضاً بعث أمير المؤمنين الشيخ أبا حفص الهنتاتي في جيوش الموحدين إلى الأندلس لاستنقاذ بطليوس من حصار العدو، واحتفل أمير المؤمنين في ذلك فلما انتهوا إلى إشبيلية بلغه أن الموحدين وأهل بطليوس هزموا العدو وأسروا قائد جيشه، فسار الشيخ أبو حفص إلى قرطبة.

وفي سنة خمس وستين بعدها وجه يوسف بن عبد المؤمن أخاه السيد أبا حفص إلى الأندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من قصر المجاز إلى طريف في عشرين ألفاً من الموحدين والمتطوعة، فدخلوا بلاد العدو. وبعث السيد أبو حفص أخاه السيد أبا سعيد إلى بطليوس؛ فعقد الصلح مع الطاغية ابن أذفونش - وهو يومئذٍ أعظم ملوك فرنج الجزيرة - وانصرف، ونهضوا جميعاً إلى مرسية ومعهم إبراهيم بن همشك كان من قواد ابن مردنيش فنزع عنه إلى الموحدين فحاصروا ابن مردنيش الثائر بمرسية وأعمالها، واستولوا على أكثر بلاده، واتصل الخبر بالخليفة بمراكش وقد خف إلى الجهاد.

وفي سنة ست وستين أمر أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ببناء قنطرة تانسيفت[1] وكان الشروع في بنائها يوم الأحد ثالث صفر من السنة المذكورة.

الجواز الأول لأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بقصد الجهاد

لما اتصل بأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ما اتفق لشقيقه السيد أبي حفص من الاستيلاء على غالب بلاد ابن مردنيش، وظهور المسلمين على عدوهم بها، وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم، تاقت نفسه إلى العبور إلى بلاد الأندلس بقصد إصلاح حالها وجهاد العدو بها؛ وقد توافت لديه وهو بمراكش جموع العرب من إفريقية صحبة السيد أبي زكريا صاحب بجاية، والسيد أبي عمران صاحب تلمسان.

وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً، فاعترضهم وسائر عساكرهم،

(1) جاء في كتاب الروض المعطار - أن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني كان قد بنى قنطرة تانسيفت وأن السيل أتى بعد ذلك فهدمها.

ونهض إلى الأندلس في مائة ألف من العرب والموحدين، واستخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران، فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية ولقيه السيد أبو حفص هنالك منصرفاً من بعض غزواته.

ولما نزل أمير المؤمنين يوسف بإشبيلية خافه محمد بن مردنيش، وحمل على قلبه فمرض ومات! وقيل إن أمه سمته لأنه كان قد أساء إلى خواصه وكبراء دولته، فنصحته فتهددها، وخافت بطشه فسمته! ولما مات محمد بن مردنيش جاء أولاده وإخوته إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ـ وهو بإشبيلية ـ فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم، فأحسن إليهم أمير المؤمنين وتزوج أختهم، وأصبحوا عنده في أعز منزلة؛ وصنع في وليمتها مهرجاناً عظيماً يقصر الوصف عنه.

ولما صفت لأمير المؤمنين يوسف الأندلس خرج من إشبيلية غازياً بلاد العدو؛ فنزل على مدينة له تسمى وبذة، فأقام محاصراً لها شهوراً إلى أن اشتد عليهم الحصار وعطشوا، فراسلوه في تسليم المدينة، وأن يعطيهم الأمان على نفوسهم؛ فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وأصوات هائلة، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج، فارتووا وتقووا على المسلمين، فانصرف عنهم إلى إشبيلية، بعد أن هادنهم مدة سبع سنين.

فليعتبر الواقف على هذه القضية، وليعلم أن هؤلاء الكفار جاحدون، ينسبون إلى الله تعالى ما لا يليق به من التثليث وأنواع الكفر، ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم، ورجعوا إليه تعالى بالاضطرار الصادق، رحمهم سبحانه وهو أرحم الراحمين؛ فلا ينبغي بعد هذا للمؤمن الموحد إذا حصل في شدة أن ييأس من رحمة الله، فإنه ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87] والسر في الاضطرار. فإنه عند أرباب البصائر، هو اسم الله الأعظم الذي

إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، اللهم اجعلنا يا مولانا عندك من المرحومين واجعل كل من يرحمنا عندك من المرحومين، فأنت أهل ذلك والقادر عليه.

ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الأحدب، فخرج إليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح، وأثخن فيهم؛ ورجع إلى إشبيلية.

وفي هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسمائة، شرع أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن في بناء جامع إشبيلية، فتم وصليت به الجمعة في ذي الحجة منها!.

وفي هذه السنة أيضاً عقد أمير المؤمنين الجسر على وادي إشبيلية بالقوارب وبنى قصبتها الداخلية، وبنى الزلاليق للسور، وبنى سور باب جوهر؛ وبنى الرصفان المتدرجة بضفتي الوادي، وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله إشبيلية، وأنفق في ذلك أموالاً لا تحصى.

ثم انتقض ابن أذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره، وافتتح قنصرة بالسيف، وهزم جموعه في كل جهة.

ثم ارتحل الخليفة من إشبيلية راجعاً إلى مراكش سنة إحدى وسبعين لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وعقد على قرطبة لأخيه أبي الحسن وعلى إشبيلية لأخيه أبي علي.

وأصاب مراكش طاعون فهلك من السادة: أبو عمران؛ وأبو سعيد وأبو زكريا وقدم الشيخ أبو حفص الهنتاتي من قرطبة فهلك في طريقه ودفن بمدينة سلا، وهو جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية.

واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا علي وأبا الحسن فعقد لأبي علي على سجلماسة، ورجع أبو الحسن إلى قرطبة؛ وعقد لابني أخيه السيد أبي حفص: لأبي زيد منهما على غرناطة، ولأبي محمد على مالقة.

وفي سنة ثلاث وسبعين سطا بذرية بني جامع وزرائه وغربهم إلى ماردة.

وفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على أسطوله، وأغزاه مدينة أشبونة، فغنم ورجع.

وفيها كانت وفاة أخيه الوزير السيد أبي حفص بن عبد المؤمن بعد ما أبلى في الجهاد، وبالغ في نكاية العدو، وتقدم ابناه من الأندلس فأخبرا الخليفة بانتقاض الطاغية؛ واعتزم على الجهاد، وأخذ في استدعاء العرب من إفريقية، والله تعالى أعلم.

غزو أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بلاد إفريقية وفتح مدينة قفصة والسبب في ذلك

كانت قفصة من بلاد إفريقية قد استبد بها بنو الرند أواخر دولة صنهاجة من بني زيري بن مناد، كان جدهم عبد الله بن محمد بن الرند عاملاً لهم بها، فتوارثها بنوه من بعده، فاستبدوا بها آخر الدولة؛ ولما غزا عبد المؤمن بلاد إفريقية استنزلهم في جملة من استنزل من الثوار بها. ولما مات عبد المؤمن وبويع ابنه يوسف بلغه سنة أربع وسبعين وخمسمائة أن بعض بني الرند قد عاد إلى قفصة وثار بها فاضطربت لأجل ذلك أحوالها فنهض إليها في سنة خمس وسبعين بعدها، فانتهى إلى إفريقية، ونزل على مدينة قفصة؛ وضيق عليها بالقتال والحصار حتى دخلها، وظفر بابن الرند القائم بها فقتله، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة.

ثم عاد إلى مراكش فدخلها في سنة سبع وسبعين بعدها. هكذا في القرطاس، ونحوه لابن خلدون في أخبار بني عبد المؤمن.

وذكر عند الكلام على بني الرند وجهاً آخر فقال: «كان عبد المؤمن قد ولى على قفصة عمران بن موسى الصنهاجي، فأساء إلى الرعية، فبعثوا عن

علي بن العزيز بن المعتز الرندي من بجاية وكان بها في مضيعة يحترف بالخياطة، فقدم عليهم وثاروا بعمران بن موسى عامل الموحدين فقتلوه، وقدموا مكانه علي بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأغزاه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين وخمسمائة أخاه السيد أبا زكرياء، فحاصره وضيق عليه وأخذه، وأشخصه إلى مراكش بأهله وماله، واستعمله على الأشغال بمدينة سلا إلى أن هلك بها، وفنيت دولة بني الرند. والبقاء لله وحده» اهـ. كلامه فالله أعلم أي ذلك كان.

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة خرج أمير المؤمنين يوسف من مراكش لبناء حصن أزكندر، فبناه على المعدن الذي ظهر هنالك.

الجواز الثاني لأمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن إلى الأندلس برسم الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله

لما قدم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن من فتح قفصة سنة سبع وسبعين وخمسمائة قدم عليه ولاة الأندلس ورؤساؤها يهنئونه بالإياب، فأكرم وفادتهم وانصرفوا.

ثم بلغه الخبر بأن أذفونش بن سانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة، ثم نزل إستجة وتغلب على حصن شقيلة. وأسكن به النصارى وانصرف.

فاستنفر السيد أبو إسحاق سائر الناس للغزو، ونازل الحصن نحواً من أربعين يوماً، ثم بلغه خروج أذفونش من طليطلة بمدده فانكفأ راجعاً؛ وخرج محمد بن يوسف بن وانودين من إشبيلية في جموع الموحدين، ونازل طلبيرة فبرز إليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم.

فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على معاودة الجهاد، وولى على

الأندلس أمناءه وقدمهم للاحتشاد، فعقد لابنه السيد أبي زيد على غرناطة، ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية، ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة.

وفي القرطاس: كان خروجه من مراكش في التاريخ المذكور على باب دكالة، قال برسم غزو إفريقية، فلما وصل إلى سلا أتاه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جامع من إفريقية؛ فأعلمه بهدوئها وسكونها، فصرف عزمه إلى الأندلس. فنهض من سلا ضحوة يوم الخميس الموفي ثلاثين من ذي القعدة من السنة المذكورة، فنزل بظاهرها وبات هناك. ثم نهض يوم الجمعة الموالي له فوصل إلى مكناسة يوم الأربعاء السادس من ذي الحجة، فعيد بها عيد الأضحى خارجها. ثم ارتحل إلى فاس فدخلها وأقام بها بقية الشهر.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسمائة، ففي اليوم الرابع بها نهض من فاس وسار حتى انتهى إلى سبتة، فأقام بها بقية الشهر المحرم، وأمر الناس بالجواز إلى الأندلس؛ فجازت قبائل العرب أولاً، ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة؛ ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة، وأصناف البربر. ثم عبرت جيوش الموحدين والأغزاز والرماة. فلما استكمل الناس الجواز عبر هو في آخرهم في الحاشية والعبيد.

وكان جوازه يوم الخميس خامس صفر من السنة المذكورة، فنزل بجبل الفتح، ثم ارتحل منه إلى الجزيرة الخضراء، ثم سار إلى إشبيلية. فلما أشرف عليها يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر خرج إليه ولده السيد أبو إسحاق ومعه فقهاء إشبيلية وأشياخها فبعث إليهم يأمرهم بالوقوف بآخر المنية حتى يصل إليهم، فلما صلى الظهر وركب اجتاز بهم، فلما دنا منهم نزلوا عن دوابهم فوقف لهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا.

ثم نهض إلى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس فانتهى إليها في السابع من ربيع الأول فنزل عليها، وأدار به الجيوش، وشدد عليها في

الحصار والقتال؛ وبذل المجهود إلى ليلة الثاني والعشرين من ربيع المذكور، فانتقل من موضع نزوله بجوفي شنترين إلى غربها، فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سبباً؛ فلما جن الليل وصلى العشاء الآخرة بعث إلى ولده السيد أبي إسحاق صاحب إشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو أشبونة، وشن الغارات على أنحائها، وأن يسير إليها في جيوش الأندلس خاصة. وأن يكون رحيله نهاراً، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل ليلاً، وصرخ الشيطان في محلة المسلمين، أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل في هذه الليلة، وتحدث الناس بذلك وتأهبوا له، ورحلت طائفة منهم بالليل؛ ولما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو إسحاق وأقلع من كان موالياً له، وتتابع الناس بالرحيل؛ وتسابقوا لاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك، فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحداً إلا يسيراً من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله، وينزلون لنزوله؛ وإلا - قواد الأندلس فإنهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلف عنها من الضعفاء، فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفرداً في عبيده وحشمه، وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحوا البلد؛ وخرج جميع من فيه خرجة منكرة، وهم ينادون: الري الري، أي اقصدوا السلطان؛ فضربوا في محلة العبيد إلى أن وصلوا إلى أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموها، فبرز إليهم وقاتلهم بسيفه، حتى قتل ستة منهم، ثم طعنوه طعنة نافذة وقتل عليه ثلاث من جواريه كن قد أكببن عليه! ولما طعن وقع بالأرض وتصايح العبيد ونادوا بالفرسان والأجناد فتراجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أزاحوهم عن الأخبية، واشتد القتال بينهم، وتواقفوا ساعة ثم انهزم الفرنج وركبهم المسلمون بالسيف حتى أدخلوهم المدينة؛ وقتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف، واستشهد من المسلمين جماعة. وركب أمير المؤمنين يوسف

وقد أنفذته الطعنة؛ وارتحل الناس ولا يدرون أين. ثم اهتدوا بالطبول فقصدوا جهة إشبيلية، ثم سار أمير المؤمنين يريد العبور إلى المغرب فاشتد ألمه ومات بالطريق رحمه الله؛ قاله ابن مطروح.

وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة قرب الجزيرة الخضراء، فحمل إلى تينملل فدفن بها إلى جنب قبر أبيه، وقيل إنه لم يمت حتى وصل إلى مراكش. وكان ولده يعقوب الخليفة بعده هو الذي يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الأمور بين يديه من يوم طعن إلى أن مات. قالوا وكتم ولده موته حتى وصل إلى مدينة سلا فأفشاه.

وكان قبل موته بأشهر كثيراً ما ينشد قول الشاعر ويردده.

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره وأنكرتني ذوات الأعين النجل

ورثاه الأديب أبو بكر يحيى بن مجير بقصيدة طويلة أجاد فيها وأولها:

جل الأسى، فأسل دم الأجفان ماء الشؤون لغير هذا الشان

بقية أخبار أمير المؤمنين
يوسف بن عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان: كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه؛ أعين؛ إلى الطول ما هو؛ في صوته جهارة؛ رقيق حواشي الطبع حلو الألفاظ؛ حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب؛ وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام؛ صرف عنايته إلى ذلك، ولقي فضلاء إشبيلية أيام ولايته بها. وكان فقيهاً حافظاً متفنناً، لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف؛ فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقيه العلوم، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري، وكان يحفظ القرآن

الكريم مع جملة صالحة من الفقه؛ ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب؛ وجمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً.

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن الوزير أبو بكر محمد بن طفيل، كان متحققاً بجميع أجزاء الحكمة، قرأ على جماعة من أهلها منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة وغيره؛ ولابن طفيل هذا تصانيف كثيرة.

وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصاً على الجمع بين علم الشريعة والحكمة، ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار؛ ومن جملتهم القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد.

وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكية، بعيد الهمة، جماعاً مناعاً؛ ضابطاً لخراج مملكته، عارفاً بسياسة رعيته، وكان سخياً جواداً في محل السخاء والجود؛ قد استغنى الناس في أيامه؛ وكان من ضبطه وسياسته، ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب حتى لا يكاد يحضر، وله في غيبته نواب؛ وخلفاء وحكام قد فوض الأمور إليهم، لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك.

قال ابن خلكان: «والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه».

ومما يستطرف من أخباره رحمه الله: أن الأديب أبا العباس أحمد بن عبد السلام الكرواني ـ وكروان قبيلة من البربر منازلهم بضواحي فاس ـ كان نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة، وتقدم في هذا الشأن وله فيه تآليف، وكان مع ذلك صاحب نوادر، جالس بها عبد المؤمن؛ ثم ولده يوسف؛ ثم ولده يعقوب.

فمن نوادره: أنه حضر يوماً إلى باب أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن المذكور؛ وحضر إليه أيضاً الطبيب سعيد الغماري، فقال أمير

المؤمنين لبعض خدمه: «انظر من بالباب من الأصحاب» فخرج الخادم ثم عاد إليه فقال: «يا سيدي به أحمد الكرواني وسعيد الغماري» فقال أمير المؤمنين يوسف: «من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غمارة» فبلغ ذلك الكرواني: «وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه! أعجب منهما والله، خليفة من كومية!» فيقال إن أمير المؤمين يوسف لما بلغه ذلك قال: «أعاقبه بالحلم عنه ففيه تكذيب له» ومن شعر الكرواني من جملة قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين يوسف المذكور وهو بديع:

إن الإمام هو الطبيب وقد شفا   عـلـل الـبـرايـا ظـاهـراً ودخـيـلا
حمل البسيطة وهي تحمل شخصه   كالروح يوجد حاملاً محمولا!

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون: «لما توفي الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على حصن شنترين في التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، ورجع بالناس إلى إشبيلية فاستكمل البيعة، واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد يحيى، فاستولى على بعض الحصون، وأثخن في بلاد الكفار؛ ثم أجاز البحر إلى الحضرة.

ولقيه بقصر مصمودة السيد أبا زكريا ابن السيد أبي حفص، قادماً من تلمسان، مع مشيخة بني زغبة من عرب هلال؛ ومضى إلى مراكش فغير المناكر وبسط العدل، ونشر الأحكام» اهـ وفيه نوع مخالفة لما قدمناه.

وقال ابن أبي زرع: لما تمت له البيعة وطاعت له الأمة كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال، ففرقها في الضعفاء من بيوتات المغرب، وكتب إلى جميع بلاده، بتسريح السجون ورد المظالم التي

ظلمها العمال في أيام أبيه؛ وأكرم الفقهاء، وراعى الصلحاء وأهل الفضل، وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، وفرق في الموحدين وسائر الأجناد أموالاً جمة؛ وكان أول شيء حدث في دولته شأن بني غانية المسوفيين. أصحاب جزيرة ميورقة وأعمالها، فلنأت بشيء من ذلك.

خروج علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية على يعقوب المنصور

قد تقدم لنا في أخبار الدولة اللمتونية أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني كان قد استعمل على الجزائر الشرقية من بلاد الأندلس وهي ميورقة ومنورقة ويابسة محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية ـ وهي أمهم ـ فتوارثها بنوه من بعده، إلى أيام يوسف بن عبد المؤمن؛ فبعث إليه محمد بن إسحاق بن محمد المسوفي المذكور بالطاعة، فقبل ذلك يوسف بن عبد المؤمن، وبعث إليه قائده علي بن الروبرتير ليختبر أمره؛ ويعقد له البيعة عليه، ويؤكد الأمر في ذلك.

وكان لمحمد بن إسحاق المذكور عدة إخوة يساهمونه في الرياسة، فلما انتهى إليهم ابن الروبرتير، وعلموا الأمر الذي قدم لأجله، أنكروا على أخيهم ذلك لأنه لم يكن أعلمهم بمكاتبة يوسف بن عبد المؤمن فخلصوا نجياً دونه، وتقبضوا عليه وعلى ابن الروبرتير، وقدموا مكانه أخاهم علي بن إسحاق بن محمد؛ ثم بلغهم خبر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب المنصور، فركب علي بن إسحاق أسطوله وطرق بجاية على حين غفلة من أهلها؛ وعليها يومئذٍ السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن.

وكان خارجاً في بعض مذاهبه ـ فاستولى عليها ابن غانية في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

وحكى ابن أبي زرع في استيلاء ابن غانية على بجاية وجهاً آخر قال: دخل الميورقي - وهو علي بن إسحاق المذكور - مدينة بجاية يوم الجمعة السادس من شعبان سنة ثمانين وخمسمائة، والناس في صلاة الجمعة.

وكان أبواب المدن قبل ذلك لا تغلق وقت صلاة الجمعة، فارتقب ابن غانية الناس حتى أحرموا بصلاة الجمعة، ثم اقتحم عليهم المدينة وعمد إلى الجامع الأعظم، وأدار به الخيل والرجل فمن بايعه خلى سبيله، ومن توقف عن بيعته ضرب عنقه» قال: «وأقام بها سبعة أشهر، ثم استرجعت من يده» قال: «ومن ذلك اليوم اتخذ الناس غلق أبواب المدن يوم الجمعة وقت الصلاة» والله أعلم.

ثم استولى علي بن إسحاق على الجزائر، ثم على مازونة؛ ثم على مليانة، ثم على القلعة، ثم نازل قسنطينة فامتنعت عليه.

واتصل الخبر بالمنصور فسرح السيد أبا زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وعقد له على حرب ابن غانية، وعقد لمحمد بن إبراهيم بن جامع على الأساطيل، وإلى نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي. فوصل السيد أبو زيد إلى إفريقية وشرد ابن غانية عنها إلى الصحراء في أخبار طويلة.

ثم عاود ابن غانية الإجلاب على بلاد إفريقية، وظاهره على ذلك قراقوش الغزي، من موالي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي صاحب مصر، وكان قد تغلب على طرابلس وما والاها.

وبلغ المنصور أن ابن غانية قد استولى على قفصة فنهض بنفسه من حضرة مراكش ثالث شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ووصل إلى فاس فأراح بها، ثم سار إلى رباط تازا، ثم سار على التعبية إلى تونس.

وجمع ابن غانية من إليه من الملثمين والعرب وجاء معه قراقوش الغزي صاحب طرابلس، فسرح إليهم المنصور مقدمة من جيشه لنظر السيد

أبي يوسف يعقوب ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، فلقيهم ابن غانية في جموعه فانتصر عليهم وانهزم الموحدون، وقبل جماعة من وجوههم، وأسر علي بن الروبرتير في آخرين، وامتلأت أيدي العرب من أثاثهم وأسلابهم.

ووصل سرعان الناس إلى المنصور وهو بتونس، فنهض إليهم في الحال ونزل القيروان، ثم أغذ السير إلى الحامة فالتقى الجمعان، وأنشبوا الحرب فكانت الهزيمة على ابن غانية وأحزابه، وأفلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليله قراقوش وأتى القتل على أكثرهم.

ثم صبح المنصور مدينة قابس - وكانت في يد قراقوش - فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس، وثنى العنان إلى توزر فافتتحها وقتل من وجد بها، ثم إلى قفصة فنازلها أياماً، حتى نزلوا على حكمه فقتل من كان بها من الحشود وهدم سورها واستبقى أهلها، وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة.

ولما فرغ من أمر قفصة نهض إلى عرب إفريقية، ففتك بهم واستباح حللهم وأموالهم وشردهم في كل وجه، ثم بعد ذلك جاؤوه تائبين خاضعين فنقل أهل الفتنة والخلاف منهم إلى المغرب الأقصى، ورجع إلى مراكش، فدخلها في رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض إفريقية ثم منها إلى المغرب الأقصى والسبب في ذلك

اعلم أن أرض إفريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السالفة لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وإنما كان المغرب وطناً لأمة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم.

ولما جاءت الملة الإسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش

المسلمين من العرب إلى أرض المغرب في جملة ما زحف إليه من أقطار الأرض، لكن العرب الداخلون إلى أرض المغرب في ذلك العصر إنما كانوا يدخلون إليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم، فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار، ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب، وإن بقي القليل منهم به فإنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية، ويسكنون القصور دون الخيام؛ فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذٍ بقبائلهم وخيامهم، ولا استوطنوه بأحيائهم وحللهم، كما هو شأنهم اليوم؛ لأن الملك الذي حصل لهم والغلب الذي مكنهم الله منه كان يمنعهم من سكنى البادية، ويعدل بهم إلى الحضارة ولا بد، فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأساً؛ أو قليلة جداً لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل، وإنما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر وكهوف الجبال؛ واستمر الحال على ذلك إلى أواسط المائة الخامسة، فدخلت العرب أرض إفريقية واستوطنها بحللهم وخيامهم.

ثم لما كانت أواخر المائة السادسة في دولة يعقوب المنصور رحمه الله نقل الكثير منهم إلى المغرب الأقصى، فاستوطنوه بحللهم وخيامهم كذلك، وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان العربي، وأمة البربر أهل اللسان البربري، بعد أن كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركهم فيها غيرهم كما قلنا.

واعلم أن أمة العرب تنقسم أولاً إلى قسمين: عدنان وقحطان، ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان إلى شعبين عظيمين، فأما عدنان وهم الإسماعيلية ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فينقسمون إلى ربيعة ومضر، وأما قحطان وهم اليمانية ذرية قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام فينقسمون إلى حمير وكهلان. هذا هو المعروف المشهور من نسب الفريقين. وقد يذكر النسابون لكل منهما شعوباً

أخر، لكنا لم نعتبرها إما لانقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها جداً واندراجها فيمن ذكرناه.

ثم يتشعب كل من هذه الشعوب الأربعة إلى قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها، لكننا ننبه على الغرض المقصود منها فنقول: من جملة قبائل مضر:

بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر.

ومن قبائلها أيضاً بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازان بن منصور المذكور في النسب السابق. وقد نسبت الخنساء جشم هذا إلى جده، فقالت تهجو دريد بن الصمة:

معاذ الله ينكحني حبركي ... قصير الشبر من جشم بن بكر

ومن قبائلها أيضاً بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر المذكور أيضاً.

ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين: بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. وكهلان هو ابن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

واعلم أن هؤلاء القبائل الأربعة التي ذكرناها هي التي ذكر المؤرخون أنها انتقلت إلى إفريقية والمغرب، وقد يضاف إليهم غيرهم من قبائل العرب، لكنهم ليسوا بمشهورين كالأربعة المذكورة.

وأما خبر دخولهم إلى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون أن بني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر لم يزالوا بجزيرة العرب برهة من الدهر إلى أن مضى الصدر من دولة بني العباس، وكانوا أحياء ناجعة بأرض الحجاز ونجد، فبنوا سليم مما يلي المدينة المنورة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف، ثم تحيز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر إلى البحرين وعمان، وصاروا جنداً للقرامطة، ثم غلب القرامطة على بلاد الشام وظاهرهم على

ذلك بنو سليم وبنو هلال. ثم انتقلت دولة العبيديين من إفريقية إلى مصر، وغلبوا القرامطة على الشام وانتزعوه منهم، وردوهم على أعقابهم إلى البحرين، ونقلوا أشياعهم من بني سليم وبني هلال. فأنزلوهم بصعيد مصر في العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك، وكان لهم أضرار بالبلاد؛ ولما انتقلت الدولة العبيدية من إفريقية إلى مصر كما قلنا استنابوا على إفريقية بني زيري بن مناد الصنهاجيين فملكوها، وكانوا يخطبون بملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم، ويؤدون إليهم إتاوة معلومة وطاعة معروفة.

ولما انساق ملك إفريقية إلى المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي كان له رغبة في مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة، وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذٍ المستنصر بالله معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله. والمعز هذا هو الذي انتقل إلى مصر وبنى مدينة القاهرة.

وكان المعز بن باديس الصنهاجي لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدي صاحب مصر كما كانت أسلافهما؛ ثم إن المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك في أول ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثاً بالشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فسمعته العامة وكان جمهورهم سنياً؛ فثاروا بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل، وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان، وقطعوا من الأذان حي على خير العمل.

وكانت هذه الواقعة في أيام الظاهر العبيدي والد المستنصر، فكاتب المعز بن باديس في ذلك، فاعتذر إليه بالعامة، فأغضى عنه.

واستمر ابن باديس على إقامة الدعوة لهم؛ والمهاداة معهم، وهو في أثناء ذلك يكاتب وزيرهم القائم بأمور دولتهم أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ويستميله، ويعرض ببني عبيد وشيعتهم ويغض منهم.

ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وولي الوزارة

بعده أبو محمد الحسن بن علي اليازوري، أصله من قرى فلسطين، وكان أبوه فلاحاً بها. فلما ولي الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب به من قبله من الوزراء: كان يقول في كتابه إليهم: عبدكم! وصار يقول: في كتاب اليازوري: صنيعتكم! فحقد ذلك عليه، وصارت القوارص تسري من بعضهم إلى بعض، إلى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدي ووزيره اليازوري، فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وأحرق بنود المستنصر، ومحا اسمه من السبكة والطرز، ودعا للقائم العباسي خليفة بغداد؛ وجاءه خطابه وكتاب عهده، فقرىء بجامع القيروان، ونشرت الرايات السود؛ وهدمت دور الإسماعيلية.

وبلغ الخبر بذلك كله إلى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته، ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن علي اليازوري في أمر ابن باديس، فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بني هلال، وبني جشم الذين بالصعيد، وأن يتقدم إليهم بالاصطناع؛ ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها بدلاً من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم؛ فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالاً بتلك القاصية، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها؛ وأمر العرب على كل حال أهون على الدولة من أمر صنهاجة الملوك.

فبعث المستنصر وزيره إلى هؤلاء الأحياء؛ وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، وقال لهم: «قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآباق، فلا تفتقرون بعدها!».

وكتب اليازوري إلى المعز: «أما بعد، فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً».

فشرهت العرب إذ ذاك وعبروا النيل إلى برقة، فنزلوا بها واستباحوها

وافتتحوا أمصارها، وأعجبتهم البلاد. فكتبوا لإخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه؛ وتقارعوا على البلاد؛ فحصل لبني سليم شرقها، ولبني هلال غربها، ثم انتشروا في أقطار إفريقية مثل الجراد، لا يؤمرون بشيء إلا أتوا عليه.

وبالجملة فلم تمر إلا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحي إفريقية. ونازلوا أمصارها، واقتضوا من أهلها الإتاوة، وحضروا ابن باديس في مصره؛ وصاهرهم ببناته تأليفاً لهم، ومع ذلك فلم يجد شيئاً والحديث في ذلك طويل وليس تتبعه من غرضنا.

قال ابن خلدون: «ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق، يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ومكة، ويسمونه شكر بن أبي الفتوح؛ وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته جازية فأنكحه إياها، وولدت منه ولداً واسمه محمد، وإنه حدث بينهم وبين الشريف المذكور مغاضبة وفتنة. فأجمعوا الرحلة عن أرض نجد إلى إفريقية، وتحيلوا عليه في استرجاع أختهم جازية المذكورة، فطالبته بزيارة؛ أبويها، فأزارها إياهم؛ وخرج بها إلى حللهم، وأقام معها مدة الزيارة فارتحلوا به وبها، وكتموا رحلتهم عنه وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص، ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها؛ فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه، وصار حيث لا يملك أمرها عليهم، ففارقوه؛ ورجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأنها من بعد ذلك كلفت به مثل ما كلف بها إلى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي على خبر قيس وليلى، ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المباني. مثقفة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل؛ والمصنوع لم يفقد فيها من البلاغة شيء، وإنما فقد منها الإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة.

وفي هذه الأشعار شيء كثير دخلته الصنعة، وفقدت فيه صحة الرواية

فلذلك لا يوثق به؛ ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناتة وحروبهم وضبط لأسماء رجالاتهم، وكثير من أحوالهم، لكنا لا نثق بروايتها؛ وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وغيره، وهم متفقون على الخبر عن حال جازية هذه والشريف خلفاً عن سلف، وجيلاً عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يرمى عندهم بالجنون؛ لتواترها بينهم.

وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم، وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد الأكبر ابن موسى الثاني ابن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأبو الفتوح هو الذي خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي، وبايع له بنو الجراح أمراء طيىء بالشام، وبعثوا عنه، فوصل إلى أحيائهم؛ وبايع له كافة العرب؛ ثم غلبتهم عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة، وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة، فولي بعده ابنه شكر هذا، وهلك سنة ثلاث وخمسين وولي بعده ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من جازية هذه.

وقال ابن حزم: إن شكر بن أبي الفتوح لم يولد له قط، وإنما صار أمر مكة من بعده إلى عبد كان له.

وقال ابن خلدون: بل أخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد أنه وقف على بلاد الشريف شكر بن أبي الفتوح، وأنها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات، وإن ولده بها لهذا العهد والله أعلم.

واعلم أن جازية بنت سرحان هذه كانت من بني دريد بن أثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، فهي هلالية أثبجية دريدية. ومن مزاعمهم: أنها لما صارت إلى إفريقية وفارقت الشريف ابن هاشم المذكور، خلفه عليها منهم ماضي بن مقرب من رجالات دريد، فأقامت

عنده مدة؛ ثم غاضبته ولحقت بأخيها الحسن بن سرحان فمنعها منه، فقامت عشيرة ماضي بن مقرب معه وقاتلوا الحسن بن سرحان وعشيرته. وثارت الفتنة بينهم وقتل فيها الحسن بن سرحان، واستمرت العداوة بينهم إلى أيام الموحدين؛ فهذا سبب انتقال هؤلاء العرب من الحجاز ونجد إلى إفريقية.

وأما سبب انتقالهم من إفريقية إلى المغرب الأقصى؛ فقد ذكرنا أن بني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر اقترعوا على بلاد إفريقية، فكان لبني سليم شرقها؛ ولبني هلال غربها، ثم تغلبوا على ضواحيها وأمصارها وضايقوا ملوكها بها.

وانضم إلى بني هلال بن عامر بنو جشم بن معاوية بن بكر، فعلت أيديهم على الجميع؛ واستمر أمرهم على ذلك إلى أن كانت دولة يعقوب المنصور الموحدي رحمه الله، وثار ابن غانية ببلاد إفريقية كما تقدم، فظاهرته العرب من جشم وهلال على الموحدين؛ وأوقعوا بمقدمة المنصور، فنهض إليهم من تونس وأوقع بالملثمين أولاً ثم بالعرب ثانياً، وقل جمعهم واتبع آثارهم إلى أن شردهم إلى صحارى برقة، وانتزع تلك البلاد من أيديهم، ثم راجعوا بصائرهم، فأتوه طائعين خاضعين حسبما قدمنا الخبر عن ذلك مستوفى.

وكان الذين قاتلوه أولاً ثم راجعوا طاعته ثانياً هم قبائل هلال بن عامر وجشم بن معاوية بن بكر كما قلنا، وهم أصحاب غرب إفريقية، وأما بنو سليم بن منصور فلم يقاتله منهم أحد؛ فلذلك بقي بنو سليم بأرض إفريقية.

ونقل المنصور رحمه الله بني هلال وبني جشم إلى المغرب الأقصى حين أتوه طائعين، وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة، فأنزل قبيلة رياح من بني هلال ببلاد الهبط، فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار البسيط الأفيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر، فاستقروا بها وطاب لهم المقام، وأنزل قبائل جشم بلاد تامسنا البسيط الأفيح ما بين سلا

ومراكش، وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لإحاطة جبل الدرن بها، فلم ييمموا بعدها قفراً، ولا أبعدوا رحلة.

واعلم أن هذين البسيطين يسميان اليوم في عرف عامة أهل المغرب بالغرب والحوز، فالغرب عبارة عن بلاد الهبط وأزغار وما في حكمها، والحوز عبارة عن بلاد تامسنا وما اتصل بها إلى مراكش، فكان لرياح بلاد الغرب، وكان لجشم بلاد الحوز.

ثم اعلم أيضاً أن قبيلة رياح هم بنو رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة، وهم بطون كثيرة وجلهم قد بقي بأرض إفريقية والذين انتقلوا منهم إلى المغرب الأقصى كان رئيسهم في ذلك العصر مسعود بن سلطان بن زمام الذوادي، من بني ذواد بن مرداس بن رياح فأقام معهم مدة ثم جمع جماعة من قومه وفر إلى إفريقية، وذلك في حدود التسعين وخمسمائة، وأبدأ وأعاد هنالك في الإجلاب مع الثوار، إلى أن هلك في بعض تلك المدة.

وأقام الباقون بعد فرار كبيرهم مسعود المذكور ببلاد الهبط وأزغار إلى أن انقرضت دولة الموحدين، وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون الموحدي وقتله سنة ثلاثين وستمائة.

ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم، فقاموا بحماية ضواحيهم، وانضم إليهم بنو عسكر بن محمد المرينيون حين خالفوا إخوانهم بني حمامة بن محمد سلف الملوك منهم، فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة أبو الملوك المرينيين، وقتل معه ابنه إدريس؛ فأوجدت رياح السبيل لبني مرين على أنفسهم في طلب الثأر، فأثخنوا فيهم بعد أن ملكوا المغرب، واستلحموهم قتلاً وسبياً مرة بعد أخرى.

وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت المريني سنة سبع وسبعمائة تتبعهم بالقتل إلى أن لحقوا برؤوس الهضاب، وأسنمة الربا المتوسطة في

المرج المستبحر بأزغار؛ فصاروا إلى عدد قليل ولحقوا بالقبائل الغارمة، وذهبت رياح أدراج الرياح. هذا خبرهم على الجملة.

وأما بنو جشم أصحاب تامسنا فإن المنصور لما نقلهم إليها نقل معهم قبائل أخرى كانوا قد قاتلوه معهم، ولم يكونوا من نسبهم، ولكنهم كانوا مندرجين فيهم، فكان يطلق على الجميع جشم، وهؤلاء القبائل هم المقدم والعاصم من بني هلال بن عامر؛ ثم من الأثبج منهم، وقرة من بني هلال أيضاً، والخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر. فهؤلاء القبائل ليسوا من جشم كما ترى؛ ولكنهم لما انغمروا فيهم وانتقلوا إلى المغرب بانتقالهم أطلق على الجميع جشم.

فأما المقدم والعاصم فهما ابنا مشرف بن أثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة؛ وأما قرة فهم بنو قرة بن عبد مناف بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، فهؤلاء القبائل الثلاثة أعني المقدم والعاصم وقرة هلاليون، وأما الخلط فهم بطن من بني عقيل بالتصغير.

قال أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني. الخلط بنو عوف وبنو معاوية ابني المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة المذكور في الأنساب المتقدمة. فقد بان لك بهذا أن هذه القبائل الأربع أعني العاصم ومقدماً وقرة والخلط، ليسوا من بني جشم بن معاوية بن بكر من حيث النسب، وأن الثلاث الأول من بني هلال بن عامر، وأن الرابعة وهي الخلط من بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر يجتمع الجميع كما ذكرناه أولاً، والله تعالى أعلم.

ولنتكلم الآن على أخبار جشم على الجملة فنقول: لما نزل بنو جشم ببسيط تامسنا أقاموا به برهة من الدهر، ثم تميز جمهورهم إلى العاصم ومقدم وبني جابر وسفيان والخلط.

فأما مقدم والعاصم فكانوا مع إخوانهم ببسيط تامسنا المذكور، وكان

للموحدين عليهم عسكرة وجباية، وكان شيخ العاصم لعهد الموحدين، ثم عهد المأمون بن المنصور منهم حسن بن زيد، وكان له أثر في الفتنة التي ثارت بين المأمون وبين يحيى بن الناصر بن المنصور.

ولما هلك يحيى المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أمر الرشيد بن المأمون بقتل حسن بن زيد المذكور مع قائد وقائد ابني عامر من شيوخ بني جابر، كل منهما اسمه قائد فقتلوا جميعاً.

ثم صارت الرياسة لأبي عياد وبنيه، وكان رئيسهم لعهد بني مرين عياد بن أبي عياد، وكان له تلون على الدولة في النفرة تارة والاستقامة أخرى، فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة، وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة؛ ولم يزل هذا دأبه، وكانت له ولاية مع السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني من قبل ذلك. ومقاماته في الجهاد معه مذكورة وبقيت رياسته في بنيه إلى أن انقرض أمرهم وتلاشوا. والله خير الوارثين.

وأما بنو جابر بن جشم فكانت لهم شوكة أيضاً، وكان لهم أثر في الفتنة الناشئة بين المأمون بن المنصور، ويحيى بن الناصر بن المنصور؛ فكانوا شيعة ليحيى، ولما ولي الرشيد بن المأمون أمر بقتل قائد وقائد ابني عامر، وهما يومئذٍ شيخا بني جابر فقتلا وقتل معهم حسن بن زيد شيخ العاصم كما تقدم، وكانوا جميعاً معتقلين عند الرشيد.

وولي أمر بني جابر بعدهما يعقوب بن محمد بن قيطون، ثم قبض عليه قائد الموحدين أبو الحسن بن يعلو، وكان ذلك بأمر أبي حفص المرتضى الموحدي، وولي رياسة بني جابر بعده إسماعيل بن يعقوب بن قيطون، ثم تحيز بنو جابر هؤلاء عن أحياء جشم إلى سفح الجبل بتادلا وما إليها يجاورون هنالك صناكة من البربر الساكنين بقنته وهضابه، فيسهلون إلى البسيط تارة ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى، إذا دهمتهم مخافة من السلطان.

قال ابن خلدون: والرياسة فيهم لهذه العصور - يعني أواخر المائة الثامنة - في ورديغة من بطونهم، قال: أدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن علي الورديغي ثم هلك، وأقيم مقامه ابنه الناصر بن حسين، ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان أبي سالم المريني سنة ستين وسبعمائة، ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه، ثم لحق بهم أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم عند فراره من مراكش سنة ثمان وستين، ونازله السلطان عبد العزيز المريني وأحاط به وبهم؛ فلحق ببرابرة صناكة؛ ثم أمكنوا منه على مال حمل إليهم ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن المريني على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب، وطلبه الوزير عمر فأخرجوه عنهم، وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة، فنكرته الدولة وتقبضت عليه وأودعته السجن، فمكث فيه سنين ثم تجافت عنه الدولة من بعد ذلك وأطلقته، ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ولد السلطان عبد العزيز وأودعه السجن، ونقلوا الرياسة عن بيته إلى غيرهم. والله تعالى مقلب الأمور.

وقد يزعم كثير من الناس أن ورديغة من بني جابر ليسوا من جشم، وأنهم بطن من بطون سدراتة إحدى شعوب لواتة من البربر، ويستدلون على ذلك بموطنهم وجوارهم البربر، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

وأما سفيان فهم الذين كانت لهم الرياسة والشوكة عند دخول العرب إلى المغرب، كانت رياستهم يومئذٍ في أولاد جرمون على سائر بطون جشم، واستمروا على ذلك سائر أيام الموحدين، ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن استكثروا بهم في حروبهم، فكانت لهم عزة ودالة على الدولة بسبب الكثرة وقرب العهد بالبداوة، وخبوا ووضعوا في الفتن مع أعقاب الملوك من بني عبد المؤمن المتنازعين على الملك، وظاهروا البعض منهم على البعض وساءت آثارهم بالمغرب.

وكان شيخهم المشهور على عهد يحيى بن الناصر الموحدي

جرمون بن عيسى السفياني، وكانت بينهم وبين الخلط عداوة، فصارت الخلط شيعة للمأمون وبنيه؛ وصارت سفيان بسبب ذلك شيعة ليحيى بن الناصر منازعة في الخلافة بمراكش، ثم قتل الرشيد بن المأمون مسعود بن حمدان شيخ الخلط ربما نذكر بعد؛ فصاروا إلى يحيى بن الناصر، وصارت سفيان إلى الرشيد.

ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع الموحدين، ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين وستمائة عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق المريني حياء مما وقع له مع الرشيد، وذلك أنه نادمه ذات ليلة حتى سكر، فقام يرقص طرباً؛ ثم حمل عليه وهو سكران وعربد وأساء الأدب، ثم أفاق فندم، وفر إلى محمد بن عبد الحق، وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها؛ وعلا كعب ابنه كانون بن جرمون عند السعيد بن المأمون، ثم خالف عليه عند نهوضه إلى بني مرين سنة ثلاث وأربعين وستمائة، ورجع إلى آزمور فملكها، وفت ذلك في عضد السعيد فرجع عن حركته وقصد كانون بن جرمون، ففر أمامه ثم حضر معه بعد ذلك حركته إلى تلمسان، وقتل بحصن تامزردكت قبل مقتل السعيد بيوم واحد، قتلته الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلة السعيد، وهي التي جرت عليها تلك الواقعة.

وقام بأمر سفيان من بعده أخوه يعقوب بن جرمون، وقتل ابن أخيه محمد بن كانون، وحضر مع عمر المرتضى الموحدي حركة أمان أيملولين سنة تسع وأربعين وستمائة، فرحل يعقوب عن السلطان، واختل عسكره بسبب ذلك؛ فرجع وأتبعه بنو مرين فكانت الهزيمة، ثم عفا له المرتضى عنها، ثم قتله مسعود وعلي ابنا أخيه كانون بثأر أخيهما محمد سنة تسع وخمسين وستمائة، ولحقا بيعقوب بن عبد الحق المريني، وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمٰن فعجز عن القيام بأمره، فقدم عمه عبد الله بن جرمون فعجز أيضاً، فقدم مسعود بن كانون فأقام شيخاً على سفيان، واستمرت حالهم مع الموحدين وبني مرين على هذا النحو من إخلاص الطاعة والنصرة تارة، والتمريض فيهما أخرى.

وقال ابن خلدون: «واتصلت الرياسة على سفيان في بني جرمون هؤلاء إلى عهدنا» قال: «وأدركت شيخاً عليهم لعهد السلطان أبي عنان يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون بن عيسى».

وكانت سفيان هؤلاء أحياء حلوا بأطراف تامسنا مما يلي آسفي، وغلبتهم الخلط على بسائطها الفسيحة، وبقي من أحيائهم الحارث والكلابة ينتجعون أرض السوس وقفاره. ويطلبون ضواحي بلاد حاحة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس. ورياستهم في أولاد مطاع من الحارث، وطال عيثهم في ضواحي مراكش وإفسادهم، فلما استبد سلطان مراكش الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن المريني سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم، ثم استقدمهم في بعض أيامه للعرض بخيلهم ورجلهم على العادة؛ وشيخهم يومئذٍ منصور بن يعيش من أولاد مطاع، فتقبض عليهم أجمعين، وقتل من قتل منهم، وأودع الآخرين سجونه؛ فذهبوا مثلاً لآخرين وخضضت شوكتهم والله قادر على ما يشاء.

وأما الخلط فقد كانوا ببسيط تامسنا أولي عدد وقوة، وكان شيخهم هلال بن حميدان بن مقدم، ولما ولي العادل بن المنصور الموحدي خالفوا عليه وهزموا عساكره، وبعث هلال بيعته إلى المأمون بن المنصور سنة خمس وعشرين وستمائة، وتبعه الموحدون على ذلك، ثم جاء المأمون فظاهروه على أمره، وتحيزت أعداؤهم إلى يحيى بن الناصر منازعه، ولم يزل هلال بن حميدان مع المأمون إلى أن هلك في حركته سنته، وبايع بعده لابنه الرشيد وجاء به إلى مراكش، وهزم سفيان واستباحهم، ثم هلك هلال بن حميدان فولي مكانه أخوه مسعود بن حميدان، ثم خالف على الرشيد فاحتال الرشيد عليه حتى وفد عليه بمراكش فقتله في جماعة من قومه سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وولي أمر الخلط بعده يحيى بن هلال وفر بقومه إلى يحيى بن الناصر وحاصروا مراكش ثم استولوا عليها وعاثوا فيها، وخرج

الرشيد إلى سجلماسة، ثم عاد إليهم سنة ثلاث وثلاثين بعدها وغلبهم عليها، ثم راجعوا طاعة الرشيد وطردوا يحيى بن الناصر إلى بني معقل عرب الصحراء، فتقبض الرشيد على وشاح وعلي ابني هلال وسجنهم بآزمور سنة خمس وثلاثين وستمائة، ثم أطلقهم ثم بعد ذلك غدر بمشيختهم بعد الاستدعاء والتأنيس وقتلهم أجمعين. ثم بعد ذلك حضروا مع السعيد بن المأمون حركته إلى بني عبد الواد أصحاب تلمسان، وجروا عليه الواقعة حتى قتل فيها بسبب فتنتهم مع سفيان يومئذٍ، فلم يزل المرتضى يعمل الحيلة فيهم إلى أن تقبض على أشياخهم سنة اثنتين وخمسين وستمائة فقتلهم، ولحق عواج بن هلال بن حميدان ببني مرين، وقدم المرتضى عليهم علي بن أبي علي من بيت الرياسة فيهم، ثم رجع عواد إلى الموحدين سنة أربع وخمسين وستمائة فأغزاه علي بن أبي علي فقتل في غزاته تلك.

ثم كانت واقعة أم الرجلين لبني مرين على المرتضى سنة ستين وستمائة؛ فنزع علي بن أبي علي إلى بني مرين، ثم صار الخلط كلهم إلى بني مرين، وكانت الرياسة فيهم أول دولة بني مرين لأبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي، وأصهر إليه السلطان يعقوب بن عبد الحق، فأنكحه مهلهل ابنته عائشة التي كان منها ابنه السلطان أبو سعيد بن يعقوب، ولم يزل مهلهل كبيراً عليهم إلى أن هلك سنة خمس وتسعين وستمائة، ثم قام بأمر الخلط ابنه عطية، وكان لعهد السلطان أبي سعيد وابنه السلطان أبي الحسن، وبعثه السلطان أبو الحسن سفيراً عنه إلى سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ولما هلك عطية قام بأمر الخلط ابنه عيسى بن عطية، ثم ابن أخيه رمام بن إبراهيم بن عطية، وهو الذي بلغ المبالغ من العز والترف والدالة على السلطان، والقرب من مجلسه إلى أن هلك؛ فولي أمر الخلط بعده أخوه أحمد بن إبراهيم، ثم أخوهما سليمان بن إبراهيم، ثم أخوهم مبارك بن

إبراهيم على مثل حالهم أيام السلطان أبي عنان المريني ومن بعده، إلى أن كانت الفتنة بالمغرب بعد مهلك السلطان أبي سالم المريني، واستولى على المغرب أخوه السلطان عبد العزيز، وأقطع ابنه ناحية مراكش، فكان إبراهيم بن عطية هذا معه.

ولما تقبض على أبي الفضل تقبض على مبارك المذكور. وأودع السجن إلى أن غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد الهنتاتي وقتله، فقتل معه مبارك بن إبراهيم هذا لما كان يعرف به من صحبته ومداخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بني مرين، وولي ابنه محمد بن مبارك على قبيل الخلط.

قال ابن خلدون: «إلا أن الخلط اليوم دثرت كأن لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الأفيح، زيادة على العز والدعة، فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف، والله غالب على أمره» اهـ.

ولما انقرضت الدولة المرينية من المغرب وجاءت دولة الشرفاء السعديين وقام منهم أبو عبد الله محمد الشيخ المعروف بالمهدي انحاشت الخلط إليه، وأظهروا الخدمة والنصيحة، وغلب محمد الشيخ المذكور على فاس وأخرج أبا حسون الوطاسي عنها؛ فذهب أبو حسون المذكور إلى دولة الترك بالجزائر واستنصر بهم على السعديين فلبوا دعوته، وقدم معه منهم عسكر جرار إلى فاس فأخرجوا محمد الشيخ السعدي عنها بعد حروب عظيمة جرت الخلط هؤلاء عليه فيها الهزيمة، فلما استقل بالأمر محمد الشيخ المذكور خلع الخلط من الجندية ووظف عليهم الخراج ومحا اسمهم من ديوان الخدمة، ونقل أعيانهم إلى مراكش واتخذهم رهائن عنده.

ولم يزل الأمر كذلك إلى دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور

السعدي المعروف بالذهبي، فرأى جلاد الخلط وقتالهم يوم وادي المخازن وإبلاءهم الإبلاء الحسن؛ فاختار النصف منهم وردهم إلى الجندية، وأبقى النصف الآخر في غمار الرعية، ونقلهم إلى أزغار فاستوطنوه؛ فعاثوا في تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد، ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم إلى المنصور السعدي، فضرب عليهم مغرماً سبعين ألفاً، فلم يزيدوا إلا شدة؛ فضرب عليهم بعثاً إلى تكرارين من أرض الصحراء فامتنعوا من ذلك؛ فبعث إليهم القائد موسى بن أبي جمادة العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة، ثم حكم فيهم السيف فمزقهم كل ممزق؛ ومن ثم خمدت شوكتهم ولانت للغامز قناتهم، ثم ختموا أعمالهم بفعلتهم الشنعاء التي ملأت الأفواه وأسالت من الجفون الأمواه؛ وهي قتلتهم ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبا عبد الله سيدي محمد العياشي المالكي رحمه الله. فما زلنا نسمع أن قبيلة الخلط إنما سلبوا العز منذ قتلهم للولي المذكور؛ وكان ذلك في المحرم سنة إحدى وخمسين وألف، والله تعالى أعلم.

الخبر عن بني معقل عرب الصحراء من أرض المغرب وتحقيق نسبهم وبيان شعوبهم وبطونهم

قال ابن خلدون: «هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، مجاورون لبني عامر من زغبة الهلاليين في مواطنهم بقبلة تلمسان؛ وينتهون إلى البحر المحيط من جهة الغرب، وهي ثلاثة بطون. ذوي عبيد الله؛ وذوي منصور، وذوي حسان.

فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة، ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة وعلى درعة وما يحاذيها من التل، مثل تازا وغساسة ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمعدن

ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط؛ وينزل شيوخهم بلاد بول قاعدة السوس، فيستولون على السوس الأقصى وما إليه وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة.

وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال إنهم لم يبلغوا المائتين، واعترضتهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى الهلالين منذ عهد قديم؛ ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار فعفوا وكثروا وأثروا في صحارى المغرب الأقصى؛ فغمروا رماله وتقلبوا في فيافيه، وكانوا هنالك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم؛ وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب. فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء في القفار، وتفردوا في البيداء فنموا نمواً لاكفاء له؛ وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً. ثم توات؛ ثم بودة، ثم تمنطيت؛ ثم واركلان، ثم تاسبيبت، ثم تيكرارين شرقاً، وكل واحدة من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها. فحازت عرب معقل هذه الأوطان في مجالاتهم، ووضعوا عليها الإتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً.

وكانوا في تلك المدة السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل، ويسمونها جمل الرحيل، وكان لهم الخيار في تعيينها؛ ولم يكن هؤلاء العرب يحمون من أطراف المغرب وتلوله حمى. ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد الصحراء بأذية ولا مكروه، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة من بعدهم.

وكان لهم بإزاء ذلك أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى

وعددهم قليل كما قلنا، وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم، فإن فيهم من فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر، وفيهم من أشجع بن ريث بن غطفان أحياء كبيرة، يظغنون مع بني معقل بجهات سلجماسة ووادي ملوية، ولهم عدد وذكر؛ وفيهم الصباح من الأخضر؛ ويقولون إنهم من ولد أخضر بن عامر وعامر هذا هو ـ والله أعلم ـ من ولد رياح الهلاليين، وفيهم المهاية من عياض إحدى بطون الأثبج الهلاليين؛ وفيهم العمور من الأثبج أيضاً، وفيهم بطون أخر من بني هلال وبني سليم وغيرهم.

وأما أنسابهم عند الجمهور فخفية ومجهولة، والنسابون من عرب هلال يعدونهم من بطونهم وهو غير صحيح؛ وهم ـ أعني بني معقل ـ يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب، وليس ذلك أيضاً بصحيح؛ لأن الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة.

هكذا ذكر ابن خلدون، لكنه لم تكلم على جهينة إحدى بطون قضاعة؛ وذكر أنهم نزلوا بلاد الصعيد وملؤوها. قال: «ونزل معهم في تلك المواطن من أسوان إلى قوص بنو جعفر بن أبي طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة وأخرجوهم منها؛ فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة، ويحترفون في غالب أحوالهم بالتجارة، اهـ كلامه. فعلى هذا لا يبعد أن تكون طائفة من هؤلاء الجعافرة قد انتقلوا من أرض الصعيد ودخلوا مع بني هلال إلى بلاد المغرب وأوطنوا صحراءه، وهم بنو معقل المذكورون؛ والناس مصدقون في أنسابهم. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

ثم قال ابن خلدون: «والصحيح والله أعلم من أمرهم أنهم من عرب اليمن. فإن في اليمن بطنين يسمى كل واحد منهما معقل؛ ذكرهما ابن الكلبي وغيره فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير؛ وهو معقل بن

كعب بن عليم بن جناب وينتهي نسبه إلى قضاعة والآخر من بني الحارث بن كعب أصحاب نجران؛ الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران في الجاهلية والإسلام، وهو معقل بن كعب بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن كعب؛ وينتهي نسبه إلى كهلان» قال: «والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر؛ وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى إفريقية لمجاورتهم في الوطن» قال: ومن إملاء نسابهم أن معقلاً جدهم له من الولد سجير ومحمد؛ فولد سجير: عبيد الله، وثعلب؛ فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم؛ ومن ثعلب الثعالبة الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر، وولد محمد: مختاراً ومنصوراً وجلالاً وسالماً وعثمان؛ فولد مختار بن محمد حسان وشبانة، فمن حسان ذوي حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى، ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنالك، ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بادية في ذوي حسان ينتجعون معهم؛ وولد منصور بن محمد حسيناً وأبا الحسين وهما شقيقان، وعمران ومنبا وهما شقيقان أيضاً وهما الأحلاف، ويقال لعمران العمرانية؛ ولمنبا المنبات؛ ثم يقال لجميع البطون الأربعة ولد منصور بن محمد ذوي منصور، وهم إحدى بطونهم الثلاث المذكورة والله تعالى أعلم بغيبه».

فهذه أصول عرب المغرب الأقصى وكيفية دخولهم إليه واستيطانهم إياه، وبعض فصولهم قد ذكرناها ملخصة من تاريخ إمام الفن أبي زيد عبد الرحمٰن بن خلدون؛ ومن جمهرة الأنساب لابن حزم. وزدنا ما يحتاج منها إلى البيان بياناً والله تعالى الموفق.

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله من أخبار أمير المؤمنين يعقوب المنصور رحمه الله، فإنه لما رجع من إفريقية إلى مراكش سنة أربع وثمانين وخمسمائة رفع إليه أن أخاه السيد أبا حفص صاحب مرسية الملقب بالرشيد، وعمه السيد أبا الربيع صاحب تادلا عندما بلغهما خبر الوقعة التي كانت على مقدمة

المنصور بإفريقية حدثا أنفسهما بالتوثب على الخلافة، فلما قدما عليه بالتهنئة أمر باعتقالهما خلال ما استملأ أمرهما ثم قتلهما، وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية. وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة شرع المنصور في إدخال ساقية الماء إلى مراكش ثم تاقت نفسه إلى الجهاد فكان منه ما نذكره.

الجواز الأول ليعقوب المنصور رحمه الله إلى الأندلس بقصد الجهاد

قال ابن أبي زرع: وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها؛ وهي أولى غزواته، فعبر من قصر المجاز إلى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من السنة المذكورة ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين، وشن الغارات على مدينة أشبونة وأنحائها؛ فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا وأضرم النيران في القرى وأبلغ في النكاية؛ وانصرف إلى العدوة بثلاثة عشر ألفاً من السبي، فدخل فاساً في آخر رجب من السنة المذكورة.

مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر ليعقوب المنصور رحمهما الله والتماسه منه الأساطيل للجهاد

كانت الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هذا التاريخ، وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله؛ فلما استولى السلطان صلاح الدين رحمه الله على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم، وصار يفتح حصونها واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعها.

وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهدم الكنيسة التي بنواحيه، وانقضت أمم النصرانية من كل جهة، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس، واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لضعفها يومئذٍ عن ممانعتهم فبعث صلاح الدين صريحة إلى المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة[1] يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس الشام، وأوفد عليه أبا الحارث عبد الرحمٰن بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر من حصون الشام، وكان صلاح الدين قد ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته، فبعث صلاح الدين عبد الرحمٰن هذا إلى يعقوب المنصور طالباً مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام، ولمنازلة الثغور التي ذكرنا.

وبعث معه إلى المنصور بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية، وسروج عدة مثقلة، فوصل إلى المغرب فصادف المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلى أن رجع فلقيه وأدى الرسالة وقدم الهدية.

وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من إنشاء الأديب عبد الرحيم البيسني المعروف بالقاضي الفاضل، وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفى أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، وبعده: الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفة من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض، وهو كتاب طويل.

---

(1) صوابه ست وثمانين [راجع كتاب الروضتين للمقدسي ج2 ص 173].

ولما وقف عليه المنصور ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك، وأسرها في نفسه، وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة، ورده إلى مرسله ولم يجبه إلى حاجته، ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام. والله تعالى أعلم.

قال ابن خلدون[1]: وفي هذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذٍ بالأساطيل الجهادية. وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها، وكان ابن منقذ المذكور قد مدح المنصور بقصيدة يقول فيها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى ... إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول تزجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقناً ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلى فبلغتها ... وأدنى عطاياك العلى والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانياً ... تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدتها أربعون بيتاً، فأعطاه بكل بيت ألفاً؛ وقال له: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين.

عود المنصور إلى إفريقية والسبب في ذلك

لما قدم المنصور من الأندلس إلى فاس وفرغ من شأن ابن منقذ تواترت إليه الأخبار بأن ابن غانية قد ظهر بإفريقية، فنهض إليها من فاس في ثامن شعبان من تلك السنة، فدخل تونس في أول ذي القعدة منها فألقى بلاد

(1) هذا النقل غير موجود في ابن خلدون سواء في النسخة المطبوعة بالقاهرة سنة 1284 أو المطبوعة بالجزائر سنة 1263 [1847] ولعل المؤلف نقله عن نسخة أخرى خطية وربما تكون هي النسخة المخطوطة التي كان وقف عليها عند أحد عمال الغرب المعروف بولد الضاوية وهي التي استعملها عند جمعه لهذا التاريخ اهـ.

إفريقية ساكنة وقد فر ابن غانية عنها إلى الصحراء حين سمع بقدومه.

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة استولى الفرنج على مدينة شلب وباجة ويابورة من غرب الأندلس، وذلك لما علموا أن المنصور قد أبعد عنهم واشتغل بأمر إفريقية، فاغتنموا الفرصة فيها؛ واتصل الخبر بالمنصور فغاظه ذلك وأعظمه، وكتب إلى قواد الأندلس يوبخهم ويأمرهم بغزو بلاد الفرنج ويعلمهم أنه قادم عليهم في أثر كتابه، فاجتمع قواد الأندلس إلى محمد بن يوسف والي قرطبة، فخرج بهم في جيش كثيف من الموحدين والعرب وأهل الأندلس حتى نزل على شلب فشدد عليها الحصار وتابع عليها القتال حتى فتحها وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابورة ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألفاً من السبي وثلاثة آلاف أسير قدمهم بين يديه في القطائن خمسون علجاً في كل قطينة، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وفي هذا الشهر رجع المنصور من إفريقية فانتهى إلى تلمسان فأقام بها إلى آخر السنة المذكورة، وفي فاتح محرم من سنة ثمان وثمانين وهي سنة آكرواو خرج المنصور من تلمسان إلى فاس وهو مريض، فكان يركب في آكرواو، فدخل فاساً وأقام بها مريضاً سبعة أشهر حتى أبل من علته، ثم نهض إلى مراكش فأقام بها إلى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة؛ ثم نهض منها إلى الأندلس بقصد الجهاد، وكان ما نذكره إن شاء الله.

الغزوة الكبرى بالأرك من بلاد الأندلس

قال ابن خلكان: كان يعقوب المنصور رحمه الله قد خافه الفنش صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه إلى خمس سنين، فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها إلا القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثاً فظيعاً؛ فانتهى الخبر إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جيش عرمرم من قبائل الموحدين والعرب، واحتفل في ذلك وعبر البحر إلى الأندلس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة؛ واتصل بالفرنج عبوره إليهم فجمعوا خلقاً كثيراً من أقصى بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه.

قال ابن خلكان: وقد رأيت بدمشق جزء بخط الشيخ الحافظ تاج الدين عبد الله بن حموية السرخسي، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة؛ وكتب فصولاً تتعلق بتلك الدولة، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الوقعة فينبغي ذكره هٰهنا.

قال: لما انقضت الهدنة بين أمير المؤمنين يعقوب المنصور وبين الأذفونش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس، وقاعدة مملكته يومئذٍ طليطلة، وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسمائة عزم يعقوب المنصور ـ وهو يومئذٍ بمراكش ـ على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج، وكتب إلى ولاة الأطراف وقواد الجيوش بالحضور، وخرج إلى مدينة سلا ليكون اجتماع العساكر بظاهرها. فاتفق أنه مرض مرضاً شديداً حتى يئس منه أطباؤه، فتوقف الحال عن تدبير تلك الجيوش. وحمل يعقوب المنصور إلى مراكش وهو مريض، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد وعاثوا فيها، وأغاروا على النواحي والأطراف، وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس. واقتضى الحال تفرقة الجيوش التي جمعها يعقوب المنصور شرقاً وغرباً، واشتغلوا بالمدافعة والممانعة، فكثر طمع الأذفونش

في البلاد؛ وبعث رسولاً إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور يتهدد ويتوعد، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس، وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار، وهي: «باسمك اللهم فاطر السمٰوات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب؛ ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل، وإهمال أمر الرعية، وإخلادهم إلى الراحة؛ وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار؛ وأسبي الذراري وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات؛ وأجوز بجملتي إليك فأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك؛ وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين! والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره».

فلما وصل كتابه إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه، وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع كما يأتي في بقية أخباره: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً

وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:37] ثم كتب الجواب ما ترى لا ما تسمع» فهو أول من تكلم به فأرسله مثلاً، وأنشد متمثلاً:

«ولا كتب إلا المشرفية والقنى ولا رسل إلا الخميس العرمرم»

ثم أمر بالاستنفار، واستدعاء الجيوش من الأمصار؛ وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه، وجمع العساكر، وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة يريد الأندلس.

وقال ابن أبي زرع: خرج أمير المؤمنين يعقوب المنصور من حضرة مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة يولي السير ويطوي المناهل ولا يلوي على فارس ولا راجل، والجيوش تتابع في أثره من سائر الأقطار، فلما انتهى إلى قصر المجاز أخذ في إجازة الجيوش الواردة عليه، لا يفرغ من طائفة إلا وقد لحقت بها أخرى فأجاز أولاً قبائل العرب، ثم زناتة،ثم المصامدة؛ ثم غمارة؛ ثم المتطوعة من قبائل المغرب، ثم الأغزاز والرماة، ثم الموحدون؛ ثم العبيد؛ ثم أجاز أمير المؤمنين في أثرهم في موكب عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحاؤه؛ واستقر بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة الموفي عشرين من رجب من السنة المذكورة، فأقام بها يوماً واحداً.

ثم نهض إلى العدو قبل أن تخمد قرائح المجاهدين وتضعف نياتهم؛ فسار حتى بقي بينه وبين حصن الأرك الذي كان العدو نازلاً بإزائه نحو مرحلتين، فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة؛ فجمع الناس ذلك اليوم وفاوضهم ووعظهم، ثم اختص أهل الأندلس بمزيد المشورة، وقال لهم: «إن جميع من استشرته وإن كانوا أولي بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه أنتم، لتمرسكم بهم وتمرسهم بكم»، فأحالوه في الرأي على القائد أبي عبد الله بن صناديد، فعول المنصور رحمه الله في ذلك على رأيه.

وقال ابن الخطيب في رقم الحلل: إن أمير المؤمنين المنصور رحمه الله عرض جيشه، وأخذ في تقريب القرب إلى الله تعالى بين يدي جهاده، فسرح السجون؛ وأدر الأرزاق، وعين الصدقات، ورحل فنزل الأرك وقد خيمت بأحوازه محلات العدو يضيق عنها المتسع، وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال: «أيها الناس اغفروا لي فيما عسى أن يكون صدر مني» فبكى الناس وقالوا: «منكم يطلب الرضى والغفران» وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس ومن الغد صدع المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء، فكانت التعبئة تحت الغلس.

وحكى ابن أبي زرع أن المنصور بات تلك الليلة عاكفاً بمصلاه على الركوع والسجود؛ وإنه أغفى إغفاءة فرأى ملكاً نزل من السماء في صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح؛ وأنشده في ذلك أبياتاً بقيت على ذكر المنصور إلى أن استيقظ وقص رؤياه على وجوه الجند، فازداد الناس طمأنينة وبصيرة.

فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس المنصور في قبته الحمراء المعدة للجهاد، ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص وقدمه على ذلك الجيش؛ وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرفت على رأسه الرايات، وقرعت بين يديه الطبول؛ وسار في قبيل هنتاتة وبين يديه القائد ابن صناديد في جيش الأندلس؛ ثم عقد المنصور لجرمون بن رياح على قبائل العرب، ولمنديل بن عبد الرحمٰن المغراوي على قبائل مغراوة؛ ولمحيو بن أبي بكر بن حمامة المريني جد الملوك المرينيين على قبائل بني مرين، ولجابر بن يوسف العبد الوادي على قبائل بني عبد الواد، ولعباس بن عطية التوجيني على قبائل بني توجين، ولتلجين بن علي على قبائل هسكورة وسائر المصامدة، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة، وعقد للفقيه الصالح أبي خزر يخلف بن خزر الأوربي على المتطوعة.

وقال ابن خلدون: إن الذي كان على المتطوعة يومئذٍ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، والكل إلى نظر الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص؛ وبقي المنصور رحمه الله في جيش الموحدين والعبيد، وأمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه إلى جهة العدو.

وكان المنصور قد ضفر مع ابن صناديد من الرأي أن يبقى هو متأخراً في الموحدين والعبيد والجشم على مسافة يخفى بها عن أعين العدو؛ ويقدم الشيخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول في هيئة السلطان فيلقى العدو؛ فإن كانت للمسلمين فهو المطلوب، وإن كانت عليهم كان المنصور ردأً لهم: ثم يستأنف القتال مع العدو وقد انفل حده ولانت شوكته.

فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديد أمامه في فرسان الأندلس وحماتها، فكان الشيخ أبو يحيى إذا أقلع بجيشه عن موضع صباحاً خلفه المنصور فيه بجيشه مساء، حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهي يومئذٍ إلى جنب حصن الأرك ويقال الأركو بزيادة الواو في آخره، قد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذات مهاوٍ وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر، ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه في البسيط ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وعند ابن خلكان أن ذلك كان يوم الخميس؛ قال: واقتفى المنصور في ذلك طريقة أبيه وجده فإنهم أكثر ما كانوا يصافون يوم الخميس ومعظم حركاتهم في صفر، فعبأ الشيخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب؛ وعقد الرايات لأمراء القبائل؛ وأوقف كل قبيلة في مركزها الذي عين لها، فجعل عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة؛ وجعل المتطوعة والأغزاز والرماة في المقدمة وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة.

ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشي في صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر؛ وبينما الناس

على ذلك إذ انفصلت من جيوش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج في الحديد، وكانت هذه الكتيبة هي شوكة ذلك الجيش وحده؛ كان الفنش لعنه الله قد انتخبهم وصلت أقسته عليهم صلاة النصر ورشوهم بماء المعمودية؛ وتحالفوا عند الصلبان أن لا يبرحوا حتى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم؛ فلما برزت هذه الكتيبة نادى منادي الشيخ أبي يحيى: معشر المسلمين اثبتوا في مصافكم؛ وأخلصوا لله تعالى نيتكم، واذكروا الله عز وجل في قلوبكم. وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب، فحض الناس على الصبر وثبتهم، وحملت كتيبة العدو حتى اندقت رماح المسلمين في صدور خيلها أو كادت، ثم تقهقرت قليلاً ثم عاودت الحملة فكانت كالأولى؛ ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتى خالطت صفوف المسلمين، وخلص البعض منها إلى الشيخ أبي يحيى يظنونه المنصور فاستشهد رحمه الله بعد ما أحسن البلاء وقاتل قتالاً شديداً واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمتطوعة وغيرهم، وسمي بنو الشيخ أبي يحيى ببني الشهيد وعرفوا به من يومئذٍ، وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرجال بالرجال وانفرد كل قرن بقرنه؛ وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التي دفعت إلى الشيخ أبي يحيى؛ وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة إلى الربوة التي فيها الفنش وجموعه؛ وكانت على ما قيل تنيف على ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل، فتوغل المسلمون في تلك الأوعار إليهم وخالطوهم بها؛ واشتد القتال واستحر القتل في الكتيبة التي دفعت أولاً وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة فطحنوهم طحناً، وانكسرت شوكة الفنش بهلاكهم إذ كان اعتماده ومعوله عليهم.

وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين المنصور فأعلموه بأن الله تعالى قد فل شوكة العدو وأشرف على الانهزام؛ فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت وبالطبول فقرعت، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير وتسابقوا لقتال العدو وخفقت البنود؛ وزحف أمير المؤمنين نحو المعركة،

فلم يرع الفنش اللعين إلا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والأبواق وأصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الأرض فقال ما هذا؟ فقيل: هذا المنصور قد أقبل في جيشه، وما قاتلك سائر اليوم إلا طلائعه ومقدماته فقذف الله الرعب في قلبه وخشعت نفوس جموعه وزلزت بهم الأرض زلزالها فولوا الأدبار لا يلوون على شيء، وأسعدهم يومئذٍ من وجد في فرسه بقية تنجيه، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون؛ وأحاط بعضهم بحصن الأرك يظنون أن الفنش قد تحصن به، وكان عدو الله قد دخل على باب وخرج على آخر من الناحية الأخرى؛ واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضرموا النيران في أبوابه واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة العدو من الأموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفوت الحصر.

وقال ابن خلدون: «كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذٍ ثلاثة ابن أذفونش وابن الرند والبيبوج، قال: واعتصم فلهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنزلهم المنصور على حكمه حتى فودي بهم عددهم من المسلمين.

وفي القرطاس: أن عدد أسارى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً فمنّ عليهم المنصور وأطلقهم، قال فعز ذلك على جميع الموحدين وسائر المسلمين؛ وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك.

وقال ابن الأثير: «كانت الدائرة يوم الأرك أولاً على المسلمين ثم عادت على الفرنج وانهزموا أقبح هزيمة؛ وكان عدد من قتل من الفرنج أزيد من مائة ألف، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً؛ فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً؛ ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً وقيل ثمانون ألفاً، ومن البغال مائة ألف؛ ومن الحمير أربعمائة ألف».

قال في نفح الطيب: «جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم» قال: «وأما الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم؛ والسيف

بنصف درهم؛ والفرس بخمسة دراهم؛ والحمار بدرهم، وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع» كذا في نفح الطيب.

وفي كامل ابن الأثير: «أن يعقوب المنصور رحمه الله نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح، وأحصى ما حمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس، واستشهد من المسلمين نحو عشرين ألفاً».

ثم تقدم المنصور بجيوشه إلى بلاد الفرنج وأخذ يخرب المدن والقرى، ويفتح الحصون والمعاقل؛ ويقتل ويسبي ويأسر، حتى وصل إلى جبل سليمان؛ ثم ثنى عنانه راجعاً وقد امتلأت أيدي المسلمين من الغنائم، ولم يعارضه من الفرنج معارض، حتى وصل إلى إشبيلية فاستقر بها.

وأما الفنش فإنه لما انهزم وصل إلى طليطلة في أسوأ حال؛ فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه وركب حماراً؛ وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية، فجمع جموعاً عظيمة. وبلغ الخبر بذلك إلى المنصور فبعث إلى بلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأتاه من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم؛ ثم نهض إلى الفنش فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة؛ وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها.

ثم تقدم المنصور إلى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً وقطع أشجارها وشن الغارت على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح ووادي الحجارة ومجريط وجبل سليمان وأفليج وكثير من أحواز طليطلة.

ثم ارتحل عن طليطلة إلى مدينة طلمنكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلة، وسبا النساء والذرية؛ وغنم أموالها؛ وهدم أسوارها، وأضرم النيران في جوانبها؛ وتركها قاعاً صفصفاً.

وثنى عنانه إلى إشبيلية، فدخلها غرة صفر سنة ثلاث وتسعين

وخمسمائة؛ فرفع إليه في القاضي أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه ومعتقده، وكان أحد فلاسفة الإسلام وربما ألفى بعضها بخط يده فحبس، ثم أطلق وأشخص إلى مراكش وبها كانت وفاته رحمه الله.

ثم خرج المنصور من إشبيلة غازياً بلاد ابن أذفونش، فسار حتى احتل بساحة طليطلة، وبغله أن صاحب برشلونة قد أمد ابن أذفونش بعساكره وأنهم جميعاً بحصن مجريط فنهض إليهم، ولما أطل عليهم انفضت جموع ابن أذفونش من قبل القتال، ثم انكفأ المنصور راجعاً إلى إشبيلية.

ثم اجتمع ملوك الفرنج وأرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه وصالحهم على مدة خمس سنين بعد أن كان عازماً على الامتناع مريداً لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم، فأتاه خبر علي بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية وأنه دخل إفريقية وأراد الاستيلاء عليها؛ ففت ذلك في عزمه وصالحهم على المدة التي ذكرنا.

وعقد على إشبيلية للسيد أبي زيد بن الخليفة، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع ابن السيد أبي حفص؛ وعلى المغرب للسيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص؛ ثم عبر البحر إلى المغرب فوصل إلى مراكش في شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

وفي نفح الطيب: أن يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها خرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرق لهن ومنّ عليهن به، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جل؛ وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة. والله تعالى أعلم.

لطيفة: قال الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي رحمه الله في كتاب الفتوحات المكية ما نصه: «ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدو حين

استفحل أمره على الإسلام، فلقيت رجلاً من رجال الله ولا أزكى على الله أحداً؛ وكان من أخص أودائي، فسألني ما تقول في هذا الجيش هل يفتح له وينصر في هذه السنة أم لا؟ فقلت له: ما عندك في ذلك؟ فقال: «إن الله تعالى قد ذكره في كتابه، ووعد نبيه ﷺ بهذا الفتح في هذه السنة، وبشر نبيه ﷺ بذلك في كتابه الذي أنزله عليه؛ وهو قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1] فموضع البشرى فتحاً مبيناً من غير تكرار الألف فإنها لإطلاق الوقوف في تمام الآية؛ فانظر أعدادها بحساب الجمل؛ فنظرت فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ثم جزت إلى الأندلس وقد نصر الله جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رياح والأركو وكركرا وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات. هذا عاينته من الفتح ممن هذه صفته، فأخذت للفاء ثمانين، وللتاء أربعمائة، وللحاء المهملة ثمانية؛ وللألف واحد؛ وللميم أربعين؛ وللباء اثنين؛ ولياء عشرة؛ وللنون خمسين، وأما الألف فقد أخذ عددها؛ وكان المجموع إحدى وتسعين وخمسمائة؛ وهي سنو الهجرة إلى هذه السنة فهذا من الفتح الإلٰهي لهذا الشخص». انتهى.

ذكر ما شيده المنصور رحمه الله من الآثار بالمغرب والأندلس

كان يعقوب المنصور رحمه الله لما عزم على المسير إلى الأندلس بقصد الجهاد أوصى إلى نوابه ووكلائه ببناء قصبة مراكش، والاعتناء بتشييد قصورها. فمن آثاره الباقية بها إلى الآن بابها المعروف بباب أكناور، ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه، وأمرهم ببناء الجامع الأعظم بها المنسوب إليه إلى اليوم وتشييد مناره الماثل به، ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل في الارتفاع وعظم الهيكل. قال ابن سعيد: «طول صومعة الكتبيين بمراكش مائة ذراع وعشر أذرع».

ولما اجتاز المنصور في سفره هذا بأرض سلا أمر أيضاً ببناء مدينة رباط الفتح؛ فأسست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأكمل سورها، وركبت أبوابها؛ وأمر ببناء المسجد الأعظم بطالعة سلا ومدرسة الجوفية منه. قال صاحب الروض المعطار: «كان يعمل في بنائه ونقل حجارته وترابه سبعمائة أسير من أسارى الفرنج في قيودها؛ وأمر ببناء جامع حسان ومناره الأعظم المضروب به المثل في الضخامة وحسن الصنعة؛ قالوا ولم يتم بناؤه.

ولما فرغ المنصور من وقعة الأرك، واحتل بمدينة إشبيلية؛ أخذ في إتمام بناء جامعها الأعظم وتشييد مناره المشاكل للمنارين المتقدمين؛ فهو ثالثة الأثافي بالنسبة لهما، بل قيل إنه ليس في بلاد الإسلام منار أعظم منه؛ وعمل لهذا المنار تفافيح من أملح ما يكون». قال في القرطاس: «بلغت من العظم إلى ما لا يعرف قدره إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله. وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون ربعاً من الحديد؛ وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المذكور المعلم أبو الليث الصقلي، وموهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهباً».

ولما كمل جامع إشبيلية وصلى فيه أمر ببناء حصن البرج على وادي إشبيلية، وقد تقدم لنا في أخبار عبد المؤمن أنه هدم أسوار مدينة فاس؛ وأن حافده المنصور هذا شرع في بنائها ثم أتمها ابنه الناصر من بعده.

ولما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش وجد كل ما أمر به من البناءات قد تم على أكمل حال وأحسنه مثل القصبة والقصور والجامع والصوامع، وأنفق على ذلك كله من أخماس الغنائم؛ وكان قد تغير على الوكلاء والصناع الذين تولوا بناء ذلك، لأنه سعى إليه بأنهم احتجنوا الأموال، وصنعوا للجامع سبعة أبواب على عدد أبواب جهنم؛ فلما دخله المنصور وتطوف به أعجبه؛ فسأل عن عدد أبوابه فقيل إنها سبعة أبواب والثامن هو الذي دخل منه أمير المؤمنين، فقال المنصور عند ذلك: «لا بأس بالغالي إذا قيل حسن».

واتخذ المنصور[1] رحمه الله في جامعه هذا لمصلاه به مقصورة عجيبة كانت مدبرة بحيل هندسية بحيث تنصب إذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها، وتختفي إذا انفصلوا عنها.

حكى الشريف الغرناطي شارح الحازمين عن الكاتب البارع أبي الحسن عبد الملك بن عياش أحد كتاب المنصور قال: «كانت لأبي بكر يحيى بن مجير[2] الشاعر المشهور وفادة على المنصور في كل سنة، فصادف في إحدى وفاداته فراغه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة مراكش، وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله، وكان جميع من بباب المنصور يومئذٍ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعاراً أنشدوه إياها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره؛ ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدته التي أولها:

أعلمتني ألقي عصا التسيار ... في بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طوراً تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالإمام يزورها ... في قومه قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكون الهلالات للأقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها.

قال أبو العباس المقري في نفح الطيب: وقد بطلت حركات هذه

(1) نسب صاحب الحلل الموشية بناء المسجد والمقصورة لعبد المؤمن.

(2) توفي بمراكش سنة 588.

المقصورة الآن، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف؛ والله وارث الأرض ومن عليها.

ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة مدحه بها قوله:

له حلبة الخيل العتاق كأنها نشاوى تهادت تطلب العزف والقصفا
عرائس أغنتها الحجول عن الحلى فلم تبغ خلخالاً ولا التسمت وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب أنه وإن جردوه في ملاءته التقا
وأبلق أعطى الليل نصف إهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا فإذ حازه دلى له الذيل والعرفا
وأشقر مج الراح صرفاً أديمه وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب قضى الأديم مدثر عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خطخط الراهي بمهرق كاتب فجر عليه ذيله وهو ما جفا
تهب على الأعداء منها عواصف ستنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمتري أظبياً ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان في البيداء يألف سربه فربته مهراً وهي تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لأنه إذا ما أردت الجري أعطاكه ضعفا

ومما مدح به المنصور رحمه الله قول بعض شعراء عصره حين طلب منه الفنش الصلح فأجابه إليه:

أهل بان يسعى إليه ويرتجى ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلداً وموشحاً ومختماً ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره وتعطرت منه الرياح تأرجا

ودخل عليه الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر فأنشده:

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

وكانم بكسر النون جنس من السودان؛ وهم بنو عم تكروره؛ وليس

اسمهما للانتساب لأب أو لأم، وإنما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس بها، وكذلك تكرور اسم للأرض التي هم بها فسموا بها؛ والله أعلم.

بقية أخبار المنصور وسيرته

قال ابن أبي زرع: كان المنصور رحمه الله ذا رأي وحزم ودين وسياسة، قال: وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين: «الحمد لله وحده» فجرى عملهم على ذلك. وقد تقدم لنا أن ذلك كان في دولة أبيه فالله أعلم.

وهو واسطة عقد ملوك الموحدين الذي ضخم الدولة وشرفها. وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة، صنع الله عز وجل في أيامه الأمن بالمشرق والمغرب والأندلس، فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء ضبط الثغور، وحصن البلاد، وبنى المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس؛ وبنى الموستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الإنفاق في جميع أعماله، وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم؛ كل على قدر مرتبته؛ وبنى الصوامع والقناطر، وحفر الآبار للماء في البرية واتخذ عليها المنازل من السوس الأقصى إلى سويقة بن مصكوك، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفاً للإسلام وأهله.

وقال ابن خلكان: كان يعقوب المنصور رحمه الله صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو؛ جميل الوجه؛ أفوه؛ أعين. شديد الكحل. ضخم الأعضاء، جوهري الصوت، جزيل الألفاظ. من أصدق الناس لهجة؛ وأحسنهم حديثاً؛ وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمور؛ ولي وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور؛ فلما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين

على تقديمه فقام بالأمر أحسن قيام؛ ورفع راية الجهاد؛ ونصب ميزان العدل؛ وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع؛ ونظر في أمور الدين والورع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين؛ كما أقامها في سائر الناس أجمعين؛ فاستقامت الأحوال في أيامه، وعظمت الفتوحات؛ وكان قد أمر لأول دولته بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في ملكه؛ فأجاب قوم وامتنع آخرون، وكان ملكاً جواداً عادلاً، متمسكاً بالشرع المطهر. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة؛ ويصلي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف؛ ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق.

قال ابن خلكان: وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرها هنا؛ وهي أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن عاشر أبي حفص كان قد تزوج أخت يعقوب المنصور، فأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة؛ فجاءت إلى بيت أخيها يعقوب المنصور؛ فسير الشيخ عبد الواحد في طلبها فامتنعت عليه، فشكى الشيخ عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان؛ فاجتمع القاضي المذكور بأمير المؤمنين يعقوب المنصور، وقال له: «إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله» فسكت عنه المنصور، ومضت أيام؛ ثم إن الشيخ أبا محمد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر المنصور بمراكش وقال له: «أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاؤوني» فاجتمع القاضي بالمنصور وقال له: «يا أمير المؤمنين الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية» فسكت المنصور ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له: «يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني منهم» فاجتمع القاضي بالمنصور، وقال له: «يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله؛ فأما أن تسير إليه أهله، وإما أن تعزلني عن القضاء» فسكت

المنصور وقيل إنه قال له: «يا عبد الله ما هذا إلا جد كبير» ثم استدعى خادماً وأمره سرّاً بأن تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه، فحملت إليه في ذلك اليوم، ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه؛ وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأمره؛ وهذه حسنة تعد له وللقاضي أيضاً فإنه بالغ في إقامة منار الشرع والعدل.

وكان المنصور يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا، أمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية؛ ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس.

قال ابن خلكان: ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق، مثل أبي الخطاب بن دحية وأخيه أبي عمرو؛ ومحيي الدين بن عربي نزيل دمشق وغيرهم؛ وكان يعاقب على ترك الصلوات، ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيراً بليغاً.

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته، حتى إنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو في طاعته وداخل في ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس، وكان محسناً، محباً للعلماء مقرباً للأدباء؛ مصغياً إلى المدح؛ مثيباً عليه، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الإحسان.

وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع وإجادته وقد تقدم لنا ما وقع به على كتاب الفنش.

وحكى ابن الخطيب في رقم الحلل: أن المنصور طلب يوماً من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد، وضبط أمر؛ فعرفه برجلين؛ قال في أحدهما: وهو بحر في علمه؛ وقال في الآخر: وهو بر في دينه، ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرا بين يديه؛ وأكذبا الدعوى؛ فوقع المنصور على رقعة القاضي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ظهر الفساد في البر والبحر، قال ابن الخطيب: وهذا من التوقيع العريق في الإجادة والصنعة.

وكان مجلس المنصور رحمه الله مجلس الفضلاء والأدباء وأرباب المعارف والفنون. حكى أبو الفضل التيفاشي قال: جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب يعقوب المنصور، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد؛ والرئيس الوزير أبي بكر بن زهر بضم الزاي، وكان الأول قرطبيّاً، والثاني إشبيليّاً، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: «ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية».

وهذا الوزير ابن زهر هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية، وزير للمنصور ولأبيه من قبله.

قال ابن خلكان: كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء، نالوا المراتب العلية، وتقدموا عند الملوك؛ ونفذت أوامرهم وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع إلى الأندلس، ومما قاله بمراكش يتشوق إلى ولد له صغير تركه بإشبيلية:

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلف قلبي لديه
نأت عنه داري فيا وحشتي ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته ... فيبكي علي وأبكي عليه

لقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إليّ ومني إليه

قال العلامة الأديب أبو العباس المقري في نفح الطيب: أخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل، الفاسي المولد والنشأة، حكيم حضرة السلطان أبي العباس المنصور بالله السعدي، أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات وسمعها يعقوب المنصور أرسل المهندسين إلى إشبيلية - يعني من غير علم من ابن زهر - وأمرهم أن يحيطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش. ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه؛ وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار؛ ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيوته وحارته، فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام، فقيل له: ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت؛ فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه. «هكذا هكذا وإلا فلا لا».

ومن أطباء المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيل من أهل وادي آش، كان حاذقاً بصناعة الطب والجراحات. ومن أطبائه أيضاً الحفيد بن رشد المتقدم الذكر. ومن كتابه الكاتب البارع أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي النشأة، اليابوري الأصل. والفقيه البارع أبو الفضل بن طاهر من أهل بجاية، ومن الفقهاء الذين كانوا يجالسونه ويسامرونه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد، والفقيه القاضي أبو عبد الله بن الصقر، وغيرهم رحم الله الجميع.

وفاة يعقوب المنصور رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله. فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الأمصار والأقطار، فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس في محل الخلافة وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه في حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه.

وقال ابن خلكان: لما وصل المنصور إلى مراكش - يعني بعد قدومه من الأندلس - أمر باتخاذ الأحواض والروايا وآلات السفر للتوجه إلى بلاد إفريقية، فاجتمع إليه مشايخ الموحدين وقالوا له: يا سيدنا قد طالت غيبتنا بالأندلس؛ فمنا من له خمس سنين وغير ذلك. فتنعم علينا بالمهلة هذا العام وتكون الحركة في أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فأجابهم إلى سؤالهم؛ وانتقل إلى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدة له.

وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحصينه وتحسينه، وبناها على البحر المحيط الذي هناك، وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي، وطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع إلى مراكش.

قال ابن خلكان: وبعد هذا اختلفت الروايات في أمره، فمن الناس من يقول: إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق؛ وهو مستخف لا يعرف ومات خاملاً، ومنهم من يقول: إنه لما رجع إلى مراكش كما ذكرناه توفي في غرة جمادى الأولى، وقيل في ربيع الآخرة في سابع عشرة، وقيل في غرة صفر؛ ولم ينقل شيء من أحواله بعد ذلك إلى حين وفاته. وقيل توفي بمدينة سلا.

قال ابن خلكان: ثم حكى لي جمع كثير بدمشق أن بالقرب من

المجدل ـ البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي ـ قرية يقال لها حمارة، وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية بغرب، قال: وكان أوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به.

قال المقري في نفخ الطيب: هذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب، وسبب هذه المقالة تولع العامة به، فكذبوا في موته؛ وقالوا: إنه ترك الملك وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع مما ليس له أصل، ثم نقل عن الشريف الغرناطي مثل ذلك فانظره.

قال مؤلفه عفا الله عنه: وعندي[1] أن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد، وهب أن أهل المغرب قالوا ذلك تولعاً به فما بال أهل المشرق يتولعون به ويتخذون له المشهد ثم يتفق كبيرهم وصغيرهم على أنه قبر يعقوب ملك المغرب من غير أصل ولا مستند، هذا بعيد في العادة، بل لا بد أن يكون لذلك أصل والله أعلم بحقيقته. نعم، ما تزعمه عامة المغرب في حمة أبي يعقوب التي بقرب مدينة فاس أنها منسوبة ليعقوب المنصور هذا، وأنه رصد لها عفريتين يوقدان عليها إلى الأبد، وأن حرارة مائها بسبب ذلك الإيقاد، وأن الشفاء الذي حصل للمستحمين إنما هو ببركة يعقوب المنصور،

(1) قول المؤلف وعندي أن إنكار ما حكاه ابن خلكان ليس بجيد الخ فيه نظر لا يخفى على من تتبع أحوال معتقدات العامة في عظمائها بعد الموت كالشيعة في أئمتها وغيرهم من الغلاة في التعظيم لذوي الظهور في السياسة والصلاح، فقد ذكر المؤلف نفسه أن أصحاب الروكي لا يصدقون بموته ولا زال البعض من أصحاب الكتاني يعتقد حياته وكم لهذا في التاريخ من نظير زد على ذلك أن كلام مؤرخي المغاربة أولى بالاعتبار في هذا المقام والحق ما قاله الغرناطي في شرح المقصورة بعد كلام طويل وكذب الكافة من العامة بوفاته ولهم في ذلك حكايات يقولونها إلى الآن كلها تخرص وأباطيل اهـ.

وجعلوا له زوجة أو بنتاً اسمها شافية اشتقاقاً من لفظ الشفاء الحاصل بتلك العين كله باطل، وإنما حرارة العين لخاصية أودعها الله في أصلها ومنبعها، وكذا الشفاء الحاصل بها إنما هو بخاصية في ذلك الماء؛ ولعلها ما فيه من الكبريتية؛ فإنا نرى أصحاب الجرب يلتطخون بالكبريت المعالج فيشفون؛ وكم من عين على وجه الأرض في المشرق والمغرب؛ وبلاد المسلمين والكفار على هذه الحالة كما أخبر بذلك غير واحد.

وقال الجوهري في الصحاح الحمة العين الحارة يستشفي بها الأعلاء والمرضى وفي الحديث العالم كالحمة اهـ ومثله في القاموس؛ بل ذكر فيه مدينة تفليس ـ وهي قصبة كرجستان عليها سوران ـ قال وحمامتها تنبع ماء حاراً بغير نار.

وقد ذكر ابن أبي زرع في القرطاس حمة أبي يعقوب هذه، وذكر معها حمتين أخريين فقال: «وبالقرب أيضاً من مدينة فاس على مسيرة أربعة أميال منها حمة عظيمة تعرف بحمة خولان، ماؤها في أشد ما يكون من السخونة؛ وبالقرب أيضاً منها حمة وشنانة وحمة أبي يعقوب وهي من الحمات المشهورة بالمغرب» اهـ. كلامه فقد ذكر أبا يعقوب بلفظ الكنية فهو غير يعقوب المنصور قطعاً، ولعله أبو يعقوب الأشقر الآتي ذكره في أحداث المائة السابعة.

ولنرجع إلى الكلام على وفاة المنصور عند علماء المغرب فنقول: قال ابن الخطيب في رقم الحلل: توفي يعقوب المنصور رحمه الله في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ودفن بمجلس سكناه من مراكش؛ وكذب العامة بموته ولوعاً وتمسكاً به، فادعوا أنه ساح في الأرض اهـ.

وقال ابن أبي زرع: لما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها، الأولى: إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع إني أعلم أنهم أهل فساد. والثانية: بناء

رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر. والثالثة: إطلاقي أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

قلت ما ذكره رحمه الله في رباط الفتح من أنه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه، فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها حرسه الله وحرس سائر أمصار المسلمين من آفاق النقصان وطوارق الحدثان.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول: في سنة أربعين وخمسمائة هدم علي بن عيسى بن ميمون ـ وكان من رؤساء البحر في دولة اللمتونيين ـ صنم قادس، وقادس هذه هي الجزيرة المسماة في لسان العامة اليوم بقالص؛ وكان بها صنم عظيم على صورة رجل وبيده مفتاح يقال إن حكماء اليونان اتخذوه طلسماً هناك، كان من خاصيته أن يمنع هبوب الريح فيما جاوره من البحر المحيط. فكانت السفن لا تجري هناك على ما قيل، فلما ثار ابن ميمون المذكور بالجزيرة المذكورة ظن أن تحت الصنم مالاً فهدمه فلم يجد شيئاً.

وفي السنة المذكورة توفي أبو علي منصور بن إبراهيم المسطاسي دفين آزمور، وكان كبير الشأن من أهل العلم والعمل ومن أشياخ أبي شعيب السارية.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة توفي الإمام الهمام الحافظ البارع أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي. قال ابن خلكان: توفي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، وقيل: في شهر رمضان من السنة المذكورة، ودفن بباب آيلان داخل المدينة، وذلك في دولة عبد المؤمن بن علي.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم، ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو من أهل مدينة فاس؛ وبها توفي أخريات شعبان من السنة المذكورة، وكان فقيهاً زاهداً صوفياً، قال أبو الحسن

المذكور: «اعتكفت على قراءة الإحياء سنة، فجردت المسائل التي تنتقد عليه وعزمت على إحراق الكتاب، فنمت فرأيت قائلاً يقول: جردوه واضربوه حد الفرية؛ فضربت ثمانين سوطاً، فلما استيقظت جعلت أقلب ظهري ووجدت الألم الشديد من ذلك فتبت إلى الله، ثم تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة». وقد تقدم لنا ما اتفق له مع السلطان في جنازة أبي الحكيم بن برجان.

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة توفي الشيخ القدوة أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي الملقب بسارية من أهل مدينة آزمور، وبها توفي يوم الثلاثاء عاشر ربيع الثاني من السنة المذكورة، وكان رضي الله عنه شديد المراقبة والورع والخوف من الله تعالى، وكان إذا وقف في صلاته يطيل القيام، فلذلك لقب بالسارية، ونقلت عنه في الورع والخوف حكايات انظر التشوف.

قال مؤلفه عفا الله عنه كنت زرت ضريح هذا الشيخ سنة ثمانين ومائتين وألف، ومدحته بقصيدة سلكت فيها مسلك الأدباء من النسب وغيره؛ وأنشدتها عند ضريحه فرأيت لها بركة والحمد لله؛ فأحببت أن أذكرها هنا وهي هذه:

لله يا ربع ما هيجت من شجن ... على الفؤاد ومن ضنى على البدن
وقفت فيك ركاباً طالما وقفت ... على القصور على الأطلال والدمن
أيام فيك حسان ما أشبهها ... بالشمس حسناً ولا في اللين بالغصن
وفيك أسد من الملوك عادتها ... بذل النضار وصون البيض والحصن
يحمون منك عراصاً كنت أعهدها ... مأوى السرور فعادت موقف الحزن
عاثت يد الدهر فيهم منذ أزمنة ... كأن بأسهم المحذور لم يكن
قوم عرفت نداهم قبل معرفتي ... نفسي وفاجأني في المهد بالمتن
ومذ ترعرعت لم أعلق بغيرهم ... حتى كأني رضعت الحب في اللبن
قضيت حق الشباب في منازلهم ... أيام عيش لنا أحلى من الوسن

من ظن بالدهر خيراً فهو منخدع … فـوده هـدنـة تبـنـى عـلـى دخـن
لا أنـتـحي منـهلاً إلا شـرفـت بـه … ولا أحـل مكـانـاً لـيس بـالـخشـن
ولا أصاحب من هذا الورى بشراً … إلا حصلت على رزق من الإحن
حتى توهمت أنني جنيت لهم … حرب البسوس وأنني أبو الفتن
وما لذي الفضل من ذنب يلام به … سوى فضيلته في دهره الزمن
فعد يا قلب عن شكوى أضيق بها … ذرعاً فشكواك لي ضرب من الوهن
ولست أحسب هذا الدهر مرعوياً … ولـو تـعـلـقـت منه بابـن ذي يـزن
حلا لقد علقت يدي بمن علقت … أيدي العفاة به في الشام واليمن
بـأعـظـم الـنـاس مـنـزلاً ومـنـزلـة … وأسمح الناس كفاً بالندى الهتن
وأشمخ الناس قدراً في الورى وعلا … وأحكم الناس للفروض والسنن
ذاك الـولـي الـذي كـل الأنـام غـدا … يـتـلـو مـنـاقـبـه فـي الـسـر والـعـلـن
أبو شعيب الذي من بحره انشعبت … جداول اليمن في الأحياء والمدن
بدر غدا في سماء المجد مكتملاً … بـه عـلا ذكـر آزمـور فـي الـوطـن
أرض إذا الضرع المحروم يممها … ألفى بها بدل الأهلين والسكن
أود من أجل ثاويها حجارتها … واجعل الترب لي مسكاً بلا ثمن
كيف لا تطبي قلبي منازل من … به أكون من الأحداث في جنن
مجلي الغياهب مبذول المواهب مقـ … ـفو الـمذهب بـالـجنيد والقرني
بحر الحقيقة والغوث الذي لهجت … به القبـائـل في الـمقـام والـظعـن
ما زال يرقى الذرى من كل صالحة … حتى اكتسى شهرة النيران في القنن
يـا خير من أمه الـعـافي ولاذ بـه … أهل الـجرائم والأوزار والـمحن
إني خدمتك في شعر عنيت به … وليس لولا حلاك الزهر بالحسن
اشكو إليك سقاما أنت مبرئه … ولست أرجو سواك منه ينعشني
وشد أزري فإني كنت معتقداً … إذا بـلـغـتك قـدت الـدهـر بـالـرسـن
وانظر بفضلك من وافك معتفياً … فإن نظرت فكل الخير يشملني
وأعظم السؤل منك النفس تصلحها … وطهر القلب ما لأمراض والدرن
وامنحه نـوراً وتـوفـيقـاً ومعـرفـة … أرى بـهـا عـلـمـي والـبـر فـي قـرن

فجد بما رمت من جداوك يا أملي فبحر جودك عذب ليس بالأجن
سقى ضريحك غيث ما يزال به بستان أنسك وهو مورق الفنن
بجاه أفضل خلق الله كلهم محمد ذي المزايا الغر والمنن
عليه أزكى صلاة الله ما تليت صحف وما نسج القريض ذو لسن
والآل والصحب والأزواج قاطبة ومن قفا نهجهم في كل ما زمن

واعلم أن التعلق بأولياء الله رضي الله عنهم يجب أن يكون مع استحضار أن الله تعالى هو المطلوب على الحقيقة، والفاعل للأشياء كلها؛ لا معبود غيره؛ ولا مرجو سواه، وإنما التمسك بأهل الله لأجل التبرك بهم والاستشفاع بهم إلى الله تعالى، لأنهم أبواب الله والدالون عليه، نفعنا الله بهم وأفاض علينا من مددهم آمين.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة توفي الشيخ الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول ـ صاحب كتاب مطالع الأنوار، الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار للقاضي عياض ـ كان من الأفاضل، وصحب جماعة من علماء الأندلس؛ وتوفي بمدينة فاس يوم الجمعة أول وقت العصر سادس شوال من السنة المذكورة؛ وكان قد صلى الجمعة في الجامع ذلك اليوم، فلما حضرته الوفاة تلى سورة الإخلاص وجعل يكررها بسرعة، ثم تشهد ثلاث مرات وسقط على وجهه ساجداً فوقع ميتاً رحمه الله.

وفي سنة سبعين بعدها توفي الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأنصاري المعروف بالمتيطي، ومتيطية قرية بأحواز الجزيرة الخضراء، وهو الموثق المشهور؛ لازم بمدينة فاس خاله أبا الحجاج المتيطي وبين يديه تعلم عقد الشروط، وله كتاب كبير في الوثائق سماه النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام؛ ثم انتقل إلى سبتة فاستوطنها ولازم مجالس علمائها بالمناظرة والتفقه، ومهر في كتابة الشروط واشتغل بها حتى لم يكن في وقته أقدر منه عليها؛ وكان له في السجلات اليد الطولى، وطبع

عليها حتى كاد طبعه لا يواتيه في سواها بل كان طبعه في ذلك أكثر من فقهه، ثم ولي القضاء بشريش، وأصابه خضر لازمه نحو السنتين؛ ثم توفي مستهل شعبان من السنة المذكورة.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة توفي وحيد عصره، وأعجوبة دهره؛ الولي العارف الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون، قال قوم: إنه من هزميرة إيرجان؛ وقيل من بني صبيح من هسكورة؛ مات وقد نيف على المائة بنحو الثلاثين سنة، ودفن بجبل إيرجان في أوائل شوال من السنة المذكورة. كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه يقول: «رأيت أخبار الصالحين من زمن أويس القرني إلى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى» قال: «ونظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالي» وكان لباس الشيخ أبي يعزى برنساً أسود مرقوعاً إلى أسفل من ركبتيه، وجبة من تليس مطرف، وشاشية من عزف؛ وكان يتعيش من نبات الأرض، ولا يشارك الناس في معايشهم؛ وكان طويلاً رقيقاً أسود اللون، وكان إذا جنه الليل دخل غيضة كثيرة السباع يتعبد فيها، فإذا قرب الفجر أعلم أصحابه به؛ وأحواله رضي الله عنه وكراماته كثيرة.

وفي سنة ثلاث وسبعين بعدها توفي الشيخ العارف أبو الحسن علي بن خلف بن غالب القرشي دفين قصر كتامة، نشأ بشلب من بلاد الأندلس وقرأ بقرطبة؛ واستقر آخراً بقصر كتامة وبه توفي في السنة المذكورة، وقيل إن وفاته كانت سنة ثمان وستين قبل هذا التاريخ والله أعلم. وكان رضي الله عنه متمكناً في علوم القوم؛ وكان الأولياء يحضرون مجلسه، وهو من تلامذة أبي العباس بن العريف المتقدم الذكر.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة توفي الشيخ أبو عبد الله التاودي العلم من أهل مدينة فاس، ومن أصحاب الشيخ أبي يعزى؛ وكان يعلم الصبيان فيأخذ الأجر من أولاد الأغنياء فيرده على أولاد الفقراء، ومات بفاس في السنة المذكورة. وهذه النسبة إلى بني تاودي وهي قبيلة بقرب فاس.

وفي سنة إحدى وثمانين بعدها توفي الإمام المشهور أبو زيد عبد الرحمٰن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن أحمد السهيلي الخثعمي صاحب كتاب الروض الأنف وغيره من التآليف الحسان، وصاحب الأبيات المشهورة في الدعاء وهي:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن	أمنن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة	فبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة	فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشى لجودك أن تقنط عاصياً	الفضل أجزل والمواهب أوسع

كان ببلدته سهيل وهي قرية بالقرب من مالقة يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف، حتى نمى خبره إلى السلطان بمراكش فطلبه إليها وأحسن إليه؛ وأقبل بوجهه غاية الإقبال عليه، فأقام بها نحو ثلاث سنين؛ ثم توفي بها يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من السنة المذكورة، ودفن وقت الظهر خارج باب الرب أحد أبواب مراكش؛ وكان رحمه الله ضريراً نفعنا الله تعالى به.

وفي سنة تسعين وخمسمائة توفي ولي الله تعالى أبو محمد عبد الحليم بن عبد الله المراسي المعروف بالغماد من صلحاء سلا، كان رحمه الله عبداً صالحاً؛ يدور على المكاتب؛ ويستوهب الدعاء من الصبيان، ويبكي على نفسه؛ وله كرامات، وتوفي ببلده المذكور؛ وقبره معروف ملاصق للمسجد الأعظم قرب بابه الكبير من جهة القبلة.

وفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفي الشيخ أبو يعقوب يوسف بن علي المبتلى. المعدود في سبعة رجال من صلحاء مراكش؛ كان رضي الله

عنه كبير الشأن، فاضلاً صابراً راضياً على ربه فيما ابتلاه به من داء الجذم؛ سقط بعض جسده ذات يوم، فصنع طعاماً كثيراً للفقراء شكراً لله تعالى على ذلك؛ وكان يسكن بحارة الجذمي العتيقة قبلي مراكش، وبها مات في شهر رجب من السنة المذكورة، ودفن خارج باب أغمات عند رابطة الغار، واحتفل الناس لجنازته رضي الله عنه.

وفي سنة أربع وتسعين بعدها توفي الشيخ العارف بالله تعالى، أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري؛ الولي الكبير المشهور، أصله من حصن قطنيانة من عمل إشبيلية، ثم انتقل إلى العدوة فأخذ عن الشيخ أبي الحسن بن حرزهم؛ وعن الشيخ أبي يعزى وبه انتفع وعليه تخرج، وكان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه من العارفين الراسخين، قد خاض من الأحوال بحاراً؛ ومن المعارف أسراراً؛ وجال في حداثة سنه في بلاد المغرب من سبتة ومراكش وفاس، ولازم بفاس الشيخ ابن حرزهم كما قلنا؛ ثم سمع بخبر الشيخ أبي يعزى فقصده وأخذ عنه وظهرت عليه بركته.

قال الشيخ أبو مدين: «لما قدمت فاساً لقيت بها الأشياخ، فسمعت رعاية المحاسبي على أبي الحسن بن حرزهم، وكتاب السنن للترمذي على أبي الحسن بن غالب؛ وأخذت طريقة التصوف على أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن السلاوي» قال: «وكنت أزور الشيخ أبي يعزى مراراً فقال لي جماعة من الفقهاء المجاورين لأبي يعزى قد ثبتت عندنا ولاية أبي يعزى؛ ولكنا نشاهده يلمس بطون النساء وصدورهن ويتفل عليهن فيبرأن ونحن نرى أن لمسهن حرام؛ فإن تكلمنا في هذا هلكنا، وإن سكتنا حرنا»، فقلت لهم: «أرأيتم لو أن ابنة أحدكم أو أخته أصابها داء لا يطلع عليه إلا الزوج، ولم يوجد من يعانيه إلا طبيب يهودي أو نصراني؛ ألستم تجيزون ذلك مع أن دواءه مظنون؛ ودواء أبي يعزى أنتم على يقين منه؟» فبلغ كلامي أبي يعزى فاستحسنه.

قال محمد بن إبراهيم الأنصاري: «خرّج الشيخ أبو مدين ألف تلميذ؛ وجاءه رجل ليعترض عليه فجلس في الحلقة فقال له أبو مدين: «لم جئت؟» قال: «لأقتبس من نورك» فقال له: «ما الذي في كمك؟ فقال له: «مصحف» فقال له: «افتحه واقرأ أول سطر يخرج لك» ففعل، فخرج له قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:92] فقال له أبو مدين: «أما يكفيك هذا؟» فاعترف الرجل وتاب. وكراماته رضي الله عنه كثيرة.

وكان استوطن في آخر عمره بجاية؛ وكثر عليه الناس، وظهرت على يده كرامات فوشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور؛ وقال له: «إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبهاً بالإمام المهدي؛ وأتباعه كثيرون بكل بلد» فوقع منه ذلك، فكتب لصاحب بجاية يبعثه إليه وأوصاه بالاعتناء به، وأن يحمله إليه خير محمل ففعل.

ولما كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه بالطريق مرض مرض موته، فلما وصل وادي يسر قرب تلمسان اشتد به مرضه فنزلوا به هنالك فكان آخر كلامه: الله الحق؛ فتوفي ودفن برابطة العباد قرب تلمسان. وسمع أهل تلمسان بجنازته فحضروها، وكانت من المشاهد العظيمة.

وفي سنة خمس وتسعين وخمسمائة: توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي صاحب كتاب الهداية، أقام نحو أربعين سنة لم تفته صلاة في جماعة إلا يوماً واحداً لعذر عاقه عن ذلك؛ دخل مدينة فاس ومعه نحو من أربعين ألفاً من المال، فما زال ينفقها في سبيل الخير حتى لم يبق له إلا دار سكناه فباعها من بعض أهل فاس وأعمره المشتري لها، فلما خرجت منها جنازته حازها المشتري المذكور؛ وكانت وفاته يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

واعلم أنا قد قدمنا أن الشيخ أبا مدين كان تلميذاً للشيخ أبي يعزى، وكان الشيخ أبو يعزى تلميذاً للشيخ أبي شعيب السارية؛ وكان الشيخ أبو

شعيب تلميذاً للشيخ أبي ينور الدكالي نفعنا الله بجميعهم وأفاض علينا من مددهم آمين.

ولنرجع إلى أخبار الدولة الموحدية فنقول:

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله

بويع لأبي عبد الله محمد الناصر لدين الله في حياة والده يعقوب المنصور، ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وهو اليوم الذي توفي فيه أبوه، فأقام بمراكش بقية ربيع الأول وربيع الثاني؛ ثم نهض في فاتح جمادى الأولى إلى فاس؛ فأقام بها بقية السنة المذكورة.

ثم غزا جبال غمارة من أجل علودان الغماري الثائر بها ففتحها، ثم رجع إلى فاس فأتم بناء سورها الذي كان خربه عبد المؤمن وبنى قصبتها ورتب أمورها، وأقام بها إلى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة؛ فعاد إلى مراكش وأقام بها إلى أن كان ما نذكره.

غزو الناصر بلاد إفريقية وولاية الشيخ أبي محمد بن أبي حفص عليها والسبب في ذلك

لما هلك المنصور رحمه الله قوي أمر يحيى بن إسحاق ـ المعروف بابن غانية بإفريقية ـ واستولى على أعمال قراقوش الغزي صاحب طرابلس وعلى المهدية، وتغلب على بلاد الجريد؛ ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وخمسمائة. وافتتحها عنوة لأربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة، وقبض على السيد أبي زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين؛

وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق. وبسط عليهم العذاب حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم. ثم دخل في دعوته أهل القيروان وغيرها من البلاد، وانتظمت له أعمال إفريقية؛ وفرق العمال؛ وخطب للخليفة العباسي.

واتصل بالناصر وهو بمراكش هذا كله فامتعض لذلك، وشاور الموحدين في أمر إفريقية؛ فأشاروا عليه بمسالمة ابن غانية، وأشار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها، فعمل على رأيه؛ ونهض إليها سنة ستمائة وبعث الأسطول في البحر لنظر يحيى بن أبي زكريا الهزرجي.

واتصل ذلك بابن غانية فبعث ذخائره وحرمه إلى المهدية مع علي بن الغاني من قرابته وولاه عليها.

ولما قرب الناصر من إفريقية خرج ابن غانية من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة، واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهائن على المظاهرة والدفاع؛ وسار إلى حامة مطماطة؛ ثم إلى جبل بني دمر فتحصن به.

ووصل الناصر إلى تونس، ثم سار في اتباع ابن غانية إلى قفصة ثم إلى قابس، ثم عاد إلى المهدية فعسكر عليها، واتخذ الآلة لحصارها؛ وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة اثنتين وستمائة، فلقيه بجبل تاجورة من نواحي قابس وأوقع به؛ وقتل أخاه جبارة بن إسحاق؛ واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله.

وأما الناصر فإنه استمر محاصراً للمهدية وبها يومئذٍ علي بن الغاني، وكان يدعى بالحاج، وكان شهماً محارباً فامتنع على الناصر وأبدى من مكايد الحرب وخداعه ما يقصر عنه الوصف، وأشجى الموحدين وبالغ في نكايتهم؛ فكانوا يسمونه الحاج الكافر. ثم نزل على الأمان وأحسن إليه الناصر إحساناً تاماً، وسماه بالحاج الكافي بالياء بدل الراء لما رأى من مراعاة

لصاحبه وحسن عهده معه. واستشهد الحاج الكافي هذا في وقعة العقاب الآتية:

وكان فتح المهدية في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وستمائة، وولى الناصر عليها محمد بن يغمور الهرغي؛ وارتحل عنها في عشرين من جمادى الثانية؛ فدخل تونس غرة رجب وأقام بها بقية السنة وأكثر الذي بعدها.

ولما كان رمضان من سنة ثلاث وستمائة أشاع الناصر الحركة إلى المغرب، واستخلف على إفريقية ثقته ووزيره الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص الهنتاتي جد الملوك الحفصيين بعد مراجعة وامتناع.

قال ابن خلدون: امتنع الشيخ أبو محمد إلى أن بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف فأكبر مجيئه وأذعن، ويقال إن الناصر قال له: «يا أبا محمد أنت تعلم ما تجشمناه من المشاق والصوائر في استنقاذ هذا القطر، ولا آمن عليه من عدو متوثب، ولا يقوم بحمايته إلا أنا أو أنت. فامض إلى حفظ ممالكنا المغربية وأقيم أنا، أو قم أنت وأرجع أنا». فقنعه الحياء حينئذٍ وأذعن للإقامة، واشترط شروطه المعروفة؛ وهي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال ثم يعود إلى وطنه، وأن يحكمه الناصر فيمن يحبسه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل؛ فقبل الناصر شروطه.

ولما عزم الناصر على النهوض إلى المغرب خرج إليه أهل تونس رافعي أصواتهم بين يديه إشفاقاً من عود ابن غانية إليهم، فاستدعى وجوههم وكلمهم بنفسه؛ وقال: إنا قد اخترنا لكم من يقوم مقامنا فيكم وآثرناكم به على شدة حاجتنا إليه وهو فلان، فتباشر الناس بولايته. وشيع الناصر إلى باجة ورجع والياً على جميع بلاد إفريقية، واستقل بأمرها ونهيها.

فمن هنا ورثت الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية، وقفل الناصر

إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع سنة أربع وستمائة. ولما استقر بالحضرة وفدت عليه الوفود. وهنأته الشعراء بالفتح. فكان من ذلك ما أنشده ابن مرج الكحل وهو قوله:

ولما توالى الفتح من كل وجهة ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده
تركنا أمير المؤمنين لشكره بما أودع السر الإلهي عنده
فلا نعمة إلا تؤدى حقوقها علامته بالحمد لله وحده

فاستحسن الكتاب منه ذلك ووقع أحسن موقع، وأشار بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين؛ فإنها كانت أن يكتب السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور: الحمد لله وحده، وقد تقدم ذلك والله أعلم.

فتح جزيرة ميورقة

كانت جزيرة ميورقة لبني غانية المسوفيين من عهد علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، وكان يعقوب المنصور قد بعث إليها أسطوله مراراً فامتنعت عليه، ولما ولي ابنه الناصر وغزا إفريقية وجه إليها من ثغر الجزائر أسطولاً مع عمه السيد أبي العلاء؛ والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوها ثم اقتحموها عنوة، وقتلوا صاحبها عبد الله بن إسحاق المسوفي.

وانصرف السيد إلى مراكش بعد أن ولي عليها عبد الله بن طاع الله الكومي، ووفد أهلها على الناصر فأكرم وفادتهم. وولي القضاء عليهم الفقيه الجليل المحدث أبا محمد عبد الله بن سليمان الأنصاري المعروف بابن حوط الله، ذكره ابن الخطيب في الإحاطة فقال: «كان مشهوراً بالعقل والفضل، معظماً عند الملوك معلوم القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية مقدماً في ذلك، ذا بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة فتظاهر بالعدل،

وعرف بما أبطن من الدين والفضل، وكان من العلماء العاملين. مجانباً لأهل البدع والأهواء، بارع الخط؛ حسن التقييد إلى غير ذلك.

ثم ولى الناصر على ميورقة عمه السيد أبا زيد؛ وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعد السيد أبي زيد وليها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن، ثم أبو يحيى بن علي بن أبي عمران التينمللي؛ ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة وكان الحادث بها عظيماً.

ثورة ابن الفرس وما كان من أمره

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمٰن بن الفرس من طبقة العلماء بالأندلس، ويعرف بالمهر، وحضر مجلس يعقوب المنصور في بعض الأيام وتكلم بما خشي عاقبته في عقده، فخرج من المجلس واختفى مدة؛ ثم القحطاني المراد بقوله ﷺ لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه يملأها عدلاً كما ملئت جوراً الحديث. وكان مما نسب إليه من الشعر قوله:

قولا لأبناء المؤمن بن علي ... تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعالمها ... ومنتهى القول والغلاب للدول
والناس طوع عصاه وهو سائقهم ... بالأمر والنهي بحر العلم والعمل
وبادروا أمره فالله ناصره ... والله خادع أهل الزيغ والميل

فبعث الناصر إليه الجيوش فهزموه، وقتل وسيق رأسه إلى مراكش فنصب بها وسكنت الفتنة.

وقد ثار أيضاً في سنة ستمائة رجل من آل البيت من العبيديين واسمه محمد بن عبد الله بن العاضد ـ وهذا العاضد هو آخر خلفاء الشيعة بمصر ـ فثار حافده محمد بن عبد الله المذكور بجبال ورغة من أحواز فاس؛ فظفر به

وقتل وعلق رأسه بباب الشريعة أحد أبواب فاس، وأحرق جسده في وسط الباب المذكور، وركبت مصارعه فسمي الباب باب المحروق بعد أن كان يسمى باب الشريعة.

ثم في سنة عشر وستمائة ثار ولد هذا المحروق بجبال غمارة وادعى أنه الفاطمي؛ وتبعه خلق كثير من أهل الجبل والبادية، فبعث إليه الناصر جيشاً فظفر به وقتل.

وفي سنة إحدى وستمائة بنى عامل الريف من قبل الناصر - واسمه يعيش - سور بادس ولمديه ومليلية حياطة وتحصيناً من فجأة العدو.

وفي سنة أربع وستمائة أمر الناصر بتجديد سور مدينة وجدة وإصلاحها، فشرع في ذلك في فاتح رجب من السنة المذكورة.

وفيها أيضاً أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بإزاء جامع الأندلس بفاس، فبنيت وجلب إليها الماء من العين التي خارج باب الحديد؛ وأمر ببناء الباب الكبير المدرج الذي بحصن الجامع المذكور وأنفق في ذلك كله من بيت المال.

وفيها أيضاً أمر ببناء مصلى القرويين، وأمر أن لا يصلى بمصلى الأندلس؛ فأقام الناس يصلون بعدوة القرويين ثلاث سنين ثم عادوا يصلون بالأندلس والقرويين معاً، كما كانوا أولاً بعد أن شهد أنها قديمة.

وفي شوال من السنة المذكورة نهض الناصر من فاس إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان ما نذكره.

غزوة العقاب التي محص الله فيها المسلمين

ثم اتصلت الأخبار بالناصر وهو بمراكش أن الفنش لعنه الله قد استطال على ثغور المسلمين بالأندلس، وأنه يغير على قراها وينهب الأموال ويسبي النساء والذرية؛ فأهمه ذلك وأقلقه وكتب إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقية يستشيره في الغزو؛ فأبى عليه فخالفه وأخذ في الحركة للجهاد.

وكان الناصر معجباً برأيه، مستبداً بأموره؛ ففرق الأموال على القواد والأجناد؛ وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار، وتسارع الناس إليه خفافاً وثقالاً من البوادي والأمصار.

فلما تكاملت لديه الحشود وتوافت بحضرته الجنود خرج من مراكش في تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة؛ فانتهى إلى قصر المجاز فأقام به وشرع في إجازة الجيوش من أوائل شوال إلى أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة، فتلقاه هنالك قواد الأندلس وفقهاؤها ورؤساؤها؛ وأقام بطريف ثلاثاً، ثم نهض إلى إشبيلية في أمم لا تحصى - وجيوش لا تستقصى قد ملأت السهل والوعر.

حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنه اجتمع مع الناصر في هذه الغزوة من أهل المغرب والأندلس ستمائة ألف مقاتل، وكان الناصر رحمه الله قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده؛ وأيقن بالظفر فقسم الناس على خمس فرق، فجعل العرب فرقة؛ وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة؛ وجعل المتطوعة فرقة، وجعل جند الأندلس فرقة؛ والموحدين فرقة؛ وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية، واهتزت جميع بلاد

الفرنج لجوازه، وتمكن رعبه في قلوبهم، فأخذوا في تحصين بلادهم وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم. وكتب إليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو، ووفد عليه منهم ملك ينبلونة مستسلماً خاضعاً طالباً للصلح؛ فيقال إنه قدم بين يديه كتاب النبي ﷺ الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به؛ وقد كان هذا الكتاب وقع إليه وراثة من بعض سلفه، فاحتفل الناصر لقدومه؛ وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة إلى باب إشبيلية أربعين ميلاً، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين؛ وصرفه إلى بلاده مكرماً مسعفاً بجميع مطالبه.

وعند ابن خلدون أن الذي وفد على الناصر في هذه الغزوة هو البيبوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الأرك؛ قال: وهو الذي مكر بالناصر يوم العقاب، قدم عليه وأظهر له التنصح وبذل له أموالاً؛ ثم غدر به وجر عليه الهزيمة والله أعلم.

ثم خرج الناصر من إشبيلية غازياً بلاد قشتالة في أوائل صفر سنة ثمان وستمائة، فسار حتى نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع على قمة جبل، وقد تعلق بأكناف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد في مضائق وأوعار؛ فنزل عليه لناصر وأدار به الجيوش، ونصب عليه أربعين منجنيقاً فهتك أرباضه؛ ولم يقدر منه على شيء.

قالوا: وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر، فأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه، وانفرد هو به فكان يشير على الناصر في غزوته هذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن، وجلبت الكرة على المسلمين من ذلك أن الناصر لما أعياه أمر الحصن عزم على النهوض عنه إلى غيره؛ فأشار عليه ابن جامع بأن لا يتجاوزه حتى يفتحه، فيقال إنه أقام على ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس؛ وقلت علوفاتهم؛ وكلت عزائمهم، وفسدت نياتهم؛ وانقطعت الأمداد عن

المحلة فغلت بها الأسعار، ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر، ويقال إنه من طول مقام الناصر على ذلك الحصن عشش الخطاف في جانب خبائه وباض وأفرخ وطارت فراخه وهو مقيم على حاله.

واتصل بالفنش لعنه الله ما آل إليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأي، فاغتنم الفرصة وبعث الحاشرين في مدائنه ودعا كل من قدر على حمل السلاح من رعيته، فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له.

ثم خالف الناصر إلى قلعة رياح فنازلها، وبها يومئذٍ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الأندلس وزعمائها، كان قد ترتب في ذلك الحصن في جماعة من الخيل لحمايته وضبطه، فحاصره الفنش وبالغ في التضييق عليه؛ فكان ابن قادس يكتب لأمير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمده على عدوه، وهو على حصن سلبطرة؛ فكان الوزير ابن جامع إذا وصلت إليه كتب ابن قادس أخفاها عن الناصر لئلا يرحل عن الحصن قبل فتحه، فلما طال الحصار على ابن قادس وفنى ما عنده من الأقوات والسلاح ويئس من إمداد الناصر إياه وخشي على من في الحصن من النساء والذرية صالح الفنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم، ففعل؛ واستولى الفنش على قلعة رباح.

وسار ابن قادس إلى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالأمر على وجهه؛ وسار معه صهر له بعد أن عزم ابن قادس عليه أن يرجع فأبى، وقال: إن قتلت قتلت معك! ولما وصل إلى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه، ثم دخل على الناصر فقال له: إن ابن قادس قد دفع الحصن إلى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك.

وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الأندلس، واتهمهم بكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش؛ فلما قدم ابن قادس في هذه المرة وقال له ابن

جامع ما قال أمر بقتله هو وصهره قطعاً بالرماح رحمهما الله.

فحقدت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر، وأحس ابن جامع بذلك فأمر بإحضار قوادهم فحضروا بين يديه، فقال اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47]. وسننظر بعد هذا في أمر كل فاجر.

ولما علم الناصر بحال الفنش وما هو عليه من القوة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رياح التي هي أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه؛ وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد، ثم شدد في قتال سلبطرة وبذل الأموال الجليلة حتى فتحها صلحاً وذلك في أواخر ذي الحجة من سنة ثمان وستمائة، ثم زحف الفنش إلى الناصر ونهض الناصر إليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان، فضرب المصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة، وقعد أمامها على درقته وفرسه قائم بإزائه؛ ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم السلاح التام ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع؛ وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر، فتقدمت إليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائة وستين ألفاً، فغابوا في صفوفهم وانطبقت عليهم الفرنج فاقتتلوا قتالاً شديداً فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم لم يحرك إليهم منهم أحد.

ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة. فلما انتشب القتال بين الفريقين فرقت قواد الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع في قتل ابن قادس أولاً ـ، وتهديدهم وطرده لهم ثانياً، فجروا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب، وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التي دارت عليه من العبيد

والحشم، فألفوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شيء؛ ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهي مشرعة إليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول: «صدق الرحمٰن وكذب الشيطان» حتى كانت الفرنج تصل إليه، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف؛ ثم أقبل إليه بعض فرسان العرب على فرس له أنثى فقال له: إلى متى قعودك يا أمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفنى المسلمون؟ فعند ذلك قام الناصر إلى جواد له سابق كان أمامه فأراد أن يركبه فترجل العربي عن فرسه وقال له: اركب هذه الحرة فإنها لا ترضى بعار، فلعل الله ينجيك عليها فإن في سلامتك الخير كله. فركبها الناصر، وركب العربي جواده، وتقدم أمامه في كوكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم، والفرنج في أعقابهم تقتلهم ونادى منادي الفنش يومئذٍ: ألا لا أسر إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره؛ فحكمت سيوف الفرنج في المسلمين إلى الليل.

وكانت هذه الرزية العظيمة يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة تسع وستمائة. فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذٍ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج إلى أن تدارك الله رمق الأندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني رحمه الله كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول إليه إن شاء الله.

قال ابن الخطيب: لما لحق الناصر بإشبيلية حمل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت إليهم الظنة. وقال ابن خلدون: ثم رجعت الفرنج إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من إشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك.

وفاة الناصر رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما قدم الناصر إلى مراكش منصرفاً من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر، فبايعه كافة الموحدين؛ وخطب له على جميع منابر المغرب والأندلس في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة تسع وستمائة.

ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره واحتجب فيه عن الناس وانغمس في لذاته مصطبحاً ومغتبقاً إلى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسموماً بتدبير وزرائه عليه في ذلك، قال: وكانت وفاته يوم الأربعاء الحادي عشر من شعبان المذكور.

وقال ابن خلكان: تقول المغاربة إن الناصر رحمه الله كان قد أوصى إلى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهم، ثم أراد أن يختبر قدر أمره عندهم فتنكر وجعل يمشي في البستان ليلاً فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرماحهم، فجعل يقول: أنا الخليفة أنا الخليفة؛ فما تحققوه حتى فرغوا منه والله أعلم بصحة ذلك.

قلت: الصحيح في وفاة الناصر ما ذكره الوزير ابن الخطيب في رقم الحلل قال: «ثم صرف الناصر وجهه إلى غزو الأندلس في عزم لم يبلغ إليه ملك قبله، ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفي ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة فانحل العزم وتفرقت الجموع[1] والبقاء له وحده.

---

(1) وذكر صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب وهو أبو محمد عبد الواحد المراكشي أنه اختلف في سبب وفاته وأصلح ما بلغه في ذلك أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك وتوفي يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة 610 ودفن يوم الخميس، صلى عليه خاصة الحشم اهـ.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين يوسف المنتصر بالله ابن الناصر بن المنصور رحمه الله

لما هلك محمد الناصر لدين الله بويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة، ولقب بالمنتصر بالله؛ وغلب عليه الوزير أبو سعيد بن جامع ومشيخة الموحدين، فقاموا بأمره؛ واستبدوا عليه؛ وتأخرت بيعة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من إفريقية لصغر سن المنتصر، ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته حينئذٍ، واشتغل المنتصر عن تدبير الأمر والجهاد بما يقتضيه الشباب.

وعقد للسادات على عمالات ملكه؛ فعقد للسيد أبي إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ـ ويلقب بالظاهر ـ على فاس وأعمالها، وهو أخو المنصور ووالد عمر المرتضى الآتي ذكره. وعقد لعمه السيد أبي إسحاق بن المنصور على إشبيلية وما أضيف إليها، ولعمه أبي عبد الله محمد بن المنصور على بلنسية وشاطبة وأعمالها؛ ولعمه أبي محمد عبد الله بن المنصور على مرسية ودانية وأعمالها. وبعث معه الشيخ أبا زيد بن يرجان وكان من أشياخ الموحدين ودهاتهم.

وفي دولة المنتصر هذا فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم، وأشرفت دولتهم على الهرم؛ واستولى الفنش على المعاقل التي أخذها المسلمون؛ وهزم حامية الأندلس في كل جهة؛ واستبدت السادة بالأطراف، والتاثت الأمور بالأندلس والمغرب أجمع. أما الأندلس فبتكالب العدو عليها وفناء حماتها؛ وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب.

ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة؛ وكانوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها، فاقتحموا المغرب في هذه السنين لخلائه

من الحامية، واكتسحوا بسائطه بالغارات؛ وانحازت رعاياه إلى المعاقل والحصون؛ وكثرت الشكايات بهم إلى المنتصر؛ وهو مقيم بمراكش فكتب إلى السيد أبي إبراهيم صاحب فاس يأمره بغزوهم، فخرج إليهم وهو ببلاد الريف؛ فأوقعوا به وقعة شنعاء كانت باكورة فتحهم، وعاد السيد مفلولاً إلى فاس؛ وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة؛ فسميت السنة سنة المشعلة، وكانوا قد أسروا السيد أبا إبراهيم ثم عرفوه فأطلقوه. ثم صمدت بنو مرين بعدها إلى تازا ففلوا حاميتها؛ وعظمت شوكتهم بالمغرب على ما نذكره بعد إن شاء الله.

وفي سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبي دانس من الأندلس، وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب؛ لأن العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره، فخرج إليه جيش إشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الأندلس لاستنقاذ قصر أبي دانس؛ وكان ذلك بأمر المنتصر، فساروا يؤمون العدو؛ فلم تقع عينهم على عينه إلا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الأدبار لما كان قد رسخ في نفوسهم من بأسه يوم العقاب، فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهان عليه أمرهم، وخشعت نفوسهم له. ولما فروا منه في هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم، ورجع الفنش إلى قصر أبي دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين.

وفي سنة ثمان عشرة وستمائة توفي صاحب إفريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص؛ فبايع الموحدون بإفريقية ابنه أبا زيد عبد الرحمٰن، فقام بالأمر وأطفأ النائرة؛ وأفاض العطاء ومهد النواحي ورتب الأمور حتى ورد كتاب المنتصر من مراكش لثلاثة أشهر من ولايته بتأخيره وتولية السيد أبي العلاء الأكبر مكانه، وهو إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن. فقدم إفريقية في ذي القعدة سنة ثمان عشرة وستمائة، ووالى

الهزائم على ابن غانية الثائر بإفريقية حتى شرد إلى الصحراء، وأبو العلاء هذا هو الذي بنى البرجين اللذين على باب المهدية وحصنها، وهو الذي بنى برج الذهب بإشبيلية أيام ولايته عليها في دولة أبيه، وأقام أبو العلاء بإفريقية إلى أن توفي بتونس منها في شعبان سنة عشرين وستمائة.

واستولى على إفريقية بعده ابنه أبو زيد بن إدريس؛ وساءت سيرته في الناس، وأقام على ذلك إلى دولة العادل عبد الله بن المنصور صاحب مراكش فعزله وولى مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص.

ثم غلب عليه أخوه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، وتداول ملك إفريقية بنوه من بعده؛ واستبدوا بها واقتطعوها عن نظر بني عبد المؤمن أصحاب مراكش، فلم تعد إليهم بعد.

وأما يوسف المنتصر فإنه استمر مقيماً بمراكش على لذاته إلى أن توفي، وكان من خبر وفاته أنه كان مولعاً باتخاذ الحيوان واستنتاجه؛ فكان يؤتى إليه بأصناف البقر من الأندلس فيرسلها في بستانه الكبير من حضرة مراكش، ويحمل بعضها على بعض للتناسل؛ فخرج ذات يوم للتطوف على تلك البقر والنظر إليها، فتوسط قطيعاً منها وقد ركب فنشيا فأنكرته بقرة شرود كانت في ذلك القطيع فطعنته في صدره طعنة أتت عليه من حينه، وذلك في عشي يوم السبت الثاني عشرة من ذي الحجة سنة عشرين وستمائة ولم يخلف إلا حملاً من جارية له.

قال ابن خلكان: لم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهاً من المنتصر ولا أبلغ في المخاطبة، إلا أنه كان مشغوفاً براحته؛ فلم يبرح عن حضرته فضعفت الدولة في أيامه والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما هلك المنتصر في التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد بن يوسف وهو أخو المنصور.

قال ابن أبي زرع: بايعوه على كره منه بقبة المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذٍ في سن الشيخوخة، وكان عالماً فاضلاً متورعاً؛ فاستقام له الأمر نحو شهرين، وخطب له في جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسية؛ فإن ابن أخيه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان والياً عليها، وكان وزيره بها الشيخ أبا زيد بن يرجان المعروف بالأصفر؛ وكان من دهاة الموحدين، وكان المنصور رحمه الله إذا رآه يستعيذ بالله من شره؛ ويقول: ماذا يجري على يديك من الفتن يا أصفر؛ وكان من خبره أنه لما بويع المخلوع أمر بإطلاق ابن يرجان لأنه كان محبوساً على ما عند ابن خلدون، فأطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك، وأنفذ أخاه أبا إسحاق في الأسطول ليغربه إلى ميورقة، فلاذ ابن يرجان حينئذٍ بعبد الله بن المنصور صاحب مرسية، ونزل منه منزلة الوزير وأغراه بالتوثب على الأمر، وشهد له أنه سمع من المنصور رحمه الله العهد له بالخلافة من بعد الناصر. وقال له فيما قال: إنك أحق بالخلافة من عبد الواحد، أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر، ولك الرأي وحسن السياسة والحزم. ولو دعوت الموحدين إلى بيعتك لم يختلف عليك اثنان.

وكان الناس على كره من ابن جامع وولاة الأندلس يومئذٍ كلهم بنو المنصور، فأصغى إليه عبد الله هذا؛ وكان متردداً في بيعة عمه؛ فبرز إلى مجلس حكمه؛ واستدعى من بمرسية وأعمالها من الموحدين والفقهاء والأشياخ فدعاهم إلى بيعته؛ فبايعوه وتسمى بالعادل؛ وكان إخوته أبو العلاء

الأصغر صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرّاً، وكان أبو محمد بن أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان وقد عزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتقض وبايع للعادل، وزحف مع أبي العلاء صاحب قرطبة وهو أخو العادل إلى إشبيلية وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع، فدخل في دعوتهم؛ وامتنع السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي عن بيعة العادل وتمسك بطاعة المخلوع، وخرج العادل من مرسية إلى إشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن يرجان، وبلغ الخبر إلى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع؛ وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه إلى هسكورة لكراهيتهم له، وجرت خطوب أفضت إلى خلع عبد الواحد وقتله.

وفي القرطاس: أن عبد الواحد العادل كتب إلى أشياخ الموحدين الذين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته وخلع عبد الواحد، ووعدهم على ذلك الأموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة، فسارعوا إلى ذلك، ودخلوا على عبد الواحد وتهددوه بالقتل إلا أن يخلع نفسه ويبايع للعادل؛ فأجابهم إلى ذلك؛ فخرجوا عنه، ووكلوا بالقصر من يحفظه، وكان ذلك يوم السبت الحادي والعشرين من شعبان سنة إحدى وعشرين وستمائة.

فلما كان يوم الأحد بعده دخلوا على عبد الواحد القصر وأحضروا القاضي والفقهاء والأشياخ فأشهد على نفسه بالخلع وبايع للعادل؛ ثم دخلوا عليه بعد مضي ثلاث عشرة ليلة من خلعه فخنقوه حتى مات؛ وانتهبوا قصره واستولوا على أمواله وحريمه، فكان عبد الواحد هذا أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن، وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالأتراك لبني العباس؛ فكان فعلهم ذلك سبباً لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم. والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان المعظم سنة إحدى وعشرين وستمائة.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمه الله

بويع له البيعة الأولى بمرسية من بلاد الأندلس منتصف صفر سنة إحدى وعشرين وستمائة. وتلقب بالعادل في أحكام الله؛ ثم خلص له الأمر وبايعه كافة الموحدين؛ وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة.

وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخو البياسي كما ذكرناه آنفاً، وكان والياً على بلنسية وشاطبة ودانية؛ ولما رأى السيد أبو محمد البياسي أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعة العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انضاف إليها من قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الأوسط وتلقب بالظافر؛ وإنما دعي البياسي لقيامه من بياسة؛ فوصلت بيعة الموحدين من مراكش إلى العادل ومعها كتاب أبي زكريا يحيى ابن الشهيد شيخ هنتانة بقصة المخلوع وما كان من أمره، فصادف وصولها هيجان هذه الفتنة فشغل العادل بها عن مراكش، وبعث أخاه السيد أبا العلاء الأصغر وهو إدريس بن المنصور في جيش كثيف إلى البياسي فحاصره ببياسة. ولما اشتد عليه الحصار أظهر الطاعة والانقياد وبايع للعادل حتى إذا أفرج عنه أبو العلاء عاد إلى النكث؛ وبعث إلى الفنش يستنصره على العادل؛ وضمن له أن ينزل له عن بياسة وقيجاطة؛ فكان أول من سن إعطاء الحصون والبلاد للفرنج. فوجه إليه الفنش بجيش من عشرين ألفاً. ولما توافت لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريد إشبيلية حتى إذا دنا منها خرج إليه السيد أبو العلاء الأصغر - وهو الذي دعي بعد بالمأمون - فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً؛ فانهزم السيد أبو العلاء واستولى البياسي والفرنج على محلته بما فيها من أثاث وسلاح ودواب وغير ذلك.

ولما رأى العادل ما وقع بأخيه وجنده خشي أن يتفاقم داء البياسي ويمتد عباب فتنته إلى مراكش؛ فترك أخاه أبا العلاء قبالته وعبر البحر إلى العدوة. ولما احتل بقصر المجاز دخل عليه عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص المدعو بعبو فقال له العادل كيف حالك؟ فأنشده:

حال متى علم ابن المنصور بها جاء الزمان إليّ منها تائبا

فاستحسن ذلك منه وولاه إفريقية. وهذا البيت لأبي الطيب المتنبي وإنما تمثل به عبو لموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل فحسن التمثيل به.

وانتهى العادل في سيره إلى سلا فأقام بها وبعث عن شيوخ جشم عرب تامسنا، وكان لابن يرجان عناية واختصاص بهلال بن حميدان أمير الخلط، فتثاقل جرمون بن عيسى أمير سفيان عن الوصول إلى العادل، ثم بادر العادل إلى مراكش وقاسى في طريقه إليها من العرب شدائد، ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبي حفص وتغير لابن يرجان، ففسد باطنه وسعى في إفساد الدولة، وغلب أبو زكريا بن الشهيد شيخ هنتاتة؛ ويوسف بن علي شيخ تينملل على أمر العادل. ثم خالفت عليه عرب الخلط وهسكورة، وعاثوا في نواحي مراكش؛ وخربوا بلاد دكالة فخرج إليهم ابن يرجان فلم يغن شيئاً، فأنفذ إليهم العادل عسكراً من الموحدين لنظر إبراهيم بن إسماعيل ابن الشيخ أبي حفص فانهزم وقتل، واضطربت الأحوال على العادل؛ وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي إلى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة والعرب؛ فاتفقا أيضاً على خلع العادل واضطربت الأمور.

ولما انتهى إلى أبي العلاء صاحب الأندلس خبر أخيه العادل وما هو فيه بمراكش من الاضطراب دعا لنفسه بإشبيلية فبويع بها، وأجابه أكثر أهل الأندلس؛ وتلقب بالمأمون وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو أخو البياسي، وكان ذلك في أوائل شوال سنة أربع وعشرين وستمائة.

ولما تمت بيعته كتب إلى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ويعلمهم باجتماع أهل الأندلس والموحدين الذين بها عليه؛ ووعدهم في ذلك ومناهم، فكان منهم بعض توقف؛ ثم أجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل؛ فدخلوا عليه قصره وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع؛ فوثبوا عليه ودسوا رأسه في خصة ماء كانت هناك وقالوا له: لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع. فقال: اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت إلا أمير المؤمنين. فوضعوا عمامته في عنقه وخنقوه ورأسه في الخصة حتى فاظ؛ وكان خيراً فاضلاً رحمه الله؛ وكانت وفاته في الحادي والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة. وكتبوا بيعتهم إلى أبي العلاء المأمون؛ وبعثوا بها إليه مع البريد؛ ثم بدا لهم في بيعة المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها، وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور واضطربت الأحوال بالمغرب والأندلس؛ وطما عباب الفتن بهما وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون وهو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب بالحضرة على أخيه وتلاشي أمره دعا لنفسه بإشبيلية وبايعه أهل الأندلس والموحدون بالحضرة كما قلنا، ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلموه من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف، وتخوفوا أن يأخذهم بدم عمه عبد المخلوع؛ ثم أخيه عبد الله العادل، فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى بن الناصر بن المنصور وهو شاب غر كما يقل عذاره، وإنما وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم، فإن سنه يومئذٍ كانت ستة عشر سنة؛

فبايعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وامتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة من بيعته وقالوا: قد بايعنا المأمون فلا ننكث بيعته؛ وتأخر قدوم المأمون إلى مراكش وبقي بالأندلس لأسباب يأتي شرحها؛ وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء، وجهز جيشاً من الموحدين والجند إلى قتال الخلط وهسكورة؛ وهم يومئذٍ في طاعة المأمون، فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولاً إلى مراكش، ثم اطلع يحيى على مداخلة أبي زيد بن يرجان للعرب وهسكورة في الغارة على مراكش واطلع على ذلك أيضاً أبو زكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبا زيد بن يرجان وابنه عبد الله، ونصب رؤوسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما بأسواق المدينة؛ ثم اضطربت الأحوال على يحيى وانتقضت البلاد، وغلت الأسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب؛ واستحوذ بنو مرين على ضواحيه وضايقوا الموحدين في كثير من أمصاره، واقتضوا جبايته ونبغت الثوار في الأقطار على ما نذكره.

ثورة محمد بن أبي الطواجين الكتامي بجبال غمارة

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين الكتامي المتنبي، وكان أبوه من قصر كتامة منقبضاً عن الناس؛ وكان ينتحل صناعة الكيمياء، فكان يلقب بأبي الطواجين لكثرة الظروف التي كان يستعملها في ذلك بزعمه. وتلقن ذلك عنه ابنه هذا، ثم ارتحل إلى سبتة ونزل على بني سعيد بأحوازها، وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوغاء، ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وأظهر أنواعاً من الشعبذة فكثر تابعوه، ثم اطلعوا على خبثه فنبذوا إليه عهده؛ وزحفت إليه عساكر سبتة ففر عنهم؛ ثم قتله

بعض البرابرة غيلة بوادي لاو بين بلاد بني سعيد وبلاد بني زيات؛ وابن أبي الطواجين هذا هو الذي تسبب في قتل الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه على ما نذكره بعد أن شاء الله.

أخبار الثوار بالأندلس وما آل إليه أمر الموحدين بها

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب وكثرت الفتن في أقطاره ونواحيه، وانتزى السادات منهم بنواحي الأندلس كل في عمله واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية ونزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الأندلس عليهم، وتصدى للثورة على الموحدين محمد بن يوسف بن هود الجذاميين ملوك الطوائف بسرقسطة، وكان يؤمل لها وربما امتحنه الموحدين لذلك مرات، فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين وستمائة؛ وجهز إليه والي مرسية يومئذٍ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكراً فهزمهم، وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد بها؛ وخطب للخليفة المستنصر العباسي صاحب بغداد، وفي ذلك يقول ابن الخطيب في رقم الحلل عند ذكره لبني هود هؤلاء:

وكان من أعقابه الأمير ... محمد بن يوسف الأخير
وكان باسلاً شديد البأس ... وبايع المستنصر العباسي

ثم زحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وهو أخو البياسي المتقدم ذكره من شاطبة وكان والياً بها كما مر، فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة واستجاش بالمأمون، وهو يومئذٍ بإشبيلية؛ فخرج في العساكر ولقيه ابن هود فانهزم، واتبعه المأمون إلى مرسية فحاصره مدة. وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية. ثم انتقض على السيد أبي زيد ببلنسية زيان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن

مردنيش، وخرج عنه إلى أبدة وذلك سنة ست وعشرين وستمائة؛ وكان بني مردنيش هؤلاء أهل عصابة وأولي بأس وقوه؛ فتوقع أبو زيد اختلال أمره، وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فأبى، فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة، ودخل في دين النصرانية والعياذ بالله؛ وبايع أهل شاطبة لابن هود؛ ثم تتابعت بلاد الأندلس على بيعته، ودخل في طاعته أهل قرطبة وإشبيلية بعد رحيل المأمون عنه إلى مراكش؛ ولم يبق للموحدين بالأندلس سلطان.

ثم في سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر بحصن أرجونة من أعمال قرطبة؛ ودعا لأبي زكرياء الحفصي صاحب إفريقية. ثم دخل في طاعته أهل قرطبة؛ وتنازع ابن الأحمر وابن هود رئاسة الأندلس، وتجاذبا حبل الملك بها؛ وكانت خطوب استولى لطاغية فيها على كثير من حصون الأندلس، ثم استقر قدم ابن الأحمر في الملك وأورثه بنيه من بعده والله غالب على أمره.

قدوم أبي العلاء المامون بن المنصور من الأندلس إلى مراكش وما اتفق له في ذلك

قد تقدم لنا أن الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبايعوا أخاه المأمون، وبعد انفصال البريد بالبيعة ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر؛ فوصلت بيعة الموحدين إلى المأمون، وهو يومئذٍ بإشبيلية، فسر بها وأمر بإقرائها على منابر الأندلس، ثم أخذ في التجهيز والحركة إلى مراكش دار ملكهم؛ فسار حتى إذا وصل إلى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا بيعته، وبايعوا ابن أخيه يحيى. فوجم لذلك وأطرق ملياً ثم أنشد متمثلاً بقول حسان رضي الله عنه:

لتسمعن وشيكاً في ديارهم   الله أكبر يا ثارات عثمانا

ثم كتب من حينه إلى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله[1] أن يبعث له جيشاً من الفرنج يجوز بهم إلى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو وأن يبني بمراكش إذا دخلها لجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم، وأن من أسلم منهم لا يقبل منه إسلامه ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك؛ فأسعفه المأمون في جميع ما طلبه منه.

وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلاف أحواله بها كما قلنا ومبايعة أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فاراً بنفسه إلى تينملل؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة؛ ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الذين بها والياً يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم. وجددوا له البيعة؛ وكتبوا إليه يخبروه بفرار يحيى إلى الجبل؛ ويرغبون إليه في القدوم عليهم، وكتب إليه أيضاً هلال بن حميدان أمير الخلط؛ واستمر يحيى معتصماً بالجبل أربعة أشهر، ثم بدا له فعاد إلى مراكش وقتل عامل المأمون الذي قدمه الموحدين بها؛ واستمر بها نحو سبعة أيام، ثم خرج إلى جبل جليز وعسكر به؛ وأقام منتظراً لقدوم المأمون ودفاعه عن مراكش. ثم بعث صاحب قشتالة إلى المأمون جيشاً من اثني عشر ألفاً برسم الخدمة معه والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة، وكان وصولهم إليه في رمضان سنة ست وعشرين وستمائة؛ ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في ذي القعدة من السنة المذكورة، وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها. فأراح بسبتة أياماً ثم نهض إلى مراكش حتى إذا دنى منها لقيه يحيى بجيوش الموحدين وذلك عشي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلة؛ فانهزم يحيى

(1) انظر ما كتبه المؤلف في هذه المسألة في كتاب «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس بن أبي الحسن المريني.

وفر إلى الجبل وقتل كثير من جيشه.

ودخل المأمون حضرة مراكش وبايعه الموحدون، وصعد المنبر بجامع المنصور ـ وكان علامة أديباً بليغاً ـ فخطب الناس ولعن المهدي على المنبر وقال: لا تدعوه بالمهدي المعصوم وادعوه بالغوي المذموم؛ ألا لا مهدي إلا عيسى، وإنا قد نبذنا أمره النحس. ولما انتهى إلى آخر خطبة قال: معشر الموحدين لا تظنوا أني أنا إدريس الذي تندرس دولتكم على يده، كلا إنه سيأتي بعدي إن شاء الله.

ثم نزل وأمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سننه التي ابتدعها للموحدين وجرى عليها سلفهم؛ ونعى عليها النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادته في أذان الصبح: ولله الحمد، وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي، وأمر بتدوير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة وقال كل ما فعله المهدي وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل إلى إبقائه، وأبدأ في ذلك وأعاد.

ثم دخل قصره فاحتجب عن الناس ثلاثاً؛ ثم خرج في اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه؛ فقال لهم يا معشر الموحدين إنكم قد أظهرتم علينا العناد. وأكثرتم في الأرض الفساد؛ ونقضتم العهود وبذلتم في حربنا المجهود، وقتلتم الإخوان والأعمام؛ ولم ترقبوا فيهم إلاً ولا ذمام. ثم أخرج كتاب بيعتهم الذي بعثوا به إليه؛ واحتج عليهم بنكثهم الذي نكثوا بعده؛ فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط في أيديهم والتفت إلى قضية المكيدي ـ وكان بإزائه قد قدم معه من إشبيلية ـ فقال له: ما ترى أيها القاضي في أمر هؤلاء الناكثين؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:10] الآية. فقال المأمون: صدق الله العظيم فإنا نحكم فيهم بحكم الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:45] ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسحبوا إلى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم ولم يبق على كبيرهم ولا صغيرهم حتى أنه أتي بابن أخت له صغير يقال إن سنه كان ثلاث عشرة

سنة وكان قد حفظ القرآن، فلما قدم للقتل قال له: «يا أمير المؤمنين اعف عني لثلاث» قال: ما هن؟ قال: «صغر سني؛ وقرب رحمي، وحفظي لكتاب الله العزيز» فيقال إن المأمون نظر إلى القاضي كالمستشير له وقال له: «كيف ترى قوة جأش هذا الغلام وإقدامه على الكلام في هذا المقام؟» فقال القاضي: «يا أمير المؤمنين إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» فأمر به فقتل رحمه الله، ثم أمر بالرؤوس فعلقت بدائر سور المدينة.

ذكر ابن أبي زرع أنها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس وكان الزمان زمن قيظ فنتنت بها المدينة وتأذى الناس بريحها، فرفع إليه ذلك فقال: «إن هٰهنا مجانين وأن تلك الرؤوس حروز لهم لا يصلح حالهم إلا بها. وإنها لعطرة عند المحبين ونتنة عند المبغظين! ثم أنشد:

أهل الحرابة والفساد من الورى ... بالقطع والتعليق في الأشجار
ففساده فيه الصلاح لغيره ... يعزون في التشبيه للذكار
فرؤوسهم ذكرى إذا ما أبصرت ... فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار
وكذا القصاص حياة أرباب النهى ... والعدل مألوف بكل جوار
لو عم حلم الله سائر خلقه ... ما كان أكثرهم من أهل النار

وهذه الفتكة التي ارتكبها المأمون من الموحدين أنست فتكة الحارث بن ظالم؛ والبراض الكناني والحجاف بن حكيم، وهي التي استأصلت جمهورهم؛ وأماتت نخوتهم، وأذن المأمون للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم فضربوا بها نواقيسهم. وكانت الكنيسة في الموضع المعروف بالسجينة.

وقبض على قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق فقيده ودفعه إلى هلال بن حميدان الخلطي فحبسه حتى افتدي منه بستة آلاف دينار.

وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر؛ ثم نهض إلى الجبل لقتال

يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين، وذلك في رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة. فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاعة، فانهزم يحيى وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سيق من رؤوسهم إلى مراكش أربعة آلاف رأس.

وفي هذه السنة استبد الأمير أبو زكريا ابن الشيخ أبي محمد بن أبي حفص الهنتاتي بإفريقية وخلع طاعة الموحدين.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها نفذت كتب المأمون إلى سائر البلاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيها خرجت بلاد الأندلس كلها من ملك الموحدين. ونفاهم عنها ابن هود لثائر بها وقتلتهم العامة في كل وجه.

وفي سنة تسع وعشرين بعدها خرج على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران بن المنصور بمدينة سبتة وتسمى بالمؤيد؛ فاتصل الخبر بالمأمون فخرج إليه، وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازاز ومكلاته قد حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها؛ فسار إليهم وحسم مادة فسادهم؛ وعاد إلى سبتة فحاصر بها أخاه السيد أبا موسى مدة فلم يقدر منه على شيء، وكانت سبتة من أحصن مدن المغرب؛ ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتنم يحيى بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى؛ ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة، وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصارى التي بنيت بها وقتلوا كثيراً من يهودها وسبوا أموالهم، ودخل يحيى القصر فحمل منه جميع ما وجده به إلى الجبل.

واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة، فارتحل عنها مسرعاً إلى مراكش وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة؛ ولما أبعد عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها إلى الأندلس فبايعه ابن هود وأعطاه سبتة؛ فعوضه ابن هود عنها بالمرية فكان السيد أبو موسى بها إلى أن مات.

وانتهى الخبر إلى المأمون وهو في طريقه بأن ابن هود قد ملك سبتة، فتوالت عليه الفجائع فمرض أسفاً ومات بوادي العبيد وهو قافل من حصار

سبتة، وكانت وفاته في آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة.

وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة، افترقت دولة الموحدين فيها فرقتين؛ فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر.

وكان محق دولة الموحدين واستئصال أركانها وذهاب نخوتها على يده، قالوا ولولا أن الأمور قد استحالت إلى ما ذكر لكان المأمون موافقاً لأبيه المنصور في كثير من الخلل؛ ومتبعاً سننه في الأحوال.

وكان المأمون فصيح اللسان؛ فقيهاً، حافظاً للحديث ضابطاً للرواية، عارفاً بالقراءات، حسن الصوت والتلاوة، مقدماً في علم اللغة والعربية والأدب وأيام الناس؛ كاتباً بليغاً حسن التوقيع لم يزل سائر أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخاري والموطأ، وسنن أبي داود؛ وكان مع ذلك شهماً حازماً مقداماً على عظائم الأمور؛ ولي الخلافة والبلاد تضطرم ناراً. والممالك قد توزعتها الثوار؛ فكان المأمون إذا فكر في حال الثوار وما آل إليه حال الدولة معهم وما دهاه من كثرتهم ينشد متمثلاً:

تكاثرت الظبا على خداش ... فما يدري خداش ما يصيد

يشير إلى حاله معهم؛ وأنه لم يدري ما يتلافى من ذلك والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي محمد عبد الواحد الرشيد ابن المامون ابن المنصور رحمه الله

لما هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقب بالرشيد.

قال ابن أبي زرع: بويع له بالخلافة بوادي العبيد ثاني يوم من وفاة أبيه وهو الأحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة، وسنه يومئذٍ أربع عشرة سنة؛ وكان الذين أخذوا له البيعة كانون بن جرمون السفياني؛ وشعيب بن أوقاليط الهسكوري، وفرنسيل قائد جيش الفرنج، فإنه لما مات المأمون كتمت جاريته بعد موته واسمها حباب، وكانت فرنجية الأصل؛ ومن دهاة النساء

وعقلائهن وهي أم الرشيد؛ فاستدعت هؤلاء النفر الثلاثة وكانوا عمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم في أزيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه؛ ولأن أهل الحل والعقد من الموحدين قد أتت عليهم فتكت المأمون، فجاؤوا إليه فأعلمتهم بموت الخليفة، ورغبت إليهم في بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك أموالاً جمة، ووعدتهم مع ذلك أنهم إذا فتحوا الحضرة - وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا - تجعلها لهم فيئاً؛ فبايعوه، وأخذوا البيعة له على سواهم. فبايع الناس طوعاً وكرهاً خوفاً من سيوفهم.

ولما تم أمره جعل أباه في تابوت وقدمه أمامه وسار إلى مراكش؛ وسمع يحيى وأهل مراكش بما شرطته حباب للقواد الثلاثة من جعل مدينتهم فيئاً، فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم.

واستخلف يحيى على مراكش أبا سعيد بن وانودين، والتقى الجمعان فاقتتلوا فانهزم يحيى وقتل أكثر من معه، وصبح الرشيد مراكش فتحصن منه أهلها فأمنهم وصالح قائد الفرنج وأصحابه على فيئها بخمسة آلاف دينار.

ودخل الرشيد مراكش واستقر بها؛ وكان قد وصل في صحبة عمه السيد أبو محمد سعد بن المنصور؛ فحل من تلك الدولة بمكان، وكان إليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بمراكش قدم عليه عمر بن أوقاريط الهسكوري صحبة أولاد المأمون الذين كانوا بإشبيلية، ونفاهم ابن هود عنها وكان ابن أوقاريط هذا منحرفاً عن المأمون أيام حياته فتذمم بصحبة هؤلاء الأولاد وقدم على الرشيد فتقبله؛ واتصل بالسيد أبي محمد وحسنت منزلته لديه.

ثم لما هلك السيد أبو محمد لحق ابن أوقاريط بقومه ومعتصمه؛ وكشف وجه الخلاف، وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر؛ واستنفر له قبائل الموحدين؛ ونهض إليهم الرشيد سنة إحدى وثلاثين وستمائة؛ واستخلف على الحضرة صهره أبا العلاء إدريس، وصعد إليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزرجة واستولى على معسكرهم؛ ولحق يحيى ببلاد سجلماسة،

وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى فأمنهم ولحقوا بحضرته؛ وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القدميوي؛ وجاء الباقون على أثره بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدي وسننه فأعيدت. واطمأنوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية واستقامت الأحوال في هذه الأيام؛ إلى أن كان ما نذكره.

فتنة الخلط مع الرشيد واستيلاؤهم على حضرة مراكش

كان مسعود بن حميدان كبير الخلط قد أغراه عمر بن أوقاريط بالخلاف لصحبة بينهما، وكان مدلاً ببأسه وكثرة جموعه، يقال إن الخلط كانوا يومئذٍ يناهزون اثني عشرة ألف فارس سوى الرجل والأتباع والحشود، فمرض مسعود في الطاعة وتثاقل عن الوفادة إلى الحضرة.

ولما علم بعقد الموحدين واجتماع كلمتهم على الرشيد غاظه ذلك وأخذ في السعي للفرقة والشتات بينهم، فأعمل الرشيد الحيلة في استدعائه؛ وصرف عساكره إلى بعض الجهات حتى خلا لمسعود الجو وذهب عنه الريب؛ واستقدمه الرشيد فأسرع اللحاق بالحضرة؛ وقدم معه معاوية عم عمر بن أوقاريط، فقبض على معاوية وقتل لحينه، واستدعى الرشيد ابن حميدان إلى المجلس الخلافي للحديث فتقبض عليه وعلى خمسة وعشرين من أصحابه من كبار الخلط وقتلوا ساعتئذٍ بعد جولة وهيعة، وقضى الرشيد حاجة في نفسه منهم.

ولما بلغ خبر مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان؛ وأجلبوا على سائر النواحي؛ وأعلنوا بدعوة يحيى بن الناصر، واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء، وداخلهم في ذلك عمر بن أوقاريط؛ وزحفوا لحصار مراكش، وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلولان؛ فدافع ابن أوقاريط بجموعه في تلك العساكر فانهزموا؛ وأحيط بجند النصارى فقتلوا، وتفاقم الأمر بالحضرة وعدمت الأقوات، واعتزم الرشيد

على الخروج إلى جبل الموحدين؛ فخرج إليها وسار منها إلى سجلماسة فملكها، واشتد الحصار على مراكش؛ واقتحمها يحيى بن الناصر وأنصاره من الخلط وهسكورة فنهبوها وساء أثرهم فيها؛ واضطربت أحوال الخلافة بها، وتغلب على السلطان السيد أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حافة؛ وهذه الفتن كانت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

هجوم نصارى جنوة على مدينة سبتة وحصارهم إياها

وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة نازل الفرنج الجنويون سبتة بأجفان لا تحصى؛ ونصبوا عليها المنجنيقات والآلات المعدة للحصار، واستمروا على ذلك إلى أن دخلت سنة ثلاث وثلاثين بعدها؛ فلم يقدروا منها على شيء؛ ولما اشتد الحصار على أهل سبتة صالحوا الفرنج في الإفراج عنهم بأربعمائة ألف دينار فقبلوا؛ وأقلعوا عنهم بعد الحصار الشديد والتضييق العظيم.

عود الرشيد إلى مراكش وفرار يحيى عنها إلى بني معقل ومقتله بهم

وفي هذه السنة أعني سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة خرج الرشيد من سجلماسة يقصد مراكش؛ وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فأجابوه؛ وعبروا وادي أم الربيع؛ وبرز إليه يحيى في جموعه. والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم؛ ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافراً؛ وأشار ابن أوقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الأندلس والأخذ بدعوته؛ فنكثوا بيعة يحيى وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صحبة ابن أوقاريط، فاستقر هناك ولم يرجع إليهم قولاً، فعلم الخلط أنها حيلة من ابن أوقاريط وأنه تخلص من الورطة.

وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه، وسار إلى فاس وأقام بها أياماً، وفرق في فقهائها وصلحائها أموالاً ورباعاً مغلة. وسرح الوزير السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالهما.

وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب معقل فأجاروه ووعدوه النصرة واشتطوا عليه في المطالب فأسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهة تازا؛ وسيق رأسه إلى الرشيد بفاس؛ فبعثه إلى مراكش وأوعز إلى نائبه بها أبي علي بن عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم حسن بن زيد شيخ العاصم، وقائد ابنا عامر شيخا بني جابر فقتلهم، وانكفأ الرشيد راجعاً إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وستمائة.

وكان ابن أوقاريط لما فصل ابن هود صاحب الأندلس أقام عنده إلى هذه السنة فركب البحر في أسطول من أساطيل ابن هود وقصد مدينة سلا ـ وبها يومئذٍ السيد أبو العلاء صهر الرشيد ـ فنازلها وكاد يغلب عليها ثم رجع عنها بلا طائل.

وفي سنة خمس وثلاثين بعدها بايع أهل إشبيلية للرشيد، ونقضوا طاعة ابن هود؛ وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد؛ ووصل وفدهم إلى الحضرة ومروا في طريقهم بسبتة، فاقتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد، وقدموا على الحضرة؛ وولى عليهم الرشيد أبا علي بن خلاص منهم، وانصرف وفد إشبيلية وسبتة راضين.

واستقدم الرشيد رؤساء الخلط وكانوا راجعوا طاعته بعد مقتل يحيى فقدموا عليه وتقبض عليهم، وبعث عساكره فاستباحوا حللهم وأحيائهم، ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن أوقاريط، وكان أهل إشبيلية قد بعثوا به إليه فقطع دابرهم.

وفي سنة ست وثلاثين وستمائة وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر الثائر بالأندلس على ابن هود وكان قد بايع أولاً أبا زكريا الحفصي صاحب إفريقية ثم بدا له فرد البيعة إلى الرشيد.

استيلاء العدو على قرطبة

وفي هذه السنة كان استيلاء العدو - دمره الله - على مدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ودار مملكتها. وذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال من السنة المذكورة.

وفي سنة سبع وثلاثين بعدها انتشر بنو مرين ببلاد المغرب واشتدت شوكتهم به، وزحف إليهم الرشيد فهزموه، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه. وأقام في محاربتهم سنتين ورجع عنهم إلى الحضرة، فاشتد عدوانهم بالمغرب؛ وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الإتاوة لبني حمامة منهم، واتصل أغلبهم في نواحيها.

وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة قتل الرشيد كاتبه ابن المومياني لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبد العزيز بن يوسف، ووقف الرشيد على كتب بخطه غلط الرسول بها فدفعها بدار الخلافة فوقعت إلى الرشيد فقتله.

وفاة الرشيد رحمه الله

مات الرشيد رحمه الله غريقاً في بعض صهاريج بستانه بحضرة مراكش وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة، ويقال إنه أخرج من الماء حيّاً فحم لوقته ومات.

وذكر أبو عبد الله أكنسوس أن غرق الرشيد كان في البركة الكبرى التي بدار الهناء من أجدال اليوم، قال: وكان يقال لها البحر الأصغر لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشؤوها كانوا يرسلون فيها الزوارق والفلك الصغار بقصد النزهة والفرجة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبي الحسن السعيد
علي بن المأمون بن المنصور رحمه الله

لما هلك الرشيد بويع أخوه لأبيه أبو الحسن على المدعو السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين، وتلقب بالمعتضد بالله واستوزر السيد أبا إسحاق ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن. ويحيى بن عطوش، وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم، واصطنع لنفسه رؤساء العرب من جشم؛ واستظهر بجموعهم على أمره، وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجلسه؛ وكان ضرر بني مرين قد تفاقم بالمغرب وداؤهم قد أعضل، فخرج السعيد سنة اثنتين وأربعين وستمائة لتمهيد بلاد المغرب، فانتهى إلى سجلماسة، وكان صاحبها عبد الله بن زكريا الهزرجي قد انتقض عليه فقتله واستولى عليها ثم رجع حتى نزل المقرمدة من أرض فاس.

وعقد المهادنة مع بني مرين وقفل إلى مراكش، فكانت هدنة على دخن فلم يلبث إلا يسيراً حتى عاود النهوض إليهم سنة ثلاثة وأربعين بعدها، واستخلف السيد أبا زيد ابن السيد أبي إبراهيم أخا الوزير المذكور آنفاً على مراكش، واستعمل أخاهما السيد أبا حفص وهو المرتضى على سلا، وسار نحو بني مرين؛ فجمع له أميرهم أبو بكر بن عبد الحق جموع زناتة وصمد نحوه حتى إذا تراءى الجمعان وتهيأ القوم للقاء خالف كانون بن جرمون إلى آزمور فاستولى عليها وغلب الموحدين عليها، فرجع السعيد أدراجه في أتباعه، ففر كانون عنها فاعترضه السعيد فأوقع به، واستلحم كثير من قومه سفيان واستولى على ما كان لهم من مال وماشية، ولحق كانون ببني مرين؛ ورجع السعيد إلى الحضرة.

ثم تقدم الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني إلى مكناسة فضايقها؛ وخطب طاعة أهلها، فثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه.

وحذر شيوخها وكبراؤها من سطوته فحولوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية، وكان استبد على بني عبد المؤمن ورام التغلب حتى على كرسيهم بمراكش؛ فبايعه أهل مكناسة بمواطأة الأمير أبي بكر بن عبد الحق. فإنه كان يدعو إليه في أول أمره، وكذا أخوه السلطان يعقوب بن عبد الحق من بعده ثم استقل بنفسه واستبد بأمره عندما تم له ملك المغرب حسبما نقصه بعد إن شاء الله.

وفي هذه السنة بعث أهل إشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا الحفصي أيضاً، وبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة إليه بهدية مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك فغرق عند إقلاعه من المرسى، وقبل هذه المدة بيسير كان الأمير أبو زكريا الحفصي قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادي؛ وهو جد ملك بني زيان أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط؛ فعظم قدر أبي زكريا بسبب هذه البيعات التي انثالت عليه من سائر الجهات؛ وحدثته نفسه بالتوثب على كرسي الخلافة بمراكش، وغص بنو عبد المؤمن بمكانه؛ وعظم عليهم استبداده ثم طمعه في كرسيهم وقرارة عزهم مع أنه ما كان إلا جدولاً من بحرهم وفرعاً من دوحتهم؛ والأمر كله لله.

نهوض السعيد من مراكش إلى غزو الثوار بالمغربين ومحاصرته يغمراسن بن زيان وما آل إليه الأمر من مقتله رحمه الله

لما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الأمير أبي زكريا بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي بإفريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره في الحركة إلى هؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هذه الأقطار.

وكان السعيد شهماً حازماً يقظاً بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته وفاوض الملأ من الموحدين في تثقيف أطرافها وتقويم أودها؛ وحرك

هممهم؛ وأثار حفائظهم، وأراهم كيف اقتطع عنهم الأمر شيئاً فشيئاً؛ فابن أبي حفص اقتطع إفريقية؛ ويغمراسن بن زيان اقتطع المغرب الأوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية، وابن هود اقتطع الأندلس وأقام فيها دعوة بني العباس، وابن الأحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضاً، وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سموا إلى تملك أمصاره، وإن سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الأمر؛ وتنقرض الدولة، فتذامروا وتداعوا إلى النهوض إليهم فحشد السعيد الجنود، وجهز العساكر وأزاح عللهم، واستنفر عرب المغرب وما يليه، واحتشد كافة المصامدة.

ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن ثانياً؛ ثم إفريقية وابن أبي حفص ثالثاً.

ولما نزل بوادي بهت أخذ في عرض عساكره وتمييزها، فخرج الأمير أبو بكر بن عبد الحق من مكناسة ليلاً وحده يتجسس الأخبار فأشرف على جموع السعيد فرأى ما لا قبل له به؛ فعاد إلى قومه وأفرج للسعيد عن البلاد، وتلاحقت به بنو مرين من أماكنها التي كان الأمير أبو بكر أنزلهم بها؛ واجتمعوا عليه بحصن تازا، وطامن بلاد الريف.

وتقدم السعيد إلى مكناسة فخرج إليه أهلها يطلبون منه العفو، وقدموا بين أيديهم الشيخ الصالح أبا علي منصور بن حرزوز، وتلقوه بالصبيان من المكاتب على رؤوسهم الألواح وبين أيديهم المصاحف، وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو فعفا عنهم.

ثم ارتحل إلى تازا في أتباع بني مرين، وانتقل أبو بكر بن عبد الحق إلى بني يزناسن ثم راجع نظره في مسالمة الموحدين والدخول في أمرهم؛ فبعث ببيعته إلى السعيد وهو يومئذٍ بتازا مع جماعة من وجوه بني مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف؛ فسأله وفدهم أن يستكفي بالأمير أبي بكر في أمر تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان، وقد كتب إليه الأمير أبو بكر أيضاً

بذلك يقول: «يا أمير المؤمنين ارجع إلى حضرتك وقوني بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان»؛ فاستشار السعيد وزراءه فقالوا: «لا تفعل فإن الزناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه»، فكتب إليه السعيد بأن يبعث إليه جماعة من قومه يعسكرون معه، فأمده الأمير أبو بكر بخمسمائة من قبائل بني مرين وعقد عليهم لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامة وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان.

وعند ابن أبي زرع أن السعيد لما فرغ من أمر مكناسة عسكر بظاهر فاس وهنالك أتته بيعة بني مرين؛ قال: ثم ارتحل السعيد عن فاس في الرابع عشر من محرم سنة ست وأربعين وستمائة؛ وخسف القمر تلك الليلة خسوفاً كلياً؛ وأصبح السعيد غادياً يريد تلمسان؛ فلما ركب فرسه انكسرت لؤلؤة المنصوري فتطير ونزل؛ ولم يرتحل إلا في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور.

ولما سمع يغمراسن بإقبال السعيد إليه خرج من تلمسان في عشيرته وقومه من سائر بني عبد الواد، وتحملوا بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامزردكت قبلة وجدة فاعتصموا بها؛ ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغراسن مؤدياً للطاعة وساعياً في مذاهب الخدمة ومتولياً من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعتذراً تخلف يغمراسن عن الوصول إلى حضرة السعيد؛ فلج السعيد في شأنه ولم يعذره، وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه؛ وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الملأ، وردوا الفقيه عبدون إلى يغمراسن ليستقدمه فتثاقل يغمراسن عن القدوم خشية على نفسه.

واعتمد السعيد الجبل في عساكره حتى أناخ بها في ساحة القلعة وأخذ بمخنقهم ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ركب مهجراً في وقت القيلولة على حين غفلة من الناس ليتطوف بالقلعة، ويتقرى مكامنها؛ فبصر به فارس من بني عبد الواد يعرف بيوسف الشيطان كان أسفل الجبل بقصد الحراسة، واتفق أن يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر كانا قريبين منه؛

فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعاب أمثال العقبان، وطعنه يوسف الشيطان فكبه عن فرسه، وعمد يعقوب بن جابر إلى وزيره يحيى بن عطوش فقتله؛ ثم استلحموا لوقتهم مواليه ناصحاً من العلوج، وعنبراً من الخصيان؛ وقائد جند النصارى، وهو أخو القمط، ووليداً يافعاً من ولد السعيد، ويقال: إنما كان ذلك يوم عبى السعيد العساكر وصعد الجبل للقتال وتقدم أمام الناس، فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه؛ فتواثب عليه هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه. وذلك منسلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة.

وانتهى الخبر إلى المحلة فارتجت وماجت، وأخذ أهلها في الفرار؛ وبادر يغمراسن إلى السعيد فنزل إليه وهو صريع على الأرض، فحياه وفداه وأقسم له على البراءة من دمه! والسعيد رحمه الله واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى إن فاظ، وانتهب المعسكر بجملته.

واستولى بنو عبد الواد على ما كان به من الأخبية الحسنة والفازات الرفيعة، واختص يغمراسن بفسطاط السلطان، فكان له خالصة دون قومه؛ واستولى على الذخيرة التي كانت فيه منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته؛ وإنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمٰن الداخل، ثم صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم صار إلى خزائن الموحدين من يد لمتونة.

قال ابن خلدون: وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان، وذلك عند غلب السلطان أبي الحسن المريني على تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما نذكره اهـ.

وقد تقدم لنا الخبر عن هذا المصحف العثماني وفيه مخالفة لبعض ما هنا، وسيأتي لنا في دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني ما يخالف ذلك كله والله أعلم بحقيقة الأمر.

ومن الذخائر التي صارت ليغمراسن من فسطاط السعيد العقد المنتظم

من خرزات الياقوت الفاخر والدر النفيس المشتمل على مئين متعددة من حصبائه. وكان يسمى بالثعبان.

ثم صار إلى بني مرين أيضاً إلى أن تلف في البحر عند غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمرسى بجاية مرجعة من تونس حسبما نذكره بعد إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه مما يستخلصه الملوك لأنفسهم ويعتدونه من ذخائرهم.

ولما سكنت الفتنة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة فجهزه ورفعه على أعواده، فدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه. ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت الشهيرة الذكر بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع، وأصحبهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهن، فألحقوهن بدرعة من تخوم طاعتهم فكان ليغمراسن بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعي حقوق الملك. وأما أهل محلة السعيد فإنهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد، وقفلوا قاصدين مراكش.

واتصل الخبر بالأمير أبي بكر بن عبد الحق وهو يومئذٍ ببني يزنسن، وقدمت عليه الحصة التي كان وجهها مع السعيد، فتحقق الخبر؛ وانتهز الفرصة في الموحدين فاعترض عسكرهم بجهات تازا، فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على ما بقي من أثاثهم، ثم جد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها؛ ولحق فل الموحدين بمراكش، فبايعوا عمر المرتضى كما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دولة أبي حفص عمر المرتضى ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما توفي أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى والياً من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا، فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش

وعقدوا له البيعة وبعثوا بها إليه، ونهض هو متوجهاً إلى مراكش فلقيه وفدهم أثناء طريقه بتامسنا، واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضاً واستقام أمره وتلقب بالمرتضى، وعقد ليعقوب بن كانون على بني جابر؛ ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد أن كان قومه قدموه عليهم، ودخل الحضرة واستوزر أبا محمد بن يونس من قرابته وقبض على حاشية السعيد. ثم وصل أخوه السيد أبو إسحاق الذي كان وزيراً للسعيد من قبل ناجياً من وقعة تامزردكت آخذاً على طريق سجلماسة فاستوزره أيضاً وأسند إليه أمره واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بني مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة، ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها؛ فاقتطع عن المرتضى بلاد الغرب كلها ولم يبق له إلا بلاد الحوز من سلا إلى السوس.

ولأول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على إشبيلية إحدى قواعد الأندلس فإن طاغية قشتالة وهو الإصبنيول خذله الله حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة. وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحاً بعد منازلتها حولاً كاملاً وخمسة أشهر، وانتقل كرسي المملكة الإسلامية بالأندلس إلى غرناطة وذلك في دولة بني الأحمر.

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة ملك الأمير أبو بكر المريني سلا ورباط الفتح، ووفد على المرتضى بمراكش موسى بن زيان الونكاسي وأخوه علي بن زيان من قبيل بني مرين، وأغروه بقتال بني عبد الحق فأسعفهم. ولما انتهى إلى أمان إيملولين أشاع يعقوب بن جرمون السفياني قضية الصلح بينهما، وأصبح راحلاً وقد استولى الجزع على قلوب الجيش، فانفضوا ووقعت الهزيمة من غير قتال، ووصل المرتضى إلى الحضرة وأغضى ليعقوب عما صدر منه.

وفي سنة خمسين وستمائة استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بني مرين.

وفي سنة إحدى وخمسين بعدها فر من حاشية المرتضى علي بن يدر

من بني باداسن ولحق ببلاد السوس وتحصن ببعض جبالها ثم حاصر تارودانت قاعدة بلاد السوس فاستولى عليها، واستخدم الشبانات وذوي حسان من عرب معقل، وأطاعته قبائل جزولة واستفحل أمره، واستولى على بسائط السوس فوجه إليه المرتضى عدة جيوش فهزم البعض وقتل البعض، ثم جاء أبو دبوس من بعد المرتضى فنهض إليه، وحاصره ببعض حصونه قرب تارودانت.

ولما اشتد عليه الحصار رغب في الإقالة ومعاودة الطاعة فقبل ذلك منه أبو دبوس وأقلع عن حصاره وعاد إلى الحضرة. ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين وستمائة استبد على بني يدر هذا عليهم وتملك قطر السوس واستولى على تارودانت وسائر قراه ومعاقله، وأرهف حده للعرب وسامهم الهضيمة، فزحفوا إليه وقتلوه في السنة المذكورة. ثم توارث قطر السوس من بعده جماعة من عشيرته، واستمر ملكهم عليه إلى زمان السلطان أبي الحسن المريني فغلبهم عليه وانقرض أمرهم.

رجع إلى أخبار عمر المرتضى

وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة خرج أبو الحسن بن يعلو قائد المرتضى في جيش من الموحدين إلى تامسنا ليكشف أحوال العرب ومعه يعقوب بن شيخ بني جابر قبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين.

وفي سنة ثلاث وخمسين بعدها خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يد بني مرين المتغلبين عليها، واحتفل في الاحتشاد، وبالغ في الاستعداد، فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والأغزاز وأهل الأندلس والفرنج فسار حتى نزل جبل بني بهلول قبلة فاس وكانت هيبة بني مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى، فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا ينامون إلا غراراً، فانطلق ذات ليلة فرس لبعض

الجنديين وجرى بين الأخبية، وجرى الناس خلفه ليأخذوه؛ فظن أهل المحلة أن بني مرين قد أغاروا عليهم؛ فركبوا خيولهم، وماج بعضهم في بعض؛ وانقلبوا منهزمين لا يلوون على شيء.

واتصل الخبر بأبي بكر بن عبد الحق وهو بفاس فخرج للوقت واحتوى على جميع ما في محلة الموحدين من الأخبية والأثاث والسلاح والمال، ومر المرتضى على وجهه فدخل مراكش في جمع قليل من الأشياخ والإفرنج وأقام بها وأعرض عن بني مرين وتسلى عنهم سائر أيامه وازدادت شوكة الموحدين ضعفاً.

واستبد أبو القاسم العزفي بسبتة واستتب أمره بها، وتوارث الرياسة بها عشيرته من بعده زماناً إلى أن غلبهم عليها بنو مرين.

وفي سنة خمس وخمسين وستمائة استولى أبو بكر بن عبد الحق على سجلماسة، وتقبض على واليها عبد الحق بن اصكوا بمداخلة خديم له يعرف بمحمد القطراني، وشرط على الأمير أبي بكر أن يكون هو الوالي عليها فأمضى له شرطه، وأنزل معه بها جماعة من رجالات بني مرين حتى إذا هلك أبو بكر بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة وراجع دعوة المرتضى، واعتذر إليه؛ واشترط عليه الاستبداد فأمضى له شرطه إلا في أحكام الشريعة، وبعث أبا عمر بن حجاج قاضياً من الحضرة وبعض السادة للنظر في القضية؛ وقائداً من النصارى بعسكر للحماية، فأعمل القاضي ابن حجاج الحيلة في قتل القطراني، وتولى الفتك به قائد النصارى؛ واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى.

واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك. ونزل الأمير يعقوب بن عبد الحق بسائط تامسنا، فسرح إليهم المرتضى عساكر الموحدين لنظر يحيى بن عبد الله بن وانودين؛ فأجفلوا إلى وادي أم الربيع، واتبعهم الموحدون وألحوا عليهم فعطف عليهم بنو مرين واقتتلوا ببطن الوادي فانهزمت عساكر الموحدين، وغدر بهم بنو جابر؛ وكان في مسيل الوادي كدى يحسر عنها

الماء فتبدو كأنها أرجل، فسميت الواقعة من أجل ذلك بأم الرجلين وذلك في سنة ستين وستمائة. وبقي المرتضى يعالج أمر علي بن بدر الثائر بالسوس إلى سنة اثنتين وستين وستمائة. فأقبل الأمير يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين حتى نزل على مراكش، واتصل الحرب بينه وبين الموحدين بظاهرها أياماً؛ هلك فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، فبعث المرتضى إلى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه؛ وضرب إتاوة يبعث بها إليه في كل سنة، فرضي يعقوب وارتحل عنها؛ وقيل إن مقتل عبد الله بن يعقوب كان سنة ستين قبل وقعة أم الرجلين والله تعالى أعلم.

انتقاض أبي دبوس على المرتضى واستيلاؤه على مراكش ومقتل المرتضى عقب ذلك

لما ارتحل بني مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقوب فر من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه وهو السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى، وأنه يطلب الأمر لنفسه؛ فأحس أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب بن عبد الحق فأدركه عند مقدمه إلى فاس قافلاً من منازله مراكش، فأقبل عليه الأمير يعقوب وبالغ في إكرامه، فطلب منه أبو دبوس الإعانة على حرب المرتضى، وكان بطلاً محرباً وضمن له فتح مراكش واشترط له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفيده من الذخيرة والمال. فأمده الأمير يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين، وبالكفاية من المال؛ وبالمستجاد من آلة الحرب من طبول وبنود ونحو ذلك، وكتب له مع ذلك إلى عرب جشم ـ وأميرهم يومئذٍ علي بن أبي الخلطي ـ أن يكونوا معه يداً واحدة، فسار أبو دبوس حتى وصل إلى سلا فكتب منها إلى العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين في طاعة المرتضى يدعوهم

إلى بيعته، ويعدهم ويمنيهم؛ فتلقته وفود العرب والهساكرة وصنهاجة آزمور ببعض الطريق فبايعوه، وساروا معه حتى نزل بلاد هسكورة. ثم كتب إلى خاصته من وزراء المرتضى أن يعلموه بحال البلد والدولة فراجعوه أن أسرع السير وأقبل ولا تخشن شيئاً، فإنا قد فرقنا الجند في أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة. فزحف أبو دبوس إلى مراكش حتى إذا انتهى إلى أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن يكيت في جيش من حاميتها، فناجزه الحرب فانهزم ابن يكيت وقتل عامة أصحابه.

وسار أبو دبوس يؤم مراكش ومعه سفيان وبنى جابر وكبيرهم يومئذٍ علوش بن كانون السفياني، فلما دنوا من مراكش أغار علوش على باب الشريعة منها والناس في صلاة الجمعة حتى ركز رمحه بمصراع الباب. ودخلت سنة خمس وستين وستمائة والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس، والأسوار خالية من الحامية والحراص. فقصد أبو دبوس باب أغمات وتسور البلد من هنالك ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، وصمد إلى القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولى عليها.

وقال ابن أبي زرع: إن دخول أبي دبوس مراكش كان من باب الصالحة وذلك ضحى يوم السبت الثاني والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، والصالحة التي أضيف إليها هذا الباب هي بستان كبير من جملة بساتين أجدال دار الخلافة بمراكش ولا زال هذا البستان مشهور بهذا الاسم إلى الآن، وهو من إنشاء عبد المؤمن بن علي رحمه الله؛ فقد ذكر الشيخ أبو عبد الله بن محمد عذارى الأندلسي في كتاب «البيان المعرب عن أخبار المغرب»: أن بستان المسرة الذي بظاهر جنان الصالحة أنشأه عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين. قال: وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى، وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط له عيوناً كثيرة».

قال ابن اليسع: وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاث وأربعين

وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش. اهـ.

قلت: ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم وسجعوا به فيقولون: «يا جردة مالحة، أين بت سارحة؛ في جنان الصالحة» في أسجاع غير هذه تجري على ألسنة الصبيان. والله أعلم.

رجع إلى خبر أبي دبوس

قال ابن أبي زرع: لما اقتحم أبو دبوس مراكش سار حتى وقف بباب البنود من القصبة فغلقت الأبواب دونه، وقام عبيد المخزن عليها يقاتلونه.

ولما رأى المرتضى أن أبا دبوس قد التحف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجياً بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومي، وأبو موسى بن عزوز الهنتاتي، ثم انتقل منها إلى كدميوة؛ ثم إلى شفشاوة ثم لحق آخراً بآزمور ونزل على صهر له من بني عطوش كان والياً عليها من قبله. وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو فافتكه المرتضى بمال جسيم وزوجه ابنته وولاه آزمور. فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب إليه مستجيراً به ومطمئناً إليه فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده، وكتب إليه أبي دبوس يعلمه بشأنه؛ فكتب أبو دبوس إليه يستكشفه في شأن الذخيرة فأنكر المرتضى أن يكون قد اذخر شيئاً وحلف على ذلك ومت إليه بالرحم حتى كاد أبو دبوس يعطف عليه، ثم أغراه خاصته به فوجه إليه من قتله في الطريق وأتى إليه برأسه، وسار ابن عطوش بفعلته هذه أظلم من الخيفقان.

وكان مقتل المرتضى في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة. وكان رحمه الله ينتمي إلى التصوف والزهد والورع، وتسمى بثالث العمرين، وكان مولعاً بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلاً ولا نهاراً وكان في أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله.

وقال ابن الخطيب: كان المرتضى فاضلاً خيراً عفيفاً، مغمد السيف؛ مائلاً إلى الهدنة رحمه الله.

الخبر عن دولة أبي العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبي دبوس

لما تقدم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفر المرتضى عنها ملكها أبو دبوس واستتب أمره بها وبايعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والأشياخ، وكان ذلك بجامع المنصور يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، واستقل أبو دبوس بمملكة مراكش وأعمالها، وتلقب بالواثق بالله، والمعتمد على الله. وبذل العطاء ونظر في الولايات، ورفع المكوس عن الرعية.

ولما اتصل بالأمير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبي دبوس واستيلائه على المملكة كتب إليه يهنئه بالفتح، ويطلب منه أن يمكنه من الشرط الذي شرط له؛ فلما وصل إليه الكتاب أدركته النخوة، وغلب عليه الكبر؛ وقال للرسول: قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته، ويبعث إليّ ببيعته حتى أقره على ما بيده وإلا غزوته بجنود لا قبل له بها، فعاد الرسول إلى الأمير يعقوب؛ وأبلغه الخبر ودفع إليه كتاب أبي دبوس فإذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم، والرؤساء لخدمهم، فتحقق الأمير يعقوب نكثه وغدره، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب.

فلما أشرف على مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره، ولجأ إلى أسواره، فتقدم الأمير يعقوب حتى نزل على مراكش وحاصرها أياماً وعاث في نواحيها، وانتسف ما حولها.

ولما رأى أبو دبوس ما نزل به منه كتب إلى قريعه يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه أن يشغل عنه الأمير يعقوب بما وراءه من أعمال

فاس والمغرب وأسنى له الهدية في ذلك، وأكد العهد في الموالاة والمناصرة، فأجابه يغمراسن إلى ذلك. نهض من حينه فشن الغارات على ثغور المغرب، وأضرم نار الفتنة بها.

واتصل ذلك بالأمير يعقوب وهو محاصر لمراكش، فرجع عوده على بدئه وسار إلى يغمراسن فناجزه الحرب، وانتصف منه على ما ينبغي وحسم مادة فساده.

ثم كر راجعاً إلى مراكش في شعبان سنة ست وستين وستمائة، ولما عبر وادي أم الربيع شن الغارات على النواحي، وبث السرايا في الجهات، وطال عيثه في البلاد، وأبدأ في ذلك وأعاد؛ حتى ضاقت صدور بني عبد المؤمن بمراكش وتكدر عيشهم. فحرضهم أولياؤهم من عرب جشم، وأغروهم باستنهاض أبي دبوس لمدافعة عدوه، ووعدوهم النصر من أنفسهم؛ فتحرك أبو دبوس لذلك؛ واشرأبت نفسه إلى القتال، فحشد وأبلغ، وبرز من الحضرة في جيوش ضخمة وجموع وافرة.

ولما علم الأمير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه، وكر راجعاً إلى جهة بلاده، يستجره بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها. وتمادى أبو دبوس في اتباعه حتى انتهى إلى وادي ودغفو، فكر عليه الأمير يعقوب والتحم القتال، وقامت الحرب على ساق؛ فلم تمض إلا ساعة حتى انهزم الموحدين، وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراكش؛ فأدركته خيل بني مرين؛ وتناولته رماحهم، وخر صريعاً لليدين وللفم؛ واحتز رأسه وجيء به إلى الأمير يعقوب فسجد شكراً لله تعالى. ثم بعث به إلى فاس، وتقدم هو إلى مراكش فاستولى عليها في أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة وفر الموحدون الذين كانوا بمراكش إلى جبل تينملل، فبايعوا إسحاق بن أبي إبراهيم أخا المرتضى، فبقي ذبالة هنالك إلى سنة أربع وسبعين وستمائة فقبض عليه؛ وجيء به إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه السيد أبو سعيد بن أبي الربيع ووزيره القبائلي وأولاده فقتلوا جميعاً، وانقرضت دولة بني عبد المؤمن من الأرض، وذهبت محاسن مراكش يومئذٍ

بذهاب دولتهم والبقاء لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث:

ففي سنة إحدى وستمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي دفين مراكش، وذلك يوم الاثنين الثالث من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، ودفن خارج باب تاغزوت: وكان شيخه أبو عبد الله الفخار من أصحاب القاضي أبي الفضل عياض.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه جميل الصورة أبيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان، قادراً على الكلام؛ لا يناظره أحد إلا أفحمه. حتى كأن مواقع الحجج من الكتاب والسنة موضوعة على طرف لسانه، وكان مع ذلك حليماً صبوراً عطوفاً، يحسن إلى من يؤذيه؛ ويحلم عمن يسفه عليه برّاً باليتامى والمساكين، رحيماً بهم؛ يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات ويحض الناس على الصدقة، ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار فتنثال عليه من كل جانب، فيفرقها على المساكين وينصرف. وكان له مع الله تعالى في التوكل عليه عقد أكيد، ومقام حميد؛ قد ظهر أثره على روضته المباركة بعد وفاته.

حدث أبو القاسم عبد الرحمٰن بن إبراهيم الخزرجي قال: بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة، وقال لي: إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش. فانظر مذهبه واعلمني به. قال: فجلست مع السبتي كثيراً إلى أن حصلت على مذهبه: فأعلمته بذلك، فقال لي أبو الوليد: هذا رجل مذهبه أن الوجود ينفعل بالجود.

وقال الوزير ابن الخطيب كان سيدي أبو العباس السبتي رضي الله عنه مقصوداً في حياته، مستغاثاً به في الأزمات، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة، ومبنى أمره على انفعال العالم عن الجود، وكونه حكمة في تأثر الوجود. له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة.

ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربته، وانسحبت على مكانه عادة حياته، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى، وانقطاع الأماكن القصى، تحملهم أجنحة نياتهم؛ فتهوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق، فيجدون الثمرة المعروفة، والكرامة المشهورة.

وفي سنة عشر وستمائة كان الوباء العظيم بالمغرب والأندلس.

وفي سنة ست عشرة وستمائة توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن محمد السلمي البلفيقي، ينتهي نسبه إلى العباس بن مرداس السلمي صاحب رسول الله ﷺ. كان أبو إسحاق رحمه الله من كبار العلماء العاملين، والزهاد المحققين، مثابراً على الاجتهاد والانقطاع إلى الله تعالى؛ وظهرت عليه ببلده المرية من عدوة الأندلس كرامات واجتمع عليه خلق كثير، وشاع ذكره هنالك؛ فوشوا به إلى الخليفة صاحب مراكش وهو يوسف المنتصر الموحدي، فكتب إلى عامله على المرية يأمره بتوجيهه الشيخ أبي إسحاق مكرماً غير مروع.

ولما عزم العامل على توجيهه قام العامة والأتباع دون الشيخ وأرادوا أن يحولوا بينه وبين العامل، فقال لهم الشيخ: «طاعة السلطان واجبة» ولما انتهى إلى مراكش ودخل على المنتصر هابه وجله وندم على ما كان منه إليه، ثم بالغ في إكرامه، وبعد ذلك مرض الشيخ أبو إسحاق وتوفي في السنة المذكورة واحتفل الناس لجنازته وحضرها الأمراء والكبراء، وكسر العامة نعشه واقتسموا أعواده تبركاً به، وقبره مشهور بمراكش بسوق الدقيق منها وبقرب ضريحه مسجد جامع ينسب إليه والعامة تقول جامع سيدي إسحاق بدون لفظ الكنية وليس كذلك.

وفي سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب وفيها ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المراكشي الدار عرف بابن الزيات كتابه المسمى «بالتشوف إلى رجال التصوف»، وذكر

فيه أنه لم يتعرض لذكر أحد من أولياء زمانه الأحياء غير أنه ذكر أن من جملة أولياء زمانه الذين كانوا قيد الحياة الشيخ الصالح الصوفي أبا محمد صالح بن ينضارن بن عفيان الدكالي ثم الماجري نزيل ربط آسفي. قال: وهو الآن يفتر من الجهاد، والمحافظة على المواصلة والأوراد، ومن كلامه الفقير ليس له نهاية إلا الموت، قال: وحدثني عنه تلامذته بعجائب من الكرامات والكلام على الخواطر؛ وهو على سنن المشايخ الأول رضي الله عنه.

وفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة توفي الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، وقيل فيما بعد ذلك إلى سنة خمس وعشرين؛ وتوفي رضي الله عنه شهيداً بجبل العلم من جبال غمارة وقبره هناك مشهور من أعظم مزارات المغرب.

وكان سبب شهادته أن محمداً بن أبي الطواجين الكتامي كان قد ثار بتلك البلاد وانتحل صناعة الكيمياء، ثم ادعى النبوة حسبما سلف وتبعه على ضلالته طغاة غمارة والبربر. فكان عدو الله يغص بمكان الشيخ رضي الله عنه، لما آتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم؛ فسول له الشيطان أنه لا يتم أمر مخرقته في تلك الناحية إلا بقتل الشيخ فدس له جماعة من أتباعه وأشياعه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته في سحر من الأسحار إلى عين هنالك قرب الجبل المذكور فتوضأ منها وولى راجعاً إلى محل عبادته وارتقاب فجره فعدوا عليه وقتلوه؛ ومن الشائع أنه ألقي عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودفعوا إلى شواهق ترددوا منها في مهاوي سحيقة تمزقت فيها أشلاؤهم ولم يرجع منهم خبر.

والشيخ عبد السلام هذا هو ابن مشيش بن أبي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بتشديد اللام بن مزوار بفتح الميم وبالراء المهملة أخيراً ابن حيدرة واسمه علي بن محمد بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وفي هذه السنة أيضاً استأسد العدو الكافر على المسلمين بالأندلس وتوالت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة واستولى على كثير من الحصون واستلحم منهم عدة ألوف حتى خلت المساجد والأسواق.

وفي سنة أربع وعشرين وستمائة اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس حتى بيع القفيز من القمح بخمسة عشرة ديناراً، وعم الجراد بلاد المغرب.

وفي سنة ست وعشرين وستمائة كان السيل العظيم بفاس هدم من سورها القبلي نحو مسافتين وهدم من جامع الأندلس ثلاثة بلاطات وهدم دوراً كثيرة وفنادق متعددة من عدوة الأندلس.

وفي سنة ثلاثين وستمائة كان الغلاء ببلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء حتى بلغ القفيز من القمح ثمانين ديناراً وخلت الأمصار من أهلها.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة عاود الغلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضاً وكان يدفن في الحفير الواحد المائة من الناس.

وفي سن ست وأربعين وستمائة وقع الحريق بأسواق فاس فاحترقت حارة باب السلسلة بأسرها إلى حمام الرحبة وبالله تعالى العصمة والتوفيق.

تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث أوله ابتداء دولة بني مرين

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (ق)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)

فهرس الأماكن

حرف (آ)

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

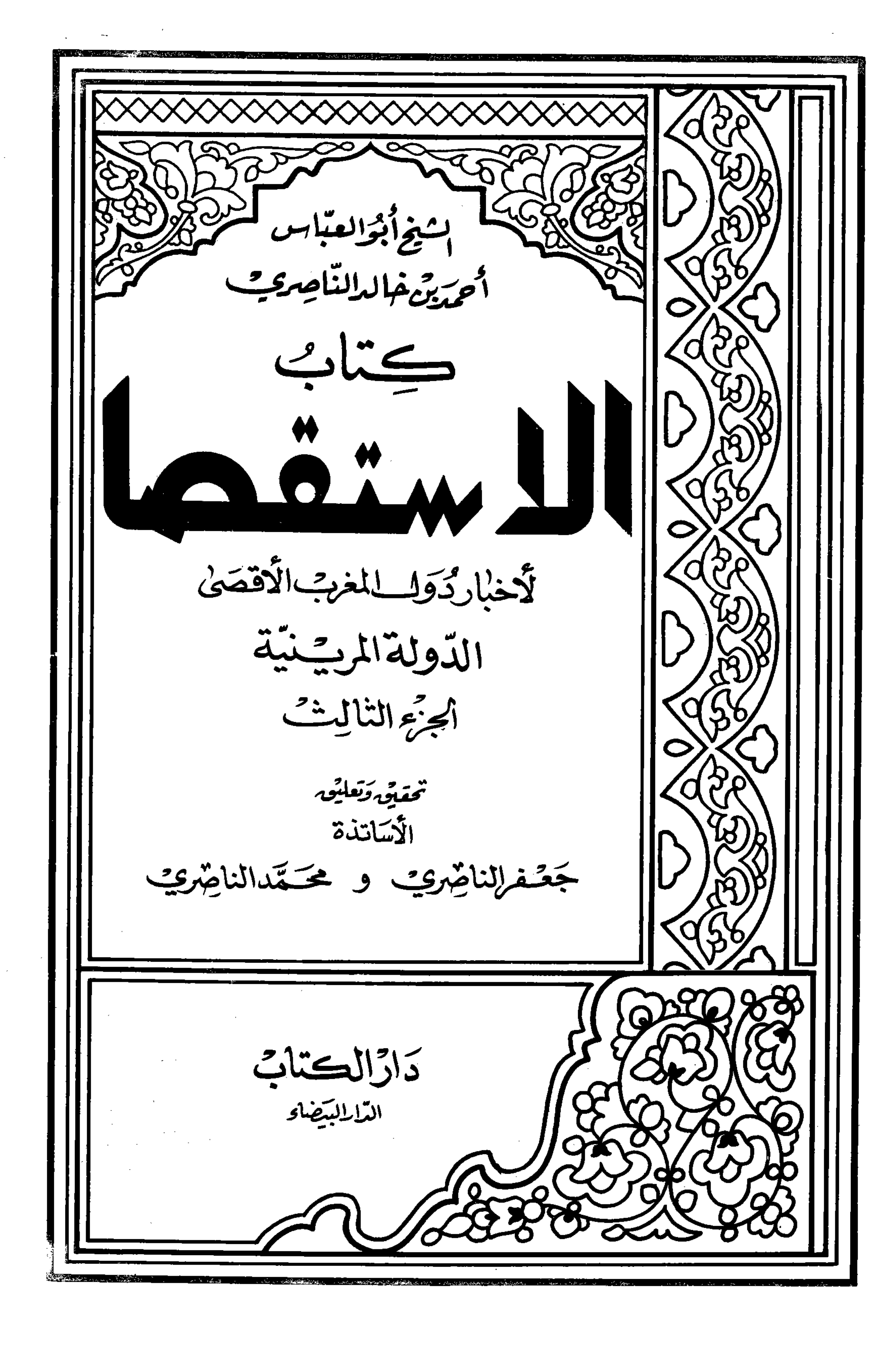
حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)







الشيخ أبو العباس
أحمد بن خالد النّاصري
كتاب
الاستقصا
لأخبار دول المغرب الأقصى
الدّولة المرينيّة
الجزء الثالث
تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري
دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدولة المرينية

الخبر عن دولة بني مرين ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم

اعلم أن العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمٰن بن خلدون رحمه الله قسم جيل زناتة إلى طبقتين، الطبقة الأولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس، وبنو يفرن ملوك سلا، وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى، والطبقة الثانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى، وهؤلاء هم الذين تعلق الغرض الآن بذكرهم.

فاعلم أن جيل زناتة في المغرب كما قال الرئيس المذكور جيل قديم معروف العين والأثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتقلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والإباية من الانقياد إلى النصفة، وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراطنون بها وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر، ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب.

فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم، قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذغنوا لحكمهم، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة، ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخر، وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فيجج إلى

سجلماسة إلى ملوية، وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب ويذكر نسابتهم أن الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزيز بن فكوس بن كرماط بن مرين، ومرين يتصل نسبه بزانا بن يحيى أبي الجيل.

وكان لمحمد المذكور سبعة من الولد اثنان منهم شقيقان وهم حمامة وعسكر وخمسة أبناء علات، وكان يقال لهم بلسان زناتة تيربعين ومعناه الجماعة.

ويزعمون أن محمد بن ورزيز لما هلك قام بأمره من قومه ابنه حمامة بن محمد وكان الأكبر من ولده.ثم من بعده شقيقه عسكر بن محمد ثم من بعده ابنه المخضب بن عسكر وهلك سنة أربعين وخمسمائة في بعض الحروب[1] التي كانت بين عبد المؤمن والمرابطين.

ثم قام بأمر بني مرين بعد المخضب ابن عمه أبو بكر بن حمامة بن محمد إلى أن هلك فقام بأمرهم ابنه أبو خالد محيو بن أبي بكر ولم يزل مطاعاً فيهم إلى أن استنفرهم يعقوب المنصور إلى غزوة الأرك بالأندلس فشهدوها وأبلوا فيها البلاء الحسن، وأصابت محيو بن أبي بكر يومئذٍ جراحات هلك منها بصحراء الزاب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان من رياسة عبد الحق ابنه من بعده وبقائها في عقبه ما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن دخول بني مرين أرض المغرب الأقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك

كان السبب في دخول بني مرين لهذا القطر المغربي أنه لما كانت وقعة العقاب بالأندلس سنة تسع وستمائة وهزم الناصر وهلك الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلاً وهلك الناصر سنة عشر بعدها فبايع

(1) انظر هذه الحروب في الذخيرة السنية صفحة 18 وما بعدها طبع الجزائر.

الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذٍ صبي حدث لا يحسن التدبير، وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هذه الأسباب على الدولة الموحدية فأضعفتها لحينها وأمرضتها المرض الذي كان سبباً لحينها، وكان بنو مرين يومئذٍ موطنين ببلاد القبلة من زاب إفريقية إلى سجلماسة، يتنقلون في تلك القفار والصحارى لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة ولا يؤدون إليها ضريبة كثيرة ولا قليلة ولا يعرفون تجارة ولا حرثاً إنما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات على أطراف البلاد.

وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون إليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم حتى إذا أقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم بأكرسيف ثم شدوا الرحلة إلى بلادهم فكان ذلك دأبهم على مر السنين.

فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى إذا أطلوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الأكناف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقلة راعيها مخضرة التلول والرُّبى لعدم غاشيها فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخصب والأمن وعدم المحامي والمدافع، فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم وحللهم وانتشروا في نواحي المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها ولجأت الرعايا إلى حصونها ومعاقلها وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسيط المغرب وسهله وانتجاع مواقع طله ووبله.

الخبر عن رياسة الأمير أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمه الله

لما دخل بنو مرين المغرب كان الأمير عليهم يومئذٍ عبد الحق بن

محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد المريني، فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم فرفعت الشكايات بهم إلى الخليفة بمراكش وهو يومئذٍ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهز لهم جيشاً كثيفاً من عشرين ألفاً وعقد عليه لأبي علي بن وانودين وكتب له إلى صاحب فاس السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن يأمره بالخروج معه لغزو بني مرين والإثخان فيهم وعدم الإبقاء عليهم مهما قدر على ذلك.

واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف وبلاد بطوية فتركوا أثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من أرض الريف وصمدوا إلى الموحدين فالتقى الجمعان بوادي نكور[1] فكان الظهور لبني مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم ورجع الموحدون إلى فاس يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة لكثرة الخصب يومئذٍ واعتمار الفدن بالزرع وأصناف الباقلي فسميت تلك السنة يومئذٍ بعام المشعلة وهي سنة ثلاث عشرة وستمائة، ثم زحف الأمير عبد الحق في ذي الحجة من السنة المذكورة بجموع بني مرين إلى رباط تازة[2] حتى وقف بإزاء زيتونها فخرج عاملها لحربه في جيش كثيف من الموحدين والعرب والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيوشه.

وجمع عبد الحق الأسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله في قبائل بني مرين، ولم يمسك منها لنفسه شيئاً وقال لبنيه: إياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيئاً فإنه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم.

(1) وتمت المعركة بحفص الوادي ما بين رباط تازا والمقرمدة (الذخيرة السنية ص 27 طبع الجزائر).

(2) راجع الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية صفحة 31 طبع الجزائر.

حرب بني مرين مع عرب رياح
ومقتل الأمير عبد الحق رحمه الله

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل في نفوس بني عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلال بني عمهم حمامة بن محمد بالرياسة دونهم، فخالفوا الأمير عبد الحق وعشيرته إلى مظاهرة الموحدين وأوليائهم من عرب رياح، وكانت رياح يومئذٍ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلاً ورجالاً لحدوث عهدهم بالعز والبداوة، فأغراهم الموحدون يومئذٍ ببني مرين لينتصفوا لهم منهم واتفقت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين بإقبال العرب والموحدين وبني عسكر إليهم، فاجتمعوا إلى أميرهم عبد الحق فقالوا له: ما ترى في أمر هؤلاء العرب المقبلين إلينا؟ فقال: يا معشر مرين أما ما دمتم في أمركم مجتمعين، وفي آرائكم متفقين وكنتم على حرب عدوكم أعواناً وفي ذات الله إخواناً، فلا أخشى أن ألقى بكم جميع أهل المغرب، وإن اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم فقالوا له: «إنا نجدد لك الآن بيعة على السمع والطاعة وأن لا نختلف عليك ولا نفر عنك أو نموت دونك فانهض بنا إليهم على بركة الله» فنهض الأمير عبد الحق في جموع بني مرين فكان اللقاء بمقربة من وادي سبو على أميال من تافرطاست فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها وقتل فيها الأمير عبد الحق وكبير أولاده إدريس.

ولما رأيت بنو مرين ما وقع بأميرها وابنه حميت وغضبت وأقسمت بأيمانها أن لا يدفن حتى يأخذوا بثاره فصمموا العزم لقتال رياح واستأنفوا الجد لقراعهم، وصبروا صبراً جميلاً فنصرهم الله على عدوهم فهزموا رياحاً وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وشردوهم في الشعاب والأودية ورؤوس الهضاب، واحتووا على ما كان في محلتهم من السلاح والخيل والأثاث، وقام بأمر بني مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان على ما نذكره إن شاء الله.

بقية أخبار الأمير عبد الحق وسيرته

قالوا كان الأمير عبد الحق المريني مشهوراً في قومه بالتقى والفضل والدين، موسوماً بالصلاح وصحة اليقين معروفاً بالورع والعفاف، موصوفاً في سيرته بالعدل والإنصاف يطعم الطعام ويكفل الأيتام ويؤثر المساكين، ويحنو على المستضعفين وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفة وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بهما في جميع أحياء زناتة، وكانوا يحملون فضلة وضوئه فيستشفون بها لمرضاهم وكان يسرد الصوم فلا يزال صائماً طول عمره في الحر والبرد لا يرى مفطراً إلا في أيام الأعياد، كثير الذكر والأوراد لا يفتر عنها في سائر الحالات متحرياً لأكل الحلال لا يقتات إلا من لحوم إبله وألبانها أو ما يعانيه من الصيد، معظماً في بني مرين مطاعاً فيهم يقفون عند أمره ولا يصدرون إلا عن رأيه.

حكى ابن أبي زرع عمن حدثه من الثقات: أنه قدم على أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق في وفد من أعيان فاس وفقهائها وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين وستمائة والأمير يعقوب يومئذٍ برباط الفتح يريد العبور إلى الأندلس برسم الجهاد قال: فجرى في مجلسه ذكر والده الأمير عبد الحق فقال الأمير يعقوب: «كان الأمير عبد الحق رحمه الله صادق القول إذا قال فعل وإذا عاهد وفى لم يحلف بالله قط باراً ولا حانثاً ولم يشرب مسكراً قط، ولا ارتكب فاحشة، تضع الحوامل ببركة إزاره متى عسرت عليهن الولادة وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل وإذا سمع بخبر صالح أو عابد قصد لزيارته، واستوهب منه الدعاء شديد الخوف من الصالحين متواضعاً لهم، وكان مع ذلك سماً لأعدائه قاهراً لهم وما وجدنا إلا بركته وبركة من دعا له من الصالحين».

قالوا: وكان الأمير عبد الحق في ابتداء أمره قليل الأولاد فرأى ذات ليلة في منامه كان شعلاً أربعاً من نار خرجن منه فعلون في جو المغرب ثم احتوين على جميع أقطاره، فكان تأويلها تمليك بنيه الأربعة من بعده وهذا

مثل الرؤيا التي رآها عبد الملك بن مروان من بوله في المحراب أربع مرات فكان تأويلها أن ولي الخلافة أربعة من بنيه الوليد وسليمان ويزيد وهشام.

وكان للأمير عبد الحق تسعة من الولد: إدريس وهو أكبرهم وقتل معه في حرب رياح وعثمان ومحمد وأبو بكر ويعقوب وهؤلاء الأربعة هم الذين ولوا الأمر بعده، وعبد الله وعبد الرحمٰن ويقال له بلسانهم رحو وزيان وأبو عياد وبنت هي العاشرة والله أعلم.

الخبر عن رياسة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله

لما فرغ بنو مرين من حرب رياح ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا إلى الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق وكان أكبر بني أبيه بعد إدريس فعزوه بمصاب أبيه وأخيه وبايعوه عن رضى منهم فاجتمعت عليه كلمتهم ولما فرغ الأمير أبو سعيد من تجهيز أبيه وأخيه ودفنهما أقسم أن لا يرجع عن حرب رياح حتى يثأر بمائة شيخ منهم فسار إليهم وأثخن فيهم حتى شفى نفسه وأذعنوا إلى الطاعة ولاذوا بالسلم، فسالمهم على إتاوة يؤدونها إليه كل سنة.

ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم إلى الاختلال وأشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال وتقلص ظل حكامهم عن البدو جملةً وفسدت السابلة واختلط المرعى بالهمل.

فلما رأى الأمير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف وما نزل برعايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين وندبهم إلى القيام بأمر الدين والنظر في مصالح المسلمين فأسرعوا إلى إجابته وبادروا لتلبية دعوته.

فسار بهم أبو سعيد في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ويتتبع تلوله ودروبه ويدعو الناس إلى طاعته والدخول في عهده وحمايته، فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدراً معلوماً من الخراج، ومن أبى عليه نابذه وأوقع به فبايعه من قبائل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وفشتالة ثم

سدراتة وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال، ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم.

ثم لما كانت سنة عشرين وستمائة غزا بلاد فازاز ومن بها من ظواعن زناتة فأثخن فيهم حتى أذعنوا للطاعة وقبض أيديهم عن إذاية الناس بالغارات والنهب في الطرقات.

ثم في سنة إحدى وعشرين بعدها غزا عرب رياح أهل أزغار وبلاد الهبط فأثخن فيهم حتى كاد يأتي عليهم ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علج له كان رباه صغيراً، فشب وسول له الشيطان الفتك به فترصد غرته وطعنه بحربة في منحره فمات لوقته سنة ثمان وثلاثين.

وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وإيثار مكرماً للفقهاء وأهل الصلاح سالكاً في ذلك سنن أبيه رحمه الله.

الخبر عن رياسة الأمير أبي معرّف محمد بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك الأمير أبو سعيد قام بالأمر بعده أخوه أبو معرّف محمد بن عبد الحق، فاقتفى سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته، وبعث الرشيد بن المأمون صاحب مراكش قائده أبا محمد بن وانودين لحرب بني مرين وعقد له على مكناسة فأجحف بأهلها في المغارم، ثم نزل بنو مرين في بعض الأحيان بنواحيها وأجلبوا عليها فنادى أبو محمد في عسكره وخرج إليهم فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين، وبارز محمد بن إدريس بن عبد الحق قائداً من قواد الفرنج فاختلفا ضربتين هلك العلج بإحداهما وجرح محمد بالأخرى فاندمل جرحه وصار أثراً في وجهه لقب من أجله بأبي ضربة، ثم شد بنو مرين على الموحدين فانكشفوا ورجع بن وانودين إلى مكناسة مفلولاً.

وبقي بنو عبد المؤمن من أثناء ذلك في مرض من الأيام وتثاقل عن الحماية ثم أومضت دولتهم إيماضة الخمود وذلك أنه لما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمائة وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد وبايعه أهل المغرب انصرفت عزائمه إلى غزو بني مرين، وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك المواطن فجهز عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفاً، فسمع الأمير أبو معروف بإقبالهم فاستعد لقتالهم وزحف إليهم فكان اللقاء بموضع يعرف بصخرة أبي بياش من أحواز فاس فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقان، ولما كان عشي النهار قتل الأمير أبو معرّف بن عبد الحق في الجولة بيد زعيم من زعماء الفرنج تحاملا فعثر فرس أبي معرّف به، وأمكنت العلج فيه الفرصة فاغتنمها وطعنه فمات، فانهزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملاً وأسروا طول ليلتهم بحللهم وعيالاتهم وأموالهم فأصبحوا بجبال غياثة من نواحي تازا فاعتصموا بها أياماً ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء وولوا عليهم أبا بكر بن عبد الحق على ما نذكره، وكانت هذه الوقعة وهلاك الأمير أبي معرّف عشية يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

هذا الأمير هو الذي رفع من راية بني مرين وسما بها إلى مرتبة الملك وكنيته أبو يحيى وهو أول من جند الجنود منهم، وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاد. بايعه بنو مرين بعد مهلك أخيه أبي معرّف في التاريخ المتقدم فكان أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه: أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بني مرين وأنزل كلاً منهم بناحية منه سوغهم إياها سائر الأيام طعمة لهم وأمر كل واحد من أشياخ بني مرين أن يستركب الرجل ويستلحق الأتباع فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم.

استيلاء الأمير أبي بكر على مكناسة وبيعة أهلها لابن أبي حفص بواسطته

ثم سار الأمير أبو بكر بمحلته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناسة إلى بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب إفريقية لأنه كان يومئذٍ على دعوته وفي ولايته، وحاصرها وضيق عليها بمنع المرافق وترديد الغارات إلى أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحاً بمداخلة أخيه يعقوب بن عبد الحق لزعيمها أبي الحسن بن أبي العافية وبعثوا ببيعتهم إلى الأمير أبي زكرياء الحفصي، وكانت البيعة من إنشاء أبي المطرف بن عميرة المخزومي وكان من أعلام ذلك العصر ومشاهيره، ولي القضاء لبني عبد المؤمن بمدينة سلا، ثم استقضوه بعدها بمكناسة فشهد هذه القضية وكتب البيعة.

ولما فتح الأمير أبو بكر مكناسة أقطع أخاه يعقوب ثلث جبايتها جزاء له على وساطته وكان فتح مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة، ثم آنس الأمير أبو بكر من نفسه الاستبداد ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة لذلك وسما بنفسه إلى مرتبة الملك وأعد له عدته وانتهى الخبر إلى السعيد صاحب مراكش بتغلب الأمير أبي بكر على مكناسة وصرفها لابن أبي حفص فوجم لها وفاوض الملأ من أهل دولته في أمره وأراهم كيف اقتطع الأمر عنهم شيئاً فشيئاً حتى لم يبق بيدهم إلا قرارة مراكش وما حولها بعد امتداد ظل ملكهم على المغربين وإفريقية والأندلس.

ثم نهض السعيد من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن بن زيان ثانياً ثم إفريقية وابن أبي حفص آخراً.

ولما وصل إلى وادي بهت عرض جيوشه وميزها واتصل الخبر بالأمير أبي بكر وهو بمكناسة فخرج وحده ليلاً يتجسس الأخبار ويستطلع أحوال السعيد وجموعه فتقدم حتى أشرف على محلة السعيد من كثب ولا علم

لأحد به فرأى ما لا طاقة له به ورأى من الرأي أن يتخلى للسعيد عن البلاد ولا يناجزه الحرب فلحق بمكناسة واستدعى بني مرين من أماكنهم التي عين لهم، فتلاحقوا به وساروا إلى قلعة تازوطا من بلاد الريف فتحصنوا بها.

وتقدم السعيد إلى مكناسة فتلقاه أهلها خاضعين مستشفعين إليه بشيوخهم وصبيانهم فعفا عنهم، ثم سار إلى فاس فنزل بظاهرها من ناحية القبلة وخرج إليه أشياخها فسلموا عليه وسألوه الدخول إلى البلد فتكرم عنهم وأبى، ثم ارتحل إلى رباط تازا فنزل بظاهرها وهناك بعث إليه الأمير أبو بكر ببيعته فقبلها وكتب له ولقومه بالأمان وكان فيما خاطبه به الأمير أبو بكر أن قال له: «ارجع يا أمير المؤمنين إلى حضرتك وأنا أكفيك أمر يغمراسن وأفتح لك تلمسان» فشاور السعيد خاصته في ذلك فقالوا: «لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الزناتي أخو الزناتي لا يسلمه ولا يخذله وإنا نخاف أن يصطلحا على حربك» فأسعفهم وكتب إلى الأمير أبي بكر يقول له: «أقم بموضعك وابعث إليّ بحصة من قومك» فأمده بخمسمائة من بني مرين وعقد عليها لابن عمه أبي عياد بن أبي يحيى بن حمامة.

وتقدم السعيد إلى تلمسان فكان من هلاكه على قلعة تامزردكت ما قدمناه في أخبار دولته، وكان الأمير أبو بكر لما نزل حصن تازوطا وأهل ذلك الحصن يومئذٍ هم بنو وطاس بطن من بني مرين أجمعوا الفتك به غيرة ونفاسة عليه فدس إليه بذلك بعض شيوخهم وأعلمه بما تواطؤوا عليه من غدره فارتحل الأمير أبو بكر عنهم إلى بني يزناسن وكانوا نازلين يومئذٍ بعين الصفا فأقام هنالك معهم حتى رجعت إليه الحصة التي كانت مع السعيد وأعلموه بمقتله وافتراق جموعه فانتهز الأمير أبو بكر الفرصة في فل الموحدين واعترضهم بأكرسيف فاستلبهم وانتزع الآلة من أيديهم وأدار إليه كتيبة الفرنج والناشبة من الأغزاز، واتخذ المركب الملوكي من يومئذٍ ثم أغذ السير إلى مكناسة فدخلها واستولى عليها وأقام بها أياماً ثم نهض إلى أعمال وطاط وحصون ملوية فافتتحها ودوخ جبالها وذلك أواخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة.

استيلاء الأمير أبي بكر على فاس وبيعة أهلها لها

لما فرغ الأمير أبو بكر من فتح حصون ملوية صرف عزمه إلى فتح فاس وانتزاعها من يد بني عبد المؤمن وكان العامل بها يومئذٍ السيد أبا العباس من بني عبد المؤمن فأناخ عليها الأمير أبو بكر بخيله ورجله وتلطف في مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكف الأذى عنهم، فأجابوه ووثقوا بعهده وغنائه وأووا إلى ظله وركنوا إلى طاعته وانتحال الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأساً من صريخهم فبايعوه بالرابطة خارج باب الشريعة وحضر هذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالي ونشده الله على الوفاء بما اشترط على نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم فكان حضوره ملاك تلك العقدة والبركة التي يتعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة.

ودخل الأمير أبو بكر مدينة فاس زوال يوم الخميس السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السعيد صاحب مراكش بشهرين، ولما دخل الأمير أبو بكر قصبة فاس أمن السيد أبا العباس عامل الموحدين بها وأخرجه من القصبة بعياله وأولاده وبعث معه سبعين فارساً يبلغونه إلى مأمنه فأجازوه وادي أم الربيع ورجعوا.

ثم نهض الأمير أبو بكر إلى منازلة تازا وبها يومئذٍ السيد أبو علي بن محمد أخو أبي دبوس فنازلها أربعة أشهر حتى نزلوا على حكمه فقتل بعضهم ومنّ على آخرين منهم وسد ثغورها وأقطع أخاه يعقوب بن عبد الحق رباط تازا وحصون ملوية ورجع إلى فاس فأقام بها نحو سنة واستقامت له الأمور، وقدمت عليه الوفود وأمر القبائل بالنزول في البسائط وعمارة القرى والمداشر وأمنت الطرقات وتحركت التجار ورخصت الأسعار وصلح أمر الناس واغتبطوا بولايته.

انتقاض أهل فاس على الأمير أبي بكر ومحاصرته إياهم

لما استولى الأمير أبو بكر على المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرنا نهض في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وستمائة إلى معدن العوام من بلاد فازاز لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها واستخلف على فاس مولاه السعود بن خرباش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وكان الأمير أبو بكر لما فتح فاساً استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المؤمن من غير نسبهم على الوجه الذي كانوا عليه من الخدمة مع الموحدين، وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين، وعليهم قائد منهم يقال له شريد الفرنجي فكانوا من حصة السعود هنالك، فوقعت بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس مداخلة وعزم الفاسيون على الفتك بالسعود وتحويل الدعوة إلى المرتضى فاجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمٰن المغيلي وفاوضوه في ذلك فوافقهم على رأيهم، فاستدعوا شريداً وقالوا له: «تقتل هذا الأسود وتضبط البلد حتى نكتب إلى المرتضى فيبعث إلينا من يقوم بأمرنا» فأجابهم إلى ذلك وكان ميله إلى الموحدين وهواه معهم لكونه صنيعتهم وكان الذي مشى في هذه الثورة وتولى كبرها المشرف ولد القاضي المذكور وابن جشار وأخوه وابن أبي طاط وولده.

فلما كانت صبيحة الثلاثاء الموفي عشرين من شوال سنة سبع وأربعين وستمائة طلع الأشياخ المذكورون إلى القصبة للسلام على السعود على عادتهم في ذلك فدخلوا عليه بمجلس حكمه وهاجوه ببعض المحاورات فغضب وانتهرهم فوثبوا به ونادوا بشعارهم وكان شريد الفرنجي واقفاً في عسكره أمام القصبة قد واطأهم على ذلك فاقتحم على السعود فقتله وقتل معه أربعين من رجاله واحتز العامة رأسه ورفعوه على عصا وطافوا به في أسواق البلد وسككها واقتحموا القصر فانتهبوه وسبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى صاحب مراكش واتصل الخبر بالأمير أبي بكر وهو منازل بلاد فازاز فأفرج عنها وأغذ السير إلى فاس فأناخ عليها بعساكره وشمر لحصارها وقطع المادة عنها.

وبعث أهل فاس إلى المرتضى بالصريخ فلم يرجع إليهم قولاً ولا ملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ولا وجد لكشف ما نزل بهم حيلة ولا وجهاً، سوى أنه استجاش على الأمير أبي بكر بيغمراسن بن زيان صاحب تلمسان وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته فأجابه يغمراسن إلى ذلك وطمع أن يكون ذلك سبباً له في تملك المغرب وسلماً للصعود إلى ذروة ملكه فاحتشد لحركته ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي بكر عن فاس وأهلها.

واتصل بالأمير أبي بكر خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته فاساً، فجمر الكتائب عليها وصمد إليه قبل فصوله عن تخوم بلاده فلقيه بوادي ايسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد.

ثم انكشفت بنو عبد الواد ونجا يغمراسن بن زيان إلى تلمسان برأس طمرة ولجام وترك محلته بما فيها فاحتوى عليها الأمير أبو بكر وانكفأ راجعاً إلى فاس للأخذ بمخنقها فوصل إليها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة وأناخ عليها بكلكله واستأنف الجد وأرهف الحد وشدد في الحصار وأيس أهل فاس من إغاثة المرتضى وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ولم يجدوا وليجة من دون مراجعة طاعة بني مرين فسألوا الأمير أبا بكر الأمان فبذله لهم على غرم ما أتلفوا له بالقصر من المال يوم الثورة وقدره مائة ألف دينار فتحملوها وأمكنوه من قياد البلد فدخلها في الثالث والعشرين من الشهر المذكور فأقام بها إلى رجب الموالي له وطالبهم بالمال فسوفوه وتلووا في المقال.

فلما رأى ذلك منهم قبض على جماعة من أشياخها وأمنائها وأثقلهم بالحديد وطالبهم بالمال والأثاث الذي انتهبوه من القصر فقال له شيخ يعرف بابن الخبا: «إنما فعل الذنب منا ستة فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ ولو فعل الأمير ما أشير به عليه لكان صواباً من الرأي» فقال: «وما ذلك؟» قال: «تعمد إلى هؤلاء النفر الستة الذين سعوا في الفتنة فتأخذ رؤوسهم وتشرد بهم من خلفهم ثم تأخذنا نحن بغرم المال» فقال: «لعمري لقد أصبت».

ثم أمر بالقاضي المغيلي وابنه وابن أبي طاط وابنه وابن جشار وأخيه فقتلوا ورفعت على الشرفات رؤوسهم وأخذ الباقين بغرم المال طوعاً وكرهاً قال ابن خلدون: «فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادها لأحكام بني مرين وضرب الرهب على قلوبهم فخشعت منهم الأصوات وانقادت منهم الهمم ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة» وكان مقتل النفر المذكورين خارج باب الشريعة يوم الأحد الثامن من رجب المذكور.

استيلاء الأمير أبي بكر على مدينة سلا ثم ارتجاعها منه وهزيمة المرتضى بعد ذلك

لما أكمل الله للأمير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسق أمر بني مرين بها رجع إلى ما كان فيه من منازلة بلاد فازاز فافتتحها ودوخ أوطان زناتة واقتضى مغارمهم وحسم علل الثائرين بها، ثم تخطى ذلك إلى مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها وتاخم الموحدين بثغرها، واستعمل عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق وعقد له على ذلك الثغر وضم الأعمال إليه.

وبلغ الخبر بذلك إلى المرتضى بمراكش فأهمه الشأن وأحضر الملأ من الموحدين وفاوضهم واعتزم على حرب بني مرين وسرح العساكر سنة خمسين وستمائة فأحاطت بسلا ثم افتتحوها وعادت إلى طاعة المرتضى وعقد عليها لأبي عبد الله بن يعلو من مشيخة الموحدين ثم أجمع المرتضى النهوض بنفسه إلى بني مرين فبعث في المدائن والقبائل حاشرين فأهرعت إليه أمم الموحدين والعرب والمصامدة وغيرهم وفصل من مراكش سنة ثلاث وخمسين وستمائة في نحو الثمانين ألفاً، ووالى السير حتى انتهى إلى جبال بهلولة من نواحي فاس وصمد إليه الأمير أبو بكر في عساكر بني مرين ومن اجتمع إليهم من ذويهم.

والتقى الجمعان هنالك وصدقهم بنو مرين الجلاد فاختل مصاف الموحدين وانهزمت عساكر المرتضى وأسلمه قومه ورجع إلى مراكش مفلولاً، واستولى بنو مرين على معسكره واستباحوا سرادقه وانتهبوا فساطيطه وغنموا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة واستاقوا سائر الكراع والظهر، وامتلأت أيديهم من الغنائم واعتز أمرهم وانبسط سلطانهم وكان يوماً له ما بعده، وفي القرطاس أن انهزام جيش المرتضى في هذه المرة كان عن جولان فرس بين أخبيتهم ليلاً فحسبوا أن بني مرين قد أغاروا عليهم فانهزموا لا يلوون على شيء والله أعلم.

ثم غزا الأمير أبو بكر بعد هذا بلاد تادلا فاستباح حاميتها من بني جابر عرب جشم واستلحم أبطالهم وألان من جدهم وخضد من شوكتهم وفي خلال هذه الحروب كان مقتل علي بن عثمان بن عبد الحق وهو ابن أخي الأمير أبي بكر شعر منه بفساد الدخيلة والإجماع للتوثب على الأمر فدس لابنه أبي حديد مفتاح بن أبي بكر بقتله فقتله في جهات مكناسة سنة إحدى وخمسين وستمائة والله تعالى أعلم.

استيلاء الأمير أبي بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة

لما كانت سنة خمس وخمسين وستمائة نهض الأمير أبو بكر إلى محاربة يغمراسن بن زيان وسمع به يغمراسن فنهض إليه أيضاً، فكان اللقاء بأبي سليط فاقتتلوا وانهزم يغمراسن واعتزم الأمير أبو بكر على اتباعه فثناه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع.

ولما انتهى إلى المقرمدة من أحواز فاس بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لمداخلة كانت له من بعض أهلها وعورة أطمعته في ملكها فأسرع الأمير أبو بكر السير بجموعه إلى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراسن إليها بيوم، ثم جاء يغمراسن حتى نزل خارجها بباب تاحسنت وسقط في يده ويئس من غلبة الأمير أبي بكر عليها ودارت بينهما حرب تكافأ

الفريقان فيها وهلك سليمان بن عثمان بن عبد الحق ابن أخي الأمير أبي بكر، وانقلب يغمراسن إلى بلده وعقد الأمير أبو بكر على سجلماسة ودرعة وسائر بلاد القبلة ليوسف بن يزكاسن واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وجعل مسلحة الجند بها لنظر أبي يحيى القطراني وملكه قيادتهم وانكفأ راجعاً إلى فاس والله تعالى أعلم.

وفاة الأمير أبي بكر رحمه الله

لما رجع الأمير أبو بكر من حرب يغمراسن على سجلماسة أقام بفاس أياماً ثم نهض إلى سجلماسة أيضاً متفقداً لثغورها فانقلب منها عليلاً ووصل إلى فاس فتوفي بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة ودفن داخل باب الجيزيين من أبواب عدوة الأندلس بإزاء الشيخ أبي محمد الفشتالي حسبما أوصى بذلك وتصدى للقيام بالأمر بعده ابنه عمر على ما نذكره.

الخبر عن دولة أبي حفص الأمير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

لما مات الأمير أبو بكر رحمه الله اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للأمر وتباروا في خدمته، ومالت المشيخة وأهل العقد والحل إلى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائباً عند مهلك أخيه بتازا فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر، وأحس عمر بميل الناس إلى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة، ثم سعى الناس في الإصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الأمر ودفعه إلى ابن أخيه على أن تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه إياها أخوه من قبل، فانفصلوا على ذلك وخلص الأمر لعمر واستمر بفاس أشهراً إلى أن غلب عليه عمه المذكور حسبما نقص عليك.

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

هذا السلطان جليل القدر عظيم الشأن وهو سيد بني مرين على الإطلاق وستسمع من أخباره الحسنة ما يستغرق الوصف ويستوقف السمع والطرف وهو رابع الإخوة الأربعة الذين ولوا الأمر بالمغرب من بني عبد الحق وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت علي البطوي رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد إلى السماء وأشرق نوره على الأرض فقصت رؤياها على أبيها فسار إلى الشيخ الصالح أبي عثمان الورياكلي فقصها عليه فقال: إن صدقت رؤياها فستلد ملكاً عظيماً فكان كذلك. ولما انفصل الأمير يعقوب بن عبد الحق عن ابن أخيه عمر بولاية تازا وما أضيف إليها اجتمع إليه كافة بني مرين وعذلوه فيما كان منه من التخلي عن الملك وحملوه على العود في الأمر ووعدوه من أنفسهم المظاهرة والنصر إلى أن يتم أمره فأجاب وبايعوه وصمد إلى فاس فبرز الأمير عمر للقائه.

ولما تراءى الجمعان خذل عمر جنوده وأسلموه فرجع إلى فاس مفلولاً ووجه الرغبة إلى عمه أن يقطعه مكناسة وينزل له عن الأمر، فأجابه إلى ذلك ودخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة سبع وخمسين وستمائة ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وما بين سجلماسة وقصر كتامة واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياماً ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة من إمارته فكفى الأمير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملكه.

وكان يغمراسن بن زيان لما سمع بموت قرنه الأمير أبي بكر سما له أمل في الإجلاب على المغرب فجمع لذلك قومه من بني عبد الواد واستظهر ببني توجين ومغراوة ووعدهم ومناهم وأطمعهم في غيل الأسد، ثم نهض بهم إلى المغرب حتى إذا انتهوا إلى كلدمان صمد إليهم الأمير يعقوب ففلهم وردهم على أعقابهم ومر يغمراسن في طريقه بتافرسيت من بلاد بطوية فأحرق

وانتسف واستباح وأعظم النكاية ورجع الأمير يعقوب إلى فاس واقتفى مذهب أخيه الأمير أبي بكر في فتح أمصار المغرب وتدويخ أقطاره وكان مما أكرمه الله به أن فتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي نصارى الإصبنيول فكان له بها أثر جميل وذكر خالد رحمه الله.

استيلاء نصارى الإصبنيول على مدينة سلا وإيقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها

كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله عمه الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها كما ذكرناه ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مترصداً للفرصة وإمكانها فيها ولما بويع عمه السلطان يعقوب بن عبد الحق آسفته بعض الأحوال منه فذهب مغاضباً حتى نزل عين غبولة وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا ليعتدهما ذريعة لما أسر في نفسه من التوثب على الأمر فتمت له الحيلة وملك سلا وركب عاملها أبو عبد الله بن يعلو البحر فاراً إلى آزمور وخلف أمواله وحرمه، فتملك يعقوب بن عبد الله ذلك وتمكن من البلد وجاهر بالخلع، وصرف إلى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقوبين.

وداخل يعقوب سلا تجار الحرب من الإصبنيول في الإمداد بالسلاح فتباروا في ذلك وكثرت سفن المترددين منهم إليها حتى كثروا أهلها وزاد عددهم فعزموا على الثورة بها واهتبلوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وثاروا بسلا في اليوم الثاني من شوال فوضعوا السيف في أهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم وانتهبوا الأموال وكان الحادث بها عظيماً وضبطوا البلد وتحصن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح.

وطار الصريخ إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذٍ بمدينة تازا

دخلها أوائل شعبان من السنة المذكورة لاستشراف أحوال يغمراسن بن زيان فوصل إليه الخبر في اليوم الرابع من شوال المذكور فنهض السلطان يعقوب من فوره بعد أن صلى العصر بتازا من ذلك اليوم فأسرى ليلته تلك في نحو الخمسين فارساً ومن الغد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة، وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان لصدق عزمه وحسن نيته وإلا فالمسافة ما بين تازا وسلا ست مراحل أو أكثر، ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل المتطوعة من جميع آفاق المغرب فحاصر النصارى بها وضيق عليهم ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحمها عليهم عنوة لأربع عشرة ليلة من حصارها وأثخن فيهم بالقتل ونجا من نجا منهم إلى سفنهم فنشروا قلوعهم وذهبوا يلتفتون وراءهم، ثم شرع السلطان يعقوب رحمه الله في بناء السور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها فإنها كان لا سور لها من تلك الجهة من أيام عبد المؤمن بن علي فإنه كان قد هدم أسوار قواعد المغرب مثل فاس وسبتة وسلا حسبما قدمنا الخبر عنه في دولته ومن هذه الثلمة كان دخول النصارى إلى سلا فشرع السلطان يعقوب رحمه الله في بنائه فبناه من أول دار الصناعة قبلة إلى البحر جوفاً وكان رحمه الله يقف على بنائه بنفسه ويناول الحجر بيده ابتغاء ثواب الله وتواضعاً وسعياً في صلاح المسلمين حتى تم السور المذكور على أحصن وجه وأكمله.

ودار الصناعة المذكورة في هذا الخبر هي الدار التي كانت تصنع بها الأساطيل البحرية والمراكب الجهادية يجلب إليها العود من غابة المعمورة فتصنع هنالك ثم ترسل في الوادي وكان ذلك من الأمر المهم في دولة الموحدين حسبما سلف قال في الجذوة: «دار الصناعة بسلا بناها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل إشبيلية وكان من العارفين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الأجرام ورفع الأثقال بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية» اهـ.

وأما يعقوب بن عبد الله الثائر فإنه خشي بادرة السلطان يعقوب بن

عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه ثم نهض إلى بلاد تأمسنا فاستولى عليها وملك مدينة آنفى وهي المسماة الآن بالدار البيضاء، فضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته وسار هو إلى لقاء يغمراسن فلقيه وعقد معه المهادنة وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه بنو أخيه إدريس على ما نذكره.

خروج بني إدريس بن عبد الحق على عمهم السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

قد تقدم لنا أن الأمير عبد الحق المريني كان له تسعة من الولد أكبرهم إدريس وقتل مع والده في حرب رياح وكان لإدريس هذا عدة أولاد بقوا في كفالة أعمامهم ولما أفضى الأمر إلى السلطان يعقوب وكان أولاد إدريس قد ملكوا أمر أنفسهم واشتدت شكيمتهم فنفسوا عليه ما آتاه الله من الملك ورأوا أنهم أحق به منه لأن أباهم هو الأكبر من ولد عبد الحق كما مر فخرجوا على عمهم يعقوب ولحقوا بقصر كتامة وتابعوا ابن عمهم يعقوب بن عبد الله على رأيه واجتمعوا إلى كبيرهم محمد بن إدريس بن عبد الحق وانضم إليه من كان على رأيهم من عشيرتهم ومواليهم واعتصموا بجبال غمارة فنهض إليهم السلطان يعقوب وتلطف بهم حتى استنزلهم واسترضاهم وعقد لعامر بن إدريس منهم سنة ستين وستمائة على عسكر من ثلاثة آلاف فارس أو يزيدون من المتطوعة من بني مرين وأغزاهم الأندلس لجهاد العدو بها وحملهم وفرض لهم في العطاء وشفع بهذه الفعلة الحسنة عمله في واقعة سلا وهو أول جيش عبر البحر إلى الأندلس من بني مرين فكان لهم في الجهاد والمرابطة مواقف مذكورة ومقامات محمودة تبع الخلف فيها السلف ودام ذلك فيهم برهة من الدهر وقاموا عن أهل المغرب والأندلس بهذا الواجب العظيم رحمهم الله وجزاهم عن المسلمين خيراً.

وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فإنه أقام خارجاً بالنواحي متنقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان يعقوب على ساقية غبولة من ناحية رباط الفتح سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان يعقوب أمره.

حصار السلطان يعقوب حضرة مراكش ونزوع أبي دبوس منها إليه وهلاك المرتضى بعد ذلك

لما فرغ السلطان يعقوب من شأن الخارجين عليه من عشيرته أجمع رأيه لمنازلة المرتضى والموحدين في دارهم وحضرتهم ورأى أنه أوهن لشوكتهم وأقوى لأمره عليهم، فبعث في قومه وحشد أهل مملكته واستكمل التعبئة وسار سنة ستين وستمائة حتى انتهى إلى جبل جيليز فشارف دار الخلافة ونزل بعقرها وأخذ بمخنقها وخفقت ألويته على جنباتها، وعقد المرتضى على حربه لأبي دبوس إدريس بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن فعبأ كتائبه ورتب مصافه وبرز لمدافعتهم ظاهر الحضرة فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها هلك فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ففت مهلكه في عضدهم وارتحلوا عنها إلى أعمالهم واعترضتهم عساكر الموحدين بوادي أم الربيع وعليهم يحيى بن عبد الله بن وانودين فاقتتلوا في بطن الوادي وانهزمت عساكر الموحدين هزيمة شنعاء وتركوا الأموال والأثاث فاحتوى بنو مرين على ذلك كله وهي واقعة أم الرجلين.

ثم سعى سماسرة الفتن عند الخليفة المرتضى في ابن عمه وقائد حربه أبي دبوس بأنه يطلب الأمر لنفسه وشعر هو بالسعاية في جانبه فخشي بادرة المرتضى ولحق بالسلطان يعقوب سنة إحدى وستين وستمائة عند دخوله إلى فاس من محاصرته مراكش فأقام عنده ملياً ثم سأله الإعانة على أمره بعسكر يمده به وآلة يتخذها لملكه ومال يصرفه في ضرورياته، على أن يشركه في

الفتح والغنيمة والسلطان فأمده السلطان يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين وبالمستجاد من الآلة والكفاية من المال وأهاب له بالعرب والقبائل من أهل مملكته وغيرهم أن يكونوا معه يداً واحدة حتى يبلغ مراده في فتح مراكش، وسار أبو دبوس في الكتائب حتى شارف الحضرة ودس إلى أشياعه من الموحدين بأمره فثاروا بالمرتضى فكان من فراره إلى آزمور ونزوله على صهره ابن عطوش ومقتله على يده ما قدمنا ذكره في دولته، واستتب أمر أبي دبوس بمراكش وثبت قدمه بها فبعث إليه السلطان في الوفاء بالمشارطة فاستنكف واستكبر ونقض العهد وأساء الرد فنهض إليه السلطان يعقوب في جموع بني مرين وعساكر المغرب فخام عن اللقاء واعتصم بالأسوار فزحف إليه السلطان يعقوب وحاصره أياماً ثم سار في الجهات والنواحي يحطم الزروع وينسف الأقوات وعجز أبو دبوس عن مدافعته فاستجاش عليه بيغمراسن بن زيان ليفت في عضده ويشغله عما أمامه بما وراءه فكان ما نذكره.

وقعة تلاغ بين يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما نزل السلطان يعقوب حضرة مراكش وربض على ترائبه للتوثب عليها لم يجد أبو دبوس ملجأ من دون الاستظهار عليه بيغمراسن بن زيان ليأخذ بحجزته عنها فبعث إليه بالصريخ في ذلك وأكد العهد وأسنى الهدية فشمر يغمراسن لاستنقاذه وجذب السلطان يعقوب عنه من خلفه بشن الغارات على ثغور المغرب وإيقاد نار الفتنة بها، فهاج عليه من السلطان يعقوب ليث عادياً وأرهف منه حدّاً ماضياً فأفرج للوقت عن مراكش ورجع عوده على بدئه يريد تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان فنزل فاساً وتلوم بها أياماً حتى أخذ أهبة الحرب وعدة النزال ثم نهض إلى تلمسان منتصف محرم سنة ست وستين وستمائة وسلك على أكرسيف ثم على تافرطاست.

وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ وعبأ كل منهما كتائبه ورتب مصافه وبرز النساء في القباب سافرات على سبيل التحريش والتحريض والتحم القتال وطال القراع والنزال، ولما فاء الفيء ومال النهار وكثرت حشود بني مرين جموع بني عبد الواد ومن إليهم انكشفوا ومنحوا العدو أكتافهم وهلك في الحومة أبو حفص عمر بن يغمراسن بن زيان وكان كبير أولاده وولي عهده وهلك معه جماعة من عشيرته، ولما انهزم بنو عبد الواد بقي يغمراسن في ساقتهم حامياً لهم من بني مرين أن تركبهم من خلفهم فكان ردءاً لهم إلى أن وصلوا إلى بلادهم، وكانت وقعة تلاغ يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الأخيرة من السنة المذكورة ورجع السلطان يعقوب إلى مكانه من حصار مراكش والله غالب على أمره.

فتح حضرة مراكش ومقتل أبي دبوس وانقراض دولة الموحدين بها

لما قفل السلطان يعقوب من حرب يغمراسن صرف عزمه إلى غزو مراكش والعود إلى حصارها كما كان أول مرة فنهض إليها من فاس في شعبان سنة ست وستين وستمائة ولما عبروا وادي أم الربيع بث السرايا وشن الغارات وأطلق الأعنة والأيدي للنهب والعيث فحطموا زروعها وانتسفوا آثارها وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه، ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا فأثخن فيهم واستباحهم، ثم نزل وادي العبيد فأقام هنالك أياماً ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحها ولم يزل ينقل ركابه في أحواز مراكش ويجوس خلالها إلى آخر ذي القعدة من سنة سبع وستين وستمائة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبي دبوس وقالوا له: «يا مولانا كم تقعد عن حرب بني مرين وقد ترى ما نزل بنا في حريمنا وأموالنا منهم فاخرج بنا إليهم لعل الله يجعله سبب الفتح فإنهم قليلون وجمهورهم وذوو الشوكة منهم قد بقوا

برباط تازا لحراسة ذلك الثغر من بني عبد الواد ولم يزالوا يفتلون له في الذورة والغارب حتى أجابهم إلى رأيهم فاستعد للحرب وبرز من حضرة مراكش في جيوش ضخمة وجموع وافرة، فاستجره السلطان يعقوب بالفرار أمامه ليبعد عن مدد الصريخ فيستمكن منه، فلم يزل أبو دبوس يسعى خلفه حتى نزل ودغفوا فحينئذٍ كر عليه السلطان يعقوب فالتحمت الحرب واختل مصاف أبي دبوس وفر يسابق إلى مراكش وأين منه مراكش فأدركته الخيول وحطمته الرماح فخر صريعاً واحتز رأسه وجيء به إلى السلطان يعقوب فسجد شكراً لله تعالى وذلك يوم الأحد ثاني محرم سنة ثمان وستين وستمائة، ثم تقدم السلطان يعقوب نحو مراكش وفر من كان بها من الموحدين إلى تينملل وبايعوا إسحاق أخا المرتضى فبقي ذبالة هنالك إلى أن قبض عليه سنة أربع وسبعين وستمائة وجيء به في جماعة من قومه إلى السلطان يعقوب فقتلوا جميعاً وانقرض أمر بني عبد المؤمن والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ثم خرج الملأ وأهل الشورى من الحضرة إلى لقاء السلطان يعقوب ففرح بهم وأمنهم ووصلهم، ودخل مراكش في عسكر ضخم وموكب فخم يوم الأحد التاسع من محرم المذكور وورث ملك آل عبد المؤمن وتملاه واستوسق أمره بالمغرب وتطامن الناس لبأسه وسكنوا لظل سلطانه، وأقام بمراكش إلى رمضان من سنته ثم أغزا ابنه الأمير أبا مالك عبد الواحد بن يعقوب بلاد السوس فافتتحها وأوغل في ديارها ودوخ أقطارها ورجع إلى أبيه واستمر السلطان يعقوب بمراكش يصلح شؤونها إلى رمضان من سنة تسع وستين وستمائة فخرج بنفسه إلى بلاد درعة فأوقع بعربها الوقيعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته، ثم أجمع الرحلة إلى دار ملكه بفاس فعقد على مراكش لمحمد بن علي بن يحيى من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته وكان من طبقة الوزراء وأنزله بقصبة مراكش وجعل المسالح في أعمالها لنظره وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن وفصل من مراكش قاصداً حضرة فاس في شوال من السنة المذكورة والله تعالى أعلم.

مراسلة السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصي للسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمهما الله

كانت دولة بني أبي حفص أصحاب تونس وإفريقية فرعاً من دولة بني عبد المؤمن وشعبة منها حسبما نبهنا عليه غير مرة، ولما ضعفت دولة بني عبد المؤمن بمراكش والمغرب كان صاحب إفريقية أبو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الهنتاتي يأمل الاستيلاء عليها والتملك لها ويتمنى ذلك لو ساعده القدر لأنه كان يرى أنه أولى بتلك الحضرة من غيره حتى من بني عبد المؤمن لأنها أرض سلفه وموطن أصله وعشيرته لأن عمالة مراكش لم تعرف إلا للمصامدة من قديم الزمان وقبيلة هنتاتة هي صميمها وذؤابتها فبهذا ونحوه كان بنو أبي حفص يتطاولون إلى ملك مراكش، ولما نبغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون إلى أبي زكرياء الحفصي تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم فلو دعوا إلى غيرها من أول الأمر لحاصوا عنها حيصة حمر الوحش، ولما لم يمكن بني مرين أن يدعوا إلى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم وإياهم ينازعون ولهم يحاربون ويجالدون دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم والدعوة إلى الفرع كالدعوة إلى أصله، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها وإنما كان بنو مرين يسرون من ذلك حسواً في ارتغاء ولهذا لما استقل السلطان يعقوب بالأمر وتمكن له السلطان بالمغرب قطع دعوة الحفصيين حالاً بعد أن كان أولاً يدعو إليها هو وإخوته من قبله وكان بنو أبي حفص ينشطون لذلك ويهادون بني مرين ويمدونهم بالمال والسلاح وغير ذلك ولما عزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش كتب إلى أبي عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص يخبره بذلك ويستمده حتى

كأنه نائب عنه لا غير وأرسل بكتابه مع ابن أخيه عامر بن إدريس بن عبد الحق في جماعة من وجوه دولته فأكرم المستنصر وفادتهم، ثم لما فتح السلطان يعقوب مراكش واستولى عليها بعث إليه المستنصر بهدية فيها من أصناف الخيل الجياد والسلاح والثياب الرفيعة ما اختاره واستحسنه وبعث بذلك مع جماعة من وجوه دولته أيضاً وفيهم الكاتب أبو عبد الله محمد الكناني فتلطف الكاتب المذكور في ذكر المستنصر على منبر مراكش حتى تم له ذلك بمحضر وفد الموحدين فعظم سرورهم وانقلبوا إلى صاحبهم بالخبر واتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر والسلطان يعقوب سائر أيامهم، ولما هلك المستنصر وبويع ابنه أبو زكرياء يحيى المدعو بالواثق اقتفى سنن أبيه في ذلك فبعث إلى السلطان يعقوب بهدية حافلة مع قاضي بجاية أبي العباس الغماري سنة سبع وسبعين وستمائة فعظم موقعها من السلطان يعقوب وكان لأبي العباس الغماري هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به دهراً وقطع السلطان يعقوب لأول أمره الدعوة إلى الحفصيين كما قلنا والله تعالى أعلم.

عقد السلطان يعقوب ولاية العهد لابنه أبي مالك بسلا وما نشأ عن ذلك من خروج قرابته عليه

كان السلطان يعقوب حين خرج من مراكش بعد فتحها قاصداً حضرة فاس دار ملك بني مرين اجتاز بمدينة سلا فأراح بها أياماً فطرقه مرض وعك منه وعكاً شديداً، فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لأكبر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليهم جميعاً فأعطوها طواعية وعز ذلك على القرابة من بني عبد الحق وهم أولاد سوط النساء بنو إدريس بن عبد الحق وبنو عبد الله بن عبد الحق وبنو رحو بن عبد الحق وإنما قيل لهم أولاد سوط النساء لأن هؤلاء الثلاثة من بني عبد الحق كانوا أشقاء أمهم اسمها سوط النساء، فلما بايع السلطان

يعقوب لابنه أبي مالك بولاية العهد آسفهم ذلك لأنهم كانوا يرون أنهم أحق بالأمر حسبما سلف فارتدوا على أعقابهم وقلبوا لعمهم ظهر المجن وعادت هيف إلى أديانها وأسروا من ليلتهم من سلا ولم يصبحوا إلا بجبل علودان من بلاد غمارة عش خلافهم ومدرج فتنتهم وكان ذلك في عيد الفطر من سنة تسع وستين وستمائة وانضم إليهم بنو أبي عياد بن عبد الحق وشايعوهم على رأيهم، فخرج السلطان يعقوب في أثرهم وقدم بين يديه ابنه الأمير يوسف بن يعقوب في خمسة آلاف فأحاط بهم وأخذ بمخنقهم ولحق به أخوه أبو مالك في عسكره ومعه مسعود بن كانون شيخ سفيان ثم لحق بهم السلطان يعقوب في عساكره فحاصروهم ثلاثة ولما رأوا أن قد أحيط بهم سألوا الأمان فبذله لهم وأنزلهم ومسح صدورهم واسترضاهم واستل سخائمهم ووصل بهم إلى حضرته فسألوا منه الإذن في اللحاق بتلمسان حياء مما ارتكبوه من الخلاف فأذن لهم فأجازوا البحر إلى الأندلس وخالفهم عامر بن إدريس لما آنس من ميل عمه إليه فبقي بتلمسان حتى توثق لنفسه بالعهد وعاد إلى قومه بعد منازلة السلطان يعقوب لتلمسان حسبما نذكره عن قريب.

قال ابن خلدون: «واحتل هؤلاء القرابة من بني عبد الحق بأرض الأندلس على حين أقفر من الحامية جوها واستأسد العدو علىَ ثغورها وتحلبت شفاهه لالتهامها، فتبوءوها أسوداً ضارية وسيوفاً ماضية معودين لقاء الأبطال وقراع الحتوف والنزال مستغلظين بخشونة البداوة وصرامة العز وبسالة التوحش فعظمت نكايتهم في العدو واعترضوا في صدره سجى دون الوطن الذي كان طعمة له في ظنه وارتدوه على عقبه ونشطوا من همم المسلمين المستضعفين وراء البحر وبسطوا من آمالهم لمدافعة طاغيتهم وزاحموا أمير الأندلس في رياستها بمنكب قوي فتجافى لهم عن خطة الحرب ورياسة الغزاة من أهل العدوة من أعياصهم وغيرهم من أمم البربر وثافنوه في مستقر عزه وساهموه، في الجباية بفرض العطاء والديوان فبذله لهم واستعدوا على العدو وحسن أثرهم فيه حسبما تلمع بالبعض من ذلك إن شاء الله.

هجوم النصارى على العرائش وتيشمس من ثغور المغرب

لما كان المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة هجم النصارى على مدينة العرائش وتيشمس من ثغور العدوة المغربية فقتلوا رجالها وسبوا نساءها وانتهبوا أموالها وأضرموها ناراً ورجعوا عودهم على بدءهم فركبوا أجفانهم ولحقوا ببلادهم ولم تنلهم شوكة السلطان يعقوب لأنه كان مشغولاً بفتح مراكش في التاريخ المذكور ولم يبين في القرطاس هؤلاء النصارى من هم.

وقعة إيسلي بين السلطان يعقوب ابن عبد الحق ويغمراسن بن زيان

لما أنعم الله على السلطان يعقوب بامتداد ظل ملكه في أقطار المغرب ونواحيه ونفوذ كلمته في حواضره وبواديه وتمم له الصنع بفتح مراكش ووراثة كرسي بني عبد المؤمن بها وعاد إلى فاس كما قلنا تحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن بن زيان وما آسفه به من تخذيل عزائمه ومجاذبته عن قصده ورأى أن وقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجدته فأجمع أمره لغزوه ونشطه لذلك ما صار إليه من الملك وسعة السلطان، فحشد جميع أهل المغرب وعزم على استئصاله وقطع دابره فعسكر بفاس وبعث ولده أبا مالك إلى مراكش في جماعة من خواصه حاشرين في مدائنها وضواحيها، فاجتمع عليه من قبائل العرب والمصامدة وصنهاجة وبقايا عساكر الموحدين بالحضرة وحامية الأمصار من جند الفرنج وناشبة الغزو، استكثر من ذلك كله واحتفل السلطان يعقوب بفاس كذلك، ثم نهض منها غرة صفر سنة سبعين وستمائة فسار حتى نزل وادي ملوية فأقام عليه أياماً حتى لحقه ابنه أبو مالك في جموعه وتوافت لديه أمداد العرب من قبائل جشم أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الأثبج وقبائل ذوي حسان والشبانات من معقل أهل السوس الأقصى وقبائل رياح أهل أزغار وبلاد الهبط، فعرض هنالك عساكره وميزها ورتبها فيقال إنها بلغت ثلاثين ألفاً

وارتحل يريد تلمسان.

ولما انتهى إلى أنكاد قدمت عليه رسل ابن الأحمر ووفد أهل الأندلس يستصرخونه على العدو ويسألونه الإعانة والنصر ويخبرونه بأنه قد كلب عليهم وشره لالتهام بلادهم فتحركت همته رحمه الله للجهاد ونصر المسلمين وإغاثة المستضعفين منهم، ونظر في صرف الشواغل عن ذلك وجنح للسلم مع يغمراسن وعزم عليها واستشار الملأ من أشياخ العرب، وبني مرين في ذلك فصوبوا رأيه لما كانوا عليه أيضاً من إيثار الجهاد ومحبته، فبعث السلطان يعقوب جماعة من أشياخ القبائل إلى يغمراسن يدعونه إلى الصلح واجتماع الكلمة وقال لهم في جملة قوله: «إن الصلح خير كله فإن جنح يغمراسن إليه وأناب فذاك وإلا فأسرعوا إليّ بالخبر» فسار الأشياخ إلى يغمراسن فوافوه بظاهر تلمسان وقد أخذ أهبته واستعد للقاء وحشد قبائل زناتة المجاورين له في تلك البلاد من بني عبد الواد وبني راشد وأحلافهم ومغراوة من عرب بني زغبة فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فأبى واستكبر وصم عن سماع قولهم وموعظتهم وقال: «أبعد مقتل ولدي أصالحه، والله لا كان ذلك أبداً حتى أثأر به وأذيق أهل المغرب النكال من أجله» فرجعت الرسل إلى السلطان يعقوب بالخبر، وتزاحف الفريقان فكان اللقاء على وادي ايسلي من بسيط وجدة وعبأ السلطان يعقوب كتائبه ورتب مصافه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب، ودارت بينهم رحى الحرب وركدت ملياً وهلك في الحومة أبو عنان فارس بن يغمراسن بن زيان في جماعة من بني عبد الواد، وهلك عامة عسكر الفرنج الذين كانوا معهم لثباتهم بثبات يغمراسن فطحنتهم رحى الحرب وتقبض على قائدهم برنيس وانهزم الباقون، ونجا يغمراسن في فله حامياً لهم ومدافعاً عنهم من خلفهم، ومر في هزيمته بفساطيطه فأضرمها ناراً تفادياً من حصرة استيلاء العدو عليها وانتهبت بنو مرين باقي معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى إذا انتهى إلى وجدة وقف عليها فأمر بهدمها فتسارعت أيدي الجند إليها وجعلوا عاليها

سافلها وألصقوا بالرغام جدرانها وتركوها قاعاً صفصفاً، وكانت هذه الوقعة منتصف رجب من سنة سبعين وستمائة.

ثم تقدم إلى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياماً وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث ثم شن الغارات على البسائط فاكتسحها سبياً ونسفها نسفاً وهلك في طريقه إلى تلمسان وزيره عيسى بن ماساي وكان من علية وزرائه وحماة ميدانه وله في ذلك أخبار مذكورة، وكان مهلكه في شوال من السنة المذكورة وقدم عليه وهو محاصر لتلمسان الأمير أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية كبير بني توجين من زناتة في جيش كثيف من قومه مباهياً ببنوده وطبوله وآلة حربه، وكان قدومه هذا بقصد مظاهرة السلطان يعقوب على يغمراسن وتلمسان لعداوة كانت بينهما فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستركب الناس للقائه واتخذ رتبة السلاح لمباهاته واستمر الحصار على تلمسان، وعظمت نكاية بني توجين فيها بتخريب الرباع وانتساف الجنات وقطع الثمار وإفساد الزرع وتحريق القرى والضياع لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك أو أكثر، ولما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب وأيس من فتحها لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها عزم على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي بالقفول إلى مأمنه قبل أن ينهض هو عن تلمسان.ووصله وقومه وملأ حقائبهم من التحف وجنب لهم مائة من الخيل المقربات الجياد بمراكبها وأراح عليهم ألف ناقة حلوب وعمهم بالخلع الفاخرة والصلات الوافرة واستكثر لهم من السلاح والفازات والفساطيط وحملهم على الظهر وارتحلوا إلى منجاتهم ومقرهم من جبل وانشريس، وتلوم السلطان يعقوب عليهم أياماً ريثما وصلوا حذراً عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة في اتباعهم، ثم أقلع السلطان عن تلمسان وثنى عنانه إلى المغرب فوصل إلى رباط تازا في أول يوم من ذي الحجة من السنة المذكورة فعيد بها عيد النحر ثم ارتحل إلى فاس فدخلها فاتح سنة إحدى وسبعين وستمائة فأقام بها إلى اليوم الحادي عشر من صفر فتوفي ولده وولي عهده الأمير أبو مالك عبد الواحد بن يعقوب فأسف لفقده ثم

صبر واحتسب ثم نهض[1] إلى مراكش فدخلها أوائل ربيع الثاني من السنة المذكورة فأقام بها شهراً حتى أصلح من شأنها ثم نهض إلى طنجة وسبتة على ما نذكره.

فتح طنجة وسبتة وما كان من أمر العزفي بهما

قد تقدم لنا في دولة أبي حفص عمر المرتضى أن الفقيه أبا القاسم العزفي استبد عليه بسبتة وتوارث ذلك بنوه من بعده وكان هؤلاء العزفيون من بيوتات سبتة وأهل الرياسة والعلم والدين فيهم، ولما ضعف أمر بني عبد المؤمن بالمغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبي العباس العزفي برياستها وضبطها وانتظم في طاعته سائر أعمالها، ولما كانت سنة ثلاث وستين وستمائة بعث الفقيه المذكور أجفانه إلى مدينة أصيلا فهدموا أسوارها ونقضوا قصبتها لأنه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويتمنع بها، واستمرت أموره في سبتة ونواحيها على الشداد وكانت طنجة تالية لسبتة في سائر أحوالها وكانتا معاً من أحصن بلاد المغرب فدخل صاحب طنجة وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد الهمداني المعروف بابن الأمير في طاعة أبي القاسم المذكور، ثم انتقض عليه لمضي سنة من طاعته واستبد وخطب لابن أبي حفص صاحب إفريقية ثم للخليفة العباسي صاحب بغداد ثم لنفسه، وسلك في طنجة مسلك العزفي في سبتة ولبثوا على ذلك ما شاء الله، حتى إذا ملك بنو مرين المغرب وافتتحوا معاقله وحصونه وهلك الأمير أبو بكر بن عبد الحق وابنه أبو حفص عمر من بعده فتحيز بنوه في اتباعهم وحشمهم إلى ناحية طنجة وأصيلا فأوطنوا

(1) قال في الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ما نصه: فلما انقضى شهر صفر الذي توفي فيه له ولده أبو مالك ارتحل أمير المسلمين إلى حضرة مراكش فوصل إلى رباط الفتح في الثاني عشر من ربيع الأول فأخذ البيعة لولده الأمير أبي يعقوب على بني مرين بولاية العهد بها لولده الأمير أبي يعقوب ثم سار إلى مراكش فدخلها في نصف ربيع الآخر فقعد بها أياماً ثم ارتحل إلى بلاد السوس الخ... وهذا خلاف ما عند المؤلف هنا فراجع ذلك ص 154 طبع الجزائر.

ضاحيتها وعاثوا في نواحيها وضيقوا على أهل طنجة حتى شارطهم ابن الأمير على خراج معلوم على أن يكفوا الأذية ويحموا الحوزة ويصلحوا السابلة فاتصلت يده بيدهم وترددوا إلى البلد لاقتضاء حاجاتهم، ثم مكروا وأضمروا الغدر فدخلوا في بعض الأيام متأبطين السلاح وفتكوا بابن الأمير غيلة، فثارت بهم عامة أهل طنجة واستلحموهم لحينهم في مصرع واحد سنة خمس وستين وستمائة، واجتمعوا على ولده فبايعوه وبقيت في ملكته خمسة أشهر. ثم استولى عليها أبو القاسم العزفي فنهض إليها بعساكره من الرجل برّاً وبحراً وملكها وفر ابن الأمير فلحق بتونس ونزل على المستنصر الحفصي واستقرت طنجة في إيالة العزفي فضبطها وقام بأمرها وولي عليها من قبله وأشرك الملأ من أشرافها في الشورى.

ولما استولى السلطان يعقوب على حضرة مراكش ومحا دولة آل عبد المؤمن منها وفرغ من أمر عدوه يغمراسن هم بتلك الناحية وأحب أن يضيفها إلى ما بيده ليصفو له أمر المغرب الأقصى كله فنهض إلى طنجة ونازلها مفتتح اثنتين وسبعين وستمائة لأنها كانت في البسيط دون سبتة فكان أمرها أسهل فحاصرها نحو ثلاثة أشهر فامتنعت عليه ويئس منها وعزم على الإفراج عنها فبينما هو يقاتل في عشي اليوم الذي عزم على النهوض في غده إذا بجماعة من رماتها قاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعار بني مرين، وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجند إليهم فملكوهم البرج فتسوروا إليه الحيطان وقاتلوا عليه سائر ليلتهم إلى الصباح ثم تكاثرت جيوش بني مرين واقتحموا البلد عنوة ونادى منادي السلطان يعقوب بالأمان فلم يهلك من أهلها إلا نفر يسير ممن رفع يده للقتال وشهر السلاح ساعة الدخول، وكان ذلك في ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وستمائة، ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة بعث ولده الأمير يوسف إلى سبتة فحاصر بها العزفي أياماً ثم لاذ بالطاعة على أن يبقى ممتنعاً بحصنه ويؤدي للسلطان خراجاً معلوماً كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره وعاد إلى فاس والله غالب على أمره.

فتح سجلماسة وما كان من أمرها

قد ذكرنا ما كان من استيلاء الأمير أبي بكر بن عبد الحق على سجلماسة ودرعة وأنه عقد على مسلحتها لأبي يحيى القطراني الذي كان السبب في فتحها عليه، ولما هلك الأمير أبو بكر استبد القطراني المذكور بسجلماسة ثم غلبه عليها المرتضى وقتل القطراني بواسطة القاضي ابن حجاج حسبما تقدم ذلك كله ثم غلب عليها بعد حين يغمراسن بن زيان بواسطة عرب المنبات من بني معقل أهل الصحراء وعقد عليها لعبد الملك بن محمد العبد الوادي المعروف بابن حنينة نسبة إلى أمه وهي أخت يغمراسن بن زيان ولما فتح السلطان يعقوب بلاد المغرب وانتظمها في ملكته وجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها فنهض إليها في رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائة في جموع بني مرين وقبائل المغرب من العرب والبربر، ونازلها ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وغير ذلك.

قال ابن خلدون: «ونصب عليها هندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها» اهـ كلامه. قلت وفيه فائدة: أن البارود كان موجوداً في ذلك التاريخ وأن الناس كانوا يقاتلون به ويستعملونه في محاصراتهم وحروبهم يومئذٍ وفيه رد لما نقله أبو زيد الفاسي في شرح منظومته الموضوعة في العمل الجاري بفاس قال: «كان حدوث البارود سنة ثمان وستين وسبعمائة حسبما ذكره بعضهم في تأليف له في الجهاد وأنه استخرجه حكيم كان يعمل الكيمياء ففرقع له فأعاده فأعجبه فاستخرج منه هذا البارود» اهـ. وصرح الشيخ أبو عبد الله بناني في حاشيته، على مختصر الشيخ خليل بأن حدوثه كان في وسط المائة الثامنة وهو غير صواب لما علمت من كلام ابن خلدون أنه كان موجوداً قبل ذلك بنحو مائة سنة ويغلب على ظني أن لفظ الستمائة تصحف بالسبعمائة فسرى الغلط من ذلك والله أعلم.

وأقام السلطان يعقوب على حصار سجلماسة حولاً كاملاً وكان سفهاؤها يصعدون فوق الأسوار ويعلنون بالسب والفحش إلى أن هتك المنجنيق ذات يوم طائفة من سورها فدخلت من هنالك عنوة بالسيف وعاث الجند في أهلها[1] فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية وأتى القتل على عاملها عبد الملك بن حنينة ومن كان بها من أشياخ بني عبد الواد وعرب المنبات وكان فتحها آخر صفر وقيل يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وستمائة وكمل بفتحها للسطان يعقوب فتح بلاد المغرب وتمشت طاعته في أقطاره فلم يبق فيه أهل حصن يدينون بغير دعوته ولا جماعة تتحيز إلى غير فئته.

أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني في الجهاد وما كان له بالأندلس من الذكر الجميل والفخر الجزيل رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر على المسلمين في وقعة العقاب من الظهور والغلبة وأن تلك الوقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والأندلس واستيلاء العدو الكافر على جل ثغورها وحصونها، ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالأندلس وصاروا إلى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم على بعض بالطاغية وإسلام حصون المسلمين إليه في سبيل تلك الفتنة فمشت رجالات الأندلس بعضهم إلى بعض وأجمعوا على إخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ونازع ابن هود الرياسة بالأندلس، ولا تسأل عما ذهب في منازعتهما من حصون المسلمين الكثيرة وبلادهم العديدة الشهيرة التي منها قرطبة وإشبيلية قاعدتا أرض الأندلس كان كل واحد من هذين الثائرين يتقرب إلى الطاغية بما غلب عليه من ذلك ليعينه على صاحبه

---

(1) الذي في الذخيرة السنية صفحة 158 أن السلطان يعقوب أمن سائر أهلها وعفا عنهم ونظر في مصالحهم ورفع مظالمهم وأصلح أحوالهم وبلادهم.

والأمر لله وحده، وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الأحمر في عقبه إلى آخر المائة التاسعة ولما استتب أمر ابن الأحمر بالأندلس عقد السلم مع الطاغية على أن ينزل له عن جميع بسائط عرب الأندلس فنزل له عنها أجمع ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر معتصمين بأوعاره ومتشبثين بمعاقله وحصونه، واختار ابن الأحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسي مملكته وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء.

وكان ابن الأحمر هذا يدعى بالشيخ وكان قد عهد إلى ولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتحاله طلب العلم في صغره وأوصاه إذا نابه أمر من العدو أو وصل إليه مكروه أن يستنصر عليه ببني مرين ويدرأ بهم في نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين، فلما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس بادر محمد الفقيه إلى العمل بإشارة والده وأوفد[1] مشيخة الأندلس كافة على السلطان يعقوب رحمه الله فلقيه وفدهم منصرفاً من فتح سجلماسة فتبادروا للسلام عليه وألقوا إليه كنه الخبر عن كلب العدو على المسلمين وثقل وطأته فحيا وفدهم واستبشر بمقدمهم وبادر لإجابة داعي الله وإيثار الجنة وكان السلطان يعقوب رحمه الله منذ أول أمره مؤثراً عمل الجهاد كلفاً به مختاراً له لو أعطي الخيار على سائر أعماله حتى لقد كان اعتزم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي بكر وطلب إذنه في ذلك فلم يأذن له فكان في نفسه من ذلك شغل وله إليه صاغية، فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيمته وأيقظوا همته فأعمل في الاحتشاد وبعث في النفير ونهض من فاس في شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة فوصل إلى طنجة وأقام هنالك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم وأجزل أعطياتهم وعقد عليهم لابنه أبي

(1) راجع نص الكتاب الذي جاء به مشيخة الأندلس من ابن الأحمر إلى السلطان يعقوب يستنهضه فيه للجهاد في كتاب الذخيرة السنية صفحة 159 طبع الجزائر.
وراجع أيضاً جواب السلطان يعقوب على كتاب ابن الأحمر في الذخيرة السنية أيضاً صفحة 162.

زيان وأعطاه الراية واستدعى من العزفي صاحب سبتة السفن لإجازتهم فوافاه بقصر المجاز منه عشرون أسطولاً فأجاز العسكر المذكور ونزل بطريف في السادس عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة فأراح الأمير أبو زيان بطريف ثلاثاً، ثم دخل دار الحرب وتوغل فيها وأجلب على ثغورها وبسائطها وامتلات أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار حتى نزل بساحة شريش فخام حاميتها عن اللقاء وتحصنوا بالأسوار وقفل الأمير أبو زيان إلى الجزيرة الخضراء وقد امتلأت أيدي عسكره من الأموال وحقائبهم من السبي وركائبهم من السلاح والأثاث ورأى أهل الأندلس أن قد ثأروا بعام العقاب بعد أن لم تنصر لهم راية من ذلك اليوم إلى الآن والله غالب على أمره.

الجواز الأول للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

ثم اتصل الخبر بالسلطان يعقوب رحمه الله أن العدو قد أخذ في الاستعداد وعزم على الخروج إلى بلاد المسلمين فاعتزم على الغزو بنفسه، وخشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن صاحب تلمسان فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن والرجوع للاتفاق والموادعة ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكرم موصله وموصل قومه، وبادر إلى الإجابة والألفة وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان يعقوب لعقد السلم وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الإسلام وعظم موقع هذه السلم من السلطان يعقوب لما كان في نفسه من الميل إلى الجهاد وإيثار مبرورات الأعمال، فبث الصدقات شكراً لله تعالى على ما منحه من التفرغ لذلك، ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ودعا المسلمين إلى جهاد عدوهم وخاطب في ذلك سائر أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البربر من المرتزقة والمتطوعة وأهاب بهم وشرع في عبور البحر فأجازهم من فرضة قصر المجاز في صفر

سنة أربع وسبعين وستمائة واحتل بساحل طريف وكان السلطان يعقوب حين استصرخه ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره بها فتجافى له عن رندة وطريف.

ولما أحس الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة بإجازة السلطان يعقوب قدم إليه الوفد من أهل مالقة ببيعتهم وصريخهم وكان أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق من أصهار ابن الأحمر وكانا مستوليين على مالقة ووادي آش وقمارش ووقعت بينهما وبين ابن الأحمر منافسة فخرجا عن طاعته، ولما عبر السلطان يعقوب إلى الأندلس بادر أبو محمد بن أشقيلولة إليه واتصل به وأمحضه الود والنصح وسابق ابن الأحمر في ذلك ونازعه في برور مقدمه والإذعان له وربما صدرت من ابن أشقيلولة في حق ابن الأحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت إلى بعض الفساد وانصرف ابن الأحمر مغاضباً للسلطان من أجل ذلك.

ولما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة الخضراء، ثم نهض إلى العدو قبل أن يسبق إليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى إلى الوادي الكبير فعقد هنالك لولده الأمير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدمها بين يديه ثم تبعه على أثره وسرح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل تنسف الزورع وتخطم الغروس وتخرب العمران وتنتهب الأموال وتكتسح السرح وتقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرية حتى انتهى إلى حصن المدور وبياسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة، وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها.

وقفل السلطان يعقوب رحمه الله والأرض تموج سبياً إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب وجاءه النذير باتباع العدو آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله وأن زعيم الفرنج وعظيمهم نونه خرج في طلبهم في أمم النصرانية من المحتلم إلى الشيخ فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفاً من الفرسان أمامها وسار يقتفيها من خلفها حتى إذا أطلت رايات العدو مر ورائهم كان

الزحف ورتب المصاف وجرد السيف وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحركت هممها وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها فلم يكن إلا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وظهر أمر الله وانكشفت جموع النصرانية وقتل الزعيم نونه وكان هذا اللعين زعيم النصرانية بالأندلس قد قدمه الفنش على جيوشه واستعمله على حروبه وفوض له في جميع أموره وكان النصارى قد سعدوا بطائره وتيمنوا بنقيبته لأنه لم تهزم له قط راية وكان وبالاً على بلاد الإسلام كثير الغارات عليها حتى جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وألحقه بأمه الهاوية، ومنح المسلمين رقاب الفرنج واستحر فيهم القتل حتى بلغت قتلاهم عدد الألوف وجمعوا من رؤوسهم مآذن أذنوا عليها لصلاتي الظهر والعصر، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين[1] أكرمهم الله تعالى بالشهادة وآثرهم بما عنده ونصر الله حزبه وأعز أولياءه وأظهر دينه، وبدا للعدو ما لم يكن يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة وبعث السلطان يعقوب رحمه الله برأس الزعيم نونه إلى ابن الأحمر فيقال إنه بعثه سرّاً إلى قومه بعد أن طيبه وأكرمه ولاية أخلصها لهم، ومداراة وانحرافاً عن السلطان يعقوب ظهرت شواهد ذلك عليه بعد حين.

واعلم أن هذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه ولفظة دون معناها في لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها.

وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه إلى الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة فقسم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه، ويقال كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً من السبي ومن الأسارى سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وستمائة، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر

(1) ذكر في الذخيرة السنية أن عددهم أربعة وعشرون صفحة 173 طبع الجزائر.

كثرة حتى لقد زعموا أنه قد بيعت الشاة الواحدة بدرهم وكذلك السلاح.

وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أياماً ثم نهض في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازياً إشبيلية فجاس خلالها وتقرى نواحيها وأقطارها وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها وعاث في عمرانها وأوغل في مسيره حتى وقف على بابها وزعقت طبوله في جوها وخفقت ألويته على جنباتها ولجأت الفرنج إلى الأسوار واعتمدوا على الحصار ولم يخرج إليه منهم أحد، ثم ارتحل إلى شريش فأذاقها من وبال العيث والاكتساح مثل ذلك أو أكثر ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته فبيعت الفرنجية من سبيه بها بمثقال ونصف لكثرة السبي حينئذٍ[1].

ودخل فصل الشتاء فنظر السلطان يعقوب في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزول عسكره منتبذاً عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر وجفائهم وتخير لها مكاناً ملاصقاً للجزيرة فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية، ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر واحتل بقصر مصمودة وأمر ببناء السور على باديس مرفأ السفن ومحل العبور من بلاد غمارة ثم رحل إلى فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة.

فتح جبل تينملل ونبش قبور بني عبد المؤمن على يد الملياني عفا الله عنه

قد تقدم لنا أن جبل تنيملل كان حصناً للموحدين وملجأ لهم إذا نابهم مكروه وكان مسجده مزاراً عظيماً لهم لأنه مدفن إمامهم وملحد خلفائهم فكانوا يعكفون عليه ويلتمسون بركة زيارته ويقدمون ذلك بين يدي غزواتهم

(1) ذكر في الذخيرة السنية أن السلطان يعقوب كتب بهذا الفتح لبلاد العدوة وقرىء كتابه على المنابر وكذلك كتب الفقيه أبو القاسم العزفي رسالة إلى فقهاء المغرب وصلحائه بشرح هذه الغزاة فانظرها هناك صفحة 175 طبع الجزائر.

قربة يتقربون بها إلى الله تعالى، ولما استولى السلطان يعقوب على مراكش فر من كان بها من الموحدين إلى الجبل المذكور واعتصموا به وبايعوا إسحاق أخا المرتضى وأملوا منه رجع الكرة وإدالة الدولة واستمر الحال على ذلك إلى هذه السنة فنهض عامل مراكش من قبل السلطان يعقوب وهو محمد بن علي بن محلي أحد خؤلته ونازل الجبل المذكور وحاصره مدة ثم اقتحمه عنوة وافتض عذرته وفك ختامه وتقبض على خليفة الموحدين إسحاق وابن عمه السيد أبي سعيد بن أبي الربيع ومن معهما من الأولياء وجنبوا إلى مصارعهم بباب الشريعة من مراكش فضربت أعناقهم وصلبت أشلاؤهم وكان فيمن قتل منهم الكاتب القبائلي وأولاده.

وعاثت عساكر بني مرين في جبل تينملل واكتسحوا أمواله ونبشوا قبور خلفاء بني عبد المؤمن واستخرجوا أشلاءهم وكان فيها شلو يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور فقطعت رؤوسهم وتولى كبر ذلك أبو علي بن أحمد الملياني، كان أبو علي هذا ثار على الحفصيين بمدينة مليانة فجهزوا إليه عساكره وأجهضوه عنها ففر إلى السلطان يعقوب فقبله وآواه وأقطعه بلد أغمات إكراماً له، فحضر هذه الوقعة في جملة العسكر وارتكب هذا الفعل الشنيع ورأى أنه قد شفى نفسه باستخراج هؤلاء الخلائق من أرماسهم والعبث بأشلائهم وقد أنكر الناس عامة والسلطان يعقوب خاصة هذه الفعلة منه ولم يرضوها ومع ذلك فقد تجاوز له السلطان يعقوب عنها تأنيساً لغربته ورعياً لجواره ولما توفي السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف سعى إليه في الملياني هذا فنبكه على ما نذكره إن شاء الله.

ولما وصل السلطان يعقوب من غزوته إلى فاس انتقض عليه طلحة بن محلي أحد أخواله وتمنع بجبل آصروا من بلاد فازاز فسار إليه السلطان يعقوب وحاصره به فأناب إلى الطاعة ونزل على الأمان[1] وذلك في منتصف

(1) وطلب من السلطان أن يبيح له التوجه إلى المشرق وأداء فريضة الحج وأسعفه ووصله بمال جليل وخيل عتاق وما يحتاج إليه. الذخيرة السنية صفحة 186 طبع الجزائر.

رمضان سنة أربع وسبعين وستمائة وفي ثاني يوم من شوال من هذه السنة ثارت العامة باليهود بفاس بسبب حدث أحدثوه فقتلوا منهم أربعة عشر يهودياً ولولا أن السلطان ركب بنفسه ورد العامة عنهم لكانت إياها.

بناء المدينة البيضاء المسماة اليوم بفاس الجديد

لما فتح جبل تينملل ومحيت منه بقية آل عبد المؤمن وتمهد ملك المغرب للسلطان يعقوب واستفحل أمره وكثرت غاشيته رأى أن يختط بلداً ينسب إليه ويتميز بسكناه وينزل فيه بحاشيته وأوليائه الحاملين لسرير ملكه، فأمر ببناء المدينة البيضاء ملاصقة لمدينة فاس على ضفة واديها المخترق لها من جهة أعلاه وشرع في تأسيسها ثالث شوال من سنة أربع وسبعين وستمائة، وركب السلطان بنفسه فوقف عليها حتى خطت مساحتها وأسست جدرانها وجمع الأيدي عليها وحشر الصناع والعملة لبنائها وأحضر لها أهل النجامة والمعدلين لحركات الكواكب فاختاروا لها من الطوالع ما يرضون أثره ويحمدون سيره وأسست فيه وكان في أولائك المعدلين إمامان شهيران أبو الحسن بن القطان[1]، وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان في الصناعة فكمل تشييد هذه المدينة على ما رسم رحمه الله وكما رضي، ونزلها بحاشيته وذويه سنة أربع وسبعين المذكورة، واختط الناس بها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه إلى القصور، وكانت من أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام.

قال ابن أبي زرع: ومن سعادة طالعها أنه لا يموت فيها خليفة ولم يخرج منها لواء قط إلا كان منصوراً ولا جيش إلا كان ظافراً.

ثم أمر رحمه الله ببناء قصبة مكناسة فشرع في بنائها وبناء جامعها في السنة المذكورة ثم استوزر صنيعته أبا سالم فتح الله السدراتي وأجرى له رزق الوزارة على عادتهم.

ثم كافأ يغمراسن بن زيان على هديته التي كان بعث بها إليه قبل إجازته

(1) في الذخيرة السنية بدل ابن القطان أبو الربيع سليمان الغياش صفحة 187 طبع الجزائر.

إلى الأندلس فبعث إليه فسطاطاً رائقاً كان صنع له بمراكش وثلاثين من البغال الفارهة ذكراناً وإناثاً وغير ذلك مما يباهي به ملوك المغرب.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة أهدى إليه الأمير محمد بن عبد القوي التوجيني صاحب جبل وانشريس أربعة من الجياد انتقاها من خيل المغرب كافة ورأى أنها على قلة عددها أحفل هدية وفي نفسه أثناء هذا كله من أمر الجهاد شغل شاغل يتخطى إليه سائرِ أعماله حسبما نذكره إن شاء الله.

الجواز الثاني للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

لما قفل السلطان يعقوب من غزوته الأولى واستنزل الخوارج وثقف الثغور وهادى الملوك واختط المدينة البيضاء لنزوله كما ذكرنا، خرج فاتح سنة خمس وسبعين وستمائة إلى جهة مراكش لسد ثغورها وتثقيف أطرافها وتوغل في أرض السوس وبعث وزيره فتح الله السدراتي في العساكر فجاس خلالها ثم انكفأ راجعاً وهناك خاطب السلطان يعقوب رحمه الله قبائل المغرب كافة بالنفير إلى الجهاد فتثاقلوا عليه فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون إلى أن دخلت سنة ست وسبعين بعدها، ولما رأى تثاقل الناس عليه نهض إلى رباط الفتح وتلوم به أياماً في انتظار الغزاة فأبطؤوا عليه فخف في خاصته وتقدم في حاشيته حتى انتهى إلى قصر المجاز، وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه فأجاز بهم البحر واحتل بطريف آخر محرم من السنة المذكورة، ثم ارتحل إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى رندة، فوافاه بها الرئيسان أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن علي بن اشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسن برسم الجهاد معه.

ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الأول من السنة المذكورة حتى انتهى إلى إشبيلية فعرس عليها يوم المولد النبوي وكان بها يومئذٍ ملك الجلالقة ابن أذفونش فلم يجد بدّاً من الخروج إليه بعد أن خام عن اللقاء أولاً فبرز في جموعه وصفها على ضفة الوادي الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر عليه فكانت جيوشه كلها في الدروع السوابغ والبيض اللوامع

والسيوف البواتر وغير ذلك من آلات الحرب التي يكاد شعاعها يدهش البصر وزحف إليه السلطان يعقوب رحمه الله بعد أن صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم فرتب مصافه وجعل ولده الأمير يوسف في المقدمة وزحف على التعبية فاقتتلوا ملياً، ثم انهزمت الفرنج فتساقط بعضهم في الوادي وانحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوهم في لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر، وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون وأضرموا النيران بساحة إشبيلية حتى صار الليل نهاراً وباتت الفرنج على الأسوار ينفخون في القرون ويحترسون طول ليلتهم.

ثم ارتحل السلطان من الغد إلي جبل الشرف وبث السرايا في نواحيه فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطنيانة وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة وأثخن في القتل والسبي ثم ارتحل بالغنائم والأثقال إلى الجزيرة الخضراء فدخلها في الثامن والعشرين من ربيع الأول المذكور فأراح بها وقسم الغنائم في المجاهدين ثم خرج غازياً مدينة شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار وقطع الزياتين والأعناب وسائر الأشجار وأباد خضراءها وحرق ديارها وأثخن فيها بالقتل والأسر وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده وسرح ولده الأمير يوسف من معسكره في سرية للغارة على إشبيلية وحصون الوادي الكبير فبالغ في النكاية واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر ثم صبح إشبيلية فاكتسحها وانكفأ راجعاً بالمغانم والسبي إلى السلطان يعقوب فسر بمقدمه وقفلوا جميعاً إلى الجزيرة الخضراء فأراح السلطان بها أياماً وقسم في المجاهدين غنائمهم ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم إلى غزو قرطبة وقال: «يا معشر المجاهدين إن إشبيلية وشريش وأحوازهما قد ضعفت وبادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاية وإن قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة وعليها اعتماد الفرنج ومنها معاشهم ومادتهم فإن غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل ما فعلتم بإشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية بهذا القطر» فأجابوا

بالسمع والطاعة فدعا لهم وفرق فيهم الأموال والخلع وخاطب ابن الأحمر يستنفره للجهاد معه وقال: «إن خروجك معي إلى قرطبة يكون لك مهابة في قلوب الفرنج ما عشت سوى ما تستوجبه من الله تعالى من الثواب في ذلك».

ونهض السلطان إلى قرطبة فاتح جمادى الأولى من سنة ست وسبعين المذكورة فوافاه ابن الأحمر بناحية شدونة فأكرم موصله وشكر خفوفه إلى الجهاد وبداره إليه ونازلوا حصن بني بشير فدخلوه عنوة وقتلت المقاتلة وسبيت النساء ونفلت الأموال وهدم الحصن حتى لم يبق له أثر ثم بث السلطان رحمه الله السرايا والغارات في البسائط فاكتسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسل ما لا يوصف ثم ساروا يتقرون المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت ألوية السلطان في نواحيها وزعقت طبوله في فضائها وتقدم في أبطاله وحماته حتى وقف على بابها ثم دار بأسوارها ينظر كيف الحيلة في قتالها ووقف ابن الأحمر بعساكر الأندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفاً من كرة العدو وخنس الفرنج وراء الأسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحي قرطبة وقراها، فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها وترددوا على جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف وأقام السلطان على قرطبة ثلاثاً ثم ارتحل عنها إلى حصن بركونة فدخله عنوة ثم أرجونة كذلك ثم قدم بعثاً إلى مدينة جيان فقاسمها حظها من الخسف والدمار، وخام الطاغية عن اللقاء وأيقن بخراب عمرانه وإتلاف بلاده فجنح إلى السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه إليه وبعث الأقسة والرهبان للوساطة في ذلك فرفعهم السلطان يعقوب إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه وقال لوفد الفرنج: «إنما أنا ضيف والضيف لا يصالح على رب المنزل» فساروا إلى ابن الأحمر وقالوا له: «إن السلطان يعقوب قد رد الأمر إليك ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحاً مؤبداً لا يعقبه غدر ولا حرب» وأقسموا له بصلبانهم إن لم يرضه الفنش ليخلعنه لأنه لم ينصر الصليب ولا حمى الحوزة فأجابهم ابن

الأحمر إليه بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم في آخر شهر رمضان من السنة المذكورة وقفل السلطان يعقوب من غزاته هذه وجعل طريقه على غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الأحمر وساقها إلى غرناطة وقال له السلطان يعقوب: «يكون حظ بني مرين من هذه الغزاة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين رحمه الله مع أهل الأندلس يوم الزلاقة».

ولما قفل السلطان يعقوب من هذه الغزوة اعتل الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة ثم هلك غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو متلوم بالجزيرة الخضراء منصرفه من الغزو كما ذكرناه فنزل له عن مالقة ودعاه إلى حوزها منه وقال له: «إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الأحمر» فحازها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبي زيان منديل بن يعقوب فسار إليها وتملكها، وعزّ ذلك على ابن الأحمر غاية لأنه لما بلغه وفاة أبي محمد بن اشقيلولة سما أمله إليها وأن ابن أخته وهو محمد الوافد على السلطان يعقوب شيعة له لا يبغي به بدلاً فأخطأ ظنه وخرج الأمر بخلاف ما كان يرتقب، ولما قضى السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج إلى مالقة فدخلها سادس شوال من السنة وبرز إليه أهلها في يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدم السلطان واغتباطاً بدخولهم في دعوته وانخراطهم في سلك رعيته، وأقام فيهم إلى خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيى بن محلي من صنائع دولتهم، وأنزل معه المسالح وترك عنده زيان بن أبي عياد بن عبد الحق في طائفة لنظره من أبطال بني مرين، واستوصاه بمحمد بن اشقيلولة وارتحل إلى الجزيرة الخضراء، ثم أجاز منها إلى المغرب فاتح سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه وامتلأت القلوب سروراً بما هيأه الله من نصر المسلمين بالأندلس وعلو راية الإسلام على كل راية وعظمت بذلك كله موجدة ابن الأحمر ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله.

حدوث الفتنة بين السلطان يعقوب وابن الأحمر وما نشأ عن ذلك من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك

قد تقدم لنا أن بنو اشقيلولة كانوا أصهاراً لابن الأحمر وأنهم لما قدموا على السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء في جوازه الأول صدرت من ابن اشقيلولة كلمات أحفظت ابن الأحمر وغاظته فذهب لأجلها مغاضباً وانحرف عن السلطان يعقوب ولم يشهد معه الغزو ولا عرج على الجهاد، ولما نصر الله السلطان يعقوب على عدوه وقتل العلج وبعث برأسه إلى ابن الأحمر طيبه وبعثه إلى قومه انحرافاً عن السلطان وموالاة للعدو، ولما جاز السلطان يعقوب الجواز الثاني انقض عنه ابن الأحمر ولم يلقه حتى خاطبه السلطان واستنفره إلى الجهاد فلحقه بشدونة كما مر، ولما صنع الله للسلطان ما صنع من الظهور والعز الذي لا كفاء له واستولى على مالقة من يد ابن اشقيلولة ارتاب ابن الأحمر بمكانه وظن به الظنون وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فغص بمكانه وأظلم الجو بينهما ودارت بينهما مخاطبات شعرية على ألسنة الكتاب في معنى العتاب ولم تزل القوارص بين السلطانين تجري وعقارب السعاية تدب وتسري وخوف ابن الأحمر على ملكه يشتد ويزيد وأواصر الأخوة الإسلامية تتلاشى وتبيد إلى أن استحكمت البغضاء وضاق بينهما رحب الفضاء ففزع ابن الأحمر إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده وحبله بحبله وأن يعود إلى منزلة أبيه معه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه فاغتنم الطاغية هذه الفرصة ونكث عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسالح السلطان يعقوب وجنوده وأرست بالزقاق حيث فراض المجاز وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر وحال العدو بينهم وبين إغاثته إياهم واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور

البحر وداخل ابن الأحمر عمر بن يحيى بن محلى صاحب مالقة في النزول له عنها بعوض ففعل واستولى ابن الأحمر عليها ثم راسل هو والطاغية يغمراسن بن زيان من وراء البحر وراسلهم هو في مشاقة السلطان وإفساد ثغوره وإنزال العوائق المانعة له من حركته والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الغزو وأسنوا فيما بينهما الهدايا والتحف وجنب يغمراسن إلى ابن الأحمر ثلاثين من عتاق الخيل مع ثياب من عمل الصوف، وبعث إليه ابن الأحمر مكافأة على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يرض بالمال ورده وأصفقت آراؤهم جميعاً على السلطان يعقوب ورأوا أن قد أبلغوا في إحكام أمرهم وسد مذاهبه إليهم.

واتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش كان خرج إليها مرجعه من الغزو في المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث عرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابلة، فثقف أطرافها وحسم مادة فسادها، ثم اتصل به خبر ابن محلي ونزوله عن مالقة لابن الأحمر ومنازلة الطاغية بأساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها، فبلغ ذلك منه كل مبلغ ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة يريد طنجة فوصل إلى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الأمطار والسيول وعاقته عن النهوض، وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر أيضاً بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء برّاً وإحاطة عسكره بها بعد أن كانت أساطيله منازلة لها في البحر منذ ستة أشهر أو سبعة وأنه مشرف على التهامها وبعثوا إليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر ثالثاً بخروج مسعود بن كانون السفياني ببلاد نفيس من أرض المصامدة خامس ذي القعدة من السنة وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم، فانخرقت على السلطان الفتوق وتوالت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع، إلا أنه رأى أن يقدم أمر ابن كانون والعرب فكر راجعاً إليه وقدم بين

يديه حافده تاشفين بن أبي مالك ووزيره يحيى بن حازم العلوي وجاء هو على ساقتهم، وفر مسعود بن كانون وجموعه أمام السلطان فانتهب معسكرهم وحللهم واستباح عرب الحارث من سفيان، ولحق مسعود بجبل سكسيوة فاعتصم به وشايع عبد الواحد السكسيوي القائم به على خلافه، ونازله السلطان يعقوب بعساكره أياماً وسرح ابنه الأمير أبا زيان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه في آخر يوم من السنة المذكورة.

واتصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وإعواز الأقوات، وأنهم ختنوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فأهمه ذلك.

وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فأعمل النظر فيما يكون به خلاص أهل الجزيرة فعقد لولي عهده ابنه الأمير يوسف، وكان بمراكش على الغزو إليها وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو براً وبحراً وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الأنباء إلا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق، وفني أكثرهم بالقتل والجوع وسهر الليل على الأسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة، فحينئذٍ جمعوا صبيانهم وختنوهم كما مر وبينما هم على ذلك قدم الأمير يوسف بجيوشه إلى طنجة وكان قدومه في أوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة.

وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الأمير يوسف إلى طنجة قد كتب إلى الثغور بإعداد الأساطيل وعمارتها وتوجيهها إليه وقسم الإعطاءات وحض الناس على النهوض فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وأجابوا من كل ناحية، وأبلى الفقيه أبو خاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه الخطاب من السلطان في شأن الأساطيل البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود، فهيأ

خمسة وأربعين أسطولاً واستنفر كافة أهل بلده من المحتلم إلى الشيخ فركبوا البحر أجمعون ولم يبق بسبتة إلا النساء والشيوخ والصبيان، ورأى ابن الأحمر ما نزل بأهل الجزيرة وإشراف الطاغية على أخذها فندم على ممالاته إياه وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة فكانت اثني عشر أسطولاً فبعثها مدداً للمسلمين، وقدم من بادس وسلا وآنفى خمسة عشر أسطولاً فنهض في الوقت اثنان وسبعون أسطولاً واجتمعت كلها بمرفأ سبتة وقد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأكمل استعداد ثم تقدمت إلى طنجة ليراها الأمير يوسف فشاهدها وسر بها وعقد لهم رايته مع جماعة من أبطال بني مرين رغبوا في الجهاد.

ثم أقلعت الأساطيل عن طنجة ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة وانتشرت قلوعهم في البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد الكريم بمرفأ جبل الفتح وصبحوا العدو وأساطيله يومئذٍ تناهز أربعمائة فتظاهر المسلمون في دروعهم وأسبغوا من شكتهم وأخلصوا لله عزائمهم وتنادوا بالجنة وشعارها ووعظ خطباؤهم وذكر صلحاؤهم، والتحم القتال ونزل الصبر فلم يكن إلا كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل ففسدت أفروطتهم واختل مصافهم وانكشفوا وتساقطوا في عباب البحر، فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها وأسروا قائدها الملند في جماعة من حاشيته، واستمر مثقفاً بفاس حتى فر بعد ذلك وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة بفساد أفروطة العدو وهلاكها.

ولما رأى عسكر الطاغية الذي في البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتل والأسر داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الأمير يوسف عليهم إذ كان مقيماً بساحل طنجة مستعداً للعبور فقوضوا أبنيتهم وأفرجوا عن البلد لحينهم وانتشر المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلد كأنما نشروا من قبر وغلبت مقاتلتهم كثيراً من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والإدام

والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً حتى وصلتها الميرة من النواحي.

وأجاز الأمير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة وأرهب العدو في كل ناحية لكنه صده عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية سلماً ويصل يده بيده لمنازلة غرناطة دار ابن الأحمر فأجابه الطاغية إلى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة وبعث أساقفته لعقد ذلك وإحكامه فأجازهم الأمير يوسف إلى أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر على ابنه وزوى عنه وجه رضاه، وأقسم أن لا يرى أسقفاً منهم إلا أن يراه بأرضه ورجعهم إلى طاغيتهم مخفقي السعي كاسفي البال.

ووصلت في هذه السنة هدية السلطان أبى زكرياء يحيى الواثق الحفصي مع أبي العباس الغماري حسبما مرت الإشارة إليه قبل هذا.

ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله رجع إلى فاس وبعث خطابه إلى الآفاق مستنفراً للجهاد وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتى انتهى إلى طنجة وعاين ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية، ومن فيها وكان قد أمر أمره في هذه المدة وظاهره أعداء ابن الأحمر من بني اشقيلولة وغيرهم عليه. حتى حاصروا غرناطة ومرج أمر الأندلس ونغلت أطرافها وأشفق السلطان يعقوب رحمه الله على المسلمين الذين بها وعلى ابن الأحمر مما ناله من خسف الطاغية فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة على أن ينزل له عن مالقة التي خادع عنها ابن محلي كما تقدم، فامتنع ابن الأحمر وأساء الرد في ذلك فرجع السلطان يعقوب إلى إزالة العوائق عن شأنه في الجهاد وكان من أعظمها فتنة يغمراسن واستيقن ما دار بينه وبين ابن الأحمر والطاغية ابن أذفونش من الاتصال والإصفاق على تعويقه عن الغزو فبعث إلى يغمراسن يسأله عن الذي بلغه عنه ويطلب منه تجديد الصلح وجمع الكلمة، فلج في الخلاف وكشف وجه العناد وأعلن بما

وقع بينه وبين أهل العدوة الأندلسية مسلمهم وكافرهم من الوصلة وأنه معتزم على وطء بلاد المغرب فصرف السلطان يعقوب عزمه إلى غزو يغمراسن وقفل إلى فاس لثلاثة أشهر من حلوله بطنجة فدخلها آخر شوال من السنة المذكورة وأعاد الرسل إلى يغمراسن لإقامة الحجة عليه وقال له فيما خاطبه به: «إلى متى يا يغمراسن هذا النفور والتمادي في الغرور؟ أما آن أن تنشرح الصدور وتنقضي هذه الشرور؟» في كلام غير هذا فصم يغمراسن عن ذلك كله ولم يرفع به رأساً، ولما أيس السلطان يعقوب من إقلاعه ورجوعه نهض إليه من فاس آخر سنة تسع وسبعين وستمائة وقدم ابنه الأمير يوسف في العساكر وتبعه فأدركه بتازا، ولما انتهى إلى ملوية تلوم أياماً في انتظار العساكر ثم ارتحل حتى نزل وادي تافنا وصمد إليه يغمراسن بجموع زناتة والعرب بحللهم ونجعهم وشائهم ونعمهم والتقت طوالع القوم أولاً فكانت بينهما حرب ثم ركب على آثارهما العسكران والتحم القتال سائر النهار، وكان الزحف بالموضع المعروف بالملعب من أحواز تلمسان ثم انكشف بنو عبد الواد عندما أراح القوم وانتهب معسكرهم بما فيه من الكراع والسلاح والفساطيط والمتاع وبات عسكر السلطان يعقوب تلك الليلة على متون جيادهم واتبعوا من الغد آثار عدوهم، واكتسحت أموال العرب الناجعة الذين كانوا مع يغمراسن وامتلأت أيدي بني مرين من شائهم ونعمهم وتوغلوا في أرض يغمراسن، ووافاه هنالك محمد بن عبد القوي أمير بني توجين لقيه بناحية القصبات وعاثوا جميعاً في بلاده تخريباً ونهباً ثم أذن السلطان يعقوب لبني توجين في اللحاق ببلادهم وأخذ هو بمخنق تلمسان محاصراً لها حتى يصل محمد بن عبد القوي إلى مأمنه من جبل وانشريس خوفاً عليه من غائلة يغمراسن واتباعه إياه، ثم أفرج عنها وقفل إلى المغرب فدخل حضرة فاس في رمضان سنة ثمانين وستمائة، ثم نهض إلى مراكش فدخلها فاتح سنة إحدى وثمانين بعدها فبنى بها بامرأة مسعود بن كانون السفياني لأنه كان قد هلك قبل هذه السنة وسرح ابنه الأمير يوسف إلى السوس لتدويخ أقطاره ثم وافاه وهو بمراكش صريخ الطاغية على ما نذكره الآن.

الجواز الثالث للسلطان يعقوب إلى الأندلس مغيثاً للطاغية ومغتنماً فرصة الجهاد

لما كان السلطان يعقوب رحمه الله بمراكش سنة إحدى وثمانين وستمائة قدم عليه كتاب طاغية الإصنبيول واسمه هراندة مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرخاً له على ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصارى وأنهم غلبوه على أمره زاعمين بأنه شاخ وضعف عن تدبيرهم ولم يقدر على القيام بنصرتهم فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان يعقوب هذه الفرصة في الحال وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال فسار معهم لم يعرج على شيء حتى أتى قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة إحدى وثمانين المذكورة وأوعز إلى الناس بالنفير إلى الجهاد واجتمعت عليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عباد وهناك قدم عليه الطاغية هراندة ذليلاً لعزة الإسلام مؤملاً صريخ السلطان فأكرم موصله وأكرم وفادته.

وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الأثبات: «أن هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده إعظاماً لقدره وخضوعاً لعزه فدعا السلطان رحمه الله بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هناك من جموع المسلمين والفرنج ثم التمس الطاغية من السلطان أن يمده بشيء من المال ليستعين به على حربه ونفقاته، فأسلفه السلطان مائة ألف دينار من بيت مال المسلمين رهنه الطاغية فيها تاجه الموروث عن سلفه، قال ابن خلدون: «وبقي هذا التاج بدار بني يعقوب بن عبد الحق فخراً للأعقاب لهذا العهد» قلت: «وما أبعد حال هذا الطاغية المهين من حال عطارد بن حاجب التميمي الذي لم يسلم قوس أبيه على تطاول السنين والقصة مشهورة فانظر ما بين الهمم العربية والعجمية من البون وحال الفريقين في الابتذال والصون».

ثم إن السلطان يعقوب رحمه الله تقدم مع الطاغية ودخل دار الحرب غازياً حتى نازل قرطبة وبها يومئذٍ سانجة ابن الطاغية الخارج عليه مع طائفته

فقاتلها أياماً ثم أفرج عنها وتنقل في جهاتها وبعث سراياه إلى جيان فأفسدوا زروعها ثم ارتحل إلى طليطلة فعاث في جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها فقفل السلطان من أجل ذلك إلى الجزيرة فاحتل بها في شعبان وأقام بها إلى آخر السنة المذكورة وكانت غزوة لم يسمح الدهر بمثلها وفي هذه السنة توفي يغمراسن بن زيان على ما في القرطاس. وذكر ابن خلدون: أنه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال له: «يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فإياك أن تحاربهم فإن مددهم موفور ومددك محصور ولا يغرنك أني كنت أحاربهم ولا أنكص عن لقائهم لأني كنت أخشى معرة الجبن عنهم بعد التمرس بهم والاجتراء عليهم وأنت لا يضرك ذلك لأنك لم تحاربهم ولم تتمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا إليك وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستفحل بها ملكك وتكافىء حشد العدو بحشدك» قال: «فعمل ابنه عثمان على وصيته وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب وهو بالأندلس في جوازه الرابع فعقد معه السلم على ما أحب وانكفأ راجعاً إلى أخيه فطابت نفسه وتفرغ لافتتاح البلاد الشرقية.

انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الأحمر والسبب في ذلك

لما اتصلت يد السلطان يعقوب رحمه الله بيد الطاغية وقام معه في ارتجاع ملكه خشي ابن الأحمر عاديته فجنح إلى موالاة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده وأكد له العقد واضطرمت الأندلس ناراً وفتنة بسبب هذا الخلاف، ولما قفل السلطان يعقوب من غزوته مع الطاغية وقد ظهر على ابنه أجمع على منازلة مالقة التي استحوذ عليها ابن الأحمر وخدع عنها ابن محلي فنهض السلطان إليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمائة

فغلب أولاً على الحصون الغربية كلها ثم أسف إلى مالقة فأناخ عليها بعساكره وضاق على ابن الأحمر النطاق ولم تغن عنه موالاة سانجة شيئاً وبدا له سوء المغبة في شأن مالقة وندم على تناولها فأعمل نظره في الخلاص من ورطتها ولم ير لها إلا الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخاً له لرقع هذا الخرق ورتق هذا الفتق وجمع كلمة المسلمين على عدوهم فأجابه واغتنم المثوبة في مسعاه وعبر البحر إلى الأندلس في صفر سنة اثنتين وثمانين المذكورة فوافى أباه بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الأحمر في شأنها والتجافي له عنها فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضى الله عز وجل في جهاد عدوه وإعلاء كلمته، وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر وتجددت عزائم المسلمين للجهاد وقفل السلطان يعقوب إلى الجزيرة الخضراء فبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين المذكورة حتى انتهى إلى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بياسة بالمغانم والأثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كرة العدو ثم أغذ السير في أرض قفرة ليلتين حتى انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة فسرح الخيل في البسائط وجالت في أكنافها ولم تنته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم وأثخن في القتل وقفل على غير طريقه فأثخن وخرب.

وانتهى إلى أبدة فوقف بساحتها وقاتلها ساعة من نهار فرماه علج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتحل عنها إلى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثاً ينسف آثارها ويقتلع أشجارها وقفل إلى الجزيرة وبين يديه من السبي والغنائم ما يعجز عنه الوصف فدخلها في شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفل من الخمس وولى على الجزيرة حافده عيسى بن عبد الواحد بن يعقوب فهلك شهيداً على شنريش بسهم مسموم لشهرين من ولايته.

ثم عبر السلطان إلى المغرب فاتح شعبان ومعه ابنه أبو زيان منديل فأراح

بطنجة ثلاثاً ثم نهض إلى فاس فدخلها آخر شعبان ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل إلى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها وقسم من نظره لنواحي سلا حظاً فأقام برباط الفتح شهرين اثنين وتوفيت في هذه المدة الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوي وهي أم الأمير يوسف وكانت وفاتها برباط الفتح فدفنت بشالة. ثم نهض السلطان يعقوب إلى مراكش فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية هراندة بن أذفونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فحركت همته إلى الجهاد ثم سرح ابنه الأمير يوسف ولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب الذين بها وكف عاديتهم ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكثر العرب في تلك القفار جوعاً وعطشاً وقفل راجعاً لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل إلى مراكش وقد أبل من مرضه وعزم على الجهاد شكراً لله تعالى على نعمة العافية، وفي هذه السنة وصل ماء عين غبولة إلى قصبة رباط الفتح بأمر السلطان يعقوب وكان ذلك على يد المعلم المهندس أبي الحسن علي بن الحاج والله تعالى أعلم.

الجواز الرابع للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

لما اعتزم السلطان يعقوب على العبور إلى الأندلس عرض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم وبعث في قبائل المغرب بالنفير ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به صومه ونسكه ثم ارتحل إلى قصر المجاز وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمتطوعة خاتم سنته، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف، ثم سار إلى الجزيرة الخضراء فأراح بها أياماً ثم خرج غازياً حتى انتهى إلى وادي لك وسرح الخيول في بلاد العدو وبسائطه يحرق وينسف. فلما خرب بلاد النصرانية

ودمر أرضهم قصد مدينة شريش فنزل بساحتها وأناخ عليها في العشرين من صفر سنة أربع وثمانين المذكورة وبث السرايا والغارات في جميع نواحيها وبعث عن المسالح التي كانت بالثغور فتوافت لديه ولحقه حافده عمر بن عبد الواحد بجمع وافر من المجاهدين من أهل المغرب فرساناً ورجالاً ووافته حصة العزفي صاحب سبتة غزاة ناشبة تناهز خمسمائة وأوعز إلى ولي عهده الأمير يوسف باستنفار من بقي من أهل العدوة.

وكان السلطان رحمه الله لما أناخ على شريش بعث وزيره محمد بن عطوا ومحمد بن عمران عيوناً فوافوا حصن القناطر وروطة واستكشفوا ضعف الحامية واختلال الثغور وعادوا إلى السلطان فأخبروه، ثم عقد السلطان لحافده منصور بن عبد الواحد على ألف فارس من بني مرين والغز وعرب العاصم والخلط والأثبج وأعطاه الراية وبعثه لغزو إشبيلية وذلك في يوم الأحد التاسع والعشرين من صفر من السنة المذكورة فغنموا ومروا بقرمونة في منصرفهم فاستباحوها وأثخنوا بالقتل والأسر ورجعوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، ثم عقد ثانية لحافده عمر بن عبد الواحد على مثلها من الفرسان في يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الأول من السنة وأعطاه الراية وسرحه إلى بسائط وادي لك فرجعوا من الغنائم بما ملأ العساكر بعد أن أثخنوا فيها بالقتل والتخريب وتحريق الزروع واقتلاع الثمار وأبادوا عمرانها.

ثم سرح ثامن ربيع المذكور عسكراً من خمسمائة فارس للإغارة على حصن ركش فوافوه على غرة فاكتسحوا أموالهم وسبوا، ثم عقد تاسع ربيع أيضاً لابنه أبي معرف على ألف من الفرسان وسرحه لغزو إشبيلية فساروا حتى هجموا عليها يوم المولد الكريم وتحصنت منه حاميتها بالأسوار فخرب عمرانها وقطع أشجارها وامتلأت أيدي عسكره سبياً وأموالاً ورجع إلى محلة السلطان وهي نازلة على شريش كما قدمنا مملوء الحقائب.

ثم عقد ثالثة لحافده عمر منتصف ربيع المذكور لغزو حصن كان بالقرب

من معسكره كان أهله يقطعون الطريق على من خرج من المحلة مفرداً أو في قلة وسرح معه الرجل من الناشبة والفعلة بآلات من المساحي والفؤوس، وأمده بالرجل من المصامدة وغزاة سبتة فاقتحموه عنوة على أهله وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء والذرية وألصقوا خده بالتراب ونسفوا آثاره نسفاً، ولسبعة عشر من الشهر ركب السلطان إلى حصن مرتقوط قريباً من معسكره فخربه وحرقه بالنار واستباحه وقتل المقاتلة وسبى الأهل، ولعشرين من شهره المذكور وصل ولي عهده الأمير يوسف من العدوة المغربية بنفير أهل المغرب وكافة القبائل في جيوش ضخمة وعساكر موفورة وركب السلطان للقائهم وبرور مقدمهم وعرض العساكر القادمة معه يومئذٍ فكانت ثلاثة عشر ألفاً من المصامدة وثمانية آلاف من برابرة المغرب كلهم متطوع بالجهاد فعقد السلطان لولي العهد على خمسة آلاف من المرتزقة وألفين من المتطوعة وثلاثة عشر ألفاً من الرجل وألفين من الناشبة وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الأول المذكور وسرحه لغزو إشبيلية والإثخان في نواحيها فعبأ كتائبه ونهض لوجهه وبث الغارات بين يديه فأثخنوا وسبوا وقتلوا واقتحموا الحصون واكتسحوا الأموال وعاج ولي العهد على الشرف والغابة من بسيط إشبيلية فنسف قراها واقتحم بعض حصونها وقفل إلى معسكر السلطان وهو بمكانه من حصار شريش. وفي يوم الاثنين السادس من ربيع الثاني قدم أبو زيان منديل ابن السلطان يعقوب من المغرب في جيش كثيف فيهم خمسمائة فارس من عرب بني جابر أهل تادلا مع كبيرهم يوسف بن قيطون وفيهم من المتطوعة والناشبة عدد كثير فعقد له السلطان غداة وصوله وأمده بعسكر آخر وأغزاه قرمونة والوادي الكبير فأغار على قرمونة وطمعت حاميتها في المدافعة فبرزوا له وصدقهم القتال فانكشفوا حتى أدخلوهم البلد ثم أحاطوا ببرج كان قريباً من البلد فقاتلوه ساعة من نهار واقتحموه عنوة ولم يزل يتقرى المنازل والعمران حتى وقف بساحة إشبيلية فأغار واقتحم برجاً

كان هنالك عيناً على المسلمين وأضرمه ناراً وامتلأت أيدي عساكره وقفل إلى معسكر السلطان على شريش، ولثلاث عشرة ليلة من ربيع الثاني عقد السلطان لولي العهد الأمير يوسف لمنازلة جزيرة كبتور فصمد إليها وقاتلها واقتحمها عنوة، وفي ثاني جمادى الأولى عقد السلطان للحاج أبي الزبير طلحة بن يحيى بن محلى وكان بعد مداخلته أخاه عمر في شأن مالقة سنة خمس وسبعين خرج إلى الحج فقضى فرضه ورجع ومر في طريقه بتونس فاتهمه الدعي ابن أبي عمارة كان بها يومئذٍ فاعتقله سنة اثنتين وثمانين ثم سرحه ولحق بقومه بالمغرب ثم عبر إلى الأندلس غازياً مع السلطان يعقوب فعقد له في هذا اليوم على مائتين من الفرسان وسرحه إلى إشبيلية ليكون ربيئة للمعسكر وبعث معه لذلك عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى يتعرفون له أخبار الطاغية سانجة، والسلطان يعقوب رحمه الله أثناء هذا كله يغادي شريش ويراوحها بالقتل والتخريب ونسف الآثار وبث السرايا كل يوم وليلة في بلاد العدو فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أو إغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية وخرب بسائط إشبيلية ولبلة وقرمونة وإستجة وجبال الشرف وجميع بسائط الفرنتيرة.

وأبلى في هذه الغزوات عياد بن أبي عياد العاصمي من شيوخ جشم والخضر الغزي من أمراء الأكراد بلاءً عظيماً وكان لهم فيها ذكر وصيت وكذلك غزاة سبتة وكذا سائر المجاهدين من عرب جشم وغيرهم مثل مهلهل بن يحيى الخلطي صهر السلطان ويوسف بن قيطون الجابري وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم.

فلما دمرها تدميراً وأوسعها تخريباً ونسفها نسفاً واكتسحها غارة ونهباً وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتزم السلطان على القفول وأفرج عن شريش لآخر جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد أن حاصرها نحواً من ثلاثة أشهر وعشرة أيام واتصل به أن العدو أوعز إلى أساطيله

باحتلال الزقاق والاعتراض دون الفراض فأوعز السلطان إلى جميع سواحله من سبتة وطنجة وبلاد الريف ورباط الفتح والمنكب والجزيرة وطريف بتوجيه أساطيلهم فتوافت منها ستة وثلاثون أسطولاً متكاملة في عدتها فأحجمت أساطيل العدو عنها وارتدت على أعقابها واحتل السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء وهي المسماة اليوم بخوزيرت غرة رمضان من سنة أربع وثمانين وستمائة ونزل بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بإزائها فبرزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسى وهو جالس بمشور قصره فلعبوا بمرأى منه في البحر وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب فسر بذلك وأحسن إليهم وصرفهم إلى حال سبيلهم.

وفادة الطاغية على السلطان يعقوب بأحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب في ذلك

قال ابن خلدون رحمه الله: لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم واكتساح أموالهم وسبي نسائهم وإبادة مقاتلتهم وتخريب معاقلهم وانتساف عمرانهم زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر واستيقنوا أن لا عاصم لهم من أمير المسلمين فاجتمعوا إلى طاغيتهم سانجة خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب وأليم النكال وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم وإيفاد الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة أو تحل قريباً من دارهم فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه وأوفد على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفداً من بطارقتهم وشمامستهم يخطبون السلم ويضرعون في المهادنة والإبقاء ووضع أوزار الحرب فردهم أمير المسلمين اعتزازاً عليهم، ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن من صاغيتهم إليه وذلهم لعز الإسلام وأجابهم إلى ما سألوه

واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة، واستدعى السلطان الشيخ أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشتراط ذلك وإحكام عقده فسار عبد الحق إلى الطاغية سانجة وهو بإشبيلية فعقد معه الصلح واستبلغ وأكد في الوفاء بهذه الشروط، ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وبلاده دون أمير المسلمين وأن يكون معه يداً واحدة عليه فأحضرهم الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ما عقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة، وقال لهم: «إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عن نفسي فكيف عنكم» فانصرفوا ولما رأى عبد الحق ميله إلى رضا السلطان وسوس إليه بالوفادة عليه لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة فمال إلى موافقته وسأله لقي الأمير يوسف ولي عهد السلطان أولاً ليطمئن قلبه فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش وباتا بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب وكان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعائر الإسلام وأبهته وأن لا يلبسوا إلا البياض، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية.

وقدم الطاغية في جماعته سود اللباس خاضعين ذليلين فاجتمعوا بالأمير بحصن الصخرات على مقربة من وادي لك وذلك يوم الأحد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة وتقدم الطاغية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده أتحف بها السلطان وولي عهده كان فيها زوج من الخيول

الوحشي المسمى بالفيل وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف فقبلها السلطان وابنه وأضعفوا له المكافأة وكمل عقد السلم وقبل الطاغية سائر الشروط ورضي بعز الإسلام عليه وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة وسأل منه السلطان أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملاً فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطية والثعلبي ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار ومن كتب الأصول والفروع واللغة والعربية والأدب وغير ذلك فأمر السلطان رحمه الله بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم وقفل السلطان فاحتل بقصره من الجزيرة لليلتين بقيتا من شعبان فقضى صومه ونسك عيده وجعل من قيام ليله جزأ لمحاضرة أهل العلم وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم عيد الفطر بمشهد الملأ في مجلس السلطان، وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعر الدولة أبو فارس عبد العزيز الملزوزي الأصل المكناسي الدار ويعرف بعزوز أتى بقصيدة طويلة من بحر الوافر على روي الباء المفتوحة المردوفة بالألف ذكر فيها سيرة السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفدته وامتدح قبائل مرين ورتبهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر قبائل العرب على اختلافها وأنشدت بمحضر السلطان والحاشية فأمر لمنشئها بألف دينار وخلعة ولمنشدها بمائتي دينار، ثم أعمل السلطان نظره في الثغور فرتب بها المسالح وبعث ولده الأمر أبا زيان منديلاً ليقف على الحد بين أرضه وأرض ابن الأحمر وعقد له على تلك الناحية وأنزله بحصن ذكوان قرب مالقة وأوصاه أن لا يحدث في بلاد ابن الأحمر حدثاً وعقد لعياد بن أبي عياد العاصمي على مسلحة أخرى وأنزله بأسطبونة وأجاز ابنه الأمير يوسف إلى المغرب لتفقد أحواله ومباشرة أموره وأمره أن يبني على قبر والده أبي الملوك عبد الحق بتافرطاست زاوية فاختط هنالك رباطاً حفيلاً وبنى على قبر الأمير

عبد الحق إدريس أسنمة من الرخام ونقشها بالكتابة ورتب عليها قراء لتلاوة القرآن ووقف على ذلك ضياعاً وأرضاً تسع حرث أربعين زوجاً رحم الله الجميع بمنّه.

وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمائة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة وقبره اليوم طامس الأعلام رحمه الله.

بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته

كان السلطان يعقوب رحمه الله أبيض اللون تام القد معتدل الجسم حسن الوجه واسع المنكبين كامل اللحية معتدلها أشيب نقي البياض حليماً متواضعاً جواداً مظفراً منصور الراية ميمون النقيبة لم يقصد جيشاً إلا هزمه ولا عدواً إلا قهره ولا بلداً إلا فتحه صواماً قواماً دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقرباً للعلماء مكرماً للصلحاء صادراً في أكثر أموره عن رأيهم ولما استقام له الأمر بنى المرستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذمى والعمي والفقراء رتب لهم مالاً معلوماً يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى نفعه الله بقصده.

الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله
يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى

لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مرضه نساؤه وطيرن بالخبر إلى ولي عهده الأمير يوسف وكان يومئذٍ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو بأحواز فاس فأسرع السير إلى طنجة وقد مات أبوه قبل وصوله فأخذ البيعة له الوزراء والأشياخ ولما عبر إليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملكه واستقام أمره ففرق الأموال وأجزل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها إلى أمانتهم وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس وأزال المكوس ورفع الأنزال عن دور الرعية وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة فأزال أكثر الرتب والقبالات التي كانت بالمغرب إلا ما كان منها في الأقطار الخالية والمفازات المخوفة فخضعت مرين تحت قهره وصلح أمر الناس في أيامه، وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث إلى ابن الأحمر وضرب له موعداً للاجتماع به فبادر إليه ولقيه بظاهر مربالة في العشر الأول من ربيع الأول من السنة المذكورة فلقاه السلطان مبرة وتكريماً وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت في ملكة أبيه ونزل له عنها ما عدى الجزيرة ورندة وطريف وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة ورجع السلطان يوسف إلى الجزيرة فقدم عليه بها وفد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذي عقده لهم السلطان يعقوب رحمه الله.

ولما تمهد للسلطان يوسف أمر الأندلس عقد لأخيه أبي عطية العباس بن يعقوب على الثغور الغربية وأوصاه بضبطها وعقد للشيخ المجاهد أبي الحسن علي بن يوسف بن يزكاتن على مسلحتها وجعل إليه أمر الحرب وأعنة الخيل وأمده بثلاثة آلاف من بني مرين والعرب ثم عبر البحر إلى المغرب يوم

الاثنين سابع ربيع الآخر من السنة المذكورة فنزل بقصر المجاز ثم سار إلى حضرة فاس فدخلها ثاني عشر جمادى الأولي منها ولحين استقراره بها خرج عليه محمد بن إدريس بن عبد الحق في بنيه وإخوته ومن انضم إليه ولحق بجبال ورغة ودعا لنفسه فسرح إليه السلطان يوسف أخاه أبا معرف محمد بن يعقوب فبدا له في النزوع إليهم فلحق بهم وشايعهم على رأيهم من الخلاف فأغزاهم السلطان يوسف عساكره وردد إليهم البعوث والكتائب ثم تلطف في استنزال أخيه حتى نزل على الأمان وفر بنو إدريس إلى تلمسان فقبض عليهم أثناء طريقهم وجيء بهم في الحديد إلى تازا فبعث السلطان يوسف أخاه أبا زيان فقتلهم خارج باب الشريعة منها في رجب من السنة ورهب الأعياص من بني عبد الحق يومئذٍ وخافوا بادرة السلطان يوسف فلحقوا بغرناطة ملتفين على بني إدريس منهم ثم ارتحل السلطان في رمضان من السنة المذكورة إلى مراكش لتمهيد نواحيها وتثقيف أطرافها فدخلها في شوال وأقام بها إلى رمضان القابل من سنة ست وثمانين وستمائة فنهض من مراكش لغزو عرب معقل بصحراء درعة لأنهم كانوا قد أضروا بالرعايا وأفسدوا السابلة فسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الخيل ومر على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن وأدركهم نواجع بالقفر فأثخن فيهم بالقتل والسبي واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس وقفل من غزوه آخر شوال من السنة المذكورة إلى مراكش فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية بها من لدن انقراض الدولة الموحدية لما وقع من الارتياب بأولاد محلى بكثرة خروجهم على الدولة وكانت نكبته غرة محرم سنة سبع وثمانين وستمائة وهلك في السجن في صفر الموالي له، وعقد السلطان يوسف على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطوا الجاناتي من موالي دولتهم ولاء حلف وترك معه ابنه أبا عامر عبد بن يوسف ثم ارتحل السلطان يوسف إلى فاس فدخلها منتصف ربيع من السنة المذكورة.

قدوم بني اشقيلولة على السلطان يوسف بسلا وإقطاعه إياهم قصر كتامة والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن بني اشقيلولة كانوا من وجوه الأندلس وأهل الرياسة بها حتى صاهرهم ابن الأحمر بابنته وأخته وقاموا معه في إثبات قواعد ملكه ثم انحرفوا عنه إلى موالاة بني مرين ونزل محمد بن عبد الله بن أبي الحسن منهم إلى السلطان يعقوب عن مالقة وكان عمه أبو إسحاق بن أبي الحسن صاحب وادي آش وأعمالها واتصل ذلك في بنيه إلى أن بويع السلطان يوسف فقاموا بدعوته فيها ثم حصلت المصافاة وتأكدت المودة بين السلطان يوسف وابن الأحمر على ما أسلفناه آنفاً فطلب ابن الأحمر من السلطان يوسف أن ينزل له عن واد آش التي هي لبني اشقيلولة المتمسكين بدعوته كما نزل له عن غيرها من الثغور فأجابه السلطان إلى ذلك وكتب إلى أبي الحسن بن إسحاق بن اشقيلولة يأمره بالتخلي له عنها فتركها له وعبر هو وحاشيته البحر إلى السلطان يوسف سنة سبع وثمانين المذكورة فلقيه بمدينة سلا فأعطاه السلطان يوسف القصر الكبير وأعماله طعمة سوغه إياها فلم تزل ولايته متوارثة في بنيه حتى انقرضوا آخر دولة بني مرين واستمكن ابن الأحمر من وادي آش وحصونها ولم يبق له بالأندلس منازع من قرابته والله أعلم.

حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وعثمان بن يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان

قد تقدم لنا أن يغمراسن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان أن لا يحدث مع بني مرين حرباً ولا يواقفهم في زحف ما استطاع لاستغلاظ أمرهم عليه بملكهم المغرب الأقصى وأعماله وأن عثمان قد عمل على ذلك فأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على السلطان يعقوب بالأندلس وعقد معه السلم

ورجع إلى أخيه كما تقدم ولما ولي السلطان يوسف وقفل من مراكش إلى فاس في هذه المرة بعد أن ترك ابنه أبا عامر عبد الله مع محمد بن عطوا عامل مراكش ثار أبو عامر المذكور بها وخلع طاعة أبيه ودعا إلى نفسه وشايعه ابن عطوا على ذلك واتصل الخبر بالسلطان يوسف وهو بفاس فأسرع السير إلى مراكش وبرز إليه ابنه أبو عامر فاقتتلوا ثم انهزم أبو عامر فعاد إلى مراكش واكتسح بيت المال بها وفر إلى تلمسان ومعه ابن عطوا المذكور فقدماها سنة ثمان وثمانين وستمائة فآواهم عثمان بن يغمراسن ومهد لهم المكان فلبثوا عنده ملياً.

ثم عطف السلطان على ابنه الرحم فرضي عنه وأعاده إلى مكانه وطالب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه ابن عطوا الناجم في النفاق مع ابنه فأبى من إضاعة جواره وإخفار ذمته وأغلظ له الرسول في القول فسطا به عثمان واعتقله فثارت من السلطان يوسف الحفائظ الكامنة وتحركت منه الإحن القديمة والنزغات المتوارثة فاعتزم على غزو تلمسان ونهض إليها من مراكش في صفر من سنة تسع وثمانين وستمائة بعد أن عقد عليها لابنه الأمير أبي عبد الرحمٰن يعقوب بن يوسف ثم نهض من فاس إليها آخر ربيع الآخر من سنته في عساكره وجنوده وحشد القبائل وكافة أهل المغرب وسار حتى نازل تلمسان فتحصن منه عثمان وقومه بأسوارها فحاصره السلطان يوسف وضيق عليه ونصب عليه المجانيق وكان حصاره إياها في رمضان من السنة المذكورة ثم سار في نواحيها ينسف الآثار ويخرب القرى ويحطم الزروع ثم نزل بذراع الصابون من ناحيتها ثم انتقل منه إلى تامت وحاصرها أربعين يوماً وقطع أشجارها وأباد خضراءها ولما امتنعت عليه أفرج عنها وانكفأ راجعاً إلى المغرب وقضى نسك الفطر بعين الصفا من بلاد بني يزناسن ونسك الأضحى وقربانه بتازا وتلبث بها أياماً ثم نهض منها إلى الأندلس بقصد الجهاد على ما نذكره.

انتقاض الطاغية سانجة وإجازة السلطان يوسف إليه

لما رجع السلطان يوسف من غزو تلمسان وافاه الخبر وهو بتازا أن الطاغية سانجة قد انتقض ونبذ العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور، فأوعز السلطان إلى قائد المسالح بالأندلس علي بن يوسف بن يزكاتن بالدخول إلى دار الحرب ومنازلة شريش وشن الغارات على بلاد الطاغية، فنهض لذلك في ربيع الآخر من سنة تسعين وستمائة وجاس خلالها وتوغل في أقطارها وأبلغ في النكاية.

ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازياً أثره في جمادى الأولى من السنة المذكورة واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في إجازتهم البحر، فبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزاً لهم دون الإجازة فأوعز السلطان يوسف إلى قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا، وقدست فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق في شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله وقتل قواد الأساطيل، فأمر السلطان يوسف باستئناف العمارة ثم أغزاهم ثانية فخامت أساطيل العدو عن اللقاء وصاعدوا عن الزقاق فملكته أساطيل السلطان، فأجاز أخريات رمضان من السنة واحتل بطريف ثم دخل دار الحرب غازياً فنازل حصن بجير ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو، وردد الغارات على شريش وإشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ في النكاية والإثخان غرضه وقضى من الجهاد وطره، وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة الخضراء ثم عبر إلى المغرب فاتح سنة إحدى وتسعين وستمائة، فتظاهر ابن الأحمر والطاغية على منعه من الجواز مرة أخرى كما نذكره الآن.

حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الأحمر واستيلاء الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها

لما قفل السلطان يوسف من الأندلس وقد أبلغ في نكاية العدو كما قلنا عظم على الطاغية أمره وثقلت عليه وطأته فشرع في إعمال الحيلة في الإفساد بينه وبين ابن الأحمر، وكان ابن الأحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده فخلص مع الطاغية نجيا وتفاوضا في أمر السلطان يوسف وأن تمكنه من الإجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين حفافيه وتصرف شوانيهم وسفنهم فيه متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل الجهادية وأن أم تلك الثغور هي طريف وأنهم إذا استمكنوا منها منعوا السلطان من العبور وكانت عيناً لهم على الزقاق وكان أسطولهم بمرفئها رصداً لأساطيل صاحب المغرب الخائضة لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذٍ مسلحة بني مرين وتكفل له ابن الأحمر بمظاهرته على ذلك والتزم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلتها على أن تكون له إن خلصت للطاغية، وتعاهدوا على ذلك وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجانيق والعرادات وأحاط بها براً وبحراً، وانقطع المدد والميرة عن أهلها وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صريخ السلطان واضطرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً من عسكر الطاغية وسرب إليه المدد من الرجال والسلاح والميرة وأصناف الأقوات، وبعث عسكراً لمنازلة حصن إسطبونة فتغلب عليه بعد مدة من الحصار، واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد، فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ووفى لهم بما عاهدهم عليه واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية له عنها حسبما تعاهدا عليه فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً عنها فخرج من يده الجميع ولم

يحصل على طائل فكانت حاله في ذلك كحال صاحبة النعامة المضروب بها المثل عند العرب وبالله تعالى التوفيق.

ثورة عمر بن يحيى بن الوزير الوطاسي بحصن تازوطا

اعلم أن بني وطاس فخذ من بني مرين لكنهم ليسوا من بني عبد الحق وكانت الرياسة فيهم لبني الوزير منهم، وبنو الوزير يزعمون أن نسبهم دخيل في مرين وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبادية ونزلوا على بني وطاس فالتحموا بهم ولبسوا جلدتهم وحازوا رياستهم، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله كما قدمنا بقيت بلاد الريف خالصة لبني وطاس هؤلاء فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم وكان حصن تازوطا بها من أمنع معاقل المغرب، ولما غلب الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مكناسة وأقام فيها دعوة الحفصيين ونهض السعيد بن المأمون الموحدي من مراكش لغزوه فر أمامه إلى حصن تازوطا هذا ونزل به على بني الوزير هؤلاء لاجئاً إليهم ومستجيراً بهم فأرادوا الفتك به غيرة منه وحسداً له فشعر بهم وتحول عنهم إلى عين الصفا من بلاد بني يزناسن حسبما تقدم ذلك كله.

ولما انقرض أمر بني عبد المؤمن واستقام ملك المغرب لبني مرين صرفوا عنايتهم إلى هذا الحصن فكانوا ينزلون به من الحامية من يثقون بغنائه واضطلاعه ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط من بني وطاس لما يعلمون من سموهم إلى الرياسة وتطلعهم إليها، وكان السلطان يوسف رحمه الله قد عقد على هذا الحصن لابن أخيه منصور بن عبد الواحد بن يعقوب، وكان عمر وعامر ابنا يحيى ابن الوزير رئيسين على بني وطاس لذلك العهد فاستهونوا أمر السلطان يوسف بعد موت والده وحدثوا أنفسهم بالثورة في ذلك الحصن والاستبداد بتلك الناحية، فوثب عمر بن يحيى منهم بمنصور بن عبد الواحد في شعبان من سنة إحدى وتسعين

وستمائة وفتك بحاشيته ورجاله وأزعجه عن الحصن وغلبه على ما كان بقصره من مال وسلاح ومتاع وأعشار للروم كانت مختزنة هنالك وضبط الحصن وشحنه برجاله ووجوه قومه ولحق منصور بن عبد الواحد بعمه السلطان يوسف فهلك لليال أسفاً على ما أصابه.

وسرح السلطان يوسف وزيره الناصح أبا عمر بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة في العساكر لمنازلة حصن تازوطا فأناخ عليه بكلكله ثم تبعه السلطان يوسف على أثره وفي صحبته عامر بن يحيى بن الوزير أخو عمر الثائر، فإنه كان قد نزع إليه فأحاط السلطان بالحصن وضيق عليه حتى أشفق عمر لشدة الحصار ويئس من الخلاص وظن أنه قد أحيط به فدس إلى أخيه عامر في كشف ما نزل به، فضمن عامر للسلطان يوسف نزول أخيه إن هو تركه يصعد إليه حتى يجتمع به فأذن له السلطان يوسف في ذلك فصعد إليه وتفاوضا في أمرهما وآخر الأمر أن عمر احتمل الذخيرة وفر ليلاً إلى تلمسان وبدا لعامر في النزول عندما صار في الحصن فامتنع به قيل لأنه بلغه أن السلطان يوسف عزم على قتله أخذاً بثار ابن أخيه منصور ولإفلاته أخاه من يده.

واستمر على ذلك إلى أن قدم على السلطان يوسف وفد الأندلس وفيهم الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة راغباً في الصلح مع ابن عمه ومعتذراً عنه فأرسى أساطيله بمرسى غساسة ونزل إلى السلطان وقدم بين يده هدية تناسب الحال فسمع بهم عامر الوطاسي وهو في الحصن فبعث إليهم يسألهم الشفاعة له عند السلطان يوسف لوجاهتهم لديه فشفع له الرئيس أبو سعيد فقبل السلطان يوسف شفاعته بشرط أن ينتقل بحاشيته إلى الأندلس وكره عامر ذلك فأظهر الرضا وقدم بين يديه جماعة من حاشيته إلى المرسى وركب أكثرهم الأسطول وتأخر عامر إلى جوف الليل فنزل من الحصن وخاض الفلاة إلى تلمسان فتبعت الخيل أثره ففاتهم وأدركوا ولده أبا الخيل فجيء به إلى السلطان يوسف فبعث به إلى فاس فضربت عنقه وصلب

هنالك، وأنزل السلطان يوسف بقية الحاشية من الأسطول فأمر بهم فاستلحموا مع من كان بالحصن من أتباعهم وقرابتهم وذرياتهم، وتملك السلطان يوسف حصن تازوطا وأنزل به عماله ومسلحته وقفل إلى حضرته بفاس آخر جمادى الأولى من سنة اثنتين وتسعين وستمائة.

ولما كان السلطان نازلاً على تازوطا قدم عليه رجل من فرنج جنوة بهدية جليلة فيها شجرة مموهة بالذهب عليها أطيار تصوت بحركات هندسية مثل ما صنع للمتوكل العباسي، وفي هذه المدة سعي عند السلطان يوسف بأولاد الأمير أبي بكر بن عبد الحق وأنهم أرادوا الخروج عليه فحقد عليهم لذلك وأحسوا بالشر ففروا إلى تلسمان وأقاموا هنالك إلى أن بعث السلطان يوسف إليهم بالأمان فأقبلوا حتى إذا كانوا بصبرة من ناحية ملوية اعترضهم الأمير أبو عامر عبد الله ابن السلطان يوسف فاستلحمهم أجمعين وهو يرى أنه قد أرضى أباه بذلك الفعل، واتصل الخبر بالسلطان يوسف فسخطه وأقصاه وتبرأ منه فلم يزل طريداً ببلاد الريف وجبال غمارة إلى أن هلك ببني سعيد منهم آخر سنة ثمان وتسعين وستمائة وحمل إلى فاس فدفن بالزاوية التي داخل باب الفتوح وخلف ثلاثة أولاد عامر وسليمان وداود فكفلهم جدهم السلطان يوسف إلى إن هلك فولي الأمر بعده حافده عامر وبعد عامر سليمان وسيأتي ذكرهما إن شاء الله.

انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الأحمر ووفادته عليه بطنجة

لما استولى الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها ونقض الطاغية عهد ابن الأحمر في النزول له عنها سقط في يد ابن الأحمر وندم على فعله ورجع إلى التمسك بالسلطان يوسف، فأوفد عليه ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الداني في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعذرة عن شأن طريف، فوافوه

بمكانه من حصار تازوطا كما قدمنا فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة بإسعاف غرضه من المؤاخاة واتصال اليد، فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سروراً من أعواده، وأجمع الرحلة إلى السلطان لإحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف والرغبة إليه في نصرة بلاد الأندلس وإغاثة المسلمين الذين بها، فتهيأ لذلك وعبر البحر في ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين وستمائة واحتل بجبل بيونش من ناحية سبتة، ثم ارتحل إلى طنجة فلقيه بها الأميران أبو عامر عبد الله وأبو عبد الرحمٰن يعقوب ابنا السلطان يوسف وكان أبو عامر لا زال يومئذٍ من أبيه بعين الرضا.

ولما علم السلطان يوسف بقدومه خرج من فاس للقائه وبرور مقدمه فوافاه بطنجة فقدم ابن الأحمر بين يدي نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعاً لديه المصحف الكبير الذي يقال إنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص إلى ابن الأحمر فأتحف به السلطان يوسف في هذه المرة، فقبل السلطان ذلك وكافأه بأضعافه وبالغ في تكرمته وأسعفه بجميع مطالبه وأراد ابن الأحمر أن يبسط العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك وأضرب عن ذكره صفحاً وبر وأحفى ووصل وأجزل، ونزل[1] لابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصناً من ثغور الأندلس كانت قبل في ملكته وملكة أبيه، وعاد ابن الأحمر إلى أندلسه آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة محبواً محبوراً وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنازلته وعقد على حربها لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الحشمي فنازلها مدة فامتنعت عليه وأفرج عنها.

وفي سنة ثلاث وتسعين بعدها فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا

---

(1) في النسخة الصحيحة من ابن خلدون طبع الجزائر أن النازل عن هذه الثغور هو ابن الأحمر للسلطان يوسف هو ما يقتضيه الحال.

وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطاراً وعدد كؤوسها خمسمائة كأس وأربعة عشر كأساً، وأنفق السلطان في بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهباً.

وفي سنة أربع وتسعين بعدها خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فوصل إلى تاوريرت وكانت تخماً لعمل بني مرين وبني عبد الواد، فنصفها للسلطان يوسف ونصفها لعثمان بن يغمراسن ولكل واحد منهما بها عامل من ناحيته فطرد السلطان يوسف عامل ابن يغمراسن وشرع في بناء الحصن الذي هنالك فأدار سوره وشيده وركب أبوابه مصفحة بالحديد وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة إلى المساء لا يغيب عن العملة إلا في أوقات الضرورة، وفرغ من بنائه وتحصينه في رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالعسكر والسلاح وعقد عليه لأخيه أبي بكر بن يعقوب ويكنى أبا يحيى وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، ثم خرج من فاس سنة خمس وتسعين بعدها بقصد تلمسان فسار حتى نزل على ندرومة فحاصرها وشدد في قتالها ورماها بالمنجنيق أربعين يوماً فامتنعت عليه فأفرج عنه ثاني عيد الفطر من السنة المذكورة، ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة فسار إلى تلمسان وبرز عثمان بن يغمراسن لمدافعته فانهزم وتحصن بالأسوار وتقدم السلطان يوسف حتى نزل على تلمسان وقتل من أهلها خلقاً ثم أقلع عنها ورجع إلى المغرب فقضى نسك الأضحى من السنة المذكورة برباط تازا وأمر ببناء القصر بها، وسار إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وتسعين وستمائة ثم ارتحل إلى مكناسة فقضى بها بعض الوطر ثم عاد إلى فاس، ثم خرج منها في جمادى الأولى من السنة المذكورة غازياً تلمسان ومر في طريقه بمدينة وجدة فأمر ببنائها وكان أبوه السلطان يعقوب قد هدمها كما مر فبناها السلطان يوسف في هذه المرة وحصن أسوارها وبنى بها قصبة وداراً لسكناه وحماماً ومسجداً ثم سار إلى تلمسان فنزل بساحتها وأحاطت عساكره بها إحاطة الهالة بالقمر ونصب عليها القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار اخترعها المهندسون والصناع وتقربوا إلى السلطان

بعملها فأعجبته وكانت تحمل على أحد عشر بغلاً ولما امتنعت تلمسان عليه أفرج عنها فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة ومر في عوده إلى المغرب بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر بن محمد لنظر أخيه الأمير أبي بكر بن يعقوب كما كانوا بتاوريرت وأمرهم بشن الغارات على أعمال تلمسان مع الساعات والأحيان ففعلوا واستولى الأمير أبو بكر بذلك على أكثر تلك الجهات والله تعالى أعلم.

فتكة ابن الملياني بشيوخ المصامدة وتزويره الكتاب بهم والسبب في ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على فتح جبل تنيملل أن أبا علي الملياني كان قد سعى في نبش قبور بني عبد المؤمن والعبث بأشلائهم وأن الناس قد غاظهم ذلك لا سيما المصامدة منهم، ولما هلك السلطان يعقوب وولي بعده ابنه يوسف استعمل أبا علي الملياني على جباية المصامدة فباشرها مدة ثم سعى به شيوخ المصامدة عند السلطان بأنه احتجن المال لنفسه، فأمر السلطان بمحاسبته فحوسب وظهرت مخايل صدقهم عليه فنكبه السلطان يوسف أولاً ثم قتله ثانياً، واصطنع ابن أخيه أبا العباس[1] أحمد بن علي الملياني واستعمله في كتابته وأقامه ببابه في جملة كتابه، وكان السلطان يوسف قد سخط على بعض شيوخ المصامدة منهم علي بن محمد كبير هنتاتة وعبد الكريم بن عيسى كبير قدميوة وأوعز إلى ابنه الأمير علي بن يوسف بمراكش باعتقالهما فاعتقلهما فيمن لهما من الولد والحاشية، وأحس بذلك أحمد بن الملياني فاستعجل الثأر الذي كان يعتده عليهم في عمه أبي علي.

وكانت العلامة السلطانية يومئذٍ موكولة إلى كتاب الدولة لم تختص بواحد منهم لما كانوا كلهم ثقات أمناء وكانوا عند السلطان كأسنان المشط فكتب أحمد بن الملياني إلى الأمير أبي علي كتاباً على لسان والده يأمره فيه أمراً جزماً

(1) انظر ترجمته في الإحاطة ج1/ 149.

بقتل مشيخة المصامدة ولا يمهلهم طرفة عين ووضع عليه العلامة التي تنفذ بها الأوامر السلطانية وختم الكتاب وبعث به مع البريد، قال ابن الخطيب: «ولما أكد على حامله في العجل وضايقه في تقدير الأجل تأنى حتى إذا علم أنه قد وصل وأن غرضه قد حصل فر إلى تلمسان وهي بحال حصارها فاتصل بأنصارها حالاً بين أنوفها وأبصارها وتعجب الناس من فراره وسوء اغتراره ورجمت الظنون في آثاره ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة فتركها شنعاء على الأيام وعاراً في الأقاليم على حملة الأقلام» اهـ ولما وصل الكتاب إلى ولد السلطان أخرج أولئك الرهط المعتقلين إلى مصارعهم وحكم السيف في رقاب جميعهم فقتل علي بن محمد الهنتاتي وولده وعبد الكريم بن عيسى القدميوي وبنوه الثلاثة عيسى وعلي ومنصور وابن أخيه عبد العزيز بن محمد، وطير الأمير علي بالإعلام إلى والده مع بعض وزرائه وهو يرى أنه قد امتثل الأمر واستوجب الشكر.

فلما وصل الرسول بالخبر إلى السلطان يوسف بطش به فقتله غيظاً عليه وأنفذ البريد في الحال باعتقال ولده وقام وقعد لذلك ومن ذلك الوقت قصر السلطان علامته على من يختاره من ثقات الكتاب وعدولهم، وجعلها يومئذٍ للفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين وكان من الكفاة المضطلعين بأمور الدولة المتحملين للكثير من أعبائها، وأما ابن الملياني فإنه فر إلى تلمسان والسلطان يوسف محاصر لها ولما وقع الإفراج عنها بعد حين انتقل إلى الأندلس فبقي هنالك إلى أن توفي بغرناطة سنة خمس عشرة وسبعمائة ومن شعره يفخر بهذه الفعلة وغيرها قوله:

العز ما ضربت عليه قبابي ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما أهداه غصن يراعتي ... والمسك ما أبداه نقس كتابي
فالمجد يمنع أن يزاحم موردي ... والعزم يأبى أن يضام جنابي
فإذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكري أو جزيل ثوابي
وإذا عقدت مودة أجريتها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي
وإذا طلبت من الفراقد والسهى ... ثاراً فأوشك أن أنال طلابي

الحصار الطويل وما تخلل ذلك من الأحداث على تلمسان

تقدم لنا أن السلطان يوسف لما رجع من محاصرة تلمسان فاتح سنة ثمان وتسعين وستمائة مر في طريقه بوجدة فأنزل بها الحامية من بني عسكر إلى نظر أخيه الأمير أبي بكر وأمره بشن الغارات على أعمال بني زيان فامتثل الأمير أبو بكر أمره وألح على النواحي بالغارات وإفساد السابلة، فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعاً وأوفدوا وفداً منهم على الأمير أبي بكر يسألونه الأمان لهم ولمن وراءهم من قومهم على أن يمكنوه من قياد بلدهم ويدينوا بطاعة السلطان يوسف فبذل لهم من ذلك ما أرضاهم، ونهض إلى البلد فدخله بعسكره وتبعهم على ذلك أهل تاونت فأوفد الأمير أبو بكر جماعة من أهل البلدين على أخيه السلطان يوسف فقدموا عليه منتصف رجب من سنة ثمان وتسعين المذكورة فأدوا طاعتهم فقبلها، ورغبوا إليه في الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوه وعدوهم عثمان بن يغمراسن ووصفوا له من عسفه وجوره وضعفه عن الحماية ما أكد عزمه على النهوض، فنهض لحينه من فاس في رجب المذكور بعد أن استكمل حشده ونادى في قومه وعرض عسكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم، وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها بكلكله وربض قبالتها على ترائبه وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها، وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار.

ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سوراً عظيماً جعله سياجاً على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه، ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه، وأوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل إليها بقوت وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص

إليها الطير لا بل الطيف، واستمر مقيماً عليها كذلك مائة شهر، ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصراً لسكانه واتخذ به مسجداً لصلاته وأدار عليهما سوراً يحرزهما، ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان، وابتنى مسجداً جامعاً أقامه على الصهريج الكبير وشيد له مناراً رفيعاً وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة، فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها إلى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها، ولما تمكن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قريبة على ندرومة وهنين ووهران وتالموت وتامزردكت ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة ووانشريس ومليانة والقصبات ولمدية وتافرجينت، وجميع بلاد بني عبد الواد وبلاد بني توجين وبلاد مغراوة وبايعه ابن علان صاحب الجزائر وأخذ رعبه بملوك النواحي، وكانت دولة بني أبي حفص يومئذٍ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس وآخر ببجاية فتنافس صاحب تونس وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقرب إليه بالهدايا والتحف وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق والله غالب على أمره.

نكبة بني وقاصة من يهود فاس

كان بنو وقاصة هؤلاء من يهود ملاح فاس وكانوا مداخلين للسلطان يوسف من صغره إلى كبره، وكانوا يتولون قهرمة داره ويقضون أموره الخاصة

به ويخلصون إلى الكثير من باطن أمره، قد التحموا به التحاماً وامتزجوا به امتزاجاً يجالسونه في خلواته وينادمونه في أنسه، فعظم جاههم عند الحاشية لإقبال السلطان عليهم واستتبعوا الوزراء فمن دونهم من رجال الدولة، وتعددت فيهم الرؤساء والقهارمة فكان منهم خليفة بن وقاصة وأخوه إبراهيم وصهره موسى بن السبتي وابن عمه خليفة الأصغر وغيرهم واستمروا على ذلك برهة من الدهر، ثم إن السلطان يوسف استفاق استفاقة والتفت إليهم التفاتة وراجع بصيرته في شأنهم فأهمه أمرهم وشعر كاتبه بذلك القائم بأمور دولته أبو محمد عبد الله بن أبي مدين، فسعى عنده فيهم وأوجده السبيل عليهم فسطا بهم سطوة منكرة واعتقلوا في شعبان من سنة إحدى وسبعمائة بمعسكره من حصار تلمسان وقتل خليفة الكبير وأخوه إبراهيم وموسى بن السبتي وإخوته بعد أن امتحنوا ومثل بهم وأتت النكبة على حاشيتهم وأقاربهم فلم تبق منهم باقية، إلا أن السلطان استبقى منهم خليفة الأصغر احتقاراً لشأنه حتى كان من قتله بعد ما نذكره، وعبث بسائرهم وطهرت الدولة من رجسهم وأزيل منها معرة رياستهم والأمور بيد الله سبحانه.

ثم لما كانت سنة ثلاث وسبعمائة توفي عثمان بن يغمراسن في الحصار عقب شربة لبن يقال إنه جعل فيها سماً وشربه فعل ذلك بنفسه تفادياً من معرة غلبة عدوه عليه، فاجتمع بنو عبد الواد لحينهم وبايعوا ابنه محمد بن عثمان واجتمعوا عليه ثم برزوا إلى قتال عدوهم على العادة حتى كأن عثمان لم يمت وبلغ الخبر إلى السلطان يوسف فتفجع على عثمان وعجب من صرامة قومه من بعده.

انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة

كان محمد بن الأحمر المعروف بالفقيه قد هلك سنة إحدى وسبعمائة، وولي الأمر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي، وكان من أول ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالأمر المبادرة إلى أحكام عقد الموالاة بينه وبين السلطان يوسف فأوفد عليه وزير أبيه أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني ووزيره الكاتب أبا عبد الله بن الحكيم، فوصلا إلى السلطان يوسف بمعسكره من حصار تلمسان فتلقاهما بالقبول والمبرة وجددت لهما أحكام الود والولاية وانقلبا إلى مرساهما خير منقلب وطلب السلطان منهما أن يمدوه بالرجل من عسكر الأندلس وناشبتهم المعودين منازلة الحصون والمثاغرة بالرباط فأسعفوه، ثم فسد ما بينهما لمنافسات جرت إلى ذلك فانتقض ابن الأحمر وعاد لسنة سلفه من موالاة الطاغية وممالاته على المسلمين أهل المغرب وأحكم العهد مع هراندة بن سانجة من بني أذفونش ملوك قشتالة خذلهم الله.

ثم أوعز ابن الأحمر إلى ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة في إعمال الحيلة في الغدر بأهل سبتة ففعل، وداخل في ذلك بعض عمال بني العزفي بها فأمكنه من البلد فاقتحمها بأساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها وتقبض على بني العزفي وعلى حاشيتهم وأركبهم الأسطول وبعث بهم إلى مالقة ثم منها إلى غرناطة فتلقاهم ابن الأحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره وأجرى عليهم النفقة واستقروا بالأندلس برهة من الدهر ثم عادوا إلى المغرب كما نذكر وأسند الرئيس أبو سعيد بأمر سبتة وثقف أطرافها وسد ثغورها وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان يوسف فحمى أنفه وعظم عليه الأمر فبعث ولده الأمير أبا سالم إبراهيم في جيش كثيف إلى حصارها وحشد إليها قبائل الريف وقبائل تازا فلم يغن شيئاً ورجع مهزوماً فسخطه السلطان لذلك وأهمله وبقي على ذلك إلى وفاة السلطان رحمه الله وكان انتقاض ابن الأحمر سنة ثلاث وسبعمائة.

ثورة عثمان بن أبي العلاء بجبال غمارة

كان عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الحق من أعياص الملك المريني وكان قد قدم من الأندلس في صحبة الرئيس أبي سعيد عند استيلائه على سبتة ثم ثار بعد ذلك ببلاد غمارة ودعا لنفسه وبقي متنقلاً هنالك مدة، فتغلب على تكساس وآصيلا والعرايش وانتهى إلى قصر كتامة وخب في الفتنة ووضع إلى أن لحق بالأندلس لأول دولة السلطان أبي الربيع فولي بها مشيخة الغُزاة وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء كما سيأتي إن شاء الله.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة بعث السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان ركب الحاج المغربي إلى الحرمين الشريفين، واعتنى بشأن هذا الركب فبعث معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة فارس من الأبطال، وخاطب صاحب الديار المصرية لعهده وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي من مماليك بني أيوب المعروفين بالبحرية، واستوصاه بحاج أهل المغرب وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة يقال كان عدد الخيل والمطايا أربعمائة إلى غير ذلك مما يناسب من طرف المغرب وماعونه وبعث معهم إلى حرم مكة مصحفاً ضخماً اعتنى به واستكتبه وجعل له غشاء مكللاً بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار، ونهج السلطان يوسف رحمه الله بهذا الركب والهدية السبيل لحاج المغرب فأجمعوا الحج سنة أربع بعدها فاجتمع منهم عدد وافر وركب ضخم فعقد السلطان يوسف على دلالتهم لأبي زيد الغفاري وفصلوا من تلمسان في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وفي شهر ربيع الآخر بعده قدم حاج الركب الأول الذين حملوا المصحف والهدية ووفد معهم على السلطان يوسف شريف مكة السيد لبيدة بن أبي نمي نازعاً عن سلطان الترك صاحب مصر لما كان قد قبض

على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبي نمي صاحب مكة، فاستبلغ السلطان يوسف من إكرامه والتنويه بقدره وسرحه إلى المغرب ليجول في أقطاره ويطوف على معالم الملك وقصوره، وأوعز إلى العمال بالبرور به وإتحافه على ما يناسب قدره، ورجع هذا الشريف إلى حضرة السلطان من تلمسان سنة خمس وسبعمائة ثم فصل منها إلى مشرقه، وفي شعبان من هذه السنة قدم أبو زيد الغفاري دليل ركب الحاج الثاني ومعه بيعة الشرفاء أهل مكة للسلطان يوسف لما كان صاحب مصر قد آسفهم بالتقبض على إخوانهم وكان ذلك شأنهم متى غاظهم السلطان وأهدوا إلى السلطان يوسف ثوباً من كسوة الكعبة أعجب به فاتخذ منه ثوباً للبوسه في الجمع والأعياد كان يستبطنه بين ثيابه تبركاً به.

وأما الملك الناصر صاحب مصر فإنه كافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات ونحو ذلك مثل الفيل والزرافة ونحوهما وأوفد به مع عظماء دولته وفصلوا من القاهرة آخر سنة خمس وسبعمائة فوصلوا إلى السلطان يوسف وهو بالمنصورة في جمادى الآخرة سنة ست بعدها واهتز لقدومهم وأركب الناس للقيهم وأكرم وفادتهم وبعثهم إلى المغرب للتطوف به على العادة في مبرة أمثالهم، وهلك السلطان يوسف أثناء ذلك وأفضى الأمر إلى حافده أبي ثابت فأحسن منقلبهم وملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب إلى بلادهم في ذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة، ولما انتهوا إلى بلاد بني حسن في ربيع من سنة ثمان بعدها اعترضتهم الأعراب بالقفر فانتهبوهم وخلصوا إلى مصر بجريعة الذقن فلم يعاودوا بعدها إلى المغرب سفراً ولا لفتوا إليه وجهاً وطالما أوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يوبه له ويهادونهم ويكافئون ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً.

وفاة السلطان يوسف رحمه الله

كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله قد اتخذ في جملة حاشيته ومماليكه خصيّاً اسمه سعادة وكان هذا الخصي قد تصير إليه من جهة أبي علي الملياني أيام كان عاملاً له على مراكش وكان السلطان يوسف في ابتداء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله ثم حدثت للسلطان ريبة في بعض الخصيان فأعتق جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم، وحجب سائرهم فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم فسولت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان فعمد إليه وهو في بعض حجر قصره فاستأذن عليه فأذن له فألفاه مستلقياً على فراشه مختضباً بحناء فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هارباً وانطلق بعض الأولياء في أثره فأدركه من العشي بناحية تاسلت فقبض عليه وجيء به إلى القصر فقتلته العبيد والحاشية وصابر السلطان يوسف منيته إلى آخر النهار ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة[1] وقبر هنالك ثم نقل بعد ما سكنت الهيعة إلى مقبرتهم بشالة فدفن بها مع سلفه وأطلال ضريحه لا زالت ماثلة إلى الآن.

وبموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن آل يغمراسن وقومهم من بني عبد الواد وسائر أهل تلمسان وكانت المدة في ذلك مائة شهر كما قلنا نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الأمم واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران، حتى أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما

(1) وزعم التونسي أن رجلاً ممن يشار لهم بالصلاح من أهل أغمات جاء إلى السلطان يوسف وهو تحت أسوار تلمسان ورغب منه أن يرفع الحصار عن بني زيان فرفض السلطان طلبه فتأثر الرجل من ذلك وانصرف وهو يقول: «سيحدث بعد حادث يكون فيه ما طلبت» ثم ساق ذكر فتك الخصي بعد بالسلطان يوسف رحمه الله.

تجاوز حد العادة وعجز وجدهم عنها فكان ثمن مكيال القمح ومقداره اثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب العين وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفاً وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ومن الخيل بعشر المثقال والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهماً والهر الداجي بمثقال ونصف والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين درهماً والبيض واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والأوقية من الزيت باثني عشر درهماً ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين درهماً ومن الملح بعشرة دراهم ومن الحطب كذلك والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً والخيار بثلاثة أثمان الدينار والبطيخ بثلاثين درهماً والحبة من التين والإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم وضاقت أحوالهم وهلكت حاميتهم فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج للاستماتة فهيأ الله لهم الصنع الغريب ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف على يد الخصي المريب وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكتهم: «ما أقرب فرج الله» استغراباً لها[1].

قال ابن خلدون: حدثني شيخنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الابلي قال: جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر واستدعى ابن جحاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمان ذلك وبينما هم يتذاكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حمو فأخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوتاً لا ينطقون

(1) ذكر صاحب بغية الرواة أنه بلغ في هذا الحصار عدد موتى أهل تلمسان قتلاً وجوعاً زهاء مائة ألف وعشرين ألفاً ص125 طبع الجزائر سنة 1321 ـ 1903.

وإذا بدعد قهرمانة القصر وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق حظية أبيهم قد خرجت من القصر إليهم وحيتهم وقالت لهم: «تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم: «ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الأفواق ناقة لمصارعكم فأريحونا من معرة السبي وقربونا إلى مصارعنا وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم» فالتفت أبو حمو إلى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال: «قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن» فقال: «يا موسى أرجئني ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسراً ولا تشاورني بعدها فيهن بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعالى إليّ نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت ويقضي الله ما شاء» فغضب أبو حمو وأنكر عليه التأخير في ذلك وقال: «إنما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا» وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء قال ابن جحاف: «وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخراً ولا متقدماً إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسي بالباب يشير إليّ أن أعلم السلطان بمكان رسول جاء من محلة بني مرين وها هو بسدة القصر» قال ابن جحاف: «فلم أطق رد جوابه إلا بالإشارة» وانتبه السلطان من همسنا فزعاً فأعلمته فاستدعاه للحين فلما وقف بين يديه قال: «إن السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم» فاستبشر السلطان أبو زيان واستدعى أخاه وقومه حتى بلغ الرسول المذكور رسالته بمسمع منهم فكانت إحدى المغربات في الأيام وكان من خبر هذه الرسالة أن السلطان يوسف لما هلك تطاول للأمر بعده القرابة من إخوته وولده وحفدته وتحيز حافده أبو ثابت إلى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم فاستجاش بهم واعصوصبوا عليه وبعث إلى بني زيان أن يعطوه آلة الحرب ويكونوا مفزعاً له إن أخفق مسعاه على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين وأفرج عنهم، فعاقدوه على ذلك فوفى لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان السلطان يوسف غلب عليها من بلادهم ورحلوا إلى مغربهم والله غالب على أمره.

بقية أخبار السلطان يوسف وسيرته

كان السلطان يوسف رحمه الله أبيض حسن القد مليح الوجه أقنى الأنف مهيباً لا يكاد أحد يبدأه بالكلام جواداً مشفقاً على الرعية متفقداً لأحوالها شجاعاً شهماً ذا عزيمة.

إذا هم ألقى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

وهو أول من هذب ملك بني مرين وأكسبه رونق الحضارة وبهاء الملك وكان غليظ الحجاب لا يكاد يوصل إليه إلا بعد الجهد، ومن أعيان كتابه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين العثماني، ومن أعيان شعرائه أبو الحكم مالك بن المرحل السبتي وأبو فارس عبد العزيز الملزوزي المكناسي وغيرهما والله تعالى أعلم.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث ففي سنة ست وخمسين وستمائة وهي السنة التي بويع فيها السلطان يعقوب بن عبد الحق كان الرخاء المفرط بالمغرب بحيث كان الدقيق يباع بفاس وغيرها ربع منه بدرهم والقمح ستة دراهم للصحفة والشعير ثلاثة دراهم للصحفة، وأما القطاني فلم يكن لها ثمن والعسل ثلاثة أرطال بدرهم والزيت أربعون أوقية بدرهم والزبيب درهم ونصف للربع والثمر ثمانية أرطال بدرهم واللوز صاع بدرهم والشابل الطري فردة بقيراط والملح حمل بدرهم ولحم البقر مائة أوقية بدرهم ولحم الضأن سبعون أوقية بدرهم والكبش بخمسة دراهم وهكذا.

وفي سنة إحدى وستين وستمائة ظهر النجم أبو الذوائب وكان ابتداء ظهوره ليلة الثلاثاء الثاني عشر من شعبان من السنة المذكورة وبقي يطلع كل ليلة وقت السحر نحواً من عشرين يوماً.

وفي سنة أربع وستين وستمائة كان دخول الشريف المولى حسن بن قاسم الحسني من أرض ينبع الحجاز إلى سجلماسة وهذا الشريف هو جد الأشراف العلويين السجلماسيين ملوك المغرب الأقصى في عصرنا هذا أعلى

الله تعالى قدرهم وخلد مجدهم وفخرهم، وعند الكلام على دولتهم السعيدة نذكر كيفية دخول هذا الشريف إلى المغرب والسبب فيه إن شاء الله.

وفي سنة ست وستين وستمائة سرق من بيت المال بقصبة فاس اثنا عشر ألف دينار وثلاث قلائد يساوين أكثر من ذلك.

وفي حدود السبعين وستمائة كان ظهور البارود على ما مر من أن السلطان يعقوب بن عبد الحق فتح به سجلماسة في هذه المدة والله تعالى أعلم.

وفي سنة سبع وسبعين وستمائة بني المسجد الجامع بفاس الجديد، وفي سنة تسع وسبعين وستمائة علقت به ثرياه وذلك يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول منها ووزن هذه الثريا سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً وعدد كؤوسها مائتا كأس بالتثنية وسبع وثمانون كأساً وفيها كان الجراد العام بالمغرب أكل الجسر والزرع ولم يترك خضراء على وجه الأرض وبلغ القمح عشرة دراهم للصاع.

وفي سنة ثمانين وستمائة بنيت قنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريج.

وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان وهو اليوم الذي توفيت فيه الحرة أم العز بنت محمد بن حازم العلوية من بني علي بن عسكر وهي أم السلطان يوسف فغاث الله العباد وأحيى برحمته البلاد.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة بنيت قصبة تطاوين وفيها ركبت الناعورة الكبرى على وادي فاس شرع في عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها.

وفي سنة ست وثمانين وستمائة بني سور قصر المجاز وركبت أبوابه وفيها غرس بستان المصارة بفاس الجديد وبنيت الدار البيضاء بها أيضاً.

وفي سنة تسع وثمانين وستمائة كانت الريح الشرقية المتوالية الهبوب ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك إلى آخر سنة تسعين بعدها فرحم الله

بلاده وعباده وفيها توفي الشيخ الصالح أبو يعقوب الأشقر بالكندرتين من بلاد بني بهلول من أحواز فاس ولعل أبا يعقوب هذا هو الذي تنسب إليه الحمة التي قدمنا الكلام عليها في أخبار المنصور الموحدي والله أعلم وفيها بني المسجد الجامع بمدينة تازا وبنيت قبة مكناسة الزيتون ورباعها.

وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال له[1] وصيره عيداً من الأعياد في جميع بلاده وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وكان الأمر به قد صدر عنه وهو بصبرة من بلاد الريف في آخر صفر من السنة فوصل برسم إقامته بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر واعلم أنه قد كان سبق السلطان يوسف إلى هذه المنقبة المولدية بنو العزفي أصحاب سبتة فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب والله تعالى أعلم.

وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة كان كسوف الشمس وذلك قرب زوال يوم الأحد التاسع والعشرين من رجب من السنة المذكورة كسف منها نحو الثلثين وصلى بالناس صلاة الكسوف بجامع القرويين من فاس الخطيب أبو عبد الله بن أبي الصبر حتى انجلت فخرج من المحراب ووقف بإزائه فوعظ الناس وذكرهم وفي هذه السنة رفعت أيدي الموثقين من الشهادة بفاس[2] ولم يبق بها منهم سوى خمسة عشر رجلاً من أهل العدالة والمعرفة وكانوا قبل ذلك أربعة وتسعين وكان ذلك يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة وفيها كانت الجماعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وإفريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم وأمر السلطان يوسف

---

(1) يعني بالمغرب وأما بالمشرق فأول من أحدثه الملك المظفر صاحب إربل في أواخر المائة السادسة انظر ترجمته في حرف الكاف من وفيات الأعيان.

(2) وذكر في الفائق أن السلطان أبا عنان المريني الآتي أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة انظر تمام كلامه.

بتبديل الصيعان وجعلها على مد النبي ﷺ وكان ذلك بالحضرة على يد الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي الشاعر المشهور.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة فيها صلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الأسعار في جميع الأمصار فبيع القمح بعشرين درهماً للصحفة وفي هذه السنة كسفت الشمس أيضاً الكسوف الكلي بحيث غاب قرص الشمس كله وصار النهار ليلاً كالحالة التي تكون ما بين العشاءين وظهرت النجوم وماج الناس وضاقت نفوسهم ولولا أن الله سبحانه تداركهم بسرعة انجلائها لهلكوا جزعاً وكان ذلك بعد صلاة ظهر الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي الحجة من سنة أربع وتسعين المذكورة.

وفي سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب مدينته المنصورة بإزاء تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل حسبما مر الخبر على ذلك مستوفى وبالله تعالى التوفيق.

الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله ابن يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

قد تقدم لنا أن أبا عامر عبد الله ابن السلطان يوسف كان قد انتبذ عن أبيه وبقي متنقلاً في جهات الريف وبلاد غمارة إلى أن هلك في بلاد بني سعيد منهم، وأنه خلف ثلاثة أولاد أحدهم أبو ثابت عامر بن عبد الله هذا الذي ولي الأمر بعد جده، وذلك أنه لما هلك السلطان يوسف رحمه الله بالمنصورة كما تقدم كان حافده أبو ثابت هذا في جملته وكان له في بني ورتاجن من أهل تلك البلاد خؤلة فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه في أمره، وبايعه معهم أشياخ بني مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثاني يوم وفاة جده يوسف وبادر الحاشية والوزراء ومن شايعهم بداخل المنصورة إلى بيعة الأمير أبي سالم بن السلطان يوسف وكاد أمر بني

مرين يفسد وكلمتهم تتفرق فبعث السلطان أبو ثابت لحينه وكان شهماً مقداماً إلى صاحبي تلمسان أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن فعقد لهما عهداً على أن يرحل عنهم بجموعه وأن يمدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيتهم ويضموه إليهم إن خاب أمله ولم يتم له أمر فأجابوه إلى ذلك، وحضر العقد أبو حمو فأحكمه وشرط عليه السلطان أبو ثابت أن لا يتعرضوا لمدينة جده المنصورة بسوء وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالإصلاح وأن من أراد الإقامة بها من أهلها فما لأحد عليه من سبيل لأن الناس كانوا قد استوطنوها وألفوها وطاب مقامهم بها وتأثلوا بها الأثاث والمتاع والخرثي وسائر الماعون مما يثبط المرتحل ويثقل جناح الناهض فقبل أبو حمو ذلك كله.

وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل أمر أبي سالم فلم يتم وكتب السلطان أبو ثابت إلى حامية بني مرين وحصصها التي كانت متفرقة في الثغور الشرقية التي استولى عليها السلطان يوسف أيام حياته فأقبلوا إليه ينسلون من كل حدث وأسلموا البلاد إلى أهلها من بني عبد الواد وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم أتبعه بعم أبيه أبي بكر بن يعقوب في آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر، وفر بقية القرابة خشية على أنفسهم من سطوة أبي ثابت فلحقوا بعثمان بن أبي العلاء الثائر بجبال غمارة من عهد السلطان يوسف فشايعوه على أمره وتقوى بهم على ما نذكره ثم ارتحل السلطان أبو ثابت قاصداً حضرة فاس في جموع لا تحصى وأمم لا تستقصى فعيد عيد الأضحى من سنة ست وسبعمائة في طريقه بن تلمسان ووجدة ثم نهض إلى فاس فدخلها فاتح سنة سبع وسبعمائة ثم نهض بعد ذلك إلى مراكش على ما نذكره، ولما علم بنو يغمراسن أن أبا ثابت قد أبعد عنهم وأنه توغل في البلاد المراكشية واشتغل بحروب الثائرين بها عمدوا إلى المنصورة فجعلوا عاليها سافلها وطمسوا معالمها ومحوا آثارها فأصبحت كأن لم تغن بالأمس.

ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد
ابن عبد الحق وما كان من أمره

كان السلطان أبو ثابت لما فصل من تلمسان قدم بين يديه ابن عمه الحسن بن عامر بن عبد الله بن يعقوب وأمره بالنظر في أحوال فاس والمغرب، وأمره بضبطها وتسريح سجونها ورد مظالمها وتفريق الأموال على الخاصة والعامة ففعل، ولما قدم حضرة فاس عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد بن عبد الحق على مراكش ونواحيها وعهد إليه بالنظر في أحوالها وضبطها فصمد إليها واحتل بها وتمكن منها، ثم حدثته نفسه بالانتزاء فاستلحق واستركب واتخذ الآلة وجاهر بالخلعان وتقبض على الوالي بمراكش الحاج المسعود فقتله من تحت السياط في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة ودعا لنفسه، واتصل الخبر بالسلطان أبي ثابت وهو بفاس فسرح إليه وزيره يوسف بن عيسى بن السعود بن خرباش الحشمي بالحاء المهملة ويعقوب بن آصناك في خمسة آلاف فارس فساروا إلى مراكش، وبرز يوسف بن محمد بن أبي عياد إلى حربهم وعبر إليهم وادي أم الربيع فالتقوا معه على ضفته الشرقية فهزموه وعاد إلى مراكش، واتبعه الوزير ودخل ابن أبي عياد مراكش فقتل جماعة من جند الفرنج الذين بها وسبى ذراريهم وخرج منها إلى أغمات فلم يستقر بها، ثم فر إلى جبال هسكورة فنزل على كبيرها مخلوف بن هنو الهسكوري ولحق به موسى بن سعيد الصبيحي من أغمات تدلى من سورها فلحق به.

ودخل السلطان أبوثابت مراكش منتصف رجب من سنة سبع وسبعمائة وأمر بقتل أوربة المداخلين لابن أبي عياد في انتزائه فاستلحموا جميعاً، ولما لحق ابن أبي عياد بمخلوف بن هنو الهسكوري واستجار به فلم يجره على السلطان أبي ثابت بل قبض عليه مع ثمانية من كبار أصحابه وبعثهم في

الحديد إليه وهو بمراكش فقتلوا في مصرع واحد بعد أن مثل بهم بالسياط، وبعث برأس ابن أبي عياد إلى فاس فطيف به ونصب على سورها ثم أثخن أبو ثابت في كل من كان على رأي ابن أبي عياد وخاض معه في الفتنة فاستلحم منهم بمراكش ما ينيف على الستمائة وصلبهم على سورها من باب الرب أحد أبواب مراكش إلى برج دار الحرة عزونه، وقتل في أغمات منهم مثل ذلك وخرج منتصف شعبان إلى منازلة السكسيوي وتدويخ جهات مراكش فنزل بتامزوارت وتلقاه السكسيوي بالبيعة والهدية والضيافة فقبل السلطان أبو ثابت ذلك منه، ثم بعث قائده يعقوب بن آصناك في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى بلاد حاحة برسم غزو قبائل زكنة ففروا بين يديه حتى دخلوا بلاد القبلة وانقطع أثرهم ورجع إلى معسكر السلطان بتامزوارت وأخبره بسكون البلاد وأمنها، فانكفأ السلطان أبو ثابت راجعاً إلى مراكش فدخلها غرة رمضان من سنة سبع وسبعمائة. ثم خرج منها في منتصفه قاصداً رباط الفتح فاجتاز على بلاد صنهاجة وعبر وادي أم الربيع من مشرع كتامة في القوارب لزيادة الماء يومئذٍ، ثم ارتحل فاجتاز ببلاد تامسنا فتلقاه بها عرب جشم من قبائل الخلط وسفيان وبني جابر والعاصم فاستصحبهم معه إلى مدينة آنفى بعد أن استأذنوه في الرجوع فلم يأذن لهم، ولما احتل بآنفى دعا بأشياخهم فحضروا عنده فقبض على ستين منهم أودعهم سجن آنفى وضرب أعناق عشرين من فسادهم القاطعين للسبل وصلبهم على سور آنفى، ثم نهض إلى رباط الفتح فدخله في السابع والعشرين من رمضان فعيد هنالك عيد الفطر وقتل به ثلاثين من فتاك لعرب المتهمين بالحرابة وقطع الطريق وصلبهم على أسوار العدوتين، ثم ارتحل منتصف شوال لغزو عرب رياح الموطنين بأبي طويل وفحص آزغار وبلاد الهبط، فغزاهم وأخذهم بالإحن القديمة فقتل منهم خلقاً وسبى ذراريهم وانتهب أموالهم ونهض إلى فاس فاحتل بها منتصف ذي القعدة وعيد بها عيد الأضحى ثم نهض إلى سبتة على ما نذكره.

غزو السلطان أبي ثابت بلاد غمارة وسبتة ومحاصرته لعثمان بن أبي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان قد ورد من الأندلس صحبة الرئيس أبي سعيد بن الأحمر المتغلب على سبتة أيام السلطان يوسف وأنه ثار بجبال غمارة ودعا لنفسه واستحوذ عليها وكان السلطان يوسف بلغه خبره وأهمه شأنه إلا أنه كان يرجو أن يفتح تلمسان عن قريب ثم ينهض إليه فعاجله الحمام دون ذلك ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي ثابت وقدم حضرة فاس شغله عن عثمان بن أبي العلاء ما كان من ثورة يوسف بن محمد بن أبي عياد بمراكش كما قدمناه فعقد على حرب عثمان بن أبي العلاء لابن عمه عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق فزحف إليه ونهض عثمان بن أبي العلاء إلى لقائه منتصف ذي الحجة سنة سبع وسبعمائة فهزمه عثمان بن أبي العلاء واستلحم من كان معه من جند الفرنج وهلك في تلك الوقعة عبد الواحد الفودودي من رجالات الدولة المرشحين للوزارة، وسار عثمان بن أبي العلاء إلى قصر كتامة فدخله واستولى على جهاته وكان بطلاً من الأبطال وعلى أثر ذلك كان رجوع السلطان أبي ثابت من غزاة مراكش وقد حسم الداء ومحى أثر النفاق فاعتزم على النهوض إلى بلاد غمارة ليمحو منها أثر دعوة ابن أبي العلاء التي كادت تلج عليه دار ملكه ويستخلص سبتة من يد ابن الأحمر المتغلب عليها لأنها صارت ركاباً لمن يروم الخروج على السلطان من القرابة المستقرين وراء البحر غزاة في سبيل الله.

فنهض السلطان أبو ثابت من فاس عقب عيد الأضحى من سنة سبع وسبعمائة حتى انتهى إلى قصر كتامة فتلوم به ثلاثاً حتى تلاحق به قبائل مرين والعرب والرماة من سائر البلاد فعرض جيشه وارتحل قاصداً جبال غمارة، وكان عثمان بن أبي العلاء قد فر أمامه إلى ناحية سبتة فسار السلطان أبو ثابت في اتباعه حتى نازل حصن علودان واقتحمه عنوة واستلحم به زهاء أربعمائة، ثم نازل بلد الدمنة على شاطىء البحر فقتل الرجال وسبى النساء والذرية

وانتهب الأموال وكانوا قد تمسكوا بطاعة ابن أبي العلاء وأجازوه إلى القصر في وسط بلادهم وبالغوا في تضييفه وإكرامه ودخلوا معه القصر وآصيلا ونهبوا كثيراً من مال أهلهما، ثم ارتحل السلطان أبو ثابت إلى طنجة فدخلها فاتح سنة ثمان وسبعمائة وتحصن ابن أبي العلاء بسبتة مع أوليائه من ابن الأحمر وسرح السلطان أبو ثابت عسكره فتفرقت في نواحي سبتة بالغارات واكتساح الأموال.

بناء مدينة تطاوين

ثم أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره وللأخذ بمخنق سبتة هكذا عند ابن أبي زرع وابن خلدون. واعلم أن تطاوين هذه هي تطاوين القديمة وقد تقدم لنا أن قصبتها بنيت في سنة خمس وثمانين وستمائة وذلك لأول دولة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ثم بنى السلطان أبو ثابت هذه المدينة عليها في هذا التاريخ الذي هو فاتح سنة ثمان وسبعمائة وكان بناؤها خفيفاً شبه القرية عدا قصبتها فإن بناءها كان محكماً وثيقاً، واستمرت هذه المدينة عامرة إلى صدر المائة التاسعة فخربت ثم جدد بناؤها بعد نحو تسعين سنة حسبما يأتي الخبر عن ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى، قالوا: ولفظ تطاوين مركب من كلمتين تيط ومعناها في لسان البربر العين ووين وهي كناية عن المخاطب نحو يا فلان وما أشبه ذلك، قالوا: والسبب في تسميتها بذلك أنهم في وقت اختطاطهم لها كانوا يضعون الحرس على أسوارها مخافة فجأة العدو فكان الحرس ينادون بالليل أو بالنهار تطاوين تطاوين، أي يا فلان افتح عينك لأن عادة الحارس أن يقول ذلك فصار هذا اللفظ علماً عليها ويظهر أن هذا من كلام العامة ولا أصل له، وكذا قول بعضهم تيط معناها العين ووين معناها المقلة ومعنى مجموع الكلمتين مقلة العين والإضافة مقلوبة كما هي في لسان بعض الأمم العجمية فإنه لا مستند له والله تعالى أعلم.

ولما شرع السلطان أبو ثابت في بناء مدينة تطاوين أوفد كبير الفقهاء بمجلسه أبا يحيى بن أبي الصبر إلى ابن الأحمر صاحب سبتة في شأن النزول له عن البلد وأقام هو بقصبة طنجة ينتظر الجواب بماذا يكون، وفي أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفي[1] يوم الأحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة ثم حمل شلوه بعد أيام إلى مدفن آبائه بشالة فووري هنالك رحمة الله عليه وعليهم.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدى للقيام بالأمر عمه علي بن يوسف المعروف بابن زريقاء وهي أمه، وعلى هذا هو الذي قتل شيوخ المصامدة بكتاب ابن الملياني كما تقدم وخلص الملأ من بني مرين أهل الحل والعقد إلى أبي الربيع المذكور أخي أبي ثابت فبايعوه واستتب أمره فتقبض على عمه علي بن زريقاء وسجنه بطنجة فبقي مسجوناً بها إلى أن هلك سنة عشر وسبعمائة وبث السلطان أبو الربيع العطاء في الناس وأجزل الصلات فأرضى الخاصة والعامة وصفا له الأمر، ثم ارتحل نحو فاس واستدعى من كان بمحلة تطاوين من الجند فأقبلوا إليه وأرضاهم بالمال كذلك، ولما فصل من طنجة تبعه عثمان بن أبي العلاء من سبتة في جيش كثيف ليضرب في محلته ليلاً فنذر به عسكر السلطان أبي الربيع فأسهروا ليلتهم وباتوا على صهوات خيولهم فوافاهم عثمان بساحة علودان وهم على ذلك فناجزهم الحرب فهزموه وتقبض على ولده وكثير من عسكره وقتل آخرون وكان للسلطان أبي الربيع الظهور الذي لا كفاء له ووصل أبو يحيى بن أبي الصبر من الأندلس وقد أحكم عقدة الصلح مع ابن الأحمر صاحب غرناطة.

---

(1) ذكر في روضة النسرين في دولة بني مرين لابن الأحمر أنه توفي مسموماً.

ولما رأى عثمان بن أبي العلاء ذلك سقط في يده وأيس من المغرب فعبر البحر فيمن معه من القرابة إلى الأندلس وولي مشيخة الغزاة بها فكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء وعلا أمره بالأندلس وزاحم بني الأحمر ملوكها في رياستهم وجبايتهم حتى كاد يستولي على الأمر من أيديهم وشرقوا بدائه ومارسهم ومارسوه مدة طويلة، وعدلوا في أمره إلى المصانعة والمجاملة في أخبار ليس جلبها من غرضنا إلى أن توفي، لكنا نذكر من ذلك أنموذجاً يستدل به الواقف عليه على ما وراءه، فنقول: «لما توفي عثمان بن أبي العلاء رحمه الله كتب على قبره ما صورته: «هذا قبر شيخ الحماة وصدر الأبطال والكماة، واحد الجلالة ليث الإقدام والبسالة علم الأعلام حامي ذمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة والأفعال المشهورة والمغازي المسطورة وإمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد، وقاصم الأعاد وأسد الآساد العالي الهمم الثابت القدم الهمام الماجد الأرضى البطل الباسل الأمضى المقدس المرحوم أبي سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الأصيل الشهير المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق».

كان عمره ثمانياً وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهداً مجتهداً في طاعة الرب محتسباً في إدارة الحرب ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادماً بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره في الأقطار أشهر من المثل السيار حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه واستأثر به سعيداً مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول وإسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلاً على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الأندلس لبعده أتحفه الله برحمة من عنده توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمه الله.

وأما السلطان أبو الربيع فإنه لما سار عن طنجة دخل حضرة فاس حادي عشر ربيع الأول من سنة ثمان وسبعمائة فأقام بها سنة المولد الكريم وفرق الأموال واستقامت الأمور وتمهد الملك وعقد السلم مع صاحب تلمسان أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن وأقام وادعاً بحضرته مجتنياً ثمرة ملكه، وكان في أيامه غلاء إلا أن الناس انفتحت لهم فيها أبواب المعاش والترف حتى تغالوا في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين، وتنافس الناس في البناء فاتخذوا القصور المشيدة وتأنقوا فيها بالزليج والرخام وأنواع النقوش، وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة واستبحر العمران وظهرت الزينة والأمور كلها بيد الله تعالى.

نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصال بني وقاصة اليهوديين بعد ذلك

كان الفقيه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان إحدى قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان بيته بيت العلم والدين واتصلوا بخدمة بني مرين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه وكان أبو محمد هذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل وفوض إليه في حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم واستخلصه لمناجاته والإفضاء إليه بسره، ولما هلك السلطان يوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هذا الرجل وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الأقدار قدره، ثم ولي بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سلفه واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته، وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون أن نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم، وكان خليفة الأصغر منهم قد أفلت من تلك النكبة كما ذكرناه.

فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هذا بداره في بعض المهن فباشر الأمور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدين، وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه يختلي مع حرم حاشيته وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدس إلى السلطان «بأن ابن أبي مدين يعرض باتهامك في ابنته وأن صدره قد وغر لذلك وأنه مترصد بالدولة ومتربص بها الدوائر» فتمكنت سعايته من السلطان وظن أنه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة في الدولة ومداخلة القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس إلى قائد جند الفرنج بقتله، فسار إليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبته على ذقنه واحتز رأسه وألقاه بين يدي السلطان أبي الربيع، ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرة وأسفاً، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي وأطلعه على خبثه وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدين معه إلى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب ما رمي به عنده، فتنبه السلطان لمكر اليهودي وعلم أنه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم، وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصدين للخدمة وسطا بهم سطوة الهلكة فأصبحوا مثلاً للآخرين.

انتقاض أهل سبتة على بني الأحمر ومراجعتهم طاعة بني مرين

كان أهل سبتة قد سئموا ملكة أهل الأندلس وثقلت عليهم ولايتهم لا سيما حين رحل عنهم عثمان بن أبي العلاء وعبر البحر بقصد الجهاد كما مر واتصل خبر ذلك بالسلطان أبي الربيع فانتهز الفرصة فيهم وعقد لثقته تاشفين بن يعقوب الوطاسي أخي وزيره عبد الرحمٰن بن يعقوب على عسكر ضخم من بني مرين وسائر طبقات الجند وبعثه إلى سبتة فأغذ السير إليها ونزل بساحتها ولما أحس به أهل البلد تمشت رجالاتهم فيما بينهم وتنادوا

بشعار بني مرين وثاروا على من كان بسبتة من حامية ابن الأحمر فأخرجوهم منها، واقتحم تاشفين بن يعقوب البلد عاشر صفر من سنة تسع وسبعمائة وتقبض على قائد القصبة أبي زكرياء يحيى بن مليلة وعلى قائد البحر أبي الحسن بن كماشة وعلى قائد الحرب بها من القرابة عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، وطير تاشفين بالخبر إلى السلطان أبي الربيع فعم السرور وعظم الفرح واتصل ذلك بابن الأحمر فضاق ذرعه وخشي عادية بني مرين وجيوش المغرب حين انتهوا إلى الفرضة وملكوها، فقلب رأيه ورأى أن يجنح إلى السلم مع السلطان أبي الربيع لشدة شوكته ولكلب الطاغية عليه في أرضه لولا أن غزاة بني مرين يكفون من غربه فبادر السلطان ابن الأحمر وهو أبو الجيوش نصر بن محمد أخو المخلوع الذي كان قبله، وأوفد رسله على السلطان أبي الربيع راغبين في السلم خاطبين للولاية وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورندة وحصونها ترغيباً للسلطان أبي الربيع في الجهاد فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد، وخطب منه أخته فأنكحه ابن الأحمر إياها وبعث السلطان أبو الربيع إليه بالمدد للجهاد أموالاً وخيولاً جنائب مع ثقته عثمان بن عيسى اليريناني أخي وزيره إبراهيم بن عيسى واتصلت بينهما الولاية إلى أن توفي السلطان أبو الربيع رحمه الله.

انتقاض الوزير عبد الرحمٰن بن يعقوب الوطاسي على السلطان أبي الربيع ومبايعته لعبد الحق بن عثمان والسبب في ذلك

لما انعقد الصلح بين السلطان أبي الربيع وابن الأحمر وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسل ابن الأحمر لا تزال تتردد إلى حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المنهمكين في اللهو المدمنين للشرب والقصف، فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر وتجاهر بذلك بين الناس، وكان السلطان أبو الربيع قد عزل قاضي فاس أبا غالب المغيلي وولى القضاء مكانه الشيخ الفقيه أبا الحسن الزرويلي المعروف بالصغير صاحب

التقييد على المدونة وكان رحمه الله قد شدد على أهل الفسوق والمناكر، فسيق إليه ذات يوم هذا الأندلسي وهو سكران فأمر العدول فاستروحوه واشتموا منه رائحة الخمر وأدوا شهادتهم على ذلك، فأمضى القاضي حكم الله فيه وجلده الحد فاضطرم الأندلسي غيظاً وتعرض للوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي ويقال له رحو باللسان الزناتي فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط وينعي عليه سوء هذا الفعل مع رسل الدول، فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالإثم ولعله كان في قلبه شيء على القاضي فأمر وزعته بإحضاره على أسوأ الحالات وعزم على البطش به فتبادروا إليه، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ونادى في المسلمين فثارت العامة بهم ومرج أمر الناس وقامت الفتنة على ساق، واتصل الخبر بالسلطان فتلافى الأمر وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشرد بهم من خلفهم جزاه الله خيراً، فأسرها الوزير في نفسه وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد وكان من شيوخ بني مرين وأهل الشورى فيهم، وداخل قائد الفرنج غنصالو المنفرد برياسة العسكر وشوكة الجند وكان لهؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث آثروه على السلطان، فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبي الربيع وبيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق كبير القرابة وأسد الأعياص فأجابوه وبايعوا له وتم أمرهم، ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمائة فر الوزير المذكور وقائده الفرنجي ومن شايعهم على رأيهم فخرجوا إلى ظاهر البلد الجديدة وجاهروا بالخلعان وأقاموا الآلة والرسم وبايعوا سلطانهم عبد الحق على عيون الملأ وعسكروا بالعدوة القصوى من سبو، ثم ساروا إلى ناحية تازا ولما استقروا برباطها أخذوا في جمع الجيوش ومكاتبة الخاصة من بني مرين والعرب يدعونهم إلى بيعة سلطانهم والمشايعة لهم على رأيهم وأوفدوا على أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونه إلى المظاهرة على أمرهم واتصال اليد والمدد بالعسكر والمال، فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقي ينتظر عماذا ينجلي أمرهم، واتصل خبر ذلك كله بالسلطان أبي

الربيع فنهض إليهم وقدم بين يديه يوسف بن عيسى الحشمي وعمر بن موسى الفودودي في جيش كثيف من بني مرين، وسار هو في ساقتهم واتصل خبر خروجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان، وكانوا يظنون أن السلطان لا يخرج إليهم وحمد أبو حمو عاقبة توقفه عن نصرهم ويئسوا من صريخه إياهم، ولما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان ووزيره إلى الأندلس ورجع الحسن بن علي ومن معه إلى السلطان أبي الربيع بعد أن أخذ منه الأمان وهلك رحو بن يعقوب بالأندلس لمدة قريبة، ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحا أثر الشقاق وأثخن في حاشية الخوارج وشيعتهم بالقتل والسبي، ثم اعتل أياماً أثناء ذلك فتوفي بتازا بين العشاءين ليلة الأربعاء منسلخ جمادى الأخيرة من سنة عشر وسبعمائة ودفن من ليلته تلك بصحن الجامع الأعظم من تازا رحمه الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

كان هذا السلطان من أهل العلم والحلم والعفاف جواداً متواضعاً متوقفاً في سفك الدماء لقبه: السعيد بفضل الله وأمه حرة اسمها عائشة بنت الأمير أبي عطية مهلهل بن يحيى الخلطي، ولما هلك السلطان أبو الربيع بتازا في التاريخ المتقدم تطاول للأمر عمه أبو سعيد الأصغر وهو عثمان بن السلطان يوسف وخب في ذلك ووضع وأسدى وألحم فلم يحصل على شيء.

واجتمع الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدأة من الليل وتفاوضوا في أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبي سعيد الأكبر وهو عثمان ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستدعوه فحضر فبايعوه ليلتئذٍ، وتم أمره وأنفذ كتبه إلى النواحي والجهات باقتضاء البيعة وسرح ابنه الأكبر الأمير أبا الحسن علي بن عثمان إلى فاس فدخلها غرة رجب من سنة عشر وسبعمائة وملك قصر الخلافة بالحضرة واحتوى على أمواله وذخيرته، وفي غد ليلته أخذت

البيعة للسلطان أبي سعيد بظاهر تازا على بني مرين وسائر زناتة والعرب والعسكر والحاشية والموالي والصنائع والعلماء والصلحاء ونقباء الناس وعرفائهم والخاصة والدهماء، فقام بالأمر واستوسق له الملك وفرق الأعطيات وأسنى الجوائز وتفقد الدواوين ورفع الظلامات وحط المغارم والمكوس وسرح السجون ورفع عن أهل فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة فصلح حال الناس في أيامه.

ثم ارتحل لعشرين من رجب من السنة فدخل حضرة فاس فاستقر بها وقدم عليه وفود التهنئة من جميع بلاد المغرب، ثم خرج في ذي القعدة إلى رباط الفتح لتفقد الأحوال والنظر في أمور الرعية وإنشاء الأساطيل الجهادية فعيد هنالك عيد الأضحى وباشر أمور الناس وأمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة من سلا برسم جهاد الفرنج، ثم رجع إلى فاس فعقد سنة إحدى عشرة وسبعمائة لأخيه الأمير أبي البقاء يعيش على ثغور الأندلس الجزيرة ورندة وما إليهما من الحصون، ثم نهض سنة ثلاث عشرة وسبعمائة إلى ناحية مراكش لما كان بها من اختلال الأحوال وخروج عدي بن هنو الهسكوري ونقضه للطاعة فنازله السلطان أبو سعيد وحاصره مدة ثم اقتحم عليه حصنه عنوة وقبض عليه وبعثه موثقاً في الحديد إلى فاس فأودعه المطبق وقفل راجعاً إلى حضرته فاحتل بها مؤيداً منصوراً والله تعالى أعلم.

غزو السلطان أبي سعيد ناحية تلمسان

كان بنو مرين قد حقدوا على أبي حمو صاحب تلمسان من أجل توقفه في أمر عبد الحق بن عثمان ووزيره رحو بن يعقوب الوطاسي وتسهيله الطريق لهم إلى الأندلس ومداهنته في ذلك، وكان مقتضى الصلح المنعقد بينه وبين السلطان أبي الربيع أن يقبض عليهم ويبعث بهم إليه حالاً فحقد بنو مرين على أبي حمو ووجدوا في أنفسهم عليه، ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد واستوسق ملكه ودوخ الجهات المراكشية وفرغ من شأن

المغرب اعتزم على غزو تلمسان فنهض إليها سنة أربع عشرة، ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنيه الأميرين أبا الحسين وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين وسار هو في ساقتهما فدخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية فاكتسح نواحيها واصطلم نعمتها ثم نازل وجدة فقاتلها قتالاً شديداً فامتنعت عليه، ثم نهض إلى تلمسان فنزل بالملعب من ساحتها وتحصن أبو حمو بالأسوار وغلب السلطان أبو سعيد على معاقلها وسائر ضواحيها فحطمها حطماً ونسفها نسفاً ودوخ جبال بني يزناسن وأثخن فيهم، وانتهى في قفوله إلى وجدة ففر أخوه أبو البقاء يعيش وكان في معسكره من أجل استرابة لحقته من السلطان وسار إلى تلمسان فنزل على أبي حمو ورجع السلطان أبو سعيد على التعبية فانتهى إلى تازا فأقام بها وبعث ابنه الأمير أبا علي إلى فاس فكان من خروجه عليه ما نذكره.

خروج الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد والسبب في ذلك

كان للسلطان أبي سعيد ولدان أحدهما وهو الأكبر من أمته الحبشية وهو أبو الحسن علي بن عثمان، وثانيهما وهو الأصغر من علجة من سبي الفرنج وهو أبو علي عمر بن عثمان وكان هذا الأصغر أعلق بقلب السلطان وأحبهما إليه، ولما استولى على ملك المغرب رشحه لولاية العهد وهو شاب لم يطر شاربه ووضع له ألقاب الإمارة وصير معه الجلساء والخاصة والكتاب وأمره باتخاذ العلامة في كتبه ولم يدخر عنه شيئاً من مراسم الرياسة والملك وعقد على وزارته لإبراهيم بن عيسى اليريناني من كبار الدولة ووجوهها، وكان أخوه الأكبر أبو الحسن شديد البرور بأبيه فلما رأى إقبال أبيه على أخيه علي انحاش هو أيضاً إليه وصار في جملته وخلط نفسه بحاشيته طاعة لأبيه ومسارعة في هواه واستمرت حال الأمير أبي علي على هذا وخاطبه ملوك النواحي وخاطبهم وهادوه وهاداهم وعقد الرايات وأثبت في الديوان ومحا وزاد في العطاء ونقص وكاد يستبد بالأمر كله.

ولما قفل السلطان أبو سعيد من تلمسان أواخر سنة أربع عشرة وسبعمائة أقام بتازا وبعث ولديه إلى فاس فلما استقر الأمير أبو علي بها حدثته نفسه بالقيام على أبيه وخلع طاعته، فراوده المداخلون له على التربص حتى يمكر بأبيه ويقبض عليه باليد فأبى واستعجل الأمر وركب الخلاف وجاهر بالخلعان، ودعا لنفسه فأطاعه الناس ولم يتوقفوا عنه لما كان أبوه جعله إليه من أمرهم، وعسكر بساحة البلد الجديد يريد غزو أبيه، فبرز السلطان أبو سعيد من تازا في عسكره يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم بدا للأمير أبي علي في وزيره إبراهيم بن عيسى وعزم على القبض عليه لأنه بلغه أنه يكاتب أباه فبعث للقبض عليه عمر بن يخلف الفودودي، وتفطن الوزير لما أراده من المكر به فقبض هو على الفودودي ونزع إلى السلطان أبي سعيد فتقبله ورضي عنه، وكان الأمير أبو الحسن قد لحق بأبيه قبل ذلك نازعاً عن جملة أخيه فقوي جناح السلطان بهما وارتحل إلى لقاء ابنه أبي علي، ولما تراءى الجمعان بالمقرمدة ما بين فاس وتازا اختل مصاف السلطان وانهزم جريحاً إلى تازا فتبعه ابنه أبو علي وحاصره بها، ويقال إن أبا الحسن إنما لحق بأبيه بعد المحنة ثم سعى الخواص بين السلطان وابنه أبي علي بالصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازا وجهاتها فقط، فرضي السلطان بذلك وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار واستحكم العقد بينهما وانكفأ الأمير أبو علي راجعاً إلى حضرة فاس مملكاً على المغرب وتوافت إليه بيعات الأمصار ووفودهم واستوسق أمره.

ثم تدارك الله السلطان أبا سعيد بلطفه ورد عليه حقه من حيث لا يحتسب وذلك أن الأمير أبا علي اعتل عقب وصوله إلى فاس واشتد وجعه حتى أشرف على الهلاك وخشي الناس على أنفسهم اختلال الأمر بموته فتسايلوا إلى والده السلطان أبي سعيد بتازا ولحق به سائر خواص الدولة وحملوه على تلافي الأمر وانتهاز الفرصة، فنهض من تازا واجتمع إليه كافة بني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصراً له وابتنى داراً لسكناه وجعل لابنه الأمير أبي الحسن ما كان لأخيه أبي علي من ولاية العهد

وتفويض الأمر ولما تبين للأمير أبي علي اختلاف أمره بعث إلى أبيه في الصلح على أن يعوض سجلماسة وما والاها فأجيب إلى ذلك ووفى له السطان بما اشترط وارتحل إلى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فأقام بها دولة فخيمة واستولى على بلاد القبلة ودون الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بني معقل وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكرارين وتامنطيت وغير ذلك.

وأما السلطان أبو سعيد فإنه دخل إلى فاس الجديد ونزل بقصره وأصلح شؤون ملكه وأنزل ابنه الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره وفوض إليه في سلطانه تفويض الاستقلال وأذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه ووفدت عليه بيعات الأمصار بالمغرب ورجعوا إلى طاعته، وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد ببناء الباب أمام القنطرة من الجزيرة الخضراء ثم بعد ذلك أدار الستارة بالمدينة المذكورة وفيها سار إلى مراكش فأقام بها أياماً حتى أصلح شؤونها وعاد إلى الحضرة.

وفي سنة ثمان عشرة وسبعمائة نكب السلطان أبو سعيد كاتبه منديل بن محمد الكناني وكان السبب في ذلك أنه لما ثار الأمير أبو علي على أبيه وخلعه انحاش إليه منديل هذا ثم لما اختل أمر أبي على عاد منديل إلى السلطان أبي سعيد وترتب في منزلته التي كان عليها قبل وكان الأمير أبو الحسن يحقد عليه لأجل انحياشه إلى أخيه لما كان بينهما من المنافسة وكان هو كثيراً ما يوغر صدر أبي الحسن بإيجاب حق أخيه عليه وامتهانه في خدمته، فطوى له أبو الحسن على البث حتى إذا فصل أبو علي إلى سجلماسة وانفرد أبو الحسن بمجلس أبيه وخلاله وجهه أحكم السعاية في منديل عند أبيه وكان منديل كثيراً ما يغضب السلطان في المحاورة والخطاب دالة عليه وكبراً، فاعتد السلطان عليه بشيء من ذلك مع ما كان ابنه أبو الحسن يغريه به فسخطه سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وأذن لابنه أبي الحسن في نكبته فاعتقله واستصفى أمواله وطوى ديوانه وامتحنه أياماً ثم قتله بمحبسه

خنقاً وقيل جوعاً وذهب في الذاهبين، وأبوه أبو عبد الله محمد الكناني هو الذي بعثه السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى المستنصر الحفصي عند فتح مراكش وعاد إليه منه بالهدية صحبة وفد أهل تونس وتلطف أبو عبد الله الكناني حتى ذكر المستنصر في الخطبة على منبر مراكش وفرح الوفد بذلك حسبما تقدم الخبر عنه مستوفى، ونشأ ابنه منديل هذا في ظل الدولة المرينية فكان من أمره ما قصصناه عليك.

وفادة أهل الأندلس على السلطان أبي سعيد واستصراخهم إياه على الطاغية وما نشأ عن ذلك

كان الملوك من بني مرين قد انقطع غزوهم عن الأندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله في آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد كلبه على ثغورها مع أن القرابة من بني مرين كانوا شجى في صدره وقذى في عينيه في تلك البلاد حسبما ألمعنا إليه غير مرة، ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد اشتغل في صدر دولته بأمر ابنه أبي علي وخروجه عليه، فاهتبل الطاغية الغرة في الأندلس وزحف في جموعه إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وكان من خبر هذه الوقعة أن الطاغية بطرة بن سانجة ويقال دون بطرة وقد نبهنا على لفظة دون فيما سبق ذهب إلى طليطلة ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بأرض الأندلس وأكد عزمه وتأهب لذلك غاية الأهبة، فوصلت أثقاله ومجانيقه وآلات الحصار والأقوات في المراكب وتقدم في جموعه حتى نزل بأحواز غرناطة وكان رديفه في ذلك الجند علجاً آخر يقال له جوان وانضم إليهم ملوك آخرون من ملوك الأطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الأرض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالأندلس، وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفاً من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجالة المقاتلة.

ولما رأى أهل الأندلس ذلك بعثوا صريخهم إلى السلطان أبي سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرته من فاس وفيهم من وجوه الأندلس وصلحائها الشيخ أبو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي والشيخ أبو إسحاق بن أبي العاص وغيرهم فاعتذر إليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكهم، وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذٍ مشيخة الغزاة بالأندلس لأن وفاته تأخرت إلى سنة ثلاثين وسبعمائة حسبما مر فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور إلى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش، وقال ادفعوه إلينا برمته حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم، فاستصعب أهل الأندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وإدلاله ببأسه وبأس عشيرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين، وأطالت الفرنج المقام على غرناطة وطمعوا في التهامها.

ثم إن الله تعالى نفس عن مخنقهم ودافع بقدرته عنهم وهيأ لعثمان بن أبي العلاء في الفرنج واقعة كانت من أغرب الوقائع، وذلك أنه لما كان يوم المهرجان وهو الخامس من جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبي العلاء إلى جماعة جنده واختار من أنجاد بني مرين منهم نحو المائتين وقيل أكثر وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصارى أنهم إنما خرجوا لأمر غير القتال من مفاوضة أو إبلاغ رسالة أو نحو ذلك حتى إذا سامتوا موقف الطاغية ورديفه جوان صمموا نحوهما حتى خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة من الحاشية وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الأدبار واعترضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب على نهر شنيل فتطارحوا فيها وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطاراً ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية وكان من جملة الأسارى امرأة الطاغية وأولاده

فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك، قلت: «هذا خطأ في الرأي وضعف في السياسة» قالوا: وزادت عدة القتلى في هذه الغزوة على خمسين ألفاً» ويقال: «إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق» وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك السبعة جميعهم، وقيل خمسة وعشرون واستمر البيع في الأسرى والسبي والدواب ستة أشهر، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر نفساً وقيل عشرة أنفس وسلخ الطاغية بطرة وحشى جلده قطناً وعلق على باب غرناطة وبقي معلقاً سنين وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم والله تعالى أعلم.

انتقاض الأمير أبي علي على أبيه السلطان أبي سعيد وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة عشرين وسبعمائة انتقض الأمير أبو علي صاحب سجلماسة والصحراء على أبيه السلطان أبي سعيد وتغلب على درعة وسما إلى طلب مراكش فعقد السلطان أبو سعيد على حربه لأخيه الأمير أبي الحسن وأغزاه إياه، ثم نهض على أثره فاحتل بمراكش وثقف أطرافها وحسم عللها وعقد عليها لكندوز بن عثمان من صنائع دولتهم وقفل إلى الحضرة، ثم لما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة نهض الأمير أبو علي في جموعه من سجلماسة وأغذ السير إلى مراكش فاقتحمها بعساكره قبل أن يجتمع لكندوز أمره وتقبض عليه وضرب عنقه ورفعه على القناة وملك مراكش وسائر ضواحيها.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي سعيد فخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل واستوفى الأعطيات وقدم بين يديه ابنه الأمير أبا الحسن

ولي عهده وجاء هو على ساقته وساروا على هذه التعبية، ولما انتهوا إلى وادي ملوية اتصل بهم الخبر أن أبا علي يريد أن يبيتهم فأسهروا ليلتهم وباتوا على ظهور خيلهم وبعد مضي جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الدبرة عليه وفل عسكره وارتحلوا من الغد في أثره وكان قد سلك جبل درن فافترقت جنوده في أوعاره ولحقهم من المشاق ما يفوت الوصف حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخلص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسجلماسة ومهد السلطان أبو سعيد نواحي مراكش وعقد عليها لموسى بن علي الهنتاتي فعظم غناؤه في ذلك واضطلاعه وامتدت أيام ولايته، وارتحل السلطان إلى سجلماسة فدافعه الأمير أبو علي بالخضوع ورغب إليه في الصفح والرضا والعود إلى السلم فأجابه السلطان إلى ذلك لما كان قد شغفه من حبه فقد كان يوثر عنه من ذلك غرائب ورجع إلى الحضرة وأقام الأمير أبو علي بمكانه من مملكه القبلة إلى أن هلك السلطان أبو سعيد وتغلب عليه أخوه السلطان أبو الحسن كما نذكره إن شاء الله.

بناء مدارس العلم بحضرة فاس حرسها الله

قد تقدم لنا أن السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله كان قد بنى مدرسته التي بفاس مع غيرها مما سبق التنبيه عليه، ووقف عليها كتب العلم التي بعث بها إليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه ووقف عليها غير ذلك، واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية، فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم وأحيوا مراسمه وأخذوا بضبعيه جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيراً.

ولما كانت سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد رحمه الله ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت أتقن بناء وأحسنه ورتب فيها الطلبة لقراءة

القرآن والفقهاء لتدريس العلم وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده.

وفي سنة إحدى وعشرين بعدها بنى ولي عهده الأمير أبو الحسن المدرسة التي بغربي جامع الأندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيئات وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار الوضوء وفندقاً لسكنى طلبة العلم وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أموالاً جليلة تزيد على مائة ألف دينار، وشحنها بطلبة العلم وقرّاء القرآن وحبس عليها رباعاً كثيرة ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة نفعه الله بقصده.

وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضاً ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتساباً بالله تعالى، وسيأتي التنبيه على ما بناه ابنه أبو الحسن من ذلك أيام ولايته وحافده أبو عنان وغيرهما إن شاء الله، وبالجملة، فقد كان لبني مرين جنوح إلى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية إلى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها، وفي مثل ذلك يحسن أن ينشد:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

أخبار بني العزفي أصحاب سبتة

قد تقدم لنا أن الرئيس أبا سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر صاحب مالقة كان قد غدر بأهل سبتة وقبض على رؤسائها من بني العزفي، وغربهم إلى غرناطة سنة خمس وسبعمائة فاستقروا هنالك في إيالة السلطان ابن الأحمر المعروف بالمخلوع مدة ولما استولى السلطان أبو الربيع المريني على سبتة ونفى بني الأحمر عنها استأذنه بنو العزفي في الرجوع إلى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس وكان أبو زكرياء يحيى وأبو زيد عبد الرحمٰن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد العزفي من سرواتهم وأهل المروءة والدين فيهم وكانوا يغشون مجالس العلم بمسجد القرويين من فاس لما كانوا عليه من انتحاله، وكان السلطان أبو سعيد أيام ولاية بني أبيه من قبله يحضر مجلس الشيخ الفقيه أبي الحسن الصغير وكان أبو زكرياء يحيى بن أبي طالب يلازمه ويتودد إليه فاتصل به وصارت له بذلك وسيلة عنده، فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي سعيد رعى لبني العزفي تلك الوسيلة فأنعم عليهم وعقد لأبي زكرياء منهم على سبتة وردهم إلى موطن سلفهم ومقر رياستهم فقدموها سنة عشر وسبعمائة، وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته.

ولما فوض السلطان أبو سعيد إلى ابنه أبي عليّ الأمر وجعل له الإبرام والنقض عقد أبو علي على سبتة لأبي زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي وعزل أبا زكرياء يحيى بن أبي طالب منها واستقدمه إلى فاس فقدمها هو وأبوه أبو طالب وعمه أبو حاتم واستقروا في جملة السلطان وهلك أبو طالب بفاس أثناء تلك المدة[1] ثم كان من خروج الأمير أبي علي على أبيه وانتقاضه عليه ما قدمناه فلحق أبو زكرياء بن أبي طالب وأخوه أبو زيد بالسلطان أبي

(1) في شعبان عام ثلاثة عشر وسبعمائة كما في الجذوة.

سعيد نازعين إليه ومفارقين لابنه الثائر عليه واستمروا في جملته إلى أن مرض الأمير أبو علي وزحف أبوه إليه وحاصره بفاس حسبما مر، فحينئذٍ عقد السلطان أبو سعيد لأبي زكرياء على سبتة ثانياً وبعثه إليها ليقيم دعوته في تلك الجهات وترك ابنه محمد بن أبي زكرياء تحت يده رهناً على الطاعة فاستقل أبو زكرياء بإمارتها وأقام دعوة السلطان أبي سعيد بها واتصل ذلك منه نحو سنتين، ثم هلك عمه أبو حاتم بسبتة سنة ست عشرة وسبعمائة وانتقض أبو زكرياء بن أبي طالب على السلطان أبي سعيد ورجع إلى حال سلفه من الاستبداد وإقامة الشورى بالبلد واستقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع مع الوزير عبد الرحمٰن الوطاسي فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق به كلمة بني مرين بالمغرب ويوهن بأسهم فتخف عليه وطأتهم.

واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سعيد فقام وقعد وجهز إلى سبتة العساكر من بني مرين وعقد على حربها للوزير إبراهيم بن عيسى اليريناني فزحف إليها وحاصرها فاعتذر إليه أبو زكرياء بحبس ابنه عنه ومفارقته له وأنه إذا رجع إليه ابنه بذل الطاعة وراجع الدعوة فأعلم الوزير السلطان بذلك فبعث إليه بالولد ليسلمه إلى أبيه بعد أن يقتضي منه موجبات الطاعة وأسبابها وجاء الخبر إلى أبي زكرياء بأن ابنه قد قدم وأنه كائن بفسطاط الوزير بساحل البحر بحيث تتأتى الفرصة في أخذه فبعث أبو زكرياء إلى عبد الحق بن عثمان قائد الحرب وأعلمه بمكان ابنه فواطأه عبد الحق على انتزاعه منهم، ثم هجم ليلاً في جماعة من حاشيته على فسطاط الوزير فاحتمل الولد وأصبح به عند أبيه وسمع أهل عسكر الوزير بالهيعة فركبوا وتبعوا الأثر فلم يقفوا على خبر وتفقد الوزير الولد الذي كان عنده فلم يجده واتهم الجيش الوزير بأنه مالأ شيعة أبيه على أخذه وإلا فلا يقدم أحد هذا الإقدام بدون مداخلة من بعض الجيش فتقبضوا على الوزير وحملوه إلى السلطان إبلاء في الطاعة وإبلاغاً في العذر فشكر لهم ذلك وأطلق الوزير لعلمه ببراءته ونصحه.

ثم رغب أبو زكرياء بعدها في رضا السلطان وطاعته وولايته فنهض

السلطان أبو سعيد رحمه الله سنة ست عشرة إلى طنجة لاختبار طاعة أبي زكرياء فبان له صدقه وعقد له على سبتة واشترط هو على نفسه حمل الجباية إلى السلطان وإسناء الهدية في كل سنة واستمر الحال على ذلك إلى أن هلك أبو زكرياء سنة عشرين وسبعمائة وقام بالأمر بعده ابنه محمد بن أبي زكرياء إلى نظر ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم شيخ قرابتهم، وكان قائد الأساطيل بسبتة ولي النظر فيها بعد أن نزع القائد يحيى الرنداحي إلى الأندلس وتغلب محمد بن علي هذا بسبتة واختلفت كلمة الغوغاء واضطرب الأمر على بني العزفي بها.

فانتهز السلطان أبو سعيد الفرصة فيها وأجمع النهوض إليها فنهض سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ونزل عليها فبادر أهل سبتة بإيتاء طاعتهم وعجز محمد بن أبي زكرياء عن المناهضة وظنها محمد بن علي من نفسه فتعرض للأمر في أوغاد من لفيفها اجتمعوا إليه فدافعهم الملأ من أهل سبتة عن ذلك وحملوهم على الطاعة واقتادوا بني العزفي إلى السلطان أبي سعيد فانقادوا إليه واحتل السلطان بقصبة سبتة وثقف جهاتها، ورم منثلمها وأصلح خللها واستعمل كبار رجالاته وخواص مجلسه في أعمالها، فعقد لحاجبه عامر بن فتح الله السدراتي على حاميتها وعقد لأبي القاسم بن أبي مدين العثماني على جبايتها والنظر في مبانيها وإخراج الأموال للنفقات فيها، وأسنى جوائز الملأ من مشيختها ووفر إقطاعاتهم وجراياتهم وأوعز ببناء البلد المسمى أفراك على سبتة فشرعوا في بنائها سنة تسع وعشرين وسبعمائة وانكفأ راجعاً إلى حضرته، وقد ذكر ابن الخطيب في كتاب الإكليل محمد بن أبي زكرياء هذا فقال فيه ما صورته: «فرع تأود من الرياسة في دوحة وتردد بين غدوة في المجد وروحة نشأ والرياسة العزفية تعله وتنهله والدهر ييسر أمله الأقصى ويسهله حتى اتسقت أسباب سعده وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده فألقت إليه رحالها وحطت ومتعته بقربها بعد ما شطت ثم كلح له الدهر بعد ما تبسم وعاد زعزعاً نسيمه الذي كان تنسم وعاق هلاله عن تمه ما كان من تغلب ابن عمه واستقر بهذه البلاد نازح الدار بحكم الأقدار وإن كان نبيه المكانة

والمقدار وجرت عليه جراية واسعة ورعاية متتابعة». إلى آخر كلامه ويعني بقوله هذه البلاد بلاد الأندلس والله أعلم.

المصاهرة بين السلطان أبي سعيد في ابنه أبي الحسن وبين أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي والسبب في ذلك

كان أبو تاشفين عبد الرحمٰن بن أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان قد ضايق بني أبي حفص أصحاب تونس وإفريقية في بلادهم واستولى على كثير من ثغورهم وردد البعوث والسرايا إلى أطراف ممالكهم وفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة جهز أبو تاشفين إليهم جيشاً كثيفاً وعقد عليه ليحيى بن موسى من صنائع دولته، ونصب مع ذلك لملك تونس وإفريقية بعض أعقاب الحفصيين وهو محمد بن أبي عمران كان لجأ إليه في بعض الفتن التي كانت له مع بني عمه، وتقدم هذا الجيش إلى أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي فهزموه واقتحموا مدينة تونس فاستولوا عليها ونصبوا لملكها والولاية عليها محمد بن أبي عمران المذكور، ليس له من الملك إلا الاسم، والأمر كله بيد يحيى بن موسى قائد الجيش، وخلص السلطان أبو بكر بن أبي زكرياء الحفصي إلى بونة جريحاً مطروداً عن كرسي ملكه ودار عزه فعزم حينئذٍ على الوفادة على السلطان أبي سعيد المريني ليأخذ له حقه من آل يغمراسن المتغلبين عليه وأراد مع ذلك تجديد الوصلة التي كانت لسلفه مع بني مرين فأشار عليه حاجبه محمد بن سيد الناس بإنفاذ ابنه الأمير أبي زكرياء صاحب الثغر استنكافاً له عن مثلها فقبل إشارته وأركب ابنه المذكور البحر وبعث معه وزيره أبا محمد عبد الله بن تافراجين نافضاً أمامه طرق المقاصد والمحاورات ونزلوا بمرسى غساسة من ساحل المغرب وقدموا على السلطان أبي سعيد بحضرته فأبلغوه رسالة أبي بكر الحفصي فاهتز لذلك هو وابنه الأمير أبو الحسن وقال لوفد الحفصيين:

«والله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولأسيرن بعساكري إلى

تلمسان فأنازلها» وكان فيما شرط عليهم السلطان أبو سعيد مسير أبي بكر الحفصي بعساكره إلى منازلة تلمسان معه فقبلوا وانصرفوا إلى منازلهم مسرورين.

ونهض السلطان أبو سعيد إلى تلمسان سنة ثلاثين وسبعمائة ولما انتهى إلى وادي ملوية وعسكر بصبرة جاءه الخبر اليقين بعود أبي بكر الحفصي إلى تونس وجلوسه على كرسيه بها فاستدعى السلطان أبو سعيد ابنه أبا زكرياء ووزيره أبا محمد بن تافراجين وأعلمهما الخبر وأسنى جوائزهم وأمرهم بالانصراف إلى صاحبهم فركبوا أساطيلهم من غساسة.

وبعث معهم إبراهيم بن أبي حاتم العزفي والقاضي بحضرته أبا عبد الله بن عبد الرزاق يخطبون بنت السلطان أبي بكر الحفصي لابنه الأمير أبي الحسن فوصلوا إلى الحفصي وأدوا الرسالة وانعقد الصهر بينهم في ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكرياء وزفها إليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين وكبيرهم أبي القاسم بن عتو، فوصلوا إلى مرسى غساسة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة فقام بنو مرين لها على أقدام البر والكرامة وبعثوا بالظهر إلى غساسة لركوبها وحمل أثقالها، وصيغت حكمات الذهب والفضة ومدت ولايا الحرير المغشاة بالذهب واحتفل السلطان أبو سعيد رحمه الله لوفدها وأعراسها بما لم يسمع بمثله في دولتهم وتحدث الناس به دهراً وهلك السلطان أبو سعيد بين يدي موصلها كما نذكر.

وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمه الله

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما بلغه الخبر بوصول العروس فاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ارتحل بنفسه إلى تازا ليشارف أحوالها كرامة لها ولأبيها وسروراً بعرس ابنه فاعتل هنالك وازداد مرضه حتى إذا أشفا على الهلكة ارتحل به ولي العهد الأمير أبو الحسن إلى الحضرة، وحمله في فراشه على أكتاد الحاشية والجند

حتى نزل بوادي سبو، ثم أدخله كذلك ليلاً إلى قصره فأدركته المنية في طريقه فتوفي ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وكان مرضه بعلة النقرس فوضعوه بمكانه من بيته واستدعى ابنه أبو الحسن الصالحين لمواراته فدفن[1] ببعض قبابه رحمه الله وكانت أيامه أعياداً ومواسم، ومن أكابر كتابه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي.

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله أبي الحسن علي ابن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكاً وأبعدهم صيتاً وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثاراً بالمغربين والأندلس، ويعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لأن أمه كانت حبشية[2] فكان أسمر اللون والعامة تسمي الأسمر والأسود أكحل وإنما الأكحل في لسان العرب أكحل العينين فقط، وكان أخوه أبو علي لمملوكة من سبي النصارى فكان أبيض وانضاف لذلك أن كان أبو الحسن ملكاً على الحضرة وأبو علي ملكاً على بلاد القبلة فكانا أخوين ملكين في عصر واحد أحدهما أسمر والآخر أبيض فعرف هذا بالأكحل والآخر بالأبيض للمقابلة.

ولما هلك السلطان أبو سعيد رحمه الله اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة على ولي عهده أبي الحسن المذكور وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم فأمر للحين بنقل معسكره من ناحية سبو إلى الزيتون من ناحية فاس، ولما فرغ من دفن أبيه خرج إلى معسكره بالمحل المذكور واجتمع الناس إليه على طبقاتهم لأداء البيعة بفسطاطة، وتولى أخذ البيعة له يومئذٍ على الناس الشيخ أبو محمد عبد الله بن قاسم المزوار والمزوار في لسان

(1) الذي في كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين أنه دفن بشالة.
(2) تسمى العنبر.

زناتة معناه الرئيس وكان هذا الرجل رئيس الوزعة والمتصرفين وحاجب الباب السلطاني قديم الولاية في ذلك منذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب، ثم زفت على السلطان أبي الحسن زوجته الحفصية فبنى بها بمكانه من المعسكر المذكور وأجمع رأيه على الانتقام لأبيها من عدوه أبي تاشفين الزياني على ما نذكره.

حدوث الفتنة بين الأخوين أبي الحسن وأبي علي ثم مقتل أبي علي والسبب في ذلك

كان السلطان أبو سعيد رحمه الله لما عهد بالأمر لابنه أبي الحسن وتحقق مصيره إليه كثيراً ما يستوصيه بأخيه أبي علي لكلفه به وشفقته عليه فلما خلص الأمر إلى أبي الحسن وكان موثراً رضا أبيه جهده اعتزم على الحركة إلى سجلماسة لمشارفة أحوال أخيه واختبار أمره وما هو عليه من سلم أو حرب ليعمل على مقتضى ذلك، فارتحل من معسكره بالزيتون قاصداً سجلماسة فتلقته وفود أخيه أبي علي أثناء الطريق مؤدياً حقه وموجباً مبرته ومهنئاً له بما آتاه الله من الملك ويعلمه مع ذلك بأنه متجاف عن المنازعة له قانع من تراث أبيه بما في يده طالب منه أن يعقد له بذلك، فأجابه السلطان أبو الحسن إلى ما سأل وعقد له على سجلماسة وما والاها من بلاد القبلة كما كان لعهد أبيه وأشهد على ذلك الملأ من بني مرين وسائر زناتة والعرب، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعاً إلى تلمسان عازماً على الانتقام من أبي تاشفين الزياني فسار حتى انتهى إلى تلمسان ثم تجاوزها إلى جهة الشرق حتى نزل بتاسالت منتظراً لقدوم صهره السلطان أبي بكر الحفصي عليه وفاء بالعهد الذي كان انعقد له مع السلطان أبي سعيد أيام وفادة ابنه أبي زكرياء عليه من أنهما يكونان يداً واحدة على حصار تلمسان حتى يحكم الله بينهما وبين صاحبها فعسكر أبو الحسن بتاسالت ثم بعث بحصة من جنده في البحر إلى صهره الحفصي مدداً له وهو يومئذٍ ببجاية يقاتل جيش بن زيان عليها.

ولما اتصل الخبر بأبي تاشفين صاحب تلمسان فكر في أمر أبي الحسن

وأعمل الحيلة بأن دس إلى أخيه الأمير أبي علي صاحب سجلماسة في اتصال اليد به والاتفاق معه على أخيه أبي الحسن وأن يأخذ كل واحد منهما بحجزته عن صاحبه ويشغله عنه حتى يتمكنا منه ووعده أبو تاشفين ومناه ولم يزل به حتى انتقض على أخيه ونهض من سجلماسة إلى درعة فقتل عاملها وولى عليها عاملاً من قبله، ثم سرح العساكر إلى جهة مراكش وأجلب عليها بخيله ورجله.

واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن وهو بمعسكره من تاسالت ينتظر قدوم الحفصي عليه فانكفأ راجعاً إلى الحضرة مجمعاً الانتقام من أخيه، ولما انتهى في طريقه إلى حصن تاوريرت شحنه بالعسكر وعقد عليه لابنه تاشفين بن أبي الحسن ووقف أمره على نظر منديل بن حمامة شيخ بني تيربعين ثم أغذ السير إلى سجلماسة فنزل عليها وأخذ بمخنقها وحشر الفعلة والصناع لصنع الآلات والبناء بساحتها وأقام عليها يغاديها بالقتال ويرواحها حولاً كاملاً ونهض أبو تاشفين في عساكره من تلمسان يريد الغارة على أطراف المغرب كي يشغل أبا الحسن عن أخيه بذلك فانتهى إلى تاوريرت فبرز إليه تاشفين بن أبي الحسن في عساكر مرين فهزموه وردوه على عقبه إلى تلسمان، ثم بعث بحصة من جنده مدداً للأمير أبي علي فتسربوا إلى سجلماسة جماعات وأفذاذاً حتى تكاملوا لديه فلم يغنوا شيئاً وطاولهم السلطان أبو الحسن الحصار أنزل بهم أنواع النكال حتى اقتحم البلد عنوة تاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره وجيء به إلى أخيه أبي الحسن وقد خامره الجزع فلما مثل بين يديه تضرع إليه وقبل حافر فرسه فأمر أبو الحسن بتثقيفه وحمله على بغل إلى فاس وانكفأ هو راجعاً إلى الحضرة فلما دخلها اعتقل أخاه ببعض حجر القصر أشهراً ثم قتله فصداً وخنقاً وكانت سن أبي علي يومئذٍ سبعاً وثلاثين سنة وكانت دولته بسجلماسة تسع عشرة سنة وأشهراً وكان رقيق الحاشية ينتمي إلى الأدب وهو الذي استقدم أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي من سبتة واستكتبه أيام أبيه ومن شعر الأمير أبي علي يخاطب أخاه أبا الحسن أيام حصاره له بسجلماسة وقد أيقن بزوال أمره:

فلا يغرنك الدهر الخؤون فكم ... أباد من كان قبلي يا أبا الحسن
الدهر مذ كان لا يبقى على صفة ... لا بد من فرح فيه ومن حزن
أين الملوك التي كانت تهابهم ... أسد العرين ثووا في اللحد والكفن
بعد الأسرة والتيجان قد محيت ... رسومها وعفت عن كل ذي حسن
فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمراً ... واستغن بالله في سر وفي علن
واختر لنفسك أمراً أنت آمره ... كأنني لم أكن يوماً ولم تكن

وفادة السلطان ابن الأحمر على السلطان أبي الحسن بحضرة فاس وفتح جبل طارق

لما هلك السلطان أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن الأحمر المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر بعده ابنه محمد طفلاً صغيراً واستبد عليه وزيره محمد بن المحروق فقتله بعدما شب وعقل وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمائة وزاحم الفرنج به ثغور المسلمين وصار شجى في صدر الدولتين المرينية والأحمرية واستمر الحال على ذلك إلى أن بويع الأمير السلطان أبو الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق فبادر السلطان محمد بن إسماعيل بن الأحمر إلى الوفادة عليه لإحكام عقد المودة معه وللمفاوضة في أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته فقدم عليه بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فأكبر السلطان أبو الحسن موصله وأركب الناس للقائه وأنزله بروض المصارة لصق داره واستبلغ في إكرامه، وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر وما أهمهم من عدوهم وشكى إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور قبل وشكى إليه أمر بني عثمان بن أبي العلاء لأنهم كانوا قد استطالوا عليه في أرضه فأشكاه أبو الحسن وعامل الله تعالى في أسباب الجهاد، وكان يومئذٍ مشغولاً بفتنة أخيه أبي علي ومع ذلك فقد أمده بالجند وعقد لابنه أبي مالك

على خمسة آلاف من آنجاد بني مرين وأنفذهم مع ابن الأحمر لمنازلة جبل الفتح فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد، وأرسل ابن الأحمر في الأندلس حاشرين فتسايل الناس إليه من كل جهة وزحفوا جميعاً إلى الجبل وأحاطوا به وأبلوا في منازلته البلاء الحسن إلى أن فتحوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واقتحمه المسلمون عنوة ونفلهم الله من كان به من النصارى بما معهم، وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفاً من كرة العدو وباشر نقلها الأميران أبو مالك وابن الأحمر بأنفسهما ونقلها الناس عامة وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة الخضراء وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلي من وزراء أبيه، ووصل الطاغية بعد ثلاث من فتحه فأناخ عليه وحاصره وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بإزائه وزحف ابن الأحمر فنزل بإزائه أيضاً ثم خاف ابن الأحمر عادية العدو لقرب العهد بارتجاع الجبل وخفة من به من الحامية والسلاح، فبادر إلى لقاء الطاغية وسبق الناس إلى فسطاطه عجلاً بائعاً نفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم فتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً إعظاماً له وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل وأتحفه بذخائر مما لديه وارتحل من فوره وشرع الأمير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه.

وقال أبو العباس المقري في النفح: ارتجع السلطان أبو الحسن جبل طارق بعد أن أنفق عليه الأموال وصرف إليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، واهتم ببنائه وتحصينه وأنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره وبنى أبراجه وجامعه ودوره ومحاربيه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو براً وبحراً فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته ولا يجد سبيلاً للتضييق عليه بمحاصرته، ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الأموال وأنصف العمال فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفاً وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة

أشهر وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان رحمهما الله تعالى.

وأما ابن الأحمر فإن أولاد عثمان بن أبي العلاء شيوخ الغزو بالأندلس لما رأوا ما حصل بينه وبين السلطان أبي الحسن من الوفاق واتصال اليد خافوا أن تعود موافقتهم بالضرر عليهم إذ كانوا أعداء للدولتين معاً أما دولة المغرب فبخروجهم عليهم ومنابذتهم إياهم غير مرة، وأما دولة الأندلس فباستحواذهم على أهلها ومزاحمتهم إياهم في رياستها فتشاوروا فيما بينهم وفتكوا بابن الأحمر يوم رحيله عن الجبل إلى غرناطة فتقاصفوه بالرماح وقدموا أخاه أبا الحجاج يوسف بن إسماعيل مكانه فقام بالأمر بعده وشمر للأخذ بثار أخيه فاحتال على بني أبي العلاء حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق ثم غربهم إلى تونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

فتح تلمسان ومقتل صاحبها أبي تاشفين وانقراض الدولة الأولى لبني زيان بمهلكه

لما استقام ملك المغرب للسلطان أبي الحسن بمقتل أخيه أبي علي صاحب سجلماسة ونصر الله جنده على الطاغية بالأندلس تفرغ لشأن تلمسان والانتقام من صاحبها أبي تاشفين الذي ضايق أصهاره من بني أبي حفص في أرضهم ونازعهم في ملكهم، وكان السلطان أبو الحسن قد بعث لأول بيعته شفعاء إلى أبي تاشفين في أن يتخلى عن عمل الموحدين ويرجع إلى تخوم أعماله التي ورثها عن سلفه وقال له في جملة ذلك: «كف عنهم ولو سنة واحدة ليسمع الناس أني نافحت عن صهري ويقدروا قدري» فاستنكف أبو تاشفين من ذلك وأغلظ للرسل في القول وأفحش بعض السفهاء من عبيده في الرد عليهم بمجلسه ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره فعادت الرسل إليه وأعلموه بالقضية على وجهها فحمي لذلك وغضب وتأكد عزمه على النهوض إلى تلمسان فكان من نهوضه أولاً وانتقاض أخيه عليه وعوده إليه من تاسالت ما قصصناه قبل مستوفى.

ثم عاود السلطان النهوض إلى تلمسان في هذه المرة فعسكر بظاهر فاس الجديد وبعث وزراءه ووجوه دولته إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والجموع ثم تعجل وعرض جنوده وأزاح عللهم وعبى مواكبه وفصل في التعبية من فاس أواسط خمس وثلاثين وسبعمائة فسار يجر الشوك والمدر من أمم المغرب وجنوده، ومر بوجدة فجمر عليها الكتائب للحصار ثم مر بندرومة فقاتلها بعض يوم ثم اقتحمها عنوة فاستولى عليها وقتل حاميتها، ثم سار على التعبية حتى أناخ على تلمسان ثم بلغه الخبر بتغلب عسكره على وجدة سنة ست وثلاثين وسبعمائة فأوعز إليهم بتخريب أسوارها فأضرعوها بالأرض وتوافت لديه أمداد النواحي وحشودها، ووفدت عليه قبائل مغراوة وبني توجين فأتوه طاعتهم وسرح كتائبه إلى القاصية فتغلب على وهران وهنين ثم على مليانة وتنس والجزائر وغيرها واستولى على الضواحي ونزع إليه يحيى بن موسى كبير قواد أبي تاشفين وصاحب الثغور الشرقية من أعماله فلقاه مبرة وكرامة ورفع بساطه ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه، وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى بن سليمان العسكري شيخ بني عسكر بن محمد وصهر السلطان على ابنته فسار في الألوية والجنود فطوع ضاحية الشرق وافتتح أمصاره حتى انتهى إلى لمدية ونظم البلاد في طاعة السلطان أبي الحسن واحتشد جموعها فلحقوا بمعسكره واستعمل السلطان أبو الحسن عماله على الجهات.

واختط بغربي تلمسان البلد الجديد لسكناه ونزول عساكره، وأحيا معالم المنصورة التي كان اختطها عمه يوسف بن يعقوب وخربها بنو زيان من بعده فأدار عليها سياجاً من السور ونطاقاً من الخندق ونصب المجانيق وآلات من وراء خندقه وجعلت رماته تنضح رماة العدو بالنبل ويشغلونهم بأنفسهم حتى شيد برجاً آخر يقرب منهم وترتفع شرفاته فوق خندقهم وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليه ورتب المجانيق لرجمها وأحكم عملها لدكها فنالت من ذلك فوق الغاية، وعظم أثرها في القصور العظيمة والقباب الرفيعة التي تأنق أبو تاشفين في تشييدها، وكان السلطان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم

ويطوف على البلد من جميع جهاته لتفقد رؤساء العسكر في مراكزهم وربما انفرد في طوافه فطاف في بعض الأيام منتبذاً عن الحاشية، فاهتبل بنو عبد الواد غرته حتى إذا سلك ما بين الجبل والبلد فتحوا أبوابها وأرسلوا عليه عقبان جنودهم يحسبونها فرصة كالتي كانت ليغمراسن بن زيان في السعيد الموحدي، واضطروه إلى سفح الجبل حتى لحق بأوعاره وكاد ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد، وأحس أهل المعسكر بذلك فركبوا زرافات ووحداناً وركب ابناه الأميران أبو عبد الرحمٰن وأبو مالك وهما جناحا عسكره وعقابا جحافله وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جو فانكشفت عساكر بني عبد الواد وولوا الأدبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد، واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه فكان الهالك يومئذٍ فيه أكثر من الهالك بالسلاح، وهلك من بني توجين يومئذٍ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل وانشريس ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن وصاحب قلعة تاوغزوت وهما ما هما في زناتة إلى أشباه لهما استلحموا في هذه الوقعة فحص هذا اليوم من جناح دولة بني زيان وحطم منها، واتصل الحصار مدة من ثلاث سنين حتى إذا كان السابع والعشرون من رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة اقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان عنوة، ووقف أبو تاشفين رحمه الله عند باب قصره في جماعة من أصحابه منهم ولداه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي ووليه عبد الحق بن عثمان وهو الذي كان خرج على السلطان أبي الربيع وبايعه عبد الرحمٰن بن يعقوب الوطاسي حسبما مر، فإنه لحق به بعد تلك الوقعة بتلمسان ثم منها إلى الأندلس ثم حضر انتقاض العزفي بسبتة سنة ست عشرة كما مر ثم لحق بأبي بكر الحفصي ثم نزع عنه إلى أبي تاشفين واستمر عنده إلى هذا اليوم فشهده في جماعة من بنيه وبنى أخيه وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريهة فمانعوا دون القصر واستماتوا عليه إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصا الرماح فطيف بها وغصت سكك البلد من داخلها وخارجها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام حتى لقد كب الناس على أذقانهم

وتواقعوا على مساربهم، فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين حتى ضاق المسلك ما بين السقف ورحبة الباب وانطلقت الأيدي على المنازل نهباً واكتساحاً.

وأما أبو تاشفين فإنه قاتل حتى قتل ابناه عثمان ومسعود أمامه وخلصت إليه جراحات فأثخنته وتقبض عليه بعض الفرسان فساقه إلى السلطان فلقيه ابنه الأمير أبو عبد الرحمٰن فأمر به فقتل في الحين واحتز رأسه وسخط السلطان ذلك من فعله لأنه كان حريصاً على توبيخه وتقريعه، وقال ابن الخطيب: وقف أبو تاشفين وبنوه بإزاء القصر مدافعين عن أنفسهم وقاموا مقام الصبر والاستجماع وصدقوا عن أنفسهم الدفاع إلى أن كوثروا وأعجلتهم ميتة العز عن شد الوثاق وإمكان الشمات فكان في شأنهم عبرة رحمهم الله.

وخلص السلطان أبو الحسن إلى المسجد الجامع بحاشيته واستدعى شيوخ الفتيا بتلمسان وهما الإمامان الشهيران أبو زيد عبد الرحمٰن وأبو موسى عيسى ابنا الإمام فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب والعيث فركب لذلك بنفسه وسكن الناس وقبض أيدي الجند عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد وقد كمل الفتح وعز النصر واستولى السلطان أبو الحسن على تلك الإمارة المؤثلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلى وثمين الذخيرة وفاخر المتاع وخطير العدة وبديعة الآلة وصامت المال وضروب الرقيق وصنوف الأثاث والماعون، ورفع القتل عن بني عبد الواد أعدائه وشفا نفسه بقتل سلطانهم وعفا عنهم وأثبتهم في الديوان وفرض لهم العطاء واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم وجمع كلمة بني واسين من بني مرين وبني عبد الواد وبني توجين وسائر زناتة وصاروا عصباً تحت لوائه وسد بكل طائفة منهم ثغراً من أعماله، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين واندرجوا في جملته واتسع نطاق مملكته، وأصبح أبو الحسن ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب فقط ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

مراسلة السلطان أبي الحسن لسلطان مصر وبعثه المصاحف من خطه إلى المساجد الثلاثة شرفها الله

كان للسلطان أبي الحسن مذهب ورأى في ولاية ملوك المشرق والمكلف بالمعاهد الشريفة اقتداء في ذلك بعمه يوسف بن يعقوب وغيره من سلفه وضاعف ذلك لديه متين ديانته ورفيع همته، ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى واستولى على المغربين خاطب لحينه صاحب مصر والشام والحجاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن ركب الحاج في سابلتهم، وكان سفيره في ذلك فارس بن ميمون بن وردار وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين الخلف كما كانت بين السلف، فأجمع السلطان أبو الحسن حينئذٍ على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف حرم مكة قربة إلى الله تعالى وابتغاء للمثوبة فانتسخها بيده وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها، وصنع لها وعاء مؤلفاً من الآبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ورصع بالجوهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائنه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها، وأوفد على الملك الناصر خواص مجلسه وكبار أهل دولته مثل عريف بن يحيى أمير بني زغبة من عرب بني هلال ومثل السابق المقدم في بساطه على كل خالصة عطية بن مهلهل بن يحيى كبير أخواله من عرب الخلط وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه الشيخ أبا محمد عبد الله بن قاسم المزوار.

واحتفل في الهدية للسلطان صاحب مصر احتفالاً تحدث الناس به دهراً قال ابن خلدون: «وقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين الرسول المذكور ووعيته ثم أنسيته وذكر لي بعض قهارمة الدار أنه كان فيها خمسمائة من

عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصاً ومغشى ومموهاً وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وإزراً معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون وساذجاً ومنمقاً ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ المنسوبة إلى اللمط ومن خرثي المغرب وماعونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ذلك الركب فأذن لها واستبلغ في تكرمتها واستوصى بها وفده وسلطان مصر في كتابه، وفصلوا من تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ووصلوا إلى مصر في الثاني والعشرين من رمضان من السنة المذكورة وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وقدموا هديتهم إليه فقبلها وحسن موقعها لديه وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوماً مشهوداً تحدث الناس به دهراً ولقاهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والكرامة حتى قضوا فرضهم ووضعوا المصحف الكريم حيث أمرهم صاحبه، وأسنى الملك الناصر هدية السلطان من الفساطيط المشرقية الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب ومن ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكرمتهم وصلتهم وبقي حديث هذه الهدية مذكوراً بين الناس لهذا العهد» اهـ كلام ابن خلدون ببعض إيضاح.

وقد ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن» هذه الهدية وفصل منها بعض ما أجمله ابن خلدون فقال: أرسل السلطان أبو الحسن للناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين وأرسل حللاً كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ومن الأنان عشرين مذهبة ومن الخلادي ستة وأربعين ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ومن المحررات المختمة ثمانمائة ومن الرصان عشرين شقة ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرين ومن

البرانس المحررة ثمانية عشر ومن المشقفات مائة وخمسين ومن أحارم الصوف المحررة عشرين ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ومن الفضالى المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين وحائطين حلة وحنابل مائة واثنى عشر كلها حرير وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ومن السيوف المحلات بالذهب المنظم بالجوهر عشرة والسروج عشرة بركب الذهب كذلك ومهاميز الذهب وثلاثة ركب فضة وستة مزججة ومذهبة ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر ومن لزمات الفضة عشرة وسروج مخروزة بالفضة عشرة وعشر علامات مغشاة مذهبة وعشر رايات مذهبة وعشر براقع مذهبة وعشر أمثلة مرقومة وثلاثون جلداً شرك وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبية وهي من حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وآبنوس وأكبارها من فضة مذهبة ومن البزات الأحرار المنتقات أربعة وثلاثين ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمساً وثلاثين ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة يعني ربعة المصحف الكريم، وأعطى السلطان الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات وللرسول المعين للهدية ألفاً، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً اهـ، وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الأندلس صلة وصدقة وهدية في مرات، ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي، ومنها لصاحب إفريقية ومنها لصاحب تلمسان اهـ، وقال العلامة المقريزي مؤرخ مصر في «كتاب السلوك» ما نصه:

«وفي ثاني وعشرين من رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ومعها هدية جليلة إلى الغاية نزل لحملها من الأسطول السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال وكان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومائتا بغل وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعضها سروجها وركبها ذهب وكذلك لجمها وعدتها اثنان وأربعون رأساً منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر وفيها اثنان وثلاثون بازاً وفيها سيف قرابه ذهب مرصع وحياصة ذهب مرصع وفيها مائة كساء وغير ذلك من القماش العالي، وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح وهم جمع كثير جداً وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نفدت كلها سوى الجوهر واللؤلؤ فإنه اختص به، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار، ثم نقلت الحرة إلى الميدان بمن معها ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ما عمهم وفضل عنهم، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف إردب أرزاً وقنطار حب رمان وربع قنطار سكراً وثمان فانوسيات شمعاً وتوابل الطعام، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره وقيل لها أن تملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء وإنما تريد عناية السلطان إكرامها وإكرام من معها حيث كانوا، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد إن بغى بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية وهيأ كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط وطلبا الحمالة لحمل جهازها وأزودتها وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة وأمره أن يرحل بها في مركب لها

بمفردها قدام المحمل ويمتثل كلما تأمر به وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة اهـ وفيه بعض مخالفة لما وصفه ابن مرزوق في الهدية والخطب سهل.

ثم انتسخ السلطان أبو الحسن رحمه الله نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول ووقفها على القراء بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من أهل دولته سنة أربعين وسبعمائة وفعل مثل ذلك بحرم بيت المقدس، قال العلامة أبو العباس المقري في نفح الطيب: «كان السلطان أبو الحسن المريني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، ووقف عليها أوقافاً جليلة كتب سلطان مصر والشام توقيعه بمسامحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين بن نباتة المصري، ونص ما يتعلق به الغرض منه هنا قوله:

«وهو الذي مد يمينه بالسيف والقلم فكتب في أصحابها وسطر الختمات الشريفة فأيد الله حزبه بما سطره من أحزابها، واتصلت ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق: لا بد للفقراء من فتوح، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي وخط سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي، ورتب عليها أوقافاً تجري أقلام الحساب في إطلاقها وطلقها وحبس أملاكاً شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها، والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف، وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف» اهـ، قال المقري: وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس وربعته في غاية الصنعة اهـ والله تعالى أعلم.

واتصلت الولاية بين السلطان أبي الحسن وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولي أمر مصر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضاً على ما نذكره بعد إن شاء الله.

نكبة الأمير أبي عبد الرحمٰن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن وفرار وزيره زيان بن عمر الوطاسي والسبب في ذلك

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله عندما نهض إلى تلمسان أولاً وثانياً ينتظر قدوم صهره السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي عليه لما كان انعقد بينه وبين أبيه أبي سعيد رحمه الله من الاجتماع على تلمسان والتعاون على حصارها، ولما فتح أبو الحسن تلمسان في التاريخ المتقدم كان وزير الحفصيين الشيخ أبو محمد بن تافراجين شاهداً لذلك الفتح قدم رسولاً من عند مخدومه السلطان أبي بكر المذكور، فأسر إلى السلطان أبي الحسن بأن مخدومه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوه فتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر ويعنى به، وارتحل عن تلمسان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وعسكر بمتيجة منتظراً لوفادة صهره عليه فتكاسل الحفصي عن القدوم بسبب تثبيط محمد بن الحكيم من رجال دولته إياه عن ذلك وقال له: «إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما» فكره الحفصي ذلك وتقاعد عنه وطال مقام السلطان أبي الحسن في انتظاره ثم طرقه بفسطاطه مرض ألزمه الفراش حتى تجدث أهل العسكر بمهلكه.

وكان ابناه الأميران أبو عبد الرحمٰن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهد منذ أيام جدهما أبي سعيد وكان أبوهما قد جعل لهما لأول دولته ألقاب الإمارة وأحوالها من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء واستلحاق الفرسان، وانفراد كل بعسكره على حدة وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله مناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية فكانا لذلك رديفين له في سلطانه، ولما اشتد وجع السلطان في هذه المرة تمشت سماسرة الفتن بينهما وتحزب أهل العسكر لهما حزبين وشوشوا بواطنهما، فبث كل واحد منهما المال وحمل على المقربات وصار الجيش شيعاً، وهم الأمير أبو عبد الرحمٰن بالتوثب على الأمر قبل أن يتبين حال السلطان بإغراء

وزرائه وبطانته بذلك. وتفطن خاصة السطان لما وقع فأخبروه الخبر وحضوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق، فبرز السلطان إلى فسطاط جلوسه وتسامع أهل المعسكر به فازدحموا إلى بساطة وتقبيل يده، وتقبض على أهل الظنة من الجيش فأودعهم السجن وسخط على الأميرين وأمر برحيلٍ من كان معهما من الجند فردهم إلى معسكره، ثم رجع إلى فسطاطه وطفئت نار الفتنة وسكن سعي المفسدين وانتبذ الناس عن الأميرين المذكورين فبقيا أوحش من وتد بقاع، فاشتد جزع الأمير أبي عبد الرحمٰن وركب من فسطاطه وخاض الليل فأصبح بحلة أولاد على أمراء بني زغبة من هلال الموطنين بأرض حمزة فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل ورده إلى أبيه فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين أصحاب تونس فأجاروه، ورضي السلطان صبيحة فرار أبي عبد الرحمٰن عن أخيه أبي مالك وعقد له على ثغور عمله بالأندلس وصرفه إليها وانكفأ راجعاً إلى تلمسان والله أعلم.

ثورة ابن هيدور الجزار وما كان من أمره

لما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه أبي عبد الرحمٰن وأودعه السجن تفرق خدمه وحشمه في الجهات، وكان منهم رجل جزار مرتب في مطبخه، يعرف بابن هيدور وكان له شبه في الصورة بأبي عبد الرحمٰن فلحق ببني عامر بن زغبة وكانوا لذلك العهد منحرفين عن طاعة السلطان أبي الحسن لاختصاصه عريف بن يحيى أمير بني سويد أعدائهم، فلما لحق بهم ابن هيدور هذا انتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن وأنه ابنه أبو عبد الرحمٰن فشبه لهم وبايعوه وأجلبوا به على نواحي لمدية فبرز إليهم قائدها فهزموه، ثم جمع لهم ونزمار بن عريف بن يحيى فهزمهم وافترق جمعهم ونبذوا للجزار عهده، فلحق ببني يزناتن من زواوة فنزل على شيختهم شمسي من بني

عبد الصمد منهم، وكانت هذه المرأة قد ملكتهم وغلبت عليهم بقومها ورجالها وكان لها بنون عشرة فاستفحل أمرها بهم ولما نزل عليها الجزار المذكور وانتسب لها إلى السلطان أبي الحسن قامت بأمره وشمرت عزائمها لإجارته وحملت قومها على طاعته وشاع في الناس خبره فمن مصدق ومن مكذب وسرب السلطان أبو الحسن الأموال في قومها وبنيها على إسلامه إليه فأبت ثم نمى إليها الخبر بكذبه وتمويهه فنبذت إليه عهده وخرج عنها إلى بلاد العرب فلحق بالذواودة أمراء رياح من بني هلال ونزل على سيدهم يعقوب بن علي وانتسب له في مثل ذلك فأجاروه إن صدق نسبه وأوعز السلطان أبو الحسن إلى صهره أبي بكر الحفصي في شأن الجزار فبعث الحفصي إلى يعقوب بن علي في ذلك، فأشخصه إلى السلطان أبي الحسن مع بعض حاشيته، فلحق به بمكانه بسبتة يريد الجهاد فامتحنه وقطعه من خلاف وانحسم داؤه وبقي المغرب تحت جراية من الدولة إلى أن هلك في بعض السنين، وأما الأمير أبو عبد الرحمٰن فإنه لما سجن بوجدة بقي هنالك إلى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فوثب ذات يوم بالسجان فقتله واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فأنفذ حاجبه علان بن محمد فقضى عليه رحم الله الجميع.

أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد وما كان من وقعة طريف التي محص الله فيها المسلمين وغير ذلك

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه وعلت على الأيدي يده وانفسح نطاق ملكه دعته همته إلى الجهاد وكان كلفاً به فأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور الأندلسية سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب وجهز إليه العساكر من حضرته وأنفذ إليه الوزراء، فشخص أبو مالك غازياً وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدر من أرضهم، وأناخ بها فاتصل به الخبر أن النصارى قد جمعوا له وأنهم

أغذوا السير في اتباعه فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم وعبور الوادي الذي كان تخماً بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز إلى مدن المسلمين فيمتنع بها فلج في إبايته وصمم على التعريس وكان قرماً ثبتاً إلا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه، فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا وخالطوهم في بياتهم وأدركوا الأمير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه[1] واستلحموا الكثير من قومه واحتووا على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم، واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فتفجع لهلاك ابنه واسترحم له واحتسب عند الله أجره، ثم أنفذ وزراءه إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب كافة، ثم ارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب، وبعث إلى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم إليه فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ووافى سبتة في ستة عشر أسطولاً من أساطيل إفريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز المائة، وعقد السلطان عليها لمحمد بن علي العزفي الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها أيام السلطان أبي سعيد وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق وقد تكامل عديدهم وعدتهم، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح وزحفوا إلى أسطول النصارى وتواقفوا ملياً ثم قربوا الأساطيل بعضها من بعض وقرنوها للمصاف، فلم يمض إلا كلاً ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين

---

(1) وحملت جثته إلى شالة وأقبر بها وقد وقف القنصل الفرنساوي شينيي Chénier على رخامة ضريحه انظر تأليفه المسمى أبحاث في تاريخ المغاربة ج3ص287 فقد استقصى ذلك واستدل عليه بالأثر الذي عثر عليه بنفسه.

بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف وطعناً بالرماح وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم الملند، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء، وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين وسبعمائة فكان من أعز أيام الإسلام، ثم شرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفاً أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلتها، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر في عسكر الأندلس من غزاة بني مرين وحامية الثغور ورجالة البدو، فعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات، وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت أزوادهم وقلت العلوفات فوهن الظهر واختلت أحوالهم، ثم احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب أشبونة وغرب الأندلس وزحفوا إلى المسلمين لستة أشهر من نزولهم على طريف ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها إلى وقت الحاجة إليه فدخلوها ليلاً على حين غفلة من العسس الذين أرصدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عدداً وقد نجا أكثرهم فلبسوا على السلطان أنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته، ثم زحف الطاغية من الغد في جموعه إلى المسلمين وعبأ السلطان مواكبه صفوفاً وتزاحفوا ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وهو الذي

دخل ليلاً وخالفوا المسلمين إلى معسكرهم وعمدوا إلى فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا على حراسته فاستلحموهم لقلتهم، ثم دافعهم النساء عن أنفسهم فقتلوهن كذلك وخلصوا إلى حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا بهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب بأسره، وكان الخطب على الإسلام قلما فجع بمثله وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادى الآخرة من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولى السلطان أبو الحسن متحيزاً إلى فئة المسلمين واستشهد كثير من الغزاة وتقدم الطاغية حتى انتهى إلى فسطاط السلطان من المحلة فأنكر قتل النساء والولدان وكان ذلك منتهى أثره، ثم انكفأ راجعاً إلى بلاده ولحق ابن الأحمر بغرناطة وخلص السلطان أبو الحسن إلى الجزيرة الخضراء ثم منها إلى جبل الفتح ثم ركب الأسطول إلى سبتة في ليلة غده ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم.

استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس وطمع في التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل أولاً قلعة بني سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها، وجمع الآلات والأيدي على حصارها وأخذ بمخنقها فأصابهم الجهد من العطش فنزلوا على حكمة سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، وأدال الله الطيب منها بالخبيث وانصرف الطاغية إلى بلاده، وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد لرجع الكرة فأرسل في المدائن حاشرين وأخرج قواده إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل فتكامل

له منها عدد معتبر، ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفة ثغور الأندلس وقدم عساكره إليها مع وزيره عسكر بن تاحضريت وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن إبراهيم اليريناني من المرشحين للوزارة نيابة، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته وتلاقت الأساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلمين، وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ورجا أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع للآلات وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة، وجاء السلطان أبو الحجاج بن الأحمر بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إلى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت في أوقات الغفلة من أساطيل العدو تحت جناح الليل وأصيب كثير من المسلمين في ذلك، ولم يغن على أهل الجزيرة ذلك المدد شيئاً واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد، وأجاز السلطان أبو الحجاج إلى السلطان أبي الحسن يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له في الإجازة مكراً به وأصدر له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق، وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان فسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا له عن البلد فبذله لهم وخرجوا فوفى لهم وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم وخلع عليهم وحملهم ووصلهم بما تحدث الناس به، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره في المدافعة مع تمكنه منها، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعاً إلى حضرته موقناً بظهور أمر الله وإنجاز وعده والله متم نوره.ولو كره الكافرون.

بقية أخبار بني أبي العلاء

قد تقدم لنا أن عثمان بن أبي العلاء كان يلي مشيخة الغزاة بالأندلس وأنه استشهد سنة ثلاثين وسبعمائة[1] وقام بأمره ابنه أبو ثابت فاستحوذ بعصبيته وقومه على بني الأحمر، فقتلوا محمد بن إسماعيل منهم مرجعه من فتح جبل الفتح ونصبوا للأمر أخاه يوسف بن إسماعيل حسبما تقدم الإلماع بذلك، ثم إن السلطان أبا الحجاج هذا بقي بين جنبيه داء دخيل من بني أبي العلاء الذين فتكوا بأخيه فلم يزل يسعى في أمرهم حتى قبض عليهم وأودعهم المطبق، ثم غربهم إلى تونس فنزلوا على السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فكتب إليه باعتقالهم ففعل، ثم بدا له فبعث إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته فتوقف الحفصي عن ذلك وأبى من إخفار ذمتهم، فأشار عليه وزيره أبو محمد بن تافراجين ببعثهم إليه وأنه لا يريد بهم إلا الخير فبعثهم وبعث كتابه بالشفاعة فيهم فقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة فتلقاهم بالبر والكرامة إكراماً لشفيعهم وأنزلهم بمعسكره وحملهم على الخيول المسومة بالمراكب الثقيلة وضرب لهم الفساطيط وأسنى لهم الخلع والجوائز وفرض لهم في أعلى رتب العطاء وصاروا في جملته، ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة الخضراء سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الأمر فتقبض عليهم وأودعهم السجن بمكناسة الزيتون، واستمروا هنالك إلى أن قام أبو عنان فأطلقهم واستعان بهم على أمره حسبما نذكره إن شاء الله.

---

(1) بل مات حتف أنفه.

مراسلة السلطان أبي الحسن لصاحب مصر أبي الفداء إسماعيل بن محمد بن قلاوون

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن راسل الملك الناصر صاحب مصر وهاداه بما عظم وقعه عند الخاصة والعامة، واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل، فخاطبه السلطان أبو الحسن أيضاً وأتحفه وعزاه عن أبيه وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين وفي صحبته الحرة أخت السلطان أبي الحسن فقضى من وفادته ما حمل، وأصحبه السلطان أبو الحسن كتاباً إلى الملك الصالح أبي الفداء وكان وصوله إلى مصر منتصف شعبان سنة خمس وأربعين وسبعمائة.

ونص الكتاب بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ: «من عند أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصّور بفضل الله المتوكل عليه المعتمد في جميع أموره لديه سلطان البرين حامي العدوتين مؤثر المرابطة والمثاغرة موازر حزب الإسلام حق الموازرة ناصر الإسلام مظاهر دين الملك العلام ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين فخر السلاطين حامي حوزة الدين ملك البرين إمام العدوتين ممهد البلاد مبدد شمل الأعاد مجند الجنود المنصور الرايات والبنود محط الرحال مبلغ الآمال أبي سعيد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين حسنة الأيام حسام الإسلام أبي الأملاك مشجي أهل العناد والإشراك مانع البلاد رافع علم الجهاد مدوخ أقطار الكفار مصرخ من ناداه للانتصار القائم لله بإعلاء دين الحق أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أخلص الله لوجهه جهاده ويسر في قهر عداة الدين مراده إلى محل ولدنا الذي طلع في أفق العلا بدراً تماً وصدع بأنواع الفخار فجلى ظلاماً وظلماً وجمع شمل المملكة الناصرية فأعلى منها علماً وأحيى رسماً حائط الحرمين القائم بحفظ القبلتين باسط الأمان قابض كف

العدوان الجزيل النوال الكفيل تأمينه بحياطة النفوس والأموال قطب المجد وسماكه حسب الحمد وملاكه السلطان الجليل الرفيع الأصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الأضخم الأفخم المعان المؤزر المؤيد المظفر الملك الصالح أبي الوليد إسماعيل بن محل أخينا الشهير علاؤه المستطير في الآفاق ثناؤه زين الأيام والليال كمال عين إنسان المجد وإنسان عين الكمال وارث الدول النافث بصحيح رأيه في عقود أهل الملل والنحل حامي القبلتين بعدله وحسامه النامي في حفظ الحرمين أجر اضطلاعه بذلك وقيامه هازم أحزاب المعاندين وجيوشها هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها السلطان الأجل الهمام الأحفل الأفخم الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير الرفيع الخطير المجاهد المرابط المقسط عدله في الجائر والقاسط المؤيد المظفر المنعم المقدس المطهر زين السلاطين ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن الملك الأرضى الهمام الأمضى والد السلاطين الأخيار عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنج والتتار محيي رسوم الجهاد معلي كلمة الإسلام في البلاد جمال الأيام ثمال الأعلام فاتح الأقاليم صالح ملوك عصره المتقادم الإمام المؤيد المنصور المسدد قسيم أمير المؤمنين فيما تقلد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون مكن الله له تمكين أوليائه ونمى دولته التي أطلعها له السعد شمساً في سمائه وأحسن إيزاعه للشكر أن جعله وارث آبائه سلام كريم يفاوح زهر الربى مسراه وينافح نسيم الصبا مجراه يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقل الفلك حركاته ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله مالك الملك جاعل العاقبة للتقوى صدعاً باليقين ودفعاً للشك وخاذل من أسر النفاق في النجوى فاصر على الدخن والإفك والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محى بأنوار الهدى ظلم الشرك ونبيه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك ودعا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السلك وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب أنجح السلك وصابروا في جهاد

الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصاً على السبك والدعاء لأولياء الإسلام وحماته الأعلام بنصر لمضائه في العدى أعظم الفتك ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفل بذلك الدرك فكتبناه إليكم كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الألطاف ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ويصرف من أمره العظيم وقضائه المتلقى بالتسليم ما يتكون بين النون والكاف ومكانكم العتيد سلطانه وسلطانكم المجيد مكانه وولاؤكم الصحيح برهانه وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيناً وأفاد مقامكم تحصيناً وتحسيناً وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلاً مبيناً فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه وبقربه مع الأبرار في عليين أنسه من مؤاخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذتاها المحبة والنية الصالحة فانعقدت على التقوى والرضوان واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازح الأبدان حتى استحكمت وصلة الولاء والتأمت كلحمة النسب لحمة الإخاء فما كان إلا وشيكاً من الزمان ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان ورد وارد أورد رنق المشارب وحقق قول «ومن يسأل الركبان عن كل غائب» أنبأ باستئارة الله تعالى بنفسه الزكية وإكنان درته السنية وانقلابه إلى ما أعد له من المنازل الرضوانية بجليل ما وقر لفقده في الصدور وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور حناناً للإسلام بتلك الأقطار وإشفاقاً من أن يعتور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارض الإضرار ومساهمة في مصاب الملك الكريم والوصي الحميم ثم عميت الأخبار وطويت طي السجل الآثار فلم نر مخبراً صدقاً ولا معلماً بمن استقر له ذلكم الملك حقاً وفي أثناء ذلك حفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ أهل الأندلس وسلطانها وتواتر الأخبار بأن النصارى أجمعوا على خراب أوطانها ونحن أثناء ذلك الشأن نستخبر الوراد من تلكم البلدان عما أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان فبعد لأي

وقعنا منها على الخبير وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير وتعرفنا أن الملك استقر منكم في نصابه وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه فأطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها من أدواء النفاق ما أعل البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سابلاً وعبر طريقه لمن جاء قاصداً وقافلاً ولما احتفت بهذا الخبر القرائن وتواتر بنقل الحاضر المعاين أثار حفظ الاعتقاد البواعث والود الصحيح تجره حقاً الموارث فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الأطوار الجامعة بين الخبر والاستخبار الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار ومثل ذلك: الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه وتحل عرى الاصطبار بموته ولات حين أوانه ولكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ومثلكم من لا يخف وقاره ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطباره ومن خلفتموه فما مات ذكره ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالحقب وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئاً بما من الأجر اكتسب وصار حميداً إلى خير منقلب ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقناً ووهب فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضه المقدسة وحماية زوار بيته مقيلة أو معرسة ونحن بعد بسط هذه التعزية نهنيكم بما خولكم الله أجمل التهنية وفي ذات الله الإيراد والإصدار وفي مرضاته سبحانه الإضمار والإظهار فاستقبلوا دولة ألقى العز عليها رواقه وعقد الظهور عليها نطاقه وأعطاه أمان الزمان عقده وميثاقه ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة وموالاة محققة وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غب القطر مفتقه ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منا اليمين وآوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضونه وأورده موارد إحسانه في ذلكم من الفعل الجميل والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع وشاكل فضله من البر الذي لا يضيع حتى طبق فعله الآفاق ذكراً وطوق أعناق الوراد والقصاد براً وكان من أجمل ما به تحفى وأتحف وأعظم ما بعرفه إلى الملك العلام في ذلك تعرف إذنه

للمتوجهين إذا ذاك في شراء رباع توقف على المصحفين ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين فجرت أحوال القراء فيها بذلك الخراج المستفاد ريثما يصلهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة وقد أمرنا مؤدي هذا لكمالكم وموفده على جلالكم كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل الأحظى الأكمل أبا المجد ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضى الأفضل الأحظى الأكمل المرحوم أبي عبد الله بن أبي مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر في قصد البيت الحرام بغيته بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف وأن يتخير لها من يرتضي لذلك ويحمد تصرفه فيما هنالك وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن جرياً على الود الثابت الأركان وإعلاماً بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان وكمالكم يقتضي تخليد ذلكم البر الجميل وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل وتشييد ما اشتمل عليه من الشراء الأصيل والأجر الجزيل والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفاوح زهر الربا ويطارح نغم حمام الأيك مطرباً وبحسب المصافاة ومقتضى الموالاة نشرح لكم المتزايدات بهذه الجهات وننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجناب وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ ونادى منا للجهاد عزماً لمثل ندائه يصيخ أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صوب وفرض عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها وتنقص بالمنازلة أرضها من أطرافها ليمحو كلمة الإسلام منها ويقلصوا ظل الإيمان عنها فقدمنا من يشتغل بالأساطيل من القواد وسرنا على أثرهم إلى سبتة منتهى الغرب الأقصى وباب الجهاد فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكفور وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور وأتوا من أجفانهم بما لا يحصى عدداً وأرصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز إلى دفع العدا وتقلصوا عن

الانبساط في البلاد واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل من جمعوه من الأعاد لكنا مع انسداد تلك السبيل وعدم أمور نستعين بها في ذلكم العمل الجليل حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد وأصرخناهم بما أمكن من الجند وجهزنا أجفاناً مختلسين فرصة الإجازة تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه وأمرنا لصاحب الأندلس من المال بما يجهز به حركته لمداناة محلة حزب الضلال وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة وأرضخنا لهم من النوال ما نرجو به ثواب الآخرة وجعلت أجفاننا تتردد في مينا السواحل وتلج أبواب الخوف العاجل لإحراز الأمن الآجل مشحونة بالعدد الموفورة والأبطال المشهورة والخيل المسومة والأقوات المقومة فمن ناج حارب دونه الأجل وشهيد مضى لما عند الله عز وجل وما زالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يدخر ثم لم نقنع بهذا العمل في الإمداد فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله مساهمة به لأهل تلك البلاد فلقي من هول البحر وارتجاجه وإلحاح العدو ولجاجه ما به الأمثال تضرب وبمثله يتحدث ويستغرب ولما خلص لتلك العدوة بمن أبقته الشدائد نزل بإزاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين أو أدنى وقد ضرب بعطن يصابح العدو ويماسيه بحرب بها يمنى وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته وقويت في الحرب إدارته يبلون البلاء الأصدق ولا يبالون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق إلا أن المطاولة بحصارها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف أدى إلى فناء الأقوات في البلد حتى لم يبق لأهليه قوت شهر مع انقطاع المدد وبه من الخلق ما يربى على عشرة آلاف دون الحرم والولد فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح فأذنا له فيه الإذن العام إذ في إصراخه وإصراخ من بقطره من المسلمين توخينا ذلك المرام هنالك دعى النصارى إلى السلم فاستجابوا وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا فتم الصلح إلى عشر سنين وخرج من بها من فرسان

ورجال وأهل وبنين ولا رزئوا مالاً ولا عدة ولا لقوا في خروجهم غير النزوح عن أول أرض مس الجلد ترابها شدة ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء وأسليناهم عما جرى بالحباء فمن خيل تزيد على الألف عتاقها وخلع تربى على عشرة آلاف أطواقها وأموال عمت الغني والفقير ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير وكف الله ضبر الطواغيت عما عداها وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداها وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثغر أن قدر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر وهو المطل على هذه المدرة والفرصة منه إن شاء الله تعالى متيسرة حتى يفرق عقد الكفار ويفرج بهذه الجهة منهم مجاورو هذه الأقطار فلولا إجلابهم من كل جانب وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من الأجفان والمراكب لما بالينا بأصفاقهم ولحللنا بعون الله عقد اتفاقهم ولكن للموانع أحكام ولا راد لما جرت به الأقلام وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المدد وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعثاء السفر ونرتبط الجياد وننتخب العدد لوقت الظهور المنتظر ونكون على أهبة الجهاد وعلى مرقبة الفرصة عند تمكنها في الأعاد وعند عودنا من تلك المحاولة نيسر الركب الحجازي موجهاً إلى هناكم رواحله فأصدرنا إليكم هذا الخطاب إصدار الود الخالص والحب اللباب وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء ومالكم من غرض بهذه الأنحاء موفي قصده على أكمل الأهواء موالي تتميمه على أجمل الآراء والبلاد باتحاد الود متحدة والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة جعل الله ذلكم خالصاً لرب العباد مدخوراً ليوم التناد مسطوراً في الأعمال الصالحة يوم المعاد بمنّه وفضله هو سبحانه يصل إليكم سعداً تتفاخر به سعود الكواكب وتتضافر على الانقياد له صدور المواكب وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب والسلام الأتم يخصكم كثيراً أثيراً ورحمة الله وبركاته وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة وصورة العلامة وكتب في التاريخ المؤرخ.

قال ابن خلدون: «فقضى أبو الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين من وفادته ما حمل وكان شأنه عجباً في إظهار أبهة سلطانه والإنفاق على المستضعفين من الحاج في طريقه وإتحاف رجال الدولة التركية بذات يده والتعفف عما في أيديهم رحمه الله» وقال العلامة المقريزي: «وفي منتصف شعبان من سنة خمس وأربعين وسبعمائة قدمت الحرة أختَ صاحب المغرب في جماعة كثيرة وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام وأن يدعو له الخطباء في يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك» اهـ ولعل هذا الكتاب آخر غير الذي سردناه يتضمن ما ذكره والله أعلم.

ونسخة الجواب عن الكتاب الذي سردناه من إنشاء خليل الصفدي شارح لامية العجم: بعد البسملة في قطع النصف بقلم الثلث: «عبد الله ووليه» صورة العلامة، ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المظفر المنصور، عماد الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك فاتح الأقطار واهب الممالك والأمصار، إسكندر الزمان مملك أصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه مالك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلاطين جامع كلمة الموحدين، ولي أمير المؤمنين أبو الفداء إسماعيل بن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون خلد الله تعالى سلطانه وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه يخص المقام العالي الملك الأجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المعظم المكرم المظفر المعمر الأسعد الأصعد الأوحد الأمجد السني السري المنصور أبا الحسن علي بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أمده الله بالظفر وقرن عزمه بالتأييد في الآصال والبكر سلام وشت البروق وشائعه وادخرت الكواكب ودائعه

واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه ونبه بالتغريد في الروض سواجعه وجلى في كأسه من الشفق المحمر مدامه ومن النجوم فواقعه «أما بعد» حمد الله على نعم أدت لنا الأمانة في عود سلطنة والدنا الموروثة وأجلستنا على سرير مملكة زرابيها بين النجوم مبثوثة، وأحسنت بنا الخلف عن سلف عهدوه في الأعناق غير منكورة ولا منكوثة، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية أمله وسؤله صلاة تحط بالرضوان سيولها وتجر بالغفران ذيولها ما تراسل أصحاب وتواصل أحباب فيوضح للعلم الكريم ورود كتابكم العظيم وخطابكم الفائق على الدر النظيم تفاخر الخمائل سطوره، ويصبغ خد الورد بالخجل منثوره ويحكي الرياض اليانعة فالألفات غصونه والهمزات عليها طيوره ويخلع على الآفاق حلل الأيام والليالي فالطرس صباحه والنقس ديجوره لفظه يطرب ومعناه يعرب فيغرب وبلاغته تدل على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المغرب فاتخذنا سطوره ريحاناً ورجعنا ألفاظه ألحاناً ورجعنا إلى الجد فشبهنا ألفاته بظلال الرماح وورقه بصقال الصفاح وحروفه المفرقة بأفواه الجراح وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة يوم الكفاح وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ المسجوع والمعنى الذي يطرب طائره المسموع والبلاغة التي فضح التطبع بيانها المطبوع فأما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده وأحسن لسلفه خلفاً بعده فلنا برسول الله أسوة حسنة ولولا الوثوق بأنه في عدة الشهداء ما رام القلب قراره ولا الطرف وسنه عاش سعيداً يملك الأرض ومات شهيداً يفوز بالجنة يوم العرض قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس في الآفاق ويوقف عند نضارة خدائقه الأحداق وورثنا منه حسن الآخاء لكم والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم ـ وأما الهناء بوراثة ملكه والانخراط مع الملوك في سلكه فقد شكرنا لكم منحى هذه المنحة وقابلناها بثناء يعطر النسيم في كل نفحه ووقفنا عليها حمداً جعل الود علينا إيراده وعلى أنفاس سرحة الروض شرحه وتحققنا به حسن ودكم الجميل وكريم إخائكم الذي لا يميد طود رسوخه ولا يميل.

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الكريمين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمين المنيفين وإنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجل الأسنى الأسمى أبا المجد ابن كاتبكم أبي عبد الله بن أبي مدين أعزه الله لتفقد أحوالهما والنظر في أمر أوقافهما فقد وصل المذكور بمن معه في حرز السلامة وأكرمنا نزلهم وسهلنا بالترحيب سبلهم وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شملهم وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه وسمعنا كلامه وخاطبناه وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ورسمنا لنوابنا في توخي أوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على أحسن عادة ألفها وأثبت قاعدة عرفها مرعي الجوانب محمي المنازل والمضارب آمن إزالة رسمه أو إذالة حكمه بدره أبداً في مطالع تمه وزهره دائماً يرقص في كمه لا يزداد إلا تخليداً ولا إطلاق ثبوته إلا تقييداً ولا عنق اجتهاده إلا تقليداً جرياً على قاعدة أوقاف ممالكنا وعادة تصرفاتنا في مسالكنا وله مزيد الرعاية وإفادة الحماية ووفادة العناية. وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ومني به من الكفار حزنها وسهلها فإنه شق علينا سماعه الذي انكى أهل الإيمان وعدد به نوب الزمان كل قلب بأنامل الخفقان وطالما فزتم بالظفر ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر ولكن الحرب سجال وكل زمان لدوائره دولة ولرجائه رجال ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة وكحلنا عين النجوم بمراود الرماح وجعلنا ليل العجاج ممزقاً ببروق الصفاح واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كرات وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات وعطفنا عليهم الأعنة وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الأسنة وفلقنا الصخرات بالصراخات وأسلنا العبرات بالرعبات ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول وأين الثريا من يد المتناول وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا ـ وأما ـ ما فقدتموه من

الأجفان التي طرقها طيف الإتلاف وأم حرم فنائها الفناء وطاف به بعد الألطاف فقد روع هذا الخبر قلب الإسلام ونوع له الحزن على اختلاف الإصباح والإظلام وهذه الدار لا يخلو صفوها من كدر القدر وطالما أنامت بالأمن أول الليل وخاطبت بالخطب في السحر ولكن في بقائكم ما يسلي عن خطب العطب ومع سلامة نفسكم الكريمة فالأمر هين لأن الدر يفدى بالذهب - وأما - ما رأيتموه من الصلح فرأى عقده مبارك وأمر ما فيه فارط عزم وإن كان فيتدارك والأمر يجيء كما يحب لا كما نحب والحروب يزورها نصرها تارة ويغب مع اليوم غداً وقد يرد الله الردى ويعيد الظفر بالعدا وأما عودكم إلى فاس المحروسة طلباً لإراحة من عندكم من الجنود وتجهيزاً لمن يصل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود فهذا أمر ضروري التدبير سروري التثمير لأن النفوس تمل وثير المهاد فكيف ملازمة صهوات الجياد وتسأم من مجالسة الشرب فكيف بممارسة الحرب وتعرض عن دوام اللذة فكيف بمباشرة المنايا الفذة وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم وساق هدي هديته إليكم لعله يكون سبباً إلى ارتجاع ما شرد وحسماً لهذا الطاغية الذي مرد ورداً لهذا النازل الذي كدر ورد الصبر لما ورد فعادة الألطاف بكم معروفة وعزماتكم إلى جهات الجهاد مصروفة وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمٰن يطرق وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق وأما ما منحتموه من الخيل العتاق والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق والأموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الإنفاق فعلى الله عز وجل خلفها ولكم في منازل الدنيا والآخرة سرفها وشرفها وإليكم تساق هدايا أثنيتها وتحفكم تحفها وإذا وصل وفدكم الحاج وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج وكانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا يتخولون تحفاً أنتم سببها ويتناولون طرفاً في كؤوس الاعتناء بهم ينضد حببها وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى وسألهم ممن إذا

زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العناء وفازوا بالغنى وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب وغمرناهم بالإحسان في العود إليكم وأمرناهم بما ينهونه شفاهاً لديكم وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم وتوفر لأخذ الثار حماتكم وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الأنضر وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر وتتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه وعز لا يمحو شبابه مشيبه وتحيته المباركة تغاديكم وترواحكم وتفاوحكم أنفاسها المعتبرة وتنافحكم بمنّه وكرمه، في سادس رمضان بسنة خمس وأربعين وسبعمائة».

قال ابن خلدون: «ثم شرع السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتب نسخة أخرى من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر إتمامها وهلك قبل فراغه من نسخها» اهـ وهو يقتضي أن السلطان المذكور ما كتب سوى مصحفين اثنين ويؤيده ظاهر الكتابين المسرودين آنفاً مع أنه تقدم النقل عن الشيخ أبي العباس المقري أنه وقف على النسخة الموقوفة ببيت المقدس والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

هدية السلطان أبي الحسن إلى ملك مالي من السودان المجاورين للمغرب

اعلم أن أرض السودان المجاورة للمغرب تشتمل على ممالك منها مملكة غانة ومنها مملكة مالي ومنها مملكة كاغو ومنها مملكة برنو وغير ذلك، وكان ملك مالي وهو السلطان منسى موسى بن أبي بكر من أعظم ملوك السودان في عصره، ولما استولى السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط وغلب بني زيان على ملكهم عظم قدره وطال ذكره وشاعت أخباره في الآفاق فسما هذا السلطان وهو منسى موسى إلى مخاطبة السلطان أبي الحسن وكان مجاوراً لمملكة المغرب على نحو مائة مرحلة في القفر، فأوفد

عليه جماعة من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لبلادهم من صنهاجة، فوفدوا على السلطان أبي الحسن في سبيل التهنئة بالظفر فأكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم ونزع إلى مذهبه في الفخر فانتخب طرفاً من متاع المغرب وماعونه وشيئاً من ذخيرة داره وأسنى الهدية وعين رجالاً من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي فأوفدهم بها على ملك مالي منسى سليمان لمهلك أخيه موسى قبل مرجع وفده وأوعز إلى أعراب الفلاة من بني معقل بالسير معهم ذاهبين وجاءين فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جرار من معقل وصحبهم في طريقهم امتثالاً لأمر السلطان وتوغل ذلك الركب في القفر إلى بلد مالي بعد الجهد وطول الشقة فأحسن منسى سليمان مبرتهم وأعظم موصلهم وأكرم وفادتهم ومنقلبهم، وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون السلطان أبا الحسن ويوجبون حقه ويؤدون طاعته ويذكرون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان أبي الحسن واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به.

واعلم أن منسى موسى الذي ذكرناه كان من كبار الملوك كما قلنا وهو الذي صحبه أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجي[1] من شعراء الأندلس، كان قد لقيه في الموسم بعرفة فحلى بعينه وحظيت منزلته عنده فصحبه إلى بلاده وأقام عنده مصحوباً بالبر والكرامة وبنى للسلطان المذكور قبة رائعة فازدادت حظوته عنده، قال ابن خلدون: «أطرف أبو إسحاق الطويجن السلطان منسى موسى ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته وكان صناع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني ووقعت من السلطان منسى موسى موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثني عشر ألفاً من مثاقيل التبر مثوبة عليها» اهـ وكانت وفاة أبي إسحاق بتنبتكوا يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

---

(1) صوابه الطويجن تصغير طاجين الإناء المغربي المعروف.

مصاهرة السلطان أبي الحسن ثانياً مع السلطان أبي بكر الحفصي رحمهما الله

قد تقدم لنا ما كان من وقعة طريف وإنه هلك فيها حرم السلطان أبي الحسن من جملتهن فاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي فلما فقدها أبو الحسن بقي في نفسه منها حنين إلى ما شغفته به من خلالها ولذاذة العيش في عشرتها فسما له من الاعتياض عنها ببعض أخواتها، فأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير عرب سويد من بني زغبة الهلاليين وكاتب الجباية والعسكر بدولته أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وفقيه الفتوى بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي ومولاه عنبر الخصي، فوفدوا على السلطان أبي بكر سنة ست وأربعين وسبعمائة فأنزلهم منزل البر والكرامة ثم دس إليه حاجبه أبو محمد عبد الله بن تافراجين غرض وفادتهم وأنهم قدموا خاطبين بعض كرائمه لسلطانهم فأبى من ذلك صوناً لحرمه عن جولة الأقطار وتحكم الرجال مثل ما وقع في ابنته الأولى، فلم يزل حاجبه المذكور يخفض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع ما بينهما من الصهر السابق والمخالصة القديمة والعهود المتأكدة إلى أن أجاب وأسعف وجعل ذلك للحاجب المذكور فانعقد الصهر بين السلطانين على ابنته عزونة شقيقة ابنه أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة، وأخذ الحاجب في شوار العرس وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال مقام الرسل بتونس إلى أن استكمل الجهاز فارتحلوا منها في ربيع سنة سبع وأربعين وسبعمائة وأوعز السلطان أبو بكر إلى ابنه الفضل شقيق العروس المذكورة أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياماً بحقه وبعث من بابه جماعة من مشيخة الموحدين فوفدوا جميعاً على السلطان أبي الحسن واتصل بهم الخبر في طريقهم بوفاة السلطان أبي بكر فجأة ليلة الأربعاء ثاني رجب من السنة المذكورة، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عند ما وصلوا إليه واستبلغ في إكرامهم وأجمل موعد

أخيها الفضل بسلطانه ومظاهرته على تراث أبيه فاطمأنت به الدار عند السلطان أبي الحسن إلى أن سار في جملته وتحت لوائه إلى إفريقية كما نذكره إن شاء الله.

غزو السلطان أبي الحسن إفريقية واستيلاؤه على تونس وأعمالها

كان السلطان أبو بكر الحفصي رحمه الله قد عهد بالأمر بعده لابنه أبي العباس أحمد، وكان أوفد على السلطان أبي الحسن حاجبه أبا القاسم بن عتو في غرض له وأصحبه كتاب العهد إلى السلطان المذكور ليوافق عليه فوقف عليه السلطان أبو الحسن وكتب على حاشيته بخطه ووافقه عليه رحمه الله وأحكم العقد في ذلك، ولما مات السلطان أبو بكر كان ولي العهد غائباً عن الحضرة فبايع أبو محمد بن تافراجين لابنه عمر.

ذكر الشيخ أبو العباس الوانشريسي في أقضية «المعيار» عن الشيخ ابن عرفة أن سلطان إفريقية أبا بكر الحفصي كتب العهد لولده أحمد فلما توفي السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قاضيَيّ تونس قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضي الأنكحة أبا عبد الله الآجمي وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفة عمر فقالا: «كيف نبايعه ونحن شهدنا بيعة أخيه أحمد والتزمناها» وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلاً فلما رأى امتناعهما قال: «ادخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه» فلما دخلا أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم أن يبايعوا عمر فبايعوه، فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت وكان في انتظار أحمد المشهود له بالعهد وهو غائب بقفصة خوف الفتنة فبايع القاضيان، وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولاً وبيعتهما ثانياً، ثم قدم ولي العهد ووقع بينه وبين أخيه قتال وجرت خطوب كان في آخرها قتل ولي العهد وقتل وليه أبي الهول بن حمزة أمير الكعوب من عرب سليم في آخرين منهم وقطع عمر

أيضاً أخويه عبد العزيز وخالداً من خلاف فهلكا» وكان الحاجب أبو محمد بن تافراجين قد أحس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبه فتسلل إلى قصره وأخذ ما خف من ذخيرته ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر وأغراه بتملك إفريقية وأوجب عليه النظر للمسلمين فيها وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك لولا مكان صهره أبي بكر فأقام يتحين لها الأوقات ويترقب لها الفرص حتى كانت هذه، (وإنما تنجع المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد) فأظهر أبو الحسن الامتعاض لما فعله عمر بأخيه ولي العهد من منعه من حقه أولاً ثم إراقة دمه ثانياً لا سيما وقد كان أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور، فأجمع الحركة إلى إفريقية ولحق به خالد بن حمزة بن عمر أخو أبي الهول المقتول مع ولي العهد فاستعداه على عدوه، ففتح السلطان أبو الحسن ديوان العطاء ونادى في الناس بالمسير إلى إفريقية وأزاح عللهم وعسكر بظاهر تلمسان ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت، بعد أن عقد لابنه الأمير أبي عنان على المغرب الأوسط وعهد إليه بالنظر في أموره كافة وجعل إليه جبايته وقدمت عليه في طريقه أعراب إفريقية وولاة قابس وبلاد الجريد وأطاعته طرابلس والزاب وبجاية وصاحبها يومئذٍ أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر ولما وصل إلى قسنطينة خرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله بن أبي بكر فبايعوه فأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعماله وقد كان صرف أبا عبد الله صاحب بجاية إلى ندرومة فأنزله بها وأقطعه الكفاية من جبايتها، ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم فأخبروه بإجفال عمر المتغلب بتونس مع ظاعنة أولاد مهلهل واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، فسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو بن يحيى العسكري.

وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة وعرض جيوشه بسطح الجعاب منها، ثم ارتحل على أثرهم وأغذ حمو بن يحيى السير مع ناجعة أولاد أبي الليل فلحقوا بعمر صاحب تونس بأرض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن

أنفسهم بعض الشيء ثم انهزموا وكبا بعمر جواده في نافقاء بعض اليرابيع وانجلى الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما وأوثقهما قائد العسكر بيده حتى إذا جن الليل ذبحهما خوفاً من أن تفتكهما العرب من يده. وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجية وخلص الفل من تلك الوقعة إلى قابس، فتقبض عبد الملك بن مكي صاحبها على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة، فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان أبي الحسن مقرنين في الأصفاد فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطعهم من خلاق لفتيا الفقهاء بجرابتهم واعتقل الباقي.

وسرح السلطان عساكره إلى تونس وعقد عليهم لصهره على ابنته يحيى بن سليمان من بني عسكر فاحتلوا بتونس، ثم جاء السلطان على أثرهم فنزل بظاهرها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى فآتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته مغتبطين بملكته، وكانت تونس يومئذٍ مشحونة بالأعلام الأكابر منهم ابن عبد السلام وابن عرفة وابن عبد الرفيع وابن راشد القفصي وابن هارون وأعلام آخرون، ثم عبا السلطان أبو الحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة فصف جنوده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد نحو أربعة أميال وركبت بنو مرين من مراكزهم من جموعهم وتحت راياتهم، وركب السلطان من فسطاطه وعن يمينه وليه عريف بن يحيى كبير سويد ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراجين وعن يساره الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء وهو أخو السلطان أبي بكر ويليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد كانا معتقلين بقسنطينة فأطلقهما السلطان أبو الحسن وصحبوه إلى تونس فكانوا طراز ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم، وهدرت طبوله وخفقت راياته وكانت يومئذٍ نحو المائة وجاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفاصفاً إلى أن وصل إلى البلد

وقد ماجت الأرض بالجيوش، قال ابن خلدون: وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه، قلت: كان سن ابن خلدون يومئذٍ ست عشرة سنة لأنه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

وكان قدم في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من أعلام المغرب كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه ثم دخل القصر الخلافي وخلع على أبي محمد بن تافراجين وقرب إليه فرساً بسرجه ولجامه وطعم الناس بين يديه وانتشروا إلى منازلهم ثم دخل السلطان أبو الحسن مع ابن تافراجين إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منها إلى الرياض المتصلة بها المدعوة برأس الطابية فطاف على تلك البساتين وسرح نظره فيها واعتبر بحالها ثم أفضى منها إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها ثم ارتحل من الغد إلى القيروان فجال في نواحيها ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء في ساحتها ثم سار إلى سوسة ثم إلى المهدية ووقف على ساحل البحر منها وتطوف في معالمهما ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله أشد قوة وآثاراً في الأرض واعتبر بأحوالهم ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير وانكفأ راجعاً إلى تونس فاحتل بها غرة رمضان من السنة ونزل المسالح على ثغور إفريقية وأقطع بني مرين البلاد والضواحي وأمضى إقطاعات العرب التي كانت لهم من قبل الحفصيين واستعمل على الجهات وخفتت الأصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد وانقرض أمر الحفصيين في هذه المدة إلا أنه عقد على بونة لصهره الفضل ابن السلطان أبي بكر إكراماً لصهره ووفادته عليه واتصلت ممالك السلطان أبي الحسن ما بين مسراته إلى السوس الأقصى من هذه العدوة وإلى رندة من عدوة الأندلس ودخل المغرب بأسره في طاعته وحذر ملوك مصر والشام ما شاع من بسطته وانفساح دولته ونفوذ كلمته والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقد كان الشعراء رفعوا إليه قصائد في سبيل التهنئة بالفتح وكان سابق

الحلبة يومئذٍ أبو القاسم الرحوي في قصيدة يقول في مطلعها:

أجابك شرق إذ دعوت ومغرب فمكة هشت للقاء ويثرب

وهي طويلة تخطيناها اختصاراً والله تعالى ولي التوفيق بمنه.

انتقاض عرب سليم بإفريقية على السلطان أبي الحسن وما نشأ عن ذلك

قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين إلى المغرب أن جمهورهم كان من بني جشم بن معاوية بن بكر وبني هلال بن عامر بن صعصعة وبني سليم بن منصور، وإن الذين بقوا منهم بإفريقية هم بنو سليم وبعض هلال وكان لهم استطالة على الدول واعتزاز عليها، فكان ملوك الحفصيين يتألفونهم بالولايات والإقطاعات ونحو ذلك، وكان السلطان أبو الحسن المريني حاله مع عرب المغرب الأقصى غير حال الحفصيين مع عرب إفريقية وملكته لأهل باديته غير ملكتهم لأهل باديتهم، فلما ورد إفريقية واستولى عليها رأي من اعتزاز العرب بها على الدولة وكثرة إقطاعاتهم من الضواحي والأمصار ما تجاوز الحد المعتاد عنده، فأنكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه بأعطيات فرضها لهم في الديوان من جملة الجند واستكثر جبايتهم فنقصهم الكثير منها، ثم شكا إليه الرعية من أولئك العرب وما ينالونهم به من الظلامات وضرب الإتاوة التي يسمونها الخفارة فقبض أيديهم عن ذلك كله وتقدم إلى الرعايا بمنعهم منها، فارتابت العرب لذلك وفسدت ضمائرهم وثقلت وطأة الدولة المرينية عليهم فتربصوا بها وتحزبوا لها وتعاوت ذئابهم في بواديهم فاجتمعوا وأغاروا على قياطين بني مرين ومسالحهم في ثغور إفريقية حتى أنهم أغاروا على ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مرعاها والسلطان يومئذٍ بها فعظم عليه ذلك وحقد على كبرائهم وأظلم الجو بينه وبينهم، ثم وفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة أمير بني كعب وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله من بني مسكين وابن عمه خليفة بن

أبي زيد من أولاد القوس فأنزلهم السلطان أبو الحسن وأجمل لقاءهم مغضياً عما صدر من غوغائهم، ثم رفع إليه عبد الواحد بن اللحياني من أولاد الملوك الحفصيين أنهم بعثوا إليه مع بعض حاشيته يطلبون منه الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفريقية وأنه خشي على نفسه بادرة السلطان فتبرأ إليه من ذلك، فقامت قيامة السلطان أبي الحسن عند سماعه ذلك فأحضرهم وأحضر الحفصي معهم وقرره بما دار بينه وبينهم فبهتوا وأنكروا فوبخهم وأمر بهم فسحبوا إلى السجن ثم فتح ديوان العطاء وعرض الجند لغزوهم وعسكر بسيجوم من ظاهر تونس وذلك بعد قضاء نسك الفطر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

واتصل الخبر بأولاد أبي الليل وأولاد القوس باعتقال وفدهم وجمع السلطان لغزوهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وانطلقوا في أحيائهم يحزبون الأحزاب ويستثيرون الثوار وعطفوا على أعدائهم من أولاد مهلهل فوصلوهم بعد القطيعة وكانوا بعد مقتل سلطانهم عمر بن أبي بكر قد لحقوا بالقفر خوفاً من أبي الحسن لأنهم كانوا شيعة لعمر المذكور، فلما وقع بين أبي الحسن وبين أولاد أبي الليل ما وقع ركب قتيبة بن حمزة إليهم ومعه أمه ونساء أولادها فتطارحوا عليهم ورغبوا إليهم في الاجتماع معهم على الخروج على السلطان ومنابذته، فكان أولاد مهلهل إليها مسرعين فارتحلوا معهم وتوافت أحياء سليم من بني كعب وبني حكيم بتوزر من بلاد الجريد فتذامروا وتصافوا وأهدروا الدماء بينهم وتبايعوا على الموت وصاروا نفساً واحدة على تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم، والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من بني عبد المؤمن وهو أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر ملوك بني عبد المؤمن وكان يحترف بالخياطة في توزر بعد ما طوحت به الطوائح فانطلقوا إليه وجاؤوا به ونصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً من الفساطيط والخيل والآلات والكسوة وأقاموا له رسم السلطان وعسكروا عليه بقياطينهم وحللهم وتحالفوا على نصره.

ولما قضى السلطان أبو الحسن نسك عيد الأضحى من السنة المذكورة

ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالموضع المعروف بالتينة بين بسيط تونس وبسيط القيروان فأجفلوا أمامه فأتبعهم وألح عليهم إلى أن وصلوا إلى القيروان فلما رأوا أن لا ملجأ لهم منه عزموا على الثبات له وتحالفوا على الاستماتة وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذٍ مشحوناً بأعدائه من بني عبد الواد المغلوبين على ملكهم ومغراوة وبني توجين وغيرهم، فدسوا إلى العرب أثناء هذه المناوشة بأن يناجزوا السلطان غداً حتى يتحيزوا إليهم ويجروا عليه الهزيمة فأجابوهم إلى ذلك وصبحوا معسكر السلطان من الغد فركب إليهم في التعبية، ولما تقابلوا تحيز إليهم الكثير ممن كان معه واختل مصافه فانهزم هزيمة شنعاء وبادر إلى القيروان فدخلها فيمن معه من الفل مستجيراً بها ودافع عنه أهلها، وتسابقت العرب إلى معسكره فانتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه، وأحاطوا بالقيروان وزحفت إليها حللهم فدارت بها سياجاً واحداً وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع واضطرمت إفريقية ناراً، وكانت الهزيمة يوم الاثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمائة وبلغ الخبر إلى تونس وكان السلطان قد خلف بها عند رحيله الكثير من أبنائه وحرمه ووجوه قومه وأمناء بيت ماله وبعض الحاشية من جنده فتحصنوا بالقصبة وأحاط بهم الغوغاء كي يستنزلوهم عنها فامتنعوا عليهم وكانوا بها أملك منهم، وكان الأمير أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب في هذا التاريخ فوافاه الخبر قرب القيروان فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم في القصبة، ثم نزع أبو محمد بن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وكان محصوراً معه بالقيروان وكان قد سئم صحبته ومل خدمته لأنه كان أيام حجابته للسلطان الحفصي مستبداً عليه مفوضاً إليه في جميع أموره، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على تلك العادة لأنه كان قائماً على أموره بنفسه وليس التفويض للوزراء من شأنه، وكان ابن تافراجين يظن أنه سيوكل إليه أمر إفريقية وينصب معه لملكها الفضل ابن السلطان أبي بكر شقيق زوجته وربما زعموا أنه عاهده على ذلك

فكان في قلبه من الدولة المرينية مرض وكان العرب أيام عزمهم على الخروج يفاوضونه بذات صدورهم فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان وحصاره بالقيروان احتالوا في أمر ابن تافراجين، فبعثوا إلى السلطان يطلبون منه بعثه إليهم ليفاوضوه في الرجوع إلى الطاعة والانخراط في سلك الجماعة، فأذن له فخرج إليهم ووصل يده بيدهم ولم يرجع إلى السلطان أبي الحسن، فقلدوه حجابة سلطانهم ابن أبي دبوس ثم سرحوه إلى حصار من بالقصبة من بني مرين وطمعوا في الاستيلاء عليها وفض ختامها فسار ابن تافراجين إليها وانضم إليه أشياخ الموحدين في زعانف من الغوغاء وأحاطوا بالقصبة، ثم لحق بهم ابن أبي دبوس فعاودوها القتال ونصبوا عليها المجانيق فامتنعت عليهم ولم يغنوا شيئاً، وابن تافراجين في أثناء ذلك يحاول الفرار بنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان أبي الحسن من القيروان إلى سوسة.

وكان من خبره أن العرب بعد حصارهم إياه بالقيروان اختلفت كلمتهم لديه وكان قد دخل أولاد مهلهل في الإفراج عنه واشترط لهم على ذلك أموالاً ونذر بنو أبي الليل بذلك فاضطربت كلمتهم ودخل عليه قتيبة بن حمزة منهم بمكانه من القيروان زعيماً بالطاعة فتقبله وأطلق أخويه خالداً وأحمد ومع ذلك فلم يطمئن إليهم ثم جاء إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وعاهدوه على الإفراج عنه والقيام معه حتى يصل إلى مأمنه فخرج معهم ليلاً على التعبية وذؤبان العرب تطأ أذياله وضباعها تنوشه إلى أن استقر بسوسة وأمن على نفسه وقد أتى النهب على جل ما كان معه ولما سمع ابن تافراجين وهو محاصر للقصبة بوصول السلطان إلى سوسة تسلل من أصحابه وركب البحر إلى الإسكندرية فأصبحوا وقد فقدوه فاضطرب أمرهم وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما علم بخبره فانفض جمعهم عن القصبة وأفرجوا عنها وخرج بنو مرين فملكوا البلد وخربوا منازل الحاشية بها، ثم ركب السلطان أبو الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين

وسبعمائة فاجتمع شمله واستتب أمره، وكتب إلى صاحب مصر في التقبض على ابن تافراجين فأجاره بعض الأمراء وانصرف لقضاء فريضة الحج واعتمل السلطان أبو الحسن في إصلاح أسوار تونس وإدارة الخندق عليها وأقام لها من الصيانة والحصانة رسماً دفع به في نحر عدوه وبقي له ذكره من بعده ثم أجلب العرب وسلطانهم ابن أبي دبوس على تونس ونازلوا أبا الحسن بها واستبلغوا في حصاره وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان فعول عليهم، ثم راجع بنو حمزة بصائرهم وصاروا إلى مهادنته فعقد لهم السلم ودخل عليه عمر بن حمزة وافداً فحبسه حتى قبض إخوانه على أميرهم ابن أبي دبوس وقادوه إليه استبلاغاً في الطاعة وإمحاضاً للولاية، فتقبل فئتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن وعقد الصهر بينه وبين عمر بن حمزة فزوج ابنة عمر بابنه أبي الفضل، واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبي الحسن في الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة إقامته بتونس إلى أن كان ما نذكره والله غالب على أمره.

انتقاض الأطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب

قد تقدم لنا أن السلطان أبا بكر الحفصي رحمه الله لما زوج ابنته من السلطان أبي الحسن بعث معها في زفافها شقيقها أبا العباس الفضل بن أبي بكر وأن خبر وفاة والده أدركه وهو بالطريق، ولما وصل إلى السلطان أبي الحسن عزاه عن مصاب أبيه ووعده بالمظاهرة على ملكه فبقي عنده بتلمسان إلى أن نهض في صحبته إلى إفريقية فلما غلب السلطان أبو الحسن على بجاية وقسنطينة وارتحل إلى تونس عقد له على بونة التي كان يلي عملها أيام أبيه فانقطع أمله وفسد ضميره وطوى على البث حتى إذا كانت نكبة القيروان سما إلى التوثب على ملك سلفه وكان أهل قسنطينة وبجاية قد سئموا ملكة بني مرين وبرموا بولايتهم لمخالفتهم بعض العوائد التي كانت لهم مع الملوك

الحفصيين ولأن الصبغة الحفصية كانت قد رسخت في نفوسهم جيلاً بعد جيل فصعب عليهم نزعها.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

فاشرأبوا إلى الثورة على المرينيين لما سمعوا بنكبة القيروان واتفق أن قدم قسنطينة ركب من أهل المغرب قاصدين إلى السلطان أبي الحسن وكان فيهم عمال الجباية قدموا بجبايتهم عند راس الحول كما جرت به عادتهم في ذلك ومعهم ابن صغير للسلطان اسمه عبد الله وفيهم وفد من رؤساء الفرنج بعثهم طاغيتهم بقصد التهنئة بفتح إفريقية ومعهم تاشفين ابن السلطان الذي أسر يوم طريف أطلقه الطاغية بعد أن أصابه خبال في عقله وأرسل معه بهدية نفيسة وفيهم أيضاً وفد من أهل مالي بعثهم السلطان منسا سليمان بقصد التهنئة أيضاً فتوافت هؤلاء الوفود بقسنطينة وقد طم عباب الفتنة على إفريقية فأراد غوغاؤها وانتهاب ما معهم ثم تخلصوا منهم في خبر طويل.

وفي أثناء ذلك ثار الفضل بن السلطان أبي بكر صاحب بونة فراسله أهل قسنطينة في القدوم عليهم والقيام بأمرهم فقدمها وجرت خطوب واتصل بأهل بجاية ما فعله أهل قسنطينة فتبعوهم على رأيهم من الانتقاض ووثبوا على من كان عندهم من حامية بني مرين فاستلبوهم وأخرجوهم عراة واستدعوا الفضل بن أبي بكر من قسنطينة فبادر إليهم واستولى على بجاية واستتب أمره بها وأعاد ألقاب الخلافة وبينما هو يحدث نفسه بغزو تونس ثار عليه أبناء أخيه أبي عبد الله بن أبي بكر فانتزعوا منه بجاية وردوه إلى عمله الأول وانتقض على السلطان أبي الحسن أيضاً سائر زناتة من بني عبد الواد ومغراوة وبني توجين وبايع بنو عبد الواد لعثمان بن عبد الرحمٰن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان وساروا إلى تلمسان فاستجدوا بها ملك سلفهم في أخبار طويلة.

وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس تغاديه العرب

بالقتال وترواحه وتعوج عليه تارة وتستقيم أخرى وطال مقامه بها وعميت أنباؤه على أهل المغرب وحدث في الخلق الوباء العظيم الذي عم المشرق والمغرب فأرجف بموته واضطربت الأحوال بالمغارب الثلاثة الأدنى والأوسط والأقصى واتصل ذلك بالأمير أبي عنان وهو يومئذٍ بتلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه إلى إفريقية حسبما مر، فلما أرجف بمهلك أبيه وتساقط إليه الفل من عسكره عراة زرافات ووحداناً تطاول إلى الاستئثار بملك أبيه دون سائر إخوته وكان مرشحاً عنده لذلك لمزيد فضله عليه في غير وصف، واتفق أن كان عنده رجل من بني عبد الواد اسمه عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار وكان ينسب إلى علم الحدثان، ولما سافر السلطان إلى إفريقية كان هذا الرجل أول المرجفين به وأنه لا يرجع من سفرته وأن الأمر صائر إلى أبي عنان ونجع ذلك في أبي عنان لموافقته هواه، فاشتمل على ابن جرار وخلطه بنفسه فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولاً بالقيروان ثم بتونس لم يستزب أبو عنان في صدق ابن جرار وأنه على بصيرة من أمره فتحفز للوثبة وصمم على الثورة، ثم أكد عزمه على ذلك ما اتصل به من خبر ابن أخيه منصور بن أبي مالك عبد الواحد بن أبي الحسن بفاس الجديد وأنه ثار بها وفتح ديوان العطاء واستلحق واستركب ورام التغلب على المغرب واحتياز الأمر لنفسه دون غيره وورى في ذلك بأنه إنما عزم على الذهاب إلى إفريقية لاستنقاذ السلطان من هوة الحصار يسر من ذلك حسواً في ارتغاء وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يزريكن عامل القصبة بفاس وصاحب الشرطة بالضواحي، فاستأذنه في اللحاق بالسلطان فأذن له راحة منه فلحق بأبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب فأخرج ما كان بقصر السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة وجاهر بالدعاء لنفسه وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع الثاني من سنة تسع وأربعين وسبعمائة فبايعه الملأ وقرأ كتاب بيعتهم على الأشهاد، ثم بايعه العامة وانفض المجلس وقد استتب سلطانه ورست قواعد ملكه وركب في التعبية والآلة حتى نزل بقبة الملعب وطعم الناس وانتشروا وعقد على وزارته للحسن بن سليمان بن

يرزيكن القادم عليه، ثم لفارس بن ميمون بن وردار وجعله رديفاً له ورفع مكان ابن جرار عليهم كلهم واختص لمناجاته كاتبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو، ثم فتح الديوان وجعل يستركب كل من تساقط إليه من قبل أبيه ويخلع عليهم وارتحل إلى المغرب وعقد على تلمسان لابن جرار وأنزله بالقصر القديم منها فاستمر بها واستبد إلى أن قدم عليه بنو عبد الواد مجتمعين على سلطانهم عثمان بن عبد الرحمٰن فقتلوه غرقاً في خبر طويل، ولما انتهى الأمير أبو عنان إلى وادي الزيتون وشى إليه بالوزير الحسن بن سليمان وأنه عازم على الفتك به بتازا تقرباً إلى السلطان أبي الحسن ووفاء بطاعته، وأنه قد داخل في ذلك حافده منصور بن أبي مالك الثائر بفاس وأطلعه هذا الواشي على كتاب الوزير في ذلك فلما قرأه تقبض عليه ثم قتله خنقاً في مساء ذلك اليوم وأغذ السير إلى المغرب.

وانتهى الخبر إلى منصور صاحب فاس فزحف للقائه والتقى الجمعان بوادي أبي الأجراف من ناحية تازا فاختل مصاف منصور وانهزمت جموعه ولحق بفاس الجديد فتحصن بها وتبعه أبو عنان فأناخ عليه خارجها وقد تسايل الناس على طبقاتهم إليه وآتوه طاعتهم وكان قد سلك مع الرعية والجند من البذل والاستيلاف طريقاً لم يسبق إليه، وكانت منازلته لفاس الجديد في ربيع الآخر من السنة المذكورة فأخذ بمخنقها وأجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها، ثم أرسل إلى مكناسة بإطلاق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة منها فأطلقوا ولحقوا به وحاصروا معه فاس الجديد وضيقوا عليها إلى أن ضاقت أحوال أهلها واختلفت أهواؤهم ونزع إلى أبي عنان أهل الشوكة منهم، ثم أن إدريس بن عثمان بن أبي العلاء احتال في فتح البلد بأن أظهر النزوع عن أبي عنان إلى منصور المحصور فدخل البلد وتمكن منه وثار به فيمن معه من حاشيته واقتحمه الأمير أبو عنان عليهم ونزل منصور على حكمه فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه واستولى على ذلك الملك، وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة بالبيعة وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان

أبي الحسن ثم رجعوا عن ذلك وثاروا على عاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء فقبضوا عليه وقادوه إلى أبي عنان مبايعين له متقربين به إليه وتولى كبر ذلك فيهم زعيمهم الشريف أبا العباس أحمد بن محمد بن رافع الصقلي من آل الحسين السبط رضي الله عنه كان سلفه قد انتقلوا من صقيلة إلى سبتة فاستوطنوها، ثم استوطنوا بعدها حضرة فاس واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب واجتمع إليه قومه من بني مرين إلا من أقام مع أبيه بتونس وفاء بحقه وحص جناح أبيه عن الكرة على بني كعب الناكثين لعهده الناكبين عن طاعته فأقام السلطان أبو الحسن رحمه الله بتونس يرجو الأيام ويأمل الكرة والأطراف تنتقض والخوارج تتجدد وقنط من كان معه من حاشيته وسئموا المقام بأرض ليست لهم بدار مقام فحسنوا له النهوض إلى المغرب فأسعفهم وعزم على الرحلة كما نذكره إن شاء الله، وفي هذه المدة كتب إليه السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر كتاباً من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب يسائله عن أحواله ويعزيه عن مصابه ويتأسف له ونص الكتاب: «المقام الذي أقمار سعده في انتظام واتساق، وجياد عزه إلى الغاية القصوى ذات استباق، والقلوب على حبه ذات اتفاق، وعناية الله تعالى عليه مديدة الرواق، وأياديه الجمة في الأعناق ألزم من الأطواق، وأحاديث مجده سمر النوادي وحديث الرفاق، مقام محل أبينا الذي شأن قلوبنا الاهتمام بشأنه، وأعظم مطلوبنا من الله تعالى سعادة سلطانه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى والصنائع الإلٰهية تحط ببابه والألطاف الخفية تعرس في جنابه والنصر العزيز يحف بركابه وأسباب التوفيق متصلة بأسبابه والقلوب الشجية لفراقه مسرورة باقترابه، معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتومة، والفواضل المشهورة المعلومة، والمكارم المسطورة المرسومة والمفاخر المنسوقة المنظومة الداعي إلى الله تعالى في وقاية ذاته المعصومة وحفظها على هذه الأمة المرحومة الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر سلام كريم، طيب عميم،

كما سطعت في غياهب الشدة أنوار الفرج وهبت نواسم ألطاف الله عاطرة الأرج، يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله جالي الظلم بعد اعتكارها، ومقيل الأيام من عثارها ومزين سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها، ومريح القلوب من وحشة أفكارها، ومنشىء سحاب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها، وشدة اضطرابها واضطرارها، ومتداركها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوة ومختارها، ولباب مجدها السامي ونجارها، نبي الملاحم وخائض تيارها، ومذهب رسوم الفتن ومطفىء نارها، الذي لم ترعه الشدائد باضطراب بحارها، حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها، ووضوح أثارها والرضا عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهده على إجلاء الحوادث وإمرارها، وباعوا نفوسهم في إعلاء دعوته الحنيفية وإظهارها، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها وانسحاب العناية الإلٰهية وإسدال أستارها حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها وتعرض على مثابتكم ذنوبها راغبة في اغتفارها فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحي الملوك من مواهب السعادة وعرفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإيراده وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده وجعل لكم العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد. وإلى كنف فضله الاستناد ثم ببركة جاه نبينا الذي وضح بهدايته سبيل الرشاد إلا الصنائع التي تشام بوارق اللطف من خلالها وتخبر سيماها بطلوع السعود واستقبالها، وتدل مخايل يمنها على حسن مآلها، لله الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها ونستدر عذب زلالها وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه والسرور بسعادة أيامه والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه ما لا تفي العبارة بأحكامه ولا تتعاطى حصر أحكامه وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه وصان سلطانكم وتولاه فقد علم

الحاضر والغائب وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب وإنه لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة لا يستقر بقلوبنا القرار ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار تشوفاً لما تتيحه لكم الأقدار ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشتد على الأوقات ويقوي علماً بأن العاقبة للتقوى وفي هذه الأيام عميت الأنباء وتكالبت في البر والبحر الأعداء واختلفت الفصول والأهواء وعاقت الوارد الأنواء وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ولو كنا نجد للاتصال بكم سبباً أو نلفي لإعانتكم مذهباً لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض والعدو بساحتنا في هذه الأيام ربض وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء راية خافقة واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافقة الشيخ الأجل الأوفى الأود الأخلص الأصفى على أبو محمد بن آجانا سنى الله مأموله وبلغه من سعادة أمركم سؤله وقد ورد على بابنا وتحيز إلى اللحاق بجانبنا ليتيسر له من جهتنا القدوم، ويتأتى له بإعانتنا الغرض المروم فبينما نحن ننظر في تتميم غرضه وإعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه إذا اتصل بنا خبر قرقورتين من الأجفان التي استعنتم بها على الحركة والعزمة المقترنة بالبركة حطت إحداهما بمرسى المنكب والأخرى بمرسى المرية في كنف العناية الإلٰهية فتلقينا من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها والأخبار التي يغني نصها عن قياسها وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر وحركتكم المقرونة باليمن والظفر وإنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمن قدومكم خائفها ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها ويصلح أحوالها ويذهب أهوالها وإنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور والسعد الموفور واليمن الرائق السفور والأسطول المنصور فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها ونهوض طيور الرجاء من وكونها واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرة عيونها وتحقق ظنونها وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها ملابس العدل والإحسان وقلدتها

قلائد السير الحسان وما منها إلا من باح بما يخفيه من وجده وجهر بشكر الله تعالى وحمده وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قصده واستئناس نور سعده وكم مطل الانتظار بديون آمالها والمطاولة من اعتلالها وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر دنو حبيبه بعد طول مغيبه إنما هو صدر راجعه فؤاده وطرف ألفه رقاده وفكر ساعده مراده فلما بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد واغتنمنا ميقات هذا السعد ليصل سببه بأسبابكم ويسرع لحاقه بجنابكم فعنده خدم نرجو أن ييسر الله تعالى بحوله أسبابها ويفتح بنيتكم الصالحة أبوابها وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم الوداد ونصل له على بعد المزار ونزوح الأقطار سبب الاعتداد ما يغني عن القلم والمداد وقد ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحد لهم ما يكون عليه عملهم في برِّ من يرد عليهم من جهة أبوتكم الكريمة. ذات الحقوق العظيمة والأيادي الحديثة والقديمة وهم يعملون في ذلك بحسب المراد وعلى شاكلة جميل الاعتقاد ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة والموانع الكثيرة والأعداء الذين غصت بهم في الوقت هذه الجزيرة ما قدمنا عملاً على اللحاق لكم والاتصال بسببكم حتى نوفي لأبوتكم الكريمة حقها ونوضح من المسرة طرقها لكن الأعذار واضحة وضوح المثل السائر وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقاً ويجعل لكم السعد مصباحاً ورفيقاً ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقاً ويتم سرورنا عن قريب بتعريف أنبائكم السارة وسعودكم الدارة فذلك منه سبحانه غاية آمالنا وفيه أعمال ضراعتنا وابتهالنا هذا ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البدار والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار بسعادة ملككم السامي المقدار وييسر ما له من الأوطار ويصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته» اهـ.

ركوب السلطان أبي الحسن البحر من تونس إلى المغرب وما جرى عليه من المحن في ذلك

كان الأمير أبو العباس الفضل أبو السلطان أبي بكر الحفصي بعد أن لحق بعمله القديم من بونة قد وفد عليه مشيخة العرب من أولاد أبي الليل وأغروه بملك إفريقية والنهوض إلى تونس ومحاصرة السلطان أبي الحسن بها فأجابهم إلى ذلك ونهض إليها بعد عيد الفطر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فحاصرها مدة ثم انفض عنها ثم عاود حصارها، ثم انفض عنها ودخل القفر مع أولاد أبي الليل إلى أن بايعه أهل بلاد الجريد بإشارة أبي القاسم بن عتو المقطوع، ودخل في طاعته توزر وقفصة ونفطة والحامة وقابس وجربة وانتهى الخبر إلى السلطان أبي الحسن باستيلاء الفضل على هذه الأمصار واستفحال أمره بها وأنه ناهض إلى تونس فأهمه شأنه وخشي على الأمر، وكانت بطانته توسوس إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه مع ما أصابهم بتونس من الغلاء والموت الذريع فأجابهم إلى ذلك وشحن أساطيله بالأقوات وأزاح علل المسافرين، ولما قضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر في فصل الشتاء وهيجان البحر وكلب البرد بعد أن عقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين عمر بن حمزة من المصاهرة وتفادياً بمكانه من معرة الغوغاء وثورتهم به، وكانت مدة محاصرة السلطان أبي الحسن بتونس سنة ونصفاً، واتصل خبر رحيله بالفضل بن أبي بكر وهو ببلاد الجريد فأغذ السير إلى تونس ونزل بها على أبي الفضل المريني ومن كان معه من حاشيته وأهل دولته ثم اقتحمها واتصلت يده بيد أهد البلد ثم أحاطوا بالقصبة يوم منى حتى استنزلوا أبا الفضل على الأمان فخرج إلى دار أصهاره من بني حمزة فبقي عندهم حتى أنفذوا معه من أوصله إلى أبيه فلحق به بثغر الجزائر.

وأما السلطان أبو الحسن وجيشه الراكب البحر معه فإنهم لما لججوا احتاجوا إلى الماء فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من إقلاعهم عن تونس فمنعهم صاحب بجاية الحفصي من الورود وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم

فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم واستقوا وأقلعوا ثم عصفت بهم الريح في تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الأجفان وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عاري الجسد مباشراً للموت، وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والأشراف والخاصة وهو يشاهد مصارعهم واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التي تعلقوا بها فمكثوا ليلتهم على ذلك وصبحهم جفن من بقية الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فبادر أهل الجفن إليه حين رأوه فاحتملوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه حين وضح النهار وأبصروه، فتداركه الله بهذا الجفن فاحتملوه وقذفوا به في مدينة الجزائر.

وفي نفح الطيب أن أساطيل السلطان أبي الحسن كانت نحو الستمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي شارح الحوفي، وأبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمائة فائدة، والأستاذ الزواوي أبو العباس وغير واحد وكان غرق الأسطول على ساحل تدلس. وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبي في شرح مسلم كلامه على أحاديث العين ما معناه: أن رجلاً كان بتلك الديار معروفاً بإصابة العين فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين وكانت كثيرة نحو الستمائة فنظر إليها الرجل العائن فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن اهـ.

ولما احتل بالجزائر وقد تمسك أهلها بطاعته استنشق ريح الحياة ولأم الصدع وأقام الرسم وخلع على من وصل إليه من فل الأساطيل واستلحق واستركب ولحق به ابنه الناصر من بسكرة والتف عليه بعض العرب من أحواز الجزائر ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد فنهض إلى جهة تلمسان وقد استولى عليها بنو زيان وسلطانهم عثمان بن عبد الرحمٰن فبرز إليه أبو ثابت

أخو عثمان المذكور ولما التقى الجمعان اختل مصاف السلطان أبي الحسن واستبيح معسكره وانتهبت فساطيطه وقتل ابنه الناصر، وظهر يومئذٍ من بسالته وصدق دفاعه وشدة حملاته حتى أنه أركب ظعائنه وخلص محامياً عنها واحتمل ولده جريحاً فتوفي بالطريق فواراه في التراب وأخفى قبره، ثم خلص إلى الصحراء مع وليه ونزمار بن عريف بن يحيى السويدي ولحق بحلل قومه قبلة جبل وانشريس وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه فارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه وخرجوا إلى جبل راشد ثم قطعوا المفاوز إلى سجلماسة في القفر، فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء السراج حتى خرج إليه العذارى من ستورهن ميلاً إليه ورغبة في ولايته، وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته.

وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض إليه في قومه وجموعه بعد أن أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم، وكانت بنو مرين نافرة عن السلطان أبي الحسن حاذرة من عقوبته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف والفرار عنه في الشدائد ولما كان يبعد بهم في الأسفار ويتجشم بهم المهالك والأخطار فكانوا لذلك مجمعين على منابذته ومخلصين في طاعة ابنه، ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبي الحسن علم من حاله أنه لا يطيق دفاعهم وكان ونزمار قد أجفل عنه في قومه سويد لأن أباه عريف بن يحيى كان قد نزع إلى أبي عنان قبل قدوم السلطان من تونس فأكرم محله ورفع منزلته فكتب إلى ابنه ونزمار ينهاه عن ولاية السلطان أبي الحسن ومظاهرته له وأقسم له لئن لم يفارق السلطان ليوقعن بابنه عنتر وكان معه في جملة الأمير أبي عنان فآثر ونزمار رضا أبيه وعلم أن غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل فأجفل عنه ولحق بسكرة فكان بها إلى أن رجع إلى أبي عنان بعد هذا، ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجفل السلطان عنها إلى ناحية مراكش ودخل أبو عنان سجلماسة فثقف أطرافها وسد فروجها وعقد عليها ليحتاتن بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن وبلغه أن أباه قد سار إلى مراكش فاعتزم على اتباعه إليها فلم تطاوعه بنو مرين فرجع بهم إلى فاس إلى أن كان ما نذكره.

استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها إلى هنتاته أهل جبل درن ووفاته هنالك

لما أجفل السلطان أبو الحسن عن سجلماسة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة قصد مراكش وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة، ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسلوا إليه من كل حدب، وفر عامل مراكش إلى أبي عنان ونزع إلى السلطان أبي الحسن صاحب ديوان الجباية أبو المجد بن محمد بن أبي مدين بما كان في الخزانة من مال الجباية فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته، واستركب واستلحق وجبى الأموال وبث العطاء ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة، وثاب له بمراكش ملك رجى معه أن يستولي على سلطانه ويرتجع فارط أمره.

وكان أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها وشرع في العطاء وإزاحة العلل، ثم ارتحل في جموع بني مرين إلى مراكش وبرز السلطان أبو الحسن للقائه وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم الربيع وتربص كل واحد بصاحبه عبور الوادي فعبره أبو الحسن، وكان اللقاء بتامدغوست في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين ثم راجعوا عنه حياء وهيبة وكبى به فرسه يومئذٍ في مفره فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله، فاعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح ورديف أخيه يعقوب كان هاجر مع السلطان من الجزائر ولم يزل في جملته إلى هذا اليوم فدافع عنه حتى ركب وسار من ورائه ردأ له، وأسر حاجبه علال بن محمد فأودعه أبو عنان السجن ثم امتن عليه بعد وفاة أبيه.

وخلص السلطان أبو الحسن رحمه الله إلى جبل هنتانة من جبال درن ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاتي فنزل عليه وأجاره واجتمع إليه الملأ من قومه هنتاتة ومن انضاف إليهم من المصامدة وتآمروا

وتعاهدوا على المدافعة عنه وبايعوه على الموت وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش وأنزل عساكره على جبل هنتاتة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثواؤه حتى طلب السلطان من ابنه الإبقاء عليه وأن يبعث إليه حاجبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه وكتب له بولاية عهده وأوعز إليه بأن يبعث له مالاً وكسى فسرح الحاجب ابن أبي عمر بإخراجها من المودع بدار ملكهم واعتل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصته وافتصد لإخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات رحمه الله في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة[1] هكذا عند ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما، والذي رأيته مكتوباً بالنقش على رخامة قبره بشالة أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ربيع الأول من السنة المذكورة وبعث أولياء السلطان بالخبر إلى ابنه وهو بمعسكره من ساحة مراكش ورفعوه على أعواد نعشه إليه فتلقاه حافياً حاسراً، وقبل أعواده وبكي واسترجع ورضني عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته؛ ثم دفن أباه بمراكش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الأشراف السعديين، ثم لما نهض أبو عنان إلى فاس احتمل شلو أبيه معه حتى دفنه بشالة مقبرة سلفهم ولا زال ضريحه قائم العين والأثر إلى الآن رحمه الله تعالى.

بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته

كان السلطان أبو الحسن رحمه الله أسمر طويل القامة عظيم الهيكل معتدل اللحية حسن الوجه، وكان عفاً مائلاً إلى التقوى، مولعاً بالطيب لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا في كبره، محباً للصالحين عدلاً في رعيته

---

(1) حكى المؤلف قولاً آخر في كتابه «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أنه مات مسموماً، وفي الروضة أنه مات بذات الجنب والله أعلم.

يحب الفخر ويعنى به، وقال بعض المشارقة في حقه ما صورته: «ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله، وجرت إلى المشرق أنواء نواله وطابت نسماته واشتهرت عزماته كان حسن الكتابة كثير الإنابة ذا بلاغة وبراعة وشهامة وشجاعة». اهـ وبنى رحمه الله عدة مدارس منها المدرسة العظمى بمراكش قبلي جامع ابن يوسف، قال العلامة اليفرني في «النزهة»: «إن الذي بناها هو السلطان أبو الحسن المذكور» قلت: «ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قدر قدر هذا السلطان وعلم عظم أهميته ومحبته للعلم وأهله» ومنها المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلي المسجد الأعظم منها، بناها رحمه الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة؛ وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر، ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش والأصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحائط الجوفي منها كل ذلك محافظة على تلك الأوقاف أن تغير، وأما المسجد الأعظم ومدرسته الجوفية فهما من بناء يعقوب المنصور الموحدي حسبما تقدم ذلك في أخباره وعندي أن السور المحمول عليه الماء الداخل إلى سلا المعروف عندهم بسور الأقواس من بناء السلطان أبي الحسن رحمه الله، ولي في ذلك مستند غريب: وهو أني كنت ذات يوم أفاوض بعض القناقنة بسلا ممن كان يباشر أمر المياه بها ويصلح ما احتاج إلى الإصلاح منها، فقلت كالمستفهم لنفسي من غير قصد توجيه الخطاب إليه. يا ترى من الذي بنى سور الماء الداخل إلى البلد، فقال على البديهة: الذي بنى المدرسة هو الذي بنى سور الماء، فقلت له وكنت متشوفاً يومئذٍ لتحقيق ذلك. وما علمك بهذا؟ فقال: إن بيلة المدرسة بنيت يوم بنيت المدرسة بدليل الزليج المرصوف حولها بالعمل الكبير الموجود نظيره في سائر حيطان المدرسة وسواريها، وهذه البيلة لم تتغير عن حالها إلى أن باشرت إصلاحها في هذه الأيام؛ فحفرت عن قنواتها وتتبعت مادة الماء الواصل إليها فإذا عمل تلك القوادس وصنعة بنائها حتى الكلس المفرغ عليها الجامع بينها مماثل لعمل قنوات مبنية بالسور المذكور، داخلة فيه بحيث بني عليها يوم تأسيسه من غير

فوق بين هذه وتلك في جميع عملهما، وليس بشيء من القنوات الحادثة بعدهما يشبههما، فعلمت أن الذي بناهما واحد فأعجبني كلامه وباحثته في ذلك فصمم على معتقده وحاولت تشكيكه بكل وجه فلم يتشكك فظهر لي صدق دليله وغلب على ظني ما جزم به وعند الله علم حقيقة الأمر.

واعلم أن هذا السور من المباني العادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها، وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتداً من القبلة إلى الجوف على أضخم بناء وأحكمه، موزون سطحه بالميزان الهندسي ليأتي جريان الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعت ويعلو عنها إذا انخفضت، ويجري على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذت له، ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جداً لأجل انخفاض الأرض عنه وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له فيه أقواس فسمي لذلك سور الأقواس، وبالجملة فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة.

وللسلطان أبي الحسن رحمه الله بفاس ومكناسة وغيرهما من بلاد المغرب آثار كثيرة، فمن آثاره بفاس بيلة الرخام الأبيض المجلوبة من المرية زنتها مائة قنطار وثلاثة وأربعون قنطاراً، سيقت من المرية إلى مرسى العرائش ثم طلعت في وادي قصر كتامة؛ ثم حملت على عجل الخشب تجرها القبائل إلى منزل أولاد محبوب الذين على ضفة وادي سبو فوسقت فيه إلى أن وصلت إلى ملتقاه مع وادي فاس، ثم حملت على عجل الخشب أيضاً يجرها الناس إلى أن وصلت إلى مدرسة الصهريج التي بعدوة الأندلس؛ ثم نقلت منها بعد ذلك بأعوام إلى مدرسة الرخام التي أمر رحمه الله ببنائها جوف جامع القرويين المعروفة اليوم بمدرسة مصباح، ومصباح هذا هو أبو الضياء مصباح بن عبد الله الياصلوتي الفقيه المشهور، وإنما نسبت إليه لأن السلطان أبا الحسن لما بناها كان أبو الضياء أول من تصدى للدرس بها فنسبت إليه وقد تقدم لنا خبر المدرسة التي بناها غربي جامع الأندلس أيام أبيه وأنفق عليها أكثر من مائة الف دينار، ومن آثاره بمكناسة الزيتون الزاويتان القدمى والجديدة وكان بنى القدمى

في زمان أبيه والجديدة حين ولي الخلافة، وله في هذه المدينة عدة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها، ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة بها وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ولما تم بناؤها جاء إليها من فاس ليقف عليها ويرى عملها وصنعتها فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرقها من الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ... ليس لما قرت به العين ثمن

وكان له معرفة بالشعر فمن شعره قوله:

أرضـي الله فـي سـر وجـهـر ... وأحمي العرض عن دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختياراً ... وأضرب بالسيف طلي الرقاب

وأخباره كثيرة ومن أراد الوقوف على تفاصيلها فعليه بكتاب الخطيب بن مرزوق الذي ألفه في دولته وسيرته وسماه «المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن» ولما ذكر الوزير ابن الخطيب في كتابه رقم الحلل هذا السلطان وصفه بقوله:

الملك المعدود من خير سلف ... ومجموع القول إذا القول اختلف
الدين والعفاف والجلالة ... والعز والقدرة والجزالة
والعلم والحلم وفضل الدين ... وصفوة الصفوة من مرين
ممهد الملك ومسدي المنن ... وواحد الدهر وفخر الزمن
باني المباني النخبة الشريفة ... بمقتضى همته المنيفه
وتارك المدارس الظريفه ... شاهدة بأنه الخليفه
وقاطع الدهر بغير لهو ... في مجلس معظم أو بهو
أما لتدريس وعلم يدرس ... أو لبلاد من عدو تحرس
أو لأياد في عباد ثغرس ... أو لثواب ورضا يلتمس
أو نسخ قرآن وعرض حزب ... أو عدة معدة لحرب

ومن أعيان وزرائه عامر بن فتح الله السدراتي، وعبد الله بن إبراهيم

الفودودي ومن أعيان كتابه أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي وأبو محمد بن عبد الله بن أبي مدين العثماني، وأبو الحسن علي بن القبايلي التينمللي رحم الله الجميع بمنّه.

ولنذكر ما كان من الأحداث في هذه المدة[1]:

ففي سنة سبعمائة أسس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق تلمسان الجديدة المسماة بالمنصورة حسبما تقدم الخبر عنها مستوفى.

وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة كان القحط بالمغرب فاستسقى الناس وخرج السلطان أبو سعيد ماشياً على قدميه لإقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان من السنة المذكور وتقدمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى، وقدم بين يدي نجواه صدقات، وفرق أموالاً، وفي يوم السبت بعده خرج في جنده إلى قبر الشيخ أبي يعقوب الأشقر بجبل الكندرتين فدعا هنالك ورحم الله تعالى عباده وغاث أرضه وبلاده.

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة توفي الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المعروف بالصغير بضم الصاد وفتح الغين وكسر الياء المشددة قاله ابن الخطيب في الإحاطة، وكان ربعة آدم اللون خفيف العارضين يلبس أحسن زي، ويدرس بجامع الأجدع من فاس يقعد على كرسي عال ليسمع القريب والبعيد على انخفاض كان في صوته وكان حسن الإقراء وقوراً صبوراً ثبتاً، وكان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب فيحسن

---

(1) قد ذكر صاحب روضة النسرين بعض أولاد السلطان أبي الحسن فقال: «أولاده الذكور السلطان أبو عمر تاشفين والسلطان أبو عنان فارس والسلطان أبو سالم إبراهيم والسلطان أبو فارس عبد العزيز وأبو مالك عبد الواحد وأبو عبد الرحيم يعقوب وأبو عامر عبد الله وسعود وداود ويوسف وعبد الحق وأبو غالب محمد وأحمد ومحمد المنتصر بالله ومحمد المسعود بالله. بناته: حضرية وأم العز وتابو وتاعزنت وسونة وريمة ويامنة والزهراء وصفية وزروا وكان جميع ما ولد بين ذكر وأنثى وسقط وغيره ألفاً وثمانمائة اثنين وستين أخبرني بذلك ثقته الشيخ المعمر علال بن محمد بن «مصمود الهسكوري».

التوقيع عليها على طريق الاختصار وترك فضول القول ولاه السلطان أبو الربيع القضاء بفاس وشد عضده فجرى في العدل على صراط مستقيم.

وفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء الإمام المشهور في علم التعاليم والهيئة والنجوم والأزياج وغير ذلك، وكان رحمه الله عز وجل معروفاً باتباع السنة موسوماً بطهارة الاعتقاد منعوتاً بالصلاح وكان انتفاعه بصحبة الشيخ أبي زيد الهزميري رضي الله عنه.

وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة في ذي القعدة منها هبت ريح شديدة بفاس ومكناسة وأحوازهما.واستمر هبوبها يومين وليلتين فعاقت عن الأسفار وهدمت الدور وقلعت الأشجار.

وفي سنة ثلاث وعشرين بعدها في المحرم منها جرت العين الموالية للمشرق من عيون صنهاجة بأحواز فاس بدم عبيط من وقت العصر إلى نصف الليل ثم عادت إلى حالها وفيها كان المطر العظيم والثلج الكثير بالمغرب وعدم الفحم والحطب حتى بيع الفحم بفاس بدرهمين للرطل، وفي جمادى الأولى منها احترق سوق العطارين الكبرى بفاس فجدده السلطان أبو سعيد من باب مدرسة العطارين إلى رأس عقبة الجزارين، وعقد عليه هنالك باباً ضخماً وأفرده للعطارين دون غيرهم.

وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة كانت المجاعة بالمغرب وارتفعت الأسعار في جميع البلاد فبلغ المد من القمح بفاس خمسة عشر درهماً والصحفة منه تسعين ديناراً وغلا الإدام وعدمت الخضر بأسرها، وكسى السلطان أبو سعيد وأطعم في هذه المسغبة شيئاً كثيراً، ودام ذلك إلى قرب منتصف السنة بعدها، وفيها في يوم الثلاثاء ثالث عشر رمضان منها نشأ خارج فاس من جهة جوفيها سحاب عظيم وظلمة شديدة ورياح عاصفة أعقب ذلك برد كثير عظيم الجرم تزن الواحدة منه ربع رطل وأقل وأكثر ونزل في خلاله مطر وابل جاءت منه السيول طامية حملت الناس والدواب وأهلكت جميع ما بجبل زالغ من الكروم والزيتون وسائر الشجر.

وفي سنة خمس وعشرين بعدها ليلة الجمعة السادس والعشرين من جمادى منها دخل السيل العظيم مدينة فاس وكاد يأتي عليها بحيث هدم الدور والمساجد والأسواق وأهلك آلافاً من الخلق حتى خيف على البلد التلف.

وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة انتهى تاريخ ابن أبي زرع المسمى: «بالأنيس المغرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» ومما هو الغاية في باب الإغراب ما ذكره ابن خلدون قال: «حضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا وذكرهما أيضاً الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري في كتابه المسمى بـ «المحاضرات» قال: «وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رندة لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى ابن الإمام وتلى: «كانا يأكلان الطعام» فأخذ الناس يبثون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها فكشفوا عنها بكل وجه يمكنهن فلم يقفن على غير ما ذكر، وسئلت هل تشتهين الطعام، فقالت: «هل تشتهون التبن بين يدي الدواب» وسئلت هل يأتيها شيء فأخبرت «أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش فنامت فأتاها آت في النوم بطعام وشراب فأكلت وشربت فلما أفاقت وجدت نفسها قد استغنت فهي على تلك الحال تؤتى في المنام بالطعام والشراب إلى الآن»، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تجيء أمها به إذا أتت إليها أربعين يوماً فلم يوقف لها على أمر، قال: «بيد إني أردت أن يزاد في عدد العدول ويضم إليهم الأطباء ومن يخوض في المعقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ويوكل من نساء الفرق من يبالغ في كشف من يدخل إليها ولا يترك أحداً يخلو بها (وبالجملة) يبالغ في ذلك ويستدام رعيها عليه سنة لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغني في فصل دون فصل، ثم يكتب هذا في العقود ويشاع أمره في العالم، وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي

هو أضر الأحكام على الشريعة، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ويبطل التأثير والتولد، ويوجب أن الاقترانات بالعادات لا باللزوم، وعند الأسباب لا بها إلى غير ذلك، إلا إني لما أشرت بهذا انقسم من أشرت عليه بتبليغه إلى من لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأساً لإيثار الدنيا على الدين فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال المقري: «وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة» وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزرية أنها كانت كذلك، وإن عائشة بنت أبي بكر يعني زوجة السلطان أبي الحسن التي استشهدت في طريف اختبرتها أربعين يوماً أيضاً وكم من آية أضيعت وحجة نسيت مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة، وكذلك الوباء العام القريب فروطه يوشك أن يطول أمره فينسى ذكره ويكذب المحدث به إذا انقضى عصره، وكم فيه من أدلة على أصول الملة» اهـ كلام الشيخ أبي عبد الله المقري رحمه الله ويعني بالوباء القريب فروطه: وباء منتصف المائة الثامنة أيام كان السلطان أبو الحسن بتونس فإنه كان وباء عظيماً لم يعهد مثله قد عم أقطار الأرض وتحيف العمران جملة حتى كاد يأتي على الخليقة أجمع والأمور كلها بيد الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن أبي الحسن رحمه الله

كان هذا السلطان محبوباً في قومه وعشيرته، أثيراً عند والده متميزاً بذلك عن سائر إخوته لفضله وعمله وصيانته وعفافه واستظهار القرآن الكريم وغير ذلك من الأوصاف الحسنة، أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى وقبرها بشالة معروف إلى الآن رأيت مكتوباً عليه بالنقش: «أنها توفيت ليلة السبت رابع رجب الفرد سنة خمسين وسبعمائة، ودفنت إثر صلاة الجمعة في الخامس والعشرين من الشهر المذكور وحضر لدفنها أعيان المشرق

والمغرب»، اهـ وكان مولد السلطان أبي عنان بفاس الجديد في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وسبعمائة وبويع في حياة والده يوم ثار عليه بتلمسان حسبما قدمنا الخبر عنه وذلك يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الأول سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ولما هلك والده أبو الحسن بجبل هنتاتة وانقضى شأن الحصار ارتحل السلطان أبو عنان إلى فاس ونقل شلو أبيه إلى شالة فدفنه بها، وأغذ السير إلى فاس وقد استتب أمره وخلا له الجو فاحتل بدار ملكه وأجمع[1] أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي تطاولوا إليه. ولما دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة نادى بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد وعرض جيشه ثم نهض يريد تلمسان.

واتصل خبره بسلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمٰن الزياني فجمع له قومه ومن شايعهم من زناتة والعرب، ثم نهض إليه ومعه أخوه ووزيره أبو ثابت فكان اللقاء ببسيط أنكاد آخر ربيع الثاني من السنة المذكورة، وأجمع بنو عبد الواد على صدمة المرينيين وقت القائلة وعند ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم، فحملوا عليهم وأعجلوهم عن ترتيب المصاف وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر وخاض بحر القتال وقد أظلم الجو بالغبار، حتى إذا خلص إليهم وخالطهم في صفوفهم ولوا الأدبار، واتبع بنو مرين آثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم قتلاً وسبياً وصفدوهم أسرى ولم يزالوا في اتباعهم إلى الليل، وتقبضوا على سلطانهم أبي سعيد فساقوه إلى السلطان أبي عنان فاعتقله، وتقدم على التعبية إلى تلمسان فدخلها في ربيع المذكور واستوت في ملكها قدمه، وأحضر أبا سعيد فوبخه وأراه أعماله حسرات عليه، ثم أحضر الفقهاء وأرباب الفتيا

---

(1) في بغية الرواد أن الأمر كان على ما ينبغي بين أبي عنان وملك تلمسان أبي سعيد إلى أن كتب أبو عنان لأبي سعيد متشفعاً في مغراوة الذين كان محاصراً لهم فرد شفاعته فحنق على بني عبد الواد من أجل ذلك واستنفر الناس لغزو تلمسان الخ بغية الرواد ص 158 وما بعدها جزء أول طبع الجزائر 1321.

فأفتوا بحرابته وقتله فأمضى حكم الله فيه فذبح في محبسه لتاسعة من اعتقاله.

وفر أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق بعد أن احتمل معه حرمه وحرم أخيه ومتخلفهم، واحتل بوادي شلف من بلاد مغراوة فعسكر هنالك واجتمع عليه أوشاب من زناتة وحدث نفسه باللقاء ووعدها بالصبر والثبات.

واتصل خبره بالسلطان أبي عنان فسرح إليه وزيره فارس بن ميمون في عساكر بني مرين والجند فأغذ السير إليهم، ثم ارتحل السلطان أبو عنان من تلمسان على أثره، ولما تراءى الجمعان تصادقا الحملة وخاض النهر بعضهم إلى بعض ثم صدق بنو مرين الحملة فاجتازوا النهر وانكشفت بنو عبد الواد واتبع بنو مرين آثارهم فاستلحموهم ثانية واستباحوا معسكرهم واستاقوا نساءهم وأموالهم ودوابهم، وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان أبي عنان وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق في نفر من عشيرته وبني أبيه فاعترضتهم قبائل زواوة فانتهبوا أسلابهم وأرجلوهم عن خيولهم ومروا على وجوههم حفاة عراة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وكتب الوزير إلى أمراء الثغور في شأن أبي ثابت وأصحابه فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمراصد حتى عثر عليهم بعض الحشم، فقبضوا على أبي ثابت وابن أخيه أبي زيان بن أبي سعيد المقتول ووزيرهم يحيى بن داود، فرفعوهم إلى أمير بجاية أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء بن أبي بكر الحفصي وكان خالصة للسلطان أبي عنان منذ أيام والده فاعتقلهم عنده حتى وفد بهم عليه بلمدية، فأكرم السلطان أبو عنان وفادته وركب للقائه، لما تراءيا نزل الحفصي عن فرسه إعظاماً للسلطان فنزل السلطان مكافأة له ولقاه مبرة وكرامة، وأودع أبا ثابت السجن وتوافت إليه وفود الذواودة بمكانه من لمدية فأكرم وفادتهم، وأسنى عطاياهم من الخلع والحملان والذهب والفضة وانقلبوا خير منقلب، ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل بسكرة والزاب مع وفدهم فأكرمهم ووصلهم، وفرغ السلطان أبو عنان من شأن المغرب الأوسط وبث عماله في نواحيه وثقف أطرافه وسمى إلى تملك إفريقية على ما نذكره إن شاء الله.

تملك السلطان أبي عنان بجاية وتولية عمر بن علي الوطاسي عليها

لما وفد أبو عبد الله الحفصي على السلطان أبي عنان بلمدية في شعبان من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبالغ في إكرامه ناجاه بذات صدره، وشكا إليه ما يلقاه من رعيته من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد وما يتبع ذلك من شقاق الحامية واستبداد البطانة، وكان السلطان أبو عنان متشوفاً لمثلها فأشار عليه بالنزول عنها وأن يعوضه عنها ما شاء من بلاده، فسارع إلى قبول ذلك ودس إليه السلطان مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يشهد بذلك على رؤوس الملأ ففعل وعوضه عنها مكناسة الزيتون، ونقم بطانة الحفصي عليه ونزع بعضهم عنه إلى إفريقية وأمره السلطان أبو عنان أن يكتب بخطه إلى عامله على بجاية بالنزول عنها وتمكين عمال السلطان منها ففعل، وعقد أبو عنان عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير الذين قدمنا خبر ثورتهم بحصن تازوطا أيام يوسف بن يعقوب، ولما قضى السلطان أبو عنان حاجته من المغرب الأوسط واستولى على بجاية ثغر إفريقية انكفأ راجعاً إلى تلمسان لشهود عيد الفطر بها ودخلها في يوم مشهود، حمل أبا ثابت الزياني ووزيره يحيى بن داود على جملين ودخل بهما تلمسان يخطوان بهما في ذلك المحفل بين السماطين فكانا عبرة لمن حضر، ثم جنبا من الغد إلى مصارعهما فقتلا قعصاً بالرماح وإلى الله عاقبة الأمور.

ثورة أهل بجاية ومقتل عمر بن الوطاسي بها

لما قدم عمر بن علي الوطاسي بجاية واستقر بها ثقل أمره على نفوس أهلها لألفهم ملكة الحفصيين وانصباغهم بالميل إليهم، فتربصوا بالوطاسي الدوائر وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحاً مولى ابن سيد الناس، فلما نزل

للسلطان عن بجاية نقم فارح عليه ذلك وأسرها في نفسه إلى أن بعثه الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ومتاعه وماعون داره إلى المغرب، فانتهى إلى بجاية وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه شكا إليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين فنجع كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ودعاهم إلى الثورة بالمرينيين والقيام بدعوة الحفصيين، فأجابوه إلى ذلك وتواعدوا للفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبة، وتولى كبرها منصور بن إبراهيم بن الحاج من مشيختهم وباكره في داره على عادة الأمراء، ولما أكب عليه ليلثم أطرافه طعنه بخنجره ثم ولج عليه الباقون فاستلحموه وذلك في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وثارت الغوغاء بالبلد وهتف الهاتف بدعوة أبي زيد بن محمد بن أبي بكر الحفصي صاحب قسنطينة، وطيروا إليه بالخبر واستدعوه فتثاقل عنهم وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان فاتهم أبا عبد الله الحفصي بمداخلة حاجبه فارح في ذلك فاعتقله بداره واعتقل وفداً من أشراف بجاية كانوا ببابه، ثم راجع شيوخ بجاية بصائرهم وتداركوا أمرهم في الرجوع إلى طاعة السلطان أبي عنان واتفق رأيهم على أن يرقعوا هذا الخرق ويسدوا هذه الثلمة برأس الحاجب فارح وصنهاجة الثائرين معه، وداخلهم في ذلك القائد هلال مولى ابن سيد الناس ولما عزموا على أمرهم دعوا الحاجب فارحاً إلى المسجد ليفاوضوه فيما نزل بهم فأحس بالشر ولجأ إلى دار الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس البجائي إمام بجاية ومفتيها، فاقتحموا عليه الدار وباشره مولاه محمد بن سيد الناس بطعنة فأنفذه ورمى بشلوه من أعلى الدار، فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى السلطان أبي عنان وفر منصور بن إبراهيم بن الحاج وقومه صنهاجة عن البلد، وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة، وذهبت صنهاجة في كل وجه ولحق أصحاب الفعلة منهم بتونس وتقبض الحاجب ابن أبي عمرو على جماعة من غوغاء بجاية

المتهمين بالخوض في الفتنة يناهزون المائتين فاعتقلهم وأركبهم الأسطول إلى المغرب فأطمأن الناس وسكنوا، وتوافت لديه وفود الذواودة من كل جهة فأجزل صلاتهم، ووفد عليه عامل الزاب يوسف بن مزني فأكرم وفادته، ثم ارتحل إلى تلمسان غرة جمادى الأولى من السنة ومعه شيوخ الذواودة ووجوه بجاية.

قال ابن خلدون: وكنت يومئذٍ في جملتهم فجلس السلطان للوفد وعرض ما جنب إليه من الجياد والهدايا وكان يوماً مشهوداً، وانصرفوا إلى مواطنهم فاتح شعبان من السنة المذكورة، قال: وانقلبت مع الحاجب بعد إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان والوعد الجميل بتجديد ما إلى قومي ببلدي من الإقطاعات، ولما احتل الحاجب ابن أبي عمرو ببجاية ضبط أمرها وأقام أودها وألح على قسنطينة بترديد البعوث وتجهيز الكتائب إلى أن أذعنوا للطاعة ومكنوه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب هناك للفتنة وأوفد أبو زيد الحفصي صاحب قسنطينة ابنه على السطان أبي عنان فقبل وفادته وشكر سعيه وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية وأقام بها إلى أن هلك في المحرم سنة ست وخمسين وسبعمائة فذهب حميد السيرة عند أهل البلد، وعقد السلطان أبو عنان على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد أحد وزرائه فنهض إليها في ربيع من سنة ست وخمسين المذكورة فاستقر بها وسلك سنن الحاجب قبله وسيرته وجهز العساكر إلى حصار قسنطينة إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله.

خروج أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن ببلاد السوس ثم مقتله عقب ذلك

قد تقدم لنا أن السلطان أبا الحسن لما ركب البحر من تونس إلى المغرب عقد على تونس لابنه أبي الفضل هذا، وأنه لما أقلع عنها ثار أهل البلد وشيعة الحفصيين عليه فأخرجوه عنها ولحق بأبيه فكان معه إلى أن هلك وخلص الأمر إلى السلطان أبي عنان فلحق به هو وأخوه أبو سالم، ففكر أبو

عنان في أمرهما وخشي عاقبة ترشيحهما فأشخصهما إلى الأندلس ليكونا مع الغزاة والقرابة في إيالة السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر ثم ندم على ذلك ولما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط ورأى أن قد استفحل أمره واعتز سلطانه أنفد الرسل إلى أبي الحجاج في أن يشخصهما إليه لأن مقامهما عنده أحوط لجمع الكلمة بخلاف ما إذا غابا عن حضرته، وخشي أبو الحجاج غائلته عليهما فأبى من إسلامهما اليد وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته ولا يسيء جوار المسلمين المجاهدين لديه، فغضب السلطان أبو عنان لذلك وقام وقعد وأمر حاجبه ابن أبي عمرو أن يكتب إليه ويبالغ في التوبيخ واللوم ففعل الحاجب المذكور.

قال ابن خلدون: وقد أوقفني الحاجب على ذلك الكتاب ببجاية فقضيت عجباً من فصوله وأغراضه، ولما قرأه أبو الحجاج ابن الأحمر دس إلى أبي الفضل وكان أكبر الأخوين باللحاق بالطاغية وكانت بينهما ولاية ومخالصة فنزع إليه أبو الفضل وجهز الطاغية له أسطولاً أركبه فيه وأنزله بساحل السوس من أرض المغرب، ونذر السلطان أبو عنان بذلك فأوعز إلى قائد أسطوله باعتراض أسطول الطاغية فاعترضه وأوقع به وكتب ابن الأحمر أثناء ذلك كتاباً إلى السلطان أبي عنان يعتذر عن أمر أبي الفضل من إنشاء وزيره لسان الدين ابن الخطيب ونصه:

«المقام الذي شهد الليل والنهار بأصالة سعادته وجرى الفلك الدوار بحكم إرادته وتعود الظفر بمن يناويه فاطرد والحمد لله جريان عادته فوليه متحقق لإفادته وعدوه مرتقب لإبادته وحلل الصنائع الإلٰهية تضفو على أعطاف مجادته مقام محل أخينا الذي سهم سعده صائب وأمل من كاده خاسر خائب وسير الفلك المدار في مرضاته دائب وصنائع الله تعالى له تصحبها الألطاف العجائب فسيان شاهد منه في عصمة وغائب السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى مسدداً لسهم ماضي العزم، تجل سعوده عن تصور الوهم ولا زال مرهوب الحد ممتثل الرسم موفور الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القسم، فائزاً بفلج الخصام عند لد الخصم معظم قدره

وملتزم بره مبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره وإظهار أمره فلان، سلام كريم طيب بر عميم، يخص مقامكم الأعلى، ومثابتكم الفضلى التي حازت في الفخر الأمد البعيد وفازت من التأييد والنصر بالحظ السعيد ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي فسح لملككم الرفيع في العز مدى وعرفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوماً وغداً وحرس سماء علائه بشهب من قدره وقضائه فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً، وجعل نجح آماله وحسن مآله قياساً مطرداً فرب مريد ضره ضر نفسه وهاد إليه الجيش أهدى وما هدي والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه ورسوله الذي ملأ الكون نوراً وهدى وأحيا مراسم الحق وقد صارت طرائق قدداً أعلى الأنام يداً وأشرفهم محتداً الذي بجاهه نلبس أثواب السعادة جدداً ونظفر بالنعيم الذي لا ينقطع أبداً والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنته عمداً وأوضحوا لسبيل اتباعه مقصداً وتقبلوا شيمه الطاهرة ركعاً وسجداً سيوفاً على من اعتدى ونجوماً لمن اهتدى حتى علت فروع ملته صعداً وأصبح بناؤها مديداً مخلداً والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتوالى مثنًى وموحداً كما جمع لملككم ما تفرق من الألقاب على توالي الأحقاب فجعل سيفكم سفاحاً وعلمكم منصوراً ورأيكم رشيداً وعزمكم مؤيداً فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم صنعاً يشرح للإسلام خلداً ونصراً يقيم للدين الحنيفي أوداً وعزماً يملأ أفئدة الكفر كمداً وجعلكم ممن هيأ له من أمره رشداً ويسر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به في كتابه العزيز والله أصدق موعداً من حمراء غرناطة حرسها الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم في آفاق العناية واعتقاد جميل صنع الله في البداية والنهاية والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على أعدائه بآية وأجرى جياد السعد في ميدان لا يحد بغاية وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة والولاية ونحن على ما علمتم من السرور بما يهز لملككم المنصور عطفاً ويسدل عليه من العصمة سجفاً فقاسمه الارتياح لمواقع نعم الله تعالى نصفاً ونصفاً ونعقد بين أنباء مسرته وبين الشكر لله حلفاً ونعد التشيع له مما يقربنا إلى الله زلفى

ونؤمل من إمداده ونرتقب من جهاده وقتاً يكفل به الدين ويكفي وتروى غلل النفوس وتشفى وإلى هذا وصل الله سعدكم ووالى نصركم وعضدكم فإنا من لدن صدر عن أخيكم أبي الفضل ما صدر من الانقياد لخدع الآمال والاغترار بموارد الآل وقال رأيه في اقتحام الأهوال وتورط في هفوة حار فيها حيرة أهل الكلام في الأحوال وناصب من أمركم السعيد جبلاً قضى الله له بالاستقرار والاستقلال ومن ذا يزاحم الأطواد ويزحزح الجبال وأخلف الظن منا في وفائه وأضمر عملاً استأثر عنا بإخفائه واستعان من عدو الدين بمعين فلا ورى لمن استنصر به زند ولا خفق لمن تولاه بالنصر بند وإن الطاغية أعانه وأنجده ورأى أنه سهم على المسلمين سدده وعضب للفتنة جرده فسخر له الفلك وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك فأورده الهلك والظلم الحلك علمنا أن طرف سعادته كاب وسحائب آماله غير ذات انسكاب وقدم عزته لم يستقر من السداد في غرز ركاب فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط بنياتها وغايات الأمور تظهر في بداياتها وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته لا تجهل ومن غالب أمر الله خاب منه المعول فبينما نحن نرتقب خسار تلك الصفقة المعقودة وخمود تلك الشعلة الموقودة وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار ويهدي طرف المسرات على أكف الاستبشار ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار عن الود الواضح وضوح النهار والتحقق بخلوصنا الذي يعلمه عالم الأسرار فأعاد في الإفادة وأبدأ وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى فعلم منه مآل من رام يقدح زند الشتات من بعد الالتئام ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركوب القتام هيهات تلك قلادة الله تعالى التي ما كان ليتركها بغير نظام ولم يدر أنكم نصبتم له من الحزم حبالة لا يفلتها قنيص وسددتم له من السعد سهماً ما له عنه من محيص بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد في مطاره حائلاً بينه وبين أوطاره فما كان إلا التسمية والإرسال ثم الإمساك والقتال ثم الاقتيات والاستعمال فيا له من زجر استنطق لسان الوجود مجدله واستنصر البحر فخذله وصارع القدر فجدله لما جد له وإن خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل غاية بعيدة ومنتسب إلى نسبة غير سعيدة

وشانىء غمرته من الكفار خدام الماء وأولياء النار تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار وتحصل منهم من تخطاه الحمام في قبضة الأسار فعجبنا من تيسير هذا المرام وإخماد الله لهذا الضرام وقلنا تكييف لا يحصل في الأوهام وتسديد لا تستطيع إصابته السهام كلما قدح الخلاف زنداً أطفأ سعدكم شعلته أو أظهر الشتات ألماً أبرأ يمن طائركم علته ما ذاك إلا لنية صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت واسترسلت بركتها وسحت وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلكم وتمت واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التي أهمت فنحن نهنيكم بمنح الله ومننه ونسأله أن يلبسكم من إعانته أوقى جننه فأملنا أن تطرد آمالكم وتنجح في مرضات الله أعمالكم فمقامكم هو العمدة التي يدافع العدو بسلاحها وتنبلج ظلماته بصفاحها وكيف لانهنئكم بصنع على جهتنا يعود وبشابقنا تطلع منه السعود فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكتفت وديمه بساحة الود قد وكفت والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ولا يعدمكم عناية وسعادة وهو سبحانه يعلي مقامكم وينصر أعلامكم ويهني الإسلام أيامكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته» اهـ.

ولما نزل أبو الفضل بساحل السوس لحق بعبد الله السكسيوي صاحب الجبل المنسوب إليه ودعا لنفسه، وكان ذلك إثر مقدم الحاجب ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين وسبعمائة، فجهز السلطان أبو عنان إليه عسكره من تلمسان وعقد على حرب السكسيوي وأبي الفضل لوزيره فارس بن ميمون بن وردار فسار حتى نزل على جبل السكسيوي وأحاط به وأخذ بمخنقه واختط مدينة لمعسكره وتجمير كتائبه بسفح ذلك الجبل سماها القاهرة، ولما اشتد الحصار على السكسيوي بعث إلى الوزير يسأله الرجوع إلى طاعته المعروفة وأن ينبذ العهد إلى أبي الفضل، ففارقه وانتقل إلى جبال المصامدة، ودخل الوزير فارس أرض السوس فدوخ أقطارها ومهد أكنافها وسارت الألوية والجيوش في جهاتها ورتب المسالح في ثغورها وأمصارها.

وسار أبو الفضل يتنقل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة

وألقى بنفسه على ابن الحميدي منهم مما يلي بلاد درعة فأجاره وقام بأمره ونازله عامل درعة يومئذٍ عبد الله بن مسلم الزردالي من مشيخة بني عبد الواد كان السلطان أبو الحسن رحمه الله قد اصطنعه أيام فتحه لتلمسان فاستقر في دولتهم واندرج في صنائعهم، فأخذ بمخنق ابن الحميدي وأرهبه بوصول العساكر والوزراء إليه، وداخله في التقبض على أبي الفضل وأن يبذل له من المال في ذلك ما أحب، فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول في الأمر وطلب لقاءه، فركب إليه أبو الفضل ولما استمكن منه ابن مسلم تقبض عليه ودفع لابن الحميدي ما اشترط له من المال وأشخصه معتقلاً إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين وسبعمائة فأودعه السجن وكتب بالفتح إلى القاصية ثم قتله لليال يسيرة من اعتقاله خنقاً بمحبسه وانقضى أمر الخوارج وتمهدت الدولة إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله.

وفادة الوزير ابن الخطيب من قبل سلطانه الغني بالله على السلطان أبي عنان رحمهم الله

كان السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر قد أوفد وزيره لسان الدين ابن الخطيب على السلطان أبي عنان إثر مهلك السلطان أبي الحسن معزياً له بمصابه، فقدم ابن الخطيب وأدى الرسالة وجلى في أغراض تلك السفارة وعاد إلى غرناطة، ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة بمصلى عيد الفطر وهو ساجد طعنه بعض الزعانف فأصماه لوقته، وبايع الناس ابنه محمد بن يوسف الغني بالله وقام بأمر دولته مولاه رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم واستبد بالأمر وانفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه من قبل، واتخذ لكتابته غيره وجعل ابن الخطيب رديفاً لرضوان في أمره وتشاركا في الاستبداد

معاً، فجرت الدولة على أحسن حال، ثم إن السلطان الغني بالله بعث وزيره ابن الخطيب سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان مستمداً له على عدوه الطاغية على عادة سلفه في ذلك، قال ابن الخطيب: لما أشرفت على مدينة فاس في غرض هذه الرسالة خاطبني الخطيب الرئيس أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه:

يا قادماً وافي بكل نجاح ... أبشر بما تلقاه من أفراح
هذي ذرى ملك الملوك فلذ بها ... تنل المنى وتفز بكل سماح
مغنى الإمام أبي عنان يممن ... تظفر ببحر بالندا طفاح
من قاس جود أبي عنان في الندا ... بسواه قاس البحر بالضحضاح
ملك يفيض على العفاة نواله ... قبل السؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب وابن سعد في الندا ... ذكر محاه عن نداه ماح
ما أن سمعت ولا رأيت بمثله ... من أريحي للندا مرتاح
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا ... قد ألحفوا منه بظل جناح
وهمى على العافين سيب نواله ... حتى حكى سح الغمام الساح
فنواله وجلاله وفعاله ... فاقت وأعيت السن المداح
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت ... كل المنى تنقاد بعد جماح
من كان ذا ترح فرؤية وجهه ... متلافة الأحزان والأتراح
فانهض أبا عبد الإله تفز بما ... تبغيه من أمل ونيل نجاح
لا زلت ترتشف الأماني راحة ... من راحة المولى بكل صباح

فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى، حمداً يؤم به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خبال وللأسف بين اشتغال بال واشتعال بلبال ولقدومكم على هذا المحل المولوي في ارتقاب ولمواعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب، فها أنت تجتني من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرة صباحاً وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحاً بحول الله تعالى ولسيدي

الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه فهو من بعض ما لدى المعظم من إحسان مولاه وإنعامه ولعمري لقد كان وافد على سيدي في مستقره مع غيره فالحمد لله الذي يسر في إيصاله على أفضل أحواله قال ابن الخطيب: فراجعته بما نصه:

راحت تذكرني كؤوس الراح ... والقرب يخفض للجنوح جناح

وسرت تدل على القبول كأنما ... دل النسيم على انبلاج صباح

حسناء قد غنيت بحسن صفاتها ... عن دملج وقلادة ووشاح

أمست تحض على اللياد بمن جرت ... بسعوده الأقلام في الألواح

بخليفة الله المؤيد فارس ... شمس المعالي الأزهر الوضاح

ما شئت من شيم ومن همم غدت ... كالزهر أو كالزهر في الأدواح

فضل الملوك فليس يدرك شأوه ... أنى يقاس الغمر بالضحضاح

أسنى بني عباسهم بلوائه الـ ... ـمنصور أو بحسامه السفاح

وغدت مغاني الملك لما حلها ... تزري ببدر هدى وبحر سماح

وحياة من أهداك تحفة قادم ... في العرف منها راحة الأرواح

ما زلت أجعل ذكره وثناءه ... روحي وريحاني الأريح وراح

ولقد تمازج حبه بجوارحي ... كتمازج الأجسام بالأرواح

ولو أنني أبصرت يوماً في يدي ... أمري لطرت إليه دون جناح

فالآن ساعدني الزمان وأيقنت ... من قربه نفسي بفوز قداح

إيه أبا عبد الإلٰه وإنه ... لنداء ود في علاك صراح

أما إذا استنجدتني من بعد ما ... ركدت لما جنت الخطوب رياح

فإليكها مهزولة وأنا امرؤ ... قررت عجزي وأطرحت سلاح

سيدي أبقاك الله لعهد تحفظه، وولاء بعين الوفاء تلحظه، وصلتني رقعتك التي ابتدعت وبالحق من مولى الخليفة صدعت والفتنى وقد سطت بي الأوحال حتى كادت تتلف الرحال والحاجة إلى الغداء قد شمرت عن كشح البطين وثانية العجماوين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين

والفكر قد غاض معينه وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه، فغزتني بكتيبة بيان أسدها هسور وعلمها منصور وألفاظها ليس فيها قصور ومعانيها عليها الحسن مقصور واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حول ومنّة وقول لا أدري للعالم فكيف بغيره جنة لكنها بشرتني بما يقل لمؤديه بذل النفوس وإن جلت وأطلعتني من السراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلت بما أعلمتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في عبده وصدق المخيلة في كرم مجده وهذا هو الجود المحض والفضل الذي شكره هو الفرض وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات من يبدأ بالنوال من قبل الضراعة والسؤال من غير اعتبار للأسباب ولا مجازات للأعمال نسأل الله تعالى أن يبقي منها على الإسلام أوفى الظلال ويبلغها من فضله أقصى الآمال ووصل ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية والتحفة الودية وقبلتها امتثالاً واستجليت منها عتقاً وجمالاً وسيدي في الوقت أنسب باتخاذ ذلك الجنس وأقدر على الاستكثار من إناث البهم والإنس وأنا ضعيف القدرة غير مستطيع لذلك إلا في الندرة فلو رأى سيدي ورأيه سداد وقصده فضل ووداد أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة مع وجود الحقوق المترتبة لبسط خاطري وجمعه وعمل في رفع المؤنة على شاكلة حالي معه وقد استصحبت مركوباً يشق عليّ هجره ويناسب مقامي شكله ونجره، وسيدي في الإسعاف على الله أجره، وهذا أمر عرض وفرض فرض، وعلى نظره المعول، واعتماد إغضائه هو المعقول الأول والسلام على سيدي من معظم قدره وملتزم بره ابن الخطيب في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي القعدة سنة خمس وخمسين وسبعمائة والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان وظن أنه طوفان واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله» اهـ.

ولما قدم الوزير المذكور على السلطان المذكور تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها ومثل بين يديه واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم:

خليفة الله ساعد القدر ... علاك ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ... ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى ... لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طرّاً بأرض أندلس ... لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن به مذ وصلت حبلهم ... ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الأمر أنه وطن ... في غير علياك ما له وطر
وقد أهمتهم نفوسهم ... فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له قبل أن يجلس: «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم» ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الانصراف أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه.

قال ابن خلدون: قال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد «لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا».

ونص الكتاب الذي قدم به ابن الخطيب: «المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ويهز إلى جميل العوائد أعطاف بأسه وجوده ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذخر يرثه الولد عن آبائه وجدوده مقام محل أبينا الذي رعى الأذمة شأنه وصلة الراعي سجية انفرد بها سلطانه ومواعد النصر ينجزها زمانه والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه وتطابق فيهما إسراره وإعلانه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى محروساً من غير الأيام جنابه موصولة بالوقاية الإلٰهية أسبابه مسدولاً على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه مصروفاً عنه من صروف القدر ما يعجز عن رده بوابه ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التي تدخرها لأولادها أولياؤه وأحبابه ويسطر في صحف الفخر ثوابه وتشتمل على مكارم الدين والدنيا أثوابه وتتكفل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام كتائبه وكتابه معظم ما عظم من حقه

السائر من إجلاله وشكر خلاله على لاحب طرقه المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه الأمير عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر سلام كريم بر عميم يخص مقامكم الأعلى ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذي لاراد لأمره ولا معارض لفعله مصرف الأمر بقدرته وحكمته وعدله الملك الحق الذي بيده ملاك الأمر كله مقدر الآجال والأعمار فلا يتأخر شيء عن ميقاته ولا يبرح عن محله، جاعل الدنيا مناخ نقلة، لا يغتبط العاقل بمائه ولا بظله، وسبيل رحلة فما أكثب ظعنه من حله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صفوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رسله الذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسك بحبله ونمد يد الافتقار إلى فضله ونجاهد في سبيله من كذب به أو حاد عن سبله ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله والرضا عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله المستولين من ميدان الكمال على خصله والدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره ومضاء فضله فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوب حماها وعصمة ترجع عنها سهام النوائب كلما فوقها الدهر ورماها، وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها وعزاً يزاحم أجرام الكواكب منتماها من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ونعم الله سبحانه تتواتر لدينا دفعاً ونفعاً وألطافه نتعرفها وتراً وشفعاً، ومقامكم الأبوي هو المستند الأقوى والمورد الذي ترده آمال الإسلام فتروي وتهوي إليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ومثابتكم العدة التي تأسست مبانيها على البر والتقوى وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم وأبقى مجدكم، فإنا لما نعلم من مساهمة مجدكم التي يقتضيها كرم الطباع وطباع الكرم وتدعو إليها ذمم الرعي ورعي الذمم، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن إرتقائه وإمتاع المسلمين ببقائه بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه تعالى بالسعادة التي ألبسه حلتها والشهادة التي في أعماله الزكية كتبها والدرجة العالية التي حتمها له وأوجبها وبما تصير لنا من أمره وضم بنا من نشره وسدل على من خلفه من ستره وإنها لعبرة لمن ألقى السمع وموعظة تهز الجمع وترسل الدمع وحادثة أجمل الله تعالى فيها

الدفع وشرح مجملها وإن أخرس اللسان هولها وأسلم العبارة قوتها وحولها إنه رضي الله تعالى عنه لما برز لإقامة سنة هذا العيد مستشعراً شعار كلمة التوحيد مظهراً سمة الخضوع للمولى الذي تضرع بين يديه رقاب العبيد آمناً بين قومه وأهله متسربلاً في حلل نعم الله تعالى وفضله قرير العين باكتمال عزه واجتماع شمله قد احترس بأقصى استطاعته واستظهر بخلصان طاعته والأجل المكتوب قد حضر والإرادة الإلٰهية قد أنفذت القضاء والقدر وسجد بعد الركعة الثانية من صلاته أتاه أمر الله لميقاته على حين الشباب غض جلبابه والسلاح زاخر عبابه والدين بهذا القطر قد أينع بالأمن جنابه وأمر من يقول للشيء كن فيكون قد بلغ كتابه ولم يرعه، وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب إلا شقي قيضه الله تعالى لسعادته غير معروف ولا منسوب، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب تخلل الصفوف المعقودة وتجاوز الأبواب المسدودة وخاض الجموع المشهودة والأمم المحشورة إلى طاعة الله المحشودة لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة وإنما هو خبيث ممرور وكلب عقور وحية سمها وحي محذور وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين فما أفلته قبض عليه من الخلصان الأولياء من خبر ضميره وأحكم تقريره فلم يجب عند الاستفهام جواباً يعقل ولا عثر على شيء عنه ينقل لطفاً من الله أفاد براءة الذمم وتعاورته للحين أيدي التمزيق وأتبع شلوه بالتحريق واحتمل مولانا الوالد رحمه الله إلى القصر وبه ذماء لم يلبث بعد الفتكة العمرية إلا أيسر من اليسير وتخلف الملك ينظر من الطرف الحسير وينهض بالجناح الكسير وقد عاد جمع السلامة إلى جمع التكسير إلا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب أن أقامنا مقامه لوقته وحينه ورفع عماد بناء ملكه ولم شعث دينه وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم وأعلامهم ولفيفهم قد جمعه ذلك الميقات وحضر الأولياء الثقات فلم تختلف علينا كلمة ولا شذت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة ولا أخيف بري ولا حذر جري ولا فرى فري ولا وقع لبس ولا استوحشت

نفس ولا نبض للفتنة عرق ولا أغفل للدين حق فاستند النقل إلى نصه ولم يعدم من فقيدنا غير شخصه وبادرنا إلى مخاطبة البلاد نمهدها ونسكنها ونقرر الطاعة في النفوس ونمكنها وأمرنا الناس بها بكف الأيدي ورفع التعدي والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقودة بما يجدي ومن شره منهم للفرار عاجلناه بالإنكار وصرفنا على النصارى ما أوصاه مصحباً بالاعتذار وخاطبنا صاحب قشتالة نرى ما عنده في صلة السلم إلى أمدها من الأخبار واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار وعفى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار واستبقوا تطير بهم أجنحة الابتدار جعلنا الله تعالى ممن قابل الحوادث بالاعتبار وكان على حذر من تصاريف الأقدار واختلاف الليل والنهار وأعاننا على إقامة دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغي والبحر الزخار وألهمنا من شكره ما يتكفل بالمزيد من نعمه ولا قطع عنا عوائد كرمه وإن فقدنا والدنا فأتم لنا من بعده الوالد والذخر الذي تكرم منه العوائد والحب يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت منها الشواهد ومن أعد مثلكم لبنيه فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه وتأسست قواعد ملكه وتشيدت مبانيه فالاعتقاد الجميل موصول والفروع لها في التشيع إليكم أصول وفي تقرير فخركم محصول وأنتم رداء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم بإرفاده وينصرهم بإنجاده ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده وعندما استقر هذا الأمر الذي تبعت المحنة فيه المنحة وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحة وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم وتزاحمت على رقها المنشور خطوط أيمانهم وتأصلت قواعد ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وآذانهم وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم بادرنا تعريف مقامكم الذي نعلم مساهمته فيما ساء وسر أحلى وأمر عملاً بمقتضى الخلوص الذي ثبت واستقر والحب الذي ما مال يوماً ولا أزور وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السفور وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمور إلا

أنه أمر له ما بعده وحادث يأخذ حده ونبعث إلى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأي العيان وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحسان ليكون أبلغ في البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان فوجهنا إليكم وزير أمرنا وكاتب سرنا الفقيه الأجل أبا عبد الله محمد بن الخطيب وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى واستنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبني ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأغنى والثمرة العذبة المجني فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا وقامع أعدائنا آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ومدار الحال عليه والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالي والخلافة السامية المعالي والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالي ويحفظ مجدكم من غير الأيام والليالي وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويوالي نصركم وعضدكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته اهـ.

وللسلطان الغني بالله هذا مع السلطان أبي عنان رحمهما الله مراسلات عديدة ومكاتبات مديدة قد ذكر صاحب نفح الطيب منها جملة وافرة مع التنبيه على أسبابها فانظرها فيه إن شئت وأكرم السلطان أبو عنان الوزير ابن الخطيب في هذه الوفادة وغيرها إكراماً بليغاً ولما انصرف عنه مدحه بقصيدة طويلة طنانة يقول في أولها:

أبدى لداعي الفوز وجه منيب ... وأفاق من عذل ومن تأنيب

ويقول في أثنائها:

يا ناصر الدين الحنيف وأهله ... إنضاء مسغبة وفل خطوب
حقق ظنون بنيه فيك فإنهم ... يتعللون بوعدك المرقوب
ضاقت مذاهب نصرهم فتعلقوا ... بجناب عز من علاك رحيب
ودجا ظلام الكفر في آفاقهم ... أو ليس صبحك منهم بقريب
فانظر بعين العز من ثغر غدا ... حذر العدا يرنو بطرف مريب
نادتك أندلس ومجدك ضامن ... ألا يخيب لديك ذو مطلوب

وهي طويلة.

وفي سنة ست وخمسين وسبعمائة انتقض على السلطان أبي عنان وزيره وصاحب شوراه عيسى بن الحسين بن علي بن أبي الطلاق من شيوخ بني مرين ووجوهها، وكان السلطان أبو عنان قد استعمله على جبل طارق فتمكنت رياسته به وانتقض على السلطان لأسباب يطول شرحها، ثم التاثت حاله وضاقت مذاهبه فقبض عليه وأحضر بين يدي السلطان أبي عنان هو وابنه يوم منى من سنة ست وخمسين المذكورة فتنصلا واعتذرا فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وضيق عليهما، ولما كان آخر السنة أمر بهما فجنبا إلى مصارعهما وقتل عيسى قعصاً بالرماح وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف وأبى من مداواة قطعه فلم يزل يتخبط في دمه إلى أن هلك بعد ثلاثة أيام من قطعه وعقد السلطان على جبل طارق وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود، ثم عقد بعده لولده أبي بكر السعيد وهو الذي تولى الملك بعده والله أعلم.

رحلة السلطان أبي عنان إلى سلا وتطارحه[1] على وليها الأكبر أبي العباس بن عاشر رضي الله عنه

كان لبني مرين عموماً وللسلطان أبي عنان خصوصاً جنوح إلى الخير ومحبة في أهله وتعرض لمن يشار إليه بالصلاح واستمطار لطله ووبله، وكان الشيخ الأشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلس رضي الله عنه قد استوطن في هذا التاريخ مدينة سلا، وكان من الأفراد الجامعين بين العلم والعمل المتمسكين بالكتاب والسنة، الناهجين سنن السلف الصالح في الزهد والورع والانقطاع عن الخلق جملة بحيث طار ذكره وعظم لدى الخاص والعام

(1) ما وقع لأبي عنان مع ابن عاشر وقع نظيره لمولاي إسماعيل العلوي مع سيدي أحمد بن محمد بن عبد الله معن الأندلسي راجع ذلك في الجزء الأول من المقصد الأحمد لسيدي عبد السلام القادري ص 150 وما يليها فإنه مما يحسن الوقوف عليه والتنظير به رحم الله الجميع ولله در القائل:

فقل لملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

قدره، فتحركت همة السلطان أبي عنان لزيارته والاقتباس مما يفتح الله به من وعظه وإشارته، فارتحل سنة سبع وخمسين وسبعمائة إلى سلا فقدمها وحرص على الاجتماع بالشيخ المذكور ووقف ببابه مراراً فلم يأذن له وترصده يوم الجمعة بعد الصلاة ولما انفضّ الناس تبعه على قدميه والناس ينظرون إليه وهو لا يراه فقال السلطان عند ذلك لقد منعنا من هذا الولي، ثم أرسل إليه ولده راغباً ومستعطفاً فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب إليه كتاباً وعظه فيه وذكره فسر السلطان أبو عنان بذلك الكتاب وحزن لما فاته من الاجتماع بالشيخ، وقد ذكر الفقيه العلامة البركة أبو العباس أحمد بن عاشر بن عبد الرحمٰن السلاوي المدعو بالحافي في كتابه «تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر» نص هذا الكتاب ولم يحضرني الآن فانظره فيه وبالله تعالى التوفيق.

غزوة السلطان أبي عنان إفريقية وفتح قسنطينة ثم فتح تونس بعدها

لما كان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين وسبعمائة اعتزم السلطان أبو عنان على النهوض إلى إفريقية واضطرب معسكره بساحة فاس الجديد، وبعث في الحشد إلى مراكش وأوعز إلى بني مرين بأخذ الأهبة للسفر وجلس للعطاء وعرض الجنود من لدن عزمه على النهوض إلى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وخمسين بعدها، ثم ارتحل من فاس وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار هو في ساقته على التعبية إلى أن احتل ببجاية وتلوم لإزاحة العلل، ثم نازل الوزير قسنطينة وجاء السلطان على أثره ولما أطلت راياته وماجت الأرض بجنوده ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم إلى الإذعان، وانفضوا من حول سلطانهم أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي وجاؤوا مهطعين إلى السلطان أبي عنان، وتحيز الحفصي في خاصته إلى القصبة ثم طلبوا الأمان من السلطان أبي عنان فبذله لهم وخرجوا وأنزلهم بمعسكره أياماً، ثم بعث بأبي العباس في

الأسطول إلى سبتة فاعتقله بها، وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحاج خلوف الياباني من شيوخ بني مرين وأهل الشورى منهم وأنزله بالقصبة في شعبان من السنة المذكورة، ووصلت إليه بيعات أمراء الأطراف من توزر ونفطة وقابس وغيرها، ووفد عليه أولاد مهلهل أمراء بني كعب من سليم وأقيال بني أبي الليل منهم يستحثونه لملك تونس فسرح معهم العساكر وعقد عليها ليحيى بن عبد الرحمٰن بن تاشفين[1] وبعث أسطوله في البحر مدداً لهم وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من أمراء بني الأحمر.

وكان سلطان تونس يومئذٍ أبا إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الحفصي ولما اتصل به خبر بني مرين أخرج حاجبه أبا محمد بن تافراجين لقتالهم فزحفت الجيوش إلى تونس ووصل الأسطول إلى مرساها فقاتلهم ابن تافراجين يوماً أو بعض يوم ثم ركب الليل إلى المهدية فتحصن بها، ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وأقاموا بها الدعوة المرينية، واحتل يحيى بن عبد الرحمٰن بالقصبة وأنفذ الأوامر وكتب إلى السلطان أبي عنان بالفتح فعظم سروره، ونظر بعد ذلك في أحوال ذلك القطر وقبض أيدي العرب من رياح عن الإتاوة التي يسمونها الخفارة، فارتابوا وطالبهم بالرهن عن الطاعة، فأجمعوا الخلاف والتفوا على أميرهم يعقوب بن علي ولحقوا بالزاب؛ وارتحل السلطان في أثرهم فأجفلوا أمامه إلى القفر فخرب حصونهم التي بالزاب ورجع عنهم وحمل له ابن مزني عامل بسكرة والزاب جبايته وأطلق المؤن للعسكر من الإدام والحنطة والحملان والعلوفة ثلاثة أيام، وكافأه السلطان على صنيعه فخلع عليه وعلى أهله وولده وأسنى جوائزهم.

ورجع إلى قسنطينة واعتزم على الرحلة إلى تونس، وضاقت العساكر ذرعاً بشأن النفقات والإبعاد في الرحلة وارتكاب الخطر في دخول إفريقية،

---

(1) التيربدي.

فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان وداخلوا الوزير فارس بن ميمون في ذلك فوافقهم؛ ثم أذن شيوخ العسكر ونقباؤه لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى يبقوا منفردين وأنهى إلى السلطان أبي عنان أن شيوخ العسكر قد عزموا على قتله ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للأمر فأسرها في نفسه ولم يبدها لهم، ورأى قلة من معه من الجند فارتاب وكر راجعاً إلى المغرب بعد أن كان ارتحل عن قسنطينة إلى جهة تونس مرحلتين؛ فانكفأ وأغذ السير إلى فاس فاحتل بها غرة ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين المذكورة، وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون لأنه اتهمه بمداخلة بني مرين في شأنه وقتله رابع أيام التشريق قعصاً بالرماح، وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع طائفة منهم السجن.

ولما رجع السلطان أبو عنان من إفريقية بلغ خبره إلى الجهات؛ فارتحل أبو محمد بن تافراجين من المهدية إلى تونس ولما أطل عليها ثارت شيعة الحفصيين على من كان بها من جيش بني مرين فنجوا إلى السفن وركبوا البحر إلى المغرب، وجاء على أثرهم يحيى بن عبد الرحمٰن فيمن كان معه من العساكر وأولاد مهلهل وكان يوم الهيعة بناحية الجريد لاقتضاء جبايته فصوب إلى المغرب واجتمعوا كلهم بباب السلطان أبي عنان فأرجأ حركته إلى العام القابل وكان ما نذكره إن شاء الله.

وزارة سليمان بن داود ونهوضه بالعساكر إلى إفريقية

لما رجع السلطان أبو عنان من إفريقية ولم يستتم فتحها بقي في نفسه منها شيء وخشي على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الذواودة المخالفين فأهمه شأنهم واستدعى سليمان بن داود من مكانه بجبل طارق وعقد له على وزارته وسرحه في العساكر إلى إفريقية فنهض إليها في ربيع من سنة تسع وخمسين وسبعمائة، وكان السلطان أبو عنان لما خالف عليه يعقوب بن علي وفر إلى القفر أقام مكانه أخاه المنازع له في رياسة رياح

ميمون بن علي وقدمه على أولاد محمد من الذواودة وأحله بمكانه من رياسة البدو فنزع إليه عن أخيه يعقوب الكثير من قومه، وتمسك بطاعة السلطان أيضاً طوائف من أولاد سباع بن يحيى فانحاشوا جميعاً للوزير ونزلوا بحللهم على معسكره.

ثم ارتحل السلطان أبو عنان من فاس حتى احتل بتلمسان فأقام بها لمشارفة أحوال الوزير المذكور واحتل الوزير بوطن قسنطينة وبعث إلى عامل بسكرة والزاب يوسف بن مزني بأن تكون يده معه وأن يفاوضه في أحوال الذواودة لرسوخه في معرفتها؛ فارتحل إليه من بسكرة ونازلوا جبل أوراين[1] واقتضوا جبايته ومغارمه وشردوا المخالفين من الذواودة عن العيث في الوطن فتم غرضهم من ذلك؛ وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقية من آخر مجالات رياح، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فوافى السلطان أبا عنان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة فوصلهم السلطان وخلع عليهم وحملهم وفرض لهم في العطاء بالزاب وكتب لهم بذلك وانقلبوا إلى أهليهم فرحين مغتبطين، ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني أوفده أبوه بهدية إلى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته، ثم استصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته وليستبلغ في الاحتفاء به واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

وفاة السلطان أبي عنان رحمه الله

لما وصل السلطان أبو عنان إلى دار ملكه بفاس احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض بالمصلى وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد على العادة فدخل قصره ولزم فراشه.

---

(1) صوابه أوراس.

وذكر ابن خلدون ما حاصله: «إنه كانت بين الوزير حسن بن عمر الفودودي وبين ولي العهد أبي زيان محمد بن السلطان أبي عنان نفرة مستحكمة لسوء طويته وشر ملكته فاتفق الوزير المذكور مع من كان على رأيه من أهل مجلس السلطان على تحويل الأمر عنه إلى غيره من أبناء السلطان فأجمعوا الفتك به والبيعة لأخيه أبي بكر السعيد طفلاً خماسياً، ثم أغروا الوزير مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي بتطلب أبي زيان ولي العهد في نواحي القصر والتقبض عليه فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم وقاده إلى أخيه السعيد فبايع وثل إلى بعض حجر القصر فأتلفت فيها مهجته، واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة والسلطان أبو عنان أثناء ذلك يجود بنفسه، وارتقب الناس دفنه يوم الأربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا وفشى الكلام فدخل الوزير زعموا إليه بمكانه من قصره ثم غطه حتى أتلفه ودفن[1] يوم السبت وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للأمر وأغلق عليه بابه وتفرد بالأمر والنهي دونه» انتهى وهذا أول مرض نزل بالدولة المرينية.

وقال في الجذوة: «توفي السلطان أبو عنان قتيلاً خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة متم سنة تسع وخمسين وسبعمائة وسنه يوم توفي ثلاثون سنة».

بقية أخبار السلطان أبي عنان وسيرته

كان السلطان أبو عنان رحمه الله أبيض اللون تعلوه صفرة؛ طويل القامة يشرف على الناس بطوله نحيف البدن عالي الأنف حسنه؛ أعين أدعج جهوري الصوت في كلامه عجلة حتى لا يكاد السامع يفهم ما يقول، عظيم اللحية تملأ صدره أسودها وإذا مرت بها الريح تفرقت نصفين حتى يستبين موضع الذقن؛ وكان فارساً شجاعاً يقوم في الحرب مقام جنده، وكان فقيهاً

(1) بجامع المدينة البيضاء [فاس] وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر.

يناظر العلماء الجلة عارفاً بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من علمي العربية والحساب؛ وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه، حافظاً للحديث عارفاً برجاله، فصيح القلم كاتباً بليغاً، حسن التوقيع شاعراً أنشد له صاحب الجذوة أشعاراً حسنة من ذلك في الحكمة قوله:

وإذا تصدر للرياسة خامل جرت الأمور على الطريق الأعوج

وقال ابن الأحمر: «كنت يوماً جالساً معه بمقعد ملكه من المدينة البيضاء بفاس فدخل عليه رجل يتصلح فلما نظر إليه قال بديهة:

تراهم في ظواهرهم كراماً ويخفون المكيدة والخداعا»

وللسلطان أبي عنان رحمه الله آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك، ومدرسته العنانية بفاس مشهورة إلى الآن؛ ومن مدارسه المدرسة العجيبة بحومة باب حسين من سلا وقد صارت اليوم فندقاً يعرف بفندق أسكور ومما قاله أبو بكر بن جزي في بعض ما أنشأه السلطان المذكور من الزوايا قوله:

هذا محل الفضل والإيثار والرفق بالسكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومورد لابن السبيل وكل ركب ساري
آثار مولانا الخليفة فارس أكرم بها في المجد من آثار
لا زال منصور اللواء مظفراً ماضي العزائم سامي المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديم با بهم العلي محمد بن حدار
في عام أربعة وخمسين انقضت من بعد سبعمئين في الأعصار

وقال صاحب الجذوة: «حدثني شيخنا أبو راشد اليدري أن السلطان أبا عنان هو الذي أحدث بفاس العلم الأزرق في الصومعة يوم الجمعة».

وقال في موضوع آخر منها: «حكي أن السلطان أبا عنان المريني صعد الصومعة يعني بالقرويين ليعتبر المدينة وترتيبها ووقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتب وسع عليه فيه

ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام» وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، قال: وأمر بإثر ذلك بأن ينصب بأعلى الصومعة صاري من خشب وينشر فيه علم في الأوقات التي يصلى فيها، وفنار فيه سراج مزهر في أوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد ومن لم يسمع النداء، وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقاف وما يتعلق بها من وجوب الصلوات ويترتب عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات ومما قيل في ذلك:

نور به علم الإيمان مرتفع ... للمهتدين به للحق إرشاد

يأتون من كل صوب نحوه فلهم ... لديه للرشد إصدار وإيراد

وقد لخص ابن الخطيب رحمه الله في رقم الحلل سيرة السلطان أبي عنان فقال:

وخلص الأمر لكف فارس ... باني الزوايا الكثر والمدارس

الأسد المفترس المصنوع له ... من نال من كل المساعي أمله

واحد آحاد الملوك العظما ... ومطلع النصر إذا ما أقدما

ومخجل الغيث إذا الغيث هما ... وعالم الملك وملك العلما

أوجب حق الشعر والكتابة ... فأملت أعلامها جنابه

واستجلب الأماثل الكبارا ... النبهاء العلية الأخيارا

يجبرهم على حضور الدولة ... فهم بدور وشموس حوله

وكان جباراً على خدامه ... ينالهم بالقسر في أحكامه

مذهبه ألا يقيل عثرة ... حتى لأرباب التقى والأثرة

فطرة السيف تناغي الدرة ... إذ غلبت على المزاج المرة

ومات فيما قيل شر ميتة ... بغيلة لنفسه مفيته

لم يغن عنه البأس والبسالة ... وأصبحت مهجته مسالة

وألقيت أزمة التدبير ... من بعده في راحة الوزير

ومن أعيان كتابه: أبو القاسم بن رضوان وأبو القاسم البرجي.

ومن أعيان قضاته: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري وهو

جد أبي العباس المقري صاحب نفح الطيب وغيره من التآليف الحسان، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي وغيرهما رحم الله الجميع[1].

تم الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وأوله:

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله

أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني

---

(1) ذكر صاحب روضة النسرين أولاد السلطان أبي عنان فقال: أولاده الذكور السلطان أبو زيان محمد والسلطان أبو يحيى أبو بكر السعيد والسلطان موسى والمهدي بالله والمعتمد على الله محمد والمعتصم بالله محمد والمنتصر بالله محمد والمكتفي بالله محمد والواثق بالله محمد ومحمد المدعو بأبي طريق. بناته: فاطمة الصالحة وست العرب ورقية وعائشة وزنو وسكينة وسما وأم جعفر وأم هاني وجندوزة ولمة العزيز المدعوة بمديلة. وكان جميع ما ولد ثلاثمائة ونحو خمسة وعشرين ما بين سقط وغيره.

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

(حرف (م)

فهرس الأماكن

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

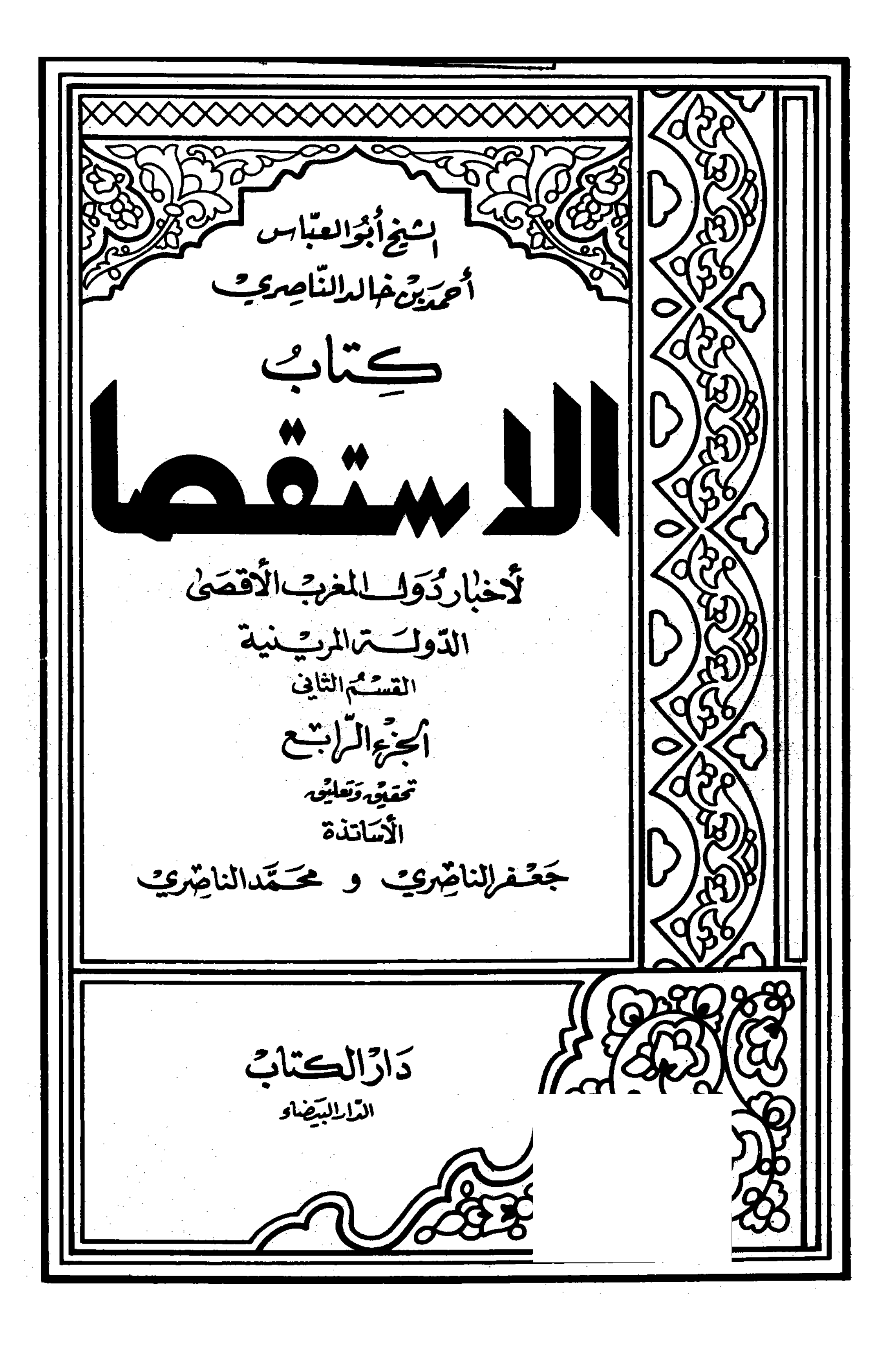
حرف (ك)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)



الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري

كتاب
الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدّولة المرينية
القسم الثاني
الجزء الرّابع

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدولة المرينية

القسم الثاني

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني

هذا السلطان أول من استبد عليه من ملوك بني مرين. أمه: أم ولد اسمها الياسمين. كنيته: أبو يحيى، وهي كنية كل من اسمه أبو بكر: لقبه. السعيد بالله. صفته: دري اللون مستدير الوجه حسن الأنف ألعس الشفتين، براق الثنايا، جعد الشعر. بويع وأبوه مريض في التاريخ المتقدم، وكان محجوباً بوزيره حسن بن عمر الفودودي لا يملك معه ضراً ولا نفعاً، ولما بويع لحق أخوه عبد الرحمن[1] بن أبي عنان بجبل الكاي وكان أسن منه، وإنما آثروه لمكان ابن عمه مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي من وزارته، فبعثوا إليه من لاطفه واستنزله على الأمان وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن ابن عمر بقصبته من فاس، وبعث على أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور، فجاء المعتصم من سجلماسة، وامتنع المعتمد بمراكش وكان بها في كفالة عامر[2] بن محمد الهنتاتي، وكان عامر هذا من بيوتات هنتاتة وأهل الرياسة والشرف فيهم، وكان السلطان أبو عنان قد أوصى إليه بولده المذكور وجعله هنالك لنظره، فلما بعثوا عليه منعه من الوصول إليهم، وخرج به من

(1) عبد الرحمٰن هذا لم يعده صاحب روضة النسرين في جملة أولاد السلطان أبي عنان.

(2) انظر ترجمة عامر هذا عند ابن خلدون ج أول طبع الجزائر ص 359 والتي تليها.

مراكش إلى حصنه من جبل هنتاتة فجهز إليه الوزير حسن بن عمر الجيوش لنظر الوزير سليمان بن داود مشاركة في الاستبداد، وسرحه في المحرم سنة ستين وسبعمائة، فسار إلى مراكش فاستولى عليها ثم تخطى إلى الجبل فأحاط به وضيق على عامر حتى أشرف على اقتحام الحصن إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين بفاس، وظهور منصور بن سليمان بها على ما نذكره، فانفض العسكر من حوله وتسابقوا إلى منصور فلحقوا به، ولحق به سليمان ابن داود أيضاً وتنفس الحصار عن عامر ومكفوله، والله غالب على أمره.

ظهور أبي حمو موسى بن يوسف الزياني واستيلاؤه على تلمسان ونهوض مسعود بن عبد الرحمٰن إليه وطرده عنها

كان بنو عامر بن زغبة من عرب هلال خارجين على السلطان أبي عنان منذ استيلائه على تلمسان وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن إبراهيم، ولما رجع أبو عنان إلى فاس اعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب لأنهم كانوا منتبذين عنها بأطراف إفريقية، فدعوا أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمٰن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان إلى الرحلة معهم لينصبوه للأمر ويجلبوا به على تلمسان فأجابهم إلى ذلك، وأغذوا السير إلى المغرب للعيث في نواحيه، فجمع لهم أعداؤهم من سويد وكانوا خالصة لبني مرين فالتقوا بقبلة تلمسان فانهزمت سويد، وهلك كبيرهم عثمان بن ونزمار، واتصل بهم في أثناء ذلك خبر وفاة السلطان أبي عنان بفاس، فأغذوا السير إلى تلمسان وقاتلوا علهيا حامية بني مرين ثم اقتحموها عليهم لليال خلون من ربيع الأول سنة ستين وسبعمائة، واستباحوا من كان بها منهم، وامتلأت أيديهم من أسلابهم، واستولى أبو حمو على ملك تلمسان واستأثر بما ألفاه بها من متاع بني مرين ومن جملته هدية كان السلطان أبو عنان أعدها هنالك ليبعث بها إلى طاغية برشلونة وفيها فرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام مذهبين ثقيلين فاتخذ أبو حمو الفرس لركوبه، وصرف باقي الهدية في وجوه مقاصده ولما انتهى إلى

الوزير حسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها جمع شيوخ بني مرين وأخبرهم بالنهوض إليها فأبوا عليه من النهوض بنفسه، وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه من أنفسهم المسير كافة ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد، ثم عقد عليهم لمسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في العساكر والألوية ولما اتصل خبر مسيره بأبي حمو أفرج له عن تلمسان ودخلها مسعود في ربيع الثاني من السنة المذكورة فاستولى عليها وخرج أبو حمو إلى الصحراء إلى أن كان ما نذكره.

ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود ابن عبد الرحمٰن له وما نشأ عن ذلك

منصور هذا هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب ابن عبد الحق، وكان الناس يرجفون بأن ملك المغرب سائر إليه بعد وفاة أبي عنان وشاع ذلك على ألسنة الناس حتى تحدث به السمر والندمان وخشي منصور على نفسه من ذلك فجاء إلى الوزير حسن بن عمر وشكا إليه ذلك فنهاه أن يختلج بفكره هذا الوسواس وانتهره انتهاراً خلا عن وجه السياسة فانزجر واستكان. قال ابن خلدون: «ولقد شهدت هذا الموطن فرحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه». ثم لما نهض مسعود بن عبد الرحمٰن إلى تلمسان واستولى عليها كان منصور هذا في جملته، ولما فر أبو حمو إلى الصحراء اجتمعت عليه جموع العرب من بني زغبة وبني معقل ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بانكاد بحللهم وظواعنهم، فجهز إليهم مسعود بن عبد الرحمٰن عسكراً من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم، وعقد عليهم لابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي وسرحه، فزحف إلى العرب بساحة وجدة فصدقه العرب القتال، فانكشفت بنو مرين واستبيح معسكرهم واستلبت مشيختهم وأرجلوا عن خيولهم ودخلوا إلى وجدة عراة وبلغ الخبر

إلى بني مرين الذين بتلمسان وكان في قلوبهم مرض من استبداد حسن بن عمر عليهم وحجره لسلطانهم فكانوا يتربصون بالدولة الدوائر، فلما بلغهم هذا الخبر حاصوا حيصة حمر الوحش وخلصوا نجياً بساحة البلد، فاتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب فبايعوه، وانتهى الخبر إلى مسعود بن عبد الرحمٰن وكان في جملته منصور بن سليمان كما قلنا فأكرهه على البيعة، وبايعه معه الرئيس الأبكم من بني الأحمر، وقائد النصارى القهردور، وتسايل إليه الناس من كل جانب، وتسامع الملأ من بني مرين بالخبر فتهاروا إليه وذهب يعيش بن علي لوجهه فركب البحر إلى الأندلس، واستتب أمر منصور بن سليمان واجتمع بنو مرين على كلمته فارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب، واعترضتهم جموع العرب في طريقهم فأوقعت بهم بنو مرين وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظعنهم، ثم أغذوا السير إلى المغرب فاحتلوا بوادي سبو في منتصف جمادى الآخرة من سنة ستين وسبعمائة، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فبرز واضطرب معسكره بساحة البلد، وأخرج السلطان السعيد في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه، ولما غشيهم الليل انفض عنه الملأ إلى منصور فأوقد الوزير الشموع وأذكى النيران وجمع الموالي والجند حول الفسطاط حتى أركب السلطان وعاد به إلى قصره وتحصن بالبلد الجديد، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وغدا على فاس الجديد بالقتال وجمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار، وانثالت عليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة، ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مجمرة على حصن عامر بن محمد الهنتاني، ولحق به أيضاً قائدها سليمان بن داود وكاد أمره يتم وأقام على فاس الجديد يغاديها القتال ويراوحها، ثم بدا الخلل في عسكره ونزع عنه إلى الوزير حسن بن عمر طائفة من بني مرين، ولحق آخرون ببلادهم ووقفوا ينتظرون مآل أمره، واستمر هذا الحال إلى غرة شعبان فبينما الناس في ذلك إذ ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة فانصرفت إليه وجوه أهل المغرب، وبطل أمر السلطانين:

أبي بكر السعيد، ومنصور بن سليمان معاً، وذابا كما يذوب الملح، فأما منصور بن سليمان فإنه فر إلى بادس فقبض عليه وجيء به إلى السلطان أبي سالم فقتله، وأما السعيد فإن وزيره الحسن بن عمر لما سمع بظهور السلطان أبي سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعته إلى أبي سالم ووعده بالتمكين من دار الملك إن قدم عليه، فكان الأمر كذلك، وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان سنة ستين وسبعمائة[1]، ثم قتل بعد ذلك غرقاً في البحر، فإن السلطان أبا سالم بعثه في جملة الأبناء المرشحين من بني أبي الحسن إلى الأندلس، ووكل بهم من يحرسهم ثم بعد ذلك بعث إلى الموكل بهم فحملهم في سفينة كأنه يريد بهم المشرق ثم غرقهم في البحر، والأمر لله وحده.

الخبر عن دولة السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني

كان هذا السلطان جواداً، جم العطاء، معروفاً بالوفاء، كثير الحياء، كنيته: أبو سالم. لقبه: المستعين بالله. أمه: أم ولد رومية اسمها قمر، صفته: آدم اللون، معتدل القامة، رحب الوجه، واسع الجبين، بادن الجسم، أعين أدعج، معتدل اللحية أسودها. وكان بعد مهلك والده السلطان أبي الحسن رحمه الله قد استقر بالأندلس. بعثه إليها أخوه أبو عنان كما مر، ولما مات أبو عنان المذكور وولي ابنه الصبي طمع أبو سالم هذا في الملك، فاستأذن الحاجب رضوان مدبر دولة ابن الأحمر بالأندلس في اللحاق ببلاده فأبى عليه، فغاضه ذلك ونزع عنه إلى طاغية قشتالة وتطارح عليه في أن يحمله إلى بر العدوة يطلب ملك أبيه فأسعفه وأمر به فحمل في مركب وألقى به ملاحه في ساحل بلاد غمارة بعد أن تردد في أي السواحل يلقيه، ووافق

(1) وكانت دولته سبعة أشهر وعشرين يوماً.

ذلك اختلاف الكلمة بفاس ومحاصرة منصور بن سليمان للمدينة البيضاء، فتسامع الناس بخروجه ببلاد غمارة أحوج ما كانوا إليه فتسايلوا إليه من كل وجه، وانفض الناس من حول منصور ومشى أهل معسكره بأجمعهم على التعبية فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستغذوه إلى دار ملكه فأغذ السير إليها. وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الأمر لتسعة أشهر من خلافته، وأسلمه إلى عمه فخرج إليه وبايعه، ودخل السلطان أبو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة، واستولى على ملك المغرب، وتوافت وفود النواحي بالبيعات وعقد للحسن بن عمر على مراكش، وجهزه إليها بالعساكر تخففاً منه وريبة بمكانه من الدولة، واستوزر مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي والحسن بن يوسف الورتاجني، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق وجعل إلى أبي زيد عبد الرحمٰن بن خلدون صاحب التاريخ توقيعه وكتابة سره، قال: «وكنت نزعت إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلاف أحواله ومصير الأمر إلى السلطان أبي سالم فأقبل عليّ وأنزلني بمحل التنويه واستخلصني لكتابته اهـ».

قدوم الغني بالله ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب مخلوعين على السلطان أبي سالم والسبب في ذلك

قد قدمنا أن السلطان أبا الحجاج قتل يوم عيد الفطر بالمصلى سنة خمس وخمسين وسبعمائة وولي الأمر من بعده ابنه الغني بالله محمد بن يوسف، وكان له أخ اسمه إسماعيل فجعله الغني بالله في بعض القصور من حمراء غرناطة احتفاظاً به إلى أن كان رمضان من سنة ستين وسبعمائة فخرج الغني بالله إلى بعض منتزهاته خارج القصبة، ولما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان المذكور أو ثمان وعشرين منه تسور جماعة من شيعة إسماعيل

المحبوس عليه القصبة ليلاً وأخرجوه من محبسه وأعلنوا بدعوته، ثم اقتحموا على حاجبه رضوان داره فقتلوه على فراشه وبين نسائه، وضبطوا القصبة، وأعلنوا بالدعوة، ولم يرع الغني بالله إلاَّ قرع الطبول بالقصبة في جوف الليل، فاستكشف الخبر وتسمع فعلم بما تم عليه من خلعه وتولية أخيه، فركب فرسه وخاض الليل إلى وادي آش فاستولى عليها وضبطها، وبايعه أهلها على الموت، ثم عمد شيعة إسماعيل الثائر إلى الوزير ابن الخطيب فأودعوه السجن بعد أن أغروا به ثائرهم واكتسحوا داره واصطلموا نعمته وأتلفوا موجوده، وكان شيئاً يجل عن الحصر، واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سالم وكانت له مصافاة مع ابن الأحمر من لدن كان عنده بالأندلس، فكتب إسماعيل الثائر وشيعته يأمرهم بتخلية طريق الغني بالله للقدوم عليه، ويشفع في تسريح ابن الخطيب وتخلية سبيله فأجابوا إلى ذلك وقدم الغني بالله بن الأحمر ووزيره ابن الخطيب على السلطان أبي سالم في السادس من محرم فاتح سنة إحدى وستين وسبعمائة، فأجل السلطان أبو سالم قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل في ترتيبه وقد غص بالمشيخة والعلية، ووقف وزيره ابن الخطيب على قدميه فأنشد السلطان أبا سالم قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرته على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ونص القصيدة:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الزهر

وهل باكر الوسمي داراً على اللوا عفت آيها إلا التوهم والذكر

بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى بأكنافها والعيش فينان مخضر

وجوى الذي ربى جناحي وكره فها أنا ذا ما لي جناح ولا وكر

نبت بي لا عن جفوة وملالة ولا نسخ الوصل الهني بها هجر

ولكنها الدنيا قليل متاعها ولذاتها دأباً تزور وتزور

فمن لي بقرب العهد منها ودوننا مدى طال حتى يومه عندنا شهر

ولله عيناً من رآنا وللأسى ضرام له في كل جانحة جمر

وقد بددت در الدموع يد النوى — وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشية — فعاد أجاجاً بعدنا ذلك النهر
أقول لأظعاني وقد غالها السرى — وآنسها الحادي وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسران أبشري — بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا علم غيب وربما — أتى النفع من حال أريد بها الضر
وإن تخن الأيام لم تخن النهى — وأن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
وإن عركت مني الخطوب مجرباً — نقاباً تساوى عنده الحلو والمر
فقد عجمت عوداً صليباً على الردى — وعزماً كما تمضي المهندة البتر
إذا أنت بالبيضاء قررت منزلي — فلا اللحم حل ما حييت ولا الظهر
زجرنا بإبراهيم برء همومنا — فلما رأينا وجهه صدق الزجر
بمنتخب من آل يعقوب كلما — دجا الخطيب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الركبان طيب حديثه — فلما رأته صدق الخبر الخبر
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه — ولم يتعقب مده أبداً جزر
وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى — وترفل في أذياله الفتكة البكر
أطاعته حتى العصم في قنن الربا — وهشت إلى تأميله الأنجم الزهر
قصدناك يا خير الملوك على النوى — لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها — وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعدنا بذاك المجد فانصرم الردى — ولذنا بذاك العزم فانهزم الذعر
ولما أتينا البحر يرهب موجه — ذكرنا نداك العمر فاحتقر البحر
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها — فإيمانه لغو وعرفانه نكر
ووصفك يهدي المدح قصد صوابه — إذا ظل في أوصاف من دونك الشعر
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت — وقد طاب منها السر لله والجهر
ومدت إلى الله الأكف ضراعة — فقال لهن الله قد قضى الأمر
وألبسها النعمى ببيعتك التي — لها الطائر الميمون والمحتد الحر
فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكاً — وقد كان مما نابه ليس يفتر
وآمنت بالسلم البلاد وأهلها — فلا ظبة تعرى ولا روعة تعرو

وقد كان مولانا أبوك مصرحاً ... بـأنـك فـي أولاده الـولـد الـبـر
وكنت حقيقاً بالخلافة بعده ... على الفور لكن كل شيء له قدر
فأوحشت من دار الخلافة هالة ... أقامت زماناً لا يلوح بها البدر
فرد عليك الله حقك إذ قضى ... بأن تشمل النعمى وينسدل الستر
وقاد إليك الملك رفقاً بخلقه ... وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا
وزادك بالتمحيص عزّاً ورفعة ... وأجراً، ولولا السبك ما عرف التبر
وأنت الذي يدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذي يرجى إذا أخلف القطر
وأنت إذا جار الزمان محكم ... لك النقض والإبرام والنهي والأمر
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه ... مهيض ومن علياك يلتمس الجبر
غريب يرجي منك ما أنت أهله ... فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر
ففز يا أمير المؤمنين ببيعة ... موثقة قد حل عروتها الغدر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيا لمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق ثاره ... ففي ضمن ما تأتي به العز والأجر
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم ... بحق فما زيد يرجى ولا عمرو
فإن قيل مال، مالك الدثر وافر ... وإن قيل جيش، عندك العسكر المجر
يكف بك العادي ويحيا بك الهدى ... ويبني بك الإسلام ما هدم الكفر
أعده إلى أوطانه عنك راضياً ... وطوقه نعماك التي ما لها حصر
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها ... فقد صدهم عنه التغلب والقهر
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة ... تحاولها يمناك ما بعدها خسر
مرامك سهل لا يؤودك كلفة ... سوى عرض ما إن له في العلا خطر
وما العمر إلا زينة مستعارة ... ترد، ولكن الثناء هو العمر
ومن باع ما يفنى بباق مخلد ... فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر
ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى ... جياد المذاكي والمحجلة الغر
وراد وشقر واضحات شياتها ... فأجسامها تبر وأرجلها در
وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة ... مصممة غارت بها الأنجم الزهر
وأسد رجال من مرين أعزة ... عمائمها بيض وآسالها سمر

عليها من المأذي كل مفاضة تدافع في أعطافها اللجج الخضر
هم القوم إن هبوا لكشف ملمة فلا الملتقى صعب، ولا المرتقى وعر
إذا سئلوا أعطوا، وإن نوزعوا سطوا، وإن واعدوا وفوا، وإن عاهدوا بروا
وإن مدحوا اهتزوا ارتياحاً كأنهم نشاوى تمشت في معاطفهم خمر
وإن سمعوا العوراء فروا بأنفس حرام على هاماتها في الوغى الفر
وتبسم ما بين الوشيج ثغورهم وما بين قضب الدوح يبتسم الزهر
أمولاي غاضت فكرتي وتبلدت طباعي فلا طبع يعين ولا فكر
ولولا حنان منك داركتني به وأحييتني لم يبق عين ولا أثر
فأوجدت مني فائتاً أي فائت وأنشرت ميتاً ضم أشلاءه قبر
بدأت بفضل لم أكن لعظيمه بأهل، فجل اللطف وانشرح الصدر
وطوقتني النعمى المضاعفة التي يقبل عليها مني الحمد والشكر
وأنت بتتميم الصنائع كافل إلى أن يعود الجاه والعز والوفر
جزاك الذي أسنى مقامك رحمة يفك بها عان وينعش مضطر
إذا نحن أثنينا عليك بمدحة فهيهات يحصى الرمل أو يحصر القطر
ولكننا نأتي بما نستطيعه ومن بذل المجهود حق له العذر

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى منزله المعد له وقد فرشت القصور، وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة، وبعث إليه بالكسا الفاخرة، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع وانحفظ عليه رسم سلطانه في الراكب والراجل، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الأداة أدباً مع السلطان، واستقر في جملته إلى أن لحق بعد بالأندلس، وعاد له ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وأرغد السلطان أبو سالم عيش ابن الخطيب، وأفاض عليه الجرايات، ورتب له الإقطاعات، غير أنه كان مضمراً لمفارقة السلطان والتخلي عن خدمته والانفراد بنفسه لاغتنام ما بقي من عمره في طاعة الله تعالى، فكان من أمره في ذلك ما نذكره.

سفر ابن الخطيب إلى مراكش وأعمالها وزيارته لأوليائها ورجالها والسبب في ذلك

كان ابن الخطيب رحمه الله عندما حصلت له هذه النكبة وخلصه الله منها بانتقاله إلى بلاد العدوة قد عنّ له رأي في التزهد والانقطاع إلى الله تعالى واغتنام بقية العمر فيما يعود نفعه في العاجل والآجل ورفض السلطان وأسبابه، وترك ما يلجئه للوقوف ببابه، فتلطف في استئذان السلطان أبي سالم رحمه الله وطلب منه الإذن في الذهاب إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الأقدمين بها والتطارح على أوليائها والمثول بأعتابها والتعلق بأذيالها والتمسك بأسبابها، جاعلاً ذلك مفتاح العزلة والتخلي عن الدولة فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه والاعتناء به، فتباروا في ذلك كما يفصح عنه بعض شعره الآتي، وجعل طريقه على مدينة سلا فتأمل أحوالها ورآها أوفق لمراده في العزلة، فأضمر الاستيطان بها عند عوده من وجهته. ولما دخل مدينة أنفى ـ وهي الدار البيضاء ـ مر بها على دار عظيمة تنسب إلى والي جبايتها عبو من بني الترجمان قارون قومه وغني صنفه، وكان قد هلك قبل ذلك فقال ابن الخطيب:

«قد مررنا بدار عبو الوالي ... وهي ثكلى تشكو صروف الليالي
أقصدت ربها الحوادث لما ... رشقته بصائبات النبال
كان بالأمس والياً مستطيلاً ... وهو اليوم ما له من والي»

وأظنه في هذه الوجهة خاطب شيخ العرب مبارك بن إبراهيم بن عطية ابن مهلهل الخلطي ونص ما خاطبه به:

«ساحات دارك للضياف مبارك ... وبضوء نار قراك يهدي السالك
ونوالك المبذول قد شمل الورى ... طرّاً وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذي قال الوجود قد انطوى ... والبأس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل ... والمجد ليس همام باتك
جمع الشجاعة والرجاحة والندى ... والبأس والرأي الأصيل مبارك
للدين والدنيا وللشيم العلا ... والجود إن شح الغمام السافك

عند الهياج ربيعة بن مكدم — والفضل والتقوى الفضيل ومالك
ورث الجلالة عن أبيه وجده — فكأنهم ما غاب منهم هالك
فجياده للآملين مراكب — وخيامه للقاصدين أرائك
فإذا المعالي أصبحت مملوكة — أعناقها بالحق فهو المالك
يا فارس العرب الذي من بيته — حرم لها حج به ومناسك
يا من يبشر باسمه قصاده — فلهم إليه مسارب ومسالك
أنت الذي استأثرت فيك بغبطتي — وسواك فيه مآخذ ومتارك
لا زلت نوراً يهتدي بضيائه — من جنه للروع ليل حالك
ويخص مجدك من سلامي عاطر — كالمسك صاك به الغوالي صائك

الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شهيراً، وجعلك للعرب أميراً، وجعل اسمك فالاً، ووجهك جمالاً، وقربك جاهاً ومالاً، وآل رسول الله ﷺ آلاً، أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها، وقطب سادتها وكبرائها، وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى، ومكرمة لا يضل المتصف بها ولا يشقى، إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه، واختلاف أشياعه، مأمناً للخائف، على كثرة المذاهب والطوائف، وصرف الألسنة إلى مدحك والخلود إلى حبك، وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك، ولقد كنت أيام تجمعني وإياك المجالس السلطانية على معرفتك متهالكاً، وطوع الأمل سالكاً، لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياء، والشيم الدالة على العلياء، وزكاء الأصول وكرم الآباء وكان والدي رحمه الله قد عين للقاء خال السلطان قريبكم لما توجه في الرسالة إلى الأندلس نائباً في تأنيسه عن مخدومه، ومنوهاً حيث حل بقدومه، واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفة، والرسائل المختلفة، فعظم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرف بزيارة ذلك الجناب الذي حلوله شرف وفخر، ومعرفته كنز وذخر، فلما ظهر الآن لمحل الأخ القائد فلان اللحاق بك والتعلق بسببك، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضي والله تعالى ييسر في البعض، عند تقرير الأمر وهدنة الأرض، وهذا الفاضل بركة حيث حل لكونه من بيت أصالة وجهاد،

وماجداً وابن أمجاد، ومثلك لا يوصى بحسن جواره، ولا ينبه على إيثاره، وقبيلك من العرب في الحديث والقديم، وهو الذي أوجب لها مزية التقديم، لم تفتخر قط بذهب يجمع، ولا ذخر يرفع، ولا قصر يبنى، ولا غرس يجنى إنما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزر تنحر وحديث يذكر وجود على الفاقة وسماحة بحسب الطاقة فلقد ذهب الذهب وفنى النشب وتمزقت الأثواب وهلكت الخيل العراب وكل الذي فوق التراب تراب وبقيت المحاسن تروى وتنقل والأعراض تجلى وتصقل ولله در الشاعر إذ يقول:

إنـمـا الـمـرء حـديـث بـعـده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى

هذه مقدمة إن يسر الله بعد لقاء ... الأمير فيجلى اللسان عما في الضمير

ومدحي على الأملاك وقف وإنما ... رايتك منها فامتدحت على وسمي

وما كنت بالمهدي لغيرك مدحتي ... ولو أنه قد حل في مفرق النجم

وقال في الشيخ ابن بطان الصنهاجي: صنهاجة آزمور:

«لله درك يـا ابـن بـطـان فـمـا ... لشهير جودك في البسيطة جاحد

إن كان في الدنيا كريم واحد ... يزن الجميع فأنت ذاك الواحد

أجريت فضلك جعفراً يحيى به ... ما كان من مجد فذكرك خالد

فالقوم منك تجمعوا في مفرد ... ولـد كـمـا شـاء الـعـلاء ووالـد

وهي الليالي لا تزال صروفها ... يشقى بموقعها الكريم الماجد

وبمستعين الله يصلح منك ما ... قد كان أفسده الزمان الفاسد»

وقال رحمه الله عندما توسط بسيط تامسنا:

كأنا بتامسنا نجوس خلالها ... وممدودها في سيرنا ليس يقصر

مراكب في البحر المحيط تخبطت ... ولا جهة تدري ولا البر يبصر

وقال رحمه الله يخاطب أبا العباس أحمد بن يوسف حفيد المولى الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رضي الله عنه:

«يا حفيد الولي يا وارث الفخـ ... ـر الـذي نـال فـي مـقـام وحـال

لك يا أحمد بن يوسف جبنا ... كل قطر يعي أكف الرحال»

وقال في نفاضة الجراب: لما خرجت من آسفي سرت إلى منزل ينسب إلى أبي حدو وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب فألطف وأجزل وآنس في الليل وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفة فكتبت له:

نزلنا على يعقوب نجل أبي حدو فعرفنا الفضل الذي ما له حد
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم ننله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث:

زحفت إليّ ركائب البرغوث نم الظلام بركبها المحثوث
بالحبة السوداء قابل مقدمي لله أي قرى أعد خبيث
كسحت بهن ذباب سرح تجلدي ليلاً فحبل الصبر جد رثيث
إن صابرت نفسي أذاه تعبدت أو صحت منه أنفت من تحنيثي
جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختي بمغيث

وقال رحمه الله وقد أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى:

«ماذا أحدث عن بحر سبحت به من البحار فلا إثم ولا حرج
دعاه مبتدع الأشياء مستوياً ما إن به درك كلا ولا درج
حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا صحت أبشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر داراً ومنزلة والشاهد العدل هذا الطيب والأرج

ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر ما صار إليه حالها بعد الموحدين قال:

بلد قد غزاه صرف الليالي وأباح المصون منه مبيح
فالذي خر من بناه قتيل والذي خر منه بعض جريح
وكأن الذي يزور طبيب قد تأتي له بها التشريح
أعجمت منه أربع ورسوم كان قدماً بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغاني وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما أصبح الدهر وهو عبد صريح

دوخوا نازح البسيطة حتى ... نال ما شاء ذابل وصفيح
حين شبت لهم من البأس نار ... ثم هبت لهم من النصر ريح
أثر يندب المؤثر لما ... طال بعد الدنو منه النزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى ... جسد بعد ما تولى الروح»

ومما قاله في الشيخ أبي العباس السبتي رضي الله عنه على لسان سلطانه الغني بالله وهو يومئذ بفاس:

«يا ولي الإله أنت جواد ... وقصدنا إلى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فجئنا ... نرتجي من علاك حسن الصنيع
فمددنا لك الأكف نرجي ... عودة العز تحت شمل جميع
قد جعلنا وسيلة تربك الزا ... كي وزلفى إلى العليم السميع
كم غريب أسرى إليك فوافى ... برضى عاجل وخير سريع»

وقال يخاطب عميد البلاد المراكشية، المتميز بالرأي والسياسة والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي الهنتاتي:

تقول لي الأظعان والشوق في الحشا ... له الحكم يمضي بين ناه وآمر
إذا جبل التوحيد أصبحت فارعاً ... فخيم قرير العين في دار عامر
وزر تربة المعلوم إن مزارها ... هو الحج يسعى نحوه كل ضامر
ستلقى بمثوى عامر بن محمد ... ثغور الأماني من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهه ... ولله ما تلقاه من يمن طائر
وتستعمل الأمثال في الدهر منكما ... بخير مزور أو بأغبط زائر

لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيام والليال، إذ الشمل جميع، والزمان كله ربيع، والدهر سميع مطيع، إلا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية، فلما حم الواقع، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع، وأصبحت

ديار الأندلس وهي البلاقع، وحسنت من استدعائك إياي المواقع، وقوي العزم وإن لم يكن ضعيفاً، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً، والتمست الإذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريفاً، واستقبلتك بصدر مشروح، وزند للعزم مقدوح، والله سبحانه وتعالى يحقق السول، ويسهل بمثوى الأماثل المثول، ويهيئ من قبيل هنتاتة القبول، بفضله» انتهى.

ولما ذهب إلى عامر بن محمد المذكور ورقي الجبل زار الموضع الذي توفي به السلطان أبو الحسن رحمه الله، وقد ألم بذكر ذلك في «نفاضة الجراب»، إذ قال: وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله حيث أصابه طارق الأجل الذي فصل الخطة، وأصمت الدعوة ورفع المنازعة، وعاينته مرفعاً عن الابتذال بالسكنى مفروشاً بالحصباء، مقصوداً بالابتهال والدعاء فلم أبرح يوم زيارته أن قلت:

يا حسنها من أربع وديار ... أضحت لباغي الأمن دار قرار
وجبال عز لا تذل أنوفها ... إلا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد واس خلافة ... آثارها تبنى عن الأخبار
ما كنت أحسب أن أنهار الندى ... تجري بها في جملة الأنهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحجا ... تلتاح في قنن وفي أحجار
مجت جوانبها البرود وإن تكن ... شبت بها الأعداء جذوة نار
هدت بناها في سبيل وفائها ... فكأنها صرعى بغير عقار
لما توعدها على المجد العدا ... رضيت بعيث النار لا بالعار
عمرت بحلة عامر وأعزها ... عبد العزيز بمرهف بتار
فرسا رهان أحرزا قصب الندى ... والباس في طلق وفي مضمار
ورثا عن الندب الكبير أبيهما ... محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهي شبيهة ... بالأصل في ورق وفي أثمار
أزرت وجوه الصيد من هنتاتة ... في جوها بمطالع الأقمار
لله أي قبيلة تركت لها الـ ... ـنظراء دعوى الفخر يوم فخار
نصرت أمير المسلمين وملكه ... قد أسلمته عزائم الأنصار

وارت علياً عند ما عظم الردى والروع بالأسماع والأبصار
وتخاذل الجيش اللّهام وأصبح الأ بطال بين تقاعد وفرار
كفرت صنائعه فيمم دارها مستظهراً منها بعز جوار
وأقام بين ظهورها لا يتقي وقع الردى وقد ارتمى بشرار
فكأنها الأنصار لما أن سمت فيما تقدم غربة المختار
لما غدا لحظاً وهم أجفانه نابت شفارهم عن الأشفار
حتى دعاه الله بين بيوتهم فأجاب ممتثلاً لأمر الباري
لو كان يمنع من قضاء الله ما خلصت إليه نوافذ الأقدار
قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما أولوه لولا قاطع الأعمار
ما كان يقنعه لو امتد المدى إلا القيام بحقها من دار
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
حتى تفوز على النوى أوطانها من ملكه بجلائل الأوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم أثر العناية ساطع الأنوار
ويسوغ الأمل القصي كرامها من غير ما ثنياً ولا استعصار
ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجا عن درهم فيهم ولا دينار
أو أن يتوج أو يقلد هامها ونحورها بأهلة ودراري
حق على المولى ابنه إيثار ما بذلوه من نصر ومن إيثار
فلمثلها ذخر الجزاء، ومثله من لا يضيع صنائع الأحرار
وهو الذي يقضي الديون وبره يرضيه في علن وفي أسرار
حتى تحج محلة رفعوا بها علم الوفاء لأعين النظار
فيصير منها البيت بيتاً ثانياً للطائفين إليه أي بدار
تغني قلوب القوم عن هدى به ودموعهم تكفي لرمي جمار
حييت من دار تكفل سعيها الـ ـمحمود بالزلفى وعقبى الدار
وضفت عليك من الإلٰه عناية ما كرّ ليل فيك أثر نهار»

ويعني بالمولى ابنه: السلطان أبا سالم بن أبي الحسن. ثم سار ابن الخطيب إلى أغمات فزار مشاهدها وشاهد معاهدها فحكى عن نفسه رحمه الله

قال: «وقفت على قبر المعتمد بن عباد في مدينة أغمات في حركة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين، ومشاهدة الآثار سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض، وقد حفت به سدرة، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك، وعليهما أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك. فلم تملك العين دمعها عند رؤيتهما فأنشدت في الحال:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أولى المهمات

لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً ... ويا سراج الليالي المدلهمات

وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه ... إلى حياتي لجادت فيه أبيات

أناف قبرك من هضب يميزه ... فتنتحيه حفيات التحيات

كرمت حيّاً وميتاً واشتهرت علاً ... فأنت سلطان أحياء وأموات

مارئي مثلك في ماضٍ، ومعتقدي ... ألا يرى الدهر في حال ولا آت

ولما انكفأ ابن الخطيب رحمه الله راجعاً من سفرته هذه وانتهى إلى سلا أقام بها منتبذاً عن سلطانه، رافضاً للملك وأسبابه طول مقامه بالمغرب على ما نذكره إن شاء الله.

بقية أخبار ابن الخطيب بسلا حرسها الله

قد قدمنا أن ابن الخطيب كان قد عزم على التخلي عن الدنيا والانقطاع إلى الله تعالى، وأنه اختار أن يكون مقامه بسلا لكونها يومئذ أعون له على مراده من غيرها حسبما يؤخذ ذلك من مواضع من كلامه، من ذلك أنه لما وصف أمصار الأندلس والمغرب في مقاماته المشهورة، وصف مدينة سلا بقوله: «العقيلة المفضله، والبطيحة المخضله، والقاعدة المؤصله، والسورة المفصله، ذات الوسامة والنضاره، والجامعة بين البداوة والحضاره، معدن القطن والكتاب، والمدرسة والمارستان، والزاوية كأنها البستان، والوادي المتعدد الأجفان، القطر الأمين عند الرجفان، والعصير العظيم الشأن، والأسواق السارة حتى برقيق الحبشان اكتنفها المسرح، والخصب الذي لا

يبرح، والبحر الذي يأسو ويجرح، وشقها الوادي الذي يتمم محاسنها ويشرح، وقابلها الرباط، الذي ظهر به من المنصور الاغتباط، حيث القصبة والساباط، ثم يقع الانحطاط إلى شالة مرعى الذمم ونتيجة الهمم، ومشمخ الأنوف ذوات الشمم، وعنوان الرمم، حيث الحسنات المكتتبة، والأوقاف المرتبة، والقباب كالأزهار، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وطلل حسان المثل في الاشتهار، وهي على الجملة من غيرها أوفق، ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق، ومقبرتها المنضدة عجب في الانتظام، معدودة في المواقف العظام، ويتأتى بها للعباد الخلوة، وتوجد عندها للهموم السلوة، كما قال ابن الخطيب:

وصلت حثيث السير فيمن فلى الفلا   فلا خاطري لما نأى وانجلا انجلا
ولا نسخت كربي بقلبي سلوة   فلما سرى فيه نسيم سلا، سلا

وكفى بالشابل رزقاً طرياً، وسمكاً بالتفضيل حرياً، يبرز عدد قطر الديم، ويباع ببخس القيم، ويعم المجاشر النائية والخيم» اهـ.

وما قاله في حق سلا من كونها تتأتى بها للعباد الخلوة، هو كذلك معروف عند صلحاء المغرب وعباده من لدن قديم، ولذا لما قدم أبو العباس بن عاشر رضي الله عنه من الأندلس، وتنقل في بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة، لم يطب له القرار إلاّ بسلا، وقد صرح رضي الله عنه بذلك حيث قال:

سلا كل قلب غير قلبي ما سلا   أيسلو بفاس والأحبة في سلا
بها خيموا فالقلب خيم عندهم   فأجروا دموعي مرسلاً ومسلسلا

ولما ذكر أبو العباس الصومعي رحمه الله في كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه استحباب زيارة الأولياء قال ما نصه: «ولا سيما في مشاهد الأخيار إذا اجتمعوا في مكان من الأمكنة المشرفة كما كانوا يجتمعون قبل هذا برباط شاكر، وبساحل دكالة، وبسلا، وبجبل العلم، وعند

الشيخ أبي يعزى في أيام الربيع وغير ذلك» اهـ.

وأقول على ذكر سلا: فقد كتب إليّ، وأنا بمراكش حرسها الله، الأخ في الله الفقيه الأديب المحاضر أبو عبد اللّه محمد بن عزوز الرباطي أصلاً المراكشي داراً، بطاقة يقول فيها ما نصه: «الحمد لله وحده. السيد الأخ، الذي ثوب إخائه ما اتسخ، الفقيه العلامة، اللابس من أسلحة العلوم الدرع واللامة، أبا العباس السيد أحمد الناصري سلام عليك سلاماً ذكي العرف رائج الصرف، وبعد، فقد اشتقنا إلى لذيذ مذكراتكم، وحلو فكاهتكم، والآن نحب من السيادة أن تشرفونا بنقل قدمكم وتكرمونا بطلعتكم السعيدة، بكرة غد إن شاء الله وعلى المحبة والسلام في فاتح رجب الفرد سنة أربع وتسعين ومائتين وألف، وألحق بأسفلها ما نصه:

سلا البحر ما بحر بنيت بشطه	كبحر علوم فيك أنشئ صالحا
فهذا هو الفياض بالعلم والتقى	وذاك هو الفياض بالماء مالحا

ولم ندر هل البيتان له أو تمثل بهما، وعلى كل حال فما قاله حفظه الله إنما حمله عليه حسن نيته وصفاء طويته وأما المكتوب إليه بهما فلا والله لا علم ولا تقى، إلا أن يتغمدنا الله برحمته، ثم إني أجبته بنثر تركته للاختصار ووصلته بأبيات أقول فيها ما نصه:

بعثت أبا عبد الإلٰه مدائحا	هو الدر حسناً والشذور لوائحا
فنبهت فكراً طالما بات نائماً	وروضت ذهناً طالما ظل جامحا
وشيدت من ذكري وقد كان خاملاً	وهيجت من قلبي الشجي القرائحا
وطوقتني النعمى بتقريضك الذي	به ظل مجدي للنجوم مصافحا
وإلا فما قدري وإن جد جده	وما قيمتي لو لم تكن لي مادحا
فأنت أديب العصر حقاً ومن غدا	لعمري لأبواب المعارف فاتحا
فخذ من أخيك العي واستر عيوبه	وسامح فظني أن تكون مسامحا
فوصفك يعيي كل أشدق بارع	ولو ظل في بحر البلاغة سابحا
فلقيت من ذي العرش كل كرامة	ووقيت من هذا الزمان الطوائحا

ولا زال هذا الدهر طوعك خادماً علاك وطرف السعد نحوك طامحا

ومما مدح به سلا وأهلها قول الإمام العلامة الهمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي رضي الله عنه:

مرسى سلا مأوى الشمم والمجد عن طول الأمم
بلد بحسبك منظر منه ومخبره أتم مسري الهموم ومسرح الأبصار مسلاة الغمم
مترفلاً في حلة من حسنه جنب العلم كالحرة الحسناء في كنف الهمام المحترم
وتراه من جناته متلألئاً بين الأجم كالدر بين زمرد في قرط مارية انتظم
وكوجه خود حفه السوالف في دلم وكغرة في أدهم والصبح في جنح الإحم
والثغر من زنجية ترنو إليه وقد بسم والبدر ما بين الدجى والشيب في سود اللمم
يعلو فويق جنبه علم تدلى من أمم فكأنه تاج اللجين على جبيني ذي عظم
أو كالكبير مزملاً أودى بنهضته الهرم في رأسه صلع وفيما تحت جبهته غمم
أو كالجواد بأنفه من ذلك القصر الرثم يكفيك منه هواؤه لا خبث فيه ولا وخم
عجباً صحيح والهوى أبداً عليل ذو سقم وزلاله العذب الذي يشفي الفؤاد من الضرم
حاكى العقار وفاقها بصفاء لون الشيم أبناء مجد في الألى كانوا يراعون الذمم
من نيلهم دون العويص ونبلهم خلف الحرم ونفيسهم فقع الفلا ونفوسهم بيض الرخم
من كل أبيض وجهه تجلى به سدف الظلم في الخطب بدر لامع ولدى الندى بحر خضم
وأحبة كانوا لنا كالماء بالراح التأم لم يعد بين بيننا ولو الفراق بنا ألم
البين بين جسومنا لا بين أنفسنا يحم والعهد حبل ما انفصا عنه الوداد ولا انفصم
والصدق نهج قد علا في كل أوجهه علم والبر مرعاه قرى من فيه للحسنى قرم
والنفس أرض قد كرا المعين ذوو الكرم والدين روض قد رعى فيه من العقبى رعم
والعلم ورد ما حلا إلا لمن نزع الحلم والسر برق ما أضا إلا لمن غسل الإضم
والدهر دولاب شما فيه سوى أهل الشمم من ذاق مورده الصري يوماً فللدنيا صرم

ولنرجع إلى بقية أخبار ابن الخطيب.

ولما استقر بسلا واطمأن جنبه بها قال:

يا أهل هذا القطر ساعده القطر بليت فدلوني لمن يرفع الأمر

تشاغلت بالدنيا ونمت مفرطاً وفي شغلي أو نومتي سرق العمر

ثم حرص على لقاء الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه حتى ظفر به فعظم سروره بذلك وتبجح به إذ قال في «نفاضة الجراب»: «ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولي الزاهد الكبير، المنقطع القرين، فراراً عن زهرة الدنيا وعزوفاً عنها، وإغراقاً في الورع وشهرة بالكشف، وإجابة الدعوة وظهور الكرامات: أبا العباس بن عاشر، يسر الله تعالى لقاءه، على تعذره، لصعوبة تأتيه وكثافة هيبته، قاعداً بين القبور في الخلاء، رث الهيئة مطرق اللحظ، كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة، قد ضرسه أهل الدنيا وتطارحهم فهو شديد الاشمئزاز من قاصده، مجرمز للوثبة من طارقه نفع الله تعالى به» اهـ كلامه في «النفاضة» وقال رحمه الله من قصيدته العينية السلاوية التي وجهها إلى سلا أيام خلف بها أهله وولده:

بـولـي الله فـابـدأ وابـتـدر واحـد الأحـاد فـي بـاب الـورع

ومراده بولي الله ابن عاشر المذكور.

ثم إن ابن الخطيب بعد رجوعه من مراكش جعل ينتاب رباط شالة مدفن الملوك من بني مرين، ومنهم السلطان أبو الحسن رحمه الله للدعاء وقراءة القرآن بها وتعاهدها، وقد كتب بذلك إلى السلطان أبي سالم وطلب منه أن يشفع له عند أهل الأندلس في رد متاعه الذي أتلفوه عليه أيام النكبة، ونص الكتاب: «مولاي، المرجو لإتمام الصنيعة وصلة النعمة وإحراز الفخر، أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الأمثال في البر والرضا وعلو الهمة ورعي الوسيلة، مقبل موطئ قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم، ابن الخطيب، من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة وتيمم بالتربة الزكية وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إيابه من الوجهة المباركة، وزيارة الربط المقصودة، والترب المعظمة، وقد عزم أن لا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم ما

يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض، ثم عليكم، والتماس شفاعته في أمر سهل عليكم، لا يجر إنفاد مال ولا اقتحام خطر إنما هو إعمال لسان وخط بنان وصرف عزم وإحراز فخر وإطابة ذكر وأجر وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب، يعنى ابن مرزوق، سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم: «أنت يا فلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين» وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم، والعبد الآن يعرض عليكم الجواب وهو: أني لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملأ الكبير، والجم الغفير، أكببت على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً وأصغيت بإذني نحو قبره وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله، فكأني به يقول لي: «قل لمولاك يا ولدي وقرة عيني المخصوص برضاي وبري وستر حريمي ورد ملكي، وصان أهلي وأكرم صنائعي، ووصل عملي، أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك، الدنيا دار غرور ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: 77]، «وما الناس إلا هالك وابن هالك» ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعرف فما أنكر، وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري وتهمم بي، وسبق الناس إلى رثائي، وأنشدني ومجدني وبكى لي ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك، وعفر وجهه في تربتي، وأملني لمّا انقطعت مني آمال الناس فلو كنت يا ولدي حياً لما وسعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي، وأن أستقل فيه الكثير، وأحتقرن العظيم لكن لما

عجزت عن جزائه وكلته إليك، وأحلته يا حبيب قلبي عليك، وقد أخبرني أنه سليب المال كثير العيال، ضعيف الجسم، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن، وأمل أن ينقطع بجواري ويستتر بدخيلي وخدمتي، ويرد عليه حقه بخدمتي ووجهي، ووجوه من ضاجعني من سلفي، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتي، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة، وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة، أبو عبد اللّه بن مرزوق فاسأله يذكرك، واستخبره يخبرك، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء، وله يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك وقد استقر ببابك قراره، وتعين بأمرك مرتبه ودثاره، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب هذه رغبتي منك وحاجتي إليك، واعلم أن هذا الحديث لا بد أن يذكر ويتحدث في الدنيا، وبين أيدي الملوك والكبراء فاعمل ما يبقى لك فخره ويتخلد ذكره وقد أقام مجاوراً ضريحي تالياً كتاب الله تعالى على منتظراً ما يصله منك ويقرأه على من السعي في خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة، فالله الله، يا إبراهيم اعمل ما يسمع عني وعنك فيه، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال.» اهـ والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه، منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتتحققوا أنني لو ارتكبت الجرائم، ورزأت الأموال وسفكت الدماء، وأخذت خسائف الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التتار، وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة، وأمكنهم الله تعالى مني من غير عهد، بعد أن بلغهم تذلمي بهذا الدخيل، ومقامي بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحد منهم، من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يغفلها الكبار للكبار، إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل، والعفو الذي لا تفسده المؤاخذة،

فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى وعلا بموالاتكم، فهو فاضل وابن ملوك أفاضل، وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم، وقدر سلفكم لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم، فقد كان يتبنى مولاي أبا الحجاج ويشمله بنظره وصارخه بنفسه وأمده بأمواله، ثم صير الله تعالى ملكه إليكم، وأنتم من أنتم ذاتاً وقبيلاً، فقد قرت يا مولاي عين العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم وكثرة جنودكم، وترادف أموالكم وعددكم، زادكم الله تعالى من فضله، ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم وأعرضت عن ذلك الوطن الأندلسي استوت عليه يد عدوه، وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان، وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم، وشهرة حرمة شالة معروفة حاش لله أن يضيعها أهل الأندلس، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة، وأملي منكم أن يتعين من بين يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي، ويخبر بمثواي مترامياً على قبر والدكم، ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة علكيم وعلى قبيلكم حيث كانوا، وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة، ومن المعلوم أني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل، وهذا الوطن، فالحياء والحشمة يأبيان العذر عن هذا في كل ملة ونحلة، وإذا تم هذا الغرض، ولا شك في إتمامه بالله تعالى، تقع صدقتكم على القبر الكريم بي، وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده، ومدح النبي ﷺ ليلة المولد في جواره وبين يديه وهو غريب مناسب لبركم به، إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم، وأعود داعياً مثنياً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب، وأتعوض من ذمتي بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم، ولو ظننت أنهم

يتوقفون لكم في مثل هذا، أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء، والله ما طلبته، لكنهم أسرى وأفضل، وانقطاعي أيضاً لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه، وها أنا أترقب جوابكم بما لي عندكم من القبول، ويسعني مجدكم في الطلب وخروج الرسول، لاقتضاء هذا الغرض والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به والسلام وكتب في الحادي عشر من رجب سنة إحدى وستين وسبعمائة» وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة:

مولاي ها أنا في جوار أبيكا ... فابذل من البر المقدر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى ... والله يسمعك الذي يرضيكا
واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة ... تهدي إليك النصر أو تهديكا
واجبر بجبري قلبه تنل المنا ... وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذي سن البرور بأمه ... وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذراً ومحذراً ... وبما تؤمل نيله يأتيكا
قد هز عزمك كل قطر نازح ... وأخاف مملوكاً به ومليكا
فإذا سموت إلى مرام شاسع ... فغصونه ثمر المنا تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبي ... لما جعلتك في الثواب شريكا
فلئن كفيت وجوهها في مقصدي ... ورعيتها بركاتها تكفيكا
وإذا قضيت حوائجي وأريتني ... أملاً فربك ما أردت يريكا
واشدد على قولي يداً فهو الذي ... برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاي ما استأثرت عنك بمهجتي ... إني ومهجتي التي تفديكا
لكن رأيت جناب شالة مغنماً ... يضفي على العز في ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقتها ... باق إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتني وتكرر الوعد الذي ... أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله ستر عناية ... من كل محذور الطريق يقيكا
ببقائك الدنيا تحاط وأهلها ... فالله جل جلاله يبقيكا

وقال أيضاً في الغرض المذكور:

عن باب والدك الرضي لا أبرح ... يأسو الزمان لأجل ذا أو يجرح
ضربت خيامي في حماه فصبيتي ... تجني الحميم به وبهمي تسرح
حتى يراعي وجهه في وجهتي ... بعناية تشفي الصدور وتشرح
أيسوغ عن مثواه سيري خائباً ... ومنابر الدنيا بذكرك تصدح
أنا في حماه وأنت أبصر بالذي ... يرضيه منك فوزن عقلك أرجح
في مثلها سيف الحمية ينتضي ... في مثلها زند الحفيظة يقدح
وعسى الذي بدأ الجميل يعيده ... وعسى الذي سدا المذاهب يفتح

فأجابه السلطان أبو سالم رحمه الله بما صورته: «من عبد اللّه المستعين بالله، إبراهيم أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق أيد الله أمره وأعز نصره إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى، الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعرف الأكمل أبي عبد اللّه ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبي محمد بن الخطيب وصل الله عزته ووالى رفعته، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم، والرضا على آله وصحبه أعلام الإسلام، وأئمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعيني بالنصر الأعز والفتح الأسنى، فإنا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمر ونجح القول والعمل، من منزلنا الأسعد بضفة وادي ملوية يمنه الله، وصنع الله جميل ومنه جزيل، والحمد لله، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل، والعناية المتكفلة برعي الوسائل، ذلكم بما تميزتم به من التمسك بالجناب العلي المولوي العلوي جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه، وسقاه غيوث رحمته وحنانه، وبما أهديتم إلينا من التقرب لدينا بخدمة ثراه الطاهر، والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر، وإلى هذا وصل الله حظوتكم

ووالى رفعتكم، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده، المقابل بالإسعاف المستعذب ورده، فوقفنا على ما نصه، واستوفينا ما شرحه وقصه، فآثرنا حسن تلطفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا، وفي الحين عيَّنا لكمال مطلبكم وتمام مأربكم والتوجه بخطابنا في حقكم والاعتمال بوفقكم خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت، وأبا زكرياء بن فرقاجة أنجدهما الله وتولاهما، وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم بعد التأكيد عليهما فيه، وشرح العمل الذي يوفيه، فكونوا على علم من ذلكم، وابسطوا له جملة آمالكم، وإنا لنرجو ثواب الله في جبر أحوالكم وبرء اعتلالكم، والله سبحانه يصل مبرتكم، ويتولى تكرمتكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتب في الرابع والعشرين من رجب سنة إحدى وستين، فراجعه ابن الخطيب بما نصه: «مولاي خليفة الله بحق، وكبير ملوك الأرض عن حجة، ومعدن الشفقة والحكمة ببرهان وحكمة، أبقاكم الله تعالى على الدرجة في المنعمين، وافري الحظ عند جزاء المحسنين، وأراكم ثمرة بر أبيكم في البنين، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد، وأذاق العذاب الأليم من أراد في مثابتكم بإلحاد، عبدكم الذي ملكتم رقه، وآويتم غربته، وسترتم أهلَه وولده، وأسنيتم رزقه، وجبرتم قلبه، يقبل موطئ الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر الفارغة هضبة العز المعملة الخطوة في مجال السعد ومسير الحظ. ابن الخطيب من شالة التي تأكد بملككم الرضى احترامها، وتجدد برعيتكم عهدها، واستبشر بملككم دفينها، وأشرق بحسناتكم نورها، وقد ورد على العبد الجواب المولوي البر الرحيم، المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل، والقدر الرفيع، والهمة السامية، والعزة القعساء من رعي الدخيل، والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الأب الكريم، فثاب الرجاء وانبعث الأمل، وقوي العضد وزار اللطف، فالحمد لله الذي أجرى الخير على يدكم الكريمة، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين، المتوسل إليكم أولاً بقبورهم ومتعبداتهم وتراب

أجداثهم، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين، الذي تسبب في وجودكم واختصكم بحبه، وغمركم بلطفه وحنانه، وعلمكم آداب الشريعة وأورثكم ملك الدنيا، وهيأتكم دعواه بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساخ البقاء، وفي علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه ناقة في جوار رئيس منهم، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك مما أهينت فيه الأنفس وهلكت الأموال، وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولاً إلى حماكم بالأهل والولد، عن حسنة تبرعتم بها، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها، ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين، خافق القلب، واهي الفزعة، يتغطى بردائه، ويستجير بعليائه، كأنني تراميت عليهم في الحياة، أمام الذعر يذهل العقل، ويحجب عن التميز بقصر داره ومضجع رقاده، ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة: ياليعقوب، يالمرين، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم، ولا يسلبني عنايتكم، ويستعملني ما بقيت في خدمتكم، ويتقبل دعائي فيكم، ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس، ووضعته بإزائه وقلت: يا مولاي يا كبير الملوك، وخليفة الله وبركة بني مرين صاحب الشهرة والذكر في المشرق والمغرب عبدك المنقطع إليك المترامي بين يدي قبرك، المتوسل إلى الله ثم ولدك بك، ابن الخطيب، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعي وجهك، والتقرب إلى الله برعيك، والاشتهار في مشرق الدنيا ومغربها ببرك، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنيعة كملها، وإذا منّ منة تممها، وإذا أسدى يداً أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة، وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك، حتى يتم أملي ويخلص قصدي، وتحف نعمتك بي ويطمئن إلى مأمنك قلبي، ثم قلت للطلبة أيها السادة بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم، فأمنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم، واندفعت في الدعاء

والتوسل الذي أرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه، وخاطب العبد مولاه شاكراً لنعمته مشيداً بصنيعته ومسروراً بقبوله، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه، حتى يكمل القصد، ويتم الغرض معمور الوقت بخدمة يرفعها ودعاء يردده والله المستعان» اهـ.

ولما وصل كتاب السلطان أبي سالم إلى أهل الأندلس أعظموا وسيلته، وقبلوا شفاعته، وردوا إلى ابن الخطيب ما تأتى رده مما كان ضاع له وأتلف عليه، واستمر مقيماً بسلا سنتين وزيادة، ثم استدعاه سلطانه الغني بالله إلى الأندلس بعد رجوعه إليها واحتوائه على ملكها، فأجاب حياء لا رغبة، ومكرهاً لا بطلاً، إلى أن كان ما نذكره من شأنه بعد ذلك إن شاء الله، ونوادره بسلا وما جرياته كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

انتقاض الحسن بن عمر الفودودي وخروجه بتادلا ثم مقتله عقب ذلك

قد قدمنا أن السلطان أبا سالم لما استولى على ملك فاس والمغرب عقد للحسن بن عمر على مراكش، ووجهه إليها تخففاً منه وريبة بمكانه من الدولة فاستقر بها وتأثلت له بها رياسة نفسها عليه أهل مجلس السلطان وسعوا فيه عنده حتى تنكر له وأظلم الجو بينهما وأحس الحسن بن عمر بذلك فخشي على نفسه، وخرج من مراكش في صفر سنة إحدى وستين وسبعمائة فلحق بتادلا منحرفاً عن السلطان ومرتكباً للخلاف، فتلقاه بنو جابر من عرب جشم وأجاروه واعصوصبوا عليه، فسرح إليه السلطان أبو سالم وزيره الحسن بن يوسف الورتاجني فاحتل بتادلا، وانشمر الحسن بن عمر إلى الجبل بها فاعتصم به ومعه كبير بني جابر الحسن بن علي الورديغي، فأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم، وداخل الوزير بعض أهل الجبل من برابرة صناكة في الثورة بهم، وسرب إليهم المال فثاروا بهم وانفض جمعهم، وتقبضوا على الحسن بن عمر وقادوه برمته إلى الحسن بن يوسف فاعتقله، وانكفأ راجعاً به إلى الحضرة فدخلها في يوم مشهود استركب السلطان فيه الجند،

وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد، وحمل الحسن بن عمر على جمل فطيف به بين تلك الجموع، ولما قرب من مجلس السلطان أومأ إلى تقبيل الأرض من فوق جمله، ثم ركب السلطان إلى قصره، وانفض الجمع وقد شهر الحسن بن عمر وأصحابه فصاروا عبرة لمن اعتبر.

ولما دخل السلطان قصره، جلس على كرسيه واستدعى خاصته وجلساءه، وأحضر ابن عمر فوبخه، وقرر عليه ذنوبه، فتلوى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار. قال ابن خلدون: «وحضرت هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من الخاصة فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبرة». ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه، ونتفت لحيته وضرب بالعصى، وثل إلى محبسه ثم قتل بعد ليال قعصاً بالرماح خارج البلد ونصب شلوه بباب المحروق رحمه الله تعالى.

نهوض السلطان أبي سالم إلى تلمسان واستيلاؤه عليها

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج منه سمت همته إلى تملك تلمسان كما كان لأبيه وأخيه من قبل، وأكد عزمه على ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم الزرد إلى عاملهم على درعة إليها فأجمع السلطان أبو سالم النهوض إليها، وعسكر بظاهر فاس الجديد منتصف سنة إحدى وستين وسبعمائة، ولما توافت لديه الحشود، وتكاملت بسدته الجنود، ارتحل إلى تلمسان.

واتصل خبر نهوضه بسلطانها أبي حمو بن يوسف الزياني، ووزيره عبد الله بن مسلم الزردالي فنادوا في العرب من بني عامر بن زغبة وبني معقل فأجابوهم كافة الأشرذمة قليلة من الأحلاف، ثم خرج أبو حمو وشيعته عن تلمسان إلى الصحراء والتفت عليه العرب بحللها.

ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان واستولى عليها خالفه أبو حمو في عربه إلى المغرب فنزلوا آكرسيف ووطاط وبلاد ملوية وحطموا زروعها وانتسفوا بركتها وخربوا عمرانها، وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من إفسادهم فأهمه أمر المغرب، وكان في جملته من بني زيان محمد بن عثمان ابن

السلطان أبي تاشفين، ويكنى: أبا زيان، فعقد له على تلمسان، وأعطاه الآلة وجمع له جيشاً من مغراوة وبني توجين، ودفع لهم أعطياتهم، وانكفأ راجعاً إلى فاس، فأجفل أبو حمو والعرب أمامه، ثم خالفوه إلى تلمسان فطردوا عنها أبا زيان واستولوا عليها، وثبت قدم أبي حمو بها، وعاد أبو زيان إلى المغرب لاحقاً بالسلطان أبي سالم قبله، وعقد المهادنة مع أبي حمو واستقر الأمر على ذلك. وقد كان ابن الخطيب عندما بلغه استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان هنأه بقصيدة طويلة يقول في مطلعها:

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

ويقول في أثنائها وقد ألم بشيء من علم الأحكام النجومية لميل السلطان إليه:

ولله من ملك سعيد ونصبة قضى المشتري فيها بعزلة كيوان
وسجل حكم العدل من بيوتها وقوفاً مع المشهور من رأي يونان
فلم تخشى سهم القوس صفحة بدرها ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان
ولم يعترض مبتزها قطع قاطع ولا نازعت نوبهرها كف عدوان
تولى اختيار الله حسن اختيارها فلم يحتج الفرغان فيها لفرغان
ولا صرفت فيها دقائق نسبة ولا حققت فيها طوالع بلدان

وفادة السودان من أهل مالي على السلطان أبي سالم وإغرابهم في هديتهم بالزرافة الحيوان المعروف

قد تقدم لنا ما جرى من المواصلة بين السلطان أبي الحسن والسلطان منسا موسى وأخيه أو ابنه من بعده منسا سليمان وتردد الوفود وإسناء الهدايا بينهم وقد كان السلطان منسا سليمان قد هيأ هدية نفيسة بقصد أن يبعثها إلى السلطان أبي الحسن مكافأة له على هديته فهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك، ثم هلك السلطان منسا سليمان بعده، واختلف أهل مالي وافترق أمرهم وتقاتلوا على الملك إلى أن جمع الله كلمتهم على السلطان منسا زاطة، واستوسق له الأمر ثم نظر في أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية التي كان منسا

سليمان قد هيأها لملك المغرب فأمر بإنفاذها إليه وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات، وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى حضرة فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

قال ابن خلدون: وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود، ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء، فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزرافة إعجاباً بخلقتها، وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر، وتعظيم سلطانهم وما صار إليه، والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم، عادة معروفة لهم، وحيوا السلطان بأن جعلوا يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم، وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال، ثم ركب السلطان إلى قصره، وانفض ذلك الجمع، وقد طار به طائر الاشتهار، واستقر الوفد تحت جراية السلطان أبي سالم إلى أن هلك قبل انصرافهم فوصلهم القائم بالأمر من بعده وانصرفوا إلى مراكش، ثم منها إلى ذوي حسان عرب السوس الأقصى من بني معقل المتصلين ببلادهم، ومن هناك لحقوا بسلطانهم. والأمر كله لله.

وكان مما قيل من الشعر في ذلك اليوم: قول ابن خلدون من قصيدة يقول في مطلعها:

قدحت يد الأشواق من زند	وهفت بقلبي زفرة الوجد

إلى أن قال في وصف الزرافة:

ورقيمة الأعطاف حالية	موشية بوشائع البرد
وحشية الأنساب ما أنست	في موحش البيداء بالقرد
تسمو بجيد بالغ صعدا	شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به	ولربما قصرت عن الوهد

قطعت إليك تنائفاً وصل أسئادها بالنص والوخد
تحدى على استصعابها ذللاً وتبيت طوع القن والقد
بسعودك اللائي ضمن لنا طول الحياة بعيشة رغد
جاءتك في وفد الأحابش لا يرجون غيرك مكرم الوفد
وافوك أنضاء تقلبهم أيدي السرى بالغور والنجد
كالطيف يستقري مضاجعه أو كالحسام يسل من غمد
يثنون بالحسنى التي سبقت من غير إنكار ولا جحد
ويرون لحظك من وفادتهم فخراً على الأتراك والهند
يا مستعيناً جل في شرف عن رتبة المنصور والمهدي
جازاك ربك عن خليقته خير الجزاء فنعم ما تسدى
وبقيت للدنيا وساكنها في عزة أبداً وفي سعد

وقول الكاتب البارع أبي عبد الله بن زمرك الأندلسي من قصيدة يقول في مطلعها:

لولا تألق بارق التذكار ما صاب واكف دمعي المدرار
لكنه مهما تعرض خافقاً قدحت يد الأشواق زند أواري

إلى أن قال في الغرض المذكور:

وغريبة قطعت إليك على الونى بيداً تبيد بها هموم الساري
تنسيه طيته التي قد أمها والركب فيها ميت الأخبار
يقتادها من كل مشتمل الدجى فكأنما عيناه جذوة نار
تشدو بحمد المستعين حداتها يتعللون به على الأكوار
أن مسهم لفح الهجير أبلهم منه نسيم ثنائك المعطار
خاضوا بها لجج الفلا فتخلصت منها خلوص البدر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلها وكفى بسعدك حامياً لذمار
وأتتك يا ملك الزمان غريبة قيد النواظر نزهة الأبصار
موشية الأعطاف رائقة الحلى رقمت بدائعها يد الأقدار
راق العيون أديمها فكأنه روض تفتح عن شقيق بهار

ما بين مبيض وأصفر فاقع ... سال اللجين به خلال نضار
يحكي حدائق نرجس في شاهق ... تنساب فيه أراقم الأنهار
تحدو قوائم كالجذوع وفوقها ... جبل أشم بنوره متواري
وسمت بجيد مثل جذع مائل ... سهل التعطف لين خوار
تستشرف الجدرات منه ترائباً ... فكأنما هو قائم بمنار
تاهت بكلكلها وأتلع جيدها ... ومشى بها الإعجاب مشي وقار
خرجوا لها الجم الغفير وكلهم ... متعجب من لطف صنع الباري
كل يقول لصحبه قوموا انظروا ... كيف الجبال تقاد بالأسيار
ألقت ببابك رحلها ولطالما ... ألقى الغريب به عصا التسيار
علمت ملوك الأرض أنك فخرها ... فتسابقت لرضاك في مضمار
يتبوؤون به وإن بعد المدى ... من جاهك الأعلى أعز جوار
فارفع لواء الفخر غير مدافع ... واسحب ذيول العسكر الجرار
واهنأ بأعياد الفتوح مخولاً ... ما شئت من نصر ومن أنصار
وإليكها من روض فكري نفحة ... شف الثناء بها على الأزهار
في فصل منطقها ورائق رسمها ... مستمتع الأسماع والأبصار
وتميل من أصغى لها فكأنني ... عاطيته منها كؤوس عقار

مقتل السلطان أبي سالم رحمه الله والسبب في ذلك

كان السلطان أبو سالم رحمه الله قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد اللّه بن مرزوق وألقى زمام الدولة بيده، فنقم خاصة السلطان وحاشيته ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله، ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه فتربصوا بالدولة الدوائر إلى أن كانت أواخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة، فتحول السلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد إلى القصبة من فاس القديم، واختط بها إيواناً فخماً لجلوسه، فلما استولى عمر بن عبد اللّه ابن علي بن سعيد الفودودي أحد كبراء الدولة ووزرائها على دار الملك، إذ كان السلطان أبو سالم قد خلفه أميناً عليها، حدثته نفسه بالتوثب، وسهل

ذلك عليه ما كان قد عرفه من مرض القلوب على السلطان لمكان ابن مرزوق، فداخل قائد جند النصارى غرسية بن أنطول، واتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة، فعمدوا إلى تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن فخلعوا عليه، وألبسوه شارة الملك وقربوا له مركباً وأجلسوه مجلس السلطان، وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة، وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى بيت المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب، وماج الجند بفاس الجديد بعضهم في بعض، واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء ثم انتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلاح والعدة، وأضرموا النيران في بيوتها ستراً على ما ضاع منها، وأصبح السلطان أبو سالم بمكانه من قصبة فاس القديم، وكان قد تحول إليها فراراً من قاطع فلكي خوفه إياه بعض منجميه فكان البلاء فيه موكلاً بالمنطق، فلما علم بالكائنة ركب واجتمع إليه من حضر من أوليائه، وغدا على فاس الجديد وطاف بها يروم اقتحامها فامتنعت عليه، ثم اضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ونادى في الناس بالاجتماع إليه، ولما كان وقت الهاجرة دخل فسطاطه للقيلولة فتسايل الناس عنه إلى فاس الجديد فوجاً بعد فوج بمرأى منه إلى أن انفض عنه خاصته وأهله مجلسه فطلب النجاء بنفسه، وركب في لمة من الفرسان وفيهم وزيراه سليمان بن داود ومسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي، ومقدم الموالي والجند ببابه سليمان بن ونصار، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره، ومضى هو على وجهه فيمن معه، ولما غشيهم الليل انفضوا عنه حتى بقي وحده، ورجع الوزيران إلى دار الملك فتقبض عليهما رئيس الثورة عمر بن عبد الله الفودودي، ومشاركه فيها غرسية بن أنطول النصراني، واعتقلاهما متفرقين، وبعث عمر بن عبد الله الطلب في أثر السلطان أبي سالم فعثروا عليه نائماً من الغد في بعض المجاشر بوادي ورغة وقد غير لباسه اختفاء بشخصه وتوارياً عن العيون بمكانه، فتقبضوا عليه وحملوه على بغل وطيروا بالخبر إلى عمر بن عبد الله فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود، وفتح الله بن عامر بن فتح الله

السدراتي وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه، فلقياه بخندق القصب إزاء كدية العرائس فأمرا بعض جند النصارى أن يتولى ذبحه ففعل، وحملوا رأسه في مخلاة ووضعوه بين يدي الوزير الثائر ومشيخته، وكان ذلك يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة ودفن بالقلة خارج باب الجيسة بأعلى جبل العرض المعروف بجبل الزعفران[1].

قال ابن الخطيب في الإحاطة: «كان السلطان أبو سالم رحمه الله بقية البيت وآخر القوم دماثة وحياء وبعداً عن الشرور وركوناً للعافية» قال: وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته قصيدة أديت فيها بعض حقه:

«بني الدنيا بني لمع السراب لدوا للموت وابنوا للخراب»

ومن أعيان وزرائه: أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي الخطيب المشهور الذي مر ذكره آنفاً.

ومن قضاة عسكره: أبو القاسم محمد بن يحيى الأندلسي البرجي.

ومن أعيان كتابه: الرئيس أبو زيد عبد الرحمٰن بن خلدون صاحب التاريخ.

وأبو القاسم[2] عبد اللّه بن يوسف بن رضوان النجاري من أهل مالقة صاحب كتاب السياسة وغيره، ومما نظمه هذا الفاضل عن إذن السلطان أبي سالم رحمه الله ليكتب في طرة قبة رياض الغزلان من حضرته قوله:

---

(1) ومن أولاده: السلطان أبو العباس أحمد، والسلطان أبو الفضل محمد، ومحمد آخر.

(2) أبو القاسم بن رضوان صاحب كتاب السياسة. لما وقعت هزيمة طريف قرب القيروان على أبي الحسن رجع أبو القاسم هذا إلى الأندلس وبقي بها إلى أن تم الأمر لأبي عنان فرجع حينئذ للمغرب وكلفه أبو عنان بكتابة العلامة أما صاحب درة الحجال فإنه ذكر كاتبين من هذه العائلة أحدهما: اسمه محمد بن يوسف بن رضوان المتوفى سنة 868 وثانيهما يسمى أبا القاسم بن محمد بن يوسف بن رضوان المتوفى سنة 783 أما الكاتب أبو القاسم عبد اللّه فقد ترجمه في جذوة الاقتباس وذكر أنه توفي بآنفا ودفن بمقبرة الحاج صالح سنة 733 راجع ترجمته طبع فاس.

هذا محل المنى بالأمن مغمور من حله فهو بالأمان محبور
مأوى النعيم به ما شئت من ترف تهوى محاسنه الولدان والحور
ويطلع الروض منه مصنعاً عجباً يضاحك النور من لألائه النور
ويسطع الزهر من أرجائه أرجاً ينافح الندى نشر منه منشور
مغنى السرور سقاه الله ما حملت غر الغمام وحلته الأزاهير
انظر إلى الروض تنظر كل معجبة مما ارتضاه لرأي العين تحبير
مر النسيم به يبغي القرا فقراً دراهم النور تبديد وتنثير
وهامت الشمس في حسن الظلال به ففرقت فوقه منها دنانير
كأنما الطير في أفنائها صدحت بشكر مالكها والفضل مشكور
والدوح ناعمة تهتز من طرب همساً وصوت غناء الطير مجهور
والنهر شق بساط الأرض تحسبه سيفاً ولكنه في السلم مشهور
ينساب للجنة الخضراء أزرقه كالأيم جد انسياب وهو مذعور
هذي مصانع مولانا التي جمعت شمل السرور وأمر السعد مأمور
وهذه القبة الغراء ما نظرت لشكلها العين إلا عز تنظير
ولا يصورها في الفهم ذو فكر إلا ومنه لكل الحسن تصوير
ولا يرام بحصر وصف ما جمعت من المحاسن إلا صد تقصير
فيها المقاصير تحميها مهابته لله ما جمعت تلك المقاصير
كأنها الأفق تبدو النيرات به ويستقيم بها في السعد تسيير
وينشأ المزن في أرجائه وله من عنبر الشحر إنشاء وتسخير
وينهمي القطر منه وهو منسكب ماء من الورد يذكو منه تعطير
وتخفق الريح منه وهي ناسمة مما أهب به مسك وكافور
ويشرق الصبح منه وهو من غرر غر تلألأ منهن الأسارير
وتطلع الشمس فيه من سنا ملك تبسم الدهر منه وهو مسرور

ومضى في مدح السلطان والله تعالى يتغمد الجميع برحمته بمنّه وكرمه.

الخبر عن دولة السلطان أبي عمر تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن المريني

هذا السلطان كان محجوباً لوزيره عمر بن عبد اللّه الفودودي لا يملك معه ضرّاً ولا نفعاً. أمه: أم ولد اسمها ميمونة، صفته: طويل القامة، عظيم الهيكل بعيد ما بين المنكبين، أعين أدعج، وكان فارساً بطلاً قوي الساعد إلا أنه كان ناقص العقل.

ولما ثار عمر بن عبد اللّه بالسلطان أبي سالم وسعى في هلاكه إلى أن قتل كما مر استبد بأمر الدولة ونصب هذا الموسوس يموه به على الناس فبويع ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة حسبما سبق، وكان نقصان عقل تاشفين من أجل الأسر الذي أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبي الحسن إلى أن افتدي وبقي ناقص العقل مختل المزاج[1] إلى أن كان من أمره ما كان.

الفتك بغرسية بن أنطول قائد النصارى ومقتل جنده معه والسبب في ذلك

لما قبض عمر بن عبد اللّه على الوزيرين مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي، وسليمان بن داود سجنهما متفرقين فأخذ إليه ابن ماساي لمكان صهره منه ودفع لغرسية سليمان بن داود، وكان سليمان بن ونصار قد فر مع السلطان أبي سالم كما مر، ولما رجع عنه فيمن رجع نزل على غرسية فقبله وأكرمه. وكان يعاقره الخمر ففاوضه ذات ليلة في الثورة بعمر بن عبد اللّه واعتقاله، وإقامة سليمان بن داود المسجون بداره مقامه لما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الأمر، ونما الخبر بذلك إلى عمر بن عبد اللّه فارتاب،

(1) انظر ما كتبه المؤلف في هذه المسألة في كتابه «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن أيضاً.

وكان خلواً من العصبية ففزع إلى قائد المركب السلطاني من ناشبة الأندلس ورماتها، وهو يومئذ إبراهيم البطروجي، فعاقده على أمره، وبايعه على الاستماتة دونه، ثم رأى أن ذلك لا يكفيه ففزع ثانياً إلى يحيى بن عبد الرحمٰن شيخ بني مرين وصاحب شوارهم، فشكا إليه فأشكاه، ووعده الفتك بابن أنطول وأصحابه وانبرم عقد ابن أنطول، وسليمان بن ونصار أيضاً على عمر بن عبد اللّه وغدوا إلى القصر، وداخل ابن أنطول طائفة من النصارى استظهاراً بهم، وتوافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم، وحضر ابن أنطول، والبطروجي، ويحيى بن عبد الرحمن، وغير هؤلاء من الوجوه، فسأل عمر بن عبد اللّه من ابن أنطول تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى، وضن به عن الإهانة، حتى سأل مثلها من ابن ماساي صاحبه، فأمر عمر بالتقبض عليه فكشر في وجوه الرجال، واخترط سكينه للمدافعة، فتواثبت بنو مرين عليه وقتلوه لحينه، واستلحموا من وجدوا بالدار من جنده النصارى عند دخولهم مع قائدهم، وفر بعضهم إلى معسكرهم، ويعرف بالملاح جوار فاس الجديد، وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطول قد غدر بالوزير، فقتلوا جند النصارى حيث وجدوهم من سكك المدينة، وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من بقي به منهم، وركبت بنومرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء، وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم، وقتل النصارى أيضاً كثيراً من مجان المسلمين كانوا يعاقرون الخمر بالملاح، ثم سكنت الهيعة وما كادت.

واستبد عمر بن عبد اللّه بدار الملك، واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل ثم بعث من قتله بمحبسه، وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور من دار الملك فاعتقله بها واستولى على أمره، ثم خاطب عامر بن محمد الهنتاتي في اتصال اليد به واقتسام ملك المغرب بينه وبينه، وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم اعتده عنده ليوم ما، ثم فسد ما بينه وبين مشيخة بني مرين فاجتمعوا على كبيرهم يحيى بن عبد الرحمٰن وعسكروا بباب الفتوح واستدعوا عبد الحليم بن أبي علي ابن السلطان أبي سعيد من تلمسان على ما نذكره.

ظهور عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد ومحاصرته لفاس الجديد ثم فراره عنها

قد قدمنا في أخبار السلطان أبي الحسن أن أخاه أبا علي صاحب سجلماسة كان قد انتقض عليه فأمكنه الله منه فقتله وكفل أولاده فلم يميز بينهم وبين أولاده في شيء من الأشياء، ولما أفضى الأمر إلى أبي عنان بعث جماعة من إخوته وقرابته إلى الأندلس تحت حياطة ابن الأحمر، وكان فيهم أولاد أبي علي هؤلاء ثم بعد حين سرحوا وقدموا تلمسان على سلطانها أبي حمو بن يوسف فكانوا عنده إلى هذا التاريخ فلما فسد ما بين عمر بن عبد الله وشيوخ بني مرين بعثوا[1] إلى تلمسان جملة منهم لاستقدام عبد الحليم المذكور فسرحه أبو حمود، وأعانه بشيء من الآلة، وجمع عليه من رغب في طاعته، وزحف إلى فاس فتلقته جماعة بني مرين بسبو، ونزلوا على فاس الجديد يوم السبت سابع محرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة، واضطربوا معسكرهم بكدية العرائس، وحاصروا دار الملك سبعة أيام، وتتابعت وفودهم وحشودهم، ثم إن عمر بن عبد الله برز يوم السبت القابل في مقدمة السلطان تاشفين بمن معه من جند المسلمين والنصارى رامحة وناشبة، ووكل بالسلطان من جاء به في الساقة على التعبية المحكمة، وناوشهم الحرب فزحفوا إليه فاستطرد لهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الأسوار حتى فشت فيهم الجراحات، ثم صمم نحوهم فانفرج القلب وانفضت الجموع، ثم زحف السلطان تاشفين في الساقة فابذعروا في الجهات، وافترق بنو مرين إلى مواطنهم، ولحق يحيى بن عبد الرحمن بمراكش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخلط، ولحق عبد الحليم وإخوته بتازا بعد أن شهد لهم رجال الدولة بصدق الجلاد وحسن البلاء في ذلك المقام.

---

(1) راجع ما عند يحيى بن خلدون في بغية الرواد صحيفة 95 ج 2 طبع الجزائر سنة 1328.

ثم إن الوزير عمر بن عبد اللّه راجع بصيرته في تقديم المعتوه للأمر، وعلم أن الأمر لا يستقيم له بذلك، فبادر باستقدام أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمٰن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن، وكان عند الطاغية بدار الحرب فقدم، وخلع الوزير المذكور سلطانه الموسوس يوم الاثنين الحادي والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنّه ستون سنة، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمٰن يعقوب بن أبي الحسن المريني

هذا السلطان كان محجوباً للوزير عمر بن عبد اللّه أيضاً كنيته: أبو زيان، لقبه: المتوكل على الله، أمه: أم ولد اسمها فضة. صفته: آدم اللون شديد الأدمة، معتدل القامة، منفرج الأنف، دقيق العينين.

وقال ابن الخطيب في الإحاطة: حاله فاضل سكون، منقاد مشتغل بخاصة نفسه، قليل الكلام حسن الشكل، درب بركض الخيل، مفوض للوزراء، عظيم التأني لأغراضهم، وكان قبل ولايته عند الطاغية[1] بالأندلس فر إليه خوفاً على نفسه، ولما التبست الأمور على عمر بن عبد اللّه طلبه إلى الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتطاط، وفصل من إشبيلية في المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبته، وبها سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر بن عبد اللّه أرصده لقدومه، فطير إليه بالخبر، فحينئذ خلع عمر تاشفين الموسوس، وبعث إلى السلطان أبي زيان بالبيعة والآلة والفساطيط، ثم جهز عسكراً للقائه، فتلقوه بطنجة، وأغذ السير إلى الحضرة فنزل منتصف

(1) انظر ما كتبه المؤلف في هذا الموضوع في كتابه «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أثناء الكلام على دولة هذا السلطان رحمه الله.

صفر بكدية العرائس، واضطرب معسكره بها وتلقاه يومئذ الوزير عمر بن عبد اللّه الياباني وبايعه، وأخرج فسطاطه فاضطرب بمعسكره وتلوم السلطان أبو زيان هنالك ثلاثاً ثم دخل في اليوم الرابع إلى قصره واقتعد أريكته وتودع ملكه.

وقال ابن الخطيب في الإحاطة: «كان دخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان، وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من السيارة السبعة» اهـ ولما تم له الأمر خاطبه ابن الخطيب من سلا مهنئاً له بقوله:

يا ابن الخلائف يا سمي محمد ... يامن علاه ليس يحصر حاصر
أبشر فأنت مجدد الملك الذي ... لولاك أصبح وهو رسم داثر
من ذا يعاند منك وارثه الذي ... بسعوده فلك المشيئة دائر
ألقت إليك يد الخلافة أمرها ... إذ كنت أنت لها الولي الناصر
هذا وبينك للصريخ وبينها ... حرب مضرسة وبحر زاخر
من كان هذا الصنع أول أمره ... حسنت له العقبى وعز الآخر
مولاي عندي في علاك محبة ... والله يعلم ما تكن ضمائر
قلبي يحدثني بأنك جابر ... كسرى وحظي منك حظ وافر
بثرى جدودك قد حططت حقيبتي ... فوسيلتي لعلاك نور باهر
وبذلت وسعي واجتهادي مثل ما ... يلقى لملكك سيف أمرك عامر
فهو الولي لك الذي اقتحم الردى ... وقضى العزيمة وهو سيف باتر
وولي جدك في الشدائد عندما ... خذلت علاه قبائل وعشائر
فاستهد منه النصح واعلم أنه ... في كل معضلة طبيب ماهر
إن كنت قد عجلت بعض مدائحي ... فهي الرياض وللرياض بواكر

ثم أتبعها بنثر أضربنا عنه اختصاراً والله تعالى الموفق.

وفادة ابن الخطيب من سلا على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمٰن رحمهما الله

قال في «الإحاطة»: وفدت على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمٰن ابن أبي الحسن من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولي:

لمن علم في هضبة الملك خفاق ... أفاقت به من غشية الهرج آفاق
تقل رياح النصر عنه غمامة ... تمد لها أيدٍ وتخضع أعناق
وبيعة شورى أحكم السعد عقدها ... وأعمل إجماع عليها وإصفاق
قضى عمر فيها بحق محمد ... فسجل عهد للوفاء وميثاق
أحلماً ترى عيناي أم هي فترة ... أعندكما في مشكل الأمر مصداق
وفاض لفضل الله في الأرض تبتغي ... ومجتمعات لا تريب وأسواق
وسرح تهنيه الكلاءة بالكلا ... وفلح لسقي الغيث قام له ساق
وقد كان طيف الحلم لا يعمل الخطا ... وللفتنة العمياء في الأرض إطباق
وللغيث إمساك وفي الأرض رجة ... وللدين والدنيا وجوم وإطراق
فكل فريق فيه للبغي راية ... وكل طريق فيه للعيث طراق
أجل إنه من آل يعقوب وارث ... يحن له البيت العتيق ويشتاق
له من جناح الروح ظل مسجف ... ومن رفرف العز الإلٰهي رستاق
أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها ... دجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
فأشرقت الأرجاء من نور ربها ... وساح بها لله لطف وإشفاق
فمن ألسن بالشكر لله أعلنت ... وكان لها من قبل همس وإطباق
وليس لأمر أبرم الله ناقض ... وليس لمسعى النجح في الله إخفاق
محمد قد أحييت دين محمد ... وللخلق أدماء تفيض وأرماق
ولو لم تثب غطى على شفق الضحا ... دم لسيوف البغي في الأرض مهراق
فأيمن بمشحون من الفلك سابح ... له باختيار الله حط وإيساق
أقلك والدأماء تظهر طاعة ... إليك وصفح الماء أزرق رقراق
إلى هدف السعد انبرى منه والدجا ... تضل الحجى سهم من السعد رشاق

فخطت لتقويم القوام جداول وصحت من التوفيق واليمن أوفاق
تبارك من أهداك للخلق رحمة ومستبعد أن يهمل الخلق خلاق
هو الله يبلو الناس بالخير فتنة وبالشر والأيام سم وترياق
سمت منك أعناق الورى لخليفة له في مجال السعد عدو وأعناق
وقالوا بنان ما استقل بكفه تفيض على العافين أم هي أرزاق
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا فلم يجد إطناب ولم يغن إغراق
ألست من القوم الذين أكفهم غمام ندى إن أخلف الغيث غيداق
ألست من القوم الذين وجوههم بدور لها في ظلمة الروع إشراق
رياض إذا العافي استظل ظلالها ففيها جنى ملء الأكف وإيراق
أبوك ولي العهد لو سالم الردى وجدك قد فاق الملوك وإن فاقوا
فمن ذا له جد كجدك أو أب لآلئ والمجد المؤثل نساق
وحسب العلا في آل يعقوب أنهم هم الأصل في العلياء والناس إلحاق
أسود سروج أو بدور أسرة فإن حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا
يطول لتحصيل الكمال سهادهم فهم للمعالي والمكارم عشاق

ومنها:

لقد نسيت إحسان جدك فرقة تزر على أعناقهم منه أطواق
أجازت خروج ابن ابنه عن تراثه ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما راموه لله قدرة ومن دون ما أموه للفتح إغلاق
خذ العفو وابذل فيهم العرف ولتسع جريرة من أبدى لك العذر أخلاق
فربما تنبو مهندة الظبي وتهفو حلوم القوم والقوم حذاق
وما الناس إلا مذنب وابن مذنب ولله إرفاد عليهم وإرفاق
ولا ترج في كل الأمور سوى الذي خزائنه ما ضرها قط إنفاق
إذا هو أعطى لم يضر منع مانع وإن حشدت طسم وعاد وعملاق
عرفت الردى واستأثرت بك للعدا تخوم لمختط الصليب وأعماق
فيسر لليسرى وأحيى بك الورى وللروع إرعاد عليك وإبراق

فجاز صنيع الله وازدد بشكره مواهب جود غيثها الدهر دفاق

وأوف لمن أوفى وكاف الذي كفى فأنت كريم طهرت منك أعراق

وتهنيك يا مولى الملوك خلافة شجتها تباريح إليك وأشواق

فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها وكم فاز بالوصل المهنا مشتاق

فلا راع منها السرب للدهر رائع ولا نال منها جدة السعد أخلاق

أمولاي راع الدهر سربي وغالني فطرفي مذعور وقلبي خفاق

وليس لكسرى غيرك اليوم جابر ولا ليدي إلا بمجدك أعلاق

ولي فيك ود واعتداد غرسته فراقت به من يانع الحمد أوراق

وقد عيل صبري في ارتقابي خليفة تحل به للضر عني أوهاق

وأنت حسام الله والله ناصر وأنت أمين الله والله رزاق

وأنت الأمان المستجار من الردى إذا راع خطب أو توقع إملاق

وأهون ما يرجى لديك شفاعة إذا لم يكن عزم حثيث وإرهاق

ودونكها من ذائع الحمد مخلص له فيك تقييد يروق وإطلاق

إذا قال أما كل سمع لقوله فمصغ وأما كل أنف فنشاق

ودم خافق الأعلام بالنصر كلما ذهبت لمسعى لم يكن فيه إخفاق

قال: «وعدت منه ببر كبير واحترام شهير»: يشير بذلك إلى ما أكرمه به وكتب له من الظهير الذي يتضمن كمال الاحترام والتوقير، ونصه: «هذا ظهير كريم من أمير المسلمين فلان أيده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين ويسره، للشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى، الأرفع الأمجد الأسمى الأوحد الأنور الأرقى العالم العلم الرئيس الأعرف المتفنن الأبرع، المصنف المفيد الصدر الأحفل، الأفضل الأكمل، أبي عبد اللّه ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأمجد الوجيه الأنوه الأحفل، الأفضل الحسيب الأصيل الأكمل، المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب قابله أيده الله بوجه القبول والإقبال، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال، ورعى له خدمة السلف الرفيع، الجلال، وما تقرر من

مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال، وأمر في جملة ما سوغه من الآلاء الوارفة الظلال، الفسيحة المجال، بأن يجدد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها، المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مجبي مدينة سلا حرسها الله، ومن حيث جرت العادة أن تمشي له، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه، وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف ولا يتوجه فيه إليه بتكليف، يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديداً تاماً واحتراماً عاماً، أعلن بتجديد الحظوة واتصالها، وإتمام النعمة وإكمالها، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام واتصال الأيام، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السخر مهما عرضت، والوظائف إذا افترضت، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف، وتتضاعف أسباب المنن والعوارف بفضل الله، وتحرر له الأزواج التي يحرثها بتالماغت من كل وجيبة، وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة بالتحرير التام بحول الله وعونه، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه وليمض ما أمضاه إن شاء الله، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخرة من سنة ثلاث وستين وسبعمائة» و«كتب في التاريخ» اهـ وقوله وكتب في التاريخ هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان يكتب بقلم غليظ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة: «صح في التاريخ».

وفادة ابن محمد الهنتاتي على السلطان
أبي زيان بن أبي عبد الرحمٰن رحمهما الله

كان للوزير عمر بن عبد الله الياباني مودة ومصافاة مع الرئيس الشهير أبي ثابت عامر بن محمد الهنتاتي كبير جبل درن والبلاد المراكشية، وكان الوزير عمر المذكور قد بعث إليه بصهره وظهيره على الملك مسعود بن عبد الرحمٰن ابن ماساي يكون عنده عدة وعتاداً ليوم ما، فلما بويع السلطان أبو زيان استقدم عمر بن عبد الله صهره المذكور لوزارته، وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان المذكور، فقدم في صحبته مسعود، ونزلا من الدولة بخير منزل.

وعقد السلطان أبو زيان لمسعود المذكور على وزارته بإشارة الوزير عمر بن عبد الله فاضطلع بها، ودفعه عمر إليها استمالة اليد وثقة بمكانه واستظهاراً بعصبيته، وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب شق الأبلمة، وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافاً لغرض عامر بن محمد في ذلك.

وخطب إليهم عامر بنت السلطان أبي بكر الحفصي التي توفي عنها السلطان أبو عنان[1] فأجابوه، وحملوا أولياءها على العقد عليها، وانكفأ راجعاً إلى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزّاً وثروة وتابعاً، وذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فاستقل بأمر الناحية الغربية من مراكش وجبال المصامدة وما إليها من الأعمال واستبد بها، ونصب أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم صورة، واستوزر له وتمكن سلطانه وعلا ذكره، وصارت كأنها دولة مستقلة، فصرف إليه النازعون من بني مرين عن

(1) والصحيح أبو الحسن لأن المصاهرة لم تنعقد بين أبي عنان والحفصيين راجع ابن خلدون ج 2 صحيفة 472 وتاريخ الدولتين للزركشي صحيفة 83 وصحيفة 84.

الدولة وجوه مفرهم، ولجؤوا إليه فأجارهم على السلطان واجتمع إليه منهم ملأ، واتسع الخرق على الرافع، واضطربت الأحوال بالمغرب، وخرج على السلطان أبي زيان الأمير عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد، وتغلب على سجلماسة وأعمالها، ثم غلب عليه أخوه عبد المؤمن بن أبي علي فخرج عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمر عبد المؤمن بسجلماسة، وأقام بها دولة كما كان لوالده من قبل إلى أن فتحها الوزير مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي وأضافها إلى مملكة فاس، ثم انتقض الوزير مسعود أيضاً وبايع الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن بن أبي علي، ونصبه للأمر وصار يشوش به على الدولة، وشرق عمر بن عبد الله بدائه في أخبار طويلة، ولما لم يتم له أمر عبر هو وسلطانه البحر من مرسى غساسة إلى الأندلس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة، وأقبلا على الجهاد واستراح الوزير عمر وسلطانه أبو زيان من شغبهما. والله غالب على أمره.

مقتل السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمٰن رحمه الله

لما طال استبداد الوزير عمر بن عبد الله على السلطان أبي زيان وحجره أباه إذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور، وتناجى بذلك مع بعض ندمائه وأعدله طائفة من العبيد كانوا يختصون به، فنما ذلك إلى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عيناً له عليه فعاجله، وكان قد بلغ من الاستبداد عليه أن كان الحجاب مرفوعاً له عن خلوات السلطان وحرمه، فدخل عليه وهو في وسط حشمه فطردهم عنه، ثم غطه حتى فاظ، وأمر به فألقي في بئر بروض الغزلان، واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها، وأنه سقط عن دابته وهو سكران، وذلك في محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة كذا عند ابن خلدون. وقال في «الجذوة»: «توفي يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة وله ثمان وعشرون سنة، ودفن بجامع

قصره فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوماً واحداً» والله أعلم.

الخبر عن دولة السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله

هذا السلطان هو الذي أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها، وأعاد إليها شبابها بعد هرمها، وتقاضيها، وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد، وأعادها من العز إلى حالها المعتاد، وهو الذي ذكره ابن خلدون في أول تاريخه الكبير وألفه برسمه، وحلى ديباجته باسمه، أمه: مولدة اسمها مريم، صفته: آدم اللون شديد الأدمة، طويل القامة، يشرف على الناس بطوله، نحيف الجسم، أعين أدعج أخنس، في وجهه أثر جدري. وكان عفاً متمسكاً بالدين، محباً في الخير وأهله، لم يشرب خمراً ولا وقع في فاحشة قط، وبالجملة فقد كان من صالحي الملوك رحمه الله.

ولما كان من الوزير عمر بن عبد اللّه الياباني إلى السلطان أبي زيان رحمه الله ما كان من الخنق والإلقاء في البئر، استدعى عبد العزيز بن أبي الحسن هذا، وكان في بعض الدور من القصبة بفاس محتاطاً عليه من قبل الوزير المذكور، فأحضره بالقصر، وأجلسه على سرير الملك وبايعه، وفتحت الأبواب لبني مرين وسائر الخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده، معطين الصفقة بطاعته، فتم أمره وثبت ملكه وذلك يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة، ثم إن الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد، ومنع التصرف في شيء من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك وتأفف منه، ودارت بينه وبين الوزير أمور إلى أن عمل السلطان على الفتك به فأعد له جماعة من الخصيان بزوايا داره، ثم أحضره ووبخه وثار به أولئك الخصيان فتناولوه هبراً بالسيوف، وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الأبواب فكسروها،

واقتحموا الدار فإذا صاحبهم مضرج بدمائه قد فرغ منه فولوا الأدبار هاربين، ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع في خبر طويل، واستبد بملكه واضطلع به وأدار الأمور فيه على ما ينبغي والله تعالى أعلم.

انتقاض أبي الفضل بن أبي سالم ثم مقتله بعد ذلك

قد قدمنا أن أبا الفضل بن أبي سالم كان قد عقد له الوزير عمر بن عبد اللّه على مراكش إسعافاً لكافله عامر بن محمد الهنتاتي، فلما فتك السلطان عبد العزيز بالوزير المذكور سولت لأبي الفضل نفسه مثلها في عامر بن محمد لاستبداده عليه، وأغراه بذلك بطانته فأحس عامر بالشر فتمارض بداره من مراكش، ثم استأذنه في الصعود إلى معتصمه من الجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه، فارتحل بجملته واحتل بحصنه وكان أعز من الأبلق الفرد، فيئس أبو الفضل من الاستمكان منه، ثم أغرته بطانته إذ فاتهم عامر بالفتك بعبد المؤمن بن أبي علي، وكان قد انضاف إليه بعد إجفاله عن سجلماسة، فسكر أبو الفضل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصارى فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه إليه، وطار الخبر بذلك إلى عامر فارتاع وحمد الله إذ خلصه من غائلته وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز، وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش، ووعده بالمظاهرة، فأجمع السلطان أمره على النهوض إليها، ونادى في الناس بالعطاء، وقضى أسباب حركته، وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة، وقد استبد أبو الفضل بمراكش وأعمالها.

وأقام بها رسم الملك، واستوزر واستلحق وجعل شوراه لمبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي.

ولما نهض السلطان عبد العزيز من فاس اتصل خبره بأبي الفضل وهو

منازل لعامر بن محمد فانفض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بجبل بني جابر منها، فتبعه السلطان عبد العزيز إليها ونازله، وأخذ بمخنقه وقاتله ففل عسكره. ثم داخل بعض بني جابر في جر الهزيمة عليه على مال يعطيه لهم ففعلوا، وانهزمت جيوشه وتقبض على أشياعه وسيق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان عبد العزيز فاعتقله إلى أن قتله مع عامر بن محمد كما نذكر.

ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة وراء بني جابر فداخل بنو جابر في شأنه، وبذلوا لهم عن السلطان مالاً دثراً في إسلامه فأسلموه، وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون فجاء به أسيراً، وأحضره أمام السلطان فوبخه، ثم اعتقله بفسطاط مجاور له، ثم غط من الليل فكان مهلكه في رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة لمضي ثمان سنين من إمارته على مراكش، وبعث السلطان عبد العزيز إلى عامر بن محمد يختبر طاعته فأبى عليه، وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنه ما نذكره.

انتقاض عامر بن محمد الهنتاتي وحصار السلطان عبد العزيز إياه وظفره به

كان عامر بن محمد الهنتاتي مجير السلطان أبي الحسن من ابنه أبي عنان على ما وصفنا من بلوغ الغاية في الرياسة والاعتزاز على الدولة وطول الاستبداد بمراكش وأحوازها، وكان قد حصل في مدة رياسته على ثروة عظيمة وجاه كبير، وكان له معتصم بجبل درن أعز من بيض الأنوق قد حصن فيه ماله وسلاحه وذخيرته، وكان كلما هاجه هائج صعد إليه وأمن على نفسه، فلما صفا الأمر للسلطان عبد العزيز جعل عامراً هذا من أهم أمره فنصب له واستعد لقتاله وعقد على وزارته لأبي بكر بن غازي بن يحيى بن الكاس ونهض إليه من فاس سنة سبعين وسبعمائة فحاصره في جبله سنة كاملة. ولما طال الحصار على عامر وشيعته اختلفت كلمتهم عليه وفسد ما

بينه وبين ابن أخيه فارس بن عبد العزيز بن محمد، فبعث إلى السلطان وسهل له الطريق لاقتحام الجبل، فزحفت العساكر والجنود وشارفت المعتصم، ولما استيقن عامر أن قد أحيط به بعث إلى ابنه أبي بكر أن يلحق بالسلطان مختاراً له ومشيراً عليه بالتي هي أحسن وأسلم، فألقى الولد بنفسه إلى السلطان فقبله، وبذل له الأمان وألحقه بجملته، وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فرده الثلج، وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض وسد المسالك فاقتحمه عامر حتى هلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه، وعاين الهلكة العاجلة فرجع أدراجه مختفياً حتى آوى إلى غار مع أدلاء كان قد استخلصهم، وبذل لهم مالاً على أن يسلكوا به ظهر الجبل إلى صحراء السوس، فأقاموا ينتظرون إمساك الثلج وقد شدد السلطان عبد العزيز في التنقير عنه والبحث، فعثر عليه بعض البربر بالغار المذكور، فسيق إلى السلطان فأحضره بين يديه ووبخه فاعتذر واعترف بالذنب ورغب في الإقالة فحمل إلى مضرب بني له بإزاء فسطاط السلطان، واعتقل هنالك، وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره، وعقد على هنتاتة لابن أخي عامر، وهو فارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاتي، وارتحل إلى فاس فاحتل بها آخر رمضان المذكور ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس، وحمل عامر وسلطانه تاشفين من بني عبد الحق كان نصبه للأمر مموهاً به على عادته، فحملا معاً على جملين وقد أفرغ عليهما لباس رث، وعبثت بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه.

ولما قضى السلطان عبد العزيز نسك عيد الفطر أحضر عامراً فقرعه بذنوبه، وأتى بكتاب بخطه يخاطب فيه أبا حمو بن يوسف الزياني ويستنجده على

السلطان فشهد عليه به وأمر السلطان بامتحانه فلم يزل يجلد حتى انتشر لحمه وضرب بالعصى حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الوزعة، وجنب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن إبراهيم الخلطي من محبسه بعد الاعتقال فألحق بهم، ولكل أجل كتاب، وصفا الجو للسلطان عبد العزيز من المنازعين وتفرغ لغزو تلمسان على ما نذكره إن شاء الله.

ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الإسبانيول

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية على الجزيرة الخضراء أيام السلطان أبي الحسن رحمه الله فاستمرت في ملكتهم إلى هذا التاريخ فنشأت بينهم فتنة وتقاتلوا على الملك وأعروا ثغورهم الموالية للمسلمين من الحامية والجند فبقيت عورة، وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة الخضراء التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين.

وكان السلطان عبد العزيز في شغل عن ذلك بفتنة أبي الفضل بن أبي سالم وعامر بن محمد وانتقاضهما، فبعث إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس أن يزحف إليها بعساكره وعليه عطاؤهم وإمدادهم بالمال والأساطيل على أن تكون مثوبة جهاده خالصة له، فأجاب ابن الأحمر إلى ذلك، وبعث إليه السلطان عبد العزيز بأحمال المال، وأوعز إلى أساطيله بسبتة فانعمرت وأقلعت حتى احتلت بمرسى الجزيرة الخضراء لحصارها، وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العدد. وأعد الآلات للحصار، فنازلها أياماً قلائل، ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم، فألقوا باليد وسألوا النزول على الصلح، فأجابهم ابن الأحمر إليه، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الإسلام ومحيت منه كلمة الكفر، وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته[1]

---

(1) انظر الإحاطة ج 2 ـ صحيفة 56.

وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة، وولي ابن الأحمر عليها من قبله ولم تزل إلى نظره إلى أن وقع الاختيار على هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها مرة أخرى فهدمت أعوام الثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس.

نهوض السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستيلاؤه عليها وفرار سلطانها أبي حمو بن يوسف عنها

كان أبو حمو بن يوسف الزياني قد فسد ما بينه وبين عرب سويد وقبض على بعض رؤسائهم محمد بن عريف فاستصرخوا عليه السلطان عبد العزيز، وكانت القوارص لا تزال تسري إليه من أبي حمو المذكور فصادفوا منه صاغية إلى ما التمسوا منه، واعتزم على النهوض إلى تلمسان، وبعث الحاشرين إلى الجهات المراكشية فتوافى الناس إليه على طبقاتهم، واجتمعوا عنده أيام منى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة فأفاض العطاء وأزاح العلل، ولما قضى نسك عيد الأضحى عرض الجند ونهض إلى تلمسان فاحتل بتازا.

واتصل خبره بأبي حمو فجمع الجموع وهم باللقاء ثم اختلفت كلمة أصحابه وتفرق عنه العرب من بني معقل فأجفل هو وأشياعه من بني عامر بن زغبة فدخلوا القفر.

وتقدم السلطان عبد العزيز فاحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فدخلها في يوم مشهود، واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي بن الكاس على عساكر مرين والعرب وسرحه في اتباع أبي حمو فأدركه ببعض بلاد زناتة الشرق فأجهضوه عن ماله ومعسكره فانتهب بأسره واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بذمائه إلى مصاب، وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة، ثم دخلوا القفر بعد ذلك ودوخ الوزير المذكور بلاد المغرب الأوسط وشرد عصاته واستنزل ثواره في أخبار طويلة.

واستولى السلطان عبد العزيز على سائر الوطن من الأمصار والأعمال، وعقد عليها للولاة والعمال واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه واستمر مقيماً بتلمسان إلى أن كان ما نذكره.

نزوع الوزير ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله إلى السلطان عبد العزيز بتلمسان

قد قدمنا ما كان من رجوع الغني بالله ابن الأحمر إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة، ولما استولى على غرناطة وثبت قدمه بها بعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد، والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله فاستقدم عمر ابن الخطيب من سلا وبعثهم إلى نظره، فسر السلطان ابن الأحمر بمقدمه ورده إلى منزلته ودفع إليه تدبير المملكة وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشي بابه الخاصة والكافة، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه، وقد صم السلطان عن قبولها، ونما بذلك الخبر إلى ابن الخطيب فشمر عن ساعده للرحلة عن الأندلس واللحاق بالمغرب، وكان له حنين إليه ورغبة في الإيالة المرينية من قبل ذلك، فقدم الوسائل إلى السلطان عبد العزيز وأوعز إليه بما عزم عليه من اللحاق بحضرته فوعده السلطان بالجميل وبسط أمله، فحينئذ استأذن السلطان الغني بالله في تفقد الثغور الغربية من أرض الأندلس فأذن له، وسار إليها في جماعة من فرسانه، ومعه ابنه علي فلما حاذى جبل طارق مال إليه، فخرج قائد الجبل لتلقيه، وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهز إليه الأسطول من حينه، فاحتل بسبتة ثم سار منها فقدم على السلطان عبد العزيز بتلمسان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه محل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان الشرف والعزة،

وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في مطلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة، ثم نزل بعد ذلك مدينة فاس القديمة فاستكثر بها من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظت عليه رسومه السلطانية وتوقيراته، وأقام مطمئناً بخير دار عند أعز جار.

وفاة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله

كان السلطان عبد العزيز قد أصابه مرض النحول في صغره ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن بعثه مع الأبناء إلى الأندلس فأقام بالمغرب، ولما شب أفاق من مرضه وصلح بدنه ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله، ولما كمل الفتح واستفحل الملك اشتد به الوجع فصابره وكتمه عن الناس خشية الإرجاف ثم عسكر خارج تلمسان للحاق بالمغرب.

ولما كانت ليلة الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى نحبه رحمه الله بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسيق إلى فاس فدفن بجامع قصره، وسنه يومئذ أربع وعشرون سنة، وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر[1].

ومن نظمه ما ذكره ابن الأحمر في «نثير الجمان» مذيلاً بيتي والده السلطان أبي الحسن اللذين هما قوله:

أرضـي الله فـي سـر وجـهـر	وأحمي العرض من دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختياراً	وأضرب بالسيوف طلي الرقاب

فقال هو وأحسن:

وأرغب خالقي في العفو عني	وأطلب حلمه يوم الحساب
وأرجـو عـونـه فـي عـز نـصـر	على الأعداء محروس الجناب

---

(1) ومن أولاده: السلطان محمد السعيد ومحمد وعبد الله.

وعبدك واقف بالباب فارحم عُبيداً خائفاً ألم العقاب

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن

هذا السلطان ممن ولي الأمر وهو صبي، وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى: «بأعلام الأعلام بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام» كنيته: أبو زيان. أمه: عائشة بنت القائد فارح العلج، صفته: آدم اللون شديد الأدمة.

ولما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله بظاهر تلمسان خرج الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس على الناس، وقد احتمل أبا زيان ابن السلطان عبد العزيز، فعزاهم عن سلطانهم ثم طرح ابنه بين أيديهم، فازدحموا عليه باكين متفجعين يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة، ثم أخرجوه للمعسكر وأنزلوه بفساطيط أبيه وتم أمره وكفله الوزير المذكور فكان إليه الإبرام والنقض، والصبي كالعدم، إذ لم يكن في سن التصرف.

ثم إن الوزير ارتحل بالناس وجد السير فدخل حضرة فاس وأجلس الصبي لبيعة العامة فبايعوا، ثم توافت لديه وفود الأمصار على العادة، واستبد الوزير أبو بكر واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفصل واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً.

ولما فصل بنو مرين عن تلمسان عاد إليها سلطانها أبو حمو بن يوسف الزياني، والتفت عليه بنو عبد الواد من كل جانب ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالنهوض إليه ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن بن أبي علي بن أبي سعيد بناحية بطوية، فإن السلطان ابن الأحمر كان قد سرحه من الأندلس صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي

لطلب ملك المغرب تشغيباً على الوزير أبي بكر بن غازي، ثم أتبعه بالأمير أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم الذي كان محتاطاً عليه بطنجة، فزحف الأمير أبو العباس المذكور إلى فاس وظاهره ابن عمه الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن فحاصروا الوزير أبا بكر بن غازي وسلطانه أبا زيان ابن عبد العزيز، وضربوا على فاس الجديد سياجاً بالبناء للحصار، وأنزلوا به أنواع القتال بعد أن بعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمٰن باتصال اليد بابن عمه الأمير أبي العباس ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتها، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمٰن بملك سلفه من سجلماسة وأعمالها، فتراضيا وزحفا إلى فاس كما قلنا، وأمدهم ابن الأحمر بجمع من جنده، فاستمر الحال على حصار فاس إلى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبي زيان ومبايعة الأمير أبي العباس، فخلعه يوم الأحد السادس من محرم فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة وغرب إلى الأندلس فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً والله غالب على أمره.

الخبر عن الدولة الأولى للسلطان المستنصر بالله أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن

هذا السلطان يقال له: ذو الدولتين لأنه ولي الملك مرتين كما سيأتي.
أمه: حرة بنت أبي محمد السبائي. كنيته: أبو العباس، لقبه: المستنصر بالله، صفته: أبيض اللون ربعة تعلوه صفرة رقيقة، أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين براق الثنايا جميل الوجه مليح الصورة ظريف المنزع لطيف الشمائل حسن الشكل إذا ركب، بويع أولاً بطنجة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ثم بويع البيعة العامة بالمدينة البيضاء بعد استيلائه عليها يوم الأحد السادس من محرم سنة ست وسبعين

وسبعمائة، وكان الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن عندما أشرفوا على فتح فاس شرط عليهم ولاية مراكش عوضاً عن سجلماسة فعقدوا له على كره مخافة أن تفترق كلمتهم ولا يتم أمرهم ففعلوا، وطووا له على النكث فارتحل إلى مراكش واستولى عليها، ثم فارقه وزيره مسعود بن عبد الرحمٰن وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقر بها في إيالة ابن الأحمر.

واستقل السلطان أبو العباس بن أبي سالم بملك فاس وأعمالها، واستوزر محمد بن عثمان بن الكاس وفوض إليه أموره فغلب على هواه وجعل أمر الشورى إلى سليمان بن داود فاستقل بها وحاز رياسة المشيخة، واستحكمت المودة بينه وبين ابن الأحمر وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم، فصار له بذلك تحكم في الدولة المرينية وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس وذلك بما كان لابن الأحمر من إعانة السلطان أبي العباس على ملك المغرب حتى تم له، وبما كان تحت يده من أبناء الملوك المرشحين للأمر، فكان أبو العباس وحاشيته يصانعونه لأجل ذلك، والله تعالى أعلم.

محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله

لما لجأ ابن الخطيب إلى بني مرين وأصاب عندهم داراً وقراراً عزّ ذلك على ابن الأحمر، وسعى بطانته عنده في ابن الخطيب لعداوتهم له، ثم بلغه أنه يغري السلطان عبد العزيز بتملك أرض الأندلس وقطع دعوة بني الأحمر منها، فعظم عليه ذلك ودبر الحيلة في قتل ابن الخطيب، وتتبع أعداؤه كلمات زعموا أنها صدرت منه في بعض تآليفه فأحصوها عليه ورفعوها إلى قاضي غرناطة أبي الحسن النباهي فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة، وبعث ابن الأحمر برسم الشهادة مع هدية لم يسمع بمثلها إلى السلطان عبد العزيز وطلب منه إقامة الحد على ابن الخطيب أو إسلامه إليه، فصم السلطان عبد العزيز عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يؤذى، وقال للوفد: «هلا

انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري» ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته.

ثم لما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله وولي ابنه أبو زيان وقام بأمره الوزير أبو بكر ابن غازي عاود ابن الأحمر الكلام في شأن ابن الخطيب وبعث بهدية أخرى إلى الوزير المذكور وطلب منه إسلامه إليه، فأبى الوزير وأساء الرد، وعادت رسل ابن الأحمر إليه مخفقين، وقد رهبوا سطوته، فعند ذلك عمد ابن الأحمر إلى الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن، وكان عنده بالأندلس فأطمعه في ملك المغرب وأركبه البحر، فقذف به بساحل بطوية من بلاد الريف تشغيباً على الوزير أبي بكر بن غازي كما مر، ثم ثاب له رأي آخر فأغرى محمد بن عثمان بن الكاس وهو ابن عم أبي بكر بن غازي المذكور، وكان يومئذ بسبتة قائماً على ثغرها، فداخله في البيعة لأبي العباس ابن أبي سالم، وكان يومئذ بسبتة محتاطاً عليه في جملة من القرابة، والتزم أن يمده بالمال والرجال حتى يتم أمره، لكن بشرط أن ينزل له عن جبل طارق، ويبعث له بالقرابة الذين هم بطنجة ليكونوا تحت يده، ويسلم إليه ابن الخطيب متى قدر عليه، فكان الأمر كذلك، فإن السلطان أبا العباس لما استولى على الأمر نزل لابن الأحمر عن جبل طارق فمحا دعوة بني مرين من وراء البحر، ثم ملك بعد ذلك سبتة فاستولى عليها، وبعث إليه بالقرابة المذكورين فأوسع لهم جنابه بغرناطة، ثم قبض السلطان أبو العباس ووزيره محمد بن عثمان على ابن الخطيب وطيروا بالأعلام لابن الأحمر، فحينئذ بعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك، وكان من تلاميذه ابن الخطيب وبه تخرج، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضروا ابن الخطيب بالمشور في مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء، وعرضوا عليه بعض كلمات وقعت له في بعض كتبه فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك

الملأ، ثم ثل إلى محبسه، وتفاوضوا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه فأفتى بعض الفقهاء بقتله، فدس سليمان بن داود إليه بعض الأوغاد من حاشيته فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة من أهل الأندلس جاؤوا في لفيف ذلك الوفد فقتلوه خنقاً في محبسه وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد طريحاً على شفاة قبره وقد جمعوا له أعواداً فأضرموها عليه ناراً فاحترق شعره واسود بشره، وأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته، وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان بن داود واعتدوها من هنتاته، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته.

وكان ابن الخطيب رحمه الله أيام مقامه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه فمما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفسنا سكنت دفعة	كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً	وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا	غربنا فناحت عليها السموت
فكم جدلت ذا الحسام الظبي	وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة	فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له	فقل يفرح اليوم من لا يموت

وكانت نكبته رحمه الله أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة، وعند الله تجتمع الخصوم.

بقية أخبار أمير مراكش عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من معاقدة السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمٰن ابن أبي يفلوسن على ولاية سجلماسة أولاً ثم التعويض عنها بمراكش ثانياً، فلما فتح السلطان أبو العباس فاساً وفى للأمير عبد الرحمٰن بعقده فسار إلى مراكش واستولى عليها وعلى أعمالها، واقتسمت مملكة المغرب الأقصى يومئذ بنصفين.

وكان الحد بين الدولتين ثغر آزمور فكانت في إيالة صاحب فاس، وما وراءها إلى مراكش في إيالة صاحب مراكش، ثم كانت بينهما بعد ذلك مواصلات ومناقضات ومسالمات ومحاربات يطول جلبها، واتصل ذلك إلى منتصف سنة أربع وثمانين وسبعمائة فظفر السلطان أبو العباس بعبد الرحمٰن بعد محاصرته بقصبة مراكش تسعة أشهر، ولما أشرف السلطان أبو العباس على فتحها وانفض الناس من حول الأمير عبد الرحمٰن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان وبقي هو في قصبته منفرداً بات ليلته يراود ولديه على الاستماتة وهما: سليم وأبو عامر، وركب السلطان أبو العباس من الغد في التعبية إلى القصبة فاقتحمها بمقدمته ولقيه الأمير عبد الرحمٰن وولداه مسابقين إلى الميدان ومباشرين القتال بين أبواب دورهم فجالوا معهم جولة قتل فيها الولدان قتلهم علي بن إدريس وزيان بن عمر الوطاسي.

قال ابن خلدون: «وطالما كان زيان يمتري ثدي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة» وكان ذلك خاتم جمادي الآخرة سنة أربع وثمانين المذكورة لمضي عشر سنين من إمارة عبد الرحمٰن على مراكش، ثم رحل السلطان أبو العباس منقلباً إلى فاس وقد استولى على سائر أعمال المغرب وظفر بعدوه ودفع النازعين عن ملكه والله غالب على أمره.

ذكر الشاوية وبيان نسبهم وأوليتهم وشرح لقبهم وتسميتهم

ذكر ابن خلدون أن الشاوية من ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي نسبة إلى صبيح بالتصغير بطن من سويد، وسويد إحدى قبائل بني مالك بن زغبة الهلاليين، وكان دخول حسان وأخيه موسى ابني أبي سعيد إلى المغرب الأقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله، قدموا في صحبة عبد اللّه بن كندوز العبد الوادي ثم الكمي، وكان عبد اللّه هذا قد نزع عن يغمراسن بن زيان إلى السلطان يعقوب المذكور فقدم عليه قبل فتح مراكش، فاهتز السلطان يعقوب لقدومه وأحله بالمكان الرفيع من دولته وأنزل قومه بجهات مراكش وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم وجعل انتجاع إبله ورواحله وسائر ظهره في إحيائهم، فقدم عبد اللّه بن كندوز على رعايتها حسان وأخاه موسى الصبيحيين وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها فأقاموا يتقلبون في تلك البلاد ويتعدون في نجعتها إلى أرض سوس، وكانت ماشية السلطان يعقوب متفرقة في سائر المغرب فجمعها لعبد الله بن كندوز، وجمعها عبد اللّه لحسان الصبيحي المذكور، فكان حسان يباشر أمور السلطان في شأن تلك الماشية ويطالعه بمهماته فحصلت له مداخلة معه جلبت إليه الحظ حتى ارتفع قدره، ونشأ بنوه في ظل الدولة وعزها وتصرفوا في الولايات منها وانفردوا بخطة الشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات، وكان لحسان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم، ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم في ولده.

قال ابن خلدون: «وهم لهذا العهد يتصرفون في الدولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة» اهـ. قلت: ولفظ الشاوية نسبة إلى الشاء التي هي جماعة الغنم مثلاً قال الصحاح: «والنسبة إلى الشاء شاوي قال الراجز:

لا ينفع الشاوي فيها شاته ولا حماراه ولا علاته

وإن سميت به رجلاً قلت شائي وإن شئت شاوي» اهـ.

واعلم أن الشاوية اليوم يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى بعضها عرب وبعضها زناتة وبربر غير أن لسان الجميع عربي، وكان أصل جمهورهم من هؤلاء الذين ذكر ابن خلدون، ثم انضافت إليهم قبائل أخر، واختلطوا بهم فأطلق على الجميع شاوية تغليباً، وهكذا وقع في سائر عرب المغرب الأقصى المواطنين بتلوله فإنهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الأولى إلا في النادر، وذلك بسبب تعاقب الأعصار وتناسخ الأجيال وتوالي المجاعات والانتجاعات ووقعات الملوك بهم في كثير من الأحيان وتفريق بعضهم من بعض ونقل بعضهم إلى بلاد بعض، ومع ذلك فأسماؤهم الأولى لا زالت قائمة فيهم لن تتغير إلى الآن فمنها يهتدي الفطن إلى التنقير عن أنسابهم وإلحاق فروعهم بأصولهم متى احتاج إلى ذلك. والله تعالى أعلم.

نهوض السلطان أبي العباس إلى تلمسان وفتحها وتخريبها

لما نهض السلطان أبو العباس إلى مراكش وحاصر بها عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن خالفه إلى المغرب أبو حمو بن يوسف الزياني في جمع من أولاد حسين عرب معقل وذلك بإغراء عبد الرحمٰن المذكور، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها ثم عمدوا إلى مدينة تازا فحاصروها سبعاً وخربوا قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازروت وبينما هم على ذلك بلغهم الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمٰن فأجفلوا من كل ناحية ومر أبو حمو في طريقه إلى تلمسان بقصر ونزمار بن عريف السويدي في نواحي بطوية المسمى بمرادة فهدمه.

ووصل السلطان أبو العباس إلى فاس فأراح بها أياماً ثم أجمع النهوض إلى تلمسان فانتهى إلى تاوريرت، وبلغ الخبر إلى أبي حمو فاضطرب رأيه

واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه فاستعدوا له، ثم بدا له فخرج في بعض تلك الليالي بولده وأهله وخاصته وأصبح مخيماً بالصفيصف فأهرع أهل البلد إليه بعيالهم وأولادهم متعلقين به تفادياً من معرة هجوم العسكر عليهم فلم يزعه ذلك عن قصده، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء، ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف وأنزل أولاده الأصاغرة وأهله بحصن تاجحمومت وجاء السلطان أبو العباس إلى تلمسان فملكها واستقر بها أياماً ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها بإغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة، ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو ونزل على مرحلة منها وهنالك بلغه الخبر بإجازة موسى بن أبي عنان من الأندلس إلى المغرب، وأنه خالفه إلى دار الملك فانكفأ راجعاً عوده على بدئه ورجع أبو حمو إلى تلمسان فاستقر ملكه بها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله.

خلع السلطان أبي العباس بن أبي سالم وتغريبه إلى الأندلس والسبب في ذلك

قد قدمنا ما كان من تحكم ابن الأحمر في مملكة المغرب ودالته على السلطان أبي العباس بما أنه كان السبب في ولايته وبما تحت يده من القرابة المرشحين الذين أرصدهم للتشغيب على دار الملك بالمغرب متى رأى من أحدهم ما لا يوافق هواه، وكان مع كثرة تحكمه فيهم يتجنى عليهم في بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون عنها محيصاً فيضطغن ذلك عليهم، وكان يعتد على السلطان أبي العباس بشيء من هذه الهنات.

فلما نهض إلى تلمسان واستولى عليها سنة خمس وثمانين وسبعمائة اتصل بابن الأحمر أن دار الملك بفاس قد بقيت عورة من الجند والحامية فانتهز الفرصة وبادر بتسريح موسى ابن السلطان أبي عنان إلى المغرب

واستوزر له مسعود بن عبد الرحمٰن بن ماساي رئيس الفتنة وقطب رحاها، وكان عنده بالأندلس بعد مفارقة عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن، فنزل موسى ابن أبي عنان سبتة فاستولى عليها وسلمها لابن الأحمر فدخلت في طاعته، ثم تقدم إلى فاس فدخلها من يومه واستقر قدمه بها.

واتصل الخبر بالسلطان أبي العباس وهو بتلمسان فجاء مبادراً ونزل بتازا فأقام بها أربعاً ثم تقدم إلى الموضع المعروف بالركن فانتقض عليه رؤساء جيشه وتسللوا إلى موسى طوائف وأفراداً ولما رأى ما نزل به رجع إلى تازا بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وذلك يوم الأحد الموفي ثلاثين من ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة.

ثم بعث موسى بن أبي عنان من أتاه بالسلطان أبي العباس في الأمان فقدم عليه وقيده وبعث به إلى ابن الأحمر فبقي عنده محتاطاً عليه إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوماً، ومن وزرائه في هذه الدولة: محمد بن عثمان بن الكاس المجذولي ومن كتابه: عبد المهيمن ابن أبي سعيد بن عبد المهيمن الحضرمي تغمد الله الجميع برحمته.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي فارس موسى ابن أبي عنان بن أبي الحسن

أمه: مولدة اسمها تاملالت، صفته: أسمر مائل إلى السواد قصير القامة جاحظ العينين عظيم اللحية تملأ صدره قائم الأنف وإذا تكلم يملأ لسانه فمه فيخرج من بين شفتيه ويتحرك فيقبح كلامه، بويع يوم الخميس الموفي عشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة وقام بأمر دولته وزيره مسعود بن ماساي مستبداً عليه، ولما استقر أمره بالحضرة وجه إليه ابن الأحمر أمه وعياله وكانوا عنده وهناه وزيره أبو عبد اللّه بن زمرك بتوشيح يقول في مطلعه:

قد نظم الشمل أتم انتظام ولاحت الأقمار بعد المغيب
وضاحك الروض ثغور الغمام عن مبسم الزهر البرود الشيب

إلى أن قال في آخره:

مولاي يهنيك وحق الهنا قد نظم الشمل كنظم السعود
قد فزت بالفخر ونيل المنى وأنجز السعد جميع الوعود
وقرت العين وزال العنا وكلما مر صنيع يعود
ولم يزل ملكك حلف الدوام يحوز في التخليد أوفى نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام نصر من الله وفتح قريب

خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساي إليه

كان الحسن بن الناصر بن أبي علي بن أبي سعيد قد لحق من مقره بالأندلس بحضرة تونس في سبيل طلب الملك، وكان الوزير مسعود بن ماساي قد قتل محمد بن عثمان بن الكاس وافترقت حاشيته في الجهات فطلبوا بطن الأرض دون ظهرها، ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس فعثر على الحسن بن الناصر بها فثاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر، فخرج به من تونس وقطع المفاوز إلى أن انتهى إلى جبال غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم فأكرموا مثواه ومنقلبه وأعلنوا بالقيام بدعوته، واستوزر العباس بن المقداد.

وبلغ الخبر إلى مسعود الوزير فجهز العساكر مع أخيه مهدي بن عبد الرحمٰن بن ماساي فحاصره بجبل الصحيفة أياماً فامتنع عليه فنهض إليه مسعود بنفسه على ما نذكره.

وفاة السلطان موسى بن أبي عنان رحمه الله

لما كان من استبداد ابن ماساي على السلطان موسى ما قدمناه استنكف من ذلك وداخل بطانته في الفتك به فنما ذلك إليه وحصلت له نفرة من السلطان طلب لأجلها البعد عنه وبادر إلى الخروج لدافعة الحسن بن الناصر القائم بغمارة، واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن عبد الرحمٰن بن ماساي، فلما انتهى إلى قصر كتامة بلغه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في جمادى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة من مرضه، وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمه، قاله ابن خلدون.

وقال ابن القاضي في الجذوة: «توفي السلطان موسى بن أبي عنان مسموماً يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وله إحدى وثلاثون سنة فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وولي بعده محمد بن أحمد بن أبي سالم» اهـ.

ومن كتابه: أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي وأبو القاسم محمد بن سودة المري، ومن قضاته: أبو عبد اللّه محمد بن محمد المغيلي والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان أبي زيان محمد بن أبي العباس ابن أبي سالم بن أبي الحسن

أمه: حرة وهي رقية بنت السلطان أبي عنان، صفته: أبيض اللون قائم الأنف أسيل الخدين، بويع بعد خاله موسى بن أبي عنان يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، وسنه يوم بويع خمس سنين وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة وغرب إلى الأندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوماً تحت استبداد الوزير مسعود عفا الله عنه.

الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله
أبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن

أمه: أم ولد اسمها عسيلة، صفته: أسود اللون عظيم الخلق رحب الوجه طويل القامة والساقين ممتلئ الأنف عظيم الساعدين، وكان قبل ولايته عند ابن الأحمر بالأندلس في جملة القرابة ولما استوحش الوزير مسعود من السلطان موسى بن أبي عنان بعث ابنه يحيى إلى ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدوة، فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ودس لابن الأحمر في رده وأن يبعث إليه بالواثق هذا ورآه أليق بالاستبداد والحجر فأسعفه ابن الأحمر في ذلك ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء وجيء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده فأجازه إلى سبتة، واتفق أن جماعة من الحاشية انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة فقدم عليهم الواثق بها ورجعوا به إلى المغرب وتقلبوا في نواحيه إلى أن وصلوا إلى جبل مغيلة قرب فاس، فبرز الوزير مسعود في العساكر ونزل قبالتهم وقاتلهم هنالك أياماً ثم وقع الاتفاق على أن يبايع مسعود للواثق بشرط الاستبداد فتم العقد على ذلك.

قال في «الجذوة»: بويع السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبي الفضل يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وقام بأمره الوزير مسعود بن ماساي، ثم حدثت الفتنة بين الوزير المذكور وابن الأحمر بسبب أن الوزير طلب منه إعادة سبتة إلى الإيالة المرينية وكان موسى ابن أبي عنان قد نزل له عنها كما مر وكان طلبه على سبيل الملاطفة فاستشاط ابن الأحمر غضباً وأساء الرد فجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوسنافي ويحيى بن علال بن آمصمود والرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر فاستولى عليها،

ثم سرح ابن الأحمر السلطان أبي العباس من اعتقاله وبعثه إلى المغرب لطلب ملكه وللتشغيب على ابن ماساي الجاحد لإحسانه، فعبر السلطان أبو العباس البحر إلى المغرب فاحتل سبتة واستولى عليها، ثم تقدم إلى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساي وسلطانه الواثق بالله، وأهرع الناس إلى الدخول في طاعته حتى من مراكش، فاستمر الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر، ثم أذعن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيراً ويغرب سلطانه إلى الأندلس فأجيب وخلع الواثق بالله، ثم خرج إلى السلطان أبي العباس فبايعه وتقدم أمامه فدخل داخل ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة، ولحين دخوله قبض على الواثق بالله فقيده وبعث به إلى طنجة فقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبها قبر.

ومن وزرائه: يعيش بن علي بن فارس الياباني ومسعود بن رحو بن ماساي، ومن كتابه: منصور بن أحمد بن محمد التميمي، وأبو يحيى محمد ابن محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين، ومن قضاته: أبو يحيى محمد بن محمد السكاك رحمهم الله تعالى بمنه.

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن

لما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد في التاريخ المتقدم بويع البيعة العامة في اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لمضي ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من خلعه.

ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير ابن ماساي وعلى إخوته وحاشيته وامتحنهم امتحاناً بليغاً فهلكوا من العذاب، ثم سلط على مسعود من العذاب

والانتقام ما لا يعبر عنه واعتد عليه بما كان يفعله في دور بني مرين النازعين عنه إليه، فإنه كان متى هرب منهم أحد عمد إلى بيوته فنهبها فأمر السلطان أبو العباس بعقابه في أطلالها فكان يؤتى به إلى كل بيت فيها فيضرب عشرين سوطاً إلى أن برح به العذاب وتجاوز الحد، ثم أمر به فقطعت أربعته فهلك عند قطع الثانية وذهب مثلاً للآخرين.

ظهور محمد بن عبد الحليم بن أبي علي بسجلماسة ثم اضمحلاله بعد ذلك

قد قدمنا أن الأمير عبد الحليم بن أبي سعيد كان تغلب على سجلماسة ثم غلبه عليها أخوه عبد المؤمن، وسافر عبد الحليم إلى المشرق فهلك في سفرته تلك، وكان قد ترك ابنه محمداً هذا رضيعاً فشب متقلباً بين الدول من ملك إلى آخر على أن أكثر مقامه إنما كان عند أبي حمو صاحب تلمسان، ولما حاصر السلطان أبو العباس فاس الجديد كان محمد هذا عند العرب الأحلاف، فلما اشتد الحصار على مسعود بن ماساي دس إلى الأحلاف أن ينصبوا محمد بن عبد الحليم للأمر ويجلبوا به على المغرب ليأخذ بحجزة السلطان أبي العباس عنه ففعلوا ودخل محمد بن عبد الحليم سجلماسة فملكها حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على فاس الجديد وأوقع بمسعود ابن ماساي وإخوته خرج محمد بن عبد الحليم عن سجلماسة ولحق بأحياء العرب فسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه ونزل على أبي حمو بتلمسان إلى أن هلك فسار إلى تونس ونزل على صاحبها أبي العباس الحفصي، ثم ارتحل بعد وفاته إلى المشرق لحج الفريضة والله تعالى أعلم.

نكبة الكاتب ابن أبي عمرو وحركات بن حسون ومقتلهما

كان محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي، وقد تقدم ذكر والده، في دولة السلطان أبي عنان كاتباً عند السلطان أبي العباس في دولته الأولى، فلما خلع وولي موسى بن أبي عنان تقرب إليه بسالف المخالصة لأبيه من أبي عنان فقد كان أعز بطانته كما مر، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفع منزلته على منازل أهل الدولة وجعل إليه كتابة علامته على المراسم السلطانية كما كان لأبيه، وكان يفاوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره حتى غص به أهل الدولة وسعى هو عند السلطان موسى في جماعة من بطانة السلطان أبي العباس فأتى عليهم النكال والقتل لكلمات كانت تجري بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان أبي العباس حقدها عليهم، فلما ظفر بالحظ من السلطان موسى سعى بهم عنده فقتلهم، وكان القاضي أبو إسحاق إبراهيم اليزناسني من بطانة السلطان أبي العباس وكان يحضر مع ندمائه فحقد عليه ابن أبي عمرو وأغرى به السلطان موسى فضربه وأطافه، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح، ثم سفر ابن أبي عمرو عن سلطانه موسى إلى الأندلس فكان يمر بمجلس السلطان أبي العباس من محل اعتقاله فلا يلم به وربما يلقاه فلا يحييه ولا يوجب له حقاً، فأحفظ ذلك السلطان أبا العباس فلما رد الله عليه ملكه وفرغ من ابن ماساي قبض على ابن أبي عمرو هذا وأودعه السجن ثم امتحنه بعد ذلك إلى أن هلك تحت السياط وحمل إلى داره، وبينما أهله يحضرونه إلى قبره إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي المدينة إبلاغاً في النكال فحمل من نعشه وقد ربط في رجله حبل وسحب في سكك المدينة ثم ألقي على بعض المزابل.

ثم قبض السلطان على حركات بن حسون شيخ العرب وكان مجلباً في الفتنة، وكان العرب المخالفون من معقل لما أجاز السلطان أبو العباس إلى

سبتة وحركات هذا بتادلا، راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً ثم أكرهوه وجاؤوا به إلى السلطان فطوى على ذلك حتى إذا استقام أمره وملك حضرة فاس الجديد قبض عليه وامتحنه إلى أن هلك. وإلى الله عاقبة الأمور.

أخبار تلمسان واستيلاء السلطان أبي العباس عليها

كان السلطان أبو حمو بن يوسف الزياني قد عاد إلى تلمسان وثبت قدمه بها كما قلنا إلى أن خرج عليه ابنه أبو تاشفين آخر سنة ثمان وثمانين وسبعمائة فوقعت بينهما حروب وشرق أبوه بدائه، ثم عادت له الكرة عليه في أخبار طويلة، فاستمد أبو تاشفين السلطان أبا العباس فأمده بابنه الأمير أبي فارس ووزيره محمد بن يوسف بن علال عقد لهما على جيش كثيف من بني مرين وغيرهم، فانتصر أبو تاشفين على أبيه فقتله وبعث برأسه إلى السلطان أبي العباس، ثم تقدم فدخل تلمسان آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة واستمر بها مقيماً لدعوة السلطان أبي العباس فكان يخطب له على منابر تلمسان ويبعث إليه بالضريبة كل سنة كما شرط على نفسه عند توجيه العساكر معه واستمر على ذلك إلى أن مات سنة خمس وتسعين وسبعمائة[1]، فتغلب على تلمسان أخوه الأخير يوسف بن أبي حمو.

ولما اتصل الخبر بالسلطان أبي العباس خرج من الحضرة إلى تازا ومن

(1) وكان نازعه أخوه أبو زيان بن أبي حمو صاحب الجزائر وزحف إليه مراراً فلم يغن شيئاً ثم وفد على السلطان أبي العباس متطارحاً عليه على الانتصاف من أخيه فأقام عنها مدة ثم أسعفه وجهز معه عسكراً إلى تلمسان منتصف سنة 795 فانتهى إلى تازا وهناك اتصل به خبر وفاة أبي تاشفين وحينئذ خرج السلطان أبو العباس من فاس انظر «كشف العرين» للمؤلف.

هنالك بعث ابنه الأمير أبا فارس في العساكر إلى تلمسان فاستولى عليها وأقام فيها دعوة والده وفر يوسف بن أبي حمو إلى بعض الحصون فاعتصم به إلى أن كان ما نذكره

وصول هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برقوق إلى السلطان أبي العباس بتازا والسبب في ذلك

كان العلامة الرئيس ولي الدين ابن خلدون قد استوطن في آخر عمره مصر القاهرة ونزل من سلطانها بالمنزلة الرفيعة قال رحمه الله: «وكان يوسف ابن علي بن غانم أمير أولاد حسين من معقل ثم من أولاد جرار منهم قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، واتصل بصاحب مصر الملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة من الترك قال: فتقدمت إلى السلطان المذكور فيه وأخبرته بمحله من قومه فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك، فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها وشرع في المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع والثياب حتى إذا استكمل من ذلك ما رضيه وعزم على بعثها مع يوسف بن علي حاملها الأول وإنه يبعثه بها من موضع مقامه بتازا اخترمته المنية دون ذلك.

وفاة السلطان أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي العباس بمحل مقامه من تازا وهو يشارف أحوال ابنه أبي فارس ووزيره صالح بن حمو الياباني وكان قد قدمهما لفتح تلمسان والبلاد الشرقية فأصابه حمامه هنالك ليلة الخميس السابع من محرم فاتح سنة ست وتسعين وسبعمائة وحمل إلى فاس فدفن بالقلة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة فكانت دولته الثانية ست سنين وأربعة أشهر، ومن وزرائه في هذه الدولة: صالح بن حمو الياباني ومحمد بن يوسف بن علال الصنهاجي، ومن حجابه: أبو العباس أحمد بن علي القبائلي، ومن كتابه: الشريف أبو القاسم محمد بن عبد الله الحسني السبتي، والقائد محمد بن موسى بن محمود الكردي، ويحيى بن الحسن بن أبي دلامة التسولي، ومن قضاته: القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم اليزناسني: قال في «الجذوة»: وكان السلطان أبو العباس شاعراً مفلقاً بديع التشبيه فمن نظمه قوله:

«أما الهوى يا صاحبي فألفته ... وعهدته من عهد أيام الصبا

ورأيته قوت النفوس وحليها ... فتخذته ديناً إليّ ومذهبا

ولبست دون الناس منه حلة ... كان الوفاء لها طرازاً مذهبا

لكن رأيت له الفراق منغصاً ... لا بفراقنا لا مرحبا»

ومن أخبار السلطان أبي العباس ما حكاه في «نفح الطيب»: «أن الأديب الكاتب أبا الحسن علي ابن الوزير لسان الدين ابن الخطيب كان مصاحباً للسلطان أبي العباس هذا، فحضر معه ذات يوم في بستان سح فيه ماء المذاكرة الهتان وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار فقال السلطان أبو العباس لما لان جانبه وسألت بين سرحات البستان جداوله ومذانبه:

يا فاس أني وأيم الله ذو شغف ... بكل ربع به مغناه يسبيني

وقد أنست بقربك منك يا آملي ... ونظرة فيكم بالأنس تحييني

فأجابه أبو الحسن ابن الخطيب بقوله المصيب:

لا أوحش الله ربعاً أنت زائره — يا بهجة الملك والدنيا مع الدين

يا أحمد الحمد أبقاك الإله لنا — فخر الملوك وسلطان السلاطين

ومن أخباره أيضاً: أن كاتبه أبا زكرياء يحيى بن أحمد بن عبد المنان دخل عليه عشاء فقال له: «أنعم الله صباح مولانا» فأنكر السلطان ذلك وظن أنه ثمل فتفطن أبو زكرياء لما صدر منه وتدارك ذلك فأنشد مرتجلاً[1]:

صبحته عند المساء فقال لي — ماذا الكلام وظن ذاك مزاحا

فأجبته إشراق وجهك غرني — حتى توهمت المساء صباحا

الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله

من الاتفاق الغريب: أن سلطان فاس والمغرب في هذا التاريخ كان اسمه عبد العزيز بن أحمد، وسلطان تونس وإفريقية كان اسمه أيضاً عبد العزيز بن أحمد، وكانت ولايتهما في سنة واحدة إلا أن مدة الحفصي طالت جدّاً.

أم هذا السلطان: أم ولد اسمها جوهر، صفته: شاب السن ربعة من القوم أدعج العينين جميل الوجه.

لما توفي السلطان أبو العباس بن أبي سالم رحمه الله بتازا كان ابنه أبو فارس هذا بتلمسان فاستدعاه رجال الدولة منها فقدم عليهم بتازا وبايعوه بها يوم السبت التاسع من محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة، ولما تم أمره أطلق أبا زيان بن أبي حمو الزياني وكان معتقلاً عنده بفاس لالتجائه إلى أبيه من قبل في خبر ليس تفصيله من غرضنا، وبعثه إلى تلمسان أميراً عليها من قبله، فسار إليها أبو زيان وملكها وأقام فيها دعوة السلطان أبي فارس، ثم

---

(1) إنما تمثل بهما.

خرج عليه أخوه يوسف بن أبي حمو واتصل بأحياء بني عامر بن زغبة وعزم على الإجلاب عليه بهم فسرب أبو زيان فيهم الأموال فقتلوه وبعثوا إليه برأسه فسكنت أحوال تلمسان وذهبت الفتنة بذهاب يوسف واستقامت أمور دولة السلطان أبي فارس قاله ابن خلدون، وهو آخر ما ورخه عن دولة المغرب.

واعلم أن ما نسوقه بعد هذا من الأخبار عن هذه الدولة المرينية لم يسمح لنا الوقت بالوقوف عليه في تأليف يخصها أو موضوع يقص أخبارها نسقاً وينصها، وإنما تتبعنا ما أثبتناه من ذلك في مواضع ذكرت فيها بحسب التتبع لا بالقصد الأول وعلى الله تعالى في الهداية إلى الصواب المعول.

بقية أخبار السلطان عبد العزيز ووفاته

قالوا: كان السلطان عبد العزيز بن أبي العباس رحمه الله كثير الشفقة رقيق القلب منقبضاً عن الغدر متوقفاً في سفك الدماء وكان فارساً عارفاً بركض الخيل ويحسن قرض الشعر ويحب سماعه فمن نظمه، وقد نزل المطر، يشكر الله تعالى عليه، قوله:

الله يلطف بالعباد فواجب ... أن يشكروا في كل حال نعمته
فهو الذي فيهم ينزل غيثه ... من بعد ما قنطوا وينشر رحمته

توفي رحمه الله يوم السبت ثامن صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة ودفن مع أبيه بالقلة فكانت دولته ثلاث سنين وشهراً ومن وزرائه: صالح بن حمو الياباني ويحيى بن علال بن آمصمود الهسكوري ومن كتابه: يحيى بن الحسن ابن أبي دلامة ومن قضاته: عبد الحليم بن أبي إسحاق اليزناسني رحمهم الله تعالى بمنه.

الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي عامر عبد الله ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله تعالى

هذا السلطان شقيق الذي قبله، أمه: الجوهر المتقدمة. صفته: أدعج العينين حسن الأنف لامي العذار. بويع بعد أخيه عبد العزيز يوم السبت الثامن من صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وكان التصرف والنقض والإبرام في هذه المدة كلها للوزراء وتوفي السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفي ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة، فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام، ومن وزرائه: صالح بن حمو ويحيى بن علال، ومن قضاته: عبد الرحيم اليزناسني، ومن حجابه: أبو العباس أحمد بن علي القبائلي وفارح بن مهدي العلج والله تعالى أعلم.

وأما أخبار الغني بالله ابن الأحمر بالأندلس فإنه كان أسقط رياسة الجهاد من بني مرين بها ومحا رسمها من مملكته أيام أجاز عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن للتشغيب على أبي بكر بن غازي بن الكاس حسبما تقدم. وصار أمر الغزاة والمجاهدين إليه وباشر أحوالهم بنفسه واستمر الحال على ذلك إلى أن هلك سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، فولي مكانه ابنه أبو الحجاج يوسف وبايعه الناس وقام بأمره خالد مولى أبيه وتقبض على إخوته: سعد ومحمد ونصر فكان آخر العهد بهم ولم يوقف لهم بعد على خبر، ثم سعى عنده في خالد القائم بدولته وأنه أعد السم لقتله وأن يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب دارهم قد داخله في ذلك ففتك بخالد وتناوشته السيوف بين يديه لسنة أو نحوها من ملكه، ثم حبس الطبيب المذكور فذبح في محبسه، ثم هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة لسنتين أو نحوها من ولايته.

وقد وقفت لبعض الإصبنيوليين، واسمه: منويل باولو القشتيلي، على كتاب موضوع في أخبار المغرب الأقصى فنقلت منه بعض أخبار لم أجدها إلا عنده وهو وإن كان ينقل الغث والسمين والرخيص والثمين إلا أن الناقد

البصير يميز حصباءه من دره ويفرق بين حشفه وثمره، فمن ذلك أنه حكى عن السلطان أبي الحجاج المذكور ما صورته قال: «كانت مراسلات السلطان المريني، يعني السلطان أبا العباس مع السلطان يوسف بن الغني بالله صاحب غرناطة حسنة في الظاهر تدل على الموافقة والمحبة وكان المريني في الباطن يحب الاستيلاء على مملكة غرناطة ولما لم يمكنه ذلك بالسيف عدل إلى أعمال الحيلة فأهدى إلى السلطان أبي الحجاج كسى رفيعة أحدها مسمومة فلبسها فهلك لحينه ومع ذلك فلم يدرك المريني غرضه فإنه لم يلبث إلا يسيراً حتى توفي أيضاً» اهـ. ولما توفي أبو الحجاج بويع ابنه محمد بن يوسف وقام بأمره القائد أبو عبد الله محمد الخصاصي من صنائع أبيه، قال ابن خلدون: «والحال على ذلك لهذا العهد» ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث:

ففي سنة خمسين وسبعمائة كان الوباء الذي عم المسكونة شرقاً وغرباً على ما نبهنا عليه فيما مضى.

وفي سنة خمس وستين وسبعمائة توفي الولي الزاهد أبو العباس أحمد ابن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي نزيل سلا العارف المشهور. قال أبو عبد الله بن سعد التلمساني في كتابه: «النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب»: كان ابن عاشر أحد الأولياء الأبدال معدوداً في كبار العلماء مشهوراً بإجابة الدعاء معروفاً بالكرامات مقدماً في صدور الزهاد منقطعاً عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من صالحي العباد ملازماً للقبور في الخلاء المتصل ببحر مدينة سلا منفرداً عن الخلق لا يفكر في أمر الرزق، وله أخبار جليلة وكرامات عجيبة مشهورة ممن جمع الله له العلم والعمل وألقى عليه القبول من الخلق شديد الهيبة عظيم الوقار كثير الخشية طويل التفكير والاعتبار، قصده أمير المؤمنين أبو عنان وارتحل إليه سنة سبع وخمسين وسبعمائة فوقف ببابه طويلاً فلم يأذن له وانصرف وقد امتلأ قلبه من حبه وإجلاله ثم عاود

الوقوف ببابه مراراً فما وصل إليه فبعث إليه بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته فأجابه بما قطع رجاءه منه وأيأسه من لقائه فاشتد حزنه وقال: «هذا ولي من أولياء الله تعالى حجبه الله عنا» اهـ. ومناقب الشيخ ابن عاشر وكراماته كثيرة وقد ألف فيها أبو العباس بن عاشر الحافي من علماء سلا كتابه المسمى «بتحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر» فانظره.

وفي سنة ست وسبعين وسبعمائة وهي السنة التي قتل فيها ابن الخطيب كان الجوع بالمغرب قال أبو العباس ابن الخطيب القسنطيني المعروف: بابن قنفذ في كتابه «أنس الفقير» ما حاصله: «أنه رجع من هجرته بالمغرب الأقصى في السنة المذكورة إلى بلده قسنطينة فاجتاز في طريقه بتلمسان» قال: وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة وعم الخراب المغرب فأقمت بتلمسان نحو شهر أنتظر تيسر سلوك الطريق فالتجأت إلى قبر الشيخ أبي مدين ودعوت الله عنده فوقع ما أملته وارتحلت بعد أيام يسيرة فرأيت في الطريق من الخير ما كان يتعجب منه من شاهده، وكان أمر الطريق في الخوف والجوع بحيث أن كل من نقدم عليه يتعجب من وصولنا سالمين، ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا حتى أن منهم من يسمعنا ضرب الأكف خلفنا تحسراً علينا حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله».

وفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة توفي الشيخ الفقيه المحدث أبو عبد اللّه محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزاري السلاوي المعروف بابن المجراد صاحب «لامية الجمل» و«شرح الدرر» وغيرهما من التآليف الحسان، قال صاحب «بلغة الأمنية ومقصد الليب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» في حق الشيخ المذكور: «كان محدثاً حافظاً راوية له معرفة بالرجال والمغازي والسير وكان رجلاً صاحلاً حسن السيرة صادق اللّهجة انتفع به الناس وظهرت بركته على كل من عرفه أو لازم مجلسه أو قرأ عليه من صغير أو كبير» قال: «وذلك عندنا معروف بسبتة

مشهور بين أهلها وانتقل إلى بلده سلا وتوفي بها في السنة المذكورة» قلت: وقبره مشهور بها إلى الآن وعليه قبة صغيرة وهو من مزارات سلا خارج باب المعلقة منها عن يمين الخارج على نحو غلوة وأهل سلا يسمونه سيدي الإمام السلاوي رحمه الله ورضي عنه.

وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة توفي الشيخ الإمام العارف المحقق الرباني أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم النفزي المعروف بابن عباد شارح (الحكم العطائية) وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر المذكور آنفاً، قال صاحبه وأخوه في الله الشيخ أبو زكرياء السراج في حقه ما نصه: «كان حسن السمت طويل الصمت كثير الوقار والحياء جميل اللقاء حسن الخلق والخلق على الهمة متواضعاً معظماً عند الخاصة والعامة، نشأ ببلدة رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم اشتغل بعد بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية حتى رأس فيها وحصل معانيها، ثم أخذ في طريق الصوفية والمباحثة عن الأسرار الإلٰهية حتى أشير إليه وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات وألف فيها تآليف عجيبة وتصانيف بديعة غريبة، وله أجوبة كبيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين، ودرس كتباً وحفظها كلها أو جلها» إلى أن قال: «ولقي بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة» قال رحمه الله: «قصدتهم لوجدان السلامة معهم»، وتوفي رحمه الله بفاس بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث رجب من السنة المذكورة وحضر جنازته السلطان أبو العباس بن أبي سالم فمن دونه وهمت العامة بكسر نعشه تبركاً به رحمه الله ورضي عنه.

ومن فوائده التي نقلها عن شيخه ابن عامر ما ذكره في رسائله قال: «كنت قد ما خرجت في يوم مولد النبي ﷺ صائماً إلى ساحل البحر فوجدت هنالك سيدي الحاج أحمد بن عاشر رحمه الله ورضي عنه وجماعة من

أصحابه ومعهم طعام يأكلونه فأرادوا مني الأكل فقلت: إني صائم فنظر إليّ سيدي الحاج نظرة منكرة وقال لي: «هذا يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصوم كالعيد» فتأملت قوله فوجدته حقاً وكأنه أيقظني من النوم» اهـ.

واعلم أنه في آخر هذا القرن الثامن تبدلت أحوال المغرب بل وأحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومألوفاتهم وأزيائهم. قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه بعد أن ذكر أن الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار هي أس المؤرخ الذي تنبني عليه أكثر مقاصده ما نصه: «وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان بملكتهم وبأسهم، هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث» إلى آخر كلامه رحمه الله، فافهم هذه الجملة وتفطن لأحوال الدول التي سردنا أخبارها فيما مضى وأحوال التي نسرد أخبارها فيما بعد وتأمل الفرق بين ذلك والسبب فيه والله تعالى الموفق للصواب بمنّه.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي العباس ابن أبي سالم

هذا السلطان هو ثالث الإخوة الأشقاء من بني أبي العباس الذين ولوا الأمر من بعده ولاء. أمه: الجواهر أم أخويه قبله. بويع بعد صلاة العصر له من يوم الثلاثاء الموفي ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وسنه يومئذ ست عشرة سنة وكان النقض والإبرام وسائر التصرفات في دولته للوزراء والحجاب والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته، ومن أكبر حجابه: أبو العباس القبائلي الذي نذكر خبره الآن.

حجابة أبي العباس القبائلي ونكبته ومقتله والسبب في ذلك[1]

بيت بني القبائلي بيت مشهور في الوزارة والحجابة والكتابة من لدن الدولة الموحدية بمراكش إلى هذا التاريخ، وكان الرئيس الفقيه أبو العباس أحمد بن علي القبائلي كاتباً مشهوراً وحاجباً مذكوراً وكان قد بذ الأقران وتصدر على الأعيان وبلغ من الجاه ونفوذ الكلمة مبلغاً عظيماً، وكان يحابي بالخطط السلطانية الأقارب والأرحام لا يعدل بها عمن سواهم فاضطغنت عليه القلوب وكثرت فيه السعايات إلى أن نفذ أمر الله فأوقع به السلطان أبو سعيد وقعة شنعاء كان من خبرها: أنه كان للحاجب المذكور ولد اسمه عبد الرحمٰن وكان من فضلاء وقته، وكان لعبد الرحمٰن هذا ولد اسمه علي وكان من نجباء الأبناء فكان لجده أبي العباس لذلك ميل إليه ومحبة وافتتان به، فاتفق أن مرض هذا الحافد ذات يوم فنزل جده أبو العباس من الحضرة بفاس الجديد لعيادته بدار ولده عبد الرحمٰن من عدوة القرويين من فاس القديم

(1) انظر ترجمة القبائلي هذا في «الضوء اللامع» للسخاوي ولا بد، فقد أفاد ج 1 صفحة 47.

وكانت الدار بزنقة الجيلة من الطالعة فبات الشيخ عند حافده تلك الليلة، وكان منذ ولي خطة الحجابة لم يغب عن دار الملك ليلة واحدة بل كان يأخذ في ذلك بالحزم بحيث يسد أبواب الحضرة ويفتحها ويباشر سائر الأمور السلطانية بنفسه، فلما أراد الله إنفاذ قدره غطى على عقله وبصره فتساهل في تلك الليلة وبعث ولده أبا القاسم ليقوم مقامه في غلق الأبواب وفتحها مع صاحب السقيف ومساهمه في القيام بالأمور السلطانية أبي محمد عبد اللّه الطريفي الآتي ذكره فغلقا الأبواب على العادة، ولما كان الصباح من الغد تقدم الولد أبو القاسم لأخذ المفاتيح من دار الخلافة فأخرجت إليه وتولى فتح الأبواب وحده دون أن يحضر الطريفي المشارك له في ولاية السقيف، فلما جاء أبو محمد المذكور ورأى الأبواب مفتحة بدون حضوره أخذه من ذلك ما قدم وما حدث وأسرها في نفسه حتى إذا كان المساء وحضر الوقت المعهود لغلق الأبواب طلع للحضرة ولد آخر من ولد الحاجب القبائلي يعرف بأبي سعيد فبادر أبو محمد فسد الأبواب في وجهه قبل أن يصل إليه وأمسك المفاتيح عنده واستبد بها فطلب منه أبو سعيد أن يفتح له الباب فتجهمه وامتنع وكأنه أمر دبر بليل، ثم تقدم القائد أبو محمد المذكور إلى السلطان أبي سعيد فأعلمه بما اتفق له مع أولاد الحاجب فأوعز إليه السلطان أن لا يفتح الباب بعد غلقه إلا وقت فتحه المعتاد وزاد في الوصية بأن لا يفتح ولا يغلق إلا بمحضر السعيد ابن السلطان أبي عامر رحمه الله. ولما رجع أبو سعيد إلى والده بعدوة القرويين من فاس أعلمه بما اتفق له مع القائد الطريفي فامتلأ غيظاً وقامت قيامته وكانت فيه دالة على السلطان فتخلف عن الحضور ولم يذكر ما قالته الحكماء: (إذا عاديت من يملك فلا تلمه إنه يهلكك)، ثم استعطفه السلطان فأبى أن يعطف ثم بعث إليه ببراءة بخطه ليزيل ما بصدره من الموجدة فكتب الحاجب جوابها، وأقسم أن لا يطأ بساطاً فيه فارح بن مهدي العلج وكان فارح هذا بعين التجلة من السلطان فلما وقف السلطان أبو سعيد على جواب الحاجب حمى أنفه وأظلمت الدنيا في عينيه وأمر بالإيقاع بالحاجب في الحين فذبح هو وولده عبد الرحمٰن يوم الخميس الموفي ثلاثين

من شوال سنة اثنتين وثمانمائة، وكان عبد الرحمٰن هذا فاضلاً شاعراً فمن شعره في الغزل قوله:

أتسمع في الهوى قول اللواحي ... وقد أبصرت خشف بني رياح
غزال خلف الصب المعني ... من الوجد المبرح غير صاح
وقد قتلت ولا إثم عليها ... مراض جفونه كل الصحاح
يقول ولحظه بالعقل يزري ... علام تطيل وصفي وامتداحي
فقلت فنون سحر فيك راقت ... قضت للقلب بالعشق الصراح
جبينك والمقلد والثنايا ... صباح في صباح في صباح

وبقي الحافد أبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن المذكور مرتباً في جملة الكتاب وكان فاضلاً شاعراً أيضاً ولما مرض السلطان أبو سعيد في شعبان سنة سبع وثمانمائة وصح من مرضه وهنأته الشعراء بقصائد كثيرة فكان من جملتهم أبو الحسن المذكور فقال:

هنيئاً لنا ولكل الأنام ... براحة فخر الملوك الهمام
إمام أقام رسوم العلا ... وحل من المجد أعلى السنام
به قرت العين لما بدا ... صحيحاً وما إن به من سقام
وهل هو إلا كبدر الدجا ... يواري قليلاً وراء الغمام
ويظهر طوراً فيجلو به ... عن الناس يا صاح ساجي الظلام
أو الليث يعكف في غيله ... فتحذر منه السباع اهتجام
أمولاي عثمان بحر الندى ... ومردي العداة ونجل الكرام
لقد رفع الله مقداركم ... فنفسي الفداء لكم من إمام
أمولاي عبدك قد ضره ... أفول رضاكم وبعد المرام
وأضحى كئيباً لإبعادكم ... مشوقاً لتقبيل ذاك المقام
فكن راحماً يا إمام الورى ... عطوفاً بمملوكك المستهام
لعل الذي ناله ينقضي ... وتشمل منك هبات جسام
فأيدك الله بالنصر ما ... ترنم فوق الغصون حمام

حجابة فارح بن مهدي وأوليته وسيرته

قال ابن خلدون: «يا فارح بن مهدي من معلوجي السلطان يعني أبا العباس وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان» اهـ. وقال في «الجذوة»: «هو من موالي السلطان أبي سعيد بن أبي العباس». ولا منافاة بين الكلامين والله أعلم. ولما قتل أبو العباس القبائلي ولي الحجابة من بعده فارح بن مهدي هذا. قال في «الجذوة»: ولم يكن من أهل العلم لكنه كان شيخاً مجرباً للأمور عارفاً مجيداً في التدبير قد أعطى الرياسة حقها والخطط مستحقها وكان ممسكاً عنانه فلا يميل مع نفسه ولا يسحب أردانه ولا يوحش سلطانه موسوماً عند الخلافة بالأمانة ملحوظاً لديها بعين المروة والصيانة. وكان السلطان أبو سعيد يعتني به لأجل كبر سنه وتربيته الحرة: آمنة بنت السلطان أبي العباس[1] كانت تبدي له وجهها في حالي صغرها وكبرها فكانت له بذلك مزية لم تكن لغيره. بهذا ذكره التاورتي ولعل فيه تعريضاً بالحاجب قبله. ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في كتابه: «مرآة المحاسن» على مدينة تيجساس وصفها بقوله: «إنها في شرقي تطاوين على مسيرة يوم منها في موضع كثير الحجارة والصخر في سفح جبل من غربيها وتحتها من شمالها جرف كثير الصخر عظيمه على مكسر موج البحر ولها نهر نفاع يجلب إليها منه جدول ولها بسيط تركبه الجداول من كل جهة فتسقي الزرع والكتان والثمار فأهلها في أمن من القحط» إلى أن قال: «ولم تزل عامرة إلى حدود ثمانمائة فجلا عنها أهلها بسبب جور فارح بن مهدي الوالي عليها من قبل بني مرين فخلت من سكانها وانتقلوا إلى القبائل وغيرها ولم يزل سورها ماثلاً إلى الآن» اهـ. قلت: وفي هذه المدة خربت تطاوين القديمة أيضاً فزعم منويل في تاريخه: أن قراصين المسلمين من أهل تطاوين وغيرهم

---

(1) آمنة المرينية التي ينسب إليها البستان (للمؤلف).

كانت تغير على سواحل أصبانيا وتغنم مراكبها ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية بعث الطاغية الريكي الثالث شكوادرة لغزو تطاوين ومراكبها فانتهت إلى وادي مرتيل وأفسدت قراصين المسلمين التي به ثم نزلت عساكر الإصبنيول للبر فاقتحمت مدينة تطاوين بعد أن جلا أهلها عنها وخربتها وعاثت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبي الحسن علي المنظري الغرناطي كما سيأتي. وكانت وفاة فارح بن مهدي في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانمائة والله تعالى أعلم.

حجابة أبي محمد الطريفي وسيرته

لما توفى الحاجب فارح بن مهدي ولي الحجابة من بعده أبو محمد عبد اللّه الطريفي وكان من فضلاء الحجاب وهو الذي بنى مسجد السوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليه كتباً كثيرة فكان ذلك من حسناته الباقية نفعه الله بقصده.

حدوث الفتنة بين السلطان أبي سعيد والسلطان أبي فارس الحفصي والسبب في ذلك

لما توفي السلطان أبو العباس الحفصي صاحب تونس وولي الأمر من بعده ابنه أبو فارس المذكور فوزع الوظائف من الإمارة والوزارة وولاية الأعمال على إخوته فاعتضد بهم، وكان من جملتهم أخوه أبو بكر بن أبي العباس بقسنطينة فنازعه بها ابن عمه الأمير أبو عبد اللّه محمد بن أبي زكرياء الحفصي صاحب بونة وألح عليه في الحصار فصمد إليه السلطان أبو فارس الحفصي وأوقع به على سيبوس وقعة شنعاء انتهت به هزيمتها إلى فاس مستصرخاً صاحبها، وهو يومئذ أبو فارس المريني، فأقام أبو عبد اللّه بفاس

إلى سنة عشر وثمانمائة في دولة السلطان أبي سعيد فاتفق أن فسد ما بين السلطان أبي فارس الحفصي وبين أعراب إفريقية من سليم فقدمت طائفة منهم حضرة فاس مستنجدين السلطان أبا سعيد على صاحبهم أبي فارس فألفوا عنده الأمير أبا عبد الله المنهزم بسيبوس كما مر، فعقد له السلطان أبو سعيد على جيش من بني مرين وغيرهم وبعثه مع العرب فلما انتهى إلى بجاية تلقته أعراب إفريقية طائعة وهون عليه المرابط شيخ حكيم منها أمر تونس فرد الجيش المريني وقصدها بمن انضم إليه من الحشود فأخذ بجاية من أبي يحيى وفر في البحر، وعقد أبو عبد الله عليها لابنه المنصور ثم زحف إلى السلطان أبي فارس فخالفه إلى بجاية فافتكها من يد ابنه المنصور ووجه به مع جماعة من كبار أهلها معتقلين إلى الحضرة، وعقد عليها لأحمد ابن أخيه ونهض لقتال ابن عمه أبي عبد الله المذكور فنزع المرابط عنه إلى السلطان أبي فارس لعهد كان بينهما، فانفض جمع أبي عبد الله وقتل واحتز رأسه ووجهه السلطان أبو فارس مع من علقه بباب المحروق أحد أبواب فاس إغاظة للسلطان أبي سعيد وذلك سنة اثنتي عشرة وثمانمائة. ثم تحرك السلطان أبو فارس إلى جهة المغرب قاصداً أخذ الثار من السلطان أبي[1] سعيد فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس فلما شارفها جنح السلطان أبو سعيد إلى السلم فوجه إليه بهدايا جليلة فقبل ذلك أبو فارس وكافأ عليه وانكفأ راجعاً إلى حضرته، ولحقته في طريقه بيعة أهل فاس وانتظم له ملك المغرب وبايعه صاحب الأندلس أيضاً قاله صاحب «الخلاصة النقية» وهو الأديب أبو عبد الله محمد الباجي أحد كتاب الدولة التركية بتونس.

---

(1) كان زحف أبي فارس إلى المغرب سنة 827 كما عند الزركشي صفحة 110 وهلك أبو سعيد سنة 823 وعليه فإن السلطان المريني المأخوذ منه الثأر هو أحد الملوك الذين تعاقبوا على مملكة المغرب قبل السلطان عبد الحق كما يعلم تحقيق ذلك في تأليفنا الموضوع في تاريخ المغرب فراجعه تستفد والله أعلم للمؤلف.

استيلاء البرتغال على مدينة سبتة أعادها الله

كان جنس البرتغال وهو البردقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الأقطار وسما إلى تملك الأمصار فانتهى إلى أطراف السودان بل وأطراف الصين على ما قيل، وألح على سواحل المغرب الأقصى فاستولى في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصاراً طويلاً، وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد بن أحمد صاحب الترجمة، وسلطان البرتغال يومئذ خوان الأول.

وذكر منويل في تاريخه: أن سلطان المغرب يومئذ عبد اللّه بن أحمد أخو أبي سعيد المذكور وسيأتي كلامه بتمامه.

وذكر صاحب «نشر المثاني»: في كيفية استيلاء البرتغال على سبتة قصة تشبه قصة قصير مع الزباء قال: «رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصارى جاؤوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد وجاء أهله إلى سلطان فاس مستصرخين له، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالاً ونساءً وولداناً فأنزلهم بملاح المسلمين ثم ردهم إلى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا في البلاد والأمر لله وحده» قال: «وسمعت من بعضهم أن الذي جرأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض إليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلتها ويبذلوا له خراجاً معلوماً في كل سنة فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها والله أعلم بحقيقة الأمر».

ولما استولى البرتغال على سبتة اعتنى بها وحصنها واستمرت في ملكتهم مدة تزيد على مائتين وخمسين سنة ثم ملكها منهم طاغية الإصبنيول في سبيل مهادنة وشروط انعقدت بينهم بمدينة أشبونة في حدود الثمانين وألف، وأخبار السلطان أبي سعيد كثيرة، وقد أرخ دولته وسيرته الكاتب أبو إسحاق إبراهيم ابن أحمد التاورتي رحمه الله. وتوفي السلطان المذكور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وولي الأمر من بعده ابنه عبد الحق الأخير، كذا ذكره في «جذوة الاقتباس». وقد ذكر منويل في أمر أبي سعيد ووفاته ما يخالف هذا، قال: «لما كانت دولة السلطان أبي سعيد المريني كان المسلمون أهل جبل طارق قد سئموا ملكة ابن الأحمر صاحب غرناطة وتحققوا بأن المريني أقوى منه شوكة وأقدر على تخليصهم مما عسى أن ينالهم به الإصبنيول من حصار ونحوه، فبعثوه إليه يخطبون ولايته ويعرضون عليه الدخول في طاعته إن هو أمدهم بما يدفعون به في نحر ابن الأحمر فأعجب أبا سعيد ذلك وللحين بعث إليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدي عبو ومعه طائفة من الجيش إمداداً لهم وكان قصد أبي سعيد ببعث أخيه عبد الله الحصول على إحدى الفائدتين: أما فتح جبل طارق إن كان الظهور له، أو الاستراحة منه إن كان عليه، لأنه كان يشوش عليه فجاء الأخ المذكور حتى نزل بإزاء جبل طارق ففتح أهل البلد الباب وأدخلوه وأدخلوا جنده، وتحصن قائد الغرناطي وعسكره بقلعة الجبل وطير الأعلام بذلك إلى صاحبه، فبعث إليه جيشاً قويت به نفسه فنزل من القلعة وانضم إليه مدده وقاتلوا جيش المريني فهزموه، وقبضوا على عبد الله باليد وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم أسرى إلى صاحب غرناطة، فعمد صاحب غرناطة إلى عبد الله وأنزله في محل معتبر وأحسن إليه، فتخلف ظن السلطان أبي سعيد فيما كان يحب لأخيه من التلف وغاظه فعل ابن الأحمر معه من الإحسان والإبقاء عليه، ثم أن أبا سعيد دبر حيلة بأن بعث من قبله رجلاً إلى أخيه ليسقيه السم ويستريح

منه، مع أن غوغاء أهل المغرب وقبائله المنحرفة عن السلطان كانوا قد تشوقوا لقدومه عليهم وقيامهم معه، فبطلت حيلة أبي سعيد في السم ولم يحصل على طائل. ثم إن ابن الأحمر اتفق مع عبد اللّه على أن يمده بالعسكر والمال ويسرحه إلى المغرب ليستولي على ملكه ويأخذ له بالثأر من أخيه، فقبل عبد اللّه ذلك وأمده ابن الأحمر وسرحه إلى المغرب، فلما احتل به تبعه عدد وافر من قبائله الذين كانوا مستثقلين لوطأة أبي سعيد، فنهض إليه أبو سعيد فكانت الكرة عليه ورجع مفلولاً في يسير من الجند إلى فاس فتقبض عليه أهلها وسجنوه وأعلنوا بنصر أخيه عبد اللّه، وفتحوا الباب فدخل الحضرة واستولى عليها وتم أمره، وسجن أخاه أبا سعيد إلى أن مات». قال: «ولما استقل عبد اللّه بأمر المغرب كله هدأت الرعية واستقامت الأحوال، إلا أنه تكدر عيشه بذهاب سبتة التي استولى عليها طاغية البرتغال خوان الأول بعد ما حاصرها أشد الحصار، وكان ذلك على السلطان من أعظم النحوس، وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم. ثم ثاروا على السلطان عبد اللّه واعتورته رماحهم حتى فاظ، ولما قتل تنازع الملك بعده اثنان من إخوته، وبعد قتال شديد ولم ينتصف أحد منهما من صاحبه اتفق أهل الحل والعقد على أن يولوا عبد الحق بن أبي سعيد» اهـ كلام منويل. وهذا السلطان عبد اللّه الذي زاده منويل بين أبي سعيد وعبد الحق لم يذكره صاحب «جذوة الاقتباس» ويبعد أن يكون هذا الخبر الذي ساقه منويل لا أصل له والله أعلم بحقيقة الأمر.

ومن جملة حجاب السلطان أبي سعيد الرئيس أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الملياني. قال في «الجذوة»: أصله من زرهون وتولى حجابة السلطان المذكور» قال: «فغدر مولاه ومخدومه، وهتك ستره، وخرب داره وعبث بحريمه، وقتل أولاده وإخوانه، ورفع الأذناب، وحط الرؤساء، وكان فساد المغرب على يده، وقد ذكره التاورتي فأثنى عليه. قال في «الجذوة»:

«ووجدت في طرة ذمه وتنقيصه» والله أعلم.

ومن وزراء السلطان أبي سعيد: صالح بن حمو الياباني، ويحيى بن علال بن آمصمود الهسكوري، وقد تقدم ذكرهما، ومن كتابه: الفقيه الأديب أبو زكرياء يحيى بن أبي الحسن بن أبي دلامة، وكان صاحب العلامة عند السلطان المذكور، وممن شهد له أهل عصره بالتبريز في النظم الفائق. ثم ابنه محمد من بعده، ومن قضاته: الفقيه أبو محمد عبد الرحيم بن إبراهيم اليزناسني وقد تقدم ذكره، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد ابن أبي العباس بن أبي سالم المريني رحمه الله

هذا السلطان هو آخر ملوك بني عبد الحق من بني مرين، وهو أطولهم مدة، وأعظمهم محنة وشدة، وهو أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان ابن أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الزناتي المريني، أمه علجة إصبنيولية على ما ذكره منويل، وفي أيامه ضعف أمر بني مرين جداً وتداعى إلى الانحلال وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله على ما نذكره.

زحف البرتغال إلى طنجة ورجوعهم عنها بالخيبة

قال منويل: «كان لطاغية البرتغال خمسة إخوة شجعان، فأرادوا أن يدركوا فخراً باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب، يضيفونه إلى سبتة ويوسعون به ما ملكوه من أعمالها، فركبوا قراصينهم في ستة آلاف عسكري ونزلوا بسبتة. ثم زحفوا إلى طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وحاصروها وضيقوا على أهلها ثم عاجلهم سلطان فاس وسلطان مراكش وأرهقوهم عن

فتحها وأوقعوا بهم وقبضوا على كبير عسكرهم فرناندو وجماعة من أصحابه وعادوا بهم أسرى إلى فاس، فلما صارت عظماء البرتغال في يد المسلمين وأسرهم جنحوا إلى السلم فسالمهم المسلمون على أن يردوا لهم سبتة ويسرحوا لهم كبيرهم وأصحابه الذين معه، فرضي البرتغال بذلك وانعقد الصلح عليه ثم كان من قدر الله أن هلك كبير البرتغال الذي وقع الشرط عليه في سجن فاس واستمرت سبتة في يد العدو وعد ذلك من سوء بخت المسلمين والأمر لله وحده».

وقد ذكر صاحب «المرآة»: أن البرتغال استولى على طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وهو غير صواب، وإنما كان الحصار فقط. والله تعالى أعلم.

أخبار الوزراء والحجاب وتصرفاتهم

كان من جملة وزراء السلطان عبد الحق الوزير صالح بن صالح بن حمو الياباني، قالوا: وهو الذي أوقع بالفقيه القاضي أبي محمد عبد الرحيم ابن إبراهيم اليزناسني قتله ذبحاً سنة أربع وثلاثين وثمانمائة. ومن وزراء السلطان المذكور الوزير أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي. قالوا: وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة غزا الوزير المذكور الشاوية، وكانوا قد تمردوا على الدولة وأعضل داؤهم ففل الوزير المذكور جمعهم وخرب منازلهم ثم كانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، قتله عرب أنكاد على سبيل الغدر قعصاً بالرماح وحمل قتيلاً إلى فاس فدفن بالقلة خارج باب الحبيسة. وولي الوزارة بعده علي بن يوسف الوطاسي، قالوا: فكانت أيامه مواسم لديانته وصيانته وحفظه أمور الملك ورفقه بالرعية مع العدل وحسن الإدارة، ثم توفي بتامسنا خامس رمضان سنة ثلاث وستين وثمانمائة، وحمل إلى فاس فدفن بالقلة أيضاً. وفي هذه السنة أو التي قبلها استولى البرتغال على

قصر المجاز وهو المعروف بقصر مصمودة والقصر الصغير وهو الآن خراب. والله أعلم.

وزارة يحيى بن يحيى الوطاسي ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب في ذلك

لما توفي الوزير علي بن يوسف رحمه الله قدم للوزارة بعده أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، قالوا: فكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة، وذلك أنه لما استقل بالحجابة أخذ في تغيير مراسم الملك وعوائد الدولة، وزاد ونقص في الجند ونقض جل ما أبرمه قبله الوزراء، وعامل الرعية بالعسف ومن جملة ما نقم عليه أنه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد اللّه محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولي[1]: وكان المصمودي من الدين وتحرى المعدلة بمكان، فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواذه على أمور الدولة وتبين له أن الوطاسيين قد التحقوا معه رداء الملك وشاركوه في بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم إلا من حماه الأجل منهم فتقبض على الوزير يحيى وعلى أخويه أبي بكر وأبي شامة وعلى عمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن علي بن يوسف وأتى الذبح على جميعهم واستمر البحث عن محمد الشيخ ومحمد الحلو أخوي الوزير المذكور فلم يوجدا لذهاب الشيخ في ذلك اليوم للصيد واختفاء الحلو عند قيام الهيعة، فكان ذلك من لطف الله بهما، واتصل بهما ما جرى على عشيرتهم وبني أبيهم فذهبا إلى منجاتهما وكان من أمرهما ما نذكره. وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضي سبعين يوماً من وزارة يحيى بن يحيى

(1) راجع «درة الحجال» ج 1 ص 220 فقد ذكر أن الذي قدم للقضاء بعده هو أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه المكناسي.

المذكور، وصفا للسلطان عبد الحق أمره ورأى أن قد شفا نفسه من الوطاسيين ونقى بساط حضرته من قضضهم، وأبرأ جسم ملكه من مرضهم والله غالب على أمره.

رياسة اليهوديين هارون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة

قالوا: كان السلطان عبد الحق منذ أوقع ببني وطاس لم تسمح نفسه بإعطاء منصب الوزارة لأحد ثم نما إليه أن العامة وكثيراً من الخاصة قد نقموا عليه إيقاعه بالوطاسيين، وأن أذنهم صاغية إلى محمد الشيخ صاحب آصيلا، وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما نذكر، وربما شافهه البعض منهم بذلك. فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأديباً لهم وتشفياً منهم زعموا فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال، واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودي هارون قد ولى على شرطته رجلاً يقال له: الحسين لا يألو جهداً في العسف واستلاب الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس في شدة.

وفي سنة سبع وستين وثمانمائة انتزع الإصبنيول جبل طارق من يد ابن الأحمر.

استيلاء البرتغال على طنجة

ثم في سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتغال على طنجة، زحفوا إليها من سبتة في ألوف من العساكر واستولوا عليها واستمرت بأيديهم أكثر من مائتين وخمس سنين ثم بذلوها لطاغية النجليز سنة أربع وسبعين وألف في سبيل المهاداة والصهر الذي انعقد بينهما كما سيأتي.

مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعيد والسبب في ذلك

ثم إن اليهودي عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة: حومة بفاس. قالوا: وكانت بدار الكومى قرب درب جنيارة فأنحى عليها بالضرب، ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله ﷺ فحمي اليهودي وكاد يتميز غيظاً من سماع ذكر الرسول، وأمره بالإبلاغ في عقابها، وسمع الناس ذلك فأعظموه، وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلي وكانت له صلابة في الحق وجلادة عليه، بحيث يلقي نفسه في العظائم ولا يبالي، وقالوا له: «ألا ترى إلى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت» فنجع كلامهم فيه وللحين أغراهم بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد فأجابوه إلى ذلك واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه، والتفت عليه خاصتهم وعامتهم، وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم، ثم تقدم الورياكلي بهم إلى فاس الجديد فصمدوا إلى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم، وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائباً في حركة له ببعض النواحي. قال في «نشر المثاني»: «خرج السلطان عبد الحق بجيشه إلى جهة القبائل الهبطية وترك اليهودي يقبض من أهل فاس المغارم، فشدد عليهم حتى قبض على امرأة شريفة وأوجعها ضرباً» وحكى ما تقدم، فاتصل ببعد الحق الخبر وانفض مسرعاً إلى فاس واضطرب عليه أمر الجند، ففسدت نياتهم، وتنكرت وجوههم، وصار في كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم، فأيقن عبد الحق بالنكبة وعاين أسباب المنية. ولما قرب من فاس استشار هارون اليهودي فيما نزل به فقال اليهودي له: «لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وإنما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون لأنها بلدنا

وبها قوادنا وشيعتنا، وحينئذ يظهر لنا ما يكون» فما استتم اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بني مرين يقال له تيان، وعبد الحق ينظر، وقال: «وما زلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل بإشارتهم» ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعاً لليدين والفم». ثم قالوا للسلطان عبد الحق: «تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك». فأسلم نفسه، وانتهبت محلته، وفيئت أمواله وحلت به الإهانة، وجاءوا به إلى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد، فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج إلى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة، وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه وشكروا الله على أخذه، ثم جنب إلى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد، ثم أخرج بعد سنة ونقل إلى القلة فدفن بها وانقرضت بمهلكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده[1].

ونقل الثقات أن الشيخ أبا العباس أحمد زروق رحمه الله كان قد ترك الصلاة خلف الفقيه أبي فارس الورياكلي لما صدر منه في حق السلطان عبد الحق، وكان يقول: «لا آمن الغندور على صلاتي يعيبه بذلك، والغندور في لسان المغاربة ذو النخوة والإباية وما أشبه ذلك، والله يتغمدنا والمسلمين برحمته آمين.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول:

في سنة سبع وثمانمائة توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمٰن بن علي بن صالح المكودي عالم فاس وأديبها ونحويها صاحب المقصورة وشرح

(1) وكانت دولته منذ تاريخ وفاة والده أبي سعيد ستاً وأربعين سنة.

الخلاصة وغير ذلك من التآليف، قيل: هو آخر من درس كتاب سيبويه في النحو بفاس.

وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة توفي الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن عمر ابن الفتوح التلمساني ثم المكناسي، يقال: إن سبب انتقاله من تلمسان أنه كان شاباً حسن الصورة، جميل الشارة، فمرت به امرأة جميلة فجعل ينظر إليها من طرف خفي فقال: «اتق الله يا ابن الفتوح يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» فتأثر لقولها واتعظ وتاب إلى الله تعالى، وجعل من تمام توبته أن يهاجر من الأرض التي قارف الذنب فيها فارتحل إلى فاس فأقام بها مدة وانتفع الناس به، ثم انتقل بعدها إلى مكناسة فتوفي بها في السنة المذكورة. قالوا: وهو أول من أدخل مختصر الشيخ خليل مدينة فاس والمغرب.

وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة كان الوباء العظيم بالمغرب، هلك فيه جمع من كبار العلماء والأعيان، ويسمى هذا الوباء عند أهل فاس بوباء عزونة.

وفي سنة تسع وأربعين وثمانمائة في ذي القعدة منها توفي الشيخ أبو محمد عبد اللّه العبدوسي مفتي فاس وعالمها الكبير ومحدثها الشهير وكان من أهل الصلاح والخير والإيثار.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة في أواخر ذي القعدة منها توفي إمام الجماعة بفاس الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن قاسم الأندلسي الأصل المعروف بالقوري ودفن بباب الحمراء منها.

وفي سنة تسع وتسعين وثمانمائة في أواخر صفر منها توفي الشيخ العارف بالله المحقق أبو العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق وكانت وفاته بمسراته من أعمال طرابلس. والله أعلم.

بقية أخبار بني الأحمر واستيلاء العدو على غرناطة وسائر الأندلس منها وانقراض كلمة الإسلام منها

كانت دولة بني الأحمر في هذه المدة متماسكة. والفتنة بين أعياصها متشابكة، والعدو فيما بين ذلك يخادعهم عما بأيديهم ويراوغهم ويسالمهم تارة ويحاربهم إلى أن كانت دولة السلطان أبي الحسن عليّ ابن السلطان سعد ابن الأمير عليّ ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله، فنازعه أخوه أبو عبد اللّه محمد بن سعد المدعو بالزغل، قدم من بلاد النصارى وبويع بمالقة وبقي بها مدة، وعظم الخطب واشتدت الفتن، وشرق المسلمون بداء الخلاف الواقع بين هذين الأخوين، وتكالب العدو عليهم ووجد السبيل إلى تفريق كلمتهم والتمكن من فسخ عهدهم وذمتهم، وذلك أعوام الثمانين وثمانمائة. ثم انقاد أبو عبد اللّه لأبي الحسن فسكنت أحوال الأندلس بعض الشيء ثم خرج عليه ولده أبو عبد اللّه محمد بن أبي الحسن وأسره النصارى في بعض الوقعات فراجع الناس طاعة أبي الحسن ثم نزل لأخيه أبي عبد اللّه الزغل عن الأمر لآفة أصابته في بصره. ثم إن العدو عمد لأسيره أبي عبد اللّه ابن الحسن فوعده ومنّاه، وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه، وبعثه للتشغيب على عمه طلباً لتفريق كلمة المسلمين وعكس مرادهم وتوصلاً إلى ما بقي عليه من حصون المسلمين وبلادهم وطالت الفتنة بين العم وابن الأخ وكل عقد كان بين العدو وبينه انحل وانفسخ، وخبت العامة الذين هم أتباع كل ناعق في ذلك ووضعت، وكان ذلك من أعظم الأسباب المعينة للعدو على التمكن من أرض الأندلس والتهامها واستئصال كلمة الإسلام منها. ثم إن ابن الأخ استولى على غرناطة بعد خروج العم عنها إلى الجهاد ففت ذلك في عضده وعطف إلى وادي آش فاعتصم بها، وحاصر العدو مالقة فقاتله أهلها بكل ما أمكنهم حتى إذا لم يجدوا للقتال مساغاً نزلوا على الأمان، فاستولى العدو عليها أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، ثم استولى بعد ذلك على وادي آش وأعمالها صلحاً ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد اللّه العم بعد

أن استهوى العدو قواده بالأموال الجزيلة، ثم إن العدو خذله الله وأرسل أبا عبد اللّه بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه مخيراً في أي بلاد الأندلس شاء فشاور رعيته فاتفق الناس على الامتناع والقتال، فعند ذلك أرهف العدو حده. وجعل غرناطة وأهلها من شأنه بعد أن استولى أثناء هذه الفتن والتضريبات على حصون كثيرة لم نتعرض لذكرها، حتى لم يبق له إلا غرناطة وأعمالها، وقد اختصرنا معظم هذه الأخبار إذ لم تكن من موضوع الكتاب وإنما ألممنا بهذه النبذة تتميماً للفائدة وزيادة في الإمتاع. ولما كان اليوم الثاني والعشرون من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة وأفسد الزرع ودوخ الأرض، وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير فأحكمه، وكان الناس يظنون أنه عازم على الانصراف، فإذا به قد صرف عزمه إلى الحصار والإقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر، واشتد الحصار بالمسلمين غير أن النصارى على بعد، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق، والطعام يأتي من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وانقطع الجالب وقل الطعام، واشتد الغلاء، وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب، وذلك أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة. وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كأبي عبد اللّه الموافق شارح «المختصر» وغيره وقالوا: «انظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلطانكم» فأحضر السلطان أبو عبد اللّه بن أبي الحسن أهل دولته وأرباب مشورته وتكلموا في هذا الأمر وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكنا نظن أنه يقلع عنا في فصل الشتاء فخاب الظن وبنى وأسس وأقام وقرب

منا فانظروا لأنفسكم وأولادكم». فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس، ثم عددوا مطالب وشروطاً أداروها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش، منها: أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ويحلف على عادة النصارى في العهود، وتكلم الناس في ذلك وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا إليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة أبو عبد اللّه عن الحمراء ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

وفي ثاني ربيع الأول من السنة، أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة، استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين شرطاً، منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعتهم وعقارهم، ومنها: إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولي على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا لغيره، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز إلى العدوة لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب

على من قتل نصرانياً أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة. وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده وأمثال هذا مما تركنا ذكره.

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد، ولما علم بذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح وشملهم حكمه على هذا الوجه، ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج إليه في الحمراء وتحصينها وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها، وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبراً بما يرومه منها، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له في سكناه بأندرش، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها، ثم احتال عدو الله في نفيه لبر العدوة وأظهر أن السلطان المذكور طلب منه ذلك ثم كتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد اللّه من السفر حيث أراد من بر العدوة، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه وليقف معه وفاء بما عهد له، فانصرف السلطان أبو عبد اللّه في الحين بنص هذا الكتاب وركب البحر فنزل بمليلة واستوطن فاساً وكان قبل ذلك قد طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك، وحين جوازه لبر العدوة لقي شدة وغلاء وبلاء. ثم إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصارى أن

يرجع مهرعاً لدينه، ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة. ثم تعدوا ذلك إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع أنت نصرانياً. ولما تفاحش هذا الأمر قال أهل البيازين على الحكام فقتلوهم وهذا كان السبب الأعظم في التنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من عند السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر.

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدد النصارى في البحث عنهم حتى إنهم أحرقوا كثيراً منهم بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً فلم يقيض الله تعالى لهم ناصراً إلى أن كان إخراج النصارى إياهم جملة أعوام سبعة عشر وألف بعد أن ساكنوهم بغرناطة وأعمالها نحواً من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت ذمة النصارى كما رأيت والأمر لله وحده. ولما أجلاهم العدو عن جزيرة الأندلس خرجت ألوف منهم بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم في الطرقات الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى من الأوباش ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة. وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وكذلك بتطاوين وسلا وبيجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى، وهو المنصور السعدي، منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور، وحصنوا قلعة سلا. وهي رباط الفتح، وبنوا بها القصور والحمامات والدور.

قال أبو العباس المقري في «نفح الطيب»: وهم الآن ـ يعني في حدود الثلاثين وألف ـ بهذا الحال، ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام وانقضى أمر الأندلس وعادت نصرانية كما كانت أول مرة، «والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين».

وفي السنة التي استولى الإصبنيول على غرناطة انكشفت لهم أرض ماركان التي كانت مجهولة قبل هذا التاريخ لسائر الأمم. وذلك أن الحكماء الأقدمين من اليونان وغيرهم أجمعوا على أن شكل الأرض كرة وأن الماء قد غمر أحد جانبيها كله بحيث صارت الأرض فيه كأنها بيضة مغرقة في طست ماء قد رسب فيه أكثرها وبرز أقلها، وأجمعوا على أن هذا البارز منها هو المسكون ببني آدم وغيرهم من الحيوانات وهو المقسم إلى سبعة أقسام تسمى الأقاليم ولم يهتدوا إلى أن الجانب الآخر منكشف عنه الماء ولا أنه مسكون كهذا الجانب بل جزموا بأنه ماء صرف يسمى البحر المحيط، واستمر هذا الاعتقاد عندهم ونقله الخلف عن السلف ووضعوا فيه التآليف العديدة إلى أن كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة وهي السنة التي استولى فيها الإصبنيول على غرناطة وسائر الأندلس، فاتفق أن ظهر في تلك المدة رجل من فرنج جنوة اسمه كلنب بضم الكاف واللام كانت حرفته الملاحة والسفر في البحر وكان بعيد الهمة، مولعاً بالشهرة مغرى بالذكر وحسن الصيت، فخطر بباله أن جانب الأرض الذي أغفل الحكماء الأولون ذكره وزعموا أنه بحر صرف ربما يكون مسكوناً كهذا الجانب.

وكان جنس البرتغال في هذه المدة قد كثرت أسفارهم في البحر وملكوا عدة محال من جزائره الخالدات، فحصل لكلنب الجنويزي بعض غيرة ونفاسة منهم وأراد أن يأتي بأعظم مما فعلوا فعزم على التلجيج في البحر المحيط والإبعاد فيه عسى أن يظفر بمراده، فتطارح على ملك البرتغال واسمه يومئذ يوحنا الثاني في أن يعينه على ما هو بصدده ويمده بما يكون سبباً في نيل مقصده، فلم يلتفت إلى قوله ولا عرج على رأيه ومن قبل ما كان أهل

جنوة يحمقونه وينسبونه إلى التهور بمثل هذه الآراء، فلما لم يجد عند ملك البرتغال مراده تطارح على ملكة الإصبنيول، وهي يومئذ إيسابيلا الشهيرة الذكر عندهم، فأسعفته وهيأت له ثلاث سفائن وشحنتها بالرجال والسلاح والزاد والمال ودفعت ذلك إليه، فسافر بها كلنب في البحر المحيط على سمت المغرب حتى أرسى ببعض الجزائر الخالدات فأراح بها أياماً ثم سافر على السمت المذكور ملججاً مدة من شهرين، ولما طال السفر على أصحابه الذين معه أرادوا قتله، وبينما هم في ذلك ظهرت له أرض ماركان فسار حتى أرسى بأجفانه على ساحلها في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وثمانمائة المذكورة، فعثر منها على أرض واسعة ذات أقطار ونواحي وجبال وأنهار تفوت الحصر، حتى قيل: إنها تساوي نصف هذا المسكون من الأرض أو تزيد، وإذا فيها خلق كثير من بني آدم كهذه إلا أنهم لم يفقهوا قوله ولا فقه قولهم. فعاد كلنب إلى ملكة الإصبنيول بعد أن بنى هنالك حصناً وترك به بعض الجند وساق من تلك الأرض بعض الغرائب من حيوان وغيره، إثباتاً لمدعاه فلما قدم على الملكة بعد مغيبه سبعة أشهر وأحد عشر يوماً أعظمت قدره، ونوهت باسمه، وسرت بما أتى به من ذلك كله، وعدت ذلك من سعادتها إلى ما تسنى لها من الظفر بجزيرة الأندلس والاستيلاء عليها، وتبين للفرنج حينئذ أن الأرض معمورة من كلا الجانبين لا من جانب واحد كما اعتقده الأقدمون، فحينئذ تسارعت أجناسهم إلى أرض ماركان واقتسموها واعتنوا بعمرانها وسموها: الدنيا الجديدة، فكانت من أعظم الأسباب في انتعاشهم وتقويتهم وضخامة دولهم واتساع خطط ممالكهم، والأمور كلها بيد الله.

ومن جملة ما كان مفقوداً بأرض ماركان نوع الخيل وكذا غيرها من الحيوانات الأهلية. ولما رأوا الأدمي راكباً على الفرس مسرجاً ظنوه قطعة واحدة وأن الفارس وفرسه حيوان واحد خلق على تلك الكيفية إلى غير ذلك وأخبار أرض ماركان وكيفية العثور عليها ثم التردد إليها واعتمارها بعد ذلك طويلة وملخصها ما ذكرناه، والله تعالى الموفق بمنّه.

وهذا آخر النصف الأول من كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، قد شرعنا في إملائه منتصف رجب الفرد الحرام من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف وفرغنا منه في منتصف ذي الحجة الحرام في السنة المذكورة. ونشرع بعون الله تعالى في الجزء الثاني منه مفتتحاً بما يكون كالتوطئة لدولة بني وطاس من أخبار البرتغال على الجملة، وعلى الله تعالى الكمال بمنه وفضله»[1].

أخبار البرتغال بالمغرب الأقصى على الجملة

اعلم أن هذا المغرب الأقصى حرسه الله وكلأه بعين حفظه، لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التاسعة محفوظاً الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين، محفوف الأكتاف بالحامية من جنود المسلمين، مرهوبة شوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، ودولة بعد دولة. لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده، أو طرق ثغر من ثغوره، أو الاستيلاء على شيء من سواحله، ولم يكن أهله أيضاً يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه، بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعزّ بلادهم، ويحامون عن بلاد الأندلس وسواحل إفريقية وغيرها متى هاج أهلها هيج من ذلك حسبما تقدمت الأخبار المفصحة عن ذلك، ولم يبلغنا أن جنساً من أجناس الفرنج فيما قبل المائة التاسعة غزا شيئاً من أطراف المغرب الأقصى، أو ثغراً من ثغوره بقصد الاستيلاء والتملك، إلا ما كان من مدينة سلا التي دخلها الإصبنيول غدراً أيام الفتنة بين اليعقوبين ثم خرجوا عنها لمدة يسيرة حسبما مر، وإلا ما كان من محاصرة أهل جنوة لسبتة ثم الإقلاع عنها كذلك، ونحو هذا مما لا يعتبر، فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط، وبني مرين بالمغرب الأقصى،

(1) ما بين قوسين هو زيادة بخط المؤلف في الأصل بعد الطبعة الأولى.

وبني الأحمر بالأندلس، وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهاد العدو ومطالبته في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك، وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الإصبنيول والبرتغال، وهم البرطقيز، بجزيرة الأندلس واستفحال أمرهم، فكثرت أسفار البرتغال في البحر المحيط ودام تقلبهم فيه ومرنوا عليه حتى حصلوا على عدة جزائر منه، واكتشفوا بعض الرؤوس الساحلية من أرض السودان وغيرها، ثم شرهوا لتملك سواحل المغرب الأقصى، فهجموا عليها وجالدوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها ونشبوا فيها، فقويت شوكتهم وعظم ضررهم على الإسلام وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك حسبما تقف عليه مبيناً في مواضعه إن شاء الله.

فاستولوا في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتهم لها ست سنين على ما في بعض تواريخ الإفرنج، ثم في سنة اثنتين وستين وثمانمائة استولوا على قصر المجاز، ثم استولوا في سنة تسع وستين وثمانمائة على طنجة، ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ملكوا آصيلا، وفي هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفا وبعض سواحل السوس، ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين آزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة وطال مقامهم بها، ثم في سنة عشر وتسعمائة استولوا على مدينة العرائش، ثم بعد ذلك بيسير في حدود العشر وتسعمائة على ما تقتضيه تواريخ الفرنج ملكوا حصن آكادير وما اتصل به من سواحل السوس الأقصى، ثم ملكوا في حدود اثنتي عشرة وتسعمائة رباط آسفي ثم عطفوا على ثغر آزمور فاستولوا عليه في سنة أربع عشرة وتسعمائة. ثم المعمورة وهي، المهدية، ملكوها أيضاً في حدود سنة عشرين وتسعمائة وفي هذا التاريخ نفسه رجعوا إلى مدينة آنفا بعد هدمها فبنوها وسكنوها، وبالجملة فلم يبق من ثغور المغرب الأقصى بيد المسلمين إلا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفُجِئ المسلمون من هذا البرتغال بالأمر العظيم، ودهوا منه بالخطب الجسيم، واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى

انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية عن السواحل، وكان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بني وطاس وظهور دولة الشرفاء السعديين، ولقد ذكر في «مرآة المحاسن» أن قصر كتامة كان في صدر المائة العاشرة مقصداً للتجار وسوقاً تجلب إليه بضائع العدوتين وسلعها، قال: «إذ كان القصر المذكور ثغراً بين بلاد المسلمين وبين بلاد النصارى تحط به رحال تجار المسلمين من آفاق المغرب وتجار الحربيين من أصيلا وطنجة وقصر المجاز وسبتة ولأنه كان محل عناية سلطان المغرب إذ ذاك محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي، فإن القصر قاعدة بلاد الهبط التي كانت موقد شرارة السلطان المذكور، ومشب ناره، وموشج عصبيته مع مجاورته لبلاد الحرب، فكان نظره مصروفاً إليه واختصاصه موقوفاً عليه وتقبل بنوه من بعده مذهبه فيه» اهـ كلامه. فهذا يدلك على ما كان عليه العدو خذله الله من المضايقة للمسلمين في ثغورهم وبلادهم ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين، تباروا في جهاده وقتاله، وأعملوا الخيل والرجل في مقارعته ونزاله، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على ذلك، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتساباً، وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صواباً حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون، وبلغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون، فمن استشهد منهم في سبيل الله سيدي عيسى ابن الحسن المصباحي دفين الدعداعة بأرض البروزي من بلاد طليق، وأبو الحسن علي بن عثمان الشاوي من أصحاب الشيخ أبي محمد الغزواني، وأبو الفضل فرج الأندلسي ثم المكناسي، وأبو عبد الله محمد القصري المعروف بسقين قتله النصارى عند ضريح الشيخ أبي سلهام، وكان قد قصده للزيارة ففتكوا به هنالك، وكل هؤلاء معدود في أولياء الله تعالى، وممن أسر منهم ثم خلصه الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي دفين تانسيفت من أحواز مراكش، والشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من أحواز

فاس، ووالد صاحب «دوحة الناشر» وهو أبو الحسن علي بن مصباح الحسني عرف بابن عسكر، والشيخ العلامة أبو العباس أحمد ابن القاضي المكناسي أحد قضاة سلا وهو صاحب «جذوة الاقتباس» و«المنتقى المقصور» وغيرهما من التآليف الحسان أسر وهو ذاهب إلى الحج، وأبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي المعروف بخروف نزيل فاس وشيخ الجماعة بها، هؤلاء كلهم أصابه الأسر ثم خلصه الله بعد حين، وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم، أجزل الله ثوابهم ويسر بمنّه حسابهم، ولقد ألف الناس في ذلك العصر التآليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه، وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا، ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا، فممن ألف في ذلك الباب فأفاد: الشيخ المتفنن البارع الصوفي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم ابن يجيش التازي، قال في «الدوحة»: «وقفت له على تأليف ألفه في الحض على الجهاد في سبيل الله فكان مما ينبغي أن يتناول باليدين، ويكتب دون المداد باللجين، أودعه نظماً ونثراً» وممن نظم في ذلك فأجاد، الشيخ الصالح المتصوف المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي، قال في «الدوحة»: «كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه، وله في ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها» وكان معاصراً للسلطان أبي عبد الله محمد ابن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي، فكان إذا جاءه زائراً حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك، ولما توفي السلطان المذكور، ودالت الدولة لولده السلطان أحمد، وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتغال، فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله المذكور فآلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشي إليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وضرورياته، فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة، وكان في النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم: «يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو ونادى به وحض الناس عليه، والمسلمون في شرح لذلك وفرح». ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحاً وحمد الله وأثنى عليه،

ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك، ولهذا الشيخ زجليات ومقطعات حسان في الحض على الجهاد، منها اللامية المشهورة التي خاطب بها السلطان أبا عبد الله المذكور ومطلعها:

قـل لـلأمـيـر مـحـمـد يـا طـلـعـة الـهـلال
لـويـلـة فـي الـسـواحـل مـن أفـضـل الـلـيـال

ومنها القصيدة التي مطلعها:

ظـهـر الـرمـل مـرادي والـعـسـكـر يـا كـرام
نـفـسـي عـلـى الـجـهـاد سـبـلـت والـسـلام

ومنها القصيدة التي أولها:

قـم لـلـجـهـاد رعـاك الله منتهجاً نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندلس ما زلت محتدماً لو كان يمكنني في الليل أحتزم

إلى غير ذلك مما يطول ذكره قال صاحب «الدوحة»: «حدثني الفقيه العدل أبو العباس أحمد الدغموري القصري، قال: كان الشيخ أبو عبد اللّه يقول: «ما غزونا غزوة قط إلا رأيت رسول الله ﷺ فيها، ويخبرني بجميع ما يتفق لي ولأصحابي في تلك الغزوة»، وله رضي الله عنه في شأن الجهاد والرجولية حكاية ظريفة وهي أنه غزا مرة غزوة إلى الثغور الهبطية ثم قدم منها مع أصحابه فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت وصلى الناس عليها بجامع القرويين، وإمامهم الشيخ غازي ابن الشيخ أبي عبد اللّه محمد بن غازي الإمام المشهور، فوصل الشيخ أبو عبد اللّه ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يحاولون دفنها فقال لهم: مهلاً ثم تقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه فبادر الناس إليه بالإنكار في تكرير الصلاة في الجنازة بالجماعة مرتين، فقال لهم على البديهة: «صلاتكم التي صليتم عليها فاسدة، لكونها بغير إمام»، فقالوا له: «كيف ذلك يا سيدي؟» قال: «لأن من شرط الإمام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم لأن الذي لم يتقلد سيفاً في سبيل الله قط ولم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبينا ﷺ ولم يتعبد بالسيرة النبوية فكيف يعد إماماً ذكراً بل

إمامكم والله من جملة النساء» اهـ. وحكى أيضاً في ترجمة الشيخ أبي محمد عبد اللّه الورياكلي الذي قال له العلامة ابن مرزوق وقد عزم على الرحلة إلى بلاد المشرق في طلب العلم: «ليس أمامك أحد أعلم منك»، قال: «فرجع من هنالك فوجد النصارى قد تغلبوا على طنجة وآصيلا، فلازم الثغور الهبطية لأجل الرباط والجهاد في سبيل الله، وبث العلم ونشره»، قال: «وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع، ويخرج في الصيف والخريف فيربط في ثغور القبائل الهبطية» إلى آخر كلامه، وأمثال هذا كثير ذكرنا منه هذه النبذة اليسيرة لتقف بها على أحوال القوم وما كانوا عليه من الرغبة في الجهاد والمثابرة عليه قدس الله أرواحهم وجعل في دار النعيم غدوهم ورواحهم.

وقد آن أن نشرع في الأخبار عن دولة بني وطاس بعد أن نذكر دولة الشريف العمراني الذي بايعه أهل فاس يوم مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعد رحمه الله.

الخبر عن دولة الشريف أبي عبد اللّه الحفيد وأوليته

هذا الشريف هو أبو عبد اللّه محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني من بيت بني عمران فرقة من أدارسة فاس، وهم واسطة عقد البيت الإدريسي، وأوضحهم نسباً، وأعلاهم حسباً، قال ابن خلدون: «ليس في المغرب فيما نعلمه من أهل البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبلغ أعقاب إدريس رضي الله عنه» قال: «وكبراؤهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدام بن القاسم بن إدريس بن إدريس، وهم نقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة» اهـ. والجوطي قال في «المرآة»: «نسبة إلى جوطة بجيم مضموم وواو مد وطاء مفتوحة وهاء تأنيث وهي قرية عظيمة على نهر سبو في العدوة الجنوبية خربت ولم يبق منها إلا آثار، ولها مسيل شتوي يعرف بمخروط جوطة، نزلها السيد يحيى فنسب إليها وقبره هنالك معروف» اهـ.

بيعة السلطان أبي عبد اللّه الحفيد والسبب فيها

كان بنو مرين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هؤلاء الأشراف الأدارسة ويوجبون حقهم ويتقربون إلى الله تعالى برفع منزلتهم وجبر خواطرهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التي كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعي، فكان بنو مرين لما جبلوا عليه من الجنوح إلى مراسم الدين وانتحالها يرون في أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الأشراف. فلذا كانوا يخضعون لهم، ويتأدبون معهم ما أمكن، ولقد حكى أبو عبد اللّه بن الأزرق: أن الشيخ الكبير أبا عبد اللّه المقري كان يحضر مجلس السلطان أبا عنان ليث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالاً له، إلا الشيخ المقري فإنه كان لا يقوم له، فجرت بين الشريف والفقيه المذكور معاتبة ومراجعة في حكاية مشهورة، تركناها لعدم تعلق الغرض بها[1] إذ الغرض هو الوقوف على ما كان عليه القوم من التجلة والتعظيم لأهل هذا البيت الكريم، فلما اضطربت أحوال الدولة المرينية بفاس واجتمع رؤساء فاس إلى الفقيه أبي فارس الورياكلي في شأن اليهوديين اللذين كانا يحتكمان في المدينة ويعتسفان أهلها، أجمع رأيهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد، وكان يومئذ على نقابة الأشراف بفاس، فاستدعوه فحضر وبايعوه في العشر الأواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة، وتم أمره وكان من قتله للسلطان عبد الحق ما تقدم ذكره والله أعلم.

---

(1) راجع ذلك في «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» للشيخ أحمد بابا ص 254 طبع فاس و«نفح الطيب» للمقري ـ ج 3 ـ صفحة 148.

فتنة الشاوية ووصولهم إلى بلاد الغرب

قد قدمنا ما كان من أمر الشاوية وفتنتهم في أيام السلطان عبد الحق ولما كانت أيام الحفيد هذا تزايد ضررهم واستطال شررهم فزحفوا إلى بلاد الغرب من أحواز مكناسة وفاس، وعاثوا وأفسدوا، ولما تكلم أبو عبد اللّه محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن» على الشيخ عبد الوارث اليالصوتي وأنه أخذ من جماعة منهم: أبو النجاء سالم الروداني الشاوي، والشيخ أبو عبد اللّه الصغير السهلي، والشيخ أبو محمد الغزواني، قال: «وكان الشيخ أبو النجاء أولاً يقرأ بالمدرسة العنانية، فلما نزل الشاوية الغرب، خرج من فاس خائفاً يترقب، وذلك في أيام الحفيد» اهـ، وبلاد الغرب تطلق في عرف أهله على خصوص بسيط أزغار وما اتصل به إلى ساحل البحر والله أعلم.

استيلاء البرتغال على مدينة آنفي وآصيلا

رأيت في بعض تواريخ الفرنج أن استيلاء البرتغال على آنفي كان في حدود أربع وسبعين وثمانمائة، وأنهم هدموها وبقيت كذلك مدة تزيد على أربعين سنة، ثم شرعوا في تحصينها والبناء بها، ولم يزالوا مقيمين بها إلى حدود أربع وخمسين ومائة وألف في سنة ست وسبعين وثمانمائة استولوا على آصيلا، وظفروا فيها ببيت مال الوطاسي، وأسروا ولده محمداً المدعو بالبرتغالي، وابنته وزوجتيه وجماعة من الأعيان، وكان الخطب عظيماً، وبقي ولد الوطاسي عند البرتغال سبع سنين، ثم افتكه والده بعد، وكان يوم أسر صبياً صغيراً، وأما مدينة فضالة فلم يقع عليها استيلاء وإنما كانت بها كمبانية خمسة نفر من تجار مادريد قاعدة قشتالة، نزلوها بقصد التجارة بإذن سلطان الوقت[1] وكانت سلعهم توسق وتوضع من مرساها، وبنوا بها البناء الموجود

(1) مولاي سليمان اهـ من خط مؤلفه.

اليوم والله تعالى أعلم.

خلع السلطان أبي عبد الله الحفيد وانقراض أمره

قال في «الجذوة»: «لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل مدينة فاس إماماً استمر بها، وابنه وزير له، إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة، فعزل عن الإمامة وكان الذي خلعه أبا الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي، وكان ذلك سبب ذهاب الشريف المذكور إلى تونس لمدة يسيرة من خلعه، وبقيت حضرة فاس الجديد في يد أخت أبي الحجاج المذكور وهي الزهراء المدعوة بزهور، مع قائده السجيري، إلى أن تولى الأمر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي» والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني وطاس وذكر نسبهم وأوليتهم

اعلم أن بني وطاس فرقة من بني مرين غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله حسبما تقدم، كان لبني وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم، وكان بنو الوزير منهم يسمون إلى الرياسة ويرومون الخروج على بني عبد الحق، وقد تكرر ذلك منهم حسبما مر، ثم أذعنوا إلى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة، فاستعملهم بنو عبد الحق في وجوه الولايات والأعمال واستظهروا بهم على أمور دولتهم، فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها، وذكر ابن خلدون: «أن بنى الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخيل في بني مرين، وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس ووشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم، ولم يزل السرو متربعاً بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بأنوفهم» اهـ. ولما كانت دولة السلطان أبي عنان واستولى على بجاية، عقد عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير هؤلاء فثار عليه أهلها واستلحموه في خبر مر التنبيه عليه.

ثم لما كانت الدولة الأولى للسلطان أبي العباس بن أبي سالم، وخلص ملك مراكش وأعمالها إلى ابن عمه الأمير عبد الرحمٰن بن أبي يفلوسن، كان من جملة من تحيز إليه وصار في جملته، زيان بن عمر بن عليّ المذكور، فكانت له في دولته الوجاهة الكبيرة، والمنزلة الرفيعة، ثم لما فسد ما بين السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمٰن كان زيان بن عمر في جملة النازعين إلى السلطان أبي العباس، فاتصل به وصار في جملته إلى أن حاصر السلطان أبو العباس قصبة مراكش، وبها يومئذ الأمير عبد الرحمن، فأبلى

زيان بن عمر في ذلك الحصار وكان أحد الذين باشروا قتل ولدي الأمير عبد الرحمٰن.

قال ابن خلدون: «وطالما كان زيان هذا يمتري ثدي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء، والله لا يظلم مثقال ذرة». ثم جاء بعده ابنه أبو زكرياء يحيى بن زيان فولي الوزارة للسلطان عبد الحق كما مر، ثم بعده ابنه يحيى أيضاً، وهو الذي قتله السلطان عبد الحق في جماعة من عشيرته، وفر أخوه أبو عبد الله محمد الشيخ إلى الصحراء وبقي متنقلاً في البلاد إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من إيقاع السلطان عبد الحق ببني وطاس وإفلات محمد الشيخ ومحمد الحلو من النكبة، وأن الشيخ كان قد خرج للصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوي على شيء، وأن الحلو اختفى حتى إذا سكنت الهيعة تسلل ولحق بالشيخ فسارا إلى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية حتى ملكا آصيلا، وذلك قبل استيلاء البرتغال عليها. ولما ملك الشيخ آصيلا واستفحل أمره بها تشوفت إليه الأعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق وصاروا يكاتبونه ويقدمون إليه الوسائل سرّاً وربما دعوه إلى القدوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء فاستمر الحال على ذلك إلى أن قتل عبد الحق وبويع الحفيد، فحينئذ أرهف الشيخ حده، واستفرغ في المطالبة جهده، إلى أن استولى على الحضرة وصفا له ملك المغرب.

قال في «المرآة»: «لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في آصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره، وحاصر فاساً وقتاً

بعد وقت إلى أن دخلت في طاعته في رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة. وخرج عنها الحفيد ودخلها محمد الشيخ المذكور في أوائل شوال من السنة المذكورة وهو مورث الملك لبنيه بها» اهـ. وقد تقدم لنا أن الذي خلع الشريف من الملك هو أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي، وأن حضرة فاس الجديد قد بقيت بعد ذهاب الشريف إلى تونس في يد زهور الوطاسية والقائد السجيري إلى أن قدم السلطان محمد الشيخ والله تعالى أعلم.

وقال منويل في أخبار محمد الشيخ هذا ما صورته: «كانت مملكة المغرب الأقصى في غاية الاضطراب والانتكاس حتى طمع في ملكها كل من كانت توسوس له نفسه بذلك، واستولى ابن الأحمر على جميع الثغور التي كانت لبني مرين بأرض الأندلس ولم يترك لهم قيد شبر، واشرأبت أجناس الفرنج للتغلب على المغرب، وفي تلك المدة كان بآصيلا محمد الشيخ الوطاسي، وكان شجاعاً مقداماً، وأحس من نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسي فاس وتنحية الشريف عنه، لا سيما مع ما كان الناس فيه من افتراق الكلمة فجمع جنداً صالحها وزحف إلى فاس فبرز إليه الشريف والتقوا بأحواز مكناسة فوقعت بينهما حرب عظيمة كانت الكرة فيها على الوطاسي، ثم جمع عسكراً آخر وزحف به إلى فاس وحاصرها نحو سنتين والشريف فيها مع أرباب دولته، وفي أثناء الحصار ورد عليه الخبر باستيلاء البرتغال على آصيلا وعلى بيت ماله الذي كان بها وعلى حظاياه وأولاده، فأفرج عن فاس ورجع مبادراً إلى آصيلا فحاصرها، ولما امتنعت عليه عقد مع البرتغال هدنة وعاد سريعاً إلى فاس فحاصرها وضيق على الشريف بها حتى خرج فاراً بنفسه وأسلمها إليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لتدويخ القبائل التي بأحواز فاس وغيرها، فدخلوا في طاعته واغتبطوا به» اهـ كلامه.

رياسة بني راشد من شرفاء العالم بغمارة وبناؤهم مدينة شفشاون وما يتبع ذلك

قال في «نشر المثاني»: «اختط بعض شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة، إذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على أهل تلك المداشر في أواخر دولة بني وطاس».

وقال في «المرآة»: «كان ابتداء اختطاط مدينة شفشاون في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة، وهي عدوة وادي شفشاون، في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة، على يد الشريف الفقيه الصالح الناصح المجاهد أبي الحسن بن أبي محمد المعروف بأبي جمعة العلمي، واسمه الحسن بن محمد ابن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش، ومات شهيداً قبل إتمام ما شرع فيه، بتدبير النصارى دمرهم الله مع أهل النفاق إذ ذاك من أهل الخروب، وقد جاءهم في سبيل الجهاد وبينما هو يتهجد من الليل في مسجد هنالك، إذ أضرموا عليه ناراً فمات رضون الله عليه، وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له وتجييش الجيوش ابن عمه الأمير الجليل، الفاضل الأصيل، أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب إلى آخر النسب المتقدم، فشرع في اختطاط مدينة شفشاون في العدوة الأخرى فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها بأهله وعشيرته، وزل الناس بها فبنوا وصارت في عداد المدن إلى أن توفي سنة سبع عشرة وتسعمائة، وورثها بنوه من بعده ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب إلى أن أخرجهم منها الشرفاء السعديون عند استيلائهم على بلاد المغرب والله تعالى أعلم».

ثورة عمرو بن سليمان السياف ببلاد السوس وشيء من أخباره

هذا الرجل هو عمرو بن سليمان الشيظمي المغيطي المعروف بالسياف، ويقال له: المريدي بضم الميم، وكان ابتداء أمره أنه كان من تلامذة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات، نقل الثقات أنه كان يتردد إلى الشيخ المذكور، أيام حياته ويأتيه بألواح فيها كلام كثير منسوب إلى الخضر عليه السلام، فلا يقول له في ذلك شيئاً غير أنه أثنى عليه مرات كثيرة، ثم لما مات الشيخ المذكور رحمه الله سنة سبعين وثمانمائة ثار عمرو المذكور مظهراً الطلب بثأر الشيخ والانتقام من الذين سموه، إذ كان سمه بعض فقهاء عصره، فتتبعهم حتى قتلهم، ثم صار يدعو الناس إلى إقامة الصلاة ويقاتلهم عليها، فانتصر عليهم وشاع ذكره وتمكن ناموسه، ثم تجاوز ذلك إلى أن صار يدعو الناس إلى نفسه ويقتل المنكرين عليه وعلى شيخه وأصحابه، وسمى أصحابه المريدين، بضم الميم، قال زروق: «وما أحقها بالفتح» وسمى المخالفين له الجاحدين ثم جعل يتفوه بالمغيبات ويزعم أنه مأذون، وربما ادعى النبوة. وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت وصار يقدمه بين يديه في حروبه كتابوت بني إسرائيل فينتصر على من خالفه، وقيل: إنه لم يدفنه وإنما أخذه بعد موته فكفنه وجعله في التابوت، وجمع الجموع، وقاد الجيوش، وسفك الدماء، واستمرت فتنة في الناس عشرين سنة.

قال الشيخ زروق رحمه الله: «بلغني أن شيخنا الفقيه أبا عبد الله القوري ورد عليه سؤال في شأن عمرو بن سليمان السياف فبادرت إليه كي أراه فقال لي: (قد خرج من يدي)، فقلت له: (فما مقتضاه؟)، قال: (مقتضاه أنه يقول: إن أحكام الكتاب والسنة ارتفعت ولم يبق إلا ما يقول له قلبه). قال زروق: «وشاع من أمره أنه يقول: إنه وارث النبوة، وأن له أحكاماً تخصه كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وأن الخضر حي، ونبي مرسل، وأنه يلقاه ويأخذ عنه، بل يدعي ذلك من هو دونه من تلامذته».

وحكى بعضهم أن عمراً المذكور لما جعل شلو الشيخ في التابوت، كان إذا رجع به من حربه وضعه في روضة عنده يسميها الرباط، فإذا جنه الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ويوقد عليه كل ليلة فتيلة عظيمة في مقدار الثوب مغموسة في نحو مدين من الزيت ليقوى الضوء وينتشر، ويبلغ من كل الجهات إلى مسافة بعيدة، فتنكشف الطرق عمن يأتي عليها، كل ذلك مخافة أن يؤخذ منه شلو الشيخ فينتصر به عليه.

ويقال: إن ثورة عمرو المذكور وفتنته كانت أثراً من آثار دعوات الشيخ الجزولي رحمه الله، فقد ذكر تلامذته كالشيخ التباع وغيره: أن الشيخ الجزولي خرج عليهم من آخر الليلة التي قتل في صبيحتها، فقالوا له: «يا سيدي الناس يزعمون أنك الفاطمي المنتظر» فقال: «ما يبحثون إلا عمن يقطع رقابهم، الله يسلط عليهم من يقطع رقابهم» وكرر ذلك مراراً، فكانوا يرون أن أثر دعوته ظهر في عمرو السياف والله أعلم.

وقتل عمرو المذكور سنة تسعين وثمانمائة واختلف فيمن قتله، فقيل: كان عمرو قد تزوج زوجة الشيخ الجزولي وبنته فلما رأتا ما هو عليه من الزندقة والفساد في الأرض قتلتاه امتعاضاً للدين، ترصدتاه حتى إذا نام عدتا عليه فقتلتاه ثم رمت إحداهما وهي بنت الشيخ بنفسها من كوة هنالك في البيت الذي كانوا به فوصلت إلى الأرض سالمة ونجت، وبقيت الأخرى، وهي الزوجة، بالبيت فدخلوا عليها فقتلوها. وقيل: إنما قتلته زوجته وربيبته، وقيل: غير ذلك والله أعلم.

ولما هلك عمرو السياف دفن الناس الشيخ الجزولي، وقيل: هو دفنه بموضع يعرف بتاصروت ثم نقل بعد إلى مراكش على ما نذكر إن شاء الله ولما ذكر الشيخ أبو العباس الصومعي في كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى قصة نقل الشيخ الجزولي إلى مراكش، وأنه وجد طرياً لم يتغير بعد وفاته بنحو سبعين سنة، قال: «وأعجب من هذا أن عمراً المغيطي السياف زعموا أنه وجد كذلك، ولعله أدركته بركة هذا الشيخ مع ما كان عليه والفضل بيد الله» اهـ.

وفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة استدعى السلطان محمد الشيخ الإمام أبا عبد اللّه بن غازي من مكناسة إلى فاس فولي الخطابة أولاً بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولي الإمامة والخطابة ثانياً بمسجد القرويين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها إلى أن مات رحمه الله.

وفي سنة خمس وتسعين وثمانمائة تحرك السلطان محمد الشيخ إلى دبدو ثم عاد إلى حضرته. وفيها أيضاً في يوم الخميس السابع من ذي القعدة توفي الوزير أبو عبد اللّه محمد الحلو الوطاسي ودفن بالقلة خارج باب الحبيسة.

وفي سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولت الرينة إيسابيلا صاحبة مادريد قاعدة بلاد قشتالة على حمراء غرناطة ومحت دولة بني الأحمر من جزيرة الأندلس ولم يبق للمسلمين بها سلطان، وتفرق أهلها في بلاد المغرب وغيرها أيادي سبا، وقد تقدم الخبر عن ذلك مستوفى.

بناء مدينة تطاوين

قال منويل: «لما استولى الإصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها إلى المغرب فنزلوا في مرتيل قرب تطاوين ولما نزلوا به لم يقدموا شيئاً على الوفادة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي، فأجل مقدمهم ورحب بهم، فقالوا: إن ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعاً نبني فيه بلداً يكننا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف» فأجابهم إلى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن عليّاً المنظري، وكان رجلاً شجاعاً من كبار جند ابن الأحمر، وكان قد أبلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن ثم انتقل إلى المغرب كما قلنا، ولما عقد له الشيخ الوطاسي على أصحابه رجع بهم إلى تطاوين وشرع في بناء أسوار البلد القديم، فجدده وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته، ثم أخذ في جهاد البرتغال بسبتة وبلاد الهبط إلى أن أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم في إتمام ما بقي

عليه من بناء تطاوين، واتصلت الحرب بينهم وبين برتقال سبتة كاتصالها بين أهل آزمور وبرتقال الجديدة» اهـ.

وقوله: إن بناء تطاوين كان عقب أخذ غرناطة مخالف لما يقول أهل تطاوين من أن تاريخ بنائها رمز: «تفاحة»، وأن ذلك كان بإعانة الشريف أبي الحسن علي بن راشد، فيظهر والله أعلم أن أبا الحسن المنظري كان قد قدم من الأندلس قبل أخذ غرناطة بسنين يسيرة موافق الرمز المذكور، والله أعلم.

قدوم أبي عبد اللّه بن الأحمر مخلوعاً على السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمهما الله

لما استولى طاغية الإصبنيول على حضرة غرناطة وسائر الأندلس، انتقل سلطانها أبو عبد اللّه بن الأحمر إلى حضرة فاس فاستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ بعد أن خاطبه من إنشاء وزيره أبي عبد اللّه محمد العربي العقيلي بقصيدة بارعة يقول في صدرها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له وهل مردا لحكم منه منحتم

وهي طويلة. ثم وصلها برسالة يقول فيها بعد الحمد لله والصلاة على نبيه ما نصه.

أما بعد: فيامولانا، الذي أولانا من النعم ما أولانا، لا حط الله لكم من العزة أرواقاً، ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصاناً ولا أوراقاً، ولا زالت مخضرة العود، مبتسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود، ممطورة بسحائب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود، هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلق بأسباب ذمامكم، المرتجي لعواطف قلوبكم، وعوارف أنعامكم،

المقبل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم، وماذا الذي يقول من وجهه خجل وفؤاد وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل؟ بيد أني أقول لكم ما أقول لربي، واجترائي عليه أكثر واحترامي إليه أكبر، «اللّهم لا بريء فاعتذر، ولا قوي فأنتصر» لكني مستقيل مستعتب مستغفر، «وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء» هذا على طريق التنازل والاتصاف بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف. وأما على جهة التحقيق، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق: والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لا قول ما لم يكن، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني. فأقول ما قاله أبو يوسف: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» على أني لا أنكر عيوبي فأنا معدن العيوب، ولا أجحد ذنوبي فأنا جبل الذنوب، إلى الله أشكو عجري وبجري، وسقطاتي وغلطاتي. نعم، كل شيء ولا ما يقوله المتقول المشنع المهول، الناطق بفم الشيطان المسول، ومن أمثالهم: «سبني واصدق، ولا تفتر ولا تخلق» أفمثلي كان يفعل أمثالها ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها؟ عياذاً بالله من خسران الدين وإيثار الجاحدين والمعتدين، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56] وايم الله لو علمت شعرة في فودي تميل إلى تلك الجهة لقطعتها، بل لقطفت ما تحت عمامتي من هامتي وقطفتها، غير أن الرعاع في كل أوان أعداء للملك وعليه أحزاب وأعوان، كان أحمق أو أجهل من أبي ثروان، أو أعقل أو أعلم من أشج بني مروان «رب متهم بريء»، ومسربل بسربال وهو منه عري، وفي الأحاديث صحيح وسقيم، ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم، ولكن ثم ميزان عقل تعتبر به أوزان النقل، وعلى الراجح الاعتماد، ثم إساغة الأحماد المتصل المتماد وللمرجوح الإطراح، ثم التزام الصراح، بعد النفض من الراح، وأكثر ما تسمعه الكذب، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله تعالى إليه منجذب، ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار، ورمينا بما لا يرمى به الكفار، فضلاً عن الفجار، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ما

لديكم منه حفظ الجار، وإذا عظم الإلكاء، فعلى تكأة التجلد والاتكاء، أكثر المكثرون، وجهد في تعثيرنا المتعثرون، ورمونا عن قوس واحدة، ونظمونا في سلك الملاحدة أكفراً أيضاً كفراً؟، غفراً اللّهم غفراً، أعد نظراً يا عبد قيس، فليس الأمر على ما خيل لك ليس، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائظين، فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: 81]، وبعد فاسأل أهل الحل والعقد والتمييز والنقد، فعند جهينتهم تلقى الخبر يقيناً، وقد رضينا بحكمهم يوثمنا فيوبقنا، أو يبرئنا فيقينا. إيه يا من اشرأب إلى ملامنا، وقدح حتى في إسلامنا، رويداً رويداً، فقد وجدت قوة وأيداً، ويحك إنما طال لسانك علينا، وامتد بالسوء إلينا، لأن الزمان لنا مصغر ولك مكبر، والأمر عليك مقبل وعنا مدبر، كما قاله كاتب الحجاج المتبر. وعلى الجملة فهنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلاً، وذهبنا فأقررنا بالخطا في كل ورد وصدر فلله در القائل:

«إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر» وكأنا بمعتسف إذا وصل إلى هنا، وعدم إنصافاً يعلمه الهنا، قد أزور متجانفاً، ثم أفتر متهانفاً وجعل يتمثل بقولهم: «إذا عيروا قالوا: مقادير قدرت» ويقولهم: «المرء يعجزه المحال، فيعارض الحق بالباطل، والحالي بالعاطل» وينزع بقول القائل «رب مسمع هائل وليس تحته طائل» وقد فرغنا أول أمس من جوابه، وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به، وسنلم الآن بما يوسعه تبكيتاً، ويقطعه تسكيتاً، فنقول له: ناشدناك الله تعالى هل اتفق لك قط وعرض خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض، مع اجتهادك أثناءه في إصدارك، وإيرادك في وقوعه على وفق اقتراحك. ومرادك، أو جميع ما تزاوله بإدارتك لا يقع إلا مطابقاً لإرادتك، أو كل ما تقصده وتنويه تحرزه كما تشاء وتحويه؟ فلا بد أن يقر اضطراراً بأن مطلوبه يشذ عنه مراراً، بل كثيراً ما يفلت صيده من أشراكه، ويطلبه فيعجز عن إدراكه، فنقول: ومسألتنا من هذا القبيل: أيها النبيه النبيل، ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شئنا، مما يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا، كقوله

ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس» وقوله أيضاً: «لو اجتمع أهل السمٰوات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» أو كما قال ﷺ. فأخلق به أن يلوذ بأكناف الأحجام، ويزم على نفث فيه كأنما ألجم بلجام. حينئذ نقول له، والحق قد أبان وجهه وجلاه وقهره بحجته وعلاه. «ليس لك من الأمر شيء» «قل إن الأمر كله لله»، وفي محاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم، ويرخص عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دون الوصم، وكيفما كانت الحال، وإن ساء الرأي والانتحال ووقعنا في أوجال وأوحال، فثل عرشنا، وطويت فرشنا، ونكس لوانا، ومللت مثوانا فنحن أمثل من سوانا، «وما في الشر خيار» ويد الألطاف تكسر من صولة الأغيار، فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفاً، ولا عدمنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفاً، وإلا فتلك بغداد دار السلام، ومتبوأ الإسلام، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام مثابة الخلافة العباسية، ومقر العلماء والفضلاء أولي السير الأويسية، والعقول الأياسية، قد نوزلت بالجيوش ونزلت، وزوزلت بالزحوف وزلزلت، وتحيف جوانبها الحيف، ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف، ولا تسل إذ ذاك عن كيف، أيام تجلت عروس المنية، كاشفة عن ساقها مبدية، وجرت الدماء في الشوارع والطرق كالأنهار والأودية، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم في رقابهم والأردية، وللنجيع سيول تخوضها الخيول فتخضبها إلى أرساغها، وتهم ظماؤها بوردها فتنكل عن تجرعها ومساغها، فطاح عاصمها ومستعصمها، وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها، وخربت مساجدها وديارها، واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف، حسبما عرفت أو حسبما تعرف، فلاتك متشككاً متوقفاً، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا، فأين تلك الجحافل والآراء المدارة في المحافل؟ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر لم تجد ولا قلامة ظفر، إذن من سلمت له نفسه

التي هي رأس ماله، وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله، وكل أوجل أو قل رياشه وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سبيلاً إلى الخلاص في حال مياسرة ومساهلة دون تعصب واعتياص، بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص فما أحقه حينئذ وأولاه أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسداه إليه من رفده وخيره، ومعافاته مما ابتلي به كثير من غيره، ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما الأحكام الإلٰهية والأقدار، فالدهر غدار، والدنيا دار مشحونة بالأكدار والقضاء لا يرد ولا يصد ولا يغالب ولا يطالب، والدائرات تدور، ولا بد من نقص وكمال للبدور، والعبد مطيع لا مطاع، وليس يطاع إلا المستطاع، وللخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للأذهان عن مداه انقطاع، ومالي والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول، بين يدي ذي الجلالة والمجادة والفضل والطول، فله من العقل الأرجح ومن الخلق الأسجح ما لا تلتاط معه تهمتي بصفره، ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عد من نفره، ولا فاز قدحه بظفره، والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب، وتجر براحتها إلى المتاعب، وقديماً للأكياس من الناس خدعت، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت، وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب الذي جبت وجدعت، ولئن رهصت وهصرت فقد نبهت وبصرت، ولئن قرعت ومعضت ولقد أرشدت ووعظت، ويا ويلنا من تنكرها لنا بمرة، ورميها لنا في غمرة أي غمرة، أيام قلبت لنا ظهر المجن، وغيم أفقها المصمي وأدجن، فسرعان ما عاينا حبالها منبته، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته، فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا إليه من الحور بعد الكور، والانحطاط من النجد إلى الغور:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فتباً لدينا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب المنفتح حين سدت الأبواب، ولم نلبس

غير لباس نعمائكم وحين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب، وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللّهفان، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان، ووجه الله تعالى يبقى وكل من عليها فان، وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول: حسبي هذا وكفان. ولا ريب في اشتمال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم من الأخذ باليد عند زلة القدم، وقرع الإنسان وعض البنان من الندم، ديناً تدينته مع اختلاف الأديان وعادة أطردت على تعاقب الأزمان والأحيان، ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها، وأعطى من أمانة المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها، فلم نر، ونحن من سلالة الأحمر، مجاورة الصفر، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهراني الكفر، ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة، وأمنا المطالب المشاغب حمة شر لنا لا سعة، وادكرنا أي ادكار قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الإنكار: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ [النساء: 97] وقول الرسول عليه الصلاة والسلام المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام: «أنا بريء من مؤمن مع كافر تتراءى ناراهما» وقول الشاعر الحاث على حث المطية المتثاقلة عن السير في طريق منجاتها البطية:

وما أنا والتلذذ نحو نجد ... وقد غصت تهامة بالرجال

ووصلت أيضاً من الشرق إلينا كتب كريمة المقاصد لدينا، تستدعي الانحياز إلى تلك الجنبات، وتتضمن مالاً مزيد عليه من الرغبات، فلم نختر إلا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا، ولم نرتض الانضواء إلا لمن بحبله وصل حبلنا، وبريش نبله ريش نبلنا، إدلالاً على محل إخاء متوارث لا عن كلالة، وامتثالاً لوصاة أجداد لا نظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة، إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا في الإيصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا: أن لا يبتغوا إذا دهمهم أمر بالحضرة المرينية بدلاً، ولا يجدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقها معدلاً، فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج، وركبنا إلى البحر الفرات ظهر البحر الأجاج، فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين ويشفي النفس الشاكية من ألم البين، ومن توصل هذا التوصل وتوسل بمثل

ذلك التوسل تطارحا على سدة أمير المؤمنين، المحارب للمحاربين، والمؤمن للمستأمنين، فهو الخليق الحقيق بأن يسوغ أصفى مشاربه ويبلغ أوفى مآربه على توالي الأيام والشهور والسنين، ويخلص من الثبور إلى الحبور ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ولعل شعاع سعادته يفيض علينا، ونفحة قبول إقباله تسري إلينا فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر.

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

لا بل الأحرى بنا والأحجى، والأنجح لسعينا والأرجى، أن نعدل عن هذا المنهاج، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج وينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج:

الناس يفدونك اضطراراً ... منهم وأفديك باختياري
وبعضهم في جوار بعض ... وأنت حتى أموت جاري
فعش لخبزي وعش لمائي ... وعش لداري وأهل داري

ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه، وتعاظمت نعماؤه، رحمة تجعل في يد الهداية أعنتنا وعصمة تكون في مواقف المخاوف جنتنا، وقبولاً يعطف علينا نوافر القلوب، وصنعاً يسني لنا كل مرغوب ومطلوب، ونسأله، وطالما بلغ السائل سؤلاً ومأمولاً، متاباً صادقاً على موضوع الندم محمولاً، ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً، عن أرض أورثها من شاء من عباده معقباً لهم ومديلاً، وسادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23] فليطر طائر الوسواس المرفرف. مطيراً ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: 58] لم نستطع عن مورده صدوراً، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]، إلا وإن لله سبحانه في مقامكم العالي الذي أيده وأعانه سراً من النصر يترجم عنه لسان من النصل، وترجع فروع البشائر الصادقة بالفتوحات المتلاحقة من قاعدته

المتأصلة إلى أصل، فبمثله يجب اللياد والعياذ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء، ولأمر ما آثرناه واخترناه، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه، ومنه جل جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين، ويأوب بنا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع. آمين، آمين، آمين. ونرجو أن يكون ربنا الذي هو في جميع الأمور حسبنا قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا، وساقنا توفيقه وحدانا إلى الاستجارة بملك حفي، كريم وفي، أعز جاراً من أبي داود، وأحمى أنفاً من الحارث بن عباد، يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد، إن أغاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان يذكر، وإن أنعش حشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر، جليسه كجليس القعقاع بن شور، ومذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب إلى ثور، إلى التحلي بأمهات الفضائل التي أضدادها أمهات الرذائل وهي الثلاث: الحكمة والعدل والعفة التي تشملها الثلاثة: الأقوال، والأفعال، والشمائل، وينشأ عنها ما شئت من عزم وحزم وعلم وحلم، وتيقظ وتحفظ واتقاء وارتقاء، وصول وطول وسماح نائل، فبنور حلاه المشرق يفتخر المغرب على المشرق، وبمجده السامي خطره في الأخطار وبيته الذي ذكره في النباهة والنجابة قد طار، يباهي جميع ملوك الجهات والأقطار، وكيف لا، وهو الرفيع المنتمي والنجار، الراضع من الطهارة صفو البان الناشئ من السراوة وسط أحجار في ضئضئ المجد وبحبوح الكرم، وسرواة أسرة المملكة التي أكنافها حرم، وذؤابة الشرف التي مجادتها لم ترم، من معشر أي معشر بخلوا أن وهبوا ما دون أعمارهم، وجبنوا إن لم يحموا سوى دمارهم. بنو مرين، وما أدراك ما بنو مرين «سم العداة وآفة الجزر» «النازلون بكل معترك، والطيبون معاقد الأزر» لهم عن الهفوات انتفاء، وعندهم من السير النبوية اكتفاء انتسبوا إلى بر بن قيس، فخرجوا في البر عن القيس، ما لهم القديم المعروف قد نفد في سبيل المعروف، وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف من طريق القنا والسيوف على الحسن من المقاصد موقوف، تحمد من صغيرهم وكبيرهم، ذابلهم ولدنهم فلله آباء أنجبوهم، وأمهات ولدنهم، «شم

الأنوف من الطراز الأول» إليهم في الشدائد الاستناد، وعليهم في الأزمات المعول، ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الأطول، كأنما عناهم بقوله جرول:

أولئك قوم إن بنو أحسنوا البنا وإن عاهدوا وفوا وإن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لاكدروها ولا كدوا

وتعذلني أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد

وبقول الوثيق مبناه البليغ معناه:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا

يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم، وليس له منهم عائب ولا واصم، فهو أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم:

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جوارهم فطن

حلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل، وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل، ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعل، ارفض مزنهم منه عن غيث ملث يمحو آثار اللزبة، وانشق عيلهم منه عن ليث ضار منقبض على براثنه للوثبة، فقل لسكان الفلا: لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم فلا يبالي السرحان المواشي سواء مشي إليها النقرا أو الجفلى بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عرنين، ثم يبتلع بعد أشلاءهم المعفرة ابتلاع التنين، فهو هو كما عرفوه وعهدوه وألفوه، وأخو المنايا «وابن جلا وطلاع الثنايا»، مجتمع أشده، قد احتنكت سنه وبان رشده، جاد مجد، محتزم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد.

لا يشرب الماء إلا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل

أسدى القلب آدمي الروا، لابس جلد النمر يزني العناد والنوى

وليس بشاري عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم

ولكنه يسعى عليه مفاضة دلاص كأعيان الجراد المنظم

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين، والوجل الوجل لاحقين به خاضعين

قبل أن تساقوا إليه مقرنين في الأصفاد. ويعيي الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد، حينئذ يعض ذو الجهل والفدامه على يديه حسرة وندامه، إذا رأى أبطال الجنود تحت خوافق الرايات والبنود، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عاد وثمود، زعقات تؤز الكتائب أزاً وهمزاً، محققاً للخيل بعد المد المشبع للأعنة همزاً، وسلا للهندية سلاً وهزا للخطية هزاً، حتى يقول النسر للذئب: «هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً» ثق خليفة الله بذاك في كل من رام أذى رعيتك أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه في ذوي الشقاق والنفاق، الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق، وينصبون حبائل البغي والفساد في جميع النواحي والآفاق، فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين، أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه ﴿لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: 81] و﴿لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: 52] وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم، بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من در العقد النظيم منتظمين في سلك أوليائكم، متشرفين بخدمة عليائكم، ولا فقد عزة ولا عدمها من قصد مثابتكم العزيزة وخدمها، وأن المترامي على سنائكم لجدير بحرمتكم واعتنائكم، وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصناً حصيناً عاش بقية عمره محروساً من الضيم مصوناً، وقد قيل في بعض الكلام: «من قعدت به نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام»، ومولانا أيده الله تعالى ولي ما يزفه إلينا من مكرمة بكر، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر، ويروي معنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر، وغيره من ينام عن ذلك فيوقظ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ، وما عهد منذ وجد إلا سريعاً إلى داعي الندى والتكرم بريئاً من الضجر بالمطالبة والتبرم، حافظاً للجار الذي أوصى النبي ﷺ بحفظه، مستفرغاً وسعه في رعيه المستمر ولحظه، آخذاً من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه.

فهو من دوحة السنا فرع عز ليس يحتاج مجتنيه لهز

كفه في الأمحال أغزر ويل   وذراه في الجوف أمنع حرز

حلمه يسفر اسمه لك عنه   فتفهم يا مدعي الفهم لغزي

لا تسله شيئاً ولا تستلنه   نظرة منه فيك تغني وتجزي

فنداه هو الفرات الذي قد   عام فيه الأنام عوم الأوز

وحماه هو المنيع الذي تر   جع عنه الخطوب مرجع عجز

فدعوا ذهنه يزاول قولي   فهو أدرى بما تضمن رمزي

دام يحيى بكل صنع ومن   ويعافى من كل بوس ورجز

وكأنا به قد عمل على شاكلة جلاله من مد ظلاله وتمهيد خلاله، وتلقى ورودنا بتهلله واستهلاله، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله، وإيرادنا على حوض كوثره المترع بزلاله، والله سبحانه يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حله وارتحاله، ومآله وحاله، ويؤيد جنده المظفر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاله، وهز الذوابل لإطفاء ذباله، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن يريه قرة العين في نفسه وأهله، وخدامه وأمواله وأنظاره وأعماله، وكافة شؤونه وأحواله، وأحق ما نصل بالسلام وأولى، على المقام الجليل مقام الخليفة المولى، وأزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه، وإرساله، سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى جميع أصحابه وآله، صلاة وسلاماً دائمين أبداً موصولين بدوام الأبد واتصاله، ضامنين لمجددهما ومرددهما صلاح فساد أعماله، وبلوغ غاية آماله، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وأفضاله». انتهت الرسالة وما كادت.

ووصل السلطان ابن الأحمر المخلوع بعد نزوله بمليلية إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهفاً على ما خلفه، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، وتوفي بها سنة أربعين وتسعمائة ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ذرية من بعده. قال في «نشر المثاني»: «انقرضوا ولم يبق منهم أحد». وزعم منويل أنه هلك في وقعة أبي عقبة في حرب الوطاسيين مع السعديين، قال: «ولم يحسن هذا الرجل أن يدفع عن ملكه فدفع عن ملك غيره».

استيلاء البرتغال على ساحل البريجه وبناؤهم مدينة الجديدة صانها الله سبحانه وتعالى بمنّه

قال مؤلفه عفا الله عنه: قد وقفت لبعض البرتغاليين واسمه لويز مارية على تأليف في أخبار الجديدة من لدن بنوها إلى أن انتزعها المسلمون منهم فاقتطفت منه ما أثبته في هذه الترجمة. قال هذا المؤلف: لما كانت سنة ألف وخمسمائة واثنتين مسيحية قلت: ويوافقها من تاريخ الهجرة سنة سبع وتسعمائة تقريباً بعث سلطان البرتغال، واسمه منويل، من دار ملكه أشبونة عمارة في البحر للاستيلاء على بعض ثغور المغرب فألجأهم هيجان البحر وموجه إلى ساحل البريجة فيما بين آزمور وتيط، وكانت البريجة على ما يفهم من كلامه بناء متخذاً هنالك للحراسة ونحوها كان يسمى برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا الاسم إلى الآن، فأرسى البرتغاليون على الساحل المذكور ونزلت طائفة منهم إلى البر فتطوفوا بالبريجة وما حولها وأعجبهم المكان فعزموا على المقام به، واتفق رأيهم أن يتركوا جماعة هنالك يحفظون المحل ويرجع باقيهم إلى ملكهم يستأذنوه فيما عزموا عليه، فتركوا اثني عشر رجلاً بالبريجة بعد أن حصنوها وشحنوها بما يحتاجون إليه من عدة وقوت ونحوهما، ورجع الباقون إلى الملك فأخبروه بشأنهم، فأذن لهم وبعث معهم جماعة من البنائين والعملة ليبنوا لهم ما يتحصنون به، فقدموا على إخوانهم وشرعوا في إدارة السور على قطعة من الأرض، فنذر بهم أهل تلك البلاد من المسلمين وتسابقوا إليهم على الصعب والذلول ففر النصارى إلى البريجة وتحصنوا بها وأفسد المسلمون كل ما كانوا عملوه في تلك الأيام وأحجروهم بحصنهم، ووضعوا عليهم الرصد إلى أن فتر عزمهم وأيسوا من نجاح سعيهم، فعاد جلهم أو كلهم إلى أشبونة وأعادوا الكلام على ملكهم منويل في شأن البريجة ووصفوا له حسن البقعة وصحة هوائها ومنزلتها من البحر، ومن قبائل أهل المغرب من أهل تامسنا ودكالة وغيرهم، وأنها عسى أن تكون سلماً للاستيلاء

على غيرها من بلاد المغرب، لا سيما ودولة المسلمين به يومئذ قد تلاشت وملكهم قد ضعف، فوقر ذلك في نفس الملك واستأنف العزم، وبعث معهم حصة من العسكر تحصل بها الكفاية وتتأتى بها المدافعة والممانعة مع جماعة وافرة من البنائين والمهندسين، وحملهم ما يحتاجون إليه من آلة وغيرها، فانتهوا إلى الموضع المذكور بعد سبع سنين من مقدمهم الأول، وتحينوا غفلة أهل البلاد وشرعوا في بناء حصن مربع على كل ربع منه برج وثيق، ودأبوا في العمل ليلاً ونهاراً فلم تمض مدة يسيرة حتى فرغوا منه وامتنعوا على المسلمين به. وكان إنشاؤهم لهذا الحصن على البريجة القديمة بأن جعلوها أحد أرباعه وأضافوا إليها ثلاثة أرباع أخر، وأداروا السور على الجميع، واتخذوا في داخل هذا الحصن ماجلاً عظيماً لخزن الماء، وهو النطفية في لسان الجيل، بنوه مربعاً بتربيع الحصن، مساحة كل ربع منه مائة وثلاثون شبراً وجوانبه وقبوه من حجر النصف العجيب النحت المحكم الوضع والالتئام، محمولاً ذلك القبو على ستة أقواس في كل ربع. قال هذا المؤلف: وامتلاء نحو بلكاظة من هذا الماجن يسع عشرين بوطة من الماء، ثم شيدوا على أحد أرباع هذا الحصن طرياً عظيماً مرتفعاً جداً، ليس صادق التربيع ولا الاستدارة غير مهندس الشكل، ثم بنوا في أعلاه على أحد جوانبه بناء آخر لطيفاً مستديراً صاعداً في الجويرقي إليه على مدارج لطيفة، وجعلوا في أعلاه صارياً خارجاً من جوفه، وناقوساً للحراسة يشرف الحارس منه على نحو خمسة وعشرين ميلاً من سائر جهاته. وجميع هذه البناءات التي ذكرها المؤلف من الحصن وما معه لا زالت قائمة العين والأثر إلى الآن إلا الطري فإنه قد اتخذ في هذه الأيام التي هي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف مناراً للمسجد الجامع، وذلك أن عامل الجديدة في هذا العصر، وهو الرئيس الفاضل أبو عبد الله محمد بن إدريس الجراري حفظه الله، استأذن الخليفة، وهو السلطان الأعظم المولى الشريف أبو علي الحسن بن محمد العلوي نصره

الله، في جعله مناراً لكون المنار القديم قصيراً لا يسمع الناس الأذان، فأذن أعزه الله في ذلك، وهذا العامل اليوم جاد في إصلاحه والزيادة فيه وقد أشرف على التمام، وكذلك استأذن هذا العامل حضرة السلطان المذكور في إدارة جدار من داخل سور المدينة يكون سترة على منازل أهلها وبيوتهم، لأن السور المذكور كان مرتفعاً على البلد بحيث يكون الصاعد عليه متكشفاً على البيوت، واستأذنه في إصلاح القبة المشرفة على البحر المعروفة بقبة الخياطين، وكانت قد تلاشت، وباتخاذ سجن متسع محكم عن يمين الداخل من باب المدينة المذكورة لأنه لم يكن بها سجن معتبر، فأجابه الخليفة المذكور إلى ذلك كله أدام الله علاه. وقد تم جل ذلك وعادت القبة إلى أحسن حالاتها التي كانت عليها أيام البرتغال والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ولنرجع إلى موضوعنا الذي كنا فيه فنقول: ثم شرع نصارى البرتغال بعد الفراغ من الحصن المذكور في إدارة سور المدينة على أوثق وجه وأحكمه وذلك أنهم عمدوا إلى بقعة مربعة من الأرض مساحة كل ربع منها ثلاثمائة وخمس وسبعون خطوة، وجعلوا مركزها الحصن المذكور ثم أداروا بها سورين عاديين ثخن الخارج منهما نحو خمسة عشر شبراً، والداخل على نحو الثلثين منه، وبينهما فضاء مردوم بالتراب والحجارة الصغيرة، فصار السوران بذلك سوراً واحداً سعته خمسون شبراً، وهذا في غير الربع الموالي للبحر، أما هو فليس فيه ردم وإنما هو سور واحد مصمت أضيق مما عداه يسيراً وارتفاع هذه الأسوار من داخل البلد نحو ستين شبراً ومن خارجه نحو السبعين. ثم أداروا خارج السور خندقاً فسيحاً وجعلوا عمقه أربعة عشر شبراً بحيث بلغوا به الماء وإذا فاض البحر ملأ ما بين جوانبه. واتخذوا للمدينة ثلاثة أبواب أحدها للبحر وهو باب المرسى، وقد سد بالبناء في هذه السنين، واثنان للبر وجعلوا أمامهما قنطرتين بالعمل الهندسي بحيث ترفعان وتوضعان وقت الحاجة إلى ذلك، فصارت المدينة بهذا كله في غاية المناعة.

وكان بنو وطاس في هذه المدة أشغل من ذات النحيين مع برتقال سبتة وطنجة وسائر بلاد الهبط، فلذا تأتى لهؤلاء النصارى أن يفعلوا ما فعلوه في هذه المدة اليسيرة، وجعلوا داخل المدينة خمس حارات وسموا كل حارة باسم كبير من قدمائهم على عادتهم في ذلك، واتخذوا بها أربع كنائس، واتخذوا المخازن والأهراء للاختزان وسائر المرافق ومن جملتها هرى كان يسع ستمائة فنيكة من الحب وأوطنوها بأهلهم وعيالهم، وكان فيها جماعة من أشرافهم وذوي بيوتاتهم من أهل أشبونة وغيرها، وكانوا يعدون فيها أربعة آلاف نفس ما بين المقاتلة والعيال والذرية، وكانوا يأملون الاستيلاء منها على مراكش فخيب الله رجاءهم، ثم ذكر هذا المؤلف ما كان يقع بين المسلمين ونصارى الجديدة من الحروب والغارات مما لعلنا نشير إلى بعضه في محله إن شاء الله.

استيلاء البرتغال على سواحل السوس وبناؤهم حصن فونتي قرب أكادير وما قيل في ذلك

ذكر بعض المؤرخين من الفرنج أن استيلاء البرتغال على آكادير كان في مدة ملكهم منويل المذكور آنفاً وإن ذلك كان على حين غفلة من أهل تلك البلاد.

قال منويل: «لما علم طاغية البرتغال منويل أن مرسى آكادير جيدة لمناعتها وكثرة تجارتها بسبب مجاورتها لقبائل السوس أراد الاستيلاء عليها وكان يظن أن ذلك لا يتأتى له لحصانتها وكثرة القبائل المجاورين لها، ثم خاطر وبعث إليها جيشاً فاستولوا عليها على حين غفلة من أهلها وحصنوها وبنوا بها دوراً وبرجاً جيداً وأخذوا في التجارة بها مع أهل السوس، وكثرت أرباحهم. ثم لما ضعفت شوكتهم خرجوا عنها وعن آسفي وآزمور». قلت: مراده بآكادير حصن فونتي القريب منه، وإلا فآكادير إنما بني بعد هذا التاريخ

بكثير كما سيأتي. ثم مقتضى ما ذكره أن يكون زمان استيلائهم عليه موافقاً أو قريباً لزمان استيلائهم على البريجة، ومقتضى ما نقله في «النزهة» عن ابن القاضي أن يكون استيلاؤهم عليه في حدود سنة خمس وسبعين وثمانمائة فإنه لما وصف حال السلطان محمد الشيخ السعدي الآتي ذكره إن شاء الله قال: «وكان له بخت عظيم في الجهاد فتح حصن النصارى بسوس بعد أن أقاموا به اثنتين وسبعين سنة» اهـ. وكان فتحه إياه في حدود سبع وأربعين وتسعمائة، والظاهر أنهم استولوا على بعض حصون السوس في التاريخ الأول وعلى بعضها في الثاني، والله أعلم.

وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمه الله

ذكر ابن القاضي في «الجذوة»: «أن وفاة السلطان المذكور كانت سنة عشر وتسعمائة» قال: «ومن حملة وزرائه أخوه الناصر بن أبي زكرياء» والله أعلم. وولي الأمر من بعده ابنه محمد البرتغالي على ما نذكره.

الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي رحمه الله

لما توفي السلطان محمد الشيخ بويع ابنه محمد البرتغالي في التاريخ المتقدم وكان نصارى سبتة وطنجة وآصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا المسلمين بها حتى ألجأوهم إلى قصر كتامة، فكان هو الثغر يومئذ بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى كما مر، وكان السلطان محمد هذا قد عني بجهادهم وترديد الغزو إليهم والإجلاب عليهم حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها، فكان ذلك سبباً لظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما نذكره إن شاء الله.

استيلاء البرتغال على ثغر آسفي حرسه الله

قال منويل: «كان البرتغال قد تشوفوا للاستيلاء على آسفي، وكان أهلها فيهم شجاعة أكثر من غيرهم من أهل الثغور، فزحفوا إليها وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتغال، وعظم عليهم أن تمتنع منهم بلدة صغيرة ليس لها حامية سوى أهلها، ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل آسفي وأشرفوا على الهلاك، فحينئذ شارطوا البرتغال وأسلموها إليهم على الأمان. فاستولوا عليها وحصنوها غاية لتوقعهم كرة المسلمين عليهم، فكان كذلك فإنهم زحفوا إليهم بعد ثلاث سنين من أخذها ووقع بينهم وبين البرتغال حرب شديدة، كانت صفوف المسلمين تترادف فيها كأمواج البحر، وقتل قواد عسكر البرتغال وكبارهم، ثم قدمت عليهم شكوادره من مادرة بالعسكر والزاد فقويت نفوس البرتغال وارتحل المسلمون عنها بعد أن أشرفوا على الفتح، وتبعهم البرتغال لينتهزوا فيهم الفرصة فكر المسلمون عليهم واستلبوهم. وهذا أول حصار كان على آسفي.

ثم بعد سنين قلائل زحف المسلمون إليها أيضاً ومعهم عدد من المدافع، وقاتلوا قتالاً صعباً وزحفوا إلى السور فهدموا منه ثلمة كبير واشتد القتال عليها بما خرج عن العادة، ثم رحل المسلمون من غير فتح وأعرضوا عنها مدة لم يحدثوا أنفسهم بالقتال، وعمرت آسفي بالنصارى وانتقل إليها التجار وبنوا بها الدور، وكانوا يسقون منها الحب ويحملونه في السفن إلى بلادهم، ولعل ذلك لهدنة كانت لهم مع المسلمين.

ثم عادت للمسلمين بعد نحو ثلاث وعشرين سنة وقال الشيخ أبو عبد اللّه محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن» ما نصه: «قرأت بخط شيخنا أبي عبد اللّه القصار أن صاحب آسفي أخرج الشيخ أبا عبد اللّه محمد بن سليمان الجزولي منها فدعا عليهم، فسئل منه العفو، فقال: «أربعين سنة» فأخذها النصارى بعدها» اهـ. وهذا يقتضي أن استيلاءهم عليها كان في حدود

عشر وتسعمائة، لأن وفاة الشيخ الجزولي رحمه الله كانت في سنة سبعين وثمانمائة كما مر. وعند الفرنج ما يقتضي أن استيلاءهم عليها كان بعد ذلك بسنتين أو ثلاث. والله أعلم.

زحف السلطان أبي عبد اللّه البرتغالي إلى آصيلا

قال منويل: «لما أفضى الأمر إلى السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي أراد أن يأخذ بثأره من البرتغال الذين أسروه لسبع سنين، فزحف إلى آصيلا في حدود أربع عشرة وتسعمائة وحاصرها وطال قتاله عليها ثم اقتحمها المسلمون عليهم اقتحاماً واقتتلوا في وسط الأزقة والأسواق يومين ثم جاء المدد إلى البرتغال من طنجة وجبل طارق فقويت نفوسهم وخرج المسلمون عنهم، لكن ما خرجوا حتى هدموها وأحرقوها ولم يتركوا لهم بها إلا الخربات، ثم جد البرتغال في إصلاحها وأقاموا بها برهة من الدهر إلى أن رجعت للمسلمين».

استيلاء البرتغال على ثغر آزمور حرسه الله

قال منويل: «بعث طاغية البرتغال أربع عشرة وتسعمائة إلى ثغر آزمور شكوادره فيها ألفان من العسكر وأربعمائة خيالة، فدافعهم زيار الوطاسي ابن عم السلطان، ونشبت مراكب البرتغال في الساحل، وتكسر جلها وعاث فيها المسلمون، ورجع الباقي مفلولاً. ثم بعد أربع سنين بعث إليها الطاغية منويل شكوادره فيها عشرون ألفاً من العسكر وألفان وسبعمائة خيالة فانتهوا إلى آزمور وحاصروها بحراً، وزحفوا إليها من الجديدة برّاً، ووقع حرب شديدة بينهم وبين أهل آزمور وأهل البادية. ثم انهزم المسلمون وخرجوا من باب تركه لهم البرتغال قصداً» قال: «لأنه يقال في المثل: الفار منك في الحرب

اجعل له قنطرة من فضة يعبر عليها».

وقال في «النزهة»: «كان نزول النصارى بآزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة» قال: «وفي هذه السنة بنى النصارى حجر باديس. وفي أواخر المحرم منها أخذ النصارى ـ يعني الإصبنيول ـ مدينة وهران ونكبوا أهلها، فما منهم إلا أسير أو قتيل إلى أن أعادها الله للإسلام على يد الأتراك في حدود العشرين ومائة وألف» اهـ.

قلت: أهل آزمور يزعمون أن استيلاء البرتغال على مدينتهم كان متكرراً وسيأتي ما يفهم منه ذلك والله أعلم.

ومن أخبار السلطان أبي عبد اللّه ما وقفت عليه في تاريخ البرتغاليين من أن السلطان المذكور كتب لطاغيتهم منويل يطلب منه أن يتقدم بالوصاة لأصحاب قراصينه البحرية أن لا يتعرضوا لمركبين له كان قد عزم على بعثهما إلى الجزائر ثم منها إلى تونس. وكان الطاغية لم يجبه أو أبطأ بالجواب، فكرر إليه الكتاب ثانياً في القضية المذكورة، وسرد هذا المؤرخ نص الكتابين معاً مترجمين بلغته، وذكر أن تاريخ الأول منهما الثالث والعشرون من جمادى سنة عشرين وتسعمائة، وتاريخ الثاني الثامن والعشرون من ذي القعدة من السنة. اهـ.

استيلاء البرتغال على ثغر المعمورة حرسه الله

قال في «نشر المثاني»: «إن الذي اختط حصن المعمورة هو المهدي الشيعي على يد بعض عماله، وزعم بعض الفرنج أن المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحدي» قال: «ولما كان زمن منويل البرتغالي بلغه أن مينا المعمورة جيدة، وبلادها نفاعة، فبعث إليها طائفة من جنده، فوصلوا إلى ساحلها ونزلوا في البر المقابل لها وبنوا هنالك برجاً لحصارها، ثم أردفهم ملكهم المذكور بعمارة تشتمل على مائتي مركب مشحونة بثمانية آلاف

من المقاتلة» قال: «وكان خروج هذه العمارة من مدينة أشبونة في اليوم الثالث عشر من يونيه العجمي سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة مسيحية، قلت: يوافقها من تاريخ الهجرة تقريباً سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، فوافت مينا المعمورة في الثالث والعشرين من يونيه المذكور وحاصروها وألحوا عليها بالقتال أياماً وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان أبي عبد الله البرتغالي فبعث أخاه الناصر صريخاً في جيش كثيف، فوصل سادس أغشت من السنة المذكورة، وقاتل البرتغال قتالاً شديداً وهزمهم هزيمة قبيحة، ثم كانت لهم الكرة على المسلمين فهزموهم واستولوا على المعمورة وثبت قدمهم بها وحصنوها بالسور الموجود بها الآن واستمروا بها نحو خمس سنين ثم استرجعها المسلمون منهم في دولة السلطان المذكور والله تعالى أعلم، وفي السنة التي استولوا على المعمورة رجعوا إلى موضع مدينة آنفي فشرعوا في بنائها، ومن يومئذ سميت الدار البيضاء، وبقوا بها مدة طويلة إلى زمن السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل على ما زعم منويل».

أخبار السلطان أبي عبد الله البرتغالي مع الشيخ أبي محمد الغزواني رضي الله عنه

أصل الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني دفين حومة القصور من مراكش من غزوان، قبيلة من عرب تامسنا، وكان في ابتداء أمره يقرأ العلم بمدرسة الوادي من عدوة الأندلس بفاس، فحصلت له إرادة فسافر إلى مراكش ولازم الشيخ التباع وتخرج به. ثم انتقل إلى بلاد الهبط فنزل بها على قبيلة يقال لهم بنو فزنكار، واجتمع عليه الناس واشتهر أمره، وعظم صيته، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله وكان يومئذ ببلاد الهبط قد خرج إليها بقصد الغارة على نصارى آصيلا، وكان معه في هذه الحركة الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازي ـ الإمام المشهور ـ، فتوهم السلطان المذكور من أمر الشيخ الغزواني وخشي

على الدولة عاقبة أمره، وأغراه به مع ذلك الفقيه ابن عبد الكبير البادسي السفياني الأصل. وكان هذا الفقيه يصحب الولاة والعمال ويخرج في بعوثهم قاضياً، فكثرت سعايته بالشيخ حتى وقر ذلك في نفس السلطان فبعث إليه فحضر وأمر بالقبض عليه بالموضع المعروف بتاجناوت، وجعله في سلسلة وبعث به إلى فاس، وتقدم في شأنه إلى ابن شقرون صاحب شرطته بقصبة فاس القديم، وكان الشيخ ابن غازي قد مرض في هذه الغزوة وأمر السلطان بحمله إلى منزله من فاس، فلما وصل إلى قرب عقبة المساجين اشتد به الحال وأمر أصحابه أن يريحوا به هنالك، فبينما هو كذلك إذ مر به الشيخ الغزواني في سلسلته فسأل الموكلين به أن يعوجوا به على الشيخ ابن غازي كي يعوده ويؤدي حقه، فلما وقف عليه طلب ابن غازي منه الدعاء فدعا له بخير، وانصرف، فلما غاب عنه قال ابن غازي لأصحابه: «احفظوا وصيتي فإني راحل عنكم إلى الله تعالى بلا شك» قالوا له يا سيدي: «ما عندك باس» فقال: «إن الله وعدني أن لا يقبض روحي حتى يريني ولياً من أوليائه، وقد أرانيه الساعة فدلني ذلك على انقضاء الأجل» فحملوه من حينه إلى منزله فكان آخر العهد به. هكذا ساق هذا الخبر صاحب «الدوحة» في ترجمتي الشيخين المذكورين.

وكانت وفاة ابن غازي أواخر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة وقال صاحب «المرآة» عن بعض شيوخه بعد أن ذكر سعاية ابن عبد الكبير بالشيخ الغزواني ما نصه: «فتحرك الشيخ الغزواني لزيارة ضريح الشيخ أبي سلهام فعرض له العروسي قائد القصر الكبير وناوله كتاب السلطان يأمره فيه بقدوم الشيخ إلى فاس دار الملك إذ ذاك، فقال له الشيخ: «طاعة السلطان واجبة» وقال للزائرين معه: «بلغت النية» فتوجه الشيخ إلى فاس من ذلك المكان وكلما بات في منزل ذهبت جماعة من الذين معه فلم يصل معه إلا القليل. وكان الشيخ أبو البقاء عبد الوارث اليالصوتي إذ ذاك ساكناً بفاس،

ولم يكن صحب الشيخ قبل ذلك، فلما دخل الشيخ حضرة فاس لقيه أبو البقاء المذكور فسلم عليه، فشد الشيخ يده على يده فلم يرسلها حتى عاهده على الرجوع، فلما انفصل عنه اشترى خبزاً وعنباً وحمل ذلك إلى الشيخ وأصحابه فوجدهم عند القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله اليفرني المكناسي، وهو مؤلف «المجالس المكناسية»، فوجدهم في المسجد القريب من دار القاضي المذكور بدرب السعود، فناولهم ما معه ووجد الشيخ موكلاً به وأصحابه يدخلون ويخرجون. ثم دخل القاضي على الشيخ بالمسجد فقال له: «ما هذا الذي يذكر عنك؟» قال أبو البقاء: «فتكلمت أنا وقلت: إن هذا الرجل قد نزل بلداً عظيمة المناكر وأخذت أعدد مناكرها، وصار هذا السيد ينهاهم عن ذلك، فهدى الله على يده من هدى وشنئه من أبى» فقام القاضي وركب إلى دار السلطان، ثم رجع إلى منزله فبات ومن الغدر ركب إلى دار السلطان أيضاً ومعه الشيخ الغزواني، فلما اطمأن بهم مجلس السلطان وكان فيه صاحب تازا، وهو أبو العباس أحمد ابن الشيخ أخو السلطان المذكور، سكت الجميع وتكلم كاتب السلطان وإمام صلاته. قال صاحب «المرآة»: «ولم يسم لنا». فقال للشيخ: «ما هذا الذي يذكر عنك؟» فقال له الشيخ: أنت لا تتكلم حتى تغتسل من جنابتك فاستشاط الكاتب غضباً، فقال له أخو السلطان: «هؤلاء القوم يعنون الجنابة غير ما تعنيه العامة» ـ يشير إلى ما في الحكم ـ فقال له السلطان: «من أين تعرف هذا؟» فقال له: «من سيدي محمد بن عبد الرحيم بن يجيش» ففرح السلطان بمعرفة أخيه ذلك وقال للشيخ: «نحن نريد قربك وأن تكون معنا في هذه المدينة» فقال له: «على بركة الله» فانتقل إلى فاس القديم وبنى خارج باب القليعة داخل باب الفتوح وأقام هنالك ما شاء الله، قيل سبع سنين إلى أن كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس في استخراج السواقي للحرث فأخرج الشيخ من وادي اللبن ساقية لم يكن

في سواقي السلطان وغيره مثلها، فبعث إليه أخوه السلطان، وهو الناصر، الملقب بالكديد بالكاف المعقودة والدال المشددة على لغة العامة، وقال له: «نحن أحق بتلك الساقية» فقال له الشيخ: «خذها» وأخذ في الرحيل إلى مراكش ولما توجه تلقاءها أخذ خنيفه في يده وجعل يشير به من جهة فاس إلى جهة مراكش ويقول: «أيا يا سلطنة إلى مراكش»، قال صاحب المرآة: «هذا حديث شيخنا أبي عبد الله النيجي» قال «وآخنيف معروف وهو نوع من البرانس السود ومعنى أيا بلغة عامة المغرب: سيري معي»: وموضع بني فزنكار أظنه تاصروت فإن بها رسماً منسوباً إليه إلى الآن، وأنه منزله الذي كان يأوي إليه، وما زالت آثاره هنالك، والدار التي بنى بباب القليعة هي المتصيرة إلى تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الهروي المعروف بالطالب، ولعل سنة إخراج السواقي هي سنة ست وعشرين وتسعمائة، فإنه قد تعذر فيها المطر وحدث الغلاء الكبير المؤرخ بسنة سبع وعشرين وتسعمائة، وكأنه أشار إلى انتقال السلطنة عن بني وطاس ملوك فاس إلى الشرفاء السعديين ملوك مراكش يومئذ والله أعلم.

نهوض السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى مراكش ومحاصرته أبا العباس الأعرج السعدي بها

قد تقدم لنا أن ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس كان في سنة خمس عشرة وتسعمائة، وما زال أمرهم في الزيادة إلى أن كانت دولة أبي العباس الأعرج منهم، فاستفحل أمره وبعد صيته، وفتك بنصارى السوس فكاتبه أمراء هنتاتة أصحاب مراكش ودخلوا في طاعته، فانتقل إليها وملكها في حدود الثلاثين وتسعمائة. ولما اتصل خبره بالسلطان أبي عبد الله وهو يومئذ بفاس قامت قيامته، وأقبل في جموع عديدة ومعه وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر كذا في «النزهة». والذي عند غيره: أن الوزير الذي جاء معه هو الناصر

أخو السلطان المذكور. ولما رأى أبو العباس السعدي ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة، فتقدم السلطان أبو عبد اللّه ونصب الأنفاض على مراكش ودام الحصار عليها أياماً، فيحكى أنه قيل للشيخ أبي محمد الغزواني وكان قد استوطن مراكش يومئذ: أن أهل مراكش سئموا الحصار، فركب الشيخ في جماعة من أصحابه وخرج من باب فاس المعروف اليوم بباب الخميس، فوجد رماة السلطان أبي عبد اللّه يرمون من علا الأسوار من أهل البلد فوقف الشيخ ينظر فجاءت رصاصة ضربت صدره وخرقت الجبة التي عليه والتصقت بلحمه كأنها وقعت في صخرة صماء، فقبض عليها بيده وقال: «هذه خاتمة حربهم» ثم رجع إلى منزله فوردت الأنباء على السلطان أبي عبد اللّه في تلك الليلة بأن بني عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته، فأصبح من الغد راحلاً إلى فاس، وظهر مصداق ما قال الشيخ الغزواني، ولم يعد لبني وطاس وصول بعدها إلى مراكش ولا إلى أعمالها، والله تعالى أعلم.

ذكر وزراء السلطان أبي عبد اللّه وما قيل فيهم

كان من جملة وزرائه: ابن عمه المسعود بن الناصر، وهو الذي زحف معه إلى مراكش على ما في «النزهة»، وكان من جملة وزرائه القائمين بأمره: أخوه الناصر بن محمد الشيخ، المعروف عند عامة فاس بأبي علاقة وبالكديد على ما مر. قال في «الجذوة»: «لقب بذلك لكثرة سفكه الدماء وإقدامه عليه، فكان يقتل الناس ويجزرهم كثيراً، وكذا بمكناسة أيام وزارته بها، كذا حدث غير واحد ممن أدركه ورآه وتوفي الوزير المذكور سنة ثلاثين وتسعمائة».

وفاة السلطان أبي عبد اللّه رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي عبد اللّه البرتغالي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة على ما في «الجذوة». ويؤخذ من «النزهة» أنها كانت سنة اثنتين وثلاثين بعدها والله أعلم. وولي الأمر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده إليه.

الخبر عن الدولة الأولى للسلطان أبي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي

هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيار الوطاسي، ويعرف بأبي حسون البادسي. قال في «النزهة»: «بويع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد بن محمد البرتغالي وخلعه وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة من السنة المذكورة» انتهى.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي رحمه الله تعالى

هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد اللّه محمد البرتغالي ابن أبي عبد اللّه محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، بويع يوم خلع عمه أبي حسون آخر ذي الحجة من سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، قال ابن القاضي: «وقد رأيت البيعة التي كتبت له بخط الإمام أبي محمد عبد الواحد ابن أحمد الوانشريسي من إنشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كأبي العباس الحباك، والفقيه أبي العباس أحمد الماواسي وغيرهما» اهـ.

قال أبو عبد اللّه اليفرني في «النزهة»: «وانظر ما وجه كتب البيعة لأحمد مع أن خلع أبي حسون لم يكن لموجب، والوانشريسي من أهل الورع وقال: ولعله لأمر لم يظهر لنا والله أعلم» اهـ. وقال ابن عسكر في «الدوحة»: «لما توفي السلطان أبو عبد اللّه البرتغالي ودالت الدولة لولده السلطان أبي العباس أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس وزوحم بهم، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط، وصاحبهم سلطان البرتغال، فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد اللّه محمد بن يحيى البهلولي، وكان له رغبة في الجهاد وممن له وصلة بالسلطان أبي عبد اللّه، فكان إذا جاءه زائراً حضه على الغزو

فيساعده على ما أراد من ذلك. فلما بلغ الشيخ المذكور ما عقده السلطان أبو العباس من الصلح آلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور، ولا يمشي إليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وقوت عياله، فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة، وكان في النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم. «يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو وأمر بالنداء به، وحض الناس عليه، والمسلمون في شره لذلك وفرح» ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحاً وحمد الله وأثنى عليه، ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك». اهـ.

وقعة آنماي بين الوطاسيين والسعديين

قد تقدم لنا في خبر السلطان أبي عبد اللّه أنه لما حاصر مراكش وأصابت الرصاصة الشيخ الغزواني قال: «هذه خاتمة حربهم» ولم يعد لبني وطاس وصول إلى مراكش ولا إلى أحوازها. قال في «النزهة»: فكان أبو العباس الأعرج يتلاقى مع أبي العباس الوطاسي بتادلا وأحوازها» قال: «وكانت بينهما معركة بموضع يقال له آنماي وذلك في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح» اهـ. وآنماي موضع قرب مراكش به زاوية الشيخ أبي العزم رحال الكوش.

عقد الصلح بين السلطانين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس السعدي رحمهما الله تعالى

لما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي صاحب فاس، وأبي العباس أحمد السعدي المعروف بالأعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك والتهالك عليه، وفناء الخلق بينهم، دخلوا في الصلح بينهم والتراضي على قسمة البلاد، وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم أبو حفص عمر الخطاب دفين جبل زرهون، وأبو الرواين المحجوب دفين مكناسة الزيتون، وكان صاحب حال وجذب، فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة أن يفسد عليهم أمرهم، فلما دخلوا على أبي العباس الأعرج وأخيه وزيره محمد الشيخ وتكلموا فيه جاءوا لأجله، وجدوا فيهما شدة وغلظة وامتناعاً من مساعدتهم على ما أرادوا، فحلف أبو حفص الخطاب لا دخلوها ـ يعني فاساً ـ ما دمت على وجه الأرض. فما دخلوها حتى مات بعد مدة. فكان بعضهم يقول لو كان بنو وطاس يعرفون شيئاً ما دفنوا أبا حفص الخطاب ـ يعني لتركوه في تابوت على وجه الأرض ـ لأنه حلف لا دخلوها ما دام على وجه الأرض، حكاه صاحب «ممتع الأسماع». وذكر في شرح «زهرة الشماريخ»: أن الصلح انبرم بين الطائفتين، على أن للأشراف من تادلا إلى السوس، ولبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط، وإن ممن حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس أبا الحسن علي بن هارون المطغرى ـ بالطاء المهملة ـ مطغرة تلمسان، والإمام الشهير أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي وغيرهما من مشايخ فاس. ويذكر أنه لما تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه، وهدأت الأصوات، وسكن اللجاج، أتى بدواة وقرطاس ليكتب الصلح، فما وضعت الدواة بين يدي أحد الفقهاء الحاضرين إلا وجم وانقبض ودفعها عن نفسه، استحياء في ذلك المحفل أن يكتب ما لا يناسب الجهتين، فقام قاضي الجماعة المذكور وأخذ الدواة وأساودها ووضعها بين يدي أبي مالك

المذكور، فأنشأ أبو مالك في الحين خطبة بليغة ونسج الصلح على منوال عجيب، واخترع أسلوباً غريباً تحير فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جأشه، وجموم قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرس فيه ألسن الفصحاء هيبة وإكباراً، فقام قاضي الجماعة وقبله بين عينيه وقال: «جزاك الله عن المسلمين خيراً»، «وما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر» وكان ذلك كله في حدود أربعين وتسعمائة» اهـ.

غزوة الحمر قرب آصيلا حرسها الله

ذكر صاحب «الدوحة» في ترجمة الشيخ أبي الحسن علي بن عثمان الشاوي رحمه الله، أنه استشهد في وقعة الحمر التي كانت في حدود أربعين وتسعمائة بين النصارى والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسي على مقربة من آصيلا. قال: «حدثني غير واحد ممن يوثق به ممن حضر الوقعة وبعضهم يصدق بعضاً قالوا: لما انهزم الناس استقبل الشيخ أبو الحسن النصارى وسيفه في يده وهو يتلو بردة البوصيري، فكان ذلك آخر العهد به، ولما رجع الناس من الغد ليحملوا قتلاهم لم يوقف له على عين ولا أثر، وإنما وجد غنباز من لباسه عند النصارى وفيه أثر طعنة في صدره» اهـ. كلام الدوحة.

وفي «المرآة»: «أن الشيخ المذكور مات في حياة شيخه الغزواني شهيداً في الجهاد سنة خمس وعشرين وتسعمائة» اهـ. ولعله الصواب.

والعروسي المذكور هو من أمراء بني عبد الحميد العروسيين أصحاب قصر كتامة، وكانت لهم رياسة وسياسة وجهاد في العدو إلى أن انقرض أمرهم أعوام الخمسين وتسعمائة.

قال في «الدوحة»: «أخبر غير واحد من فقهاء قصر كتامة أن الشيخ أبا الروا‌ين جاء إلى القصر، وصاحبه يومئذ القائد عبد الواحد العروسي، في عصبة من أقاربه أولاد عبد الحميد، فصعد أبو الرواين صومعة المسجد ثم نادى بأعلى صوته. «يا بني عبد الحميد اشتروا مني القصر وإلا خرجتم منه

في هذه السنة»، فسمع القائد عبد الواحد ذلك فقال: «إن كان القصر له أو بيده فلينزعه منا، ما بقي لنا إلا كلام الحمقى نلتفت إليه» ومن الغد، خرج الشيخ أبو الروابن من البلد وهو يقول: «القائد عبد الواحد وأهله يخرجون من القصر ولا يعودون إليه أبداً». فكان كذلك بقدرة الله تعالى.

وقعة أبي عقبة بوادي العبيد وما كان فيها بين الوطاسيين والسعديين من القتال الشديد

هذه الوقعة من أعظم الوقعات التي كانت تكون بين الوطاسيين والسعديين وما زالت العامة تتحدث بها في أنديتها إلى الآن، ويبالغون في وصفها والأخبار عنها، وقد ذكرها شعراؤهم في أزجالهم الملحونة، وهي محفوظة فيما بينهم، وذلك أنه لما طمى عباب السعديين على بلاد الحوز وكادوا يلجون على الوطاسيين دار ملكهم من فاس، نهض إليهم السلطان أبو العباس الوطاسي أواخر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة يجر الشوك والمدر في جمع كثيف من الجند وقبائل العرب في حللها وظعنها، وجاء أبو العباس السعدي في قبائل الحوز بحللها وظعنها كذلك فكان اللقاء بمشروع أبي عقبة، أحد مشارع وادي العبيد من تادلا فنشبت الحرب، وتقاتل الناس، وبرز أهل الحفائظ منهم والتراث، وقاتل الناس على حرمهم وأحسابهم وعزهم، فأفنى بعضهم بعضاً إلا قليلاً، ودامت الحرب أياماً على ما قيل إلى أن كانت الهزيمة على الوطاسيين عشية يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة. قال في «الجذوة»: «فرجع السلطان أبو العباس الوطاسي إلى فاس وبقيت محلته وقصبة تادلا بين الشريف السعيد» قال: «وتسمى هذه السنة سنة أبي عقبة».

وقال في «المرآة»: «ومما اشتهر من كرامات الشيخ أبي طلحة محمد المصباحي الشاوي الزناتي أنه لما التقى مقاتلة فاس وسلطانهم أبو العباس أحمد الوطاسي ومقاتلة مراكش وسلطانهم أبو العباس أحمد الأعرج ومعه

أخوه المتولي بعده أبو عبد الله محمد الشيخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة على مشرع أبي عقبة من وادي العبيد انهزم السلطان أبو العباس الوطاسي وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكادوا يقبضون عليه، فحضر هنالك رجل على فرس أنثى فجعل يحول بينه وبينهم ويقول له: «سر يا أحمد ولا تخف» ولم يزل معه إلى أن رجعوا عنه وأمن الطلب، وقد عرف السلطان صفته وتحققها ولم يزل يسأل عن صاحب تلك الصفة حتى قيل له: هذه صفة أبي طلحة المصباحي، وتحقق ذلك، ولما كان خروج السلطان المذكور الذي وصل فيه تطاوين وتزوج بها الحرة بنت الأمير السيد أبي الحسن علي بن موسى ابن راشد الشريف، وذلك في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وتسعمائة. وبتطاوين بنى بها وقصد أبا طلحة المذكور ونزل عليه، فلما رآه عرفه وأيقن أنه الرجل الذي أغاثه فأكب عليه السلطان وذكر ما وقع له معه فقال الشيخ: «يا رب كيف العيش مع هذه الشهرة فاقبضني إليك» فمات عقب ذلك من سنته قال في «المرآة»: «سمعت هذه الحكاية من غير واحد وسألت شيخنا أبا القاسم بن أبي طلحة المذكور فقال لي: «أعقل مجيء السلطان وأنا صغير جداً أقعد في حجر أبي وعند ركبته» اهـ. قلت والأمير أبو الحسن بن راشد المذكور هو الذي اختط مدينة شفشاون كما مر. وذكر في «المرآة»: أن وفاته كانت سنة سبع عشرة وتسعمائة، فيكون السلطان المذكور إنما تزوج ابنته بعد وفاته ولعله خطبها من أخيها الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن والله أعلم.

واعلم أن ما سلكناه هنا من تقديم قضية الصلح على وقعة أبي عقبة هو ما يقتضيه التاريخ الذي صرحوا به، وسيأتي بعد هذا ما ربما يفهم منه أن الأمر بالعكس. والجواب أن قضية الصلح تكررت حسبما يؤخذ مما مر والله أعلم. وفي هذه السنة أيضاً عقد السلطان أبو العباس الوطاسي مع برتقال آسفي صلحاً على ثلاث سنين، ودخل في هذا العقد آسفي والجديدة وآزمور وكتب البرتغال بذلك إلى ملكهم ووقعت المحادة في البلاد، وتفرغ الوطاسي لقتال السعديين.

بناء السلطان أبي العباس الوطاسي
قنطرة الرصيف بفاس حرسها الله

كان السلطان أبو العباس أحمد الوطاسي قد جدد بناء قنطرة الرصيف بحضرة فاس، وذلك منتصف سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وفي ذلك يقول الفقيه أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي مشيراً إلى التاريخ المذكور:

جسر الرصيف أبو العباس جدده ... فخر السلاطين من أبناء وطاس
فجاء في غاية الإتقان مرتفقاً ... لمن يمر به من عدوتي فاس
وكان تجديده في نصف عام غنا ... من هجرة المصطفى المبعوث للناس

وقال الفقيه أبو مالك أيضاً:

أيا أهل فاس سدد الله سدكم ... برأي أبي العباس حامي حمى فاس
وأحيى به أشجاركم وثماركم ... على رغم قوم منكرين من الناس
فدام ودام السعد يخدم مجده ... وفاز من الشكر الجميل بأجناس

وقال الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج:

ألا سدد الله رأي الذي ... بتسديده سديداً حصينا
وخلد في عزه ملكه ... وأولاه فتحاً ونصراً مبينا
إمام الهدى أحمد المرتضى ... مبيد العدا عدة المسلمينا

وقال الإمام أبو الحسن علي بن هارون:

لقد سدد الله رأي العماد ... وأبطل في السد رأي الجهول
وقرب ما رامه من بعاد ... بمولاي أحمد مدحي يطول
فطرداً وعكساً لساني يناد ... «عقول الملوك ملوك العقول»

وقعة وادي درنة بتادلا وأسر الأمير أبي زكرياء الوطاسي ومهلكه رحمه الله

ذكر في «المرآة» عند الكلام على أبي عبد اللّه محمد بن يوسف الفاسي. وهو والد الشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه، أن أبا عبد اللّه المذكور كانت له وجاهة كبيرة عند أمير القصر أبي زكرياء يحيى بن أبي عبد اللّه البرتغالي، وهو يومئذ أخو السلطان أبي العباس الوطاسي، قال: فانتفع بوجاهة أبي عبد اللّه الفاسي خلق كثير، ولم يسامح هو نفسه في نيل شيء من الدنيا بسبب ذلك الجاه إلى أن أسر الأمير أبو زكرياء المذكور في وقعة وادي درنة من تادلا للشرفاء على بني وطاس في رجب سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة، ومات في تلك الليالي القريبة غماً وأسفاً رحمه الله، قلت: وكان سلطان السعديين يومئذ محمد الشيخ الملقب بالمهدي، فإنه تغلب على أخيه الأعرج وانتزع منه الملك وسجنه كما يأتي إن شاء الله تعالى.

استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس وقبضه على بني وطاس ومهلك سلطانهم أبي العباس رحمه الله تعالى بفضله

لما غلب السلطان محمد الشيخ السعدي على أخيه أبي العباس الأعرج واستولى على مراكش، طمحت نفسه للتوغل في بلاد الغرب وقراه، فتفرغ لحرب بني وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح، ورموا منه بحجر الأرض، وردد إليهم البعوث والسرايا وأكثر فيهم من شن الغارات، وصار يستلبهم البلاد شيئاً فشيئاً إلى أن استولى عليها، وكان أول ما ملك من أمصار الغرب مكناسة الزيتون، افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة، ثم تقدم إلى فاس فألح عليها بالقتال وضايقها بالحصار مدة قريبة من السنة، ثم استولى عليها بعد أن أسر سلطانها أبا العباس الوطاسي وصار في قبضته. وكان دخوله إياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما

دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين إلى مراكش، عدا أبا حسون المخلوع فإنه فر إلى الجزائر إلى أن كان من أمره ما نذكره. ثم إن الشيخ السعدي غدر ببني وطاس فيما قيل بعد أن أظهر العفو عنهم وسرح سلطانهم أبا العباس من ثقافة والله أعلم. وفي «الجذوة»: «كانت وفاة السلطان أبي العباس الوطاسي بمراكش قرب سنة الستين وتسعمائة» اهـ.

وزعم منويل أنه قتل مذبوحاً بدرعة. قال: «زحف أبو عبد اللّه محمد الشيخ السعدي إلى فاس فبرز إليه أبو حسون الوطاسي، وكان قائد جيش ابن أخيه، ووقع بينهما قتال عظيم انهزم فيه أبو حسون إلى فاس. وحاصره السعدي بها سنتين، ولما قلت الأقوات وعجز الوطاسيون عن الدفاع نزلوا على حكم السعدي فقبض على أبي العباس الوطاسي، وفر أبو حسون إلى الجزائر واستقل محمد الشيخ السعدي بأمر المغرب وغرب الوطاسيين إلى درعة، فقتل أبا العباس الوطاسي الذي كان تلميذاً له ذبحاً» اهـ كلامه.

بقية أخبار السلطان أبي العباس الوطاسي وسيرته

كان من جملة وزراء السلطان أبي العباس المذكور ابنه محمد، ومن أخباره: ما ذكره في «الدوحة» في ترجمة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشترائي دفين مكناسة الزيتون، قال: «من كراماته الشائعة ما اتفق له مع الوزير أبي عبد اللّه محمد بن السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي، لما استوزره أبوه وولاه على مكناسة فكان بها فغضب ذات يوم على أحد المشاورية فهرب المشاوري إلى زاوية الشيخ أبي عثمان فبعث الوزير إلى الشيخ بأن عليه الأمان ويبعثه إليه فقال له الشيخ: «إن شئت أن تذهب إلى سيدك فافعل» فقال المشاوري: «يا سيدي أخاف أن يقتلني» فقال الشيخ: «إن قتلك فالله يقتله» فذهب المشاوري إلى الوزير وبقي عنده ليلتين وفي الثالثة قتله، ولم يظهر له فجاءت أمه إلى الشيخ وقالت يا سيدي: «إن ولدي قد

قتله الوزير» فقال لها: «سبق ذلك في علم الله وإن الآخر سيلحقه الآن» - يعني الوزير - فوعك الوزير تلك الليلة وسلط عليه آكال في جسمه فتمزق لحمه وتقطع شيئاً فشيئاً إلى أن هلك لليال قلائل من مرضه، فاعتبر الناس والسلطان بذلك، ومن ذلك الوقت زاد الأمراء وغيرهم في احترام حرم زاوية الشيخ المذكور» اهـ.

وكان للسلطان أبي العباس اعتقاد في المتصلحين وأرباب الأحوال، فمن فوقهم من أهل العلم والدين، من ذلك ما حكاه في «الدوحة» أيضاً في ترجمة أبي الحسن عليّ الصنهاجي، المعروف بالدوار، قال: «كان أبو الحسن المذكور من الملامتية، وكان يدخل دور الملوك من بني وطاس فيتلقاه النساء والصبيان يقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت إلى أحد، ويعطونه الثياب الرفيعة والذخائر النفيسة، ويلبسه السلطان - يعني أبا العباس - من أشرف لباسه، فإذا خرج تصدق بجميع ذلك، ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس أكمام الحلة التي تكون عليه ويبرقعها بالزيت أو بالسمن، ولا يزال يدور في الأماكن ويصرخ باسم الجلالة» اهـ. قالوا: وكان السلطان أبو العباس المذكور واقفاً عند إشارة الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي، وهو ابن صاحب «المعيار»، لا يتعدى أمره، ولا يخالف رأيه، كما وقع له في مسألة رجل إسلامي يعرف بعبد الرحمٰن المنجور، وكان تاجراً جامعاً للمال، فشهد عليه في حكاية طويلة أربعون رجلاً من العدول باستغراق ذمته، فأخذه السلطان أبو العباس الوطاسي وقتله، وصير أملاكه لبيت مال المسلمين، فرغب أولاد المنجور من السلطان أن يؤدوا له عشرين ألف دينار ويرد إليهم أملاكهم ويسقط عنهم بينة الاستغراق، فقال السلطان لحاجبه: «اذهب إلى الشيخ عبد الواحد الوانشريسي وشاوره في ذلك وعرفه بأني في الحاجة إلى هذا المال لأجل هذه الحركة التي عرضت لي» فذهب الحاجب إليه وأخبره بمقالة السلطان ورغبته في قبول ذلك. فقال الشيخ:

«والله لا ألقى الله بشهادة أربعين رجلاً من عدول المسلمين لأجل سلطانك، اذهب وقل له: «إني لا أوافق على ذلك ولا أرضاه» فرجع الحاجب إلى السلطان وأخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عما عزم إليه».

ونظير هذا ما اتفق له معه أيضاً، وهو أن الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فأبطأ عليهم ولم يأت إلى خروج وقت الصلاة، وحينئذ أقبل السلطان أبو العباس في أبهته، فلما انتهى إلى المصلى نظر الشيخ أبو مالك فرأى أن الوقت قد فات فرقي المنبر وقال: «معشر المسلمين أعظم الله أجركم في صلاة العيد، فقد عادت ظهراً» ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة فتقدم الشيخ أبو مالك وصلى الناس الظهر، فخجل السلطان أبو العباس واعترف بخطيئته رحم الله الجميع.

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبي حسون الوطاسي رحمه الله

لما دخل السلطان أبو عبد اللّه محمد الشيخ السعدي إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، وقبض على بني وطاس بها حسبما تقدم، فر أبو حسون هذا إلى ثغر الجزائر[1] حقناً لدمه ومستجيشاً لتركها على السعدي. وكان الترك قد استولوا على المغرب الأوسط وانتزعوه من يد بني زيان كما سيأتي،

(1) ذكر المؤرخ أوكيسط كور الفرنسي في كتابه «Établissement des Dynasties des Chérifs au Maroc» «قيام الدولتين الشريفتين بالمغرب». إن أبا حسون فرّ أولاً إلى أصبانيا مستعدياً الإمبراطور شارنكان على عدوه السعدي فوجده بألمانيا فالتحق به وحضر معه في حروبه ولما طال انتظاره لنجدته ولم يفعل رجع أدراجه إلى أصبانيا ومنها دخل للبرتقال فأعطاه ملكها ست قطع من الأسطول لتعينه بشواطئ الريف فلم يتمكن من النزول لبلاد الريف فتوجه حينئذ بحراً للجزائر وقيل أسره الأسطول الجزائري وهناك اتفق مع باشاها صالح رئيس على توجيه الجيش معه للمغرب كما هو معلوم. راجع الكتاب المذكور صفحة 105 وما بعدها فقد بسط القول في الموضوع.

فلم يزل أبو حسون عندهم يفتل لهم في الغارات والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب الأقصى ويعظمها في أعينهم، ويقول: إن المتغلب عليها قد سلبني ملكي وملك آبائي وغلبني على تراث أجدادي فلو ذهبتم معي لقتاله لكنا نرجو الله تعالى أن يتيح لنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به، ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذخائر، ووعدهم بمال جزيل فأجابوه إلى ما طلب وأقبلوا معه في جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركماني المعروف بصالح رئيس، إلى أن اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وفر عنها محمد الشيخ السعدي إلى منجاته.

وكان دخول السلطان أبي حسون إلى فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة[1]. ولما دخلها فرح به أهلها فرحاً شديداً، وترجل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيراً وصغيراً، شريفاً ووضيعاً، ويبكي على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستبشر الناس بمقدمه وتيمنوا بطلعته. وقبض على كبير فاس يومئذ القائد أبي عبد الله محمد بن راشد الشريف الإدريسي، واطمأنت به الدار ثم لم يلبث السلطان أبو حسون إلا يسيراً حتى كثرت شكاية الناس إليه بالترك، وأنهم مدوا أيديهم إلى الحريم وعاثوا في البلاد. فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير.

---

(1) ذكر صاحب «الدوحة» في ترجمة سيدي عبد الله الكوش أن أبا عبد الله الشيخ خرج من فاس مزعجاً في شهر محرم سنة ستين هـ.

مجيء السلطان محمد الشيخ السعدي إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان أبي حسون رحمه الله

لما فر السلطان محمد الشيخ السعدي من وقعة الأتراك بفاس وصل إلى مراكش فاستقر بها وصرف عزمه لقتال أبي حسون، فأخذ في استنفار القبائل وانتخاب الأبطال وتعبية العساكر والأجناد فاجتمع له من ذلك ما اشتد به أزره وقوي به عضده، ثم نهض بهم إلى فاس فخرج إليه السلطان أبو حسون في رماة فاس وما انضاف إليهم من جيش العرب فكانت الهزيمة على أبي حسون فرجع إلى فاس وتحصن بها، فتقدم الشيخ السعدي وحاصره إلى أن ظفر به في وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلمة، فقتله واستولى على حضرة فاس وصفا له أمرها. وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة على الصواب خلاف ما وقع في «الدوحة» والله أعلم. وبمقتل السلطان أبي حسون رحمه الله انقرضت الدولة المرينية بالمغرب والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وبقي علينا الإلماع بأواخر دولة بني زيان ملوك تلمسان وكيف كان انقراض أمرهم، فلنشر إلى ذلك فنقول: كانت دولة بني زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بني مرين، وكان منهم في صدر المائة التاسعة السلطان الواثق بالله من أمثل ملوكهم؛ وغلبهم على تلمسان في تلك المدة السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي فأخذوا بطاعته. ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتزوا بعض الشيء إلى أن كانت دولة السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي، فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين وفي الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال أهلها، إلى أن تشفع إليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم، وكان الباعث له على غزوها أولاً ما بلغه من أن الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت استولى عليها، ففعل ما فعل وصاهرهم ببعض حفدته.

وقال صاحب «بدائع السلك»: شاهدت بتلمسان وببعض أعمالها تصريح

الخطيب باسم السلطان أبي عمرو عثمان صاحب تونس مقدماً في الذكر على اسم صاحب تلمسان أبي عبد الله من أعقاب بني زيان لما بينهما من الشرط في ذلك. وبقيت حال بني زيان متماسكة إلى أن ظهر جنس الإصبنيول في صدر المائة العاشرة بعد ما تم له ملك الأندلس وعظمت شوكته، فطمح للتغلب على ثغور المغربين الأدنى والأوسط، فاستولى على بجاية سنة عشر وتسعمائة، ثم على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل بأهلها الأفاعيل ثم سما لتملك الجزائر وشره لالتهامها، وضايق المسلمين في ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته. وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي الزواوي ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة في بسائط المغرب الأوسط وجباله، وكانت دولة العثامنة من الترك في هذه المدة قد زخر عبابهم وملكت أكثر المسكونة، وظهر من قواد عساكرهم البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا وأخوه عروج باشا، وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر براً وبحراً، وأوقعا بأهل دول الأوروبا وقائع شهيرة، وصار لهم ذكر في أقطار البلاد، وتمكن ناموسهم من قلوب العباد، فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر. وقال: إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب، فأقبل الترك نحوه مسرعين واستولى عروج على ثغر الجزائر بعد ما كاد العدو يملكه فتخلصه منه، ثم استولى على تلمسان وغلب بني زيان على أمرهم، وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة على ما في «النزهة». ثم إن أهل تلمسان أنكروا سيرة الترك وسئموا ملكتهم، ويقال: إن الترك عسفوهم وصادروهم على أموالهم، وكان عروج قد أغرى بالفقيه أبي العباس المستدعي له فقتل شهيداً بعد الثلاثين وتسعمائة، ورأى عروج أن أمر المغرب الأوسط لا يصفو له مع وجود الفقيه المذكور فدس عليه من قتله، ثم نهض عروج إلى بني يزناسن فكان الكرة عليه وقتل هنالك مع جماعة من وجوه عسكره وتفرقت جموعه.

وعادت تلمسان إلى بني زيان فجددوا بها رياستهم وأحيوا رمق دولتهم إلى أن عاود الترك غزوها بعد حين وانتزعوها من يد صاحبها أبي العباس

أحمد بن عبد الله من أعقاب يغمراسن بن زيان.

قال في «المرآة» ما نصه: «قال الشيخ الإمام قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشريسي رحمه الله ومن خطه نقلت: قدم حسن ابن خير الدين التركي فاستولى على تلمسان في أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الأمير أحمد ابن الأمير عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم ولحقا بدبدو مع من انضاف إليهما من أمراء تلمسان وكبرائها، فغدر بهم عمر بن يحيى الوطاسي صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم، وسرح منصوراً في محرم من سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة» اهـ، واستمرت تلمسان في يد الترك إلى أواسط صدر المائة الثالثة عشرة فاستولى عليها الفرنسيس على ما نذكره إن شاء الله.

واعلم أنه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام.

منها ظهور الفرنج بالديار المغربية واستيلاؤهم على ثغورها بما لم يعهد مثله قبل ذلك، لا سيما البرتغال والإصبنيول حسبما تقدمت الإشارة إليه. ومنها ظهور دولة آل عثمان ملوك التركمان بالديار المشرقية وما أضيف لها الظهور الذي لا كفاء له وابتداء هذه الدولة وإن كان قبل هذا التاريخ بنحو مائتي سنة لكن إنما كان عنفوان شبابها وفيضان عبابها في هذه المدة لاسيما في دولة سلطانهم الأعظم، وخاقانهم الأفخم سليمان بن سليمان خان، فإنه ملك أكثر المعمور، وقام بدعوته من الأمم الجمهور، وهجمت عساكره على ديار الأرنا فقاتلوهم في أعز بلادهم، واستلبوهم من طارفهم وتلادهم، وخضعت ملوكهم لعزته، واستكانوا لصولته، وأعطوه يد المقادة وآتوه من الطاعة والخضوع ما خالف العادة. ثم أوطأ عساكره المغربين الأدنى والأوسط فاستولى عليهما، وكاد يتناول الأقصى ويضيفه إليهما على ما تقف عليه في أخبار السعديين إن شاء الله.

ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية، وأرباب الأحوال والجذب، في بلاد الشرق والغرب، لكنه انفتح به للمستورين على النسبة

وأهل الدعوى باب متسع الخرق، متعسر الرتق، فاختلط المرعى بالهبل، وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل، وصعب على جل الناس التمييز، حتى بين البهرج والإبريز، لا سيما العامي الغمر، الذي لا يفرق بين الحصباء والدر ويرحم الله الشيخ اليوسي إذ قال في محاضرته ما نصه: «وقد طرق أسماع القوم من قبل اليوم كلام أهل الصولة كفحول القادرية والشاذلية رضي الله عنهم، وكلام أرباب الأحوال في كل زمان، فتعشقت النفوس ذلك، وأذعن له الجمهور وخاضوا في التشبيه بهم، فما شئت أن تلقى جاهلاً مسرفاً على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة، فضلاً عن أن يعمل، فضلاً عن أن يخلص إلى الباطن، فضلاً عن أن يكون صاحب مقام إلا وجدته يصول ويقول، وينابذ المنقول والمعقول، وأكثر ذلك في أبناء الفقراء، يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه، ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة بل لمجرد حطام الدنيا، فيقول خدام أبي، وزريبة أبي، ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان، ولا يقبل أن يحبوا أحداً في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره، وإذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله، وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه إلى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالاً، ثم يخترق لهم من الخرافات والأمور المعتادة ما يدعيه سيرة وديناً يستهويهم به، ثم يضمن لهم الجنة على مساوىء أعمالهم والشفاعة يوم المحشر، ويقبض على لحمة من ذراعه فيقول للجاهل مثله: «أنت من هذه اللحمة» فيكتفي جهال العوام بذلك ويبقون في خدمته ولداً عن والد، قائلين نحن خدام الدار الفلانية وفي زريبة فلان، فلا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا وهذا هو الضلال المبين. وهؤلاء قطاع العباد عن الله» إلى آخر كلامه فقف عليه في الفصل الخامس والعشرين منها فإنه نفيس وبالله تعالى التوفيق.

وفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة توفي الفقيه أبو العباس أحمد بن عيسى الماواسي البطوي الموقت المشهور.

وفي سنة اثنتي عشرة بعدها توفي الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن قاسم

التجيبي المعروف بالزقاق فقيه فاس، وهو صاحب المنظومة اللامية في علم القضاء وغيرها. وفي سنة أربع وتسعمائة، في يوم الثلاثاء العشرين من صفر منها توفي الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي مؤلف «المعيار» وغيره من التآليف الحسان، أصله من تلمسان واستوطن مدينة فاس إلى أن توفي بها في التاريخ المذكور. وفيها أيضاً توفي الشيخ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع دفين حومة الفحول من مراكش من أصحاب الشيخ الجزولي رضي الله عنهما، وصفه شيخه المذكور بالكيمياء، وكان يقال: النظرة فيه تغني، أفاض الله علينا من مدده.

وفي سنة تسع عشرة وتسعمائة توفي الشيخ الإمام العلامة النظار أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي، وقد تقدم خبره مع الشيخ أبي محمد الغزواني رحمهما الله.

وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة انحبس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس إلى استخراج السواقي من الأودية والأنهار لسقي زرعهم وثمارهم.

وفي سنة سبع وعشرين بعدها كان الغلاء والجوع الكبير الذي صار تاريخاً في الناس مدة.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها كان الوباء بالمغرب، سنة الله في خلقه، وفي هذه المدة، أعني أعوام الثلاثين وتسعمائة على ما في الدوحة، توفي الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن منصور السفياني دفين جزيرة البسابس من بلاد أولاد جلون على مسيرة نصف يوم من مصب نهر سبو في البحر من جهة المشرق، وكان من أصحاب الشيخ التباع، والروضة التي عليها بناها الشيخ أبو زيد عبد الرحمٰن المجذوب، يقال: إنه لما أكملها رآه في المنام وألبسه حلة خضراء.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة في ثاني يوم من ربيع الأول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن عمر الحاجي المعروف بالفلاح ضجيع القاضي عياض في روضته بحومة باب إيلان من مراكش، وهو من أصحاب

الشيخ التباع أيضاً، وفي هذه المدة على ما في «الدوحة» توفي الشيخ أبو يشو مالك بن خدة الصبيحي من عرب صبيح، كان من أهل العلم والفضل والدين، ودفن على ضفة نهر سبو على نحو مرحلة من فاس، وقبره مزارة إلى الآن.

وفي سنة خمس وثلاثين وتسعمائة توفي الشيخ أبو محمد الغزواني رضي الله عنه دفين حومة القصور من مراكش، وقد تقدم شيء من خبره.

وفي أعوام أربعين وتسعمائة توفي الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسى السفياني المختار. ثم الفهدي دفين مكناسة الزيتون، وهو شيخ جليل القدر شهير الذكر رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس

أوله:

الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

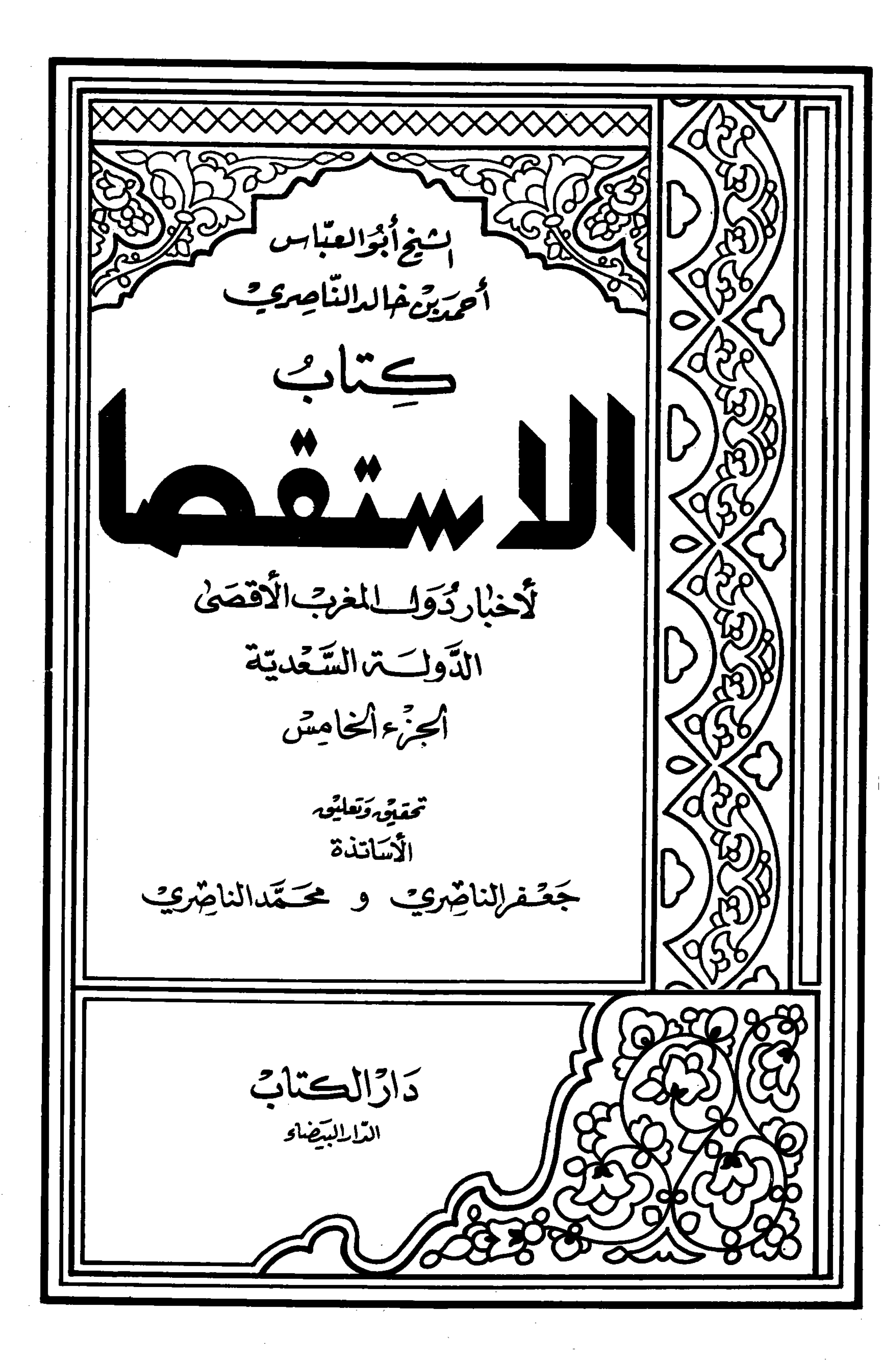
حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ن)

حرف (و)



الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدّولة السّعديّة

الجزء الخامس

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء
1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدولة السعدية

الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم

اعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون: إن أصل سلفهم من ينبع النخل، من أرض الحجاز، وأنهم أشراف من ولد محمد: النفس الزكية رضي الله عنه، وإليه كانوا يرفعون نسبهم ويقولون في أول ملوكهم القائم بأمر الله مثلاً: هو محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد اللّه بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم ابن محمد النفس الزكية ابن عبد اللّه الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فهم بنو عم السادة العلويين أشراف سجلماسة، يجتمعون معهم في محمد بن أبي القاسم المذكور في النسب.

قالوا: والسبب في قدوم سلفهم من الحجاز إلى المغرب، أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيراً، فقيل لهم: لو أتيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم، وقد كان أهل سجلماسة جاؤوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم من أرض ينبع في قصة ظريفة تأتي في محلها إن شاء الله، قالوا: فأتى أهل درعة بالمولى زيدان بن أحمد، مضاهاة لأهل سجلماسة، فعادت عليهم بركته.

واعلم أن هذا النسب الشريف المسرود آنفاً فيه ـ كما قال اليفرني ـ بتر

بين قاسم ومحمد النفس الزكية فإنه لا يعرف في أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم، وإنما هو قاسم بن محمد بن عبد اللّه الأشتر بن محمد النفس الزكية، ولعله سقط عن ذهول من الناسخ. وقيل الصواب إنه قاسم بن حسن بن محمد بن عبد اللّه الأشتر بن محمد النفس الزكية.

واعلم أيضاً أن ما زعمه هؤلاء السعديون من انتسابهم لهذا البيت الكريم هو المعروف عند الكافة وتلقاه فضلاء عصرهم بالقبول وأثبتوه في تقريضاتهم ومؤلفاتهم الموضوعة في أخبارهم. ومن الناس من يطعن في ذلك، ونقله بعضهم عن الشيخ أبي العباس المقري صاحب «نفح الطيب» وأنه صحح أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية، ظئر رسول الله ﷺ، وهذا النقل ضعيف لأن الشيخ المقري صرح في نفح الطيب بشرف هؤلاء السادة في غير موضع وهو من آخر ما ألف.

وممن طعن في نسبهم المولى محمد (فتحا) بن الشريف السجلماسي أول ملوك السادة العلويين، صرح بذلك في بعض الرسائل التي كانت تدور بينه وبين الشيخ ابن زيدان منهم قال فيها: «وقد اعتمدنا في ذلك، يعني في عدم شرفهم، على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر فما وجدوكم إلا من بني سعد بن بكر» اهـ.

ويحكى شائعاً عن الفقيه الورع المولى أبي محمد عبد اللّه بن علي بن طاهر السجلماسي ـ وكان من أهل الصلاح والدين ـ أنه كان ذات يوم جالساً مع المنصور السعدي في بعض قصوره من حضرة مراكش، وهما مجتمعان على خوان طعام، فقال المنصور للشيخ أبي محمد: «أين اجتمعنا يا فقيه؟» يعني في النسب، فقال أبو محمد: «على هذا الخوان» ويروى: «في هذا المشور» فأسرها المنصور في نفسه ولم يبدها له إلى أن احتال عليه بما كان السبب في إتلاف مهجته، فكان المنصور بعد ذلك يدعو الشيخ أبا محمد فيجلسه على الرخام في زمان كلب البرد وهيجانه من غير حائل، وقد اتخذ المنصور، فيما زعموا، لبدة صوف داخل سراويله لا يحس معها بالبرد، فإذا

رآه أبو محمد جالساً معه تجلد واستحيى أن يقوم عن السلطان ويتركه، ويستمران على المذاكرة في مسائل العلم، فعل ذلك به أياماً حتى سكنته علة البرد فلم يزل أبو محمد يشتكي من ذلك إلى أن قضت عليه.

وأنكر هذا صاحب «نشر المثاني» ورده بتأخر وفاة ابن طاهر عن وفاة المنصور بأكثر من ثلاثين سنة.

وجواب أبي محمد هذا من النوع البياني المسمى: «بتلقي المخاطر بغير ما يترقب» على ما هو معروف في كتب الفن، وإنما سأله المنصور لما مر من أن السعديين يزعمون أن جدهم قدم من ينبع أيضاً كما قدم جد العلويين، والعلويون ينكرون ذلك كل الإنكار ويقولون: إنهم لم يجتمعوا معهم في قبيل ولا دبير.

قال اليفرني: «لكن صحح لنا غير واحد من أشياخنا أن الشيخ ابن طاهر رجع عن ذلك الإنكار، وأن المنصور أطلعه بعد ذلك على ظهير فيه خط الإمام ابن عرفة وشيخه ابن عبد السلام بثبوت نسبهم فاطمأنت نفس ابن طاهر لذلك فكان يصرح بصحة نسبهم بعد ذلك ويزجر من يطعن فيه اهـ.

قلت: وهذا هو الصواب إذ مستند من يطعن في نسبهم عدم وضوحه، ولا يلزم من عدم وضوحه عدم ثبوته في نفس الأمر، وإلا فيبعد أن يكون هؤلاء المنكرون قد اطلعوا على أحوال عمود نسبهم وما اشتمل عليه من الآباء والأجداد من لدن مبدئه إلى منتهاه مع طول المدة وتناسخ الأجيال، فالتنقير عن ذلك عسير جداً، ولذا وكل الشارع أمر الأنساب إلى أهلها، وجعلهم مصدقين فيها، إذ لا تعرف غالباً إلا من قبلهم. فهؤلاء السادة الزيدانيون لو فرضنا أنهم ما كانوا ملوكاً ولا بلغوا من الشهرة إلى حيث بلغوا ثم ادعوا هذا النسب الكريم فلا سبيل لأحد أن يدفعهم عنه إلا بقاطع، ولا قاطع كما علمت. نعم الحكاية المسوقة في سبب دخولهم إلى المغرب يظهر عليها أثر الصنعة والله أعلم بحقائق الأمور.

وأما تسميتهم بالسعديين فقد قال اليفرني: «إن هذه النسبة لم تكن لهم

في القديم، ولا وقعت بها تحليتهم في ظهائرهم ولا في سجلاتهم وصدور رسائلهم بل كانوا لا يقبلون ذلك ولا يجترئ أحد على مواجهتهم به، لأنه إنما يصفهم بذلك من يقدح في نسبهم ويطعن في شرفهم ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر كما قلنا، وكثير من العامة وإخوانهم من الطلبة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم ونحو ذلك مما لا معنى له» اهـ.

قلت: وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة به فصار كالعلم الصرف المرتجل مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف، والله تعالى يلهمنا الصواب بمنّه وفضله.

الخبر عن دولة الأمير أبي عبد اللّه محمد القائم بأمر الله وبيعته والسبب فيها

قال ابن القاضي في «درة السلوك»: «لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة إلى أن نشأ منهم أبو عبد اللّه محمد القائم بأمر الله فنشأ على عفاف وصلاح، وحج البيت الحرام، وكان مجاب الدعوة، ولقي جماعة من العلماء الأعلام والصلحاء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين، أخبرني بعض الفضلاء أنه لقي رجلاً صالحاً بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فأشار له بما يكون منه ومن ولديه، وكان قد رأى رؤيا وهي: أن أسدين خرجا من إحليله فتبعهما الناس إلى أن دخلا صومعة ووقف هو ببابها، فعبرت له رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن، وإنهما يملكان الناس. ثم رجع إلى المغرب وهو معلن بالدعوة، فيقول في كل محفل: إن ولديه سيملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه، ثقة بخبر الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة، فما زال إلى أن قام سنة خمس عشرة وتسعمائة» اهـ.

وقال صاحب «زهرة الشماريخ» ما صورته: «إن سبب قيام أبي عبد اللّه القائم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو، واستحكمت شوكة البرتغال، وبقي المسلمون في أمر مريج لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الإسلام، لأن بني وطاس فشلت ريحهم يومئذ

في بلاد السوس، وإنما كان لهم الملك في حواضر المغرب، ولم يكن لهم منه بالسوس إلا الاسم، مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وآصيلا وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط، فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الأحوال وكثرة الأهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الأقاوي نسبة إلى آقة من بلاد السوس، فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكلب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم، وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك، وقال: «إن رجلاً من الأشراف بتاجمدارت[1] من درعة يقول: إنه سيكون له ولولديه شأن، فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم» فبعثوا إليه وكان من أمره ما كان».

وقال اليفرني: «رأيت بخط الفقيه العلامة أبي زيد عبد الرحمٰن ابن شيخ الجماعة أبي محمد عبد القادر الفاسي ما صورته: ذكر لنا الوالد عن سيدي أحمد بن علي السوسي البوسعيدي أن ابتداء دولة الشرفاء بالسوس أن بعض السادة وهو سيدي بركات توسط في فداء بعض الأسارى، وأراد أن يكون مع النصارى اتفاق على أن لا يحبسوا أسيراً، فكلمهم في ذلك، فقالوا له: حتى يكون لكم أمير، فإن ملككم قد ذهب واضمحل. قال: ثم إن بعض أهل السوس ساروا إلى قبيلة جسيمة[2] يكتالون الطعام فأخذتهم جسيمة وأكلوا متاعهم وبضاعتهم، فذهبوا إلى شيخهم، وكان ذا حزم وتدبير، فرد عليهم كل ما ضاع لهم حتى لم يبق لهم شيء فلما رجعوا إلى بلادهم قالوا: إن هذا الشيخ الرئيس هو الذي يليق أن نبايعه، فاجتمعوا وأتوه وطلبوا منه أن يرأسهم فامتنع، واحتاط لدينه واعتذر بتشويش هذا الأمر للدين، ودلهم على رجل شريف كان مؤذناً بدرعة فقال لهم: إن كان ولا بد، فاقصدوا الشريف الفلاني

(1) تاكمدارت من أعمال فزواطة بوادي درعة قاعدتها الآن هي أمزرو وتحتوي على زاكورا وزاوية البركة وسرت وغيرها اهـ.

(2) قبيلة من ناحية أكادير من جهة الجنوب على شاطئ البحر.

فإنه يذكر أن ولديه يملكان «المغرب» فقصدوه، وحملوه إلى بلادهم وبايعوه وفرضوا له من المؤنة ما يكفيه وأولاده، وبقي هنالك في نحر العدو.

ويروى أنه لما بايعه أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لا يقوم إلا بالمال، احتال بأن أمر أهل السوس أن يأتوه ببيضة لكل كانون، فاجتمع له من ذلك آلاف من البيض لا تحصى، لأن الناس استهونوا أمر البيضة. فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى ببيضة يأتي بدلها بدرهم ففعلوا، فاجتمع له من ذلك مال وافر، فأصلح به شأنه وقوى به جيشه، وكانت تلك أول نائبة فرضت في دولة السعديين والله أعلم.

وقال ابن القاضي: «إن الأمير أبا عبد اللّه القائم لما اجتمع بالشيخ ابن مبارك ببلده آقة وذلك سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما مر فاوضه في شأنه، ثم عاد إلى مقره من درعة، ثم في سنة ست عشرة بعدها بعث إليه فقهاء الصامدة وشيوخ القبائل، ودعوه إلى توليته عليهم وتسليم الأمر إليه، فلبى دعوتهم، وجاء إلى قرية يقال لها تيدسي[1] قرب تارودانت. فبايعه الناس بها، وأصبحوا معه بقلوب متفقة وأهواء على الجهاد مجتمعة» اهـ.

وقد ساق منويل أولية هذه الدولة مساقاً غريباً، ولا يخلو عن فائدة، فلنذكر منه ما يقرب إلى الصحة، ويكون كالشرح لما مضى أو يأتي من أخبار هذه الدولة، قال:

«لما كان السلطان أبو عبد اللّه الوطاسي، يعني البرتغالي، أميراً بفاس ظهر في درعة رجل شريف يعني أبا عبد اللّه محمداً القائم بأمر الله، قال: وكان هذا

(1) اسم لموضعين أحدهما بدرعة قرب تاكمدارت المتقدمة الذكر التي منها أصل السعديين ولعلها كانت مقرّاً لهم فيما سبق الملك كما يفهم عن رسالة وجهها محمد الشيخ بن زيدان إلى مولاي محمد بن الشريف السجلماسي العلوي تضمنت ما نصه: «وأننا من تيدسي أحد القصور بوادي درعة الخ» وقربها من تاكمدارت يؤكد ذلك وتيدسي الأخرى توجد بالقطر السوسي قرب تارودانت ولا زال الموضعان يعرفان معاً بهذا الاسم إلى يومنا هذا وبالله التوفيق اهـ.

الشريف من قراء القرآن، ومن أهل العلم والدين والفقر والخمول ولم يكن من بيت الرياسة، وكان له اطلاع على تواريخ قطره وعوائد جيله وأخلاقهم وطبائعهم، ورأى ما وصل إليه ملك المغرب من الانحطاط والضعف وتيقن أنه لا يصعب عليه تناوله، فأعمل في ذلك فكره ومكره، وصار يحض الناس على القيام بأمور دينهم والامتعاض لها، وكان قد بعث ثلاثة من أولاده، وهم: عبد الكبير، وأحمد، ومحمد إلى الحجاز بقصد الحج، وكانت لهم فصاحة ورجاحة ومعرفة بإدارة الكلام، فظهر لهم ناموس في تلك البلاد، وأحبهم الناس لا سيما أحمد ومحمد، ولما رجعا من مكة أقاما بفاس، وهي يومئذ دار الملك، وترتب أحمد في مجلس بالقرويين لتدريس العلم، فاكتسب بذلك جاهاً، وتقرب محمد إلى السلطان حتى صار مؤدباً لأولاده، وبقيا على ذلك مدة، وهما في ذلك كله يتحببان إلى الناس ويسعيان في مذاهب الشهرة، والبرتغال في أثناء ذلك ملح على الثغور واستلابها من أهلها، ولم تكن تقوم للمسلمين معه راية، فدعا ذلك الأخوين أحمد ومحمداً إلى أن ندبا السلطان، وهو أبو عبد الله البرتغالي، إلى المناداة في الناس بالجهاد إظهاراً للنصح، وهما يسران حسواً في ارتغاء، وقصدهما تفرقة الكلمة على السلطان لا غير فاغتر السلطان بنصحهما وقال لهما: «لا أحد أولى منكما بالقيام بهذه الوظيفة» فأجاباه إلى ذلك عن توفر داعية وكمال رغبة، فأرسلهما يناديان ويستنفران الناس في نواحي المغرب إلى الجهاد ويحضان الناس عليه، ويخطبان بذلك في المحافل، ويعظان وتتبعا الحواضر والبوادي، وتقريا الأحياء والمداشر والقرى، إلى أن وصلا إلى درعة حيث أبوهما وأخوهما عبد الكبير فاجتمعا بهما وذاكراهما في أمرهما، وأنهما قد أشرفا على المراد، وكادا يلجان الملك من بابه، لأن أهل تلك البلاد كانوا سامعين لهم من قبل اليوم فكيف بهم اليوم، فحينئذ أخذ الأب وأولاده في نشر معايب الدولة للعامة، ويقررون ذلك بفصاحتهم ووجاهتهم، وما أوتوه من القبول، وعضدهم على ذلك شيوخ البلد وتبعهم الناس، واجتمعوا عليهم من كل جهة، وصار حالهم ينمو شيئاً فشيئاً إلى أن استبدوا على السلطان ولم يرجعوا إليه بعد».

وقال في «نشر المثاني»: «كان السبب في قيام الشرفاء الزيدانيين واستبدادهم بملك المغرب أن الحرب نشبت بين النصارى وأهل السوس ودامت، وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد. فاتفق أن خرج الشريفان محمد الشيخ وأخوه أحمد الأعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكانهما في الجهاد، فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب، وأقبل عليهما لأجل قيامهما بالجهاد، وأعطاهما عدة وخيولاً كثيرة، فرجعا إلى جهادهما، ثم عادا إليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك وكانت لهما وقائع في النصارى ونكاية وظهور، وصارا يكتبان إلى القبائل فيساعدونهما على ذلك حتى اجتمعت عليهم جموع عديدة، فحينئذ خلعا طاعة الوطاسي ودعوا لأنفسهما» اهـ.

قال منويل: وكان أكثر شهرة أمرهم بالسوس الأقصى ودرعة وأعمالهما، وصاروا يرفعون إليهم زكواتهم وأعشارهم، ثم بايعوهم ونهض هؤلاء الأشراف إلى تارودانت فاستولوا عليها وحصنوها، ثم زحفوا إلى آكادير لحرب البرتغال فقاتلوه مدة ولم يفتح لهم، وكانوا يشيعون أنهم لا قصد لهم إلا في الجهاد ومحاربة عدو الدين، ومن هو سلم له من المسلمين إذ لم يتأت لهم إذ ذاك التصريح بخلع السلطان.

وفي سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة تجاوزوا جبل درن إلى بلاد حاحة والشياظمة، ثم دخلوا بسيطة عبدة، وكان بآسفي رجل تنصر، اسمه يحيى بن تافوت[1]، احتمى بالبرتغال من السلطان، وكان معروفاً بالشجاعة واتصل خبره بطاغية البرتغال منويل فولاه على النصارى وعلى أتباعه من المسلمين تأليفاً له.

ولما زحف الأشراف إلى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديدتان، كان الظهور فيهما ليحيى، لكن أبو العباس أحمد الأعرج تدارك أمره فوراً وجمع عسكراً آخر وخطبهم ووعظهم وزحف إلى يحيى المذكور ففضه وفض نصاراه إلى أن انجحروا بآسفي وأغلقوه عليهم وأتيح لأحمد عليهم ما لم يتقدم لغيره فيهم فبذلك تأتى له أن يتناول ملك المغرب.

(1) صوابه تعففت كما رأيته مكتوباً في إحدى رسائله المطبوعة بأصول التاريخ المغربي.

ولما اتصل خبر هذا الظهور له بالسلطان الوطاسي لم يعجبه ذلك، وظهر له أن ما كان أحمد وأخوه يحاولانه من أمر الجهاد لم يكن ظاهره كباطنه، وحقق له ذلك ما فعلوه من تحصين تارودانت مع ما كان لأبيهم من نفوذ الكلمة بالسوس.

وكان في هذا التاريخ بمراكش وأعمالها عامل اسمه ناصر بوشتنوف وكان مستبداً على الوطاسي ويبذل له شيئاً تافهاً يتقيه به، ولما مر به هؤلاء الأشراف في أول أمرهم داعين إلى الجهاد أحسن إليهم غاية، ولما أوقعوا وقعة آسفي أبرموا أمرهم مع ناصر أبي شتنوف وأظهروا له المحبة والموالاة، وطلبوا منه أن يظاهرهم على جهاد العدو وأن يكونوا يداً واحدة وجنداً واحداً عليه فأسعفهم، وقدموا مراكش فدخلوها مرة ثانية وأحسن إليهم، وبعد أيام خرجوا به للصيد فسموه في خبز صغير يسمى: القريشلات فهلك للحين، وصفا للأشراف مراكش وأعمالها إذا كان أهلها قد أحبوهم وشرهوا إليهم، ولما تم لهم أمر درعة والسوس ومراكش تسمى أحمد باسم الأمير واستخلف أخاه محمداً الشيخ.

ولما اتصل الخبر بالوطاسي وأنهم استولوا على مراكش. أقلقه ذلك، ومن مكر أحمد أنه بعث إليه يقول: ما أنا إلا واحد من عمالك، وما كان يعطيه أهل هذه البلاد أبذله لك مضاعفاً، ومع ذلك لم يطمئن إليه. ثم هلك الوطاسي وولي مكانه ابنه أبو العباس أحمد وانقسمت مملكة المغرب، فصارت فاس للوطاسي ومراكش وأعمالها لأبي العباس الأعرج، وتارودانت والسوس ودرعة لمحمد الشيخ، وأما عبد الكبير فإنه كان استشهد قبل هذا في حرب البرتغال قرب آسفي.

ولما رأى أبو العباس الوطاسي استفحال أمر الأشراف وأنهم أمسكوا عنه ما وعدوا بأدائه لأبيه عزم على حربهم، فجمع عسكراً عظيماً وزحف إلى مراكش فتحصن أحمد الأعرج بها وقدم عليه أخوه فظاهره على عدوه، وفي أثناء حصار الوطاسي لمراكش اتصل به الخبر بأن أهل فاس قد قاموا عليه وبايعوا بعض إخوته فرجع إلى فاس وقبض على أخيه الثائر عليه ثم كر إلى

مراكش بعسكر أعظم من الأول، وفي هذه المرة برز إليه الأشراف خارج البلد، ثم تقدموا إليه فكان اللقاء على أبي عقبة من تادلا، ووقعت بينهم حرب هائلة لأن الوطاسيين كانوا يرون أن هذه الحرب هي الفيصل بينهم وبين عدوهم والأشراف كذلك. وحضر هذا الحرب أبو عبد الله ابن الأحمر سلطان الأندلس المخلوع وأبلى بلاء حسناً حتى قتل، وكان الظهور للأشراف ورجع الوطاسي مفلولاً إلى فاس وترك محلته بما فيها من مدافع وغيرها بيد عدوه، وبعد هذه الوقعة استولى الأشراف على تافيلالت، وملكوا آكادير وآسفي وآزمور، لأن البرتغال كانوا قد تخلوا عنها، ثم عن قريب حدث بين الأخوين النفرة وحاول رجال دولتهما الوفاق بينهما فلم يتفقا، وكانت الكرة على أحمد، وفر ابنه زيدان الذي كان عضد أبيه في الحروب إلى تافيلالت فاستولى عليها، واقتطعها عن عمه محمد الشيخ. ثم زحف الشيخ إلى فاس فحاصرها إلى أن قبض على الوطاسيين وغربهم إلى درعة» اهـ كلام منويل.

ثم نرجع إلى سياقة الخبر عن هذه الدولة حسبما عند اليفرني وغيره.

أخبار الأمير أبي عبد الله القائم في الجهاد وما هيأ الله له من النصر فيه

لما استتب أمر الأمير أبي عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس إلى مقارعة البرتغال وجهاده، ونفيه عن ثغور المغرب وبلاده، وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فصمدوا معه إلى النصارى وناوشوهم الحرب، فأتاح الله للأمير أبي عبد الله الفتح والنصر، ونثر أثلاء الكفار بمخالب الظفر، وأخرج حية الغي من جحرها، وأعاد كلمة الإسلام إلى مقرها، فلما رأى المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته وتفاءلوا بطائره الميمون ونقيبته، وزادهم ذلك محبة في جانبه وتعظيماً في مكانته، ولما فصل من جهاده عاد إلى محله المذكور من تيدسي، فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة أدت إلى ارتحاله عنها وعوده إلى درعة، فلم يزل مقيماً

بها إلى سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع إلى مكانه من تيدسي، واطمأنت به دارها وأزال الله عنه ما كان أزعجه عنها، والله غالب على أمره.

عقد الأمير أبي عبد اللّه القائم ولاية العهد لابنه أبي العباس الأعرج رحمهم الله تعالى

قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التي رآها الأمير أبو عبد اللّه القائم في شأن ولديه وأنهما يملكان المغرب. وفي معنى ذلك أيضاً ما يحكى شائعاً أن ولدي أبي عبد اللّه المذكور، وهما أبو العباس الأعرج وأبو عبد اللّه الشيخ كانا يقرآن في مكتب، وهما صبيان، فدخل ديك فوثب على رأس كل منهما وصرخ، فأول ذلك مؤدبهما بأنهما سيكون لهما شأن. فمن أجل هذا ونحوه كان والدهما يعلن بأن أمر المغرب صائر إليهما، فلما قضى الله ببيعته واجتماع الناس عليه واطمأنت به في البلاد السوسية الدار، وطاب له بها المقام والقرار، ندب الناس إلى بيعة أكبر ولديه وهو الأمير أبو العباس أحمد المعروف بالأعرج فبايعوه، وكان ذلك مبدأ ظهور أمره على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

انتقال الأمير أبي عبد اللّه القائم إلى أفغال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله

ثم إن أبا عبد اللّه القائم وفد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكوا إليه أمر البرتغال ببلادهم وشدة شوكته واستطالته عليهم، وطلبوا منه أن ينتقل إليهم هو وولده ولي العهد المذكور، فأجابهم إلى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس إلى الموضع المعروف بآفغال من بلاد حاحة، وترك ولده الأصغر أبا عبد اللّه الشيخ بالسوس يرتب

الأمور ويمهد المملكة، ويباكر العدو بالقتال ويراوحه واستمر الأمير أبو عبد اللّه القائم بمكانه من آفغال مسموع الكلمة متبوع العقب إلى أن توفي به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، ودفن هنالك بإزاء ضريح الشيخ أبي عبد اللّه محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه إلى أن نقل إلى مراكش بنقل الشيخ المذكور على ما يأتي إن شاء الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد الأعرج ابن الأمير أبي عبد اللّه القائم رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبي العباس الأعرج فيما حققه ابن القاضي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وبويع بولاية العهد من أبيه سنة ثمان عشرة وتسعمائة كما مر. ولما توفي أبوه في التاريخ المتقدم اجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق وآتوه طاعتهم عن رضا منهم وإصفاق، فاستقام أمره وصرف عزمه إلى تمهيد البلاد واقتناء الأجناد، وتعبية الجيوش إلى الثغور، وشن الغارات على العدو في الآصال والبكور، في أحواز تيلمست وآسفي وغيرهما. وكان النصارى قد خيموا بشاطئ البحر وعاثوا في تلك السواحل، فأجلاهم عنها وطهر تلك البقاع من رجسهم، وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم وفي ذلك يقول البقاع مخلوف بن[1] صالح يمدحه:

فلله هذا الهاشمي وفضله فلولاه صال الكفر أعظم صولة

---

(1) ابن علي بن صالح كما في «نيل الابتهاج» انظر ترجمته فيه وفي «الجذوة».

دخول السلطان أبي العباس الأعرج مراكش واستيلاؤه عليها

لما كان من إيقاع السلطان أبي العباس بنصارى السوس وانتصاره عليهم ما ذكرناه، بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره، وأهرع الناس إليه من كل جانب ودخلت في طاعته سائر البلاد السوسية، فعند ذلك كاتبه أمراء هنتاتة ملوك مراكش يخطبون أمره ويرومون الدخول في طاعته، فأجاب داعيهم وانتقل إلى مراكش، فدخلها في حدود الثلاثين وتسعمائة واستولى عليها وكان من أمره ما نذكره.

نقل الشيخ الجزولي رضي الله عنه من مدفنه بآفغال إلى مراكش والسبب في ذلك

قد تقدم لنا في أخبار عمرو السياف أنه كان في ابتداء أمره من أصحاب الشيخ الجزولي هذا وأنه لما توفي الشيخ المذكور جعل جثته في تابوت وصار يستنصر به في حروبه مدة من عشرين سنة أو نحوها، ثم دفن بعد ذلك بآفغال وتقدم لنا أن الأمير أبا عبد اللّه القائم لما توفي دفنه ابنه أبو العباس بإزاء هذا الشيخ. ثم لما ملك أبو العباس المذكور مراكش نقل الشيخ الجزولي إليها، ونقل أباه معه فدفنه بقربه أيضاً.

واختلف في سبب ذلك فقيل: إن السلطان المذكور خاف أن يثور عليه أحد بتلك البلاد فيستخرج الشيخ من ملحده وينتصر عليه به فنقله إلى مراكش ليأمن من ذلك، وقيل: إن الحامل له على نقله، أنه ذكر له أن تحته كنز فتعلل للنبش عنه بأنه قصد نقله إلى الحضرة تبركاً به والله أعلم، وكان ذلك كله في حدود الثلاثين وتسعمائة.

مجيء السلطان أبي عبد اللّه الوطاسي[1] إلى مراكش وحصاره للسلطان الأعرج بها ثم إقلاعه عنها

لما استولى السلطان أبو العباس الأعرج على مراكش وصفا له أمرها اتصل خبره بصاحب فاس أبي عبد اللّه الوطاسي، المعروف بالبرتغالي، فأقبل في جموع عديدة مع وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر، ويقال مع أخيه الناصر فلما رأى السلطان أبو العباس ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة والمقاتلة، وزحف الوطاسي إلى الحضرة فنصب الأنفاض عليها ووالى الرمي عليها أياماً، واشتد الأمر على الناس فكان من ذهابهم إلى الشيخ الغزواني وخروجه إلى باب الخميس وقوله عند إصابة الرصاصة له أنها خاتمة حربهم ما قدمناه في أخبار الوطاسيين مستوفى. ثم كان اللقاء بعد ذلك بين الفريقين إنما يكون في تادلا وأعمالها على ما مر. والله أعلم.

خبر آسفي والثغور

رأيت في تواريخ الفرنج أن البرتغال خرجوا من آسفي سنة ألف[2] وخمسمائة وثلاثين مسيحية، وهذا التاريخ يوافقه من سني الهجرة سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وهي وسط دولة السلطان أبي العباس. وزعم هذا المؤرخ

---

(1) الذي حاصر مراكش هو أبو العباس الوطاسي لأن أباه أبا عبد اللّه مات قبل هذا التاريخ على ما عند المؤرخ كمور في تأليفه المعنون: «بتاريخ استيلاء الشرفاء على المغرب».

(2) قرر البرتغال إخلاء آسفي في السنة التي ذكر المؤلف ووقع خلاف بينهم في ذلك وبقي الأمر موقوفاً إلى سنة 1541 ميلادية الموافقة لعام 948 هـ فتم إخلاؤها حينئذ نهائياً لما افتتح المسلمون حصن فونتي عنوة ولما أخليت أمر السلطان أبو العباس الأعرج بحراستها وتحصينها راجع صفحة 279 وصفحة 281 من كتاب تاريخ المغرب تأليف. . . كواساك دوشافربيير HISTOIRE DU MAROC PAR COISSAC DE CHAVREBIERE

أنهم خرجوا منها من قبل أنفسهم، ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة وأثاث إلى الجديدة بعدما خربوها وأفسدوها وأوقدوا فيها النار، قال: وبقيت اثنتي عشرة سنة وهي مخربة إلى أن أصلحها السلطان محمد الشيخ يعني السعدي الآتي ذكره.

وفي «النزهة»: ما يقرب من هذا فإنه قال بعد ذكر إيقاع السلطان أبي العباس بنصارى السواحل ما نصه: «ويقال إن النصارى لما رأوا ما فعل بمن كان منهم بالسوس من القتل والسبي أخلوا ثغر آزمور ورباط آسفي وآصيلا من غير قتال». ثم نقل هذا الخبر في محل آخر عن ابن القاضي منسوباً إلى أبي عبد اللّه الشيخ وسيأتي ذكره في محله. وأظن أن الإخلاء كان متكرراً والله أعلم. وعلى كل حال، فذكر آصيلا هنا غير مناسب إذ هي يومئذ في جهة الوطاسيين وتخومهم فما بال نصاراها يخرجون فراراً منها خوفاً من السعديين وليسوا مجاورين لهم ولا متوقعين هجومهم عليهم؟ ثم كان بعد هذا بين أبي العباس السعدي، وأبي العباس الوطاسي من الحرب والسلم ما تقدم بيانه، كوقعة آنماي ووقعة أبي عقبة وغيرهما مما لا فائدة في إعادته.

حدوث النفرة بين الأخوين السلطان أبي العباس الأعرج ووزيره أبي عبد اللّه الشيخ وما نشأ عن ذلك

كان السلطان أبو العباس رحمه الله من الشهامة والصرامة واستفحال الأمر بالمحل الذي وصفناه قبل، وكان أخوه أبو عبد اللّه الشيخ أصغر سناً منه وكان تحت طاعته واقفاً عند إشارته، وكان السلطان أبو العباس يستشيره في أموره، ويفاوضه في مهماته، ويستعين بنجدته في الزحوف والمعارك، ويستضيء برأيه في الحوادث الحوالك، وكان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة مصيب الرأي حازماً شهماً، فكانت كلمتهما واحدة، وأمرهما

جميعاً، إلى أن دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهما وأفضى الحال إلى المصافة والمقاتلة، وانقسم الجند حزبين، وانصرفت كل طائفة إلى متبوعها وصاحب أمرها، وتقاتلا مدة، وكانت جل القبائل السوسية صاغية إلى الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسبروه من نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله إلى آفغال حسبما مر، فاستفحل أمره وغلب على أخيه أبي العباس فقبض عليه واستولى على ما بيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه، ثم أودع أخاه وأولاده السجن ووسع عليهم في الجرايات والنفقات، وأصبح ملكاً مستقلاً بعد أن كان وزيراً، وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة.

وفي «نشر المثاني»: أن قبض الشيخ على أخيه أبي العباس الأعرج كان سنة إحدى وخمسين وتسعمائة والأول أصح. ولم يزل السلطان أبو العباس وأولاده في حكم الثقاف إلى أن قتل[1] يوم مقتل أخيه الشيخ بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها حسبما يأتي إن شاء الله. وكانت دولته من يوم بويع إلى أن قبض عليه أخوه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان من حجابه: محمد بن علي الأنكراطي اليملالي، ومحمد بن أبي زيد المنزاري، ومن كتابه: سعيد بن علي الحامدي رحمهم الله.

أمر زيدان ابن السلطان أبي العباس وما كان منه

قال صاحب «درة الحجال»: اختلف الناس هل بويع لزيدان بن الأعرج بعد وفاة أبيه أم لا وقال شارح «زهرة الشماريخ»: كان زيدان بن أبي العباس بسجلماسة وبويع له بها فلم يتم أمره ونفي إلى أن توفي سنة ستين وتسعمائة.

(1) بل بعد قتل أخيه بثلاثة أيام لما وصل الخبر بذلك لمراكش.

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد اللّه محمد المهدي المعروف بالشيخ ابن الأمير أبي عبد اللّه القائم بأمر الله

كانت ولادة السلطان أبي عبد اللّه محمد الشيخ سنة ست وتسعين وثمانمائة، ويلقب بالشيخ وبآمغار، وهو الشيخ بالبربرية، ويلقب من الألقاب السلطانية: بالمهدي. لقبه به غير واحد من أئمة عصره، ونشأ في عفاف وصيانة، وعني بالعلم في صغره، وتعلق بأهدابه، فأخذ عن جماعة من الشيوخ، وبلغ فيه إلى درجة الرسوخ.

فتح حصن فونتي وآسفي وآزمور وما قيل في ذلك

لما استقل السلطان أبو عبد اللّه الشيخ بأمر السوس واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه إلى جهاد العدو الذي بثغوره وحصونه، وأرهف حده لتطهيرها من بقايا شغبه وزبونه، فانتصر عليهم واستأصل شأفتهم وقطع من تلك النواحي دابرهم وحسم آفتهم.

قال ابن القاضي: «كان الشيخ رحمه الله ماضي العزيمة قوي الشكيمة عظيم الهيبة، كثير الغزوات ذا همة عالية وشهامة عالية، فعد قواعد الملك وأسس مبانيه، وأحيى مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة، وكان له سعد وبخت عظيم في الجهاد ويد بيضاء في الإسلام، فتح حصن النصارى بالسوس يعني: حصن فونتي، بعد أن أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة، وكان منصوراً بالرعب حتى تركوا له آسفي وآزمور وآصيلا من غير قتال ولا إيجاف عليهم» اهـ. ونحوه في تاريخ البرتغاليين، زاد مؤرخهم أن ذلك كان بإذن طاغيتهم صاحب أشبونة وقد تقدم نحو هذا في أخبار الأعرج والجواب عنه، وكان فتح فونتي سنة سبع وأربعين وتسعمائة كما في النزهة، وفتح آسفي سنة

ثمان وأربعين بعدها كما في المرآة، وعند البرتغاليين أن ذلك كان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وأربعين مسيحية وهو موافق لهذا التاريخ الهجري.

وفي «الدوحة»[1]: «لما أخلى النصارى آزمور تسارع إليها جماعة من الفقراء منهم الشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من فاس، والشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي دفين تانسيفت قرب مراكش، فقعدوا بها يحرسونها حتى يأتي مدد المسلمين ومن يعمرها منهم مخافة أن يرجع إليها العدو فإذا به قد رجع واقتحمها عليهم وأسرهم إلى أن افتكهم المسلمون».

قال منويل: «كان فداؤهما بألفي ريال ومائتي ريال بالتثنية فيهما»، ولما افتدى الشيخ الكوش وعزم على الخروج، وكان أسيراً عند امرأة نصرانية، ناولته كتباً للمسلمين وقالت له: «هذه كتب كانت عندي ولا حاجة لي بها فخذها إليك»، فأخذها وخرج بها في قفة على رأسه فكان من جملتها: كتاب «تنبيه الأنام» الموضوع في الصلاة على النبي ﷺ فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يد الشيخ المذكور» اهـ.

بناء حصن آكادير

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي «في كتابه: «المنتقى المقصور»: كانت للأمير السلطان أبي عبد الله الشيخ مآثر حسنة منها: أنه أول من اختط مرسى آكادير بالسوس الأقصى سنة سبع وأربعين وتسعمائة لما أجلى النصارى من الموضع المعروف بفونتي على مقربة من آكادير المذكور وكان له في اختطاطه رأي مصيب وفراسة تامة» اهـ.

(1) صوابه: النزهة.

استيلاء السلطان أبي عبد اللّه محمد الشيخ على مراكش وتجديد البيعة له بها

كان السلطان أبو عبد اللّه الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالأمر قد أقام بالبلاد السوسية مثابراً على جهاد العدو إلى أن قلع عروق مفسدته منها، وكانت مراكش في هذه المدة قد توقفت عن بيعته وتربصت عن الدخول في دعوته، اتقاء للوطاسيين وارتياء في أمره إلى ماذا يؤول، واستمر الحال إلى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها فقدمها واستولى عليها وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا إلى وادي نول. والله غالب على أمره.

نهوض السلطان أبي عبد اللّه محمد الشيخ لحرب بني وطاس واستيلاؤه على مكناسة وما اتفق له في ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد اللّه محمد الشيخ على مراكش وصفت له أعمالها طمحت نفسه للاستيلاء على بقية بلاد المغرب وأمصاره. وقطع جرثومة الوطاسيين من سائر أقطاره. فجمع الجموع وتقدم بها إلى أعمال فاس فلم يزل يستفتحها بلداً بلداً ومصراً مصراً إلى أن أتى عليها أجمع وكان أول ما ملك منها مكناسة الزيتون فإنه افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار وقتال كبير.

حصار السلطان أبي عبد اللّه الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبد الواحد الونشريسي رحمه الله

كان السلطان أبو عبد اللّه الشيخ قد ألح على فاس بالقتال وحاصرها حصاراً طويلاً، ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له: لا سبيل لك إليها ولا يبايعك أهلها إلا إذا بايعك ابن الونشريسي يعنون: الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد بن أحمد الونشريسي رحمه الله، فبعث إليه السلطان المذكور سرّاً ووعده ومنّاه، فقال له الشيخ عبد الواحد: «بيعة هذا السلطان، يعني أبا العباس الوطاسي، في رقبتي ولا يحل لي خلعها إلا لموجب شرعي، وهو غير موجود، وزعم بعضهم أن السلطان المذكور كتب إلى أهل فاس يقول لهم: «إني إن دخلت فاساً صلحاً ملأتها عدلاً وإن دخلتها عنوة ملأتها قتلاً» فأجابه ابن الونشريسي بأبيات أغلظ له فيها منها قوله:

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا خصك المولى بفضل ولا أولى

كذا في «النزهة». قلت: وهذا البيت من أبيات قديمة والونشريسي إنما تمثل به لا غير. فقد ذكر العلامة[1] ابن خلدون في أخبار بني صالح بن منصور الحميري أصحاب قلعة نكور لأول الفتح أن عبيد اللّه المهدي العبيدي صاحب إفريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعيد بن صالح منهم يدعوه إلى أمره وكتب له في أسفل كتابه:

فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
وأعلوا بسيفي قاهراً لسيوفكم وأدخلها عنواً وأملأها قتلا

فأجابه سعيد بن صالح بأبيات من نظم شاعره الطليطلي نصها:

---

(1) أصل ما ذكره ابن خلدون في «مسالك البكري» فقد ذكر القصة والشعر عند كلامه على قلعة نكور.

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا علم الرحمٰن من قولك الفصلا
وما أنت إلا جاهل ومنافق تمثل للجهال في السنة المثلى
وهمتنا العليا بدين محمد وقد جعل الرحمٰن همتك السفلى

فلعل الشيخ كتب لأهل فاس بالبيتين الأولين والوانشريسي كان مطلعاً على القضية فأجابه بجوابهما.

ولما بلغ ذلك السلطان الشيخ حقد على الوانشريسي ودس إلى جماعة من المتلصصة بأن يأخذوه ويأتوا به إلى محلته محبوساً من غير قتل، وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخاري بجامع القرويين بين العشاءين وينقل عليه كلام ابن حجر في «فتح الباري» ويستوفيه لأنه شرط المحبس، فقال له ابنه: «يا أبت إني قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتك بك في هذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة». فقال له الشيخ: «أين وقفنا البارحة؟» قال: «على كتاب القدر!» قال: «فكيف نفر من القدر؟ إذاً اذهب بنا إلى المجلس» فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين، أحد أبواب المسجد المذكور، فثار به اللصوص وأرادوا حمله فأخذ بإحدى عضادتي الباب فضرب أحدهم يده فقطعها، وأجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة.

قال الشيخ المنجور في فهرسته: واشتهر عن الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المدعو بأبي شامة أنه رأى الشيخ عبد الواحد في المنام بعد مقتله فسأله عن حاله فأنشأ يقول:

لقد عمني رضوان ربي وفضله ولم أر إلا الخير في وحشة القبر
وإني أسأل الإلٰه بفضله ليحفظني يوم الخروج إلى الحشر
وما بعد ذاك من أمور عسيرة كنشر الكتاب والمرور على الجسر

استيلاء السلطان أبي عبد اللّه الشيخ على فاس وقبضه على الوطاسيين وتغريبهم إلى مراكش

ثم إن السلطان أبا عبد اللّه الشيخ جد في حصار فاس وألح عليها بالقتال إلى أن ملكها واحتوى عليها.

قال في «الدوحة»: لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الرواين المحجوب وقال له: «اشتر مني فاساً بخمسمائة دينار» فقال له السلطان: «ما أنزل الله بهذا من سلطان هذا شيء لم تأت به الشريعة» فقال: «والله لا دخلتها هذه السنة» فبقي أشهراً والأمر لا يزداد إلا شدة، فقال ابن السلطان، وهو الأمير أبو محمد عبد القادر ابن الشيخ لأبيه: «يا أبت افعل ما قال لك الشيخ أبو الرواين، فإنه رجل مبارك من أولياء الله تعالى». ولم يزل به حتى أذن له في الكلام معه، فكلمة الأمير عبد القادر، فقال له: «ادفع المال» فدفعه إليه، فقال له: «عند تمام السنة يقضي الله الحاجة وأمري بأمره سبحانه». ثم إن الشيخ أبا الرواين فرق المال من يومه ولم يمسك منه لنفسه حبة، ومن ذلك اليوم والسلطان المذكور في الظهور إلى أن انقضت السنة فدخل فاساً كما قال» اهـ.

وقال صاحب «الممتع»: والشيخ أبو الرواين هو كان أحد الأسباب في تمكن السلطان المذكور من الملك وإخراج بني وطاس عنه، فإنه لما رأى اضطراب أمر الناس وهيجان النصارى على المسلمين جعل ينادي: «يا حران جئ. فإني قد أعطيتك الغرب!» وذلك قبل ظهور السعديين، ولم يكن الناس يدرون ما يقول حتى ظهر الحران. وهو: أحد أولاد السلطان أبي عبد اللّه الشيخ، وهو الذي كان يتقدم للحرب ولم يفتح والده من البلاد إلا ما فتح له على يده.

وكان دخول السلطان الشيخ إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين إلى مراكش عدا

أبا حسون منهم فإنه فر إلى الجزائر مستجيراً بتركها حسبما مر.

وقال اليفرني: «لما دخل الشيخ حضرة فاس دخلها وعليه وعلى أصحابه الدراعات الصفر وسمة البداوة لائحة عليهم، فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب الحاضرة والتخلق بأخلاقهم يعني حتى رسخ فيهم ذلك» والله أعلم.

نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ إلى تلمسان واستيلاؤه عليها

قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركي على تلمسان، وانقراض دولة بني زيان منها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة، فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس في التاريخ المتقدم تاقت نفسه إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع أنهم أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم، لا سيما وقد فر إليهم عدو من أعدائه وعيص من أعياص أقتاله، وهو أبو حسون الوطاسي، فرأى الشيخ من الرأي وإظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤوه فنهض من فاس قاصداً تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر، وقتل في محاصرتها ولده الحران، وكان ناباً من أنيابه وسيفاً من سيوفه، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وتسعمائة، ونفى الترك عنها، وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي شلف، واتسعت خطة مملكته بالمغرب، ودانت له البلاد، ثم كرت عليه الأتراك وأخرجوه من تلمسان، فعاد إلى مقره من فاس، ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها على الترك وانحصار الترك بقصبتها، فأقام مرابطاً عليها أياماً فامتنعت عليه، وأقلع عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك وخلص أمرها إلى الترك على ما نذكره.

امتحان السلطان أبي عبد اللّه الشيخ
أرباب الزوايا والمنتسبين والسبب في ذلك

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد اللّه الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفاً على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشاراتهم، والتعبد بما يتأولونه من عباراتهم، ألا ترى أن بيعة والده أبي عبد اللّه القائم لم تنعقد إلا بهم، ولا ولج بيت الملك إلا من بابهم، فامتحن جماعة منهم كالشيخ أبي محمد الكوش، فأخلى زاويته بمراكش وأمر برحيله إلى فاس.

وفي «الدوحة»: «لما امتحن السلطان أبو عبد اللّه الشيخ زوايا المغرب قيل لأبي علي الحسن بن عيسى المصباحي دفين الدعادع التي على وادي مضي من عمل القصر: «ألا تخشى من هذا السلطان؟»، فقال: «إنما الخشية من الله ومع هذا فالماء والقبلة لا يقدر أحد على نزعهما، والباقي متروك لمن طلبه».

وكان السلطان المذكور يطالب أرباب الزوايا بودائع أمراء بني مرين ويتهمهم بها. وبعث خديمه يوماً إلى الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشترائي دفين مكناسة يطالبه بشيء من ذلك فوجده جالساً بناحية زاويته يضفر الدوم وإذا بطائر، لعله اللقلاق سلح أمامه فما رفع أبو عثمان بصره حتى سقط الطائر ميتاً متطاير الريش، فلما رأى الخديم ذلك فزع وولى هارباً. قاله في «الممتع» والله تعالى أعلم.

وفادة الإمام أبي عبد الله الخروبي من جانب دولة الترك في شأن قسم البلاد وتحديدها

لما كان من السلطان أبي عبد الله الشيخ ما كان من غزوه تلمسان مرتين وكان يحدث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد عينت دولة الترك من جانبها الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها للوفادة على السلطان المذكور في شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد، فقدم عليه الفقيه المذكور وهو بمراكش سنة إحدى[1] وستين وتسعمائة في هذا الغرض، فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته، إلا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه.

وفي «المرآة»: «أن أبا عبد الله الخروبي قدم المغرب الأقصى مرتين في سبيل السفارة بين ملوك المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، فأخذ عنه كثير من أهل المغرب الأقصى، وأخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله» وفي قدمة الخروبي هذه إلى مراكش أنكر على الشيخ أبي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم، وقال: «إنه بدعة»[2] فقالوا له: «إن الشيخ الجزولي كان يفعله» فقال لهم: «لعله بإذن، والإذن له لا يعمكم، فإن الإذن للنبي يعم أتباعه، والإذن للولي لا يعم أتباعه» وأنكر عليه مسائل كثيرة، وبعث إليه رسالة أقذع له فيها وقد وقفت عليها[3] رحم الله الجميع بمنه. وتوفي الخروبي هذا سنة ثلاث وستين وتسعمائة ودفن خارج الجزائر والله أعلم.

---

(1) الذي في «النزهة» سنة تسع وخمسين وهو الصواب.

(2) انظر «ممتع الأسماع» فقد أشبع القول في مسألة حلق شعر التائب.

(3) راجع فهرسة المرغيثي تجدها هناك. قال في «الممتع» وقد أجاب أبو محلي الثائر الشهير الخروبي عن رسالته منتصراً لشيخه القسطلي اهـ.

قدوم أبي حسون الوطاسي بجيش الترك واستيلاؤه على فاس ونفيه الشيخ عنها

قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبي عبد اللّه الشيخ على فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبضه على بني وطاس وفرار أبي حسون إلى الجزائر فلم يزل أبو حسون عند تركها إلى أن قدم بهم مع باشاهم صالح التركماني، فاستولى على فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة، ونفى أبا عبد اللّه الشيخ عنها حسبما مر الخبر عنه مستوفى.

عود السلطان أبي عبد اللّه الشيخ إلى فاس واستيلاؤه عليها

لما فر السلطان أبو عبد اللّه الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل إلى مراكش صرف عزمه لقتال أبي حسون، فاستنفر قبائل السوس، وجمع الجموع، وزحف إلى فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر للشيخ، فقتل أبا حسون واستولى على فاس، وصفا له أمر المغرب، وقد تقدمت هذه الأخبار مستوفاة في محلها، وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة.

وفي «الدوحة»: أن دخول أبي حسون لفاس كان سنة ستين وتسعمائة، وعود السلطان الشيخ إليها واستيلاؤه عليها كان في ذي القعدة سنة ستين أيضاً، والله تعالى أعلم.

مقتل الفقيهين أبي محمد الزقاق وأبي علي حرزوز والسبب في ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد اللّه الشيخ على فاس في هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضي الجماعة بفاس أبي محمد عبد الوهاب بن محمد ابن علي الزقاق لأنه اتهمه بالميل إلى أبي حسون.

ويحكى أنه لما مثل بين يديه قال له: «اختر بأي شيء تموت» فقال له الفقيه: «اختر أنت لنفسك، فإن المرء مقتول بما قتل به» فقال لهم السلطان: «اقطعوا رأسه بشاقور» فكان من حكمة الله وعدله في خلقه أن السلطان المذكور قتل به أيضاً كما سيأتي.

وفي كتاب «خلاصة الأثر»: أن الشيخ الزقاق كان يقول: «من قتل سوسياً كان كمن قتل مجوسياً» فلما قبض عليه الشيخ قال له: «أنت زق الضلال» فقال له: «لا والله، بل أنا زق العلم والهداية» ثم قتله.

وأمر أيضاً بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبي على حرزور المكناسي لكلام بلغه عنه، وأنه كان يذكره في خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد إليه، ويقول في خطبته: «جاءكم أهل السوس الأقصى البعاد» ثم يذكر الشيخ ويقول: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: 205، 206] في كلام غير هذا. وكان مقتل الفقيهين المذكورين في ذي القعدة سنة إحدى وستين وتسعمائة.

ترتيب السلطان أبي عبد اللّه الشيخ أمر دولته وما قيل في ذلك

قال اليفرني: «كان السلطان أبو عبد اللّه الشيخ مولعاً بتدبير أمر الرعية مستيقظاً في أموره حازماً غير متوقف في سفك الدماء» قال: «ويحكى أنه لما دخل فاساً دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداوة فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب أهل الحاضرة والتخلق بأخلاقهم». وذكر أن ملك السعديين إنما تأنق على يد رجل وامرأة، فأما الرجل: فقاسم الزرهوني، فإنه رتب للسلطان أبي عبد اللّه الشيخ هيئة السلاطين في ملابسهم ودخولهم وخروجهم وآداب أصحابهم، وكيفية مثولهم بين أيديهم وأما المرأة: فالعريفة بنت خجو فإنها علمته سيرة الملوك في منازلهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك، فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة، وازداد في عيون العامة رونقاً وحلاوة بسبب جريانه على العوائد الحضرية، لأن أهل البادية مسترذلون في عيون أهل الحاضرة، قالوا: ولم يزل السلطان أبو عبد اللّه الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الإقامة بفاس.

قال في «المنتقى»: ومن مآثره: أنه بنى جسر وادي سبو، وجسر وادي أم الربيع. وتقدم بناؤه حصن آكادير. والله تعالى أعلم.

وضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة

قد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحاً أو غير ذلك، وعلى القول بأنها فتحت عنوة فهي خراجية كما هو مقرر في كتب الفقه، وتقدم لنا أيضاً أن أول من وظف الخراج على أرض المغرب عبد المؤمن بن علي، وتبعه بنوه على ذلك. وقفا نهجهم بنو مرين وفي الظهير الذي كتبه السلطان أبو زيان المريني لابن الخطيب أيام مقامه بسلا شاهد بذلك. ولما جاء السعديون من بعدهم سلكوا هذا السبيل أيضاً. وقول اليفرني: إن أبا عبد اللّه الشيخ أول من أحدث النائبة

بالمغرب يحمل على أنه أول من أحدثها على الوجه الآتي بيانه، وذلك أنه لما صفا للسلطان أبي عبد الله الشيخ أمر المغرب واستأصل جرثومة بني وطاس منه التفت إلى ترتيب ملكه وتهذيب أعطافه وتأسيس أمور دولته كما قلنا، فمن ذلك: أنه فرض على قبائل المغرب الضريبة المسماة في لسان العامة بالنائبة، ولم ينزه عنها شريفاً ولا مشروفاً، حتى أرباب الزوايا والمنتسبين، ومنهم أولاد الشيخ أبي البقاء خالد المصمودي، مع ما كان لأبيهم من الشهرة بالولاية والصيت في بلاده. وكان قدر هذه النائبة صحفة من الشعير وعشرين مدّاً من القمح لكل نائبة. وصاعاً من السمن وكبشاً لكل أربع نوائب، وكانت تفرض في زمان الشيخ على الكوانين، وتوظف على حسب السكان، وتدفع بأعيانها، وجرى على ذلك ولده الغالب بالله وأخوه المعتصم، ولما جاء المنصور من بعدهم قوم تلك الأعيان بسعر الوقت وصارت تدفع دراهم، ثم ازداد ذلك إلى أن خرج الأمر عن القياس واتسع الخرق على الراقع، والله لا يظلم مثقال ذرة.

مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك

قد قدمنا ما كان من غص السلطان أبي عبد الله الشيخ بمكان الترك من تلمسان والمغرب الأوسط، وأنه غزاهم مرتين، وقدم الإمام أبو عبد الله الخروبي ساعياً في الهدنة فلم يرجع بطائل. وكان السلطان الشيخ يقول فيما زعموا: «لا بد لي أن أغزو مصر وأخرج الترك من أحجارها» وكان يطلق لسانه في السلطان سليمان العثماني ويسميه بسلطان الحواتة. يعني لأن الترك كانوا أصحاب أساطيل وسفر في البحر، فأنهى ذلك إلى السلطان سليمان فبعث إليه رسله فهذا سبب المراسلة على ما في «النزهة».

وأشبه منه بالصواب ما حكاه بعضهم قال: لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية إلى السلطان سليمان العثماني واستيلاء السعديين على ملك المغرب الأقصى كتب إلى الشيخ يهنئه بالملك، ويلتمس منه الدعاء له على منابر

المغرب، وبعث إليه بذلك رسولاً في البحر، فانتهى إلى الجزائر ومنها قدم إلى مراكش في البر. ولما وصل إلى السلطان أبي عبد اللّه الشيخ أنزله على كبير الأتراك في محلته صالح باي المعروف بالكاهية، وكان هؤلاء الأتراك قد انحاشوا إلى الشيخ من بقايا القادمين مع أبي حسون، فضمهم إليه وجعلهم جنداً على حدة، وسماهم اليكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين، وهو لفظ تركي معناه العسكر الجديد. ولما قرأ السلطان أبو عبد اللّه الشيخ كتاب السلطان سليمان ووجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حمى أنفه وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه، فطلب منه الجواب، فقال: «لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر إن شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب» فخرج الرسول من عنده مذعوراً يلتفت وراءه إلى أن وصل إلى سلطانه وكان من أمره ما نذكره.

قدوم طائفة الترك من عند السلطان سليمان العثماني واغتيالهم للسلطان أبي عبد اللّه الشيخ رحمه الله

لما خرج رسول السلطان سليمان العثماني من عند السلطان أبي عبد اللّه الشيخ ووصل إلى الجزائر ركب البحر إلى القسطنطينية فانتهى إليها، واجتمع بالوزير المعروف عندهم بالصدر الأعظم، وأخبره بما لقي من سلطان المغرب، فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان سليمان فأمره أن يهيئ العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها، واتفق رأيهم على أن عينوا اثني عشر رجلاً من فتاك الترك وبذلوا لهم اثني عشر ألف دينار، وكتبوا لهم كتاباً إلى صالح الكاهية كبير عسكر الشيخ، ووعدوه بالمال والمنصب إن هو نصح في اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه.

وفي «النزهة»: «أن صالحاً هذا كان من ترك الجزائر جاء في جملة

الطائفة الموجهين لاغتيال الشيخ» والله أعلم. ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر إليه عن توجيه العمارة، وقال: «هذا أمر سهل لا يحتاج فيه إلى تقويم عمارة، وهذا المغربي الذي أساء الأدب على السلطان يأتي رأسه إلى بين يديك» فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة في البحر إلى الجزائر، ومنها يتوجهون إلى مراكش في البر؛ ففعلوا، ولما وصلوا إلى الجزائر هيؤوا أسباباً واشتروا بغالاً وساروا إلى فاس في هيئة التجار، فباعوا بها أسبابهم، وتوجهوا إلى مراكش، ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أنزلهم عنده ودبر الحيلة في أمرهم إلى أن توجهت له.

وفي «النزهة»: أن هؤلاء الأتراك خرجوا من الجزائر إلى مراكش مظهرين أنهم فروا من سلطانهم، ورغبوا في خدمة الشيخ والاستيجار به. ثم إن صالحاً الكاهية دخل على السلطان أبي عبد الله الشيخ وقال: «يا مولاي إن جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد وهم إن شاء الله السبب في تملكها» فأمره بإدخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوهاً حساناً وأجساماً عظاماً فأكبرهم، ثم ترجع له صالح كلامهم، فأفرغه في قالب المحبة والنصح والاجتهاد في الطاعة والخدمة، حتى خيل إلى الشيخ أنه قد حصل على ملك الجزائر، فأمره بإكرامهم وأن يعطيهم الخيل والسلاح، ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل، فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك في ذلك.

وصار الشيخ يبعث بهم إلى أشياخ السوس مناوبة في الأمور المهمة ليتبصروا في البلاد ويعرفوا الناس. وكان يوصي الأشياخ بإكرام من قدم عليهم منهم، واستمر الحال إلى أن أمكنتهم فيه الفرصة، وهو في بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له: آكلكال بظاهر تارودانت، فولجوا عليه خباءه ليلاً على حين غفلة من العسس، فضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه، واحتملوه في مخلاة ملؤوها نخالة وملحاً وخاضوا به أحشاء الظلماء وسلكوا طريق درعة وسجلماسة كأنهم أرسال تلمسان لئلا يفطن بهم أحد من

أهل تلك البلاد، ثم أدركوا ببعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قتلوا ونجا الباقون بالرأس، وقتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتي مراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني. والكاتب أبو عمران الوجاني.

ولما شاع الخبر بأن الترك قتلوا السلطان واستراب الناس بجميع من بقي منهم بالمغرب أغلق إخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها واقتسموا الأموال واستعدوا للحصار، ولما بويع ابنه الغالب بالله وقدم من فاس نهض في العساكر إلى تارودانت للأخذ بثأر أبيه من الترك الذين بها فحاصرهم مدة، ولما لم يقدر منهم على شيء أعمل الحيلة بأن أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع إلى فاس لثائر قام بها. ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا في اتباعه ليلاً والعيون موضوعة عليهم بكل جهة إلى أن شارفوا محلة السلطان الغالب بالله فعطف عليهم، ولما لم يمكنهم الرجوع إلى تارودانت تحيزوا إلى الجبل وبنوا به قياطنهم، وجعلوا عليها المتارزات من الأحجار وتحصنوا بها وأحاطت بهم العساكر من كل جهة، فقاتلوا إلى أن فنوا عن آخرهم ولم يؤخذ منهم أسير، وقتلوا من محلة الغالب بالله ألفاً ومائتين. وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا إلى الجزائر وركبوا البحر منها إلى القسطنطينية، فأوصلوا الرأس إلى الصدر الأعظم، وأدخله على السلطان سليمان فأمر به أن يجعل في شبكة نحاس، ويعلق على باب القلعة فبقي هنالك إلى أن شفع في إنزاله ودفنه ابناه عبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور حين قدما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعديين له على ابن أخيهما المسلوخ كما يأتي. وكان مقتل الشيخ رحمه الله يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة. ولما بلغ خبر مقتله إلى خليفته بمراكش القائد أبي الحسن علي بن أبي بكر آزناك بادر بقتل أبي العباس الأعرج المخلوع وأولاده ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً خشية أن يخرجه أهل مراكش فيبايعوه. ولما قتلوا لم يتجرأ أحد على دفنهم فبقوا مصرعين حتى دفنهم الشيخ أبو عمرو القسطلي الولي الشهير بمقربة من ضريح الشيخ الجزولي وهي القبة التي قرب الضريح المذكور تسمى قبور الأشراف، وأما السلطان أبو عبد الله الشيخ

فإنهم حملوا جثته إلى مراكش فدفنت بها قبلي جامع المنصور بروضة السعديين وقبره شهير بها إلى الآن ومما نقش على رخامة قبره هذه الأبيات:

حي ضريحاً تغمدته رحمات ... وظلت لحده منها غمامات
واستنشقن نفحة التقديس منه فقد ... هبت من الخلد لي منها نسيمات
بحر به كورت شمس الهدى فكست ... من أجلها السبعة الأرضين ظلمات
يا مهجة غالها غول الردى قنصاً ... وأثبتت سهمها فيها المنيات
دكت لموتك أطواد العلا صعقاً ... وارتج من بعدك السبع السمٰوات
وشيعت نعشك المزجى إلى عدن ... من الملائك ألحان وأصوات
يا رحمة الله عاطيه سلاف رضا ... تدور منها عليه الدهر كاسات
قضى فوافق في التاريخ منه حلًى ... دار إمام الهدى المهدي جنات

بقية أخبار السلطان أبي عبد اللّه الشيخ وسيرته

كان السلطان أبو عبد اللّه محمد الشيخ يلقب من الألقاب السلطانية بالمهدي ونشأ في عفاف وصيانة وعني بالعلم في صغره وتعلق بأهدابه، فأخذ عن جماعة من الشيوخ، وبلغ فيه درجة الرسوخ، حتى كان يخالف القضاة في الأحكام، ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه، وقع ذلك منه مراراً، وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزارة علمه.

وقال في «المنتقى»: «كان السلطان أبو عبد اللّه الشيخ رحمه الله أديباً متفنناً حافظاً حدثني شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة نقي الشيبة عظيم الهيبة ما رأيت بعد شيخي أبي الحسن علي بن هارون أحفظ منه للمقطعات الشعرية وكثيراً ما ينشد:

الناس كالناس والأيام واحدة ... والدهر كالدهر والدنيا لمن غلب

وكان حافظاً للقرآن فهماً جداً، حافظ لصحيح البخاري، ويستحضر ما للناس عليه، ويقول في شرح ابن حجر: «ما صنف في الإسلام مثله» عارفاً بالتفسير وغيره، وكان يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب، وكان يحض على

المشاورة ويقول: «لا سيما في حق الملوك» وينشد قول المتنبي:

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وكان يقول: «ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل فإن طول الأمل وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح لأن الرعية تصلح بطول أمله»، وكان يقول: «من طول أمله أخذ تلمسان وسبتة وغيرهما» انتهى.

وقوله: إنه كان يحفظ ديوان المتنبي، سببه ما ذكره في الدوحة قال: أخبرني الوزير المعظم أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي محمد عبد القادر بن السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف قال: «لما غدرت قبيلة المنابهة بجد السلطان المذكور وأنجاه الله من غدرتهم عرف الشيخ أبا محمد عبد الله ابن عمر بذلك فكتب إليه يقول: «أين أنت من قول أبي الطيب المتنبي:

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الإخبار والقسم»

قال: «فعكف السلطان المذكور على ديوان المتنبي حتى حفظه كله ولم يعزب عنه بيت واحد» اهـ. وابن عمر المذكور هو أحد أشياخ السلطان المذكور وهو أبو محمد عبد الله بن عمر المضغري الفقيه الفرضي الحاسب، فقيه درعة وعالمها، وكان قد وفد على السلطان المذكور أيام كونه بالسوس، ولما عاد إلى درعة سأله فقهاؤنا كيف وجدت أهل السوس؟ فقال: «وجدت فقهاءهم على ضعيف الفتاوي، وفقراءهم على عظيم الدعاوي، وعامتهم على كثير المساوي».

ومن أشياخ السلطان المذكور: الإمام الشهير شيخ الجماعة بالصقع السوسي أبو الحسن[1] علي بن عثمان الشاملي ذكره في «المنتقى» وأثنى عليه، ومن أشياخه: علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد بن أحمد اليستني، أخذ عنه علوماً منها: «التفسير». قال المنجور: «وكنت أنا قارئه بين يدي أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له» قال: «ولما

(1) صوابه: أبو علي الحسن.

توفي الفقيه المذكور وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفي بها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده بحمام المريني، فخرج السلطان إلينا وهو يبكي بصوت عال يفزع من سمعه، حتى رأينا منه العجب وما سكت إلا بعد مدة، لما كان يعلم منه من صحة الدين والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم، وحضر جنازته»، وكانت وفاته رحمه الله سنة تسع وخمسين وتسعمائة، وللسلطان المذكور عدة أشياخ غير هؤلاء.

ومن وزرائه: الرئيس أبو الحسن علي بن أبي بكر آصناك الحاحي، وأبو عمران موسى بن أبي جمدي العمري وغيرهم.

ومن قضاته بفاس: أبو الحسن علي بن أحمد الخصاصي، وبمراكش: أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني رحم الله الجميع.

وكان للسلطان أبي عبد الله الشيخ عدة أولاد نجباء، ومن أنجبهم: أبو عبد الله محمد المعروف بالحران القتيل على تلمسان، ومنهم: أبو محمد عبد الله الغالب بالله، وأبو مروان عبد الملك الغازي، وأبو العباس أحمد المنصور وهؤلاء الثلاثة ولوا الأمر بعد أبيهم، ومنهم: الوزير أبو محمد عبد القادر وتوفي في حياة أبيه سنة تسع وخمسين وتسعمائة.

وفي «نشر المثاني»: أنه قتل مخنوقاً بأمر أخيه، عبد الله الغالب بالله سنة خمس وسبعين وتسعمائة فالله أعلم. ومنهم: عثمان وعبد المؤمن، وعمر وغيرهم.

قال المنجور في فهرسته: «حضرت يوماً مجلس أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ، وقد حضر عنده أولاده الصناديد الأمراء: المولى محمد الحران، والمولى عبد القادر، والمولى عبد الله، فدخل شيخنا الإمام أبو عبد الله اليستني فلما نظر إليهم حول أبيهم أنشد بيت تلخيص المفتاح:

فقلت عسى أن تبصريني كأنما ... بني حوالي الأسود الحوارد

فأعجب ذلك السلطان وأولاده رحمة الله عليهم».

الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب

بالله ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبي محمد عبد اللّه الغالب بالله كما رأيته مرقوماً على الرخامة التي على قبره في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وكان رحمه الله أدعج العينين، مستدير الوجه عريضه، أسيل الخدين، مشرف الوجنتين، ربعة للقصر، ونشأ في عفاف وصيانة، وحفظ القرآن، وأخذ بطرف صالح من العلم، وكان ولي عهد أبيه، وكان يلقب من الألقاب السلطانية: بالغالب بالله لقبه به غير واحد من الأئمة. ولما وافته الأنباء بمقتل أبيه وهو بفاس بايعه أهلها ولم يتخلف عن بيعته منهم أحد.

وذكر صاحب «زهرة الشماريخ»: أن الفقيه الميقاتي المعدل بمنار القرويين أبا عبد اللّه المزوار، وكان بصيراً بعلم الأحكام والحدثان، بينما هو ذات ليلة يرقب الطالع والغارب، وقد ابهار الليل واسود ديجوره، رأى طالع السلطان الشيخ قد سقط، وكانت بينه وبين ابنه أبي محمد عبد اللّه وصلة، فأسرع في الذهاب إليه ليخبره بما رأى فلما بلغ باب فاس الجديد وجده مغلقاً فاستأذن الموكلين به في فتحه فأبوا، فقال لهم: «إني جئت إلى الخليفة، يعني خليفة السلطان، في أمر مهم عنده، وإن لم تعلموه بمكاني الساعة لحقكم منه غداً ما تكرهون، فأنذروا الخليفة المذكور به فحمل إليه، وسأله عن قضيته، فأخبره بما رأى ونعى إليه أباه، فلم يكذب في ذلك وتهيأ واستعد، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى وافته الأنباء بمقتل أبيه في تلك الساعة التي قال له المعدل المذكور، فصادفه الحال على أهبة واستعداد ولما بلغ أهل مراكش مبايعة أهل فاس له وافقوا عليها، فاستوسق له الأمر وتمهد له ملك أبيه. وكان ذلك كله في المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة.

مجيء حسن بن خير الدين التركي

إلى فاس ورجوعه منهزماً عنها

قال ابن القاضي: لما ولي السلطان أبو محمد عبد اللّه الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه إلى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله.

وفي سنة خمس وستين وتسعمائة، في جمادى الأولى، منها، غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الأتراك، فخرج إليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بمقربة من وادي اللبن من عمالة فاس، فكانت الدبرة على حسن، فرجع منهزماً يطلب صياصي الجبال إلى أن بلغ إلى باديس، وكانت يومئذ للترك، ورجع الغالب بالله إلى فاس لكنه لم يدخلها لوباء كان بها يومئذ، ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لأمر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة. والله تعالى أعلم.

بناء جامع المواسين بحضرة مراكش والبركة المتصلة به والمارستان وغير ذلك

قال اليفرني: «وفي عشرة السبعين وتسعمائة أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الأشراف بحومة المواسين من مراكش، والسقاية المتصلة به التي عليها مدار المدينة المذكور، والمارستان الذي ظهر نفعه ووقف عليه أوقافاً عظيمة» قلت: وهذا المارستان هو الذي بحومة الطالعة قرب السجن، وقد اتخذ اليوم سجناً للنساء، قال: وهذا السلطان هو الذي جدد أيضاً بناء المدرسة التي بجوار جامع ابن يوسف اللمتوني، وليس هو الذي أنشأها كما يعتقده كثير من الناس بل الذي أنشأها أولاً هو السلطان أبو الحسن المريني رحمه الله حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته، وشاع على الألسنة أن السلطان الغالب بالله توصل إلى بنائها بصناعة الكيمياء، وأن الشيخ أبا العباس أحمد بن موسى السملالي علمه إياها حين تلمذ له كما سيأتي.

قال اليفرني: «وهو كذب، فإن المنقول عن الشيخ المذكور إنكارها،

وما كان ليفتح على مسلم باباً عظيماً من أبواب الفتنة وسبباً بليغاً من أسباب المحنة، لأن هذه الحرفة من أعظم أبواب الفتن، وقد أجمع أرباب البصائر على التحذير من تعاطيها لوجوه ثلاثة؛ أولها: إنها من المستحيلات كما ذكره ابن سينا مستدلاً عليه بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30] وكما أنه ليس في قدرة المخلوق أن يحول القرد إنساناً والذئب غزالاً كذلك ليس في قدرته أن يصير الرصاص فضة، والنحاس ذهباً يعني، لأن ذلك من باب قلب الحقائق وهو محال. ولقد تناظر رجلان فيها فقال مجوزها: «أتنكر ما تشاهده في الصبغ وتصيير الجسد الأحمر أصفر والأبيض أسود؟ فقال مانعها: «لا أنكر ذلك، لأن الصبغ ليست تغيير أصل، وإنما أنكر أن ثوب الصوف الأبيض ترده صناعة الصبغ قطناً أو حريراً أحمر أو أخضر، وأما الصبغ فلا شك أن النحاس يصير أبيض ولا يخرجه ذلك عن أصله ولا يسلب عنه اسم النحاس بل يقال فيه نحاس أبيض كما لا يسلب صبغ الصوف عنه اسم الصوف. ثانيها: سلمنا أنها جائزة الوجود لكنها معدومة في الخارج كما ذهب إليه أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله إذ قال: «ثلاث متفق على وجودها في الغالب، وقد اتفق على عدم رؤيتها أهل المشارق والمغارب: الكيمياء، والعنقاء، والغول. وأخبارها كلها على وجه السماع والإسنادات وحكايتها كالموضوعات عن العجماوات والجمادات». ثالثها: سلمنا أنها موجودة في الخارج لكنه يحرم تناولها والبيع والشراء بها.

وقد سئل عنها الشيخ أبو إسحاق التونسي رحمه الله فقيل له: «أحلال هي إذا كانت خالصة؟» فقال: «لو دبر النحاس أو غيره من الأجساد حتى صار ذهباً خالصاً لاشك فيه فمتى لم يقل بائعه لمبتاعه هذا كان نحاساً أو جسداً من الأجساد فدبرته حتى صار ذهباً كما ترى لكان غاشاً مدلساً.» قال: «ومتى ذكره لم يشتر أحد منه ذلك بفلس، ويقول: فكما دبرته حتى صار ذهباً فكذلك يدبره غيرك حتى يرجع إلى أصله. فمن لم يبين فيها فهو داخل

في قوله عليه الصلاة والسلام: «من غشنا فليس منا» فتكون صناعتها حراماً» وقيل لبعض الفضلاء: «لم لم تتعلل بهذه الصناعة فإنها تسلي الخاطر؟» فقال: «قيل للحمار: «لم لم تجتر؟» فقال: «أكره مضغ الباطل» وأنشد:

فقلت لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد»

اهـ ما نقله اليفرني ملخصاً مهذباً، وهو الحق الذي لا عوج فيه ولا أمت. ثم قال: وبالجملة فما شاع عن السلطان الغالب بالله من ذلك لا أصل له، ولقد كان أهل الورع يجتنبون الصلاة في جامع الأشراف بعد ما بنى مدة ويقال: إن موضع ذلك الجامع كان مقبرة لليهود والله تعالى أعلم.

فتح مدينة شفشاون وانقراض أمر بني راشد منها

تقدم أن مدينة شفشاون حرسها الله بناها بنو راشد من شرفاء العلم، وكانوا أهل جهاد ومرابطة على العدو ببلاد غمارة والهبط، ولما توفي مختطها الأمير أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بقيت بيد أولاده يتولون رياستها. قال في «المرآة»: ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب إلى أن حاصرهم بها الوزير أبو عبد اللّه محمد بن عبد القادر ابن السلطان محمد الشيخ السعدي بجيوش عمه السلطان أبي محمد عبد اللّه الغالب بالله، وصاحب شفشاون يومئذ الأمير الفاضل أبو عبد اللّه محمد ابن الأمير أبي الحسن علي بن موسى بن راشد، فلما اشتد عليه الحصار خرج فيمن إليه من أهله وولده وقرابته وصعدوا الجبل المطل على شفشاون في مسلك وعر صحبتهم فيه السلامة وذلك ليلة الجمعة الثاني من صفر سنة تسع وستين وتسعمائة، وساروا إلى ترغة فركبوا منها البحر يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور. واستقر الأمير أبو عبد اللّه بالمدينة المنورة إلى أن مات بها رحمه الله.

حصار البريجة المسماة اليوم بالجديدة

قد قدمنا ما كان من بناء البرتغال لمدينة الجديدة وتحصينهم لها بما فيه كفاية، وكانت غارات المسلمين المجاورين لهم لا تنقطع عنهم وكذلك هم سائر مقامهم بها ولما كانت سنة تسع وستين وتسعمائة جهز إليها السلطان الغالب بالله جيشاً كثيفاً، واستنفر لها قبائل الحوز، وعقد عليهم لابنه محمد المعروف بالمسلوخ قتيل وادي المخازن، وكان يومئذ ابن عشرين سنة على ما قيل، واستوزر له القائد المجاهد الشاعر الفاضل أبا زيد عبد الرحمٰن بن تودة العمراني، وجعل إليه أمر الحرب، وابن السلطان صورة، فزحف إليها وحاصرها أربعة وستين يوماً وملك بعض أسوارها ولم يقض الله بفتحها.

وفي «النزهة»: «ذكر أن القائد ابن تودة دخل البريجة التي قرب آزمور وأخذ أسوارها وعزم على أن يستأصل في الغد بقيتها ولا يبقي للكفر بها أثراً فكتب إليه السلطان الغالب بالله ينهاه عنها، فتراجع النصارى إليها بعد أن ركبوا البحر عازمين على الجلاء عنها» اهـ.

وقد وقفت في التاريخ البرتغالي الموضوع في أخبار الجديدة، واسم مؤلفه لويز مارية، على أخبار هذا الحصار وقد استوعبها وبسطها، وتتبع الوقائع فصلاً فصلاً ويوماً يوماً، وأتى من ذلك بما يزيد على الكراسة، فكان من جملة ما قال: «إنه لما عزم السلطان الغالب بالله على غزوهم وأخذ في تجهيز الجيوش إليهم أتاهم بعض المتنصرة» قال: «وهو عبد أسود فأخبرهم بأن السلطان مستعد لحربهم، وكانوا عازمين على التوثق من هذا الجاسوس فأفلت منهم فعلموا أن إظهاره للتنصر كان مكيدة، ثم أخذوا في الاستعداد واشتروا من عند قائد آرزمور ألفي سيف هكذا زعم» قال: «وفي اليوم الرابع من مارس سنة ألف وخمسمائة واثنتين وستين مسيحية وصلت جموع المسلمين إلى حوز الجديدة» وهذا التاريخ موافق للتاريخ العربي الذي قدمناه قال: «فكانت خيل المسلمين نحو ثلاثين ألفاً والرماة ضعف ذلك وكان فيهم عسكر الترك المعروف بالبلدروش وكانوا يومئذ جنداً للسعديين، وكان معهم

عشرون مدفعاً عشرة كبيرة، وعشرة صغيرة، وفيها واحد أعظم من الجميع يسمى ميموناً، وكان معهم العلم الكبير الأبيض ورايات أخر ملونة، وتقدموا إلى الجديدة فحاصروها حصاراً شديداً وحاربوها حرباً هائلة، وصف هذا المؤرخ ذلك كله وصفاً كاشفاً. وكانت الجديدة يومئذ في غاية الحصانة والمناعة فلم يتمكن المسلمون من النصارى على ما ينبغي وأرسل الترك عليهم أنواع الحراقيات، وملكوا المتارزات التي كانت حول السور بعد أن هلكت عليها نفوس من الفريقين، ثم صنع النصارى للمسلمين عندها مينا البارود مرتين، ففي الأولى كانت المينا تسعة براميل نفط منهن سبعة فأهلكت خلقاً من المسلمين والنصارى وفي الثانية كانت تسعة عشر برميلاً أمام السور فنفطت بالمسلمين وأتلفت منهم عدداً فبعضهم طار في الهواء وبعضهم تحت التراب.

وكان رماة المسلمين ينالون منهم نيلاً عظيماً واعترف النصارى لهم بجودة الرمي بحيث كانوا كلما ظهر منهم عسكري على السور اختطفته رصاصة في أخير موضع من بدنه من الرأس أو الصدر.

قال لويز المؤرخ: «ولقد قدم في بعض الأيام من أشبونة كبير من كبراء جندهم فقال لهم: أروني كيف قتالكم لهؤلاء المسلمين وكيف مصافتكم لهم، قال: فما ظهر برأسه على السور ليرى محلة المسلمين حتى أصابته رصاصة نثرت دماغه كأن صاحبها كان ينتظره، وكان ذلك بنفس نزوله من البحر قبل أن يذهب إلى منزله، فعوضه منه المسلمون القبر» قال: «فما كان النصارى بعدها يقدرون أن يظهروا على السور إلا في النادر، ولما طال عليهم الحصار ندب كبيرهم جماعة منهم للخروج إلى السواحل البعيدة عن محلة المسلمين لعلهم يظفرون بأسير منهم يستكشفونه عن خبر الجيش المحاصر لهم هل هو مرتحل أو مقيم وما مدة الإقامة» قال: «فخرجوا في فلك لهم ليلاً وساروا حتى بلغوا ساحل طيط، وهي يومئذ خالية، وكان بقربها محلة لقائد آسفي فلما طلع الفجر تقدموا إلى البر وأرسوا فلكهم إلى جانب بعض الأحجار هنالك بحيث يخفى على المارين بالساحل ثم كمنوا هنالك فلما كان وقت الإسفار إذا برجل من محلة آسفي أتى على فرسه إلى

شاطئ البحر لبعض حاجاته فلم يرعه إلا النصارى قد أحدقوا به وأخذوا بلجام فرسه، وجعل بعضهم فم مكحلته في صدره، فلم يملك المسلم من نفسه شيئاً، ثم أنزلوه عن الفرس وساقوه إلى الفلك أسيراً، ولججوا به في البحر، ولما بعدوا عن البر شيئاً ما رمى أحدهم الفرس برصاص فقتله، ثم أسرعوا إلى الجديدة فدخلوها واجتمع النصارى على المسلم وهو كالمبهوت بينهم ثم سألوه عن خبر الجيش المحاصر لهم فأخبرهم بأنهم يناجزونهم بعد هذا مرة أخرى أو مرتين فإن لم يظفروا بهم ارتحلوا عنهم فكان كذلك».
قال: «وكان ارتحال المسلمين من الجديدة في سابع مايه العجمي من السنة المذكورة فعمل النصارى لذلك عيداً وأحدثوا في كنائسهم صلوات لم تكن قبل وذلك بإشارة باباهم صاحب رومة».

ومما حكاه هذا البرتغالي فيما كان يجري بين أهل آزمور وبينهم من الحرب، وذلك بعد هذا الحصار بمدة يسيرة: أنه كان بآزمور امرأة حسناء وخطبها رجل من أهل البلد سماه لويز إلا أنه لم يحسن النطق به لعجمته وأظنه اسمه الميلودي[1] لأن الحروف التي ذكر تقرب منه، قال: فامتنعت عليه فراودها أياماً واشتد كلفه بها فلم تزدد عليه إلا تمنعاً فبعث إليها ذات يوم يرغبها في نفسه، ويدلي عليها بمآثره التي من جملتها الشجاعة. حتى قال لها: «وإن شئت أن آتيك برأس أعظم نصراني بالجديدة وأشجعه فعلت» ولعلها كانت موتورة لهم فقالت له: «إن أتيتني به تزوجتك» فذهب الرجل المذكور إلى قائد آزمور ولم يسمه لويز وعرض عليه أن يكتب إلى كبير نصارى الجديدة وصاحب رأيهم بأن يعين من جانبه رجلاً من شجعانهم

(1) الذي في الترجمة الإفرنسية مولاي حدو ولعل المترجم هنا رأى كلمتي مولاي، وحدو متصلتين خطأ فظنهما كلمة واحدة مستقلة وتوهم أن المؤرخ البرتغالي لم يحسن النطق بها وأن أصل الكلمة الحقيقي ميلودي والعذر له في ذلك لأن الحروف التي في مجموع مولاي وحدو قريبة من لفظ ميلودي مع أنهما كلمتان مستقلتان في الحقيقة إحداهما: مولاي والثانية: حدو اهـ.

ليبارزه إن شاء، فأجابه القائد إلى مراده، وذهب الرسول بالكتاب حتى وقف على نحو غلوة من المدينة، وهذا الموضع هو الذي كانت تقف فيه رسل آزمور إذا قدمت لغرض، فخرج إليه البريد من عند صاحب الجديدة وحاز الكتاب ورجع به إلى صاحبه، فلما قرأه أحضر جماعة من وجوه جنده وعرض عليهم ما فيه فقام رجل منهم وقال: «أنا صاحبه» وهذا الرجل سماه لوزير، وقال: «كان ابن ثلاثين سنة كامل القامة ممتلئ الأعضاء أسمر اللون كثير شعر البدن أسود اللحية وكان برأسه جرح لم يندمل من وقعة كانت بينهم وبين أهل آزمور قبل ذلك فكتب صاحب الجديدة إلى قائد آزمور إنا قد أجبناك إلى ما دعوت، وقد أعجبنا ذلك، وها نحن قد عينا لصاحبك قرنه فلتعينوا لنا اليوم والساعة التي تكون فيها الملاقاة، فاتفقا على يوم معلوم، وفي ذلك اليوم سار قائد آزمور في أصحابه ووجوه أهل بلده ومعهم الرجل المذكور إلى الجديدة، فانتهوا إلى الموضع الذي جرت العادة أن يقف فيه المسلمون، وخرج قائد النصارى في جماعته، وشرطوا للمبارزة وكيفتها شروطاً منها: أن تبعد كل جماعة من صاحبها بخمسين خطوة ولا يلتقي إلا المتبارزان وحدهما بمرأى من الفريقين، ومنها أن مساحة الموضع الذي يكون فيه مجالهما خمسون شبراً وسطاً من الفريقين، وإن من خرج عن هذا المحل منهما ولو قيد شبر كان رقاً للآخر، وأعطوا خطوطهم بذلك. ولما حان وقت البراز خرج عدلان من جانب المسلمين حتى انتهيا إلى النصراني ففتشاه لينظرا ما عليه من السلاح وما معه، لأن من جملة الشروط أن لا يتبارزا إلا بالسيف والرمح فقط فلم يجدا مع النصراني سواهما» قال لويز: «وكان صاحبهم المذكور يحسن الضرب بكلتا يديه فشرط عليه العدلان أن لا يقاتل إلا باليمين فرضي، ثم خرج شاهدان من جانب النصارى حتى انتهيا إلى المسلم ففتشاه فلم يجدا عنده سوى السيف والرمح أيضاً غير أنه قد علق على ذراعه تمائم كثيرة مخروزة في الجلد فقال له الشاهدان: «لا بد أن تنزع

هذه التمائم لأن صاحبنا ليس عنده شيء من هذا، وأيضاً فيمكن أن تقيك هذه التمائم بعض الوقاية» فقال لهم: «لا أنزعها لأن مثل هذا لا يتقى به في الحرب، ولا يغني في الظاهر من السيف والرمح شيئاً وإنما فيها أسماء الله ولا يحسن بي أن أطرحها في هذه الحالة التي أنا مشرف فيها على الموت فيكون ذلك سوء أدب مني مع اسم الله تعالى وربما يكون سبباً في خذلاني» فرجع النصرانيان إلى قائدهما وأخبراه بالقضية فقال: «لا بد من نزعها» فعادا إليه، وزعم لويز أن المسلمين وافقوا على نزعها وقال له العدلان: «إن الحق مع النصارى لأنا كشفنا صاحبهم كشفاً تاماً، وراوده القائد أيضاً، فأصر على الامتناع معتذراً بما سلف، ولما لم يحصلوا على طائل رجع المسلمون إلى بلدهم ولم يكن براز» قال لويز: «وعد النصارى ذلك غلباً وجعلوا يصيحون ويخرجون البارود» قال: «وكان سور الجديدة مكسواً بالنساء والصبيان واغتاظ قائد آزمور فسجن المسلم المذكور لكونه جر هذه المذلة على المسلمين».

قلت: من تأمل وأنصف علم أن الفشل إنما هو من جانب النصارى لأن تلك التمائم من حيث الظاهر لا تغني شيئاً، وكون بركتها تقيه من ضربات السيف وطعنات الرمح فهذا لا يعتقده النصارى، بل ولا يسلمونه، فلم يبق إلا الفشل والتعلل بما لا اعتبار به عند العقلاء. ثم قال لويز: «وقد كانت بين المسلمين والنصارى بعد ذلك وقائع فأبلى فيها ذلك المسلم البلاء الحسن وعرف محله من الشجاعة» اهـ، «والحق ما شهدت به الأعداء» وإنما أثبت هذه الحكاية بطولها لغرابتها، ولما اشتملت عليه من خلال الفتوة ومنازع النخوة الإيمانية فنسأله سبحانه وتعالى أن يعلي منار الدين ويكبت كيد الجاحدين والمعتدين آمين.

وفي سنة سبعين وتسعمائة ولى السلطان الغالب بالله الفقيه أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي قضاء فاس فطالت مدته.

وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى السملالي رضي الله عنه

حكى صاحب «الممتع»: «أن السلطان أبا محمد عبد اللّه الغالب بالله قال للأستاذ أبي عبد اللّه الترغي[1]: «إني أجد في نفسي إرادة وطلباً للشيخ فامض فاطلب لي شيخاً» فذهب يطوف على مشايخ المغرب، وكانوا إذ ذاك متوافرين، حتى أتى على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى الجزولي، ثم السملالي، فوجده شيخاً جليلاً سنياً متواضعاً زاهداً ظاهر الورع، حسن الأخلاق، باهر الكرامات، واضح الطريقة، جامعاً لمحاسن الخلال والأوصاف، فرجع إليه وجعل يصف له كل من رأى من المشايخ بما ظهر له فيه، حتى أتى على الشيخ المذكور، فقال: «وهو ولي، ثم ولي، ثم ولي، ثم ولي» سبعاً فقال له: «كأنك تدلني عليه، وأنه مطلوبي، وأنه المقدم على غيره» فقال له: «لا أدلك عليه ولا عندي ما أعرفه به تقديمه، غير أن هذا الذي ظهر لي» فأزمع السلطان الغالب بالله الرحلة إليه، فلما بلغ الشيخ المذكور مجيء السلطان إليه خرج يتلقاه، وقد هيأ له النزل وما يصلحه، وأعد له ما يناسبه من الأطعمة الرفيعة النفيسة، وقدم إليه الثمر الجيد واللبن الحليب، ولما خرج للقائه أتاه بعضهم بفرس، وكان من عادته أن لا يركب، وإذا أتاه أحد بمركوب لا يرده عليه، بل يستصحبه معه ويعلفه له حتى يرجع، ففعل ذلك. ولقي السلطان ورجع به معه وأنزله عنده فمكث في ضيافته ثلاثة أيام، ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة إلى الله تعالى، وسأله مع ذلك تمهيد الملك، واعتذر إليه بأنه لا يمكنه العيش بدونه، ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض إذا هو تخلى عنه، فقال الشيخ: «يا عرب، يا بربر، يا سهل، يا جبل، أطيعوا السلطان مولاي عبد اللّه، ولا تختلفوا عليه». ثم بعد الثلاث انصرف السلطان إلى محله، فبقي مدة وهو مسكن ممهد الملك في عافية.

---

(1) الترغي بالتاء المثناة ثم الراء والغين نسبة إلى ترغة مرسى قديمة على نحو أربعين كيلومتراً من تطوان. انظر ترجمته في «الممتع» صفحة 130.

ثم أتى الترك إلى بوغاز طنجة وسبتة فخافهم وتشوش منهم كثيراً، ولم يهنأ له عيش، فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم. فقال: «دعوني منكم حتى أستقي من رأس العين» ثم أبرد بريداً إلى الشيخ. فلما انتهى إليه سمعه يقول: «يا ترك ارجعوا إلى بلادكم، ويا مولاي عبد اللّه هناك الله في بلادك بالعافية» فتقدم الرسول وسلم على الشيخ، وبلغه سلام السلطان، ثم انقلب من فوره بعد ما ورخ وقت سماع مقالته. فلما بلغ إلى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ وأقاموا ينتظرون ما يكون فإذا الخبر قد ورد على السلطان بأن الترك قد ارتحلوا وانصرفوا إلى بلادهم، وإذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة.

ثم إن الشيخ قدم مراكش في بعض الأيام زائراً من كان بها من أهل الله تعالى فرغب إليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه، ويصنع لهما طعاماً وشرط على نفسه أن لا يطعمهم إلا الحلال، ولا يطعمهم ما فيه شبهة، وحلف للشيخ على ذلك فأسعفه، ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يصب منه، فلما خرج قيل له: «مالك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف أن لا يطعمكم إلا الحلال؟» فقال له: «من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوماً، ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة» اهـ.

ومما ينخرط في هذا السلك: أن السلطان المذكور كان له اعتقاد في الشيخ أبي عمرو القسطلي، وكان يعظمه غاية، وكانت عنده مظلة له من سعف النخل يتقي بها الحر تبركاً بها، ولما توفي الشيخ أبو عمرو المذكور، وذلك يوم الجمعة منتصف شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة، حضر السلطان المذكور جنازته وحثا التراب على قبره بيده.

ومن أخبار السلطان المذكور: أن الشيخ أبا محمد عبد اللّه بن حسين المغاري كان ظهر بمراكش وكثرت الجموع عليه وقصده الناس من كل جهة فأرسل إليه السلطان المذكور: «إما أن تخرج عني أو أخرج عنك» فقال

الشيخ ابن حسين: «بل أنا أخرج» وخرج من فوره إلى تامصلوحت فكان من أمره ما كان.

استيلاء النصارى على حجر باديس والسبب في ذلك

قد تقدم لنا في أخبار الوطاسيين أن النصارى بنوا حجر باديس واستولوا على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة، واستمروا بهما إلى أن انتزعهما الترك من أيديهم. ولما كانت دولة السلطان الغالب بالله وطمع الترك في الاستيلاء على المغرب الأقصى أغرى السلطان المذكور النصارى بالاستيلاء على الثغور الهبطية وسد أنقابها دونه.

قال في «النزهة»: ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى عمارة ترك الجزائر وأساطيلهم لا ينقطع ترددها عن حجر باديس ومرسى طنجة، يعني البوغاز، وتخوف منهم اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجر باديس، ويخليها لهم من المسلمين، فتنقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدوا سبيلاً إليه، فنزل النصارى على حجر باديس وأخرجوا المسلمين منها، ونبشوا قبور الأموات وحرقوها، وأهانوا المسلمين كل الإهانة، ولما بلغ خبر نزولهم عليها لولده محمد، وكان خليفته على فاس خرج بجيوشه لإغاثة المسلمين، فلما كان بوادي اللبن بلغه استيلاؤهم عليها فرجع وتركها لهم» اهـ.

وذكر اليفرني أنه وجد هذه الأخبار في أوراق مجهولة والله تعالى أعلم.

فتنة الفقيه أبي عبد اللّه الأندلسي ومقتله

كان الفقيه أبو عبد اللّه محمد الأندلسي، نزيل مراكش، متظاهراً بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيراً من العامة فتبعوه، وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة من الطعن على أئمة المذاهب رضي الله عنهم ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهري، ويتفوه بمقالات شنيعة في الدين، فأمر السلطان الغالب بالله بقتله: فاستغاث بالعامة من أتباعه واعصوصبوا عليه، ووقعت فتنة عظيمة بمراكش بسببه إلى أن قتل وصلب على باب داره برياض الزيتون من المدينة المذكورة. وكان ذلك أواسط ذي الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة[1].

ظهور بدعة الشراقة من الطائفة اليوسفية وما قيل فيهم

قال في «الدوحة»: «كان الشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعالات فبعد صيته وكثرت أتباعه فغلوا في محبته وأفرطوا فيها حتى نسبه بعضهم إلى النبوة، قال: «وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له: ابن عبد اللّه فإنه تزندق وذهب مذهب الإباضية على ما حكي عنه، واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الأهواء من الحواضر، وتعرف هذه الطائفة باليوسفية» قال: «ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطائفة، وسمعت بعض الفضلاء يقول: إنه قد ظهر ذلك في حياة الشيخ أبي العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال: «من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة، والموت على غير ملة».

---

(1) الصواب أن ذلك وقع سنة 984 انظر «درة الحجال» في ترجمة أبي عبد اللّه الأندلسي ص 167 وفي «الدوحة» ص 81: وكان قتله بأمر من السلطان محمد المتوكل بن الغالب لا من الغالب كما عند المؤلف.

قال صاحب «الدوحة»: «ولقد أشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين، وهؤلاء المبتدعة ليسوا من أحوال الشيخ في شيء، وإنما فعلوا كفعل الروافض والشيعة في أئمتهم، وإنما أصحاب الشيخ كأبي محمد الخياط، والشيخ الشطيبي، وأبي الحسن علي بن عبد اللّه دفين تافلالت وأنظارهم من أهل الفضل والدين، وإلا فالأئمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة» اهـ.

وقال في «المرآة» ما نصه: والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني من كبار المشايخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية، وكان كثير التلقين، فقال له الشيخ أبو عبد اللّه الخروبي: «أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء» فقال له: «قد دعونا الخلق إلى الله فأبوا فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر» قال الشيخ الخروبي: «فوجدته أوسع مني دائرة».

قال صاحب «المرآة»: «وانتسبت إليه الطائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو بريء من بدعتهم فما كان إلا إمام سنة وهدى مقتدى به في العلم والدين قد نزهه الله وطهر جانبه، وقد أظهروا شيئاً من ذلك في حياته فتبرأ منهم، وقاتلهم وبلغ المجهود في تشريدهم» قال: «وحدثني شيخنا أبو عبد اللّه النيجي أن الشيخ أبا البقاء عبد الوارث اليالصوتي لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم إليه وقع في نفسه من ذلك شيء فقيل له: «إن الشيخ أبا محمد الخياط من أصحابه» فقال: «أنا تائب إلى الله، كفى في طهارة جانبه أن يكون الخياط من أصحابه» وكانت وفاة الشيخ الملياني سنة سبع وعشرين وتسعمائة لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه إلا في دولة السلطان الغالب بالله كما مر، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

احتيال النصارى بمكيدة البارود بجامع المنصور من مراكش وما وقى الله تعالى من شرها

كان بقصبة مراكش جماعة من أسارى النصارى من لدن أيام أبي العباس الأعرج وأخيه أبي عبد اللّه الشيخ فرأوا الجم الغفير من أعيان المسلمين وأهل الدولة يحضرون كل جمعة للصلاة مع السلطان بجامع المنصور من القصبة المذكورة، فحدثتهم نفسهم الشيطانية بأن يصنعوا مكيدة يهلكون بها السلطان ومن معه، فحفروا في خفية تحت الجامع المذكور حفرة ملأوها من البارود ووضعوا فيها فتيلاً تسري فيه النار على مهل كي ينقلب الجامع بأهله وقت الصلاة. فنفطت المينا وانهدت بها القبة الواسعة من الجامع المذكور، وانشق مناره شقاً كبيراً ولا زال مائلاً به إلى الآن، وكان ذلك مبلغ ضررهم، وكفى الله المسلمين شر تلك المكيدة ولم يتمكن لهم الحال على وفق ما أرادوا. وكان ذلك سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

وفاة السلطان أبي محمد عبد اللّه الغالب بالله رحمه الله

قال الشيخ أبو العباس ابن القاضي في شرح «درة السلوك»: «توفي السلطان أبو محمد عبد اللّه الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة بسبب غم كان يعتريه» اهـ. وهذا الغم هو الداء المسمى عند العامة بالضيقة، أعاذنا الله منه، وذكر غيره أنه توفي في شوال بسبب تكلفه للصيام فعدت عليه العلة المذكورة. وشاع على ألسنة الناس أنه بات يصلي ليلة سبع وعشرين من رمضان فوافته ميتته وهو ساجد، وذلك كذب، ودفن رحمه الله عند ضريح أبيه بقبور الأشراف وقبره معروف. ومما كتب بالنقش على رخامة قبره هذه الأبيات:

أيا زائري هب لي الدعاء ترحماً   فإني إلى فضل الدعاء فقير

وقد كان أمر المؤمنين وملكهم	إلى وصيتي في البلاد شهير
فها أنا ذا قد صرت ملقى بحفرة	ولم يغن عني قائد ووزير
تزودت حسن الظن بالله راحمي	وزادي بحسن الظن فيه كثير
ومن كان مثلي عالماً بحنانه	فهو بنيل العفو منه جدير
وقد جاء إن الله قال ترحماً	إلى ما يظن العبد بي سيصير

وحكى أن ابنه أبا عبد اللّه المعروف بالمسلوخ لما قرأ هذه الأبيات عاقب ناظمها وقال له: «إن في قولك: ملقى بحفرة دسيسة وتلويحاً إلى الحديث: «**القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**» فهلا قلت ببلقع أو نحوه».

بقية أخبار السلطان الغالب بالله وسيرته

كان السلطان أبو محمد عبد اللّه الغالب بالله ذا سياسة وخبرة بأحوال الملك وتأن في الأمور، ولما ولي الخلافة ألان الجانب وخفض الجناح وسار بسيرة حسنة حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا، وانتعش الناس حتى كان يقال: ثلاث عينات هم عيون الزمان: السلطان المولي عبد اللّه، والشيخ أبو محمد عبد اللّه بن حسين المغاري، والشيخ أبو السرور عياد السوسي.

قال اليفرني: ورأيت من جملة سؤال كتب به الفقيه الصالح خطيب الجامع الأعظم بتارودانت أبو زيد عبد الرحمٰن التلمساني إلى قاضي الجماعة أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمٰن السكتاني يقول فيه: «ولا شك أن مولاي عبد اللّه مجمع على عدالته وبيعته» وقد أخبرني الثقة من أصحاب الشيخ الجامع أبي العباس أحمد بن موسى السملالي أنه قال: «مولاي عبد اللّه ياقوتة الأشراف هو صالح لا سلطان» وقد اشتهر بين الأنام وعلى ألسنة الخاص والعام أن السلطان الغالب بالله كان عدلاً صالحاً ووقع في الرسالة

التي كتب بها ابن أخيه السلطان أبو المعالي زيدان بن منصور إلى الفقيه أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ما ظاهره يخالف ذلك، ويؤذن بأنه كان كغيره من الملوك، ونص المحتاج إليه من تلك الرسالة مخاطباً للفقيه المذكور يقول: «وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد بن موسى السملالي كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته، وقد كان على عهد مولانا عبد الله برد الله ضريحه، وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه، وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه، وكان المولى المذكور يعزل ويولي ويقتل، وكان شرد منه إلى زاويته المرابط الأندلسي وولد آصناك وأمثالهم، وكان الشيخ يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب، ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته. وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره، ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سبباً لفتح الفتنة، وكان قواد المذكور مثل وزيره ابن شقراء، وعبد الكريم بن الشيخ، وعبد الكريم بن مؤمن العلج، والهبطي، والزرهوني، وعبد الصادق بن ملوك، وغيرهم ممن لا يحضرني ذكرهم لبعد عصرهم قد انغمسوا في شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب، وكان في عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين، والشرقي، وأبو عمرو القسطلي، وأبو محمد بن إبراهيم التامنارتي، والشيظمي، وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعي هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم، فأحسنوا السيرة ولا تعرضوا للسلطنة، ولا سمع منهم ما يقدح في ولاة الأمر وقادة الأجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع إليهم في تدبيره» اهـ القدر المحتاج إليه من الرسالة المذكورة.

قال اليفرني: «ومثل هذا ما ذكر بعضهم: أن السلطان الغالب بالله أعطى حجر باديس للطاغية لتنقطع بذلك مادة الترك عنه، ومثله ما ذكر عنه أيضاً: أن قائده ابن تودة أخذ بعض أسوار الجديدة وعزم على فتحها من الغد فكتب إليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك، ونظيره أيضاً قضيته مع أهل غرناطة

وأطال فيها هذا البعض المنقول عنه بما استنكفت من ذكره هنا، قال: «وهذه أمور شنيعة إن صح أنه فعلها ولست أدخل في عهدتها لأني إنما رأيتها في أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وظني أنها من وضع بعض أعدائهم لحطة من قدرهم وإخراجه إياهم من النسب الشريف، ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة، فلذا تجنبت منهم كثيراً من الأخبار التي لا تظن بأولئك السادة رحمهم الله، فقد قال الشيخ تاج الدين السبكي رحمه الله في طبقاته: «إن المؤرخين على شفا جرف هار لأنهم يتسلطون على أعراض الناس وربما وضعوا من الناس تعصباً أو جهلاً أو اعتماداً على نقل من لا يوثق به» قال: «فعلى المؤرخ أن يتقي الله تعالى» اهـ. إلا أن الملوك لا يستغرب في حقهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا منار رياستهم، ويستهونوا عظائم الأمور لتطيعهم الرعية ساعة، كيف لا وشراع أفئدتهم تلعب به رياح الشهوات فتلقي سفينة قلوبهم على ساحل بحر القنوط من رحمة الله تعالى، والله يسامح الجميع ويتجاوز عن كافة عصاة هذه الأمة بمنه وفضله» اهـ. كلام اليفرني رحمه الله.

ومن وزراء السلطان الغالب بالله: ابن أخيه الأمير الأجل الأديب الأحفل أبو عبد اللّه محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ كان من أنبل الوزراء وألطفهم مسلكاً وأخفهم روحاً. وله عارضة في النظم والنثر.

ذكر الأديب أبو محمد عبد اللّه بن محمد الفاسي في كتابه: «الأعلام بمن مضى وغبر، من أهل القرن الحادي عشر» ما صورته: «قدم الوزير أبو عبد اللّه محمد بن عبد القادر السعدي من مراكش إلى فاس، ومعه الفقيه قاضي الجماعة أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي، والفقيه الإمام أبو العباس أحمد المنجور، فلما تبدت لهم معالم فاس الجديد، «وتلظى للشوق في جوانحهم أوار».

«وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار»

وأنشد الوزير المذكور لنفسه ارتجالاً:

أخلائي هذا المستقى وربوعه وهذي نواعير البلاد تنوح

وذاك المصلى مطرح الشوق والأسى وتلك منازل الديار تلوح

فقال القاضي الحميدي ارتجالاً:

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد بهن غوان طرفهن جموح
يمسن كأملود من الروض يانع شذاهن من حول الديار يفوح

فقال الفقيه أبو العباس المنجور ارتجالاً أيضاً:

ويرفلن في الحلات يختلن في الحلى وفيهن أنواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر لإقبال حب طال منه نزوح

ولما بلغت الأبيات إلى الأستاذ أبي العباس أحمد الزموري قال مذيلاً:

تأمل سنا الحسناء تحت قبابها كشمس غدت تحت السحاب تلوح
تحلت ربوع المستقي بجمالها وأنت إلى تلك القباب تروح

وبعضهم جعل البيتين الأولين للمولى الأديب أبي محمد عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي، وكان كاتباً للوزير المذكور، ويجعل موضع أخلائي أمولاي، والبيتين بعدهما للوزير والله تعالى أعلم، والمستقى بصيغة اسم المفعول اسم بستان معروف.

ونظير هذا ما ذكره الأديب المذكور في أعلامه المذكور. قال: كان الوزير المذكور مع كاتبه المولى عبد الواحد الشريف في بعض الأسفار، وأرسلت السماء بغيثها المدرار، فقال الوزير المذكور:

لله أشكو غداة السفح إذ ركضت أيدي المطايا وحادي الريح يحدونا

فأجابه الكاتب المذكور:

والغيم في الأفق قد أرخى ذوائبه بأسهم الودق لا ينفك يرمينا

فقال الوزير:

حتى استوى الماء والآكام واستترت معالم الرشد لا خريت يهدينا
فظلت الخيل في الأمواج سابحة سبح السلاحف نحو الدار يهوينا

فقال الكاتب:

والنفس في قلق لبين مألفها والشوق يحدو بنا والحال يقصينا

فقال الوزير:

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا حتى غدا الطير فوق السرح يفشينا

وأخبار هذا الوزير ونوادره كثيرة، وهو الذي أخرج بني راشد من مدينة شفشاون حسبما مر، وكانت وفاته في العشرين من جمادى الثانية سنة خمس وسبعين وتسعمائة.

ومن وزراء السلطان الغالب بالله أيضاً: القائد عبد الكريم بن مؤمن بن يحيى العلج الجنوي، وعبد الرحمٰن بن تودة، وقاسم الزرهوني، وأحمد الهبطي. ومن ولاة مظالمه: أبو عمران موسى بن مخلوف الكنسوسي، وهو والي الشرطة وكان فقيهاً مشاركاً.

وذكر بعضهم: أن الشيخ الصالح أبا العباس أحمد بن موسى السملالي كان في بعض قدماته على السلطان الغالب بالله[1] قد انحشر الناس لزيارته بزاويته، فوقف أبو عمران المذكور يذود الناس عنه ويقول: «رحمكم الله من زار خرج» فسمعه الشيخ فقال له: «لا تقل ذلك وقل: من جار خرج» ومن كتاب السلطان المذكور: محمد بن عبد الرحمٰن السجلماسي. ومحمد بن أحمد بن عيسى وغيرهما. ومن قضاته بمراكش: الفقيه قاضي الجماعة أبو القاسم بن علي الشاطبي، وبفاس أبو عبد اللّه العوفي، وأبو مالك عبد الواحد الحميدي رحمهم الله.

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد اللّه محمد المتوكل على الله ابن السلطان عبد اللّه الغالب بالله رحمه الله

لما توفي السلطان الغالب بالله بحضرة مراكش كان ابنه محمد هذا بفاس، وكان ولي عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش، واستأنفوا له

(1) الذي في «الفوائد أن الموفود عليه هو السلطان محمد الشيخ بتارودانت والذي كان يذود الناس هو صاحب شرطته الأمير أبو زكرياء بن الغازي انظر ذلك في النصيحة التي وجهها المؤلف أبو زيد التنامرتي لأبي حسون المعروف بأبي دميعة لما قام بالسوس اهـ.

البيعة، وكتبوا بها إليه، فوصلت إليه وهو بفاس أوائل شوال سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فبايعه أهل فاس وتم أمره.

قال ابن القاضي: أمه: أم ولد، وكنيته: أبو عبد الله، ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة: بالمسلوخ لأنه سلخ جلده وحشي تبناً كما سيأتي.

وكان مما وقع في أيامه أنه كانت بين المسلمين وبين نصارى طنجة وقعة بالرملة المسماة بأبي غاص من فحص طنجة قرب قنطرة عصماء، وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وفي هذه الوقعة استشهد الشيخ أبو مهدي عيسى بن الحسن المصباحي دفين الدعادع على وادي مضي من عمل القصر، فإنه حمل بعد استشهاده إلى الموضع المذكور فدفن بإزاء قبر أبيه في الروضة التي هنالك.

واستمر أمر أبي عبد الله المتوكل منتظماً إلى أواخر سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة، فقدم عليه عمه عبد الملك ابن الشيخ بجيش الترك فنثر سلكه وبدد ملكه على ما نذكره. ويقال: إنه كان أضمر الفتك بعميه أحمد وعبد الملك ففرا منه إلى ناحية الترك على ما سيأتي. قالوا: وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبراً تياهاً غير مبال بأحد، ولا متوقفاً في الدماء عسوفاً على الرعية، ومن شعره قوله:

فقم بنا نصطبح صهباء صافية ... في وجهها عسجد في وجهه نقط
وانهض إليها على رغم العدا قلقاً ... فإن تأخير أوقات الصبا غلط

ومن شعره أيضاً قوله:

ساروا فسار فؤادي إثر ظعنهم ... وخلفوني نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم ... ولا سقى هاطل ورداً وريحانا

وكان خليفته بمراكش: القائد ابن شقراء، وحاجبه: أحمد بن حمو الدرعي، وكتابه: يونس بن سليمان الثاملي، وعلي بن أبي بكر، وغيرهما، رحمهم الله تعالى.

الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله ابن محمد الشيخ وأولية أمره ومآله

كان أبو مروان عبد الملك بن أبي عبد اللّه الشيخ السعدي، وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد: بالمنصور، مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما، فلما توفي وولي الأمر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد إلى تلمسان خوفاً على أنفسهما منه، فأقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة، ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصار ثالثة الأثافي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الجزائر، ومنها ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية متطارحاً على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله، فأمده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتي.

ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع إلى بقية أخبار السلطان أبي مروان المعتصم بالله لأنها تنبني على ذلك فنقول: اعلم أن أمر بني أبي حفص أصحاب تونس كان قد مرج في هذه المدة وتداعى إلى الاختلال، وكان خير الدين باشا التركي المقدم ذكره في أخبار تلمسان قد استولى على تونس في حدود الأربعين وتسعمائة وغلب عليها صاحبها الحسن بن محمد الحفصي، ففر الحسن المذكور إلى طاغية الإصبنيول صاحب قشتالة فأعطاه العساكر وجاء بها إلى تونس، فنزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادي، وتقدموا إلى تونس فملكوها، وانهزم خير الدين إلى الجزائر، وشارك النصارى الحسن بن محمد في إمرة تونس، واستباحوا أهلها قتلاً وأسراً ونهباً. يقال: إنهم قتلوا من أهل تونس الثلث، وأسروا الثلث، وأبقوا الثلث، وكل ثلث ستون ألفاً هكذا عند صاحب «الخلاصة النقية». ثم ملكوا الموضع المسمى: بحلق الوادي وليس هناك واد عذب وإنما هو جون دخل من البحر في البر وعليه مرسى تونس، ثم بنى النصارى في الحلق المذكور حصناً عادياً أقاموا في بنائه نحو ثلاث وأربعين سنة، بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه بعد.

ثم ثار على الحسن ابنه أحمد المدعو: حميدة. وملك الحضرة مدة وقاتل نصارى حلق الوادي فامتنعوا عليه، ثم غزاه علي باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها، فذهب أحمد إلى طاغية قشتالة مستغيثاً به شأن أبيه من قبله، هذا كله ونصارى الحلق لا زالوا متمكنين منه أي تمكين، فأمد الطاغية أحمد المذكور بأسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه.

ولما وصل الأسطول إلى ظاهر تونس اطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاغية مضمنه المشاركة في الحكم، فأنكر أحمد ذلك وأنف منه، وذهب إلى صقلية فبقي بها إلى أن مات وحمل إلى تونس. وكان هنالك أخوه محمد بن الحسن فرضي بالمقاسمة ودخل بالنصارى إلى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصراني بها، وانتهبت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتكدر المشرب وتفرق الجمع، وارتبطت خيل العدا بالجامع الأعظم وألقيت ما فيه من نفائس الكتب بالطرق ونبش قبر الشيخ أبي محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه إلا الرمل حماية من الله له، وحاشا أن تعدو الأرض على جسد مثله، وأرسل محمد بن الحسن إلى الناس بالأمان واستمالهم النصراني بعد بكاذب الرفق، فأقاموا بدار مذلة وهوان.

واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثماني فأعظمه، وجهز العمارة للحين مع الوزير سنان باشا يقال: كانت أربعمائة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية، وهي إصطنبول، غرة ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ووصلوا إلى حلق الوادي في الرابع والعشرين منه، وكان حيدر باشا صاحب القيروان، ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم، فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصوصبوا عليه، وتقدموا إلى الحصن الذي بحلق الوادي فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة، أعني سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، واستلحموا من به وغنموا ما فيه، والتجأ محمد بن الحسن الحفصي وأنصاره من النصارى إلى البستيون، وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس، فحاصرهم سنان باشا به حتى اقتحمه

عنوة. وقتلوا من به، وامتلأت أيديهم من المغانم، وطهر الله بهم البلاد، وكانت إحدى الوقائع الجليلة القدر، الباقية الذكر، وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتمله معه إلى السلطان سليم فاعتقله في يد قلة أحد حصونه حتى هلك، وانقرضت بمهلكه دولة بني أبي حفص التي هي بقية الموحدين.

إذا علمت هذا، فاعلم أن استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر، لأن وفاته كانت في آخر رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة كما مر، وفتح تونس كان في جمادى الأولى من السنة المذكورة. ووقع في «النزهة»: أن فتح تونس كان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، وهو غير صواب، والله تعالى أعلم.

مجيء السلطان أبي مروان عبد الملك بن الشيخ السعدي بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب

اعلم أنه وقع في «النزهة» وغيرها أن عبد الملك بن الشيخ وأخاه أحمد كانا في ابتداء أمرهما بسجلماسة فلما توفي أبوهما وولي أخوهما الغالب بالله لحقا بتلمسان فأقاما بها مدة ثم انتقلا إلى الجزائر، فلما اتصل بهما خبر وفاة أخيهما الغالب وولاية ابنه محمد المتوكل من بعده ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية وتطارح على ملكها العثماني في أن يمده بجيش ليملك المغرب، فتثاقل عنه العثماني إلى أن بعث بالعمارة لفتح تونس فشهد عبد الملك الفتح، وعاد إليه بالبشارة فأسعفه، وهذا غير صواب من جهة أن فتح تونس كان متقدماً على وفاة الغالب بالله كما مر، اللّهم إلا إذا كان عبد الملك وفد على العثماني مستعدياً على أخيه الغالب بالله، وفي أثناء ذلك توفي وولي ابنه المتوكل فيكون الكلام صحيحاً، وأما ما في «النزهة» مما يقتضي تأخر فتح تونس عن وفاة الغالب بالله فغير صواب كما مر.

ولنذكر ما حكوه من ذلك فنقول: لما بويع السلطان أبو عبد الله محمد

المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمنصور بالجزائر، فركبا البحر إلى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله، ومع عبد الملك أمه سحابة الرحمانية، وزعم بعضهم أن التي كانت معهما مسعودة الوزكيتية، وهي أم أحمد منهما، فانتهيا إلى القسطنطينية وتعلقا بكراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم، ودخلت أمهما داره، وطلبوا منه أن يبعث معهم العساكر لتملك المغرب، ويقوموا فيه بدعوته، فتثاقل عنهم مدة إلى أن كان الغزو إلى تونس فكتب السلطان سليم إلى أهل الجزائر وأهل طرابلس أن يوجهوا قراصينهم لحصار تونس مع العمارة الموجهة من قبله، فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي، وهو صاحب الجزائر، أن يجعل لهما رياسة قرصان منهما يتوجهان فيه للجهاد معه، فأعطاهما غليوطة فيها ستة وثلاثون رجلاً فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكب الجزائر. هكذا وقع في سياقة هذا الخبر، وهو يقتضي أنهما كانا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية، فلعلهما عادا إليها من عند السلطان سليم إلى أن سافرا في جملة عسكر الجزائر والله تعالى أعلم، ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار حسبما مر عين رئيس العمارة العثمانية مركبين يتوجهان بكتاب الفتح إلى السلطان سليم، فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما في الذهاب معهما بالغليوطة ليأتيا بأمهما التي تركاها هنالك، فلم يزالا بالرئيس المذكور حتى أسعفهما. فكان من قدر الله تعالى أن هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم، ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدا للمركبين أثراً فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا إلى القسطنطينية قبل المركبين بثلاث.

واتصل خبرهما بالصدر الأعظم فأحضرهما وسألهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس، وقصا عليه الحديث من البدء إلى التمام، فأعلم السلطان سليماً بهما فأدخلهما عليه وسألهما كذلك فأخبراه، وسألهما عن كتاب الفتح فقالا: «إن أمير العمارة قد بعث به مع مركبين صحبناهما إلى أن فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك».

ولما رأيا من السلطان سليم تنازلاً واهتزازاً لكلامهما طلبا منه في بشارتهما أن يبعث معهم العساكر إلى الغرب، وشفعاً في إنزال رأس والدهما ودفنه فقبل شفاعتهما، ثم أمر بهما إلى بعض المنازل فأنزلهما به وأكرمهما، وبعث إليهما بالأم التي كانت هنالك وأرجأ أمرهما إلى قدوم الخبر اليقين، وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح، وظهر صدق عبد الملك الملك وأحمد، فحينئذ أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالاً وسلاحاً وزاداً وكتب لهما فرماناً للدولاتي صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الأقصى.

ولما قدما على الدولاتي بالفرمان وقرأه على أهل الديوان قالوا: علينا الرجال وعليهما المال، وهذه عادتنا مع السلطان، ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزندار وعلى الآغا والوكيل وأهديا إليهم ورغبا منهم أن يسلفوهما ما ينفقانه في وجهتهما تلك إلى أن يبعثا به إليهم من المغرب، فسهلوا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج إليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه إلى أن يرجع، وأشهدوا عليهما بذلك في دفتر فقبلا وأعطوا خطوطهما به، ثم نهض عبد الملك وأخوه إلى المغرب يجران عساكر الترك خلفهما، وكتب عبد الملك إلى شيعته بالمغرب يعرفهم قدومه ويعدهم ويمنيهم إلى أن كان من أمره ما كان.

وساق اليفرني هذا الخبر وفيه بعض مخالفة لما تقدم قال: «لما فتحت تونس كان عبد الملك أول من أرسل البشارة مع أصحابه إلى السلطان العثماني فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فأعطتها السلطان المذكور والتمست منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معها إلى المغرب، فأعطاها ذلك، فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه لتملك ما كان بيد آبائه فطالبه أهل الجزائر بالراتب، فقال لهم: أسلفوني وعليّ القضاء فاتفق معهم أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة، وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف».

وقال في شرح «الدرة»: «إن عبد الملك طلب من رئيس الترك أن يعينه

بحصة منهم توصله إلى تخم بلاده ليدخلها إذ الجند كله جند أبيه لا يمكن أن يقاتلوه ويضربوا في وجهه لتعظيمهم إياه فأسعفه على مراده، وأرسل معه عصابة وحصة قليلة، فأقبل بهم حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالركن من أحواز فاس، فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقائه بنفسه، ولما التقى الجمعان نزع رئيس جند الأندلس سعيد الرغالي إلى عبد الملك، وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل وبطانته ورؤوس أجناده ويعد طائعهم، ويوعد عاصيهم، فلما سمع المتوكل بما فعله جند الأندلس فت ذلك في عضده وفشلت ريحه وأيقن بالنكبة ظناً منه أن جنده كله سيفعل فعل الرغالي، فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب خراب ملكه وإقامة ملك عمه، ويقال: إن بعض الجند لما سمع بأن القائد جرمون وأولاد عمران نزعوا إلى عبد الملك أيضاً جاء إلى المتوكل وقال له: «إن القائد ابن شقراء قد غدر وفر إلى عبد الملك» وكان ابن شقراء هذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه، فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزماً، وانتهبت خزائنه، وأوقد فيها النار، ونفط ما كان بها من البارود حتى رئي من رؤوس الجبال.

ولما انهزم المتوكل بالركن عطف على فاس الجديد فأخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة ثم خرج على وجهه إلى مراكش لا يلوي على شيء فلحق به القائد ابن شقراء بوادي النجاة على مقربة من فاس وأغلظ له في القول ولامه على عدم التأني والتثبت، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

استيلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك

لما انهزم المتوكل بالركن وأجفل إلى مراكش تقدم عمه أبو مروان إلى فاس فدخلها واستولى عليها يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة من باب الفتوح، وبعد أن دخلها وبايعه أهلها أقام بها أياماً ثم طمحت نفسه إلى اتباع ابن أخيه إلى مراكش، ولما عزم على النهوض إليه

طالبه الترك بأن يردهم إلى بلادهم وأن يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم: البقشيش فبذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقية، واستسلف المال من تجار أهل فاس حتى يتسع حاله، فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف وأعطاهم عشرة من الأنفاض، منها: النفض الكبير الذي له عشرة أفواه، وزادهم من تحف المغرب وطرفه ما سلى به نفوسهم، وركب لوداعهم بنفسه إلى نهر سبو، ثم رجع إلى فاس.

وفي هذه المدة قبض على قاضيها الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي لأمر نقمه عليه وأودعه السجن، فبعث الفقيه المذكور أولاده إلى الشيخ الصالح أبي النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم بالله، فكتب إليه الشيخ أبو النعيم يحضه على الاستشفاع بالنبي ﷺ والاستمساك بحبله لأنه باب الله الأعظم فقبل القاضي إشارته، وتوجه إلى ربه بكليته، فأتاه الفرج من حينه، رحم الله الجميع بمنّه.

نهوض السلطان أبي مروان إلى مراكش واستيلاؤه عليها وفرار ابن أخيه إلى السوس وما نشأ عن ذلك

ثم إن السلطان أبا مروان نهض من فاس في جنده الذي أقامه وكان غرس يده وفيما انضاف إليه من جند ابن أخيه وتقدم إلى البلاد المراكشية قاصداً حربه وتشريده عنها، ولما سمع ابن أخيه بخروجه إليه وقصده إياه تهيأ لملاقاته وسار إلى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادي شراط من أحواز سلا فكانت الهزيمة أيضاً على المتوكل، وفر برأس طمرة ولجام، وأجفل كعادته إجفال النعام، وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبي مروان يومئذ، فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه إلى مراكش فر عنها إلى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائباً عن أخيه، وأخذ له البيعة على أهلها ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين

تاسع عشر ربيع الثاني سنة أربع وثمانين وتسعمائة وأقام بها أياماً، ثم خرج في طلب ابن أخيه فعميت عليه أنباؤه وسقط بين سمع الأرض وبصرها، فعاد أبو مروان إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

استخلاف السلطان أبي مروان لأخيه أبي العباس أحمد على فاس وأعمالها

لما استقر السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم إليه أخوه أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليكفيه أمرها، فأجابه إلى ذلك وولاه عليها ظناً منه أن أمر المغرب قد صفا له، وإن المتوكل لا يعود إليه، وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي حاضراً للطلبة والعطية، فأنكر ذلك ولم يره صواباً، وقال: «لا ينبغي لكما أن تقعدا حتى يحكم الله بينكما وبين ابن أخيكما، فغاظ ذلك أحمد وظن أنه من سوء رأي عبد العزيز فيه وبغضه لجانبه، فأعرض عن مقالة الوزير المذكور، وذهب إلى فاس خليفة عليها، وبقي السلطان أبو مروان بمراكش.

وفي هذه المدة كتب السلطان أبو مروان لأخيه أحمد برسالة يقول فيها: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، من عبد اللّه المعتصم بالله، المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبي مروان عبد الملك ابن أمير المؤمنين أبي عبد اللّه محمد الشيخ الشريف الحسني أيده الله وأعز نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره وأبقى بمنه فخره من إملائه أيده الله ونصره، إلى أخينا الأعز الأحظى بابا أحمد حفظه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد: فاعلم أني لا أحب أحداً بعد نفسي كمحبتي لك، ورغبتي في انتقال هذا الأمر بعدي إليك لا لغيرك، غير أني أعتاد منك التراخي في الأمور حتى أنك لا تبالي بعظيم الأمر ولا تعتبره، إلى أن يتطرق إلى ما لا يتلافى جبره، من الأمور التي تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك وتهد أركانه، ويبلغ العدو معها مناه ومراده، من ذلك التراخي إهمالك أمر الجند الذي

بالعرائش، وإغفالك له مع ما يترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة إليه من المؤونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك، وجعلت تقابل خطابهم بالإهمال وعدم المبالاة، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث إليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل إن شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون إليه زائداً على ذلك مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذراً في هذه المسألة التي لا تحتاج إلى الإهمال، ولا بد ولا بد، فقد بلغنا أن صاحب النصارى بقرب آصيلا في خمس عشرة مائة من النصارى، وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار، ويرجع ساعة رؤيته إلى عادته من الذل والفرار، فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة، فإن الساعة لا تقتضي إلا الحزم، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم، والسلام» اهـ.

ظهور أبي عبد الله المتوكل بالسوس ومجيئه إلى مراكش واستيلاؤه عليها

كان أبو عبد الله المتوكل بعد فراره من مراكش يجول في جبال السوس ويتنقل في قبائلها وأحيائها إلى أن اجتمعت عليه طائفة من الصعاليك وتأشب عليه ما يشبه أن يكون جيشاً فاستهوتهم منه الأضاليل وقادهم قود الملك الضليل وجاء بهم إلى مراكش. فسمع به السلطان أبو مروان فخرج للقائه فخالفه المتوكل وسلك طريقاً غير طريقه، وفجاً غير فجه، وقصد مراكش فدخلها[1] باتفاق أهلها ونصروه وكتبوا له البيعة إلا أنه لم يتمكن من القصبة،

(1) سنة 84 وفي هذه السنة كانت فتنة أبي عبد الله الأندلسي ومقتله كما ذكره المؤلف فيما سبق. انظر الدوحة صفحة 81.

لأن السلطان أبا مروان كان قد ترك بها أخته الست مريم في نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنوا بها وبلغ الخبر أبا مروان باستيلاء المتوكل على مراكش فرجع عوده على بدئه إلى أن وافى الحضرة، فحاصره بها وكتب إلى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها، فأتاه به أحمد مسرعاً.

وما انتهى إلى مراكش اجتمع بالوزير أبي فارس الوزكيتي فقال له: «أوقفت على الرأي؟ أول الفكرة آخر العمل!» فبانت لأحمد نصيحته وزال ما كان يختلج بصدره عليه.

ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم المتوكل شيعته من أهل مراكش وفر إلى السوس فبقي أهل مراكش متمادين على الحصار إلى أن اتفق السلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فأدخلوه من بعض الأسوار والأنقاب، ولما فر المتوكل إلى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أتاح الله فيها النصر للمنصور، منها: وقعة تينزرت التي أنشده فيها وزيره الكاتب أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي البيتين اللذين قالهما فيه الكاتب أبو عبد الله بن عيسى وهما:

هو الغيث والبحر الغطمطم في الندى ... وليث إذا جد الطعان هصور

يفوق السهام عزمه وانبعاثه ... ويقصر عنه في الثبات ثبير

فأجابه أحمد المنصور ببيتي أبي فراس الحمداني وهما:

ونحن أناس لا توسط عندنا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

ومنها الوقعة التي بعدها بأساطين المنصور وهو في نحو ثلاثة آلاف، والمتوكل في نحو ستين ألفاً ومع ذلك هزمه المنصور.

قلت: كان أحمد المنصور هذا مجدوداً، محظوظاً مسعوداً، بحيث أربت سعادته على شجاعته، وما كان أخوه عبد الملك يسري إلا في ضوء طلعته ويمن نقيبته، فلذا كان يقدمه في الحروب ويستكفي به في نوازل الخطوب، ومن سعادته ما اتفق له في ذهابه إلى العثماني بخبر الفتح وتقدمه

قبل الكتاب بثلاث حتى تسنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سبباً في استيلائهما على المغرب، وستسمع في أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال إن شاء الله. وأما أمر المتوكل فإنه بعد توالي الهزائم عليه فر إلى جبل درن وتوغل في قننه ثم فر منه إلى باديس فأقام بها مدة ثم ذهب إلى سبتة ثم دخل طنجة مستصرخاً بعظيم البرتغال، والله تعالى لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال.

الغزوة الكبرى بوادي المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها

كان من خبر هذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبد الله السعدي لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال، واسمه سبستيان، بكسر السين وفتح الباء والسين وسكون التاء القريبة من الطاء، وهو طاغيتهم الأعظم، وليس قائد الجيش فقط على ما هو المحقق في تواريخهم، وتطارح عليه وشكا إليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتصم بالله وطلب منه الإعانة عليه كي يسترجع ملكه. وينتزع منه حقه، فأشكاه الطاغية ولبى دعوته وصادف منه شرهاً إلى تملك سواحل المغرب وأمصاره، فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه، وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم على الخروج إلى بلاد الإسلام.

ومن المتواتر في تواريخ الإفرنج: أن كبار دولته حذروه عاقبة هذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتغال وتوريطها في بلاد المغرب وقبائله، فصم عن سماع قولهم ولج في رأيه، وملك الطمع قلبه، وأبى إلا الخروج فأسعفوه وخرج من طنجة في جيش، قال ابن القاضي في «المنتقى المقصور»: «عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفاً»، وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن» يقال: إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفاً وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل. وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه، قال بعضهم: وكان عدد الأنفاض التي يجرونها مائتين،

وقصدوا هلاك المغرب وحصد المسلمين، وإدارة رحى الهوان على الدين، فعظم ذلك على الناس وامتلأت صدورهم رعباً وقلوبهم كرباً، وبلغت القلوب الحناجر، واتقدت بها نيران الهواجر، وكان محمد بن عبد اللّه المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتغال إلى بلاد الإسلام رسالة بعث بها إلى أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوي رأيه يغمض عليهم بها في نكث بيعته ونقضها، ومبايعة عمه من غير موجب شرعي، وقال لهم: «ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين» وقد قال العلماء: «أنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه». وتهددهم فيها وأبرق وأرعد. وقال: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله» وسمى النصارى: أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى، فأجابه علماء الإسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله، وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفاً حرفاً: «الحمد اللّه كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه وإرساله، والرضى عن آله وأصحابه، الذين هجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

وبعد: فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد اللّه السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب، قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب، لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب، فقولك: خلعنا بيعتك التي التزمناها، وطوقناها أعناقنا وعقدناها، فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع، ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع، وإنما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه، وعلى سبيل الحق وتحقيقه، وسنشرح لك ذلك ونبينه، ونسطره لك بالأدلة الشرعية التي ترقيه وتزينه، نعم كنت سلطاناً بما عقد لك والدك من البيعة، وترك لك من الأموال والعدد والحصون مما لم يتهيأ مثله لأحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم، فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده، حتى استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده،

وأسسوا لدين الله قواعد وأركاناً، وملكوا من المغرب بلاداً معتبرة وأوطاناً، فلما وصل ذلك إليك ألقت إليك العباد أعنتها، وملكتك أزمتها، غير مبدلين ولا مغيرين، ولا باغين ولا منكرين، إلى أن قام عليك عمك بحجته التي لا يمكنك جحدها، حسبما ثبت كما يجب عقدها، فخرجت مبادراً له بدفعها، ولقيته بها وأنت واسطة عقدها، وحامل راية عهدها، وعمك في فئة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جنداً من جنودك، أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك، فما هو إلا أن جرى القتال، وحضر النزال، رجعت على عقبك هارباً هروب مطرود بقصاص، وجنودك تناديك ولات حين مناص، فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها، وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها، وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك: لمن تركتنا وإلى من تكلنا؟ فلم تلتفت إليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الأموال والعدد الوافرة والرجال والأسوار المرتفعة المانعة، والمدينة المشهورة الجامعة، فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد إلى الحريم والأولاد، والطارف والتلاد، ولا دافع عن الضعفاء والمساكين إلا الله تعالى الذي قال في مثلهم: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، [النساء: 98] فما أمكنهم بعد هروبك عنهم وإسلامك لهم فوضى مهملين إلا النظر في أمرهم، وإعمال الفكر في التدبير على أنفسهم، فبينما هم على ذلك إذا بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائماً بحجته، سالكاً في ذلك سبيل أبيه رحمه الله ومحجته، حسبما تقرر ذلك عندكم وظهر، ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر، إذ كان مولانا محمد الجد الأكبر عهد لأولاده مولانا أحمد، ومولانا محمد الشيخ وإخوانهم، لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم إلا الأكبر فالأكبر، فالتزموا ذلك إلى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع، فقاتله على ذلك حتى تم له الأمر وانتظم، فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده، فلم ينازعه أحد في ذلك إلى أن ألقى والدك رحمه الله ذلك، وعهد إليك فلم ينازعكم أحد، فأبى الله إلا الحق فأعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك، فإن سلمت هذا فأي حجة تدلي بها وأي طريق

تعتمد عليها؟ وإن أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد، إذ لا حجة حينئذ لجدك في القيام على عمك، فخلافته صحيحة لبيعة جدك له، فلم يبق إلا التغلب الذي تدلي به في مسألة عمك وفي قيامه عليك، فإن كنت تريد أن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين في السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك، إذ المعدوم شرعاً كالمعدوم حساً، فلم يبق بينكم إلا: «والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا» فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمه الله، وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك إذ هو أكبركم في هذا التاريخ.

فإن قلت: إن ما عقده الجد غير صحيح، قلنا: فقد ذكر الإمام الماوردي رحمه الله ورضي عنه في كتاب الأحكام السلطانية له في باب عقد الخلافة: أن عبد الملك بن مروان رتبها في الأكبر فالأكبر من بنيه فلم ينازعه أحد في ذلك.

فإن قلت: فعل عبد الملك ليس بحجة، قلنا: سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجة، إذ لا يمكن أن يسكتوا على باطل، وإقرار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الإجماع الذي هو حجة الله في أرضه، وكان أيضاً من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الإمارة ما نصه: قال رسول الله ﷺ: **«يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان ابن فلان، ألا ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة»** قال القاضي: أبو الفضل عياض رحمه الله في كتاب «إكمال المعلم على شرح فوائد مسلم»: «يعني لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذي تقلده من أمرهم» وفي الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه: **«ما من أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»**. وفي «الإكمال» نفسه قال القاضي: «والذي عليه الناس إن القوم إذا بقوا فوضى مهملين لا إمام لهم فلهم أن يتفقوا على إمام يبايعونه، ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض. ويقيم لهم الحدود».

فلما أسلمتهم وأضحوا بغير إمام وعمك يدلي بحجته التي ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبي ﷺ وكلام السلف الصالح، وأيسوا من رجوعك إليهم، وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم إلا الرجوع إلى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جحدها إلا على وجه المكابرة، فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية.

فإن قلت: كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التي التزموها لك قلنا: إنما يلزمهم القتال أن لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعي لأن القتال على الحدود الشرعية إنما يكون بعد نصب إمام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضاً جحدها إيه. ثم وصلت إلى مراكش الغراء التي تجبى إليها الأموال من البوادي والأمصار، وتشد إليها الرحال من سائر الأقطار، فلقيك أهلها بالترحاب والسرور، وأنواع الفرح والحبور، فوجدت خزائنها تتدرج ملئاً من كل شيء، فأما أسوارها ورحابها فهي كما قيل: تربة الولي، ومدرج الحلي، وحضرة الملك الأولي، والبرج النير الجلي، فحللتها وتمكنت من أموالها وخزائنها، ووافقك أهلها فما نكثوا ولا غدروا، ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا أنكروا، فطلبت أيضاً قتال عمك وجندت جنوداً لا يجمعها ديوان حافظ، ولا يعهدها لسان لافظ، فخرجت إليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول، والرماة قد ملأت الهضاب والتلول، فما كان من حديثك إلا أن وقع القتال وحضر النزال، بادرت هارباً محكماً للعادة، تاركاً للرؤساء من أجنادك والقادة، فحلت بهم الخطوب والرزايا، واختطفتهم أيدي المنايا، فتركت أيضاً محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك، ثم أسرعت هارباً إلى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها، ولا قال لك أحد لست ببعلها فعملوا على القتال معك والتمنع بأسوارها الحصينة، والحصار داخل المدينة، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك ونساءك، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس، ولا راجل ولا فارس، فيالها من مصيبة ما أعظمها، ومن داهية ما أعضلها. ولولا

فضل الله ولطفه ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت إليهم أيدي السفلة من الفسقة فأي حجة تبقى لك بعد هذا؟ وأي كلام لك بين الرجال يا هذا؟ ثم جاءك عمك أيضاً بما سلف من الحجج فوجد أهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية، فأنقذهم الله به أيضاً فبايعوا عمك بما سلف من الحجج، واطمأنوا وسكنوا، ثم هربت للجبل عند صاحبه[1] فصرتما في نهب أموال الرعية وسفك دمائهم، وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الأمن والأمان فأنت وهم في استيلائك عليهم وظلمك إياهما كما قيل.

إن هو مستولياً على أحد إلا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبي ﷺ: «أنا خصيم من ظلم ذمياً يوم القيامة» ثم خربت العامر، وأفسدت ما شيدت الأسلاف للإسلام من المآثر، فلما رأى أهل السوس الأقصى ذلك أيقنوا أنك إنما قصدت خراب الإسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت، كما قيل، : «في خلف كجلد الأجرب».

فإن قلت: إن أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه، قلنا: لم يطعن في خلافة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من تخلف عنها من أهل الشام، وفيهم من قد علمت من الناس، والإجماع على صحة بيعته: وسمي من تخلف عنها: باغياً لقول النبي ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فقتله أصحاب معاوية رضي الله عنه، والحديث من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، والقاعدة: أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه، ولا يعد خلاف من خالفه خلافاً وهذا كله بالنظر إلى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين، والأخذ

---

(1) المقصود به هو الشيخ أبو عبد الله بن محمد واسعدون الذي التجأ إليه المتوكل بعد فراره انظر «الدوحة» صفحة 84 «وطبقات الحضيكي» في حرف الميم «والممتع» و«الصفوة» وقد ذكرت ترجمته في هذا المؤلف الأخير استطراداً في ترجمة تلميذه سيدي أحمد المعروف بالشيخ وكانت وفاة ابن سعدون هذا عام 987 بعد غزوة وادي المخازن بستة.

في التخليط العظيم على المسلمين، فإنك اتفقت معهم على دخول آصيلا، وأعطيتهم بلاد الإسلام، فيالله ويا لرسوله لهذه المصيبة التي أحدثتها، وعلى المسلمين فتقتها، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]. قال أبو حيان رحمه الله: أي لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم وفي كتاب القضاء من نوازل الإمام البرزلي رحمه الله: أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه رضي الله عنهم، وهم ماهم، في استنصار ابن عباد الأندلسي بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابه جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها أحروية مناسبة لقضية ابن عباد في عقدها ابتداء، وأنه متى طرأ الكفر وجب العزل، وناهيك بقول النبي ﷺ: «**عليكم بالسمع والطاعة**» وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلي في وجوب خلعك، وسقوط بيعتك، فلم يبق لك إلا منازعة الحق سبحانه في حكمه، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13].

وأما قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى. وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين. وفي الحديث: أن رجلاً من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء إلى النبي ﷺ. فوجده بحرة الوبرة «موضع على نحو أربعة أميال من المدينة» فقال له: «يا محمد، جئت لأنصرك» فقال له النبي ﷺ: «**إن كنت تؤمن بالله ورسوله**» فقال: «لا أفعل» فقال له عليه الصلاة والسلام: «**إني لا أستعين بمشرك**» وما سمعته من قول العلماء رضي الله عنهم في

الاستعانة بهم إنما هو على المشركين بأن نجعلهم خدمة لأزبال الدواب لا مقاتلة، فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: «لسان العاقل من وراء قلبه» وفي قولك: يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلاً على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين، وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضاً والعياذ بالله.

وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت في الحديث: **«يتكلم أحدكم بالكلمة تهوي به في النار سبعين خريفاً»**.

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان. وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: «لا دين إلا دين محمد ﷺ» ومن قائل يقول: «سترون ما أصنع عند اللقاء»، ومن قائل يقول: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: 11] ومن قائل يقول: «إنما قصد التشفي بالمسلمين إذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الأفعال القبيحة» إلى غير ذلك فجزاهم الله عن الإسلام خيراً. ورضي عنهم وبارك فيهم، فللّه درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان، فلو لم يكن منهم إلا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافياً في صحة إيمانهم وعظيم إيقانهم فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب في الله والبغض في الله من قواعد الإيمان.

وقولك أيضاً: متبرئاً من حول الله وقوته، فإن لم تفعلوا فالسيف. فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط. أنبأ سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية، ثم زال نبوه الآن بالكفار فهذه أضحوكة فتأملها.

وأما ما نسبته لإمام دار الهجرة فكفاك عجزاً إن لم تعين لنا نصاً جلياً نعتمد عليه فيما تحتج به إلا أنك كثرت به سواد القرطاس مغرباً بذكره لا معرباً بنصه.

وما نسبته للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر، فهو مما نص عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها للصبيان، فعدولك عن ذلك إلى الحنفية إما قصور، وإما إلغاء لمذهب مالك رضي الله عنه، وهو النجم الثاقب.

وأما قولك: أنتم أهل بغي وعناد فلا نسلم لك ذلك إلا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتى ترى أنسلمك أم لا. فأما إذا هربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا، على أنك في كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره، وقد قال العلماء رضي الله عنهم: «من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير» وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي أبي الوليد بن رشد، والقاضي أبي الفضل عياض، وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان، وكيف وقع لأمرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين، هل حصلوا على شيء مما قصدوه، أو بلغوا شيئاً مما أملوه؟ على أن أكثر العلماء حكموا بردتهم ففاتتهم الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 32] وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**لن تغلب هذه الأمة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لابات الدنيا**» وعنه ﷺ أنه قال: «**سيقاتل آخر هذه الأمة الدجال**» وعنه ﷺ أنه قال: «**سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته ألا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها، وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**». والكل عليك وإياك نعني.

وما ذكرته عن عمك: فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من حملة القرآن مائة ختمة، وصحيح البخاري، وضجوا عند ذلك بالتهليل

والتكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير، والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين، والفتح الشامخ المبين، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك، وقضى ما هنالك، وبلغه كتابك الذي كان هذا جواباً عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة، ولولا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الإسلام والمباهاة بها، والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها، إذ لا اعتماد له أيده الله عليها، وكذلك هم لا اعتماد لهم إلا على حول الله وقوته ونصره وتأييده، والناس على دين الملك، وقد قاتلت وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية، فأي نحس وشؤم حلا بديار الروم، فإن جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد، ارجع إلى الله أيها المسكين، وتب إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين، ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، وهذه نصيحة إن قبلتها، وموعظة إن وفقت إليها، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام» انتهت الرسالة.

وكان خروج محمد بن عبد اللّه بجيش البرتغال وفصوله به من طنجة في ربيع الثاني سنة ست وثمانين وتسعمائة، قال في «المرآة»: «إنهم لما خرجوا إلى بلاد الإسلام ضربوا محلاتهم بالفحص، على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر، وكانت آصيلا قد تصيرت إليهم قبل ذلك بأشهر، يعني بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم، فعاين أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها، وفشا النفاق لأجل السلطان محمد بن عبد اللّه الذي معهم ولأجل بعد صريخ المسلمين، فإن السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان إذ ذاك بمراكش، فاستبطؤوا وصول الخبر إليه، ثم مجيئه بعد ذلك، فلم يبق لهم تدبير إلا القرار، والتحصن بالجبال وغيرها، فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي رحمه الله، وكان إذ ذاك بالقصر، لرجل من أصحابه: «ناد في الناس أن الزموا بلادكم ودوركم، فإن عظيم

النصارى مسجون حيث هو، حتى يجيء السلطان من مراكش، وإن النصارى غنيمة للمسلمين، ومن شاء فليعط خمسين أوقية في النصراني» يشير إلى مبلغ قيمة النصراني في الغنيمة، فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك أكثر من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان وكان مريضاً» اهـ.

وقال في «النزهة»: «إن النصارى لما برزوا من طنجة شنوا الغارة على السواحل، فأعلم أهلها السلطان أبا مروان، وكان بمراكش، وشكوا إليه كلب العدو عليهم، فكتب السلطان أبو مروان من مراكش إلى الطاغية: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة فإن ثبت إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي شجاع. وإلا فأنت كلب ابن كلب» فلما بلغه الكتاب غضب، واستشار أصحابه هل نقيم حتى يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا، فقال له محمد بن عبد اللّه: «الرأي أن نتقدم ونملك تطاوين والعرايش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوى بما فيها من الذخائر» فأعجب ذلك الرأي أهل الديوان ولم يعجب الطاغية. وكتب السلطان أبو مروان لأخيه أبي العباس أحمد، وكان نائبه على فاس وأعمالها، أن يخرج بجيوش فاس وأحوازها ويتهيأ للقتال، ثم كتب إليه أيضاً في شأن مؤنة الجيش كتاباً يقول فيه: «من عبد اللّه المعتصم بالله المجاهد في سبيل الله أمير المؤمنين أبي مروان عبد الملك بن أمير المؤمنين أبي عبد اللّه محمد الشيخ الشريف الحسني أيد الله أمره وأعز نصره إلى أخينا الأعز الأنجب بابا أحمد ابن مولانا الوالد حرس الله كريم إخائه سلام كريم ورحمة الله وبركاته أما بعد: فإنا كتبناه إليكم من محلتنا السعيدة بتامسنا ولا زائد بحمد الله إلا الخير والعافية والنعم الضافية، هذا وإنه ساعة وصوله إليكم تخرجون من الخدام لعمالة مكناسة وقبيلة آزمور وأولاد جلول من يفرض عليهم علف محلتنا المنصورة ومؤنتها ويأمرهم برفعه وإبلاغه إلى مدينة سلا، وقدر ذلك صحفة شعير، وعشرون مدّاً من القمح لكل نائبة وصاع من سمن وكبش لكل أربع نوائب، ووكد عليهم رعاك الله أن يعتنوا بذلك، وبإيصاله إلى المكان المذكور من غير عطلة وهذا ما وجب به الإعلام إليكم والله يرعاكم بمنه والسلام» اهـ.

ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية، وذلك بعد ما وصل إلى القصر: إني رحلت إليك ست عشرة مرحلة أما ترحل إلى واحدة، فرحل الطاغية من موضع يقال له: تاهدارت، ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة، وكان ذلك من السلطان أبي مروان مكيدة، ثم إن الطاغية تقدم بجيوشه، وعبر جسر الوادي ونزل من هذه العدوة فأمر السلطان بالقنطرة أن تهدم، ووجه إليها كتيبة من الخيل فهدموها، وكان الوادي لا مشرع له سوى القنطرة، ثم زحف السلطان أبو مروان إلى العدو بجيوش المسلمين، وخيل الله المسومة، وانضاف إليه من المتطوعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة، وأقبل الناس سراعاً من الآفاق، وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل، فكان ممن حضره من الأعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وغيره.

قال في «المرآة»: «كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين، وأظنه الميسرة، من عسكر المسلمين في مقابلة النصارى دمرهم الله، قال: فوقع في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى دمرهم الله فثبت الشيخ وثبت من كان معه إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، والشيخ لم يتزلزل، ولم يلتفت منذ توجه إلى قتالهم حتى فتح الله عليهم» اهـ.

ولما التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم إلى بعض وحمي الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب على ساق توفي السلطان أبو مروان رحمه الله عند الصدمة الأولى، وكان مريضاً يقاد به في محفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ أنه لم يطلع على وفاته أحد إلا حاجبه مولاه رضوان العلج، فإنه كتم موته، وصار يختلف إلى الأجناد ويقول: «السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً أن يلزم الراية، وفلاناً يتقدم، وفلاناً يتأخر».

وقال شارح «الزهرة»: لما توفي السلطان أبو مروان لم يظهر الذي كان سائس المحفة موته، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو، ويقول للجند: «السلطان يأمركم بالتقدم إليهم». وعلم أيضاً بموته أخوه، وخليفته أبو

العباس أحمد بن الشيخ فكتمها، ولم يزل الحال على ذلك، والناس في المناضلة والمقاتلة ومعانقة القواضب، والاصطلاء بنار الطعان، واحتساء كؤس الحمام إلى أن هبت على المسلمين ريح النصر، وساعدهم القدر، وأثمرت أغصان رماحهم زهر الظفر، فولى المشركون الأدبار. ودارت عليهم دائرة البوار، وحكمت السيوف في رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار، وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتغال غريقاً في الوادي، وقصد النصارى القنطرة فلم يجدوا إلا آثارها فخشعت نفوسهم، وتهافتوا في النهر تهافت الفراش على النار، فكان ذلك من أكبر الأسباب في استئصالهم، وأعظم الحبائل في اقتناصهم ولم ينج منهم إلا عدد نزر وشرذمة قليلة.

وقال في «المنتقى المقصور»: «كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة الوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى إنها أشبه شيء بغزوة بدر. حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب البدري عمن يثق به أن الرجل من حاضري ذلك المعترك كان يستبق إلى النصراني لينتهز فيه الفرصة فما يصله حتى يجده ميتاً» اهـ.

وبحث في القتلى عن محمد بن عبد اللّه المستصرخ بهم والقائد لهم إلى مصارعهم فوجد غريقاً في وادي المخازن، وذلك أنه لما رأى الهزيمة فر ناجياً بنفسه واضطر إلى عبور النهر فتورط في غدير منه وغرق فمات، فاستخرجه الغواصون وسلخ وحشي جلده تبناً وطيف به في مراكش وغيرها من البلاد.

وممن وجد صريعاً في القتلى يومئذ الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن عسكر السريفي الشفشاوني صاحب «الدوحة»، فإنه كان هرب مع المسلوخ، وكان من بطانته، فدخل معه بلاد العدو، فوجد بين جيف النصارى قتيلاً، وتكلم الناس في أمره، حتى قيل: إنه وجد على شماله مستدبر القبلة، وفيه يقول الفقيه العلامة أبو عبد اللّه محمد ابن الإمام الشهير أبي محمد عبد اللّه الهبطي رحمه الله في منظومته التي نظم فيها أصحاب أبيه معتذراً عن ابن عسكر المذكور ومشيراً إلى توهين ما قيل فيه:

ومنهم الشيخ الذي لا ينكر   محمد أخو الدهاء عسكر

وإن يكن أتى بذنب ظاهر فعرضه من الشكوك طاهر
رأيته في النوم ذا بشاره وهيئة حسنة وشارة

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة، ويوافقه من التاريخ المسيحي اليوم الرابع من أغشت سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة.

قال في «المنتقى»: وكان مقدار زمان المقاتلة خمساً وأربعين درجة وقيل: اثنتين وخمسين على ما حدثني به بعض الميقاتيين.

وقال في «المرآة»: وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب إذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة إلا أن الغنيمة لم تقسم، وإنما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوي. وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره. وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ.

وقد حضر الشيخ أبو المحاسن هذه الغزوة وأبلى فيها بلاءً حسناً وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشيء وبلغت قيمة النصراني ما ذكره الشيخ، وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها على الوجه المشروع موت السلطان أبي مروان قبل هزيمة النصارى، وكان مريضاً، فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتبل بأمر الغنيمة فتم له ما قصد.

وقد ساق منويل في تاريخه خبر هذه الوقعة مساقاً حسناً فقال: لما استولى عبد الملك السعدي المدعو عند أهل المغرب بمولاي ملوك على ملك المغرب، وطرد ابن أخيه مولاي محمد المعروف بالأكحل يعني: المسلوخ، ذهب أولاً إلى إصبانيا، وتطارح على طاغية الإصبنيول فيليب الثاني في أن يعينه على استرجاع ملكه فامتنع ثم دخل أشبونة وتطارح على طاغية البرتغال سبستيان فأجابه، وذهب إلى خاله طاغية الإصبنيول فيليب المذكور آنفاً وطلب منه الإعانة على ما هو بصدده، فوعده بأن يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش، لأنه كان يرى أنها تعدل سائر

مراسي المغرب، ثم أمده بعشرين ألفاً من عسكر الإصبنيول، وكان سبستيان قد ساق معه اثني عشر ألفاً من البرتغال وثلاثة آلاف من الطليان، ومثلها من الألمان، ومن متطوعة الإصبنيول وغيرهم عدداً كثيراً، وبعث إليه البابا صاحب رومة بأربعة آلاف أخرى؛ وبألف وخمسمائة من الخيل واثني عشر مدفعاً وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء إلى قادس.

ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت إليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه في الرجوع فصم عنهم وكذلك خاله فيليب حذره عاقبة التوغل في أرض المغرب فصم على ذلك كله، وجاء إلى قادس ومنها خرج إلى طنجة.

وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفوا إلى بلاد المغرب، وزحف إليهم السلطان عبد الملك في عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفاً وزيادة، ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعاً، وقواد الجيش: أبو علي القوري، والحسين العلج الجنوي، ومحمد أبو طيبة، وعلي بن موسى، وأخوه أحمد بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش، فجاء في جمعه إلى السلطان عبد الملك وانضم إليه، ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم، ثم استدعى النصارى إلى القتال، ونصب لهم علامته، فأحجموا وكان قصدهم المطاولة، وقصد السلطان عبد الملك المناجزة، وذلك لأن محمد المسلوخ قد دس إليه من سمه.

قال منويل: ولما أحس عبد الملك بذلك، وأنه لا محالة هالك، بذل نفسه للقتال ليموت في الجهاد، وكان المسلوخ يتربص كي يهلك عمه قبل اللقاء فتقع الفتنة في عسكر المسلمين، لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطاولون بها فألجأهم ذلك إلى المناجزة، ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك للحين.

قال منويل: وكان أمر هذا الرجل عجباً في الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه، كأنه يشير إلى جيشه أن يسكتوا عن الخوض في وفاته حتى يتم أمرهم، ولا يضطربوا، وكذلك كان، فإنهم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفراً لا كفاء له، فكانوا يذبحونهم مثل

الكباش ودهش النصارى وتكبكبت جموعهم، وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب، وزادهم دهشاً أن بعض طوابيرهم كان ينادي صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو، ووقدت النار في بارود النصارى فنفط، وانهزموا إلى وادي المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقي أسره المسلمون.

وزعم أن سبستيان هلك تحته في ذلك اليوم أربعة أفراس، وكان شاباً حدثاً، وقال لأصحابه: «إن تروني تروني أمامكم وإن لم تروني فأنا في وسط العدو أقاتل عنكم» قال: وأبدأ وأعاد في ذلك اليوم إلى أن خر قتيلاً، وبقي مذكوراً عند البرتغال يسمرون بأخباره، وذكره شعراء الأوربا في أشعارهم، ولا زالوا يذكرونه إلى الآن.

وخلفه في ملكه الطاغية الريكي البرتغالي فهو الذي ولي بعده وافتدى جنازته من المسلمين ونقلها إلى سبتة فبقيت هنالك إلى أن هلك الطاغية الريكي، وتولى على البرتغال طاغية الإصبنيول فيليب الثاني، فصار ملك الدولتين معاً، وهو خال سبستيان أخو أمه فنقل جنازته من سبتة إلى أشبونة، ثم أرخ منويل الوقعة بالتاريخ العربي والعجمي موافقاً لما مر فهذا ما ذكره في هذه الوقعة.

قال في «النزهة»: توفي السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ في زوال اليوم المذكور، وبايع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتي إن شاء الله.

قال في «درة الحجال»: «فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك يوم واحد، وهم: أبو مروان بن الشيخ، وولد أخيه محمد بن عبد اللّه المسلوخ، والطاغية سبستيان، وأقام واحداً وهو أبو العباس المنصور» اهـ.

قلت: وفي إهلاك الثلاثة وإقامة الواحد إشارة واضحة لإهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد في ذلك اليوم والله تعالى أعلم.

ولما بلغت الهزيمة إلى الطاغية الأعظم، أعني القائم بالأمر بعد سبستيان لأن التحقيق أنه كان الأعظم يومئذ لما مر، بعث إلى المنصور بعد استقلاله

بالملك وعوده إلى فاس كما سيأتي يلتمس منه الفداء فيمن بقي بيده من الأسارى، فأجابه إلى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة. وذكر بعضهم أن الأسارى لما ذهبوا إلى بلادهم قال الطاغية: «لم لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل أن يصل ملكهم؟» فقالوا له: «امتنع من ذلك الأمير الذي كان علينا». فأمر بهم فأحرقوا جميعاً.

مضحكة: قال في «النزهة»: «ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفنى من فنى منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أود ملتهم أخزاهم الله» اهـ.

وقد وقفت على تاريخ لبعض مؤرخي الفرنج الإنجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الوقعة وصرح بأنها كانت سبب هلاك البرتغال وتلاشي دولتهم وبطلان كرسي سلطنتهم حتى استضافهم إليه طاغية الإصبنيول بعد نحو سنتين وصيرهم من جملة رعيته، ومن فصول كلامه بعد أن ذكر أن أكثر البرتغال قتلوا في ذلك اليوم ما نصه: «وكانت يعني الوقعة المذكورة وقعة هائلة ويوماً مشؤوماً. وبالجملة فقد قتل في ذلك اليوم سائر أشراف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد فلما بطل كرسي سلطنتهم قام وقتئذ فيليبس الثاني ملك إصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها» اهـ كلامه. إلا أنه ذكر أن السبب في استغاثة السلطان محمد بن عبد اللّه بالبرتغال هو تغلب الإصبنيوليين على مملكته وانتزاعها من يده وهو كذب أو غلط، ولعله تصحف عليه لفظ الإصطنبوليين بالإصبنيوليين، إذ قد تقدم أن السلطان أبا مروان إنما استولى على المغرب بجيش الترك المنفذ من قبل السلطان سليم العثماني والله أعلم.

وقد ألم بهذه الوقعة أيضاً لويز مارية في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته في السكوت عن ما يكون من الظهور في جانب المسلمين وإشاعة ما يكون من ذلك في جانب النصارى بل

والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال في وصفها كلاماً هذه ترجمته: «وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت هو العصر النحس البالغ في النحوسة الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال وانطفأ مصباحهم بين الأجناس وزال رونقهم وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والربح وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب» اهـ. فهذا كلام هذا البرتغالي قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هي ليعتبر به من يقف عليه «والحق ما شهدت به الأعداء».

ولما تمت للسلطان أبي العباس المنصور البيعة بوادي المخازن طالبه الجيش بأرزاقهم واستنجزوا أعطياتهم حسبما جرت به عادة من قبله معهم فطالبهم هو بخمس الغنيمة لأنهم جعلوها نهبى ولم يقتسموها على الوجه الشرعي كما سبق فصعب استخراجها منهم لعدم التعيين وجرأة الناس على الغلول فسامحهم فيها وسامحوه في عطائهم.

ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات إلى الآفاق بهذا الفتح المبين فكتب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليهم من إظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم في نحرهم فوردت عليه الأرسال من سائر الأقطار مهنئين له بما فتح الله على يده حسبما نذكره بعد إن شاء الله.

بقية أخبار السلطان أبي مروان وسيرته

قال ابن القاضي: «كان سبب وفاة السلطان أبي مروان رحمه الله أنه سقي سماً، وذلك أن قائد الترك الذين كانوا معه، واسمه رمضان العلج، بعث إلى بعض قواده أن يتلقاه بكعك مسموم هدية للسلطان المذكور وقت مرورهم عليه، وقصد بذلك قتله، وذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت لهم الملك بها فلم يكمل الله مرادهم لما شهدوه من عظيم جيش المغرب فهذا كان سبب موته رحمه الله» اهـ. ولما توفي حمل إلى مراكش فقبر بها، وكانت مدة

خلافته أربع سنين، ومن حجابه: القائد رضوان العلج. وكتابه: محمد بن عيسى، ومحمد بن عمر الشاوي، وقضاته: قضاة ولد أخيه.

وكان يتزيا بزي الترك ويجري مجراهم في كثير من شؤونه. وكان يتهم بالميل إلى الأحداث وربما كان يظهر ذلك، وكان أخوه أبو العباس المنصور خليفته على فاس كما مر، وكانت له فيه محبة تامة، وكان يظهر أنه ولي عهده ويرشحه لذلك كثيراً حسبما أفصحت عنه رسائله التي كان يبعث بها إليه.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث:

ففي سنة ثمان وعشرين وتسعمائة كان الوباء بالمغرب كما قدمنا.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة نزل مطر غزير بمراكش حتى امتلأت منه الآبار وتهدمت الدور وصار الناس يؤرخون بعام الآبار.

وفي سنة إحدى وستين وتسعمائة توفي الشيخ أبو محمد عبد اللّه بن ساسي من أولاد أبي السباع ودفن بزاويته على ضفة وادي تانسيفت من أعمال مراكش، وقبره مزارة مشهورة وعليه بناء حفيل.

وفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة توفي الشيخ الإمام أبو محمد عبد اللّه ابن محمد الصنهاجي الطنجي المعروف بالهبطي، وكانت وفاته في ذي القعدة من السنة المذكورة، وكان رحمه الله من أهل الورع والدين والاتباع للسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن فوائده ما حكاه عنه في «الدوحة» قال: «سألت شيخنا الإمام أبا محمد عبد اللّه الهبطي عن الشيخ أبي محمد الغزواني، وكان من أصحابه، فقلت له: يا سيدي ما لسائر المشايخ من أصحاب الشيخ الغزواني كأبي الحجاج التليدي وأبي البقاء اليالصوتي وأبي الحسن علي بن عثمان وغيرهم يصرحون بقبطانية الشيخ وينسبونك أنت إلى التقصير في حقه حيث لم تقل بما يقولونه؟»، فقال لي رضي الله عنه: «قد علمت معنى الشهادة في الشرع ما هي»، فقلت: «نعم» فقال لي: «كيف لي أن أشهد لأحد بمقام معين وأنا لم أسلكه ولم أتحققه ولم يكشف لي عنه فإن فعلت فقد شهدت شهادة الزور فقلت له: «وأي شهادة تشهد في الشيخ؟»

فقال لي: أشهد أنه من العارفين بالله تعالى وأنه كان يجيب بالحال أكثر مما يجيب بالمقال» انتهى. قلت: وهذا شأن أهل الدين والورع المحتاطين لدينهم لا يقدمون على أمر ولا يتفوهون به حتى يكونوا منه على بصيرة، وتجد كثيراً ممن عقله وراء لسانه يتقولون على الله في غيبه ويخبطون خبط العشواء وينسبون المقامات والأحوال لمن ليس منها في قبيل ولا دبير نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا بمنّه.

وفي سنة أربع وستين وتسعمائة في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان منها كسفت الشمس الكسوف الكلي العظيم.

وفي سنة خمس وستين وتسعمائة كان بالمغرب وباء عظيم كسا سهله وجباله، وأفنى كماته وأبطاله واتصل أمره إلى سنة ست وستين بعدها.

وفي سنة إحدى وسبعين وتسعمائة توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الجزولي ثم السملالي الشهير ببلاد السوس أخذ عن الشيخ أبي فارس عبد العزيز التباع، والشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي ثم الملياني.

وفي سنة ست وسبعين وتسعمائة ليلة عيد الأضحى منها توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمٰن بن عياد الصنهاجي ثم الفرجي الدكالي المعروف بالمجذوب الولي المشهور دفين مكناسة الزيتون، كان مأوى سلفه بمدينة تيط قرب آزمور ثم رحل هو ووالده إلى مكناسة فمات بها.

وفي سنة سبع وسبعين وتسعمائة بعد صلاة الجمعة من أول يوم من المحرم منها زلزلت الأرض زلزالاً شديداً وفزع الناس لذلك، وفي هذه السنة في الحادي والعشرين من ربيع الأول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد اللّه بن حسين من شرفاء بني آمغار دفين تامصلوحت وقد تقدم ما جرى بينه وبين السلطان الغالب بالله.

وفي سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وذلك أواخر شوال منها الموافق لأواسط مارس العجمي حدث بالمغرب جراد كثير؛ وفي أيام السلطان الغالب بالله ظهر نجم لم يكن معهوداً، ثم ظهرت في أيام ابنه محمد بن عبد اللّه أعلام حمر في الجو من الناحية الشرقية تبعتها في الأرض أجناد الترك التي

جاء بها السلطان أبو مروان من الجزائر كما مر. وفي أيام السلطان أبي مروان المذكور ظهر الكوكب ذو الذنب الكبير في برج العقرب وطلع أياماً ثم غاب وظهر بعده كوكب آخر ذو ذنب أصغر منه وعلى أثره كان خروج البرتغال من طنجة ووقعة وادي المخازن كما مر؛ والله تعالى أعلم بغيبه.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف بالذهبي وأوليته ونشاته

كانت ولادة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبي عبد اللّه الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، وأمه: الحرة مسعودة بنت الشيخ الأجل أبي العباس أحمد بن عبد اللّه الوزكيتي الوارززاتي، وكانت من الصالحات الخيرات وستأتي بقية أخبارها.

وذكر في «المنتقى» قال: مرض المنصور في صغره مرضاً شديداً حتى أيس منه، فرأت أمه في النوم شخصاً يقول لها: أزيريه الشيخ أبا ميمونة فإنما أصابته عين فأزارته إياه فعوفي، وكان أبوه المهدي ينبه على أنه واسطة عقد أولاده.

قال في «مناهل الصفا»: حدثني الشيخ المسن القائد أبو محمد مؤمن ابن الغازي العمري أن المنصور أقبل يوماً في حياة أبيه، وهو صبي والمجلس غاص بالأكابر، فاندفع يخترق الصفوف، قال: فصاح بي المهدي إذ ذاك، وأنا أصغر القوم، فقال: «يا مؤمن، ارفعه فسينفعك أو ينفع عقبك» فابتدرت حمله، وكان كذلك، فإن المنصور لما أفضت إليه الخلافة كان القائد مؤمن ابن الغازي عنده بالحظوة الرفيعة والمنزلة العالية.

ونشأ المنصور رحمه الله في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة لأهله عليه، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من لدن عقدت عليه التمائم إلى أن تم أمره. حدثنا الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن

محمد بن علي الجزولي الدرعي أنه اجتمع ببعض أهل المكاشفة بمصر فسأله عن السلطان أبي عبد اللّه الشيخ وأولاده، قال: فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لأنه كان أصغرهم سناً يومئذ». فقال لي: «بقي منهم من لم تذكره» فقلت له: «أحمد» فقال: «ذاك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم» فكان كذلك.

وقال الشيخ أبو فارس عبد العزيز الفشتالي: «لما أخذ المهدي البيعة لولده السلطان الغالب بالله كما تقدم استقدمه من فاس وأوصاه بالمنصور جداً، وقال له: «إن الفائدة فيه» أو كما قال. وهكذا كان ينبه على أنه واسطة عقد أولاده: وكان المنصور رحمه الله يحدث أنه رأى النبي ﷺ في النوم، وأنواره تشرق، قال: فوقع في نفسي أن أسأله عن نصيبي من الخلافة فكاشفني عليه الصلاة والسلام بما في خاطري، وأجابني بما حقق لي نيلها، ثم أشار لي بأصابعه الثلاثة الشريفة ضاماً الإبهام منها إلى السبابة والوسطى وقال أمير المؤمنين» اهـ.

وقال الإمام أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد التامنارتي في كتابه «الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة»: «أخبرني الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد اللّه الدغوغي صاحب «الحسبة» بتارودانت أنه رأى في منامه كأنه في حلقة يسرد فيها صحيح البخاري بموضع من دار الخلافة بها، وأبو العباس المنصور يومئذ بها، وذلك قبل ولايته، قال: فرأيت في طرة الكتاب هذا اللفظ: «ورى الزند» فكنت أتأمل معناه فالتفت فإذا برجل انعزل ناحية على طنفسة فوقع في نفسي أن أسأله فأتيته بالكتاب وقلت له: يا سيدي، ما معنى هذه الكلمة التي في طرة هذا الكتاب؟» فقال لي: «قل لمولاك أحمد: أنا الذي أوريت زندك ما دمت على الحق فإن عدلت عنه فأنا بريء منك». فقلت له: «ومن أنت يا سيدي؟» فقال لي: «رسول الله ﷺ»، لم يمض إلا قليل حتى ولي الخلافة وحمدت سيرته، قال أبو زيد: «وناهيك بزند أوراه النبي ﷺ وهذا يدل على أن ولاية الإسلام لا تنعقد إلا بأمر النبي ﷺ وقد اشتهرت المرائي بذلك».

ويقرب من هذا ما ذكره صاحب «ابتهاج القلوب في مناقب الشيخ المجذوب»: «أن الشيخ الصالح أبا عبد اللّه الملقب بكدار ابن الشيخ أبي زكرياء يحيى بن علال المالكي البوخصيبي رأى النبي ﷺ يوماً فشكا إليه أولاد مطاع لما رآهم عليه من الفساد في الأرض، فقال له النبي ﷺ: «يأتيهم أحمد»، فكان كذلك أتاهم عقب ذلك السلطان أبو العباس المنصور فأخذهم وفل جمعهم» اهـ. وأخبار المنصور من هذا النمط كثيرة.

وكان رحمه الله طويل القامة ممتلى الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلج، براق الثنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل.

وكانت بيعته بعد الفراغ من قتال النصارى بوادي المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة، واجتمع عليها من حضر هناك من أهل الحل والعقد، ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن، ثم بعث إلى مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة، وسارعوا إلى الدخول فيما دخلت فيه الجماعة.

قال الفشتالي: لما كانت وقعة وادي المخازن ونصر الله دينه وكبت الكفر وأهله واستوسق الأمر للمنصور كتب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وهو يومئذ السلطان مراد بن سليم العثماني وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به عليه من إظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شأفتهم، فوردت عليه الأرسال من سائر الأقطار مهنئين له بما فتح الله على يده: وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر، ثم تلته أرسال طاغية البرتغال، وهو الريكي القائم بأمرهم بعد هلاك سبستيان، وليس خاله وإنما خاله طاغية الإصبنيول فيليب الثاني الذي جمع المملكتين معاً بعد هلاك الريكي المذكور وبعد وقعة وادي المخازن بثلاث سنين فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم إلى فاس على الكراريص والعجل، فعجب الناس منها

عجباً بليغاً، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وكان من جملة ما فيها ثلاثمائة ألف دكات من ريال الفضة، وأما الطرف النفيسة والأثاث الرفيع فشيء لا يحصى، ثم وردت أرسال طاغية الإصبنيول صاحبة قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التي انتزعها الطاغية من تاج آبائه، وصنيديق مملوء من الدر الفاخر، وقضب الزمرد وغير ذلك، وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعني هدية البرتغالي وهدية الإصبنيولي أيهما أعظم، ولم يهتد أهل العقل والمعرفة إلى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت أرسال السلطان مراد العثماني ومعهم هدية وهي: سيف محلى لم ير مثله مضاء وصفاء متن، ثم قدمت أرسال طاغية أفرانسة ومعهم هدية عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة بباب المنصور، والأرسال تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور، إلى أن لم يبق أحد ممن تتشوف النفوس إليه وحينئذ اطمأنت بالمنصور الدار وطاب المقام وتم القرار.

وفي جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وتسعمائة مرض المنصور مرضاً مخوفاً وطال به حتى كادت الأمور تختل ثم تداركه الله على يد الحكيم الماهر أبي عبد اللّه محمد الطبيب، ولما أبل من مرضه أحسن إلى الطبيب المذكور ونثر عليه يوم خروجه من الخلع ما لا يحصى، وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً، وفي ذلك يقول الفقيه الأديب أبو عبد اللّه محمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة:

تردى أذًى من سقمك البر والبحر ... وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفاً عليك مسهداً ... وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر
فلما أعاد الله صحتك التي ... أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بزينة حسنها ... وعاد إلى إبانه ذلك البشر
وصار بك الإسلام في كل بلدة ... يهني ويدعي أن يطول لك العمر
وصحت لنا الآمال بعد اعتلالها ... وعادت إلى الإيناع أغصانها الخضر
ولا غرو إن صامت على سمط الندى ... إذا اغبر وجه الأرض واحتبس القطر
لبيت أبي العباس أنضت عجافها ... قديماً فخافت أن يعاودها الضر
لئن صدئت بيض المعالي لقد غدت ... تسيء الكماة البيض واللدن السمر

بقيت لهذا الدين تحمي ذماره ويحميك رب العرش ما بقي الدهر

عقد المنصور ولاية العهد لابنه محمد الشيخ المدعو المأمون

قال الفشتالي: لما أبل المنصور من مرضه المذكور وعاد إلى حاله من الصحة أجمع رأي أعيان الدولة واتفقت كلمة كبرائها على أن يطلبوا منه تعيين من يلي الأمر بعده ويكون ولي عهده، وكان المنصور مهيباً لا يقدر أحد على مواجهته بمثل هذا فاتفقوا على أن يكون البادئ لذلك القائد المؤمن بن الغازي العمري لما له من الإدلال على المنصور بطول الخدمة وسالف التربية فقال له القائد المذكور: «يا مولانا، الله تعالى حفظ الإسلام بإبلالك من هذا المرض وعصم الدين بإبقائه عليك وقد بقي الناس في أيام سقمك في حيرة عظيمة ودخلهم من الدهش ما لا يخفى عليك فلو عينت لنا من أبنائك القساورة من تجتمع كلمة الإسلام عليه، ويشار بالخلافة إليه، لكان أولى وأليق بسياسة الملك، وإن ابنك الأبر أبا عبد الله محمد المأمون حقيق بذلك، وجدير بسلوك تلك المسالك، لما فيه من خلال الخير وخصال السيادة، زيادة على ما هو عليه من التيقظ في أموره والحزم في شؤونه، وقد ظهرت للناس محاسن سيرته، واطلعوا على جميل سريرته» فاستحسن المنصور ذلك وأعجبه ما أشار عليه به، فقال له: «سوف أستخير الله في ذلك فإن يكن من عند الله يمضه» قلت: هذا الذي حكاه الفشتالي على لسان القائد مؤمن في حق المأمون المذكور هو بخلاف الواقع كما ستقف عليه من أحوال المأمون بعد هذا إن شاء الله، ولكن المؤرخين والشعراء يمدحون ويقدحون بحسب أغراضهم لا بحسب الواقع غالباً، لا سيما إذا كان من يعنونه بذلك مخدوماً لهم ومنعماً عليهم، فلا ينبغي لمن وقف على كلام هؤلاء الصنف منهم أن يعتمد عليه إلا بعد التثبت والتبصر والله تعالى الهادي إلى الصواب بمنه. ثم لبث المنصور بعد هذه الإشارة أيام يستخير ربه في ذلك ويستشير من يعلم أهليته للمشورة من أهل العلم والصلاح، فلما انقضت أيام الاستخارة وتواطأت الآراء على حسن تلك الإشارة، جمع المنصور أعيان حاضرة مراكش وأعيان مدينة فاس

وغيرهم من أشياخ القبائل بوجوه الناس من أهل الحواضر والبوادي، وأوصى بالعهد لولده المذكور أبي عبد الله محمد المأمون، وذلك يوم الاثنين منسلخ شعبان سنة سبع وثمانين وتسعمائة.

وكان المأمون إذ ذاك خليفة أبيه على فاس فلم يحضر هذه البيعة فبعث إليه المنصور بعد ذلك ليقدم من فاس ويبايع بحضرته، ولم يقنعه ما كان عقد له من البيعة وهو غائب، ولما بعث إليه خرج المنصور بعسكره إلى تانسيفت خارج مراكش ثاني عشر صفر سنة تسع وثمانين وتسعمائة، ولم يزل بعسكره هناك متلوماً ومنتظراً لقدوم المأمون إلى أن قدم غرة جمادى الثانية من السنة المذكورة، فكانت ملاقاتهما من عجائب الزمان، ولما اصطف جيش المنصور وجيش المأمون ترجل المأمون عن فرسه وتقدم حافي القدم فعفر وجهه بين يدي والده ثم قبل رجله، والمنصور على فرسه واقفاً بين الصفين، فدعا له بخير وأظهر الفرح بمقدمه، وكان المأمون قد عبأ جيشه تعبية لم ير مثلها ورتبهم ترتيباً حسناً في لباسهم وسائر أمورهم، فسر المنصور بذلك، وبعد أيام من بلوغه أمر به فأجلس في سرادقه الأعظم الذي لم يكن للملوك قبله مثله كما سيأتي، وأمر أهل الحل والعقد فازدحموا على تقبيل يده واقتضيت منهم الأيمان بحضرته، وقام الشعراء فأفصحوا عن وصف الحال، وغمر المنصور الناس بالنوال، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً، وبعد أيام منه أمر المنصور المأمون أن يرجع إلى حضرة فاس فرجع ودخل المنصور حضرته وتم غرضه الذي قصده.

ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ والسبب في ذلك

قال الفشتالي: لما وقعت البيعة للمأمون وتكامل أمرها ثار الرئيس الأجل أبو سليمان داود بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ، وهو ابن أخي المنصور، وفر إلى جبل سكسيوة وشق العصا ودعا إلى نفسه، فانثالت عليه أوشاب من البربر وغيرهم، ونجم أمره وأثرت في إذن الرعية جعجعته، فبعث إليه المنصور قائده الزعيم أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن بجة فناوشه

القتال بجبل سكسيوة فهزمه، وفر إلى جبل هوزالة فتحزبوا عليه، وقويت بهم شوكته، وأخذ يشن بهم الغارات على أهل درعة إلى أن ضاقوا به ذرعاً فشكوا أمره إلى المنصور فبعث إليه قائده الذي ذكر فلم يزل في مقابلته ومقاتلته إلى أن شرده عن جبل هوزالة ففر داود منه إلى الصحراء، واستقر به الرحيل بها عند عرب الودايا من بني معقل فلم يزل عندهم إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وتسعمائة وكفى المنصور أمره.

حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثماني وتلافي المنصور لذلك

قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور إلى السلطان سليمان العثماني وتطارحهما عليه حتى أمدهما بالجيش الذي كان سبباً في تملكهما المغرب، ولما صفا الأمر لعبد الملك أهمل جانب العثماني ولم يكاتبه بشيء ولا عرج عن ساحته، ثم لما ملك المنصور وكتب إلى النواحي بخبر وقعة وادي المخازن كتب إلى السلطان مراد في جملتهم فبعث السلطان المذكور إلى المنصور بالهدية التي تقدم ذكرها وكان المنصور استقلها وأنف منها، فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته، وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سبباً للنفرة، وكان وزير البحر للعثماني، واسمه الرئيس علي علوج، يبغض المنصور فلم يزل يسعى به عند سلطانه ويذكره ما كان من أبيه الشيخ من القدح في ولاية الترك والطعن عليهم، وقال له في ذلك: «قد ضاع صنيعك في هذا الغادر وصنيع والدك من قبلك» ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب ويهون عليه أمر المغرب حتى أذن له في توجيه العمارة إليه ومنازلته والأخذ بآفاقه إلى أن يستأصل أمر المنصور ويخمد جمرته، ويقال: إن السلطان مراداً أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة إلى الجزائر فتكون هنالك ثم يتقدم بالعساكر في البر إلى المغرب، فأخذ الوزير في التأهب لذلك واتصل الخبر بالمنصور على يد بعض قناصل

النجليز، فارتحل إلى فاس من حينه وشحن الثغور وملأ المراسي، وكان على أهبة وكمال استعداد، وبعث أرساله إلى السلطان المذكور بهدية عظيمة تلافياً لما فرط واعتذاراً عما سلف. وكان من جملة أرساله القائد الأنجد أبو العباس أحمد بن ودة العمراني، والكاتب الشهير أبو العباس أحمد بن يحيى الهوزالي، فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى، وبينما هم في أثناء الطريق على ثبج البحر لقيهم الوزير علوج في أسطوله قاصداً ديار المغرب عازماً على منازلة المنصور به، فلما رآهم سقط في يده، وأيقن بخيبة مسعاه، فرام صدهما عما قصدا إليه وأيأسهما من تدارك الأمر، وقال لهما: «إن الخرق قد اتسع على الراقع ولو كان لصاحبكم غرض في المسألة ما بقي أصحابنا بأبوابه كالكلاب والبادي أظلم» فلم يزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة إلى أن صرفه عن رأيه ورده معه، وترك الهوزالي يبلغ الرسالة والهدية ظناً منه أنه صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام، وابن ودة الذي كان عنده مظنة لكمال التدبير ومثافنة الملوك رده معه، فلما انتهى الهوزالي إلى السلطان مراد ودخل عليه أظهر من نبله ولطف مخاطبته ما خلب به قلب السلطان المذكور، واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مخدومه، ولا يفيد غلبة خصمه، فقبل السلطان مراد الاعتذار، وتقبل الهدية بقبول حسن، وكتب مع الهوزالي إلى الوزير علوج بالرجوع عن منازلة المنصور، فرجع بها الهوزالي يطير سروراً، ولم يغب عن علوج إلا نحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملك، فقرع لها علوج سن الندم، وأسف على تفريطه في الهوزالي وتركه، وبعث السلطان مراد رسله مع الهوزالي إلى المنصور يلومه على التراخي في أمور الملوك فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين إلى مرسلهم، وبعث معهم الفقيه الإمام قاضي الجماعة بحضرة مراكش أبا القاسم ابن علي الشاطبي، والقائد الأنجد أبا زيد عبد الرحمٰن بن منصور الشيظمي المريدي، فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح، ورتب الشاطبي كلاماً بليغاً أعرب فيه عن فضل الدولتين، وقرر فيه حق أهل البيت وأطرى

المنصور وحض فيه على اتحاد كلمة الإسلام، وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز لسماعه، ثم بعد أيام أحسن إليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين إلى مرسلهم.

وقال صاحب «خلاصة الأثر»: كان المنصور موادعاً لسلاطين آل عثمان فيرسل إليهم بالهدايا في كل سنة وكانوا هم يرسلون إليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى إن السلطان مراد بن سليم كتب إليه أثناء مكاتيبه: «لك عليّ العهد أن لا أمد يدي إليك إلا للمصافحة، وإن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة» وكانت رسله دائماً تأتي إلى القسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زماناً طويلاً ويتعهدون الوزراء ومن له قرب من الدولة من جملتهم الرئيس الأديب محمد الأمين الدفتري، فقد ذكر صاحب «خلاصة الأثر» أن هذا الرئيس كان يجمع نفائس الكتب ويبعث بها إلى المنصور فبسبب ذلك كانت المراسلات بينهما غير منقطعة، وقد ذكر صاحب «خلاصة الأثر» في ترجمة الرئيس المذكور بعض تلك المراسلات فانظره.

ولما تكامل هذا الغرض، وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الأرسال في أحسن الأحوال عاد المنصور إلى مراكش، وفي يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها وقرئ البخاري بين يديه سرداً على عادة الخلفاء في ذلك، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة.

إيقاع المنصور بعرب الخلط والسبب في ذلك

قد قدمنا في أخبار الدولة المرينية ما كان لهؤلاء الخلط من الاعتزاز والدالة عليها بسبب ما كان لهم من الشوكة والمصاهرة مع ملوكها. ولما أدبرت دولة بني مرين واستولى على ملكهم أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي انحاشوا إليه وأظهروا الخدمة والنصيحة، فلما جاء أبو حسون الوطاسي بجيش الترك حسبما شرحناه قبل أوقعوا الهزيمة على المهدي لأبي

حسون كما مر، فلما غلب المهدي على المغرب وصفا له أمره خلعهم من الجندية، ووظف عليهم الخراج، ومحا اسمهم من ديوان الخدمة. ونقل أعيانهم إلى مراكش واتخذهم رهائن عنده، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المنصور فرأى جلادهم يوم وادي المخازن وحسن بلائهم، فاختار النصف منهم ورده إلى الجندية، وأبقى نصفهم الآخر في غمار الرعية ونقلهم إلى آزغار فاستوطنوه حيناً من الدهر ثم عاثوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع فنهبوهم وضايقوا بني حسن فكثرت الشكاية بهم إلى المنصور، فضرب عليهم سبعين ألفاً غرامة، فلم يزدادوا إلا عتواً وشدة، فأرسل إليهم ليبعثوا طائفة منهم إلى تيكورارين فامتنعوا من ذلك فحينئذ بعث إليهم القائد موسى بن أبي جمدي العمري فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجالة. ثم حكم السيف في رقابهم. واستأصل جمهورهم فمن ثم خضدت شوكتهم، ولانت للغامز قناتهم.

استيلاء المنصور على بلاد الصحراء
تيكورارين وتوات وغيرهما

لما استقر المنصور بمراكش مرجعه من فاس وأمن من هجوم الترك على المغرب طمحت نفسه إلى التغلب على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء وما انضاف إلى ذلك من القرى والمداشر، إذ كان أهل تلك البلاد قد انكفت عنهم أيدي الملوك ولم تسسهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر إلى ما يراد منهم، فسنح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم إلى أمر الله فبعث إليهم القائد أبا عبد الله محمد بن بركة، والقائد أبا العباس أحمد ابن الحداد العمري المعقلي، في جيش كثيف فقطعوا إليهم القفر من مراكش، وانتهوا إليهم على سبعين مرحلة منها، فتقدموا إليهم أولاً بالدعاء للطاعة والأعذار والإنذار فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم أياماً، ثم كان الظهور لجيش المنصور فأوقعوا بهم وأثخنوا فيهم إلى أن أذعنوا للطاعة. وصاروا في حزب الجماعة، وأنهى خبر الفتح إلى المنصور

فسر بذلك سروراً عظيماً وقال الشعراء في ذلك وعم الفرح بلاد المغرب، وكان ذلك سنة تسعين وتسعمائة وبعد هذا تشوفت نفس المنصور إلى الاستيلاء على بلاد السودان فكان من أمرها ما نذكره إن شاء الله.

òõõí úãÒ Ãõ ÆÒüúÌ úÍÖîà Òúéåúîè éÕ ÍÍúÓÍ ÒüÒÓÍ ÍÌ üÌ úÃòë úéÆúÍõ éÕ ÓÅú úòúîõö

اعلم أن هؤلاء السودان هم من نسل حام بن نوح عليه السلام باتفاق النسابين والمؤرخين، ويجاور البربر بأرض المغرب منهم أمم كثيرة من أعظمها أهل مملكة غانة وهم المتصلون بالبحر المحيط من جهة الغرب على مصب النيل السوداني فيه، وتتصل بهم من جهة الشرق أمة أخرى تعرف بصوصو بصادين أو سينين مهملتين مضمومتين، ثم بعدها أمة أخرى يقال لها: مالي، ثم بعدها أمة أخرى تسمى كوكو ويقال: كاغو، ثم بعدها أمة أخرى تعرف بتكرور ويقال لهم أيضاً: سغاي، ثم بعدها أمة أخرى تدعى كانم وهم أهل مملكة برنو المجاورة لإفريقية من جهة قبلتها. ثم بعدها أرض النوبة المجاورة لبلاد مصر وهكذا إلى آخر الشرق أمم لا يحصيهم إلا خالقهم.

فأما أهل مملكة غانة فقد كانوا في صدر الإسلام من أعظم أمم السودان أسلموا قديماً وكان لهم ملك ضخم، وكانت حاضرة ملكهم هي غانة وهي: مدينتان على ضفتي النيل السوداني من أعظم مدن العالم وأكثرها عمراناً ذكرها صاحب «نزهة المشتاق»، وصاحب «المسالك والممالك» وغيرهما.

وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في «شرح المقامات الحريرية» ما نصه: غانة بلد من بلاد السودان وإليها ينتهي التجار يعني من المغرب، والمدخل إليها من سجلماسة ومن سجلماسة إليها ذهاباً مسيرة ثلاثة أشهر ومن غانة إلى سجلماسة إياباً مسيرة شهر ونصف ودون ذلك. وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز إليها من سجلماسة بالأمتعة والأثقال فتباع في غانة بالتبر فمن سافر إليها بثلاثين حملاً يرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها،

حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل. فأثمان أحمال الثلاثين جملاً يجتمع فيها من التبر ما يجعل في مزود واحد فيطوون المراحل للخفة، قال: «وغانة بلد مملكة السودان وانتشر الإسلام في أهلها وبها مدارس للعلم وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر فيشترون بها خدماً للتسري ويقيمون بها عند أميرها في غاية الكرامة، والإماء فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح» اهـ.

وقال ابن خلدون: «كان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح».

وقال صاحب «نزهة المشتاق»: «أنه صالح بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال: ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد اللّه بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد» اهـ.

ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم في المائة الخامسة واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جهة الشمال مما يلي البربر، وزحف إليهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني فاتح المغرب ومستخلف يوسف بن تاشفين عليه حسبما مر ذلك في أخبارهم، فلما رجع الأمير أبو بكر إلى الصحراء غزا بلاد السودان وفتح منها مسيرة ثلاثة أشهر، واقتضى منهم الأتاوات وحمل الكثير منهم ممن لم يكن أسلم قبل ذلك على الإسلام فدا نوابه، ثم اضمحل ملك أهل غانة بالكلية وتغلب عليهم أهل مملكة صوصو المجاورون لهم واستعبدوهم وصيروهم في جملتهم. ثم إن أهل مالي كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم فغلبوا على صوصو وملكوا ما كان بأيديهم وبأيدي أهل غانة، ثم افتتحوا بلاد كوكو وأضافوها إلى ملكهم وصارت دولة مالي متصلة فيما بين غانة في الغرب وأرض التكرور في الشرق واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان. ومن

هذه الدولة كان السلطان منسا موسى بن أبي بكر، وأخوه منسا سليمان اللذان كان بينهما وبين السلطان أبي الحسن المريني من المهاداة والمواصلة ما تقدم ذكره. وكان مع السلطان منسا موسى المذكور الأديب الشاعر أبو إسحاق الطوبجن[1] الأندلسي الذي بنى له القبة المربعة العجيبة الصنعة البديعة النقش والتخريم التي أجازه عليها باثني عشر ألف مثقال من التبر وغير ذلك مما مر ذكره في أخبار الدولة المرينية، وكان منها أيضاً السلطان ماري زاطة الذي هادى السلطان أبا سالم المريني وأغرب عليه بالزرافة حسبما تقدم، قالوا: وكان هذا السلطان مسرفاً مبذراً بحيث أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم وكاد أمر سلطانهم يختل حتى لقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان من الذخائر الموروثة عندهم، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً من الذهب العين منقولاً من المعدن كذلك من غير علاج ولا تصفية بالنار، فكانوا يرونه من أنفس الذخائر وأكبر الغرائب لندور مثله في المعدن، فعرضه منسا زاطة على تجار مصر المترددين إلى بلده فاشتروه منه بأبخس ثمن. ثم أصابته علة النوم وهو مرض يطرق أهل ذلك الإقليم كثيراً وخصوصاً الرؤساء منهم بحيث يعتاده غشي النوم عامة زمانه حتى لا يكاد يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من الأوقات ويضر بصاحبه غاية ويتصل سقمه إلى أن يهلك، ودامت هذه العلة بهذا السلطان سنتين ثم هلك منها سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ثم توارث بنوه الملك من بعده فكانوا في تراجع وانتقاص إلى أن انقرض أمرهم شأن غيرهم من الدول، وظهرت دولة آل سكية من أهل مملكة كوكو ويقال كاغو.

قال الإمام التكروري في كتابه «نصيحة أهل السودان»: إن آل سكية أصلهم من صنهاجة وملكوا كثيراً من بلاد السودان، وأول ملوكهم الحاج محمد سكية بضم السين وسكون الكاف بعدها ياء مفتوحة ثم هاء تأنيث، وكان الحاج محمد المذكور رحل في أواخر المائة التاسعة إلى مصر والحجاز

---

(1) الطويجين تصفير طاجين هكذا ضبطه صاحب النفح انظر ترجمته ج 1 ص 461.

بقصد حج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه ﷺ، فلقي بمصر الخليفة العباسي، إذ كان رسم الخلافة العباسية لا زال قائماً بها يومئذ، حتى محاه السلطان سليم العثماني أيام تغلبه على مصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، فلما اجتمع الحاج محمد سكية بالخليفة المذكور طلب منه أن يأذن له في إمارة بلاد السودان، وأن يكون خليفته هناك، ففوض إليه الخليفة العباسي النظر في أمر ذلك الإقليم وجعله نائبه على من وراءه من المسلمين، فرجع الحاج محمد سكية إلى بلاده، وقد بنى أمر رياسته على قواعد الشريعة وجرى على منهاج أهل السنة، ولقي بمصر أيضاً الإمام شيخ الإسلام حافظ الحفاظ جلال الدين السيوطي فأخذ عنه عقائده وتعلم منه الحلال والحرام، وسمع عليه جملاً من آداب الشريعة وأحكامها وانتفع بوصاياه ومواعظه، فرجع إلى السودان ونصر السنة وأحيى طريق العدل، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره، ومال إلى السيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال، وبرئ جسد الرشاد من الداء العضال، وكان الحاج محمد المذكور سهل الحجاب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأئمة الدين محبّاً للعلماء مكرماً لهم يفسح لهم في المجلس ويوسع عليهم في العطاء ولم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس بل كانت رعيته في خفض عيش وأمن سرب وفرض عليهم شيئاً خفيفاً من المغارم وظفه عليهم، وزعم أنه ما فعل ذلك حتى استشار الإمام السيوطي شيخه، ولم يزل على سيرته المذكورة إلى أن اخترمته المنية، فقام بالأمر بعده ولده داود بن محمد فأحسن ما شاء وتبع طريقة أبيه إلى أن لحق بربه ومضى لسبيله، فقام بالأمر بعده ولده إسحاق بن داود فعدل عن بعض سيرة أبيه، ولم يكن في أمره بالذميم، واستمر حاله على الانتظام إلى أن غزته جيوش المنصور فنقضت ملكه ونثرت سلكه، وانقرض عليه أمر آل سكية بعد أن كان تحت طاعتهم مسيرة ستة أشهر من بلاد السودان. وسنذكر كيفية ذلك.

وأما مملكة التكرور وكانم فقال ابن خلكان ما نصه: «كانم بكسر النون جنس من السودان وهم بنو عم تكرورُ وكل واحدة من هاتين القبيلتين لا تنسب إلى أب ولا أم وإنما كانم اسم بلدة بنواحي غانة فسمي هذا الجنس

باسم هذه البلدة، وتكرور اسم للأرض التي هم فيها وسمي جنسهم باسم أرضهم» اهـ.

قلت: وكان من كانم الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر وهو الذي دخل على يعقوب المنصور الموحدي فأنشده:

أزال حجابه عني وعيني ... تراه من المهابة في حجاب

وقربني تفضله ولكن ... بعدت مهابة عند اقترابي

وأهل كانم هم أهل ممكلة برنو المجاورة لإفريقية من جهة قبلتها كما قلنا وكانت لهم مع الدولة الحفصية في المائة السابعة وما بعدها مهاداة ومواصلة كما كان لأهل مالي مع بني مرين.

قلت: ومن أهل برنو الشيخ العارف بالله تعالى أبو محمد عبد اللّه البرنوي شيخ الولي العارف بالله تعالى أبي فارس عبد العزيز الدباغ الموضوع في مناقبه كتاب «الذهب الإبريز».

واتصل أمر أهل برنو على الانتظام إلى أن كان من أمرهم مع المنصور ما نذكره، وكل هؤلاء الأمم كانوا على دين الإسلام قديماً كما رأيت، وكان فيهم العلماء والصلحاء والأدباء والشعراء كما علمته آنفاً وتعلمه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

قال الشيخ أبو العباس أحمد بابا السوداني في تقييده المسمى «بمعراج الصعود»: «أن أهل السودان أسلموا طوعاً بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنوا وكنتي وبرنو وسغاي ما سمعنا قط أن أحداً استولى عليهم قبل إسلامهم ومنهم من هم قدماء الإسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس أو قربه وكأهل برنو وسغاي» اهـ. وقد علمت أن أهل غانة تقدم إسلامهم على هذا التاريخ والله تعالى أعلم. ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أخبار المنصور فنقول:

وصول هدية صاحب برنو إلى المنصور بحضرة فاس وما نشأ عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته

كان المنصور رحمه الله مسعوداً محظوظاً كما أشرنا إليه سابقاً، وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سبباً في مبايعته له والدخول في طاعته. وكان من خبر ذلك ما حكاه في «مناهل الصفا» قال: «وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان، وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والإماء وكساء السودان وطرفه، وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين، فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس، وكان يوم ملاقاته يوماً مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة، جلس نصره الله تعالى بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقبابه، وهو آفراك، واستوقف الموالي والمماليك سماطين من التوأمين إلى القبة العربية، ثم منها إلى فسطاط الجلوس المعلوم بالديوان ثم منه إلى باب المعسكر القبلي، وأتى بالرسول يخترق السماطين حتى نزل بالديوان، وكان الملا من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً وكرسي المملكة وسرير الخلافة منصوباً به، والمهابة قد أخرست الألسن وأخشعت القلوب والأبصار، فجلس الرسول هنالك ملياً، ثم توجه به على سبيل الترقي إلى القبة العربية فجلس بها، ثم جاء الإذن الكريم بإيصاله إلى مقر أمير المؤمنين بالتوأمتين فوقف بين يديه وتشرف بالنظر إلى طلعته السعيدة فأدى الرسالة وقضى فرض التهنئة وسنة الهدية وأعرب عن مقاصد مرسله واعترف للمملكة العظيمة بحقها وأظهر من الخضوع والتملق والاستكانة والخدمة والطواعية ما أوصاه به مرسله، ثم توجه به إلى معسكر ولي العهد وتاج الإسلام وكافل الأمة بعد والده المولى الأمير أبي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله، وكان لصق معسكر أمير المؤمنين برأس الماء، فأشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ومحلة هائلة فوقف موقف الحيرة، واستدرج إلى أن وصل لقباب ولي العهد ومضاربه، وكان قد قعد له

بفسطاط جلوسه أفخم قعود. ولما استؤذن عليه ووقف بين يديه هنأ وحيى وفدى وانصرف عنه إلى محل نزوله بالقصبة من فاس، وأدر عليه من الإنعام والإكرام ما لم يكن له في حساب.

وكان من أغراض الرسالة التي أنفذه بها سلطانه طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البنادق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار، وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالإصطنبول السلطان مراد العثماني يطلب منه المدد لجهاز كفار السودان فأخفق سعيه ولم يحصل على طائل، فوجهه في هذه النوبة إلى ملك المغرب يطلب منه المدد، ولما قرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بين وتباين واضح فكان الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول، جر إليهم ذلك توغلهم في الجهل والغباوة وعدم من يحسن الإعراب عن مقاصدهم من فرسان الإنشاء والكتابة، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة، وقارن ذلك ما كان من توجيه أمير المؤمنين عساكره لتدويخ قطري توات وتيكورارين، وأمل أن يجعلهما ركاباً لبلاد السودان والاستيلاء على ممالكها التي وجه إليها عساكره بعد ذلك، فبلغت مملكة مالي عظيم السودان إلى أن وردت من نيلها على مائة مرحلة من ثغور المغرب، فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ورجع الرسول إلى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكسي من ملابس الخلافة وأسباب أخر. ولما بلغ الرسول وألقى المعذرة إلى سلطانه استأنف الهدية وأعرب إذ ذاك عن مراده وورد الرسول ثانية إلى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش، فأزال اللبس وبين الغرض وصرح بالمقصود، فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء إلى التي هي أقوم وطالبهم بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد في أقطار البلاد الانقياد إليها، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق، أن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل إليه والرغبة فيه لا يتم لهم

فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه إذ هو الكافل لهذه الأمة، ووارث تراث النبوة، وقيضه الله لحماية بيضة الإسلام، وخصه بالشرف القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع من علماء الإسلام وأئمة السنة الأعلام، وألزمهم القيام في أقطارهم بدعوته، ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته، وعلق لهم أيده الله الإمداد على البيعة والوفاء بهذا الشرط فالتزمه بالرسول، وزعم أيضاً عن سلطانه بالقبول والإجابة، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة إذ ليس ببلدهم من يحسن الإنشاء، ويوفي الغرض لئلا يخلو بشيء من الشروط التي شارطتهم عليها أمير المؤمنين فأنشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ونصها: «الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق مناراً يسامي في مطالعها النجوم، وأزاح بها عن شمس الهداية المنيرة غياهب الغباوة المدلهمة وسحائب الغواية المركوم، وحي على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابه الموقوت واستنجز للسعادة أجلها المعلوم، وشرف هذا الموجود والعالم الموجود بالخلافة النبوية والإمامة الحسنية العلوية التي صرفت الوجوه إلى قبلتها المشروعة، واستبان الحق بتبلج الصباح في مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة، ونسخ بدولتها الغراء دول الحيف التي هي بسيف النبوة المصلت مقطوعه، وبلسان السنة مدفوعه، وقوض بها مباني الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعه، وفرق بكلمتها المجموعة على التوحيد فرق التثليث التي هي على مشاقة الله ورسوله تابعة ومتبوعة، وخلع بظهورها على أعطاف الحنيفية السمحة رداء العز الفضفاض واستل بتأييدها للدين المحمدي سيف الأنفة والامتعاض، وأشار للأعادي من بأسها المروع بلسان الحية النضناض، وفجر للمؤمنين ينبوع رحمتها الجاري على حصا عدلها الرضراض، ومهد بسيوفها المنتضاة الآفاق والأقطار تمهيداً أزال عن حكمه الاعتراض، وجلا بأنوارها المتألقة سدف الجهالة التي ادلهم جوها وغيم، وأسعد الوجود بيمنها الذي لبث في أكناف مجدها وخيم، وقضى لهاب بتراحم الأرض ومن عليها إن شاء الله إلى عيسى ابن مريم، والصلاة

والسلام على مولانا محمد الذي تعاضدت البراهين القاطعة على صدق رسالته البارعة، ونهج للدين القويم طريقة الحق المثلى ومادته الشارعة، وسوغ لمن آمن به مناهل الهدى النميرة الزلال وموارده العذبة ومشارعه، نبي الرحمة وشفيع الأمة، وعلى آله وأصحابه الكرام، أئمة الهدى ومصابيح الظلام، والدعاء لمولانا الإمام العلوي الهمام، أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، نجل سيد المرسلين وخاتم النبيين، وسليل الوصي والسبطين، وبعد، فإنه لما أذن الله في ليل الجهالة أن ينجاب، وفي شمس الحق الوهاجة أن يرتفع عنها الحجاب، وفي العز الخلق الجلباب أن يعود إلى الشباب، وفي النجاح والاستقامة أن يفتح لهما الباب، وفي الإمارة أن تستند إلى السنة والكتاب وتتعلق من الشرع بأسباب، تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية، والإمامة الهاشمية العلوية، ففاضت على أديم البسيطة أنوارها، وارتفع إلى حيث السها والفرقدين منارها، وتبلج بالأصباح نهارها، ولاحت في سماء المجد بدورها وأقمارها، وكادت تنهب نجوم السماء أتباعها وأنصارها، وانتشرت في الآفاق والأقطار على البعد والقرب آثارها، وهزت عطف الزمان انتشاء مناقبها وأخبارها، وفاض ببركتها على أكناف المعمور يمها الزاخر وتيارها، خلافة ينتمي إلى النبوة عنصرها، وتستنبط من رسالة الوحي أسطرها ويناط بعروتها الوثقى خنصرها وإمامة عليّ وليها والله نصيرها، والسبط بدرها الذي حياه منبرها وسريرها والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء، والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، إماماً ألقى الله له في القلوب حبّاً جميلاً، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلاً، وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعي لخلقه وعباده كفيلاً، وانتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساماً صقيلاً، مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين وسليل خاتم النبيين ووارث الأنبياء والمرسلين، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين، والممنون بإمامته المقدسة على العالمين، بحر الندى والباس وعصمة الله للناس، أمير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبا العباس، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين، والأئمة

الطيبين الطاهرين، وطيب بأنفاس المغفرة لحودهم، أجمعين، إمام تهتز لذكره أعطاف المنابر، وتتقلد من شريف دعوته أبهى من نفيس الجواهر، وتستضيء البلاد بإكليل شرفه الزاهر، وتسكن العباد تحت ظل رحمته الوارف الوافر، أبقى الله أيامه الغر بقاء يصحب النصر دوامه، وخلد له ولأعقابه هذا الأمر الكريم إلى يوم القيامة، ولما طلعت أيده الله على هذه الأصقاع الزنجية طلائع إمامته النبوية وخلافته، ولاحت في سمائها شهب مناقبه المنيفة الدالة على فخامة شرفه وأنافته، وتليت لمجده الآيات البينات التي تشهد له بتراث الرسالة، وتقضي له على الإسلام وعلى الأنام بحكم الولاء والكفالة، وأوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بإمامته والانقياد لدعوته وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ووردت به سنة نبيه الكريم، كما قال عليه السلام: **«لا تزال الخلافة في قريش ما بقي منهم اثنان»** وكما ورد في صحيح الخبر: **«إن الخلافة في قريش والقضاء في الأنصار وفي الحبشة الأذان»** ويدل على هذا تعاضد الخبر والعيان، فلا ناكر أن ليس في المعمور على هذا الشرط غيره أيده الله من ثان، فنهض بدليل الشرع أنه إمام الجماعة حقاً المستوفي شروطها، والوارث للخلافة النبوية والحريص على بيضة الإسلام أن يحوطها، وأن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دعي، ومحاوله دون إذنه المشروع بدعي، فتعين لذلك أن الرجوع إلى الحق فريضة، واستبان بما تقرر وعلم أن إمارة لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذة ومرفوضة، وعروتها لذلك مفصومة ومنقوضة، فانتدب لهذه الآثار صحيح الأخبار وصرف إلى رضى الله العناية ووقف من الشرائع المشروعة حيث مركز الراية ومنتهى الغاية، الرئيس أبو العلاء إدريس أكرمه الله انتداب من وقفت به مطية التوفيق، على حضرة الإخلاص والتصديق، وأخذت بزمامه السعادة إلى حيث الفوز برضا الله ورضا رسوله حقيق، والتأييد صاحب ورفيق، وروض الآمال أنيق، وراح الراحة والاطمئنان عتيق، إلى تقلد إمام بيعة الجماعة أمير المؤمنين المنصور بالله زاده الله تقديساً وتشريفاً التي تؤسس إن شاء الله على تقوى من الله ورضوان، وتشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمٰن، وآثر أسعده الله أن يؤدي

فرضها المعدود من فروض الأعيان، وحكمها الذي توجه به خطاب الشرع العام إلى القاصي والدان، وينشر سنتها المشروعة في صقعه وما يليه من الأصقاع والبقاع بالسودان تقلداً يستضيء إن شاء الله بأنواره، ويستشرف به للعز المكين على مناره، ويخمد به للجهل جذوة ناره، وتنتظم به في اتباع الحق زمر أنصاره، ويجتلي به صورة إنسانه، ويستوجب من الله عوارف صنعه وإحسانه، ويرهف به للعدو على العزمات حد سيفه وسنانه، ويقرع به لرضا الله باب القبول، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول، ويستنشق بمشهد عقده الكريم نواسم النبوة، ويعود له به الزمان للشباب والفتوة، ويرفع به منار الإمارة على قواعد الشرع الوثيقة، ويعدل به في كل الأحوال عن المجاز إلى الحقيقة، وتتبنى له به وهي المقصد الأسنى والخاتمة الحسنى، الأسوة الحسنة بإمامي بني العباس السفاح والمنصور، ويحيي سنتهما التي نقلها ثقات الأعلام والصدور، في مبايعتهما الإمام الخليفة المهدي الأكبر سليل سيد المرسلين وجد مولانا أمير المؤمنين الذي رأى إمام دار الهجرة أنه بتراث الخلافة النبوية أولى وأحق، وفي منصب الإمامة على شرطها أعرق، وبسريرها ومنبرها أليق، فتأكد للمنتدب أكرمه الله بهذه الآثار الشريفة والمناقب المنيفة العزم والقصد، وأنجز له فيما أراده صادق الوعد، وساعد نيته الصالحة فيه السعد، فبايعه أعلى الله يده على الأمن والأمانة، والعفاف والديانة، والعدل الذي يشيد للمجد أركانه، مبايعة شايعه على عقدها الكريم أكرمه الله أتباعه وجموعه وأشياعه بحكم الوفاق والاتفاق والمواثيق الشديدة الوثاق، وبجميع الأيمان الصادقة الأيمان، أعطوا بها صفقة أيديهم، ورفع بها العقيرة مناديهم عارفين أن يد الله فيها فوق أيديهم، وأمضوها على السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة إمضاء يدينون به في السر والجهر واليسر والعسر والرخاء والشدة، والأزمان المشتدة، والتزموا شروطها طوعاً، واستوعبوها جنساً ونوعاً، بنيات منهم خالصة صادقة، وعدة من الله لهم بالخير سابقة، وسعادة بالحسنى لاحقة أبرموا عقدها، وأحكموا وعدها وعهدها، على حكم الكتاب والسنة والجماعة، والأخذ بسنتها أعقاباً عن أعقاب، وأحقاباً أثر أحقاب، إلى يوم القيامة

واقتراب الساعة، لا يلحق عقدها الكريم فسخ، ولا يعقبه بحول الله نسخ، ولا يتطرق إليه نقض ولا نكث، ولا يشوبه بشوائب الشبهات بحث، وأجمع على هذا أسعده الله بالمواثيق المستفيضة، والأيمان اللازمة المغلظة هو وأتباعه إجماعاً شرعياً، وحتموه على أنفسهم حتماً مقضياً، واعتقده اعتقاداً أبدياً، وعرضوا على التزامه بمشهد عقده المبارك أفراداً وأزواجاً، وحداناً وأفواجاً، وأشهدوا على الوفاء به بأيمانهم الصادقة البرور ومواثيقهم المثلجة للصدور، قائلين: بالله الذي لا إلٰه إلا هو الملك القدوس العليم بالخفيات، والخبير بالآجال والوفيات، وبجميع الرسل الكرام والأنبياء، وملائكة الرحمٰن في الأرض والسماء، وعلى أنهم إن حادوا عن هذا السبيل وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتبديل، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته، فهم برآء من حول الله وقوته ومن دينه وعصمته، ومستوجبون لعذابه وغضبه وسخطه ونقمته، وبعداء من رحمته، ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لأمته، وأنهم خالعون لربقة الإسلام، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام، أعلنوا بهذا إعلاناً تعضده النجوى وأدوه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى وأحكامه اللازمة لكلمة التقوى، استرضاء لله وللخلافة النبوية، والإمامة العلوية، ورياضة للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النقيبة، واستيفاء لشروطها وأقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة، مستسلمين إلى الله بالقلوب الخاشعة، ومتضرعين إلى بابه الكريم بالأدعية النافعة، في أن يعرفهم خير هذا العقد الكريم، والعهد الصميم، بدأً وختاماً، وأن يمنحهم بركته التي تصحبهم حالاً ودواماً لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، أشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس أبو العلاء إدريس أسعده الله وأكرمه، وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية» انتهى.

ولما كتبت هذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافأه أمير المؤمنين على هدية سلطانه وتوجه إلى بلاده بجواب مرسله، ولم يلبث أن رجعه سلطانه ثالثة ووجه معه هدية ورسالة، وخاض القفر إلى دار الخلافة، فوصل إلى بلاد تيكورارين وهناك اعترضته منيته فاعتل وهلك، فأشخص أولو الأمر

الذين بتيكورارين الهدية مع رفقائه القادمين معه من عند سلطانه، فوصلوا بها إلى حضرة أمير المؤمنين بمراكش، وقدموا إليه رسالتهم وهديتهم فتقبلها بقبول حسن، وتم السرور وعظم الحبور، واستقامت للمنصور الأمور.

بعث المنصور ورسوله بالدعوة إلى آل سكية وكيفية ذلك

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبي العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لأجله ردهم المنصور إلى صاحبهم مكرمين، وانتخب رسولاً عارفاً مجرباً ممن لهم بصيرة بأحوال السودان فبعثه معهم عيناً يأتيه بأخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها، وبعث معه رسالة إلى السلطان إسحاق بن داود من آل سكية صاحب مملكة كاغو، من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذي بتغازي بين المغرب والسودان، ومنه يحمل الملح إلى أقطار السودان، وظيفاً، بأن يجعل كل من يحمل منه شيئاً من الواردين عليه مثقالاً من الذهب العين لكل حمل، تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لأن ذلك بحر لا ساحل له.

وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتى استفتى علماء إيالته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء رضوان الله عليهم من أن النظر في المعادن مطلقاً إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه، وبعث إليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول، وكانت من إنشاء العلامة الأديب مفتي الحضرة المراكشية المولى أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي، لأن كاتب الإنشاء أبا فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي كان مريضاً يومئذ، ولما فرغ الشريف المذكور من إنشائها بقي عليه الصدر فلم يدر كيف يقول في مخاطبة إسحاق سكية ولا كيف يمدحه، وهل يتوغل في المدح أو يتوسط فكتب أبو مالك حين تحير في ذلك إلى المنصور بما نصه: «أيدكم الله ونصر

أعلامكم إن مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة مماليك الحضرة المولوية أمر تلعثم فيه لساني، ووقف عن خوض لجته بناني، لأن النأي عن هذه المحجة قد مد بيني وبينها حجاباً، وأغلق في وجهي باباً، فلا آمن من أن أقتحم الوقوع في تفريط أو إفراط، وخير الأمور لو علمته الأوساط، لكن لا سبيل إلى معرفته إلا بعد علم الطرفين، والعبد محجوب عن ذلك دون مين فتركت ـ أيدكم الله ـ الصدر لمن هو به مني أقعد، وتحاميت عقده لمن هو له أعقد، أبي فارس عبد العزيز الذي فاضت عليه أنواركم، وأضاءت له سبل هذا المخبر أقماركم، وإلا قرعت هواتف لسان الحال سمعي بقول القائل:

يا باري القوس برياً ليس يحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها

ولما بلغت رسالة المنصور إلى السلطان إسحاق سكية واطلع عليها شق عليه ذلك وماطل في الجواب، وحيث أبطأ الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم إجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر إلى السودان، فهذا هو الحامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها، ولما فتح تيكورارين وتوات قوي عزمه على ذلك، وطمحت نفسه للاستيلاء على ما هنالك على ما نذكره إن شاء الله.

مفاوضات المنصور الملأ من أصحابه في غزو آل سكية وما دار بينهم في ذلك

قال الفشتالي رحمه الله: لما رجعت أرسال المنصور إليه من عند إسحاق سكية وأعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية، والمنصور أمير ناحية، وأنه لا تجب طاعته عليه، شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأي والمشورة فاجتمعوا، وكان يوم اجتماعهم يوماً مشهوداً، فقال لهم المنصور: «إني عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو

وبعث الجيوش إليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية، ولأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الإسلام ويشتد ساعد كتيبته، مع أن صاحب أمرهم والمتولي لسلطنتهم اليوم معزول عن الإمارة شرعاً، إذ ليس بقرشي ولا اجتمعت شروط السلطنة فيه العظمى» فلم نثل المنصور ما في كنانته وأبدى ما في خبيئته وعرض ما في عيبته سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء، فقال لهم: «أسكتم استصواباً لرأيي أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي؟» فأجاب كلهم بلسان واحد ورأي متفق: «إن ذلك رأي عن الصواب منحرف وأنه بمهامه عن الآراء السديدة ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك، وذلك لأن بيننا وبين السودان مهامه فيحاً تقصر فيها الخطا، وتحار فيها القطا، وليس فيها ماء ولا كلأ، فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعراً، وأيضاً فإن دولة المرابطين على ضخامتها، ودولة الموحدين على عظمها، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك، ولا تعرضوا لما هنالك، وما ذاك إلا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها، وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول فإن المتأخر لا يكون أعقل من الأول» فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم وأبدوا له رأيهم وملامهم، قال لهم المنصور: «إن كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري، وفيلتم به رأيي فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندي، أما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في أحشائها مشاة وركباناً وجماعة ووحداناً، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها وأنا أقوى أهبة منهم وللجيش همة ليست للقوافل، وأما قولكم إن من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الإفرنج ومن بذلك الساحل من الأروام، والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليها

جملة، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها، ثم إن أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم لأن جيوشهم كانت فرساناً رامحة ورماة ناشبة، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق، وأهل السودان ليس عندهم الآن إلا الرماح والسيوف، وهي لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة، فمقاتلتهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء، وأيضاً فإن بلاد السودان أنفع من إفريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل، فهذا جواب ما عرض لكم، ولا يحملنكم ترك الملوك الأول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل، فإنه كم ترك الأول للآخر وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم». فلما فرغ المنصور من خطابه وأبدى ما في وطابه استحسن الحاضرون جوابه واستملحوا إشارته واستجادوا رأيه، وقالوا له: «قد طبقت المفصل وألهمت الصواب ولم تبق لأحد ما يقول، وصدق من قال: «عقول الملوك ملوك العقول». فانفصل الجمع على البعث إلى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور في رأيه عليه. قلت: وفي كلام المنصور أمران يحتاجان إلى مزيد بيان الأول: ما قاله من أن الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعني بهم الذين أقاموا بأرض المغرب ودبروا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الأمير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر لأن ذلك كان بعد رجوعه إلى الصحراء واستقراره بها وإعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر، الثاني: ما قاله من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة يعني به لم يكن موجوداً فيها بكثرة بحيث يستغني به الجيش عن غيره ساعة القتال، فلا يرد عليه أن ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لأول دولة بني مرين كما مر إذ ظهوره في تلك المدة كلا ظهور. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

استجازة المنصور لعلماء مصر رضي الله عنهم وتلمذه لهم

قالوا: ومن اعتناء المنصور رحمه الله أنه بعث إلى علماء مصر يستجيزهم رغبة في اتصال حبل السند واقتفاء لاحب ذلك الطريق الأسد، وممن أجازه: الإمام العارف بالله أبو عبد اللّه محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري رضي الله عنه، ومن بعض فصول إجازته له قوله يمدح كتاب المنصور إليه ويثني عليه بالفصاحة والبلاغة ما نصه: ولقد وصل إلى المثل العديم المثال، المزري نظامه بعقود اللآل، فإذا به السحر إلا أنه الحلال، ولو ادعى أحد أن من معجزات أحمد ﷺ أن يمد الله كراماً كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله إلى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه، فما من خارق في الأمة إلا وهو من معجزاته ﷺ دال على علاه، وأما ما شرفني به من طلب الإجازة فالبيت والحديث له، ولكن رب أب أرسل إلى ابنه على يد عبده عطاء فقبله، وإليه بأمره حمله، وحيث وقع الأمر فأمر مولانا حتم، وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد، من جميع ما يجوز لهذا العبد، بجميع ما يجوز له وعند روايته بشرطه المعتبر عند أهل الأمر، وكذلك مجاز أهل العصر إجازة عام بعام، ليكون أبناء الوقت جميعاً على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الإنعام، فإنه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريراً في رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة، محمد بن أبي الحسن الصديقي سبط آل الحسن» اهـ.

وممن استجازه المنصور أيضاً من علماء مصر: الإمام العلامة أبو عبد اللّه محمد بن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب «ذيل الديباج» فأجازه إجازة عامة بسط فيها القول ثم ختمها بقوله:

أجزت لمن تفضل واستجازا ... وبادر لاقتنا خير وحازا

وأبرز في سلوك العلم حالاً ... به من فضل مولانا يجازى

إمام كامل غوث البرايا ... أمير المؤمنين حوى مجازا

وذلك بعد تشريفي بأمر وقصد للإجازة فاستجازا
فبادرت امتثالاً قدر وسعي ومقتفياً مناهج من أجازا
وقد أبديت حقّاً لا محالا بما صار الإمام به مجازا
بفاتحة وسنة خير هدى وسلسلة لمن حاز امتيازا
بدار الهجرة العليا إمام بما أبداه من فضل مجازا
وأرجو منه يهدي لي دعاء لما أرجوه من خير مجازا
بخاتمة تبلغني مراماً بجنات أراها لي مفازا
وأشياخي يبلغهم رضاء ويواصلهم إلى خير يجازا

تجديد المنصور ولاية العهد لابنه المامون وما وقع في ذلك

قالوا: وفي شوال سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة جدد المنصور البيعة لولده محمد الشيخ الملقب بالمأمون وأخذها له على إخوته خصوصاً لأنهم كانوا في البيعة الأولى قبل البلوغ فأراد أن يستوثق له منهم بعد البلوغ حسماً لمادة النزاع بينهم، فارتحل المنصور من مراكش إلى تامسنا وبعث الباشا عزوز بن سعيد الوزكيتي ليأتيه بولي عهده المذكور من فاس، فتوافى القصدان بتامسنا، وباشر المنصور أخذ البيعة له بنفسه، وحضر الأعيان وأهل الحل والعقد وأحضر المصحف الكريم الذي هو مصحف عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه وهو من ذخائر الخلفاء وأحضر الصحيحان للشيخين، وقرئ ظهير البيعة فتولى قراءته الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، وبجنبه القاضي أبو القاسم الشاطبي يفسر ما أشكل من لفظ الظهير.

ولما أخذ البيعة أخر أولاده إلى غد يومها فكتبوا خطوطهم عقبها بالموافقة على ذلك والالتزام له، ووقع في رسالة السلطان زيدان لأبي زكرياء ابن عبد المنعم الإمام بذكر هذه البيعة فقال: «إني حضرت بيعة محمد الشيخ صاحب الغرب سامحه الله وحضر أولاد السلطان فاستحلفهم له إلا أنا، فإنه رضي الله عنه قال: «فلان لا يحلف لا يحتاج إليه فيما نأمره به ونفعله وعظم

ذلك على إخوتي وظهرت في وجوههم لأجله الكراهية» اهـ.

ولما فرغ المنصور من تجديد البيعة رأى أن يرشح كلاًّ من أولاده للإمارة ويقسم بينهم البلاد حتى لا تبقى في نفوسهم إحن ولا تنطوي قلوبهم على ضغائن، فعقد لأبي فارس شقيق المأمون على السوس وسائر عمائره وعقد لأبي الحسن على مكناسة وما والاها، وعقد لزيدان على تادلا ثم عكس ذلك لأمر اقتضاه الحال، فنقل زيدان إلى مكناسة، ونقل أبا الحسن إلى تادلا، ولم يزالوا على ذلك إلى أن كان من أمرهم ما نذكره في محله إن شاء الله.

ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة ومقتله

قالوا: وفي سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ثار رجل يقال له: الحاج قرقوش بجبال غمارة وبلاد الهبط وتسمى بأمير المؤمنين، وكان في ابتداء أمره حائكاً فتلبس بالزهد والصلاح، واعتقدته العامة ثم استحال أمره إلى ما ذكرنا فأخذ وقتل وحمل رأسه إلى مراكش وانقطعت مادة فساده فلم تبكه أرض ولا سماء.

بناء المسجد الجامع بباب دكالة من حضرة مراكش حرسها الله

كانت الحرة مسعودة أم المنصور وهي بنت الشيخ الأجل أبي العباس أحمد بن عبد اللّه الوزكيتي الورززاتي من الصالحات حريصة على اقتناء المفاخر راغبة في فعل الخير، قال في المنتقى: «وهي التي أنشأت المسجد الجامع بحومة باب دكالة داخل مدينة مراكش ووقفت عليه أوقافاً عظيمة وكان ذلك سنة خمس وتسعين وتسعمائة. قال: «وهي التي بنت جسر وادي أم الربيع وغير ذلك» اهـ.

قلت: المرقوم على رخامة قبرها أنها بنت جسرين بلفظ التثنية وتزعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفارة لما انتهكته من حرمة رمضان وذلك أنها دخلت بستاناً من بساتين قصورها وهي في حال الوحم فرأت به خوخاً ورماناً فتناولتهما وأكلت منهما في نهار رمضان ثم ندمت على ما صدر منها وفعلت أفعالاً كثيرة من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها، ومنها الجامع المذكور، ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها إلى الآن فيقولون: عودة أكلت رمضان بالخوخ والرمان، في أسجاع غير هذه. ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر في مثل هذا والله تعالى أعلم.

بعث المنصور ببيلة الرخام إلى جامع القرويين من فاس حرسها الله

قال ابن القاضي في «المنتقى المقصور»: «إن المنصور رحمه الله بعث الخصة العظيمة سنة ست وتسعين وتسعمائة إلى جامع القرويين من فاس مع كرسي من المرمر توضع عليه وزنهما معاً مائة قنطار» قال: «وهي: الخصة التي تحت منار الجامع المذكور» وقال ابن القاضي المذكور فيها نقش برقبتها:

إمام دار الهدى المنصور شيدني ... بحر المكارم من أبناء عدنان
حزت المفاخر بالمنصور أجمعها ... ومن علاه سنام المجد أرساني
من جاء يشكو الظما يوماً وقبلني ... أغناه ما قد همى من صوب أجفاني
لا تنكرن وجود الدمع من فرح ... فالعين تدمع من أفراط سلوان
واشرب هنيئاً من السلسال لا حرج ... معين دمع جرى من فيض خلجاني
فخر السلاطين من أبناء فاطمة ... أشاع صيتي إلى أطراف عمان
وقد جرت مقلتي تحكي سحائبها ... كف الخليفة من أبناء زيدان
لا زال للدين والدنيا يسوسهما ... ما هيجت عاشقاً ورق بأفنان
إنشائي في زمن التاريخ وافقه ... للدين والأجر بحر الجود سواني

وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين وتسعمائة في ذي الحجة منها سافر المنصور إلى فاس وبينما هو في الطريق وافته البشرى بالفتك بنصارى سبتة وأن زعيم الفئة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقسيس التطواني كمن لهم مع جماعة من الفرسان في موضع فخرج النصارى بأولادهم وحشمهم فحال النقسيس بينهم وبين سبتة وأوقع بهم وكاد يفتحها، وسر المنصور بهذا الخبر، وأنشده في ذلك الكاتب أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي بيتين زجر له منهما الفال باستيلائه عليها وهما:

هـذه سـبـتـة تـزف عـروسـاً نحو ناديك في شباب قشيب
وهي بشرى وأنت كفؤ اللواتي كـافأت بعـلـهـا بفـتـح قـريـب

وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة في اليوم الثاني من ذي القعدة منها أخلى النصارى مدينة آصيلا حملهم الخوف من كتيبة المسلمين المرابطة هنالك على الفرار بأنفسهم فتركوها يباباً وذهبوا، وفي ذلك يقول أبو العباس ابن القاضي:

يا أيها المنصور أبشر بالعلا فالله أبلغ في العدا المأمولا
أنضاكم سيفاً لحتف عداته وبكم غدا سيف الردى مفلولا
وهزمتم الشرك المتين بعزمكم من غير سيف لم يرى مسلولا
وأذيتم كيد الخبيث بهمة وفتحتم دار العدا آصيلا
أكرم به من مالك بل صالح أضحى لبارود العداة خليلا
لا زال في أنف الهدى شمماً وفي عين العلاء يشاكل التكحيلا

وأشار بقوله لبارود العداة خليلاً إلى ما صنعه النصارى دمرهم الله حين أرادوا الخروج من آصيلا فإنهم حفروا تحت قصبتها وملؤوا الحفرة بالبارود وأوقدوا فتيلاً تبلغه ناره عند دخول المسلمين فيهلكون ففر نصراني منهم وأخبر المسلمين بذلك فنجاهم الله تعالى من مكيدة الوبال، وكفى الله المؤمنين القتال، وقال في ذلك أيضاً الكاتب البارع أبو فارس عبد العزيز الفشتالي شعراً ذكره صاحب «نشر المثاني» فانظره.

وكان في زمن المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة

والنجدة في قتال العدو ومنهم: أولاد النقسيس التطوانيون، ومنهم: أولاد أبي الليف من أهل بلاد الهبط، قال في «المرآة»: «لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليف من الشهامة والصرامة على ما كان عليه، ومن شدة نكايته في العدو الكافر الطنجي وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر فسعى به إلى المنصور فأمر برحيله إلى فاس هو وعشيرته مغربين عن وطنهم كأنهم في سجن، فأقاموا بفاس مدة لا أدري هل هي سنة أم أكثر إلا أني كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأنا إذ ذاك صغير، ويعني بالشيخ والده أبا المحاسن رحمه الله»، قال: «فضاقت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوماً المقدم عمر لأخيه كبيره المقدم محمد: لو زرنا الشيخ اليوم وتبركنا به لعل الله يفرج عنا فإن الناس كثيراً ما يقصدونه في المهمات» فقال له: «لا أتحرك فقد غلب اليأس» فسار المقدم عمر وحده فلما وصل إلى الشيخ قال له: «قنطتم» قال: «نعم يا سيدي» فقال له الشيخ: «غداً يخلي سبيلكم إن شاء الله» فرجع إلى أخيه وأخبره، فلما كان من الغد بعث إليهم القاضي أبو محمد عبد الواحد الحميدي فلما أتوه قال لهم: أبشروا بالسراح والرجوع إلى الوطن إن شاء الله، فإنه قد قرئ الآن بين يدي السلطان بعض الغزوات التي ذكرها ابن النحاس وغناء أبطال المسلمين فيها، فقال السلطان أو غيره: «ترى هل بقي في هذا الزمان من يماثلهم» فقالوا: قد بقي من يفعل فعلهم، وها هم أولاد أبي الليف المغربون هنا يفعلون مثل ذلك» فقال السلطان سرحوهم إلى بلادهم ليحموا ثغورهم ويجاهدوا في سبيل الله فرجعوا إلى بلادهم وفعلوا الأفاعيل في عدو الدين إلى أن استشهد المقدم محمد في ربيع الثاني سنة اثنتين وألف» اهـ.

غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها إسحاق سكية رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته في غزو السودان واستقرار رأيهم على ذلك فبقي المنصور يقدم رجلاً ويؤخر أخرى إلى أن كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوي عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهماته، وأمر القواد أن يقوموا حصص القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل وبغال، وإن من أتى بجمل ضعيف يعاقب، واشتغل هو بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص والكور، وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء، وألف النجارون ذلك في البر إلى أن تألف، ثم خلعوه وشدوه أحمالاً، واستمر الحال إلى أن استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين، ثم أمر بإخراج المضارب والمباني لوادي تانسيفت فخرجت الأحمال والأثقال من مراكش في اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلاً ورجلاً وجملتها عشرون ألفاً، ومعهم من المعلمين البحرية والطبجية ألفان، فالمجموع اثنان وعشرون ألفاً، وعقد المنصور على ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة، فاختار منهم من يعلم نجدته ويعرف كفايته، وتخير من الإبل كل بازل وكوماء، ومن الخيل كل عتيق وجرداء، ثم نهضوا في زي عظيم وهيئة لم ير مثلها، وذلك في محرم فاتح سنة تسع وتسعين وتسعمائة، وكتب المنصور إلى قاضي تنبكتو الفقيه العلامة أبي حفص عمر ابن الشيخ محمود ابن عمراء قيت الصنهاجي يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة.

ولما نهضوا من تانسيفت جعلوا طريقهم على ثنية الكلاوي، ثم على درعة ودخلوا القفر والفيافي فقطعوها في مائة مرحلة ولم يضع لهم عقال بعير ولا نقص منهم أحد فنزلوا على مدينة تنبكتو ثغر السودان، فأراحوا بها أياماً،

ثم صاروا قاصدين دار إسحاق سكية، ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين المهادنين لهم، وخرج من مدينة كاغو يجر الشوك والمدر يقال: إنه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل.

وقال الفشتالي: ولم يقنع بالجيوش التي جمع حتى أضاف إليها أشياخ السحرة وأهل النفث في العقد وأرباب العزائم والسيمياء ظناً منه أن ذلك يغنيه شيئاً، وهيهات، ويرحم الله أبا تمام إذ قال فيما يقرب من هذا الحال:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

ولما تقارب الجمعان عبأ الباشا جؤذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الإبل وصبروا من الضحى إلى العصر، وكانت سلاحهم إنما هي الحرشان الصغار والرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن حرشانهم ورماحهم مع البارود شيئاً، ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الأدبار. وحق عليهم البوار، وحكمت في رقابهم سيوف جؤذر وجنده حتى كان السودان ينادون نحن مسلمون نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون في كل وجه، وفر إسحاق في شرذمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه، وتقدم جؤذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الأموال والمتاع، وكان ذلك منتصف جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وتسعمائة، ويقال: إن جؤذراً لم يدخل مدينة كاغو وإنما تحصن بها إسحاق فحاصره جؤذر فيها، وكتب إلى المنصور بخبر الفتح وبعث إليه بهدية فيها عشرة آلاف مثقال ذهباً ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك، وامتدت العساكر المنصورة في بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبي وتغنم إلى أن راسل إسحاق الباشا جؤذراً في تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة

فأجابه إلى ذلك على مشورة المنصور وإمضائه إياه، ثم كتب إلى المنصور بذلك وكانت العساكر قد أصابتها الحمى ووخامة تلك الأرض فاتفق رأي الأمراء على الرجوع والإقامة بتنبكتو إلى أن يأتي جواب المنصور، فرجعوا وأخذ جؤذر في إنشاء الغلائط والسفن وتركيبها ولما أكملها دفعها في النيل، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد وقوم عسكراً خفيفاً وبعث به مع مملوكه الآخر محمود باشا، وهو أخو جؤذر وقلده أمر العساكر كلها، وعزل جؤذراً عنها وأمر محموداً أن يبقيه معه، وكتب إلى أمراء العسكر يعاتبهم يوبخهم على ما فعلوه مع إسحاق من الصلح، ويؤكد عليهم في الرجوع إلى بلاده واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل إلى العدوة الأخرى، وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر في زمان الحر في وقت لا يقدر على الحركة فيه إلا القطا الكدري وقطع القفر في خمسين مرحلة أمر لم يسمع بمثله ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتو على رأس سنة الألف فأراح بها ثلاثاً ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجند فساروا في النيل وسار السواد الأعظم في البر إلى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك إسحاق سكية، وكان إسحاق لما رجعت عنه العساكر إلى تنبكتو احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه على الموت، فلما بلغه رجوع العساكر إلى كاغو قصدهم في جموعه، ولما التقى الجمعان لم يكن إلا مقدار فواق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهاريس وارتفاع القنابل في الجو وهدير الطبول، وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون إلى أن غشيهم ظلم الليل ورجعوا بالغنائم والسبي فاستراحوا ثلاثاً، ثم أمر محمود أخاه جؤذراً أن يقيم بمدينة كاغو عامراً لها، ويترك معه عدداً من العسكر يكون ردءاً لهم، وسار هو في اتباع إسحاق إلى أن لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفر في فل من قومه فعبر النيل إلى العدوة الأخرى وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره في السفن وسار خلفه إلى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل إسحاق القفر فهلك فيه، ثم كانت لمحمود وقعة أخرى مع أخيه الذي كان ينازعه في

الملك فإنه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع وزحف إلى محمود باشا فنهض إليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه، وتمهدت له البلاد واستولى عليها استيلاءً كلياً، وكتب بخبر الفتح إلى المنصور.

ولما بلغه هذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيداً من الأعياد أخرج فيه الصدقات وأعتق الرقاب، وأقام مهرجاناً عظيماً بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والنزهة وزينت الأسواق وأخرجت المدافع بالنفط وتسابقت الخيول، وأطعم المنصور الناس عدة أيام ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم، وأجازهم بما تحدث الناس به دهراً، وكتب بخبر الفتح وصورته نسخ وجهت إلى جميع الآفاق، وكان مما قيل في ذلك من الشعر ما أنشده الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي فقال:

جيش الصباح على الدجا متدفق ... فبياض ذا السواد ذلك يمحق
وكأنه رايات عسكرك التي ... طلعت على السودان بيضاً تخفق
لاحت وأفقهم ليال كله ... كعمود صبح في الدجا يتألق
نشرت لتطوي منه ليلاً دامساً ... أضحى بسيفك ذي الفقار يمزق
أرسلتهن جوائحاً وجوارحاً ... في كل مخلبها غراب ينعق
وسرت فكان دليلهن إليهم ... مشحوذ عزمك والسنان الأزرق
لهي الليالي قد جلى أحلاكها ... نور النبوة من جبينك يشرق
صعقت بهن رعود نارك صعقة ... رجت لصيحتها العراق وجلق
سحقاً لإسحاق الشقي وحزبه ... فلقد غدا بالسيف وهو مطوق
رام النجاة وكيف ذاك وخلفه ... من جيش جؤذرك الغضنفر فيلق
جيش أواخره ببابك سيله ... عرم وأوله بكاغو محدق
لم يشعروا إلا وأسوار الردى ... ضربت عليهم من قناك وخندق
كتب الإله على عداتك أنهم ... قنص لسهمك غربوا أو شرقوا
ضلت ملوك ساجلوك على العلا ... سفهاً وشأوك في العلا لا يلحق
أن يشبهوك ولا شبيه يرى لكم ... في الخلق أين من اللجين الزئبق
بشر ملوك الأرض أنك فاتح ... بالمشرفي على الولا ما غلقوا

وبقاصل لك ذي الفقار مفرق ما جمعوه وجامع ما فرقوا
دامت طيور السعد وهي غوارد بالمشتهى لك والمسرة تنطق
ما دام أصل علاك في صحف الثنا أصل الفخار وكل غيرك ملحق

والمشتهى والمسرة بستانان للمنصور ورى بهما هذا الشاعر وسيأتي الكلام عليهما. وكان محمود باشا لما استوسق له الأمر هنالك بعث بنصف جيشه إلى المنصور مع هدية عظيم فيها من الذخائر ما لا يحصى، من ذلك: ألف ومائتان من متخير الرقيق الجواري والغلمان، وأربعون حملاً من التبر، وأربعة سروج ذهباً خالصاً، وأحمال كثيرة من اليانبور وقطوط الغالية وغير ذلك، ولما وافت المنصور سر بذلك سروراً عظيماً وأمر بعمل المفرحات في بلاد المغرب وبتزيين الأسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام، ووفدت عليه الوفود من كل ناحية مهنئين له بما منحه الله من الظفر والنصر، وانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصى المغرب إلى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر قال الفشتالي: فكلمة المنصور نافذة فيما بين بلاد النوبة إلى البحر المحيط من ناحية المغرب وهذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله، والله يؤتي ملكه من يشاء، ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حمل إليه من التبر ما يعيي الحاسبين، ويحير الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي، والدينار الوافي، وكان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى وشبه ذلك ولأجل هذا لقب بالذهبي لفيضان الذهب في أيامه والأمور كلها بيد الله.

وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية رحمها الله

كانت الحرة مسعودة هذه من الخيّرات الصالحات وتقدم بعض مآثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره. وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف، ومن المستفيض أنها ريئت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت: «غفر لي، بسبب أني كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع في الآذان فرددت على ثيابي إعظاماً لذكر الله تعالى حتى فرغ المؤذن من آذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي».

وفي سنة إحدى وألف أتي بالفيلة من بلاد السودان إلى المنصور، وكان يوم دخولها لمراكش يوماً مشهوداً برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان ثم حملت إلى فاس في رمضان سنة سبع وألف. قال في «نشر المثاني»: كان دخول الفيل إلى فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان سنة سبع وألف ويعث المنصور مع الفيل إلى ولده المأمون بهدية سنية فيها تحف وأموال عريضة وخرج أهل فاس في ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس».

قال بعضهم: «وبسبب دخول هذه الفيلة إلى المغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ لأن أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع، فشاعت منهم في بلاد درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب، وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم، فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل، ومتوقف، والعلم فيها عند الله سبحانه» قاله اليفرني.

قلت: من تأمل أدنى تأمل في قواعد الشريعة وآدابها علم يقيناً أن تناول هذه العشبة حرام، لأنها من الخبائث التي حرمها الله تعالى على هذه الأمة المطهرة، وبذلك وصفها في الكتب السالفة إذ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157].

ويسط هذا المقام: إن تعلم أن الله تعالى اختار هذه الأمة من بين سائر الأمم قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضلها، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] وأفضل تلك العبادات كلها الصلاة التي هي من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد، ثم إذا أمعنت النظر رأيت الشارع صلوات الله عليه قد بالغ في الاحتياط لهذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن، واجتناب كل خبيث أمكن، فشرع أولاً الطهارة الكبرى الشاملة لسائر البدن. وحظر من مقاربة الصلاة وما هو في معناها حال الخلو عنها، ثم شرع ثانياً الطهارة الصغرى المتعلقة بأطراف البدن زيادة في الاعتناء بها لأنها تبرز في غالب الأحوال فيعلق بها من الأقذار ما لا يعلق بغيرها، وألزم المكلف استعمال هذه الطهارة عند عروض كل حدث مستقذر حتى الريح والسبب الداعي إلى خروجه، ثم ندبه إلى استعمالها عند القيام إلى كل صلاة من الصلوات الخمس.

ثم إنا إذا تأملنا أفعال هذه الطهارة وجدناها تشتمل على مبالغات كثيرة تستدعي غاية النظافة وتنفي كل قذر وإن قل، فشرع الغسل في أعضاء الوضوء مكرراً، وشرع مسح شعر الرأس بالماء دفعاً لما يعلق به من الغبار، وشرع تتبع مسام الوجه بالغسل والتنظيم كالمضمضة والاستنشاق ثلاثاً تطييباً للنكهة، وشرع مسح الأذنين من ظاهرهما وباطنهما حتى الصماخين إزالة لما بداخلهما من تلك الفضلة، مع أن الحي ودمعه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها طاهرة، أو ليس في هذا دليل واضح على أن الحكمة في هذا كله إنما هو المبالغة في النظافة وتطييب الرائحة والنكهة إذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب، وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستقذرات حتى يكون على أكمل الحالات بعيداً عن القذر بكل وجه، ثم لم يكتف الشارع بهذا حتى شرع السواك عند القيام إلى كل صلاة وقال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» كل ذلك المقصود منه طيب النكهة فانظر وتأمل اعتناء الشارع بتطييب رائحة

فم المؤمن ونكهته حتى في حق الصائم الذي «**خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك**» هذا كله في حال الصلاة.

وأما خارجها فقد علم من الشرع علماً ضرورياً أن العبد مطلوب بالمحافظة على هذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متى قدر على ذلك وتيسر له. ومن هذا المعنى: ما حرم الله تعالى على هذه الأمة من تناول المستقذرات كالميتة والدم وسائر النجاسات إذ علة حرمة الأشياء وتناولها إما كونها مستقذرة كالنجاسات إجماعاً، وكالحشرات وما تعافه النفوس على مذهب الشافعي رضي الله عنه، أو مضرة كالسم والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو ببعض الأعضاء منه، أو محترمة: إما لذاتها، كالأدمي، أو لكونها ملكاً للغير وهو ظاهر. فالشارع له غرض أكيد في اجتلاب الطيبات واجتناب ما يضادها من المستخبثات، وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعملون في حوائطهم فإذا حضرت الجمعة أتوا إلى المسجد وأبدانهم سهكة فأمرهم النبي ﷺ بالاغتسال عند كل جمعة، ثم منع كل من تلبس برائحة كريهة كالثوم والبصل والكراث من حضورها، وحبب إلى النبي ﷺ من دنيانا النساء والطيب، وندب أمته إلى استعماله في المشاهد العامة مثل الجمع والأعياد ونحوها، وخصال الفطرة إنما شرعت لهذا المعنى ففيها كفاية لمن تأملها، قوال ﷺ: «**إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه**» دفعاً للسرف والخيلاء، ولئلا يعلق به شيء من النجاسات والأقذار إلى غير هذا مما لو استقصي لطال، ودل دلالة قطعية على أن المطلوب من العبد أن يكون نظيفاً طيب الرائحة حسن البزة طاهر البدن والثوب مجانباً لكل خبيث مستقذر، وهذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس، وأنت لا تجد أخبث ولا أقذر من رائحة أفواه شربة الدخان، ولا أنتن ولا أعفن من نكهات المستفين لغبار تابغ، وهذا النتن من أقبح العيوب في نظر الشرع حتى أنه جعل الخيار لأحد الزوجين إذا كان صاحبه أبخر، فإذاً لا نشك أن استعمال هذه العشبة الخبيثة في الفم أو الأنف من أعظم المحظورات لأنها تصدم غرضاً كبيراً من أغراض الشارع وتضاده وتنفيه،

وأقول لو كان نتنها يعلق بعضو من الأعضاء غير الوجه لكان هين لكنه يعلق بالفم والأنف اللذين وضعهما الحكيم العليم في وسط الوجه الذي هو أشرف الأعضاء، فأي مضمضة وأي استنشاق وأي سواك يزيل ذلك النتن الذي يرسخ في أنفاس أهلها وأفواههم وخياشيمهم رسوخاً لا يماثله شيء.

ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هذه العشبة وصادفوا الصواب حيث قالوا: إن فضلة الدخان المسماة بالقير تنجس النجاسة هذا إلى ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتى أنه إذا انقطعت عنه صار كالمجنون لا يبالي بما يصدر منه، ومن دخول الشك في صيامه لأن بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد يمكث في حلقه إلى طلوع الفجر وما بعده، لأن جلهم إذا قرب الفجر والوا استعماله حتى يكون هو خاتمة سحورهم، وبالجملة، فلا يستعمل ذلك إلا من لا خلاق له ولا يكترث بمروءة ولا دين وهو قادح في الشهادة والإمامة والله تعالى الموفق بمنه.

نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك

كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان ديناً ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والذين لا يبالون بالسلطان فمن دونه، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم، وربما وشي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش، فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد ابن

عمر بن محمد آقيت المدعو: بابا، صاحب «تكميل الديباج» وغيره من التآليف. وكان فيها أيضاً الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد آقيت وغيرهما، وحملوا مصفدين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم.

قال في «بذل المناصحة»: «سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول: أنا أقل عشيرتي كتباً وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد» وكان القبض عليهم في أواخر المحرم سنة اثنتين وألف، ووصلوا إلى مراكش في أول رمضان من السنة المذكورة، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى أن انصرم أمد المحنة، فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك.

ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة على طريقة خلفاء بني العباس ومن يتشبه بهم، فقال الشيخ: «إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 51] وأنت قد تشبهت برب الأرباب فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب» فنزل المنصور ورفعت الأستار، فقال له الشيخ: «أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقي؟» فقال له المنصور: «أردنا أن تجتمع الكلمة وأنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم» فقال الشيخ أبو العباس: «فهلا جمعت الكلمة بترك تلمسان فإنهم أقرب إليك منا» فقال المنصور: «قال النبي ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم» فامتثلنا الحديث» فقال أبو العباس: «ذاك زمان، وبعده قال ابن عباس: «لا تتركوا الترك وإن تركوكم» فسكت المنصور وانفض المجلس.

ولما سرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس إليه للأخذ عنه، ولم يزل بمراكش إلى أن مات المنصور لأنه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش، ولما توفي أذن ابنه زيدان لآل آقيت في الرجوع إلى بلادهم بعد أن مات جماعة منهم بمراكش، وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق إلى

رؤية بلدته ويسكب العبرات عند ذكرها ولم ييأس من روح الله في العود إليها، وله في ذلك شعر على طريقة الفقهاء. ولما خرج من مراكش قاصداً بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: 85] على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالماً، فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال: «لاردني الله إلى هذا المعاد ولا رجعني إلى هذه البلاد» ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها إلى أن مات سنة ست وثلاثين وألف رحمه الله.

تتمة

قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام من لدن قديم. وأنهم من أحسن الأمم إسلاماً وأقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة، وهذا الأمر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقاً، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش، قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعاً هو اسوداد اللون وكونه مجلوباً من تلك الناحية، وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين، إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الإسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير إنما هو الإسلام، والحكم للغالب، ولو فرضنا أن لا غالب وإنما الكفر والإسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين. والأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق، ومدعي خلاف الحرية مدعٍ لخلاف الأصل، ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم في الباعة مطلقاً من الكذب عند بيع سلعهم وإطرائها بما ليس فيها، وفي باعة

الرقيق خصوصاً مما هو أكثر من ذلك، كيف ونحن نرى أن الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين، والزمان كما علمت وأهله كما ترى، ولا يعتمد أيضاً على قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك، فإن البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون إلا بما لا يقدح في صحة بيعهم، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان، فيهون عليه أن يقر على نفسه بالرقية كي ينفذ بيعه عاجلاً إلى غير ذلك من الأغراض، وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم، وقبل اليوم، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض، ويسرقونهم من الأماكن النائية عن مداشرهم وعمرانهم، وإن فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في إغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون، وإنما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل، وكيف يجوز له التسري بإناثهم، وفي ذلك ما فيه من الإقدام على فرج مشكوك.

وقد قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضي الله عنه: في كتاب «الحلال والحرام من إحياء علوم الدين» ما نصه: اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه، وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه، بالسؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة، فلا بد من تفصيله والقول الشافي فيه: هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة ثم أطال رضي الله عنه في تقرير ذلك، وصرح بأن البائع إذا كان متهماً على ترويج سلعته لا يعتمد على قوله. فإذا كان هذا في الأموال فكيف باسترقاق الرقاب وملك الأبضاع الذين للشارع بهما مزيد اعتناء كما هو معلوم من الشرع وأصوله.

وقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد بابا في تقييده الموضوع في هذه

المسألة، المسمى «بمعراج الصعود» تفصيلاً ختم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان مثل: موشى وبعض فلان وغيرهم: وقال: إن كل من كان من هؤلاء القبائل فيجوز استرقاقه». وكذلك ذكر ولي الدين ابن خلدون: «إن وراء النيل قوماً من السودان يقال لهم لملم» قال: «وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم» قال: «وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر» إلى آخر كلامه، لكن هذا التفصيل الذي ذكره الشيخ أبو العباس إنما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المجلوب منهم ومن غيرهم، فأما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض السودان مهامه فيح وقفار لا يعمرها إلا الريح، فمن الذي يحقق لهم ذلك، وقد قلنا إنه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبين لهم، وأيضاً فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم إلى الآن على أن الناس اليوم لا يلتفتون إلى ذلك أصلاً، ومهما رأى أحدهم العبد أو الأمة يسمسر في السوق إلا ويقدم على شرائه غافلاً عن هذا كله لا يسأل إلا عن عيوب بدنه لا فرق في ذلك بين أسود أو أبيض وغيرهما، بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله يختطفون أولاد الأحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره ويبيعونهم في الأسواق جهاراً من غير نكير ولا امتعاض للدين، وصار النصارى واليهود يشترونهم ويسترقونهم بمرأى منا ومسمع، وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما دهينا به في ديننا.

فالحاصل أنه لما كان الأصل في الناس هو الحرية كما قلنا، وعلم تواتراً أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون، واستفاض عن أهل العدل وغيرهم أنهم يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم ظلماً وعدواناً، ورأينا بالمشاهدة أن الجالبين لهم والمتجرين فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف في أن الإقدام على شراء هذا الصنف محظور في الشرع والمقدم عليه مخاطر في دينه، وأما

وضع يد الجالبين لهم عليهم فلا تكفي شرعاً في جواز الإقدام على شرائهم منهم لضعف هذه العلامة بما أحتف بها من القرائن المكذبة لها، وليستفت المرء قلبه فقد قال ﷺ «استفت قلبك وإن أفتوك» فإنه متى رجع إلى قلبه في هذه المعضلة إلا ولا يقدر أن يحوم حول هذا الحمى بحال، ثم تنزل عن هذا كله ونقول: لو لم يكن في ذلك إلا الشبهة القوية وفساد الزمان ورقة ديانة أهله لكان في هذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الإمام مالك رضي الله عنه ما يقتضي وجوب التخلي عن ملابسة هذه المفسدة المزرية بالعرض والدين، فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد، لحسم مادة هذه الفساد، فإن سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي ﷺ والسلف الصالح مفقود اليوم، وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به إعلاء كلمة الله تعالى، وسوق الناس إلى دينه الذي اصطفاه لعباده، هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا ﷺ وخلافه خلاف الدين وغيره غير المشروع والتوفيق إنما هو بيد الله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. [الأعراف: 23]

بناء قصر البديع بحضرة مراكش حرسها الله

قال في «مناهل الصفا»: كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وإنفاقه فيه جلائل الأموال ونفائس الذخائر هو أنه أراد أن تكون لأهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر من المرابطين والموحدين ومن بعدهم، فإن كلاً من أهل تلك الدول أبقى بناء يحيا به ذكره، ولم يكن لأهل البيت في ذلك المعنى شيء تزداد به حظوتهم مع أنهم أحق الناس بالمجد والسؤدد الأثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لأن البناء كما قيل:

هـمـم الـمـلـوك إذا أرادوا ذكـرهـا ... مـن بـعـدهـم فـبـألـسـن الـبـنـيـان

إن الـبـنـاء إذا تـعـاظـم شـأنـه ... أضحى يدل على عظيم الشأن

قلت: هذا اعتذار بارد كما لا يخفى.

ولما أراد المنصور أن يشرع فيه أحضر أهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الأشهر من خلافته سنة ست وثمانين وتسعمائة، واتصل العمل فيه إلى سنة اثنتين وألف. ولم يتخلل ذلك فترة. وحشد له الصناع حتى من بلاد الإفرنجية، فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس أعلاقهم، وجلب له الرخام من بلاد الروم، فكان يشتريه منهم بالسكر وزناً بوزن على ما قيل.

وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالي رحمه الله «في المناهل».

وأما جبصه وجيره وباقي أنقاضه فإنها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى أنه وجدت بطاقة فيها أن فلاناً دفع صاعاً من جير حمله من تنبكتو وظف عليه في غمار الناس.

وكان المنصور مع ذلك يحسن إلى الأجراء غاية الإحسان ويجزل صلة العارفين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤن أولادهم كي لا تتشوف نفوسهم وتتشعب أفكارهم.

وهذا البديع دار مربعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائقة الهيئة وأحتف بها مصانع أخر من قباب وقصور ودور فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته ولا شك أن هذا البديع من أحسن المباني وأعجب المصانع يقصر عنه شعب بوان وينسى ذكر غمدان، ويبخس الزهراء والزاهره، ويزري بقباب الشام وأهرام القاهرة، وفيه من الرخام المجزع والمرمر الأبيض والأسود ما يحير الفكر ويدهش النظر وكل رخامة طلي رأسها بالذهب الذائب ومره بالنضار الصافي وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة، وجعل في أضعاف ذلك الزليج المتنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر، أو برد موشى من عمل صنعاء وتستر، وأما سقوفه فتجسم فيها الذهب وطليت الجدرات به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبص فتكاملت فيه المحاسن، وأجرى بين قبابه

ماء غير آسن، وبالجملة فإن هذا البديع كان من المباني المتناهية البهاء والإشراق المباهية لزوراء العراق ومن المصانع التي هي جنة الدنيا وفتنة المحيا، ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف:

كل قصر بعد البديع يذم فيه طاب المجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء نمير وثرى عاطر وقصم أشم
إن مراكشاً به قد تباهت مفخراً فهي للعلا الدهر تسمو

وبه من الأشعار المرقومة في الأستار، والأبيات المنقوشة في الجهات، على الخشب والزليج والجبص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول، وعلى كل قبة ما يناسبها، وفي بعض القباب مفاخرة على لسانها لمقابلتها وتتبع ذلك يطول لكن لا بأس أن نلم هنا بثمالة من ذلك الحوض ونخوض في بحار تلك البدائع بعض الخوض، إذ في ذلك عبرة لمن اعتبر، وترويح للقلوب بكيفية فعل الدهر بمن غبر، فمن ذلك ما نقش خارج القبة الخمسينية لأن فيها خمسين ذراعاً بالعمل من إنشاء الكاتب البليغ أبي فارس عبد العزيز الفشتالي على لسان القبة المذكورة:

سموت فخر البدر دوني وانحطا وأصبح قرص الشمس في أذني قرطا
وصغت من الإكليل تاجاً لمفرقي ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا
ولاحت بأطواقي الثريا كأنها نثير جمان قد تتبعته لقطا
وعديت عن زهر النجوم لأنني جعلت على كيوان رحلي منحطا
وأجريت من فيض السماحة والندى خليجاً على نهر المجرة قد غطا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت إليه وفود البحر تغرف ما أنطا
ينضنض ما بين الغروس كأنه وقد رقرقت حصباؤه حية رقطا
حواليه من دوح الرياض خرائد وغيد تجر من خمائلها مرطا
إذا أرسلت لدن الفروع وفتحت جنى الزهر لاح في ذوائبها وخطا
يرنحها مر النسيم إذا سرى كما مال نشوان تشرب اسفنطا
يشق رياضاً جادها الجود والندى سواء لديها الغيث أسكب أم أبطا
وسالت بسلسال اللجين حياضه بحاراً غدا عرض البسيط لها شطا

تطلع منها وسط وسطاه دمية ... هي الشمس لا تخشى كسوفاً ولا غمطا
حكت وحباب الماء في جنباتها ... سنا البدر حل من نجوم السما وسطا
إذا غازلتها الشمس ألقى شعاعها ... على جسمها الفضي نهراً بها لطا
توسمت فيها من صفاء أديمها ... نقوشاً كأن المسك ينقطها نقطا
إذا اتسقت بيض القباب قلادة ... فأنى لها في الحسن درتها الوسطا
تكنفني بيض الدمى فكأنها ... عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولكن زادها الحسن عريها ... وأجمل في تنعيمها النحت والخرطا
سمت صعداً تيجانها فكسرت ... فوارير أفلاك السماء بها ضغطا
فيالك شأواً بالسعادة آهلاً ... بأكنافه رحل العلا والهدى حطا
وكعبة مجد شادها العز فانبرت ... تطوف بمعناها أماني الورى شوطا
ومسرح غزلان الصريم كناسها ... حنايا قباب لا الكتب ولا السقطا
فلكن به ما طاب لا الإثل والخمطا ... ووسدن فيه الوشي لا السدر والأرطا
ثراه من المسك الفتيت مدبر ... إذا مازجته السحب عاد بها خلطا
وإن باكرته نسمة ينسري بها ... إلى كل أنف عرف عنبره قسطا
أقرت له الزهراء والخلد وانثنت ... أواوين كسرى الفرس تغبطه غبطا
جناب رواق المجد فيه مطنب ... على خير من يعزى لخير الورى سبطا
إمام يسير الدهر تحت لوائه ... وترسي سفائن العلا حيثما حطا
وفتاح أقطار البلاد بفيلق ... يفلق هامات العدا بالظبي خبطا
تطلع من خرصاته الشهب فانثنت ... ذوائب أرض الزنج من ضوءها شمطا
كتائب نصران جرت لملمة ... جرت قبلها الأقدار تسبقها فرطا
إذا ما عقدن راية علوية ... جعلن ضمان الفتح في عقدها شرطا
فما للسما تلك الأهلة إنما ... سنابكها أبقت مثالاً بها خطا
يطاوع أيدي المعلوات عنانها ... فيعتاض من قبض الزمان بها بسطا
يد لأمير المؤمنين بكفها ... زمام يقود الروم والفرس والقبطا
أدار جداراً للعلا وسرادقاً ... يحوط جهات الأرض من رعيه حوطا

وقال أيضاً مما كتب بداخل القبة المذكورة:

جمال بدائعي سحر العيونا ... ورونق منظري بهر الجفونا
وقد حسنت بقوسي واستطارت ... سناً يغشى عيون الناظرينا
وأطلع سمكي الأعلى نجوماً ... ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوى من دخان الند ألقى ... على أرضي الغياهب والدجونا
علوت دوائر الأفلاك سبعاً ... لذاك الدهر ما ألفت سكونا
فصغت من الأهلة والحنايا ... أساور والخلاخل والبرينا
تكنفني حياض مائحات ... أمامي والشمائل واليمينا
يقيد حسنها الطرف انفساحاً ... ويجري الفلك فيها والسفينا
تدافع نهرها نحوي فلما ... علاه البحر فيّ غدا دفينا
وقد نشر الحباب على سماها ... لآلي تزدري العقد الثمنيا
فخرت وحق لي لما اجتباني ... لمجلسه أمير المؤمنينا
هو المنصور حائز خصل سبق ... وباني المجد بنياناً مكينا
وليث وغى إذا زأر امتعاضاً ... يروع زئيره هنداً وصينا
إذا أمت كتائبه الأعادي ... بعثن برعبه جيشاً كمينا
يدير عليهم من كل حرب ... تدقهم رحى أو منجنونا
إمام بالمغارب لاح شمساً ... بها الشرق اكتسى نوراً مبنيا
بقيت بذي القصور الغر بدراً ... تلوح بأفقهن مدى السنينا
تحف بكم عواكف عند بابي ... ملائكة كرام كاتبينا
لك البشرى أمير المؤمنين اد ... خلوها مع سلام آمنينا

وقال أيضاً مما كتب في بهوها بمرمر أسود في أبيض:

لله بهو عز منه نظير ... لما غدا كالروض وهو نضير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد ... قد نضدتها في النحور الحور
فكأنها والتبر سال خلالها ... وشي وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة ... قد زان حسن طرازها تشجير
وإذا تصاعد نده نوأ ففي ... أنماطه نور به ممطور
شأو القصور قصورها عن وصفه ... سيان فيه خورنق وسدير

فإذا أجلت اللحظ في جنباته يرتد وهو بحسنه محسور
وكأن موج البركتين أمامه حركات سحب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة ملك النفوس بحسنها تصوير
فتدير من صفو الزلال معللاً يسري إلى الأرواح منه سرور
ما بين آساد يهيج زئيرها وأساود يعلو لهن صفير
ودحت من الأنهار أرض زجاجة وأضلها فلك يضيء منير
راقت فمن حصبائها وفواقع يطفو عليها اللؤلؤ المنثور
يا حسنه من مصنع فبهاؤه باهى نجوم الأفق وهي تنور
وكأنما زهر الرياض بجنبه حيث التفت كواكب وبدور
ولدسته الأسمى تخير رصفه فخر الورى وإمامها المنصور
ملك أناف على الفراقد رتبة وأقله فوق السماك سرير
قطب الخلافة تاج مفرق دولة رميت بجحفلها اللّهام الكور
وجرى إلى أقصى العراق لرعبها جيش على جسر الفرات عبور
نجل النبي ابن الوصي سليل من حقن الدماء وعف وهو قدير
بحر الندى لكنه متموج سيف العلا لكنه مطرور
طود يخف لحلمه ووقاره ولجيشه يوم النزال ثبير
دامت معاليه ودام ومجده طوق على جيد العلا مزرور
وتعاهدته من الفتوح بشائر يغدو عليه بها مساً وبكور
ما زال منزل سعده يرتاده نصر يرف لواؤه المنشور
وجرت به مرحاً جياد مسرة وأدار كأس الأنس فيه سمير

وقال بعض الكتاب مما نقش في عضادتي باب القبة الخمسينية المذكورة:

يا ناظراً بالله قف وتأمل وانظر إلى الحسن البديع الأكمل
وإذا نظرت إلى الحقيقة فلتقل السر في السكان لا في المنزل

وقال بعض الكتاب أيضاً ما طرزت به الأستار المذهبة المحكمة الصنعة لتستر بها النواحي الأربعة من القبة الخمسينية وتسمى هذه الأستار عند أهل

المغرب بالحائطي ففي الجهة الأولى:

متع جفونك في بديع لباسي ... وأدر على حسني حميا الكاس
هذي الربا والروض من جرعائها ... لم تغتذي بالعارض البجاس
أنى لروض أن يروق بهاؤه ... مثلي وأن يجري على مقياسي
فالروض تغشاه السوام وإنما ... تأوي إلى كنفي ظباء كناس

وفي الجهة الثانية:

من كل حسناً كالقضيب إذا انثنى ... تزري بغصن البانة المياس
ولقد نشرت على السماك ذوائبي ... ونظرت من شزر إلى الكناس
وجررت ذيلي بالمجرة عابثاً ... فخراً بمخترعي أبي العباس
ما نيط مثلي في القباب ولا ازدهت ... بفتى سواه مراتب وكراس

وفي الجهة الثالثة:

ملك تقاصرت الملوك لعزه ... ورماهم بالذل والإتعاس
غيث المواهب بحر كل فضيلة ... ليث الحروب مسعر الأوطاس
فرد المحاسن والمفاخر كلها ... قطب الجمال أخو الندى والباس
ملك إذا وافى البلاد تأرجت ... منه الوهاد بعاطر الأنفاس

وفي الجهة الرابعة:

وإذا تطلع بدره من هالة ... يعشى سناه نواظر الجلاس
أيامه غرر تجلت كلها ... أبهى من الأعياد والأعراس
لا زال للمجد السني يشده ... ويقيم مبناه على الأساس
ما مال بالغصن النسيم وكللت ... درر الندى في جيده المياس

وقال أبو فارس الفشتالي مما كتب على المصرية المطلة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء من بديع المنصور، وكان أنشأها في جمادى الأولى من سنة خمس وتسعين وتسعمائة:

باكر لديّ من السرور كؤوسا ... وأرض النديم أهله وشموسا
وأعرج على غرفي المنيف سماؤها ... تلق الفراقد في حماي جلوسا

وإذا طلعت بأوجها قمر العلا لا ترتضي غير النجوم جليسا
شرق القصور بريقها لما اجتلت مني على بسط الرياض عروسا
واعتضت بالمنصور أحمد ضيغماً ورداً تخير من بديعي خيسا
ملك أرى كل الملوك ممالكاً لعلاه والدنيا عليه حبيسا
وهناك يا شرف الخلافة دولة تلقى برايتها طلائع عيسا

وقال أيضاً مما كتب في بعض المباني البديعية:

معاني الحسن تظهر في المغاني ظهور السحر في حدق الحسان
مشابه في صفات الحسن أضحت تمت بها المغاني للغواني
بكل عمود صبح من لجين تكون في استقامة خوط بان
مفصلة القدود مثلثات مواصلة العناق من التدان
تردت سابري الحسن يزري بحسن السابري الخسرواني
وتعطو الخيزرانة من حماها بسالفة القطيع البرهماني
لمجدك تنتمي لكن نماها إلى صنعاء ما صنع اليدان
يدين لك ابن ذي يزن ويعنو لها غمدان في أرض اليماني
غدت حرماً ولكن حل فيها لو فدكم الأمان مع الأماني
مبان بالخلافة آهلات بها يتلو الهدى السبع المثاني
هي الدنيا وساكنها إمام لأهل الأرض من قاصٍ وداني
قصور ما لها في الأرض شبه وما في المجد للمنصور ثاني

وقال مما نقش في بعض الأبواب:

هذي وفود السعد نحوي ترتمي وطلائع البشرى لبابي تنتمي
وسمت إليّ عفاة عرفك مثل ما يسمو الحجيج إلى سقاية زمزم
حطت بمصراعي السعود بشائراً لاحت على الشرفات مثل الأنجم
وأوان صنعي أن تقول ولا تبل ببديع أحمد جنة المتنعم

وقال الفشتالي لما عرضت عليه هذه الأبيات استحسنها إلا أنه كره لفظة جنة وتغير منها كثيراً، وقال الوزير الأديب أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي مما كتب على مباح قبة الزجاج:

إن شئت تاريخ إكمال البديع فقل إيوان أحمد إيوان السعادات

وقال الوزير المذكور مما نقش على أحد أبواب البديع:

باب أتى كبراعة استهلال وكأنما القصر القصيد التالي

ولذاك سمي بالبديع وجاء بال إغراق والتجنيس والإيفال

وأتى التمام فقلت في تاريخه بيتاً بلا عقد ولا إشكال

صرح على تقوى من الله انبنى في طالع للسعد والإقبال

وقال أيضاً في تمام البديع مهنئاً:

يا مليكاً ملكه فيمن ملك كطلوع الفجر من بعد الحلك

تم هذا القصر فاسكنه على حسن حال بدوام الملك لك

وكان الفراغ من تمام البديع سنة اثنتين وألف، وفي تاريخه يقول الوزير المذكور وهو مما نقش بباب الرخام أحد أبواب البديع:

الحسن لفظ وهذا القصر معناه ياما أميلح مرآه وأبهاه

فهو البديع الذي راقت بدائعه وطابق اسم له فيه مسماه

صرح أقيمت على التقوى قواعده ودل منه على التاريخ معناه

ولاح أيضاً وعين الحفظ تكلاه تاريخه من تمام قل هو الله

قال في نفح الطيب: «اخترع المنصور من المصانع ثلاثة أشياء فجاءت غريبة الشكل بديعة الحسن، وهي: البديع، والسمرة، والمشتهى؛ وفيهما يقول المنصور مورياً:

بستان حسنك أبدعت زهراته ولكم نهيت القلب عنه فما انتهى

وقوام غصنك بالمسرة ينثني يا حسن رمان به للمشتهى» اهـ.

قال اليفرني: والذي ذكره صاحب كتاب البيان المغرب عن أخبار المغرب، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عذاري الأندلسي حسبما رأيته في السفر الثاني منه: «أن أول من أنشأ المسرة التي بظاهر جنان الصالحة عبد المؤمن بن علي كبير الموحدين» قال: «وهو بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها فيه كل فاكهة تشتهى وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط له عيوناً كثيرة».

قال ابن اليسع: «وما خرجت أنا من مراكش في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش» اهـ ولعل المنصور جدد معالم المسرة بعد اندراسها، وأفاض سجال الحياة على ميت غراسها، وكان المنصور يفتخر بالبديع كثيراً وينوه بقدره، وفي ذلك يقول أبو فارس الفشتالي:

هذا البديع يعز شبه بدائع ... أبدعتهن به فجاء غريبا

أضنى الغزالة حسنه حسداً له ... أبدى عليها للأصيل شحوبا

وانقضت الزهر المنيرة إذ رأت ... زهر الرياض به ينور عجيبا

شيدتهن مصانعا وصنائعا ... أنجزن وعدك للعلا المرقوبا

وجريت في كل الفخار لغاية ... أدركتهن وما مسست لغوبا

فانعم بملكك دام فيه مؤبداً ... تجني به فنن النعيم رطيبا

ولما أكمل المنصور البديع وفرغ من تنميق بردته وتطريز حلته صنع مهرجاناً عظيماً ودعا الأعيان والأكابر فقدم لهم من ضروب الأطعمة وصنوف الموائد، وأفرغ عليهم من العطايا ومنحهم من الجوائز ما لم يعهد منه قبل ذلك، وكان ممن دخل في غمار الناس رجل من البهاليل ممن كانت له شهرة بالصلاح في الوقت فقال له المنصور مباسطاً: «كيف رأيت دارنا هذه يا فلان؟» فقال له: «إذا هدمت كانت كدية كبيرة من التراب» فوجم لها المنصور وتطير منها. وتحكى هذه الحكاية عن غير المنصور فالله أعلم.

قال اليفرني: وقد ظهر مصداق ذلك على يد السلطان المظفر المولى إسماعيل بن الشريف فإنه أمر بهدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف لموجب يطول شرحه فهدمت معالمه ومحيت مراسمه، وفرق ما كان به من جموع الإنس، وعاد حصيداً كأن لم يغن بالأمس، حتى صار مرعى للكلاب والمواشي ووكراً للصدى والبوم، وحق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه، ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من أنقاض البديع، ولقد تذكرت بهذا ما حكاه بعض مؤرخي الأندلس: أن

الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر، وهي من عجائب الدنيا، مر عليها في أيام المنصور بعض أهل البصائر وهي في نهاية العمران والازدهاء بسكانها، فقال: «يا دار فيك من كل دار فجعل الله منك في كل دار» قال: «فضرب الدهر ضرباته وسلط عليها أيدي العدوان فهدمت وخربت وتفرقت محاسنها حتى نقل بعض أنقاضها إلى العراق.

قال اليفرني: ولما دخلت البديع مقفلي من الرحلة ورأيت ما هالني أنشدت أبياتاً أنشدها الشيخ محيى الدين بن عربي في كتاب المسامرة لما دخل الزاهرة فوجدها متهدمة وهي:

ديار بأكناف الملاعب تلمع ... وما أن بها من ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فتصمت أحياناً وحيناً ترجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً ... له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال على دهر مضى ليس يرجع

وأنشدت ما أنشده ابن الآبار في تحفة القادم:

قلت يوماً لدار قوم تفانوا ... أين سكانك الكرام علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلاً ... ثم ساروا ولست أعلم أينا

ثم قال اليفرني رحمه الله:

لطيفة: تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر، وهذا القدر هو الذي بقي فيه البديع قائماً، فإنه فرغ منه سنة اثنتين وألف، وشرع في هدمه سنة تسع عشرة ومائة وألف، فمدة عمره مائة وسبع عشرة سنة على عدد اسمه وذلك من غريب الاتفاق فسبحان من دقت حكمته، وجلت قدرته، وعمت رحمته، لا إله إلا هو الحكيم العليم.

ثورة الناصر ابن السلطان الغالب بالله ببلاد الريف ومقتله

كان الناصر هذا في حياة أبيه عبد الله الغالب بالله خليفته على تادلا ونواحيها، ولما توفي أبوه المذكور وقام بالأمر أخوه المتوكل كما استوفينا خبره قبض على الناصر فاعتقله فلم يزل معتقلاً عنده سائر أيامه إلى أن قدم المعتصم بجيش الترك وانتزع الملك من يد المتوكل كما مر: فسرح الناصر من اعتقاله وأحسن إليه، فلم يزل عنده في أرغد عيش إلى أن توفي المعتصم يوم وادي المخازن. وأفضى الأمر إلى المنصور ففر الناصر إلى آصيلا، وكانت للنصارى يومئذ، ثم عبر البحر منها إلى الأندلس فكان عند طاغية قشتالة مدة طويلة إلى أن سرحه الطاغية إلى المغرب بقصد تفريق كلمة المسلمين وإحداث الشقاق بينهم، فخرج الناصر بمليلية ونزل بها لثلاث مضت من شعبان سنة ثلاث وألف، وتسامعت به الغوغاء والطغام من أهل تلك البلاد فأقبلوا إليه يزفون، فكثرت جموعه وتوفرت جيوشه واهتز المغرب بأسره لذلك.

وذكر اليفرني في «الصفوة»: «أن الفقيه أبا عبد الله محمد بن قاسم القصار كتب كتاباً إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن علي بن ريسون من أهل بلاد غمارة وكان مسموع الكلمة بها يحضه على الاستمساك بدعوة المنصور وأن يلزم الطاغية له، فوقع الكتاب في يد المنصور فعرف للشيخ القصار حقه، ولما وفد عليه بعد ذلك وصله وولاه الفتوى والخطبة بجامع القرويين وتفرقة صدقة المساكين».

ثم إن الناصر خرج من مليلية قاصداً تازا فدخلها واستولى عليها ونزعت إليه القبائل المجاورة لها كالبرانس وغيرهم، فتألبوا عليه وتمالؤوا على إعزازه ونصره، ولما دخل تازا طالب أهلها بالمكس وقال لهم: «إن النصارى يغرمون حتى على البيض». ولما سمع المنصور بخبره أقلقه ذلك وتخوف منه غاية، لأن الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوفت النفوس إليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه للرعية.

قال في «ابتهاج القلوب» في ترجمة الولي الصالح أبي الحسن علي بن

منصور البوزيدي المعروف بأبي الشكاوي دفين شالة: «إنه كان سائراً يوماً على بغلة ومعه أصحابه فقال لهم: «يا فقراء أتسمعون ما تقول بغلتي؟ إنها تصيح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الشجر والحجر وإني أرى غير ذلك» فكان الأمر كما قال؛ اهتز لقيام الناصر كل شيء ثم قتل عن قريب ولم يتم له أمر» اهـ.

ثم إن المنصور بعث إليه جيشاً وافراً فهزمهم الناصر واستفحل أمره وتمكن ناموسه من القلوب، فأمر المنصور ولي عهده المأمون بمنازلته فخرج إليه من فاس في تعبية حسنة وهيئة تامة فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على الناصر بالموضع المعروف بالحاجب، ومر على وجهه فاحتل بالجاية، بلدة من عمل بلاد الزبيب، فلحق به ولي العهد فلم يزل في مقاتلته إلى أن قبض عليه فأزال رأسه وبعث به إلى مراكش. وكان ذلك سنة خمس وألف، وقيل سنة أربع وألف.

قال في «نشر المثاني»: «كان مقتل الناصر وإدخاله مقطوع الرأس إلى فاس يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة أربع وألف وهو الأصح».

وذكر الشيخ أبو علي اليوسي في «المحاضرات» ما نصه: «حدثوا عن صلحاء تادلا: أنه لما قام على السلطان أحمد المنصور ابن أخيه الناصر قال الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي: «إن الناصر يدخل تادلا» يعني دخول الملك فلما بلغ الخبر إلى الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي التادلي قال: «مسكين بابا أحمد رأى رأس الناصر قد دخل تادلا فظنه الناصر يدخلها» فكان الأمر كذلك فإنه هزم في نواحي تازا ثم قطع رأسه وحمل إلى مراكش فدخل تادلا في طريقه» اهـ.

ولما قتل الناصر سر المنصور بذلك وأتته الوفود للتهنئة وقال الشعراء في ذلك منهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي قال:

تهنأ أمير المؤمنين فقد جرت ... بسطوتك الأقدار جري السوابق
أضاءت لك الأيام واحلولكت على ... عدوك وارتجت رؤوس الشواهق
وذاك الذي قد خيب الله سعده ... تردى فلم تنفعه نصرة مارق
فكان كما قد قيل لكن رأسه ... أتى سابقاً والرِّجل ليست بسابق

ضمن قول بعضهم في الوزير ابن الفرس وقد رآه مصلوباً منكوس الرأس:

لقد طمح المهر الجموح لغاية تقطع أعناق الجياد السوابق
جرى فجرت رجلاه لكن رأسه أتى سابقاً والرِّجل ليست بسابق

وكتب المنصور بخبر هذا الفتح إلى الآفاق.

فمما كتبه للشيخين الإمامين أبي عبد اللّه محمد زين العابدين البكري، وأبي عبد اللّه محمد بدر الدين القرافي رسالة يقول فيها ما نصه:

«من عبد ربه المجاهد في سبيله أحمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسني، إلى الفاضل الذي اعتجر بالتقوى وهو زين العابدين، وتحلى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين، والسالك الذي برز في الطريقة، وسلك على المجاز الواضح إلى الحقيقة ففات شأو السابقين، والعارف الذي تجرد عن رعونة الأهواء النفسانية، فكان سلوكه على التجريد إلى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافي، السيد بدر الدين القرافي، والشيخ العارف الواصل، السر الكامل، سلالة العلماء، سبط الفضلاء؛ أبي عبد اللّه زين العابدين ابن الشيخ السامي المقام، قطب المشايخ الأعلام، فخر علماء الإسلام، الشهير البركة في الأنام؛ أبي عبد اللّه محمد بن أبي الحسن الصديقي، أبقاكما الله وأرواحكما تتعطر برياحين الإنس في حضرة القدس، وتتنسم النفحات الهابة من رياض المشاهدة إلى مدارج الإنس ومعارج النفس، وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد حمد الله مفيض أنوار عناية أحمد على صاحبه الصديق، مظهر كنوز المعارف الربانية جيلاً بعد جيل من بيت عتيق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختار لمرافقته صاحبه في الغار والعريش والطريق، والرضا عن آله أئمة الخلق وسيوف الحق، وأصحابه الذين فاضت أنوار هدايتهم على الغرب والشرق وببركتهم انتسق لنا الفتح انتساق الأسلاك وبفضلهم يعلو سعدنا على الكفر علو القطب على دائرة الأفلاك، فكتبنا هذا إليكم من حضرتنا مراكش حاطها الله، وصنع الله لها مفعم السجال وواسع المجال،

وعزمتها الماضية تبعث إلى العدا رسل الأوجال، والأيام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله إلى أن تطوى ملاءة الدهر، هذا وأنه اتصل بعلي مقامنا كتابكما الذي صدحت على أفنان البلاغة سواجعه، وعذبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه، ولطفت في كل معنى من المعاني أفانينه ومنازعه، وتألفت على الإجادة في كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه، وأينعت بأزهار العناية الربانية أباطحه الفيح وأجارعه، ومعه المنظومات التي سحت بالحكم ديمها، ورسا في البلاغة قدمها، وربا في منبت المواهب الربانية يراعها الفصيح وقلمها، وحل من نفوسنا موقعها العجيب محلاً من دونه الثريا في مطلعها، والبدر ليلة تمامه إعجاباً بها وتنويهاً بمهديها، وابتهاجاً بالخوارق التي أطلق الله على لسان مبديها، وإلى هذا فليحط علمكما بأن مقامنا تنفق فيه على الدوام إن شاء الله نفائس بضائعكم، وتنمو فيه مع الأيام سعود مطالعكم، وتسمو فيه على كل مقام مقاماتكم، وتستوضح فيه على المحبة الصميمة أماراتكم الواضحة وعلاماتكم، فعلى هذا تنعقد منكم الخناصر، وتشتد الأواخي والأواصر، بعز الله ومنّه، ثم مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى، وإهداء المسرة الكبرى، إعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الكبير للإسلام، وعميد ملل التثليث وعبدة الأصنام، لما أنس من تلقاء جنابنا نار العزم تلتهب منا التهابا، وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا، وهممنا قد همت بتجديد الأسطول، والاستكثار من المراكب المتكفلة للجهاد إن شاء الله بقضاء كل دين ممطول، وعلم أن الحديث إليه يساق، وإلى أرضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كل لواء خفاق، رام خذله الله مكافاتنا على ذلك بما أمل أن يفت به في عضدنا الأقوى، وعزمنا الذي بعناية الله يزداد ويقوى، فرمي بمخذول من أبناء أخينا عبد اللّه كان ربى لديه، وطوحت به الطوائح منذ ثمانية عشر عاماً إليه، إلى مليلية إحدى الثغور المصاقبة لغرب ممالكنا الشريفة التي إلى كفالة ولدنا وولي عهدنا كافل الأمة من بعدنا، الأمير الأجل الأرضى، صارم العزم

المنتضى، وحسام الدين الأمضى، أبي عبد اللّه محمد الشيخ المأمون بالله، وصل الله لرايته التأييد والظهور، والعز الذي يستخدم الأيام والدهور، فالتف عليه من اغتر بأباطيله الواهية البناء، من أوباش العامة والغوغاء، ومن قضى له من أجناد تلك الناحية بالشقاء، جموع تكاثر الرمل، وتفوت الحصا والنمل، لاح بها للشقي خلب بارق أكذبته أمنيته، إذ صدقته منيته، فصمم نحوه ولدنا أعزه الله بجنود الله التي إليه، وبعساكر تلك الممالك التي ألقينا زمام تدبيرها في يديه، فما راع الشقي إلا انقضاضه عليه من الجو انقضاضِ الأجدل، وتصميمه إليه بعزائم تدك الطود وتفلق الصخر والجندل، فاستولى عليه بحمد الله للحين، وعلى جموعه الأشقياء في يوم أغر محجل، وساعة أنزل الله فيها على الخوارج المارقين العذاب المعجل، فاستأصلتهم الشفار، وحصدت هشيمهم المصوح ألسنة النار، وقبض على الشقي في يوم كان شفاء للصدور، ومنتزهاً لحملة السيوف وربات الخدور، وأحرز الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم، والمن الجسيم، لولدنا أعزه الله عزّ وجلّ في خاصة أجناده، ونهض وحده بأعبائه ونحن على سرير ملكنا وادعون مطمئنون، وأجنادنا في أوطارنا لاهون ومفتنون، فلم يحتج إلى إنجاده من قبلنا ولا إمداده، والعاقبة للمتقين، والحمد لله حمد الشاكرين، وعرفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البشرى التي سرت الإسلام، وساءت بحمد الله عبدة الأوثان والأصنام، وتعلموا مع ذلك ما عليه الأحوال اليوم بحول الله لدينا من خفق رايات العزم وشحذ آراء الجزم، وأعمال عوامل الجزم إلى مجازاة عدو الدين إن شاء الله على فعلته التي عادت عليه أسفاً ولهفاً، وإعادة ما كان أسلف من ذلك إن شاء الله بالمكيال الأوفى، وقدمنا إليكم التعريف لتمدونا إن شاء الله بأدعيتكم الصالحة في أوقات الإجابة، وتحرصوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذي خضوع وإنابة، أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله، وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دين الحق على الدين كله، ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس، وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء أطلاله الدرس، حتى ينطق لسان الدين في أرضها بكلمة

الله التي طالما سكت عنها نداؤه وخرس، وشرق بريقه فغص وخنس، فبيده الحول والقوة، وعنايته العناية المرجوة، ثم نوصيكم بحسن الوقوف مع أصحابنا فيما يشترى من الكتب العلمية برسم خزانتنا الكريمة الإمامية العلية، ثم الإتحاف بديوان الشيخ والذكم التماساً لجميل بركاته، وتمسكاً بما سبق من الإجازة العامة في سائر منظوماته وموضوعاته ومروياته، وهذا موجبه إليكم، والسلام الأتم معاد عليكم ورحمة الله وبركاته، في ربيع النبوي سنة خمس وألف» اهـ. وهذه الرسالة من إملاء المنصور على ما قيل.

ومما كتب به أيضاً بخط يده إلى سلطان مكة والمدينة والحجاز الشريف أبي المحاسن حسن بن أبي نمي بن بركات ما نصه:

من عبد اللّه المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أحمد أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني إلى الأصالة التي تبجبحت من ذؤابة هاشم في صميمها، وتوغلت من غرفات حرمة الله بين زمزمها وحطيمها، وتمتعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الأريجة وشميمها، أصالة السلطان الأثيل الأثير الأسنى الأسمى الأزكى السلطان حسن بن أبي نمي أبقاكم الله والبيت ذو الأستار تتفيؤون ظلاله، وتلثمون من الحجر الأسود الأسعد خاله، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أعز هذه المثابة العلوية، الإمامية النبوية، العزيزة الأنصار، السامية المحتد والنجار، الساحبة أذيال عزها الوريف الظلال على أهل البيت السامي المقدار، سكان الحمى والذين تبوءوا الدار، والصلاة والسلام على مولانا محمد الذي أطلع شموس الهداية الساطعة الأنوار والرضا عن آله الذين تتضاءل لمجدهم السامي المنار الشموس والأقمار، وعن أصحابه الذين استأصلوا شأفة الكفر بمواضي الشفار وصلة الدعاء لهذا المقام العلي الإمامي المنصوري الحسني بنصر تجني الفتوح من قضب رماحه، وتجري الأقدار على وفق اقتراحه، فكتابنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله ووسع لها المجال في ميادين السجال والأيام بعز صولتها ويمن دولتها بهذه المغارب باسمة الثغور، مؤذنة باتصال أمرها العزيز بحول الله إلى أن تطوى

ملاءة الدهور، بعز الله وعنايته. هذا وإن شيخ الركب المغربي وهو المرابط الخير الحاج محمد بن عبد القادر لما أزمع إلى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذي ليس بعافٍ ولا محيل، وهب له من محارم الله نسيم يميل، وآن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل، مد إلى عليّ مقامنا أكف الرغبة في كتاب كريم يتشرف بحمله، ويتعرف منه السعادة بحول الله في مرتحله وحله، يتضمن الإيصاء به إليكم في المورد والمصدر، ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر، فحملناه هذه العجالة لترعوا له إن شاء الله عنها الحق المعتبر، وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر، وتدنوا له من آماله قطوف كل فنن مهتصر، ومما نكلفكم النهوض لأجل حقوق الأخوة بأعبائه ونطالبكم لوشائج الرحم بالاعتناء بأدائه التماس الدعاء مع الأحيان تجاه البيت الحرام وعند الملتزم والمقام أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله، وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دينه على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس، وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء أطلاله الدرس، حتى ينطق لسان الدين فيها بكلمات الله التي طالما سكت عنها نداؤه وخرس، وشرق بريقه فغص وخنس، فذلك دعاء لا يرد لأنه جرى من أهله في محله ومعاد السلام الأتم عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى.

وقوله حتى ينطق لسان الدين فيه تورية بابن الخطيب رحمه الله.

Âî úëòÃú úÍÌíÒî àúÍÒü úîõÍ ÒúìòÌúóÓ àÆÜúóî úûìõúü

قال الفشتالي: «كان ترتيب المنصور في الاحتفال بالمولد النبوي الكريم أنه إذا طلعت طلائع شهر ربيع الأول صرف الرقاع إلى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية والمؤذنين النعارين في الأسحار فيأتون من كل جهة ويحشرون من سائر حواضر المغرب، ثم يأمر الشماعين بتطريز الشموع وإتقان صنعتها فيتبارى في ذلك مهرة الشماعين من كل ما يباري النحل في نسج أشكالها لطفاً وإدماجاً فيصوغون أنواعاً من الشمع التي تحير النواظر ولا تذبل زهورها النواضر فإذا كان ليلة المولد تهيأ لحملها وزفاف كواعبها

الصحافون المحترفون بحمل خدور العرائس عند الزفاف فيتزينون لذلك ويكونون في أجمل شارة وأحسن منظر ويجتمع الناس من أطراف المدينة كلها لرؤيتها، فيمكثون إلى حين يسكن حر الظهيرة وتجنح الشمس للغروب فيخرجون بها على رؤوسهم كالعذارى يرفلن في حلل الحسن، وهي عدد كثير كالنحل، فيتسابق الناس لرؤيتها وتمتد لها الأعناق، وتبرز ذوات الخدور ويتبعها الأطبال والأبواق، وأصحاب المعازف والملاهي حتى تستوي على منصات معدة لها بالإيوان الشريف فتصطف هنالك فإذا طلع الفجر خرج السلطان فصلى بالناس وقعد على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة، وأمامه تلك الشموع المختلفة الألوان من بيض كالدمى وحمر جليت في ملابس أرجوان وخضر سندسية واستحضر من أنواع الحسك والمباخر ما يلهي المحزون ويدهش الناظر، ثم دخل الناس أفواجاً على طبقاتهم فإذا استقر بهم المجلس تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبي ﷺ ومعجزاته وذكر مولده ورضاعه وما وقع في ذلك باختصار، فإذا فرغ اندفع القوم في الأشعار المولديات، فإذا فرغوا تقدم أهل الذكر المزمزمون بكلام الششتري وأشعار الصوفية، ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين، فإذا فرغوا من ذلك كله قام شعراء الدولة، فيتقدم قاضي الجماعة الشاطبي بلبل منابر الجمع والأعياد فينشد قصيدة يفتتحها بالتغزل والنسيب، فإذا تم تخلص لمدح النبي ﷺ ثم يختم بمدح المنصور والدعاء له ولولي عهده، فإذا قضى نشيده تقدم الإمام المفتي المولى أبو مالك عبد الواحد الشريف فينشد قصيدته على ذلك المنوال، فإذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي، ثم تلاه الكاتب أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، ويليه الكاتب محمد بن علي الفشتالي، ويليه الأديب محمد بن علي الهوزالي النابغة، ويليه الأديب الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المسفيوي، فإذا طوى بساط القصائد نشر خوان الأطعمة والموائد فيبدأ بالأعيان على مراتبهم ثم يؤذن للمساكين فيدخلون جملة فإذا انقضت أيام المولد الشريف برزت صلات الشعراء على أقدارهم، هكذا كان دأبه في جميع الموالد، ولا يحصى ما يفرغ فيه من أنواع الإحسان

على الناس» اهـ من كتاب «مناهل الصفاء».

وقال صاحب «النفحة المسكية» «في السفارة التركية»: وهو العلامة المشارك أبو الحسن علي بن محمد التامجروتي: «حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك فاستدعى المنصور الناس لإيوانه السعيد، واستدخلهم لقصره البديع المشيد. المحتوي على قباب متقابلة عالية وقد مد فيها من فرش الحرير، وصفت النمارق وتدلت الأستار والكلل والحجال المخوصة بالذهب على كل باب قبة وحنية سرير، ودار على الحيطان حائطيات الحرير التي هي كأزهار الخمائل ما رئيت قط في عهد الأوائل، وتلك القباب مرفوعة الجوانب، على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤوس بالذهب الذائب، مفروش جلها بالمرمر الأبيض مخططاً بالسواد يتخلل ذلك ماء عذب، فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقواد وكتاب وأصناف الأجناد، فيخيل لكل منهم أنه في جنة النعيم، والسلطان جالس في فاخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار، وترمقه الأبصار بالتعظيم والإكبار، ويجلس من عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الأقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر، وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على أجناسها من الأجناد والطلبة، وسكنت بعد حين الجلبة وأوتي بأنواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني التركية والهندية، وأوتي بالطسوس والأباريق وصب الماء على أيدي الناس، ونصبت مباخر العنبر والعود وأبرزت صحائف الفضة والذهب وأغصان الريحان الغض فرش بها البساط ورش من ماء الورد والزهر، وأنشدوا قصائد وتكلم المنشدون وأحسن إليهم السلطان ثم ختموا المجلس بالدعاء للأمير. وإذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الأول، وهذه سيرته دائماً» اهـ.

وهكذا كانت سيرته في شهر رمضان عند ختم صحيح البخاري: وذلك أنه كان إذا دخل رمضان سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفراً من نسخة

البخاري وهي عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفراً في كل يوم سفراً إلا يوم العيد وتاليه، فإذا كان يوم سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهيأ له السلطان أحسن تهيؤ إلا أن العادة الجارية عندهم في ذلك: أن القاضي يتولى السرد بنفسه فيسرد نحو الورقتين من أول السفر، ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل، ويلقى من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون في المذاكرة فإذا تعالى النهار ختم المجلس، وذهب القاضي بالسفر فيكمله سرداً في بيته، ومن الغد يبتدئ سفراً آخر، وهكذا والسلطان في جميع ذلك جالس قريب من حاشية الحلقة قد عين لجلوسه موضع.

قال الفشتالي: «وكان المنصور يعطي أموالاً لذوي الحاجات عند انقضاء رمضان، ويقيم مهرجاناً يوم عاشوراء لختان أولاد الضعفاء، وكل من ختن منهم أعطي أذرعاً من كتان وحصة من الدراهم وسهماً من اللحم» اهـ.

وأما ترتيب جيش المنصور وعادته في أسفاره فسنذكرها في الفصل بعد هذا إن شاء الله، ولنذكر بعض القصائد الميلادية التي أنشدت بمجالس المنصور حسبما تقدمت الإشارة إليه، فمن ذلك قول القاضي أبي القاسم بن علي الشاطبي رحمه الله:

ما بال طيفك لا يزور لماماً ... ويمنحنى الأحشا ضربت خياما
أيعيش فيك عواذلي لسلوهم ... وأموت فيك صبابةً وغراما
وتبيح نهرك سائلاً من أدمعي ... أو ليس نهرِ السائلين حراما
ما ذقت ماء لماك في سنة الكرى ... إلا انتبهت فكان لي أحلاما
عرض إذا حدثت عن بان الحمى ... فحديث قلبي بالأجارع هاما
أروى حديث الرقمتين مسلسلاً ... عن دمع باكية الغمام سجاما
وتلق من جيب النسيم تحية ... أضحى الهوى برداً لها وسلاما
يا جيرة العلمين دعوة شيق ... للذيذ عيش بالغضا لو داما
فخذوا بجرعاء الحمى قلبي فقد ... ألف الإقامة بالحمى فأقاما
وخذوا بثار أهل نجدانهم ... سلبوا الفؤاد وأدنفوا الأجساما
في كل غرب دموع عيني مشرق ... لكواكب فيها أثرن ظلاما

صليت بنار الشوق ثم رثت إلى إنسانها في لجة قد عاما
وتسلسلت عبراتها شوقاً لمن وقفت عليه صلاتها وسلاما
خير الأنام محمد الهادي الذي أردى الضلال وجب منه سناما
كنز العوالم سر طينة آدم ولحفظ ذاك السر جاء ختاما
وأجل أرسال الإله ومن به قد لاذ يونس حين خاض ظلاما
وتقاصرت عن فرده أعدادهم فلذا تقدم في الحساب إماما
أسرى إلى السبع الطباق فأقبلت زمر الملائك وفده إعظاما
في ليلة غصت بأملاك السما فتسير خلف ركابه وإماما
يا خير من بهر المعاند شأنه عجزاً فغص بريقه إفحاما
أعيى جلالك أن يحيط بوصفه وصف البليغ وأخرس الأقلاما
صلى عليك الله ما زار الحيا روضاً ففتح زهره الأكماما
ما لذتي في مدح غير مخلصا إلا بمدحي من بنيك إماما
خير الورى وإمامها المنصور من في ظل دولته الأنام أناما
أضفى على الأرضين ظل مهابة فحمى بها حام العباد وساما
وسما على الدنيا عقاب تنوفة فانقض يفترس الأسود بهاما
قل للملوك هبوا لمالككم فدى وخذوا لأنفسكم لديه ذماما
هذا الذي يحيي البلاد بعدله ويعيدها نشراً وكنَّ رماما
هذا الذي وعد الإله بأنه يطوي البلاد ويفتح الأهراما
يا مشبه المهدي في آرائه حزماً وفي عزماته إقداما
أنت الذي ببنيه أبناء العلا أرسى البلاد ووطد الإسلاما
فكأنها من حولك الأشبال في غاب الوشيج تبوأت آجاما
وأمينها المأمون عضب سمامها علم أناف على الهضاب سناما
وأجل مضطلع تخيره الورى بعد الإمام فقدموه إماما
وحباه أحمد عهد أمة أحمد فوفى فكان لرعيه المعتاما
لا يعدون النصر سيفك أنه سيف يحوط الدين والإسلاما
خذها ينم على العبير مديحها ويفض عن مسك الختام ختاما

وقال العلامة مفتي الحضرة أبو مالك المولى عبد الواحد بن أحمد

الشريف الفيلالي:

أرقت وشاقتني البروق اللوامع وذكرى خليط هيجتها المرابع
مرابع عفتها الروامس والسما تراق من الأشواق فيها المدامع
كأن لم تكن من قبل قدماً أو أهلاً إذ السلك منظوم وشملي جامع
تذكرني عهد الأجازع واللوى وأين اللوى مني وأين الأجازع
سحبنا بها ذيل الصبابة برهة وجفن الردى عنا وحاشاك هاجع
وقفت بها بالبزل والليل دامس أنازعها الشكوى بها وتنازع
أسائلها عن جيرة بان حيهم وضمت هواهم بعد ذاك الأضالع
فهل قدموا نحو العقيق صدورهم ولاح لهم برق من الغور لامع
يخبر عن دار الرسول وقربها عراص بها للوحي فاضت ينابع
ديار بها حل الحمى سيد الورى وهبت على الأشراك منها زعازع
عليك صلاة الله يا خير مرسل ويا خير من تثني عليه الأصابع
فلولاك هذا الكون ما زال معدماً وأنت الذي يرجوه عاص وطائع
لك الفخر في الدارين والموقف الذي لأهواله كل النبيين جازع
فآدمهم والكل تحت لوائكم وليس لنا والله غيرك شافع
فجازاك رب العرش ما أنت أهله جزاء به يشجي المناوي المخادع
وجازى إماماً قد نمته إليكم أصول وآباء كرام فوارع
سميك وابن السبط حقاً ومن له عوارف في أعناقنا وصنائع
فدم للعلا يا ابن الخلائف مفرداً إليك اشتراؤها وغيرك بائع
ودام ولي العهد بعدك صارماً يخب إلى نيل العلا ويسارع
هو الآمن المأمون من كل فتنة لفيض الندى من راحتيه يدافع
ففيك أقول والنصوص شواهد أحاديث صحت ليس فيها منازع
بكم رأس هذا القرن جدد ديننا وفاضت بحور للعلوم هوامع

أشار بهذا إلى ما أخرجه أبو داود عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»**.

وحمله بعض الأئمة على أن المجدد من الملوك، وقيل: من العلماء،

وقيل: من الأولياء والصواب الإطلاق.

وقال الوزير القائد أبو الحسن علي بن منصور الشيظمي رحمه الله تعالى:

من بعد أهل قبا وأهل كداء ... شوقي يزيد وعز ذاك عزائي
ولي الشفاء بقربهم وهم جلا ... ما في الخواطر من صدى وصداء
لكنه بعد المزار فأين من ... تلك المعاهد ساكن الحمراء
بانوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم ... ذات السنا والرند والأضواء
وشدا بهم حادي الركاب فكاد أن ... تدع القلوب جسومها بفضاء
يا سعد لو أن الزمان مساعدي ... ومجيب داعي البعد بعد ندائي
لركبت حرفاً كالهلال منافراً ... للهمز إلا في المنادي النائي
ولجبت أحياء الفلا وطويتها ... طي الملا بنجيبة فوداء
تختاض في جوف الظلام كأنها ... سري تولج في ضمير حجاء
وتخال في لجج السراب سفينة ... تجري القلوع بها بريح رخاء
هل أنزلن بها المخصب من منى ... وأزور بعد معاهد الزوراء
فأحط عنها الرحل ثم مخيماً ... في ظل أحمد بغيتي ومنائي
وامرغ الخدين ملتثماً ترى ... وطئته رجلاً خاتم النبئاء
محيي الهدى ماحي الضلالة والردا ... بالبيض والخطية السمراء
صلى عليه الله ما نسخ السخا ... لؤماً وما أجلى الدجا ابن ذكاء
وعلى صحابته الكرام وآله ... أكرم بهم من سادة فضلاء
أكرم بوارث مجده وعلائه ... سبط الرسالة غرة الأبناء
خير الخلائف أحمد المنصور من ... حاز الكمال وشرط كل علاء
الصارم الهندي في يمنى الهدى ... والكوكب الوقاد في الظلماء
يا أيها الملك الذي بسيوفه ... حاط الهدى وبرأيه الوضاء
ذخر الإله لك الفتوح وصانها ... كالزهر في الأكمام والأوعاء
لا بد من فتح يروقك واضح ... كالصبح يدرأ في نحور عداء
وستملك الحرم الشريف وينتمي ... للوائك المنصور دون مراء

وترى الجهات وقد أتت منقادة بظبي بنيك السادة النجباء
وتقر عيناً بالخليفة منهم وزر البرية عدة الأمراء
بمحمد المأمون خير من ارتقى درج الكمال ودب للعلياء
فرع سيحكي أصله ولقد حكى بمقاصد قد سددت ودهاء

وقال الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي رحمه الله تعالى:

هم سلبوني الصبر والصبر من شأني وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني
وهم أخفروا في مهجتي ذمم الهوى فلم يثنهم عن سفكها حبي الجاني
لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسي فشوقهم أضحى سميري وندماني
وإن غادرتني بالعراء حمولهم كفى أن قلبي جاهد أثر أظعاني
قف العيس واسأل ربعهم أية مضوا أللجزع ساروا مدلجين أم البان
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوا ملاعب آرام هناك وغزلان
وأين استقلوا هل بهضب تهامة أناخوا المطايا أم على كثب نعمان
وهل سال في بطن المسيل تشوقاً نفوس ترامت للحمى قبل جثمان
وإذا زجروها بالعشي فهل ثنى أزمتها الحادي إلى شعب بوان
وهل عرسوا في دير عبدون أم سروا يؤم بهم رهبانهم دير نجران
سروا والدجى صبغ المطارف فانثنى بأحداجهم شتى صفات وألوان
وأدلج في الأسحار بيض قبابهم فلحن نجوماً في معارج كثبان
لك الله من ركب يرى الأرض خطوة إذا زمها بدناً نواعم أبدان
أرحها مطايا قد تمشي بها الهوى تمشي الحميا في مفاصل نشوان
ويمم بها الوادي المقدس بالحمى به الماء صدا والكلا نبت سعدان
واهد حلول الحجر منه تحية تفاوح عرفاً ذاكي الرند والبان
لقد نفحت من شيخ يثرب نفحة فهاجت مع الأسحار شوقي وأشجاني
وفتت منها الشرق في الغرب مسكة سحبت بها في أرض دارين أرداني
وأذكرني نجداً وطيب عراره نسيم الصبا من نحو طيبة حياني
أحن إلى تلك المعاهد إنها معاهد راحاتي وروحي وريحاني

وأهفو مع الأشواق للوطن الذي ... به صح لي أنسي الهني وسلواني
وأصبو إلى أعلام مكة شائقاً ... إذا لاح برق من شمام وشهلان
أهيل الحمى ديني على الدهر زورة ... أحث بها شوقاً لكم عزمي الواني
متى يشتفي جفني القريح بنظرة ... يزج بها في نوركم عين إنساني
ومن لي بأن يدنوا لقاكم تعطفاً ... ودهري عني دائماً عطفه ثاني
سقى عهدهم بالخيف عهد تمده ... سوافح دمع من شؤوني هتان
وأنعم في شط العقيق أراكة ... بأفيائها ظل المنى والهوى داني
وحيا ربوعاً بين مروة والصفا ... تحية مشتاق لها الدهر حيران
ربوعاً بها تتلو الملائكة العلا ... أفانين وحي بين ذكر وقرآن
وأول أرض باكرت عرصاتها ... وطرزت البطحا سحائب إيمان
وعرس فيها للنبوة موكب ... هو البحر طام فوق هضب وغيطان
وأدى بها الروح الأمين رسالة ... أفادت بها البشرى مدائح عنوان
هنالك فض ختمها أشرف الورى ... وفخر نزار من معد بن عدنان
محمد خير العالمين بأسرها ... وسيد أهل الأرض الإنس والجان
ومن بشرت بالبعث من قبل كونه ... نوامس كهان وأخبار رهبان
وحكمة هذا الكون لولاه ما سمت ... سماء ولا غاضت طوافح طوفان
ولا زخرفت من جنة الخلد أربع ... تسبح فيها أدم حور وولدان
ولا طلعت شمس الهدى غب دجية ... تجهم من ديجورها ليل كفران
ولا لحقت بالمذنبين شفاعة ... يذود بها عنهم زباني نيران
له معجزات أخرست كل جاحد ... وسلت على المرتاب صارم برهان
له انشق قرص البدر شقين وارتوى ... بماء همي من كفه كل ظمآن
وأنطقت الأوثان نطقاً تبرأت ... إلى الله فيه من زخارف ميان
دعا سرحة عجما فلبت وأقبلت ... تجر ذيول الزهر ما بين أفنان
وضاءت قصور الشام من نوره الذي ... على كل أفق نازح القطر أوداني
وقد بهج الأنوا بدعوته التي ... كست أوجه الغبراء بهجة نيسان
وأن كتاب الله أعظم آية ... بها افتضح المرتاب وابتأس الشاني

وعدى على شأو البليغ بيانه ... فهيهات منه سجع قس وسحبان
نبي الهدى من أطلع الحق أنجماً ... محا نورها أسداف إفك وبهتان
بعزتها ذل الأكاسرة الألى ... هم سلبوا تيجانها آل ساسان
وأحرز للدين الحنيفي بالظبا ... تراث الملوك الصيد من عهد يونان
ونقع من سمر القنا السم قيصراً ... فجرعه منه مجاجة ثعبان
وأضحت ربوع الكفر والشرك بلقعاً ... يناغي الصدا فيهن هاتف شيطان
وأصبحت السمحا تروق نضارة ... ووجه الهدى بادي الصباحة للراني
أيا خير أهل الأرض بيتاً ومحتداً ... وأكرم كل الخلق عجم وعربان
فمن للقوافي أن تحيط بوصفكم ... ولو سجلت سبقاً مدائح حسان
إليك بعثناها أماني أجدبت ... لتسقى بمزن من أياديك هتان
أجرني إذا أبدى الحساب جرائمي ... وأثقلت الأوزار كفة ميزاني
فأنت الذي لولا وسائل عزه ... لما فتحت أبواب عفو وغفران
عليك سلام الله ما هبت الصبا ... وماست على كثبانها ملد قضبان
وحمل في جيب الجنوب تحية ... يفوح بمسراها شذا كل تربان
إلى العمرين صاحبيك كليهما ... وتلوهما في الفضل صهرك عثمان
وحيي علياً عرفها وأريجها ... ووالي على سبطيك أوفر رضوان
إليك رسول الله صممت عزمة ... إذا أزمعت فالشحط والقرب سيان
وخاطبت مني القلب وهو مقلب ... على جمرة الأشواق فيك فلباني
فياليت شعري هل أزم قلائصي ... إليك بداراً أو أقلقل كيراني
وأطوي أديم الأرض نحوك راحلاً ... نواجي المهاري في صحاصح فيعان
يرنحها فرط الحنين إلى الحمى ... إذا غرد الحادي بهن وغناني
وهل تمحون عني خطايا اقترفتها ... خطى لي في تلك البقاع وأوطان
وما ذا عسى يثني عناني وإن لي ... بآلك جاهاً صهوة العز أمطاني
إذا صد عن زوارك الباس والعنا ... فجود ابنك المنصور أحمد أغناني
عمادي الذي أوطا السماكين أخمصي ... وأوفى على السبع الطباق فأدناني
متوج أملاك الزمان وإن سطا ... أحل سيوفاً في معاقد تيجاني

وقاري أسود الغاب بالصيد مثلها … إذا أضرب الخطى من فوق جدران

هـزّ بـرٌ إذا زار الـبـلاد زئـيـره … تضاءل في أخياسها أسد خفان

وإن اطلعت غيم القتام جيوشه … وارزم في مركومه رعد نيران

صببن على أرض العداة صواعقاً … أسلن عليهم بحر خسف ورجفان

كتائب لو يعلون رضوى لصدعت … صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان

عديد الحصا من كل أروع معلم … وكل كمي بالرديني طعان

إذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا … هدتهم إلى أوداجها شهب خرصان

من اللاء جرعن العدا غصص الردى … وعفرن في وجه الثرى وجه بستان[1]

وفتحن أقطار البلاد فأصبحت … تؤدي الخراج الجزل أملاك سودان

إمام البرايا من على نجاره … ومن عترة سادوا الورى آل زيدان

دعائم إيمان وأركان سؤدد … ذووهم قد عرست فوق كيوان

هم العلويون الذين وجوههم … بدور إذا ما احلولكت شهب أزمان

وهم آل بيت شيد الله ملكه … على هضبة العلياء ثابت أركان

وفيهم أتى الذكر الحكيم وصرحت … بفضلهم آيات ذكر وقرآن

فروع ابن عم المصطفى ووصيه … فناهيك من فخرين قربى وقربان

ودوحة مجد معشب الروض بالعلا … يجاد بأمواه الرسالة ريان

بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت … معد على العرباء عاد وقحطان

أولئك فخري إن فخرت على الورى … ونافس بيتي في الولا بيت سلمان

إذا اقتسم المداح فضل فخارهم … فقسمي بالمنصور ظاهر رجحان

إمام له في جبهة الدهر ميسم … ومن عزه في مفرق الملك تاجان

سما فوق هامات النجوم بهمة … يحوم بها فوق السمٰوات نسران

وأطلع في أفق المعالي خلافة … عليها وشاح من علاه وسمطان

إذا ما احتبى فوق الأسرة وارتدى … على كبرياء الملك نخوة سلطان

توسمت لقمان الحجا وهو ناطق … وشاهدت كسرى العدل في صدر إيوان

(1) المراد به: سبستيان ملك البرتغال لكنه عربه فقال بستان.

وإن هزه حر الثناء تدفقت أنامله عرقاً تدفق خلجان
أيا ناظر الإسلام شم بارق المنا وباكر لروض في ذرا المجد فينان
قضى الله في علياك أن تملك الدنا وتفتحها ما بين سوس وسودان
وإنك تطوي الأرض غير مدافع فمن أرض سودان إلى أرض بغدان
وتملأها عدلاً يرف لواؤه على الحرمين أو على رأس غمدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا ووافت بك البشرى لأطراف عمان
فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم أتاك استلاباً تاج كسرى وخاقان
ولو نشر الأملاك دهرك أصبحت عيالاً على علياك أبناء مروان
وشايعك السفاح يقتاد طائعاً براياته السوداء أهل خراسان
فما المجد إلا ما رفعت سماكه على عمدي سمر الطوال ومران
وهاتيك أبكار القوافي جلوتها تغازلهن الحور في دار رضوان
أتتك أمير المؤمنين كأنها لطائم مسك أو خمائل بستان
تعاظمن حسناً أن يقال شبيهها فرائد در أو قلائد عقيان
فلا زلت للدنيا تحوط جهاتها وللدين تحميه بملك سليمان
ولا زلت بالنصر العزيز مؤزراً تقاد لك الأملاك في زي عبدان

انتهت القصيدة الفريدة.

قال في نفح الطيب: «أخبرني ناظمها أنه أراد بقوله: "وتنافس بيتي في الولا بيت سلمان" قبيلة سلمان التي منها لسان الدين ابن الخطيب، إشارة إلى ولاء الكتابة للخلافة كما كان لسان الدين رحمه الله، وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسي رضي الله عنه» انتهى.

وهذه القصيدة على طولها من غرر القصائد ولذا لم يذكر في المنتقى من الأمداح المنصورية غيرها، وقد أثنى عليها في «نفح الطيب» جداً، وتتبع ما قيل في هذا الاحتفال، وإقامة المولد العديم المثال، من الأمداح يفضي إلى الطول وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق.

ذكر سيرة المنصور في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره

قال الفشتالي: «كانت السيرة على عهد أبي عبد اللّه المهدي وولده الغالب بالله وابنه المتوكل سيرة العرب في الجيش والمأكل والملبس وغير ذلك، ولما ولي المعتصم حمل الناس على السيرة العجمية وجنح إليها في سائر شؤونه لما رأى منها في بلاد الترك حيث كان بها، فكره الناس ذلك وأنفوا منه وقوفاً مع العوائد. فلما جاء الله بالمنصور ألف بين سيرتي العرب والعجم، واصطفى من العجم موالي رباهم بنعمته وأشملهم درور إحسانه، منهم: مصطفى باي، ومعناه بلغة الترك: قائد القواد، ويختص به قائد الإصباحية؛ وكان برسم حراسة الباب العالي. ومنهم الباشا محمود وهو صاحب خزائن الدار بيده مفاتيح بيوت الأموال. ومنهم القائد علوج قائد جيش العلوج؛ والباشا جؤذر فاتح السودان وهو قائد جيش الأندلس. وكان لأهل الأندلس جيش عظيم رماة وعمار قائد جيش السوس فهؤلاء أكابر العلوج. وتليهم طائفة أخرى منها بختيار، وبغا. ثم إن جيش العجم من الأتراك والعلوج قسمه إلى أقسام؛ منها البياك: وهم أهل القلانس الصفرية المذهبة ذوات الأعراف من ريش النعام الملون يقفون سماطين أمام قبته أو فسطاطه. والسلاق: أهل القلانس الطويلة البيض المرسلة على المناكب ويناط بها من أعلى الجباه جعاب صفر مذهبة ويضيفون إليها وقت الحزام أجنحة طوالاً يؤلفونها أيضاً من ريش النعام الباقي على أصل خلقته ويركزونها في الجعاب المنوطة بالقلانس من أعلى الجباه ويرسلونها إلى وراء ويقف هؤلاء خلف البياك. ويليلدروش. وهم أهل اللقاقيف وهي رماح قصيرة غليظة العصى مغشاة بالحديد ومرصعة بالمسامير البيض ركبت عليها أسنة عظام وزجاج هائلة ينبت من ريشتي كل سنان منها أضلاع مستقيمة، ويقف هؤلاء خلف السلاق. والشنشرية. وهم أهل الطعام وضعاً ورفعاً لا غير وقائدهم بختيار من سبي وادي المخازن. والقبجية: وهم أهل حفظ الأبواب وغلقها وفتحها وقائدهم مولود المشاوري، وطائفة من هؤلاء تحرس ليلاً

وتطوف على مسايف السور المحيط بالدار، ومن وظيفة هؤلاء خدمة الكرسي والسرير اللذين يجلس عليهما السلطان بالإيوان وتعاهد أنماط الجلوس وكنسها. والشواش: وهم الذين يتولون ضبط الجيوش في المصاف في حرب أو سلم وإنهاء الكتب والرسائل للجهات بخير أو شر.

قال الفشتالي: «وهذا مما زادت به دولته على سائر الدول، فإذا خرج في يوم عيد أو ملاقاة أو تهنئة خرجوا متزينين وكل قائد يقف عند مبدأ انبعاث حبل جيشه تحت ألوية محفوفاً بجيش من رؤساء جنده أهل الخيل وهم الذين يدعون عندهم: بالبكباشات، فاصلاً بذلك بين جيشه وجيش من يردفه خلفه، وهكذا يمتد إلى انبعاث الجيش من تلقاء أمير المؤمنين، وكل يعرف مركزه ورتبته لا يتعداه إلى غيره بتقدم أو تأخر ولا يجد السبيل إلى ذلك لو أراده».

قال الفشتالي: «والترتيب الذي جرى به العمل في عساكر النار أن يتقدم أولاً جيش السوس ثم يردفه جيش شراكة وكل منهما ينقسم حبلين، ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي من المعلوجي ومن انضاف إليهم وعسكر الأندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم، وهذان يسيران صفين متساويين لاستواء مرتبتهما، وعند العطاء تارة يتقدم هؤلاء وتارة هؤلاء، غير أن الموالي يكونون في الميمنة لمزية الولاء، وكلاهما يحظى بموالاة ركاب السلطان، ويتقدم قائدهما محمود قائد الموالى، وجؤذر قائد الأندلس، وترفع على رأس كل منهما الرايات ويحفه عسكر من بكباشات. ثم يتصل بهذين العسكرين الدخلة العظيمة المؤلفة من البياك والسلاق ويلبدروش فتسير الفرق الثلاث أمام المنصور صفوفاً متساوية، فأما البياك فيلون ركابه يحفون به يميناً وشمالاً ويرفع بالبعض رماحه اليزنية المنصوبة أمامه، ومنهم صاحب المظل المرفوع على رأسه كالغمامة يحمله حالة ركوبه أقربهم درجة لقائدهم أبرويز، وإذا مشى المنصور إلى جامع المنصور من جهة قبور الأشراف أو للمشتهى وهو الروض المتصل بقصر البديع على رجليه حمله أبرويز بنفسه، ثم يسير عن يمينهم وشمالهم السلاق، ويسير عن

يمين هؤلاء وشمالهم بلبدروش أهل اللقاقيف، وتتكيف من الجميع صورة تزرع الرعب في القلوب، وتسير الجنائب فيما بين سماطي هذه الدخلة مجنوبة صفاً صفاً إلى ألوية عساكر النار ومنبعث حبالها الممدودة يقودها صنف يدعون السراجة ركباناً، وكانت جنائب الخلفاء يقودها الرجل من الوزعة وهذا أكمل مزية؛ وجيش الإصباحية الذي إلى نظر بيلارباي ينقسم كتيبتين عظيمتين تسير إحداهما ذات اليمين والأخرى ذات الشمال أمام الموكب الذي يرفع اللواء العظيم الأبيض المدعو باللواء المنصور، علامة على شعار الدولة على رأس المنصور يسامته من خلفه؛ وهناك ألوية كثيرة ذات ألوان مختلفة. وأمامه الطبل العظيم الذي يسمع دويه من مسافة بعيدة؛ ومن خلفه الطبول الأخر معها الغيطات - واحدتها غيطة - يتولى النفخ فيها قوم من العجم أساتيذ يتعلمونها فينفخون فيها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطباع ولا تبعثها على شيء دون الحرب، فإنها تشجع الجبان وتقوي جأش الخائف، حكمة فيلسوفية؛ وهناك مزامير أخر وجعاب طوال صفرية على مقدار النفير تسمى الطرنباط مما أحدثه أيضاً في دولته وزادت به دولته فخامة وضخامة؛ ثم يردف هذه الألوية والآلات من خلف أمير المؤمنين موكبه العظيم. فهذا ترتيب جيش المنصور انتهى باختصار من كتاب «مناهل الصفا»، وليس اتخاذ المظل مما أحدثته الدولة السعدية كما زعم بعضهم، بل كان ذلك موجوداً في الدول القديمة شرقاً وغرباً.

قال اليفرني: «وما ذكره الإمام الفشتالي من توافر أجناد المنصور وتكاثر جيوشه هو كذلك، وقد أولعت العامة في ذلك بأخبار واهية، وزعموا أن المنصور خرج مرة إلى الرميلة بظاهر مراكش ولم تعلم أصحابه بخروجه، فحين علموا بخروجه تبعوه خفافاً وثقالاً فأمر بعد ما معه هنالك من الجيش فوجد ثمانين ألفاً، فقال: «يا سبحان الله، قد خاطرنا بأنفسنا حيث ركبنا في هذا العدد» يستقله؛ ولا يخفى ما في هذا الكلام من الإفراط، والذي ذكره الشيخ أبو العباس أحمد أفقاي الأندلسي في كتابه المسمى بـ «رحلة الشباب إلى لقاء الأحباب» ما معناه قال: إن جزيرة الأندلس التي استردادها من أيدي

الكفار سهل واسترجاعها منهم قريب لما دخلت مراكش في أيام المنصور وجدت عنده من الخيل نحواً من ستة وعشرين ألفاً، فلو تحركت همته لفتحها لاستولى عليها في الحين اهـ بالمعنى» اهـ كلام اليفرني.

وأما بيان حالة المنصور في السفر فقد قال شارح «زهرة الشماريخ»: «إن المنصور كان قليل الأسفار، وإنما سافر إلى فاس مرتين لا غير، وإنما كان متفرغاً للذاته واستيفاء شهواته مدة خلافته». قال اليفرني: «وبه يعلم أن ما شاع على الألسنة من أنه كان يمكث بفاس ستة أشهر وبمراكش مثلها ليس بصحيح والله أعلم».

وكان المنصور إذا سافر استعد غاية الاستعداد وأحسن في التهيئة ما شاء. قال صاحب النفحة المسكية: «كان له قصر من عود مسمر بمسامير ومخاطيف وحلق وصفائح مفضضة على هيئة عظيمة، وقد أحدق بذلك كله سرادق كالسور من نسيج الكتان كأنه حديقة بستان، وزخرفة بنيان، وفي داخل القصر المذكور القباب الملونة بيضاً وسوداً وحمراً وخضراً كأنها أزاهير الرياض قد نقش ذلك أحسن النقش ومليء بأبهى الفرش، وللسرادق الذي هو كالسور أبواب كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم ينتهي منها إلى القصر الذي فيه القباب وهذا القصر كأنه مدينة تنتقل بانتقاله وهو من الأبهات الملوكية التي لم يوجد مثلها عند الملوك الماضين» اهـ.

ومما يتعلق به ما حكاه أبو فارس الفشتالي في المناهل قال: «خرج المنصور يوم الاثنين عاشر شعبان سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة لزيارة أضرحة الصالحين بأغمات»، قال: «فتأخرت وراءه فلحقني المولى عبد الواحد بن أحمد الشريف وأنا في أخريات الناس فأنشده:

أبا فارس بان الخليط وودعوا

فقلت: ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ولولوا وحسن الصبر مني شيعوا

فقال:

وغرد حادي البين وانشقت العصا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وكاد فؤادي للنوى يتقطع

فقلت:

إلى الله أشكو فرقة منهم وقد تجرعت من كأس النوى ما تجرعوا

ثم زدت:

لئن شرد السلوان عني بعدهم ففي صحبة المنصور أنسي أجمع

ثم قال:

تدور عليه هالة لقبابه ومركزها قصر الخلافة يلمع

فقلت:

سياج به بحر الندى متموج ومن أفقه شمس الإمامة تطلع

وكان المنصور خرج لزيارة أغمات في شارة حسنة، فلما بلغ أغمات مكث فيه يومين وفي الثالث نهض إلى زيارة الإمام أبي عبد اللّه الهزميري، وعاج على ضريح الشيخ سيدي عبد الجليل ووقف عند الجبانة الكبرى فدعا ما تيسر وفرق أموالاً على ذوي الحاجات على يد القاضي الشاطبي، والفقيه الأمين أبي الحسن علي بن سليمان الثاملي، وكان معه الفقيه القاضي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي كان قد استقدمه من فاس برسم القراءة معه؛ وكان الحميدي لوذعياً خفيف الروح، وفي هذه السفرة صدرت منه الأبيات التي تبارى في معارضتها شعراء الدولة، وقد ذكرها في النزهة فلتنظر هنالك».

ومما يتعلق بأخبار الحميدي المذكور: أن المنصور سافر مرة إلى تارودانت ومعه جماعة من الأعيان كالقاضي الحميدي وأبي العباس المنجور وغيرهما، فخيم المنصور بباب تارودانت وضرب الناس أخبيتهم، فمر رجل عليه أطمار بالية وهيئة رثة، ويقال: إن هذا الرجل هو أبو عثمان الهلالي الروداني، فوطئ على طنب من أطناب خباء القاضي الحميدي فصاح القاضي «من هذه البقرة التي قوضت على خيمتي؟» متهكماً بالرجل! فألقى إليه الرجل قرطاساً فيه أبيات وقال: «البقرة من لا يجيب عن هذه» ونص الأبيات:

إلى بابك العالي مسائل ترتقي تفطن لهن يا حميدي واصدق

فما الحكم في الأوزاغ هل ساغ أكلها وما الحكم في موتى المجانين فانطق

وهل جاز للمسبوق بعد تشهد ... دعاء إذا ما رام إكمال ما بقي
وما وزن ليس يا أديب وأصله ... وما جمع قلة لصاع فحقق
وما وزنه شمر ولاتن وائتنا ... بجمع سواء والمقيد أطلق
وبين لنا (من) في أعوذ بربنا ... من إبليس والتخمين في الكل فاتق

فبدا للحميدي ما لم يكن يحتسب وتوقف عن الجواب، فرفعت القضية إلى المنصور فاستغربها وقال: «هذا رجل من أهل البادية فضح قاضي قضاة الحواضر» وأمر المنجور فأجاب عنها، يقال بعد أربع سنين وبعد موت السائل، ونص الجواب:

جوابك في الأولى إباحة أكلها ... بمذهبنا فأجزم بذاك وصدق
كذا ابن حبيب في الخشاش أباحه ... لمحتاجه مثل العقارب فاسبق
وقد قيل في الأوزاغ يحرم أكلها ... وذلك في الكافي ليوسف فاتق
ومستقذر يحكي المخالف منعه ... وأنكره التنبيه فافهم ودقق
ورجح ما يحكي المخالف بعض من ... له العزو للتحقيق لا للتشدق
وميت مجنون جرى خلف حكمه ... بعلم كلام لا تكن غير متق
وتحقيقها إن الجنون الذي طرا ... يصير كموت فصل الحق يعبق
فآونة بعد البلوغ طروه ... وحيناً يرى قبل البلوغ فطبق
وآونة إثر الصلاح وقوعه ... وحيناً بعصيان الكبيرة يلتقي
وحيناً يدوم للممات وتارة ... يفيق فخذ حكم الجميع ووثق
ويندب للمسبوق دعوى تشهد ... وفاق إمام في المناجاة فارتق
وليس له فعل كقال وأصله ... بكسر لياء فاكسر العين ترتق
وجمعك صاعاً في القليل بأصوع ... وأصؤع بهمز الواو فانهج ونمق
وإن شئت فاقلبه فيرجع آصعاً ... لضابط تصريف فللعلم شوق
وصاع كعام عينه فرع ضمة ... وتحريكه فتح فزنه وحقق
وجمع سواء فالذي منه جامد ... بأسوية علم يقاس ففرق
ومشتقه وزن الخطايا قياسه ... سواسية ثقل فبالحق فانطق
ومقصد (من) في العوذ بدء لغاية ... فإبليس مبدأ العوذ عند الموفق

انتقاض ولي العهد محمد الشيخ المأمون على أبيه المنصور وما آل إليه أمره في ذلك

كان المأمون كما تقدم ولي عهد أبيه المنصور، وكان خليفته على فاس وأعمالها سائر مدة أبيه، وكان للمنصور اعتناء تام به واهتمام بشأنه حتى قيل إن المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال إلا قال: «جعل الله فتحه على يد الشيخ» رجاء أن يقوم بالأمر بعده، فلم يساعد القدر وخرج الأمر كما قال القائل:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فأساء المأمون السيرة وأضر بالرعية.

قال اليفرني: «وكان فسيقاً خبيث الطوية، مولعاً بالعبث بالصبيان، مدمناً للخمر سفاكاً للدماء؛ غير مكترث بأمور الدين من الصلاة وشرائطها. ولما ظهر فساده وبان للناس عواره، نهاه وزير أبيه القائد أبو إسحاق[1] إبراهيم السفياني عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سيرته، فأعاد عليه اللوم فلح في مذهبه؛ ولما أكثر عليه من التقريع سقاه السم فكان فيه حتف القائد المذكور. ومما أنكر عليه أنه قبض على كاتب أبيه أبي عبد اللّه محمد بن أحمد بن عيسى وهو مؤلف كتاب: «الممدود والمقصود من سناء السلطان المنصور» ووظف عليه أموالاً وابتزه ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون حسكة مذهبة ومائة تخت من الملف المختلف الألوان. فلما كثرت قبائحه وترددت الشكايات لأبيه كتب إليه لينكف عن غيه وينزجر عن خبثه، فما زاده التحذير إلا إغراء؛ فلما رأى المنصور أنه لم يكترث بأمره ولم ينزجر عن قبائحه عزم على التوجه إلى فاس بقصد أن يمكر به ويؤدبه بما يكون رادعاً له، فسمع الشيخ بذلك فجمع عساكره وهيأ جنده ودفع المرتب لأصحابه، وكان عدد جيشه فيما قيل اثنين وعشرين ألفاً كلهم بكساوى الملف والحرير

(1) بل أبو سالم كما في الدرة.

على أحسن شارة وأكمل زي، وعزم أنه إن بلغه خروج أبيه من مراكش أن يتوجه في أصحابه إلى تلمسان ويستجير بالترك؛ فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب إلى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش، وكتب إلى الشيخ يلاطفه ويأمره أن لا يفعل، وولاه سجلماسة ودرعة وتخلى له عن خراجهما، وقال له: «قد سوغتكه ولا أطالبك فيه» ومراده بذلك أن تسكن نفرته ويرجع إليه عقله؛ فأظهر الشيخ امتثال الأمر وخرج يؤم سجلماسة، فما انفصل عن فاس بشيء يسير حتى ندم ورجع إليها، وعاد لما كان عاكفاً عليه؛ فبعث إليه المنصور أعيان مراكش وعلمائها فنصحوه ووعظوه وخوفوه سخط والده وحذروه عاقبة العقوق، ولم يألوا جهداً في نصحه، فوجدوه مشغول القلب عن نصيحتهم، مغمور الذهن بخلاف قولهم، إلا أنه أظهر الرجوع عما كان عازماً عليه من الفرار عن أبيه، وأقصر في الظاهر عن بعض تلك المساوي. فرجع الوفد إلى المنصور وقالوا له: «إنه قد تاب وحسنت حاله واطمأنت نفسه وأنه واقف عند الأمر والنهي»؛ فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم: «لعل هذا إطفاء لنار الشحناء وكذب لإصلاح الباطن» وصمم على المكر بالشيخ، فكتب إليه كتاباً طويلاً يلومه فيه على بعض الأشياء وفي ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يبغته على حين غفلة، ونص الكتاب:

«من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الإمام المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني أيد الله أوامره وظفر عساكره، إلى ولدنا وولي عهدنا الأمير الأجل الأفضل الأكمل الأعز بابا الشيخ وصل الله كمالكم وسنى من خير الدارين آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله؛ أما بعد، فكتابنا هذا إليكم من حضرة مراكش حاطها الله ولا جديد إلا ما عوده مولانا من الخير لله الحمد وله المنة. هذا، والذي أوجبه أسعدكم الله وكلاكم أنه بلغنا أنكم قد استخدمتم هناكم جماعة من أولاد طلحة كأولاد أخي علي بن محمد وأخي علي بن ملوك وغير هؤلاء وأنك قد فرضت لهم في أعطياتهم نحو خمسة آلاف، وإلى هذا أي مصلحة ظهرت لك في استخدام هؤلاء القوم حتى تتحمل كلفة فرض هذه الفروض، بل ما

في ذلك إلا الفساد البين لأن هذا الذي تعرضتم له لا يفي به المغرب ولا يقوم معه بكم شيء، ومسألة هؤلاء أولاد طلحة إن كنت رأيت استخدامنا وأردت تقليدنا في ذلك واقتفاء سيرتنا فيه فاعلم أن بيننا وبينكم في هذه المسألة فرقاً من وجوه، منها: إن مراكش ليست كفاس، وإن خدمتهم هنا لبعدهم عن بلادهم ليست كخدمتهم هناك، وأيضاً هؤلاء الناس أنا أعرفهم وكنت في بلادهم، وهذه الخدمة كانوا قد طلبوها مني وأنا هناك فوعدتهم إذ لا يمكنني وأنا ببلادهم إلا مساعفتهم، فلما جاؤوا اليوم وطالبونا بالوعد لم يمكن إلا الوفاء لهم به فعليه شرطنا عليهم مراكش وسكناها وعلى هذا الشرط استخدمناهم ومع هذه الوجوه كلها والاعتبارات فقد ندمت والله على استخدامهم غاية الندامة، وكنت في ذلك على خطأ إذا كان الأولى إن كنا حاسناهم وتركناهم في الخدمة. وأما أنت ففي مندوحة عن هذا كله لأنه لا وعد لك سابق حتى يلزمك الوفاء به، ويمكنك أن تحيلهم على إذننا ومشورتنا فنكفهم عنك بالشرط الذي شرطنا عليهم من الخدمة هنا بمراكش وسكناها. وعلى هذا الشرط استخدمنا منهم من استخدمنا، وإلى هذا فالذي نؤكد به عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تستخدم منهم حتى فارساً واحداً أصلاً من الذين ذكرنا لك ومن غيرهم من كافة أولاد طلحة، وأمرناك أن تتنصل لهم فينا وتقول لهم: إن السلطان منعني من استخدامكم هنا وتقرأ عليهم كتابنا الواصل إليكم صحبة هذا لتتفادى منهم، ولكن الجفاء مع هذا كله لا تظهره، بل تحسن اللقاء بهم وتواليهم بإظهار البشر والقبول وباب الطمع تسده دونهم.

والذي شق علينا أعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد صبراً عليه هو ما وجدناهم قد اطلعوا عليه، أعني أولاد طلحة علي بن محمد وغيره، من أحوالكم وأخباركم وألفيناهم قد توصلوا من ذلك إلى ما لم يتوصل إليه أحد من كبار خدامكم أهل بلادنا وخواص أهل بساطنا، لأن أهل بلادنا أحباء ما لهم بحث إلا في مصالح أنفسهم، هؤلاء إنما ينتقدون ويبحثون عن الغرة وعورات المملكة. فإذا بكم تتخذونهم بطانة وأصدقاء وتطالعونهم بأحوالكم

وأموركم مع أن القوم لا زالوا ببلاد العدو وبين أظهرهم وما يطلعون عليه تحتاج تقطع وتجزم بأن الترك قد اطلعوا عليه حتى كأنهم شاهدوه ووقفوا بأنفسهم عليه. وأيضاً لو كانوا أصدقاء ولا يريدون بنا إلا خيراً، فالقوم عرب لا يتحفظون على ما يطلعون عليه ولا يفهمون ما يحسن إخفاؤه ولا إبداؤه ولا يتمالكون قولاً ولا نطقاً؛ وبالجملة، فقد أحرقتنا هذه المسألة وتفطرت لها أكبادنا، وصارت قلوبنا منها مطعونة وما عندكم علم بأن الناس كانوا يتحفظون في أقل الأمور أن يطلع عليها الأجانب وإن كانوا أحب من كل محب وأقرب من كل قريب. وهل ما عندكم علم بأن أخانا بابا منصور كان عرض له غرض ضعيف جداً أراد أن يطلبه من أخينا بابا عبد الله وحضر في المجلس منصور بن المزوار فلم يرد بابا منصور لفطنته أن يذكر ذلك حتى يشاور من بإزائه لئلا يكون عيب في ذكر ذلك بمحضره، فعليه شاور القائد دحو بن فرج ـ كان بإزائه ـ فقال له: «هذا رجل براني فلا تطلب شيئاً قدامه» على أن منصور بن المزوار هذا كان مع أسلافنا من أقرب ما إليهم من خواص الخدام أهل بساطنا محبة وقرباً لأنه أسلف معهم خدمة عظيمة، فقد كان عدواً للترك وبينه وبينهم أرواح، وحضر مع أخينا بابا حمو الحران جميع ما كان في تلك البلاد أيام استيلائه على المغرب الأوسط، ثم مع بابا عبد القادر كذلك، وشرب معهم الحلوة والمرة. ولما جاء من تلمسان جاء بأولاده منها راحلاً كما جاء منها بابا عبد الله بأولاده، وكما جاء معهم خدامنا أهل تلك البلاد؛ وما زال على الخدمة والوفاء حتى حصلت له يد عظيمة مع أسلافنا وناهيك بمن بلغ إلى أن قلدوه حاضرة تازا ثم بلاد الفحص التي لا تعطى كلتاهما إلا لأقرب الخدام الموثوق بمحبتهم وخدمتهم وقربهم، ومع بلوغه إلى هذا المبلغ كله محبة وصداقة وهجرة وانقطاعاً حتى أنه في دخول صالح رئيس مدينة فاس رحل بأولاده مع السلطان إلى هنا كما فعل أهل هذه البلاد، وحين دخلنا نحن من جهة الشرق لفاس رحلوا أيضاً مع صاحب الجبل إلى مراكش، ولا يعدوا أنفسهم من هذا الجانب أبداً في الحديث والقديم؛ ثم إن الناس استبعدوا أن يطلبوا أقل المسائل بمحضره، وقالوا: إنه

براني فضلاً عن هؤلاء الذين ما زالوا إلى اليوم في بلاد العدو يباكرونه ويراوحونه فإذا بكم تنزلون معهم إلى أن تطالعوهم على أموركم ويتوصلوا إلى المعرفة بأحوالكم فما تمالكنا لهذه المسألة ولا وجدنا عليها صبراً. ومن جملة الأمور التي غاظتنا وقلنا: كيف يتوصل الرجل البراني إلى أمثال هذه الأمور أن علي بن محمد كان يتكلم يوماً معنا وأخذ يثني عليكم في نجدتكم وصبركم عند الشدة وسخائكم عند الحاجة، ثم قال: «إلا أن الخيل ليست عنده لا في الحركة الأولى ولا في الثانية لأن القبائل أهل الخيل امتنعوا من الحركة معه» وهي التي غاظتني وقلت: كيف يتوصل الرجل البراني إلى أمثال هذه الأمور حتى أننا ما وجدنا إلا الرد عليه وعكس ما عرفنا أنهم اعتقدوه وقلنا: اللّهم نسبة التقصير إليكم ولا اعتقادهم خلو البلاد من الخيل لأننا فهمنا منهم ذلك، ولهذا أجبته وقلت له: إن ولدنا لم يعطهم شيئاً وأعطى من لا يستحق من ضعفاء القواد المعروفين بأكل المال وعدم المخزنية، ولو أعطى تلك القبائل لحشرها عليه لأن أولاد مطاع عندهم من الخيل نحو الثلاثة آلاف، وعند أولاد أبي عزيز نحو ألف ونصف، وعند الغربية وعند أولاد عمران وعند عبدة وعند الشياظمة وعند أولاد أبي رأس وعند أحمر وعند المنابهة أهل سايس وعند المنابهة أصحاب عمر بن محمد عبو، وجعلت أعدد له قبائل السوس وقبائل مراكش وأحصي له خيلهم بما بهته، وقلت له: لو أنصفهم لحرك منهم معه ستة عشر ألفاً أو أكثر، ويكون قد ملأ بهم تلك البلاد، وسال عليها من سيل العرم لا في الحركة الأولى ولا في الثانية، ولو وجه إليهم المحركين والرماة لأتوه أيضاً بلا خلاص. وإلى هذا نوصيكم على المحافظة من أولئك الناس ومن رفع الحجاب لهم عن أموركم والاطلاع على أحوالكم وعدم الغفلة عن أمثال هذا. واعلم أن من جملة ما بلغنا أيضاً أن الخلط رجعوا كلهم رماة على يد مصطفى باشا مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف، وكنا انتشبنا معهم بالعودات فإذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار؛ وهل هذا مما يجوز عليكم حتى تسمحوا فيه مع أن هذه المسائل ليست بغائبة عنكم سمعتموها بالسماع فقط ولا طويلة عهد حتى

تنساها، بالأمس شاهدت وباشرت ورأيت فما الذي أنساك فعلهم وما زال جرحهم الآن لم يبرأ، لأن خروج القائد مؤمن الخارج الآن ما كان إلا إليهم. والآن نؤكد عليك أن تنقصهم من الخدمة ولا تسمع لمصطفى في هذه المسألة؛ وقد سمعنا أيضاً أن قواد الفساد الذين عندكم من أولاد حسين قد صارت جملتهم من باب الخميس إلى دار الدبيبغ، وكأنكم نسيتم أيضاً ما عمل أولاد حسين بالأمس دون بعد من النهب وأضرموا من الفساد في البلاد حتى ينزلوا تلك المنازل؛ وإلى هذا فساعة وصوله إليكم تقبض على قواد الفساد هؤلاء خصوصاً: أحمد بن عبد الحق من أولاد يحيى بن غانم الذي كان أبوه حاجباً عند المريني فهو أصل الفساد، ثم لا تترك لقبائلهم جناحاً واحداً. وزد للقائد مؤمن بن ملوك ألف رام ليستوفي لكم الغرض في هؤلاء وأمثالهم من كل ما تأمره به، لأن بقاء الرماة هنالك ما فيه إلا الاشتغال بالفساد في المدينة فتحتاج أن تتولاهم بالقتل كل يوم باطلاً فكان خروجهم إذ ذاك دفعاً لمضرتهم وجلباً للمصالح بهم؛ وحتى الكاتب اللائق بأمثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم لأن كتبكم تأتي بخط سالم وهو غير عارف بالإنشاء وتارة بخط الكريني وهو جاهل، مع أنك لما كنت خليفتنا وولي عهدنا كنت بصدد أن يكتب لك كل أحد لا صاحب الجزائر ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك وصاحب النصارى، وكل من يكتب لنا من ملوك الأرض بصدد أن يكتب لك فتحتاج حينئذ إلى من يحسن الجواب عنك لكل من يكتب إليك ويكون أيضاً ممن يوثق به في المحافظة على أسراركم، وإلى هذا فلابد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك وصاحب مشورك وصاحب المظالم كما هنا هو عندنا السيد علي بن سليمان، واعلم أن مما تحتاج أن ننبهك عليه مسألة القواد الذين يريدون أن يحملوك أثقال أولادهم مثل ما فعلت في أولاد القائد بركة[1] وإخوتهم الذين استخدمتهم وجعلت لهم خمسمائة أوقية، فنؤكد عليك أن لا تستخدم منهم أحداً فما أعطيناه سلا إلا ليرفع فيها أولاده وإخوته وكذلك

---

(1) لعله الذي تنسب إليه عين بركة الداخل ماؤها لمدينة سلا.

الحكم في أمثاله ممن أعطيناه عملاً وقلدناه قيادة ومن جملة من نحذرك من استخدامهم في الرماية أهل الجبال من أهل الصحفة والدينار فلا تستخدموا منهم أحداً وإلا فاعلموا أنكم ما أردتم حينئذ أن يغرموا لكم ولا يعطوكم شيئاً، وإن أردتم الخدمة فهاهم أهل هذه البلاد مثل أهل السوس وأهل درعة وأهل مراكش، فكل ما تستخدمون من هؤلاء فلا عليكم، وإذا لم يكن من هؤلاء وكان ولابد من غيرهم فمن أهل فاس سكان الحاضرة، وأما من عداهم فلا؛ على أن الرماة أهل السوس ها هي عندنا كثيرة، فكل ما تريد منهم عرفنا نبعثهم إليك ونضيفهم إلى خدمتك، ونؤكد عليك أن تكتب بجواب هذه الأمور كلها فصلاً فصلاً مع المملوك الحامل لهذا الكتاب إن شاء الله ولابد ولابد، وهذا موجبه إليكم، والله يحرس بمنه علاكم والسلام. وفي مهل جمادى الأولى من عام أحد عشر وألف» اهـ.

ثم لم يلبث المنصور أن بعث إلى ولده زيدان ـ وكان خليفته على تادلا ـ يأمره أن يرسل مائة من الفرسان على طريق تاقبلات، وكل من وجوده قاصداً للغرب من ناحية مراكش يردونه، وأرسل مولاه مسعود الدوري على طريق سلا يفعل مثل ذلك، وخرج المنصور من مراكش[1] في اثني عشر ألفاً أوائل جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وألف، وجد السير، فلم يمض إلا أيام قلائل حتى نزل بالدوح، موضع قريب من فاس، والشيخ في جميع ذلك لا شعور له بخروج أبيه ولا بما هو عليه؛ فبعث يوماً عيونه يرصدون له من قدم من مراكش، ويكشفون عن الخبر، فما راعهم إلا الأباطح تسيل بأعناق الجياد، وأفواه الشعاب تقذف بالجيوش من بطون الأودية والوهاد، لأنهم كانوا قد عميت عليهم الأنباء بقطع المنصور للسابلة. فرجعوا إلى الشيخ مسرعين، والرعب يفت في أعضادهم ويطفئ جذوة عزائمهم، فقصوا عليه ما دهمهم وأخبروه بما رأوا، فعلم أنه محاط به فلم يمكنه إلا الفرار؛ فركب من حينه وفر إلى زاوية الشيخ الصالح أبي الشتاء من بلاد فشتالة قرب نهر ورغة. وكان الشيخ أبو الشتاء قد توفي قبل ذلك سنة سبع وتسعين وتسعمائة كما في

---

(1) بعد أن استخلف عليها ولده أبا فارس.

المرآة. فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الأحداث وقرناء السوء، فبلغ خبره المنصور فبعث إليه الباشا جؤذراً مع القائد منصور النبيلي، وحلف لهما بأغلظ الأيمان إن لم يأتياه به ليمكرن بهما ويجعلهما عبرة؛ فذهبا إليه فامتنع من الدخول في يدهما، وانعزل في أصحابه حتى ناوشوه القتال، وتراموا بالنبال، ثم قبضوا عليه وأتوا به إلى المنصور في خبر طويل، فأمر به إلى مكناسة فسجن بها.

ودخل المنصور دار الملك من حضرة فاس الجديد وشكر الله على ما أولاه من الظفر والنصر من غير إراقة دم، وتصدق في ذلك بأموال عظيمة، وكتب بذلك إلى ولده أبي فارس خليفته على مراكش يعلمه بما كيف الله له من الظفر والنصر، ونص الكتاب:

«إلى ولدنا الأجل الأرضى الأكمل الأسعد الأصعد الأمجد الأسمى الأسنى بابا أبي فارس وصل الله كمالكم وسنى بمنه آمالكم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد، فكتابنا هذا إليكم أسعدكم الله من محلتنا السعيدة بالمستقى ولا شيء إلا ما جرت به الأقدار، وحكم به الفاعل المختار، وما جاء به من عجائب الدهر الليل والنهار، وهي قضية أخيكم التي ثارت إليّ بها صروف الدهر من مكمني، وطلعت عليّ من مأمني، إلا أن الله تعالى بصنعه الجميل كفانا أولاً، ثم شفانا آخراً لله الحمد دائماً والشكر واظباً، وشرح ذلك أسعدكم الله ووقاكم السوء إن الحال كان انتهى في معالجة أمره الذي تجاوزنا في وجوه الخير إليه حد الاستقصا، وأتينا في محاولة استصلاحه من أحوال السياسة المرجوة النجح بما لا يحصى، إلى ما كنا سوغناه من ولاية سجلماسة بخراجها وخراج درعة وأبحنا له التوجه إليها بجملته وجمعه، رجاء أن تسكن بالانتباذ إليهما نفرته، وتطمئن نفسه ويثوب إليه قلبه الطائر، ويراجعه أنسه الحائر، فأظهر أولاً التوجه إليهما، ونهض مرتحلاً عن فاس مورياً بالقدوم عليهما، ثم بدا له على الحين فكر راجعاً إلى فاس، ورجونا أن يكون قد ذهب عنه النفار والشماس، وثاب لنفسه السكون والاستئناس، فإذا به قد انطوى برجوعه على خلاف ما أظهر، فأبدى ما أضمر، فما كان إلا أن

طرأ عليه خبر نزولنا بالدوح فلم يتمالك أن أقلع ليلة الخميس خامس عشر شهر تاريخه إقلاعاً أزعجه من الدار فريداً، وطارت به النفرة إلى أن حل بزاوية الشيخ أبي الشتاء وحيداً، فتلاحق به من جيش رماته اليكشارية ومتفرقة سماسرة الفتن وطلائع الشؤم والمحن جمع عظيم، وعدد من كثرته لا يريم، فبادرت حينئذ بتجهيز جؤذر باشا من غير إغفال في خمسمائة صبائحية ومعه القائد مؤمن بن ملوك في خمسمائة فارس، ثم أردفناه ببعوث أخر تألبت إليه وتناثلت عليه تناهز الألفين ورماة بابا زيدان حفظه الله فأحدقت به من كل الجهات، وملكوا عليه الفجاج والثنيات، ونحن مع ذلك خلال هذه الأحوال لم نهمل مقابلة نفرته بالتسكين، وما يخشن من أحواله بالتليين، بإرسال المرابطين تجاهه بمواثيق تهنيه، وعهود تؤنسه وتقرب أمانيه، رجاء أن يثوب إليه ثائب استبصار، أو يخطر له خاطر إقلاع عما هو عليه وإقصار، وقرناء السوء المتلاحقون به من جيشه يقدحون للشر ناراً، ويزينون له عقوقاً ونفاراً، فدهمتهم حينئذ عساكرنا المظفرة بالله في مصافهم دونه ودارت بين الفريقين حرب عظيمة فخمدت النار من وقت الظهر إلى العصر فأظهر الله تعالى فئة الحق على فئة الباطل. وقضى بما جرى به القضاء المحتوم الحكم العادل، وكتبناه إليكم وقد حصل في القبضة كما سبق به القضاء والقدر، وجعل بمكان الاحتياط عليه من مكناسة فكانت مشيئة الله في ذلك من إحدى العجائب العبر، وعرفناكم أسعدكم الله لتستشعروا صنع الله في هذه الداهية التي فجئت بها الأيام ودهمت، والغاشية التي اعتكرت وادلهمت، وتقدروا ما صنع الله في ذلك من حسن العاقبة حق قدره، وتشكروه فهو الجدير بجميل حمد كل لسان وشكره، ونسأله تعالى أن يجعلكم في حيز الكفاية، وجانب الوقاية حتى لا تساؤوا بقريب مأمون، ولا ببعيد مظنون، وفي ليلة الثلاثاء الموفي عشرين من جمادى الأولى عام أحد عشر وألف» اهـ.

ثم إن أم الشيخ واسمها الخيزران بعثت إلى أعيان مراكش الذين قدموا مع المنصور ترغب إليهم في أن يشفعوا لولدها عند أبيه ويعتذروا عنه بما يزيل ما في باطنه عليه، فتقدموا إلى المنصور وقالوا له: «إن الشيخ قد

صلحت حالته، وتاب مما كان عازماً عليه، وأنه ندم على ما فرط منه» فقال لهم: «اذهبوا إلى مكناسة واختبروا أمره كافياً، وانظروا هل رجع عن أباطيله، وتنصل من أضاليله»: فلما أتوه وجدوه أخبث مما تركوه وعاينوا منه من القبائح ما يقصر عن وصفه اللسان، فلما جلسوا إليه في محبسه لم يسألهم إلا عن أصحاب بطانته وقرناء السوء من أهل غيه، ولم يظهر الأسف إلا على تلك العصابة ورآهم أهل الإصابة.

وكان من الأعيان الذين وجههم المنصور أولاً وآخراً أولاد الشيخ أبي عمرو القسطلي، وأولاد الشيخ أبي محمد عبد الله بن ساسي؛ وأولاد الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار وغيرهم. فلما رجعوا إلى المنصور من مكناسة سألهم عن الخبر فنافق بعضهم وقال: «وجدناه تائباً نادماً على ما صدر منه» وتكلم بعض أولاد الشيخ ابن ساسي فقال: «لا والله لا داهنت في حق الله ولا واجهت الأمير بالخديعة، إن ولدك لا نأذن لك أن تؤمره على اثنين ولا تحكمه على عيال الله فإنا وجدناه خبيث الطوية قبيح السريرة لم يندم على ما فرط منه» فسكت الحاضرون ولم يتكلم أحد، فقال لهم المنصور: «افتوني في أمر هذا الولد؟» فلم يجبه أحد إلا باشاه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي فإنه قال له: «الرأي أن تقتله، فإنه لا ينجبر أمره ولا يرجى صلاحه وقد رأيت ما صنع» فلم يعجب المنصور ذلك وقال: «كيف أقتل ولدي؟» ثم بعث إلى مكناسة يأمر بالتضييق على الشيخ والزيادة عليه في ذلك. ثم خرج المنصور فنزل بمحلته في ظهر الزاوية قاصداً مراكش بعد أن استخلف ابنه زيدان على فاس وأعمالها، وقد كان كتب إلى ولده أبي فارس خليفته على مراكش برسالة أجابه فيها عما كتب به إليه في شأن الوباء الذي ظهر بالسوس ومراكش هل يفر منه أم لا ونصها:

«من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الإمام الخليفة المنصور بالله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين الشريف الحسني أيد الله بعزيز نصره أوامره وظفر عساكره، وأسعد بمنه موارده ومصادره، إلى ولدنا الأجل الأفضل الأكمل الأعز الأبر الأسعد الأمجد الأرضى بابا أبي فارس، وصل الله تعالى عنايتكم

ووالى بمنه رعايتكم وسلام عليكم ورحمة الله. أما بعد، فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العالية بالله المدينة البيضاء حاطها الله عن الخير والعافية، ونعم الله المتوافية، لله الحمد وله المنة، وأنه اتصل بعليّ مقامنا كتابكم الأعز عشية يوم الثلاثاء فكتبنا إليكم صبيحة يوم الأربعاء، ولولا أنه وصل يوم الديوان ما كنا نؤخر كتب الجواب لكم عن ساعة وصوله في اليوم بنفسه حرصاً منا بذلك على المبادرة بوصوله إليكم في الحين؛ وإلى هذا أسعدكم الله أن أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد، ويبقى في القصبة وصيفنا مسعود مع القائد محمد بن موسى بن أبي بكر، وتتركوا مائة رام تثقون بها من رماتكم مع أصحاب السقيف وتتكلون على الله وتخرجون بالسلامة، ثم لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الرميلة والتقلب بها، بل لا تزيدوا إذا خرجتم على المقام أكثر من يومين، ثم اطووا المراحل إلى أن تنزلوا بسلا وتدخلوها دخول هناء وعافية إن شاء الله، وهناك يكون لقاؤنا بكم لقاء يمن وسعادة إن شاء الله، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق أسعدكم الله فلازموه، وإذا استشعرتم منه حرارة وتخوفتموها فاستعملوا من الوزن الوصف المعروف منه ولا تهملوه. وأما ولدك حفظه الله فلما كان من سن الشبيبة بحيث منعه الحال من المداومة على الترياق فها هي الشربة المعروفة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هناكم عند التونسي، فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظون بالله، حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق المرة والمرتين على قدر الحاجة فيعود إليها والله تعالى بمنه وبحرمة صفوة خلقه خير البشر محمد ﷺ يتولى حمايتكم جميعاً ويحلكم من جميل كلاءته ورعايته حصناً منيعاً، وأن يعافي البلاد والعباد بمنه وفضله؛ والسلعة أسعدكم الله تبادرون بإرسالها إلينا، وكذلك القائد مسعود النبيلي تعزمون بإرساله إلى حيث أمرناه بالمقام من خنق الوادي بالسوس وطريق تاحظيشت؛ واعلم أسعدكم الله ما قط أرضانا أن أمرها يتم، وقبل عقلنا الكريم إن أهل درن يتجرون بسببها، ولكن هذا سبب يكون حجة عليهم إن شاء الله، وأنتم

تحاولون أسعدكم الله سلوك الناس على بويباون على العادة، وتجهدوا في أن تكون إن شاء الله سابلة، وأولائكم أعني أهل طريق تاحظيشت يسكت عنهم حتى نصل بخير وعافية لتلكم البلاد إن شاء الله. ومسألة أيسي التي كتبت لكم من خنق الوادي على الزرع وأنه ما عندهم ما يكفيهم منه سوى شهر فلقد كنا كتبنا لكم أسعدكم الله على حمل الزرع إليهم على البحر، فإن كان قد تيسر ذلك فيكون قد بلغ إليهم وإن لم يكن ذلك قد تيسر فلتأمر أيسي هذا بالتدبير على الزرع ولو بالشراء وألزموه عهدته وشددوا عليه في أمره، وخالنا القائد حمو بن محمد الذي استأذنكم في الخروج عن ذلكم المرض من المحمدية[1] فإذا تفاحش فلا عليه في الخروج ويلتحق بأهل تلك المحلة بخنق الوادي ويترك في القصبة أهل الأندلس مع قائدهم. ومسألة مؤمن بن منصور مع هكسيمة التي ذكرتم أسعدكم الله إن مؤمناً قد تثاقل بدمنات بسبب مرض ألم به حتى جاء به شاوش، وإن أخاه ذلكم المفسود بعث إليه يلتقي معه بتامصلوحت فعلى بركة الله والحاضر بصيرة، وهذا موجبه إليكم، والله يصل بمنّه رعايتكم والسلام. وفي يوم الأربعاء رابع عشر رمضان المعظم عام أحد عشر وألف، عرفنا الله خيره وبركته. وبعد أن كتبنا لكم هذا بلغنا كتابكم ونحن نجيبكم عما تحتاجون إلى الجواب عنه، والبطاقة التي ترد عليكم من السوس من عند الحاكم أو ولد خالكم أو غيرهما لا تقرأ ولا تدخل داراً بل تعطى لكاتبكم هو يتولى قراءتها ويعرفكم مضمنها، ولأجل إن كاتبكم يدخل مجلسكم ويلابس مقامكم حتى هو لا يفتحها إلا بعد أن تغمس في خل ثقيف وتنشر حتى تيبس وحينئذ يقرؤها ويعرفكم بمضمنها إذ ليس يأتيكم من السوس ـ والله سبحانه أعلم ـ ما يوجب الكتمان عن مثل كتابكم؛ وقد طالعنا كتاب ولد خالكم أحمد بن محمد الصغير وصح عندنا من فحوى كلامه ما ذكرتم عنه من أنه أكثر من خبر الوباء ليجده ذريعة للخروج من السوس،

---

(1) المحمدية هي تارودانت نسبة إلى محمد (فتحا) الشيخ ابن القائم بأمر الله. وغالب السكة السعدية ضرب بها.

والذي تأمرونه به أنكم تحذرونه من القدوم عليكم بمراكش، وإن ذلك لا يرضينا منه، وكيف يروم الخروج من موضع عيناه له من غير أمرنا لا سيما مع غيبتنا عن البلاد، وأنه إن فعل ذلك لا محالة تسقط منزلته عندنا، ثم لا يعود أبداً إليها، إلا أن تفاحش المرض بتلكم الناحية فلا عليه في الخروج والتنقل قرب البلاد أو يلتحق بمحلة أصحابه الذين بخنق الوادي. وأما ما ذكرتم عن محمد بن عبد الرحمٰن الوردي فقد طالعنا الجريدة التي جرد لكم وتصفحناها ورأينا أن جل ما يطلبه بها لا يمكن مع غيبتنا، والذي نأمركم به في مسألته أنكم تحاولون في رده لموضعه فإنه بذلك الموضع أليق من أخيه بكثير، وكل ما يمكنكم من أغراضه المسطرة فاقضوه له، وما لا يمكن عدوه به عند قدومنا إن شاء الله. وأما أمر أخي أحمد بن الحسن الذي عيناه لجباية درعة وذكرتم أنه غير لائق بها وأنكم استصغرتموه عن تلك العمالة فلا شك أنه كما ذكرتم، ولكن إنما وقع الاختيار عليه لأمرين: الأول: الذمة لأنه بماله ولا نخشى إن شاء الله على مالنا، الثاني: إن خراج درعة سهل معلوم، ولعله يكره هذه الولاية ويحب الجلوس بداره ويغري من يتكلم فيه عندكم، فإن كان من ذكره لكم مثل مسعود أوتاودي فاتهمه؛ وقد طالعنا في جريدتكم أنكم وجهتم مع زرع المعاصر مائة رام، وهذا الذي ذكرتم ما نعلم أنا كتبنا لكم عليه قط، وإنما كتبنا لكم على الزرع تحملونه في البحر برسم المحلة التي هناكم بخنق الوادي، فإن كان هو هذا فنحن أردناه للمحلة، وإن كان غيره فعرفنا بقضيته، فإن زرع المعاصر إنما يلزم اليهود والنصارى المكثرين للمعاصر، وفيها أيضاً ما أخبركم به أحمد بن محمد بن موسى بخبر ما سقط من القنطرة، وإنكم عنفتموه على عدم المبادرة وقد أشكل علينا الأمر لأنكم لم تعرفوا مقامنا بالساقط هل هو من القديم أو من هذا الإصلاح الذي أمرنا به فعرفنا لنكون على بصيرة من ذلك؛ وفيها أيضاً مسألة أولاد طلحة فدبروا عليهم إما من عند أيسي أو غيره حتى لا يرجعون إلينا شاكين. وولد إبراهيم بن الحداد إلى الآن لم يصل، وزمام الأسرى وصل. وأما الدراقة التي ذكرتم فها السلتة المعدة لها عند صاحب بيت ثيابنا، فوجه ليوسف العبد حتى تكلمه

ومرةً يخرجها من عنده وركبها في موضعها ولا تركب التي عندكم بل تمسكونها لأنفسكم. واعلم أني تركت عند أولئك المعلمين أعني معلمي بركاضو سلاتي برسم ابنتنا العزيزة طاهرة صانها الله وكلاها، وحيث يفرغون من الدراقة اجمعهم عليها كي نجد ذلك طالعاً إن شاء الله فإنا قد أمرنا بنسج درارق تلكم السلاتي[1]. هذا، والمراد أن تجد السلاتي قد فرغ منها إن شاء الله. وقصر الخيل مع الحمام حرض المعلمين على المبادرة باشتغالهما بهما، وحاول أن تسقفوا ذلك البلاط الذي يوالي سور القصبة من قصر الخيل والقبة التي فيه لنجده كاملاً إن شاء الله عند قدومنا عليكم، وحتى سواري الرخام ركبوها في تلك الجهة إذا سقفتم، ولا تزالوا تعرفونا بما تزايد من الأشغال في الموضعين المذكورين. وأوصيكم أعزكم الله أن تتفقدوا فرسنا الأحمر الصغير ولا تتركوهم يعطونه القصيل لئلا يكثر لحمه ويزداد ألمه، بل انظر له من يركبه كل يوم بل لا تنزع السرج بالكلية عن ظهره بياض النهار كله. أو أعطوه لصاحب المسرة يركبه في ذهابه وإيابه لداره والمسرة، وأوصوه أن لا يركبه غيره ولا ينزل عن ظهره النهار كله. وأوصيكم أيضاً إذا ظهر المرض بتلكم الناحية وخرجتم خروج يمن وسلامة بحول الله وقوته أن لا تتركوا وراءكم بنت عمكم والدة ولدنا العزيز بابا عبد الملك حفظه الله. وامر يوسف العبد أن يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج إليه من الترياق الجديد الذي كان بقبة المشور ويدخل على أيديكم لدارنا، واستدعوا أم المال قهرمانة الدار وأعطها إياه برسم أهل دارنا، وأمرها أن تعطيهم إياه في كل رابع من اليوم الذي يأكلونه فيه، وهي أيضاً تأكل منه، والعبد يوسف أيضاً يأكل منه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه أعني مسعود بن مبارك، والله سبحانه يرعاكم ويتولى حفظكم أنتم وأولادكم وقد استودعناكم الله الذي لا تضيع لديه الودائع، وأنتم في أمان الله وحفظه، والله سبحانه خليفتي عليكم أنتم في يمين الرحمٰن وكلتا يديه يمين، والسلام الأتم

(1) لعل العبارة فيها قلب وأصلها: بنسج سلاتي تلكم الدرارق.

عائد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ونسلم على ولدنا الأعز الأرضى بابا عبد الملك، وعلى ابنتنا الرضية سيدة الملك ونحن في غاية الاشتياق والتوحش لها جمع الله بكم الشمل جميعاً آمين، بحرمة سيدنا محمد ﷺ وعلى آله خير آل والسلام» اهـ.

قال مؤلفه عفا الله عنه: قد وقع في كلام المنصور رحمه الله أمران يحتاجان إلى التنبيه عليهما، الأول: إذنه لولده أبي فارس في الخروج من مراكش إذا ظهر بها أثر الوباء ولو شيئاً يسيراً وهذا الأمر محظور في الشرع كما هو معلوم ومصرح به في الأحاديث، والثاني: أمره إياه أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس وإنما يتولى قراءتها كاتبه بعد أن تغمس في الحل، وهذا عمل من أعمال الفرنج ومن يسلك طريقهم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة، وقد اتفق لي فيها كلام أذكره هنا تتميماً للفائدة، وذلك أنه لما كانت سنة ست وتسعين ومائتين وألف عرض لنا سفر إلى حضرة السلطان المولى أبي علي الحسن بن محمد الشريف أيده الله عز وجل بمراكش المحروسة بالله فخرجنا من سلا أواخر ربيع الأول من السنة المذكورة، ومررنا في طريقنا على المحب القائد الأنبل أبي عبد اللّه محمد بن إدريس الجراري بثغر الجديدة، وهو يومئذ متول لعملها، فأجل قدومنا على عادته حفظه الله في محبة العلم ومن ينتمي إليه، وحضر معنا عنده بعض فقهاء الوقت، وكانت السنة سنة وباء، فجرت المذاكرة فيما يستعمله النصارى في أمر الكرنتينة من حبس المسافرين وشذاذ الآفاق عن المرور بالسبل والدخول إلى الأمصار والقرى ومنع الناس من مرافقهم وأسباب معاشهم؛ وحصل التوقف تلك الساعة في حكمها الشرعي ماذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه، ثم بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر وقفت على رحله العلامة الشيخ رفاعة الطهطاوي المصري في أخبار باريز فرأيته ذكر في صدرها: أنه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبي عبد اللّه محمد المناعي التونسي المالكي المدرس بجامع الزيتونة، ومفتي الحنفية بها العلامة الشيخ أبي عبد اللّه محمد البيرم في إباحة الكرنتينة وحظرها، فقال المالكي بحرمتها وألف في ذلك

رسالة، واعتماده في الاستدلال فيها على أن الكرنتينة من جملة الفرار من القضاء. وقال الحنفي بإباحتها، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة أيضاً. فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لي النظر في حكم هذه الكرنتينة وظهر لي أن القول بإباحتها أو حرمتها منظور فيه إلى ما اشتملت عليه من مصلحة ومفسدة ولو مرسلة على ما هو المعروف من مذهب مالك رحمه الله، ثم يوازن بينهما وأيتهما رجحت على الأخرى عمل عليها، فإن استوتا كان درء المفسدة مقدماً على جلب المصلحة كما هو معلوم في أصول الفقه، ونحن إذا أمعنا النظر في هذه الكرنتينة وجدناها تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة، أما المصلحة فهي: سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء، وهذه المصلحة كما ترى غير محققة بل ولا مظنونة، لأنه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون وأنه مهما استعملها أهل قطر أو بلد إلا ويسلمون لا دائماً ولا غالباً بل الكثير أو الأكثر أنهم يستعملونها ويبالغون في إقامة قوانينها ثم يصيبهم ما فروا منه كما هو مشاهد؛ ومن زعم أن السلامة مقرونة بهذا دائماً أو غالباً فعليه البيان إذ البينة على المدعي، فنتج من هذا أن مصلحة الكرنتينة مشكوكة أو معدومة، وإذا كانت كذلك فلا يلتفت إليها شرعاً بل ولا طبعاً لأنها حينئذ من قبيل العبث. وأما المفسدة فهي: دنيوية ودينية، أما الدنيوية فهي الإضرار بالتجار وسائر المسافرين إلى الأقطار بحبسهم وتسويقهم عن أغراضهم وتعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه وأقبحها كما هو معلوم، وأما الدينية فهي تشويش عقائد عوام المؤمنين والقدح في توكلهم وإيهام أن ذلك دافع لقضاء الله تعالى وعاصم منه، وناهيك بهما مفسدتين محققتين ترتكبان لشيء يكون أو لا يكون، فإن العامة ـ لقصور أفهامهم ـ قد تذهب أوهامهم مع هذه الظواهر فيقفون معها ويقعون في ورطة ضعف الإيمان عياذاً بالله فإن قلت: هذا الكلام فيه ميل إلى سوء الظن بالعامة وهم جمهور الأمة. قلت: ليس فيه ميل إلى سوء الظن بهم وإنما فيه تقرير الخوف عليهم والاحتياط لهم حتى لا نتركهم هملاً يفعلون ما شاؤوا أو يفعل بهم ما يضرهم في دينهم ودنياهم مع أن سد الذريعة قاعدة من قواعد الشرع لا سيما في المذهب

المالكي، ولأمر ما جاءت الشريعة المطهرة ممتلئة من التحذيرات من مكامن هذه المفاسد ونحوها ورد الأسباب والمسببات كلها إلى الله تعالى: مع ما في استعمال هذه الكرنتينة من الاقتداء بالأعاجم والتزيي بزي الكفرة الضلال ورمقهم بعين التعظيم ونسبتهم إلى الإصابة والحكمة كما قد يصرح به الحمقى من العوام. فأما إذا وافق قدر بالسلامة عند استعمالها فهي الفتنة والعياذ بالله؛ فأي مفسدة أقبح من هذه؟ فالحاصل أن الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق فتعين القول بحرمتها، وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير. وقد ذكر العلامة الحافظ القسطلاني في تفسير سورة النساء من الجامع الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 102] ما نصه: «دل على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة ومن ثم علم أن العلاج بالدواء والاحتراز عن الوباء والتحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب» اهـ. وهو يقتضي بظاهره أن الاحتراز عن الوباء واجب بأي وجه كان، ولا يخفى أنه يتعين تقييده بالوجه الذي ليس فيه مفسدة شرعية، كعدم القدوم على الأرض التي بها الوباء ونحو ذلك مما وردت به السنة ولا تأباه قواعده الشريعة كبعض العلاجات المستعملة في إبانه المنقولة عن أئمة الطب، أما بالوجه الذي يشتمل على مفسدة أو مفاسد كهذه الكرنتينة فلا. هذا ما تحرر في هذه المسألة والله أعلم.

ولما وقف على هذا الكلام أخونا في الله العلامة الأستاذ أبو محمد عبد اللّه بن الهاشمي ابن خضراء السلاوي وهو اليوم قاضي حضرة مراكش كتب إليّ ما نصه: «وأما حكم الكرنتينة فهو ما ذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة التي لا تفي بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة في الجهات المتعددة، ولا يخالف في هذا الحكم إلا مكابر متبع للهوى فماذا بعد الحق إلا الضلال» ثم جلب حفظه الله من النصوص ما يشهد لذلك، تركناها اختصاراً والله تعالى الموفق بمنه.

وفاة المنصور رحمه الله

كان المنصور رحمه الله بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع إلى مراكش، فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص إلى أن دخلت سنة اثنتي عشرة وألف فانتشر الوباء في بلاد الغرب أيضاً فكان مصاب المنصور به على ما نذكره.

قال صاحب الأصليت وهو الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد اللّه السجلماسي المعروف بأبي محلي: «كنا نسمع أن السلطان المنصور إذا خرج من مراكش قاصداً مدينة فاس لا يرجع إلى مراكش، وذاع هذا الخبر في الناس قبل نزوله فكان الأمر كذلك، ثم لا أدري من أين للناس بذلك، هل أنطقهم الله به أو عن علم تلقوه عن أربابه وكأنه الأشبه والله أعلم» قال: «ومن هذا ما ذكره بعضهم أيضاً لكن بعد الوقوع والنزول، أن دخول رايات أبي العباس المنصور في حياته للسودان واستيلاءه على سلطانها سكية في دار إمارته كاغو مع تنبكتو وأعمالها، كل ذلك من أمارات خروج الإمام المهدي الفاطمي؛ وكذلك الوباء المنتشر في هذه الأعوام وكثرة الهرج والغلاء في سائر البلاد حتى الآن، وبقي من إمارات خروجه فيما نسمع فتح وهران إما على يده أو بإذنه فيما يقوله من لا علم عنده بحقيقة الأمر» اهـ.

وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد قرب سيدي عميرة يوم الأربعاء حادي عشر ربيع النبوي سنة اثنتي عشرة وألف، ودخل إلى داره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتل بها بعد الغروب وتوفي هنالك ليلة الاثنين الموالي لتاريخه، ودفن بإزاء مقصورة الجامع الأعظم هنالك ضحوة يوم الاثنين المذكور، وحضر جنازته ولده زيدان وقدم للصلاة مفتي فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن قاسم القصار.

قال اليفرني: «كانت وفاة المنصور بالوباء» وقال الشيخ أبو محمد عبد

الله بن يعقوب السملالي في شرحه لجامع شامل بهرام: «كان بالمغرب وباء استطال به من سنة سبع إلى سنة ست عشرة وألف، وعم سهل المغرب وجبله حتى أفنى أكثر الخلق ومات به جمع من الأعيان، وبه مات السلطان أبو العباس أحمد المنصور رحمه الله» ونحوه ذكره صاحب الفوائد وغيره. قال اليفرني: «وبه تعلم أن ما شاع على الألسنة من أن المنصور سمه ولده زيدان بإشارة من أمه الشبانية في باكور أوائل ظهوره، وقطع عنه الأطباء إلى أن هلك، وأن المنصور لما أحس بذلك قال: استعجلتها يا زيدان لا هناك الله بها؛ أو كلاماً هذا معناه»: قالوا: وبسبب ذلك لم تنصر لزيدان راية، فإنه انهزم في زهاء سبع وعشرين معركة كله كذب لا أصل له، لأن المنصور طعن بالوباء ولم يذكر أحد ممن يوثق به ما شاع على ألسنة العامة وأضرابهم من الطلبة» اهـ. ثم نقل المنصور رحمه الله بعد دفنه إلى مراكش فدفن بها في قبور الأشراف قبلي جامع المنصور من القصبة، وقبره هنالك شهير عليه بناء حفيل، ومما نقش على رخامة قبره هذه الأبيات:

هذا ضريح من غدت ... به المعالي تفتخر
أحمد منصور اللوا ... لكل مجد مبتكر
يا رحمة الله اسرعي ... بكل نعمى تستمر
وياكري الرمس بما ... ء من رضاه منهمر
وطيبي ثراه من ... ندى كذكره العطر
وافق تاريخ الوفا ... ة دون تفنيد ذكر
مقعد صدق داره ... عند مليك مقتدر

بقية أخبار المنصور وبعض سيرته

كان المنصور رحمه الله حسن السياسة حازماً يقظاً مشاوراً في مهمات الأمور، وكان قد اتخذ يوم الأربعاء للمشورة، وسماه يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور وعظيم النوازل؛ وهنالك يظهر شكايته من لم يجد سبيلاً للوصول إلى السلطان، قالوا: ومن حزمه أنه كان متطلعاً لأخبار النواحي بحاثاً عنها، غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب، ويقول: «كل شيء يقبل التأخير إلا مجاوبة العمال عن رسائلهم». وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم إلا في أوقات مخصوصة.

قال الفشتالي: «ولقد كنا بالباب يوماً ـ يعني معشر الكتاب ـ قبل أن يخرج المنصور فورد النذير على الكاتب أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي بأن ولداً له في النزع فلم يملك نفسه أن ذهب إلى داره، فخرج المنصور على أثره فسأل عنه، فقيل إنه ذهب إلى داره، فاستشاط غضباً وبعث إليه فجيء به مزعجاً، وما شككنا في عقوبته، فلما مثل بين يديه قال له: «ما الذي ذهب بك؟» فذكر له أمر ولده وأنه اشتد به المرض ولم ينجع فيه دواء طبيب، فرق له وقال: «إن أمراض الصبيان قلما ينجع فيها إلا طب العجائز، ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهن».

ومن حزمه أنه اخترع أشكالاً من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد أن لا يطلع عليه أحد يمزج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقاً، فإذا سقط ووقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه؛ فكان إذا جهز أحد أولاده ناوله خطاً من تلك الخطوط يفك بها رسائله إليه ويكتب عنوانه كذلك.

ومن ضبطه أنه تعلم الخط المشرقي فكان يكاتب به علماء المشرق كتابة كأحسن ما يوجد في خط المشارقة، ومما وقع له في ذلك: أنه بعث بطاقة

بخط يده على طريقة أهل المشرق لكاتبه أبي عبد اللّه بن عيسى يستدعي منه كتاباً، فبعثه ابن عيسى إليه وبعث معه بهذين البيتين:

سقتني كؤس السرور دهاقاً خطوط أتتني في مهرق
رأت كف أحمد في الغرب بحراً فجاءت إليه من المشرق

وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على الرعية أموالاً طائلة يلزمهم بأدائها، وزاد الأمر على ما كان عليه في عهد أبيه حسبما مر، وكانت الرعية تشتكي ذلك منه ونالها إجحاف منه ومن عماله، وكان غير متوقف في الدماء ولا هياب للوقيعة فيها. قال اليفرني: «وتتبع ما وقع في ذلك يناقض المقصود من الإغضاء عن العورات والستر على الفضائح، وقد ألمعنا لك بما يكون دالاً على ما وراءه». وذكر أن بعض عمال المنصور عدا على امرأة من دكالة فأخذ منها أموالاً فقدمت المرأة على المنصور بمراكش تشكو له ما نالها من عامله، فلم يشكها ولا كشف ظلامتها فخرجت إلى أولادها بالباب وقالت لهم: «انصرفوا فإني كنت أظن أن رأس العين صافية فإذا بها مكدرة فلذا تكدرت مصارفها».

ويحكى أن الفقيه القاضي أبا مالك عبد الواحد الحميدي قد سافر في جمع من فقهاء فاس وأعيانها إلى مراكش بقصد العيد مع المنصور كما هي العادة، فمروا في طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سلكوا في سلسلة واحدة، وفيهم امرأة أخذها الطلق وهي في كرب المخاض، فرأوا من ذلك ما أهمهم وأحزنهم؛ فبقي ذلك في نفس القاضي، فلما جلس إلى المنصور ذكره له وأظهر الشكاية منه، فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك أياماً، ثم إن القاضي تلطف في القول وأظهر التوبة مما صدر منه وعدها بادرة، فقال له المنصور: «لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة، فإن أهل المغرب مجانين مارستانهم هي السلاسل والأغلال».

ولقد وفد القاضي المذكور على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقى وأصحاب

الأغاني من أهل فاس، وقد كانوا وفدوا أيضاً على المنصور على سبيل العادة، فأخرج بعضهم شبابة من الإبريز مرصعة أعطاه إياها المنصور، وبعضهم قال: أعطاني كذا، وقال الآخر: أجازني بكذا؛ مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء، فقال القاضي: «لئن بلغت فاساً لأردن أولادي إلى صنعه الموسيقى، فإن صنعة العلم كاسدة، ولولا أن الموسيقى هي العلم العزيز ما رجعنا مخفقين، ورجع المغني بشبابة الإبريز» فنقل إلى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه بيسير من الملام.

وذكر أبو زيد في الفوائد ما صورته: «عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه إلى المنصور، فقال له: «كم تساوي ضيعتك؟» قال: «سبعمائة أوقية» قال: «خذها وقل لخالي الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطان ولا أنت خال السلطان» فرجع صاحب الضيعة وأبلغ إلى العامل كلام المنصور، فأمسك برأسه ساعة ثم قال له: «الحق بضيعتك» وغرم له كل ما أكل منها» اهـ.

وقال في المناهل: «كان للمنصور مصانع اخترعها ومآثر خلفها منها: المعقلان الكبيران اللذان أنشأهما بفاس، أحدهما خارج باب عجيسة، والآخر قبالته بباب الفتوح؛ وهذان المعقلان يعرفان عند العامة بالبستيون، وهما من الإتقان بحيث لا يعرف قدرهما إلا من وقف عليهما، وكان الشروع في بنائهما يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وتسعمائة. ومن ذلك الحصنان اللذان بناهما بثغر العرائش أحدهما يعرف بحصن الفتح، وهما أيضاً في نهاية الوثاقة والحسن: ومن ذلك معاصر السكر فإنه أحدثها بمراكش وبلاد حاحة وشوشاوة. قال الفشتالي: «وكان ابتدأ ذلك والده أبو عبد الله الشيخ فكثر السكر في أيامه بالبلاد المغربية حتى لم تكن له قيمة» وقد تقدم أنه كان يشتري الرخام من النصارى بالسكر؛ ومن مآثره النبيلة العظمى مع كرسيها من المرمر بجامع القرويين تحت منار الجامع المذكور، وقد تقدم الخبر عنها. وقال ابن القاضي في «المنتقى المقصور»: «إن اللباس المسمى بالمنصورية ـ وهو لباس من الملف ـ لم يكن مستعملاً قبله، وهو

أول من اخترعه وأضيف إليه فقيل: المنصورية».

وكان في مدة المنصور من الأحداث أنه:

في سنة سبع وثمانين وتسعمائة وقع غلاء عظيم بالمغرب حتى عرف ذلك العام بعام البقول، قال في المرآة: «لما انتهب الناس غنيمة وادي المخازن كان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر أثر ذلك من غلاء وغيره وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ». وفي هذه السنة أيضاً أصاب الناس في بعض فصولها سعال كثير قل من سلم منه، وكان الرجل لا يزال يسعل إلى أن تفيض نفسه فسمى العامة تلك السنة سنة كحيكحة.

وفي سنة إحدى وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ العارف بالله تعالى الكبير الشأن أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة إلى جنوة من بلاد الفرنج، كان أبوه نصرانياً وأمه يهودية؛ وسبب إسلام والده ما حكاه أبو العباس الأندلسي في رحلته: أنه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلاً ودخل الكنيسة العظمى وراث فيها من غير أن يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم، ثم بادر بإخراج الفرس؛ ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا: «إن المسيح جاء البارحة على فرسه إلى الكنيسة وراث فيها» فاهتز البلد لذلك وتنافس النصارى في شراء ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة منه بمال جزيل، فعلم أن النصارى على ضلال وهاجر إلى بلاد الإسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هنالك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم، فنشأ مثلاً في العلم والولاية ومحبة النبي ﷺ. وكان رضي الله عنه يقول: «خرجت من بين فرث ودم»؛ أخذ الطريقة عن أبي محمد الغزواني وقدم عليه مراكش ثم عاد إلى فاس فمات بها في السنة المذكورة ودفن خارج باب الفتوح.

وفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ العلامة الإمام أبو العباس أحمد بن علي المنجور، كان متبحراً في العلوم خصوصاً أصول الفقه، أخذ عن اليسيتني وأبي زيد سقين العاصمي وأبي الحسن بن هارون وأبي مالك الوانشريسي وغيرهم.

وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة توفي الشيخ أبو الشتاء الشباوي دفين جبل آمركو من بلاد فشتالة ويقال اسمه محمد بن موسى وكني بأبي الشتاء لأن الناس قحطوا ولجؤوا إليه فسقوا في الحين، وهو من أصحاب الشيخ الغزواني. ويقال: ما لقيه إلا مرة بقبيلتهما الشاوية فعينه ومكنه فهام على وجهه وكان من أمره ما كان.

وفي ثامن عشر ربيع الثاني سنة ثلاث وألف توفي القاضي أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الحميدي ودفن بروضة الشيخ أبي زيد الهزميري خارج باب مصمودة من عدوة فاس الأندلس وقد تقدمت بعض أخباره.

وفي سنة أربع وألف توفي الشيخ أبو الحسن علي بن منصور البوزيدي المعروف بأبي الشكاوي دفين شالة وبها كان سكناه، أخذ عن الشيخ المجذوب وأبي الرواين المحجوب وغيرهما، وأولاده ينتسبون إلى عيسى بن إدريس الحسني دفين آيت عتاب والله تعالى أعلم.

وفي سنة ست وألف توفي الشيخ الرباني أبو عبد اللّه محمد بن مبارك الزعري دفين تاستاوت من مشاهير الأولياء، كان أول نشأته بمكناسة الزيتون ثم خرج إلى البادية بعد أن صعبت عليه القراءة، ورأى النبي ﷺ فقال له: «إنك لن تقرأ ولكنك شيخ» فخرج إلى البادية وكان يظن أنه يكون من أشياخ القبائل حتى هبت عليه نفحة رحمانية فقدم مراكش وأخذ عن الشيخ أبي عمرو القسطلي ورجع إلى باديته فبنى مسجداً في الموضع الذي عين له شيخه لسكناه، فيقال إنه لما قيل له جعلت محرابه منحرفاً عن القبلة أشار بيده إلى جهة مكة فتزحزحت الجبال حتى شاهد الحاضرون مكة والله على كل شيء قدير وكان الشيخ أبو عبد اللّه محمد الشرقي معاصراً له فقيل له: إن الشيخ ابن مبارك قال: «أهل زماننا محسوبون علينا» فقال: «اشهدوا أنا من أهل زمان ابن مبارك». وفي هذه السنة أيضاً كان الطاعون العظيم بمراكش وغيرها بحيث عم تلول المغرب واستطال فيها ومات به جمع من الأعيان منهم الشيخ ابن مبارك المذكور.

وفي سنة تسع وألف في جمادى الآخرة منها كان سيل عظيم بفاس، ثم

في شعبان من السنة المذكورة كان سيل أعظم من الأول تهدمت منه الدور والحوانيت، وتهدم سد الوادي بفاس على وثاقته وإحكامه، وهذا السد هو الذي كان جدده السلطان أبو العباس أحمد الوطاسي، ثم جدده المنصور في هذه المرة من أحباس القرويين.

وفي سنة عشر وألف توفي الشيخ العارف بالله الرباني أبو عبد اللّه، ويقال أبو عبيد محمد (فتحا) الشرقي ابن الولي الصالح أبي القاسم الزعري الجابري ثم الرثمي[1]، هكذا نسبه صاحب المرآة وغيره، ورفع أبو علي المعداني في كتابه «الروض الفائح» نسبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم نقل عن حفيده العارف بالله تعالى أبي عبد اللّه محمد الصالح بن المعطي ما نصه: «إن الشيخ سيدي محمد الشرقي لم توجد هذه النسبة العمرية بخطه فيما عثرنا عليه، أما بنو أخيه وبنوه وحفدته فقد وجدت بخط الثقة منهم وتواتر نقلها عنهم وكتبت في إجازاتهم وكذا في تمليكاتهم» اهـ وهذا الشيخ ـ أعني أبا عبد اللّه الشرقي ـ كان من أكابر أهل وقته، يقال إنه بلغ درجة القطبانية وتخرج به جماعة من الأولياء، وبعث إليه المنصور جماعة يختبرونه فظهرت لهم كراماته، واتفقت له مع الشيخ المنجور كرامة حملته على أن وفد عليه زائراً ومدحه بقصيدة ذكر بعضها اليفرني في الصفوة، وله مع أبي المحاسن الفاسي مراسلات ومواصلات، ووقع بينهما كلام طويل انظر «ابتهاج القلوب»؛ أخذ رضي الله عنه عن والده عن الشيخ التباع واعتمد على الشيخ الكبير أبي عبد اللّه محمد بن عمرو المختاري من أحواز مكناسة، وأخذ أيضاً عن ابن مبارك الزعري

---

(1) وفي (نشر المثاني) عن الشيخ أبي عبد اللّه المسناوي في نسب الشيخ المذكور السميري هكذا بلفظ التصغير قال وأولاد سمير بالتصغير ينتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي تقييد لمؤلف الممتع: ما نصه: (هو من بني جابر ثم من ورديغة ثم من الرثمة ثم من أولاد بحر ثم من أولاد سمير وكلهم ينتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه) اهـ من خط مؤلفه.

وأبي محمد بن ساسي، وتوفي أوائل المحرم من السنة المذكورة ودفن بجعيدان وقبره شهير نفعنا الله به وبسائر أهل الله.

تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس

وأوله:

الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى.

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ى)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

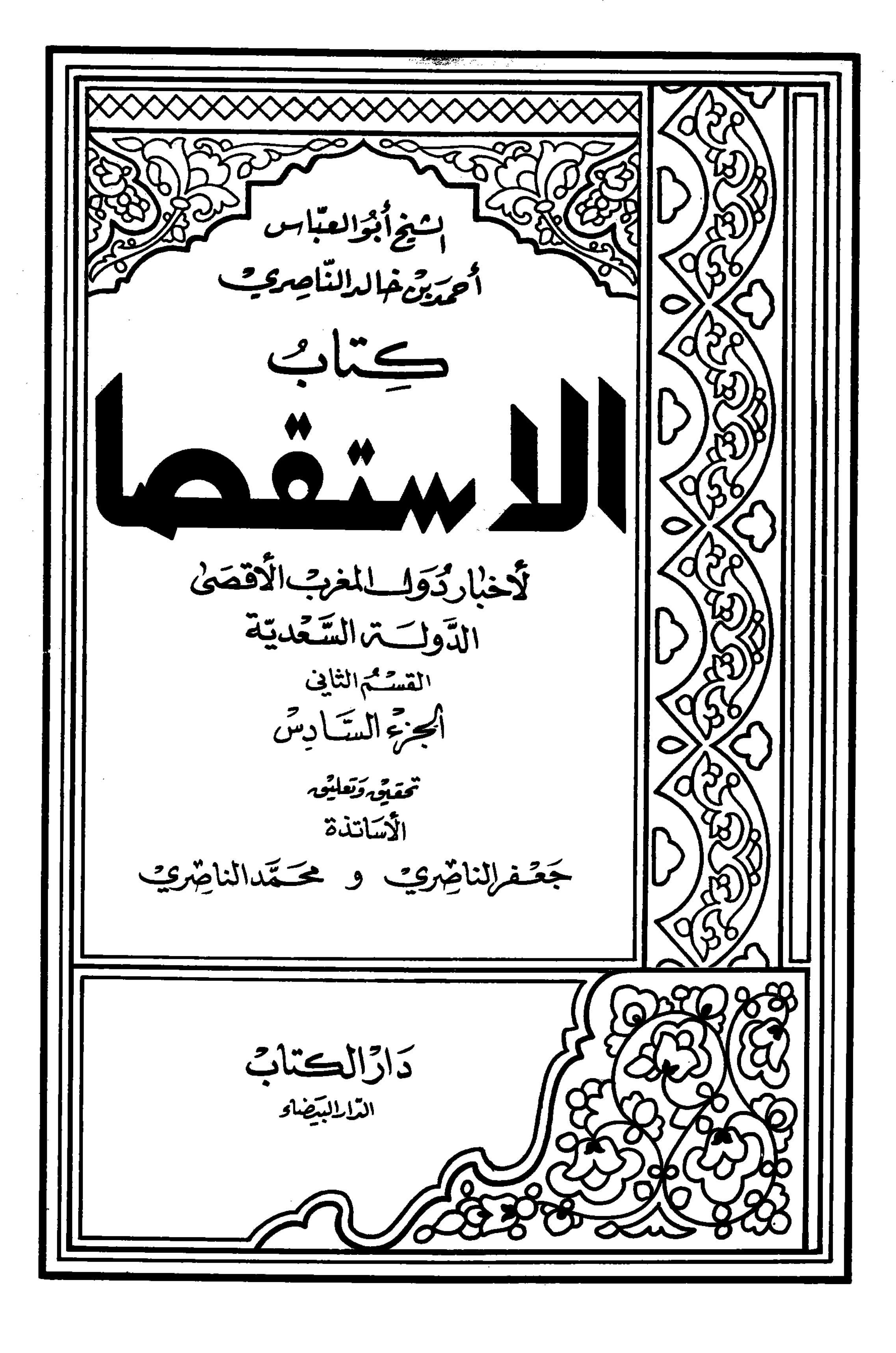
حرف (س)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (و)

حرف (ى)



الشيخ أبو العباس
أحمد بن خالد الناصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدولة السعدية

القسم الثاني

الجزء السادس

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة السعدية

القسم الثاني

الخبر عن دولة السلطان أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى

لما توفي المنصور رحمه الله وفرغ الناس من دفنه اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجمهور من جيش المنصور على بيعة ولده زيدان، وقالوا: إن المنصور استخلفه في حياته ومات في حجره، وكان ممن تصدى لذلك القاضيان: قاضي الجماعة بفاس أبو القاسم بن أبي النعيم، والقاضي أبو الحسن علي بن عمران السلاسي، والأستاذ أبو عبد الله محمد الشاوي، والشيخ النظار أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار وغيرهم. ويحكى أن القاضي ابن أبي النعيم قام في الناس خطيباً وقال: أما بعد، السلام عليكم، فإن رسول الله ﷺ لما مات اجتمع الناس على أبي بكر رضي الله عنه، ونحن قد مات مولانا أحمد وهذا ولده مولانا زيدان أولى بالملك من إخوته. فبايعه الحاضرون يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وألف[1]. قالوا: وكان زيدان لما توفي والده كتم موته وبعث

---

(1) قال المؤرخ المجهول: بويع زيدان بعد وفاة أبيه وقبل دفنه ونسب الخطبة الآتية للقصار وزاد فيها بعد قوله: اجتمع الناس على أبي بكر ما نصه: فبايعوه وأخذوا في تجهيز رسول الله بعد ذلك ونحن كذلك نفعل. وأظن هذه الرواية أقرب إلى الواقع لأن القصد بالخطبة هو تبيين السنة في تقديم المبايعة على الدفن وإلا كانت من محض الإخبار بالمعلوم.

جماعة للقبض على أخيه الشيخ المسجون بمكناسة فمنعهم من ذلك الباشا جؤذر كبير جيش الأندلس وحمل الشيخ موثقاً إلى مراكش حتى دفعه إلى أخيه أبي فارس وكان شقيقاً له، فلم يزل مسجوناً عنده إلى أن كان من أمره ما يأتي كذا قال بعضهم. وقال في شرح «زهرة الشماريخ»: إن زيدان لما اشتغل بدفن والده احتال القائد أبو العباس أحمد بن منصور العلج فذهب بنصف المحلة إلى مراكش نازعاً عن زيدان إلى أبي فارس ومر في طريقه بمكناسة فأخرج الشيخ من اعتقاله واحتمله معه إلى أبي فارس فسجنه فلم يزل مسجوناً عنده إلى أن كان من أمره ما نذكره والله تعالى أعلم.

انحراف أهل مراكش عن طاعة زيدان وبيعتهم لأبي فارس وما نشأ عن ذلك من الفتنة

كان المنصور رحمه الله قد فرق عمالات المغرب على أولاده كما مر، فاستعمل الشيخ على فاس والغرب وولاه عهده، واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها، واستخلف، عند نهوضه إلى فاس، ابنه أبا فارس على مراكش وأعمالها وكان يكاتبه بما مر بعضه من الرسائل، فلما اتصل بأهل مراكش وفاة المنصور وكتب إليهم أهل فاس بمبايعتهم لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا فارس لكونه خليفة أبيه بدار ملكه التي هي مراكش ولأن جل الخاصة من حاشية أبيه كان يميل إلى أبي فارس لأن زيدان كان منتبذاً عنهم بتادلا سائر أيام أبيه فلم يكن لهم به كثير إلمام ولا مزيد استئناس، مع أنه كان جديراً بالأمر لعلمه وأدبه وكمال مروءته رحمه الله إلا أن السعد لم يساعده وقد قيل في المثل قديماً: «قاتل بسعد وإلا فدع» ولما شق أهل مراكش العصا على زيدان كثر في ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضي فاس ابن أبي النعيم، ومفتيها أبي عبد الله القصار تتضمن التصريح بحديث: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما» وكانت بيعة أبي فارس

بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وألف، وهو شقيق الشيخ المأمون، أمهما أم ولد اسمها الجوهر، ويقال الخيزران، واسم أبي فارس هذا: عبد الله وتلقب بالواثق بالله، وكان أكولاً عظيم البطن مصاباً بمس الجن ويقال: إنه لذلك ابتنى المسجد الجامع بجوار ضريح الشيخ أبي العباس السبتي وشيد منارة وشحن الخزانة التي بقبلي الجامع المذكور بمنتخب الكتب ونفيس الدفاتر كل ذلك رجاء أن تعود عليه بركة ذلك الشيخ بالبرء من تلك العلة، وكان مع ذلك يميل إلى المروءة والرفق وحسن السيرة رحمه الله.

نهوض السلطان زيدان لحرب أبي فارس وانهزامه بأم الربيع ثم فراره إلى تلمسان

لما بايع أهل مراكش أبا فارس بن المنصور عزم زيدان على النهوض إليه فخرج من فاس يؤم بلاد الحوز، واتصل الخبر بأبي فارس فجهز لقتاله جيشاً كثيفاً وأمر عليهم ولده عبد الملك إلى نظر الباشا جؤذر، فقيل له: إن زيدان رجل شجاع عارف بمكايد الحرب وخدعه وولدك عبد الملك لا يقدر على مقاومته فلو سرحت أخاك الشيخ لقتاله كان أقرب للرأي لأن أهل الغرب لا يقاتلونه لأنه كان خليفة عليهم مدة فهم آنس به من زيدان، فأطلق أبو فارس أخاه المأمون من ثقاف السجن وأخذ عليه العهود والمواثيق على النصح والطاعة وعدم شق العصا، ثم سرحه في ستمائة من جيش المتفرقة الذين كان المنصور جمعهم ليبعث بهم إلى كاغو من أعمال السودان، وقال له ولأصحابه: «جدوا السير الليلة كي تصبحوا بمحلة جؤذر على وادي أم الربيع» فلما انتهى الشيخ إلى المحلة المذكورة وعلم الناس به أهرعوا إليه واستبشروا بمقدمه. ثم كانت الملاقاة بينه وبين السلطان زيدان بموضع يقال له: حواتة عند أم الربيع ففر عن زيدان أكثر جيشه إلى المأمون وحنوا إلى

سالف عهده وقديم صحبته، فانهزم زيدان لذلك ورجع أدراجه إلى فاس فتحصن بها.

وكان أبو فارس قد تقدم إلى أصحابه في القبض على الشيخ متى وقعت الهزيمة على زيدان فلما فر زيدان انعزل الشيخ فيمن انضم إليه من جيش أهل الغرب وامتنع على أصحاب أبي فارس فلم يقدروا منه على شيء وانتعش أمره واشتدت شوكته ثم سار إلى فاس يقفو أثر السلطان زيدان.

ولما اتصل بزيدان خبر مجيئه إليه راود أهل فاس على القيام معه في الحصار والذب عنه والوفاء بطاعته التي هي مقتضى بيعتهم التي أعطوا بها صفقتهم عن رضى منهم، فامتنعوا عليه وقلبوا له ظهر المجن وأعلنوا بنصر الشيخ وبيعته لقديم صحبتهم له. ولما آيس زيدان من نصرهم وقد أرهقه الشيخ في جموعه خرج من فاس بحشمه وثقله ناجياً بنفسه، وتبعه جمع عظيم من أصحاب الشيخ فلم يقدروا منه على شيء، وذهب إلى تلمسان فأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

وأما الشيخ فإنه لما وصل إلى فاس تلقاه أهلها ذكوراً وإناثاً وأظهروا الفرح بمقدمه فدخلها ودعا لنفسه فأجيب واستبد بملكها، ثم أمر جيش أهل مراكش أن يرجعوا إلى بلادهم فانقلبوا إلى صاحبهم مخفقين.

وكان الشيخ لما تم غرضه من الاستبداد بالأمر والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضي الجماعة أبي القاسم بن أبي النعيم، ومفتيها أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفي أخيه أبي فارس: «إن أولاد الإماء لا يتقدمون في الأمر على أولاد الحرائر.» وكان أبو فارس والشيخ ولدي أمة اسمها: الخيزران كما مر، وزيدان أمه حرة من الشبانات، وعزم أن ينكل بهما ثم بعث بهما مع جيش مراكش إلى أخيه أبي فارس ليرى فيهما رأيه فأما الشيخ القصار فتوفي رحمه الله على مقربة من مراكش بزاوية الشيخ ابن ساسي وحمل إلى مراكش فدفن بقبة القاضي عياض

وذلك في أواسط سنة اثنتي عشرة وألف؛ وأما القاضي أبو القاسم فاجتمع بأبي فارس فقبل عذره وصفح عنه ورده مكرماً إلى فاس هكذا ذكره بعضهم[1] وقيل: إن الذي بعث بالشيخ القصار إلى مراكش هو السلطان زيدان على وجه يخالف هذا والله أعلم.

نهوض عبد الله بن الشيخ لحرب عمه أبي فارس واستيلاؤه على مراكش

ثم إن الشيخ المتغلب على فاس دعا بتجار أهلها فاستسلف منهم مالاً كثيراً وأظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به، ثم تتبع قواد أبيه فنهب ذخائرهم واستصفى أموالهم وعذب من أخفى من ذلك شيئاً منهم، ثم جهز جيشاً لقتال أخيه أبي فارس بمراكش، وكان عدد الجيش نحو الثمانية آلاف، وأمر عليه ولده عبد الله فسار بجيوشه فوجد أبا فارس بمحلته في موضع يقال له: إكلميم، ويقال: في مرس الرماد فوقعت الهزيمة على أبي فارس وقتل نحو المائة من أصحابه ونهبت محلته، وفر هو بنفسه إلى مسفيوة، ودخل عبد الله بن الشيخ مراكش فأباحها لجيشه فنهبت دورها واستبيحت محارمها واشتغل هو بالفساد «ومن يشابه أباه فما ظلم» حتى حكي أنه زنى بجواري جده المنصور واستمتع بحظاياه، وأكل رمضان وشرب الخمر فيه جهاراً وعكف على اللذات وألقى جلباب الحياء عن وجهه، وكان دخوله مراكش في العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف[2].

---

(1) وكانت عاقبة أمره القتل كما سيذكره المؤلف.

(2) ثم فر منها إلى السوس فأقام عند حاجب أبيه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي كما سيذكره المؤلف.

مجيء السلطان زيدان إلى المغرب واستيلاؤه على مراكش وطرده عبد الله بن الشيخ عنها

كان السلطان زيدان لما فر من فاس إلى تلمسان كما مر أقام بها مدة وكان قد بعث إلى ترك الجزائر يستمدهم ويستعديهم على أخويه فأبطؤوا عليه وطال عليه انتظارهم، فلما يئس منهم توجه إلى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة، ثم انتقل عنها إلى درعة ومنها إلى السوس، فكتب إليه أهل مراكش، وقد ندموا على ما فرطوا فيه من أمره والدخول في طاعته، أن يأتيهم ولو وحده، فتوجه إليهم ودخل عليهم ليلاً فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ إلا نداء أهل مراكش بنصر السلطان زيدان وتحزبوا معه وتقدموا إلى قائدهم عبد الله آعراس الذي ولاه عليهم الشيخ فقتلوه، وخرج عبد الله فاراً بجموعه من أهل فاس والغرب، فحاصرهم أهل مراكش بين الأسوار والجنات، وقتلوا من أصحاب عبد الله بموضع يعرف بجنان بكار نحو الخمسة آلاف وخمسمائة، وأمر زيدان بقتل كل من تخلف عن عبد الله من جيشه، فأتى القتل على جميع من وجد بمراكش من جيش أهل فاس، وذلك في أواخر سنة خمس عشرة وألف، وفر عبد الله بن الشيخ ناجياً بنفسه حتى قدم على أبيه بفاس في أسوأ الحالات، مفلول العساكر مهزوم الجموع معتاضاً عن جيش النصر بجيش الدموع.

عودة عبد اللّه بن الشيخ إلى مراكش واستيلاؤه عليها وطرده زيدان عنها

لما قدم عبد اللّه بن الشيخ على أبيه بفاس سليباً مهزوماً قامت قيامته ورأى أن يهيئ عسكراً آخر ويجدد جمعاً ثانياً فلم يجد لذلك طاقة لفراغ يده من المال وقلة جبايته، واستحيى أن يستسلف من التجار لأنه كان استسلف منهم فلم يرد لهم شيئاً. ولما أعيته الحيلة رجع على قواده فقلب لهم ظهر المجن ونهب أموالهم واستلب ذخائرهم وصار يفرقها على التجار، فاجتمع له من ذلك أموال عريضة فرقها في جيشه، وتهيأ عبد اللّه للمسير إلى مراكش، وكان أهل فاس قد غضبوا لمن قتل من إخوانهم بها ونادوا بأخذ ثأرهم حتى إن بعضهم خرج مع عبد اللّه من غير أخذ مرتب ولا جامكية، فخرج عبد اللّه بجموع عديدة وجيوش حفيلة، ولما بلغ خبره للسلطان زيدان بعث إليه العلج مصطفى باشا في جيوش كثيرة. قال في شرح «زهرة الشماريخ»: كان بعث مصطفى باشا وخروجه من مراكش في شعبان سنة ست عشرة وألف، فالتقى الجمعان بموضع يقال له تافلفلت[1] على طريق سلا فهزم مصطفى باشا وقتل من جيش مراكش نحو التسعة آلاف وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس إلى موضع المعركة حتى أحصوا القتلى، ثم توجه عبد اللّه إلى مراكش فبرز إليه أهلها في ستة وثلاثين ألف مقاتل والتقى الجمعان بموضع يقال له: رأس العين، فانهزم أهل مراكش، وتقدم عبد اللّه بن الشيخ فاقتحمها بجيشه، وفر زيدان إلى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فبقي منتقلاً هنالك إلى أن كان من أمره ما نذكره.

---

(1) هي المعروفة بتيفلت اليوم بأرض آزمور.

ثورة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ وانقراض أمره وعود زيدان إلى مراكش

لما دخل عبد الله بن الشيخ مراكش واستولى عليها فعل فيها أعظم من فعلته الأولى، وهربت شرذمة من أهل مراكش إلى جبل جيليز واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحمية واتفق رأيهم على أن يقدموا للخلافة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ، وكان رجلاً خيراً ديناً صيناً وقوراً فبايعه أهل مراكش هنالك، والتفوا عليه، فخرج عبد الله بن الشيخ لقتال من بجبل جيليز والقبض على أميرهم المذكور. ولما التقى الجمعان انهزم عبد الله وولى أصحابه الأدبار فخرج من مراكش مهزوماً سادس شوال سنة ست عشرة وألف، وترك محلته وأنفاضه وعدته وجل الجيش، وأخذ على طريق تامسنا وامتحن أصحابه في ذهابهم حتى كان مد القمح عندهم بثلاثين أوقية والخبزة من نصف رطل بربع مثقال، ولم يزل أصحابه ينتهبون ما مروا عليه من الخيام والعمود ويسبون البنات إلى أن وصلوا إلى فاس في الرابع والعشرين من شوال من السنة المذكورة.

وأما محمد بن عبد المؤمن فإنه لما دخل مراكش واستولى عليها صفح عن الذين تخلفوا بها من أهل الغرب من جيش عبد الله بن الشيخ، وأعطاهم الراتب فلم يعجب ذلك أهل مراكش، ونقموا عليه إبقاءه عليهم، وكانوا نحو الألف ونصف، فكتبوا سراً إلى السلطان زيدان بالجبل فأتاهم وخيم نازلاً بظاهر البلد، فخرج محمد بن عبد المؤمن إلى لقائه فانهزم ابن عبد المؤمن ودخل السلطان زيدان مراكش واستولى عليها وصفح هو أيضاً عن الفئة المتخلفة عن عبد الله بن الشيخ. وذكر في شرح «زهرة الشماريخ»: إن هذا الثائر بجبل جيليز اسمه أبو حسون من أولاد السلطان أبي العباس الأعرج والله أعلم، ولعل هذا الصواب بدليل ما يأتي في رسالة زيدان إن شاء الله.

خروج جالية الأندلس من غرناطة وأعمالها إلى بلاد المغرب وغيرها

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية صاحب قشتالة على غرناطة وأعمالها سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وإن أهل غرناطة التزموا طاعته والبقاء تحت حكمه على شروط اشترطوها عليه قد ذكرنا بعضها فيما سلف، وأن عدو الدين قد نقض تلك الشروط عروة عروة، وكان أهل الأندلس من أجل ذلك كثيراً ما يهاجرون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام أثناء هذه المدة السالفة، غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم وأثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم، فكانت تصدر منهم في بعض الأحيان مقالات قبيحة في حق ولاة المسلمين من أهل المغرب وعامتهم، لا سيما إذا نالهم منهم بعض الظلم، ولقد رأيت في كتاب «المعيار» وغيره: سؤالات وفتاوى صدرت من علماء المغرب في حق هؤلاء الصنف منهم، وكان الملوك السعديون قد جمعوا منهم جنداً كبيراً، وبهم فتح المنصور إقليم السودان، واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سنة ست عشرة وألف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها.

قال في «نفح الطيب»: كان النصارى بالأندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً إلى أن كان إخراج النصارى إياهم أعوام سبعة عشرة وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان، ووهران، وخرج جمهورهم بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل منهم من هذه المضرة. وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد قد عمروا قراها الخالية وبلادها» اهـ.

وقال صاحب «الخلاصة النقية في أمراء إفريقية» ما نصه: «وفي سنة ست عشرة وألف قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه وأباح لهم بناء القرى في مملكته فبنوا نحو العشرين قرية واغتبط بهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم» اهـ ثم قال في «نفح الطيب»: «وكذلك خرج طوائف منهم بتطاوين وسلا والجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور، وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام» اهـ كلام نفح الطيب، وقوله: وحصنوا قلعة سلا يعني بها رباط الفتح إذ هي يومئذ مضافة إلى سلا ومعدودة منها. والله تعالى أعلم.

استيلاء السلطان زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور عنها إلى العرائش ثم إلى طاغية الإصبنيول

كان الشيخ بن المنصور عفا الله عنه على ما تقدم من قبح السيرة والإساءة إلى الخاصة والعامة حتى ملته النفوس ورفضته القلوب وضاق أهل فاس بشؤمه ذرعاً، وكان قد بعث ابنه عبد الله مرة ثالثة إلى حرب السلطان زيدان بمراكش وأعمالها فخرج عبد الله من فاس آخر ذي الحجة سنة ست عشرة وألف فالتقى الجمعان بوادي بوركراك فكانت الهزيمة على عبد الله وفر في رهط من أصحابه وترك محلته بما فيها بيد السلطان زيدان، فاستولى عليها، وانضم إليه جيش عبد الله من أهل فاس وغيرهم ميلاً إليه ورغبة في صحبته. فعفا عنهم وتألفهم: واستفحل أمر السلطان زيدان وتكلم به أهل فاس وسائر بلاد الغرب، واتصل الخبر بالشيخ وعرف أن قلوب الناس عليه فخاف الفضيحة وأصبح غادياً في أهله وحشمه إلى ناحية العرائش، فاحتل

بالقصر الكبير وهناك لحق به ابنه عبد اللّه مهزوماً من وقعة بوركراك، وانضم إليهما أبو فارس بن المنصور، فإنه بعد فراره من مرس الرماد إلى مسفيوة أقام بها مدة. ولما استولى السلطان زيدان على مراكش كما مر شدد في طلبه ففر إلى السوس، ولما أعيت عليه المذاهب وزيدان في طلبه لحق بشقيقه الشيخ فكان معه إلى هذا التاريخ.

ثم إن السلطان زيدان بعث كبير جيشه مصطفى باشا إلى فاس فانتهى إليها ونزل مخيماً بظهر الزاوية، ووجد لأصحاب الشيخ زروعاً كثيرة فأرسل مصطفى باشا عليها جيشه فانتسفوها، ودخلت فاس في طاعته ثم نهض إلى ناحية القصر الكبير ناوياً القبض على الشيخ وحزبه، واتصل بالشيخ خبره ففر إلى العرائش، ومنها ركب البحر إلى طاغية الإصبنيول مستصرخاً به على السلطان زيدان، وحمل معه أمه الخيزران وبعض عياله وجماعة من قواده وبطانته، وذلك في ذي القعدة سنة سبع عشرة وألف.

وانتهى مصطفى باشا إلى القصر الكبير فقبض على من وجد به من أصحاب الشيخ وفر عبد اللّه وأبو فارس فنزلا بموضع يقال له: سطح بني وارتين، فبلغ خبرهما إلى السلطان زيدان، فجاء حتى نزل قبالتهما بموضع يقال له: آرورات، ففر من كان معهما إلى السلطان زيدان، ولما بقيا أوحش من وتد بقاع فرا إلى دار اليهودي ابن مشعل من بلاد بني يزناسن فأقاما بها.

واختصر صاحب «المرآة» هذا الخبر فقال: كان السلطان أبو المعالي زيدان بن المنصور التقى مع ابن أخيه عبد اللّه بن الشيخ صاحب فاس برؤوس الشعاب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال سنة سبع عشرة وألف فانهزم عبد اللّه بن الشيخ وفر إلى محلة أبيه بالعرائش، ثم رجع إلى جهة فاس، وانتهى إلى دار ابن مشعل واستولى عمه السلطان زيدان على محلته وسار إلى فاس فدخلها وأقام بها» اهـ.

وفي دخلة السلطان زيدان هذه إلى فاس قبض على الفقيه القاضي أبي

الحسن علي بن عمران السلاسي رحمه الله قال اليفرني في «الصفوة»: كان القاضي المذكور ممن أخذ عن الشيخ القصار وكان مع ذلك لما ولي القصار الفتوى والخطابة بجامع القرويين يسعى عند السلطان في تأخيره حتى أخر، وولي هو مكانه مدة يسيرة ثم أعيد القصار، وكانت بينهما شحناء عظيمة بسبب فتوى تنازعا فيها، ثم أفضت الحال بالقاضي أبي الحسن إلى أن قبض عليه السلطان زيدان بسبب أنه عثر له على كتاب كتبه إلى بعض إخوته ينتقصه فيه ويوهن أمره، فأوغر ذلك قلب السلطان عليه فسطا به وسجنه ونهب داره وأثاثه ثم سقاه سماً، على ما قيل، فكان فيه حتفه، وقد حكي هذا الخبر في موضع آخر من «الصفوة» مطولاً فقال: كان القاضي أبو الحسن علي بن عمران السلاسي شديد الانحراف عن الشيخ العارف بالله أبي زيد عبد الرحمٰن بن محمد الفاسي سيئ الاعتقاد فيه، ولم يزل يسعى به ويكيده، فاتفق أن اجتمع بالشيخ في بعض الليالي بعض من يتعاطى العلم فتكلموا في مسائل من صفات الله فنقل كلام الشيخ إلى القاضي على غير وجهه فأنكر ذلك، وركب من حينه إلى السلطان زيدان، وهو يومئذ بفاس، منتهزاً للفرصة فقال: «إن هٰهنا رجلاً يعلم الناس البدع ويلقنهم آراء الفرق الضالة» فقال له السلطان: «من هو؟» قال: «فلان» قال: «أخو سيدي يوسف»؟ قال: «نعم» قال: «سمعنا أنه أعلم من أخيه» ثم بعث السلطان إليه، وهو مستشيط غضباً لخبر بلغه من ثورة بعض أقاربه عليه فجاء الشيخ أبو زيد ولم يخلع نعله حتى بلغ بساط السلطان، فسلم عليه ومد يده فصافحه ثم تكلموا في المسألة فانقطع القاضي ولم يجد ما يقول. إلا أن الناقل لم يحسن نقلها، فقال له الشيخ: «فهلا تثبت!» وكان بعض علماء مراكش حاضراً فبالغ في عتاب القاضي، وقيل للشيخ: «ما سبب الوحشة بينك وبين هؤلاء؟» فقال: «لا شيء إلا الاستغناء عنهم» فقالوا: «يا سيدي هذا وصف يوجب الحب» فما انفصل الشيخ عن السلطان حتى اطلع على ما يوجب القبض على القاضي فقبض عليه ونهب داره في الحين، فنزل الشيخ من فاس الجديد فلقي أثاث القاضي في الطريق جيء به منهوباً، وبقي في السجن إلى أن مات مسموماً رحمه الله. وكان

الأديب الكاتب أبو عبد الله المكلاتي قد كتب إليه بأبيات يقول فيها ما نصه:

أما لهلال غاب عنا سفور ... فيجلى به خطب دجاه تثور
فصبراً لدهر رام يمنحك الأسى ... فأنت عظيم والعظيم صبور
سيظهر ما عهدته من جمالكم ... فللبدر من بعد الكسوف ظهور
وتحيى رسوم للمعالي تغيرت ... فللميت من بعد الممات نشور
أبا حسن إني على الحب لم أزل ... مقيماً عليه ما أقام ثبير
ففي الفم ماء من بقايا ودادكم ... وذلك عندي سائغ ونمير
عليكم سلام الله ما هطل الحيا ... وغنت بأغصان الرياض طيور

قال منشئها: وقد أنشدتها بين يديه بمحبسه فبكى حتى ظننت أنه سيهلك ثم أفاق وقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] فراجعني رضي الله عنه بأبيات يقول فيها:

تفتق عن زهر الربيع سطور ... فما هي إلا روضة وغدير
هزمت من الصدر الجريح همومه ... فأنت على جند الكلام أمير
محمد هل في العصر غيرك شاعر ... له معكم في الخافقين ظهور
فإني على صفو الوداد وإنني ... سأشدو وقلبي بالهموم كسير
متى وعسى يثني الزمان عنانه ... بنهضة جد والزمان عثور
فتدرك آمال وتقضي مآرب ... وتحدث من بعد الأمور أمور
عليك سلام الله مني فإنني ... غريب بأقصى المغربين أسير

وكانت وفاة القاضي المذكور رحمه الله في جامع المشور في مهل ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف.

عود عبد اللّه بن الشيخ إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل مصطفى باشا رحمه الله

لما دخل السلطان زيدان حضرة فاس واستولى عليها أقام بها إلى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف فاتصل به خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مراكش فنهض إليها مزعجاً، واستخلف على فاس مولاه مصطفى باشا، ولما اتصل خبر نهوضه بعبد اللّه بن الشيخ، وهو بدار ابن مشعل، زحف إلى فاس فيمن انضم إليه فبرز إليه مصطفى باشا وضرب محلته بظاهر فاس من ناحية باب الفتوح قال في «المرآة»: وعرض لأبي الحسن علي بن يوسف الأندلسي المعروف بالبيطار غرض من أمور العامة كان يتردد فيه إلى المحلة فركب إليها يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف فالتقى الجمعان يومئذ بين الظهرين فأجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا، وفقد أبو الحسن ابن البيطار. وقال في «النزهة»: لما رحل زيدان إلى مراكش بسبب ما بلغه من قيام بعض الثوار عليه، هنالك قدم عبد الله بن الشيخ وعمه أبو فارس إلى فاس فخرج مصطفى باشا لمقاتلتهما فعثر به فرسه وقتل وأخذت محلته بأسرها، وهلك ما لا يحصى من الناس ووقع النهب حتى انتهب من البقر التي تحلب نحو ستة آلاف، ودخل عبد اللّه بن الشيخ فاساً مع عمه أبي فارس وذلك سابع عشر ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف.

تلخيص خبر أبي فارس ومقتله رحمه الله تعالى

تقدم لنا أن أبا فارس بن المنصور بويع بمراكش وبعث أخاه الشيخ لقتال السلطان زيدان فنكث الشيخ عهده واستبد عليه، ثم بعث إليه ابنه عبد الله فهزمه إلى مسفيوة ثم فر منها إلى السوس، فأقام عند حاجب أبيه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي، ثم لما بالغ زيدان في طلبه فر إلى أخيه الشيخ فلم يزل مع ابنه عبد الله بن الشيخ إلى أن قتل مصطفى باشا ودخل عبد الله فاساً فاستولى عليها كما ذكرناه آنفاً فاتفق رأي قواد شراكة على قتل عبد الله وتولية عمه أبي فارس، فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمه أبي فارس ليلاً مع حاجبه حمو بن عمر فوجده على سجادته وجواريه حوله فأخرجهن وأمر بعمه فخنق وهو يضرب برجليه إلى أن مات وذلك في جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وألف، هذا هو الصواب لا ما في «نشر المثاني» على اضطرابه فأسف الناس عليه لأنه كان يرده عن المناكر ويزجره عن كثير من القبائح، وذكر في «المنتقى» أبياتاً من إنشاء الكاتب أبي محمد عبد القادر بن أحمد بن القاسم الفشتالي مما كتب تطريزاً على نجاد الواثق بالله أبي فارس المذكور وهي:

أتيه وأزرى بكل نجاد ... يروق على حلة اللابس
إذا كنت يوم الوغى محملاً ... لعضب حكى شعلة القابس
على عاتق الملك المرتضى ... سليل الوصي أبي فارس

عود السلطان زيدان إلى فاس واستيلاؤه عليها ثم إعراضه عنها سائر أيامه

لما سمع السلطان زيدان، وهو بمراكش، بمقتل مصطفى باشا نهض إلى فاس وجاء على طريق الجبل وكان نصارى الإصبنيول يومئذ قد نزلوا على العرائش وحاولوا الاستيلاء عليها وذلك بإذن الشيخ كما سيأتي. وكان عبد اللّه بن الشيخ بفاس فسمع بنزول النصارى على العرائش فاستنفر الناس وحضهم على الجهاد فتهيؤوا لذلك وعزموا على النهوض إليها فما راعهم إلا السلطان زيدان قد أقبل من ناحية أدخسان، وقد أنزل بها محتله، وتقدم إلى جهة فاس وضرب بأنفاضه فانهزم الناس عن عبد اللّه ودخل شراكة فاساً فبعث زيدان قائده عبد الصمد لتسكين روعة أهل البلد وأمر المنادي أن ينادي بنصره، فنزل المنادي إلى أن بلغ باب السلسلة فقام في وجهه بعض السياب من أهل العدوة وضربه فجرحه ورجع المنادي وبطل الأمر فبلغ الخبر السلطان زيدان فأمر بإطلاق السبيل في أهل فاس وتحكيم السيف فيهم ثم ندم فأمنهم وسكن روعتهم، ونزل زيدان بوادي فاس فخرج الناس للقائه، وهو غضبان عليهم، وقد استولى على فاس وتمكن منها، فأخذ يسب أعيانهم وهم بقتلهم ولكن الله سلم.

ثم إن العرب اجتمعوا عند قنطرة المهدومة في نحو ثمانية آلاف فخرج إليهم زيدان ومعه عرب الشرق فانهزموا عنه ولم يبق معه إلا رهط يسير فرأى زيدان أمامه خيلاً قليلة فقصدها فإذا فيها عبد اللّه بن الشيخ وقد رأى زيدان مقبلاً إليه ففر، مع أن زيدان إنما قصد الفرار إليه من غير علم له به فاستتب أمر زيدان وتراجع إليه أصحابه، ومن الغد رجع إلى فاس فخرج إليه أهل فاس يهنئونه كباراً وصغاراً فاتهمهم بأنهم يستهزئون به فأمر بهم فسلبوا رجالاً ونساء فكان بعضهم ينظر إلى عورة بعض؛ وكان عدد السلب نحو عشرة

آلاف كسوة ودخل أصحاب زيدان فاساً فنهبوها وفعلوا فيها الأفاعيل، ثم أمر زيدان بتسكين الروعة والأمان وكان ذلك كله سادس رجب سنة تسع عشرة وألف، فلما كان اليوم الحادي عشر من الشهر المذكور نزل عبد اللّه بن الشيخ برأس الماء فخرج إليه زيدان واقتتلوا فانهزم زيدان وقتل من أصحابه نحو الخمسمائة، وفر إلى محلته التي ترك بأدخسان، وكان ذلك آخر رجوع زيدان إلى فاس فإنه لما أعياه أمر الغرب أعرض عنه وصرف عنايته إلى ضبط ما خلف وادي أم الربيع إلى مراكش وأعمالها، وتوارث بنوه سلطنته على ذلك النحو من بعده، وبقي عبد اللّه بن الشيخ يقطع الأيام بفاس إلى أن هلك، وقام بأمر فاس من بعده ثوارها وسيابها على ما نذكر. وفي كتاب «ابتهاج القلوب في أخبار الشيخ المجذوب» ما صورته: «تكلم الشيخ سيدي كدار يوماً في ملوك وقته فقال: «أما الشيخ معطي العرائش، فإن أهل الله قد دقوا أوتاده هنالك حتى يموت» فلم يتجاوز محله إلى أن قتل به حوز تطاوين كما سيأتي، وأما زيدان فإنه لما أطلق السبيل في أهل فاس ضربه مولاي إدريس بركلة صيرته وراء أم الربيع فلم يتجاوزه بعد ذلك» اهـ.

استيلاء نصارى الإصبنيول على العرائش والسبب في ذلك

قد تقدم لنا ما كان من خبر الشيخ المأمون من أنه فر إلى العرائش ومنها ركب البحر إلى طاغية الإصبنيول مستصرخاً به على أخيه السلطان زيدان فأبى الطاغية أن يمده، فراوده الشيخ على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهناً ويعينه بالمال والرجال حتى إذا ملك أمره بذل له ما شارطه عليه ولم يزل به إلى أن شرط عليه الطاغية أن يخلي له العرائش من المسلمين ويملكه إياها فقبل الشيخ ذلك والتزمه، وخرج حتى نزل حجر باديس في ذي الحجة سنة ثمان عشرة وألف ثم تقدم فنزل ببلاد الريف.

ولما سمع ذلك أهل فاس خافوا من شوكته وذهب جمع من علمائهم وأعيانهم كالقاضي أبي القاسم بن أبي النعيم، والشريف أبي إسحاق إبراهيم الصقلي الحسيني وغيرهما لملاقاته وتهنئته بالقدوم، فلما وصلوا إليه فرح بهم وأمر قبطان النصارى أن يخرج مدافعه وأنفاضه إرهاباً وإظهاراً لقوة النصارى الذين استنصر بهم ففعل حتى اصطكت الآذان وارتجت الجبال، ونزل القبطان من السفينة للسلام على الأعيان فلما رأوه مقبلاً أمرهم الشيخ بالقيام له فقاموا إليه أجمعون، وجازوه خيراً على ما فعل مع الشيخ من الإحسان والنصرة، وسلم هو عليهم بنزع قلنسوته على عادة النصارى، وأنكر الناس على أولئك الأعيان قيامهم للكافر، وضربوا بعصى الذل حتى أنهم في رجوعهم إلى فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم وأخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم جميعاً ما عدا القاضي ابن أبي النعيم فإنه عرف بزي القضاء فاحترموه.

ثم إن الشيخ انتقل إلى القصر الكبير وهو قصر كتامة وقصر عبد الكريم فأقام به مدة وراود قواده ورؤساء جيشه أن يقفوا معه في تمكين النصارى من العرائش ليفي له الطاغية بما وعده من النصرة فامتنع الناس من إسعافه في

ذلك ولم يوافقه على غرضه إلا قائده الكرني فإنه ساعده على ذلك فبعثه الشيخ إليها وأمره أن يخليها ولا يدع بها أحداً من المسلمين، فذهب الكرني المذكور وكلم أهلها في ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم جماعة وخرج الباقون وهم يبكون تخفق على رؤوسهم ألوية الصغار.

ولما خرج منها المسلمون أقام بها القائد الكرني إلى أن دخلها النصارى واستولوا عليها في رابع رمضان سنة تسع عشرة وألف، ووقع في قلوب المسلمين من الامتعاض لأخذ العرائش أمر عظيم، وأنكروا ذلك أشد الإنكار، وقام الشريف أبو العباس أحمد بن إدريس العمراني ودار على مجالس العلم بفاس ونادى بالجهاد والخروج لإغاثة المسلمين بالعرائش، فانضاف إليه أقوام وعزموا على التوجه لذلك ففت في عضدهم قائدهم حمو المعروف بأبي دبيرة، وصرف وجوههم عما قصدوه في حكاية طويلة.

وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وإنكار الخاصة والعامة عليه إعطاءه بلداً من بلاد الإسلام للكفار احتال في ذلك وكتب سؤالاً إلى علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما وغل في بلاد العدو الكافر واقتحمها كرهاً بأولاده وحشمه منعه النصارى من الخروج من بلادهم حتى يعطيهم ثغر العرائش، وأنهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك لهم أولاده رهناً على ذلك، فهل يجوز له أن يفدي أولاده من أيدي الكفار بهذا الثغر أم لا[1]؟ فأجابوه بأن فداء المسلمين سيما أولاد أمير المؤمنين سيما أولاد سيد المرسلين ﷺ

---

(1) كان ممن أفتى بالجواز الفقيه محمد بن قاسم ابن القاضي فقتلته العامة بالقرويين عند العشاء يوم الاثنين 21 حجة عام 1140 وسبب قتله ما اتهم به من موافقته على تمكين النصارى من ثغر العرائش إذ كان حضر مع من استدعى محمد الشيخ من العلماء لأجل ذلك فتعلق بأغراض فاسدة وأمور واهية لم يقبلها أحد اهـ قاله صاحب النشر ج 1 ص 156 وقد تأخر قتله عن الحادثة بسنين لأن المأمون قتل سنة 1022 ويظهر أن العامة كانت تحقد عليه فعلته وانتهزت فرصة الفتن التي توالت بعد ذلك بفاس فانتقمت منه والله أعلم.

من يد العدو الكافر بإعطاء بلد من بلاد الإسلام له جائز وإنا موافقون على ذلك. ووقع هذا الاستفتاء بعد أن وقع ما وقع، وما أجاب من أجاب من العلماء عن ذلك إلا خوفاً على نفسه. وقد فر جماعة من تلك الفتوى كالإمام أبي عبد اللّه محمد الجنان صاحب «الطرر على المختصر»، وكالإمام أبي العباس أحمد المقري مؤلف «نفح الطيب» فاختفيا مدة استبراء لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما، وبسبب هذه الفتوى أيضاً فر جماعة من علماء فاس إلى البادية كالشيخ أبي علي الحسن الزياتي شارح جمل ابن المجراد، والحافظ أبي العباس أحمد بن يوسف الفاسي وغيرهما[1].

بقية أخبار الشيخ ومقتله رحمه الله وتجاوز عنه

ثم إن الشيخ ابن المنصور نزل بالفحص واجتمعت عليه لمة من أهل الذعارة والفساد على شاكلته فنهض بهم إلى تطاوين فاستولى عليها وأخرج منها كبيرها المقدم المجاهد أبا العباس أحمد النقسيس، ولم يزل الشيخ يجول في بلاد الفحص ويعسف أهلها إلى أن ملته القلوب وتمالأ أشياخ الفحص على قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته؛ وتمليكه ثغر الإسلام للكفار، ففتك به المقدم أبو الليف في وسط محلته بموضع يعرف بفج الفرس وبقي صريعاً مكشوف العورة أياماً حتى خرج جماعة من أهل تطاوين فحملوه مع من قتل معه من أصحابه كالدبيريين وبعض أولاده ودفنوهم خارج تطاوين إلى أن حمل الشيخ إلى فاس الجديد مع أمه الخيزران فدفنا به، وكان مقتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين وألف.

---

(1) وممن أنكر على المأمون وأغلظ له في الملام الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن أبي الحسن المعروف بالحاج الأغصاوي البقال من أولاد الحاج البقال، فأنفذ المأمون أعوانه وأتوا به إلى فاس فقتله بها ضرباً سنة 1017 ودفن بالسياج وبنيت عليه قبة اهـ. قاله التعارجي في تاريخه ج 4 ص 262. وراجع ترجمته في النشر ج أول ص 101.

وقال منويل: إنه وصل إلى قرب تطاوين وبنى هنالك أفراكاً وأقام ينتظر اجتماع الجيوش عليه ثم سكر ذات يوم على عادته وخرج إلى عين ماء هنالك فاستلقى قربها في نبات أخضر أعجبته خضرته فجاءه أناس من أهل تلك البلدة فعرفوه وشدخوا رأسه بصخرة فقتلوه. ويقال إن قتله كان بإشارة الثائر أبي محلي الآتي ذكره وإنه كتب إلى المقدمين النقسيس وأبي الليف يحضهما على قتله فقتلوه وانتهبوا ماله وكان شيئاً كثيراً، ومن جملة ما نهب منه نحو المد من الياقوت وبقي من أثاثه نحو وسق سفينة كان قد تركه بطنجة فاستولى عليه نصاراها من البرتغال لما قتل، وكان للشيخ عفا الله عنه مشاركة في العلم ويد في مبادئ الطب أخذ عن أشياخ الحضرتين وله شعر متقارب، ومن كتابه الأديب المتفنن أبو العباس أحمد بن محمد الغرديس التغلبي وكان من أهل الإجادة والتبريز في صناعة الإنشاء. قال الشيخ أبو محمد العربي الفاسي في شرحه لدلائل الخيرات عند قوله «وكان لي جار نساخ» ما نصه: «وقد كان الشيخ الكاتب الرئيس أبو العباس أحمد الغرديس شيخ كتاب الإنشاء بحضرة فاس رحمه الله استعار مني كتاب الأنباء في شرح الأسماء للإقليشي ثم مرض مرض موته فعدته فوجدت الكتاب عند رأسه ومعه كراريس منسوخة وأخرى معدة للنسخ فقالت لي: «إني إذا وجدت راحة كتبت منه ما قدرت عليه فإذا غلبني ما بي أمسكت» فقال له: «ولم تتكلف هذا؟» فقال: «إني عصيت الله بهذه الأصابع ما لا أحصيه فرجوت أن يكون ما أعانيه على هذه الحال من نسخ هذا الكتاب خاتمة عملي وكفارة لذلك» فكمل الله قصده وأتم الكتاب وتوفي من مرضه ذلك وقد طال به سنة عشرين وألف» اهـ ولهذا الكاتب يقول الشاعر:

تمتعت يا غرديس والدهر راقد	وأنت بفاس وابن حيون واجد
بسعدك راحت خيزران لقبرها	«مصائب قوم عند قوم فوائد»

رياسة ولي الله تعالى أبي عبد اللّه سيدي محمد العياشي على الجهاد ومبدأ أمره في ذلك

هذا الرجل هو ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبو عبد اللّه محمد (فتحا) ابن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي، ونسبته إلى بني مالك ابن زغبة الهلاليين، وهم اليوم قبيلة من عرب الغرب، كان رحمه الله مستوطناً مدينة سلا، وكان من تلامذة الولي العارف بالله تعالى أبي محمد عبد اللّه بن حسون السلاسي دفين سلا.

وكان ابتداء أمر أبي عبد اللّه أنه كان ملازماً لشيخه المذكور من أقرب التلامذة إليه وأسرعهم إلى خدمته وأولهم دخولاً عليه وآخرهم خروجاً عنه وكان مع ذلك كثير الورع قليل الكلام مديماً للصيام وقراءة القرآن فكان الشيخ ابن حسون ملتفتاً إليه، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن شاعت مناقب الشيخ وكثر غاشيه، فأهدى له يوماً بعض أشياخ القبائل فرساً فأمر الشيخ بإسراجه وقال: «أين محمد العياشي؟» فقال: «ها أنا ذا يا سيدي» فقال الشيخ: «اركب بحول الله فرسك ودنياك وآخرتك» فتقهقر تأدباً فحلف عليه ليركبن وحبس له الركاب بيده، وقال له: «ارتحل عني إلى آزمور وانزل على أولاد أبي عزيز ولا بد لك من الرجوع إلى هذه البلاد وسيكون لك شأن عظيم» فودعه أبو عبد اللّه ووضع الشيخ يده على رأسه وبكى ودعا له بخير، فقصد ناحية آزمور ونزل حيث عين له شيخه المذكور، وذلك لأول دولة السلطان زيدان سنة ثلاث عشرة وألف، فلم يزل أبو عبد اللّه العياشي مثابراً على الجهاد شديد الشكيمة على العدو عارفاً بوجوه المكايد الحربية بطلاً شهماً مقداماً في مواطن الإحجام وقوراً صموتاً عن الكلام، فطار بذلك في البلاد صيته وشاع بين الناس ذكره لما هو عليه من

التضييق على نصارى الجديدة، وكانوا يومئذ قد أمر أمرهم، ففرح بذلك قائد آزمور، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن توفي قائد الفحص والبلاد الآزمورية فسأل السلطان زيدان عمن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل له: سيدي محمد العياشي، فكتب إليه بالتولية فقبل، ونهض بأعباء ما حمل من ولاية الفحص وجهاده.

وكانت له مع نصارى الجديدة وقائع وضيق عليهم حتى منعهم من الحرث والرعي فبعث النصارى إلى حاشية السلطان زيدان بالتحف ونفائس الهدايا ليعزلوا عنهم أبا عبد اللّه المذكور لمضايقته لهم، فخوفوا السلطان زيدان عاقبته وحضوه على عزله، وأظهروا له أنه مسموع الكلمة في تلك النواحي، وأنه يخشى على الدولة منه، وكان أبو عبد اللّه العياشي كلما بعث بالغنائم وما يفتح الله به عليه من الأسارى إلى مراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه، فوغر بذلك قلب زيدان وحنق عليه، فبعث إليه قائده محمد السنوسي في أربعمائة فارس وأمره بالقبض عليه وقتله، وألقى الله في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته مما قذف به فبعث إليه خفية: أن انج بنفسك فإنك مغدور فخرج أبو عبد اللّه العياشي في أربعين رجلاً فرساناً ومشاة قاصدين سلا فاستقر بها سنة ثلاث وعشرين وألف ولما انتهى السنوسي إلى آزمور ولم يجد له أثراً أظهر العناية بالبحث عنه وعاقب شرذمة من أهل الفحص على إفلاته تعمية على السلطان وإقامة لعذره عنده، فقبل السلطان زيدان ذلك والله غالب على أمره.

ثورة الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي محلي

قال في كتابه «أصليت الخريت» ما ملخصه: «كانت ولادتي سنة سبع وستين وتسعمائة بسجلماسة والذي تلقيته من أبي وكافة عمومتي أن أولاد أبي محلي من ذرية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأما جدنا الأشهر المكنى بأبي محلي بفتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة بعدها ياء تحتية ساكنة مع كبير شهرته لا علم لي الآن بسبب تكنيته بذلك ولا بتفاصيل أحواله بعد البحث عنه، قال: وبخطة القضاء اشتهر نسبنا فنعرف بأولاد القاضي وزاويتنا بزاوية القاضي ولم تزل بقية العلم في دورنا وخصوصاً دار أبي[1]» اهـ.

وقال صاحب «البستان»: أبو محلي هذا اسمه أحمد بن عبد الله وينتسب إلى بني العباس ويعرفون في سجلماسة بأولاد ابن اليسع أهل زاوية القاضي» انتهى. قلت: أما الانتساب إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقد أنكر ابن خلدون وجود النسبة العباسية في المغرب، قال في فصل اختلاط الأنساب وما بعده ما نصه: «ولم يعلم دخول أحد من العباسيين إلى المغرب لأنه كان منذ أول دولتهم على دعوة العلويين أعدائهم من الأدارسة والعبيديين فكيف يسقط العباسي إلى أحد من شيعة العلويين» اهـ ثم قال أبو محلي في الكتاب المذكور: «فلما نشأت في حجر والدي بذل مجهوده في تعليمي، وقد كانت أمي رأت وهي حامل بي ولياً من أولياء الله تعالى أحد شيوخ التربية ببلدنا، وهو الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله السجلماسي، قد سقاها قدحاً من لبن، وأرجو الله صدق تأويلها بالعلم والدين وحق اليقين» قال: «وكان خروجي لطلب العلم بفاس في حدود

(1) انظر الرحلة العياشية ج 1 ص 19.

الثمانين وتسعمائة، وأنا يومئذ مراهق أو بالغ الحلم، لا همة لي إلا في العلم، فأقمت بفاس نحو خمس سنين إلى أن جاء النصارى إلى وادي المخازن فدهش الناس، واستشرت أخاً من الطلبة فدلني على الخروج إلى البادية حتى ينجلي نهار الأمن، فخرجت إلى كريكرة فحفظت فيها الرسالة، وقد كنت ما حصلت بفاس إلى النحو، ثم رجعت إلى فاس بعد أن زال الدهش بهزيمة النصارى وولاية المنصور، والنحو صنعتي، وفي الفقه رغبتي.

وقد كنت في الخرجة الأولى إلى البادية زرت قبر الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه فطلبت الله عنده أن أكون من الراسخين في العلوم بأسرها، وتوبة يتقبلها فما دار عليّ الحول إلا وأنا بزاوية الشيخ أبي عبد اللّه سيدي محمد بن مبارك الزعري، لا عن قصد، لكوني إذ ذاك مولعاً بالعلم، أما طريق الفقر فلا تخطر لي ببال لأن المعتمد يومئذ في فقراء الوقت أخلاق الضلال، فكنت أشد الناس حذراً منهم إلى أن انكشف الستر فرأيت ما رأيت ووعيت، فصاحبت شيخي الذي لولاه مع فضل الله لهلكت، ولولا هدايته بإذن الله لضللت، أعني أبا عبد اللّه مولاي محمد بن مبارك الزعري القبيل الجراري السبيل وهو رضي الله عنه من قبيلة عرب بالمغرب يقال لهم زعير بصيغة التصغير والنسب إليها زعرى على التكبير، وهي قبيلة من عرب السوس بالمغرب الأقصى» قال: «فبقيت في صحبة شيخي المذكور نحواً من ثمان عشرة سنة وما فارقته إلا عن أمره إذ هو الذي وجهني إلى بلدي سجلماسة من غير اختيار قائلاً لي: «صلاحهم فيك» ثم ناولني عصاه وبرنسه ونعله من غير طلب مني لشيء من ذلك، وجعل في رأسي قلنسوة كالخرقة بيده اليمنى عند الوداع، فلما استوطنت بلدي عن إذنه زرته منه إحدى عشرة مرة، وفي الأخيرة منها وذلك بعد مقفلي من الحجة الأولى التي كانت سنة اثنتين بعد الألف دعا لي بقوله: «بلاك الله أكثر مما بلاني» فتأولتها بإقبال الخلق كما ترى، وقد صاح عندها صيحة عظيمة لم أر مثلها منه منذ

صحبته، إذ عادته كانت الطمأنينة، ولما توفي رحمه الله بقيت نحواً من ثلاث سنين عاطلاً، ثم تحلى النحر بدرر لطائفه الموعود بها فله الحمد على ما أسدى وله الشكر فيما أولى» ثم ذكر بقية أشياخه كالشيخ أبي العباس المنجور، والشيخ أبي العباس السوداني، والشيخ سالم السنهوري وغيرهم ممن يطول ذكرهم، قال: «ثم كملت الفائدة بعد المقفل من الحج فرجعت إلى الديار المغربية ونزلت بوادي الساورة ثم تحولت بجميع عيالي إلى الوادي المذكور» هذا ملخص أوليته منقولاً من كتابه المذكور.

وقال الشيخ أبو العباس أحمد التواتي رحمه الله تعالى في رسالته التي سماها «مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي» وهي رسالة طويلة مسجعة قال: «كان الفقيه أبو محلي في أول أمره فقيهاً صرفاً ثم انتحل طريقة التصوف مدة حتى وقع على بعض الأحوال الربانية ولاحت له مخايل الولاية فانحشر الناس لزيارته أفواجاً، وقصدوه فرادى وأزواجاً، وبعد صيته وكثرت أتباعه» قال: «فلما سمعت بذلك ذهبت إليه وجلست عنده إلى أن وجدته يشير إلى نفسه بأنه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الأحاديث فتركته وراء ونبذته بالعراء» اهـ.

وقال الشيخ اليوسي في «محاضراته» وقد تكلم على الدعوى الفاطمية ما نصه: وممن ابتلي بها قريباً أحمد بن عبد اللّه بن أبي محلي التستاوتي خاض في الطريق حتى حصل له نصيب من الذوق، وألف فيها كتاباً يدل على ذلك ثم نزغت به هذه النزغة فحدثونا أنه كان في أول أمره معاشراً لمحمد بن أبي بكر الدلائي، وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت فقال ابن أبي محلي لابن أبي بكر ذات ليلة هل لك في أن نخرج غداً إلى الناس فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟ فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر، فلما أصبحا خرجا، فأما ابن أبي بكر فانطلق إلى ناحية النهر فغسل ثيابه وأزال شعثه بالحلق وأقام صلاته وأوراده في أوقاتها،

وأما ابن أبي محلي فتقدم لما هم به من الحسبة فوقع في شر وخصام أداه إلى فوات الصلاة عن الوقت، ولم يحصل على طائل، فلما اجتمعا بالليل قال له ابن أبي بكر: «أما أنا فقد قضيت مآربي وحفظت ديني وانقلبت في سلامة وصفاء ومن أتى منكراً فالله حسيبه» أو نحو هذا من الكلام، وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه، ثم لم ينته إلى أن ذهب إلى بلاد القبلة ودعا لنفسه وادعى أنه المهدي المنتظر وأنه بصدد الجهاد فاستخف قلوب العوام واتبعوه» اهـ.

وصار ابن أبي محلي يكاتب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ويحضهم على الاستمساك بالسنة، ويشيع أنه الفاطمي المنتظر، وأن من تبعه فهو الفائز ومن تخلف عنه فموبق، وربما كان يقول لأصحابه محرضاً لهم على نصرته: «أنتم أفضل من أصحاب النبي ﷺ، لأنكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل، وهم قاموا به في زمن الحق» ونحو هذا من زخارف كلامه، وإلى ذلك أشار الفقيه أبو زكريا يحيى بن عبد المنعم الحاحي في بعض قصائده معرضاً بأبي محلي المذكور فقال:

يا أمة المصطفى الهادي أليس لكم	فيمن مضى أسوة من سائر العلما
نسيتم دين خير الخلق وافترقت	آراؤكم فغدا الإسلام منقسما
أتحسبون بأن الله تارككم	سدى وخلقكم قد تعلمون لما
ناشدتكم بالذي في العرض يجمعنا	أما فطنتم ومالاه كمن فهما
بأن مغربكم قد عمه سخط	من المهيمن يا لله معتصما
إن قيل للناس إن الهرج يوبقكم	قالوا الفقيه فلان قبلنا اعتزما
لو لم يكن جاز ما أفتى الإمام به	ولا أتاه، ألا تبنوا الذي انهدما
ومن يقل قال خير الخلق قيل له	ها صاحب الوقت يكفينا الذي علما
ونحن أفضل من صحب الرسول لنا	أجر يضاعف في أجفارنا نظما
وزخرفوا ترهات القول فانفعلت	لهم نفوس عوام رشدها عدما

نهوض ابن أبي محلي إلى سجلماسة ودرعة واستيلاؤه عليهما ثم على مراكش بعدهما

كان أبو العباس بن أبي محلي عفا الله عنه لما كثرت جموعه وانثال الناس عليه يصرح بوجوب القيام بتغيير المنكر الذي شاع في الناس ويقول: «إن أولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتى فنى الناس فيما بينهم وانتهبت الأموال وانتهكت المحارم فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم»، ولما بلغه ما فعل الشيخ من إجلاء المسلمين عن العرائش وبيعها للعدو الكافر استشاط غضباً وأظهر أنه غضب لله لا لشيء سواه فخرج يؤم سجلماسة، وكان خليفة زيدان عليها يومئذ يسمى الحاج المير، فخرج عامل زيدان لمصادمته، وهو في نحو أربعة آلاف، وابن أبي محلي في نحو أربعمائة، فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على جيش زيدان، وأشاع الناس أن الرصاص يقع على أصحاب أبي محلي بارداً لا يضرهم، ونفخ الشيطان في هذه الفرية فسكنت هيبته في القلوب، وتمكن ناموسه منه، ولما دخل سجلماسة أظهر العدل وغير المناكر فأحبته العامة، وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنئونه، وفيهم الفقيه العلامة أبو عثمان سعيد الجزائري المعروف بقدورة شارح السلم، وهو من تلامذة ابن أبي محلي كما ذكره في الأصليت، ولما بلغ خبر الهزيمة إلى زيدان وانتهى إليه فلها جهز إليه من مراكش جيشاً، وأمر عليه أخاه عبد اللّه بن المنصور المعروف بالزبدة فسمع به أبو محلي فسار إليه فكان اللقاء بينهما بدرعة، فوقعت الهزيمة على عبد اللّه بن المنصور ومات من أصحابه نحو الثلاثة آلاف، فقوي أمر ابن أبي محلي واشتدت شوكته، وجمع بين سجلماسة ودرعة، وكان القائد يونس الأيسي قد هرب من زيدان لأمر نقمه عليه وقصد إلى أبي محلي، فجاء معه يقوده ويطلعه على عورات زيدان ويهون عليه أمره، وما زال به إلى أن أتى به

إلى مراكش فبعث إليه زيدان جيشاً كثيفاً فهزمه أبو محلي، وتقدم فدخل مراكش واستولى عليها، وفر زيدان إلى ثغر آسفي. وهم بركوب البحر إلى بر العدوة هكذا في «النزهة».

وذكر الوزير البرتغالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة: «إن نصارى الجديدة بعثوا إلى السلطان زيدان بمائتين من مقاتلتهم إعانة له على عدوه من غير أن يطلب منهم ذلك، فلما وصلوا إليه أنف من الاستعانة بهم على المسلمين، لكنه أحسن إليهم وأطلق لهم بعض أسراهم وردهم مكرمين» هذا كلامه «والحق ما شهدت به الأعداء» وذلك هو الظن بزيدان رحمه الله.

ولما دخل أبو محلي قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ما شاء، وولد له هنالك مولود سماه زيدان، ويقال: إنه تزوج أم زيدان وبنى بها ودبت في رأسه نشوة الملك ونسي ما بنى عليه أمره من الحسبة والنسك.

وفي «المحاضرات» للشيخ اليوسي رحمه الله ما صورته: «وزعموا أن إخوانه من الفقراء ذهبوا إليه حين استولى على مراكش برسم زيارته وتهنئته، فلما كانوا بين يديه أخذوا يهنئونه ويفرحون له بما حاز من الملك، وفيهم رجل ساكت لا يتكلم، فقال له: «ما شأنك لا تتكلم؟» وألح عليه في الكلام، فقال الرجل: «أنت اليوم سلطان فإن أمنتني على أن أقول الحق قلته» قال له: «أنت آمن فقل» فقال: «إن الكرة التي يلعب بها الصبيان يتبعها المائتان وأكثر من خلفها وينكسر الناس وينجرحون وقد يموتون ويكثر الصياح والهول فإذا فتشت لم يوجد فيها إلا شراويط» أي خرق بالية ملفوفة، فلما سمع ابن أبي محلي هذا المثل وفهمه بكى وقال: «رمنا أن نجبر الدين فأتلفناه» انتهى.

استصراخ السلطان زيدان بأبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي ومقتل أبي محلي رحمه الله

لما التف الرعاع من العامة على أبي محلي وكثرت جموعه وعلم زيدان ضعفه عن مقاومته كتب إلى الفقيه أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ثم الداودي مستغيثاً به، ثم وفد عليه بنفسه. وكان يحيى بزاوية أبيه من جبل درن، وله شهرة عظيمة بالصقع السوسي وله أتباع، فأتاه السلطان زيدان وقال له: «إن بيعتي في أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم الذب عني ومقاتلة من ناوأني»، فلبى أبو زكرياء دعوته، وحشر الجيوش من كل جهة، وخرج يؤم مراكش في ثامن رمضان سنة اثنتين وعشرين وألف.

ولما انتهى إلى فم تانوت موضع على مرحلتين من مراكش كتب إليه أبو محلي بما نصه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من أحمد بن عبد اللّه إلى يحيى بن عبد اللّه، أما بعد، فقد بلغني أنك جندت وبندت، وفي فم تانوت نزلت، اهبط إلى الوطاء، ينكشف بيننا الغطاء، فالذئب ختال والأسد صوال، والأيام لا تستقيم إلا بطعن القنا وضرب الحسام والسلام» فأجابه يحيى بما نصه: «من يحيى بن عبد اللّه إلى أحمد بن عبد اللّه، أما بعد، فليست الأيام لي ولا لك إنما هي للملك العلام، وقد أتيتك بأهل البنادق الأحرار، من الشبانة ومن انتمى إليهم من بني جرار، ومن أهل الشرور والبؤس، من هشتوكة إلى بني كنسوس، فالموعد بيني وبينك جيليز، هنالك ينتقم الله من الظالم ويعز العزيز».

ثم زحف يحيى إلى مراكش في جموعه فنزل بقرب جيليز جبل مطل على مراكش، وبرز إليه أبو محلي، والتحم القتال بينهما فكانت أول رصاصة في نحر أبي محلي فهلك مكانه، واندعرت جموعه، ونهبت محلته، واحتز

رأسه وعلق على سور مراكش، فبقي معلقاً هنالك مع رؤوس جماعة من أصحابه نحواً من اثنتي عشرة سنة، وحملت جثته فدفنت بروضة الشيخ أبي العباس السبتي تحت المكتب المعلق هنالك عند المسجد الجامع. وزعم أصحابه أنه لم يمت ولكنه تغيب.

قال اليفرني: «وحدثني من أثق به من أهل وادي الساورة أن فيهم إلى الآن من هو على هذا الاعتقاد».

وذكر الشيخ اليوسي في «المحاضرات»: «أن أبا محلي كان ذات يوم عند أستاذه ابن مبارك فورد عليه وارد حال فتحرك وجعل يقول: «أنا سلطان أنا سلطان» فقال له الأستاذ: «يا أحمد هب أنك تكون سلطاناً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً» ووقع في يوم آخر للفقراء سماع فتحرك أبو محلي وجعل يقول «أنا سلطان أنا سلطان» فتحرك فقير آخر وجعل يقول: «ثلاث سنين غير ربع، ثلاث سنين غير ربع» قال: «وهذه هي مدة ملكه» اهـ.

ويذكر أنه لما طاف بالبيت في وجهته الحجازية سمع وهو يقول: يا رب إنك قلت، وقولك الحق، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140] فاجعل لي يا رب دولة بينهم، قالوا: «ولم يسأل حسن العاقبة فرزق الدولة وآل به الأمر إلى ما أبرمته يد القدرة» وكان أبو محلي رحمه الله فقيهاً محصلاً له قلم بليغ ونفس عال، وله تآليف منها «الوضاح» و«القسطاس» و«الأصليت» و«الهودج» و«منجنيق الصخور في الرد على أهل الفجور» و«جواب الخروبي عن رسالته الشهيرة لأبي عمرو القسطلي» وغير ذلك، وقد وقعت بينه وبين يحيى بن عبد الله مراسلات ومهاجيات نظماً ونثراً كقوله:

أيحيى الخسيس النذل مالك تدعي ... بزور شعاراً للفحول الأوائل
كدعواك في بيت النبوة نسبة ... وأنت دنيء من أخس القبائل
ووجهك وجه القرد قبح صورة ... ورأسك رأس الديك بين المزابل

ويزعمون أن يحيى كان معاشراً لأبي محلي أيام الطلب بالمدرسة بفاس قال اليفرني: وحدثني صاحبنا القاضي أبو زيد السكتاني أنه وقف على تأليف كبير مشتمل على ما وقع بين يحيى وأبي محلي من الشعر في غرض الهجاء وغيره.

وقد رمز تاريخ ثورة أبي محلي ووفاته، الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد المريدي المراكشي فقال: «قام طيشاً ومات كبشاً» ولا يخفى ما فيه بعد إفادة التاريخ من حسن التلميح وبديع التورية، ولما قتل ابن أبي محلي دخل يحيى مراكش واستقر بدار الخلافة منها وألقى بها عصا تسياره، ورام أن يتخذها دار قراره، فكتب إليه السلطان زيدان يقول: «أما بعد فإنا كنت إنما جئت لنصرتي وكف يد ذلك الثائر عني فقد أبلغت المراد وشفيت الفؤاد، وإن كنت إنما رمت أن تجر النار لقرصك، وتجعل الملك من قنصك فأقر الله عينك به» والسلام. فتجهز يحيى للعود إلى وطنه وأظهر العفة عن الملك وأنه إنما جاء ليدافع عن السلطان الذي بيعته في عنقه، وانقلب إلى بلاده ورجع زيدان إلى مراكش، فاستقر بدار ملكه وقد قيل: إن يحيى رام الملك وإن أجناده من البربر لم يساعدوه في قصة طويلة. والله أعلم.

بقية أخبار أبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي وما دار بينه وبين السلطان زيدان رحمه الله

هو يحيى بن عبد اللّه بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي الداودي المناني وكان جده سعيد واحد وقته علماً وديناً وهو الذي أحيا الله به السنة بالسوس، وانتعش به الإسلام فيه، وتوفي سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة فخلفه ولده أبو محمد عبد اللّه وجرى على نهجه وسبيله، بل كان بعض الناس يفضله على أبيه، وتوفي سنة اثنتي عشرة وألف ودفن بزداغة من جبل درن حيث كانت زاويته. ولما مات جلس ولده أبو زكرياء يحيى موضعه وانتهج سبيله، وكان فقيهاً مشاركاً رحل إلى فاس وأخذ عن شيوخها كالمنجور وغيره، وعن الشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد الحسني على ما وجد بخطه السوساني الشهير بأدفال دفين درعة، وهو معتمده، أخذ عنه كثيراً من الفنون وأجازه في علوم الحديث إجازة عامة، وكان يحيى شاعراً محسناً، وكانت له شهرة عظيمة بالصلاح، وله أتباع كوالده وجده، وتوجهت إلى زيارته الهمم، وركبت إليه النجائب إلا أنه وقع له قريب مما وقع لأبي محلي، فتصدى للملك وخاض في أمور السلطنة فتكدر مشربه، وقد قال بعض العلماء: «إن الرياسة إذا دخلت قلب رجل لا تقصر عن إذهاب رأسه». ولذلك قال صاحب «الفوائد»[1] في حقه: «إنه قام لجمع

(1) كتاب الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة، وصاحبه هو الشيخ أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد بن إبراهيم بن أحمد الجزولي المعروف بالتمنارتي نسبة إلى تمنرت واحة بجنوب الأطلس. تولى قضاء تارودانت وتوفي في حدود السبعين وألف الموافق لسنة 1660. وقد نقل عنه اليفرني الكثير في النزهة. وتوجد منه نسخة الآن في وقتنا هذا وهو سنة 1351 الموافقة لسنة 1932 في مكتبة قاضي تارودانت السيد موسى بن العربي. وأخرى بخزانتنا الناصرية بسلا.

الكلمة والنظر في مصالح الأمة، فاستمر به علاج ذلك إلى أن توفي ولم يتم له أمر» وكان يراسل السلطان زيدان ويكثر عليه ويجير عليه من استجار به ويروم إلى مناصحته ابتغاء، ويحسو من ذلك حسواً في ارتغاء، وكان زيدان يتحمل منه أمراً عظيماً. فمما كتب به يحيى إليه ما نصه: «من يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم كان الله له بجميل لطفه آمين، اللّهم إنا نحمدك على كل حال، ونشكرك يا ولي المؤمنين على دفع اللاواء والمحال، ونصلي ونسلم على صفيك أفضل من شدت إليه الرحال، ونستوهبك يا مولانا جميل لطفك وجزيل فضلك في المقام والترحال، عائذين بوجهك الكريم من مؤاخذتنا بسوء أعمالنا يا شديد المحال، هذا وسلام الله الأتم، ورضوانه الأعم، ورحمته وبركاته على المولى الإمام العلم المقدام، العلوي الهمام، كيف أنتم وكيف أحوالكم مع هذا الزمان الذي شمر عن ساقه لسلب الأديان، وألح في اقتضاء هواه على كل مديان، فإنّا لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبعد، فالباعث به إليكم في هذه البطاقة أمور ثلاثة مدارها على قوله ﷺ: **«الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولخاصة المسلمين وعامتهم»** فالأول: بيان سبب الركون إلى جانبكم، والثاني: الحامل على دفع مناويكم، والثالث: ملازمة نصحكم وتذكيركم والضجر مما يصدر منكم ومن أعوانكم للرعية، أما الأول فله أسباب كثيرة منها: مراعاة الجناب النبوي الكريم في أهل بيته، ورضي الله عن أبي بكر الصديق القائل: «ارقبوا محمداً في أهل بيته» والقائل: «لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي».

يا أهل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم المجد أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

ومنها: نصح خاصة المسلمين الذي هو: الدعاء بالهداية لهم ورد القلوب النافرة إليهم، ونصحهم بقدر الإمكان مشافهة ومراسلة ومكاتبة، وقد

بذلنا الجهد في الجميع أخلص الله القصد في الجميع، وأما الثاني: فلما جرى القدر بتغلب ذلك الإنسان المتسلط على النفس والحريم والأموال وأدخل بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب، وتعدى خصوص الولاة إلى سائر الرعية فاضلها ومفضولها، ومد مع ذلك يد الوعيد المؤكد بالإيمان إلينا في الأنفس والأموال، فناشدناه، كما تقرر في فتاوى الأئمة رضي الله عنهم، حيث توفرت فيه فصول الصائل كلها بشاهد العيان، فكان الأمر كما قدر الله تعالى، و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] وأما الثالث: فالكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب فسورة: والعصر، قائمة البرهان في كل أوان وعصر. وقال تعالى في قضية كليمه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: 17] وقد استشهد به بعض العلماء في بري قلم لكاتب بعض الأمراء المتقدمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقوله جل من قائل: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2] وأما السنة: فالحديث الأول، قوله ﷺ: **«المعين شريك»**، وقوله: **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»** وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والقلم لكون التغيير العملي إليكم حتى جذبتمونا إليه، ودللتمونا بارتكاب أصعب مرام عليه، وقوله: **«من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله»** وقد قال المواق في شرحه على المختصر: «من أعان على عزل إنسان وتولية غيره ولم يأمن سفك دم مسلم فهو شريك في دمه إن سفك» ثم أتى بالحديث المتقدم استعظاماً لذلك الأمر الفظيع، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على أنا انخدعنا بالله حتى كنا نأمن بالقطع سفك الدماء إذ ذاك، حيث كتبت إلينا مراراً وأمنت وأرسلت وكنت أتخوف من هذا الواقع اليوم بآزمور وآسفي ومراكش والغرب، ولذلك كنت ألحت عليكم في تقرير العهد حتى أتاني القائد عبد الصادق بمصحف ذكر أنه لسلطان تلمسان في جرم صغير، وقال لي: «أمرني السلطان أن أحلف لك فيه نيابة عنه على بقائه

على العهد فيما بينك وبينه من تأمين كل من أمنته، وإمضاء كل ما رأيته صلاحاً للأمة» ثم لم أكتف حتى أتى القاضي فكتبت إليّ معه: «إن كل ما رأيت فيه الصلاح للأمة أمضيته، وأنك آمنت كل من أمنته» ثم بعد استقرارك في دارك كتبت إليّ كتاباً: «إنك باق على ما تعاهدنا معك عليه من الأمور كلها على معيار الشريعة» فما راعني إلا وقد أخفرت في ذمة الله وأماني الذي عقدته للناس، فمن مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطرود عن بلد، وأخبار أخر ترد علينا من جهة السواحل، وأن الناس تباع فيها للعدو دمره الله، ولم نر من اهتبل بذلك ممن قلدتموه أمور الثغور، فلم ندر هل بلغك ذلك فتسقط عنا ملامة الشرع، أو لم يبلغك فأعلمنا لله لتطمئن قلوبنا، فإني أكاتبك في ذلك فلا أرى جواباً، فقضيت والله من الأمر عجباً، فإن عددت ما من الله به عليك من رجوعك إلى سرير ملكك واجتماعك بسربك آمنا من قبيل النعم فقيده بما تقيد به كما في كريم علمك، وإن رأيته بنظر آخر فإن لله ما في السموات وما في الأرض، وأما الإجماع: فلم نر من العلماء من نهى عن نصح خاصة المسلمين وتنبيههم على ما يصلح بهم وبالرعية، بل عدوه من الدين للحديث الأول وغيره، وأما ما استشعرناه من امتعاضكم من عدم الأنة القول في مكاتبتنا لكم فما خاطبناكم قط رعياً لذلك، ولو بنصف ما خاطب به الأئمة الأول أهل زمانهم اتكالاً على مطالعتكم لكتبهم، وعلمكم بما لم نعلمه من ذلك ولم نروه، ويكفيكم نصح الفضيل وسفيان وإمامنا مالك رضي الله عنهم، لمعاصريهم من الولاة ومنهم من بكى وانتفع، ومنهم من غشي عليه وتوجع، ومنهم من ندم واسترجع، إلى غير ما ذكرنا على اختلاف الأعصار، وتنوع الدول والأقطار، فبذلك اقتدينا، وبما كان عليه أشياخنا وأسلافنا لكم ولأسلافكم عملنا، كالفقيه شيخ والدنا رحمه الله سيدي عبد الله الهبطي لجدكم المرحوم بكرم الله، فطمعت بنجح النصح ونفعه دنيا وأخرى، فهذا أصل قضيتنا معكم وهلم جرّاً، والذكرى تنفع المؤمنين على كل الأحوال، والحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله خير آل، وبتاريخ أواخر ربيع النبوي الأنور كتبه عن إذنه رضي الله عنه

عبد ربه محمد بن الحسن بن أبي القاسم لطف الله به بمنه» اهـ فأجابه السلطان زيدان رحمه الله بما نصه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً:

من عبد ربه تعالى المقترف المعترف: زيدان بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد، إلى السيد أبي زكرياء يحيى بن السيد أبي محمد عبد اللّه ابن سعيد، أعاننا الله وإياكم على اتباع الحق، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فقد ورد علينا كتابكم ففضضنا ختامه ووقفنا على سائر فصوله، ثم إننا إن جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الخطابي ربما غيركم ذلك وأدى إلى المباغضة والمشاحنة، فيحكى عن عثمان رضي الله عنه أنه بعث إلى علي رضي الله عنه وأحضره عنده وألقى إليه ما كان يجده من أولاد الصحابة الذين اعصوصبوا بأهل الردة الذين كان رجوعهم إلى الإسلام على يد الصديق رضي الله عنه وهو في كل ذلك لا يجيبه، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما أسكتك؟ فقال: «يا أمير المؤمنين إن تكلمت فلا أقول إلا ما تكره، وإن سكت فليس لك عندي إلا ما تحب» ولكن لما لم أجد بداً من الجواب أرى أن أقدم لك مقدمة قبل الجواب، فلتعلم أن الحجاج لما ولاه عبد الملك العراق وكان من سيرته ما يغني اشتهاره عن تسطيره هنا، فتأول ابن الأشعث الخروج عليه وتابعه على ذلك جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وأمثاله من أولاد الصحابة رضي الله عنهم، ولما قوي عزمهم على ذلك استدعوا الحسن البصري لذلك فقال: «لا أفعل فإنني أرى الحجاج عقوبة من الله فنفزع إلى الدعاء أولى» قال بعض فضلاء العجم: يؤخذ من هذا أن الخروج على السلطان من الكبائر وجواز المقام تحت ولاية الظلم والجور، وقد علمت ما كان من أمر عبد الرحمٰن بن الأشعث وسعيد وأمثاله، وعلمت قضية أهل الحرة، لما أوقع بهم جند يزيد بن معاوية بالحرم الشريف ولما بلغه الخبر أنشد:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

وشاع ذلك عنه وذاع، وكان على عهد أكابر الصحابة وأولادهم، ولا تعرض أحد منهم لنكير عليه، ولا تصدى لقيام ولا خاطبه بملام، وأما ما يرجع إلى جواب الكتاب فأما ما حكيت عن الصديق رضي الله عنه في أهل البيت والأحاديث الواردة فيهم وأنه يجب تعظيمهم واحترامهم وتبجيلهم لأجل النبي ﷺ، فإن كان يجب عليكم تعظيمهم فإن تعظيمهم يجب على أولى وأولى عملاً بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] وأجرى الله تعالى عادته أنه ما تصدى أحد لعداوة هذا البيت النبوي إلا كبه الله لوجهه، وأما ما أوردتم من الأحاديث في النصح فإني والله أحب أن تنصحني سراً وعلانية مع زيادة شكري عليه، وأراها منك مودة وأعدها محبة، ولكني أفعل ما أقدر عليه، لأن الله سبحانه يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286] ولهذا قال أكثر العلماء في صدور تصانيفهم: «ولم آل جهداً في كذا» لأن النفوس الشريفة العالية لا تترك من فعل الخير والجد في اكتسابه إلا ما عز تناوله عليها وصعب اكتسابه.

وأما ما ذكرتم من أمر أبي محلي وسيرته وما كان تسلط عليه، أما ما كان من استنهاضكم إليه المرة بعد المرة وتكررت في ذلك إليكم الرسل حتى أجبت إليه فلا نحتاج فيه إلى إقامة حجة غير كونه خرج عن الجماعة وقد قال ﷺ: **«من أراد أن يشق عصاكم فاقتلوه كائناً من كان»** وإلا فلو دخل الملك من بابه وبايعه أهل الحل والعقد وأخذ ذلك بوسائط مثل بيعة جدنا المرحوم التي تضافرت عليها علماء المغرب وأهل الدين المشاهير، فلو كان وصل إلى ذلك بمثل هذه الوسائط لم يجب حربه ولا القيام عليه بما ذكرتم، لأن السلطان لا ينعزل بالفسق والجور، وإلا فإن الصحابة في زمن يزيد بن معاوية لا يحصى عددهم، وما تصدى أحد للقيام عليه ولا قال بعزله، وإلا فإنهم لا يقيمون على الضلالة ولو نشروا بالمناشير، وأما أبو محلي فبمجرد قيامه يجب عليك وعلى غيرك إعانتنا عليه لأنك في بيعتنا، وهي لازمة لك، فالطاعة واجبة عليك، واعلم أيضاً أن والدك أفضل منك بدليل: **«آباؤكم خير**

من أبنائكم إلى يوم القيامة» وكان عمنا مولاي عبد الملك رحمه الله وسامحه على ما كان عليه واشتهر به إعلاناً، وكان والدك في دولته وبيعته ووفد عليه ولم يستنكف من ذلك ولا ظهر منه ما يخالف السلطنة ولا أنكر ولا عرض بما يسوء سلطان الوقت ولا سمع ذلك منه، فإن كان راضياً بفعله فهو مثله، وإن لم يرض فما وجه سكوته والوفادة عليه؟ وقد تحققت وعلمت أن ولاية أحمد ابن موسى الجزولي كادت تكون قطعية واشتهر أمره عند الخاص والعام حتى أطبق أهل المغرب على ولايته، وقد كان على عهد مولاي عبد اللّه برد الله صريحه وكان المولى المذكور على ما كان عليه واشتهر عنه، وما برح الشيخ المذكور يدعو له ولدولته بالبقاء ويظهر حبه، وكان المولى المذكور يعزل ويولي ويقتل، وكان قد شرد منه إلى زاوية الشيخ المذكور المرابط الأندلسي، وولد آضاك وأمثالهم، وكان الشيخ المذكور يقدم للشفاعة فيشفع ولا يتعقب ولا يبحث عما وراء ذلك باق على عهده ومودته، وكان المولى المذكور بعث لابن حسين بسد داره فما فتحها حتى أمره، ولا استعظم أحد ذلك ولا أكثر فيه ولا جعله سبباً لفتح الفتنة، وكان قواد المذكور مثل: وزيره ابن شقراء وعبد الكريم بن الشيخ وعبد الكريم بن مؤمن العلج والهبطي والزرهوني وعبد الصادق بن ملوك وغيرهم ممن لم يحضرني ذكرهم، لبعد عصرهم، قد انغمسوا في شرب الخمور واتخاذ القيان وبسط الحرير وغير ذلك من آلات الفضة والذهب، وكان في عصره أحمد بن موسى المذكور وابن حسين ومحمد الشرقي وأبو عمرو القسطلي ومحمد بن إبراهيم التامنارتي والشيظمي وغير هؤلاء من المشايخ وأهل الدين الذين لا يسع من يدعي هذه الطريقة التقدم عليهم ولا اكتساب الفضيلة دونهم فأحسنوا السيرة، ولا تعرضوا للسلطنة ولا سمع منهم ما يقدح في ولادة الأمر وقادة الأجناد ممن ذكر الذين كان الملك يدور عليهم ويرجع في تدبيره إليهم، ومثل من ذكر من الأولياء كان علامة الزمان وواحد وقته شيخ مشايخ إفريقية وبعض أهل المغرب عبد العزيز القسنطيني الشيخ المتكلم الصوفي صاحب «الآيات البينات» قد كان من سكان تونس، وكان ملوك تونس ومن انضاف إليهم على الفساد الذي لا ينحصر

واشتهر أمرهم حتى عرفوا به في المشارق والمغارب، ولم يبرح الشيخ المذكور من بينهم ولا تصدى لتغيير المنكر والأمر بالمعروف حتى قبضه الله إليه.

وأما ما ذكرتم من أن من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله هذه حجة عليك لا علينا، لأني ما سعيت في قتل أحد، يعلم الله، ولا قتل من قتل إلا بأمر القضاة وأهل العلم إن كان. واعلم أنه إذا كان هذا يكون وعيداً في قتل الواحد فما بالك بمن يريد فتح باب الفتنة حتى لا يقف القتل على المئين والآلاف ونهب الأموال وكشف الحريم إلى غير ذلك، أما تعلم أن فتنة أبي محلي قد هلك بسببها من النفوس والأموال ما لا يحصى عدده ولا يستوفي نهايته كاتب، وكان كل ذلك على رقبته لأنه هو المتسبب الأول الفاتح أبواب الفتنة لأنه كان يقتل كل من انتمى إلينا حتى قتل بسببه في يوم واحد بمكان واحد خمسمائة قتيل، ولولا أبو محلي ما قتلوا وأعظم في حرمة النفوس من هذا الذي قلت قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

وليس في قول المواق ما يحتج به على السلطان وإنما هو في أصحاب الخطط على الترتيب الذي كان على عهده مثل أصحاب الشرط، كصاحب الشرطة الذي ينفذ أحكام القاضي، وصاحب شرطة السوق الذي ينفذ الأحكام عن قاضي الحضرة، وغير ذلك من الولايات[1].

وولاية أبي محلي لا تعد ولاية حتى يعتبر عزله، وما عند المواق وغيره وقفنا عليه وعرفناه وتلقيناه عن الأشياخ الجلة وعرفنا ما عند الشافعية والحنفية ودرسناه المرة بعد المرة، ولست ممن ينطبق عليه قوله: «أشقى الناس عالم لم ينفعه الله بعلمه» ولكن لماذا تحتج بقول المواق لغرضك وتجعله حجة ولم تجبنا نحن فيما كتبنا إليك به في يونس اليوسي، وقلنا لك

---

(1) الحناشة كانوا يبيعون أولاد المسلمين للنصارى.

ﷺ: «الحرم لا يجير عاصياً» قال الأبي: «وهذا يحتج به على أهل الزوايا» وأضربت عن الجواب وليس ذلك من أدب الجدل، ولكن أخبرنا عن الوجه الذي منعت به يونس اليوسي من الشرع فإن متاعنا عنده، وإماء أهلنا في داره إلى يوم الوقعة، وترتب في ذمته للمسلمين من الأموال والدماء ما علمت، فإن كنت ممن يريد العدل فهلا عدلت فيه، فحينئذ نعلم أنك لا تريح جهته ولا تذهب بك النفس مذهبها، لا جرم حينئذ نكون عند ما تريد ومع هذا لما أمسكنا زوجته وكتبت لنا فيها سرحناها ساعة وصول خطابك من غير توقف، فلو كنت عنادياً لعبثت بها عبثه هو بإماء أهلي وأهل داري، على إني ما رددت شفاعتك منذ عرفتك، بعثت لي إبراهيم بن يعزى فسرحناه لغرضك، على أنه ترتب في ذمته ما ينيف على خمسين ألف أوقية، وذلك المال إنما يقال له: بيت مال المسلمين، وإنما كان يجب تخليده في السجن، وأهل الحصن أخرجناهم منه عن آخرهم وأنفذتم كتابكم بردهم فأمرنا بردهم عن آخرهم، وابن يعقوب أوزال حاكم البلد وشبه الخليفة تركناه على دارنا وحرك من غير إذننا ولا مشورتنا، وبعثنا مكانه فأنفذت الكتاب فيه فرد لمكانه، ما هو الأمر الذي سافرت كتبك فيه ولا أسرعنا فيه خفافاً؟ وأما مسألة أهل آزمور فلما جاء كتابكم عزلنا صاحبه وسرحنا من كان عنده ورددنا الخيل، وقضية الحناشة: الناس في شأنهم بالاجتهاد، وقضية العرب: اعلم أن العرب قد أفسدوا الأرض واستطالوا سواء هذه البلاد والغرب، والذي يليق بهم ما أفتى به سحنون في عرب إفريقية والمغرب، ولو طالبناهم بمجرد العشر مدة هذه الفتنة في المغرب لأتى ذلك على أموالهم، والناس قد خرجوا عن أطوارهم، وأحبوا الفتن طلباً للراحة، وانظر كتاب «الإفادة» كذا للقاضي واستطالتهم فيه عليه في قضية شرعية مشروحة في رسمها القديم، على أنهم أضعف الناس قلوباً، انظر ما صدر منهم فما بالك بالعرب الذين خرجوا عن الطاعة، وتساوى الشيخ والصغير في ذلك، فإن كنت تصغي لمقالاتهم وإسعاف شهواتهم والتعرض للسلطان دونهم فهذا نفس خراب العالم، وطالع كتاب صاحبنا من عند الرحامنة وما صدر منهم لخديمكم، ورأيت أن أقدم

لك مقدمة أمام هذا، وإن كانت أدبية قيل لابن الرومي، وهو علي بن العباس، لم لم تقل كقول ابن المعتز:

كان آذريوننا والشمس فيه عاليه   مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فأجاب بأن قال: «لا يقدر أن يقول هو في مثل قولي في وصف الرقاقة:

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة   وبين رؤيتها فوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة   في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر»

وقال: «كل منا وصف أواني بيته» «ورب البيت أعلم بما فيه»، «وأهل مكة أدرى بشعابها» «والصيرفي أعرف بنقد الدينار» وقصة الخضر والكليم صلوات الله على نبينا وعليهم فيها كفاية لمن يعتبر في خرقه السفينة وقتله الغلام وإقامته الجدار، والكليم يرد عليه في كل ذلك حتى أنبأه الله بسر ما لم يعلم على أن علم الخضر في علم موسى كحلقة ملقاة في فلاة، هكذا قال بعض العلماء، وقال بعضهم كل منهم على علم خصه الله تعالى به، ومن هنا جوز ابن عربي الحاتمي في بعض كتبه، وأحسب أن ذلك في «الفصوص»: أن الولي الذي يتخذه الله ويصطفيه بمحبته يطلعه على علم لم يطلع عليه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فقال مشيراً إلى نفسه: «أطلعني الله على علم لم يطلع عليه آدم فمن دونه».

واعلم أن السلطنة لها أسرار لا بد منها وسياسة ينكر ظاهرها، ولكن نرجع إلى غرضك ومرادك، أخبرنا: كيف تحب أن يسلك الناس في العرب؟ فإن كنت تحب أن يسلك الناس فيهم مسلك مولاي عبد اللّه فالزمان غير الزمان والأسعار قد طلعت وبلغت النهاية، والله تعالى قد بعث أنبياءه وأنزل كتبه بحسب ما يتقضيه الزمان، وهذا يعرفه من خالط الشرائع والكتب المنزلة وأخذ العلم من أفواه الرجال، وأدبته مجالس العلم ونحن نلخص لكم الكلام

على بعض ما أورد الناس في الخارج: أما ما بنوا عليه فرضه في صدر الإسلام والدول العظام فلا نطيل بذكره لشهرته، وأما في المغرب خصوصاً، فأول من فرضه عبد المؤمن بن علي، وجعله على أقطاع الأرض بناء على أن المغرب فتح عنوة، وإليه ذهب بعض العلماء، ومنهم من يقول: إن السهل فتح عنوة والجبل فتح صلحاً، فإذا تقرر هذا، وعلمت أن أهل ذلك العصر قد بادوا واندثروا، وبقي السهل كله إرثاً لبيت المال، تعين أن يكون الخراج فيه على ما يرضي صاحب الأرض وهو السلطان، والجبل تتعذر معرفة ما كان الصلح عليه ولا سبيل إلى الوقوف عليه فيرجع فيه إلى الاجتهاد، وقد اجتهد سلفنا الكرام رضوان الله عليهم في فرضه لأول الدولة الشريفة على حسب وفق أئمة السنة ومشايخ أهل العلم والدين في ذلك العهد، فجرى الأمر على السنن القويم إلى أن هبت عواصف الفتنة لأيام ابن عمنا صاحب الجبل، وإدالة مولانا الإمام وصنوه المرحوم على حواضر المغرب وسهله عند الزحف بالأتراك، وامتدت به الفتنة في الجبل إلى أن هلك مع النصارى في الغزوة الشهيرة، وجاء الله من مولانا المقدس بالجبل العاصم للإسلام من طوفان الأهوال، فقدر رضي الله عنه الأشياء حق قدرها ورأى أن المغرب غب تلك الفتن قد فغر فمه لالتهامه عدوان عظيمان: الترك، وعدو الدين الطاغية، فاضطر رحمه الله إلى الاستكثار من الأجناد لمقاومة العدو والذب عن الدين وحماية ثغور الإسلام، فدعا تضاعف الأجناد إلى تضاعف العطاء، وتضاعف العطاء إلى تضاعف الخراج، وتضاعف الخراج إلى الإجحاف بالرعية، والإجحاف بالرعية أمر يستنكف رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرة عدله طول أيامه، فلم يمكن له حينئذ إلا أن أمعن النظر رحمه الله في أصل الخراج فوجد بين السعر الذي بنى عليه في قيمة الزرع والسمن والكبش الذي تعطيه الرعية منذ زمن الفرض، وبين سعر الوقت أضعافاً، فحينئذ تحرى رحمه الله العدل فخير الرعية بين دفع كل شيء بوجهه، ودفع ما يساويه بسعر الوقت، فاختاروا السعر مخافة أن يطلع إلى ما هو أكثر،

فأجابهم إليه رضي الله عنه، وعرف الناس الحق فلم ينكره أحد من أهل الدين، ولا من أهل السياسة، ليت شعري لو طلبنا نحن الرعية بسعر الوقت الذي طلع اليوم إلى أضعاف مضاعفة ماذا تقولون، وقد انتقدتم علينا ما هو أخف من ذلك. والحاصل راجعوا رضي الله عنكم ما عند الإمام الماوردي في الأحكام السلطانية في ضرب الخراج فقد استوفى الكلام في ذلك.

وأما ما تقضيه من العجب لتعطل أجوبتنا عنك فنحن نراجع أقل منك، ولكن كتابك آكد مبناه على قصة أهل آزمور فأنفذنا من أخرج الذي كان به وأقصاه عنه وشرد من كان عنده فتوقف الجواب حتى رجع الخديم فحينئذ أجبناكم بما وصلكم، وتعجيل الأجوبة وبطؤها فاعلم أن الذي يقتضي ذلك أمور، منها أن يكون الأمر الذي ورد الخطاب فيه منكم ما سمعت به ولا بلغني فنتوجه للبحث عنه والفحص عن أسبابه فربما أوجب ذلك البطء بحسب الأماكن والبلدان فيكون جوابنا على أساس وبيان، وإن كان عندنا خبر ما ورد فيه خطابكم فالجواب لا يتأخر، وقد وقع هذا منا غير مرة، وكون تعطيله منشأه ما من الله به علينا من رجوعنا إلى سرير ملكنا واجتماعنا بسربنا آمنين، اعلم أن أهل هذا المغرب لما تمالؤوا عليّ وخرجت إلى المشرق والتقيت بالترك والأروام وجالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم، فمنهم مشافهة ومنهم مراسلة، وكنت أيام مقامي في أرضهم كمقامي على سرير ملكي، لأن كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ويمد كفه رغبة في نعمتي، وواسيت الجميع عطاء مترفاً مع قلة الزاد والذخيرة، وترفعت عن مواساة الأماثل والأكابر من العجم والعرب، ولا ركنت لأحد، بل تجودت بما قدرت عليه من الأخبية، حتى جعلت محلة برماتها وخيلها، فترامت عليّ العجم بالرغبة، وبسطوا أكف الضراعة في المقام عندهم والدخول في جملتهم، وعرضوا عليّ الإقطاعات السنية، والبلادات الملوكية بلطف مقال وأدب خطاب، حتى قال لي القبطان مراد رئيس المجاهدين: «وما مثلك يكون مع العرب ها نحن نخدمك بأموالنا وأنفسنا، وبمالنا من السفن حيث أردت وأحببت» وما انفصلت عنهم حتى

كتبت لهم بخطي: إني أحمل أهلي وحاشيتي وأرجع إليهم إلا إن تمكن لي الدخول في الملك والغلبة على البلاد أو بعضها، وقفلت من عندهم ولم يتعلق بثوب عفافي ما يشينه معهم ولا مع العرب، ولا كان لأحد عليّ منة ولا نعمة إلا فضل الله سبحانه، وكان فضل الله علينا عظيماً.

ثم إني دخلت سجلماسة، على رغم أنف أهلها وواليها، ومنها دخلت السوس، وجعلت ولي الله العارف به أبا محمد عبد اللّه بن المبارك واسطة بيني وبين أخي حتى اجتمعت بأهلي ومالي، ثم بعث إليّ الترك بأحد بلكباشات اسمه مصطفى صولجي إلى السوس راغبين في إنجاز الوعد، وجنحت للمسير إليهم فرأيت الأهل والأتباع قد عظم الأمر عليهم واستعظموا الخروج فأسعفت رغبتهم في المقام بالمغرب، وشيعت الرسول قافلاً إلى قومه من سجلماسة عند الدخول الثاني لها ومغالبة أهلها عليها، وعززته برسول من عندي إليهم بتحف وأموال، ورد بها عليهم مع رسولهم، ثم إني اقتحمت مراكش على أهل فاس على كثرة عددهم وعددهم وقلتي، ففتح الله، ثم خرجت إلى السوس مرة أخرى وأوقعت بولد مولاي أحمد الشريف وجموع مراكش، وقد تعصبوا عليه لأنهم شيعة جده، ففضضته على رغمهم، ونازلته بالسهل والحزن حتى أمكن الله منه، وحكم بيني وبينه، ثم نجم الغوى أبو محلي وغلبت على الرأي، وقد قال من هو أفضل مني مولانا عليّ كرم الله وجهه: «لا رأي لمن لا يطاع» ودخل هذه البلاد وخرجت أنا إلى السوس ريثما تجتمع قبائلنا في المكان الذي كان اجتماعهم فيه إلى أن بلغتهم، وقصد إليهم أبو محلي فقاتلوه ورحل عنهم بعد أن أثخنوا فيه بالقتل، ثم وافيتهم فكان الحرب بيننا سجالاً، فهل سمعتم خلال هذه الأحوال أني احتجت إلى أحد فيما قل أو جل؟ وهذا كله بحيث لا يخفى عليك، اللّهم أن تعدوا الوفادة التي وفدنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا أدري، على أني ما قصدتك لطلب دنيا، لأني كنت أسمع ما أنت عليه من متانة الدين والصلاح والإقبال على طاعة الله والتمسك بسنة رسول الله

ﷺ، ولا غرو أن من كان هذا وصفه كان جديراً بأن يقصد للدعاء ولإصلاح القلب، ولا شك أننا نزلنا دارك وحللنا بمكانك، ولما وقع الاجتماع بك جرت المذاكرة في أبي محلي وغيره حتى كتبت الكتاب الذي علمنا عليه، وها هو بخط يدك، فإن نسينا بعض ما فيه ولا فعلنا فأخبرنا به، نستدركه، وهذه مراكش التي ذكرتم قد كنت فيها ما ذكرتم، ووقفت على عبد المؤمن بن ساسي وعدته مرة أخرى في مرضه، وهل قصدته لطلب دنيا أو عرفته لأجلها؟ ومحمد بن أبي عمرو لما وقفت على المدرسة التي من بناء مولاي عبد اللّه وقفت عليه في داره، وكل ذلك إنما نفعله تأكيداً للمحبة وزيادة في المعرفة بالله، ولو علمت أن ذلك يعد عيباً ويظن أنه نوع من الاحتياج ما كنت والله لأقف على أحد ولو أنه يملكني الدنيا بحذافيرها، لأن الخير والشر بيد الفاعل المختار، فهو أولى بالاضطرار إليه، وأما سربي فما تروع قط حتى يأمن، وأما من كان بالدار التي ذكرتم فإنما هم أهلي ومتروك أعمامي. وهذه الدار التي ذكرتم فها نحن ننتقل عنها إلى بعض البلاد الغربية البحرية كما قلت لك ذلك مشافهة ساعة قلت لي ينبغي للأشراف بناء بالجبل لوقت ما، وحكيت ذلك عن والدك، وأما ما أخبركم به القاضي أيام ورودي إلى السوس وقت بلغني كتابكم الذي نصه: قد اجتمعت أناس وفسدت النيات وتعينت المطامع وأردنا تدبيركم، لأن الملوك أهل التدبير والمراد رجوعنا لأوكارنا من غير وصمة تلحق الجانبين، فكلما حمل فهو عني والتزمته إلى الآن إلا ما طرأ علينا فيه النسيان، فذكرونا به فإنا لا نخرج عنه. وأما يمين المصحف وأني حلفت فيه للقائد عبد الصادق فلا والله ما حلفت فيه ولا أحلف لأحد إلى لقاء الله، أما علمت أني حضرت بيعة الشيخ المأمون صاحب الغرب سامحه الله، وحضر أولاد السلطان واستحلفهم له إلا أنا رضي الله عنه، فإنه قال: «فلان لا يحلف لا يحتاج إليه فيما نأمره به ونفعله» وعظم ذلك على إخوتي، وظهرت في وجوههم لأجله الكراهية، ولكن الذي قلت لعبد الصادق أحلف للمرابط فإني أوفي لك به، ولا زلت على ذلك لأن

الذي كنت تقول في ذلك الوقت: أخاف أن تقع في أهل مراكش والأكابر ونحوهم مثل حكومة عبد القادر ونحوها. أما أهل مراكش فما تعرضنا لأحد منهم حتى تركنا متاعنا لأجلكم، كولد المولوع وغيره، وهذا الميدان والشقراء فابعث من رضيت ينادي فيهم، من له حق علينا ننصفه منه ومن خدامي أيضاً، وإن كنت سمعت قضية منصور العكاري، فالعكاري نزل أهلنا في خيمته عند وقعة رأس العين فلما أرادوا الطلوع إلى الجبل تركوا أكثر مالهم في خيمته مع بعض الخدم خوفاً من غائلة البربر لما كان وقع منهم لأهل بابا أبي فارس فأخذ سماطاً من ذهب يزيد على ستين ألف أوقية، وكان أيام أبي حسون معه وفي جملته حتى مات القائم فبذل حجته بإنجاز عشرين ألفاً والباقي حتى يؤديه على سعة، وطلب منا أن يتعمل ويتولى بعض الخطط لينتفع ويجمع بعض ذلك فصرفناه، حتى إذا جاء أبو محلي ووقع ما وقع طالبناه بمتاعنا وهو لا يسعه إنكاره، وهكذا عبد الكريم الذي في زاويتك بنفسه يعلم أن إخوته أخذوا لي سلعة في وسط حلتهم وأنا بين بيوتهم تزيد على خمسين ألفاً، وأخذوا الإبل، وها نحن سكتنا عنهم ولا طالبناهم بها، وأيضاً قال لك انظر ما فعل بإخوتي وصرت تكاتبنا وأنت لا علم عندك بأصل المسألة، وأما الأموال فإن الله سبحانه قد وسع علينا من فضله وعندنا ما يكفي الخامس والسادس من الولد، وعرفنا الناس وعرفونا وعاملناهم وعاملونا، ولو أردت خمسمائة ألف مثقال من أصحاب أفلا منك، أو من أصحاب الإنجليز وكتبت إليهم في ذلك ما تأنوا في بعثه، ولا لاذوا فيه بمعذرة، وقد كفانا الله به والحمد لله على ذلك.

واعلم أن الظن فيك جميل ولولا ذلك ما أعطيتك خمسة آلاف مثقال، وسمحت بالمال الذي حمل إليكم ابن عبد الواسع أولاً وسلعة السفن أخيراً، وبهذا كله تستدل على صفاء السريرة وصالح النية، والله سبحانه يعلم ذلك، وأما الامتعاض من عدم الأنة القول وحسن الخطاب، فكما قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83] وإنك لم تبلغ ولو نصف ما خاطب به

الأئمة رضوان الله عليهم أهل زمانهم اتكالاً على علمنا به، وحسبي نصح الفضيل ابن عياض وسفيان ومالك رضوان الله عليهم فهذه المسألة حسبي في الجواب منك. انتهى ما وقفنا عليه من هذه الرسالة وهي دالة على براعة الرجل فقهاً وأدباً وكمال مروءة وعلو همة رحمه الله وغفر ذنوبه.

استيلاء نصارى الإصبنيول على المعمورة ونهوض أبي عبد اللّه العياشي لجهادهم وانتفاض أندلس سلا على السلطان زيدان رحمه الله

قد قدمنا في أخبار الوطاسيين ما كان من استيلاء البرتغال على المعمورة المسماة اليوم بالمهدية ومقامهم بها سنين قلائل ثم جلائهم عنها، ثم لما استولى الإصبنيول خذله الله في هذه المدة على العرائش كما مر طمحت نفسه إلى الاستيلاء على غيرها وتعزيزها بأختها، فرأى أن المهدية أقرب إليها فبعث إليها الطاغية فيليبس الثالث من جزيرة قادس تسعين مركباً حربية فانتهوا إليها واستولوا عليها من غير قتال لفرار المسلمين الذين كانوا بها عنها هكذا في تواريخ الفرنج.

وقال شارح «الزهرة»: كان نزول النصارى بمرسى الحلق سنة اثنتين وعشرين وألف وقيل سنة ثلاث وعشرين بعدها وقيل غير ذلك، وكان عدو الله الإصبنيول أراد أن يضمها إلى العرائش لينضبط له ما بينهما من السواحل وتتقوى عساكره بهما فخيب الله ظنه، ولقي من أهل الإسلام عرق القربة، وكان أبو عبد اللّه العياشي بعد رجوعه من آزمور وسلامته من اغتيال قائد زيدان دخل سلا في نحو أربعين رجلاً وزار ضريح شيخه أبي محمد بن حسون وبات عنده، فجاءه أهل سلا وذكروا له ما هم فيه من الخوف من نصارى المعمورة، وأن مسارحهم قد امتدت إلى الغابة وأن النصارى ألفان من الرماة سوى الفرسان فأمرهم بالتهيؤ إليهم.

وفي «نشر المثاني» ما نصه: وفي أواخر جمادى الثانية سنة ثلاث

وعشرين وألف أخذ النصارى المهدية فكتب أهل سلا إلى السلطان زيدان فبعث إليهم أبا عبد اللّه العياشي الذي كان مقدماً بوكالته على الجهاد بدكالة، وهو يقتضي أن مجيء العياشي إلى سلا كان بإذن السلطان لا فراراً منه، والأول أصح اللّهم إلا أن يكون مجيئه فاراً كان بعد هذا التاريخ والله أعلم.

وأمر أبو عبد اللّه العياشي أهل سلا بالتهيؤ للغزو واتخاذ العدة فلم يجد عندهم إلا نحو المائتين منها، وكانت السنون والفتن قد أضعفتها، فحضهم على الزيادة والاستكثار منها، فكان مبلغ عدتهم بما زادوه زهاء أربعمائة، ثم نهض بهم إلى المعمورة فصادف بها من النصارى غرة فكانت بينه وبينهم حرب قربها إلى أن غربت الشمس، فقتل من النصارى زهاء أربعمائة، ومن المسلمين مائتان وسبعون، وهذه أول غزوة أوقعها في أرض الغرب بعد صدوره من ثغر آزمور، ومنها أقصرت النصارى عن الخروج إلى الغابة، وضاق بهم الحال.

ثم إن السلطان زيدان لما بلغه اجتماع الناس على سيدي محمد العياشي بسلا وسلامته من غدرة قائده السنوسي بعث إلى قائده على عسكر الأندلس بقصبة سلا المعروف بالزعروري، وأمره باغتياله والقبض عليه، ففاوض الزعروري أشياخ الأندلس في ذلك، فاتفق رأيهم على أن يكون مع العياشي جماعة منهم عيناً عليه، وطليعة على نيته، واستخباراً لما هو عازم عليه، وما هو طالب له، فلازمه بعضهم. وشعر العياشي بذلك فانقبض عن الجهاد ولزم بيته.

ثم إن الله أوقع النفرة بين السلطان زيدان وبين أهل الأندلس، وذلك أن السلطان المذكور كان قد بعث قبل ذلك إلى القائد الزعروري أن يجهز إلى درعة أربعمائة من أندلس سلا، فجهزهم إليها وطالت غيبتهم بها، ففر أكثرهم ونفرت قلوبهم عن الزعروري وسلطانه، فكان زيدان يبعث إلى أهل الأندلس بسلا بتجديد البعث إلى درعة فيأبون الانقياد إليه في ذلك وكرهوه وأزمعوا على خلع طاعته، ثم وشوا إليه بقائده الزعروري فبعث زيدان

بالقبض عليه فقبض عليه ونهب أهل الأندلس داره، وكتبوا إلى السلطان بذلك مظهرين طاعته مكيدة ونفاقاً، فبعث إليهم مولاه وقائده المملوك عجيباً فمكث بين أظهرهم مدة فلم يعبؤوا به وصاروا يهزؤون به، ثم عدوا عليه فقتلوه فظهر منهم شق العصا على السلطان زيدان، وأظلم الجو بينه وبينهم، وبقي أهل سلا فوضى لا والي عليهم، وكثر النهب، وامتدت أيدي اللصوص إلى المال والحريم، وسيدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم، واستمر الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد هذا إن شاء الله.

انعطاف إلى خبر عبد الله بن الشيخ بفاس والثوار القائمين بها وما تخلل ذلك

قد قدمنا ما كان من قدوم السلطان زيدان إلى فاس أواسط سنة تسع عشرة وألف واستيلائه عليها ثم خروجه عنها وإعراضه عنها وعن أعمالها إلى آخر دولته، وكان عبد الله بن الشيخ حياة أبيه الشيخ تحت أمره يصغي إليه ولا يقطع أمراً دونه، وقيل إنه خرج عن طاعته سنة عشرين وألف ولما قتل أبوه ببلاد الهبط كما مر استبد عبد الله هذا بفاس وما انضاف إليها على وهن وفشل ريح، وكان غالب جنده من شراقة، وشراقة هؤلاء هم عرب بادية تلمسان وما انضاف إليها، وسموا بذلك لأنهم في ناحية الشرق من المغرب الأقصى، فأهل تلمسان وأعمالها يسمون أهل المغرب الأقصى مغاربة، وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان وأعمالها مشارقة، لكن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة، فكان غالب جند عبد الله من هؤلاء العرب ومن انضم إليهم فهم حماته وأنصاره وبهم كان يعتصم، حتى أعطاهم أجنة الناس ودورهم، فكان الرجل من أهل فاس يأتي بستانه فيجد الأعرابي بخيمته في وسطه فيقول له: «أعطانيه السلطان».

ومدوا أيديهم إلى حريم الناس ونهبوا الأسواق وجاهروا بالفساد وأظهروا السكر في الطرقات، واقتحموا على الناس دورهم، حتى أن امرأة كانت تطبخ خليعاً وولدها رضيع عندها فاقتحم عليها الدار أحد شراقة فهربت

المرأة وأغلقت عليها مشربة لها فلم يقدر لها على شيء فراودها على النزول فأبت، فقال لها: «إن لم تنزلي رميت الولد في الطنجير» فتمادت على الامتناع فرمى به فيه، فما هو إلا أن رأت ولدها في وسط الطنجير صاحت وألقت بنفسها عليه، فاندقت رقبتها وماتت، فغاظ الناس ذلك وأعظموه.

وقام رجل منهم يقال له أبو الربيع سليمان بن محمد الشريف الزرهوني محتسباً على شراقة، واعصوصب عليه كثير من العامة، وقاموا بنصرته، فقتل شراقة والتلمسانيين بفاس حيث وجدوا وحكم السيف في رقابهم ونفاهم عن فاس، وحماها من إذايتهم وطهرها من رجسهم، فاستحسن الناس أمره وأذعنوا إليه.

قال في «المرآة»: «وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الأول، يعني سنة عشرين وألف ثار بفاس الشريف أبو الربيع سليمان بن محمد الزرهوني، وعضده الفقيه أبو عبد الله محمد اللمطي المعروف بالمربوع، وتبعهما أهل فاس بأجمعهم، وأخرجوا من كان بها من جيش السلطان وقتلوا كثيراً منهم وجرت في ذلك خطوب آلت بعد سنين إلى انقطاع الملك بفاس وبقي الناس فوضى إلى الآن» اهـ كلام «المرآة».

وكان ابتداء أمر شراقة واشتداد شوكتهم سنة ست عشرة وألف كانوا إدالة على أهل فاس نازلين بقصبة الطالعة وبقصبة أخرى وببعض الفنادق وقرب باب المسافرين، إلى أن قام عليهم الشريف أبو الربيع في التاريخ المتقدم، وكان عبد الله بن الشيخ يوم ثورة أبي الربيع وفتكه بشراقة غائباً في سلا فلما بلغه الخبر قدم ورام أن يصلح بين أهل فاس وبين شراقة وراودهم على ذلك فقالوا: «لا. لا» فسميت تلك السنة سنة لا لا. ثم أمر أبو الربيع أهل فاس بشراء العدة والتهيؤ لقتال شراقة وخرج إليهم فاقتتلوا خارج باب الجيسة فانهزمت شراقة، واستتب أمر أبي الربيع وسكنت أحوال المدينة وأمن الناس أماناً لم يعهد من زمان السلطان الغالب بالله.

وفي يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الثانية سنة عشرين وألف كانت

وقعة المترب، موضع خارج باب الفتوح، وسببها أن أهل فاس استغاث بهم الملالقة واستصرخوهم على شراقة مكيدة وحيلة فخرجوا في يوم شديد الريح وكمن لهم شراقة بخولان وأغاروا عليهم بغتة، فانهزم الناس وقتل من أهل فاس نحو الألفين.

وفي «نشر المثاني» سبعمائة فقط، قال وجلهم هلك بالعطش، وغلقت الأبواب واضطربت المدينة، وهاج الشر بسبب ذلك مدة، ثم خرج أهل فاس مرة أخرى لقتال عبد الله بن الشيخ فهزموه وأسروه، وبقي في أيديهم فعفوا عن قتله وأطلقوه، وذهبوا خلفه حتى دخل داره من فاس الجديد.

ولما قتل أبوه الشيخ سنة اثنتين وعشرين كما مر. واتصل خبر مقتله بابنه عبد الله عزم على الأخذ بثأره من قاتليه أولاد أبي الليف، وأزمع المسير إليهم، ووافقه على ذلك الشريف أبو الربيع والفقيه المربوع وأصحابهما وامتنعت العامة من الذهاب معهم، لأن الشيخ لم تبق له في نفوس المسلمين مودة حيث باع العرائش للنصارى، فاجتمعت العامة بجامع القرويين وقالوا: «لا نقبل سليمان ولا المربوع» وحاصوا حيصة حمر الوحش، واتخذوا رؤساء آخرين فوقع بسبب ذلك شر عظيم أدى إلى قتل الشريف مولاي إدريس بن أحمد الجوطي العمراني التونسي، وسبب ذلك أن منادي أبي الربيع مر ينادي في السوق باستنفار الناس مع عبد الله بن الشيخ، فقام إليه الشريف مولاي إدريس وضربه بعصا وسبه، فأقبل أبو الربيع ومن معه واقتحموا على مولاي إدريس دار القيطون وقتلوه على خصتها، ولما كان صباح القبر من الغد قام ولد مولاي إدريس وشكا هضيمته لعلماء فاس، فأمروه بالصبر. ثم التف عليه أهل العدوة وقصدوا دار أبي الربيع وناوشوه الحرب، فرجعوا مفلولين وقتل بعضهم والأمر لله وحده، ووقع الغلاء حتى بيع القمح بأوقيتين وربع للمد، وكثرت الأموات، حتى أن صاحب المارستان أحصى من الأموات من عيد الأضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف إلى ربيع النبوي من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة، وخربت أطراف المدينة وخلت المداسر، ولم

يبق بلمطة إلا الوحوش، وكثر النهب في القوافل.

ولما كان المحرم فاتح سنة ست وعشرين وألف قبض الشريف أبو الربيع على أربعة من كبار شراقة ثم قتلهم، فوجم لها اللمطيون وخاف الناس على المدينة، وتوقعوا الشر وعظم الرعب في القلوب حتى وقعت بسبب ذلك الهزيمة في كل مسجد من مساجد الخطبة بفاس، وذلك أنه كان إمام جامع القرويين ذات يوم يخطب، والناس في صحن المسجد، فوقع شؤبوب من المطر غزير، فابتدر من في الصحن الدخول إلى تحت السقف، فظن الناس أن أبا الربيع قد قصده شراقة فانهزموا وخرجوا من المسجد لا يلوي أحد على أحد، فبلغ الخبر إلى أهل جامع الأندلس فاقتدوا بهم، وبلغ الخبر إلى أهل الطالعة فكان كذلك، وتتابعت الهزائم بالمساجد.

وفي يوم السبت الخامس من صفر سنة ست وعشرين وألف قتل الشريف أبو الربيع غدراً في جنازة رجل لمطي خرج إليها، فقتله الفقيه المربوع، وقتل أباه وأبناء عمه وستة من أصحابه، ودفن مع والده بمسجد الجرف، ولما قتل أبو الربيع بقيت فاس في يد المربوع واعصوصب عليه اللمطيون، واشتدت شوكته، ثم قدم جمع من عشيرة أبي الربيع من زرهون وحاولوا الفتك بالمربوع ففطن بهم ووقع بينه وبينهم قتال هلك فيه نحو مائة وثلاثين رجلاً وسلم المربوع منها.

وقال صاحب «معتمد الراوي»: لما قتل أبو الربيع الزرهوني قام أخوه مولاي أحمد يطلب بثأره وساق معه نحو أربعمائة من الزراهنة واقتحم بهم فاس، وقاتلوا الفقيه المربوع وشيعته من اللمطيين، فالتف أهل فاس على المربوع وقاتلوا معه الشريف يداً واحدة، فانهزم الشريف وقتل جل من معه، وكاد يقبض عليه باليد، ففر إلى روضة سيدي أحمد الشاوي، ومعه نحو الثمانين من أصحابه، فتبعهم الفقيه المربوع في جمع عظيم من اللمطيين واقتحم عليهم الروضة ففر الزراهنة إلى بيوت دار الشيخ فهجم عليهم المربوع بجنده وقتلهم أجمعين. ثم إن المربوع واللمطيين جاؤوا برجل يقال له عبد الرحمٰن الخنادقي كان يتعبد بزرهون فاستقدموه في جمادى الأولى سنة سبع

وعشرين وألف وراموا أن يملكوه ويجتمعوا عليه، فأنزلوه مع أصحابه في روضة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم، واتصل الخبر بالقائد أحمد بن عميرة وزير عبد الله بن الشيخ فأتى وفتك بأصحاب الرجل المذكور، ولجأ هو إلى ضريح الشيخ ابن حرزهم فرموه من طاق هنالك فقتلوه وسقط ميتاً على القبر وبطل أمره.

ولما سئم أهل فاس من الفتن وكثرة الحصار وضاق بهم الحال من غارات الأعراب ذهبوا إلى عبد الله بن الشيخ بفاس الجديد ونصروه وأظهروا المحبة له، ففرح بهم غاية، وتحالفت العامة والخاصة على نصره والإذعان إليه، فصفح عنهم وعفا لهم عما سلف، وبعث وزيره إلى المربوع بالأمان فلم يأمن، وخاف على نفسه، وصمم مع اللمطيين على قتال عبد الله وتهيؤوا له حتى لم تصل الصلوات الخمس بالقرويين، ثم إن القائد حمو بن عمرو وزير عبد الله أمر بأن ينادى بأمان اللمطيين، ففر اللمطيون عن المربوع حينئذ حتى لم يبق معه إلا قليل ثم بعث إليه عبد الله بسبحته وخاتمه أماناً فلم يأمن وفر ليلاً إلى بني حسن فأخذه شيخهم سرحان وأتى به إلى عبد الله فعفا عنه، وعادت دولة عبد الله إلى شبابها، واستتب أمره وتمهدت له البلاد، وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وألف، فجمع الجيوش وبعث بعض جنده لحصار تطاوين، وبعضهم لقبض الأعشار، وبعث وزيره حمو بن عمرو مع المربوع لأرجين موضع من جبال الزبيب، فغدر المربوع بالوزير وقتله اعتماداً على كلام سمعه من عبد الله فغضب عبد الله وأسرها في نفسه ثم في يوم الاثنين ثالث ربيع النبوي سنة ثمان وعشرين وألف قتل المربوع اللمطي ونهبت داره.

وقال في «نشر المثاني» قتله عبد الله بن الشيخ، وعلقه على البرج الجديد خارج باب السبع، ثم أنزله ولعبت عليه خيله، ثم بعد أيام وظف عبد الله على اللطميين ثمانين ألفاً فثقل عليهم أمرها فهربوا في كل وجه فأسقط عنهم نصفها، والله تعالى أعلم.

ثورة محمد بن الشيخ المعروف بزغودة[١] على أخيه عبد اللّه بن الشيخ وما وقع في ذلك

قال في «شرح زهرة الشماريخ»: لما رأى أهل بلاد الهبط ما وقع من افتراق الكلمة وتوقد الفتن بايعوا محمد بن الشيخ المعروف بزغودة على ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، وكان الذي قام بدعوته الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن عيسى بن عبد الرحمٰن الإدريسي المحمدي اليونسي المعروف بابن ريسون، وهي أم جده علي نزيل تاصروت وبايعوه على الكتاب والسنة وعلى إحياء الحق وإماتة الباطل فلما بلغ خبره أخاه عبد اللّه خرج لقتاله، فالتقى الجمعان بوادي الطين واقتتلوا فانهزم عبد اللّه وتقدم محمد إلى فاس فدخلها واستولى عليها في شعبان سنة ثمان وعشرين وألف، وقبض على بعض عمال عبد اللّه فقتلهم واستصفى أموالهم.

وفي آخر شعبان المذكور وقعت الحرب بينهما بمكناسة فانهزم محمد ودخل عبد اللّه فاساً في مهل رمضان من السنة وأظهر العفو عن الخاص والعام، ثم قتل أهل فاس قائده ابن شعيب وأخذوا حذرهم من عبد اللّه ثم وقع قتال بين أهل الطالعة وأهل فاس الجديد ودام أياماً عديدة حتى اصطلحوا لتاسع رجب من سنة تسع وعشرين وألف، ثم إن عبد اللّه خرج لقتال أخيه محمد فوقعت المعركة بينهما بوادي بهت فانهزم محمد وفر شريداً إلى أن قتله ابن عمه كما سيأتي إن شاء الله.

وفي يوم الجمعة خامس ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاثين وألف قتل الفقيه العالم القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم بعد أن نزل من صلاة الجمعة

---

(1) في النص المطبوع بفاس لنزهة الحادي ابن عودة وهو قريب التصحيف بزغودة فليحرر اهـ وقد ورد وصف ابن عودة بهذا اللفظ في تقييد خطي في تاريخ الدولة السعدية منسوب لسيدي عبد الرحمٰن بن عبد القادر الفاسي فظهر أن زغودة مجرد تصحيف.

بفاس الجديد فقتلته اللصوص بباب المدرسة العنانية، وفي «نشر المثاني» قتله اللمطيون بالزربطانة لأنهم اتهموه بالميل إلى عبد اللّه بن الشيخ فوقع بسبب قتله شر عظيم بين أهل العدوتين من فاس.

ولم يزل عبد اللّه في معالجة أهل فاس فتارة يميلون إليه وتارة ينحرفون عنه لفساد سيرته وقبح طويته حتى كان قائده مامي العلج ينهب الدور جهاراً ويعطي عبد اللّه كل يوم على ذلك عشرة آلاف مما ينهب من الناس من غير جريمة ولا ذنب.

وقام عليه بمكناسة أيضاً رجل يقال له الشريف آمغار وقام عليه بتطاوين المقدم أبو العباس أحمد النقسيس ولم يبق في يده إلا فاس الجديد وأما فاس القديم فتارة وتارة كما ذكرنا آنفاً لأنه استولى عليها الشريف أبو الربيع والفقيه المربوع ولما قتلا كما ذكرناه آنفاً قام بفاس محمد بن سليمان اللمطي المدعو الأقرع وعلي بن عبد الرحمٰن فقتل ابن سليمان.

وقام أحمد بن الأشهب مع ابن عبد الرحمٰن المذكور فوقعت فتن وحروب ثم قام الحاج على سوسان وابن يعلى وتولى أيضاً يزرور ومسعود ابن عبد اللّه وغيرهم من الثوار.

وكانت فاس أيام هؤلاء على فرق وشيع لا يأمن التاجر على نفسه إلا إن استجار بأحد من هؤلاء ووقع من الفتن ما أظلم به جو فاس ونتن أفقها العاطر الأنفاس، وخلا أكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشر بين أهل العدوتين حتى كادت فاس تضمحل ويعفو رسمها.

وحدث غير واحد من الثقات أنه لما دامت الحرب بين أهل العدوتين ولم يكن لأهل الأندلس غلبة على اللمطيين قال الشيخ أبو زيد عبد الرحمٰن ابن محمد الفاسي: لا يغلب أحد اللمطيين ما داموا مواظبين على قراءة الحزب الكبير للإمام الشاذلي رضي الله عنه، وكانت طائفة من اللمطيين يقرؤونه كل صباح بزاوية سيدي رضوان الجنوي من عدوة اللمطيين فسمع ذلك أهل عدوة الأندلس فاحتالوا على إبطال قراءة ذلك الحزب بأن بعثوا

أحداً فاحتال على أولئك الذين يقرؤونه فاستضافهم فباتوا عنده جميعاً في منزله فلما طلع الفجر أو كاد زعم أن مفتاح الدار قد سقط منه وتلف ولم يزل يعاني فتحها إلى أن طلعت الشمس فخرجوا، ولم يقرأوا الحزب ذلك اليوم، وأخبر أهل الأندلس بذلك فحملوا على أهل عدوة اللمطيين فهزموهم وتحكموا فيهم مع أنهم كانوا لم يجدوا إليهم سبيلاً قبل ذلك ببركة حزب الشاذلي رضي الله عنه.

وذكر بعضهم أن سبب هذه الفترة: ما حكي أن عبد الله بن الشيخ عزم على التنكيل بأهل فاس في بعض غلباته عليهم أيام خروجهم عليه، فاستشفعوا إليه بالصالحين المجذوبين: سيدي جلول بن الحاج، وسيدي مسعود الشراط، وكان من الملامتية؛ فلما وقفا بين يديه قال: «أما وجد أهل فاس شفيعاً غير هؤلاء الخراءين في ثيابهما؟» فغضب سيدي جلول. وقال: «والله لا تصرف فيها ـ يعني فاساً ـ أحد أربعين سنة»، وانصرفا؛ فيقال: إن عبد الله بن الشيخ انقلبت معدته فخرج غائطه من فمه أياماً إلى أن أتى بالشيخين فاسترضاهما، فكان أمر فاس كما قال سيدي جلول لم يطأطئ رؤوس أعيانها سلطان إلى أن جاء الله بالمولى الرشيد بن الشريف السجلماسي رحمه الله كما سيأتي، وإنما كان يتصرف فيها رؤساء أهل فاس الذين يسمونهم السياب، قال اليفرني: «وهذه حكاية صحيحة سمعتها من غير واحد بفاس» ملخصها ما ذكرنا.

ولم يزل عبد الله في محاربة أهل فاس القديم من سنة عشرين وألف إلى أن توفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف بسبب مرض اعتراه من إسرافه في الخمر وإدمانه عليه وكان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ويتعاطاه سراً وجهاراً.

قال في شرح «زهرة الشماريخ»: «ولما توفي عبد الله ولي بعده أخوه عبد الملك في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وألف ولم يزل مقتصراً على ما كان قد صفا لأخيه إلى أن توفي في ذي الحجة سنة ست وثلاثين وألف».

ومن آثار عبد الله بن الشيخ: القبة التي على الخصة الكائنة أسفل المنارة التي بوسط صحن جامع القرويين: فإنه لم يكن في القديم إلا الخصة المقابلة لها شرقي الجامع المذكور.

- غريبة -

قال اليفرني: حدثني شيخنا الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد قال: «كان شيخ شيوخنا الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة يقول: إن أحمد ابن الأشهب الذي تقدم ذكره قبل في الثوار أخبر به النبي ﷺ قال: والحديث بذلك مذكور في كتاب الجامع الكبير للحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله» اهـ وقتل ولد ابن الأشهب رابع جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وألف فتك به علي بن سعد في جامع القرويين وهو في صلاة العصر، وقامت بسبب ذلك حرب بين أهل الأندلس واللمطيين، وانتهبت السلع التي بسوق القيسارية وسوق العطارين وبنى اللمطيون الدرب الذي بباب العطارين واستمرت الحرب نحو ثمانية أيام ثم اصطلحوا.

ثورة أبي زكرياء بن عبد المنعم بالسوس ومغالبته لأبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة على تارودانت

كان الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي لما رجع من مراكش إلى السوس حسبما مر بدأ له في طلب الملك وجمع الكلمة لما رأى من افتراقها في حواضر المغرب وبواديه.

وكان المرابط أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الولي الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السملالي ويقال له أيضاً: أبو حسون قد ظهر بالصقع السوسي عند فشل ريح السلطان زيدان به واستولى على تارودانت وأعمالها.

فلما ثار الفقيه أبو زكرياء سار إلى تارودانت فتغلب عليها وملكها من يد أبي حسون المذكور وبعد أن وقع بينه وبينه معارك ومقاتلات كبيرة، وكان

القاضي بتارودانت يومئذ الفقيه العالم أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمٰن السكتاني، وكان أبو زكرياء قد استشاره فيما عزم عليه فلم يوافقه على ذلك ولم يساعده على مراده لما فيه من الخروج على السلطان بلا موجب، فغضب عليه الفقيه أبو زكرياء حتى أمر بقتله غيلة فيما قيل، فخرج القاضي من المدينة خائفاً يترقب، وذهب إلى مراكش فاستقر بها وعصمه الله منه وكتب إلى أبي زكرياء برسالة يعظه فيها وينهاه عن الخروج على السلطان ونصها:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم:

يقول الفقير الشديد الحاجة إلى رحمة مولاه الغني به عمن سواه، السائل منه التوفيق واللطف في ظعنه ومأواه، كاتبه عيسى بن عبد الرحمٰن السكتاني عفا الله عنه وسمح له: الحمد لله الذي جعل الصدع بالحق وظيفة الأنبياء، وأورثه بعدهم من خلقه فريق العلماء، والصلاة والسلام على من أكد أمر الصلح وقال: **«الدين النصيحة»** فقيل: لمن يا رسول الله، فقال: **«لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»** والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه، وعن التابعين وتابع التابعين لهم إلى وقوع القصاص بين الخليقة، وبعد، فإني لما قفلت بحمد الله بسلامة وعافية إلى جبلي وجدت أهلي وأولادي، مستوحشين من البادية وإن كانت محل سلفي ومقر تلادي، بعد أن ألفوا الحواضر وطبعوا على طباعها فكانوا أحق بها، وكنت في غاية الضيق والتأسف لما حل بالأولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الأندلس ممن نابه مثل ما نابني وأصابه مثل ما أصابني:

أليس من القبيح مقام مثلي ... بدار الخسف منكسف الجمال
أخالط أهل سائمة وسرح ... وأرتع بين راعية الجمال

فأجلت فكري، وإن كان الكل بقدر الله وإرادته، فرأيت أن ذلك، وفي القضاء لطف، أمر أنتجه، كما لا يخفى على ذي بصيرة، ما حل بالمغرب من

افتراق الكلمة، وتلاعب شياطين الإنس والجن بذوي العقول منهم فصاروا أحزاباً وفرقاً، فاتبعت كل طائفة من هواها ما كانت تعبد، حتى إذا عرض لعاقل أو عرض عليه منهم الإقلاع بادره الشياطين فسدوا عليه بابه، وأروه بإغوائهم وزينوا له أن ذلك يشينه لدى العامة ويوجب له السقوط من أعين الناس، مع أنه لا يعده من السقوط إلا ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس 4 ـ 6] وأين يغيب عن الموفق أن السقوط من عين الله هو الطامة الكبرى، وأين غاب عنه أن العبرة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا بكلام الهمج الرعاع ممن لا يزال الشيطان يلعب به آخذاً بزمامه ساكناً على قلبه ولسانه، وأين يغيب عنه من كتاب الله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 37 ـ 41] فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون هذه مصيبة عظيمة نزلت بمغربنا فافترق ملأهم وقتلت سرواتهم وانتهبت أموالهم وهتكت حرمهم ومزقت أعراضهم وفسدت أديانهم واختلت وبدت عن التوفيق آراؤهم وكادت تطمع بل طمعت فيهم أعداؤهم اللّهم ياذا الطول والامتنان يا حنان يا منان ياذا الجلال والإكرام تداركنا بألطافك الخفية في ديننا ودنيانا يا خالق الأرض والسماء.

فإن قلت: ما ذكرته من أن خروجك من الحواضر إلى البوادي هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يقتدي به من الصحابة رضي الله عنهم فتبدى صحيح، وما دليلك على التلاعب؟ قلت: ما خرجه أئمة الصحاح من منع الخروج على الأئمة وأن الواجب في حق من رأى منهم ما يكره الصبر والاحتساب إذ غائلة الجور، وإن تفاحش، أقل بكثير من غائلة الخروج الذي يترتب عليه فساد المهج والأموال والأعراض والأديان وهتك الحرم، ولهذا صبر على الحجاج من علماء الصحابة والتابعين من صبر حتى لقوا الله تعالى سالمي الأديان، وبعبادته مغتنمي الزمان، وتذكر، فما بالعهد من قدم، بالمرابط أبي محلي كان في قطره عالي الصيت يقصد ويتبرك به ويعتقد فيه أنه قطب زمانه، وبلغ به الحال إلى أن سولت له نفسه أو سول لها أنه يصلح به

ما لم يصلح بغيره من أهل الزمان فقام وأعانه عليه قوم آخرون حتى ملأ الدنيا صياحاً ودعاوى وعياطاً وأكاذيب لا يشهد لها عقل ولا نقل فتمرد على المسلمين حتى لم يسلموا من لسانه ويده، فقتل ونهب وسب واغتاب وحمل نفسه ما لا تطيقه فاستهوته شياطين الإنس والجن والنفس والهوى، ثم بعد ذلك كله لم يحصل من سعيه على طائل وآفته الغفلة عن الكتاب والسنة والرضا عن النفس حتى أنه حكمها فصارت تلعب به إلى أن فاه وادعى بدعاوى استبيح بها ما كان معصوماً من دمه، وهلكت بسببه بعده نفوس وأموال وغير ذلك، أيشك من ارتاض بالكتاب والسنة ونظر بعين الشريعة إن فعله ذلك مما حمله عليه من تجب مخالفته من الشيطان والنفس والهوى؟ وربما استحسن فعله ذلك من شيعته من ابتلي به أو قلده تقليداً ردياً في فعله «فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين» وإلى الآن كانوا يستصوبون فعله ويستحسنون قوله مع أنه بمعزل عن الكتاب والسنة.

فإن قلت: وهذه طائفة الفقراء ما بين متعصب متحزب ومتحيل متصيد ومتسور على ما استأثر به الباري من الغيوب مرتكب للآثام مصر على العيوب، قلت: وهذه طائفة الفقراء فيها جل ما تقدم وزيادات تضيق عن الإحاطة بها السطور والطروس قد بددتها، والعياذ بالله، الفتن وشردها ما تخوفته من المحن، بانت العلوم واضمحلت الفهوم وتعطلت الرسوم فلا منطوق يذكر ولا مفهوم.

هـذا الزمـان الـذي كـنـا نـحـاذره　　في قول كعب وفي قول ابن مسعود

قلت: وهذا الشيخ أبو زكرياء، وهو الذي يساق إلى نصحه الحديث، كنا نستسقي به ونستشفي، وكانت تشد إليه الرحال ولا يأنف من إتيانه النساء والرجال، قد أتته من أقطار مغربنا الوفود، ودانت له الذئاب والأسود وكان يعلم الجهال ويهدي الضلال، ويطعم الجائع ويكسو العريان، ويعين ذا الحاجة ويغيث اللّهفان، وهي سبيل يا لها من سبيل، وطريقة ما أحسنها من طريقة، ثم صارت تلك الجموع، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، أيدي سبا.

وتلاشت شذر مدر ما لها من نبا.

أيها الشيخ أكرمك الله بتسديده، أو تجد في الوجود ملكاً أعظم من ذلك الملك فتطلبه، أو سلطاناً يوازيه أو يقاربه فتحاوله، أين خفي عليك الشيء وهو ضروري؟ أم أين ضلت عنك النصوص من الكتاب والسنة وأنت منقولي معقولي؟ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: 16] ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: 10] و**«إن أبغض الكلام إلى الله أن يقول الرجل للرجل: اتق الله فيقول: عليك نفسك»** وهو طرف من حديث خرجه النسائي: وقد وعظتك وذكرتك إن نفعت الذكرى. قال جل من قائل ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات 55].

فقلت من التعجب ليت شعري أأيـقـاظ أمـيـة أم نـيـام

فإن قال شيطان من شياطين الإنس أو الجن: هذا ما أريد به وجه الله، قلت: الله الموعد، إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وإن خطر هذا وهجس بقلب الشيخ أكرمه الله والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، قلت: أدل دليل على أني قصدت محض النصيحة. هو أنه استنصحني على دفاع أبي محلي فنصحته وقلت له: إن هذا لا تستقيم معه الديانة فكأنه ما قبل فانفصلت عنه وهو يقول: استخر لي الله فكاتبته بأن لا يفعل، ثم لما نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به فقلت له إذ ذاك: إن الناس يقولون كذا وكذا وعرفته إذ ذاك بما عرفته من أبناء الزمان، فجمعنا في رملة إلى الآن أتخيل حرها، وتبرأ من كل ما يقال، وما زلت على المنع إلى أن جاءت كراريس من قبل أبي محلي فتأملتها فوجدتها مشتملة على كفريات في جزئيات، فيحنئذ شرح الله صدري لإباحة دفاعه.

ثم وإن قلت ذلك، فنفسي آمرة ولا أقول في نفسي ما كان يقوله سحنون في قضية ابن أبي الجواد: «مالي وله الشرع قتله» ولو قلت أو غششت لغششت في قضية ذلك الرجل وزينت لك قتاله أولاً لأن ذلك هو مقتضى التعصب للأمير وإذ لم أتعصب إذ ذاك فكيف أستسهله الآن، فتعين

أني نصحت لكم أن قبلتم، وإلا فكما قال تعالى عن نبي من أنبيائه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79] أنشدك الله الذي بإذنه تقوم السماوات والأرض أما قلت لك بعد رجوعي العام الأول من مراكش بل الذي قبله: إن العذر لا يحسن؟ وصرحت ولوحت بأن شق العصا لا يحل غير مرة؟ وما كفاني القول الدال على ذلك إلى أن زدت الفعل بالخروج من مدينة لا أبغضها كما قال:

فوالله ما فارقتها عن قلي لها   وإني بشطي جانبيها لعارف

ورضيت بالبادية، مع جفائها، فراراً من الفتن، وعملاً بقوله ﷺ: **«يوشك أن يكون خير مال الرجل غنماً يتبع به سعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»** ثم بعد، فعلى هذا كله، نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا، وعدوا عليّ من القبائح طاعتي للأئمة مع أنك يوم جاء إلى دارك قلت لهم: «هذا أميركم»، ونحن لا نشك أنك من المعتبرين في مغربنا وأن بيعتك لأحد لازمة لنا، وكذلك حين ذهبت إلى مراكش في وقعة أبي محلي قد أراد أهل مراكش فأبيت، وأبحت البلاد لخدم الأمير وقلت لهم: إنه الأمير. وفهمه الناس عنك بلسان الحال وبلسان المقال ونصروه بمرأى منك ومسمع، أفتشك بعد أن كان منك هذا أنك مبايع وأنت قدوة؟ وإذا كان هذا فأي حجة لك على الأمير ولا على المأمورين؟ فمن زين لك قتاله فقد غشك إذ هو مسلم وابن مسلمين.

فإن قلت: موافقتي مشروطة بشروط لم يوف لي بها، قلت: هب أنه لم يوف لك أفتستبيح قتاله لأجل ذلك؟ والرسول ﷺ يقول: **«إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار»** الحديث. فبالله أيها الشيخ ما تقول فى هذا الحديث وأنظاره؟ وما تقول فيما انتهب أو عسى أن ينتهب من أموال الناس وأخذ بغير حق وأنفق في سبيل الطاغوت والرسول ﷺ يقول: **«لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس؟»** أو ما تستحيي من ربك يوم تسأل عن النقير والقطمير، ولست ممن خفي عليه ذلك كله فتعذر عند

المخلوقين؟ أو ما علمت أن كثيراً من العوام يعتقد جواز ذلك إذ رآك ارتكبته فتكون قد سننت هذه السنة وضل بسبب ذلك كثير من الناس؟ أو ما خشيت دعوة المظلوم التي ما بينها وبين الله حجاب؟ أو ما كنت تعير من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتأسف عليه؟ **«لا تعير أخاك المؤمن»** الحديث.

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

أما انتبهت لما وقع لأهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الأحرار وهتك الحرم؟ **«إن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام»** الحديث. وقد أتانا السؤال من قبل الشيخ عن صنيع سكتانة ذلك ولم يستطع إذ ذاك من نظر بنور العلم أن يقول لهم في وزر نظراً إلى ما آل إليه الحال في أهل درعة مع أن جلهم حملة القرآن وعامتهم بله **«وأكثر أهل الجنة البله»**. أفيليق بحق الصلحاء أن يسلط عليهم من لا يرحمهم؟ **«ولا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي» «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» «من لا يرحم لا يرحم» «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»** أو نسيت أنه يقتص للجماء من القرناء؟ وأن الظلم الذي لا يتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض؟ أفي علمك أن حسناتك تفي بما عليك من التبعات؟ أو أنه لا تباعة لأحد عليك؟ ولو كنت بدرياً لاحتمل أن يقال في شأنك: ما قاله ﷺ لعمر: **«وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟»** أو كما قال عليه السلام، **«والظلم ظلمات يوم القيامة»** أو تستطيع أن تقتحم ظلمات الصراط وأنت مسؤول عن القيراط؟ وحتى أهل تارودانت بلغنا أنه لم يغن في شأنهم الترويع بل بلغ بهم الحال والجور إلى التقريع، فاتق الله أيها الشيخ ولا تكن كمن إذا قيل له: **«اتق الله أخذته العزة بالإثم»** هذا ما يتعلق ببعض حقوق الناس على العموم ويتعلق بحق كاتبه على الخصوص، إنك أخذت عليه أن يؤدي الطاعة للأمير ويرعى ما هو من شيم المؤمنين من حسن العهد والتبري من الغدر وشق العصا بعد أن بذل وسعه في نصحك ونصح الأمير، وحاول بكليته على جمع الكلمة وتعب في ذلك

واقتحم فيه عقبات لا يقطعها إلا بازل، ولا سبيل إليها لمن يكون في دينه وعمله مثلي ممن هو نازل:

لعمر أبيك ما نسب المعلى إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم.
إذا غاب ملاح السفينة فارتمت بها الريح هوجاً دبرتها الضفادع

ولكن ليس من شرط النصيحة كمال الناصح كما أنه ليس من شرط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير ما غير، لأن هذه طاعة وتلك أخرى، والتوفيق بيد الله سبحانه، نعم بلغني مع ذلك وجزم لي به أنك مع بذل النصح لك وللأمير أصلح الله الجميع وأصلح ذات بينهم أخذت عليّ بالرصد في قفولي لصبيتي والرجوع إليهم رعاية لما يجب ويندب من حقوقهم، وهل هذا إلا حكم الهوى والشيطان، أعندك ما تستبيح به ذلك؟ مع أني والحمد لله أينما كنت لا أسعى إلا في مصلحة جهد الاستطاعة أو بث نصيحة حين لا أرى من يبثها، أو إغاثة ملهوف حين تجب إغاثته، ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾ [المائدة: 28] الآية ولكن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43] وفي التوراة: «من حفر حفرة فليوسعها، ولا تحفرن بئراً تريد بها أخاً» فأين وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هذا قولاً أو فعل أو إشارة أو تصريحاً أو تلويحاً؟ وأي جريمة توازي هذه الجريمة؟ أو كبيرة من الآثام أكبر منها؟ والله الموعد، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227] هذا، والسعاية المصحوبة بسؤالي عن دفاع سكتانه أين تجدون ما يوجب إباحتها؟ أين غاب عنكم إنها من الكبائر؟ واين غاب عنكم قوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بكلمة يهوي بها في النار سبعين خريفاً؟» أهذا من أخلاق المؤمنين والصالحين؟ وأنت من بيت الصلاح، ما كان جدك يرضى مثل هذا و﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: 28] وهذا والله أعلم نتيجة قرناء السوء، ولا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، وإلى هذا ينتهي حق الصحبة أعني بذل النصح، إن الله يسأل عن صحبة ساعة

ونحن صحبناك واعتقدناك ونصحناك ووعظناك «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**» فنصرناك بالرد إلى الجادة، أين أنت من مولانا الحسن بن علي إذ تخلى عن الأمر لابن عمه معاوية مع أنه هاشمي علوي فاطمي إحدى ريحانتي النبي ﷺ ومعاوية أموي يجمعهما عبد مناف؟ فتخلى عن الإمارة مع أنه إمام وابن إمام وأصلح الله به، وهو سيد، بين فئتين عظيمتين من المسلمين، بعد أن كان يلقب بأمير المؤمنين، فقال له بعض أصحابه إذ سلم عليه: «يا عار المؤمنين» فلم يكترث بذلك وقال: «النار أشد من العار» ألهمنا الله وإياكم رشد أنفسنا وجعلنا وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه: انتهى.

ولم يزل الفقيه أبو زكرياء مصمماً على طلب جمع الكلمة إلى أن اخترمته المنية: قال صاحب الفوائد ما صورته: قام الشيخ أبو زكرياء بجمع الكلمة والنظر في مصالح الأمة واستمر به علاج ذلك إلى أن توفي ولم يتم له أمر انتهى، وكانت وفاته ليلة الخميس سادس جمادى الثانية من سنة خمس وثلاثين وألف بقصبة تارودانت وحمل من الغد إلى رباط والده فدفن بجنبه رحمه الله.

بقية أخبار السلطان زيدان وذكر وفاته رحمه الله(١)

قد ذكر المؤرخ لويز البرتغالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة شيئاً من أخبار السلطان زيدان رحمه الله فقال: «كان السلطان زيدان صاحب مراكش مسالماً لنا كافاً عن حربنا وكانت القبائل تفتات عليه فى غزونا فكانت غاراتهم لا تنقطع عنا، وكان هو أيضاً معهم فى شدة ومكابدة من أجل اعوجاجهم عليه» ثم ذكر أن من جملة من غزاهم فى دولته السيد سعيد الدكالي قلت: وأظنه والد السيد إسماعيل صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة، قال: فنهض سعيد بحال وغيرة وامتعاض للإسلام وسار إلى الجبل الأخضر وغيره فجمع الجموع نحو اثني عشر ألفاً وزحف بهم الى الجديدة، ووافقه على ذلك قائد آزمور وبعض أشياخ الشاوية، وكانوا فى نحو مائتين وخمسين من الخيل، وارتاع النصارى منهم وخافوا خوفاً شديداً، وأمرهم قائدهم بالجد فى حراسة الأسوار والأنقاب، وأن يسدوا باب الجديدة ولا يفتحوا منه إلا خوخته، وحاصرهم المسلمون ثلاثاً ثم قضى الله بوفاة السيد سعيد فافترق ذلك الجمع. قال لويز: «مات أسفاً على ما فاته من الفتك بالنصارى كما يحب».

وفي سنة أربع وثلاثين وألف خرج السلطان زيدان من مراكش وقصد ناحية آزمور ولما انتهى إلى الموضع المعروف بأم كرس من بلاد دكالة حمل إليه نصارى الجديدة هدية نفيسة، ثم قدم ثغر آزمور في نحو أربعين ألفاً من الخيل على ما زعم لويز ودخل البلد، وأخرج أهل آزمور عدة مدافع من البارود فرحاً به، ولما سمع نصارى الجديدة بذلك أخرجوا مدافعهم أيضاً فرحاً بالسلطان وأدباً معه.

(1) قضية أخذ الأسبان لكتب زيدان شهيرة في كتب الإفرنج وتواريخهم فتراجع فيها ولا بد والكتب لا زالت محفوظة بخزائن الأسكيريال قرب مادريد وقد دعت الحكومة الأسبانية في وقتنا هذا وهو 1342 أحد الفرنسيين لجعل برنامج لها.

وفي سنة ست وثلاثين وألف ثار على السلطان زيدان الفقير إبراهيم كانوت هكذا سماه لويز، ولم أدر من هو، قال: وفي خامس عشر من دجنبر من السنة تواقف جيش الثائر المذكور مع جيش السلطان للحرب ببلاد دكالة، وكان جيش السلطان يومئذ ألفاً وخمسمائة فقط، وجعل على مقدمته ابنه عبد الملك، فانهزم إبراهيم وقتل، وقتل جماعة كثيرة من أصحابه وقبض على ولده فبعثه السلطان مع عدد وافر من رؤوس أصحابه إلى مراكش وأخرج نصارى الجديدة المدافع أيضاً فرحاً بهذا الخبر، فبعث إليهم السلطان زيدان بفرس أحمر لقائدهم إكراماً له، وكتب إليهم بكتاب تاريخه سادس رمضان سنة ست وثلاثين وألف مكافأة لهم على أدبهم معه» انتهى كلام لويز وقال اليفرني رحمه الله: «كان السلطان زيدان من لدن مات أبوه المنصور وبويع هو بفاس في محاربة مع إخوته وأبنائهم ومقاتلة مع القائمين عليه من الثوار الذين تقدم ذكر بعضهم، ولم يخل قط في سنة من سني دولته من هزيمة عليه أو وقيعة بأصحابه، ووقعت بينه وبين إخوته معارك يشيب لها الوليد، وكان ذلك سبب خلاء المغرب، وخصوصاً مدينة مراكش، ومما عد عن نحس زيدان واستدل به على فشل ريحه أنه في بعض الوقائع بعث كاتبه عبد العزيز بن محمد التغلبي بعشرة قناطير من الذهب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وطلب منه أن يمده ببعض أجناده كما فعل مع عمه عبد الملك الغازي، فجهز له السلطان العثماني اثني عشر ألفاً من جيش الترك وركبوا البحر فلما توسطوه غرقوا جميعاً ولم ينج منهم إلا غراب واحد فيه شرذمة قليلة».

وقال منويل: إن قراصين الإصبنيول غنمت في بعض الأيام مركباً للسطان زيدان فيه أثاث نفيسة من جملتها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغير ذلك.

قال اليفرني: «وكان زيدان غير متوقف في الدماء ولا مبال بالعظائم قلت: وهو مخالف لما ذكره زيدان في رسالته التي خاطب بها أبا زكرياء

المتقدمة من أنه ما سعى في قتل أحد إلا بفتوى أهل العلم والظن بزيدان أنه ما قال ذلك إلا عن صدق، وإلا فمن البعيد أن يفخر على خصمه ويدلي بشيء هو متصف بضده.

وكان زيدان فقيهاً مشاركاً متضلعاً في العلوم. وله تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشري.

قال اليفرني: «وكان كثير المراء والجدال كما وقع له مع الشيخ أبي العباس الصومعي، قلت: الذي وقع له مع الصومعي هو أنه لما ألف كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه وسماه «المعزى» بضم الميم وفتح الزاي بصيغة اسم المفعول من الرباعي عارضه زيدان، وهو يومئذ بتادلا والياً عليها من قبل أبيه، بأنه لم يسمع الرباعي من هذه المادة وإنما قالت العرب: عزاه يعزوه ثلاثياً، فأصر أبو العباس رحمه الله على رأيه إلى أن لطمه زيدان على وجهه بالنعل، فشكاه إلى المنصور فقال له: لو لطمك وهو المخطئ لعاقبته أما إذا كان الصواب معه فلا.

قلت: كان زيدان يومئذ في عنفوان الشبيبة فصدر منه ما صدر:

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن منظمة الجهل الشباب

ومع ذلك فما كان من حقه أن يفعل، وأظن أن انتكاس رايته سائر أيامه إنما هو أثر من آثار تلك اللطمة، فإن لله تعالى غيرة على المنتسبين إلى جنابه العظيم، وإن كانوا مقصرين، فنسأله سبحانه أن يجنبنا موارد الشقاء ويسلك بنا مسالك الرفق في القضاء، وللسلطان زيدان شعر لا بأس به منه قوله:

فتنتنا سوالف وخدود وعيون مدعجات رقود
ووجوه تبارك الله فيها وشعور على المناكب سود
أهلكتنا الملاح وهي ظباء وخضعنا لها ونحن أسود

وقوله:

مررت بقبر هامد وسط روضة عليه من النوار مثل النمارق

فقلت لمن هذا فقالوا بذلة ترحم عليه إنه قبر عاشق

وكانت وفاته رحمه الله في المحرم فاتح سنة سبع وثلاثين وألف، ودفن بجانب قبر أبيه من قبور الأشراف قبلي جامع المنصور من قصبة مراكش ومما نقش على رخامة قبره قول القائل:

هذا ضريح من به	تفتخر المفاخر
حامي حمى الدين بكـ	ـل ذابل وباتر
لا زال صوب رحمة اللـ	ـه عليه ماطر
أرخ وفاة من غدا	جاراً لرب غافر
زيدان سبط أحمد	مبتكر المآثر
أجل من خاض الوغا	وللأعادي قاهر
ومن شذا رضوانه	نفحة كل عاطر
بمقعد الصدق علا	أبو المعالي الناصر

ووزراؤه: الباشا محمود، ويحيى آجانا الوريكي وغيرهما، وكتابه: عبد العزيز الفشتالي كاتب أبيه، وعبد العزيز بن محمد التغلبي وغيرهما، وقضاته: أبو عبد الله الرجراجي وغيره، وترك عدة أولاد منهم: عبد الملك والوليد ومحمد الشيخ، وهؤلاء ولوا الأمر بعده، وأحمد وغيرهم رحم الله الجميع.

الخبر عن دولة السلطان أبي مروان عبد الملك بن زيدان رحمه الله

لما توفي السلطان زيدان رحمه الله في التاريخ المتقدم بويع بعده ابنه عبد الملك، ولما تمت له البيعة ثار عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب إلى أن هزمهما واستولى على ما كان بيدهما من العدة والذخيرة، وفر أحمد إلى بلاد الغرب فدخل حضرة فاس يوم الجمعة الخامس والعشرين من صفر بعد وفاة أبيه بستة وأربعين يوماً فاتسم بسمة

السلطان وضرب سكته، وفي ثالث عشر شوال من السنة عدا على ابن عمه محمد بن الشيخ المعروف بزغودة فقتله غدراً بالقصبة، ولما كان الحادي عشر من ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وألف أخذ أحمد المذكور وسجن بفاس الجديد على يد قائدهم عبو وباها وبقي مسجوناً سبع سنين ثم خرج من السجن مستخفياً بين نساء في سابع رجب سنة أربع وأربعين وألف وأعلن العامة بنصره ولم يتم له أمر، ثم توفي قتيلاً في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وألف رمي برصاصة من بعض العامة فكان منها حتفه وذلك بفاس الجديد ولم يتم له أمر.

ظهور أبي عبد اللّه العياشي بسلا ومبايعة أكابر عصره له على الجهاد والقيام بالحق

قد تقدم لنا انتقاض أندلس سلا على السلطان زيدان وقتلهم مولاه عجيباً فبقيت سلا فوضى لا والي بها فكثر النهب وامتدت أيدي اللصوص إلى المال والحريم، وسيدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم وكثرت الشكايات من التجار والمسافرين بمخافة السبل وقطع الطرقات، فأهرع الناس إلى أبي عبد اللّه المذكور من كل جانب، وكثرت وفوده، وأشرقت في الجو السلاوي أنواره، فشمر عن ساعد الجد وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما طالبه الناس بالتقدم عليهم والنظر في مصالح المسلمين وأمور جهادهم مع عدوهم أمر أشياخ القبائل وأعيانها من عرب وبربر ورؤساء الأمصار أن يضعوا خطوطهم في ظهير بأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم والتزموا طاعته، وأن أي قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يداً واحدة على مقاتلتها حتى تفيء إلى أمر الله، فأعطوا بذلك خطوطهم في ظهير، وأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم، ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا إلى تازا.

وكان الحامل له على طلب ذلك منهم أنه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنه قال لا يحل الجهاد إلا مع الأمير، ففعل ذلك خروجاً من تلك الدعوى الواهية، وإلا فقد كتب له علماء الوقت كالإمام أبي محمد عبد الواحد بن عاشر، والإمام أبي إسحاق إبراهيم الكلالي بضم الكاف المعقودة، والإمام أبي عبد الله محمد العربي الفاسي وغيرهم بأن مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف على وجود السلطان وإنما جماعة المسلمين تقوم مقامه[1]، ولما كمل أمره وبايعه الناس على إعلاء كلمة الله ورد الظلم عن ضعفاء الأمة ضاق الأمر على عرب الغرب لاعتيادهم الفساد وعدم الوازع ومحبتهم الخلاف والفتنة، فنكث بيعته جماعة منهم.

وكان ممن نكث الناصر بن الزبير في لمة من شراقة فقاتلهم أبو عبد الله حتى ظفر بهم ثم عفا عنهم، ونكث أيضاً الطاغي بالتاء بدل الطاء في لسانهم مع جموعه أولاد سجير فغلبهم وعفا عنهم، وكذلك عرب الحياينة طغوا على أهل فاس وعاثوا خلال تلك البلاد بإغراء ولد السلطان زيدان، فقاتلهم أبو عبد الله فكانت الدبرة عليهم، وتاب على يده جماعة من رؤساء شراقة الذين كانوا مع الحياينة، وكانت عاقبة كل من بغى عليه خسراً.

وكان أهل سلا قد لقوا من نصارى المعمورة مضرة وشدة، فلما اجتمعت الكلمة على أبي عبد الله العياشي ورد الله كيد من نكث في نحره كان أول ما بدأ به أنه تهيأ للخروج إلى حلق المعمورة، واستعد لقتاله ومنازلة من فيه من النصارى طمعاً في فتحه فيتقوى المسلمون بذخائره، وكان المسلمون قد حاصروه قبل ذلك فلم يقدروا منه على شيء وصعب عليهم أمره، وكان أبو عبد الله إذا أراد الله أن يظفره بغنيمة رأى في منامه أنه يسوق خنازير أو نحوها، ولما سار بجموعه إلى الحلق ونزل عليه رأى قطعتين من

---

(1) بل في مقدمات ابن رشد ما نصه: «ويجاهد العدو مع كل بر وفاجر وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» اهـ فكيف بهذا الولي الكبير رضي الله عنه. اهـ من إملاء مؤلفه.

الخنازير معها عنوز، فكان من قضاء الله وصنعه أنه في صبيحة تلك الليلة قدمت أغربة من سفن النصارى بقصد الدخول إلى الحلق فضيق عليهم رماة المسلمين الذين بالخندق، فأرادوا أن ينحرفوا إلى البحر فردهم البحر إلى ساحل الرمل هنالك فتمكن المسلمون منهم وقتلوا وسبوا ووجدوا في الأغربة زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين فأعتقهم الله، وأسر يومئذ من النصارى أكثر من ثلاثمائة، وقتل منهم أكثر من مائتين، وظفر المسلمون بقبطان من عظمائهم ففدى به الرئيس طابق رئيس أهل الجزائر، وكان عندهم محبوساً في قفص من حديد.

واستقامت الأمور لأبي عبد اللّه العياشي بسلا وبنى داره داخل باب المعلقة منها، وبنى برجين على ساحل مرسي العدوتين من ناحية سلا، وهما المعروفان اليوم بالبساتين.

ثم كانت غزوة الحلق الكبرى وكان من خبرها أن جيش أهل فاس خرجوا بقصد الجهاد فنزلوا بموضع يعرف بعين السبع وكمنوا فيه ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع خرج النصارى إلى تلك الجهات على غرة فظفر بهم المسلمون، وكان النصارى لما خرج جيش أهل فاس أعلمهم بذلك مسلم عندهم مرتد فأعطوه سلعاً وجاء بها إلى سلا بقصد بيعها والتجسس لهم على الخبر فأخذ وقتل، وعميت عليهم الأنباء إذ كانوا ينتظرون من يرد عليهم فيخبرهم، ولما أبطأ عليهم خرجوا فلم يشعروا إلا بالخيل قد أحاطت بهم وقتل منهم نحو الستمائة، ولم ينج إلا القليل حتى لم يبت في الحلق تلك الليلة إلا نحو أربعين رجلاً منهم، وغنم المسلمون منهم أربعمائة من العدة، ولم يحضر أبو عبد اللّه العياشي في هذه الوقعة لأنه كان قد ذهب إلى طنجة حنقاً على يوم المسامير، لأن النصارى خذلهم الله كانوا قد صنعوا نوعاً من المسمار بثلاثة رؤوس تنزل على الأرض والرابع يبقى مرفوعاً، وبثوا ذلك في مجالات القتال مكيدة عظيمة تتضرر منها الفرسان والرجالة، فلما رجع وأعلم بضعف من بقي بالحلق بعث إلى أهل الأندلس بسلا يصنعون له السلالم كي يصعد بها إلى من بقي في الحلق فيستأصلهم، فتثاقلوا عن صنعها غشاً

للإسلام ومناواة لأبي عبد اللّه، حتى جاء المدد لأهل الحلق، وكانت تلك الرابطة بين أهل الأندلس والنصارى متوارثة من لدن كانوا بأرضهم، فكانوا آنس بهم من أهل المغرب، فلما أتى أبو عبد اللّه بالسلالم لم تغن بعد شيئاً، ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين أهل الأندلس، وكان أهل الأندلس قد أعلموا النصارى بأن محلة أبي عبد اللّه النازلة لمحاصرة الحلق ليست لها إقامة فبلغ ذلك أبا عبد اللّه فأقام عليهم الحجة، وشاور العلماء في قتالهم فأفتى أبو عبد اللّه العربي الفاسي وغيره بجواز مقاتلتهم، لأنهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم، ولأنهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب، وقطعوا البيع والشراء عن الناس، وخصوا به أنفسهم وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح، وكان سيدي عبد الواحد بن عاشر لم يجب عن هذه القضية حتى رأى بعينه حين قدم إلى سلا بقصد المرابطة، فرأى أهل الأندلس يحملون الطعام إلى النصارى، ويعلمونهم بعورة المسلمين، فأفتى حينئذ بجواز مقاتلتهم فقاتلهم أبو عبد اللّه وحكم السيف في رقابهم أياماً إلى أن أخمد بدعتهم، وجمع الكلمة بهم.

ولما وقعت غزوة الحلق الكبرى قدمت الوفود على أبي عبد اللّه بقصد التهنئة بما منحه الله من الظفر فحض الناس على استئصال شافة من بقي بالحلق من النصارى، وعير العرب بترك الكفار في بلادهم، وكان ممن حضر من العرب جماعة من الخلط وبني مالك والتاغي والدخيسي وغيرهم، فقال لهم أبو عبد اللّه: «والله والله والله إن لم تأخذكم النصارى لتأخذنكم البربر» فقالوا: «يا سيدي كيف يكون هذا وأنت فينا؟» فقال لهم: «اسكتوا أنتم الذين تقطعون رأسي» فكان كذلك، وهذا من كراماته رضي الله عنه، ثم صرف عزمه إلى التضييق على نصارى العرائش وشن الغارات عليهم، فتقدم في جمع من المسلمين وكمن بالغابة نحواً من سبعة أيام فخرجوا على حين غفلة فمكن الله من رقابهم، وكان في مدة كمونه بالغابة أخذ حناشاً من عرب طليق يقال له ابن عبود، والحناش في لسان عامة أهل المغرب هو الجاسوس، فأراد عبد اللّه قتله، فقال له: «اسبقني وأنا تائب إلى الله وأنا أنفع المسلمين

إن شاء الله» فتركه فذهب إلى النصارى وكان موثوقاً به عندهم حتى كانوا يؤدون إليه الراتب، فقال لهم: «إن أحياء العرب وحللها قد نزلوا بوادي العرائش فلو أغرتم عليهم لغنمتموهم» فخرجوا فمكن الله منهم وطحنهم المسلمون في ساعة واحدة طحن الحصيد، ولم ينج منهم إلا الشريد، وكان ابن عبود قد بقي بأيديهم فأخذوه ومثلوا به ونزعوا أسنانه وأرادوا قتله لولا أنه رفعهم إلى شرعهم، وكان عدد من قتل من النصارى نحو ألف وكانت هذه الوقعة سنة أربعين وألف.

بقية أخبار السلطان عبد الملك بن زيدان ووفاته

قال اليفرني: كان عبد الملك بن زيدان فاسد السيرة مطموس البصيرة وبلغ من قلة ديانته أنه تزايد له مولود فأظهر أنه أراد أن يحتفل لسابعه فبعث إلى نساء أعيان مراكش ونساء خدامه أن يحضرن، وصعد هو إلى منارة في داره فنظر إلى النساء وهن منتشرات قد وضعن ثيابهن فأيتهن أعجبته بعث إليها وكان مدمناً على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الأحد سادس عشر شعبان سنة أربعين وألف، ودفن إلى جنب قبر أبيه.

وبسط منويل خبر مقتله فقال: «لما ثار الوليد على أخيه عبد الملك وعادت الكرة عليه بقي متنقلاً في البلاد ثم رغب إلى أخيه حتى رده إلى مراكش، فأخذ الوليد يستميل رؤساء الدولة ووجوهها وتجارها ويعدهم بالإحسان حتى وافقوه على الفتك بأخيه فترصدوه حتى غفل البوابون ودخلوا عليه قبته وهو متكئ على طنفسة فرموه برصاصة وتناولوه بالخناجر المسماة عند المغاربة بالكميات، وقامت الهيعة بالمشور والقصبة فخاف الوليد على نفسه من بعض قواد الجند فأخرج جنازة أخيه إلى المشور حتى شاهده الناس ميتاً فسكنوا وانقطع أملهم وبايعوه» انتهى قال اليفرني: ومما رأيته منقوشاً على رخامة قبره هذان البيتان:

لا تـقـنـطـن فـإن الله مـنـان وعـنـده لـلـورى عـفـو وغـفـران
إن كان عندك إهمال ومعصية فـعـنـد ربـك أفـضـال وإحـسـان

ومن وزرائه: محمد باشا العلج ويحيى آجانا الوريكي وجؤذر وغيرهم. وقاضيه: الفقيه أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمٰن السكتاني قاضي مراكش. ومفتيه: أبو العباس أحمد السملالي رحم الله الجميع.

الخبر عن دولة السلطان أبي يزيد الوليد بن زيدان رحمه الله

لما قتل السلطان عبد الملك بن زيدان في التاريخ المتقدم بويع أخوه الوليد بن زيدان فلم يزل مقتصراً على ما كان لأخيه وأبيه من قبله لم يجاوز سلطانه مراكش وأعمالها، وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة، ولم يصل به ليلة القدر إلا رجل واحد من شدة الهول والحروب التي كانت بين أهل المدينة.

واقتسم المغرب في أيام أولاد زيدان طوائف فكان حاله كحال الأندلس أيام طوائفها كما ذكرنا ونذكر بعد إن شاء الله.

ظهور أبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة بالسوس ثم استيلاؤه على درعة وسجلماسة وأعمالها

هذا الرجل هو أبو الحسن، ويقال: أبو حسون علي بن محمد بن محمد بن الولي الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السملالي، وكان بدء أمره أنه لما ضعف أمر السلطان زيدان بالصقع السوسي وفشل ريحه فيه نبغ هو فدعا لنفسه وجر نار الرياسة إلى قرصه، وتألبت عليه البرابرة من بسائط جزولة وجبالها، والتفت عليه غالب القبائل السوسية فاستولى على تارودانت وأعمالها إلى أن أخرجه عنها الفقيه أبو زكرياء بن عبد المنعم بعد حروب

وفتن عظيمة حسبما مرت الإشارة إليه.(1)

ولما توفي أبو زكرياء في التاريخ المتقدم صفا لأبي حسون قطر السوس ونفذ فيه أمره وسمعت كلمته، ثم بعد مهلك زيدان مد يده إلى درعة فاستولى عليها، ثم استولى على سجلماسة ونواحيها فاستحكم أمره وتقوى عضده.

ولم يزل أمره نافذاً في سجلماسة إلى أن ثار عليه الأسد الهصور المولى محمد بن الشريف فأخرجه من سجلماسة بعد حروب يشيب لها الوليد، ثم أخرجه من درعة أيضاً على ما نذكره بعد، وقد وقفت على سؤال رفع من جانب أبي حسون إلى القاضي أبي مهدي السكتاني في شأن مدينة إيليغ دار رياسته ومقر عزه يستفتيه في إحداث كنيسة اليهود بها هل يجوز أم لا وفيه مع ذلك بعض الكشف عن حال هذه المدينة فلنذكره ونصه:

«الحمد لله الذي ارتضى للإسلام ديناً، وأنزل به على خيرة خلقه كتاباً مبيناً، الفقيه الأجل العلامة الأحفل القاضي الأعدل، خاتمة المحققين ومعتمد الموثقين، أبا مهدي عيسى بن عبد الرحمٰن السكتاني وفقه الله لما يرضيه، وأعانه على ما هو متوليه، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فقد تقرر عند سيدنا أمر هذه الحضرة العلية العلوية إيليغ أدام الله بهجتها، كما رفع كغيرها من الحواضر درجتها، وأنها محدثة فتوفرت ببركة بانيها عمارتها ومبانيها، فاتخذها مسكناً أهل السهول والحزون، وجمعت لطيب تربتها بين الضب والنون، فنزلها برسم الاستيطان أوشاب من أهل الذمة، بإذن مختطها

(1) قال التمانرتي في الفوائد: وفي ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وألف حاصر بغاة العرب والبربر مدينة السوس الأقصى تارودانت وهي إذ ذاك تحت إمارة الأمير أبي الحسن الجزولي فاستباحوها إلا قصبتها وحاصروها خمسة وعشرين يوماً وحفروا أسراباً تحت سورها فوجدوا قاعدة أساسها لا تنال الفؤوس منه شيئاً لوثاقته فقنطوا وبلغ خبرهم الأمير المذكور فطوى إليهم المراحل من الصحراء ولما قارب بلاد السوس أقلعوا وهربوا عنها فورد في جيش عظيم من جزولة فأقام بها حتى أصلحها وشحنها بالعدد والجيوش ولم يتمكن من البغاة لتفرقهم في الجبال اهـ الغرض منه ويظهر أن القطر السوسي صفا بعد هذا التاريخ لأبي حسون واستتب فيه أمره.

الإمام العالي الهمة، فاختطوا بها عن إذنه منازلهم وبنوا بفنائها كنيستهم وصيروها متعبدهم، فاتفق، والحديث شجون، أن جرى ببعض أندية علمائها، ومحضر جمع من نبهاء البلدة وفقهائها، كلام أفضى بهم إلى ذكر الكنيسة المذكورة، والمجادلة في محصل الحكم الشرعي فيها في الدواوين المسطورة، فأفتى بعضهم بوجوب هدمها لأنها محدثة ببلاد الإسلام، ولما في تركها من المفاسد العظام، وأنها لا تترك لهم متعبداً وجزم الكلام، وقال: هذا محصل ما ذكره في مثل هذه القضية الأعلام، وأفتى فريق بجواز إبقائها، وأنه لا ينبغي تقويض بنائها، ولا التعرض لهم في إحداثها، إذ على مثل هذا من دينهم الفاسد أقروا وأعطوا الذمة فأعطوا الجزية صاغرين ولم يرد منع اجتماع دينين إلا في جزيرة العرب، وكم من بلد إسلامي محدث مشحون بالعلماء أحدثت فيه ولم يقولوا بمنعه وتواطؤهم على تركها كالنص والدليل على جواز إحداثها وإبقائها بعده، واستمر الحجاج، وكثر اللجاج، ولم يقنع كل فريق بما أبداه الآخر من الاحتجاج، فعطلت لذلك إلى أن تفرقوا فيها بعلمكم النافع بين العذب والأجاج بفتوى تبين صحيح الأقوال من سقيمها، وتفصل بين ليلى وغريمها، ولولا محل النازلة من الدين ما رفعت إليكم، فلذلك وجب الجواب عنها عليكم، مع مسألة أخرى وهي: أنهم طلبوا أن تترك لهم بقعة يوارون فيها جيف موتاهم لأن مسافة ما بينهم وبين أفران التي هي مقبرة قديمة لهم بعيدة هل يساعفون أم لا، والله يبقيكم ومجدكم محروس، وظل من استزلكم مكنوس. والسلام عليكم».

الجواب:

«الحمد لله وعلى فقهاء بلادنا السوسية حرسها الله وأكرمهم باتباع سنة رسول الله ﷺ السلام ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فقد وقف كاتبه عفا الله عنه على نازلة أهل الذمة النازلين بإيليغ مختط أولاد السيد البركة قطب بلادنا سيدي أحمد بن موسى نفعنا الله ببركاته وبارك في ذريته وسددهم لما فيه رضاه آمين، ولما وقفت عليها وتأملتها فرأيت أن الصواب فيها الفتوى بمنع

إحداث أهل الذمة الكنائس فيها وبهدم ما بني فيها بعد إحداثه لأن إيليغ من بلاد الإسلام، ولا فيه شبهة لأهل الذمة الطارين عليه لا باعتبار الفتح العنوي ولا باعتبار الصلحي على الخلاف في المغرب باعتبار فتحه، وحاصل أمرها خفاء الحال فيها وإذا كان الأمر هكذا فالحكم أنها ملك لمدعيها الحائز لها، والأراضي أقسام: أرض إسلام لا يجوز إحداث الكنائس بها باتفاق، ثم إن وقع شيء من ذلك هدم، وأرض إيليغ من هذا القسم فإن ملكوا الأرض التي بنوا فيها الكنيسة بوجه من وجوه التملك كالعطية وجب هدمها ونقضها، ويكون لهم ما يسوغ من المنافع، وإن كان بناء الكنيسة شرطاً ردت العطية وفسخ البيع إن كان به لأنه في معنى التحبيس على الكنيسة، والحاصل أن وجه دخول اليهود إيليغ معلوم، وأن بلده ملك للإسلام، فبناء اليهود فيها الكنائس معصية، وتمكينهم منه إعانة عليها وهذا لا يخفى، وأما الجواز والإفتاء به في النازلة فبمعزل عن الصواب والاستدلال على الجواز بحواضر المغرب وسكوت علمائها وموافقة أمرائها لا يتم، لأن أصل تمكينهم من الكنائس مجهول، إذ يحتمل أموراً منها: أنه يحتمل أن يكون بعهد كان لهم في غير تلك البلاد من إقرارهم على بلد يسكنونه مع بقائهم على متعبداتهم، ثم نقلوا لمصلحة اقتضت ذلك، أو أرجح، ولأن البلاد تقدم فيها اليهود وغيرهم من أهل الصلح، والحاصل أن وجه دخولهم مجهول في هذه البلاد بخلاف إيليغ، ونازلة إيليغ معلومة الدخول فبينهما بون فقياس إحداهما على الأخرى لا يصح وبالله التوفيق وكتب عيسى بن عبد الرحمٰن وفقه الله آمين.

ولما علم المرابط بالحكم أمر بهدمها ومنع اليهود مما أرادوه.

بقية أخبار السلطان الوليد ابن زيدان ووفاته رحمه الله

قال في شرح الزهرة: كان الوليد بن زيدان متظاهراً بالديانة، لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة، وكان مولعاً بالسماع لا ينفك عنه ليلاً ولا نهاراً، إلا أنه كان يقتل الأشراف من إخوته وبني عمه حتى أفنى أكثرهم، وكان مع ذلك محباً في العلماء مائلاً إليهم بكليته متواضعاً لهم، وله ألف القائد أبو الحسن علي بن الطيب منظومته المشهورة في الفواكه الصيفية والخريفية، وألف القاضي أبو مهدي السكتاني شرح صغرى الصغرى للسنوسي برسمه، والقصبة المعروفة بالوليدية على ساحل البحر المحيط فيما بين آسفي وتيط هي منسوبة إليه وأظنها من بنائه[1] والله أعلم.

وأما وفاته فسببها أن جنده من العلوج طالبوه بمرتبهم وأعطياتهم على العادة وقالوا له: «أعطنا ما نأكل» فقال لهم على طريق التهكم: «كلوا قشر النارنج بالمسرة» فغضبوا لذلك وكمن له أربعة منهم فقتلوه غدراً يوم الخميس الرابع عشر من رمضان المعظم سنة خمس وأربعين وألف.

وقال منويل: لما ولي الوليد قتل أخاه إسماعيل واثنين من أولاد أخيه عبد الملك وسبعة من بني عمه، ولم يترك إلا أخاه الشيخ بن زيدان استصغاراً له إذ كان سنه يومئذ إحدى عشرة سنة، وكانت أمه تخاف عليه من الوليد فكانت تحرسه منه حراسة شديدة، وألقى الله محبته في قلب سائر نساء القصر لما رأين من هلاك الأعياص وعرضة الملك للزوال، وكن حازمات يقمن مقام الرجال حتى إن بعضهن كانت لها طبنجات في حزامها دائماً تحرس الشيخ من أخيه الوليد.

ثم إن رؤساء الدولة سئموا ملكته فاتفقوا مع نساء القصر على قتله،

(1) قد جزم المؤرخ الفرنسي دو كاستري بأنها من بنائه وأن بناءها كان في سنة 1634 مسيحية وأن الوليد استعمل في تشييدها عدداً من أسرى النصارى اهـ.

وكان الوليد عازماً على قتل أخيه الشيخ أيضاً، فاحتال بأن صنع ذات ليلة صنيعاً عظيماً وطعاماً كثيراً دعا إليه وجوه الدولة وأعيان مراكش، وكان أخوه الشيخ عنده في الدار لا يتركه يخرج بحال، وعزم أنه إذا اشتغل نساء القصر بأمر الطعام ونحوه خالف إليه وقتله، فكان من قدر الله أن العلوج قد عزموا في تلك الليلة على اغتيال الوليد فكمنوا له في الحجرة التي كان الشيخ محبوساً فيها، ثم لما جاء الوقت واجتمع الناس في القبة التي أعدها لهم الوليد قام ودخل الى الحجرة التي فيها الشيخ للفتك به فوجد الأعلاج كامنين له هناك، فلما رآهم فزع، وقال: «ما لكم؟» فرموه بالرصاص ثم تناولوه بالخناجر حتى فاظ انتهى[1].

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

لما قتل السلطان الوليد في التاريخ المتقدم اختلف الناس فيمن يقدمونه للولاية عليهم ثم أجمع رأيهم على مبايعة أخيه محمد الشيخ وإلقاء القيادة إليه فأخرجوه من السجن، وكان أخوه الوليد قد سجنه إذ كان يتخوف منه الخروج عليه، فبويع بمراكش يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس وأربعين وألف. ولما بويع سار في الناس سيرة حميدة وألان الجانب للكافة، وكان متواضعاً في نفسه صفوحاً عن الهفوات متوقفاً عن سفك الدماء مائلاً إلى الراحة والدعاء متظاهراً بالخير ومحبة الصالحين، وهو الذي بنا على قبر الشيخ أبي عبد اللّه محمد بن أبي بكر الدلائي بزاويته قبة حافلة البناء رائقة الصنعة، إلا أنه كان مكنوس الراية مهزوم الجيش، وبسبب ذلك لم يصف له مما كان بيد أبيه وإخوته إلا مراكش وبعض أعمالها.

(1) راجع خبر هدية الوليد للحرم الشريف سنة 1042 في تاريخ مراكش ج 4 ص 275 للتعارجي المراكشي.

وقد ثار عليه رجل من هشتوكة خارج باب الخميس من مراكش وقاسى في محاربته تعباً شديداً ولم يزل يناوشه القتال إلى أن كانت له عليه الكرة ففرق جمعه، ثم خرجت عليه أيضاً قبيلة الشياظمة فقصدهم، وكانت الملاقاة بينه وبينهم عند جبل الحديد، فانهزم هزيمة شنعاء. ثم حدث بينه وبين أهل زاوية الدلائي ما نذكره بعد إن شاء الله.

ومما ذكره منويل من أخباره: «أنه كان محسناً لسائر رعيته وكان حاله على الضد من جور أخيه الوليد وعسفه»، قال: «وسرح الفرايلية الذين كانوا في سجن مراكش وأعطاهم الكنيسة التي بالسجينة منها وخالفت عليه سلا وأعمالها» انتهى.

بقية أخبار أبي عبد الله العياشي بسلا والثغور وما يتبع ذلك

كان أمر أبي عبد الله العياشي بسلا وسائر بلاد المغرب على ما وصفناه قبل من جهاد العدو والتضييق عليه والمصابرة له والإبلاغ في نكايته فانتعش به الإسلام وازدهرت الأيام، ودخلت في طاعته القبائل والأمصار من تامسنا إلى تازا كما قلنا، لا سيما فاس وأعلامها فإنهم قد شايعوه وتابعوه على ما كان بصدده من الجهاد والرباط، وحصل لهم بصحبته وولايته أتم اغتباط، ولم يزل في نحر العدو إلى أن أمن سرب المسلمين وحق القول على الكافرين.

وفادة أعلام فاس وأشرافها على أبي عبد اللّه العياشي بسلا

هذه الوفادة قد ذكرها الإمام العلامة أبو عبد اللّه محمد بن أحمد ميارة الفاسي في فاتحة شرحه الصغير على «المرشد المعين».

قال في «نشر المثاني»: «وسببها ما وقع من الحرب بين أهل فاس وبين الحياينة وشراقة على قنطرة وادي سبو، وقتل فيها من أهل فاس خمسة وأربعون رجلاً، فخرج شرفاء فاس وفقهاؤها إلى سلا مستغيثين بأبي عبد اللّه العياشي» قال: «وكان الذي أغرى الحياينة بفاس هو أحمد بن زيدان التفوا عليه وقاموا بدعوته ووصلوا أيديهم بشراقة وفعلوا بفاس وأهلها الأفاعيل حتى اختطفوا في بعض الأيام نساءهم من الجنات وباعوهن في القبائل وفعلوا بهن ما لا يجوز» قال الشيخ ميارة: «قد منّ عليّ ذو العظمة والجلال، الكريم المتفضل المتعال، بزيارة الولي الصالح، العالم العامل السائح، قطب الزمان وكهف الأمان، المجاهد في سبيل رب العالمين، المرابط في الثغور مدة عمره لحياطة المسلمين، ذي الكرامات الشهيرة العديدة، والفتوحات العظيمة الحميدة، من لا شبيه له في عصره وما قرب منه ولا نظير، ولا معين له على نصرة الإسلام ولا نصير إلا الله الذي تفضل به علينا، وأقره بمنه وجوده بين أظهرنا فهو كما قيل:

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

البركة القدوة، المجاب الدعوة، أبي عبد اللّه سيدي محمد بن أحمد العياشي أبقى الله بركته، وعظم حرمته وبلغه من خير الدارين أمنيته، وأطال للمسلمين عمره وقواه، وجعل الجنة نزله ومأواه، مع جماعة من أعيان السادة، من الشرفاء والفقهاء القادة، وذلك أواسط ذي الحجة الحرام متم سبعة وأربعين وألف عام، وهو رزقنا الله رضاه بثغر سلا، أمنها الله من كل مكروه وبلا، فاجتمعت إذ ذاك بنجله السعيد الموفق الرشيد، العالم الهمام،

حجة الله في الإسلام، ذي العقل الراجح، والهدي الواضح، «عهود من الآباء توارثتها الأبناء» المتواضع الخاشع، صاحب القلم البارع، سيدي وسندي أبي محمد عبد اللّه سلمه الله من كل مكروه ووقاه، فحضني حفظه الله على اختصار الشرح المذكور، يعني: «شرحه الكبير على المرشد المعين» بعد أن طالع جله وسر به كل السرور، وحث علي في تقديم ذلك على جميع الأمور، فلما قفلت من وجهتي شرعت في ذلك تاركاً للتسويف، طالباً من المولى سبحانه السلامة من الخطأ والتحريف». انتهى المقصود منه.

قال في «نشر المثاني»: «إن أبا عبد اللّه العياشي قدم فاساً ونظر في أمرها وغزا عرب الحياينة مراراً وأثخن فيهم حتى خضعوا للطاعة».

إيقاع أبي عبد اللّه العياشي بنصارى الجديدة

سبب هذه الغزوة كما ذكره الفقيه العلامة قاضي تامسنا أبو زيد عبد الرحمٰن بن أحمد الغنامي الشاوي المعروف بسيدي رحو الغنامي أن نصارى الجديدة عقدوا المهادنة مع أهل آزمور مدة، فكان من عزة النصارى وذلة المسلمين في تلك المدة ما تنفطر منه الأكباد وتخر له الأطواد، فمن ذلك: أن زوجة قبطانهم خرجت ذات يوم في محفتها ومعها صواحباتها إلى أن وصلت حلة العرب فتلقاها أهل الحلة بالزغاريت والفرح، وصنعوا لها من الأطعمة وحملوا لها من هدايا الدجاج والحليب والبيض شيئاً كثيراً فظلت عندهم في فرح عظيم، ولما كان الليل رجعت، ووقع لها أيضاً: أنها أمرت القبطان زوجها أن يخرج بجيشه ويبعث إلى قائد آزمور أن يخرج بجيش المسلمين فيلعبوا فيما بينهم وهي تنظر إليهم بقصد الفرجة والنزهة فكان كذلك، فجعلوا يلعبون وهي تتفرج فيهم فما كان بأسرع من أن حمل نصراني على مسلم فقتله، فكلم قائد المسلمين القبطان وأخبره بما وقع، فقال له القبطان: «فما يضركم إن مات شهيداً» يهزأ بالمسلمين ويسخر منهم، قال:

«وكان الولي الصالح العابد، الناسك الزاهد المجاهد، رافع لواء الإسلام، ومحيي منهاج النبي عليه الصلاة والسلام، سيدي محمد العياشي كلما سمع شيئاً من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا منام، وهو يفكر كيف تكون الحيلة في زوال المعرة عن المسلمين بتلك الجهة وغسل أعراضهم من وسخ الإهانة، وهو مع ذلك يخاف من العيون الذين يرصدونه من صاحب مراكش وقائد آزمور. ومن قبطان الجديدة، إذ كان ما خلف وادي أم الربيع إلى مراكش باقياً في دعوة السلطان لم يدخل في دعوة أبي عبد اللّه المذكور، فمكث كذلك ثلاث سنين، ولما رأى أن الأمر لا يزيد إلا شدة أوعز إلى بعض أولاد ذؤيب من أولاد أبي عزيز أن يجلبوا إلى النصارى شيئاً من القمح خفية وأن يكون ذلك شيئاً فشيئاً حتى تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويوهمهم النصح والمحبة، فلما حصل ذلك جاءه جماعة منهم وأخبروه الخبر وأطلعوه على غرة النصارى خذلهم الله، فعزم على قصد الجديدة ثم بدا له في تقديم غزو العرائش، ثم يأتي الجديدة بغتة، ففعل رحمه الله، وكان ذلك أوائل صفر سنة تسع وأربعين وألف.

ثم عزم على قصد الجديدة فذكروا له أن وادي أم الربيع في نهاية المد والامتلاء فلم ينته عن ذلك وسار حتى بلغ الوادي المذكور على مشرع أبي الأعوان فوجده ممتلئاً جداً لا يكاد يدخله أحد إلا غرق، فقال لأصحابه وسائر من معه: «توكلوا على الله واجتهدوا في الدعاء» ثم اقتحم الوادي بفرسه وتبعه الناس، فعبروا جميعاً ولم يتأذ منهم أحد، وكان الماء يصل إلى قريب من ركب خيلهم، مع أن مد ذلك الوادي حين امتلائه لا يدرك له قعر عند الناس كما هو شهير، وهذه كرامة عظيمة وقعت له رضي الله عنه، وكان القاضي أبو زيد الغنامي حاضراً لها وشاهدها، ولم يقع مثل هذا فيما علمناه إلا للصحابة رضي الله عنهم، مثل ما وقع لسعد بن أبي وقاص في عبوره دجلة لفتح المدائن، ومثل ما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتح بعض بلاد فارس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولما وصل أبو عبد الله إلى الجديدة وجد طائفة من أولاد أبي عزيز قد نذروا به ولجؤوا إلى القبطان خوفاً منه أن يوقع بهم لأجل مهادنتهم للكفار واتصالهم بهم فخرج القبطان في خيله، وكان سيدي محمد كامناً بإزاء الجديدة بالغابة التي كانت هناك وقد زالت اليوم، فلما انفصل القبطان بجيشه عن الجديدة حمل عليهم أبو عبد الله فقطعهم عنها، ففروا إلى جهة البحر فأوقع بهم فهلكوا ولم ينج منهم إلا سبعة وعشرون رجلاً، فتغير صاحب مراكش من ذلك وأنكر ما صنع أبو عبد الله وكذا أنكره قاضيه الفقيه أبو مهدي السكتاني.

وقد ذكر لويز مارية خبر هذه الوقعة فقال: «إن طائفة من المسلمين قدموا على قائد البرتغال بالجديدة وقالوا له: «إنا قد جئناك من عند المولى محمد بن الشريف يطلب منك أن تعينه بجماعة من عسكرك على بعض عدوه» فأسعفهم بذلك، وكان شاباً غراً لم يجرب الأمور، فنهاه بعض كبار عسكره وحذره عاقبة الغدر، فأبى وعزم على الخروج مع أولئك المسلمين. وتقاعد عنه عسكره، فقال لهم: «إني أخرج وحدي» وذهب ليخرج وحده فتبعوه حينئذ، وكانوا مائة وأربعين فارساً، فلما انفصلوا عن الجديدة بمسافة وجدوا خيلاً كثيرة كامنة لهم، فلم يشعروا حتى أحاطت بهم نصف دائرة منهم فما كلموهم حتى كملت الدائرة عليهم وصاروا مركزها، فحينئذ التفت قائد العسكر إلى ذلك الرجل الذي نهاه عن الخروج وقال له: «ما الحيلة؟» فأجابه بأن الحيلة: «القتال حتى نموت» ثم أنشد له شعراً مضمنه: إني أشرت عليك، وأنت أعظم جاهاً مني، فلم تسمع، والآن نقتل معاً وتختلط دماؤنا حتى لا يتميزان ولا يعرف دم الشريف من الوضيع. والحاصل أن المسلمين أوقعوا بهم حتى لم يرجع منهم إلى الجديدة إلا ثلاثة، وأسر منهم خمسة عشر أحياء، والباقي أتى عليه القتل، وقامت بالجديدة مناحة عظيمة لم يتقدم مثلها، وسجن الأسارى بسلا سنين في بعض دهاليزها حتى افتداهم سلطانهم خوان الذي جمع مملكتهم من يد الإصبنيول» انتهى.

ولما قدم سيدي محمد العياشي من هذه الغزوة سار إلى فاس للنظر في أمرها لما هاج من الحرب بين أهلها، وذلك أن رجلاً منهم يقال له ابن الزين عدا على رجل آخر يقال له: أحمد عميرة فرماه برصاصة من علية مسجد فوق سويقة ابن صافي فقتله، وهاجت الحرب بفاس بين أهل عدوة الأندلس، وكان المقتول رئيسهم، وبين اللمطيين، فقدم سيدي محمد العياشي فاساً في آخر جمادى سنة خمسين وألف فأصلح بينهم، وأقاد من قاتل عميرة كبير الأندلسيين. وبالجملة فغزوات سيدي محمد العياشي رحمه الله كثيرة، وذبه عن الإسلام وحمايته للدين مما هو شهير عند الخاص والعام.

وفي هذه الغزوة يقول الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد الكلاني مادحاً لسيدي محمد العياشي ومشيراً إلى الكرامة التي وقعت له في عبور النهر:

حديث العلا عنكم يسير به الركب	وينقله في صحفه الشرق والغرب
وحبكم فرض على كل مسلم	تنال به الزلفى من الله والقرب
فأنت رفيع من أصول رفيعة	نجوم الدياجي في الأنام لها سرب
سمي رسول الله ناصر دينه	تجلى بكم عن أفقه الشك والريب
ولم أر بحراً جاوز البحر قبلكم	تجود لمستجد أنامله السحب
وما يستوي البحران عندي فإن ذا	أجاج لعمري في المذاق وذا عذب

وكان رحمه الله عازماً على أخذ العرائش فحال بينه وبينها انصرام الأجل وكذلك كان ملحاً على أخذ طنجة فلم تساعده الأقدار.

مقتل أبي عبد اللّه العياشي رحمه الله والسبب فيه

قدمنا أن أهل الأندلس بسلا تحزبوا على أبي عبد اللّه العياشي ورموه عن قوس واحدة وأنه كان قد اطلع على خبثهم ونصحهم للكفر وأهله، وأنه استفتى العلماء فيهم فأفتوه بإباحة قتال من هذه صفته، فأطلق فيهم السبيل أياماً فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم فهربت طائفة منهم إلى مراكش وهربت طائفة إلى الجزائر وأخرى إلى النصارى وفرقة إلى زاوية الدلاء، فجاء أهل الدلاء يشفعون في أهل الأندلس فأبى أبو عبد اللّه أن يقبل فيهم الشفاعة وقال: «إن الرأي في استئصال شأفتهم» فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك وأجمعوا على حربه، ومن قبل ما كانت القوارص تسري منهم إليه يدل على ذلك الرسالة التي كتب بها الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن أبي بكر الدلائي إلى أبي عبد اللّه العياشي ونصها: «الحمد لله الحليم العفو الرؤوف، المنزه عن صفات من وصف بها مؤف، وصلى الله على سيدنا محمد مدينة العلم، المسورة بسور السماحة والحلم، وعلى ساداتنا آله وصحبه، وكل من انتظم في سلك أتباعهم من أهل حزبه، هذا، وإن المجلى بنور طلعته ظلم الظلم والفساد، المحلي خزائن المعالي بموجبات النفاق على حين الكساد المستوطن حبه بسويداء الفؤاد، من ألقت إليه المكارم أزمة الانقياد وصلحت به بحمد الله العباد والبلاد، حوطة الإسلام وحمايته، وخديم الدين المحمدي وكفايته، سيدي محمد بن أحمد العياشي المحمود الأوصاف، بشهادة من يعد من أهل الإنصاف، زاده الله من المكارم أعلاها، ومن نفائس درر المجد أغلاها، وتوجه بتاج الكرامة والرضى، وأمده بدائم مدده السرمدي حتى يرضى، وسلم جنابه القدسي العلمي العملي المرابطي المجاهدي من جميع البلايا، وأتحفه من تحفه الفاضلة الوهبية بأعلى المزايا، وأهدى إليه من طيب بركاته ورحماته، ما يرضاه دينه العلمي لحماته، قد شهدنا على أنفسنا بالإقرار بفضله علينا، وأن ما يسره يسرنا وما

يضره يضرنا، علم ذلك منا يقيناً من له معنا أدنى مخالطة بحيث لا يمكنه أن يدفع ذلك بنوع من المغالطة، وإن الضار بالعين ضار بإنسانها، لكن النفوس الإنسانية محل لخطاها ونسيانها، ومن أقمناه لديكم مقام الخادم والولد، قد ساءنا منه ما ساءكم مما عنه ورد، وطلبنا من جميل أوصافكم معاملته بالصفح والجميل، فلن يزال الإنسان إلا من عصمه الله يستمال أو يميل، ولولا الحرارة ما عرف الظل، ولولا الوابل لقيل النهاية في الطل، وما عرف العفو لولا الإساءة، ولا يقال صبر المرء إلا فيما ساءه، وما عرفنا صاحبه إلا محباً لجانب كل من للدين ينتسب، فإن خرج عن نظركم فقد أتاه الغلط من لا يحتسب» انتهى.

وكان الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله يطيل الثناء على أبي عبد اللّه العياشي ويذيع محاسنه وكان يقول في دعائه: «اللّهم أجز عنا سيدي محمد العياشي أفضل المجازاة وكافه أحسن المكافأة واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون أقرب إليه منه، اللّهم لا تحرمه توجهه إليك وانقطاعه لخدمتك. اللّهم نفس كربته وكمل رغبته، وأجب دعوته، وسدد رميته، واردد له الكرة على من عداه في الحق إنك على كل شيء قدير» انتهى.

فهذا حال الشيخ ابن أبي بكر رحمه الله مع أبي عبد اللّه الغياشي ثم قدر الله أن حدث بين أولاده وبين العياشي من النفرة ما أفضى إلى المقاتلة وذلك بسبب رده شفاعتهم في أهل الأندلس وأمور أخر فأجمعوا على حربه كما قلنا، فخرج إليهم أبو عبد اللّه العياشي فأوقع بهم وهزم جموعهم، وفتك بالعرب الذين كانوا مع التاغي فتفرقت الجموع، وتبرأ التابع من المتبوع.

ثم ذهب أبو عبد اللّه العياشي إلى طنجة بقصد الجهاد فلما قفل من غزوه وجد البربر من أهل الدلاء قد وصلوا إلى أطراف أزغار، ومعهم التاغي والدخيسي وأهل حزبهم من الكدادرة وغيرهم، وعزموا على مصادمة أبي عبد اللّه فأراد أن يغض الطرف عنهم ويصرف عنانه عن جهتهم فلم يزل أصحابه

به إلى أن برز لمقاتلتهم فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على أبي عبد اللّه العياشي وقتل فرسه تحته، فرجع إلى بلاد الخلط، وكان رؤساء الخلط أكثرهم في حزب التاغي وعلى رأي الكدادرة، فرجعت البربر إلى أوطانهم، وبقي أبو عبد اللّه العياشي عند الخلط أياماً، ثم غدروا به فقتلوه بموضع يسمى عين القصب واحتزوا رأسه، وحمله بعضهم إلى سلا، وكأنه حمله إلى أهل الأندلس إذ هم أعداؤه بها قال في «شرح المثاني»: ودفنت جثته بإزاء روضة أبي الشتاء رضي الله عنه.

ومن كراماته المتواترة أنهم لما حملوا الرأس سمعوه ليلاً وهو يقرأ القرآن جهاراً حتى علمه جميع من حضر فردوه إلى مكانه وتاب بسببه جماعة من الناس، وأما القبة المنسوبة إليه بقبيلة أولاد أبي عزيز من بلاد دكالة فالظاهر أنها متخذة على بعض معاهده التي كان يأوي إليها أيام كونه بالقبيلة المذكورة، في ابتداء أمره كما مر، وليس هناك قبر له على الصحيح.

ولما قتل أبو عبد اللّه العياشي فرح النصارى بمقتله غاية الفرح وأعطوا البشارة على ذلك وعملوا المفرحات ثلاثة أيام، وكان مقتله رحمه الله تاسع عشر المحرم سنة إحدى وخمسين وألف وقد رمزوا لتاريخ وفاته بقولهم: «مات زرب الإسلام» بإسقاط ألف الوصل، وحدث رجل أنه كان بالإسكندرية فرأى النصارى يومئذ يفرحون ويخرجون أنفاضهم فسألهم فقالوا له: «قتل سانطو بالمغرب» وفي «الرحلة» لأبي سالم العياشي قال: «أخبرني الشيخ محمد الفزاري بمكة قال: كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل القصر في السنة التي قتل فيها الولي الصالح المجاهد سيدي محمد بن أحمد العياشي قال: فجاءني ذات يوم وقال لي: «إني رأيت في النوم أختي ورأيت رجلاً جالساً مقطوع اليد تسيل دماً» فقلت له: «من أنت؟» قال: «الإسلام» قطعت يدي بسلا» قال: فلما أخبرني قلت له: الذي يظهر لي من رؤياك أن الرجل الصالح المجاهد الذي كان بسلا قد قتل» قال: «وبعد ذلك في آخر السنة قدم حجاج المغرب فأخبرونا بموته».

. بقصائد كثيرة منها قصيدة الأديب البليغ أبي العباس
ها في النزهة، ويحكى أنه وجد مقيداً بخط أبي عبد
ن جملة ما قتله من الكفار في غزواته سبعة آلاف
ومما مدحه به العلامة الإمام الشهير أبو محمد عبد

ي الرياشي أبلغ سلامي فخرنا العياشي
ـسلـه غـداً تـحدو به الـركـبان والـمـواشـي
، فرد الورى فـريـد وقـتـه الإمـام الـخـاشـي
وقـاصـم ظهر العدا كبيرهم والناشي
ـهن الشقا صرعى على الأرض كما الكباشي
ـم حياتكم ما عاش فيكم سيدي العياشي
الـكـل في ظـل الأمـان لـيـن الـفـراش
عـذلـك دع ولا تـحدثني حديث الـواشـي
ـفتون وعن جـمـيـع لـوم لائـمـي عـاشـي
ـرام أبـرزت سلامها للسامعين فاشي

وثناء الناس عليه كثير فقد أثنى عليه الشيخ ميارة كما مر، وأبو عبد الله محمد العربي الفاسي، وابن أبي بكر الدلائي وغيرهم.

وكان رحمه الله مجاب الدعوة ما دعا الله في شيء إلا استجيب له شوهد ذلك منه مراراً ومن أدعيته المحفوظة عنه: «اللّهم إني أسألك باسمك السريع المجيب الذي خزنت فيه فواتح رحمتك وخواتم إرادتك وسرعة إجابتك يا سريع لمن قصده يا قريب ممن سأله يا مجيب من دعاه أسرع لي بقضاء حاجتي وبلوغ إرادتي يا سميع يا مجيب يا سريع يا قريب آمين آمين آمين يا رب العالمين».

وكان فقيهاً مشاركاً في الفنون وله أتباع ظهرت عليهم بركاته ولاح عليهم سره، ومن أتباعه: الشيخ أبو الوفاء إسماعيل بن سعيد الدكالي

القاسمي صاحب الزاوية المشهورة ببلاد دكالة ومن أتباعه أيضاً: المقدم المجاهد أبو العباس الخضر غيلان الجرفطي وقد ذكر ذلك الشيخ أبو عبد اللّه محمد بن ناصر الدرعي في رسالة كتب بها إلى المجاهد المذكور يقول فيها ما نصه: «من عبيد اللّه تعالى محمد بن ناصر كان الله له إلى الفارس القائم بنصر دين الله البائع نفسه في إعلاء كلمة الله الخضر غيلان سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني أحبك في الله وإن لساني لهج بالتضرع إلى الله تعالى في نصرك على الكافرين منذ خرج النجليز والباعث على إعلامك بهذا أمران أحدهما: قوله ﷺ: «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه» والثاني: «استنهاض همتك للجد فيما أنت بصدده من الجهاد وعدم الالتفات إلى ما تورط فيه غيرك من الاغترار بالفاني، فأنت ما دمت في هذا على طريق صالحة، وعباد الله الصالحون كلهم معك، ورحم الله صاحبك الذي أسس لك هذه الطريق الصالحة، ورباك عليها أعني أمير المؤمنين نور البلاد المغربية سيدي محمد العياشي جزاه الله عنا وإياك عن المسلمين خيراً، فهو سيدنا وسيد غيرنا الذي ندين الله بمحبته ويجب علينا وعلى المسلمين تعظيمه وتعظيم من هو منه بسبيل» ثم قال الشيخ ابن ناصر رحمه الله بعد كلام ما نصه: «وتستوصي بآل سيدنا وسيد المسلمين في زمانه كافة خيراً سيدي محمد العياشي فهو عزك وبتعظيمهم قوام أمرك وهذا من نصيحتي إليك التي هي من نتيجة محبتنا لك فعاملهم بالوفاء، ولا تؤاخذهم بالجفاء» انتهى المقصود منه.

ولولد سيدي محمد العياشي وهو الفقيه العلامة سيدي عبد اللّه أرجوزة نظم فيها أهل بدر وتوسل بهم إلى الله تعالى في هلاك الذين تمالؤوا على قتل أبيه، فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى دارت عليهم دائرة السوء ولم ينج منهم أحد.

وفي «البستان»: «إن أبا عبد اللّه محمد الحاج الدلائي دخل بلاد الغرب وذلك بعد مقتل أبي عبد اللّه العياشي فلقيه ولده سيدي عبد اللّه

المذكور بجموع الغرب بوادي الطين فوقعت الحرب في قبائل وانتهبت حللهم ومواشيهم» انتهى: وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وألف.

ولسيدي عبد الله ابن سيدي محمد العياشي في بعض زياراته لأبيه قوله:

أتينا إليك وأنفسنا	تكاد من الخوف منك تذوب
ولم ندر أين هواك الذي	تحب فتنحو إليه القلوب
أقمنا فخفنا وجئنا فخفنا	فمن خوفنا قد دهتنا خطوب
فها نحن من خوفنا منك حيرى	وها نحن من خوفنا منك شيب

قال اليفرني في «الصفوة»: وأخبرني حافده العلامة قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد العياشي أن جده سيدي عبد الله المذكور كان قد أصابه مرض أعيى الأطباء علاجه فلما طال عليه أمره رغب منهم أن يحملوه إلى ضريح الشيخ سيدي الحاج أحمد بن عاشر بسلا فلما وقف على الضريح أنشد ارتجالاً:

أقول لدائي إذ تفاقم أمره	وعز الدوا من كل من هو ناصري
إلا فانصرف بالله عني إنني	أنا اليوم جار للولي ابن عاشر

قال: «فكأنما نشط من عقال وانقشع عنه سحاب ذلك الضرر في الحال» وكانت وفاة سيدي عبد الله المذكور ليلة عرفة سنة ثلاث وسبعين وألف ودفن بجوار الولي الأشهر الشيخ أبي سلهام من بلاد الغرب وبنيت عليه قبة صغيرة، وأخبار العياشيين ومحاسنهم كثيرة وبيتهم بيت خير وصلاح رحمهم الله ونفعنا بهم آمين.

ظهور أهل زاوية الدلاء وأوليتهم بجبال تادلا وما يتبع ذلك

أما نسبتهم فهم من برابرة مجاط بطن من صنهاجة حسبما ذكره ابن خلدون وغيره، وكان مبدأ أمر أهل زاوية الدلاء أن جدهم الولي الأشهر سيدي أبا بكر بن محمد وهو المعروف بحمي بن سعيد بن أحمد بن عمر بن يسري المجاطي كان ممن أخذ عن الشيخ الصالح أبي عمرو القسطلي دفين مراكش وسكن الدلاء واتخذ هنالك زاوية، فجاء ولده الولي الأظهر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر فكمل من الفضائل ما بقي وأبدى من الأسرار ما خفي فتناقل الركبان حديث هذه الزاوية وقصدها الناس من كل ناحية إلى أن كان من أولاد الرجلين ما نذكره.

وأخذ الشيخ محمد (فتحا) بن أبي بكر عن الشيخ أبي عبد الله محمد الشرقي فحصل له من الحظوة والوجاهة فوق ما كان لسائر من عاصره وكان أعلام الوقت كالحافظ أبي العباس المقري، والحافظ أبي العباس بن يوسف الفاسي، والإمام أبي محمد بن عاشر، والفقيه العلامة أبي عبد الله محمد ميارة وغيرهم يقصدون زيارته والتبرك به ويراجعونه في عويص المسائل العلمية، وكان رحمه الله عالماً حافظاً دراكاً متوسعاً في علمي التفسير والحديث وعلم الكلام حسن المشاركة فيها وفي غيرها وكانت وفاته سنة ست وأربعين وألف.

قال اليفرني: وحدثني غير واحد من أشياخنا أنه لما دنت وفاته جمع أولاده وعشيرته وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: 249] وأنا أقول لكم: «ولا من اغترف غرفة بيده» يشير بذلك إلى ما تجاذبوه من أمر الرياسة بعده وذلك من مكاشفاته رضي الله عنه. وقد اعترض عليه بعض الطلبة في قوله: وأنا أقول، بأنه سوء أدب لمقابلة كلام الله بكلامه، وأجاب عنه

حافده، وهو الفقيه العلامة الشهير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر، برسالة مستقلة.

ولما توفي خلف من الأولاد عدة فكان أكبرهم: أبو عبد الله محمد الملقب بالحاج لأنه حج مع أبيه ووحده مراراً، ويقال: إنه خطب الناس يوم عرفة على ظهر الجبل لأمر اقتضاه الحال ولم يكن ذلك لأحد من أهل المغرب قبله. وفي أيامه تكامل أمر أهل الدلاء وشاع ذكرهم.

وكان للزاوية في أيامه وأيام أبيه صيت عظيم وكان بها من معاطاة العلوم والدؤوب على درسها وإقرائها وقراءتها ليلاً ونهاراً ما تخرج به جماعة من صدور العلماء وأعيانهم كالشيخ اليوسي وأضرابه، حتى كانت إليها الرحلة في المغرب لا يعدوها الطالب ولا يأمل سواها الراغب.

وتمهد الأمر بها لأبي عبد الله محمد الحاج وأولاده وإخوانه وبني عمه إلى أن تملك مدينة فاس ومدينة مكناسة وأحوازهما وكافة القطر التادلي.

قال في «نشر المثاني»: «وفي سنة ست وأربعين وألف كان قيام محمد الحاج الدلائي على الشيخ ابن زيدان» قلت: ولعل المكاتبة الآتي بيانها بعد إنما كانت في هذا التاريخ.

وقال في «البستان»: «وفي سنة خمسين وألف زحف محمد الحاج الدلائي بعساكر البربر إلى مكناسة فاستولى عليها ثم زاد إلى فاس فاعترضه أبو عبد الله العياشي بجموع أهل الغرب ووقعت الحرب بينهما فانهزم العياشي وسار محمد الحاج لحصار فاس فرجع العياشي وأعاد حرباً ثانية، فانهزم محمد الحاج وعاد إلى بلاده. وفي سنة إحدى وخمسين وألف بعد موت العياشي نزل محمد الحاج على فاس وحاصرها ستة أشهر وقطع عنها المواد وجميع المرافق إلى أن لحقهم الجهد وارتفعت الأسعار فدخلوا تحت

حكمه[1] ولما قام اجتمعت عليه برابرة ملوية وأذعنوا له واعصوصبوا عليه، وقد كانت بينه وبين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وقعة أبي عقبة فانهزم فيها السلطان المذكور وانتشر جمعه وذلك في سنة ثمان وأربعين وألف، ومن ثم قطع النظر عما وراء وادي العبيد.

ذكر ما وقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان وبين أهل زاوية الدلاء من المراسلات والمعاتبات

قال في «النزهة»: وفي أيام السلطان محمد الشيخ بن زيدان قويت شوكة أهل الدلاء وانتشرت كلمتهم في بلاد الغرب، وضعف الشيخ عن مقاومتهم وعجز عن مقارعتهم، وبعث إليهم قاضيه العلامة الفقيه أبا عبد الله محمداً المزوار المراكشي يطلب منهم ترك الشنآن والرجوع إلى اجتماع الكلمة، ويحتج عليهم بأن أباهم الولي الصالح سيدي محمد بن أبي بكر كان قد بايع أخاه الوليد بن زيدان، والتزم طاعته وأنهم أولى الناس باقتفاء طريقته واتباع منهاجه، فلما بلغهم القاضي المذكور وأدى الرسالة ونثل ما في العيبة وبين قصده اعتذروا إليه بمسائل وتعللوا بوجوه.

قال «اليفرني»: وقد وقفت على رسالة كتب بها السلطان محمد الشيخ المذكور إليهم بعد رجوع القاضي من السفارة وهذا نص القدر المحتاج إليه منها بعد الخطبة، ولنصرف عنان الغرض لمن عيناه لمسنون العتاب

---

(1) ذكر سيدي عبد السلام القادري في كتابه المقصد الأحمد: أن محمداً الحاج الدلائي حاصر المعمورة وحضر معه في حصارها سيدي محمد بن عبد الله معن الأندلسي وولده سيدي أحمد ولم يذكر تاريخ الحصار المذكور ولعله وقع عام 1052 بعد استيلائه على فاس وينبغي تحقيق هذا التاريخ بالمظان الأوروبية انظر المقصد ج 1 ص 84 وحكى القادري في النشر في حوادث سنة 1057 خروج الناس للجهاد بحلق المعمورة قال: ثم رجعوا بعد أيام ومات كثير منهم بمرض أصابهم من ماء شربوه هنالك اهـ وكانت وفاة سيدي محمد بن عبد الله معن ثالث جمادى الثانية سنة 1062.

والمفترض، من هم لدقائق المجاز ضابطون، وفي حقائق الجواز خابطون، أهل وطن الدلاء لمن هو لورود الشراب محتاج، السيد أبو القاسم بن إبراهيم والسيد أبو عمرو والسيد محمد الحاج، ومن لنشر صحف الإنصاف منهم مطابق، كالسيد المسناوي والسيد عبد الخالق، ولا زائد إلا قصد إيقاظكم من الغفوة التي طال كطلوع الشمس من المغرب ليلها، وامتد كأرض المحشر فرسخها وميلها، هل هذا منكم استخفاف بحضرة الخلائف أو تعام وتصام عما يجب على الرعايا من لازم الوظائف؟ هذا من العار الماحي لصحف المناقب، ولا يلوي بمن توخاه إلا للمهيع الذي لا تحمد لمنتجعه العواقب، وخصوصاً مثلكم الذي شق عصا الشقاق، وشرع يمد أيدي الأطماع في استخلاص قبائل الآفاق، وكنتم لا تدرون لباس القمصان ولا الشواشي، إلى أن جسركم على وطء الغرب فأخذكم معه المغتر محمد العياشي، فنبذتم موائد الضيوف، وتقلدتم بلا حياء السيوف، وأعانكم اضطراب القبائل مع وقوع الجوع، ومن مضى إلى أي قطر تعذر عليه الرجوع، إلى أن أمكنتم من أزمتها الرعايا وكل عنيد من رباط تازا إلى وادي العبيد، فاستحليتم سكر الجبايات من الأبريز والفضة إلى أن جمعتم منه ما لا ينحصر في عد، بواسطة القرافي والمنتصر من غير أن تنفقوه على إقامة جند، ولا انتفع به إلا أشياع المومسات وشياطين الفساد والشر ولم تراقبوا مكر من رفعكم من غمار عموم البرابر، وأقعدكم في القباب على الأسرة وفي بيوت الله على الكراسي والمنابر، عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبة، لتكون عزيمة نهوضنا إليكم معطلة صعبة، وأن لا ندري أين تميل النفوس، ألتلك الصحارى أم إلى إيليغ السوس، وهذا المغرب لا يخلو ملآن من نواميس كل كاهن ومدع قرقار، تمسي فيه البومة خاملة وتصبح بالمخلب والمنقار، ومعادين الهمز واللمز والمجون، هم أهل الزوايا والديارات والفنادق والأسواق والسجون، لكن من صفعته يمينه لا يبكي، ومن ألقى

بيده إلى التهلكة لا يشكي، أهملناكم وأمهلناكم لعوائدكم من العبادة والطعام، فطلعتم لنا في الحلوق عظاماً ورعام، لم تعلم الفقراء إلا بحرمة جاه الدخيل، على صلح أو زواج أو لسماح البخيل، وحتى الآن دعوناكم لعقد البيعة الواجبة لنا على كل من أطاع أو عصى، من وجدة إلى حدود السوس الأقصى، فنزهد لكم فيما يقوم بحق تلك الزاوية وأهلها، بشرط أن تفيقوا من سنة الغفلة وجهلها، وإن أمسكتم أقدام الانقياد عن سلوك سبيل السداد وقبول سوله، فأذنوا بحرب من الله ورسوله، فقد شيعنا لكم فقيهنا وقاضينا أبا عبد اللّه محمد المزوار. فصددتموه أرهب صد، وانقلب من المحاورة مردوداً أقبح رد، لو لم نبال بكم بالفكر والذكر، ما صرفنا فيما سلف وصيفنا الأمين مباركاً السوسي، فشيد ضريح السيد محمد بن أبي بكر، فدنستم خالص عرضه فإنه كان لكم علينا بريداً وبصيرة، بما انطوت عليه منكم غرة السريرة، فقص علينا، دون أن نفحصه. إن عين الجحش فراره، ولا يسعنا أن ندعكم مع أشراف سجلماسة وبني موسى تلعبون بنا كهر الغالية في القفص، لا يعطي غناء غلته إلا بوخز المسال التي تكلفه الرقص، وحاصل الغرض تأدية البيعة كما عقدها أبوكم الأبر الجواد المرحوم الفاضل المجيد لأخينا الأرضى مولاي الوليد، لتنتظم كلمة الإسلام في الأقطار، إذ لو فعلتم لاقتفى أثركم جموع المنتجعين والأمصار، وإن عظمت عليكم مفارقة تقبيل الرأس واليد والركبة فانتظروا صبيحة طلوعي عليكم طلوع الفجر على غسق الليل، بخضرم خضرم من الرماة والخيل، ونؤم بعدكم دولة الأشراف الصحراوية ونلوي على زاوية الساحل إلى أن تعود الإيالة الشيخية علوية عالية، بالصيت والذكر، أو تهوي إلى حضيض بني سعد بن بكر» انتهى.

وكان جواب أهل زاوية الدلاء عن هذه الرسالة ما حاصله باختصار:
ولا زائد بعد حمد الله إلا أن مسطوركم الأحرش لما ورد ساحتنا سلب الأذهان والعقول فلا جارحة إلا ولها حصة من الطين، فكادت الحبالى

تسقط المشايم فضلاً عن الجنين، فياله من صوت زجر لا ينسى علينا طول السنين أسمعتنا غرائب لم تمر مرارتها على أهل الدهر الآتي والغابر، لو صدح بها على جبانة لنهض أهل المقابر، حتى سمتنا بالخسف في أسواق المذلة والهوان، وما نحن الأعز وركن لكل من طرقته وصمة أو عمه وأنت تعمل بتدبير وإشارة الأعلاج المجبولين على طبائع الخداع والغش، وتبني على قواعد ما لكم بها من عرين ولا عش، و من الدليل الشاهد والبرهان، فتكهم بأخيك مع مشاورة النسوان، على غيب من الجند والديوان، فلا تدعهم يخدعونك وهم سلبوا روح جدك السمي من غمد الجسد، وحملوا هامته في مخلاة من مسد، وايم الله لئن داموا لك في الغرب بطانة لطلقوا عليك ثلاثاً أوطانه. وأما نحن فبيعة والدنا رحمه الله لم تزل لنا في الأعناق، ولا ينبغي أن تعاد فتكرر، كالظهير لمن تحرر، وأيضاً منعنا من تجديدها انسلال البربر عن ساحتنا، فتكون أقوى سبب لفضيحتنا وأجلها هذا الأجدل الذي لا تؤده سموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف، مولانا محمد بن مولانا الشريف، عقاب أشهب على قنة كل عقبة لم يقنعه عد المال دون حسم الرقبة، وربما غرتنا غفلة فيشن الغارة على شعوب شعاب ملوية، أو ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والألوية، سيما وجناحاه ذوو النفوس النفيسة، بربر صنهاجة وعرب دخيسة، بزاة النزوات، بالحلة والمحال والغزوات، والعياشي كما تعلمون كانت همة هجرته أولاً لملة أهل الشرك، ثم مد خطا العزم إلى درجة الملك. وأما وصيفكم الأمين مبارك السوسي فحيث أناخ علينا ككل الإقامة لاختطاط ضريح الوالدين رحمهما الله قمنا بوظيف حقه الظاهر والباطن، حيث اختبر بعين الحقيقة أرجاء أغوار المواطن، ولا شك أن حال مطالعته هي التي أرخصت لنا في سوق خواطركم الأسعار، إلى أن نصبتم لنا بعد الرضا حبائل الأذعار الجالبة للعار، وجد قبائلنا متبددة على ضم حبوب الصيف، وأعيانهم مغتدين على الخيول بدون رمح ولا مدفع ولا سيف، فخالهم على غرة غنيمة باردة، وما علم أنهم أغوال الغيل صادرة وواردة، فإن كانت معاينته

هي التي أطمعتك أن يعودوا بعد العز نوائب فما درى أن منه كان الخاوي الخائب، من ركب الخيل لنفسه دون راتب المخزن، لا ترضى همته أن يهان فيحزن، وقاضيك السيد محمد المزوار حيث عاين وفود الأقاليم منتشرة كالجراد على الأزقة والأدراب دون من لازم خدمة الأبواب، تحقق عياناً أن انتظام شمل المالك والمملوك لا يكون إلا على عظماء الملوك، فقص عليكم وعلى من حضر ما اعتقد وسمع ونظر، وحتى الآن إن قصدتم الغرب أو حصن فاس لا تنالكم من جانبنا مساءة ولا بأس، فبعد أن يكون لكم في المدينة البيضاء الجديدة والقديمة قرار، يكون لنا بعد ذلك حكم الاختيار، بين أن نؤمن لك أو نترك لك الديار، أو نستصرخ بمن هو مثلك شريف حة ني وسلطان، له شغف أكثر منك في ضبط الأوطان، فنقابل إذ ذاك القصورة بالساط، ونلقي بطانة من شاط لأسنان الأمشاط، أيهما للغرب غلب، نؤدي له على الرغم ما طلب، وإن قنعت بحوز الحمراء من مراكش، ورفضت عنك معاناة الهراش والتناوش، فدعنا ومراعاة من تجارته الرئاسة، وهمته اشتراء نفيس السياسة ضرغام غاب سجلماسة. وأما صاحب إيليغ السوس فما مراده ومراد ذويه إلا غنيمة سلامة الأعراض وتجارة سلب النفوس. وفيما تلوناه عليك من القصص كفاية فلئن غادرتنا مستترين في حرمة الاحترام والوقار فنعم، وإن زاحمتنا بمنكب الهوان يدافعك عنا من ادعى أنه زعم، وإن طرقنا مناخ عزمك على عبور وادي العبيد أو أم الربيع، فهناك يجمع الله بين من يشتري ويبيع» والسلام. وكتب عن إذن جمهور إخوته عبد الله المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي في يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب انتهى.

ولما رأى السلطان محمد الشيخ بن زيدان تعاصي أهل زاوية الدلاء عليه واستحكام أمر المغرب لهم وتقويهم بالعدد والعدد صرف عنانه عن مقارعتهم ومال إلى مسالمتهم وقطع النظر عما في أيديهم والأمر كله لله.

ذكر ما دار بين السلطان محمد الشيخ ابن زيدان وبين الأمير المولى محمد بن الشريف رحمهما الله تعالى

كانت المكاتبات والمراسلات تقع بين السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي وبين الأمير المولى محمد بن الشريف السجلماسي، فمن ذلك رسالة بعث بها السلطان المذكور إلى الأمير المذكور فكان من فصولها أن قال له: «ويلغني أنك تعلن في النوادي من الحواضر والبوادي: إن جرثومة انتمائنا لبني سعد بن بكر بن هوازن، مع أنها في بني نزار بن معد وافية المكاييل ثقيلة الموازن، وأننا من تيدسي أحد القصور بوادي درعة، ومنها أنبت الله أصلنا فأزهر غصنه وأثمر فرعه، فلئن كان غرضك حط منطقة قدرنا من اللبب فهذا من العلى عليك عار، وأن تحاول محونا من صحيفة النسب، فتلك دعوى لا تغلي أو ترخص أسواق الأسعار، وقد صرفنا إليك نسخة من «مناهج الصفاء في أخبار الشرفاء» ليطلع عليها أنظارك من الملوك فيزول ما بالخاطر من إشراك الشكوك».

فأجابه المولى محمد بن الشريف عن هذا الفصل بأن قال له: «وعتابكم أننا عزوناكم لبني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، وناشرون لذلك في الحلل والمدن والقصور، تالله ما فهنا بذلك عن معايرة لكم ولا جهل ولا بأن نضيفكم لمن لا عشيرة له ولا أهل، بل اعتمدنا في ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس، من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر، فما وجدكم إلا من بني سعد بن بكر، ولا معول على كتاب المنصور من الفشاتلة، ولا ابن القاضي المكناسي، ولا ابن عسكر الشريف الشفشاوني، وسواهم، إذ الكل أهل بساطكم، ومحل مزاحكم وانبساطكم، ولقد بلغتنا نسخة: «مناهل الصفا» فلم نجد فيها مورداً عذب وصفا، وكفى دليلاً بالباطن والظاهر، قول الثقة مولانا عبد اللّه بن

طاهر، ومع هذا فلم نعتمد دفعكم عن شرف النسب، ولا رفعكم على ما وسمكم الله به من زينة الحسب» انتهى الغرض من هذه الرسالة. وأشار بقوله قول الثقة مولانا عبد اللّه بن طاهر إلى ما اتفق له مع المنصور حين جالسه على المائدة وقال له المنصور: «أين اجتمعنا؟» فقال له ابن طاهر: «على هذا الخوان» والحكاية قد مرت في صدر هذه الدولة السعدية.

ومما كتب به السلطان محمد الشيخ بن زيدان للأمير المذكور أيضاً وذلك حين غلب المولى محمد على فاس وملكها، فكتب إليه السلطان المذكور يحذره من عائلة أهل الغرب وغدرهم برسالة من إنشاء وزيره القائد أبي عبد اللّه محمد بن يحيى آجانا وفي آخرها قصيدة من إنشاء القائد المذكور وهي:

يا شبل مولانا الشريف محمداً ... شمس السعادة والهلال الأكمل
ملأت مهابتك الكبيرة مغرباً ... فزهت بمشرقه أصبهان وموصل
صقر الصياصي على الأعادي صائل ... طوراً يغير وفي الملاحم سيتل
أنيابه البيض الحداد صوارم ... وبكل ظفر منه أبتر مقصل
فجناحك الجرد العتاق وإن نظر ... ت إلى تلمسان يطيش الشمأل
هابتك ثوار الأقالم عنوة ... والوحش فهي يغص منها المنهل
قد طبت إن عرقت عروقك في الوغا ... خلت العنابر ديف فيها المندل
يا مالكاً سعدت به أوطانه ... فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب ... ولكم على فاس الجديد الكلكل
فاحذر كما حذر الغراب ولا تكن ... كالبط يطفو عن مطاه القوقل
واعدل تفوز ولا تواخي طامعاً ... ترد العداة وتعم عنك العذل
لا تصد من جبل البرابر واصطبر ... حتى يهون على الجواسيس مدخل
لا تأمن الأعراب في أقوالها ... واقمع فضاضة من يجور ويختل
وعليك بالغارات في أوطانها ... بكتائب تسبي الإناث وتقتل
واغضض ولا تردي تجار مدائن ... يبقى عليك الستر دأباً يسبل

لا تتخذ من حصن فاس صاحباً ... أو حاكماً يصل الأمور ويفصل
كالبغل عادته الفرار وإن غدا ... في مربط فمتى استغرك يركل
لا تنقلن إلى الصحارى ذخائراً ... فيقول أهل الغرب حتماً يرحل
واضرب لبيت الملك أوتاد الدها ... تزداد صيتاً في القلوب وتقبل
الف وفود الغرب واعرف قدرها ... وقروم كل قبيلة لا تجهل
وابسط يديك على العيال هنيئة ... وإذا غرست عروق عدل تنقل
هذي وصايا قد أضعنا حقوقها ... في آخر مما نحاه الأول
فمتى نشد إلى المعالي رحالنا ... يأباه نصر والمقادير تخذل
فرضينا متبعين أحكام القضا ... والله يحكم ما يريد ويعدل

فأجابه المولى محمد بن الشريف في سنة تسع وخمسين وألف بقصيدة ختم بها جوابه من إنشاء الفقيه أبي عبد الله محمد بن سودة الفاسي ونصها:

أمحمد الشيخ بن زيدان الرضا ... فخر الخلائف والهمام الأكمل
فلقد أجبتك عما قد كاتبتني ... نظماً ونثراً كي ترى ما يمثل
إني أبث لكم وصايا جمة ... إن أنت للنصح المصرح تقبل
فإلى متى طول الرقاد أما ترى ... أضعان ملكك كل يوم ترحل
والدهر ينتف في رياش جناحكم ... ويدنسن من الصفا ما تغسل
ما من مليك ذاق لذة راحة ... إلا تجلى له الهوان فيسفل
أحرى الذي كثرت شقا ثواره ... يعوي عليه لكل عاد معقل
تحتال تخدعه بكل حبالة ... حتى يصاد كما يصاد النعثل
فاستيقظن من الخمار ومن رعى ... في أرض آساد الشرى لا يغفل
وانفض غبار الذل واخلع ثوبه ... يزداد وجهك بهجة ويهلل
ضيعت ملكك في الرخا وتركته ... للخزي في دار الهوان يذلل
وركنت للظل الوريف وغادة ... يزهو البديع بها إذا ما ترفل
وإذا أردت دوام هيبة همة ... وتدوم في ستر عليكم يسبل
دع عنك في الحمرا مروق سفرجل ... ومدربلاً بالزعفران يفلفل
واركب مطايا الصافنات إلى الوغا ... أما تحوز مزية أو تقتل

واقرع طبولاً للرعاة وفي الوغا — يجبي إلى الحرب العوان الجحفل
وخض القفار وهز رمحاً وادرع — واثن العنان وفي يمينك منصل
خاطر بنفسك في الفيافي جائلاً — تردي العدو وكل ليل منزل
واصطد نهارك بالسلاق وبعدها — عقبانها وكذاك صقر اجدل
وقد الجيوش كما الوحوش ولا تدع — من يعص أمرك وازجرنه فيفعل
جنب آجانا الجبن في تدبيره — واصحب شجاعاً للذخائر يبذل
لا تجمعن من العلوج بطانة — فطباعها الغدر البليغ الأعجل
أما الشبانة فاحذرن من غيها — لا بد تغدر بالأخير وتخذل
ترجو عواقب دولة لنفوسها — وتود من وافى جنابك يجفل
يعطف عليك الدهر بعد نفوره — فتعود أيام السعود وتقبل
مـا ذاق زيـدان أبـوك حـلاوة — من ملكه حتى غذاه الحنظل
فإذا امتثلت صواب صدق وصيتي — يصغي الزمان لكم ويصفو المنهل

واعلم أن هذه الرسائل والأشعار التي أثبتناها هنا نازلة كما ترى عن درجة البلاغة، وعادمة لما تستحقه من فن الوزن ونقد الصناعة، ولكن لما كان الكتاب كتاب تاريخ وأخبار، لا كتاب أدب وأشعار، لم نبال بذلك، إذ كان المقصود منها ما تضمنته من بيان الأحوال، والإفصاح عنها على أصح منوال، فإن هذه الرسائل هي عماد التاريخ وملاكه، ونازلة منه بالمحل الذي نزلت من الدار أسلاكه، فلذا أكثرنا منها في هذا الكتاب. والله تعالى الملهم للصواب.

وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

كانت وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله سنة أربع وستين وألف، وفي «نشر المثاني» أنه توفي قتيلاً سنة ثلاث وستين وألف ودفن بقبور الأشراف من قصبة مراكش في روضة أبيه وعشيرته ومما نقش على رخامة قبره قول القائل:

لبدر سمٰوات المعالي أفول	وفي ذا الضريح كان منه نزول
محمد الشيخ بن زيدان غاله	حمام فحزن العالمين طويل
إمام الأنام ذو المآثر فعله	له غرة في الصالحات جميل
حباه الٰه العرش رحمى تخصه	بما هو في الفردوس منه كفيل

وزراؤه: يحيى آجانا وولده محمد وغيرهما، وقضاته: أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمٰن السكتاني، وأبو عبد اللّه محمد المزوار رحم الله الجميع.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

لما توفي السلطان محمد الشيخ في التاريخ المتقدم بويع ابنه أبو العباس أحمد، والعامة يقولون: مولاي العباس بدون لفظ الكنية، وقام مقام أبيه في جميع ما كان بيده إلا أن حي الشبانات، وهم أخواله، قويت شوكتهم في أيامه وغلظ أمرهم عليه، ووثبوا على الملك وراموا الاستبداد به، فضايقوه وحاصروه بمراكش أشهراً.

ولما رأت أمه أن الأمر لا يزيد إلا شدة كلمته في أن يذهب إلى أخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما في نفوسهم عليه، فذهب إليهم فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة، وأقبلوا إلى مراكش مسرعين وبايعوا فيها لأميرهم عبد الكريم بن

أبي بكر الشباني ثم الحريزي كما سيأتي.

وكان مقتل السلطان أبي العباس رحمه الله سنة تسع وستين وألف كذا في «النزهة». والذي في «نشر المثاني»: أنه قتل سنة خمس وستين وألف والله أعلم بغيبه.

قال اليفرني رحمه الله: وقد أذكرتني هذه الفعلة قول المولى محمد بن الشريف في قصيدته السابقة:

أما الشبانة فاحذرن من غيها   لا بد تغدر بالأخير وتخذل

فإن الأمر وقع كما قال، مع أن المولى محمد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة للسلطان محمد الشيخ في سنة تسع وخمسين وألف، وغدر الشبانات للسلطان أبي العباس كان سنة تسع وستين وألف، ولعل المولى محمد بن الشريف تلقى ذلك من بعض أهل الكشف أو نحوهم، فإن كلامه كثيراً ما يقع فيه مثل هذا، وبمهلك السلطان أبي العباس رحمه الله انقرضت دولة السعديين من آل زيدان، وانهار جرفها وانطوى بساطها، وسبحان من لا يبيد ملكه ولا يزول سلطانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

الخبر عن دولة الشبانات بمراكش وأعمالها وما آل إليه أمرها من دثورها واضمحلالها

لما قتل السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان في التاريخ المتقدم ثار كبير حي الشبانات بمراكش من عرب معقل، وهو الرئيس عبد الكريم بن القائد أبي بكر الشباني ثم الحريزي، وحريز فخذ منها هي النبعة والصميم فيها، وعبد الكريم هذا يعرف عند العامة بكروم الحاج، فدخل مراكش، ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه بها سنة تسع وستين وألف، وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها، وسار في الناس سيرة حميدة، وكان

في أيامه الغلاء المؤرخ بعام سبعين وألف، وهو غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر حتى أكلوا الجيف، ولم يزل مستقيم الرأي بمراكش إلى أن توفي بها سنة تسع وسبعين وألف قبل أن يدخلها المولى الرشيد بن الشريف بأربعين يوماً.

وقال منويل: لما بايع أهل مراكش عبد الكريم الشباني خالفت عليه آسفي وأعمالها فغزاهم ثم رجع مفلولاً إلى مراكش، وكانت المجاعة المشهورة عقب ذلك، ثم قتله بعض أجناده دخل عليه فطعنه برمح فأتلفه، ثم قبض على القاتل وقتل أيضاً في الحين، ولما توفي بايع الناس ولده أبا بكر ابن عبد الكريم فبقي إلى أن قدم المولى الرشيد وتقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم، ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلاً وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار، وانقرضت دولة الشبانات والبقاء لله وحده.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول:

في سنة ثلاث عشرة وألف في ثاني عشر محرم منها توفي الولي الكبير أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي المعروف بابن حسون نسبة إلى جده الحسن المذكور، وهذا الشيخ هو دفين سلا الشهير بها أصله من سلاس مدشر على مرحلة من فاس، ثم انتقل إلى سلا، وسبب انتقاله إليها: أنه كان بين أهل سلاس حروب ومقاتلات فكان الشيخ أبو محمد عبد اللّه إذا غلب أهل مدشره فرح وإذا انهزموا حزن ففكر في نفسه وقال: «محبة الغلبة تستدعي محبة الشر للمسلمين وعليّ عهد الله لا جلست في موضع أفرق فيه بين المسلمين وأبغي الشر لهم» فارتحل إلى سلا. ولما استقر بها أتاه جماعة من عشيرته يراودونه على الرجوع إلى بلادهم وحثوا عليه في ذلك فأخذ قدحاً وملأه من ماء البحر ووضعه ثم قال لهم: «ما بال ماء البحر يضرب بعضه بعضاً وتتلاطم أمواجه وما لهذا الماء الذي منه في القدح ساكن؟» فقالوا له: «لأنه لم يبق في البحر» فقال لهم: «الغربة تصفي

وتسكن» فعلموا مراده وانصرفوا آيسين، قلت: وفي انتقاله من سلاس إلى سلا إشارة لطيفة وهي أن لفظ سلاس باعتبار تفكيكه سلو موصول بحرف السين وهو حرف ذو قرون ثلاثة متشعبة فيؤخذ منه بطريق الإشارة أنه سلو موصول بكدر، بخلاف لفظ سلا فإنه سلو محض، وقد قدمنا في أخبار ابن الخطيب رحمه الله أن مدينة سلا كانت مقصداً للعباده وأهل الخلوة والانفراد من لدن قديم، أخذ الشيخ ابن حسون عن أبي محمد الهبطي عن أبي محمد الغزواني عن التباع عن الجزولي رضي الله عنهم، وكان صاحب أحوال تهدى إليه الثياب الرفيعة فيأمر بها فتلقى في بيت مسدود فتبقى فيه حتى يأكلها السوس وتضيع، وكان كل يوم يصبح على بابه أرباب الآلات بالطبول والأبواق يضربون عليه النوبة وغير ذلك، وقد تلكم عليه الشيخ اليوسي في المحاضرات وحمله محملاً جميلاً، وكرامات ابن حسون كثيرة شهيرة نفعنا الله به وبأمثاله.

وفي السنة المذكورة في ربيع الأول منها توفي الشيخ العارف بالله تعالى العالم الرباني أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسي جد السادة الفاسيين، وأخباره ومناقبه شهيرة قد تكفل ببسطها كتاب «مرآة المحاسن» لابنه العلامة أبي عبد اللّه محمد العربي الفاسي الموضوع لهذا القصد بالخصوص.

وفي سنة أربع عشرة وألف كان الغلاء العظيم بفاس، قال صاحب «الممتع» في ترجمة الشيخ أبي عبد اللّه محمد بن حكيم الأندلسي: «أنه اعتراه ذات يوم حال فجاء إلى بعض أفران فاس وجعل يقول لصاحب الفرن: «أغلق فرنك، أغلق فرنك» ويصيح به فإذا بالغلاء العظيم حدث عقب ذلك، وهو غلاء سنة أربع عشرة وألف فتعطل ذلك الفرن وغيره من أفران المدينة، وكان يمر بالطرقات فيقول: «الناس يأكلون عن أولادهم» ويكرر ذلك على جهة الإنكار فجاء الغلاء المذكور فكان الناس يأكلون في الأسواق عن أولادهم ولم يكن يعهد الأكل بالأسواق قبل ذلك.

وفي سنة خمس عشرة وألف في ثاني جمادى منها جاء بفاس سيل عظيم حتى غمر دور عمل الفخارين وذهب ببعض أنادر الزرع وحمل أمة من باب الفتوح فماتت.

وفي سنة اثنتين وعشرين وألف حدث الشر بفاس ووقع الغلاء حتى بيع القمح بأوقيتين وربع للمد، وكثرت الموتى حتى أن صاحب المارستان أحصى من الموتى من عيد الأضحى من سنة اثنتين وعشرين وألف إلى ربيع النبوي من السنة بعدها أربعة آلاف وستمائة، وخربت أطراف فاس وخلت المداشر، ولم يبق بلمطة سوى الوحوش.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وألف وذلك عند فجر يوم السبت الثاني والعشرين من رجب منها حدثت زلزلة عظيمة بفاس، ذكر صاحب «الممتع» في ترجمة أبي عبد الله بن حكيم المذكور آنفاً: أنه كان قبل الزلزلة المذكورة يصيح: المردومات المردومات، فإذا بالزلزلة حدثت، قال: فما بقيت دار من دور فاس غالباً إلا دخلتها الفؤس.

وفي خامس شعبان من السنة المذكورة نزل برد عظيم قدر بيض الدجاج وأكبر وأصغر ورئي حجر عظيم منها نزل على خيمة فخرقها وفر أهلها عنها وبقي لم يذب نحو ثلاثة أيام.

وفي سنة ست وثلاثين وألف توفي الإمام العارف بالله تعالى أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد الفاسي المعروف بالعارف بالله وهو أخو أبي المحاسن المذكور آنفاً ومناقبه شهيرة أيضاً.

وفي السنة المذكورة كان الغلاء بفاس والمغرب.

وفي سنة أربعين وألف عشية يوم الخميس ثالث ذي الحجة منها توفي الشيخ الإمام العلامة الهمام أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري نسباً الأندلسي أصلاً الفاسي منشأ وداراً الفقيه المشهور كان رحمه الله له الباع الطويل في المشاركة في العلوم مع غاية التحرير والتحقيق وله التأليف الحسان التي أغنى فيها عن الخبر العيان، وكان ورعاً سنياً وكان لا

يتخذ القراء على جنائز أقاربه ويقول: يمنعني من ذلك أنهم يفسدون قراءة القرآن وقراءتهم تلك عذر في التخلف عن الجنائز».

وفي سنة اثنتين وخمسين وألف توفي الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي كان رحمه الله متفنناً عالماً له عناية كبيرة بتحصيل المسائل وتقييدها، والاطلاع على غريبها وشريدها، وهو صاحب «مرآة المحاسن» وكان جوالاً في بوادي المغرب وحواضره حتى أدته خاتمة المطاف إلى مدينة تطاوين فألقى بها عصا التسيار إلى أن توفي في السنة المذكورة ثم نقل إلى فاس بعد سنتين فوجد طرياً رحمه الله.

وفي سنة ستين وألف كان بالمغرب رخاء مفرط وبلغ صاع البر بمدينة سلا مثقالاً وكاد ينعدم بالكلية وهو غلاء لم يعهد مثله وانتشر الفساد في البلاد وحل بالمغرب وباء كبير حتى كان الناس يموتون في كل طريق رجالاً ونساء نسأل الله العافية.

وفي سنة سبعين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب لا سيما بمراكش وهذه السنة هي المعروفة عند العامة بسنة كروم الحاج لا زالوا يضربون المثل بغلائها إلى اليوم والله تعالى يحفظ المسلمين ويحلهم من كنفه في حصن حصين آمين.

تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع

وأوله:

الخبر عن دولة الأشراف السجلماسيين من آل علي الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم.

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ع)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ى)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

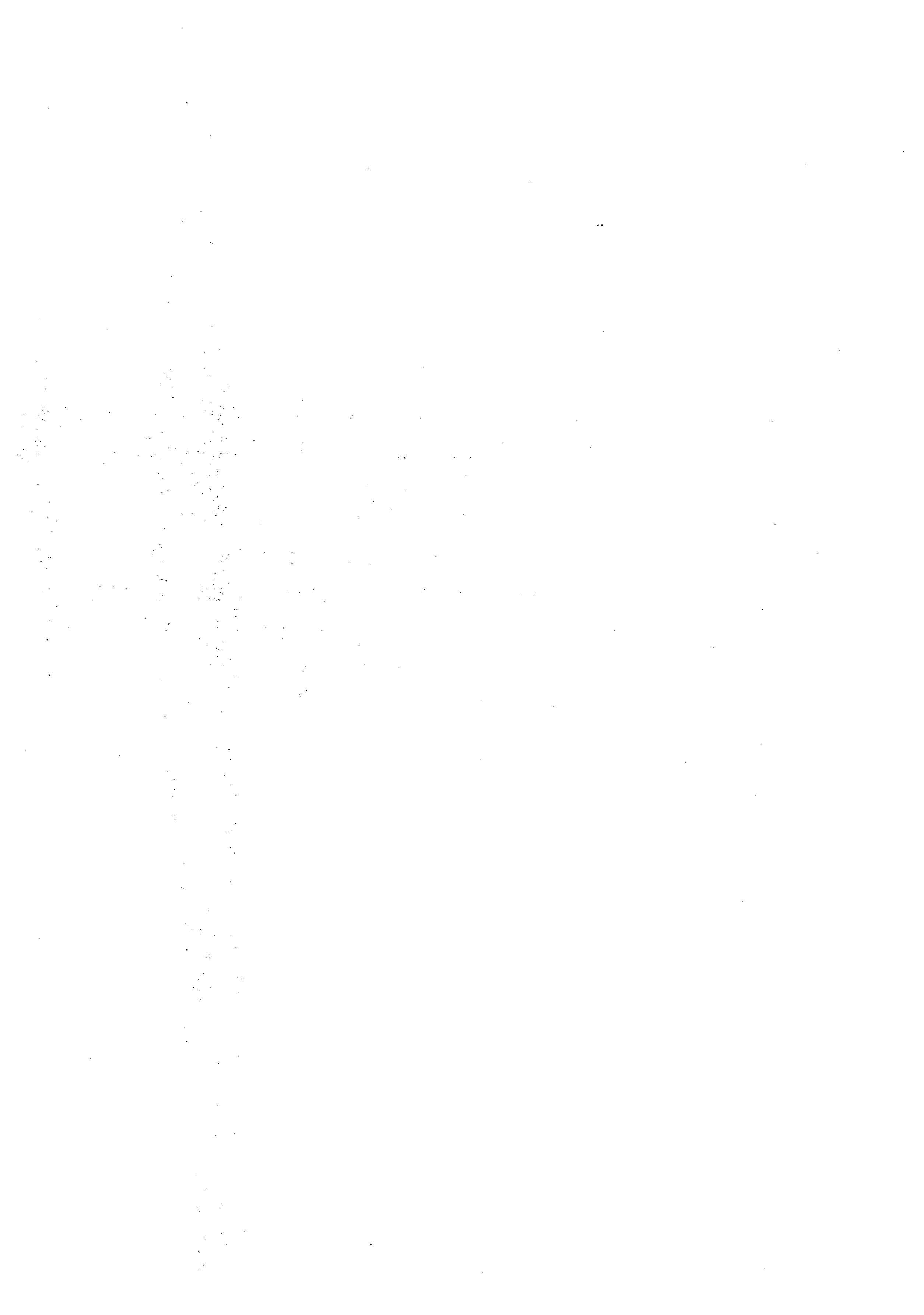
حرف (ف)

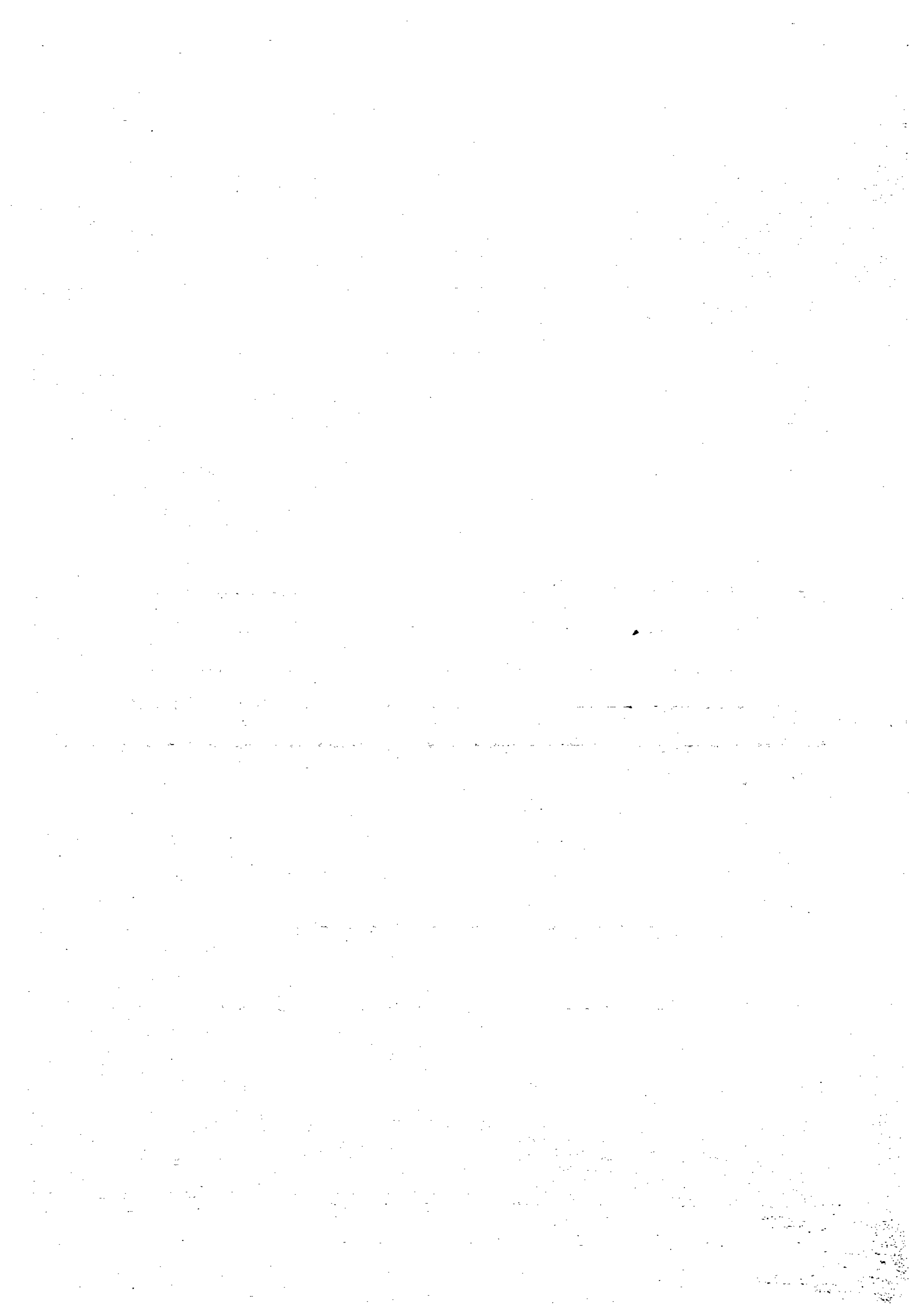
حرف (ق)

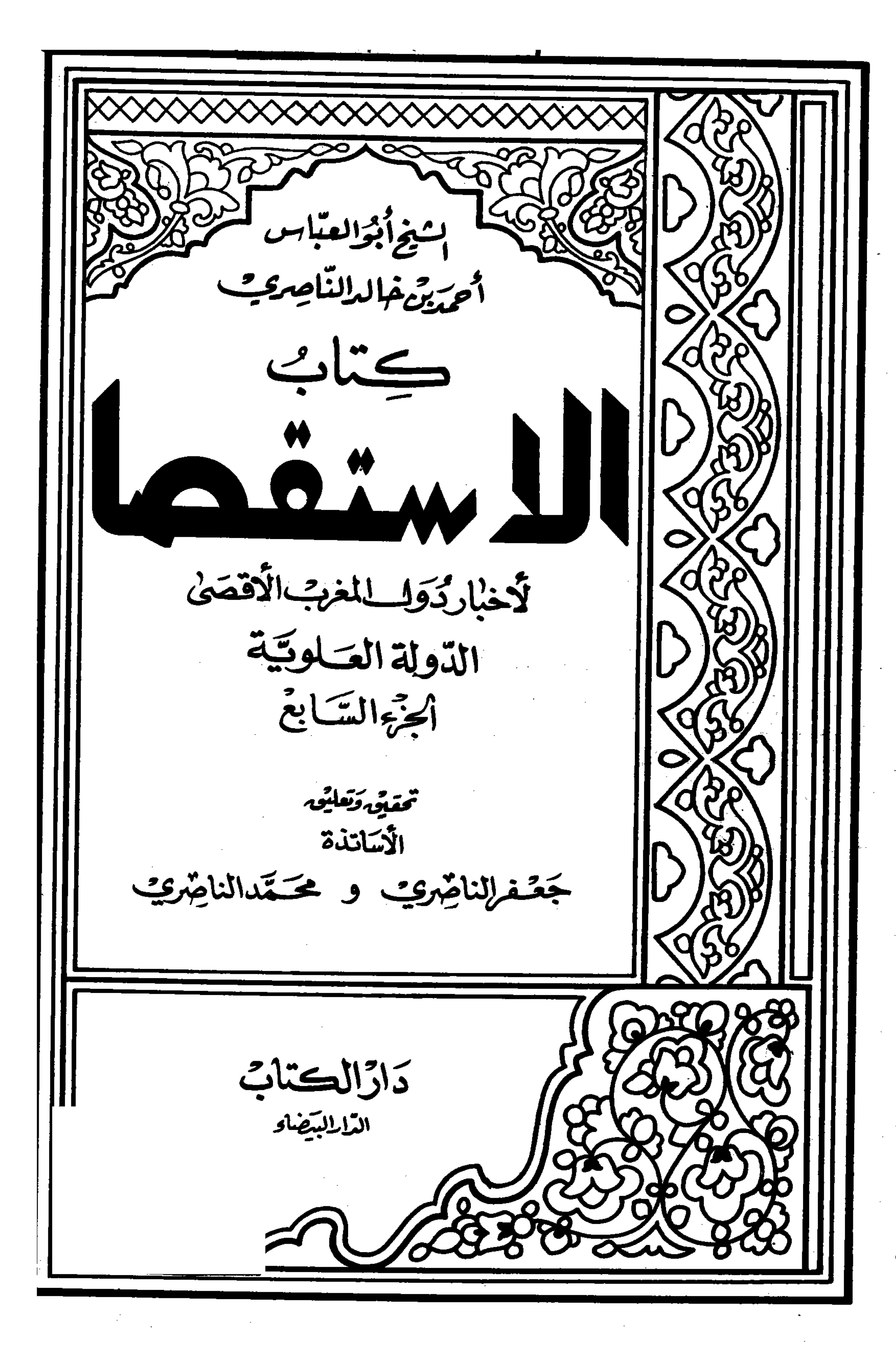
حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)







الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدّولة العلويّة

الجزء السّابع

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدولة العلوية

الخبر عن دولة الأشراف السجلماسيين من آل علي الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم

اعلم أن نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الأنساب، وسببها المتصل برسول الله ﷺ من أمتن الأسباب، وأول ملوكها كما سيأتي هو المولى محمد بن الشريف بن علي الشريف المراكشي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي ابن الحسن بن محمد بن حسن الداخل ابن قاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد اللّه بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد اللّه الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، هكذا ذكر هذا النسب، الذي هو حقيق بأن يسمى سلسلة الذهب، جماعة من العلماء كالشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي، والشيخ أبي عبد اللّه محمد العربي بن يوسف الفاسي، والعلامة الشريف أبي محمد عبد السلام القادري في كتابه: «الدر السني فيما بفاس من النسب الحسني» وغيرهم.

وقد تقدم في أخبار السعديين أن الصواب أن يزاد في عمود هذا النسب الشريف بعد قاسم الآخر ما نصه: ابن الحسن بن محمد بن عبد اللّه الأشتر بن محمد النفس الزكية إلى آخر ما مر.

قال أبو عبد اللّه الفاسي في المرآة: «إن الشرفاء الذين لا يشك في

شرفهم بالمغرب كثيرون كالجوطيين من الحسينيين الإدريسيين، وكشرفاء تافيلالت من الحسينيين أيضاً المحمديين، وكالصقليين والعراقيين وكلاهما من الحسينيين بالياء الساكنة بين السين والنون، فإن شرف جميعهم لا يختلف فيه اثنان من أهل بلادهم ومن يعرفهم من غيرهم» اهـ.

وعن شيخ الجماعة الإمام أبي محمد عبد القادر الفاسي رحمه الله أنه قسم شرفاء المغرب بحسب القوة والضعف إلى خمسة أقسام ومثل للقسم الأول المتفق على صحته بأصناف منهم: هؤلاء السادة السجلماسيون. وقال الشيخ أبو علي اليوسي رحمه الله: «شرف السادة السجلماسيين مقطوع بصحته كالشمس الضاحية في رابعة النهار.» وعن الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد اللّه بن معن الأندلسي أنه كان يقول: «ما ولي المغرب بعد الأدارسة أصح نسباً من شرفاء تافيلالت».

وبالجملة فإن شرف هؤلاء السادة السجلماسيين مما لا نزاع في صراحته، ولا خلاف في صحته عند أهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر بمرات رضي الله عنهم ونفعنا بهم وبأسلافهم آمين.

دخول المولى حسن بن قاسم إلى المغرب واستيطانه بسجلماسة والسبب في ذلك

قالوا: إن أصل سلف هؤلاء السادة رضي الله عنهم من ينبع النخل من أرض الحجاز. قالوا: وكان رسول الله ﷺ قد أقطع جدهم علي بن أبي طالب أرض ينبع فاستقرت ذريته به وتناسلت إلى هذا العهد، وكان أول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم، فحكي عن الفقيه العالم أبي عبد اللّه محمد بن سعيد المرغيثي صاحب الرجز المسمى: بالمقنع قال: «أخبرني الشيخ الإمام المولى أبو محمد عبد اللّه بن علي بن طاهر الحسني أن جده الداخل إلى المغرب هو المولى حسن بن قاسم قال: «وكان دخوله

إليه في أواخر المائة السابعة وكان يومئذ من أبناء الستين ونحو ذلك وتوفي رحمه الله قبل انقضاء المائة المذكورة» اهـ.

وخبر ابن طاهر هذا هو أصح ما ينقل في كيفية الدخول ووقته. وذكر بعضهم عنه أن دخوله كان سنة أربع وستين وستمائة. وقال الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن هلال: أن دخوله كان في أوائل الدولة المرينية، ذكر ذلك في منسكه فعلى هذا يكون دخوله في دولة السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني، وقد أشرنا إلى ذلك في محله فيما سلف. وقال العلامة أبو سالم العياشي في رحلته: «إن المولى حسن بن قاسم دخل المغرب في المائة السابعة وكان سكناه من ينبع النخل بمدشر يعرف بمدشر بني إبراهيم. فهؤلاء كلهم اتفقوا على أن الدخول كان في المائة السابعة وهو الصحيح الصواب إن شاء الله. وزعم بعضهم أن ذلك كان في المائة السادسة وهو بعيد.

واختلفوا في السبب الداعي إلى دخول هذا السيد إلى المغرب. فذكر صاحب كتاب، «الأنوار السنية فيما بسجلماسة من النسبة الحسنية» أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربي كان يتوارد على الأشراف هنالك وكان شيخ الركب في بعض القدمات رجلاً من أهل سجلماسة يظن أنه السيد أبو إبراهيم، فلما حج اجتمع بالموسم بالسيد حسن المذكور، وكانت سجلماسة وأعمالها يومئذ شاغرة من سكنى الأشراف فلم يزل أبو إبراهيم يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماسة حتى استماله فأجمع السير مع الركب، وقدم به أبو إبراهيم فاستوطن ببلدهم سجلماسة. وقال حافده المولى أبو محمد عبد اللّه بن علي بن طاهر فيما قيد عنه: «وكان الذين أتوا به من أهل سجلماسة أولاد البشير وأولاد المنزاري وأولاد المعتصم وأولاد ابن عاقلة وصاهره منهم أولاد المنزاري» اهـ.

وذكر صاحب الأرجوزة: أن الشيخ أبا إبراهيم الذي جاء به من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال بعضهم: إن أهل سجلماسة لم تكن

تصلح الثمار ببلدهم فذهبوا إلى الحجاز بقصد أن يأتوا برجل من أهل البيت تبركاً به فأتوا بالمولى حسن المذكور فحقق الله رجاءهم وأصلح ثمارهم حتى عادت بلادهم هي هجر المغرب. وقال غيره: إن سبب إتيانهم به أن الأشراف من آل إدريس رضي الله عنه كانوا قد تفرقوا ببلاد المغرب وانتثر نظامهم واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء مكناسة وغيرهم فقل الشرف بالمغرب وأنكره كثير من أهله حقناً لدمائهم، فلما طلع نجم الدولة المرينية بالمغرب أكبروا الأشراف ورفعوا أقدارهم واحترموهم، ولم يكن ببلد سجلماسة أحد من آل البيت الكريم فأجمع رأي كبرائهم وأعيانهم أن يأتوا بمن يتبركون به من أهل ذلك النسب الشريف فقيل: إن الذهب يطلب من معدنه، والياقوت يجلب من موطنه، إن بلاد الحجاز هي مقر الأشراف، ولذلك الجوهر النفيس من أجل الأصداف، فذهبوا إلى الحجاز وجاؤوا بالمولى حسن على ما ذكرنا فأشرقت شمس البيت النبوي على سجلماسة وأضاءت أرجاؤها، وظللتها من الشجرة الطيبة ظلالها وأفياؤها، حتى قيل: إن مقبرة أهل سجلماسة هي بقيع المغرب وكفاها هذا شرفاً وفخراً ومزية وذخراً، وذكر بعضهم: أن أهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد أن يبعث معهم أحد أولاده وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة اختبر من أولاده من يصلح لذلك، وكان له على ما قيل ثمانية من الولد، فكان يسأل الواحد منهم بعد الواحد ويقول له: «من فعل معك الخير فما تفعل معه أنت؟» فيقول: «الخير» «ومن فعل معك الشر؟» فيقول: «الشر» فيقول: «اجلس» إلى أن انتهى إلى المولى حسن الداخل فقال له كما قال لإخوته فقال: «من فعل معي الشر أفعل معه الخير» قال: «فيعود ذلك بالشر» قال: «فأعود له بالخير إلى أن يغلب خيري على شره» فاستنار وجه المولى قاسم وداخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه فأجاب الله دعوته.

وكان المولى حسن الداخل رجلاً صالحاً ناسكاً له مشاركة في العلوم خصوصاً علم البيان فإنه كانت له فيه اليد الطولى، ولما استقر بسجلماسة

واطمأنت به الدار زوجه الشيخ أبو إبراهيم ابنته وسكن على ما قيل بموضع يقال له: المصلح، ولما توفي تنازع أهل سجلماسة في موضع دفنه حتى كادت نار الحرب تشب بينهم فأجمع رأيهم أن يدفنوه بمحل وسط هم فيه سواء، فمسحوا أرض سجلماسة بالحبال وقسموها أرباعاً ودفنوه بمكان سوي يتوسط جميع النواحي، ولم يحفظ تاريخ وفاته، وما استنبطه اليفرني في ذلك فمبني على غير أساس. والله تعالى أعلم.

ذكر ذرية المولى حسن بن قاسم وتناسلها بالمغرب والإلمام بشيء من مناقب المولى علي الشريف

لما توفي المولى حسن بن قاسم رحمه الله لم يخلف إلا ولداً واحداً، وهو المولى محمد، ثم خلف المولى محمد هذا ولداً واحداً أيضاً، وهو المولى الحسن يسمى باسم جده، وهو المدفون حول المدينة الكبرى بإزاء الشيخ أبي عبد اللّه الخراز من أرض سجلماسة، وخلف المولى الحسن المذكور ولدين. أحدهما: المولى عبد الرحمٰن المكنى بأبي البركات، وهو أكبرهما، ومن ذريته أولاد أبي حُميد بالتصغير القاطنون بوادي الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماسة. ومنهم أيضاً الشرفاء النازلون ببني زروال، وثانيهما: المولى علي المعروف بالشريف ومنه تفرعت فروع المحمديين وتكاثرت وكان رحمه الله رجلاً صالحاً مجاب الدعوة كثير الأوقاف والصدقات حاجاً مجاهداً ذا همة سنية وأحوال مرضية.

رحل في بعض الأوقات إلى فاس واستوطنها مدة طويلة. وكان سكناه منها بالحومة المعروفة بجزاء ابن عامر من عدوة القرويين، وترك هنالك داراً ثم أقام مدة بقرية صفرو خلف بها عقاراً وآثاراً هي بها إلى الآن، وأقام مدة أخرى ببلد جرس التي على مرحلتين ونصف من سجلماسة، وترك بها مثل ذلك. ودخل عدوة الأندلس برسم الجهاد مراراً وأقام بها مدة طويلة ثم عاد إلى سجلماسة، فكاتبه أهل الأندلس يطلبون منه العود إليهم ويحضونه على

الاعتناء بأمور الجهاد، ويشكون إليه ضعف أهل الأندلس عن مقاومة العدو، وأنها شاغرة ممن تجتمع عليه القلوب، وقد كانوا راودوه، وهو مقيم عندهم، على أن يبايعوه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعاً وزهداً وعزوفاً عن الدنيا وزهراتها، قال اليفرني رحمه الله: وقد وقفت على رسائل عديدة بعث بها إليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز إليهم واستنفار المجاهدين إلى حماية بيضتهم ويذكرون له أن كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالاً كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب، وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه: «إلى الهمام الضرغام قطب دائرة فرسان الإسلام الشجاع المقدام، الهصور الفاتك، الوقور الناسك، طليعة جيش الجهاد، وعين أعيان الأنجاد، المؤيد بالفتح في هذه البلاد، المسارع إلى مرضاة رب العباد، مولانا أبي الحسن علي الشريف» اهـ. نص التحلية. وكتبوا مع ذلك إلى علماء فاس يلتمسون منهم أن يحضوا المولى علياً على العبور إلى العدوة فكتب إليه أعلام فاس بمثل ذلك وحثوه على المسارعة إلى إغاثتهم، وذكروا له فضل الجهاد وأنه من أفضل أعمال البر، وكان من موجبات تخلفة عن إغاثة أهل غرناطة أنه كان قد عزم على الذهاب إلى الحج فقالوا له في بعض تلك الرسائل: وعوضوا هذه الوجهة الحجية التي أجمع رأيكم عليها، وتوفر عزمكم لديها بالعبور إلى الجهاد فإن الجهاد، أصلحكم الله في حق أهل المغرب، أفضل من الحج كما أفتى به الإمام ابن رشد رحمه الله حين سئل عن ذلك، وقد بسط الكلام عليه في أجوبته ووجه ما ذهب إليه من ذلك اهـ. وكان ممن كتب إليه من علماء غرناطة جماعة منهم: الفقيه أبو عبد الله محمد بن سراج شيخ المواق وقاضي الجماعة بها. ومن شيوخ فاس الذين كتبوا إليه: الفقيه أبو عبد الله العكرمي شيخ شيوخ الإمام ابن غازي، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ماواس، وأبو زيد عبد الرحمٰن الرقعي صاحب الرجز المشهور وغيرهم.

ومما ضمنه أهل الأندلس في رسائلهم القصيدة الآتية في مدح المولى عليّ وصاحبه الفاضل أبي عبد الله محمد بن إبراهيم العمري وحثهما على إجابتهم وهي من إنشاء الفقيه أبي فارس بن الربيع الغرناطي يقول فيها:

أيا راكباً يطوي المفاوز والقفرا ... رشدت ولقيت السلامة والخيرا
ترحل وجد السير يوماً وليلة ... وسافر تجدها في مطالعها زهرا
تحمل رعاك الله مني إلى الحما ... تحية مشتاق تهيجه الذكرا
وأم ديار الحي من سجلماسة ... فتلك ديار تجمع العز والفخرا
وسلم على تلك الديار وأهلها ... سلام محب لم يطق عنهم صبرا
فعندي لهم حب جرى في مفاصلي ... ومازج مني العظم والدم والشعرا
فتلك بقاع الدين والخير والهدى ... فكم من تقي في سماها سما بدرا
هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم ... يضوع عبير الزهر من بينهم نشرا
وقل يا أهيل القبلة السادة الأولى ... إذا ما دعوا في حادث أسرعوا النفرا
وخص سليل الهاشمي ابن صهره ... عليّ الذي يعلو على زحل قدرا
أبا الحسن المولى الشريف الذي به ... على الغرب شمس النصر طبقت الصحرا
ولاحت بآفاق القلوب عجائب ... بها سلب الألباب تحسبها سحرا
هو الصقر مهما اهتز كل مجلجل ... هزبر إذا ما انشب الناب والظفرا
هو الغوث إن دارت رحى الحرب للقا ... وغيث إذ ما المزن ما أرسلت قطرا
أغار على الأعلاج فاجتاح جمعهم ... وجد لهم قتلاً وشددهم أسرا
بطنجة قد طاب الممات لزمرة ... بنصرتها ترجو من الملك الأجرا
دعاها بأقصى السوس قوم فأسرجوا ... من الصافنات الجرد لم يأخذوا الحذرا
فهبت ركاب القوم والشمس أشرقت ... وأرهق جيش الله أعداءه خسرا
ولا عجب أن الألى هو منهم ... ليوث الشرى قد أوسعوا مرحباً شرا
أجر جارك اللّهفان من غمراته ... أبا حسن وانصر جزيرتك الخضرا
وناد أبا عبد الإله خليلكم ... به تجلب السراء في حادث الضرا
سليل أبي إسحاق أكرم به أباً ... لقد خلف الفرع الزكي الرضي البرا
أليس الذي لبى نداء أهل طنجة ... وجمع أهل الغرب من حينه طرا

وأوقع بالكفار أي وقيعة فمن لم يمت بالسيف مات له ذعرا
وأصبح ثغر الدين أشنب باسماً وأرهق وجه الكفر من حزنٍ قترا
ونال من الله السعادة والرضى وجنات عدن في المعاد له ذخرا
وقل أيها العدل الذي اتخذ التقى شعاراً وسامى في منازلها الشعرا
أرى كل ما في الغرب أصبح قانطاً لأندلس يرجو بطلعتكم نصرا
وغرناطة الغراء نادتكما أقبلا وبالراية البيضاء كي تنصر الحمرا
فساكنها وقف عليكم رجاؤه كبيرهم والطفل والكاعب العذرا
فجئنا بمن في أرضكم حامياً لهم رجالاً وفرساناً غطارفة غرا
حماة أباة الضيم من كل ماجد كريم يباري الغيث والسيل والبحرا
فدونكما الكفار تعني طغاتها وتشبع من قتلاهم الوحش والطيرا
لقد طمع الكفار ملك رقابنا وإهلاكهم في أرضنا الحرث والثمرا
منازلنا من كل حصن وقرية تناديكما غوثاً لخطب أتى أمرا
فكم من ضعيف لا حراك بجسمه وشيخ بها أربى على مائة عشرا
وبيض وسمر من أوانس كالدمى وصبية مهد لا تعِ النفع والضرا
ومنبر جمع للخطابة والدعا ومسجد دين للصلاة وللإقرا
وكرسي علم مقعد لمهذب تصدر يملي ما يضيء لنا الصدرا
وأجداث أبناء الصحابة فوقها وكل ولي أشعث لابس طمرا
تناديكما غوثاً من الله سرعة فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا البرا
فحثوا لنا بالسير بعداً وقربة أجيراننا من كيد من أضمر الجؤرا
وعزماً بأخرى مثل تلك التي مضت ليبصر هذا الفنش مثلكم كبرا
وأنتم بحمد الله تدرون ما أتى عن المصطفى في الغزو من خير خيرا
فلله ما أسنى وددت لو أنني قتلت فأحيى ثم أقتل مذ مرا
وما في كتاب الله من آية أتت كشمس الضحى في الصحو سافرة غرا
خذاها بحمد الله عذراً جبينها يضوع شذى تهدي لمغناكما عطرا
وتبلغ عني للكرام تحية من أندلس للغرب قد عبروا البحرا
فعوناً رجال الله عوناً لعدوة أحاطت بها البأساء واشتدت الضرا

فأنتم لنا الجند القوي ونحوكم تشوفنا فاستجلوا نحونا السيرا
ونثني على خير البرية ذي الهدى محمد المبعوث بالملة اليسرا
وآل وصحب ثم تال لنهجهم ومن لذوي الإسلام قد قصد النصرا

وبهذه الرسائل العذبة الألفاظ المستوقفة الألحاظ يعلم أن المولى علياً الشريف رحمه الله كان مشهوراً في عصره، متقدماً على كافة أهل مصره، وأنه كان ملحوظاً بالإجلال عندهم والإكبار، وأن هذه الدار العالية البناء والأسوار معظمة من لدن قديم، مشهود لها بالخير والتقديم، وأظن أن وقعة طنجة المشار إليها في هذه القصيدة هي وقعة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، وقد تقدمت الإشارة إليها في محلها.

وقد كان للمولى علي المذكور جهاد في ناحية أكدج من بلاد السودان ورزق الظفر والفتح كما ذكره مبسوطاً في «النزهة» فلينظر هناك.

وذكر صاحب كتاب الأنوار السنية أن المولى علياً مكث أربع عشرة سنة لا يولد له ثم ولد له بعد ذلك ولدان: أحدهما: المولى محمد بفتح الميم، والثاني: أبو المحاسن يوسف وهو أصغرهما، أما المولى محمد فخلف أربعة أولاد وهم: السيد الحسن والسيد عبد اللّه والسيد علي والسيد قاسم وهم على هذا الترتيب في السن، ويقال لسائرهم: أولاد محمد نسبة إلى هذا الجد وفروعهم كثيرة يطول تتبعها. وأما المولى يوسف فإنه ولي زاوية أبيه وأجمع الناس على أنه المتأهل لها دون غيره لرزانته ووفور عقله فتولاها بعد نزاع ورسم توليته لها لم يزل موجوداً عند بعض حفدته. وكان ذلك كله في دولة بني مرين.

وقال صاحب كتاب الأنوار: وقد قيل: إنه لم يكن له ولد حتى بلغ ثمانين سنة فولد له تسعة من الولد خمسة منهم أشقاء، وأمهم حليمة من ذرية بعض المرابطين بسجلماسة، وهم السيد علي وهو جد الملوك أبقى الله فضلهم، والسيد أحمد، والسيد عبد الواحد، والسيد الطيب، والسيد عبد

الواحد المكنى: بأبي الغيث جد الأشراف البلغيثيين، وإنما كني بذلك لكثرة ما نزل من الغيث عند ولادته، وكان الناس قبله في جدب شديد. وهم على هذا الترتيب في السن. وأربعة أشقاء أمهم طاهرة من ذرية بعض المرابطين أيضاً وهم: السيد الحسن بالتكبير والسيد الحسين بالتصغير والسيد عبد الرحمٰن والسيد محمد، ومن منازل هؤلاء الأشقاء اليوم الموضع المعروف بأخنوس.

وتفصيل أنساب هؤلاء الأولاد الثمانية يطول فلنقتصر على ذكر المولى عليّ المثنى لأنه الغرض المقصود فنقول: ولد للمولى عليّ المذكور ثلاثة من الولد وهم: السيد محمد والسيد محرز والسيد هاشم جد الأشراف المرانيين أهل زاوية اللمراني. وكلهم قد عقبوا فأما المولى محمد فولد له المولى عليّ الشريف المراكشي وهو المثلث مع عدة أولاد سواه، والمولى عليّ هو جد الملوك أيضاً وتوفي بمراكش وبنى عليه حافده أمير المؤمنين المولى الرشيد قبة بديعة تلقاء ضريح القاضي عياض رحمه الله. وولد للمولى عليّ الشريف المذكور تسعة من الولد، المولى الشريف اسماً وكانت ولادته سنة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك. والمولى الحفيد، والمولى حجاج والمولى محرز والمولى حرون والمولى فضيل والمولى أبو زكرياء والمولى مبارك والمولى سعيد، فهؤلاء هم أولاد المولى عليّ الشريف، وكان المولى الشريف أفضلهم وأشرفهم وله رحمه الله عدة أولاد كلهم نجوم زاهرة ذوو همم باهرة، منهم المولى محمد بفتح الميم وهو أكبرهم والمولى الرشيد والمولى إسماعيل، وهؤلاء الثلاثة ولوا الأمر بالمغرب على هذا الترتيب ومنهم: المولى الحران وسيأتي، والمولى محرز والمولى يوسف والمولى أحمد والمولى الكبير والمولى حمادة والمولى عباس والمولى سعيد والمولى هاشم والمولى علي والمولى مهدي وهو شقيق إسماعيل من بينهم. هذا ما تيسر ذكره من نسب هذه الدولة الشريفة، ذات الظلال الوريفة، وبالله التوفيق.

الخبر عن رياسة المولى الشريف بن علي وما دار بينه وبين أبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة

قد قدمنا أن ظهور أبي حسون السملالي كان في أيام السلطان زيدان بن المنصور السعدي وأنه استولى على القطر السوسي أولاً ثم تناول درعة وسجلماسة ثانياً، قالوا: وكان استيلاؤه على سجلماسة سنة إحدى وأربعين وألف باستدعاء المولى الشريف بن علي له واستصراخه إياه على بني الزبير أهل حصن تابوعصامت أعدائه، كذا في البستان، فقدمها أبو حسون واستولى عليها وولى عليها عاملاً من قبله ورجع إلى مقره من أرض السوس.

وقال اليفرني في «النزهة» كان أبو الأملاك المولى الشريف بن علي وجيهاً عند أهل سجلماسة وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الأزمات، ويهرعون إليه فيما جل وقل، قال: وكان قد مر ذات يوم وهو صبي، على الإمام المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني فسأل عنه إذ لم يكن يعرفه قبل ذلك، فقيل له: هو ابن المولى علي الشريف ففرح به أبو محمد ومسح على ظهره وقال: ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين، فعلم الناس أن ذلك كائن لا محالة لما يعلمون من صحة كشف أبي محمد وصدق فراسته، فكان المولى الشريف بعد أن كبر وولد له الأولاد يشيع أن هذا الأمر لا بد أن يصير إلى بيته ويكون لهم شأن عظيم اعتماداً على فراسة أبي محمد بن طاهر رحمه الله.

ثم كان بين المولى الشريف المذكور وبين أهل تابوعصامت، وهي حصن منيع من حصون سجلماسة، عداوة تامة، فاستصرخ عليهم أبا حسون السملالي صاحب السوس لصداقة كانت بينهما، واستصرخ أهل تابوعصامت أهل زاوية الدلاء، فأغاث كل منهما من استصرخه، والتقى العسكران معاً بسجلماسة لكنهما انفصلا على غير قتال حقناً لدماء المسلمين، وكان ذلك سنة ثلاث وأربعين وألف، ولما رأى أهل تابوعصامت ما بين المولى

الشريف وأبي حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم إلى أبي حسون وخدموه بأنفسهم وأولادهم وأظهروا له النصح وصدق المحبة طمعاً في استفساده على المولى الشريف إذ كان ظاهراً عليهم به، فلم يزالوا يسعون في ذلك إلى أن أظلم الجو بينهما واستحكمت العداوة وتوفرت دواعيها، ولما رأى ابنه المولى محمد بن الشريف ذلك اهتبل الغرة في أهل تابوعصامت، وخرج ليلاً في نحو مائتين من الخيل مظهراً أنه قاصد لبعض النواحي ثم كبسهم على حين غفلة وتسور عليهم حصنهم فما راع أهل تابوعصامت إلا المولى محمد في جماعة قد وضعوا السيف فيهم وحكموه في رقابهم، فلم يكن عندهم دفاع، واستمكن منهم واستولى على ذخائرهم، وشفى صدر أبيه مما كان يجده عليهم. ولما انتهى الخبر بذلك إلى أبي حسون حمي أنفه واشتد غضبه، وكتب إلى عامله بسجلماسة، واسمه أبو بكر، يأمره أن يحتال على المولى الشريف حتى يقبض عليه ويبعث إليه به حبيساً، فامتثل أمره وتقبض على المولى الشريف غدراً بأن تمارض ثم استدعاه لعيادته والتبرك به، ثم قبض عليه وبعث به إلى السوس فاعتقله أبو حسون في قلعة هنالك مدة إلى أن افتكه ولده المولى محمد بمال جزيل، وعاد المولى الشريف إلى سجلماسة في خبر طويل وكان ذلك كله في حدود سنة سبع وأربعين وألف.

قال في البستان: وأعطى أبو حسون المولى الشريف وهو معتقل عنده جارية مولدة من سبي المغافرة كانت تخدمه قال: «وهي أم المولى إسماعيل وأخيه المولى مهدي» اهـ.

ولست أدري ما مراده بهذا، فإن كانت الجارية نسيبة في المغافرة فهي حرة فيكون المولى الشريف قد وطئها بعقد النكاح وهذا هو الذي يغلب على الظن بدليل أن السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحمه الله لما عزم على جمع جيش الودايا قال لهم: «أنتم أخوالي» إشارة إلى هذا الصهر كما سيأتي. وإن كانت مملوكة لهم ثم صارت إلى أبي حسون فالوطء حينئذ كان

بملك اليمين. والله تعالى أعلم. وصاحب «البستان» كثيراً ما يجازف في النقل ويتساهل فيه فلا ينبغي أن يعتمد على ما ينفرد به من ذلك وبالله التوفيق.

الخبر عن إمارة المولى محمد بن الشريف وبيعته بسجلماسة والسبب في ذلك

لما قبض أبو حسون على المولى الشريف وسجنه عنده كان ولده المولى محمد «بفتح الميم» مجمعاً على إهلاك من بقي من أهل تابوعصامت واستئصال شأفتهم، وكان قد تقوى عضده بعض الشيء بما أخذ من أموالهم في الوقعة السالفة فاتخذ بعد تغريب أبيه إلى السوس جيشاً لا بأس به، وانضم إليه جمع من أهل سجلماسة وأعمالها، وذلك سنة خمس وأربعين وألف. وكان أصحاب أبي حسون قد أساؤوا السيرة بسجلماسة ونصبوا حبالة الطمع في الناس حتى ملتهم القلوب وزرعوا بغض الملكة السوسية في قلوب الخاصة والعامة، ومن عسفهم أنهم كانوا قد ضربوا الخراج بسجلماسة وأعمالها على كل شيء حتى على من يجلدونه في الشمس زمن الشتاء! وفي الظل زمن الصيف! وضيقوا على الناس حتى ازدرتهم العيون وملتهم النفوس، فلما قام المولى محمد واجتمع عليه من ذكرناه آنفاً دعاهم إلى الإيقاع بأهل السوس فأجابوه، ووجد فيهم داعية لذلك، فاعصوصبوا عليه وصرفوا عزمهم إلى محو دعوة أبي حسون من بلادهم، فثاروا بعماله للحين وأخرجوهم عنها صاغرين بعد قتال شديد، ثم أجمع رأيهم على بيعة المولى محمد فبايعوه سنة خمسين وألف في حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة فاستتب أمره واستحكمت بيعته ووافقه المقدر، وساعده السعد وافتتح من ملك المغرب بابه، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

استيلاء المولى محمد بن الشريف على درعة وطرده أبا حسون السملالي عنها

لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وجمع الله سبحانه شمله بأبيه كما مر شمر لمضايقة أبي حسون السملالي وأهل السوس ببلاد درعة إذ كانت تحت ولايته كما قلنا فنهض إليه في جمع كثيف، ووقعت بينهما حروب فظيعة يشيب لها الوليد، ثم انقشع سحاب تلك الفتنة عن انتصار المولى محمد وانهزام أبي حسون وفراره إلى مسقط رأسه من أرض السوس فاستولى المولى محمد على درعة وأعمالها، واتسعت إيالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار في بلاد المغرب صيته وكان من أمره ما نذكره.

وقعة القاعة بين المولى محمد بن الشريف وأهل زاوية الدلاء وما نشأ عنها

لما صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سجلماسة ودرعة حدثته نفسه بالاستيلاء على الغرب إذ هو يومئذ مقر الرياسة ومتبوأ الخلافة فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال، وصاحبه ناسج على غير منوال وكان الرئيس أبو عبد اللّه محمد الحاج الدلائي يومئذ مستولياً على فاس ومكناسة وأعمالهما وامتدت ولايته بعد مهلك أبي عبد اللّه العياشي إلى سلا وأعمالها، فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وعبر إليه نهر ملوية وكان الدلائي أشد قوة من الشريف وأكثر جمعاً، فضايقه بإقليم الصحراء وقصد سجلماسة مراراً، وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثاني عشر من ربيع النبوي سنة ست وخمسين وألف، فكانت الهزيمة فيها على الشريف، وتقدم الدلائي إلى سجلماسة فافتتحها. واستولى عليها، وفعلت البربر فيها الأفاعيل العظيمة.

ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازت الصحراء إلى جبل بني عياش فهو للمولى محمد، وما دون ذلك إلى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء، ثم استثنى أهل الدلاء خمسة مواضع أخر كانت في إيالة المولى محمد فجعلوها لهم وهي: الشيخ مغفر في أولاد عيسى، والسيد الطيب في قصر السوق، وأحمد بن علي في قصر بني عثمان، وقصر حليمة في وطن غريس، وآسرير في فركلة، فهذه الأماكن الخمسة شرطوا على المولى محمد أن لا يحرك لهم منها ساكناً.

وانبرم الصلح على ذلك ورجع أهل الدلاء في جموعهم فما كان غير بعيد حتى اطلع المولى محمد على ما أوجب الفتك بالشيخ مغفر وبعض من شرطوا عليه بقاءه ففتك بهم واصطلم نعمتهم، فبلغ ذلك أهل الدلاء فجمعوا جموعهم ونهضوا إلى سجلماسة عازمين على استئصال المولى محمد وشيعته، وأن لا يدعوا له قليلاً ولا كثيراً. وكتبوا إليه كتاباً يتهددونه فيه. ورموه بالغدر، وأنه ناكث ومقسم حانث، وأغلظوا له في الكلام، وأفحشوا عليه في الملام.

فأجابهم المولى محمد برسالة يقول فيها: «إلى السيد محمد الملقب بالحاج ابن السيد محمد بن أبي بكر بن سيري الوجاري الزموري ومن شمله رداء الديوان، من الأبناء والإخوان، سلام على جلهم سلام استحباب وسنة، فقد كتبناه إليكم من سجلماسة، كتب الله لها من شركم أنفع التمائم، وألبسها من الظفر بكم أرفع العمائم، وبعد السلام، فإن نيران هذه الفتن التي أضرمتموها بعد خمودها لستم لها بأهل إذ لم يعرفكم أهل المغرب إلا بإطعام قصاع العصائد، وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد، أما العلوم فقد أقررنا لكم فيها إنصافاً بالتسليم، لو قصدتم بها العمل وأجر التعليم، وايم الله لئن نظم فينا الديان، يوماً من الدهر شمل الديوان، لتعاينن أنت أو بنوك ما يحبه لنا البنون والإخوان، ولقد حدث

السادة أهل البصيرة، أن ستدور عليكم منا الدائرة المبيرة، أتطمعون في النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعابدين والعابدات؟ فشمروا إن شئتم عن ساعد الجد للصلح، واغتنموا السلم ما دام يساعدكم وقت النجح، فإن الحرب نار، والتخلف عنها بعد إيقادها شنار، والله يعلم أن هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم، وما نشبهكم عند الهراش إلا بما يطيش حول المصابيح من الفراش، بل المراد الأكيد نشر رداء التبري ليلاً تجأرون متى أنشبنا فيكم مخالب التجري، وما قذفتم به أعراضنا من خسة القدر، وأننا قساة لا نصغي لقبول العذر، فأنتم تنهون عن الفحشاء، وقد ملأتم منها الأجشاء، وإن زجرتم عنها قلتم: كلا وحاشا لكن من نتج نسلاً نسب إليه، ومن خاف من شيء يسلط عليه وأما ما احتوى عليه بساط الغرب ما بين بربر وعرب فقد طمعنا من الله كونه في القبضة، عندما تمكن إليه النهضة، إن لم أكنه بالذات والديوان فبالأبناء والإخوان، كعوائد الدول، يشيد الأخير منها ما أسسه الأول، وانظر ما يكون لخاطركم به اطمئنان فنساعدكم عليه الآن، فلله دره من دغوغي أشاع عارك بأبيات أنشدناها مولاي محمد بن مبارك:

واعلم بأنك من دجاجل مغرب ... فبعيسى صولة نصره ستموت
أنتم عكاكز خلفتكم عاهر ... وأبو يسير جدكم جالوت
شبانكم مرد وكل كهولكم ... قرنان صنعة شيخكم ديوث
ضجرت لدولتكم سمٰوات العلى ... واستثقلتها الأرض والبهموت

وما أنت في الحقيقة إلا قرد من القرود، والقراد اللاصق في كل كلب مجرود، وما حرصتم به من الصلح بين الملوك مكيدة فقد سبقكم بها السلطان أبو حمو رحمه الله وحتى الآن رغبتم في الخير فهو مطلبي ومغناطيس طبي، وإن عشقتم الغير فجوابي لكم قول المتنبي:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ... ولا رسل إلا الخميس العرمرم

استيلاء المولى محمد بن الشريف
على فاس ثم رجوعه عنها

كان محمد الحاج الدلائي مستولياً على فاس بعد سيدي محمد العياشي كما قلنا، وكان أهل فاس يمرضون في طاعته تارة ويستقيمون أخرى، فولى عليهم قائده أبا بكر الثاملي وأنزله بدار الإمارة من فاس الجديد، فاتفق أن وقعت بينه وبين أهل فاس القديم حرب فحاصرهم وقطع عنهم الماء، فكتب أهل فاس إلى المولى محمد بن الشريف يستصرخونه ويضمنون له الطاعة والنصرة بما شاء من عدد وعدة متى قدم عليهم واحتل بين أظهرهم، ووافقهم على ذلك عرب الغرب من الخلط وغيرهم، فاغتنمها المولى محمد منهم وأقبل مسرعاً حتى اقتحم دار الإمارة بفاس الجديد منسلخ جمادى الثانية سنة ستين وألف، وقبض على أبي بكر الثاملي فسجنه وبايعه أهل البلدين فاس القديم وفاس الجديد معاً، واتفقوا على نصرته والقيام بأمره، وكتبت له البيعة بفاس سابع رجب فأقام عندهم نحو أربعين يوماً.

واتصل الخبر بمحمد الحاج فجهز إليه جيشاً كثيفاً فبرز إليهم المولى محمد ودافعهم يوماً أو بعض يوم فضعف عنهم وانهزم بظهر الرمكة خارج فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة تسع وخمسين وألف، فأسلم فاساً وانكفأ راجعاً إلى سجلماسة، ودخل أهل فاس الذين كانوا معه مدينتهم فأغلقوها عليهم.

وحاصرهم الثاملي وأصحابه وقطع عنهم الماء وجرت خطوب هلك فيها جماعة من أعيان فاس، منهم: عبد الكريم اللايريني الأندلسي، ومحمد بن سليمان وغيرهما، وكان ذلك أواخر صفر سنة إحدى وستين وألف. ثم راجعوا طاعة أهل الدلاء فولى عليهم محمد الحاج ولده أحمد، ولما استقر بفاس طالب أهلها بإخراج الجناة ورؤوس الفتنة من ضريح المولى إدريس رضي الله عنه، فتعصب لهم الشريف أبو الحسن علي بن إدريس الجوطي وقام دونهم ثم عجز واختفى، حتى أخرج بالأمان إلى زاوية أهل المخفية

ومنها خرج عن فاس بالكلية، وسكنت الفتنة. وكان ذلك في رمضان سنة إحدى وستين وألف.

واستمر أحمد الدلائي أميراً على فاس إلى أن توفي في عشرين من ربيع الأول سنة أربع وستين وألف، وخلفه أخوه محمد ومات سنة سبعين وألف. رحم الله الجميع ثم وثب على فاس الجديد أبو عبد الله الدريدي فاستولى عليه.

استيلاء المولى محمد الشريف على وجدة وشنه الغارات على تلمسان وأعمالها وما نشأ عن ذلك

لما أيس المولى محمد بن الشريف من فاس والمغرب صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق، فسار يتقرى الحلل والمداشر والقرى إلى أن بلغ بسيط آنكاد، فبايعته الأحلاف وهم العمارنة والمنبات من عرب معقل، وبايعته سقونة منهم أيضاً، فسار بهم إلى بني يزناسن، وكانوا يومئذ في ولاية الترك فأغار عليهم وانتهب أموالهم وامتلأت أيد العرب من مواشيهم، ثم انثنى إلى وجدة وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك، وبعضهم خارج عنها، فانحاز الخارجون إلى المولى محمد فأغزاهم بشيعة الترك فانتهبوهم وشردوهم عن البلد، وصفت وجدة له فاستولى عليها، وكان ذلك أعوام الستين وألف. ثم دلته العرب على أولاد زكرى وأولاد علي وبني سنوس المجاورين لهم فشن عليهم الغارات وانتهبهم فدخلوا في طاعته، ثم سار إلى ناحية ندرومة فشن الغارة على مضغرة وقديمة وطرارة وولهاصة ورجع إلى وجدة فأقام بها مدة ثم توجه إلى تلمسان فأغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها واكتسح بسائطها، فبرز إليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذي كان بالقصبة فأوقع بهم وقتل منهم عدداً كثيراً، ورجع عوده على بدئه إلى وجدة فشتى بها.

ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم، وقدم عليه هنالك محمود شيخ حميان من بني يزيد بن زغبة، وهم اليوم في عداد بني عامر بن زغبة، فقدم عليه محمود المذكور في قبيلته مبايعاً له ومتمسكاً بطاعته، وقدمت عليه أيضاً دخيسة ففرح بهم وأكرمهم ودلوه على الأغواط وعين ماضي والغاسول فنهب تلك القرى واستولى على أموالها، وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بني مالك بن زغبة فنزلوا بجبل راشد متحصنين به، فرجع عنهم.

واضطربت أحوال المغرب الأوسط واشرأبت رعاياه إلى الانتقاض على الترك، وأخذ باي معسكر يخندق على نفسه، وبعث إلى صاحب الجزائر المسمى عندهم: بالدولة يخبره بما لحق الرعايا من عيث صاحب سجلماسة فأخرج صاحب الجزائر عساكره وهيأ مدافعه واستعد لحرب المولى محمد وقدم نائبه بالعساكر إلى تلمسان، فلما سمع به المولى محمد استمر راجعاً إلى وجدة، وفرق العرب الذين كانوا مجتمعين عليه، ووعدهم لفصل الربيع القابل.

ثم قفل إلى سجلماسة بعد ما شب نيران الحرب في الإيالة التركية ونسفها نسفاً وضرب أولها بأخرها.

ولما وصل عسكر الترك إلى تلمسان وأخبروا برجوع المولى محمد إلى تافيلالت سقط في أيديهم، ووجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد أجفلت عن أوطانها، وتحصنوا بالجبال، ولم يأتهم أحد بمؤنة ولا خراج، وانحرف عنهم أهل تلمسان أيضاً، وكانوا قد ركنوا إلى المولى محمد وخاطبوه، فرأى الترك أنهم قد شوركوا في بلادهم وزوحموا في سلطانهم، فرجعوا إلى الجزائر. وكان من أمرهم ما نذكره الآن.

مراسلة عثمان باشا صاحب الجزائر للمولى محمد بن الشريف وما دار بينهما في ذلك

لما رجع عسكر الترك إلى الجزائر وأخبروا صاحبها عثمان باشا الدولة بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة جمع أهل ديوانه وأرباب مشورته وتفاوضوا في أمر المولى محمد وكيف التخلص من سطوته، فلم يروا أجدى لهم من أن يبعثوا إليه برسالة مع اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها، واثنين من كبار الترك ورؤسائها، لأنهم كانوا لا يتمكنون من حربه، لو أرادوا ذلك، لأنه يغير ويظفر وينتهب ثم يصحر فلا يمكنهم التعلق بأذياله، ولا قطع فراسخه وأمياله، فبعثوا إليه برسالة من إملاء الكاتب أبي الصون المحجوب الحضري مع الوفد المشار إليه يقول فيها:

«الحمد لله الذي وصى ولا رخص في مدافعة اللص والصائل شريفاً أو مشروفاً، ونص، وهو الصادق سبحانه، على فصم عرى أصله المتأصل مجهولاً أو معروفاً، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم، وعلى آله تيجان العز وبراقع الجباه والخياشم، وصحابته صوارم الصولة الحاسمة من الكفر الطلي والغلاصم، بالرماح العاملة والسيوف القواصم، ولا زائد بعد حمد الله إلا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر، الصادق اللّهجة والصدر، من رتق الله به فتوق وطنه، وحمى به من أحزاب الأباطيل أنجاد أرضه وأغوار عطنه، حافد مولانا عليّ وسيدتنا البتول، وولد مولانا الشريف بن مولانا عليّ السيتل الصؤل سلام عليكم ما رصعت الجفان سموت البحور ولمعت الجواهر الحسان على بياض النحور، ورحمة الله تعالى وبركاته ما أساغت محض الحلال ذكاته، وبعد: فقد كاتبناكم من مغني غنيمة المقيم والظاعن والزائر، رباط الجريد مدينة ثغر الجزائر، صان الله من البر والبحر عرضها، وأمن من زعازع العواصف والقواصف أرضها، إلماعاً لكم معادن الرياسة، وفرسان القيافة والعيافة

والفراسة، فضلاً عن سماء صحا من الغيم والقتام جوه، وضحى نشرت عليه الوديقة وشياً ففشا ضوءه، بأن شؤون المملكة لم يتوان عن مكنون علمكم أمرها، ولا أعوز عزائمكم زيدها وعمرها، وذلك أن الوهاب سبحانه منحكم هيبة وهمة في الجود والحلم والحماسة، واختار لكم عنوان عنايتها في غاب الصون سجلماسة، لكن فاتكم سر رأي التدبير، وأركبتم حزمكم جموع الجهل والتبذير، مع أن ذلك في الحقيقة دأب كل مؤسس لدولة، لا يجمعها إلا بجنايات الجولة والصولة، فخرقت على الإيالة العثمانية جلباب صونها الجديد، من وجدة الأبلق إلى حدود الجريد، فشوشت علينا أخلاق أخلاط الأعراب، إلى أن تعوقوا علينا في أرفق الآراب، وشننت الغارة الشعواء على بني يعقوب، فحسمت رسمهم على العقيب والعرقوب، وغادرت جماهرهم تسعى على عيالهم الزياني والموزونة في أسواق مستغانم وديار مازونه، وجررت ذيل المذلة على أطراف الغاسول والأغواط، فالتقطتهم بطانتك التقاط سباع الطير الوطواط، وقادك الجاهل الجهم محمود حيمان، لعين ماضي والصوانع وبني يطفيان، فراحت رياح وسويد ينفض كل بطل منهم غباره وطينه، على طود راشد، وبليد قسطينة، ولا كادنا إلا ما هتكتم من ستر السر على مرسى أبي الربيع السيد سليمان مع أنكم أولى من يراعي حرمته وتوقيره، ويدافع عنه وعمن سواه ويرفد فقيره، وتنسبون العجم للجهل وأنهم جفاة وأجلاف، ثم صرتم بدلاً وأخلاف خرج جيش قصبتنا بتلمسان، بما لديهم من الرماة والفرسان، فهزمتموهم بقرار، وقتلتموهم قتل مذلة واحتقار، فقلنا: هذا أقل جزاء كل كلب حقير، عقور. يعرض عرضه لصولة الأسد الهصور، ولا وافت الآفتة في الغالب إلا الحضر، مع شيع في الأجنة تجني الجنى والخضر، كان أولاد طلحة وهداج وخراج، يؤدون لهذه المثابة ما ثقل وخف من الخراج، ولا يفوتنا من ملازمها وبر ولا شعر ولا صوف، ولا سقب ولا جدي ولا خروف، إلى أن طلعت علينا غرة شمسك السعيدة،

فعادت كل شيعة قريبة عنا بعيدة، وأعانك افتراق الجفاة من أهل وجدة، وأن نصيبك الأوفر منهم أهل جدة ونجدة، ولولاك ما ثار علينا أهل تلمسان، وأنكروا ما لنا عليهم من قديم الحنانة والإحسان، وردوا عليك الساحة والبساط، ومرغوبهم أن تزفر علينا بسطوة الثعبان والساط، مع علمنا اليقيني أن شجرتنا لا تضعضع بزعازع حيان، ولا تندرس ولو انهارت عليها جبال جيان وأن الحجر لا يدق بالطوب، والخاطف لا يطأ أوطية الخطوب، كذلك في المثل جندك خلال الصدر والورود، لا يصبرون لصواعق البارود، ولا تنجح حجة الدروع والذوابل، إلا في سوق شن الغارات على حلل القبائل، وأما أسوار الجحافل وأدوار الكتائب، فلا يصدمها فيهدمها إلا سيول الخيول والرماة الرواتب، وزنت صولتك لبني عامر، لذاذة النفار لكنف الكافر، وداخل الوسواس والسوس، جبال طرارة ومضغرة وبني سنوس، والرعايا تود أن يحتفل لبنها في ضروعها، لتختزن في تبن الخداع سنبل زروعها، وإن قبلت منهم الأقوال والأفعال، تعل طباعها على الدولة فتصير كالأغوال، وإياك إياك والغرر لما عثرت عليه في كتاب البوني وأوراق السيوطي وعلى بادي وابن الحاج، ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بن أبي سعيد المريني بأنك المخصوص بصعود تلك الأدراج، ذلك منك بعيد الوصول لا تدركه بالمسرة ولا بقبائع النصول، وإن أوتاد الروم والترك تتقوض من أرض الغرب، ولا يبقى من ينازعكم فيها بحرب ولاضرب، ليس لك في غنيمة إدراكه طمع، ولا سبيل لتبديد ما نظمه حازمنا وجمع، وقد غرتك أضغاث الأحلام، وأغواك ضباب الغيب فأصبح ظنك منه في غياهب الأظلام، فإن حرمت به فأنت لا شك حانث، وإن كان منكم يقيناً فرابع أو ثالث، أولكم ثائر، والثاني مقتف له سائر، والثالث لكما أمير نائر، إما عادل أو جائر، ولا تمدن باع المخاطرة إلى أوطاننا فتخشى مخالب سطوة سلطاننا، أما الشجاعة الغريزة فقد علمنا أن لك منها بالمهيمن أوفر نصيب، وممن ضرب فيها فأصاب

الغرض بسهم مصيب، لكن غاية كفاية الشجاع إذا حمي الوطيس الدفاع، سيما في هذا الحين التي أبخستها عند الخلاص، صناعة البارود والرصاص، وجسرك علينا كونك عقاباً على فرع شجر، أو يعسوب نحل احتل صدع حجر، لو رأيت ملوك آحاد أمصار البر والبحر، لعلمت أنك محجوب ومحجور، في حق ذلك الحجر، وتحققت أن بين الأمراء مداراة ومراعاة، وأن أحوال الدول أيام وساعات، كل أحد يخاف على صدع فخاره، ويطلق بخوره تحت نتن بخاره، وما مرادنا إلا أمان العرب في المواضع، ليطيب لها جولان الانتقال في المشتاة والمرابع، ويجلب إليهم الغني والعديم، ما يحصل له فيه ربح من الكساء والحناء والأديم، فإن تعلقت همتك بالإمارة فعليك بالمدن التي حجرها عليك همج البرابر فصار يدعى لها بها على المنابر، فشد لها حيازيمك لتذوق حلاوة الملك، المعجونة بمرهم النجاة أو الهلك، دع عنك وطن الرمال والعجاج، ومخاطرة النفس في الفدافد والفجاج، فناشدناك جدك من الأب والأم، وما لك فيه من أخ وخال وعم، إلا ما تجنبت ساحات تلمسان، ولا زاحمتها بجموع رماة ولا فرسان، وإن اشتهت الأعراب غارات بعضها على بعض، فموعدها ما نأى عنا من مطلق الأرض، وخمسنا أبداً على الغالب، لتعلموا أن رأيهم عن معاني الصواب غائب، إذ كلهم ذوو جفاء ونفار، ويعمهم عند الدول ما يعم الكفار، ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام، ونلغي كلام الوشاة من الأقوام، وقد شيعنا نحوكم أربعة صحاب، تسر بمجالستهم الخواطر والرحاب، الفقيه الوجيه السيد عبد الله النفزي، والفقيه الأبر السيد الحاج محمد بن علي الحضري المزغنائي، واثنين من أركان ديواننا، وقواعد إيواننا، أتراك سيوط وغاية غرضنا جميل الجواب، بما هو أصفى وأصدق خطاب، والله تعالى يوفقنا لأحمد طريق، ويحشرنا مع جدك في خير فريق، آمين والسلام، وكتب في منتصف رجب الفرد الحرام عام أربعة وستين وألف» اهـ.

ولما وصلت الرسل إلى المولى محمد وقرأ الكتاب اغتاظ مما تضمنه من العتاب، فأحضر الرسل وعاتبهم على قول مرسلهم وتحامله عليه فقالوا له: «نحن أتيناك سفراء برسالة باشا الجزائر فاكتب لنا الجواب، ولا تقابلنا بعتاب» فقال: «صدقتم» فكتب إليهم بكتاب يقول في أوله (وبعد): «فقد كتبناه إليكم من غرة جبين الصحارى، وصرة أمصار المغارب والبراري، مغني سجلماسة التي هي قاعدة العرب والبربر المسماة في القديم كنز البركة، حالتي السكون والحركة، ومضى في كتابه إلى أن ختمه ولم يجبهم إلى ما أرادوا.

ولما رجعوا برسالته إلى صاحب الجزائر قرأها بمحضر أرباب الديوان ثم ردهم في الحين دون كتاب، ولما قدموا على المولى محمد ثانية قالوا له: إنه لم يكن لنا علم بما في الكتاب ولو اكتفينا به ما رجعنا إليك، نحن جئناك لتعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك، فما كان جدك يحارب المسلمين، ولا يأمر بنهب المستضعفين، فإن كان غرضك في الجهاد، فرابط على الكفار الذين هم معك في وسط البلاد، وإن كان غرضك في الاستيلاء على دولة آل عثمان، فابرز إليها واستعن بالرحيم الرحمٰن، فلا يكن عليك في ذلك ملام، فهذا ما جئنا له والسلام، وأما إيقاد نار الفتنة بين العباد، فليس من شيم أهل البيت الأمجاد، ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين ولا قانون من قوانين الأعجام، وهذان فقيهان من علماء الجزائر قد جاءا إليك حتى يسمعا منك ما تقوله، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله، فقد تعطلت تجارتنا، وأجفلت عن وطننا رعيتنا، فما جوابك عند الله في هذا الذي تفعله في بلادنا، وأنت ابن رسول الله ﷺ مع أنه لم يعجزنا أن نفعله نحن في بلادكم ورعيتكم، على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا».

فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظهم وداخلته القشعريرة

وعلاه سلطان الحق فأذعن له وقال: «والله ما أوقعنا في هذا المحذور إلا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا في معصية الله وأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإني أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء، وإني أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا إلى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ورسوله» وكتب لهم بذلك عهداً إلى صاحب الجزائر وقنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة وأعمالهما، ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه إليه بعد ذلك إلى أن خرج عليه أخوه المولى الرشيد فكان من أمره معه ما نذكر بعد إن شاء الله.

ثورة المقدم أبي العباس الخضر غيلان الجرفطي ببلاد الهبط

كان أبو العباس الخضر غيلان الجرفطي من أصحاب أبي عبد اللّه العياشي، وكان مقدماً على الغزاة ببلاد الهبط، ولما قتل العياشي في التاريخ المتقدم استقل هو برياسة تلك الجهة، واستمرت حاله إلى ثلاث وستين وألف فثار بالفحص وزحف إلى قصر كتامة فبرز إليه أهله فاقتتلوا ملياً ثم انهزموا، واتبعهم الخضر فاقتحم القصر عنوة وقتل جماعة وافرة من أعيانه وفر الكثير منهم إلى فاس، منهم: أولاد الفقيه أبي عبد اللّه القنطري من أعيان القصر، وبقي الخضر متغلباً على تلك الناحية.

وفي ذي الحجة سنة تسع وستين وألف خرج من فاس المرابط الرئيس أبو سلهام بن كدار، واتصل بالخضر غيلان وصار في جملته، وكان أبو سلهام المذكور ممن ظاهر الدلائيين على سيدي محمد العياشي فبقي ذلك في قلب الخضر غيلان حتى قبض على أبي سلهام المذكور واعتقله بآصيلا ثم سرحه بعد حين. قاله في «نشر المثاني».

وفاة المولى الشريف بن علي رحمه الله

كان المولى الشريف بن علي بسجلماسة وأعمالها على ما وصفناه قبل من الوجاهة والرئاسة والسيادة، ممتثل الأمر، متبوع العقب منذ نشأ، ثم بايعه أهل سجلماسة سنة إحدى وأربعين وألف، ونازعه بنو الزبير أصحاب تابوعصامت، وبذلك استصرخ عليهم أبا حسون السملالي حتى ملك سجلماسة كما مر، ولما تخلص من نكبة السوس وعاد إلى سجلماسة وجد ابنه المولى محمداً قد قام بالأمر بعده فتخلى له عنه، وقطع بقية عمره فيما يرضي الله تعالى إلى أن أتاه اليقين ثالث عشر رمضان سنة تسع وستين وألف بسجلماسة مسقط رأسه ومقر عزه ومنبت أشباله، ومدرج ملوكه وأقياله، وجددت البيعة للمولى محمد، ففارقه أخوه المولى الرشيد فخرج إلى الجبال فبقي متنقلاً في أحيائها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

إغارة المولى محمد بن الشريف على عرب الحياينة من أعمال فاس وما يتبع ذلك

لما كان آخر سنة ثلاث وسبعين وألف أغار المولى محمد بن الشريف على زرع الحياينة بأحواز فاس فانتسفه وأفسده، ووقعت عقب ذلك مجاعة عظيمة أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي، وخلت الدور وعطلت المساجد، وخرج أهل فاس يستغيثون بأهل الدلاء، وكان الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني قد قدم فاساً بقصد أن يبايعه أهلها فلم يجيبوه، وقيل: بل نصره بعضهم، وخرج إلى عرب الحياينة فذهب بهم إلى قتال المولى محمد بن الشريف فلم يلقه.

وفي أوائل سنة أربع وسبعين وألف حاز طاغية النجليز طنجة من يد البرتغال قال في «البستان»: لضعفهم عن مقاومة المسلمين يومئذ بسبب أن

المسلمين غزوهم في هذه الأيام فقتلوا منهم ستمائة مقاتل ثم غزوهم فقتلوا منهم أربعمائة أخرى.» وقال منويل القشتيلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب الأقصى: «سبب ذلك أن طاغية البرتغال وهو إخوان السادس يقال بالخاء والجيم أراد تأكيد المحبة بينه وبين طاغية النجليز وهو كارلوس الثاني فزوجه أخته وجهزها إليه بمفاتيح طنجة فبقيت بيده اثنين وعشرين سنة ثم تخلى عنها للمسلمين» اهـ.

قيام المولى الرشيد بن الشريف على أخيه المولى محمد ومقتل الأخ المذكور رحمه الله

قد قدمنا ما كان من فرار المولى الرشيد عن أخيه المولى محمد يوم وفاة أبيهما رحمه الله فذهب المولى الرشيد يومئذ إلى تدغة فأقام بها مدة، ثم سار إلى دمنات فأقام بها مدة أيضاً، ثم أتى زاوية أهل الدلاء فأقام عندهم ما شاء الله، فيقال: إن بعض أهل الزاوية أشار عليه بالخروج منها خوفاً عليه من الفتك به، لأن الدلائيين كانوا يزعمون، فيما عندهم من العلم، أن خلاء زاويتهم يكون على يده، فقبل المولى الرشيد إشارته، ثم خرج إلى جبل آصرو فأقام به برهة من الدهر، ثم توجه إلى فاس، ومعه نفر قليل، فبات بظاهر فاس الجديد، فأكرم رئيسها أبو عبد اللّه الدريدي ضيافته، ومن الغد ارتحل عنها إلى تازا ثم إلى عرب الأحلاف.

قال في «النزهة»: «إلى أن أدته خاتمة المطاف إلى قصبة اليهودي ابن مشعل. وكان لهذا اليهودي أموال طائلة وذخائر نفيسة، وله على المسلمين صولة واستهانة بالدين وأهله، فلم يزل المولى الرشيد يفكر في كيفية اغتيال اليهودي المذكور إلى أن أمكنه الله منه في خبر طويل. فقتله واستولى على أمواله وذخائره وفرقها فيمن تبعه وانضاف إليه من عرب آنكاد وغيرهم فقوي عضده وكثر جمعه» اهـ.

وقال صاحب «نشر المثاني»: إن المولى الرشيد لما رحل عن فاس قدم على الشيخ أبي عبد الله اللواتي بأحواز تازا وكان الشيخ المذكور ينتحل طريقة الفقر ويعظم أهل البيت فبالغ في إكرامه، فبينما هو مقيم عنده إذ رأى ذات يوم رجلاً ذا هيئة من مماليك وأتباع وخيل، وهو يصطاد كهيئة الملوك، فسأل عنه فقيل له: هذا ابن مشعل من يهود تازا. فانصرف المولى الرشيد وجعل مدية في فمه وجاء إلى الشيخ اللواتي، فلما رآه الشيخ على تلك الحال أعظم ذلك، وقال له: «المال والرقبة لك يا سيدي فما الذي دهاك؟» قال: «تأمر جماعة من عشيرتك يسيرون معي حتى أفتك بهذا اليهودي غيرة على الدين» فقال: «قد فعلت، لا يتخلف عنك منهم أحد» فاختار المولى الرشيد منهم جماعة وواعدهم على تبييت اليهودي واقتحام داره عليه، وكان اليهودي قد اتخذ داراً بالبيداء على نحو مرحلة من تازا في جهة الشرق، فلما كانت ليلة الموعد تقدم المولى الرشيد إلى دار ابن مشعل في صورة ضيف، فأضافه ابن مشعل، ولما انتصف الليل أحاط أصحابه بالدار وكبس المولى الرشيد اليهودي في بعض خلواته فقتله، وأدخل الرجال فاستولى على دار ابن مشعل بعد الفتك بأصحابه وحراسه، وعثر فيها على أموال كثيرة وذخائر نفيسة، وقيل، وهو الشائع عند بني يزناسن: أن ابن مشعل المذكور كان مقيماً بين أظهرهم قد اتخذ حصناً ببعض جبالهم، وهم محدقون به، فجاءهم المولى الرشيد ولم يزل يلاطفهم في شأن اليهودي حتى أثر كلامه فيهم، ونما إلى اليهودي بعض ذلك، وأنهم مسلموه، فنزل إلى المولى الرشيد بهدية نفيسة يسترضيه بها، فلم يكن بأسرع من أن قبض عليه وقتله، وتقدم إلى الدار فاستولى عليها، واستخرج ما فيها من الأموال فالله أعلم أي ذلك كان.

ثم إن المولى الرشيد دعا لنفسه أعراب الشرق وجمع كلمتهم ونزل وجدة واتصل ذلك كله بأخيه المولى محمد صاحب سجلماسة فتخوف منه

لما يعلم من صرامته وشهامته، فنهض لقتاله والقبض عليه، فلما التقى الجمعان ببسيط آنكاد كانت أول رصاصة في نحر المولى محمد، فكان فيها حتفه. وذلك يوم الجمعة التاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف، ودفن بدار ابن مشعل، فأسف المولى الرشيد لقتله وأظهر الحزن عليه، وتولى تجهيزه بنفسه فحمله إلى بني يزناسن ووراه هنالك في رمسه رحمه الله وغفر له.

وكان المولى محمد شجاعاً مقداماً لا يبالي بالعظائم ولا يخطر بباله خوف الرجال، ولا يدري ما هي النكبات والأوجال، وتقدم وصف أهل الدلاء له بقولهم: «الأجدل الذي لا تؤده هموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف عقاب أشهب على قنة كل عقبة، لا يقنعه المال دون حسم الرقبة»، وشجاعته شهيرة. وكان مع ذلك قوياً في بدنه أيداً في أعضائه وجسمه لا يقاوم في الصراع ولا يزاول في الدفاع.

حكي أنه في بعض أيام حصاره لتابوعصامت جعل يده في بعض ثقب الحصن وصعد عليها ما لا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة ولبنة مضروبة، وكان سخياً جداً حتى أنه أعطى الأديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيداً التلمساني صاحب القصيدة العقيقية وغيرها نحواً من خمسة وعشرين رطلاً من خالص الذهب جائزة له على بعض أمداحه فيه، وحكاياته في هذا المعنى شهيرة.

ولما قتل رحمه الله قام بسجلماسة ولده المولى محمد الصغير مقامه لكن لم يتم له أمر وسيأتي بعض خبره إن شاء الله.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله

لما قتل المولى محمد بن الشريف رحمه الله في التاريخ المتقدم وانحشرت جموعه كلها إلى أخيه المولى الرشيد، فبايعوه البيعة العامة، ودخل في طاعته الأحلاف وبنو يزناسن وغيرهم، وبعث إلى أهل تلك النواحي كلها من العرب والبربر يدعوهم إلى الطاعة واجتماع الكلمة، فقدمت عليه وفودهم بالهدايا، وكتب من كان مع أخيه في ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وعظم أمره وعلا كعبه، ثم احتاج إلى المال، وكان قد أخذ ولد اليهودي ابن مشعل يوم قتل أباه، فجاءت أمه تطلب فداءه فتفرس فيها وماطلها به، ثم قال: «لا أسرحه حتى تدليني على مال زوجك أو أقتله» فأنعمت له بذلك، وركب معها إلى القصبة فدلته على خزانة في بيت فنقب عنها فلقي فيها خوابي مملوءة ذهباً وفضة فاستخرجها، وارتاش بتلك الأموال، وفرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الأجناد، فحسنت حاله وحالهم وعد ذلك من سعادته، ولما قضى إربه ورتب جنده بعث رسله إلى الآفاق بالأعذار والإنذار والوعود والوعيد لأهل الطاعة والعصيان ثم سار على أثرهم قاصداً فتح المغرب الذي كان قد تعذر على أخيه من قبله فنزل على وادي ملوية وأقام به أياماً للاستراحة وانتظار من يأتيه من أهل تلك النواحي مثل جاوت والريف وغيرهما فلم يأته أحد، والله غالب على أمره.

فتح مدينة تازا ثم سجلماسة وما تخلل ذلك

لما أقام المولى الرشيد رحمه الله على ملوية ولم يأته من أهل المغرب أحد تقدم إلى تازا فاقتحمها بعد محاربة طويلة وبايعه أهلها والقبائل التي حولها، ولما اتصل خبر ذلك بأهل فاس اجتمعوا مع جيرانهم من عرب الحياينة والبهاليل وأهل صفر وغيرهم، وتحالفوا على حرب المولى الرشيد وعدم بيعته بحال ظناً منهم أنه يفعل بهم ما فعله أخوه المولى محمد بالحياينة من النهب والقتل، وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والإكثار منها، ووظفوا على كل دار مكحلة، ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب، فاشتروا من ذلك فوق الكفاية وخرجوا إلى باب الفتوح لعرض الخيل والسلاح، وعملوا اللعب المسمى بالميز، واجتمعوا أيضاً مع الحياينة، وأكدوا الحلف على حرب المولى الرشيد، ولما بلغه خبرهم وما هم عليه أعرض عنهم وعدل إلى سجلماسة. وكان ذلك منه صواباً في الرأي إذ قدم الأسهل فالأسهل. وتناول الأخف فالأخف.

ولما أناخ على سجلماسة حاصرها نحو تسعة أشهر إلى أن فر عنها ابن أخيه المولى محمد الصغير المنتزى بعد أبيه كما مر، فخرج منها ليلاً ودخلها المولى الرشيد واستولى عليها وسد فرجها ورتب حاميتها ومهد أطرافها ورجع إلى تازا فاحتل بها، ولكل أجل كتاب.

حصار مدينة فاس ثم فتحها والإيقاع بثوارها

لما قفل المولى الرشيد رحمه الله من سجلماسة إلى تازا أقام بها أياماً فاتفق أهل فاس مع أحلافهم من الحياينة أن يغيروا عليه بمستقره منها، ويبدأوه بالحرب قبل أن يبدأهم ليكون ذلك كاسراً من شوكته، وفاتاً في عضده، فتأهبوا للحرب وخرجوا في شوال سنة خمس وسبعين وألف، ولما قابلوا محلته افترقت كلمتهم ورجعوا منهزمين من غير قتال، فتبعهم المولى الرشيد إلى قنطرة نهر سبو خارج فاس، ثم رجع عنهم فبعثوا إليه في الصلح، فلم يتم بينه وبينهم صلح إلى أن ملك أطراف المغرب كله، وكان ذلك من حسن تدبيره وترتيبه الأمور.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وألف ففي صفر منها زحف إلى فاس وحاصرها وقاتلها ثلاثة أيام فأصابته رصاصة في طرف أذنه ورجع سالماً ثم عاد إلى حصارها مرة أخرى في ربيع الأول من السنة المذكورة فقتل ونهب ورجع إلى تازا لأنه لم يأت بقصد فتحها، ثم توجه إلى الريف بقصد الرئيس أبي محمد عبد اللّه آعراس الثائر به، فكانت بينهما وقعات، وحاصره في بعض حصونه إلى أن قبض عليه في رمضان من السنة فعفا عنه واستبقاه وكر راجعاً إلى فاس فنزل عليها في أواخر ذي القعدة من السنة وقاتلها قتالاً شديداً إلى ثالث ذي الحجة فاقتحم فاساً الجديد من أعلى السور من ناحية الملاح، وفر أميرها يومئذ أبو عبد اللّه الدريدي، وهذا الدريدي كان في جملة من إخوانه بني دريد بن أثبج الهلاليين، وكانوا في ديوان السعديين، ولما بايع أهل فاس الرئيس أبا عبد اللّه محمد الحاج الدلائي كان الدريدي هذا في عسكره، فلما فشلت ريح أهل الدلاء بالمغرب نزع عنهم واستبد بفاس الجديد، وحالف أهل فاس القديم على حرب الدلائيين ثالث جمادى الثانية سنة أربع وسبعين وألف، وقد كان أحمد بن صالح الليريني رئيس أهل عدوة الأندلس قد خطب ابنة الدريدي لولده صالح بن أحمد فزوجه إياها، والتحم

ما بينهما فكان الدريدي يشن الغارات على قبائل البربر الذين بأحواز مكناسة وغيرها. ويأتي بالنهب، والطبل يقرع عليه إلى أن يدخل دار الإمارة، واستمر على ذلك إلى أن اقتحم عليه المولى الرشيد فاساً كما قلنا ففر إلى منجاته.
وقال في «النزهة» بل قتله المولى الرشيد وسكن هيعة فاس الجديد، ومن الغد زحف إلى فاس القديمة فحاصرها وقاتلها فضعفوا عن مقاومته، وفرّ رئيس اللمطيين ابن الصغير وولده ليلاً إلى بستيون باب الجيسة، ولما طلع الفجر فرّ أيضاً رئيس عدوة الأندلس أحمد بن صالح فرأى أهل فاس أن أمرهم قد ضعف وكلمتهم قد افترقت، فخرجوا إلى المولى الرشيد وبايعوه واجتمعت كلمتهم عليه، فبعث في طلب ابن صالح فوجد بحوز المدينة فجيء به وسجن بباب دار ابن شقراء بفاس الجديد، ثم قتل وقتل معه عدة من أصحابه، ثم قبض على ابن الصغير وولده، وبعد سبعة أيام أمر السلطان بقتلهما فقتلا، واستقام أمر فاس وصلحت أحوالها. قال في «النزهة»: افتتح أمير المؤمنين المولى الرشيد فاساً القديمة فحكم السيف في رؤسائها وأفناهم قتلاً فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة، وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذي الحجة سنة ست وسبعين وألف، وبويع بها يومه ذلك، ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة، وأظهر إحياء السنة ونصر الشريعة، فحل من قلوبهم بالمكان الأرفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة،» اهـ.

وولي قضاء فاس السيد حمدون المزوار ثم خرج إلى بلاد الغرب فقصد الخضر غيلان الثائر ببلاد الهبط، وكان بقصر كتامة، فزحف إليه المولى الرشيد فانهزم الخضر إلى آصيلا، ورجع المولى الرشيد عنه إلى فاس أوائل ربيع الأول سنة سبع وسبعين وألف، فكتبت له البيعة بفاس وقرئت بين يديه قبل زوال يوم السبت الثامن عشر من ربيع الأول المذكور، ثم في شهر ربيع

الثاني من السنة غزا المولى الرشيد أحواز مكناسة وقصد آيت واللال من البربر شيعة محمد الحاج الدلائي فأوقع بهم، ورجع عوده على بدئه، وبعد رجوعه نزل محمد الحاج بجموع البربر قرب وادي فاس بأبي مزورة من أحواز فاس فقاتله المولى الرشيد ثلاثاً، ورجع كل إلى وطنه، ثم خرج المولى الرشيد إلى تازا وأعمالها حادي عشر رجب ففقدها ورجع إلى فاس في شوال من السنة المذكورة، ثم عزل العقيد قائد مكناسة، ثم خرج ثاني يوم النحر من السنة إلى بني زروال فأوقع بالشريف النابغ فيهم. وبعث به محبوساً إلى فاس فدخلها ثاني محرم سنة ثمان وسبعين وألف، ثم مال المولى الرشيد إلى تطاوين فقبض على رئيسها أبي العباس النقسيس في جماعة من حزبه وقدم بهم إلى فاس فسجنهم بها أوائل ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وألف إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

فتح زاوية الدلائي وتغريب أهلها إلى فاس وتلمسان وما يتبع ذلك

لما كانت ضحوة يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وألف خرج أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله غازياً زاوية أهل الدلاء، وكان قد أسند الفتوى إلى الفقيه أبي عبد اللّه محمد بن أحمد الفاسي، فلقي جموع الدلائيين وعليهما ولد محمد الحاج ببطن الرمان من فازاز، فانتشبت الحرب بين الفريقين ملياً ثم انهزم الدلائيون ورجعوا يقفون أثرهم إلى الزاوية. قال الشيخ اليوسي رحمه الله في محاضراته: «كان الرئيس أبو عبد اللّه محمد الحاج الدلائي قد ملك الغرب بسنين عديدة واتسع هو وأولاده وإخوته وبنو عمه في الدنيا، فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقي جموعهم ببطن الرمان ففضها دخلنا على الرئيس أبي عبد اللّه المذكور، وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ، فدخل عليه أولاده وإخوته وأظهروا له عجزاً شديداً وضيقاً عظيماً فلما رأى منهم ذلك

قال لهم: «ما هذا؟ إن قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى. قال اليوسي: «وهذا كلام عجيب وإليه يساق الحديث والمعنى: إن قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين»اهـ. وكان استيلاء المولى الرشيد على الزاوية في ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وألف ولما خرج إليه أهلها عفا عنهم ولم يرق منهم دماً ولا كشف لهم ستراً حلماً وكرماً منه رحمه الله. قال في «النزهة»: لما وقعت الهزيمة على أهل الدلاء دخل المولى الرشيد الزاوية، وأمر بمحمد الحاج وأولاده وأقاربه أن يحملوا إلى فاس ويسكنوا بها فحملوا إليها واستوطنوها مدة، ثم أمر أن يذهب بهم إلى تلمسان فغربوا إليها وسكنوها مدة.

وحدثوا أن محمداً الحاج رحمه الله لما دخل تلمسان قال: «كنت وجدت في بعض كتب الحدثان أني أدخل تلمسان فظننت أني أدخلها دخول الملوك فدخلتها كما ترون» ولم يزل بها إلى أن توفي فاتح سنة اثنتين وثمانين وألف ودفن عند ضريح الإمام السنوسي رضي الله عنه ولما توفي المولى الرشيد رجع أولاده وأقاربه إلى فاس فاستوطنوها بإذن من السلطان المظفر المولى إسماعيل، ولما دخل المولى الرشيد الزاوية غيّر محاسنها وفرق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس، بعد أن كانت مشرقة إشراق الشمس، فمحت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بأبي بكر وبنيه وابتهجت، وفاحت من شذاهم وتأرجت، ارتحل عنها فرسان الأقلام، الذين ينجاب بوجوههم الظلام، وبانت عنها ربات الخدور، وأقامت بها أثافي القدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت آثارهم، وذهبت الليالي بأشخاصهم وأبقت أخبارهم، فثل ذلك العرش، وعدا الدهر حين أمن من الأرش، ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام، فسحقاً لدنيا ما رعت لهم حقوقاً، ولا أبقت لهم شروقاً، وهي الأيام لا تقي من تجنيها، ولا تبقي على مواليها ومدانيها،

أذهبت آثار جلق، وأخمدت نار المحلق، وذللت عزة ابن شداد، وهدت القصر ذي الشرفات من سنداد، وكل يلقى معجله ومؤجله، ويبلغ الكتاب يوماً أجله، ولقد أحسن ربي نعمتهم، المقر بإحسانهم ومنتهم شيخ مشايخ المغرب على الإطلاق، الإمام الذي وقع على علمه وعمله الاتفاق، أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي رحمه الله في رائيته التي رثى بها الزاوية المذكورة وبكى أيامها يقول في مطلعها:

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا ... فيأبى ويعتاض العقيق بها خمرا

وهي طويلة شهيرة. قلت: ولم يصرح فيها بأسمائهم مراعاة لجانب السلطان وذلك هو الواجب والمناسب فرحم الله الشيخ اليوسي ما كان أعرفه بمقتضيات الأحوال.

فتح مراكش ومقتل الأمير أبي بكر الشباني وشيعته

لما فرغ المولى الرشيد رحمه الله من أمر الزاوية توجه إلى مراكش في الثاني والعشرين من صفر من السنة أعني سنة تسع وسبعين وألف فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشباني وجماعة من أهل بيته.

وقال في «النزهة»: لما بلغ أبا بكر الشباني وقومه مسير المولى الرشيد إليهم خرجوا فارين بأنفسهم من مراكش إلى شواهق الجبال لما خامر قلوبهم من رعبه، فدخل المولى الرشيد مراكش وأفنى من وجد بها من الشبانات، وقبض على أبي بكر وبني عمه، فعرضهم على السيف واستنزل تلك الفئة الشريدة من الصياصي، وأخذ منهم بالأقدام والنواصي، وأخرج عبد الكريم من قبره فأحرقه بالنار.

ولما فتح مراكش قام بها نحو شهر ثم رجع إلى فاس، فدخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة، وفي هذه السنة خرج المولى محمد الصغير من تافيلالت في شيعته وخلى سبيل البلد، وفيها

أيضاً ركب الخضر غيلان البحر إلى الجزائر وخلى سبيل آصيلا، ولما رجع المولى الرشيد إلى فاس عزل أبا عبد اللّه الفاسي عن الفتوى، وعزل الفقيه المزوار عن قضائها منسلخ جمادى الثانية من السنة، وولى القضاء الفقيه أبا عبد اللّه محمد بن الحسن المجاصي، والخطابة بجامع القرويين الفقيه أبا عبد اللّه محمداً البوعناني، وفي منتصف رجب من السنة المذكورة غزا المولى الرشيد بلاد الشاوية ورجع إلى فاسٍ في سابع رمضان العام، فعفا عن بعض أهل الدلاء، وبقي الآخرون بضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم إلى تمام السنة، فعفا عن الجميع وردهم إلى بلادهم إلا ما كان من محمد الحاج وبنيه. فإنهم غربوا إلى تلمسان، ومات هو هنالك، ولما ولي الأمر المولى إسماعيل وقعت الشفاعة في الأولاد فرجعوا إلى فاس كما مر.

وفي يوم السبت سابع عشر ذي الحجة من السنة غزا المولى الرشيد آيت عياش من برابر صنهاجة، وفيها أمر بضرب السكة الرشيدية وأقرض تجار فاس وغيرها اثنين وخمسين ألف مثقال بقصد التجارة إلى أن ردوها بعد سنة.

وفي هذه السنة أيضاً حاز طاغية الإصبنيول مدينة سبتة من يد البرتغال في سبيل مشارطة وقعت بينهم في مدينة أشبونة واستمرت في يد الإصبنيول إلى الآن.

بناء قنطرة وادي سبو خارج فاس

وفي يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وسبعين وألف أمر المولى الرشيد ببناء قنطرة نهر سبو الأقواس الأربعة خارج فاس فأخذوا في تهيئة الأسباب وحفر الأساس، وفي منتصف جمادى الثانية سنة ثمانين وألف شرعوا في البناء بالآجر والجير فكملت على أحسن حال.

ولما تكلم الشيخ اليوسي في المحاضرات على الحديث الصحيح: إن

أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بملك الأملاك قال ما نصه: ومن البشيع الواقع في زماننا في الأوصاف، أنه لما بنى السلطان المولى الرشيد بن الشريف جسر نهر سبو صنع بعضهم يعني: القاضي أبا عبد الله المجاصي أبياتاً كتبت فيه برسم الأعلام أولها:

صاغ الخليفة ذا المجاز ملك الحقيقة لا المجاز

قال فحمله اقتناص هذه السجعة والتغالي في المدح والاهتبال بالاسترضاء على أن جعل ممدوحه ملكاً حقيقياً لا مجازياً، وإنما ذلك هو الله وحده، وكل ملك دونه مجاز الممدوح وغيره»اهـ.

وفي هذه السنة وذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب خرج المولى الرشيد غازياً الأبيض فقبض على أولاد أخي الأبيض، ولما وصل إلى تازا أمر بقتلهم فقتلوا، ثم مرض مرضاً شديداً أشرف منه على الموت، فأمر بتسريح المساجين وإخراج الصدقات فعافاه الله.

وفي منتصف ذي القعدة من السنة أمر بإعمال وليمة العرس لأخيه المولى إسماعيل بدار ابن شقراء من حضرة فاس الجديد. قال اليفرني: «احتفل المولى الرشيد في ذلك العرس بما لم يعهد مثله»اهـ. وكانت العروس من بنات الملوك السعديين. وفي شوال من السنة جدد قنطرة الرصيف بفاس والله أعلم.

فتح تارودانت وإيليغ وسائر السوس

قد قدمنا أن أبا حسون السملالي كان مستولياً على بلاد السوس فاستمر حاله على ذلك إلى أن توفي سنة سبعين وألف، وكان رحمه الله لين الجانب محمود السيرة موصوفاً بالعفة متوقفاً في الدماء، ولما هلك خلفه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي حسون، فلما كانت سنة إحدى وثمانين وألف غزا المولى الرشيد رحمه الله بلاد السوس فاستولى على

تارودانت رابع صفر من السنة، وأوقع بهستوكة، فقتل منهم أكثر من ألف وخمسمائة وأوقع بأهل الساحل فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف، وأوقع بأهل قلعة إيليغ دار ملك أبي حسون، فاستولى عليها في مهل ربيع الأول من السنة، وقتل منهم بسفح الجبل أكثر من ألفين وصفا أمر السوس للمولى الرشيد.

وفي هذه السنة أيضاً في سابع ربيع الأول منها قتل المولى إسماعيل، وكان نائباً عن أخيه بفاس، ستين رجلاً من أولاد جامع، وكانوا يقطعون الطريق فقتلهم وصلبهم على سور البرج الجديد. وفيها في جمادى الأخيرة منها أمر المولى الرشيد بضرب فلوس النحاس المستديرة، وكانت قبل مربعة وهي الأشقوبية وجعل أربعة وعشرين في الموزونة وكانت قبل ثمانية وأربعين ورجع إلى فاس في ثالث رجب من السنة. وفي أول شعبان منها شرع في بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز من فاس وكان قد أمر ببناء مدرسة عظيمة بإزاء مسجد الشيخ أبي عبد اللّه محمد بن صالح من حضرة مراكش والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

تاليف جيش شراقة وأوليتهم وشرح لقبهم

قد قدمنا في أخبار السعديين: أن لفظ شراقة في الأصل لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف إليهم، وسموا بذلك لأنهم في جهة الشرق عن المغرب الأقصى، فأهل تلمسان مثلاً يسمون أهل المغرب الأقصى مغاربة، وأهل المغرب الأقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة، إلا أن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة بتخفيف الراء وإيقاف المعقودة، وقد كان للسعديين جند من هؤلاء العرب كما مر.

ولما جاء الله بدولة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله واجتمع عليه من عرب آنكاد وغيرهم ما قدمنا ذكره نزع إليه من أهل تلك البلاد عدة قبائل

بعضها من العرب وبعضها من البربر أنفاً من ولاية الترك فقبلهم. فمن العرب أشجع وبنو عامر، ومن البربر مديونة وهوارة وبنو سنوس، فأمر رحمه الله ببناء القصبة الجديدة بفاس بديار لمتون وعرصة ابن صالح وبذل لأصحابه وقواده ألف مثقال لبناء سورها وأمرهم ببناء الدور فيها وأعطى شراقة هؤلاء ألف دينار لبناء قصبة الخميس، بعد أن كان أنزلهم أولاً بأحواز فاس، فحصل منهم الضرر لأهل المدينة وشكوهم، فأمرهم بالانتقال بحلتهم إلى بلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الأرض وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم على حدة، ثم أعطاهم ألف دينار لبناء سور القصبة كما قلنا، وجعلهم قبيلة واحدة فلم تتميز الآن عربهم من بربرهم، ثم خرج المولى الرشيد رابع رمضان من السنة لزيارة الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه ومنه ذهب إلى سلا فزار صلحاءها وعاد إلى فاس فدخلها منسلخ رمضان المذكور.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وألف في صفر منها بعث خيلاً للجهاد على طنجة، وفي منتصف جمادى الأولى بعث خيلاً أخرى إلى السوس وعليهم أبو محمد عبد اللّه آعراس، ثم خرج إلى الصيد بتافرطاست فبلغه هنالك خبر ثورة ابن أخيه المولى محمد بن محمد بمراكش. فرجع إلى فاس، فدخلها يوم السبت حادي عشر رمضان، ثم خرج منها عصر يومه ذلك، فلقيه ابن أخيه بفزارة مقبوضاً عليه بيد أصحابه فبعث به إلى تافيلالت وسار هو إلى مراكش وبعث قائده زيدان العامري إلى فاس في ذي القعدة ليأتيه بالجيش لغزو السوس، فأتاه أهل السوس طائعين ولم يبق للحركة محل بعد أن كانت الأخبية قد أخرجت إلى وادي فاس وضربت به، فاستقرت قواعد الملك للمولى الرشيد وتمهدت أمور الدولة والله غالب على أمره.

وفاة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله في هذه المدة مقيماً بمراكش كما قلنا إلى أن كان عيد الأضحى من سنة اثنتين وثمانين وألف، فلما كان ثاني يوم النحر وهو يوم الخميس ركب فرساً له وأجراه فجمح به في بستان المسرة ولم يملك عنانه فأصابه فرع شجرة نارنج فهشم رأسه وقيل دخل في أذنه وكانت فيه منيته رحمه الله، ودفن بمراكش بالقصبة منها، ثم نقل إلى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بفاس لوصية منه بذلك. ومات رحمه الله وسنه اثنتان وأربعون سنة لأنه ولد سنة أربعين وألف، ورثاه بعضهم بقوله:

وما شج ذات الغصن رأس إمامنا لسوء له خدن المحبة جاحد
ولكنه قد غار من لين قده وإن من الأشجار ما هو حاسد

قلت: لا يخفى أن مثل هذا الشعر لا يحسن أن تمدح به الملوك فإنه بالغزل أشبه منه بالرثاء، وكان قد وقع بين المولى الرشيد رحمه الله وبين شيخ الوقت الإمام أبي عبد اللّه محمد بن ناصر الدرعي رضي الله عنه مكاتبات توعده أمير المؤمنين في بعضها فمات عقب ذلك وكفى الشيخ المذكور أمره.

ومن مآثره رحمه الله: أنه لما مر في بعض حركاته بالموضع المعروف بالشط من بلاد الظهراء أمر بحفر آبار شتى فهي الآن تدعى بآبار السلطان إضافة له يستقي منها ركب الحجيج في ذهابه وإيابه، فهي إن شاء الله في ميزان حسناته، وكان رحمه الله محبّاً في جانب العلماء مؤثراً لأغراضهم مولعاً بمجالستهم محسناً إليهم حيث ما كانوا.

ومن نوادره معهم: ما حكي أن العلامة أبا عبد اللّه محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلائي حضر يوماً بمجلس السلطان المذكور وذلك بعد

الإيقاع بزاويتهم وتغريبهم إلى فاس فأنشد السلطان معرضاً بالفقيه المذكور قول أبي الطيب المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عـدواً لـه مـا مـن صـداقـتـه بـد

ففهم أبو عبد اللّه المرابط إشارته فقال: «أيد الله أمير المؤمين، إن من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً» فاستحسن الحاضرون حسن بديهته ولطف منزعه.

ومن تواضع المولى الرشيد رحمه الله مع أهل العلم ما حكاه صاحب الجيش من أنه بعث إلى بعض علماء عصره ليقرأ معه بعض الكتب فامتنع ذلك العالم وقال كما قال الإمام مالك رضي الله عنه: «العلم يؤتى ولا يأتي» قال: «فكان المولى الرشيد رحمه الله يتردد لمنزل ذلك العالم للقراءة عليه، وقد ذكر صاحب «نشر المثاني»: «أنه كان يحضر مجلس الشيخ اليوسي بالقرويين»اهـ. وهذه لعمري منقبة فخيمة، ومأثرة جسيمة، فرحم الله تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره، قالوا: وكان رحمه الله جواداً سخياً رحل الناس إليه من المشرق فما دونه وقصده بعض طلبة ثغر الجزائر فامتدحه ببيتين وهما:

فاض بحر الفرات في كل قطر من نـدى راحـتـيـك عـذبـاً فـراتـا

غرق الناس فيه والتمس الفقـ ـر خـلاصـاً فـلـم يـجـده فـمـاتـا

فوصله بألفين وخمسين ديناراً.

قال اليفرني: وشأوه رحمه الله في السخاء لا يلحق، والحكايات عنه بذلك شهيرة، وفي أيامه كثر العلم واعتز أهله وظهرت عليهم أبهته، وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم حتى قيل إنه في اليوم الذي بويع فيه بفاس كان القمح في أول النهار بخمس أواق للمد وصار في آخره بنصف أوقية فتيمن الناس بولايته واغتبطوا بها، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المظفر بالله أبي النصر المولى إسماعيل بن الشريف رحمه الله

لما توفي المولى الرشيد رحمه الله في التاريخ المقدم وكان أخوه المولى إسماعيل بمكناسة الزيتون خليفة على بلاد الغرب فبلغه خبر موته فاجتمع الناس عليه وبايعوه واتفقت كلمتهم عليه، ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرافها ببيعتهم، وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادي كذلك بهداياهم وبيعاتهم إلا مراكش وأعمالها فإنه لم يأت منها أحد، فجلس رحمه الله للوفود إلى أن فرغ من شأنهم ورتب أموره بمكناسة وعزم على السكنى بها إذ كان لا يبغي بها بدلاً حيث أعجبه ماؤها وهواؤها هكذا في البستان.

وقال أبو عبد اللّه اليفرني في النزهة ونحوه في «نشر المثاني»: «لما توفي المولى الرشيد رحمه الله اتصل خبر وفاته بالمولى إسماعيل وهو يومئذ خليفته بفاس الجديد ليلة الأربعاء السادس عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين وألف فبويع رحمه الله، وحضر بيعته أعيان المغرب وصلحاؤه بحيث لم ينازع في أنه أحق بها وأهلها أحد ممن يشار إليه،» زاد في «الظل الظليل»: ووافق على بيعته أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف كالشيخ أبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي، والشيخ أبي علي اليوسي، وأبي عبد اللّه محمد بن علي الفيلالي، وأبي العباس أحمد بن سعيد المكيلدي، وأبي عبد اللّه محمد بن عبد القادر الفاسي، وأخيه أبي زيد صاحب نظم العمل، والقاضي أبي مدين، وغيرهم من بقية الأعيان، وكانت بيعته في السنة الثانية من يوم الأربعاء السادس عشر من ذي الحجة المذكور آنفاً، ووافق ذلك اليوم الثالث من شهر إبريل العجمي.

وكان سنه يوم بويع ستاً وعشرين سنة لأن ولادته كانت عام وقعة

القاعة وهي مؤرخة بخط من يوثق به سنة ست وخمسين وألف، ولما تمت بيعته نهض بأعباء الخلافة وضبط الأمور وأحسن السيرة.

ثورة المولى أبي العباس أحمد بن محرز بن الشريف وما كان من أمره

لما توفي المولى الرشيد رحمه الله واتصل خبر وفاته بأهل سجلماسة وغيرها أقبل ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد بن محرز مبادراً إلى مراكش طالباً للأمر وداعياً إلى نفسه، والتفت عليه طوائف من عرب السوس وغيرهم وغلب على تلك النواحي ونشبت أهل مراكش بلامع برقه، وبذلك تقاعدوا عن الوفادة على أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله.

ولما صح عنده خبر ابن محرز وذلك في آخر ذي الحجة من السنة نهض إلى مراكش فوصل إليها وبرز إليه أهلها فيمن انضم إليهم من قبائل أحوازها وقاتلوه فانتصر عليهم وهزمهم، ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين وألف، فعفا عن أهلها، وأجفل ابن محرز وشيعته إلى حيث نجوا.

ولما احتل المولى إسماعيل بمراكش أمر بنقل شلو أخيه المولى الرشيد في تابوته إلى فاس ليدفن بضريح الشيخ ابن حرزهم كما مر، ثم قفل السلطان إلى مكناسة منسلخ ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وألف.

انتقاض أهل فاس وقتلهم القائد زيدان وإعلانهم بدعوة ابن محرز وما نشأ عن ذلك من محاصرة السلطان لهم

لما قفل أمير المؤمنين المولى إسماعيل إلى مكناسة أخذ في ترتيب أمور دولته وفرق الراتب على الجند وكان عازماً على غزو بلاد الصحراء فلم يرعه إلا الخبر بأن أهل فاس قد انتقضوا وقتلوا قائد الجيش زيدان بن عبيد العامري وكان مقتله ليلة الجمعة ثاني جمادى الأولى من السنة فزحف السلطان إليهم وحاصرهم واستمر القتال بينه وبينهم أياماً، ثم بعثوا إلى المولى أحمد بن محرز ليأتيهم فيجتمعوا عليه فقدم دبدو وأنزل على ملوية وبعث إليهم رسوله يعلمهم بمجيئه فأعلنوا بنصره، وذلك يوم الخميس العشرين من جمادى الثانية من السنة، وفي منسلخ الشهر المذكور بعثوا عشرة من الخيل للقائه بتازا، ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان يعلمهم بأنه قد قدم من ثغر الجزائر في البحر، وأنه نزل بتطاوين مع رؤسائها أولاد النقسيس، فتشعبت الآراء وتعددت أسباب الهراش، وتكاثرت الظباء على خداش، وهاجت فتنة بفاس قتل فيها نفر من أولاد الثائر المتقدم أبي الربيع سليمان الزرهوني على يد مولاي أحمد بن إدريس من شرفاء دار القيطون، ثم قتل بعض شيعة الزرهوني مولاي حفيد بن إدريس أخا الشريف المذكور، وكان ما كان مما لست أذكره.

ولما اتصل خبر ابن محرز بالمولى إسماعيل نهض إليه في جنوده قاصداً تازا فحاصرهم بها أشهراً ففرّ عنها ابن محرز ودخل الصحراء، ولما علم السلطان بفراره عدل إلى ناحية الهبط بقصد الخضر غيلان فحاربه إلى أن ظفر به وقتله يوم الأحد العشرين من جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وألف، وعاد إلى فاس الجديد أواسط جمادى الثانية من السنة، وحاصر أهل فاس وطاولهم ولم يحدث معهم حرباً إلى أن أذعنوا إلى الطاعة وراجعوا بصائرهم ففتحوا البلد وخرجوا إلى السلطان تائبين فعفا عنهم، وذلك في سابع عشر

رجب سنة أربع وثمانين وألف، فكانت مدة انتقاضهم أربعة عشر شهراً وثمانية عشر يوماً ذاقوا فيها وبال أمرهم، ثم ولي عليهم القائد أبا العباس أحمد التلمساني، وعلى فاس الجديد الوزير أبا زيد عبد الرحمٰن المنزاري وسار إلى مكناسة، ثم عاد بالقرب، إلا أن هذين الواليين قد جارا في الحكومة، وعاثا في البلدين بضرب الأبشار ونهب الأموال وغير ذلك والله لا يظلم مثقال ذرة، وعزل أيضاً عن خطابة القرويين الفقيه أبا عبد الله البوعناني وولاها القاضي أبا عبد الله المجاصي وذلك في أخر رجب من السنة والله أعلم.

تجديد أمير المؤمنين المولى إسماعيل بناء مكناسة الزيتون واتخاذه إياها دار ملكه

كانت مدينة مكناسة الزيتون من الأمصار القديمة بأرض المغرب بناها البربر قبل الإسلام؛ ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها، ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت، ومعناها: المحلة، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط، وكانت يومئذ هي كرسي الوزارة كما أن حضرة فاس الجديد هي كرسي الإمارة، واختصت مكناسة بطيب التربة وعذوبة الماء وصحة الهواء وسلامة المختزن من التعفين وغير ذلك. وقد وصفها ابن الخطيب في مواضع من كتبه مثل «النفاضة» و«المقامات» وغيرهما وأثنى عليها نظماً ونثراً وأنشد قول ابن عبدون من أهلها فيها:

إن تفتخر فاس بما في طيها ... وبأنها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء

فلما كانت بهذه المثابة كان أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله لا

يبغي بها بدلاً، فلما فرغ من أمر فاس رجع إليها وشرع في بناء قصور. بها بعد أن هدم ما يلي القصبة من الدور، وأمر أربابها بحمل أنقاضها، وبنى لهم سوراً على الجانب الغربي، وأمر ببناء دورهم به، وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده في القصبة القديمة، ولم يبق أمامه إلا الفضاء فجعل ذلك كله قصبة. وبنى سور المدينة وأفردها عن القصبة وأطلق أيدي الصناع في البناء ومداومة العمل، وجلبهم من جميع حواضر المغرب، ولما لم يقنعه ذلك فرض العملة على القبائل مناوبة، فصارت كل قبيلة من قبائل المغرب تبعث عدداً معلوماً من الرجال والبهائم في كل شهر، وفرض الصناع وأهل الحرف على الحواضر، فصار أهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عدداً معلوماً كذلك، وأسس المسجد الأعظم بداخل القصبة مجاوراً لقصر النصر الذي كان أسسه في دولة أخيه المولى الرشيد رحمه الله، ثم أسس الدار الكبرى التي بجوار الشيخ المجذوب، واستمر البناء والغرس بمكناسة سنين كما سيأتي التنبيه على ذلك في مجلسه إن شاء الله.

مجيء المولى أحمد بن محرز إلى مراكش واستيلاؤه عليها ونهوض السلطان إلى محاصرته بها

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وألف فيها ورد الخبر على السلطان المولى إسماعيل وهو بمكناسة بدخول ابن أخيه المولى أحمد بن محرز مراكش واستيلائه عليها، وكان السلطان يومئذ متوجهاً إلى آنكاد لما بلغه من عيث العرب الذين به وقطعهم الطريق فلم يثنه ذلك عنهم بل سار إليهم وأوقع بسقونة منهم وقتل خلقاً كثيراً ونهب ورجع مؤيداً منصوراً، ثم استعد لحرب ابن محرز وخرج في العساكر على طريق تادلا، فكان اللقاء بينهما على أبي عقبة من وادي العبيد، فاقتتلوا وانهزم ابن محرز وقتل كبير جيشه

حيدة الطويري، ورجع أدراجه إلى مراكش، فتبعه السلطان المولى إسماعيل، وألقى بكلكله على مراكش أوائل سنة ست وثمانين وألف، ونما إليه أن بعض أهل محلته قد أضمروا الغدر منهم الشيخ عمر البطوئي وولده وعبد الله آعراس وإخوته، هؤلاء كانوا أمراء عسكره، فحنقهم وأتلف نفوسهم، وبعث إلى من بقي منهم بفاس فقبض عليهم وقتلوا وحيزت دورهم وأموالهم.

واستمر السلطان محاصراً لمراكش إلى ربيع الثاني من سنة سبع وثمانين وألف فشدد في الحصار، وازدلف إليها في جنوده، فوقع قتال عظيم مات فيه من الفريقين ما لا يحصى، وانحجر ابن محرز داخل البلد وبقي يقاتل من أعلى الأسوار، ثم تمادى الحصار إلى ثاني ربيع الثاني من سنة ثمان وثمانين وألف، فاشتد الأمر على ابن محرز وضاق ذرعاً، فخرج فارّاً عن مراكش ناجياً فيما أبقته الحرب من جموعه. ودخل السلطان المولى إسماعيل المدينة عنوة، فاستباحها وقتل سبعة من رؤسائها وكحل ثلاثين منهم وهدأت الفتنة وذهبت أيام المحنة. والله غالب على أمره.

تأليف جيش الودايا وبيان فرقهم وأوليتهم

هذا الجيش من أمثل جيوش هذه الدولة الشريفة أبقى الله فضلها وبسط على البلاد والعباد يمنها وعدلها وهو ينقسم إلى ثلاثة أرحاء: رحى أهل السنوس، ورحى المغافرة، ورحى الودايا، ويطلق على الجميع ودايا تغليبا، فأما أهل السوس فمنهم أولاد جرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات وكلهم من عرب معقل، وكانوا في القديم جنداً للدولة السعدية، وكان ملوكها يستنفرونهم للغزو بحللهم لاعتيادهم ذلك أيام كونهم بالصحراء، ثم أنزلوهم ببسيط آزغار مراغمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم، إذ كانت

الخلط شيعة بني مرين وأصهارهم كما مر، فلما جاءت الدولة السعدية بقوا منحرفين عنها، وكلما طرقها خلل ثاروا عليها وخرجوا عن طاعتها، فقيض لهم السلطان محمد الشيخ السعدي هؤلاء القبائل من معقل وزاحمهم بهم في بلادهم، وشغلهم بهم، فكانت تكون بينهم الحروب، فتارة تنتصف معقل من جشم، وتارة العكس حتى أوقع المنصور السعدي بالخلط وقيعته الشهيرة، وأسقطهم من الجندية، فنقل أولاد مطاع إلى زبيلة قرب تادلا.

ولما أشرفَت الدولة السعدية على الهرم استطالت الشبانات عليها بما كان لهم من الخؤلة على أولاد السلطان زيدان، فاستبدت فرقة منهم بمراكش كما مر، وثارت أخرى بفاس الجديد مع أبي عبد اللّه الدريدي المتغلب بها حسبما سلف، إلى أن نقل أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله جميعهم إلى وجدة كما سيأتي، ثم خلطهم بعد بإخوانهم من المغافرة والودايا وصير الجميع جيشاً واحداً فهذه أولية أهل السوس.

وأما المغافرة فسيأتي بيان كيفية اتصالهم بالمولى إسماعيل ومصاهرتهم له.

وأما الودايا فكان السبب في جمعهم واستعمالهم في الجندية أنه لما فتح المولى إسماعيل رحمه الله مدينة مراكش الفتح الثاني وأجفل ابن محرز عنها أقام بها أياماً، ثم خرج إلى الصيد بالبسيط المعروف بالبحيرة من أحواز مراكش، فرأى أعرابياً يرعى غنماً له وبيده شفرة يقطع بها السدر ويضعه لغنمه لتأكل ورقة، فقال للوزعة: «عليّ بأبي الشفرة» فأسرعوا إليه وجاؤوا به إلى أن أوقفوه بين يديه، فسأله فانتسب له إلى: ودي، كغني: قبيلة من عرب معقل بالصحراء، وأخبره بأنهم دخلوا من بلاد القبلة بسبب جدب أصابهم، قال: «دخلنا السوس بنجع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا إلى قبيلة فنزلت عليها، ونحن نزول مع الشبانات» فقال له المولى إسماعيل رحمه الله: «أنتم أخوالي وسمعتم بخبري ولم تأتوني، والآن أنت صاحبي وإذا رجعت بغنمك

إلى خيمتك فاقدم عليّ إلى مراكش» وأوصى به من يوصله إليه، ثم بعد أيام قدم أبو الشفرة على السلطان فكساه وحمله وبعث معه خيلاً يجمع بها إخوانه من قبائل الحوز، فجمع من وجد منهم وجاء بهم إلى السلطان فأثبتهم في الديوان وكساهم وحملهم، ثم نقلهم بحلتهم إلى مكناسة الزيتون دار الملك ومقر الخلافة.

ثم دخل نجع آخر بعدهم فأثبتهم في الديوان أيضاً وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم وعين لسكناهم من مكناسة المحل المعروف بالرياض بجوار قصبتها، وأمرهم ببناء الدور وأعطى أعيانهم ورؤساءهم النوائب وهي: الزوايا التي لا تغرم مع القبائل، ثم قدم نجع ثالث جاؤوا من جهة القبلة فأثبتهم كإخوانهم الذين قدموا قبلهم وسلك بهم مسلكهم.

ولما نقل رحمه الله زرارة والشبانات الذين كانوا بفاس الجديد مع الدريدي بعث بهم إليها أيضاً ليجتمعوا مع إخوانهم، ثم قسم الودايا الذين بالرياض قسمين فبعث نصفهم إلى فاس الجديد وعمره بهم. وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن عطية منهم، وأبقى النصف الآخر بالرياض من مكناسة، وولى عليهم القائد أبا الحسن علياً المدعو بأبي الشفرة، فكانا يتداولان القسمين مرة هذا ومرة هذا. ثم استقر الأمر على أن صار أبو الشفرة بفاس وابن عطية بالرياض.

وأما خبر الخلط: فإنه لما أوقع بهم المنصور السعدي تفرقوا في القبائل شذر مذر، وصاروا عيالاً على غيرهم، ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم اجتمعوا ورجعوا إلى أزغاز فغلبوا عليه، وعفوا وكثروا وتمولوا وأكثروا من الخيل والسلاح إلى أن جاء الله بالمولى إسماعيل رحمه الله فانتزع منهم خيلهم وسلاحهم كغيرهم من قبائل المغرب، وضرب عليهم المغارم، واستمروا على ذلك إلى أيام السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله فظهروا في دولته، وكانوا يعكسون معه في حروب ويغرمون ما وجب عليهم

من الزكوات والأعشار، وكذلك مع ابنه المولى سليمان وابن ابنه المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحم الله الجميع بمنّه، وهم اليوم في عداد القبائل الغارمة، وكذا قبائل الحوز الذين هم من عرب معقل كلهم غارمة، والله تعالى المتولي لأمور العباد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

انتقاض البربر شيعة الدلائيين والتفافهم على أحمد بن عبد اللّه منهم وإيقاع السلطان بهم

لما كان أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله مقيماً بمراكش بعد فرار المولى أحمد بن محرز عنها بلغه اجتماع البربر الصنهاجيين على أحمد بن عبد اللّه الدلائي وعيثهم فيمن جاورهم من قبائل العرب من تادلا إلى سايس، فبعث رحمه الله عسكراً إلى تادلا إعانة لأهلها على البربر فهزمتهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا واستولوا على تادلا، ثم بعث إليهم عسكراً آخر فيه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد عليه ليخلف فهزمهم البربر وقتلوا يخلف وانتهبوا معسكره، ثم أعقبهما بعسكر ثالث فوقع به ما وقع بالأولين هذا كله والسلطان مقيم بمراكش يرصد ابن محرز الذي بالسوس، ثم بلغه قيام أخيه المولى حمادة بالصحراء وحربه لأخيه المولى محرز الثائر بها أيضاً، وهو والد المولى أحمد صاحب السوس فقدم السلطان رحمه الله الأهم ورجع إلى حرب البربر بتادلا خوفاً من اتساع خرقهم على الدولة، وهناك لقيه أخوه المولى الحران جاء مستصرخاً له على أخيه المولى حمادة، ثم تقدم السلطان رحمه الله إلى البربر فأوقع بهم وقعة شنعاء واستلحمهم وقطع منهم سبعمائة رأس بعث بها إلى فاس مع عبد اللّه بن حمدون الروسي. وفي «نشر المثاني» أنه قتل من البربر يومئذ ثلاثة آلاف فزينت المدينة وأخرجت المدافع وكان يوماً مشهوداً، ولما انقضت الوقعة فرّ المولى الحران من

المحلة إلى الصحراء ورجع السلطان إلى مكناسة فدخلها في أواسط شوال سنة ثمان وثمانين وألف.

وفي هذه الأيام ولي قضاء فاس الفقيه الورع أبا عبد الله محمد العربي بردلة بعد عزل القاضي أبي عبد الله المجاصي، وولي مظالمها وجبايتها عبد الله الروسي، وولي مواريثها أباه حمدون، وأمر بقتل أهل تطاوين الذين كانوا بسجن فاس وهم عشرون فضربت أعناقهم ورفعت على الأسوار، ثم جيء بالمولى الحران من الصحراء مقيداً مغلولاً فلما قابله منّ عليه وأطلقه وأعطاه خيلاً وأقطعه مداشر بالصحراء يتعيش بها وسرحه إلى حال سبيله.

عود الكلام إلى بناء حضرة مكناسة الزيتون

واستمر السلطان المولى إسماعيل رحمه الله بمكناسة قائماً على بناء حضرتها بنفسه وكلما أكمل قصراً أسس غيره، ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس الجامع الأخضر أعظم منه، وجعل له بابين باباً إلى القصبة وباباً إلى المدينة وجعل رحمه الله لهذه القصبة عشرين باباً عادية في غاية السعة والارتفاع، مقبوة من أعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الأجرام والمهاريس الحربية الهائلة الأشكال ما يقضي منه العجب، وجعل في هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط، وجعل بها هرياً عظيماً لاختزان الطعام من قمح وغيره مقبو القنانيط، يسع زرع أهل المغرب، وجعل بجواره سواقي للماء في غاية المعمق مقبواً عليها، وجعل في أعلاها برجاً عظيماً مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة إلى كل جهة، وجعل بها إصطبلاً عظيماً لربط خيله وبغاله مسيرة فرسخ في مثله مسقف الجوانب بالبرشلة على أساطين وأقواس عظيمة، في كل قوس مربط فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبراً، يقال: إنه كان مربوطاً بهذا الإصطبل اثني عشر ألف فرس مع كل فرس سائس من

المسلمين وخادم من أسرى النصارى يتولى خدمته، وفي هذا الإصطبل سانية من الماء دائرة عليه مقبوة الظهر، وأمام كل فرس منها ثقب كالمعدة لشربهٰ، وفي وسط هذا الإصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة، وفيه أيضاً هري عظيم مربع الشكل مقبو الأعلى على أساطين عظيمة وأقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل، وينفذ إليه الضوء من شبابيك في جوانبه الأربعة كل شباك ينيف وزنه على قنطار من حديد، وفوق هذا الهري من أعلاه قصر يقال له: المنصور، ولا يقصر ارتفاعه من مائة ذراع خمسون في الأسفل وخمسون في الأعلى، وفيه عشرون قبة في كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل إلى الجبل، وكل قبة مسقفة بالبرشلة والقرمود وغير ذلك، ثم أربع قباب منها متقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبراً في مثلها، وباقي العشرين أربعون. ويجاور هذا الإصطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب، طوله فرسخ وعرضه ميلان، ويتخلل هذه القصور التي في داخل القلعة بشوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وبين الأخرى، ورحاب عظيمة مربعة معدة لعمارة المشور في كل جانب، إلى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف.

قال صاحب «البستان»: «وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم، بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الإسلام لرجح بها ما بناه السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الأمطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام» قال: «ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج

ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك إلى وقتنا هذا. وبنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة، وأما الجدرات فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والزوم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال»اهـ.

تاليف جيش عبيد البخاري وذكر أوليتهم وشرح تسميتهم

هذا الجيش من أعظم جيوش هذه الدولة السعيدة كما تقف عليه، وكان السبب في جمعه ما وجد مفصلاً في كناش كاتب الدولة الإسماعيلية ووزيرها الأعظم الفقية الأديب أبي العباس أحمد اليحمدي رحمه الله، قال: لما استولى السلطان المولى إسماعيل بن الشريف على مراكش ودخلها أول مرة كان يكتب عسكره من القبائل الأحرار حسبما مر، حتى أتاه الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي المدعو عليليش، وبيتهم بيت رياسة من قديم. وكان والده كاتباً مع المنصور السعدي ومع أولاده من بعده، فتعلق أبو حفص هذا بخدمة السلطان المولى إسماعيل وأطلعه على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور، فسأله السلطان رحمه الله هل بقي منهم أحد؟ قال: «نعم، كثير منهم ومن أولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وبقبائل الدير، ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعتهم» فولاه أمرهم وكتب له إلى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده وإعانته على ما هو بصدده فأخذ عليليش يبحث عنهم بمراكش وينقر عن أنسابهم إلى أن جمع من بها منهم، ثم خرج إلى الدير فجمع من وجد به، ثم سار إلى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسود، سواء كان مملوكاً أو حرطانيا أو حراً أسود، واتسع الخرق وعسر الرتق فجمع في سنة واحدة ثلاثة آلاف

رأس، منهم المتزوج والعزب ثم كتبهم في دفتر وبعث به إلى السلطان بمكناسة فتصفحه السلطان وأعجبه ذلك فكتب إليه يأمره بشراء الإماء للأعزاب منهم، ويدفع أثمان المماليك منهم إلى ملاكهم ويكسوهم من أعشار مراكش، ويأتيه بهم إلى مكناسة فاجتهد عليليش في ذلك واشترى من الإماء ما قدر عليه، وجمع من الحرطانيات عدداً إلى أن استوفى الغرض وكساهم وألزم القبائل بحملهم إلى الحضرة، فحملوا من قبيلة إلى أخرى إلى أن وصلوا مكناسة، فأعطاهم السلطان السلاح وولى عليهم قوادهم، وبعث إليهم إلى الموضع المعروف بالمحلة من مشرع الرملة من أعمال سلا.

ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد اللّه محمد بن العياشي المكناسي إلى قبائل الغرب وبني حسن وأمره بجمع العبيد الذين بها فمن لا ملك لأحد عليه يأخذه مجاناً، ومن كان مملوكاً لأحد فليعط صاحبه ثمنه ويحوزه منه، فخرج ابن العياشي وطاف في تلك القبائل واستقصى كل أسود بها، وكان السلطان قد كتب أيضاً إلى عماله بالأمصار بأن يشتروا له العبيد والإماء من فاس ومكناسة وغيرهما من حواضر المغرب عشرة مثاقيل للعبد وعشرة مثاقيل للأمة، فاستوعبوا ما وجدوا حتى لم يبق عند أحد عبد ولا أمة، فاجتمع مما اشتراه العمال ثلاثة آلاف أخرى، فكساهم السلطان وسلحهم وبعث بهم إلى المحلة بعد أن عين لهم قوادهم، ثم أن ابن العياشي قدم بدفتر فيه ألفان من العبيد فيهم المتزوج والعزب، فكتب السلطان إلى القائد أبي الحسن علي بن عبد اللّه الريفي صاحب بلاد الهبط أن يشتري للأعزاب منهم الإماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم إلى المحلة، فصار المجموع ثمانية آلاف، وهذا العدد هو الذي نزل أولاً بها.

ثم ألزم السلطان قبائل تامسنا ودكالة أن يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم فلم يسعهم إلا الامتثال، فجمعوا كل عبد في بلادهم وزادوا بالشراء من عندهم، وأعطوهم الخيل والسلاح وكسوهم وبعثوا بهم إليه فمن تامسنا

ألفان، ومن دكالة ألفان، فأنزلهم السلطان بوجه عروس من أحواز مكناسة إلى أن بنى قصبة آدخسان فأنزل عبيد دكالة بها وأنزل عبيد تامسنا بزاوية أهل الدلاء.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وألف فيها غزا السلطان المولى إسماعيل صحراء السوس فبلغ آقاوطاطا وتيشيت وشنكيط وتخوم السودان فقدمت عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومن دليم وبربوش والمغافرة وودي ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدوا طاعتهم، وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغفري والد الحرة خناثى أم السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل، فأهدى الشيخ المذكور إلى السلطان ابنته خناثى المذكورة، وكانت ذات جمال وفقه وأدب، فتزوجها السلطان رحمه الله وبنى بها وجلب في هذه الغزوة من تلك الأقاليم ألفين من الحراطين بأولادهم فكساهم بمراكش وسلحهم، وولى عليهم، وبعث بهم إلى المحلة وقفل هو إلى حضرته من مكناسة فكان عدد ما جمع من العسكر البخاري أربعة عشر ألفاً، عشرة آلاف منها بمشرع الرملة وأربعة آلاف بآدخسان وما والاها من بلاد البربر، ثم عفوا وتناسلوا وكثروا حتى ما مات المولى إسماعيل إلا وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً كما سيأتي إن شاء الله.

واعلم أنه قد وقع في هذه الأخبار لفظ الحرطاني، ومعناه في عرف أهل المغرب: العتيق، وأصله الحر الثاني كأن الحر الأصلي حر أول وهذا العتيق حر ثان ثم كثر استعماله على الألسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيف.

وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري: فإن المولى إسماعيل رحمه الله لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه، وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم: «أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله وكل

ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل» فعاهدوه على ذلك، وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بني إسرائيل، وما زال الأمر على ذلك إلى هذا العهد فلهذا قيل لهم عبيد البخاري.

قال في «البستان»: «كان مآل هذا العسكر البخاري مع أولاد أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم بن الرشيد العباسي في كونهم استبدوا عليهم وصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون إلى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا في البلاد شذر مذر، وما أحياهم إلا السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد اللّه ولما عفوا وكثروا خرجوا عليه بابنه المولى يزيد وفعلوا فعلتهم التي فعلوها من قبل حسبما تسمعه بعد إن شاء الله.

غزو أمير المؤمنين المولى إسماعيل بلاد الشرق وانعقاد الصلح بينه وبين دولة الترك أهل الجزائر

ثم غزا أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله بلاد الشرق فترك تلمسان عن يساره، وأصحر في ناحية القبلة فقدمت عليه هنالك وفود العرب من ذوي منيع ودخيسه وحميان والمهاية والعمور وأولاد جرير وسقونه وبني عامر والحشم، فسار بهم إلى أن نزل القويعة على رأس وادي شلف المسمى اليوم بوادي صا، وكان رائده إليها والدال له عليها هم بنو عامر بن زغبة فخرج جيش الترك مع ثغر الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريسهم، ونزلوا على وادي شلف قبالة السلطان رحمه الله، ولما كان وقت العشاء أرعدوا مدافعهم ليدهشوا العرب الذين مع السلطان فكان الأمر كذلك، فإنه لما انتصف الليل انسل بنو عامر من محلة السلطان وأصبحت الأرض منهم بلاقع، ولما أصبح بقية العرب وعلموا بفرار بني عامر انهزموا دون قتال، ولم يبق مع السلطان إلا عسكره الذي جاء به من المغرب، فكان ذلك سبب تأخره عن حرب الترك وقفوله إلى حضرته، وكاتبه الترك في أن يتخلى لهم

عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه، ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فإنهم ما زاحموهم قط في بلادهم، وبعثوا إليه بكتاب أخيه المولى محمد بن الشريف الذي كان بعث به إليهم مع رسلهم حسبما تقدم، وبكتاب أخيه المولى الرشيد الذي فيه الحد بينه وبينهم، فوقع الصلح على ذلك الحد الذي هو وادي تافنا.

ولما قفل السلطان رحمه الله ومن في طريقه بمدينة وجدة أمر ببنائها وتجديد ما تثلم منها، ثم قفل إلى فاس ثم منها إلى الحضرة بمكناسة الزيتون، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وألف.

خروج الإخوة الثلاثة من أولاد المولى الشريف ابن علي بالصحراء وما كان من أمرهم

وفي أواخر رمضان سنة تسع وثمانين وألف بلغ السلطان رحمه الله وهو بمكناسة خروج إخوته الثلاثة المولى الحران، والمولى هاشم، والمولى أحمد بني الشريف بن علي مع ثلاثة آخرين من بني عمهم، وأنهم تدرجوا إلى آيت عطاء من قبائل البربر، فنهض إليهم السلطان رحمه الله بالعساكر وسلك طريق سجلماسة فكان اللقاء بجبل ساغرو في عشرين من ذي الحجة من السنة، فالتقى جيش السلطان وجيش الخارجين وجلهم آيت عطاء، فاقتتلوا، وكان الظفر للسلطان بعد أن هلك من جيشه ثم من رماه فاس بالخصوص نحو أربعمائة دون من عداهم، وهلك قائد العسكر موسى بن يوسف، وانهزم الإخوة وأبعدوا المفر إلى الصحراء.

وكان في تلك السنة وباء عظيم قد انتشر في بلاد المغرب، فرجع السلطان على طريق الفايجة، فأصابه ثلج عظيم بثنية الكلاوي من جبل درن أهلك الناس وأتلف متاعهم وأخبيتهم، وما تخلصوا منه إلا بمشقة فادحة.

ولما نزلت العساكر بزاوية الشيخ أبي العزم سيدي رحال الكوش مدوا

أيديهم إلى أموال الناس وزروعهم بالنهب لما مسهم من ضرر الجوع، فشكا الناس ذلك إلى السلطان فأمر بقتل كل من وجد خارج المحلة، فقتل في ذلك اليوم من الجيش نحو الثلاثمائة، ثم أمر بجر الوزير أبي زيد عبد الرحمٰن المنزري لأمر نقمه عليه وقتل أصحابه بالرصاص فجر الوزير المذكور إلى فاس ومكناسة ولم يصل إليهما إلا بعض شلوه فطرح على المزبلة، ووصل السلطان إلى مكناسة فاحتل بدار ملكه واقتعد أريكة عزه.

ثم دخلت سنة تسعين وألف ففي المحرم منها وقع الوباء بفاس وأعمالها، فأمر السلطان العبيد أن يردوا الناس عن مكناسة، فكانوا يتعرضون لهم في الطرقات بناحية سبو وسايس يردونهم عن مكناسة، وكل من يأتي من ناحية القصر وفاس يقتلونه، فانقطعت السبل وتعذرت المرافق.

وفي أواخر المحرم من هذه السنة أوقع جيش المسلمين بنصارى طنجة فقتلوا منهم نحو ثلاثمائة وخمسين، وانتزعوا منهم قصبة بأربعة أبراج واستشهد من المسلمين نحو الخمسين رحمهم الله.

نقل زرارة والشبانات إلى وجدة وبناء القلاع بالتخوم وما تخلل ذلك

وفي هذه السنة التي هي سنة تسعين وألف أمر أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله بنقل عرب زرارة والشبانات قوم كروم الحاج من الحوز إلى وجدة لما كانوا عليه من الظلم والفساد في تلك البلاد، فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب وكتبهم في الديوان، وولى عليهم أبا البقاء العياشي بن الزويعر الزراري، وتقدم إليه في التضييق على بني يزناسن إذ كانوا يومئذ منحرفين عن الدولة ومتمسكين بدعوة الترك، فكان زرارة والشبانات يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط آنكاد، وأمر السلطان رحمه الله أن تبنى عليهم قلعة من ناحية الساحل قرينة وجدة بالموضع المعروف برفادة، وأمر القائد

العياشي أن ينزل بها خمسمائة فارس من إخوانه يمنعونهم النزول ببسيط تريفة والارتفاق به من حرث وغيره، ثم أمر رحمه الله أن تبنى قلعة أخرى بطرف بلادهم بالعيون، وينزل بها القائد المذكور خمسمائة أخرى من إخوانه أيضاً، وأمر أن تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية وينزل بها خمسمائة فارس كذلك، وجعل للقائد العياشي المذكور النظر في القلاع الثلاث وهو بوجدة في ألف فارس فكانوا في الدفتر ألفين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وألف ففي جمادى الثانية منها خرج السلطان من الحضرة في الجنود قاصداً بني يزناسن الذين تمادوا على العصيان فاقتحم عليهم جبلهم، واعتسف بروعهم وانتسف زروعهم وضروعهم، وحرق قراهم، وقتل رجالهم وسبى ذراريهم، فطلبوا الأمان فأمن بقيتهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح التي عندهم فدفعوها من غير توقف، وقاموا بدعوته جبراً عليهم، ثم نزل بسيط آنكاد وحضر عنده قبائل الأحلاف وسقونة فأرجلهم من خيولهم وجردهم من سلاحهم وانتزعها منهم، وألزم أشياخهم أن يجمعوا له ما بقي بحلتهم منها ففعلوا ثم فعل بالمهاية وحميان كذلك، وانكفأ راجعاً إلى المغرب.

ولما نزل وادي صا أمر ببناء قلعة تاوريرت التي بناها السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني فجددها وأنزل فيها مائة فارس من عبيده بعيالهم وأولادهم، ولما نزل بوادي مسون أمر أن تبنى به قلعة أخرى بجوار القديمة وأنزل فيها مائة فارس من العبيد كذلك، ثم أنزل بتازا ألفين وخمسمائة من خيل العبيد بعيالهم وولى عليهم منصور بن الرامي وجعل نظر القلاع التي بتازا ووادي صا للقائد منصور المذكور، وعين لكل قبيلة من قبائل تلك البلاد قلعتها التي تدفع بها زكواتها وأعشارها لمؤنة العبيد وعلف خيولهم، وهم حراس الطريق فمن وقع في أرضه شيء عوقب عليه قائد تلك القلعة. ولما وصل السلطان إلى الكور أمر أن تبنى به قلعة أيضاً وأنزل بها

مائة فارس من عبيده بعيالهم.

ولما انتهى إلى فاس أنزل بقصبة الخميس التي بنى سورها المولى الرشيد خمسمائة من الخيل بعيالهم من شراقة العرب والبربر الذين قدموا مع المولى الرشيد رحمه الله حسبما تقدمت الإشارة إليه.

ثم أمر رحمه الله ببناء قلعة بالمهدومة وأخرى بالجديدة من أعمال مكناسة وأنزل بكل واحدة مائة من خيل العبيد بعيالهم لحراسة الطرقات وبكل قلعة فندق لمبيت القوافل وأبناء السبيل، ثم دخل السلطان رحمه الله حضرته مؤيداً منصوراً وذلك في خامس شعبان سنة إحدى وتسعين وألف.

فتح المهدية ومحاربة ابن محرز بالسوس وما تخلل ذلك

قد تقدم لنا ما كان من استيلاء جنس الإصبنيول على المعمورة المسماة بالمهدية في حدود العشرين بعد الألف وما كان بينهم وبين أبي عبد اللّه العياشي وأهل سلا من الحروب، واستمروا بها إلى أن كانت سنة اثنتين وتسعين وألف، فافتتحها جيش السلطان المولى إسماعيل رحمه الله.

قال في «النزهة»: «ومن محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه، قال وقد فتح السلطان المولى إسماعيل عدة مدن من يد النصارى كانت من مفاسد المغرب، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار. من ذلك المعمورة فإنه رحمه الله قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وألف وأسر بها نحو الثلاثمائة من الكفار»اهـ. وقال في «نشر المثاني»: «كان فتح المهدية عنوة عند صلاة الجمعة خامس عشر ربيع الثاني من السنة قيل بقتال وقيل بدون قتال وإنما أخذت بقطع الماء عنها وجيء بالنصارى الذين كانوا بها أسارى ولم يصب أحد من المسلمين.

وقال في «البستان»: وفي سنة اثنتين وتسعين وألف ورد الخبر على

السلطان إسماعيل بأن ابن أخيه المولى أحمد بن محرز الذي بالسوس قد استولى على بلاد آيت زينب وقويت شوكته، فأمر السلطان رحمه الله بتفريق الراتب وتجهيز العساكر إليه من فاس، وتوجهت في ثامن ربيع الأول من السنة، ثم بلغه أن العسكر المحاصر للمهدية قد أشرف على فتحها وتوقفوا على حضوره، فنهض رحمه الله إليهم حتى حضر الفتح، وأخرج رئيس النصارى فأمنه وأمن أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة أنفس، وأما الغنيمة فقد أحرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع القائد عمر بن حدو البطوئي، ورجع السلطان إلى مكناسة بعد أن أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها، وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة أهل سلا منهم الولي الصالح أبو العباس سيدي أحمد حجي من صلحائها المشهورين بها. واعلم أن السور العادي الذي اليوم بالمهدية هو من بناء البرتغال أيام استيلائهم عليها في دولة الوطاسيين كما مر.

ولما فرغ المجاهدون من أمر المهدية ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو فأصابه الوباء فمات في الطريق، وتولى رئاسة المجاهدين أخوه القائد أحمد بن حدو، تقسمها هو والقائد أبو الحسن علي بن عبد اللّه الريفي، وكان أولاد الريفي هؤلاء من الشهرة في الجهاد والمكانة في الشجاعة ومكائد الحرب بمنزلة أولاد النقسيس وأولاد أبي الليف وأضرابهم رحم الله الجميع.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق، فنهب بني عامر ورجع إلى مكناسة، وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة، وبنى لهم حارة خارجها بالموضع المعروف ببريمة، وكلف أهل تافيلالت الذين بفاس بالرحيل إلى مكناسة والسكنى بحارة اليهود القديمة التي أخليت، فلم يزل أهل تافيلالت يذهبون أرسالاً ويسكنونها بالكراء حتى ضاقت بهم.

ثم بلغه أن الترك قد خرجوا بعسكرهم واستولوا على بني يزناسن وعلى

دار ابن مشعل، وأنهم قد مدوا يد الوفاق إلى ابن محرز وراسلوه وراسلهم وانبرم كلامهم معه على حرب السلطان، وبلغه مثل ذلك من نائبه بمراكش، فكتب إليه أن يحتاط في حراسة مراكش. ويأخذ بالحزم في ذلك، ويقيم في نحر ابن محرز إلى أن يرجع السلطان من غزو تلمسان، ثم خرج رحمه الله بالعساكر لمصادمة الترك فوجدهم قد رجعوا إلى بلادهم لما بلغهم من خروج النصارى بشرشال، فساروا إليهم وفتكوا فيهم فتكة بكراً وردوهم على أعقابهم صاغرين، ورجع السلطان رحمه الله من وجهته. وقد دخلت سنة أربع وتسعين وألف فسار على تفئته إلى مراكش. فأراح بها، ثم نهض منها إلى السوس فالتقى بابن أخيه المولى أحمد بن محرز في أواخر ربيع الثاني من السنة، وقامت الحرب بينهما على ساق، واستمر القتال نحواً من خمسة وعشرين يوماً هلك فيها من الفريقين ما لا يحصى، ودخل ابن محرز تارودانت فتحصن بها، وكان الوقت وقت غلاء فضاق الأمر على أهل الحركة، فجعلوا يهربون وكثر فيهم السجن والضرب والرد إليها في الحين، ثم كان بينهما حرب أخرى هلك فيها خلق كثير نحو ألفين وجرح السلطان، وجرح ابن محرز أيضاً، وذلك في أواسط جمادى الآخرة من السنة، واستمر الحال على ذلك إلى رمضان من السنة.

قال أبو عبد الله أكنسوس حدثني بعض الثقات أن السلطان المولى إسماعيل رحمه الله لما أعياه أمر ابن أخيه المذكور أصبح ذات يوم دهشاً كئيباً فقال لوزيره الفقيه أبي العباس اليحمدي: إني رأيت في هذه الليلة رؤيا أحزنتني إلى الغاية» فقال: «وما هي يا مولانا؟ وعسى أن تكون خيراً» قال: «رأيت كأن هذه الجنود التي معنا ما بقي منها أحد ولم يبق إلا أنا وأنت مختفيين في غار مظلم فسجد الوزير اليحمدي شكراً لله تعالى وأطال السجود ثم رفع رأسه وقال: «أبشر يا مولانا فقد نصرنا الله على هذا الرجل» فقال له السلطان: «ومن أين لك ذلك؟ فقال له: «من قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

قال عليه الصلاة والسلام: «فما ظنك باثنين الله ثالثهما» فسر السلطان بذلك غاية السرور. وانسرى عنه ما كان يجده من الغم. وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى له، وعلى أثر ذلك وقع الصلح بينهما في رمضان، ورجع السلطان إلى حضرته فدخلها في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة.

امتحان القضاة والسبب فيه

قال العلامة القادري في «الأزهار الندية»: «وفي هذه السنة أعني سنة أربع وتسعين وألف أمر السلطان بالقبض على جميع القضاة وامتحنوا ووصفوا بالجهل وسجنوا في مشور فاس الجديد حتى يتعلموا ما لا بد منه من أحكام ما هم مدفوعون إليه، ثم أخرجوا أيام المولد الكريم إلى مكناسة فهددوا بها أيضاً حتى أمر بحبس بعضهم أو قبله ثم أطلقوا معزولين»اهـ. قال أكنسوس: «ولعل المراد بهم قضاة البوادي ومن في معناهم» قلت: ولم أر في الأزهار شيئاً من هذا ولعله في نسخة الأصل لأنهم ذكروا أنهما نسختان إحداهما مختصرة من الأخرى والله أعلم.

غزو البربر وبناء القلاع بإزاء معاقلهم

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وألف فيها خرج السلطان في العساكر إلى جبال فزاز لحرب صنهاجة من البربر الذين هنالك، فلما سمعوا بخروج السلطان انهزموا إلى ملوية، فدخل السلطان بلادهم واختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم، ثم نزل بعين آصرو فأمر ببناء قلعة هنالك بسفح الجبل أيضاً، ثم تبع آثارهم إلى أن دخلوا جبل العياشي، وتربص رحمه الله بملوية إلى أن دخل فصل الشتاء، وكان قصده بذلك التربص إتمام سور القلعتين، ولما عزم على الرجوع أنزل بقلعة آصرو ألف فارس، وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس فأخذوا بمخنقهم، واستراح الناس من عيثهم ببسيط سائس، ولما منعوا

من السهل وانقطعت عنهم الميرة وقلت الأقوات خشعوا ونزل وفدهم فقدموا مكناسة على السلطان تائبين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث والنتاج، فدفعوها عن يد وهم صاغرون، وهؤلاء هم آيت ادراسن، فأعطاهم السلطان رحمه الله عشرين ألفاً من الغنم ألزمهم برعايتها وحفظها، وأسقط عنهم الوظائف فصلحت أحوالهم، وصاروا في كل عام يدفعون صوفها وسمنها ويزيدهم الغنم إلى أن بلغ عددها ستين ألفاً وقلت شوكتهم وذهب بأسهم.

فتح طنجة

قد تقدم لنا أن طنجة صارت إلى جنس النجليز من يد البرتغال، واستمرت بيده إلى سنة خمس وتسعين وألف، فعقد السلطان المولى إسماعيل رحمه الله للقائد أبي الحسن علي بن عبد اللّه الريفي على جيش المجاهدين ووجهه لحصار طنجة، فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم إلى أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر، وتركوها خاوية على عروشها، وذلك في ربيع الأول سنة خمس وتسعين وألف قاله في «النزهة» وقال في «البستان»: لما ضاق الأمر على النصارى الذين بطنجة وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولا ضرب وشرع قائد المجاهدين علي بن عبد اللّه الريفي في بناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها في فاتح جمادى الأولى من السنة، قلت وأعقاب هذا القائد لا زالوا اليوم بطنجة وكثيراً ما تكون فيهم الرياسة هنالك.

ثم اتفق أن نشب بقرب ساحلها مركب قرصاني جاء مدداً لأهل سبتة فيه أموال وبضائع فحارب المسلمون أهله عليه واحتووا على ما فيه، وألزم السلطان قبيلة غمارة بجر مدافعه النحاسية إلى مكناسة، وأرسل الرماة من أهل فاس لجرها أيضاً فأتوا بها لأربعين يوماً والله غالب على أمره.

غزو البربر ثانياً وبناء القلاع في نحورهم

ثم دخلت سنة ست وتسعين وألف فيها خرج السلطان غازياً بلاد ملوية. وجعل طريقه على مدينة صفرو، ففرت قبائل البربر إلى رؤوس الجبال وهم آيت يوسي وشغروسن وأيوب وعلاهم وقادم وحيون ومديونة، فأمر السلطان ببناء قلعة بآعليل وأخرى على وادي كيكو من أسفله، وأخرى على وادي سكورة وأخرى على وادي تاشواكت ثم خرج السلطان بملوية ففرت القبائل المذكورة إلى جبل العياشي وتفرقوا في شعابه، فأمر ببناء قلعة بدار الطمع، وقلعة بتابوست، وقلعة بقصر بني مطير، وقلعة بوطواط، وقلعة بالقصابي، وأقام على نهر ملوية يبث السرايا ويشن الغارات على البربر قريباً من سنة والعمل مستمر في بناء القلاع إلى أن أكملت أسوارها، وأنزل رحمه الله بكل قلعة أربعمائة من خيل العبيد بعيالهم، وجاءته وفود البربر تائبين طائعين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها، وصفا له رحمه الله هذا الربع الشرقي من جبل درن والله ولي التوفيق بمنّه.

مقتل المولى أحمد بن محرز
وفتح تارودانت وما يتصل بذلك

وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين وألف بلغ السلطان المولى إسماعيل رحمه الله وهو بمكناسة أن أخاه المولى الحران، وابن أخيه المولى أحمد بن محرز قد دخلا قصبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات، فنهض إليهما ووالى السير حتى أناخ بكلكله على تارودانت وحاصرهما بها أياماً، فاتفق أن ابن محرز خرج ذات يوم في جماعة من عبيده لزيارة بعض الأولياء فلقيه جماعة من زرارة أصحاب السلطان فلم يعرفوه، وظنوا أنه بعض قواد ابن محرز فشدوا عليه فماصعهم هنيئة ثم قتلوه فإذا هو ابن محرز.

ولما اتصل الخبر بالسلطان خرج حتى وقف عليه فعرفه، وأمر بتجهيزه ودفنه، فدفن مع الغرناطي أحد قواد الجيش، وكان قد قتل ذلك اليوم. وكان مقتل المولى أحمد رحمه الله في أواسط ذي القعدة سنة ست وتسعين وألف بعد تشغيبه على السلطان أربع عشرة سنة، ثم بعد أيام خرج أهل تارودانت ليلاً إلى قبر المولى أحمد فنبشوه ونبشوا قبر الغرناطي لأنه كان قد التبس عليهم به فاستخرجوهما معاً حتى عرفوا المولى أحمد فحملوه في تابوته، وتركوا الغرناطي على شفير قبره، واستمر المولى الحران محصوراً بتارودانت والحرب قائمة على ساق إلى أن دخلت سنة سبع وتسعين وألف، فكانت حرب هلك فيها نحو الستمائة نفس من الجند منهم القائد زيتون، والباشا حمدان وغيرهما، ثم كانت حرب أخرى أعظم من الأولى ثم ثالثة، كذلك هلك فيها القائد أبو زيد عبد الرحمٰن الروسي، وتولى مكانه ابن الغرناطي، واستمر الحال بها إلى جمادى الأولى من سنة ثمان وتسعين وألف فاقتحم السلطان تارودانت عنوة بالسيف واستباحها، واستولى عليها وفر المولى الحران إلى حيث أمن على نفسه.

ولما اتصل خبر الفتح بأهل فاس عينوا وفداً من كبرائهم وأشرافهم وغلمائهم فقدموا على السلطان بقصد التهنئة يقدمهم ولده المولى محمد بن إسماعيل. فأكرم وفادتهم، وخرج أولاد النقسيس من سبتة، وكانوا قد لجؤوا إليها بعد مقتل الخضر غيلان، فقدموا على السلطان بعسكره من تارودانت فأمر بردهم إلى تطاوين وقتلهم بها، وأمر بقتل من كان منهم مسجوناً بفاس فقتلوا أجمعون رحمهم الله، ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف فيها قفل السلطان من السوس فدخل دار ملكه مكناسة واستقر بها، وبعث إلى عامل فاس أن يخرج من بها من أهل الريف إلى تارودانت بقصد عمارتها والسكنى بها، وفي خامس جمادى الأولى من السنة استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضيه أبي عبد الله المجاصي فحضروا وأكرمهم ووصلهم.

غزو برابرة فازاز وبناء قلعة آدخسان

لما تهيأ السلطان رحمه الله لغزو أهل جبل فازاز نهض إليهم، وصعد الجبل من الناحية الغربية فأول من قدم عليه من برابرته بالطاعة زمور وبنو حكم فولى عليهم رئيسهم بايشي القبلي فاستصفى منهم الخيل والسلاح، ثم تجاوزهما إلى المال فاستصفاه أيضاً، وجمع ذلك كله وقدم به على السلطان وهو ببسيط آدخسان، فقدمه إليه فأنكر السلطان عليه ذلك، وقال له: «ما حملك على ما فعلت ولم آمرك به؟» فقال له: «يا مولانا إن كان غرضك في صلاحهم وفلاحهم فهو الذي فعلت لك ولهم، وإن سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا أنفسهم، وإنما طهرتهم من الحرام ليشتغلوا باكتساب الحلال فإنه ينمو ويزكو، فاستحسن السلطان قوله وأمضى فعله، وأقام رحمه الله بآدخسان يحارب آيت ومالو سنة كاملة حتى بنى قلعة آدخسان الجديدة بمحل القديمة التي كان بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله وخربت، ولما دخل فصل الشتاء أنزل بالقصبة ألفاً وخمسمائة فارس من عبيد أهل دكالة الذين كانوا بوجه عروس نقلهم إليها بأولادهم، وأنزل بزاوية أهل الدلاء ألفاً وخمسمائة فارس من عبيد الشاوية الذين كانوا بوجه عروس أيضاً نقلهم بعيالهم وأمرهم بحصار البربر ومنعهم من النزول للمرعى والحرث ونحوهما، ثم قفل إلى مكناسة. قال صاحب «البستان»، وهو أبو القاسم الصياني: وفي هذه المرة نقل معه جدنا الفقيه الأستاذ أبا الحسن علي بن إبراهيم بأولاده إلى مكناسة، وسبب ذلك أنه لما نزل بآدخسان واجتمع عليه الأشراف الذين باركوا قال لهم: «دلوني على رجل صاحب فقه ودين يؤمني في الصلوات» فقالوا له: «ليس بهذا الجبل أتقى من سيدي علي بن إبراهيم» فأتوا به فكان إمامه في المحلة، ولما قفل أخذه معه قال: «فهذا سبب انتقال جدنا من آركو إلى الحضر»اهـ.

بيان تربية أولاد عبيد الديوان وكيفية تأديبهم

قد قدمنا أن جمهور عبيد البخاري كانوا بالمحلة من مشرع الرملة وأنهم تناسلوا بها وكثروا إلى الغاية فلما كانت سنة مائة وألف أمر السلطان رحمه الله أولئك العبيد أن يأتوه بأبنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق، فلما قدموا عليه فرق البنات على عريفات داره، كل طائفة في قصر للتربية والتأديب، وفرق الأولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها، حتى إذا أكملوا سنة، نقلهم إلى سوق البغال الحاملة للآجر والزليج والقرمود والخشب ونحو ذلك، حتى إذا أكملوا سنة، نقلهم إلى خدمة المركز وضرب ألواح الطابية، حتى إذا أكملوا سنة، نقلهم إلى المرتبة الأولى في الجندية، فكساهم ودفع إليهم السلاح يتدربون به على الجندية وطرقها، حتى إذا أكملوا سنة، دفع إليهم الخيل يركبونها أعراء بلا سروج ويجرونها في الميدان للتمرس بها والتدرب على ركوبها، حتى إذا أكملوا سنة، وملكوا رؤوسها دفع إليهم السروج فيركبونها بها ويتعلمون الكر والفر والثقافة في المطاعنة والمراماة على صهواتها، حتى إذا أكملوا سنة بعد ذلك، صاروا في عداد الجند المقاتلة، فيخرج لهم السلطان البنات اللاتي قدمن معهم، ويزوج كل واحد من الأولاد واحدة من البنات، ويعطي الرجل عشرة مثاقيل مهر زوجته، ويعطي المرأة خمسة مثاقيل شورتها، ويولي عليهم واحداً من آبائهم الكبار، ويعطي ذلك القائد ما يبني به داره وما يبني به أخصاص أصحابه وهي المعروفة عندنا بالنواويل، ويبعث بهم إلى المحلة بعد أن يكتبوا في ديوان العسكر، واستمر الحال هكذا ففي كل سنة يأتي من المحلة عدد صغير ويتوجه إليها من عند السلطان عدد كبير، من سنة مائة وألف إلى أن توفي السلطان رحمه الله في التاريخ الآتي، فبلغ عدد هذا العسكر البخاري مائة ألف وخمسين ألفاً، منها ثمانون ألفاً مفرقة في قلاع المغرب لعمارتها وحراسة طرقها وسبعون ألفاً بالمحلة، وعدد القلاع التي بناها المولى إسماعيل رحمه الله بالمغرب ست وسبعون قلعة لا زالت

قائمة العين والأثر بآفاق المغرب يعرفها الخاص والعام إلى الآن، هكذا وجد في كناش كاتب الدولتين الرشيدية والإسماعيلية الفقيه أبي الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني، المتوفى بتارودانت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف، وكان عنده دفتر العسكر كله سواء السواد الأعظم والمتفرق في قلاع المغرب.

قال صاحب «البستان»: «وأين هذا مما نقله المؤرخون على وجه الغرابة: من أن الخليفة المعتصم بن رشيد رحمهما الله بلغ عدد مماليكه الذين اشتراهم والذين جلبهم من بلاد الترك ثمانية عشر ألفاً» قال: وهذا العدد الذي جمعه أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله من العبيد لو خاض به البحر إلى الأندلس وكانت تلك القلاع سفناً ومراكب جهادية لاستولى عليها والتوفيق من الله»اهـ. قلت: وهو لعمري كلام مقبول لكن الإنسان مجبور في قالب مختار وتصاريف الأمور جارية بيد الله لا بيد غيره وما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه. وقال الشاعر:

لا يعرف الشوق إلامن يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وقال الآخر:

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وقال:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ومن أمثال العامة: «القاعد على الجرف محسن للسباحة»، هذا كله بالنظر إلى الحقيقة، فأما الشريعة فقد قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60] الآية وعلى كل حال فلا يسوغ للإنسان أن يهمل الاستعداد المأمور به شرعاً، ويكل الأمر إلى القدر، وإلا فيكون مخطئاً مخالفاً للشرع والطبع قال ﷺ للأعرابي الذي ترك ناقته مرسلة: **«أعقلها وتوكل»** وقال الشاعر:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

اللّهم إنا نسألك العفو والعافية والتوفيق واللطف فيما جرت به المقادير، يا نعم المولى ونعم النصير.

فتح العرائش

وفي هذه السنة أعني سنة مائة وألف في آخر شوال منها سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو البطوئي في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش وكان الإصبنيول خذله الله قد استولى عليها على يد الشيخ بن المنصور السعدي كما مر، فنزل القائد أبو العباس المذكور عليها وضيق على الكفار الذين بها وحاصرهم نحواً من ثلاثة أشهر ونصف كذا في «النزهة» وقال المؤرخ منويل: «إن مدة الحصار كانت خمسة أشهر» قال وكان طاغية الفرنسيس، وهو لويز الرابع عشر، قد أعان المولى إسماعيل على فتح العرائش وحاصرها بحراً بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة ثم أقلع عنها ثم بعد ذلك كان الفتح» قال في «النزهة»: فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك أنهم حفروا المينات تحت خندق سورها الموالي للمرسى وملؤوها باروداً ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا إلى ما كان من النصارى على الأسوار فوقعت ملحمة عظيمة، وفر باقيهم إلى حصن القبيبات الذي بناه المنصور السعدي واعتصموا به يوماً وليلة، فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الأمان، فأمنهم القائد أبو العباس المذكور على حكم السلطان، فنزلوا عليه، فأخذوا أسارى بأجمعهم ولم يعتق منهم إلا أميرهم وحده، وتم الفتح وذلك يوم الأربعاء الثامن عشر من المحرم سنة إحدى ومائة وألف. وما في «البستان» وقلده صاحب «الجيش»: أن نصارى العرائش اعتصموا بحصن القبيبات سنة كاملة خطأ لا يعول عليه.

وكان عدد نصارى «العرائش» قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومائتين

ولمّا ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو ألفين، وقتلوا منهم اثنتي عشرة مائة، ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصى كثرة، فمن المدافع نحو مائة وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والباقي من الحديد، ومنها مدفع يسمى: الغصاب طوله خمسة وثلاثون قدماً بالحساب. ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلاً بحيث حلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال. كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السؤال. كذا في النزهة قال منويل في كتابه: إن النصارى ما أسلموا أنفسهم حتى شرطوا شروطاً معتبرة لكن السلطان نكث»اهـ. قلت: قد حكى القاضي أبو القاسم العميري في فهرسته ما حاصله: أن نصارى العرائش ادعوا أن الفتح المذكور إنما كان صلحاً وتأميناً لا عنوة، ثم لما طال النزاع في ذلك أمر السلطان قاضي حضرته المكناسية أبا عبد الله محمد المعروف بأبي مدين ببيان الحكم في ذلك فأجاب جواباً طويلاً حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه، وحكم على أولئك النصارى بالأسر، وقد ذكر ذلك بتمامه في الفهرسة المذكورة فلينظر هنالك. وأمر السلطان رحمه الله بإشخاص أولئك النصارى إلى مكناسة الزيتون وكانوا ألفاً وثمانمائة على ما في البستان، فكان يستخدمهم مع غيرهم من المساجين والأسرى في بناء قصوره بالنهار، ويبيتون ليلاً في الدهليز، وهو في عرف المغاربة هري تحت الأرض، وأسكن السلطان رحمه الله أهل الريف العرائش، وأمر قائدهم أن يبني بها مسجدين وحماماً ويبني داره بقلعتها وفي فتح العرائش أنشد الخطيب البليغ أديب فاس ومفتيها أبو محمد عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني فقال:

ألا أبشر فهذا الفتح نور ... قد انتظمت بعزكم الأمور
وطير السعد نادى حيث غنى ... قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني ... ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طراً ... وطاب العيش واتصل السرور
حميتم بيضة الإسلام لما ... بعين الحق قد حرس الثغور

وجاهدتم وقاتلتم فأنتم لدين الله أقمار تنير

وأطلعتم صوارمكم نجوماً لدى هيجاء صاحبها كفور

فأنت البدر يوم السلم حسناً في يوم الوغا الأسد الهصور

وفي ثغر العرائش قد تبدى لقدركم على الشعرى الظهور

لقد كان الملوك فساوموها وراموها وبان لها نفور

فلما جاءها انقادت وقالت إليك بحق مولانا المصير

ملكت قياد عزتها بذل فما أغنى الحصار ولا العبور

قهرتهم بأبطال ضخام على الهيجاء كلهم جسور

فكم رأس من الكفار أمسى قطيع الرأس مجروراً يخور

وكم نحر قلادته رماح وسن الرمح مركزه النحور

وكم أسرى وكم قتلى بأرض وكم جرحى دماؤهم تفور

تمر بها الطيور فتنتقيها وبات الذئب وهو لها شكور

وأضحى الناس كلهم نشاوى على طرب وما شربت خمور

فبشراكم بهذا الفتح نور وبشراكم بما من الغفور

به زادت مآثركم علواً وقد عظمت به لكم الأجور

ألا يا معشر الكفار هذا يبددكم وليس له فتور

ألا يا أهل سبتة قد أتاكم بسيف الله سلطان وقور

إذا ما جاء سبتة في عشي تناديه إذا كان البكور

ووهران تنادي كل يوم متى يأتي الإمام متى يزور

متى يأتي ويفتحها سريعاً ويلحق أهلها منه ثبور

فيهزمهم ويقتلهم ويسبي وسيف الحق في يده ينور

أيا مولاي قم وانهض وشمر لأندلس فأنت لها الأمير

وجاهدهم وحاربهم وفرق جموعهم فربكم النصير

ولا يمنع بفضل الله منها كما قد قيل برٌ أو بحور

لسان الحال ينشد كل يوم ومعنى الحال تفهمه الصدور

بقرطبة تنال المجد طراً ويأتي العز والملك الكبير

وذلكم بعون الله سهل ومن بركاتكم أمر يسير
أيامولاي إسماعيل هذا عبيدكم الضعيف المستجير
يناديكم بناديكم ويدعو دعاء لا تعييه الدهور
فيارب البرية يا إلٰهي ويا رحمٰن يا نعم المجير
أثب هذا الأمير بكل خير ولا تجعل تجارته تبور
وأبق الملك فيه وفي بنيه ولو كرهت زيود أو عمور
ونحن رعية نرجو هناء وبالسلطان تنتظم الأمور
عليكم من عبيدكم سلام مدى الدنيا يضمخه العبير
يعم جنابكم ما قال صب ألا أبشر فهذا الفتح نور

وقال في ذلك الفقيه العالم الورع الشهير أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس رحمه الله.

رفعت منازل سبتة أقوالها تشكو إليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا وتنبهوا كي تسمعوا تساءلها
يابن النبي الهاشمي محمد قل يا أمير المؤمنين أنا لها
فلقد قضيتم للعرائش حاجة مع طنجة فاقضوا لذي آمالها
عار عليكم أن تكون أسيرة بجواركم وجنودكم تغزى لها
إن لم تكونوا آخذين بثأرها من ذا يفك من الوثاق حبالها؟
لا تسمعن من جاهل ومثبط ومصعب من جهله أحوالها
إن الذين تقدموا قد جاهدوا بنفوسهم وبمالهم أمثالها
فتملكوا أملاكها وديارها وتقسموا أموالها ورجالها
فابعث لها أهل الشجاعة عاجلاً حتى تراهم نازلين جبالها
وأمدهم بمؤونة ومعونة كيفما تقطع بالعدا أوصالها
وارفع لهذا الغرب رأساً إنه في الضعف ما دام العدا أنزالها
أبقاك ربي للخلافة عدة تقفو الشريعة مؤثراً أفعالها
واقبل هدية من أتى بنصيحة يبغي الثواب ولا تقل من قالها

وقال في ذلك الشريف الأديب أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري:

علا عرش دين الله كل العرائش وهد بنصر الله قصر العرائش

وهي طويلة انظرها في نشر المثاني إن شئت، ثم في الثاني والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة نهى السلطان عن لبس النعال السود ونادى بذلك في سائر أمصار المغرب، وأمر بلبس النعال الصفر مكانها لما قيل: من أن الناس اتخذوا النعال السود منذ استولى النصارى على العرائش على يد المأمون السعدي كما تقدم، وفي أوائل ذي الحجة من هذه السنة قتل السلطان ثلاثة وستين رجلاً من الطائفة المسمون بالعكاكزة.

فتح آصيلا

ولما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا إلى مدينة آصيلا فنزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة، وأظنهم الإصبنيول، إلى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ، فطلبوا الأمان فأمنوهم على حكم السلطان ولما لم يطمئنوا لذلك ركبوا من الليل سفنهم ونجوا إلى بلادهم، ودخل المسلمون المدينة فملكوها، وذلك سنة اثنتين ومائة وألف، وعمرها أهل الريف أيضاً، وبنى بها قائدهم مسجدين ومدرسة وحماماً وبنى داره بقلعتها والله أعلم.

حصار سبتة

ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من آصيلا إلى سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد في مقاتلتها، وأمدهم السلطان بعسكر من عبيده، وأمر قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة على سبتة، وكذلك أمر أهل فاس أن يبعثوا بحصتهم إليها، فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفاً، وتقدم السلطان إليهم في الجد والاجتهاد فكان القتال لا ينقطع عنها صباحاً ومساء، وطال الأمد حتى أن السلطان رحمه الله اتهم القواد

الذين كانوا على حصارها بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها إلى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم، مع أنهم قد سئموا كثرة الأسفار ومشقات الحروب، واستمر الحال إلى أن مات القائد أبو الحسن علي بن عبد اللّه الريفي، وولي بعده ابنه القائد أبو العباس أحمد بن علي، والقتال لا زال والحال ما حال، وفي كل سنة يتعاقب الغزاة عليها، والسلطان مشتغل بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم، ولم يهيئ الله فتحها على يديه، ودار القائد أحمد بن علي ومسجده اللذان بناهما بإزاء سبته أيام الحصار لا زالا قائمي العين والأثر إلى اليوم. وحكى الغزال في رحلته: أنه رأى بأحد أبواب سبتة خرقاً قديماً لم يصلح فسأل أهلها عنه فقالوا: إنه من أثر الرمي الذي كان يرميه الجيش الإسماعيلي وهو أثر كرة خرقت الباب ونفذت إلى داخل البلد وتركناه على حاله ليعتبر به من يأتي بعدنا ويزداد احتياطاً وحزماً أو كلاماً هذا معناه والله تعالى أعلم.

غزو السلطان المولى إسماعيل برابرة فازاز وإيقاعه بهم

كان السلطان المولى إسماعيل رحمه الله في هذه المدة مشتغلاً بتمهيد المغرب واستنزال أممه من معاقلهم إلى أن فتح أقطاره كلها وبنى قلاعها ورتب حاميتها، ولم يبق له بالمغرب كله إلا قنة جبل فازاز الذي فيه آيت ومالو وآيت يفلمال وآيت يسرى، فعزم على النهوض إليه وافتضاض عذرته.

ولما أراد الخروج إليهم استخلف على فاس الجديد كبير أولاده المولى أبا العلاء محرزاً، وبعث إلى مراكش ابنه المولى أبا اليمن المأمون، وترك بمكناسة ابنه المولى محمد المدعو زيدان، وكان فارس أولاده الموجودين يومئذ.

ولما ولي المأمون على مراكش أمر برئيس الحضرة وإمام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليحمدي أن يعطيه التقليد ويوصيه بما تنبغي الوصاية به،

وكان المولى المأمون منحرفاً عن الوزير المذكور فمشى إليه على كره منه وحاز منه التقليد واستمع لوصيته امتثالاً لأمر والده، ثم عاد إليه وقال: «يا مولانا إن اليحمدي ينقصك ويزعم أنه الذي علمك دينك» في كلام آخر فقال له السلطان رحمه الله: «والله إن كان قد قال ذلك إنه لصادق فإنه الذي علمني ديني وعرفني بربي» نقل هذه الحكاية صاحب «البستان» وصاحب «الجيش» وكلاهما قال: إنه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله، وهي منقبة فخيمة للمولى إسماعيل في الخضوع للحق والاعتراف به رحم الله الجميع.

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة وألف والسلطان عازم على النهوض إلى فازاز وبعث مع ذلك بالراتب والعدة إلى أهل فاس وأمرهم بالنهوض إلى الترك مع ولده المولى زيدان فخرجوا في رمضان من السنة وبعد العيد أخذ السلطان في الاستعداد للنهوض إلى فازاز ثم بدا له فخرج في أثر المولى زيدان فلحق بأطراف المغرب الأوسط وأبرم الصلح مع الترك ورجع إلى الحضرة هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر، والذي رأيته في «نشر المثاني» هو ما نصه: قد اختار السلطان المولى إسماعيل الفقيه أبا عبد اللّه محمد الطيب الفاسي لعقد المهادنة مع الترك في حدود سنة ثلاث ومائة وألف بعد وقعة المشارع معهم لعلمه وفصاحته وبيته، فذهب نحو الجزائر صحبة ولد السلطان وهو مولاي عبد الملك، ومعهم الكاتب أبو عبد اللّه المدعو الوزير وغيرهم من وجوه الدولة الإسماعيلية، فلما قاربوا الجزائر خرج صاحبها في جنده وقتل ونهب حتى انتهى الخبر إلى فاس بأنهم قتلوا أجمع، وصادف ذلك يوم عاشوراء فحزن الناس لذلك وأمسكوا عن الإنفاق، حتى بقي ما عهد أن يشتري في ذلك اليوم ملقى لما عرا الناس من الغم، ثم جاء الخبر بأنهم قادمون بعافية، وأنهم وصلوا إلى تازا ففرح الناس واستأنفوا الإنفاق كيوم عاشوراء، ومات بايشي القبلي فولى السلطان علي زمور وبني حكم ولده أبا الحسن علي بن يشي.

ثم دخلت سنة أربع ومائة وألف وفيها تهيأ السلطان للنهوض إلى البربر

أهل فازاز، فاستنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار، فنزل رحمه الله في جند العبيد ببسيط آدخسان، ورتب على البرابر العساكر من كل جهة، فبعث الباشا مساهلاً في خمسة وعشرين ألفاً من الرماة طلع بها من تادلا على وادي العبيد حتى نزل خلف آيت يسري، وبعث علي بن بركات مع آيت يمو وآيت أدراسن فنزلوا بتغالين، وبعث علي بن يشي مع زمور وبني حكم وأمره أن ينزل بعين شوعة، وبعث إلى أهل تدغة وفركلة وغريس والصباح أن يقدموا بجموعهم على علي بن يشي، وبعث إليه مع ذلك بعسكر الطبجية بالمدافع والمهاريس وسائر آلات الحرب، وبعث نصارى العرائش يجرونها على طريق آعليل ثم على قصر بني مطير إلى أن اجتمعوا بعلي بن يشي على عين شوعة.

وضرب السلطان لأمراء الجنود لإنشاب الحرب موعداً معلوماً. وقال لهم: «إذا كان وقت العشاء من ليلة كذا فليأخذ الطبجية في إخراج المدافع والمهاريس بالكور والبنب طول ليلتهم ليحصل للبربر الدهش فإذا أصبحتم فليقدم كل قائد من ناحيته، ولينشب الحرب ليكون القتال في ساعة واحدة من جميع الجهات» ففعلوا ما أشار به عليهم.

ولما كانت الليلة المعينة لم يرع البربر إلا رعود المدافع والمهاريس تصعق في الجو ونيرانها تنقدح في ظلمات الليل، وأصداء الجبال تتجاوب من كل ناحية، فقامت عليهم القيامة وظنوا أن الأرض قد زالت بهم، فقوضوا أبنيتهم وحملوا عيالاتهم للفرار، وصاروا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. ولما أصبحوا زحف إليهم السلطان من ناحيته، وزحفت إليهم العساكر من باقي الجهات، واشتد القتال فانهزموا وتفرقوا في الشعاب والأودية شذر مذر، وصار كل من قصد منهم ثنية أو منفذاً وجد العساكر مقبلة منها، والمدافع مصوبة نحوها فحل بهم القضاء، وتصرف فيهم البلاء كيف شاء، فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم وأولادهم، ونهب أثاثهم وحيزت مواشيهم وأنعامهم، واستلبت خيلهم وسلاحهم، واستحر القتل والنهب فيهم

ثلاثة أيام والعساكر تلتقطهم من الأودية والشعاب، وتستخرجهم من الكهوف والغيران، وأمر السلطان قواده مساهلاً وعلي بن يشي وعلي بن بركات بجمع رؤوس القتلى وجمع الخيل والسلاح ويوافوه به لآدخسان، فجمعوا ما عثروا عليه من ذلك فكان عدد الرؤوس ينيف على اثني عشر ألفاً، وعدد الخيل الفحول ينيف على عشرة آلاف، وعدد المكاحل ينيف على ثلاثين ألفاً، وبالاستيلاء على هؤلاء البربر كمل للسلطان المولى إسماعيل رحمه الله فتح المغرب، واستولى عليه كله ولم يبق به عرق ينبض، وكتب في الديوان من آيت يمور ألف فارس أنزلهم مع علي بن بركات بقلعة تغالين، وأنزل محلتهم على رأس منزل آيت ومالو، ولم يترك لقبيلة من قبائل المغرب خيلاً ولا سلاحاً، وإنما كانت الخيل والسلاح عند العبيد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين بسبتة.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس رحمه الله: «وكان المولى إسماعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وأدنى المفسدتين في إضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدو الكافر. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60] الآية ورأى المولى إسماعيل: أنه لما أعد ذلك العسكر القوي الشديد قام عن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة وأراحهم من كلفة القيام بالخيل والسلاح، مع أن الفساد الذي يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم وذلك بقطع الطرقات ونهب الأموال وخلع اليد من الطاعة، قال: «وهذا القدر الذي اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور ولعله خفي على الشيخ اليوسي حتى كتب إليه برسالته المشهورة»اهـ.

قلت: ما فعله السلطان المولى إسماعيل رحمه الله من ذلك ظاهر المصلحة لا يخفى على أحد وجد استحسانه، ولا يتوهم عاقل أن أهل فازاز ومن في معناهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد يوماً ما فلا يحتاج السلطان رحمه الله في مثل ذلك إلى الاعتذار، وقوله أن ذلك الاعتذار خفي على اليوسي ليس على ما ينبغي، لأن الشيخ اليوسي رحمه الله ما تكلم مع

السلطان في أمر أولئك القبائل ومن في معناهم، وإنما كلامه معه في أمور ثلاثة: الأول في جباية المال من وجهه وصرفه في وجهه. الثاني: في إقامة رسم الجهاد وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح. الثالث: في الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية.

ونص هذه الرسالة: الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأرزه، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأجل الأفخم، مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف لا زالت أعلامه منصورة، وأيامه على العز واليمن مقصورة، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والإجلال، والدعاء لسيدنا بصالح الأحوال، وذلك بعض ما أوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والإحسان، والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والإنعام والإكرام، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية، ومثابته الطوقية الفاطمية، فكتبنا هذه البطاقة، وهي في الوقت منتهى الطاقة، وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوق إلى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح، فأردنا أن نرسل إلى سيدنا ما أن وفق إلى النهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة، ورجونا وإن لم نكن أهلاً لأن نعظ، أن يكون سيدنا أهلاً لأن يتعظ، وأن يحتمي من جميع المذام ويحتفظ، فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس عبيد الله سبحانه وإماء له، وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحاناً، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في ملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير إذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه، ثم

نقول: إن على السلطان حقوقاً كثيرة لا تفي بها البطاقة، ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها، الأول: جمع المال من حق وتفريقه في حق. الثاني: إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة. الثالث: الانتصاف من الظالم للمظلوم. وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم، وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فإن تنبه وفعل فقد فاز، وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة وإلا فقد أدينا الذي علينا، أما الأمر الأول: فليعلم سيدنا أن المال الذي يجبى من الرعية قد أعد للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها إلا بوكيل، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل، فإن استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه إلى اليتامى يحسب ما يجب لكل فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم، وحصل له أجران: أجر القبض وأجر الدفع، وإن هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له، أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له، وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم، فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس ديناً ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فإن كثيراً من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب وفي أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «المغرور من غررتموه» اهـ وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل:

أفاتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ولا يهملهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة أخرى كما قيل:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ   نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك من بغض لها غير أنه   يريد سواها فهو يهوى انتقالها

وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال العامة ونثرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون، ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاق أموالهم في مصالحهم وإلا فالعكس، وأيضاً السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية، فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء؛ فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق، وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضاً وذلك أنه لم يتأت في الوقت إلا عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله، فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً ورماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخاً من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع، وهذا وهن في الدين، وغرر على المسلمين، وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة، وتكليفهم الحركات وإعطاء العدة كسائر الناس، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية إلى ماسة، ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد، ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام، ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته والله الموفق.

وأما الأمر الثالث: فقد اختل أيضاً لأن المشعبين للانتصاف بين الناس في البلدان، وهم العمال وخدامهم، هم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل

الظلم من يفعله؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي فليتق الله سيدنا، وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب، وليجهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: 90] الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40] ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: 41] فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور، فكان عليهم الرجوع إلى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم إياه، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم، وأن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل في الرعية، استصلاحاً لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين، قال بعض الحكماء: «الملك بناء والجند أساسه وإذا ضعف الأساس سقط البناء فلا سلطان إلا بجند ولا جند إلا بمال ولا مال إلا بجباية ولا جباية إلا بعمارة ولا عمارة إلا بالعدل فالعدل أساس الجميع.» وقد صنع أرسطوطاليس الحكيم للملك الإسكندر الشكل المستند عنه وكتب عليه: «العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق يجمعه الرعية، الرعية عبيد يقودهم العدل، العدل مألوف وبه صلاح العالم، العالم بستان» إلى آخره: وقال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وقال

ﷺ: **«إن رجالاً يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة»** أو كما قال وقال ﷺ: **«ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان فأما عدل يفكه وأما جور يوبقه»**. وعن مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالأبطح فقلت: «يا أمير المؤمنين أين تسير؟» فقال: «بعيره من إبل الصدقة شرد أطلبه» فقلت: «أذللت الخلفاء من بعدك» فقال: «لا تلمني، فوالذي بعث محمد ﷺ بالحق لو أن عناقاً ضلت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة إنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين» وقد رأى رضي الله عنه شيخاً يهودياً يسأل على الأبواب فقال: «ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً ثم ضيعناك اليوم» وأمر أن يجري عليه قوته من بيت المال. وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق، وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي. وما يأتي وما يذر، وقد كان بنو إسرائيل يكون فيهم الأمير على يد نبي، فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير، ولما كانت هذه الأمة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين ﷺ فلم يبق إلا العلماء يقتدى بهم قال ﷺ: **«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»** فكان حقاً على هذه الأمة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذاً وعطاء، وقد توفي ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشتري في السوق على عياله، فلما بويع أخذ ماله الذي للتجارة وذهب للسوق على عادته حتى رده علماء الصحابة، وقالوا: «إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق» وفرضوا له ما يكفيه مع عياله، وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره، وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده، فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء، وليسأل من معه من الفقهاء الثقات كسيدي محمد بن الحسن، وسيدي أحمد ابن سعيد، وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله

لومة لائم فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله، وما نهوه عنه انتهى، هذه طريقة النجاة إن شاء الله تعالى، نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقاً وتسديداً، وإرشاداً وتأييداً وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد، وأن يحسم بسيفه أهل الزيغ والعناد آمين والحمد لله رب العالمين».

ولما فرغ السلطان رحمه الله من وقعة فازاز وآيت ومالو دعا علي بن يشي وعقد له على عشرة آلاف من الخيل وقال له: «لا أرى وجهك إلا إذا أغرت على كروان وأتيتني منهم بعدد هذه الرؤوس التي هنا» لأنهم كانوا بوادي زيز يعيثون في طريق سجلماسة وينهبون الرفاق، فسار علي بن يشي حتى صبحهم وهم عارون فنهب حللهم ومواشيهم وقتل منهم العدد الكثير، ثم نادى في تلك القبائل كلها من أتى برأس كرواني فله عشرة مثاقيل، فصار كل من انحاز إليه أحد منهم يقطع رأسه ويأتي به إليه، واستمر البحث عنهم في المدر والوبر إلى أن قضى من جماجمهم الوطر، ولما اجتمعت عنده أعطى كل من أتى برأس مثقالاً واحداً، وجاء إلى السلطان باثني عشر ألف رأس كما اقترح عليه، وفق ما اجتمع منها بآدخسان فشكر له فعله وولاه على قبائل العرب والبربر.

ودخلت سنة خمس ومائة وألف فلم يكن فيها شيء يذكر.

ثم دخلت سنة ست ومائة وألف ففي ربيع منه خرج المولى زيدان ابن السلطان بالعساكر قاصداً ناحية تلمسان. بعد أن قتل النائب بفاس أبا العباس أحمد السلاوي فقاتل الترك ونهب ورجع.

ثم دخل سنة سبع ومائة وألف فلم يكن فيها شيء يذكر.

ثم دخلت سنة ثمان ومائة وألف ففي يوم عرفة منها قدم عشرة رجال من إصطنبول ومعهم كتاب من السلطان مصطفى بن محمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى إلى السلطان المولى إسماعيل يندبه إلى الصلح مع أهل الجزائر فانتدب رحمه الله وامتثل.

أمر السلطان المولى إسماعيل علماء فاس بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم منها وما نشأ عن ذلك

وفي ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة ثمان ومائة وألف ورد كتاب من حضرة السلطان على القاضي والعلماء بفاس يعاتبهم ويوبخهم على عدم موافقتهم على تمليك العبيد المثبتين في الديوان، ثم ورد كتاب آخر من السلطان يمدح العامة ويذم العلماء ويأمر بعزل القاضي والشهود كذا في «البستان».

قال أبو عبد الله أكنسوس: «هذا الكلام الذي نقله صاحب «البستان» عن السلطان المولى إسماعيل رحمه الله فيه نظر فإنه كلام مجمل، وقضية جمع العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الإسماعيلي وفيه تمييز المماليك الأرقاء الذين اشتروا بالثمن على الوجه الشرعي بخطوط العدول، وهؤلاء لا كلام فيهم، وأما غيرهم من أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة فإن السلطان لم يدع فيهم الملكية، وإنما الكلام في جبرهم على الجندية، ووجه السلطان إلى علماء المشرق والمغرب السؤالات عن ذلك، فكتبوا إليه الأجوبة المتضمنة للجواز بخطوطهم، وكل ذلك في الكناش المذكور مبسوطاً، وهو شيء كثير، وحاشى الله مقام السلطان المولى إسماعيل رحمه الله أن يدعى تملك الأحرار، وقد تقدم كلام الشيخ اليوسي وبيان ما أنكر على السلطان، ولو كان ما ذكر الصياني متصفاً به السلطان المذكور لكان ذلك أول ما ينكره اليوسي، ولا يسعه السكوت عليه مع أنه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب، نعم في الكناش طوائف معروفة متميزة ثبت عند السلطان المذكور أنهم كانوا أرقاء للمنصور السعدي، فلما انقرضت الدولة السعدية تفرقوا في الأقطار، وهم الذين تقدم الكلام عليهم في دفتر عليليش، وقد وقع البحث عن رقيتهم وسئل أهل الأسنان من كل قبيلة فعينوا الرقيق من غيره، فثبت ذلك كله عند السلطان، ومع ذلك لم يدخلهم في الأرقاء الخلص الذين اشتروا بالثمن بل ميزهم على حدة فكان ذلك الجند عنده على

ثلاث مراتب. المرتبة الأولى: خالص الرقية، المرتبة الثانية: خالص الحرية، المرتبة الثالثة: واسطة بينهما» اهـ والله تعالى أعلم.

تفريق المولى إسماعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة إحدى عشرة ومائة وألف فرق السلطان المولى إسماعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده، فعقد لابنه المولى أحمد على تادلا وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من العبيد حامية بها، وأمره أن يزيد في تلك القصبة فبنى قصبة جديدة، وبنى بها قصره وبنى مسجداً أعظم من مسجد أبيه بالقصبة الأولى، واستقر بها.

وعقد لابنه المولى عبد الملك على درعة وأعمالها وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل.

وعقد لابنه المولى محمد المدعو بالعالم على إقليم السوس ورتب معه ألف فارس.

وعقد لابنه المأمون الكبير الذي كان بمراكش على سجلماسة وأعمالها نقله من مراكش إليها وأنزله بقصبته التي بناها له بتيزيمي ورتب معه خمسمائة من الخيل، وبعد سنتين توفي الملك المأمون فولى السلطان مكانه ابنه المولى يوسف.

وعقد لابنه المولى زيدان على بلاد الشرق فكان يغير على رعايا الترك إلى أن شردهم عن نواحي تلمسان، وانتهى في بعض أيام غاراته إلى مدينة معسكر فاقتحمها وانتهب دار أميرها عثمان باي وأخذ ما فيها من الفرش والخرثى والأدام وغير ذلك لمغيب عثمان عنها في بعض غزواته، فانتهز المولى زيدان فيها الفرصة فكان ذلك سبب عزله عن الشرى وتولية أخيه المولى حفيد مكانه، لأن السلطان رحمه الله لم يرض فعله ونهبه لدار الباي

للصلح الذي كان انعقد بينه وبين السلطان مصطفى العثماني كما مر.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائة وألف: فيها غزا السلطان بلاد الشرق وحارب الترك بها لانتقاض الصلح الذي كان بينه وبينهم بسبب غارات المولى زيدان المتقدمة، ولما قفل السلطان من وجهه هذه هلك من جنده أثناء الطريق عدد كبير من العطش فمن أهل فاس بالخصوص أربعون نفساً سوى من هلك من غيرهم، وفي هذه السنة قتل القائد عبد الخالق بن عبد اللّه الروسي صاحب فاس عبداً من عبيد دار السلطان دخل عليه بغير إذنه فقتله، فبعث السلطان ولده المولى حفيداً من مكناسة إلى فاس ليأتيه به فاستشفع إليه عبد الخالق بالعلماء والأشراف فلم يقيده المولى حفيد وذهب به مسرحاً، فلما دخل على السلطان بمكناسة عفا عنه ورجع إلى فاس سالماً.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة وألف فيها استدعى السلطان عبد الخالق الروسي من فاس، فلما قدم عليه قتله، وبعث ابنه المولى زيدان إلى فاس وبعث معه حمدون بن عبد اللّه الروسي والياً عليها بدلاً من أخيه المقتول والله أعلم.

تنازع أولاد السلطان وثورة المولى محمد العالم منهم بالسوس ومقتله

لما دخلت سنة أربع عشرة ومائة وألف وصل المولى عبد الملك بن السلطان صاحب درعة إلى ضريح المولى إدريس الأكبر بزرهون مهزوماً لاستيلاء أخيه المولى أبي النصر على درعة وتغلبه على تلك النواحي، فبعث السلطان ولده المولى الشريف إلى درعة والياً عليها، فثار المولى محمد العالم ببلاد السوس ودعا لنفسه وزحف إلى مراكش، فحاصرها في رمضان من السنة المذكورة، وفي العشرين من شوال اقتحمها عنوة بالسيف فقتل

ونهب، ولما اتصل خبره بالسلطان بعث ولده المولى زيدان في العساكر لقتاله، فقدم مراكش فصادف المولى محمداً قد خرج عنها وعاد إلى تارودانت، ولما احتل المولى زيدان بمراكش عاثت عساكره فيها ثم تبع أخاه المولى محمداً العالم إلى السوس فنزل على تارودانت واتصلت الحرب بينهما إلى أن دخلت سنة خمس عشرة ومائة وألف وفيها قدم المولى حفيد حضرة فاس الجديد ووظف على أهل فاس مغرماً ثقيلاً وجاء الزعيم والياً عليها، ثم عزل وولى مكانه أبو علي الروسي فقتل أناساً وصلبهم، وفي متِم شوال من السنة المذكورة مات المولى حفيد بفاس الجديد، هذا كله والحرب قائمة بين المولى زيدان والمولى محمد العالم.

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة وألف ففي ثالث صفر منها ورد أمر السلطان على فاس بأن تعطى كل عتبة عظم سرج ولا يحرر من ذلك أحد كائناً من كان.

وفي الحادي والعشرين من صفر المذكور ورد الخبر باستيلاء المولى زيدان على تارودانت وقبضه على أخيه المولى محمد العالم بعد محاربته له ثلاث سنين هلك فيها أمم وقواد ورؤساء وأعيان يطول ذكرهم، ولما دخلها المولى زيدان عنوة قتل جميع من بها حتى النساء والصبيان هكذا في البستان، وفي رابع ربيع الأول من السنة وصل المولى محمد العالم مقبوضاً عليه إلى وادي بهت فبعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف بعقبة بهت، ولما وصل إلى مكناسة خامس عشر الشهر المذكور هلك رحمه الله.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس: لما توفي المولى محمد العالم صلى عليه القاضي أبو عبد اللّه محمد العربي بردلة فنقم عليه ذلك بعض الحسدة وأوغر قلب السلطان عليه وقال له: «إنه يبغضك ولولا شدة بغضه لك ما نازع إلى الصلاة على عدوك الذي ثار عليك ورام نزع الملك من يدك فكتب السلطان إلى القاضي بردلة يتهدده ويوبخه فأجابه القاضي: «بأن صلاته نظيرة صلاة الحسن البصري على الحجاج بن يوسف فلما لِيمَ على ذلك قال: استحييت من الله تعالى أن أستعظم ذنب الحجاج في جنب كرم الله الغفور الرحيم،

على أنني ما صليت عليه بغير إذن بل خرج الإذن من الدار المولوية وبلغ ذلك مبلغ الشهرة التي لم يبق معها شك وذلك على لسان مترجم ينسب الأمر إلى الجانب المولوي، فلا افتيات بعد ذلك، بل الواجب هو القيام بذلك ولو بغير إذن إجلالاً وتعظيماً لجانب مولانا نصره الله، ولما قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في قضية الحديبية: «**امح لفظة رسول الله**» قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «والله لا أمحوه أبداً» فتعارض وجوب امتثال أمر الرسول بالمحو ووجوب الإجلال لمقامه الأرفع فرجح رضي الله عنه وجوب الإجلال، ثم الصحيح أن الحدود كفارات ففي الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له» اهـ باختصار.

قال أكنسوس: وكانت هذه القضية من الفتن العظيمة بالمغرب عمت أهل القطر السوسي وخصت أعيان غيرهم من العلماء الذين كانوا يخالطون المولى محمد العالم لولا لطف الله تعالى، فإن الشيخ أبا عبد الله المسناوي الدلائي كان من أخص الناس بالمولى محمد، فوشى به إلى السلطان وقيل له: «إنه من شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام عليك فهو إذاً موافق له على ذلك، فبادر بعض أصحاب السلطان ممن كان يجنح للمسناوي بالاعتذار عنه بأنه كان ينهاه عن القيام وأنشد للمسناوي في ذلك:

مهلاً فإن لكل شيء غاية	والدهر يعكس حيلة المحتال
فالبدر ليس يلوح ساطع نوره	والشمس فاهرة السنا في الحال
فإذا توارت بالحجاب فعند ذا	يبدو بدو تعزز وجمال

فوقع ذلك من السلطان وتحقق براءة الشيخ رحم الله الجميع. قال أكنسوس: «وقولنا عمت أهل القطر السوسي لأن ظهوره التام إنما كان هنالك ولأن جل من ينتسب إلى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين له ومؤيدين فعله» اهـ قال في نشر «المثاني»: كان المولى محمد العالم ماهراً في فنون شتى كالنحو والبيان والمنطق والكلام والأصول، وكان ينفعل للشعر وتأخذه

أريحية الأدب، وكتب له أخوه مولاي الشريف في صدر كتاب بعث به إليه ما خاطب به سيف الدولة بن حمدان أخاه ناصر الدولة:

رضيت لك العليا وإن كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
أما كنت ترضى أن أكون مصلياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

فاقترح المولى محمد على الشيخ أبي عبد اللّه المسناوي أن ينوب عنه في الجواب لأنه كان في جملة الوافدين عليه حينئذ فقال رحمه الله:

بلى قد رضيت أن تكون مجلياً ويتلو نداكم في العلا من له السبق
وما لي لا أرضى لك المجد كله وأنت شقيق النفس إن عرف الحق
ولكن ذوو الضغن انتحوا ذات بيننا فغادرنا إفسادهم وبها رفق

وفي هذا التاريخ أعني سنة سبع عشرة ومائة وألف انتزع النجليز جبل طارق من يد الإصبنيول حاصره ثلاثة أيام برّاً وبحراً في جند يسير فملكه لاشتغال الإصبنيول يومئذ عنه بأمر الفتنة التي حدثت في ملكه، ولما ملكه النجليز عظم ذلك على أجناس الفرنج خصوصاً الإصبنيول والفرنسيس، ورأوا أن النجليز قد ملك عليهم باب أوروبا ولذا حاصروه مراراً فلم يحصلوا منه على طائل واستمر في يده إلى الآن.

ولما دخلت سنة تسع عشرة ومائة وألف ورد الخبر بموت المولى زيدان ابن السلطان بتارودانت وحمل في تابوت إلى مكناسة فدفن ليلاً إلى جانب أخيه المولى محمد العالم.

وفي هذه السنة أمر السلطان بهدم قصر البديع الذي بناه المنصور السعدي بقصبة مراكش وقد تقدم الكلام عليه. قال اليفرني في «النزهة» «ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب إلا ودخله شيء من أنقاض البديع» اهـ.

ثم دخلت سنة عشرين ومائة وألف فيها افتتح الترك مدينة وهران وكانت بيد الإصبنيول مدة فردها الله على المسلمين يومئذ، وفيها أمر السلطان بقراءة حديث الإنصات يوم الجمعة عند خروج الخطيب وجلوسه على المنبر.

محنة الفقيه أبي محمد عبد السلام ابن حمدون بسوس رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من أمر السلطان المولى إسماعيل رحمه الله لعلماء عصره بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم من ذلك، ولما كانت سنة عشرين ومائة وألف تجددت المحنة وألزم الرئيس أبو محمد عبد اللّه الروسي فقهاء فاس أن يكتبوا على الديوان المذكور فمن كتب نجا ومن أبى قبض عليه، ثم قبض على أولاد جسوس واستلب أموالهم، وأجلس فقيههم الشيخ أبا محمد عبد السلام بن حمدون جسوس بالسوق مقيداً يتطلب الفداء ثم حمل مسجوناً إلى مكناسة.

ودخلت سنة إحدى وعشرين ومائة وألف فعفا السلطان عن الفقيه المذكور وسرحه وبعث به إلى فاس ليزعج الحراطين الذين بها إلى مكناسة، فقدم وأزعجهم في ربيع الأول من السنة المذكورة، ثم كان عاقبة الفقيه المذكور أن قتله القائد أبو علي الحسن بن عبد الخالق الروسي، فمن الناس من يقول: إن ذلك كان بأمر السلطان، ومنهم من يقول بغير أمره اهـ. وقد وقفت على تقييد بخط شيخنا الفقيه أبي عبد اللّه محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي رحمه الله، وكان واعية، يقول فيه: إن امتحان الفقيه أبي محمد جسوس كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديوان الحراطين الذي اخترعه عليليش المراكشي للسلطان الجليل المولى إسماعيل رحمه الله حسبما هو مشهور، فهجاه بعض السفهاء وهجا فاساً من أجله، وحقد عليه السلطان فاستصفى عامة أمواله، وأجرى عليه أنواع العذاب، وبيعت دوره وأصوله وكتبه وجميع ما يملك هو وأولاده ونساؤه، ثم صار يطاف به في الأسواق وينادى عليه: من يفدي هذا الأسير؟ والناس ترمي عليه بالدراهم والحلى وغير ذلك من النفائس أياماً كثيرة، فيذهب الموكلون به بما يرمى عليه حيث ذهبوا بأمواله، وبقي على ذلك قريباً من سنة فكان في ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم، ولما دنا وقت شهادته رحمه الله وقد أيس من

نفسه، كتب بخطه رقعة وأذاعها في الناس يقول فيها ما نصه: «الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه أني ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك من العبيد إلا لأني لم أجد له وجهاً ولا مسلكاً ولا رخصة في الشرع، وأني إن وافقت عليه طوعاً أو كرهاً فقد خنت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود في النار بسببه، وأيضاً فإني نظرت في أخبار الأئمة المتقدمين حين أكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع فرأيتهم ما آثروا أموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفاً منهم على تغيير الشرع واغترار الخلق بهم، ومن ظن بي غير ذلك وافترى على ما لم أقله وما لم أفعله فالله الموعد بيني وبينه وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله ذنبه وستر في الدارين عيبه صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائة وألف» اهـ.

ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو علي الروسي بقتله فقتل رحمه الله خنقاً بعد أن توضأ وصلى ما شاء الله، ودعا قرب السحر من ليلة الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة ودفن ليلاً على يد القائد أبي علي الروسي انتهى ما وجدناه مقيداً.

واعلم أن قضية الفقيه أبي محمد رحمه الله من القضايا الفظيعة في الإسلام، والأسباب التي أثارتها أولاً وأكدتها ثانياً حتى نفذ أمر الله فيما قضاه وقدره في أزله بعضها ظاهر وبعضها خفي، الله أعلم بحقيقته، غير أن المعروف من حال الفقيه المذكور هو الصلابة في الدين والورع التام وناهيك بشهادته هذه دليلاً على ذلك، وقضيته قد تعارضت فيها الأنقال، ودخلها التعصب فلا يوقف منها على تحقيق، وغفران الله وراء الجميع فإنه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة. قال أبو عبد اللّه أكنسوس وقد جرى ذكر قضية الفقيه أبو محمد عبد السلام هذا بمجلس السلطان المرحوم المولى سليمان ابن محمد فقال: ما قتله مولانا إسماعيل وإنما قتله أهل فاس» قال: «ولم يمكنا أن نسأله عن حقيقة ذلك» اهـ. وفي شعبان من السنة المذكورة عزل

السلطان أبا علي الروسي عن فاس وولي مكانه حمدون الروسي ثم بعد مدة يسيرة أخر حمدون وأعيد أبو علي، وفيها قدم عبد اللّه الروسي ومعه أمر السلطان ببيع أصول المجاورين بالمشرق يعني بالحرمين الشريفين.

ثورة المولى أبي النصر ابن السلطان بالسوس ومقتله رحمه الله

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف فيها ثار أبو النصر ابن السلطان المولى إسماعيل ببلاد السوس وخب في الفتنة ووضع.

وفي سنة أربع وعشرين ومائة وألف سرح السلطان كاتبه الخياط بن منصور من السجن وولاه درعة.

وفي سنة خمس وعشرين بعدها قتل السلطان الخياط المذكور وأخاه عبد الرحمٰن، وفيها ورد الخبر على السلطان بأن أولاد دليم من عرب السوس قد قتلوا ولده المولى أبا النصر الثائر بها.

وفي سنة ست وعشرين ومائة وألف قتل السلطان القائد أبا الدشيش وثلاثة من القواد معه وسبعة عشر من العبيد بمشرع الرملة، وفي جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين ومائة وألف توفيت الحرة عائشة مباركة زوج السلطان، وهي أم ولده المولى أبي الحسن علي الآتي ذكره.

وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف سافر ولد السلطان وهو المولى أبو مروان بن إسماعيل إلى الحجاز بقصد الحج، وفي رمضان منها بعث والي وجدة إلى الحضرة مائة رأس من رؤوس بني يزناسن.

وفي سنة ثلاثين ومائة وألف ورد كتاب من السلطان إلى فاس يتضمن تحرير أهل فاس من الكلف كلها، ثم ورد عقبه كتاب آخر يوبخهم فيه ويخيرهم بين أن يكونوا جيشاً أو نائبة، فقال رجل منهم يدعى ولد الصحراوي: «إنما يكون الكلام أمام السلطان» فقتل وأصبح مصلوباً، فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبي علي الروسي وأصحابه، وولي على فاس

حمدون الروسي، ثم بعد ذلك عمد حمدون الروسي إلى عبد الخالق بن يوسف فقتله، فقبض السلطان عليه وعلى أخيه مسعود، وولي على فاس حمو قصارة، ثم بعد أيام قدم أبو علي الروسي والياً على فاس. وفي هذه السنة ورد الخبر بموت المولى أبي مروان بالمشرق، وفيها عزل السلطان أولاده عن الأعمال كلها ولم يترك إلا ولي العهد المولى أحمد بتادلا. ثم بعث ولده المولى عبد الملك إلى مراكش وولاه قطر السوس، واستقامت الأمور وسكنت الرعية وهدأت البلاد، واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد في أمن وعافية، تخرج المرأة والذمي من وجدة إلى وادي نول فلا يجدان من يسألهما من أين ولا إلى أين، مع الرجاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية، والعمال تجبي الأموال والرعايا تدفع بلا كلفة، وصار أهل المغرب كفلاحي مصر يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة، ومن نتج فرساً رباه حتى إذا بلغ أن يركب دفعه إلى العامل وعشرة مثاقيل معه ثمن سرجه، هذا إذا كان المنتوج ذكراً فإذا كان أنثى ترك له، ويدفع للعامل مثقالاً واحداً، ولم يبق في هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شيء من ذلك وفر في القبائل قبض عليه بكل قبيلة مر عليها أو قرية ظهر بها، فلا تقله أرض حتى يؤتى به أينما كان، وكلما بات مجهول حال بحلة أو قرية ثقف بها إلى أن يعرف حاله، ومن تركه ولم يحتط في أمره أخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقترفه من قتل أو غيره.

وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الأمطار كثيرة البركة في الحراثة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش مع الأمن والخصب والرخاء المحتد بحيث لم يقع غلاء طول أيامه إلا مرة واحدة، فبلغ القمح في أيامه ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق للمد، ورأس الضأن ثلاث أواق، ورأس البقر من المثقال إلى المثقالين سائر أيام الرخاء، والسمن والعسل رطلان بالموزونة، والزيت أربعة أرطال بالموزونة هكذا نقله صاحب البستان وهو مخالف لما سيأتي في الحوادث من أن الجدب والغلاء قد بلغا مبلغهما أعوام التسعين وألف ولعل ما ذكره صاحب البستان كان في آخر دولة السلطان المذكور

حسبما هي عادة الله تعالى في مثل ذلك غالباً والله تعالى أعلم.

بناء ضريحي الإمامين إدريس الأكبر والأصغر رضي الله عنهما

لما كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف أمر السلطان رحمه الله بهدم قبة ضريح المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه بزاوية زرهون وشراء الأصول المجاورة له من جهاته الأربع وهدمها وزيادتها فيه، فهدمت القبة وجميع ما حولها وأعيدت على هيئة بديعة، واستمر البناء والعمل في المشهد الشريف إلى أن تم سنة أربع وثلاثين ومائة وألف هكذا في «البستان» وغيره. وقال في «نشر المثاني»: وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف أمر السلطان المظفر المولى إسماعيل بتجديد بناء مقام مولانا إدريس الأصغر باني فاس حيث ضريحه بها، وأمر ببناء قبته التي هي عليه الآن بما اشتملت عليه من المحاسن التي يعز وجودها، وأمر بتوسعة صحن المسجد على ما هو عليه اليوم من الهيئة التي لا نظير لها بفاس، وتم تسقيف القبة في آخر ذي الحجة من العام المذكور، ثم أمر رحمه الله بإقامة الجمعة فيه فهي تقام فيه من يومئذ، جعل الله ذلك في ميزان الآمر به والمتولي له آمين.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف مات القائد عبد اللّه الروسي بمكناسة، وفيها غضب السلطان على أهل فاس وبعث إليهم حمدون الروسي وأخاه أبا علي، وأمرهم بمصادرتهم، وقبض المال منهم، فبعثوا علماءهم وأشرافهم للشفاعة فلم يقبل، وشرعوا في دفع المال حتى لم يعرف له عدد، ولم يسلم من الغرامة أحد، وتغيب الناس في تلك المدة وخلت المدينة من ذوي اليسار.

وفي هذه السنة أيضاً في المحرم منها خرج عسكر الإصبنيول من سبتة على حين غفلة من المسلمين، فضربوا في محلتهم واستولوا عليها وعلى خباء القائد أبي الحسن علي بن عبد اللّه الريفي، ونهبوا وقتلوا وسلبوا

وحازوا شبارات المسلمين وعساتهم وحازوا قصبة آفراك، واستشهد من المسلمين نحو ألف، ورجعوا عودهم على بدئهم إلى سبتة، ومنها ركبوا البحر إلى جزيرتهم، ولم يبق بسبتة إلا سكانها، ثم كانت الكرة للمسلمين عليهم بعدها فبقي بأيدي المسلمين منهم نحو ثلاثة آلاف.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ففي المحرم منها مات الباشا غازي بن شقراء صاحب مراكش بوجدة، وفي صفر منها مات باعزيز بن صدوف صاحب تارودانت، وفيها انتقل المولى عبد الملك بن السلطان إلى تارودانت فاستقر بها إلى أن كان من أمره ما نذكره عند التعرض لدولته إن شاء الله.

وفاة أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله

كانت أيام أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الأمن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لأهل الذعارة والفساد محل يأوون إليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه، فقد كان خليفة ونائباً عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين، وسلطاناً وملكاً مستقلاً سبعاً وخمسين سنة، حتى كان جهلة الأعراب يعتقدون أنه لا يموت، ويقال: إن البعض من أولاده كانوا يستبطئون موته ويعبرون عنه بالحي الدائم، وهذه المدة التي استوفاها المولى إسماعيل في الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الإسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدي صاحب مصر، فإنه أقام في الخلافة ستين سنة، لكن لا سواء، فإن المولى إسماعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بثمرتها، وتملاها بكمال لذتها، لأنه وليها في إبان اقتداره عليها واضطلاعه بها بعد سن العشرين كما مر، لا في مدة النيابة ولا في مدة الاستقلال، ولم يكن عليه استبداد لأحد، ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم، ومن سلك سننهم من القرابة، وكلهم كان يشغب في الأطراف، لم يحصل منهم

كبير ضرر للدولة، بخلاف المستنصر العبيدي فإنه ولي وهو ابن سبع سنين فكان في صدر دولته تحت الاستبداد، وحدث في أيامه الغلاء العظيم.

قال ابن خلكان: وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف عليه الصلاة والسلام، واستمر سبع سنين أكل الناس فيها بعضهم بعضاً وبيع رغيف واحد بخمسين ديناراً، وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا يتساقطون في الطرقات من الجوع، إلى غير ذلك فلذا قلنا: لا يستوي حال ملك المولى إسماعيل وملك المستنصر رحمهما الله.

ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائة وألف مرض أمير المؤمنين المولى إسماعيل مرض موته قال في «نشر المثاني»: كان ابتداء مرضه في ثاني يوم من جمادى الأولى من السنة المذكورة، ولما أحس بالضعف بعث إلى ولده المولى أحمد صاحب تادلا يستقدمه فقدم عليه وأقام ثلاثاً ثم اخترمته المنية رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف، وتولى غسله الفقيه أبو العباس أحمد بن أبي القاسم العميري، وصلى عليه الفقيه العلامة أبو علي الحسن بن رحال المعداني ودفن بضريح الشيخ المجذوب رضي الله عنه من حضرة مكناسة.

قال في «البستان»: كان السلطان المولى إسماعيل قد عهد بالأمر إلى ولده المولى أحمد المذكور وكان يعبر عنه بولي العهد، وأنكر أكنسوس أن يكون السلطان المذكور قد عهد لأحد من أولاده، قال: كما أخبرنا بذلك السلطان العالم المولى سليمان بن محمد رحمه الله مراراً وكان يحكى في ذلك خبراً، وهو أن المولى إسماعيل لما أيقن بالموت دعا وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليحمدي وقال له: «إني في آخر يوم من أيام الدنيا فأحببت أن تشير عليّ بمن أقلده هذا الأمر من ولدي لأنك أعرف بأحوالهم مني فقال له: «يا مولانا لقد كلفتني أمراً عظيماً وأنا أقول الحق: أنه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين، كان لك ثلاثة المولى محرز والمولى المأمون والمولى محمد فقبضهم الله إليه» فقال له السلطان: «جزاك الله خيراً» وودعه

وانصرف ولم يعهد لأحد وإنما العبيد كانوا يقدمون من شاؤوا، ويؤخرون من شاؤوا، وكان المولى سليمان رحمه الله يحكي ذلك عندما يعرض له ذكر أولاده هو والله أعلم.

بقية أخبار المولى إسماعيل رحمه الله ومآثره وسيرته

قال اليفرني في «النزهة»: «لم يزل أمير المؤمنين إسماعيل رحمه الله في مقارعة أعدائه إلى أن دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها، واستولى على تخوم السودان وانتهى منها إلى ما وراء النيل، وانتشرت دولته في عمائرها وبلغ من ذلك ما لم يبلغه المنصور السعدي، وامتدت مملكته في جهة الشرق إلى بسكرة من بلاد الجريد ونواحي تلمسان والله أعلم حيث يجعل رسالاته» اهـ وقال في «البستان»: كان للمولى إسماعيل من الولد على ما تواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر ومن البنات مثل ذلك أو قريب منه، قال: والذي عقب من أولاده على ما رأيناه عياناً في دفتر السلطان المولى محمد بن عبد اللّه إذ كان يصلهم في كل سنة، وكان يبعثني لتفرقة الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمس دور كلها لأولاده لصلبه، وأما الذين لم يعقبوا أو عقبوا وانقطع نسلهم فليسوا في الدفتر، وأما الحفدة والأسباط فكان عددهم في أيام السلطان المولى محمد بن عبد اللّه ألفاً وخمسمائة وستين، وقد زادوا اليوم في دولة السلطان المولى سليمان بن محمد، ولم يزل يصلهم إلى الآن على ما في دفتر والده ومن زاد يزاد له، قال: وأما ما أدركناه من أولاد المولى إسماعيل لصلبه في دولة السلطان المولى محمد فثمانية وعشرون رجلاً نعرفهم بالاسم والعين. ومن بناته لصلبه مثل ذلك قد أنزلهن السلطان بقصر حمو بن بكة ورتب لهن المؤنة والكسوة والصلة في كل سنة، وأنزل معهن الحوافد اللاتي لا أزواج لهن، وكل واحدة من هذه الدور المائة

والخمس التي بسجلماسة لواحد من أولاد صلبه لأنه كان رحمه الله إذا رأى أحداً من أولاده الذين لم يرد إقامتهم معه بالمغرب قد بلغ أرسله إلى سجلماسة وبني له بها قصراً أو داراً وأعطاه نخلاً وأرضاً للحراسة والفلاحة ومماليك يقومون له بخدمة أصله وحراثة أرضه في الشتاء والصيف، ويعطي كل واحد من ذلك على قدر مرتبته عنده ومنزلة أمه منه، فتناسلت أولادهم ونمت فروعهم ووفر الله جمعهم وحفظ نظامهم، وكان رحمه الله سديد النظر في نقل أولاده بأمهاتهم من مكناسة إلى تافيلالت مع بني عمهم من الأشراف ليتدربوا على معيشتها التي تدوم لهم فكان ذلك صوناً لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخصاصة بعد موته وزوال النعمة وانزواء رداء الملك الساتر لهم بين العامة، فنجحوا وأفلحوا بخلاف إخوانهم الذين ربوا بمكناسة واستمروا بها إلى أن توفي والدهم وألفوا عوائدهم ومرنوا على شهواتهم فإنهم لم ينم لهم نسل كإخوانهم الذين بالصحراء هذا ما يتعلق بنسل السلطان المولى إسماعيل.

وأما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشيء فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحادثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك، فلا يلحق ضخامة مصانعه ما شيده الأكاسرة بالمدائن، ولا الفراعنة بمصر، ولا ملوك الروم برومة والقسطنطينية، ولا اليونان بأنطاكية والإسكندرية، ولا ملوك الإسلام ودولة العظام كبني أمية بدمشق، وبني العباس ببغداد، والعبيديين بإفريقيا ومصر، والمرابطين والموحدين وبني مرين والسعديين بالمغرب، وما بديع المنصور بقصر من قصوره ولا بستان المسرة بأحد بساتينه، فقد كان عنده بجنان حمرية مائة ألف قعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين، ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك، ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياه وأجرى الماء إليه وأمر بإحصاء ما بقي من شجرة فوجدوه ستين ألفاً فكان رحمه الله يبعث بثمن غلته إلى الحرمين تنفيذاً لمراد جده وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله.

قال صاحب «البستان»: «ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت أثراً أعظم من آثاره، ولا بناء أضخم من بنائه ولا أكثر عدداً من قصوره، لأن هؤلاء الدول كان من اعتنى منهم بأمر البناء غاية أمره أن يبني قصراً ويتأنق في تشييده وتنجيده، وهذا السلطان لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا عشرين بل جعل مباني العالم كلها في بطن تلك القلعة المكناسية كما قيل: «كل الصيد في جوف الفرأ» هذا كلام صاحب البستان رحمه الله. ثم قال:

وكان في سجونه من الأسارى خمسة وعشرون ألفاً ونيفاً، كانوا يعملون في بناء قصوره منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون والمنجمون والمهندسون والأطباء، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير.

وكان في سجونه من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفاً تظل في العمل مع أسرى الكفار ويبيتون في السجون والأهراء تحت الأرض، ومن مات منهم دفن في البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض. ومما مدح به المولى إسماعيل رحمه الله قول الفقيه الأديب أبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه الجزولي من قصيدة له:

مولاي إسماعيل يا شمس الورى يا من جميع الكائنات فدى له

ما أنت إلا سيف حق منتضى الله من دون البرية سله

من لا يرى لك طاعة فالله قد أعماه عن طرق الهدى وأضله

ولنذكر ما سلف في هذه المدة من الأحداث.

ففي سنة إحدى وسبعين وألف توفي الشيخ أبو عبد اللّه سيدي محمد المفضل بن الشيخ أبي العباس أحمد المرسي ابن الشيخ الأكبر أبي عبد اللّه سيدي محمد الشرقي، كان رحمه الله صالحاً خيراً من فضلاء عصره حافظاً للقرآن بالسبع، قد اشتهر قدره في الناس كثيراً، وكان يفر من ذلك وإذا سأله أحد أن يتخذه شيخاً يقول: «نحن إخوة في الله والدرهم الكامل ينفق منه» أخذ القراءات عن الفقيه الأستاذ أبي عبد الرحمٰن بن القاضي وكتب له الإجازة بذلك، وكان له نصيب من العلوم سوى القراءات، وانتسب في

الطريق للولي الصالح أبي عبد اللّه محمد الحفيان الرتبي السجلماسي من أصحاب الشيخ أبي عبيد الشرقي، وتخرج عليه نجباء من طلبة القراءات وكان رحمه الله كثير الطعام بزاوية جده أبي عبيد الشرقي، ثم انتقل إلى ناحية سلا فسكن بأحوازها وبقي هنالك إلى أن مات في التاريخ المذكور فحمل إلى المدينة المذكورة ودفن بطالعتها قرب المسجد الأعظم، وقبره اليوم مزارة عظيمة، وكان له كلام كثير على طريق العروبي الملحون خاطب به الرئيس محمد الحاج الدلائي حين مشت الوشاة بنيهما فوقعت من أجل ذلك بينهما مكاتبات ومعاتبات رحمهما الله.

وفي سنة اثنتين وسبعين وألف توفي الشيخ الرباني أبو إسحاق إبراهيم ابن أحمد بن عبد اللّه بن حسين المصلوحي دفين تامصلوحت من أعمال مراكش، وقد تقدم التنبيه على وفاة جده أبي محمد عبد اللّه بن حسين المذكور، وكانت له شهرة عظيمة وكان ابتداء أمره أنه تلمذ له طائفة من الفقراء بمراكش، واجتمع عليه ناس فأنكر ذلك السلطان زيدان بن المنصور وأمره بالقبض عليه فخرج إلى قبيلة سكتانة حيث ضريحه اليوم فاستقر بها إلى أن توفي، وكان يقول: «لا يأتينا إلا من أمنه الله لأن مقامنا هذا مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً» وكان يقول: «دارنا دار سر لا دار علم» وكان إذا دخل شهر المحرم ترك حلق الشعر والزينة فإذا لِيمَ على ذلك قال: «ما فعلنا هذا الا امتعاضاً لقتل الحسين رضي الله عنه وأسفاً على ما وقع به» وكان يعمل السماع ويجتمع أصحابه على الحضرة على الكيفية المعهودة وربما تواجد فدخل معهم، وكانت له مشاركة في العلوم أخذ عن الشيخ المنجور وأبي محمد بن طاهر الحسني وأبي مهدي السكتاني وغيرهم. وتوفي في التاريخ المتقدم عن سن عالية يقال: أنافَ على المائة وبنيت عليه قبة حافلة وقبره اليوم مزارة عظيمة.

وفي أواخر سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التي بعدها حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب لا سيما فاس وأعمالها أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي وخلت الدور وعطلت المساجد ثم تدارك الله عباده بلطفه.

وفي سنة خمس وسبعين وألف في عاشر رمضان منها وقعت زلزلة عظيمة بفاس وغيرها من بلاد المغرب. قال الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الهادي الشريف السجلماسي: «وقعت الزلزلة في التاريخ المذكور ونحن بمجلس البخاري عند شيخ الجماعة الإمام أبي محمد عبد القادر الفاسي رحمه الله، فقام كل من بالمجلس حتى الشيخ ظناً منا أن السقف يسقط علينا لأن خشبه صوتت، وخرج سرعان الناس يلتمسون الخبر، فأخبر بها كل من كان راقداً أو جالساً حتى النائم انتبه، ومن كان ماشياً لم يشعر بها، فسئل الشيخ عن ذلك وهل هو كما تزعم العامة: من أن الثور الذي عليه الدنيا أو الحوت يتحرك، فأجاب: بأن ذلك باطل لا أصل له، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59] وقال أيضاً: «ذكر بعض الحكماء أن ذلك يقع في اختناق الريح في جوف الأرض».

وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وألف توفي البهلول المتبرك به سيدي قاسم بن أحمد بو عسرية المعروف بابن اللوشة دفين ضفة وادي أرضم من بلاد آزغار ولم يتزوج قط فلم يكن له عقب هكذا في «نشر المثاني» ولعله تصحيف، والصواب ما يأتي من أنه توفي سنة سبع وتسعين بمثناة بمهملتين والله أعلم.

وفي سنة خمس وثمانين وألف توفي شيخ السنة وإمام الطريقة أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر بن عمرو الدرعي ثم الأغلاني الشهير بابن ناصر، نسبة إلى جده المذكور في النسب قال تلميذه الشيخ أبو علي اليوسي في فهرسته: كان الشيخ رضي الله عنه مشاركاً في فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير والحديث والتصوف، عابداً ناسكاً، ورعاً زاهداً، عارفاً قائماً بالطريقة، شارباً من عين الحقيقة، وكان رضي الله عنه مع إكبابه على علوم القوم وانتهاجه منهج الطريقة لا يخل بعلم الظاهر تدريساً وتأليفاً وتقييداً وضبطاً، فنفع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقاً وغرباً. فانتفع به الخلق، قائماً بالتعليم والتربية للمريدين بقوله وفعله، والترقية بهمته، عن همة عالية وحالة مرضية وعلم

صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن والرسوخ، فكان إذا تكلم انتقش كلامه في القلب، وإذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب». ثم أطال الشيخ اليوسي في ترجمته، وذكر له كرامات عديدة، وقد أفصح عن حاله ووصفه في قصيدته الدالية المشهورة الموضوعة في مدحه، وأتى فيها من الإجلال لهذا الشيخ والتعظيم بما كان سبب ربحه. ولهذا الشيخ شيوخ وأتباع معروفون في كتب الأئمة الذين تعرضوا لبيان ذلك وطريقته المتصلة برسول الله ﷺ معروفة أيضاً، وكان والده سيدي محمد بن أحمد من أكابر الأولياء كثير الأوراد لا يفتر لسانه عن الأذكار حسبما نقله غير واحد والله تعالى أعلم.

قال مؤلفه عفى الله عنه: وهذا الشيخ هو جدنا وإليه ننتسب فأنا أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الكبير بن أحمد بن محمد الصغير بفتح الميم ابن محمد بن ناصر الشيخ المذكور نفعنا الله به وأفاض علينا من مدده ومدد أمثاله، وأسلافنا ينتسبون بعد الشيخ المذكور نفعنا الله به وأفاض علينا من مدده ومدد أمثاله، وأسلافنا ينتسبون بعد الشيخ المذكور إلى سيدنا جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه، ولست الآن من ذلك على تحقيق، ولعلنا نحققه في موضع آخر إن شاء الله.

وفي حدود التسعين وألف كان انحباس المطر والغلاء. قال الشريف أبو عبد اللّه محمد الطيب القادري في «الأزهار الندية»: أن القمح قد بلغ في هذه المدة إلى أربعين أوقية للمد بسبب تأخر المطر والمد صاع ونصف وصلى الناس صلاة الاستسقاء فأول إمام خطب فيها القاضي أبو عبد اللّه محمد العربي بردلة وكررها ثلاث مرات فنزل مطر يسير لم يكف، ثم أعيدت الصلاة رابعة فكان الخطيب فيها الفقيه أبو عبد اللّه محمد البوعناني، ثم أعيدت خامسة والخطيب القاضي بردلة، ثم أعيدت سادسة والخطيب أبو عبد اللّه محمد المرابط الدلائي وفيها بلغ القمح ستين أوقية وهو غلاء لم يسمع بمثله، ثم أعيدت الصلاة سابعة والخطيب أبو عبد اللّه البوعناني، ثم أعيدت ثامنة والخطيب الشيخ الولي الزاهد أبو عبد اللّه محمد العربي الفشتالي، وفي عشية غده نزل المطر مع رعد وبرق ففرح المسلمون وأكثروا من حمد الله

تعالى، ثم أعيدت الصلاة تاسعة والخطيب القاضي بردلة، وخرج يومئذ في جملة الناس شيخ الإسلام وبركة الأمة الإمام أبو محمد سيدي عبد القادر الفاسي راكباً على حمار جاعلاً الأشراف من أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعاً بهم إلى الله تعالى، فنزل عند الرجوع مطر قليل، ومن الغد نزل المطر الغزير الكافي النافع فانحطت الأسعار ونزل القمح إلى خمس وثلاثين أوقية بعدما كررت الصلاة تسع مرات، وكانت الصلاة التاسعة يوم الاثنين خامس المحرم فاتح سنة إحدى وتسعين وألف.

وفي سنة تسع وثمانين وألف في ليلة الجمعة الثاني عشر من شعبان منها توفي الشيخ المولى أبو محمد عبد اللّه الشريف الوزاني الشهير. وكان عمره يوم توفي خمساً وثمانين سنة، وتوفي ولده الشيخ المولى أبو عبد اللّه محمد وقت العشاء ليلة الجمعة الثامن والعشرين من المحرم سنة عشرين ومائة وألف، وعمره يومئذ ثمانون سنة، وتوفي ابنه الشيخ القطب المولى التهامي ابن محمد طلوع شمس يوم الاثنين فاتح المحرم من سنة سبع وعشرين ومائة وألف، وعمره ست وستون سنة، وتوفي الشيخ مولاي الطيب ابن محمد يوم الأحد وقت طلوع الفجر ثامن عشر ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، وعمره نيف وثمانون سنة، وتوفي ابنه الشيخ مولاي أحمد ضحوة يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف، وتوفي ابنه الشيخ مولاي علي بن أحمد يوم الثلاثاء آخر يوم من ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين وألف وتوفي ابنه الشيخ سيدي الحاج العربي بن علي يوم الأربعاء فاتح سنة سبع وستين ومائتين وألف. وقد أتينا بوفاة هؤلاء السادة الوازانيين مجموعة هنا لما في ذلك من المناسبة والتقريب، ويتصل نسبهم بالمولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش ثم بالمولى إدريس بن إدريس رضي الله عنهم وأماتنا على محبتهم وحشرنا في زمرتهم.

وفي سنة تسعين وألف وقع الوباء العظيم بالمغرب فكان عبيد السلطان يردون الواردين من الآفاق على مكناسة الزيتون كما مر.

وفي سنة إحدى وتسعين وألف بعد ظهر الأربعاء الثامن من رمضان منها توفي شيخ الجماعة بفاس والمغرب الإمام الكبير العالم الشهير الشيخ أبو محمد عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، ولا يحتاج مثله رضي الله عنه إلى تعريف فإن مآثره أشهر من «قفا نبك»، قالوا: ومع غزارة علمه وانتفاع أهل المغارب الثلاثة به لم ينضد لجمع كتاب مخصوص ولا شرح متن من المتون، وإنما كانت تصدر عنه أجوبة يُسأل عنها فيجيب ويجيد وجمعها بعض أصحابه فجاءت في مجلد.

وفي سنة خمس وتسعين وألف توفي الولي الصالح أبو محمد عبد اللّه العوني دفين سلا من أصحاب الشيخ سيدي محمد المفضل.

وفي سنة ست وتسعين وألف توفي الشيخ العلامة المشارك أبو زيد عبد الرحمٰن بن عبد القادر الفاسي صاحب نظم عمل فاس و«الأقنوم في مبادئ العلوم» وغيرهما من التآليف الحسان.

وفي سنة سبع وتسعين وألف توفي الشيخ العارف بالله تعالى ذو الأحوال الربانية والمواهب العرفانية أبو القاسم بن أحمد الوشة السفياني المعروف بأبي عسرية، لأنه كان يعمل بشماله أكثر من يمينه. كان من المولهين في ذات الله تعالى ومن أهل الأحوال والشطحات، يقال: إنه حمل وهو صبي إلى الشيخ أبي عبيد الشرقي فبرك عليه ودعا بقرب من ماء فصبت عليه وقال: لولا أنا بردنا هذا الصبي لأحرقته الأنوار، ولذا كان يهتف بأبي عبيد كثيراً وينادي باسمه وينسب جميع ما يظهر على يده له.

وفي سنة إحدى مائة وألف أمر السلطان الناس بأن لا يلبسوا النعال السود ولا يلبسها إلا اليهود وتقدم التنبيه على ذلك عقب فتح العرائش.

وفي سنة اثنتين ومائة وألف توفي الشيخ الإمام على الأعلام أخر علماء المغرب على الإطلاق، الذي وقع على علمه وصلاحه الاتفاق، أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي نسبة إلى آيت يوسي قبيلة من برابر ملوية وأصله اليوسي، كان رضي الله عنه غزالي وقته علماً وتحقيقاً وزهداً وورعاً، قال في

فهرسته: كانت قراءتي كلها أو جلها فتحاً ربانياً، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة فكنت بأدنى سماع ينفعني الله، فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله عليّ في جميعه فتحاً ظاهراً، وأبلغ فيه ما لم يبلغه من سمعته منه، ورب كتاب لم أسمعه أصلاً غير أن سماع البعض في كل فن صار مبدأ للفتح وتتميماً لحكمة الله في سنة الأخذ عن المشايخ، ولا تستوحش مما ذكرناه ظناً منك أن الربح أبداً يكون على قدر رأس المال، كلا، فقد يبلغ الدرهم الواحد ألف مثقال وما ذلك على الله بعزيز.

وكان معظم قراءته بالزاوية الدلائية لم يزل مقيماً بها عاكفاً على بث العلم ونشره إلى أن استولى عليها المولى الرشيد بن الشريف فنقله إلى فاس، فأقام بها مدة، ثم خرج إلى البادية فاستوطن بقبيلته إلى أن مات رحمه الله، وكان رضي الله عنه متضلعاً من العلوم العقلية والنقلية حتى قال في تأليفه المسمى «بالقول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل»: «أنه بلغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازاني والسيد الجرجاني وأضرابهما» وسأله يوماً سائل بمجلس درسه فقال له: «اسمع ما لا تسمعه من إنسان، ولا تجده محرراً في ديوان، ولا تراه مسطراً ببنان، وإنما هو من مواهب الرحمٰن» ولما دخل مراكش تصدر بها لإقراء علم التفسير بجامع الأشراف فمكث في تفسير الفاتحة قريباً من ثلاثة أشهر، وهو يبدي كل يوم أسلوباً غريباً، وتحقيقاً عجيباً، فعجب الناس من غزارة مادته مع أنه ربما بات في ضريح بعض الأولياء والناس معه فلا يطالع كتاباً ولا يراجع مؤلفاً فإذا أصبح وجلس على الكرسي أطلق لسانه بما يبهر العقول. وكان الشعر عنده أسهل من النفس وشعره كله حكم وأمثال كشعر العرب القدماء، وقصيدته الدالية في شيخه ابن ناصر دالة على امتداد باعه ورسوخ قدمه في المعارف الفنون. ولله در الإمام أبي سالم العياشي إذ قال:

من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وبالجملة فهو آخر العلماء الراسخين، بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين، حتى كان بعض الشيوخ يقول: هو المجدد على رأس هذه المائة

لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار إمام وقته وعابد زمانه رحمه الله ورضي عنه.

وفي سنة ثلاث ومائة وألف في ليلة الأربعاء السابع من شهر ربيع الأول منها توفي الولي الصالح أبو العباس سيدي أحمد حجي. قال الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي في حقه ما نصه: رجل خير صالح ولقد اجتمعت به بمكناسة سنة ست وتسعين وألف فما رأيت منه إلا خيراً،اهـ. ولما توفي خلفه ولده ووارث سره وضجيعه في قبره الولي الصالح سيدي أبو محمد عبد اللّه حجي المعروف بالجزار وضريحهما مزارة شهيرة بسلا.

وفي سنة تسع أو عشر ومائة وألف توفي الفقيه العدل النوازلي الفارض الحاسب أبو الحسن علي بن محمد المعروف بأبي شعرة السلاوي ودفن قريب ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه.

وفي سنة خمس عشرة ومائة وألف توفي الإمام الفقيه الأديب الناظم الناثر أبو القاسم بن الحسين الغريسي ثم السلاوي المعروف بأبي زائدة وذلك في جمادى الأولى من السنة ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه.

وفي سنة ثمان عشرة ومائة وألف في ضحى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من المحرم منها كسفت الشمس كسوفاً كلياً وسمي ذلك العام عام الظليماء.

وفي سنة تسع عشرة ومائة وألف توفي الشيخ الإمام العلامة الهمام ذو التصانيف المفيدة في كل فن، الحجة المتبرك به حياً وميتاً أبو سرحان سيدي مسعود جموع الفاسي ثم السلاوي وذلك يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى من السنة ودفن بزاوية الشيخ سيدي أحمد حجي داخل مدينة سلا.

وفي سنة عشرين ومائة وألف توفي الولي الصالح العابد الناصح أبو العباس أحمد بن عبد اللّه معن الأندلسي نزيل المخفية من فاس حرسها الله.

وفي هذه السنة أيضاً كان إحداث قراءة المسمع الحديث المتضمن لأمر الناس بالإنصاف وقوله: أنصتوا رحمكم الله ثلاثاً عند خروج الإمام يوم الجمعة من المقصورة وجلوسه على المنبر.

وفي سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف وذلك وقت عصر الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر منها توفي الولي الصالح سيدي أبو محمد عبد الله بن سيدي أحمد حجي المعروف بالجزار ودفن بإزاء قبر أبيه كما مر.

وفي يوم الأربعاء العشرين من ربيع الثاني من السنة المذكورة توفي الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن الأمين الحاج محمد الصبيحي السلاوي ورثاه الشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي بقوله:

جزعنا وإن كنا على العلم أنه إذا ما أراد الله أمراً تعجلا

لفقد الإمام المجتبى العالم الرضي الصبيح ومن في وقته قد تنبلا

وإلا فمختار الإله اختيارنا ونرجو له خيراً عميماً مكملا

ورثاه أيضاً صديقه الملاطف الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر الحافي السلاوي رحم الله الجميع.

وفي سنة سبع وعشرين ومائة وألف ليلة الأربعاء فاتح رجب منها توفي الولي الصالح العالم العامل العارف الشهير الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتي من كبار أصحاب الشيخ ابن ناصر ومن حفدة الشيخ أبي عبد الله محمد بن مبارك الزعري المتقدم الذكر، ومآثر هذا الشيخ أشهر من أن تذكر، وزواياه عميمة النفع والبركة بالمغرب، وكانت وفاته بمكناسة الزيتون وضريحه بها شهير عند روضة الشيخ سيدي عبد الله بن حامد رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف في الثامن عشر ربيع الأول منها توفي الشيخ القدوة الإمام السني أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي وهو ولد الشيخ ابن ناصر المتقدم وخليفته ووارث سره وفضله رضي الله عنه أشهر من أن ينبه عليه، ومن ذلك ما حكاه الشيخ أبو علي الحسن بن

محمد المعداني في كتابه الروض اليانع الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله الصالح» قال: حدث بعض العلماء الأجلة: أنه لما دخل الشيخ أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي المدينة المشرفة في حجته الأخيرة جلس تجاه الحجرة النبوية والناس يزدحمون عليه لأخذ العهد وتلقين الأوراد وهو منبسط لذلك فقلت في نفسي: إن هذا الرجل مغرور راض عن نفسه، كيف يتصدى في هذا المكان الذي تخضع فيه الملوك وجميع الإنس والجن والملائكة وإذا طلعت الشمس اختفى السراج» قال: فكاشفني بما في نفسي والتفت إليّ وقال: «والله ما جلست لما ترون حتى أمرني النبي ﷺ. وما أذعنت له حتى هددت بالسلب». قال: «فسقطت على يديه أقبلها وقلت له: يا سيدي أنا تائب إلى الله تعالى فدعا لي وانصرفت» ومما حكاه صاحب الكتاب المذكور قال: «حدث الرجل الصالح البركة الفقيه الناصح سيدي محمد بن إبراهيم المجاصي قال: كان السلطان المولى إسماعيل بن الشريف رحمه الله قد استدعى الشيخ سيدي أحمد بن ناصر، وكان به حنق عظيم عليه، وعزم إذا وصل إليه أن يفعل به مكروهاً لا تدرى حقيقته غير أن الأمر شديد، فجاء إلى الشيخ جماعة من العلماء الأعلام وأصحابه الملازمين له، وقد تخوفوا عليه وعلى أنفسهم غاية، فكلموا الشيخ في ذلك واستفهموه ليعلموا ما عنده من عادة الله تعالى مع أوليائه من النصرة لهم والذب عنهم فلم يسمعوا منه كلمة، ثم راجعوه في ذلك حتى هابوه وسكتوا عنه، وقدم الشيخ المذكور على السلطان فلما انتهى إلى قصبة آكراي قرب مكناسة الزيتون إذا برجل مجاطي يقال له: الحاج عمرو لقيه هنالك، فلما رآه الشيخ نزل عن فرسه ليسلم عليه فقال الشيخ: «ما الخبر يا ولدي؟» فقال الرجل: «ما الخبر يا سيدي: والله لوددت أن سيدي لم يصل إلى هنا ولم يخرج من داره» يعني أن الأمر عظيم. فقال له الشيخ رضي الله عنه بلسان العناية الربانية: «ولا ما يشوش» إذا كان في رقبتك شبر وأشار بيده فاعمل فيها ذراعاً ومد ذراعه» ففرح العلماء الذين معه وكل من حضر بتلك المقالة، وتيقنوا الأمن على الشيخ وعلى أنفسهم لما يعلمون من عادة الله الكريمة معه فكان الأمر كما قال، فإن السلطان جاء إليه

بنفسه وهو في روضة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر، وتلقاه بالقبول والتعظيم والتبجيل والتكريم. وصافحه بيده، وجلس معه في داخل القبة ساعة، ولما خرج السلطان رحمه الله من عنده جعل ينادي بلسانه في أصحابه ويقول: «زوروا سيدي أحمد بن ناصر يا الناس، زوروا سيدي أحمد بن ناصر يا الناس» ويكررها من صميم قلبه. قال سيدي محمد بن إبراهيم: «فلما انصرف السلطان من عند الشيخ رضي الله عنه جئت إليه وقلت له: يا سيدي إنا نخاف أن ينزلنا السلطان بضريح الشيخ سيدي عبد الرحمٰن المجذوب ويطول بنا المقام» فقال لي: «لا نبقى إلا هنا وبعد غد ننصرف إلى بلادنا إن شاء الله» فكان الأمر كما قال بعد أن جاء الأمر من السلطان يأمره بالنزول بضريح الشيخ المجذوب فقال: «لا أنزل إلا هنا» فبقي في موضعه ثم بعث إليه السلطان يأمره بالتوجه إلى بلاده معظماً مكرماً» اهـ.

وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف في ليلة عيد الفطر منها توفي الفقيه العالم القاضي أبو العباس أحمد ابن العلامة أبي الحسن علي المراكشي وصُلي عليه من الغد ودفن بالموضع المسمى بالعلو من رباط الفتح.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف في ليلة الأحد ثامن عشر المحرم منها توفي الشيخ الصالح أبو علي الحسن بن عبد اللّه العايدي السجيري ودفن بزاوية من حومة السويقة من سلا وفرغ من بناء قبته في رجب من السنة بعدها.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف يوم الاثنين خامس عشر رجب منها توفي الفقيه العلامة خاتمة المحققين وآخر قضاة العدل بفاس الشيخ أبو عبد اللّه محمد العربي بن أحمد بردلة الفاسي، وفي التاريخ المذكور توفي الشيخ العلامة المتبرك به أبو العباس أحمد بن سليمان ذو التآليف العديدة في الحساب وغيره بحضرة مراكش رحمه الله.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف كانت جائحة الجراد بالعدوتين سلا ورباط الفتح وأعمالهما وخلفه قمله المسمى في لسان المغاربة بآمرد فكان

كالسيل العام لم يترك ورقة خضراء إلا أكلها وكان ذلك في شوال من السنة المذكورة.

وفي سنة تسع وثلاثين ومائة ألف يوم الأربعاء ثاني عشر صفر منها توفي الشيخ العارف بالله تعالى سيدي محمد الصالح ابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدي محمد المعطي ابن سيدي عبد الخالق ابن سيدي عبد القادر ابن الشيخ الأكبر سيدي محمد الشرقي، ومناقبه قد تكفل بها كتاب: «الروض الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد اللّه الصالح» لأبي علي المعداني وفي هذه السنة ضحى يوم السبت ثامن ذي القعدة منها توفي الفقيه العلامة المحقق سيدي أبو بكر ابن علي الفرجي المراكشي ثم السلاوي واحتفل الناس لجنازته وازدحموا على نعشه حتى كادوا يقتتلون عليه ودفن قرب داره بزاوية سيدي مغيث من طالعة سلا حرسها الله.

الخبر عن الدولة الأولى لأمير المؤمنين المولى أبي العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي رحمه الله

لما توفي أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله في التاريخ المتقدم اجتمع قواد العسكر البخاري وقواد الودايا وأعيان الدولة وكتابها وقضاتها وبايعوا المولى أبا العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي لبسط يده بالعطاء، قال أكنسوس: بايعوه بإشارة العبيد الشبيهة بالجبر ولم يكن ذلك عن عهد من أبيه وكتبوا بيعته إلى الآفاق. ولما اتصل بأهل فاس خبر موت السلطان كان أول من بدؤوا به أن قتلوا قائدهم أبا علي الروسي، ثم بايعوا السلطان المولى أحمد وكتبوا بيعتهم وتوجه بها أعيانهم إلى مكناسة فدخلوا على السلطان المولى أحمد وأدوا البيعة والطاعة فقبلهم ولم يظهر لهم سوء بما ارتكبوه من قتل قائدهم، بل أعطى العلماء والأشراف جائزة البيعة وولى القائد المحجوب العلج وردهم مكرمين.

ثم قدم عليه قواد القبائل والأمصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوادي

مبايعين ومؤدين الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلاً على قدر مرتبته، وردهم إلى بلادهم، وتفرغ لشأنه فأفتح عمله بقتل عمال أبيه وأركان دولته، فقتل علي بن يشي القبلي أمير البربر، وثنى بأحمد بن علي أمير الأعمال الفاسية وما اتصل بها من بلاد الهبط، والصحيح أن أحمد بن علي المذكور كان عند بيعة المولى أحمد في السجن فدس إليه علي بن يشي من ذبحه فيه فسلط الله عليه السلطان فقتله وكان جزاؤه من جنس عمله، وقتل السلطان أيضاً الباشا ابن الأشقر ومرجان الكبير قائد عبيد الدار وصاحب بيوت الأموال، وكان لنظره ألفان ومائتان من المفاتي، كلها موزعة على أبواب القصور وكل واحد من هؤلاء الخصيان له عبدان وثلاثة وأكثر يخدمونه.

واعلم أن المولى أحمد رحمه الله كان مستبداً عليه في كثير من الأحوال يشير العبيد عليه فيفعل وما قتل من قتل من رؤساء الدولة إلا بإشارتهم، وقتل جماعة من القواد والكتاب سوى من تقدم، وطاف على بيوت الأموال ومخازن السلاح والكسى فأمر بإخراج ذلك وتفرقته على العبيد وقواد الجيش وأعطى من ذلك فوق الكفاية وعم العلماء والأشراف والطلبة بالنوال وخص أفراداً من العسكر بألوف فاغتبط الناس به وحمدوه رحمه الله.

إغارة القائد أبي العباس أحمد بن علي الريفي على تطاوين وما دار بينه وبين الفقيه أبي حفص عمر الوقاش

كان القائد المجاهد أبو العباس أحمد بن علي الريفي يلي رئاسة المجاهدين هم وأبوه من قبله بالثغور الهبطية أيام السلطان المولى إسماعيل رحمه الله وكانت له ولأبيه اليد البيضاء في فتح طنجة والعرائش وغيرهما حسبما سلف بعضه فكانت له بذلك وجاهة كبيرة في الدولة خصوصاً ببلاد الهبط، وكان بتطاوين يومئذ الفقيه الأديب أبو حفص عمر الوقاش من بيوتاتها وأهل الرياسة بها، كان أولاً كاتباً مع السلطان المولى إسماعيل رحمه الله. وكانت له المنزلة العالية عنده، ثم لما ضعف عن الخدمة السلطانية بكبر سنه

ولاه على تطاوين وأعمالها، فحدثت بينه وبين القائد أبي العباس الريفي منافسة أوجبتها المجاورة والمعاصرة، فكان يبلغ كل واحد منهما عن صاحبه ما يحفظه، واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي السلطان المولى إسماعيل رحمه الله وأفضى الأمر إلى ابنه المولى أحمد فضيع الحزم وأهمل أمر الجند حتى سقطت هيبة السلطان من قلوب الولاة في النواحي، فانتهز أبو العباس الريفي الفرصة في أهل تطاوين وزحف إليها في جيش كثيف، ودخلها على حين غفلة من أهلها وحاول الفتك فيهم، فبرز إليه الفقيه أبو حفص الوقاش في أهل تطاوين وحاربه فانتصر عليه، وأوقع به وقعة أعظم مما كان أضمر له وقتل من إخوانه عدداً كثيراً، ونجا القائد أبو العباس بجريعة الذقن.

ولما اتفق للفقيه أبي حفص هذا الفتح الذي لم يكن له في حساب استخفه النشاط وغلبت عليه حلاوة الظفر حتى طمع في الملك وفاه من ذلك بما كان ينبغي له ولكل عاقل كتمانه، فقال قصيدته المشهورة ينعي فيها على أهل الريف فعلتهم وينتقص دولتهم ويفتخر على أهل فاس فمن دونهم، ويخبر عن نفسه بما يؤول إليه أمره، فأزرى بأدبه على كبر سنه، مع أنه كان من أهل الأدب البارع والعلم والرياسة والقصيدة المشار إليها هي قوله:

بلغت من العليا ما كنت أرتجي ... وأيامنا طابت وغنى بها الطير
ونادى البشير مفصحاً ومصرحاً ... هلم أبا حفص فأنت لها الصدر
نهضت مجيباً للندا راقصاً به ... وما راعني إذ ذاك زيد ولا عمرو
شرعت بحمد الله للملك طالباً ... وقلت وللمولى المحامد والشكر
أنا عمر المعروف إن كنت جاهلي ... فسل تجد التقديم عندي ولا فخر
أنا عمر الموصوف بالبأس والندى ... أنا عمر المذكور في ورد الجفر
ظهرت لأحيي الدين بعد اندراسه ... فطوبى لمن أمسى يساق له الأمر
ولم يبق ملك يستتب بغربنا ... فعندي انتهى العلم المبرح والسر
أنا عمر المشهور في كل غارة ... أنا البطل المقدام والعالم الحبر
ضبطت بلادي وانتدبت لغيرها ... وعما قليل يعظم الجاه والقدر
وجئت بعدل للإمامين تابعاً ... أنا الثالث المذكور بعدهما وتر

يعني أنه ثالث العمرين وقد كان يصرح بذلك ثم قال:

ففرطوط والرحمون والكوط عصبتي   وراغون كنزي والصغير به القهر
أولئك أنصاري وأرباب دولتي   وأهلي وأصهاري هم الأنجم الزهر
وقد دام بالديمان مجدي وسؤددي   وفخري في الأقطار باد كما الفجر
هلالي بدا لما هلالي أجابني   وغيلان إذ لبى به عظم الوفر
ودولة أهل الريف حتماً تمزقت   فلم يبق بالتحقيق عندي لها جبر
أذقناهم لما أتوا شر بأسنا   فأبوا سراعاً والصوارم والسمر
تطير الأكف والسواعد منهم   هنيئاً فحق للأنام بنا البشر
بخُفي حُنين آب عنا كبيرهم   وما فاته منا نكال ولا خسر
فمن ذا يضاهيني ومالي وافر   وذكري مغمور به البر والبحر

إلى غير هذا مما لا غرض لنا في جلبه وقد أجابه الفقيه أبو عبد الله محمد بن بجة الريفي ثم العرائشي بقصيدة يقول فيها:

في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر   منها ادعاء الحمار أنه بشر
من مر عنه الصبا وما رأى عجباً   خبره بعجاب دهره الكبر

وهي طويلة إلا أن قائلها لم يحكم صناعة الشعر فلذا تركناها.

ولما اتصل خبر هذه الوقعة بأمير المؤمنين المولى أحمد رحمه الله أغضى عن الفريقين ودخل داره وعكف على ملذاته وترك الناس وشأنهم، وثار ببلاد الغرب والقصر وأعماله فساد كبير بين القبائل وأصحاب المخزن، وهلك في ذلك بشر كثير وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمرة، لا سيما مع ما دهاها من قتل رجالها القائمين بأمورها، وكان ذلك منتهى مراد العبيد، فقد كان علي بن يشي أمير الأمراء ورئيس البربر وغيرهم، وكان أحمد بن علي أمير جبال مرموشة وبني وراين وعرب الحياينة وبرابرة غياثة والجبال فكان رديف علي بن يشي ومباريه في نصح الدولة وجباية الأموال، وكان ابن الأشقر أمير الزراهنة وعلى يديه أعشار القبائل كلها من أهل الغرب وبني حسن وغيرهم رديفاً للأولين، وكان القائد مرجان صاحب بيوت

الأموال وبيده دفتر الدخل والخرج عارفاً بقدر مما يدفعه العمال كل سنة، فلما أتى عليهم القتل رحمهم الله خف على الرعية ما كانوا يحملونه من ثقل وطأتهم، واستراحوا ممن كان يحول بينهم وبين الفساد ويزجرهم عن القبيح، خصوصاً البربر فإنهم كانوا في أقماع النحاس فخرجوا منها بمهلك علي بن يشي، وأخذوا في اشتراء الخيل واقتناء السلاح. «وعادت هيف إلى أديانها، وتبعهم على ذلك غيرهم من قبائل العرب فكأنما كانوا على ميعاد، وامتدت أيدي النهب في الطرقات، وكثرت الشكايات بباب السلطان فما وجدت الناس من يشكيهم هذا حال مكناسة وأعمالها، فأما فاس فقد كفى الودايا أمرها ونابوا عن البربر في العيث بأطرافها وعظم الخطب واشتد الأمر.

ثم دخلت سنة أربعين ومائة وألف ففي المحرم منها أغار الودايا على سوق الخميس من فاس فنهبوا وقتلوا وقبضوا على طائفة من أهل فاس فأودعوهم السجن بفاس الجديد، فبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم إلى السلطان بمكناسة يشكون إليه ما نالهم من جور الودايا فلما وصلوا إليها وثب عليهم محمد بن علي بن يشي قبل أن يجتمعوا بالسلطان فسجنهم أيضاً فلما اتصل بأهل فاس ما جرى على إخوانهم بمكناسة أخذهم ما قدم وما حدث فأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وشمروا لحرب الودايا، فكتب الودايا إلى السلطان يعلمونه بأن أهل فاس قد شقوا العصا وخرجوا عن الطاعة فسرب السلطان إليهم العساكر بكل صارم وذابل، وتفاقم الأمر واختلط الحابل بالنابل، وركبت المدافع والمهاريس والمجانيق لحصار فاس، واستمر القتال إلى أن بعث السلطان أخاه المولى المستضيء في جماعة من أشراف مكناسة ومعهم أشراف فاس الذين سجنهم محمد بن علي بن يشي لتلافي الأمر وعقد الصلح بين الودايا وأهل فاس، فانعقد الصلح ونهض عسكر السلطان إلى مكناسة، فما ساروا يوماً أو يومين حتى انتقض ذلك الصلح وغدا الودايا على حصار فاس ورميها بالكور والبنب، واستمر الحال على ذلك إلى أن قدم من

جانب السلطان القائد أبو عمران موسى الجراري ساعياً في الصلح، فاجتمع أهل فاس وفاوضهم في ذلك فأذعنوا وبعثوا معه جماعة من الأعيان والعلماء والأشراف يفدون على السلطان ليتم لهم ذلك بعد أن أخذوا جماعة من أصحاب أبي عمران توثقاً بإخوانهم، ولما قدم أولئك الوفد مكناسة منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا إلى فاس مخفقين، واستمر الأمر على حاله إلى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتولية أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم إلى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا وفدهم وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد إلى مكناسة شاكرين، ففاوضوا من بها من قواد الجند وتذاكروا فيما وقع فيه الناس من الفساد وانقطاع السبل وتعذر الأسباب، وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير في تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المنّة غير مطلع بأعباء الخلافة فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به، ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا إلى أخيه المولى عبد الملك جريدة من الخيل وكتبوا إليه كتاباً يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعاً نحو مكناسة، ولما انتهى إلى وادي بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعاً، وسجنوه بداره التي كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبة، وكان ذلك في شعبان سنة أربعين ومائة وألف.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى أبي مروان عبد الملك ابن إسماعيل رحمه الله

لما خلع السلطان المولى أحمد رحمه الله وسجن خارج القصبة كما مر اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملاقاة المولى أبي مروان عبد الملك بن إسماعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة والتفوا عليه ودخلوا به الحضرة في زي الملك وأهبة السلطان، ثم حضر أعيان الدولة وأمراؤها

وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه، وكتب بيعته إلى الآفاق، ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه، ثم قدمت عليه الوفود للتهنئة من حواضر المغرب وبواديه فجلس لملاقاتهم وقابلهم بما يجب من البشر إلى أن فرغ من شأنهم، وتفقد أخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به إلى فاس كي يسجن بها ثم بدا له فأمر بتوجيهه إلى سجلماسة.

قال في «الأزهار الندية» لما بعث السلطان المولى أبو مروان بأخيه المولى أحمد المخلوع إلى تافيلالت كتب إلى عامله بها أن يسمل عينيه بفور بلوغه فنما ذلك إلى المولى أحمد ففر إلى زاوية الشيخ أبي عثمان سيدي سعيد آحنصال، وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف ابن الشيخ سعيد المذكور، وكان يتكلم في الحدثان فقال للمولى أحمد: «إنك سترجع إلى الملك» فكان كما قال، ورجا الناس أن يكون السلطان المولى أبو مروان كأبيه، وأن يسير فيهم بسيرته ويسد مسده، فخاب الظن وأخفق المسعى:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم، فكان ذلك من أكبر الأسباب في اختلاف أمره وتفسخ دولته، فطلب العسكر البخاري منه جائزة البيعة على العادة فبعث إليهم بأربعة آلاف مثقال، وكان راتبهم على عهد السلطان المولى إسماعيل رحمه الله مائة ألف مثقال، ولما بويع السلطان المولى أحمد زادهم في الراتب خمسين ألفاً، فلما وصلت إليهم جائزة المولى أبي مروان سقط في أيديهم وعلموا أنهم لم يصنعوا شيئاً في بيعته، وتناجوا بعزله وأضمروا ذلك وتحينوا وقت الفرصة فيه، فنما إليه ذلك عنهم، فأخذ حذره وصار يكاتب قبائل العرب ويعدهم ويمنيهم ويحضهم على اجتماع كلمتهم كي ينفعوه يوماً ما، ظناً منه أنهم يقاومون

العبيد، ثم كتب إلى البربر أيضاً يغريهم بالعبيد وأغرى العبيد بالبربر وقال لهم في جملة من ذلك: «إنه لا يستقيم لنا أمر إلا بعد الإيقاع بهؤلاء البربر، وشغلهم بالاستعداد لغزوهم، وكتب إلى أهل فاس يأمرهم أن يبعثوا رماتهم إلى حضرته لغزو البربر وأخذ في التضريب بين العسكر والبربر، واطلع العبيد على خسثته فحاصوا عنه حيصة حمر الوحش، وأصفقوا على عزله ورد أخيه المولى أحمد لملكه لسخائه وبسط يده، وكذبوا، فإن المولى أبا مروان رحمه الله كان أنسب حالاً بالخلافة من أخيه المولى أحمد لنجدته وحزمه، وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبساط الدولة من افتيات العبيد وتحكمهم على أعياصها إلا أنه لم يحكم التدبير في ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم.

ولما تحقق المولى أبو مروان بما عزم عليه العبيد من خلعه بعث إليهم الشيخ البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني واعظاً ومذكراً فأتاهم ووعظهم ووعدهم الخير إن أقلعوا، ونهاهم عن الخروج على السلطان واتباع سبيل السلطان، وخوفهم في ذلك من سخط الله فما زادهم إلا نفوراً، ثم بعثوا بجريدة من الخيل إلى سجلماسة ليأتوا بالمولى أحمد، وفي أثناء ذلك ركب العبيد من الديوان وأغاروا على مكناسة فاكتسحوا سرحها، ثم اقتحموا المدينة فنهبوها واستباحوا حرماتها، وقتلوا من ظفروا به من أعيانها، ثم دخلوا دار الملك للقبض على السلطان المولى أبي مروان فلم يجدوه لأنه لما سمع بما فعله العبيد بمكناسة ركب في جماعة من أصحابه وفر إلى فاس، فدخل حرم المولى إدريس رضي الله عنه واستجار به، وبعث إلى أهل فاس فاستجار بهم فوعدوه الدفاع عنه والقيام بأمره.

ولما علم العبيد بموضع المولى أبي مروان من فاس وما وعده به أهلها حبسوا رماتهم الذين كانوا قد قدموا مكناسة بقصد غزو البربر كما تقدمت الإشارة إليه، وثقفوهم حتى يقدم السلطان المولى أحمد من سجلماسة ويرى فيهم وفي أخيه رأيه، وكان ذلك في ذي الحجة سنة أربعين ومائة وألف.

الخبر عن الدولة الثانية لأمير المؤمنين
المولى أبي العباس أحمد الذهبي رحمه الله

لما راسل العبيد المولى أحمد بن إسماعيل بسجلماسة وأعلموه بما عزموا عليه من عزل أخيه ورد الملك إليه بادر بالقدوم إلى مكناسة فدخلها في التاريخ المتقدم، وحضر أعيان الدولة من القواد والقضاة والكتاب، وبايعوه البيعة الثانية وكتبوا بذلك إلى الآفاق، ثم دخل دار الملك وفرق الأموال والكسى في العسكر والعلماء الأشراف وبالغ في ذلك تفصياً مما نقمه العبيد على أخيه، وكان فعل أخيه أقرب إلى الصواب لو سلك الوسط، وأحكم أمره ورتبه ترتيب ذو الحزم، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

حصار أمير المؤمنين المولى
أحمد لفاس والسبب في ذلك

لما بويع المولى أحمد البيعة الثانية قدم عليه الوفود من القبائل والأمصار فأكرم وفادتهم، وتخلف عنه أهل فاس فلم يقدم عليه أحد منهم لأنه لما قدم من سجلماسة وأعلم بمكان أخيه منهم وبمكان رماتهم المثقفين بمكناسة أمر بسجنهم والتضييق عليهم فأوجسوا منه شرّاً وحذروه، ولأنهم كانوا قد ارتكبوا العظيمة أولاً في قتل أبي علي الروسي ونهب داره وماله ومال المخزن الذي كان تحت يده، فكانوا يتوقعون سطوة السلطان المولى أحمد بهم أول ما بويع، ثم لم يلتفت إليهم لشغله بنفسه، فلما عادت الدولة إليه ارتابوا به وحادوا عن طاعته وتقدموا إلى المولى عبد الملك وجددوا له البيعة وأعلنوا بنصره والقيام بأمره، ثم ورد عليهم كتاب السلطان المولى أحمد يأمرهم أن يسلموا إليه أخاه ويدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا بحربه، فجهروا بالخلاف وأغلقوا الأبواب ووطنوا أنفسهم على الحصار، ثم بعث إليهم

السلطان القائد اليديني قائد الرماة المسجونين بمكناسة وأمره أن يعرض عليهم الدخول في الطاعة ويسرح لهم إخوانهم المسجونين، وحمله كتاباً إليهم يتضمن ذلك وغيره، فلما فرغ القائد المذكور من قراءة كتاب السلطان عليهم وثبوا عليه فقتلوه ثم جروه برجله وصلبوه على التوته التي بحومة الصفارين ثم وثبوا على الحاج الخياط عديل فقتلوه على باب داره وخرج الشريف أبو محمد عبد الله بن إدريس الإدريسى في كتيبة من الخيل والرماة إلى زواغة فأغار على سرح الودايا واستاق من البقر والغنم شيئاً كثيراً، فدخل به فاساً وبيع بأبخس ثمن وتوزعته الأيدي، فبيعت البقرة بست موزونات والشاة بموزونة على ما قيل، وهاجت الحرب بين أهل فاس والودايا، ثم نهض السلطان المولى أحمد فاتح محرم من سنة إحدى وأربعين ومائة وألف في عسكر العبيد وودايا مكناسة، فزحف إلى فاس ونزل عليها ثاني يومه ونصب عليها المدافع والمهاريس وآلات الحصار، وانشلى العسكر على بساتينها وبحائرها فانتسفوا ثمارها واجتاحوا غللها، وأمر الطبجية بموالاة الكور والبنب والحجارة عليها ليلاً ونهاراً ففعلوا، ودام ذلك إلى أن عمها الخراب وتهدم الكثير من دورها وهلك عدد وافر من رجالها، بعضهم في القتال وبعضم بالهدم والحجارة، واستمر الحصار نحو خمسة أشهر فضاق بهم الحال وضعفوا عن القتال، وقلت الأقوات وارتفعت الأسعار، فأذعنوا للطاعة وصالحوا المولى أحمد على إسلام أخيه المولى عبد الملك إليه وتمكينه منه على الأمان، فبعث السلطان المولى أحمد إلى أخيه المولى عبد الملك يخيره بين التغريب إلى سجلماسة والمقام بالحرم الإدريسي فاختار المقام بالحرم.

ثم إن السلطان تقدم إلى أهل فاس في أن لا يجتمع أحد منهم بأخيه ولا يجالسه ولا يكلمه ولا يبيع من أحد من أصحابه شيئاً ولا يشتري منه، ومن فعل شيئاً من ذلك فإنه يعاقب، فلما رأى المولى عبد الملك ما عامله به أخوه من التضييق بعث ولده إلى العبيد يطلب منهم أن يؤمنوه ويخرج معهم إلى

حيث شاؤوا، فقدم عليه الباشا سالم الدكالي في خمسين من القواد وعاهدوه بالحرم الإدريسي أن لا يصيبه مكروه، فخرجوا به حتى قدموا به على أخيه، فلما مثل بين يديه أمر به أن يحمل إلى مكناسة مقبوضاً عليه، فوصل إلى مكناسة وسجن بدار الباشا مساهل، ثم رحل السلطان المولى أحمد عن فاس قافلاً إلى مكناسة وعند حلوله بها مرض مرض موته، ولما أحس من نفسه بالموت أمر بخنق أخيه المولى عبد الملك فخنق ليلة الثلاثاء أول يوم من شعبان، ثم توفي السلطان المولى أحمد يوم السبت رابع شعبان المذكور سنة إحدى وأربعين ومائة وألف فكان بين وفاتهما ثلاثة أيام رحمهما الله.

واعلم أن ما ذكرناه من هذه الأخبار هو الذي عند صاحب البستان وقلده أبو عبد الله أكنسوس حذو النعل بالنعل، ورأيت بخط جدنا من قبل الأم وهو الفقيه الأستاذ أبو عبد الله محمد بن قاسم الإدريسي اليحيوي الجباري عرف بابن زروق، وكان حياً في هذه المدة ما نصه:

«بويع المولى أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي يوم وفاة والده رحمه الله بعد أن ثار بالمغرب والقصر وحوزه فساد كبير بين القبائل وأصحاب المخزن، وهلك في ذلك بشر كثير، وبعد مكثه في الملك سنة واحدة وثمانية أشهر خلع، وبويع أخوه المولى عبد الملك في الآخر من رجب سنة إحدى وأربعين ومائة وألف، وهو بالسوس الأقصى بمدينة تارودانت» ثم ورد على دار المملكة بالحضرة المكناسية ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم من السنة المذكورة، ثم ثار عليه أخوه المولى أحمد المخلوع في عاشر المحرم فاتح سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف، واقتحم عليه دار الملك من مكناسة عنوة، ووقع فساد كبير بالمدينة المذكورة، وهلك بشر كثير في الحرب، ومنهم من قتل صبراً، وفر المولى عبد الملك ناجياً بنفسه إلى فاس، ثم حاصره بها المولى أحمد نحواً من أربعة أشهر حتى خرج إليه على الأمان فأمر بسجنه بمكناسة، ثم قتل المولى عبد الملك صبراً مخنوقاً في أواخر رجب المذكور أيضاً» اهـ كلامه والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

قالوا وكان المولى أحمد رحمه الله أشبه الناس بالأمين بن الرشيد العباسي في زيه ولهوه وإكبابه على شهواته وتضييع الحزم والجد حتى فسدت الأحوال وتراكمت الأهوال، وذكر معاصروه أنه لم يكن شهد حرباً قط قبل خلافته وكان مع ذلك جواداً متلافاً فآلت به الأمور إلى ما ذكرنا ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد اللّه بن إسماعيل رحمه الله

كان المولى عبد اللّه بن إسماعيل، وهو ولد الحرة خناثي بنت بكر المغفري أيام خلافة أخيه المولى أحمد منحاشا إلى أخيه المولى عبد الملك ومقيماً معه ببلاد السوس، فلما خلع المولى أحمد وبويع المولى عبد الملك وقدم مكناسة قدم المولى عبد اللّه في ركابه، واستمر مقيماً بها إلى أن ثار العبيد بالمولى عبد الملك وفر إلى الحرم الإدريسي، فخرج المولى عبد اللّه من مكناسة إلى سجلماسة، وأقام بداره بها إلى أن توفي السلطان المولى أحمد في التاريخ المتقدم، فاجتمع أعيان الدولة من العبيد والودايا وسائر القواد والرؤساء واتفقوا على بيعة المولى عبد اللّه بن إسماعيل، وهو يومئذ بسجلماسة، فنادوا باسمه وأعلنوا بنصره في المحلة ومكناسة، وبعثوا جريدة من الخيل لتأتي به وكتبوا مع ذلك إلى أهل فاس يعزونهم عمن هلك من إخوانهم أيام الحصار، ويحضونهم على الموافقة على بيعة المولى عبد اللّه ابن إسماعيل.

ولما وصل الكتاب إلى فاس قرئ على منبر جامع القرويين فأجابوا بالموافقة إن حضر، ولما وصلت الخيل إلى المولى عبد اللّه وأعلموه بما اتفق عليه الناس في شأنه أقبل مسرعاً حتى نزل بظاهر فاس بالموضع المسمى بالمهراس، فخرج أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم لملاقاته فسلموا عليه واستبشروا بقدومه فسر بهم والآن لهم القول ووعدهم بالجميل،

وأعلمهم بأنه من الغد دخل لحضرتهم لزيارة المولى إدريس رضي الله عنه، فرجعوا مسرورين مغتبطين. ومن الغد أخذوا زينتهم ولبسوا أسلحتهم ونشروا ألويتهم وخرجوا لميعاده، فركب السلطان فرسه وركب معه خاصته وأهل موكبه، وفي جملتهم حمدون الروسي عدو أهل فاس، وتقدم السلطان فدخل على باب الفتوح وتوسط المدينة، فرأى بعض سماسرة الفتن من أولاد ابن يوسف، حمدون الروسي. وكان قد قتل أباهم حسبما مر، فصمدوا إليه، فلما رآهم تنحى عنهم قليلاً فتبعوه، فعلم أنهم عزموا على اغتياله، فركض فرسه إلى السلطان وهو على قنطرة الرصيف، وأخبره خبر أولاد ابن يوسف، وخص وعم بالإرجاف في حق أهل فاس، فعدل السلطان عن قصده، ورجع على طريق جامع الحوت ثم على جزاء ابن عامر وخرج على باب الحديد إلى فاس الجديد ولم يزر، ولم يعلم الناس موجب الرجوع عن الزيارة إلى أن شاع الخبر بذلك، فمشى علماء فاس وأشرافها إلى السلطان ورفعوا إليه بيعتهم، واعتذر إليه بعض الفقهاء بأن ما وقع في جانب حمدون إنما هو من بعض السفهاء، فأعرض السلطان عن ذلك وصم عن سماعه.

وكانت البيعة التي رفعها أهل فاس من إنشاء الفقيه العالم الوجيه أبي العلاء إدريس بن المهدي المشاط المنافي، نسبة إلى عبد مناف بن قصي، وهذا الفقيه هو الذي كان السلطان المولى إسماعيل رحمه الله بعثه قاضياً على تادلا مع ابنه المولى أحمد الذهبي حين ولاه عليها كما مر، ونصها:

الحمد لله الذي جعل العدل صلاحاً للملك والرعية والعباد، كما جعل الجور هلاكاً للحرث والماشية والبلاد، وسدد العادل بعنايته وأعد للجائر ما هو معلوم له يوم المعاد، وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كما جعل القاسطين في العذاب والحسرات والأنكاد، فأسعد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد، وأصلح ما أظهره الجائر في الأرض من الفساد، نحمده أن تفضل علينا بإمام عادل، ونشكره إن حكم فينا من لا يصغي في الحق لقول عاذل، فولى علينا الخليفة من نسل الشفيع يوم التناد،

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا يسأل عما يفعل يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء في أي وقت شاء وأراد، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله الشفيع في أمته يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يقبل من القاسطين فداء بطريف ولا تلاد، ﷺ الذين أظهروا الشريعة ومحوا الظلم محو المداد، أما بعد حمد الله الذي أمر بطاعة أولي الأمر، ووعد من نصر دينه بالظفر والنصر، فقال عليه السلام: «ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان». وفي صحيح مسلم أيضاً عنه ﷺ قال: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه». وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كره من أميره شيئاً فليصبر فإن من خرج عن السلطان شبراً مات ميتة جاهلية». وفيه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني». وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن عقبة: «لعلك لا تلقاني بعد اليوم فعليك بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة للأمير وإن عبداً حبشياً».

واتفق أئمة الدين على أن نصب الإمام واجب على المسلمين وإن كان من فروض الكفاية، كما أن القيام بذلك من الواجبات كما دلت عليه نصوص الأحاديث والآيات: وقال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ولما كان من أمر الله سبحانه ما أراده وقدره، فقبض إليه خليفته وأقبره، دهش المسلمون وخافوا من توالي الشرور والفتن فتوجهوا إليه سبحانه في أن يغمد عنهم السيوف، وطلبوا من فضله المعهود أن يصرف عنهم ضروب المحن والحتوف، فأجاب الكريم الدعوات ونفس الهموم والكربات، ونشر

رحمته، وأزاح نقمته، فصارت القلوب ناعمة بعد بؤسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، والشرور والفتن قد أدبرت، وأعلام الأمن والعافية قد أقبلت، فوفق الله جيوش المسلمين للأعمال المرضية، والهمم لما فيه صلاح الدنيا والدين والراعي والرعية، فاقتضى نظرهم السديد، ورأيهم الموفق الرشيد بيعة من في أفق السعادة قد طلع، وظهر في سماء المعالي بدره وارتفع، الإمام الهمام العلوي الهاشمي العدل في الأحكام، الموصوف بالكرم والشجاعة والشهامة، والحزم والنجدة والزعامة، المتواضع لله المتوكل في جميع أموره على الله، أمير المؤمنين مولانا عبد اللّه بن الشريف الجليل، الماجد الأصيل أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، ابن مولانا الشريف، فبايعوه أعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول، وإقامة العدل الذي هو غاية المأمول. بيعة التزمتها القلوب والألسنة، وسعت إليها الأقدام والرؤوس خاضعة مذعنة، لا يخرجون له من طاعة، ولا ينحرفون عن مهيع الجماعة، أشهدوا على أنفسهم عالم الطويات، المطلع على جميع الخفيات، قائلين إننا بايعناك وقلدناك لتسير فينا بالعدل والرفق، والوفاء والصدق، وتحكم بيننا بالحق، كما قال تعالى لنبيه في محكم وحيه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: 26] وقال تعالى وقوله الحق: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105] وهذه الرعية تطلب من ربها أن يعين مالكها ويساعده، ويقذف الرعب في قلب من يريد أن يعانده، وأن يفتح عليه ما عسر على غيره، ويمده بعزيز نصره، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وبيده القوة والحول، نعم المولى ونعم النصير، شهد بذلك على نفسه ومن معه العبد الفقير المذنب الحقير ممليها وكاتبها إدريس بن المهدي المشاط بمحضر فلان وفلان، وجمهور الفقهاء والأعيان في يوم الاثنين سابع رمضان سنة إحدى وأربعين ومائة وألف.

ثم سافر السلطان في الحين إلى مكناسة كما نذكره.

حدوث النفرة بين أمير المؤمنين المولى عبد اللّه وأهل فاس والسبب في ذلك

قد قدمنا ما كان من وسوسة حمدون الروسي للسلطان المولى عبد اللّه في جانب أهل فاس واعتذار بعض الفقهاء لدى السلطان عن ذلك، ثم إن السلطان أمر أهل فاس ببعث طائفة منهم تكون معه على العادة، فعينوا الخمسمائة التي كانت تغزو مع الملوك قبله، فذهبت معه إلى مكناسة.

ولما استقر بالحضرة قدم عليه أعيان الديوان وعمال القبائل ووفود الحواضر والبوادي، ففرق المال ولم يحرم أحداً سوى أهل فاس، فإنه لم يعطهم شيئاً، ثم حضر عيد الفطر فقدمت وفود الأمصار ليشهدوا العيد مع السلطان على العادة، وقدم وفد فاس لهذا الغرض وحضروا صلاة العيد مع السلطان بالمصلى، ولما قدم الناس هداياهم بعد رجوع السلطان إلى منزله قدم أهل فاس هديتهم على العادة فأعطى الناس وحرمهم ثانياً.

قلت: ولست أشك في أن شيطاناً من شياطين الإنس كان موكلاً بهذا السلطان يغريه بأهل فاس، ويوغر صدره عليهم ويفسد ما بينه وبينهم، وإلا فكيف تقتضي السياسة أن يعمد ملك كبير إلى أخص رعيته ولبها وصميمها فيفسد ضمائرها عليه ويزرع بغضه في قلوبها، وهب أنهم أساؤوا الأدب أليس التغافل مطلوباً في مثل هذا ما أمكن؟ لا سيما في حق السلطان، وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه فيحلم عنهم، وقال له بعض أصحابه: «ألا نقتلهم؟» فقال له ﷺ: **«كيف يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»** ومن الحكم المأثورة قولهم: «التعامي يدفع شراً كثيراً» وقال الشاعر:

ليس الغني بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

ومن الغد أمر السلطان بإحضار أهل فاس بالمشور ثم خرج عليهم فقاموا إليه وأدوا واجب التحية، فقال لهم: «يا أهل فاس، كاتبوا إخوانكم يسلموا إلينا البساتين والقصبات فإنها للمخزن ومن وظائفه فإن أبوا فإني آتيهم وأهدم عليهم تلك القرية» فأجابوا بالسمع والطاعة وعادوا إلى رحالهم.

ولما كان المساء اتخذوا الليل جملاً وأسروا ليلتهم كلها ولم يصبحوا إلا بباب فاس، فاجتمعوا بإخوانهم وقرروا لهم مقالة السلطان وما عزم عليه في حقهم، فاجتمع أعيانهم وتفاوضوا في شأنهم وشأن السلطان وأحضروا نسخة البيعة وتصفحوا شروطها وقالوا: «إنا لم نبايعه على هذا الذي يعاملنا به» ثم أعلنوا بخلعه والأمر لله وحده.

حصار المولى عبد الله مدينة فاس

لما أعلن أهل فاس بخلع السلطان المولى عبد الله عزموا على الحرب ووطنوا أنفسهم على الحصار، ونادوا في المدينة من أراد الخروج إلى بلده ومأمنه من غير أهل البلد فليتهيأ في ثلاث، ثم أغلقوا أبواب المدينة واستعدوا للقتال.

ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزوهم فأخذ أهبته وخرج من مكناسة في الخامس والعشرين من شوال سنة إحدى وأربعين ومائة وألف، فنزل على فاس ووزع الجنود عليها من كل ناحية، وأطلق يد الجيش بالعيث في أطرافها من تخريب المصانع وقطع الأشجار وإفساد المزارع، وأمر بطم الوادي فانحبس عنهم ماؤه، وزحفت العساكر فكان القتال على كل باب سائر النهار فإذا كان المساء أمر الطبجية والأعلاج بإرسال الكور والبنب وحجارة المنجنيق، فكان الناس لا يستريحون بالنهار ولا ينامون بالليل، واشتد الكرب وريع السرب، واستمر الحال إلى أن دخلت سنة اثنتين

وأربعين ومائة وألف فازداد الأمر شدة، وارتفعت الأسعار وانعدمت الأقوات، وكثر الهرج، فبعثوا إلى السلطان في الصلح، فقال: «على تسليم البساتين والقصاب» فأبوا وتجلدوا، ثم بعد ذلك وقع الصلح على يد القائد أبي عبد اللّه محمد السلاوي بضريح المولى إدريس رضي الله عنه، واستصحب معه جماعة من أشراف فاس وعلمائها إلى السلطان وهو بفاس الجديد، فأكرم مقدمهم ووصلهم بألف دينار وكساهم، وولى عليهم الحاج أبا الحسن علياً السلاوي، فدخل الوالي المذكور القصبة ثاني ربيع النبوي سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف، وشحن البساتين والقصاب بالمقاتلة من أصحابه وافتتح عمله بقتل الشيخ دحمان المنجاد من رؤساء فاس، ولما اتصل خبره بالسلطان عزله، وولى على فاس أحد أولاد حمدون الروسي المعروف بالبادسي، ثم بعد مدة يسيرة عزله وولى عبد النبي بن عبد اللّه الروسي، ثم لما عزم على النهوض إلى مكناسة عزله أيضاً وولى عليهم عدوهم حمدون الروسي، وارتحل في العشرين من ربيع الأول من السنة.

وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى محمداً مع أمه السيدة خناثى إلى الحجاز بقصد حج البيت، والمولى محمد يومئذ دون بلوغ، وفي «نشر المثاني»: «إن هذه الحجة كانت سنة ثلاث بعدها» قال: «إن أم السلطان المولى عبد اللّه، وهي السيدة خناثى بنت بكار المغفرية، التمست من ولدها المذكور السفر إلى المشرق بقصد حج بيت الله الحرام فأجابها إلى ذلك وهيأ لها جميع ما تحتاج إليه، ووجه معها ولده الذي أيد الله به الدنيا والدين بعده سيدي محمد بن عبد اللّه فحج معها في هذه السنة يعني سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف».

نهوض السلطان المولى عبد اللّه إلى قتال البربر وإيقاعه بهم

لما استقر السلطان المولى عبد اللّه بمكناسة وتفقد حال البربر وجدها قد عادت إلى حالها الأول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث في الطرقات، فأمر العبيد بالاستعداد لغزوهم وتمهيد البلاد والتقصير من بأوهم فخرج إلى تادلا وصمد إلى آيت يمور الذين كانوا قد نزلوا بها وأضروا بأهلها حين نفتهم آيت ومالو عن رأس ملوية وغلبوهم عليه فنزلوا تادلا وأوقدوها ناراً فكثر شاكيهم بباب السلطان، فنهض إليهم على ما سبق، ولما أحسوا بدنوه منهم فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسري فتبعهم إلى أن أوقع بهم على وادي العبيد، وقتل منهم آلافاً وانتهبهم وعاد إلى تادلا ظافراً، والله غالب على أمره.

ذكر ما صدر من السلطان المولى عبد اللّه من العسف المخل بالسياسة والتناقض المغير في وجه الرياسة

لما عاد السلطان المولى عبد اللّه إلى تادلا قتل عشرين رجلاً من أعيان رماة أهل فاس، وكتب إلى إخوانهم يعتذر عن قتل من قتل منهم ويأمرهم بتجديد بعث آخر وتوجيهه إليه فعينوا طائفة من رماتهم وجهوها بعد أن عرضها القائد حمدون الروسي برأس الماء، ثم من الغد قتل القائد حمدون المذكور عبد الواحد تيبر، ومحمد بن الأشهب من أهل فاس بباب السجن وأمر بجرهما في سكك المدينة، ثم أصبح غادياً على أبواب فاس فتتبعها بالهدم فهدم باب المحروق وباب الفتوح وباب الجيسة وباب بني مسافر وباب الحديد، وحمل مصاريعها كلها إلى فاس الجديد، وفي أول يوم من المحرم من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف شرع حمدون الروسي في هدم سور مدينة فاس وجر الأنقاض التي بها إلى فاس الجديد، وفي أثناء ذلك

ورد كتاب من السلطان يتضمن العفو عن أهل فاس والرضا عنهم، فارتاب حمدون الروسي وفر إلى زرهون، ثم قفل السلطان من تادلا فأقام بمكناسة مدة يسيرة وخرج غازياً بلاد السوس فقدمها ومهدها وعاد مؤيداً منصوراً، وفي هذه السنة أمر ببناء باب منصور العلج بمكناسة فجاء في غاية الضخامة والفراهة وأكمل سوق القصبة فجاء على ما ينبغي والله أعلم.

هدم السلطان المولى عبد الله مدينة الرياض من حضرة مكناسة وما اتصل بذلك

كانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها إذ كان بها آثار أكابر دولة أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله، وبها دور العمال والقواد والكتاب وسائر أعيان الحضرة الإسماعيلية، بل كل من كان له وظيف في خدمتها السلطانية بنى داره بها وتنافس الأكابر والرؤساء في تشييد الدور وتنجيد القصور، وتناهوا في ذلك حتى كان بدار علي بن يشي القبلي أربع وعشرون حلقة يجمعها باب واحد، وكانت دار القائد عبد الله الروسي وأولاده على ذلك المنوال بل أعظم ضخامة وأكمل حضارة حتى كأنها حومة مستقلة، وكان لأمثالهما من القواد مثل ذلك أو قريب منه فخلدوا بها الآثار العظيمة والمعالم الفخيمة، وبنى كل عامل مسجداً في حومته، وكان بوسطها المسجد الأعظم الإسماعيلي ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه، وكانت تنفق بها البضائع التي لا تنفق في غيرها فأتى عليها من أيام النحوس يوم ركب السلطان المولى عبد الله عند فجره، ووقف على تل عال يشرف منه عليها وأمر النصارى والشعابنية بهدمها، فتسارعوا إليها وشرعوا في هدمها من كل ناحية والناس نيام، فلم يرعهم إلا بيوتهم تتساقط عليهم، فمن أسرع وخف بحمل متاعه وآثاثه نجا، ومن لا معين له أو تراخى في حمل متاعه ضاع تحت التراب، وكان بها طائفة كبيرة من أخواله الودايا وغيرهم، فارتحل

الودايا إلى فاس الجديد وانضموا إلى إخوانهم الذين بها، وتفرق غيرهم بمدينة مكناسة، ولم تمض عشرة أيام حتى صارت مدينة الرياض كدية من التراب ولم يبق بها إلا الأسوار قائمة الإشخاص والجدران مائلة للعيان والأمر لله وحده.

قالوا: وفي هذه السنة بعث السلطان المولى عبد الله بعثاً مع القائد أبي عمران موسى الجراري إلى بعض الجهات. وكانوا نحو ثلاثمائة، فلما قدموا عليه قتله وقتل أصحابه معه، وقدم عليه أيضاً وفد من عند الباشا أحمد بن علي الريفي في مثل هذا العدد من طنجة ومعهم هدية الباشا المذكور فقتلهم، فكان قتلهم سبب نفرة أحمد بن علي عنه وسعيه في إفساد دولته، وقتل أيضاً من قبيلة حجاوة مائتي رجل على دعوى قطع الطريق ببلادهم، ولما أمر بقتلهم وأخرجوا إلى المحل المعد لذلك خرج النظارة والبطالون من أهل البلد للفرجة عليهم بباب البطيوي، فبينما هم كذلك إذا بالسلطان قد برز من الباب، ولما رأى اجتماع الناس قصد نحوهم فلما رأوه فروا إلى كهف هناك قريب، فاختفوا فيه فأتى السلطان حتى وقف على باب الكهف، وكان من قربه أكوام من حجر أعدت للبناء بها، فأمر الأعوان من المسخرين بوضع أسلحتهم وردم باب الكهف بذلك الحجر مع التراب ففعلوا، وهلك ذلك الجمع الكثير غماً، ولم يوقف لهم بعد على خبر ولا عرف لهم عدد، ولما صدرت منه هذه الأفعال الشنيعة عفا الله عنه كتب إليه أهل الديوان من مشروع الرملة ينكرون عليه قتله للمسلمين دون موجب فبعث إليهم بالراتب وأمرهم بالتهيؤ لغزو أهل فازاز فشغلهم بذلك.

وفي هذه السنة بعث محمد بن علي بن يشي الزموري القبلي والياً على فاس وقال له: «خذ منهم المال واطرحه في وادي أبي الخراريب ولا تتركه لهم، فما أطغاهم إلا المال حتى استخفوا بأمر الملك» فقدم محمد بن علي المذكور فاساً ونزل بدار أبي علي الروسي بالمعادي وعين من كل حومة نقيباً

عارفاً بأهل اليسار، فجمعوه لهم حتى كانوا بين يديه فأمر بسجنهم، ثم وظف عليهم أولاً خمسمائة ألف مثقال وزعها على التجار وأهل اليسار دون غيرهم من العشرة آلاف إلى الألف، ثم شرع في قبض المال الموزع ومن تراخى منهم في الدفع ضرب وسجن، ومن تغيب من أهل اليسار حبس ولده أو أخوه أو زوجته إلى أن استوفى العدد المذكور ثم عطف على أهل الصنائع والحرف وأرباب الأصول من الفلاحين وغيرهم فوزع عليهم قدراً وافراً من الألف إلى المائة وما دون ذلك حتى لم يبق في المدينة أحد إلا وقد غرم، ففر الناس إلى البوادي والقرى والجبال، ومنهم من وصل إلى السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس إلا النساء والذرية ومن لا عبرة به من الرجال حتى أن الذين كانوا بالسجن فينفس خروجهم منه فروا بأنفسهم ولم يعرجوا على أهل ولا ولد، وأقام محمد بن علي على هذا العمل بفاس ثلاثة عشر شهراً وكلما اجتنى مالاً بعث به إلى السلطان بمكناسة، وكانت هذه الخطوب كلها فيما بين سنة ثلاث وأربعين إلى سنة خمس وأربعين ومائة وألف.

بعث السلطان المولى عبد الله جيش العبيد إلى فازاز وإيقاع أهله بهم

وفي سنة ست وأربعين ومائة وألف جهز السلطان المولى عبد الله جيشاً من العبيد يشتمل على خمسة عشر ألفاً من الخيل وعقد عليهم للباشا قاسم ابن ويسون، وأضاف إليهم ثلاثة آلاف من جيش الودايا وعقد عليهم للقائد عبد الملك بن أبي شفرة ووجههم إلى جبال آيت ومالو، فلما عبر الجيش وادي أم الربيع على قنطرة البروج ونزلوا بسيط آدخسان كادهم البربر بأن أظهروا الفرار أمامهم وتوغلوا في الجبال فتبعهم العبيد إلى أن توغلوا في تلك الجبال ونشبوا في أوعارها، والبربر تفر منهم في كل وجه وهم يتبعونهم إلى

أن حان وقت المساء فبعث البربر ليلاً طائفة منهم لسد الثنايا والأنقاب التي دخل منها جيش السلطان، فأحكموا سدها بشجر الأرز والحجارة، ولما أصبحوا هجموا على الجيش من كل ناحية وصدقوهم القتال إلى أن ردوهم على أعقابهم، فلما انتهى العبيد إلى الثنايا التي دخلوا منها وألفوها مسدودة دهشوا وخشعت نفوسهم وازدحموا عليها بعد أن ترجلوا وتركوا الخيل والسلاح والأبنية فيها من الأثاث، فنهب البربر جميع ذلك، ثم جردوا باقي العسكر من الثياب، ولم يقتلوا أحداً ورجع العبيد إلى مكناسة راجلين متجردين من المخيط والمحيط فكان ذلك من أقوى الأسباب التي بغضت السلطان المولى عبد الله للعبيد، لأن ذلك كان بإشارته بزعمهم مع إسرافه في قتل رؤسائهم كما سيأتي، ومع ذلك فقد أنعم عليهم بالمال والكسى ووعدهم بإخلاف جميع ما ضاع لهم ورجعوا إلى مشرع الرملة ممتعضين لتلك الفعلة.

ثورة العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره إلى وادي نول وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة سبع وأربعين ومائة وألف فسد ما بين السلطان المولى عبد الله رحمه الله وبين العبيد لإسرافه في قتلهم حتى كاد يأتي على عظمائهم، وكان ذلك منه جزاءً لهم على قتلهم لأخيه المولى عبد الملك، حسبما سبق إذ كان ما بينه وبينه صالحاً كما مر، فقتل منهم كل من سعى في قتله أو شارك فيه أو وافق عليه، حتى بلغ عدد من قتل منهم أزيد من عشرة آلاف، فأجمعوا على خلعه وقتله ودس إليه بعضهم بما عزموا عليه في شأنه، ففر ليلاً من مكناسة ولم يصبح إلا بحلة آيت أدراسن فأجلُّوا مقدمه وتباروا في إكرامه.

ولما عزم على النهوض عنهم ركبوا معه وصحبوه إلى تادلا ثم ودعوه،

وعادوا إلى بلادهم ومضى هو إلى مراكش ومنها ذهب إلى السوس فنزل بوادي نول على أخواله المغافرة، وكان معه يومئذ ولداه المولى أحمد في سن البلوغ والمولى محمد السلطان بعده صغيراً وأقام عند المغافرة نحو ثلاث سنين، وأما والي فاس محمد بن علي بن يشي فإنه لما اتصل به فرار السلطان من مكناسة فر هو أيضاً عن فاس ليلاً ولم يصبح إلا بزرهون فاطمأن بها جنبه وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بالأعرج رحمه الله

لما فر أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل من مكناسة إلى وادي نول اجتمع عبيد الديوان واتفقوا على بيعة المولى أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بالأعرج، وكان يومئذ بسجلماسة، فكتبوا إليه بذلك وبعثوا بالكتاب مع جريدة من الخيل لتأتي به فأقبل مسرعاً، ولما وصل إلى مدينة صفرو لقيه بها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها فبايعوه ففرح بهم وأكرمهم، وعادوا في صحبته إلى فاس الجديد فولى عليهم مسعوداً الروسي وذلك في ربيع الثاني سنة سبع وأربعين ومائة وألف، وأمره أن لا يقبض منهم إلا الزكوات والأعشار الشرعية وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة.

وكان رحمه الله موصوفاً بالحلم والعقل متوقفاً في الدماء فستره الله في آخر أمره وأجمل خلاصه ثم نهض إلى مكناسة ولما قدمها بايعه الجيش بها البيعة العامة هكذا في «البستان».

ورأيت بخط جدنا الإمام الفقيه الأستاذ أبي عبد الله محمد بن قاسم بن زروق الحسني الإدريسي ما نصه: «وفي اليوم الأول من جمادى الأولى من

سنة سبع وأربعين ومائة وألف ثار عبيد الرملة على أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل ونقضوا بيعته وأعلنوا بنصر أخيه المولى علي ولد عائشة مباركة، وخرج لهم المولى عبد الله عن دار الملك بمكناسة بعد أن أخذ ما كان بها مما أعجبه من خيل وعدة ومال من غير قتال ولا محاربة، ودخل أخوه المولى على دار الملك بمكناسة يوم الجمعة فاتح جمادى الثانية من السنة المذكورة وكتبه في الثاني عشر من الشهر المذكور محمد بن زروق كان الله له بمنّه». اهـ كلامه بحروفه.

ولما استقر السلطان المولى أبو الحسن بمكناسة قدمت عليه الوفود ببيعاتهم وهداياهم من جميع البلدان فأجازهم، وفرق المال على الجيش إلى أن نفذ ما عنده واحتاج فقبض على الحرة خناثى بنت بكار أم السلطان المولى عبد الله فاستصفى ما عندها ثم امتحنها لتقر بما عسى أن تكون قد أخفته فلم يحصل على طائل، وكانت هذه الفعلة معدودة من هناته عفا الله عنه.

قال أبو عبد الله أكنسوس: «وخناثى هذه هي أم السلاطين أعزهم الله وكانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار» وقال: «رأيت خطها على هامش نسخة من الإصابة لابن حجر وعرف به بعضهم فقال: هذا خط السيدة خناثى أم السلطان المولى عبد الله بلا شك» اهـ.

ثورة أهل فاس بعاملهم مسعود الروسي وانتقاضهم على السلطان أبي الحسن رحمه الله

ثم إن مسعوداً الروسي عامل فاس عدا على الحاج أحمد بودي رئيس اللمطيين فقتله، وأمر بجره إلى باب الفتوح إذ كان هو الذي سعى في قتل أخيه أبي علي الروسي عقب وفاة السلطان المولى إسماعيل كما مر،

فلما ارتكب مسعود هذه الفعلة اجتمع أهل فاس وأخذوا أسلحتهم وتقدموا إلى القائد مسعود ليقتلوه بصاحبهم، ففر مسعود ولم يدركوه فعطفوا على السجن فكسروه وقتلوا الحرس والأعوان الذين به وسرحوا المساجين إلى حال سبيلهم. ولما اتصل خبرهم بالسلطان المولى أبي الحسن غض الطرف عنهم وبعث إليهم أخاه المولى المهتدي ومعه القائد غانم الحاجي، وكتب إليهم يقول: إني قد عزلت عنكم مسعوداً الروسي ووليت عليكم غانماً الحاجي فلم يقبلوه، ورجع من الغد إلى مكناسة ثم رجعوا بصائرهم بإشارة أهل المروءة منهم، وبعثوا جماعة من العلماء والأشراف بهدية كبيرة مع المولى المهتدي إلى السلطان تلافياً لما فرط منهم، ولما دخلوا على السلطان قبض هديتهم وعدد عليهم ذنوبهم ثم أمر بهم إلى السجن. ولما انتهى الخبر إلى أهل فاس قامت قيامتهم وأغلقوا أبواب المدينة وأعلنوا بالخلاف ثم عطفوا على أصحاب مسعود الروسي وكل من كان له به اتصال فقتلوهم في كل وجه، وأنشبوا الحرب مع الودايا في كل ناحية.

وفي رمضان من السنة المذكورة قدم من عند السلطان القائد أبو محمد عبد الله الحمري من قواد العبيد فاجتمع بأهل فاس واعتذر إليهم عن السلطان وطلب منهم أن يبعثوا معه جماعة منهم إلى السلطان لرتق هذا الفتق فأسعفوه، وبعثوا طائفة من علمائهم وأشرافهم وأصحبوهم هدية نفيسة إلى السلطان، وكتب عبد الله الحمري إلى السلطان يعتذر إليه عنهم ويشفع لهم عنده، فدخلوا على السلطان وعاتبهم ثم عفا عنهم، وسرح لهم إخوانهم الذين كانوا في السجن وولى عليهم عبد الله الحمري. ثم لما دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة وألف عزله وولى عليهم عبد الله بن الأشقر وسكنت الهيعة واستقام الأمر بعض الشيء.

غزو السلطان أبي الحسن أهل جبل فازاز في جيش العبيد وهزيمتهم إياه

لما كانت أواخر سنة ثمان وأربعين ومائة وألف أخذ السلطان أبو الحسن في الاستعداد وتجهيز العساكر لآيت ومالو وكان ذلك منه إسعافاً للعبيد ليأخذوا بثأرهم من البربر في الوقعة السابقة أيام السلطان المولى عبد الله، فخرج إليهم في المحرم فاتح سنة تسع وأربعين ومائة وألف في جيش كثيف من العبيد فلما نذروا بإقباله إليهم ودنوه منهم أظهروا الفرار أمامهم مثل الفعلة الأولى، فصاروا يتأخرون ويتبع آثارهم فينزل منازلهم إلى أن عبروا وادي أم الربيع ودخلوا في الجبال، فعبر السلطان خلفهم وتقدم العبيد إلى الجبال والأوعار فاقتحموها عليهم فلما توسطوها كرت البربر عليهم وانقضوا عليهم من الثنايا انقضاض العقبان، وأحاطوا بهم من كل وجه فولوا منهزمين وازدحموا على الثنايا وسلكوا سبيلهم في المرة الأولى من ترك الخيل والسلاح والأبنية والأثاث والنجاة بمجرد أعناقهم، وسلبهم البربر حتى من الثياب ولم يتعرضوا للسلطان في موكبه وخاصته إلى أن عبر وادي أم الربيع فرجعوا عنه، ولما دخل مكناسة طالبه العبيد بالكسوة والسلاح والراتب فلم يكن عنده ما يعطيهم فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته.

وقد أجمل صاحب نشر المثاني هذه الأخبار فقال: وفي هذه السنة يعني سنة تسع وأربعين ومائة وألف أهلك الله كل من خرج على السلطان مولاي عبد الله وقويت الفتن وارتفعت الأسعار وانحبست الأمطار وقاسى الناس الشدائد من الغلاء وقل الإدام وانقطع اللحم وهلكت رقاب كثيرة ولم يزل الأمر في شدة وفر الناس كل فرار».

تحرك السلطان المولى عبد الله من السوس وفرار السلطان أبي الحسن إلى الأحلاف وما كان من أمره إلى وفاته

لما كان شهر ذي الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بأن السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادي نول ووصل إلى تادلا فاهتز العبيد له، وتحدثت فرقة منهم برده إلى الملك وخالفهم سالم الدكالي في جماعة من شيعته، وقالوا: «لا نخلع طاعة مولانا علي» إذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا في خلع المولى عبد الله وتولية أخيه المولى علي.

ثم إن شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا بيعته ففر سالم فيمن معه من القواد إلى زاوية زرهون مستجيراً بها.

ولما سمع بذلك السلطان المولى أبو الحسن فر من مكناسة إلى فاس الجديد فصده الودايا عن الدخول إليها فعدل إلى قنطرة وادي سبو فنزل هنالك يوماً أو بعض يوم إلى أن قضى بعض إربه ثم أصبح غادياً إلى تازا فاحتلها، ثم انتقل عنها إلى عرب الأحلاف فأناخ بديارهم ففرحوا به وأكرموه وصاهروه، وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضاً عن الملك وأسبابه إلى أن رجع إلى مكناسة فاستوطنها بإشارة أخيه السلطان المولى عبد الله حين وفد عليه بدار الدبيبغ من فاس سنة تسع وستين ومائة وألف، فأعطاه مالاً وجنات ومزارع مما كان لجانب المخزن بمكناسة وبعثه إلى داره بها، فأقام يسيراً ثم وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا به إلى أخيه السلطان المولى عبد الله وقالوا: «إن هذا قد أفسد علينا بلادنا» فأخذه وسرحه إلى تافيلالت فاستقر بها إلى أن مات رحمه الله كما سيأتي.

الخبر عن الدولة الثانية لأمير المؤمنين المولى عبد اللّه بن إسماعيل رحمه الله

لما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة إلى الأحلاف اجتمعت كلمة العبيد والودايا على بيعة السلطان المولى عبد اللّه فبايعوه وهو بتادلا، وتبعهم على ذلك أهل فاس وسائر القبائل، ثم إن سالماً الدكالي الذي بزرهون كتب إلى أهل فاس يقول لهم: «إن الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد اللّه وبيعة سيدي محمد بن إسماعيل المعروف بابن عريبة والمشورة لعلمائكم» فأجابوه بأن قالوا: «نحن تبع لكم» فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالم الدكالي وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة إلى زرهون وقبضوا على سالم الدكالي ومن معه من القواد وبعثوا بهم إلى السلطان المولى عبد اللّه بتادلا، فاستفتى فيهم القاضي أبا عنان، وكان يومئذ معه، فأفتاه بقتلهم فقتلهم. ثم نميت مقالة سالم الدكالي إلى المولى محمد ابن عريبة وهو بتافيلالت فظن أن الأمر صحيح، فأقبل مسرعاً إلى أن وصل إلى مدينة صفرو، فوجد الناس قد بايعوا السلطان المولى عبد اللّه وراجعوا طاعته فسقط في يده، ثم دخل فاساً مستخفياً وأقام بدار الشيخ أبي زيد عبد الرحمٰن الشامي، وكان صديقه معتقداً له، وكان أبو زيد يعده بالملك.

ولما أقبل السلطان المولى عبد اللّه من تادلا خرج للقائه أهل فاس وفيهم الأشراف والعلماء، وكذلك أهل مكناسة، فوافوه بقصبة أبي فكران ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ما سلف منهم ثم أمر بأعيانهم فقتلوا، وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم، وعزل قاضيهم أبا القاسم العميري ورجع أشراف فاس وعلماؤها مذعورين مما نابهم بعد أن ولى السلطان عليهم محمداً بن علي بن يشي، واستمر هو مقيماً بقصبة أبي فكران ولم يتقدم إلى فاس لعدم ثقته بهم.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى محمد بن إسماعيل المعروف بابن عريبة والسبب فيها

لما فعل المولى عبد الله بأعيان فاس ومكناسة ما فعل من القتل والاستباحة وأقام منكمشاً بقصبة أبي فكران نبغت رؤوس الفتنة من الودايا بفاس الجديد وأخذوا في نهب الطرقات ثم أغاروا في يوم خميس على سرح فاس وأجلاب سوقها فاستاقوها حتى لم يتركوا لهم بقرة ولا شاة ولا بهيمة غيرهما.

ولما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد بن عريبة فمشوا إليه وهو بدار الشيخ أبي زيد الشامي فأخرجوه وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه في عاشر جمادى الأولى سنة خمسين ومائة وألف، وهيؤوا له كل ما يحتاج إليه من خيل وسلاح وآلة حرب وتباروا في طاعته وخدمته، وكتبت بيعته في خامس عشر الشهر المذكور، وكتب عليها الفقهاء خطوطهم وامتنع بعضهم من ذلك، وقالوا: «بيعة السلطان المولى عبد الله في أعناقنا فلا نخلعها» فعزلوا عن الخطط وامتحنوا، ثم كتب أهل فاس إلى عبيد الديوان يعرفونهم ما صنعوا ويطلبون منهم موافقتهم فأجابوهم إلى ذلك وبايعوا السلطان المولى محمد بن عريبة وتم أمره.

ولما رأى السلطان المولى عبد الله أن أمر أخيه قد تم فر إلى جبال البربر وأقام هنالك ثم فتحت أبواب فاس وانتقل السلطان المولى محمد إلى فاس الجديد، ومن الغد نهض إلى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه الوفود من سائر الأقطار بهداياهم فأجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد وكان ما نذكره.

بدء اختلال أمر السلطان المولى محمد بن عريبة وما تسبب عن ذلك

لما فرق السلطان المولى محمد بن عريبة على العبيد ما عنده من المال لم يقنعهم ذلك، واستزادوه فأطلق عفا الله عنه أيدي النهب في أموال المسلمين، وأخذ هو في استخراج الحبوب والأقوات من دور أهل مكناسة غصباً، وبحث عنها في الأهراء والمطامير وكل من ذكر له أن عنده قمحاً أو شعيراً قبض عليه، وصادره إلى أن يظهر ما عنده، وكل من جلب من أهل البادية حبّاً أخذ منه كرهاً فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس في حيص بيص والأمر لله وحده.

إغارة السلطان المولى عبد اللّه على الإصطبل من مكناسة وما نشأ عن ذلك

ثم إن السلطان المولى عبد اللّه الذي كان مقيماً عند البربر قدم ذات ليلة في جماعة من أصحابه حتى دخل الإصطبل وقتل من وجد به من العبيد وحرق أخصاصهم ورجع عوده على بدئه، ولما نذر به السلطان المولى محمد بن عريبة نادى في الناس بالنفير وركب في خيله ورجله وقصد السلطان المولى عبد اللّه وهو بالموضع المعروف بالحاجب، ولما رأى العساكر مقبلة إليه والخيل تتعادى خلفه فر بنفسه وترك ابنيته بما فيها فانتهبها العبيد وتبعوه إلى أن بلغوا وادي ملوية فتوغل في الجبال ولم يقفوا له على أثر، ولما قفلوا راجعين اعترضهم البربر وتسايلوا عليهم من المخارم والشعاب، فصدقوهم القتال وهزموهم واستلبوا ما معهم من الأثقال ورجعوا بخُفي حُنين.

قال في «البستان»: «ولما انتهوا إلى أحواز صفرو بعث المولى محمد ابن

عريبة جماعة من جيشه إلى من هنالك من المستضعفين من أهل المزادغ وغيرها من القرى وأمر بقطع رؤوسهم وبعثها إلى فاس موهماً أنها رؤوس البربر» اهـ والله أعلم.

بقية أخبار السلطان المولى محمد بن عريبة وما تخللها من الهرج والشدة

لما قفل السلطان المولى محمد بن عريبة من خرجته في أثر أخيه المولى عبد الله وكان حيث ذكرنا بعث أخاه المولى الوليد بن إسماعيل إلى فاس، وأمره بضرب البعث عليهم توصلاً إلى ما في أيديهم من المال بحيث أن من أعطى المال منهم يقيم بداره، ومن أبى يخرج في البعث، فتحير الناس وقدم المولى الوليد حضرة فاس وقبض على الحاج أبي جيدة برادة، وكان مثرياً، فقتله وأخذ أمواله وباع أصوله، وقبض على الحاج عبد الخالق عديل فأخذ أمواله، ثم تسلط على أهل الزوايا وكل من ذكر له أنه من أهل اليسار إلى أن استوفى غرضه، ثم سار إلى مكناسة ففعل بأهلها مثل ذلك حتى لم يسلم منهم إلا القليل، هذا والناس في محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الدور بالليل بحيث كان أهل اليسار لا ينامون، وصار جل الناس لصوصاً، والودايا يعيشون في الجنات خارج المدينة ويغيرون على القصارين بوادي فاس، وبعد أن صار الناس يقصرون كتانهم بمصمودة انتهبوه منهم بها، بل تناولوا القفل من الفنادق والسلطان معرض عن جميع ذلك لا يلتفت إليه، ولقد هلك في هذه المدة من الجوع جم غفير أخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفاً وزيادة سوى الذين كفنهم أهلهم وعشيرتهم. وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عريبة هذا أيام نحس ووبال على المسلمين، وكذا أيام أخيه المولى المستضيء الذي إليه يساق الحديث، وكل ذلك والله تعالى أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتياتهم عليها وتحكمهم في أعياصها طوع أهوائهم وحسب أغراضهم، إذ

معلوم أنه لا ينشأ عن كثرة الخلع والتولية إلا هذا وشبهه، نسأل الله تعالى اللطف والحفظ في الأهل والدين والمال في الحال والمآل.

وقد تكلم صاحب «نشر المثاني» على هذه السنة أعني سنة خمسين ومائة وألف فقال: «وفي هذه السنة هزم جيش الثائرين على مولاي عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير وذلك على يد البربر، وارتفعت الأسعار جداً وجعل اللصوص يهجمون على الناس في دورهم ليلاً ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون، وبلغ الخوف إلى أبواب الدور المتطرفة بفاس نهاراً فلا يستطيع أحد أن يخرج عن باب مصمودة في العدوة ولا عن باب القصبة القديمة في الطالعة ولا عن حومة الحفارين باب عجيسة، وكثر الهدم في الدور لأخذ خشبها وكثر الخراب وخلت الحارات فتجد الدرب مشتملاً على عشرين داراً وأكثر وكلها خالية». وفي هذه المدة قتل الفقيه العلامة أبو البقاء يعيش الشاوي بداره بالدوح وقتله كان سبب خلاء الدوح وافتضح أهل المروءة من الناس ومن يظن به الدين، وكل من قدر على الفرار فر من فاس، وقل من سلم منهم بعد خروجه عن البلد، وخرج جماعة وافرة من أهل فاس إلى تطاوين وما والاها لجلب الميرة إذ كان الله تعالى قد سخر العدو الكافر بحمل الطعام إلى بلاد المسلمين، فاشترى أهل فاس منه شيئاً كثيراً لكن امتنع الجمالون من حمله لهم وماطلوهم، فشكوهم لوالي تلك البلاد ورئيسها حينئذ أحمد بن علي الريفي فأظهر لهم النصح وأبطن الغش لانحرافه عن السلطان ومن يتعلق به. فثبط الجمالين وهم قبيلة بداوة فازدادوا امتناعاً وتعاصياً حتى بقي أهل فاس معطلين بميرتهم نحو ستة أشهر. فهلك بسبب ذلك خلائق لا يحصون جوعاً. وكلهم في عهدة أحمد بن علي الريفي وما أغنى مال ولا متاع في طلب القوت، ولولا أن الله سخر العدو الكافر بجلب الميرة للمغرب لهلك أهله جميعاً فيما أظن، وذلك كله من شؤم الفتن والخروج على الملوك.

وأما الأصول والسلع فلم يكن شيء منها يبلغ عشر ثمنه المعتاد، ولم يقيض الله لهذا المغرب راحة حتى منّ برجوع السلطان مولاي عبد اللّه، هذا كلام صاحب «نشر المثاني» وهو الفقيه المؤرخ سيدي محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري. وقد حكى هذه الأخبار عن معاينة لأنه كان يومئذ حاضرها وشاهدها.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، والناس في شدة، وفي الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة فقبضوا عليه، وعلى قائده على فاس الشريف أبي محمد عبد المجيد المشامري ووضعوا في رجلي كل واحد منهما قيداً، وأخرجوا ابن عريبة وعياله من دار الملك إلى داره التي على وادي ويسلن بجنان حمرية، ووكلوا به جماعة من العبيد يحرسونه، وكتبوا إلى أخيه المولى المستضيء بن إسماعيل بتافيلالت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى المستضيء بن إسماعيل رحمه الله

لما قبض العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة أعلنوا بيعة أخيه المولى المستضيء بن إسماعيل، وكتبوا بذلك إلى الآفاق فساعدهم الناس عليه وبعثوا جريدة من الخيل على عادتهم لتأتي به، فأقبل مسرعاً، ولما انتهى إلى مدينة صفرو لقيه أهل فاس بها في أشرافهم وعلمائهم وأدوا بيعتهم ورجعوا معه إلى فاس الجديد. فأراح به، وولى عليهم القائد أبا العباس أحمد الكعيدي فاستناب الكعيدي عليهم من قبله شعشوع اليازغي والحال ما حال والظلم ما زال، ثم ارتحل السلطان المولى المستضيء إلى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة، وقدمت عليه وفود القبائل والأمصار بهداياهم فقابلهم بما يجب واستتب أمره.

ذكر ما صدر من السلطان المولى المستضيء من العسف والاضطراب

لما استقر السلطان المولى المستضيء بمكناسة كان أول ما بدأ به أن بعث بأخيه المولى محمد بن عريبة مقيداً إلى فاس، ومنها إلى سجلماسة فسجن بها، وبعث بقائده السيد عبد المجيد المشامري والشيخ أبي زيد عبد الرحمٰن الشامي يسجنان بفاس الجديد، ونهبت دار المشامري وصودر إلى أن مات تحت العذاب ومثل به، ثم بعث السلطان كتابه إلى أهل فاس ولكن رسم أن يقرأ بفاس الجديد ويحضر أعيان أهل فاس لاستماعه فارتابوا وتغيبوا ولم يحضر منهم الا نحو العشرين فقبض عليهم وسجنوا هنالك، ثم وظف عليهم مال ثقيل لم يقوموا به.

وافتقرت الدولة في أيام هذا السلطان واحتاج إلى المال ليقطع عنه لسان العبيد، فأخذ في البحث عما في المخازن الإسماعيلية التي لم يلتفت إليها الملوك قبله، فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه، ووقع على الخزين الكبير، وفيه آلاف من قناطير الكبريت، فباعها أيضاً، ووجد شيئاً كثيراً من ملح البارود والشب والبقام وغير ذلك مما كان يجلب إلى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله، ثم اقتلع شراجب القبة الشطرنجية، وكانت من نحاس مذهب، واقتلع الدرابيز التي عن يمينها وشمالها من الحديد المنتخب من باب الرخام إلى قصر المولى يوسف ودفعها لأهل الذمة. وألزمهم أداء ثمنها فأجحف بهم، ثم أنزل المدافع النحاسية التي كانت بأبراج الحضرة فكسرها وضربها فلوساً فما أغنى ذلك شيئاً، وقتل في هذه المدة نيفاً وثمانين رجلاً من عرب بني حسن، وسلط العذاب على مساجين أهل فاس ليغرموا المال فغرموا ما قدروا عليه، ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشتروا أصول مساجينهم فعذبوا إلى أن أدوا بعض المال، وعجزوا، وأفتى العلماء أن هذا البيع الواقع في هذه الأصول صحيح تقديماً لخلاص الأنفس على الأموال.

ثم قبض هذا السلطان على شريف من الأشراف العراقيين من أهل حومة كرنيز اتهمه بأن الحرة خناثى بنت بكار استودعته مالاً فضرب وامتحن ثم ولى على فاس المولى أبا حفص عمر المدني وكان رفيقه وجليسه، فاستناب المولى أبو حفص على فاس رجلاً يقال له ابن زيان الأعور، وتقدم إليه في مصادرة أشراف فاس واستصفاء أموالهم، فامتثل ابن زيان أمره وما قصر، وكان الحامل لأبي حفص على هذا أن داره بفاس كانت قد نهبت أيام المولى محمد بن عريبة ولم ينكر ذلك أحد من أهل فاس، فحقدها أبو حفص عليهم إلى أن أدالته الأيام منهم في هذه المرة، ففعل ابن زيان ما فعل، فأمر السلطان المولى المستضيء بالقبض على ابن زيان وأن يطاف به على حمار. والسياط في ظهره وهو يقول: «هذا جزاء من يؤذي الأشراف» فطيف به ثم أزيل رأسه وعلق على باب المحروق، هذا والأشراف لا زالوا في العذاب، ثم أمر بمساجين أهل فاس فحملوا إليه في السلاسل والأغلال ثم قتلوا بباب القصبة عن آخرهم، وأمر بإخراج ولد مامي من الحرم الإدريسي فلما وصل إليه قتله، وأسرف المولى المستضيء في القتل والعسف وأراد أن يتشبه بأخيه المولى عبد الله الذي جرد السيف وبسط الكف فغطى سخاؤه عيبه، وهيهات، فقد كان المولى المستضيء مسيكاً مهزوم الراية، على ما قيل، تغمدنا الله وإياه والمسلمين بالرحمة والعفو والغفران، ثم قتل القائد غانماً الحاجي، ووالي مكناسة القائد سعدون، وستة من أولاد الزياتي أصحاب السجن.

ثم إن السلطان المولى عبد الله أغرى البربر الذين كان مقيماً فيهم بشن الغارات على الودايا والعيث في طرقاتهم ففعلوا، وانقطعت السبل وتعذر المعاش، وكان المولى زين العابدين بن إسماعيل محبوساً عند أخيه السلطان المولى المستضيء فأمر بإخراجه وإحضاره بين يديه فأحضر وضرب ضرب التلف، وبعث به مقيداً إلى تافيلالت ليسجن مع بعض أشرافها، فبعث العبيد جماعة منهم فانتزعوه من يد حامليه وبعثوا به إلى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي ببني يازغة، وتقدموا إليه في الاحتفاظ به والاعتناء بشأنه.

إيقاع الباشا أبي العباس أحمد بن علي الريفي بأهل تطاوين

قد قدمنا ما كان من إغارة الباشا أبي العباس أحمد بن علي الريفي صاحب طنجة على أهل تطاوين، وهزيمة أبي حفص الوقاش له وفتكه بأصحابه فاستحكمت العداوة بين الريفي والوقاش من يومئذ، وبقي الريفي يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل إلى أن بويع السلطان المولى المستضيء في هذه المدة، فلم يقدم عليه أحد من أهل تطاوين ولا دخلوا في بيعته فوجد أبو العباس الريفي السبيل بذلك إليهم وأغرى بهم السلطان المذكور ودس إليهم أنهم شقوا العصا وخالفوا الأمر، مع ما كان قد نقل عن الفقيه أبي حفص في تلك القصيدة من التصريح بطلب الملك، فنجع ذلك في المولى المستضيء، وكتب إليه يأمره بالإيقاع بأهل تطاوين، فاغتنمها أبو العباس الريفي واقتحم تطاوين في جموعه على حين غفلة من أهلها وانتهبها، وقتل من أعيانها نحو الثمانمائة ووظف على من بقي منهم مالاً ثقيلاً وهدم أسوارها ونظمها في سلك ما كان مستولياً عليه وبنى بها دار الإمارة الموجودة الآن.

شغب العبيد على السلطان المولى المستضيء وفراره إلى مراكش

لما كان منتصف ذي القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف شغب العبيد بمكناسة على السلطان المولى المستضيء وتآمروا في عزله ومراجعة طاعة أخيه المولى عبد الله، ولما أحس المولى المستضيء بما أجمعوا عليه خرج من مكناسة في شيعته وأنصاره قاصداً ضريح الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، فتبعه المولى عبد الله في جمع من العبيد فأدركوه ببعض الطريق فكرّ عليهم وقاتلهم حتى رجعوا عنه، ومضى لوجهه إلى أن وصل إلى طنجة فأقام بها نحو الشهرين عند أحمد بن علي الريفي،

ومنها توجه إلى مراكش فإنهم كانوا قد بايعوه، وكان أخوه المولى الناصر نائباً عنه بها، ولما استقر بمراكش كاتب قبائل الحوز يستصرخهم على أخيه المولى عبد اللّه ويستنفرهم للخروج معه إليه، فتقاعدوا عنه لأن عبدة والرحامنة وأهل السوس كانوا شيعة للمولى عبد اللّه، ولم يبق في حزب المولى المستضيء إلا أهل دكالة أخواله وبنو حسن عرب الغرب، ولما رأى المولى المستضيء تقاعد قبائل الحوز عنه أقام بمراكش يزجي الأيام إلى سنة خمس وخمسين ومائة وألف، والباشا أبو العباس الريفي صاحب طنجة يفتل للعبيد في الذروة والغارب إلى أن بايعوه ثانية بعد أخيه المولى زين العابدين، وبعد خلع السلطان المولى عبد اللّه حسبما نذكره بعد إن شاء الله.

مراجعة العبيد طاعة السلطان المولى عبد اللّه ودخولهم في دعوته

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد اللّه كان مقيماً في هذه المدة عند البربر وأنه تبع المولى المستضيء عند خروجه من مكناسة ثم رجع عنه ولما بلغه خبر مسيره إلى مراكش سار في اعتراضه إلى أن بلغ قصبة وادي آلزم فلم يقف له على خبر فأقام يتجسس أخباره إلى أن اتفق العبيد على بيعته وهو بآلزم، فبايعوه أوائل سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف، وكتبوا بيعتهم وبعثوا بها إليه مع بعض خاصتهم، وكتبوا مع ذلك إلى أهل فاس والودايا في الموافقة، فوافقوهم وبايعوا السلطان المولى عبد اللّه وخطبوا به على منابرهم وزينت فاس، ولما انتهى الحال إلى هذا الحد فر الوزير أبو الحسن علي العميري من مكناسة إذ كان وزير المولى المستضيء، واحترم أخوه القاضي أبو القاسم العميري بضريح بعض صلحاء مكناسة، وبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم وعلمائهم ببيعتهم إلى السلطان المولى عبد اللّه ومعهم جماعة من التجار وحجاج الركب الحجازي بهداياهم، هذا كله، والسلطان لا زال

مقيماً بقصبة آلزم، وتولى العبيد بمكناسة النقض والإبرام لتأخر مجيء السلطان، وظهر منهم الإدلال والاستبداد على الدولة، وبعثوا من قبلهم القائد أبا محمد عبد الله الحمري والياً على فاس وقالوا: عن أمر الديوان، وكثر القطاع بالطرقات واللصوص بالمدينة وعادت هيف إلى أديانها.

مجيء السلطان المولى عبد الله إلى مكناسة وما ارتكبه من أهلها

وفي خامس عشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف تحرك السلطان المولى عبد الله من آلزم وقدم مكناسة فقبض على قاضيها الفقيه أبي القاسم العميري، والسيد أبي العباس أحمد الشدادي، والعباس بن رحال، والفقيه المليتي وأزال عمائمهم وفضحهم وقال لهم: «كيف تزوجون حرمي من أخي وأنا حي» ونكل بهم النكال الشديد، ثم أمر بسحبهم إلى السجن، وأعطى دار القاضي العميري أحد العبيد، وقال لهم: من أراد منكم داراً بمكناسة فليأخذها» فامتدت أيدي العبيد في الناس حتى صاروا يقفون بالأبواب ويقول العبد لصاحب الدار: «إن سيدي قد أعطاني دارك أو أعطاني ابنتك» فيفتدي منه بالمال، ولحقهم من العبيد فوق ما يوصف، ومن شكى منهم عوقب وسجن، والسلطان مقيم بباب الريح لم يدخل القصبة التي كان بها المولى المستضيء.

وولى في هذه المدة على فاس شيخ الركب الحاج عبد الخالق عديل، وولى على قضائها الفقيه أبا يعقوب يوسف بن أبي عنان، وتقدم إليه في أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بالمولى المستضيء في سائر البلدان.

وأما الودايا فإنه لم يقدم على المولى عبد الله منهم أحد ولا بايعوه وكذا الباشا أحمد بن علي الريفي وأهل الريف والفحص وقبائل الجبل فاغتم المولى عبد الله لذلك، ثم شفعت الحرة خناثى أم السلطان في قومها الودايا وبعثت إليه جماعة منهم فقبلهم وعفا عنهم.

إيقاع أبي العباس أحمد بن علي الريفي بقبائل الغرب وما تخلل ذلك

وعلى أثر ما تقدم بلغ السلطان عبد الله أن القائد أبا العباس أحمد بن علي الريفي قد أغار على أعمال القصر الكبير، وانتهب أموالاً كثيرة لأهل الغرب وشيعتهم ممن ليس على رأيه في الخروج عن طاعة السلطان، فبعث المولى عبد الله جيشاً كثيفاً من عبيد مشرع الرملة ينزلون بالقصر الكبير لحراسته وحراسة أعماله، فلما سمع بذلك الريفي فرق العطاء على جيشه وتهيأ للنهوض إلى العبيد، فوردت عليه شرذمة من الودايا وأخرى من عبيد مكناسة وأخبروه بأن ذلك الجيش قد رجع، لأن ذلك الوقت لم تجتمع فيه كلمة لأحد لا من الرعية ولا من الجيش.

وكان السلطان المولى عبد الله قد وجه عامله القائد أبا العباس أحمد الكعيدي عاملاً على عرب الحياينة وأهل جبل الزبيب لجباية الزكوات والأعشار، فلما توسط بلاد الحياينة عدوا عليه فقتلوه، ولما اتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله اغتم لذلك غماً شديداً لأنه كان عماد دولته فانحل نظامها بموته، وفسدت الطرقات وكثر النهب في كل موضع.

ثم إن السلطان أمر المسخرين الذين معه بنهب زروع أهل مكناسة فوقع من ذلك شر عظيم، وذلك أوائل سنة أربع وخمسين ومائة وألف، ثم وظف عليهم وظائف كثيرة من دفع المؤنة له ولأصحابه وإعطاء العملة للبناء بباب الريح وغير ذلك فتشفعوا إليه مراراً فلم يقبل. والله تعالى أعلم.

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره ثانية إلى البربر

لما كان شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين ومائة وألف شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وهموا بخلعه والإيقاع به، فنذرت بذلك أمه الحرة خناثى بنت بكار، ففرت من مكناسة إلى فاس الجديد، ومن الغد تبعها ابنها السلطان المولى عبد الله ونزل برأس الماء، فخرج إليه الودايا وأهل فاس وأجلوا مقدمه واهتزوا له، فاستعطفهم السلطان وقال لهم: «أنتم جيشي وعدتي ويميني وشمالي. وأريد منكم أن تكونوا معي على كلمة واحدة» وعاهدهم وعاهدوه ورجعوا، وفي أثناء ذلك بلغه أن أحمد بن علي الريفي قد كاتب عبيد مشرع الرملة وكاتبوه واتفق معهم على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى زين العابدين، وكان يومئذ عنده بطنجة وأنهم وافقوه، فوجم لها السلطان المولى عبد الله، ثم استعجل أمر المولى زين العابدين ففر المولى عبد الله إلى بلاد البربر كما سيأتي إن شاء الله.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين زين العابدين بن إسماعيل رحمه الله

كان ابتداء أمر السلطان المولى زين العابدين أنه قدم مكناسة في أيام أخيه المولى المستضيء، فلما سمع به أمر بسجنه قبل أن يجتمع به فسجن مدة ثم أمر يوماً بإخراجه وضربه فضرب، وهو في قيده، ضرباً وجيعاً أشرف منه على الموت كما مر، ومع ذلك فلم ينطق بكلمة، ثم رده إلى السجن، ثم أمر ببعثه مقيداً إلى سجلماسة كي يسجن بها مع بعض الأشراف المسجونين هنالك، فلما سمع بذلك قواد رؤوسهم من العبيد بعثوا من رده من صفرو إلى فاس ومن هنالك بعثوا به إلى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي ببني يازغة وأمروه أن يحتفظ به مكرماً مبجلاً.

ثم لما فرّ المولى المستضيء عن مكناسة وراجع العبيد طاعة السلطان المولى عبد اللّه دخل المولى زين العابدين مدينة فاس فاطمأن بها، وسر بولاية المولى عبد اللّه وخلع المولى المستضيء، ثم ذهب إلى مكناسة وأقام بها مدة، ثم سار إلى طنجة فقدم على صاحبها الباشا أحمد بن علي الريفي فأكرم وفادته وأحسن مثواه، واستمر مقيماً عنده إلى أن كاتب عبيد الديوان في شأنه ووافقوه في بيعته، فبايعه الباشا أحمد وبايعه أهل طنجة وتطاوين والفحص والجبال وخطبوا به على منابرهم، ثم هيأ له الباشا أحمد كتيبة من الخيل من عبيد الديوان وغيرهم، وبعثهم معه إلى مكناسة فدخلها في ربيع سنة أربع وخمسين ومائة وألف وبويع بها البيعة العامة وقدمت عليه وفود القبائل والأمصار فقابلهم بما يجب، وتم أمره.

وفر السلطان المولى عبد اللّه من رأس الماء ودخل بلاد البربر، ولم يقدم على المولى زين العابدين أحد من الودايا ولا من أهل فاس. وكان فيه أناة وحلم لم يظهر منه عسف ولا امتدت يده إلى مال أحد إلا أنه لقلة ذات يده نقص العبيد من راتبهم فكان ذلك سبب انحرافهم عنه كما سيأتي.

بقية أخبار المولى زين العابدين وانقراض أمره

لما استقر السلطان المولى زين العابدين بحضرة مكناسة وتم أمره أقام بها نحو الشهرين، ثم تهيأ لغزو الودايا وأهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته، فنهض إليهم في جيش العبيد منتصف جمادى الأولى سنة أربع وخمسين ومائة وألف. ولما بات جيشهم بسيدي عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمة العبيد، ومن الغد قوضوا أبنيتهم وارتحلوا إلى مكناسة وكفى الله الودايا وأهل فاس شرهم. إلا أنهم حرقوا بيادر الزرع التي كانت للودايا بالخميس، ولما وصلوا إلى مكناسة نهبوا ثمار جناتها وأفسدوا ما قدروا عليه منها،

وانصرف جمهورهم إلى مشرع الرملة، والذين دخلوا مكناسة مع السلطان طالبوه في الراتب وشددوا في اقتضائه، فلم يكن عنده ما يرضيهم به فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته.

هذا، والسلطان المولى عبد الله مقيم بجبال البربر مطل على الحضرة ومتحفز للوثبة، فلما علم بما المولى زين العابدين فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتى دخل فاساً الجديد وذلك في سادس عشر جمادى الآخرة من السنة، فلقيه الودايا وأهل فاس واهتزوا لمقدمه وطاروا به سروراً، ثم خرج من يومه إلى دار الدبيبغ فاحتل بها.

ولما اتصل خبره بأخيه المولى زين العابدين ضاق ذرعه وخشعت نفسه، وأصبح غادياً من مكناسة إلى حيث يأمن على نفسه معرضاً عن الملك وأسبابه، فكان ذلك آخر العهد به إلى أن توفي رحمه الله.

الخبر عن الدولة الثانية لأمير المؤمنين المولى عبد الله رحمه الله

لما فر السلطان المولى زين العابدين عن مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على أن يراجعوا طاعة السلطان المولى عبد الله، فبعثوا طائفة من قوادهم ووجهوها إليه فقدموا عليه منتصف رمضان من السنة المذكورة، وهو بدار الدبيبغ، فحيوه، وأخبروه بأن إخوانهم قد خلعوا المولى زين العابدين وبايعوه، فسر المولى عبد الله بقدومهم وخرج الودايا إلى العبيد فاختلطوا بهم وسروا بمقدمهم، وأجروا الخيل في ميدان المسابقة واللعب بالبارود، وزينت مدينة فاس، وجددت البيعة العامة من الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر. واستمر الحال على ذلك إلى آخر ذي القعدة من السنة فكان ما نذكره.

مجيء المولى المستضيء
من مراكش ومحاربته لأخيه
المولى عبد الله وما يتبع ذلك

لما اجتمعت كلمة العبيد والودايا وسائر أهل بلاد الغرب على طاعة السلطان المولى عبد الله أقام رحمه الله بدار الدبيبغ، واستمر الحال على ذلك إلى آخر ذي القعدة من سنة أربع وخمسين ومائة وألف، فارتاب العبيد بمقامه هنالك ورفضه المقام بين أظهرهم بمكناسة التي هي دار الملك يومئذ، فقلبوا له ظهر المجن، على عادتهم، واستدعوا المولى المستضيء من مراكش ليبايعوه.

واتصل خبرهم بالمولى عبد الله وأنهم قد بعثوا الخيل إلى المولى المستضيء لتأتي به، فأخذ السلطان من ذلك المقعد المقيم، وشمر عن ساعد الجد وأخذ في تأليف قبائل العرب والبربر، ووصل يد بعضهم ببعض، ثم ألف بينهم وبين الودايا وأهل فاس وآخى بين الجميع فأعطوه صفقة أيمانهم بأنهم يموتون دونه فتم له منهم ما أراده، وفي أثناء ذلك قدم الحاج أحمد السوسي من مراكش ودخل فاساً فتحدث عنه بأنه قد دس إلى أهل فاس في مراجعة طاعة المولى المستضيء والتمسك بدعوته، ونمى ذلك إلى السلطان المولى عبد الله فأمر بقتله فقتل.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة وألف ففي المحرم منها زحف المولى المستضيء من مراكش إلى بلاد الغرب ودخل مكناسة في جيش العبيد وبني حسن وغيرهم، وقدم في ركابه الوزير أبو الحسن العميري، وأخوه القاضي أبو القاسم، وفي آخر المحرم المذكور ورد كتاب من عند القائد أبي العباس أحمد الريفي إلى أهل فاس يدعوهم إلى بيعة مخدومه المولى المستضيء والدخول في طاعته، فصموا عن ذلك ونبذوه.

وفي ربيع الأول من السنة المذكورة زحف المولى المستضيء في جيش العبيد إلى فاس وعسكر بظهر الزاوية خارجها ففر السلطان المولى عبد الله من دار الدبيبغ إلى آيت دراسن، ومن الغد هاجت الحرب بين العبيد وبين الودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع. وهلك فيها من الفريقين عدد كثير. وفي رابع ربيع الثاني قدم السلطان المولى عبد الله يجر أمم البربر خلفه من زمور وبني حكم وجروان وآيت أدراسن وآيت ومالو في عدد لا يحصيهم إلا خالقهم، وفي شارة من اللباس وشكة من السلاح تسر الصديق وتسوء العدو.

ولما عاين المولى المستضيء وعبيده تلك الجموع وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربهم اتخذوا الليل جملاً وأسروا إلى مأمنهم ونجوا بأنفسهم وأصبحت الديار منهم بلاقع، فسر الناس بذلك وشكروا الله على انفضاض تلك الجموع بلا قتال.

وفي سادس جمادى الأولى من السنة توفيت أم السلطان الحرة خناثى بنت بكار المغفرية رحمها الله، وكانت فقيهة أديبة، ودفنت بقبور الأشراف من فاس الجديد.

وفي جمادى الثانية منها حدثت فتنة بفاس بين الحاج عبد الخالق عديل والشريف المولى أبي عبد الله محمد الغالي الإدريسي فشكاه عديل إلى السلطان فأمر بالقبض عليه فعاذ الشريف بضريح جده رضي الله عنه، فألزم السلطان أهل فاس إخراجه، فضيقوا عليه إلى أن طلب الأمان فأمنوه وساقوه إلى السلطان فوبخه ثم ضربه وسجنه ثم أمر أهل فاس بقتل أصحابه فقتلوهم.

هدية السلطان المولى عبد اللّه
رحمه الله إلى الحرم النبوي
على مشرفه أفضل الصلاة والسلام

وفي هذه السنة أعني سنة خمس وخمسين ومائة وألف سافر الركب المغربي إلى الحرمين الشريفين فبعث معه أمير المؤمنين المولى عبد اللّه رحمه الله هدية نفيسة فيها ثلاثة وعشرون مصحفاً بين كبير وصغير محلاة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت، ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثماني الذي كان عند بني أمية بالأندلس، وانتقل إلى هذه العدوة المغربية على يد عبد المؤمن بن علي حسبما مر الكلام عليه مستوفى، وأما هذا المصحف العقباني فهو مصحف عقبة بن نافع الفهري الصحابي المشهور فاتح المغرب، كان نسخه بالقيروان من المصحف العثماني على ما قيل، وبقي متداولاً بين أهل المغرب إلى أن وقع بيد الأشراف السعديين، وأخذ فيه المنصور منهم العهد لولده الشيخ على إخوته كما مر.

ولما وصل إلى هذا السلطان رحمه الله غربه من المغرب إلى الحرم الشريف فعاد به الدر إلى وطنه والإبريز إلى معدنه، قال الشيخ أبو عبد اللّه المسناوي رحمه الله: «قد وقفت على هذا المصحف حين أمر السلطان المولى عبد اللّه رحمه الله بإخراجه وبعثه إلى الحجرة الشريفة فظهر لي أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما» اهـ وبعث السلطان رحمه الله معه ألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الألوان للحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى التحية وتقبل الله من السلطان عمله وأجزل ثوابه آمين.

مشايعة الباشا أبي العباس الريفي للمولى المستضيء على المولى عبد اللّه وزحفه إلى فاس وما يتصل بذلك

لما دخلت سنة ست وخمسين ومائة وألف أقبل الباشا أبو العباس أحمد ابن علي الريفي في جموع الفحص والجبل والريف قاصداً فاساً وأعمالها حتى نزل بالعسال من مزارع فاس، وذلك في الثاني والعشرين من المحرم منها، وراود أهل فاس على الانحراف عن طاعة مولاي عبد اللّه فأبوا.

وأقبل المولى المستضيء في جموع العبيد، وعليهم القائد فاتح بن النويني، حتى نزل قريباً منه في الثاني والعشرين من صفر. ولما زحف هذان الجيشان إلى فاس اضطربت نواحيها ودهش الناس من هول هذا الريفي لأنه جاء في استعداد لم يعهد مثله، وأرز الحياينة وشراقة وأولاد جامع إلى أسوار فاس، ونزلت حللهم داخلها وخارجها وبعثروا مزارعها وجناتها وانتهبوا مواشيها، وهلك الكثير منها جوعاً وهزالاً، وماجت الفتنة موج البحر، وارتفعت الأسعار ولقي الناس كل شدة، وفي كل صباح ومساء ترعد المدافع وتقرع الطبول بمحلتي المولى المستضيء، والريفي، فاستعد الناس للحرب. وركب السلطان المولى عبد اللّه من دار الدبيبغ في نحو عشرة من الخيل، وأسرع إلى آيت أدراسن، وهم بسهب عشار، فدخل حلة عبد اللّه بن يشي منهم وقلب سرجه وسط جموعهم فالتف عليه من حضر منهم، وقالوا: «ما الذي ناب مولانا؟» فقال: «جئتكم لتنصروني على هذا الجبلي الذي كان خديمنا وعبدنا وأطغاه ما جمع من المال في خدمتنا ثم أراد أن يفضحنا وجرأه علينا أخونا المستضيء وأراد الاستيلاء على بلادنا وهي في الحقيقة بلادكم وما قصد إلا إهانتكم وأنتم أحق من ينصر أهل البيت ولا يتحمل العار وعليكم السلام.» ثم ركب فرسه ورجع عوده على بدئه فلم يبت إلا بدار الدبيبغ، ومن الغد زحف أحمد الريفي إلى بلاد الحياينة ظنّاً منه أنهم لا زالوا مقيمين بها، فلما لم يجد بها أحداً رجع إلى محله الذي كان به، ومن الغد

كانت حرب خفيفة بينه وبين الودايا ومن لافهم من الحياينة وشراقة وأولاد جامع، ثم من الغد ركب أحمد الريفي في رماته وتقدم حتى وقف على كدينة تامزيزت فوق القنطرة وعبرت جموعه لارورات، ثم عبر المولى المستضيء في جموع العبيد وخلفوا رماتهم ومدافعهم وأثقالهم بالمحلة، وكتب المولى المستضيء كتائبه وصف جنوده بذلك البسيط وزحف الودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع، وجاءت البربر بجموعها فأشرفوا عليهم بالعين المقبوة إلى دار ابن عمرو، ولما وقعت عينهم على جموع المولى المستضيء ووزيره الريفي بذلك البسيط صاحوا بهم وشدوا عليهم شدة رجل واحد فكانت الهزيمة، واستحر فيهم القتل والسلب وازدحموا على القنطرة وتساقطوا في الوادي فهلك الكثير منهم والبربر في أثرهم يقتلون ويسلبون، وأما الريفي فإنه لما رأى الهزيمة عليه لم يزد على أن ركب فرسه ونجا برأس طمرة ولجام على الحالة التي وصفها أبو الطيب إذ قال:

لا يأمن النفس الأقصى فيدركه فيسرق النفس الأدنى ويغتنم

ولم يعرج هؤلاء ولا أحد من المنهزمة على المحلة حتى انتهى إليها البربر فتركوا اتباع المنهزمة واشتغلوا بنهبها فأتوا على ما فيها من الأخبية والكراع والأثاث الفاخر، ولم يتركوا بها إلا المدافع والمهاريس وآلتها من كور وبنب وبارود، فإن القائد أبا عزة صاحب الشربيل وقف على ذلك حتى حازه، وعاد الناس وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فلقيهم طوائف من البربر لم يكونوا قد شهدوا الوقعة فاستلبوا ما بأيديهم.

قال صاحب «البستان»: حدثني السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله عن هذه الوقعة، وكان قد شهدها وهو في سن البلوغ، قال: «بعثني والدي مع أخوالنا الودايا فلما هبت رياح النصر وانهزم العدو في ساعة واحدة وكنت يومئذ في خمسين فارساً بين ودايا وأصحاب تقدمنا إلى المحلة فوقفنا على قبة الباشا أحمد وأحرزناها، ثم أمرت الحمارة فحملوا لنا من صناديق

الريال على عشرين بغلة ومن الملف والكتان على ثلاثين جملاً لعرب بداوة أصحاب الإبل، وحملوا لنا قبتين إحداهما لأحمد الريفي والأخرى أظنها للمولى المستضيء، وأما العرب والبربر والودايا وأهل فاس فقد أخذت كل طائفة بناحية تحمل ما قدرت عليه، ثم لما انفصلنا عن المحلة قافلين لقيتنا كتائب من البربر الذين لم يحضروا الوقعة وبنفس ما خالطونا طاروا بما في أيدينا حتى لم ندر أين البغال ولا الإبل، وانفرد بكل بغلة وجمل جماعة من الخيل خمسون أو ستون أو أكثر، ولم يجتمع منا اثنان وعدنا كما جئنا، وهكذا وقع لكل من انتهب شيئاً من حزبنا إلا من دخل مع البربر في حصتهم، ولما فرغ الناس من النهب اشتغل عبيد السلطان بجمع الرؤوس فكان عددها ما بين أبيض وأسود نحو التسعمائة، فيها رأس الباشا فاتح بن النويني، ثم بعث السلطان المولى عبد الله البغال لجر تلك المدافع والمهاريس وحمل الكور والبنب فسيق ذلك كله إلى دار الدبيبغ ثم بعث بغالاً أخرى لحمل البارود وكان ثلاثمائة برميل في كل واحد قنطار من البارود الجيد فأدخل ذلك كله لخزين فاس» قال السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله في حديثه: «وكان هذا أول بعث بعثني فيه والدي وأول حرب شهدتها وأنا يومئذ في سن البلوغ وكان لي ولوع باللعب بالرمح والمطاعنة به إلى أن مهرت فيه» اهـ كلامه.

ولما اجتاز المنهزمة بجبل الزبيب اعترضهم أهله وقاتلوهم فقتلوا في جملتهم سيدي محمد بن المستضيء يظنونه من أهل الريف، ثم خلص الريفي وأصحابه إلى طنجة بعد غصب الريق وكان أمر هذه الوقعة فتحاً عظيماً على أمير المؤمنين المولى عبد الله وشيعته.

قال في «نشر المثاني»: «فراجع طائفة من العبيد طاعة مولاي عبد الله، وجاءته قبائل المغرب بالهدايا من كل ناحية فتألفهم وألان لهم القول، وأمر العبيد بالمسير إلى طنجة لحرب الريفي فساروا ثم رجعوا ولم يلقوا كيداً».

معاودة أحمد الريفي غزو فاس وما كان من أمره مع السلطان المولى عبد الله إلى حين مقتله

لما وصل أحمد الريفي إلى طنجة أخذ في إخلاف ما ضاع له ولقومه من خيل وسلاح وأخبية ونحوها وجدد لجيش العبيد من ذلك ما جدده لأهل الريف وأخذ في الاستعداد لمعاودة غزو فاس، وأقسم أن لا يأكل لحماً ولا يشرب لبناً حتى يدخل فاساً وينهبها كما انتهبوا محلته.

وبعث إلى سلطانه المولى المستضيء بمائتي فرس ومائتي خباء وألف مكحلة وخمسين ألف مثقال يفرقها على العبيد يتقوون بها، وضرب له موعداً يجتمعون فيه على حرب السلطان المولى عبد الله وشيعته من الودايا وأهل فاس فكان أمر الريفي فيما أنفقه كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36].

ولما كان شهر جمادى الأولى من سنة ست وخمسين ومائة وألف خرج أحمد الريفي من طنجة قاصداً حضرة فاس في أكمل شكة وأحسن استعداد، ولما انتهى خبره إلى السلطان المولى عبد الله لم يسعه التخلف عن لقائه، فكتب إلى عرب الحياينة وشراقة وأولاد جامع، وكتب إلى عرب الغرب من سفيان وبني مالك وسائر شيعته يستنفرهم ويحضهم على نصرته، وفرق الراتب على العبيد والودايا وزرارة، وأخرج أهل فاس بعثهم الذي عينوه على العادة، وكتب السلطان إلى آيت أدراسن وجروان يخبرهم بعزمه على مصادمة الريفي وجمعه، ويقول لهم: «إن أردتم المال والغنيمة فتأهبوا للنهوض إلى طنجة». فخف ناس منهم وقدم عليهم منهم ألفان من الخيل وأكثر منها رماة.

ثم خرج السلطان من فاس أواخر جمادى الأولى ونزل على وادي سبو وأقام به إلى أن عرض عساكره ورتبها فجعل رماة عبيده ورماة أهل فاس رحى واحدة وعقد عليهم للقائد أبي عزة صاحب الشربيل، وجعل الودايا

وزرارة وأهل السوس خيلهم ورماتهم رحى واحدة وعقد عليهم لحاجبه القائد عبد الوهاب اليموري، وسار على هذه التعبية فلقيه شراقة وأولاد جامع وأولاد عيسى فجعلهم رحى واحدة وعقد عليهم للشيخ أبي العباس أحمد بن موسى الشرقي، ولما عبر وادي ورغة لقيه أهل الغرب في جموعهم ينتظرونه هنالك فباتوا معه تلك الليلة بعين قرواش ومن الغد جعل بني مالك في رحى وعقدهم عليهم لقائدهم أبي سلهام الجمادي، وجعل سفيان في رحى وعقد عليهم لقائدهم عبد الله السفياني، وسار على هذه التعبية في ظل النصر والسعادة.

وأما المولى المستضيء في العبيد وبني حسن فإنه لما بلغه نهوض السلطان المولى عبد الله من فاس خالفه إلى مكناسة دار الملك فدخلها على حين غفلة من أهلها وعاث وانتهب، وفعل فيها بنو حسن الأفاعيل من سبي النساء والذرية وغير ذلك، ثم تدارك أهل مكناسة أمرهم وتجمعوا لحرب عدوهم فقاتلوا بني حسن في وسط المدينة وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم ما لا يحصى ورجعوا منهزمين، وأما أحمد الريفي فإنه زحف إلى القصر في جموع لا تحصى من أهل الريف والفحص والجبل وأهل العرائش والقصر والخلط وطليق وبداوة وغيرهم، وأقام ينتظر سلطانه المولى المستضيء وجمعه.

ولما أبطأ عليه واتصل به خبر زحف السلطان المولى عبد الله إليه ارتحل من القصر عامداً نحوه فالتقى الجمعان عشية ذلك اليوم بدار العباس على وادي لكس. وقال في «نشر المثاني»: كان اللقاء بالموضع المسمى بالمنزه من أحواز القصر في رابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ومائة وألف.

ولما تراءى الجمعان هم جيش السلطان المولى عبد الله بالنزول، فقال السلطان رحمه الله: «لا نزول إلا على الغنيمة أو الهزيمة» ثم عبر إليهم في جنوده وأعجلهم على النزول وصمد إليهم في كتيبة من أخواله وعبيدة فخالط

مقدمتهم ففضها، وكان فيها أهل الفحص وبداوة وطليق والخلط ثم ظهرت كتيبة أهل الريف التي فيها قلب العسكر وحده، وفيها الباشا أحمد بن علي، فحمل عليها السلطان حملة ثانية ألحقها بالمقدمة، وتقوضت جموع الريفي من كل جانب وانهزموا للحين ومروا على وجوههم لا يلوي حميم على حميم، ومضى جيش السلطان في أثرهم يقتلون ويسلبون إلى أن جنهم الليل، وقتل الريفي في المعركة، وبقيت الأبنية والأثقال بيد السلطان كما هي، فنزل بها بدار العباس، وعادت العساكر مساء بالغنائم وبرأس الباشا أحمد بن علي الريفي، عرفه بعضهم بين القتلى فأزال رأسه وأتى به السلطان فسر به، وبعث به إلى فاس فعلق بباب المحروق، وانقضى أمل أحمد الريفي وذهبت أيامه و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: 26]. وقد خلف هذا الريفي آثاراً كثيرة بطنجة وتطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته رحمه الله.

زحف السلطان المولى عبد الله
إلى طنجة واستيلاؤه عليها

لما فرغ السلطان المولى عبد الله رحمه الله من أمر الريفي أصبح غادياً يؤم طنجة ولما شارفها خرج إليه رجالها يحملون المصاحف على رؤوسهم والصبيان يحملون الألواح بين أيديهم مستشفعين تائبين فعفا عنهم إلا من كان من بطانة أحمد الريفي، ودخل السلطان طنجة واستولى عليها وأمر بالاحتياط على دار الريفي ومتاعه، ثم أمر الخواجا عديلا في جماعة من تجار فاس بإحصاء ما بدار الريفي فدخلوها وتطوفوا خزائنها واستخرجوا ما فيها من مال وسلاح وسروج وكسى وملف وكتان وفرش وخرثي وأثاث يفوق الحصر، فأحصى ذلك كله وأحصى العبيد والإماء والخيل والبغال وجميع الماشية من إبل وبقر وغنم فجيء من ذلك بشيء كثير فأعطى الماشية كلها للبربر، ثم

أطلق يد الجيش على الأمراس فانتشلوا ما فيها من قمح وشعير فأتوا عليه، ثم تتبع حاشية الريفي من عمال وكتاب وغيرهم ممن كان له به اتصال فاستصفى ما عندهم من المال والذخيرة إلى أن استوفى غرضه.

وكان هذا الريفي قد رسخ مجده بطنجة وأعمالها، وعظمت ثروته لامتداد الدولة له ولأبيه بها منذ الفتح، فكان ظفر السلطان المولى عبد اللّه بخزائنه من باب الظفر بالكنوز القارونية، وقدمت عليه في أثناء ذلك وفود القبائل التي هنالك فعفا عنهم وأمنهم وأقام رحمه الله بطنجة أربعين يوماً وانقلب راجعاً إلى فاس مؤيداً منصوراً وبالله التوفيق.

اعتراض المولى المستضيء للسلطان المولى عبد اللّه وعود الكرة عليه ومقتل بني حسن

لما انهزم المولى المستضيء من مكناسة بعد إيقاعه بأهلها خرج إلى حلة بني حسن وأقام بين أظهرهم فاتصل به خبر مقتل ناصره ووزيره على أمره أحمد الريفي ففت ذلك في عضده وهد أركانه، ثم لما بلغه فتح طنجة واستيلاء السلطان عليها استأنف جده وأرهف حده وأخذ في تحريض العبيد وبني حسن على تجديد البعث والنهوض لاعتراض أخيه السلطان المولى عبد اللّه مرجعه من طنجة، فخرج كبير بني حسن يومئذ، وهو قاسم أبو عريف، يطوف في أحيائها ويستنفر جموعها، وخرج المولى المستضيء في لمة من وجوه العبيد إلى مشرع الرملة فجهز بها عشرة آلاف فارس من عبيده، ووافاه قاسم أبو عريف بمثلها من بني حسن، فكان مجموع الجيشين عشرين ألفاً سوى من انضاف إليهم، ثم ساروا لاعتراض السلطان، ولا علم له بهم.

وقدم المولى المستضيء أمامه الطلائع والعيون فعادوا إليه بخبر السلطان وأنه بائت تلك الليلة بدار العباس فصبحه المولى المستضيء في جموعه على حين غفلة منه، فلم يرع السلطان المولى عبد اللّه إلا نواصي الخيل مقبلة

إليه، فعبأ جيشه على عجل، وأقام الرماة حوالي المحلة، ثم صمد إليهم في الخيل، وأنشب القتال فلم تكن إلا ساعة حتى انهزم بنو حسن وولوا الأدبار، وكانوا ميمنة الجيش، وثبت المولى المستضيء والعبيد في الميسرة، فصمد إليه السلطان وصدقه القتال فهبت ريح النصر وتمت الهزيمة على المولى المستضيء وعبيده، ومروا على وجوههم لا يلوون على شيء، فجرد السلطان مع القائد أبي عزة صاحب الشربيل كتيبة من الخيل في أثرهم وتقدم إليهم أن لا يقتلوا أحداً من العبيد وإنما يجردونهم لا غير. فلم يقتل أحد من العبيد في هذه الوقعة، واستحر القتل في بني حسن فهلك منهم ما ينيف على الألف، وانتهب منهم أكثر من خمسة آلاف فرس ومن السلاح مثل ذلك، وهذه الوقعة هي التي خضدت شوكة بني حسن وفلت من غربهم، ونجى المولى المستضيء في فلهم وأقام بحلتهم ينتظر أن تدول له دولة لأنهم كانوا شيعته كأهل دكالة وأهل مراكش، وكان أخوه المولى الناصر خليفته على مراكش كما مر.

وقفل السلطان المولى عبد الله إلى فاس الجديد فاحتل بها وفرق المال على أخواله وعبيده وأسهم لأهل فاس، وأقام بدار الدبيبغ إلى أن دخلت سنة سبع وخمسين ومائة وألف فقدم عليه في شهر ربيع الثاني منها جماعة من قواد العبيد تائبين خاضعين متنصلين مما فرط منهم، فعاتبهم وقال لهم: «لا كلام اليوم بيني وبينكم حتى أقطع دابر بني حسن ومن معهم من شيعة المستضيء» ثم عفا عنهم وأعطاهم الراتب وأمرهم بالقدوم عليه إلى مكناسة بقصد غزو بني حسن، فعادوا إلى مشرع الرملة عازمين على ذلك، وأخذ هو في الاستعداد أيضاً، ونهض من فاس في جيش العبيد والودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع وعرب الغرب، ولما انتهى إلى مكناسة وافاه بها عبيد مشرع الرملة في وجوههم وأهل الحل والعقد منهم فجددوا التوبة واستأنفوا البيعة بمحضر القضاة والعلماء وأعطوا صفقة الطاعة من عند آخرهم، والله غالب على أمره.

نهوض السلطان المولى عبد اللّه إلى بلاد الحوز وتدويخه إياها وإجفال المولى المستضيء عنها

كان المولى المستضيء في هذه المدة مقيماً عند بني حسن كما قلنا، ولما بايع العبيد السلطان المولى عبد اللّه واجتمعت كلمتهم عليه خرج في طلبه وطلب شيعته من بني حسن، فسلك طريق الفج ليحول بين بني حسن والشعاب فصبحهم بسيط زبيدة وهم غارون، والمولى المستضيء بين أظهرهم، فلم يرعهم إلا الخيل تجوس خلال بيوتهم وتسوق أنعامهم وشاءهم وتنتهب أثاثهم ومتاعهم، فانفضوا في كل وجه وتفرقوا شذر مذر، وأفلت المولى المستضيء رحمه الله بجريعة الذقن، وتوزعت العساكر السبي.

وجاء بنو حسن يهرعون إلى السلطان طالبين عفوه فأمر بالكف عنهم ورد عليهم سبيهم وترك لهم خيلهم، ومضى إلى قبائل دكالة إذ اتصل به أن المولى المستضيء قد فر إليها، فلما نزل قصبة أبي الأعوان ونزلت عساكره أمامه بذلك البسيط من دكالة فر أهلها مع المولى المستضيء إلى التلول ونزلوا قرب دمنات، وشرعت عساكر السلطان في انتشال الحبوب من الأمراس واستخراج الدفائن من الهميل وتخريب القرى وتقطيع الأشجار، وكلما فرغت من ناحية انتقلت إلى غيرها متقلبة في ذلك البسيط نحو السنة، والسلطان مقيم بالقصبة إلى أن اكتسح أرض دكالة وتركها أنقى من الراحة ليس بها ما يأكله الطائر أو يتظلل الحائر، ثم انتقل إلى بلاد السراغنة ولما توسطها قدمت عليه وفودها ووفود سائر قبائل تلك الجبال بمؤوناتهم وهداياهم فقبلهم وعفا عنهم، ثم انتقل إلى ناحية دمنات ففر أهل دكالة، والمولى المستضيء أمامه إلى جبال مسفيوة فتحصنوا بها، وكانت مسفيوة قد

بايعته ودخلت في دعوته، فتقدم السلطان المولى عبد الله حتى نزل بوادي الزات فقدمت عليه هنالك عرب الرحامنة وزمران وسائر أهل الحوز، وكانوا متمسكين بطاعته، فنزلوا معه بالوادي المذكور، وعاثت العساكر في بلاد مسفيوة وأوسعوها نهباً وتخريباً، والحرب في ذلك كله قائمة مع المولى المستضيء على ساق، إلى أن صار وادي الزات أخرب من جوف حمار. ثم انتقل السلطان إلى وادي كجي فعاثت فيه العساكر على عادتها، وعجز أهل الدفاع فهدمت حصونهم وحرقت قراهم وقطعت أشجارهم، وصار وادي كجي أوحش من وادي الزات، فطلبوا الأمان وأعلنوا بالطاعة، وجاؤوا مستشفعين بصبيانهم. فقال لهم السلطان: «على شرط أن تأتوا بالمستضيء» فقالوا: «إنه قد فر بالأمس ولو كان عندنا لأتيناك به» فقبلهم وعفا عنهم. ثم جاء أهل دكالة بنسائهم وذراريهم وقالوا: «هذه نساؤنا وأولادنا لك، وأما المال فقد ذهب وما عندنا ما نقتاته فافعل بنا ما بدا لك» فعفا عنهم وأذن لهم في الرجوع إلى بلادهم. وكان ذلك أواخر سنة سبع وخمسين ومائة وألف.

ولما دخلت سنة ثمان وخمسين بعدها ارتحل عن بلاد مسفيوة ونزل بقصبة آلصم بإشمام الصاد زاياً وبها قدم عليه وفد مراكش كما يأتي:

وأما المولى المستضيء فإنه لما فر من مسفيوة قدم مراكش، وحاول الدخول إليها فصده أهلها عنها ورفضوا دعوته، وأعلنوا بنصر السلطان المولى عبد الله بمرأى منه ومسمع فلم يبق له حينئذ بمراكش مطمع، وكان أخوه المولى الناصر قد مات يومئذ فأخرجوا إليه أثاثه فتسلمه منهم وكر راجعاً إلى بلاد الفحص، فلم يزل تلفظه أرض إلى أرض إلى أن احتل بطنجة قانعاً من الغيبة بسلامة المهجة وسيأتي تمام خبره بعد إن شاء الله.

وفادة أهل مراكش على السلطان المولى عبد الله بآلصم واستخلافه ولده سيدي محمداً عليهم

لما طرد أهل مراكش المولى المستضيء عن بلادهم تآمروا فيما بينهم وأجمعوا الدخول في طاعة السلطان المولى عبد الله وعينوا جماعة من وجوههم وأوفدوها عليه وهو بقصبة آلصم فانتهوا إليه وقدموا بيعتهم، وأخبروه بما كان من المولى المستضيء وما عاملوه به من الصد والإبعاد فقبلهم وعفا عنهم بعد العتاب، ثم طلبوا منه هم وقبائل الحوز أجمع أن يطأ بلادهم ويدخل مصرهم فوعدهم بذلك، ولم يبرح من مكانه إلى أن وفدت عليه قبائل الدير كله، فلما تفقد الجيش الذي خرج به من مكناسة وجد أكثره قد فر ولم يبق معه من العسكر المخزني إلا النصف، وأما القبائل فلم يبق معهم منه إلا أعيانهم في الأخبية لطول الغيبة وكثرة الحروب وقلة الزاد، فلم يمكنه التقدم إلى مراكش على تلك الحال، وإنما تألفهم بأن دفع لهم ولده المولى محمداً رحمه الله وقال لهم: «إني استخلفته عليكم» فرضوا به وقرت أعينهم، فكان ذلك أول ما انغرست شجرة الدولة العلوية بمراكش حتى صارت حضرتها ودار ملكها بعد أن كانوا لا يبغون بمكناسة بدلاً.

ثم بعث السلطان ولده المولى أحمد وكان أسن من المولى محمد خليفة عنه برباط الفتح، وأضاف إليه قبائل الشاوية وبني حسن، ثم أذن السلطان لعامل فاس عبد الخالق عديل في الرجوع إلى فاس فمرض بالطريق ومات بعد أن دخل فاساً ودفن بزاوية سيدي عبد القادر الفاسي.

ثم رجع السلطان إلى مكناسة على طريق تادلا بعد أن أقام ببلاد الحوز سنة كاملة فقدمها في شهر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين ومائة وألف، ولما شارف مكناسة لم يدخلها ونزل بقصبة أبي فكران، فقدم عليه بها جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الريفي وولداها منه. فقدمت هدية عظيمة، فقبض السلطان الهدية وقتل الولدين ومن

معها من أهل الريف، ثم قتل معهم ثلاثمائة من بني حسن كانوا قدموا عليه للتهنئة، فكان ذلك سبب نفرة الناس عنه، فساءت عنه الأحدوثة وكثرت القالة من الجيش والرعايا حتى في الأسواق، وانقبض الناس عنه حتى أهل فاس فضلاً عن غيرهم.

مكر السلطان المولى عبد اللّه بأعيان البربر وإخفار ذمة محمد واعزيز فيهم ثم إطلاقهم بعد ذلك

لما صدر من السلطان المولى عبد اللّه ما صدر من قتل أهل الريف وبني حسن وانقباض الناس عنه، انقبض في جملتهم البربر فلم يأته منهم أحد، وكانوا قد حرثوا بأحواز مكناسة، فلما أدرك زرعهم أمر السلطان العبيد بانتهابه، فعمدوا إليه وحصدوه ودرسوه وأكلوه، فازدادت نية البربر فيه فساداً.

ولما رأى انقباضهم عنه كاتب كبيرهم محمداً واعزيز وكانت بينهما خلة ومصافاة حتى كان يقول له: «أنت أبي» إذ كان محمد واعزيز هذا هو الذي حشد له جموع البربر وشايعه على عدوه أحمد الريفي حتى قتله، فكتب إليه يلومه على انقباضه عنه وتخلف قبيله عن الحضور ببابه مع أنهم شيعته ومواليه، فلما ورد عليه كتاب السلطان لم يسعه التخلف عن إجابته، واستشار في ذلك قومه فلم يوافقوه فراجعهم، فقالوا: «ألا ترى إلى ما وقع بمن وفد عليه من غيرنا» فقال: «لا ترون إلا الخير» ولم يزل بهم حتى غلبهم على رأيهم، وتفرقوا عنه لجمع الهدية وتعيين الوفد فجمعوا من ذلك ما قدروا عليه ثم أتوه فأعادوا عليه القول وحذروه الغدر، فقال: «هذا لا يكون ولستم مثل أولئك»، فما وسعهم إلا إجابته، وأقبلوا معه حتى انتهوا إلى قصبة أبي فكران حيث هو السلطان، فاجتمعوا بالحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري فلما رآهم بهت، وتحركت منه الرحم البربرية لكنه لم

يمكنه ردهم بعد بلوغهم إلى ذلك المحل، وكانوا نحو المائة، كلهم أعيان فترجلوا عن خيولهم ووضعوا أسلحتهم، ثم دخلوا على السلطان المولى عبد اللّه فوجدوه جالساً على كرسيه بوسط القلعة، فأدوا واجب التحية فأجابهم وأمرهم بالجلوس فجلسوا بين يديه، ثم دخل الحرس والزبانية فوقفوا على رؤوسهم وأحاطوا بهم، وأخذ السلطان في معاتبتهم على ما يرتكبونه في الطرقات والغارات على المستضعفين من الأعراب وغيرهم وانتهاب بضائع التجار، وما كانوا يعاملون به عساكر الملوك من النهب والسلب، وعدد عليهم الحسائف القديمة والأفعال الذميمة، ثم أمر الحرس بالقبض عليهم فانقضوا عليهم انقضاض العقبان، ولم يكن بأسرع من أن ألقوا بين يديه مقرنين في الحبال، ولم يقبض على محمد واعزيز من بينهم، فقال له: «يا مولانا أغدراً بعد أمان ولست من أهله؟» فقال له: «إن هؤلاء القوم قد حادوا عن الدين وحل مالهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة وشقهم عصا الجماعة وقد أعياني أمرهم وما عدت إلى هذا الأمر بعد خروجي منه إلا من أجلهم، أردت أن أقابل هذا التيس الأسود: «يعني العبيد» بهذا الكبش الأبيض «يعني البربر» وأستريح من غصة من هلك منها وأتمسك بالآخر، ولولا أنك بمنزلة والدي ما أطلعتك على ما في ضميري فقم في حفظ الله ولا بأس عليك» فقال محمد واعزيز: «والله لا أقوم ولا أكون إلا مع إخواني حيثما كانوا فإن هلكوا هلكت معهم ويكون لك غدرك، وإن سلموا سلمت معهم ولا يتحدث الناس أني سقتهم إلى الذبح ورجعت أنا سالماً، فبأي وجه أسير إلى أولادهم؟ وأي أرض تحميني من عشيرتهم؟ وإلى أين أقصد؟ فإن كان لا بد من القتل فقتلك لي معهم أجمل بي، ولا إثم عليك في ذلك ولا عار، لأني أنا الذي سقتهم إليك وأرحتهم عليك بعد أن عرضوا عليّ هذا كله فلم أقبل منهم» فلما سمع السلطان هذا الكلام العالي وتمكنت منه صولته الحقة جعل يتدبره ثم التفت إلى الحاجب عبد

الوهاب وقال: «يا عبد الوهاب لا خير في الرجل يقول للرجل أبة ثم لا يشفعه في جماعة من قبيلة خلوا عنهم». فسرحوهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور فركبوا خيلهم وساروا إلى حلتهم ولسان حالهم ينشد ما قاله الأعرابي الذي بال بواسط فضربه الحجاج وسجنه ثم أطلقه:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرئنا وبلنا لا نخاف عقابا

زحف البربر إلى السلطان المولى عبد الله بأبي فكران وفراره إلى مكناسة

لما خلص جماعة البربر إلى حلتهم أقبلوا على محمد واعزيز وعاتبوه على ما حملهم عليه من الوفادة على السلطان والقرب منه حتى جرى عليهم ما جرى، مع أنهم كانوا في غنى عن ذلك كله، وقالوا له: نحن متنا وبعثنا ولابد لنا من الأخذ بالثأر» فقال: «شأنكم وما تريدون» فخلصوا نجياً، وتفاوضوا في شأنهم إلى أن أجمع رأيهم على غزو السلطان لمضي ثلاث ومن تخلف عنها أحرقت خيمته، فقال لهم محمد واعزيز: «إياكم والطرقات ثم افعلوا ما بدا لكم» فتفرقوا لحللهم واستعدوا للحرب، وأقبلوا في اليوم الرابع يجرون الشوك والمدر فلم يرع السلطان، وهو بأبي فكران إلا الرايات قد أطلت عليه من الحاجب، والخيل تسيل بها الأودية والشعاب، فلم يسعه إلا أن حمل أثقاله وأركب عياله وجعلهم أمامه مع رحى من رماة المسخرين وأردفهم رحى أخرى من الخيل، ثم تلاهم هو في موكبه وردفته رحى ثالثة من خيل العبيد جاءت من خلفه، وانحدر في بطن الوادي وتفرق الجند عن يمين الوادي ويساره وسار السلطان على هذه التعبية، وكلما دفعت خيل البربر على المسخرين من الجند أطلقوا عليهم شؤبوباً من الرصاص فيسقط منهم الأربعون والخمسون، وإذا دفعت خيلهم على رحى الخيل فكذلك، وعلى موكب السلطان فكذلك، وهكذا إلى أن دخل باب القزدير فاحتل بمكناسة،

وهلك من العبيد في هذه الوقعة نحو الثلاثمائة، ومن البربر على ما قيل نحو الخمسمائة، وجمعوا قتلاهم فكفنوهم في أخبية العبيد إذ كانت بأيديهم ولم يرجعوا بسوى ذلك، وكانت هذه الوقعة أواسط سنة تسع وخمسين ومائة وألف.

واعلم أنه قد وقع هنا لفظ الرحى ولفظ المسخرين وغير ذلك، وهي ألقاب لطوائف من جيش هذه الدولة السعيدة فلا بد من بيان الاصطلاح في ذلك تتميماً للفائدة فنقول: إن الجيش السلطاني اليوم بهذه الدولة الشريفة ينقسم أولاً إلى ثلاثة أقسام: أصحاب ومسخرين وجيش. فأما الأصحاب فهم: طائفة من الجند تلازم السلطان حضراً وسفراً لا يفارقونه بحال، وهم أرباب الوظائف المخزنية، منهم الكتاب الذين هم إلى نظر الوزير الأعظم، ومنهم أرباب الفراش، ومنهم القهارمة القائمون على طعام السلطان وشرابه، ومنهم أرباب الوضوء، وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم، وكل طائفة برئيسها. وأما المسخرون فهم: ملازمون للسلطان حضراً وسفراً أيضاً، وشأنهم أن يكونوا فرساناً في الغالب، وقد يكون فيهم الرماة، وهم أهل الشوكة والغناء، وهم الموجهون في المهمات لأن عليهم المدار في الأمور المخزنية كما يقتضيه تسميتهم بالمسخرين، وإذا ركب السلطان في سفر أو نحوه انقسموا قسمين، فالعبيد منهم يكونون خلفه لأنهم الموالي، والودايا وشراقة يكونون أمامه. وأما الجيش فهو: أصل الجميع كما يقتضيه لفظه ومنه تنتخب الطوائف السابقة وهو عسكر السلطان الذي يحويه ديوانه إلا أن معظمه يكون متفرقاً في حلله وبلاده إلا إذا أراد السلطان غزواً فيوجه على ما يحتاج إليه منه، أما الجميع أو البعض ويكون ذلك مناوبة على ما هو معروف عندهم. وأما الرحى فهي: عبارة عن ألف من الجيش خيلاً أو رماة وربما زادت أو نقصت بحسب ما يتفق والله أعلم.

شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وانتقاله إلى فاس وانتقال عبيد الديوان من مشروع الرملة إلى مكناسة

لما وصل العبيد الذين كانوا مع السلطان المولى عبد الله بأبي فكران إلى مكناسة واجتمعوا بإخوانهم الذين كانوا هنالك تكلموا بما في أنفسهم على السلطان من الغيظ ونفثوا بما في صدورهم عليه من الإحنة، وقالوا إنه قد قال لمحمد واعزيز: «أردت أن أصدم هذا التيس الأسود بهذا الكبش الأبيض» ودارت بينهم هذه الكلمة وأخذت منهم كل مأخذ، وقالوا: «لم يبق لنا شك في أن هذا الرجل لا غرض له إلا في هلاكنا فانظروا لأنفسكم أو دعوا» ثم كتبوا إلى عبيد الديوان يخبرونهم بما صدر من السلطان في جانبهم ويستشيرونهم في أمره، فجاء بعض عيون السلطان من عبيد مكناسة إليه وأخبروه بما دار بين العبيد، وبما كتبوا به إلى أهل الديوان فطير السلطان بالكتابة إلى ودايا فاس الجديد يقول لهم: «إن كانت لكم حاجة بابن أختكم عبد الله فاقدموا عليه الساعة» ثم أخذ في جمع أثاثه وتنضيده وحمل ماله وشده وإسراج خيله وإنهاض رجله، وقال لخاصته: «غداً إن شاء الله نرجع إلى أبي فكران» فلما كان وقت العشاء وصل إلى باب القزدير من جيش الودايا أربعمائة فارس فأخرج إليهم السلطان أثاثه وماله وعياله، ثم ركب في خاصته وأسروا ليلتهم ولم يصبحوا إلا بفاس الجديد فدخل السلطان داره وأمن على نفسه. وأما عبيد الديوان فإنه لما بلغهم كتاب إخوانهم الذين بمكناسة وقرؤوه قالوا: «إنه لا يجمل بنا المقام في وسط بني حسن لا تنفع إخواننا ولا ينفعوننا» فأجمعوا الرحيل والانتقال إلى مكناسة، وبعد ثلاث انتقلوا إليها وأعروا مشروع الرملة، واستراحت تلك البلاد من عيثهم لا سيما سلا وأحوازها فإنهم كانوا قد أشجوا أهلها ولاقوا منهم عرق القربة.

ولما وصلوا إلى مكناسة نزلوا بالمدينة وبالقصبة وبالإصطبل وبريمة وبهدراش وبالرحاب التسعة فملؤوها واجتمعوا بإخوانهم واطمأن جنبهم.

ولما كان عيد الفطر من سنة تسع وخمسين ومائة وألف قدم على السلطان بفاس جماعة من قوادهم مع القاضي والفقهاء والأشراف من أهل مكناسة فحضروا معه العيد على العادة وطلبوا منه أن يرجع إلى مكناسة وتنصلوا مما بلغه عنهم واعتذروا إليه، فوعدهم الرجوع وأعطاهم مالاً وانصرفوا إلى منازلهم. ولما كانوا بالجديدة قرب مكناسة اعترضهم البربر وجردوهم وأخذوا ما معهم ولم يتركوا إلا القاضي أبا القاسم العميري على بغلته، وأصبح الوفد على باب مكناسة عراة ينظر بعضهم إلى بعض.

إجلاب محمد واعزيز على السلطان المولى عبد الله وانتقاض أهل فاس والقبائل عليه

لما رجع البربر إلى بلادهم من وقعة أبي فكران كتب كبيرهم محمد واعزيز إلى أهل فاس يتظلم من السلطان المولى عبد الله ويخبرهم بما اتفق له معه من إخفار ذمته وعزمه على الفتك بإخوانه ويدعوهم مع ذلك إلى أن يكونوا معه يداً واحدة، فأجابوه إلى ذلك ودخلوا في حزب البربر. ثم كتب واعزيز بمثل ذلك إلى عرب الغرب من سفيان وبني مالك، وكبيرهم يومئذ حبيب المالكي، فقالوا: «نحن لكم تبع وحربنا حربكم وسلمنا سلمكم» وانتقضت الفتوق على السلطان من كل جهة وهاجت الحرب بين الودايا وأهل فاس، وبعد أيام ورد الخبر بأن ركب الحاج قد وصل إلى تازا، وهو محصور بها، فاستغاث أهل فاس بالبربر ليأتوهم بإخوانهم، فجردوا منهم خمسمائة من الخيل إلى تازا، فمروا في طريقهم بغرب الحياينة فانضموا إليهم ودخلوا في حزبهم وصاروا بأجمعهم إلى تازا فخلصوا الركب الذي بها وقدموا بهم إلى فاس، فدخلوا على باب الفتوح ونزل البربر والحياينة بالزيتون، ودخل

جماعة منهم المدينة لقضاء أغراضهم.

وفي أثناء ذلك أغار عليهم الودايا ففضوهم وقتلوا منهم كثيراً، فأمرهم السلطان أن يعلقوا رؤوسهم على سور قصبة شرافة ففعلوا، ثم بدا لأهل فاس في مراجعة طاعة السلطان فبعثوا إليه في ذلك، فأجابهم بأن يقدموا عليه فخرج إليه العلماء والأشراف والأعيان، فلما مثلوا بين يديه عدد عليهم أفعالهم ووبخهم وشرط عليهم شروطاً منها أن يعطوه زرع أهل الغرب المخزون عندهم وأن يهدموا دورهم ويبنوا بأنقاضها دار الدبيبغ، ويختاروا إحدى خصلتين إما أن يكونوا جيشاً وإما أن يكونوا نائبة، فقالوا: «نجتمع على هذا الأمر مع إخواننا ويكون الجواب». ولما رجعوا من عنده أغلقوا أبواب مدينتهم وقالوا: «لا نقبل شيئاً من ذلك كله» وعادت الحرب جذعة وارتفعت الأسعار وعظمت الأخطار. وفي سابع ذي الحجة من سنة تسع وخمسين ومائة وألف نهب عامة فاس قفاطين المخزن التي كانت بفندق النجارين على يد الأمين الحاج الخياط عديل وأرادوا مصادرته على مال المخزن الذي عنده فافتدى منهم بثلاثة آلاف مثقال فأطلقوه بعد القبض عليه، وكانت القفاطين ثلاثة آلاف قفطان فرقوها على رماتهم يعيدوا بها عيد الأضحى، واستمرت الحرب بينهم وبين الودايا وسائر شيعة السلطان إلى أن دخلت سنة ستين ومائة وألف.

وفي أوائل جمادى الأولى منها قدمت قبائل البربر وقبائل الغرب لمشايعة أهل فاس على حرب السلطان، فنزل محمد واعزيز في بربره بجبل أطغات، ونزل حبيب المالكي في أهل الغرب وطليق والخلط بدار الأضياف، وانجحر الودايا بفاس الجديد والعبيد بقصبة شراقة، والسلطان بدار الدبيبغ، وضاق الخناق على السلطان وشيعته، ومن الغد ركب حبيب في عربه وزحف إلى السلطان بدار الدبيبغ والبربر على أثره. ولما وصل إلى حزيمها بلغه أن البربر قد نهبوا محلته فرجع منهزماً وعبر الوادي وتوجه إلى بلاده، وأما البربر فإنهم

لما فرغوا من محلة أهل الغرب أجلوا إلى سايس، ويقال: إن السلطان دس بالليل إلى محمد واعزيز بمال على أن يخذل عنه هذه الجموع ويفرقها، ففرقها بنهب محلة أهل الغرب وبجبهة العير يفدي حافر الفرس، ولما انقضت هذه الجموع إلى بلادها بقي أهل فاس في القتال والحصار سنتين وزيادة كما سيأتي، وبعثوا في أثناء ذلك إلى المولى المستضيء المقيم بأحواز طنجة ليقدم عليهم فيبايعوه وتجتمع كلمتهم عليه فرد رسلهم بمخ العرقوب ووعد عرقوب.

ذكر السبب الذي هاج بعث السلطان المولى عبد الله الجيوش إلى أهل الغرب ومراجعتهم طاعته

وفي سنة ستين ومائة وألف أثناء حرب الودايا لأهل فاس قدم جماعة من عرب بني حسن على السلطان المولى عبد الله شاكين إليه عرب الغرب، وأنهم لما انقلبوا راجعين بجموعهم إلى بلادهم مروا بحلة بني حسن فأغاروا عليها وانتهبوها، فحركوا من السلطان ما كان كامناً في صدره عليهم، وبعث إليهم جيشاً كثيفاً من العبيد والودايا وأمرهم بالفتك بأهل الغرب ونهب أموالهم وأن لا يبقوا لم على سيد ولا لبد، فخرج الجيش يؤم بلاد الغرب فنذروا به وانجفلوا أمامه عن بلادهم وتبعهم طليق والخلط فأرزوا إلى مدينة العرائش وتحصنوا بسورها، فتبع الجيش آثارهم حتى نزل عليهم بها وحاصرهم ثلاثة أشهر هلكت فيها ماشيتهم جوعاً، وبعقب ذلك وردت عليهم جماعة من الودايا بأمان السلطان ومصحفه وسبحته، فعاهدوهم على ذلك وأفرج الجيش عنهم وخرجوا مع الودايا فقدموا على السلطان بهديتهم فعفا عنهم، وولى عليهم كبيرهم حبيباً المالكي وأضاف إليه قبائل الجبل كلها، وأما الجيش الذي كان على العرائش فإنهم لما قفلوا باتوا بقصر كتامة فضيفهم أهله بما قدروا عليه من الطعام والعلف ومن الغد دخلوا القصر فاستباحوه ونهبوا وسبوا وقتلوا وفعلوا الأفاعيل العظيمة، واستمروا على ذلك

ستة أيام، وكان الحادث عظيماً، وعز ذلك على الناس كلهم وتأسفوا له وكان ذلك في محرم سنة إحدى وستين ومائة وألف.

زحف البربر إلى الودايا
ومظاهرة أهل فاس لهم عليهم

لما كان جمادى الثانية من سنة إحدى وستين ومائة وألف عزم السلطان المولى عبد اللّه على غزو البربر فخرج من فاس الجديد حتى أتى أبا فكران فعسكر به ظناً منه أن العساكر ستقدم عليه هنالك كما هي العادة فلم يأته أحد، فبعث إلى العبيد يستنفرهم لغزو البربر فقالوا: «حتى يأتي الودايا والقبائل ونأتي نحن أيضاً» ولما رأى تثاقل الناس عنه عاد إلى منزله وأعرض عما كان هم به. ولما سمع البربر برجوعه عنهم طمعوا فيه وأجمعوا غزوهم فقال لهم محمد واعزيز: «الرأي أن ننزل بسايس ونحول بينه وبين العبيد حتى لا يصل إليهم ولا يصلوا إليه» فأقبلوا حتى نزلوا ببسيط سايس، ثم تقدمت جموعهم حتى شارفوا مزارع فاس الجديد فأغاروا على الودايا ونهبوا ماشيتهم وزروعهم وضيقوا عليهم ثم وصلوا أيديهم بأهل فاس فدخلوا مدينتهم وتسوقوا بها فباعوا واشتروا عشرة أيام وانقلبوا إلى أهلهم فاكهين.

وفي أول رجب من السنة المذكورة ورد الخبر بأن أهل الريف قد قبضوا على المولى المستضيء المقيم ببلادهم ونهبوا خيله وأثاثه وماله وثقفوه حتى يدفعوه لأخيه المولى عبد اللّه لأنه كان قد اشتغل بظلم الناس بالفحص وطنجة، وقبض على القائد عبد الكريم بن علي الريفي وهو أخو أحمد بن علي المتقدم الذكر فأخذ ماله وسمل عينيه، وأما أهل تطاوين فلم يبايعوه ولا عرجوا عليه، وفي شعبان أحرق الودايا باب المحروق ليلاً ففطن لهم الحرس ودافعوهم عن الباب ومن الغد ركبوا به أبواباً جدداً.

مراجعة أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد اللّه وانعقاد الصلح بينهم وبين الودايا

لما طال الحصار على أهل فاس وأضرت بهم معاداة جيرانهم من الودايا وسئموا الحرب راجعوا بصائرهم وجنحوا للسلم وطاعة السلطان فاتفق أن كان عندهم رجل من أشراف تافيلالت فأرسلوه إلى السلطان واسطة بينهم وبينه، وبعثوا معه كتاباً بالاعتذار والتوبة فقبل السلطان ذلك وسر به ووقع منه الموقع، وكتب إليهم ينفي ظنونهم ويسل سخائمهم ويقسم لهم أنه لم يأمر بحربهم ولا إضرارهم قط، وإنما فعل ذلك الودايا من قبل أنفسهم، فلما وصل إليهم كتاب السلطان بذلك طابت نفوسهم وفرحوا وعينوا جماعة من فقهائهم وأشرافهم وأهل الخير منهم فأوفدوها على السلطان بمكناسة في شوال من السنة المذكورة ففرح بهم وأكرمهم، وصرح لهم بالعفو والرضا عنهم، فاغتبطوا بذلك، وانقلبوا إلى أهلهم فرحين مستبشرين. ثم كان الصلح بينهم وبين الودايا بضريح المولى إدريس رضي الله عنه وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار سنتين وثلاثة أشهر، وكان ذلك في ذي القعدة من سنة إحدى وستين ومائة وألف، ولما حضر العيد قدموا على السلطان وهو بمكناسة بالخبر وعادوا به خوفاً من البربر.

خروج العبيد على السلطان المولى عبد الله وبيعتهم لولده سيدي محمد والسبب في ذلك

لما راجع أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله واصطلحوا مع الودايا وهدأت الفتنة ساء البربر ذلك وكرهوه، وبلغهم مع ذلك أن السلطان قد استنفر العبيد لغزوهم فاحتالوا في تفريق الكلمة على السلطان بأن أخذوا في شن الغارات على العبيد بمكناسة والتضييق عليهم واختطاف أولادهم من البحائر والجنات، فراسل العبيد البربر في المسألة والصلح فقالوا لهم: «إن السلطان أمرنا بهذا» فلما سمع العبيد ذلك منهم لم يشكوا في صدقهم بسبب ما كانوا أسلفوه من التقاعد عن السلطان والتثاقل عن النهوض معه لغزو البربر حتى عاد إلى منزله بعد المعسكرة بأبي فكران كما مر، ثم اتفق رأي العبيد على الفتك بالسلطان واغتياله، ونما إليه ذلك منهم فخرج فاراً من مكناسة إلى دار الدبيبغ فاستقر بها، وكان ذلك في صفر سنة اثنتين وستين ومائة وألف.

ولما ضاق العبيد ذرعاً بفعل البربر كاتبوهم في الصلح فأجابوهم إليه على شرط أن يبايعوا سيدي محمد بن عبد الله فبايعوه بمكناسة وبعثوا إليه ببيعتهم وهو بمراكش مع جماعة من أعيانهم، وخطبوا به بمكناسة وزرهون والسلطان بدار الدبيبغ لا يملك من أمره شيئاً، ولما قدم وفد العبيد على سيدي محمد بن عبد الله رد بيعتهم وعاتبهم على ما ارتكبوه في حق والده وتألفهم بشيء من المال وأعرض عن الخوض في أمر البيعة، إذ كان رحمه الله باراً بوالده ساعياً في مرضاته، وبعث إليه في صفر من هذه السنة بهدية قدرها على ما قيل ثلاثون ألف مثقال، فرجع وفد العبيد من عند سيدي محمد وقد أيسوا من إجابته إياهم، ومع ذلك استمروا على الخطبة بمكناسة وزرهون.

ثم إن السلطان المولى عبد الله رحمه الله لما رأى أن القلوب قد نفرت عنه وأن العبيد والبربر قد امتدت عيونهم إلى ولده سيدي محمد وتعلقت آمالهم به تلافى أمره، وأخذ في استصلاح الرعية وتألفها، فأمر في شعبان من السنة المذكورة، بأن ينادى بأسواق فاس على العبيد الذين بها من لم يحضر إلى دار الدبيبغ لوقت كذا فلا يلومن إلا نفسه، فحضر العبيد الذين بفاس كلهم فأعطاهم خمسة دنانير لكل واحد، وقال لهم: «ابعثوا إلى إخوانكم الذين بمكناسة فمن أتى منهم إلى قبض مثل ما قبضتم» فكتبوا إليهم فلم يزدهم ذلك إلا نفوراً، وبعثوا إلي البربر الذين بسايس يقولون لهم: «كل من صادفتموه منا متوجهاً إلى فاس فاقتلوه» وأعلنوا بخلع السلطان.

ثم استدعى السلطان بعد ذلك محمد واعزيز كبير البربر ووعده ومناه فقدم عليه في إخوانه في رمضان فأعطاهم عشرة آلاف دينار، وحضر العيد فقدموا عليه أيضاً فأعطاهم عشرة آلاف أخرى، وأعطى الودايا عشرة آلاف أيضاً، وأعطى أهل فاس مثل ذلك، ولج العبيد في نفورهم وركبوا رأسهم في جماحهم عن السلطان والقرب منه.

مجيء سيدي محمد بن عبد الله من مراكش إلى مكناسة وتوسطه للعبيد في الصلح مع والده رحمهما الله

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة وألف ففي أواخر جمادى الأولى منها قدم المولى محمد بن السلطان المولى عبد الله من مراكش إلى مكناسة فوجد العبيد لا زالوا يخطبون به فعاتبهم على ذلك، وقال لهم: «إني بريء منكم ومن فعلكم هذا وإنما أنا خديم والدي» فتركوا الخطبة وراجعوا بصائرهم وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم في طاعته، وكانت هذه هي البيعة السابعة للعبيد مع السلطان المولى عبد الله لأنهم خلعوه قبلها ست مرات

حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى.

ولما تم لسيدي محمد مع العبيد ما أراد من مراجعتهم طاعة والده ارتحل من مكناسة في جيشه الذي قدم به من الحوز، وكان نحو أربعة آلاف واستصحب معه جماعة من أعيان العبيد، وقدم على والده بدار الدبيبغ فخرج الودايا وأهل فاس لملاقاته وفرحوا بمقدمه، ولما دخل على والده أدى التحية وأهدى إليه هدية نفيسة وشفع للعبيد عنده فشفعه فيهم، وقال له: «لا تبت هنا» فقال: «نعم يا سيدي» ولم يبت إلا برأس الماء وأصبح غادياً إلى مراكش، ثم حضر العبيد فقدم على السلطان جماعة من جروان وبني مطير فأعطاهم عشرين ألف مثقال، وقدم عليه قواد العبيد من مكناسة فلم يعطهم شيئاً.

وفي هذه السنة توفي المولى أحمد ابن السلطان المولى عبد الله بفاس ودفن بقبور الأشراف رحمه الله.

انحراف العبيد ثانية عن السلطان المولى عبد الله والتجاؤهم إلى ابنه سيدي محمد بمراكش والسبب في ذلك

لما أعطى السلطان المولى عبد الله بني مطير وجروان عشرين ألف مثقال وحرم العبيد قامت قيامتهم وقلبوا للسلطان ظهر المجن، واتفقوا على الذهاب إلى ابنه سيدي محمد بمراكش فقدموا عليه في ذي القعدة سنة أربع وستين ومائة وألف، وقالوا له: «إما أن تكون سلطاننا وإما أن نبايع عمك المولى المستضيء» وشكوا إليه إهمال والده جانبهم وقالوا له: «إنه أعطى البربر أعداء الدولة وحرمنا» فرضخ لهم بشيء من المال طيب به نفوسهم، وكتب لهم كتاباً إلى والده يستعطفه لهم، وانقلبوا من عنده مسرورين.

وأما السلطان المولى عبد اللّه فإنه لما سمع بذهاب عبيد مكناسة إلى مراكش أعطى الودايا عشرة آلاف ريال، وأعطى العبيد الذين معه ثلاثة آلاف ريال، ولما قدم عبيد مكناسة على السلطان بكتاب ابنه سامحهم وأعطاهم عشرين ألف ريال وتم الصلح بينهم وبينه وعادوا إلى مكناسة مغتبطين.

وفي هذه السنة بعث سيدي محمد من مراكش بهدية إلى والده مع جماعة من أصحابه فأثنى عليه خيراً ودعا له به، وفيها ورد الخبر بأن أهل تطاوين قتلوا عاملهم أبا عبد اللّه الحاج محمداً تميم، ثم قدم جماعة منهم على السلطان معتذرين من قتله، فقال لهم: «أنتم وليتموه عليكم وأنتم قتلتموه فاختاروا لأنفسكم» فوقع اختيارهم على أبي عبد اللّه الحاج محمد بن عمر الوقاش فولاه عليهم وانصرفوا إلى بلدهم.

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف فيها قدم أهل تطاوين على السلطان المولى عبد اللّه لحضور عيد المولد الكريم وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون ألف مثقال، وقدم بصحبتهم باشدور الإصبنيول ومعه مائة ألف ريال وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكاك أسرى جنسه، فقبض السلطان المال وقال للباشدور: «حتى تأتوا بأسرى المسلمين» وأعطى العبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد وأعطى نساءهم مثل ذلك، وكانوا ألفين ومائتين.

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة وألف فيها قدم عبيد مكناسة على السلطان لحضور العيد فأعطاهم عشرة آلاف ريال، وفيها نهض أهل فاس لشراء الخيل والعدة والإكثار منها.

وفيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين جنس الإصطادوس، وهم سبع قبائل من الفلامنك، وهي اثنان وعشرون شرطاً مرجعها إلى عقد الأمان والصلح بين الإيالتين، وأن يجعل جنس الإصطادوس قنصلاً أو أكثر بالبلد الذي يختاره من بلادنا، ويكون يعطي خط يده المسمى بالباصبورط لمن

يسافر من مراكبنا إلى جهة بلادهم، وكذلك هم أيضاً إلى غير ذلك.

وفي هذه السنة أو ما يقرب منها أغار نصارى الجديدة على آزمور واقتحموا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلاً وقتلوا به عدداً كثيراً من أهل آزمور نحو الخمسين، وكانت الليلة ليلة جمعة، وعادة أهل آزمور أن يبيتوا ليلة الجمعة بضريح الشيخ المذكور، فنما ذلك إلى النصارى الذين بالجديدة فجاؤوا مستعدين حتى اقتحموا عليهم على حين غفلة وأطفؤوا المصابيح ووقع القتل حتى كان المسلمون يقتل بعضهم بعضاً ورجع النصارى عودهم على بدئهم.

وذكره لويز مارية مؤرخ الجديدة فقال ما ملخصه: «وفي ليلة الثاني عشر من نوفمبر سنة اثنتين وخمسين وسبع عشرة مائة مسيحية خرج عشرة من برتغال الجديدة وقصدوا آزمور حتى دخلوا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلاً وقتلوا هنالك أربعين من المسلمين وقامت الهيعة بالبلد وتسابقوا إليهم على الصعب والذلول فرجع النصارى من حينهم وأدركهم المسلمون بالطريق فجرحوا بعضهم ونجوا بعد مشقة فادحة» هكذا زعم لويز وأن النصارى كانوا عشرة فقط وأهل آزمور يزعمون أنهم كانوا أكثر من ذلك بكثير والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة وألف فلم يكن فيها حدث في الدولة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين بعدها فيها توفي محمد واعزيز كبير آيت أدراسن ووازعها الذي كانت تقف عند إشارته وتجري أمورها على مقتضى إدارته.

فتنة آيت أدراسن وكروان مع الودايا والسبب في ذلك

لما مات محمد واعزيز لم يبق بآيت أدراسن من يقوم فيها مقامه فهاجت الفتنة بينهم وبين جروان، فزحفوا إلى كروان وأوقعوا بهم فانهزمت كروان أمامهم ولجؤوا إلى دار الدبيبغ معتصمين بها ومستجيرين بالسلطان الذي بها، وضاق بهم رحب الفضاء وعدموا المرعى فشرعوا في بيع مواشيهم فبلغت البقرة بسوق فاس خمس أواق والشاة أوقية، فأمر السلطان المولى عبد الله الودايا بنصرتهم وآخى بينهم وبينهم، وعقد لهم حلفاً مؤكداً معهم فقاموا لحمايتهم والدفاع عنهم، وأنشبوا القتال فكانت الهزيمة على آيت أدراسن، ففرت خيلهم ومقاتلتهم وانكسرت حلتهم وقتلوا في كل وجه ومن سلم منهم لجأ إلى بلاد شراقة فاستجار بها، فكان عدد من قتل منهم بتلك الوقعة نحو الخمسمائة، وهذا سبب حلف الودايا مع جروان.

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة وألف فيها قدم على السلطان المولى عبد الله عبيد مكناسة ورغبوا إليه في الذهاب معهم إليها إذ هي دار ملكه وملك أبيه من قبله فقال لهم: «كيف أذهب معكم وفي وسطكم فلان وفلان؛ لجماعة سماهم منهم كانوا منحرفين عنه فرجع العبيد إلى منزلهم، ولما جن الليل طرقوا أولئك المسلمين وأمثالهم في رحالهم فقتلوهم إرضاء للسلطان وتطييباً لنفسه. وكان منهم القائد محمد السلاوي، والقائد سليمان بن العسري، والقائد زعبول وغيرهم».

ولما بلغ السلطان ذلك بعث إليهم بأربعين ألف مثقال راتباً وصرفهم إلى مكناسة وقال لهم: «إذا فرغت من عملي أتيتكم».

وفي هذه السنة أيضاً قدم عليه القائد أبو عبد الله محمد الوقاش في أهل تطاوين بهدية فيها ألف ريال وبأسارى وسلع من سلع النصارى غنمتها قراصينهم، فأكرمه السلطان وأعطاه جاريتين وانقلب إلى أهله مسروراً.

وفيها قدم على السلطان أخوه المولى أبو الحسن المخلوع بدار الدبيبغ

فأعطاه مالاً وأثاثاً قيمته عشرة آلاف مثقال وخيره بين تافيلالت ومكناسة، فاختار مكناسة فأعطاه مستفاد مكسها وجنات المخزن التي بها وأرضاً للحراثة فقدم المولى أبو الحسن مكناسة واستوطن واغتبط بها، ولما جاء وقت إبان الحرث، وحرث، وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وقيدوه وبعثوا به إلى السلطان مقيداً، وقالوا له: إن هذا قد أفسد علينا بلادنا فحل بيننا وبينه فسرحه وبعث به إلى سجلماسة.

وفي هذه السنة أيضاً نهب البربر جميع ماشية الودايا وأفسدوا زروعهم وبحائرهم.

ثم دخلت سنة سبعين ومائة وألف فيها كانت بين آيت أدراسن وكروان حرب فظيعة أعان فيها الودايا كروان فهزموا آيت أدراسن ببسيط النخيلة من سايس والله أعلم.

وفاة أمير المؤمنين المولى
عبد الله بن إسماعيل رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله بدار الدبيبغ يوم الخميس في السابع والعشرين من صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ودفن بقبور الأشراف من فاس الجديد حيث دفن ولده المولى أحمد رحمهما الله.

قال صاحب «البستان»: كان أمير المؤمنين المولى عبد الله فيه شدة **وبطش وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه وبقي مهملاً بدار الدبيبغ سنين لا يأتيه أحد وبيعته في أعناق الناس وهم فارون منه لكثرة ما سفك من الدماء بغير سبب ظاهر**. واستمرت حالته على ذلك مدة من اثنتي عشرة سنة من سنة تسع وخمسين إلى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر لنا وله ولسائر المسلمين. ومما مدح به هذا السلطان قول بعضهم:

عليك سلام يا ضياء العوالم ... ويا بهجة الأشراف من آل هاشم
ويا من سما عضباً على كل جاهل ... وأصبح مسروراً به كل عالم
وأصبح ظل الله في الأرض ناظراً ... إلى كل مسكين بمقلة راحم
ويا من كساه الله منه مهابة ... تذل لها رغماً أنوف الأعاجم
ويامن له حزم وعزم وسطوة ... تفتت إرهاباً قلوب الضراغم
كفاك افتخاراً أن عزك ظاهر ... وجودك منسي به جود حاتم
وكون سجاياك التي فاح عرفها ... سجايا الملوك الشم أهل المكارم
لعمري لقد ألقت إليك زمامها ... ضروب العلا إذ كنت أحزم حازم
فقمت على الملك المشيد ركنه ... تذود لديه بالقنا والصوارم
وأغناك رب الناس عن جمع عسكر ... برأي مصيب للعساكر هازم
ونفس علت فوق السماكين همة ... وعقل غني عن هداية عالم
فجئت وسيل الغرب قد بلغ الزبى ... وأسواقه معمورة بالجرائم
ونار الشرور في الفجاج تأججت ... فطاب لأهل البغي هتك المحارم
فدوخته من بعدما استنسرت به ... بغاث وقد طالت رعاة البهائم
فأمنتنا من كل طار وطارق ... وحصنتنا من كل داه وداهم

انعطاف إلى سياقة الخبر عن آخر أمر المولى المستضيء رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد اللّه خرج سنة سبع وخمسين ومائة وألف في طلب أخيه المولى المستضيء، وأنه دوخ بلاد الحوز لأجله وشرده عن جبال مسفيوة، ولجأ إلى مراكش فطرده أهلها ولما لم يجد بالحوز مستقراً رجع أدراجه يقتري البلاد والقرى، ويصل حرارة التهجير ببرك السرى فاجتاز ببلاد دكالة ثم بتامسنا ثم ببني حسن فزهدوا فيه فتقدم إلى طنجة وأعمالها فاستقر بالفحص منها وطاب له المقام به، وعسف أناساً في تلك المدة إلى أن عدا على القائد عبد الكريم الريفي فسجنه وسمله وأخذ ماله كما

مر، فوثب عليه أهل الريف وقبضوا عليه ونهبوا خيله ومضاربه وأثاثه وسلبوا أصحابه وامتحنوه وأوثقوه حتى يبعثوا به إلى أخيه المولى عبد اللّه ثم بدا لهم فسرحوه، ولما خلص من المحنة كتب إلى أخيه المولى عبد اللّه وهو بفاس يعتذر إليه عما سلف منه ويطلب منه محلاً يستقر به فأجابه السلطان المولى عبد اللّه: «بأنك لم تأت إليّ ذنباً ولم ترتكب في حقي عيباً إنما كنت تطلب ملك أبيك كما كنت أطلب ملك أبي والآن فإن أردت الخمول مثلي فأقم بآصيلا واسكن بها فهي أحسن من دار الدبيبغ التي أنا بها وأرح نفسك كما أرحتها، وإن كنت إنما تطلب الملك فشأنك وإياه فإني لا أنازعك فيه والسلام». فلما وصل إليه كتاب السلطان انتقل إلى آصيلا واستوطنها واعتنى بها وأصلح ما يحتاج إلى الإصلاح منها، وأصلح دار الخضر غيلان التي بقصبتها وسكنها سنة أربع وستين ومائة وألف، واجتمع عليه بعض أهل الطمع والشره ممن كان هنالك فدلوه على وسق الزرع للكفار وتوسطوا له في الكلام مع بعض تجار النصارى الذين بطنجة وتعاقدوا معه على وسقه، فانتقل ذلك التاجر إلى آصيلا، ولما قدم عليه مركبه وسق الزرع وأدى صاكته أي واجبه فظهر للمولى المستضيء الربح في ذلك فشرهت نفسه ورغب في شراء الزرع وبيعه ممن يأتيه من التجار، وتسامع النصارى بأن الزرع يوسق من مرسى آصيلا، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى قدمت مراكبهم من كل وجه وعمرت المرسى وقصد الأعراب البلد بالقمح والشعير من كل فج، والمولى المستضيء يشتري منهم ويبيع للنصارى، والمراكب تسق ما قدرت عليه، فكان يحصل له الربح في ذلك مضاعفاً ربح الثمن وربح الصاكة فحسنت حاله وأثرى وكثر تابعوه، وأخذ في شراء العدة من تطاوين وتسليح أصحابه وتقويمهم.

واتصل خبره بالسلطان المولى عبد اللّه فندم على إذنه له في المقام هنالك وكتب إلى القائد أبي محمد عبد اللّه السفياني يأمره بالزحف إلى

المولى المستضيء وحصاره بآصيلا حتى ينفيه عنها، وكتب إلى ولده سيدي محمد بمراكش يأمره أن يبعث إليه من يخرجه منها ويكون معه القائد عبد اللّه السفياني في خمسمائة من الخيل، فبعث إليه سيدي محمد رفيقه وابن عمه المولى إدريس بن المنتصر في مائة فارس، وأمره أن يستصحب معه في طريقه عبد اللّه السفياني في خمسمائة من الخيل كما رسم له والده ويضيقوا على المولى المستضيء بآصيلا حتى يخرجوه منها، فمضى المولى إدريس والسفياني حتى نزلا عليه وحاصراه فخرج إليهما وراود ابن أخيه المولى إدريس على الإفراج عنه وتركه وشأنه، واعتذر إليه بأن السلطان أذن له في سكنى آصيلا وأعطاه مستفاد مرساها ينتفع به، فلم يقبل المولى إدريس منه ولم يزل به حتى أخرجه، واستولى على ما وجد بداره من مال وأثاث وسلاح وبارود وغير ذلك، فساقه إلى عمه السلطان المولى عبد اللّه.

وأما المولى المستضيء فإنه لما خرج من آصيلا سار إلى فاس فنزل بضريح الشيخ أبي بكر بن العربي رضي الله عنه، وقدم ولده إلى السلطان المولى عبد اللّه يشكو له ما فعل به ولده سيدي محمد من تجهيز العساكر إليه ونفيه عن آصيلا، فكان من جواب السلطان أن قال له: «قل لأبيك ذاك لا سبيل لي عليه، هو أعظم شوكة مني ومنك فسر إلى بلاد أبيك وجدك وأرح نفسك من التعب والموت قريب مني ومنك». فلما بلغه كلام السلطان لم يسعه إلا التوجه إلى مدينة صفرو بعد أن ترك عياله بدار الشريف المولى التهامي بالجوطيين من فاس، ونزل هو بدار الإمارة من صفرو، ولما قدم المولى إدريس بن المنتصر على السلطان بمال المولى المستضيء وأثاثه قبض السلطان البارود والسلاح ورد الباقي، وأرسل إلى عامل فاس يأمره أن يكتب إلى المولى المستضيء ليبعث وكيلاً يحوز إليه متاعه، فكتب إليه فبعث من حاز ماله وأثاثه ودفعه إلى عياله بدار المولى التهامي. وكان المولى المستضيء لما اطمأنت به الدار بصفرو بعث إلى أعيان آيت يوسي على ما

قيل فقدموا عليه فندبهم إلى نصرته والقيام بدعوته فتخاذلوا عنه وقالوا له: «سر إلى آيت أدراسن وكروان فإن أجابوك فنحن معهم ولما لم يتم له أمر بصفرو بعث من حمل إليه عياله وأثاثه من فاس وذهب إلى سجلماسة فاستوطنها وذلك سنة ست وستين ومائة وألف، وأعرض عن الملك وأسبابه واستمر مقيماً بها إلى أن توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر له».

انعطاف إلى سياقة الخبر عن هؤلاء العبيد الذين جمعهم السلطان المولى إسماعيل من لدن وفاته إلى دولة السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه

قد تقدم لنا أن السلطان المولى إسماعيل كان قد اعتنى بجمع العبيد وترتيبهم وتهذيبهم إلى أن بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً، وبلغوا في أيامه من العز والرفاهية وتشييد الدور والقصور وارتباط الجياد وانتخاب السلاح واقتناء الأموال وحسن الشارة والزي ما لم يبلغه غيرهم، وكان بالمحلة من مشرع الرملة منهم سبعون ألفاً ما بين خيل ورماة، وكان عدد اليكشارية منهم، وهم أصحاب الباشا مساهل، خمسة وعشرين ألفاً كلهم رماة إلا القواد منهم فإنهم كانوا أصحاب خيل، وكان بتانوت ووجه عروس منهم خمسة آلاف يدعون قواد رؤوسهم كلهم أصحاب خيل، وباقي العدد وهو خمسون ألفاً كانوا متفرقين في قلاع المغرب لعمارتها وحراسة الطريق وحماية الثغور، وكانوا في غاية من الكفاية والسعة لأن كل قبيلة من قبائل المغرب كانت تدفع أعشارها في قلعتها المبنية بها لمؤنة جيشها وعلف خيلها، واستمر ذلك إلى أن توفي السلطان المولى إسماعيل رحمه الله فانقطع بوفاته عن جيش القلاع المدد الذي كان به قوامهم.

ولما ولي بنوه من بعده واتصلت الفتن بينهم أهملوا أمر هؤلاء العبيد ولم يلتفتوا إليهم فضعفت مادتهم وتلاشى أمرهم، وانتشروا في القبائل التي كانوا

مجاورين لها للتكسب على أنفسهم وأولادهم، ولما أعروا تلك القلاع التي كانوا مقيمين بها امتدت إليها أيدي القبائل من العرب والبربر بالنهب والتخريب واقتلعوا أبوابها وخشبها وما راق منها وتركوها خاوية على عروشها لم يبق بها إلا الجدرات قائمة، وهكذا كان مآل محلة مشرع الرملة فإنه لما ارتحل العبيد عنها إلى مكناسة أيام السلطان المولى عبد الله خلفهم بنو حسن فيها بالنهب والتخريب، وكل من عثروا عليه متأخراً بها نهبوه واستلبوا ما معه وأخذوا كل ما تركوه مما ثقل عليهم حتى يرجعوا إليه إذ كان العبيد يظنون أنهم سيرجعون إلى مشرع الرملة، ثم تجاوزت بنو حسن ذلك إلى تخريب الدور والقصور وحمل أبوابها وخشبها إلى سلا فكانت تباع بها بالبخس، فقد كان بهذه المحلة دور وقصور ليست بالحواضر، وكان كل قائد منهم يفتخر على نظيره ببناء أعظم من بنائه وتشييد فوق تشييده وتنميق أحسن من تنميقه وتزويق أبدع، من تزويقه فأتى بنو حسن على ذلك كله وانتسفوه، وطمسوا أعلامه في أسرع من لحس الكلب أنفه ولم يتركوا إلا الجدرات قائمة إلا أن خربوها بعد ذلك شيئاً فشيئاً، بل صاروا يبعثرون الأرض على الدفائن التي بها فعثروا من ذلك على شيء كثير.

ثم إن العبيد الذين رحلوا إلى مكناسة لم يصل منهم إليها إلا دون النصف إذ تفرقوا في القبائل وقت رحيلهم فكل من كان أصله من قبيلة قصدها وكل من كان له مدشر عاد إليه. ثم الذين وصلوا إلى مكناسة لم يستقر بهم قرار لقلة ذات اليد وغلاء الأسعار، وكان الوقت وقت مجاعات وفتن، فلم يبق بها إلا القواد أهل اليسار وأهل الحرف الذين يتعيشون بحرفهم، ومع ذلك فقد ضاقت بهم السكنى بها من أجل غلبة البربر الذين كانوا يغيرون عليهم ويتخطفون أولادهم من البحائر والجنات المرة بعد المرة، فتسلل جلهم للمعاش بالقرى والقبائل ونسوا أمر الجندية والتمرس بالقنا والقنابل، وتفرق منهم ذلك الجمهور ولله عاقبة الأمور.

ولما وقعت الزلزلة بمكناسة سنة تسع وستين ومائة وألف حسبما نذكره في الأحداث هلك من العبيد فحسب نحو خمسة آلاف وهكذا لم يزالوا في

تلاش واضمحلال وتناثر واختلال إلى أن كانت دولة السلطان الأعظم المولى محمد بن عبد اللّه رحمه الله فأدرك منهم صبابة يسيرة وعصابة حقيرة، فاعتنى بهم وجمعهم من القبائل بعد الانتشار، وأحيا رسمهم بعد الاندثار، وأظهرهم بعد الخمول، وأركبهم المسومة من الخيول، ورفع لهم الأعلام والبنود، وصيرهم من أعز الجنود، وهو الذي جدد هذه الدولة الإسماعيلية بعد تلاشيها، وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزيق حواشيها، بحسن سيرته ويمن نقيبته رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وهنا انتهى بنا الكلام على السادة الأشراف أولاد المولى إسماعيل رحم الله الجميع بمنه. قال أكنسوس: والحق الذي لا شك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة السلطان المولى عبد اللّه فإنما هو ثائر عليه لا إمامة له وإنما يكون خبره مسوقاً من جملة أخبار دولة المولى عبد اللّه.

قلت: ومثله يقال في السلطان المولى أحمد بن إسماعيل فهو الإمام المعتبر والمولى عبد الملك خارج عليه وقد علم من مذهب الأشعرية أن طرو الفسق لا يعزل الإمام. والله تعالى أعلم وأحكم.

انعطاف إلى سياقة الخبر عن خلافة سيدي محمد ابن عبد اللّه بمراكش من مبتدئها إلى منتهاها

قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد اللّه كان قد خرج سنة سبع وخمسين وألف في طلب أخيه المولى المستضيء إلى أن شرده عن بلاد مسفيوة وأنه قدم عليه هنالك أهل مراكش ورغبوا إليه أن يدخل حضرتهم ولم يساعده الوقت، فلما عزم على القفول إلى بلاد الغرب بعث ولده الأكبر المولى أحمد إلى رباط الفتح نائباً عنه بها، وأضاف إليه قبائل الشاوية وبني حسن، وما بينهما، وبعث ولده الأصغر سيدي محمداً مع أهل مراكش نائباً عنه فيها فكان ذلك أول انغراس شجرة الملك العلوي بمراكش واتخاذها كرسياً لهم، ولما وصل سيدي محمد رحمه الله إلى مراكش نزل بقصبتها وهي يومئذ خراب

ليس بها إلا آثار السعديين والموحدين قبلهم، قد أخنى عليها الدهر وعشش بها الصدا والبوم فضرب بها مضاربه، ثم شرع رحمه الله في حفر أساس داره بالفضاء البعيد عن القصور الخربة بها من داخل السور، ولما رأى عرب الرحامنة ذلك اتفقوا على منعه لأنهم كانوا قد ألفوا العيث في أطراف مراكش فأحبوا أن لا تكون بها دولة تكبحهم عن ذلك، فاجتمع طائفة من غوغائهم وتقدموا إلى الخليفة سيدي محمد وجبهوه بالمنع وأخرجوه عن القصبة بعد أن شرع في العمل، فانتقل سيدي محمد رحمه الله عن مراكش إلى آسفي.

وأما المولى أحمد صاحب العدوتين فإنه قدم رباط الفتح ونزل بالقصبة منها وانضاف إليه عبيد القصبة واستمر خليفة بها إلى أن سمع أهل العدوتين ما عامل به الرحامنة خليفة مراكش فجرى هؤلاء على سننهم واتفقوا على طرد المولى أحمد بن عبد اللّه عن بلادهم فتقدموا إليه بالحرب وحاصروه بالقصبة ومعه عبيد فلان الذين كانوا فيها إدالة من عهد السلطان المولى إسماعيل، وقطعوا الميرة والماء إلى أن مسهم الجهد وعضهم الحصار فطلبوا الأمان أن يخرجوا بأنفسهم فأمنوهم، وخرج المولى أحمد فسار إلى أخيه سيدي محمد بآسفي فنزل عليه ثم كان آخر أمره أن توفي بفاس كما مر سنة أربع وستين ومائة وألف.

ولما خرج المولى أحمد إلى آسفي عمد أهل رباط الفتح إلى عبيد القصبة فأنزلوهم منها وفرقوهم بالمدينة حتى لا تبقى لهم شوكة ولا عصبية. هذا ما كان من خلافة المولى أحمد.

وأما خلافة سيدي محمد فإنه لما خرج من مراكش قاصداً إلى آسفي اعترضته قبائل عبدة وأحمر وضيفوه ببلادهم وأهدوا إليه، وتسابقوا على الخيل ولعبوا بالبارود سروراً بمقدمه وتنويهاً بشأنه، وصحبوه إلى آسفي فدخلها ونزل بقصبتها ففرح أهل آسفي بمقدمه واغتبطوا به وكان مبارك الناصية أينما توجه ولما اطمأنت به الدار رفع إليه أهل آسفي هداياهم، وتبعهم على ذلك تجار النصارى واليهود وتباروا في ذلك وتنافسوا فيه وعمر سوقه عرب عبدة برجالاتهم وأعيانهم، وبذلوا له أولادهم لخدمته وأوصلوه

بكل ما قدروا عليه، وسرح للتجار وسق السلع بالمرسى فأهرعت إليه المراكب من بر النصارى بأنواع سلعها، وقصدها التجار بالبضائع من كل جهة يبيعون بها ويشترون، وكثرت الخيرات ونمت البركات، فاستركب واستلحق وعلا أمره وطار صيته في البلاد الحوزية، ودخل الشياظمة وحاحة في طاعته وتباروا في خدمته، فلم تمض عليه ستة أشهر حتى كان يركب في نحو الألف، فلما سمع الرحامنة ما صار إليه أمر عبدة وأحمر اقتالهم من تشرفهم بولائه وتقدمهم في خدمته نفسوا ذلك عليهم وراجعوا بصائرهم فاجتمع طائفة من أعيانهم وقدموا عليه آسفي، وقدموا بين يديهم هدية استرضوه بها. ولما دخلوا عليه اعتذروا إليه مما فرط منهم ونسبوا ذلك إلى السفهاء وأنهم لم يأمروا بشيء من ذلك ولا رضوه، وأقسموا له أن لا يبرحوا من بابه حتى يسير معهم إلى مراكش ولو أقاموا هنالك سنة، وأسعفهم وسار معهم وصحبه من أعيان عبدة نحو ألف فارس، وكان في موكبه من أصحابه وحاشيته نحو الخمسمائة كلهم بالخيول المسومة والشارة الحسنة والشكة التامة.

ولما انتهى إلى مراكش نزل بالقصبة وجاءه أهل مراكش بهداياهم وكذا قبائل الحوز، ثم تلاهم قبائل الدير كله بهداياهم أيضاً وجاء الرحامنة بأولادهم للخدمة السلطانية منافسة لعبدة وأحمر في ذلك، وقفاهم في ذلك سائر أهل الحوز، وقدم عليه عبيد دكالة الذين كانوا بسلا فاجتمعوا إليه وحسنت منزلتهم عنده. ولما سمع بذلك عبيد مكناسة تسللوا إليه فرادى وأزواجاً فاستعملهم في خدمة البناء فبنوا بيوتهم وأصلحوا شؤونهم، واجتهد هذا الخليفة في بناء داره الكبرى بقصبة مراكش إلى أن أكملها وسكنها، ثم شرع في بناء ما تلاشى من أسوار القصبة وركب أبوابها وأفردها عن المدينة، ثم غرس بستاناً عظيماً متصلاً بداره الكبرى على جهة الغرب سماه النيل، وأسس قصراً آخر متصلاً بغربي هذا البستان سماه القصر الأخضر، ويسمى أيضاً المنصور، وجعل لهذا البستان أربعة أبواب في زواياه الأربع كذا قيل والموجود اليوم ثلاثة أبواب فقط وجعل له بابين آخرين أحدهما للدار الكبرى شرقاً والآخر للقصر الأخضر غرباً، وجعل في وسط هذا البستان قبة منتخبة

يتصل بها من جهاتها الأربع مماشي تمضي إلى قباب أخر منتخبة أيضاً، وطول هذا البستان ينيف على مائتي خطوة تقريباً وعرضه قريب من ذلك، وهذا القدر هو مساحة ما بين القصرين أعني الدار الكبرى والقصر الأخضر، ثم أصلح هذا الخليفة جامع المنصور الذي بالقصبة إذ كان متهدماً يومئذ، ثم أسس مسجداً آخر للخطبة بجوار قصره وهو المعروف اليوم بمسجد بريمة، وهو مسجد حافل بديع، وبنى مدرستين لطلبة العلم بالقصبة المذكورة، وبنى حماماً ببريمة، وعمر مساجد غير ذلك للأحرار والعبيد، وفرق الأموال على من انحاش إليه منهم لعمارة مساكنهم وبناء دورهم بعد أن كانت من الطين والقصب، وكتب الكتائب وجند الأجناد فاجتمع لديه من العبيد ألف وخمسمائة كلهم فارس شاكي السلاح، ومن عبدة وأحمر مثل ذلك، ومن الرحامنة وأهل الحوز ألف فارس كذلك.

ولما خرج العبيد بمكناسة على والده وقدموا عليه بمراكش مبايعين له عاتبهم وقدم مكناسة وأصلح بينهم وبين والده كما مر.

ولما كانت سنة تسع وستين ومائة وألف غزا بلاد السوس ودوخها ومهد أقطارها وجبى أموالها وقرر الحامية بتارودانت منها، ثم سار إلى آكادير فقبض على الطالب صالح الثائر به والمستبد بمال مرساه فسجنه واستصفى أمواله التي استفادها من المرسى ورتب الحامية في آكادير أيضاً، ثم إن الطالب صالحاً المذكور ذبح نفسه في السجن وأفضى إلى ما قدم بعد أن ترك في القطر السوسي صيتاً وذكراً، وهو الذي يوجد طابعه على السلاح السوسي من مكحلة وسكين وخنجر إلى الآن وهو سلاح منتخب عندهم.

وقفل الخليفة سيدي محمد رحمه الله إلى مراكش مؤيداً منصوراً فمكث فيها أياماً يسيرة ثم خرج غازياً بلاد الشاوية في السنة نفسها لما ظهر منهم من الفساد وقطع الطرقات ونهب المارة، فقتل من أعيانهم عدداً وبعث الباقي في السلاسل إلى مراكش.

ثم تقدم إلى أرض سلا فبات برباط الفتح وخرج إليه أهلها بالمؤن

والهدايا واستبشروا بمقدمه. وأما أهل سلا فلم يخرج إليه منهم أحد بل أغلق صاحبها عبد الحق بن عبد العزيز فنيش أبوابها في وجهه، فأعرض عنه سيدي محمد رحمه الله وتنكب المرور بسلا وعبر مشرع المجاز أسفل من العدوتين، وسار إلى قصر كتامة من بلاد الهبط، فقدم عليه به عبيد مكناسة مع كبيرهم الباشا الزياني، وفي ذلك اليوم قتل العبيد باشاهم المذكور وقتلوا معه القائد يوسف السلاح لأنهما كانا يمنعانهم من القدوم عليه إلى مراكش، فولى عليهم القائد سعيد بن العياشي. ومن الغد ارتحل إلى تطاوين فتلقاه أهلها مع قائدهم محمد بن عمر الوقاش فقبض عليه وتهدده ثم أطلقه. ثم مضى إلى جهة سبتة حتى أشرف عليها، ثم سار منها إلى طنجة ثم كر راجعاً فمر بالعرائش ثم بسلا فلم يحفل به عبد الحق أيضاً، فطوى له سيدي محمد رحمه الله على البت. ثم سار إلى مراكش فاستقر بها مؤيداً منصوراً إلى أن وافته الخلافة الكبرى بها بعد وفاة والده رحمه الله.

تم الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن وأوله

الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (التاء)

حرف (الجيم)

حرف (الحاء)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

(حرف) (ى)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (د)

حرف (ر)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

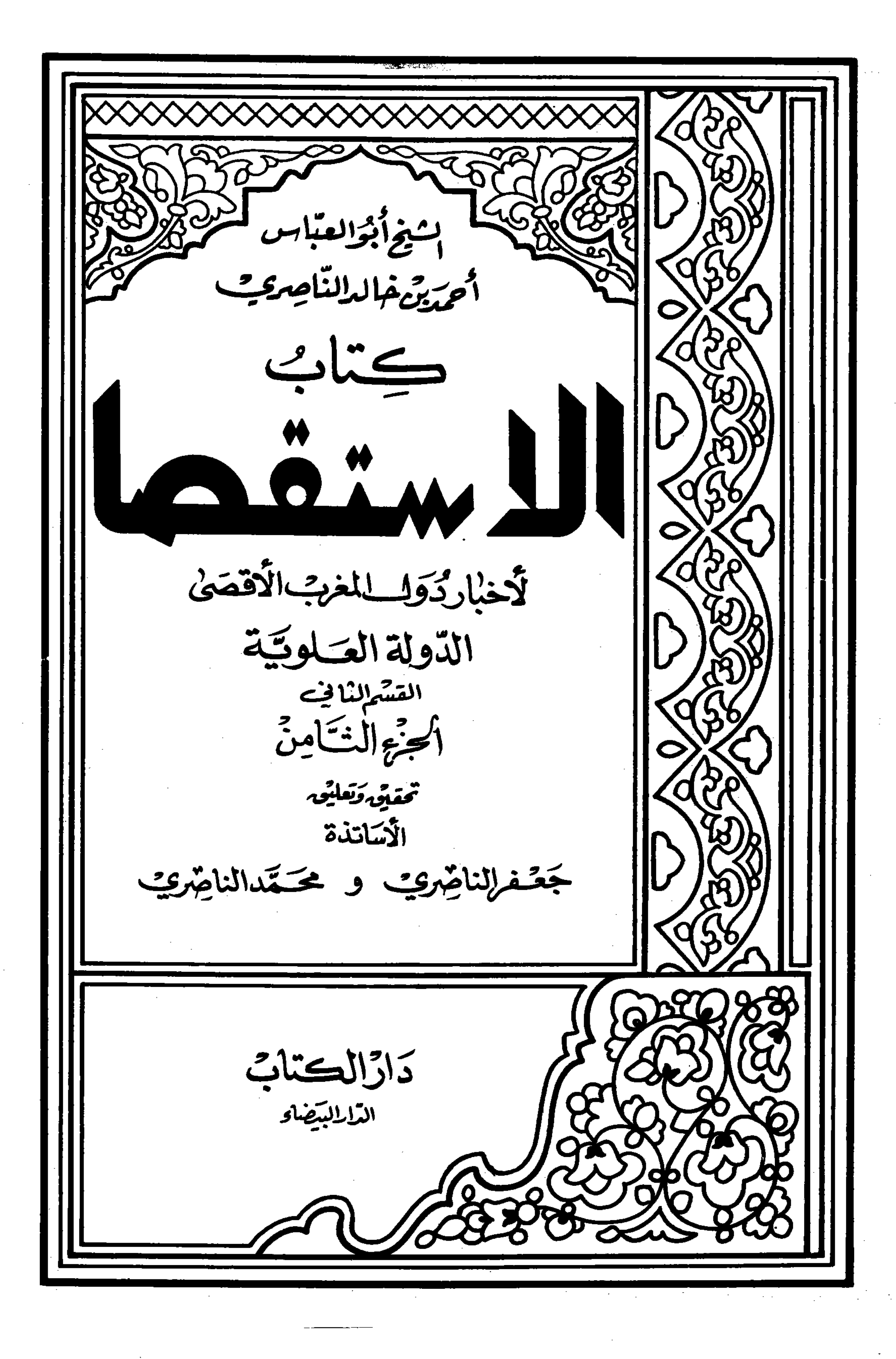
حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ى)


الشيخ أبو العباس
أحمد بن خالد الناصري

كتاب الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدولة العلوية

القسم الثاني

الجزء الثامن

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء
1418هـ/ 1997م
رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدولة العلوية

القسم الثاني

الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله

لما توفي أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل في التاريخ المتقدم أعني السابع والعشرين من صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف، كان الناس قد سئموا الهرج والفتن، وأعياهم التفاقم والاضطراب، وملوا الحرب وملتهم، إذ كانت أيامه لاسيما أخرياتها كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان، وكانت حال الرعية معه مثل الفوضى الذين لا وازع لهم، فكان ذلك من أقوى الأسباب التي صرفت وجوه أهل المغرب كله إلى بيعة السلطان سيدي محمد رحمه الله، وجمعت كلمتهم عليه، لاسيما مع ما كان قد ظهر منه أيام خلافته من حسن السياسة، وكمال النجدة، وجودة الرأي، وتمام المعرفة بإدارة الأمور على وجهها، وإجرائها على مقتضى صوابها، حتى أحبته القلوب وعلقت به الآمال، وعرفت له من بين بني أبيه تلك الشنشنة، وتضافرت على ولائه ونصره القلوب والألسنة، فلما قضى الله بوفاة والده بادر أهل فاس إلى عقد البيعة له من غير توقف ولا تريث.

قال ولده الفقيه أبو محمد المولى عبد السلام بن محمد بن عبد الله في كتابه المسمى «بدرة السلوك»: بويع لمولانا الوالد السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله البيعة العامة الصحيحة التامة وحضرها جماعة من أعيان

العلماء مثل قاضي الجماعة بمكناسة السيد سعيد العميري وقاضي الجماعة بفاس السيد عبد القادر أبي خريص وشيخ الجماعة بها السيد محمد بن قاسم جسوس، والإمام المحقق حامل لواء المعقول والمنقول الشيخ أبي حفص عمر الفاسي، وابن عمه السيد أبي مدين الفاسي، وهو الذي تولى كتابة البيعة بيده، وإمام جامع الشرفاء بفاس الأستاذ المولى عبد الرحمٰن المنجرة، والشيخ العلامة السيد التاودي ابن سودة المري، وإمام المسجد الكبير بفاس الجديد السيد عبد اللّه السوسي، والإمام الحافظ السيد أبي العلاء إدريس العراقي، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة.

وقوله في قاضي مكناسة، السيد سعيد العميري، صوابه ابنه أبو القاسم العميري.

ووصل الخبر بموت السلطان المولى عبد اللّه إلى ابنه سيدي محمد وهو بمراكش، فأقام مأتمه وازدحم على بيعته أهل مراكش، وقبائل الحوز والدير، وقدمت عليه وفود السوس وحاحة بهداياهم، ثم قدم عليه العبيد والودايا وأهل فاس من العلماء والأشراف وسائر الأعيان، وقبائل العرب والبربر والجبال وأهل الثغور كل ببيعته وهديته، لم يتخلف عنه أحد من أهل المغرب، فجلس للوفود إلى أن فرغ من شأنهم وأجازهم، وزاد العبيد بأن أعطاهم خيلاً كثيرة وسلاحاً كثيراً عرفوا بها محلهم من الدولة وانقلبوا مسرورين مغتبطين.

مجيء السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه عقب البيعة من مراكش إلى فاس وما اتفق له في ذلك

لما فرغ أمير المؤمنين المولى محمد رحمه الله من أمر الوفود أخذ في الاستعداد للنهوض إلى الغرب، فخرج من مراكش في عسكر الحوز ووجوهه، حتى انتهى إلى مكناسة، فدخل دار الملك بها وفرق على العبيد الخيل والسلاح والمال، وكانوا على غاية من سوء الحال والاستكانة لغلبة البربر، إذ كانوا يتخطفون أولادهم من البحائر والجنات، ويبيعونهم في

قبائلهم كما قلنا، فجبر الله صدعهم بولاية هذا السلطان الجليل.

ثم لما قضى إربه من مكناسة ارتحل إلى فاس، ولما نزل في عساكره بالصفصافة خرج لملاقاته الودايا وأهل فاس، فهش للناس وألان جانبه لهم، واختلط بهم، فكانوا يطوفون به ويقبلون أطرافه، ولا يمنعهم أحد، وفرق المال والكسوة والسلاح في الودايا وعبيد السلوقية، وأعطى الفقهاء والأشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والمكتبيين والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين، وأزاح علل الجميع، ولم يحرم أحداً، ولما حضرت الجمعة جاء من المحلة في ترتيب حسن، وزي عجيب، فخرج أهل البلدين لرؤيته وامتلأت الأرض من العساكر والنظارة، ودخل فاساً الجديد فصلى به الجمعة، ثم جلس لفقهاء الوقت وسأل عنهم واحداً واحداً حتى عرفهم، ثم خرج إلى تربة والده فزارها، وأمر بتفريق الصدقات عندها، وترتيب القراء بها، ثم دخل إلى دار الحرم فوقف على من بها من أخواته، وعزاهن في مصاب والدهن، وطيب نفوسهن، ثم رجع عشية النهار إلى المحلة فبات بها، ومن الغد جاء إلى دار الدبيبغ، فدخلها ووقف على متخلف والده، من مال وأثاث وسلاح وخيل، إلى أن عاينه وأحصاه، وأبقى ذلك بيد من كان بيده من أصحاب والده، وأوصاهم بالاحتفاظ به بعد أن جعل الجميع إلى نظر الحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري، وعامل أصحاب أبيه بالجميل وخفض لهم الجناح، وألان لهم القول، ووصلهم بمال اقتسموه فيما بينهم، ثم بعد ذلك حاز منهم ما كان بأيديهم من مال والده، فكان أكثره ذهباً، من ذلك ألف خرج وتسميه المغاربة السماط من الجلد الفيلالي بأقفالها، في كل واحد ألفا دينار بالتثنية من ضربه، وكانت تكون على سروج خيله في السفر، فإذا نزل الجيش وضربت الأخبية رفعها الموكلون بها، كل واحد اسمه وعينه إلى القبة السلطانية، وعند الرحيل كذلك تدفع لهم بالإحصاء والتقييد، ومن ذلك مائة رحى من الذهب الخالص كقرص الشمع، في كل رحى وزن أربعة آلاف ريال، وكانت تكون محمولة على البغال، في أعدالها مغطاة بالقطائف المسماة عند المغاربة بالحنابل، مشدوداً عليها بالحبال، أربع أرحاء في كل

عدلين، فالمجموع خمس وعشرون بغلة تسير أمامه فإذا نزل الجيش رفعت إلى القبة السلطانية كالذي قبلها.

وكان السلطان المولى عبد الله رحمه الله يرى ذلك من الحزم حيث يحمل ماله معه أينما سار لا يفارقه، ومما وجده سيدي محمد من مال والده أيضاً ثلاثمائة ألف ريال إلا خمسة عشر ألفاً، ووجد نحو العشرين ألفاً من الموزونات الدقيقة من ضرب سكته، هذا ما خلفه رحمه الله من المال الصامت، وكان يكون على يد القائد علال بن مسعود من وصفانه، فحاز ذلك كله أمير المؤمنين سيدي محمد ونقله إلى محلته، ووكل به وزعته، وتقدم إلى أصحابه بأن يعاملوا أصحاب أبيه بالتوقير والاحترام، ونظمهم في سلك خدمته، فمن ظهرت نجابته أدناه، ومن لا عبرة به أقصاه.

ثم وفد عليه بفاس عامة قبائل الغرب وازدلفوا اليه بالهدايا والتحف فأكرم كلاًّ بما يناسبه، وكان في ابتداء أمره سهل الحجاب، رفيقاً لم يعزل أحداً من قواد القبائل، وعمال الحواضر الذين كانوا في دولة أبيه في حكم الاستبداد، بل أبقى ما كان، ولم ينكب أحداً إلا بعد الاستبراء والاختبار، غير أن أهل تطاوين كان قائدهم أبو عبد الله محمد بن عمر الوقاش منحرفاً عنه أيام خلافته بمراكش، فكان إذا كتب اليه بأمر نبذه وراء ظهره، وربما قال للرسول: «المرأة لا تتزوج برجلين» أو كلاماً يشبه هذا، يعني أنه مجبور لطاعة السلطان المولى عبد الله.

فلما بويع السلطان سيدي محمد وقدم حضرة فاس انقبض عنه الوقاش المذكور، وعاذ بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بماله وولده خوفاً على نفسه من السلطان لسوء ما قدم، ثم قدم عليه أهل تطاوين طائعين متنصلين من فعل عاملهم المذكور ومخبرين بشأنه، فولى السلطان عليهم الفقيه أبا محمد عبد الكريم بن زاكور أحد كتّابه، كان بعثه من مراكش إلى العرائش والياً عليها، فلما وفد عليه أهل تطاوين ولاه عليهم لكونه حضرياً مثلهم، وأقام السلطان سيدي محمد رحمه الله بفاس شهرين، وعاد إلى مكناسة والله أعلم.

إحداث المكس بفاس وبسائر أمصار المغرب وما قيل في ذلك

لما بويع السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله وقدم حضرة فاس رفع اليه أهلها ما كانوا يؤدونه إلى والده المولى عبد الله مما كان موظفاً على الموازين، كميزان سيدي فرج، وميزان قاعة السمن وميزان قاعة الزيت، وغير ذلك، وقدره ثلاثمائة مثقال في كل شهر، يجب فيها لكل سنة ثلاثة آلاف مثقال وستمائة مثقال.

فلما حضر فقهاء فاس عند السلطان سيدي محمد كلمهم في شأنها حتى يكون الأمر فيها مسنداً إلى فتوى الفقهاء، فقالوا: إذا لم يكن للسلطان مال جاز له أن يقبض من الرعية ما يستخدم به الجند، فأمرهم أن يكتبوا له في ذلك، فكتبوا له تأليفاً اعتمده السلطان ووظف على الأبواب والغلات والسلع، وكان ممن كتب له في ذلك العلامة الشيخ التاودي ابن سودة، والعلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس، والإمام أبو حفص عمر الفاسي، والفقيه الشريف أبو زيد عبد الرحمٰن المنجرة، والفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الصادق الطرابلسي، والفقيه القاضي أبو محمد عبد القادر أبو خريص وغيرهم، فاعتمد السلطان على فتواهم ووظف ما ذكرناه آنفاً.

واعلم أن أمر المكس مما عمت به البلوى في سائر الأقطار والدول منذ الأعصار المتطاولة، والسنين الأول، فلا بأس أن نذكر ما حرره العلماء في ذلك فنقول: قد تكلم على ذلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتابه «شفاء الغليل» بما نصه: «فإن قال قائل توظيف الخراج على الأرض ووجوب الارتفاقات مصلحة ظاهرة لا تنتظم أمور الولاة في رعاية الجند والاستظهار بكثرتهم وتحصيل شوكة الإسلام إلا به، ولذلك لم يلف عصر خالياً عنه والملوك على تفاوت سيرهم، واختلاف أخلاقهم، تطابقوا عليه ولم يستغنوا عنه، فلا تنتظم مصلحة الدين والدنيا إلا بإمام مطاع، ووالٍ

متبع يجمع شتات الإيمان، ويحمي حوزة الدين وبيضة الإسلام، ويرعى مصلحة المسلمين وغبطة الأنام، ولا يستتب ذلك إلا بنجدته وشوكته وجنوده وعدته فيهم مجاهدة الكفار، وحماية الثغور، وكف أيدي الطغاة المارقين، ومنعهم من مد الأيدي إلى الأموال والحرم والأزواج، فهم الحراس للدين عن أن تنحل دعائمه، وتتخاذل قواه، بتوغل الكفار في بلاد المسلمين، وهم الحماة للدنيا عن أن يختل نظامها بالتغالب والتسالب والتواثب من طغام الناس، بفضل العرامة والباس، ولا يخفى عليكم كثرة مؤنهم واستيعاب حاجاتهم في نفوسهم وعيالهم، والمرصد لهم خمس الخمس من الغنائم والفيء، وذلك مما يضيق في غالب الأمر عن الوفاء بخراجاتهم والكفاية لحاجاتهم، وليس يعم ذلك الا بتوظيف الخراج على الأغنياء، فإن كنتم تتبعون المصالح فلا بد من الترخيص في ذلك مع ظهور المصلحة».

قلنا: الذي نراه جواز ذلك عند ظهور المصلحة، وإنما النظر في بيان وجه المصلحة فنقول أولاً: التوظيف في عصرنا هذا مزاجه ومنهاجه ظلم محض لا رخصة فيه، فإن آحاد الجند لو استوفيت جراياتهم، ووزعت على الكافة لكفتهم برهة من الدهر، وقدراً صالحاً من الوقت، وقد شمخوا بتنعمهم وترفههم في العيش وإسرافهم في إفاضة الأموال على العيارة ووجوه التجمل على سائر الأكاسرة، فكيف يقدر احتياجهم إلى توظيف خراج لإمدادهم وإرفاقهم، وكافة أغنياء الدهر فقراء بالإضافة اليهم، فأما لو قدرنا إماماً مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجند لسد الثغور، وحماية الملك بعد اتساع رقعته، وانبساط خطته، وقد خلا بيت المال عن المال، وأرهقت حاجة الجند إلى ما يكفيهم وخلت عن مقدار كفايتهم أيديهم، فللإمام أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال إلى أن يظهر مال في بيت المال، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على وجوه الغلات والارتفاقات، بحيث لا يؤدي تخصيص بعض الناس به إلى إيغار الصدور، وإيحاش القلوب، ويقع ذلك

قليلاً من كثير، ولا يجحف بهم، ويحصل به الغرض.» ثم استدل الشيخ أبو حامد رضي الله عنه لذلك من النقل والعقل بما يطول جلبه.

وقال في كتابه «المستصفى» ما نصه: «إن قيل توظيف الخراج من المصالح فهل إليه من سبيل؟ قلنا: لا سبيل إليه مع كثرة الأموال في أيدي الأجناد، أما إذا خلت الأيدي ولم يكن في بيت المال ما يفي بخراجات العسكر ولو تفرقوا واشتغلوا بالكسب لخيف دخول الكفار بلاد الإسلام، فيجوز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند، ثم إن رأى في طريق التوزيع التخصيص بالأراضي فلا حرج، لأنا نعلم أنه إذا تعارض شرّان وضرران وجب دفع أشد الضررين وأعظم الشرين، وما يؤديه كل واحد منهم قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله، ولو خلت خطة الإسلام عن ذي شوكة يحفظ نظام الأمور ويقطع مادة الشرور لفسدت الأرض ومن عليها.» وقوله على الأغنياء يريد من له قدرة وطاقة على دفع شيء لا يجحف به، ووقع في جواب للقاضي أبي عمر بن منظور رحمه الله «إن لضرب الخراج وتوظيفه على المرافق شروطاً، الأول منها: أن يعجز بيت المال وتتعين حاجة الجند، فلو كان في بيت المال ما يقوم به لم يجز أن يفرض على الرعية شيء، قال ﷺ: **«لا يدخل الجنة صاحب مكس»**، وهو إغرام المال ظلماً. ثانيها: إن الإمام يتصرف فيه بالعدل، فلا يجوز له أن يستأثر به دون المسلمين، ولا أن ينفقه في سرف، ولا أن يعطي من لايستحق، ولا أن يعطي أحداً أكثر مما يستحق. ثالثها: أن يصرفه في مصروفه بحسب المصلحة والحاجة، لا بحسب الشهوة والغرض، وهذا يرجع إلى الثاني. رابعها: أن يكون الغرم على من يكون قادراً عليه من غير ضرر ولا إجحاف، ومن لا شيء له أو له شيء قليل فلا يغرم شيئاً خامسها: أن الإمام يتفقد هذا في كل وقت، فربما جاء وقت لا يفتقر فيه إلى زيادة على مافي بيت المال، وكذلك إذا تعينت المصلحة في

المعونة بالأبدان ولم يكف المال فإن الناس يجبرون على التعاون بأبدانهم على الأمر الداعي للمعونة بشرط القدرة، وتعين المصلحة والافتقار إلى ذلك» انتهى المقصود منه والله تعإلى أعلم.

مقتل أبي الصخور الخمسي وما كان من أمره

لما رجع السلطان محمد بن عبد اللّه من فاس إلى مكناسة أقام بها يسيرا ثم خرج إلى جبال غمارة بسبب ما بلغه عن المرابط أبي عبد اللّه محمد العربي الخمسي المعروف بأبي الصخور، وكان له صيت وشهرة بقبائل الجبل وكان يظهر التنسك والعبادة ويزعم: أنه يستخدم الجن، فكان للعامة فيه اعتقاد كبير، ثم صار يقول للناس: «هذا السلطان لا تطول مدته» فأخذه السلطان وقتله وبعث برأسه إلى فاس، وولى على قبائل غمارة والأخماس وتلك النواحي الباشا العياشي، وأنزله بمدينة شفشاون، وقفل إلى مكناسة فدخلها مريضاً فاتح محرم سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، فقال المرجفون: ما أصابه المرض إلا من قتله لأبي الصخور، وقالوا: إنه قد صدق في قوله لا تطول مدته، فعافى الله السلطان، وأكذب ظن الشيطان، وأقام السلطان بمكناسة إلى أن انسلخ المحرم ودخل صفر، فعاد إلى مراكش بعد أن أمر بنقل عبيد السلوقية إلى مكناسة، وضمهم إلى إخوانهم، واستصحب معه إلى مراكش من رجالتهم ألفاً، فلما دخلها أعطاهم الخيل والسلاح والكسي، وعادوا إلى مكناسة، ثم قدم عليه منهم ألف آخر فأركبهم وكساهم، واستمر حاله معهم على هذا إلى أن استوفوا خيلهم وسلاحهم وكساهم، ولم يسألهم عما كان في أيديهم أيام الفترة.

خروج السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه إلى الثغور وتفقده أحوالها

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف فيها خرج أمير المؤمنين المولى محمد بن عبد اللّه من مراكش، فقدم مكناسة وفرق الراتب على العبيد بها، وبعث إلى الودايا راتبهم وأمرهم بالنهوض معه للتطواف على الثغور البحرية من بلاد المغرب.

فخرج من مكناسة حتى أتى مدينة تطاوين فنزل بها، وأمر ببناء برج مرتيل الذي بها، وفرق المال على العبيد المقيمين به منذ أيام السلطان إسماعيل، وهم بقية عبيد سبتة أعني الذين كانوا يرابطون عليها، فإنه لما انحل نظام الملك بموت المولى إسماعيل وتفرق العبيد المرابطون على سبتة فلحقت كل طائفة منهم بقبيلتها التي جلبت منها بقي هذا الألف الذي لا قبيلة له هنالك، فنقلهم أبو حفص الوقاش إلى مرتيل، وأحسن إليهم وصار يدفع بهم في نحر من يريده بمكروه من القبائل المجاورة له.

ثم رحل السلطان من تطاوين إلى طنجة، وجعل طريقه على سبتة، فمر بها ووقف عليها ونظر إلى حصانتها ومناعتها، وتحقق أن لا مطمع فيها إلا بالجد، وأمر العسكر الذين حوله بإخراج دفعة من البارود، وتسميها العامة حاضرونا ففعلوا، وأجابهم النصارى بمثل ذلك بالمدافع والكور حتى تزلزلت الجبال، فعجب السلطان من ذلك، وما كان قصده بهذه السفرة إلا الوقوف على سبتة واختبار حالها لأنه لم ينظر إليها بعين التأمل والاختبار في المرة الأولى، فلما تبين له حالها أرجأ أمرها إلى يوم ما، وأوصى أهل آنجرة بتعيين حصته من الرماة لحراسة نواحيها والوقوف على حدودها، وبذل لهم مالاً يستعينون به على ذلك، ثم سار إلى طنجة فنزل قريباً منها، وخرج إليه أعيانها ورؤساؤها من أهل الريف بقضهم وقضيضهم يتقدمهم باشاهم عبد الصادق بن أحمد بن علي الريفي، كان قد قدم عليه بمراكش أيام خلافته

بها، فلما مثلوا بين يدي السلطان في هذه المرة أكرمهم وفرق المال والكسيّ فيهم، وأمر الباشا عبد الصادق أن يبعث أخاه عبد الهادي للوقوف على إنشاء الغلائط بتطاوين.

ثم سار السلطان رحمه الله إلى العرائش فألفاها خالية ليس بها إلا نحو المائتين من أهل الريف تحت كنف أهل الغرب، فولى عليها عبد السلام بن علي وعدي، ثم أنزل بها مائة من عبيد مكناسة.

ثم سار إلى سلا فعبر الوادي ونزل برباط الفتح وأقام به أياماً وأمر قائده أبا الحسن علياً مارسيل أن يبني صقالة أي برجاً كبيراً على البحر، وأمر قائد سلا عبد الحق فنيش أن يبني مثلها بسلا على البحر مقابلتها، ثم أمر بإنشاء سفينتين إحداهما لأهل سلا والأخرى لأهل رباط الفتح، وكانت عندهم سفينة واحدة مشتركة بينهم أنشؤوها أيام الفترة، وفيها كانوا قد خرجوا إلى حصن آكادير، ومنه بعثوا وفدهم إلى سيدي محمد بن عبد الله وهو يومئذ خليفة بمراكش، فأكرم الرسل وبعث معهم مالاً كثيراً إلى المجاهدين بالعدوتين، وفي مدة مقامه برباط الفتح هذه المرة صرف جيش العبيد والودايا إلى بلادهم، وسار هو إلى مراكش، ولما احتل بها كتب إلى تجار النصارى بآسفي، يأمرهم أن يشتروا له إقامة المراكب القرصانية من صواري ونطاقات، وقمن، ومخاطيف، وحبال، وقلوع، وبتاتي، وغير ذلك؛ فتنافسوا في شراء ذلك وازدلفوا إلى السلطان بجلبه وانتخابه، ثم استقدم جراطين الصحراء الذين بالرتب، وتافيلالت، وهم الجبابرة والمعاركة وأولاد أبي أحمد، لما بلغه عنهم من أنهم يعينون عمه المولى الحسن على محاربة الأشراف الذين هنالك، فنقلهم إلى مكناسة وأعطاهم الكسوة والسلاح، وكتبهم في ديوان الجيش.

وفي هذه السنة وصل الخبر بموت المولى المستضيء بن إسماعيل بتافيلالت كما مر.

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه بالودايا والسبب في ذلك

كان هؤلاء الودايا أحد أركان العسكر الإسماعيلي حسبما تقدم، وكان المولى إسماعيل رحمه الله قد اعتنى بشأنهم وأخذ بضبعهم وجمعهم بعد الفرقة وأغناهم بعد العيلة، وأسكنهم فاساً الجديدة وأعماله، فاستوطنوه وألفوه، وصاروا هم أهله بين سائر الجند، فكان لهم في الدولة الغناء الكبير، واتخذوا الدور والقصور، وتوالت عليهم بالعز وإباية الضيم السنون والشهور.

ولما توفي رحمه الله كانوا بفاس الجديد على غاية من تمام الشوكة وكمال العصبية، وقد ملكوا أمر أنفسهم على الدولة، وغلظت قناتهم على من يريد غمزها من أهلها، فكانت أحكام الملوك من أولاد المولى إسماعيل لا تمضي عليهم، سيما مع ما حازوه من شرف الخؤلة للسلطان المولى عبد اللّه الذي هو أكبرهم قدراً وأعظمهم صيتاً، وكان شأنه معهم أن يستكثر بهم تارة وعليهم أخرى. والفتن فيما بين ذلك قائمة حسبما مر شرح ذلك مستوفى.

فلما كانت أواخر دولة السلطان المولى عبد اللّه وهلك محمد واعزيز كبير البربر افترقت آيت أدراسن، وجروان، ووقعت الحرب بينهم مرتين أعان فيها الودايا جروان، وألحوا على آيت أدراسن بالنهب والقتل حتى أجلوهم من تلك البلاد.

ثم لما بويع السلطان سيدي محمد انحاز إليه آيت أدراسن، إذ هم شيعة أبيه أيام محمد واعزيز، فولى عليهم ولد محمد واعزيز وأنزلهم بأحواز مكناسة إذ كان عالماً بما ناله من جروان. والودايا وتظاهرهم عليهم. واشتغالهم مع ذلك بإفساد السابلة وقبض الخفارات عليها، وكان رئيسهم لذلك العهد رجلاً يقال له: جبور لصاً مبيراً، فآخى السلطان سيدي محمد بين آيت أدراسن وآيت يمور، وحالف بينهم وأوصى عامله على مكناسة

بهم، وتقدم إلى جروان بالكف عن إذايتهم فلم يرجعوا ولم يقلعوا بل تمادوا على حرب آيت أدراسن وظاهرهم الودايا على عادتهم، وأرادوا أن يسيروا فيهم بالسيرة التي كانوا عليها أيام السلطان المولى عبد الله ظناً منهم أن ذلك يتم لهم مع ابنه سيدي محمد وهيهات:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم

ولما اتصل الخبر بالسلطان أمر قائد العبيد وقائد آيت يمور أن يشدوا عضد آيت أدراسن، وينهضوا لنصرتهم على أعدائهم جروان، حيث انتصرت لهم الودايا، فهاجت الحرب وكشرت عن أنيابها، وشمرت عن ساقها، فبرز الودايا بجموعهم ونزلوا بوادي فاس، في أول يوم من رمضان، وأقاموا هنالك مفطرين منتهكين لحرمة الصيام بسفرهم الحرام، ثم اجتمعوا هم وجروان وساروا إلى جهة مكناسة، وأقبل آيت أدراسن نحوهم بمن لافهم من العبيد وآيت يمور، فكان اللقاء على وادي ويسلن، فوقعت الحرب فانتصر آيت أدراسن عليهم، وهزموهم وانتهبوا محلة جروان ومحلة الودايا وقتلوا منهم نحو الخمسمائة، وحزوا رؤوس أعيانهم فعلقوها على الباب الجديد من مكناسة، ورجع الودايا إلى فاس مفلولين لم يتقدم لهم مثلها.

ولما اتصل خبر ذلك بالسلطان اغتاظ على الودايا بسبب افتياتهم عليه، وانتهاكهم حرمة جواره، فعزم على المكر بهم وأسرها في نفسه ولم يبدها لهم، واستمر مقيماً بمراكش إلى أن دخلت سنة أربع وسبعين ومائة وألف.

فخرج من مراكش قاصداً مكناسة ومضمراً الإيقاع بالودايا، وأحس الودايا بذلك منه، فلما وصل إلى مكناسة بعثوا إليه عجائزهم متشفعات ومعتذرات عما فرط منهم، فاجتمعن به أثناء الطريق وتوسلن إليه بالرحم والقرابة، فرق لهن وأعطاهن كسى ودراهم وعدن صحبته إلى فاس فنزل بالصفصافة وخيمت بها عساكره، وخرج أهل فاس والودايا لملاقاته فألان لهم القول وأظهر البشر، ومن الغد أمر بعمارة المشور بدار الدبيبغ، وقدم

أهل فاس طعام الضيافة على العادة، فأمر السلطان بإدخاله إلى دار الدبيبغ، ولما صلى العصر خرج على الناس بالمشور فوقف لهم وقدم الوفود هداياهم على العادة، ولما فرغ من ذلك كله أمر العبيد والودايا بالدخول إلى دار الدبيبغ لأكل طعام الضيافة، وكان قد أعد بها ألفاً من المسخرين للقبض على أعيان الودايا أفردهم في ناحية، فلما دخلوا وغلقت الأبواب وثبوا عليهم وجردوهم من السلاح، وكتفوهم وألقوهم على الأرض.

ولما طعم الجيش وسائر الناس أمر السلطان الخيل بالركوب وشن الغارات على حلة الودايا والمغافرة بلمطة، فركبت الخيول وتقدمت إليهم وسار السلطان في موكبه خلفهم، ولما شرق شارق فاساً الجديد رماه الودايا من أبراجه بالكور فلم تغن شيئاً، وتقدم السلطان حتى وقف بالموضع المعروف بدار الرخاء، فلم يكن إلا هنيئة حتى أقبلت العساكر بالسبي والأثاث والخيام، وانتسفوا الحلة نسفاً، ولما جن الليل خرج من كان بقي من أعيانهم بفاس الجديد وتفرقوا شذر مذر، فذهب بعضهم إلى ضريح الشيخ أبي العباس أحمد الشاوي، وبعضهم إلى زاوية الشيخ اليوسي، وبعضهم إلى ضريح سيدي أبي سرغين بصفرو وغير ذلك، وبقي الضعفاء على الأسوار يطلبون الأمان فعطفته عليهم الرحم ورق لهم فأمنهم وأخرجهم إلى فاس القديم، وأدال منهم بفاس الجديد بألف كانون من العبيد، فنزلوه وعمروه واقفر من الودايا بعد أن كانوا أهله مدة طويلة كما علمت.

ثم أمر السلطان رحمه الله بأربعة من مساجين الودايا فسرحوا، أحدهم القائد قدور بن الخضر الشهير الذكر، وأمرهم أن يقفوا على إخوانهم المسجونين حتى يعينوا أهل الفساد من غيرهم، ويأتوه بزمامهم، ويتحروا الصدق في ذلك، فعينوا له خمسين من عتاتهم أهل زيغ وفساد فأمر بأن تضرب على أرجلهم الكبول ويقرن كل اثنين منهم في سلسلة، ثم بعث منهم إلى مراكش اثنان على الجمل، فسجنوا بها وطهرت الأرض من شيطنتهم، ثم

أمر السلطان رحمه الله القائد قدور بن الخضر أن يسرح الباقين من إخوانه ويضم إليهم من الودايا والمغافرة تكملة ألف ويشرد من عداهم إلى قبائلهم وحللهم، ثم عين السلطان رحمه الله لأولئك الألف إصطبل مكناسة ينزلون به ويكون قصبة لهم، فحملوا أولادهم إلى مكناسة واستوطنوها مع العبيد، غير أنهم قد انفردوا بالإصطبل كما قلنا، وولى عليهم السلطان القائد قدور بن الخضر، وكان أصغرهم سناً وأكملهم عقلاً وأصدقهم خدمة، وأمره بتأديبهم وإجراء الأحكام عليهم حتى رئموا ملكة الدولة وسكنوا تحت تصريفها وخضعوا لأمرها ونهيها، وأخذ السلطان في دفع الخيل والسلاح والكسى لهم شيئاً فشيئاً إلى أن أركبهم كلهم، فصلحت أحوالهم ونمت فروعهم، واستمروا بمكناسة إلى أن ردهم إلى فاس الجديد المولى يزيد بن محمد لأول ولايته كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وسبعين ومائة وألف باع السلطان أمكاس فاس لعاملها الحاج محمد الصفار باثني عشر ألف مثقال في السنة ثم ارتحل إلى مراكش فاحتل بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

مجيء السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه من مراكش إلى الغرب مرة أخرى وما اتفق له في ذلك

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة وألف فيها خرج السلطان سيدي محمد بن عبد اللّه رحمه الله من مراكش يريد بلاد الغرب وعرج في طريقه على جملة من القبائل الذين كانوا مشتغلين بالفساد فأوقع بهم وشرد بهم من خلفهم، وذلك أنه وصل إلى بلاد الشاوية فنهبهم وانتسف أموالهم وقتلهم وقبض على عدد كثير منهم بعثهم في السلاسل إلى مراكش، ثم عدل إلى جهة تادلا فمر على برابرة شقيرين من آيت ومالو فنهب أموالهم وقتل من ظفر به منهم، ثم سار إلى بلاد الغرب عازماً على الإيقاع بعرب الحياينة لإفسادهم

وتمردهم، فابتدأ أولاً بنهب آيت سكاتو، وثنى ببني سادان، وثلث بالحياينة، ففروا إلى جبال غياثة وتحصنوا بها فترك الجيوش ببلادهم تأكل زروعهم، وتقدم هو إلى تازا، ثم اقتحم على الحياينة جبال غياثة فأبادهم قتلاً وتشريداً، والعساكر ببلادهم تنتسف الزروع وتحرق العمائر وتستخرج الدفائن إلى أن تركتها أنقى من الراحة، وعاد إلى مكناسة.

وفي مقامه بها قبض على الشيخ محمود الشنكيطي المتصوف النابغ بفاس كان قد قدم من بلاده ونزل بمستودع القرويين وأظهر التنسك فصار يجتمع عليه الأعيان والتجار من أهل فاس ويعتقدونه. قال في البستان: فلم يقتصر على ما هو شأنه من إقبال الخلق عليه، بل صار يتكلم في الدولة ويكاتب البربر ويزعم أن سلطان الوقت جائر ولم يوافق عليه من الأولياء أحد، فنما ذلك إلى السلطان فأمر بالقبض عليه وبعث به إلى مراكش، فسجن بها ثم امتحن إلى أن مات، ولم تبكه أرض ولا سماء.

وقال أكنسوس: إنه كان يقول إن السلطان يموت إلى شهر، ففشا ذلك في العامة وتسابقوا إلى شراء الفحم والحطب وادخار الأقوات وحصلت فتنة بفاس، فأنهى ذلك إلى السلطان فكتب إلى عامل فاس بالقبض عليه وتوجيهه إلى مراكش. ثم أمر السلطان أيضاً، وهو بمكناسة، بالقبض على الأمين الحاج الخياط عديل وإخوته فسجنوا في مال كان عليهم بعضه له وبعضه لوالده من قبله، وفي تمام السنة أمر بتسريحهم، وبعث الحاج الخياط منهم والسيد الطاهر بناني الرباطي سفيرين عنه إلى السلطان مصطفى بن أحمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى، وفيها أيضاً استخلف السلطان رحمه الله ابن عمه المولى إدريس بن المنتصر بفاس وولاه على قبائل الجبل كلها، وفيها أمر بتحبيس الكتب الإسماعيلية التي كانت بدويرة الكتب بمكناسة، وعددها اثنا عشر ألف مجلد وزيادة، فحبسها على مساجد المغرب كله ولا زالت خزائنها مشحونة بها إلى الآن مكتوباً عليها رسم التحبيس باسم السلطان

المذكور، ثم ارتحل إلى مراكش وفيها أيضاً تولى الحاج محمد الصفار مكس فاس باثنين وعشرين ألف مثقال في السنة.

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بقبيلة مسفيوة والسبب في ذلك

كان هؤلاء مسفيوة شيعة للمولى المستضيء حسبما تقدم، ولما زحف السلطان المولى عبد الله إلى بلاد الحوز وشرد أخاه المولى المستضيء عن مسفيوة وأوقع بهم الوقعة التي تقدم الخبر عنها أذعنوا إلى طاعته في الظاهر، وبقيت الحسائف كامنة في صدورهم، فكانت تلك الطاعة التي أظهروها له هدنة على دخن، واستمر حالهم على ذلك إلى أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله فشرى فسادهم. وقال في «البستان»: «كان هؤلاء مسفيوة من الطغيان والاستخفاف من الدولة على غاية لم تكن لأحد، من يوم استخلف سيدي محمد بمراكش وهو يعالج داءهم فما نفع فيه ترياق إلى أن قدم مراكش قدمته هذه، فوفد عليه بها مائة وخمسون من أعيانهم، فانتهز فيهم الفرصة وقتلهم كلهم سوى القاضي، ثم سرب الخيول للغارة على حلتهم فانتسفوها وأبلغوا في النكاية، فانخضدت بذلك شوكتهم واستقامت طاعتهم وصلحت أحوالهم فيما بعد ذلك».

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة وألف فيها جاء السلطان من مراكش إلى الغرب ونهب في طريقه آيت سيبر من زمور الشلح وبددهم، ولما وصل إلى مكناسة أمر القبائل بدفع الزكوات والأعشار فكانت الحياينة وشراقة وسائر الحوزية يدفعون واجبهم بهري فاس، وكان أهل الغرب وبنو حسن والبربر يدفعون بهري مكناسة، ثم نهض السلطان إلى غزو مرموشة فهزمهم ونهب أموالهم واستولى على معاقلهم وقتل منهم عدداً وافراً، وذلك بعد أن انتصروا على عسكر السلطان أولاً وظهروا عليه، فتقدم إليهم رحمه الله بنفسه وعبيده

المسخرين. فأوقع بهم وشردهم، ثم صار إلى تازا فأصلح شؤونها وثقف أطرافها وعاد سالماً مظفراً.

وفي هذه السنة توفي قائد القواد الذي كان من السلطان بمنزلة الوزير أبو عبد الله محمد بن حدو الدكالي الذي كان ولاه على دكالة لأول ولايته، ثم أضاف إليه تامسنا وتادلا مكان البوزراري الجابري عمود الدولة المحمدية رحمه الله، ولما توفي ولى السلطان مكانه ابن عمه القائد أبا عبد الله محمد بن أحمد.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة وألف فيها أمر السلطان ببناء قبة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بفاس، وفيها ثار رجل اسمه أحمد الخضر بصحراء فجيج فكان يزعم أنه المولى عبد الملك، ثم صار يزعم أنه داعيته، وفتن الناس بتلك الجهات وجرت على يديه حروب وخطوب، فبعث السلطان إلى عرب تلك البلاد فقتلوه وبعثوا برأسه إليه، وهو بمكناسة، وكان السلطان يومئذٍ مريضاً فعافاه الله وسافر إلى مراكش.

ولما اجتاز برباط الفتح بعث منه الرئيس الحاج التهامي مدور الرباطي باشدورا إلى بلاد السويد ليأتيه بإقامة المراكب والبارود، وبعث أيضاً الرئيس أبا عبد الله محمد العربي المستيري الرباطي باشدورا إلى بلاد النجليز ليصلح بها قرصانه ويجعل له إقامة جديدة، فقدمها وجدد قرصانه واستصحب معه إقامة مركبين ومدافع نحاسية وغير ذلك وعاد لتمام السنة.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فيها كانت وليمة عرس ولد السلطان المولى علي بن محمد بمراكش على ابنة عمه المولى أحمد بن عبد الله وعرس ابن أخيه سيدي محمد بن أحمد على ابنة السلطان، وكانت وليمة عظيمة حضرها عامة أهل المغرب بهداياهم وأبهاتم وشاراتهم واستقامت الأمور للسلطان رحمه الله.

بناء مدينة الصويرة حرسها الله

لما فرغ السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من وليمة عرس أولاده سار إلى ناحية الصويرة بقصد بنائها وعمارتها، فوقف على اختطاطها وتأسيسها وترك البنائين والعملة بها وأمر عماله وقواده ببناء دورهم بها وعاد إلى مراكش.

وقال الكاتب أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال في رحلته ما ملخصه: إن السبب في بناء مدينة الصويرة هو: أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان له ولوع بالجهاد في البحر، واتخذ لذلك قراصين حربية تكون في غالب الأوقات بمرسى العدوتين ومرسى العرائش، وكان سفرها في البحر مقصوراً على شهرين في السنة زمان الشتاء لأن المراسي متصلة بالأودية، وفي غير إبان الشتاء يقل الماء ويعلو الرمل بأفواه المراسي فيمنع من اجتياز القراصين بها ويتعذر السفر، ففكر السلطان رحمه الله في حيلة يتأتى بها سفر قراصينه في سائر أيام السنة، فبنى ثغر الصويرة واعتنى به لسلامة مرساه من الآفة المذكورة.

وذكر غير الغزال: أن الباعث للسلطان المذكور على بناء الصويرة هو أن حصن آكادير كانت تتداوله الثوار من أهل السوس مثل: الطالب صالح وغيره، ويسرحون وسق السلع منه افتياتاً ويستبدون بأرباحها، فرأى أن حسم تلك المادة لا يتأتى إلا بإحداث مرسى آخر أقرب إلى تلك الناحية وأدخل في وسط المملكة من آكادير حتى تتعطل على أولئك الثوار منفعته فلا يتشوف أحد إليه، فاختط مدينة الصويرة وأتقن وضعها وتأنق في بنائها، وشحن الجزيرتين الدائرتين بمرساها كبرى وصغرى بالمدافع، وشيد برجاً على صخرة داخل البحر وشحنه كذلك، فصار القاصد للمرسى لا يدخلها إلا تحت رمي المدافع من البرج والجزيرة معاً.

ولما تم أمرها جلب إليها تجار النصارى بقصد التجارة بها وأسقط عنهم

وظيف الأعشار ترغيباً لهم فيها فأهرعوا إليها من كل أوب، وانحدروا إلى مرساها من كل صوب، فعمرت في الحين واستمر الترخيص لهم فيها مدة من السنين، ثم رد أمرها إلى ما عليه حال المراسي من أداء الصاكة وغيرها من اللوزام وهي الآن بهذا الحال، والله تعالى أعلم.

هجوم الفرنسيس على ثغر سلا والعرائش ورجوعه عنهما بالخيبة

قد قدمنا ما كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من الولوع بأمر البحر والجهاد فيه فلم تزل قراصينه تتردد في أكناف البحر وتجوس خلال ثغور الكفر فتقتل وتأسر وتغنم وتسبي إلى أن ضاق بهم رحب الفضاء، وكاد يستأصل جمهورهم حكم القضاء، فمنهم من فزع إلى طلب المهادنة وحسن الجوار، ومنهم من كذبته نفسه فتطاول إلى الأخذ بالثأر.

ومن هذا القسم الثاني جنس الفرنسيس فإن قراصين السلطان رحمه الله كانت قد غنمت منه مركباً ساقته إلى مرسى العرائش وغنمت منه غير ذلك في مرات متعددة فدعاه ذلك إلى أن هجم على ثغر سلا أواخر سنة ثمان وسبعين ومائة وألف. قال الغزال في رحلته: «رمى الفرنسيس بمرسى سلا من الأنفاض والبنب ما ظن أنه يحصل به على طائل فأجيب منها بضعف ذلك، فلم يلبث إلاوأجفانه هاربة تقفو أواخرها الأوائل وفر هارباً مهزوماً ساقط الألوية مذموماً، اهـ. ورأيت بخط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد بن المكي السدراتي السلاوي رحمه الله ما صورته: هجم الفرنسيس على مدينة سلا يوم الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة متم سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فأقاموا يوم الجمعة ويوم السبت بظاهر البحر لم يفعلوا شيئاً، وفي يوم الأحد تقدمت سفنهم فرموا من البنب مائة وسبعاً وسبعين وهدمت الدور وفر النساء والصبيان خارج البلد ولم يبق بها إلا القليل. وكان يوماً مشهوداً، وفي

صبيحة يوم الاثنين أرسل الله عليهم الريح ففرقت مراكبهم ونفس الله عن المسلمين. وفي يوم السبت الآتي بعده رجعوا فرموا مائة وعشرين. وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور رموا مائة ونيفاً وثلاثين ولم يستشهد من المسلمين في تلك المدة سوى رجل واحد اهـ. قال الغزال: ثم «إن الفرنسيس عالج ما انصدع من أجفانه في حرب سار ثم هجم على ثغر العرائش» قال السدراتي: فرمى عليها فيما ذكروا أربعة آلاف نفض ونيفاً وثلاثين نفضاً وخربوها وهدموا دورها ومسجدها. قال: وذلك مفتتح سنة تسع وسبعين ومائة وألف». وفي يوم الخميس الثاني من المحرم وقيل التاسع منه ليلة عاشوراء اقتحموا المرسى في خمسة عشر قارباً مشحونة من العسكر بنحو الألف وفيها من الشلظاظ والفسيان عدد كثير، وتصاعدوا مع مجرى الوادي إلى مراكب السلطان التي كانت هنالك فحرقوا سفينة منها وهي التي غنمها المسلمون منهم، وعمدوا إلى أخرى فكسروها بالمعاول والفؤوس، ثم تكاثر عليهم المسلمون وقاتلهم بنو جرفط وأهل الساحل حتى ردوهم على أعقابهم.

ولما انقلبوا راجعين إلى مراكبهم وجدوا عرب الغرب مع قائدهم حبيب المالكي قد أخذوا بمخنقهم على فم المرسى وانبثوا لهم على الحجر الذي هنالك، وبعث الله ريحاً من جهة البحر عظمت بها أمواجه ومنعتهم من الخروج، فكانوا إذا توسطوا الوادي ليخرجوا ردتهم الريح، وإذا انحازوا إلى أحد الشطين رماهم المسلمون بالرصاص حتى استأصلوا جمهورهم، ثم سبحوا إليهم حتى خالطوهم في قواربهم فاستاقوا أحد عشر قارباً ونجا أربعة، وتقسمهم المسلمون بين قتيل وأسير، وتفرقوا في الأعراب والبادية أيدي سبا ثم أمر السلطان بجمعهم وأعطى كل من أتى بأسير منهم مالاً وكسوة، فاجتمع منهم نحو الخمسين فبقوا في الأسر إلى أن توسط في فدائهم طاغية الإصبنيول ففدوا بمال له بال.

وأما رؤوس القتلى فقد أمر السلطان رحمه الله بتوجيه نحو الثمانين منها إلى سلا فعلقت بالصقالة القريبة من ضريح الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه، وبعد هذا وقع الصلح مع جنس الفرنسيس وانعقدت الشروط معه كما سيأتي.

ثم إن السلطان رحمه الله قدم العرائش عقب الوقعة وأقام بها شهراً واعتنى بشأنها فبنى بها الصقائل والأبراج حتى صارت من أعمر الثغور. وبيد الله تصاريف الأمور.

مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لطاغية الإصبنيول وما اتفق في ذلك

كان السبب الذي أوجب مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله لطاغية الإصبنيول. أن جماعة من أسرى المسلمين الذين كانوا بأصبانيا كتبوا مكاتيب عديدة إلى السلطان رحمه الله يعلمونه بما هم فيه من ضيق الأسر وثقل الإصر، وما نالهم من الكفار من الامتهان والصغار، وكان فيهم من ينتمي للعلم ومن يقرأ القرآن وغير ذلك، فلما وصلت كتبهم إلى السلطان وقرئت عليه تأثر لذلك ووقعت منه موقعاً كبيراً، وأمر في الحين بالكتب إلى طاغية الإصبنيول يقول له: «إنه لا يسعنا في ديننا إهمال الأسارى وتركهم في قيد الأسر، ولا حجة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر، وفيما نظن أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضاً». وأوصاه أن يعتني بخواص المسلمين الذين هنالك من أهل العلم وحملة القرآن، وأن لا يسلك بهم مسلك غيرهم من عامة الأسارى، قال: «مثل ما نفعل نحن بأساركم من الفرايلية فإنا لا نكلفهم بخدمة ولا نخفر لهم ذمة».

فلما وصل هذا الكتاب إلى الطاغية أعظمه وكاد يطير سروراً به، وللحين أمر بإطلاق الأسارى الذين بحضرته، وبعث بهم إلى السلطان ووعده أن يلحق بهم غيرهم من الذين بقوا بسائر إيالته، فوقع ذلك من السلطان رحمه

الله الموقع وعظم في عينيه، وكان كريم الطبع يحب الفخر ويعنى به، فأطلق لطاغية الإصبنيول جميع من كان تحت يده من أسارى جنسه وعززهم بأسرى غير جنسه أيضاً لتكون للطاغية بذلك مزية على سائر الأجناس، وبعث معهم بهدية فيها عدد من الأسود على يد قائد سبتة. فاتصل ذلك كله بالطاغية فطارت نفسه شعاعاً من شدة الفرح، وشمر عن ساعد الجد وهيأ هدية استوفى فيها غاية مقدوره، وبعثها مع كبراء القسيسين والفسيان، وأصحبهم كتاباً أفصح به عما بين جنبيه للسلطان من المحبة والاعتراف بالفضل والمنّة، وطلب منه مع ذلك أن يتفضل عليه ببعث أحد أرباب دولته وكبرائها لتتشرف أرضه بمقدمه، وتشتهر هذه المواصلة والملاطفة عند أجناس الفرنج فيعظم بذلك قدره ويكمل فخره، فأسعفه السلطان رحمه الله بذلك، وبعث إليه خاليه الرئيسين أبا يعلى عمارة بن موسى، وأبا عبد الله محمد بن ناصر، وكلاهما من الودايا، ومعهما كاتبه أبو العباس أحمد الغزال بعثه كاتباً لهما لا غير، فلما وصلوا إلى جبل طارق كتب الغزال إلى بعض وزراء السلطان يقول له: إني أريد منك أن تعرف أمير المؤمنين أن هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين النصارى، وإني قد خفت عاقبة الأمر فيما ينشأ عن رأيهما فلا يؤاخذني أمير المؤمنين بشيء من ذلك إن كان، فأخبر الوزير السلطان فقال: صدق، وقد ندمت على تقديمهما عليه وما راعيت إلا منزلتهما، والآن فاكتب إلى الطاغية وقل له إني قد بعثت إليك بكاتبي أحمد الغزالي باشدورا وابعث بالكتاب إلى الغزال، فإذا بلغه فليستمسك به وليحز الكتاب الأول الذي عندهما ويلي الأمر دونهما، فلما بلغه كتاب السلطان امتثل وقضى الغرض على الوجه المطلوب، وأبقى ذكراً جميلاً رحمه الله.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وسبعين ومائة وألف، ألزم السلطان أهل فاس ببعث الإدالة منهم إلى الصويرة وهي خمسون رامياً بقائدها وفقيه مدرس ومؤقت ومؤذن وشاهدان، وأسقط عنهم البعث الذي كانوا يفرضونه للمملوكِ

قبله، وهي: خمسمائة رام، فعينوا الإدالة المذكورة بعد التي واللتيا وبعثوهم إليه بمراكش، فبعثهم السلطان إلى الصويرة ورتب لهم المؤن والمرافق فكانوا يقومون على المرسى وينتفعون بمستفادها، فحسنت حالهم واغتبطوا بها واستمر الحال على ذلك.

وفي هذه السنة بعث أيضاً السلطان الرئيس أبا الحسن علياً مارسيل الرباطي إلى بلاد الفرنسيس لتقرير الصلح معهم، وقبض مال أسارى العرائش وشراء الإقامة منه، فبذلوا المال والإقامة معاً طائعين، وفيها بعث السلطان الفقيهين السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والسد الطاهر بناني الرباطي، باشدورين إلى صاحب الإسطنبول السلطان مصطفى العثماني وأصحبهما هدية نفيسة فيها خيل عتاق بسروج مثقلة بالذهب مرصعة بالجوهر والياقوت ونفيس الأحجار، وفيها أسياف محلاة بالذهب ومرصعة بالياقوت المختلف الألوان، وفيها حلى من عمل المغرب فقبل ذلك السلطان العثماني وابتهج به ثم كافأ عليه بمركب موسوق من آلة الحرب مدافع ومهاريس وبارود وإقامة كثيرة للمراكب القرصانية من كل ما تحتاج إليه.

وفي هذه السنة خرج السلطان إلى بلاد الريف فجعل طريقه على تطاوين ثم على بلاد غمارة وانتهى إلى جارت وبلاد الريف، فمهد تلك النواحي كلها، ورجع على طريق تازا، وفيها قدم المولى على ابن السلطان خليفة عن أبيه فنزل فاساً الجديد وأضاف إليه قبائل الجبل والريف، وفيها قدمت ربة الدار العالية المولاة فاطمة بنت سليمان من مراكش إلى فاس بقصد الزيارة، فركبت ذات ليلة إلى ضريح المولى إدريس رضي الله عنه، وضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم، وضريح الشيخ أبي عبد الله التاودي، فطافت عليهم وتبركت بتربهم وذبحت أكثر من مائة ثور، وأخرجت صدقات كثيرة، ثم خرجت بعد ذلك إلى مدينة صفرو فزارت ضريح سيدي أبي سرغين، وضريح سيدي أبي علي، وذبحت وتصدقت

وعادت إلى فاس، ثم ذهبت إلى زيارة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، فصحبها في ركابها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها، ولما كانت بأثناء الطريق اعترضها قواد الغرب بهداياهم وبشاراتهم وزيهم، ووافاها قواد الثغور بضريح الشيخ عبد السلام في مواكبهم وخيلهم ورجلهم، وذلك عن أمر من السلطان رحمه الله.

قال صاحب «البستان»: وكنت يومئذٍ والياً على العرائش فحضرت في جملتهم، ولما قضت أرب الزيارة فرقت الأموال على الأشراف من أهل جبل العلم، وغمرت الناس بالعطايا ثم عادت إلى القصر ومنه سارت إلى العرائش فأقامت بها ثلاثة أيام، وانفض قواد الثغور كل إلى محله، وسافرت المولاة المذكورة إلى مراكش في ألف فارس من العبيد، كانوا قد قدموا معها من مراكش عليهم القائد مصباح، وكان فعلها هذا من الآثار العظيمة، والمناقب الفخيمة رحمها الله.

اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بثغر العرائش وشحنه بآلة الجهاد

قد تقدم لنا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله قدم العرائش عقب وقعة الفرنسيس فوقف عليها واعتنى بأمرها، وبنى بها الصقائل والأبراج وصونها، ثم كان قدوم ابنه المولى يزيد في هذا التاريخ إلى فاس، وفي ركابه جماعة من رؤساء البحر والطبجية أهل الإجادة في الرمي، وكان قدومه بأمر السلطان لجر المدافع، والمهاريس النحاسية التي كانت بفاس الجديد ومكناسة ونقلها إلى ثغر العرائش ففعلوا، وألزم السلطان القبائل الذين بالطريق أن يتولوا جرها، فكانت كل قبيلة تجرها إلى التي تليها إلى أن وصلوا إلى مشرع مسيعيدة من نهر سبو.

قال صاحب «البستان»: فورد علينا أمر السلطان بالعرائش أن نخرج إلى لقائهم في الجند وقبائل الحوز يعني حوز العرائش، قال: فوافيناهم على

وادي سبو فتولى أهل الغرب جر تلك المدافع والمهاريس إلى أن أوصلوها إلى وادي الدردار قرب تاجناوت، ثم جرها أهل العرائش وقبائل حوزها إلى المدينة، وكان يوم دخولها مهرجاناً عظيماً أخرجت فيه المدافع والمهاريس والبارود، وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود إلى المساء، ثم رجع المولى يزيد ومن معه من الرؤساء والبحرية والطبجية إلى حضرة السلطان بمكناسة وقد تم الغرض المقصود.

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بآيت يمور أهل تادلا ونقلهم إلى سلفات والسبب في ذلك

لما انقضى أمر العرائش تفرغ السلطان لقضاء ما كان قد بقي عليه من أمر الرعية، فخرج من مكناسة إلى تادلا مضمراً الإيقاع بآيت يمور لما كان يبلغه عنهم من الفساد في الأرض، فلم بلغها مكر بهم بأن أرسل إليهم يستنفرهم خيلاً ورجلاً وأراهم أنه يريد أن يذهب بهم في سرية هيأها لآيت ومالو، فلما قدموا عليه أمر بعرض العساكر كلها ووقف رحمه الله بإزاء القصبة، ثم عرضت عليه عساكر الجند، ثم القبائل بعضها إثر البعض وكلما مرت عليه قبيلة أوقفها في ناحية عينها لها، وكلما مر به جيش أوقفه كذلك، حتى غصت الأرض بالخيل والرجل واستدارت من كل الجهات ولم يبق إلا آيت يمور فجاؤوا في آخر العرض، ولما مثلوا بين يديه أمر أهل رحاه أن يرموهم بالرصاص على زناد واحد، فأطلقوا عليهم شؤبوباً منه تساقط له عدد كثير، وكان قد تقدم إلى العساكر المستديرة بهم أن ينفحوهم بالرصاص كلما قصدوا جهة من جهاتهم، فكانوا كلما قصدوا ناحية طالبين الخلاص منها رماهم أهلها فتتساقط منهم العصبة الكبيرة إلى أن خلصوا من ناحية أهل دكالة، بعد أن هلك منهم ما ينيف على الثمانمائة، فأمر السلطان برؤوسهم فجزت وبعث بها إلى فاس فعلقت على الأسوار، وأمر العساكر بنهب حللهم فانتسفوها وسيقت مواشيهم وخيامهم وأثاثهم، وفر من أفلت منهم إلى جبل

آيت يسري، ثم رحل السلطان عنهم إلى مراكش فوفدوا عليه بعد أيام خاضعين تائبين، فعفى عنهم ونقلهم إلى جبل سلفات من أحواز فاس فأوطنوه حيناً من الدهر.

إغراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بآيت أدراسن والسبب في ذلك

لما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لآيت أدراسن من الإحسان ما كان حتى أوقع بالودايا لأجلهم مع أنهم صميم الجند وركن الدولة، وأطال لهم الرسن في ذلك بما أطغاهم وحملهم على الدالة عليه، صدرت منهم هنات اعتدها السلطان عليهم، فانتدب لتأديبهم بأن كتب وهو بمراكش إلى الودايا لقتالهم، وإلى العبيد وجروان يأمرهم أن يجتمعوا على حربهم والإيقاع بهم، فكان ذلك عند الودايا من أكبر متمناهم، فاجتمعوا مع من ذكر ونهدوا إليهم فكبسوهم في ديارهم وجرت بينهم حرب فظيعة انهزم في آخرها آيت أدراسن ونهبت حللهم، وقتل منهم عدد كثير وأسر مثل ذلك، ووجهوا في السلاسل إلى السلطان بمراكش.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وسبعين ومائة وألف، أمر السلطان بجمع جند اليكشارية من قبائل الحوز، ووكل بجمعهم القائد عبد النبي المنبهي وأن يثبتهم في ديوان العسكر، وأن كل من كان عزباً وأراد الدخول في الجندية فليكتبه، فاجتمع له من ذلك أربعة آلاف وخمسمائة، فأعطاهم السلطان الكسي والسلاح واستخدمهم مدة، ثم كان مآلهم أن رجعوا إلى إخوانهم وقبائلهم، وضرب عليهم المغرم في جملتهم، وفيها مات عامل فاس الحاج محمد الصفار، فولى السلطان على فاس ابنه العربي بن محمد الصفار.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة وألف فيها قدم السلطان إلى مكناسة وقبض على القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي صاحب طنجة، وعلى مائة من

قرابته وأهل بيته فأودعهم السجن، ثم سار إلى طنجة فدخلها ونهب دار عبد الصادق المذكور، ونقل إخوانه بأولادهم إلى المهدية، وولى عليهم محمد بن عبد الملك من بيتهم، ولم يترك بطنجة من أهل الريف إلا أهل المروءة والصلاح، وأنزل معهم ألفاً وخمسمائة من عبيد المهدية بعددهم بحيث لا يطمعون في قيام ولا يحدثون أنفسهم بثورة، ووقع بخط الفقيه أبو العباس أحمد السدراتي أن انتقال أهل الريف إلى المهدية كان بعد هذا بنحو أربع سنين والله أعلم.

مقتل عبد الحق فنيش السلاوي ونكبة أهل بيته والسبب في ذلك

قد قدمنا في آخر دولة السلطان المولى عبد الله ما كان بحواضر المغرب وبواديه من الاضطراب، فسما بعض القواد والعمال بالأمصار إلى مرتبه الاستقلال، وطرحوا طاعة السلطان في زاوية الإهمال، فمنهم صاحب سلا عبد الحق بن عبد العزيز فنيش، كان قد استحوذ على مدينة سلا وأعمالها واستبد بأمرها، بما كان له من العشيرة والعصبية بها، ولما اجتاز سيدي محمد بن عبد الله بن مراكش إلى القصر أيام والده أغلق عبد الحق هذا أبواب سلا في وجهه، ولم يحفل به ذهاباً وإياباً حسبما مر.

ثم لما ولى الله السلطان أمر المسلمين أعرض عما أسلفه عبد الحق من جريرته وأبقاه في مدينته على رياسته، فاستمر على ذلك برهة من الدهر، وكان فظاً غليظاً، فقتل رجل من أعيان سلا قيل كان هذا الرجل من قرابته وقيل كان من أولاد زنيبير، فرفع أولياؤه أمرهم إلى السلطان بمكناسة وحضر عبد الحق معهم وثبت أن قتله للرجل كان على وجه الظلم، فحرك ذلك من السلطان ما كان كامناً في صدره عليه، فقبض عليه ودفعه إلى أولياء المقتول ليتولوا قتله بأيديهم، فجبنوا عنه لما كان له في قلوبهم من الهيبة، فأمر

السلطان الوزعة بقتله بمرأى منهم، فقتلوه فيما قيل بأيدي الفؤوس، ثم بعث السلطان من احتاط على أموال عبد الحق والفنانشة أجمع، وأمر ببيع أصولهم بعد إعمال الموجبات بأن الفنانشة مستغرقوا الذمة، وأن جميع ما بأيديهم اكتسبوه من الغصوبات وغيرها من وجوه الظلم وضرب الأتاوات على الضعفاء والمساكين حتى عند نكاحهم، فبيعت أصول عبد الحق وعشيرته لبني حسن، وكانت تنيف على مائة أصل من بين ربع وعقار، وكان ذلك سنة ثمانين ومائة وألف، ثم غربهم السلطان إلى العرائش فسجنوا بها مدة، وغرب بعضهم إلى الصويرة ثم عفا عنهم وقربهم وولاهم رياسة الرماية بالمهراس والمدفع المعروفة برياسة الطبجية، وفرقهم على الثغور، فكان بعضهم بالعرائش، وبعضهم بطنجة، وبعضهم برباط الفتح، وبعضهم بالصويرة وأعطاهم الدور المعتبرة والرباع المغلة، ورتب لهم الجرايات العظيمة حتى بلغوا من الثروة والعز والجاه ما لم يبلغه أحد في دولته رحمه الله، كذا في البستان.

ومن القواد الذين كانوا في حكم الاستبداد أيام السلطان المولى عبد الله ثم نكبهم ابنه السلطان سيدي محمد بعد حين القائد أبو الحسن الحاج علي بن العروسي الدكالي البوزراري، كان قائد المولى المستضيء بعد أيام ولايته، ولما أفضى الأمر إلى السلطان سيدي محمد قبض عليه وأودعه المطبق عدة أعوام، ثم سرحه وولاه مدينة شفشاون، وتوارث الرياسة بنوه من بعده ولهم آثار بثغر الجديدة، منها مسجدها مكتوباً عليه اسم بانيه إلى الآن، ومن القواد المستبدين قائد تامسنا المدعو ولد المجاطية، وقائد تادلا الرضي الورديغي، فعزلهم السلطان سيدي محمد وولى على تامسنا وتادلا القائد محمد بن حدو الدكالي المتقدم الذكر، ومنهم أبو عريف قائد بني حسن، فعزله السلطان وولى مكانه أبا عبد الله محمد القسطالي ومنهم الباشا حبيب المالكي قائد الغرب كان رأس الأمراء أيام أبيه، فقبض عليه وأودعه

المطبق وأمر بهدم قصره وحمل أنقاضه إلى العرائش، ونهب ماله وماشيته، ولما طرح الباشا حبيب بالمطبق منع نفسه من الطعام والشراب إلى أن مات ميتة جاهلية عياذاً بالله، فهؤلاء أنياب القبائل وأهل العصبية منهم تتبعهم السلطان واحداً بعد واحد إلى أن أراح الدولة من ضررهم والله أعلم.

وفي هذه السنة أعني سنة ثمانين ومائة وألف انعقدت الشروط بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين جنس الفرنسيس، وهي عشرون شرطاً، مضمنها ومرجعها إلى المهادنة والصلح، والمخالطة بالبيع والشراء مع التوقير والاحترام من الجانبين، وإذا سافرت مراكبهم من مراسيهم إلى إيالتنا فتصحب معها الورقة المسماة «بالباصبورط» من عند أمير البحر المرتب بكل مرسى من مراسيهم، فيها اسم المركب ورئيسه، وبيان ما اشتمل عليه من الوسق، ومن أين جاء وإلى أين يذهب، وعليه طابع أمير البحر وهو طابع الجنس، وإذا سافرت مراكبنا من مراسينا إلى إيالتهم، فتصحب كذلك خط يد القنصل المرتب بمرسانا من ذلك الجنس، باسم المركب ورئيسه، وما اشتمل عليه، مختوماً عليه بطابع الجنس أيضاً، وكان القياس أن مراكبهم تحمل طابعنا وخطنا ليحصل لها التوقير، كما نحمل نحن طابعهم وخطهم ليحصل لنا التوقير منهم، ولكن لما لم تجر العادة بترتب متأصلنا بمراسيهم اكتفي بطابعهم من الجانبين، إذ المقصود حاصل بذلك ولا يلتبس على رؤساء البحر طابع جنس بآخر، فإذا التقى مركب بمركب وأخرج كل ورقته عرف من أي جنس هو وعومل على مقتضى ذلك.

ورود هدية السلطان مصطفى العثماني على السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمهما الله

وفي هذه السنة أعني سنة ثمانين ومائة وألف، بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله خديمه الرئيس عبد الكريم راغون التطاوني

باشدورا إلى السلطان مصطفى العثماني، وأصحبه هدية نفيسة مكافأة له على هديته التي كان أرسلها مع السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والسيد الطاهر بناني الرباطي حسبما مر.

ثم لما دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، قدم الحاج عبد الكريم المذكور من عند السلطان المذكور ومعه هدية عظيمة أعظم من الأولى، وهي مركب موسوق بالمدافع والمهاريس النحاسية، وإقامتها وإقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف وقلوع وقمن وحبال وبراميل وغير ذلك من آلات البحر، وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بأفراغ المدافع والمهاريس والكور والبنب، وبصناعة المراكب القرصانية، وفيهم معلم مجيد في الرمي بالمهراس إلى الغاية، فنزلوا بمرسى العرائش.

قال صاحب «البستان»: وكنت يومئذٍ والياً بها فورد أمر السلطان بتوجيه المعلمين إلى فاس يقيمون بها حتى يقدم السلطان من مراكش إلى مكناسة فيجتمعون به هنالك، ولما وصل السلطان إلى مكانسة وحضروا عنده فاوضهم في الخدمة وأراد أن يحيي آثار دار الصنعة التي كانت بسلا تصنع بها المراكب الجهادية على عهد الموحدين وبني مرين، فقالوا: نحتاج أن تبني لنا داراً على هيئة كذا، ومن نعتها كذا وكذا، ورسموا له شكلها في قرطاس فرأى أن أمرها لا يتم في عشر سنين ولا أكثر، ولا يكفي في بنائها مال فأعرض عن ذلك، وبعث معلمي البنب إلى تطاوين فكان أحدهم يفرغ البنبة من قنطارين، وبعث معلمي المراكب إلى سلا فأنشؤوا فيها ثلاث شكظريات، وبعث معلم الرمي إلى رباط الفتح فكان يعلم بها الطبجية من أهل سلا والرباط، وتخرج على يديه نجباء. ومن ثم توارث أهل العدوتين هذه الصناعة مدة إلى أن لم يبق بها اليوم إلا الاسم، وورد أصحاب المدافع والمهاريس إلى فاس فأقاموا بها إلى أن توفوا هنالك رحمهم الله.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين جنس الدينمرك، وهي عشرون شرطاً ترجع إلى تمام الصلح والأمن من الجانبين أيضاً والأول منها مضمنة خروج أمر المراسي المغربية من يد تجار الدينمرك فلا يتصرفون فيها بشيء، لكون الكمبانية التي كانت تدفع من المراسي قد تفرقت بعد التزام قنصلهم بأداء اثني عشر ألف ريال وخمسمائة ريال التي بقيت بذمة تجارهم من ذلك، ولا تعود المراسي لأيديهم بحال، والآخر منها مضمنة أن يدفع طاغية الدينمرك للسلطان كل سنة خمسة وعشرين مدفعاً من مدافع المعدن وزر كورتها من ثمانية عشر رطلاً إلى أربعة وعشرين، ويدفع معها ثلاثين قمنة، ومن اللوح الرويلي ألفي لوحة مختلطة، ومن الريال ستة آلاف وخمسمائة، والكل واصل إلى المحل الذي يريده السلطان، وإن أراد الطاغية أن يدفع بدلاً عن جميع ذلك خمسة وعشرين ألف ريال فله ذلك ومثل هذا انعقد مع جنس السويد أيضاً، إلا أن قدر المدفوع من جانبه عشرون ألف ريال فقط في كل سنة، ومع أجناس أخر وظائف أخر، واستمرت هذه السنة إلى أن انقطعت سنة إحدى وستين ومائتين وألف في دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله حسبما نذكر ذلك في محله.

وفي هذه السنة أعني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، كانت فتنة الدعي كلخ بمراكش، وهو رجل صعلوك اسمه عمر، كان ينتسب إلى الشيخ أبي العزم سيدي رحال، وكان يظهر للعامة الكرامات الكاذبة، وتبعه السواد الأعظم من جهلة البادية، لأنه وعدهم أن يفتح لهم بيت المال ويهيلون منه الذهب والفضة هيلاً، من غير ممانع، فأهرع الناس إليه وتقدم إلى مراكش، فدخلها في عالم من الأوباش شعارهم هاتان الكلمتان: كلخ، شلخ رافعين بها أصواتهم وهم كالسيل المنحدر من عل، فوقع الهرج بالمدينة وغلقت الأسواق، واتصل الخبر بالسلطان وهو بداره، فأمر الوزعة والعبيد

فاعترضوهم دون القصبة وقبضوا عليه، ولما صار في أيديهم فر من كان معه من الطغام وساقوه إلى السلطان، فقتله وسكنت جعجعته للحين.

انعقاد الصهر بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحب الفخر، ويعنى به، وله رغبة في الخير وأهله. ولما كان سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله بالمحل الذي أكرمه الله به بلداً ومحتداً، رغب السلطان سيدي محمد رحمه الله في مصاهرته، وسمحت نفسه الشريفة ببذل كريمته.

فلما دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، وعزم ركب الحاج المغربي على السفر إلى الحجاز بعث معهم السلطان المذكور ابنته وزفها على بعلها المذكور وبعث ولده الأكبر وخليفته الأشهر المولى علي بن محمد لإقامة فريضة الحج ومعه شقيقه المولى عبد السلام صغيراً دون بلوغ ليكون مع أخته وكلاهما في صحبة الركب المغربي كما قلنا، وأصحبهما هدية لأمير طرابلس وهدية لأمير مصر والشام، وهدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين ومالاً كثيراً يفرق على أشراف الحجاز واليمن، وجوائز سنية للعلماء والنقباء وأرباب الوظائف بمكة والمدينة، وبعث معهما من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وأشياخهم، ومن أكابر خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول المسومة والسلاح الشاكي، والشارة الحسنة، ما تحدث به أهل المشرق دهراً، وكان في جهاز ابنة السلطان ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلى والياقوت والجوهر، وكان يوم دخولها إلى مكة يوماً مشهوداً، حضره عامة أهل الموسم الأعظم من الآفاق، وتناقلت حديثه الركبان والرفاق.

اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بعبيد السوس والقبلة وجلبهم إلى أجدال رباط الفتح

وفي هذه السنة، أعني سنة اثنتين ومائة وألف، بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله ابن عمه المولى علي بن الفضيل وكاتبه أبا عثمان سعيد الشليح الجزولي إلى بلاد السوس لجمع عبيد المخزن الذين بها، وبعث وصيفه المحجوب ابن قائد رأسه لإقليم طاطا وآقاوتيشيت من بلاد القبلة لجمع العبيد الذين هنالك فجاؤوا بألفين من عبيد السوس بأولادهم، وألفين من عبيد القبلة بأولادهم كذلك، فأنزلهم السلطان بظاهر مراكش إلى أن أعطاهم السلاح والكسي، وولى عليهم القائد المحجوب المذكور.

ثم لما سار إلى رباط الفتح أمر بقطع جنات أجدال الذي بظاهر البلد، وأنزل العبيد به وبنى لهم الدور والمسجد والمدرسة والحمام والسوق، وزاد عليهم ألفين وخمسمائة من الودايا جلبها من القبائل، وكتب الجميع في الديوان وجعلهم في مقابلة عبيد مكناسة والودايا الذين بها، وأفاض فيهم العطاء الكثير لسكناهم بثغر من ثغور الإسلام.

فتح الجديدة

قد ذكر لويز مارية خبر هذا الفتح ونحن نلخص ما ذكره من ذلك قال: لما ولي السلطان سيد محمد بن عبد الله سلطنة المغرب، كان لا يقر له قرار من أجل مشاركة البرتغال له في قطعة من أرضه، وكان شهماً ذا أنفة وإباية، فاستشار أهل الرأي من دولته في غزو الجديدة وفتحها، فقالوا له: لا يظن سيدنا أن أخذها يكون بأن تحمل المسلمون عليها دفعة واحدة حتى يقتحموها مثلاً، فإن ذلك لا يجدي شيئاً، ولا يحصلون إلا على القتل، كما وقع في أيام السلطان الغالب بالله السعدي، وإنما يتوصل إلى فتحها بالحصار

والمطاولة براً وبحراً، فعمل على ذلك بعد أن كرهه أولاً، ولما عزم على النهوض إليها، جمع جيشاً كثيفاً من قبائل مراكش والحوز والسوس وغير ذلك.

زعم لويز أنه اجتمع له من المقاتلة نحو سبعين ألفاً، ويظن أن هذا من مبالغته على عادته في ذلك، وكان نزوله على الجديدة، في رابع مارس العجمي، سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف مسيحية، وفي تواريخ الإسلام، أن نزوله عليها كان في فاتح رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف عربية، ولما نزل عليها أمر بحفر الأساس لاتخاذ أشبار من جميع جهاتها، ونصب عليها خمسة وثلاثين مدفعاً بين كبير وصغير، ورمى عليها كوراً وبنباً كثيراً في أيام متعددة سقط منه داخلها أكثر من ألفين، وهدمت كثيراً من أبنيتها، وقتلت عدداً وافراً من أهلها، وكان من جملة أهلها رجل عسكري قد أناف على السبعين سنة وعجز عن حضور القتال، وله زوجة وأولاد، فلما رأى تساقط البنب مثل المطر طلب النجاة لنفسه وعياله، ففر إلى هري هنالك كان فوقه خزائن قمح فاختفى تحته، واختفى معه أناس آخرون وظنوا أن البنبة لا تنفذ في خزين القمح وتخرق السقف الذي تحته وتصل إلى الهري الذي هم به، فقضى الله تعالى بأن سقطت به بنبة تجاوزت القمح والسقف وسقطت على الشيخ فقتلته ومن معه، وكانوا تسعة أنفس، وانجرح آخرون.

ولما طال الحصار على أهل الجديدة كتبوا إلى طاغيتهم فأشار عليهم بالخروج إن عجزوا عن المدافعة، وكانت هذه المكاتبة من غير علم من العامة، وبينما هم كذلك إذ ورد عليهم مركب من أشبونة ظنوه مدداً لهم، فإذا به قد أتى بكتاب الطاغية يأمرهم بالخروج، ويتحملوا بأولادهم وعيالهم في مراكبه ويدفعوا البلد للمسلمين، ولما علم العامة بذلك امتنعوا وحاصوا حيصة حمر الوحش، وسبوا الكتاب ومن أرسله وقالوا: لا نخرج منها حتى نهلك عن أخرنا، إذ هي مأثرة أجدادنا عجنت طينتها بدمائهم، وفنيت عليها

نفوس أكابرهم وأشرافهم، ثم توسط بين عامتهم وكبيرهم القسيسون وسهلوا عليهم الأمر حتى انقادوا، وبعث كبيرهم إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله يطلب منه أن يكف عن القتال ويؤجله ثلاثة أيام ليدفع له البلد، فأجابه السلطان إلى ذلك، واشترط عليه أن لا يخرجوا إلا في ثيابهم التي على ظهورهم، ولا يحملوا معهم شيئاً غيرها فامتثلوا.

قال لويز: حتى أن عسكرياً منهم حمل معه كسوة أخرى لم تسمح بها نفسه فرآها كبيرهم وهو يريد أن يصعد إلى المركب فانتزعها منه وألقاها في البحر، ولما أيسوا من حمل شيء معهم أحرقوا الأثاث والفراش، وعرقبوا الخيل، وقتلوا الماشية، وكسروا الأواني والعدة وفلسوا أكثر من مائة مدفع وآخر الأمر أنهم دفنوا مينات البارود في حوماتها كل مينا فيها أكثر من أربعين برميلاً، وتركوا رجلاً حداداً اسمه بطروس، فيقال إنه الذي أوقد المينا عند دخول المسلمين إليها، فهلك فيها نحو خمسة آلاف وتهدم السور الجنوبي منها.

ولما وصلوا إلى أشبونة أسكنهم طاغيتهم ببلدة يقال لها: بلين فأصابهم الوخم وهلك منهم أكثر من ثلاثمائة نفس، ثم انتقلوا إلى بلاد البرازيل، فبنوا هنالك مدينة سموها مازكان الثانية باسم الجديدة، هذا ملخص ما ذكره لويز. ومن خط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد السدراتي، أن فتح الجديدة كان صبيحة يوم السبت الثاني من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، ووافق ذلك اليوم الثامن والعشرين من فبراير العجمي وهو ثالث أيام الحسوم اهـ. وكان ممن شهد هذا الفتح المعلم الحاج سليمان التركي المجيد في صناعة الرمي بالمهراس فأبدأ وأعاد، وحضرها أيضاً جماعة من فنانشة سلا فأبلوا بلاء حسناً، وعمرها السلطان بأهل دكالة إذ هي في وسط أرضهم، وأضاف إليهم حصة من عسكر اليكشارية وأعقابهم بها لهذا العهد والله أعلم.

سعي السلطان سيدي محمد بن عبد الله في فكاك أسرى المسلمين وما يسر الله على يديه من ذلك

قد تقدم أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان قد بعث خاليه: عمارة بن موسى، ومحمد بن ناصر، الوديين وكاتبه أبا العباس الغزال إلى طاغية الإصبنيول، وأن الغزال قد أحكم الصلح وقضى الغرض على ما ينبغي، وفي تلك السفرة وقع التفادي بين السلطان والطاغية في الأسرى التي كانت بينهما حسبما مر.

فلما كانت هذه السنة التي هي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، كتب طاغية الإصبنيول إلى السلطان يقول: إنه لم يبق ببلادي أحد من أسرى إيالتكم، ولم يبق عندي إلا أسرى أهل الجزائر الذين عندهم أسرانا، وطلب منه مع ذلك أن يتوسط له عند صاحب الجزائر في المفاداة بينه وبينه، وكانت أسرى الإصبنيول تزيد على أسرى الجزائر بكثير، وطلب أن تكون هذه المفاداة على يديه أعني على يد السلطان رحمه الله، الرئيس بالرئيس والبلوط بالبلوط، واليكانجي باليكانجي، والبحري بالبحري، والجندي بالجندي، ومن فضلت عنده فضلة فالبحيري بخمسمائة ريال، والرئيس بألف، فأسعفه السلطان في طلبه، وانتدب للسعي في إنقاذ المسلمين من أيدي الكفار ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثوابه، وكان السلطان قد كتب إليه مع الغزال وصاحبيه فيمن تحت أيديهم من سائر أسرى المسلمين، فبعثوا إليه بأهل المغرب فقط، واعتذروا بأنهم حبسوا أسرى الجزائر ليفكوا بهم أسراهم.

ولما كاتب السلطان أهل الجزائر وعرض عليهم ما طلبه طاغية الإصبنيول امتنعوا من الفداء، فكتب السلطان إلى باي الجزائر ثانياً فامتنع، ثم

أعاد إليهم الكتابة ثالثاً وحضهم على فكاك أسرى المسلمين ووعظهم وخوفهم عقاب الله ورغبهم في ثوابه، فأذعنوا وامتثلوا، وطلبوا منه أن يبعث إليهم رجلاً من خاصته يقف على المفاداة بنفسه، ويدفعون إليه أسراهم في يده، ويتسلم مثل عددهم من إخوانهم، فلما ورد على السلطان كتاب أهل الجزائر بالامتثال كتب إلى الطاغية يأمره أن يبعث بما عنده من أسرى المسلمين في مركب إلى الجزائر وينتظر هنالك الباشدور الذي يوجهه من قبله حتى تكون المفاداة على يده، وبعث السلطان لهذا الغرض كاتبه أبا العباس الغزال وصاحبيه، وعند وصولهم إلى الجزائر أرسى مركب الإصبنيول بظاهر مرساها وأنزل من أسرى المسلمين ألفاً وستمائة ونيفاً، فأخرج أهل الجزائر من أسرى النصارى مثلهم ألفاً وستمائة ونيفاً أيضاً، وبقيت عندهم من أسرى النصارى فضله ففداها الإصبنيول بالمال وانفصلوا، ورجع الباشدور ومن معه إلى حضرة السلطان وكتب الله أجر ذلك في صحيفته.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف فيها غزا السلطان قبائل تادلا لإفسادهم ومحاربة بعضهم بعضاً، فنهب أموالهم، وشردهم في كل وجه، وولى عليهم القائد صالح بن الرضي الورديغي، فاستصفى أموالهم وأفقرهم حتى لم يقدروا على الانتقال من محل إلى آخر من قلة الظهر.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة وألف فيها غزا السلطان برابرة جروان لما ظهر منهم من الفساد، وإغرائهم ابنه المولى يزيد بالانتزاء على الملك، واجتماعهم على محمد وناصر المعروف بمهاوش رأس الفتنة، وتباريهم في خدمته، فقدم من مراكش وطرقهم وادي كريكرة فأوقع بهم ونهب أموالهم وقتل منهم نحو الخمسمائة، وتركهم عالة يتكففون الناس بمكناسة وفاس، ثم نقلهم إلى بسيط آزغار وأنزلهم وسط العرب فانحسمت مادة فسادهم.

حصار السلطان سيدي محمد بن عبد الله
مدينة مليلية من ثغور الإصبنيول

لما كانت أواخر سنة أربع وثمانين ومائة وألف، غزا السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية وفيها نصارى الإصبنيول، فأحاطت عساكره بها ونصب عليها المدافع والمهاريس، وشرع في رميها أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين ومائة وألف، واستمر على ذلك أياماً فكتب إليه طاغية الإصبنيول يعاتبه على حصارها ويذكره المهادنة والصلح الذي انعقد بينه وبينه ويقول له: هذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لا زال تحت يدي، فأجابه السلطان رحمه الله بأن قال: إنما عقدت معك المهادنة في البحر، فأما المدن التي في إيالتنا فلا مهادنة فيها ولو كانت فيها مهادنة لخرجتم إلينا ودخلنا إليكم، فكيف ادعاء المهادنة مع هذه المداهنة، فبعث إليه الطاغية عقد الصلح بعينه فإذا هو عام في البر والبحر، فكف عن حربها وأفرج عنها وترك هنالك جميع آلات الحرب من مدافع ومهاريس وكراريص وبنب وكور وبارود، وشرط على الطاغية حملها في البحر وردها إلى الثغور التي جلبت منها لما في جرها في البر من المشقة على المسلمين، فأنعم بذلك وبعث مراكبه فحملت بعضها إلى تطاوين، وبعضها إلى الصويرة، وذلك محلها الذي سيقت منه، وكان ذلك سبب تأخيره الغزال عن كتابته، وبقي عاطلاً إلى أن كف بصره ومات رحمه الله.

وسمعت من بعض فقهاء العصر وقد جرت المذاكرة في كيفية هذا الصلح فقال: إن الغزال رحمه الله لما أعطى خط يده بالصلح والمهادنة، كتب في الصك ما صورته: وإن المهادنة بيننا وبينكم بحراً لا براً، فلما حاز النصارى خط يده كشطوا لام الألف وجعلوا مكانها واواً فصار الكلام هكذا بحراً وبراً، وأن السلطان رحمه الله إنما أخره لاختصاره الكلام وإجحافه به حتى سهل على النصارى تحريفه، وكان من حقه أن يأتي بعبارة مطولة مفصلة

حتى لا يمكن تحريفها، فيقول: مثلاً والمهادنة بيننا وبينكم إنما هي في البحر، وأما البر فلا مهادنة بيننا وبينكم فيه، أو نحو هذا من الكلام فيصعب تحريفه، وقد نص أهل علم التوثيق على هذا وأن الموثق يجب عليه أن يبسط الكلام ما استطاع ويجتنب الاختصار المجحف وما يؤدي إليه بوجه من الوجوه والله أعلم.

نهوض السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى برابرة آيت ومالو والسبب في ذلك

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة وألف فيها خرج السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله إلى جبال آيت ومالو، وكان ذلك في غرض قائده بلقاسم الزموري، فإنه كان قد ولاه عليهم فلم يقبلوه، فطلب من السلطان الإعانة عليهم فأمده بثلاثة آلاف فارس مضافة إلى من معه من إخوانه زمور وبني حكم، وسار إليهم فلما نزل على وادي أم الربيع من ناحية تادلا زحفوا إليه فولى عنهم مدبراً ولم يعقب، واتصل خبر هزيمته بالسلطان فاغتاظ على آيت ومالوا، وأخذ في الاستعداد لغزوهم، وبرزت العساكر بظاهر مكناسة، وبعث السلطان إلى أمراء القبائل من العرب والبربر يستنفرهم فوافاه بمكناسة على الصعب والذلول، ولما تكاملت الجنود نهض إليهم.

قال صاحب البستان: وهو الكاتب أبو القاسم الصياني بالصاد المشممة زاياً كلفظ صراط في قراءة حمزة، وكنت معه في هذه السفرة وساق الحديث عنها بأن قال: كنت مع السلطان وأنا يومئذٍ في حيز الإهمال، أتوقع الموت في كل وقت، بسبب ما كتب إليه في شأني القائد بلقاسم الزموري المذكور آنفاً، وأني أنا الذي أفسدت عليه قومه، ولما وصل السلطان إلى محلة بلقاسم ونزلت عساكره في بسيط كريكرة أشار على السلطان بأن يقسم تلك الجيوش على ثلاثة أقسام: ثلث منها ينزل بتاسماكت من وراء العدو، وثلث

ينزل بزاوية أهل الدلاء على طريق بلادهم، وثلث يذهب معه على طريق تيقيط، ويتقدم السلطان في عساكره حتى ينزل بآدخسان، وتقصدهم العساكر من كل وجه، وقرب على السلطان الأمد البعيد، باللسان والرأي الذي لا يفيد، وكان هو لا يعرف البلاد، ومن الغد افترقت العساكر فتوجه كل إلى ناحيته التي عينت له، وتقدم السلطان إلى آدخسان، ولما عبر وادي أم الربيع قدم كروان أمامه للغارة عليهم، فساروا إلى أن بلغوا قصبة آدخسان فلم يجدوا بها نافخ نار، فأقاموا هنالك إلى أن لحق بهم السلطان فقال: أين هؤلاء؟ قالوا: ما رأينا أحداً، وهذه قصبة آدخسان، فأمر بنزول الجيوش وبقي هو على فرسه متحيراً فاستدعى أبا القاسم الصياني، قال: فأسرعت نحوه فقال لي: أتعرف هذه البلاد؟ قلت: نعم أتم المعرفة قال: وأين أهلها؟ قلت: في جبلهم، قال: أو ليس هذا جبلهم وهذا آدخسان؟ قلت: لا هذه قصبة المخزن. والجبل من تلك الثنايا السود فما خلفها، وأريته الثنايا، فقال: وأين الزاوية التي سار إليها الجيش مع قدور بن الخضر ومسرور؟ قلت: هي عن يمين الثنايا في البسيط، قال: وأين تاسماكت التي سارت إليها أمم البربر مع ولد محمد واعزيز؟ قلت: بيننا وبينها مرحلتان من وراء الثنايا، قال: ومن أين يأتي القائد بلقاسم: فأريته الثنية التي يطلع منها وقلت له: إنه لا يصل إلينا إلا غداً إن سلم! قال: وما صنعنا نحن؟ قلت: ضربنا في حديد بارد فإن الذي بالزاوية لا يجدي، والذي بتاسماكت لا يجدي، وآيت ومالو متحصنون بالجبل، وبلقاسم رجل مشؤوم عافى الله مولانا من شؤمه، قال: فظهر للسلطان خلاف ما سمع من بلقاسم، وتحقق فساد رأيه، وعلم أنه قد أخطأ فيما ارتكبه من التغرير بالمسلمين قال: ثم بينت له السبب الذي نفر به آيت ومالو عن بلقاسم حتى عرفه، قال: اكتب إلى قومك صيان يقدموا علينا فإني قد سامحتهم، فكتب إليهم وبعث بالكتاب من آدخسان مع بعض الأشراف، واثنين من أصحاب السلطان، فخاضوا إليهم الليل واجتمعوا بهم،

ومن الغد أصبح عندنا أربعة منهم بهديتهم، فدخلت بهم على السلطان فأكرمهم، وقبل هديتهم، وقال: إني سامحتكم لوجه كاتبي فلان، وردهم مبشرين إلى إخوانهم، وباتت العساكر تلك الليلة بلا علف ولا تبن، ومن الغد ظهرت محلة بلقاسم ومعه مختار والعبيد وكانوا قد باتوا على القتال طول ليلتهم، ولما وصلوا إلى السلطان أمر أن ينزل العبيد بجواره وينزل بلقاسم مع قومه زمور وبني حكم، وأعرض عنه ثم أمره بتسريح إخوانه إلى بلادهم، وسرح القبائل كلها إلى بلادها، وفرق ذلك الجمع وارتحل راجعاً إلى تادلا.

وأما الذين نزلوا بتاسماكت مع ولد محمد واعزيز، فبيتهم آيت ومالو بغارة شعواء شردوهم بها في كل وجه، ونهبوا محلتهم، وقتلوا منهم عدداً كثيراً ورجعوا إلى مكناسة مفلولين، ولما بات السلطان بالزرهونية ورد عليه أصحاب قدور بن الخضر بكتابه يقول فيه: إن البربر قد تألبوا علينا من كل أوب، فإن لم يدركنا سيدنا هلكنا، قال الصياني: فأمرني السلطان بالمسير إليهم والاحتيال في خلاصهم بكل ما يمكن، وبعث معي مائة فارس، فوافيت الزاوية الدلائية فوجدت قبائل البربر محيطة بهم، فاجتمعت بآيت يسري ووعدتهم من السلطان بالعطاء الجزيل إن هم فسحوا لجيشه حتى يسلك في بلادهم فأنعموا بذلك، ورحل الجيش مع الفجر وعدلنا به من آيت ومالو وعبرنا الوادي إلى بلاد آيت يسري، وسار معنا نحو المائة من أعيانهم إلى أن أخرجونا إلى وادي تاقبالت من تادلا ورجعوا، قال: وتقدمت إلى السلطان فأخبرته بخلاص الجيش ووصوله إلى وادي تاقبالت، فسره ذلك ودعا لي بخير وقال: لا بد أن ترجع إليهم الساعة وأعطاني مالاً أفرقه عليهم، وأرسم لهم المنازل التي ينزلونها في مسيرهم إلى مكناسة، وبها ينتظرون السلطان، فرجعت إليهم في الحين وأخبرتهم برأي السلطان في المسير إلى مكناسة، ورسمت لهم المنازل على نحو ما أمر، ولما أصبحنا فرقت عليهم المال

وارتحلوا إلى مكناسة، وانقلبت إلى السلطان فوجدته قد أصابته حمى أقام لها بقصبة تادلا، وكان الطبيب أبو العباس أحمد آدراق يعالجه ولا يدخل عليه إلا أنا وهو، وصاحب طعامه الحاج عبد الله إلى أن عوفي فوصل الطبيب بألف دينار، ثم سافر إلى مكناسة وبوصوله إليها قبض على بلقاسم الزموري، ونكبه واستصفى أمواله وولي على زمور وبني حكم ولد محمد واعزيز، قال الصياني: ومن ذلك الوقت رفع السلطان منزلتي على أقراني وصار يقدمني في المهمات.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة وألف فيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين البرتغال، وهي اثنان وعشرون شرطاً، مضمنها الصلح والأمان كالشروط المتقدمة.

ذكر ما آل إليه أمر اليكشارية الذين استخدمهم السلطان من قبائل الحوز

لما جمع السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله هذا الصنف من رماة الجند وسماهم اليكشارية كالذين من قبلهم، وكان جمعهم على يد القائد عبد النبي المنبهي حسبما سبق، حصل منهم ضرر كبير للرعية في المال والحريم، وصاروا يعيثون في غلل جناتهم مما يمرون به أيام أسفارهم حتى صار ذلك الفساد عندهم عادة، وما من منزل يبيتون به إلا ويكلفون أهله ما لا يطيقون، فإذا كلمهم أعيان الرعية في الرفق بالناس قالوا: هذه عادة لا نتركها وهي من قوانين الدولة، ولما علم السلطان بما يرتكبونه من العسف أسقطهم من الجندية، ونزع منهم السلاح، وردهم إلى المغرم مع إخوانهم وأراح الناس من شرهم.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة وألف فيها عزل السلطان القائد محمد بن أحمد البوزراري عن قبائل تامسنا وتادلا وما اتصل بهما، ولم يترك

له إلا إخوانه من أهل دكالة، وولى على السراغنة أبا عبد الله محمد المعروف بالصغير، وعلى أهل تادلا صالح بن الرضي الورديغي، وعلى أولاد أبي رزك المزابي القائد صاحب الطابع، وعلى أولاد أبي عطية عمر بن أبي سلهام المزابي، وأمر محمد بن أحمد أن يقبض من إخوانه الذين كانوا عمالاً على هذه القبائل ما احتجبوه من الأموال أيام ولايتهم، واستصفى منهم مائة وخمسين ألفاً.

خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله ومبايعتهم لابنه المولى يزيد وما نشأ عن ذلك

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وألف فيها كانت الفتنة العظمى التي هي خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبيعتهم لابنه المولى يزيد، وكان السبب في ذلك أن السلطان كتب إليهم وهو بمراكش يأمرهم أن يعينوا منهم ألف كانون ينتقلون بأولادهم إلى طنجة يكونون بها، وبعث إليهم بالكتاب مع القائد الشاهد رأس الفتنة، وولاه على ذلك الألف، فلما أتاهم بكتاب السلطان، قال لهم: لا يذهب معي إلا الأعيان ومن له دار وأرض وضيعة، ولا يذهب معي إلا أمثالي، فلما سمع اقتراحه أولئك الأجلاف ركبوا رأسهم في سبيل الخلاف، واستفزهم الشيطان حتى صرحوا بخلع السلطان جرياً في ذلك على مذهبهم القديم، والتفاتاً إلى فعل سلفهم الذميم، فلما أنهى خبرهم إلى السلطان بعث إليهم ابنه المولى يزيد وكان عنده بمراكش كي يستصلحهم به، فازداد فسادهم وعظم عنادهم.

قال صاحب البستان: وكنت يومئذٍ برباط الفتح، فلما ذهبت إلى مراكش لقيت المولى يزيد بالسانية ـ موضع على نحو نصف يوم منها ـ قال: فسألني عن خبر العبيد فقصصته عليه، فسره ذلك وجد في السير، ففهمت قصده وعرفت ما يؤول إليه أمره فيهم، وزعم أنه لما قدم على السلطان لامه في

بعثه المولى يزيد، فاعترف بالخطأ في ذلك، ولما وصل المولى يزيد إلى مكناسة واجتمع بالعبيد لم يقدموا شيئاً على بيعته والخطبة به، ففتح بيوت الأموال وأعطاهم حتى رضوا، ثم فتح مخازن السلاح والبارود ففرقه فيهم، ثم دخل في بيعته من كان قريباً من قبائل العرب والبربر، غير الودايا، وآيت أدراسن، وجروان، الذين هم شيعة السلطان فإنهم تعصبوا له.

قال صاحب البستان: وبعد ثلاث بعثني السلطان إلى الودايا وأحلافهم بمكاتيب، فقدمت عليهم بها وأقمت عندهم إلى أن زحف إليهم المولى يزيد في جيش العبيد وهم بالأروى، وكان آيت أدراسن وجروان قد دخلوا مع الودايا وظاهروهم على العبيد، فوقعت الحرب بالمشتهى داخل القصبة فانهزم العبيد وسلطانهم، وقتل منهم نحو الخمسمائة، وأما الجرحى فبلا عدد، وانقلبوا مفلولين.

واتصل الخبر بالسلطان فخرج من مراكش في الجند وقبائل الحوز يريد مكناسة، ولما وصل إلى سلا وسمع المولى يزيد بقدومه فر إلى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حمدوش، ثم إلى ضريح المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه بزرهون، فتقدم السلطان إلى زرهون، ولما دخل الضريح الشريف أتاه أشراف زرهون بابنه المولى يزيد فعفا عنه وسامحه، واستصحبه معه إلى مكناسة، ولما وجه إليها خرج إليه نحو المائة من العبيد من ذوي أسنانهم ومعهم الأشراف والمرابطون والنساء والصبيان فعفا عنهم وسامحهم على شرط الخروج من مكناسة فأذعنوا، وأقام السلطان بمكناسة يدبر أمرهم إلى أن فرقهم على الثغور، فبعث منهم رحيين إلى طنجة، ورحيين إلى العرائش، ورحى إلى رباط الفتح، وقصد بتفرقتهم دفع غائلتهم وتوهين عصبيتهم، ثم عمد إلى الذين كانوا برباط الفتح ففرقهم أيضاً، فبعث ألفين منهم إلى السوس، وألفاً إلى مراكش، وأبقى ألفين برباط الفتح مع عبيد مكناسة المغربين إليها، واستراحت الدولة من شرهم استراحة ما.

ثم إن العبيد الذين بطنجة وثبوا على قائدهم القائد الشيخ وعلى قائد أهل الريف محمد بن عبد الملك، وأرادوا قتلهما فهربا لآصيلا، والسلطان يومئذٍ لا زال بمكناسة، ولما أنهي إليه خبرهم، كتب إلى أعيانهم يتوعدهم فقبضوا على أصحاب الفعلة وبعثوا بهم إليه وتبرؤوا منهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فاستكانوا بعض الشيء ورجع القائدان إلى طنجة، ثم لما سافر السلطان إلى مراكش أخذ معه عبيد مكناسة فأنزل أهل القصبة منهم بالمنصورية قرب وادي النفيفيخ لأنهم كانوا رأس العصاة، واستصحب الباقين إلى مراكش، فأنزلهم بها بعد أن عزل عنهم قوادهم الذين حضروا فعلة المولى يزيد، وأبقاهم عاطلين مهملين، وولى عليهم أناساً من غيرهم.

ذكر ما سلكه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في حق العبيد من التأديب الغريب

ثم إن العبيد الذين بالثغور عاثوا بها وأضروا بأهلها في جناتهم وأموالهم وأعراضهم، فأنهي خبرهم إلى السلطان أيضاً، ولما أعياه أمرهم ورأى أن تأديبهم بالتفرقة لم يفد فيهم، انتقل رحمه الله معهم إلى مرتبة أخرى من التأديب لم يسبق إليها، كانت ترياقاً لقطع دائهم، وناراً لحسم عرق بلائهم، وذلك أنه لما بلغه ما هم عليه من الجور والطغيان، نهض من مراكش عازماً على الإيقاع بهم، فلما وصل إلى رباط الفتح، كتب إلى أهل طنجة والعرائش منهم يقول: إني قد رضيت عنكم وبررت قسمي في نقلكم من مكناسة إلى الثغور، والآن إذا وصلتكم الإبل والبغال التي أبعثها إليكم فلتحمل أهل طنجة بأولادهم ومتاعهم وليقدموا إلى دار عربي من بلاد سفيان فلينزلوا بها، ثم يبعثوا الإبل والبغال إلى أهل العرائش ليتحملوا بأولادهم ومتاعهم إلى دار عربي كذلك، فإذ اجتمعتم أنتم وهم بها فإني أبعث إليكم بغالي تتحملون عليها إلى مكناسة كلكم، فلما وصل إليهم كتاب السلطان بذلك طاروا فرحاً وأحبوا الرجوع إلى مكناسة.

ولما وردت عليهم الإبل والبغال ارتحلوا من طنجة، وفي أثناء ذلك

بعث إليهم السلطان قائدهم سعيد بن العياشي الذي خلعوه أيام الفتنة، وأوصاه أن يقيم بدار عربي حتى يقدم عليه عبيد طنجة والعرائش، فانتهى إليها ووافاه بها عبيد طنجة فنزلوا عليه بقضهم وقضيضهم، ووصلت الإبل والبغال إلى أهل العرائش فجاؤوا حتى نزلوا مع إخوانهم كما رسم السلطان.

ثم إن السلطان رحمه الله نهض من رباط الفتح حتى وافى مشرع مسيعيدة من وادي سبو، ثم انتقل منه إلى سوق الأربعاء من بلاد سفيان ثم تقدم إلى قبائل الغرب وبني حسن أن يسيروا إلى العبيد ويعسكروا عليهم من جميع الجهات فامتثلوا، ولما استداروا حولهم وأحاطوا بهم إحاطة بياض العين بسوادها، قدم السلطان ودعا رؤساء القبائل فحضروا عنده، فقال لهم: إني قد أعطيتكم هؤلاء العبيد بأولادهم وخيلهم وسلاحهم، وكل مالهم فاقتسموهم الآن وكل واحد منكم يأخذ عبداً وأمة وأولادهما، فالعبد يحرث والأمة تطحن، والولد يرعى الماشية، فحذوهم وتقلدوا سلاحهم واركبوا خيولهم، والبسوا كساهم بارك الله لكم فيهم، فأنتم عسكري وجندي دونهم، فلما سمعت قبائل الغرب وبني حسن هذا الكلام من السلطان وثبوا على العبيد من غير أن تكون منهم وقفة، واقتسموهم في أسرع من لحس الكلب أنفه، وتوزعوهم شذر مذر، وصيروهم عبرة لمن اعتبر.

وقفل السلطان راجعاً إلى رباط الفتح، ولما دخله نفى العبيد الذين بها إلى مراكش، فأنزلهم بها بعد أن عزل عنهم قوادهم، وولى مكانهم غيرهم، واستمر عبيد طنجة والعرائش موزعين في القبائل أربع سنين، ثم عفا عنهم واستردهم من القبائل إلى الجندية، وأركبهم وكساهم وسلحهم، لكنه ميزهم وجعلهم قبائل في الخلط وطليق منهم أنزلهم بقصر كتامة وسفيان، وبنو مالك أنزلهم بمسيعيدة، وبنو حسن أنزلهم بسيدي قاسم والحياينة، وأهل الجبل أنزلهم بتامدرت من أعمال فاس، وأقاموا هنالك عدة سنين يوجهون حصتهم في البعوث ويعسكرون مع السلطان متى احتاج إليهم، ثم جمعهم رحمه الله بعد ذلك ونقلهم إلى مراكش وأقبل عليهم بالعطاء إلى أن عادوا أحسن مما

كانوا حالاً، ثم بدا له فيهم فبعث عبيد السوس إلى تارودانت، وعبيد حاحة والشبانات إلى الصويرة، وعبيد السراغنة وتادلا ودمنات إلى تيط الفطر، وعبيد دكالة إلى آزمور، وعبيد الشاوية إلى آنفي، وعبيد زعير والدغماء إلى المنصورية، وعبيد بني حسن إلى المهدية، وأبقى معه بمراكش عبيد سفيان وبني مالك والخلط وطليق والمسخرين من أصحاب العباس.

وكان قيام هؤلاء العبيد سبباً لافتراق الكلمة وانحلال نظام الملك بالمغرب، وسرى فسادهم في القبائل كلها عرباً وبربراً، وكثر الهرج وانحبس المطر ووقع القحط وعظمت المجاعة واستمر الحال على ذلك نحواً من سبع سنين، من سنة تسعين إلى سنة ست وتسعين ومائة وألف، فكانت هذه المدة كلها مجاعة، أكل الناس فيها الميتة والخنزير والآدمي. وفنى أكثرهم جوعاً، والسلطان في ذلك كله يكابد المشاق العظام ويصير على الجنود الأموال الثقال، راتباً بعد راتب، وعطاء بعد عطاء، إلى أن خلصوا من المجاعة وصلحت أحوال الجماعة، وكان رحمه الله قد رتب الخبز في كل مصر، يفرق على ضعفائه في كل حومة، وأسلف القبائل الأموال الطائلة يقتسمونها على ضعفائهم إلى أن يؤدوها زمان الخصب والرخاء.

ولما عاش الناس وهموا بأدائها سامحهم بها وقال: ما أعطيتها بنية الاسترجاع وإنما ذكرت السلف لئلا يستبد بها الأشياخ والأعيان إذا سمعوا أنها هبة، فرحم الله تلك الهمة الشريفة، ما كان أعلاها وأعظمها وأرأفها وأرحمها، وأسقط رحمه الله في تلك المدة جميع الوظائف والمغارم عن قبائل المغرب إلى أن عاشوا وتمولوا، وكان يعطي التجار الأموال ليجلبوا بها الأقوات من بر النصارى، فإذا وصلت أمرهم أن يبيعوها بثمنها الذي اشتريت به رفقاً بالمسلمين، وشفقة على الضعفاء والمساكين.

ولما دخلت سنة سبع وتسعين ومائة وألف مطر الغرب وعاش الناس، وحرثوا وأدرك الزرع، ورخصت الأسعار، وازدهت الدنيا، ودرت الجبايات، وأخذ أمير المؤمنين رحمه الله في تمهيد المغرب ثانية واستئناف العمل والجد والله غالب على أمره.

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بأولاد أبي السباع وتشريدهم إلى الصحراء وما يتبع ذلك

لما كان بالمغرب ما تقدم من الفتنة وشغل السلطان بإنعاش الضعفاء عن ضبط الأطراف وقمع البغاة بها، نبغت نوابغ الفتن ببعض القبائل منها، وعادت هيف إلى أديانها، فمن ذلك قبيلة أولاد أبي السباع بأحواز مراكش، فلطالما ارتكبوا العظائم واجترحوا وغدوا في الفتنة وراحوا، واستطالوا على من بجوارهم وغزوهم في أرضهم وديارهم.

فلما كانت هذه السنة التي هي سنة سبع وتسعين ومائة وألف، جهز إليهم السلطان العساكر فقاتلوهم وقتلوهم، وانتهبوا أموالهم وشردوهم إلى السوس، وقبض السلطان على كثير من أعيانهم فأودعهم سجن مكناسة إلى أن هلكوا به، وأوعز إلى قبائل السوس أن يطردوا بقيتهم، وينفوهم إلى بلاد القبلة مسقط رأسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم ففعلوا، ثم نقل قبيلة زمران بعد الإيقاع بهم إلى بلاد أولاد أبي السباع فعمروها، ثم نقل تكنة ومجاط وذوي بلال من شوشاوة الحوز إلى الغرب فنزلوا بفاس الجديد وأعماله، ثم أعاد آيت يمور من جبل سلفات إلى تادلا ثم نقل كطاية وسمكت ومجاط من تادلا إلى الغرب، ثم أعاد جروان من آزغار إلى الجبل.

وفي هذه السنة أيضاً كانت فتنة الدعي محمد والحاج اليموري، كان يزعم أنه من الأولياء ويتكلم في المغيبات ويشيع أنه ينتظر صاحب الوقت فسرى فساده في قبيلته وتجاوزها إلى غيرها فقصده جهلة البربر من كل قبيل، وأغرى آيت يمور بمن جاورهم من قبائل العرب، وكانوا يومئذٍ لا زالوا بسلفات فتصدى لهم قائد سفيان أبو عبد الله محمد الهاشمي السفياني وجمع له الجموع من قبائل الغرب وصمد إليه وهو في قبيلة آيت يمور فعبر نهر سبو وأنشب الحرب معهم فكانت الدبرة عليه وانهزمت جموع الغرب وقتل القائد

الهاشمي المذكور وعدد كبير من وجوه قومه، وتركوا محلتهم بما فيها للبربر، وعظم أمر هذا الدعي وشمخت أنوف قبيلته به وشرى ضلالهم، ولما قدم السلطان إلى مكناسة بعث من قبض عليه وساقه إليه فقتله وأراح الناس من وساوسه. وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى عبد السلام لأداء فريضة الحج لأنه لم يكن أدرك الحلم عام حج مع أخيه المولى علي.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة وألف فيها غزا السلطان برابرة زمور وبني حكم فلما أظلهم قدومه انشمروا إلى شعاب تافودايت وتحصنوا بها، فاحتال عليهم بأن قام عنهم وأوعز إلى آيت أدراسن وكروان أن يرصدوهم متى برزوا إلى الفضاء فلينهبوهم، فلما توجه السلطان قافلاً إلى مراكش خرجت زمور من شعابها فلم يرعهم إلا آيت أدراسن وكروان قد أحاطوا بهم فانتهبوا حللهم وتوزعوا أموالهم وتركوهم عالة يتكففون الناس.

ذهاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى تافيلالت وتمهيده إياها والسبب في ذلك

كان الشريف المولى حسن بن إسماعيل عم السلطان مقيماً بتافيلالت وكان آيت عطة وآيت يفلمان من برابرة الصحراء شيعة له، فكان إذا حدث بينه وبين أشراف سجلماسة حادث استكثر بهم عليهم وحاربهم وربما قتل منهم، وكان السلطان يبلغه بعض ذلك عنه فيسوءه إلا أنه كان يثقل عليه أن ينال عمه منه مكروه، ولأنه كان مشغولاً بما هو أهم، فاستمر الحال إلى أن ترددت أشراف سجلماسة بالشكاية منه فلم يسع السلطان إلا زجره وقطع عادية بربره عن الأشراف، فعزم على المسير بنفسه إلى سجلماسة وكان ابنه المولى يزيد يومئذٍ بالمغرب فلم يرد السلطان أن يتركه خلفه لئلا ينشأ عنه ناشىء فتنة، فاحتال في إبعاده بأن وجهه إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج

في غير ركب، بل أفرده عنه وأصحبه أميناً يصير عليه وأناساً قليلين يكونون في خدمته دفعاً لغائلته، ثم سافر السلطان إلى سجلماسة برسم زيارة تربة جده المولى علي الشريف رضي الله عنه وحسم داء عمه المولى حسن وشيعته، ولما شارف السلطان تافيلات قدم أمامه أبا القاسم الصياني لإخراج البربر من قصورهم في الأمان وإن كان عندهم ما يثقلهم من زرع أو تمر يعطيهم ثمنه لينقطع بذلك عذرهم، وإن أقاموا حتى أدركهم السلطان بها فإنما إثمهم على أنفسهم، فامتثل البربر الأمر وخرجوا إلى الصحراء ولم يأت السلطان حتى لم يبق منهم أحد بتلك القصور، وأفرد المولى حسن وانكسرت شوكته، ثم بعث إليه أبا القاسم الصياني أيضاً يعرض عليه السكنى بمكناسة وينفذ له ما يكفيه من الظهر لحمل عياله وأثقاله، قال الصياني: فذهبت إليه وباشرت أمره إلى أن أجاب، ومن الغد سرت به إلى مكناسة وأمرني السلطان أن أعطيه داراً يسكنها، ورتب له ثلاثمائة مثقال لكل شهر ينفقها على نفسه وعياله: وأمرني مع ذلك إذا فرغت من شأن عمه المذكور أن أصحب معي أولاده الثلاثة المولى سليمان والمولى حسن والمولى حسين، وأن أصحب معهم قدراً من المال وعدداً من المدافع والمهاريس والبنب، وطائفة من الطبجية من علوج اللمان وألفاً من عسكر الثغور رجّالة لجر تلك المدافع والمهاريس، قال: فقضيت الغرض على ما ينبغي وعدت إليه وهو بسجلماسة بجميع ما أمرني به، فبلغنا ونحن أثناء الطريق وفاة ولد السلطان وخليفته بفاس المولى علي بن محمد، وكان من سادة العلويين ونجبائهم ومن أهل المروءة والأوصاف المحمودة عقلاً وعلماً وأدباً وكرماً وعلو همة.

زاد في **البستان** وكان مجلسه مجمع الفضلاء والأدباء والنبلاء يتشبه بأخلاق المولى محمد العالم ابن المولى إسماعيل في كرمه وأدبه، وكان له اعتناء كبير بنسخ كتب العلم الغريبة وكتب الأدب وكان كثيراً ما يبعث بأشعاره

ومخاطباته لأهل عصره وأدباء وقته من الفاسيين والبكريين والقادريين كما كان المولى محمد العالم مشغوفاً بأشعار أولاد السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي رحم الله الجميع.

ولما بلغ أولاد السلطان إلى أطراف سجلماسة قدموا الأعلام إلى السلطان واستأذنوا في التقدم فخرج رحمه الله لملاقاتهم وأمر الأشراف وسائر أهل البلد أن يخرجوا للسلام عليهم ويشاهدوا آلة الحرب التي ليست ببلادهم. فخرجوا وخرج السلطان في موكبه، وركبت العساكر خلفه في أحسن زي وأكمل ترتيب، فكان ذلك اليوم من أيام الزينة، ولما قضى غرضه من سجلماسة وثقف أطرافها ورتب عربها وبربرها وحسم داء آيت عطة وآيت يفلمان، ولى عليهم القائد علي بن حميدة الزراري من كبار قواده وأعيان دولته، ثم نهض السلطان إلى مراكش بعد أن أقام بسجلماسة شهراً وكان سلوكه إلى مراكش على طريق الفائجة.

قال صاحب البستان: وكان قد ردني إلى الغرب لآتيه بجيش من أولاد عبيد الثغور ألقاه بهم بمراكش ليزيدهم في جيشه ويقبضوا السلاح والكسوة بها، ولما انتهى السلطان في طريقه إلى ثنية الكلاوي نزل عليه الثلج الكبير فسد المسالك وتفرقت العساكر في كل وجه، وحال الثلج بينهم وبين أخبيتهم ورحالهم، وبات السلطان منتبذاً ناحية عن مضاربه وقبابه معزولاً عن طعامه وشرابه، ولم تلتق طائفة من العسكر مع صاحبتها إلى أن طلعت الشمس فرفع الله عنهم الثلج وأصبح ذلك اليوم عيد الأضحى فخطب السلطان الناس بنفسه ودعا للسلطان عبد الحميد بن أحمد العثماني ودخل مراكش سالماً معافى وسلم الله العسكر من ذلك الثلج فلم يهلك منه أحد والحمد لله.

خروج السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الصويرة بقصد النزهة واغتنام الراحة وما اتفق له في ذلك

لما قدم السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من سجلماسة إلى مراكش أقام بها إلى أن دخل فصل الربيع، فاعتزم على الخروج إلى الصويرة والوقوف عليها ومعاينة مبانيها ومعالمها، إذ كان له ولوع بهذه المدينة التي أنشأها واغتبط بها، وقصد أيضاً زيارة رجال رجراجة بالساحل والتبرك بآثارهم، وكانت سفرته هذه سفرة فرجة وجمام نفس واغتنام لذة، فأشخص معه جماعة من علماء العصر وأئمته فكان يملي عليهم الحديث النبوي ويؤلفونه على مقتضى إشارته، منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد بن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي، والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي، والفقيه العلامة أبو زيد عبد الرحمٰن أبو خريص هؤلاء أهل مجلسه الذين كانوا يؤلفون له ويسردون ويخوضون فيما يجمعه ويستخرجه من كتب الحديث التي جلبها من المشرق، كمسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة وغيرهما، وكان معه جماعة وافرة من الكتاب المعتبرين في الإنشاء والترسيل، كالسيد المهدي الحكاك المراكشي والسيد عبد الرحمٰن بن الكامل المراكشي، والسيد أحمد بن عثمان المكناسي، والسيد أحمد الغزال الفاسي، والسيد محمد سكيرج الفاسي، والسيد الطاهر بناني الرباطي، والسيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي والسيد سعيد الشليح الجزولي، والسيد إبراهيم إقبيل السوسي، وصاحب البستان أبي القاسم الصياني وغيرهم.

وكان خروجه لهذه الفرجة سنة ثمان وتسعين ومائة وألف، في فصل الربيع فضربت قبابه بظاهر مراكش ثم ضرب عليها السياج المحيط بها

المسمى بأفراك، وفي وسط تلك القباب القبة العظمى التي أهداها إليه طاغية الفرنج، وكانت مبطنة بالديباج ومحاريبها من الموبر الحر المختلف الألوان، وسفائفها من الكالون الإبريز، وأطنابها من الحرير الصافي، زعموا: أن مبلغ ما صير عليها الطاغية نحو خمسة وعشرين ألف دينار، ومصداق ذلك أن تفاحتها التي تكون في أعلى العامود وتسميها العامة بالجمور، كانت من الذهب الخالص، وزنها أربعة آلاف مثقال ذهباً، وكان السلطان رحمه الله قد أخرجها في هذه النوبة ابتهاجاً بها، وخرج معه الخاصة من القواد والكتاب وغيرهم بفازاتهم الرفيعة، ومضاربهم البديعة.

ثم توجه في ذلك الموكب العجيب يرتاد البلاد النزهة، والأماكن البهجة، التي تروق الطرف وتستغرق الوصف، وتبسط النفس، وتجلب الأنس، فأقام شهرين كاملين يتقلب في تلك البسائط ويستوفي اللذات، ويتقرى المعاهد، ويقتنص الطائر والشارد، إلى أن وصل إلى ثغر الصويرة فوقف عليه وقضى غرضه منه على الوجه الأكمل، وانقلب راجعاً إلى حضرته فاجتاز في طريقه برباط شاكر وهو من مزارات المغرب المشهورة، وكان مجمعاً للصالحين من قديم الزمان، ووقع في التشوف أن شاكراً الذي ينسب إليه هذا الرباط من أصحاب عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب، وأنه هنالك، فلما مر به السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في سفرته هذه أمر بتجديد مسجده وحفر أساسه وتشييده وفي قفوله طلع مع وادي نفيس إلى أن بلغ مدينة أغمات، فزار ضريح الشيخ أبي عبد الله الهزميري وغيره من صلحائها، ونزل بمحلته تحت القرية، ولما استقر به المنزل جاءه جماعة من أهلها مع قاضيهم بكبش جيد وآنية فيها شيء من الشهد، فدخل القاضي على السلطان ولما مثل أمامه أنسه السلطان بالكلام وسأله عن أشياخه فأجاب بما لا طائل تحته فقال السلطان للحاجب: ابعث بالقاضي إلى خباء القاضي أبي زيد

عبد الرحمٰن بن الكامل، وهو الذي يتوجه قاضياً مع المحلة إلى السوس إن شاء الله، فأنزله عليه وادفع له هذا الكبش وهذا العسل، فسار الحاجب بالقاضي وبالكبش والعسل إلى خباء قاضي العسكر أبي زيد بن الكامل وأمره أن يكرم القاضي ليلته، ومن الغد ارتحل السلطان قافلاً إلى مراكش، فلما تعالى النهار نزل على وادي نفيس وضرب له هنالك صيوان الراضة على شاطىء النهر، ثم استدعى القاضي أبا زيد وسائر الكتاب، ولما جلسوا بين يديه سأل القاضي على وجه المداعبة وقال له: بم أجزت ضيفك على كبشه وعسله، فتعلثم في الجواب وعلم أن السلطان قصد اختباره بذلك، وأنه لم يصنع شيئاً حيث أهمل أمره، ولما رأى رحمه الله خجلته قال: فلعلك لم تجزه فلو مدحته على كبشه وعسله لصادفت المقصود وخرجت من العهدة وما بعثت إليكم إلا بسبب هذا الكبش والعسل، فإني سهرت ليلتي ولم أنم وذكرت ما اتفق للمنصور السعدي مع كتابه في مثل هذه القضية، وعلمت أنه لم يبق في وقتنا هذا كتاب ولا أدباء ولا أمراء، وسأسمعكم ما اتفق للمنصور في زيارته هذه القرية الأغماتية، ثم أمر كاتبه ابن المبارك أن يقرأ عليهم ما حكاه الفشتالي في مناهل الصفا عن خروج المنصور السعدي إلى أغمات بقصد الزيارة والنزهة، وما اتفق للقاضي أبي مالك عبد الواحد الحميدي مع من أهدى له الكبش والعسل من الشعر، والذي شايعه عليه جماعة من كتاب الدولة، وقد ألممنا بخبر هذه الخرجة للمنصور عند ذكر أخباره حسبما مر، وقد ذكر صاحب النزهة أبيات الحميدي ومن قفا نهجه من الكتاب فلتنظر هنالك، فقرأ الكاتب المذكور الترجمة كلها على الكتاب حتى سمعوها وعاب السلطان عليهم تقصيرهم في قضيتهم الموافقة لها، وفي ظني أن السلطان رحمه الله أمرهم بنسخ ذلك ومراجعته تحريكاً لهمتهم والله أعلم.

ذكر السبب الذي هاج غضب السلطان سيدي محمد بن عبد الله على ابنه المولى يزيد رحمه الله

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة وألف فيها قدم ولد السلطان المولى عبد السلام من الحجاز فولاه السلطان رحمه الله تارودانت والسوس وما إليها، ثم لما حضر زمان خروج الركب الحجازي أحضر السلطان صهره وابن عمه المولى عبد الملك بن إدريس، وكاتبيه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسي، وأبا حفص عمر الوزريق، وشيخ الركب أبا محمد عبد الكريم بن يحيى، وحملهم على وجه الأمانة مالاً لأشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن، وقدره ثلاثمائة ألف ريال وخمسون ألف ريال، وبعث معهم صلات أخر لأناس معينين في حقاق مختوم عليها مكتوب على كل واحد منها اسم صاحبه، وأمرهم أن يذهبوا أولاً إلى القسطنطينية حتى يكون مسيرهم إلى الحجاز مع أمين الصرة الذي يوجهه السلطان العثماني إلى الحرمين كل عام، وإنما ارتكب السلطان هذه المشقة حذراً من ابنه المولى يزيد أن يعترضهم في الطريق وينتزع منهم المال، فبعثهم السلطان في البحر في بعض قراصين السلطان عبد الحميد وكتب إليه أن يبعثهم مع أمين صرته، فلما وصلوا إلى القسطنطينية وجدوا أمين الصرة قد سافر بالركب إلى الحجاز فأقاموا بها إلى العام القابل، وحينئذٍ سافروا صحبة الركب ولما وصلوا إلى المدينة المنورة فرقوا على أهلها وعلى سائر شرفاء الحجاز حظهم من المال.

ولما وصلوا إلى مكة وجدوا المولى يزيد بها يترصدهم، ففرقوا على أهل مكة حظهم وبقي عندهم حظ اليمن والحقاق التي فيها صلات الذهب، فتغفلهم المولى يزيد وقت القيلولة وهجم عليهم في جمع من أصحابه، وهم بدار شيخ الركب عبد الكريم بن يحيى، فانتزع منهم ما قدر عليه وأخذ الحقاق وذهب، فذهب شيخ الركب والمولى عبد الملك والكاتبان إلى أمير

مكة الشريف سرور وأخبروه الخبر فبعث أعوانه إلى المولى يزيد فحضر عنده وألزمه رد المال وتهدده فرد البعض وجحد البعض، فبسبب هذا فيما قيل غضب السلطان عليه وتبرأ منه، وكتب بالبراءة منه مناشير بعث بها إلى الآفاق فعلق أحدها بالكعبة، والآخر بالحجرة النبوية، والثالث ببيت المقدس، والرابع بضريح الحسين بمصر، والخامس بضريح المولى علي الشريف بتافيلالت، والسادس بضريح المولى إدريس بزرهون، والسابع بضريح المولى إدريس بفاس، وكتب إلى السلطان عبد الحميد بأن لا يقبله إذا أوى إليه، واستمر المولى يزيد مقيماً بالمشرق ولم يقدر أن يواجه أباه لسوء صنيعه إلى سنة ثلاث ومائتين وألف كما سيأتي إن شاء الله.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين ومائة وألف، أسر أهل الجزائر نصرانية من قرابة طاغية الإصبنيول كانت متوجهة في مركبها من أصبانيا إلى نابل لزيارة ابن عمها الذي هو صاحب نابل، فلما عرف أهل الجزائر محلها من قومها امتنعوا من فدائها بكل وجه، فكتب طاغية الإصبنيول إلى السلطان رحمه الله يسأله أن يشفع له في فدائها بكل ما يطلبون، فأسعفه وكتب لصاحب الجزائر في شأنها فاعتذر إليه بأن النصرانية في سهم العسكر ولا يمكنه إكراههم على فدائها، فلما رد صاحب الجزائر شفاعة السلطان كتب إلى السلطان عبد الحميد بذلك، فكتب عبد الحميد رحمه الله إلى أهل الجزائر يوبخهم على رد شفاعة السلطان ويقول لهم: إن الواجب أن تسرحوها له بدون مال، وما عسى أن يبلغ ثمن هذه النصرانية، ولو طلب مني سلطان المغرب ألف نصرانية لبعثتها إليه، وحتى الآن نأمركم أن تبعثوا إليه بهذه النصرانية ولو كانت هي الملكة، ولا تقبضوا فيها فداء أو ما رأيتم ما افتكه ملك المغرب من أسرى الترك من كل جنس حتى لم يبق في أسر الكفار مسلم؟! وأنتم تردون شفاعته في نصرانية لا بال لها، فلا تعودوا لمثل هذا فيكون سبباً لتغير باطننا عليكم والسلام.

ولما ورد عليهم فرمان السلطان عبد الحميد لم يسعهم إلا إرسال النصرانية إلى حضرة السلطان رحمه الله، وكتبوا إليه بالاعتذار وقالوا: إنما امتنعنا من فدائها خوف بلوغ خبرها إلى ملكنا فلم نر أن نفتأت عليه، وذلك هو الواجب علينا من طريق الخدمة والطاعة، فنحب من سيدنا أن يقبل عذرنا ولا يظن بنا خلاف هذا والسلام.

ذكر ما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أهل زاوية أبي الجعد حماها الله

هذه الزاوية من أشهر زوايا المغرب، ولها الفضل الذي يفصح عنه لسان الكون ويعرب، تداولها منذ أزمان فحول أكابر، ورثوا مقام الولاية والرياسة بها كابراً عن كابر، قد عرف لهم ذلك السوقة والملوك، والغني والصعلوك، ولم تزل الملوك من هذه الدولة وغيرها تعاملهم بالإجلال والإعظام والتوقير والاحترام.

ولما كانت دولة السلطان الجليل، الماجد الأصيل، نقم على كبيرها لوقته المرابط البركة أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن الشيخ الأكبر سيدي المعطي بن الصالح بعض ما ينقمه الأمير على المأمور، والإنسان غير معصوم والمخلوق ناقص إلا من أكمله الله، فاتفق أن كان السلطان رحمه الله قافلاً في هذه السنة من رباط الفتح إلى مراكش، فجعل طريقه على تادلا ونزل على زاوية أبي الجعد فأمر على ما قيل بهدمها وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها، ثم نقل سيدي العربي المذكور وعشيرته إلى مراكش فأسكنهم بها واستمروا على ذلك إلى أن توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله وبويع ابنه المولى هشام بن محمد بمراكش، فأذن لهم في الذهاب إلى بلادهم فعادوا إلى زاويتهم واطمأنوا

بها برهة من الدهر.

ولما كانت دولة السلطان المولى سليمان بن محمد نقم أيضاً على سيدي العربي المذكور أموراً نقلها إليه الوشاة عنه، فأمر بنقله إلى فاس بعد مكاتبات ومعاتبات يطول جلبها، فانتقل إليها وأقام بها مدة ثم سرحه إلى بلاده.

ثم دخلت سنة مائتين وألف فيها بعث السلطان سيدي محمد رحمه الله كاتبه أبا القاسم الصياني باشدورا إلى السلطان عبد الحميد العثماني بهدية عظيمة، من جملتها أحمال من سبائك الذهب الخالص مثل بارات الحديد، وكان السلطان رحمه الله يقصد بمثل ذلك الفخر على الملوك وإظهار الغنى وكمال الثروة، وذلك من غريب السياسة لمن أقدره الله عليها، فقدم أبو القاسم القسطنطينية وألفى بها عبد الملك بن إدريس وشيخ الركب والكاتبين لا زالوا مقيمين بها ينتظرون الموسم من العام القابل، قال: فأقمت بالقسطنطينية ثلاثة أشهر وعشرة أيام، وقضيت الغرض وانقلبت إلى السلطان، وبعث معي السلطان عبد الحميد أحد خدامه بهدية إلى السلطان رحمه الله، قال: ولما قدمنا على السلطان نوه بقدري وقال: لا أوجه الهدايا للعثماني إلا معك، وكان الرئيس الطاهر بن عبد الحق فنيش السلاوي حاضراً، وقال: لا أوجه القراصين الحربية إلا مع الطاهر يسليه بذلك، قال: وسألني عن مقدار راتب عسكر الترك الذي يقبضونه في كل ثلاثة أشهر فقلت له: ستون أوقية لكل واحد، فاستقل ذلك فقلت له: إنه لا يكلفهم في أيام الغزو بمؤنة ولا علف خيل كل أمور السفر عليه.

ثم ذكر الصياني هنا كلاماً طويلاً في وصف القسطنطينية العظمى وحال أهلها خارجاً عن موضوع كتابنا هذا والله الموفق.

ذكر عدد عسكر الثغور في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله وما كان يقبضه من الراتب

كان بثغر الصويرة أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ما بين جيش وطبجية وبحرية ألفان وخمسمائة، وبآسفي مائتان من الطبجية، ومائتان من البحرية، وبتيط خمسمائة من العبيد، وبآزمور خمسمائة منهم كذلك، وبآنفي ألفان من العبيد، وبالعدوتين ألفان من الطبجية والبحرية، وبالمهدية ألفان وخمسمائة من العبيد، وبالعرائش ألف وخمسمائة ما بين جيش وطبجية وبحرية، وبآصيلا والساحل مائتان مابين طبجية وبحرية، وبطنجة ثلاثة آلاف وستمائة من أهل الريف، وبتطاوين ثمانمائة ما بين جيش وطبجية وبحرية، فكانت جملة عساكر الثغور ستة عشر ألفاً وخمسمائة، وراتبهم ثلاثين أوقية لكل واحد في كل ثلاثة أشهر، من حساب مثقال للرأس في كل شهر، وكانوا في ابتداء الأمر يقبضون راتب كل شهر عند انتهائه.

فلما كانت هذه السنة أعني سنة مائتين وألف، أنعم السلطان رحمه الله على عساكر الثغور بتعجيل راتب خمس عشرة سنة بحساب مثقال للرأس في كل شهر، وهذا مال له بال فإنه يقارب ثلاثة ملايين، فعل ذلك رحمه الله إعانة لهم وتوسعة عليهم، ثم أمر أن يجعل في كل مرسى من مراسي المغرب بيت مال وعند تمام كل ثلاثة أشهر يفتح بيت المال ويعطي لعسكر ذلك الثغر ثلاثون أوقية للرأس حضروا أم غابوا، إعانة لهم على عيالهم، وأما عطاء الغزو وعطاء عاشوراء والصلات والصدقات، فكان يبعث بذلك كله من عنده لا من بيوت الأموال، واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي رحمه الله فوثب عبيد الثغور على بيوت أموالها وفتحوها واكتسحوها ثم ساروا إلى مكناسة مسقط رأسهم، وكان ذلك بإشارة المولى يزيد رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين وألف فيها غزا السلطان قبيلة شراقة بأحواز فاس فنهبهم وشردهم، فلجؤوا إلى ضريح الشيخ أبي الشتاء بفشتالة فعفا عنهم، ثم سار إلى الحياينة فأطلق الجيش في زروعهم فحصدوها ودرسوها واستصفوها عن آخرها، ثم جرد الخيل في طلبهم فاكتسحوا حللهم وأثاثهم.

قال صاحب البستان: وكنت يومئذٍ قد توجهت بجيش إلى عامل وجدة أبلغه إياه، فلما رجعت أدركت السلطان ببلاد الحياينة، فقلدني ولاية تازا وأعمالها، فسرت إليها وأقمت بها سنة كاملة، وفي هذه السنة قدم ولد السلطان المولى مسلمة بن محمد من المشرق مفارقاً لأخيه المولى يزيد.

ثم دخلت سنة اثنتين ومائتين وألف فيها أرسل السلطان رحمه الله إلى آيت عطة يأمرهم أن يبعثوا بستمائة رجل منهم، وبأربعمائة من عبيد تافيلالت، فالمجموع ألف ليكسوهم ويسلحهم ويستعملهم في خدمة البحر، وجنديته فبعثوا بهم إليه.

قال صاحب البستان: ولما قدموا عليه بمكناسة استدعاني من تازا فقدمت عليه فأمرني أن أتوجه بهم إلى تطاوين كي يقبضوا السلاح والكسوة بها، ثم أسير بهم إلى طنجة يكونون بها، وأمرني أن أكون أتعاهدهم بركوب الغلائط العشرين التي بمرساها، والخروج بها إلى البوغاز وسواحل أسبانيا، والتردد فيها بينهما ليتدربوا على البحر ويتمرنوا به، قال: فذهبت بهم إلى تطاوين على ما رسم السلطان رحمه الله، فأخذوا السلاح والكسوة ونفذنا إلى طنجة فأقمنا بها شهرين وكل يوم يركبون السفن ويتطاردون بها فيما بينهم، فتارة يخرجون إلى البوغاز وتارة يطرقون سواحل أصبانيا، وتارة يرجعون، إلى أن زالت عنهم دهشة البحر وفارقهم ميده وألفوه، ولما أقبل فصل الشتاء كتب إلى السلطان بالقدوم بهم، فلما حللنا مكناسة أمر رحمه الله بعمارة

المشور لدخولنا عليه، فلما مثلنا بين يديه دنا منا إلى أن كان في وسطنا وكلم البربر بلسانهم وسألهم عن حالهم في سفرهم، فذكروا خيراً فسره ذلك منهم ونشط، ثم قال لهم: هذا كاتبي وصاحبي قد وليته عليكم وعلى أولادي وبني عمي وسائر أهل الصحراء فاسمعوا له وأطيعوا، قال: ففزعت وخرس لساني وفهم السلطان عني الكراهية لذلك ثم دخل بستانه وبعث إلي فدخلت عليه فقال لي: طب نفساً ولولا أني أحبك ما وليتك على أولادي وأهل بيتي وإني لا أستغني عنك وهذا ابن حميدة الذي وليناه بسجلماسة لم تظهر له ثمرة، وكل يوم يأتيني بشكوى بولدي الحسين وتطاوله على الناس، ولا يمنعه من ذلك، وما وليتك عليهم إلا لهذا الغرض فإنهم يهابونك لمحلك مني، ثم كتب إلى جميع أولاده وأعيان سجلماسة وأمر لي بمال الصائر والبناء وعينه، ثم ودعته وانفصلت فخرجت من مكناسة إلى فاس ثم منها إلى سجلماسة، فدخلتها واستوطنتها وجاء العامل الذي كان بها قبلي حتى قدم على السلطان فقبض عليه ونكبه.

قدوم المولى يزيد من المشرق
واحترامه بضريح الشيخ عبد السلام
ابن مشيش رضي الله عنه والسبب في ذلك

لما كانت سنة ثلاث ومائتين وألف قدم ولد السلطان المولى يزيد بن محمد من المشرق في ركب الحاج الفيلالي، وقصد سجلماسة، فلما كان بقرية أبي صمغون لقيه رفقة من أهل سجلماسة فسألهم عن البلاد وأهلها ومن المتولي عليها قالوا: أبو القاسم الصياني فلما سمع المولى يزيد ذلك سقط في يده ووجم، ثم التفت إلى شيخ الركب الشريف المولى عبد الله بن علي والي الأشراف الذين معه فقال لهم: إني كنت عازماً على الوصول معكم إلى بلدكم والاستيجار بضريح جدي المولى عليّ الشريف وأبعث مع أعيان بني

عمي وذوي أسنانهم من يشفع لي عند أبي، والآن حيث كان الوالي بهذه البلدة هو الصياني فلا يستقيم لي معه أمر، ولا يخيط بيني وبين والدي بخيط أبيض، وهؤلاء عيالي فخذوهم بارك الله فيكم واذهبوا بهم مع أصحابي ينزلون بدار أخي المولى سليمان، ويكونون بها، وأما أنا فسأسير إلى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش أكون به حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ثم قدم عياله مع أصحابه في جملة الركب وكتب إلى أخيه المولى سليمان يوصيه بعياله خيراً، وكتب أيضاً إلى شقيقته المولاة حبيبة بالرتب، وإلى بني عمه الذين هنالك وبعث بالمكاتيب مع أصحابه، ولما وصل الركب إلى بلاد القنادسة تقدم أحد أصحابه بالمكاتيب إلى المولى سليمان، ولما قرأها توقف ولم يدر ما يصنع، ثم جاء بها إلى أبي القاسم الصياني وأخبره الخبر وقال: إن والدي غاضب عليه وإن أنا قابلت عياله فربما ألحقني به، فما العمل؟ فكتب أبو القاسم إلى شيخ الركب ينهاه عن استصحاب عيال المولى يزيد معه وحذره غضب السلطان عليه وقال له: إن أردت السلامة لنفسك فابعث بالعيال إلى المولاة حبيبة بالرتب والسلام، ولما وصل كتابه إلى شيخ الركب وكانت فيه غفلة نجع فيه كلامه فحبس الركب إلى أن وصل أصحاب المولى يزيد بعياله فبعث معهم من يدلهم على طريق الرتب فسلكوا على وادي كثير ونزلوا عند المولاة حبيبة، وكتب أبو القاسم الصياني بالخبر إلى السلطان فزعم أنه استحسن فعله ثم أمره أن يهيىء الظهر والزاد ويبعث بهما إلى عيال المولى يزيد مع ثلاثين من العبيد ليأتوا بهم إلى دار الدبيبغ يكونون بها مع أمه، وكان السلطان قد أخرجها من الدار وأسكنها بدار الدبيبغ ففعل الزياني ذلك كله، وبهذه القضية كان المولى يزيد يعتد على الصياني حتى أنه لما أفضى إليه الأمر قبض عليه وضربه وامتحنه.

ولما وصل المولى يزيد إلى ضريح الشيخ عبد السلام رضي الله عنه بعث جماعة من أشراف العلم للشفاعة فيه فأمرهم السلطان أن يأتوا به

فراودوه على الإتيان فامتنع، ثم بعث إليه ثانياً فأبى، ثم ثالثاً فأبى، فكتب إليه بالعفو مراراً فلم يقبل وتصدى للخلاف وكشف وجه العصيان، وصار يكتب لوالده بما يحفظه، هكذا زعم الصياني، ولا يخفى أن الرجل كان مناوئاً له فلا ينبغي أن نسمع منه جميع ما ينسبه إليه والله أعلم بحقيقة الأمر.

ثم إن السلطان بعث إليه شقيقه المولى مسلمة في عسكر وأمره أن ينزل بقربه ويضيق عليه ويمنعه النزول من الحرم، ثم بعث إليه عسكراً آخر مع القائد العباس البخاري فنزلوا بقرب الحرم من الناحية الأخرى وضيقوا عليه حتى منعوه التصوف بكل حال، وفي مدة مقامه هنالك أخذ في تأسيس داره وبناء مسجده ولا زالت جدرانها قائمة أسفل الجبل إلى الآن، واستمر المولى يزيد محصوراً هنالك إلى أن بلغه خبر وفاة أبيه رحمه الله فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله

لما اعتصم المولى يزيد بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، وراوده السلطان على النزول مراراً فأبى، نهض إليه من مراكش وأراد أن يحضر عنده بنفسه لعله تسكن نفسه، ويذهب ما بصدره من الجزع والنفرة، وكان عند خروجه من مراكش به مرض خفيف، فتحمل المشقة وجد السير فتزايد به المرض في الطريق فوصل إلى أعمال رباط الفتح في ستة أيام، فأدركته منيته رحمه الله وهو في محفته على نحو نصف يوم أو أقل من رباط الفتح، فأسرعوا به إلى داره من يومه ذلك وهو يوم الأحد الرابع والعشرون من رجب سنة أربع ومائتين وألف، ومن الغد اجتمع الناس لجنازته وانحشروا من كل وجه، فجهز ودفن بقبة من قباب داره، وتأسف الناس لفقده خاصة وعامة رحمه الله ورضي عنه.

بقية أخبار السلطان سيدي محمد ابن عبد الله ومآثره وسيرته

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله محبّاً للعلماء وأهل الخير مقرباً لهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات، وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد ابن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي، والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي، والفقيه السيد أبو زيد عبد الرحمٰن المدعو بأبي خريص، هؤلاء هم أهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيها ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى إشارته، وكانت له عناية كبيرة بذلك، وجلب من بلاد المشرق كتباً نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب، مثل مسند الإمام أحمد ومسند أبي حنيفة وغيرهما، وألف رحمه الله في الحديث تآليف بإعانة الفقهاء الذين ذكرناهم آنفاً، منها كتاب مساند الأئمة الأربعة، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم التزم فيه أن يخرج من الأحاديث ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة أو ثلاثة منهم، أو اثنان، فإذا انفرد بالحديث إمام واحد أو رواه غيرهم لم يخرجه، وهذا المنوال لم يسبق إليه رحمه الله، وكان كثيراً ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها ومن يحضره من علماء فاس وغيرهما للمذاكرة في الحديث الشريف، وتفهمه، ويحصل له بذلك النشاط التام، وكان كثيراً ما يتأسف أثناء ذلك ويقول: والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب، ولما فاته الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر اعتكف أولاً على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها إلى أن تملى من ذلك وبلغ فيه الغاية القصوى، وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، من كلام العرب وشعراء الجاهلية

والإسلام، ولما ولاه الله أمر المسلمين بعد وفاة والده زهد في التاريخ والأدب بعد التضلع منهما وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها وجلبها من أماكنها، ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها، ورتب رحمه الله لذلك أوقاتاً مضبوطة لا تنخرم حذا بها حذو المنصور السعدي في أوقاته المرسومة عند الفشتالي في مناهل الصفا، حتى أنه كان إذا خرج لزيارة أو صيد أو نزهة أيام الربيع وأقام الأسبوع ونحوه فإذا حانت الجمعة ودخل تحرى النزول بمنازل المنصور التي كان ينزل بها وقت خروجه لزيارة أغمات ونحوها ورجوعه، ويقول: هذه منازل المنصور رحمه الله، وهو أستاذنا في مثل هذه الأمور، ومن عجيب سيرته رحمه الله أنه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل، وإنما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وأمثالهما، حتى وضع في ذلك كتاباً مبسوطاً أعانه عليه أبو عبد الله الغربي، وأبو عبد الله المير وغيرهما من أهل مجلسه.

ولما أفضى الأمر إلى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر، ويبذل على حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة، والكل مأجور على نيته وقصده غير أنا نقول: الرأي ما رأى السلطان سيدي محمد رحمه الله. وقد نص جماعة من أكابر الأعلام النقاد مثل الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي، والشيخ النظار أبي إسحاق الشاطبي، والعلامة الواعية أبي زيد عبد الرحمٰن بن خلدون وغيرهم، أن سبب نضوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله فيه إكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني، الواضحة الأدلة، التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة ولعمري لا يعلم هذا يقيناً

إلا من جربه وذاقه، وقد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب أن ملوك بني عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع في الأحكام إلى الكتاب والسنة، كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ومحافظة على أصوله والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية رضي الله عنهم، وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل، وكان يقول عن نفسه حسبما صرح به في آخر كتابه الموضوع في الأحاديث المخرجة من الأئمة الأربعة: أنه مالكي مذهباً حنبلي اعتقاداً، يعني أنه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المتأخرين، وله في ذلك أخبار ومجريات.

قلت: وهو مصيب أيضاً في هذا، فقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب الإحياء: إن علم الكلام إنما هو بمنزلة الدواء لا يحتاج إليه إلا عند حدوث المرض، فكذلك علم الكلام لا يحتاج إليه إلا عند حدوث البدعة في قطر، وقد حرر الناس القدر المحتاج إليه في حق العامة وغيرهم، والمبتدئين والمنتهين، والأغبياء والأذكياء، بما ليس هذا محل بسطه، وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله عالي الهمة يحب الفخر ويركب سنامه، ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء، ويخاطبونه مخاطبة السادة، ويمدهم بالأموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه أكثر منهم مالاً ورجالاً، وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، ويضع الأشياء مواضعها، ويعرف مقادير الرجال، ويؤدي حقوقهم ويتجاوز عن هفواتهم، ويراعي لأهل السوابق سوابقهم، ويتفقد أحوال خدامه في الصحة والمرض، ولا يغفل عمن كان يعرفه قبل الملك، وكان من الشجعان المذكورين في وقته، يباشر الحروب بنفسه، ويهزم الجيوش بهيبته، وكان يقتني الرجال

ويصطنعهم ويعدهم لأيام الكريهة، وينادي كل واحد باسمه وقت اللقاء والحضور عنده، ويوجه كل بطل منهم مع قبيلة أو كتيبة من كتائب الجند، ويعمل بقواعد السياسة في الحروب، وكان إذا وجه أحداً ممن يعرف نجدته وكفايته ينشد قول ابن دريد:

والناس ألف منهم كواحد　　　وواحد كالألف إن أمر عنا

وبالجملة فقد كان رحمه الله من عظماء الملوك، وخلد آثاراً كثيرة بالمغرب، فمن ذلك بمراكش تجديد ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ومسجده ومدرسته، وضريح الشيخ التباع ومسجده، وضريح الشيخ الجزولي ومسجده، وضريح الشيخ الغزواني ومسجده، وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده، وضريح المولى علي الشريف ومسجده الأعظم، وضريح الشيخ ميمون الصحراوي ومسجد الملوك ببريمة ومدرستاه، وتجديد جامع المنصور والمسجد الأعظم بباب دكالة، والمسجد الأعظم بباب هيلانة، والمسجد الأعظم بالرحبة، ومساجد القصبة ومدارسها الست، ومسجد زاوية الشرادي، ومسجد رباط شاكر، ومدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها وصقائلها وأبراجها وكل ما فيها، ومسجد آسفي ومدرسته، ومسجد مدينة تيط ومدينة آنفا، ومسجدها ومدرستها وحمامها وصقائلها وأبراجها، ومدينة فضالة ومسجدها ومدرستها، والمصورية ومسجدها، وجامع السنة برباط الفتح ومساجد أجدال الستة وأبراجه، والصقالتين الكبيرتين بسلا ورباط الفتح، ومسجد العرائش ومدرسته وصقائلها وأبراجها وسوقها، وصقائل طنجة وأبراجها، والمسجد الأزهر ومدرسته بإصطبل مكناسة، ومسجد البردعيين بها، وضريح الشيخ ابن عيسى وضريح الشيخ أبي عثمان سعيد ومسجده، ومدرسة الصهريج، ومدرسة الدار البيضاء، ومسجد بريمة ومدرسته ومسجد هدراش ومسجد باب مراح وثلاثة أقواس بقنطرة وادي سبو خارج فاس، وضريح الشيخ علي بن حرزهم، وضريح الشيخ دراس بن إسماعيل،

وضريح أبي عبد الله التاودي، ومدرسة باب الجيسة، ومسجد تازا ومدرسته، وضريح المولى عليّ الشريف بسجلماسة وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها، ومسجد الريصاني ومدرسته وأوقافه على المارستان بفاس ومراكش.

فهذه الآثار كلها مما سمت إلى تخليد همته الشريفة، بعضها أنشأها وبعضها أصلحه وجدده، ورتب للأشراف بتافيلات في كل سنة مائة ألف مثقال سوى ما ينعم به عليهم في أيام السنة متفرقاً، ورتب لأهل الحرمين الشريفين وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال أيضاً في السنة، ولشرفاء المغرب مائة ألف مثقال كذلك، وأما الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد كانت تأتيهم صلاتهم في كل عيد، وأما ما كان ينفقه في الجهاد على رؤساء البحر وطبجيته وما يضيره على المراكب الجهادية والآلات الحربية التي ملأ بها بلاد المغرب فشيء لا يحصيه الحصر، وأما ما أنفقه من الأموال في فكاك أسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق، ولقد بلغ عددهم في سنة مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة، وأوقافه بالحرمين الشريفين وكتبه العلمية المحبسة بهما لا زالت قائمة العين والأثر إلى الآن، وأما اعتناؤه بالمراكب القرصانية فقد بلغ عددها في دولته عشرين كباراً من المربع، وثلاثين من الفراكط والغلائط، وبلغ رؤساء البحر عنده ستين رئيساً كلها بمراكبها وبحريتها، وبلغ عسكر البحرية ألفاً من المشارقة وثلاثة آلاف من المغاربة، ومن الطبجية ألفين، وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر ألفاً، ومن الأحرار سبعة آلاف، وأما عسكر القبائل الذي كان يغزو من الجند فمن الحوز ثمانية آلاف، ومن الغرب سبعة آلاف.

وكانت له هيبة عظيمة في مشوره وموكبه يتحدث الناس بها، وهابته ملوك الفرنج وطواغيتهم، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف، يطلبون مسالمته في البحر، بلغ ذلك رحمه الله بسياسته وعلو همته حتى عمت

مسالمته أجناس النصارى كلهم إلا المسكوب فإنه لم يسالمه لمحاربته للسلطان العثماني، ولقد وجه رسله وهديته إلى طنجة فردها السلطان رحمه الله وأبى من مسالمته، ووظف على الأجناس الوظائف فالتزموها وكانوا يؤدونها كل سنة واستمر ذلك من بعده إلى أن انقطع في هذه السنين المتأخرة، وكانوا يستجلبون مرضاته بالهدايا والألطاف وكل ما يقدرون عليه، ومهما كتب إلى طاغية في أمر سارع إليه ولو كان محرماً في دينه، ويحتال في قضاء الأغراض منهم بكل وجه أحبوا أم كرهوا، وكان أعظم طواغيتهم طاغية النجليز وطاغية الفرنسيس، فكانا يأنفون من أداء الضريبة علانية مثل غيرهم من الأجناس، فكان رحمه الله يستخرجها منهم وأكثر منها بوجه لطيف، وكان له عدة أولاد أكبرهم أبو الحسن علي والمأمون وهشام وعبد السلام، هؤلاء لربة الدار المولاة فاطمة بنت عمه سليمان بن إسماعيل ثم عبد الرحمٰن أمه حرة هوارية من هوارة السوس، ثم يزيد ومسلمة، أمهما علجة من سبي الإصبنيول، ثم الحسن وعمر، أمهما حرة من الأحلاف، ثم عبد الواحد أمه حرة من أهل رباط الفتح، ثم سليمان والطيب وموسى لحرة من الأحلاف أيضاً، ثم الحسن وعبد القادر لحرة من الأحلاف أيضاً، ثم عبد الله لحرة من عرب بني حسن، ثم إبراهيم لعلجة رومية.

ومما مدح به السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من الشعر أرجوزة الأديب البليغ أبي العباس أحمد الونان المعروفة بالشمقمقية التي يقول في مطلعها:

مهلاً على رسلك حادي الأينق ولا تكلفها بما لم تطق

وهذه الأرجوزة مشهورة بين الناس وهي من الشعر الفائق، والنظم البديع الرائق، أبان منشئها عن باع كبير واطلاع غزير، على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها بحيث أن من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الأدب، وقد كنت في أيام التعاطي اعتنيت بتصحيح ألفاظها والتتبع لأخبارها وأمثالها والتنقير عن تلميحاتها وتلويحاتها حتى فضضت ختامها واستوعبت مبدأها وتمامها، ثم شرعت في كتابة شرح عليها يحيط بمعانيها

ويستوعب دقائق مبانيها، فكتبت منه نحو أربعة كراريس، ثم عاقت الأقدار عن إتمامه نسأله سبحانه وتعالى أن يصرف عنا العوائق فيما ينفعنا في ديننا ودنيانا، ويحفنا بالسعادة الدنيوية والأخروية في متقلبنا ومثوانا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ومن وزراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله: الوزير الشهير أبو عبد الله محمد العربي قادوس المدعو أفاندي، كان من موالي السلطان وغرس نعمته وربي دولته وأصله من أعلاج الإصبنيول، وكان شعلة من الذكاء والفطنة وركناً شديداً من أركان الدولة المحمدية في حسن التدبير والحزم الذي لا يعزب عنه من أمور الحضرة قليل ولا كثير، وقد أدرك من فخامة الجاه وضخامة الرياسة غاية تفرد بها في وقته بحيث كانت الأعاظم من وجوه الدولة تقف ببابه اليومين والثلاثة فلا يتيسر لهم لقاؤه.

ولما توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله امتحن المولى يزيد هماماً الوزير في جملة من امتحنه من أهل مراكش كما سيأتي.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد وأوليته ونشأته رحمه الله

كان المولى يزيد هذا عند والده رحمه الله بعين العناية ملحوظاً، ومن النقائص محروساً ومحفوظاً، وكان عامة أهل المغرب وخاصتهم من الجند والرعية متشوفين له ومغتبطين به يهتفون باسمه ويلهجون بذكره، لما كان عليه من الكرم والشجاعة والتمسك بمذاهب الفتوة والدين والاعتناء بجوائز أهل البيت، ومحبة أهل الخير وإكرامهم وإقامة الصلوات لأوقاتها حضراً وسفراً لا يشغله عن ذلك شاغل، فأصابته عين الكمال وصار ينتقل من حال إلى حال، حتى خالطته جماعة من الأغمار كانوا في خدمته فلزموه وحسنوا له الاستبداد على والده والخروج عليه، وأتوه من بين يديه ومن خلفه، حتى وقر ذلك في صدره وارتسم فيه، وكان ذلك على حين أوان الشبيبة وأخذها

منه مأخذها، وكانت همته طماحة لا تقف به عند غاية، فاستعجل الأمر قبل أوانه وخرج على والده بجيش العبيد حسبما مر ولسان حاله ينشد:

فإن يك عامر قد قال جهلاً   فإن مظنة الجهل الشباب

فسقطت منزلته عند أبيه بعد أن بلغ من الحظوة لديه ما بلغ، وكان يرشحه للخلافة ويقدمه على كبار إخوته، لما ظهر له من نجدته واقتداره، وجوده في محل الجود، ورغبته في الجهاد وولوعه بصناعة الرمي بالمهراس، فأسند إليه أمر الطبجية والبحرية، وصار يوجهه مع الرؤساء والطبجية إلى الثغور كل سنة ليقف على الملازمين لصقائلها وأبراجها، ويعلمهم ما يحتاجون إلى تعلمه، ولما رآه والده مغتبطاً بذلك وتوسم فيه النجابة أقبل عليه بالعطاء، ثم ولاه الكلام مع قناصل الأجناس الذين بالمراسي واستنابه في ذلك.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ولاه السلطان على قبيلة كروان، وهم يومئذٍ أعظم قبائل البربر خيلاً ورجالاً، فأسند إليه أمرهم، وتقدم إليه في أن يكفهم عن الحرب مع آيت أدراسن، فسار إليهم واغتبطوا به واغتبط بهم وصار أحداثهم وأبناء أعيانهم يركبون معه للصيد فغمرهم بالعطاء، وأنعم عليهم بالخيل والسلاح والكسي، ولزموا مجلسه حتى أفسدوا قلبه وحسنوا له الانتزاء على الملك، وقالوا: هذا بيت المال الذي بقبة الخياطين هو في يدك وليس دونه مانع وبه يقوم ملكك، ومتى استدعيت إخواننا آيت ومالو لم يتوقفوا عنك طرفة عين، ولا يقوم لهم شيء من الجند وغيره ولم يزالوا يفتلون له في الذروة والغارب حتى شرهت نفسه وصار لا حديث له إلا في ذلك، واطلع على ذلك قائد الودايا أبو محمد عبد القادر بن الخضر، وكان محبّاً في جانب السلطان صادق الخدمة والطاعة له، فكتب إليه بما عليه ولده مع جروان وأنهم يأتون إليه بالمائة والمائتين، ويبيتون عنده بالقصبة ونحن خفنا أن يبرز من ولدك أمر فتعاقبنا عليه، فأخبرناك بالواقع.

ولما وصل كتابه إلى السلطان بعث للحين قائده العباس البخاري في مائة من الخيل للقبض على المولى يزيد وأصحابه، وقد قلنا لك أن الجند والرعية معاً كانوا مغتبطين بالمولى يزيد، فلما وصل القائد العباس إلى سلا دس إلى المولى يزيد أنه مقبوض فلينج بنفسه، فخرج المولى يزيد من مكناسة ليلاً في خاصته وأصحابه من جروان، وقصدوا آيت ومالو، ولما وصل القائل العباس إلى مكناسة ألفاها مقفرة من المولى يزيد وشيعته، فأقام بها وكتب إلى السلطان يعلمه بالخبر، فبعث السلطان إلى المولى يزيد كاتبه أبا عثمان سعيد الشليخ، فقدم عليه بزاوية آيت إسحاق لأنه لم يجد من قبائل آيت ومالو إلا مهاوش وشقيرين فتجاوزهم إلى الزاوية المذكورة ولما أتاه أبو عثمان المذكور بكتاب والده وأمانه سار معه إلى مراكش، ولما وصل إليها دخل ضريح أبي العباس السبتي فاحترم به ثم عفا عنه السلطان، واجتمع به فتنصل مما رمي به ونسب ذلك إلى سفهاء جروان وأنه لم يوافقهم على ذلك، فأضمر السلطان الإيقاع بهم، ولما قدم من مراكش سنة أربع وثمانين ومائة وألف قصدهم بالكريكرة وأوقع بهم، وقتل منهم نحو الخمسمائة حسبما مر، وأنزل المولى يزيد مع أخويه المولى علي، والمولى عبد الرحمٰن بفاس، فأقام بها مدة ثم حدثت حرب بينه وبين أخيه المولى عبد الرحمٰن بوسط فاس العليا، وهلك فيما بينهما عدد ويلغ خبر ذلك إلى السلطان فقدم مكناسة وبعث من يقبض عليهما فقبض على المولى عبد الرحمٰن وأصحابه، وفر المولى يزيد إلى ضريح المولى إدريس الأكبر بزرهون، فأتى به الأشراف إلى والده فسامحه، ثم سرح المولى عبد الرحمٰن وسأل عن أحوال أصحاب الأخوين معاً ثم عرف صالحهم من طالحهم فأخرجهم من السجن، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وكانوا ثلاثين رجلاً، وسرح الباقين، ونقل المولى عبد الرحمٰن إلى مكناسة وترك المولى يزيد بفاس، ثم إن المولى عبد الرحمٰن كان يسابق يوماً في الميدان ويلعب بالبارود فقتل رجلاً من بني مطير، فجاء إخوانه إلى

قائدهم محمد بن محمد واعزيز فأدى ديته من عنده وعفوا، وكتب عليهم سجلاً بذلك وسكنت الهيعة، فاتفق أن وجه السلطان قائده العباس إلى مكناسة لقتل أناس كانوا بسجن مكناسة فلما سمع به المولى عبد الرحمٰن ظن أنه قدم في شأن المطيري المقتول، وأن خبره قد بلغ السلطان ففر من مكناسة ليلاً إلى وجدة، ثم إلى تلمسان، واتصل خبر فراره بالسلطان فسأل عن السبب فأخبره القائد العباس بالواقع، فبعث إليه الأمان فلم يثق، ثم سار إلى تلمسان إلى سجلماسة فبعث إليه السلطان من يؤمنه ويأتي به إليه فلم يثق، وفر إلى السوس فبعث إليه السلطان أماناً إلى السوس ففر إلى القبلة، وأقام يتردد في قبائلها إلى أن توفي السلطان رحمه الله فجاء إلى تارودانت فأقام بها وطلب الأمر فلم يتم له أمر، ومات رحمه الله، وأما المولى يزيد فإنه أقام بفاس إلى أن استدعاه والده للقدوم عليه بمراكش فقدم عليه.

ثم اتفق قيام العبيد على السلطان بسبب الإدالة التي أمرهم بتوجيهها إلى طنجة حسبما مر، فبعث المولى يزيد لإصلاحهم وردهم عن غيهم، فلما وصل إليهم استفزوه بقولهم، وحركوا منه ما كان ساكناً، واستخرجوا ما كان كامناً، فبايعوه وخطبوا به حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى، وانحرف قدور بن الخضر بالودايا عنه، ولما فتح المولى يزيد بيت المال وأعطى العبيد بعث إلى الودايا بعطائهم يستهويهم به وكان شيئاً كثيراً، فردوه عليه وانضم محمد واعزيز في بربره إلى الودايا فقصدهم المولى يزيد والتقوا بالمشتهى من مكناسة فهزموه، وقتل من العبيد ما ينيف على الخمسمائة ثم قدم السلطان في العساكر وجموع القبائل ففر المولى يزيد إلى زرهون فتبعه السلطان وزار المولى إدريس رضي الله عنه، فشفع له الأشراف الأدارسة فيه فقبل شفاعتهم وعفا عنه حسبما مر، ثم بعد هذا بعثه إلى المشرق وصدر منه بمكة في حق شيخ الركب ما صدر فكانت تلك الفعلة هي المخالفة وبها تبرأ السلطان منه، ثم قفل من المشرق سنة ثلاث ومائتين وألف والتجأ إلى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش إلى أن توفي والده حسبما قصصنا عليك من قبل وبالله التوفيق.

بيعة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد رحمه الله

لما توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله في التاريخ المتقدم وبلغ خبر موته المولى يزيد وهو بالحرم المشيشي بايعه الأشراف هنالك وسائر أهل الجبل وتقدم إليه السابقون من الجند الذين كانوا محاصرين له فبايعوه، واستتب أمره فتوجه إلى تطاوين إذ هي أقرب الثغور إليه فبايعه أهلها، والقبائل المجاورة لها، وأطلق الجند على يهود تطاوين فاستباحهم واصطلم نعمتهم، ثم وفد عليه أهل طنجة والعرائش وآصيلا فقابلهم بما يجب، ثم توجه إلى طنجة فخرج عسكرها للقائه ففرح بهم وأحسن إليهم وبها قدم عليه وفد أهل فاس من أشرافها وعلمائها وأعيانها فأكرمهم وولى عليهم أبا عبد الله محمد العربي الذيب، ثم انتقل إلى العرائش فوفاه بها حاشية أبيه وخدمه ووجوه دولته بمتخلف والده وقبابه وخيله وبغاله وسائر أثاثه فأحسن إليهم وصاروا معه في ركابه إلى زرهون، ولما وصل إليها قدم عليه أخوه المولى سليمان من تافيلالت بقبائل الصحراء عربها وبربرها ومعه بيعة أهل سجلماسة، وكان قد استجار به محمد واعزيز فإنه كان خائفاً على نفسه من المولى يزيد لانحرافه عنه أيام أبيه، فسار في صحبته بقبائله، ولما اجتمع بالسلطان سامحه وأبقاه على قومه، ولما دخل مكناسة قدمت عليه قبائل الغرب كلها عربها وبربرها حتى عصاة آيت ومالو ودجالهم مهاوش فأعطى مهاوش وحده عشرة آلاف ريال وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال، ثم قدمت عليه قبائل الحوز كله من عرب وبربر لم يتخلف عن بيعته أحد، وقدم عليه أهل مراكش وأعمالها ببيعتهم، ونصها:

«الحمد لله المنفرد بالملك والخلق والتدبير، الذي أبدع الأشياء بحكمته واخترع الجليل منها والحقير، الغني عن المعين والمرشد والوزير، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء وهو

المدبر القدير، جاعل الملوك كفاً للأكف العادية، وولايتهم مرتعاً للعباد في ظل الأمن والعافية، وبيعتهم أمناً من الهرج والفساد، وقمعاً لأهل الشر والعناد، فهم ظل الله على الأنام، وحصن حصين للخاص والعام، حسبما أفصح بذلك سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فتبارك الله ربنا الذي شرف هذا الوجود، وزين هذا العالم الموجود، بهذه الخلافة المباركة، والإمامة الحسنية الهاشمية العلوية، والطلعة القرشية المحمدية، التي انصرفت الوجوه إلى قبلتها المشروعة، واستبان الحق عند مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة، نحمده تعالى على ما منّ به علينا من هؤلاء الإمامة السعيدة، ونشكره جل جلاله شكراً نستوجب به من الهنا أفضاله ومزيده، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ليس في الوجود إلا فعله، أجرى الأقدار على حسب ما اقتضاه حكمه وعدله، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله، ومصطفاه من خلقه وخليله، سيد المخلوقات كلها من إنس وجان، المصفى من ذؤابة معد بن عدنان، صاحب الشريعة المطهرة التي لا يختلف في فضلها اثنان، والدين القويم الذي هو أفضل الأديان، الذي اختصه الله ما بين الأنبياء بمزية التفضيل والتقديم، وافترض على أمته الغراء فريضة الصلاة والتسليم، وأثنى عليه في كتابه الحكيم، فقال جل ثناؤه وتقدست صفاته وأسماؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، صلى الله عليه صلاة متصلة الدوام متعاقبة بتعاقب الليالي والأيام، وعلى آله الكرام الأطهار وصحابته النجباء البررة الأخيار الذين أوضحوا لنا الحق تبياناً، وأسسوا لهذه الملة السمحة قواعد وأركاناً، وعلى من اقتفى أثرهم القويم واهتدى بهديهم المستقيم إلى يوم الدين. أما بعد، فإن الله تعالى جعل صلاح هذا العالم وأقطاره المعمورة ببني آدم، منوطاً بالأئمة الأعلام، محوطاً بالملوك الذين هم ظل الله على الأنام، فطاعتهم ما داموا على الحق واتقوا الله سعادة والاعتصام بحبلهم إذ ذاك واجب وعبادة قال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن ﴾ [النساء:59] وقال عليه السلام: «إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا» وقال عليه السلام: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» وقال عليه السلام: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي لذي عهدها فليس مني ولست منه» أخرجها مسلم كلها وقال عليه السلام: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة» أو كما قال. وقال عليه السلام: «السلطان العدل المتواضع ظل الله ورمحه في الأرض يرفع الله له عمل سبعين صديقاً» ولما كان أهل بيت سيد المرسلين أعظم قريش في قلوب المؤمنين، وأكرمهم منزلة عند رب العالمين، أنالهم الله تعالى في خلقه فضلاً كبيراً، ومنحهم إجلالاً ورفعة وتعظيماً وتكبيراً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب:33]. وقال عليه الصلاة والسلام: «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي» وإن ممن امتن الله به علينا من أهل هذا البيت الشريف، الذي أولاه الله أشرف التعظيم وأعظم التشريف وقدمه تعالى لسلطانه العزيز، ورفعه جل وعلا على منصة التبريز، عميد المجد الذي لا يتناهى فخره، ووحيد الحسب جل منصبه وقدره، الإمام الذي ألقت له الإمامة زمامها، وقدمته الأفاضل لفضله إمامها، من جاءت له الخلافة تجر أذيالها، وأخذها دون بني أبيه ولم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها، ومن جبلت قلوب الخلائق على محبته، وألقى له القبول في الأرض لمجده ولعلو همته، السلطان السعيد، الواثق بربه المعين الرشيد، أبا المكارم والمفاخر سيدنا ومولانا يزيد ابن مولانا الإمام السلطان

الهمام، المرحوم بالله سيدي محمد ابن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الله ابن السلطان الجليل، أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، ابن موالينا السادة الأشراف، ذوي الفضل والكرم والإنصاف، قدس الله أرواحهم في أعلى الجنان، ومنحهم بفضله الرضا والرضوان، أيد الله ببقائه الدين، وطوق بسيفه الملحدين، وكتب تحت لوائه المعتدين، وكتب له النصر إلى يوم الدين، وأعاذ به الأرض من لا يدين بدين، وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين، وأسكن في القلوب سكينته ووقاره، ومكن له في الوجود وجمع له أقطاره، هو والله ممن فيه استحقاق ميراث آبائه الأعلام، وتراث أجداده الكرام، المجمع عليه أنه في هذه الأيام فرد هو الأنام، وواحد وهكذا في الوجود الإمام، الراقي في صبح سماء هذه الذروة المنيفة، الباقي بعد الأئمة الماضين نعم الإمام ونعم الخليفة، سلالة الأخيار، وخلاصة أبناء النبي المختار، أسمى الله إيالته الشريفة، وأنار البسيطة بأنوار مملكته الشامخة المنيفة، انعقد الإجماع من أهل هذه الحضرة المراكشية حاطها الله وما حولها من أهل السوس وكافة الرحامنة وغيرهم من قبائل عديدة حسبما تضمنته أسماء من يكتب اسمه منهم عقبه بخط من يكتب منهم، أو خطوط العدول الثقات عمن لم يكن يحسن الكتابة وأذنوا لمن يكتب عنهم بيعة تم بمشيئة الله تمامها، وعم بالصوب المغدق غمامها، سعيدة ميمونة، شريفة لها السلامة في الدين والدنيا مضمونة، صحيحة شرعية، ملحوظة مرعية، دائبة دائمة، لازمة جازمة، صحيحة صريحة، متعبة مريحة، على الأمن والأمانة، والعفاف والديانة، وعلى ما بويع به مولانا رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، والأئمة المهتدون الموفون بعهده، وعلى السمع والطاعة، وملازمة السنة والجماعة، قرت بها نواظرهم، وشهدت بذلك على صفاء بواطنهم ظواهرهم، وأعطوا بها صفقة أيديهم وأمضوها إمضاء يدينون به في السر والجهر والمنشط والمكره، واليسر والعسر، أجمع عليها أرباب العقد

والحل، وأصحاب الكلام فيما قل وجل، ومن يوصف بعلم وقضاء، ومن يرجع إليه في رد وإمضاء، لم يخالف فيها إمام مسجد ولا خطيب، ولا ذو فتوى يسأل فيجيب، ولا من يجتهد في رأي فيخطىء أو يصيب، ولا معروف بدين وصلاح، ولا فرسان حرب وكفاح، ولا طاعن برمح ولا ضارب بصفاح، ولا ولاة الأمر والأحكام، ولا حملة العلم الأعلام، ولا حماة السيوف والأقلام، ولا أعيان السادة الأشراف، ولا أكابر الفقهاء ومن انخفض قدره ومن أناف، بيعة تمت بها نعمة من وحد الله قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:43] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:10] الآية، فمن حضر خواص من ذكر وعوامهم قيد شهادته بمضمن العقد المنصوص، ملتزماً لجميع ما اقتضاه من العموم والخصوص، باسطاً كفه بالدعاء والابتهال، والتضرع لذي العزة والجلال، قائلاً: اللّهم كما خصصت مولانا أمير المؤمنين بمزيد الكرامة وارتضيته لمقام الإمامة، وانتخبته من أشراف الناس، وصنت به وجوههم عن الباس، فانصره اللّهم نصراً مؤزراً، واجعل نصيبه من عنايتك وكفايتك جزيلاً موفراً، وأن له في كل مرام فتحاً مبيناً، وظفراً ميسراً معيناً، وأسعدنا اللّهم بأيامه، واكلأه بكلاءتك في ظعنه ومقامه، واجعل بيعته المباركة بيعة تخلد بها مآثرة تخليداً، وتؤيد علوه وتأييده ونصره تأييداً، وأبقه على الأنام شفيقاً، وبجميعهم باراً رفيقاً، وأعنه اللّهم على ما وليته من أمور عبادك، ومهد له أتم التمهيد في أقطار بلادك، وكن له فيما يرضيك مؤيداً وظهيراً، واجعل له من لدنك ولياً وسلطاناً نصيراً، أجب دعاءنا إنك يا مولانا ولي ذلك وبه قدير، وأنت نعم المولى ونعم النصير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، في ثامن عشر شعبان عام أربعة ومائتين وألف انتهت.

انتقال الودايا من مكناسة إلى فاس وعبيد الثغور منها إلى مكناسة

لما كان السلطان المولى يزيد رحمه الله بمكناسة أمر الودايا أن ينتقلوا منها إلى فاس الجديد مسقط رؤوسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم، وبذل لهم خمسين ريالاً للرأس إعانة لهم على نقلتهم، فعادوا إلى فاس الجديد واستوطنوه بعد تغريبهم عنه بمكناسة ثلاثين سنة كما سبق، ثم أمر عبيد الثغور أن ينتقلوا منها إلى مكناسة لتجتمع كلمتهم بها، وأنعم على أهل كل ثغر منهم ببيت ماله الذي به فاقتسموه وانقلبوا إلى مكناسة مغتبطين.

نقض الصلح مع جيش الإصبنيول وحصاره سبتة

قال منويل القشتيلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب: لما ولي المولى يزيد بن محمد رحمه الله أظهره معاداة الإصبنيول وصمم على حربهم فتفادى طاغيتهم من حربه بكل وجه وبعث باشدوره إليه بطنجة يهنئه بالملك ويتملق له فأعرض عن ذلك ولم يحفل به ولا بهديته، بل عمد إلى من كان بمراسيه من نصارى الإصبنيول تجاراً وفرايلية وغيرهم وقبض عليهم وسلكهم في السلاسل، وساقهم إلى طنجة فحبسهم بها، قال: وكانت قراصين المسلمين الحربية يومئذٍ ستة عشر قرصاناً وفيها من المدافع ثلاثمائة مدفع وستة مدافع.

قلت: قد تقدم أن القراصين أكثر من ذلك بكثير، واستمر النصارى محبوسين بطنجة إلى أن اتفق أن كان قرصان للإصبنيول يطوف بساحل العرائش فظفر بمركب هنالك وأسر بعضهم، وكان المولى يزيد يومئذٍ بالعرائش فنظر إليهم بمرآة الهند وهو على سطح داره إذ أسروهم وبعث الصريخ في أثرهم ففاتوه، ثم وقع التفادي بينه وبين الطاغية في أولئك الأسرى بأسرى طنجة اهـ. كلام منويل.

ثم إن السلطان المولى يزيد رحمه الله زحف إلى سبتة واستنفر الناس لجهادها والمرابطة عليها، واستصحب معه آلة الحرب من المدافع والمهاريس، ونصب عليها سبعة أشبارات كان جلها لفنانشة سلا، وأهرعت إليه المتطوعة من حاضر وباد، ونسلوا إليه من كل حدب وواد، وأقام على حصارها مدة ثم أفرج عنها وسار إلى ناحية مراكش لأمر اقتضى ذلك، فلما وصل إلى مدينة آنفا بدا له من الرجوع فرجع ونزل عليها واستأنف الجد، وأرهف الحد، وأرسل إلى قبائل الحوز يستنفرهم للجهاد والمرابطة فتقاعدوا عنه بعد أن أشرف على فتحها وكان ما نذكره.

انتقاض أهل الحوز على السلطان المولى يزيد ابن محمد وبيعتهم لأخيه المولى هشام رحمهما الله

لما قدمت قبائل الحوز على السلطان المولى يزيد بمكناسة ظهر لهم منه بعض التجافي عنهم وأنزلهم في العطاء دون البربر والودايا وغيرهم، فساءت ظنونهم به وانفسدت قلوبهم عليه، ولما رجعوا إلى بلادهم تمشت رجالاتهم بعضها إلى بعض، وخب الرحامنة في ذلك ووضعوا، واتفقت كلمتهم مع أهل مراكش وعبدة وسائر قبائل الحوز فقدموا المولى هشام بن محمد للقيام بأمرهم وآتوه بيعتهم وطاعتهم، ولما اتصل خبر ذلك بالمولى يزيد وهو محاصر لسبتة أقلع عنها وسار إلى الحوز فشرد قبائله، ووصل إلى مراكش فدخلها عنوة، يقال: إن دخوله إليها كان من الباب المعروف بباب يغلى، فاستباحها وقتل وسمل، وكان الحادث بها عظيماً، ثم استجاش عليه المولى هشام قبائل دكالة وعبدة وقصده بمراكش فبرز إليه المولى يزيد ولما التقى الجمعان بموضع يقال له تازكورت انهزم جمع المولى هشام وتبعهم المولى يزيد فأصيب برصاصة في خده فرجع إلى مراكش يعالج جرحه، فكان في ذلك حتفه رحمه الله. وذلك أواخر جمادى الثانية سنة ست ومائتين وألف

ودفن بقبور الأشراف قبلي جامع المنصور من قصبة مراكش، ولقد كان رحمه الله من فتيان آل علي وسمحائهم وأبطالهم له في النجدة والكفاية المحل الذي لا يجهل، والسبق الذي لا يلحق، والغبار الذي لا يشق، ولا يضره تنقيص من نقصه من الحسدة عفا الله عنا وعنهم فإن مكان الرجل غير مكانهم وهمته العالية فوق تزويراتهم تغمد الله الجميع بعفوه وغفرانه آمين. ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث.

ففي شعبان سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد الله محمد السوسي المنصوري ودفن قرب الولي الصالح سيدي مغيث من طالعة سلا، وله شرح على مختصر السنوسي في المنطق وآخر على كبراه، وفي ضحى يوم السبت الثامن والعشرين من المحرم فاتح سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه المرابط البركة سيدي الحاج الغزواني ابن البغدادي، من حفدة الولي الأشهر سيدي محمد الشرقي رضي الله عنه، ودفن بداره بجوار سيدي مغيث أيضاً.

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين ومائة وألف توفي الفقيه العلامة الإمام صاحب التصانيف المفيدة، والأجوبة العتيدة، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بن زكري الفاسي رحمه الله ورضي عنه.

وفي يوم الجمعة الرابع من رجب سنة ست وأربعين ومائة وألف كمل بناء قبة ولي الله تعالى أبي العباس سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه على يد القائد أبي عبد الله الحوات، وفي الشهر نفسه توفي الفقيه القاضي النوازلي أبو العباس سيدي أحمد الشدادي بزاوية زرهون.

وفي سنة خمسين ومائة وألف ولد الشيخ أبو العباس أحمد التجاني شيخ الطائفة التجانية، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله وفيها كانت المجاعة العظيمة بالغرب والفتن ونهب الدور بالليل بفاس وغيرها. وصار جل الناس لصوصاً

فكان أهل اليسار لا ينامون لحراستهم دورهم وأمتعتهم، وهلك من الجوع عدداً لا حصر له حتى لقد أخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفاً وزيادة سوى من كفنه أهله، هذا بفاس وليقس عليها غيرها.

وفي زوال يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين ومائة وألف توفي قاضي سلا الفقيه العلامة السيد أبو عمرو عثمان التواتي ودفن داخل روضة سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه.

وفي سنة ثلاث وستين ومائة وألف كان الوباء بالمغرب وانحباس المطر فلحق الناس من ذلك شدة ثم تداركهم الله بلطفه.

وفي سنة تسع وستين ومائة وألف كانت الزلزلة العظيمة بالمغرب التي هدمت جل مكناسة وزرهون ومات فيها خلق كثير بحيث أحصي من العبيد وحدهم نحو خمسة آلاف وتكلم لويز مارية على هذه الزلزلة فقال: إنها مكثت ربع ساعة وتشققت الأرض منها واضطراب البحر وفاض حتى ارتفع ماؤه على سور الجديدة وفرغ فيها، ولما رجع البحر إلى مقره ترك عدداً كثيراً من السمك بالبلد، وفاض على مسارحهم ومزارعهم وأشباراتهم فنسف ذلك كله نسفاً واضطربت المراكب والفلك بالمرسى فتكسرت كلها وفر نصارى البلد إلى الكنيسة وتركوا ديارهم منفتحة ومع ذلك لم يفقد منها شيء لاشتغال الناس بأنفسهم، وتكلم صاحب نشر المثاني على هذه الزلزلة فقال: وفي ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من المحرم ستة تسع وستين ومائة وألف زلزلت الأرض زلزالها، ومادت شرقاً وغرباً، واستمرت كذلك نحو درج زماني، وفاض ماء البرك والصهاريج على البيوت وتكدرت العيون ووقف ماء الأودية عن الجري وسقطت الدور وتصدعت الحيطان وأخذ الناس في هدم ما تصدع خوف سقوطه، وفزع الناس وتركوا حوانيتهم وأمتعتهم، ووقع بمدينة سلا أن ماء البحر انحصر عنه إلى أقصاه فجاء الناس ينظرون إليه فرجع الماء إلى جهة البر وتجاوز حده المعتاد بمسافة كبيرة،

فأغرق جميع من كان خارج المدينة في تلك الجهة وصادف قافلة ذاهبة إلى مراكش فيها من الدواب والناس عدد كثير فأتلف الجميع، ورمى بالقوارب والزوارق التي في الوادي إلى مسافة بعيدة جداً، ثم بعد هذه بنحو ستة وعشرين يوماً عادت زلزلة أخرى أشد من الأولى بعد صلاة العشاء هي التي أثرت في مكناسة غاية، وهلك تحت الهدم بها نحو عشرة آلاف نفس، وفعلت بفاس أيضاً فعلاً شنيعاً انظر تمام كلامه فقد أطال في وصفها.

وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من رمضان سنة سبع وسبعين ومائة وألف انكسفت الشمس وبقي منها مثل الهلال ثم انجلت بعد حين.

وفي فجر يوم الأحد الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف توفي الشريف البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني وعمره ينيف على الثمانين سنة، وبعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف انكسفت الشمس وظهرت النجوم لكثرة الظلام ثم انجلت ورجعت لحالها بعد نصف ساعة ونحوها.

وفي أعوام تسعين ومائة وألف كانت المجاعة الكبيرة بالمغرب وانحبس المطر ووقع القحط وكثر الهرج ودام ذلك قريباً من سبع سنين.

وفي أواخر ربيع الثاني سنة أربع وتسعين ومائة وألف توفي الشيخ العلامة الإمام المحقق البارع أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني الفاسي الفقيه المشهور صاحب التآليف الحسان، مثل حاشيته البديعة على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل، حكى العلامة الرهوني في حاشيته قال: لما أخبر الشيخ التاودي ابن سودة بوفاته جاء فزعاً وهو يبكي فلقيه بعض الناس فقال له: الله يجعل البركة فيكم فقال: لم تبق بركة بعد هذا الرجل وذلك لمعرفته بمكانته.

وفي ضحى يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف توفي الشريف البركة المولى أحمد بن الطيب الوزاني رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه آمين.

حدوث الفتنة بالمغرب وظهور الملوك الثلاثة من أولاد سيدي محمد بن عبد الله وما نشأ عن ذلك

لما قتل المولى يزيد رحمه الله بمراكش افترقت الكلمة بالمغرب، فأقام أهل الحوز وأهل مراكش على التمسك بدعوة المولى هشام وشايعه على أمره القائد أبو زيد عبد الرحمٰن بن ناصرالعبدي صاحب آسفي وأعمالها، والقائد أبو عبد الله محمد الهاشمي بن علي بن العروسي الدكالي البوزراري، وكان المولى مسلمة بن محمد شقيق المولى يزيد خليفة عنه ببلاد الهبط والجبل يدبر الأمر بثغورها وينظر في أمورها، فلما اتصل به خبر وفاة أخيه دعا إلى نفسه أهل تلك البلاد فبايعوه واتفقت كلمتهم عليه ووصل خبر موت المولى يزيد إلى فاس وأعمالها فبايعوا المولى سليمان بن محمد رحمه الله وكان من أمره ما نذكره.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الربيع المولى سليمان بن محمد رحمه الله

كان المولى سليمان بن محمد رحمه الله أعلق بقلب أبيه من سائر إخوته على ماقيل لسعيه فيما يرضي الله ورسوله ويرضي والده واشتغاله بالعلم والعكوف عليه بسجلماسة وغيرها، ولم يلتفت قط إلى شيء مما كان يتعاطاه إخوته الكبار والصغار من أمور اللّهو كالصيد والسماع ومعاقرة الندمان وما يزري بالمروءة، ولم يأت فاحشة قط من صغره إلى كبره، وكان رحمه الله يرى له ذلك ويثيبه عليه بالعطايا العظيمة والذخائر النفيسة والأصول المعتبرة التي تغل الألف وأكثر، وينوه بذكره في المحافل ويبعث إليه بأعيان الفقهاء والأدباء إلى سجلماسة ليقرأ عليهم ويأخذ عنهم، ويدعو له في كل موقف على رؤوس الأشهاد ويقول: إن ولدي سليمان رضي الله عنه لم يبلغني عنه قط ما يكدر باطني عليه فأشهدكم أني عنه راض، ونشأ رحمه الله نشأة حسنة

طيبة، وكانت شمائل الملك لائحة عليه إلى أن أظفره الله به، وكنا قدمنا أنه قدم على أخيه المولى يزيد بقبائل الصحراء فأجل مقدمه وأكرم وفادته، فأقام المولى سليمان رحمه الله بفاس إلى أن كانت وفاة المولى يزيد في التاريخ المتقدم، فاتصل خبر موته بأهل فاس ومكناسة فقاموا على ساق واتفق العبيد والودايا والبربر وأهل فاس على بيعته، لما كان عليه من العلم والدين والفضل وسائر الأوصاف الحميدة، التي تفرد بها عن غيره ولما قدم العبيد والبربر من مكناسة إلى فاس اجتمعوا بأعيان الودايا وأهل فاس ودخلوا ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وبايعوا أمير المؤمنين المولى سليمان يوم الاثنين سابع عشر رجب سنة ست ومائتين وألف، ولما تمت بيعته انتقل إلى فاس الجديد فاستقر بدار الملك منها وقدمت عليه وفود القبائل من العرب والبربر بهداياهم، ثم قدم عليه بعدهم قبائل بني حسن وأهل الغرب ثم أهل العدوتين سلا ورباط الفتح، وانحرف بعض أهل رباط الفتح عن بيعته كما سيأتي، ثم قدم عليه أهل الثغور الهبطية بعد أن توقفوا عن بيعته مدة يسيرة لأنهم كانوا قد بايعوا المولى مسلمة كما مر.

ونص بيعة أهل فاس: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، الحمد لله الذي نظم بالخلافة شمل الدين والدنيا، وأعلى قدرها على كل قدر فكانت لها الدرجة العليا، وأشرق شمسها على العوالم، وأنار بنورها المعالم، وأصلح بها أمر المعاش والمعاد، وألف بها بين قلوب العباد، من الحاضر والباد، وجعلها صوناً للدماء والأموال والأعراض، وغل بها أيدي الجبابرة فلم تصل إلى مفاسد الأغراض، وقام بها أمر الخلق واستقام، وأقيمت الشرائع والحدود والأحكام، ونصب منارها علماً هادياً، وأقامه إلى الحق داعياً، فأوى لظلها الوريف القوي والضعيف، والمشروف والشريف، فسبحان من قدر فهدى، ولم يترك الإنسان سدى، بل أمره ونهاه، وحذره اتباع هواه، وطوقه القيام بالنفل والفرض، وهو أحكم

الحاكمين، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251] فمن رحمته نصب الملوك ومهد الطريق للسير والسلوك، ولو ترك الناس فوضى لأكل بعضهم بعضاً، وآل الأمر إلى الخراب وأفضى، لولا الخلافة لم تؤمن لنا سبل، وكان أضعفنا نهباً لقوانا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام أصل الوجود ومبدأه، وغاية الكمال ومنتهاه، سيد الأولياء وإمام الأنبياء، وقائد الأصفياء، وعلى آله أولي المجد العميم، والقدر العظيم، وأصحابه الخلفاء الراشدين، والهداة المهتدين، الذين شيدوا أركان الدين، ومهدوا قواعده للمشيدين، وأخبروا عنه وأسندوا إليه ﷺ أنه قال: **«إن الله اختص بهذا الأمر قريشاً»**، وأنزل عليه ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: 247]، هذا ولما قضى الله سبحانه وله البقاء والدوام، بنزول ما لا بد منه من فجأة الحمام، لمن كان قائماً بهذا الأمر العظيم، وانتقاله إلى دار عفوه ورضوانه العميم، أسكنه الله فسيح الجنان، وسقى ثراه سحائب الرحمة والغفران، وجب على الناس نصب إمام لقوله عليه الصلاة والسلام: **«من مات وليست في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»**، فجالت أفكارهم وخاضت عقولهم وأنظارهم فيمن يقدمون لهذا المنصب الأعظم، ويسلك بهم السبيل الأقوم، فهداهم التوفيق والتسديد والرأي الصالح السديد، إلى من نشأ في عفة وصيانة، ومروءة وديانة، وعكوف على تحصيل العلم الشريف، ودؤب على التحلي بحلى العمل المنيف، مع نجدة ونباهة، وذكاء وفطانة ونزاهة، وعلو همة وقوة عزمة وتدبير وسياسة، وخبره بالأمور وفراسة، فتى جمع الله له بين الصرامة والحلم، وزاده بسطة في العلم والجسم، وألبسه الهيبة والوقار، ورقاه أعلى رتب العز والفخار، وهو السري المقدم الشهم الأبر الهمام، ذو الأخلاق الطاهرة الزكية، والمآثر الظاهرة السنية، عالي القدر والشأن، فريد العصر ووحيد الأوان، أبو الربيع مولانا سليمان ابن مولانا أمير المؤمنين محمد ابن

مولانا أمير المؤمنين عبد الله ابن مولانا أمير المؤمنين إسماعيل ابن مولانا الشريف فانعقد الإجماع من أهل هذه الحضرة الإدريسية وما حولها من البقاع على تقدمه وإمامته، واستبشروا بإمرته وخلافته، وبادروا إلى تعيينه وبايعوه بيعة انعقد على ألوية النصر عقدها، وطلع في أفق الهناء سعدها، حضرها الصدور والأعيان، وأهل الوجاهة في هذا الزمان، وذوو الحل والعقد، ومن إليهم القبول والرد، من علماء وأعلام، وأصحاب الفتاوى والأحكام، وعظماء أشراف كرام، ورماة كبرا، وولاة أمرا، ورؤساء أجناد، والمتقدمين في كل ناد، من عرب البدو والحضر، وجيوش العبيد والبربر، فانعقدت بحمد الله مؤسسة على التقوى، واشتد بها عضد الإسلام وتقوى، بيعة تامة محكمة الشروط، وفية العهود وثيقة الربوط، جارية على سنن السنة والجماعة، سالمة من كل كلفة ومشقة وتباعة، رضي الكل بها وارتضاها، وألزم حكمها بالسمع والطاعة وأمضاها، شهد بذلك الحاضرون على أنفسهم طوعاً، وأدوا إليه تعالى ما وجب عليهم شرعاً، جعلها الله رحمة على الخلق، وأقام بها في البسيطة العدل والحق، وأيد بعونه وتأييده وتوفيقه وتسديده من تلقاها بالقبول، وأحيا به سنة سيدنا ومولانا الرسول ﷺ، وشرف وكرم، فهنيئاً لأرضنا إذ ألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها ويحقن دماها، ويكبت عداها ويدفع رداها، وينصر الشريعة ويشيد مبناها ويعلن بحقيقة الحق ويوضح معناها، نصره الله ونصر به، وأمات البدع والضلالة بسببه، ودمر به شيعة الجور والفساد، وأبقى الخلافة في بيته إلى يوم التناد، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله وأصحابه أجمعين، والراوين عنهم والمتلقين منهم آمين. وفي ثامن عشر رجب الفرد الحرام من ستة ومائتين وألف من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، أفقر العبيد إلى الله سبحانه عبد الله تعالى محمد التاودي بن الطالب ابن سودة المري كان الله له ولياً وبه حفياً، أحمد بن التاودي المذكور، أخذ

الله بيده وكان له في جميع الأمور، وأناله الثواب والأجور، وعبد الله تعالى محمد بن عبد السلام الفاسي لطف الله به آمين. وعبد القادر بن أحمد بن العربي بن شقرون أمنه الله بمنّه آمين. ومحمد بن أحمد بنيس كان الله له ولياً ونصيراً آمين. وعبد ربه وأفقر عبيده إليه محمد بن عبد المجيد الفاسي لطف الله به. وعبد ربه سبحانه يحيى بن المهدي الشفشاوني الحسني لطف الله به. وعبد ربه علي بن إدريس كان الله له ولطف به آمين. وعبد ربه تعالى محمد بن إبراهيم لطف الله به. وعبد ربه سبحانه محمد بن مسعود الطرنباطي وفقه الله بمنّه آمين. وعبد ربه سبحانه سليمان بن أحمد الشهير بالفشتالي كان الله له وأصلح حاله. وعبد ربه محمد الهادي بن زين العابدين العراقي الحسيني وفقه الله. وعبد ربه سبحانه محمد التهامي طاهر الحسني وفقه الله آمين. وعبد الملك بن الحسن الفضيلي الحسني لطف الله به آمين. وعبد ربه إدريس بن هاشم الحسني الجوطي لطف الله به آمين، انتهى.

حرب السلطان المولى سليمان لأخيه المولى مسلمة وطرده إلى بلاد المشرق

لما تمت بيعة السلطان المولى سليمان بن محمد رحمه الله بفاس باتفاق أهل الحل والعقد من الجند والعلماء والأشراف وسائر الأعيان، تداعى أمر المولى مسلمة إلى الاختلال، وكان أول ما ابتدأ به عمله بعد تلك البيعة المستعجلة أن بعث جريدة من الخيل إلى نظر القائد أبي عبد الله محمد الزعري إلى رباط الفتح، وذلك باستدعاء محتسبها أبي الفضل العباس مرينو، وأبي عبد الله محمد المكي بن العربي فرج من أهلها، المنحرفين عن المولى سليمان إلى التمسك بدعوة المولى مسلمة، وكان أهل رباط الفتح يومئذٍ على فرقتين: فرقة دخلت في طاعة المولى سليمان، وفرقة أقامت بالتمسك ببيعة المولى مسلمة.

ولما اتصل بالمولى سليمان خبر مسير الزعري إلى رباط الفتح، عقد لأخيه المولى الطيب على بني حسن، وبعثه في اعتراضه، فتوافى الجيشان معاً برباط الفتح، ووقعت الحرب فانهزم الزعري وشيعته، وقتل العباس مرينو وفر المكي فرج إلى الزاوية التهامية فاستجار بها، وقبض المولى الطيب على الزعري وجماعة من أصحابه، ثم سرحه بأمر السلطان المولى سليمان، واجتمعت كلمة أهل العدوتين على طاعته، هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر، وآل فرج يثبتونه ويقولون: إن أصل هذه الفتنة أن آل مرينو كانت لهم الوجاهة مع المولى يزيد رحمه الله فسعوا عنده بآل فرج وقالوا له: إنهم تقاعدوا على مال الوزير أبي عبد الله محمد العربي قادوس الذي أمنّه عندهم، فبطش بهم المولى يزيد وصادرهم، واستحكمت العداوة يومئذٍ بينهم وبين آل مرينو، فلما توفي المولى يزيد بادر آل مرينو ومن لافهم إلى بيعة المولى مسلمة، وانحرف عنهم إلى بيعة المولى سليمان من لم يكن من حزبهم، ولما قتل العباس مرينو عمد أوباش رباط الفتح إلى شلوه وربطوا في رجله حبلاً وجروه في أسواق المدينة وعرضوه على حوانيتها حانوتاً حانوتاً إذ كان في حياته محتسباً رحمه الله. وكان السلطان المولى سليمان في هذه المدة مقيماً بفاس لم يتحرك منه، ثم أن المولى مسلمة صاحب بلاد الهبط بعث ولده إلى آيت يمور وأمرهم أن يشنوا الغارة على أهل زرهون الذين هُم في طاعة السلطان ففعلوا وكثر عيثهم في الرعايا، فسار السلطان المولى سليمان إلى مكناسة واستنفر جيش العبيد وقبائل البربر، ثم وافاه الودايا وأهل فاس وشراقة فاجتمع عليه الجم الغفير وصمد بهم إلى آيت يمور فألفاهم على نهر سبو بالموضع المعروف بالحجر الواقف، فصمدت إليهم العساكر وأوقعت بهم وقعة شنعاء وفر ولد المولى مسلمة فلحق بأبيه، ولجأ آيت يمور بقضهم وقضيضهم إلى جبل سلفات، وبقيت حلتهم بماشيتها وأثاثها بيد السلطان فانتهبتها جيوشه من العبيد والودايا والبربر وبات السلطان هنالك، ولما أصبح بعث إليه آيت يمور نساءهم وأولادهم للشفاعة وطلب العفو فعفا عنهم وثابوا إليه وبايعوه، فأنعم عليهم بماشيتهم وزرعهم وعاد إلى فاس، ثم

بلغه أن المولى مسلمة معسكر ببلاد الحياينة فنهض إليه من فاس فأوقع به، فانهزم المولى مسلمة وجيشه ونهب جيش السلطان حلة الحياينة وجاؤوا تائبين فعفا عنهم ونظمهم في سلك الجماعة، وتفرق عن المولى مسلمة كل من كان معه من عرب الخلط وأهل الجبل، ولم يبق معه إلا خاصته وأولاده وابن أخيه المولى حسن بن يزيد فسار إلى جبل الزبيب فلم يقبلوه، ثم انتقل إلى الريف فأهملوه، ثم صعد إلى جبل بني يزناسن فطردوه، ثم توجه إلى ندرومة فمنعه صاحبها من الوصول إلى الباي صاحب الجزائر، وكان ذلك عن أمر منه فتوجه إلى تلمسان وأقام بها.

قال صاحب البستان: وهناك اجتمعت به في ضريح الشيخ أبي مدين بالعباد يعني حين قدم تلمسان مفارقاً للسلطان المولى سليمان، وزعم أن المولى مسلمة لما اجتمع به لامه على تخذيل الناس عن بيعته، وحضه إياهم على بيعة أخيه المولى سليمان، قال: فبينت له حال المولى سليمان وما هو عليه من اتباع سيرة والده في العدل والرفق بالرعية، وبذلك أحبه الناس، فلما سمع كلامي بكى واعترف بالحق وتلا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: 188] ثم طلب من صاحب الجزائر أن يأذن له في الذهاب إلى المشرق والمرور بإيالته فأبى، وبعث من أزعجه من تلمسان إلى سجلماسة.

ولما اتصل خبره بالسلطان المولى سليمان وأنه عاد إلى سجلماسة أرسل إليه مالاً وكسى وعين له قصبة ينزلها ورتب له ما يكفيه في كل شهر كسائر إخوته فلم يطب له مقام بها وسار إلى المشرق فاجتاز في طريقه بصاحب تونس الأمير حمودة باشا ابن علي باي.

قال صاحب الخلاصة النقية: قدم المولى مسلمة بن محمد على الأمير حمودة باشا شريداً أثر خلعه من مملكة فاس، فأنزله أسنى منزلة، وأجرى عليه جراية سلطانية وبالغ في بره اهـ، ثم أن المولى مسلمة سافر إلى المشرق فأقام بمصر مدة، ثم توجه إلى مكة فنزل على سلطانها صهره على أخته فأكرمه، ورتب له جراية ثم عاد من مكة إلى مصر، وساءت حاله في هذه المدة وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فرجع إلى تونس ونزل على حمودة

باشا المذكور فعاود إكرامه، ثم طلب منه أن يشفع له عند أخيه المولى سليمان فكتب له بذلك فأخذ كتابه وانحدر إلى وهران، وطلب من أميرها الشفاعة أيضاً فكتب له، وبعث بمكاتيب الأميرين إلى السلطان المولى سليمان فقبله، وأمره أن يذهب إلى سجلماسة ينزل بها بدار والده، ويرتب له ما يكفيه من مؤنة وكسوة. ويقاسمه نعمته، ويبقى بعيداً عن سماسرة الفتن حتى لا يجدوا سبيلاً إلى إيقاد نار الفتنة، فلما بلغه جواب أخيه لم يرض ذلك وعاد إلى المشرق فبقي يتردد به إلى أن وافته منيته واستراح من تعب الدنيا رحمه الله.

نهب عرب آنقاد لركب حاج المغرب وما نشأ عن ذلك

ثم بلغ السلطان المولى سليمان رحمه الله أن جماعة من التجار والحجاج الذين قدموا من المشرق خرجوا من وجدة متوجهين إلى فاس، فلما توسطوا أرض آنقاد عدت عليهم عربها فنهبتهم، فاستدعى السلطان رحمه الله الكاتب أبا القاسم الصياني وأمره بالمسير إلى وجدة، يكون والياً بها ويصلح ما فسد من أعمالها، فكره الصياني ذلك واستقال فلم يقله السلطان، وعزم عليه في المسير إليها وعين له مائة فارس تذهب معه فامتثل راغماً، وأضمر أنه إن فارق السلطان يذهب إلى أحد الحرمين الشريفين فيقيم به بقية عمره، وجمع موجوده وخرج، فخرج معه قفل التجار الذي كان محصوراً بفاس ولما توسطوا أرض آنكاد وجدوا العرب في انتظارهم فثأروا بهم وقاتلوهم فتماسكت خيل السلطان هنيئة ثم كثرهم العرب فهزموهم، ولم يبق من تلك الخيل إلا قائدها في عشرة من إخوانه، وانتهبت العرب ما كان في ذلك القفل من أمتعة التجار وسلعها ولم ينج من نجا منه إلا بنفسه، قال الصياني: فلجأنا إلى قصبة العيون وتفرق جمعنا وقتل منا سبعة نفر، وجرح آخرون، فبعثت من أتانا بالقتلى فدفناهم ثم سرحت قائد الخيل إلى وجدة مع بعض العرب الذين هنالك، وطلعت أنا مع برابرة بني يزناسن وليس معي إلا مركوبي

وفرس آخر كان عليه مملوك لي قتل في المعركة، قال: ثم خلصت إلى وهران فنزلت عند الباي محمد باشا فأظهر التأسف والتوجع وراودني على المقام فأبيت، ثم ذكر الصياني أنه بعد هذا ذهب إلى تلمسان، واجتمع هنالك بالمولي مسلمة بن محمد وتلاوما وتعاتبا حسبما ذكرناه آنفاً، وكان ذلك أواخر سنة ست ومائتين وألف.

بعث السلطان المولى سليمان الجيوش إلى الحوز ونهوضه على أثرها إلى رباط الفتح وعوده إلى فاس

قد قدمنا أن أهل مراكش وقبائل الحوز كانوا متمسكين بدعوة المولى هشام بن محمد من لدن دولة المولى يزيد رحمه الله، ولما صفت بلاد الغرب للسلطان المولى سليمان رحمه الله تاقت نفسه إلى تمهيد بلاد الحوز والاستيلاء عليها، فعقد لأخيه المولى الطيب بن محمد على عشرة آلاف من الخيل وعين معه جماعة من قواد الجيش وبعثهم إلى قبائل الشاوية، وذلك أواخر سنة سبع ومائتين وألف، ثم زحف السلطان على أثرهم إلى رباط الفتح فمحا بقية آثار الفتنة التي نشأت بها وأقام ينتظر ما يكون من أمر أخيه.

وفي سادس شوال من السنة صلى السلطان الجمعة بمسجد القصبة منها، وكان هو الإمام، وخطب خطبة بليغة تشتمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الحرام، واجتناب الآثام، ووعد وأوعد، وقال في آخر خطبته: وانصر اللّهم جيوش المسلمين وعساكرهم، ودعا لكافة الأمة، وصلى في الركعة الأولى بسورة الجمعة، وفي الثانية بسورة الغاشية الخ. ولما قدم المولى الطيب بلاد الشاوية تنافس قواد الجيش الذين معه وتنازعوا الرياسة وصار كل واحد منهم يرى أنه صاحب الأمر، وكان من أعظمهم تهوراً القائد الغنيمي، كان من قواد المولى يزيد رحمه الله فأبقاه المولى سليمان على رياسته تألفاً له فاستبد على سائر القواد في الرأي، إذ كان رديف

الخليفة المولى الطيب وصاحب مشورته، فلما كان وقت اللقاء تخاذلوا عنه وجروا عليه الهزيمة وتركوا أخبيتهم وأثاثهم بيد العدو ورجعوا مفلولين إلى السلطان برباط الفتح وهم عشرة آلاف فارس كما مر، فما وسع السلطان رحمه الله إلا الرجوع بهم إلى فاس لتجديد آلة السفر والغزو ثانياً وإخلاف ما ضاع من الأخبية والسلاح والأثاث حسبما يذكر بعد إن شاء الله.

ثورة محمد بن عبد السلام
الخمسي المعروف بزيطان بالجبل

لما كانت سنة ثمان ومائتين وألف ثار بقبيلة الأخماس من جبال عمارة رجل من طلبتها يقال له محمد بن عبد السلام ويدعى زيطان، فاجتمعت عليه سماسرة الفتن من كل قبيلة وكثر تابعوه، وكان السبب في ثورته أن القائد قاسماً الصريدي كان والياً بتلك الناحية أيام المولى يزيد رحمه الله، فلما بويع المولى سليمان ولى على تلك الناحية القائد الغنيمي المتقدم الذكر، وكان عسوفاً فيما قيل فقبض على القائد قاسم واستصفى أمواله وبث عليه العذاب كي يظهر ما بقي عنده حتى هلك في العذاب، فثار زيطان واجتمعت عليه الغوغاء من أهل تلك البلاد، ولما شرى داؤه بعث السلطان بجيش إلى القائد الغنيمي وأمره أن يقصد زيطان وجمعه فزحف إليه ببلاد غصاوة قرب وازان وأوغل في طلبه فنهاه من معه من رؤساء الجيش عن التورط بالناس في تلك الجبال والشعاب، فلج واقتحمها بخيله وراميته، ولما توسطها سالت عليه الشعاب بالرماة من كل جانب وهاجت الحرب وأحاط العدو بالجيش فقتلوا منهم وسلبوا كيف شاؤوا وردوهم على أعقابهم منهزمين، ولما اتصل خبر الهزيمة بالسلطان اغتاظ وقبض على الغنيمي، ومكن منه أولاد قاسم الصريدي فباشروا قتله بأيديهم واقتصوا منه بأبيهم، وولى على قبائل الجبل أخاه المولى الطيب وفوض إليه أمر الثغور، وأنزله طنجة، وبقي المولى

الطيب يدبر أمر القبائل الجبلية وثغورها من تطاوين إلى طنجة إلى العرائش، وكلما بدت له فرجة سدها أو فرصة انتهزها، وحارب قبائل الفحص إلى أن استكانوا وانقادوا إلى الطاعة، ثم حارب أهل حوز طنجة وآصيلا من بني يدير، والأخماس من أصحاب زيطان، فكانت الحرب بينهم سجالاً.

ثم لما دخلت سنة تسع ومائتين وألف أمد السلطان أخاه المولى الطيب بجيش وافاه بطنجة فخرج منها ومعه عسكرها وعسكر العرائش، وصمد إلى بني جرفط عش الفساد، ونزل على بلادهم وقاتلهم في عقر ديارهم فقتل مقاتلتهم، وأحرق مداشرهم، وانتهب أموالهم ومزقهم كل ممزق، فجاؤوه خاضعين تائبين فعفا عنهم، ثم تقدم إلى بني حرشن من بني يدير على تفيئة ذلك ففر الثائر زيطان إلى قبيلته بالأخماس وتسللت عنه القبائل التي كانت ملتفة عليه واستنزله المولى الطيب بالأمان فظفر به وبعث به إلى السلطان فأمضى له أمانه وولاه على قبيلته، وصار من جملة خدام الدولة ونصحائها إلى أن ملك زمامها وتعين غيره للقيام بأمرها، فأخر ونقله السلطان إلى تطاوين فسكنها ورتب له بها ما يكفيه وبقي إلى أواخر دولة السلطان المولى سليمان، ولما خرج عليه المولى إبراهيم بن يزيد ودخل تطاوين كانت لزيطان هذا في التمسك بدعوة السلطان اليد البيضاء، وأغنى غناء جميلاً في تثبيت تلك القبائل وتسكينها، ثم وفد على السلطان بطنجة سنة ست وثلاثين ومائتين وألف وقد طعن في السن فأحسن إليه غاية الإحسان، وإلى الآن لا زال أهل الأخماس يستنصرون بحفدته ويعتقدون فيهم ما تعتقده آيت ومالو في آل مهاوش، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفي ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع ومائتين وألف توفي العلامة الإمام السيد التاودي بن سودة المري الفاسي صاحب الحاشية على البخاري، والحاشية على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على المختصر، وشرح العاصمية، والزقاقية، وغير ذلك من التآليف المفيدة، وكان رحمه الله خاتمة الشيوخ بفاس، ومناقبه شهيرة.

أخبار المولى هشام بن محمد بمراكش والحوز وما يتصل بذلك

قد قدمنا أن أهل مراكش وقبائل الحوز كانوا قد خرجوا على السلطان المولى يزيد وبايعوا أخاه المولى هشام بن محمد، ولما قتل المولى يزيد بمراكش، استقرت قدم المولى هشام بها، وأطاعته قبائل الحوز كلها، وكان وزيراه القائمان بأمره صاحب آسفي القائد عبد الرحمٰن بن ناصر العبدي، وكان غاية في الجود وبسط الكف، وصاحب دكالة والحوز القائد محمد الهاشمي بن العروسي، وكان ذا شوكة بعصبيته وقومه، فكان هذان القائدان إليهما النقض والإبرام في دولة المولى هشام هذا بكثرة ماله وعطائه، وهذا بعصبيته وشدة شوكته، فدانت للمولى هشام قبائل دكالة وعبدة وأحمر والشياظمة وحاحة وغير ذلك، واستمر الحال على ذلك برهة من الدهر إلى أن افترقت عليه كلمة الرحامنة وتجنوا عليه بأنه قتل عاملهم القائد أبا محمد عبد الله بن محمد الرحماني غيلة على أنه كان مدبر دولته والقائم بأمره.

قال أكنسوس: هكذا شاع أن المولى هشاماً هو الذي أمر بقتل عبد الله الرحماني، وابن الداودي، قال: والذي تحدث به السلطان المولى سليمان مع بعض الناس هو أن الفرقة المنحرفة من الرحامنة قتلوه، وأظهروا أن المولى هشاماً هو الذي دس إليهم بذلك، وكذلك أمر ابن الداودي والله أعلم، ولما قتل القائد عبد الله خلعت الرحامنة طاعة المولى هشام وبايعت أخاه المولى حسين بن محمد، وزحفوا به إلى مراكش، فلم يرع المولى هشاماً إلا طبولهم تقرع حول القصبة وأرهفوه وأعجلوه عن ركوب فرسه، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي، فعاذ به وثابت إليه نفسه، وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى آسفي، ونزل على وزيره القائد عبد الرحمٰن بن ناصر فأكرم مثواه، وأحسن نزله، وغدا وراح في طاعته ومرضاته، ودخل المولى حسين قصر الخلافة

بمراكش فاستولى على ما فيه من الذخيرة والأثاث من متاع المولى هشام ومتخلف المولى يزيد، فاضطر أهل مراكش حينئذٍ إلى مبايعة المولى حسين والخطبة به وكان ذلك سنة تسع ومائتين وألف، وافترقت الكلمة بالحوز، فكان بعضه كعبدة وأحمر ودكالة مع المولى هشام، وبعضه مثل الرحامنة وسائر قبائل حوز مراكش مع المولى حسين، واتقدت نار الفتنة بين هؤلاء القبائل وتفانوا في الحروب إلى أن بلغ عدد القتلى بينهم أكثر من عشرين ألفاً، هذا كله والسلطان المولى سليمان مقيم بفاس معرض عن الحوز ومتربصين بأهله الدوائر إلى أن ملوا الحرب وملتهم، وكان ذلك من سعادته فصاروا يتسللون إليه أرسالاً ويسألونه الذهاب إلى بلادهم ليعطوه صفقة بيعتهم، فكان يعدهم بذلك ويقول: إذا فرغت من أمر الشاوية قدمت عليكم إن شاء الله.

ثورة المولى عبد الملك بن إدريس بآنفا والسبب في ذلك

كانت قبائل الشاوية منذ هزموا جيش المولى الطيب بن محمد وهم حذرون من سطوة السلطان، عالمون بأنه غير تاركهم فعزموا على تلافي أمرهم عنده، وأوفدوا عليه جماعات من أعيانهم المرة بعد المرة يسألونه أن يولي عليهم رجلاً يكونون عند نظره ويقفون عند أمره ونهيه، فولى عليهم ابن عمه وصهره على أخته المولى عبد الملك بن إدريس بن المنتصر، ووجهه معهم فقدم المولى عبد الملك أرض تامسنا، ونزل بمدينة آنفا وهي المسماة اليوم بالدار البيضاء، وتولى القيام على مستفاد مرساها وصار يسهم فيه لأعيان الشاوية الذين معه، وكان قصده بذلك أن يتألفهم على الطاعة والخدمة، فلما حصل لهم ذلك السهم من المال تطاولوا إلى الزيادة عليه، وقد قيل في المثل قديماً **«لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع»** فصار المولى عبد الملك يقاسمهم المستفاد شق الأبلمة، فلما بلغ السلطان ذلك كتب إليه يعاتبه على

فعله، ثم نهض على تفئة ذلك من فاس يريد تامسنا إذ لم يشف المولى عبد الملك الغليل في ضبطها، فلما بلغ كتاب السلطان المولى عبد الملك أنف من ذلك العتاب، وكانت له وجاهة عند السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله، وكان من كبار بني عمه وخواص قرابته، ثم اتصل به الخبر بخروج السلطان من فاس، فطارت نفسه شعاعاً واستشار بطانته من الشاوية فقال لهم: إن هذا الرجل قادم علينا لا محالة وليس له قصد إلا أنا وأنتم فما الرأي؟ قالوا: الرأي أن نبايعك ونحاربه، قال: ذلك الذي أريد، فبايعوه، ولما انفصل السلطان عن رباط الفتح بعث في مقدمته أخاه وخليفته المولى الطيب، وعقد له على كتيبة من الخيل وتبعه السلطان على أثره، ولما بات بقنطرة الحلاج جاءه الخبر بأن قبائل الشاوية قد بايعوا المولى عبد الملك بن إدريس، واتصل بالمولى عبد الملك وهو بآنفا أن السلطان بائت بالقنطرة فتضاعف خوفه وفر فيمن بايعوه من أهل الشاوية وأخلى مدينة آنفا من خيله ورجله، ففرح أهلها بخروجه من بين أظهرهم لئلا يعديهم جربه، وبادروا بإخراج المدافع ليلاً إعلاماً للسلطان بفراره، ثم أنفذوا إليه رسلهم بجلية الخبر فهش لهم السلطان وبعث معهم كتيبة من الخيل تقيم بآنفا، وتقدم هو بالعساكر إلى قصبة علي بن الحسن فأغار على حلة مديونة وزناتة فنهبها، وامتلأت أيدي الجيش وأوغل المولى عبد الملك في الفرار إلى جهة أم الربيع، وعاد السلطان بالنعم والماشية إلى رباط الفتح فدخلها مؤيداً منصوراً، ونقل تجار النصارى الذين كانوا بآنفا إلى رباط الفتح وأبطل مرساها، واستمرت معطلة إلى دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام فأحياها كما سيأتي إن شاء الله، ثم ارتحل السلطان المولى سليمان إلى مكناسة فاحتل بها وقال في ذلك العلامة الأديب أبو محمد عبد القادر بن شقرون:

مولاي أنت الذي صفت مشاربه ... إن تغز ناحية أوليتها جلدك

هذي البشائر وافت وهي قائلة ... أعوذ بالله من شر الذي حسدك

فاصعد على منبر الإقبال معتلياً   فالسعد أنجز ما كان به وعدك
وانهض إلى غاية الآمال تدركها   فالآن قالت لك العلياء: هات يدك
ولا تخف أبداً من سوء عاقبة   فليس يفلح من بالسوء قد قصدك
ألبسك الملك العميم نائله   من الرضى حللاً قوى بها مددك
فضلاً من الحكم الترضي حكومته   جعلها كالشجا في حلق من جحدك
فاشكر صنيع الذي أولاك مكرمة   تنل رضاه وتبلغ بالرضى رشدك

قدوم عرب الرحامنة على السلطان المولى سليمان ومسيره إلى مراكش واستيلاؤه عليها

قد قدمنا أن أهل الحوز افترقت كلمتهم على قسمين: فبعضهم بايع المولى حسين بن محمد، وبعضهم أقام على بيعة أخيه المولى هشام، وأنه نشأ عن ذلك حروب تفانى فيها الخلق.

فلما كانت سنة عشر ومائتين وألف قدم على السلطان بمكناسة جماعة من أعيان الرحامنة مبايعين له وسائلين له المسير معهم إلى بلادهم لتجتمع كلمتهم عليه، فوعدهم بأنه إذ فرغ من أمر الشاوية ومهد طريقه بها إلى الحوز سار إليهم، ثم قوى عزمه رحمه الله فخرج في العساكر من مكناسة وقصد تامسنا، فلما احتل بها قدم عليه أولاد أبي رزق وفر أولاد أبي عطية وأولاد حريز الذين عندهم المولى عبد الملك بن إدريس، ولجؤوا إلى وادي أم الربيع فقصدهم السلطان هنالك وأوقع بهم، وفر المولى عبد الملك إلى أخواله بالسوس فأقام عندهم إلى أن شفع فيه أخو السلطان المولى عبد السلام بن محمد، وأخته المولاة صفية، وكانت زوجة المولى عبد الملك، فقبل السلطان شفاعتهما فعفا عنه وعاد إلى فاس واطمأن جنبه، وأما الشاوية فإنهم قدموا على السلطان تائبين خاضعين فعفا عنهم وولى عليهم الأستاذ الغازي بن المدني المزمري، فصلحت الأحوال على يده،

ورجع السلطان إلى فاس مظفراً منصوراً فأقام بها إلى أن دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين وألف فتهيأ للغزو وخرج إلى بلاد دكالة فاستولى عليها وعلى مدينة آزمور وتيط، وبايعه أهل تلك الناحية وقدم عليه أعيان دكالة تائبين وخرجوا من زمرة عبدة وسلطانهم المولى هشام وانتظموا في سلك الجماعة، وهناك قدم عليه أعيان الرحامنة ثانية ببيعتهم فأكرم مقدمهم، وزحف إلى مراكش وهم في ركانة، فلما شارفها فر عنها سلطانها المولى حسين إلى زاوية المولى إبراهيم بن أحمد الأمغاري بالجبل، فدخل السلطان المولى سليمان إلى مراكش واستولى عليها وبايعه أهلها وقدم عليها بها قبائل الحوز والدير وقبائل حاحة والسوس بهداياهم مغتبطين، فسر بهم وأكرمهم وأصلح بين قبائل الحوز وجمع كلمتهم وأهدر دماءهم ومهد بلادهم ورتب حاميتها وأنزل بقصبة مراكش أهل الحوز الذين كانوا بها أيام والده، ورتب لهم الجرايات وأمر بألف من عبيد السوس يأتون لسكنى القصبة واستقامت الأمور.

دخول آسفي وصاحبها القائد عبد الرحمٰن بن ناصر العبدي في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله

كان عبد الرحمٰن بن ناصر هذا على ما وصفناه قبل من الوجاهة ونفوذ الكلمة بآسفي وأعمالها، وكان مستولياً على جباية مرساها وخلد بها آثاراً مثل الدار الكبرى التي على شاطىء البحر، ومسجد الزاوية وغير ذلك، وكان جواداً بالعطاء، ولما استولى السلطان المولى سليمان رحمه الله على مراكش بعث إليه كاتبه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسي ليأتيه به أو يأذن بحربه، ولما وصل الكاتب المذكور إليه بآسفي ألفاه مريضاً فاعتذر عن القدوم على السلطان بالمرض وكتب بيعته وأدى طاعته، وانتقل المولى هشام عنه إلى زاوية الشرابي فأقام بها فبعث إليه السلطان من أمنه وجاء به إليه فلقاه مبرة وتكرمة وقدم إليه المراكب والكسي وأنزله بدار أخيه المولى المأمون

ريثما استراح ثم بعثه إلى رباط الفتح فاستوطنها، ورتب له من الجراية ما يكفيه، ولما قدم الكاتب ابن عثمان على السلطان ببيعة عبد الرحمٰن بن ناصر واعتذر له عنه بالمرض قبل ظاهر عذره وأرجأ أمره إلى يوم ما.

وحكى صاحب الجيش: أن المولى هشاماً لما قدم على السلطان بمراكش ونزل بدار أخيه المولى المأمون أتاه السلطان بعد ثلاث إلى منزله راجلاً لقرب المسافة، ولما التقيا تعانقا وتراحما، ثم جاء معه المولى هشام حتى دخلا بستان النيل من باب الرئيس ونصب له السلطان كرسياً جلس عليه وجلس هو أمامه إعظاماً له لكونه أسن منه، ثم صار يستدعيه صباحاً ومساء فيجلسان ويتحدثان، ثم يفترقان، وكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا وهو معه، وكلما دخل عليه رفع مجلسه وأجله، وإذا ذكره لا يذكره إلا بلفظ الأخوة بأن يقول أخي المولى هشام دون سائر بني أبيه، ولما طلب المولى هشام منه السكنى برباط الفتح أجابه إليها وقضى مآربه وأزاح علله، ثم عاد إلى مراكش فكانت منيته بها كما نذكره.

دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله

كان من خبر دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله أن الحاج محمد بن عبد الصادق المسجيني وهو من عبيد الصويرة كان قد قدم من الحج عامئذٍ فمر على السلطان المولى سليمان وهو بالغرب فدخل عليه فولاه على الصويرة، وكتب له العهد بذلك وأمره بإخفائه حتى يختبر حال أهلها ويعلم أين هواهم، إذ كان ذلك قبل أن يطأ السلطان بلاد الحوز ويستولي عليها، وكانت الصويرة حينئذٍ من جملة النواحي التي إلى نظر عبد الرحمٰن بن ناصر ومن في حزبه وتحت غلبة حاحة وعصبيتها، وكان الوالي بها يومئذٍ القائد أبو مروان عبد الملك بن بيهى الحاحي وكانت

له نباهة وذكر في قبائل حاحة وما اتصل بها، فقدم ابن عبد الصادق الصويرة على أنه قدم من حجه لا غير، فأراح بمنزله ثلاثاً ثم جاء إلى باب القائد وأظهر عبد الملك بن بيهى، وأقام من جملة الأعوان في الخدمة المخزنية إذ تلك هي وظيفته، وخف في خدمة القائد المذكور واعتمل في مرضاته وأظهر من النصح ما قدر عليه، ولازم الباب ليلاً ونهاراً، فكان عبد الملك لا يخرج إلا ويجده قائماً محتزماً على الباب كما قال مسلم بن الوليد في فتى بني شيبان يزيد بن مزيد بن زائدة:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

فلم يلبث أن حلى بعينيه وعظمت منزلته لديه، فقدمه على الأعوان وعلى الحاشية حتى اتخذه صاحب رأيه وجعله عيبة سره، وابن عبد الصادق في أثناء ذلك يحكم أمره مع إخوانه مسكينة وأهل آكادير سراً وأذنه صاغية لخبر السلطان متى يطأ بلاد الحوز، فلما سمع بوصوله إلى دكالة واستيلائه على آزمور وتيط أفضى بأمر ولايته إلى خاصته وشيعته، وواعدهم لمظاهرتهم إياه على أمره ليلة معلومة، وعبد الملك لا علم له بما يراد به، وكان ابن عبد الصادق فيما قيل قد أخذ عليه أنه إذا حدث أمر ولو ليلاً يخرج إليه حتى يفاوضه فيما يكون عليه العمل، فجاءه في تلك الليلة وقد هيأ جماعة من عبيد الصويرة الذين أعدهم للقيام معه وتركهم بحيث يسمعون كلامه إذا تكلم، وقال لهم: إذا سمعتموني أكلمه وأراجعه في القول فبادروه واقبضوا عليه، ثم تقدم واستأذن على عبد الملك فخرج إليه وبينما هو يكلمه أحاط به العبيد وقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه من حاحة الذين كانوا يخدمونه، ولم يملكوهم من أنفسهم شيئاً حتى أخرجوهم عن البلد في تلك الساعة، ودفعوا لعبد الملك فرسه وأغلقوا الباب خلفه، وصفا لهم أمر البلد، ومن الغد جمع ابن عبد الصادق أهل الصويرة وقرأ عليهم كتاب السلطان بولايته عليهم فأذعنوا وأجابوا، ولم يرق فيها محجمة دم، ثم ورد الخبر عقب ذلك بدخول السلطان إلى مراكش واستيلائه عليها، وبها تم له أمر المغرب وصفا له ملكه، ولم يبق له فيها منازع، وذلك بعد مضي خمس

سنين من ولايته رحمه الله، ثم إنه استخلف أخاه المولى الطيب نائباً عنه بمراكش وقفل إلى فاس من عامه، فمر على طريق تادلا وأمر عاملها القائد عبد الملك أن يغير على بني زمور وينهب أموالهم ويقبض على مقاتلتهم ويلقاه بهم إلى الصخرة، فكرب القائد عبد الملك في الجيش الذي كان معه واحتال عليهم بأن أرسل إليهم بالقدوم عليه فرساناً، فلما قدموا عليه أمر بالقبض عليهم وشدهم وثاقاً وحاز خيلهم وسلاحهم ثم أغار على حلتهم فنهبها وقدم على السلطان بمالهم ورقابهم، وكانوا مائتي رجل بالتثنية، فبعث بهم السلطان إلى مكناسة فسجنوا بها حتى صلحت أحوالهم بعد ذلك وسرحهم.

استرجاع السلطان المولى سليمان مدينة وجدة وأعمالها من يد الترك

وفي هذه السنة أعني سنة إحدى عشرة ومائتين وألف بعث السلطان المولى سليمان بالعساكر من فاس إلى وجدة فعقد على الودايا للقائد أبي السرور عياد بن أبي شفرة وعلى شراقة للقائد محمد بن خدة، وعلى الأحلاف للقائد عبد الله بن الخضر، وأمرهم أن يأتوا أرض وجدة ويدوخوها ويقاتلوا الترك الذين استحوذوا عليها ومانعوا دونها، وكتب مع ذلك إلى الباي محمد باشا في أن يتخلى عنها وعن قبائلها التي كان يتصرف فيها أيام الفترة أو يأذن بالحرب فامتثل الباي محمد ذلك ولم يمانع، بل كتب إلى نائبه بها أن يتركها لأربابها ويتخلى عن قبائل بني يزناسن وسقونة والمهاية وأولاد زكرى وأولاد علي ورأس العين فامتثل، ودخل جيش السلطان لوجدة وجبى عامله زكواتها وأعشارها واستخلف نائبه بها، وقفل بالعساكر على السلطان وهو بفاس، وقد تمهد الملك ووشجت عروقه وألقى السعد بجرانه والحمد لله.

وفي هذه السنة قدم الشيخ الفقيه المتصوف أبو العباس أحمد التجاني إلى

فاس فاستوطنها، وكان الباي محمد بن عثمان صاحب وهران قد أزعجه من تلمسان إلى قرية أبي صمغون فأقام بها وأقبل أهلها عليه، ثم لما مات الباي المذكور وولي بعده ابنه عثمان بن محمد سعى عنده بالشيخ التجاني فبعث إلى أهل أبي صمغون وتهددهم ليخرجوه، ولما سمع بذلك الشيخ المذكور خرج مع بعض تلامذته وأولاده وسلك طريق الصحراء حتى احتل بفاس، ولما دخلها بعث رسوله بكتابه إلى أمير المؤمنين المولى سليمان يعلمه بأنه هاجر إليه من جور الترك وظلمهم، واستجار منهم بأهل البيت الكريم فقبله السلطان وأذن له في الدخول عليه والحضور بمجلسه، ولما اجتمع به ورأى سمته ومشاركته في العلوم أقبل عليه واعتقده وأعطاه داراً معتبرة من دوره كان أنفق في عمارتها نحواً من عشرين ألف مثقال، ورتب له ما يكفيه، وأقبل عليه الخلق واشتهر أمره بفاس والمغرب، وهو شيخ الطائفة التجانية رحمه الله ونفعنا به.

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف فيها خرج السلطان في العساكر من مكناسة يريد عبد الرحمٰن بن ناصر بآسفي وعزم على حربه إلا أن يؤدي الطاعة هو وقبيله مباشرة طوعاً أو كرهاً، ولما عبر وادي أم الربيع قدم إليه القائد أبو السرور عياد بن أبي شفرة في جيش الودايا وقال له: إذا قدمت عليه فأزعجه للمجيء، فإن قدم فأقم أنت بآسفي، وإن امتنع من المجيء فاكتب إليّ وأقم هنالك حتى أقدم عليك. فلما وصل إليه القائد عياد لم يسعه إلا المجيء لملاقاة السلطان، فجاء وهو مريض في محفته ومعه جموعه وقبائله حتى اجتمع بالسلطان بالموضع المعروف بمائة بير وبير بين عبدة ودكالة، فبايعه مباشرة وأدى الطاعة هو وإخوانه مباشرة كما اقترح السلطان، وتحقق بأن تأخره إنما كان للمرض الذي به، فوفى له السلطان بعهده، وزاد في كرامته بوصوله معه إلى آسفي ودخوله إلى داره بعد تثبيط رؤساء الجيش له عن الدخول معه، ثم عقد له على قبائله وأمره بقبض الواجب منهم، زاد صاحب الجيش وشكره على إيوائه لأخيه المولى هشام، ثم سار السلطان إلى مراكش فدخلها مظفراً منصوراً.

وفي هذه السنة حدث الوباء ببلاد المغرب وعم حاضره وبواديه، ولما فشا بمراكش وأعمالها رجع السلطان إلى مكناسة وترك أخاه المولى الطيب نائباً عنه بها، فبلغه أثناء الطريق وفاة كاتبه أبي عبد الله محمد بن عثمان تركه بمراكش مصاباً بالوباء.

قال صاحب البستان: فلما وصل السلطان إلى مكناسة استقدمني من فاس فقدمت عليه وقلدني كتابته بعد أن أخرني عنها سنة، وفي أثناء ذلك بلغه وفاة إخوته الأربعة خليفته المولى الطيب والمولى هشام والمولى حسين والمولى عبد الرحمٰن بالوباء، الثلاثة الأول بمراكش والرابع بالسوس، ودفن المولى هشام والمولى حسين بقبة إلى جنب الشيخ الجزولي رضي الله عنه، وقبرهما مشهور بمراكش.

قال صاحب البستان: فبعثني السلطان إلى مراكش لآتيه بمتخلف إخوته الذين هلكوا بها ومتخلف الكاتب ابن عثمان، وبعث معي خيلاً وبغالاً لأحمل المتخلف المذكور والوباء لا زال لم ينقطع، قال: فوصلت إلى مراكش وجمعت المتخلف ورجعت به إلى فاس وقد ارتفع الوباء، وازدهرت الدنيا، ودرت ألبان الجباية للسلطان، وفي هذه المدة قدم على حضرة السلطان باشدور الإصبنيول فعقد معه شروط المهادنة، وكان الذي تولى عقدها معه الكاتب ابن عثمان المكناسي قبل وفاته بيسير، وهي ثمانية وثلاثون شرطاً مرجعها إلى الصلح والأمان من الجانبين، إلا أنها أشد بيسير من الشروط التي انعقدت مع السلطان المرحوم سيدي محمد رحمه الله، من ذلك أن شروط سيدي محمد كانت تتضمن أنه إذا تشاجر مسلم ونصراني فالذي يفصل بينهما هو الحاكم إلا أن القنصل يحضر وقت الفصل عسى أن يدفع عن ابن جنسه بحجة إن كانت، وصارت شروط السلطان المولى سليمان تتضمن أن كل واحد منهما يتولى أخذ الحق منه حاكمه ويدفعه لخصمه، وإذا فر نصراني من سبتة أو مليلية أو نكور أو بادس وأراد إسلاماً فلا بد من حضور القنصل إن كان، وإلا فالعدول يسمعون منه ثم شأنه وما يريد.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف فيها وجه السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد الرهوني لجمع أموال المنقطعين، فجمع منها ما قدر عليه وعاد سالماً معافى.

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وألف فيها أرسل السلطان كاتبه المذكور عاملاً على السوس، ومعه طائفة من الجند، فجبى قبائله ورجع وأحبه أهل السوس لحسن سيرته ولين جانبه، وفي هذه السنة في اليوم الثامن من ربيع الثاني منها توفي الفقيه العلامة الماهر أبو عبد الله محمد المير السلاوي، وكان من أهل المشاركة والتحقيق والخط الحسن رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان العساكر لبرابرة آيت ومالو وعقد عليها للكاتب أبي عبد الله الحكماوي، وبعث معه جماعة من قواد الجيش وقواد القبائل فلم يرضوا إمارته عليهم، إذ كلهم كانوا أسن منه وفيهم من هو أعرف بأحوال البربر ومكايدهم، فخذلوه وقت اللقاء وجروا عليه الهزيمة واستولى البربر على أثاثهم ومدافعهم وجردوا الكثير منهم وقبضوا على الكاتب حتى أجاره بعض البربر فأبقوا عليه إلى أن بعثوا به إلى السلطان.

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان الجيش إلى بلاد درعة مع كاتبه أبي العباس أحمد آشقراس فدخلها واستولى على قصورها المغصوبة، وأخرج منها العرب والبربر وجبى أموالها ومهد نواحيها وأمن سبلها حتى صار ما بين السوس ودرعة والفائجة مجالاً للتجارة، وممراً لأبناء السبيل يغدون به ويروحون آمنين على أموالهم وأنفسهم.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين وألف فيها بعث السلطان العساكر إلى بلاد الريف مع أخيه المولى عبد القادر، والقائد محمد بن خلة الشرقي وقائد العسكر أحمد بن العربي، فجبى قبائل الريف من قلعية وكبدانة وغيرهما عن ثلاث سنين سلفت، ولما رجعت العساكر أغارت على المطالسة وبني أبي

يحيى بكسر الياء الأخيرة فاستاقوا ماشيتهم وسبيهم وقدموا بهما على السلطان فسرح السلطان السبي.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وثمانين وألف فيها أغار آيت أدراسن على رفاق تافيلالت بطريق ملوية ونهبوا بعض القفل، وذلك بسبب أن السلطان كان قد قبض على محمد بن محمد واعزيز وسجنه بالجزيرة، وولى عليهم أخاه أبا عزة بن محمد واعزيز فلم يقبلوه، وجمعوا كلمتهم على ابن عمه أبي عزة بن ناصر، وكان منحرفاً عن السلطان ومفارقاً له فولوه أمرهم، ولما رأى السلطان اعوجاجهم سرح لهم محمداً واعزيز وولاه عليهم وأمره بالقبض على أبي عزة بن ناصر فأبى، فغضب السلطان عليه ثانية وهم به ففر محمد واعزيز وكشف وجه العصيان، فنهض حينئذٍ إلى آيت أدراسن في العساكر وأرسل إلى قبائل آيت ومالو أن يأتوهم من خلفهم، وتقدم هو حتى نزل بقرب آعليل ووقعت الحرب، فنصر الله السلطان وانهزم آيت أدراسن ونهبت مواشيهم، واحتوى البربر على حللهم وفر أولاد واعزيز الثلاثة برؤوسهم لآيت ومالو، وشرعت العساكر في إخراج زروعهم إلى أن استصفوها، وأمر السلطان بهدم قصورهم فهدمت وأعطى كروان بلادهم ورجع إلى فاس مظفراً منصوراً، ثم لم يقم بها إلا يسيراً حتى خرج إلى تازا وترك عامل فاس أبا العباس أحمد اليموري ببلاد الحياينة لقبض خراجهم، ولما احتل بتازا جهز العساكر إلى وجدة مع الشيخ عبد الله بن الخضر لجباية قبائلها، وجهز جيشاً آخر مع عامل سجلماسة أبي عبد الله محمد الصريدي فنزل ملوية وجبى قبائلها وطلع إلى بلاد الصحراء مع أوديتها إلى ناحية فجيج فجبى أموال تلك النواحي، ثم توجه إلى سجلماسة ففرق الجيش على أقاليم صحرائها درعة والفائجة وتدغة وفركلة وغريس وزيز والخندق ومدغرة والرتب فجبى أموال تلك القبائل كلها وقرر عماله ونوابه بكل إقليم منها، ومهد طريق الصحراء، ورجعت عساكره منصورة.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين وألف فيها عزل السلطان القائد أبا العباس أحمد اليموري عن فاس وولى عليها صهره المولى حبيب بن عبد الهادي، فقام بها أحسن قيام، وكان ذا عقل ومروءة وسمت ودهاء، وفيها توجه السلطان في العساكر إلى مراكش، ولما احتل بها بعث جيشاً إلى السوس لنظر الكاتب أبي عبد الله الرهوني، وبعث جيشاً آخر إلى عامل حاحة لنظر أبي العباس أحمد اليموري، ثم خرج السلطان في جيش ثالث إلى ثغر الصويرة لمشاهدتها والوقوف على آثار والده بها، فانتهى إليها وأقام بها أياماً، وفرق المال على جندها أحراراً وعبيداً، ونظر في أمور مرساها وأمر بإصلاح ما لا بد منه فيها، وعاد إلى الغرب مؤيداً منصوراً.

فتنة الفقير أبي محمد عبد القادر ابن الشريف الفليتي واستحواذه على تلمسان وبيعته للسلطان المولى سليمان والسبب في ذلك

لما كانت سنة عشرين ومائتين وألف هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك، وكان السبب في ذلك أن باي وهران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم، فقتل بعض الطائفة الدرقاوية وأمر بالقبض على مقدمهم أبي محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي تلميذ الشيخ الأكبر أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي شيخ الطائفة المذكورة ففر أبو محمد عبد القادر المذكور إلى الصحراء ونزل بحلة الأحرار، فاجتمع عليه أهل طائفته وامتعضوا لمن قتل منهم ولنفي مقدمهم عن وطنه وعشيرته، وامتعضت لهم عشائرهم من قبائل العرب الذي هنالك وزحفوا لحرب الترك على حين غفلة منهم فقتلوهم في كل وجه.

ولما دخل فصل الربيع من السنة المذكورة بعث صاحب الجزائر عسكراً إلى باي وهران وأمره بغزو العرب، فنهض إليهم ووقعت الحرب بينه

وبينهم، فانهزم الترك ثانية ونهب العرب محلتهم وتبعوهم إلى وهران فحاصروهم، ولما مني الباي منهم بالداء العضال، كتب إلى السلطان المولى سليمان يعرفه بما دهاه منهم ويطلب منه أن يبعث إليهم شيخهم أبا عبد الله المذكور ليكفهم عنه ويراجعوا طاعة المخزن، فبعث السلطان رحمه الله الشيخ المذكور ومعه الأمين الحاج الطاهر بادو المكناسي، فانتهى الشيخ إلى ابن الشريف وهو في جموعه بظاهر وهران فشكا إلى الشيخ ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعية من عسف الترك وجورهم وانتهائهم في ذلك إلى القتل والطرد عن الوطن، فتوقف الشيخ وربما صدر منه بعض تقبيح لفعل الترك وما هم عليه، فازدادت العرب بذلك تظاهراً على الترك وتكالباً عليهم، فاتهم الباي السلطان بأنه الذي يغريهم لأنه كان ينتظر الفرج على يده ويرجو رقع الخرق من جهته فأخفق سعيه، وحينئذٍ نصب مدافعه في وجه جموع العرب وفرقهم بالكور والضوبلي فانهزموا عن وهران، وأبعدوا المفر، ثم تذامروا وتحالفوا وزحفوا إلى تلمسان فنزلوا عليها وحاصروها، وكان أهل تلمسان خصوصاً وقبائلها عموماً لهم التفات كبير إلى السلطان المولى سليمان رحمه الله لما أكرمه الله به من شرف النسب وطيب المنبت، ولما اشتهر عنه من العدل والرفق بالرعية والشفقة عليها، فكانوا يحبون الدخول في طاعته والانخراط في سلك رعيته، فلما نزلت العرب على تلمسان تمشت الرسل بينهم وبين الحضر من أهلها، واتفقوا على خلع طاعة الترك ومبايعة السلطان المولى سليمان، ففتحوا باب المدينة ودخل ابن الشريف وطائفته وأخذ البيعة بها للسلطان المولى سليمان وخطب به على منابرها، ووجه وفده وهديته إلى السلطان مع شيخه أبي عبد الله المذكور، ثم نهد في عربه وحضره من أهل تلمسان لحرب الكرغلية الذين بالقصبة فأجحرهم بها وضيق عليهم فلم يبق للترك حينئذٍ شك في أن ذلك كله بأمر السلطان، فكتبوا إلى الدولاتي وهو باشاهم الأعظم صاحب الجزائر يعلمونه بالواقع، واستمرت الحرب بينهم

وبين ابن الشريف في وسط المدينة، وعظم الخطب واشتد الكرب، وقدم الشيخ على السلطان بوفد أهل تلمسان والعرب وهدية ابن الشريف وبيعته، وأخبره بأن الناس في شدة من أمر الترك وأنهم قد تطارحوا على بابه وعلقت آمالهم به وراموا الاستظلال بظل عدله، فرأى السلطان رحمه الله أن يسلك في حقهم وحق الترك مسلكاً هو أرفق بالجميع، فبعث القائد أبا السرور عياد بن أبي شفرة الوديي، وأمره أن يحجز بين الحضر والترك حتى يقدم الباي إلى تلمسان، ورد معه الوفد الذين قدموا مع الشيخ وتقدم إليه في القبض على ابن الشريف إن هو لم يرجع عن الحرب إلى السلم، ثم كتب السلطان إلى الباي بما أزال شكه وأبطل وهمه، ولما شارف القائد عياد تلمسان فر الشريف إلى منجاته، ودخل القائد عياد المدينة فحجز بين الفريقين وقدم الباي إلى تلمسان فأصلح بينه وبين رعيته، ومكنه من بلده، وانقلب إلى حال سبيله، ومع ذلك لم يتم للترك ما أرادوا من أجل القحط الذي كان قد عم حتى علمت الأقوات، وجلا أهل تلمسان عنها إلى بلاد المغرب، وكذا عربها وأهل جبالها كلهم جلوا عن أوطانهم، حتى لم يبق لباشا الترك مع من يتكلم فضلاً عن أن يتأمر، فجعل يكتب إلى السلطان ويرغب إليه أن يرد عليه أهل تلمسان وعربها، فكلمهم السلطان رحمه الله في الرجوع فأبوا وقالوا: نذهب إلى بلاد النصارى ولا نجاور الترك فنجمع علينا الجوع والقتل، فرق لهم السلطان وتركهم، بل جبرهم بأن صار يعينهم بالعطاء ويتخولهم بالصدقات المرة بعد المرة، حتى كان عطاؤه إياهم كالراتب المفروض، وعالج داءهم مع الترك إلى أن أخصبت بلادهم ورخصت أسعارهم، فتراجعوا حينئذٍ إلى أوطانهم، وكتب السلطان إلى الباي في شأنهم بالعدل وحسن السيرة، فامتثل وكف أيدي الكرغلية عنهم، ولم يبق منهم بالمغرب إلا من كان عليه دين للترك فلم يقدر على الرجوع لأن أرباب الديون لا يقيمون لهم وزناً ولا يعملون معهم شرعاً والله أعلم.

ذكر ما اتفق للسلطان المولى سليمان رحمه الله في وسط دولته من الخصب والأمن والسعادة واليمن

كان هذا السلطان رحمه الله موصوفاً بالعدل، معروفاً بالخير، مرفوع الذكر عند الخاصة والعامة، قد ألقى الله عليه منه المحبة فأحبته القلوب، ولهجت به الألسنة لحسن سيرته وطيب سريرته، واتفق له في أواسط دولته من السعادة والأمن والعافية ورخاء الأسعار، وابتهاج الزمان، وتبلج أنوار السعد والإقبال، ما جعله الناس تاريخاً وتحدثوا به دهراً طويلاً، حتى صارت أيام السلطان المولى سليمان مثلاً في ألسنة العامة ولقد أدركنا الجم الغفير ممن أدرك أواسط دولته فكلهم يثني عليها بملء فيه، ويذهب في إطرائها كل مذهب لولا ما كدر آخرها من فتنة البربر التي جرت معها فتناً أخر كما نذكر بعد إن شاء الله.

فمما هيأ الله له من أسباب الخير والسعادة أنه بويع مطلوباً لا طالباً، ومرغوباً لا راغباً، ثم لما بويع كان ثلاثة من إخوته كلهم يزاحمه في المنصب ثم لم يزل أمرهم يضعف وأمره يقوى إلى أن كفى الجميع من غير ضرب ولا طعن، ولا بارز أحداً منهم قط ولا واجهه بسوء، ومن ذلك أنه لما دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان عامله إلى صحراء فجيج وجبى أموالها واسترجع قصر المخزن الذي اغتصبه أهلها من يد العبيد الذين كانوا به أيام السلطان المولى إسماعيل رحمه الله، ووجه في السنة المذكورة جيشاً مع عامل فاس باعقيل السوسي، ومعه جماعة من قواد القبائل إلى ناحية الشرق فنزل العامل مدينة وجدة وجبى تلك القبائل كلها، ثم بدا له فنهض إلى عرب الأعشاش وكان ذلك خطأ منه في الرأي إذ كانت لهم شوكة وكان في غنى عن التعرض لهم بما در عليه من الجبايات الوافرة من تلك القبائل، لكن الحرص لا يزال بصاحبه حتى يقطع عنقه، فلما علموا بقصده إياهم عدلوا عن لقائه إلى المحلة فأغاروا عليه وانتهبوها فرجع أهلها منهزمين

من غير قتال وتركوا أثقالهم بيد العدو ولم يجتمعوا إلا على وادي ملوية، ومن هناك انفض الأحلاف إلى بلادهم، ووقف باعقيل بالجيش، وأحجم عن القدوم خوفاً من السلطان، فبعث إليه من قبض عليه وأتاه به فنكبه وعزله عن فاس وولى عليها وصيفه ابن عبد الصادق، ثم عزله وولى عليها محمد واعزيز.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف فيها خرج السلطان المولى سليمان بالعساكر إلى تادلا يريد بني موسى، وآيت أعتاب، ورفالة، وبني عياط الذبح آووا بني موسى، فبث السلطان عليهم العساكر فنهبوا بني موسى ومن آواهم من رفالة وبني عياط، وأحرقوا مداشرهم وقطعوا أشجارهم وأبلغوا في النكاية إلى أن أذعنوا إلى الطاعة وجبوا زكواتهم وأعشارهم وعادوا منصورين، وفي السنة المذكورة فتح على السلطان إقليم تيكرارين وتوات من أقصى الصحراء، وجبى عامله خراجهم وعاد سالماً معافى، وفيها حدثت الحرب بين السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثماني وبين الموسكوب، فكتب العثماني إلى السلطان يطلب منه أن يشد عضده بأن يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة لئلا تدخل قراصين الموسكوب منه وتعيث في الجزر التي هي في ملكة العثماني كما فعلت في دولة عمه السلطان مصطفى بن أحمد، فأمر السلطان رحمه الله رؤساء قراصينه بالتهيىء والمقام هنالك ففعلوا ولم يظهر شيء، حكى هذا الخبر صاحب البستان.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف فيها عقد السلطان لوصيفه القائد أحمد بن مبارك صاحب الطابع على جيش كثيف، وضم إليه جماعة من قواد الجند والقبائل وسار حتى نزل على حدود بلاد آيت ومالو وأحاطت العساكر السلطانية بهم من كل جهة، وكان ذلك في فصل الشتاء فمنعوهم من النزول إلى البسيط للمرعى، وجلب الميرة إلى أن ضاعت مواشيهم وأذعنوا

لدفع ما وظف عليهم فدفعوا الماشية والكراع وخلى سبيلهم، وفيها خرج السلطان من مكناسة لتفقد أحوال الثغور البحرية وكان المتولي على جمعها القائد الشهير أبو زيد عبد الرحمٰن بن علي أشعاش التطواني فعزله السلطان في هذه المرة وولى عليها القائد محمد السلاوي البخاري، ثم ولاه على قبائل الغرب والجبال كلها، وتتبع السلطان رحمه الله الثغور كلها وأحسن إلى أهلها.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين وألف فيها خرج السلطان إلى تادلا يريد عرب ورديغة وقبائل البربر الذين هنالك فأغارت عساكر السلطان عليهم ووقعت بينهم حرب فظيعة هلك فيها عدد من الفريقين، ثم انتصرت العساكر السلطانية عليهم فهزموهم ونهبوا أموالهم وألجؤوهم إلى الطاعة فجاؤوا تائبين فعفا عنهم، ثم أنفذ جيشاً كثيفاً لآيت يسري بعد أن قبض منهم على عدد معتبر فشنوا الغارة عليهم وقاتلوهم فأذعنوا لإعطاء المال، ولما بذلوه سرح لهم إخوانهم المقبوض عليهم وعاد السلطان مظفراً منصوراً.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين وألف فيها غزا السلطان بلاد الريف فنزل عين زورة وسرح الكتائب في قبائل الريف فحاربوها وهزموها وقتلوا مقاتلتها وسلبوا ذراريها وحرقوا مداشرها وألجؤوهم إلى الطاعة فقدموا على السلطان تائبين فعفا عنهم على أن يدفعوا ما ترتب عليهم، ثم عين السلطان الأمناء الذين استوفوه منهم على التمام، وعاد مظفراً منصوراً، وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والعافية والأمن والخصب والرخاء وكمال السرور والهناء، حتى كانت هذه المدة غرة في جبهة ذلك العصر ودمية في محراب ذلك القصر، ثم انعكست الأحوال وتراكمت الأهوال، وعظمت الأوجال، واتسع في الفتنة المجال، وتم على هذا السلطان الجليل العالم النبيل، في آخر عمره ما لم يتم على أحد من ملوك بني أبيه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

بدء هيجان فتنة البربر وما نشأ عنها من التفاقم الأكبر

لما دخلت سنة ست وعشرين ومائتين وألف قامت الفتنة بين قبائل البربر وكان ابتداؤها أولاً بين آيت أدراسن وكروان، وبين أعدائهم آيت ومالو أهل جبل فازاز، ثم لما انتشبوا الحرب غدرت كروان بإخوانهم آيت أدراسن وانحازوا إلى آيت ومالو فانهزمت آيت أدراسن ووضع آيت ومالو فيهم السيف ونهبوا حلتهم بما فيها وتركوهم بالقاع مدقعين، ولعصا الذل مهطعين، ولم يفلت منهم إلا أصحاب الخيل الذين نجوا بنواصيها، وقدموا على السلطان شاكين باكين، فقام وقعد لذلك لما أوجب الله عليه من النظر لهم إذ هم رعيته وشيعته وشيعة والده من قبله، فجهز العساكر لنصرتهم وعادوا إلى حرب كروان فظاهرهم آيت ومالو عليهم وهزموهم مرة أخرى، ثم بعد هذا اتفقت البربر على حرب آيت أدراسن مناوأة للسلطان وبغضاً في قائدهم محمد واعزيز الذي كان يوليه عليهم وبعثوا إلى دجالهم مهاوش المعد عندهم لأمثالها، وتحالفوا عنده على معصية السلطان وطاعة الشيطان، وعاثوا في الطرقات والرعايا واتسع الخرق وعظم الفتق، فسارت إليهم العساكر من باب السلطان حتى نزلت بأحواز صفرو وكانت لنظر القائد محمد الصريدي الذي يبغضه البربر كبغض محمد واعزيز أو أكثر، فكشفوا القناع في العصيان وزحفوا إلى الجيش وهو نازل حول صفرو فأحاطوا به وانتهبوه، ففر من أفلت منه وتحصن الباقي بمدينة صفرو، ونهبت القرى المجاورة لها وعاثوا في طرقات الصحراء فنهبوا من وجدوا بها مقبلاً أو مدبراً وأعضل الداء وأعوز الدواء والسلطان مقيم بمكناسة يعالج داءهم فما نفع فيه ترياق، وشمخت أنوف البربر وكلما بعث إليهم جيشاً هزموه أو سرية انتهبوها، قيل إن منشأ ذلك كان من أجل تمسك السلطان رحمه الله بمحمد واعزيز وجبرهم على طاعته، وكانوا قد نفروا عنه لسوء سيرته فيهم

والمعروف من حال السلطان المولى سليمان رحمه الله خلاف هذا فإنه كان قلما تشكو رعية إليه بعاملها إلا ويعزله عنها تحرياً للعدل واتهاماً للعمال، حتى لقد عيب عليه ذلك في بعض الأحوال من جهة السياسة، ولما أعيا السلطان أمرهم تركهم فوضى ووكل القائد عياد بن أبي شفرة بتدبير أمرها وتوجه إلى مراكش فكان عياد على أمرهم أعجز، وبسياستهم أجهل، وصار يتألفهم بالعطاء ويجري المؤن على كل من يقدم عليه منهم من طعام وعلف ونحو ذلك، فكان ذلك مما زاد في طغيانهم حتى كانوا ينهبون أموال الناس ومتاعهم بباب فاس، ويدخلون لقبض الخفارة وأخذ الميرة، وإذا تكلم أحد من أهل البلد قال القائد المذكور: إن السلطان أمرني بذلك وربما عاقب من يعترض عليه، وإنما أمره السلطان أن يسوسهم على الوجه الذي لا ضرر فيه على الدولة ولاعلى الرعية والله أعلم.

إجلاب السلطان المولى سليمان على برابرة كروان ورجوعه عنهم من آصرو وما نشأ عن ذلك

لما وصل السلطان إلى مراكش استنفر قبائل الحوز كلها وقدم بهم إلى مكناسة واستنفر قبائل الغرب من الأحلاف والحياينة وأهل الفحص، وأهل الغرب، وبني حسن، وأهل الثغور وضرب البعث على جيش العبيد والودايا وشراقة وأولاد جامع واستصحب معه البربر الذين هم في طاعته حتى لم يبق أحد بالمغرب، وخرج في هذا الجمع العظيم قاصداً كروان وهم يومئذٍ بتاسماكت، ولما وصل إلى الموضع المعروف بآصرو وبقي بينهم وبينْه نصف مرحلة بحيث صار يرى محلتهم ويرون محلته بدا له فرجع يريد آيت يوسي، فكان ذلك الرجوع سبب الخذلان، ولما رأته عيون كروان راجعاً ظنوا به جبناً فجرؤوا على الجيش وتبعوه من خلفه إلى أن خالطوا أخريات

الناس فأوقعوا بهم وقتلوا ونهبوا، وأين أوله بينهما مرحلة، ولا علم للسابق بما جرى على اللاحق، ثم نزل السلطان على آيت يوسي بقرب آعليل وصاروا بنو مكيلد أمامه وكروان من خلفه ولم يكن علم بما وقع في العسكر من النهب والقتل إلى أن ورد عليه منهزمة العبيد ليلاً فأخبروه بما وقع، وأن قائد عسكره أبا عبد الله محمد بن الشاهد قد قتل في جماعة من القواد وغيرهم، ففت ذلك في عضده وتجلد رحمه الله ليلته تلك، ولما أصبح ركبت العساكر وقصدت آيت ومالو الذين كانوا مع آيت يوسي ولما وقعت الحرب انهزم عسكر السلطان وألجأهم البربر إلى شعب لا منفذ له فترجلوا وتركوا الخيل ونجوا بأعناقهم وحمتهم آيت يمور وآيت أدراسن حتى خلصوهم، وكانت حلتهم قريباً من العسكر فلو تبعوهم لوقعوا عليها، ولما حصلت هذه المزية لهؤلاء البربر الذين هم شيعة السلطان ولم تظهر للعرب مزية حقدوا ذلك عليهم وصاروا كل من دنا من المحلة منهم قبضوا عليه وقتلوه، وقالوا: إن البربر كلهم سواء، فلما وقع ذلك بشيعة السلطان امتعضوا ورفعوا أمرهم إليه فأمر كاتبه وعامله محمداً السلاوي أن ينظر في أمرهم فبحث القائد المذكور حتى اطلع على حقيقة الأمر وعلم فساد نية البربر لما وقع بهم من القتل وسط المحلة، ورأى أن القصاص في ذلك الوقت متعذر وأن عاقبته غير مأمونة فأشار على السلطان بالرجوع قبل أن يتسع الخرق على الراقع، فرجع وكان رجوعه أكبر غنيمة، وكثرة هذه الجموع بلا ترتيب سبب تلك الهزيمة والأمر كله لله، وهذه الوقعة تعرف عند الناس بوقعة آصرو إضافة إلى الموضع الذي انتهى إليه السلطان من بلاد البربر، ثم رجع عنه وقد جعلها العامة تاريخاً يقولون: كان ذلك عام وقعة آصرو والله تعالى أعلم.

مراسلة صاحب تونس حمودة باشا ابن علي باي للسلطان المولى سليمان رحمه الله وما اتفق في ذلك

وفي هذه المدة أو ما يقرب منها بعث صاحب تونس وهو الرئيس حمودة باشا ابن علي باي العالم الأديب الطائر الصيت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي إلى السلطان المولى سليمان رحمه الله، فقدم عليه حضرة فاس ومعه هدية وكتاب يتضمن طلب الإمداد بالميرة لحدوث المسغبة بالبلاد التونسية، فأعظم السلطان رحمه الله مقدم هذا الشيخ واهتزت له فاس، وامتدح السلطان بقصيدة من جيد شعره يقول في أولها:

إن عز من خير الأنام مزار ... فلنا بزورة نجله استبشار

ومن جملتها قوله:

هذا الخليفة وابن أكرم مرسل ... وسليل من تمطى له الأكوار
وخلاصة الأشراف والخلفاء من ... بيت البتول وحبذا الأظهار
وأجل وارث ملك إسماعيل من ... بطل شذا أخباره معطار
وأعز سلطان وأشرف مالك ... شرقت بملك يمينه الأحرار
وأحق من تحت السماء بأن يرى ... ملك البسيطة والورى أنصار
لكن إذا كل القلوب تحبه ... فلغيره الأجسام وهي نفار
هذا سليمان الرضي ابن محمد ... من أشرقت لجبينه الأنوار
هذا الذي رد الخلافة غضة ... وسما به للمسلمين منار
وأعزّ دين الله فهو بشكره ... في أيكها تترنم الأطيار

فأعجب السلطان ومن حضر بها، وأمده بمطلبه من الميرة وبهدية جليلة، وآب الشيخ من سفارته بخير مآب.

وصول كتاب صاحب الحجاز عبد الله بن سعود الوهابي إلى فاس وما قاله العلماء في ذلك

وفي هذه المدة أيضاً وصل كتاب عبد الله بن سعود الوهابي النابع بجزيرة العرب المتغلب على الحرمين الشريفين المظهر لمذهب بهما إلى فاس المحروسة، وأصل هذه الطائفة الوهابية كما عند صاحب التعريبات الشافية وغيره أن فقيراً من عرب نجد يقال له: سليمان، رأى في المنام كأن شعلة من نار خرجت من بدنه وانتشرت وصارت تأكل ما قابلها، فقص رؤياه على بعض المعبرين ففسرها له بأن أحد أولاده يجدد دولة قوية، فتحققت الرؤيا في ابن ابنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، فالمؤسس للمذهب هو محمد بن عبد الوهاب، ولكن نسب إلى عبد الوهاب فلما كبر محمد احترمه أهل بلاده ثم أخبر بأنه قرشي، ومن أهل بيت النبي ﷺ، وألف لهم قواعد وعقائد وهي عبادة الله واحد قديم قادر حق رحمٰن يثيب المطيع ويعاقب العاصي، وأن القرآن قديم يجب اتباعه دون الفروع المستنبطة، وأن محمداً رسول الله وحبيبه، ولكن لا ينبغي وصفه بأوصاف المدح والتعظيم إذ لا يليق ذلك إلا بالقديم، وأن الله تعالى حيث لم يرض بهذا الإشراك سخره ليهدي الناس إلى سواء الطريق، فمن امتثل فبها ونعمت، ومن أبى فهو جدير بالقتل، فهذه أصول مذهبه، وكان قد بثه أولاً سراً فقلده أناس ثم سافر إلى الشام لهذا الأمر فلما لم يجد به مراده رجع إلى بلاد العرب بعد غيبته عنها ثلاث سنين، فاتصل بشيخ من أشياخ عرب نجد يقال له: عبد الله بن سعود، وكان شهماً كريم النفس، فقلده وقام بنصرة مذهبه، وقاتل عليه حتى أظهره، واقتسم الرياسة هو ومحمد بن عبد الوهاب، فابن عبد الوهاب صاحب الاجتهاد في مسائل الدين، وابن سعود أمير الوهابية وصاحب حربهم، ولا زال أمر هؤلاء الوهابية يظهر شيئاً فشيئاً إلى أن تغلبوا على الحجاز والحرمين الشريفين وسائر بلاد العرب، ثم

قال صاحب التعريبات الشافية: إن مساجد الوهابية خالية عن المنارات والقباب وغيرها من البدع المستحسنة، لا يعظمون الأئمة ولا الأولياء، ويدفنون موتاهم من غير مشهد واحتفال، يأكلون خبز الشعير والتمر والجراد والسمك، ولا يأكلون اللحم والأرز إلا نادراً، ولا يشربون القهوة، وملابسهم ومساكنهم غير مزينة اهـ.

ولما استولى ابن سعود على الحرمين الشريفين بعث كتبه إلى الآفاق، كالعراق والشام ومصر والمغرب، يدعو الناس إلى اتباع مذهبه، والتمسك بدعوته، ولما وصل كتابه إلى تونس بعث مفتيها نسخة منه إلى علماء فاس فتصدى للجواب عنه الشيخ العلامة الأديب أبو الفيض حمدون بن الحاج.

قال صاحب الجيش: كان تصدي الشيخ أبي الفيض لذلك الجواب بأمر السلطان وعلى لسانه، وذهب بجوابه ولده المولى إبراهيم بن سليمان حين سافر للحج قلت: وهذا يقتضي أن كتاب ابن سعود ورد على السلطان المولى سليمان بالقصد الأول لا أن نسخة منه وردت بواسطة علماء تونس والله تعالى أعلم.

حج المولى أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله

وفي هذه السنة أعني سنة ست وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان المولى سليمان رحمه الله ولده الأستاذ الأفضل المولى أبا إسحاق إبراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال، وإبراز الأخبية لظاهر البلد، وقرع الطبول وإظهار الزينة، وكانت الملوك تعنى بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك، مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما، فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة

من علماء المغرب وأعيانه مثل الفقيه العلامة القاضي أبي الفضل العباس بن كيران، والفقيه الشريف البركة المولى الأمين بن جعفر الحسني الرتبي، والفقيه العلامة الشهير أبي عبد الله محمد العربي الساحلي، وغيرهم من علماء المغرب وشيوخه، فوصلوا إلى الحجاز وقضوا المناسك وزاروا الروضة المشرفة على حين تعذر ذلك وعدم استيفائه على ما ينبغي لاشتداد شوكة الوهابيين بالحجاز يومئذٍ ومضايقتهم لحجاج الآفاق في أمور حجهم وزيارتهم إلا على مقتضى مذهبهم.

حكى صاحب الجيش: أن المولى إبراهيم ذهب إلى الحج واستصحب معه جواب السلطان، فكان سبباً لتسهيل الأمر عليهم وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقاً وغرباً، حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان، والبر والإحسان، قال: حدثنا جماع وافرة ممن حج مع المولى إبراهيم في تلك السنة، أنهم ما رأوا من ذلك السلطان يعني ابن سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام، من صلاة وطهارة وصيام، ونهي عن المنكر الحرام، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهاراً من غير نكير، وذكروا أن حاله كحال آحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس، وأنه لما اجتمع بالشريف المولى إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الكريم، وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته، وكان الذي تولى الكلام معه هو الفقيه القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزداغي، فكان من جملة ما قال ابن سعود لهم: إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة، وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا، فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوى، فقال لهم: معاذ الله إنما نقول كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فهل في هذا من مخالفة، قالوا:

لا ويمثل هذا نقول نحن أيضاً، ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي ﷺ وحياة إخوانه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم فلما سمع ذكر النبي ﷺ ارتعد ورفع صوته بالصلاة عليه وقال: معاذ الله إنما نقول إنه ﷺ حي في قبره، وكذا غيره من الأنبياء، حياة فوق حياة الشهداء، ثم قال له القاضي: وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته ﷺ وزيارة سائر الأموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها فقال: معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا وهل منعناكم أنتم لما عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وآدابها، وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية، ويطلبون من الأموات أن تقضى لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية، وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى، وتذكر مصير الزائر إلى ما صار إليه المزور، ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء والمنع بجاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يتشفع به، هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم سداً للذريعة، فأي مخالفة للسنة في هذا القدر اهـ.

ثم قال صاحب الجيش: هذا ما حدث به أولئك المذكورون، سمعنا ذلك من بعضهم جماعة، ثم سألنا الباقي أفراداً فاتفق خبرهم على ذلك اهـ.
قلت: مسألة زيارة قبور الأنبياء والأولياء مشهورة في كتب الأئمة وهي من القرب المرغوب فيها عند الجمهور، ومنعها قوم من الحنابل وشدد تقي الدين ابن تيمية منهم فيها محتجاً بقوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»**، وهو عند الجمهور مؤول بأن المعنى لا تشد الرحال لصلاة في مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد اهـ. وقد بسط القول في هذا صاحب المواهب اللدنية، والقول الفصل أن التبرك بآثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله عنهم، وزيارة مشاهدهم من الأمر المعروف عند أمة محمد ﷺ المجمع عليه

خلفاً وسلفاً، لا يسع إنكاره، غير أن للزيارة آداباً تجب المحافظة عليها، وشروطاً لا بد من مراعاتها، والوقوف لديها، ثم القول بمنعها مطلقاً سداً للذريعة في حق العامة، إذ هم أكثر الناس وغولاً في ذلك فيه نظر، أما الأنبياء فلا ينبغي لعاقل أن يحرم نفسه من الوقوف على مشاهدهم والتبرك بتربتهم والاحتماء بحماهم، ولا أن يقول بذلك لمزيد ارتفاع درجتهم عند الله تعالى، ولندور اتفاق زيارتهم لأكثر الغرباء، وأما الأولياء فالقول بمنع زيارتهم سداً للذريعة مع بيان العلة وإشهارها بين الناس، حتى لا يلتبس عليهم المقصود، قول وجيه لا تأباه قواعد الشريعة بل تقتضيه والله أعلم. وهذا القول هو الذي رآه الشيخ الفقيه الصوفي أبو العباس أحمد التجاني رحمه الله حتى نهى أصحابه عن زيارة الأولياء.

وأقول: إن السلطان المولى سليمان رحمه الله كان يرى شيئاً من ذلك ولأجله كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقرة الوقت وحذر فيها رضي الله عنه من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة، وبين فيها بعض آداب زيارة الأولياء، وحذر من تغالي العوام في ذلك وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين جزاه الله خيراً، ومن كلامه فيها ما نصه: تنبيه: من الغلو البعيد ابتهال أهل مراكش بهذه الكلمة «سبعة رجال»، فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم إلى أن قال: فعلينا أن نقتدي بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة لئلا يؤول الحال فيهم إلى ما آل إليه في يغوث ويعوق ونسرا، إلى آخر كلامه، وصدق رحمه الله فكم من ضلالة وكفر أصلها الغلو في التعظيم، وما ضلت النصارى إلا من غلوهم في عيسى وأمه عليهما السلام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: 171] الآية، ومن ذلك قصة يغوث ويعوق ونسرا المشار إليها، وهي مذكورة في الصحيح وفي كتب التفسير.

وحكى ابن إسحاق في السيرة: أن أصل حدوث عبادة الحجر في بلاد العرب، أن آل إسماعيل عليه السلام لما كثروا حول الحرم، وضاقت بهم

فجاج مكة تفرقوا في النواحي وأخذوا معهم أحجاراً من الحرم تبركاً بها، فكان أحدهم يضع الحجر في بيته فيطوف ويتمسح به ويعظمه، ثم توالت السنون وخلفت الخلوف فعبدوا تلك الأحجار، ثم عبدوا غيرها وذهبت منهم ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلا يسيراً جداً بقي فيهم إلى أن صبحهم الإسلام، هذا معنى ما ذكره ابن إسحاق، وقد تكلم الشاطبي وغيره من العلماء فيما يقرب من هذا، وذكروا أن الغلو في التعظيم أصل من أصول الضلال، ولو لم يكن في ذلك إلا قضية الشيعة لكان كافياً، فالحاصل أن خير الأمور الوسط، ومن هنا أيضاً كان السلطان المولى سليمان رحمه الله قد أبطل بدعة المواسم بالمغرب، وهي لعمري جديرة بالإبطال، فسقى الله ثراه، وجعل في عليين مثواه.

ولما كان رمضان من سنة سبع وعشرين ومائتين وألف قدم المولى إبراهيم ابن السلطان المذكور من الحجاز ونزل بطنجة وكان قدومه في قرصان الإنجليز لأن والده رحمه الله كان قد وجهه إليه مع بضع قراصينه إلى الإسكندرية، فصادفوه قد انحدر إلى جزيرة مالطة فركب المولى المذكور فيما خف من حاشيته في قرصان النجليز وسبق إلى طنجة فاحتل بها، ثم سار إلى حضرة والده بمكناسة فأقام عنده ثلاثاً ريثما استراح، ثم انفصل عنه إلى داره بفاس، فخرج لملاقاته جيش الودايا وأشراف فاس وأعلامها، وسائر عامتها بفرح وسرور، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، ولما وصل القوم الذين كانوا معه نشروا محاسنه وفضائله، ومكارمه المحمودة وفواضله وما فعله من البر في طريق الحج خصوصاً في مفاوز الحجاز، فقد أنفق فيها على الضعفاء والمساكين ما لا يحصى، وشاع ذكره في الحرمين الشريفين وتجاوزهما إلى مصر والشام والعراقين، ولما نفذ ما عنده استسلف من التجار الذين كانوا معه أموالاً طائلة أنفقها في سبيل الله، ولما قدم أربابها على السلطان عرفوه بما استسلفه منهم ولده وأطلعوه على حساباتهم فعرف أن ما فعله ولده صواب، فأمر رحمه الله لأولئك التجار بقضاء ما أسلفوه وأن يزاد لهم مقدار ربحه

تطيباً لنفوسهم، وقال: إنما تتعاطون التجارة لتنمو أموالكم وتربحوا، فلا ينبغي أن ننقصكم من ربحكم شيئاً، فأما نحن فربحنا هو ما أنفقه ولدنا في سبيل الله.

وقد مدح هذا النجل الأرضى جماعة من أدباء مصر وغيرها بقصائد نفيسة، ومن جملة من مدحه الفقيه العلامة الأديب أبو إسحاق إبراهيم عبد القادر الرياحي التونسي، فإنه بعث بقصيدة رائقة إلى والده السلطان المرحوم يمدح النجل المذكور ويهنئه بالقدوم، وألم فيها بذكر السلطان فأعجبته وهزت من عطفه، وأمر كتاب دولته أن يأخذوا منها نسخاً وشرحها بعضهم ونصها:

هذي المنى فأنعم بطيب وصال	فلطالما أضناك طول مطال
ماذا وكم أوليتني يا مخبري	بقدومه من منة ونوالي
بشرتني بحياتي العظمى التي	قد كنت أحسبها حديث خيال
بشرتني بابن الرسول لو إنما	روحي ملكت بذلتها في الحال
بشرتني بسلالة الخلفاء من	أمداحهم تثنى بكل مقال
من حبهم فرض الكتاب أما ترى	إلا المودة حين يتلو التالي
من ضمهم شمل العباء وأذهبوا	رجساً فيالك من مقام عالي
من قوموا أود المكارم بعد ما	شادوا الهدى بمعارف ونصال
لولاهم كان الورى في ظلمة	مدت غياهبها بكل ضلال
آباءك الأطهار فاقصد يا أبا	إسحاق يا نجل المليك العالي
يا حبه وصفيه من قومه	وخياره من سائر الأنجال
لو لم تكن أهلاً لصفو وداده	لم يستنبك لجدك المفضال
لكن توسم فيك كل فضيلة	فحبى يمينك راية الإقبال
وأقام جودك بل وجودك زاد من	يبغي ببيت الله حط رحال
أنت استطاعتهم فما عذر الذي	ترك الزيارة خيفة الإقلال
وبك المشاعر أطربت طرب التي	وجدت على وله فقيد فصال
ووصلتها رحماً هناك قطيعة	دهراً ولم تبلل به ببلال

وتأنس الحرمان منك بطلعة أغنتهما عن وابل هطال
كرم لكم أدريه يوم أفاضه عني سليمان باي سجال
وهب الألوف وكان أكرم منزل يسلي الغريب ببره المتوال
يوم التشرف لي بلثم يمينه وتمتعي من وجهه بجعال
وتلذذي بخطابه المعسول إذ حفت به للدرس أي رجال
لم أنسه يوماً حسبت نعيمه بلذائذ الجنات ضرب مثال
عجباً له يحيي القلوب بعلمه ويميت جند الفقر منه بمال
وإذا تقلد للوغى فحسامه تعنو الرقاب له بدون قتال
تتلوه بالفتح المبين عساكر قد أرهفت بالنصر حد نصال
تخشى الملوك مقامه ولذكره رعباً تطير فرائص الأبطال
وينال آمله بخفض جناحه ما ليس يخطر قط منه ببال
حتى سعى لصفي منهله الذي يسعى لمروته ذوو الأثقال
وأتت لمغربه الشريف مشارق والشمس تغرب لاقتضاء كمال
لما تكدر صفوها بضلالة جاءته كيما ترتوي بزلال
ومتى تخلف عاجز فبقلبه يسعى لفعل شعائر الإجلال
أمنية وقعت أشرت لذكرها في مدحه قدماً بصدق مقال
تهوى المشارق أن تكون مغارباً لتنال من جدواه كل منال
يا فخر دين الله منه بناصر وسعادة الدنيا به من وال
لا تفتخر فاس ولا مراكش بولائه كل الأنام موال
أو ليس في كل البقاع ثناؤه ورد البكور وسحة الآصال
أو لم يشد للدين والعلماء والـ أشراف والصلحاء أي جلال
أو لم يعم بجوده أقطارها لا فرق بين جنوبها وشمال
أو لم يسر ركبانها بمحاسن ضاءت لها سرج بجنح ليال
أو ليس أحيا سنة العمرين في زمن إلى بدع الهوى ميال
شيم يهز الراسيات سماعها ويعجن في أنف الزمان غوال
أوصاف والدك الإمام المرتضى للدين والدنيا بحسن خلال

ذاك الربيع أبو الربيع ومن به ... حيى الهدى وشرائع الأفضال
كل الكمال له وأنت مقره ... والفرع عين الأصل عند مال
يا ابن المليك ابن المليك ابن المليـ ... ـك ابن المليك سلالة الأقيال
أنسيتم ذكر العباسية الأولى ... زالوا وما زالوا بعين جلال
لكم الفخار بذاته وسواكم ... مستمسك من فخركم بظلال
ولي الفخار بأن نسجت مديحكم ... حللاً تجد وكل شيء بال
أملى معانيها على ودادكم ... فجرى به طبع كما السلسال
ولو أنني حاولت مدح سواكم ... عقل القريحة عنه أي عقال
فكأنما طبعي شريف حيثما ... لا يهتدي لسوى مديح الآل
أو قد درى أن المديح تعرض ... وسواكم لا يرتضي لسؤال
أبقاكم كهفاً يلاذ بمجدكم ... مختاركم لإنالة الآمال
وأدام للإسلام والدك الذي ... هو رحمة وسعت بغير جدال
وعليكم وعلى الذي يهواكم ... أزكى الرضى من حضرة المتعال
ما دام ذكركم بكل صحيفة ... تبعاً لأحمد سيد الإرسال
صلى عليه مسلماً رب الورى ... وعلى مقدم حزبه والتالي

وعزز هذه القصيدة بمثلها بحراً وقافية ورويّاً الفقيه العلامة الأديب أبو الفيض حمدون بن الحاج الفاسي يقول في مطلعها:

بشراك إبراهيم بالإقبال ... إقبال عز لم يكن بالبال

وهي طويلة تركناها اختصاراً، وفي هذه السنة توفي الشريف البركة المولى علي ابن المولى أحمد الوزاني، وذلك يوم الثلاثاء آخر يوم ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين وألف.

غزو السلطان المولى سليمان بلاد الريف والسبب في ذلك

لما كانت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف بلغ السلطان أن قبائل الريف من قلعية وغيرهم صاروا يبيعون الزرع للنصارى ويسوقونه من بلادهم، فعقد لعامله على الثغور أبي عبد الله محمد السلاوي على جيش كثيف وأنفذه إليهم

فسار العامل المذكور وقصد قلعية عش الفساد، ولما شارفها سرب إليهم العساكر فنهبوا أموالهم وحرقوا مداشرهم، وانتسفوا أرضهم وديارهم، وتركوهم أفقر من ابن المدلق، ثم بث عماله في تلك القبائل فجبوها واستوفوا زكواتها وأعشارها، وعاد ظافراً، وفي هذه السنة وذلك صباح يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي الشيخ العلامة الإمام خاتمة المحققين بالمغرب سيدي محمد الطيب بن عبد المجيد بن عبد السلام ابن كيران الفاسي، صاحب التآليف البديعة، والحواشي المحررة، مثل شرح الحكم العطائية، وشرح السيرة النبوية، وغير ذلك من التآليف المعروفة والموجودة بأيدي الناس.

ثم لما دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف بلغ السلطان ثانياً أن أهل الريف لا زالوا مقيمين على بيع الزرع للنصارى، وأنهم أضافوا إلى بيع الزرع بيع الماشية، وقد كان السلطان منع النصارى من وسق ذلك بالمراسي، فافتات هؤلاء القوم على السلطان وأعطوهم من ذلك ما أرادوا طمعاً في الربح، وكان السلطان قد تقدم إلى القائد محمد السلاوي في كفهم عن ذلك لأنه كان قد ولاه عليهم وأضافهم إلى من كان إلى نظره من أهل الجبل والثغور، فكان لا يلتفت إليهم وربما قبض أهل المروءة منهم على سفلتهم ممن يتعاطى ذلك ويبعثون بهم إليه فيسرحهم على طمع، فاتسع الخرق وصار كلهم يفعل ذلك، ولما تحقق السلطان بفعلهم أمر رؤساء قراصينه أن يذهبوا إلى جهة الريف ومراسيها، وكل من عثروا عليه بها من مراكب النصارى فليأخذوه، فساروا وقبضوا على بعض النصارى فأسروهم ولم يقنعه ذلك حتى أمر بغزو الريف وعزم على النهوض إليهم بنفسه، وأذن في الناس بذلك وجهز العساكر مع القائد محمد السلاوي، ووجه معه ولده المولى إبراهيم بعساكر الثغور، وعرب سفيان وبني مالك، فساروا على طريق الجبل، وخرج السلطان من فاس في السنة المذكورة ومعه السواد الأعظم، فسلك الجادة إلى تازا وكارت حتى نفذ إلى بلاد الريف، فلم يرعهم إلا العساكر محيطة بهم من كل وجه فنهبوهم وحرقوا مداشرهم واستخرجوا

أمراسهم ودفائنهم، وولى السلطان عليهم أحمد بن عبد الصادق الريفي، وتركه في بلادهم في حصة من العسكر يستخلص منهم الأموال وعاد السلطان إلى دار ملكه مؤيداً منصوراً.

خروج السلطان المولى سليمان إلى بلاد الحوز وتمهيدها ثم دخوله مراكش

كان السلطان المولى سليمان رحمه الله قد ولى على قبائل تامسنا القائد كريران الحريزي، فيقال إنه أساء السيرة فيهم فنبذوا طاعته، وخرجوا عليه، فقدم على السلطان مستصرخاً عليهم فخرج إليهم في العساكر سنة ثلاثين ومائتين وألف، وتقدم إلى جيرانهم من القبائل بأن يزحفوا إليهم من خلفهم ففعلوا، وهجم هو عليهم من أمامهم وأوقع بهم وقعة شنعاء أتلفت موجودهم، وأباحت نساءهم وأولادهم، وفر منهم طائفة فعبروا وادي أم الربيع زمان مدة فهلك جلهم، ثم ترك فيهم عامله في حصة من الجند وأمره باستخلاص الأموال منهم، وتقدم هو إلى ناحية مراكش لقمع أهل الفساد من قبائل الحوز مثل دكالة وعبدة والشياظمة الذين خرجوا أيضاً على عاملهم الحاج محمد بن عبد الصادق صاحب الصويرة، فأصلح من شأنهم وعزله عنهم لما علمه من سوء سيرته فيهم، ونقله من الصويرة إلى مراكش، ثم منها إلى فاس، فولى أخاه أبا العباس أحمد على عسكر القلعة بمراكش وعاد رحمه الله إلى الغرب.

وفي هذه السنة في الثالث عشر من رمضان منها توفي الشيخ العلامة الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الحاج الرهوني صاحب الحاشية الكبيرة على مختصر الشيخ خليل وغيرها من التآليف النافعة، والخطب البارعة، وباعه في العلوم خصوصاً الفقه مقرر معلوم رحمه الله ونفعنا به، وفي ليلة الاثنين الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة توفي الشيخ العالم العارف الإمام أبو العباس أحمد التجاني

شيخ الطائفة التجانية، وكانت وفاته بفاس المحروسة وضريحه بها شهير عليه بناء حفيل رحمه الله ونفعنا به.

غزو السلطان المولى سليمان قبائل الصحراء وإيقاعه بآيت عطة والسبب في ذلك

لما كانت سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف بلغ السلطان المولى سليمان أن بعض قبائل الصحراء كعرب الصباح وبرابرة آيت عطه اشتغلوا بالفساد، وعظم ضررهم واستولوا على قصور المخزن التي هنالك من عهد السلطان المولى إسماعيل، فعقد لابنه المولى إبراهيم على جيش كثيف ووجهه إليهم، فسار ونزل أولاً على قصور العرب ونصب عليهم آلة الحرب فبددهم، ثم زاد إلى قصور آيت عطه فنصب عليهم الآلة كذلك وضيق عليهم إلى أن طلبوا الأمان فأمنهم فطلبوا أن يفرج بالجيش عنهم قليلاً حتى يخرجوا بعيالهم خوفاً من معرة الجيش، فأشفق لهم وأفرج عنهم، وكان ذلك مكيدة منهم، فلما نفس عن مخنقهم أدخلوا معهم ما شاؤوا من رجال وسلاح وقوت وتمادوا على الحرب فسقط في يد المولى إبراهيم وحمى أنفه وكان معه جماعة وافرة من أعيانهم رهناً عنده فقتل طائفة منهم، وساق نحو المائة إلى فاس فقتلهم بباب المحروق، ولما أنهى خبر فعلة البربر إلى السلطان عاب على ابنه إفراجه عنهم أولاً وقتل الرهائن ثانياً، ثم إنهم أوفدوا جماعة منهم على السلطان راغبين إليه أن يبقيهم بالقصور، فردهم بالخيبة وقال لهم: لا بد لي من الوصول إلى تلك القصور إن شاء الله حتى تكون لي أولكم، ولما انسلخ رمضان من السنة وأقام سنة عيد الفطر شرع في تجهيز العساكر إلى الصحراء وقمع ظلمة آيت عطه، ثم بعث في مقدمته السواد الأعظم من جيش العبيد وعقد عليهم لوصيفه الأنجب القائد أحمد بن مبارك صاحب الحاتم، وبعث معه الطبجية بالمدافع والمهاريس وآلة الحصار والهدم، فخرجوا من فاس في

زي فاخر وشوكة تامة، وبعد انفصالهم عنها طرأ على السلطان من بعض الثغور البحرية خبر بأن عمارة العدو تروج بالبحر وتجتمع عند جبل طارق ولم ندر إلى أين تريد، فتأخر السلطان عن الخروج حتى يتبين له أمر هذه العمارة، ثم ورد الخبر اليقين بأنها قد قصدت ثغر الجزائر، وأصاب الفرنج من هدم الأبراج وتخريب الدور والمساجد وحرق الأشجار شيئاً كثيراً، لكن لما رجعوا مفلولين مقتولين هان الأمر وصغرت المصيبة، ولما جاء البشير بانهزام الفرنج عن الجزائر قوي عزم السلطان على متابعة من وجه من عسكره إلى الصحراء فخرج في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة فيمن تخلف معه من العسكر وقبائل العرب والبربر، وجد السير إلى أن عمر وادي ملوية فلقيه البشير هنالك بخبر الفتح والاستيلاء على القصور، وقتل أهلها وسبيهم ونهب بضائعهم وأمتعتهم، فجد السير إلى أن خيم بأغريس، ومنها كتب إلى القائد أحمد أن يوافيه بالجيش لبلاد فركلة للنزول على القصور الخربات التي بها آيت عطة، فاجتمعوا مع السلطان بها ونصبوا عليها المدافع والمهاريس ودام الرمي عليها ثلاثة أيام حتى كثر الهدم والقتل وعاينوا الموت الأحمر فأرسلوا إلى السلطان النساء والصبيان للشفاعة في الخروج برؤوسهم فأمنهم، ولما جن الليل خرجوا حاملين أولادهم على ظهورهم خوفاً من معرة الجيش، ولما أصبح السلطان أمر بنهب ما في القصور من القوت والمتاع والكراع، وكمل فتح هذه الأماكن التي كانت نقمة لأهل ذلك القطر الصحراوي، ولما منّ الله على السلطان بهذا الفتح شكر صنع الله له بأن فرق على العسكر وقبائل تلك الأقطار ما وسعهم من الخيرات.

قال صاحب الجيش: أعطى الشرفاء مائة ألف مثقال غير ما كان يعطيهم في كل سنة، وقسم رحمه الله ذلك بخط يده فكتب لدار مولاي عبد الله كذا، ولشريفات حموبكة كذا، ولشرفاء تافيلالت كذا، ولشرفاء تيزيمي وأولاد الزهراء كذا، ولشرفاء الرتب كذا، ولشرفاء مدغرة كذا، ولشرفاء زيز

والخنق والقصابي كذا، وأعطى الطلبة والعميان والمقعدين والزمنى وزوايا تافيلالت مائة ألف مثقال قسم ذلك بخط يده أيضاً، وجعل للفقيه المدرس أربعة أسهم، ولغيره سهمين، والسهم من كذا، وللطالب الذي يحفظ القرآن برسمه حتى صفا لوحه سهمان، ولغيره سهم، والسهم من كذا، ولا فرق بين الأحرار والحراطين، ولكل واحد من الضعفاء والعمى والمقعدين كذا الأحرار والحراطين سواء وللزوايا كذا، فلزاوية الشيخ سيدي الغازي كذا، ولزاوية سيدي أبي بكر بن عمر كذا، ولزاوية سيدي أحمد الحبيب كذا، ولزاوية سيدي علي بن عبد الله كذا، ولزاوية ضريح مولانا عليّ الشريف كذا، ولمقبرة أخنسوس كذا، ووجه المال مع الأمين السيد المعطي مرينو الرباطي، وأمر الشرفاء أن يعينوا أربعين من ثقاتهم وأمنائهم حتى لا تقع زيادة فيما كتبه بيده ولا نقصان، وأمر القاضي أن يعين عشرة من الطلبة وعشرة من العوام للقيام على تفرقة ذلك، ثم أعطى المدرسين زيادة على ما تقدم، وكذا الأئمة والمؤذنين، ولم ينس أحداً كل ذلك بخط يده رحمه الله.

قال صاحب الجيش: ولا زال هذا الزمام عندي، ثم بعد قضاء وطره من الزيارة والصلة توجه إلى مراكش على طريق الفائجة لتفقد أحوال جيش الحوز الذي كان وجهه من مراكش لإقليم درعة، فبلغه أثناء الطريق أن آيت عطه الذين بدرعة لما سمعوا بقربه منهم خرجوا من القصور هاربين وتركوها يباباً وتحصنوا بجبل صاغرو، ولما دخل السلطان مراكش سرح العساكر إلى السوس لتفقد أحواله وجباية أمواله وتمهيد أطرافه، وأخذ هو رحمه الله في استصلاح قبائل الحوز من دكالة وعبدة والشياظمة فقتل وعزا وسجن وولى من ولى، وطهر تلك الأعمال من ولاة السوء الذين كانوا بها، وعاد إلى حضرته بفاس، وكان دخوله إليها سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف، ولما دخلها أخذ في تجهيز ولديه المولى علي والمولى عمر لأداء فريضة الحج إلى أن استوفى الغرض في ذلك، وعين من يتوجه معهما من الخدم والتجار

وسائر الحاشية، وخرجا مع الركب النبوي على الهيئة المعهودة في حفظ الله، وفي هذه السنة عزل السلطان وصيفه ابن عبد الصادق عن فاس وولى عليها كاتبه أبا العباس أحمد الرفاعي الرباطي المدعو القسطالي، كان يعلم أولاده فنقله عن ذلك إلى مرتبة الولاية وأوصاه أن يسير بالعدل في الضعفاء والمساكين، ويشتد على الفجرة والمتمردين، وفي هذه السنة عشية يوم الاثنين سابع ربيع الثاني منها توفي الشيخ العلامة المحقق الأديب البليغ أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمٰن بن حمدون بن عبد الرحمٰن السلمي المرداسي الشهير بابن الحاج صاحب التآليف الحسنة، والفوائد المستحسنة، والخطب النافعة، والحكم الجامعة، رحمه الله ونفعنا به.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف عزل السلطان الفقيه أبا العباس عن فاس لعجزه عن القيام بالخطة وولى على فاس خديمه الحاج أبا عبد الله محمد الصفار من بيت رياسة، وفي هذه السنة أبطل السلطان الجهاد في البحر ومنع رؤساءه من القرصنة به على الأجناس، وفرق بعض قراصينه على الإيالات المجاورة مثل الجزائر وطرابلس، وما بقي منها أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب وأعرض عن أمر البحر رأساً بعد أن كانت قراصين المغرب أكثر وأحسن من قراصين صاحب الجزائر وتونس، قاله منويل، وفي هذه السنة قدم ولدا السلطان المولى علي والمولى عمر من المشرق مع الركب ونزلوا بثغر طنجة، وكان السلطان قد بعث إليهما بمركب من مراكب النجليز فانتهى إلى الإسكندرية وحملهما ومن معهما من الخدم والتجار وسائر الحاج، ولما نزلوا بطنجة حدث الوباء بالمغرب فقال الناس: إن ذلك بسببهم، فانتشر أولاً بتلك السواحل ومنها شاع في الحواضر والبوادي إلى أن بلغ فاساً ومكناسة في بقية العام.

ولما دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف شاع الوباء وكثر في بلاد الغرب فتوجه السلطان إلى مراكش وكان الأمر لا زال محتملاً، ثم زاد

وتفاحش حتى أصاب الناس منه أمر عظيم، وفي هذا الوباء توفي الشيخ المرابط البركة سيدي العربي ابن الولي الأشهر سيدي المعطى بن الصالح الشرقاوي، وضريحه شهير بأبي الجعد رحمه الله ونفعنا به وأسلافه آمين.

وقعة ظيان وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله

لما وصل السلطان رحمه الله إلى مراكش سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف، أقام بها إلى رجب منها ثم أخذ في الاستعداد لغزو برابرة فازاز، وهم آيت ومالو بطن من صنهاجة، وعرفت الوقعة بوقعة ظيان فخذ منهم، فحشد السلطان رحمه الله عرب الحوز كلهم وكتب إلى العبيد بمكناسة يأمرهم أن يوافوه بتادلا، وكتب إلى ولده وخليفته بفاس المولى إبراهيم أن يوافيه بها بجيش الودايا وشراقة وعرب الغرب وبرابرته وعسكر الثغور، وكان الناس يومئذٍ في شدة من هذا الوباء الذي عم الحواضر والبوادي، وكان السلطان لما أخذ في استنفار هذه القبائل لا علم له بتفاحش الوباء بالمغرب، وكان الواجب على ابن السلطان أن يعلم أباه بما الناس فيه من فتنة الوباء فيعفيهم من الغزو أو يؤخره إلى يوم ما، فجمع ولد السلطان الجموع وجلهم كاره، وسار لميعاد أبيه فوافاه بتادلا، فاجتمع للسلطان فيما يقال من الجيوش نحو ستين ألفاً وزحف إلى البربر فانتهى إلى بسيط آدخسان وبها مزارع البربر وفدنها، فأرسل السلطان الجيوش في تلك الزروع وكانت شيئاً كثيراً فأتوا عليها، وبعث البربر إليه بنسائهم وولدانهم للشفاعة وأن يدفعوا للسلطان كل ما يأمرهم به من المال وينصرف عنهم فأبى، وزحف إليهم فقاتلهم يوماً إلى الليل، ولقد أخبرني من حضر الوقعة أن المقاتلة كانت في هذا اليوم من عرب الغرب ومن برابرة زمور وجروان وآيت أدراسن، إلا أن القتل استحر في العرب دون البربر، وذلك أن كبير زمور الحاج محمد بن الغازي دس إلى

ظيان بأنما نحن وأنتم واحد، فإذا كان اللقاء فلا ترمونا ولا نرميكم إلا بالبارود وحده، وذلك أن السلطان لما قدمهم للقتال في أول يوم منه وأخر عرب الحوز استرابوا بأنه إنما أراد أن يصدم بعضهم ببعض، وتسلم له العرب ففعل ابن الغازي ما فعل، ولما راح مقاتلة العرب مع العشي أخبروا السلطان بأن هؤلاء البربر الذين معه لا أمان فيهم وإنما ظلوا يترامون بالبارود لا غير، ولأجل ذلك قد هلك من إخواننا كثير ولم يهلك منهم أحد، فأسرها السلطان في نفسه ولم يبدها لهم، ولما كان الغد وركب الناس للقتال أرسل إلى البربر أن لا يركب منهم أحد وقال لهم: إني أردت أن أجرب العرب اليوم وأختبر فائدتهم، فأظهروا الطاعة وتقدم العرب إلى القتال وأقام البربر في أخبيتهم إلى منتصف النهار، ثم ركبوا خيولهم وتسابقوا إليها عن آخرهم، قال المخبر بهذا الخبر: شاهدتهم ساعة ركبوا فكنت لا ألتفت إلى جهة إلا رأيتها حمراء من كثرة سروجهم التي كانت على ظهور الخيل إذ ذاك، ثم تصايحت البربر فيما بينها وتقدمت براياتها إلى الجهة التي فيها القتال وأتوا من خلف العرب الذين كانوا في نحر العدو وهم يتصايحون فلم يردهم إلا صياح البربر من خلفهم وراياتهم قد أطلت عليهم من كل جهة وكانت شيئاً كثيراً، فظنوا أن ظيان قد التحفتهم من خلفهم فخشعت نفوسهم وفشلوا ورجعوا منهزمين لا يلوي حميم على حميم، فأخذتهم البربر من بين أيديهم ومن خلفهم يقتلون ويسلبون، وحصل انزعاج كبير في المحلة وتمت الهزيمة عليها، ولم يبق بها إلا جيش الودايا والعبيد، هكذا أخبرني من شاهد هذه الوقعة ممن يوثق به.

وساق صاحب الجيش الخبر عنها بأن قال: كان انخذال برابرة زمور برأي كبيرهم الحاج محمد بن الغازي، وكانت له وجاهة في الدولة وكان الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت أدراسن يساميه في المنزلة، ولما خرج المولى إبراهيم بن السلطان في هذه الغزوة كان ابن واعزيز قد حظي لديه حتى صار من أخص ندمائه، فنفس ابن الغازي عليه ذلك ودبر بأن جر

الهزيمة على الجيش أجمع، فإنه أظهر الفرار وقت اللقاء حتى سرى الفشل في الناس وانهزموا، ثم عطفت البرابر مع العشي على محلة السلطان فشرعوا في نهبها وأحاط عسكر العبيد بها من كل جهة، وصاروا يقاتلون البربر على أطراف الأخبية، ولما أقبل المساء ترك العبيد الأخبية وأرزوا إلى أفراك السلطان، وصار القتال على أفراك إلى وقت العشاء فهلك من العبيد خلق كثير وصار القتال بالسيوف والرماح، وما زال أصحاب السلطان يترسون عليه بأنفسهم حتى عجزوا عن الدفاع، وخلص البربر إلى السلطان وأراد رجل منهم يقال إنه من بني مكيلد أن يجرده فأعلمه بأنه السلطان، فاستحلفه البربري فحلف له، فنزل عن فرسه وأركبه وطار به إلى خيمته، وكان البربر يلقونه وهو ذاهب به فيقولون: من هذا الذي معك فيقول: أخي أصابته جراحة، ولما وصل به إلى خيمته أعلن بأنه السلطان فأقبلت نساء الحي من كل جهة يفرحن ويضربن بالدفوف، ثم جعلن يتمسحن بأطرافه تبركاً به وينظرون إليه إعجاباً به حتى أضجرنه، ولما جاء رجال الحي أعظموا حلوله بين أظهرهم وأجلوه، وسعوا فيما يرضيه ويلائمه من وطاء ومطعم ومشرب بكل ما قدروا عليه، فلم يقر له قرار معهم، ويقال إنه بقي عندهم ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب أسفاً على ما أصابه، إلا أنه كان يسد رمقة بشيء من الحليب والتمر، وتنصل البربر له مما شجر بينهم وبينه وأظهروا له غاية الخضوع والاستكانة حتى أنهم كتفوا نساءهم وقدموهن إليه مستشفعين بهن على عادتهم في ذلك، وبعد ثلاث أركبوه وقدموا به في جماعة من الخيل إلى قصبة آكراي فنزلوا به قريباً منها، وبعث رحمه الله إلى مكناسة يعلم الجيش بمكانه، فجاؤوه مسرعين، ودخل مكناسة بعد أن أحسن إلى ذلك الفتى البربري وإلى جميع أهل حيه غاية الإحسان، وأمر رحمه الله أن يعطى لكل من أتى سليباً من المنهزمين حائك وثلاثون أوقية، ففرق من ذلك شيئاً كثيراً بباب منصور العلج من مكناسة، وأصيب المولى إبراهيم ابن السلطان في هذه

الوقعة بجراحات معظمها في رأسه فحمل جريحاً إلى فاس فمات بها، وكانت مصيبته على السلطان أعظم مما أصابه في نفسه والأمر لله وحده.

قال صاحب الجيش: كان السلطان الحازم سيدي محمد بن عبد الله لا يرد الشفاعة في مثل هذا المقام وربما دس إلى من يظهر ذلك صورة حتى يكون نهوضه عن عز وذلك من حسن سياسته، وكانت هذه الوقعة الفادحة سبب سقوط هيبة السلطان المولى سليمان من قلوب الرعية فلم يمتثل له بعدها أمر في عصاتها حتى لقي الله تعالى.

ولما دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف كثر عيث البربر وإفسادهم السابلة، واستحوذوا على مزارع مكناسة ومسارحها، فنصب لهم السلطان رحمه الله حبالة الطمع وكادهم بها بأن صار كلما وفد عليه جماعة منهم كساها وأحسن إليها، فتسامعوا بذلك فقادهم الطمع إلى أن وفد عليه منهم في مرة واحدة سبعمائة فارس من أعيانهم فقبض عليهم وجردهم من الخيل والسلاح وأودعهم السجن، ثم أمر بالقبض على كل من وجد منهم بسوق مكناسة وصفرو فقبض بصفرو على نحو الثلاثمائة من آيت يوسي، وقامت بسبب ذلك فتنة البربر على ساق، فإنهم امتعضوا لمن قبض عليه من إخوانهم وزحفوا إلى مكناسة وحاصروها وجاؤوا معهم بدجالهم أبي بكر مهاوش وتحزبوا وصاروا يداً واحدة على كل من يتكلم بالعربية بالمغرب وكان مهاوش في هذه الأيام قد أمر أمره لأنه لما عزم السلطان على غزوهم كان يعدهم بأن الظهور يكون لهم، فلما صدق عليهم ظنه اعتقدوه وافتتنوا به وزحفوا إلى مكناسة فضيقوا على السلطان بها، فجعل رحمه الله يعالج أمرهم بالحرب تارة والسلم أخرى إلى أن طلبوا منه أن يسرح لهم إخوانهم ويرجعوا إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فسرحهم لهم على يد المرابط أبي محمد عبد الله بن حمزة العياشي، فلما ظفروا بإخوانهم نقضوا العهد الذي أخذ عليهم المرابط المذكور وعادوا إلى العيث وإفساد السابلة، ثم تبعهم على

ذلك قبائل العرب واختلط الحابل بالنابل واشتد الأمر وبلغ الحزام الطبيين ولله در العلامة أبي مروان عبد الملك التاجموعتي إذ يقول:

هم البرابر لا ترجو نوالهم وسل من الله تعجيل النوى لهم

لا بلغ الله قلباً منهم أملاً وبلغ الله قلبي ما نوى لهم

ثم لما سقطت هيبة السلطان وزال وقعه من القلوب سرى فساد القبائل إلى الجند، فإن العبيد عادوا على كبيرهم القائد أحمد بن مبارك صاحب الخاتم فقتلوه افتياتاً على السلطان، مع أنه كان من أخص دولته لنجابته وكفايته وديانته، واعتماد السلطان عليه في سائر مهماته، ولما قتلوه اعتذروا للسلطان بأعذار كاذبة فقبل ظاهر عذرهم وطوى لهم على البت.

قال أكنسوس: كان القائد أحمد وأبواه وإخوته قد أعطاهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله لابنه المولى سليمان، فنشأ القائد أحمد في كفالته وتخلق بأخلاقه من زمن الصبا إلى مماته، وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان العادل المولى سليمان، فإنه من يوم قتل رحمه الله سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف لم يلتئم شمل المملكة حتى توفي السلطان المذكور.

ذكر آل مهاوش وأوليتهم وما آل إليه أمرهم

أما الذي كان منهم في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله فاسمه محمد وناصر، والواو في لغة البربر بمعنى ابن، وكان والده مرابطاً من آيت مهاوش، فرقة من آيت سخمان منهم، وكان جده أبو بكر من أتباع الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن ناصر الدرعي رحمه الله، وكان الشيخ المذكور قد جرى في مجلسه يوماً ذكر الدجال فقال الشيخ: لا يخرج الدجال حتى تخرج دجاجيل من جملتهم مهاوش، ومعناه من جملتهم ولد هذا الرجل، فكان الأمر كذلك فإنه لما شب محمد وناصر قرأ القرآن والعربية والفقه وحصل على طرف من علم الشريعة، ثم تنسك وتزهد ولبس الخشن فيقال إنه حصل

له نوع من الكشف شاع به خبره عند البربر، وأكبوا عليه. واشتهر أمره أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ولما انتهى إليه أمره نهض إلى قبيلة جروان الذين كانوا يخدمونه فنهبهم بسببه، وفر مهاوش إلى رؤوس الجبال، وبقي مختفياً إلى أن بويع السلطان المولى يزيد رحمه الله، وكان قد اتصل بمهاوش قبل ولايته وذلك حين فر من والده ولجأ إليه حسبما مر، فآواه مهاوش وأحسن إليه.

ولما بويع السلطان المذكور وفد عليه مهاوش في جماعة من قومه ففرح بهم المولى يزيد، وأعطى مهاوش عشرة آلاف ريال، وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال، ولما هلك محمد وناصر هذا ترك عدة أولاد أكبرهم أبو بكر ومحمد والحسن، إلا أنهم تبعوا سيرة أبيهم في مجرد التدجيل والتمويه على جهلة البربر وتثبيطهم على طاعة السلطان، ولم يكن معهم ما كان مع والدهم من التظاهر بالخير والدين، فأمر أمرهم عند أهل جبل فازاز واعتقدوهم ووقفوا عند إشارتهم، ثم لما جاءت دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله، واتفقت له الهزيمة التي مر ذكرها وامتلأت أيدي البربر من خيل المخزن وسلاحه وأثاث الجند وفرشه بطروا وظهر لهم إن ذلك إنما نالوه ببركة مهاوش، لأنه كان يعدهم بشيء من ذلك، فتمكن ناموسه من قلوبهم واستحكمت طاعتهم له وتمردوا على السلطان بسبب ما كانوا يسمعون منه، إلا أن كيده كان قاصراً على أهل لسانه ووطنه، لا يتعداهم إلى غيرهم، ثم بعد ذلك بزمان انطفأ ذباله ولم يزل في انتقاص إلى الآن، والله غالب على أمره.

حدوث الفتنة بفاس وقيامهم على عاملهم الصفار

لما توالت هذه الفتن على السلطان رحمه الله وانفتقت عليه الفتوق وصار الناس كأنهم فوضى لا سلطان لهم، قام عامة أهل فاس على عاملهم الحاج محمد الصفار، فأرادوا عزله وتعصبت له طائفة من أهل عدوته وافترقت

الكلمة بفاس حتى أدى ذلك إلى الحرب وسفك الدماء ونهب الدكاكين، وتراموا بالرصاص من أعلى منار مسجد الرصيف، وبلغ ذلك السلطان وهو يومئذٍ بمكناسة يعالج داء البربر فزاده ذلك وهناً على وهن، فكتب إلى أهل فاس كتاباً شحنه بالوعظ والعتب وأمر ابنه المولى عليّاً أن يقرأه عليهم، فجمعهم وقرأه عليهم حتى سمعوه وفهموه، ونص الكتاب المذكور: بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، إلى أهل فاس السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإن العثماني بإصطنبول وأمره ممتثل بتلمسان والهند واليمن وما رأوه قط ولكن أمر الله يمتثلون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن﴾ [النساء:59] وكان صلى الله عليه وسلم لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح واعلموا أن العمال ثلاثة، عامل أكل السحت وأطعمه الغوغاء والسفلة، وعامل لم يأكل ولم يطعم غيره انتصف من الظالم، وعامل أكل وحده ولم يطعم غيره، فالأول تحبه العامة والسفلة ويبغضه الله والسلطان والصالحون، والثاني يحبه الله ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان، والثالث كعمال اليوم يأكل وحده ويمنع رفده ولا ينصر المظلوم فهذا يبغضه الله ورسوله والسلطان والناس أجمعون، وهذا معنى حديث «ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس. . .» الخ. وحديث العمال ثلاثة الخ. فلو كان للصفار مائدة خمر وطعام يأخذه من الأسواق، ويتغدى عنده ويتعشى السفلة والفساق، ويدعو اليوم ابن كيران، وغدا ابن شقرون، وبعده بنيس وابن جلون، ويفرق عليهم من الذعائر لأحبوه وما قاموا عليه، ولو أردتم النصيحة لله ولرسوله ولأميره لقدم علينا ثلاثة منكم أو ذكرتم ذلك لولدنا مولاي عليّ أصلحه الله فأخبرنا بذلك، وقل للصفار: الكلاب لا تتهارش إلى على الطعام والجيف، فإذا رأت كلباً بباب دار سيده ولا شيء أمامه لم تعرج عليه، وإن رأته يأكل فإن هو تعامى وأشركهم فيما يأكل أكلوا معه وسكتوا، وإن هو قطب وجهه وكشر عن أنيابه تراموا عليه وغلبوه على ما في يده، وهذا الصفار لم يتق الله ويزهد الزهد الذي ينصره الله به، ولم يلاق الناس بوجه طلق ويطرف مما يأكله فسلطهم

الله عليه، ولما رأى يوسف بن تاشفين النعمة التي فيها ابن عباد قال: أكل أصحابه وأعوانه مثله؟ فقالوا: لا. فقال: إنهم يبغضونه ويسلمونه للمكاره لاستبداده دونهم، ولتغيير المنكر شروط وما يعقلها إلا العالمون، وكم من مرة قلنا لكم العلماء هم ينكرون ما ينكر ويعلموننا بما كان، ولكن الجلوس بلا شغل، والفراغ وعدم الحمد حملكم على ما يحرم عليكم الكلام فيه.

إن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أي مفسدة

وأما بيت مال الله والأحباس فالله حسيب من بدل، وقد كنتم تتكلمون على المكس والحرير والقشينية وغير ذلك فأرى حكم الله من ذلك، وانظروا لمن تعرفونه من العمال، وأما الفسق فهو عادة وديدن كل من قام في الفتنة وكم مرة رمت قطعه فلم أجد إليه سبيلاً، لأن جل كبرائكم بالمصاري والعرصات، وإنما أولي عليكم البراني لأنكم لا تحسدونه وإن أكل وحده، والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده، والتجار لأن التاجر لا يطمع في مال أحد، ويكفيه الرفعة والجاه لنماء ماله، وانظروا ما أجبتكم به وما كتبتم لنا به واعرضوه على فقهائكم، فمن قال الحق منا ومن قال الباطل، أخذتم بحظكم من الفتن اهـ.

وهذه الرسالة قد شرحها الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد الكريم اليازغي، وكان أهل فاس قد كتبوا إلى السلطان رحمه الله في شأن عاملهم الصفار المذكور واعتذروا عن خروجهم عليه بأنه اشتغل بما لا يرضي الله من الفسق، ومد اليد إلى الحريم، فأنكروا عليه فأجاب السلطان رحمه الله بالرسالة المذكورة.

خروج السلطان المولى سليمان من مكناسة إلى فاس وما لقي من سفهاء البربر في طريقه إليها

قد تقدم لنا أن البربر طلبوا من السلطان تسريح إخوانهم وأنه بذلك

تصلح أحوالهم ويراجعون الطاعة، ولما سرحهم نكثوا العهد وازدادوا تمرداً فلما أعيا السلطان أمرهم وكل أمرهم إلى الله وعزم على الخروج من مكناسة إلى فاس، لما حدث بها من الشغب أيضاً، فولى على مكناسة، وجند العبيد ولده المولى الحسن، وكان له علم وحزم، ثم خرج السلطان رحمه الله من مكناسة ليلاً على خطر عظيم، وأسرى ليلته ولم يعلم البربر بخروجه حتى أصبح وقد جاوز المهدومة وشارف وادي النجاة، فتبعوه على الصعب والذلول ونهبوا كل من تخلف من الجيش واستولوا على كثير من روام السلطان، وكان مع السلطان في تلك الليلة المرابط البركة أبو محمد عبد الله بن حمزة العياشي، فجعل يكف البربر عن الجيش فلم يغن شيئاً لأنه كان كلما كفهم من ناحية أغاروا من ناحية أخرى، وخلص السلطان إلى فاس وقد ازداد حنقه على البربر، فلما دخلها أمر بنهب دور البربر القاطنين بفاس فنهبوا كل من فيه رائحة البربرية ولو قديماً، فكان ذلك فتنة في الأرض وفساداً كبيراً، وأقام السلطان بفاس إلى رجب من السنة المذكورة أعني سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف، ثم خرج لإصلاح نواحي بلاد الهبط فوصل في خرجته هذه إلى قصر كتامة فمهد تلك البلاد وأمن سبلها، ورجع إلى رباط الفتح فقدم عليه بها قبائل الحوز على بكرة أبيهم من حاحا والشياظمة وعبدة والرحامنة وأهل السوس والسراغنة وزمران وأهل دكالة وقبائل الشاوية وتادلا، وقدم عليه أيضاً قبائل بني حسن وعبيد الديوان، وقبض في هذه المرة على نحو المائة من زعير وأودعهم السجن، ودخل شهر رمضان ففرق عمال القبائل كلاً إلى عمله، وأمرهم بالقدوم عليه لعيد الفطر ويستصحبوا زكواتهم وأعشارهم، وكان قد عزم على المقام برباط الفتح إلى أن يقيم سنة العيد به، وتجتمع عليه العساكر فيتوجه بها لغزو البربر، ثم بدا له رحمه الله فسافر مع قبائل الحوز إلى مراكش في عاشر رمضان المذكور.

ذكر ما حدث من الفتن بفاس وأعمالها بعد سفر السلطان المولى سليمان إلى مراكش

لما عزم السلطان المولى سليمان رحمه الله على السفر إلى مراكش ندب جند العبيد إلى السفر معه فتثاقلوا عليه، وظهر منهم قلة المبالاة به وأحس منهم بذلك فأعرض عنهم، وبعد يوم أو يومين انسل من بين أظهرهم وقصد محلة أهل الحوز، فدخل قبة القائد محمد بن الجيلاني ولد محمد الصغير السرغيني وكان السلطان يطمئن إليه منذ كان رفيقه في نكبته عند ظيان إذا كان ابن الجيلاني المذكور مأسوراً عندهم وسرحوه للسلطان فرافقه إلى مكناسة حسبما مر، ولما احتل السلطان بمحلة أهل الحوز ازداد فساد نية العبيد، وسافر السلطان إلى مراكش وترك مضاربه وأثاثه بيدهم فتوزعوها وعادوا إلى مكناسة وسمع الناس بما ارتكبه هؤلاء العبيد في حق السلطان، فعاد شباب الفتنة إلى عنفوانه، وسرى في الحواضر والبوادي سم أفعوانه، فخب عبيد مكناسة بعد قدوم إخوانهم عليهم في الفتنة ووضعوا وامتنع عمال الغرب وبني حسن من دفع الزكوات والأعشار، وطردوا جباة السلطان وعمد الودايا بفاس إلى حارة اليهود التي بين أظهرهم بفاس الجديد فانتهبوها واستصفوا موجودها، وأخذوا ما كان تحت أيدي اليهود من كتان وحرير وفضة، وذهب لتجار أهل فاس إذ كانوا يخيطون لهم ويصنعون ما تدعو الحاجة إلى خياطته وصنعته فضاعت في ذلك أموال لا يحصيها قلم حاسب، ثم جردوهم رجالاً ونساء وسبوا نساءهم، وافتضوا أبكارهم، وسفكوا دماءهم، وشربوا الخمور في نهار رمضان، وقتلوا الأطفال ازدحاماً على النهب، ثم تجاوزوا هذا كله إلى حفر البيوت على الدفائن، فوقعوا بسبب ذلك على أموال طائلة، ولما رأوا ذلك قبضوا على أعيانهم وتجارهم وصادروهم بالضرب والنكال ليدلوهم على ما دفنوه من المال، ومن عنده يهودية حسناء حالوا بينه وبينها حتى يفتديها بالمال، وكان هذا الحادث العظيم في الثالث عشر من رمضان سنة

خمس وثلاثين ومائتين وألف، ولما فرغوا من اليهود التفتوا إلى أهل فاس فاستاقوا السرح وبهائم الحرث والجنات، ومنعوا الداخل والخارج، فقام بفاس هرج عظيم وغلقوا الأبواب ومالوا على من وجدوه من الودايا داخل البلد فأوقعوا بهم ونهبوهم، وحمل الناس السلاح ونقلت البضائع والسلع من الأسواق إلى الدور خوفاً عليها، واجتمع أهل الحل والعقد منهم فعينوا من يقوم بأمرهم فقدم اللمطيون رجلاً منهم يقال له الحاج أحمد الحارثي، وقدم أهل العدوة رجلاً منهم يقال له قدور المقرف، وقدم أهل الأندلس رجلاً منهم يقال له عبد الرحمٰن بن فارس، فضبطوا البلد، وبينما هم كذلك قدم عليهم جماعة من أعيان الودايا وتلافوا أمرهم معهم والتزموا رد ما نهبوه لهم من السرح وما نهب في جملة أموال اليهود مما كان يصنع عندهم، فخمدت بذلك نار الفتنة بعض الشيء، وقد قال أدباء الوقت في هذا الخطب الذي اتفق في هذه المدة جملة من الأشعار، من ذلك قول الكاتب البارع أبي عبد الله محمد بن إدريس الفاسي:

أعين العين للمحبين داء ... والدوا في شفاهها والشفاء
فإذا ما رمين سهماً لصب ... فالهوى قد هوى به والهواء
كيف يعدل نحو رأيي عذول ... من رمته ظبي اللحاظ الظباء
سعد ساعد أخا الغرام بقرب ... من سعاد فقد عناه العناء
زارني ضيف طيفها فشجاني ... وسرى الطيف للمحب حباء
هب شوقي أذهب نشر كباها ... وعرتني من ذكرها العرواء
فسقى عهدها العهاد وحيا ... الملك العادل الحياء الحياء
ليس إلا أبا الربيع ربيع ... خلقه الجود والجدي والوفاء
بسليمان قد سلمنا وسدنا ... فالعلي منزل له والعلاء
ملك ملك العلا والمعالي ... وسما فله الفخار سماء
غرة المجد درة العقد من قد ... راق من فضله السنا والسناء
نجل خير الورى وأفضل من قد ... نبأت بظهوره الأنبياء

من إذا رجاه راجٍ لنول … قبل حل الحبى أتاه الحباء
خلق دمث وخلق بهي … من ذكي نوره تغار ذكاء
كفه كفت الفساد وكفت … كل عاد فما له أكفاء
راحة راحة لكل فقير … بحياء تحيا به الأحياء
روضة راضت العلوم ولكن … عرفها العرف والثراء الثناء
قد روى فضله الأفاضل طرّاً … فعلى الفضل والرواة رواء
لأبي القاسم الظياني لديهم … فضل سبق له علا وعلاء
جمع الوصف أحكم الرصف صدقاً … وأتاه الإنشاء كيف يشاء
صالح ناصح أمين رصين … قد ثناه إلى علاك السناء
كيف لا يحسن السناء ويسمو … في إمام له المعالي رداء
إنما هو معجز مستقل … يقتدي بفعاله العقلاء
بسط العدل في البسيطة فالدين … له بسطة به وارتقاء
وغدا بإقامة الدين فالغرب … غريباً أنصاره الغرباء
لم يجد في البرابر الغلف برّاً … شأنه البر في البدا والبراء
نقضوا العهد خالفوا الأمر والنهي … إلا إنهم هم السفهاء
خالفوا منتقى الخلائق جهلاً … بعماهم فلا عداهم عماء
عادة في جدودهم جددوها … لهم الدهر الارتداد، رداء
قد دعاهم مهاوش لضلال … فعليهم وبالهم والوباء
شق جهلاً عصا الإمام شقاقاً … وعصى الله لا هناه الهناء
واقتفى أثرهم الغواة ضلالاً … فغاباهم ما أن عليه غباء
وإذا خبثت أصول فروع … لاح من فعلهم عليه لواء
وكذا العرب أعربوا عن مساو … فهم في سوى الخروج سواء
نافقوا رافقوا الخبيثين كفراً … همزوا لمزوا فليس براء
والودايا جاؤوا بادوء عيب … داؤهم ما له الزمان دواء
قتلوا سلبوا أخافوا وحافوا … ما ثناهم عن القبيح ثناء
ما رعوا ذمة ولا فعل ذم … بل عراهم من الحياء عراء

وإمام الأنام يحلهم عنهم ويوالي وما يفيد الولاء
نهبوا حارة اليهود وهدوا دورهم وعرى النساء سباء
لو تراهم بين الرعايا عراة يحتذيهم رجالهم والنساء
خفروا ذمة النبي فنموا لعماء فلا سقاهم عماء
يا إمام الهدى عليك بقوم ملأ الغرب بغيهم والبغاء
قد طم ظلمهم وعم أذاهم وانجلى عنهم فحق الجلاء
كم سدلت عليهم أي ستر ووهبت فما أفاد العطاء
وحدوت إلى الرشاد فحادوا ودعوت فما أفاد الدعاء
نلت رشداً برشدهم وجهاداً فأبى منهم الرشاد إباء
وإذا خذل الإلٰه أناساً من محياهم يزول الحياء
فعبيد الإلٰه خير عبيد قد كفى منهم الإمام كفاء
حاربوا ضاربوا على الحق راعوا ذمة الله لا علاهم علاء
فاتخذهم موالياً وجنوداً واصطفيهم فإنهم أصفياء
قد أصاب الأعادي منهم عذاب ودهى منهم البغاة دهاء
وإذا سخر الإلٰه أناساً لسعيد فإنهم سعداء
يا إلٰه الأنام خذ بيديه وأعنه فقد عناه العناء
فينام الأنام في ظل أمن ورداه للماردين رداء
وعليه السلام ما سار سار وشدت فوق ورقها الورقاء

ثم حدث على تفئة ذلك فتنة أخرى بفاس بسبب نزاع جرى بين قاضيها الفقيه أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي، وبين مفتيها الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الدكالي، في قضية الشريفين الشفشاوني والعراقي من أهل فاس، وهي معلومة فأنهى الأمر إلى السلطان فأخر الفقيه أبا عبد الله عن الفتوى فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتعصبوا له، وتحزبوا على القاضي، فكتبوا رسماً يتضمن الشهادة بجوره وجهله ووضعوا خطوطهم وناطوا به قصيدة تتضمن الشكوى به وشرح حاله للسلطان، ووجهوا بهما إليه ونص القصيدة:

يا أيها الملك الذي عدالته ... أحيت مآثرها الصديق أو عمرا
يا أيها الملك الذي مناقبه ... في غرة الدهر قد لاحت لنا قمرا
أنت الذي وضع الأشياء موضعها ... وفي العلوم الذي أحيا الذي اندثرا
أنت الذي صير الدين القويم كما ... أوصى به من سما الأملاك والبشرا
ولم يزل بك في عز وفي حرم ... يجني ذوو العلم من رياضه ثمرا
تذب عنه بأسياف وآونة ... بفكرة تحكم الأحكام والصورا
ومن يرم هدمه تأخذه صاعقة ... من راحتيك فلا تبقى له أثرا
وقد شكا الدين من هضم ومن كمد ... أصابه فهو يبكي الدمع منهمرا
سطت عليه يد القاضي الذي غمرت ... أقضية الجور منه البدو والحضرا
أعفى مراسمه جوراً وأبدله ... جهلاً بما يذهب الألباب والفكرا
جاء الولاية وهو من شبيبته ... يرى القضا حرفة يجني بها وطرا
فلم يكن همه فيه سوى قنص ... أو نخوة تترك الضعيف منكسرا
أما حقوق الورى فإنها عدم ... مجهولة جعلت منبوذة بعرا
فاستنقذت ملة المختار جدك من ... هذا الذي ما درى ورداً ولا صدرا
يأتي الحكومة عباساً ومنقبضاً ... مما به من سقام يجلب الكدرا
فلا يرى أرسم الخصمين من ملل ... لكن يحكم أوهاماً بها جهرا
ويستبد برأيه وحيث بدت ... فتوى تبصره ألقى بها حجرا
ولا يمكن خصماً قد دعاه إلى ... تسجيله ما رأى في الحكم معتبرا
ملت قلوب الورى منه وليس لهم ... إلاك يا من به الإسلام قد نصرا
ضجوا لعزتكم يشكون سيرته ... بعبرة تترك الفؤاد منفطرا
فأدركن يا عماد الدين صارمه ... رعية ترتجي من حلمكم مطرا
فأنزلنه لقد طغى بعزته ... ولم يخف في غد لظى ولا سقرا
واصرفه عنهم كصرفه ضعيفهم ... واعزله عزلاً فإن الأمر قد أمرا
فأنت غيثهم إن أزمة أزمت ... وأنت كهفهم إن حادث ظهرا

ولما وصل الرسم والقصيدة إلى السلطان رأى أن ذلك من التعصب الذي يحدث بين الأقران فرفضه لكمال أناته وعقله، ولم يقبل شهادة عالم

على مثله، فلما رأوا أن السلطان لم يساعدهم هجموا على القاضي وهو بمجلس حكمه وأرادوا قتله، وسدد نحوه الشريف أبو عبد الله محمد الطاهر الكتاني كابوساً أخرجه فيه فأخطأه، فانزعج القاضي ولزم بيته وقدموا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن الدلائي، ثم عزلوه وولوا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد العربي بن أحمد الزرهوني فكانت عاقبة أمره أنه لما أفضى الأمر إلى السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله نفاه إلى الصويرة والله تعالى أعلم.

خروج أهل فاس على السلطان المولى سليمان وبيعتهم للولي إبراهيم بن يزيد والسبب في ذلك

لما استمر السلطان المولى سليمان رحمه الله مقيماً بمراكش والفتن بفاس وسائر بلاد الغرب قد تجاوزت مداها، وعم أذاها، ورفعت الشكايات إليه من فاس وغيرها بما الناس فيه من الكرب العظيم، والخطب الجسيم، كتب رحمه الله بخط يده كتاباً إلى أهل فاس يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم من حلف البربر والاعتماد عليهم في حراسة بلادهم وسائر مرافقهم كما كانوا قديماً أيام الفترة في دولة السلطان المولى عبد الله إلى أن يفرغ من شأن الحوز ويقدم عليهم، هكذا زعم صاحب البستان.

قال أكنسوس: كان مراد السلطان بذلك الكتاب تهييج أهل فاس على التمسك بطاعته وترغيبهم في محبته ونصرته، وقد فعل مثل ذلك بمراكش، فإنه جمع أعيانها وأعيان الرحامنة عقب صلاة الجمعة وقال لهم: «قد رأيتم ما جرت به الأقدار من فساد قلوب الرعية وتمادي القبائل على الغي والفساد، ومن يوم رجعنا من وقعة ظيان ونحن نعالج أمر الناس فلم يزدادوا إلا فساداً، وقد جرى على الملوك المتقدمين أكثر من هذا فلم ينقصهم ذلك عند رعيتهم بل قاموا معهم وأعانوهم على أهل الفساد حتى أصلحوهم، وإني قد عجزت

بشهادة الله لأني ما وجدت معيناً على الحق، وكم مرة تحدثني نفسي أن أترك هذا الأمر وأتجرد لعبادة ربي حتى أموت» فقال من حضر من أعيان الرحامنة وغيرهم: «يا مولانا بارك الله لنا في عمرك وجعلنا فداءك، ونحن أمامك ووراءك، فمرنا بما تشاء فقولك مطاع، وأمرك ممتثل، وما رأينا منك إلا الخير» فسر السلطان بمقالتهم ودعا لهم بخير، ولما فعل مع أهل مراكش هذا الأمر أراد أن يسلك مثله مع أهل فاس فوقع ما وقع، ولما بعث السلطان بالكتاب المذكور إلى ابنه المولى علي بفاس أمره أن يقرأه على أهلها بمحضر الفقيه المفتي السيد محمد بن إبراهيم الدكالي، والفقيه الشريف السيد محمد بن الطاهر الفيلالي، والفقيه الكاتب السيد أبي القاسم الظياني، والأمين السيد الحاج الطالب ابن جلون الفاسي، فجمعهم المولى علي في المسجد الذي بباب داره بزقاق الحجر وقرأ عليهم الكتاب المذكور، وكان المسجد غاصاً بالخاصة والعامة فازدحموا عليه ليروا الكتاب بأعينهم وأكثروا عليه، فضجر وقام ودخل داره وأغلقها عليه فقال بعض الناس: إن السلطان قد خلع نفسه وقال لكم: قدموا من ترضونه، وقال آخرون: إنه لم يخلع نفسه، وجعل آخرون يقرعون باب المولى علي ويقولون: أخرج إلينا كتاب السلطان حتى نقرأه ونعلم ما فيه، فقال لهم: إني أحرقته فازدادوا ريبة وصدقوا أن السلطان قد خلع نفسه، واجتمع رؤساء أهل فاس منهم الحاج محمد بن عبد الرزيق، والسيد محمد بن سليمان، وعلال العافية، وقدور بن عامر الجامعي، ولم يكن من أهل فاس وإنما كان قاطناً بالطالعة، وهؤلاء من أهل عدوة الأندلس، وكذلك غيرهم من أهل عدوة القرويين واللمطيين، ثم جمعوا الطلبة الذين حضروا قراءة الكتاب، وألزموهم أن يكتب كل واحد منهم ما سمع، فكتب لك واحد ما ظهر له ثم حازوا خطوطهم وخلصوا منها ما هو مرادهم وهو أن السلطان عجز وعزل نفسه، وأمر الناس أن ينظروا لأنفسهم، هذا والحرب قائمة بين أهل فاس والودايا

فكتب أهل فاس إلى قواد البربر يستنصرونهم على الودايا ويستقدمونهم للنظر والخوض معهم فيمن يتولى أمر الناس، فقدم الحسن بن حمو واعزيز المطيري كبير آيت أدراسن في وجوه قومه، وقدم الحاج محمد بن الغازي كبير زمور وبني حكم في وجوه قومه، فاجتمعوا بأهل فاس وتفاوضوا في أمر البيعة، فوقع اختيارهم على المولى إبراهيم بن يزيد، وكان ذا سمت وانقباض، وصهر السلطان على ابنته، وكان يسكن بدرب ابن زيان قرب المدرسة العنانية، فكان لا يخرج إلا من الجمعة إلى الجمعة يصلي بالمدرسة ثم يعود إلى داره، فاختاروه لذلك من غير اختبار ولا تمحيص، ثم قالوا: إن السلطان لا بد له من مال ورجال، فتكفل ابن واعزيز بالرجال وقال: عندنا من الخيل والرجال ما لن يغلب من قلة، وتكفل الحاج الطالب بن جلون بالمال وأحال على جماعة من التجار وسماهم، وذكر أن السلطان لما عزم على السفر إلى مراكش ودع عندهم بواسطته مالاً له بال، ولما تم لهم ما أرادوا غدوا على المولى إبراهيم بن يزيد فأحضروه وشرطوا عليه شروطاً منها إخراج الودايا من فاس الجديد، وكانوا كلما شرطوا عليه شرطاً حرك لهم رأسه أي نعم، ثم بايعوه صبيحة الرابع والعشرين من محرم سنة ست وثلاثين ومائتين وألف، ويقال إنهم لما خاطبوه أولاً امتنع فقالوا له: إن لم نبايعك بايعنا رجلاً من آل المولى إدريس رضي الله عنه، فخاف خروج الأمر من بيتهم وأجاب والله أعلم، وحضر هذه البيعة الشريف سيدي الحاج العربي ابن علي الوزاني، والشيخ أبو عبد الله سيدي محمد العربي الدرقاوي، وكان ابن الغازي الزموري من أخص أتباعه، وهو رئيس البربر في ذلك الوقت، وعليه وعلى ابن واعزيز كانت تدور هذه الأمور، وحضرها أيضاً أبو بكر مهاوش كبير آيت ومالو، ولما أحكموا أمرهم كتبوا إلى العبيد بمكناسة ليساعدوهم فامتنعوا، إلا أن من كان يبغض السلطان منهم وعدهم سراً، ثم كتبوا إلى الودايا بمثل ما كتبوا به إلى العبيد فكانوا عنها أبعد، فبعث أهل فاس الشيخ

أبا عبد الله الدرقاوي إلى الودايا ليأتي ببيعتهم وكان له فيهم أتباع فقبضوا عليه وأودعوه السجن، وكتبوا بذلك إلى السلطان فما سخط ولا رضي، واستمر المولى إبراهيم والبربر مقيمين بفاس إلى أن نفذ ما عندهم من المال الذي أظهره لهم الحاج الطالب ابن جلون، فاتفق رأيهم على الخروج من فاس وكان من أمرهم ما نذكره.

مسير المولى إبراهيم بن يزيد إلى تطاوين ووفاته بها

لما نفذ ما كان عند المولى إبراهيم بن يزيد وشيعته من المال واستهلكوه في غير فائدة تفاوضوا فيما يصنعون، فأجمع رأيهم على أن يسيروا إلى المراسي بقصد فتحها والاستيلاء على مالها، فخرجوا بالمولى إبراهيم مستبدين عليه ضاربين على يده، وإنما المتصرف والآمر والناهي هو أبو عبد الله محمد بن سليمان، وأما ابن عبد الرزيق وجماعة من أصحابه الذين أسسوا هذا الأمر فإنهم هلكوا في حرب الودايا في عشية واحدة في وقعة ظهر المهراس، وحزت رؤوسهم وبعث بها إلى السلطان بمراكش، ولما برزوا من فاس مروا بآيت يمور ونزلوا بالولجة الطويلة، وراودوا من هنالك من عرب بني حسن وأهل الغرب ودخيسة وأولاد نصير على الانخراط في سلكهم فأبوا عليهم، وعزم القائد محمد بن يشو على أن يبيتهم بغارة شعواء تفرق جمعهم فدس إليهم محمد بن قاسم السفياني اللوشي، وكان منحرفاً عن السلطان بما عزم عليه ابن يشو، وأشار عليهم أن يعبروا النهر إلى ناحيته ليحميهم ممن أرادهم، فعبروا إليه وانضم إليهم فيمن معه وساروا إلى قصر كتامة فنزلوا بالكدية الإسماعيلية ومنها كتبوا إلى أهل الثغور والعرائش وطنجة وتطاوين يدعونهم إلى بيعة سلطانهم، والدخول في حزبهم، فأما أهل العرائش وطنجة فأجابوا بالمنع، وقيل إن أهل العرائش بايعوا، ووفد عليه بعضهم ولعل ذلك

كان في ثاني حال، وأما أهل تطاوين فامتثلوا وكان قاضي طنجة أبو العباس أحمد الفلوس قد عزم على بيعة المولى إبراهيم فنذر به عاملها أبو عبد الله محمد العربي السعيدي فنفاه وقدم للقضاء مكانه الفقيه الأديب أبا البقاء خالد الطنجي، ولما ورد على المولى إبراهيم وحزبه جواب أهل تطاوين بالقبول ساروا إليها فدخلوها، واستولوا على مال المرسى، وعلى مخازن السلطان وما فيها من سلاح وكتان وملف وغير ذلك، فتوزعته البربر ثم انتهبوا ملاح اليهود واكتسحوه، فعثروا فيه على أموال طائلة، يقال إنهم وجدوا به عدداً كثيراً من فنائق الضبلون والبندقي، فكان ابن الغازي الزموري وغيره من رؤساء ذلك الجمع لا يعطون أصحابهم إلا البندقي، فكثر جمعهم لذلك، ولما مضت لهم من قدومهم تطاوين سبعة وأربعون يوماً توفي المولى إبراهيم رحمه الله، وكان قد دخلها مريضاً يقاد به في المحفة فأخفوا موته ودفنوه بداره وكان من أمرهم ما نذكره.

بيعة المولى السعيد بن يزيد بتطاوين ورجوعه إلى فاس

لما توفي المولى إبراهيم بن يزيد أخفى رؤساء دولته موته ليلتين أو ثلاثاً ثم دعوا أهل تطاوين إلى بيعة أخيه المولى السعيد بن يزيد، فافترقت كلمتهم، فمنهم من أبى ومنهم من أجاب، فأحضر ابن سليمان وابن الغازي وأشياعهما من أبى من أهل تطاوين وألزموهم البيعة فالتزموها وكتبوها وأحكموا عقدها، وكان المتولي يومئذٍ بتطاوين الحاج عبد الرحمٰن بن علي أشعاش فأخروه وولوا مكانه أبا عبد الله محمد العربي بن يوسف المسلماني، وكان داهية شهماً، وبينما هم في ذلك ورد عليهم الخبر بمجيء السلطان من مراكش، وأنه قد وصل إلى قصر كتامة ففت ذلك في عضدهم وخرجوا مبادرين إلى فاس على طريق الجبل، وكان من أمرهم ما نذكره.

مجيء السلطان المولى سليمان من مراكش إلى القصر ثم مسيره إلى فاس وحصاره إياها

كان السلطان المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة مقيماً بمراكش وكان العبيد قد ندموا على ما فرط منهم برباط الفتح من التخلف عن السلطان ونهب أثاثه حسبما مر، فجعلوا يتسللون إليه من مكناسة مثنى وفرادى حتى اجتمع عنده جلهم لا سيما من كان منهم معروفاً بعينه مثل القواد وأرباب الوظائف، ولما بلغه ما كان من بيعة المولى إبراهيم بن يزيد تربص قليلاً حتى إذا بلغه خروجه إلى المراسي قلق وخرج من مراكش في جيش العبيد وبعض قبائل الحوز يبادره إليها، ولما وصل إلى رباط الفتح عبر إلى سلا ونزل برأس الماء، ولما حضرت الجمعة دخل المدينة فصلى بالجامع الأعظم منها، ودخل دار الحاج محمد بن عبد الله معنينو من أعيان أهل سلا، واستصحب معه الفقيه المؤقت أبا العباس أحمد بن المكي الزواوي من أهل سلا أيضاً بقصد القيام بوظيفة التوقيت، ولما وصل السلطان إلى قصر كتامة أتاه الخبر بدخول المولى إبراهيم إلى تطاوين، فأقام هنالك وكتب إلى الودايا وإلى من بقي بمكناسة يحضهم على التمسك بالطاعة، وكتب إلى ولده المولى الطيب بفاس الجديد يأمره أن يبعث إليه بالفقيه الأديب أبي عبد الله محمد أكنسوس وهو صاحب كتاب الجيش.

قال أكنسوس: فقدمنا على السلطان بريصانة على مرحلتين من القصر قاصداً تطاوين ومحاصرة المولى إبراهيم بن يزيد بها، قال: فورد عليه كتاب من عند القائد أبي عبد الله العربي السعيدي صاحب طنجة بوفاة المولى إبراهيم وبيعة أخيه المولى السعيد، وأنهم قد عادوا به إلى فاس، ولما تحقق بذلك رجع على طريق القصر يؤم فاساً ويسابق السعيد إليها، فوافياها في يوم واحد فنزل السعيد بجموعه بقنطرة سبو ودخل السلطان دار الإمارة بفاس الجديد مع الودايا، ولما كان فجر الغد في تلك الليلة أغارت خيل الودايا

على محلة المولى السعيد بالقنطرة فانتسفوها بما فيها، وقتلوا من البربر وأهل فاس وغيرهم خلقاً كثيراً، واحتووا على أموال طائلة مما كانت البربر قد نهبته من ملاح تطاوين، وأفلت المولى السعيد وبطانته بجريعة الذقن، ودخلوا فاساً فأغلقوها عليهم وثابت إليهم نفوسهم، وفي هذه الأيام قتل المعلم الأكبر أبو العباس أحمد عنيقيد التطاوني، وكان عجباً في صناعة الرمي بالمهراس، وكان المولى السعيد قد أتى به من تطاوين ليحاصر به على فاس الجديد فدس إليه السلطان من قتله، ناداه رجل وهو في محلة أصحابه ليلاً يا فلان أجب مولانا السلطان فظن أنه دعي إلى المولى السعيد فقال: ها أنا ذا وبرز من خبائه فرماه المنادي برصاصة كان فيها حتفه، ثم عزم السلطان على محاصرة فاس حتى يفيئوا إلى أمر الله ولكن اكتفى من الحصار بمنعهم من الدخول والخروج، وكان الودايا قد ألحوا عليه في أن يرميهم بالبنب فأبى رحمه الله وقال: لو كانت البنبة التي نرميها تذهب حتى تقع بدار ابن سليمان أو بدار الطيب البياز أو غيرهما من رؤوس الفتنة لفعلنا، ولكن إنما تقع في دار أرملة أو يتيم أو ضعيف حبسه العجز معهم، ثم إن أهل فاس بدؤوا بالرمي وكان معهم سعيد العجل عارفاً بالرمي، فجعلوا يقصدون دار السلطان، فوقعت بنبة بالموضع الذي كان يجلس فيه للقراءة ووقعت أخرى بالمدرسة التي بباب داره، وكان بها جماعة من طبجية سلا ورباط الفتح فقتلت منهم أربع نفر، منهم الباشا أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسين فنيش السلاوي، فعند ذلك حنق السلطان وأمر أن يؤتى بالمهاريس الكبار من طنجة من فرمة ثمانين إلى فرمة مائة، فجيء بها ونصبها عليهم فكان القتال لا يفتر ليلاً ونهاراً والكور والبنب تختلف بين أهل البلدين في كل وقت، واستمر الحال على ذلك قريباً من عشرة أشهر، ولا يدخل أحد إلى فاس ولا يخرج منها إلا على خطر، وفي أثناء هذه المدة نهض السلطان إلى طنجة للنظر في أمر تطاوين الخارجة عليه، بعد أن تقدم إلى الودايا في الحصار والتضييق على فاس إلى

أن يعود إليهم، ولما استقر بطنجة بعث إلى أهل تطاوين وراودهم على الرجوع إلى الطاعة فأبوا ولجوا في عصيانهم، فبعث إليهم جيشاً كثيفاً مع القائد حمان الصريدي البخاري فنزل بوادي أبي صفيحة وحاصرهم مدة، فكانت الحرب بينه وبينهم سجالاً مرة له ومرة عليه، وهلكت نفوس من أعيان تطاوين وغيرهم.

مجيء المولى عبد الرحمٰن بن هشام من الصويرة إلى الغرب واستخلافه بفاس وما تخلل ذلك

كان المولى عبد الرحمٰن بن هشام في ابتداء أمره بتافيلالت، ولما توسم فيه عمه المولى سليمان مخايل الخير والنجابة استقدمه منها وولاه على الصويرة وأعمالها، فكفاه أمرها وقام بشأنها، ثم لما كان المولى سليمان بطنجة في هذه المرة واستعصى عليه أمر فاس وتطاوين وانصرم فصل الشتاء وأقبل فصل الربيع كتب إلى ابن أخيه المولى عبد الرحمٰن المذكور، يأمره بالقدوم عليه في قبائل الحوز، ويلقاه بهم برباط الفتح، وكان غرض السلطان أن يزحف بهم إلى فاس، إلا أن السياسة اقتضت أن يكون الأمر هكذا، فجمع المولى عبد الرحمٰن قبائل الحوز وقواده وقدم بهم إلى رباط الفتح، ولما لم يجدوا السلطان به تثاقلوا عن العبور مع المولى عبد الرحمٰن إلى بلاد الغرب، لأن السلطان إنما وعدهم أن يلقوه برباط الفتح، فكتب المولى عبد الرحمٰن إلى عمه يعلمه بصورة الحال، وكان السلطان رحمه قد استوزر في هذه المدة الفقيه أبا عبد الله أكنسوس فبعثه إلى المولى عبد الرحمٰن، وأصحبه مالاً يفرقه على جيشه لينشطوا للقدوم، وكان قدر المال خمسين أوقية لكل فارس، وأمره إذا قدم أرض سلا أن ينزل عند عاملها أبي عبد الله محمد بن أبي عزة المعروف بأبي جميعة، ويبعث للمولى عبد الرحمٰن ليعبر إليه في وجوه الجيش لقبض الصلة، ولا يذكر لهم سفراً، فإذا قبضوها فليقرأ عليهم كتابه، وكان مضمنه أنه يأمرهم بالقدوم عليه لقصر كتامة لقبض الكسوة

التي أتى بها من طنجة، وحينئذٍ يذهب معهم السلطان إلى الحوز، ففعل الوزير ذلك كله وتقدم المولى عبد الرحمٰن في جيشه إلى قصر كتامة.

قال الوزير المذكور: فلما جئنا القصر وجدنا السلطان لا زال مقيماً بطنجة، فتقدمت إليه وأعلمته بوصول المولى عبد الرحمٰن وجيشه إلى القصر، فخرج السلطان من طنجة وجعل طريقه على آصيلا، ولما بات بسوق الأحد بالغربية بعث إليه المولى المجذوب سيدي محمد بن مرزوق يدعوه للقدوم عليه والبيات عنده، فأجاب دعوته ودخل عليه وتبرك به، ومن هناك كتب إلى ابن أخيه المولى عبد الرحمٰن أن يتقدم بالجيش إلى العرائش ويلقاه به هنالك، ففعل المولى عبد الرحمٰن وهناك اجتمع بعمه السلطان المولى سليمان، فسر بمقدمه ودعا له بخير وأثنى عليه بمحضر أولئك الملأ من الناس، ثم دعا السلطان قواد الحوز فيهم القائد عبد الملك بن بيهي، والقائد علي بن محمد الشيظمي، والسيد محمد بن الغنيمي نائباً عن الحاج حمان العبدي، وكان في ركابه ابنه فضول بن حمان صغيراً، والقائد بلعباس بن المزوار الدكالي البوزراري، والحاج العربي بن رقية البوزراري، والقائد محمد بن حديدة البوعزيزي، والقائد المعطى الحمري، والقائد الصديق ابن الفقيه العمراني، ولم يكن فيهم من الرحامنة إلا الحاج المعطى بن محمد الحاج، ولم يكن فيهم من السراغنة ولا من الشاوية أحد، ولما اجتمعوا خرج عليهم السلطان وجلس على طنفسة، ثم دعا بالقائد عبد الملك بن بيهي فأجلسه إلى جنبه ودعا له بخير، ثم قال: إنكم تعبتم في سبيل الله ونحن أتعب منكم، ونسأل الله أن لا يضيع أجرنا وأجركم، واعلموا أنكم في طاعة الله وطاعة رسوله، ولكم المزية التامة، وقد وجب علينا الإحسان إليكم، وقد ظهر لي أنكم حين وصلتم إلى هذا المحل لا ينبغي لكم أن ترجعوا بدون زيارة مولانا إدريس، وكنت أردت أن أوجهكم إلى بلادكم من هنا ولكن أنا لا يمكنني أن أرجع إلا بعد أن يحكم الله بيني وبين هؤلاء الخارجين عن الحق، وأنتم لا يجمل بكم أن ترجعوا بغير سلطان، فاصبروا قليلاً وتمموا عملكم حتى تذهبوا إن شاء الله بسلطانكم فرحين مستبشرين،

فقالوا كلهم: سمعاً وطاعة لا نفارقك حتى نرجع بك ولو مكثنا عشر سنين، وعلى أثر هذا عقد السلطان لقائد خيل الجيش البخاري الحاج إبراهيم بن رزوق على مائتين من الخيل مفروضة من الحوزية والعبيد، وأمره أن يسير إلى تطاوين ويقيم بمرتيل، ويمنع أهلها من الوصول إلى المرسى ففعل، وارتحل السلطان من العرائش يريد فاساً في قبائل الحوز فمر ببلاد سفيان ونزل بسوق الأربعاء منها قرب ضريح سيدي عيسى بن الحسن المصباحي، فأصابه مرض هنالك وورد عليه الخبر بأن إبراهيم بن رزوق قد كاده صاحب تطاوين العربي بن يوسف حتى قبض عليه وعلى أصحابه وسلبهم وسجنهم، فآلم هذا الخبر السلطان وزاده إلى ما به من المرض، ثم أبل منه بعد أيام فنهض إلى فاس وعرج على طريق تازا، ولما بات بسوق الخميس بالكور من بلاد الحياينة أغارت عليه غياثة ومن شايعهم من أهل تلك النواحي، وكانوا قد دخلوا في بيعة أبي يزيد، فداروا بالمحلة ونضحوها بالرصاص فقام السلطان وجعل يسكن الناس بنفسه، ونهاهم عن الركوب والاضطراب فحفظ الله المحلة في تلك الليلة ولم يصب أحد من الناس ولا من الدواب وأصبحت قتلى العدو مصرعة حول المحلة، ثم دخل السلطان مدينة تازا فوفد عليه بها أهل الريف وعرب آنقاد والصحراء، وجعلوا يزدحمون عليه ليروا وجهه ويقولون: إنه والله للسلطان، لأن أهل فاس كانوا يشيعون موته، ويكتبون بذلك إلى القبائل، ثم تقدم السلطان إل فاس فنزل بقنطرة وادي سبو وذلك أواخر رجب سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف، وكان أهل فاس قد سئموا الحرب وعضهم الحصار وملوا دولة أبي يزيد، فاختلفت كلمتهم عند ما قدم السلطان، وهاجت الحرب داخل البلد بين شيعة السلطان وشيعة السعيد، فكثرهم شيعة السلطان وفتحوا الباب وخرجوا إليه بالأشراف والصبيان والمصاحف وتهافتوا على فسطاطه تائبين خاضعين، وجاء السعيد في جوار المولى عبد الرحمٰن بن هشام ومعه الأمين الحاج الطالب ابن جلون، فكان جواب السلطان لهم أن قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:92]، وكان رحمه الله قد رأى

وهو سائر إلى فاس رؤيا وهي أنه دخل فاساً وزار تربة المولى إدريس رضي الله عنه، وقلده سيفاً وصعد المنار وأذن، فكان من عجيب صنع الله أن فتح عليه فاساً ودخلها وزار المولى إدريس وأذن بمنارة على الهيئة التي رأى، وجاء رجل من أولاد البقال فقلده سيفاً تصديقاً للرؤيا، ولما دخل ضريح المولى إدريس وجد الشريف البركة سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني هنالك فعاتبه السلطان عتاباً خفيفاً وزال ما بصدره عليه، وانقطعت أسباب الفتن والحمد لله.

واعلم أن ما صدر من أهل فاس ومن وافقهم على هذه البيعة لا لوم عليهم فيه، وما كان من حق السلطان رحمه الله أن يبعث إليهم بذلك الكتاب الذي أوقعهم في حيص بيص، وكان سبباً لهذه الفتن، وقول أكنسوس: إن السلطان أراد تهييجهم على التمسك بطاعته كما فعل مع أهل مراكش ليس بشيء، أو ما علم السلطان رحمه الله كلام الكبراء خصوصاً الملوك مما تتوفر الدواعي على نقله؟ وأن العامة إذا نقلته وضعته غالباً في غير محله، وفي الصحيح: أن عمر رضي الله عنه بلغه وهو بمنى أن رجلاً قال: والله لو قد مات عمر لبايعنا فلاناً يريد رجلاً من غير قريش، فقال عمر رضي الله عنه: لأقومن العشية فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم، فقال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن الموسم يجمع رعاع الناس يغلبون على مجلسك، فأخاف أن يسمعوا منك كلمة فلا ينزلوها على وجهها، ويطيروا بها عنك كل مطير، فامهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فيحفظوا مقالتك، وينزلوها على وجهها، فقال عمر: والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة، الحديث، فانظر كيف منع عبد الرحمٰن عمر رضي الله عنه من الكلام بالموسم، وبمحضر العامة خوفاً من وقوع الفتنة وانقاد له عمر حيث علم أن ذلك هو الصواب، وكان وقافاً عند الحق، هذا والناس ناس والزمان زمان وفي خير القرون، فكيف في زمان قل علمه وكثر

جهله، وغاض خيره وفاض شره، وأمر السلطان متداع مختل والفتنة قائمة على ساق كما رأيت، فلهذا قلنا ما كان من حق السلطان أن يبعث بذلك الكتاب الموجه بمقصدين، المحتمل احتمالين، ولكن قضاء الله غالب.

ولما افتتح السلطان رحمه الله فاساً وصفاً له أمرها عزم على النهوض إلى تطاوين، فاستخلف على فاس وأعمالها ابن أخيه الفارس الأنجد، السري الأسعد، المولى عبد الرحمٰن بن هشام، لعدالته وكفايته وحسن سياسته، وأخذ معه المولى السعيد بن يزيد، وخرج في جيش الودايا والعبيد وقبائل الحوز أوائل شعبان سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف، فجعل طريقه على بلاد سفيان، ولما وصل إلى الموضع المعروف بالحجر الواقف بين نهري سبو وورغة، قدم عليه هنالك القائد أبو عبد الله محمد بن العامري اليحياوي في قومه بني حسن، والقائد أبو عبد الله محمد المعتوجي السفياني، وقاسم بن الخضر، في قومهما سفيان وبني مالك، وقدم عليه هنالك أولاد الشيخ أبي عبد الله سيدي العربي الدرقاوي صبية صغاراً يشفعون في أبيهم ليسرحه لهم فوصلهم وكساهم وقال لهم: والله ما سجنته ولا أمرت بسجنه، ولكن اتركوه فسيسرحه الله الذي سجنه فكان الأمر كذلك، فإنه بقي في السجن حتى توفي السلطان المولى سليمان وبويع المولى عبد الرحمٰن بن هشام فافتتح عمله بتسريحه، ولما نزل السلطان رحمه بمشرع مسيعيدة من نهر سبو وفد عليه أهل تطاوين تائبين ومعهم قائدهم العربي بن يوسف المسلماني، وكان الناس يظنون أنه ينكل به وبمن قام معه في الفتنة فلم يفل لهم إلا خيراً، حتى لقد قال له ابن يوسف: يا مولانا إن أهل تطاوين لم يفعلوا شيئاً، وإني أنا الذي فعلت، يريد أن يبرئهم ويفديهم بنفسه، فقال له السلطان رحمه الله: ما عندك ما تفعل أنت ولاهم، وإنما الفاعل هو الله تعالى وصفح عنهم وأحسن إليهم، ولما صفا أمر تطاوين ولم يبق ببلاد الغرب منازع انقلب السلطان راجعاً إلى الحوز وجد السير إلى مراكش فدخلها في رمضان من السنة المذكورة.

وقعة زاوية الشرادي وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله

هؤلاء الشراردة أصلهم من عرب معقل من الصحراء، وهم طوائف زرارة والشبانات، وهم الخلص منهم ويضاف لهم بعض أولاد دليم وتكنة وذوو بلال وغيرهم، وكانت منازلهم في دولة السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله غربي مراكش على بعض يوم منها، فنشأ فيهم الشيخ أبو العباس الشرادي من أهل الصلاح ومن أصحاب الشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي فاعتقدوه، وربما ناله بعض الإحسان من السلطان المذكور، ثم نشأ ابنه السيد أبي محمد بن أبي العباس، فجرى مجرى أبيه، وبنى الزاوية المنسوبة إليهم، واعتقده قومه أيضاً بل وغيرهم.

فقد ذكر صاحب نشر المثاني: أن السيد محمداً هذا لما قدم من الحج سنة سبع وسبعين ومائة وألف، اجتاز بمدينة فاس فاجتمع عليه ناس منها وتلمذوا له وبنوا له زاوية بدرب الدرج من عدوة الأندلس، وأثنى عليه وعلى أبيه فانظره، ثم جاء ابنه المهدي بن محمد فسلك ذلك المسلك أيضاً، ونشأ في دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله، واتخذ شيئاً من كتب العلم من غير أن يكون له فيه يد تعتبر، ثم تظاهر بمعرفة السيميا والحدثان فازداد ناموسه وتمكن من جهلة قومه، وربما نمى شيء من أمره إلى السلطان فتغافل عنه، ثم لما قدم السلطان رحمه الله مراكش هذه المرة وجد أمره قد زاد واستفحل، وكان الشراردة يومئذٍ قد حسنت حالهم فأثروا وكثروا، وكان السلطان قد ولى عليهم رجلاً منهم اسمه قاسم الشرادي، فحدث بينه وبين المهدي ما يحدث بين المرابطين وأرباب الولاية، وكان ربما التجأ جانٍ إلى زاوية المهدي فيقبض عليه القائد ويخرجه منها، فاستحكمت العداوة بين القائد وبين المهدي، ثم جرى شنآن بين المهدي وبين بعض قرابته ففر ذلك القريب إلى مراكش، وكان القائد قاسم بها فشكا إليه عمه المهدي، فاغتنمها

القائد ودخل على السلطان فشرح له حال المهدي وما هو عليه من التهور والسمو بنفسه إلى المحل الذي لا يبلغه، وأنه لا يستقيم أمر المخزن بتلك القبيلة معه، ولم يزل به حتى أعطاه السلطان مائتين من الخيل أغار بها على الزاوية فانتهبوها على حين غفلة من أهلها وجلهم غائب في أعماله، فتسامعوا بأن الخيل قد عاثت في ديارهم وجاؤوا على الصعب والذلول وأوقعوا بخيل المخزن واستلبوهم من خيلهم وسلاحهم وعادوا إلى مراكش راجلين فعظم ذلك على السلطان واغتاظ واتفق أن كان مع السلطان عامل مراكش أبو حفص عمر بن أبي ستة، وعامل الرحامنة القائد قاسم الرحماني، وكلاهما عدو للشراردة لا سيما الرحماني، فشنعوا في ذلك بمحضر السلطان وأسدوا وألحموا في غزو الشراردة وتأديبهم حتى لا يعودوا لمثلها، وفي أثناء ذلك ندم الشراردة على ما كان منهم وبعثوا إلى السلطان بالشفاعات وذبحوا عليه وعلى صلحاء مراكش فلم يقبل منهم، ويقال إن ذلك لم يكن يبلغ السلطان لأن النقض والإبرام إنما كان لعمر بن أبي ستة، وقاسم الرحماني، وكان السلطان رحمه الله كالمغلوب على أمره معهما، فلم يزالوا به حتى بعث إلى قبائل الحوز يستنفرهم لغزو الشراردة فاجتمعوا عليه، وكان معه جيش الودايا وكبارهم مثل الطاهر بن مسعود الحساني، والحاج محمد بن الطاهر، وغيرهما، ومعه القائد محمد بن العامري في بني حسن وغيرهم من قبائل الغرب.

ولم أجمع السلطان الخروج إليهم قدم أمامه قاسماً الرحماني إذ كان قد تكفل له بأن يكفيه أمر الشراردة وحده، فكان متسرعاً إليهم قبل كل أحد، فرابط بعين دادة ثمانية عشر يوماً والوسائط تتردد بين السلطان وبين الشراردة، وكادت كلمتهم تختلف إذ قام فيهم رجل مرابط اسمه الحبيب من أولاد سيدي أحمد الزاوية، وبعث نحو الأربعين من الشراردة إلى السلطان سعيا في الصلح، فأشار الرحماني وابن أبي ستة فيما قيل على السلطان بالقبض

عليهم، فقبض عليهم وحيزت خيلهم وسلاحهم فشرى الداء وأعوز الدواء، ثم زحف السلطان وانتشبت الحرب أول النهار، ولما اشتد الحر وكان الزمان زمان مصيف تحاجزوا، ثم عاد قاسم الرحماني فأنشب الحرب مع العشي، فكانت الدبرة عليه وقتل وحمل رأسه على رمح وانهزم جيش المخزن ووقع الفشل في المحلة، فتفرقت القبائل وباتوا لا يلوون على شيء، ولما طلع النهار لم يبق مع السلطان إلا جيش المخزن، فزحف الشراردة إلى المحلة ورأوا السلطان قد بقي في قلة فطمعوا فيه وأنشبوا الحرب، فانهزم الجيش الذين كانوا مع السلطان وتركوا المحلة بما فيها، فتوزعتها الشراردة شذر مذر، وانحاز السلطان في حاشيته وقصد مراكش، فلقيتهم في طريقهم ساقية ماء حبستهم عن المرور، وخالط الشراردة القوم الذين كانوا مع السلطان وجعلوا يستلبون من ظفروا به منهم، وتراكم المنهزمة على السلطان ولجؤوا إليه، وقتل الشراردة عمر بن أبي ستة خلف ظهره.

ولما رأى السلطان رحمه الله ذلك نادى في الناس أن لا يقتل أحد نفسه على ولا على هذه الأسلاب، أعطوهم منها ما شاؤوا، واجتمع نحو العشرين من كبار الشراردة وتقدموا إلى السلطان فقالوا: يا مولانا تحيز إلينا لئلا تصيبك العامة، فانحاز إليهم وكان راكباً على بغلته فالتفوا عليه وساروا به إلى زاويتهم، وأنزلوه بالدار المعروفة عندهم بدار الموسم، واحترموه وغدوا وراحوا في خدمته، وكان مع وصيفه فرجى صبياً صغيراً وهو الذي ولي إمارة فاس الجديد في دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام، وكان معه أيضاً عبد الخالق بن كريران الحريزي شاباً كما بقل عذاره، وبقي عندهم ثلاثة أيام، وحضرت الجمعة فصلاها عندهم وخطبوا به، ومن الغد ركبوا معه وصحبوه إلى مراكش إلى أن وصلوا إلى عين أبي عكاز فودعوه ورجعوا، ومما قال لهم عند الوداع: إن الذين أرادوا أن يفتحوا باب الفتنة على الناس قد سد الله أبوابها برؤوسهم، يعني الرحامنة وبعد وصول السلطان إلى مراكش

بيوم أو نحوه، عدا الرحامنة على محمد بن أبي ستة فقتلوه بسبب أن الشراردة كانوا قد أسروه ثم استحيوه واتخذوا عنده عهداً ويداً بأنه إذا أفضت إليه ولاية مراكش بعد أخيه عمر المقتول يحسن في إدارة أمرهم عند السلطان، فسمع الرحامنة بذلك فقتلوه.

قال صاحب الجيش: لما عزم السلطان على الخروج إلى زاوية الشرادي بعثني قبل ذلك بثلاث إلى السوس في شأن ابن أخيه المولى بناصر بن عبد الرحمٰن، وكان عاملاً عليها فكثرت الشكايات به إلى السلطان، فبعثني في شأنه قال: فلما جئت تارودانت تربصت قليلاً فلم يفجأنا إلا خبر الهزيمة على السلطان بالروايات المختلفة فقائل يقول إنه قد قتل، وآخر يقول إنه قد مات حتف أنفه، وآخر يقول لا بأس عليه، ثم ورد علينا كتابان من عند السلطان أحدهما بخط الكاتب مطبوعاً، والآخر بخط يده تحقيقاً لسلامته يقول فيه: إن هذه الحركة ما وقعت إلا لهلاك الظلمة والملبسين علينا، المظهرين للمحبة لنا، وهم في الباطن أعدى الأعادي مثل قاسم الرحماني، وفلان وفلان، وأما أولاد أبي ستة فقد قتل زرارة عمر على رائحة الرحامنة، وقتل الرحامنة محمداً على رائحة أهل السوس، والشريف سيدي محمد بن عبد الجليل الوزاني أصابته رصاصة رعاية رحمة الله عليه والحاصل هان علينا كسر الخابية بموت الفار، وقد أحسنت في التربص فاترك الأمر على طيته، واصحب معك أشياخ السوس، وعدهم منا بالإحسان ومساعدتهم على ما يطلبونه منا والسلام اهـ.

ولما دخل السلطان مراكش راجع القوم الذين انهزموا عنه بصائرهم وأقبلوا إليه خاضعين تائبين، وعلى أبوابه في العفو راغبين، فما وسعه إلا الإعراض عن أفعالهم الذميمة، وطاعتهم السقيمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم أمرهم بالتهييء لغزو برابرة الغرب فتوجهوا إلى بلادهم ليأتوا بحصصهم إلى عيد المولد الكريم فانقضى أجله رحمه الله.

وفاة أمير المؤمنين المولى سليمان بن محمد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة قد سئم الحياة ومل العيش، وأراد أن يترك أمر الناس لابن أخيه المولى عبد الرحمٰن بن هشام، ويتخلى هو لعبادة ربه إلى أن يأتيه اليقين، قال ذلك غير مرة، وتعددت فيه رسائله ومكاتيبه، فمما كتبه في ذلك هذه الوصية التي يقول فيها: الحمد لله لما رأيت ما وقع من الإلحاد في الدين، واستيلاء الفسقة والجهلة على أمر المسلمين، وقد قال عمر: إن تابعناهم تابعناهم على ما لا نرضى وإلا وقع الخلاف، وأولئك عدول وهؤلاء كلهم فساق، وقال عمر: فبايعنا أبا بكر فكان والله خير، وقال رسول الله ﷺ في حق أبي بكر: **«يأبى الله ويدفع المسلمون»**، ورشحه بتقديمه للصلاة إذ هي عماد الدين، وقال أبو بكر للمسلمين: بايعوا عمر وأخذ له البيعة في حياته فلزمت وصحت بعد موته، وقال عمر: هؤلاء الستة أفضل المسلمين، وقال رسول الله ﷺ: **«نعم العبد صهيب»**، وقال: **«أبو عبيدة أمين هذه الأمة»**، وقال: **«ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»**، وقال في أبي بكر وعمر أكثر من هذا، فصار المدح للتعريف واجباً، ولإظهار حال الرجل لينتفع به فأقول جعله الله خالصاً لوجهه الكريم: ما أظن في أولاد مولانا الجد عبد الله، ولا في أولاد سيدي محمد والدي رحمه الله، ولا أولاد أولاده، أفضل من مولاي عبد الرحمٰن بن هشام، ولا أصلح لهذا الأمر منه، لأنه إن شاء الله حفظه الله لا يشرب الخمر ويزني ولا يكذب ولا يخون، ولا يقدم على الدماء والأموال بلا موجب، ولو ملك ملك المشرقين، لأنها عبادة صهيبية، ويصوم الفرض والنفل ويصلي الفرض والنفل، وإنما أتيت به من الصويرة ليراه الناس ويعرفوه، وأخرجته من تافيلالت لأظهره لهم لأن الدين النصيحة، فإن اتبعه أهل الحق صلح أمرهم كما صلح سيدي محمد جده وأبوه حي، ولا يحتاجون إليّ أبداً ويغبطه أهل المغرب ويتبعونه إن شاء الله،

وكان من اتبعه اتبع الهدى والنور، ومن اتبع غيره اتبع الفتنة والضلال، وأحذر الناس أولاد يزيد كما حذر والدي، وقد رأى من اتبعه أو اتبع أولاده كيف خاض الظلمة ونالته دعوة والده وخرج على الأمة، وأما أنا فقد خفَّت قواي ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، حفظني الله في أولادي والمسلمين آمين، نصيحة وصية سليمان بن محمد لطف الله به اهـ.

وفي أثناء هذه المدة وقعت غدرة ذوي بلال في انتهابهم الصاكة الواردة من مرسى الصويرة، وكان انتهابهم إياها باتفاق من الشياظمة الذين جاؤوا معها، وقائدهم علي بن محمد الشيظمي هو الذي انتهب أكثرها، وكان فيها من الذخائر النفيسة والأموال الثقيلة شيء كثير، وهذه الوقعة هي التي هدت أركان السلطان المولى سليمان رحمه الله فاعتراه مرضه الذي كان سبب وفاته، ولما أثقله المرض أعاد العهد للمولى عبد الرحمٰن بن هشام وبعث به إلى فاس إذ كان خليفة بها كما مر، فدعا رحمه الله بصحيفة بيضاء ودعا بالطابع الكبير فجيء به ولم يحضره إلا أهله من النساء، فطبع الصحيفة بيده وكتب بعض الكتاب وأكملته بعض حظاياه ممن كانت تحسن الكتابة، ثم طواه وختم عليه ودعا القائد الجيلاني الرحماني الحويوي وكان قائد المشور وقال له: ادع لي فارسين يذهبان بهذا الكتاب إلى فاس وقد عينت لهما سخرة كبيرة يقبضانها هناك إذا أسرعا السير، فكان ذلك الكتاب هو العهد الذي قرىء بفاس، ونصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أخوالنا الودايا ورماة فاس وأعيانها ورؤساءها، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وعلى ابن عمنا الفقيه القاضي مولاي أحمد والفقيهين ابن إبراهيم والآزمي، وبعد فقد وجدت من نفسي ما ليس بتارك أحداً في الدنيا، وهذه وصية أقدمها بين يدي أجلي والله ما بقي في قلبي مثقال ذرة على أحد من خلق الله، لأن ذلك أمر قد قدره الله وسبق علمه به، ولست فيه بأوحد، وما وقع لمن قبلي أشنع وأفظع، وإني قد عقدت

بين أخوالي وأهل فاس أخوة بحول الله لاتنفصم يرثها الأبناء عن الآباء، وأوصي الجميع بما أوصى الله به الأولين، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟﴾ [النساء:131]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:7]، وبسنة رسول الله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، ولن تزال هذه الأمة بخير ما أخذوا بكتاب الله**»، وقد عهدت لابن أخي مولاي عبد الرحمٰن بن هشام ورجوت الله أن يكون لي في هذا الأمر مثل ما لسليمان بن عبد الملك في عهده لعمر بن عبد العزيز، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس:12] من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقد انعقد الإجماع على عقد البيعة بالعهد، والقاضي والفقيهان يبينون لكم هذا ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:59]، وإني أشهد الله أني مقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الرحمٰن بن هشام وببيعته ألقاه، وقد أديت لأمة رسول الله ﷺ ما علّي من النصيحة، وأرجو الله أن يثيبني بهذه النية الصحيحة وهو المطلع على ما في الضمائر، والعالم بالسرائر والسلام وفي رابع ربيع النبوي عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف اهـ.

ثم تمادى بالسلطان رحمه الله مرضه إلى أن توفي ثالث عشر ربيع الأول وهو الثاني من عيد المولد الكريم من السنة المذكورة، ومات رحمه الله ثابت الذهن صحيح الميز على غاية من اليقين والفرح بلقاء ربه، ودفن بضريح جده المولى علي الشريف بباب آيلان من مراكش، وقد رثاه جماعة من أدباء العصر من ذلك قول الفقيه الأديب الكاتب البليغ أبي عبد الله محمد بن إدريس الفاسي:

نبأ عرى أوهى عرى الإيمان ... وأبان حسن الصبر عن إمكان
شقت لموقعه القلوب وزلزلت ... أرض النفوس ورج كل مكان

فقد الإمام أبي الربيع المرتضى جزعت لعظم مصابه الثقلان
وبكت عيون الدين ماء جفونها وجداً عليه وكل ذي إيمان
لم نعى الناعون خير خليفة وعرا الفؤاد طوارق الأحزان
مزقت ثوب تجلدي من فقده ونثرت در الدمع من أجفاني
عجباً لموت غاله إذ لم يخف فتك الملوك وسطوة السلطان
وسما لمنصبه المنيف ولم يهب غضب الجنود وغيرة الأعوان
لو كان ينفع خاض فرسان الوغا حرصاً عليه مواقد النيران
وحموه بالنفس النفيسة إنما يحمون روح العدل والإحسان
لكن قضاء الله حم فلا يرى للمرء في دفع القضاء يدان
والموت مورد كل حي كأسه وسوى المهيمن في الحقيقة فان
إن غاب عنا شخصه فلقد ثوى فينا الثناء له بكل لسان
ومناقب ومفاخر ومآثر شاعت له في سائر الأوطان
ومعارف وعوارف ووسائل ومسائل قد أوضحت ومعاني
وبدور أولاد وآل قد قفوا آثاره في العلم والعرفان
تخذوا الديانة والصيانة شرعة وتقلدوا بصوارم الإيقان
أخلاقهم ووجوههم وأكفهم كالزهر والأزهار والأمزان
إن حاربوا أبدوا شجاعة جدهم أو خاطبوا أزروا على سحبان
من كل من جعل القران سميره وسما بوصف العلم والتبيان
كم آية ظهرت له وكرامة دامت دلائلها مدى الأزمان
قد كان أوحد دهره ولذاته في العدل والتمكين والإحسان
قد كان عالم عصره وفريده في الفهم والتحقيق والإتقان
قد كان فرداً في البلاغة إن جرت أقلامه بهرت بسحر بيان
من للعلى من بعده من للنهي من للتقى وتلاوة القرآن
يا رمسه ما ذا حويت من العلى وطويت من علم ومن عرفان

يا رمس كم واريت من كرم ومن ... جود ومن فضل ومن إحسان
يا رمس كم حجبت عنا شمسه ... وضياؤها في سائر البلدان
ووسعت بحر علومه وسخائه ... فطمى بضيق بطنك البحران
فلو استطعت جعلت قلبي قبره ... حبّاً وأحشائي من الأكفان
ولو أن عمري في يدي لوهبته ... وفديته بالأهل والإخوان
لكن يخفف بعض أثقال الأسى ... علمي به في جنة الرضوان
فسقى ثراه من المواهب ديمة ... وهمت عليه سحائب الغفران
ورد الرسول بموت خير خليفة ... وولاية العهد الرفيع الشان
فجزعت من حزن لما قد نابني ... وطربت من فرح بما أولاني
ما مات من ترك الخليفة بعده ... مثل المؤيد عابد الرحمٰن
ملك تسربل بالتقى حتى ارتقى ... من نهجه الأتقى على كيوان
يا واحداً في الفضل غير مشارك ... أقسمت ما لك في البرية ثان
لله بيعتك التي قد أشبهت ... فيما تواتر بيعة الرضوان
قد أحكمتها يد الشريعة والتقى ... بعرى النصوص وواضح البرهان
سعد الذي أضحى بها متمسكاً ... وهوى العنيد بهوة الخسران
وجرى على التيسير أمرك فاستوى ... ملك الورى لك في أقل زمان
وأتت لنصرتك المغارب كلها ... فبعيدها لك في الحقيقة داني
عقدوا على النصح القلوب وإنما ... عقدوا بنصرك راية الإيمان
لو شئت من أهل المشارق طاعة ... لأتوك من يمن ومن بغدان
هابتك أصناف الطغاة بزعمهم ... لما وثقت بنصرة الرحمٰن
وبسطت عدلك في الورى فكأنما ... قد عاش في أيامك العمران
يا أهل بيت المصطفى أوصافكم ... جلت عن الإحصاء والحسبان
طاب المديح مع الرثاء بذكركم ... فنظمته كقلائد العقيان

بقية أخبار السلطان المولى سليمان رحمه الله ومآثره وسيرته

لما بويع أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله رد الفروع إلى أصولها، وأجرى الخلافة على قوانينها بإقامة العدل والرفق بالرعية والضعفاء والمساكين، ومن وفور عقله وعدله إسقاط المكوس التي كانت موظفة على حواضر المغرب في الأبواب والأسواق، وعلى السلع والغلل وعلى الجلد وعشبة الدخان، فقد كان يقبض في ذلك أيام والده رحمه الله خمسمائة ألف مثقال معلومة مثبتة في الدفاتر مبيعة في ذمم عمال البلدان وقواد القبائل، كل مدينة وما عليها، ومن ذلك المكس كان صائر العسكر في الكسوة والسروج والسلاح والعدة والإقامة والخياطة والتنافيذ لوفود القبائل والعفاة والمؤنة للعسكر ولدور السلطان وسائر تعلقاته، فكان ذلك المكس كافياً لصوائر الدولة كلها ولا يدخل بيت المال إلا مال المراسي وأعشار القبائل وزكواتهم، وكان مستفاد هذا المكس يعادل مال المراسي وأعشار القبائل، فزهد فيه هذا السلطان العادل فعوضه الله أكثر منه من الحلال المحض الذي هو الزكوات والأعشار من القبائل وزكوات أموال التجار والعشر المأخوذ من تجار النصارى وأهل الذمة بالمراسي، وأما المسلمون فقد منعهم من التجارة بأرض العدو لئلا يؤدي ذلك إلى تعشير ما بأيديهم أو المشاجرة مع الأجناس هكذا بلغنا والله أعلم.

وكانت القبائل في دولته قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته، فصارت القبيلة التي كانت تعطي عشرة آلاف مثقال مضاربة أيام والده يستخرج منها على النصاب الشرعي عشرون وثلاثون ألف مثقال، وذلك من توفيق الله له وتمسكه بالعدل والحلم والجود والحياء وجميل الصبر وحسن السياسة والتأني في الأمور واجتنابه لما هو بضد ذلك.

فأما الحلم فهو دأبه وطبعه، وقد اتفق أهل عصره على أنه كان أحلم الناس في زمانه، وأملك لنفسه عند الغضب من أن يقع في الخطأ، ومذهبه

درء الحدود بالشبهات، والتماس التأويل وقبول العذر، حتى لقد حكى عنه أنه ما اعتمد البطش بأحد وتصدى لنكبته لغرض نفساني أو لحظ دنيوي، وحسبك من حلمه ما قابل به الخارجين عليه.

قال صاحب الجيش: لما عزمت على الخروج من فاس أيام الفتنة لملاقاة السلطان المولى سليمان بقصر كتامة، جئت إلى القاضي أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي لأودعه فكان من جملة ما أوصاني به قال: قل لمولانا السلطان يقول لك عباس: إنا نخاف إذا ظفرت بهؤلاء الظلمة أن تصفح عنهم، فلما اجتمعت بالسلطان أبلغته مقالة القاضي فقال: كيف أصفح عنهم وقد قال النبي ﷺ لأبي عزيز: لا أتركك تمسح سبلتك بمكة وتقول: خدعت محمداً مرتين، فلما فتح الله عليه فاساً كان جوابه أن قال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، بل تعجل بالخروج منها مخافة أن يغريه بعض بطانته بأحد منهم، فلعمري لقد صدق من قال: إن التخلق يأتي دونه الخلق.

وأما الدين والتقوى فذلك شعاره الذي يمتاز به ومذهبه الذي يدين الله به، من أداء الفريضة لوقتها المختار حضراً وسفراً، وقيام رمضان وإحياء لياليه بالإشفاع، ينتقي لذلك الأساتيذ ومشايخ القراء ويجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف وتفهمه والمذاكرة فيه على مر الليالي والأيام، ويتأكد ذلك عنده في رمضان، ويشاركهم بغزارة علمه وحسن ملكته، ويتناول راية السبق في فهم المسائل التي يعجز عنها غيره فيصيب المفصل، ويواظب على صيام الأيام المستحبة من كل شهر، ويعظم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ويرفع مناصبهم على سائر رجال دولته، ويجري عليهم الأرزاق ويعطيهم الدور المعتبرة، والضياع المغلة، ويحسن مع ذلك إلى من دونهم في المرتبة من المدرسين وطلبة العلم، ويؤثر المعتنين منهم وذوي الفهم بمزيد البر وتضعيف الجراية، حتى لقد تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم، وانتحال صناعتها لاعتزاز العلم وأهله في دولته وسعة أرزاقهم.

وأما صبره عند الشدائد واحتمال العظائم، وتجلده عند حلول الخطب ونزول المقدور، فحدث عن البحر ولا حرج، وعن الجبل سكوناً ورسوخ قدم.

قال صاحب البستان: ولو حدثنا بما شاهدناه منه لكان عجباً. وأما العدل فإنه ما رئي في ملوك عصره أعدل منه، ومن عجيب سيرته أنه كان يلزم العمال رد ما يقبضونه من الرعايا على وجه الظلم من غير إقامة بينة عليهم على ما جرى به عمل الفقهاء من قلب الحكم في الدعوى على الظلمة وأهل الجور حسبما ذكره الونشريسي وغيره، ومن عدله واقتصاده ما حكاه لنا الفقيه أبو العباس أحمد بن المكي الزواوي المؤقت بالمسجد الأعظم من سلا قال: مر السلطان المولى سليمان بسلا سنة ست وثلاثين ومائتين وألف فنزل برأس الماء واستدعاني للقيام بوظيفة التوقيت عنده قال: فدخلت عليه فإذا هو رجل طويل أبيض جميل الصورة، ففاوضني في مسائل من التوقيت وكان يحسنه فأجبته عنها فأعجبه ذلك، ثم وصلني بضبلونين وأخرج مجانته من جيبه ليحققها فرأيت مجدولها من صوف، ثم حضرت صلاة العصر فتقدم وصلى بنا فرأيت سراويله مرقعة، وكان إمام صلاته الراتب هو الفقيه السيد الحاج العربي الساحلي، لكنه صلى بنا تلك الصلاة، ولما فرغنا من الصلاة وانقلبنا إلى منازلنا جيء بالطعام وهو قصيعة من الكسكس عليها شيء من اللحم والخضرة، وليس معها غيرها قال: وكانت عادة المولى سليمان في السفر أن لا يتخذ كشينة أي مطبخاً إنما هو طعام يسير يصنع له ولبعض الخواص مما يكفي من غير إسراف، حتى أن الكتاب كانوا يقبضون ست موزونات ويعولون أنفسهم، وكانت أقواتهم وأزوادهم خفيفة اهـ.

وأما سياسته الخاصة في جبر القلوب، واستئلاف الشارد، وتسكين المرتاب، وإرضاء الولي، ومجاداة العدو، والدفاع بالتي هي أحسن عند اشتباه الأمور، ومعاناة الرجال بوجوده المكائد والحيل في الأمور التي لا ينفع فيها حرب ولا قوة فشيء لا يبلغ فيه شأوه ولا يشق غباره.

وأما عادته في الحرب فقد أخذ فيها بسيرة العجم بحيث لا يباشر

الحروب بنفسه، ويعمل بعمل أهل الصدر الأول فيقف في قلب الجيش كالجبل الراسي، وأمراؤه يباشرون الحروف بأنفسهم في الميمنة والميسرة، وهو ردء لهم كلما رأى فرجة سدها أو خللاً أصلحه، وهو كالصقر مطل على حومة الوغا، فإذا أمكنته فرصة انتهزها، ومن شدة ثباته وعدم تزحزحه أنه كان لا يركب وقت الحرب إلا البغلة، وبذلك جرى عليه في وقعة ظيان والشراردة ما جرى فكان حماته يفرون عنه بلا حياء ويبقى هو ثابتاً رحمه الله.

وأما جمعه لأشتات العلوم فلقد كان وارثاً من ورثة الأنبياء، حاملاً للواء الشريعة جامعاً مانعاً، إذا بوحث في الأخبار كان كجامع سفيان، أو في الأشعار فكنابغة ذبيان، أو في الفطنة والفراسة فكإياس، أو في النجدة والرأي فكالمهلب، وإذا خاض في السنة والكتاب أبدى ملكة مالك وابن شهاب، ولو تصدى في الفقه للفتيا والتدريس لم يشك سامعه أنه ابن القاسم أو ابن إدريس، وإذا تكلم في علوم القرآن أنهل بما يغمر مورد الظمآن.

قال صاحب البستان: ولا يعرف مقدار هذا السلطان إلا من تغرب عن الأوطان، وحمل عصا التسيار، ورمت به في الأقطار الأسفار، وشاهد سيرة الملوك في العباد، وما عمت به البلوى في سائر البلاد، ولا يتحقق أهل المغرب بعدله إلا بعد مغيبه وفقده.

المرء ما دام حيا يستهان به ويعظم الرزء في حين يفتقد

ومن آثاره الباقية وبناءاته العادية فبفاس المسجد الأعظم بالرصيف الذي لا نظير له، كان حفر أساسه المولى يزيد واشتغل عنه وتركه فافتتح هو عمله ببنائه وتشييده وأبقاه ديناً على الملوك، وبنى مسجد الديوان، كان صغيراً فهدمه وزاد فيه أملاكاً وجعله مسجداً جامعاً تقام فيه الجمعة، وبنى مسجد الشرابليين زاد فيه ووسعه وجعله مسجداً جامعاً كذلك، وبنى مسجد الشيخ أبي الحسن بن غالب وضريحه وبنى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الوهاب التازي، وهدم مدرسة الوادي ومسجدها لتلاشيهما وجددهما على شكل آخر، وجدد المدرسة العنانية وأصلح مسجد القصبة البالية وبيضه بالجص وزلجه، وبنى باب الفتوح على هيئة ضخمة، وباب بني مسافر والباب الجديد

على براح أبي الجلود، وبنى القنطرة على الوادي بينهما، وجدد قنطرة الرصيف مرتين، وأصلح قنطرة وادي سبو، وأصلح طرقات فاس الجديد كلها من داخل وخارج ورصفها بالحجارة، وأصلح أبواب فاس الجديد كلها ورمم ما تلثم منها، وجدد قصور الملك الخربة بها وزاد غيرها وأمر بتبييض مساجد الخطب وتبليط أرضها، وبنى مسجد صفرو وجدد أسواره، وبنى لأهله حماماً به، وبنى مسجد المنزل ببني يازغة، وبنى مسجد وجدة وحماماً بها، وأصلح قلعتها ودار إمارتها، وبنى مسجد وازان ومسجد تطاوين وأخرج أهل الذمة من جواره وبنى لهم حارة بطريق المدينة، وبنى الصقائل والأبراج بطنجة، وجدد مسجد آصيلا وأسوارها، وجدد قصور الملك بمكناسة بعد تلاشيها وأصلح القناطر التي بين فاس ومكناسة، وبنى قنطرة على وادي سيدي حرازم بخولان، وبنى مسجد الجزارين بسلا ووقف عليه أوقافاً تقوم بمصلحته وأخرج يهودها من وسط البلد من حومة باب حسين، وبنى لهم حارة على حدتها غربي البلد، وبنى المسجد الأعظم بحومة السويقة من رباط الفتح وبنى دار البحر لنزوله، وبنى قنطرة وادي حصار بتامسنا، وبنى مسجد أبي الجعد بتادلا، وبنى قنطرة وادي أم الربيع وقنطرة تانسيفت بمراكش بعد سقوطها وبنى المسجد الأعظم الذي كان أسسه علي بن يوسف اللمتوني بمراكش وبناه بناء ضخماً وأزال منارته التي كانت به قديماً، وشيد منارة أخرى بديعة الحسن رائقة الصنعة، وأكمل مسجد الرحبة الذي كان أسسه والده رحمه الله ومات قبل تمامه، وجدد قصور والده بمراكش وأصلحها وصان القصبة وعمرها، ثم ختم رحمه الله ديوانه بالحسنة العظيمة، والمنقبة الفخيمة، وهي عهده بالخلافة لابن أخيه المولى عبد الرحمٰن بن هشام على كثرة أولاده ووجود بعض إخوته، ولعمري أن هذا العهد لمنقبة جليلة للعاهد والمعهود إليه، أما العاهد فإنا لم نسمع بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأحد من خلفاء الإسلام وملوكه عدل بولاية العهد عن ولده المستحق لها إلى غيره حتى كان هذا الإمام الجليل، الذي أحيا سيرة العمرين، نعم قد عهد سليمان بن عبد الملك لابن عمه عمر بن عبد العزيز

رحمهما الله، لكن حكى ابن الأثير أن سليمان لما حضرته الوفاة عزم أن يعهد لابن له صغير فوعظه رجاء بن حيوة فرجع عن ذلك وشاوره في ابنه داود وكان غازياً بالقسطنطينية فقال له رجاء: لا تدري أحي هو أم ميت، فحينئذٍ رجع إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وأما المعهود إليه فإن في العهد إليه دون الأبناء والإخوة شاهداً عدلاً على كمال فضله وإحرازه لخلال الخير وتبريزه فيها على من عداه من بني أبيه وعشيرته، ولعمري أن ذلك لكذلك فإن المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله قد اشتهرت ديانته وأمانته عند القاصي والدان، حتى صار لا يختلف في عدالته اثنان.

تم الجزء الثامن ويليه الجزء التاسع

وأوله

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن بن هشام

فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف الدال

حرف (ذ)

حرف (ر)

حرف (ز)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف الكاف

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (ي)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (ج)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ظ)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

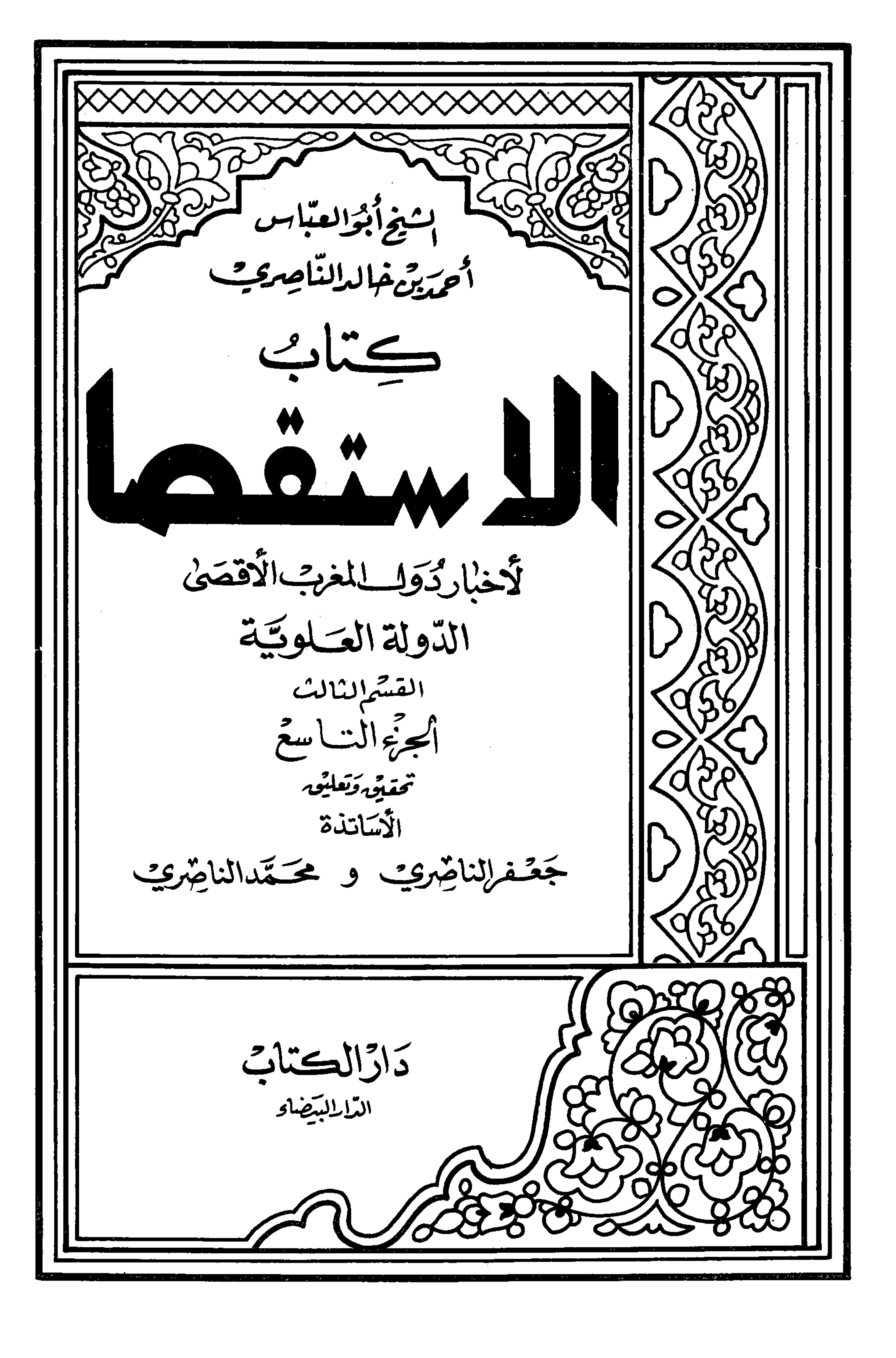
حرف (ك)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (و)

حرف (ي)



الشيخ أبو العبّاس
أحمد بن خالد النّاصري

كتاب الاستقصا
لأخبار دول المغرب الأقصى

الدّولة العلويّة

القسم الثالث

الجزء التاسع

تحقيق وتعليق
الأساتذة
جعفر الناصري و محمّد الناصري

دار الكتاب
الدار البيضاء

ساحة المسجد المحمدي
الدار البيضاء

1418هـ/ 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي
1399/96

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الدولة العلوية

القسم الثالث

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن بن هشام وأوليته ونشأته

كان المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله منذ نشأ وهو متمسك بالتقوى والعفاف متصف بالصيانة وجميل الأوصاف من الانقباض عن الخلق وملازمة العبادة والصوم وقيام الليل وترك ما لا يعني والجد في الأمور كلها حتى عرفت له هذه الشنشنة وتطابقت على حبه ومدحه القلوب والألسنة ولما نشأ هذه النشأة الطيبة أقبل عليه عمه السلطان المولى سليمان رحمه الله وضمه إليه واعتنى بشأنه ورفع منزلته حتى علا أولاده ولما بعث أولاده إلى الحرمين الشريفين بقصد أداء فريضة الحج بعثه في جملتهم فظهر له في تلك السفرة من الورع والدين والتمسك بأسباب اليقين ما رفع قدره وأشاع بالصلاح ذكره وكان السلطان رحمه الله قد أعطاه بضاعة ينفقها في سفرته تلك ويستعين بها على حجه فلما آب من سفره أتى بالبضاعة إلى عمه وقال له: يا سيدي: «هذه البضاعة التي أعطيتني إنما أخذتها لأنفق منها إذا نفذ ما عندي، وكانت معي بضاعة جمعتها بقصد إنفاقها في هذه الوجهة، ولم أرد أن أخلطها بغيرها، وقد حصلت الكفاية بها والحمد لله». فعجب عمه من شأنه وازداد محبة وغبطة فيه ورد له البضاعة وطيبها له ودعا له بخير. وكان في أول أمره مقيماً بتافيلالت ثم استقدمه السلطان المولى سليمان في آخر عمره وولاه بثغر الصويرة وأعمالها

فقام بذلك أحسن قيام ثم استقدمه منها في فتنة ابني يزيد كما مر واستخلفه على حاضرة المغرب وأم أمصاره مدينة فاس فقرت بولايته العيون وطابت الأنفاس كل ذلك فعله به ترشيحاً للأمر وتقديماً له فيه على زيد وعمرو.

بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى سليمان لما حضرته الوفاة جدد العهد لابن أخيه المولى عبد الرحمٰن بن هشام وبعث به إلى فاس ثم كانت وفاة السلطان عقب ذلك فوصل خبر وفاته إلى فاس في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف فحضر القاضي الشريف المولى أحمد بن عبد الملك والعلامة المفتي أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم والتاجر الأمير الحاج الطالب ابن جلون وسائر أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم وحضر أعيان الودايا وقوادهم ولما قرئ العهد ترحموا على السلطان المولى سليمان وبايعوا للسلطان المولى عبد الرحمٰن وسلموا عليه بالخلافة وتم أمره وسرَّ الناس بذلك خاصة وعامة ثم ترادفت على حضرته بيعة أهل الديوان وسائر الجنود وحل من الملك العزيز في فلك السعود وكتبت البشائر بذلك إلى البلدان فوفدت بيعات أهل الأمصار وهداياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستبشر أهل المغرب بولايته وبان لهم مصداق يمنه وسعادته بتوالي الأمطار ورخص الأسعار والعافية آناء الليل وأطراف النهار، ولما تمت هذه البيعة المباركة وحصل ما ذكرنا من الأمن والعافية وحسن الحال والرفاهية، استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الأديب أبا عبد اللّه محمد بن إدريس الفاسي فقال:

مولاي بشراك بالتأييد بشراكا قد أكمل الله بالتوفيق سراكا
الفتح والنصر قد وافاك جيشهما والسعد واليمن قد حيا محياكا
الله ألبسك الإقبال تكرمة وبالتقى والنهى والعلم حلاكا
فراسة الملك المرحوم قد صدقت لما تفرس فيك حين ولاكا

أعدت للدين والدنيا جمالهما ... فأصبحا في حلى من حسن مغناكا
وزادك الغيث غوثاً في سحائبه ... فجاد بالقطر قطراً فيه مأواكا

ثم وردت على السلطان تهنئة عالم إفريقية ومفتيها وأديبها الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي بقصيدة يقول فيها:

نصر من الرحمٰن جل لعبده ... أيروم خلق نقض مبرم عقده
وعدت به الأقدار وهي نوافذ ... لا تحسبن الله مخلف وعده
والله أعلم حيث يجعل نصره ... في الشاكرين له سوابغ رفده
فلتبسم ثغر الهنا مستبشراً ... فالوقت ينطق عن سعادة جده
أن يمض مولانا سليمان الرضا ... وعليه تبكي الباكيات لفقده
العلم والتقوى وكل فضيلة ... منشورة طويت به في لحده
فلقد أقام لنا أبا زيد هدى ... نوراً مبيناً يستضاء برشده
لو لم يكن كفئاً لما أوصى به ... وبنوه ترفل في ملابس مجده
سعدت به الأيام ثم أراد أن ... تبقى السعادة للورى من بعده
أعظم به نصراً يدوم سروره ... للخافقين سرى تضوع رنده
أهدى إلى الأعداء أقتل غصة ... والأوليا متنعمون بشهده
فاستبشروا باليمن من مرضاته ... واستمطروا نيل المنى من وده
ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى ... في الناس يعدل عن مكارم جده
وتناسقت أسلافه كرماً كما ... راق النواظر لؤلؤ في عقده
لا غرو أن جمع المحاسن كلها ... منهم فإرث الجمع حق لفرده
لا يأفك الخراص حيث يقول قد ... ذهب الزمان بعمره وبزيده
فبسيف ما ننسخ يقد أديمه ... حتى ولو وفى العيان برده
فلكم وكم من آخر زمناً له ... فضل عظيم لا يحاط بسرده
يا أهل فاس والمغارب كلها ... والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فإن في ... أيامه للدين مطلع سعده
والعلم والتقوى وكل معظم ... عند الشريعة فهو بالغ قصده
النور أوقد منهم أتراهم ... يرضون إلا باستدامة وقده

الله يبقي نوره متوقداً يفنى الزمان ولا فناء لخلده
ويخص مولانا الأمير بنعمة لا تنقضي وعناية من عنده
ويديمه ظلاً وريفاً كلما حمي الورى هرعوا لجنة برده
وحسام فتح كلما نهضت به عزماته فالنصر شاحذ حده
وتمام بدر كلما اقتعد السرى لم يسر إلا في منازل سعده
وعليه تسليم تأرج نده لكنه في الفضل عادم نده
ثم الصلاة على النبي وآله والحمد في بدء الكلام وعوده

اجتماع البربر على بيعة السلطان المولى عبد الرحمٰن بن هشام والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن البربر بعد وقعة ظيان اتفقوا على مناوأة السلطان ومنابذته، وأنهم صاروا يداً واحدة عليه، وعلى كل من يتكلم بالعربية بالمغرب. فلما توفي السلطان المولى سليمان وبويع السلطان المولى عبد الرحمٰن زاد البربر ذلك الحلف توكيداً وشدة، وأعدوا لعصيانهم واعوجاجهم أكمل عدة، لا سيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازي الزموري فإنه لما فعل فعلته في وقعة ظيان من جرة الهزيمة على المولى سليمان ثم عززها بأختها من بيعته للمولى إبراهيم بن يزيد، والإجلاب فيها بالقريب والبعيد، خاف أن يأخذه بذلك من يأتي بعده من بني أبيه وعشيرته، فجد في صرف وجوه البربر عن السلطان واستعان في ذلك بأبي بكر مهاوش فروض له رؤساء البربر حتى اجتمعت كلمتهم على أن لا يتركوا بأرض المغرب ذكراً للسلطان وحزبه، وربما شايعهم على ذلك بعض غواة العرب مثل الصفافعة والتوازيط من بني حسن وزعير وجل عرب تادلا، فلما أراد الله سبحانه نقض ما أبرموا ونثر ما جمعوا من ذلك ونظموا، جعل لذلك سبباً وهو أن الشيخ أبا عبد اللّه الدرقاوي كان مسجوناً عند الودايا كما تقدم في أخبار فتنة ابني يزيد واستمر في السجن

إلى أن بويع المولى عبد الرحمٰن، وكان ابن الغازي من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير فوفد عليه أولاد الشيخ ونزلوا عليه لكي يسعى في تسريح والدهم وألحوا عليه فلم يجد بداً من إظهار الطاعة للسلطان والدخول في الجماعة، فوفد على السلطان في جمع من وجوه قومه بهديتهم وبيعتهم، فلما رأى باقي البربر الذين حالفوه من آيت أدراسن وجروان أنه قدم على السلطان ظهر لهم خيانته فنبذوا ذلك العهد وسارعوا إلى بيعة السلطان وخدمته بأموالهم وأنفسهم، فقدم عليه الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت أدراسن في وجوه قومه وأدى الطاعة، ودخل في حزب الجماعة، وعليه وعلى ابن الغازي كان يدور أمر البربر في ذلك الوقت، فخذل الله فيما بينهم وجمع كلمتهم على السلطان من غير ضرب ولا طعن ولا إيجاف بخيل ولا رجل، فقابلهم السلطان بغاية الإحسان لا سيما ابن الغازي فإنه استخلصه وجعله عمدة رأيه وعيبة سيره حتى كان لا يقطع أمراً دونه بعد أن سرح له الشيخ أبا عبد اللّه الدرقاوي رحمه الله.

ثم إن السلطان زوج ابن الغازي بإحدى حظايا عمه السلطان المرحوم وهي ابنة القائد عمر بن أبي ستة، فعلا قدر ابن الغازي في الدولة بذلك واطمأن إلى السلطان بعد أن كان يسايره على أوفاز، وذهب معه إلى مراكش مرتين حسبما نذكره بعد إن شاء الله.

نهوض السلطان المولى عبد الرحمٰن لتفقد أحوال الرعية ووصوله إلى رباط الفتح

لما فرغ السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله من أمر الوفود والتهاني بحضرة فاس التفت إلى النظر في أحوال الرعية وتثقيف أطراف المملكة، فولى على فاس وصيفه أبا جمعة بن سالم الذي كان بواباً على الدار الكبرى بفاس الجديد، ثم لما عزم على السفر عزله وولى مكانه ابن عمه سيدي

محمد بن الطيب، ثم نهض من فاس الجديد بقصد تفقد الممالك فجعل طريقه على بلاد سفيان، وسار حتى وصل إلى قصر كتامة وعسكر هنالك بالكدية الإسماعيلية، وبها وفد عليه المولى عبد السلام ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله في جماعة من الأشراف والكتاب فيهم أبو عبد اللّه أكنسوس، وكان المولى عبد السلام المذكور قد قدم من تافيلالت إلى مراكش عقب وفاة والده بقصد أخذ البيعة على أهل مراكش لأخيه المولى عبد الواحد بن سليمان وكان قد بويع بتافيلالت وأعطوه صفقة أيمانهم، فلما صادف المولى عبد السلام الأمر قد تم للسلطان المولى عبد الرحمٰن واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه سقط في يده فأعرض عما جاء لأجله وتدارك أمره عند السلطان بالوفادة عليه والدخول في بيعته.

قال أكنسوس: لما قدمنا على السلطان المولى عبد الرحمٰن من مراكش إلى قصر كتامة أمر بإدخالي عليه لشدة تشوفه إلى أخبار السلطان المرحوم. المولى سليمان، فدخلت عليه وجلست بين يديه نحو ساعتين، وسألني عن كل شاذة وفاذة قال: ثم دخلت عليه بعد صلاة المغرب وسألني عن بقية الأخبار ثم ذكر أولاد عمه السلطان المرحوم وقال: والله لا يرون مني إلا الخير، ثم بعد يومين أو ثلاثة نهض إلى رباط الفتح فاستقر بها ثم وفدت عليه قبائل الحوز ورؤساؤها فعيد هنالك عيد الفطر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف، ثم رجع إلى فاس ومعه أعيان قبائل الحوز الذين وفدوا عليه ولما احتل بفاس قدم عليه عمه المولى موسى بن محمد مع جماعة من أهل مراكش وفيهم المولى عبد الواحد بن سليمان المبايع بسجلماسة فأكرمهم وأجلهم ولم يلم أحداً من شيعة المولى عبد الواحد ولكن عفا وصفح وقابل بالإحسان، ثم ولى على مراكش ابن عمه المولى مبارك بن علي بن محمد وبعثه في صحبتهم فقدمها وتصرف في أمرها إلى أن كان منه ما نذكره، ثم أمر السلطان رحمه الله بشراء دار أبي محمد عبد السلام شقشاق الفاسي وكانت مجاورة لقبة المولى إدريس رضي الله عنه بينها وبين القيسارية، ثم

أمر بهدمها وزيادتها في مسجد المولى إدريس رضي الله عنه وجمع الصناع والعملة على ذلك فتأنقوا فيه ما شاؤوا حتى جاء أحسن من المسجد القديم، وكان الذي تولى القيام على ذلك الشريف المولى الهاشمي بن ملوك البلغيني فكمل ذلك في مدة يسيرة على غاية من الإبداع والإتقان، وكتب الله أجر ذلك في صحيفة السلطان، وفي هذه المدة توفي الشيخ الأكبر العارف الأشهر أبو عبد اللّه سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي رضي الله عنه، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف، ودفن يوم الثلاثاء بأبي بريح من بلاد غمارة وقبره شهير، وكان رضي الله عنه عجيب الحال كبير الشأن ورسائله موجودة في أيدي الناس وله فيها نفس مبارك نفعنا الله به وبأمثاله.

خروج السلطان المولى عبد الرحمٰن إلى مكناسة ونقله آيت يمور إلى الحوز ومسيره إلى مراكش

لما سافر السلطان المولى عبد الرحمٰن السفرة الأولى إلى رباط الفتح كان قصده أن ينظر في أحوال الرعايا وما هي عليه حتى يكون على بصيرة فيما يأتي ويذر من أمرها، ثم لما عاد إلى فاس استعد الاستعداد التام بقصد تدويخ المغرب وتمهيد أقطاره ولم شعثه وتدارك رمقه إذ كانت الفتنة أيام الفترة قد أحالت حاله وكسفت باله، وكان المولى مبارك بن علي صاحب مراكش قد استولت عليه بطانة السوء وكثرت به الشكايات إلى السلطان، فعزم السلطان رحمه الله على إعمال السفر إلى مراكش فخرج من فاس وقصد أولاً مكناسة فلما دنا منها خرج العبيد إلى لقائه بالأعلام مرفوعة على العصي وكانوا جماعة يسيرة فقال لهم السلطان رحمه الله: أين جند عبيد البخاري فقالوا: هذه البركة التي أسأرتها الفتنة وعلى الله ثم عليك الخلف، فدخل السلطان رحمه الله مكناسة وتفقد بيت مالها فألقاه أنقى من الراحة ووجد العبيد على غاية من القلة والخصاصة حتى لقد باعوا الخيل والسلاح وأكلوا

أثمانها، فأنعشهم وجدد رسمهم وقواهم بالخيل والسلاح والجرايات حتى صلح أمرهم وذهب فقرهم.

قال صاحب الجيش: وحاصل الأمر أن هذا السلطان رحمه الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزاهز، وصارت بعد حسن الشبيبة إلى قبح العجائز، قد تفانت رجالها وضاق مجالها، وذلك من وقعة ظيان إلى موت السلطان المولى سليمان، فلما جاء الله بهذا السلطان المؤيد لم يجد بها إلا رمقاً قليلاً وخيالاً عليلاً قد وهت دعائمها، وأشرفت على الانهدام المفضي إلى حالة الانعدام، فأمده الله بضروب السعادة الخارقة للعادة، فقام بأعبائها بلا مال ولا رجال والعناية من الله تساعده، والفشل يباعده، حتى أقام بناء الملك الإسماعيلي على أساسه، ورد روحه إلى الجسد بعد خمود أنفاسه، ولما قضى رحمه الله أربه من مكناسة صرف عزمه إلى آيت يمور وكانوا نازلين بجبل سلفات وبالولجة الطويلة من عهد السلطان سيدي محمد رحمه الله فعفوا وكثروا وأطغاهم نزولهم بتلك الأرض العجيبة، ذات المزارع الخصيبة، فأضروا بجيرانهم من أهل زرهون وأهل الغرب وغيرهم، فأمر السلطان رحمه الله القائد أبا عبد اللّه محمد بن يشو المالكي العروي أن يحتال في كيادهم والإيقاع بهم ففعل وقبض على نحو الأربعمائة منهم وبعث بهم إلى السلطان، ثم نقلهم السلطان إلى حوز مراكش وسار إلى رباط الفتح فاحتل به وعقد لأخيه المولى المأمون بن هشام على مراكش وولاه عليها مكان المولى مبارك بن علي.

ثم خرج السلطان من رباط الفتح قاصداً مراكش فمر بقبائل الشاوية وساس أمرهم بما اقتضاه الحال، وقتل الهاشمي بن العباس الزياني، وكان هذا قد قتل قائد الشاوية أبا إسحاق إبراهيم الوراوي احتال عليه بأن دعاه للاصطياد فلما خلا به رماه برصاصة فقتله بالموضع المعروف بتادارت قرب مديونة، فأمر السلطان رحمه الله بالهاشمي أن تضرب عنقه بذلك الموضع وذلك بعد أن ولاه على قبيلته مدة، ثم مر بقبائل دكالة فأوقع بالعونات وتقدم إلى مراكش، فلما دخلها بعث من جاء بمحمد بن سليمان الفاسي موقد نار

فتنة إبراهيم بن يزيد، فأتي به من سجن الجزيرة فضربت عنقه ونصب رأسه على باب الخميس من مراكش، وكان مسجوناً معه أبو عبد اللّه محمد الطيب البياز الفاسي فأخرجه السلطان من السجن ومنَّ عليه إذ لم يكن على مذهب ابن سليمان بل كان صاحب مروءة وجد في الأمور ولذلك استخدمه السلطان رحمه الله فجعله أميناً على مرسى طنجة أولاً، ثم ولاه على فاس ثانياً والله تعالى أعلم.

نكبة ابن الغازي الزموري وما آل إليه أمره

قد قدمنا أن الحاج محمد بن الغازي الزموري كان قد بايع السلطان المولى عبد الرحمٰن وسعى في سراح الشيخ أبي عبد اللّه الدرقاوي رضي الله عنه وأن السلطان استخلصه وصاهره بإحدى حظايا عمه المولى سليمان رحمه الله لما وصل معه إلى مراكش، ثم اضطرب كلام أكنسوس في أن السلطان قبض على ابن الغازي في أول قدمة قدمها معه إلى مراكش أو بعدها، وكان السبب في ذلك أن ابن الغازي المذكور كانت له دالة على السلطان قد جاوزت الحد الذي ينبغي أن تسير به الرعية مع الملوك، وكانت عادته أن يحضر بالغداة والعشي إلى باب السلطان كغيره من كبار الدولة ووجوهها على العادة في ذلك فلما كان في بعض الليالي وهو راجع إلى منزله رصده بعض العبيد بالطريق فرماه برصاصة فأخطأه فوصل إلى منزله وقد ارتاب بالسلطان فمن دونه من أهل الدولة وحملته دالته على أن أطلق لسانه وأبرق وأرعد وتألى وأوعد، وبلغ ذلك السلطان فأغضى له عنها ثم أفضى به التهور إلى أن انقطع عن الحضور بباب السلطان غضباً على الدولة، فأطال له السلطان الرسن كي يرجع فلم يرجع، وبلغ السلطان أنه يحتال في الفرار فعاجله بالقبض عليه وبعث به إلى جزيرة الصويرة التي هي سجن أهل الجرائم العظام فسجن بها مدة، ثم أصبح ذات يوم ميتاً وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف على ما قيل.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان رحمه الله وبني جنس الصاردو وهي ثمانية وعشرون شرطاً كلها ترجع إلى تمام الصلح ودوام الأمن والمجاملة في التجارات وسائر أنواع المخالطات، والثالث عشر منها يتضمن لزوم مراكب المسلمين أن تعمل الكرنتينة إن تعين موجبها عند دخول مرسى من مراسي الصاردو وكذلك هم أيضاً.

ولاية الشريف سيدي محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة وأعمالها

كان السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قد ولى ابن عمه الشريف سيدي محمد بن الطيب بن محمد بن عبد اللّه على فاس فأقام بها مدة ثم ولاه على قبائل تامسنا ودكالة بأسرها وفوض إليه النظر في أمرها، وكان سيدي محمد هذا ذا شدة وشكيمة على العصاة دوسري البطش حجاجي السيف، وكان قد اتخذ كلاباً ضخاماً تسميها العامة القناجر يوهم الناس أنه إذا عضب على أحد ألقاه إليها فتفترسه، وكان ربما جيء إليه بالجاني فيقوم إليه ويباشر ذبحه بيده حتى لقد حز أصبعه في ذبحه لبعض الجناة فقدم سيدي محمد هذا تامسنا وأوقع بأولاد حريز وقعة شنعاء، فقبض على جماعة كبيرة منهم وضرب منهم نحو مائتي رقبة وهدم قصبة كريران الحريزي المسماة بمرجانة فتسامعت القبائل بسطوته فذعروا واقشعرت جلودهم لهيبته، ثم زحف إلى دكالة ومعه بعض مساجين أهل تامسنا فلما وصل إلى شاطىء وادي آزمور أحضر أولئك المساجين فقطع البعض وقتل البعض، ثم عبر الوادي ونزل بآزمور فازداد الناس رعباً منه وخشعت له قبائل دكالة بأسرها، ثم تقدم إلى الجديدة فاحتل بها وكانت يومئذ خربة لا زالت على الهيئة التي فتحت عليها أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله وكانت تسمى قبل الفتح بالبريجة فلما فتحت وتهدم صورها بالمينى صار الناس يسمونها بالمهدومة فأمر سيدي محمد بن الطيب ببناء سورها وترميم ما تلثم منها وسماها

الجديدة، وتهدد من يسميها بغير ذلك فسميت الجديدة من يومئذ، وهو الذي بنى القبيبة الصغرى المقابلة لباب المسجد الجامع بها.

ثم لما صفا للسلطان أمر هذه البلاد بسبب ابن الطيب وبسبب ما حدث في المغرب من الجوع الذي أهلك الناس وكاد يأتي عليهم بعثه إلى الصحراء لتدويخ أهلها وجباية زكواتها وأعشارها، فذهب إليها وعاد مخففاً فولاه السلطان على وجدة فأقام بها يسيراً ورجع بلا طائل.

شروع السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله في غرس أجدال بحضرة مراكش

لما صفا للسلطان رحمه الله أمر المغرب شرع في غرس آجدال غربي مراكش، وهو بستان عظيم جداً يشتمل على جنات كثيرة معروفة بحدودها وأسمائها وأكرتها، وتشتمل كل واحدة منها على نوع أو أنواع من الأشجار المثمرة النفاعة من زيتون ورمان وتفاح وليمون وعنب وتين وجوز ولوز وغير ذلك، وكل نوع منها يغل ألوفاً في السنة بحيث أن غلة الليمون وحده تباع بخمسين ألفاً وأكثر إذا كانت صالحة، وفي خلال هذه الجنات من قطع الأزهار والرياحين والبقول المختلفة اللون والطعم والرائحة والخاصية ما لا يأتي عليه الحصر حتى أن منها ما لا يعرفه جل أهل المغرب ولا رأوه قط لكونه جلب من أقطار أخرى، وفي وسطه برك عظام تسير فيها القوارب والفلك وتصب فيه العيون كأمثال الأنهار لسقي تلك الجنات وعليه من الأرحاء شيء كثير وتلك البرك منها ما ضلعها الواحد يكون مائتين خطوة وأقل وأكثر، وفي داخله أيضاً من المنتزهات الكسروية والقباب القيصرية والمقاعد المروانية ما يستوقف الطرف ويستغرق الوصف مثل دار الهناء، والدار البيضاء، والصالحة، والزاهرة وغير ذلك. ويتصل به جنان رضوان الفائق بحسنه وقبابه ومقاعده البهية على ذلك كله، والحاصل أن هذا البستان

جنة من جنان الدنيا يزري بشعب بوان وينسى ذكر غمدان إلى جنة المنارة والعافية وغير ذلك من منتزهات مراكش العجيبة التي أنشأتها هذه الدولة في إبان الإقبال والشبيبة.

ولما شرع السلطان رحمه الله في غرس هذا البستان جلب له العين الآتية من بلاد مسفيوة المسماة بتاسلطانت وهي من أعذب العيون ماء وأخفها وأنفعها للبدن، وكانت مسفيوة متغلبة على هذه العين من لدن دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله يعمدون إليها بالليل فيفرقونها سواقي على جناتهم ومزارعهم فكان ذلك دأبهم إلى أن جاء السلطان المولى سليمان فأعياه أمرهم فيها فأقطعهم إياها على ألف مثقال يؤدونه كل سنة فلما جاء السلطان المولى عبد الرحمٰن انتزعها منهم رغماً عليهم وجاء بها تشق الوهاد والربى حتى ألقت جرانها بأجدال السعيد، وعم نفعها وريها القريب منه والبعيد، وفي ذلك يقول الوزير أبو عبد الله محمد بن إدريس رحمه الله:

وردت وكان لها السعود مواجها ... والحسن مقصوراً على مواجها
وبدت طلائع بشرها من قبلها ... كالشمس طالعة لدى أبراجها
وتسير ما بين الأباطح والربى ... ترمي فريد الدر من أمواجها
وتصوغ من صافي النضار سبائكا ... حلت بها الأعطاف من أثباجها
هبطت إليك من الجبال وطالما ... تعبت ملوك الأرض في إخراجها
وأتتك راغبة تجر ذيولها ... وتفيض غمر النيل من أفواجها
تنساب مثل الأفعوان وتنثني ... كالغصن بين وهادها وفجاجها
خطب الملوك نكاحها فتمنعت ... وأتتك واهبة حلال زواجها
فلتهنك الخود الرفيع فخارها ... وليهنها أن صرت من أزواجها
حراء عباسية بدوية ... نشرت ذوائبها على ديباجها
وافتك وافدة وقد صبغ الحيا ... وجناتها وجرى على أدراجها
فكأنها بلقيس جاءت صرحها ... لكنه صرح بغير زجاجها
عرفت أناملك الشريفة أبحراً ... غرقت بحار الأرض في عجاجها

فأتتك طالبة الأمان لنفسها لتنال بعض الطيب من ثجاجها
لبتك إذ سمعت نداك وأقبلت مرهوبة تستن من إزعاجها
ونزعتها بالقهر من غصابها والسابقون رضوا ببعض خراجها

واعلم أن هذه الأخبار التي سردناها من أول هذه الدولة السعيدة إلى هنا تبعنا في جلها أبا عبد اللّه أكنسوس، وقد ساقها رحمه الله مجردة عن التاريخ الذي هو المقصود بالذات من الفن، ونحن لما لم نعثر في الوقت على ما يحقق لنا تواريخها رتبناها بحسب ما أدى إليه الفكر والروية، وأثبتناها لئلا تذهب فائدتها بالكلية، وعلى كل حال فهي في حدود الأربعين من مائة التاريخ والله أعلم.

ولاية القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجراري على وجدة وأعمالها

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله كان قد ولى ابن عمه سيدي محمد بن الطيب على وجدة ورجع عنها بلا طائل، وكانت ولاية هذا الثغر عند السلطان من أهم الولايات وأخصها بمزيد الاعتناء لبعدها عن دار الملك ومتاخمتها لمملكة الترك، فكانت ثغراً من الثغور، ولكثرة قبائلها واختلاف آراء أهلها وتعدد عصبياتهم في العرب والبربر، ففكر السلطان رحمه الله فيمن يكفيه هذا المهم ويسد له هذا المسد فوقع اختياره على القائد الأنجد أبي العلاء إدريس بن حمان بن العربي الوديي الجراري فرماها به وجعل أمرها إليه وعول في شأنها عليه، وكان هذا الرجل نسيج وحده وقريع دهره في جودة الرأي وإدارة الأمور على وجهها وإجرائها على مقتضى صوابها ومحبة السلطان ونصحه فولاه عليها في أوائل سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف، فقام بأمرها أحسن قيام، واستوفى جباية أهل المداشر منها والخيام، ثم حمله نصحه وصدق خدمته على أن يستأذن السلطان في أن يكون يكاتبه بجميع ما يحدث في تلك البلاد من الأمور الداخلة في الدولة

والخارجة عنها ليكون السلطان على بال من ذلك الثغر، فاستأذن في ذلك بواسطة الوزير أبي عبد اللّه بن إدريس فكان من جواب الوزير له أن قال حسبما وقفت عليه بخطه: إني أخبرت سيدنا المنصور بالله بما كتبت في شأنه فأعجبه ذلك وقال: لا بأس به وليكن خفياً من غير شعور أحد ليطلع سيدنا على الأمور ويكون على بصيرة فيها فلا تقصر في ذلك واجتهد في إصلاح ما ولاك وأعظم ذلك وأهمه أمان الطريق، وخمود الفتنة، حتى لا يصل من تلك الناحية إلا الخير فأنت من فضل الله ذو رأي وبصيرة بالأمور وخصوصاً تلك النواحي والله يوفقك ويسددك، وهذه النواحي بخير وعافية وفي نعم من الله وافية قد نزل فيها المطر الغزير وكثر الخصب وحرث الناس الحرث الكثير، وسيدنا بمكناسة الزيتون ولا ما يشوش البال غير أن والدته المقدسة صارت إلى عفو الله ورحمته وذلك قبل تاريخه بشهر ونحن على المحبة والسلام، في الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف، محمد بن إدريس لطف الله به انتهى لفظ الكتاب المذكور.

وفي هذه المدة كان السلطان رحمه الله قد استعمل الشيخ أبا زيان بن الشاوي الأحلافي على تازا وأعمالها وأوصاه بالتعاون على أمر الخدمة السلطانية بالقائد إدريس فكانا في إدارة الأمور بتلك النواحي كفرسي رهان، ولكن التبريز إنما هو للقائد إدريس، ولما دخل رمضان من السنة المذكورة عزم السلطان رحمه الله على المسير إلى بلاد الشرق وجدة وأعمالها للوقوف على تلك التخوم بنفسه والنظر في أمورها برأيه إذ لم يكن وطَأَها قبل ذلك، فاستنفر القبائل لحضور عيد الفطر والنهوض إليها، ولما حضر العيد وفد على السلطان جماعة من بني يزناسن وعرب آنقاد فباحثهم رحمه الله عن حال بلادهم، فشكوا قلة الخصب فصده ذلك عن المسير إليهم ووعدهم بأنه سيطأ أرضهم من العام القابل في أول يناير، ثم صرف رحمه الله وجهته تلك إلى التطواف على مراسي المغرب والنظر في أمورها وإحياء مراسم الجهاد بها، فخرج من مكناسة منتصف شوال من السنة أعني سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف، فمر بأرضات من أعمال وازان وصار إلى تطاوين ثم إلى طنجة ثم

آصيلا وزار وليها أبا عبد اللّه محمد بن مرزوق وتبرك به ثم مر بالعرائش وهكذا تتبع الثغور ثغراً ثغراً إلى آسفي، وفي أثناء ذلك ورد عليه الخبر بانتقاض الشراردة على المولى المأمون صاحب مراكش وخروجهم عن الطاعة وإفسادهم السابلة ونهبهم الرفاق، وأبدؤوا في ذلك وأعادوا حتى كانوا يصلون إلى جنات مراكش، فسدد السلطان رحمه الله قصده نحوهم وكان من أمره معهم ما نذكره.

فتح زاوية الشرادى والسبب الداعي إلى غزوها

قد قدمنا ما كان من أمر المهدي بن الشرادي الزراري مع السلطان المولى سليمان رحمه الله بما فيه كفاية، ثم لما بويع السلطان المولى عبد الرحمٰن بايعه المهدي في جملة الناس، ولما قدم السلطان مراكش قدمته الأولى لقيه الشراردة في خمسمائة فارس بمشرع ابن حمى مؤدين الطاعة ففرح السلطان بهم وأكرم وفادتهم، ولما عزموا على الرجوع كان في جملة ما قال لهم السلطان رحمه الله: « إن ما فات قد مات، وما نهب في أيام الفتنة فهو هدر، ومن الآن من فعل شيئاً يخاف على نفسه». فرجع الشراردة إلى بلادهم وعيد السلطان بمراكش عيد المولد فحضرت الوفود وحضر الشراردة في جملتهم وساقوا للسلطان خمسة عشر جملاً من الكتان وخمسة أحمال من الملف وأربعة آلاف مثقال عيناً مما كانوا نهبوه من صاكة الصويرة قبيل وفاة السلطان المولى سليمان رحمه الله حسبما أشرنا إليه قبل، فكان من تمام إحسان السلطان إليهم وتألفه إياهم أن قال لهم: «افرضوا لي مائتي فارس منكم تذهب إلى درعة، وهذا الكتان والملف هو كسوتهم والمال صائرهم». ففعلوا، وكساهم السلطان وأنعم عليهم، ثم لما ولى أخاه المولى المأمون على مراكش مرضوا في طاعته ودعا المهدي تهوره إلى أن شكاه إلى السلطان وهو بمكناسة يومئذ، ويعتد عليه بأنه يأخذ منهم الزكوات والأعشار على غير وجهها الشرعي، وأنه ولي عليهم أربعة عمال أو خمسة عوض عامل واحد

كان يتولى عليهم، فأغضى السلطان عن ذلك وبالغ في الأنة القول له في كتابه ووعده بأنه إذا وصل إلى مراكش يشكيه من أخيه، وفي أثناء ذلك وقبل وصول كتاب السلطان إليه أغرى إخوانه بالخروج عن طاعة السلطان، والاشتغال بما يسخط الله ويرضي الشيطان، فانبثت خيولهم في الطرقات ومخروها مخراً وانتسفوها نسفاً، وعمدوا إلى قوادهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن وانتهبوا دورهم، ووصل المسافرون والتجار إلى باب السلطان مجردين عراة يشكون ما دهمهم من أمر الشراردة، وتكاثر عليه شذاذهم، فحينئذ استأنف السلطان جده وأرهف حده وكتب إلى أخيه المولى المأمون باستنفار قبائل الحوز وجمعها عليه حتى يقدم عليه، وسار السلطان في جيش العبيد والودايا وآيت أدراسن وزمور وعرب بني حسن وبني مالك وسفيان، وكتب إلى الشاوية ودكالة أن تكون خيلهم معدة حين يمر بهم، وكان المهدي قد عظم ناموسه وتمكن من جهلة قومه وكاد يتجاوزهم إلى غيرهم حتى صار يعرض أو يصرح بأنه المهدي المنتظر، وكان السبب الأقوى في طغيانه وطغيان قومه ما اتفق له في هزيمة السلطان المولى سليمان رحمه الله فظن المهدي وشراردته أن لا غالب لهم من الله، ولما برز السلطان رحمه الله من رباط الفتح لقيه ركب الحجاج الذين انتهبهم هشتوكة والشياظمة الذين بأحواز آزمور، وكانت العادة يومئذ بالمغرب أن ركاب الحاج تأتي من آفاق المغرب فتجتمع بفاس ومنها يخرج الركب على الهيئة المعهودة في ذلك الزمان، فلما وصل هؤلاء الحجاج من أهل السوس وغيرهم إلى الشياظمة وهشتوكة انتهبوهم وجردوهم من المخيط والمحيط، فسمع السلطان رحمه الله شكواهم وامتعض لانتهاك حرمتهم وزحف إلى هؤلاء المفسدين فأوقع بهم وقعة شنعاء بالموضع المعروف بفرقالة من أعمال آزمور حتى كانوا يلقون أنفسهم في البحر طلباً للنجاة بعد أن أثروا في المحلة أول النهار، ثم كانت الكرة عليهم وحكم السلطان السيف في رقابهم وامتلأت أيدي العسكر من أثاثهم وماشيتهم، وكانت هذه الوقعة طليعة الفتح ومقدمة الظفر، ثم عبر إلى آزمور ومنها إلى الجديدة، ثم سار مع الساحل

حتى وصل إلى آسفي فزار الشيخ أبا محمد صالح رضي الله عنه وعطف إلى الزاوية الشرادية فبغتها وطلعت عليها راياته المنصورة بالله مع الصباح ولم يعرج على مراكش وقبل نزول الجيش وضرب الأخبية أنشبت الحرب معهم فتقاتلوا وتحاجزوا مع الظهر وكان الزمان زمان مصيف ودامت الحرب سبعة أيام، ونصب عليهم السلطان المدافع والمهاريس العظام، وفي اليوم الخامس من تلك الأيام كان عيد المولد الكريم يوم الأربعاء من سنة أربع وأربعين ومائتين وألف فأراد السلطان رحمه الله أن يعفي الناس من الحرب ذلك اليوم فحمل الشراردة طغيانهم وبغيهم على أن تقدموا للجيش وأنشبوا الحرب فأمر السلطان بالزحف إليهم والنكاية فيهم، وكان المعلم الأكبر أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه ملاح السلاوي حاضراً في هذه الوقعة فتقدم إليه السلطان بالوصاة بالجد والاجتهاد في الرمي فرمى عليهم في ذلك اليوم مائتين وثمانين بنبة كلها في وسط الزاوية تتفرقع عند نزولها فتأتي على ما جاورها من جدار وغيره حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الأحمر وكانوا هم أيضاً يرمون بالكور والبنب من المدافع والمهاريس التي استولوا عليها في محلة السلطان المولى سليمان، ثم لما كان عشي الجمعة السابع من أيام الحرب افترقت كلمتهم وعزم المهدي على الفرار فقال له أصحابه: كيف تفر وتتركنا وأين ما كنت تعدنا؟! فقال لهم: أما أنتم فالذي أورثكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان فلا تستنكفوا منها، وأما أنا فالذي عندي وسمعته من آبائي أن الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام ثم يستولي عليها السلطان الذي يجيء من ناحية البحر وهو هذا، في كلام آخر تكهن لهم فيه واعتقد الجهلة صدقه بعد أن أتلفوا عليه نفوسهم وأموالهم، ومن يضلل الله فما له من هاد، ولما جن الليل ركب فيما قيل على حمار وركب معه شرذمة من أصحابه نحو العشرين فارساً فشيعوه إلى الموضع المعروف بتيزكي فودعهم وذهب إلى السوس بعد أن سفك الدم الحرام وانتهب المال الحرام وملأ صحيفته من الآثام، نسأل الله العفو والعافية، ولما فر المهدي عنهم تفرقوا شذر مذر وباتوا يتحملون بنسائهم وأولادهم إلى منجاتهم والذين صعب عليهم الخروج

اجتمعوا وساروا إلى القواد الأربعة فسرحوهم ورغبوا إليهم في الوساطة عند السلطان فأصبحوا على أطراف المحلة يستأذنون على المولى المأمون، فأذن لهم ودخلوا عليه وشفعوا فيمن بقي منهم وطلبوا الأمان فأمنهم، ثم تقدموا إلى السلطان فاستأذنوا فأذن لهم ودخلوا وأخبروا بما عقد لهم المولى المأمون من الأمان فأمضاه لهم، ثم أمر السلطان بجمع الشراردة الذين بقوا بالقصبة فجمع له منهم نحو الألفين وعاثت الجيوش في بيوتهم وأمتعتهم.

وقيل: إن السلطان رحمه الله لم يؤمنهم ولما قبض عليهم عزم على تحكيم السيف في رقابهم فاستفتى العلماء فيهم فتحاموا الإفتاء بإراقة الدم حتى أن منهم من أفتى وهو الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن المرابط المراكشي بأنهم تابوا قبل القدرة عليهم، فتوقف السلطان رحمه الله عن قتلهم، وكان وقافاً عند الحق دائراً مع الشرع حيث دار، ثم أمر رحمه الله بالاحتياط على عيال المهدي وأولاده فاحتيط عليهم فجيء بهم إليه وبعثهم إلى مكناسة فأنزلوا بدار القائد محمد بن الشاهد البخاري الذي هلك في وقعة آعليل مع السلطان المولى سليمان، وأمر السلطان بسور القصبة فهدم إبراراً لقسمه وحيزت المدافع والمهاريس التي كانت منصوبة عليه، ولما انقضى أمر الحرب وتم الفتح هلك المعلم محمد ملاح نفطت فيه بنبة فقتلته وقتلت جماعة معه، فوقف السلطان عليه بنفسه حتى أقبر وأحسن إلى أولاده بعد ذلك. ورأيت بخط الوزير ابن إدريس في بعض مكاتيبه ما نصه: «واعلم أن الله سبحانه قد فتح علينا الزاوية الشرادية وأهلك أهلها الظالمين، ولم تبق لهم باقية ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها وتخريبها، وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل وربحت الناس بما وجدت فيها من الأثاث والذخائر والأنعام» اهـ.

ثم إن السلطان رحمه الله فرق مساجين الشراردة فسجن بعضهم برباط الفتح، وبعضهم بمكناسة، وبعضهم بفاس، ثم بعد مضي نحو السنة سرحهم ونقلهم إلى بسيط آزغار وجمع إخوانهم من القبائل فضمهم إليهم ولا زالوا

موطنين به إلى الآن، وأما المهدي فإنه ذهب إلى السوس وانتهى إلى آيت باعمران من ولتيتة فنزل على مرابطها أبي عبد الله محمد آعجلي الباعمراني واستمر عنده ثلاث سنين وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ثم بعث من شفع له عند أمير المؤمنين فقبل السلطان شفاعته وجاء المهدي في قيده إلى أن دخل على السلطان بمراكش وبكى أمامه وتضرع فسامحه السلطان، ثم بعثه إلى مكناسة فاجتمع بأولاده وبعد مدة يسيرة ولاه السلطان على إخوانه.

قال أكنسوس: عاملهم بالإساءة فعادت محبتهم له عداوة وضجوا إلى السلطان منه فعزله، ثم حج المهدي بإذن السلطان ورجع فولاه أيضاً فلم يقبلوه، ثم سجن ثم سرح وتقلبت به الأحوال وتأخرت وفاته إلى أوائل شوال من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف في أول دولة سلطان العصر وإمام النصر أمير المؤمنين المولى الحسن بن محمد رضي الله عنه، ولما تم فتح الزاوية المذكورة قال شعراء العصر في ذلك فمنهم الفقيه الأديب أبو عبد الله أكنسوس قال:

بشائر لا تحيط بها الشروح ... كأن سميعها فنن مروح
سقى ربع البشير بها غمام ... يباكرها هتون أو يروح
تفديه المحافل وهو يشدو ... فتوح في مضمنها فتوح
وتأمل أن تقبله الغواني ... تذيل له المباسم أو تبيح
بشائر كاد يسمعها دفين ... ويسري في الجماد بهن روح
شفى المولى المؤيد كل صدر ... به من قبل وقعتها جروح
وأدرك ثار عصبته وأضحى ... لعزة قدره شرف صريح
لقد حسم الفساد بكل أرض ... فساد به لنا الدين السميح
وزر على زرارة كل خزي ... تشق له المجاسد إذ تنوح
وقد كانت تصر على ازورار ... وكانت لا ينهنهها قبيح
ومن كانت مراكبه جماحا ... فسحقاً حين تصرعه الجموح
أتيح لهم لحينهم جهول ... غوى للضلال له جنوح

يقودهم إلى العصيان سراً ويظهر أنه البر النصوح
يحدثهم إذا ما حم خطب حديثاً كان مصدره سطيح
هو الدجال في سمت وفعل فمن يدعوه مهدياً وقوح
فأهلكه الإمام فكان عيسى كذا الدجال يهلكه المسيح
فصير دار منعته فلاتاً على أطلالها البوم السنيح
وفر عن الذمار على حمار عليل العرض جؤجؤه صحيح
فيالؤم الذليل فلا وهين فيعذر بالفرار ولا جريح
وخير من جباة في هوان يبوء به الفتى موت مريح
أيطمع في النجاة فلا نجاة سيدركه الهزيز المستبيح
إذا كان الشراب له بحاراً تخوض إليه سلهبة سبوح
ستدركه العزائم من إمام تدك له المعاقل والصروح
إمام قد أعاد لنا سروراً وجاد لنا به الزمن الشحيح
أعز الله ملك بني علي بصولته وتم له الوضوح
وجرد من جلالته حساماً يزيل به الضلالة أو يزيح
وقد كان الخلائق في ظلام فلاح على الخلائق منه بوح
وأصبحت الأباطح باسمات وكان على مناظرها كلوح
أعز معود للنصر ساع إلى العلياء مسعاه نجيح
يخاطر في منال العز دأباً برأي كل مدركه رجيح
فرايات السعود عليه نشر وساحات الفخار لديه جوح
أبا زيد فأنت لنا ملاذ وجاهك في المهم لنا فسيح
فقد زانت مآثرك الليالي ولاح لعدلك الوجه المليح
وهذا الدهر كالطوفان موجاً وطاعتك السفين وأنت نوح
وأنت خليفة الرحمن من لا تؤمنه فمشربه نشوح
كما أن الشبانة حين زاغت وهب لها من الطغيان ريح
عصفت عليهم باليأس تزجي كتائب كالسحاب إذا تلوح
فألقيت الجران على ذراهم بجيش كلهم بطل مشيح

فجاء العفو منك وهم ثلاث أسير أو كسير أو ذبيح
وقد قسمت بلادهم بعدل ودورهم كما قسم الوطيح
وقد نظمت مكايدهم قديماً بني سعد وزيدان نطيح
فظنوا آل إسماعيل يرنو لغير الحزم طرفهم الطموح
وما علموا بأنكم سيوف لحدكم نجيعهم سفوح
أبا زيد إذا تبقى عليهم بصفح ربما ندم الصفوح
فلا تحلم فإن الجرح يكوي طريّاً بالمحاور أو يقيح
فلا زالت بك الدنيا عروساً ومجدك من مفارقها يفوح

ومن ذلك قول بعضهم ولعله الفقيه أبو محمد عبد الله الديماني قال:

بشرى تقر بأعين الإيمان كالوصل ينسخ دولة الهجران
جاد الزمان بها على مقداركم فتقاصرت عنها خطا الأذهان
أين المفر لمن عنا عن أمركم أترى البغاث تفوت ما لعقبان
الأمر أمر الله غير منازع لاح الصباح لمن له عينان
يا من يطالب أمرهم بدلائل أتطالب البرهان بالبرهان
إن كنت تجهل فالحسام معلم يشفي البريء به ويشقي الجاني
كم من غوي قد عتا عن أمرهم كزرارة فمضى إلى الخسران
أين المفر لمن عتا عن أمركم يوم الكفاح إذا التقى الجمعان
لم يمنع الأعداء منهم معقل لو أنهم صعدوا إلى كيوان
لكنهم باؤوا بأخسر صفقة فكأنهم غصبوا أبا غبشان
جيش تسد وفوده مسرى الصبا وتهد وطأته ذرى ثهلان
يا مالكاً ملأ الوجود محاسناً لا تختفي عن أعين العميان
أجريت بين المعتقين مكارماً يسلو الغريب بها عن الأوطان
لو قيل للغيث اعترف لم يعترف إلا بفضل نداكم الهتان
إنسان عين الدهر أنت وإنما تكميل شكل العين بالإنسان
ذكراك بالأفواه تعذب كاللما وتخف كالبشرى على الآذان
أيقظت جفن الحق من إغفائه وأقمت ميلة عطفه الكسلان

ألقى لك الزمن العصى زمامه ... وعنا لطاعة أمرك الثقلان
فالدهر دونك دافع ومدافع ... وصروفه لكم من العبدان
فإذا أشرتم في الزمان لمقصد ... كان القضاء لكم من الأعوان
أخلصت للرحمن في طاعاته ... فلذا دعيت بعابد الرحمٰن
ألقيت رحلي في ذراك مخيماً ... فجريت في الآمال طوع عنان
وتركت أوطاني وجئت وإنما ... من فرط حبك غبت عن أوطاني
يا ليت قومي يعلمون بأنني ... من جودكم أرد الفرات الثاني
لا زلتم في أسعد مبسوطة ... مقبوضة عنها يد الحدثان

واستمر السلطان مقيماً بمراكش مدة طويلة وبعث أخاه المولى المأمون بن هشام لقطر السوس فجباه.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ففي شعبان منها عقد السلطان الصلح مع جنس النابريال ويقال له: استرياك وهي اثنا عشر شرطاً مضمنها المخالطة بالبيع والشراء وغير ذلك مع الأمان والاحترام من الجانبين والآخر منها مضمنه الصلح الدائم على هذه الشروط لا يفسده أمر يحدث بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان، ثم حدثت الفتنة عقب هذا بيسير على ما نذكره.

هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب في ذلك

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قد طاف في آخر سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف على ثغور المغرب ومراسيه وأنه أراد إحياء سنة الجهاد في البحر التي كان أغفلها السلطان المولى سليمان رحمه الله، وأمر أعني المولى عبد الرحمٰن بإنشاء أساطيل تضم إلى ما كان قد بقي من آثار جده سيدي محمد بن عبد اللّه وأذن لرؤساء البحار من أهل العدوتين

سلا ورباط الفتح أن يخرجوا في القراصين الجهادية للتطواف بسواحل المغرب وما جاورها، فخرج الرئيسان الحاج عبد الرحمٰن باركاش والحاج عبد الرحمٰن بريطل، فصادفوا بعض مراكب النابريال فاستاقوها غنيمة إذ لم يجدوا معها ورقة الباصبورط المعهودة عندهم، وعثروا فيها على شيء كثير من الزيت وغيرها، وكان بعضها قد جيء به إلى مرسى العدوتين وبعضها إلى مرسى العرائش، فهجم النابريال على مرسى العرائش بستة قراصين يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف، ورمى عليها من الكور شيئاً كثيراً من الضحى إلى الاصفرار، وعمد في أثناء ذلك إلى سبعة قوارب فشحنها بنحو خمسمائة من العسكر ونزلوا إلى البر من جهة الموضع المعروف بالمقصرة وتقدموا صفوفاً قد انتشب بعضهم في بعض بمخاطيف من حديد لئلا يفروا ومشوا إلى مراكب السلطان التي كانت مرساة بداخل الوادي وهم يقرعون طنابيرهم ويصفرون ومراكبهم التي في البحر ترمي بالضوبلي مع امتداد الوادي لتمنع من يريد العبور إليهم فانتهوا إلى المراكب وأوقدوا فيها النار وقصدوا بذلك أخذ ثأرهم فيما انتزع منهم فلم يكن إلا كلاً ولا حتى انثال عليهم المسلمون من كل جهة من أهل الساحل وغيرهم وعبر إليهم أهل العرائش وأحوازها سبحاً في الوادي وعلى ظهر الفلك إلى أن خالطوهم وفتكوا فيهم فتكة بكراً، وكان هنالك جملة من الحصادة يحصدون الزروع في الفدن فشهدوا الوقعة وأبلوا بلاء حسناً حتى كانوا يحتزون رؤوس النابريال بمناجلهم، وقد ذكر منويل هذه الوقعة وبسطها وقال: إن النابريال قتل منهم ثلاثة وأربعون سوى الأسرى وتركوا مدفعاً واحداً وشيئاً كثيراً من العدة وأفلت الباقي منهم إلى مراكبهم وذهبوا يلتفتون وراءهم.

واعلم أن هذه الوقعة هي التي كانت سبباً في إعراض السلطان المولى عبد الرحمٰن عن الغزو في البحر والاعتناء بشأنه، فإنه رحمه الله لما أراد إحياء هذه السنة صادف إبان قيام شوكة الفرنج ووفور عددهم وأدواتهم

البحرية وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدفاع والتجادل والنزاع ويهيج الضغن بين الدولة العلية ودول الأجناس الموالية لها حتى كاد عقد المهادنة ينفصم، وأكد ذلك اتفاق استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وهو ما هو فوجم السلطان رحمه الله وأعمل فكره ورويته فظهر له التوقف عن أمر البحر رعياً للمصلحة الوقتية ولقلة المنفعة العائدة من غزو المراكب الإسلامية، وانضم إلى ذلك إعلان الدول الكبار من الفرنج مثل النجليز والفرنسيس بأن لا تكون المراكب إلا لمن يقوم بضبط قوانين البحر التي يستقيم بها أمره وتحمد معها العاقبة وتدوم بحفظها المودة على مقتضى الشروط، ومن مهمات ذلك ترتيب القناصل بالمراسي التي تريد الدولة دخول مراكبها إليها وتجارتها فيها أي دولة كانت، ومن هذه المهمات ما قد لا يساعد عليه الشرع أو الطبع مثل الكرنتينات وما يترتب عليها إلى غير ذلك مما فيه هوس كبير، فاشتد عزم السلطان رحمه الله على ترك ما يفضي إلى ذلك وتأكد لديه إهماله لتوفر هذه الأسباب، ولعمري أن تركه لمصلحة كبيرة لمن أمعن النظر فيها، وما يعقلها إلا العالمون، وأما فتنة النابريال هذه فإنها تفاصلت بواسطة النجليز حيث وجه باشدوره مع باشدور النابريال فقدما على السلطان رحمه الله مكناسة في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين ومائتين وألف.

استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وما ترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان في بيعة السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله

كان استيلاء طاغية الفرنسيس على ثغر الجزائر في آخر المحرم فاتح سنة ست وأربعين ومائتين وألف، وكان السبب في ذلك أن أتراك الجزائر كانوا يومئذ مع الفرنسيس على طرفي نقيض قد تعددت بينهم الوقعات برّاً وبحراً وكثرت بينهم الذحول والترات، وكان الترك يؤذونهم أشد الإذاية وأمير

الجزائر يومئذ واسمه أحمد باشا قد أمر أمره وأراد الاستبداد على الدولة العثمانية، وربما شكا طاغية الفرنسيس إلى السلطان محمود العثماني فقال له: شأنك وإياه فهجم الفرنسيس في العدد والعدد على ثغر الجزائر فاستولى عليه بعد مقاتلات ومجاولات في التاريخ المتقدم، وكان السلطان المولى عبد الرحمٰن يومئذ بمراكش فاتصل به خبر الجزائر في أوائل صفر فنهض إلى مكناسة في التاريخ المذكور، ولما وقع بأهل الجزائر ما وقع اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا في شأنهم واتفقوا على أن يدخلوا في بيعة السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله فجاؤوا إلى عامله بوجدة القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجواري وعرضوا عليه أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحفظ من العدو جانبهم، ثم عينوا جماعة منهم للوفادة على السلطان تأكيداً للطلب واستعجالاً لحصول هذا الأرب، فقدموا على السلطان بمكناسة غرة ربيع الأول من السنة المذكورة فأكرم السلطان وفادتهم وأجل مقدمهم، ولما صرحوا له عن مرادهم توقف في ذلك رحمه الله وكان هواه إلى قبولهم أميل إلا أنه أراد أن يبني ذلك على صريح الشرع كما هي عادته فاستفتى علماء فاس فأفتى جلهم بنقيض المقصود ورخص له بعضهم في ذلك، فأخذ السلطان رحمه الله بقول المرخص، مع أن أهل تلمسان لما بلغهم فتوى أهل فاس كتبوا إلى السلطان في الرد عليهم ما نصه:

ليعلم سيدنا قطب المجد ومركزه، ومحل الفخر ومحرزه، أساس الشرف الباذخ ومنبعه، وبساط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأمجد الأفخم، نجل الملوك العظام سيدنا ومولانا عبد الرحمٰن بن هشام أبقى الله سيدنا للمسلمين ذخراً، ومنحه مودة وأجراً، أن فتوى ساداتنا علماء فاس مبنية على غير أساس، لأنهم اعتقدوا أن في عنقنا للإمام العثماني بيعة، وهذا لو صح لكان علينا حجة، وليس الأمر كذلك وإنما له مجرد الاسم هنالك، وعامل الجزائر إنما كان متغلباً، وبالدين متلاعباً، فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه، إن الله يمهل على الظالم حتى يأخذه

فإذا أخذه لم يفلته، ويدل على تغلبه واستقلاله، عدم وقوفه عند أمر العثماني وامتثاله، بل لا يكترث به أصلاً، ولا يتبع له قولاً ولا فعلاً، كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارى صلحاً فلم يقبل له قولاً ولا نصحاً، وطلب منه بعض الأموال ليستعين بها على ما حل به مع النصارى من الأهوال، فامتنع غاية الامتناع، ولم يمكنه من شبر منها فضلاً عن الباع، حتى أخذها العدو الكافر، وهذا جزاء كل فاسق فاجر، مال جمع من حرام، سلط الله عليه الأعداء اللئام، وهذا كله من هذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان، مستغن عن إقامة الدليل والبرهان، الناس كلهم عبيد الله وإماؤه والسلطان واحد منهم ملكه الله أمرهم ابتلاءً وامتحاناً، فإن قام فيهم بالعدل والرحمة والإنصاف والصلاح مثل سيدنا نصره الله فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة عند الله تعالى، وإن قام فيهم بالجور والعسف والطغيان والفساد مثل هذا المتغلب فهو متجاسر على الله في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق ومتعرض لعقوبة الله الشديدة وسخطه، هذا وعلى فرض تسليم أن للعثماني في عنقنا بيعة، فلا تكون علينا حجة، لأنه تباعد علينا قطره، فلم يغن عنا شيئاً ملكه، لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار، والقرى والمدن والأمصار، وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الآن من ركوبه الكفار، على أنه ثبت بتواتر الأخبار البالغة حد الكثرة والانتشار أنه مشتغل لنفسه ومقره، عاجز عن الدفع عن إيالته القريبة من محله حتى أنه هادن النصارى خمس سنين على عدد كثير من المئين، وأعطى فيه منهم ضامناً، ليكون في المدة المذكورة على نفسه وحشمه آمناً، فكيف يمكنه مع هذا الدفاع عن قطرنا وناحيتنا وبلدنا، وأدل دليل على بعده عن هذا المرام خبر مصر ونواحي الشام، فقد استولى عليها أعداء الدين، مدة تزيد على الخمس سنين فلم يجد لهم نفعاً ولا ملك عنهم دفعاً حتى استعان بالعدو الكافر، والله تعالى قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، هذا ونص الأبي في شرح مسلم مفصح عن مثل قضيتنا ومعلم، على أن الإمام إذا لم ينفذ في ناحية أمره جاز إقامة غيره فيها ونصره، فانتظار نصرته يؤدي إلى الهلاك، كيف وقد تطاولت

إليها الأعناق، وتشوفت إليها من كل جانب العيون والأحداق، فأعرضنا عن الكل صفحاً، وطوينا عنه الجوانب كشحاً، مقبلين إلى عتبة باب سيدنا نصره الله وسدته، داخلين تحت طاعته، ملتزمين لخدمته متوافقين مع القبائل والأمصار وأهل الرأي والاستبصار، لعلمنا أن سيدنا نصره الله المتأهل في هذا الأمر العريق، الجدير بالإمامة الحقيق، كيف وقد ورثها كابراً عن كابر وإليهم انتهت المآثر والمفاخر، فنطلب من سيدنا نصره الله أن يلتزم لنا بفضله من هذه البيعة القبول، مستشفعين بجاه جده الرسول، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته المنتخبين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين اهـ.

ولما وقف السلطان رحمه الله على هذا الكلام قبل بيعتهم والتزمها وعقد عليهم لابن عمه المولى علي بن سليمان وأضاف إليه كتيبة من الجند من أعيان الودايا والعبيد ووجه الجميع مع أهل تلمسان بعد إكرامهم وتمام الإحسان إليهم، وكتب إلى عامله القائد إدريس يستوصيه بالجميع خيراً ويكون بصيرة عليهم وأشركه في النظر والرأي مع المولى علي بل الاعتماد في الحقيقة إنما كان عليه، وقد وقفت على كتاب الوزير أبي عبد اللّه بن إدريس بخط يده للقائد المذكور في هذه القضية يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله محبنا وخال سيدنا الأرضى السيد إدريس بن حمان الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير سيدنا أيده الله وبعد، فقد وصلنا كتابك صحبة أعيان تلمسان وقبائل أحوازها فوقفنا معهم كل الوقوف وبذلنا المجهود فوق الطاقة وقبلهم مولانا وقابلهم بالإحسان والإكرام كما هو شأنه ذهاباً وإياباً، وهاهم وجههم مولانا مكرمين ورشح ابن عمه مولاي علياً للخلافة عليهم لما يعلم من عقله ودرايته وسياسته، وأنه ذو نفس أبية لكون تلك النواحي لا يصلح لها إلا من اتصف بهذه الأوصاف ليميزوا حالة الساعة مع ما كانوا فيه، وكما رشح مولانا ابن عمه المذكور رشحك لتكون واسطة بينهم وبينه لكون الأوصاف المذكورة موجودة فيك فكن عند الظن بك، وإياك والطمع، وازهدوا فيما في أيدي

الناس وكل ما تحتاجون إليه مما لا بد منه أخبرونا به يصلكم، ولا تكتموا عنا شاذة ولا فاذة، واعلم أن مولانا انتخبك من وسط أبناء جنسك وقربك منه ولا زلت لديه في الترقي فالله الله فكن عند الظن بك بارك الله فيك آمين، وقد أكرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة وصنع لهم في كل بلد دخلوه مهرجاناً وأدخلهم سيدنا لوسط داره وجميع جناته وأماكن المملكة التي لا يدخلها إلا الخاصة، غايته أنهم نالوا من العناية فوق الظن، ووقفنا معهم فوق ما تحب وفيهم الكفاية، ولم يبق إلا ما عندك فكن عند الظن بك فإن سيدنا نصره الله جرب غيرك وطرحه، وهذا معيارك نسأل الله أن يكون معيار التبر الخالص، وما وعدك به سيدنا سيرد عليك حين تستقر بالبلد ويحسن تصرفك على عين الحاضر والبادي، وفي وصية سيدنا في كتابه الشريف مقنع وعلى المحبة والسلام، في ثالث عشر ربيع الثاني عام ستة وأربعين ومائتين وألف، محمد بن إدريس لطف الله به اهـ نص الكتاب بحروفه.

ولما وصل المولى عليّ إلى تلمسان وجه السلطان في أثره خمسمائة فارس ومائة رام وجماعة وافرة من حذاق الطبجية من أهل سلا ورباط الفتح فيهم ولد عامل سلا محمد ابن الحاج محمد أبي جميعة وكان من النجباء، ثم لما دخل المولى علي تلمسان واستقر بها فرح به الحضر من أهل تلمسان واغتبطوا به وقدمت عليه الوفود من كل ناحية وأخذ عليهم البيعة للسلطان هو والقائد إدريس، وانحرف عنه الكرغلية من الترك الذين كانوا إدالة بقصبة تلمسان من لدن قديم وحاصرهم المولى علي وقاتلهم مدة إلى أن ظفر بهم واستولى على ما في أيديهم، وانحرف عنه أيضاً قبيلتا الدوائر والزمالة من عرب تلك الناحية، ويقال إن أصلهم من جند كان للمولى إسماعيل رحمه الله بعثه إدالة بتلك الناحية واستمروا هنالك وتناسلوا إلى هذا التاريخ فأظفر الله المولى علياً بهم وانتهب الجيش متاعهم ومتاع الكرغلية من قبلهم، ونشأ عن ذلك من الفساد ما نذكره بعد هذا إن شاء الله.

وفي أوائل رمضان من السنة المذكورة خرج القائد إدريس من تلمسان في جماعة من الجيش الذين معه بقصد تدويخ القبائل الذين هنالك وأخذ البيعة على من لم يكن بايع منهم وكان الذين بايعوا هم أهل معسكر والحشم والمشاشيل منهم وبنو شقران والمرابطون أهل غريس وورغية وتحليت وحميان وغير هؤلاء، ونص بيعتهم: الحمد لله الذي أنار الخلافة وجه الزمان، وأطلع في صحيفة غرته طوالع السعد واليمن والأمان، وهدى من ارتضاه من الأنام للدخول تحت ظل راية مولانا الإمام والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين وبعد، فلما وفد على حضرة مولانا الخليفة أبي الحسن علي ابن أمير المؤمنين مولانا سليمان أعلى الله ثراه في عليين جميع القبائل المسطرة يمنته وقرأ عليهم كتاب مولانا المنصور ذي اللواء المنشور والسيف المشهور أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمٰن ابن مولانا هشام أدام الله رعيه وجعل فيما يرضيه سعيه، بمحضر خليفته الطالب الأرشد الماجد الأسعد القائد السيد إدريس الجواري وتلقوه بالإجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم، أشهدوا على أنفسهم أنهم عقدوا البيعة لمولانا الإمام أيده الله وأدام عزه وعلاه، والتزموها بالسمع والطاعة وفي جيدهم انتظموها، بيعة تامة مستوفية الشروط وافية العهود وثيقة الربوط قبلها الكل وارتضاها، وأوجب العمل بمقتضاها، فمن سمع ما ذكر ممن ذكر قيده في مهل جمادى الثانية عام ستة وأربعين ومائتين وألف وبعده علامة العدلين المتلقيين من رؤساء القبائل المذكورة، فهؤلاء الذين بايعوا ومن لم يكن بايع بعد فهم الذين خرج القائد إدريس المذكور لأخذ البيعة عليهم كما قلنا.

والحاصل أن السلطان رحمه الله كان قد اعتنى بأمر هذه الناحية غاية الاعتناء وبذل المجهود في إمدادها بالعدد والعدد والمال مرة بعد أخرى، وبعث الشريف البركة سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني إلى أهل تلك البلاد يدعوهم إلى الطاعة، ويحضهم على الدخول في أمر الجماعة لكونهم كان لهم فيه وفي سلفه اعتقاد كبير، وبعث الشريف الأخير أبا محمد عبد

السلام البوعناني فولاه خطة الحسبة بتلمسان وبعث من الكسي والرايات والأعلام والمدافع والمهاريس والبارود والرصاص شيئاً كثيراً لكن لم يكن إلا ما أراده الله تعالى فافترقت كلمة العرب الذين هنالك لضعف إيمانهم وقلة همتهم فجلهم مال إلى الدخول في حزب النصارى عندما استولوا على مدينة وهران في هذه الأيام، ثم سرى ذلك الاختلاف في قواد جيش السلطان فتنافسوا وتحاسدوا وكثر القيل والقال منهم على السلطان ثم ختموا عملهم بانتهاب أثاث الكرغلية وتقاعدهم عليه، ثم بانتهاب مال الزمالة والدوائر وماشيتهم في جوار الشريف سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني وفسد العمل وخاب الأمل، فحينئذ رأى السلطان رحمه الله استرجاع تلك الجيوش التي لم يبق طمع في صلاحها بعد أن أمر بالقبض على القائد إدريس لكونه سعى به عنده وأنه شارك في نهب الكرغلية والزمالة والدوائر وتقاعد على النفيس من أثاثهم فرجعت الحلة، وكان رجوعها في آخر رمضان من السنة المذكورة، وفي هذه السنة منتصف جمادى الثانية منها حدثت زلزلة بقرية من قرى تلمسان تسمى البليدة فجعلت عاليها سافلها وهلك أهلها، والأمر لله كيف شاء فعل.

خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن والسبب في ذلك

كان خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله في المحرم فاتح سنة سبع وأربعين ومائتين وألف، وكان السبب في ذلك أن الطاهر بن مسعود المغفري الحساني، والحاج محمد بن الطاهر الغفري العقيلي، والحاج محمد بن فرحون الجراري كانوا من كبار قواد هذا الجيش وأعيانه، وكان السلطان رحمه الله يبعثهم في المهمات، ويستكفي بهم في الأقطار النائية والجهات، وكانوا هم يظهرون للسلطان الطاعة وهم في الباطن منحرفون عنه بسبب أن الدالة التي كانوا يدلون بها على السلطان المولى

سليمان رحمه الله انقطعت عنهم مع السلطان المولى عبد الرحمٰن وزالت من أيديهم فكانوا يمرضون في الطاعة بعض الأحيان والسلطان يطويهم على غرهم ويلبسهم على عرهم إلى أن كان البعث إلى تلمسان فوجههم إليه فيمن وجه من أعيان الجيش ورؤسائه، فكانت قوارصهم لا تنقطع عن الدولة، وشغبهم لا يفتر من التطاول والصولة، ثم كان نهب الزمالة والدوائر فأبدؤوا في ذلك وأعادوا وشايعهم على فعلهم القائد أحمد بن المحجوب البخاري وأظهروا عدم المبالاة بالسلطان وخليفته وعامله وكانت بينهم وبين القائد إدريس الجراري منافسة باطنية فخاف من الاعتراض عليهم فيما ارتكبوه من النهب أن يسدوا برأسه هذا الخرق فأسعفهم وانتهب معهم، وكان ما قدمناه من استرجاع السلطان لذلك الجيش وبعث من قبض على القائد إدريس بوجدة وجيء به إلى تازا فسجن بها، ولما وصل جيش تلمسان إلى عنق الجمل قرب فاس خرج إليهم القائد الطيب الوديني البخاري وكان والياً على فاس فقيل أراد أن يقبض عليهم بإذن من السلطان وقيل أراد أن يحوز منهم أرحلهم وحقائبهم التي ملؤوها من النهب وكان الودايا والعبيد لما فعلوا فعلتهم تحالفوا وتعاهدوا على أن يكونوا يداً واحداً على من أرادهم بسوء كائناً من كان، فلما خرج إليهم الطيب الوديني تجهموه وهموا به فرجع أدراجه وأنهى ذلك إلى السلطان فأغضى عنهم، ثم بعد أيام عزم السلطان على القبض على الحاج محمد بن الطاهر العقيلي فأحس هو بذلك فذهب إلى الطاهر بن مسعود وتطارح عليه وقال له: إني مقبوض لا محالة فإن ولاك السلطان من أمري شيئاً فأحسن ولا تؤاخذني بما كان مني إليك، وقد كان الطاهر بن مسعود قبل هذه المدة عاملاً بتارودانت فعزله السلطان بابن الطاهر فأساء إليه فلهذا قال له ما قال، فقال الطاهر بن مسعود: وأنت مقبوض قال نعم، قال: عليّ وعليّ لا جرى عليك أمر تكرهه ما دمت حياً، ثم إن السلطان أحضر الحاج محمد بن الطاهر وأحمد بن المحجوب فقرعهما وأمر بالقبض عليهما فقبض أعوان الودايا على أخيهم وقبض أعوان العبيد على أخيهم وخرجوا بهما إلى السجن مع العشي، وكان الطاهر بن مسعود قد

ترصد بباب دار السلطان للحاج محمد بن الطاهر ليفتكه وصاحبه، فلما خرجا قام الطاهر بن مسعود إلى الأعوان فراودهم على إطلاق المسجونين فأبوا وقالوا: إنهما مسجونان عن أمر السلطان فتصامم عن ذلك واستل خنجره وضرب إدريس البواب الوديي على ترقوته فخدشه وانتزع منه المسجون وتقدم لافتكاك أحمد بن المحجوب فأبى وانتهره. وقال: لا أخالف أمر السلطان، وكان الودايا يظنون قيام العبيد معهم لحلفهم السابق فخذل الله فيما بينهم، ثم أسرع الطاهر وابن الطاهر إلى فرسيهما فركباهما ونجوا إلى ناحية دار الدبيبغ وثارت المغافرة بباب دار السلطان وحملوا السلاح وأخرجوا البارود والرصاص، وقامت شيعة السلطان لمدافعتهم فكثرهم الودايا وهزموهم حتى أغلقوا عليهم باب المشور، وسأل السلطان عن الهيعة فأعلم بالخبر وكان معه الحسن بن حمو واعزيز فقال له: يا مولانا إن هؤلاء ما جسروا على هذا الفعل ببابك حتى عزموا على ما هو أكثر، فدعا السلطان بفرسه وركبه مع الغروب وخرج من باب البجاة ومعه ابن واعزيز وبعض أصحابه خيلاً ورجلاً، ولما علم الودايا بخروج السلطان ركبوا بقضهم وقضيضهم من فاس الجديد ومن قصبة شراقة فأدركوا السلطان عند قنطرة عياد فنزلوا إلى الأرض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له ويتبرؤون من فعل أولئك السفهاء، وكان الحال إذ ذاك حال مطر خفيف والشمس قد غربت أو كادت تغرب، فساعدهم رحمه الله على الرجوع وأشار عليه الحاج محمد بن فرحون بأن يذهب معه إلى قصبة شراقة وكانت يومئذ لأهل السوس فذهب معه إلى داره من غير أن يطمئن إليه، ولكن ذلك الذي اقتضاه الحال في تلك الساعة، ولما استقر بدار ابن فرحون اجتمع عليه المغافرة والودايا وأهل السوس وأساء عليه المغافرة الأدب بل عزموا على الفتك به ولكن الله تعالى وقاه شرهم، فاختلفت كلمتهم وتذامر أهل السوس فيما بينهم وقالوا: لا يبيتن السلطان الليلة إلا بداره واستنهضوه فنهض رحمه الله وركب فرسه وصحبوه إلى داره في ذلك الليل فاستقر بها، وبعد ذلك بأيام انتقل السلطان إلى بستان أبي الجلود خارج فاس الجديد على حين غفلة من الودايا وانحاز

شيعة السلطان إليه من العبيد وغيرهم ونزل جلهم بفاس القديم وبقي الودايا وحدهم بفاس الجديد، ثم استدعى السلطان عبيد مكناسة فقدموا عليه ولما علم الودايا بعزم السلطان على الخروج من بين أظهرهم ساءهم ذلك وعلموا أنه إن خرج من بين أظهرهم لا يتركهم حتى يوقع بهم فراودوه على المقام وتنصلوا وأظهروا التوبة وتقدم سفهاؤهم إلى العبيد فأنشبوا معهم الحرب وهلك من الفريقين عدد، ثم تدارك السلطان أمرهم وتلطف وطيب أنفسهم وأجمع على الخروج إلى مكناسة فخرج بثقله وأثاثه وأمواله وسلك طريق قبقب وعقبة المساجين كأنه يريد بلاد الغرب وخرج لتشييعه جماعة وافرة من أعيان الودايا ثم أنهم ندموا ونكسوا على رؤوسهم وربما سمعوا من العبيد بعض كلام فحميت أنوفهم وتحزبوا وأوقعوا بالعبيد فانهزموا عن السلطان وانتهب الودايا خيرته وأثاثه، وقام عقالهم دون العيال حتى ردوه إلى الدار محفوظاً مصوناً ولم يفعلوا أحسن منها، وأما المال والأثاث فقد أتى عليه النهب وكان شيئاً كثيراً، وتقدم السلطان رحمه الله لطيته وتبعه سفيه من سفهاء الودايا كان أراد الفتك فيه فحماه الله منه، ووصل السلطان رحمه الله إلى مكناسة فاستقر بها، واتصل خبر هذه الفتنة بالقائد إدريس بن حمان الجراري وهو مسجون بتازا فاحتال على سراح نفسه بأن افتعل كتاباً على لسان السلطان وبعث به إلى عامل تازا فسرحه، وكان السلطان رحمه الله قد بعث إلى القائد إدريس المذكور وهو بتلمسان أربع ورقات مختوماً عليها بالخاتم السلطاني الكبير وأمره السلطان رحمه الله أن يحتفظ بتلك الورقات ولا يستعمل واحدة منهن إلا في أهم المهمات مما يتوقف عليه غرض السلطان والدولة ولا تمكن مشاورته فيه لبعد المسافة بين فاس وتلمسان، فعمد القائد إدريس إلى واحدة من تلك الورقات فكتب فيها بتسريحه فسرح وجاء يجد السير إلى فاس، وبنفس وصوله كتب إلى السلطان يعلمه بما صنع، وأنه لا زال على ما يعهد مولانا من بذل النصح والسعي في صلاح السلطان والجيش، فأجابه السلطان رحمه الله بما نصه:

وبعد، فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه والحمد لله على سلامتك، وما

وجهنا لك إلا بقصد أن نسرحك لأننا تحققنا أنك كنت مغلوباً عليك فلا عهدة عليك بل من تمام عقلك مساعدتك لمن نهب ولو منعتهم من ذلك لتفاقم الأمر هنالك وأنت عليك الأمان ظاهراً وباطناً في الحال والاستقبال، فلا تخش من شيء أبداً فإنك ممن نتهمه بالدين والعقل والصدق، وقد عاينت وسمعت ما صدر من إخواننا من النزعة الشيطانية ولا ينبغي أن نقابلهم بمثل ما قابلنا به من لا عقل له منهم وإن قابلناهم به لا نلتقي أبداً، وأنت اسع في الخير والصلاح ما أمكنك وتحمل لهم عنا بالأمن من كل ما يخافونه من جانبنا، فجسارتهم أولى من صلاح القبائل فقف على ساق الجد **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس»** والسلام، في السابع عشر من المحرم فاتح عام سبعة وأربعين ومائتين وألف انتهى لفظ الكتاب الشريف.

ثم إن القائد إدريس أحسن القيام على عيال السلطان الذين بقوا بفاس الجديد وكان فيهم حظيته المولاة فاطمة بنت المولى سليمان وتقدم القائد إدريس إلى أمين الصائر من قبل وقال له: ما كنت تدفع إلى دار السلطان كل يوم من دقيق ولحم وإدام وغير ذلك فاكتب لي بقدره وابعث إليّ به، فأحصاه الأمين المذكور وبعث إليه به فصار يبعث بذلك القدر إلى دار السلطان كل يوم، وانقطع الماء ذات يوم عن دار السلطان فكان القائد إدريس يحمل قرب الماء إليها كل يوم وأصلح القنوات وجد في ذلك حتى رجع الماء إلى مجراه، ثم إن السلطان رحمه الله استنفر قبائل الغرب كلها حوزاً وغرباً وثغوراً فقدموا مكناسة على بكرة أبيهم وسمع الوداية بذلك فاستدعوا الشريف سيدي محمد بن الطيب من بعض الأعمال والتفوا عليه وبايعوه، فحينئذ تبرأت منهم القبائل التي كانت تعدهم بالقيام معهم من مجاوريهم لأن سيدي محمد بن الطيب كانت قبائل المغرب قد تناذرته منذ أيام ولايته على تامسنا ودكالة وفعله بأهلها الأفاعيل فكان مبغضاً عند العامة، وزحف السلطان إلى فاس الجديد فحاصرهم بها ونصب عليهم المدافع والمهاريس وتعاقب عليهم الرمي بها من محلة السلطان بعين قادوس ومن بستيون أبي الجلود وبستيون

باب الجيسة وبستيون باب الفتوح ودام الحصار أربعين يوماً والحرب لا تنقطع في كل وقت، وكان الودايا يرمون أيضاً بالكور والبنب وأبلى بنو حسن في تلك الأيام البلاء الحسن، ثم إن السلطان عزم على البناء عليهم وجلب اللواحين فشرعوا في العمل وسئم الودايا الحرب وملوها فأذعنوا إلى الصلح وسعى في الوساطة بينهم وبين السلطان الأمين الحاج الطالب ابن جلون الفاسي، فأمنهم السلطان على شرط الخروج من فاس الجديد فأذعنوا ثم بعثوا شفاعاتهم بالمشايخ والصبيان والألواح على رؤوسها ومعهم سلطانهم ابن الطيب فسامح رحمه الله الجميع وقال لهم في جملة ما قال: الحمد لله إذ لم أغلبكم ولم تغلبوني لأني لو غلبتكم لذبحت هذه الجيوش أولادكم ولم أقدر أن أردها عنكم، ولو غلبتموني لفعلتم كل ما تقدرون عليه. فهذا من لطف الله بي وبكم.

قلت: وهذا كلام دال على وفور عقل السلطان رحمه الله وكمال شفقته ورحمته، ثم لما عزم السلطان على النهوض إلى مكناسة ولى على جيش الودايا كله القائد إدريس بن حمان الجراري وذلك في الحادي والعشرين من جمادى الثانية سنة سبع وأربعين ومائتين وألف، ثم نهض إلى مكناسة فاحتل بها، ولما حضر عيد الفطر قدمت الوفود على السلطان بمكناسة واستقامت الأحوال وكتب رحمه الله إلى القائد إدريس أن يحضر العيد في جماعة وافرة من إخوانه نحو الخمسمائة فحضروا ودخلوا على السلطان ذات عشية بالمشور فوبخهم حتى ظن الناس أنه يقبض عليهم ثم سرحهم فعادوا إلى فاس الجديد، ولما عزم السلطان رحمه الله على النهوض إلى مراكش قدم أولاً فاساً ونزل خارج البلد ونظر في شأنه وشأن الجيش والرعية، ثم ارتحل يريد مراكش فلما انفصل عن فاس بيوم أو يومين كتب إلى القائد إدريس يأمره أن يبعث إليه بالطاهر بن مسعود والحاج محمد بن الطاهر يذهبان معه إلى مراكش بقصد الخدمة بها مع ولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فذهبا على فرسيهما مسرحين إلا أنهما كانا حذرين من السلطان لما قدما من الفعل الشنيع الذي كان سبب هذه الفتنة العظيمة فقدما مراكش وترتبا في

الخدمة مع الخليفة المذكور وانسلخت هذه السنة وفيها عزل السلطان وزيره الفقيه أبا عبد اللّه محمد بن إدريس وامتحنه، وبقي عاطلاً مدة ثم رده إلى خطته، وكان السلطان في مدة تأخيره إياه قد استوزر مكانه الفقيه العلامة الأديب السيد المختار بن عبد الملك الجامعي فقام بأعباء الخطة وبرز فيها رحمه الله، وفيها بنى السلطان رحمه الله المارستان الكبير على ضريح ولي الله تعالى أبي العباس أحمد بن عاشر بسلا وكان على ضريح الولي المذكور القبة والمسجد فقط، فأدار السلطان رحمه الله على ذلك كله مارستانا كبيراً وبنى به مسجداً آخر وبيوتاً للمرضى تنيف على العشرين وأجرى إليه الماء وجعل ميضأة بإزاء المسجد للرجال وأخرى شرقيها للنساء، فجاء ذلك من أحسن الأعمال وكتب الله أجره في صحيفة السلطان.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف، ففي صفر منها ورد على القائد إدريس كتاب من عند السلطان وهو يومئذ لا زال برباط الفتح يأمره أن يبعث إليه بالحاج محمد بن فرحون الجراري فوصل إليه مسرحاً فقبض عليه وبعثه إلى الصويرة، وبإثر ذلك ورد على السلطان كتاب من عند ولده سيدي محمد يعلمه بأنه قبض على الطاهر بن مسعود، والحاج محمد بن الطاهر لكونهما لم يقلعا عن ضلالهما وشيطنتهما حتى أنهما عزما على اغتياله بمصلى عيد الأضحى من السنة الفارطة فحماه الله منهما، ولما وصل السلطان إلى مراكش صار يكتب إلى القائد إدريس برؤوس الفتنة والقبض عليهم واحداً بعد واحد إلى أن استوفى جلهم، وكان القائد إدريس في هذه المدة قد أحس بأن باطن السلطان لا زال متغيراً على الودايا فألح عليه في البحث والاستكشاف عما هو مضمره لهم وما يريد بهم وما الذي يجلب رضاه عنهم ويصفي باطنه عليهم، فكتب إليه السلطان رحمه الله كتاباً أفصح فيه عن مراده يقول فيه بعد الافتتاح والطابع الشريف بينه وبين الخطاب ما نصه: خالنا الأرضى القائد إدريس الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبعد، فاعلم بأنك طلبت منا مشافهة وكتابة أن نعرب لك عن مرادنا

ونطالعك بغاية قصدنا وأمنيتنا في الجيش وما يجلب رضانا عنهم وكنا نجيبك عن ذلك جواباً إقناعياً لعدم وثوقنا وقتئذ بصدق لهجتك، وكان يخيل لنا أنك تباحثنا على جهة الاطلاع على خبيئة أمرنا والآن اتضح ما أنت عليه من الصدق ووفور المحبة وخلوص النية حتى صرت به كأحد أولادنا.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وعليه فأنت أولى من نبثه سرنا ولا ندخر عنه شيئاً من دخيلة أمرنا، فاعلم أرشدك الله أن من بارزنا بالسوء قولاً وفعلاً من ذلك الجيش هم المغافرة كافة واستوى في ذلك كبيرهم وصغيرهم قويهم وضعيفهم، ولم يلف منهم رجل رشيد ولو ساعدهم الودايا وأهل السوس وخلوا بينهم وبين هواهم لكان ما أرادوه من تلف مهجتنا ولكن الله سلم، ولا يخفى على أحد ما استوجبوه لذلك شرعاً وطبعاً ولسالف خدمتهم وكظم الغيظ المرغب فيه ارتكبنا في جانبهم أخف ما أوجبه الله تعالى على أمثالهم، قال جل علاه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33] الآية، وقد آليت على نفسي وأشهدت الله وملائكته أن لا يضمني سور فاس الجديد والمغافرة به فهذا هو محض الصدق والآن بين لنا كيف يكون العمل في ذلك وما نقدم وما نؤخر لأن المراد قضاء الغرض من غير مشقة ولا فضيحة للجيش، وهل تفشي هذا أو تكتمه؟ وعلى تقدير امتثالهم عين لنا أي محل ينتقلون إليه من ثغور إيالتنا كالرباط وغيره أو قصبة مراكش فإن النفس لم تسمح بهم بالكلية بل المراد زجرهم وإقامة بعض حق الله فيهم، ويحصل لنا الاطمئنان والسكينة ونبر قسمنا فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وما ذكرت من أنّا عاهدناك ووعدناك بالإحسان والتنويه بشأنك فإنه وعد صدق لا مرية فيه إن شاء الله، وكيف وقد استوجبت منا كل جميل وقدمك لمعالي الأمور عقلك وصدقك، ولو ألفينا في الجيش مثلك لضممنا عليه البراجم والرواجب وفعلنا في جانبه ما هو الواجب، وقد اقتصرت حيث طلبت أن تكون بمنزلة القائد قدور بن الخضر عند سيدي الكبير رحمهما الله، فأنت

عندنا بمنزلة أعظم من منزلته واليد التي اتخذت عندنا أعظم مما اتخذ هو عند سيدي الكبير قدس الله سره، فقد جازاه على الصدق فقط أما أنت فقد شاركته في هذه المرتبة وفقته بما هو أعظم وهو إحسانك لعيالنا وأولادنا ولولا أنت لهلكوا جوعاً فلا يكفر هذه الضيعة إلا ليئم، وحاشانا الله من ذلك فطب نفساً وقر عيناً فلك عندنا من المكانة والحظوة ما لو اطلعت على حقيقته لطربت سروراً ونشاطاً، وسترى إذا انجلى الغبار ولا زال أهلنا يتذكرون إحسانك إليهم بحضرتنا، ويلتمسون لك الدعاء الصالح من جانبنا، وفي الحديث ما معناه أن امرأة من بني اسرائيل أبصرت كلباً يلعق الحمئة من شدة العطش فسقته فغفر الله لها، فكيف بمن أسدى معروفاً لجماعة انقطع رجاؤهم إلا من الله، والله لن يخزيك الله أبداً والسلام، في ثامن عشر رمضان المعظم عام ثمانية وأربعين ومائتين وألف اهـ .نص الكتاب، ثم إن الله تعالى هيأ للسلطان أمره في الودايا وألهمه رشده فيهم فأمر أولاً بنقل رحى المغافرة إلى قصبة الشرادي من أعمال مراكش وظن الناس أنه يقتصر على ذلك لأنه رحمه الله لم يكن يظهر إلا أنه يريد نقل المغافرة فقط، ثم نقل رحى الودايا إلى العرائش وأحوازها ثم ردهم إلى جبل سلفات، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة نقل رحى أهل السوس إلى رباط الفتح فأنزل حلتهم بالمنصورية على شاطئ وادي النفيفيخ وقوادهم ووجوههم بقصبة رباط الفتح، ثم رد الحلة بعد مضي ست سنين إلى قصبة تمارة قرب رباط الفتح وكانت متلاشية فأمر السلطان بعد سنتين أو ثلاث بترميمها وإصلاحها، وكان رحمه الله قد أسقط هذا الجند الوديي من الجندية وأعرض عنه بالكلية سنين ثم استردهم في حدود الستين كما سيأتي، ولما أخلى السلطان فاساً الجديد من جيش الودايا بأسره وكان بمراكش بعث بالطاهر بن مسعود، وبالحاج محمد بن الطاهر، فسجنا به مدة، ثم قدمت عريفة الدار الحاجة زويدة بكتاب من عند السلطان على ولده سيدي محمد بفاس يتضمن الأمر بقتل الطاهر وابن الطاهر بالمحل الذي افتك فيه الأول الثاني، فأخرجا إلى المحل المذكور وحضر

الوصيف القائد فرجي وقدم الطاهر بن مسعود فأخرجت فيه عمارة وحز رأسه ،ثم قدم الحاج محمد بن الطاهر ففعل به مثل صاحبه فيقال: إنه زهقت نفسه قبل القتل لأنه لم يسل منه دم، وأما الطاهر بن مسعود فسال منه دم كثير وأمر سيدي محمد ولد السلطان بمواراته فووري، وأما ابن الطاهر فإنه رمي على المزبلة ووكل به الحرس إلى أن أكلته الكلاب ولم يبق إلا رجلاه بالقيد، وكان ذلك في حدود خمسين ومائتين وألف، وأما ابن فرحون وأصحابه فإنهم استمروا في سجن الجزيرة إلى أن هلكوا.

واعلم أن هذه الوقعة الهائلة دالة على كمال عقل السلطان ووفور حلمه وفضله حتى أنه ما عامل هؤلاء القوم الذين آذوه أشد الإذاية إلا ببعض البعض مما استوجبوه كما قال وكما رأيت وعلمت، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتغمدنا والمسلمين برحمته، ويقينا وإياهم مصارع السوء وينيلنا الأمن في الدنيا والفوز في الآخرة بجنته، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

ظهور الحاج عبد القادر بن محيي الدين المختار بالمغرب الأوسط وبعض أخباره

لما رجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى علي بن سليمان حسبما مر بقي أهل تلمسان فوضى، ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغلية جذعة وهاجت الفتن بين قبائل العرب الذين هنالك واختلط الحابل بالنابل، وكان الفقيه المرابط محيي الدين عبد القادر المختاري نسبة إلى أحد أجداده المشهورين بتلك الناحية نازلاً وسط حلة الحشم عند المشاشيل منهم وكان متظاهراً بالخير وتدريس العلم واتخذ زاوية لطلبة العلم وقراء القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقدوه، فلما دهم العدو أهل تلك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الحشم وبعض بني عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم، فأجمع رأيهم على بيعة الشيخ محيي الدين المذكور فذهبوا إليه

وعرضوا عليه ما في أنفسهم فتجافى عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بأنه قد شاخ وذهب منه الأطيبان وإنما هو هامة اليوم أو غد، فسدكوا به وتطارحوا عليه فأشار عليهم بولده الحاج عبد القادر بن محيي الدين، وكان له يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وإنما كان فيه مضاء وإقدام فأسعفوه بشرط أن يكون نظره منسحباً عليه، ومشيراً بما تدعو الضرورة إليه، ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة من بني عامر والحشم وزحف إلى وهران وكانت يومئذ في ملكة النصارى قد استولوا عليها منذ ستة أشهر أو سبعة فأوقع بهم وقعة شنعاء، قتل فيها وأسر وأبلغ في النكاية ورجع مظفراً منصوراً، فتيمنوا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه واتخذ عسكراً من الحشم وبني عامر لا بأس به، ولما سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا إلى من يقوم بأمرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمٰن صاحب مراكش وفاس وأنهم يبايعونه على بيعته والإعلان بدعوته، فأجابهم الحاج عبد القادر إلى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمٰن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها، وولى على تلمسان وأعمالها وزيره أبا عبد الله محمد البوحميدي الولهاصي، وكتب إلى السلطان يعلمه بأنه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه في تلك الإيالة التلمسانية، ثم إن قبيلتي الزمالة والدوائر الذين قدمنا ذكرهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لأسباب، منها أنهم كانوا معادين للحشم ولما قرب الحاج عبد القادر الحشم وجعلهم جنده ازدادت عداوتهم ونفرتهم عن الحاج عبد القادر وساروا إلى وهران وأعلنوا بدعوة الفرنسيس فقبلهم وحماهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حروب صعبة.

حدثني الأمين السيد الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الرزيني التطاوني قال: ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف إلى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال: وكنت يومئذ في سن

الشباب حين بقل عذاري فأقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين إذ ذاك مهادناً لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد أنزل كل واحد منهما ببلد الآخر قنصله وتجاره على العادة في ذلك أيام الهدنة، فلما كان ذات يوم ورد الخبر بأن قبيلتي الزمالة والدوائر من إيالة الحاج عبد القادر وهم نحو الألفين كانوا قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا سنجقة وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث إليهم الفرنسيس يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه، فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر المعسكري كتاباً إلى الفرنسيس يقول فيه: «إنك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فروا إليك هم رعيتي ومن إيالتي وعليه فلا بد أن تردهم عليّ وإلا فالحرب بيني وبينك» فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب إلى الحرب واتفقوا أن يخرج كل منهما إلى الآخر تجاره الذين في أرضه وأن من بقي منهم بعد ثلاث فهو هدر، واتفقوا أيضاً على أن يكون القنصلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على المحدة التي بين أرض المسلمين وأرض النصارى ففعلوا وخلص كل إلى مأمنه.

ولما انقضى الأجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد، ولما كان عشي النهار سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وباروداً كثيراً وإذا بالحاج عبد القادر هزم الكفار هزيمة شنعاء حتى ألجأهم إلى سور البلد وازدحموا على أبوابه وركب بعضهم بعضاً وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبوهم أيضاً ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم، فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو أربعة آلاف دون الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح، واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث، وكانت فتكة بكراً. قال الحاج عبد الكريم المذكور: وكنت في تلك المدة مساكناً لبعض كبراء عسكر الفرنسيس في دار واحدة، فلما انقضت الوقعة بيوم أو يومين سألته كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس في هذه الوقعة؟ قال: أقرب لك أم

أبعد؟ قلت: بل أقرب. قال: أنا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الوقعة ثمانية عشر عسكرياً انتهى كلام هذا المخبر.

ثم إن الزمالة والدوائر لجوا في موالاة الفرنسيس وأحكموا أمرهم معه وولوا عليهم رجلاً منهم يقال له المصطفى بن إسماعيل كان هو السبب الأكبر في تملك الفرنسيس بلاد المغرب الأوسط وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والنصارى في تلك المدة على يده إلى أن قتل منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف ضاعف الله عليه غضبه ونقمته، ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين، وحماية بيضة المسلمين، أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لأنه رأى أنه قد قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له، فصار السلطان رحمه الله يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة على يد الأمين الحاج الطالب بن جلون الفاسي وغيره، وطالت الحرب بينه وبين الفرنسيس واستولى الفرنسيس في بعض الكرات على تلمسان وضايقه الحاج عبد القادر فيها حتى أخرجه منها ثم استردها الفرنسيس بعد معارك شديدة ومواقف صعبة إلا أن ضرر الحاج عبد القادر للفرنسيس كان مقصوراً على قتل النفوس واستلاب الأموال، وأما الفرنسيس فكان ضرره بالمسلمين عائداً على تملك بلادهم وتنقصها من أطرافها، ودام ذلك مدة من ست عشرة سنة.

وبالجملة فلقد كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو ولولا أنه انعكس حاله في آخر الأمر وخلصت الأرض للفرنسيس والله غالب على أمره.

وفي سنة خمسين ومائتين وألف ولد مؤلف هذا الكتاب أحمد بن خالد الناصري السلاوي. أخبرتني والدتي الست فاطمة بنت الفقيه السيد محمد بن محمد بن قاسم بن زروق الحسني الإدريسي الجباري أني ولدت بعد طلوع الفجر صبيحة يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة

المذكورة. وفي محرم فاتح سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف توفي الوزير الشهير السيد المختار بن عبد الملك الجامعي بمراكش واستوزر السلطان بعده الفقيه أبا عبد اللّه محمد بن علي الحاجي النكنافي مدة يسيرة ثم أخره ورد وزيره الأقدم أبا عبد اللّه محمد بن إدريس رحم الله الجميع. وفي هذه السنة كان الوباء بالمغرب بالإسهال والقيء وغور العينين وبرودة الأطراف.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ورد سؤال من عند الحاج عبد القادر بن محيي الدين إلى علماء فاس يقول فيه ما نصه:

«الحمد لله سادتنا الأعلام أئمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الإدريسية، ومرمى المطالب ومحط الرحال العيسية، أطباء أدواء الدين ومحقين حقه ومبطلين باطله، ومنتجين قضاياه المتخيلة عقيمة وباطلة، جوابكم أبقاكم الله فيما عظم به الخطب، واشتد به الكرب، بوطن الجزائر الذي صار لغربال الكفار جزائر، وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم بالسيف وتارة بحيل سياسته ومن المسلمين من يداخلهم ويبايعهم ويجلب الخيل إليهم ولا يخلو من دلالتهم على عورات المسلمين ويطالعهم، ومن أحياء العرب المجاورين لهم من يفعل ذلك ويتمالؤون على الجحود والإنكار فإذا طلبوا بتعيينه جعجعوا والحال أنهم يعلمون منهم الأعين والآثار، فما حكم الله في الفريقين في أنفسهم وأموالهم؟ فهل لهم من عقاب أم يتركون على حالهم؟ وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة عن الحريم والأولاد، إذا استنفره نائب الإمام للدفاع والجلاد؟ فهل يعاقبون وكيف عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم؟ كيف العمل فيمن يمنع الزكاة أو يمنع بعضها من التحقق بعمارة ذمته في الحال؟ فهل يصدق مع قلة الدين في هذا الزمان أم يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومن أين يرزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد ثغورهم عن المغيرين ولا بيت مال وما يجمع من الزكاة لا يفي بشبعهم فضلاً

عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ومؤنتهم وزيهم؟ فهل تترك فيستبيح الكافر الوطن أم يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين؟ وإذا كان فهل على العموم أم على الأغنياء فقط ولا يمكن اختصاص الأغنياء لجفوة الأعراب وجهلهم؟ وهل يعد مانع المعونة باغياً أم لا وما حكم أموال البغاة وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا؟ أجيبوا عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال مما لم يحضرنا داووا عللنا أبقاكم الله فقد ضاق من هذه الأمور الذرع، وكاد القائم بأمر المسلمين لضيق الأسباب أن يتخلى عن الأمر ويطرح ثوب الإمارة والدرع، مأجورين والسلام، في تاسع عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة صدره عن إذن الحاج عبد القادر بن محيي الدين لطف الله به».

وقد أجاب عن هذا السؤال بإشارة السلطان الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام مديدش التسولي بجواب طويل يشتمل على خمس كراريس وزيادة، وهو موجود بأيدي الناس، ولأجل ما كان يصل من هذه الأمور من جانب الحاج عبد القادر كان السلطان رحمه الله يبذل مجهوده في إمداده بالخيل والسلاح والمال وغير ذلك، ثم لم يكن إلا ما أراده الله.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف بعد ظهر يوم السبت العشرين من ربيع الأول منها توفي الفقيه العلامة المتفنن المحدث أبو العباس أحمد بن الحاج المكي السدراتي السلاوي ودفن صبيحة يوم الأحد في الجبانة التي قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر، وشهد جنازته خلق كثير، وأمهم الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله محمد الهاشمي طوبى، وللفقيه أبي العباس المذكور شرح حفيل على موطأ الإمام مالك رضي الله عنه وهو موجود بأيدي الناس.

وفي سنة أربع وخمسين بعدها وذلك صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان منها توفي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله طوبى المذكور آنفاً، وكان رحمه الله من قضاة العدل وأهل العلم بالنوازل والأحكام محمود السيرة ذا سكينة ووقار.

وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف وذلك في سابع جمادى الأولى منها كمل بناء المنار بالمسجد الأعظم من سلا، وكان المنار الذي قبله قد أصابته صاعقة تداعت لها أركانه فأمر السلطان رحمه الله بنقضه وإعادته جديداً فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم وصير عليه بواسطة أمناء مرسى العدوتين ثلاثة آلاف مثقال وأربعمائة مثقال وأربعة وعشرون مثقالاً وست أواق وثلث الأوقية، والريال الكبير يومئذ من سعر ست عشرة أوقية، وكان جل الصائر من بيت المال وأقله من مال الحبس، وكان الذي يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء عامل سلا الأبر الأخير السيد الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي عواد.

وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة المحقق البارع أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المدعو مديدش صاحب الشرح الكبير على تحفة ابن عاصم في الأحكام، وشرح الشامل وحاشية الزقاقية وغير ذلك من التآليف الحسان رحمه الله ونفعنا به.

وفي منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف غزا السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قبيلة زمور الشلح وكانوا قد تجاوزوا الحد في الإفساد وإخافة العباد والبلاد فأوقع بهم وقعة شنعاء كسرت من حدهم وفلت من غربهم، وكتب السلطان رحمه الله في ذلك إلى ولده وخليفته سيدي محمد كتاباً من إنشاء وزيره أبي عبد الله بن إدريس يقول فيه ما نصه: «ولدنا الأرضى الأبر الأرشد سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد: فقد كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقاً، وحملهم على الاستقامة بالإرهاب من الشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقاً، فلم يرد الله بهم خيراً لفساد نيتهم وخبث طويتهم واتكالهم على حولهم وقوتهم، فما رأوا منا ليناً وسداداً إلا ازدادوا شدة وفساداً، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشاداً إلا أظهروا تطاولاً وعناداً، وما أخرنا المحلة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وألفاً إلا ظنوا ذلك عجزاً وضعفاً، قد طمس الإعجاب منهم بصراً وسمعاً، ولم يروا أن الله قد أهلك من قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندا في موضع السيف بالعلى مضربه كوضع السيف في موضع الندا

فلما رأينا لجاجهم في عمالهم وعدم رجوعهم عن هواهم، وأنهم لم يعتبروا بجلائهم عن بلادهم ولا بما أصابهم من الفتنة في أنفسهم وأولادهم، ولم يراعوا ما نهب من زرعهم القائم والحصيد ولا ما استخرج من مخزونهم الكثير العتيد، رأينا قتالهم شرعاً وجهادهم ذباً عن الدين ودفعاً، فاعتمدنا على حول الله وقوته وأمرنا بالزيادة عليهم في الأخذ والتضييق، والمبالغة في النهب والتحريق، وتركهم محصورين في أوعارهم ومقهورين في أوكارهم، إذ رب مطاولة أبلغ من مصاولة، فتوالت عليهم الغارات وتتابعت عليهم النكبات لا يجدون إلى الراحة سبيلاً، أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً، ففي كل يوم تثمر العوالي رؤوس رؤسائهم، وتتخطف أيدي المنايا أهل بأسائهم، وكلما رادوهم إقداماً وطلباً ازدادوا توغلاً في الجبال وهرباً حتى نهكتهم الحرب، وضرستهم موالاة الطعن والضرب، وضاع بالحصار الكسب والمال ولحق الضرر الأولاد والعيال، فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم طالبين لحلفهم وجوارهم، وبلغ البؤس فيهم غايته وأظهر الله فيهم آيته، وهم في خلال هذا كل حين يتشفعون ويتذللون في قبول توبتهم ويتضرعون، ونحن نظهر لهم التمنع والإباية لنبني أمرهم على أساس الجد، ونجازيهم على ما ارتكبوه من خلف الوعد، فلما أنجزت القهرية فيهم وعدها، وبلغت العقوبة فيهم حدها، قابلنا إساءتهم بالإحسان، وراعينا فيهم وجه المساكين والنساء والصبيان، فولينا عليهم منهم ثلاثة عمال ووظفنا عليهم خمسين ألف مثقال، وشرطنا عليهم تقويم مائتين من الحراك مثل قبائل الطاعة والتزام الصلاح والخدمة جهد الاستطاعة، فقاموا بذلك أحسن قيام، وأعطوا المراهين في أداء المال بعد أيام، وكان أخذهم بعد تقديم الأعذار وتكرير الإنذار، وعفونا عنهم عفو غلب واقتدار، ورب عقاب أنتج حسن طاعة، وتوبة نصوح تداركت ما سلف من التفريط والإضاعة، وفي الناس من لا يصلح إلا مع التشديد، وربك يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد.

وما عن رضى منها عطية أسلمت ولكنها قد قادها للهدى القهر

أردنا بها الإبقاء فازداد عجبها وأدبها التشديد والفتك والأسر

ولو قيدوا النعمة بالشكر لأمنوا الزوال، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: 11]، والسلام، في فاتح رجب الفرد الحرام عام تسعة وخمسين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف.

انتقاض الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين بإيسلي قرب وجدة والسبب في ذلك

كانت الهدنة معقودة بين هذه الدولة الشريفة وبين جنس الفرنسيس من لدن دولة السلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد اللّه رحمه الله، ولما حدث الشنآن بين ترك الجزائر والفرنسيس واستولى الفرنسيس على ثغورهم جاء أهل تلمسان إلى السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله راغبين في بيعته والدخول في طاعته فقبلهم بعد التوقف والمشاورة كما مر، ولما أعرى جيش السلطان تلمسان واجتمع أهل ذلك القطر على الحاج عبد القادر محيي الدين تحت كلمة السلطان برّ به وأحسن إليه وقاوم الفرنسيس بتلك البلاد أشد المقاومة إلا أن فائدة حربه كانت تظهر في قتل النفوس واستلاب الأموال، وفائدة حرب الفرنسيس كانت تظهر في انتقاص الأرض والاستيلاء عليها وشتان ما بينهما.

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد المغرب الأوسط وصار الحاج عبد القادر يتنقل في أطرافها، فتارة بالصحراء وتارة ببني يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك، وربما استكثر في هذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده، فمد الفرنسيس يده إلى إيالة السلطان رحمه الله فشن الغارة على بني يزناسن وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة، ثم اقتحم وجدة على حين غفلة من أهلها وانتهبها وكثر عيثه

في الحدود فكلم من جانب السلطان رحمه الله فيما ارتكبه من إيالته فتعلل بأن الهدنة قد انتقضت بإمداد الحاج عبد القادر بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة، وبمحاربة جيش السلطان المرابط على الحدود له وبمحاربة بني يزناسن له مع الحاج عبد القادر وغير ذلك مما اعتد به، وكان الحاج عبد القادر في هذه المدة قد فسدت نيته أيضاً في السلطان وفي الجهاد مع أنه ما كان لجهاده ثمرة، ورام الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقق السلطان بأمره وشرى الشر وتفاقم الأمر فعمد السلطان رحمه الله على حرب الفرنسيس وتقدم إلى أهل الثغور بالاستعداد والحراسة وإرهاف الحد لما عسى أن يحدث، ثم عقد لابن عمه المولى المأمون بن الشريف على كتيبة من الجند ووجهها إلى ناحية وجدة وعززه بالفقيه أبي الحسن علي بن الجناوي من أعيان رباط الفتح فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيس التي هنالك، ثم أخذ السلطان رحمه الله في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرايات والبنود واستنفار القبائل، وقال في ذلك الوزير ابن إدريس أشعاراً يستنفر بها أهل المغرب ويحضهم على الجهاد وإيقاظ العزائم له من ذلك قوله:

يا أهل مغربنا حق النفير لكم	إلى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم	من بعد ما سلم أهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه	ما عاد قبل على الإسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه	فعنده المكر والمكروه في نمط
وأنتم القصد لا تبقن في دعة	إن السكون إلى الأعدا من السقط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه	كيف الحياة مع الحيات في سقط
قد يغبط الحر في عز يخلده	وليس حي على ذل بمغتبط

وفي هذا الشعر تضمين بيت ابن العسال وهو مشهور، فاجتمع للسلطان رحمه الله في هذا الاستنفار ثلاثون ألف فارس تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً فيها

الجند وحصص القبائل في أكمل شكة وأحسن زي ولم يشهدها من الودايا سوى نفر يسير لأنهم كانوا في زاوية الإهمال عند السلطان، ثم عقد رحمه الله على هذه الجنود لولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمٰن وسار حتى نزل بوادي إيسلي من أعمال وجدة وكان الحاج عبد القادر لا زال جائلاً في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الأوسط لأن حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط، ولم تبق له هنالك كبير فائدة بل انقلب نفعه ضرراً وحزمه خوراً بفساد نيته، واستفساده لجند السلطان ورعيته، ولما احتل الخليفة سيدي محمد بإيسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر: إن هذه الفرش والأثاث والشارة التي جئتم بها حتى وضعتموها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء، ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض وإلا فإن العدو مني رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنى عليها عساكره، وبين كيف كان هو يقاتله، وكان هذا الكلام منه صواباً إلا أنه لم ينجع في القوم لانفساد البواطن ولا حول ولا قوة إلا بالله، وربما انتهره بعض حاشية الخليفة على التفصح بمحضره والإشارة عليه قبل استيشاره، فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه وانتبذ ناحية في جيشه ولسان حاله يقول: لم آمر بها ولم تسؤني، ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبوا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين فدخلا عليه وقالا: إن العدو عازم على أن يصبحكم غداً إن شاء الله فاستعدوا له وأعلموا الأمير فيقال: إن الحاجب قال: إن الأمير الآن نائم ولست بالذي أوقظه، ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الأولين، ولما طلع الفجر وصلى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل قيل من العرب وقيل من حرس الخليفة فأعلموا بمجيء العدو وأنهم تركوه قد أخذ

في الرحيل، فأمر الخليفة رحمه الله الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بالمحلة إلا الرماة وكانوا دون الألف، وبعث إلى بني يزناسن بالركوب فركبوا في ألوف كادت تساوي جيش الخليفة وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر، وراياتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع، وكان الخليفة سائراً في وسطهم ناشراً المظلة على رأسه راكباً على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجواني قد تميز بزيه وشارته، ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تتعجل القتال فأمر الخليفة رحمه الله بالسكينة والوقار والسير بسير الناس.

ثم لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط، ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفرس كميت فركبه ولبس طيلساناً آخر فاختفى حينئذ، وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها إقحاماً وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون: إن الخليفة قد هلك فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه، وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة، فتقدم بعض الحاشية إلى الخليفة وقال له: يا مولانا إن الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضاً ويسلب بعضهم بعضاً، فقال: يا سبحان الله! والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه، وانهزم من كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو يرمي الكور والضوبلي من غير فترة، وثبت الله بعض الطبجية بالمحلة ولكن سال الوادي فطم على القرى ونفذ أمر الله ولم يهزم المسلمين إلا المسلمون كما رأيت، ولما استولى العدو على المحلة فر النهاب الذين كانوا

بها وبقيت في يده بما فيها، وكانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها، وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف، ولما رجع المنهزمة تفرقوا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب آنكاد يستلبنهم كيف شئن، وانتهى الخليفة إلى تازا فأقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع إليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاساً وكان السلطان رحمه الله قادماً من مراكش إلى فاس فاتصل به خبر الوقعة وهو برباط الفتح فنهض إلى فاس مجداً واتصل به في أثناء طريقه خبر وقعتين اثنتين أخريين وهما هجوم الفرنسيس على طنجة والصويرة، ورميه إياهما بألوف من الكور والبنب ووقع بالصويرة حادث عظيم بسبب الغوغاء الذين بالبلد والشياظمة المجاورين لهم فإنهم لما رأوا العدو دخل الجزيرة ظنوا أنه سيدخل البلد فمدوا أيديهم للنهب، وكان ذلك أولاً في اليهود ثم عم غيرهم، وكان ما كان مما لست أذكره، فكان هذا مما زاد غيظ السلطان وكمده فعمد إلى جماعة من قواد الجيش وحلق لحاهم تأديباً لهم.

وذكر منويل هذه الوقعة فزعم: أن عساكر الفرنسيس كانت يومئذ عشرة آلاف وإنه كان غرضه محاربة الذين كانوا يحاربونه على أطراف البلاد حتى لقد أعطى خط يده للنجليز أنه إذا حارب وغلب لا يتملك من أرض المغرب شيئاً، قال: فلذلك لما وقعت الهزيمة بعث بإثرها رسله يطلب الصلح مع أن السلطان المولى عبد الرحمٰن لم يظهر عجزاً ولا فل ذلك من غربه بل استأنف الجد وشرع في جمع العدد اهـ كلامه.

ثم إن السلطان رحمه الله هادن الفرنسيس على يد الفقيه أبي سلهام بن علي آزطوط عامل طنجة والعرائش على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبد القادر من تلك البلاد لما في بقائه هنالك من آثاره الفتنة بين الدولتين بلا فائدة، ودعت المصلحة الوقتية السلطان رحمه الله إلى أن أسقط عن جنس

الدينمرك وجنس السويد ما كانا يؤديانه إلى الدولة العلية كل سنة، فالأول خمسة وعشرون ألف ريال، والثاني عشرون ألف ريال، وكذلك أسقط عن غيرهم وظائف أخر والأمور كلها بيد الله ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23].

وفي سنة إحدى وستين ومائتين وألف أخذت السكة في الارتفاع وكان الريال الكبير ذو المدفع بست عشرة أوقية، والريال الصغير الإفرنك بخمس عشرة أوقية، والبندقي بثلاثين أوقية، والدرهم الصغير بأربع موزونات، والكبير بست موزونات، ولما أخذت السكة في الارتفاع أخذت الأسعار في الارتفاع أيضاً وحاول السلطان رحمه الله حصرها فلم تنحصر وعلة ذلك والله أعلم أنه لما وقع مع الفرنسيس هذا الصلح وأسقط السلطان عن الأجناس ما كانت تؤديه كثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لأهله، وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها، وانفتح لهم باب كان مسدوداً عليهم من قبل فظهر أثر ذلك في السكة وفي السلع، أما السكة فلأن سكتهم كانت هي الغالبة وهي أكثر روجاناً من سكة المغرب، فلا بد أن يكون الحكم والتأثير لها والتجار يعتبرون فيها من الفضول والأرباح الناشئة عن تغاير القطرين ما لا يهتدي إليه غيرهم من العامة وتبعهم على ذلك تجار المسلمين، وأما السلع فلأن تجار النصارى يغالون في أثمانها أكثر من غيرهم كما هو مشاهد ثم ما دامت بلاد الفرنج مترقية في التمدن وحسن الترتيب واتساع الأمن والعدل إلا وسككنا وأسعارنا دائمة الترقي في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء فتأمله والله الموفق.

وفي هذه السنة ثار أهل رباط الفتح على عاملهم الحاج محمد بن الحاج محمد السوسي، وكان السبب في ذلك أن الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي من أهل الوجاهة بالرباط ومتبوع العقب فيها وكان كثيراً ما يجالس

العامل المذكور ويدلي عنده بالصداقة والمودة فيقال إنه تشفع عنده في بعض أهل البلد فرد شفاعته، فغضب الزبدي وعظم عليه ذلك وكان أهل البلد قد سئموا ملكة السوسي ومرضوا في طاعته لأسباب تعدها الرعية على العمال فجاء الزبدي إلى منزله وجمع جماعة من أعيان البلد ممن يعلم انحرافهم عن العامل المذكور وأطعمهم وأطلعهم على خبيئة صدره في أمر العامل فوجدهم إليه سراعاً فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا يبقى متولياً عليهم بحال، ثم مشوا إليه وأنذروه وتقدموا إليه بأن يلزم بيته ثم أجمع رأيهم عل تقديم الزبدي مكانه فقدموه وضبط أمر البلد، واتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو بفاس فقام وقعد وكتب إليهم بالوعظ والتقريع فصموا عن سماعه وتمادوا على شأنهم ثم بعث إليهم القائد الطيب الوديني البخاري يتولى عليهم ويقبض على أهل الفساد منهم فأفحشوا عليه وطردوه من البلد مع العشي، فعبر إلى سلا في مطر غزير ورجع إلى السلطان فأعلمه الخبر، فاحتال السلطان رحمه الله بأن بعث الفقيه الكاتب أبا عبد اللّه محمد العربي بن المختار الجامعي فقدم رباط الفتح وجمع أعيانها وخيرهم فيمن يتولى عليهم فاختاروا الزبدي فولاه السلطان عليهم وحمدوا سيرته، وبعد نحو ستة أشهر قدم السلطان رباط الفتح وتريث بها مدة حتى نقر عن رؤوس الفتنة فقبض عليهم وعلى قائدهم الزبدي وبعث بهم إلى فاس فسجنوا بها ثم سرحوا بعد حين.

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين وألف نهض السلطان من فاس ونهض الخليفة سيدي محمد من مراكش والتقيا بمشرع أبي الأعوان من دكالة وعيدا هنالك عيد المولد الكريم ثم سار السلطان إلى مراكش وانحدر الخليفة إلى فاس، وفي هذا العيد بعث أبو عبد اللّه أكنسوس إلى السلطان بالقصيدة.

وفي سنة ثلاث وستين ومائتين وألف تم بناء البرج الكبير بسلا المعروف بالصقالة الجديدة، وكان السلطان رحمه الله شرع في بنائه زمان انتقاض الصلح مع الفرنسيس وتم في هذه المدة على أكمل الأحوال وأحسنها.

بقية أخبار الحاج عبد القادر
وانقراض أمره وما آل إليه حاله

قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وأنه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب، فلما كانت الهزيمة بإيسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي إلى مبايعته والدخول في طاعته، وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكاتبوه على ما قيل، ثم احتال بأن بعث جماعة وافرة من الحشم وبني عامر شيعته إلى السلطان قدمهم أمامه في صورة هراب مستجيرين بالسلطان فقبلهم السلطان وأنزلهم على نهر سبو، ثم تقدم الحاج عبد القادر حتى وصل إلى القعدة الحمراء بين التسول والبرانس، وكان قصده أن يجتمع بشيعته ويصل يدهم بيده ويتم له ما أراد، فلما أطلع السلطان على دسيسته بعث إلى أولئك الجماعة عسكراً من الشراردة عليهم القائد إبراهيم بن أحمد الأكحل فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد من ذلك أنهم اعتصموا بربوة وجعلوا يقاتلون على حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة في الأرض، فكانوا كلما توجهت إليهم طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص، وكانوا يجمعون موتاهم وينصبونهم أشباراً يتترسون به ويقاتلون من خلفه، ولما أعيا الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم في معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم ونساءهم بأيديهم فراراً من السبي والعار، ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم في قبضة الأسار، وبعد هذا وجه السلطان ولده سيدي محمداً لحسم دائه في جيش كثيف وكان رئيس الجيش وكبيره بعد الخليفة القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي المدعو أبا محمد، وكان له ذكر في الشجاعة والرأي، ولما وصل الخليفة إلى سلوان بعث إليه الحاج عبد القادر جماعة فيهم وزيره أبو عبد الله البوحميدي يتنصل مما رمي به وأنه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان، وقدموا إلى الخليفة هدية ثم وقع الاتفاق على أن يقدموا على السلطان رحمه الله فينهوا إليه الأمر والعمل على ما قال

فوجه معهم الخليفة من يصحبهم إلى أبيه بفاس، وفي أثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة إلى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل كلهم بطل مجرب انتقاهم انتقاء، وكان جيش الخليفة منقسماً قسمين بعضه معه وبعضه مع أخيه المولى أحمد فضمد الحاج عبد القادر إليهما

في ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

بتلك العصبة الذين هم فتيان الكريهة ومساعير الهيجاء وجمرات الحرب طالما شهد بهم الوقائع وخاض غمرات الموت مع الفرنسيس وغيره، فلم يقف بهم إلا بين المجلتين وأطلقوا الرصاص مثل المطر وأرسلوا حراقيات على الجمال وتهاويل مفزعة فماج الناس في ذلك الظلام الغاسق ونزل بهم من الهول ما يقصر اللسان عن وصفه، وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويمنعهم من الركوب خوف الفرار، وأمر العسكر والطبجية بالرمي بالكور والضوبلي فكانوا يرمون إلى جهة محلة المولى أحمد ظناً منهم أن العدو لا زال مقابلهم ومحلة المولى أحمد يرمون إلى جهتهم كذلك فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير، وأما الحاج عبد القادر فإنه فر في أصحابه بعد أن حملوا الكثير من موتاهم معهم، وكان للقائد محمد في تلك الليلة ذكر، ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم وجدوا فيهم من الجرحى نحو الألف ومن القتلى ما يقرب ذلك، وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أجهضهم القتال عن حملهم نحو الخمسين وأسروا نفراً أحياء فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب، ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطرزة بالصقلي والحرير ونحو ذلك، فلقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما نرى، ثم إن الخليفة رحمه الله أمر باتباع الحاج عبد القادر فتبعته الكتائب المختارة فكان اللقاء ثانياً بمشرع الرحائل من وادي ملوية قرب البحر عند مسقط ملوية في البحر، فصدمته الجيوش صدمة أخرى فنى فيها كماته وكسرت شوكته، وفل حده وخشعت نفسه وأيس من جبر حاله، ففر إلى الفرنسيس ولجأ إليه وترك محلته بما فيها فاستولى جيش الخليفة عليها.

حكى من حضر أن الخيل كانوا يطردون الجماعة من أصحاب الحاج عبد القادر وهم راجلون ليأسروهم فما كانوا يدركونهم إلا بعد المسافة البعيدة جداً، والحاصل أن مقام هذا الرجل في الشجاعة معروف وبصارته بمكائد الحرب معلومة لولا ما ذكرناه من انعكاس حاله وورومه الاستبداد وخلعه طاعة الإمام الحق الذي كانت بيعته في عنقه.

واعلم أنه قد يقف بعض المنتقدين على ما حكيناه من أخبار هذا الرجل فينسبنا إلى تعصب وسوء أدب، والجواب أنا ما حكينا إلا الواقع، وأيضاً فلقد قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله: حضرت يوماً بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقد في إطراء ذلك العدو وما عرفته من فضله، فأنكر علّي بعض الحاضرين ممن لا يحطب إلا في حبل السلطان، فصرفت وجهي وقلت: أيدكم الله تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان قد غلب عدوه كان قد غلب غير حقير وهو الأولى بفخره وجلالة قدره، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسرة وآكد للفضيحة؛ فوافق رحمه الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض اهـ.

ولما كان هذا الفتح كتب السلطان إلى البلاد وزينت الأسواق وأعملت المفرحات، ونص ما كتب به السلطان بعد الافتتاح: وبعد، فإن الفاسد الفتان وخليفة الشيطان، أبعد في الجسارة، وامتطى مطي الخسارة، واستوسع سبيل العناد، واستضل سبيل الرشاد، وقال من أشد منه قوة، وسولت له نفسه الأمارة الاتصاف بالإمارة، وأراد شق عصا الإسلام وصدع مهج الأنام، فأعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح، واستبطن المكر والخداع، وفاق فيه عابدي ود وسواع، وشاع في طرف الإيالة ضرره، وساء مخبره، وهو في خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوي بها أهل الجهالة، والعماية والضلالة، فأيسنا من رشده، وعرفنا مضمر قصده، فجهزنا له محلة منصورة ذات أعلام منشورة، جعلنا في وسطها ولدنا الأبر سيدي محمد أصلحه الله وأسندنا إليه

أمرها، وقلدناه تدبيرها، وعهدنا إليه أن يسعى في حقن الدماء جهد الإمكان، ويحتال على إقامة أود هذا الفتان، وأن يعالج داءه بكل دواء، وأن لا يتبع فيه الأغراض والأهواء، وأن يجعل القتال آخر عمله، وعدمه غاية أمله، فلما رأى عدو نفسه إحاطة الجيوش به، وجه وفداً من قبله يدعي التوبة فيما مضى، والكون على وفق المقتضى، فأجبناهم بأن أحب الحديث إلى الله أصدقه، إن صاحبكم هذا إن أراد الخير لنفسه، واحتاط لدينه وعمل لرمسه، يختار أحد أمرين: أما أن يدخل لإيالتنا هو ومن معه آمنين على أنفسهم ومالهم، لهم ما لنا وعليهم ما علينا أو يصحر، فطلبوا منا الإمهال حتى يوجهوا بعضهم يخبرونه بالملاقاة، ويستدركون الأمر قبل الفوات، فأجبناهم إلى ذلك فما وصلوا حتى ضرب على المحلة ليلاً فرده الله بالخيبة، وأشوه أوبة، وترك قتلاه صرعى بعد ما حمل منهم عدداً وجعل يدفن منهم في قفوله، ويخفي ما حل به في أفوله، فتقدمت إليه المحلة الغالبة بالله وقاتلته قتالاً أذاقته فيه الوبال والخبال، فكانت الكرة عليه فأجفل إجفال النعام، واستدبر المعركة وهام، ومات من خاصته ورؤسائه وأهل شدته وذوي بأسائه عدد معتبر، ومن هو أدهى وأمر، وعادت جموعه جمع تكسير، وجيوشه موزعة بين قتيل وأسير، وسخر بهم بعد أن كانوا ساخرين، وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، ومن الله أستمد التوفيق والهداية إلى أرشد طريق. والسلام، في الثاني والعشرين من محرم الحرام فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف وأما الحاج عبد القادر فإنه فر إلى الفرنسيس كما قلنا فبقي عنده مدة.

قال صاحب قطف الزهور ما صورته: لما فر الحاج عبد القادر إلى الفرنسيس بقي عندهم ست سنين ثم أعتقه نابليون الثالث وعين له مرتباً سنوياً يدفع إليه من بيت مال الدولة فسكن دمشق الشام ولم يزل قاطناً بها إلى هذا اليوم اهـ. قلت: وهو الآن في قيد الحياة حسبما يبلغنا والله تعالى يتولى أمر المسلمين، ويتداركهم بلطفه وفضله آمين.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس: وفي ضحى يوم الاثنين الرابع من المحرم فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف توفي الوزير الأعظم، الفقيه الأجل الأكرم، إمام عملة اليراع، ومقدم حملة ذلك الشراع، مقلد الدولة بقلائد النثار والنظام، في المواقف العظام، والمزري ببدائعه، وأوابده وروائعه، ببديع الزمان، والفتح بن خاقان، أبو عبد اللّه محمد بن إدريس جدد الله عليه ملابس الرضا كلما لاح نجم وأضا، فولى السلطان مكانه الفقيه النجيب ذا الأخلاق العاطرة، والأنامل الواكفة الماطرة، والرأي الأصيل والأمر المحبوك، والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك، أبو عبد اللّه محمد العربي بن المختار الجامعي، ثم لما قدم السلطان رحمه الله لحضرة مراكش، آخر قدمة قدمها سنة سبعين ومائتين وألف عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب اليحيى النزيه أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه الصفار التطاوني.

وفي أوائل رمضان من هذه السنة أعني سنة أربع وستين ومائتين وألف خرج السلطان رحمه الله من فاس إلى ناحية وجدة، فوصل إلى عين زورة فوقف على تلك النواحي وأصلح من شأنها وعاد إلى فاس ليلة عيد الأضحى من السنة.

وفي سنة خمس وستين ومائتين وألف كانت فتنة عرب عامر بأحواز سلا وفتنة عرب زعير بأحواز رباط الفتح، وكلب هاتان القبيلتان على المدينتين وألحوا عليهما بالغارات والنهب والمبالغة في العيث والإفساد بالطرقات والجنات واستافوا السرح مراراً وبقي النتاج عند أربابه حتى هلك ضياعاً إلى غير ذلك، ولما تجاوزوا الحد في الطغيان بعث السلطان وصيفه الباشا فرجى صاحب فاس الجديد فأوقع بعامر وقعة شنعاء رابع يوم النحر من السنة ومزقهم شذر مذر بعد أن تحصنوا بالغراك فيما بين سلا والمهدية.

وفي هذه السنة حج ولد السلطان المولى الرشيد والمولى سليمان واعتنى بشأنهما صاحب مصر وصاحب الحجاز غاية ورجعا من السنة القابلة. وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب كان يطلع في ناحية المغرب ويغرب بعد

العشاء مدة من شهر ونحوه، ففزع الناس من ذلك وتخوفوه كما قال أبو تمام:

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

وفي سنة ست وستين ومائتين وألف أحدث السلطان المكس بفاس وغيرها من الأمصار، أحدثه أولاً في الجلد على يد المصطفى الدكالي بن الجيلاني الرباطي، والمكي القباج الفاسي، ثم أحدثه في البهائم، ثم تفاحش أمره في دولة ابنه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله وهلم جرّاً.

وفي هذه السنة وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان توفي ولي الله أبو عبد اللّه سيدي عبد القادر العلمي البركة الشهير صاحب الأزجال الملحونة وكانت وفاته بمكناسة الزيتون ودفن بحومة سيدي أبي الطيب وعليه بناء حفيل إلى الغاية رحمه الله ورضي عنه. وفي هذه السنة بعث السلطان ولده المولى عبد القادر وهو ابن اثنتي عشرة سنة إلى سلا بقصد القراءة بها فنزل بدار قاضيها أبي عبد اللّه محمد بن حسون عواد وكتب إليه السلطان رحمه الله بأن يعود الولد المذكور الخشن من المطعم والملبس، وأن لا يمكنه من شرب الأتاي إلا مرة أو مرتين في الجمعة. وفي هذه السنة أيضاً كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبائل الحوز من ابن مسكين وعبدة ودكالة وغيرهم، فأهرعت هذه القبائل إلى بلاد الغرب والفحص وأكلت الناس الجيف والميتة والنبات وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخبيزي وعام يرني، وكان الرجل يأكل ولا يشبع، وإذا أمعن في الأكل وتضلع شبعاً لم تمض إلا هنيئة حتى تضطرم أحشاؤه جوعاً. وكان المد بسلا ورباط الفتح وهو مد كبير جدّاً قد بلغ ثمانية عشر مثقالاً فجعله العامة تاريخاً يقولون كان ذلك عام ثمانية عشر مثقالاً.

وفي سنة سبع وستين ومائتين وألف وذلك ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثاني منها توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد اللّه محمد بن حسون عواد ودفن بزاوية الشيخ سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي من

حومة باب أحسين من المدينة المذكورة وكان رحمه الله عارفاً بالفقه والحديث والنحو قد أفنى عمره في جمع الكتب ونسخها وخطه معتمد سالم من التصحيف، وكانت فيه شفقة على الضعفاء والأشراف وذوي البيوتات، كثير البرور بهم والإحسان إليهم رحمه الله. وفي يوم الأربعاء فاتح هذه السنة توفي الشريف البركة الأفضل أبو عبد اللّه سيدي الحاج العربي بن علي الوزاني، وكان جليل القدر شهير الذكر نفعنا الله به وبأسلافه.

وفي سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجم الفرنسيس على ثغر سلا وذلك بسبب مركبين وردا إلى مرسى العدوتين مملوءين قمحاً وكانت السنة سنة مسغبة فنشب المركبان بساحل سلا فتسارعت العامة إليهما وانتهبوهما ثم تجاوزوا ذلك إلى ألواح المركبين وآلتهما فتوزعوها، وكان المركبان لتجار الفرنسيس فتكلموا في شأنهما مع السلطان رحمه الله فكتب إلى عامل سلا أبي عبد اللّه محمد بن عبد الهادي زنيبر يستكشفه عن الخبر فجحد ذلك ظناً منه أنه يدفع بذلك عن البلد، ولما لم يحصل الفرنسيس بالكلام مع السلطان على طائل هجم على سلا يوم الثلاثاء مهل صفر من السنة المذكورة في خمسة بابورات وقاباق كبير، ويقال له النابيوس، يشتمل على نحو ستين مدفعاً أو أكثر، ومن الغد زحف بمراكبه حتى سامت بها البلد في الساعة العاشرة من النهار وشرع في رمي الكور والبنب إلا واحداً منها فإنه تباعد قليلاً وبقي ينظر قيل هو للنجليز، وكان ترادف الكور والبنب على البلد على صورة فظيعة مثل الرعد القاصف تكاد تنهد له الجبال، وكان في أول النهار لا يفتر وبعد الزوال صار تتخلله فترات يسيرة، واستمر الحال على ذلك إلى أن غربت الشمس ومضى نحو نصف ساعة وكانت مدة الرمي ثماني ساعات ونصفاً، وبذل الناس مجهودهم في مقابلتهم بالرمي وفي آخر النهار عجز الناس وبقي يرمي وحده واستشهد من المسلمين نحو سبعة أنفس، وكان الكور والبنب الذي رمى به العدو في ذلك اليوم شيئاً كثيراً، فالمقلل يقول سبعة آلاف، والمكثر يقول اثنا عشر ألفاً، وكان البنب يتفرقع بعد مدة وقتل أناساً ووقع في المسجد الأعظم ومناره كور كثير خرق

السقوف والحيطان وكذا في دور أهل البلد فأنعم السلطان على الناس بإصلاحها من بيت المال.

وقد ساق منويل خبر هذه القصة وقال: إنه لما انقضى للفرنسيس الزاد يعني الكور والبارود أقلع ليلاً لأنه خاف إن لم يذهب طوعاً ذهب كرهاً، ولما اتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو يومئذ بفاس كتب كتاباً يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، عبد الرحمٰن بن هشام الله وليه، خديمنا الأرضى الطالب محمد بن عبد الهادي زنيبر وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد: فقد وصلنا كتابك مخبراً بما صدر من مراكب عدو الله الفرنسيس من استرسال الرمي على المدينة من ضحى النهار إلى قرب العشاء، ثم أقلعوا بالخيبة والهوان وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، ومنح الله المسلمين من الصبر والثبات واليقين ما قرت به عين الدين، وكان قذاً في عين أهل الشرك المعتدين، واستشهد من المجاهدين من ختم الله له بالسعادة الأبدية والحياة السرمدية، فالحمد لله على إعزاز دينه ونصر ملة نبيه، ولا زالت والحمد لله مشكاة الإسلام ساطعة الأنوار، مشيدة المنار، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: 8]، ولا يخفى عليكم ما ورد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في فضل الجهاد في سبيل الله والصبر لإعلاء كلمة الله، وقد قمتم بالواجب عليكم في ذلك وكنتم عند الظن بكم وأتيتم بالمطلوب منكم أصلحكم الله ورضي عنكم، ومن قتل فقد أكرمه الله بالنعيم الذي لا نفاد له وكل ما تلف يخلفه الله فما كان في الله تلفه فعليه سبحانه خلفه، فزيدوا في التيقظ والصبر أعانكم الله، وقد أمرنا خدامنا أمناء العدوتين بتوجيه معلمين للغابة لقطع الكراريط وكتبنا لخديمنا ابن الحفيان بإنزال خيام بقربهم يأوون إليها حسبما طلبت ولا تعدمون شيئاً مما يخصكم إن شاء الله، وما ذكرت من اجتماع أهل المدينة عندك مع القاضي والأمين راغبين في الكتب لحضرتنا العلية بالإنعام عليهم بما يصلحون به صقالتهم ومساجدهم ودورهم وأسوارهم فها نحن كتبنا لأمناء العدوتين بالقدوم عليكم والتطواف على المحال المتهدمة دور

وغيرها بمحضرك مع القاضي والعدول وتقويم إصلاح كل محل بالمناسب، وأما الجامع الكبير وسيدي ابن عاشر فييسرون لهما الإقامة وعند تيسيرها يشرعون في إصلاحهما، وأما الصقالة الجديدة والسور فيشرعون الآن في إصلاحهما إصلاحاً متقناً بالطابية الجيدة التي لا يؤثر الكور فيها شيئاً ويجعلون لها ساتراً على كيفية بحيث يكون الضارب في أمان ولا تتراخوا في ذلك، ونحن على نية إحداث بستيون جيد إن شاء الله عند منتهى السور من جهة الصقالة الجديدة فالعزم العزم والحزم الحزم، ويصلك كتاب اقرأه على خداماً أهل سلا والسلام، في ثامن صفر عام ثمانية وستين ومائتين وألف انتهى نص الكتاب الشريف وقد أحدث السلطان رحمه الله هذا البستيون فجاء في غاية الجودة والمتانة والحسن وهو أثر من آثار الدول العظام.

وفي هذه السنة ورد كتاب من السلطان في شأن حصر السكة يقول فيه ما نصه: وبعد، فقد طالما حاولنا حصر الزيادة في السكة وحذرنا وأنذرنا وأوعدنا من تعدى فيها حداً أو مد فيها بغير ما عينا يداً فلم يزد الناس إلا تطاولاً فيها وإقداماً عليها فاستخرنا الله في أمرها فظهر لنا أن نزيد فيها ما تواطأ الناس على زيادته ولم يرجعوا عنه تتميماً للأعذار وتكميلاً للإنذار، فمن وقف عند ما حددنا ولم يحد عما أبرمنا فقد اختار سلامة نفسه وماله، ومن تعدى وافتات في ذلك بأدنى شيء فقد سعى في هلاك نفسه ويناله من الوبال والنكال ما يتركه عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تذكر، وقد أعذر من أنذر، وها نحن جعلنا للبندقي أربعين أوقية، وللضبلون اثنين وثلاثين مثقالاً، وللريال ذي المدفع عشرين أوقية، وللذي لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية، وللبسيطة التي بالمدفع خمس أواق، وللتي لا مدفع فيها أربع أواق، وللدرهم الرباعي أربع موزونات ونصف موزونة، وللدرهم السداسي سبع موزونات، فعلى هذا العمل، فأعلموا به من إلى نظركم وفي إيالتكم ومروهم بالوقوف عنده ومن حاد عنه وشممتم عليه رائحة الخوض والتعدي فيه ازجروه زجراً شديداً وأعلمونا والسلام، في رابع عشر ربيع الثاني عام ثمانية وستين ومائتين وألف.

وفي سنة تسع وستين ومائتين وألف غزا السلطان رحمه الله قبيلة زمور الثلج وكان بمكناسة فكتب أولاً لابنه وخليفته سيدي محمد بمراكش فنهض منها ومر على تادلا فأوقع ببني موسى، وقطع منهم أربعة وستين رأساً وقبض على مائة وخمسين مسجوناً وكانوا قد قتلوا عاملهم أبا العباس أحمد بن زيدوح، ثم دخل الخليفة رباط الفتح يوم الاثنين الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة فأقام به إلى يوم السبت السادس عشر منه ثم عبر الوادي ونزل بقرميم من أعمال سلا، ثم سافر من الغد وبات بسيدي علال البحراوي فأقام هنالك يومين، ثم رحل فنزل بتيفلت وأقام أياماً ثم تقدم إلى دار ابن الغازي وكان السلطان رحمه الله قد خرج من مكناسة فنزل الخمسينات وشن الغارات على زمور فتوغلوا في الجبال فانتسف السلطان أموالهم وأكل زروعهم حتى أشجاهم ثم ارتحل عنهم إلى مراكش، وارتحل الخليفة إلى فاس وذلك في السادس والعشرين من ذي القعدة من السنة، ومن هذا التاريخ صار السلطان والخليفة رحمهما الله يغزوانهم كل سنة ويجتمعان عليهم فتنتسف الجنود زروعهم وأموالهم حتى أضر بهم الحال وأشرفوا على الهلاك وكادت تعدم عندهم الأقوات وأذعنوا إلى الطاعة طوعاً وكرهاً، ولما نهض السلطان عنهم في هذه المرة كتب كتاباً يقول فيه: وبعد، فإن فساد زمور يعرفه الخاص والعام والجمهور. أشد سواداً من الليل وأقوى مضاهاة بالسيل، وطالما ذكرناهم ووعظناهم، وحذرناهم وأنذرناهم، وغضضنا الطرف عنهم مقابلين شدتهم باللين، وتحريكهم بالتسكين، فأطغاهم العجب وأبطرهم، وغطى الشر سمعهم وبصرهم، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: 41] ، ولما رأينا ضلالهم لم يسفر عنه صبح الإقلاع، وشعائر الإسلام استولت عليها يد الضياع، استنهضنا إليهم الجيوش المنصورة، التي لم تزل ألوية الفتح أمامها بحول الله منشورة، واستقدمنا ولدنا الأبر سيدي محمداً حفظه الله من مراكش في جيش يقدمه اليمن والإقبال ويسوقه السعد في المقام والترحال، ونهضنا نحن من مكناسة الزيتون في جيش شحن الفضاء وملأ النواحي والأرجاء، خيلاً ورجالاً خفافاً وثقالاً، وكنا فيما تقدم

نحارب هؤلاء المفسدين في المحل المشهور بالخميسات فكانت المحال لا تستوعبهم قتلاً ونهباً وتشريداً وضرباً، فرأينا هذه المرة أن ننزل عليهم أولاً بعين العرمة محل أفسدهم على الإطلاق والشمول والاستغراق، فخيمنا بها أياماً ثم رحلنا منها ونزلنا بمحصى ثم رحلنا منه ونزلنا الخميسات، وفي خلال مقامنا ورحيلنا حل ولدنا سيدي محمد حفظه الله من الرباط ونزل بتيفلت محل المفسدين، ومحط رحال البغاة المعتدين، وتقاربت المحلتان فعظمت على المفسدين بذلك النكاية وبلغت فيهم الحد والنهاية، واشتغلت المحال بأكل زروعهم وتبديدها واستخراج خباياهم قديمها وجديدها، وهم حيارى ينظرون، وإلى ما حل بهم من البلاء يبصرون، وكلما عزموا على المدافعة رجعوا بالهوان، وتخطفت رؤوس زعمائهم العقبان، فعجزوا إذاً وخرجوا من بلادهم وأيقنوا أن الشقاء المكتوب عليهم حكم بطردهم وبعادهم، ولم يبق بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس، وتحصنوا بأوعارهم المعلومة وصياصيهم المشؤومة، في جبال تنقبت بالغيوم وكادت تصافح النجوم، فضاق بهم الحال وهلك العيال، وضاعت الأموال جوعاً وعطشاً، وتصرف فيهم البلاء كيف شا، ومع تحصنهم بتلك الأوعار وملتف تلك الأشجار، كانت الجيوش تود أن تقتحمها عليهم وتهب نفيس أعمارها في أخذهم، ونحن قد هبنا الرفق الذي يزين وتركنا الخرق الذي يشين، فأمرنا بالإمساك عنهم حتي تلفظهم أوعارهم وتحرقهم نارهم، فلما طال بهم الأمد وتجرعوا حمى الكمد، استجاروا بولدنا سيدي محمد حفظه الله فشفع عندنا فيهم فقبلنا شفاعته على شروط قبلوها وحقوق التزموها ومثالب نبذوها، وجنحنا إلى الحلم والعفو اللذين أمر الله بهما، وأسندنا أمرهم إلى ولدنا المذكور قطعاً لأعذارهم ونهضنا عنهم والحمد لله محتسبين، والله أسأل توفيق المسلمين أجمعين آمين، في السادس والعشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعة وستين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف.

وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضاً، وفي أوائلها استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الأفضل أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه

الصفار التطاوني عقب قدومه إلى مراكش، وفيها تم بناء البستيون العظيم بسلا الموضوع بالزاوية الشمالية منها على شاطىء البحر، وكان الصائر عليه بأمر السلطان من أحباس المسجد الأعظم برباط الفتح خمسون ألف مثقال أو ما يقرب منها، وفيها أيضاً وقعت نادرة بفاس وهي أن الإمام كان يخطب يوم الجمعة بمسجد القرويين فسقط بالصف الثالث منه قطعة من الجبص المبني به السقف تزن نحو ربع قنطار ففر الناس الذين كانوا بذلك الصف فرآهم الذين من خلفهم ففروا لفرارهم فرآهم غيرهم ففعلوا مثلهم حتى تقوضت صفوف المسجد كلها وخرجوا يتسابقون إلى الأبواب ووقع عليها ازدحام شديد وجاوزت مقدمتهم سوق الشماعين وتركوا نعالهم ولبدهم وطيالسهم بل وقلانسهم وضاع من المصاحف والأجزاء ودلائل الخيرات ما لا يحصى، كل ذلك وهم لا يدرون ما وقع وما تراجعوا إلا بعد حين.

ثورة إبراهيم يسمور اليزدكي بالصحراء

لما كانت أواسط إحدى وسبعين ومائتين وألف ظهر إبراهيم يسمور اليزدكي بصحراء تافيلالت وكان السبب في ذلك أن برابرة الصحراء يومئذ كانوا حزبين: حزب آيت عطة ولهم العزة والكثرة بذلك القطر، وحزب آيت يفلمان وهم دون ذلك، وكانت آيت عطة تؤذي الأشراف بتلك الناحية وتسيء جوارهم فقام إبراهيم هذا في آيت يفلمان وجنح إلى الأشراف وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم وصار يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكر السلطان بخير ويحض قومه على طاعته حتى اشتهر بذلك القطر وكثر الثناء عليه، واتفق أن حدث في أثناء ذلك بينهم وبين آيت عطة شنآن فزحف إليهم إبراهيم وأوقع بهم وقعة بعد العهد بمثلها فازداد قومه فيه محبة وغبطة وعلقت به آمال الأشراف وأحبوه لأن غلبة آيت عطة يومئذ كانت من الأمر الغريب، وانضم إلى ذلك بسط يده بالعطاء للبعيد والقريب واتصل خبره بالسلطان وكان من طبعه رحمه الله محبة أهل الخير والجنوح لهم، فأقبل عليه

ورفع من قدره وولاه على تلك الناحية فاشتد أمره وطار ذكره وسرت فيه نخوة الرياسة فأراد الاستبداد واستحال حاله إلى الفساد، حتى صار يرد على السلطان أوامره، ثم تدنى قليلاً قليلاً من أطراف المملكة وقوي حسه بالمغرب فكتب إليه السلطان رحمه الله الكتائب وبعث البعوث فقاتلوه برهة ثم قبض الله بعض قرابته فاغتاله واحتز رأسه وجاء به متقرباً إلى السلطان وهو يومئذ بمراكش فأمر السلطان بإعمال المفرحات واستدعى أهل مراكش على طبقاتهم فأفاض عليهم النعم وغمرهم بالإحسان غمر الديم.

نادرة: كان ممن استدعاه السلطان رحمه الله في هذا الصنيع أهل المدارس من طلبة العلم المتغربين بها، فجلسوا ناحية من القوم ولما خرج الطعام من دار السلطان وفرق على طبقات الناس اتفق تأخيره عن هؤلاء الطلبة، واتفق أيضاً أن سأل بعض الحاشية بعض الأعوان القائمين على الطعام فقال له: من الذي بقي بدون إطعام فقال: لم يبق إلا الطلبة والطحانون وكان كذلك فسمعه أحد الطلبة فقال لأصحابه: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا؟ فقالوا: وما قال؟ قال لهم: قال إنه لم يبق إلا أنتم والطحانون فقد شوركتم معهم بالعطف بالواو والله لا جلستم، وقاموا مغضبين فتبعهم بعض حاشية السلطان واستعطفهم فلم يرجعوا، واتصل الخبر بالسلطان فقال دعهم فسنصلح شأنهم، ومن الغد دعاهم إلى بستان الوزير ابن إدريس داخل باب الرب من مراكش وأفاض عليهم من النعم ما غمرهم ثلاثة أيام حتى رضوا، ثم عمدوا إلى ثمار البستان فاستلبوها عن آخرها وهذه القصة تدل على كرم طبع السلطان رحمه الله وسعة أخلاقه وتعظيمه للعلم وأهله، وقد ذكرت بهذه النادرة قول القائل:

إذا شوركت في أمر بدون ... فلا يك منك في هذا نفور
ففي الحيوان يجتمع اضطراراً ... أرسطاليس والكلب العقور

وتحقيق مسألة هذا العطف مذكور في باب الفصل والوصل من علم المعاني، وبستان ابن إدريس هذا هو الذي يقول فيه أبو عبد الله أكنسوس رحمه الله:

ألمم بمغنى اليمن من ذا المجلس وأدر بساحته نجوم الأكؤس
واسعد فإن الدهر أسعد أهله وأحلهم فيه حلول المعرس
واشرب هنيء البال في جنباته يغنيك عن جيرون أهل المقدس
واصرف عن الزهراء ذكرك سالياً وعن الخورنق والرسوم الدرس
لو قلت ما نالت بدائع حسنه غرف البديع وحق مجدك لم تس
نصر تحف به المحاسن كلها وتحار في مرآه عين الأكيس
فإذا أردت إصابة الأغراض من كل المنى أو كل معنى أنفس
أرسل مهام اللفظ في أكنافه إن الحنايا الحدب فيه كالقس
لا شيء أهنى من تفييء ظله الـ ـمخضل أو من زهره المتنفس
تتمثل الأزهار في أنهاره مثل المجرة والنجوم النكس
وترى الجداول تلتوي بغصونه تحكي البرين عن الغواني الميس
طابت حسى الكاسات تحت ظلاله وتسابقوا اللذات نحو المحتس
يا منزلاً قد خصصته سعادة واستبدلته أنعماً من أبؤس
أصبحت مأوى للوزير محمد نجل الأدارسة الكرام المغرس
إنسان عين الكون من لبست به رتب العلى أبهى وأبهج ملبس
يا أيها البحر الذي من فيضه كل الأماني والغنى للمفلس
يهنيك ذا القصر الذي أنشأته بالسعد في عام انشراح الأنفس
قابل قدور الدوح في جنباته بالغيد ترفل في بهي السندس
ومتى شربت زلاله فامزج به راح المراشف من أغن ألعس
لا زلت تشرف من مطالع سعده كالبدر يظهر من خلال الحندس
والدهر يخدم جانبيك ويحتمي بجلالك العالي الأعز الأقعس

وفي هذه السنة أعني سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب وهو إسهال مفرط يعتري الشخص ويصحبه وجع حاد في البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون فإذا تمادى بالشخص حتى جاوز أربعاً وعشرين ساعة فالغالب السلامة وإلا فهو الحتف، وفي هذا الوباء مات

شيخ الطريقة أبا عبد اللّه سيدي محمد الحراق التطاوني، وبموته أقلع الوباء من تلك البلدة، ومات به بسلا منتصف ذي القعدة من السنة مائة وعشرون نفساً، وفي هذا اليوم توفي عامل سلا أبو عبد اللّه محمد بن عبد الهادي زنيبر.

وفي سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف التفت الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمٰن إلى عرب الخلط فاستعملهم في الجندية بعد أن كانوا في عداد القبائل الغارمة من لدن المنصور السعدي فاعتنى بهم الخليفة المذكور ونقلهم من بلاد سفيان وبني مالك وأحواز العرائش وأنزلهم بزقوطة ووادي مكس من أعمال مكناسة، وكساهم وأجرى عليهم الجرايات ثم اختل أمرهم بعد سنتين أو ثلاث.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف ورد كتاب من السلطان رحمه الله يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه: خديمنا الأرضى الطالب عبد العزيز محبوبة وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فبوصول كتابنا هذا إليك عين عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تاطبجيت وانظر لهم معلماً ماهراً أو معلمين من طبجية البلد يعلمهم ويشرعون في التعلم الآن فيبدؤون بمقدماته ثم يتدربون منها إلى الأخذ في تعلم رماية المدفع والمهراس وهكذا حتى ينجبوا ويمهروا في الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة، ونطلب الله أن يعينهم ويفتح بصائرهم، وهؤلاء العشرون يكونون زائدين على من هنالك من الطبجية، ونأمر الأمناء أن يرتبوا لهم إعانة على ذلك خمس عشرة أوقية في كل شهر للواحد، ثم من ظهرت نجابته منهم وفاق غيره فإنا نزيده في المرتب، كما نأمرهم أن يرتبوا لمعلمهم واحد أو اثنين ثلاثين أوقية للواحد في كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم، واعتن بأمرهم غاية الاعتناء، وقد كتبنا لغيركم من المراسي مثل هذا وسننظر من تظهر ثمرته واعتناؤه والسلام، في عشرين من ذي القعدة عام ثلاث وسبعين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف.

وفي هذه السنة انعقدت الشروط بين السلطان وبين النجليز وهي قسمان: قسم في أمور التجارة، وبيان الصاكة والأعشار، وأن لا تعطى من أعيان السلع إلا إذا أراد التاجر ذلك عن طيب نفسه وهي خمسة عشر شرطاً. وقسم في أمور الهدنة بشمول الأمن والاحترام لرعيتي الجانبين في أي موضع كانوا، وهي ثمانية وثلاثون شرطاً، وكان المباشر لعقدها أبو عبد اللّه محمد الخطيب التطاوني بطنجة.

بعث السلطان المولى عبد الرحمٰن أولاده إلى الحجاز وما اتفق لهم في ذلك

وفي سنة أربع وسبعين ومائتين وألف بعث السلطان رحمه الله أولاده إلى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج وهم المولى علي والمولى إبراهيم والمولى عبد اللّه والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد اللّه وبالغ السلطان رحمه الله في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم مثله لإخوتهم الذين حجوا قبلهم لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب الفارهة والمرافق العديدة، وبعث معهم من الأموال شيئاً كثيراً لأشراف الحرمين، ولخواص معينين من الفقهاء والمجاورين، ووجه أكابر التجار والأمناء العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد بن الحاج أحمد الرزيني التطاوني، والحاج محمد بن جنان البارودي التلمساني، وبعث معهم قاضي مكناسة الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة المري الفاسي وأخاه الفقيه العلامة السيد أحمد بن سودة في جملة من الفقهاء يقرؤون عليهم.

أخبرني الحاج عبد الكريم بن الحاج أحمد الرزيني وهو أخو الحاج محمد المذكور آنفاً أن السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله لما عزم على بعث أولاده إلى الحجاز استدعى الأمين الحاج محمد المذكور فدخل عليه

فأوصاه بما تنبغي الوصاة به وأخبره أن المال الذي عينه للنفقة على الأولاد المذكورين هي نفقة جمعت من حلال بعضها من أصول بتافيلالت وبعضها من غيرها مما هو حلال وقال له: احتفظ بذلك المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح في الطعام، اهـ ولما عزم الأولاد المذكورون على الانفصال إلى وجهتهم أصحبهم السلطان رحمه الله وصية كافية يقول فيها ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أولادنا عبد الله وإبراهيم وعلياً وأبا بكر وجعفراً وفقنا الله وإياكم للعمل بطاعته وحفظكم وأرشدكم وتولاكم، وكان لكم في سائر أحوالكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنه لما كانت الأولاد قطع الأكباد وعماد الظهور وثمار القلوب وشفاء الصدور، وجب أن يكون لهم الآباء السماء الظليلة والسحابة المنيلة، وخير الآباء للأبناء ما لم تدعه المودة للتفريط في الحقوق، وخير الأبناء للآباء ما لم يدعه التقصير إلى المخالفة والعقوق، قال رسول الله ﷺ: **«الأولاد من رياحين الجنة»** وقال القائل:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا ... تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم ... تمتنع العين من الغمض

هذا وإن أولى ما زود به والد ولده وصية يتخذها في سفره إمامه ومعتمده، فاعلموا أنا وجهناكم لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، واستودعناكم الله الذي لا تضيع ودائعه، فاقدروا قدر هذه الوجهة التي قصدتموها، واعرفوا حق هذه العبادة التي يممتموها، فتوجهوا لها بحسن النية راجين من الله سبحانه بلوغ القصد والأمنية، وأوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية فإن خير الزاد التقوى، وبما أوصى به إبراهيم بنيه ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]، وبما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: 13، 17]، الآية واستوصوا بعضكم بعضاً خيراً وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، وأخوكم مولاي عبد الله أكبركم فكونوا عند إشارته فإن للسن حقاً في

التقدم، وفي الحديث الشريف: كبر كبر، ومنذ نوينا توجيهكم لهذه الوجهة السعيدة ونحن نجيل الفكر فيمن نوجهه معكم حتى وقع اختيارنا على خديمنا الحاج محمد الرزيني لكونه نعم الرجل واجتمع فيه من الأوصاف المحمودة ما افترق في غيره، فكونوا له بمنزلة الأولاد البررة وليكن لكم بمنزلة الوالد الشفيق كما قال القائل:

وكان لها أبو حسن علي أباً برّاً ونحن له بنين

وآزرناه بالحاج أبي جنان البارودي لمروءته وحسن هديه وسمته وكلاهما خير والحمد لله، وآثرناكم على أنفسنا بالفقيه الأوحد المشارك السيد المهدي ابن سودة وتوجه معه أخوه وهو أيضاً ممن يشفع بعلمه فأوفوا كل واحد منهم قسطه ومستحقه مما أرشد إليه الرسول فهذب وأدب إذ قال: **«ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»** وحافظوا على دينكم واشتغلوا بما يعنيكم، واتركوا ما لا يعنيكم، ففي الحديث الشريف: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** واعكفوا على قراءتكم ولا تضيعوا الأوقات في البطالة خصوصاً ما يتعلق بالعبادة التي أنتم بصددها، فمن الآن اصرفوا كليتكم لقراءة المناسك وابدؤوا بأسهلها وأقربها مناسك المرشد المعين ثم منها إلى ما هو أوسع فروعاً وأكثر مسائل، وعلى الفقيه السيد المهدي المذكور أن لا يألو جهداً ونصيحة في تعليمكم والقراءة معكم، واجعلوا أيضاً وقتاً مع أخيه فإنه من طلبة الوقت المدرسين فلم يبق لكم عذر في التقصير والبطالة وكل من توجه معكم من الأصحاب والأتباع والدايات فهو في رعايتكم، وفي الحديث: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**، فعلموهم أمر دينهم ومناسك حجهم وخاطبوهم في ذلك على قدر ما يفهمون ليكون عملهم في صحيفتكم، وفي الحديث: **«خيركم من تعلم وعلم»** وفيه أيضاً: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس»** وتحلوا بحلية أهل الفضل والكمال، وكونوا على ما ينبغي من الأدب مع الخلق ومع الخالق، وهذبوا أخلاقكم وهشوا وبشوا لملاقاة الناس وعاملوا كل واحد بما يستحقه، ولا زال الناس يذكرون هنالك أخاكم مولاي سليمان

أصلحه الله ويدعون له في تلك الأماكن الشريفة لما رأوا من سعة أخلاقه وحسن بشره وبشاشته مع الناس، ونعهد إليكم أن لا تتركونا من الدعاء في أي موطن حللتموه من تلك المواطن الشريفة خصوصاً عند الملتزم والمقام وغيرهما من الأماكن التي ترجى إجابة الدعاء عندها، وتوبوا عنا في استلام الحجر الأسعد وفي زيارة قبر النبي ﷺ والتسليم عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعليكم بالاستقامة في جميع أموركم وسلوك سبيل الموافقة والائتلاف، وترك المشاجرة والاختلاف، ومخالفة الهوى والنفس والشيطان فإن له مزيد تسلط بالشر في طرق الخير فكونوا في جميعها على حذر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:6] نسأل الله لكم الحفظ والسلامة والأمن والعافية ذهاباً وإياباً في أنفسكم ودينكم ودنياكم، ونستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتم عملكم فتوجهوا في حفظ الله على مهل حتى تصلوا إلى القصر وأقيموا به في جوار أبي الحسن بن غالب نفعنا الله وإياكم ببركاته كما فعل إخوانكم قبل فإن المقام بالقصر خير من المقام بطنجة حتى يقدم البابور ويكتب لكم الخطيب بالإعلام وحينئذ توجهوا إليها راشدين، وقد كتبنا بذلك للطالب محمد الخطيب، وطالعوا الحاج محمد الرزيني على كتابنا هذا حين تتلاقوا معه إن شاء الله، واعلموا أننا عينا عشرين ألف ريال بقصد أن يشتري بها حبس في سبيل الله عشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً بمكة، وعشرة آلاف ريال يشتري بها ما يكون حبساً في سبيل الله بالمدينة المنورة، وهي من جملة ما حاز الحاج محمد الرزيني ورفيقه فيما حازا من الصائر رجاء أن يبقى أجر ذلك جارياً منتفعاً به إن شاء الله والسلام، في السادس من رمضان المعظم عام أربعة وسبعين ومائتين وألف.

قال أكنسوس: وكان ركوبهم من طنجة في قرصان النجليز، فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم صاحب مصر بغاية الفرح والسرور وفوق ما يوصف من الإكرام والبرور، وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهاها وأبهجها وأشهاها، وأعد فيها كل ما يحتاج إليه من أواني الفضة والذهب وفرش الحرير

والديباج والنفائس الغريبة، ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة التي تناسب أقدارهم، وأباح لهم الدخول إلى كل محل أرادوا رؤيته من الأبنية والمصانع والرياض والبساتين الملوكية التي يتعجب من رؤيتها وتنقل أخبارها فشاهدوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان، وما لا يظن أن تناله قدرة الإنسان، ثم ركبوا في بحر القلزم إلى جدة فقضوا مناسكهم وشفوا غلتهم من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة من الطواف والسعي والوقوف وزيارة المشاهد المباركة، وتوجهوا إلى أعظم المقاصد وأسناها التي هي لنفوس المؤمنين غاية منأها زيارة شفيع الأمم في الموقف الأعظم، وكانوا صادفوا بمكة وخماً وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الأفاقين فمات من أصحابهم جملة ومات من أولاد السلطان المولى إبراهيم والمولى جعفر، الأول بمكة والثاني بالمدينة وسلم الله الباقي وأكرمه، وأعلى مقامه وعظمه وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبته لمن مات، ولما فازوا بزيارة سيد الأرضين والسمٰوات ووافقتهم السعادة في ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات، وأدركوا ما أملوه من لثم تراب أشرف البقاع وأكرم الحجر وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر، ونال كل واحد ما كان يؤمله ويرجوه، فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الأماكن من الوجوه، ولكن نالتهم مشقة فادحة من عتاة الأعراب في المسافة التي بين المدينة وينبع لأنهم انفردوا عن الركب عند الرجوع ولولا لطف الله لاستؤصلوا عن آخرهم، ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجاب، وفي خلوصهم منها عبرة لأولي الألباب، فإنهم كمن بعث بعد مماته وإقباره، وانقطاع أنفاسه وأخباره، والحمد لله الذي لا تخفر ذمته ولا تنتهك حرمته، فلما بلغوا ينبع وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم فركبوا قافلين ورياح السلامة تسوقهم، وأرباح التجارة والسعادة قد تكفل بها سوقهم، فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامة وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه، باتوا بقنطرة تانسيفت وفي الغد ركبت الخيول والعساكر السلطانية لتلقيهم، وخرج أهل

مراكش في زيهم وزينتهم وكان يوم لقائهم يوماً مشهوداً، وموسماً من المواسم المعظمة معدوداً اهـ.

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين وألف وذلك يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي عالم فاس والمغرب والمجيد في صناعة التدريس والتحرير لا سيما مختصر الشيخ خليل الفقيه العلامة الأوحد أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمٰن الفيلالي الفاسي، وكان المصاب به خصوصاً عند طلبة العلم عظيماً ولم يترك بعده في إجادة تحرير المسائل الفقهية مثله رحمه الله ونفعنا به وفي ليلة السادس من شعبان منها بعد العشاء الأخيرة زلزلت الأرض زلزالاً يسيراً، وفي رابع شوال من هذه السنة ورد المجاهد أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن العربي فنيش السلاوي من مدينة لوندرة إلى ثغر سلا ومعه مركب موسوق فيه سبعة عشر مدفعاً ومهراسان عظيمان من المعدن وأشياء أخر من آلة الحرب، وكان جلبه لذلك بأمر السلطان المولى عبد الرحمٰن لعمارة البستيون الجديد بسلا الذي قدمنا ذكره قبل والله تعالى أعلم. وفي هذه السنة ظهر الكوكب ذو الذنب أيضاً وهي المرة الثالثة في هذه المدة.

وفاة أمير المؤمنين المولى
عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن رحمه الله قد قدم مراكش فاتح سنة سبعين ومائتين وألف ولأول دخوله عزل الوزير أبا عبد اللّه الجامعي ورتب مكانه الفقيه أبا عبد اللّه غريط أياماً يسيرة، ثم استوزر الفقيه أبا عبد اللّه الصفار التطاوني، واستمر السلطان مقيماً بمراكش إلى آخر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فغزا زمور الشلح واجتمع عليها هو والخليفة سيدي محمد على العادة، ثم صار الخليفة إلى مراكش وانحدر السلطان إلى مكناسة فاستمر مقيماً بها يغزو زمور الشلح ويعود إليها وربما ذهب في بعض

الأحيان إلى فاس إلى أن دخلت سنة ست وسبعين ومائتين وألف فمرض مرض موته، وقد كان ابتدأ به وهو منازل لزمور فنهض عنها إلى مكناسة وتمادى به مرضه إلى أن توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف ودفن بين العشاءين أول ليلة من صفر بضريح السلطان الأعظم المولى إسماعيل رحم الله الجميع بمنّه، وقد كنت رثيته بقصيدة شذت عني الآن وأولها:

أمن طيف ذات الخال قلبك هائم ... ودمعك هام واكتئابك دائم
وهل أذكرتك النائبات عشائراً ... عفت منهم بعد المعالي معالم

ورثاه الفقيه أبو عبد اللّه أكنسوس بقوله:

هذي الحياة شبيهة الأحلام ... ما الناس إن حققت غير نيام
حسب الفتى إن كان يعقل أن يرى ... منه لآدام رؤية استعلام
فيرى بداية كل حي تنتهي ... أبداً وإن طال المدا لتمام
والنفس من حجب الهوى في غفلة ... عما يراد بها من الأحكام
أوليس يكفي ما يرى متعاقباً ... بين الورى من سطوة الأيام
من لم يصب في نفسه فمصابه ... بحبيبه حكماً على إلزام
بعد الشبيبة شيبة يخشى لها ... ذو صحة أن يبتلى بسقام
دار أريد بها العبور لغيرها ... ويظنها المغرور دار مقام
منع البقاء بها تخالف حالها ... وتكرر الإشراق والإظلام
لو كان ينجو من رداها مالك ... في كثرة الأنصار والخدام
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا ... أعلى ملوك الأرض نجل هشام
خير السلاطين الذين تقدموا ... في الغرب أو في الشرق أو في الشام
سر الإلٰه ورحمة منشورة ... كانت سرادق ملة الإسلام
قصدته عادية الحمام فما عدت ... إن هددت علماً من الأعلام
لم تحجب الحجاب منها طارقاً ... كلا ولا دفعت يد الأقوام
والملك في عز مهيب شامخ ... وإمامه في جرأة الضرغام

عجباً لها لم تخش من فتكاته ... والأسد تزأر حوله وتحامي
عجباً لها لم تستح من وجهه ... والوجه أبهج من بدور تمام
عجباً لها لم ترع طول قيامه ... متهجداً لله خير قيام
تبّاً لها لم تدر من فجعت به ... من معتق وأرامل الأيتام
أسفاً على ذات الجلال وأنه ... لأجل من أسف وفرط هيام
يا مالكاً كانت لنا أيامه ... ظلاً ظليلاً دائم الإنعام
لا ضير أنك قد رحلت ميمماً ... دار الهناء وجنة الإكرام
في حضرة تغدو عليك بشائر ... من حورها بتحية وسلام
ضاجعت في تلك القصور كواعباً ... درية الألوان والأجسام
تسقيك صرف السلسبيل مروقاً ... وتدير كأساً من مدام مدام
فلك الرضى فانعم بما أعطيته ... ولك الهناء بنيل كل مرام

بقية أخبار أمير المؤمنين المولى عبد الرحمٰن وسيرته ومآثره

يكفيك أيها الواقف على أخبار هذا الإمام الجليل السري النبيل من مناقبه خصلتان: إحداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالتقوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونوافله حتى قدمه على بنيه حسبما مر ذلك كله مستوفى والثانية إقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد إشرافها على الاختلال وردها إلى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال كما رأيته أيضاً، فعلى التحقيق أن المولى عبد الرحمٰن رحمه الله هو المولى إسماعيل الثاني، وأما حزمه وضبطه وكمال عقله وتأنيه في الأمور ووضعه الأشياء مواضعها وتبصره في مبادئها وعواقبها وإجراؤها على قوانينها فما أظنك تجهل منه شيئاً بعد أن قصصنا عليك ما مضى من أخباره رحمه الله وقد رأيت كيف نزلت به النوازل وترادفت عليه الهزاهز من غير معين يذكر أو وزير يعتبر إلا في القليل النادر، فقام رحمه الله بأعباء ذلك كله وعالج حلوه ومره حتى رد النصاب الملكي

إلى أصله وأحل عزه في محله، وأما ورعه وصبره وحياؤه وتوقفه في الدماء توقفاً تاماً إلا إذا حصحص الحق وصرح الشرع فكل ذلك أمر معلوم يعلمه الخصوص والعموم، وأما آثاره بالمغرب فشيء كثير من ذلك ما افتتح به ولايته من بناء ما تهدم من مرسى طنجة وصير عليه مالاً عظيماً حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان، ومن ذلك تجديد الحرم الإدريسي بفاس وبناء مسجده وتوسعته وتنميقه حسبما مر، ومن ذلك البرجان العظيمان بسلا وأشبار الكبير المواجه للبحر منها والمارستان الكبير بضريح الشيخ ابن عاشر والمنار الشهير بالمسجد الأعظم منها وخزين البارود بالقليعة وغير ذلك، وأشبار الكبير برباط الفتح، وبنى بأعمالها لحفظها وتأمين طرقها قصبتين كبيرتين إحداهما الصخيرات والأخرى قصبة أبي زنيقة فأمن الناس بهما وارتفقوا بالتردد إليهما، وجدد ما تهدم من أبراج الصويرة واعتنى بها وصير عليها أموالاً ثقالاً فجاءت في غاية الإتقان والحصانة، ومن آثاره بمراكش آجدال الشهير وتجديد جامع المنصور بالقصبة بعد أن لم يبق منه إلا الاسم فأعاده إلى حالته الأولى على ضخامته وانفساحه وعلو بنائه، وتجديد جامع الكتبيين مرتين وإصلاح قبة الشيخ أبي العباس السبتي رضي الله عنه، والزيادة في جامع الشيخ أبي إسحاق البلفيقي بسوق الدقاقين منها، وهدم جامع الوسطى وإعادته على شكل بديع وهيئة حسنة، وبناء جامع أبي حسون وإقامة الجمعة به كما كانت أولاً، وبناء جامع القنارية والزيادة فيه، ومن آثاره بحضرة فاس العليا تجديد بستان آمنة المرينية.

قال أكنسوس: وكان هذا البستان خراباً تألفه الوحوش مع أنه بباب دار السلطان وفي سرة الحضرة، وقد كان في الدول المرينية على هيئة بهية فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وفيه مقاعدهم ومنازلهم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى إلى أن قال: وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا، وجنة حائزة من البهجة المرتبة العليا، ثم أخنت عليها الأيام بصروفها ومحت من تلك الرسوم جميع حروفها، فرآها

الملوك قبل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها ولا أنقذوها من أوحالها، مع أنها في جوارهم وعقر ديارهم، فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك فأعاد بعد الممات محياها وأبرز من ظلمات العدم جميل محياها.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله

كان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بن هشام رحمه الله بعين الرضى من والده منذ نشأ وشب، وكان متميزاً عن سائر إخوته بشدة البرور بأبيه ومتصفاً بالسكينة والوقار والصلاح والتقوى وسائر خصال الخير، واستخلفه أبوه صغيراً فجرى على السنن الأقوم وحمدت سيرته، ولما رأى منه السلطان رحمه الله مخايل النجابة والصلاح فوض إليه، وألقى بزمام مملكته بيديه، ولم يدخر عنه شيئاً من أمور الملك ووظائفه، فاستلحق في أيام أبيه واستركب واتخذ العساكر وجند الأجناد وقدم وأخر وخفض ورفع وأعطى ومنع حتى كأنه ملك مستقل، وكانت العادة أنه إذا كان السلطان بمراكش كان سيدي محمد هذا بفاس أو بمكناسة وبالعكس، فلما مرض السلطان رحمه الله مرض موته بمكناسة كان سيدي محمد بمراكش فلم يرعه إلا ورود الكتب عليه من أخيه المولى العباس ومن الوزير أبي عبد اللّه الصفار أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس منه، فنهض سيدي محمد من مراكش منزعجاً وجد السير لعله يدرك حياة أبيه فلما كان ببلاد السراغنة على مرحلتين من مراكش اتصل به الخبر بوفاة السلطان رحمه الله، ثم قدمت عليه بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناسة وجميع الجيش البخاري وسائر أهل الحل والعقد من أعيان القبائل والبربر فاسترجع السلطان لمصابه وشكر الله إذ أبقى أمر المسلمين في نصابه، وكتب بالخبر إلى مراكش وبعث بالبيعة الواردة عليه فاجتمع أهل مراكش على طبقاتهم بجامع الكتبيين وحضر عامل البلد يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة وقائد الجيش السوسي بالقصبة أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد

الجراوي وقواد الحوز من الرحامنة وغيرهم فقرىء كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن بالأخبار بموت والده واجتماع الناس على بيعته فارتفعت الأصوات بالترحم على السلطان الصائر إلى عالم الرضى والرحمة، وبالنصر لهذا الذي اختاره الله لحماية الأمة، وكتب أهل مراكش بيعتهم من إنشاء أبي عبد اللّه أكنسوس وكذا الجيش السوسي وأهل الحوز وقدموا على السلطان سيدي محمد بمكناسة مؤدين الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فأكرم وفادتهم وأجل مقدمهم وأفاض عليهم من الإحسان ما غمرهم، وكان مما قيل في تهنئته بالملك قول أبي عبد اللّه أكنسوس:

وجوه الأماني حسنها متجدد ... ومنظرها يحكيه خد مورد
قضى الحب في كل القلوب بأنها ... مماليك أرباب الجمال وأعبد
وكم من عصي للهوى متعفف ... يفر من السود العيون ويبعد
تصيده ظبي على حين غفلة ... مهفهف مستن الوشاحين أغيد
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلاً ... وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
ولله في أسر الغرام ونهره ... نفوس ضعاف ليلهن مسهد
إذا الليل أضواها تكنفها الهوى ... وليس لها غير الكواعب منجد
وذي ظمأ بين الضلوع يجنه ... إلى رشفات للصبابة تبرد
تراءى له من منحنى الجزع برقه ... فظن بأن الجزع ثغر منضد
وتذكره تلك البروق مباسماً ... عليهن مرفض الجفان معقد
يراقب أسراب النجوم بمقلة ... تقسمها شطرين نسر وفرقد
ويهفو لأيام العقيق فتنثني ... مدامعه مثل العقيق تبدد
وهل يتناهى عهد من سكن اللوى ... إذا العيش غض والحبائب تسعد
وما زالت الأيام تغري بنا النوى ... وتنفي الذي نهواه عنا وتبعد
ولست أبالي للزمان صروفه ... وكهفي أمير المؤمنين محمد
خليفة رب العالمين بأرضه ... وصارمه الشاكي الشبات المهند
إمام تولى الله تشييد ملكه ... وناهيك ملكاً بالإلٰه يشيد
وصفوة هذا الخلق من آل هاشم ... وأعلى ذوي التيجان فخراً وأمجد

وأرحبهم في العز باعاً وفي العلى وأكثرهم في الفضل حظاً وأزيد
أتته عروس الملك عاشقة له وكم عاشق عنها يذاد ويطرد
وألقت على شوق إليه زمامها فطاب لها منه الجناب الممهد
فأصبحت الأيام تزهو بعدله وتنعم في ظل الهناء وتسعد
ففي بابه مأوى المكارم والندى وفي بابه الخيرات تولي وتوجد
ودولته للعز والنصر مألف وحضرته للأمن واليمن موعد
تذل ملوك العالمين لبأسه وتركع مهما أبصرته وتسجد
له راحة في الجود ما الغيث عندها وما البحر والدر النفيس المقلد
له أنعم تأوي إلى ظلها المنى وتسحب أذيال السماح وترفد
وعزم على الخيرات ليس بسامع مقالة من في المكرمات يزهد
ورأي ينير الخطب عند اعتكاره ويفسخ ما أيدي النوائب تعقد
ووجه إذا ما لاح أيقنت أنه محيا له وقت السعادة مولد
حيي كثير الابتسام مبارك يكبر ربي إن بدا ويوحد
أهز بهذا المدح منه معاطفاً تجر ذيول الفخر إن هو يحمد
له العسكر الجرار تبرق في الوغا صوارم منه والمدافع ترعد
يعد إلى الأعداء كل كتيبة من الرعد يحدوها الوشيح المسدد
وكل كمى كالغضنفر مغضباً وكل صقيل وهو ماض مجرد
يبد العدا قبل اللقاء مهابة فصارمه يفري الطلى وهو مغمد
هو الملك المشهور بالحلم والدها وبالعلم والشهب الدراري تشهد
تشد لإدراك الغنى عند بابه ركائب أنضاها الدؤب المشدد
يحدث عنه الوفد عند صدوره أحاديث من بحر إذا البحر يزيد
إلى مجده آمالنا قد تطاولت وليس لها إلا حماه المؤيد
فيا ملكاً يحمي الرعية بأسه ويحييهم بالبذل والبذل أرغد
يدبر فيهم كل يوم مصالحاً تعود بما يرضون والعود أحمد
ويشملهم بالعدل والفضل والندا ويصلح بالصمصام من هو مفسد
هنيئاً لك الملك الجديد فإنه يدوم بحمد الله وهو مسرمد

هنيئاً لنا نحن العبيد فإننا ... بسؤدد مولانا الإمام نسود
ودونك يا خير السلاطين كاعباً ... بديعة حسن للنهي تتودد
تدير كؤوس الراح دون تأثم ... إذا هي أثناء المحافل تنشد
فلا زلت ما بين الملوك مخيراً ... كما اختبر ما بين المعادن عسجد

وفي هذه الأيام ظهر المولى عبد الرحمٰن بن سليمان بن محمد وقرب من فاس طالباً للملك قيل: إن بعض أبناء عمه بفاس ومكناسة لما توفي السلطان رحمه الله كاتبوه واستحثوه للقدوم وواطأهم على ذلك بعض عبيد البخاري وبعض البربر الذين بأحواز مكناسة، ولما قرب من فاس كان الفقيه أبو عبد اللّه محمد العربي بن المختار الجامعي يومئذ يلي أمر شراقة بها، فقام في ذلك أحسن قيام وحمل الناس على الثبات والتمسك بطاعة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فكان ذلك سبباً في سكون هذه الفتنة وانحسام مادتها، فرجع المولى عبد الرحمٰن بن سليمان عوده على بدئه وآيس من بلوغ قصده وأقام بزاوية العياشي عند البربر إلى أن اضمحل أمره، ولما قدم السلطان سيدي محمد رحمه الله من مراكش إلى مكناسة اجتاز بمدينة سلا ونزل برأس الماء في الثالث والعشرين من صفر سنة ست وسبعين ومائتين وألف وبعد الزوال دخل في جماعة من حاشيته وزار الشيخ أبا محمد عبد اللّه بن حسون والشيخ أبا العباس أحمد بن عاشر رضي الله عنهما، ودخل البستيون الكبير ورأى مدافعه منصوبة على عجلات الحديد وكانت تغوص في الأرض إذا جرت من شدة ثقل المدافع فأشار بأن يفرش لها بساط من العود الجيد المحكم الصنعة والتركيب حتى يتأتى جريانها عليه بلا كلفة فصنعت لها كما أشار رحمه الله، وقد كنت مدحته بقصيدة لم يبق على ذكري الآن منها إلا بيتان وهما:

حوى العلويون المعالي كلها ... وما منهم إلا ذرى المجد صاعد
ولكن أمير المؤمنين محمد ... هو البدر في العلياء وهي الفراقد

انتقاض الصلح مع الإصبنيول واستيلاؤه على تطاوين ورجوعه عنها والسبب في ذلك

كان السبب في انتقاض الصلح مع جنس الإصبنيول أن العادة كانت جارية مع أهل سبتة من النصارى وأهل اللانجرة من المسلمين أن يتخذ كل من الفريقين محلاً للحراسة على المحدة التي بينهما، وكان النصارى يتخذون هنالك بيوتاً صغاراً من اللوح والمسلمون يتخذون أخصاصاً من البردى ونحوه، فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله بنى نصارى سبتة على المحدة بيتاً من حجر وطين وجعلوا فيه علامة طاغيتهم المسماة عندهم بالكرونة فتقدم إليهم أهل اللانجرة وقالوا لهم: لا بد أن تهدموا هذا البيت الذي لم تجر العادة ببنائه وترجعوا إلى حالتكم الأولى من اتخاذ بيوت الخشب، فامتنع النصارى من ذلك فعمد أهل اللانجرة إلى ذلك البيت فهدموه وإلى تلك الكرونة فنجسوها بالعذرة وقتلوا منهم أناساً وضيقوا على أهل سبتة بالغارات حتى كانوا يصلون إلى السور، فرفع أهل سبتة أمرهم إلى كبيرهم بطنجة فكلم كبيرهم نائب السلطان بها وهو يومئذ أبو عبد الله محمد ابن الحاج عبد الله الخطيب التطاوني وشكا إليه ما نال أهل سبتة من عيث اللانجرة فدافعه الخطيب فلم يندفع وقال: لا بد من حضور اثني عشر رجلاً منهم بطنجة وسماهم بأسمائهم ولا بد من قتلهم جزاء على فعلهم، فعظم الأمر على الخطيب وربما كلم في ذلك باشدور النجليز فقال له: أحضر هؤلاء المطلوبين على عين الأجناس وإذا حضروا وظهر حق الإصبنيول فأنا ضامن أن لا يصيبهم شيء، فأعجب الخطيب ذلك وعزم عليه فاتصل الخبر بأهل اللانجرة وأن الخطيب عازم على أن يكتب إلى السلطان في شأن اثني عشر رجلاً منهم بأعيانهم فمشوا إلى الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني وقالوا له: إن الخطيب لا ينصح السلطان ولا المسلمين وإن كل ما قاله النصارى يساعدهم عليه حتى جسرهم علينا، ونحن جئناك لتعلم السلطان بأمرنا وتسأله أن يمدنا بالقبائل المجاورة لنا ونحن نكفيه

هذا المهم، وفي أثناء هذه المدة توفي السلطان المولى عبد الرحمٰن رحمه الله وولي ابنه سيدي محمد وقدم مكناسة واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه فكتب له الشريف سيدي الحاج عبد السلام بأمر أهل اللانجرة وقرر له مطلبهم فشاور السلطان في ذلك بعض حاشيته فمال إلى الحرب وذلك كان الراجح عند السلطان لأنه عظم عليه أن يمكن العدو من اثني عشراً من المسلمين وفق اقتراحه واختياره يقتلهم بمحضر الملأ من نواب الأجناس، ورأى رحمه الله أن لا يمكنه من مطلبه حتى يعذر فيه فاستخار الله تعالى وبعث خديمه الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي إلى الخطيب بطنجة وأمره أن ينظر في القضية ويستكشف الحال وأن لا يجنح إلى الصلح إلا إذا لم يجد عنه محيصاً، وكثر المتنصحون لدى السلطان وهونوا عليه أمر العدو جداً مع أنه ليس من السياسة تهوين أمر العدو وتحقيره ولو كان هيناً حقيراً فوصل الزبدي إلى طنجة واجتمع بالخطيب وفاوضه في القضية فوجد الخطيب جانحاً إلى السلم فأبى أن يساعده على ذلك وأظهر كتاب السلطان بتفويض النظر إليه في النازلة، فتأخر الخطيب عنها وترك الخوض والكلام فيها، وآخر الأمر أن الزبدي انفصل مع نائب الإصبنيول على الحرب وذهب إلى حال سبيله وأزال الإصبنيول سنجقه من طنجة وركب إلى بلاده في الحين وكتب الزبدي إلى السلطان بالخبر، فكتب السلطان إلى الثغور يخبرهم بما عقده مع الإصبنيول من الحرب وأمرهم أن يكونوا على حذر وأن يأخذوا أهبتهم للجهاد، وفتح السلطان بيت المال وأبدأ وأعاد في تفريق المال والسلاح والكسي وقدم أولاً القائد المأمون الزراري إلى تطاوين في نحو مائة فارس وخمسمائة من رماة العسكر فرابطوا خارج تطاوين إلى جهة سبتة، ثم برز جيش الإصبنيول من سبتة في نحو عشرين ألفاً من العسكر في غاية الاستعداد وكمال الشوكة ونزل على طرف المحدة داخل أرضه وكان خروجه يوم السبت أواسط ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين وألف، فنهض إليه أهل اللانجرة ومن جاورهم من قبائل الجبل وتسامع الناس بذلك فقدموا من كل جهة حتى اجتمع منهم نحو

الخمسة آلاف وزحفوا إلى العدو وقاتلوه نحو نصف شهر وكل يوم يقتل منه ضعف ما يقتل من المسلمين لأن حربه كان زحفاً بالصف وحربهم كان مطاردة بالكر والفر فلا بد أن يهلك منه أكثر مما يهلك من المسلمين، غير أنهم لم يتمكنوا من مخالطته في معسكره ولا من هزيمته لأنه كان يحصن على نفسه بأشبارات والمتارزات بخناشى الرمل وغيرها غاية التحصين، ثم بعث السلطان رحمه الله أخاه الفقيه العلامة المولى العباس في كتيبة من الخيل نحو الخمسمائة فارس فنزل بموضع يعرف بعين الدالية قرب طنجة، ثم بعد أيام زحف إلى العدو فنزل بمدشر يقال له: البيوت باللانجرة واستمر القتال بين المسلمين والنصارى على نحو ما سبق نحو العشرة أيام، ثم انتقل المسلمون إلى موضع آخر يعرف بأبي كدان خوفاً من كرة العدو ودهمه إياهم فكان ذلك مما جرأ العدو عليهم وأظهر الفشل فيهم وقاتلوا هنالك نحو الخمسة عشر يوماً، ثم إن العدو اجتمع يوماً وتحمل بخيله ورجله وزحف إلى المسلمين فصدمهم بجميع قوته وشوكته فصبروا له وصدقوه اللقاء فردوه على عقبه، ولما لم يستقم له ذلك جمع نفسه ذات ليلة من غير شعور من المسلمين وركب البحر ونزل بمحل يعرف بالفنيدق لأنه كان هنالك فندق قديم، وكان العدو في تنقلاته هذه لا يفارق الساحل ليحمي ظهره بمراكبه البحرية، وكان بين الفندق ومحلة المسلمين نحو ساعة ونصف فأشار أهل الرأي على المولى العباس بأن يتأخر قليلاً لكون العدو قد ضايقه فتأخر المولى العباس بالجيش إلى موضع يعرف بمجاز الحصا فازداد طمع العدو في المسلمين وظهر له ضعف رأيهم في مكائد الحرب وعدم ثباتهم لدى الطعن والضرب، وكان قائد عسكر الإصبنيول يسمى أردنيل ووزيره المشير عليه يسمى بريم وربنتهم يومئذ إيسابيلا الثانية ثم عاد المسلمون إلى مطاردة العدو ومقاتلته على نحو ما أسلفنا فكانوا يذهبون إليه وهو بالفنيدق فيقاتلونه من الصباح إلى المساء فكانوا ينالون منه وينال منهم، وفي أثناء هذ المدة وفد جماعة من أهل تطاوين على السلطان رحمه الله بمكناسة فأعظموا أمر العدو

وتخوفوا معرته في مالهم وأولادهم لأنهم كانوا قد أحسوا بشدة شوكته فوعدهم السلطان رحمه الله بأن يمدهم ويحامي عنهم ولا يدخر عنهم شيئاً من العدد والعدد حتى يعذر فيهم وفي غيرهم، ثم إن العدو ارتحل من الفنيدق بعد نحو عشرة أيام وتقدم نحو تطاوين وكان الناس قبل هذا لا يدرون أين هو قاصد، ولما ارتحل من الفنيدق عرفوا أنه قاصد تطاوين فنزل بموضع يقال له: النيكرو فأقام هنالك نحو ثمانية أيام والقتال على حاله المتقدم، غير أن العدو كان في مادة قوية من البر والبحر يصل إليه من سبتة وغيرها كل ما يحتاج إليه من طعام وعلف وأرز وشعير وبقسماط وغير ذلك حتى أنه كان إذا ارتحل ترك من ذلك فضلة كثيرة يتعيش فيها ضعفاء أهل تلك الناحية، وكان ذلك مكيدة مقصودة عنده يظهر بها القوة والرفاهية، وكان شذاذ المتطوعة من أهل البادية يهجمون على معسكره بالليل ويجلبون منه البغال والنيران ويصبحون بها في تطاوين وغيرها، وكان ضعفاء العقول من العامة يستحسنون ذلك وينشطون له ويرون أنهم قد صنعوا شيئاً مع أن ذلك لا عبرة به في جنب ما كان يستولي عليه العدو من الأرض ويتقدم به في نحر المسلمين. وهم يتأخرون والحاصل أن المسلمين لم يكونوا يقاتلونه على ترتيب مخصوص وهيئة منضبطة إنما كانوا يقاتلونه وهم متفرقون أيدي سبا فإذا حان المساء تفرقوا إلى محالهم في غير وقت معلوم وعلى غير تعبية، فكان قتالهم على هذا الوجه لا يجدي شيئاً، وكان العدو يقاتل بالصف وعلى ترتيب محكم، وكانت عنايته بما يستولي عليه من الأرض ويرى تقدمه إلى أمام وتأخر المسلمين بين يديه إلى خلف هزيمة عليهم.

وقد ذكر ابن خلدون في فصل الحروب قتال أهل المغرب الذي هو المطاردة بالكر والفر وعابه فقال: «وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً، ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب، وقتال الزحف أوثق وأشد

من قتال الكر والفر، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ [الصف:4] اهـ ولا زال العدو هكذا يتنقل شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى وادي يعرف بوادي آسمير، وكان يتحرى في تنقلاته يوم السبت معتمداً في ذلك حكماً نجومياً على ما قيل، فلما احتل بآسمير صادف ريحاً شرقية هاج من أجلها البحر حتى لم تقدر مراكبه أن تحاذيه قرب الساحل فانقطعت عنه مادة البحر وطلع ماء البحر في وادي النيكرو من خلفه فأفعمه وقطع عنه المادة من سبتة كما طلع أيضاً في وادي آسمير من أمامه فحبسه عن العبور، وصار العدو متوسطاً بين الوادين والبحر عن يساره، وانقطعت عنه المواد حتى حكى بعض عسكره بعد ذلك اليوم أن الكليطة وهي خبزة صغيرة تشبه البقسماط كانت أول النهار تباع ببسيطة وفي آخره بيعت بريال ولا وجود لها، وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا من ينتهز الفرصة فيهم ولكن أين اليد الباطشة، وبقوا على تلك الحال يومين أو ثلاثة، ثم سكن البحر وانفش الواديان وجاءه المدد، ولما رأى المسلمون أن العدو وصل إلى ذلك المحل تقهقروا ونزلوا بمدشر القلالين بينه وبين تطاوين نحو نصف ساعة، ثم إن العدو عبر الوادي من آخر الليل وأصبح بموضع يقال له: المضيق وكان متطوعة الأعراب في هذه المدة على قسمين: الحازمون وأهل الغيرة منهم يقولون: لولا أنه بين الجبال ومتحصن بالمتارزات لفعلنا وفعلنا، والآخرون يقول أحدهم: ما لي وللتقدم إلى هذه الشرشمة وإنما أهل تطاوين يقاتلون عن تطاونهم وأما أنا فحتى يصل إليّ بخيمتي في عبدة أو دكالة أو كلاماً هذا معناه كأنه يعتقد أنه لا تجب عليه نصرة المسلمين، نعم الذين قاتلوا قتالاً شديداً وأحسنوا الدفاع وقاموا بالنصرة بنية خالصة وهمة صادقة هم طائفة من شبان أهل فاس، وطائفة من أهل زرهون، والبعض من آيت يمور وخصوصاً

الحسين المعروف بأبي ريالة منهم فإنه أبدأ وأعاد وأتى بما لم يسمع إلا في زمان الصحابة رضي الله عنهم.

حكى من حضر وتواتر عنه أنه كان معلماً براية صفراء وكان يضمها إلى صدره ويسددها نحو العدو ثم يحمل على صفهم فيخرقه حتى يأتي من خلفه ويفتك فيهم أشد الفتك ثم يعود ويستلب خيل العدو ويقودها بأرسانها ويأتي بها حتى يدفعها لمن بإزائه، وكان إذا تقدم نحو العدو يقول لمن حوله: تقدموا فأنا درقتكم وأنا سوركم تكرر ذلك منه المرة بعد المرة، ولما أصبح العدو بالمضيق فارق البحر وصمد إلى تطاوين فدخل بين جبلين وكان في انتهاء ذلك المضيق الذي بين الجبلين من جهة تطاوين ويسمى فم العليق بعض أخبية أهل فاس وغيرهم فصمد العدو نحوهم وبغتهم بالكور والضوبلي وهو يقرع طبوله حتى أعجل البعض منهم عن حمل أثقاله، ولما وصل إلى هذا الموضع حصل بتطاوين انزعاج كبير واستأنف الناس الجد والاجتهاد والقتال وتذامر جيش المسلمين وكان اليوم شديد المطر وقاتلوا قتالاً شديداً، وأبدأ أبو ريالة وأعاد في هذا اليوم هلك تحته فرسان وأرسل له المولى العباس فرسه، وكان يعتني به وينوه بقدره ويبعث الطبل يقرع على خبائه، وأصابته في هذا اليوم جراحة خفيفة وهلك من المسلمين والنصارى عدد كثير، قيل هلك من أهل تطاوين فقط نحو الخمسمائة، وكان الظهور في ذلك اليوم للعدو ومن الغد ارتحل من فم العليق وعدل يساراً إلى المرسى فنزل بها ليتمكن من مدد البحر واستولى على برج مرتيل وما والاه كدار مرتيل التي هي الديوانة، وبمجرد وصوله إليها حصنها بأشبارات الرمل والمدافع وغير ذلك واتخذ بها دوراً من اللوح وحوانيت منه وأقام مطمئناً وصارت المراكب تتردد له في البحر بالأقوات والعدة والعسكر وجميع ما يحتاج إليه حتى استراح ثلاثة عشر يوماً ولم يكن في هذه المدة قتال ولا أنشبه العدو، وفي هذه الأيام ورد المولى أحمد بن عبد الرحمٰن في جيش بعث به السلطان من مكناسة ونزل بموضع يقال له: فم الجزيرة بالتصغير وكان المولى العباس نازلاً بمدشر القلالين بمحل مرتفع يشرف على ما حوله، ولما استراح العدو

وصلحت أحوال جيشه أنشب القتال فكان يخرج فيحوم حول المحلتين فيقاتل ويرجع فكان بريم دائماً يكون في أول المقدمة على فرس أبيض مشهوراً عندهم موصوفاً بالشجاعة وجودة الرأي، ثم إن العدو عزم على مصادمة المسلمين والهجوم على تطاوين فارتحل يوم السبت الحادي عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف وانكمش واجتمع وتقدم للقتال وأرسل جناحاً من الخيل طالعاً مع الوادي إلى جهة المدينة وجناحاً من العسكر الرجالة طالعاً من الغابة إلى جهتها أيضاً، وزحف بعسكره شيئاً فشيئاً وهو في ذلك يرمي الكور والضوبلي والبغال تجر المدافع والجناحات ممتدان يكتنفان محلة المولى أحمد، ولما قربا منها وكاد ينطبقان عليها فر من كان بها وتركوا الأخبية والأثاث بيد العدو فاستولى عليها ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه وتقهقر المولى العباس بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو وكان في تقهقره هذا قد دخل المدينة ومر في وسطها واضعاً منديلاً على عينيه وهو يبكي أسفاً على الدين وقلة ناصره، ولما استقر بالمحلة مع العشي خرج إليه أهل تطاوين وشكوا إليه ما نزل بهم من أمر العدو واستأذنوا في تحويل أثاثهم وأمتعتهم وحريمهم إلى مداشر الجبل وحيث يأمنون على أنفسهم قبل حلول معرة العدو بهم فأذن لهم وعذرهم وكان قبل ذلك قد منع الناس من نقل أمتعتهم وحريمهم لئلا يفتنوا المسلمين ويجروا عليهم الهزيمة ولكي يقاتلوا عليها بالقلب والقالب، فلما كان هذا اليوم وشكوا إليه أمر العدو الذي قد أطل عليهم ولم يبق إلا أن يثب وثبة أخرى فيصير بها في وسط البلد عذرهم وكان العدو حين نزل بفم الجزيرة عشية ذلك اليوم قد أرسل أربع كورات على تطاوين فوقعت في وسط المدينة كأنه يعلمهم بأنه قد أشرف عليهم ولم يبق دون أخذهم قليل ولا كثير، ولما سمع الناس كلام المولى العباس انطلقوا مسرعين إلى نقل أمتعتهم وقام الضجيج في المدينة واختلط المرعى بالهمل وامتدت أيدي الغوغاء إلى النهب وخلع الناس جلباب الحياء وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والأعراب والأوباش ينقبون ويكسرون أبواب الدور والحوانيت والداخل للمدينة أكثر من الخارج،

وباتوا ليلتهم كذلك إلى الصباح، ولما طلع النهار وتراءت الوجوه انتقلوا من نهب الأمتعة إلى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفساً وعظمت الفتنة وتخوف من بقي بتطاوين عاجزاً عن الفرار فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن علّي آبعير أصله من طنجة وسكن تطاوين وتشاوروا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتاباً إلى كبير محلة العدو أردنيل يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التي هم فيها، فكتبوا الكتاب ووجهوه مع جماعة منهم فما انفصلوا عن المدينة غير بعيد حتى عثروا على طلائع العدو يطوفون حول المدينة ويحرسون محلتهم فتسابقوا إليهم وهشوا وبشوا وسألوهم ما الذي أقدمكم فقالوا: جئنا بكتاب إلى أردنيل فأبلغوهم إليه فأظهر أيضاً البشر والفرح وقدم إليهم طعاماً من الحلواء وقال لهم في جملة كلامه: إني أفعل معكم ما لم يفعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان يعني من الإحسان. وكذب خذله الله فإن ذلك من حيله التي يستهوي بها الأغمار ويفسد بها الدين، وإلا فأي إحسان فعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان. ألسنا نرى دينهم قد ذهب، وأن الفساد قد عم فيهم وغلب، وأن ذراريهم قد نشؤوا على الزندقة والكفر إلا قليلاً، وعما قريب يلحق التالي بالمقدم، والله تعالى يحوط ملة الإسلام، ويكسر بقوته شوكة الزنادقة وعبدة الأصنام، ولما عرضوا على العدو الدخول إلى بلدهم قال لهم: أما اليوم فيوم الأحد وهو عيد النصارى ولا يحل لي التحرك والانتقال، وأما غداً فانظروني في الساعة العاشرة من النهار، فرجعوا إلى أهلهم وأصحابهم وأعلموهم بمقالة العدو والحال ما حال والقتال لا زال وأبواب الحوانيت تكسر والدور تخرب والقوي يأكل الضعيف، وباتوا ليلة الاثنين كذلك وأصبحوا من الغد كذلك، ثم إن العدو استعد وأخذ أهبته وتقدم إلى تطاوين بعد أن فرق عسكره على جهتين: فرقة مرت مع أردنيل على الجبانة قاصدة الباب الذي يفضي إليها، وفرقة ذهبت مستعلية إلى جهة القصبة والبرج، ولما وصل أردنيل إلى الباب وصل الآخرون إلى القصبة، فأما أردنيل فوجد الباب مغلقاً وكلمه المسلمون من داخل المدينة فأمرهم

بالفتح فقالوا: إن المفاتيح قد ذهبت في الفتنة، فقال: اكسروا الأقفال فكسروها ودخل، ودخل معه كبراء عسكره فتوجه هو إلى دار المخزن فنزل بها، وافترق كبراء العسكر في المدينة بأيديهم ورقات مكتوب فيها أسماء الدور التي ينزلون بها كل واحد بداره مكتوبة في ورقته، فكان أحدهم يسأل عن دار الرزيني وآخر يسأل عن دار اللبادي وآخر يسأل عن دار ابن المفتي وهكذا بحيث دخلوا على بصيرة بأمره البلد ودور كبارها فاستقر كل واحد منهم في داره التي عينت له، وأما الذين ذهبوا نحو القصبة فإنهم لما وصلوا إلى السور أنشبوا فيه سلاليم من قمن غلاظ برؤوسها مخاطيف معوجة وتسلقوا فيها بسرعة ولما صاروا في أعلى البرج رفعوا سنجقهم في أعلى الصاري وأخرجوا عليها مدفعاً، ولما سمع المشتغلون بالنهب والقتل حس المدفع رفعوا رؤوسهم إلى البرج وبمجرد ما وقع بصرهم على بنديرة العدو تلوح خرجوا على وجوههم فارين كالنعم الشارد فالأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وا أسفي على الدين وأهله، ولما استقر العدو بالبلد رتب حكامها وكف اليد العادية عنها وولى على المسلمين الحاج أحمد آبعير المذكور آنفاً، وكان دخوله إلى تطاوين واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف، ورثاها الأديب الشريف السيد الفضل أفيلال بقصيدة يقول فيها:

يا دهر قل لي على مه ... كسرت جمع السلامة
نصبته للدواهي ... ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام ... للرفع كان علامه
ملكته لأعاد ... ليست تساوي قلامه
فالدين يبكي بدمع ... يحكيه صوب الغمامة
على مساجد أضحت ... تباع فيها المدامة
كم من ضريح ولي ... تلوح منه الكرامة
علق فيه رهيب ... صليبه ولجامه
ومنزل لشريف ... وعالم ذي استقامة

صار كنيفاً لعلج ... ولم يراع احترامه
وكم وكم من أمور ... للدين فيها اهتضامه
تبكي عليها عيون ... كآبة وندامة
تطوان ما كنت إلا ... بين البلاد حمامة
أو كخطيب تردى ... من بعد لبس العمامة
بل كنت روضاً بهيجاً ... زهرك أبدى ابتسامه
أو كمحيا عروس ... علاه في الخد شامة
فقت بهاء وحسناً ... فاساً ومصر وشامه
رماك بالعين دهر ... ولا كزرق اليمامة
ففرق الأهل حتى ... لم يبق إلا ارتسامه
ما كان أحلى زماناً ... وما ألذ غرامه
مضى لنا مع بدور ... ذوي نهى وفخامه
ما بين إنشاد شعر ... وبين إنشا مقامه
وشملنا في التئام ... والبسيط يهوى التئامه
حن السرور إليه ... شوقاً ورام التثامه
ساعده السعد حتى ... نال المنى ومرامه
يا حسنها من ليالٍ ... لو لم تصر كالمنامة
تطوان يا دار أنس ... وخيس أهل الزعامة
هل للوصال سبيل ... فالهجر أكمل عامه
والقلب ذاب اشتياقاً ... وحسرة واستهامة
والوجد أضعف جسماً ... وكاد يبري عظامه
يا أهل تطوان صبراً ... فما لخطب أدامه
دوام حال محال ... وهل لظل إقامة؟
إن غاب نجم سعود ... ولاح نجم شآمة
فسوف يطلع بدر ... يمحو سناه ظلامه
فاعتصموا برجاء ... وارعوا بصدق ذمامه

وحسنوا الظن تنجوا دنيا ويوم القيامة
وفوضوا الأمر لله يكف عنا انتقامه
ما فاز إلا ذكي قدم خيراً أمامه
حيث أقامه يرضى ولو بقصر كتامة
ولا يزل ذا انتظار في كل وقت ختامه
يراقب الله سرّاً وجهرة باستدامه
يطلب حسن ختام وحل دار المقامة

ثم إن أردنيل بعد أن رتب الحكام بتطاوين عاد إلى محلته وقسم عسكره قسمين وأنزله مكتنفاً للبلد شرقاً وغرباً، واختار منه عشرة آلاف فأدخلها المدينة وبقي هو خارجاً بإحدى المحلتين قال: إن جيشه كان يوم دخل تطاوين سبعين ألفاً كلها مقاتلة في غاية الاستعداد وكمال الشوكة، ثم أمر بالنداء في البلد أن من أوقد ناراً تلزمه العقوبة الشديدة حذراً من أن تكون هنالك مينا للمسلمين أو ما أشبهها فبقي الناس على ذلك نحو أربعة أيام لم يوقدوا فيها ناراً، ونادى أيضاً بأن من فر من أهل البلد ولم يأت إلى متاعه وأصله إلى سبعة أيام فلا شيء له بعد، ولم يقدم شيئاً على نقل البارود والمدفع الذي كان للمسلمين بالمدينة، فأما المدفع فحمله إلى أصبانيا وأما البارود فجعله بضريح ولي الله تعالى سيدي السعيدي، وكذا فعل بجميع آلات الجهاد، ثم عمد إلى ضريح سيدي عبد اللّه البقال فجعله كنيسة، وجعل مسجد الباشا مختزناً للأرز والشعير، ومسجد القصبة مختزناً للكليط، ثم سار في المسلمين بالتوقير والاحترام ولم يسمهم خسفاً ولا كلفهم شغلاً ولا اقتضى منهم مغرماً، كان يتألفهم بذلك ومن باع منهم شيئاً أضعف له في الثمن وأربحه، وكذا فعل مع أهل المداشر الذين حول البلد حتى اتخذ الناس سوقاً بموضع يعرف بكدية المدفع خارج تطاوين وشاع خبره في قبائل الجبل فانهاروا عليه من كل جانب وربحت الناس فيه، ثم كتب أردنيل كتباً وبعث بها إلى قبائل الجبل يعدهم ويمنيهم إن هم قدموا عليه وخالطوه بالبيع والشراء ويتوعدهم إن لم يفعلوا فقدموا من كل أوب وارتفعت الأسعار

فزادت ضعف ما كانت عليه وأكثر واستمرت كذلك فلم ترجع بعد، ثم أخذ في ترتيب بناء المدينة وتبديل شكلها حسبما جرت به عادة النصارى في مدنهم، فهدم ما لم يوافق نظره وفرز الدور من سور البلد، وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه، واستمر على هذا الحال نحو العشرين يوماً، ثم دار الكلام بينه وبين المولى العباس في الصلح وتسامع الناس به ففرح المسلمون والنصارى معاً، أما المسلمون فوجه فرحهم ظاهر، وأما النصارى فإنهم وإن كان لهم الظهور فهم لا يدركونه سهلاً بل مع القتل العظيم والجرح الكثير والمشقة الفادحة، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:104] هذا إلى مفارقة بلادهم التي ألفوها وعوائدهم التي ربوا عليها لا سيما عامة جيشهم الذين الغلبة في ضمن هلاكهم، فدماؤهم هي ثمنها كما قيل: بجبهة العير يفد حافر الفرس.

حكى من حضر أن عسكر النصارى لما سمعوا بتناول الصلح حصل لهم من الفرح أضعاف ما حصل للمسلمين وصاروا يترددون إليهم ويبحثونهم عما تجدد من الأخبار، وكلما سمعوا بشيء من أمر الصلح طاروا فرحاً وذلك لأن قتال النصارى كله على الإكراه إذ لا يمكن عسكرياً منهم أن يفر من الزحف حال القتال لأن الخيالة والسيافة من ورائهم يذمرونهم إلى الإمام ومهما رجع أحد منهم إلى خلف وترك في الصف فرجة ضربت عنقه في الحين، فالموت عندهم في الفرار محقق وفي التقدم مظنون، فيختارون المظنون على المحقق، اللّهم إلا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس واختلط الرجال بالرجال أمكن الفرار حينئذ لاشتغال الرئيس والمرؤوس كل بنفسه وبهذا الضبط لم تتفق لهم هزيمة منذ خرجوا من سبتة، ومن عادة العدو في الحرب أنه إذا نهض للقتال ارتحل بجميع ما في عسكره كأنه مسافر، فترى العسكري منهم إذا تقدم للقتال حاملاً معه جميع ما يحتاج إليه من ماء وطعام وبارود ورصاص حتى الموسى والمقص والمرآة والصابون وغير ذلك، قد اتخذ لجميع ذلك أوعية لطافاً وعلقها عليه فلا يؤده حملها لأنه اقتصر من كل على

قدر الحاجة، وأما الأخبية فيحمل كل ثلاثة رجال خباء ولا تلحقهم كلفة في حمله لأن أخبيتهم في غاية اللطافة والصفافة، وأعمدتها لطاف صلبة فهي مع كفايتها على الوجه الأتم في غاية الخفة بحيث إذا لف الخباء بما فيه كان كلا شيء، ولو أراد أن يحمله واحد لفعل لكنه يقسمه ثلاثة أشخاص زيادة في الرفق ولئلا يحصل الضجر إذا طال السفر، وأما المدافع فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت إفراغاً وركبت عليها على وجه محكم واتخذوا للعجلات بغالاً خصية تجرها في غاية الفراهة والارتياض، ويجعلون فوق تلك العجلات صناديق الإقامة من بارود ورصاص وضوبلي وغير ذلك، وتجلس الطبجية على تلك الصناديق ويقوم آخرون حولهم قد أخذوا أهبتهم للقتال بكل ما يمكن، ثم تندفع العساكر على هذا الترتيب صفوفاً صفوفاً وتتقدم شيئاً فشيئاً يخلف بعضها بعضاً كأنها أمواج البحر تبرق الشمس على طموس رؤوسها وتلمع على عددها المصقولة وآلاتها، وهو في هذه الحالة لا يفتر من رمي الكور والضوبلي والشرشم على كل جهة هكذا قتاله أبداً، وإذا أدركه المساء أو وقعت محاجزة أثناء النهار وكان قصده الثبات ثبت بمحله ذلك ولا يتزحزح عنه بحال إلا إذا فني كل عسكره أو جله، فبمثل هذا الضبط كان له الاستيلاء والظهور، وأما مقاتلة المسلمين له فكانت غير منضبطة وإنما قاتله من قاتله منهم باختياره ومن قبل نفسه، وإن كان هنالك ضبط من أمير الجيش فكلا ضبط، ومتى ظهر له أن يذهب ذهب مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور:62] لكن المقاتل من المسلمين يأتي القتال وليس معه ما يأكل ولا ما يشرب فبالضرورة إذا جاع أو عطش ذهب يبحث عما يقيم به صلبه، ثم هم يقاتلون على غير صف ولا تعبية بل يتفرقون في الشعاب ومخارم الأودية وحول الأشجار فيقاتلون من ورائها وإذا دفعوا في نحر العدو دفعوا زرافات ووحداناً، ثم إذا أدركهم المساء ووقعت المحاجزة ذهب كل إلى خبائه الذي تركه وراءه بمسافة بعيدة

وهم في هذا كله ليس لهم وازع يحملهم على ما يراد منهم.

فالحاصل أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لأمير الجيش لا يملك من أمرهم شيئاً، وإنما يقاتلون هداية من الله لهم وحياء من الأمير وقليل ما هم، وقد جربنا ذلك فصح ففروا عن السلطان المولى سليمان في وقعة ظيان أولاً وفي وقعة الشراردة ثانياً، وكان السلطان المولى عبد الرحمٰن أهيب في نفوسهم منه فكانوا يلزمون غرزه لكنه لما بعثهم إلى تلمسان فعلوا فعلتهم وسلكوا عادتهم، ولما شهدوا مع الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمٰن وقعة إيسلي جاؤوا بها شنعاء غريبة في القبح ولولا أنه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر ومنع الناس من الركوب لربما عادوا إلى فعلهم، وأحسن ما كانت حالهم في هذا الحرب فإنهم قاوموا العدو وفرقوا صفوفه غير مرة لكنهم أتوا من عدم الضبط الذي هو كضبطه فعدم ملاقاتهم للعدو في الكيفية القتالية هو الذي أضر بهم وأوجب لعدوهم الظهور عليهم، إذ الشيء كما علمت إنما يقاوم بمثله، والشر إنما يدفع بضده، فالتنافي إنما يحصل بين الضدين أو المثلين وحربنا وحرب الإصبنيول كان من باب الخلافين ولا تنافي بين الخلافين كما هو مقرر في علم الحكمة، والتوفيق إنما هو بيد الله.

ولنرجع إلى الكلام على الصلح المتناول فنقول: لما دار الكلام بين المولى العباس رحمه الله وبين أردنيل في الصلح استعدوا للاجتماع في يوم معلوم بمكان سوي بين المحلتين فلما كان ذلك اليوم ضرب بالمحل المعين خباء وجاء المولى العباس ومعه جماعة من وجوه جيشه وفيهم أبو عبد الله الخطيب التطاوني، وخرج أردنيل ومعه جماعة من وجوه عسكره وخرج معه مقدم المسلمين بتطاوين الحاج أحمد آبعير رجاء أن يكون هو الترجمان بين الأميرين فيفوز بذكر ذلك الجمع وفخره فأخفق رجاؤه لأنه لما توافى الجمعان إلى الخباء بقي الناس كلهم قائمين على بعد منه ولم يدخله إلا المولى العباس وأردنيل والخطيب لا رابع لهم فيما قيل، وأبدى أردنيل من

الأدب والخضوع للمولى العباس ما جاوز الحد وتفاوضوا ساعة ثم انفض المجلس وتناقل الناس أن حاصل ما دار بينهما أن أردنيل رغب في الصلح وتأكيد الوصلة بينهم وبين المسلمين على شروط ذكرها، وأن المولى العباس توقف فيها وأحال ذلك على مشورة أخيه السلطان سيدي محمد وذهب كل إلى سبيله، وبقي الناس ينتظرون الجواب بأي شيء يأتي من عند السلطان وبعد أيام ورد الخبر بأن السلطان لم يقبل ذلك الصلح، فاستمر الناس على حالتهم الأولى من كون محلة العدو بتطاوين وبعضها خارجها شرقاً وغرباً ومحلة مولاي العباس على بعد من البلد مقدار نصف يوم، ثم إن المسلمين اجتمعوا ذات يوم وبيتوا محلة العدو النازلة خارج البلد في ليلة معلومة فتقدموا إليها وذلك في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وهجموا عليها في ليلة مظلمة والنصارى غارون وفتكوا فيهم فتكة بكراً باتوا يقتلونهم الليل كله، ومن الغد كذلك إلى المساء، وقاتل النصارى ذلك اليوم أيضاً ولكن الظهور كان للمسلمين ولولا قوة نفوس العدو باستنادهم إلى البلد وتحصن كبيرهم بها لكانوا انكسروا كسرة شنيعة، وكان عدد القتلى من النصارى في هذه الوقعة نحو الخمسمائة والجرحى أكثر من ألف، وأما المسلمون، فكان القتل فيهم ضعيفاً، ولما أصبح أردنيل ورأى ما حل بعسكره ساءت أخلاقه وقلب لأهل تطاوين ظهر المجن وأبدل تلك الشفقة التي كان يعاملهم بها بالغلظة والبشاشة بالاكفهرار، وعمد إلى مسجد الشيخ أبي الحسن علي بركة رحمه الله فاتخذه مارستاناً للجرحى فظلت الجرحى تنقل إليه وفرض على أهل تطاوين اللحف والقطائف فجمع من ذلك شيئاً كثيراً فرشه بالمسجد المذكور لجرحاه، وصار عامة عسكر النصارى بتطاوين كلما لقوا أحداً من المسلمين عيروه بالغدر وقبحوه، ثم إن أردنيل أقام بعد هذه الوقعة نحو عشرة أيام ريثما استجم جيشه وأبلت جرحاه وخرج في تمام الشوكة وكمال الاستعداد يريد أن يضرب في محلة المسلمين فجعل تطاوين

خلفه وتقدم حتى كان بوادي أبي صفيحة فلما شعر به الناس من أهل المداشر والمتطوعة تسابقوا إليه من كل جانب ووافق ذلك اليوم قدوم عرب الحياينة جاؤوا في حرد كبير وحنق شديد فقويت قلوب الناس بهم واشتد أزرهم وتقدموا إلى العدو فأنشبوا معه الحرب بأبي صفيحة قبل أن يصل إلى محلة المسلمين وكثروه فأوقعوا به وقعة أنست ما قبلها فقتلوا منه ما خرج عن الحصر، وأما الجرحى فقل ما شئت، وكست قتلاه الأرض، ولما أعياه الدفن جعل يجمع الجماعة من الثمانية إلى العشرة ويهيل عليها التراب، ومع ذلك بقي منه عدد كبير بلا دفن حتى أنتن موضع المعركة من شدة نتن الجيف، ونال المسلمون من عدوهم في هذا اليوم ما لم ينالوا قبله مثله ولا ما يقاربه، وكان الذكر فيه لعرب الحياينة ثم للمتطوعة غيرهم، وأما محلة المولى العباس فكانت بعيدة عن المعركة بمسافة كبيرة.

وقد ذكر منويل خبر هذا اليوم: فأقر بأنه أهرق منهم دم كثير وخسروا فيه عدداً كبيراً من نفوس العسكر والخيل، ولما بلغ المولى العباس أن العدو قد برز من تطاوين وأن المسلمين يقاتلونه الآن في أبي صفيحة قلب رأيه واستأنف النظر في عاقبة أمره، ورأى أن المسلمين وإن نالوا من العدو في هذه المرة وأبلغوا في نكايته لكن الثمرة ضعيفة من جهة أن نكايتنا له إنما هي في القتل والجرح ونكايته في أخذ الأرض والاستيلاء عليها كما قلنا غير مرة فجنح رحمه الله إلى الصلح واختاره على الحرب حتى تدور للمسلمين سعود إن شاء الله.

أخبرني صاحبنا القائد الأجل أبو عبد اللّه محمد بن إدريس بن حمان الجراري حفظه الله قال: لما طالت الحرب بين المسلمين والنصارى على تطاوين استدعاني السلطان وسيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله وأعطاني ستين ألف مثقال أذهب بها إلى جيش المسلمين المرابط على تطاوين بقصد المؤنة والصائر. وقال لي مع ذلك: إذا وصلت إلى محلة المسلمين فانظر

حالهم وتبصر في جميع أمورهم وما هم عليه في قتال عدوهم من الضبط وعدمه، وهل هم مكفيون في جميع ما تدعو الحاجة إليه أم لا؟ واستوعب ذلك وائتنى بالأمر على وجهه، قال: فذهبت فوصلت إلى المحلة يوم الخميس وفي صبيحة اليوم الذي يليه كان حرب أبي صفيحة فجاء النذير إلى المولى العباس وأخبره بأن المسلمين الآن يقاتلون العدو، قال: فركبت في جماعة من الناس وذهبت لأنظر حال المسلمين وحال عدوهم كما أمرني السلطان رحمه الله فوصلت إلى مقاتلة المسلمين فإذا هم يرتادون موضعاً ينزلون به أثقالهم ويضربون به أخبيتهم ليتفرغوا لقتال عدوهم، فإذا هم عزموا على النزول بوادي آكراز فأجهضهم العدو عنه بالرمي بالكور والضوبلي وهو متقدم أمام لا يثنيه شيء فتأخروا عن ذلك المحل ونزلوا بمحل أمنوا به على أخبيتهم وأثاثهم، ثم تقدموا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى ردوه على عقبه بالموضع المعروف بآمصال مرتين أو ثلاثاً، وقتلوا منه ما جاوز الحصر، وفي ذلك اليوم استشهد عامل سفيان وبني مالك أبو محمد عبد السلام بن عبد الكريم بن عودة الحارثي وبات العدو تلك الليلة بوادي آكراز الذي كان المسلمون أرادوا أن ينزلوا به وباتت محلة المسلمين بالفنيديق وتفرق جل متطوعتها كل إلى حال سبيله على عادتهم وكان الوقت وقت شتاء وبرد غاية قال: فلم يعجبني ذلك ومن الغد وهو يوم السبت أصبح العدو مقيماً والمسلمون مقيمين كذلك وكان الرأي أن يعاجلوه بوقعة أخرى ويلحوا عليه كي يكسروا شوكته ويهضموا ما دام متألماً ولا يتركوه حتى يجم ويستريح، لكنهم لم يفعلوا ودار الكلام في ذلك اليوم في الصلح فأذعن كل من الأميرين أمير المسلمين وأمير النصارى وجنحوا إليه لأنهم كانوا معاً قد سئموا الحرب وملوا القتال، ثم من الغد وهو يوم الأحد تداعوا للاجتماع بعد أن نهض العدو من محله الذي كان نازلاً به واجتمع وانكمش وأظهر القوة بالتهييء للحرب والتعبئة للقتال حتى أنه إذا كان صلح فذاك وإلا فالقتال، فعل ذلك مكيدة، والحاصل أن المولى العباس تقدم في جماعة من وجوه الجيش

وتدنى أردنيل في جماعة من أصحابه كذلك بعد أن أمر بضرب خباء صغير يجتمعان به، وتقدم أردنيل على الخباء بكثير لملاقاة المولى العباس وإظهاراً للأدب معه فتلاقى به وعادا إلى الخباء وحضر معهم الترجمان ورجلان آخران وأبرموا الصلح وأعطى كل خط يده بذلك وانفصلوا وذهب كل إلى محله، وكان ذلك آخر حرب بين المسلمين والإصبنيول، ولما وصل الخبر بانعقاد الصلح إلى عسكر النصارى فرحوا فرحاً لم يعهد مثله وجعلوا ينادون الباص الباص أي الصلح الصلح ودخلوا تطاوين وهم رافعون بها أصواتهم وكلما لقوا مسلماً هشوا له كأنهم يهنئونه بالصلح، وكان الصلح قد انعقد بين المسلمين والإصبنيول على شروط منها أن يدفع السلطان إليهم عشرين مليوناً من الريال ويخرجوا من تطاوين وما استولوا عليه من الأرض التي بينها وبين سبتة إلا شيئاً يسيراً يزاد لهم في المحدة على سبيل التوسعة، وكان انعقاد هذا الصلح في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وتراخى السلطان رحمه الله في دفع هذا المال فاستمر العدو مقيماً بتطاوين حتى يستوفيه، وبعد سنة من يوم هذا الصلح استوفى عشرة ملايين منه وبقيت عشرة وقع الاتفاق فيها على أن يقتضيها العدو من مستفاد مراسي المغرب فأقام أمناءه بها لاقتضاء نصف داخل كل شهر منها وهم الآن بهذا الحال والله تعالى يكفي المسلمين شرهم وشر كل شر، وبعد ما وقع هذا الاتفاق أسلم النصارى تطاوين إلى المسلمين وكان خروجهم منها ضحوة يوم الجمعة الثاني من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف بعد أن مكثوا فيها سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً، ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكساراً لم يعهد لهم مثله وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ولما فرغ السلطان رحمه الله من أمر تطاوين جد في جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم، وكان هذا السلطان أول من أحدثه من ملوك المغرب وكان إحداثه إياه في دولة أبيه رحمه الله بعد رجوعه

من وقعة إيسلي مع الفرنسيس، ثم جد فيه في هذه الأيام فجمع منه ما تيسر جمعه، ثم رتب المكوس على الأبواب والمبيعات وكتب في ذلك كتباً للآفاق، فمما كتبه لأمناء مرسى الدار البيضاء في ذلك ما نصه: وبعد فإنا لما أخذنا في جمع النظام للمصلحة المتعينة، الواضحة البينة، المقر أمرها لدى الخاص والعام واجتمع منه عدد يسير، واختبرنا ما صير عليه في شهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير، فكيف أن جمعنا منه عدداً معتبراً يحصل به المراد، ويكون قذى في أعين أهل العناد، اقتضى الحال ذكر ذلك لكبراء التجار لينظروا فيما يستعان به على أمرهم، إذ لا بد من كفايتهم، وإلا انحل نظام جمعهم، وفي ذلك ما لا يجهله من له أدنى عقل ومحبة في الدين، فأشاروا بفرض إعانة لا ضرر فيها على الرعية وسطروها في ورقة وهي كل شيء بالنسبة لما ارتكبه الملوك في مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية، وللضرورة أحكام تخصها كما هو معلوم مقرر، ومسطر في غير ما ديوان محرر، ثم اقتضى نظرنا أن نسند الأمر في ذلك لأهل العلم ليقرروا للناس حكمه تقريراً تنشرح له الصدور ويعمل بمقتضاه في الورود والصدور، وإن كان جلهم يعلم هذا إذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها إلا بجند قوي بالله ولا جند إلا بمال وهو لا يكون إلا من الرعية على وجه لا ضرر فيه، وقد أخذ الناس هذه مدة بحضرتنا العالية بالله وبمكناسة وتازا والعدوتين ومراكش في ذلك، وسلكوا في ترتيبه أحسن المسالك، ولا نشك أن بركة ذلك تعود عليهم في أموالهم وأولادهم وأنفسهم، فبوصول هذا إليكم قوموا على ساق الجد في القبض من الناس بالباب على نحو ما في الورقة المشار إليها ولا دخل للنصارى في ذلك، والله أسأل أن يبارك للمسلمين في مالهم ويعوضهم خلفاً آمين والسلام في الثاني والعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة وسبعين ومائتين وألف، وإذ انجر بنا الكلام على اتخاذ العسكر وترتيبه فلا بد من تتميم الفائدة بذكر كلام نافع.

القول في اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض آدابه

اعلم أنه واجب على الإمام حماية بيضة الإسلام وحياطة الرعية وكف اليد العادية عنها والنصح لها والنظر فيما يصلحها ويعود عليها نفعه في الدين والدنيا، ولا يمكنه ذلك إلا بجند قوي وشوكة تامة بحيث تكون يده غالبة على الكافة وقاهرة لهم، فاتخاذ الجند إذاً واجب وعليه فيندب له أن يتخذ لهم ديواناً يجمع أسماءهم ويحصي عددهم ليحصل الضبط وينتفي اللبس، وأول من اتخذ الديوان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أمر عقيل بن أبي طالب ومخزمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب مبتدأ من قرابة رسول الله ﷺ فما بعدها الأقرب فالأقرب، فهكذا ينبغي للإمام أن يرتب جنوده في ديوان يحفظها ودستور يجمعها، ثم ينبغي أن يكون عنده أولاً ديوان كبير هو الأم يجمع أسماء العساكر كلها الحاضرة والغائبة والخاصة والعامة، ثم يجعل دواوين صغاراً يشتمل كل واحد منها على طائفة مخصوصة مثل عسكر الإمام الذي يلازمه حضراً وسفراً وعساكر الثغور والقلاع ونحو ذلك، وتكون هذه الدواوين الصغار بمنزلة الفروع للكبير تجدد كلما تجددت الطوائف كما سيأتي، وكل ديوان منها يشتمل على أرحاء مثلاً وكل رحى على مئين وكل مائة بضباطها وطبيبها وعالمها الذي يعلمها أمر دينها وغير ذلك.

قال صاحب مصباح الساري ما ملخصه: كانت الدولة العثمانية في أول أمرها إذا استخدمت طائفة من الجند بقيت في الخدمة طول عمرها ولما كان هذا الأمر صعباً يعني وغير مقتض للتسوية بين الرعية في هذا الحق العظيم اقتضى نظرهم أن يعملوا القرعة بين أبناء الرعايا عند انتهاء كل خمس سنين فمن استكمل مدة خدمته وتبصر بما يلزمه من حرب عدوه وقدر على المطالبة والمدافعة ذهب إلى حال سبيله لطلب معيشته، فذو الحرفة يرجع إلى حرفته

والتاجر إلى تجارته وهكذا، ويؤتى بطائفة أخرى بدلها حتى تصير الرعية كلها جنداً قادرة على المطالبة والمدافعة متى احتاجت إلى ذلك، ثم من استوفى مدة خدمته بقي معدوداً في صنف الرديف سبع سنين أخرى، ومعنى الرديف أنهم يكونون عدة للدولة متى احتاجت إليهم في نازلة عظيمة أو حرب عامة مثل ما يكون بين الأجناس، فإذا انسلخت السبع سنين فهو حر دائماً وأبداً فلا يضرب عليه بعث، ولا يكلف بغزو إلا أن يشاء، فجملة مدة الخدمة العسكرية بين أصلية ورديفية اثنتا عشرة سنة، وشرط المستخدمين في العسكر أن يكونوا في سن العشرين إلى خمس وعشرين سنة، فمن زاد على ذلك أو نقص لا تقبله الدولة لينضبط الأمر، وإن اصطلح على أقل من ذلك أو أكثر فلا بأس، فإذا أريد إعمال القرعة بينهم وذلك عند رأس خمس سنين كما قلنا اجتمع كل من هو في ذلك السن من أهل الناحية مثل مراكش وأعمالها وفاس وأعمالها والعدوتين وأعمالهما في يوم معلوم من السنة لا يتقدم ولا يتأخر فيحضر نائب السلطان ويحضر القاضي والشهود وتكتب بطائق على عدد رؤوس الحاضرين فلان بن فلان الفلاني سنة كذا فإذا اجتمع لنا من البطائق مائة ونحن غرضنا استخدام خمسين مثلاً أخذنا تلك البطائق واحدة واحدة حتى نستوفي الخمسين ثم نفتحها فمن عثرنا عليه فيها فهو عسكري في تلك المدة، ومن أخطأته القرعة ذهب إلى حال سبيله، لكنه إن جاوز سن العسكرية الذي هو خمس وعشرون سنة ولم تصبه القرعة فهو في صنف الرديف إلى سبع سنين كما قلنا، والذين أصابتهم القرعة وأثبتوا في الديوان يرخص لهم في الذهاب إلى محالهم عشرين يوماً لقضاء أوطارهم ثم يحضرون بعدها إلى القشلة، ومن تخلف عن حضور هذا الجمع بدون عذر مقبول يثبت في الديوان بلا قرعة، ويسقط من أصل العدد المطلوب، ولا تقبل فيه شفاعة ولا فداء، ومن ليس له إلا ابن واحد من رجل كبير أو امرأة أرملة أو نحو ذلك ولا كافي له سواه فإنه يسرح له لئلا يضيع لكن بعد حضور الجمع وإثبات ما ادعاه، ومن له ولدان وأصابتهما معاً القرعة فيمسك واحد ويسرح له الآخر، ومن له أربعة أو خمسة وأصابت القرعة منهم ثلاثة

فأكثر أمسك اثنان وسرح الباقي، ويعفى عن كل من كان مفرداً في بيته وعن كل أعور وأشل وأعرج وأحدب، وعن كل مبتلى بداء مزمن أو علة معدية أو ضعيف الجسم نحيف البنية لا يقدر على الأعمال الجندية وغير سالم المزاج وهكذا، ويعفى عن طلبة العلم لكن بعد حضورهم وامتحانهم فمن ظهرت نجابته خلى سبيله لأنه قد قام بوظيف هو من أهم الوظائف ومن كان قليل الفهم أو مقسم البال أو طائش الفكرة لا ترجي فائدته وإنما تستر بطلب العلم دخل في القرعة، وإذا كان لرجل ولدان وأصابت القرعة أحدهما وأراد إبداله بالآخر فذلك له إذا توفرت فيه شروط الخدمة، وإذا أراد أن يبدله بغير أخيه من عبد أو أجير فلا بد من زيادة قدر معلوم من المال لا يجحف به ولا يؤدي إلى تعطيل تجارته ولا بيع أصله، ولهذا البدل شروط: الأول أن يكون سالماً من الآفات المتقدمة، الثاني أن لا يكون ممن استوفى مدة الخدمة التي هي خمس سنين ودخل في صنف الرديف اللّهم إلا إذا لم تكن القرعة أصابته حتى جاوز السن المعلوم وصار في صنف الرديف فهذا يقبل، الثالث أن يكون من أهل تلك الناحية فلا يقبل مراكشي عن فاسى مثلاً وبالعكس، الرابع أن لا يكون من العبيد السود اللّهم إلا إذا كان في الجند صنف منهم فيقبل في صنفه ولا بأس إذا كان مملوكاً أبيض، الخامس أن لا يكون من الذين استعملوا في الجندية وأخرجوا منها لعارض خلقي أو خلقي مثل آفة بدنية أو فعل قبيح من سرقة ونحوها، السادس أن لا يكون البدل قد جيء به بعد ثلاثة أشهر ثم إذا فر البدل فينتظر مجيئه إلى شهر فإن جاء وإلا أخذ به صاحبه الذي جاء به، ثم إذا انتظم هذا الجمع العسكري فأول ما يعلمونهم أمر دينهم مما لا بد منه على سبيل الاختصار بأن يلقنوا كيفية اللفظ بالشهادتين ويبين لهم معناها بوجه إجمالي، فإن جل العوام سيما أهل البادية والقرى النائية لا يفقهون ضروريات دينهم، ويعلمون كيفية الوضوء والصلاة ويلزمون بالمحافظة عليها حتى أن من لم يحضر منهم وقت النداء لها يعاقب عقاباً شديداً وإلا فلم يحضر عند سماعه الطرنبيطة ولا يحضر إذا سمع داعي الله فهذا أول ما يتعلمونه لتعود عليهم بركة الدين وينجح سعيهم في حماية

المسلمين، فإنا لم نرد بجمع هذا الجند إلا حفظ الدين فإذا كان الجند مضيعاً له فكيف يحفظه على غيره ويعود على المسلمين نفعه، ثم بعد هذا يعلمون الأمور التي تدل على كمال المروءة وعلو الهمة من الحياء والحشمة والإيثار وترك الكلام الفحش وتوفير الكبير ورحمة الصغير ويلقنون أن من أفضل الحصال عند الله وعند العباد الغيرة على الدين والوطن ومحبة السلطان ونصحه، ويقال له مثلاً: إذا كان العجمي الزنديق يغضب لدينه الباطل ووطنه فكيف لا يغضب العربي المؤمن لدينه ودولته ووطنه، ولا بد من ترتيب مجلس يومي يسمعون فيه سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه ومغازي الخلفاء الراشدين وسلف الأمة وأخبار رؤساء العرب وحكمائها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم وليتخير لهم من الكتب الموضوعة في ذلك أنفعها مثل: «كتاب الأكفاء» لأبي الربيع الكلاعي، وكتاب ابن النحاس في الجهاد، وكتاب «سراج الملوك»، ونحوها، فإن ذلك مما يقوي إيمانهم ويحرك هممهم ويؤكد محبتهم في الدين وأهله، وينبهون على التحافظ على ثيابهم وأطرافهم من الأوساخ والأوضار التي تدل على دناءة الهمة ونقصان الإنسانية وعدم النخوة، ويلزمون بترك استعمال الدخان فإنه مناف لنظافة الدين ومذهب للمروءة والمال بلا فائدة، ثم إذا رسخت فيهم هذه الآداب في ستة أشهر أو عشرة أو أكثر أخذوا في تعلم الثقافة وأمور الحرب، ثم من أهم ما يعتنى به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسكلوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك، فقد عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم، فلا تمضي على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصيروا عجماً متخلقين بأخلاقهم متأدبين بآدابهم حتى أنهم تركوا السلام المشروع في القرآن وأبدلوه بوضع اليد خلف الأذن، فيجب على معلمهم في حالة تعليمه إياهم أن يعدل عن الاصطلاح العجمي إلى العربي ويعبر عن الألفاظ العجمية بالعربية، وإن كان أصل العمل مأخوذاً عن العجم فليجتهد

المعلم الحاذق في تعريبه وليس ذلك بعسير على من وفقه الله إليه، وليس فيه إلا إبدال لفظ عجمي بلفظ عربي بأن يقول مثلاً: أمام، خلف، دائرة، نصف دائرة، وهكذا، فإذا مرنوا عليه شهراً أو شهرين كان أسهل شيء عليهم لأن تلك هي لغتهم التي فيها نشأوا وعليها ربوا، فالعمل عجمي والكلام الذي ينبهون به على ذلك العمل عربي فأي كلفة في هذا وبه يندفع عنهم التشبه بالعجم المنهي عنه شرعاً، فإن التزيي بزيهم لا يأتي بخير أبداً وهو والله من أفسد الأشياء للدين الذي نريد أن نحوطه بهم.

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: من لم تصلحه السنة فلا أصلحه الله، ثم عمود هذا كله وصلبه العقيم له وروحه الذي به حياته هو الكفاية في المطعم والملبس، وليختر لهم من الأغذية أطيبها وأنفعها للبدن، وليجعل لهم كسوتان كسوة الشتاء وكسوة الصيف، وليتخير لهم من المساكن والمنازل أطيبها وأصلحها هواء وأبعدها عن محل الوخم، وليلزمهم بالاعتناء بتنظيف مساكنهم وتبريدها وتطييبها حتى لا ينشأ عنها داء، وإذا تراخوا في مثل ذلك عوقبوا عليه لأنه دال على دناءة الهمة ودنيء الهمة لا يأتي منه شيء، وليرتب لهم الأطباء العارفون حتى إذا أصاب أحداً منهم مرض عالجه الطبيب في الحال، فإن هذا الجند هو سور الإسلام وسياج الدين فبحفظه يحفظ الدين وبسلامته يسلم، فإذا اتخذ الجند على هذه الكيفية التي ذكرنا سهل على الناس الدخول في الجندية وتنافسوا فيها، ومن كان عنده من الرعية درهم طابت نفسه بأن يقتسمه معهم ويكون الجند حينئذ في مرتبة هي أشرف من مرتبة الرعية بكثير لأن الجند يحفظهم والرعية تكسب وتبذل لهم، ثم إذا ظهر من آحاد الجند نجابة أو شجاعة أو نصيحة في الخدمة السلطانية رفع قدره ونوه باسمه ليغتبط هو بمنزلته ويزداد في خدمته ويغبطه غيره وينافسه في خصاله التي أكسبته تلك المنزلة وليقس ما لم يقل، والله الهادي إلى التوفيق بمنّه ولنرجع إلى التاريخ فنقول:

وفي سنة سبع وسبعين ومائتين وألف وذلك في يوم الثلاثاء الثاني عشر

من ذي القعدة منها توفي والدنا الفقيه المرابط الأخير أبو البقاء خالد بن حماد بن محمد الكبير الناصري بقبيلة سفيان، ودفن بتربة الشيخ أبي سلهام رضي الله عنه، وكان رحمه الله من الورع والتحري في أكل الحلال على جانب عظيم بحيث فاق أكثر أهل زمانه في ذلك، وكان ديناً وقوراً كثير الأوراد ذا صمت وجد، وله إلمام بالفقه والسيرة النبوية مرجو البركة عند العامة رحمنا الله وإياه والمسلمين.

ثورة الجيلاني الروكي ومقتله

كان الجيلاني الروكي من عرب سفيان رجلاً خامل الذكر ساقط القدر حرفته رعي البهائم ونحو ذلك من عمل أهل البادية، فوكل به جني أو شيطان ففاه بالمخاريق وتبعته العامة فثار ببلاد كورت وتقدم إلى دار القائد عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة الحارثي السفياني في أخلاط من الأوباش بالعصي والمقاليع فحاصر القائد المذكور في داره من الظهر إلى الغروب ثم اقتحم العامة عليه داره فقتلوه وقتلوا جماعة من إخوته وبني عمه ونهبوا ما وجدوا بداره وكان شيئاً كثيراً من المال والأثاث، وبقي أولئك القتلى مصرعين بفناء الدار ثلاثة أيام لم يدفنوا وافتتنت العامة بهذا الروكي ونسبوا له الخوارق والكرامات من غير استناد إلى دليل ووعدهم بأنه يستولي على الملك ويحكم المتمسكين بدعوته في الأموال كيف شاؤوا، وضاعت نفوس في تلك الفتنة ونهبت أموال واختلط المرعى بالهمل، وكنت حاضراً لهذا الخطب العظيم فكان من افتتان العامة بهذا المعتوه واعتقادهم فيه وجهلهم المركب في أمره ما لا يكاد يصدق به إذا حكي، وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله يومئذ برباط الفتح فاهتز لهذا الخطب لأن الشيطان كان قد نفخ في أباطيل الروكي وشاعت في العالم حتى اهتز لها النصارى الذين كانوا بتطاوين وحدثوا أنفسهم بالفرار، ثم إن السلطان رحمه الله أغراه أخاه المولى الرشيد، فلما سمع الروكي بمجيئه وعد أوباشه بأنه سينصر عليه وأن خيل السلطان

تكون غنيمة له وقال لهم: اتخذوا الشكائم أي الأرسان من الدوم وأعدوها لتقودوا بها خيل السلطان، فاتخذ جمع عظيم من العامة الحبال والأرسان وتوشحوا بها تحت الثياب وجعلوا يتبعون الروكي أينما ذهب انتظاراً لوعده، ولما قرب المولى الرشيد منه أخذ أمره في النقصان وناموسه في البطلان، ولما كان المولى الرشيد قرب سوق الأربعاء من بلاد سفيان جعل الشكائمية يقربون من المحلة ويتطوفون حولها مختفين بالأودية والشعاب والكدى ينتظرون هزيمتها بخارق من خوارق دجالهم، فأعلم المولى الرشيد بمكانهم فبعث الخيل فالتقطوهم في ساعة واحدة ولم يفلت منهم إلا القليل وسيقوا إلى رباط الفتح فسجنوا به مدة، وأما الروكي فإنه قصد جبل زرهون ودخل روضة المولى إدريس الأكبر رضي الله عنه فاجتمع عليه جماعة من الأشراف الأدارسة والعلويين وغلقوا أبواب القبة وتقدم إليه شريف علوي ففتك فيه وأراح الناس من شره واحتزوا رأسه ويده وحملوهما إلى السلطان فبعث بهما إلى مراكش فعلقا بجامع الفناء مدة، وكان جهلة العوام لا يصدقون بموته وبقوا ينتظرون رجعته سنتين أو ثلاثاً ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: 33] وكان مقتل الروكي في أواسط شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ولم تجاوز مدته أربعين يوماً، وكان مما كتبه السلطان في شأنه ما نصه: وبعد فإن فتاناً من سفيان مرق من الدين وفتن بأمور شيطنته من اغتر به من المسلمين، وجمع عليه أوباشاً من أمثاله وأضرابه وأشكاله، وتقدم بهم لدار خديمنا ابن عودة فقتلوه ثم تقدم بهم للشراردة فقاتلوه ثم تقدم بهم لزاوية مولانا إدريس فقاتله أهلها قتالاً يرضي الله ورسوله ولم يحصل لهم من قتاله ضجر ثم قبضوا عليه وقتلوه وعلقوا رأسه بباب الزاوية المسمى بباب الحجر وأغلقوا الأبواب بعد ذلك على من دخل معه من أتباعه وأنصاره وأشياعه، فقبضوا عليهم وجعلوهم في السلاسل والأغلال، ونحن على نية إقامة الحد عليهم إن شاء الله جزاء وفاقاً على ما ارتكبوه من الفساد وقبيح الأعمال، ومن كان منهم حينئذ خارجاً عن الباب تخطفته الأيدي، وجنوا ثمار ما سعوا فيه من البغي والتعدي، وقطع دابر جميعهم فالحمد لله حق حمده وما كل نعمة إلا

من عنده، وأعلمناكم لتكونوا على بصيرة إذ ربما يبلغ المرجفون على عادتهم النازلة على غير وجهها والسلام، في ثامن عشر شعبان المعظم عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف.

إيقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله بعرب الرحامنة

لما كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله ببلاد الغرب مشتغلاً بأمر الإصبنيول وحربه على تطاوين ثار عرب الرحامنة بالحوز وعمدوا إلى سوق الخميس بمراكش فأغاروا عليه وانتهبوه وسلبوا المارة وأرباب الجنات وضايقوا أهل مراكش حتى منعوهم من الارتفاق حول المدينة، فانقطعت السبل وارتفعت الأسعار وقطع الرحامنة ما حول الأسوار من الأشجار واحتطبوها، وحصدوا الزروع في الفدن واغتصبوها، واشتد الحصار وتخاذلت الأنصار ودام الحال إلى أن فرغ السلطان رحمه الله من حرب الإصبنيول وفتنة الروكي فوجه وجهته إلى مراكش، فلما قرب منها تحزب الرحامنة وأجمعوا على حربة فانحازوا إلى ناحية الرميلة والأودية وزاوية ابن ساسي ليحولوا بينه وبين الدخول إلى مراكش فهجم عليهم وأوقع بهم وقعة سيقوا بها بعد ساعة إلى مراكش مقرنين في الحبال حتى ضاقت بهم السجون، ولولا أنه رحمه الله كف أيدي الجيش عنهم لاستأصلوهم ثم عفا عنهم بعد أن انتزع منهم بلاد آيت سعادة وغواطم والأودية وهي من أخصب البلاد وأزكاها، وكتب السلطان في هذه الوقعة لأخيه المولى الرشيد بكتاب مختوم عليه بالخاتم الكبير بن الافتتاح والخطاب، وبداخل الخاتم: محمد بن عبد الرحمٰن غفر الله له، وبدائرته:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:88] وبأركان الخاتم: الله

محمد أبو بكر عمر عثمان علي ونص الافتتاح: الحمد لله الذي تدارك الأمة باللطف الكفيل بتمهيد أقطارها وتيسير أوطارها وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين نصروا الدين بالصفاح والأسنة، وأوضحوا أحكام السنة، أخانا الأعز الأرضى مولاي الرشيد أصلحك الله وأعانك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنه لما تواترت الأنباء المحققة بعد التباسها وتواردت الأخبار التي يغني نصها عن قياسها بما ارتكبه ظالموا أنفسهم الرحامنة من أنواع الفساد التي أذاعوها وأظهروها وأشاعوها، وقد كانت في صدورهم كامنة، صرفنا الوجهة إليهم وطوينا المراحل من أجلهم، ولما حللنا ببلادهم أرسلنا عليهم سيل العرم من العساكر المنصورة والجيوش الموفورة، فما كان غير بعيد حتى أتوا برؤوس منهم كثيرة محمولة على أسنة الرماح، وأسارى من مقاتلتهم مجردين من الثياب والسلاح، ومن نجى منهم رجع مجرداً إلا من خيبة سعيه، وما سقي إلا بكأس بغيه، واستولت العساكر والأجناد على جميع ما كان عند أهل الفساد، ومن المعلوم أن من سل سيف البغي يعود إلى نحره، ومن ركب متن الشقاق يغرق في بحره، وأن الفتنة نار تحرق من أوقدها، والمخالفة صفقة تعود بالخسارة على من عقدها، ولما أردنا معاودتهم لقطع دابرهم وتشتيت ما بقي من رماد أثرهم تعلقوا بالمرابطين من ذوي الوجاهات، وأكثروا من الذبائح على المحال وتوجيه العارات، وقاموا بواجب السمع والطاعة في كل ما أمرناهم به جهد الاستطاعة، فأبقينا عليهم وإن عادت العقرب عدنا بحول الله لها وكانت النعل لها حاضرة، فالحمد لله الذي خيب آمالهم وأبطل أعمالهم وخذل أنصارهم، وأركد أعمارهم لما أعمى أبصارهم، وردهم ناكصين على الأعقاب بعد سلب الأموال وقطع الرقاب، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:13]، ونعوذ بالله من الآراء المعكوسة والحظوظ المنكوسة، وسوء الفعل الذي يورد المهالك، والحرمان الذي يجعل البصير كالأعمى في دجنة الليل الحالك، هذا ويصلكم ما قطع من رؤوس قتلاهم لتتعلق بباب المدينة ويعتبر بها المعتبرون، ويتذكر بها

المتذكرون، والله أسأل أن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، وأن يكون لنا وللمسلمين بما كان لأوليائه وأحبائه وأصفيائه، وأن يوفقنا وإياهم لما يحبه ويرضاه، ويختم للجميع بخير والسلام، في ذي الحجة الحرام عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ومن تمامه: وأن علقت يوماً واحداً فادفعها لحملتها ولا بد ليتوجهوا بها إلى مكناسة صح به اهـ نص الكتاب الشريف.

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين وألف سافر شيخنا الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فوافته منيته بمكة المشرفة بعد الفراغ من الحج والعمرة ودفن بالمعلاة، وكان رحمه الله واعية دراكة نفاعة كثير الدرس والتقييد والنسخ للكتب المعتبرة فصيح العبارة حسن النغمة والصوت عارفاً بالحديث دؤوباً على سرده عارفاً بالنحو والفقه وعلوم الآلة، لازمناه وانتفعنا به وعادت علينا بركاته رحمه الله ونفعنا به، وكنت رثيته بقصيدة ذهبت في جملة ما ذهب من شعري إذ لم يكن لي اعتناء بتقييده ومطلعها:

ملازمة التذكار تذهب باللب وتغري قديم الوجد بالهائم الصب

وفي سنة ثمانين ومائتين وألف وذلك يوم السبت الرابع عشر من شعبان منها كانت هدة البارود بمراكش وذلك أنه كان بجامع الفناء منها فندق في بعض بيوته نحو أربعمائة قنطار من البارود وبه أيضاً شيء من فحم الريش المتخذ للبارود فوقعت فيه نار وسرت منه إلى البارود فنفض وقت الغروب من اليوم المذكور والناس كثيرون حول الفندق فطار الفندق بما فيه، وكانت حيطانه عادية وطار من كان حوله من الناس قيل نحو الثلاثمائة فمنهم من لم يوجد أصلاً ومنهم من وجد بعضه من يد أو رجل ونحو ذلك، وتهدمت كل دار كانت متلاشية بمراكش وانخلعت الأقفال من الأبواب وصرصرت السقوف والحيطان وكان الحادث عظيماً، وفي هذه السنة ورد يهودي من اللوندرة على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب وذلك لأنه

لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس ما دهمهم من أمر الحمايات وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبهاً بيهود مصر ونحوها فكتبوا إلى يهودي من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشابيل وكان هذا اليهودي قارون زمانه وكانت له وجاهة كبيرة في دولة النجليز لأنها كانت تحتاج إليه فيسلفها الأموال الطائلة وله في ذلك أخبار مشهورة فكتب يهود المغرب إليه أو بعضهم يشكون إليه ما هم فيه من الذلة والصغار ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان رحمه الله في الإنعام عليهم بالحرية فعين هذا اليهودي صهراً له للوفادة على السلطان رحمه الله في هذا الغرض وفي غيره وأصحبه هدايا نفيسة وسأل من دولة النجليز أن يشفعوا له عند السلطان ويكتبوا له في قضاء غرضه ففعلوا، وقدم على السلطان بمراكش وقدم هداياه وسأل تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان رحمه الله عن رده مخفقاً وأعطاه ظهيراً فتمسك به اليهودي يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى، ونص الظهير المذكور بالطابع الكبير:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحداً منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم، ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء، ومن ظلم أحداً منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله، وهذا الأمر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقرراً ومعروفاً محرراً لكن زدنا هذا المسطور تقريراً وتأكيداً

ووعيداً في حق من يريد ظلمهم، وتشديداً ليزيد اليهود أمناً إلى أمنهم، ومن يريد التعدي عليهم خوفاً إلى خوفهم، صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف، ولما مكنهم السلطان من هذا الظهير أخذوا منه نسخاً وفرقوها في جميع يهود المغرب وظهر منهم تطاول وطيش وأرادوا أن يختصوا في الأحكام فيما بينهم لا سيما يهود المراسي فإنهم تحالفوا وتعاهدوا على ذلك ثم أبطل الله كيدهم وخيب سعيهم على أن السلطان رحمه الله لما أحس بطيش اليهود عقب ذلك الظهير بكتاب آخر بين فيه المراد وأن ذلك الإيصاء إنما هو في حق أهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم، وأما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لا يعني فيعاملون بما يستحقونه من الأدب.

واعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنين هي من وضع الزنادقة قطعاً لأنها تستلزم إسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الإنسانية رأساً، أما إسقاطها لحقوق الله فإن الله تعالى أوجب على تارك الصلاة والصوم وعلى شارب الخمر وعلى الزاني طائعاً حدوداً معلومة والحرية تقتضي إسقاط ذلك كما لا يخفى، وأما إسقاطها لحقوق الوالدين فلأنهم خذلهم الله يقولون: إن الولد الحدث إذا وصل إلى حد البلوغ والبنت البكر إذا بلغت سن العشرين مثلاً يفعلان بأنفسهما ما شاءا ولا كلام للوالدين فضلاً عن الأقارب فضلاً عن الحاكم ونحن نعلم أن الأب يسخطه ما يرى من ولده أو بنته من الأمور التي تهتك المروءة وتزري بالعرض سيما إذا كان من ذوي البيوتات، فارتكاب ذلك على عينه مع منعه من الكلام فيه موجب للعقوق ومسقط لحقه من البرور، وأما إسقاطها لحقوق الإنسانية فإن الله تعالى لما خلق الإنسان كرمه وشرفه بالعقل الذي يعقله عن الوقوع في الرذائل ويبعثه على الاتصاف بالفضائل وبذلك تميز عما عداه من الحيوان، وضابط الحرية عندهم لا يوجب مراعاة هذه الأمور بل يبيح للإنسان أن يتعاطى ما ينفر عنه الطبع وتأباه الغريزة الإنسانية من التظاهر بالفحش والزنى وغير ذلك إن شاء لأنه مالك أمر نفسه فلا يلزم أن يتقيد بقيد ولا فرق بينه وبين البهيمة

المرسلة إلا في شيء واحد هو إعطاء الحق لإنسان آخر مثله فلا يجوز له أن يظلمه، وما عدا ذلك فلا سبيل لأحد على إلزامه إياه، وهذا واضح البطلان لأن الله تعالى حكيم وما ميز الإنسان بالعقل إلا ليحمله هذه التكاليف الشرعية من معرفة خالقه وبارئه والخضوع له لتكون له بها المنزلة عند الله في العقبى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72] الآية.

واعلم أن الحرية الشرعية هي التي ذكرها الله في كتابه وبينها رسول الله ﷺ لأمته وحررها الفقهاء رضي الله عنهم في باب الحجر من كتبهم فراجع ذلك وتفهمه ترشد وبالله التوفيق.

وفي سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف كمل بناء الدار الفيحاء التي أنشأها السلطان سيدي محمد رحمه الله بآجدال من ظاهر رباط الفتح بجوار ضريح جده سيدي محمد بن عبد اللّه وهي دار كبيرة حسنة البناء واسعة المقاعد والفناء يقال إنها من أخوات بديع المنصور، ولما كمل بناؤها أمر السلطان رحمه الله أن يختم فيها فقهاء رباط الفتح صحيح البخاري أولاً وفقهاء سلا ثانياً فدخلناها في جملتهم وتقصينا منازلها ومقاعدها فرأينا ما ملأ أبصارنا حسناً وإتقاناً وعجيب صنعة.

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف حدثت فتنة بفاس وذلك أن الناس كانوا في صلاة الجمعة بمسجد القرويين خامس ربيع الأول وكان فيهم التاجر الأمجد أبو عبد اللّه حبيب بن هاشم بن جلون الفاسي فلما سجد مع الناس شدخ بعض اللصوص رأسه بحجر كبير من أحجار التيمم التي تكون بالمسجد ثم انحنى عليه بخنجر كان بيده فقطع به صفاق بطنه وساوره التاجر المذكور وما بالعير من قماص، ولما وقعت الضجة قطع الناس صلاتهم وخرجوا فارين من المسجد وتركوا ثيابهم ونعالهم ومصاحفهم وغير ذلك فقائل يقول: إن الإمام المهدي قد خرج، وآخر يقول: إن الناس يذبح بعضهم بعضاً في الجامع، واهتزت المدينة ثم تراجع الناس بعد حين، وأما اللص فإنه خرج شاهراً سلاحه حتى وصل إلى باب المسجد فكثره الناس وقبضوا عليه وانتزعوا السلاح من يده وكشفوه فإذا به قد أدار حبالاً كثيرةً من تحت الثياب

على بدنه وقاية له فقتلوه هنالك وبقي التاجر ابن جلون يعالج جراحاته إلى أن مات من آخر الليل واتهم أولياؤه ناساً من أعيان فاس بأنهم أغروا بقتله ولم يثبت ذلك.

وفي هذه السنة أعني سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف وجه السلطان رحمه الله قائد جيشه أبا عبد اللّه محمد بن عبد الكريم الشرقي وعامل سلا أبا عبد اللّه محمد بن سعيد السلاوي باشدورين إلى دولة فرنسا بباريس، وكان السبب في ذلك ما أخبرني به القائد أبو عبد اللّه بن سعيد المذكور قال: كان سيدنا أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله قد أصحبنا كتاباً إلى طاغية الفرنسيس وأمرنا بالكلام معه في شأن هؤلاء النواب الذين يبعثهم إلى المغرب وأن يكون ينتخبهم من بيوت الأعيان وممن يتصف بالتأني وحسن السيرة والوقوف عند ما حد لهم، ولما وصلنا إلى باريس شرحنا ذلك للطاغية المذكور كتابة ففرح وقابلنا بمالاً مزيد عليه من البرور الذي لا نقدر على شرحه مع أن إكرامنا والحمد لله لهم يفوق ذلك في الصوائر وكنا توجهنا ومعنا خيول وغيرها وأقمنا بباريس شهراً وكان مقامنا بدار كثيرة الفرش والأثاث من الفضة والمعدن ووكل بنا أمين يصير علينا حسب نظرنا وقومة يباشرون فرش المنزل وتنظيفه وغير ذلك ومعنا أصحابنا وطباخنا إلا أنهم منعزلون بمحل يخصهم، وفي كل يوم تستدعينا الدولة للفرجة بمحل يسمى التياترو فيه مواعظ وحكم لمن تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر، وقد أكرمنا الطاغية بمنزله وأكرمنا الوزراء وعامل البلد والأعيان ليلاً وكل واحد يجمع علينا أعيان الدولة وأهل البلد نساء ورجالاً، وعادتهم عند دخولك المنزل أن تحيي الزوجة ومن معها بالسلام أولاً ثم بعد ذلك تحيي الرجل، ورأينا من الطاغية ووزيره على الأمور البرانية من البرور والبشاشة ما جاوز الحد وطلب منا هذا الطاغية أن نبحث له في كتب التاريخ بالمغرب هل نعثر على تاريخ بناء رومة وفي أي وقت بنيت واسم بانيها ونبعث به إليه اهـ كلام العامل المذكور وهو حفظه الله من أمثل الناس

وأعدلهم وأتقاهم وله المنزلة الكبيرة عند السلطان وعند الناس حرس الله مجادته، وأدام بمنّه عافيته وسلامته.

ونص الكتاب الذي وجههم به السلطان رحمه الله مكتوباً فيه اسم السلطان بداخل الطابع الشريف: بسم الله الرحمٰن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم من عبد اللّه المتوكل على الله المفوض أمره إلى الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بالمغرب الأقصى وهو محمد بن عبد الرحمٰن وفقه الله أدام الله نصره وزين بالخيرات عصره، إلى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسناها، وحاز من خصال التقدم أقصاها وأدناها، فأصبحت ألسن الرؤساء لهجة بذكره مفصحة بتسليم نتائج فكره، ملك الممالك الفرنساوية السلطان نابليون الثالث بونابارتي، أما بعد فموجب تحرير هذا المسطور إليكم إعلامكم بما تضمنه الفؤاد من خالص المحبة وحفظ الوداد، وإننا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها فإن محبتنا معكم الشخصية زادت على ما كانت عليه في عهد الأسلاف، وذلك لما جبلتم عليه من صفاء الطوية وحسن الائتلاف فإن القلوب في الوداد تتضاهى، وما بني على أصل وثيق كان جديراً بأن يعظم ويتناهى، وبموجب ذلك عينا للسفارة إليكم خالنا الأرضى الأنجد القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي وهو أحد باشات جيشنا ومن كبراء رجال دولتنا مع ما تشرف به من قرابة الرحم لدينا، ومعه خديمنا الأرضى الأمين الحاج محمد بن سعيد قائد سلا وهو عندنا أيضاً بالمكان المكين لما تخلق به من الأدب والعقل الرصين والغرض من توجيههما تجديد العهد بكم والحرص على موالاة المواصلة معكم لما في ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الإيالتين، والظن بشيمتكم مقابلتهم بحسن القبول وتبليغهم في وجهتهم غاية المأمول جرياً على عادتكم القديمة، وسلوكاً على طريقتكم القويمة، وقد حملناهم ما في خاطرنا من أمور السياسة الجالبة لمصالح الجانبين ما يقررونه لديكم ويعرضونه عليكم، ففي أخبارهم كفاية وأوصيناهم بحسن الاستماع لما تلقونه

إليهم والأدب في تلقي ما تعرضونه عليهم كما أننا نتحقق أنكم لحسن معاملتكم ومزيد محبتكم توصون نوابكم الذين توجهونهم للخدمة بإيالتنا السعيدة بحسن المعاملة والتقصي في ترحيب الصدر والمجاملة، والوقوف عند الشروط والعمل بمقتضاها والتمام في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف اهـ.

واعلم أن هذا الكتاب بديع في بابه غريب في منواله قد اشتمل من التوريات والنكات ومقتضيات الأحوال على ما يشهد لمنشئه بالمعرفة والمهارة والبصيرة والبصارة رحمه الله، وفي شوال من هذه السنة مرض السلطان رحمه الله مرضاً شديداً أشرف منه على الهلاك بل أشاع المرجفون أنه قد هلك واضطربت أحوال الرعية وعاد أعراب البادية إلى العيث في الطرقات واستلاب الناس بها من المارة وغيرهم وحاصر عرب عامر مدينة سلا وعاثوا في جناتها ومنعوا الداخل إليها والخارج منها وغلقت الأبواب واستمر ذلك إلى عيد الأضحى، ثم ورد الخبر اليقين بإبلال السلطان وإفاقته من علته وكانت علته الداء المعروف بالخوانق بلغ به إلى حد اليأس والإشراف ثم تدارك الله المسلمين بلطفه ومنّ على إمامهم بعافيته فأعملت المفرحات والولائم في جميع الأمصار.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس ما ملخصه: لما أفاق السلطان رحمه الله من علته هذه كتب حجاب الحضرة ووزراؤها لابنه الخليفة المنتصر بالله أبي علي المولى حسن بن محمد يهنئونه بعافية السلطان فأمر هذا الخليفة أعزه الله بإخراج المدافع والأنفاض حتى اهتزت الجبال، ثم دعا أيده الله الناس الدعوة الحفلا فلم يتخلف ممن كان بمراكش أحد من العقلاء فأمر أيده الله بتهيئة جنان رضوان ففتحت أبوابه وفرشت قصوره وقبابه وفجرت أنهاره حتى تفتقت أزهاره، وحضر وجوه الدولة وأعيانها ورؤساء القبائل وأقيالها، وكان ذلك بأثر عيد الأضحى قبل انفصال وفود العيد عن الحضرة، ثم اندفع عليهم من الدار المولوية من سيول موائد الطعام الفاخر ما عم الأول منهم والآخر هذا للعامة المطلقة والأوزاع الملفقة، وأما الخواص والوجوه

فلهم الحظ الأوفر من العناية، والخطاب بصريح الترحيب دون كناية بالقعود على الفرش الحريرية المذهبة، والمقاعد العالية المطنبة، والرش بمياه الأزهار ومباخر الطيب وكل معنى لطيف ومنظر عجيب، وقد أحضر كل واحد ما شاء من آلات اللّهو والفرح على حسب ما اشتهى واقترح، فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني إلا أصوات المثالث والمثاني وضروب الألحان والأغاني، واستمر الناس في ذلك ثلاثة أيام والمولى الخليفة أعزه الله مع إخوته وبني عمه في القبة المحمدية الصويرية المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها ومطاردها ومتاعبها، وكل عشية يركب من بالحضرة من الوجوه والأكابر على عتاق الخيل والجياد الضوامر ويبدي ما عنده من الثقافة والفروسية مع إظهار الشارة المخزنية والأبهة الملوكية ثم بعد هذا شرع كبار الدولة ووجوهها ورؤساؤها وقوادها في انتخاب الصنائع والولائم كل على حسب ما أداه إليه اختياره واعتناؤه، ثم تتابع الناس في نزهاتهم وإظهار أبهاتهم وانتخاب دواعي الأفراح، ومقتضيات الازدهاء والانشراح فما يمر أحد ببستان إلا ويجد به جماعة زاهية وطائفة منبسطة لاهية اهـ.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف كان بالمغرب جراد سد الأفق وذلك في ربيع الأول الموافق لشهر مارس العجمي فأكل النجم والشجر ثم عقبه فرخه المعروف بآمرد فأكل كل خضراء على وجه الأرض واستلب الأعواد من أوراقها وقشرها من لحائها وفاض في الأمصار حتى دخل على الناس في بيوتهم.

وفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف كان الغلاء المفرط بالمغرب الذي لم يتقدم مثله بلغ فيه الربيع وهو ربع ثمن المد بسلا ورباط الفتح ستين أوقية وباع الناس أثاثهم وحليهم بالبخس وكان الأمر شديداً على الضعفاء وفي ذي القعدة من هذه السنة توفي القائد الأجل أبو محمد عبد اللّه بن عبد الملك بن بيهي الحاحي وكان من كبار قواد المغرب وأهل البذل والإيثار والمعروف له في ذلك أخبار مذكورة رحمه الله.

وفي سنة خمس وثمانين ومائتين وألف كان الوباء بالمغرب بالقيء والإسهال المفرطين على نحو ما وصفناه في السنين الماضية. وفي زوال يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي قاضي سلا الفقيه العلامة الورع أبو عبد اللّه محمد العربي بن أحمد بن منصور ودفن بالجبانة المتصلة بضريح الشيخ أبي العباس بن عاشر رضي الله عنه، وكانت لهذا القاضي سيرة حسنة وعدل في الأحكام وتأن فيها مع سمت ومروءة وانقباض رحمه الله، وبقيت سلا بلا قاض أربعين يوماً حتى وقع اختيار السلطان على شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبي بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد رحم الله الجميع.

وفي هذه السنة أمر السلطان رحمه الله بضرب الدرهم الشرعي وحاول ضبط السكة به وحمل الناس على أن لا يذكروا في معاملاتهم وأنكحتهم وسائر عقودهم إلا الدرهم الشرعي وشدد في ذلك وكتب فيه إلى ولاة الأمصار يقول في كتابه ما نصه: وبعد فإن أمر السكة من الأمور الواجبة المتعين رد البال إليها والاهتمام بشأنها والنظر فيما يصدر بسببها من النفع والضرر للمسلمين وبيت مالهم، وقد كان أسلافنا رحمهم الله اعتنوا كثيراً بشأنها وبضبط مصالحها ودفع مفاسدها وجعلوها على قدر شرعي معلوم لضبط أمرها والتبرك بتلك النسبة إذ بذلك يعلم المسلم علم يقين كمال النصاب عنده فتجب عليه فيه الزكاة التي هي من دعائم الإسلام أو عدم كماله فلا يكون مخاطباً في بشيء، ولما رأينا ما حدث فيها من التغير وعدم الضبط ونشأ عن ذلك من الضرر للمسلمين وبيت مالهم ما لم يخف على أحد اقتضى نظرنا السديد ردها لأصلها الأصيل الذي أسسه أسلافنا الكرام سنة ثمانين ومائة وألف أذلنا فيهم أسوة حسنة في الإجمال والتفصيل، فرددنا الدرهم الكبير المسلوك على وزن الدرهم الشرعي والمنهاج المرعي كما كان على عهد جدنا سيدي الكبير قدسه الله وجدد عليه وابل رحماه بحيث تكون عشرة دراهم منه هي المثقال كما هو معلوم، إن عشرة دراهم من الدراهم التي كانت تروج قبل على عهد أسلافنا رحمهم الله هي المثقال وبهذا العدد

الذي هو عشرة منه في المثقال تكون جميع المعاملات والمخالطات في البيع والابتياع وغيرهما بين جميع رعيتنا السعيدة في كل البوادي والحواضر وبه أمرنا جميع العمال، ومن هو مكلف بعمل من الأعمال، وإشاعته ليبلغ الشاهد الغائب وبه يقبل لجانب المال وأمرناهم بالعمل بهذا الأمر الذي أصدرناه وأبرمناه بحول الله وأمضيناه، وأن يعاقبوا كل من عثروا عليه ارتكب خلاف ذلك، وبأن يسلكوا به أضيق المسالك جزاء وفاقاً على مخالفته وتعديه الحد وافتياته، نعم ما سلف من المعاملات بجميع أنواعها فيما تقدم قبل تاريخ هذا الكتاب فحكمه حكم ما تقدم في السكة فلا يكلف أحد بزيادة، ومن كان بذمته شيء فيما سلف يؤديه بحساب ما كانت تروج به السكة في الريال والدرهم والعمل بهذا الذي أمرنا به هو من الآن لما يستقبل إن شاء الله، وبهذا يزول الإشكال فيما تقدم بين الناس في المعاملات، ونسأل الله أن يخلص العمل في سبيله ومرضاته ويجازي من فضله وكرمه على قصده وصلاح نياته والسلام، في ثامن شوال عام خمسة وثمانين ومائتين وألف اهـ.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من شوال المذكور توفي البركة الخير المنتسب سيدي الحاج محمد بن العربي الدلائي الرباطي بالدار البيضاء ودفن يوم الجمعة بالزاوية المنسوبة إليه بها رحمه الله ونفعنا به، وفي هذه السنة كان سوق دار البلار بباريس من أرض افرانسا وذلك أن الطاغية نابليون الثالث لما بلغ من ضخامة الدولة ونفوذ الكلمة ما قل اتفاقه لغيره من الأجناس حاول أن يتجاوز ذلك إلى أن يجلب إلى رعيته ودار ملكه كل أمر غريب في العالم حتى يجتمع عنده ما افترق عند غيره فكتب إلى ملوك الآفاق يقول: إنه قد عزم على إقامة سوق بباريس في وقت معلوم وطلب منهم أن يبعثوا بتجارهم لحضورها وجلب سلعهم وغرائبهم إليها وقصده بذلك عموم النفع وتعدي الصنائع والحرف من أمة إلى أخرى، فأجاب الملوك داعيه بمقتضى العرف الجاري بين الدول، والعادة المقررة من عهد الملوك الأول، ولم يبق إلا من بعث تجاره ونفائسه وغرائبه من الجليل إلى الحقير، وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله قد بعث تاجره الحاج محمد بن العربي القباج الفاسي

المعروف بالفرنساوي وهذا الرجل من العارفين باللسان الفرنجي البصيرين بعوائد ذلك الجيل ولذا لقب بالفرنساوي وبعث معه السلطان رحمه الله كل شيء غريب مما اختص به قطر المغرب من سروج مذهبة، ومناطق مزخرفة، وقطائف منمقة، وغير ذلك من الأعلى إلى الأدنى حتى الزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه في محاله وحضر هذا السوق الملوك فمن دونهم من كل إقليم حتى السلطان عبد العزيز العثماني رحمه الله، فكان الحال كما قال أبو الطيب المتنبي:

تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما تفهم الحداث إلا التراجم

وأقامت عمارتها ثلاثة أشهر ثم انفض الناس إلى بلادهم، ولما بلغ نابليون الثالث إلى هذه الغاية فجئته وقعة البروس التي كسرت من شوكته وفلت من غربه وقبض عليه باليد وحوصرت دار ملكه باريس مدة طويلة فبلغ فيها لحم الحمار أربعة ريالات افرنك لكل رطل على ما قيل، ولم تغب عنهم محنة ووقع الصلح على شروط منها ألف مليون من الريال تدفعها دولة افرانسا لدول البروس.

وفي سنة ست وثمانين ومائتين وألف وذلك عشية يوم الخميس الرابع عشر من شعبان منها توفي الوزير أبو عبد الله محمد الطيب بن اليماني المدعو بأبي عشرين وكان سبب وفاته أنه كان به داء الحصر فدخل الميضأة التي بمشور أبي الخصيصات من دار السلطان بحضرة مراكش فيقال: إن مثانته تمزقت فمات رحمه الله وحمل إلى داره وصلى عليه بعد الجمعة بمسجد المواسين وحضر جنازته الجم الغفير ودفن بضريح الشيخ أبي محمد الغزواني من حومة القصور، وكان رحمه الله ذا جد في الأمور ونصح للسلطان وللمسلمين.

وفي سنة سبع وثمانين ومائتين وألف وذلك ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الثاني منها خسف القمر خسوفاً كلياً بعد الغروب إلى نصف الليل، وفي فجر يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي الولي الصالح الناسك السني أبو عبد الله محمد الطيب ابن الشيخ الأشهر مولاي

العربي الدرقاوي ودفن بمحل زاويته بآمجوط من بلاد بني زروال، وكان من خيار عباد الله على غاية من التقوى والورع والتواضع مع الناس، يركب الحمار ويلبس الجبة ولا يتميز عن أصحابه بشيء مع السكينة والوقار وعدم الخوض فيما لا يعني والإعراض عن زهرة الدنيا وأهلها رحمه الله ونفعنا به، وفي التاسع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة انكسفت الشمس وكان ابتداء الكسوف على ما أعطاه التعديل بعد الزوال بنحو نصف ساعة، وكاد يكون كلياً حتى أظلم الجو وبقي من الشمس حلقة نورانية يسيرة ولم يمكن تحقيق وقت التجلي لتراكم السحاب، وفي هذه الأيام ظهرت حمرة في السماء غريبة أرجوانية مع غاية الصحو وكان ظهورها يكون فيما بين العشاءين معظمها في جهة الشمال ودامت كذلك نحو سبعة أيام وانقطعت وفي ليلة السبت الثامن من شوال من السنة وذلك في الساعة الثالثة منها زلزلت الأرض ولم يشعر بها كثير من الناس لكونهم نياماً.

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين وألف غزا السلطان سيدي محمد رحمه الله قبائل تادلا فمر على السماعلة منتصف رجب، ثم منهم لبني زمور، ثم لأبي الجعد، ثم منه توجه لقصبة تادلا وعبر القنطرة ونزل على بني عمير، ثم زحف لبني موسى فأوقع بهم لأنهم كانوا خارجين على عاملهم الغزواني ابن زيدوح فقطع منهم خمسين رأساً وقبض على أربعين مسجوناً، وفي أثناء ذلك قدم عليه وفد أهل مراكش وكانوا قد ثاروا على عاملهم أحمد بن داود لكونه كان يسير فيهم سيرة غير حميدة فقدموا على السلطان متنصلين مما فرط منهم فأعرض السلطان عنهم ولم يسمع منهم كلاماً ولا قبل لهم عذراً فرجعوا مخفقين، ثم تقدم السلطان رحمه الله إلى مراكش وهو غضبان على أهلها وكانوا مظلومين فيما قيل إلا أنه لبس على السلطان في أمرهم فلما شارف المدينة خرجوا إليه بالعلماء والقراء وصبيان المكاتب متشفعين فلم يقف لهم ولا التفت إليهم، وكان ابنه وخليفته المولى الحسن حاضراً يومئذ فتقدم إلى أهل مراكش ورق لهم وقال لهم قولاً جميلاً، وكان هذا الحادث في رمضان

من السنة المذكورة ثم لم يلبث ابن داود بعد ذلك إلا مدة يسيرة حتى توفي وتخلصت قائبة من قوب، وعفو الله بعد ذلك مرقوب.

وفي سنة تسعين ومائتين وألف كانت جائحة النار بكثير من بلاد المغرب أحرقت الزروع والثمار وأجيحت الجنات وتراجع الناس في أثمان ما بيع منها بعد إثبات الموجبات، وكانت أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله في أولها شديدة بسبب ظهور العدو على المسلمين وما عقبه من الغلاء والموت، ثم بعد ذلك اتسع الحال وحصل الأمن وانخضدت شوكة قبائل العرب بالمغرب وأمنت الطرقات من عيثهم وازدهت الدنيا ورخصت الأسعار رخصاً يسيراً وكان الناس ممعشين في أيامه وغلت الدور والأملاك حتى كانت في بعض السنين لا تسمسر ومن يشتري داراً إنما يشتريها بالتنقير عنها والطلب من ربها بالثمن الجافي، واتخذ الناس ذوو اليسار المراكب الفارهة والكسي الرفيعة والذخائر النفيسة، وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لا سيما بفاس ورباط الفتح، ولاحت على الناس سمة الحضارة الأعجمية، وكان للسلطان سيدي محمد رحمه الله في كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة فمن دونهم، فكانت الرعية كأنها في كف يده، وكان يختار أولئك العيون من العوام فكانوا يكتبون له بالغث والسمين فيسمع ذلك كله فينتقي منه الصحيح ويطرح السقيم فاستقامت أحوال الرعية بذلك.

وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله في زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش في البستان المسمى بالنيل ولم يمرض إلا يوماً أو بعض يوم قيل إنه شرب دواء مسهلاً فكان فيه أجله والله أعلم، ودفن ليلاً بضريح جده المولى علي الشريف قرب ضريح القاضي عياض، وكتب على رخامة قبره أبيات ليست من جيد الشعر وهي:

أمستعبراً حولي رويدك إنني ضريح سعيد حل فيه سعيد

هو العلوي الهاشمي محمد إمام له في الملك سعي حميد

أبوه أبو زيد وقدس ذكره فقد كان يبدي في العلى ويعيد

ترحم عليه واعتبر بمصابه فعقد نفيس قد أصيب فريد

ومن رام تاريخ الوفاة فقل له بشعرك أرخ ما عليه مزيد

بقية أخبار السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله ومآثره وسيرته

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله متقياً لله تعالى بانياً أمره على الشرع لا يشذ عنه طرفة عين حتى أنه لما عزم على بناء داره التي برباط الفتح قام جماعة من أهل البلد يطلبون منه النصفة في جناتهم التي هنالك فأذعن رحمه الله لإعمال الشرع معهم واستناب وكيلاً عنه واستنابوا هم وكيلهم أيضاً وتحاكموا لدى قاضي سلا الفقيه أبي عبد اللّه محمد العربي بن أحمد بن منصور، ثم انفصلت القضية عن ضرب من الصلح بأن أعطاهم أثمان جناتهم أو بعضها وذهبوا بسلام، وكان رحمه الله حازماً في أمره عالي الهمة رامياً بها الغرض الأقصى إلا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همته أجل من دهره وكان ذا سياسة وسكينة وتأن في الأمور وتبصر بالعواقب كثير الحياء بعيد الغضب سريع الرضى مشفقاً على الرعية متوقفاً في الدماء لا يزايل خوف الله قلبه رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه، وله آثار بالمغرب منها ما خلده أيام خلافته في حياة والده ومنها ما فعله بعد ولايته.

فمن آثاره في أيام أبيه كما قال أكنسوس: إجراء الأنهار وتفجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها، وتكملة غرس آجدال بحضرة مراكش وكان في زمان الصيف يناله الجدب من قلة الماء لأن بركه التي كان يختزن بها الماء كانت قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطين الذي

تجلبه السيول إليها وأعظمها البركة الكبرى التي بدار الهناء، وكان يقال لها: البحر الأصغر، وطولها اثنتا عشرة مائة قدم، وعرضها تسعمائة قدم حسبما أخبر من قاسها، وكان تربيعها بمنزلة سور قصبة فجاء من بني في وسطها قرية بدورها وأزقتها وأسواقها، فجاء السلطان سيدي محمد رحمه الله أيام خلافته فأمر بإخراج ما في تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة فاجتمع على ذلك عالم من الناس فكنسوها وعادت إلى حالها الذي بنيت لأجله وهو اختزان الماء لوقت المصيف وبذلك كمل المراد من آجدال وصار آمناً من العطش والأمحال، ومن ذلك أيضاً إحياء عين أبي عكاز خارج باب الطبول من مراكش وكانت لها بركة بائدة على الوصف الذي ذكرنا فعمد إليها سيدي محمد رحمه الله وفجر لها عيناً ثرة وماء غدقاً وأجراه إلى البركة المذكورة بعد أن أمر بتنقيتها وإصلاحها فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاعة تغني الزارعين وتبهج الناظرين، وبنى رحمه الله حولها قلعة يأوي إليها الأكرة والحراثون بأنعامهم ومواشيهم، واتخذ هنالك من إناث الخيل المعدة للنتاج عدداً كثيراً، ومن ذلك إحياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الأصغر بدار الهناء وكانت قد عطلت منذ زمان فقيض الله لها هذا السلطان فجمع الأيدي عليها حتى أخرج ما في جوفها من جبال الطين وأصلح ما تشعث من حيطانها وأجرى إليها العيون والأنهار وأمر بغرس ما حولها من الفضاء بأنواع الأشجار وضاهى بها جنة آجدال، ومن ذلك أيضاً إجراء النهر المسمى بتاركي المستمد من وادي نفيس فإنه ضاهى به النهر القديم الذي هناك وهذا النهر الجديد أنفع منه وأوسع أحيى الله به تلك البسائط التي بين مراكش ووادي نفيس، ومن ذلك أيضاً إجراء النهر الذي جلبه من تاستاوت إلى البسيط الذي بين بلاد زمران والرحامنة والسراغنة وهو المسمى بفيطوط فصار ذلك كله رياضاً مخضرة، وبساتين

ذات أزهار مفترة، وبنى رحمه الله فيها قصبة عامرة يأوي إليها الوكلاء والفلاحون وصارت آهلة عامرة بعد أن كانت بائدة غامرة.

ومن آثاره بعد ولايته أمر المؤمنين داره الكبرى بآجدال رباط الفتح والسور الكبير المحيط ببسيطها، وجلب الماء إليها بعد أن صير عليها أموالاً كثيرة، وأحيى جامع السنة قربها وكان بائداً يعشش فيه الصدى والبوم وأقام فيه الصلوات الخمس والخطبة كل جمعة، وأحيا المسجد الصغير هنالك المسمى بمسجد أهل فاس واعتنى به وزخرف سقوفه وانتهج الطريق من الدار المذكورة إلى الوادي أسفل من حسان تسهيلاً على المارة وتقريباً عليهم، ومنها أنه نقل طائفة من الجيش السوسي الذي بالمنشية وأوطنها حول الدار المذكورة بآجدال فاستطابوا المقام هناك وحسنت حالهم وانعمرت بهم تلك الناحية وهم الآن بهذا الحال، ومنها بالدار البيضاء المسجد الجامع بالسوق وكان الصائر عليه من أحباس المسجد القديم وإنما السلطان رحمه الله أذن في بنائه بإشارة عاملها يومئذ أبي عبد اللّه محمد بن إدريس الجراري، ومنها الحمام القديم الذي بها وكان الصائر عليه من بيت المال، وأصلح رحمه الله أسوار الجديدة وأبراجها واعتنى بشأن الثغور وبعث من نوابه من يتفقد أحوالها، ومنها بمراكش دار (فابريكة) السكر بآجدال منها صير عليها أموالاً طائلة وجاءت على عمل متقن وهيئة ضخمة إلا أنها اليوم معطلة لقلة المادة، ومنها دار (فابريكة) تزديج البارود بالمحل المعروف بالسجينة من مراكش أيضاً، ومن ذلك برج الفنار الذي على ساحل البحر بأشقار قرب طنجة يسرج فيه ضوء كثير يظهر للسيارة في البحر ليلاً من مسافة بعيدة وصير عليه مالاً له بال وكانت المراكب تنشب بذلك الساحل كثيراً إذ لم يكن لها علامة تهتدي بها في البحر، ولما اتخذ السلطان رحمه الله هذا الفنار أمنت من تلك الآفة، وله رحمه الله آثار كثيرة يطول ذكرها جعلها الله في ميزان حسناته ورفع بها في عليين درجاته.

الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن بن محمد بن عبد الرحمٰن خلد الله ملكه

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله اجتمع أهل الحل والعقد من كبار الدولة وقواد الجيش والقضاة والعلماء والأشراف وأعيان مراكش وأحوازها على بيعة نجله أمير المؤمنين المولى أبي علي حسن بن محمد لما توفر فيه من شروط الإمامة، وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة، ولما اتصف به من الفضل والدين وسائر خصال الخير وأسباب اليقين، ولأن والده رحمه الله كان استخلفه في حياته وألقى عليه بجميع مهماته، فنهض بأعبائها وتقلب من مغاني السعادة في ظلالها وأفيائها.

قال أبو عبد اللّه أكنسوس: لما استخلف المولى الحسن حفظه الله لم تشغله شؤون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار، ولا في قصوره السلطانية من الحدائق والأزهار، عن وظائف الدين وأسباب اليقين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة، كما حدثني بذلك بعض بطائنه وأنه يجد لها في خلواته لذة وحلاوة، فلما توفي السلطان كما قلنا كان المولى حسن أيده الله غائباً عن الحضرة بأبي ريقي من بلاد حاجة فكتب إليه رؤساء الدولة بما حدث من موت السلطان واجتماع الناس على بيعته فقدم مراكش في السابع والعشرين من رجب سنة تسعين ومائتين وألف، ولما دنا منها خرج للقائه الوزراء والقضاة والأشراف والأعيان وسائر أهل مراكش برجالهم ونسائهم وصبيانهم فملؤوا تلك البطاح وضاقت بهم الأرض وأخذوا يعزونه ويهنؤنه وهو أيده الله يقف لكل جماعة منهم عل حدتها حتى النساء والصبيان إشفاقاً عليهم وتطييباً لنفوسهم، وكان يوم دخوله لحضرة مراكش يوماً مشهوداً وموسماً من مواسم الخيرات معدوداً، ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الأمصار ونسلوا إليه من سائر النواحي والأقطار، وكل وفد يأتي ببيعته وهديته، واغتبط الناس بولايته وتيمنوا بطلعته، فقابل أيده الله كلاً

بما يستحقه من الإكرام وأفاض على الرعية جلائل الإنعام، وشرع في تجهيز الجيوش وفتح بيوت الأموال فغمر الناس بالعطاء وكسا وأركب، ونهض من مراكش يوم الاثنين رابع رمضان من السنة المذكورة قاصداً حضرة فاس والوقوف على الرعاية والنظر فيها بما يصلحها فمر على بلاد السراغنة وخرج منها إلى البروج ومنها إلى كيسر من بلاد تامسنا فاتصل به هنالك خبر فتنة أهل فاس وإيقاعهم بالأمين الحاج محمد بن المدني بنيس، وكان السبب في ذلك على ما قيل أنه لما وصل خبر وفاة السلطان إلى فاس وأن الناس اجتمعوا على بيعة أمير المؤمنين المولى حسن أعزه الله واجتمع أهل فاس لعقد البيعة أيضاً اشترط عامتهم لا سيما الدباغون أن يزال عنهم المكس فيقال إن بعض من أراد جمع الكلمة من العلماء والأعيان تكفل لهم بذلك عن السلطان، ولما تمت البيعة أصبح الأمين بنيس غادياً على عمله من ترتيب وكلائه لقبض الوظيف في الأسواق والأبواب وغيرها فكلمه بعض أعيان فاس في التأخر عن هذا الأمر قليلاً حتى تطمئن النفوس ويثبت الحق في نصابه، وحينئذ يؤتى الأمر من بابه فأبى وأصر على ما هو بصدده فثار به العامة وهدموا داره وانتهبوا أثاثه واستصفوا موجوده وأرادوا قتله فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس رضي الله عنه فأقام به وأمن على نفسه، وكانت فتنة عظيمة يطول شرحها واتصل بالسلطان وهو بكيسر أيضاً خبر فتنة أهل آزمور وقتلهم لنائب عاملهم وكان عاملهم يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة المراكشي ونائبه هو أحمد بن المؤذن الفرجي من سكان آزمور، وكان قتلهم له تاسع عشر رمضان من السنة، ثم أن أهل فاس كتبوا إلى السلطان أعزه الله وهو ببلاد تامسنا رسالة بليغة يتنصلون فيها من فعلة بنيس ويرمون بها العامة والغوغاء ومن لا خلاق لهم (ونصها):

الحمد لله وحده الكريم الذي لا يعجل بعقوبة من ارتكب الذنب وتعمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الشفاعة الكبرى والجاه العظيم، المخاطب بقول مولانا في كتابه الحكيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم:4] وعلى آله الذين أوجب الله لهم مودة وحباً وأنزل فيهم ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشروى:23] وأصحابه الذين كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم فكانت الملائكة يوم حنين نصرهم وعونهم، هذا، ونخص المقام الذي علا قدره، واستنار ضوءه وفجره، وجلله الفخار والوقار وعلاه البهاء وكساه، وألبسه الرسول من رداء الشرف يوم كان علي وفاطمة والحسنان في داخل كساه، من ارتقى وفاق وساد ومهد به للخلافة المهاد والوساد، وتزينت بمدائحه الطروس العاطلة، وخجلت لسماحته الغيوث الهاطلة، من ضربت المفاخر رواقها بناديه ولم تزل المعالي تدعوه لنفسها وتناديه، واتخذت بيعته جلباباً للأجياد والاعناق وأغضت مهابته الجفون والأحداق، عين أعيان الدولة الشريفة المولوية وصدر المملكة العلوية، الذين لم تزل سيرتهم في سجلات الآثار المحمودة مرسومة، ومآثرهم في الدواوين مرقومة، وألقى إليه هذا القطر المغربي الرسن وحل منه محل الوسن، السلطان المؤيد مولانا الحسن سلالة القوم الذين زكت نفوسهم وأينعت في حدائق المزايا غروسهم، ويسير المجد تحت ألويتهم وتتعطر المجالس بطيب أفنيتهم، لا زال السعد يراوحك ويغاديك، والعز نائماً بواديك، والطعن في عين حاسديك، والقذى في عين أعاديك، وجعلك الله من صروف الزمان في أمان، ولا قطع الله عن جماعة العلماء جميل عادتكم، ولا سلب المسلمين ملابس سعادتكم، ورفع في بروج السعادة أعلامك ومكن من رقاب الأعداء حسامك، وجعل الفتح أينما توجهت قبالتك وأمامك، وشريعة جدك مقلدك وأمامك، في نعمة طويلة الأعمار وروضة حلوة الثمار، أما بعد، أبعد الله عن ساحة سيدنا كل شر، وقرب منها المحسن والبر، وأبقاها ملجأ للمحتاج والمضطر، فإنه لما ورد علينا من حضرة سيدنا العظمى ومكانته الشما كتاب سنى معظم الصفات والأسما بديع المعاني رائق المباني، غمر ببلاغته البلغا ورقي ببراعته أعلى المنابر فمن تكلم دونه فقد لغا، بادرناه بالتقبيل وأحللناه محل التاج والإكليل، فقرئ على الجم الغفير وفرح بوروده الكبير والصغير، واطمأنت بنشره النفوس وارتفع به كل كدر وبوس، وتشوق الحاضرون

لسماع ما فيه، وأنصت لقراءته ذو المروءة والسفيه، والجامع غاص بأهله وكل حال بمحله، فلما قرىء الكتاب تبين أن صدره مدح وعجزه لوم وعتاب، فاشتمل على بسط وجمال وقبض وجلال، وجمع بين ترغيب وترهيب فارتاب منه كل مريب، فلما تم وختم وتقرر كل ما فيه وعلم، تفرقت الجماعات أفواجاً وارتجت المدينة ارتجاجاً، وحصل للناس بذلك الجزع وعمهم الخوف والفزع، والذي أوقع الناس في ذلك ما في الكتاب من الأمر بتدارك ما وقع ففهموا أن ذلك برد ما ضاع، وقد تفرق في الآفاق وما اجتمع، وذلك غير ممكن كما سيتبين والحق أوضح وأبين من أن يبين، على أن المقصود بذلك والمراد حسم مادة الفساد، لينقطع من جماعة السفهاء عداؤها، ولئلا تتقد نار الفتنة فيتعذر إطفاؤها، أما ما وقع في قضية الحاج محمد بنيس حتى أفضى به الحال إلى الاحترام بمولانا إدريس، وفعل بأمكنته الفعل الخسيس، وليمَ بسببه المرؤوس والرئيس، حتى توجهت الحجة على مسموع الكلمات، إذ هي متوجهة من جهات، فقد تندفع الحجة بشرح القضية على وجهها، وإيرادها على مقتضى كنهها من غير قلب للحقيقة، ولا خروج عن متن الطريقة، وفي كريم علم سيدنا أن للإنسان أعذاراً يرتفع عنه بها الملام ولا يعاتب معها ولا يلام، وذلك أن ما وقع من النهب وقع بغتة في يوم يستعظم شاهده وصفه ونعته، والمدينة وقتئذ عامرة بالبادية والحاضرة، ولا معرفة لنا بمن نهب ولا بمن أتى ولا بمن ذهب، أمر أبرزته القدرة لم يمكنا تلافيه ولم يفد فيه نهي سفيه، فلو صدر ذلك من آحاد معينين وأفراد مخصوصين لأمكن الانتصاف، وانتزع منهم ما أخذوه من غير اعتساف، لكن الأمر برز وصدر من قوم مختلطين من بدو وحضر، فيهم الأبيض والأسود والأحمر، وما منهم إلا من استأسد وتنمر، وليس في وجوههم من الحياء علامة ولا أثر، لا يقبلون موعظة إذ ليسوا من أهل الفكر، فلا يمكن دفعهم إلا بجيش عظيم وعسكر يصاح فيهم بالنهي وهم في طغيانهم يعمهون، ولا يلتفتون إلى من نهاهم بل لا يشعرون، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون، ثم لما كان اليوم العاشر من شهر تاريخه وقع

بالحرم الإدريسي ما وصلكم، ولا أظنه إلا فصل لكم، لكن عمتنا ألطاف الله ورحماته، وحفظ الضريح ورحباته ولم تنتهك حرماته، وحمته حماته ورماته فأبوابه قد فتحت، وزواره بمشاهدة أنواره قد منحت، ومما في الكتاب المذكور: أن السفيه إذا لم ينته فهو مأمور، ولعمرك أنه ليس منا علم بذلك ولا شعور، وكيف يأمر العاقل بالمحظور؟! أم كيف يرضى مسلم بهتك حرمة الإسلام وأهله وما يوجب افتراق الكلمة من قول أحد أو فعله؟! وقد جاء الوعيد بما يلزم من سكت وحضر، فكيف بمن باشر أو أمر، لكن باب التوبة والحمد لله مفتوح لمن يغدو عليه أو يروح، فنسأل الله أن يمنّ عليهم بالتوبة من ارتكاب هذه الحوبة، وقد كتبنا لسيدنا بهذا الكتاب والمدينة بحمد الله آمنة، والنفوس مطمئنة ساكنة، والأيدي على التعدي مكفوفة، والطرق مسلوكة غير مخوفة، وذلك بعد معاناة في إخماد نار الفتنة ونصب، وألطاف الله تتوارد وتصب، بعد أن كانت نار الفتنة توقدت وتأججت، وبلغت القلوب الحناجر وبالأكدار قد مزجت، وكل من له مروءة ودين وعد من المهتدين، بذل في صلاح المسلمين جهده وأبدى من الفعل الجميل ما عنده، ولقاضينا بارك الله فيه اليد الطولى فلم يقع منه تقصير في القضية الثانية ولا الأولى، هذا، وكما في علمكم أن الملك من ملك هواه ولم يغتر بهذا العرض الفاني وما أغواه، وقهر نفسه عند الغضب وابتكر ما يوصله إلى الله واقتضب، وأن الكريم إذا حاسب سامح وإذا قدر عفا، ولو أبدى المسيء إساءته وهفا، فليتفضل سيدنا بقبول شفاعة من يضع اسمه في هذا الكتاب من العلماء والأشراف، ومنهم بعدم صواب ما صدر من السفهاء إقرار واعتراف، ولا يستغرب صدور الخير من معدنه والفضل من موطنه، وتتحاشى أخلاقك الفاخرة وشيمك الطاهرة أن تكون شفاعتنا في هؤلاء العصاة مردودة، وجماعتنا عن ساحتكم مبعدة مطرودة، ولحسن الظن بكم تحمل لجانبكم الزعيم والكفيل على أن لا نرى منكم إلا الجميل فليمن سيدنا على هذه الحضرة الفاسية منا، ولا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، وكيف والحلم من داركم برز وخرج، وفي أوصافكم الحسان اندرج، فأحببنا أن تكون هذه

المنقبة في أوصافكم تذكر، وفي صحيفتكم تكتب وتسطر فقابلوا بالصفح والإغضا عما سلف ومضى، وكلنا من رعيتكم ومقتطفون من ثمار روضتكم، ومستمدون من مائدتكم، والظن الأقوى بكم أنكم تقبلون الشفاعة منا، وتمنون على المستضعفين من رعيتكم منا، وكأنا بكتابكم بضمن ذلك يتلى، وكلماته أشهر من العسل وأحلى، والله يتولى أمر الائتلاف بمتعود إحسانه، ويجمع قلوبنا على طاعته وموجبات رضوانه حتى نكون في ذات الله إخواناً، وعلى الدين أنصاراً وأعواناً، والقلوب بيد من له الأمر والاختيار وربك يخلق ما يشاء ويختار، وإذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للأبرار، وخير العمل عمل قرب إلى الجنة وأبعد من النار، فالواجب على كل مسلم أن يدع ما يزري بالإسلام ويهينه، ولا يلتفت لدواعي القطيعة فإنها تقوي الكفر وتعينه، أما علمنا أن من ورائنا عدواً يشتهي مواطىء أقدامنا، وتنكيس أعلامنا، تقضي أخوة الإسلام ومناصرته ومعاضدته ومواصلته أن لا يكون لجميعنا طموح إلا إليه، ولا تمالؤ إلا عليه، وفقنا الله لما فيه رضاه وجعل سعينا فيما يحبه ويرضاه آمين والسلام في منتصف رمضان المعظم عام تسعين ومائتين وألف اهـ.

ثم دخل السلطان المولى الحسن أعزه الله رباط الفتح صبيحة يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان المذكور، وكان العيد يوم السبت فأقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح وختم به صحيح الإمام البخاري على العادة، وكان فقيه المجلس ومدرسه يومئذ الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب ابن سودة الفاسي، وحضر ذلك المجلس وفود المغرب وقضاة العدوتين وعلماؤها، وحضرنا في جملتهم ومدح السلطان بقصائد بليغة، واحتفل أعزه الله لهذا الختم بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب وفرق الأموال على من حضر، ثم وصل أهل العدوتين من علمائهما وقرائهما ومؤذنيهما وطبجيتها وبحريتهما على العادة، وهناك قدم عليه أهل آزمور متنصلين مما صدر من عامتهم في حق محمد بن المؤذن فقابلهم بالبشر والصفح إلى أن بحث عن رؤوس الفتنة بعد ذلك فعاملهم بما يستحقونه، وأقام السلطان أعزه

الله برباط الفتح إلى يوم السبت الثاني والعشرين من شوال من السنة، فنهض قاصداً مكناسة فعبر المجاز ومعه من جنود الدولة وعساكر القبائل ما يجل عن الحصر، وكان نهوضه عن إزعاج بسبب ما اتصل به من خبر المولى عبد الكبير بن عبد الرحمٰن بن سليمان ولد الذي كان ثار لأول بيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن فسلك هذا الولد مسلك أبيه وأطمعه شياطين البربر في الملك حتى أوردوه مورد الردى وحان، وسقط العشي به على سرحان، ولما كان السلطان أعزه الله ببلاد بني حسن بلغه خبر القبض عليه فكتب كتاباً إلى الأمصار يقول فيه ما نصه: وبعد، فإن عبد الكبير بن عبد الرحمٰن الذي سولت له نفسه ما سولت من الرأي المنكوس، والحظ المعكوس، كان تحزب بشياطين وأوباش من برابرة بني أمكليد وأتوا به لآيت عياش، قرب فاس، فلما سمع بذلك خدامنا أهل فاس وأخوالنا شراقة وغيرهم من الجيش السوسي وقبائل الصلاح قاموا على ساق في طرده وإبعاده، ونفيه من ساحتهم وتشتيت رماده، وقابلوه بالنكاية والوبال، ورأى منهم ما لم يخطر له ببال، ورجع بخُفي حُنين، ثم بعد الطرد والإبعاد لم يبال بما هو عليه من سوء الحال، ولا أقلع عما طمع فيه من المحال، ولا انتبه من نومته ولا أفاق من سكرته، وبقي على دورانه عند البربر إلى أن ختم مطافه بالوصول لآيت يوسي فحكم الله فيه هنالك وأتى به مقبوضاً عليه وذهبت ريحه، وسقط في أيدي من كان آواه من البربر وحصلوا كلهم على الخسران والخزي والخذلان، وها الفتان متقف تحت يد أخينا الأرضى مولاي إسماعيل رعاه الله، فالحمد لله حق حمده ولا نعمة إلا من عنده، وهو المسؤول بنبيه ﷺ ومجد وعظم أن يؤدي عنا وعن المسلمين شكر نعمته، وأن يجزينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنته، هذا، وقد كتبنا لكم هذا بعد ما خيمنا بحول الله ببلاد الصفافعة من بني حسن ومحلتنا المظفرة بالله محفوفة بالنصر والعز بحمد الله، وأعلامنا المنصورة بالله رياح اليمن والسعادة تسوقها، والأرباح تكفل بها سوقها، وقد أعلمناكم لتأخذوا حظكم من الفرح بما خول مولانا جل وعلا من عظيم نعمه فللّه الحمد وله المنّة

والسلام في السادس والعشرين من شوال عام تسعين ومائتين وألف اهـ. ثم تقدم السلطان أعزه الله إلى دار ابن العامري فأوقع بأولاد يحيى فرقة من بني حسن وكانوا قد ثاروا بعاملهم عبد القادر بن أحمد المحروقي فهدموا داره وانتهبوها، وعاثوا في الطرقات وأخافوها، فأوقع بهم السلطان المولى الحسن أعزه الله وقعة كادت تستأصلهم وتأتي عليهم فتشفعوا إليه وتطارحوا عليه وأظهروا التوبة والخضوع فقبل توبتهم وولى عليهم ثلاثة عمال، ووظف عليهم مالاً له بال، ونهض أعزه الله إلى مكناسة الزيتون في سابع ذي القعدة من السنة فدخلها مظفراً منصوراً، ولما احتل بها كتب أيده الله إلى الأمصار بما نصه: وبعد فأنا بإثر الفراغ من أمر القبيلة اليحيوية وبناء أمرها على أساس الجد بحول الله وحصول المراد من كمال استقامتها بحمد الله وجهنا الوجهة السعيدة لوطن أسلافنا الكرام قدسهم الله بمكناسة الزيتون وتقدمنا في محلتنا السعيدة المنصورة التي أرخى اليمن والظفر عليها ستوره، فلقينا في طريقنا أهل هذا القطر المغربي من البرابرة وغيرهم على اختلاف شعوبهم وقبائلهم مظهرين غاية الفرح بمقدمنا ومتبركين بيمن طلعتنا وقائمين بالسمع والطاعة لعليّ جانبنا وحللنا حضرتنا السعيدة بمكناسة الزيتون في يوم كان من الأيام السعيدة المشهودة، والأوقات المعدودة، بل فاق ذلك اليوم السعيد بما وقع فيه من السرور كل موسم وعيد، فالحمد لله على ما خول وأولى من فضله العميم وخيره الجسيم، وهو المسؤول بنبيه ﷺ ومجد وعظم أن يؤدي عنا وعن المسلمين شكر نعمته: وأن يجرينا على ما عودنا من جزيل فضله ومنّته آمين والسلام، في العشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعين ومائتين وألف اهـ.

وكان دخوله أعزه الله إلى مكناسة بعد زيارته تربة المولى إدريس الأكبر وصلاته الجمعة بها، وأطال أيده الله المقام بمكناسة وفي مدة مقامه بها أوقع ببني مطير ومن لافهم من مجاط وبني مكيلد وآيت يوسي وغيرهم بعد أن طال قتاله لهم ثم اقتحم عليهم معاقلهم وانتهى إلى الموضع المعروف بالحاجب بحبوحة قرارهم ومحل منعتهم وانتصارهم، بل تجاوزته عساكره

المنصورة وأعلامه المنشورة بمسافة بعيدة إلى أن دخلت فم الخنيق الذي هو أول بني مكيلد فاستباحت هنالك حلاتهم، وطارت برؤوس عناتهم ومزقتهم في أعز مكانهم كل ممزق، وقبضت منهم على عدد وافر من الأسرى بعث به السلطان أعزه الله إلى الأمصار، فكانت عبرة لأولي الأبصار، وكان إيقاعه ببني مطير منتصف محرم فاتح سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف واستمر مقيماً بمكناسة إلى فاتح ربيع الأول منها، وفي يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور نهض أيده الله إلى فاس فدخلها يوم الخميس السادس منه بعد ما تلقاه أشرافها وأعلامها وأعيانها وجميع رماتها حتى النساء والصبيان مع العامل والقاضي، واجتمعت به مقدمتهم بوادي النجاة فألان جانبه لهم وتنزل لملاقاتهم تطييباً لنفوسهم، ولما وصل إلى البلد لم يعرج على شيء دون قصد ضريح المولى إدريس رضي الله عنه وزيارته والتبرك به، وانهار عليه الضعفاء والنساء والصبيان يقبلون أطرافه ويتمسحون بأذياله، وقدم الذبائح للحرم الإدريسي وغيره وأفاض من العطايا على الضعفاء والمساكين ما جاوز الحصر وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً، وموسماً من مواسم الخيرات معدوداً وعيد بفاس عيد المولد الكريم وقدمت عليه الوفود من كل ناحية، واجتمعت ببابه وجوه القبائل من كل قاصية ودانية، وازدان العصر وعم الفتح والنصر واستقامت الأمور ونادى منادي السرور في الخاص والجمهور، ولما فرغ السلطان أعزه الله من شأن العيد أمر أمينه أبا العباس أحمد بن محمد ابن شقرون المراكشي أن يرتب الوظيف المجعول على أبواب فاس وأسواقها على ما كان عليه في حياة السلطان سيدي محمد رحمه الله ففعل وكان ذلك أواخر الشهر المذكور، ولما جلست الأمناء كلٌّ بمحله واستقامت الأحوال وذهبت الأهوال ثقل ذلك على الدباغين ومرضوا فيه وذهبوا إلى الشريف الفقيه المولى عبد الملك الضرير وقالوا له: أنت الذي أوقعتنا في هذا كله بضمانك إسقاط المكس أولاً حتى صدر منا في حق بنيس ما صدر، والآن أخرجنا مما أوقعتنا فيه أما بإسقاط المكس وأما بإخراج بنيس من بين أظهرنا لئلا تدول له دولة علينا والرجل قد صار عدواً لنا، فقام الفقيه المذكور وقدم على السلطان

أعزه الله وذكر له ما عزم عليه السفلة من الدباغين فأعرض السلطان أيده الله عن ذلك وقابل بالجميل، فقال الفقيه المذكور: إن لم يكن شيء مما ذكرت لسيدنا فالأولى بي أن أنتقل إلى تافيلالت ولا أبقى بين أظهر هؤلاء القوم فأسعفه السلطان وبعث جملة من الحمارين لحمله وحمل أولاده، ولما رأى الدباغون ذلك نفخ الشيطان فيهم وعمدوا إلى الحمارين فطردوهم وارتجت فاس وماجت الأسواق وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان أيده الله فاستدعى عامل فاس إدريس بن عبد الرحمٰن السراج وكان متهماً بالخوض في وقعة بنيس وما ترتب عليها بعد فأظهر الطاعة والامتثال وركب بغلته يريد القدوم على السلطان بفاس الجديد فقام الدباغون دونه ومنعوه من الذهاب إلى السلطان وتهددوه بالقتل إن فعل، فقعد ووقع ذلك منه الموقع لأنه كان متخوفاً عى نفسه، ولما رأى السلطان أيده الله تمادي هؤلاء الطغام ومحكهم ولجاجهم بعد أن بالغ في إلانة الجانب والمقابلة بالجميل ومن ذلك إعراضه أعزه الله عن الكلام في أمر بنيس أمر بحصارهم والتضييق عليهم لعلهم يرجعون، ثم لم يكفهم عصيانهم حتى صعدوا على منار المدرسة العثمانية وعلى غيرها مما هو مطل على فاس الجديد وأخذوا في الرمي بالرصاص حتى أصابوا بعض من كان بأبي الجلود، ولما انتهوا من سوء الأدب إلى هذه الغاية أمر السلطان أيده الله بمقابلتهم على قدر جريمتهم فطافت بهم العساكر ورموهم بالكور من كل ناحية ثم اقتحمت طائفة من العسكر سور فاس من جهة الطالعة وأخذوا في النهب والقتل وعظم الخطب واشتد الكرب، وفي أثناء ذلك بعث السلطان أعزه الله وزيره أبا عبد اللّه الصفار يعظهم ويعرض عليهم الأمان بشرط التوبة والرجوع إلى الطاعة فأذعنوا وامتثلوا وانطفأت نار الفتنة، وانحسمت أسباب المحنة، فعجل السلطان أيده الله بالكتابة لجميع الآفاق وتلطف واعتذر بأنهم الذين بدؤوا بالحرب والبادي أظلم ومع ذلك فبمجرد ما أذعنوا إلى الطاعة كف عنهم رحمة لهم وإبقاء عليهم وكان هذا الحادث يوم الثلاثاء رابع ربيع الثاني من السنة.

ونص كتاب السلطان أعزه الله: وبعد، فبعد ما كتبنا لكم في شأن ما تلقانا به أهل فاس من الفرح والسرور والاحتفال في جميع الأمور، اختبرناهم وبلونا أحوالهم فألفينا أحوالهم تصدق أقوالهم، فأمرناهم حينئذ برد المستفادات لحالها المعتاد كما فعلنا بمكناسة وغيرها من البلاد، فامتثلوا طائعين وجدوا في دفعها مسارعين، ومن جملة من أمنّا عليها ابن شقرون المراكشي الأمين فلم نشعر بالدباغين أصحاب فعلة بنيس إلا وقد ملئوا رعباً وتخوفوا أن يركبوا في المؤاخذة بها مركباً صعباً، فطلبوا إخراج بنيس من بين أظهرهم وإبعاده، وهم حينئذ عند السمع والطاعة المعتادة، فلم نساعدهم فازدادوا تخوفاً وظهر منهم طيش أبان منهم تشوشاً وتشوفاً، فتصدينا بحول الله وقوته لتربيتهم وتأنينا كل التأني في مفاجأتهم، وأحجمنا حياء من معاجلتهم تأدباً مع حرمهم الأكبر سيدنا ومولانا إدريس الأزهر، ومراعاة لجماعة أهل الله الأحياء والنائمة، وإعذاراً وإنذاراً لتكون الحجة عليهم شرعاً وطبعاً قائمة، حتى ابتدؤونا وكسروا الحرم فقابلناهم والبادي أظلم، فما كان إلا كلمح البصر أو هو أقرب حتى ظهر نصر الله فهدمت دور وصوامع، وخربت فنادق ومصانع كانوا يضربون منها ويتترسون بها، ونهبت حوانيت ودور واستلبت أيدي الجيش أقواماً منهم وأسرت أسرى وأخذوا نكالاً للآخرة والأولى، لكنا بمجرد ظهور سطوة الله القاهرة فيهم والفتح أمرنا بالنداء في الحين بالعفو والصفح، وكف أيدي القتل والأسر عنهم إبقاء عليهم وشفقة لهم حتى يظهر مآل أمرهم، ويصفوا كدر غمرهم، وفي عصر ذلك اليوم ورد العلماء والشرفاء والرؤساء والعرفاء ضارعين صارخين شفعاء على شرط أداء الحقوق والتزام الشروط والبقاء على ما كانوا عليه قيد حياة مولانا المقدس من اللوازم والمغارم فشفعناهم على الشروط المذكورة، وقبلناهم على التزام الحدود المحصورة، وأعلمناكم لتفرحوا بنصر الله وتكونوا على بال من حقيقة الواقع، ولئلا تصيخوا للأخبار الكاذبة مسام المسامع، أو تلتفتوا إلى أقاويل المرجفين الذين لا يدينون الله بدين، ولا يريدون إلا فتنة المؤمنات والمؤمنين، والسلام، في رابع ربيع الثاني سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف

اهـ، ثم إن السلطان أعزه الله قبض على عامل فاس إدريس السراج وعلى ولده واثنين آخرين معه من رؤوس الفتنة وغرَّبهم إلى مراكش، وولى على فاس القائد الجياني بن حمو البخاري أحد قواده واستقامت الأحوال.

وكان مما قيل من الشعر في هذه الوقعة قول صاحبنا الفقيه الأديب أبي عبد اللّه محمد بن ناصر حركات السلاوي حفظه الله:

لله ياتلك التي تأوي الفنا ... لا تنقضي ما كان صبري قد بنى
كلا وقد هيجت مني لوعة ... قد أوشكت في مهجتي أن تهدنا
وأتيت موطن مصرع العشاق ثـ ... ـم بكيت حتى كدت تبكي الموطنا
لو كانت الأجبال تعقل لانثنت ... تبكي لما بك رأفة وتحننا
فبأي رأي يا حميمة قد غدا ... منك البكا عوض الترنم والغنا
وبأي ذنب قد فجعت قلوبنا ... وسقيتنا كأس الأسى بدل الهنا
أو ما كفاك من المتيم مهجة ... ما شأنها إلا معاناة العنا
صب له في كل يوم عبرة ... وتلهف يقتده قد القنا
كيف اصطباري والحبيب مصارمي ... والدهر مغراً بالوشاية بيننا
دعني فعدلك للمتيم ضلة ... شر عليه من مقاساة الضنا
تالله لارقأت لعيني عبرة ... حتى ترى وجه المليك الأيمنا
اليد الشهم السري الأصيد الـ ... ـفخم النهي الباهي الهمام الصيدنا
الأعظم المستعظم العذب الحلي الـ ... ـمستعذب الحسن الثنا المستحسنا
قد حاز في الأشراف كل فضيلة ... ملأ المسامع حسنها والأعينا
ومكارماً ومحاسناً ومفاخراً ... لو ذاق لذتها الكفور لآمنا
فلذاك سيدنا المقدس خصه ... بمآثر ما تنتهي فتدونا
ورث الخلافة كابراً عن كابر ... لا كالذي يأتي إليها ضعيفنا
عشقته عشق ابن الملوح خذنه ... وصبت إليه صبا العيون إلى الرنا
وله وقد لبته قبل دعائه ... ألقت أزمتها وقالت: ها أنا
ملك به الملك الأغر تشيدت ... أركانه في العز محكمة البنا
أضحى به يختال فخراً قائلاً ... لسواك يا ركن الورى لن أركنا

والدهر سلم والحظوظ بواسم ... والنصر يقبل من هناك ومن هنا
والسعد قد ألقى عصا تسياره ... في قصره متالياً أن يقطنا
حسنت بطلعته الدنا فكأنها ... حلي به هذا الزمان تزينا
إن المزايا والعطايا والحجا ... أخلاق سيدنا تناء أودنا
لا لا تقس قيساً به في النبل أو ... في الفضل قعقاعاً وأحنف في الأنا
أو في الشجاعة عامراً أو في الندى ... معناً وفي الإفصاح قس الألسنا
فهم لو اطلعوا على خصلاته ... لغدت ظنونهم بذاك تيقنا
فاستصغروا ما كان يصدر منهم ... وأتى جميعهم إليه مذعنا
ليت الملوك السالفين قد أحضروا ... فرأوا مليكاً مالكاً حسن الثنا
ولو أنهم علموا ضخامة ملكه ... قالوا: لنا ملك ولكن قدونا
ولو أنهم سمعوا بعظم سماحه ... تاقوا وقالوا: ليته في عصرنا
ولو أنهم قد أبصروا إقدامه ... بهتوا وقالوا: ليس ذا في طوقنا
هذا الأمير ابن الأمير ابن الأمير ... ابن الأمير المالكي رسن الدنا
هاذ العصامي العظامي الذي ... وسع الأماكن فضله والأزمنا
ما زال يسمح بالجوائز واللّها ... حتى لقد تخذ السماحة ديدنا
فخم نتيه تلذذاً بحديثه ... حتى نظن الأرض قد مادت بنا
طبع الفؤاد على مودته فما ... ندعو له بالنصر إلا هيمنا
يا أيها الملك السميذع والذي ... ما كان مشبهه مضى في غربنا
ما زلت تجتاب البلاد بسيرة ... عمرية تذر المعاصي مذعنا
وتبين للناس الرشاد وسبله ... وتريهم نهج السواء البينا
وتدمر العاتي بأبيض صارم ... وتقوم المعوج بالسمر القنا
لولا البغاة من الأنام وجورهم ... ما فارقت بيض السيوف الأجفنا
لكن بحلمك قد حقنت دماءهم ... ما أوشكت من بغيهم أن تحقنا
وأنمت في ظل الأمان جفونهم ... لولاك لم يك لامرئ أن يأمنا
ولقد تركتهم وكل قبيلة ... تثني عليك ثنا القلوب على المنا
حتى أتيت الحضرة الفاسية الـ ... ـغراء معتجراً بأثواب السنا

والملك من فرط السرور بك ازدهى ... وله فم بجميل ذكرك أعلنا
وأتاك أهلها قولاً هل لنا ... يا ماجداً من عطفة تشفي الضنى
يا طالما اشتاقت إليك قلوبنا ... شوق الفقير إلى ملاقاة الغنى
فمنحتهم بعد الضراعة عزة ... وكسوتهم بعد الأسا ثوب الهنا
هذا وما صبحتهم بكريهة ... حتى جنى جهلاً بفضلك من جنا
شربوا كؤوس الحتف لولا أنها ... أبقت عليهم رأفة وتحننا
وأتاك أرباب البصائر قولاً: ... يا لا تؤاخذنا بزلة غيرنا
فصفحت عنهم صفح مقتدر ولم ... تترك جيوشك فيهم أن تثخنا
وحبوتهم بعد الأسى بمسرة ... منعت قلوب الناس أن تتحزنا
فغدى ببغيته المصافي وانثنى ... بندامة الكسفى من قد شيطنا
لو كان في الإحسان شيء يتقى ... لنهاك طبع الجود أن لا تحسنا
إن الكريم إذا تمكن من أذى ... صاحت به أحلامه فتحننا
مثل الشجاع إذا سطى يوم الوغا ... أضحى بري طعم الردى حلو الجنا
لا كالجبان فلو تكلف نجدة ... صدته خشيته الحمام فأقبنا
وكذا اللئيم إذا أراد تفضلاً ... جاءته أخلاق اللئام فأشقنا
لو أن جودك في الورى متفرق ... ما كان فيهم من برى متمسكنا
ولو أن بأسك قد تفرق بينهم ... ما كان يمكن لامرىء أن يجبنا
لو لم تكن مولى خميس أرعن ... لكفتك هيبتك الخميس الأرعنا
لو أن من أثنى على هرم رأى ... يوماً علاك لقال: غيرك ما عنا
شهد الأنام بأن مجدك باهر ... لم يجحدنه جاحد فنبرهنا
يدعونك الحسن الرضى طرّاً ولو ... شوركت في حسن دعوك الأحسنا
يا أيها الشهم السري ومن به ... أضحى على الأقطار يفخر قطرنا
إني امتدحتك والمحبة شافعي ... ومحبة الأشراف نعم المقتنى
وتحصني أبداً بعزة ركنكم ... ومعزز من بالكرام تحصنا
لا زالت أمداحي لأقعس مجدكم ... متواليات أو يصدني المنا
تالله لا قمنا بشكركم ولو ... أعضاؤنا كانت جميعاً ألسنا

فلنمدحنك في الحياة وإن نمت قامت عظامتنا بمدحك بعدنا
خذها إليك خريدة فكرية طلعت بغيظ قلوب أبناء الزنى
بهرت قلوب ذوي النهي بمحاسن منعت خرائد فكرهم أن تحسنا
فاصرف إليها منّة عين الرضى وامنع بفضلك حسنها أن يغبنا
دامت إليك من المهيمن نصرة تدع المعاند ضارعاً مستهجنا
بمحمد المختار جدك خير من قد أوضح النهج القديم وبينا
صلى عليه الله ما جن الدجى وأمالت الريح الجنوب الأغصنا
والآل والصحب الصناديد الذرى والمانحي قصادهم نيل المنا

ثم شرع السلطان أعزه الله بجمع العسكر وتنظيمه زيادة على ما كان في حياة والده فألزم أهل فاس بخمسمائة، وألزم أهل العدوتين بستمائة، وألزم غيرهما من الثغور بمائتين مائتين، ولم يتخذ من مراكش ولا أعمالها شيئاً فصعب على الناس ذلك وجمعوا منه ما قدروا عليه واعتنى السلطان أعزه الله به فكان يباشر عرضه وترتيبه بنفسه، وفي أيام مقامه بفاس نبغ نابغ بأعمال وجدة يقال له: أبو عزة الهبري من هبرة بطن من سويد وسويد من عرب بني مالك بن زغبة الهلاليين، وكان هذا الرجل فيما زعموا يخط في الرمل ويتعاطى بعض السحريات فتبعه بعض الأوباش الذين لا شغل لهم وتأشبوا عليه ودنا من أطراف الإيالة وقوي حسه وكان السلطان أعزه الله عازماً على النهوض إلى تلك الناحية وتمهيدها ونفي الدجاجلة عنها فاستعد غاية الاستعداد وجدد الفساطيط وكسى الجنود فرسانها ورماتها قديمها وحديثها وعرضها كلها، ثم نهض من فاس منتصف رجب سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف، ولما بات في الليلة الثانية بآيت شغروسن أغار على المحلة ليلاً أبو عزة الهبري ومعه سعيد بن أحمد الشغروسني ويقال إنه إدريسي النسب فماجت المحلة بعض الشيء ثم تراجع الناس وأخذوا مراكزهم وصوبوا المدافع وآلات الحرب نحو عدوهم فشردوهم فكان ذلك أخر العهد بهم وقبض على عدد من أصحابه وقطعت رؤوس منهم، وتقدم السلطان أعزه الله

في جموع مؤلفة من الجيش السعيد المظفر وأنجاد نظام العسكر وغزاة القبائل الغربية بربرية وعربية إلى بني سادان وآيت شغروسن فأوقع بهم وقتل وأسر وانتسفت الجيوش زروعهم وبعثرت أرضهم وديارهم فلجؤوا إلى بني وراين فأمر السلطان أيده الله بقتال الجميع، ثم جاء بنو وراين متنصلين متبرئين إلى السلطان منهم فقبلهم وولى عليهم رجلاً من أعيانهم، ثم جاء بنو سادان وآيت شغروسن تائبين خاضعين فعفا عنهم ووظف عليهم مائة ألف مثقال وزيادة أربعمائة من الخيل فأذعنوا لأدائها واستوفاها السلطان أعزه الله منهم في أوائل شعبان من السنة، ثم تقدم إلى تازا فدخلها في أوائل الشهر المذكور، ولما احتل بها قدمت عليه وفود قبائلها متمسكين بحبل الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فرحين مغتبطين وبكل ما أمكنهم من الخدمة متقربين، وجاءت عرب الأحلاف ومن جاورهم حاملين هوادجهم المحلاة بأحسن حليهم وشاراتهم التي يستعملونها في مواسمهم وزيهم فقابل السلطان أعزه الله كلاً بما يجب من المجاملة وحسن المعاملة ما عدا ثلاث فرق من غياثة المجاورين لتازا وهم بنو أبي قيطون وأهل الشقة وأهل الدولة فإنهم كانوا يضرون بأهل تازا ويغيرون عليهم فألزمهم السلطان أيده الله بأداء ما تعلق لهم بذمتهم فأدوه في الحال، ثم وظف عليهم ثلاثين ألف ريال أخرى لبيت المال فأدوها أيضاً عن طيب أنفسهم ومن عداهم من أهل غياثة فإنما أدوا الزكوات والأعشار وأظهروا حسن الطاعة والامتثال، وفي هذه الأيام جيء إلى السلطان بالهبري أسيراً فإنه لما خرج السلطان أعزه في طلبه وطلب غيره أبعد في الصحراء ولم تزل تلفظه البلاد وتتدافعه الشعاب والوهاد إلى أن ساقته خاتمة النكال إلى قبيلة بني كلال وهم على أربع مراحل من تازا فقبضوا عليه وجاؤوا به إلى السلطان أسيراً حتى أوقفوه بين يديه مصفداً كسيراً، فأظهر الهبري الجزع وتضرع وخضع فحقن السلطان أعزه الله دمه وأمر به فطيف في المحلة على جمل ثم أمر ببعثه إلى فاس فسجن بها بعد أن طيف

به في أسواقها ثم مضى السلطان أعزه الله لوجهه حتى بلغ قصبة سلوان على طرف الإيالة المغربية من جهة الشرق فوفدت عليه قبائل تلك النواحي وأهدوا ومانوا وأظهروا غاية الفرح والسرور.

حكى من حضر أنهم كانوا يزدحمون عليه لتقبيل يده وركابه ووضع ثيابه على أعينهم تبركاً به، وفي أوائل رمضان من هذه السنة في ليلة الخامس أو السادس وقع تناثر في الكواكب وتداخل واضطراب عظيم على هيئة مفزعة بعضها مشرق وبعضها مغرب وبعضها إلى هيئة أخرى فكان الحال كما وصف الأعمى بقوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

دام ذلك إلى قرب السحر وأقام السلطان أعزه الله بهذه البلاد حتى عيد بها بعيد الفطر وكان المشهد هنالك عظيماً والموسم مخيماً، وحضر بنو يزناسن ومعهم كبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود فأهدى هدية كبيرة وولاه السلطان على تلك القبائل من بني يزناسن وغيرها، وقفل أعزه الله راجعاً فأدركه فصل الشتاء بتلك الجبال والفيافي فاشتد البرد وقلت الأقوات وهلك بسبب ذلك عدد كثير من الجند ولحق الناس مشقة فادحة، وأظهر السلطان نصره الله يومئذ من الشفقة والبرور ما تناقله الناس وتحدثوا به فإنه كان يسير بسير الضعيف ويقف على المرضى حتى يصلح من شأنهم ويأمر بدفن من يدفن وحمل من يحمل، وإذا سقط لأحد دابته أو رحله وقف عليه بنفسه حتى يعان عليه وهكذا إلى أن دخل حضرة فاس بحيث أدرك به عيد الأضحى من السنة فعيد بها وتفرغ للنظر في أمر العسكر يقوم عليه بنفسه ويعرضه على عينه ويتصفح قوائم مؤنه ورواتبه فاطلع أيده الله على ما كان يدلسه القائمون على ذلك من الزيادة الباطلة فعزل من عزل وأدب من يستحق التأديب، ثم قبض على كبير العسكر السوسي وهو الحاج منو الحاحي وكانت فيه شجاعة وإقدام إلا أنه كان مفرطاً في التهور والإدلال على الدولة وكبرائها فأدى ذلك إلى الانتقام منه بالضرب والسجن والاحتياط على ماله وضياعه

ولا زال مسجوناً إلى الآن، ثم سرح من السجن واستوطن مراكش عام ألف وثلاثمائة وخمسة، وفي هذه المدة شرع السلطان أعزه الله في بناء داره العالية بالله العامرة المزرية بمصانع المعتمد وقباب الزهرة وذلك في البستان المعروف ببستان آمنة داخل فاس الجديد عمد أعزه الله إلى ناحية من ذلك البستان فقطع ما كان بها من الشجر وبنى فيها قبة فارهة فائقة الحسن بديعة الجمال يقال إنه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد بإشبيلية، ثم بنى الدار الكبرى بإزائها وهي من عجائب الدنيا حسبما بلغنا بالغ أيده الله في تنجيدها وتنميقها وأودعها من النقش العجيب والترخيم البديع والزليج الرفيع المزري بخمائل الزهر وقطائف الهند وبديع الطوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بأن مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب وجلب لقبابها الأبواب من بلاد الأروام يقال إن ثمن أحد الأبواب خمسة عشر ألف ريال مسامره من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من التخريم والنقش ما يدهش الفكر ويحير النظر وباقي الأبواب من البلور الصافي المذهب المودع فيه كل نقش غريب وبها خوخات مركبة بهيئة بديعة كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذي يدهش الأبصار، وجلب لذلك من الأثاث الرومي ما قيمته ألوف من الريال، وفيها من الفرش والحائطيات المزخرفة ما لا يدرى ثمنه ولا يعرف معدنه وموطنه إلى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الرائقة الطرف البديعة الصنعة والرصف، وفي مدة مقام السلطان أيده الله بفاس بلغه عن ولد البشير بن مسعود بعض استبداد فاقتضى نظر السلطان أعزه الله أن يبعث من قبله عاملاً لجباية تلك النواحي فعقد لأخيه المولى علي على جيش وأضاف إليه القائد أبا زيد عبد الرحمٰن بن الشليح الزراري بمنزلة الوزير والظهير وبعثهما إلىٰ ناحية وجدة وكان ابن الشليح المذكور يومئذ يتولى عمالة تازا وكان أهل وجدة وأعمالها يكرهون ولاية ولد البشير عليهم ويحبون ولاية ابن الشليح إذ كان له ذكر وصيت في تلك الناحية وربما كاتبه عرب آنقاد وكاتبهم، ولما أحس ولد البشير بذلك انصبغت العداوة بينه وبين ابن الشليح فلم يكن إلا كلاً ولا حتى

وجه السلطان أيده الله ابن الشليح المذكور والياً على وجدة وأعمالها وجابياً لأموالها وناظراً في شؤونها وأحوالها، فقامت قيامة ولد البشير وعلم أنه لا يصفو له عيش معه فعزم على أن يطرده عن تلك البلاد ويرده من حيث جاء، وكان ولد البشير هذا حسن الطاعة للسلطان إلا أنه انفسد أمره بما ذكرناه، ولما قرب ابن الشليح من أرضه خرج إليه في خيله ورجله ولما التقت مقدمة الجيش بهم انتشبت الحرب بينهم وقامت الفتنة على ساق وكان غرض ولد البشير أن يضم إليه أخا السلطان وجيشه ويقوم بخدمتهم ويطرد عنه عدوه فقط فلم يستقم له ذلك وكان رأيه هذا خطأ إذ ليست هذه بطاعة كما لا يخفى، ثم انهزم الجيش وعمدت بنو يزناسن والعرب إلى المحلة فانتهبوها وعاد عبد الرحمٰن بن الشليح إلى السلطان أعزه الله وهو بفاس فأخبره الخبر وبإثر ذلك كتب ابن البشير إلى السلطان يتنصل من أمر ابن الشليح ومحلته وأنه لا زال على الطاعة لم يبدل ولم يغير وإنما الذي انتهب المحلة هم السفهاء من غير إذن لهم ولا موافقة على ذلك، وحتى الآن فكل ما ضاع من تلك المحلة يؤديه بأكثر منه، فطوى له السلطان أيده الله عليها وأرجأ أمره إلى وقت آخر، وكان قد اتصل به في ذلك الوقت خبر أبي عبد اللّه محمد الكنتافي صاحب جبل تينملل، وكان أصل هذا الرجل أنه كان من أشياخ قبيلته وكان المتولي عليهم هو قائد الجيش السوسي أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الجراوي، وكان الكنتافي هذا أحذر من غراب وأمنع من عقاب قد اتخذ حصناً في رأس جبل تينملل حيث كان ظهور مهدي الموحدين حسبما مر في أخبارهم، وتحصن به وصار يؤدي للقائد الجراوي كل ما يأمره به من غير توقف إلا أنه لا ينزل إليه، فلما توفي الجراوي المذكور وولى السلطان على الجيش السوسي وما أضيف له وصيفه القائد أحمد بن مالك ضايق الكنتافي ببعض الشيء وسار معه بغير سيرة الجراوي قبله فأنف الكنتافي من ذلك وأعلن أنه في طاعة السلطان ومتقلد بيعته يموت عليها ويبعث عليها ولا يقبل ولاية أحمد بن مالك ولو ألقي في النار، فكتب أحمد بن مالك إلى السلطان وهو بفاس يعلمه بأن الكنتافي قد خلع الطاعة وفارق الجماعة وأشاع

المرجفون بأنه يحاول الاستقلال بالأمر التفاتاً إلى ما كان لسلفه من أهل ذلك الجبل منذ سبعمائة سنة، وربما حنّ هو إلى ذلك أيضاً، وقد حكى ابن خلدون أن أهل ذلك الجبل كانوا في زمانه على هذا الاعتقاد.

تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

واستأذن أحمد بن مالك السلطان أعزه الله في غزو هذا الكنتافي فأذن له فبعث إليه كتيبة من الجند ففضها الكنتافي فازداد المرجفون تقولاً وتخرصاً، ثم بعث إليه ابن مالك جيشاً آخر أعظم من الأول فهزمه الكنتافي أيضاً وقبض على جماعة منهم باليد فمن كان من جيش السلطان سرحه إظهاراً للطاعة ومن كان من القبائل المجاورة له ضرب عنقه وكانوا عدداً وافراً، فتفاحش أمر الكنتافي في الحوز وكاد يستحيل إلى فساد فبعث ولده إلى حضرة السلطان بفاس وكتب له بشرح قضيته وأنه مظلوم من قبل أحمد بن مالك وما ارتكبه في حق الجيش إنما هو مدافعة عن نفسه وأنه لم يقتل جندياً قط وبالغ في التنصل وتقديم الشفاعات والذبائح والعارات فأرجأ السلطان أعزه الله أمره ونهض من فاس منتصف رمضان سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف فوصل إلى رباط الفتح ليلة عيد الفطر فاتفق أن وقع بها نادرة وهي أن جماعة من شهود اللفيف اثنى عشر جاؤوا إلى القاضي أبي عبد اللّه بن إبراهيم رحمه الله ليلة التاسع والعشرين من رمضان وشهدوا عنده أنهم رأوا هلال شوال بعد الغروب رؤية محققة لم يلحقهم فيها شك ولا ريبة، فسمع القاضي شهادتهم وسجلها وكتب للسلطان بذلك وهو بقرميم فارتحل السلطان في جوف الليل ودخل داره وأصبح من الغد معيداً وعيد أهل العدوتين وأعمالهما والجم الغفير من أهل المغرب الذين حضروا مع السلطان ولما كان ظهر ذلك اليوم وهو التاسع والعشرون من رمضان حقق الفلكيون من أهل الدولة أن العيد لا يمكن في ذلك اليوم وتكلموا بذلك وفاهوا به فكثر الكلام بذلك وكان جل الناس على شك أيضاً، ولما حان وقت الغروب ارتقب الناس الهلال والسماء مصحية ليس فيها قزعة فلم يروا له أثراً فأمر السلطان أعزه الله بالنداء وأن الناس يصبحون صياماً لأن رمضان لا زال فصام الناس من الغد وبعد ذلك

ظهر الهلال ظهوراً معتاداً وتبين كذب الشهود فسجنوا ثم سرحوا بعد حين، ولما قضى السلطان أعزه الله سنة العيد نهض إلى مراكش فلما قرب من زاوية ابن ساسي بين بلاد الرحامنة وزمران نزل هنالك على الرحامنة وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وتمرّض فوظف عليهم من الأموال ما أثقل ظهورهم وفرض عليهم من العسكر والخيل ما امتحنوا في أدائه ولم يقم عنهم حتى أدوا جميع ذلك وحتى خرج الأشراف والمنتسبون من أهل مراكش إلى السلطان للشفاعة فيهم والرغبة إليه في دخوله منزله، فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وارتحل عنهم فدخل مراكش آخر ذي القعدة من السنة، وكانت مدة مقامه على الرحامنة ستة عشر يوماً وكان يوم دخوله إلى مراكش يوماً مشهوداً، وفي رابع ذي الحجة بعده قبض على مائتين وثمانين شخصاً من أعيان أولاد أبي السباع وكانوا قد عاثوا في ذلك الحوز على عادتهم وعظم ضررهم واستطار شررهم وخرجوا على عاملهم السيد عبد اللّه بن بلعيد وصالوا على القائد أبي حفص عمر المتوكي وكان القتل بينهم وبين شيعة عاملهم ابن بلعيد المذكور ففر إلى السلطان بفاس فأرخى أعزه الله لهم الحبل وأطال عليهم الرسن وولى عليهم القائد أبا عبد اللّه محمد بن زروال الرحماني صورة حتى اطمأنوا بذلك وأنسوا، ولما قدم أعزه الله مراكش ضرب البعوث على قبائل الحوز فناب أولاد أبي السباع في ذلك ثلاثمائة فارس فقدمت مراكش بخيلها وأسلحتها، وكان السلطان أيده الله يومئذ قد أخذ في عرض بعوث القبائل داخل مشور أبي الخصيصات فجاء أولاد أبي السباع للعرض فلما توسطوا المشور المذكور أغلقت الأبواب وقبض عليهم وجردوا من السلاح وحملوا إلى السجن وكانوا مائتين وثمانين كما قلنا، ثم وجه السلطان أعزه الله إلى حلتهم القائد العربي الرحماني مع كتيبة من الجيش فنزلوا عليهم وأغرمهم ستين ألف ريال فأدوها في الحال بعد بيع ماشيتهم بأبخس ثمن، وحينئذ بعث السلطان إلى عاملهم عبد اللّه بن بلعيد فاستدعاه من فاس وقدم وولاه عليهم فاطمأنوا وأطاعوا وجد السلطان أيده الله في جمع العساكر والاستعداد إلى أواخر صفر من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف

فقدم عليه أبو عبد اللّه محمد الكنتافي صاحب الجبل مستأمناً بالمرابط أبي علي الحسن بن تيمكيلشت فقابله السلطان بالعفو والصفح وأكرم وفادته وولاه على إخوانه وانقلب إلى أهله مسروراً، ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم وجعل في عليين عدوهم ورواحهم وتشنفت الأسماع بالأمداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك وأنشدت قصائد لأدباء العصر، وبعد العيد كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب حتى الأمناء والطلبة، وفي مهل ربيع الثاني من السنة المذكورة خرج من مراكش يؤم بلاد الغرب فجعل طريقه على ثغر الجديدة فأقام بها أياماً بعد أن زار تربة بني آمغار برباط تيط وتفقد أحوال ثغر الجديدة ووقف على أبراجها وأسوارها وباشر في الرماية بالمدفع وكان رميه صواباً بحيث أصاب الغرض أعزه الله وأهدى له جميع تجارها من المسلمين والنصارى واليهود فقبل ذلك وكافأ عليه، وكان أعزه الله حين عزم على النهوض من مراكش قد كتب إلى عامله على مدينة آنفى وهو القائد الأجل الأنصح أبو عبد اللّه الحاج محمد بن إدريس بن حمان الجراري أن يتقدم إلى ثغر الجديدة ويقيم هنالك حتى يأمره بما يكون عليه عمله فامتثل القائد المذكور ولما قدم السلطان أعزه الله إلى الثغر المذكور اجتمع به القائد المذكور وطلب منه أن يجدد له ظهيراً بالتوقير والاحترام حسبما كان عليه هو ووالده من قبله مع السلطان الأعظم المولى عبد الرحمن وابنه السلطان المرحوم سيدي محمد رحمهما الله فأجابه أعزه الله إلى ذلك وكتب له ظهيراً يقول فيه ما نصه: الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره يستقر بيد ماسكه خديمنا الأرضى الطالب محمد بن إدريس الجراري ويتعرف منه أننا بحول الله وقوته أنزلناه المنزلة التي كان بها هو ووالده عند أسلافنا الكرام ولحظناه بعين الرعاية والبرور والاحترام هو وأولاده وإخوته فلا يروا من جانبنا العالي بالله إلا الخير لأنهم خدام أبناء خدام ودارهم دار المحبة والنصيحة فلا نسلمهم ولا نفوتهم ولا نضيع لهم

سالف خدمتهم ولا نكشف عنهم جلباب حرمتهم بحول الله وقوته والسلام صدر به أمرنا المعتز بالله في تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف، ولما قضى السلطان أعزه الله أربه من ثغر الجديدة نهض إلى آزمور فتلقاه أهلها بالفرح والسرور والبهجة والحبور، فهش لهم وقابلهم بما يناسب ودعا لهم بخير وزار ضريح الشيخ أبي شعيب وأبي عبد اللّه محمد واعدود رضي الله عنهما وقدم لضريحهما ذبائح وطاف بأسوار البلد وأبراجه وأمر بتحصين برج هنالك كان مقابلاً للمرسى، ثم خرج من آزمور بعد يوم أو يومين فانتهى إلى مدينة آنفى فدخلها في الثالث والعشرين من ربيع الثاني المذكور وعزل عنها القائد أبا عبد اللّه محمد بن إدريس الجراري وولى مكانه الحاج عبد اللّه بن قاسم حصار السلاوي، ثم كتب إلى أبي عبد اللّه الجراري المذكور بولايته على الجديدة وأعمالها ونص كتابه إليه: خديمنا الأرضى الطالب محمد بن إدريس الجراري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فإنا أعفيناك من ولاية الدار البيضاء وولیناك على الجديدة ولم نعزلك عنها سخطاً لسيرتك ولا هضماً لجانب خدمتك، وإنما اقتضت المصلحة ذلك تقديماً للأهم فالأهم وأنت منا وإلينا ودارك دار الخدمة والصلاح فلا نسلمكم ولا نفوتكم ولا نهضم لكم جانباً والسلام في الثالث والعشرين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اهـ.

واعلم أن هذا العامل من أمثل عمال السلطان نصره الله وأعقلهم وأرجحهم وأنصحهم قد استعمله الملوك الثلاثة المولى عبد الرحمٰن وابنه سيدي محمد وابنه المولى الحسن رضي الله عنهم فظهرت كفايته ونصيحته، وحمدت ولايته وسيرته، وهو الآن بهذا الحال حفظنا الله وإياه والمسلمين آمين، ولما احتل السلطان أعزه الله بالدار البيضاء طاف في أبراجها وأمر الطبجية بنصب الأغراض المسماة بالقريبيات في البحر ثم أمر برميها وهو حاضر وربما باشر معهم، ثم اجتاز بعد الفراغ على باب المرسى ومحل وضع السلعة للتجار بها فوقف عليه وتأمله كما فعل بثغر الجديدة ووعد

بإصلاح المون على شاطىء البحر لأن البحرية يتعبون فيه وقت إنزال السلع ووسقها، وأقام بالدار البيضاء بالمحلة خارج البلد يومين وأهدى إليه تجارها من النصارى واليهود والمسلمين، وأظهر النصارى الفرح وأكثروا من تعليق الصناجق وإيقاد الحراقيات بالليل وإرسالها في الجو فقابلهم السلطان أعزه الله بالجميل وحمل النصارى منهم على خيل مكافأة لهم على هديتهم فطاروا بذلك فرحاً حتى أنهم كتبوا بذلك لأهل دولتهم، ونشروه في كوازيطهم وأجوبتهم، وفي هذه المدة وجه السلطان أعزه الله خديمه الأنجد الفاضل أبا عبد اللّه الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي باشدورا وسفيراً عنه إلى دول الإفرنج مثل دولة افرانسا، ودولة النجليز، ودولة الطاليان، ودولة البلجيك، واستصحب معه هدايا نفيسة وأموالاً طائلة صيرها في وجهته تلك ورافقه في سفارته هذه الأمين الأرضى السيد بناصر ابن السيد الحاج أحمد غنام الرباطي برسم القيام بخطة الأمانة والقهرمانية، وصاحبنا الفقيه الأديب فلكي العصر وحاسبه الشريف أبو العلاء إدريس بن محمد الجعيدي السلاوي برسم القيام بخطة الكتابة، فوصلوا إلى أهل هذه الدول وقضوا الغرض على أكمل الوجوه وأحسنها وعادوا مسرورين في أواخر شعبان من السنة، وفي هذه الوجهة قيد صاحبنا أبو العلاء المذكور رحلته البديعة المسماة بتحفة الأخبار بغرائب الأخبار قد اشتملت على كل نادرة وغريبة، وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة، وعند قفوله وقدومه على حضرة السلطان أيده الله مدحه بقصيدة جيدة مطلعها:

أسالم دهري في المرام وفي القصد ... فينقض ما أبرمت للصلح من عقد
وأسأله الرحمى فيبدي ازوراره ... ونفرته عني فيا عظم ما يبدي
وكم لي استرضيه وهو مغاضب ... ولا يرعوي عما جناه على عمد

ومنها في آخرها:

وهذي بنات الفكر مني هدية ... إلى الملك المنصور ذي الجود والرفد

فإن أهملت عدلاً فإني مهمل ... وإن صادفت وقت القبول فيا سعدي
وما كنت في باب القريض مبرزاً ... شهيراً ولكني تعاطيته جهدي
لأجل امتحاني لذت فيه بربنا ... فأصبحت ذا وجد وقد كنت ذا فقد
فها أنا ضيف زائر لحماكم ... وحسبي رضاكم فهو نفس المنى عندي
ويا ربنا أعط الأمير مرامه ... وظفره بالمطلوب منك وبالقصد

ثم إن السلطان أعزه الله نهض من الدار البيضاء ومعه الجند الوافر والعسكر المجر والجم الغفير من قبائل الحوز وأهل دكالة وتامسنا فأوقع بعرب الزيايدة أهل تامسنا، وتقدم إلى رباط الفتح فدخله غرة جمادى الأولى من السنة فمكث به نحو سبعة أيام وعبر إلى سلا فزار أولياءها ودخل مسجدها الأعظم وصلى الظهر به وأمه في صلاته يومئذ صاحبنا الفقيه العلامة البارع أبو محمد عبد اللّه بن الهاشمي بن خضراء ودخل السلطان أعزه الله خزانة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتأملها ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر بن محمد عواد فطلب من السلطان أيده الله أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه نحو مائة ريال ففعل وهي يومئذ بالخزانة المذكورة، ووصل أيده الله علماء العدوتين ومجاهديها على العادة، وقد كنت أنشأت قصيدة في غرض من الأغراض فلما اتفق قدوم السلطان أيده الله هذه المرة حولتها إلى مدحه، ونصها:

قلب كواه من النوى مقباس ... فغدا به الوسواس والخناس
ونحول جسم يشتكي ألم الضنى ... وجوى به تتصاعد الأنفاس
والدمع في الوجنات محمراً غدا ... ولدى الوشاة به انتفى الإلباس
إن الألى يستعذبون ملامه ... ما أن لهم بعذابه إحساس
قدماً عذلت ذوي الغرام سفاهة ... حتى غدوت بمنسميه أداس
وحسبته حلو الجنى فأساغني ... من بأسه ما لا يسيغ الباس
إن الذين علقتهم قد انجدوا ... بمها الخدور ودونها الحراس
أبداً أؤمل في حياتي وصلهم ... واليوم قد غلب الرجاء الياس

ما كنت أحسب قبل إلمامي بهم إن الظباء لها البيوت كناس
تحكى بدور التم يخفي ضوءها ضوء الشموس إذا بهن تقاس
من كل خود كاعب يهدي لنا نشر الخزامي عطفها المياس
تسبي بقد السمهري وباسم يرمي الشعاع كأنها النبراس
وكأن هاتيك الخدود وفاحماً في ظلها ورد حواه الآس
لله ما عيش تقضي بيننا فكأنما أيامه الأعراس
طاب السرور لنا به وتأرجت آصاله وافترت الأغراس
أيام روض اللهو غض نوره ومنادمي فيه المنى والكاس
بالله يا قلب استفق ودع الهوى إن الهوى غول النهى الفراس
أو ما رأيت المخلدين إلى المنا سكنوا الثرى وعراهم الإفلاس
واعمل ليوم لا تخس شعيرة فيه إذا ما ينصب القسطاس
وابك الذنوب بكاء خندف بعلها لما جلا عن ربعها الياس
وإذا حوت كفاك فابن مبادراً مجداً تخلده لك الأنقاس
من غير تبذير لمالك لا تكن حلو الجنا فتلوكك الأضراس
كم من فتى جاز الحضيض إلى الذرى وبنى على لم تبله الأرماس
وإذا وعدت فكن لوعدك منجزاً كيما ترى لك في الفخار غراس
فالمنع في جنب الوفاء صنيعة والتبر في جنب المطال نحاس
وإذا حصلت على الرياسة فاذكرن من كان يجمعه بك الإيناس
واحذر مناصبة الدنى فربما خان الحسام وطاشت الأقواس
كم يغن يوماً عن كليب مجده لما حشاه بالقنا جساس
وإذا تصاحب فاصحبن مهذب راز النهى وله بهن مراس
فالمرء ويحك إنما يذري به ويزينه الأصحاب والجلاس
وإذا البذي جفاك يوماً فاحتسب فالجهل بالطبع الكريم يساس
وإذا عرتك ملمة فاصبر ولا تكن الجزوع وهمك الإيجاس
واحفظ لسانك واله من عيب الورى كل امرئ بفعاله منقاس
وادأب على حفظ العلوم وكن بها ذا خبرة وملاذك الأطراس

فالعلم أنفع للفتى وأجله ... ما قد وعاه القلب لا القرطاس
وارو الحديث وكن به متأدباً ... والفقه حققه يطعك قياس
وأقم بعلم النحو لفظك ولتكن ... فيه المقدم إذ به الإيناس
كل العلوم إذا نظرت رأيتها ... والنحو مصباح لها وأساس
واكتب من الشعر المهذب نبذة ... فالشعر أفضل ما وعاه الراس
إن لم تقله فكن له مستحضراً ... إن رمت نطقاً يرتضيه الناس
كم من وضيع قد علا بقريضه ... رتباً تشرفه وحسبك شاس
إذ خلصته من الأسار وقده ... أبيات علقمة الفتى القنعاس
وإذا قصدت أخا النوال بمدحة ... فاقصد فتى له في الندى آراس
مثل الإمام أبي علي الرضي ... حسن الذي هو في العلى نبراس
الماجد الملك الهمام المرتضى ... فخر الملوك سنامها والراس
شملت بلاد الغرب رأفته وقد ... بهج الزمان وعمت الأرغاس،
وحبا الورى من نيله حتى لقد ... طاب السرور وطابت الأنفاس
سعدت بمقدمه سلا وتقدست ... مراكش الحمراء منه وفاس
أبدا سيوف العزم منه على العدا ... برق وغيث نواله بجاس
شهم بصير بالأمور مجرب ... يقظان من داء الضلالة ياس
حلب الزمان شطوره فمتى اعتصى ... داء الخطوب فرأيه النسطاس
يلقى الوفود بحشمة وطلاقة ... لا يختشى منه أذى وشماس
في الجود كعب والبسالة عامر ... والحلم قيس والذكاء إياس
فالله يحفظه ويحفظ ملكه ... حتى يصيب عداه منه عماس
ويشيد للإسلام من عزماته ... عزاً تطأطىء دونه الأجناس
وينيله مجداً ينسى ذكره ... في عزة قعساء ليس نقاس
فليعل ملك بني علي وليدم ... ما خلدت مروان والعباس

وقد تبعني صاحبنا شاعر العصر الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات في روي هذه القصيدة دون بحرها وهي من ميلادياته قال:

أدر كؤوسك فالسراء في الكأس واشرب على طرب بروضك الكاسي
وقم لتنظر وجه الدهر مبتهجاً مستبشراً بعد تقطيب وتعباس
والأفق طلق وذا النسيم منطلق مسكي نشر خلال الجو جواس
والأرض تضحك من بكا الغمام كما يشكو الكئيب على مستهزئ قاسي
كأنها وهي بالربيع حالية عواطل قد تحلت يوم أعراس
والورق من ضحك الأزهار نائحة كنوح صب على أحبابه آسي
والدوح زاهية الأفنان زاهرة تهدي البهاء إلى البهار والآس
كأنما الزهر إذ تراه منتشراً على جداولها الحباب في الكاس
كأنما طيب نشره شمائل من قد ساد بالمكرمات سائر الناس
إمامنا الحسن المجلي بطلعته عن الورى كل أزمة وقسقاس
كسا الرعية أثواب المنى جدداً من بعد ما اشتملت بكل إدراس
سبط الرسول وفرع من سلالته طيب الفروع ترى بطيب أغراس
خليفة الله من دانت لعزته شم الملوك برغم كل دمناس
أنداهم في الندى كفاً وأشجعهم قلباً وأسطاهم بكل دعاس
من ذا ينازله عند الجلاد وهل يهول الليث يوماً صوب ولاس
قد عمه النصر في ورد وفي صدر وحفه اليمن من ساق إلى راس
مولى تردى رداء المكرمات فقل ما شئت في شيم له واتواس
لم يمض مشبهه على الحقيقة في بني أمية أو أبناء عباس
من ذا يدانيه في حلم وفي كرم ومن يضاهيه في الإقدام والباس
يا كم به قوي الضعيف وامتلأت كف الفقير وأثرى رب إفلاس
سلا كمثل سلا الغرا وضرتها أو مثل مراكش وحضرتي فاس
فكم بها من مآثر له كرمت ليست تعد بأقلام وأنقاس
بل كل مصر وقرية له ديم تهمي لأهلهما بكل أرغاس
فدا الأمير أدام الله عزته طول المدى كل أنفس وأنفاس
إليكها أيها الجحجاح مائسة أزرت طلاوتها بكل مياس
خريدة من بنات الفكر غانية لرقمها يتمنى كل قرطاس

جاءتك تطلبك القبول عائذة ... بالله من شر وسواس وخناس
فليهنها أنها تشرفت بك إذ ... حوت معاني من مديحك الراسي
وأنها لك قد وافت مهنئة ... بليلة ذات أسفار وإهلاس
أكرم بها ليلة غراء قد فضلت ... بأفضل الرسل كل ذات إغباس
إذ أشرق الكون من أنوار مولده ... حتى كفاه سناها كل نبراس
والشرك في الهون قد أضحت طوائفه ... مستيقنين حلول البؤس والبأس
إذ هالهم أمر أحمد وأوقعهم ... في حيرة عبثت بهم وإبلاس
تيقنوا أنه ما كان يخبرهم ... بشأنه كل قسيس وشماس
وأصبحت جملة الأصنام ساقطة ... منكسات الرؤوس أي تنكاس
وفي انصداع البناء أصبحت عبر ... لهم كذا في خمود نار أفراس
والجن لا تصل السماء إذ منعت ... منها بشهب لرميها وحراس
ومن يرم منهم للسمع مسترقاً ... ينحط محترقاً منها بمقباس
محمد صفوة الباري وخيرته ... من خلقه الجن والأملاك والناس
جاءت شريعته البيضا مطهرة ... للدين من كل أدران وأدناس
ولم تزل أمد الأعصار رافعة ... عن الهدي كل شبهة وتدلاس
أصل الهدى والندى فليس يشبهه ... هطال غيث ولا تيار رجاس
فلا تقسه بشيء في مكارمه ... فما ترام خلاله بمقياس
فإنه البحر في فضل وفي كرم ... وفي الشجاعة ضيغم بأخياس
كانوا به يتقون في الوغا بدلاً ... عن اتخاذ مغافر وأتراس
أسرى به الملك الأعلى لحضرته ... والروح مونسه أتم إيناس
والليل أحرس ليس فيه يسمع من ... صياح ديك ولا عواء لواس
حتى دنا فتدلى ثم كلمه ... وقد رأى ربه بمقة الراس
ونال من فضله عزت جلالته ... ما لا يسام بأوهام وأحداس
فآب والدين أسست قواعده ... على أصول حميدة وأساس
تراه كالقمر المنير في غسق ... من الدجى بين أصحاب وجلاس
غدا يحدث والملا يصدقه ... وليس يرتاب غير المائق الماس

دعا على المعتدي عتيبة فغدا ... يوماً بدعوته قتيل هماس
ورد عين قتادة فصار بها ... بعد العمى ذا تمقل وإيناس
والماء من كفه السمحاء سال فكم ... من وارد عذبه الروي وكم حاسي
هو الرسول الذي جمت فضائله ... فليس تحصر أو تحصى بأطراس
مديم ذكر فإن تذهل لواحظه ... فالقلب ليس بذاهل ولا ناسي
فالأرض طاولت السماء قائلة ... لخير رسل ببطن خير ارماس
كل النبيين طرّاً لائذون به ... كمثل نوح ويونس والياس
كذاك موسى وعيسى والخليل به ... لدفع باس بيوم الحشر أباس
يا أكرم الخلق يا خير الورى شرفاً ... يا من أتانا بتطهير وتقداس
أشكوك داء أساي فأسه كرماً ... فما لداء الأسى سواك من آسى
قسا الزمانْ وفي قسم النوائب لم ... يعدل فيا ويحه من قاسم قاسي
لكن قصدتك والكريم قاصده ... ما أن يرد بخيبة ولا يأس
وقد توسلت للمولى بجاهك أن ... يشد بالشرعة البيضاء أمراسي
وأن يحسن أعمالي ومعتقدي ... فيه ويكشف بلبالي ووسواسي
وأن يعاملني بالعفو عن زللي ... وأن يبدل إقلالي بإقعاس
وأن يهيىء أسباب السعادة لي ... حتى أنيخ بذاك البيت عرماسي
إذ قلت من أمّ طيبتي ومات بها ... نال الشفاعة في أهل وفي ناس
صلى عليك إله العرش مانفحت ... نوافح الزهر من دوح وأخياس
صلى عليك إله العرش ما اعتصمت ... بك الخلائق من عار ومن كاس
صلى عليك إله العرش ما رمقت ... بيض القراطيس يوماً سود أنقاس
والآل ما قال نشوان بحبهم ... أدر كؤوسك فالسراء في الكاس

ثم نهض السلطان أعزه الله من رباط الفتح في عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف قاصداً مكناسة وجعل طريقه على زمور الشلح فخرجوا إليه متذللين خاضعين متقربين إليه بالهدايا والضيافات فضرب عليهم الإتاوة والبعث فانقادوا، ثم دخل أعزه الله مكناسة ثامن عشر الشهر المذكور فمكث بها أياماً يسيرة ثم نهض إلى فاس فمكث بها أياماً يسيرة كذلك ريثما

اجتمعت إليه الجنود وخرج قاصداً بلاد وجدة وبني يزناسن وكبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود، وكان خروجه من فاس منتصف جمادى الثانية من السنة فاجتاز بتازا وأناخ على قبيلة غياثة جاعلاً الهضبة المعروفة بذراع اللوز أمامه قبلة ووظف عليهم المؤنة قيل إنه وظف عليهم مائة صحفة من القمح والشعير فدفعوا شيئاً يسيراً وعجزوا وتعللوا بأن هذا الذي جرت العادة أن يدفعوا للملوك من قبل، وكانت هذه القبيلة لم يهجها هيج منذ قديم لتحصنهم بجبالهم وأوعارهم، ولهم استطالة على أهل تازا يركبونهم كل خسف، فظهر للسلطان أعزه الله قتالهم فقاتلهم يوم الخميس أواخر الشهر المذكور واقتحم عليهم حصنهم المعروف بالشقة وهو خندق بين جبلين فيه واد وعلى حافتيه بناءات ودور، فحرق ذلك كله وهدمه وانتسف ما فيه منْ قمح وشعير وأدام، وغير ذلك وقطع منهم رؤوساً يسيرة، ولما كان الغد وهو يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر المذكور ركب السلطان أيده الله وركب معه أهل المحلة إلا قليلاً وقدم المدافع والمهاريس أمامه واقتحم الشقة فتبعه الناس ودخلوا بلاد غياثة وتوسطوها وقاتلوا أهلها فهزموهم والسلطان أمام الجيش في موكبه فسار حتى بلغ المداشر ورمى عليها من الكور والبنب شيئاً يسيراً، وكانت غياثة قد وضعت الكمائن على الأنقاب وشحنوها بالرماة وتركوا منفذاً واحداً يفضي إلى مهواة متلفة ذات شقوق غامضة وأشجار شائكة وصخور متراكمة لا يدرك قعرها ولا يبصرها إلا من وقف عليها ولما وغل الجيش في مزارعهم ومداشرهم خرجت الكمائن من خلفهم ورموهم عن يد واحدة بالرصاص فدهش الناس وتذكروا فعلهم القديم من الانهزام عن الملوك بلا موجب إذ لم يكن في شوكة غياثة هؤلاء وكثرتهم ما ينهزم منه ذلك الجيش اللّهام ولو تلبثوا يسيراً وقاوموهم لهزموهم في الحال كما هزموهم أول مرة، ولكن العادة العادة فولوا مدبرين لا يلوون على شيء وتكاثر الرصاص على موكب السلطان حتى سقط حامل الراية وجرح المولى عرفة أخو السلطان وقتل سيدي محمد بن الحبيب نقيب الأشراف بالعدوتين، وأما الجيش وقواده فإنهم لما انهزموا صرفوا وجوههم إلى المهواة

التي ذكرنا وقصدوها على عمياء وقد ارتفع دخان البارود وغبار الخيل فتهافتوا فيها تهافت الفراش في النار لا يعلم اللاحق ما وقع بالسابق إلى أن امتلأت من الخيل والرجال والأثاث وما كادت وكان ذلك قضاء من الله وتمحيصاً منه فهلك من الناس والخيل ما لا يحصى، وبقيت أشلاؤهم ناشبة في تلك الأوعار تلوح مثل المجزرة، وترجل السلطان أعزه الله عن فرسه حتى خلص من تلك الشقوق ثم ركب واجتمع الناس عليه وراجعوا بصائرهم بعد الكائنة ثم انشمر غياثة بعدها إلى رؤوس الجبال وتركوا المداشر والجنات فاقتحهما السلطان بعد يومين أو ثلاثة عليهم فلم يقف أمامه منهم أحد فعاث فيها وحرقها وجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، وكتب أيده الله بذلك إلى الآفاق وذكر في كتابه أن الخيل والرماة قد انتسفوا بلادهم انتسافاً ودوخوها أماماً وخلفاً حتى أشرفوا على بلاد جيرانهم وأناخوا فيها بكلكلهم وجرانهم، ثم توجه السلطان نصره الله إلى نواحي وجدة فانتهى إليها أوائل شعبان من السنة فتلقاه بنو يزناسن خاضعين تائبين فعفا عنهم لكونهم ثغراً من ثغور المسلمين وعصبة تدخر لنصرة الدين، إلا أنه عزل عنهم ولد البشير وبعث به مسجوناً إلى فاس وولى عليهم قواداً منهم من أهل الحزم والنجدة ووظف عليهم قدراً صالحاً من المال فشرعوا في دفعه في الحال والتزموا رد ما تعلق بذممهم من المظالم وصلحت أحوالهم واستقام أمر تلك الناحية، ولما قضى السلطان أعزه الله غرضه منها قفل راجعاً إلى فاس فدخلها ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم وكتب بذلك إلى الأمصار يقول: هذا، وقد كتبنا لكم هذا بعد القفول من حركتنا السعيدة، وحلولنا بحضرتنا العالية بالله بفاس بالفتوحات الجديدة والإنعامات المزيدة، حلول عز وظفر وإسعاد ونصر من لدنه لم يكن بحيلة ولا استعداد، وذلك بعد الفراغ من ترتيب تلك القبائل وتطهيرها مما تعلق بها من الرذائل، ونلنا بفضل الله في هذه الحركة من أثر الخير واليمن والبركة ما أثلج الصدور، وحمدنا غبه في الورود والصدور، وتركنا أهل تلك النواحي وساكني جبالها والضواحي على أحسن ما يكون صلاحاً واطمئناناً، وسلوكاً للجادة المخزنية بالقلب والقالب سرّاً

وإعلاناً، وأبقينا طائفة من جيشنا السعيد عند قبائل الريف زيادة في الاطمئنان والتأليف بقصد استيفاء ما بذممهم من الواجب، واستخلاص ما تعلق بهم من الحقوق التي ألزموها ضربة لازب، وذلك كله من تيسير الله ورفده وفضله على عبده، فما النصر إلا من عنده، فأما نحن فلا حول لنا ولا قوة ولا أنصار مرجوة، ولا نعتمد على عدة ولا عدد بل على فضله تعالى المعول والمعتمد، عرفنا الله حق النعمة وألهمنا شكرها وحمدها، وأجرانا على عوائده الجميلة وفوائده الجليلة التي لا يقدر قلم الواصف أن يدرك حصرها وحدها، وقد اقتضى نظرنا العالي بالله إعلامكم بذلك لتأخذوا حظكم من الفرح بتأييد الله ونصره، وتخلصوا في حمد نعمه الجزيلة وشكره والسلام في السادس والعشرين من رمضان عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اهـ، استمر السلطان أعزه الله مقيماً بفاس وجد في بناء مقاصيره ومنتزهاته ببستان آمنة من فاس الجديد، وكتب أيده الله إلى وصيفه أحمد بن مالك قائد الجيش السوسي بالمنشية من حضرة مراكش أن يبني له على الباب المعروف بباب الرئيس من الدار الكبرى بالحضرة المراكشية قبة فارهة ويبالغ في رفعها وتنجيدها وتنميقها، فشرع فيها في شوال من السنة المذكورة وكنا يومئذ نتولى إحصاء صائرها وصائر غيرها من البناءات المراكشية فكان ما صير على القبة وحدها أكثر من مائة ألف مثقال وكذلك بنى بمكناسة القبة العظيمة التي طاولت السماء ترفعاً وذهبت في الجو صعداً بحيث أشرفت على ما حولها من بسيط سائس وغيره حتى صارت مثلاً في الطول والاشتهار، وبنى أعزه الله قبة عظيمة حفيلة على ضريح الشيخ العارف بالله تعالى أبي عبد اللّه سيدي محمد الصالح ابن المعطي الشرقاوي بأبي الجعد فصير عليها أكثر من ثلاثين ألف مثقال تقبل الله منه.

وفي عاشر شوال من هذه السنة أعني سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة الناسك قاضي رباط الفتح أبو زيد عبد الرحمٰن ابن الفقيه العلامة السيد أحمد بن التهامي البريبري ودفن بزاوية حنصالة من البلد المذكور، وكان رحمه الله من أمثل قضاة الوقت ومن المتحريين للعدل، ولي

القضاء برباط الفتح أكثر من عشرين سنة، ثم تخلى عنه من غير عزل ودخل داره فلم يخرج بعد، فاحتمل السلطان والناس ذلك واعتقدوه واستمر حاله على ذلك إلى أن توفي في التاريخ المذكور رحمنا الله وإياه والمسلمين.

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وذلك يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من محرم منها توفي الفقيه العلامة الأديب شاعر العصر أبو عبد اللّه محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي ودفن قرب ضريح الإمام أبي القاسم السهيلي خارج باب الرب من مراكش، وحضر جنازته الجم الغفير من الناس وهو صاحب كتاب الجيش رحمه الله.

وفي صبيحة يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة ولد لنا ولد سميناه محمداً العربي وكان من عجيب صنع الله أنه ولد مختوناً ولذا ذكرناه هنا وهو الآن حي أصلحه الله وأنبته نباتاً حسناً وجعله من عباد الله الصالحين ومن العلماء العاملين آمين. وفي جمادى الأولى من السنة أخذ السلطان أعزه الله في الاستعداد بالحضرة الفاسية للحركة استعداداً لم يتقدم له مثله حتى أنه كتب إلى أخيه وخليفته بمراكش المولى عثمان بن محمد أن يوجه إليه من العدة الرومية وهي مكاحل مركبة فيها توافلها ما قدرها ألف وستمائة وعشرون مكحلة تخرج أبخاشها بالحبة الرومية، وأن يوجه إليه أربعمائة ألف وعشرة آلاف من الحبة المذكورة، وعشرة قناطير من البارود، ومائة قنطار من ملحه ومدفعين، وكتب أعزه الله إلى أمناء الصائر بأن يبعثوا إليه بثلاثمائة وستين سرجاً، وستمائة كسوة من الملف للعسكر، وخمسة عشر ألفاً من البلغة ومثلها من النعالة، وبعث أعزه الله عمه المولى الأمين بن عبد الرحمٰن إلى رباط الفتح لجمع عساكر الثغور وحشد قبائل دكالة وتامسنا والغرب وبني حسن وغيرهم، ووجه أخاه المولى الحسن الصغير لحشد قبائل الدير والجيش المتفرق بها، ثم كان خروج السلطان من فاس إلى مكناسة أواخر الشهر المذكور، ولما سمعت قبائل البربر بخروجه ارتابت وحذرت وظنت كل قبيلة أنها المقصودة ففرت مجاط وبنو مطير إلى رؤوس الجبال،

وفرت عرب عامر من بني حسن إلى زمور الشلح، وكان الناس يظنون أن السلطان يغزو في هذه السنة برابرة الجبال والصحراء فخرج الأمر بخلاف ذلك.

وفي هذه المدة وفد على السلطان أيده الله عدة باشدورات للأجناس مثل باشدور الفرنسيس، والإصبنيول، والبرتغال، وغيرهم، وتكلم الفرنسيس في شأن بابور البر والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك نفعاً كبيراً للمسلمين والنصارى، وهو والله عين الضرر وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكبت كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم، ثم نهض السلطان نصره الله من مكناسة في أواسط رجب في جمع وافر وعدة كاملة فاجتاز ببلاد زمور الشلح فأظهروا له غاية الطاعة والخضوع وقدمت عليه وفودهم من كل جانب رافعين أعلامهم وشارتهم وزينتهم التي يستعملونها في مواسمهم وأعيادهم وأدوا له من المال والمؤن والضيافات ما استكثر الناس ذلك وتحدثوا به، ثم زحف إلى عرب السهول من أعمال سلا فأوقع بهم وشرد بهم من خلفهم، وكتب أعزه الله في العشرين من رمضان إلى الآفاق يعلمهم بما أتاح الله له من الظهور والنصر والسعادة وخضوع قبائل البربر له وتباريهم في طاعته وخدمته، وبذلهم من الجباية ما لم يكونوا يبذلون القليل منه لغيره، وذكر في كتابه أن ذلك كله بمحض فضل الله ومجاري السعادة وحسن السياسة من غير ضرب ولا طعن ولا سفك دم حتى أن قبيلة بني حكم قد أظهروا بعض الاعوجاج فقام إليهم إخوانهم من زمور فقوموا اعوجاجهم حتى فاؤوا إلى أمر الله وكفى الله السلطان أمرهم، ثم ذكر في كتابه أعزه الله أمر السهول وأنه بعد أن أوقع بهم أمر بجمع فلهم ورأى استصلاح كلهم بتأمين جلهم لعمارة بلادهم بهم ورجاء نفع ما تقدم من أدبهم.

وفي ليلة الجمعة الرابع عشر من شعبان من السنة خسف القمر خسوفاً

كلياً بحيث ذهب نوره واختفى شخصه حتى لم ير منه شيء، وبقي كذلك نحو ساعتين ثم أخذ في التجلي شيئاً فشيئاً إلى أن عاد إلى امتلائه. وفي هذه المدة قلت فلوس النحاس بمراكش وأعمالها حتى كادت تنعدم وذلك بسبب غلاء الريال الإفرنجي بمراكش ورخصه بفاس، فكان صرفه بمراكش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية، فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراكش إلى فاس ويصرفونها بالريال فيربحون في كل ريال نحو مثقال، وتمالؤوا على ذلك وتوفرت دواعيهم عليه حتى قلت الفلوس بمراكش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح وتعطل معاش الضعفاء بذلك ولحق الناس ضرر كثير، فكان الرجل يطوف بالبسيطة والريال في الأسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتأتى له أن يشتري من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بسيطة، واتصل الخبر بالسلطان أعزه الله فكتب في الآفاق يأمر الناس برد صرف الريال إلى ثلاثة مثاقيل وربع مثقال فامتثل الناس ذلك ونودي به في الأسواق فانعكس الحال على التجار وتقاعدوا على الريال والبسيطة وفاضت الفلوس في الأسواق حتى صارت معاملة الناس ليست إلا بها وحصل للتجار من الضرر في رخص الريال ما كان حصل للضعفاء في قلة الفلوس لأن التجار حينئذ صاروا يبيعون سلعهم التي بذلوا فيها الريال الغالي بالقراريط النحاسية التي صار صرف الريال فيها على النصف، فأمسك الناس سلعهم وامتنعوا من بيعها وتعطلت المرافق أو كادت، فكتب السلطان ثانياً برد أسعار السلع والأقوات على النصف مما كانت حتى تحصل المساواة بين الأثمان والمثمنات فنشأ بذلك هرج كبير وضرر للناس في معاشهم وأبى الله إلا أن تعود السكة إلى حالتها التي كانت عليها وقد بينا العلة في ذلك قبل هذا وأن السكك والأسعار لا تزال في الزيادة ما دامت المخالطة مع الفرنج تكثر بكثرتها وتقل بقلتها.

وفي يوم الأربعاء ثالث رمضان من السنة توفي عالم المغرب السيد المهدي بن الطالب ابن سودة الفاسي، كان علامة متقناً فصيحاً عارفاً بصناعة الدرس حسن الإيراد فيه بحيث فاق أهل زمانه يقال: إن له تآليف لكن لم

نقف على شيء منها رحمه الله، ثم عيد السلطان عيد الفطر من هذه السنة بزبيدة من بلاد زعير ولم يدخل رباط الفتح على قربه منها ووفدت عليه هنالك قبائل المغرب وأهل الأمصار فشهدوا العيد معه وأجازهم وكساهم على العادة، ولما فرغ من أمر العيد عين عامل رباط الفتح وهو القائد أبو محمد عبد السلام بن محمد السوسي، وعين الحاج عبد الكريم بن أحمد بريشاء التطاوني، والحاج محمد بن عبد الرزاق ابن شقرون الفاسي، للذهاب إلى مادريد دار ملك الإصبنيول بقصد السفارة عنه إلى دولتهم والمكافأة لهم على مجيء باشدورهم حسبما مر التنبيه عليه ففعلوا وعادوا بحيث أدركوا عيد الأضحى من السنة مع السلطان أعزه الله بمراكش، ثم نهض السلطان بعد عيد الفطر من زبيدة يؤم البلاد المراكشية فاجتاز بتادلا وسكن قبائلها وأوقع ببني عمير وقبض منهم على ما يناهز أربعمائة مسجون سيقت في السلاسل والأغلال إلى السجن وفر بنو موسى إلى رؤوس الجبال حتى استنزلهم السلطان على الأمان ودخلوا في الطاعة والتزموا الخدمة، ثم نهض السلطان أيده الله إلى مراكش فدخلها في عشر ذي الحجة من السنة فكان بها عيد لم يعهد الناس مثله منذ قديم، وكتب إلى الآفاق يعلم الناس بما منّ الله به من النصر والتأييد والفتح والعز المديد، وأقام السلطان بمراكش في هذه المرة مدة طويلة إلى أن كان من أمره ما نذكره.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين وألف فكانت هذه السنة من أشد السنين على المسلمين قد تعددت فيها المصائب والكروب وتلونت فيها النوائب والخطوب لا أعادها الله عليهم فكان فيها أولاً غلاء الأسعار وكان منشأه وابتداؤه من تثقيف السكة في آخر السنة الماضية، ثم عقب ذلك انحباس المطر لم تنزل من السماء قطرة وأجيحت الناس وهلكت الدواب والأنعام وعقب ذلك الجوع، ثم الوباء على ثلاثة أصناف، كانت أولاً بالإسهال والقيء في أوساط الناس بادية وحاضرة، ثم كان الموت بالجوع في أهل البادية خاصة هلك منهم الجم الغفير، وكان إخوانهم يحفرون على من دفن منهم ليلاً ويستلبونهم من أكفانهم، عثر بسلا على عدد منهم وأمر

السلطان أعزه الله عمال الأمصار وأمناءها أن يرتبوا للناس من الأقوات ما ينتعشون به ففعلوا، وبعد هذا كله حدث الوباء بالحمى في أعيان الناس وأماثلهم فهلك منهم عدد كثير، وفي هذه المسغبة مد النصارى أيديهم إلى الرقيق فاشتروه وكان ابتداء ذلك أنهم كانوا يعاملون ضعفاء المسلمين وصبيانهم بالصدقات والإرفاقات ثم تجاوزوا ذلك إلى شراء الرقيق منهم والأمر لله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين وألف فكان في أوائلها موت الناس بالحمى كما قلنا فمات في المحرم منها الوزير الأعظم أبو عمران موسى بن أحمد وكان شعلة ذكاء وتمثال فطنة ودهاء غفر الله لنا وله، واستوزر السلطان مكانه الفقيه الأخير أبا عبد اللّه محمد بن العربي بن المختار بن عبد الملك الجامعي من بيت الوزارة وأهل العراقة فيها، ويبلغنا عنه أنه يحب أهل الخير ويلين جانبه للضعفاء والمساكين ويحب السلطان وينصح له ويغار على جانبه المعظم وحماه المحترم، ويتجافى عن الطمع الذي هو أصل كل مفسدة في الدين والدنيا سدده الله. وفي ظهر يوم الأحد عاشر صفر من السنة المذكورة توفي شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد كان رحمه الله من أهل المشاركة في العلم والاعتناء به، كثير الدرس كثير التقييد ختمنا عليه رحمه الله عدة كتب كبار جعلها الله في ميزان حسناته، منها صحيح البخاري نحو عشر مرات، وصحيح مسلم ثلاث مرات، وشفاء القاضي عياض مراراً، وكتاب الاكتفا لأبي الربيع الكلاعي مرة، وأخرى إلى غزوة خيبر، وشمائل الترمذي مرتين بشرح أبي عبد اللّه محمد بن قاسم جسوس، وإحياء الغزالي رضي الله عنه، وعوارف المعارف للسهروردي، وتآليف غيرها من كتب النحو والفقه والبيان والكلام وغير ذلك مما يطول ذكره، وبالجملة فقد انتفعنا عليه واستفدنا منه رحمه الله ونفعنا به، وولي القضاء بعده الفقيه العالم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الجريري عرف بابن الفقيه من بيت العلم والدين والصون وهو رحمه الله يتحرى المعدلة في أحكامه وينتهج صريح الشرع في جميع أموره سدده الله وكلاه، وتولى

الخطابة بالمسجد بعد شيخنا المذكور شقيقه الفقيه أبو الحسن علي بن محمد عواد وهو مجيد في الخطابة ومن أهل المروءة والدين والعلم وفقنا الله وإياه والمسلمين لما يحبه ويرضاه، وفي هذه الأيام استدعى السلطان أيده الله خديمه الأمين الأرضى السيد محمد بن الحاج محمد التازي الرباطي إلى حضرته العالية بالله بمراكش فقدم عليه الأمين المذكور وأجل السلطان مقدمه وأسند إليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها وفوض إليه في ذلك تفويضاً تاماً لعلمه بنصحه وأمانته وضبطه، وهذا الرجل من أمثل أهل المغرب وأصدقهم وأنصحهم للسلطان وأشدهم غيرة على الدين والوطن حتى لو كان في الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبه لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام نسأل الله تعالى أن يصلح أمرها ويشيد بمنّه عزها وفخرها. وفي ربيع الثاني من السنة ورد أمر السلطان أعزه الله على ولاة العدوتين أن يوجهوا عدداً من أمنائهم وعدولهم للخدمة السلطانية بالمراسي المغربية فقدموا عليه بمراكش، وكان في جملتهم أخونا في الله الفقيه العلامة الحافظ أبو محمد عبد اللّه بن الهاشمي بن خضراء السلاوي فقال قصيدة في مدح السلطان نصره الله نصها:

لبيك لبيك يا خير السلاطين	أدامك الله في عز وتمكين
دعوت عبدك فاستجاب مبتدراً	وقد أناخ على الطير الميامين
يهدي إليك تحية مباركة	أذكى وأطيب من مسك ونسرين
ممرغاً وجنتيه فارحاً جذلاً	إذا فاز منك بتخصيص وتعيين
مؤملاً راجياً بلوغ مقصده	مستبشراً برضى بالنجح مقرون
يا نجح سعيي ويا بشراي قد سعدت	حالي وفزت بتقريب وتأمين
من مبلغ معشري أني أويت إلى	ظل مديد يظلني ويؤويني
ظل الإله على عباده وكفى	به كفيلاً وذخراً للمساكين
رب السماح فما معن بن زائدة	وأين من راحتيه نهر سيحون
لله من ملك جلت مآثره	عن أن يحيط بها حصر بتدوين
دعا المعالي فانقادت ملبية	يضيق عن وصفها بطن الدواوين

له السعادة قد ألقت أزمتها   والفتح رائده في كل ما حين
وبشر طلعته يسر ذا حزن   وأين ما حل كان خير ميمون
حامي الشريعة والرحمٰن ناصره   ماضي العزيمة لا يرضى بتوهين
في كل قطر ثناء عنه منتشر   أي انتشار يفوق مسك دارين
ساس العباد بتدبير ومعدلة   وأحسن الأمر في الدنيا وفي الدين
وليس يعبأ بالدنيا وزينتها   لكنه بين مفروض ومسنون
وطبق الأرض عدله ونعمته   مجاله بين تسكين وتحسين
بسعده الغرب قد بدت محاسنه   فجر ذيلاً على بغداد والصين
وتاه مزدرياً بكل مملكة   يميس في حلل ذوات تلوين
نعم الإمام الهمام المرتضى حسن   فخر الملوك سلالة السلاطين
السيد الملك ابن السيد الملك ابـ   ـن السيد الملك المعروف باللين
بحر خضم مغيث سيد بطل   بد الليوث وفرسان الميادين
دانت بطاعته العدا بأجمعها   مذ ألبست ملبس الصغار والهون
وفاق من قبله حلماً ومكرمة   وسطوة بهرت أهل الأواوين
لا غرو إن نال ما فات الألى غبروا   وشاد ما عجزوا عنه بتحصين
قد يدرك الآخر الشأو الذي قصرت   عنه الأوائل في ماضي الأحايين
تبارك الله ما أسمى مفاخره   كسباً وارثاً من الشم العرانين
ولا ترى الغرس قد زكت أرومته   إلا أتى الفرع منه في أفانين
يا خير من أمه الراجي وأكرم من   يثني عليه بمعرب وملحون
ويا ابن خير الأنام من نبوته   له وآدم بين الماء والطين
ويا ملاذ الورى يا من سما كرماً   يا نعمة عظمت يا كنز مسكين
يا منبع الجود يا تاج الفخار ويا   مأوى العفاة ويا سلوان محزون
يا من روى عن أبيه رفع سؤدده   يا من أوامره إليه تدعوني
وفدت ملتمساً رضاك يا سندي   وليس شيء سوى رضاك يرضيني
فأمنن عليّ بعطفة تصاحبني   مدى الدهور وللعلى ترقيني
بقيت ما شئت في عز ومقدرة   ودمت في نعم بحق جبرين

ولما وقف السلطان أعزه الله على هذه القصيدة هزت من عطفه وأمر أن يسأل منشئها عن مطلبه، فاقترح أن يؤذن له في الإفتاء وأن يعطى ظهيراً بالتوقير والاحترام وأن ينعم عليه بما يقتضي الاعتناء به، فأنعم عليه السلطان أعزه الله بالإذن في الإفتاء وبظهير الاحترام ونفذ له راتباً من أحباس جامع ابن يوسف إعانة له على الدرس به، ثم كان نهوض السلطان أيده الله من مراكش قاصداً بلاد الغرب غرة جمادى الأولى سنة ست وتسعين ومائتين وألف، فاجتاز في طريقه بتادلا وأناخ على قبيلة آيت أعتاب فأوقع بهم في أوعارهم وأعز معاقلهم وأوكارهم، وقطع منهم واحداً وعشرين رأساً، ثم زحف إلى بني موسى فأدوا الطاعة وقاموا بواجبها، ثم سار محفوفاً بالنصر واليمن إلى أن دنا من مكناسة الزيتون فزحف إلى بني مطير وكان شررهم قد استطار في تلك النواحي كل مطير، فإنه لما سافر السلطان نصره الله عن مكناسة سنة أربع وتسعين كما مر، زحف بنو مطير هؤلاء إلى عرب دخيسة وأولاد نصير الذين أنزلهم السلطان بسايس وبوأهم إياه عوض مجاط، وأوقعوا بهم وقعة شنعاء، وقد صبرت العرب في ذلك اليوم صبراً جميلاً، حتى أن جماعة منهم قد عقلوا أنفسهم في حومة الحرب لئلا يفروا، وقاتل إخوانهم دونهم حتى كثرهم البربر فقبضوا عليهم باليد وضربوا أعناقهم، وقتلوا منهم نحو مائتين، وهلك من البربر مثل ذلك أو أكثر، ولما انهزمت العرب عمد بنو مطير إلى مجاط فأنزلوهم بسائس على ما كانوا عليه قبل، ثم انطلقوا في الطرقات بالعيث والإفساد فيها والنهب للمارة، ولم يدخروا شيئاً من الشيطنة ليوم آخر، وكثرت الشكايات بهم على السلطان وهو بمراكش، فلما قدم أعزه الله قدمته هذه لم يقدم شيئاً على تأديبهم فنهض إلى رأس بلادهم ومزرعة فسادهم آكراي والحاجب وغيرهما وتقرى آثارهم في تلك الجهات حتى جاوزت عساكره الحاجب بمسايف كثيرة وتوغلت البربر في قنن الجبال، فأمر السلطان أدام الله علاه بني مكيلد أن يزحفوا إليهم من ناحية قبلة آكراي، فزحفوا وانبثوا على حدودهم إلى غابة افقفاق التي هي الحد بين بني مكيلد وآيت شغروسن وآيت يوسي، فحصروهم من تلك الجهات ثم نزل بإزائهم

آيت يوسي وآيت شغروسن وآيت عياش وآيت والان من جهة الشمال وامتدوا إلى حدود وادي النجاة وربط حذوهم من جهة الغرب وراء وادي النجاة القائد العربي بن محمد الشرقي المدعو بابا محمد ووصل جناحه عليهم قبائل الغرب والحوز، وصار بنو مطير في مثل أفحوص القطاة وضاق بهم رحب الفضاء وأيقنوا بالهلاك والبوار ولفظتهم السهول والأوعار، ونهبت الجنود زروعهم القائم والحصيد، واستخرجت من مخزونهم الكثير والعتيد، ولما انتهى الحال بهم إلى هذه الغاية تطارحوا على السلطان بالشفاعات، وأكثروا من التوسل بالذبائح والعارات، فرق لهم وأقلع عنهم بعد أن ألزمهم إعطاء خمسمائة مرهون ووظف عليهم مائة وخمسين ألف ريال بعد أداء الحقوق ورد المظالم، وشرط عليهم إخراج قبيلة مجاط من بين أظهرهم، وضمنهم طريق مكناسة وفاس وجعل العهدة فيها عليهم جرياً على عادتهم القديمة من جعلهم النزائل بها والحراس فالتزموا ذلك كله وأدوه، وبعد ذلك نهض السلطان عنهم إلى مكناسة فدخلها أواخر رجب الفرد من السنة واستمر بها إلى أن دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين وألف، فنهض إلى فاس ولما احتل بها فرق الجيوش في النواحي لجباية الزكوات والأعشار والوظائف المخزنية، فانتهت السرايا والبعوث إلى آيت يزدق من برابرة الصحراء فأذعنوا وأدوا ما كلفوا به من الزكوات والأعشار وغيرها، وإلى آيت يوسي وغيرهم فأطاعوا وأذعنوا، إلا آيت حلى وهم بطن من آيت يوسي فإنهم انحرفوا عن عاملهم وأبوا من أداء ما وظف عليهم فأوقع بهم جيش السلطان وقطعوا منهم عدداً من الرؤوس وساقوا مثلها من المساجين فعلقت الرؤوس بأسوار فاس، وبعد ذلك أذعن آيت حلى للطاعة فقبلهم السلطان أيده الله وألزمهم ولاية عاملهم الذي كانوا منحرفين عنه وكان ذلك في أواخر صفر من السنة المذكورة، ثم كان عيد المولد الكريم فاحتفل له السلطان على العادة، وبعث إلى حضرته صاحبنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن خضراء بقصيدة ميلادية يقول فيها:

أمل المديح محبراً يا منشد ... وأعده تطريباً فذلك أحمد

هذا أوان مسرة وسعادة ... هذي الليالي الغر هذا الموعد

أو ما ترى علم البشارة لائحة ... أو ما تشاهد نورها يتردد
هذا زمان ظهور طلعة أحمد ... في عالم الأجساد هذا المولد
طوبى لمن يروي غريب حديثه ... متأدباً ويعيده ويردد
طوبى لمن يقضي حقوق مديحه ... ويجيده نظماً بديعاً ينشد
فمديح خير الخلق أعظم قربة ... لكنه في ذا الأوان مؤكد
يا ليلة ما كان أعظم قدرها ... مع فجرها طلع النبي محمد
فاسرد شمائله الحسان وما له ... من معجزات بالنبوة تشهد
واذكر عجائب مولد قرت به ... عين المحب وضاق منه الأحقد
واجعل دعاءك للإمام المرتضى ... إن الدعاء له لحق أوكد
واملأ بدر مديحه أسماع من ... حضروا لديه وضمهم ذا المشهد
ساس الرعية صادقاً فعنت له ... أمم وقد كانت قديماً تشرد
من كفه فاضت مواهب جمة ... فالكف منه للعفاة المورد
طود أتآد شامخ ذو همة ... علياء يقصر عن علاها الفرقد
ما جود حاتم طيىء ما حلم أحـ ... ـنف إن ذا لهو الحليم الأجود
أزكى الملوك أرومة وأجلهم ... قدراً وأسبقهم لأمر يحمد
باهى به الغرب الممالك فاغتدى ... منه يغار قريبها والأبعد

ومن آخرها:

مولاي يا تاج الملوك وفخرهم ... فليهنك العيد الأغر الأسعد
لله موسم مولد لك عائد ... بمسرة موصولة تتجدد
لا زلت ممنوحاً جلائل أنعم ... ما اهتز في روض بهي أملد
لا زلت محروساً بعين عناية ... ما رنم الحادي وحبر منشد

وفي ربيع الثاني من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ورد كتاب السلطان أعزه الله على قاضي سلا بتعيين صاحبنا الشريف الأديب فلكي العصر أبي العلاء إدريس بن محمد الجعيدي السلاوي للذهاب إلى مراكش برسم القيام على إحصاء صائر السلطان بها بدلاً عن الفقيه أبي محمد عبد اللّه بن

خضراء، فامتثل الشريف المذكور وسافر في التاريخ المذكور ومدح جناب السلطان أسماه الله بهذه القصيدة التي يقول فيها:

لبيك يا منقذي من لجة العدم ... سعياً على الجفن لا مشياً على القدم
فذا أوان سعود كنت أرصده ... وذي مناي كما في سابق القدم
فهو المرام وكل العز يعقبه ... ولا يحال بأني أحقر الخدم
قصدت أعتاب ملك شامخ بهج ... يقري الضيوف ويغني صاحب العدم
أنزلت رحلي بها وعندها أملي ... وهل يخيب نزيل الجود والكرم
شمرت عن ساعدي والأذن واعية ... فهاب أهل الحسام سطوة القلم
أرضى بذاك الذي أضاء مغربنا ... بعدله فغدا يميس في نعم
أزكى الأئمة شيمة وأرفعهم ... قدراً وأسبقهم لكل مغتنم
أميرنا الحسن المحمود سيرته ... تروع صولته الأسود في الأجم
نجل السلاطين قد أحيا مآثرهم ... ونال ما عجزت عنه ذوو الهمم
قد شاد للدولة الغراء مفخرها ... فساد عند ملوك العرب والعجم
تاج الملوك وفخرهم وسيدهم ... وخيرمن قد مضى في غابر الأمم
قد لاحظته السعود وهي في شرف ... وكل نحس عداه وهو عنه عم
النصر سابقه والسعد قائده ... والفتح يخدمه من جملة الخدم
والجود سيرته والحلم حليته ... والجد عادته فاحذر من الندم
ليث إذا ما أحس الحي سطوته ... ألقوا سلاحهم مخافة النقم
غيث إذا الأرض يوماً مسها عطش ... غوث توسل به لبارئ النسم
مدير عالم مفكر فطن ... ومفحم باهر بأفصح الكلم
كل الفهوم له ألقت أزمتها ... ونوره يهتدى به لدى الظلم
بها يقاوم من بغى ويدمغه ... بها يدافع أهل الريب والتهم
كم دبر الروم من كر ومن حيل ... توجو النجاح بها والنجح في عقم
يرى بنور حجاه كل عاقبة ... وعين تدبيره للأمر لم تنم
فصل الخطاب حباه الله مكرمة ... وحكمة عظمت من أبدع الحكم
فاطلب رضاه ودم على محبته ... مدا الدهور وجانب داعي السأم

فهو المنى لذوي الحجا وبغيتهم وسيب يمناه مثل الزاخر العرم
يدني الأصول إلى نيل الوصول ويحـ ـيينا بنعمته كالأرض بالديم
ما زال يحيي بها بلاد مغربنا فاقرع بصدقك باب الجود تغتنم
واسلك سبيل الصفا تنل به شرفاً واقبل نصيحة من حباك واستقم
يا غاية القصد إني راغب طرب مستمسك بجوار منك لم يضم
مولاي يا من مزاياه وأنعمه في الناس أشهر من نار على علم
مولاي أنت الذي تغني الضعيف إذا ما الدهر أفضى به لقبضة الهرم
بشراك إن الفرنج سوف يدركها منكم صغار به تداس بالقدم
فأنت ذو مدد وهم ذوو نكد وأنت ذو جذل وهم ذوو غمم
مولاي جد برضاك لي وخذ بيدي واحرس جنابي به من سائر الألم
واجعل ثياب الرضى ستراً عليّ ولا يرى به حبل عروتي بمنفصم
فها أنا ذاك عند باب سيدنا أرجو قبولاً ووصلاً غير منصرم
أبقاك ربك في عز ومكرمة بالله أمرك نافذ على الأمم
أدامك الله منصور اللواء على كل الأعادي ولا برحت في نعم

وفي آخر هذه السنة ورد كتاب السلطان أيده الله باستدعاء صاحبنا أبي محمد بن خضراء المذكور آنفاً لتوليته خطة القضاء بحضرة مراكش فامتثل ووفد على أمير المؤمنين أدام الله علاه بحضرته السعيدة من فاس المحروسة بالله فولاه القضاء بمراكش وسار إليها وهو الآن بها محمود السيرة حسن السريرة سدده الله وكلاه، وقال في وفادته على الحضرة الشريفة قصيدة يمدح بها الجناب المولوي ونصها:

لبيك دمت مؤيداً ومظفراً ولك الكمال كما تشاء موفرا
وافى خديمك أمرك العالي الذي في ضمنه إسعاده بين الورى
إذ خص دونهم بأشرف دعوة يا سعد من أضحى بها مستبشرا
فأجاب مبتدراً إجابة صادق لم يلهه أهل ولا حب الذرى
وطوى المراحل كي يحل بحضرة يلقى بها وجه الأماني مسفرا

فبدت له الدار المنيفة يا لها ... داراً أعز حمى وأبهى منظرا
ونحا الجناب المستجار بظله ... وأناخ فيه خاضعاً ومعفرا
يهدي إليك تحية مختارة ... أذكى من المسك الذكي وأعطرا
ويمد كفيه بصدق داعياً ... لك بالبقاء مهنئاً ومبشرا
ويجيد شكر مواهب أوليتها ... كرماً وحق لمثلها أن يشكرا
ويعيد ذكر محاسن أوتيتها ... ويصوغ مدحك صوغ تبر أحمرا
ويروم إقبالاً عليه بالرضى ... يا فوزه إن بالرضى هو بشرا
إن ناله نجحت له آماله ... ودنت مناه وارتقى واستبشرا
يا من يؤمل رفعة وسعادة ... يمم حمى المولى الهمام لتظفرا
ملك عظيم القدر جل كماله ... عن أن تعد خصاله أو تحصرا
ملك كريم الطبع عز مثاله ... خلقاً كريماً لم يضاه ومفخرا
ملك جزيل الفضل عم نواله ... كل الأنام وفاق غيثاً ممطرا
ملك أفاض على الرعية خيره ... وأنامهم في ظله متبصرا
ملك جميل سياسة وسريرة ... ويدل ظاهره على ما أضمرا
ملك ترقى في سماء مكارم ... فغدا به أفق المكرم مقعرا
ملك رحيم خاشع متواضع ... ويرى اكتساب الحمد أربح متجرا
قرت به عين الخلافة واغتدى ... من سعده ذا القطر أنعم أزهرا
من أهل بيت المصطفى أكرم به ... نسباً شريفاً ما أجل وأطهرا
جمع المفاخر مكسباً ووراثة ... وحوى مآثر حقها أن تؤثرا
ماضي العزيمة في الأمور مسدد ... في رأيه الميمون ليس مقصرا
قل للمحاول شأوه في مجده ... أو رفده أو حلمه أطرق كرا
هذا همام لا يشق غباره ... هذا همام لن يجارى إن جرى
مولاي يا أزكى الأئمة شيمة ... وافيت بابك أبتغي منك القرا
لا أبتغي إلا الرضى وكفى به ... فأنلني الحظ الجزيل الأوفرا
مولاي ما عندي إليك هدية ... إلا مديحك هاك منه جوهرا
نظمته فكرة مخلص متودد ... خذه إليك منظماً ومحبرا

لا زلت في نعم تدوم ونصرة وسعادة لا زلت أنت الأكبرا

لا زلت في حلل العناية رافلاً لا زلت في ملك كبير أبهرا

واعلم أن الأمداح في جناب هذا الملك الجليل الشريف الأصيل كثيرة، والقصائد المفصحة عن علو قدره وشموخ مجده وفخره شهيرة خطيرة، لا سيما لأصحابنا السلاويين ممن ذكرناه منهم وممن لم نذكره، ولولا خوف الإطالة لأثبتنا من ذلك ما يزرى بالحبر ويفصح بالذكرى والعبر، وفيما ذكرناه كفاية والله يجزي كلاّ بنيته وخلوص طويته.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف فيها تجددت الشروط بين السلطان أعزه الله وبين أجناس الفرنج في سبيل تأكيد المهادنة وجلب نفع التجارة، وكان من جملتها أن النصارى وأهل حمايتهم يلزمون بغرامة الوظائف المخزنية المرتبة على الأبواب كسائر رعية السلطان، وقدر ذلك الوظيف ستة بلايين لكل حمل، وفي هذه المدة التي هي أواسط السنة المذكورة أخذ السلطان أعزه الله في التأهب للحركة والنهوض من مكناسة الزيتون قاصداً حضرة مراكش الحمراء فاحتلها في آخر السنة المذكورة وعيد بها عيد الأضحى.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف فيها تحرك السلطان أعزه الله لغزو بلاد السوس الأقصى، فأخذ في التأهب والاستعداد لذلك وأمر قبائل دكالة وتامسنا بحمل القمح والشعير والتبن إلى مرسى الجديدة، ومرسى الدار البيضاء ليحمل منهما في المراكب إلى ساحل السوس الأقصى بقصد إرفاق الجيش وإعانته، وكان السبب في ذلك أن جنس الإصبنيول كان متشوفاً لتملك بعض المراسي السوسية منذ انعقاد الهدنة معه عقب حرب تطاوين، وكثيراً ما كانت مراكبه الحربية والتجارية تتردد إلى تلك النواحي فيستهوي أهلها بأسباب التجارة ونيل الأرباح فربما سكنوا إليه وربما نفروا منه، وتكلم السلطان أعزه الله مع كبرائهم في ذلك فاحتجوا بأن صلح تطاوين كان منعقداً على فتح بعض المراسي السوسية وأنهم الآن قد عزموا على الأخذ بشرطهم

المذكور وإلا أفضى الحال إلى ما لا يليق، فرأى السلطان أعزه الله أن من الواجب أن ينهض إلى تلك البلاد ليباشر أمرها بنفسه لا سيما وكان أهلها قد بعد عهدهم بإجراء الأحكام السلطانية فيما بينهم على مقتضياتها، فنهض إليها في رمضان من السنة المذكورة فانتهى منها إلى قرب وادي نول ومهد أقطارها وولى على أهلها القضاة والعمال، واتخذ هناك مرسى للوسق والوضع تسمى آساكا، وكتب في ذلك كتاباً لولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح: أما بعد، فإنا لما نهضنا من مراكش بحول الله وقوته وسطوته الباهرة وصولته، وجيوش الله المظفرة موفورة، وجنوده سبحانه مقطورة، وأعلامها منشورة منصورة، نهضة معتمد على مولاه، متقلد لما قذف في قلبه فأبداه، متمسك بعروته الوثقى التي من استسمك بها بلغ مناه، وانتهينا بمعونة الله لمبدأ هذه الأقطار السوسية، وامتطينا صهوتها وهي ذلولاً في ربوع اليمن ساعيه، وبنود الله خافقة على مفارق الظفر وبذرى المجد سامية، تواردت على حضرتنا العالية بالله الوفود متناسقة متتابعة، وانتظمت في سلك السمع والطاعة والخدمة الجامعة، فتسارعوا إلى ما إليه دعوا، وتلقوه تلقي الظمآن فنهلوا وكرعوا، وأوقدوا لوفود كبرائهم وأعيانهم وأشياخهم مصباحاً، واستضاؤوا بضياء نور الله غدواً ورواحاً، ومدوا أعناق الإذعان، وبسطوا أيدي المسالمة والإبقاء عليهم والامتنان، بعد ما كانت قد بلغت منهم القلوب الحناجر، وارتعدت فرائصهم من هيبة الله ثم اطمأن البر وشرق الفاجر، وانتهبت أجفان المراسم المخزنية التي عفت بعد نومتها، فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، وصرفنا إليهم عنان الترتيب، بعد أن وطأنا لهم كنف الترحيب، فبوأنا من توسمنا فيه الأهلية للتولية على إخوانه مهاداً، وقلدناه أمرهم جمعاً وفرادى، وضربنا للكل فيها على مقتضى السياسة بمعونة الله بسهم مصيب، وأرعيناه من مربع خدمتنا الشريفة المرعى الخصيب، حتى وقع التمكن من أزمتهم، وأجلسنا خاصتهم وعمالهم على أسرتهم، فاتصلت بهم المخزنية اتصال الأرواح بالأجساد، واستنارت هذه الأرجاء بنور الله استنارة عمت الحاضر والباد، فأدوا من الطرف والهدايا ما فيه غنية لمن ركب متن المزايا

مع كون البلاد لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تنيف على عدد الستين، ولو لم ننل من هذ الفتوح الباهرة بفضل الله إلا عشراً، لكان في جنب من قدم عهده بالمخزنية كثراً، ولكان ما عودنا سبحانه إلا الجميل، إذ هو المتصرف الغني القاهر القوي الكفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ثم ولينا عليهم من القضاة من فيهم الكفاية لإقامة شرائع الدين، ولم نأل جهداً في انتخابهم من أمثل المقلدين، علماً بأن الشرع عليه المبنى، وبه يعمر المغنى، ويغزر الحس والمعنى، ثم تطارح شرفاؤهم ومرابطوهم على أعلى جنابنا بإقرارهم على عوائدهم، وإبقائهم على أعرافهم ومحاتدهم التي عندهم عليها ظهائر أسلافنا المقدسين، أئمة المسلمين وأمراء المؤمنين، وكذا ظهائر من غبر من الملوك المتقدمين رضوان الله عليهم أجمعين، فانتهجنا نهجهم وسمكنا بحول الله أوجهم، وساعدناهم فأقررنا وجددنا لكل ظهيره، وأجريناه على ما أسس له من المجد وجعلناه نجيه وسميره، وحيث كان القصد الأهم من هذه الوجهة المباركة هو حماية ذمار هؤلاء المسلمين، والدفاع عن بلادهم ورقابهم وأموالهم مما طمحت إليه نفوس المؤملين، وكان ملاك ذلك هو فتح المرسى بوادي نول بمحل يسمى آساكا بأرض قبيلتي تكنة وآيت باعمران، إذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع ويسهل على أهل ذلك المحل البيع والابتياع، يقيناً بأن سد أبواب الضرر من الأمر المحتوم، وإرشاد الضال في الشرع من المقرر المعلوم، تسابق القبيلتان المذكورتان اللتان تلقيتا جنابنا العالي حين عبرنا وادي والغاس وقصدنا بجيوس الله بلادهم قصد طبيب آس، فتلقوا ركابنا السعيد بمحل يعرف بآمصاو قرب مرسى تسمى باكلو، إذ هو الطرف الموالي لآيت باعمران المسمى بالساحل، وإليه شدت هذه المراحل، وبين آمصاو ومحل المرسى الذي أريد فتحه مرحلتان وبثلاث عشرة ساعة ميقاتية مقدرتان، فأتوا بشرفائهم وفقهائهم ومرابطيهم وأعيانهم وأشياخهم المالكين لقيادهم فقوبلوا بما قوبل به أمثالهم، وناسب أن يتصف به حالهم، ثم ولينا عليهم عدة من العمال جعلناهم بحول الله عدة في تلك الأعمال، وحينئذ وقع الكلام معهم في شأن المرسى، فامتثلوا ما أمرناهم به من فتحها امتثال

من أضحى يتقلب في رضا الله ورسوله وأمسى، ثم وجهنا معهم سرية من أعيان الجيش معتبرة، ومعهم من الفقهاء والمهندسين من يعتد بهم في رسم تلك المرسى وتخطيطها على نهج القواعد المقررة، والأعمال المحررة، اقتضى المقام والحال تسبيقها رفقاً بعباد الله، واعتباراً بأن الله سبحانه قد قضى الغرض ووهبه وأسداه، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، قل إن الفضل بيد الله، وما بكم من نعمة فمن الله، ثم أقمنا في المحل المذكور لانتظارهم في تشييد منارهم، فإن انقلبوا بالمقصود فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن لم يشفوا الغليل شددنا بحول الله لذلك المرسى عزمات الرحيل وقطعنا تلك المفازات، هذا وقد نصبنا قائداً من قواد جيشنا السعيد مختاراً من ذوي الرأي السديد، وأقمناه بقصبة تيزنيت محل المخزن في القديم، بقصد أن يكون إعانة لسائر عمال القطر السوسي من وادي والغاس إلى منتهى وادي نول وكليميم، يتفاوضون معه فيما عسى أن يعرض لهم من المهمات، ولا سيما إذا كان المخزن بعيداً عن هذه الشرفات، بعد ما عرفناهم بأنا أقمناه مشرفاً للتفاوض معه وبصيرة على ما قصدنا من فتح ذلك المرسى، إيثاراً للنعمى ودفعاً للبؤسى، ففرحوا بذلك فرح الظمآن الوارد، والضال الواجد، ووقع الإشهاد عليهم بكل ما فصلناه، وأبرم عقده معهم على نحو ما رسمناه، فكان ذلك تمام العمل الذي قصدناه، والمورد الذي أردناه وانتحيناه، والله تعالى يخلص في ذاته العمل، ويجعل هذه الوجهة المباركة بفضله ومنته من الجهاد المتقبل، إنه جواد كريم متفضل غني حليم والسلام في متم شعبان عام تسعة وتسعين ومائتين وألف، انتهى كتاب السلطان أيده الله.

وفي أواخر صفر سنة اثنتين وثلاثمائة وألف قام نواب الإصبنيول من مراسي المغرب الأقصى بعد أن أقاموا بها نيفاً وعشرين سنة لاستيفاء ما وقع الصلح عليه في حرب تطاوين، وكان جملة المال المصالح عليه عشرين مليوناً من الريال الكبير، وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمٰن رحمه الله قد دفع منه عشرة ملايين معجلة والعشرة الباقية هي التي استوفاها الإصبنيول في المدة المذكورة أقام أمناءه مع أمناء السلطان بمراسي المغرب،

فكان كل فريق يستوفي نصف الداخل حتى تم العمل، وفي صبيحة يوم الاثنين ثاني ربيع الثاني من السنة المذكورة توفي الشيخ المنور الذاكر الخاشع أبو عبد الله محمد الهاشمي الطالبي من صلحاء أهل سلا، وكانت وفاته فجأة تعشى تلك الليلة عشاء خفيفاً على عادته وصلى العشاء وتلا أوراده منفرداً في بيته كما كان يفعل ثم أصبح ميتاً من غير أن يحضره أحد، وكان قد ناهز الثمانين وشاخ وابيضت لحيته ورأسه، وحضر جنازته الجم الغفير من أهل العدوتين سلا والرباط وازدحموا على نعشه وتناوبوه تبركاً به، وصلى عليه بالمسجد الأعظم من سلا عقب صلاة الظهر ودفن بالبيت القبلي من داره، وتردد الطلبة إلى قبره مدة لقراءة القرآن والبردة وغيرها من الأمداح، وعظم مصاب الناس بموته وكيف لا وقد كان مصباح العدوتين بل وغيرهما في زمانه مع ما أكرمه الله تعالى به من التواضع وحسن الخلق ولين الجانب مع الناس بحيث لم يعهد ذلك ولم يرو إلا عن السلف الصالح ومن سلك سبيلهم من أمثالهم رضي الله عنهم، وكان مجلسه مجلس علم وحياء ووعظ وذكر للأولياء والصالحين وسيرهم وأخبارهم لا يسمع في مجلسه لغو ولا خوض في دنيا إنما هو سرد الأحاديث وأخبار الصالحين ونحو ذلك، محافظاً على الصلوات وقيام الليل والأذكار وبذل المعروف والأمر به ما أمكن، وبالجملة فقد كان في سيرته وأخلاقه على مقتضى السنة النبوية وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم ونفعنا بمحبتهم ومحبة أمثالهم آمين. وبعد غروب الشمس من ليلة الجمعة فاتح ذي الحجة من السنة المذكورة توفي الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن المدني كنون عالم فاس والمغرب وصلى عليه عقب صلاة الجمعة بجامع الأندلس من فاس حرسها الله، ودفن بالموضع المعروف بالقباب، وكان رحمه الله فقيهاً عالماً متضلعا قولاً بالحق صادعاً به لا يهاب في ذلك كبيراً ولا صغيراً، ولقد امتحن في ذلك من قبل السلطان فلم يفل ذلك من غربه، ولم يوه من صرامته ولا حده، وله عدة تآليف من أحسنها اختصار حاشية الرهوني على مختصر الشيخ خليل جدد الله عليه الرحمات آمين.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة وألف ففي ليلة العشرين من صفر منها وقع في النجوم تناثر كبير ورمي شديد تشريقاً وتغريباً وغير ذلك على خلاف المعتاد حتى لقد أذكرت قول بشار بن برد الأعمى في وصف الحرب:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ودام ذلك من وقت الغروب إلى نصف الليل، وفي هذه الأيام كانت بين جيوش الرجل المنصور القائم ببلاد الحبشة والنوبة المتسمي بالمهدي وبين جيش النجليز حروب عظيمة بعد العهد بمثلها، وكان للمهدي المذكور على النجليز غاية النصر والظهور ولولا أن التعرض لخبره ليس من موضوع الكتاب لشرحت ذلك فإن أمره عجيب جداً، وفي أواسط ربيع الأول من السنة المذكورة ورد أمر السلطان أيده الله بتسريح ما كان موظفاً على أبواب المدن والقرى مما كانت تؤديه العامة على أحمال السلع والتجارات من المكوس، وكتب في ذلك إلى عامل سلا وقته بما نصه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسم السلطان أيده الله: خديمنا الأرضى الحاج محمد بن سعيد السلاوي وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فقد شرح الله صدرنا لرفع العطاء في سائر الأبواب بالمدن والمراسي عن كل ما يمر به عليها داخلاً وخارجاً، وأصدرنا أمرنا الشريف لأمين المستفادات بثغر سلا المحروس بالله كغيره بإنهاض المشترين لأبوابه الجالسين للقبض بها والمتصرفين في شؤونها لحال سبيلهم، وإعمال الحساب مع مشتريها المذكورين على ما تصرفوا فيه إلى يوم الإنهاض، وتوجيه القائمة بذلك لحضرتنا العالية بالله وغير الأبواب من الأماكن المعطى فيها وعليها تبقى على حالها حتى ننظر في أمرها بحول الله، وأعلمناك لتكون على بال والسلام في ثاني ربيع الأول عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، ولما ورد هذا الكتاب فرح الناس به ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد من خالص نياتهم، نطلب الله تعالى أن يتمم نعمته على المسلمين بتسريح ما بقي موظفاً من مبيعات الأسواق ويريح الناس من شؤمه فإنه لا شيء أشأم من هذه المكوس على الدول نسأل الله العافية، وفي عاشر جمادى الثانية من

السنة المذكورة خرج السلطان مولاي الحسن أيده الله من حضرة مراكش غازياً بلاد السوس الأقصى وما وراءها من عرب معقل وسائر قبائل الصحراء لما بلغه من اضطراب الرعايا بتلك البلاد وخروجهم على ولاتهم، وأن بعض تجار النجليز قد تسور على مرسى بتلك السواحل يسمى طرفاية ووصل يده في البيع والشراء ببعض القبائل الذين هناك وأراد أن يبني بالمحل المذكور، فنهض السلطان أيده الله لحسم مادة هذا الفساد، ولما توسط بلاد السوس وأصلح أحوالها وثقف أطرافها كتب كتاباً إلى ولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح ما نصه: وبعد، فإنا بحول الله القوي المعين الفاتح لما أغلق كما يشاء في الحين أو بعد حين، المؤيد بعنايته عبده في كل مصدر ومورد وتحريك وتسكين، كتبنا إليكم هذا يوم حلولنا وسط خدامنا قبائل آيت باعمران، بحبوحة مجامع قبائل السوس الأقصى ومناخ الأعيان، نعلمكم بما واجهنا المولى سبحانه في هذه الحركة المباركة من تعاقب المنن والأيادي وابتسام ثغر الزمان، بما أملناه من العلي المنان، في هذا النادي لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وبيده مقاليد السمٰوات والأرض وهو الولي والنصير والسميع والبصير، فكان من أمر هذه القبائل السوسية والقساملة الساحلية أن تلقوا ركابنا السعيد أفواجاً أفواجاً ناشرين أعلام الفرح تجاه جيوش الله المظفرة سري وإدلاجاً حاشدين جموعهم مصحوبة بأعيانهم ومن يعتد به من فقهائهم وشرفائهم ومرابطيهم من غير أن يكون جمعهم خداجاً مستنتجين للفوز بخاطرنا الشريف مقدمات الامتثال والسمع والطاعة لله ولرسوله استنتاجاً، مقدمين بين يديهم هداياهم مترسين بأبنائهم وإخوانهم وسراياهم، مادين أعناق الامتثال، عاضين بالنواجذ على الخدمة وصالح الأعمال، فأتوا بمؤنتهم على قدر الاستطاعة، ومهدوا لسلوك الجيش السعيد ما صعب من طرقهم حتى صارت مسلوكة مشاعة، ونحن في كل ذلك نعاملهم بالبرور، ونبسط البشر إليهم ونقابلهم بما ارتسم فيهم من السرور، وها نحن بحول الله جادون في الخلوص إلى المقصد الذي لأجله نقلنا هذه الخطوات، واستعملنا

فيه الفكر وأسهرنا أحداق الاعتبارات، من صرف النظر لفتح مرسى آساكا، مركز ساحل وادي نول، ومجمع القبائل العربية والبربرية ومنتهى ذلك المسكون ولا سيما من جاءت بينهما كالام والعنصر وهما كالتوأمين لها يستمدان منها ويرضعان خلاصة لبن ثديها، وهما القبيلتان الباعمرانية والتكنة ومن تراكم عليهما وارتدف، من قبائل العرب والبربر أو كان على حكمهما فيما ارتضع وارتشف، هذا إن كانت تصلح لذلك وتعود منفعتها على المسلمين والإسلام بعد الاستخارة مراراً في اختطاطها وتتحقق بصلاحيتها كشفاً واستبصاراً، ونتوخى في الإقدام على ذلك بحول الله الأسد من الأنظار، والمنهاج القويم الجاري على اعتراف هاتيك الأقطار، ثم إن كانت موافقة للأصلح أقدمنا وإن لم يظهر وجه المصلحة أعرضنا عنها إلى غيرها، قال الله العظيم: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:106] وما آل إليه الأمر نعلمكم به ونشنف آذانكم بما سنح من سره، فإنه لكل عمل نتيجة بعد العنوان، والله المولى المستعان والهادي إلى سواء السبيل، وهو نعم المولى ونعم الوكيل والسلام في تاسع شعبان الأبرك عام ثلاثة وثلاثمائة وألف. ثم تجاوز السلطان أيده الله قطر السوس الأقصى إلى صحراء كليميم فوفدت عليه هناك أشياخ عرب معقل وكبراؤها خاضعين مطيعين، وفرحوا بمقدم السلطان ووطئه بلادهم غاية الفرح حتى لقد اتخذوا موضع خبائه الذي كان مضروباً به مزاراً يتبركون به إلى الآن، إذ لم يكونوا هم ولا آباؤهم من قبل رأوا سلطاناً بأرضهم ولا سمعوا بوصوله إليها، وأجروا خيولهم وإبلهم بمحضره ولعبوا عليها بالبارود، إذ عادة عرب الصحراء أن يسابقوا على الإبل كما يسابقون على الخيل، ومن هناك وجه السلطان أيده الله كتيبة من جيشه إلى مرسى طرفاية فغيروا ما كان أحدثه أولئك التجار من النجليز بها، وطمسوا أعلامه وفر من كان بها من النصارى إلى بابوراتهم التي كانت على ذلك الساحل، وأمر أيده الله ببناء مرسى آساكا واتخاذها محلاً للوسق والوضع هناك، ورتب الحامية والعسات بتلك

السواحل من آكادير إلى كليميم، وكتب بذلك كله إلى ولاة المغرب، وقفل راجعاً فأوقع في رجوعه بقبيلة ذاوتنان من أهل السوس الأقصى، ثم كانت عاقبة القضية النجليزية أن قام فهيا أرباب دولتهم وقعدوا وخبوا في التشغيب على عادتهم ووضعوا حتى وقع الصلح على مال دفعه السلطان إليهم تسكيناً للأمر ودفعاً لما هو أعظم والأمر لله وحده.

وفي عشية يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية من السنة المذكورة غيمت السماء غيماً كثيفاً أسود وذلك بمراكش ونواحيها وهبت ريح سوداء مع رعد قاصف ثم نزل برد مثل البيض وأعظم، وتهدمت بمراكش دور كثيرة ومات تحت الهدم خلق كثير نيفوا فيما قيل على المائة وفر الناس إلى أضرحة الأولياء بعد أن ودعوا عشائرهم وأحبتهم ولزموا الاستغفار والتضرع إلى الله تعالى حتى انجلى الغيم بعد نحو ساعتين والحمد لله على حلمه بعد علمه وعلى عفوه بعد قدرته.

وفي هذه السنة اشتد حرص أجناس الفرنج على تنقيص صاكة الأعشار وطلبوا من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكة السلع الموسوقة التي كانت مسرحة من قبل وأن يسرح لهم ما كان مثقفاً قبل ذلك وأبدؤوا في ذلك وأعادوا وقاموا فيه وقعدوا، فلما رأى السلطان أيده الله شدة حرصهم وتكالبهم كتب كتاباً إلى الرعية يستشيرهم فيه ويقول بعد الافتتاح: أما بعد، فقد كان طلب منا بعض نواب الأجناس بطنجة على وجه الخير والمحبة فيما سلف من أعوام تجديد شروط التجارة بقصد تسريح الأشياء الممنوعة الوسق كالحبوب مطلقاً والأنعام والبهائم ونحو ذلك ونقصان صاكة الخارج ذاكرين أن تسريح ذلك فهي النفع لبيت المال وللرعية وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندافع ونسدد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال عملاً بقول سيد الوجود ﷺ في وقائع وقضايا «**سددوا وقاربوا**» لإبقاء ما كان على ما كان، إذ لا أقل من ذلك سيما في هذا الزمان الذي أشار إليه ﷺ بقوله: «**يأتي على الناس زمان يمر فيه الحي على قبر الميت فيقول: ليتني مكانك**» وحاشى لله

أن نتسبب للمسلمين في غلاء أو نوافق لهم على ضرر وكفى بالله شهيداً، وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليهم والنبي ﷺ يقول: «**كلكم راع وكل راعٍ مسؤول عن رعيته**» والآن قد اشتد حرصهم على ذلك وتمالؤوا فيه على كلمة واحدة وصمموا عليه ولما أفضى الحال إلى ما أفضى إليه مما لا ينبغي ولم يمكن إلا الإعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به استشرنا فيه جميع من يشار إليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء والدهاء موثوقاً بديانته وأمانته فلم يشيروا فيه بخير واتفقوا على أن لا مصلحة في تسريح ذلك أصلاً، وبينوا ما يترتب على الكل من المفاسد ففصل الحيوان أول ما يترتب على تسريحه من الضرر غلاؤه على ضعفاء الرعية بل يؤدي إلى فقده بالكلية من هذه الإيالة، وأشياء أخر لا يفي بها التعبير هنا، وفصل النقص من الصاكة يترتب عليه ضعف المدخول الذي منه يقوم المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض منهم كتضعيف المكوس وضرب الخراج عليها تقوية لبيت المال والجيوش، وما أبداه بعض نواب الأجناس الراغبون في تسريح ذلك من المصالح المالية العائدة على رعيتنا السعيدة على مقتضى ما ظهر لهم ردوه بما يطول شرحه ولا يفي به قرطاس ولما رأينا الأمر استحال إلى أسوأ حال أو كاد تداركنا هذا الخرق بالرفء وجنحنا إلى السلم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61] الآية، وارتكبنا أخف الضررين، فاقتضى نظرنا الشريف أن ظهر لكم درءاً لتلك المفاسد المقدم على جلب المصالح أن يساعدوا على تسريح أشياء بقصد الاختبار، من تلك الأمور الممنوعة الوسق كالقمح والشعير وذكران البقر والغنم والمعز والحمير ثلاث سنين فقط، على شرط الاختبار في المنفعة التي ذكروها في تسريحه، الكل بأعشاره المعلومة في مثله على أن يكون تسريح ذلك في وقت غلته مع وجود الخصب مدة من ثلاثة أشهر وبعد مضيها يثقف، ولا يسمع كلام من أحد في تسريحه ولا يقبل منه عذر فيه، وفي العام المقبل إذا كان صالحاً يسرح ثلاثة أشهر بقصد الاختبار أيضاً، وإذا كان ناقصاً لا يقع اختبار بتسريحه المدة

المحدودة، ويبقى مثقفاً على أن ذلك ليس بشرط وإنما هو على سبيل الاختبار حتى يظهر، ولتعلموا أنكم لن تزالوا في سعة فإن ظهر لكم ذلك فالأمر يبقى بحاله، وإن ظهر لكم ما هو أسد وأحوط في الدفاع عن المسلمين فأعلمونا به إذ ما أنا إلا واحد من المسلمين، وأعلمناكم بما كان امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي﴾ [آل عمران:159] وإلا فما ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة:11] والسلام في سابع رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أعزه الله. ولما قرئ هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بأن الرأي ما رآه السلطان وفقه الله إلا ما كان من بعض العامة الأغمار الذين لم يجربوا الأمور ولا اهتدوا إلى النظر في العواقب فإنهم قالوا: ما نعطيهم إلا السيف لكن لم يلتفت إليهم.

وقد كتبت في هذه المسألة جواباً مطولاً رأيت إثباته هنا خشية ضياعه ونصه: اعلموا حفظكم الله أن النظر في هذه النازلة يكون من وجوه، **أحدها** من جهة الفقه والحكم الشرعي، **ثانيها** من جهة الرأي والسياسة وهذا لا بد أن يجري على ضابط الفقه أيضاً، **ثالثها** من جهة الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار، فأما الوجه الأول فاعلم أن الفقهاء رضوان الله عليهم قد نصوا على أنه لا يجوز بيع آلة الحرب من السلاح والكراع والسروج والترسة ونحو ذلك من الكفار الحربيين لما يخشى من تقويهم بذلك على المسلمين، هذه علة المنع وهي تفيد أمرين: **أحدهما** أن كل ما هو في معنى السلاح مما يفيدهم تقوية حكمه حكم السلاح في المنع وهو منصوص عليه فلا نحتاج إلى التطويل بجلبه. **ثانيهما** إن ما لا يتقوون به يجوز بيعه منهم كيف ما كان، وعدم التقوي يكون بأحد وجهين: إما بكون ذلك المبيع ليس من شأنه التقوي به في الحرب كبعض المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرح لهم اليوم وقبله بزمان. وإما بكونه من شأنه أن يتقوى به فيها ولكنه عديم الفائدة بالنسبة إلى حالهم اليوم لما تقرر من أنهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع الآلات الحربية إلى

حيث صارت آلاتنا عندهم هي والحطب سواء، والدليل على ذلك أنهم يبيعوننا أنواعاً من الآلات الحربية نقضي العجب من جودتها وإتقانها، ومع ذلك فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعوننا منها إلا ما انعدمت فائدته عندهم، لكونهم ترقوا عنها إلى ما هو أجود منها واستنبطوا ما هو أتقن وأنفع إلا فيما قل، وعلى هذا فتنبغي اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم فضلاً عن غيره لجزمنا بأن ذلك لا يفيدهم في معنى التقوي شيئاً، وإن كانت هناك فائدة فهي كلا فائدة، هذا إذا لم نتوقع ضرراً منهم عند امتناعنا من البيع، فأما إذا كنا نتوقعه منهم كما هو حالنا اليوم فيرتقي الحكم عن الجواز إلى ما هو فوقه وللضرورة أحكام تخصها. فإن قلت: فقد أقدمت بهذا الكلام على ما لم يقدم عليه أحد قبلك في استجازتك بيع السلاح من الحربيين. قلت: إنما ذكرت السلاح توطئة لما الكلام فيه حتى يؤخذ حكمه بالأحرى، ثم إني ما أقدمت عليه إلا بالقاعدة الفقهية لا مجازفة كما أقدم من قبلي على إجازة بناء الكنائس بأرض المسلمين لأجل الضرورة الداعية إلى ذلك، فقد أفتى علماء الأندلس في القرن الخامس بالإذن للنصارى في إحداث الكنائس بأرض العنوة وبما اختطه المسلمون من الأمصار، مع أن الموجود في كتب السلف هو المنع، وما ذلك إلا لأن الأحكام المرتبة على الأعراف تختلف باختلاف تلك الأعراف، قال القرافي في كتاب الأحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام في السؤال التاسع والثلاثين ما نصه: «إن قلت: ما الصحيح في هذه الأحكام الواقعة في مذهب مالك والشافعي وغيرهما المرتبة على العادة والعرف اللذين كانا حاصلين حالة جزم العلماء بهذه الأحكام فهل إذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد ما كانت تدل عليه أولاً فهل تبطل هذه الفتاوى المسطورة في الكتب ونفتي بما تقتضيه هذه العوائد المتجددة أو يقال نحن مقلدون وما لنا أحداث شرع لعدم أهليتنا للاجتهاد فنفتي بما في الكتب المنقولة عن المجتهدين؟ فالجواب إن إجراء هذه الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة

المتجددة، وليس ذلك تجديداً للاجتهاد من المقلد حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد» اهـ. ونحوه له في كتاب الفروق ونقله عنه الأئمة واعتمدوه فبان من هذا أنه لا معنى للإفتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أياً كان إلا المصحف والمسلم وما في معناهما لأنهم بلغوا اليوم من القوة إلى الحد الذي لم يكن لأحد في ظن ولا حساب إلا أن يريد الله كفايتنا إياهم بأمر من عنده فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه وذلك ظننا به تعالى. فإن قلت: ههنا مضرة أخرى تمنع من بيع ما طلبوه وهي التضييق على المسلمين في معايشهم ومرافقهم لأنهم إذا أكبوا على شراء هذه الأشياء فلا بد أن تغلو وترتفع أثمانها وفي ذلك من الإضرار بالمسلمين ما لا يخفى ولذا أفتى الأئمة بمنع الحكرة في كل ما للناس به حاجة من طعام وأدام وعروض، فإن كان في الحال سعة ولم يضر الاحتكار بالناس جاز في الطعام وغيره، قلت: والناس اليوم والحمد لله في سعة وأما حصول التضييق عليهم في معايشهم ومرافقهم بسبب تسريح وسق هذه الأشياء للنصارى فمشكوك فيه قد يحصل وقد لا يحصل، والشك مطروح في نظر الشرع بخلاف المضرة المتوقعة منهم عند المنع والمحاربة فمقطوع بها نظراً للقرائن القوية والعادة. فإن قلت: بل الغالب حصول التضييق لا أنه مشكوك فقط، قلت: ليس بغالب، فقد رأيناهم منذ أزمان وهم مكبون على وسق أشياء كثيرة مثل القطاني وغيرها ومع ذلك لم يحصل فيها والحمد لله إلا الرخاء، بل الحق إن هذا من علم الغيب لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بغلبة ولا قلة لأن الحكم في ذلك بالتخمين من باب التخرص على الله تعالى في غيبه وهو حرام على أن النصارى إذا اشتروا منا شيئاً من ذلك فإنما يشترونه بالثمن الذي له بال ويعشرونه بالصاكة التي لها بال فتحصل الأرباح للرعية وللسلطان وهذه منفعة مقطوع بها، وأما الغلاء فمشكوك كما قلنا، والحاصل أن الأبحاث والتفريعات في هذا الموضوع كثيرة، وفي هذه النبذة كفاية لمن استبصر والله الموفق، وأما الوجه الثاني وهو النظر من جهة الرأي والسياسة ولا بد فيه من

الفقه أيضاً إذ كل سياسة لا تستضيء بنور الشرع فهي ضلال فنقول: لا يخفى أن النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد والمسلمون لم الله شعثهم وجبر كسرهم على غاية من الضعف والاختلال، وإذا كان كذلك فكيف يسوغ في الرأي والسياسة بل وفي الشرع أيضاً أن ينابذ الضعيف القوي أو يحارب الأعزل الشاكي السلاح وكيف يستجاز في الطبع أن يصارع المقعد القائم على رجليه أو يعقل في النظر أن تناطح الشاة الجماء الشاة القرناء كما قال الشاعر:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه   وقد حيل بين العير والنزوان

فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة ولا وردت به شريعة، فهذا رسول الله ﷺ وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه قد صالح المشركين يوم الحديبية صلحاً قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم. نحن المسلمون فكيف نعطي الدنية في ديننا، ورد أبا جندل رضي الله عنه إلى المشركين وهو يرسف في قيوده ويصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين كيف أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني والقصة مشهورة لا حاجة إلى التطويل بها، وقد عزم رسول الله ﷺ يوم الأحزاب أن يعطي عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان ثلث تمر المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما حين أحسوا من أنفسهم بمقاومة العدو، وأين نحن منهم ديناً ويقيناً وبصيرة وثباتاً في الحرب، وقد أفتى الفقهاء رضوان الله عليهم لأجل هذا الوارد عن رسول الله ﷺ بجواز عقد الهدنة مع الكفار على إعطاء المال، انظر المختصر وغيره، فإذا كان إعطاء المال مجاناً جائزاً عند الضرورة فكيف لا يجوز إعطاء بعض المتمولات بأثمانها التي لها بال، وأيضاً فهؤلاء الأجناس إنما دعونا في ظاهر الأمر إلى السلم لا إلى الحرب وغاية مطلوبهم في هذه النازلة الاستكثار من ضروب المتاجرة التي ينشأ عنها في الغالب كثرة الممازجة بيننا وبينهم، ولعمري أن في اختلاطهم بنا وممازجتهم لنا لمضرة وأي مضرة وما يعقلها إلا العالمون، ولكنها تستصغر بالنسبة إلى

مضرة المحاربة، وليس من الرأي والسياسة أن يدعوك خصمك إلى السلم فتدعوه إلى الحرب ما وجدت إلى السلم سبيلاً، وهذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ يوم الحديبية فإنه قال لأصحابه لما اغتاظوا من ذلك الصلح وقال بعضهم والله ما هذا بفتح: «**لقد صددنا عن البيت وصد هدينا بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم من الأمان**» إلى آخر ما قاله ﷺ، وإلى هذا ونحوه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 61] ذكر تعالى ذلك عقب قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60] إشارة إلى أن الصلح يجوز ولو كان بالمسلمين قوة واستعداد كما نبه عليه بعض المفسرين فكيف ولا قوة ولا استعداد إلا أن يتداركنا الله بلطف من عنده، واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أم لا والصحيح كما في الكشاف وغيره إن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام مصلحة للإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا إلى الهدنة أبداً اهـ. وهذ مذهبنا ومذهب غيرنا ولذلك جازت عندنا الهدنة وإن على مال كما مر فدلت الآية الكريمة على أن السلم أولى من الحرب وهذا هو المعلوم المسلم شرعاً وطبعاً، أما الشرع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128] وقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: 191] وهاتان الآيتان وإن نزلتا في شيء خاص لكن يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفي غيره إذ هما من الكلام الجامع الجاري مجرى المثل والحكمة، وعن علي رضي الله عنه: «ما دعوت إلى المبارزة قط وما دعاني أحد إليها إلا أجبته»، فقيل له في ذلك فقال: «**الداعي إلى الحرب باغ والباغي مصروع**»، وأما الطبع فلا يحتاج إلى شاهد لأن كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب، وقد قال شريك لمعاوية رضي الله عنهما في مقاولة جرت بينهما: «إنك ابن حرب والسلم خير من الحرب» وقال الحصين بن نمير السكوني لابن الزبير رضي الله عنه يوم مات يزيد: اذهب معي إلى الشام لأدعو الناس إلى بيعتك فلا يتخلف عنك أحد فقال ابن

الزبير: أما دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا، وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين: أكلمك سراً وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى السلم والخلافة وتدعوني إلى الحرب والمناجزة، كذب من زعم أنك داهية العرب اهـ، فقد عاب عليه ذلك. من جهة الرأي كما ترى، وأنشد صاحب الكشاف وغيره لدى قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61] قول العباس بن مرداس رضي الله عنه:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وفي كتاب الفتن من صحيح البخاري ما نصه: كان السلف يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن:

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ولت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء ينكسر لونها وتغيرت مكروهة للشم والتقبيل

قال القسطلاني: المراد أنهم يتمثلون بهذه الأبيات ليستحضروا ما شاهدوه وسمعوه من حال الفتنة، فإنهم يتذكرون بإنشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهر أمرها أولاً اهـ. ولا شك أن هذه حالة العامة الأغمار الذين لم تضرّسهم الحروب ولا حنكتهم التجارب تجدهم إذا ظهرت مخايل فتنة نسأل الله العافية استشرفوا إليها وتمنوا خوضها وربما تألى بعضهم وقال: والله لئن حضرتها لأفعلن وأفعلن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تتمنوا لقاء العدو**» وحال هذا الغمر المتألي هو الذي أفصح عنه المتنبي بقوله:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

فهذا القطر المغربي تدارك الله رمقه على ما ترى من غاية الضعف وقلة الاستعداد فلا تنبغي لأهله المسارعة إلى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة، وقد تقرر في علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة إنما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المتخالفين، وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل وإنما هو من

باب التخالف فافهم، بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو في القوة والاستعداد لما كان ينبغي لهم ذلك لأنه ليست العدة وحدها كافية في الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذي يغني فيها شيئاً، بل لا بد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب رجل واحد ولا بد مع ذلك من ضابط بجمعهم وقانون يسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعاً ويقعد جميعاً، وهذا معنى ما صح في الحديث من قوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»** فإن لم يكن ضابط وقانون فلا بد من نفاذ البصيرة في الدين وقوة اليقين والألفة فيما بين المسلمين والغيرة على الوطن والحريم وجودة الرأي والتمرس بالحروب ومكايد المشركين، وأهل المغرب اليوم إلا القليل منسلخون من هذا كله أو جله، فقد توالت عليهم الأجيال في السلم والهدنة وبعد عهد أسلافهم فضلاً عنهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الأعداء ومكايدها وإنما همهم مأكولهم ومشروبهم وملبوسهم كما لا يخفى حتى لم يبق من هذه الحيثية فرق بينهم وبين نسائهم، وليس الخبر كالعيان، فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع أجناس الفرنج وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء والآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيراناً ولا يهتدي إليه سبيلاً، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء؟ وهل يكون في ذلك إن كان إلا هلاك هذا وسلامة ذاك بل وغنيمته فإن ذاك ينقر هذا متى وجد فيه فرصة للنقر ويبعد عنه ويطير إذا لم يجدها وهكذا يستمر حاله معه حتى يثبته أو يملكه بالكلية، وليس في طوق هذا إلا أن يدفعه عن نفسه في بعض الأحيان إذا تأتى له ذلك، ولكن إلى متى فهكذا حالنا مع عدونا فإنه بقراصينه الحربية ذو أجنحة كثيرة فهو علينا بالخيار يهجم علينا في ثغورنا إذا شاء ويبعد عنا فلا ندركه متى شاء، وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا إذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الأعراب من خلفنا وهيهات فقد جرب ذلك مراراً فصح والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال عليه السلام، والكلام في

هذا الفصل أيضاً طويل وفيما أشرنا إليه كفاية. فإن قلت: أراك قد صيرت الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنة وقد زهدت الناس فيه وقطعت آمالهم منه بهذا الكلام. قلت: أعلمت يا أخي ما هو الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم؟ اعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان على إعلاء كلمة الرحمٰن لينساقوا بذلك إلى الدخول في دين الله طوعاً أو كرهاً، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى مع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة على دين الله، وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها، ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا كان إلى الفتنة أقرب منه إلى الجهاد، بل نقول إن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أحقاب فكيف تطلبه اليوم فإن كنت تسارع إلى الحرب لتدركه جهلاً منك بحقيقة الأمر فاعلم أنك إنما تسارع إلى إيقاد نار الفتنة وإيجاد العدو السبيل عليك وإمكانه من ثغرتك وتسليطه على السبي لحريمك ومالك ودمك نسأل الله العافية، اللّهم إلا أن تكون ممن اختارهم الله وأهلهم لذلك وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه كما نسمع اليوم عن أمة الحبشة والنوبة الذين يقاتلون عساكر النجليز على تخوم صعيد مصر وغيرها فقد تواتر النقل وصح الخبر أن دولة النجليز قد بارت حيلها مع هؤلاء القوم وأنها وجهت إليهم العساكر من الديار المصرية بكل قوة وشوكة مرة بعد أخرى فمحقوهم محقاً مع أنهم لا يقاتلونهم في الغالب إلا بالحراب على عادة السودان في ذلك والنصر بيد الله، وأما الوجه الثالث وهو الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار فهذا حق الكلام فيه أن يكون من أرباب البصائر المتنورة والقلوب المطهرة لا من أمثالنا الذين أصبحوا على أنفسهم مسرفين، وفي أودية الشهوات منهمكين تداركنا الله بلطفه، لكنا نقول وإن كان القول من باب الفضول: إذا نظرنا ما عامل الله تعالى به عبده أمير المؤمنين مولانا الحسن أيده الله وجدناه والحمد لله مصنوعاً له مصحوباً بالعناية الإلٰهية، مكلوء بعين الرعاية الربانية تصحبه السعادة أينما توجه ويختار له في جميع ما يحاوله، ولا تنجلي مهماته إلا عن

ما يسر الصديق ويسوء العدو، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً وهو مع ذلك جميل الظن بربه، حسن العقيدة في توكله عليه، مفرداً وجهته إليه حريصاً على استصلاح رعيته، ذا غيرة تامة على الدين والوطن بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيراً من ملوك عشيرته الذين تقدموه، وإذا كان كذلك فمن الرأي الذي لا رأي فوقه أن نفوض إليه في ذلك ونثق بحسن رأيه ويمن نقيبته ونجاوبه في هذه النازلة بأن الأمر في ذلك إليه لا إلى غيره إذ هو الذي طوقه الله أمرنا وكلفه النظر لنا والنصح لدينا، وإن كان لا بد من المشورة فليست إلا مع أهل الحل والعقد، وقد قال العلماء: أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الأمر الخاص لأنه يشترط في كل من ولي النظر في أمر ما من الأمور العلم به فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه، وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيناه، وكيف لا وما عوده الله إلا خيراً ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ الآية، وعسى أن يكون فيما طلبه هؤلاء الأجناس فساد أمرهم وصلاح أمرنا وذلك الظن به تعالى وما هو عليه بعزيز، فيكون تدميرهم في تدبيرهم وقد استروحنا والحمد لله نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم، تمم الله علينا نعمته آمين، وأيضاً ففي التفويض في هذه النازلة ضرب من التبري من الحول والقوة فحيث ساقت الأقدار إلينا هذا الأمر فينبغي أن نتلقاه بالرضى والتسليم بخلاف ما إذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا فيكون من باب الدخول في التدبير وشتان ما بين التفويض والتدبير، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري كان الله له في عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف اهـ. ثم إن الله تعالى لطف في هذه النازلة بمنّه اللطيف الجميل، وكفى مؤنتها من ذلك المطلوب بشيء قليل، وذلك أن السلطان أيده الله سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاث سنين ووضع عنهم من صاكتهما نحو الربع لا غير ولم يحصل والحمد لله للرعية ضرر قط.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة وألف فيها كتب السلطان مولاي الحسن أيده الله إلى علماء فاس كتاباً يستفتيهم في حكم التجارة في الأعشاب المرقدة

والمفسدة ويستشيرهم في تسريحها وإمساكها، ونص ذلك الكتاب بعد الافتتاح: أحباءنا فقهاء فاس الأجلة المرضيين وعلماءها المرشدين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فطالما قدمنا رجلاً وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة التي هي الأعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها وكان تسريحها من أهم الأمور لدينا وآكد من تسريح غيرها كالأبواب لما نجده في نفسنا لها من الاستقباح ونستقذره من أمرها في الغدو والرواح، مع مزيد ثقلها على فؤادنا وكونها أحرج في روعنا، وكان أسلافنا قدسهم الله اجتهدوا في قطعها وحسم مادتها بكل ما أمكنهم وأفضى بهم الحال إلى إحراقها مراراً ولما رأوا تمالؤ الرعاع والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ارتكبوا فيها ما يحصل به التضييق على مستعمليها وتمنع منهم فلا يلحقها إلا من عنده ما يشريها به وهم في أولئك الرعاع قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من النفع الكثير فحيزت لجانب المخزن لتحصيل المقصدين المذكورين، وحيث قذف الله في قلبنا تسريحها ورفض درن ما يحصل منها تعارض لدينا أمران: وهما إبقاؤها بيد المخزن وتسريحها، أما الأول فهو الذي فررنا منه وبينا علله، وأما الثاني وهو التسريح فمقتضاه إغراء الرعاع والسفهاء على استعمالها ولا سيما مع انحطاط ثمنها فيتناولها القوي والضعيف فيصير ذلك ذريعة إلى إباحة ما كانوا ممنوعين منه فيتجاهرون به ولا يخشون رقيباً، ويأتي منها من بر النصارى ما لا حصر له فيعشر كسائر المعشرات المباحة وتنبني على ذلك مفاسد هي أعظم من كونها محوزة وأشكل الأمر فلتبينوا المخلص من ذلك بما تقتضيه قواعد الشريعة المطهرة حتى نخرج من عهدة ذلك فإن الخطب عظيم والسلام في الثالث والعشرين من المحرم عام أربعة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله. وأجاب عنه علماء فاس وفرهم الله بجواب طويل مرجعه إلى حرمة استعمال تلك الأعشاب والتجارة فيها حسبما عليه الجمهور من الفقهاء والصوفية رضوان الله عليهم، ولما كان المقصود الأهم للسلطان أيده الله هو الإشارة بكيفية التخلص من ورطة تسريحها والحصول على السلامة مما عسى أن ينشأ عنه من المفاسد المرموز إليها في الكتاب الشريف كتب

إلى بعض الأحبة من فاس بقصد المذاكرة في النازلة فأجبته عنها بما نصه: اعلم حفظك الله أن ما أجاب به سادتنا فقهاء فاس من حرمتها ووجوب تخلي المخزن عن بيعها هو الحق الذي لا محيد عنه لما اشتملت عليه تلك الأعشاب من المفاسد العديدة التي كل واحدة منها كافية في الجزم بحرمتها وقد بينا شيئاً من ذلك في كتاب الاستقصاء عند الكلام على حدوثها ودخولها لبلاد المغرب أيام المنصور السعدي فلينظره من أراده فإنه كاف في هذا الباب، وأما ما أشار إليه الكتاب الشريف من أن مصلحة احتياز المخزن لها واستبداده ببيعها هي التضييق على مستعمليها حتى لا يتناولها منهم إلا الملي بثمنها دون الفقير الخ فهي مصلحة موهوبة أو معدومة لجزمنا بأن الحامل لمتعاطيها على استعمالها إنما هو التبذل وقلة المروءة ورقة الديانة وخسة النفس وسقوط الهمة كما أن الوازع لمن لم يتعاطاها إنما هو كمال المروءة ومتانة الديانة وشرف النفس وعلو الهمة لا فقدان ذلك الثمن التافه كيف لا وهي لا يتعاطاها في الغالب إلا الفقراء المقلون، فمصلحة التضييق عليهم في ثمنها مفقودة كما ترى، وإذا كان كذلك فالواجب شرعاً ومروءة هو تنزيه منصب الإمامة الإسلامية والخلافة النبوية التي هي أهم الخطط الدينية والمناصب الشرعية عن التجارة فيها وتطهير تلك الساحة الكريمة من التلوث بأقذارها إذ لا يناسب ذلك حال مطلق المسلمين فكيف بجناب أمير المؤمنين، وأيضاً ففي تناول ذلك الجناب لها بالتجارة والاستبداد بالربح تهييج للعامة عليها وإغراء لهم بتعاطيها كما قرره علماء فاس حفظهم الله، ولو نهوا عنها لما انتهوا بل ربما احتجوا بأنها لو كانت حراماً ما احتازها المخزن واستبد بربحها، ومن العادة المقررة أنه لا يمتثل إلا قول الممتثل ولا يؤتمر إلا بأمر المؤتمر، ولما انبرم الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية وأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا أمسكوا ولم يفعلوا حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام ﷺ فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله اخرج ثم لا تكلم منهم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج ﷺ

ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كادوا يقتتلون اهـ. فكذلك نقول هنا إن العامة مهما رأوا الأمير تعاطى شيئاً تعاطوه، وإذا رأوه نبذ أمراً نبذوه لأن العامة مولعون بالاقتداء بالأمير ومن في معناه من الكبراء حسبما قرره ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران من تاريخه، وأما التخوف من الإتيان بها من بر النصارى واشتغالهم بالتجارة فيها بأسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها وما ينشأ عن ذلك من المفاسد فهو مأمون بمقتضى الشروط المنعقدة بيننا وبينهم حسبما تضمنه الشرط الثاني والخامس والسابع من شروط التجارة المنعقدة مع النجليز خصوصاً وغيره عموماً سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، فقد صرح في الشرط الثاني منها بأن هذه الأعشاب ونحوها من جملة الممنوعات دخولاً وخروجاً، ثم نبه على ذلك أيضاً في الخامس والسابع فلينظره من أراده وإنما يكون لهم بعد تخلي السلطان عن بيعها أن يجلبوا منها ما يحتاجونه لأنفسهم فقط لا أكثر منه كالخمر ألا ترى أنهم اليوم إنما يجلبون منها ما يشربونه ويتبايعونه فيما بينهم ولا سبيل لهم إلى التجارة بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها فكذلك هذه الأعشاب حكمها حكم الخمر حذو النعل بالنعل، وإذا امتنع المخزن من التجارة فيها مع بقاء منع الرعية منها أيضاً فلا حجة للنصارى في ذلك ولا متكلم لهم فيه إذ ليس في امتناع المخزن حينئذ إلا تأكيد المنع الذي كان قبل وإنما تكون لهم الحجة إذا بيعت لبعض الرعايا دون بعض لأن حاصل شروط التجارة الخمسة عشر ومدارها على أن رعايا الأجناس يكون لها ما لرعية الإيالة المغربية من التحجير والإطلاق والتخصيص والتعميم بحيث لا يستبد أحد من الفريقين بنوع من أنواع التجارة دون الآخر إلا ما للمخزن فيه غرض ومصلحة في تثقيفه من أشياء مخصوصة فإنه يثقفه بنظره إذا شاء ويسرحه كذلك متى شاء، وإن اقتضى نظره أن يستبد بأرباح شيء من ذلك دون رعايا الفريقين فله ذلك وإنما الممنوع أن يبيح لرعيته دون رعايا غيره أو يبيح لبعض الأجناس دون بعض هذا هو الممنوع في الشروط، أما هو في خاصة نفسه ومصلحة ملكه فله أن

يستبد من تلك الممنوعات بما شاء، هذا حاصل تلك الشروط وإن طالت وامتدت، إذا علمت هذا فكيف يتخوف عند امتناع السلطان من بيع تلك الأعشاب مع استمرار منع الرعية منها أيضاً الإتيان بها من بر النصارى ومتاجرتهم بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لها الخ. هذا لا يتوهم، نعم يتخوف من ذلك إذا امتنع السلطان من بيعها وأذن للناس فيه وأطلق لهم يد التصرف به، وليس هذا مراد السلطان أيده الله وإن أوهمه لفظ الكتاب الشريف حيث قال: طالما قدمنا رجلاً وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة الخ. ولعل الكاتب أو المملي عليه لم يحرر مراد السلطان أيده الله فنسج الكتاب على ذلك المنوال وأوهم أن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن يمتنع من بيع تلك الأعشاب تقذراً لها وتأففاً منها ويبيحها لرعيته من المسلمين وغيرهم، ومعاذ الله أن يكون هذا مراده كيف وهو أيده الله من أخشى الملوك وأتقاهم لله وأحبهم لرعاياه وأحدبهم عليها وأحرصهم على جلب النفع لها ودفع الضر عنها وأعلمهم بقول جده عليه الصلاة والسلام: «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه**» فقد بان لك من هذا التقرير أن الواجب شرعاً ومروءة هو المبادرة إلى رفض التجارة في تلك الأعشاب وتطهير ساحة الإمامة الإسلامية من قذرها، قال الله تعالى في وصف رسوله صلوات الله عليه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:157] وكما يجب على أمير المؤمنين أيده الله تطهير ساحة الخلافة منها يجب عليه السعي في تطهير ساحة المسلمين أيضاً منها لما أسلفناه آنفاً. فإن قلت: أما ما ذكرته من المبادرة إلى تطهير ساحة الخلافة منها فسهل متيسر إن شاء الله. وأما تطهير ساحة المسلمين منها فيظهر أنه في غاية الصعوبة لأن العامة إذا حملوا على رفضها كرة وألجئوا إلى ترك استعمالها بالمرة ضاق بهم المتسع وساءت أخلاقهم وحاصوا حيصة حمر الوحش، وربما صدر منهم ما لا ينبغي من الإعلان بالخلاف والمجاهرة بالعصيان.

ومن وصايا أرسطوطاليس الحكيم لتلميذه الإسكندر: يا إسكندر تغافل عن العامة ما أمكن ولا تلجئها أن تقول فيك إلا خيراً، فإن العامة إذا قدرت

أن تقول قدرت أن تفعل، أو كلاما هذا معناه، والحاصل أن فطم العامة عما اعتادوه من بعض الجهالات وصرفهم عما مرنوا عليه من بعض الضلالات في غاية الصعوبة ولا يتيسر ذلك إلا لمن هيأه الله له من نبي مرسل أو ولي كامل أو إمام عادل، وإذا كان صرف العامة عن هذه المفسدة التي اعتادوها ونشؤوا عليها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن يؤدي إلى الهرج والخلاف جزماً أو ظناً فالواجب هو تركهم على ما هم عليه لأن تغيير المنكر له شروط منها أن لا يؤدي إلى منكر أعظم كما هو مقرر في الأصول والفروع.

قلنا: كل ما قررته في هذا السؤال حق لا محيد عنه، ولكن نحن لا نقول إن أمير المؤمنين أيده الله يحمل العامة على رفضها كرة ويلجئهم إلى تركها بالمرة، بل يسلك معهم في ذلك سبيل التدريج كما سلكه رسول الله ﷺ في تحريم الخمر على العرب، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ والعرب من أعشق الأمم للخمر وأشدهم بها ولوعاً وأكثرهم لها حباً حتى كانت شقيقة روحهم ومغناطيس أنسهم قد اتخذوا لها المجالس الحفيلة واختاروا لها القينات الجميلة، وضربوا عليها بالمعازف والدفوف، وحكموا لها على غيرها من مألوفاتها بغاية الشفوف، حتى نسبوا بها في أشعارهم، وتوجوا بها بنات أفكارهم، وبالجملة فلا يؤثر عن أمة من محبة الخمر ومدحها ما أثر عن العرب، فلذلك لما انصرفت عناية الشرع الكريم إلى تحريمها كان ذلك على سبيل التدريج كما هو معلوم في الكتاب والسنة حتى تم مراد الله ورسوله من العرب فرفضوها بالكلية، وسماها الشارع أم الخبائث زيادة في التنفير منها، وما حرمت آلات اللّهو إلا من أجلها ومبالغة في تحريمها إذ هي وسيلة إليها كما حققه الغزالي رحمه الله في كتاب السماع من الإحياء، وفي تفسير الخازن بعد سرده كيفية التحريم ما نصه: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق، قال أنس رضي الله عنه: حرمت الخمر ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما

حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر اهـ. إذا علمت هذا فنقول كذلك ينبغي لأمير المؤمنين أيده الله أن يسعى في تطهير رعيته من خبث هذه الأعشاب التي لا شيء أخبث منها كما أوضحته في كتاب الاستقصاء، ويسلك معهم فيها سبيل التدريج صارفاً همته إليه ومستعيناً بالله ومتوكلاً في ذلك عليه، فإنه لا يصعب ذلك عليه إن شاء الله.

إذا كان عون الله للمرء ناصراً تهيأ له من كل صعب مراده

وقال البوصيري لسيد الوجود ﷺ أقول ولأمير المؤمنين من حال جده قسط والحمد لله:

كل أمر تعنى به تغلب الأعـ ـيان فيه ويعجب البصراء

وكيفية التدريج في ذلك أن يأمر أيده الله علماء المجالس وخطباء المنابر ووعاظ الكراسي بالتواطىء على ذم تلك الأعشاب وتقبيحها في نفوس العامة وإبداء معايبها لهم، وشرح مفاسدها لديهم، والتغليظ في ذلك بأبلغ ما يمكن، ومن قدر على تأليف ألفه أو شعر نظمه أو رسالة أنشأها، ويستمرون على ذلك ثلاثة أشهر أو أربعة أو أكثر من ذلك، فإن ذلك لا بد أن يؤثر في نفوس العامة بعض التأثير فإن الهمم إذا تواطأت على شيء أثرت فيه بعون الله لا سيما همم أهل الخير، وفي الحديث **«يد الله مع الجماعة»**، ثم بعد مضي هذه المدة وتقرر قبحها في نفوس العامة يكتب أمير المؤمنين أيده الله إلى قضاته ويأمرهم بتفقد الشهود وأئمة المساجد فمن عثروا عليه أنه يستعمل شيئاً من تلك الخبائث أسقطوا شهادته وحظروا إمامته، وأن لا يقبلوه ولو في اللفيف، ويوالي الكتابة والاعتناء بذلك مدة مثل الأولى أو أكثر، فيزداد قبحها في نفوس العامة وتعزف نفوس كثير منهم عنها، ثم بعد هذا كله يكتب لولاة الأمصار وعمال البوادي أن يتقدموا إلى رعاياهم بمنع ازدراعها وادخار شيء منها أو التجارة فيه بوجه من الوجوه، فإذا تم هذا الغرض على هذا الوجه تخلى هو حينئذ عن بيعها وأمر بإحراق باقيها وسد حاناتها المسماة في عرفنا بالقهاوي ويمنع الناس من استعمالها في المجامع العامة كالأسواق ونحوها، ويشدد في ذلك ويعلن بالنداء في جميع الإيالة المغربية بأن حكم هذه

الأعشاب حكم الخمر فكما لا يتجاهر بالخمر في الأسواق ونحوها كذلك لا يتجاهر باستعمال هذه الأعشاب فيها، ومن فعل ذلك أدب أدباً يليق به ويرتدع به غيره، فهذا أقصى ما يفعله السلطان والتوفيق بعد ذلك بيد الله، وإذا تم هذا العمل في نحو ثلاث سنين فهو قريب، وإذا يسر الله ذلك كان فيه بشرى للمسلمين وعنواناً لهم على تجديد دينهم، ولعمري ما كان أمر الخمر في العرب إلا أرسخ من أمر هذه الأعشاب في الناس اليوم بكثير، وأن الشبهة كانت فيها أقوى منها في هذه، وذلك مظنة سهولة زوالها وتطهير البلاد والعباد منها وما ذلك على الله بعزيز. قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري لطف الله به في خامس عشر ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمائة وألف.

ثم إن السلطان أيده الله رفض التجارة فيها وأحرق ما كان محوزاً لجانب المخزن منها ومنع تجار الأجناس من جلبها إلى قطر المغرب إلا القدر الذي يستعملونه في خاصة أنفسهم منها بشرط تعشيره وقصر نزوله على مرسى طنجة دون سائر المراسي المغربية والحال على ذلك لهذا العهد.

ولما دخلت سنة خمس وثلاثمائة وألف غزا السلطان مولاي الحسن أيده الله آيت ومالو من برابرة فازاز وهم بطن من صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل ظيان وبني مكيلد وشقيرين وآيت سخمان وآيت يسري وغيرهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، قد عمروا جبال فازاز وملؤوا قننها وتحصنوا بأوعارها منذ تملك البربر المغرب قبل الإسلام بأعصار طويلة، فلما كانت السنة المذكورة خرج السلطان من مكناسة الزيتون عاشر رمضان منها بقصد غزو هذه القبائل العاصية وتدويخ بلادها إذ لم تكن تبذل الطاعة إلا للواحد بعد الواحد من ملوك دول المغرب في الأعصار المتراخية حسبما يعلم مما أسلفناه في هذا الديوان من أخبارهم وأخبار غيرهم، فانتهى السلطان إلى تلك الجبال ودوخها ثم إلى قصبة آدخسان التي بناها المولى إسماعيل رحمه الله فوفد عليه هناك جل تلك القبائل وبذلوا الطاعة وأظهروا الخضوع وبذلوا المؤن والأنزال للجيش والهدايا للسلطان إلا ما كان من آيت سخمان فإنهم أظهروا الطاعة أولاً كغيرهم وطلبوا من السلطان أن يبعث معهم طائفة من

الجيش ليدفعوا لهم المؤن وما وظف عليهم من الهدايا والأنزال فأرسل معهم السلطان مائتي فارس وعقد عليهم لابن عمه الشريف الفاضل الناسك مولاي سرور بن إدريس بن سليمان، وجده سليمان هذا هو أحد ملوك هذه الدولة العلوية حسبما تقدم، فلما توسطوا حلة آيت سخمان مع العشي تناجوا فيما بينهم والشيطان لا يفارقهم فاتفقوا على الغدر بأصحاب السلطان وفرقوهم على مداشرهم وحللهم، فلما كان وقت العشاء الأخيرة أظهروا علامة بينهم وسعت كل طائفة إلى من عندها من أصحاب السلطان فأوقعوا بهم فقتلوا منهم نحو العشرين على ما قيل وأفلت الباقون بجريعاء الذقن، وكان فيمن قتل منهم كبيرهم الشريف مولاي سرور المذكور، وكان من خيار عشيرته رحمة الله عليه رموه برصاصة وطعنوه بتفالة، وكانت هذه الفعلة الشنعاء بإشارة كبيرهم علي بن المكي من بقية آل مهاوش الذين تقدم الخبر عنهم في دولة السلطان مولاي سليمان رحمه الله، ثم أسروا من ليلتهم تلك فلم يصبحوا إلا بآيت حديدو وآيت مرغاد وغيرهما من قبائل البربر وتفرقوا شذر مذر وبقي منهم نفر يسير على ما قيل، فقبض عليهم من الغد وضربت أعناقهم، وقال بعض من حضر الوقعة إنهم لما فعلوا فعلتهم هربوا من تحت الليل وتركوا زروعهم وأمتعتهم في مداشرهم، ولما انتهى الخبر إلى السلطان بعث في طلبهم طائفة من عسكره وضم إليهم خيل شقيرين إخوانهم وكانوا راكبين مع السلطان مظهرين للطاعة فانتهبوا أمتعتهم وانتسفوا رزوعهم وهدموا أبنيتهم وحرقوا بيوتهم وأبلغوا في النكاية، وتحامت خيل شقيرين ذلك إبقاء على إخوانهم وتعصباً للبربرية وربما دسوا إليهم من أعلمهم بالحال، وأمرهم بالإبعاد في الارتحال، ولما اطلع السلطان على خبيئة شقيرين أمر بنهب حللهم وأسر من ظفر به منهم وقتله فأوقع بهم جيش السلطان وقعة شنعاء فأسروا منهم عدداً وافراً وضربوا أعناق نحو الثلاثين منهم وانتهبوا حللهم ومداشرهم حتى كأن لم تغن بالأمس، ومن الغد جاءت نساؤهم وأطفالهم فاستجاروا بالمدافع واستغاثوا بالسلطان فرق لهم وسرح مساجينهم وكساهم وعفا عنهم، وكان هذا كله في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة أعني

سنة خمس وثلاثمائة وألف، ثم قفل السلطان راجعاً فدخل مكناسة الزيتون أواخر ذي الحجة خاتمة السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة وألف فيها غزا السلطان جبال غمارة فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال ودوخها وزار تربة الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر أبا محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، ثم تقدم إلى مدينة تطاوين فدخلها يوم الأربعاء ثامن المحرم من السنة التي تليها أعني سنة سبع وثلاثمائة وألف فأقام بها نحو الخمسة عشر يوماً وزار صلحاءها وتطوف في معالمها وتبارى وجوه أهل تطاوين وكبراؤهم في الإهداء إليه وبذل المجهود في الاعتناء بحاشيته وجيشه وأعجب ذلك السلطان وحاشيته ورأوا منهم ما تقر به أعينهم وأنعم عليهم السلطان بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة يرتفقون بها في واديهم المحيط بمدينتهم لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم إتقان بنائها فتهدمت في الحال وضاع ذلك المال، ثم سار السلطان من تطاوين إلى طنجة ثم منها إلى العرائش ثم عاد إلى فاس فأقام بها إلى أواسط شوال من السنة المذكورة، ثم غزا آيت سخمان الذين قتلوا ابن عمه مولاي سرور فأوقع بهم وقبض على نفر منهم ولم يتمكن منهم على ما ينبغي، ثم سار إلى مراكش فأعرس لجماعة من بنيه وبناته ووفدت عليه الوفود من أقطار المغرب بالتهنئة وتباروا في الهدايا والتحف على ما ينبغي وبالغ السلطان في إكرامهم وإفاضة الإنعام عليهم واستمر أيده الله على كرسي ملكه وأريكة عزه وسلطانه والأيام سلم له والدنيا مهنأة بعزه ونصره والرعية طوع نهيه وأمره إلا ما كان من نواب أجناس الدول فإنهم أكثروا التردد إليه، والاقتراحات عليه، والتلونات لديه، فمرة بالنصائح الفارغة ومرة بالتظلمات الباطلة والحجج الواهية، وأخرى بطلب التخفيف من الأعشار والتنقيص من الصاكات إلى غير ذلك مما لا تكاد تقوم له الجبال الراسية، وهو يدافعهم ويراوغهم وحيداً لا ناصر له ولا معين إلا الله الذي أيد به الدين، وعصم به الإسلام والمسلمين.

ولما كانت سنة عشر وثلاثمائة وألف خرج السلطان مولاي الحسن أيده

الله غازياً صحراء تافيلالت وقبائلها فخرج إليها من فاس عقب عيد الأضحى من السنة المذكورة فقضى الأوطار من تمهيد تلك الأقطار على ما ينبغي، ثم كتب كتاباً إلى ولاة المغرب يصف فيه الحال وما قاساه في تلك السفرة من الحل والارتحال، فقال في كتابه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسمه المبارك ما نصه: وبعد، فإن الله تعالى لما أقام عبده بمحض الفضل والاختيار وأورثه الأرض وعمر به الأقاليم والديار، لم تكن لنا همة فيما عدا السعي في صلاح المسلمين، وانتظام أمورهم وجمع كلمة المؤمنين، ولم نأل في ذلك جهداً حتى يسر الله سبحانه قبل في الوصول إلى سائر قبائل رعيتنا السعيدة، وتخللنا أراضيهم كلها بجيوش الله المصحوبة بالعناية المزيدة، فلم نترك من الأقاليم إلا النزر الغير المعتبر، أو ما كان في الوصول إليه إلا مجرد المشقة والضرر، وتفقدنا من أحوالها الأمور وأجريناها على ما يرضي الله من الاستقامة في الورود والصدور، وكان مما بقي علينا الوصول إليه هذه الأصقاع الصحراوية والمعاقل البربرية، التي كان يفهم قبل أنها صعبة المرتقى عديمة وجوه الارتقا، فاستخرنا الله تعالى وتوكلنا عليه وفوضنا الأمر كله إليه، وعلمنا أنه تعالى إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب، وفتح إلى الوصول إليه المغالق والأبواب، وكل شيء منه وإليه كما قال ابن عطاء الله في حكمه: «إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك، وما من نفس تبديه إلا وله فيك قدر يمضيه»، فنهضنا من حضرتنا العلية فاس المحمية واستقبلنا هذه النواحي البربرية، ونصر الله وفتحه يواليان علينا في كل أوان، ويتجددان ما تجدد الملوان، ونعم الله لدينا متسابقة وتدبيرات قدرته الجلية لنا محكمة العقد متناسقة، فجاوزنا بلاد آيت يوسي مروراً وعبرنا بلاد بني مكيلد عبوراً، ووجدناهم جميعاً منقادين للطاعة أتم انقياد، ملقين لجانبنا العالي بالله الرسن والمقاد، واقفين مع النهي والأمر، لم يتخلف عنهم في ذلك زيدهم ولا عمرو، واستقبلنا بجيوش الله المنصورة وجنوده الموفورة قبيلة آيت أزدك الذين هم بيت القصيد وعتبة القصيد، فسيقت إليهم من الله الهداية وطويت عنهم أعلام الضلالة والغواية، وتلقونا بأوائل بلادهم خائفين وجلين ومن

سطوة الله فزعين، فجنحنا للعفو إيثاراً له وحرصاً على حقن الدماء وعدولاً عن القتال نظراً للصبيان والعجائز والشيوخ وضعفاء الحال، ومعاملة بالصفح لمن كان منهم ضل وغوى أخذاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة:237] وبعد أن تحققت منهم التوبة وسعوا في تحصيل مرضات الله وخاطرنا الشريف بما محا عنهم الهفوة والحبوة، وصير سيئاتهم حسنات وأبعدهم عن المثلات، فقابلناهم بما أزال دهشتهم وفزعهم وكشف جزعهم، فانشرحوا وسايروا ركابنا الشريف في زيهم وجموعهم بسرور ونشاط، مغتبطين بمقدمنا السعيد أتم اغتباط، إلى أن خيمنا عليهم بأوطاط، فأظهروا من حسن الامتثال والطاعة ما وصلوا به إلى الغاية وقاموا بواجب المحلة السعيدة من الضيافات والمبرة وشرعوا على الفور في دفع ما وظفناه عليهم من الأموال، متسارعين إلى الأداء في الحال، منقادين لكل ما أريد منهم من الأعمال، فنهضنا للتخييم بمركز بلادهم على وادي زيز، وحادي الميامين يحدو بالفتح المبين والنصر العزيز، فاستوفينا منهم فيه ما بقي من المفترض، وحصلنا منهم بعناية الله على غاية الغرض، ثم ارتحلنا عنهم مصحوبين بكتيبة منهم معتبرة وافرة العدد كثيرة المدد مشتملة على عدد له بال من خيولهم وصناديد رجالهم وحللنا ببلاد آيت مرغاد، فتلقوا ركابنا الشريف بطاعة وخضوع وانقياد، مظهرين الإذعان في كل ما منهم يراد، وقاموا بأداء الفرائض والنوافل مبتهجين بطلعتنا الشريفة في سائر المنازل وكل ذلك بتيسير الله وتسديده وإرشاده وتوفيقه وإرادته وتسهيله كما قال صاحب الحكم: «ما توقف مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك»، مع سياسة صدقت بها أنباء الكتب وادخرت بها المرهفات في الحقب، وحقنت الدماء بإراقة مداد الأقلام، وصينت الأعراض وأغنى الكلام السياسي عن الكلام، ودوخنا بلادهم كلها غورها ونجدها على ما هي عليه من الوعورة وتعاظم الجبال التي يخال أنها تنادم القمر، وتصافح الكوكب مهما بزغ وظهر، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأوضح برهانه، إلى أن حللنا بمركز أرضهم بتادغوست وبها قرار قطب رحاهم في جاهليتهم المفسد علي بن

يحيى المرغادي الذي طالما حذره الإنذار ولسان حاله يقول: لا حياة لمن تنادي، فوقع القبض عليه ووجهناه مصفداً إلى مراكش على سنة الله فيمن زلت به القدم، وصار حليف التأسف والندم، وأراح الله منه العباد وطهر منه البلاد، وفيما قبل ذلك كنا وجهنا من يستوفي من آيت حديدو ما وظف عليهم في المغارم، ويأتي من عندهم بما هو لهم لازم، فلم يظهر منهم ما يفيد ورجع الموجهون بغير طائل ولا عتيد، فترصدنا من أعيانهم وأهل الحل والعقد منهم جماعة وافرة تقرب من المائتين وقبضنا عليهم بأجمعهم جزاء وفاقاً حتى يؤدوا جميع ما فرض عليهم بحول الله، وتوجهنا والسعادة تقدمنا والميامين تحفنا وصحبة ركابنا الشريف من جيش آيت مرغاد قدر كثير العدد، قوي المدد. مشتمل على ألوف من الخيل والأبطال، وليوث الحرب والنزال، إلى أن وصلنا إلى قصر السوق فوجدنا به جيش خدامنا آيت عطة في انتظار جانبنا الشريف لمصاحبة ركابنا السعيد المنيف، وهم في عدد عديد، وقوة ما عليها من مزيد، يقربون من الأربعة آلاف فارس وكلهم ليوث عوابس، ومعهم من رماة إخوانهم عدد كثير معتبر، كأنهم سيل إذا انحدر، فنهضوا مع جانبنا العالي بالله في جموعهم وكثرة عددهم وعديدهم إلى مدغرة فتبركنا منها بمواطىء الأسلاف وتعاهدنا أمور أهلها بحسن مباشرة وإسعاف، وأنعمنا على شرفائها بعشرين ألفاً من الريال، ووجهناها إليهم صحبة ولدنا مولاي عبد العزيز أصلحه الله وفرقت فيهم صلة لهم وأداء لحقوق القرابة والاتصال، وتزودنا من دعائهم الصالح بمقبول مستجاب، يرجى أن لا يكون بينه وبين الله حجاب، ونهضنا عنهم إلى بلاد عرب الصباح فتلقوا مواكبنا السعيدة في زيهم بفرح وانشراح، وقاموا بالواجبات من الميرة والضيافات، ودفعوا في الحين جميع المفروضات، ونهضنا من بلادهم إلى تافيلالت بقصد زيارة جدنا الأكبر القطب الواضح ذي السر الأظهر، مولانا علي الشريف رضي الله عنه ونفعنا به، فخرج أهلها من جميع الشرفاء والعامة لملاقاتنا رجالاً ونساءً وصبياناً وشيوخاً وكهولاً أفواجاً أفواجاً، جموعاً وفرادى وأزواجاً، وحصل لهم ابتهاج عظيم برؤيتنا، وامتلؤوا فرحاً وسروراً

بمقدمنا، وانشرحت هنالك الخواطر وسرت الضمائر، وأدينا واجباً بصلة رحم من هنالك من ذوي القرابة والرحم، وكان ذلك عندنا من الأمر المهم، وأنعمنا عليهم بعشرين ألف ريال أخرى كأهل مدغرة وجهناها إليهم مع ولدينا مولاي عبد العزيز ومولاي بلغيث حفظهما الله وقسمت فيهم صلة، وأقمنا هناك ثمانية عشر يوماً بقصد الاستراحة والزيارة ومشاهدة آثار الأسلاف قدسهم الله وما أجلها مآثر وأعظم سناها في تلك المظاهر، وعاينا ما لهم من الأملاك والأصول وتفقدناها بما أحيا مواتها كفاحاً، وازدادت به بهجة ونجاحاً، فلله الحمد بداية ونهاية، وله مزيد الشكر أولاً وغاية نسأله سبحانه أن يجعل ما ارتكبناه في ذلك كله خالصاً لوجهه، جارياً على سبيله المستقيم ونهجه، ويتقبله بأحسن قبول، ويبلغنا في صلاح المسلمين غاية المأمول ويجعل في طاعته الحركة والسكون، وعلى حوله وقوته الاعتماد والركون، وقد نهضنا إلى حضرتنا الشريفة المراكشية سائلين من الله سبحانه الإعانة والقوة والتيسير وبلوغ الأمنية، وأعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان، وتفرحوا بفضل الله وفتحه ونصره في الإسرار والإعلان، وهو المسؤول سبحانه أن يجعل البداية عنوان الاختتام، ويبلغنا من كل خير غاية المرام والسلام في خامس عشر جمادى الأولى عام أحد عشر وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله.

وكان رجوعه إلى مراكش على طريق الفائجة، ولما انتهى إلى ثنية الكلاوي أصاب الناس ثلج كثير وبرد شديد تألموا منه حتى السلطان، ثم خلصوا منه بعد عصب الريق، وفي مدة غيبة السلطان هذه حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف وبين نصارى الإصبنيول من أهل مليلية وما والاها فمحقتهم زناتة محقاً وشردوا بهم من خلفهم استئصالاً وقتلاً، وكان السبب في ذلك أنهم اقترحوا على السلطان أن يزيدهم في مساحة أرض مليلية على عادتهم في كثرة الاقتراحات والتلونات فأسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الفريقين قريباً من تربة ولي الله سيدي وارياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر يتناوبونه للزيارة ويتبركون

به ويدفنون عنده موتاهم، فلم يحل لنصارى مليلية بناء العسات وغيرها إلا بمحل يشرف على تربة الولي المذكور ويكشف عنها، فراودهم أهل الريف عن التخلي عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصروا على الامتناع وربما لسعوهم بما أحفظهم من الكلام المؤلم على عادتهم في ذلك فإن هذا الإصبنيول منذ كانت له الغلبة في حرب تطاوين وأهل المغرب معه في عناء شديد من كثرة ما يتعنت ويتجنى عليهم ويسمعهم من محفظات الكلام وصريح الملام لا سيما أوباشهم ورعاعهم، وتالله لقد سمعت أذناي من ذلك ما يضيق له الصدر ولا ينطلق به اللسان، وإذا رفعت الشكاية بهم إلى أكابرهم غمصوا الحق وجادلوا بالباطل هذا دأبهم وديدنهم وإلى الله وحده المشتكى وله سبحانه العتبى حتى يرضى ولا حول ولا قوة إلا به، فلما سلكوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف أذاقوهم من بأسهم شديد العقاب وأليم العذاب كما هو معلوم، فلما احتل السلطان أيده الله بحضرة مراكش من هذه السفرة قدم عليه وفد الإصبنيول يطلبون الإنصاف من أهل الريف في هذه النازلة واستصحبوا معهم سرباً من الحمام الطيار بالمكاتيب والأخبار، ودار الكلام بينهم وبين السلطان في النازلة وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متغافل، فوقع الفصل على أن يدفع السلطان عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الريال، وتم الصلح على ذلك، وكانوا في تلك المدة كلما دار بينهم وبين السلطان كلام في القضية أطاروا به الحمام إلى أرباب دولتهم بمادريد، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفي آخر هذه السنة كانت وفاة السلطان مولاي الحسن بن محمد رحمة الله عليه ورضوانه فإنه خرج من مراكش فاتح ذي القعدة من السنة المذكورة غازياً قبائل البربر الذين بجبال فازاز لا سيما آيت سخمان الذين غدروا بأصحابه وابن عمه حسبما تقدم قريباً، وكان رحمه الله قد قدم من حركة تافيلالت وهو مريض مرضاً خفيفاً في الظاهر ولكنه مزمن في الباطن، فكان يتكلف معه الخروج للناس وينفذ القضايا ويجلس للوفود ويجيزهم ويفعل جميع الأمور المخزنية، ثم خرج من مراكش في التاريخ المذكور على ما به

من الألم والمرض وتحامل حتى انتهى إلى وادي العبيد من أرض تادلا فأدركه أجله هنالك في الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس ثالث ذي الحجة الحرام متم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، وحمل في تابوت إلى رباط الفتح ودفن بإزاء جده الأعلى سيدي محمد بن عبد الله رحمة الله على جميعهم آمين.

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وكان رحمه الله من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما نشر من العدل وأصلح من الرعايا وأبقى من الآثار بالمغرب وثغوره فالله تعالى يجبر كسر المسلمين فيه ويعوضهم أجراً عن مصابه آمين.

وبايع أهل العقد والحل نجله الأرضى الأبر المرتضى مولانا عبد العزيز ابن مولانا الحسن نصره الله نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً آمين، وهو الآن على كرسي ملكه بفاس المحروسة كما ينبغي وعلى ما ينبغي وقد تسرب إليه جماعة من نواب الأجناس كعادتهم مع والده من قبله فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين أنهم إنما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:30] وما ظنك بمن يزعم أنه قدم للتهنئة وهو مقيم بالحضرة هذه مدة من أربعة أشهر يتجسس الأخبار ويتطلع العورات ويترصد الغفلات، ويحصي الأنفاس لعله تظهر له خلة أو تمكنه فرصة، نسأل الله تعالى أن يرد كيده في نحره، ويعديه بعاره وعره آمين. ولعمري ما الحامل على هذا ونحوه إلا قلة الحياء من الله ومن الناس، وإلا فما معنى الإقامة في سبيل التهنئة أربعة أشهر، ثم انظر ما يزاد منها بعد ذلك، وكان مما يؤثر من كلام النبوة الأولى«**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**» وحسبنا الله ونعم الوكيل.

واعلم أن أحوال هذا الجيل الذي نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذي قبله غاية التباين وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس، وانقلبت أطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم لا في سككهم ولا في

أسعارهم ولا في سائر نفقاتهم بحيث ضاقت وجوه الأسباب على الناس وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين، والسبب الأعظم في ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل الأربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الإسلامية، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته إليها جذبة قوية، وأنا أحكي لك حكاية تعتبر بها وتستدل بها على ما وراءها وهي أني ذاكرت ذات يوم رجلاً من أهل جيلنا في هذا المعنى فقال لي: إن لي راتباً سلطانياً أقبضه في كل شهر قدره ثلاثون أوقية قال: فكنت في حدود الستين ومائتين وألف أقبض فيه عشر بسائط لأن صرف البسيطة يومئذ ثلاث أواق، فلما أخذت السكة في الارتفاع بعد الستين صرت أقبض فيه تسع بسائط وفلوساً، ثم بعد ذلك بسنة أو سنتين صرت أقبض ثمان بسائط وفلوساً، ثم سبع بسائط وفلوساً وهكذا إلى أن صرت اليوم في أعوام التسعين أقبض في الثلاثين أوقية بسيطة واحدة وشيئاً من الفلوس اهـ. فانظر إلى هذا التفاوت العظيم الذي حصل في الجيل في مدة من ثلاثين سنة أو نحوها، فقد زادت السكك والأسعار فيها كما ترى نحو تسعة أعشار، والعلة ما ذكرناه ويكثر بكثرة الاختلاط والممازجة مع الفرنج ويقل بقلتها، والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل الأمم اختلاطاً بهم فهم أرخص الناس أسعاراً وأرفقهم معاشاً وأبعدهم زيّاً وعادة من هؤلاء الفرنج، وفي ذلك من سلامة دينهم ما لا يخفى، بخلاف مصر والشام وغيرهما من الأمصار فإنه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان فليتأمل هذا الذي ذكرناه وليعرف منه سر الله في خلقه.

واعلم أيضاً أن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علواً منكراً وظهر ظهوراً لا كفاء له، وأسرعت أحواله في التقدم والزيادة إسراعاً متضاعفاً كتضاعف حبات القمح في بيوت الشطرنج حتى كاد يستحيل إلى فساد، وعلم عاقبة ذلك وغايته إلى الله تعالى المنفرد بالغيب.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

وهذا ما قصدنا جمعه من هذا الكتاب، والله الملهم للصواب، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تقريظ الطبعة الأولى
لكتاب الاستقصا

تقريظ العلامة الأديب السيد
أحمد بن المأمون البلغيثي الحسيني

بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه ذوي المجد الفخيم.

الحمد لله الذي أنعم علينا بالكمال الإنساني، وتكرم إلينا بأحسن التقويم في النطق اللساني، نحمده وله الحمد في الأولى والآخرة على نعمه التي لا تحصى، ونشكره على مننه التي لا تعد بالاستقصا، ونصلي ونسلم على نبيه سيدنا ومولانا محمد أفصح من بالضاد نطق، المنزل عليه في حكيم الذكر وكذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن قص علينا قصصهم من أئمة الدين صلاة وسلاماً ندرك بهما مدارك الكمال، ونبلغ بهما منتهى الآمال أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني الكبير أحمد بن المأمون الحسني العلوي البلغيثي السجلماسي أصلاً وداراً الفاسي منشأً وقراراً، تقبل الله صالح أعماله وبلغه في الدارين غاية آماله، لما أن وقفت على هذا التاريخ المفيد وقوف طالب مستفيد ألفيته مرغوب اللبيب ومحبوب الحبيب، قد جمع فأوعى وبلغ من الإتقان غاية المسعى، حيث احتوى على أخبار الأقطار المغربية واستقصى أهم الأوطار من أنبائها الشهية، فطابق اسمه مسماه، ووافق لفظه معناه.

كتاب رأيت الحسن فيه مفصلاً كما فصل الياقوت بالدر ناظمه
فكان له نشر يفوح وبهجة كما افتر عن زهر الرياض كمائمه

ولعمري أنه لتاريخ تشد إليه الرحال، وتعتكف بجامعه الأزهر جهابذة

الرجال، إذ أغنى وأقنى، وبلغ الناظر فيه ما تمنى، يغني عن غيره من الموضوعات في فنه بصحة أسانيده المرفوعات على أعلام حسنه تناديك منه سطوره والطروس، لا تلتفت لغيري فلا عطر بعد عروس، وكيف لا ومؤلفه العلامة من هو في غرة هذا العصر علامة الطالع الأسعد، والسند الأصعد، المحقق النقاد، والمشارك في جميع الفنون بالذهن الوقاد، المرتوي من نهر كل فضيلة بما راق وحلا، أبو العباس سيدي أحمد الناصري الدرعي شمس ثغر سلا، أبقى الله بركته وأدام في اكتساب المعالي حركته فللّه دره من مؤلف ألف بين الكمالات، وشنف السمع بأصح المقالات، في هذا التاريخ الذي أرخت في صحائف الكمال آياته، وخلدت في دفاتر المجد فضائله وكراماته، وقد زاده رونق الطبع نوراً على نور، وأفاده اجتلاء على منابر الظهور، فقرب نوره لمقتبسه، وسهل ملكه لملتمسه، ولما ملك حسنه خاطري وفؤادي، وسلك بين منهج قصدي ومرادي، وصرت به أنشط من ظبي مقمر، وأسلط عليه من ذئب متنمر، تشوفت لإنشاء امتداحه وتشوقت لإملاء أمداحه، بما لا أعده في شيء من طبقات الفصاحة عند فرسان هذا الميدان، ولكن عذري عند الواقع عليه أنه لقطة عجلان ما له في الأدب يدان، فقلت في ذلك مؤرخاً تمام طبعه في بداعة صنعه ورقة طبعه بقول وسيط من بحر البسيط:

أخبار أهل الهوى ما زال يرويها ... أحبار كأس رحيق الراح يرويها
حتى إذا سمعوا العشاق مخبرها ... هاموا وقاموا بألحان تواتيها
لكنهم أبداً في الدهر ما سمعوا ... ما نالني في هوى خود أفديها
خود بها الصب قد لذ العذاب له ... لما غدا وهو مطروح بناديها
يرجو رضاها ولم تسمح بوصلته ... وبالتذلل والشكوى يناديها
قد استرقته في شرع الغرام وما ... رقت لما به من نار يقاسيها
حتى استبان لها أني على تلف ... وأن ما بي منها ليس تمويها
جاءت إليّ على فور تعللني ... بالعطف من طلعة سبحان باريها
فأتحفتني بحتف الرمز من مقل ... السيف حاجبها والحسن كاسيها
إن أومأت بلحاظ جرحت كبدي ... أو أعرضت بلغت روحي تراقيها

ما حيلتي في الهوى وما دوا كبدي العطف يجرحها والهجر يبليها
إني خلعت عذاري فاعذروني في حب الملاح فإن القلب يبغيها
فهل ملام على من صار ذا وله بغاة سلبت عقلي معانيها
إذا بدت لأولي الألباب شمتهم صرعى وطرحى جميعاً في مغانيها
يا حسن ما حدثتني عندما عطفت في شأن من ببعادي كان يغريها
قالت لك الوصل مني ليس يعقبه هجر على رغم من يبغي لك التيها
تخال نطق لماها عندما نطقت أخبار تاريخ الاستقصاء تمليها
ذاك الكتاب الذي فاقت صناعته كل التواريخ بالإتقان عاديها
للَّه ما قد حوى من كل واقعة يلهيك عن نغمة الألحان راويها
ومن محاسن أحوال تتوق لها الأ سماع من كل ذي لب يدانيها
ومن نوادر قد كانت لذي أدب تود إذن العلا أن لو تحليها
أغنى وأقنى بأخبار مصححة قد كان في المغرب الأقصى دواعيها
كم من فوائد قد كانت أوابد لم تظفر بها به يستدعيك قاصيها
ما شئت من أدب غض ومن ملح تشتاقها همم ترحو توافيها
فاعكف عليه ونزه في بدائعه أبصار فكرك تستجني أمانيها
فإنه روضة أشجارها قصص أزهارها حكم إن رمت تجنيها
أنهارها من معين ما به كدر من كل معنى غداً للنفس شافيها
بل جنة جمعت آمال أنفسنا وتستلذ بها أبصار رائيها
لا غرو حيث غدا مفتاح بهجتها من فيه يرسل أعط القوس باريها
ذاك الأديب الأريب العالم العلم الـ همام غايته من ذا يجاريها
الناصري أبو العباس أحمد من نال العلا واعتلى أعلى أعاليها
نقاد كل فنون العلم ليس له بغيرها شغل دأباً يواليها
فكم أجاد وكم أسدى فوائدها في كل قطر من الأقطار يوليها
أنسى إياساً بأفكار له وقدت ترى شموس الهدي كشفاً لباغيها
فهذه قبسة من نور عمله قد مدت إليها أقاصي الأرض أيديها
نالت أشعتها الأيدي على بعد كالشمس مع رفعها يبدو تدانيها

تريك سيرة قطر الغرب كيف مضت — رأى الحقيقة في أفكار قاريها
إن التواريخ في أخباره كثرت — لكن ذا قد حوى أصح ما فيها
بل زاد أنباء قوم لم تكن جمعت — مما جرى عن قريب فيه تلفيها
مع ما حوى من علوم من مؤلفة — بدت معالمها هدياً لآتيها
أعظم بها منحة قد عم نائلها — وطاف في شاسع الأقطار ساقيها
فرقة الطبع قد نمت بها وسرت — لطبع آياتها كيما تجليها
فعاد منها محياها كما قمر — يهدي الضليل بها إن جا يماشيها
كمال طبع حلاها جاء وفق منى — فالحمد لله كم نعماء يسديها
مع منتهى أرب قل كي تؤرخه — معالم الطبع بالبشرى تناهيها

472 545 113 181

سنة 1312

هذا التاريخ يعرف من بين أنواعه بالمذيل وحقيقته أن تكون جمله التاريخ ناقصة فتكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه عل ذلك بإشارة تتضمن تورية وبيان ذلك هنا أن جامع عدد قولي: «معالم الطبع بالبشرى تناهيها» هو عشرة وثلاثمائة وألف فتوقف العدد المؤرخ به على اثنين. أشرت لها بقولي: «مع منتهى أرب» ومنتهى أرب هو الباء التي باثنين فاستوفى عدد التاريخ، هذا وليلعم من يقف عليه من أدباء أهل المغرب، أني حسبت حرف الشين من قولي بالبشرى بثلاثمائة على اصطلاح المشارقة فيها لا بألف كما هو اصطلاحنا، وهي أحد الحروف الستة التي اختلف فيها اصطلاح الفريقين وقد تمذهبت بمذهبهم في هذا التاريخ مراعاة لمحل الطبع، كما يستحسن ذلك مني سالم القريحة والطبع، والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

تقريظ الأديب السيد إبراهيم الأزهري

حمداً لمن أضاء عقول الخلف بأنوار تواريخ السلف، وصلاة وسلاماً على من قص عليه أحسن القصص في كتابه المكنون، وأخبره بسرائر ما كان وما يكون، وعلى آله وأصحابه الذين أشرقت صحائف التاريخ بآياتهم الباهية الباهرة، وتزينت المحافل بمحاسن إحسانهم الزاهية الزاهرة أما بعد، فإن علم التاريخ كنز يجب التحلي بنفائس فرائده، وروض لا غنية لأحد عن مجاني فوائده، وكم للعلماء فيه من تصانيف مهمة عادت بالمنافع الجمة على كل أمة، فلم ترتق أمة إلى عرش تمدنها إلا بتبحرها في هذا الفن وتفننها، وأن أجل ما ألف فيه كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، فهو أول كتاب كشف الغطاء عن هذه الممالك، وقرب لمن يهمه الوقوف على حقيقة أخبارها جميع المسالك، وأبان عن أول من دخلها من الصحابة رضي الله عنهم لرفع أعلام الإسلام، وما هي عليه من المعارف التي لم تطو سجلات نشرها تعاقب الأيام لا سيما بلاد الأندلس وما لها من الحضارة والأبهة والنضارة، وما لبلاد الجزائر من كل أثر جليل يشهد برفعة قدرها جيلاً بعد جيل مع تحرير التراجم للملوك والأعاظم، وما دهم هذه البلاد من الوقائع الحربية التي أثارت غبارها يد الدسائس الأجنبية، وما ثبت لهذه الدول من الاختراعات والاستكشافات، وما بينها وبين الدول الأخرى من المواصلات والمعاهدات، كل ذلك بعبارات صادقة ومحررات شائقة.

حديث المغرب الأقصى	قد استقصاه الاستقصا
كتاب جل مبدعه	على نسق به اختصا
بدا والناس في شغف	ليقتنص النهى قنصا
فتاهوا في محاسنه	فأرشدهم بما أوصى
فيالله ما أعلى	وما أغلى وما أحصى
فكيه في فكاهته	صدوق القول إن قصا

عـلـيـه فـكـن أشـد الـنـا س فـي اسـتـقـصـائـه حـرصـا
تـجـد غـرراً حـوت درراً عـلـيـهـا تـكـثـر الـغـوصـا

وكيف لا ومؤلفه إنسان عين الأدب، وترجمان لسان العرب، جوهر بحور المعارف وسويداء صدور العوارف، من أجمعت الفضائل على التباهي بسيرته، وتسابقت المحامد إلى الاقتباس من مشكاة سريرته، ألفته الحكمة فسامرها وما سلا، علامة المشرق والمغرب فضلاً عن كونه تاج مجد سلا، بحر العلم الخضم الراوي، شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري السلاوي، ولأجل أن يعم النفع الجزيل بهذا الأثر الجليل، قام حضرة مؤلفه بطبعه في إحدى مطابع القطر المصري، حتى أشرق بدر كماله على الكوكب الدري بمشاركة كل من صاحب الحسب العاطر، والنسب الطاهر، صاحب الشرف والمجد السني السيد الحبيب البلغيثي الحسني، وحضرة من هو لكل كمال مصطفى جناب محمد أفندي مصطفى فهؤلاء السادة هم السبب في ثعميم نفعه، وتعطير الآفاق بعبير طبعه بمطبعة حضرة الأفندي الشهيرة بإتقان الصناعة وكمال رونق الطباعة جزاهم الله بمنّه وفضله أكمل جزاء عن العلم وأهله وكان انتهاء طبعه الأنيق واستكمال حسنه الرقيق في أواخر شهر رمضان المعظم سنة اثنتي عشرة بعد الألف والثلاثمائة من هجرته ﷺ.

تم الجزء التاسع والأخير من كتاب الاستقصا



فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام والقبائل

حرف (أ)

حرف (ب)

حرف (ت)

حرف (ج)

حرف (ح)

حرف (خ)

حرف (د)

حرف (غ)

حرف (ف)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (هـ)

حرف (واو)

حرف (ي)

فهرس الأماكن

حرف (أ)

حرف (الباء)

حرف (ت)

حرف (ث)

حرف (س)

حرف (ش)

حرف (ص)

حرف (ض)

حرف (ط)

حرف (ع)

حرف (غ)

حرف (ق)

حرف (ك)

حرف (ل)

حرف (م)

حرف (ن)

حرف (و)

حرف (ي)